مجمع الأحباب

وتذكرة أولي الألباب

تأليف

الشيخ الإمام العالم الورع

الشريف محمد بن الحسن بن عبد الله الحسيني الواسطي

رحمه الله تعالى

(٧١٧ - ٧٧٦هـ)

عُني به

محمد ابراهيم الخضر — محمد زكريا قاسم المقداد

محمد مصطفى الخطيب — عبد الله عبد السلام حميدان

الجزء الأول

دار المنهاج

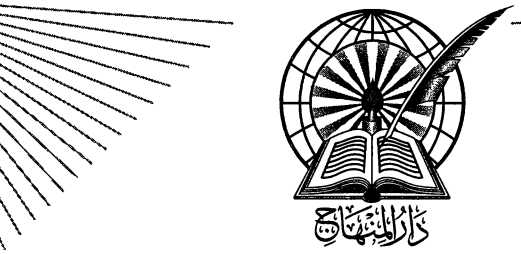

لبنان ـ بيروت ـ فاكس : ٧٨٦٢٣٠

الطّبعة الثّانية

١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٨م

جميع الحقوق محفوظة للناشر

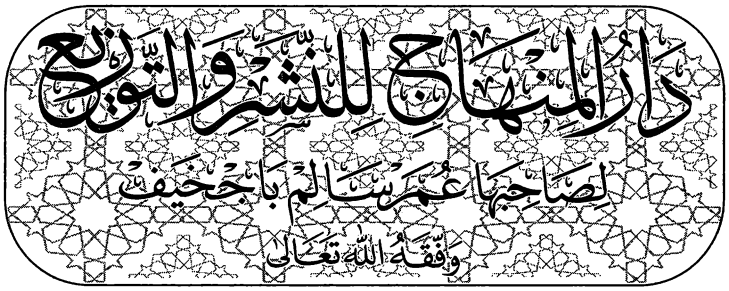

المملكة العربية السعودية ـ جدة

حي الكندرة ـ شارع أبها تقاطع شارع ابن زيدون

هاتف رئيسي 6326666 ـ الإدارة 6300655

المكتبة 6322471 ـ فاكس 6320392

ص. ب 22943 ـ جدة 21416

لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه، وبأي شكل من الأشكال، أو نسخه، أو حفظه في أي نظام إلكتروني أو ميكانيكي يمكّن من استرجاع الكتاب أو أي جزء منه، وكذلك لا يسمح بالاقتباس منه أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على **إذن خطي مسبقاً من الناشر**

ISBN 978-9953-488-02-7

31.03.2018

مجمع الأحباب وتذكرة أولي الألباب ١٤٣٩ هـ فضي أبيض

١٤٣٩ هـ فضي أبيض ٢٠١٨

دار المنهاج - جدة - السعودية

270349

E-mail: info@alminhaj.com

مجمع الأحباب

وتذكرة أولي الألباب

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب

يحوي هذا السِّفر الأثريّ .. سِيَرَ الصَّفْوة من الجيل المثاليّ ، ومَنْ ترسَّم خُطاهم .

فهو دستورٌ وضّاءٌ ، تجلّتْ فيه حقائقُ التّنزيل ، وازْدانَ بحقائقِ المعْرفة ومحاسنِ أولئك العظام الّذين هُدُوا إلى الكَلِم الطّيّب ، ونَسَجُوا رَوائعَ الحِكَم .. ممّا يَهْدي إلى النّهْج القويم .

وما من مُخلصٍ نَهَلَ من مَعينه .. إلّا وبرقتْ أساريرُ الإيمانِ في أعماقه ، وسرتْ روحُ التّوفيق في أوصاله .. وكأنّما خُلِقَ خَلْقاً جديداً .

الموزعون المعتمدون

- المملكة العربية السعودية :

دار المنهاج للنشر والتوزيع – جدة
هاتف : 6311710 – فاكس : 6320392

مكتبة دار كنوز المعرفة – جدة
هاتف : 6510421 – فاكس : 6516593

مكتبة الشنقيطي – جدة
هاتف : 6893638

مكتبة المأمون – جدة
هاتف : 6446614

مكتبة الأسدي – مكة المكرمة
هاتف : 5570506

مكتبة نزار الباز – مكة المكرمة
هاتف : 5749022

مكتبة المصيف – الطائف
هاتف : 7368840 – 7330248

مكتبة الزمان – المدينة المنورة
هاتف : 8366666

مكتبة العبيكان – الرياض
هاتف : 4650071 – 4654424

مكتبة الرشد – الرياض
هاتف : 4593451

مكتبة جرير – الرياض
هاتف : 4626000

وجميع فروعها داخل المملكة وخارجها

دار التدمرية – الرياض
هاتف : 4924706

دار أطلس – الرياض
هاتف : 4266104

مكتبة المتنبي – الدمام
هاتف : 8413000

- الإمارات العربية المتحدة :

مكتبة دبي للتوزيع – دبي
هاتف : 2211949 – 2224005 – فاكس : 2225137

دار الفقيه – أبو ظبي
هاتف : 6678920 – فاكس : 6678921

مكتبة الجامعة – أبو ظبي
هاتف : 6272795 – 6272726

- دولة الكويت :

دار البيان – الكويت
هاتف : 2616490 – فاكس : 2616490

دار الضياء للنشر والتوزيع – تلفاكس : 2658180

- دولة قطر :

مكتبة الأقصى – الدوحة
هاتف : 4437409 – 4316895

- مملكة البحرين :

مكتبة الفاروق – المنامة
هاتف : 17272204 – 17273464 – فاكس : 17256936

- جمهورية مصر العربية :

دار السلام – القاهرة
هاتف : 2741578 – فاكس : 2741750

- الجمهورية العربية السورية :

دار السنابل – دمشق
هاتف : 2242753 – فاكس : 2237960

- الجمهورية اليمنية :

مكتبة تريم الحديثة – تريم (حضرموت)
هاتف : 417130 – فاكس : 418130

مكتبة الإرشاد – صنعاء
هاتف : 271677

- الجمهورية اللبنانية :

الدار العربية للعلوم – بيروت
هاتف : 785108 – 785107 – فاكس : 786230

- جمهورية أندونيسيا :

دار العلوم الإسلامية – سورابايا
هاتف : 60304660 006231

- الجمهورية التركية :

مكتبة الإرشاد – إستنبول
هاتف : 0212 6381633 – 0212 6381634
فاكس : 0212 6381700

الإهداء

إلى مَنْ خُدِعُوا ببَرِيق الدُّنيا الزّائِف ..

إلى الَّذِينَ مَالُوا عَن الطَّرِيق .. فَتَفَرَّقَتْ بِهِمُ السُّبُل ..

إلى المتعَطِّشِينَ إلى سِيَرِ الصَّفْوَةِ مِنَ السَّلَفِ الصَّالِح ..

إلى إخْوَانِ الحَبِيبِ .. الَّذِينَ اشْتَاقَ إلَيْهِمْ ..

إلى الغُرَبَاءِ .. وَطُوبَى لِلغُرَبَاءِ ..

إلى مَنْ أَرَادُوا الزّادَ الوَافِرَ.. والذِّكرَ العَاطِرَ.. وَالنُّورَ السَّافِرَ.. وَالسَّنَاءَ البَاهِرَ..

إلَيْهِمْ جَمِيعًا نُهْدِي

مجمع الأحباب

وتذكرة أولي الألباب

لِلتَّزَوُّدِ وَالاقْتِبَاسِ وَالتَّأَسِّي وَالتَّسَلِّي وَالتَّوَاسِي

وَالتَّوَاصِي بِالحَقِّ وَالتَّوَاصِي بِالصَّبْر

رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الفَاتِحِينَ

الناشر

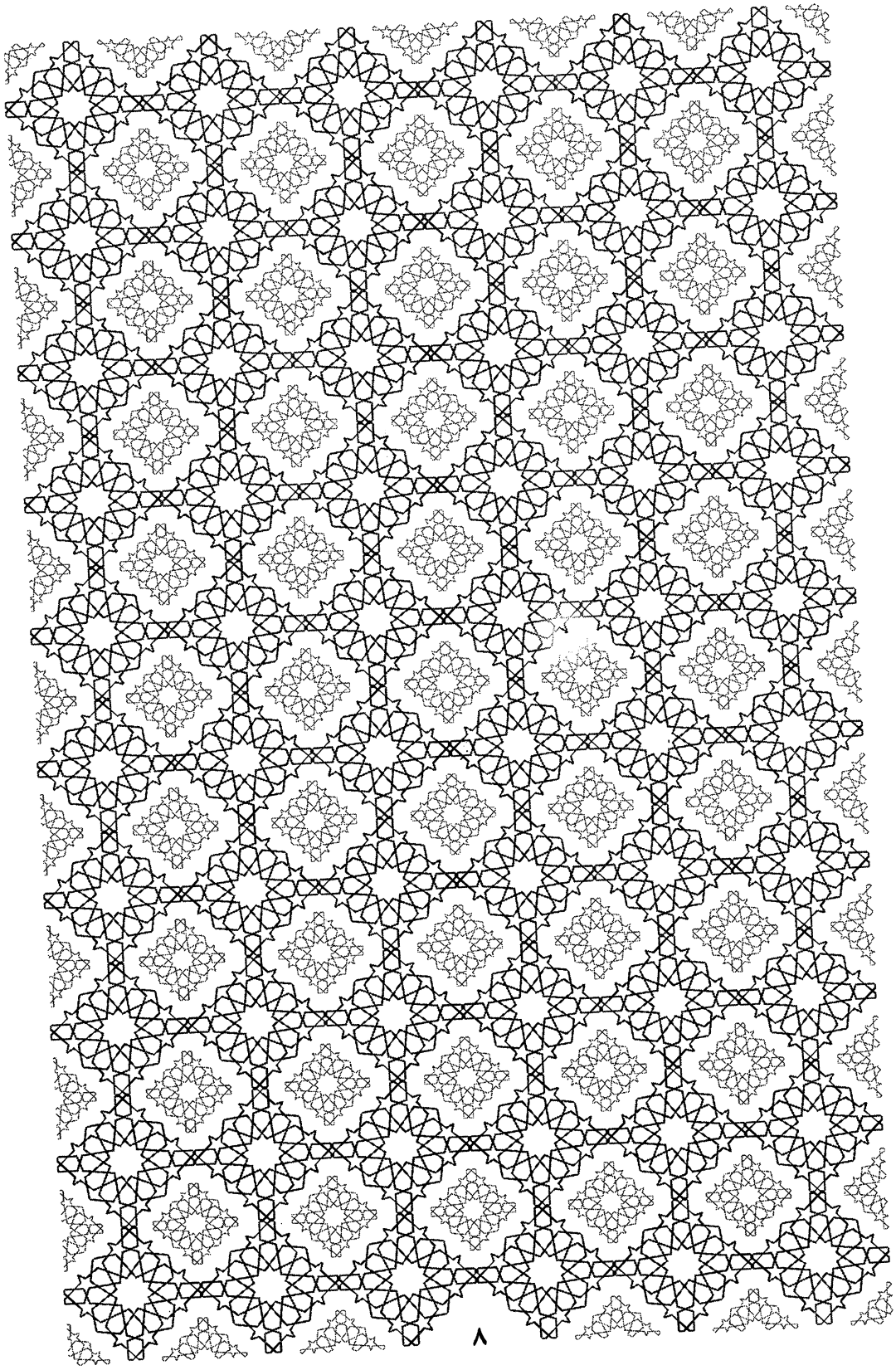

بَيْنَ يَدَيِ الكِتَابِ

بقلم

الدكتور محمد عبد الرحمن شميلة الأهدل

الحمد لله الذي أجرىٰ في عباده الصالحين أسرار الاصطفاء في العالمين ، واستخلص منهم صفوة الصفوة ، الذين اختارهم لقربه ، حين أنسوا بذكره ، فهم الذين وصفهم الله في كتابه باسم الرجال بقوله : ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ .

والصلاة والسلام علىٰ صفوة الأنجاب ، ومجمع الأحباب ، سيدنا محمد وآله وصحبه الأطياب .

أما بعد :

فإليك ـ أيها الموفَّق ـ كنوزاً تشع بعزيز الفوائد ، وجميل العوائد ، مكنونة في « **مجمع الأحباب وتذكرة أولي الألباب** » . . الذي هو ملتقى الأرواح العلوية ، ومعقل الأنفس الزكية ، ومصباح السالكين في الطريق للوصول إلىٰ ربّ العالمين .

إنه كتاب أضاءت صحائفه بسِيَر كوكبةٍ من أئمة الزهد وأقطاب الورع ، الذين طاروا إلىٰ كل مقامٍ محمود ، وامتزجت أنفاسهم العطرة بذاك المنهج الأسمىٰ ، الذي يَهَبُ آله النعيم السرمديّ في الأُخرىٰ ، ويسبغ عليهم حلل العزة في الأُولىٰ ، وهما مطلب السعداء .

وحين صفت السرائر ، وتأدبت الجوارح . . دارت مع النواهي والأوامر ، وهرولت إلىٰ مقام الأنس ، متقربة إلى المولىٰ ـ تقدست أسماؤه ـ بكل محبوب لديه ، فأشرقت بالرضىٰ ، ونعمت بالقبول ، وفازت بالمحبة ، وذلك غاية ما يسعىٰ إليه الصادقون .

فكان هـٰؤلاء الصفوة متأهلين لتوارد ذلك الفيض الرباني علىٰ قلوبهم ، المتمثل في الحديث القدسي الذي جاء فيه : « فإذا أحببته . . كنت سمعَه الذي يسمع به ، وبصرَه الذي يبصر به ، ويدَه التي يبطش بها ، ورجلَه التي يمشي بها ، ولئن سألني . . لأعطينه ، ولئن استعاذني . . لأعيذنه » أخرجه البخاري في « صحيحه » .

والكتاب أشرق نوره بجُمَل من حِكَم أولاء الأبرار ، وعبارات ترشد إلى البر والهداية ، لو كتبت بماء الذهب . . لكان ذلك قليلاً في جانب مكانتها ، وقوة أسرها للأفئدة .

وقد طُرِّزت صحائف هـٰذا السفر بأخبار وقصص وحكايات هادفة ، ولكل من هـٰذه الأنواع مناخه الروحي ، ومشربه السلوكي ، وتكاد كل قصةٍ أن تكون كاشفة عن حال أناس ؛ إذ هي مطابقة تماماً لأحوال فئةٍ في عصرنا ، كأنما قصدتهم بتلك الأحداث دون سواهم ، ومن هـٰذا التطابق يبدو التفاعل جلياً ، والتأثير بيناً ، فيلتمع في رُوع الناظر فيها الإشعاع السلوكي الذي يعنِق به إلىٰ مراقي الفلاح ، ويندفع ميالاً إلى التقمص بتلك الشخصية من خلال الاقتفاء النيّر .

وإن من يقرأ هـٰذا الكتاب . . فسيمرُّ بأخبار غريبة ، وأقاصيص عجيبة ، نسج خيوطها رجال ألزموا أنفسهم بأشياء عظيمة ، وما وصلوا إلىٰ مرتبة المراقبة إلا بتلك المكابدات ، وجهاد الأنفس ، والصدق مع الله تعالىٰ ، والإخلاص في طاعته ، والتجرد عن كل المعوقات التي تثقل الأرواح عن السبح في آفاق المعالي .

ولما كان النَّقَّاد هو الحاكم البصير ؛ فلا يعرف الجوهرَ النفيسَ إلا الجوهريُّ ، وكان الواسطي واسطة العِقد في المتأخرين ، وهو فارسٌ في ميدان السلوك . . استطاع أن يَسبُر أحوال القوم ، وأن يقيم الأدلة الساطعة علىٰ مشكل الأحوال ، وأن يُنزل كل حالةٍ علىٰ نوع معينٍ ، ويتميز بذلك الأسلوب العلمي البيِّن ، الذي لا يفتقر إلىٰ مزيد إيضاح ، ولا يؤتىٰ من إخلال ، بل كل كلامه زُبَدٌ مستخلصة ، فلا حشو ولا تطويل ، ويذكر الدليل ، ويشير إلى التعليل .

ورغم أنه لم تسعفنا المصادر التاريخية بوافر ترجمته ، بل كانت شحيحة مقتضبة . . إلا أنَّا نستطيع استجلاء مكانته العلمية من هـٰذا السفر المبارك ، واستنكاه عبير علمه من أزاهير معارفه .

ولئن سبقنا القوم علىٰ خيل دهم ونحن علىٰ حُمُر معقّرة[1] . . فعزاؤنا أنا ندين الله تعالىٰ بحبهم ، ونتقرب إلى المولىٰ بولائهم ، وقد صحّ أنَّ : « المرء مع من أحب »[2] .

إلا أن هـٰذه المحبة الصريحة تقتضي أن ننطلق في مَهْيَعهم ، ونتقفّىٰ سبيلهم ، ونجتهد

---

(١) معقّرة : أي مجرّحة ، من (عقره) إذا جرحه ، فهو عقير ، وهم عقرىٰ : كجريح وجرحىٰ .

(٢) أخرجه البخاري (٥٨١٦) ، ومسلم (٤٦٤٠) .

كما اجتهدوا ، ونستبق إلىٰ مراتب الأخيار ، ونعزم علىٰ لَيِّ عنق الشهوة ؛ فلا نركن إلى الملاذ . . .

فكلّ من سار على الدرب وصل

ولٰكن الذنوب جراحات ، ورب جرح وقع في مقتل ، فهل نخرج بالعزم من هٰذا الفِناء الضيق إلىٰ ذلك الفِناء الرحب ، الذي فيه ما لا عين رأت ؟

ألا بَلَّغَ الله الحمىٰ من يريده وبَلَّغَ أكناف الحمىٰ من يريدها

وإنما يبلغ الحمىٰ من وطَّن العزم على المكاره ، وأتعب نفسه اليوم روماً لراحتها غداً ، والطريق محفوف بالمشاق ، فهو طريق : (تعب فيه آدم ، وناح لأجله نوح ، ورُمي في النار الخليل ، وأُضجِع للذبح إسماعيل ، وبيعَ يوسف بثمن بخس ولبث في السجن بضع سنين ، ونُشر بالمنشار زكريا ، وذُبح السيد الحصور يحيىٰ ، وقاسى الضرّ أيوب ، وزاد على المقدار بكاء داوود ، وسار مع الوحش عيسىٰ ، وعالج الفقر وأنواع الأذىٰ محمد صلى الله عليه وسلم)[1] .

فلا نجاة إلا بالمجاهدة ، ولا قرب إلا بالمكابدة .

ثم إن الناظر في هٰذا السفر الجليل ، والمتتبع لسير هٰؤلاء الأعلام الموفقين . . سوف يشعر حقيقة بالفجوة الهائلة المعترضة بيننا وبينهم ، فيما يتراءىٰ لنا نتيجة تكبلنا بسلاسل الشهوات ، وإغراقنا في المتع والملذات ، مما تسبب في تضاؤل القوى الروحية التي تغلب جيوش النوازع الدنيا .

ومن العوامل المثبطة من إذكاء الجذوة الإيمانية . . تلك التغيرات الجذرية ، والتناقص المطَّرد في المعارف الإسلامية ، نتيجة للترهل الثقافي المادي ، الذي استحوذ علىٰ حيز كبير من فكر المسلم ، إضافة إلىٰ عوارض اجتماعية ، وإفرازات حضارية لم تكن ماثلة قبلُ على الساحة الإسلامية ، وصدق الرسول عليه الصلاة والسلام إذ يقول : « **لا يأتي عليكم زمان . . إلا والذي بعده شرٌّ منه ، حتىٰ تلقَوا ربكم** »[2] .

بل إن المجتهد في السَّيْر علىٰ نهج القوم في العصر الحاضر ، المشحون بالعوائق . . سيصطدم بعقبات وعقبات ، وربما لفحه هجير المعارضات ؛ وإذا به غريب بين مواطِنين ،

---

(١) « الفوائد » لابن القيم (ص ٦٧) .

(٢) رواه البخاري (٦٦٥٧) في (الفتن) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً .

وشاذ بين متفقين ، ولذا كان من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم قوله : « **إن الإسلام بدأ غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ . . فطوبىٰ للغرباء** »[1] .

هـٰذا وإن المتشبع بأخبار القوم حينما تتكشف له تلك المجاهدات الروحية لهـٰؤلاء . . يدرك أنهم لم يصلوا إلىٰ أعلى المقامات إلا بعد أن كابدوا المشاق ، وقام عراك عنيف بينهم وبين نوازع النفس الدنية ، حتىٰ أماتوا هـٰذه الميولات في داخلهم ، وتغلّبوا على النفس الأمارة ، وكبحوا جماحها بلجام التقوىٰ ، وطوَّعوها إلىٰ وجهة الأبرار ، وأشبعوها بغذاء الأخيار ، فكان هـٰذا الصنف ممن عناهم التنزيل الحكيم في قوله : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ .

(١)

ولا مراء أن هـٰذا المَجْمع العلمي المفعَم بسِيَر أقطاب الزهد والورع وآثارهم . . يحمل في طياته العلاج الناجع لداء القسوة والعُجب والكبر وغيرها من الأدواء ؛ لأن رجال هـٰذا المَجْمع هم أطباء القلوب ، بما آتاهم الله من العلم والحكمة ؛ لأن هُداهم وهبهم هدىً آخر فيضيّاً ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ ، فلذلك كانوا مصابيح الهدىٰ ، وأئمة السلوك .

وإذا كان قد دخل الناسُ النّار من ثلاثة أبواب كما يقول ابن القيم[2] وهي :

- **باب شبهة** : أورثت شكاً في دين الله .
- **باب شهوة** : أورثت تقديم الهوىٰ علىٰ طاعته ومرضاته .
- **باب غضب** : أورث العدوان علىٰ خلقه .

فإن التأسي بهـٰؤلاء ، والنهل من سيرهم ومجاهداتهم ، والجري في ميدان استقامتهم . . يجعل المتأسي بتوفيق الله تعالىٰ ميّالاً عن هـٰذه الأبواب ، حائداً عن طرق الردىٰ .

وقد يستغرب بعضُ أهل هـٰذا العصر شيئاً مما ورد في هـٰذا الكتاب من أخبار وسِيَر أصحاب القرون المتقدمة ؛ من زهد في الدنيا ومتاعها ، وزخرفها وزينتها ، إلىٰ غاية وإلىٰ حد لا يصل إليه التصور ، وللجواب عن ذلك . . فإننا نعكس الأمر .

---

(١) أخرجه مسلم في « صحيحه » (١٤٥) عن ابن عمر رضي الله عنهما .

(٢) « الفوائد » (ص ٨٩) .

بمعنىٰ : لو قدَّرنا مشاهدة أصحاب العصور المتقدمة لأهل هـٰذا العصر ، وما هم عليه من تفانٍ على الدنيا ، ومن تفنن وتبصر في استجلابها ، والتمتع بها ، ومن الانكباب على الشهوات والملذات ، وصرف الأوقات والأعمار في ذلك . . لحكموا علينا بالجنون ! !

فهم رضوان الله عليهم زهدوا في الفاني ، ونحن بكل أسف زهدنا في الباقي ، وشتان بين الفريقين ، **وعند الصباح يَحمَد القوم السُّرىٰ** .

وقد جلَّىٰ لنا ذلك الفضيل بن عياض رحمه الله تعالىٰ بقوله : (لو كانت الدنيا ذهباً يفنىٰ ، والآخرة خزفاً يبقىٰ . . لاخترنا خزفاً يبقىٰ علىٰ ذهب يفنىٰ) فكيف إذا كان بالعكس ؟ ! !

ثم لِمَ يستعظم الإنسان أن يكون له خصلة من خصال التشبه بهـٰؤلاء الرجال ، وما المانع أن يكون حتىٰ مثلهم ولو في بعض الخصال ؟ ! كما قال الشاعر :

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام فلاح

بل إن تنوع أحوالهم وطبقاتهم وسلوكهم . . يعطي فرصة لكل أحد أن يأخذ في التشبه مع ما يتناسب وحاله ، فكما قيل : من فاته العلم . . لم يفته المحراب ، ومن فاته المحراب . . لم تفته الآداب . . . وهـٰكذا .

ثم إن اهتمام رجال هـٰذا المجمع بأمور أخرىٰ تماماً تصب في ابتغاء رضوان الله سبحانه وتعالىٰ ، فهم حريصون علىٰ ألاَّ تفوتهم لمحةٌ ولا يمرَّ عليهم نفسٌ إلا ويؤجرون عليه ، لذا فإنهم كانوا يكرهون فضول الكلام ، ويحبون التحقق بترك ما لا يَعنيهم ، مع همم عالية في الخير وأعمال البر ، وكان من مقاصدهم : التقليل من العادات التي قصمت الظهور ، والتبري من الكلفة ، فبذا وغيره . . صفت أوقاتهم ، واستنارت بصائرهم ، وطاب زمانهم ، رضوان الله عليهم .

وتراجم هـٰذا الكتاب موسعة ، وتكاد أن تكون بعض التراجم كتباً مستقلة ، فترجمة الإمام أحمد بن حنبل استغرقت (٤٢) صفحة ، وترجمة الإمام الشافعي (٥٠) صفحة ، وترجمة الإمام الثوري (٥٦) صفحة ، وترجمة الإمام إبراهيم بن أدهم (٣٦) صفحة ، وغيرهم . . وغيرهم . .

هـٰذه الشخصيات الخالدة الواردة في هـٰذا الكتاب . . هي من آثار الشيوخ الصادقين ، والوعاظ المحتسبين ، والزهاد المباركين ، والعلماء العاملين ، والمجاهدين المخبتين ،

ظهرت في المجتمع فأنتجت هـٰذه الصور الطيبة ، لشيوخ وشباب ، ونساء وفتيات ، من جيل السلف ، رضي الله عنهم .

ونحن نطمع في فضل الله أن يكون ظهور هـٰذا الكتاب سبباً في استنساخ هـٰذه الشخصيات العظيمة في عصورنا هـٰذه ، وما ذلك على الله بعزيز .

وكم كان المؤلف موفقاً حينما ختم كتابه بترجمة السلطان العادل نور الدين محمود والسلطان صلاح الدين الأيوبي رضي الله عنهما ، وكأنه أراد إظهار وتجلية قول المعصوم صلى الله عليه وسلم حيث قال : « صنفان من أمتي إذا صلحا . . صلح الناس : العلماء والأمراء »[1] ، وفي هـٰذا أعظم البيان والتوضيح لمعنىٰ صلاح الراعي والرعية .

إن هـٰذا الكتاب يحوي أخبار الشطر الأكبر من الألف الأول من الهجرة ، وإن كان قد ظهر ويظهر في الأمة فيما بعد عصر المؤلف صور مباركة مستمدة من ذلك المعين ، إلا أنها أقل من الزمان الأول ؛ فلقد ظهر علماء أكابر من أمثال ابن حجر ، والإمام السيوطي ، والإمام زكريا الأنصاري ، والسيد مرتضى الزبيدي ، ومن الأئمة : السلطان محمد الفاتح ، وغيرهم وغيرهم . . . إلىٰ عصرنا الحاضر ، **وكم في الزوايا من الخبايا** .

ولذلك فلا يجوز لأحد أن يطعن فيهم ؛ لأنهم هم من أوصل الدين إلينا ، ومن يطعن فيهم . . فإنما يطعن في أصلهم ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « يحمل هـٰذا العلم من كل خَلَفٍ عدولُه »[2] . .

وقد حذر صلى الله عليه وسلم مِن لعنِ آخرِ هـٰذه الأمة أوَّلَها[3] ، ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ .

ومؤلف الكتاب ـ رضي الله عنه ـ من رجال الأُمة ، وهو يتكلم بلسان أولي التحقيق والعناية ، وذلك يدل علىٰ وصوله إلىٰ رتبة عالية ، رضي الله عنه .

---

(١) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٦٩) ، والديلمي في « الفردوس » (٢/ ٢٠٤) .

(٢) أخرجه البيهقي في « الكبرىٰ » (١٠/ ٢٠٩) .

(٣) أخرج الإمام الترمذي (٢٢١٠) عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة . . حل بها البلاء » ، قيل : وما هنَّ يا رسول الله ؟ قال : « . . . ولعن آخر هـٰذه الأمة أولها . . فليرتقبوا ثَمَّ ذلك ريحاً حمراء ، أو خسفاً ومسخاً » .

(٢)

ودونك زبدة « الحلية » مخضَلَّة الربىٰ ، دانية الجنىٰ ، مواعظها باسقة ، وحكمها متناسقة ، درها يتيم ، ونسيمها عليل ، رياضها آهل بثمرات الاعتبار ، ومنهلها عذب مبارك ، فطوبىٰ لمن ورده وبلَّ الصدىٰ ، وقطع عنه العلائق وفاز بالرضىٰ .

منـــزلٌ طيـــبٌ ومـــاءٌ معيـــنٌ وثـــرىٰ أرضهـــا يفـــوح عبيـــرا

وسَعداً لمن تأسّىٰ بأولـٰئك ، واستجاشت مشاعره رغبةً إلىٰ ما هنالك ، وتشرَّب جوهره من رحيق حبّهم ، فاقتفىٰ مسلكهم ، وتفكر في جواهر كلمهم وعزيز حِكَمهم ؛ فإن ذلك أدعىٰ إلىٰ حسن الاقتداء ، والانخراط في سلك الأصفياء .

فتشبهـوا إن لـم تكـونـوا مثلهـم إن التشبـــه بـــالكـــرام فـــلاح

(٣)

إن « حلية الأولياء » كتابٌ من غرر التراث ، وسِفر ينضح بالأصالة الدينية ، ويبرز مآثر الاستقامة ؛ فهو سفر بل أسفار جامعة لتراجم أعيان أولي الفضل ، من علماء هـٰذه الأمة وصلحائها ، وأقطاب العصور وزهادها .

فقد نظم سلكُه مآثر القوم ، وصدحت حمائم رياضه بجميل المحاسن ، فجلَّىٰ لنا بأسانيد الثقات سِيراً عطرة ، وجمع من حكمهم دراً كانت قبلُ منتثرةً ، وقيّد فيه من كراماتهم ما يؤذن بمكانة هـٰؤلاء الأعلام النبلاء ، والأئمة الأتقياء الأصفياء .

(٤)

بيد أن نفَسَ الإمام الحافظ أبي نعيم كان طويلاً ، وأحاديث « حليته » شغلت حيّزاً كبيراً ، حتىٰ أصبح أشبه بالمسند ؛ لأنه إمام حافظ ، وضابط متقِن ، ولذلك استقىٰ من معين النبوة مئات الأحاديث ، وأسندها بأزمَّتها وخُطُمها ، وربما امتد حفظه إلىٰ تبيان علل خفية ، وغوامض إسنادية ، اكتنفت تلك الأحاديث ، وهو عِلْم لا يفقه كنهه العامة ، ولا يهشُّ إلىٰ خفاياه إلا الخاصة ، وجمهرة الناس يظنون ـ بل يعتقدون ـ أنهم عن ذلك في غنية .

ومن جهل شيئاً . . عاداه

وعلىٰ كل . . فقد أضحىٰ هـٰذا الكتاب علىٰ غرر المحاسن مشتملاً ، وعلىٰ عزيز الفوائد

عاقداً ، فهو غزير العلم ، بطين المحتوىٰ ، متناسق المباني .

لـٰكن العامة ـ وهم الكثرة الكاثرة ـ أحجمت عن ارتياد مغانيه ، وتقاصرت أفهامهم عن اجتلاء جُلّ معانيه ، وكلّت الهمم عن الإحاطة بمعالمه ، حتى انحسر زواره ، واقتصر علىٰ أولي الاختصاص ؛ إذ أصبح مرجعاً مهماً لأولـٰئك المحدِّثين ، الذين ينقِّبون عن الرواة ، ويمحصون الأسانيد ، ويُعْنَون بالمتابعات والشواهد ، فكادت ضخامته تحجبه عن الجمهرة ، إلا أن الحال كما قيل :

وإذا الحبيب أتىٰ بذنبٍ واحدٍ جاءت محاسنهُ بألف شفيع

(٥)

ثم قيّض الله تعالىٰ لهـٰذا المرجع الأثري ، ذي النَّفَس الصوفي ، الإمامَ الحنبلي ، الواعظ البارع ، والمحدث الناقد ، أبا الفرج عبد الرحمـٰن بن علي ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) فاختصره وحبّره ، وحذف منه أسانيده ومكرَّرَه ، ثم أوفىٰ عليه من المواعظ الحسان ، وعيون الأخبار والبيان ، ما طرز به حواشيه ، وذَهَّب به نواحيه ، فازداد حسناً علىٰ حسنه ، وملاحة علىٰ جماله ، لا سيما وأبو الفرج فارس الميدان في مخاطبة القلوب المستوحشة ، وامتلاك أزمَّة الفصاحة ؛ فقد كانت عظاته تنشقّ منها الأفئدة لقوة تأثيرها ، وتهمي العيون من عظيم وقعها ، وهو صاحب القلم السيّال ، والسحر الحلال ، فكان كتابه بحق : « **صفة الصفوة** » ، فهو يكتنز علوماً جمة ، تروي العطشان ، وتشبع النَّهِم القَرِم حتىٰ يؤوب جذلان .

(٦)

ومع التماع هـٰذه المحاسن من ثنايا هـٰذا الكتاب . . غير أنه كان بحاجة ملحَّة إلىٰ من يستخلص زبده ، ويصطفي لبابه ، ويختار من مواعظه ورقائقه ، وينتقي من أزاهير حكمه ما كان أعظم وقعاً في النفوس ، وألصق بسير المعاصرين ، وأنفذ إلىٰ قلوبهم .

علاوة علىٰ أن هناك مواطن محصورة كانت بحاجة إلىٰ تحرير ، ومسائل معدودة لابد من إعادة النظر فيها ، وإضافات تبدو جوهرية يتطلب المقام إيرادها ، وفي طي ذلك نفائس مستجادات ، وفوائد مهمات نافعات ، بل وإحياء لعيون من الأخبار كان ابن الجوزي آثر حذفها ، ووأدها في دهليز الاختصار .

لذلك كلّه : قيض الله تعالىٰ لهـٰذه الغاية السامية ، والأهداف العلية الإمام الشريف محمد بن الحسن بن عبد الله الحسيني الواسطي رحمه الله تعالىٰ (٧١٧ـ ٧٧٦هـ) ، ويبرز منهج المؤلف جليّاً في قوله : (ولما رأيت أن كلاً من الكتابين بمفرده لا يشفي السقام ، ولا يُظفَر منه بالمرام . . أحببت أن أجمع كتاباً يكون لمحاسنهما حاوياً ، ولما سوىٰ ذلك طاوياً ، وأحذف الأسانيد والحكايات المتكررة ، وجميع ما يجب حذفه ، هـٰذا مع ما أضم إليه من النفائس المستجادات ، والفوائد المهمات النافعات ، وزيادة تراجم أئمة) اهـ[1]

وها هو الكتاب منقحاً محرراً ، مهذباً محبّراً ، وهو يتطاول علىٰ أضرابه ؛ لتوافر ثلاثة من الأئمة علىٰ إنجابه ، فصار لسان الحال يترنم مومئاً إلىٰ « **مجمع الأحباب** » :

وحِسَـانُ العلـم لمـا أن بـدت ... أقبلـت نحـوي وقـالـتْ لـي إلَـيْ
فتعـاميْـتُ كـأن لـم أرهـا ... عنـدمـا أبصـرتُ مقصـودي لـديْ

وأخيراً : فهـٰذا كتاب « **مجمع الأحباب وتذكرة أولي الألباب** » يتهادىٰ في حلله القشيبة ، وطبعته المحققة الأنيقة ، ولا سيما ذلك الجهد المشكور ، المتمثل في تخريج الأحاديث النبوية ، بالدِّلالة عليها في مصادرها المتنوعة ، إضافة إلىٰ شرح الغريب ، ورد النصوص إلىٰ أُصولها .

لذا فإن **دار المنهاج** التي عنيت بذلك كله ، واضطلعت بإنجازه . . لا تزال وفيّةً بما قطعته علىٰ نفسها من بذل ما في الوسع لإبراز هـٰذه الجواهر القيمة ، التي تعد بحقٍّ من عيون التراث الإسلامي ، ونشرها في الآفاق ؛ لينتفع بها العام والخاص ، لذا كان من الأدب الشرعي أن أشيد بجهود هـٰؤلاء القائمين علىٰ هـٰذه الدار ، وأحيي فيهم تلك العزائم المتوالية ، التي أسدت إلىٰ طلاب المعرفة هـٰذا السفر العزيز ، مضافاً إلىٰ سجلهم المضيء .

كما أخص بالثناء العطر أخانا الموفق : **الشيخ عمر سالم باجخيف** ، الذي لم يأل جهداً في التنقيب عن مخطوطات التراث ، وتصيّدها من شتى الأقطار ، تدفعه إلىٰ ذلك همة عالية ، ورغبة صادقة في انتزاع تلك الكنوز الأثرية من بطون مراكز المخطوطات ، ثم نشرها بعد خدمتها ، فجزاه المولىٰ سبحانه خير ما يجزي الصالحين .

والحمد لله رب العالمين

---

(١) انظر مقدمة المؤلف .

الكلام على الترجمة ونشأتها ، وأهم مدارسها وأنواعها

تعريف الترجمة لغةً واصطلاحاً

أمّا لغة . . فهي كما يقول ابن منظور ـ رحمه الله ـ في « لسان العرب » في مادة (ت ، ر ، ج ، م) : الترجمة : نقل كلام من لغة لأخرىٰ ، وتبيينه وتوضيحه ، والتُّرجمان هو : المفسِّر للسان .

وأَمَّا اصطلاحاً . . فهي إيراد حياة الغير ممَّن نريد الوقوف عليها بتفصيل مفيد ، نأخذ منها ما نحكم به له أو عليه من خلالها[1] .

المناسبة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي :

مما لا شك فيه : أن لكل معنىً اصطلاحي ارتباطاً بمعناه اللغوي لا ينفك عنه ، وهنا المعنى العام لمادة (ترجم) : الإيضاح والبيان ، وبما أن صاحب الترجمة يكون غامضاً وغير معروف : فإذا ما تمت الترجمة له . . غدا شخصاً معروفاً ، وكذلك عملية النقل تنقله من كونه مجهولاً إلىٰ كونه معروفاً . . تسمىٰ ترجمةً .

أسباب نشأة التراجم وأهميتها

نشأت كتابة التراجم مع ظهور الكتابة ؛ لأنها كانت موازية للتاريخ في النشأة ، وتنوعت أسباب كتابتها من أُمة لأخرىٰ :

فقد كان الإغريق يدوِّنونها لأغراض ودوافع سياسية ، أو خلقية ، أو نفعية كما في كتب : « الأخلاق » و« السياسة » لأرسطو .

وقد يكون المترجِم مدفوعاً بعوامل شخصية ، أو صلات مِن القرابة ، كما فعل (تاسيتس) مع حَمِيْه القائد الروماني (أجريكولا) في القرن الأول الميلادي فكتب : « حياة أجريكولا » .

---

(١) انظر كتاب « كتب تراجم الرجال بين الجرح والتعديل » لصالح اللحيدان .

واستمر الحال علىٰ ذلك حقبة من الزمن تمتد حتىٰ العصور الوسطىٰ ، في تلك العصور عقمت أوربة عن رجل يترجم لرجالاتها ، بينما كان التاريخ الإسلامي متربعاً علىٰ عرشه وفي أزهىٰ حلله .

وقد أخذت التراجم بالظهور منذ القرن الثاني للهجرة الشريفة ، وتُعَدُّ السيرة النبوية الشريفة أوسع ما أُلِّف في التراجم الإسلامية ، وأقدمها ظهوراً ، وأولاها باهتمام المؤرخين والكُتَّاب ؛ فقد كانت المحور الذي تدور حوله حياة الإسلام ونشأته واتساعه .

ثم نشأ تدوين الحديث ، وعلىٰ إثره نشأ الاهتمام برواة الحديث ، مما أدىٰ إلىٰ ظهور كتب في نقد الرجال ، فوضعوا كتباً في الجرح والتعديل .

وهٰكذا خدمت هٰذه الكتب موضوع التراجم ، ونبهت الأذهان إلىٰ أن توضع تراجم أخرىٰ لطبقات من الرجال تتفق في لون واحد من العلم أو الفن أو الصناعة ؛ كطبقات الصحابة ، وطبقات الفقهاء والمحدِّثين . . . إلخ .

وتتجلى الدواعي لتدوين التراجم وأهميتها في النواحي التالية :

ـ حاجة طالب العلم إلىٰ مراجع في التراجم ، يعرف مِن خلالها مَنْ تتردد أسماؤهم ويسأل عنها .

ـ النزاع بين الفِرَق الذي ربما كان سببه الجهل بسيرة إنسانٍ معيَّن ، مما حدا بكل فرقة إلىٰ تدوين تراجم رجالاتها .

ـ حاجة المربين إلى القدوة الحسنة ، المتمثلة في السلف الصالح ، ولا شيء يؤثّر في نفوس الناشئة ويساعد علىٰ تربيتهم مثل الحديث عن الذين آثروا في حياتهم سلوك سبيل الحكمة ، وكانوا في تصرفاتهم مُثُلاً صادقة في الإيمان بالله ، وحب الخير ، وعلو الهمة ، وشجاعة القلب ، وطهارة النفس ، وبذل الأرواح والأموال في سبيل الحق ؛ لأَن في ذكر المربي والمعلم سِيَرَ هٰؤلاء الرجالات الأبطال . . تجسيداً عملياً للقيم والمبادىء ، وهو أفضل عامل مساعد علىٰ إصلاح الناشئة والمجتمع .

ـ دفع ظلم عن مظلوم ، أو إيضاح لحقيقة ما ؛ حيث تقوم بعض كتب السِّيَر غير الموَثَّقة بذكر بعض الأخبار التي تشوِّه صور بعض العظماء ، وتحط من قدرهم العلي ، كما وقع في بعض الكتب التي تحط من قدر ذلك الإنسان العظيم ، الذي كان يغزو عاماً ويحج عاماً ؛

هارون الرشيد ، فرمته هـٰذه الكتب بالافتراءات العظيمة ، وروت عنه أنه كان وكان . . . مما لا يليق بمقامه ، ولا حتىٰ بمقام مسلمٍ عاميٍّ .

فلا بد في مثل هـٰذا الحال من كتب صحيحة النقول في التراجم ؛ لترفع الظلم ، وتمحو الظلام ، فترفع اللثام عن هـٰؤلاء البدور الأعلام .

ومن فوائد قراءة كتب التراجم : تثبيت الإيمان في قلوبنا ، واتعاظنا بسير مَنْ قبلنا كما قال الله تعالىٰ : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وفي الختام : فقد أوجز الإمام الرباني ، محيي الدين النواوي ـ عليه سحائب الرحمة ـ هـٰذه المعاني السامية ؛ حيث قال في أواخر خطبة كتابه « تهذيب الأسماء واللغات » [١/١٠] : (اعلم : أن لمعرفة أسماء الرجال ، وأحوالهم ، وأقوالهم ، ومراتبهم . . فوائد كثيرة :

منها : معرفة مناقبهم وأحوالهم ، فيتأدب بآدابهم ، ويقتبس المحاسن من آثارهم .

ومنها : معرفة مراتبهم وأعصارهم ، فينزلونهم منازلهم ، وعن عائشة رضي الله عنها قالت : (أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ننزل الناس منازلهم) .

ومنها : أنهم أئمتنا وأسلافنا ، وكالوالدين لنا ، وأجدىٰ علينا في مصالح آخرتنا التي هي دار قرارنا ، وأنصح لنا فيما هو أعود علينا ، فقبيح بنا أن نجهلهم ، وأن نهمل معرفتهم . . .) اهـ

وقال بعضهم : إن النظر في حكايات المواهب والكرامات ، ومعارف العلوم الإلـٰهيات . . تثير الهمم إلىٰ طلب المراتب العاليات ، وترفعها عن حضيض مقاعد قواعد الخوالف ، إلىٰ أوج أفلاك فوائد من سبق من القرون السوالف .

اللهم ؛ انفعنا بما نسمع وبما نقرأ ، واجعله حجة لنا ، ولا تجعله حجة علينا ، يا رب العالمين .

مدارس التراجم وبعض كتبها

لم تكن كتب التراجم مقصورةً علىٰ رجال الحديث فحسب ، بل لا تكاد تجد طائفة تُنسب إلىٰ علم أو فن أو كان لها في التاريخ الإسلامي أثر . . إلا ولها من كتب التراجم نصيب ، ومن هنا تعددت مدارس التراجم ، والتي سنذكر بعضها :

مدرسة التراجم العامة الجامعة :

هي المدرسة التي تجمع طائفة من الكتب فيها تراجم لطائفة من الرجال يختلفون صناعة وطبقة وعصراً ومكاناً ، ولـٰكنهم يتحدون في صفة واحدة تجمعهم ، وهي صفة الجدارة والاستحقاق ؛ بأن يُترجَم لهم وتدوَّن سيرهم .

وتتميز هـٰذه المدرسة بأنها تجمع الرجال من كل زمان ومكان ، مرتَّبين إما علىٰ سني الوفاة ، وإما حسب الأسماء .

ومثال علىٰ هـٰذه المدرسة : كتاب « وفيات الأعيان » ، للمؤرخ الشهيد أحمد بن خَلِّكان ، المتوفىٰ سنة (٦٨١هـ) ، وكتاب « قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر » ، للمؤرخ العلامة الفقيه الأديب الطيب بن عبد الله بن أحمد بامخرمة السَّيْبَاني الحضْرمي ثم العَدَني ، المولود بـ (عدن) سنة (٨٧٠ هـ) ، والمتوفىٰ بها سنة (٩٤٧ هـ) ، وهو في ثلاثة مجلدات ضخام لا يزال مخطوطاً .

مدرسة التراجم حسب العصور :

هي المدرسة التي تجمع طائفة من الكتب فيها تراجم لطائفة من العلماء عاشوا في قرن واحد ، أو حقبة زمنية معينة .

ومثال علىٰ هـٰذه المدرسة : كتاب « الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة » ، للحافظ ابن حجر العسقلاني ، المتوفىٰ سنة (٨٥٢هـ) ، وكتاب « الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع » ، للحافظ السخاوي ، المتوفىٰ سنة (٩٠٢هـ) ، وكذلك كتاب « النور السافر عن أخبار القرن العاشر » للعلامة السيد عبد القادر بن شيخ العيدروس العلوي الحضرمي التريمي ، ثم الحيدر أبادي ، ولد بـ (تريم) سنة (٩٧٨ هـ) ، وتوفي بـ (حيدر آباد) بالهند سنة (١٠٨٣ هـ) ، وهو مطبوع .

ومنها : « السناء الباهر تذييل النور السافر » ، للعلامة المؤرخ السيد محمد بن أبي بكر الشِّلِّي العلوي التريمي ، المولود بـ (تريم) سنة (١٠٣٠ هـ) ، والمتوفىٰ بـ(مكة المكرمة) سنة (١٠٩٤ هـ) ، وهو مخطوط ، وله كتاب آخر يسمَّىٰ « الجواهر والدرر في أعيان القرن الحادي عشر » مخطوط أيضاً ، وسيطبع قريباً محققاً بإذن الله .

مدرسة التراجم سنةً سنةً :

هي المدرسة التي تجمع طائفة من الكتب فيها تراجم لطائفة من العلماء ، مرتبة على التسلسل الزمني للسنين ، يذكر فيها المؤرخ الرجال حسب وفيات كل سنة .

ومن هٰذه المدرسة : كتاب « شذرات الذهب في أخبار مَن ذهب » لابن العماد ، المتوفىٰ سنة (١٠٨٩هـ) .

مدرسة التراجم من خلال كتب التاريخ العام :

هي مدرسة تاريخية تجمع في ثناياها تراجم لطائفة من العلماء ، كَتَبها أصحابها وهم يؤرخون تاريخاً سياسياً عاماً للدول الإسلامية .

من أمثلتها : « الكامل في التاريخ » لابن الأثير ، المتوفىٰ سنة (٦٣٠هـ) ، وكتاب « العدة المفيدة في تاريخ حضرموت » للشيخ سالم بن محمد بن حميد الكندي ، المتوفىٰ سنة (١٣١٦ هـ) تقريباً ، و« الشامل في تاريخ حضرموت » للعلامة علوي بن طاهر الحداد ، المتوفىٰ سنة (١٣٨٢ هـ) .

وكتاب « بضائع التابوت » للعلامة عبد الرحمٰن بن عبيد الله السقاف ، المتوفىٰ سنة (١٣٧٥ هـ) .

مدرسة كل من أدخل في كتبه تراجمَ :

هي مدرسة ظهرت لما تداخلت كتب التراجم مع غيرها ، وأُدخلت في كتب الشروح اللغوية والنحوية والأدبية ؛ لما بينهما من تناسب .

مثالها : ما فعله ابن نباتة المتوفىٰ سنة (٧٦٨هـ) في شرحه لرسالة ابن زيدون المسمىٰ « سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون » ، وكما فعل البغدادي المتوفىٰ سنة (١٠٩٣هـ) في كتابه « خزانة الأدب وغاية الأرب » .

مدرسة التراجم حسب الطبقات :

الطبقة لغة : الجيل من الناس ، **واصطلاحاً** : مجموعة من الناس الذين عاشوا في عهد معين ، وتختلف بين مؤرخ وآخر .

فالطبقة عند ابن سعد تساوي عشرين سنة تقريباً ، وقد تزيد أو تنقص عند غيره ممن ترجم حسب الطبقات ، وقد يراد بالطبقة الناس الذين اشتركوا في فن معين ، وعاشوا في عصرٍ واحد.

والمقصود من هـٰذه المدرسة : أن المؤلف يقسِّم الناس الذين يريد أن يترجم لهم إلىٰ طبقات ، وبعد ذلك هو مخير بين أن يترجم كل طبقة حسب الاسم أو الفضل أو العلم أو غير ذلك .

وتنقسم هـٰذه المدرسة إلىٰ عدة أنواع ، منها :

أ ـ مدرسة طبقات الصحابة :

من هـٰذه المدرسة كتاب : « الطبقات الكبرىٰ » لابن سعد ، المتوفىٰ سنة (٢٣٠هـ) ، وضمَّن فيه مع الصحابة التابعين أيضاً .

ب ـ مدرسة طبقات الفقهاء :

ويشمل هـٰذا النوع جميع ما كتب في طبقات الفقهاء ، على اختلاف مذاهبهم .

ومن هـٰذا النوع : « طبقات الشافعية الكبرىٰ » لابن السبكي ، المتوفىٰ سنة (٧٧١هـ) ، و« الجواهر المُضيَّة في طبقات الحنفية » لعبد القادر ابن أبي الوفاء ، المتوفىٰ سنة (٧٧٥هـ) ، و« طبقات الحنابلة » لأبي يعلى الفراء ، المتوفىٰ سنة (٥٢٦هـ) ، و« ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة أعلام مذهب الإمام مالك » للقاضي عياض ، المتوفىٰ سنة (٥٤٤هـ) ، و« ذيل طبقات الإسنوي » للعلامة الفقيه الطيِّب بن عبد الله بامخرمة ، المتوفىٰ سنة (٩٤٧ هـ) .

ج ـ مدرسة طبقات المفسرين :

لعل أقدم ما كتب تحت عنوان مستقل هو كتاب « طبقات المفسرين » للإمام السيوطي ، المتوفىٰ سنة (٩١١هـ) .

د ـ مدرسة طبقات القراء :

ومن أقدم الكتب التي تنتمي لهـٰذه المدرسة : « طبقات القراء » لأبي عمرو عثمان الداني ، المتوفىٰ سنة (٤٤٤هـ) .

هـ ـ مدرسة طبقات المحدِّثين :

من ذلك : كتاب « الكمال » للشيخ أبي محمد عبد الغني المقدسي ، المتوفىٰ سنة (٦٠٠ هـ) .

و ـ مدرسة طبقات الحفاظ :

لعل أقدم ما ألف في هـٰذا هو : « طبقات الحفاظ » للإمام الذهبي ، المتوفىٰ سنة (٧٤٨هـ) .

ز ـ مدرسة طبقات النحاة واللغويين :

والكتاب الغاية في هـٰذه المدرسة هو : « بغية الوعاة في تراجم اللغويين والنحاة » ، للإمام السيوطي ، المتوفىٰ سنة (٩١١هـ) .

ح ـ مدرسة طبقات الصوفية :

لقد لقيت طبقات الصوفية اهتماماً كبيراً لدىٰ علماء المسلمين :

فمنها : كتاب « طبقات النساك » لأبي سعيد ابن الأعرابي ، المتوفىٰ سنة (٣٤١هـ) ، وكتاب « أخبار الصوفية والزهاد » لأبي بكر محمد بن داوود بن سليمان النيسابوري ، المتوفىٰ سنة (٣٤٢هـ) ، وكتاب « طبقات الصوفية » لأبي عبد الرحمـٰن السُّلَمي ، المتوفىٰ سنة (٤١٢هـ) ، وكتاب « طبقات الأولياء » لأبي حفص عمر بن أحمد المصري المشهور بـ (ابن الملقن) المتوفىٰ سنة (٨٠٤هـ) .

والكتاب الغاية في هـٰذه المدرسة : « لواقح الأنوار في طبقات الأخيار » ، وقد اشتهر باسم : « الطبقات الكبرىٰ » للإمام عبد الوهاب الشعراني ، المتوفىٰ سنة (٩٧٣هـ) .

ط ـ مدرسة طبقات الشعراء :

ومن هـٰذه المدرسة : كتاب ابن سلام الجمحي ، المتوفىٰ سنة (٢٣٢هـ) ، المسمىٰ : « طبقات الشعراء » .

ي ـ مدرسة تراجم الأسر والعوائل العلمية :

ومن هـٰذه المدرسة : كتاب « إنباء البرية بأبناء الأسرة الطبرية » للعلامة السيد عبد القادر الطبري المكي ، المتوفىٰ سنة (١٠٤٨هـ) ، وكتاب « المشرع الروي في مناقب السَّادة بني علوي » للسيِّد المؤرخ محمد ابن أبي بكر الشلّي باعلوي الحسيني ـ تقدم ذكره ـ مطبوع ، وكتاب « البنان المشير في تراجم أعيان آل باكثير » للعلامة الشيخ محمد بن محمد باكثير الكندي الحضرمي ، المتوفىٰ سنة (١٣٥٥ هـ) .

ك ـ مدرسة تراجم الشخصيات المفردة :

نهج بعض المؤلفين منهجاً يتتبعون فيه شخصية واحدة ، فيرصدون أقوالها وأفعالها ومروياتها ، فجعلوا ترجمة تلك الشخصية في كتاب مستقل ، وقد ظهر من هـٰذه الكتب الكثير ، منها : كتاب « سيرة عمر بن الخطاب » رضي الله عنه ، لابن الجوزي ، ومعظم كتب مناقب الشيوخ تدخل تحت هـٰذه المدرسة .

وهناك مدارس أخرىٰ عدلنا عنها خوفاً من الإطالة .

* * *

ترجمة المؤلّف

اسمه ونسبه الشريف[1] :

هو الإمام العالم الفاضل ، العلامة المتقن ، الحجة المتفنن ، المحدث الثقة ، الزاهد الورع ، الشيخ الأوحد ، السيد الشريف شمس الدين أبو عبد الله محمد بن الحسن بن عبد الله بن محمد بن القاسم . . . بن الحسين بن علي ابن أبي طالب عليهم السلام ، الحسيني نسباً ، الواسطي نسبةً ، الشافعي مذهباً .

ولادته ونشأته :

ولد ـ رحمه الله ـ في مدينة واسط سنة (٧١٧هـ) ، ثم اشتغل بطلب العلم في بلده ، ثم قدم مصر فسمع بها الحديث ، وبرع في الفقه والأصول ، ثم انتقل إلىٰ دمشق ، فنزل الشامية الجوَّانية[2] ، واشتغل بالتدريس ، فدرس بالصارمية[3] ، وأعاد بالشامية البرَّانية[4] .

---

(١) اتفقت كتب التراجم علىٰ إيراد نفس الكلام عنه مع اختلاف يسير ، وأحياناً تكون بحرفيتها ، فممن ترجم له :
ـ ابن قاضي شهبة في « طبقات الشافعية » (٣/ ١١٩) .
ـ عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي في « الدارس في تاريخ المدارس » (١/ ٢٤٨) .
ـ ابن حجر العسقلاني في « الدرر الكامنة » (٥/ ١٦٠) ، وفي « إنباء الغمر بأبناء العمر » (١/ ١٢٨) .
ـ محمد بن علي بن أحمد الداوودي في « طبقات المفسرين » (٢/ ١٢٥ـ١٢٦) .
ـ حاجي خليفة في « كشف الظنون » (٢/ ١٥٩٦ و١٨٣٦) .
ـ ابن العماد الحنبلي في « شذرات الذهب » (٣/ ٢٠٦ و٣٤٤) .
ـ عبد الله بن مصطفى المراغي في « الفتح المبين في طبقات الأصوليين » (٢/ ١٩٦) .
ـ خير الدين الزركلي في « الأعلام » (٦/ ٨٧) .
ـ عادل نويهض في « معجم المفسرين من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر » (٢/ ٥١٦) .
ـ عمر رضا كحالة في « معجم المؤلفين » (٣/ ٢٢٣) .

(٢) **المدرسة الشامية الجوانية** : تقع في دمشق ، جنوبي البيمارستان النوري ، أمرت ببنائها الخاتون الكبرىٰ ستّ الشام صاحبة المدرسة الشامية البرَّانيَّة ، وقد أمرت بوقفها مدرسة للشافعية ، علماً أنها كانت داراً لها .

(٣) **المدرسة الصارمية** : تقع في دمشق ، في أواسط منطقة (الحريقة) ، أنشأها صارم الدين جوهر بن عبد الله .

(٤) **المدرسة الشامية البرَّانيَّة** : تقع في دمشق في محلة (العونية) في العقيبة الكبرىٰ ، أمرت بإنشائها الخاتون=

شيوخه :

أغفلت كتب التراجم ذكر مشايخه وتلامذته ، مع أنه أكثر في طلب العلم ، وارتحل في سبيل ذلك ، فأثَّر وتأثر بغيره .

ويمكن أن نتعرف علىٰ بعض مشايخه من خلال إشارته إليهم في هـٰذا الكتاب ، ومن خلال ما كتبه في ترجمة الإمام النواوي في كتابه « المطالب العلية في طبقات الشافعية »[1] ، فمنهم :

الحافظ المِزِّي (٦٥٤ـ٧٤٢هـ) :

جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن الزكي عبد الرحمـٰن بن يوسف المِزي ، القضاعي ، الدمشقي ، محدث الديار الشامية في عصره ، ولد بظاهر حلب ، ونشأ بالمِزَّة ـ من ضواحي دمشق ـ وتوفي في دمشق .

مهر في اللغة ، ثم في الحديث ومعرفة رجاله ، لم تر العيون مثله ، وصنف كتباً ، منها : « تهذيب الكمال في أسماء الرجال » ، و« تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف » .

كان حجة ، كثير العلم ، حسن الأخلاق ، صادق اللهجة ، متواضعاً ، حليماً ، مقتصداً في ملبسه ومأكله ، كثير المشي في مصالحه .

وقد ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ في كتابه « المطالب العلية في طبقات الشافعية » عند ترجمته للإمام النواوي : أنه سمع « الأربعين » للإمام النواوي على الشيخ جمال الدين المِزي تلميذ النواوي .

ابن النقيب (٦٦١ـ ٧٤٥ هـ) :

شمس الدين محمد بن أبي بكر بن إبراهيم ، قاضٍ شافعي ، مفسِّر ، دمشقي ، مولده ووفاته بدمشق .

ولي الحكم في حمص وطرابلس ، ثم بحلب ، ثم رجع إلىٰ دمشق فولي الشامية وحدَّث .

= الكبرىٰ ست الشام رحمها الله تعالىٰ ، وكانت أكبر مدرسة للشافعية .

(١) « المطالب العلية في مناقب الشافعية » مخطوط (الورقة ١٩١ـ١٩٢) .

وأثنىٰ عليه السبكي ثناءً حسناً فقال عنه : (شيخنا ، قاضي القضاة ، شمس الدين ابن النقيب. . .) إلىٰ أن قال : (وصاحَبَ النواوي ، وأعظم بتلك الصحبة رتبة عليَّة ، وله الديانة والعفَّة ، والورع الذي طرد به الشيطان وأرغم أنفه ، وكان من أساطين المذهب ، وجمرة نار ذكاء ، إلا أنه لا يلتهب) .

وكان يقول عن نفسه : إنه ما يموت إلا ليلة الجمعة ، فكان كذلك ، ووافق (١٢) ذي القعدة سنة (٧٤٥ هـ) بالمدرسة الشامية ، ودفن بقاسيون .

من كتبه : « التأليف في التفسير » .

الفَزَاري (٦٦٠ـ٧٢٩هـ) :

برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الرحمٰن بن إبراهيم بن سباع الفزاري ، ابن الفركاح ، من كبار الشافعية ، مصري الأصل من أهل دمشق ، من بيت علم ، عُرض عليه قضاء قضاة الشام. . فأبىٰ ، كان منقطعاً للتدريس والعبادة ، وتوفي في دمشق .

من كتبه : « تعليق على التنبيه » ، ولعله الكتاب الذي ينقل منه المؤلف رحمه الله عندما يقول : قال شيخنا ، ولا سيما أنه مذكور في فهرس المصادر التي وجدت علىٰ إحدى النسخ ، ومنها : « باعث النفوس إلىٰ زيارة القدس المحروس » ، وغيرها كثير .

كتبه :

برع المؤلف ـ رحمه الله ـ في علوم كثيرة ، فكان ذلك سبباً في تعدد مصنفاته وتنوعها ، فمن تصانيفه :

ـ مختصر « حلية الأولياء » لأبي نُعيم ، سماه : « **مجمع الأحباب وتذكرة أولي الألباب** » ، وهو هٰذا الكتاب ، وسيأتي الكلام عنه مفصلاً فيما بعد إن شاء الله تعالىٰ .

ـ جمع تفسيراً كبيراً سماه : « تفسير القرآن » ، عني فيه بالكشف عن حقائق القرآن ومراميه ، وبلاغته وفصاحة مبانيه .

ـ « المطالب العلية في مناقب الشافعية » ، وهو من مخطوطات مكتبة فيض الله في إستنبول برقم (٥٢٥) .

ـ شرح مختصر ابن الحاجب المسمىٰ « منتهى السؤل والأمل في عِلْمَي الأصول والجدل »

في ثلاثة مجلدات ، نقل فيه كلام الأصفهاني ، ونقل من شرح القاضي تاج الدين السبكي فوائد ، وصرح بنقلها عنه[1] .

ـ « الرد على التناقض للإسنوي » ، قال الحافظ شهاب الدين ابن حجي السعدي : سمعته يعرض بعضه على القاضي بهاء الدين أبي البقاء السبكي قبل سفره إلىٰ مصر ، ويقرأ عليه فيه .

ـ « شفاء السقام في زيارة خير الأنام »[1] .

ـ « إشراق الصباح في حياة الأرواح » ، وقد ذكره في مقدمة كتابنا هـٰذا يتحدث فيه عن المحبة وشروطها وحقيقتها . . . إلخ .

ـ « الجوهر الفريد » ، ويتحدث فيه عن المقامات والأحوال ، ذكره كذلك في كتابنا هـٰذا مرتين في ترجمة صلاح الدين الأيوبي رحمه الله .

مكانته العلمية وصلاحه وزهده :

إن للإمام محمد بن الحسن الواسطي رحمه الله تعالىٰ مكانةً عظيمةً تشهد بعلمه الغزير وصلاحه العظيم وزهده .

فأما علمه الغزير : فتراه واضحاً جلياً في كتابه « المجمع » الذي بين أيدينا ، فانظر حيث شئت في الكتاب . . تر التحقيقات العلمية الكثيرة .

وقد عاصر رحمه الله تعالىٰ كبار أهل العلم رفقةً وشيوخاً .

فعلىٰ سبيل المثال : دراسته على الشيخ الإمام الحافظ أوحد عصره جمال الدين المزي الذي كان من تلامذته أيضاً :

ـ الإمام الحافظ الذهبي (ت : ٧٤٨ هـ) .

ـ والإمام تقي الدين السبكي (ت : ٧٥٦ هـ) .

ـ والإمام شمس الدين ابن عبد الهادي (ت : ٧٤٤ هـ) .

وغيرهم من كبار الأئمة والحفاظ رحمهم الله تعالىٰ .

---

(١) « تاريخ الأدب العربي » لبروكلمان (٦/ ١٢٣ـ١٢٤) .

وعلى الرغم من جلالة معاصرية . . فقد ارتقىٰ كرسيّ التدريس في مدرسة الصارمية بدمشق ، وأعاد[1] في المدرسة الشامية البرَّانيَّة التي كان لها شهرة عالية في دمشق وخارجها ، فقد كانت أكبر جامعةٍ للشافعية ، مثلما كانت النورية للحنفية ، والعمرية للحنابلة ، وكان يجري عند افتتاحها وإغلاقها حفلات رسمية كبيرة يحضرها العلماء والأمراء الكبار .

ومما يشهد بسعة علمه أيضاً تآليفه الكثيرة التي أشرنا إلىٰ بعضها آنفاً ، فقد برع في شتى العلوم من فقه ومنطق ولغة ، وخاصة التفسير الذي لا يخوض غماره إلاَّ كلُّ نحرير .

وأما صلاحه وزهده : فهو أَكثر ما يكون في كتابنا « المجمع » ، تدلك عليه تلك العبارات النورانية التي ترقىٰ بروحك إلىٰ مقامٍ تنفطر منه الجبال ، وتنخلع له القلوب ، تلك العبارات التي تتقاطر صدقاً وإخلاصاً ، ولعلَّ هـٰذا الصلاح الشديد والزهد الكبير كان السبب الرئيس في قلة المراجع التي تتحدث عنه رغم جلالة قدره وسعة علمه ؛ لأنه آثر الانعزال والانجماع عن الناس على الشهرة والظهور .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

وفاته :

توفي ـ رحمه الله ـ يوم الجمعة ثاني عشر ربيع الأول ، سنة ست وسبعين وسبع مئة (٧٧٦هـ) ، ودفن في دمشق عند مسجد القدم .

رحمه الله رحمة الأبرار

* * *

---

(١) **المعيد** : مرتبة تأتي في المقام الثاني ضمن مراتب التدريس بعد المدرس ، والمعيد بالأصل : هو الذي يعيد للطلبة ما ألقاه المدرس بعد انصرافه ؛ ليفهموه ويحسنوه .

عصر المؤلف

الحالة السياسية والاجتماعية في القرن الثامن الهجري :

جاء هـٰذا القرن ودولة المماليك البحرية[1] تتولىٰ شؤون الديار المصرية والشامية ، ثم زالت هـٰذه الدولة سنة (٧٨٤هـ) ، وقامت علىٰ أنقاضها دولة المماليك الثانية التي تسمىٰ : (البرجية) أو (الشراكسة)[2] ، وقد فوجئت مصر والشام في أثناء ذلك القرن باضطرابات وحروب ذهب ضحيتها دماء غزيرة .

ولم تكن الحالة في الشرق وبلاد المغرب والأندلس بأحسن منها في مصر ؛ فقد كان التتار يطمعون في امتلاك مصر والشرق ويتطلعون إلىٰ ذلك ، ويبذلون كل ما في وسعهم من جهد لتحقيق آمالهم ، وكانت الحرب سجالاً بينهم وبين المسلمين .

كما أن المسلمين فقدوا الفردوس الإسلامي وهو الأندلس ، وكان ملوكها يستغيثون بملوك المغرب فكانوا يغيثونهم من حين لآخر ، وكان آخر هـٰذه الإغاثات سنة (٧٤٠هـ) ، فتجمعت عليه جيوش قشتالة البرية وملك البرتغال البحرية وحاصروا جيوش المسلمين ، وكانت وقعة هُزم فيها المسلمون ، وتلا ذلك شقاق بين ملوك المغرب الأقصىٰ ، وثورات داخلية .

وأبسط دليل علىٰ تلك الثورات والنزاعات الداخلية . . أنك ترىٰ في مدة تملك المماليك البحرية والتي كانت بين سنة (٦٤٨هـ) و(٧٩٢هـ) : استلام أكثر من ثلاثين أميراً ، قُتل منهم عشرة أمراء ، وخُلع منهم اثنا عشر أميراً ، وحصلت فتن بينهم وبين بني حفص ملوك تونس ، وأصيب كثير من العلماء الأحرار الذين لا يصانعون ولا يدارون .

ولا شك أن للاضطراب السياسي آثاراً سلبية على الوضع الاجتماعي ؛ إذ العلاقة وطيدة

---

(١) **البحرية** : جماعة من المماليك ، كانوا يبيتون بهدف الحراسة ، أول من رتبهم وسمّاهم : نجم الدين أيوب .

(٢) **البرجية أو الشراكسة** : وهي التي حكمت مصر وامتد نفوذها فيما بعد إلى الشّام والحجاز في الفترة ما بين (٧٨٤ـ ٩٢٣ هـ / ١٣٨٢ـ ١٥١٧ م) وسبب هـٰذه التسمية : أنَّ هـٰؤلاء المماليك استقدموا علىٰ هيئة عبيدٍ من بلاد الكركيز والقبجاق ، واستخدموهم في حماية القلاع والحصون ، فكانت إقامتهم في أبراجها .

بينهما ، فكانت الأسواق والمتاجر تزيَّن عند كل مناسبة من تنصيب أمير جديد ، أو ولادة زوجته ، أو ختان ولده ، وما شابه ذلك من المناسبات التي يُفرض على الناس الاحتفال فيها ، مع ما يرافق ذلك من إنفاق الأموال في غير طائل ، وشغل الناس بأشياء تافهة ، وكثرة الجبايات ، ومع ذلك . . كان تطور الصناعات وتعددها ملحوظاً في ذلك العصر خاصة ، وقد أصبحت دمشق والقاهرة حاضرتي العالم الإسلامي آنذاك .

الحالة العلمية :

كانت بلاد الشام ومصر في القرنين السابع والثامن كنفاً للعلماء ، وخاصة بعد سقوط بغداد ـ عاصمة الخلافة ـ بيد التتار سنة (٦٥٦هـ) ، والتي كانت تزخر بالعلماء من كل أصقاع الأرض ، والذين توجهوا بعد ذلك إلىٰ دمشق والقاهرة ، وخاصة بعد أن وجدوا التشجيع من الأمراء والسلاطين ، وازداد عدد المدارس التي ابتدأ بناءها نور الدين الشهيد ، واستمرت في العهد المملوكي .

وأصبحت دمشق أعظم جامعة إسلامية عربية ، حوت العلوم الدينية والدنيوية ، فلم تكن دون القاهرة بأزهرها ، وبغداد بمدرستها النظامية ؛ فقد ظهر الكثير من العلماء والشعراء والأدباء والأطباء والمهندسين .

ونبغ أفراد في هـٰذا العصر ، ولاسيما في الفلك والتاريخ والجغرافية والحديث والشعر والأدب والطب والهندسة .

* * *

الكلام عن « مجمع الأحباب »

الحديث عن كتاب « **مجمع الأحباب** » يبدأ من كتاب « حلية الأولياء » للحافظ أبي نُعيم ؛ فكتاب « المجمع » استُمِدت روحه ونُسجت خيوطه من كتاب « الحلية » ، لذا فلابد لنا أن نعرِّج أولاً إلىٰ كتاب « حلية الأولياء » ، ونتعرف عليه وعلىٰ مؤلفه ؛ حتىٰ تتكون لنا المعرفة اللازمة قبل الشروع في المقصود .

الحافظ أبو نعيم[1]

هو أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران المهراني الأصبهاني ، كان فارسياً ، وكان جده الأعلىٰ مهران مولىٰ عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب .

وبلده إصبهان[2] قال فيها ياقوت : (وقد خرج من إصبهان العلماء والأئمة في كل فن ما لم يخرج من مدينة من المدن ، وعلى الخصوص علو الإسناد ؛ فإن أعمار أهلها تطول ، ولهم مع ذلك عناية وافرة بسماع الحديث ، وبها من الحفاظ خلق لا يُحصَون) اهـ

ولد في رجب سنة (٣٣٦هـ) ، وتوفي في (٢٠) محرم سنة (٤٣٠هـ) ، عن أربع وتسعين سنة .

قال فيه الحافظ الذهبي في « سير أعلام النبلاء » : (هو الإمام الحافظ ، الثقة العلامة ، شيخ الإسلام ، صدوق ، عالم بهـٰذا الفن) اهـ

وقال عنه ابن خلكان : (الحافظ المشهور ، صاحب كتاب « حلية الأولياء » ، كان من الأعلام المحدِّثين ، وأكابر الحفاظ الثقات ، أخذ من الأفاضل ، وأخذوا عنه ، وانتفعوا به) .

---

(١) استقيت المعلومات عن الحافظ أبي نعيم وكتابه « الحلية » من كتاب : « أبو نعيم حياته وكتابه الحلية » للأستاذ محمد لطفي الصباغ ، دار الاعتصام (١٣٩٨هـ) الطبعة الثانية .

(٢) **إصبهان** : بكسر الهمزة وفتحها وسكون الصاد المهملة وفتح الباء ، ويقال بالفاء أيضاً : (أصفهان) .

وقال الخطيب البغدادي فيه : (لم أر أحداً أُطلِق عليه اسم الحافظ غير رجلين ، هما : أبو نعيم الإصبهاني ، وأبو حازم البدوي الأعرج) .

وهـٰذا ثناء كبير من الخطيب البغدادي على اثنين من شيوخه ، أحدهما أبو نعيم ، خصهما بأنه لم ير أحداً أُطلِق عليه اسم الحافظ غيرهما .

وقد أتيحت للحافظ أبي نعيم في حياته شهرة نادرة المثال ، وأهم أسباب ذلك :

ـ طول عمره ؛ فلقد عمَّر أربعاً وتسعين سنة ، وكان متمتعاً بقواه العقلية ، ونشاطه العلمي .

ـ عُلُوُّ أسانيده ، وتفرده بالرواية عن أقوام متقدمين ، وكان الفضل في ذلك بعد الله لأبيه ؛ فقد استجاز له أبوه عن طائفة من شيوخ العصر ، حتىٰ تفرد في آخر عمره في الدنيا بالرواية عنهم ، حتىٰ قال الذهبي عن ذلك : (وتهيأ له من لقاء الكبار ما لم يقع لحافظ) ، وقال الذهبي في موضع آخر : (كما تفرد بالسماع من خلق) .

وهـٰذا التفرد بالرواية . . مكَّنه من إلحاق الصغار بالكبار ، والأحفاد بالأجداد .

ـ كثرة مؤلفاته ، وجمعه في شخصيته لجوانب متعددة ؛ فهو محدث كبير ، وصوفي شهير ، ومشارك في العلوم الأخرىٰ ، فقد وصفوه بالعلم ، والحفظ ، والفقه ، كما وصفوه بحيويته وسعة اتصالاته ، وكثرة تلامذته ، ومشايخه .

* * *

كتاب « حلية الأولياء »

كتاب « الحلية » كتاب نافع وممتع في آن واحد ، ويسد فراغاً في المكتبة الإسلامية ، ويكاد يتفرد في ذلك .

ولمعرفة منهج الكتاب . . فإن « حلية الأولياء » كتاب في تراجم الزهاد ، والعباد ، والصالحين ، وقد بنى المؤلف كتابه علىٰ أساس الترتيب الزمني بوجه عام ، وإن لم يكن قد التزم ذلك الترتيب باطراد . .

بدأ المؤلف بالعشرة المبشرين بالجنة ، ثم أورد زهاد الصحابة ، ثم أهل الصُّفَّة ، ثم التابعين ، وتابعيهم ، ثم من يليهم إلىٰ عصره ، ولٰكنه لم يذكر أعلامه كلهم مرتبين علىٰ درجات الفضل ، ولا على المواليد ، ولا على الوفيات ، ولا على البلدان ، وخصوصاً في أواخر الكتاب ، فلا يكاد الباحث يهتدي إلىٰ موضع الرجل الذي يريد إلا بعَناء ، وقد علل ذلك بأنه لا يريد أن يستفاد من هٰذا الترتيب تقديم فرد علىٰ فرد .

خصائص كتاب « حلية الأولياء » :

لكتاب « الحلية » محاسن كثيرة ، نذكر منها :

ـ في هٰذا الكتاب يرى الإنسان مُثُلاً عليا فاضلة ، يعِزُّ وجودها في دنيا الواقع ، وهٰذه الخاصية من أهم خصائص هٰذا الكتاب ؛ ذلك لأن الإنسان ـ عموماً والخَيِّر المتدين بخاصة ـ يحب أن يعيش ولو لمدة يسيرة في مستوىٰ رفيع سامٍ مع الذرىٰ والقمم ، وإن لم يتيسر له ذلك . . فهو حريص علىٰ أن يقرأ أخبارهم ، ويصغي إلىٰ كلماتهم .

إنه يريد أن يحيا في فِكرِه ، وبينه وبين نفسه مع أخبار هٰؤلاء الناس الأفاضل ، الذين يَحْيَون الحياة المستقيمة النظيفة ، ما دام لا يستطيع أن يراهم في عالم الواقع ، وكلما فسد الزمان ، وقل الصالحون . . ازداد تعلق الطيبين بأخبار هٰؤلاء وتتبع أحوالهم .

ومن هنا كان هٰذا الكتاب محل إعجاب كثير من الناس ، حتىٰ أضحىٰ كثير مما فيه غذاءً للأرواح نافعاً .

ـ لعل هـٰذا الكتاب أوسع كتاب في ذكر أسماء النساك والعباد ، وقد ذكر المؤلف أكبر عدد منهم من عصر الصحابة حتىٰ عصر تأليفه .

ـ وأيضاً هو من أغنى الكتب المليئة بالحِكَم المختارة النافعة ، والكلمات المؤثرة الرائعة ، وأقوال العلماء والوعاظ ، وأرباب القلوب .

ـ وفيه أيضاً مجموعة قيمة من الأدعية الجميلة ، والمناجاة الإلـٰهية التي صيغت بلغة راقية ، وأسلوب محكم ، وكذلك فيه مجموعة كبيرة من المقطعات من الشعر الإلـٰهي .

ـ وفيه حكايات مشوقة تأخذ بالألباب ، وقد تكون هـٰذه الخصيصة من أهم العوامل التي أكسبت الكتاب شهرة فائقة ، وجعلت الناس يتعلقون به .

ـ وفي هـٰذا الكتاب أحاديث كثيرة ، تفرد بها المؤلف ، وربما لا يجدها الباحث في غيره ، وكذلك في الكتاب تحقيقات حديثية جيدة تتصل بعلل الحديث .

بهـٰذه الخصائص وغيرها كان الكتاب ذا أهمية ، وقد تبوأ مكانة كبيرة في حياة مؤلفه ، وعبر العصور التي تلت ، حتىٰ قال ابن ناصر الدين : (ولما صُنِف كتاب « الحلية » . . حملوه إلىٰ نيسابور ، فبيع بأربع مئة دينار) .

وحتىٰ قال الحافظ السِّلَفي فيه : (لم يُصنَّف مثل كتابه « حلية الأولياء ») .

ويا لها من شهادة من الحافظ السلفي رحم الله الجميع!

الكتب المؤلفة حوله :

ألفت كتب عدة حول هـٰذا الكتاب ؛ لأهميته وشهرته ، وحيوية موضوعه ، وثناء الناس عليه واشتغالهم به ، وسنذكر في هـٰذا ما تسمح به الفرصة :

ـ « صفة الصفوة » لابن الجوزي :

بدأ فيه بذكر فضل الأولياء والصالحين ، ثم أردفه بذكر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وشرح أحواله وآدابه وما يتعلق به ، ثم بذكر المشهورين من الصحابة ، ثم المصطفيات من الصحابيات ، ثم التابعين ومَن بعدهم علىٰ طبقاتهم في بلدانهم ، وقد طبع هـٰذا الكتاب طبعات متعددة .

ـ « مختصر صفة الصفوة » تأليف الإمام الشعراني ، المتوفىٰ سنة (٩٧٣هـ) ، وقد طبع في مصر في مطابع المنار ، بعناية السيد رشيد رضا .

ـ« النديم والخلوة ، والمن والسلوىٰ ، والروضة والقهوة ، المنتخب من صفة الصفوة » تأليف علي الخراط ، المتوفىٰ سنة (٧٣٩هـ) ، ذكر بروكلمان أن منه نسخة خطية في (داماد إبراهيم) في تركيا بخط المؤلف .

ـ« تقريب البغية في ترتيب أحاديث الحلية » ، تأليف الحافظ نور الدين الهيثمي ، المتوفىٰ سنة (٨٠٧هـ) ، رتب أحاديثها على الأبواب ، ذكر بروكلمان أن منه نسخة مخطوطة في دار الكتب بالقاهرة .

ـ« البغية في ترتيب أحاديث الحلية » تأليف عبد العزيز بن محمد بن الصديق ، والمؤلف معاصر ، والكتاب مطبوع ، نشرته مكتبة الخانجي بمصر .

ـ« أحاسن المحاسن » اختصره من « صفة الصفوة » تأليف إبراهيم بن أحمد الرقي الحنبلي ، المتوفىٰ سنة (٧٠٣هـ) ، ذكره بروكلمان وحدد أماكن وجود مخطوطاته : في برلين ، والإسكندرية ، وليبسك ، وبروسه .

ـ« نظم رجال حلية الأولياء » تأليف محمد بن جابر ، ألفه سنة (٧٩٣هـ) ، وذكر بروكلمان أن منه نسخة خطية في القاهرة .

وأخيراً : فقد طُبع كتاب « حلية الأولياء وطبقات الأصفياء » للحافظ أبي نعيم في القاهرة بمطبعة السعادة بمصر سنة (١٣٥١ هـ ـ ١٩٣٢ م) ، وقد قوبلت علىٰ عدة نسخ خطية ، وقد أشرف علىٰ طباعتها أهل العلم ، وعليها تعليقات طيبة نافعة ، وشرح للكلمات الغامضة ، وتصحيح التصحيفات والأغلاط بالرجوع إلى المصادر ، وقد صورت هـٰذه الطبعة في بيروت ، ونشرها دار الكتاب العربي في لبنان في عشرة مجلدات .

ولعل في هـٰذه العجالة ما يبين ويوضح العمل الجليل الذي قام به الإمام الواسطي رحمه الله تعالىٰ ؛ حيث إنه ذكر « حلية » أبي نعيم ومدحها ، ثم استطال الكتاب بالأسانيد والتكرار ، واستقل اختصار ابن الجوزي فقال :

(أحببت أن أجمع كتاباً يكون لمحاسنه حاوياً ، ولما سوىٰ ذلك طاوياً ، وأحذف الأسانيد والحكايات المتكررة ، مع زيادة تراجم أئمة . . .) .

* * *

مضمون « مجمع الأحباب »

ترجم الإمام الواسطي ـ رحمه الله ـ لأربعةٍ وخمسين صحابياً من الرجال ، ولزوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولعشر صحابيات من غير زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم ترجم للفقهاء السبعة ، وعدد كبير من التابعين مِن بعدهم ، وكان النصيب الأكبر في هـٰذا الكتاب لتراجم طوائف من جماهير النساك والعلماء والعُبَّاد من الرجال ، وألحقها بعدد من النساء المصطفيات ، فبلغ عدد تراجم الكتاب بذلك (٣١٠) ترجمة .

ثم أضاف جملة من العُبَّاد الذين عُرِف حالهم وخفيت أسماؤهم من الرجال والنساء ، ثم ترجم للعادل نور الدين الشهيد ولدولته النورية ، وكذلك للسلطان صلاح الدين الأيوبي ودولته الصلاحية ، ثم ختم الكتاب بذكر مقامين :

الأول : في قصص بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وهم سيدنا آدم ، وسيدنا إبراهيم وإسماعيل عليهم الصلاة والسلام

الثاني : في سعة رحمة الله .

رحمنا الله وإياه ووالدينا وإخواننا والمسلمين ، والقارئين لهـٰذا الكتاب ، آمين .

منهج الواسطي ـ رحمه الله ـ في كتابه :

ـ يبدأ ـ رحمه الله ـ بذكر اسم المترجَم له بقوله : ومنهم الإمام ، وإذا كان مشهوراً بكنية أو بلقب . . يذكرهما ؛ كقوله : أبو عبد الرحمـٰن مثلاً ، أو أمير المؤمنين في الحديث ، وربما ينسبه إلىٰ بلده ؛ كقوله : النيسابوري مثلاً .

ـ وبعد ذكر الاسم يشرع في بيان أحواله ومناقبه ، وربما قدم ولادته ومنشأه عليهما أولاً ، وإن قيل في المترجَم : له كلام كثير يحسن ذِكرُه . . ذكر منه الإمام الواسطي ـ رحمه الله ـ ما يناسب هـٰذا الكتاب ، مما تعهد به من بيان أحوال أهل الإيمان وجليل أوصافهم .

ـ التزم الإمام الواسطي ـ رحمه الله ـ في التراجم الأولىٰ بأن يختم الترجمة بخلاصة تبين أهم ما جاء في الترجمة من مناقبه الجليلة .

ـ كان الإمام الواسطي ـ رحمه الله ـ يظهر شخصيته العلمية في التعليق علىٰ بعض الأخبار ، إما بالتعليل أو بالقبول أو بالرد حسب ما تقتضيه قواعد العلوم الشرعية ، ويبتدىء ذلك بقوله : قال مؤلفه محمد بن الحسن عفا الله عنهما .

ـ استخدم المؤلف ـ رحمه الله ـ منهجاً أصولياً في بعض الأحيان لتعليل الأخبار ، كما فعل في ترجمته للسيدة فاطمة رضي الله عنها في بحث الأفضلية .

ـ التزم المؤلف ـ رحمه الله ـ غالباً بما أشار إليه في مقدمته بقوله : وكل ما أذكره في كتابي هـٰذا أضيفه إلىٰ قائله ، أقول في أوله : (قال فلان) ، وفي آخره : (انتهىٰ) .

ـ أما بالنسبة للأحاديث . . فقد يذكر الحديث جامعاً بين روايتيه ، أو يقول : رُوِّينا في « الصحيحين » ويكون اللفظ لأحدهما ، فإذا جاء بالحديث مرةً واحتاج إليه أخرىٰ . . اكتفىٰ بذكر أول الحديث .

ـ قد يذكر كامل الأخبار في الترجمة الواحدة من كتاب واحد ، وقد يأتي بالأخبار من كتب عدة ، ويضعها في ترجمة واحدة .

* * *

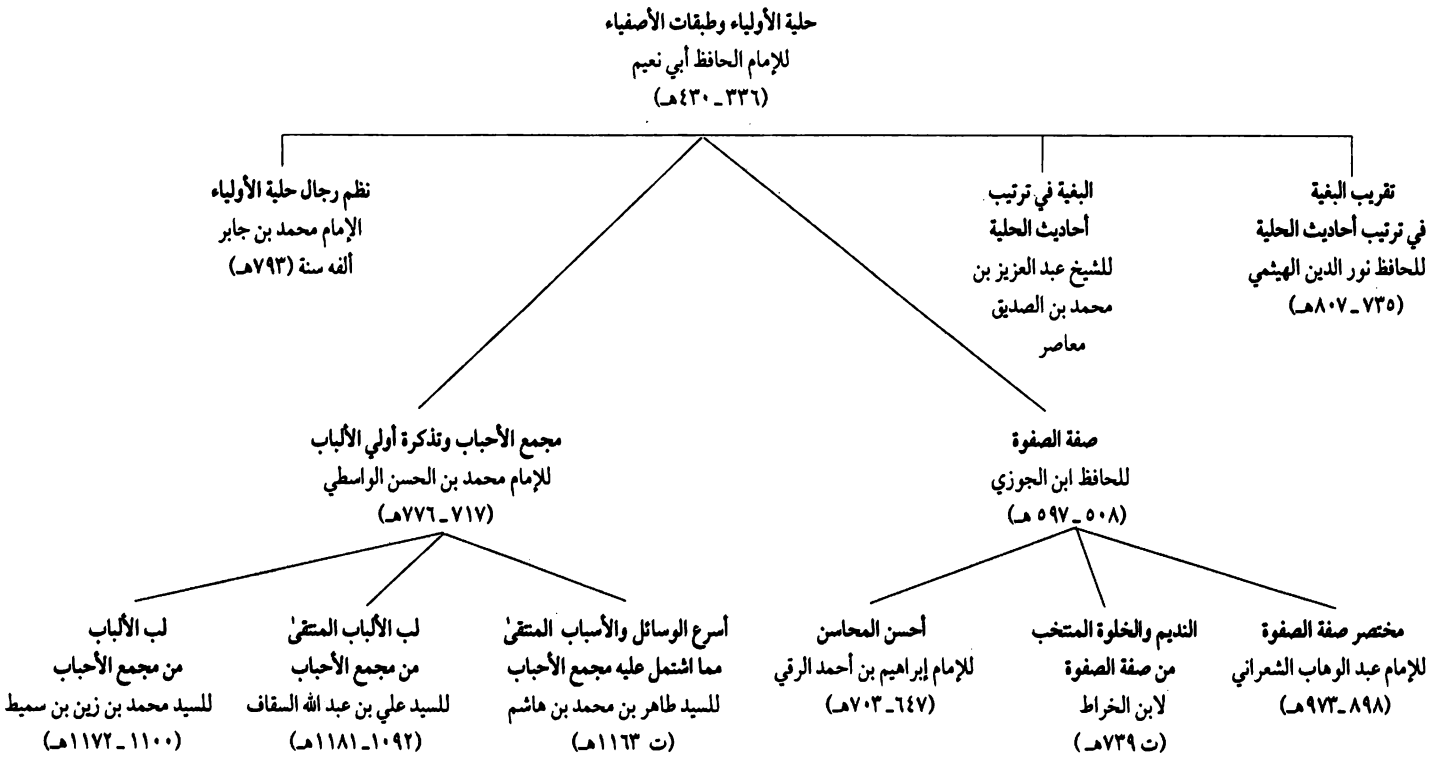

مخطط توضيحي لكتاب « حلية الأولياء »

علماء حضرموت وعنايتهم بكتاب « مجمع الأحباب »

بقلم/ محمد أبو بكر باذيب

في مطلع القرن الثاني عشر الهجري كانت بلدان حضرموت ـ وبالأخص مدينة تريم ـ تشهد حركة علمية ودَعَوية ، ونشاطاً ملموساً في طلب العلم ، وكان المحرِّك الأكبر لتلك الحركة ، والمشعِل لجذوتها . . هو سيدنا إمام الدعوة والإرشاد ، مجدد الإسلام في القرن الثاني عشر الهجري ، العلامة الداعي إلى الله عبد الله بن علوي الحداد ، الحسيني ، المتوفىٰ بتريم سنة (١١٣٢هـ) .

لا نقول إن حضرموت عَدِمت العلماء أو الدعاة قبل هـٰذا الإمام ، ولـٰكنا نقول : إن نقلة نوعية حصلت بعد تربع هـٰذا السيد الجليل علىٰ منصة الدعوة ، وإرشاد العباد في وادي حضرموت ؛ إذ التفَّ حوله كوكبة نيرة من أهل القلوب الحية ، والنفوس المطمئنة ، وطفقوا يقرؤون في أمات الكتب عند شيخهم المذكور ، وراحوا ينقبون عن كنوز التراث ، وعيون المصنفات في شتى الفنون ، ولا يتسع المقام لبسط الكلام في هـٰذا الجانب .

وقد كان لكتاب « **مجمع الأحباب** » للعلامة الواسطي الحسيني . . شأن جليل عند الإمام الحداد ، وكذلك عند تلامذته .

ولوصول هـٰذا الكتاب إلىٰ حضرموت ، وشهرته وتداوله بين أهل العلم . . قصة لطيفة طريفة ، أوردها تلميذه المخلص الودود ، سيدي الإمام محمد بن زين بن سميط الحسيني (ت١١٧٢هـ) في مقدمة اختصاره له ـ الآتي ذكره لاحقاً ـ قال رحمه الله :

وكان التقاطي وجمعي لذلك من نسخة سيدنا الإمام عبد الله بن علوي الحداد باعلوي نفع الله به ، وليس الموجود في جهة حضرموت حال الكتابة[1] غير النسخة المذكورة .

ثم ذكر من عناية الإمام الحداد به : أنه لا يكاد يعيره أحداً دون سائر كتبه ، وكان يُقرأ

---

(١) وذلك سنة (١١٤٠هـ) .

عليه غالباً في شهر رمضان كلَّ سنةٍ ، وكان يُعْجَبُ به عند قراءته عليه كما رأينا ذلك ، وكانت النسخة التي صارت إليه في ثلاثة أسفار .

قصة وصول المجمع إلىٰ (تريم) :

قال الحبيب محمد بن زين بن سميط رحمه الله :

(وكان سبب صيرورة هـٰذه النسخة إليه : أن بعض السادة جاء بسِفْرٍ من ذلك من اليمن ، فعرضه علىٰ سيدنا أحمد بن زين الحبشي ، فأشار عليه أن يهديه لسيدنا الأكبر عبد الله بن علوي الحداد ، وأن ذلك يعجبه جداً ، ولو أعطاه ذلك . . لكان أعظم من الدنيا بحذافيرها ، فحصلت لذلك نية ، فأهداه ، فاغتبط به كما ذكرناه ، وبقي يسأل عن بقية الكتاب المذكور ، ويفحص عنه أشد الفحص ، ويوصي من سافر إلى اليمن أن يبحث عنه ، فسار من سبقت له السعادة من السادة إلىٰ صنعاء ، وعزم على التفتيش والفحص عن هـٰذا الكتاب ؛ لِما رأىٰ من سيدنا عبد الله وسؤاله وبحثه عنه ، وتعويله عليه ، فأتمّ الله له نيته بأن وجده ، فكملت تلك النسخة بعينها ـ تماماً ـ للسِّفر الذي سبق إليه هدية من قبل .

وكان سيدنا الإمام أحمد بن زين الحبشي يعد ذلك من كرامات سيدي ؛ حيث ظفر بالنسخة تلك بعينها) انتهىٰ كلام الإمام ابن سميط بتصرف[1] .

ومما تقدم من النصوص المنقولة عن بعض كبار علماء ومؤرخي ذلك الزمان . . يتضح لنا سبب ذلك الاهتمام بكتاب « المجمع » ، حتىٰ تداعىٰ ثلاثة من أجلة العلماء على اختصاره وتهذيبه ؛ لما رأوا فيه من أخبار صادقة ، وحكايات نافعة عن السلف الصالح .

وسوف نعرض في هـٰذه السطور لأبرز وأهم الأعمال الكتابية التي وضعت علىٰ كتاب « مجمع الأحباب » ، وهو جانب مضيء وهام من التاريخ العلمي لعلماء الحضارمة .

فأول وأجلّ من اهتم بكتاب « المجمع » من تلامذة الإمام الحدّاد : هو تلميذه وخليفته ، السيد الإمام الجليل أحمد بن زين الحبشي العلوي المتوفىٰ ببلدته المسماة (خلع راشد) ، والتي عرفت فيما بعد باسم : (حوطة أحمد بن زين) سنة (١١٤٤هـ) .

فهو الذي أشار على السيد محمد بن زين بن سميط ـ الآتي ذكره ـ أن يختصر الكتاب ، إبّان وجود السيد محمد بتريم في سنة (١١٤٠هـ) ، فامتثل أمره ، واغتنم إشارته ، وقام بذلك العمل المبرور .

---

(١) مقدمة « لب اللباب » لابن سميط (ص ٢ـ٣) (مخطوط) .

قال ابن سميط : (ولما جمعت ما جمعت . . عرضته جميعه علىٰ سيدي وقدوتي أحمد بن زين الحبشي ، فاستحسنه كثيراً ، وأمرّه جميعه علىٰ خاطره إلىٰ آخره ، وقرّره ، ونقل منه في « سفينته » نحو سبعين ورقة ، وذلك هو المأمول والمرغوب ، كما قال الشاعر المجيد :

يكون أجاجاً دونكم ، فإذا دنىٰ إليكم تلقّىٰ طيبكم فيطيب) اهـ[1]

فقوله : (إنه نقل في « سفينته » منه « ٧٠ » ورقة) . . دليل على اعتنائه به واهتمامه ، فلم يكن إرشاده ابن سميط أن يختصره مجرد إشارة ، ولـٰكن كأنه أراد أن يعينه في الاختصار ؛ لينقل عنه في « سفينته » العظيمة المشار إليها ، وكأنه لم يرد أن يخبر تلميذه ابن سميط بما نواه ، حتىٰ أتم عمله ذلك ، فلما أنجز المختصر . . أخذه منه ، ونقل عنه .

فلذا نلمس شدة فرح الإمام ابن سميط بما فعله شيخه معه ؛ إذ إنه نقل عنه ، فما أسعد التلميذ والمريد عندما يجد تشجيعاً من شيخه ، وحفزاً لهمته ، وتطييباً لخاطره ، ولا غرو ؛ فإن أولـٰئك الأئمة لم يصلوا إلىٰ ما وصلوا إليه . . إلا بمثل هـٰذه الأخلاق ، والنفسيات العالية ، والهمم الراقية رضي الله عنهم .

و« السفينة » المشار إليها : عبارة عن كشكول أو مجموع يجمع فيه العالم ما يقف عليه من شوارد المسائل ، وغرر الفوائد .

و« سفينة الإمام أحمد بن زين » هـٰذه تقع في (٢٠) مجلداً ، كما سمعنا من شيوخنا ، وكما ذُكِرَت في « مناقبه » لتلميذه ابن سميط ، وقد تفرقت عبر السنين المتطاولة ، إلا أن الحق سبحانه قيض بعض النابهين من أحفاد هـٰذا الإمام ، فجمع منها ما يقرب من (١٢) مجلداً[2] .

الثاني من المعتنين بـ« المجمع » : السيد العلامة المهاب ، الصادع بالحق طاهر بن محمد بن هاشم باعلوي[3] ، المولود بتريم ، والمتوفىٰ بها سنة (١١٦٣هـ) .

---

(١) « مختصر ابن سميط » (ص ٤) (مخطوط) .

(٢) وهو : أخونا السيد الفاضل ، المجد في طلب العلم والتفقه في الدين ، السيد عبد الرحمٰن بن طٰه بن عبد القادر بن سالم بن طٰه بن علي بن محمد بن أحمد بن جعفر بن أحمد بن زين الحبشي ـ وفقه الله تعالىٰ ـ معيد بكلية الشريعة بجامعة الأحقاف بتريم حضرموت .

(٣) ترجمته في « حاشية شمس الظهيرة » (٢/ ٥٨٧) ، و« الفرائد الجوهرية » للسيد عمر بن علوي الكاف (٣/ ٧٩٧) .

وصفه مترجموه بأنه : كان عالماً عاملاً ، ولياً فاضلاً ، ورعاً زاهداً ، من الدعاة إلى الله سراً وجهراً ، وكان ينصح الولاة والحكام ، ولا يخاف في الله لومة لائم ، وجرت له مع السلطان عمر بن جعفر الكثيري[1] مراسلات ومكاتبات ، تضمنت النصح له ، وتحذيره من عواقب الظلم الوخيمة . . . وانتهت ببعد المترجم عنه ، وهجره له لمَّا لم يستجب للنصح .

وقد أورد أحد أحفاده وهو السيد العلامة الأستاذ محمد بن هاشم ، المتوفىٰ سنة (١٣٨٧هـ) بعضاً من رسائله السياسية تلك في كتابه « تاريخ الدولة الكثيرية »[2] .

ووقفت علىٰ « منظومة » له في الفلك ، وهي دليل علىٰ تفننه وتوسعه في العلوم الشرعية والكونية .

اختصر العلامة الإمام طاهر بن هاشم « مجمع الأحباب » في كتاب سماه : « أسرع الوسائل والأسباب إلىٰ درك ترياق الألباب المنتقىٰ مما اشتمل عليه مجمع الأحباب » ، وهو في ستة أجزاء ، توجد منه نسخة بمكتبة جامع تريم ، برقم من (١٩٨٣) إلىٰ (١٩٨٨) كتبت سنة (١٢٥٩ هـ) .

منهج العلامة ابن هاشم في « مختصره » :

ذكر أنه اختصر « المجمع » إلىٰ نحو نصفه ، ولم يترك أحداً من المترجمين ، بل شملهم بالترجمة كلهم .

ثم قال : (ولما تقارب الزمان ، ودنا ظهور أشراط الساعة العظام . . عنّ لي أن أختم الكتاب بذكر أشراط الساعة ، وذكر الموت وأهواله ، وذكر الساعة وما بعدها . . .) إلخ .

ومصادره في الخاتمة هـٰذه :

ـ « الإشاعة لأشراط الساعة » للعلامة السيد محمد بن رسول البرزنجي ، وهو مطبوع[3] .

ـ « القول المختصر في علامات المهدي المنتظر » للإمام الشيخ ابن حجر الهيتمي (ت٩٧٤هـ) ، مطبوع .

---

(١) ينظر « تاريخ الدولة الكثيرية » للسيد محمد بن هاشم (ص/ ٩٦ـ١٠٥) .

(٢) (ص/ ١٠٤ـ١٠٥) .

(٣) وهو من منشورات دار المنهاج ، بتحقيق الأستاذ حسين محمد علي شكري .

ـ « إحياء علوم الدين » لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ) ، مطبوع مشهور .

ـ « شرح الصدور في شرح أحوال الموتىٰ والقبور » ، للإمام الحافظ جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) ، مطبوع .

وكتب أخرىٰ .

وتميز مختصر ابن هاشم بإيراده جزءاً من مقدمة الواسطي ، في حين أن ابن سميط والسقاف الآتي ذكرهما . . بدءا مباشرة بالتراجم ، دون ذكر أو اختصار للمقدمة .

وثالث المعتنين بـ« المجمع » : السيد الشريف ، القدوة الزاهد ، الصالح الحبيب علي بن عبد الله بن عبد الرحمٰن بن عقيل السقاف ، المولود بسيون سنة (١٠٩٢هـ) ، والمتوفىٰ بها سنة (١١٨١هـ) .

كان عالماً جليلاً ، صالحاً زاهداً ، صادعاً بالحق ، مرشداً للطريق القويم ، أُفردت سيرته بالتأليف من قبل سبطه العلامة الفقيه ، الإمام عمر بن سقاف السقاف ، المتوفىٰ سنة (١٢١٦هـ) .

وصف مختصر السقاف :

يقع مختصر الحبيب علي بن عبد الله في مجلدين ، واسمه : « لب اللباب المنتقىٰ من مجمع الأحباب » ، وهو في ثلث حجم الأصل .

توجد منه نسخة أَشهَرَها بالتصوير بعض ذريته ، وهو السيد حسن بن سالم بن حسن بن عبد القادر بن سقاف بن أحمد بن علي بن عبد الله السقاف ، كتبت هٰذه النسخة سنة :(١٢٦٠هـ) بقلم سعيد بن حميد بن عبد هود بن علي بن عمر بن سالم :

المجلد الأول : يقع في (٤٩٣) صفحة ، يبدأ من ترجمة سيدنا الصديق رضي الله عنه وينتهي بترجمة الثوري .

المجلد الثاني : يقع في (٦٠٧) صفحات ، يبدأ بترجمة الإمام الشافعي إلىٰ نهاية الكتاب .

وفي آخر الكتاب مقابلة في فاتحة جماد الآخرة (١٢٦٠هـ) .

قال الحبيب السقاف في مقدمة مختصره :

(. . . فاستخرت الله في التقاط أنموذج من جواهره النفيسة ، ودرره العسيسة ، ما راق

وشاق ، وفاق على الترياق ، فصار مختصراً وجيزاً في نحو ثلث أصله العزيز . . . وذكرت جميع من فيه إلا القليل ، وإلا العباد المجهولة أسماؤهم ، وسميته : « لب اللباب المنتقىٰ من مجمع الأحباب » اهـ[1]

وجاء في مناقبه المسماة : « موارد الألطاف ومحاسن الأوصاف » لسبطه العلامة القاضي عمر بن سقاف في (الباب الرابع) :

(وقرىء عليه كتاب « مجمع الأحباب » ، للشيخ محمد بن الحسن ، وهو كتاب جليل حافل ، في ثلاثة جلود ، في مناقب عباد الله الصالحين . . فاختصره ، وانتقىٰ منه غرره ، وجواهره ودرره ، في كتاب مجلد ضخم ، أو مجلدين لطيفين كنسخته الشريفة ، سماه : « لب اللباب المنتقىٰ من مجمع الأحباب » ، جمع الله له ما في تلك المجلدات في مجلد :

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

فكان كتاباً عظيماً ، جامعاً نافعاً ، لم يصنف مثله ، ولم يوجد شكله ، وتبين علىٰ أمثاله فضله ، فيتعين علىٰ طالب الآخرة تحصيله ونقله ، ويجعله جليسه ونعم الجليس ، ويكون أنيسه وحبذاك أنيس ، جمع مناقبهم وأقوالهم ، وأفعالهم وأحوالهم ، وكثيراً ما يجري علىٰ لسانه عند قراءته وقراءة غيره من المناقب : عند ذكر الصالحين . . تنزل الرحمة) اهـ[2]

ورابع المعتنين بـ « المجمع » : السيد الإمام ، الزاهد ، الداعي إلى الله محمد بن زين بن علوي بن سميط باعلويٰ الحسيني ، المولود بتريم سنة (١١٠٠هـ) ، والمتوفىٰ بشبام سنة (١١٧٢هـ) .

كان من خواص إمام الدعوة الحبيب عبد الله الحداد ، وصنف في ترجمته وأحواله وسيرته مصنفات عظيمة ، وله مؤلفات أخرىٰ ، أفرده بالترجمة بعض علماء شبام ، وهو الشيخ الصالح معروف بن محمد باجمال ، بكتاب سمّاه : « مجمع البحرين » في مجلد كبير ، مخطوط .

اختصر الإمام ابن سميط كتاب « مجمع الأحباب » ، وكنا قدمنا أول هـٰذه الكلمة بعضاً من مقدمته لمناسبته ثمة .

---

(١) مقدمة « لب اللباب » للسقاف (ص/ ١ـ٢) .

(٢) « موارد الألطاف » للإمام عمر بن سقاف (ص/ ١٠١) (مخطوط) .

وكان بدؤه في مختصره المسمىٰ « لب اللباب من مجمع الأحباب » بمدينة تريم سنة : (١١٤٠هـ) ، بعد أن أشار عليه شيخه الإمام أحمد بن زين الحبشي بذلك ، فاختصره من النسخة الفريدة ، التي كانت في حوزة شيخهما الإمام الحداد .

قال ابن سميط في مقدمة مختصره :

(وكان التقاطي لهـٰذا المختصر منه في نحو ربعه ، وذلك بحسب ما فهمت ، وما ألهمني سيدي وشيخي أحمد بن زين في الالتقاط ونبهني عليه ، جل ذلك فيما يتعلق بالسَّيْر والطريق التي مضت عليه السلف الصالحون ، والمناقب المنعشة للهمة ، المنبهة للقلوب الغافلة ، والمرققة للقلوب القاسية .

وحذفت ما كان فيه من القصص الطويلة المملة ، وكذا كلام المصنف في شيء من المقالات ، سيّما ما كان منه طويلاً .

وما نقلت منه إلا ما كان منشطاً ومنعشاً للهمّة في الاقتداء ، وما يحصل به التأثر للقلوب ، بحسب ما وجدت أنا من التأثر بذلك ، والله أعلم بوجوده لغيري ، ولعل الناس يختلفون ، و﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ . . .) إلخ[1] .

ثم قال : (وما زدت علىٰ ما ذكر صاحب « المجمع » إلا ما كان في ترجمة مولانا علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه ، وفاطمة والحسين ، وزين العابدين ، والباقر ، والصادق ، وموسى الكاظم ، وغيرهم من أهل البيت المعظم المطهر ، وتلك الزيادة بالخصوص من كتاب « الفصول المهمة » لابن الصباغ المالكي[2] رحمه الله) اهـ[3]

وصف مختصر ابن سميط :

وقفت علىٰ نسخة ـ لعلها وحيدة فريدة ـ من هـٰذا الكتاب ، تقع في (٤٠٢) صفحة من القطع المتوسط ، ناقصة من آخرها ، انتهت أثناء ترجمة سفيان الثوري ، وهو الجزء الأول ، ولم أجد أثراً للجزء الثاني .

---

(١) مقدمة « لب اللباب » (ص/ ٣ـ٤) (مخطوط) .

(٢) هو : علي بن محمد بن أحمد ، ابن الصباغ ، ولد بمكة سنة (٧٨٤هـ) ، وبها توفي سنة (٨٥٥هـ) ، فقيه مالكي ، أصله من (سفاقس) ، من شيوخ السخاوي . « الأعلام » (٨/٥) و« الضوء اللامع » (٢٨٣/٥) .

(٣) مقدمة « لب اللباب » (ص/ ٥) (مخطوط) .

وعلى النسخة تملكات لبعض حفدة المصنف : الحبيب حسن بن أحمد بن زين بن محمد بن زين بن سميط المتوفىٰ بشبام سنة (١٣٢٠هـ) ، ثم لابنه : الحبيب محمد بن حسن المتوفىٰ بشبام سنة (١٣٨٧هـ) ، ثم لابنه : الحبيب علي بن محمد المتوفىٰ بسيون سنة (١٤١٠هـ) .

وهي محفوظة لدىٰ أبناء الحبيب علي بن سميط بسيون ، ولعل هناك نسخة أخرىٰ بشبام لم أقف عليها بعد .

وقد ذكر الشيخ معروف بن محمد باجمال الشبامي[1] في « مجمع البحرين » هـٰذا الكتاب ضمن مؤلفات الإمام محمد بن زين ، عندما سردها فقال :

(ومنها : الكتاب العظيم القدر المسمّىٰ : « لب اللباب خلاصة مجمع الأحباب » . . في سير السلف ، ومحاسن طرائقهم ، ودرر ألفاظهم ، من سير الصحابة رضي الله عنهم وغيرهم من عباد الله الصالحين ، مما ينعش في طريق الآخرة ، ويرغب في المقامات الفاخرة ، وهو كتاب ضخم ، ينيف علىٰ أربعين كراسة) اهـ[2]

* * *

وبهـٰذا نكون قد أتينا علىٰ ذكر ما أردناه من التعريف بحال كتاب « مجمع الأحباب » ، وعناية السلف الصالح ـ من علماء حضرموت وصالحيها ، وكبار الدعاة إلى الله بها ـ بهـٰذا الكتاب المبارك .

وقد يسّر الله بفضله الحصول علىٰ نصوص نفيسة من كتب نادرة في التعريف بكل كتاب ، فلِلّٰه الحمد والمنة والشكر .

وأحب أن أذكر هنا أمرين :

الأول : تفاوت عمل كل واحد من هـٰؤلاء المختصرين فيما كتبه ، فابن هاشم اختصر إلى النصف ، والسقاف إلى الثلث ، وابن سميط إلى الربع ، وهـٰذا تناسب عجيب .

كما أن الإمام الحبشي انتقىٰ من مختصر ابن سميط (٧٠) ورقة في « سفينته » .

---

(١) هو الشيخ معروف بن محمد باجمال ، من أهل شبام ، توفي بها سنة (١٢٨٦هـ) ، له هـٰذا الكتاب وكتب أخرىٰ ، منها : « أربعون حديثاً في الفضائل » ، وله رسالة عن « أحوال أهل حضرموت » ، وكلها عندي بحمد الله ، وهو والد الشاعر الشبامي الشهير عبد الله بن معروف ، المتوفىٰ بشبام سنة (١٢٩٢هـ) .

(٢) « مجمع البحرين » (ورقة ٥٩/ب ـ ٦٠/أ) (مخطوط) .

الثاني : أن الحق سبحانه وتعالىٰ أعان ويسر لنا الكشف عن مختصر الإمام ابن سميط رحمه الله ، الذي كان مغموراً في بحار النسيان والإهمال ، ولم يكن معروفاً ولا مذكوراً إلا عند خاصة الخاصة .

ويسر المولىٰ بمنه وكرمه لنا أن نظهر الفرق بين مختصر السقاف ، ومختصر ابن سميط ، اللذين يحملان نفس الاسم ، وفي هـٰذا من الإشكال والإيهام ما لا يخفىٰ ، فالحمد لله علىٰ هـٰذا التوفيق .

وأخيراً : لعل السبب الرئيس في عقد هـٰذا الموضوع . . هو الإشارة إلىٰ أن الاهتمام الكبير من الإمام الحداد بهـٰذا الكتاب جعل هـٰذا الكتاب في دائرة الضوء ، حتىٰ حصلت هـٰذه الفرصة المباركة لطباعة هـٰذا الكتاب ، وإلا . . لربما كان قابعاً في رفوف المكتبات الخطية مع الكثير من كنوزنا التراثية العظيمة ، التي خلفها لنا الأجداد ، والتي تحتاج إلىٰ بحث وتنقيب ، والله المستعان ، ولا حول ولا قوة ولا بلاغ إلا بالله .

وأسال الله الكريم بمنه وكرمه . . أن يتقبل ما كتبناه ودوناه في هـٰذه السطور ، ويجعل ذلك في ميزان الحسنات ، والحمد لله رب العالمين أولاً وآخراً ، وصلى الله وسلم علىٰ خير خلقه ، سيدنا وحبيبنا ، وشفيعنا وقرة أعيننا رسول الله محمد بن عبد الله ، وعلىٰ آله وأصحابه والتابعين .

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

* * *

دراسة عن بعض الكتب
التي نهل المؤلف مادته منها

ـ « **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء** » لأبي نعيم الأصفهاني ـ رحمه الله ـ المتوفىٰ سنة (٤٣٠هـ) ، وقد تقدم الكلام عنه سابقاً .

ـ « **صفة الصفوة** » لابن الجوزي ـ رحمه الله ـ المتوفىٰ سنة (٥٩٧هـ) .

الهدف من تأليفه :

جاء كتاب ابن الجوزي هٰذا تلبية لمن شكا من طول كتاب « الحلية » وكثرة أسانيده ، وقد وضح ذلك بقوله في « الصفوة » (١/ ١٣) : (أما بعد : فإنك أيها الطالب الصادق ، والمريد المحقق ، لما نظرتَ في كتاب « حلية الأولياء » لأبي نُعيم الأصفهاني . . أعجبك ذكر الصالحين والأخيار ، ورأيته دواء لأدواء النفس ، إلا أنك شكوت من إطالته بالأحاديث المسندة التي لا تليق به ، وبكلام عن بعض المذكورين كثير ، قليل الفائدة ، وسألتني أن أختصره لك وأنتقي محاسنه ، فقد أعجبني منك أنك أصبت في نظرك ، إلا أنه لم يكشف لك كل الأمر ، وأنا أكشفه لك ، فأقول : اعلم : أن كتاب « الحلية » قد حوىٰ من الأحاديث والحكايات جملة حسنة ، إلا أنه تكدر بأشياء ، فالأشياء التي تكدر بها عشرة)[1] .

وبعد أن ذكرها . . قال : (وقد حداني ـ أيها المريد ـ في طلب أخبار الصالحين وأحوالهم : أن أجمع لك كتاباً يغنيك عنه ، ويحصل لك المقصود منه ، ويزيد عليه بذكر جماعة لم يذكرهم ، وأخبار لم ينقلها ، وجماعة ولدوا بعد وفاته ، وينقص عنه بترك جماعة قد ذكرهم لم ينقل عنهم كبير شيء ، وحكايات قد ذكرها ، فبعضها لا ينبغي التشاغل به ، وبعضها لا يليق بالكتاب) .

منهجه :

بيَّنَ أبو الفرج منهجه في كتابه فقال : فصل في بيان ترتيب كتابنا :

أنا أبتدىء بتوفيق الله ـ سبحانَه ـ ومعونتِه :

---

(١) الأشياء العشرة سيأتي ذكرها في مقدمة الكتاب .

فأذكر باباً في فضل الأولياء والصالحين ، ثم أردفه بذكر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وشرح أحواله وآدابه ، وما يتعلق به ، ثم أذكر المشتَهَرين من أصحابه بالعلم ، المقترن بالزهد والتعبد ، وآتي بهم علىٰ طبقاتهم في الفضل ، ثم أذكر المصطفيات من الصحابيات علىٰ ذلك القانون ، ثم أذكر التابعين ومَن بعدهم علىٰ طبقاتهم في بلدانهم .

وقد طفت الأرض بفكري شرقاً وغرباً ، واستخرجت كل من يصلح ذكره في هـٰذا الكتاب من جميع البقاع ، ورُبَّ بلدة عظيمة لم أر فيها من يصلح لكتابنا .

وقد حصرت أهل كل بلدة فيها وترتيبهم علىٰ طبقاتهم :

أبدأ بمن يُعرف اسمه من الرجال ، ثم أذكر بعد ذلك من لم يعرف اسمه ، فإذا انتهىٰ . . ذكرت عابدات ذلك البلد علىٰ ذلك القانون ، وربما كان في أهل البلد من عقلاء المجانين من يصلح ذكره من الرجال والنساء . . فأذكره .

وإنما ضبطت هـٰذا الترتيب تسهيلاً للطلب على الطالب .

ولما لم يكن بد من مركز يكون كنقطة للدائرة . . رأيت أن مركزنا ـ وهو بغداد ـ أَولىٰ من غيره ، إلا أنه لَمَّا لم يمكن تقديمها على المدينة ومكة لشرفهما . . بدأتُ بالمدينة ؛ لأنها دار الهجرة ، ثم ثنيت بمكة ، ثم ذكرت الطائف لقربها من مكة ، ثم اليمن ، وعدت إلىٰ مركزنا بغداد ، فذكرت المصطفين منها ، ثم انحدرت إلى المدائن ، ونزلت إلىٰ واسط ، ثم إلى البصرة ، ثم إلى الأُبُلَّة ، ثم عَبَّادان ، ثم تُستَر ، ثم شيراز ، ثم كرمان ، ثم أَرَّجان ، ثم سِجستان ، ثم دَيبُل ، ثم البحرين ، ثم اليمامة ، ثم الدِّينَور ، ثم همذان ، ثم قزوين ، ثم أصبَهان ، ثم الرَّي ، ثم دامغان ، ثم بِسطام ، ثم نَيسابور ، ثم طُوس ، ثم هَراة ، ثم مرو ، ثم بلْخ ، ثم تِرمذ ، ثم بُخارىٰ ، ثم فرغانة ، ثم نخشَب .

ثم ذكرت عُبَّاد المشرق المجهولين البلاد والأسماء .

فلما انتهىٰ ذكر أهل المشرق . . عدنا إلىٰ مركزنا ، وارتقينا منه إلى المغرب ، وقد ذكرنا أهل عَكْبرا ، ثم الموصل ، ثم البرقة ، ثم طبقات أهل الشام ، ثم المقدسيين ، ثم أهل جبلة ، ثم أهل العواصم والثغور ، ثم من لم يُعرَف بلده من عُبَّاد أهل الشام ، ثم عسقلان ، ثم مصر ، ثم الاسكندرية ، ثم المغرب ، ثم عُبَّاد الجبال ، ثم عباد الجزائر[1] ، ثم عُبَّاد السواحل ، ثم أهل البوادي والفلوات .

---

(١) أي : الجُزُر .

ثم من لم نعرف له مستقراً من العُبَّاد وإنما لُقي في طريق ، فمنهم من لُقي في طريق مكة ، ومنهم من لقي بعرفة ، ومنهم من لقي في الطواف ، ومنهم من لقي في غزاة ، ومنهم من لقي في طريق سفر أوطريق سياحة .

ثم ذكرت من لم يُعرَف له اسم ولا مكان من العُبَّاد .

ثم ذكرت طرفاً من أخبار بُنيَّات صغار تكلمن بكلام العابدات الكبار .

ثم ذكرت طرفاً من أخبار عُبَّاد الجِن ، فختمت بذلك الكتاب ، والله الموفق بجوده ولطفه .

ـ « **إحياء علوم الدين** » للإمام محمد بن محمد الغزالي ، المتوفىٰ سنة (٥٠٥هـ) .

إن كتاب « الإحياء » من أهم كتب طالِب الوصول إلى الله ؛ فهو المَعين العذب ، والبحر الرائق ، حوىٰ من الكنوز والدقائق ما يشتهيه كل إنسان . . فهو مورد كل ظمآن ، ومنهل كل عطشان ، وأنيس كل حيران .

وقد كتب حوله الكثير من العلماء ، أذكر من هـٰؤلاء علىٰ سبيل المثال لا الحصر : سيدي العلاَّمة عبد القادر بن شيخ بن عبد الله العيدروس رحمه الله تعالىٰ ، في رسالة سماها : « تعريف الأحياء بفضائل الإحياء » ، قال رحمه الله :

(اعلم : أن فضائل « الإحياء » لا تحصىٰ ، جمع الناس مناقبه فقصُروا وما قصَّروا ، وغاب عنهم أكثر مما أبصروا ، غاص مؤلفه رضي الله عنه في بحار الحقائق ، واستخرج جواهر المعاني ، ثم لم يرض إلا بكبارها ، وجال في بساتين العلوم فاجتنىٰ ثمارها بعد أن اقتطف من أزهارها ، وسما إلىٰ سماء المعاني فلم يصطفِ من كواكبها إلا السَّيارة ، وجُلِيت عليه عرائس أسرار المعاني فلم تَرُقْ في عينه منهن إلا بادية النضارة ، جمع رضي الله عنه فأوعىٰ ، وسعىٰ في إحياء علوم الدين فشكر الله له ذلك المسعىٰ .

فلله دره من عالم محقق مُجيد ، وإمام جامع لشتات الفضائل محرر فريد ، لقد أبدع فيما أودع كتابه من الفوائد الشوارد ، وقد أغرب فيما أعرب فيه من الأمثلة والشواهد ، وقد أجاد فيما أفاد فيه وأملىٰ ، بيد أنه في العلوم صاحب القدح المعلَّىٰ ؛ إذ كان رضي الله عنه من أسرار العلوم بمحل لا يدرك ، وأين مثله وأصلُه أصلُه ، وفضله فضله ؟!

هيهات لا يأتي الزمان بمثله ... إن الزمان بمثله لشحيح

وما عسيت أن أقول فيمن جمع أطراف المحاسن ، ونظم أشتات الفضائل ، وأخذ برقاب المحامد ، واستولىٰ علىٰ غايات المناقب . . .

ذكر الشيخ عبد الله بن أسعد اليافعي رحمه الله : أن الفقيه العلامة قطب اليمن إسماعيل بن محمد الحضرمي ، ثم اليمني ، سئل عن تصانيف الغزالي ، فقال من جملة جوابه : محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم سيد الأنبياء ، ومحمد بن إدريس الشافعي سيد الأئمة ، ومحمد بن محمد الغزالي سيد المصنفين) .

سبب تأليفه :

إنّ خير من يبين لنا ذلك . .المؤلِّف نفسه ؛ إذ إن أهل مكة أدرىٰ بشعابها ، فقد قال رحمه الله :

(فأما علم طريق الآخرة ، وما درج عليه السلف الصالح مما سماه الله سبحانه في كتابه : فقهاً وحكمة وعلماً وضياءً ونوراً وهداية ورشداً . . فقد أصبح من بين الخلق مطوياً ، وصار نسياً منسياً ، ولما كان هـٰذا ثَلْماً في الدين ملماً ، وخطباً مدلهماً . . رأيت الاشتغال بتحرير هـٰذا الكتاب مهماً ؛ إحياءً لعلوم الدين ، وكشفاً عن مناهج الأئمة المتقدمين ، وإيضاحاً للعلوم النافعة عند النبيين والسلف الصالحين) .

فكتابه هـٰذا جاء تلبية لحاجة ملحّةٍ ؛ فهو نور يستنير به مَن وقع في غياهب الظلام ، يكشف به كذب الكاذبين ، وزيف المدعين[1] .

مضمونه :

لكلِّ مؤلَّف من اسمه حظٌّ ونصيب ، ويختلف هـٰذا النصيب من مؤلَّف لآخر ، لكنَّ مضمون « إحياء علوم الدين » جاء مطابقاً لعنوانه ؛ فحوىٰ علوم الدِّين[2] كلِّها ؛ من فقه ، وحديث ، وأخلاق .

---

(١) كتب كل إمام في عصره وزمنه ، فياليت شعري ؛ من لعصرنا وزمننا ؟! واليومَ رِدَّةٌ ولا أبا بكر لها ، فلنا الله .

(٢) نذكر في هـٰذا المقام كلمة الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر في وقته حين قال :

(إذا ذكرت أسماء العلماء . . اتجه الفكر إلىٰ ما امتازوا به من فروع العلم ، وشعب المعرفة ، فإذا ذكر ابن سينا أو الفارابي . . خطر بالبال فيلسوفان عظيمان من فلاسفة الإسلام ، وإذا ذكر البخاري ومسلم وأحمد . . خطر بالبال رجالٌ لهم أقدارهم في الحفظ ، والصدق ، والأمانة ، والدقة ، ومعرفة الرجال . . .

أما إذا ذكر الغزالي . . فقد تشعبت النواحي ، ولم يخطر بالبال رجل واحد ، بل خطر بالبال رجال متعددون ، =

وقد أوجز مؤلفه رحمه الله مضمون الكتاب بقوله : (وقد أسسته علىٰ أربعة أرباع ، وهي : ربع العبادات ، وربع العادات ، وربع المهلكات ، وربع المنجيات ، وصدّرت الجملة بكتاب العلم ؛ لأنه غاية المهم ؛ لأكشف أولاً عن العلم الذي تعبَّد اللهُ علىٰ لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم الأعيانَ بطلبه . . وأُميِّز فيه العلم النافع من الضار . . . وأحقق ميل أهل العصر عن شاكلة الصواب) .

ـ « **لوامع أنوار القلوب في جوامع أسرار المحب والمحبوب** » لعزيزي بن عبد الملك بن منصور الجيلي الشافعي ، المتوفىٰ سنة (٤٩٤هـ) .

موضوعه :

وهـٰذا الكتاب كما قال مؤلفه : أبواب مشتملة علىٰ صفات المحبة والمحبين ، موشحة ببعض حكايات الأوائل منهم والمتأخرين :

أولها : باب في أحوال المحبين ، وصفات أسرار ضمائر المُتَيَّمين .

ثانيها : باب في فصول المحبة ومعانيها ، وأقوال المحققين واختلافهم فيها .

وثالثها : باب في ذكر الأخبار ، في أحوال المحبين حال الاختيار والاضطرار .

ورابعها : باب في معنى المحبة عند الأصوليين ، وحدودها علىٰ ألسنة المحققين .

وخامسها : باب في اشتقاق المحبة عند العرب العرباء ، وعلىٰ أصول اللغويين والأدباء .

وسادسها : باب في أسامي المحبة وصفاتها ، واختلاف أصحابها في طبقاتها .

وسابعها : باب في حقيقة المحبة عند الواجدين ، بعبارات العاملين المدققين .

وثامنها : باب في شروط المحبة وأركانها ، وأدلتها من كتاب الله وبرهانها .

وتاسعها : باب في اختلاف المحبة وأساسها ، وبيان أزمانها في سائر أجناسها .

= لكل واحد قدرته وقيمته . . . يخطر بالبال الغزالي الأصولي الحاذق الماهر ، والغزالي الفقيه الحر ، والغزالي المتكلم ، إمام السنة وحامي حماها ، والغزالي الاجتماعي الخبير بأحوال العالم وخفيات الضمائر ومكونات القلوب ، والغزالي الفيلسوف ، أو الذي ناهض الفلسفة وكشف عما فيها ، إنه يخطر بالبالِ رجلٌ هو دائرة معارف عصره ، رجل متعطش إلىٰ معرفة كل شيء ، نهم إلىٰ فروع المعرفة) .

وعاشرها : باب في الاعتذار إلىٰ ذوي الألباب ، من التقصير الواقع من تصنيف هـٰذا الكتاب .

ثم فصَّلت كل باب ، علىٰ فصول من منازل الألباب ، على اختلاف أحوال الأحباب ، وسميتها : « لوامع أنوار القلوب في جوامع أسرار المحب والمحبوب » ، وتجنبت ذكر أشعار وحكايات ، أودعتها في كتابي الموسوم بـ« سلوة العشاق وروضة المشتاق » .

وهـٰذا الكتاب ما زال مخطوطاً لم يطبع .

ـ « **الرسالة القشيرية** » للإمام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري ـ رحمه الله ـ المتوفىٰ سنة (٤٦٥هـ) .

سبب تأليفه :

يعد كتاب « الرسالة القشيرية » من أهم الكتب في ميدان طلاَّب الحقائق ، والسبب في ذلك : الإخلاص الكبير الذي امتاز به مؤلفه رحمه الله .

والكتاب هـٰذا وضعه مؤلفه لغرض نبيل، وهدف سام شريف ، وهو أنه رأىٰ أن المحققين من هـٰذه الطائفة ـ أهل الحقيقة ـ قد انقرض أكثرهم ، ولم يبق في زمانه ذاك إلا أَنَرهم ، كما قيل :

أمـا الخيـام فـإنهـا كخيـامهـم وأرىٰ نسـاء الحـي غيـرَ نسـائهـا

فلذلك وضع كتابه هـٰذا ، مبيناً زيف الزائفين ، وكذب المدعين ، فوضع الموازين الدقيقة التي يُعرَف بها الصوفي من غيره من الدجالين ، وكان ذلك سنة (٤٣٧ هـ) .

منهجه :

وأما عن منهجه في هـٰذا الكتاب . . فهو على النحو التالي :

ـ ذكر معتقدات هـٰذه الفرقة من الأكابر .

ـ ذكر وترجم لثلاثة وثمانين عَلَماً من مشايخ هـٰذه الطريقة .

ـ ذكر باباً في ذكر ألفاظ تدور بين هـٰذه الطائفة ؛ كالحال والمقام والوقت وما إلىٰ ذلك .

ـ ذكر أبواباً في شرح المقامات التي هي مدارج أرباب السلوك .

ـ ثم ذكر بعدها أبواباً في تفصيل الأحوال ، بدأ هـٰذه الأبواب بباب التوبة ، وختمها بباب الوصية للمريدين .

وهـٰذا الباب الذي ختم فيه المؤلِّف كتابه هام جداً لكل عالم وطالب علم ، يتضمن فصولاً مفيدة : ذكر فيها ما يجب على الطالب من الأدب في حضرة شيخه ، مع عدم اعتقاده العصمة فيه ، وكذلك ذكر فصلاً أمر فيه بالابتعاد عن صحبة الأحداث ، وعد هـٰذا من أكبر الآفات .

ـ ثم ختم هـٰذه الفصول بنصيحة للمريد بالابتعاد عن أبناء الدنيا .

جعلنا الله وإياه وكل من قرأ في هـٰذا الكتاب من أبناء الآخرة ، آمين .

ـ « **تهذيب الأسماء واللغات** » للإمام محيي الدين يحيى بن شرف النواوي ـ رحمه الله ـ المتوفىٰ سنة (٦٧٦هـ) .

إن كتاب « تهذيب الأسماء واللغات » من أهم مراجع الفقيه والمتفقه ؛ لأنه شرح فيه الألفاظ التي تعتري الطالب في درسه ، والمدرس في مجلسه ، بل ليست فائدته قاصرة على الكتب الفقهية ؛ إذ لغوياته تحتوي عليها كتب الفقه والحديث وغيرها ، فهو معجم لغوي ، وشرح جملي للألفاظ الغريبة في الكتب .

والكلام علىٰ هـٰذا الكتاب يطول ، بيد أنا نقتصر في الحديث عنه على النواحي التالية :

سبب تأليفه :

أوضحه الإمام بقوله : (أما بعد : فإن لغة العرب لما كانت بالمحل الأعلىٰ ، والمقام الأسنىٰ ، وبها يعرف كتاب رب العالمين ، وسُنَّة خير الأولين والآخِرين . . أردت أن أسلك بعض طرق أهلها ؛ لعلِّي أن أنال بعض فضلها ، وأُؤَدي بعض ما ذكرته من فروض الكفاية ، وأساعد في معرفة اللغة من له رغبة من أهل العناية) .

مضمونه :

جمع الإمام النووي رحمه الله تعالىٰ في كتابه هـٰذا الألفاظ الموجودة في بعض كتب الشافعية وهي : « مختصر المزني » و« المهذب » و« التنبيه » و« الوسيط » و« الوجيز » و« الروضة » .

وضم إليها جملاً ممَّا يحتاج إليه ، ممَّا ليس فيها ؛ ليعم الانتفاع به اللغاتَ العربية والعجمية والمعربة ، والاصطلاحات الشرعية والألفاظ الفقهية .

ثم جمع إلى اللغات ما في هـٰذه الكتب من أسماء الرجال والنساء والملائكة وغيرهم ، ممن لهم ذكر في هـٰذه الكتب ، مسلماً كان أو كافراً ، برّاً أو فاجراً .

منهجه :

قسم الإمام النووي رحمه الله تعالىٰ كتابه هـٰذا إلىٰ قسمين :

ـ **الأسماء** : وقسم هـٰذا القسم إلىٰ ضربين : **الضرب الأول** : الذكور ، **والضرب الثاني** : الإناث .

فبدأ تراجمه بترجمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم الإمام محمد بن إدريس الشافعي صاحب المذهب الذي يترجم لرجاله ، ثم المحمدِّين بعد ذلك ، ثم يأخذ في الترتيب حسب حروف المعجم من الهمزة إلى الياء .

ـ **اللغات** : رتبها علىٰ حروف المعجم دون نظر إلى الزوائد ، وربما ذكر بعض الزوائد في باب علىٰ لفظه .

والكتاب مع نفعه هـٰذا ورواجه ذاك . . لم يُكتب للنووي إتمامه ، بل ما عندنا منه جملة ورقات قبل إتمامه ، كما أفاد ذلك ابن العطار والذهبي[1] .

ـ « **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية** » لشهاب الدين عبد الرحمـٰن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي ، المعروف بأبي شامة ، المتوفىٰ سنة (٦٦٥هـ) .

إن كتاب « الروضتين » كتاب تاريخ وسِيَر ، ولـٰكنه ليس ككتب التاريخ والسير ، والسبب في ذلك : أن مؤلفه يجسد لك الأحداث وكأنك تراها ، ويصف لك ذلك فكأنك حاضر ومشاهد .

واستشهد لذلك بقوله : (كان عبد الله بن المبارك يكثر الجلوس في بيته ، فقيل لـه : ألا تستوحش ؟ قال : كيف أستوحش وأنا مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ؟!) .

سبب تأليفه :

سيأتي ذكره عند الكلام علىٰ تلك الدولتين ، عند ترجمة نور الدين الشهيد رحمه الله .

موضوعه :

ذكر جميع ما حصل في عهد السلطانين العادلين نور الدين وصلاح الدين ، وهـٰذا جليٌّ وواضح من العنوان .

---

(١) انظر « الإمام النووي وأثره في الحديث وعلومه » للدكتور أحمد عبد العزيز الحداد .

منهجه :

ـ بدأ المؤلف ـ رحمه الله ـ كتابه بترجمة للسلطان نور الدين ، وذِكْرِ شيء من أخباره وشجاعته ، وزهده وعدله .

ـ ثم بذكر أخبار دولته ، مرتبة علىٰ حوادث السنين .

ـ ثم بذكر ترجمة للسلطان صلاح الدين ـ رضي الله عنه ـ ودولته ، مرتباً ذلك على السنوات أيضاً .

الغاية من تأليفه :

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ :

(ومر بي فيه[1] من الملوك المتأخرين : ترجمةُ الملك العادل نور الدين ؛ فأطربني ما رأيتُ من آثاره ، وسمعت من أخباره ، مع تأخُّر زمانه ، وتغيّر خِلاَّنه .

ثم وقفتُ بعد ذلك في غير هـٰذا الكتاب علىٰ سيرة سَيِّد الملوك بعده ، الملكِ الناصر صلاح الدين ، فوجدتُهما في المتأخّرين كالعُمَرَيْن ـ رضي الله عنهما ـ في المتقدِّمين ؛ فإنَّ كل ثانٍ من الفريقين حذا حَذْوَ من تَقدَّمه في العَدْل والجهاد ، واجتهد في إعزاز دين الله أيّ اجتهاد ، وهما مَلِكا بلدتنا ، وسُلْطانا خُطَّتنا ، خَصَّنا الله تعالىٰ بهما ، فوجَبَ علينا القيامُ بذكر فَضْلِهما ، فعزمتُ علىٰ إفراد ذكر دولتيهما بتصنيف ، يتضمن التقريظ لهما والتعريف ؛ فلعلَّه يقف عليه من الملوك مَنْ يسلك في ولايته ذلك السلوك ، فلا أُبعِد أنهما حُجَّةٌ من الله على الملوك المتأخرين ، وذكرىٰ منه سبحانه ؛ فإنَّ الذكرىٰ تنفع المؤمنين ؛ فإنهم قد يستبعدون من أنفسهم طريقة الخلفاء الراشدين ، ومن حذا حَذْوَهُمْ من الأئمة السَّابقين ، ويقولون : نحن في الزمن الأخير ، وما لأولـٰئك من نظير ، فكان فيما قَدَّر الله سبحانه من سيرة هـٰذين المَلِكين إلزام الحُجَّة عليهم بمن هو في عصرهم ، من بعض ملوك دهرهم ، فلن يَعْجِزَ عن التشبُّه بهما أحد ، إنْ وفَّقَ الله تعالى الكريمُ وسدَّد) .

* * *

(١) الضمير عائد في كلمة (فيه) إلىٰ كتاب « تاريخ دمشق » لابن عساكر .

وَصْفُ النُّسَخِ الخَطِّيَّةِ

اعتمدنا في إخراج هـٰذا الكتاب علىٰ عدة مخطوطات ، نذكر فيما يلي وصفاً عنها :

ـ **النسخة الكاملة والمعتمدة أصلاً : نسخة معهد إحياء المخطوطات العربية ، مصورة من حيدر آباد** برقم (٣٩٢٥) ، بعنوان : « مجمع الأحباب وتذكرة الألباب » .

تقع في مجلد واحد ، وعليها تملكات لم نتبيّنها .

عدد أوراقها (٧١١) ورقة ، وسطورها حوالي (٣١) سطراً ، وعدد كلمات السطر الواحد (١٨) كلمة .

خطها نسخي معتاد ، متأثرة بالرطوبة والحموضة ، علىٰ هامشها بعض التعليقات .

كان الفراغ من نسخها (٧) رجب سنة (١٠٩٩ هـ) .

* * *

بعد ذلك انقسمت المخطوطات إلىٰ قسمين :

الأول : من أول الكتاب إلىٰ أول ترجمة الإمام الشافعي رضي الله عنه .

والثاني : من أول ترجمة الإمام الشافعي رضي الله عنه إلىٰ آخر الكتاب .

أما نسخ القسم الأول . . فهي :

ـ **نسخة معهد إحياء المخطوطات العربية ، مصورة من بلغاريا ، وهي المعتمدة أصلاً في هـٰذا القسم** ، بعنوان : « مجمع الأحباب وتذكرة أولي الألباب » .

تقع في مجلد واحد ، وعليها تملُّك لم نستطع الوقوف عليه .

عدد صفحاتها (٥٣٢) ، وسطورها (٢٣) سطراً ، يتراوح عدد كلمات السطر ما بين (١٦ـ١٨) كلمة .

خطها نسخي جميل مشكَّل ، كُتبت أسماء المترجَمين بخط مغاير ، وعليها تعليقات .

كان الفراغ من نسخها مستهل شوال سنة (٧٦٥ هـ) بدمشق المحروسة .

تبدأ هـٰذه النسخة بأول الكتاب ، وتنتهي عند أول ترجمة الإمام الشافعي رضي الله عنه .

ـ **نسخة المكتبة السليمانية بإستنبول برقم (٢٨١)** ، بعنوان : « مجمع الأحباب وتذكرة أولي الألباب » .

تقع في مجلد واحد ، وعليها تملُّك باسم حسن الطوافي الكتبي .

عدد أوراقها (٣١٢) ورقة ، وسطورها (٢٧) سطراً ، وعدد كلمات السطر الواحد (١٧) كلمة .

وفي أولها فهرس لتراجم الكتاب ، وهـٰذه النسخة من كتب الشيخ علي الدقاق .

خطها نسخي معتاد ، لم نستطع الوقوف علىٰ تاريخ نسخها .

تبدأ هـٰذه النسخة بأول الكتاب ، وتنتهي عند أول ترجمة الإمام الشافعي رضي الله عنه .

ـ **نسخة مكتبة بايزيد عمومي بإستنبول برقم (٧٥٨) ، وهي للاستئناس فقط لكثرة التحريف والتصحيف الذي شابها** ، بعنوان : « مجمع الأحباب وتذكرة أولي الألباب » .

تقع في مجلد واحد .

عدد أوراقها (١٧٠) ورقة ، وسطورها (٢٥) سطراً ، وعدد كلمات السطر (١٠) كلمات تقريباً .

خطها نسخي مستعجل ، كتبت أسماء المتَرجَمين بخط مغاير وثخين .

كان الفراغ من نسخها (١١٧٦ هـ) .

تبدأ هـٰذه النسخة بأول الكتاب ، وتنتهي عند ترجمة المرأة الدينارية .

وأما نسخ القسم الثاني . . فهي :

ـ **نسخة مكتبة دار الكتب القومية بمصر برقم (١٢٤٥ تاريخ)** ، بعنوان : « مجمع الأخبار في مناقب الأخيار » .

وهي من أنفس النسخ ، والمعتمدة أصلاً في هـٰذا القسم ؛ لأنها منقولة عن نسخة بخط المصنف .

تقع في مجلد واحد .

عدد أوراقها (٤١٢) ورقة ، وعدد سطورها (٢٥) سطراً ، وعدد كلمات السطر (١٧) كلمة تقريباً :

خطها نسخي جميل ، وكُتِب اسم المترجَم بخط مغاير .

كان الفراغ من نسخها يوم السبت (١١) ربيع الآخر سنة (٧٦٩ هـ) .

تبدأ بترجمة الإمام الشافعي ، وتنتهي بانتهاء الكتاب .

ـ **نسخة المكتبة الأحمدية بحلب** ، وُسِمَت بعنوان : « كتاب تراجم أعيان الصوفية الأصفياء ومشاهير رجال كتاب حلية الأولياء » .

تقع في مجلد واحد ، وهي من تملك السيد محمد بن علي بن محمد عفا الله عنه .

عدد أوراقها (٣١٢) ورقة ، وسطورها (٢٧) سطراً ، ومتوسط عدد كلمات السطر الواحد (١٧) كلمة .

خطها تقليدي مستعجل ، وفي أولها فهرس لتراجم الكتاب .

يعود تاريخ نسخها ليوم الأحد (١١) ربيع الآخر سنة (٧٧٠ هـ) ، علىٰ يد كاتبها محمد بن عثمان السلمي .

تبدأ هـٰذه النسخة بترجمة الإمام الشافعي رضي الله عنه ، وتنتهي مع انتهاء الكتاب .

ـ **نسخة مكتبة نور عثمانية بإستنبول برقم (١٢٠٤)** ، بعنوان : « مجمع الأحباب وتذكرة أولي الألباب » .

تقع في مجلد واحد ، وعليها تملك باسم لطيف بن إبراهيم حنيف .

عدد أوراقها (٢٦٢) ورقة ، وسطورها (٢٧) سطراً ، وعدد كلمات السطر (١٦) كلمة .

خطي نسخي جيد ، وكتبت أسماء المترجَمين ورؤوس الفِقَر بخط مفرَّغ ولون مغاير .

كان الفراغ من نسخها يوم الثلاثاء (١٨) ربيع الأول (٨٤٣ هـ) ، علىٰ يد محمد بن أحمد بن عثمان بن عبد الله بن سليمان بن محمد التكروري نسباً المالكي مذهباً .

تبدأ هـٰذه النسخة بترجمة الإمام البخاري ، وتنتهي بانتهاء الكتاب .

ـ نسخة مكتبة أحمد الثالث بإستنبول ، وهي نسخة أيضاً للاستئناس ؛ لما أصابها من التقديم والتأخير ، بعنوان : « مجمع الأحباب وتذكرة أولي الألباب » .

تقع في مجلد واحد .

عدد أوراقها (٢٦٧) ورقة ، وعدد سطورها (٢١) سطراً ، وعدد كلمات السطر (١٤) كلمة تقريباً .

خطها معتاد ، كتبت أسماء المترجَم لهم بخط كبير ولون مغاير .

لم نتبين تاريخ واسم ناسخها .

تبدأ بترجمة الإمام الشافعي ، وتنتهي بانتهاء الكتاب .

* * *

كتاب : « أسرع الوسائل والأسباب إلىٰ درك ترياق الألباب ، المنتقىٰ مما اشتمل عليه مجمع الأحباب »

وهي نسخة منقولة عن نسخة المؤلف .

تقع هـٰذه النسخة في (٧) مجلدات .

عـدد أوراق المجلـدات : (١/١٨٨) ، (٢/٢١٠) ، (٣/١٩٤) ، (٤/٢٠٩) ، (٥/١٩٥) ، (٦/٢٠٨) ، (٧/١٦٦) .

وعدد سطور المجلدات (١٨) سطراً ، وعدد كلمات السطر (٧) كلمات تقريباً .

خطها نسخي جميل .

أوقفها السيد حسين بن عبد الرحمـٰن بن سهل علىٰ طلاب العلم بتريم حضرموت ونواحيها إلىٰ مسيلة آل شيخ سنة (١٢٧٥ هـ) .

فرغ المؤلف من تأليفها وجمعها وكتابتها لنفسه يوم الأحد (١٥) ربيع الأول سنة (١١٦٠ هـ) وهي بخط عبد الرحيم بن عبد الله بن عمر باعبده .

وكان الفراغ من كتابة هـٰذه النسخة الأربعاء (١٩) ربيع الأول (١٢٥٩ هـ) ، وهـٰذا الكتاب ما زال مخطوطاً لم يطبع .

* * *

منهج العمل في الكتاب

ـ بعد نسخ النسخة المعتمدة أصلاً (نسخة حيدرآباد) . . قابلنا عليها النسخ الأُخرىٰ .

فما كان بين النسخ أدنىٰ خلاف . . أُثبِتَ ما في الأصل ، إلا أن يكون خطأً ظاهراً أو زيادات ليست في الأصل . . فأثبت ما في النسخ الأخرىٰ ، وإن كان يحمل معنىً آخر . . ذكرنا ذلك بالهامش وميزناه بـ : (جاء في نسخة) .

ـ ضبطنا النص ضبطاً ـ نسأله تعالىٰ أن يكون كما أراده المؤلف ـ وذلك بمعارضة الكتاب علىٰ معظم المصادر التي نهل منها المؤلف مادته ؛ كـ« حلية الأولياء » و« صفة الصفوة » ، و« تهذيب الأسماء واللغات » . . . وهٰكذا .

ـ خرجنا الآيات القرآنية .

ـ خرجنا الأحاديث النبوية .

ـ أضفنا ما كان مناسباً من العبارة ليستقيم المعنىٰ ، وميزناه بـ[] .

ـ وضحنا ما كان مبهماً بالشرح والتبيان .

ـ قمنا بإعداد كلمة عن فن الترجمة تأريخاً .

ـ ترجمنا للمؤلف ترجمة تناسب المقام .

ـ أثبتنا دراسة خاطفة عن عصر المؤلف والقيمة العلمية لكتابه .

ـ تحدثنا عن أهم المراجع التي استقى منها المؤلف مجمعه .

ـ أوردنا كلمة عن عناية علماء حضرموت بـ « مجمع الأحباب » .

ـ فهرسنا للكتاب تفصيلاً للوصول إلى غرر أبحاثه .

وكتبه

محمد ابراهيم الخضر　　محمد زكريا قاسم المقداد

عبدالله عبدالسلام حميدان

خَاتِمَة

بقلم
محمد غسان نصوح عزقول الحُسيني
المشرف على مكتب الدراسات والبحث العلمي بدار المنهاج

ومع الانتهاء من العمل الشاق الذي دام قرابة خمسة عشر شهراً في خدمة هـٰذا الكتاب المبارك . . لا بد لي من التوقُّف علىٰ محطتين :

الأولىٰ : انطلاقاً من قوله صلى الله عليه وسلم : « من لم يشكر الناس . . لم يشكر الله » أتوجه بالشكر والامتنان والمحبة والعرفان إلىٰ كل الذين ساهموا في إنجاح هـٰذا العمل ، بدءاً من إحضار النسخ الخطية ، مروراً بمرحلة النسخ ، فالمقابلة ، فالتصحيح ، فالتحقيق ، فالمراجعة والتقديم للكتاب .

وأخص بالذكر أعضاء اللجنة العلمية لمكتب الدراسات والبحث العلمي بدار المنهاج الذين ساعدوا في هذا العمل ، وأخص منهم الإخوة : داوود بخاري وصلاح الدين الحمصي ومحمد نور كنجو وموفق الشيخ ومحمد سعيد الأيوبي ومصطفى جاسم وياسر الشولي وأحمد المحمد وأحمد محمد بركات .

إليهم جميعاً أقول : جزاكم الله عنا كل خير .

وأما المحطة الثانية : فَتَحْتَ أضواء وفيوضات هـٰذا الكتاب أقول :

مسكين ابن آدم ! !

خلقه الله فأحسن خلقه ، وأنعم عليه نعماً كثيرة لا تعد ولا تحصىٰ ، وأمده بالعافية ، ثم خيَّره بين رتبتين : إما أن يكون أشرف وأفضل من الملائكة ، وإما أن يكون أدنىٰ من الحيوانات .

وتبيان ذلك : أن الله سبحانه وتعالىٰ حينما خلق الإنسان جعله مؤلَّفاً من قسمين :

ـ **قسم أرضي** ، قِوامه على الطعام والشراب والنكاح . . .

ـ **وقسم سماوي** ، قِوامه علىٰ تغذية الروح .

وبعد ذلك رسم الله للإنسان طريقاً واضحاً ، ومنهجاً بيناً ، وكفل له إن سار عليه . . أن يجعله في رتبة فوق رتبة الملائكة ، وباهاهم به ؛ لأن فيه من الغرائز والشهوات ما يمنعه من العبادة ومع ذلك عَبَدَ اللهَ ، وخالف نفسه وهواه ، بينما الملائكة عبادتها جِبلِّيَّة ، فطعامها الاستغفار ، وشرابها التسبيح .

ولا بد هنا من وقفة متأمِّلة عابرة ، أذكر فيها ما يحتاجه كل إنسان، وما يبحث عنه كل مخلوق.

إن كل واحد منَّا يبحث عن السعادة وعن الحياة الهنية الرخية ، فأين تكمن هـٰذه السعادة ؟ وأين يمكن أن يلاقيها الإنسان ؟

قال تعالىٰ : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .

فالإنسان الذي يعمل في طاعة الله . . حيٌّ طيب .

بينما الإنسان المعرض عن الله ـ والعياذ بالله ـ تراه مهموماً ، مغموماً ، يبحث عن السعادة فلا يلاقيها .

مسكين!! غاب عنه أن الله تعالىٰ يقول : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ .

فيا أخي المؤمن ؛ إذا أردت أن تحيا الحياة الطيبة . . ما عليك إلا أن تقرأ هـٰذا الكتاب ، وتأخذ من ترياقه ما يوهي دار البعد ، وتنهل من معينه حتى تفثأ غلّة الصد ؛ لأن فيه ماء الحياة التي يسعىٰ لها كل موفَّق .

ولا سيما أن ماء الحياة الذي فيه نابع من فيوضات الله علىٰ أولـٰئك الموفقين ، نابع من فيوضات الله الذي خلقهم وهو يعلم خفيات قلوبهم ، ووسوسات صدورهم .

فيا رب ، يا من مننت علينا بكل هـٰذه النعم ، يا من يعلم ما في نفوسنا ، يا خالق

الإنسان ، يا مدبر الأكوان ، يا من يعلم أنين النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء ؛ **اجعل هـٰذا الكتاب سبباً لجمع الأحباب ، وتذكرةً لأولي الألباب** .

الطف بالمسلمين أجمعين ، وألف بين قلوبهم ، ولا تُرِنا في الإسلام سيفين مختلفين ، واهْدِ شباب المسلمين ، واستر أعراضهم .

ولا تسلبنا الإيمان عند النزع ، ولا تعاملنا بعملنا ، واجعلنا من عبادك المؤمنين ، وأرنا قدرتك علىٰ أعدائك يا رب العالمين .

آمين آمين آمين ، والحمد لله رب العالمين

* * *

صُوَرُ المَخْطُوطَاتِ المُسْتَعَانِ بِهَا

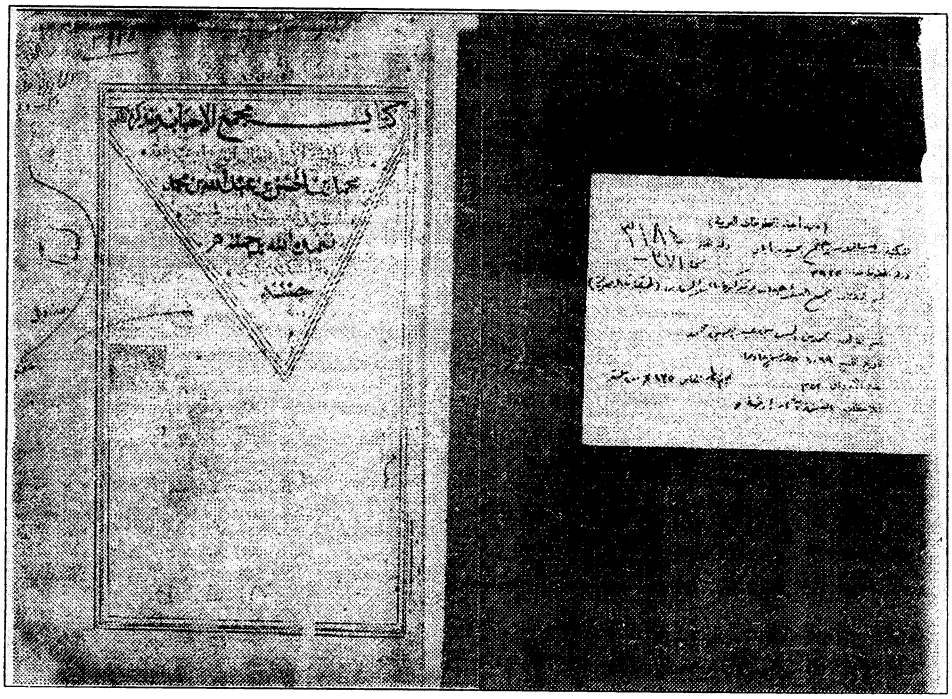

راموز ورقة العنوان للنسخة رقم (١)

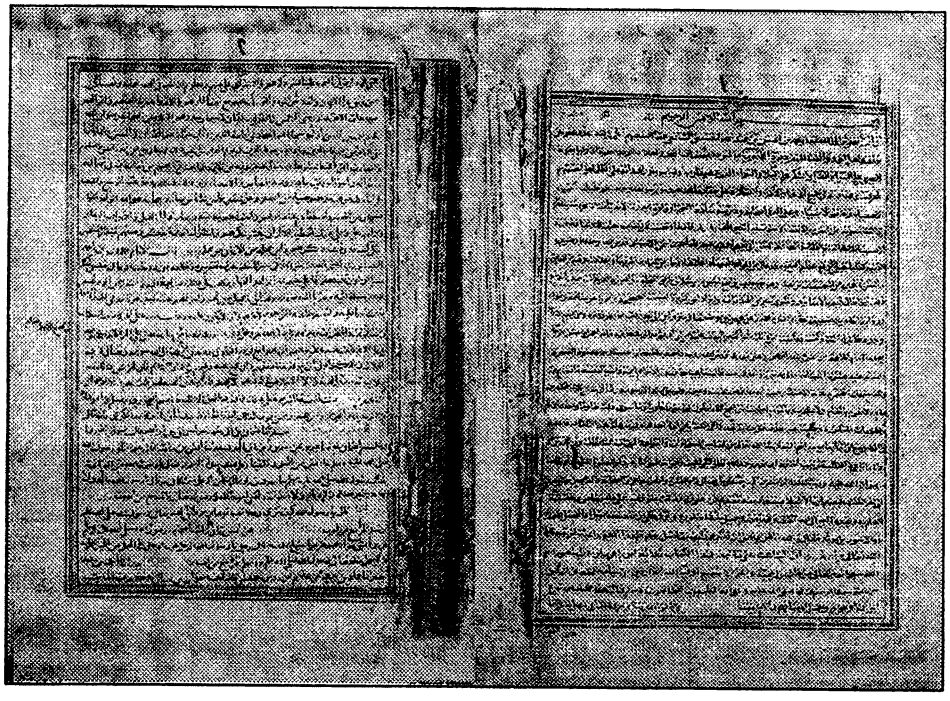

راموز الورقة الأولىٰ للنسخة رقم (١)

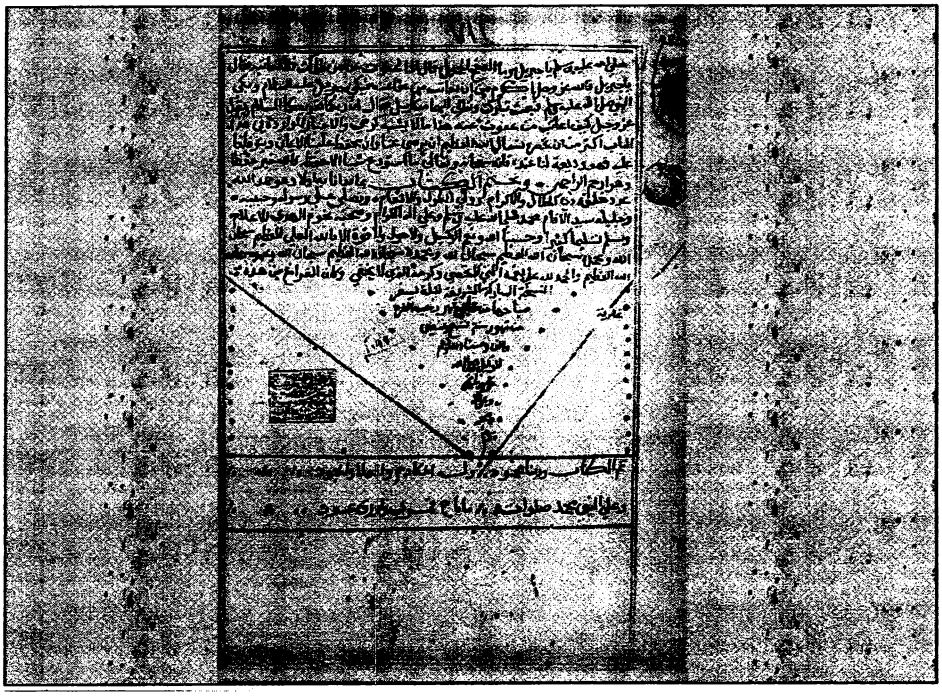

راموز ورقة الأخيرة للنسخة رقم (١)

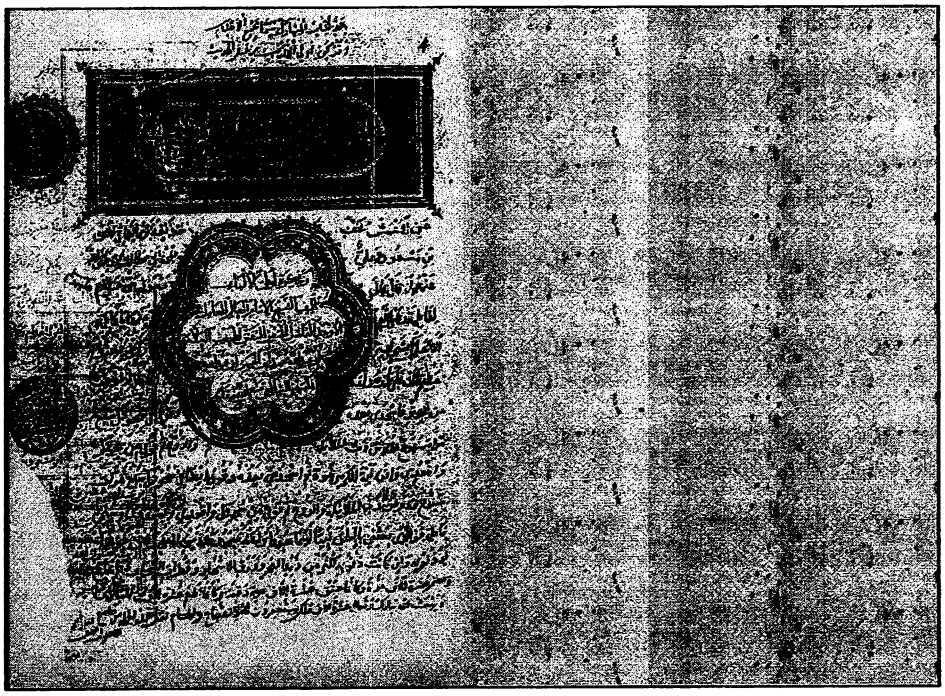

راموز ورقة العنوان للنسخة رقم (٢)

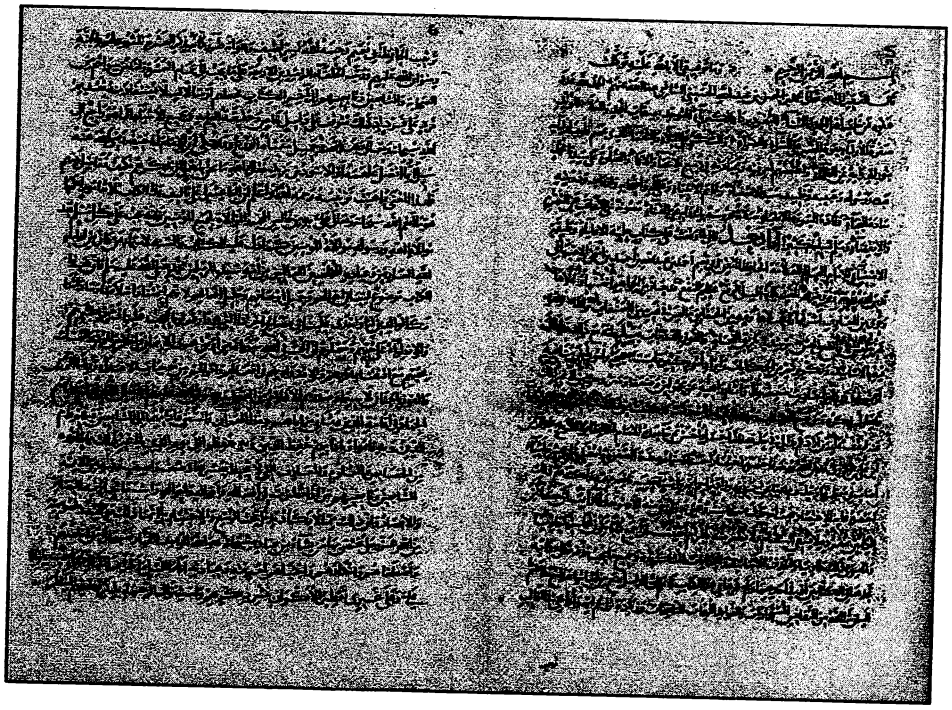

راموز الورقة الأولىٰ للنسخة رقم (٢)

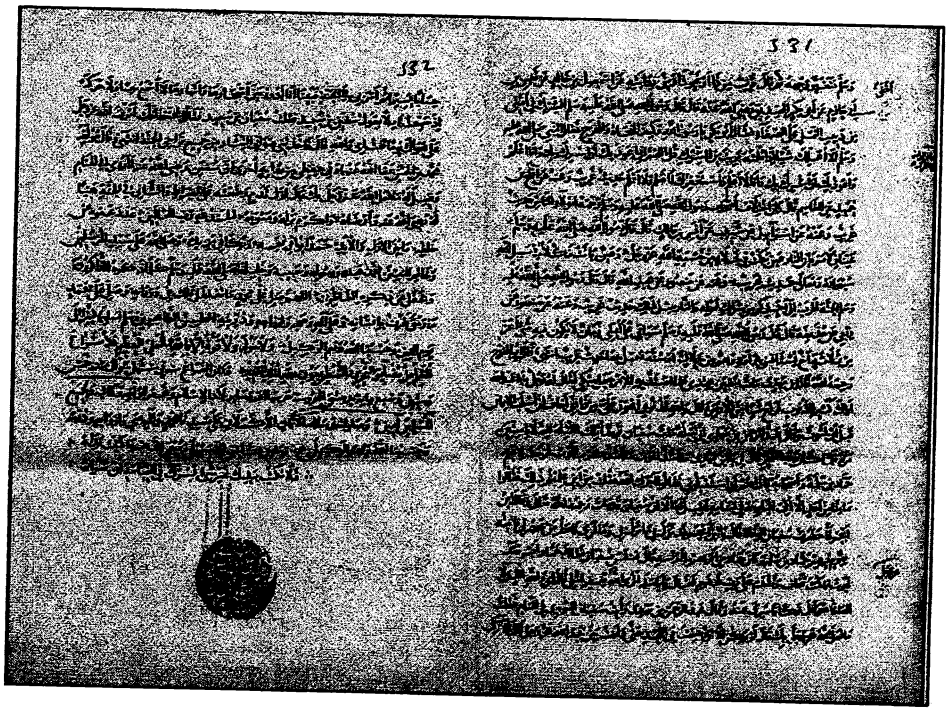

راموز الورقة الأخيرة للنسخة رقم (٢)

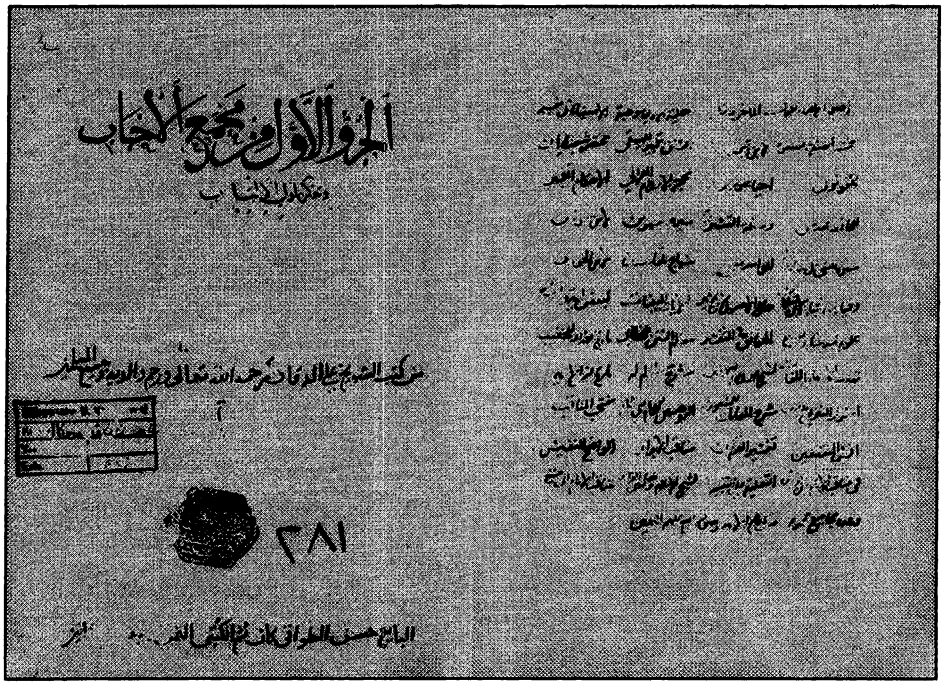

راموزِ ورقة العنوان للنسخة رقم (٣)

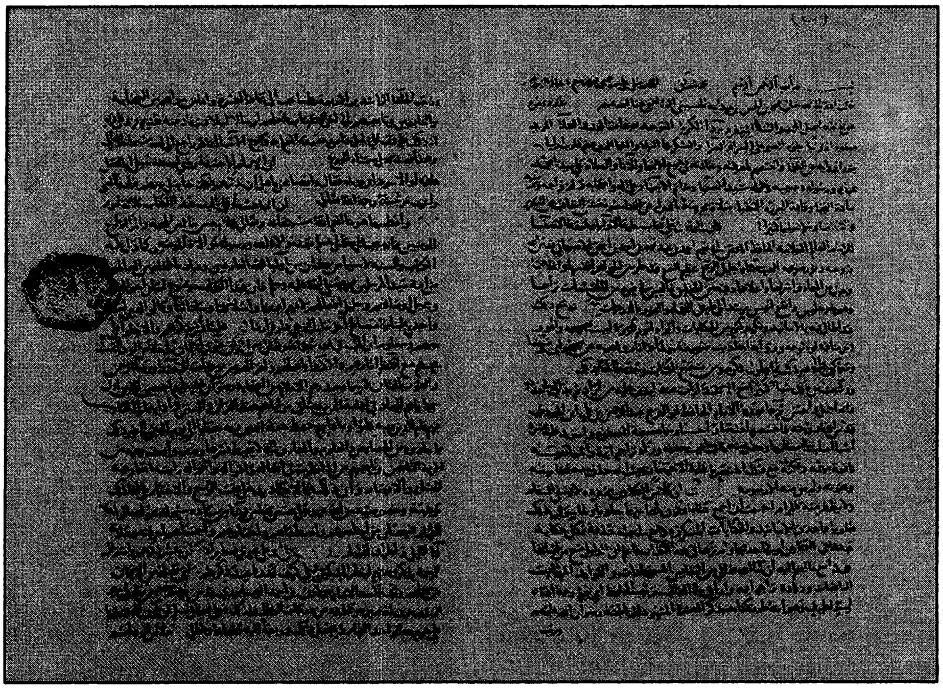

راموز الورقة الأولىٰ للنسخة رقم (٣)

راموز الورقة الأخيرة للنسخة رقم (٣)

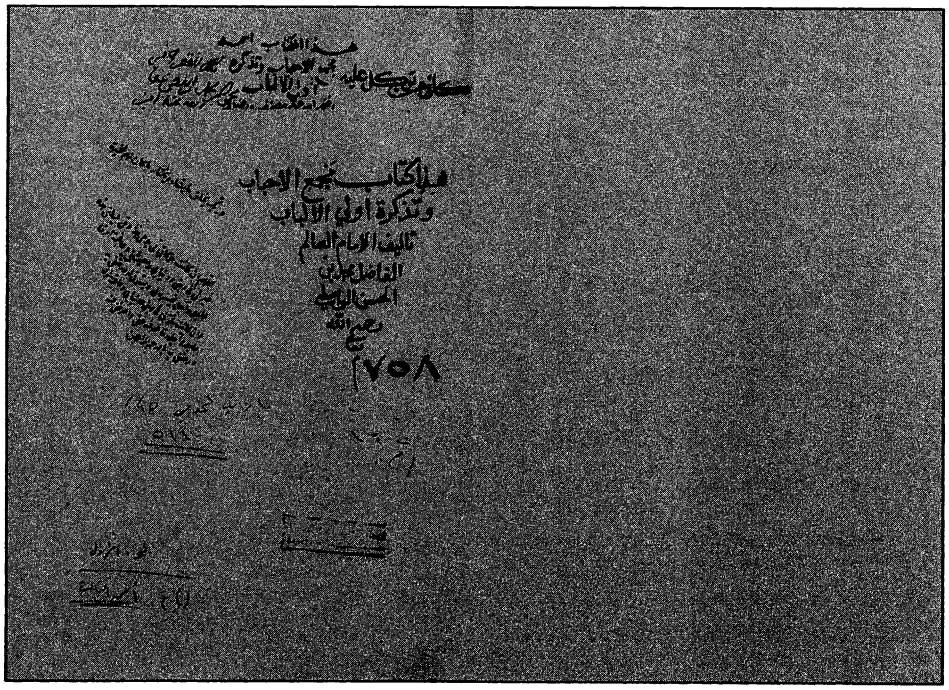

راموز ورقة العنوان للنسخة رقم (٤)

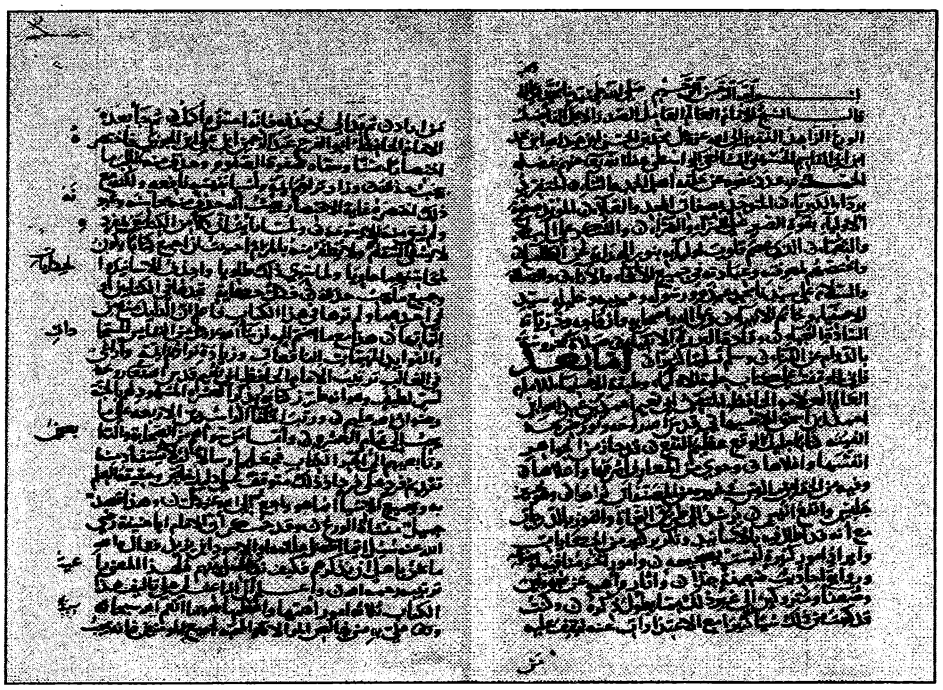

راموز الورقة الأولىٰ للنسخة رقم (٤)

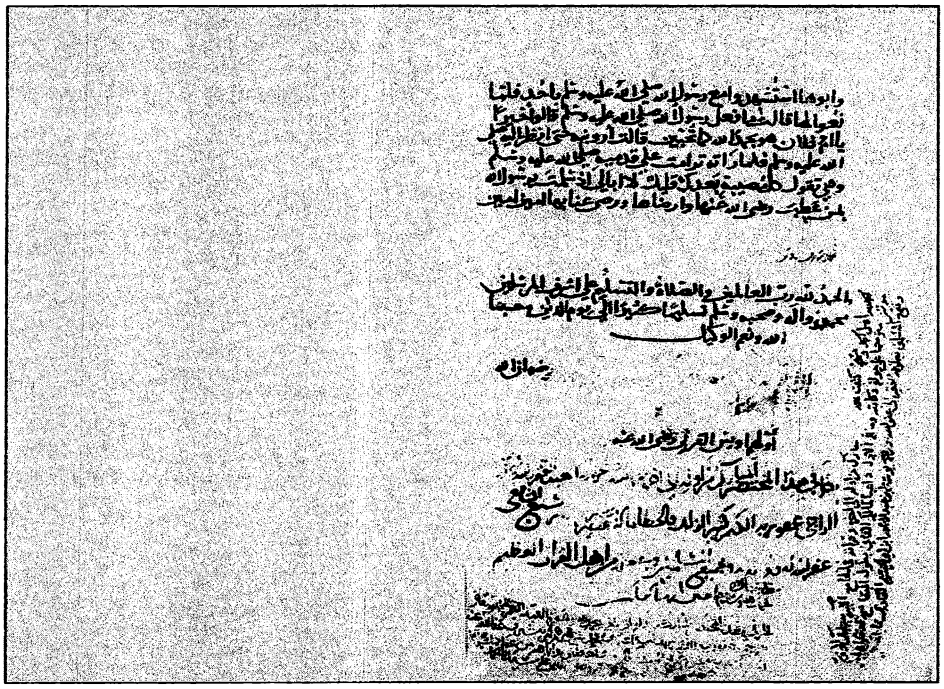

راموز الورقة الأخيرة للنسخة رقم (٤)

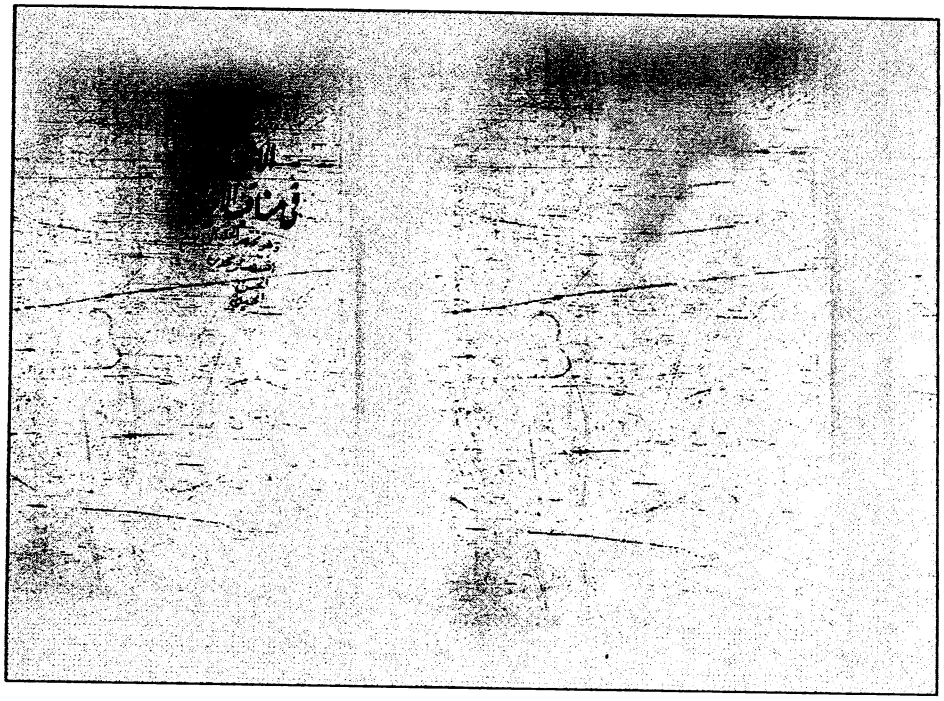

راموز ورقة العنوان للنسخة رقم (٥)

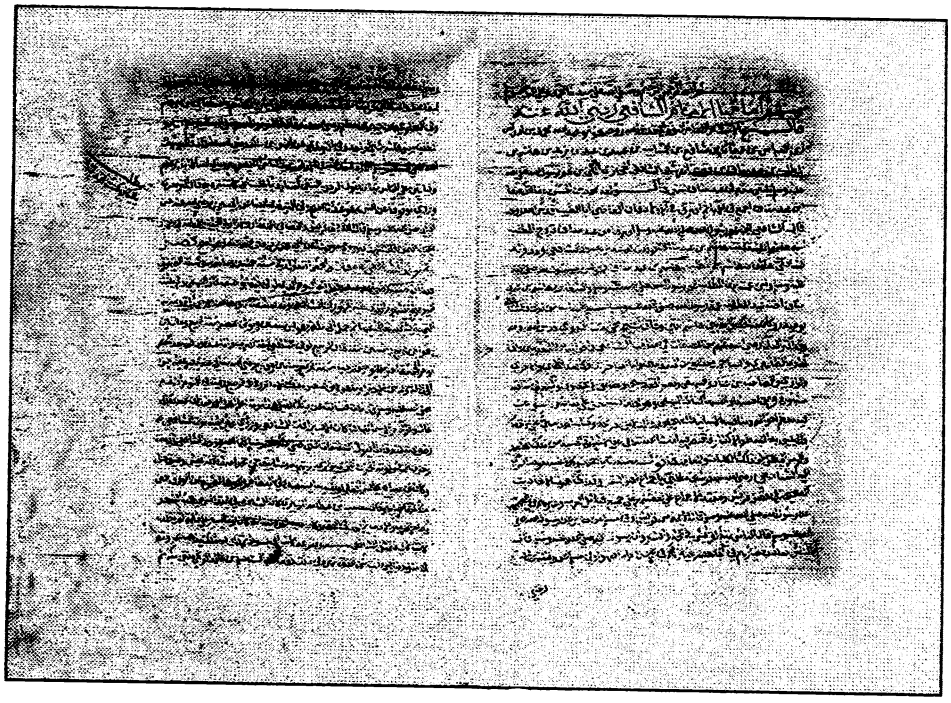

راموز الورقة الأولىٰ للنسخة رقم (٥)

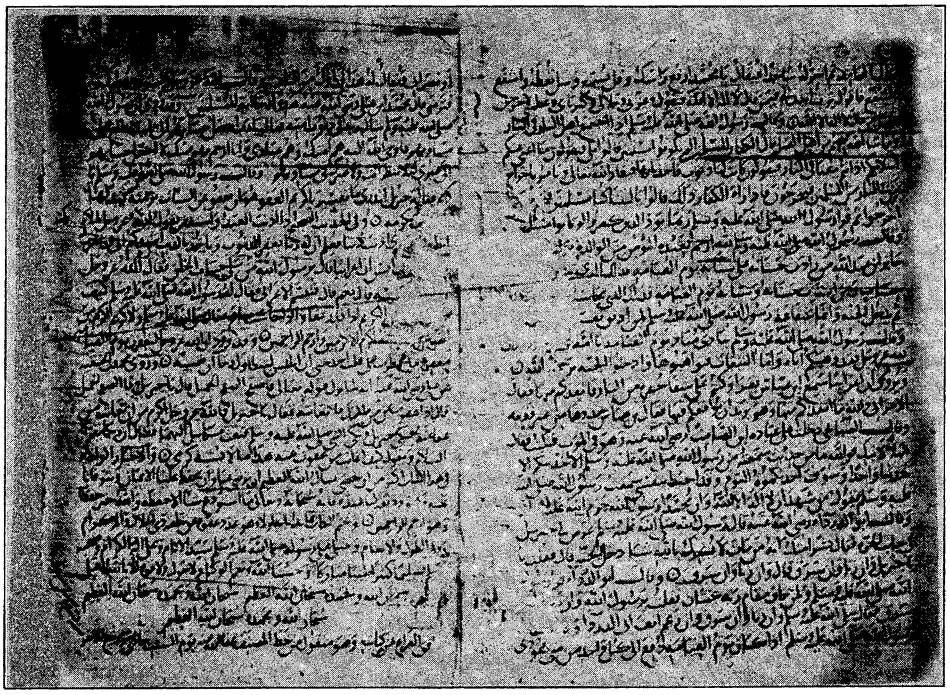

راموز الورقة الأخيرة للنسخة رقم (٥)

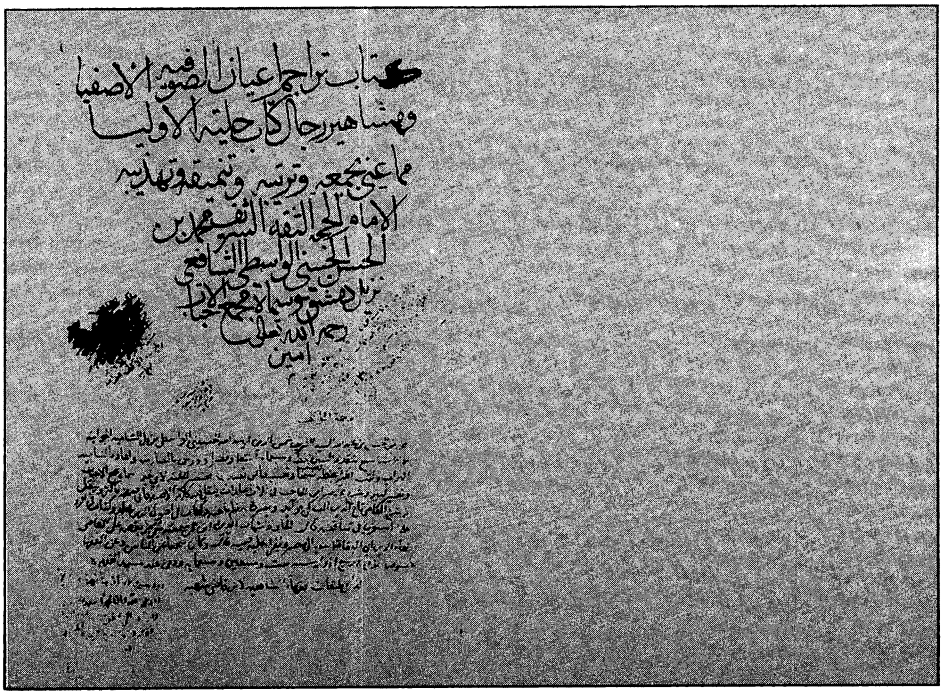

راموز ورقة العنوان للنسخة رقم (٦)

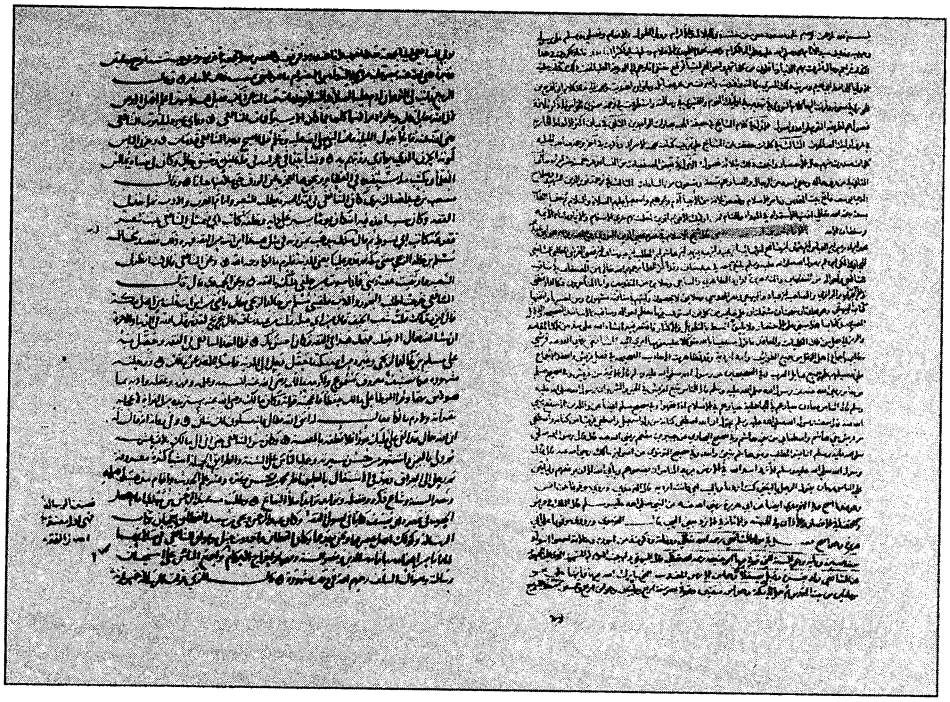

راموز الورقة الأولىٰ للنسخة رقم (٦)

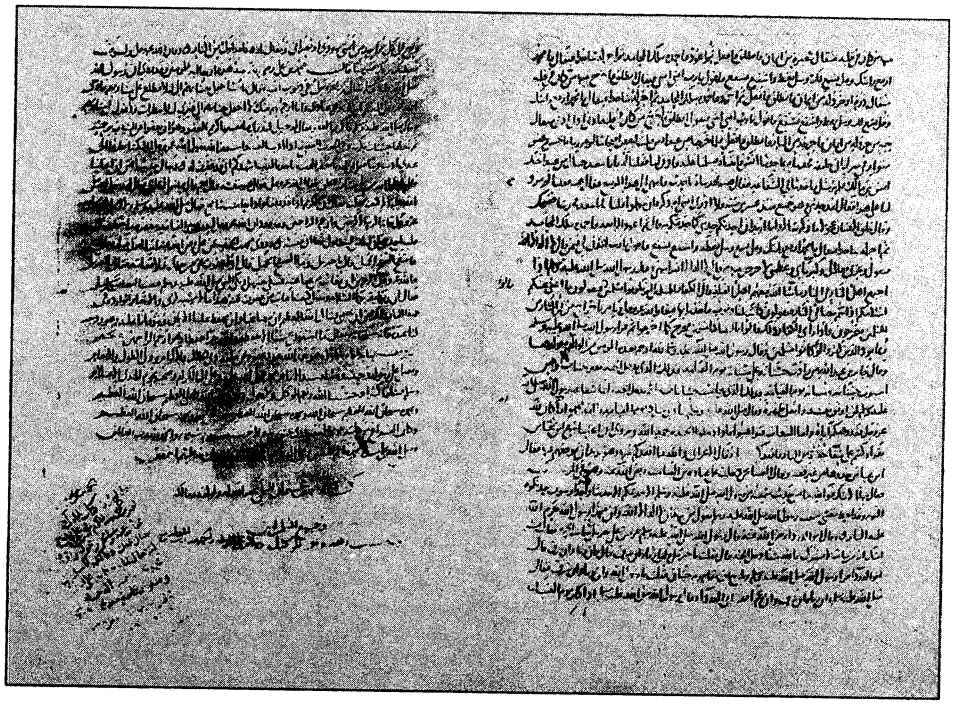

راموز الورقة الأخيرة للنسخة رقم (٦)

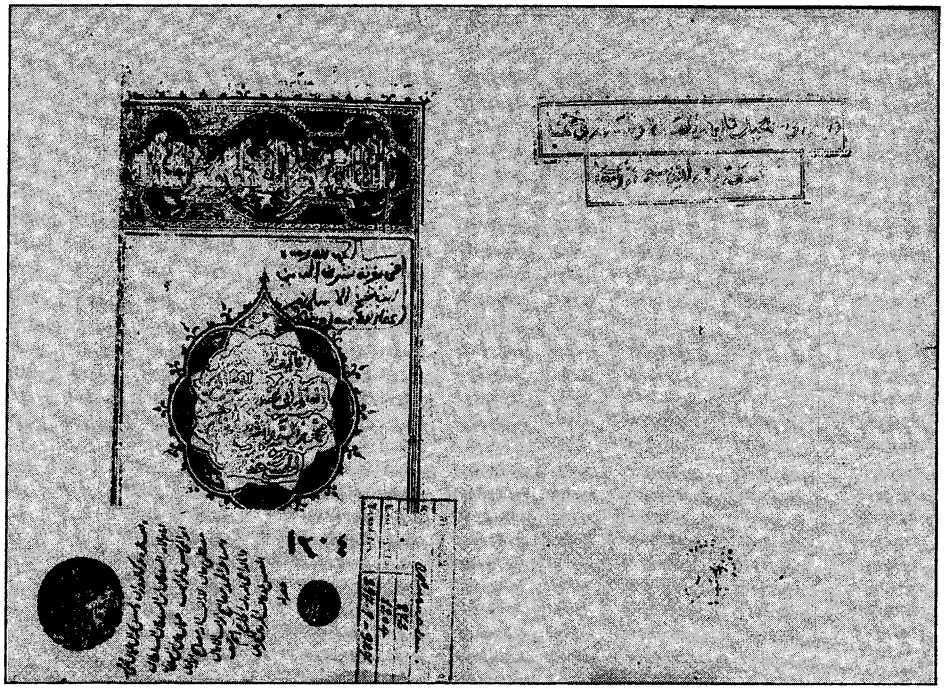

راموز ورقة العنوان للنسخة رقم (٧)

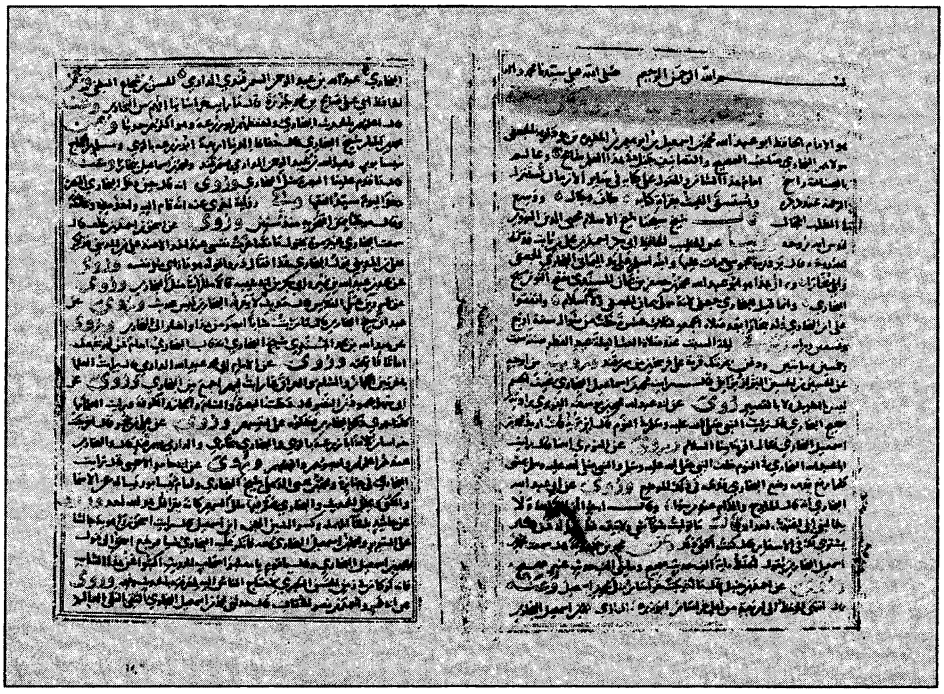

راموز الورقة الأولىٰ للنسخة رقم (٧)

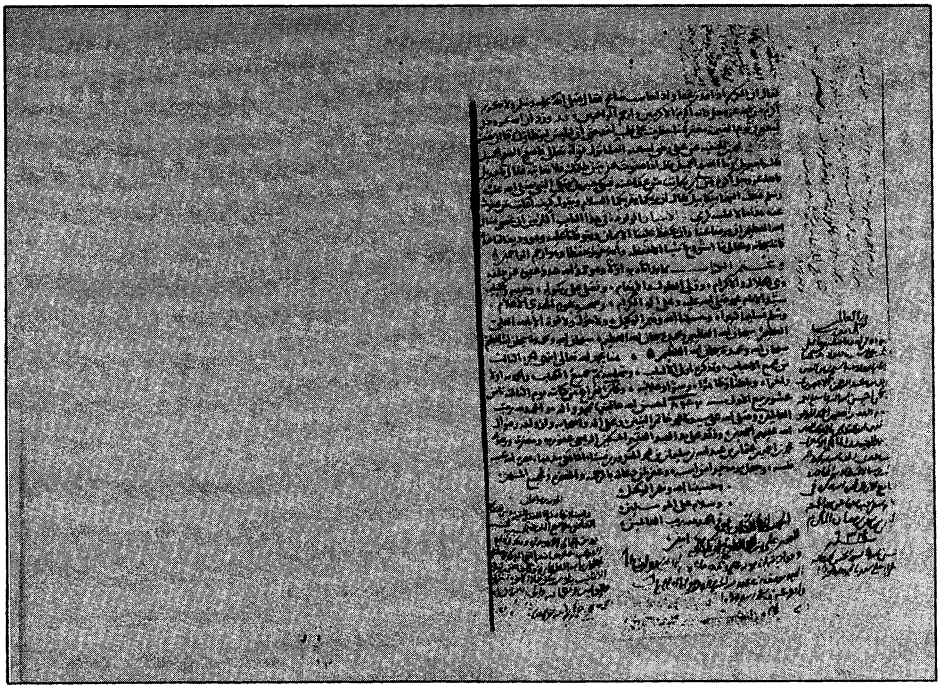

راموز الورقة الأخيرة للنسخة رقم (٧)

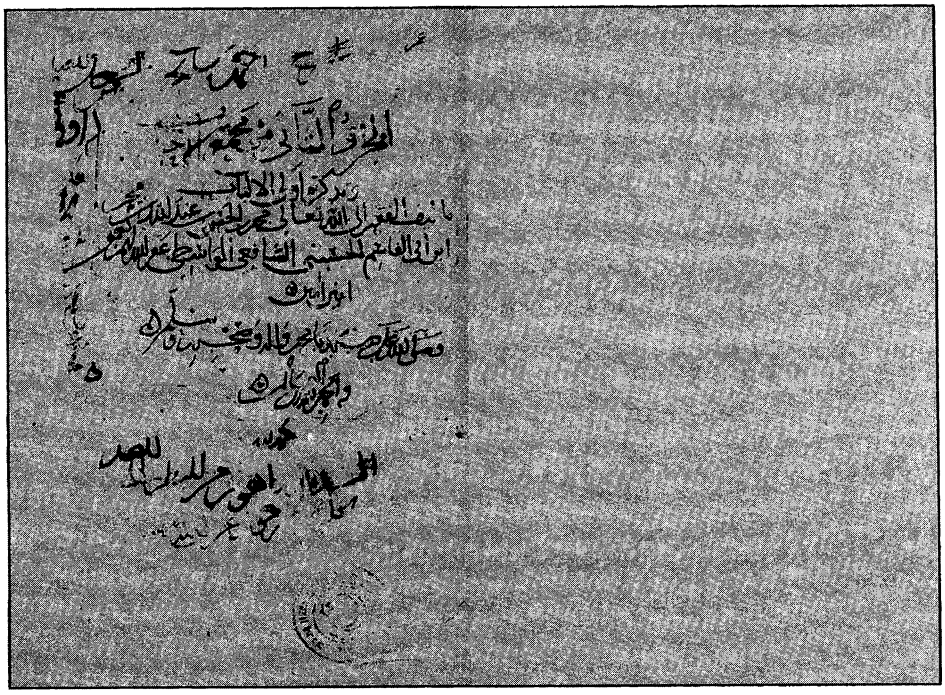

راموز ورقة العنوان للنسخة رقم (٨)

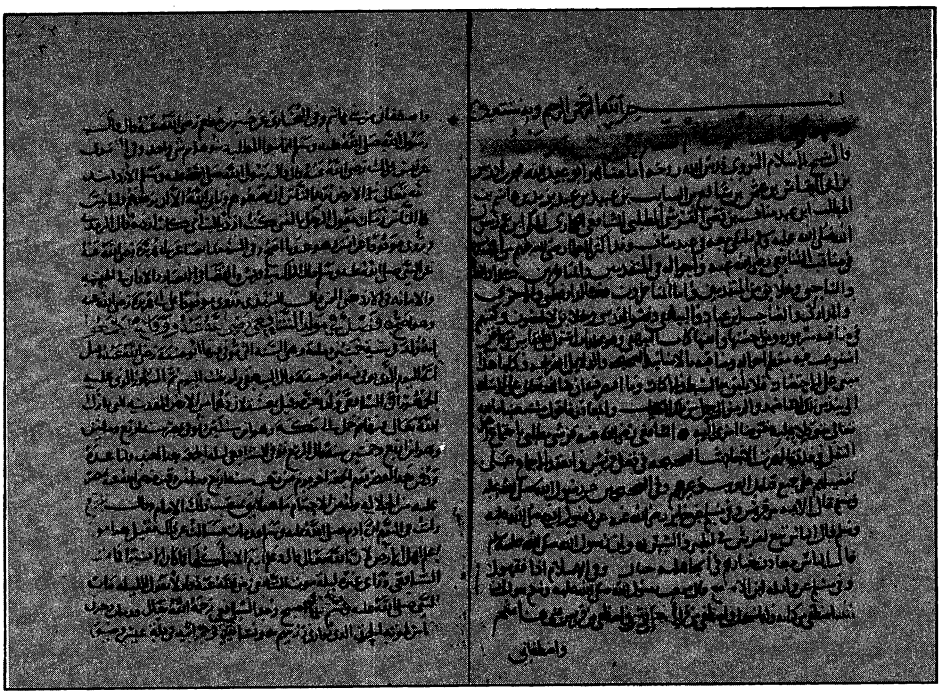

راموز الورقة الأولىٰ للنسخة رقم (٨)

راموز الورقة الأخيرة للنسخة رقم (٨)

نموذج من خط المؤلف رحمه الله

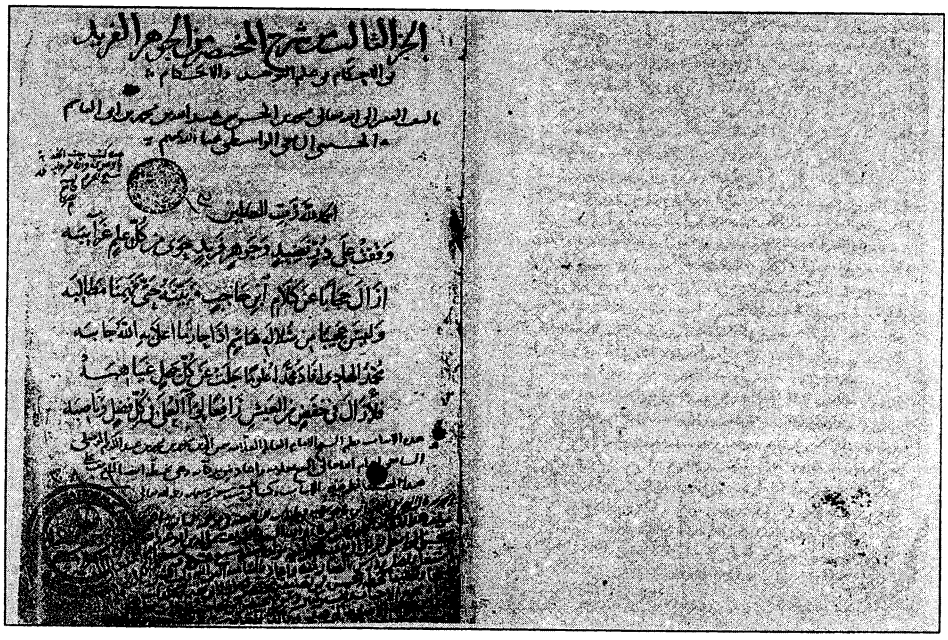

راموز ورقة العنوان لكتاب « مختصر ابن الحاجب » للإمام الواسطي

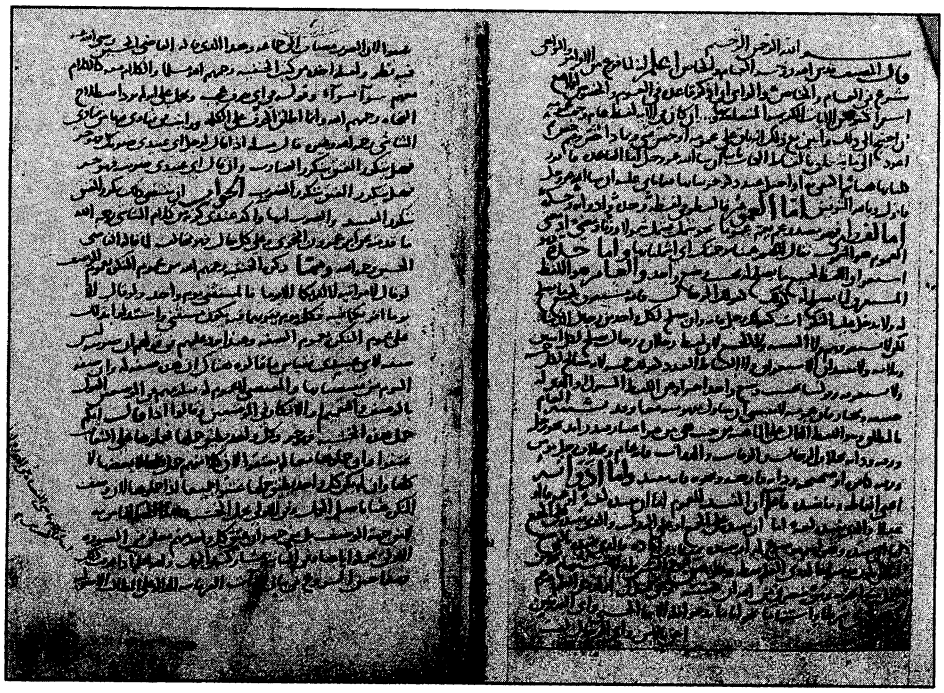

راموز الورقة الأولىٰ لكتاب « مختصر ابن الحاجب » للإمام الواسطي

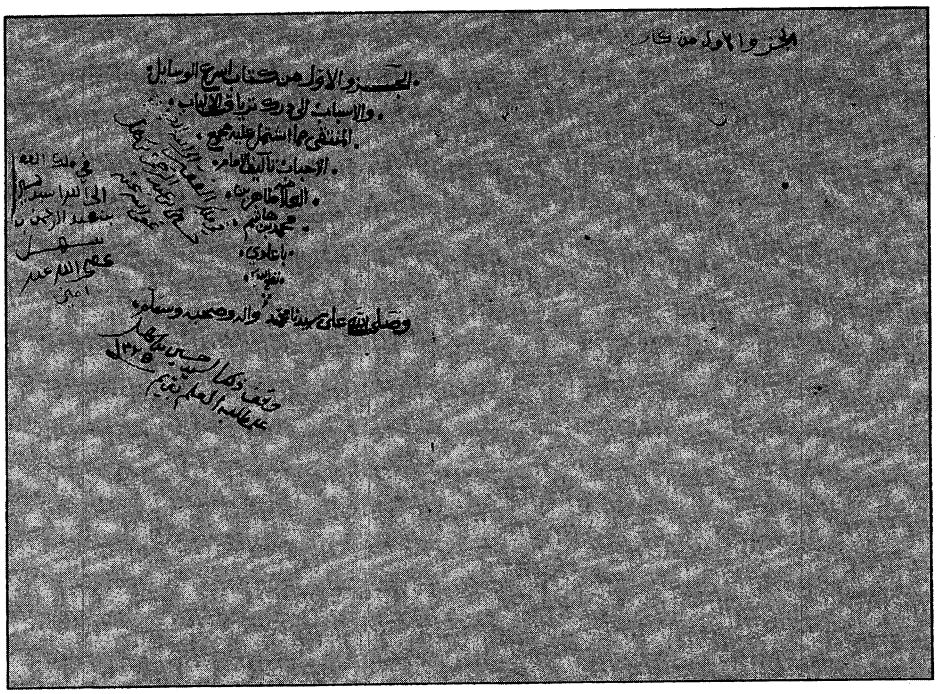

راموز ورقة العنوان لكتاب « أسرع الوسائل » (ج ١)

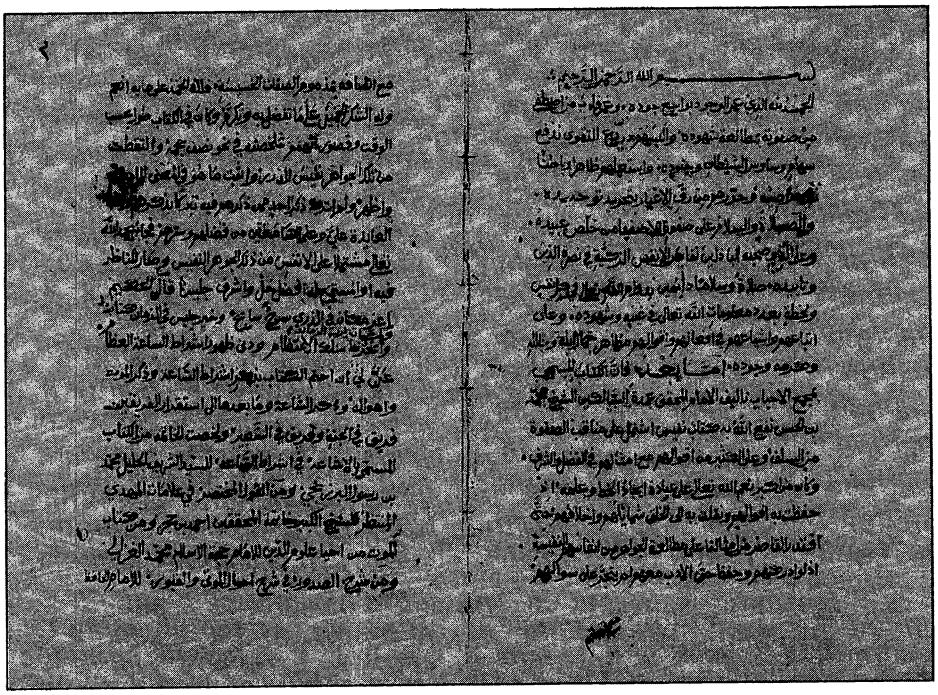

راموز الورقة الأولىٰ لكتاب « أسرع الوسائل » (ج ١)

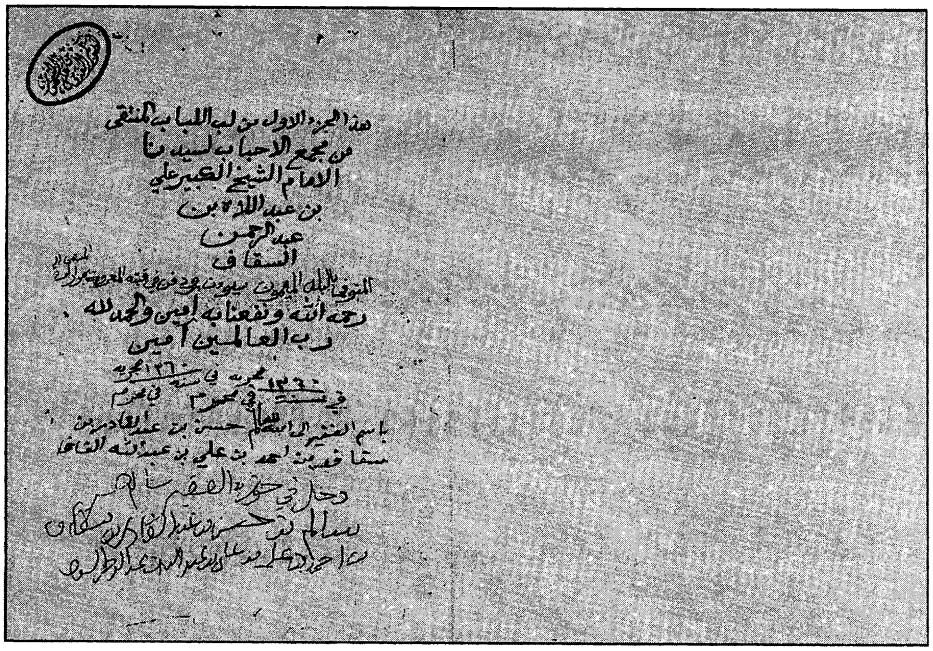

هذا الجزء الاول من لب اللباب المنتقى
من مجموع الاحباب لسيدنا
الامام الشيخ الكبير علي
بن عبد الله بن
عبد الرحمن
السقاف
المتوفى بالديس الجبوس سيئون حرسها الله
رحمه الله ونفعنا به آمين والحمد لله
رب العالمين آمين

رامو ز ورقة العنوان لكتاب « لب اللباب » (ج ١) للسيد السقاف

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه الاستعانه والتأييد الحمد لله الكريم المنان
القسم الاحسان الذي عم الخلق بالأدله و امدهم
بصنوف احسانه و نعمائه اصطفى من نشأ منهم
باجتبائه وايدهم بتقويته وولائه وجعلهم
قدوة الانام وحجة الخاص والعام وادلة
اليه الى دار السلام ومحذرين عما يورث السخط
والانتقام واشهد ان لا اله الا الله وحده
لا شريك له ذو الجلال والاكرام واشهد ان محمدا
عبده ورسوله المقدم امامنا صلى الله عليه وسلم وعلى
آله السادة الاعلام وعلى اصحابه ذوي السنة
والاقدام صلاة وسلاما دائمين مدى السنين والاعوام
اما بعد فاني لما وقفت على تاليف الشيخ العلامة المحقق
عمدة السالكين وقدوة السالكين الشيخ الامام محمد بن
الحسن المسمى مجموع الاحباب رايته كتابا عظيما مفيدا جمع فيه
جملة من اصول الفضل والتكريم مشتملا على العبادات العجيبة والاحوال
الغريبة والافعال السنية المجيبة والاقوال النافعة
والعلوم الشاسعة من صفات اذكياء الانجاب ذوي
العقول والالباب المشهورين من لدنه ذوي التكريم الوهاب
الراغبين فيما سواه المنافين دنيا بطلا عشقه و
بغوايته وعلمت انه من مجتبى الله العظيم ومنحه
بجسيمه

رامو ز الورقة الأولىٰ لكتاب « لب اللباب » (ج ١) للسيد السقاف

راموز الورقة الأخيرة لكتاب « لب اللباب » (ج ١) للسيد السقاف

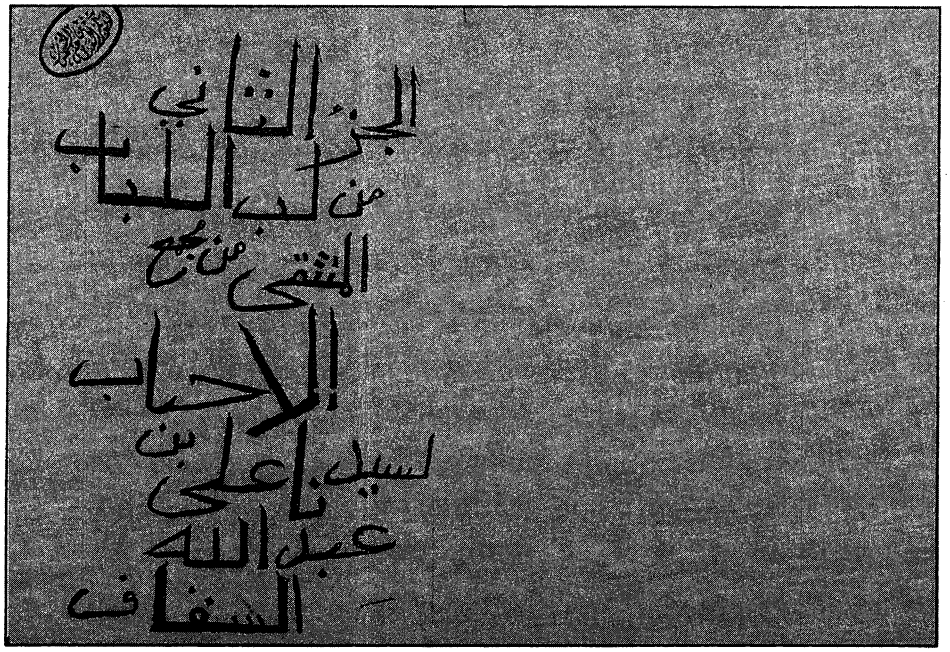

راموز ورقة العنوان لكتاب « لب اللباب » (ج ٢) للسيد السقاف

راموز الورقة الأولىٰ لكتاب « لب اللباب » (ج ٢) للسيد السقاف

راموز الورقة الأخيرة لكتاب « لب اللباب » (ج ٢) للسيد السقاف

راموز ورقة العنوان لكتاب « لب اللباب » لابن سميط

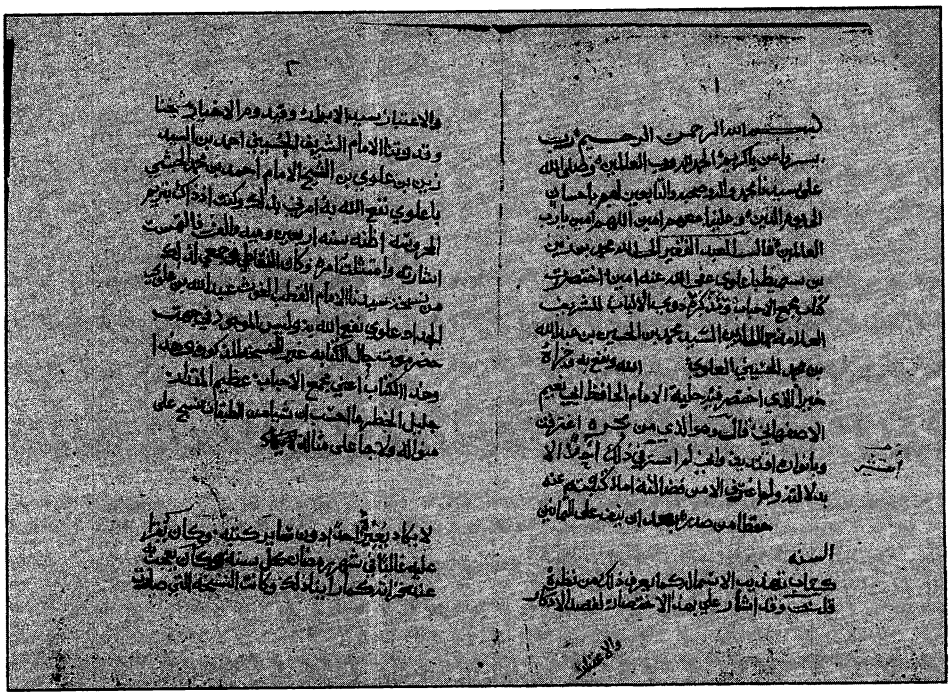

راموز الورقة الأولىٰ لكتاب « لب اللباب » لابن سميط

راموز من الأوراق الأخيرة لكتاب « لب اللباب » لابن سميط

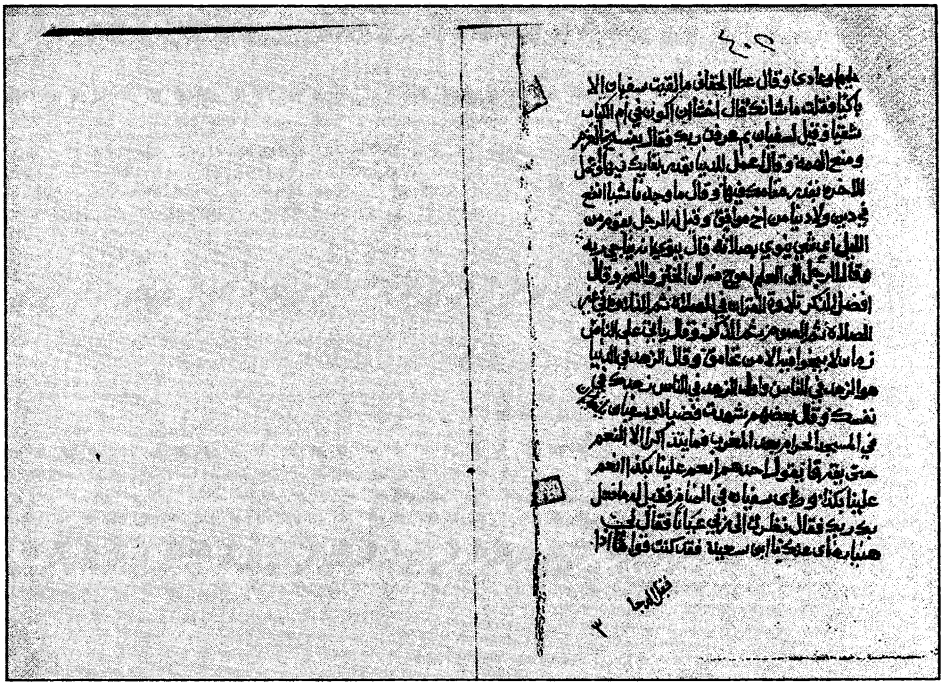

راموز من الأوراق الأخيرة لكتاب « لب اللباب » لابن سميط

مجمع الأحباب

وتذكرة أولي الألباب

تأليف

الشيخ الإمام العالم الورع

الشريف محمد بن الحسن بن عبد الله الحسيني الواسطي

رحمه الله تعالى

(٧١٧ - ٧٧٦هـ)

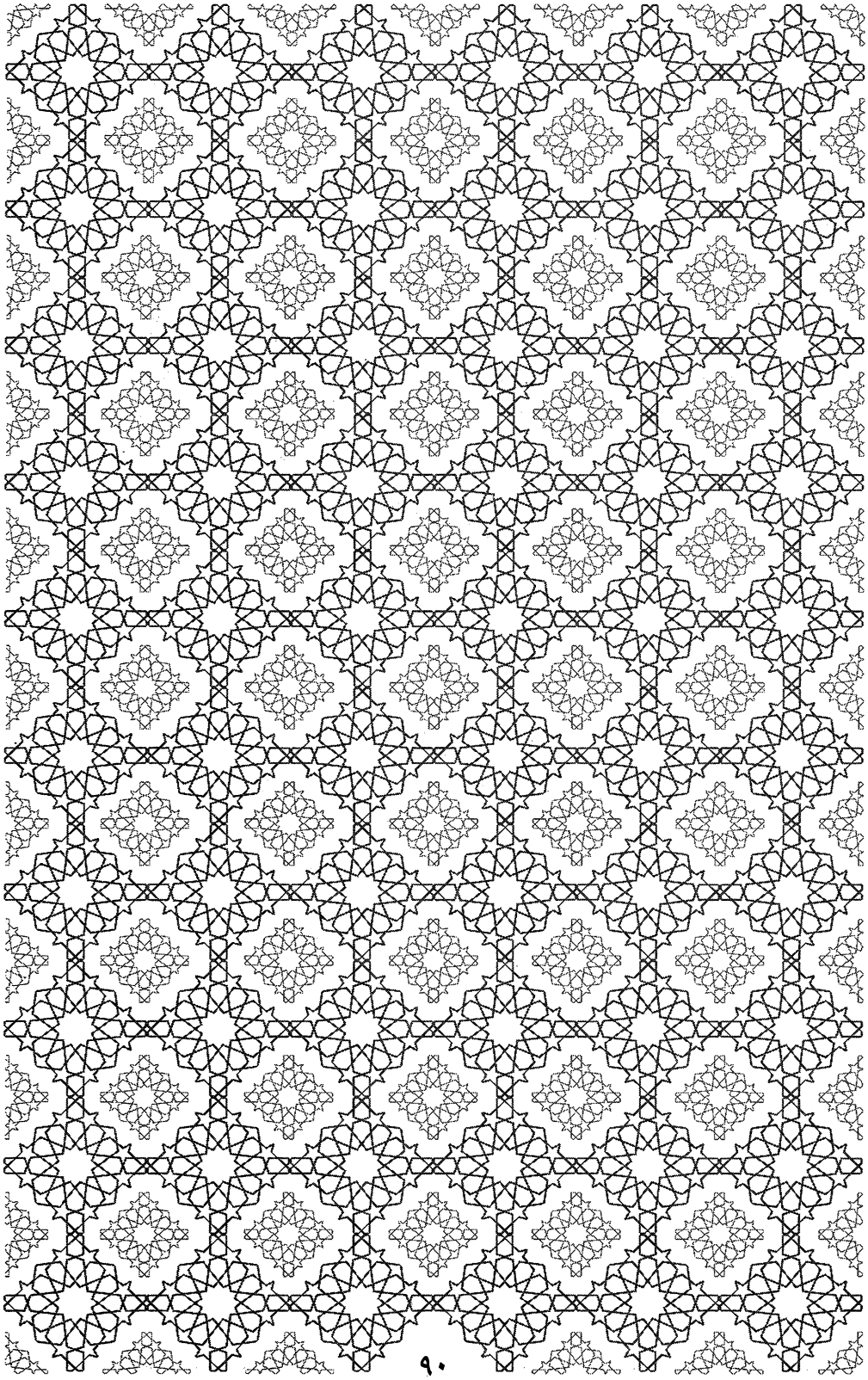

بسم الله الرحمن الرحيم

وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت

[مقدمة الكتاب]

قال الفقير إلى الله تعالىٰ محمد بن الحسن بن عبد الله الحسيني الشافعي عفا الله عنهم :

الحمد لله عدد عفوه عن خلقه ، أهل الحمد والثناء ، المُتفرد برداء الكبرياء ، المتوحِّد بصفات المجد والعلاء ، المؤيد صفوةَ الأولياء بقوة الصبر على السَّراء والضراء ، والشكر على البلاء والنَّعماء ، الذي عصم قلوب أوليائه بنور الهداية عن الظلماء ، واختصهم لمعرفته وعبادته في جميع الأنحاء والآناء .

والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد عبده ورسوله وحبيبه وخليله سيد الأصفياء ، وخاتم الأنبياء ، وعلىٰ آله وأصحابه وأزواجه وذريته سادة النجباء ، وقادة البررة الأتقياء . . صلاةً محروسة بالدوام عن الفناء ، مصونة على التعاقب عن التصرم[1] والانقضاء ، وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فإني لما وقفت علىٰ كتاب « حلية الأولياء وطبقات الأصفياء » للإمام العالم العلامة الحافظ المتقن : أبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق الأصبهاني ـ قدس الله روحه ونور ضريحه ـ ألفيته كتاباً جليل الوقع ، عظيم النفع ، قد حاز من الجواهر أنفسها وأغلاها ، وحوىٰ من المعارف أشرفها وأعلاها ، وفيه من الحقائق ما ليس في غيره من المصنفات تراها ، وهو خير جليس ، وأنفع أنيس ، يرشد إلىٰ طريق النجاة والفوز بالدرجات .

بيد أنه مع ذلك : قد أطال فيه بالأسانيد ، وتكرير كثير من الحكايات ، وإيرادِ أمور كثيرة ليست بصحيحة ، وأمور أُخر منافية لموضوعه ، وروايةِ أحاديث ضعيفة جداً ، وآثار واهية عن مجهولين وضعفاء ومتروكين . . . إلىٰ غير ذلك مما يطول ذكره .

ومن تتبع الكتابَ . . وجده طافحاً بذلك ، وكنت قد كتبت من ذلك شيئاً كثيراً مع

---

(١) **التصرُّم** : التقطع .

الاعتذارات عنه ؛ ليقف عليه من أراد ، ثم بدا لي في حذفه ؛ فإنه أجمل وأحسن .

ثم جاء بعده الإمام الحافظ أبو الفرج عبد الرحمٰن بن علي ابن الجوزي ـ قدس الله روحه ـ فاختصره اختصاراً حسناً ، وسماه : « صفة الصفوة »[1] ، وانتقد عليه عشرة أشياء أصاب في معظمها[2] ، وحذف منه غالب ما يجب حذفه ، وزاد تراجم أئمة ، وأشياء نفيسة نافعة مهمة ، ولٰكنه مع ذلك اختصره غاية الاختصار ، بحيث إنه حذف منه محاسنه وعيونه ، ولم يبق منه إلا رسومه .

ولما رأيت أن كلاً من الكتابين بمفرده لا يشفي السقام ، ولا يظفر منه بالمرام . . أحببت أن أجمعَ كتاباً يكون لمحاسنهما حاوياً ، ولما سوىٰ ذلك طاوياً ، وأحذفَ الأسانيد والحكاياتِ المتكررة وجميعَ ما يجبُ حذفه .

فكلُّ حكاية تجدها في الكتابين أو في أحدهما ولم ترها في هٰذا الكتاب . . **فاعلم أن الدليل مَنَع من إثباتها** .

هٰذا مع ما أضم إليه ـ إن شاء الله ـ من النفائس المستجادات ، والفوائد المهمات النافعات ، وزيادة تراجم أئمة ، وأُراعي في الغالب ترتيب الحافظ أبي نعيم ـ قدس الله روحه ـ لسرٍّ لطيفٍ ، وهو أنه طرز كتابه بذكر العشرة المشهود لهم بالجنة رضوان الله عليهم ، ورتب الخلفاء الراشدين الأربعة علىٰ ما يجب إلىٰ تمام العشرة ، وأما من سواهم من الصحابة والتابعين وتابعيهم إلىٰ آخر الكتاب . . فجعلهم أرسالاً ؛ لئلا يستفاد منه تقديم فرد علىٰ فرد ؛ إذ ذلك متوقف علىٰ دليل خاص ، وحقيقةُ العلمِ به وبجميع الأشياء إنما هو راجع إلى الله سبحانه وتعالىٰ ، وهٰذا قصد جميل منشؤه الورع .

وقد حكي : أن الإمام أبا حنيفة ـ رحمه الله ـ سُئل : أيهما أفضل : علقمة [بن مرثد] أو الأسود بن يزيد ؟ فقال : والله ؛ ما نحن بأهل أن نذكرهم ، فكيف نفاضل بينهم ؟!

فلهٰذا المعنىٰ راعيت ترتيبه رحمه الله تعالىٰ .

واعلم : أن الباعث لي علىٰ تأليف هٰذا الكتاب ثلاثة أمور :

أهمها وأعظمها : هو ما أنعم الله سبحانه وتعالىٰ عليَّ به من خالص المحبة والموالاة

---

(١) في نسخة : « صفة الصفوة » ، وذكر بروكلمان الاسمين معاً .

(٢) ولابن الجوزي نقدٌ لكتاب « الحلية » فيما يتعلق بالأسانيد ، وفي أسلوب السجع الذي وسمه بالبارد ، ومن أراد الإحاطة بتفصيلات نقده . . فعليه بمراجعة « صفة الصفوة » (١/ ١٤ـ١٦) .

لجميع المؤمنين ؛ فإنه يجب علىٰ كل مسلم بعد موالاة الله ورسوله . . موالاة المؤمنين ؛ كما دل عليه الكتاب والسنة ، لا سيما من كان من أولياء الله العالمين العارفين ، وعباده المخلَصين العاملين من أمة سيد المرسلين محمدٍ صلى الله عليه وسلم ، فإن هـٰذا الكتاب موضوع لبيان أحوالهم ، وجميل أوصافهم ، وجليل أفعالهم ؛ لأنهم أئمتنا وأسلافنا وساداتنا ، وكالوالدين لنا ، وأجدىٰ علينا في مصالح آخرتنا التي هي دار قرارنا ، فيجب علينا نشر ذِكرهم ، والانطواء علىٰ حبهم .

ومعلوم أن الحبَّ في الله سبحانه وتعالىٰ من أوثق عرى الإيمان ، وإخلاصَ الودِّ والتمسكَ بحبهم مع اقتفاء آثارهم والاقتداء بهم في أفعالهم وأقوالهم . . من موجبات الاهتداء ، ورضاء الرحمـٰن جلَّ جلاله ، والفوز بالجنان ، لا سيما وصدرهم الأعلام من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .

الذين أول سجاياهم : الجهاد في إقامة الدين .

وثاني مزاياهم : حفظ القرآن والسنن ، وأداؤهما إلى التابعين .

فبهم قام الدين ، وبه قاموا ، وبأدائهم حفظ الدين ، وبه حُفظوا إلىٰ يوم الدين ، إلىٰ غير ذلك مما حازوه من الخصائص والعلوم والمعارف ، التي لا يحيط بعُشْرها وصفُ واصفٍ .

وفيه من الأئمة التابعين وتابعيهم من إذا نظرت في أقواله وأفعاله وأحواله . . رأيت ما تحار فيه البصائر والأبصار ، وإن ذلك مما لا يكاد يدخل تحت الوسع والاختيار ، بل إنما ذلك موهبة وخصوصية من الله عز وجل يختص بها من يشاء من عباده ، سبحانه هو الله الواحد القهار .

فسبحان من أخلصهم واصطفاهم ، واختارهم واجتباهم لمعرفته وعبادته آناء الليل وأطراف النهار .

وواجبٌ عليَّ وعلىٰ غيري . . تعطيرُ الأكوانِ بنشر ذكرهم ، واستنزالُ الرحمةِ بذكر وصفهم ؛ لينظر المسكين مثلي كيف قدره عند ذكرهم ، وأين محله من الإيمان من محلهم ، وقد قال الإمام حمدون بن أحمد النَّيسابوري ـ قدس الله روحه ـ : من نظر في سِيَرِ السلف . . عرف تقصيره وتخلفه عن درجات الرجال .

فلذلك ينبغي لكل مسلم :

أن يكونَ قلبُه منطوياً علىٰ حبهم لله الواحد القهار ، ويجعلَ ذلكَ ذريعةً إليه سبحانه

وتعالىٰ ، وإخلاصَ الود لهم فيه وسيلةً ومقرِّباً إليه عز وجل ، ويجعلَ سيرتهم وأحوالهم نَصْبَ عينيه ، ويأخذَ في الجد والاجتهاد بما كانوا عليه ، ويغتنمَ ساعته التي هو فيها ، ويجهدَ ألاَّ تكون عليه ، ويحاسبَ نفسه على الحركات والسكنات ، والخطوات والخطرات ، ويداومَ علىٰ ذكر الله عز وجل في جميع الأوقات ؛ فقد ورد : أنه ما من ساعة تمضي على المرء لا يذكر الله سبحانه فيها . . إلا تقطعت نفسه عليه حسرات .

هٰذا مع لزوم التقوىٰ وصدق الالتجاء إلى الله عز وجل في أن يوفقَه لما وفقهم ، وأن يجمعَ بينه وبينهم في دار السلام ، فإنْ عجز عن ذلك . . فلا يفوته صدق المحبة ، ولا الإخلاص في موالاتهم ؛ فإن صدق المحبة لهم تلحقه بهم وإن لم يعمل أعمالَهم .

وقد دلت السنة الشريفة علىٰ ذلك ، وأفرد العلماء رحمهم الله لذلك باباً ، منهم : البخاري ، ومسلم ، وأبو داوود ، والترمذي ، والبزار ، وغيرهم .

وممن بوَّبَ لذلك أيضاً : الحافظ عبد الحق[1] ـ رحمه الله ـ في « أحكامه الكبرىٰ » فإنه قال :

بابٌ : المرء مع من أحب

مسلمٌ [٢٦٣٩] : حدثنا عثمان بن أبي شيبة ، وإسحاق بن إبراهيم ؛ قال إسحاق : أخبرنا ، وقال عثمان : حدثنا جريرٌ عن منصور ، عن سالم بن أبي الجعد ، حدثنا أنس بن مالك رضي الله تعالىٰ عنه قال : بينما أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم خارجين من المسجد ؛ فلقينا رجل عند سدة المسجد ، فقال : يا رسول الله ؛ متى الساعة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أعددتَ لها ؟! » قال : فكأن الرجل استكان ، ثم قال : يا رسول الله ؛ ما أعددت لها كثير صلاةٍ ولا صيامٍ ولا صدقةٍ ، ولٰكني أحب الله ورسوله ، قال : « **فأنت مع من أحببت** » .

وفي رواية أخرىٰ لمسلم [٢٦٤٠] : قال : يا رسول الله ؛ كيف ترىٰ رجلاً أحب قوماً ولمَّا يلحق بهم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **المرء مع من أحب** » .

---

(١) هو عبد الحق بن عبد الرحمٰن بن عبد الله الأزدي الإشبيلي ، أبو محمد ، المعروف بابن الخرَّاط ، من علماء الأندلس ، كان فقيهاً ، حافظاً ، عالماً بالحديث وعلله ورجاله ، له كتب منها : « الأحكام الشرعية » ثلاثة كتب (كبرىٰ ، وصغرىٰ ، ووسطىٰ) ، وكانت وفاته ـ رحمه الله ـ في تونس بالقرب من جامع الزيتونة عام (٥٨١هـ) . انظر « الأعلام » (٣/ ٢٨١) .

وفي رواية أبي داوود [٥١٢٧] عن أنس رضي الله تعالىٰ عنه قال : رأيت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فرحوا بشيء لم أرهم فرحوا بشيء أشد منه ، قال رجل : يا رسول الله ؛ الرجل يحب الرجل على العمل من الخير يعمل به ولا يعمل بمثله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **المرء مع من أحب** » .

وفي رواية الترمذي [٣٥٣٥] : حدثنا أحمد بن عبدة ، حدثنا حماد بن زيد ، عن عاصم ، عن زر بن حبيش قال : أتيت صفوان بن عسال . . . فذكر الحديث .

وفيه [٣٥٣٦] : عن صفوان قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره ، فناداه رجل كان في آخر القوم بصوت جَهْوَري جلفٍ جافٍ[1] ، فقال : يا محمد ، يا محمَّد ؛ فقال له القوم : مه ؛ إنك نُهيت عن هـٰذا ، فأجابه رسول الله صلى الله عليه وسلم نحواً من صوته : « هاؤم » ، فقال : الرجل يحب القوم ولمَّا يلحق بهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **المرء مع من أحب** » قال : وهـٰذا حديث صحيح .

وفي طريق أخرىٰ له [٣٥٣٥] صححها أيضاً : « **المرء مع من أحب يوم القيامة** » .

زاد في رواية أخرىٰ [٢٣٨٦] : « **وله ما اكتسب** » وقال : هـٰذا حديث حسن غريب .

البزار : حدثنا محمد بن إسحاق البغدادي ، حدثنا عفان بن مسلم ، حدثنا همام بن يحيىٰ قال : سمعت إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة قال : حدثني شيبة الخُضْري : أنه شهد عروة يحدث عمر بن عبد العزيز ، عن عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « **لا يجعل الله رجلاً له سهم في الإسلام كمن لا سهم له ، وسهام الإسلام : الصوم والصلاة والصدقة ، ولا يتولى الله رجلاً فيوليه يوم القيامة غيره ، ولا يحب رجل قوماً . . إلا جاء يوم القيامة معهم** » .

قال : « **والرابعة : لا يستر الله علىٰ عبد في الدنيا . . إلا ستر الله عليه في الآخرة** »[2] انتهىٰ ما رواه الحافظ عبد الحق رحمه الله .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : لا يخفىٰ وجه الدلالة من هـٰذه الأحاديث الصحيحة الصريحة علىٰ أن من أحب قوماً . . جاء معهم ، وإنما الشأن في الحب ، والغموضُ في تحقيق معناه ؛ فإنه عزيز جداً ، فلذلك لا تحصل المحبة لكل أحد ، وأين

---

(١) **جهوري** : شديد عالٍ .

(٢) أخرجه بنحوه الحاكم (١/ ١٩) ، وأحمد (١/ ١٦٠) ، والطبراني في « الكبير » (٨/ ٢٦٣) .

الناس وهيهات ؛ فالمحبة يدعيها كل أحد ، فما أسهل الدعوىٰ وما أعز المعنىٰ ، ولو ذكرت لك شروط المحبة وما به تتحقق . . لعرفت أني وإياك عنها بمعزلٍ .

واعلم : أن حقيقة المحبة وشروطها أذكره ـ إن سهَّلَ الله سبحانه وتعالىٰ ـ في تصنيف سمّيته : « **إشراق الصباح في حياة الأرواح** » ، وأُبين فيه شروط المحبة ـ في باب المحبة منه ـ أحسن بيان إن شاء الله تعالىٰ[1] .

ثم اعلم : أن هـٰذه المحبة إذا حصلت . . ترتب عليها آثارها من كون المحب مع المحبوب في دار واحدة ، ولا يلزم أن تكون منزلتهما وأجرهما سواء ، ويا لها من نعمة ما أسبغها! ومن سعادة ما أعظمها! ومن تجارة ما أربحها! إذ قد أسعد الله عز وجل هـٰذه الأمة بأن جعل مُقتَصِدها إذا صدق في الحب . . كان مع سابقها ، وإذا كان الصحابة رضوان الله عليهم قد فرحوا بذلك فرحاً لم يفرحوا بعد الإسلام بمثله . . فما ظنك بالذين جاؤوا من بعدهم ، لا سيما في زماننا هـٰذا ؟!

وثانيها : أن هـٰذا الكتاب موضوع لحياة القلوب وصلاحها ، ونجاةِ النفوس وفلاحها ، وللنظر في سيرة من سلف من أئمة الدنيا وأعلامها ؛ لأن أخبار الأخيار . . دواء القلوب ، وجلاء الألباب .

وكل ذلك باعث لي ولغيري إلى التنبه من رقدة الغفلة ، والتجافي عن دار الغرور والمهلة ؛ فإن الناظر كلما نظر في سيرهم وأحوالهم ، وما كانوا عليه من زهدهم في الدنيا ، حتىٰ طلاق بعضهم لها ، بل بعضهم لم تخطر له علىٰ بال . . يوجب له ذلك سلوك سبيلهم ، والاجتهاد في متابعة طريقهم ، فهي ـ والله ـ طريق النجاة ، والفوز بالدرجات ، وبها تنال السعادة الأبدية ، والنعم السرمدية ، التي لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر علىٰ قلب بشر ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ، ولمثله كان يدأب العارفون .

وأعظم من ذلك وأكبر : رضوان الله عزَّ وجلَّ ، والنظر إلىٰ وجهه الكريم .

فاجتهد أيها المسكين ـ وكلنا ذلك المسكين ـ **في فكاك رقبتك** .

واعلم : أن حياتك أمامك ، فتدارك فوات حظك من الله عز وجل قبل أن لا يمكن

---

(١) ولخص المؤلف ـ رحمه الله ـ كلاماً في المحبة من الكتاب المذكور ، وسيأتي ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ في ترجمة سمنون المحب رضي الله عنهم أجمعين .

التدارك ، واندم وتحسَّر علىٰ ما ضيعت من العمر ، وابكِ بعد الدموع دماً علىٰ تقصيرك وتخلفك عن واجب حق الله تعالىٰ .

واعلم : أنك لو قمت عمرَ الدنيا في طاعة الله عز وجل علىٰ جفون عينيك . . ما أديت شكر ما يجب عليك .

وإني لأقول هـٰذا وما أعلم ـ والله العظيم ـ أن أحداً من المؤمنين أحوجُ إلىٰ هـٰذا مني ، ولا أشد تضييعاً ولا أكثر تقصيراً ، وأود ـ والله العظيم ـ أن لو كان عمري الذي مضىٰ كله كفافاً لا علي ولا لي ، وأن يحصل لي عمل واحد يرضاه الله عز وجل ويقبله ، ولست ـ والله ـ راضياً عن نفسي ولا طرفة عين ، وأين الرضا ؟! وكيف الرضا ؟!

هيهات!! هيهات!!

يا حسرتا علىٰ ما فرطتُّ في جنب الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

ويحك!! اعرف فاقة نفسك ، وذلتها ، وحقارتها ، وقف بين يديه سبحانه وتعالىٰ ، وتضرَّع ، واصدق في الالتجاء إليه ؛ لعله سبحانه وتعالىٰ يُصلح قلبك ، فيوفِّقك لمرضاته .

ثم اذكر موقفاً يكون فيه دعوى الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين : « اللهم ؛ سلِّم سلِّم »[1] .

واذكر ناراً وقودها الناس والحجارة .

وقد روي : أن عيسىٰ عليه الصلاة والسلام اجتاز في بعض سياحته ، فرأىٰ حجراً صغيراً ينبع منه ماء كثير ، فوقف عنده ، وتعجب من كثرة ذلك الماء ، فسأل اللهَ عزَّ وجلَّ أن يكلمه ذلك الحجر ؛ ليسأله عن ذلك ، فقال الحجر : يا روح الله ؛ منذ سمعت قوله تعالىٰ : ﴿ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ فأنا أبكي خوفاً من تلك النار ، فسأل عيسىٰ عليه الصلاة والسلام من الله عز وجل أن يجير ذلك الحجر من النار ، فأجاره الله سبحانه ، فأعلمه عيسىٰ عليه الصلاة والسلام بذلك ، ثم أتىٰ عليه بعد حين ، فوجده باكياً كما كان ، فقال له عيسىٰ عليه الصلاة والسلام : ما هـٰذا البكاء وقد أجرت من النار ؟! فقال : يا روح الله ؛ ذاك بكاء الخوف ، وهـٰذا بكاء السرور والشكر لله عز وجل .

وكفىٰ بهـٰذا موعظة وحسرة أن الحجارة أعقل من الإنسان .

---

(١) أخرجه البخاري (٧٧٣) .

وقد دل علىٰ ذلك آيات ، أصرح ما فيها : قوله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

ومنها : قوله تعالىٰ : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

ومنها : قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ .

واذكر يوماً ترجف فيه الأرض والجبال ، وكانت الجبال كثيباً مهيلاً[1] ، ويوم يفرُّ المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، ويوم يَسألُ الصادقين عن صدقهم ؛ عيسى ابنَ مريم عليه الصلاة والسلام وأمثالَه .

فبالله . . انظر لنفسك كيف يكون الحال إذ ذاك ، إذا كان الصادقون يسألهم عن صدقهم ؟!

واذكر : أنَّ بين أيدينا أهوالاً أفزعت الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام .

وثالثها : هو ما أرجوه من جزيل الثواب ، وأدخره عدة ليوم الحساب ؛ لعل الله عز وجل أن ينظر إلي نظر رحمة ، فيعاملني بما هو أهله ؛ فإنه أهل التقوىٰ ، وأهل المغفرة ، ووليُّ الخيرات في الدنيا والآخرة ، التي عرفناها برسوله الصادق الأمين محمد سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وعلىٰ آله الطيبين الطاهرين .

وقد قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ .

واللهَ أسأل أن يحشرني في زمرتهم ، وأن يفيض علي من عرفانهم وبركتهم ، وأن ينفع بهـٰذا الكتاب ، ولا يجعله حجة عليَّ في يوم الحساب ؛ إنه قريب مجيب .

ثم اعلم : أنَّه لا سبيل إلى الإحاطة بأسماء أولياء الله العارفين ، ولا إلى استقصاء جميع أوصافهم علىٰ سبيل التفصيل .

وقد دلَّ على المقام الأول[2] : ما رُوِّيناه في « الصحيحين » وغيرهما :

---

(١) **كثيباً مهيلاً** : مصبوباً سائلاً لا يتماسك .

(٢) أراد المؤلف ـ والله أعلم ـ بالمقام الأول : عدم الإحاطة بأسماء الأولياء .

قال الحافظ عبد الحق رحمه الله في « الأحكام الكبرىٰ » : باب : ذكر كم يدخل الجنة بغير حساب .

مسلم [٢١٦] : حدثني حرملة ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرنا يونس ، عن ابن شهاب ، حدثني سعيد بن المسيب : أن أبا هريرة رضي الله عنه حدَّثه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يدخل الجنة من أمتي زمرة هم سبعون أَلفاً ، تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر » ، قال أبو هريرة رضي الله عنه : فقام عُكَّاشة بن محصن الأسدي يرفع نمرةً[١] عليه ، فقال : يا رسول الله ؛ ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم ؛ اجعله منهم » ، ثم قام رجل من الأنصار ، فقال : يا رسول الله ؛ ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سبقك بها عُكَّاشة » .

وفي رواية أخرىٰ لمسلم [٢١٩] : عن أبي حازم ، عن سهل بن سعد ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَيدخُلنَّ الجنة من أمتي سبعون ألفاً ـ أو سبع مئة ألف ؛ لا يدري أبو حازم أيهما قال ـ متماسكون ، آخذ بعضهم بعضاً ، لا يدخل أولهم حتىٰ يدخل آخرهم ، وجوههم علىٰ صورة القمر ليلة البدر » .

وفي رواية البزار : عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً ، مع كلِّ واحد من السبعين ألفاً سبعون ألفاً » .

وفي رواية الترمذي [٢٤٣٧] : عن أبي أُمامة ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « وعدني ربي أن يدخل الجنَّة من أمتي سبعين ألفاً ، لا حساب عليهم ولا عذاب ، مع كل ألفٍ سبعون ألفاً ، وثلاث حثيات من حثياته » . اهـ[٢]

وأما الدليل على المقام الثاني[٣] : فهو مما يكاد يُعرف بالضرورة ، فلا يحتاج إلىٰ إقامة دليل عليه .

ولذلك ـ والله أعلم ـ اقتصر الحافظ أبو نعيم وغيره من الأئمة المتقدمين والمتأخرين ـ رحمهم الله ـ علىٰ جمعٍ من الأئمة الأعلام ، وعلىٰ نبذة يسيرة من أحوال أئمة الإسلام .

---

(١) **النمرة** : شِمْلةٌ ـ كساء يتغطَّىٰ به ويُتَلفَّف فيه ـ فيها خطوط بيض وسود ، كأنها أخذت من جلد النمر .

(٢) **حثيات** : كناية عن المبالغة في الكثرة ، وإلا . . فلا كفَّ ثمَّ ولا حَثْيَ ، جل الله عن ذلك وعز .

(٣) وهو استقصاء أوصاف الأولياء العارفين بالله علىٰ سبيل التفصيل .

وأيضاً : فإن المقصود الأعظم . . إنما هو معرفة طريقهم ؛ ليحصل سلوك سبيلهم ، ومعلوم أن هـٰذا المقصود يحصل بأُنموذج لطيف ، بل ربما كان الاختصار أدعىٰ إلىٰ قَبول السامع ، وأكثر تطرية له ونشاطاً[1] ، فإن الإطالة قد تورث الملل والسآمة .

وأيضاً : فإن الإنسان إذا صرف عمره في تحصيل الموعظة . . فمتىٰ يعمل بها ؟!

وما أحسن ما حكي عن الإمام أبي حنيفة! فإنه قال لداوود الطائي ـ رحمهما الله ـ : أما الأداة . . فقد أحكمناها ، فقال له داوود : فما الذي بقي ؟ قال : العمل بها .

فوقعت هـٰذه الكلمة من قلب داوود كل موقع ، وأثَّرت جميل الآثار ،

ويقال : إنها كانت سبب زهده وعزوفه عن الدنيا وانقطاعه إلى الله سبحانه وتعالىٰ .

ثم إن كتابي هـٰذا يحتاج إلىٰ أمور :

منها : استيفاء تراجم الأئمة بأحسن من هـٰذا وأشبع ، وهـٰذا منع منه ضيق الوقت ، وقد ذكرنا أن الاستقصاء غير ممكن ، فلم يبق إلا ذِكر ما يحصل به المقصود .

ومنها : زيادة تراجم أئمة آخرين ، وهـٰذا لو حاولناه . . لأوردنا منه مجلدات ، ولحصل الملل والسآمة .

ومنها : أنك قد تجد في الكتابين المذكورين[2] أسماء جماعة من الأئمة ليسوا في كتابنا هـٰذا . . فاعلم : أن السبب في حذفهم : أن الحافظ أبا نعيم ـ قدس الله روحه ـ اقتصر في تراجمهم كل الاقتصار ، فلم يبق ما يذكر ، أو أنه ذكر في تراجمهم ما لا يلائم موضوع الكتاب ، فلا يستحق أن يودع بطون الأوراق .

وكل ما أذكره في كتابي هـٰذا أضيفه إلىٰ قائله ؛ أقول في أوله : قال فلان ، وفي آخره : انتهىٰ .

وقد جعلت في أول كل مجلد فهرسة أسماء الأئمة المذكورين فيه ، فليحافظ علىٰ كتابة الفهرسة ؛ ليسهل منها الكشف إن شاء الله تعالىٰ .

وختمت الكتاب بفصول ثلاثة :

الأول : في بعض المصطفيات من النساء .

---

(١) **تطريةً** : من الطرو ، وهي : حدوث الجديد ؛ فالقارىء لهـٰذا الكتاب يجده بحلة جديدة فلا يمله .

(٢) أي : « حلية الأولياء » و« صفة الصفوة » .

والثاني : فيمن عرف حاله وخفي اسمه من الرجال والنساء .

والثالث : في ترجمة نور الدين الشهيد ـ قدس الله روحه ونور ضريحه ـ فإنه خاتمة ملوك العدل ، وبه يختم الكتاب إن شاء الله[1] .

وسميته :

« مجمع الأحباب وتذكرة أولي الألباب »

واستمدادي فيه وفي جميع أموري من الله الكريم الوهاب ، وأسأله التوفيق لحسن النيات ، والإخلاصَ في أنواع الطاعات ، وأن يغفر لي ما ظلمت به نفسي جميع المخالفات ، وأن يحفظ علي الإيمان ويتوفاني عليه ، وأن يغفر لي ، ولوالديَّ وأهلي ومشايخي وأحبابنا ، وسائر المسلمين والمسلمات ، وأن يجود علينا أجمعين برضاه ومحبته ودوام طاعته ، وأن يجعلَنا من الناظرين إليه في أعلى الدرجات ، وأساله الرضىٰ بعد القضاء ، وبرد العيش بعد الموت ، ونعيماً لا يبيد ، وقرة عين لا تنقطع ، وأن يجعل خير أيامي يوم لقائه ، ويحشرني في زمرة أوليائه ، اعتصمت بالله ، توكلت على الله ، ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، حسبي الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وأقدِّم قبل الأسماء مسائل مهمة يُحتاج إليها في هـٰذا الفن ؛ ليكون الناظر فيه علىٰ بصيرة من بعض أحوالهم إن شاء الله تعالىٰ .

المسألة الأولىٰ : في تعريف الصحابي والتابعي ، وبيان بعض فضلهم علىٰ سبيل الإجمال ، فأقول ـ وبالله التوفيق ـ :

قال شيخ شيخنا شيخ الإسلام في عصره العالم الرباني محيي الدين النووي ـ قدس الله روحه ـ في « تهذيب الأسماء واللغات » [١/ ١٤ـ١٦] :

أما الصحابي . . ففيه مذهبان[2] :

---

(١) وقد أضاف المصنف ـ رحمه الله ـ بعد تأليف الكتاب بعشر سنين ترجمة صلاح الدين الأيوبي ـ رحمه الله ـ فكانت هي خاتمة كتابه ؛ كما أشار إلىٰ ذلك في مقدمة الدولة الصلاحية وخاتمتها .

(٢) لم يقيِّد التعريف في المذهبين بقيد (ومات على الإسلام) وهـٰذا مما يُشْعر بدخول من ارتد ـ والعياذ بالله ـ من الصحابة في تعريف الصحابي ، وهو ليس كذلك ، من أمثال عبيد الله بن جحش الذي كان زوج أم حبيبة ؛ فإنه أسلم معها ، وهاجر إلى الحبشة ، فتنصر ومات علىٰ نصرانيته ، وكعبد الله بن خطل ، وربيعة بن أمية ، وهـٰذا ما رجحه الحافظ ابن حجر في كتابه « الإصابة » (١/ ١٠) بعد أن عقد فصلاً للتعريف بالصحابي فقال : (وأصح ما وقفت عليه من ذلك : أن الصحابي : من لقي النبي صلى الله عليه وسلم مؤمناً به ، ومات على الإسلام) . =

أصحّهما ـ وهو مذهب البخاري وسائر المحدثين وجماعات من الفقهاء وغيرهم ـ : أنه كل مسلم رأى النبي صلى الله عليه وسلم وإن لم يجالسه ولم يخالطه .

والثاني ـ وهو مذهب أكثر أهل الأصول ـ : أنه يشترط مجالسته ، وهـٰذا مقتضى العرف ، وهـٰكذا قاله القاضي أبو بكر الباقلاني وغيره .

وأمّا التابعي . . ففيه أيضاً مذهبان :

أحدهما : أنه الذي رأىٰ صحابياً .

والثاني : أنه الذي جالس صحابياً .

قال الله تعالىٰ : ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ .

اختلفوا في المراد بالسابقين الأولين ؟ فقال سعيد بن المسيب وآخرون : من صلىٰ إلى القبلتين .

وقال الشعبي : هم أهل بيعة الرضوان .

وقال محمد بن كعب القرظي وعطاء : هم أهل بدر .

قال الله سبحانه وتعالىٰ : ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ .

وفي « الصحيحين » : عن عمران بن الحصين رضي الله تعالىٰ عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خيركم قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » [خ ٢٥٠٨ـ م ٢٥٣٥] .

وفي « الصحاح » : قوله صلى الله عليه وسلم : « لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً . . ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه » أي : نصفه : [خ ٣٤٧٠] :

والأحاديث في فضائل الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين على الإطلاق كثيرة مشهورة في « الصحيحين » وغيرهما .

وأما فضائلهم على الخصوص لطائفة ولأشخاص . . فأكثر من أن تحصر .

وأعظمهم : العشرة المشهود لهم بالجنة ، ثم أهل بدر ، وأحد ، والعقبتين الأولىٰ والثانية ، وأهل بيعة الرضوان تحت الشجرة .

قال الله تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ .

قال الإمام أبو منصور البغدادي[1] ـ قدس الله روحه ـ : أصحابنا مجمعون علىٰ أن أفضلهم الخلفاء الأربعة ، ثم تمام العشرة ، ثم أهل بدر ، ثم أحد ، ثم بيعة الرضوان بالحديبية .

وأجمع أهل السنة علىٰ أن أفضلهم على الإطلاق أبو بكر ، ثم عمر ، وقدم جمهورهم عثمان علىٰ علي رضوان الله عليهم ، ولهـٰذا اختارته الصحابة وقدمته ، وهم أعلم وأعرف بالمراتب وغيرها رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين .

وأولهم إسلاماً : خديجة وأبو بكر رضي الله عنهما ، هـٰذا هو الصحيح ، واختلفوا أيهما أسبق .

وآخرهم وفاةً : أبو الطفيل عامر بن واثلة ، توفي سنة مئة من الهجرة باتفاق العلماء ، واتفقوا علىٰ أنه آخر الصحابة وفاةً .

وأما التابعون : فواحِدهم تابع وتابعي ، وقد ذكرنا حقيقتهم وفضلهم .

وأما مراتبهم : فقال الحاكم أبو عبد الله الحافظ النيسابوري ـ قدس الله روحه ـ : هم خمس عشرة طبقة ؛ أوَّلُهم : الذين أدركوا العشرة من الصحابة منهم قيس بن أبي حازم ، سمع من العشرة ، وروىٰ عنهم ، ولم يشاركه في هـٰذا أحد ، وقيل : إنه لم يسمع من عبد الرحمـٰن بن عوف ، ويليهم الذين ولدوا في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم من أولاد الصحابة . . . ثم ذكر طبقاتهم .

---

(١) أبو منصور البغدادي : عبد القاهر بن طاهر بن محمد بن عبد الله التميمي الإسفراييني ، عالم متفنن ، من أئمة الأصول ، ولد ونشأ في بغداد ، ورحل إلىٰ خراسان ، فاستقر في نيسابور ، له تصانيف كثيرة منها : « الفَرق بين الفِرَق » ، وكانت وفاته (٢٤٩هـ) . انظر « الأعلام » (٤٨/٤) .

وفي « صحيح مسلم »[1] : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في أويس القَرَني : « هو خير التابعين » .

وقال أحمد ابن حنبل رحمه الله : أفضل التابعين : سعيد بن المسيب ، قيل له : فعلقمة والأسود ؟ فقال : سعيد بن المسيب وعلقمة والأسود .

وعنه : لا أعلم مثل أبي عثمان النهدي وقيس ابن أبي حازم .

وعنه : أفضلهم : قيس وأبو عثمان وعلقمة ومسروق . لعله أراد أفضلهم في ظاهر علوم الشرع ، وإلا . . فلا شك أن أويساً خير التابعين رحمه الله . انتهىٰ .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : رُوِّينا عن الإمام الحافظ أبي عمرو بن الصلاح قدس الله روحه [في « مقدمته » ١٨١ـ١٨٢] قال :

أعجبني ما وجدته عن الشيخ أبي عبد الله محمد بن خفيف الزاهد الشيرازي في كتاب له ؛ قال : اختلف الناس في أفضل التابعين :

فأهل المدينة يقولون : أفضل التابعين : ابن المسيب ، وأهل الكوفة : أويس ، وأهل البصرة : الحسن البصري .

وبلغنا عن أحمد ابن حنبل قال : ليس أحد أكثر في الفتوىٰ من الحسن وعطاء . يعني التابعين .

وقال أيضاً : كان عطاء مفتي مكة ، والحسن مفتي البصرة ، فهـٰذان أَكْثَرَ الناسُ عنهم رَأْيَهم .

وبلغنا عن أبي بكر بن أبي داوود قال : سيدتا التابعين من النساء : حفصة بنت سيرين ، وعمرة بنت عبد الرحمـٰن ، وثالثتهما ـ وليست كهُما ـ : أم الدرداء ، والله أعلم . انتهىٰ .

وقال النووي ـ قدس الله روحه ـ [في « التهذيب » ١/١٦ـ١٧] : من فضلاء التابعين : الفقهاء السبعة فقهاء المدينة[2] ، وفي السابع ـ وهو سليمان بن يسار ـ ثلاثة أقوال :

---

(١) مسلم (٢٥٤٢) بنحوه .

(٢) **الفقهاء السبعة** : سعيد بن المسيب ، والقاسم بن محمد ، وعروة بن الزبير ، وخارجة بن زيد ، وأبو سلمة بن عبد الرحمـٰن ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وسليمان بن يسار .
وقيل فيهم :

ألا كـــل مـــن لا يقتـــدي بـــأئمـــة فقسمتـه ضيـزىٰ عـن الحـق خـارجـة =

هل هو أبو سلمة بن عبد الرحمـٰن بن عوف ؟

أو سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ؟

أو أبو بكر بن عبد الرحمـٰن بن الحارث بن هشام ؟

وأما تابعو التابعين ومن بعدهم . . فلهم فضل في الجملة ، ولـٰكن لا يلحقون ـ من حيث الجملة ـ بمن قبلهم ؛ لحديث أنس رضي الله عنه في « صحيح البخاري » [٦٠٧٠] أيضاً ، عن مِرداس الأسلمي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يذهب الصالحون الأول فالأول ، ويبقىٰ حثالة كحثالة التمر والشعير ، لا يبالهم الله بالةً » .

يقال : لا أبالي زيداً بالاً ولا بالةً ؛ أي : لا أكترث به ، ولا أهتم له .

ومع هـٰذا فلهم فضائل ظاهرة ، وفي حفظ العلم آثار باهرة ؛ ففي « الصحيحين » [خ ٦٨٨١ـ م ١٩٢٠] : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم خذلان من خذلهم » ، وجملة العلماء أو جمهورهم علىٰ أنهم حملة العلم ، وقد دعا لهم النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « نضر الله امرءاً سمع مقالتي ، فوعاها ، فأداها كما سمعها »[(١)] ، وجعلهم عدولاً ، فأمرهم بالتبليغ عنه فقال صلى الله عليه وسلم : « ليبلغ الشاهد منكم الغائب »[(٢)] .

وفي الحديث الآخر : « يحمل هـٰذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه : تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين »[(٣)] .

وهـٰذا إخبار منه صلى الله عليه وسلم بصيانة العلم ، وحفظه ، وعدالة ناقليه ، وأن الله سبحانه وتعالىٰ يوفق في كل عصر خلفاً من العدول يحملونه وينفون عنه التحريف وما بعده ، فلا يضيَّع ، وهـٰذا تصريح بعدالة حامليه في كل عصر ، وهـٰكذا وقع ولله الحمد ، وهـٰذا من أعلام النبوة ، ولا يضر مع هـٰذا كون بعض الفسّاق يعرف شيئاً من العلم ؛ فإن الحديث إنما هو إخبارٌ بأن العدول يحملونه ، وليس فيه أن غيرهم لا يعرف شيئاً منه ، والله أعلم . انتهىٰ .

= فخـذهـم : عبيـد الله ، عـروة قـاسـم سعيد ، أبو بكر ، سليمان ، خارجه

وقد عقد الواسطي ـ رحمه الله ـ فصلاً في التعريف بهم ، سيأتي إن شاء الله تعالىٰ .

(١) أخرجه بنحوه ابن حبان في « الإحسان » (٦٦) .

(٢) أخرجه البخاري (١٠٥) ، ومسلم (١٦٧٩) .

(٣) ذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » (١/ ١٤٠) ، وعزاه للبزار .

المسألة الثانية : في تعريف الولي الخاص[1] :

قد ثبت من غير ما طريق : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سئل عن أولياء الله سبحانه وتعالىٰ . . قال : « الذين إذا رُؤوا . . ذُكِرَ الله » رواه البزار رحمه الله تعالىٰ في « مسنده » .

ورواه أيضاً الحافظ أبو نعيم الأصبهاني رحمه الله من طريقين ، ولفظه في أحدهما [٦/١] : عن أبي منصور مولى الأنصار : أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله تعالىٰ : إن أوليائي من عبادي ، وأحبائي من خلقي : الذين يُذكرون بذكري وأُذكر بذكرهم » انتهىٰ .

وليس لقائل أن يقول : لِمَ لا عرَّفْتَ الأولياء بقوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ لأنا نقول : إن الآية الكريمة لم ترد في هـٰذا علىٰ سبيل التعريف لهم ، بخلاف ما ذكرنا من الحديث ؛ فإنه ورد علىٰ سبيل التعريف لهم ، **فهو نص في المقصود** .

وأيضاً فإنا نقول : الآية الكريمة ليست نصاً صريحاً في وصفهم ؛ لأن قوله تعالىٰ : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ يجوز أن يكون مبتدأ خبره ما بعده ، وهو قوله تعالىٰ : ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ ، وإذا كان كذلك . . فلا يتم التعريف المذكور .

وأما قوله تعالىٰ : ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ . . فليس فيه دِلالة علىٰ هـٰذا ؛ فإن المراد به : الولاية العامة بالنصرة والإعانة ، والصحابة رضوان الله عليهم فهموا ذلك وهم القدوة في كل علم ، ولكونهم فهموا أن المراد بالولاية العموم من النصر والإعانة . . سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الولي الخاص ، فأجابهم رسول الله بما ذكرناه .

---

(١) عرف القشيري الولي في « الرسالة » (ص٢٠١) بقوله : الولي له معنيان :
أحدهما : فعيل بمعنىٰ مفعول ، وهو من يتولى الله سبحانه وتعالىٰ أمره ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ، فلا يكله إلىٰ نفسه لحظة ، بل يتولى الحق سبحانه رعايته .
والثاني : فعيل مبالغة من الفاعل ، وهو الذي يتولىٰ عبادة الله تعالىٰ وطاعته ، فعبادته تجري على التوالي من غير أن يتخللها عصيان .
ومن شرط الولي أن يكون محفوظاً كما أن من شرط النبي أن يكون معصوماً . اهـ

المسألة الثالثة : [في دوام الولاية][1] :

اِعلم : أن هـٰذه الأمة ـ زادها الله شرفاً ـ **لا تزال الولاية ثابتة فيها إلىٰ يوم القيامة** .

والدليل علىٰ ذلك : أنه قد ثبت من غير ما طريق : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يزال في أمتي أربعون علىٰ قلب إبراهيم الخليل » أخرجه الطبراني في « معجمه » [« الكبير » ١٠/ ١٨١] ، وهو نصٌّ في ثبوت الولاية في هـٰذه الأمة إلىٰ يوم القيامة ، ونص أيضاً في قولهم : فلان علىٰ مشرب فلان .

ومعنىٰ كونهم علىٰ قلب إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام : أنهم يسيرون كسيرته ، ويتابعون طريقته مع الله سبحانه وتعالىٰ ، ثم مع عباده .

وخُصَّ القلب بالذكر ؛ لأنه قانون الصلاح والفساد ، كما ثبت في الحديث المشهور من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما : « ألا وإن في الجسد مضغة ، إذا صلحت . . صلح الجسد كلّه ، وإذا فسدت . . فسد الجسد كلّه ، ألا وهي القلب »[2] .

المسألة الرابعة : [في الكلام عن عبارات الأولياء الموهمة] :

قد يجد الناظر في كتب القوم ما ظاهره يخالف ظاهر الشَّرع ، ولا شك أن الأمر في ذلك علىٰ قسمين :

أحدهما : أن يوجد ذلك في كلام من هو مجمع علىٰ ولايته ؛ كأبي يزيد البسطامي رحمه الله ، فهـٰذا يجب تأويله وحمله علىٰ محمل صحيح ، وسبب وروده عنه ـ والعلم عند الله تعالىٰ ـ أحد أمرين :

ـ إما استغراقه وغيبته عن نفسه وحسه ، فيبدو ذلك منه حال الاستغراق والغيبة . . فيُسامَح .

ـ وإما اعتماداً علىٰ لطف الله سبحانه وتعالىٰ ؛ كما قال سيدنا الكليم موسىٰ عليه الصلاة والسلام : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ ولا يصح ذلك عن غيره عليه الصلاة والسلام .

---

(١) قال الإمام الفخر الرازي في « تفسيره » (١٦/ ٢٢٠ـ٢٢١) لقوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ : إنه تعالىٰ أمر المؤمنين بالكون مع الصادقين ، ومتىٰ وجب الكون مع الصادقين . . فلا بد من وجود الصادقين في كل وقت ، وما لا يتم الواجب إلا به . . فهو واجب ، فدلت هـٰذه الآية علىٰ وجود الصادقين .

(٢) أخرجه البخاري (٥٢) ، ومسلم (١٥٩٩) .

الثاني : أن يوجد ذلك في كلام من ليس مجمَعاً علىٰ ولايته ، فهـٰذا يعرض عنه وعن قوله ، وهـٰكذا نفعل في هـٰذا الكتاب إن شاء الله تعالىٰ .

وسبب ذلك : أن الأقوال لا تدل على الولاية في نقير ولا قطمير[1] ؛ فإن الفلاسفة والملاحدة قد تكلموا بأرقّ تصوفٍ وأحسنه ؛ كابن سينا وغيره ، فلا يعرج علىٰ كلام أحد حتىٰ تثبت ولايته عند من له قدم راسخ في العلم والولاية .

وقد قال شيخ الإسلام شهاب الدين السهروردي ـ قدس الله روحه ـ : إن بعضهم يتكلم بالطامات عن قوة نفس وذكاء قريحة .

وقد قال لابن حمويه وقد دخل عليه بكراس في كمه صنَّفه في علم الحروف ، وكان الشيخ في سُبْحَة الضحىٰ وسلم عن ركعتين : هاتان الركعتان خير مما في كمك[2] .

فدلَّ علىٰ أنه لا اعتبار بالكلام ، وأن الاعتماد في أمر الولاية **إنما هو على العمل علىٰ وجه السنة الشريفة** ، علىٰ شارعها أفضل الصلاة والسلام ، مع أنها عناية محضة ربانية ، ولـٰكن الكلام إنما يرد على الأسباب .

وهـٰذا حين أشرع في مقصود الكتاب مستعيناً بالله الكريم الوهاب ، مطرزاً الكتاب بذِكر العشرة المشهود لهم بالجنة ، ثم جمع من أعلام الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .

* * *

---

(١) **النقير** : هو النكتة في النواة ، كأن ذلك الموضع نقر منها ، **القطمير** : القشرة الشفافة التي في ظهر النواة ، والمراد من ذلك كله : نفي أدنىٰ قيمة عن الشيء الموصوف بهـٰذه الأوصاف .

(٢) **سُبْحة الضحىٰ** : نافلة الضحىٰ ، وإنما خُصَّت النافلة بالسبحة ؛ لأن التسبيحات في الفرائض نوافل ، فقيل لصلاة النافلة : سُبحة ؛ لأنها نافلة كالتسبيحات والأذكار في أنها غير واجبة .

العشرة المشهود لهم بالجنة

رضوان الله عليهم أجمعين

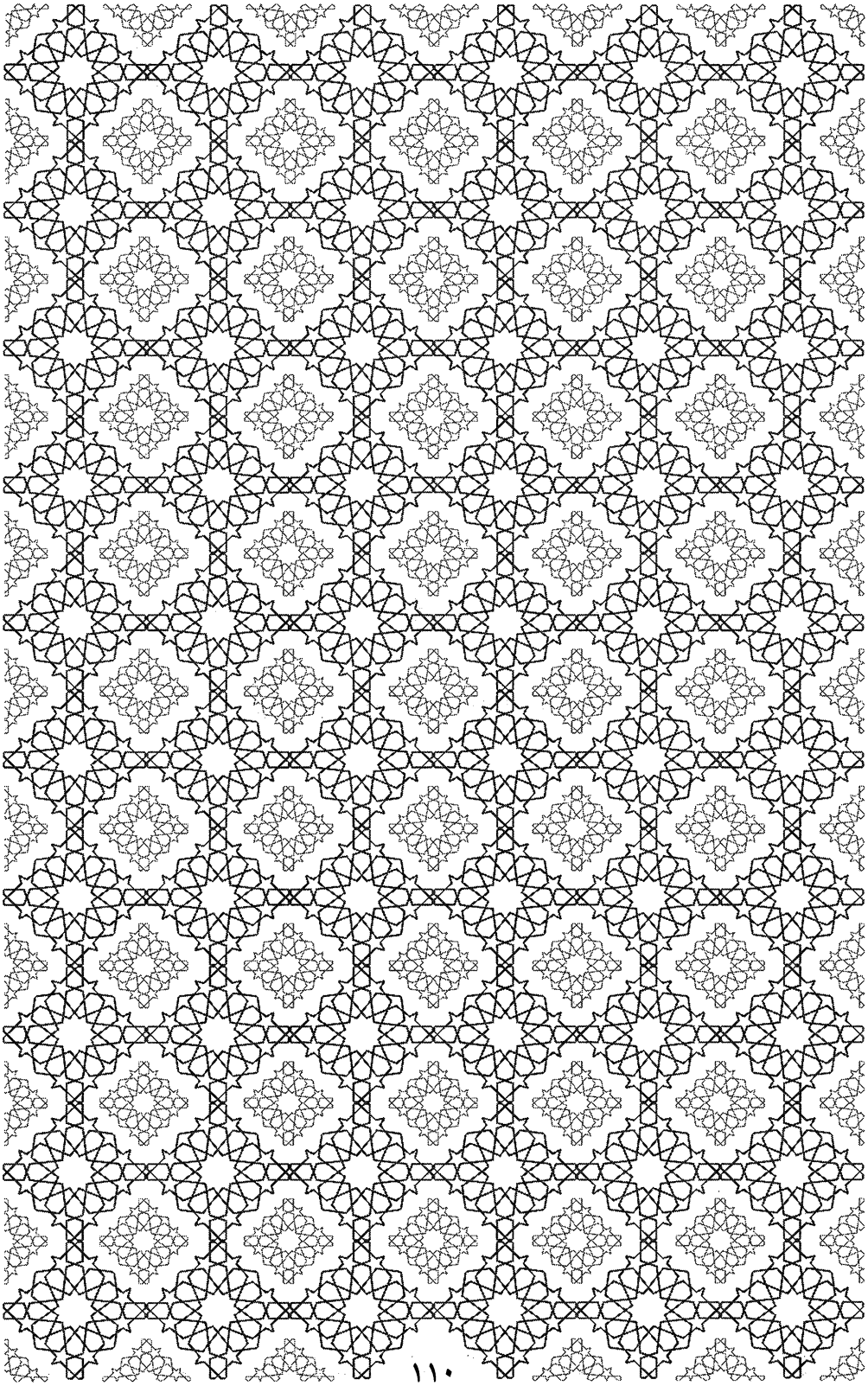

أول الأئمة : خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم الإمام

أبو بكر الصديق
رضي الله عنه

قال شيخ الإسلام النووي ـ قدس الله روحه ـ : اسمه : عبد الله بن أبي قحافة ، عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مُرَّة بن كعب بن لؤي بن غالب ، القرشي ، التيمي .

يلتقي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرة بن كعب .

وأم أبي بكر رضي الله عنهما : أم الخير سلمىٰ بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة .

أسلم أبواه ، وصحبا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال العلماء : ولا يُعرف أربعة متناسلون بعضهم من بعض صحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم . . إلا آل أبي بكرٍ رضي الله عنهم ، وهم : **عبد الله** ابن **أسماء**[1] بنت **الصديق أبي بكر** بن **أبي قحافة** ، فهـٰؤلاء الأربعة صحابة متناسلون .

واسم أبي بكر الصديق : (عبد الله) على الصحيح المشهور ، وقيل : اسمه عتيق ، والصواب الذي عليه كافة العلماء : أن عتيقاً لقب له ؛ لعتقه من النار ، وقيل : لحُسن وجهه وجماله ، قاله الليث بن سعد وجماعة .

وقال مصعب بن الزبير وغيره : إنما قيل له عتيق ؛ لأنه لم يكن في نسبه شيء يعاب به .

وأجمعت الأمة علىٰ تسميته صِدِّيقاً ، وسبب تسميته بذلك : أنه بادر إلىٰ تصديق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولازم الصدق ، فلم تقع منه هناة ما ، ولا وقفة في حال من الأحوال .

وكانت له في الإسلام المواقف الرفيعة :

---

(١) هو عبد الله بن الزبير رضي الله تعالىٰ عنهما .

منها : قضية يوم ليلة الإسراء ، وثباته ، وجوابه للكفار في ذلك .

زاد في « بهجة الأسرار » : قال أبو العباس بن عطاء رحمه الله : قال الأئمة رحمهم الله : والسر في ذلك ـ والله أعلم ـ : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين عُرج به إلى السماء . . كُشف له عن الملكوت والمملكة ، فرآها مشاهدةً وعِياناً ، وكُشف لأبي بكر الصديق رضي الله عنه في سره ، فلما رجع النبي صلى الله عليه وسلم وأخبرهم بما رأىٰ وعاين . . قال له أبو بكر رضي الله عنه : صدقت يا رسول الله ، فوافق ما شهده أبو بكر رضي الله عنه في سره ما شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم عياناً ، ولهـٰذا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه الصلاة والسلام ليلة المعراج : « إن قومي لا يصدقوني » فقال له : يصدقك أبو بكر ؛ لعلمه بأنه قد كوشف بذلك في سره رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ .

وقال النووي ـ قدس الله روحه ـ : ومنها : هجرته مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وترك عياله وأطفاله ، وملازمته في الغار وسائر الطريق .

ثم : كلامه يوم بدر ، ويوم الحديبية ، حين اشتد علىٰ غيره الأمر في تأخر دخول مكة .

ثم : بكاؤه حين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن عبداً خيّره الله بين الدنيا وبين ما عند الله »[1] .

ثم : ثباته في وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخطبته الناس وتسكينهم .

ثم : قيامه في قضية البيعة بمصلحة المسلمين .

ثم : اهتمامه وثباته في بعث جيش أسامة بن زيد رضي الله عنه إلى الشام ، وتصميمه في ذلك .

ثم : قيامه في قتال أهل الردة ، ومناظرته للصحابة رضوان الله تعالىٰ عليهم حتىٰ حجهم بالدلائل ، وشرح الله صدورهم لِما شرح له صدره من الحق ؛ وهو قتال أهل الردة .

ثم : تجهيزه الجيوش إلى الشام لفتوحه ، وإمدادهم بالأمداد .

ثم : خَتَمَ ذلك بمهم هو من أحسن مناقبه وأجل فضائله : وهو استخلافه على المسلمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وتفرسه فيه ، ووصيته له ، واستيداعه الله عزَّ وجلَّ الأمة ، فخلفه الله عز وجل فيهم أحسن الخلافة ، فظهر بعمر ـ الذي هو حسنةٌ من حسناته ، وواحدة

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٩١) .

من فعلاته ـ تمهيد الإسلام ، وإعزاز الدين ، وتصديق وعد الله سبحانه وتعالىٰ : ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ .

وكم للصديق رضي الله عنه من موقف وأثر ، ومن يحصي مناقبه أو يحيط بفضائله غيرُ الله عز وجل ؟! ولـٰكن لا بد من التذكير بنُبذٍ يسيرةٍ ؛ تبركاً للكتاب بها ، ولعله يقف عليها من قد يخفىٰ عليه بعضها .

روي للصديق رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مئة حديث واثنان وأربعون حديثاً ، اتفق البخاري ومسلم منها علىٰ ستة ، وانفرد البخاري بأحد عشر ، ومسلم بحديث .

وسبب قلة رواياته رضي الله عنه ـ مع تقدم صحبته وملازمته للنبي صلى الله عليه وسلم ـ : أنه تقدمت وفاته قبل انتشار الأحاديث ، واعتناء التابعين بسماعها وتحصيلها وحفظها .

روىٰ عنه عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، وعبد الرحمـٰن ابن عوف ، وابن مسعود ، وحذيفة ، وابن عمر ، وابن عباس ، وابن عمرو بن العاصي ، وزيد بن ثابت ، والبراء بن عازب ، وأبو هريرة ، وعقبة بن الحارث ، وابنته عائشة ، وطارق بن شهاب ، وجماعةٌ من أعيانِ الصحابة رضي الله عنهم أجمعين .

وروىٰ عنه جماعات من التابعين ، منهم : قيس بن أبي حازم ، وأبو عبد الله الصُّنابِحِيُّ ، وخلائق .

وهو أول من آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم في أحد الأقوال ، وهو مذهب ابن عباس ، وعمرو بن عبسة ، وحسان بن ثابت الصحابيين ؛ وهو مذهب إبراهيم النخعي ، وغيره .

وقيل : أولهم علي ، **وقيل** : خديجة ، وادعى الثعلبي الإجماع فيه ، وأن الخلاف إنما هو فيمن هو أولهم بعدها .

وأسلم علىٰ يده خلائق من الصحابة ، منهم خمسة من العشرة ؛ وهم : عثمان ، والزبير ، وطلحة ، وعبد الرحمـٰن ، وسعد بن أبي وقاص .

وأعتق سبعةً كانوا يعذَّبون في الله ، منهم : بلال ، وعمار[1] .

---

(١) وبقيتهم : زنيرة وهي جارية من بني عامر ، وأم عبيس ، وجارية من بني عمرو بن مؤمِّل ، والنهدية وابنتها .

وكان رضي الله عنه من رؤساء قريش في الجاهلية ، وأهل مشاورتهم ، ومحبَّباً فيهم ، ومُؤَالفاً لهم ، فلما جاء الإسلام . . آثره علىٰ ما سواه ، ودخل فيه أكمل دخول .

ولم يزل مترقِّياً في معارفه متزايداً في محاسنه حتىٰ توفي رضي الله عنه .

وصحب النبي صلى الله عليه وسلم من حين أسلم إلىٰ أن توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يفارقه في حضر ولا سفر .

وثبت في « الصحيح » [خ ٣٦٩٢] : عن عائشة رضي الله عنها قالت : (لم أعقل أبويَّ إلا وهما يدينان الدِّين ، ولم يمرَّ علينا يوم إلا ويأتينا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفي النهار بكرةً وعشياً ، ولما ابتلي المسلمون . . خرج أبو بكر مهاجراً نحو الحبشة . . .) وذكرَتِ الحديث ، ورجوع أبي بكر من الطريق إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، إلىٰ أن قالت : فبينما نحن جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة[1] . . قال قائل لأبي بكر : هـٰذا رسول الله صلى الله عليه وسلم متقنعاً في ساعة لم يكن يأتينا فيها ، فقال أبو بكر : فدىً له أبي وأمي ، ما جاء به في هـٰذه الساعة إلا أمر ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستأذن ، فأذن له ، فدخل ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر : « أخرِجِ مَن عندَك » ، فقال أبو بكر : إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله ، قال : « فإني قد أُذن لي في الخروج » ، فقال أبو بكر : الصحابةَ ـ أي : أسألك الصحبة ـ بأبي أنت يا رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نعم » ، قال أبو بكر : فخذ ـ بأبي أنت يا رسول الله ـ إحدىٰ راحلتيَّ هاتين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بالثمن » .

قالت عائشة : (فجهزناهما أحثَّ الجهاز[2] ، وصنعنا لهما سفرة في جِراب[3] ، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعةً من نطاقها[4] ، فربطت به علىٰ فم الجراب ، فبذلك سميت ذات النطاق ـ وفي رواية : ذات النطاقين ـ قالت : ثم لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر بغارٍ في جبل ثور ، فمكثا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله ابن أبي بكر وهو غلام شاب ثَقِفٌ[5] . . .) ثم ذكرت تمام الحديث في خروجهما إلى المدينة ، ولحاق

---

(١) **نحر الظهيرة** : هو حين تبلغ الشمس منتهاها من الارتفاع .

(٢) **أحث** : أسرع ، **والجِهَاز** : ما يحتاجه المسافر من متاع .

(٣) **الجِراب** : وعاء الزاد .

(٤) **النطاق** : ما يشد به الإنسان وسطه .

(٥) **ثَقِفٌ** : ذو فطنة وذكاء ، عارف بما يحتاج إليه .

سراقة بن مالك بهما ، وارتطام فرسه في جَلَدٍ من الأرض[1] .

وهاجر رضي الله عنه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وترك عياله وأولاده وماله ؛ رغبةً في طاعة الله سبحانه وتعالىٰ ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فأقام معه في الغار ثلاثة أيام ، وخبرُ الغار مشهور .

قال الله تعالىٰ : ﴿ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ . انتهىٰ [« التهذيب » ٢/ ١٨١-١٨٣] .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : اِعلم : أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه له خصائص كثيرة لم يشاركه فيها أحد من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .

منها : أنه لم يرد في القرآن الكريم اسم الصحبة لغيره ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِ ﴾ ، والمراد به : أبو بكر بالاتفاق ؛ فقد ورد النص القاطع علىٰ ثبوت صحبته ، حتىٰ قال بعض العلماء : **من أنكر صحبة أبي بكر رضي الله عنه . . كفر** ؛ لتكذيبه نص القرآن .

ومنها : قوله تعالىٰ : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ ، فكان رضي الله عنه له في هٰذه المعية والتسلية مزيد اختصاص لم يشاركه فيه صحابي .

فإن قلت : هٰذا التشريف حصل لجميع الصحابة ؛ لقوله عز وجل ﴿ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ .

قلت : لا شك أن معية أبي بكر رضي الله عنه أخص ، وعلىٰ تقدير التساوي . . فامتيازه بأمرين ، وهما : المعية والتسلية ، فحصل الاختصاص .

ومنها : قوله تعالىٰ : ﴿ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ ﴾ فيه إشارة إلىٰ شيئين .

أحدهما : أنه ثانيه من بعده في الإمرة .

والثاني : أن اسمه لم يفارق اسمه ، فإنه كان يقال له : يا صاحب رسول الله ، وبعده يا خليفة رسول الله ، حتىٰ توفي ، فقيل لمَن بعده ـ وهو عمر ـ : أمير المؤمنين ، وانقطعت خصيصة ﴿ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ ﴾ .

ثم قال أيضاً مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : واستدل الإمام الشافعي ـ

---

(١) أي : أرض صُلبة .

رحمه الله ـ علىٰ صحة خلافته بنص كتاب الله عز وجل ، وهو قوله تعالىٰ : ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ .

وجه الدَلالة : أن القوم المطلوب قتالهم إما بنو حنيفة ، أو الروم .

فإن كان بنو حنيفة . . فالداعي إلىٰ قتالهم والمقاتل لهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، فهو واجب الطاعة ؛ لتوعد الله عز وجل من لا يجيبه بالعذاب الأليم ، ووعده لمن أطاعه بالأجر العظيم .

وإن كان المراد الروم . . فالداعي إلىٰ قتالهم والمقاتل لهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فهو واجب الطاعة ؛ لتوعد الله عز وجل من لا يجيبه بالعذاب الأليم ، ووعده لمن أطاعه بالأجر العظيم ، فهو مستخلف من جهته .

والآية صريحة الدلالة على التقديرين ؛ لأنه إن كان المرادَ بنو حنيفة . . فبالمطابقة في الإمام أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وباللزوم في أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ، وإن كان المرادَ الروم . . فبالمطابقة في عمر رضي الله عنه ، وباللزوم في أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

وإن أُريد الفريقان . . فبالمطابقة فيهما جميعاً ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

ومنها : أنه أول من أسلم من الرجال البالغين .

ومنها : تسميته صديقاً ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ .

ومنها : خلافة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكفاه فخراً قول المهاجرين والأنصار : يا خليفة رسول الله .

ومنها : إرسال السلام إليه مع جبريل عليه الصلاة والسلام من الحق جل جلاله ، وهـٰذه الخَصلة لم يشاركه فيها غير خديجة رضي الله عنها .

ومنها : أن الله سبحانه وتعالىٰ قال له علىٰ لسان جبريل عليه الصلاة والسلام : هل أنت راض عني في فقرك[1] .

---

(١) ذكره الذهبي في « ميزان الاعتدال » (١٢٨/٥) .

ومنها : أن الملائكة عليهم الصلاة والسلام في السماء تخللت بالعبا من أجله ؛ فإنه رضي الله عنه تخلل بالعبا[1] .

ومنها : أنه أنفق جميع ماله علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومنها : قضية الإسراء ، وثباته فيها ، وجوابه للكفار .

ومنها : ملازمته في الغار وسائر الطريق .

ومنها : كلامه يوم بدر ويوم الحديبية حين اشتد علىٰ غيره الأمر في تأخر دخول مكة .

ومنها : تقديم النبي صلى الله عليه وسلم له في الصلاة مع مراجعته في ذلك .

ومنها : إشارة النبي صلى الله عليه وسلم في أن الأمر له من بعده صلى الله عليه وسلم في قوله للمرأة : « تجدين أبا بكر » ، ولا شك أن هـٰذا كالصريح في استخلافه .

ومنها : الأمر بسد كل خوخة إلا خوخة أبي بكر رضي الله عنه[2] .

ومنها : السر الذي وقر في صدره ؛ لما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال : « ما فضلكم أبو بكر بكثرة صومٍ ولا صلاةٍ ، ولـٰكن بسر وقر في صدره » ، لـٰكن قال غير واحد من الحفاظ : إن هـٰذا الحديث إنما هو من كلام أبي بكر بن عياش .

ومنها : أَنه أول من أَفتىٰ بحضرةِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وعبَّر الرؤيا .

ومنها : ثباته يوم وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيامه ذلك القيام ، وتسكين قلوب الصحابة رضي الله عنهم بالقرآن ، وهو رضي الله عنه لم يزل ساكن القلب مع الرحمـٰن .

ومنها : قيامه بمصالح البيعة .

ومنها : قيامه في أمر الردة ، وتجهيز جيش أسامة .

ومنها : أنه ختم الأمر بمهم هو من أحسن مناقبه ، وهو استخلافه عمر رضي الله عنهما .

ومنها : أنه أفضل الأمة وأحبُّهم إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال الشافعي رحمه الله : أجمع الناس علىٰ خلافة أبي بكر رضي الله عنه .

---

(١) **تخللت** : التفَّت ، وتخلل الثوب : جمع بين طرفيه بخلال من عود أو حديد .

(٢) **الخوخة** : باب صغير وسطَ باب كبير نصب حاجزاً بين دارين .

واستخلف أبو بكرٍ عمرَ ، ثم جعل عمرُ الشورىٰ إلىٰ ستة أن يولوها واحداً ، فولَّوها عثمان .

قال الشافعي رحمه الله : وذلك أنه اضطر الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يجدوا تحت أديم السماء خيراً من أبي بكر ، فولَّوه رقابهم .

ومنها : قوله صلى الله عليه وسلم : « لو كنت متخذاً خليلاً . . لاتخذت أبا بكر خليلاً . . . » الحديث ، إلىٰ غير ذلك مما لا ينحصر ، والله أعلم .

وقال الشيخ الإمام العلامة مُفتي واسط في عصره ، جمال الدين الواسطي ـ تغمده الله برحمته ـ في كتابه المسمىٰ بـ « الآيات البينات » : ذكر أهل العلم بالتفسير والأخبار : أن الله عز وجل لما أهبط آدم عليه الصلاة والسلام إلى الأرض . . أهبط إليه تابوتاً فيه صور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من أولاده ، وفيه بيوت بعدد الرسل منهم ، وآخر البيوت بيت محمد صلى الله عليه وسلم من ياقوتةٍ حمراء ، وإذا هو قائم يصلي صلى الله عليه وسلم ، وعلىٰ يمينه الكهل المطيع ، مكتوب علىٰ جبينه : أول من يتبعه من أمته أبو بكر الصديق .

وعن يساره الفاروق عمر ، مكتوب علىٰ جبينه : قرن من حديد ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، ومِن ورائه ذو النورين عثمان ، آخذ بحُجزته[1] ، مكتوب علىٰ جبينه : بار من البررة ، ومن بين يديه علي بن أبي طالب سيفه علىٰ عاتقه ، مكتوب علىٰ جبينه : هـٰذا أخوه وابن عمه ، المؤيد بالنصر من عند الله عزَّ وجلَّ ، وخؤولته ، وعمومته ، والخلفاء ، والنقباء ، والكتيبة الخضراء وهم : أنصار الله وأنصار رسوله صلى الله عليه وسلم .

وكان التابوت نحواً من ثلاثة أذرع في ذراعين ، وكان من عود الشمشار مموَّهاً بالذهب[2] ، وكان عنده إلىٰ أن مات عليه الصلاة والسلام .

ثم توارثه أولاده حتىٰ بلغ إلىٰ إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

ثم كان عند إسماعيل عليه الصلاة والسلام ؛ لأنه أكبر أولاده .

ثم كان عند قيدار ، فنازعه فيه ولد إسحاق عليه الصلاة والسلام ، فامتنع عن تسليمه .

ثم حمل إلىٰ يعقوب عليه الصلاة والسلام ، فلما قرب التابوت من يعقوب عليه الصلاة

---

(١) **الحُجْزة** : موضع شد الإزار .

(٢) **الشمشار** : نوع من الشجر .

والسلام . . صَرَّ صرةً[1] سمعها يعقوب ، فقال لبنيه : أقسم بالله ؛ لقد جاءكم قيدار بالتابوت ، فقوموا نحوه ، فقام يعقوب عليه الصلاة والسلام وأولاده جميعاً ، فلما نظر يعقوب عليه الصلاة والسلام إلىٰ قيدار . . قال له : إن نور محمد صلى الله عليه وسلم قد ظهر ، قال يعقوب : ألا أُبشرك ببشارة ، اعلم أن الغاضرة قد ولدت البارحة غلاماً . وكانت عربية من جُرْهُمٍ .

قال قيدار : وما علمك يا بن عمي وأنت بأرض الشام ؟!

قال : رأيت أبواب السماء قد فتحت ، ورأيت نوراً كالعمود بين السماء والأرض ، ورأيت الملائكة ينزلون من السماء بالبركات والرحمة ، فعلمت أن ذلك من أجل محمد صلى الله عليه وسلم .

فرَدَّ التابوت إلىٰ يعقوب عليه الصلاة والسلام ، ورجع إلىٰ أهله ، فوجدها قد ولدت غلاماً ، وفيه نور محمد صلى الله عليه وسلم .

قالوا : وكان التابوت في بني إسرائيل إلىٰ أن وصل إلىٰ موسىٰ عليه الصلاة والسلام ، ولم يزل عند بني إسرائيل حتىٰ غلبتهم عليه العمالقة ، ثم أعيد إليهم في ولاية طالوت ؛ قال الله تبارك وتعالىٰ : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

أخبرهم بذلك إسماعيل عليه الصلاة والسلام وهو نبي مرسل ، فجاءت الملائكة به إلىٰ طالوت تحمله بين السماء والأرض ، ينظرون إليه حتىٰ وضعته عندهم ، فملَّكوه عليهم ، والله سبحانه أعلم . انتهىٰ .

وقال الشيخ محيي الدين النووي ـ قدس الله روحه ـ : وكان النبي صلى الله عليه وسلم يكرم أبا بكر ويجله ، ويُعَرِّفُ أَصحابَه مكانه ، ويُثني عليه في وجهه ، واستخلفه في الصلاة ، ومناقبه غير منحصرة .

قال ابن إسحاق : كان خروج النبي صلى الله عليه وسلم للهجرة بعد العقبة الثانية بشهرين

---

(١) صرَّ صرة : صوَّت وصاح أشد الصياح .

وأيام ، بايعوه في العقبة في اليوم الأوسط من أيام التشريق ، وخرجا لهلال شهر ربيع الأول ، وشهد أبو بكر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدراً ، وأحداً ، والخندق ، وبيعة الرضوان بالحديبية ، وخيبر ، وفتح مكة ، وحنيناً ، والطائف ، وتبوك ، وحجة الوداع ، وسائر المشاهد .

وأجمع أهل السير : علىٰ أن أبا بكر لم يتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في مشهد من مشاهده .

قال محمد بن سعد : ودفع رسول الله صلى الله عليه وسلم رايته العظمىٰ يوم تبوك إلىٰ أبي بكر ، وكانت سوداء ، وكان فيمن ثبت معه يوم أحد ويوم حنين . انتهىٰ [« التهذيب » ١٨٣/٢] .

وروى الحافظ البيهقي في « السنن الكبرىٰ » بإسناده : عن عائشة رضي الله عنها قالت : لما استُخلف أبو بكر رضي الله عنه . . قال : (لقد علم قومي أن حرفتي لم تكن تعجز عن مؤونة أهلي ، وقد شُغِلْتُ بأمر المسلمين ، فسيأكل آل أبي بكر من هـٰذا المال ، وأحترف في مال نفسي) .

وفي رواية : خطب الناس ثم قال : (إن أكيس الكَيْس التقوىٰ ، وأحمق الحمق الفجور ، والصدق عندي الأمانة ، والكذب الخيانة ، والقوي عندي ضعيف حتىٰ آخذ منه الحق ، والضعيف عندي قوي حتىٰ آخذ له الحق ، ألا وإني قد وُلِّيت عليكم ولست بأخيركم ـ قال الحسن : هو والله خيرهم غير مدافع ، ولـٰكن المؤمن يهضم نفسه ـ ولوددت أنه كفاني هـٰذا الأمرَ أحدُكم) .

قال الحسن : صدق والله ، فأنفق في مدة خلافته ثمانية آلاف درهم .

فلما حضره الموت . . قال : (قد كنت قلت لعمر : إني أخاف ألاَّ يسعني أن آكل من هـٰذا المال ، فغلبني ، فإذا مت . . فخذوا من مالي ثمانية آلاف درهم ، فضعوها في بيت المال) انتهىٰ [« السنن الكبرىٰ » ٣٥٣/٦] .

* * *

فصل

مختصر في بعض الأحاديث الصحيحة المصرِّحة بفضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه

قال النووي ـ قدس الله روحه ـ : رُوِّينا عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال : اشترىٰ أبو بكر من عازب رحلاً بثلاثة عشر درهماً ، فقال أبو بكر لعازب : مُرِ البراء فليحمل لي الرَّحْل ، فقال عازب : لا ، حتىٰ تحدثنا كيف صنعت أنت ورسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرجتما من مكة والمشركون يطلبونكم .

فقال : ارتحلنا من مكة ، فسرنا ليلتنا ويومنا حتىٰ أظهرنا ، وقام قائم الظهيرة ، فرميت ببصري هل أرىٰ من ظل نأوي إليه ، فإذا صخرة أتيناها ، فنظرت ، فإذا فيها بقية ظل ، فسويته ، ثم فرشت للنبي صلى الله عليه وسلم ، ثم انطلقت أنظر ما حولي هل أرىٰ من الطلب أحداً ، فإذا أنا براعي غنم يسوق غنمه ، فسألته ، فقلت : لمن أنت يا غلام ؟ فقال : لرجل من قريش ، سماه لي فعرفته ، فقلت : هل في غنمك من لبن ؟ فقال : نعم ، قلت : فهل أنت حالب لبناً ؟ قال : نعم ، فأمرته ، فاعتقل شاة من غنمه ، ثم أمرته أن ينفض ضرعها من الغبار [والشعر والقذىٰ] ، ثم أمرته أن ينفض كفيه ، فنفض ، فحلب لي كُثْبَة[1] من لبن ، وقد جعلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم إداوة علىٰ فيها[2] خرقة ، فصببت عليها اللبن حتىٰ برد أسفله ، فانطلقت به إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فوافيته قد استيقظ ، فقلت : اشرب يا رسول الله ، فشرب حتىٰ رضيت ، ثم قلت : قد آن الرحيل يا رسول الله ؟ قال : « بلىٰ » .

والقوم يطلبوننا ، فلم يدركنا أحد منهم غير سراقة بن مالك علىٰ فرس له .

فقلت : يا رسول الله ؛ هـٰذا الطلب قد لحقنا ، فقال : « لا تحزن ، إن الله معنا » رواه البخاري [٣٤١٩] ، ومسلم [٢٠٠٩] ، ورواياه أطول من هـٰذا .

---

(١) **الكُثْبَةُ** : القليل المجتمع من اللبن .

(٢) أي : فمها ، **والإدواة** : إناء صغير يحمل فيه الماء .

وعن أنس ، عن أبي بكر رضي الله عنه قال : قلت للنبي صلى الله عليه وسلم وأنا في الغار : لو أن أحدهم نظر تحت قدميه . . لأبصرنا ؛ فقال : « ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما ؟! » رواه البخاري [٣٤٥٣] ، ومسلم [٢٣٨١] .

وفي رواية : (نظرت إلىٰ أقدام المشركين ونحن في الغار وهم علىٰ رؤوسنا ، فقلت : يا رسول الله ؛ لو أن أحدهم نظر إلىٰ تحت قدميه . . لأبصرنا . . .) وذكر تمامه .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : (خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس وقال : « إن الله تبارك وتعالىٰ خيَّر عبداً بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ذلك العبد ما عند الله عزَّ وجلَّ » ، فبكىٰ أبو بكر ، فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عبد خُيِّرَ ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المخيَّر ، وكان أبو بكر أعلَمَنا) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من أَمَنِّ الناس عليَّ في صحبته وماله . . أبا بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي . . لاتخذت أبا بكر ، ولٰكن أخوَّة الإسلام ومودته ، لا يبقين باب إلا سد إلا باب أبي بكر » . رواه البخاري [٣٤٥٤] ومسلم [٢٣٨٢] .

عن ابن عمر رضي الله عنهما : (كنا نخيِّرُ[1] بين الناس في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنُخيِّر أبا بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان بن عفان) رواه البخاري [٣٤٥٥] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لو كنت متخذاً من أمتي خليلاً . . لاتخذت أبا بكر ، ولٰكن أخي وصاحبي » رواه البخاري [٣٤٥٦] .

وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال : أتت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأمرها أن ترجع إليه ، قالت : أرأيتَ إن جئت ولم أجدك ـ كأنها تقول الموت ـ قال : « إن لم تجديني . . فَأْتي أبا بكر » رواه البخاري [٣٤٥٩] ، ومسلم [٢٣٨٦] ، من طرق .

وعن عمار رضي الله عنه قال : (رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وما معه إلا خمسة أعبد ، وامرأتان ، وأبو بكر)[2] رواه البخاري [٣٤٦٠] .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : (كنت جالساً عند النبي صلى الله عليه وسلم ؛ إذ أقبل أبو بكر آخذاً بطرف ثوبه حتىٰ أبدىٰ عن ركبته ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أما

---

(١) تخيير مفاضلة .

(٢) والأعبد المذكورون هم : بلال ، زيد بن حارثة ، عامر بن فهيرة ، أبو فكيهة ، وياسر والد عمار والمرأتان هما : خديجة ، وسمية والدة عمار ، أو أم أيمن .

صاحبكم . . فقد غامر » فَسَلَّمَ وقال : إني كان بيني وبين ابن الخطاب شيء ، فأسرعت إليه ، ثم ندمت ، فسألته أن يغفر لي ، فأبىٰ عليَّ ، فأقبلت إليك ، فقال صلى الله عليه وسلم : « يغفر الله لك يا أبا بكر » ثلاثاً) .

ثم إن عمر ندم ، فأتىٰ منزل أبي بكر ، فسأل : أثَمَّ أبو بكر ؟ فقالوا : لا ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فجعل وجه النبي صلى الله عليه وسلم يتمعَّر حتىٰ أشفق أبو بكر ، فجثا علىٰ ركبتيه ، فقال : (يا رسول الله ؛ أنا كنت أظلَمَ مرتين ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله بعثني إليكم ، فقلتم : كذبت ، وقال أبو بكر : صدقت ، وواساني بنفسه وماله ، فهل أنتم تاركوا لي صاحبي ؟ » مرتين ، فما أوذي بعدها) رواه البخاري [٣٤٦١] .

قوله : (تمعَّر) بالعين المهملة ؛ أي : تغير .

وعن عمرو بن العاصي رضي الله عنه : (أن النبي صلى الله عليه وسلم بعثه علىٰ جيش ذات السلاسل ، قال : فأتيته ، فقلت : أي الناس أحب إليك ؟ قال : « عائشة » ، فقلت : مِن الرجال ؟ قال : « أبوها » ، قلت : ثم مَن ؟ قال : « ثم عمر بن الخطاب » . . . فعدَّ رجالاً) رواه البخاري [٣٤٦٢] ، ومسلم [٢٣٨٤] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « بينما راع في غنمه عدا عليه الذئب ، فأخذ منها شاة ، فطلبه الراعي ، فالتفت إليه الذئب ، فقال : من لها يوم السبع يوم ليس لها راع غيري!! » ، وبينما رجل يسوق بقرة قد حَمَل عليها ، فالتفتت إليه ، فكلمته ، فقالت : إني لم أخلق لهـذا ، ولـكني خلقت للحرث » ، فقال الناس : سبحان الله! بقرة تتكلم ؟! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أؤمن بذلك وأبو بكر وعمر » رواه البخاري [٣٤٦٣] ، ومسلم [٢٣٨٨] من طرق ، وفي بعضها : (وما ثَمَّ أبو بكر وعمر) أي : لم يكونا في المجلس ، فشهد لهما بالإيمان بذلك ؛ لعلمه بكمال إيمانهما .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من جر ثوبه خيلاء . . لم ينظر الله إليه يوم القيامة » ، فقال أبو بكر : إن أحد شِقَّيْ ثوبي يسترخي إلا أن أتعاهد ذلك منه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنك لست تصنع ذلك خيلاء » رواه البخاري [٣٤٦٥] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من

أنفق زوجين من شيء في سبيل الله . . دعي من أبواب الجنة : يا عبد الله ؛ هـٰذا خير ، فمن كان من أهل الصلاة . . دعي من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الجهاد . . دعي من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصدقة . . دعي من باب الصدقة ، ومن كان من أهل الصيام . . دعي من باب الريان » ، فقال أبو بكر : ما علىٰ من يدعىٰ من تلك الأبواب من ضرورة ، هل يدعىٰ منها كُلِّها أحد يا رسول الله ؟ قال : « نعم ، وأرجو أن تكون منهم يا أبا بكر » رواه البخاري [١٧٩٨] ، ومسلم [١٠٢٧] .

وعن أنس رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم صَعِدَ أُحداً وأبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ، فرجف بهم ، فقال : « اثبت أحد ؛ فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان » رواه البخاري [٣٤٧٢] .

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه في حديثه الطويل حين دخل النبي صلى الله عليه وسلم بئر أريس قال : فجلست عند الباب ، فقلت : لأكونن بواب رسول الله صلى الله عليه وسلم اليوم ، فجاء أبو بكر ، فقلت : يا رسول الله ؛ هـٰذا أبو بكر يستأذن ، فقال : « ائذن له وبشره بالجنة » . . . وذكر الحديث . رواه البخاري [٣٤٧١] ، ومسلم [٢٤٠٣] .

وعن عروة بن الزبير قال : سألت عبد الله بن عمرو بن العاصي رضي الله عنهم عن أشد ما صنع المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ، فوضع رداءه في عنقه ، فخنقه به خنقاً شديداً ، فجاء أبو بكر رضي الله عنه حتىٰ دفعه عنه ، فقال : (أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ؟!) رواه البخاري [٣٤٧٥] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أصبح منكم اليوم صائماً ؟ » قال أبو بكر : أنا ، قال : « فمن شيع اليوم منكم جنازةً ؟ » قال أبو بكر : أنا ، قال : « فمن أطعم اليوم منكم مسكيناً ؟ » قال أبو بكر : أنا ، قال : « فمن عاد منكم اليوم مريضاً ؟ » قال أبو بكر : أنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما اجتمعن في امرِىءٍ . . إلا دخل الجنة » رواه مسلم [١٠٢٨] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه : « ادعي لي أبا بكر أباك وأخاك ، حتىٰ أكتب كتاباً ، فإني أخاف أن يتمنىٰ متمنٍ ويقول قائل : أنا أولىٰ ، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر » رواه مسلم [٢٣٨٧] .

وعن ابن أبي مليكة قال : سمعت عائشة رضي الله عنها وسئلت : مَن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مستخلفاً لو استخلف ؟ قالت : (أبو بكر ، فقيل لها : ثم مَن بعد أبي بكر ؟ قالت : عمر ، قيل لها : مَن بعد عمر ؟ قالت : أبو عبيدة ابن الجراح) ثم انتهت إلىٰ هـٰذا . رواه مسلم [٢٣٨٥] .

وعن محمد بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما قال : (قلت لأبي : أي الناس خير بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : أبو بكر ، قلت : ثم مَن ؟ قال : عمر ـ وخشيت أن يقول : عثمان ـ قلت : ثم أنت ؟ قال : ما أنا إلا رجل من المسلمين) رواه البخاري [٣٤٦٨] .

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : (مرض النبي صلى الله عليه وسلم ، فاشتد مرضه ، فقال : « مروا أبا بكر فليصل بالناس » ، قالت عائشة : يا رسول الله ؛ إنه رجل رقيق ، إذا قام مقامك . . لم يستطع أن يصلي بالناس ، فقال : « مري أبا بكر فليصل بالناس » ، فعادت ، فقال : « مري أبا بكر فليصل بالناس ، فإنكن صواحب يوسف » ، فأتاه الرسول ، فصلىٰ بالناس في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم) رواه البخاري [٦٣٣] ، ومسلم [٤١٨] .

وقد رواياه من رواية عائشة أيضاً بأطولَ من هـٰذا[1] .

وعن أنسٍ رضي الله عنه : (أن أبا بكر كان يصلي بهم في وجع النبي صلى الله عليه وسلم الذي توفي فيه . . .) وذكر الحديث بطوله . رواه البخاري [٦٤٨] ، ومسلم [٤١٩] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان علىٰ حراء هو وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير ، فتحركت الصخرة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اهدأ ، فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد » رواه مسلم [٢٧١٥] .

وعن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اقتدوا باللذَين مِن بعدي : أبي بكر وعمر » رواه الترمذي [٣٦٦٢] وقال : حديث حسن .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وعمر : « هـٰذان سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين ، إلا النبيين والمرسلين » رواه الترمذي [٣٦٦٤] وقال : حديث حسن غريب .

---

(١) البخاري ( ) ، ومسلم ( ) .

وفي رواية أخرىٰ عن علي رضي الله عنه قال : « يا علي ؛ لا تخبرهما بذلك » [رواه الطبراني في « الأوسط » ٤/٣٥٩] .

قال[١] : وفي معناه وجوه :

الأول : يحتمل ـ والله أعلم ـ أن يكون ذلك من باب الشفقة عليهما ؛ مخافة أن يعلما ذلك ، فيزيدا في الاجتهاد ، فيفنيا تحت الشكر .

والثاني : يحتمل أن يكون ذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يصل إليهما ما أعد الله سبحانه وتعالىٰ لهما في الآخرة من غير واسطة ، ولا يكون لأحد عليهما فيه منة .

والثالث : لعلم النبي صلى الله عليه وسلم بما هما عليه من التواضع لله عز وجل ، وأنهما لا يؤثران الاطلاع علىٰ حالهما ؛ لمكانهما من الإخلاص والصدق رضي الله عنهما .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من نبي إلا وله وزيران من أهل السماء ، ووزيران من أهل الأرض ، فأما وزيراي من أهل السماء . . فجبريل وميكائيل ، وأما وزيراي من أهل الأرض . . فأبو بكر وعمر » رواه الترمذي [٣٦٨٠] وقال : حديثٌ حسن .

وعن أبي هريرة رضي الله تعالىٰ عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتاني جبريل ، فأخذ بيدي فأراني باب الجنة الذي تدخل منه أمتي » ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ؛ وددت أني كنت معك حتىٰ أنظر إليه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمَا إنك أول من يدخل الجنة من أمتي » رواه أبو داوود [٤٦٥٢] .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : (أبو بكر سيدنا ، وخيرنا ، وأحبُّنا إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم) رواه الترمذي [٣٦٥٦] وقال : حديث صحيح غريب .

وعن عبد الله بن شقيق رحمه الله قال : قلت لعائشة رضي الله عنها : أيُّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أحب إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : أبو بكر ، قلت : ثم مَن ؟ قالت : عمر ، قلت : ثم مَن ؟ قالت : أبو عبيدة ابن الجراح ، قلت : ثم مَن ؟ فسكتت . رواه الترمذي [٣٦٥٧] ، والنسائي [في « الكبرىٰ » ٨٢٠١] ، وابن ماجه [١٠٢] ، وقال الترمذي : حديث صحيح .

---

(١) أي : الإمام النووي .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافأناه ، ما خلا أبا بكر ؛ فإن له عندنا يداً يكافئه الله بها يوم القيامة ، وما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً . . لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ألا وإن صاحِبَكم خليلُ الله » رواه الترمذي [٣٦٦١] وقال : حديث حسنٌ .

وعن عمر رضي الله عنه قال : (أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتصدق ، فوافق ذلك مالاً عندي ، فقلت اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً!! فجئت بنصف مالي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أبقيت لأهلك ؟ » قلت : مثلَه ، وأتىٰ أبو بكر بكل ما عنده ، فقال : « يا أبا بكر . . ما أبقيت لأهلك ؟ » قال : أبقيت لهم الله ورسوله ، قلت : لا أسْبِقُه إلىٰ شيء أبداً) رواه أبو داوود في (كتاب الزكاة) [١٦٧٨] والترمذي في (المناقب) [٣٦٧٥] قال : وهو حديث صحيح .

وعن عائشة رضي الله عنها : (أن أبا بكر دخل علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم) فقال : « أنت عتيق الله من النار » ، فيومئذ سمي عتيقاً) رواه الترمذي [٣٦٧٩] وقال : غريب .

وعن علي رضي الله عنه وسئل عن أبي بكر فقال : (سماه الله صدِّيقاً علىٰ لسان جبريل ولسان محمد عليهما الصلاة والسلام ، وكان خليفةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصلاة ، رضيه لديننا فرضيناه لدنيانا) .

ورُوِّينا بالإسناد الصحيح في « سنن أبي داوود » [٤٦٣١] عن سفيان الثوري رحمه الله قال : الخلفاء خمسة : أبو بكر ، وعمرُ ، وعثمانُ ، وعليٌّ ، وعمرُ بن عبد العزيز .

وأنه قال [في « سنن أبي داوود » ٤٦٣٠] : من قال : إن علياً كان أحقَّ بالولاية من أبي بكر وعمر . . فقد خَطَّأَ أبا بكر وعمر والمهاجرين والأنصار ، وما أراه يرتفع له مع هـٰذا عمل إلى السماء .

ومناقب الصديق رضي الله عنه لا يمكن استقصاؤها ، ولا الإحاطة بعشر معشارها ، وإنما ذكرت هـٰذه الأحرف ؛ تبريكاً للكتاب بذِكره رضي الله عنه .

* * *

فصل

في علمه وزهده وتواضعه رضي الله عنه

استدل أصحابنا رحمهم الله علىٰ عُظْم علمه بقوله في الحديث الثابت في « الصحيحين » [خ ١٣٣٥ـ م ٢٠] ، أنه قال : (والله ؛ لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، والله ؛ لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم . . لقاتلتهم علىٰ منعِه) .

واستدل الشيخ أبو إسحاق بهـٰذا وغيرِهِ في « طبقاته » علىٰ أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه أعلم الصحابة ؛ لأنهم كلهم وقفوا عن فَهْمِ الحكم في المسألة إلا هو ، ثم ظهر لهم بمباحثته لهم أن قوله هو الصواب ، فرجعوا إليه .

ورُوِّينا عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سئل : من كان يُفتي الناس في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : (أبو بكر وعمر ، ما أعلم غيرهما) انتهىٰ [« التهذيب » ٢/ ١٨٤ـ١٩٠] .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : قيل في معنىٰ قول النبي صلى الله عليه وسلم في دعائه : « متعنا اللهم بأسماعنا وأبصارنا »[1] : إنه صلى الله عليه وسلم كان يريد بذلك أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ؛ إذ قد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال عن أبي بكر وعمر : « هـٰذان السمعُ والبصر »[2] . انتهىٰ .

وقال النووي ـ قدس الله روحه ـ : عن عائشة رضي الله عنها قالت : (كان لأبي بكر الصديق غلام يخرج له الخراج ، وكان أبو بكر يأكل من خراجه ، فجاء يوماً بشيء ، فأكل منه أبو بكر ، فقال له الغلام : تدري ما هـٰذا ؟ قال أبو بكر : وما هو ؟ قال : كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية ، وما أحسن الكهانة إلا أني خدعته ، فلقيني ، فأعطاني لذلك هـٰذا الذي أكلتَ منه ، فأدخل أبو بكر يده [في فيه] فقاء كل شيء في بطنه) رواه البخاري [٣٦٢٩] .

و(الخراج) : شيء يجعله السيد علىٰ عبده يؤديه للسيد كل يوم ، وباقي كسبه يكون للعبد . انتهىٰ [« التهذيب » ٢/ ١٩٠] .

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٠٢) .

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٦٩) .

قال حجة الإسلام الغزالي ـ رحمه الله ـ : إن الصديق قال بعد استفراغه : (اللهم ؛ إني أعتذر إليك مما حملت العروق وخالط الأمعاء) .

وفي رواية : أن النبي صلى الله عليه وسلم أُخبر بذلك ، فقال : « أوَمَا علمت أن الصديق لا يُدخِل جوفَه إلا طيباً ؟! » .

ثم قال الغزالي ـ رحمه الله ـ : ولا شك أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه لما أُخبر أن اللبن من غير وجهه . . لم يكن ليخفىٰ عليه مع كونه أعلم الناس أن ما تناوله الإنسان من غير علم به أنه لا إثم عليه فيه ، ولا يجب في فتوى الفقه استفراغه ، ولٰكن إنما فعل ذلك ؛ لعلو رتبته ، وكمال صديقيته ، ولسر وقر في صدره ، عرَّفه ذلك السر أن فتوى العامة حديث آخر ، وأن خطر طريق الآخرة لا يعرفه إلا الصديقون ، فلذلك استفرغه ، وأدخل إصبعه في حلقه ليخرجه حتىٰ كادت روحه تخرج معه ؛ لأنه رآه مؤثراً في قلبه أثراً يمنعه عن بلوغ منزلته وكمال رتبته . انتهىٰ [« الإحياء » ٢/ ٩٠ ، ٤/ ١١ بتصرف] .

قال النووي ـ قدس الله روحه ـ : كان أبو بكرٍ الصديق رضي الله عنه إذا مُدح . . يقول : (اللهم ؛ أنت أعلم بي من نفسي ، وأنا أعلم بنفسي منهم ، اللهم ؛ اجعلني خيراً مما يظنون ، واغفر لي ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذني بما يقولون) .

وقيل له في مرضه : ألا ندعو لك طبيباً ؟ قال : قد نظر إلي ، قالوا : ما قال لك ؟ قال : (قال : إني فعال لما أريد) .

ورُوِّينا في « تاريخ دمشق » [٣٠/٦٦] : عن هشام ، عن عروة قال : أسلم أبو بكر رضي الله عنه وله أربعون ألفاً ، فأنفقها في الله .

وعن خُبَيب ـ بضم الخاء المعجمة ـ ابن عبد الرحمٰن ، عن عمته قالت : (نزل فينا أبو بكر سنتين قبل أن يُستَخلَف وسنة بعد استخلافه ، وكانت جواري الحي يأْتينه بغنمهن ، فيحلبُهُنَّ لهن) .

وذكر محمد بن سعد [في « طبقاته » ٣/١٨٦] وغيره بأسانيدهم : أنه كان يحلب لأهل الحي منائحهن[1] ، فلما استُخلف . . قالت جارية من الحي : الآن لا يحلب لنا ، فقال : (بلىٰ . . لأحلبنها لكم ، وإني لأرجو ألا يغيرني ما دخلت فيه عن خُلق كنت عليه) فكان بعد الخلافة يحلب لهنّ .

---

(١) **المنائح** : جمع منيحة ، وهي : الناقة أو الشاة التي تعطيها لغيرك ثم يردها عليك .

وأجمعت الأمة علىٰ صحة خلافته ، وقدمته الصحابة رضي الله عنهم ، وكونه أفضلهم وأحقهم بها من غيره ، وحديث بيعته مشهور ، وفي « الصحيحين » معروف .

وقد قال علي رضي الله عنه : (قدَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر فصلىٰ بالناس ، وأنا حاضر غير غائب ، وصحيح غير مريض ، ولو شاء أن يقدمني . . لقدَّمَني ، فرضينا لدنيانا من رضيه الله عزَّ وجلَّ ورسوله صلى الله عليه وسلم لديننا) .

ولد الصديق رضي الله عنه بعد الفيل بثلاث سنين تقريباً .

وهو أول خليفة في الإسلام ، وأول أميرٍ أُرسل على الحج ، حج بالناس سنة تسع من الهجرة ، وحديثه في « الصحيحين » ، وهو من كبار الصحابة الذين حفظوا القرآن كله .

قالوا : ولا يُعرف خليفة ورثه أبوه . . إلا هو ؛ فإن أباه توفي بعده بنحو ستة أشهر ، وهو أفضل من كَتَبَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأول الخلفاء الراشدين وأفضلهم ، وأول من عهد بالخلافة .

والصحيح : أنه توفي وله ثلاث وستون سنة رضي الله عنه . انتهىٰ [« التهذيب » ٢/ ١٩٠ـ١٩١] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : روىٰ أبو الفرج ـ رحمه الله ـ بإسناده : عن القاسم بن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دخلتُ الجنة ، فسمعت فيها خشفة بين يديَّ[1] ؛ فقلت : ما هـٰذا ؟ فقال : بلال ، فمضيت ، فإذا أكثر أهل الجنة فقراء المهاجرين وذراري المسلمين ، ولم أر فيها أحداً أقل من الأغنياء والنساء ، قيل لي : أما الأغنياء . . فهم هـٰهنا في الباب يحاسَبون ويُمَحَّصون ، وأما النساء . . فألهاهن الأحمران : الذهب والحرير ، ثم خرجنا من أحد أبواب الجنة الثمانية ، فلما كنت عند الباب . . أُتيت بكَفة ، فوُضعت فيها ، ووُضعَتْ أمتي في كفة ، فرجحتُ بها ، ثم أتي بأبي بكر ، فوضع في كفة ، فرجح أبو بكر ، ثم أتي بعمر ، فوضع في كفة ، فرجح عمر »[2] .

وعن عمار بن ياسر رضي الله عنهما قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا عمار ؛ أتاني جبريل آنفاً ، فقلت له : يا جبريل ؛ حدثني بفضائل عمر بن الخطاب في

---

(١) **الخشفة** : الصوت والحركة والحسُّ الخفي .

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٥٩) .

السماء ؛ فقال لي : يا محمد ؛ لو مكثت معك مثل ما لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً . ما نفدت فضائل عمر ، وإن عمر حسنة من حسنات أبي بكر »[1] . أو كما قال .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من مولود إلا وقد ذُرَّ عليه من تراب حفرته » ، قال أبو عاصم : **ما نجد لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما فضيلة مثل هـٰذه ؛ لأن طينتهما من طينة رسول الله صلى الله عليه وسلم** .

وعن ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر وعمر : « ألا أخبركما بمَثَلكما في الملائكة ومثلكما في الأنبياء :

مَثَلك يا أبا بكر في الملائكة : مَثَل ميكائيل ينزل بالرحمة ، ومَثَلك في الأنبياء : مَثَل إبراهيم ؛ قال : ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

ومَثَلك يا عمر في الملائكة : كمَثَل جبريل ينزل بالشدة والبأس والنّقمة علىٰ أعداء الله ، ومَثَلك في الأنبياء : كمَثَل نوح ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ » أو كما قال[2] .

وعن دحية بن خليفة قال : (وجَّهني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلىٰ ملك الروم بكتابه ، فناولته كتاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فقبَّل خاتمه) .

وفيه : قال : (أدخلَني بيتاً عظيماً فيه ثلاث مئة وثلاث عشرة صورة ، وإذا هي صور الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام ، قال : أُنظر أين صاحبك مِن هـٰؤلاء ، قال : فرأيت صورة النبي صلى الله عليه وسلم ، فقلت : هـٰذا ، قال : صدقت ؛ فقال : صورة من هـٰذا عن يمينه ؟ قلت : رجل من قومه يقال له : أبو بكر الصديق ، قال : فمن ذا عن يساره ؟ قلت : رجل من قومه يقال له : عمر بن الخطاب ، قال : فإنا نجد في الكتاب أن بصاحبيه هـٰذين يتمم الله هـٰذا الدين) .

قال : فلما قدمت على النبي صلى الله عليه وسلم . . أخبرته ، فقال : « صدق ، بأبي بكر وعمر يتمم الله هـٰذا الدين ويفتح »[3] .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد ،

---

(١) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٢/ ١٥٨) .
(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في « السنة » (٢/ ٦١٨) .
(٣) ذكره القزويني في « التدوين » (٤/ ٢٤) .

فجلس عن يمينه أبو بكر ، وعن يساره عمر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هـٰكذا نبعث يوم القيامة » أو كما قال[1] .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أُحشر يوم القيامة بين أبي بكر وعمر ، حتىٰ أقف بين الحرمين ، فيأتيني أهل مكة وأهل المدينة »[2] .

وعن جعفر بن محمد ، عن أبيه رحمهما الله : قال رجل من قريش لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه : يا أمير المؤمنين ؛ نسمعك تقول في الخطبة آنفاً : اللهم ؛ أصلحنا بما أصلحت به الخلفاء الراشدين المهديين ، فمَن هُم ؟

فاغرورقت عيناه ، ثم أهملهما ، فقال : (هما حبيباي وعماك أبو بكر وعمر ، إماما الهدىٰ ، وشيخا الإسلام ، ورجلا قريش ، والمُقتدىٰ بهما بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من اقتدىٰ بهما . . عُصِمَ ، ومن أتبع آثارهما . . هدي إلىٰ صراط مستقيم ، ومن تمسك بهما . . فهو من حزب الله ، وحزبُ الله هم المفلحون) .

وعن عبدِ خَيرٍ قال : سمعت علياً رضي الله عنه يقول : (إن الله عز وجل جعل أبا بكر وعمر حجة علىٰ من بعدهم من الولاة إلىٰ يوم القيامة ، سبقا ـ واللهِ ـ سبقاً بعيداً ، وأتعبا مَن بعدهما إتعاباً شديداً) .

وعن زيد بن وهب : أن سويد بن غفلة دخل علىٰ علي بن أبي طالب رضي الله عنه في خلافته ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إني مررت بنفر يذكرون أبا بكر وعمر بغير الذي هما أهل له من الإسلام ، قال : فنهض إلى المنبر وهو قابض علىٰ يدي ، فقال : (والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ؛ لا يحبهما إلا مؤمن فاضل ، ولا يبغضهما ويخالفهما إلا شقي مارق ، فحبهما قربة ، وبغضهما مروق ، ما بال أقوام يذكرون أخوَيْ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، ووزيريه ، وصاحبيه ، وسيدَيْ قريش ، وأبوَي المسلمين ؟! فأنا بريء ممن يذكرهما بسوء ، وعليه معاقِب) .

وعن عبد العزيز بن جعفر اللؤلؤي قال : قلت للحسن : حُبُّ أبي بكر وعمر سُنَّة ؟ قال : لا ، بل فريضة .

وعن طاووس قال : حب أبي بكر وعمر ومعرفة فضلهما من السنة .

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ٣١٢) .

(٢) ذكره ابن عساكر في « تاريخه » (٤/ ١٩٠) .

وعن مالك بن أنس قال : كان السلف يعلمون أولادهم حب أبي بكر وعمر كما يعلمون السورة من القرآن .

وعن أبي جعفرٍ محمدٍ الباقر قال : من لم يعرف فضل أبي بكر وعمر . . فقد جهل السنة .

وعن زيد بن علي قال : البراءة من أبي بكر وعمر . . البراءة من علي رضي الله عنهم أجمعين .

وعن شعيب بن حرب قال : قلت لمالك بن مغوَل : أوصني ، قال : أوصيك بحب الشيخين أبي بكر وعمر ، قلت : إن الله أعطاني من ذلك شيئاً كثيراً ، قال : والله ؛ إني لأرجو لك علىٰ حبهما ما أرجو لك على التوحيد .

وعن أبي حازم قال : جاء رجل إلىٰ علي بن الحسين زين العابدين ، فقال له : ما كان منزلة أبي بكر وعمر من النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قال : كمنزلتهما الساعة وهما ضجيعاه .

وعن العتكي قال : قال هارون الرشيد لمالك بن أنس : كيف كانت منزلة أبي بكر وعمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : كقرب قبريهما من قبره بعد وفاته صلى الله عليه وسلم ، قال : شفيتني يا مالك .

وعن سفيان بن عيينة قال : قال مالك بن مغوَل : لئن شئتم لأحلفنَّ لكم أن مكانهما في الآخرة مثلُ مكانهما منه في الدنيا . يعني : أبا بكر وعمر .

وعن أبي جحيفة قال : سمعت علياً يقول : ألا أخبركم بخير هـٰذه الأمة بعد نبيها ؟ أبو بكر ، ألا أخبركم بخير هـٰذه الأمة بعد أبي بكر ؟ عمر . زاد في رواية البخاري : ولو شئت . . لأخبرتكم بالثالث .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أبو بكر وعمر خير أهل الأرض ، وخير الأولين والآخرين ، إلا النبيين والمرسلين »[1] .

وعن شعبة قال : ما أدركت أحداً ممن كنا نأخذ عنه كان يفضل علىٰ أبي بكر وعمر أحداً بعد النبي صلى الله عليه وسلم .

---

(١) أخرجه أبو بكر الخلال في « السنة » (٢/٣٠٧) .

وعن عبدِ خيرٍ قال : قلت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه : يا أمير المؤمنين ؛ مَن أول الناس دخولاً الجنة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : أبو بكر وعمر ، قلت : يا أمير المؤمنين ؛ يدخلانها قبلك ؟ قال : إي والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ؛ إنهما ليأكلان من ثمارها ، ويتكئان علىٰ فرشها .

وعن إبراهيم النخعي قال : أول من ولِّيَ أبو بكر رضي الله عنه شيئاً من أمور المسلمين : عمر بن الخطاب ، ولاه القضاء ، وكان أولَ قاض في الإسلام .

وعن الحسن بن أبي الحسن قال : لما ثقل أبو بكر رضي الله عنه واستبان له من نفسه . . جمع الناس إليه ، فقال : (إنه قد نزل بي ما قد ترون ، ولا أظنني إلا [ميت] لما بي ، وقد أطلق الله أيمانكم من بيعتي ، وحل عنكم عقدتي ، ورد عليكم أمركم ، فأمِّروا عليكم من أحببتم ؛ فإنكم إن أمرتم في حياة مني . . كان أجدر ألاَّ تختلفوا بعدي) ، فقاموا في ذلك ، وخلوا عنه ، فلم يستقم لهم ، فرجعوا إليه ، فقالوا : رأيُنا ـ يا خليفة رسول الله ـ رأيُك ، قال : (فلعلكم تختلفون ؟) قالوا : لا ، قال : (فعليكم عهد الله على الرضا ؟) قالوا : نعم ، قال : (فأمهلوني أنظر للهِ ولدينه ولعباده) فأرسل أبو بكر إلىٰ عثمان بن عفان ، فقال : (أشر عليَّ برجل ، ووالله ؛ إنك عندي لها لأهل وموضع ، فقال : عمر ، فقال : اكتب ، فكتب حتى انتهىٰ إلى الاسم ، فغشي عليه ، ثم أفاق ، فقال : اكتب عمر) .

وعن عاصم بن عدي قال : جمع أبو بكر الناس وهو مريض ، فأمر من يحمله إلى المنبر ـ وكانت آخرَ خطبة خطبها ـ فحمد الله ، وأثنىٰ عليه ، ثم قال : (أيها الناس ؛ احذروا الدنيا ولا تغتروا بها ، فإنها غرارة ، وآثروا الآخرة على الدنيا فأحبوها ، فبحب كل واحدة منهن تُبغَض الأخرىٰ ، وإن هـٰذا الأمر ـ الذي هو أَمْلَكُ بنا ـ لا يصلح آخره إلا بما صلح أوله ، ولا يحتمله إلا أفضلُكم مقدرةً ، وأملكُكم لنفسه ، أشدكم في حال الشدة ، وأسلسكم في حال اللين ، وأعلمكم[1] برأي ذوي الرأي ، لا يتشاغل بما لا يعنيه ، ولا يحزن لما ينزل به ، ولا يستحيي من التعلم ، ولا يتحير عند البديهة ، قوي على الأمور ، لا يجوز لشيء منها حدَّه بعدوان ولا تقصير ، يرصد لما هو آت عتاده من الحذر والطاعة ، وهو عمر بن الخطاب) ثم نزل ، فدخل .

وفي رواية : سمع بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فدخلوا علىٰ أبي بكر

---

(١) في « تاريخ عمر بن الخطاب » : (وأعملكم) .

رضي الله عنه ، فقال له قائل منهم : ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا ، وقد ترىٰ غلظته ؟ فقال أبو بكر : (أجلسوني ، أبالله تخوفوني ؟! خاب من تزود من أمركم بظلم ، أقول : اللهم ؛ ولَّيتُ عليهم أفضلَهم وأقواهم) أو كما قال .

وعن موسى الجهني قال : سمعت أبا بكر بن حفص يقول : قال أبو بكر حين احتُضِر لعائشة : (إنا وُلِّينا أمر المسلمين ، فلم نأخذ لهم ديناراً ولا درهماً ، ولٰكنا أكلنا من جريش طعامهم في بطوننا ، ولبسنا من خشن ثيابهم علىٰ ظهورنا ، وإنه لم يبق عندنا من فيء المسلمين قليل ولا كثير إلا هٰذا العبد الحبشي ، وهٰذا البعير الناضح[1] ، وجَرْدُ هٰذه القطيفة[2] ، فإذا مُتُّ . . فابعثي بهن إلىٰ عمر) .

فجاءه الرسول بهنّ وعنده عبد الرحمٰن بن عوف ، فبكىٰ عمر حتىٰ سالت دموعه على الأرض ، وقال : (يرحم الله أبا بكر ، لقد أتعب مَن بعده ، ارفعهن يا غلام) .

فقال عبد الرحمٰن : سبحان الله يا أمير المؤمنين! تسلب عيال أبي بكر عبداً حبشياً ، وبعيراً ناضحاً ، وجرد قطيفة ثمنها خمسة دراهم ؟! فقال : (ما تأمر ؟) قال : آمر بردهن علىٰ عياله ، قال : (يخرج أبو بكر عنهن عند الموت ، وأردهن أنا علىٰ عياله ؟! لا يكون واللهِ ذاك أبداً ، الموت أسرع من ذلك) .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : قال عمر : (يؤتىٰ بأقوام يوم القيامة ، فيوقفون بين يدي الله عز وجل ، فيؤمر بهم إلى النار ، فإذا هَمَّ الزبانية بأخذهم . . قال الله تعالىٰ لملائكة الرحمة : ردوهم ، فيردونهم ، فيوقفون بين يدي الله عز وجل طويلاً ، فيقول : عبادي ؛ أمرت بكم إلى النار بذنوب سلفت لكم ، واستوجبتم بها ، وقد روعتكم ، وقد وهبت لكم ذنوبكم بحبكم أبا بكر وعمر انتهىٰ [« تاريخ عمر بن الخطاب » ٤١ـ٧٠ ، ٢٨٤] .

وروى الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ بإسناده إلىٰ زيد بن أرقم رضي الله تعالىٰ عنه قال : إن أبا بكر رضي الله عنه استسقىٰ ، فأتي بإناء فيه ماء وعسل ، فلما أدناه من فيه . . بكىٰ وأبكىٰ من حوله ، فسكت وسكتوا ، ثم عاد فبكىٰ ، حتىٰ ظنوا ألا يقدروا علىٰ مساءلته ، ثم مسح وجهه ، فأفاق ، فقالوا : ما هاجك علىٰ هٰذا البكاء ؟ قال : (كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وجعل يدفع عنه شيئاً يقول : « إليكِ عني ، إليكِ عني » ، ولم أر معه أحداً ،

---

(١) **الناضح** : البعير الذي يستقىٰ عليه .

(٢) أي : التي انجرد خملها وخَلَقت ، **والقطيفة** : الكساء الذي له خَمْلٌ .

فقلت : يا رسول الله ؛ أراك تدفع عنك شيئاً ولا أرىٰ معك أحداً! فقال : « هـٰذه الدنيا ، تمثلت لي بما فيها ، فقلت لها : إليكِ عني ، فتنحَّت وقالت : أمَا والله ؛ لئن انفلتَّ مني . . لا ينفلت مني مَن بعدك » ، فخشيت أن تكون قد لحقَتْني ، فذاك الذي أبكاني)[1] .

وقال عبد الرحمـٰن بن عوف : دخلت علىٰ أبي بكر في مرض موته ، فقال : (والله ؛ لأن يقدَّم أحدكم فتضرب عنقه في غير حد . . خير له من أن يسبح في غمرة الدنيا) .

ومن جملة وصيته لعمر رضي الله عنهما : أنه قال له : (إن أنت حفظت وصيتي . . فلا يك غائباً أحب إليك من الموت ، وهو آتيك) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : لبست مرةً درعاً جديداً ، فجعلت أنظر إليه ، فقال أبو بكر : ما تنظرين يا عائشة ؟ إن الله ليس بناظر إليك الآن ، قلت : وفيمَ ذاك ؟ قال : أمَا علمت أن العبد إذا دخله العجب بزينة الدنيا . . مقته الله حتىٰ يفارق تلك الزينة ؟ قالت : فنزعته فتصدقت به ، قال أبو بكر : عسىٰ ذلك أن يكفِّر عنك) .

ومن كلامه رضي الله عنه في بعض خطبه : (يا معشر المسلمين ؛ استحيوا من الله ، فوالذي نفسي بيده ؛ إني لأظل حين أذهب إلى الغائط في الفضاء متقنعاً ؛ استحياءً من ربي سبحانه وتعالىٰ) انتهىٰ [« الحلية » ١/ ٣٠ـ٣٧] .

وروىٰ أبو الفرج بإسناده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : (كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أبو بكر ، وعليه عباءة قد خللها في صدره بخلال ، فنزل جبريل عليه الصلاة والسلام ، فقال : يا محمد ؛ ما لي أرىٰ أبا بكر عليه عباءة قد خللها ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « يا جبريل ؛ أنفق ماله عليَّ قبل الفتح » .

قال : فإن الله عز وجل يقرأ عليه السلام ويقول : قل له : أراضٍ أنت عني في فقرك هـٰذا ، أم ساخط ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أبا بكر ؛ إن الله عز وجل يُقرئك السلام ، ويقول لك : أراض أنت عني في فقرك هـٰذا ، أم ساخط ؟ » .

فبكىٰ أبو بكر رضي الله عنه ، وقال : أَعَلىٰ ربي أغضب ؟! أنا عن ربي راض ، أنا عن ربي راض ، ثلاثاً) .

---

(١) أخرجه بنحوه الحاكم (٤/ ٣٤٤) .

ومن كلامه رضي الله عنه : (ليتني كنت شجرة تُعضد ثم تؤكل)[1] .

وكان يأخذ بطرف لسانه ويقول : (هـٰذا أوردني الموارد) [انتهىٰ « الصفوة » ١/١٠٣-١٠٥] .

وروىٰ أصحاب السِّير[2] : عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : (قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم واجتمع الناس في دار سعد بن عبادة ، وفيهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهم ، فقام خطيب الأنصار فقال : أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان من المهاجرين وخليفته من المهاجرين ؟ ونحن كنا أنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنحن أنصار خليفته كما كنا أنصارَه . قال : فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال : صدق قائلكم ، أمَا لو قلتم غير هـٰذا . . لم نتابعكم ، فأخذ بيد أبي بكر الصديق رضي الله تعالىٰ عنه وقال : هـٰذا صاحبكم فبايعوه ، وبايعه عمر ، وبايعه المهاجرون والأنصار .

قال : فصعد أبو بكر المنبر ، فنظر في وجوه القوم ، فلم ير الزبير ، قال : فدعا بالزبير ، فجاء ، قال : قلتَ : ابنُ عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أردتَ أن تشق عصا المسلمين ؟ قال : لا تثريب يا خليفة رسول الله ، فقام فبايعه .

ثم نظر في وجوه القوم ، فلم ير علياً ، فدعا بعلي بن أبي طالب ، فجاء ، قال : قلتَ : ابنُ عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وختنه على ابنته ، أردتَ أن تشق عصا المسلمين ؟ قال : لا تثريب يا خليفة رسول الله ، فبايعه) هـٰذا أو معناه .

قال الحافظ أبو علي النيسابوري ـ رحمه الله ـ : سمعت ابن خزيمة يقول : جاءني مسلم بن الحجاج ، فسألني عن هـٰذا الحديث ، فكتبته له في رقعة وقرأته عليه ، فقال : هـٰذا حديث يَسْوىٰ بدنة[3] ، فقلت : يَسْوىٰ بدنة ؟! بل هـٰذا يَسْوىٰ بَدْرَة[4] .

وقد رواه الإمام أحمد عن الثقة ، عن وهيب مختصراً ، وأخرجه الحاكم في « مستدركه » [٣/ ٨٠] من طريق عفان بن مسلم عن وهيب مطولاً كنحو ما تقدم .

زاد في رواية موسى بن عقبة في « مغازيه » : عن سعد بن إبراهيم قال : إن أبا بكر رضي الله عنه خطب الناس واعتذر إليهم ، وقال : (والله ؛ ما كنت حريصاً على الإمارة يوماً

---

(١) **تُعضد** : تقطع .

(٢) ومنهم ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٠/ ٢٧٧) .

(٣) **البدنة** : البقرة أو الناقة التي تنحر في مكة .

(٤) **البَدْرَةُ** : كيسٌ فيه مقدار من المال .

ولا ليلة ، ولا سألتها في سرٍّ ولا علانية) فقبِل المهاجرون مقالته ، وقال علي والزبير رضي الله عنهما : (ما غضبنا إلا لأنك أخَّرتنا عن المشورة ، وإنا نرىٰ أبا بكر أحق الناس بها ، إنه لصاحب الغار ، وإنا لنعرف شرفه وخيره ، ولقد أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاة بالناس وهو حي) .

ومما يدل علىٰ صحة هـٰذا آثار كثيرة :

منها : شهوده معه الصلوات ، وخروجه معه إلىٰ ذي القصة بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سيأتي ذِكره .

ومنها : بذله النصيحة والمشورة بين يديه . . . إلىٰ غير ذلك مما هو معروف مشهور .

وأما ما يذكر من مبايعته إياه بعد موت فاطمة رضي الله عنها بستة أشهر . . فإنه محمول علىٰ أنها بيعة ثانية ، أزالت ما كان قد وقع من وحشة بسبب الكلام في الميراث ، ومنعِهِ إياهم ذلك بالنص ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « لا نورَث ، ما تركنا فهو صدقة »[1] ، ولم يكونا يعلمان ذلك ، فلما علماه . . انتهيا إليه ، رضي الله عنهما .

وعن عاصم بن عدي رضي الله عنه قال : (نادىٰ منادي أبي بكر الصديق رضي الله عنه من الغد من متوفىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعث جيش أسامة : ألا لا يبقين بالمدينة أحد من جند أسامة . . إلا خرج إلىٰ عسكره بالجرف) .

زاد في رواية أخرىٰ : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد أمرهم بالمسير إلىٰ تخوم البلقاء من الشام حيث قتل زيد بن حارثة ، وجعفر ، وابن رواحة رضي الله عنهم ، وأن يُغِيروا علىٰ تلك الأراضي ، فخرجوا إلى الجرف ، فخيموا به ، وكان فيهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استثنى الصديق رضي الله عنه ، فلما ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم . . أقاموا هنالك ، فلما مات صلى الله عليه وسلم . . عظم الخطب ، واشتد الحال ، ونَجَم النفاق بالمدينة ، وارتد من ارتد من أحياء العرب حول المدينة ، وامتنع آخرون من أداء الزكاة إلى الصديق رضي الله عنه ، ولم تبق الجمعة تقام في بلد سوىٰ مكة والمدينة وكانت جُواثىٰ[2] من البحرين أول قرية أقامت الجمعة بعد رجوع الناس إلى الحق كما في « صحيح البخاري » عن ابن عباس رضي الله عنهما ، علىٰ ما سيأتي .

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٢٦) ، ومسلم (١٧٥٧) .

(٢) **جُواثىٰ** : حصن لعبد القيس بالبحرين ، ورواه بعضهم بالهمز .

وكانت ثقيف بالطائف قد ثبتوا على الإسلام ، صانهم الله عز وجل عن التغيير والردة .

والحاصل : أنه لما وقعت هـٰذه الأمور . . أشار كثير من الناس على الصديق رضي الله عنه ألاَّ ينفذ جيش أسامة ؛ لاحتياجه إليه فيما هو أهمُّ إليه الآن ، وكان من جملة من أشار بذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فامتنع الصديق رضي الله عنه من ذلك ، وأبىٰ أشد الإباء ، وقال : (والله ؛ لا أحل عقداً عقده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو أن الطيرَ تخطفنا ، والسباعَ من حول المدينة) .

زاد في رواية أخرىٰ : (والذي نفس أبي بكر بيده ؛ لو ظننت أن السباع تخطفني . . لأنفذت بعْث أسامة كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو لم يبق في القرىٰ غيري . . لأنفذته) .

زاد في رواية هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة رضي الله عنهم ، قالت : لما قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ارتدت العرب قاطبة ، واشرأبَّ النفاق[1] ، فوالله ؛ لقد نزل بأبي ما لو نزل بالجبال الراسيات . . لهاضها[2] ، وصار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنهم معزىٰ في حش في ليلة مطيرة بأرض مَسْبَعَة[3] ، فوالله ؛ ما اختلفوا في شيء . . إلا بينه لهم وفصَّله) .

ثم ذكرت عمر ، فقالت : (من رأىٰ عمر . . علَم أنه خلق غَنَاءً للإسلام ، كان واللهِ أحوذياً نسيج وحده[4] ، قد أعد للأمور أقرانها) .

زاد في رواية الحسن البصري ـ رحمه الله ـ : أن أبا بكر رضي الله عنه لما صمَّم علىٰ تجهيز جيش أسامة . . قال بعض الأنصار لعمر رضي الله عنه : قل له فليؤمِّر علينا غير أسامة ، فذكر عمر له ذلك ، فقال : (ثكلتك أمك يا بن الخطاب ، أُؤَمِّرُ غير أمير رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟!) .

---

(١) أي : ارتفع وعلا .

(٢) **هاضها** : كسرها .

(٣) كذا وردت في النسخ ، **والحُشُّ** : موضع كثير الشجر يلتفُّ بعضها علىٰ بعض ، تأوي إليه المواشي فيكون كالخُصِّ لها ، فإذا هاجمتها السباع . . لم تقوا على الهرب . **والمَسْبَعَة** : كثيرة السباع . وفي « النهاية » (٢/ ٥٣) : كأنهم مِعزىٰ مطيرة في خَفَشٍ . قال الخطابي : هوَ الخَفَشُ ، وهو فساد في العين يضعف منه نورها ، وتغمض دائماً من غير وجع ؛ تعني : أنهم في عمىٰ وحيرة ، أو في ظلمة ليل ، وضربت المِعزىٰ مثلاً ؛ لأنها من أضعف الغنم في المطر والبرد .

(٤) **الأحوذي** : العالم بالأمر .

ثم نهض بنفسه إلى الجرف ، فاستعبر[1] جيشَ أسامة ، وأمرهم بالمسير ، وسار معهم ماشياً ، وكان أسامة راكباً ، وعبد الرحمـٰن بن عوف يقود راحلة الصديق ، فقال أسامة : يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ إما أن تركب ، وإما أن أنزل ، فقال : (والله ؛ لستَ بنازل ولستُ براكب) .

ثم استَطْلَقَ الصديقُ من أسامة عمرَ بن الخطاب رضي الله عنهم[2] ، وكان مكتتباً في جيشه ، فأطلقه له ، فلهـٰذا كان عمر بعد ذلك لا يلقاه . . إلا قال : السلام عليك أيها الأمير .

زاد في رواية أخرىٰ : أن أبا بكر رضي الله عنه لما كان ماشياً يوصي أسامة بن زيد وكان عبد الرحمـٰن بن عوف يقود دابة أبي بكر ، فلما قال له أسامة : والله لتركبن . . قال له أبو بكر : (وما عليَّ أن أغبر قدميَّ في سبيل الله عز وجل ؛ فإن للغازي بكل خطوة سبع مئة حسنة ، ويمحىٰ عنه سبع مئة سيئة) .

ثم إن أبا بكر رضي الله عنه جعل يوصي الناس ، فقال : (أوصيكم بعشر خصال :

لا تخونوا [ولا تَغُلُّوا] ، ولا تغدروا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً ، ولا شيخاً ، ولا امرأة ، ولا تحرقوا نخلاً ولا تعقروه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرةً ولا بعيراً إلا لمأكلةٍ ، وسوف تمرون بأقوام قد حبسوا أنفسهم بالصوامع . . فدعوهم وما فرغوا نفوسهم له ، وستلقون أقواماً قد حَلَقوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب . . فاخفقوهم بالسيوف خفقاً) .

ثم قال لأسامة : (ابدأ بما أمرك به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغارة علىٰ بلاد قضاعة ، ثم امض إلىٰ مؤتة ، ولا تُقصِّرنَّ في شيء مما أمرك به رسول الله صلى الله عليه وسلم) . ثم قال : (اندفعوا باسم الله) .

ثم ودَّعهم وانصرف .

زاد في رواية : فلما دنوا من الشام . . أصابتهم ضبابة شديدة[3] ، فسترتهم حتىٰ أغاروا وأصابوا حاجتهم ، وغنموا وسبوا ، ورجعوا سالمين غانمين ، كل ذلك من يُمْنِ بركة رأي

---

(١) من الاعتبار والتقدير .

(٢) أي : طلب إطلاقه وردَّه إليه .

(٣) الضبابةُ : هي البخار المتصاعد من الأرض في اليوم البارد تحجب الأبصار لظلمتها .

الصديق رضي الله عنه في بعثه جيش أسامة ؛ امتثالاً لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولما بلغ هرقل موت النبي صلى الله عليه وسلم وإغارة أسامة علىٰ نواحي أرضه . . تعجب من ذلك ، وقالت الروم : ما بال هـٰؤلاء العرب يموت صاحبهم ويغيرون علىٰ أرضنا ، وتعجبوا من ذلك وذلوا .

ثم إنه لما قدم جيش أسامة غانمين سالمين . . أمهلهم الصديق رضي الله عنه حتى استراحوا ، ثم ركب الصديق رضي الله عنه بنفسه قاصداً إلىٰ ذي القصة لقتال الأعراب والجيش معه ، واستخلف على المدينة أسامة بن زيد وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقود براحلة الصديق رضي الله عنه فسأله الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين أن يرجع إلى المدينة ، وممن سأله في ذلك علي بن أبي طالب ، وأن يبعث لقتال الأعراب غيره ممن يؤمره من الشجعان الأبطال ، فأجاب إلىٰ ذلك .

زاد في رواية الدارقطني ـ رحمه الله ـ : من حديث عبد الوهاب من رواية سعيد بن المسيب ، عن ابن عمر رضي الله عنهم قال : أخذ علي بن أبي طالب بزمامها ، وقال : (إلىٰ أين يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أقول لك ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد : « لا تفجعنا بنفسك » ، وارجع إلى المدينة ، فوالله ؛ لئن فُجِعنا بك . . لا يكون للإسلام نظام أبداً ، فرجع إلى المدينة وأمضى الجيش) .

وفي أول سنة ثلاث عشرة : عزم الصديق رضي الله عنه علىٰ جمع الجنود ليبعث بهم إلى الشام ، ثم شرع في تولية الأمراء ، وعقد الألوية والرايات ، فيقال : إن أول لواء عقده لخالد بن سعيد بن العاص ، ثم عقد لواء يزيد ابن أبي سفيان ومعه جمهور الناس ، منهم : سهيل بن عمرو ، وأشباهه من أهل مكة ، وخرج معه ماشياً يوصيه بما يعتمده في حربه ومن معه من المسلمين ، وجعل له دمشق .

وبعث أبا عبيدة ابن الجراح رضي الله عنه علىٰ جند آخر ، وخرج معه ماشياً يوصيه ، وجعل له نيابة حمص .

وبعث عمرو بن العاصي ومعه جند آخر ، وجعله علىٰ فلسطين ، وأمر كل أمير ألاَّ يسلك علىٰ طريق الآخر ؛ لما رَأىٰ في ذلك من المصلحة ، واقتداء بيعقوب صلى الله عليه وسلم في قوله لبنيه : ﴿ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .

وكان مما أوصىٰ به إلىٰ يزيد ابن أبي سفيان وهو مشيِّع له : (إذا قدمت علىٰ أهل عملك . . فعدهم الخير ، وإذا وعدت . . فأنجز وعدك ، ولا تكثرن عليهم الكلام ؛ فإن بعضه ينسي بعضاً ، وأصلح نفسك أولاً . . يصلُحِ الناس لك ، وإذا قدم عليك رسول عدوِّك . . فأكرم نزله ؛ فإنه أول خيرك ، وأقلل حبسه عندك حتىٰ يخرج من عندك وهو جاهل بأمرك ، وامنع مَن قِبَلَكَ من محادثته ، وكن أنت الذي تلي كلامه ، ولا تجعل سرك مع علانيتك ، فيمرح أمرك ، وإذا استشرت . . فاصدق الخبر ليصدق لك المشورة ، ولا تكتم المستشار شيئاً ، فتؤتىٰ من قبل نفسك ، وإذا بلغك عن العدو عورة . . فاكتمها حتىٰ تواتيها ، واستر في عسكرك الأخبار ، وأكثر مفاجأتهم في ليلك ونهارك ، واصدق اللقاء إذا لقيت ، ولا تجبن فيجبن من سواك . . .) في كلام طويل اختصرناه .

ومما وقع في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه من الغرائب **واقعةٌ غريبة** ، وهي : أن الإمام ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري الخزرجي أبا محمد خطيب الأنصار ويقال له أيضاً : خطيب النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه بشره بالجنة ، وأنه بشره بالشهادة أيضاً ، فقتل يوم اليمامة سنة إحدىٰ عشرة شهيداً ، وكانت راية الأنصار يومئذ بيده .

وروى الترمذي رحمه الله [٣٧٩٥] بإسناد له علىٰ شرط مسلم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « نِعم الرجل ثابت بن قيس بن شماس » .

ولما نزل قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ . . اشتد علىٰ ثابت بن قيس ، وغلق عليه بابه ، وطفق يبكي ، فأُخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله ، فأخبره بما كبر عليه منها ، وقال : أنا رجل أحب الجَمال ، وأنا أَسُود قومي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنك لست منهم ، بل تعيش بخير وتموت بخير ، ويدخلك الله الجنة » ، فلما نزل علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ . . فعل مثل ذلك[1] ، فأُخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسل إليه ، فلما حضر . . أخبره بما كبر عليه منها ، وأنه جهير الصوت ، وأنه يتخوف أن يكون ممن حبط عمله ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنك لست منهم ، بل تعيش حميداً ، وتقتل شهيداً ، ويدخلك الله

---

(١) أي : أغلق عليه بابه ، وطفق يبكي .

الجنة » ، فلما استنفر أبو بكر الصديق رضي الله عنه المسلمين إلىٰ أهل الردة واليمامة ومسيلمة الكذاب . . سار ثابت بن قيس فيمن سار ، فلما لقوا مسيلمة وبني حنيفة . . هزَموا المسلمين ثلاث مرات ، فقال ثابت وسالم مولىٰ أبي حذيفة : ما هـٰكذا كنا نقاتل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعلا لأنفسهما حفرة فدخلا فيها ، وقاتلا حتىٰ قتلا رضي الله عنهما .

قال : ورأىٰ رجل من المسلمين ثابت بن قيس في منامه ، فقال له : إني لَمَّا قتلت بالأمس مر بي رجل من المسلمين ، وانتزع مني درعاً نفيسة ، وتركه في أقصى العسكر ، وعند منزله فرس تستن[1] في طوله ، وقد أكفأ على الدرع برمة[2] ، وجعل فوق البرمة رحلاً[3] ، فأت خالد بن الوليد ، فليبعث إلىٰ درعي ، فليأخذها ، فإذا قدمت علىٰ خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فأعلمه أن عَلَيَّ من الدَّين كذا وكذا ، ولي من المال كذا وكذا ، وفلان من رقيقي عتيق ، وإياك أن تقول هـٰذا حلم فتضيعه .

قال : فأتىٰ خالد إلى الدرع ، فوجدها كما ذكر ، وقدم على الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فأخبره ، فأنفذ الخليفة أبو بكر رضي الله عنه وصيته بعد موته ، فلا نعلم أحداً جازت وصيته بعد موته إلا ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه ، ولهـٰذا الحديث وهـٰذه القصة شواهد أخر ، والحديث المتعلق بقوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ في « صحيح مسلم » [١١٩] عن أنس .

وقال حماد بن سلمة رحمه الله : عن ثابت ، عن أنس رضي الله عنه : أن ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه جاء يوم اليمامة وقد تحنط ونشر أكفانه ، وقال : (اللهم ؛ إني أبرأ إليك مما جاء به هـٰؤلاء ، وأعتذر إليك مما صنع هـٰؤلاء)[4] فقُتل ، وكان له درع فسرقت ، فرآه رجل فيما يرى النائم ، فقال : إن درعي في قِدْرٍ تحت الكانون في مكان كذا وكذا ، وأوصاه بوصايا ، فطلبوا الدرع ، فوجدوها وأنفذوا الوصايا . ورواه الطبراني [في « الكبير » ٢/ ٦٥] أيضاً ، والله أعلم .

---

(١) استن الفرس : عدا لمرحه ونشاطه شوطاً أو شوطين ولا راكب عليه .

(٢) **البُرمة** : القدر .

(٣) **الرحل** : هو للبعير بمثابة السرج للفرس .

(٤) أراد بالأولى الكفار ، وبالثانية المسلمين .

ذكر ردة أهل البحرين وعَودِهِم إلى الإسلام :

كان من خبرهم : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد بعث العلاء ابن الحضرمي رضي الله عنه إلىٰ ملكها المنذر بن ساوى العبدي ، فأسلم علىٰ يديه ، وأقام فيهم الإسلام والعدل ، ولم يزل إلىٰ أن توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتوفي المنذر بعده بقليل ، وكان قد حضر عنده في مرضه عمرو بن العاصي رضي الله عنه ، فقال له : يا عمرو ؛ هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجعل للمريض شيئاً من ماله ؟ قال : نعم ، الثلث ، فقال : ما أصنع به ؟ فقال : إن شئت تتصدق به علىٰ أقربائك ، وإن شئت على المحاويج ، وإن شئت جعلته حبساً محرَّماً ، قال المنذر : إني أتصدق به ، ففعل ومات ، فكان عمرو يتعجب منه .

ثم إنه لما مات المنذر . . ارتد أهل البحرين ، ولم يبق فيها قرية على الثبات على الإسلام . . إلا قرية يقال لها : جواثاً ، كانت أول قرية أقامت الجمعة من أهل الردة كما ثبت ذلك في « البخاري » ، وحاصر المرتدون المسلمين ، وضيقوا عليهم ، إلىٰ أن منعوهم من الأقوات ، وجاعوا جوعاً شديداً ، حتىٰ فرّج الله عز وجل عنهم ، فبعث الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى المرتدين العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه في جيش كبير ، فلما دنا من البحرين . . جاء إليه ثمامة بن أثال في جحفل كبير ، وأمراء تلك النواحي جميعها انضافوا إلىٰ جيش العلاء ابن الحضرمي ، فأكرمهم العلاء ، ورحب بهم ، وأحسن إليهم .

وكان العلاء من سادات الصحابة العلماء العباد ، وكان مجاب الدعوة[1] ، اتفق له في هٰذه الغزوة من الكرامات العجيبة أمور خارقة :

منها : أنه كان قد نزل منزلاً فلم يستقر الناس على الأرض حتىٰ نفرت الإبل بجميع ما عليها من زاد الجيش ، وأمتعتهم ، وخبائهم ، وشرابهم ، وبقوا على الأرض لا شيء عليهم ، ولا عندهم سوىٰ ما عليهم من ثياب أبدانهم ، وكان ذلك ليلاً ، ولم يقدروا علىٰ تحصيل بعير واحد منها ، فلحق الناس من الهم والحزن ما لا يحد ولا يوصف ، وجعل بعضهم يوصي إلىٰ بعض ، فأمر العلاء ابن الحضرمي رضي الله تعالىٰ عنه منادياً ، فنادىٰ باجتماع الناس إليه ، فلما اجتمعوا . . قال لهم : أيها الناس ؛ ألستم المسلمين ؟ ألستم في سبيل الله عز وجل ؟ ألستم أنصار الله تعالىٰ ؟ قالوا : بلىٰ ، قال : فأبشروا ، فوالله ؛

---

(١) أصله من حضرموت ، ولد بمكة ، وهو أول مسلم ركب البحر للغزو ، وأول من فتح جزيرة بأرض فارس .

لا يخذل الله عز وجل من كان في مثل حالكم .

ولم يزل يطيب قلوبهم ويبشرهم إلىٰ أن قرب الفجر ، فلما طلع الفجر . . نودي بصلاة الفجر ، وصلىٰ بالناس ، فلما قضى الصلاة . . جثا علىٰ ركبتيه وجثا الناس ، ونصب في الدعاء ، ورفع يديه ورفع الناس مثله ، ولم يزالوا في الدعاء إلىٰ أن طلعت الشمس ، وهو يجتهد في الدعاء ، والناس ينظرون إلىٰ سراب الشمس يلمع مرة بعد أخرىٰ ، وهو يجتهد في الدعاء ، فلما بلغ الثالثة وإذا بغدير عظيم من الماء قد خلقه الله عز وجل إلىٰ جانبهم ، ففرح الناس وأقبلوا يهرولون إليه ، وشربوا واغتسلوا ، فما تعالى النهار حتىٰ أقبلت الإبل بما عليها من كل فج ، ولم يفقدوا من أمتعتهم شيئاً ، فسقوا الإبل عَلَلاً بعد نهل[1] .

ثم إن العلاء سار بالجيش ، فلما اقترب من جيوش المرتدين وكانوا قد حشدوا وجمعوا . . نزل العلاء بجيشه ، ونزل المرتدون ، وباتوا متجاورين في المنازل ، فبينما المسلمون في الليل ؛ إذ سمع العلاء أصواتاً عالية من جيش المرتدين ، فقال : مَن رجل يكشف لنا خبر هـٰؤلاء القوم ؟ فقام رجل يقال له : عبد الله بن حدق ، فدخل إليهم ، فوجدهم سكارىٰ لا يعقلون من الخمر ، فرجع إليه ، فأخبره ، فركب العلاء من فوره هو والجيش ، فكبسوا المرتدين ، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً حتىٰ قلَّ من هرب منهم ، واستولى العلاء علىٰ جميع أموالهم وحواصلهم وأثقالهم ، فكانت غنيمة عظيمة جسيمة .

وكان الحطم بن ضبيعة أخو بني قيس بن ثعلبة من كبار المرتدين ، فقام دهِشاً حين اقتحم المسلمون عليهم ، فركب جواده ، فانقطع ركابه ، فجعل يقول : من يصلح لي ركابي ؟ فجاءه رجل من المسلمين ، فقال : أنا أصلحها لك ، ارفع رجلك ، فلما رفع رجله . . ضربه بالسيف فقطعها ، فوقع صريعاً ، فقال له : أجهز عليَّ ، قال : لا أفعل ، وجعل كلما مر به أحد . . يسأله أن يجهِز عليه ، فيأبىٰ عليه ، إلىٰ أن مر به قيس بن عاصم ، فقال له : أنا الحطم بن ضبيعة ، فاقتلني ، فقتله ، فلما رأىٰ رجله مقطوعة . . ندم علىٰ قتله ، وقال : واسوأتاه ، لو أعلم أن رجله مقطوعة . . لَمَا أجهزت عليه .

ثم ركب المسلمون في آثار المنهزمين يقتلونهم بكل مرصد وطريق ، وذهب من فر من المرتدين في البحر إلىٰ دارِين[2] ، وأسر المسلمون عفيف بن المنذر بن النعمان .

---

(١) **العَلَلُ** : الشرب للمرة الثانية ، **النهل** : الشرب ابتداءً .

(٢) فُرْضَة في البحر كان يجلب إليه العطر من الهند .

ثم شرع العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه في قسم الغنيمة ونَفْل الأنفال ، فلما فرغ من ذلك . . قال : اذهبوا بنا إلىٰ دارين ؛ لنغزو من بها من الأعداء ، فأجابوه إلىٰ ذلك سراعاً ، فسار بهم حتىٰ أتىٰ ساحل البحر ليركبوا في السفن ، فرأىٰ أن المسافة بعيدة ، وأنهم متىٰ ركبوا السفن . . طالت المدة ، وهرب الأعداء ، فاقتحم فرسه في لجة البحر ، وهو يقول : يا أرحم الراحمين ، يا حليم ، يا كريم ، يا أحد ، يا صمد ، يا حي ، يا قيوم ، يا محيي ، يا مميت ؛ لا إلـه إلا أنت يا ربنا ، وأمر الجيش أن يقولوا ذلك ويقتحموا البحر بخيلهم ، ففعلوا ذلك ، فأجاز بهم الخليج بإذن الله عز وجل ؛ يمشون علىٰ مثل رملة دمثة[1] ، فوقها ما لا يبلغ أخفاف الإبل ، ولا يصل إلىٰ ركب الخيل ، وكان مسيره في السفن يوماً وليلة ، فقطعه إلى الساحل الآخر ، وقاتل الأعداء وقهرهم وحاز غنائمهم ، ثم رجع ، فقطعه إلى الجانب الآخر ، فعاد إلىٰ موضعه الأول ، وذلك كله في يوم ، واستاق الذراري والأنعام والأموال ، ولم يفقد المسلمون في البحر شيئاً سوىٰ عليقة[2] فرس لرجل من المسلمين ، ومع ذلك فقد رجع العلاء بن الحضرمي رضي الله تعالىٰ عنه ، وجاء بها ، فدفعها إلىٰ صاحبها ، ثم قسم غنائم المسلمين ، فأصاب الفارس ألفين ، والراجل ألفاً ، مع كثرة الجيوش ، وكتب إلى الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه يعلمه بذلك ، وبعث الصديق يشكره علىٰ ما صنع .

وقد قال عفيف بن المنذر رضي الله عنه في مرورهم في البحر شعراً ، وهو :

ألـــم تـــر أن الله ذلَّـــلَ بحـــرَه ... وأنـزل بـالكفـار إحـدى الجـلائـلِ
دَعَـونـا إلـىٰ شـق البحـار فجـاءنـا ... بأعجبَ مِن فَلْق البحار الأوائلِ

وقد ذكر سيف بن عمر عن عفيف بن المنذر رضي الله عنه : أنه لما كان مع المسلمين في هـٰذه المواقف والمشاهد التي رآها من أمر العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه ، وما أجرى الله عز وجل علىٰ يديه من الكرامات من رجوع الإبل بأحمالها ، والغدير العظيم ، والمسير بالخيل في البحر ذهاباً وإياباً ، وجميع الجيش معه . . [أسلم] .

ومن ذلك أيضاً : أن راهباً من أهل هجر أسلم وحسن إسلامه ، وأنه قيل له : ما دعاك إلى الإسلام ؟ فقال : والله لو لم أفعل . . لخشيت أن يمسخني الله عز وجل ، وذلك لما

---

(١) **الرملة الدمثة** : اللينة السهلة ، التي ليست متلبدة .

(٢) **العليقة** : القضيم يعلق على الدابة .

شاهدته من الآيات العظيمة ، منها ما لا أحسن التعبير عنه ، ومنها : أني سمعت في الهواء وقت السحر دعاء ، قيل له : وما هو ؟ فقال : قال : اللهم ؛ أنت الرحمٰن الرحيم ، لا إلٰه غيرك ، والبديع ليس قبلك شيء ، والدائم الذي لا يزول ، والحي الذي لا يموت ، وخالق ما يُرىٰ وما لا يُرىٰ ، وكل يوم أنت في شأن ، وسعت ـ اللهم ربنا ـ كل شيء رحمة وعلماً ، قال : فعلمت أن هٰذا ملك ، وأن القوم ما أعينوا بالملائكة عليهم الصلاة والسلام . . إلا وهم على الحق الذي هو أمر الله عز وجل ، فأسلمت ، وكان هٰذا ناسكاً تسمع منه الصحابة رضي الله عنهم هٰذا الحديث .

وكان العلاء ابن الحضرمي رضي الله تعالىٰ عنه قد أمَّره رسول الله صلى الله عليه وسلم على البحرين ، وأقره عليها أبو بكر ، ثم عمر رضي الله عنهم .

توفي سنة أربع عشرة ، وقيل : سنة إحدىٰ وعشرين ، وولاه عمر الكوفة أيضاً بعد أن عزله عن البحرين ، وولاها أبا هريرة رضي الله عنه ، فمات العلاء ابن الحضرمي قبل وصوله إلى الكوفة ، مُنصَرَفَهُ من الحج ، رضي الله عنه .

وقد وقع مثل هٰذا في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكان الأمير من جهته : سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، وذلك أن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالىٰ عنه لما فتح مدينة بَهُرَسير ، إحدىٰ مدينتي كسرىٰ مما يلي دجلة من الغرب ، واستقر بها في صفر ، سنة ست عشرة . . لم يجد فيها أحداً ولا شيئاً مما يغنم ؛ لأن الفُرْس كانوا قد هربوا إلى المدائن وركبوا السفن ، وجعلوا أموالهم وأمتعتهم فيها ، وضموا السفن إليهم أيضاً ، وأراد سعد الوصول إليهم ، فلم يجد شيئاً من السفن ، وتعذر عليه تحصيل شيء منها بالكلية .

وكانت دجلة قد زادت في تلك السنة زيادة عظيمة ، واسودَّ ماؤها ، ورمت بالزبد من كثرة زيادة الماء بها ، وجاء الخبر إلىٰ سعد : أن كسرىٰ يزدجرد قد عزم على الرحيل من المدائن إلىٰ حلوان ، ويأخذ الأموال والأمتعة ، وإنك إن لم تدركه قبل ثلاث . . فات ، فقام سعد ، فخطب المسلمين علىٰ شاطىء دجلة ، فحمد الله ، وأثنىٰ عليه ، وقال : إن عدوكم قد اعتصم منكم بهٰذا البحر ، فلا تصلون إليهم وهم يصلون إليكم متىٰ أرادوا في السفن ، وليس وراءكم شيء تخافون ، وقد رأيت أن تبادروا جهاد عدوكم قبل أن تحصركم الدنيا ، وقد عزمت علىٰ قطع هٰذا البحر إن شاء الله تعالىٰ ، فقالوا جميعاً : عزم الله لنا ولك على الرشد ، فافعل ، فندب سعد الناس العبور إليهم ، وقال : من ينتدب فيحمي لنا

الفراض[1] ـ يعني : ثغرة المخاضة ـ من الناحية الأخرىٰ ؛ ليجوز الناس آمنين ؟ فانتدب عاصم بن عمرو رضي الله عنه وذوي البأس من الناس قريباً من ست مئة ، فأمَّر عليهم عاصم بن عمرو ، فوقفوا علىٰ حافة دجلة ، فقال عاصم : من ينتدب فيكون أول الناس دخولاً في هـٰذا البحر ، فيحمي الفراض من الجانب الآخر ؟ فانتدب له ستون من الشجعان المذكورين .

وكان الأعاجم قد وقفوا صفوفاً من الجانب الآخر ، فتقدم رجل من المسلمين وقد أحجم الناس عن الخوض في دجلة ، وقال لهم : أتخافون ؟ ثم تلا قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾ ، ثم اقتحم بفرسه في دجلة ، واقتحم الناس وراءه ، وقد افترق الستون أصحاب الخيل فرقتين ، أصحاب الخيل الذكور والخيل الإناث ، فلما رآهم الفرس يطوفون علىٰ وجه الماء . . قالوا : ديوانا ديوانا ؛ يعني : مجانين ، ثم قالوا : والله ؛ ما تقاتلون إنساً ، إنما تقاتلون جناً ، ثم أرسلوا فرساناً منهم في الماء في السفن يلتقون أول المسلمين ليمنعوهم من الخروج من الماء ، فأمر عاصم بن عمرو أصحابه أن يشرعوا إليهم الرماح ويقصدوا عيونهم ، ففعلوا ذلك بالفرس ، فقلعوا عيون خيولهم ، فرجعوا فارِّين لا يملكون كف خيولهم ، حتىٰ إذا خرجوا من الماء . . تبعهم عاصم وأصحابه ، فساقوا وراءهم حتىٰ طردوهم عن الجانب الآخر ، ووقفوا علىٰ حافة دجلة من الجانب الآخر ، ونزل بقية أصحاب عاصم من الست مئة في دجلة ، فخاضوها حتىٰ وصلوا إلىٰ أصحابهم من الجانب الآخر ، وأزاحوا الفرس عن ذلك الجانب ، وكانوا يسمُّون الكتيبة الأولىٰ : كتيبة الأهوال ، وأميرها عاصم بن عمرو ، والكتيبة الثانية : الكتيبة الخرساء ، وأميرها القعقاع بن عمرو .

وكان سعدٌ رضي الله عنه ينظر ما صنع هـٰؤلاء الفرسان ، وهو وجيشه علىٰ جانب دجلة ، فعند ذلك نزل سعد ببقية الجيش ، وأمرهم أن يقولوا : باسم الله ، نستعين بالله ، ونتوكل عليه ، حسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، ثم اقتحم بفرسه في دجلة ، واقتحم الناس خلفه الفرسان والرجالة ، وجعل الناس يتحدثون علىٰ وجه الماء كما يتحدثون علىٰ وجه الأرض ؛ لما حصل لهم من الطمأنينة والأمن والوثوق بأمر الله تعالىٰ ووعده ونصره وتأييده ، وكيف لا ، وأميرهم أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ؟! وهو

---

(١) الفِرَاض : فوهة النهر .

مجاب الدعوة ، وكان قد دعا لجيشه بالسلامة والنصر ، فاستجاب الله تعالىٰ دعوته فسلمهم ونصرهم .

ولم يحصل لأحد من المسلمين ضرر غير عروة البارقي ؛ فإنه كاد أن يزل عن فرسه ، فأدركه القعقاع بن عمرو ، وأخذ بلجامها ، وأخذ بيد الرجل حتىٰ عدَّله علىٰ فرسه ، وكان من الشجعان ، فقال : عجز النساء أن يلدن كالقعقاع .

ولم يفقد المسلمون شيئاً من أمتعتهم ، غير قدح خشب لمالك بن عامر ، كانت علاقته رثة ، فأخذه الموج ، فدعا صاحبه الله عز وجل ، فقال : اللهم ؛ لا تجعلني من بينهم يذهب متاعي ، فرده الموج إلى الجانب الذي يقصدونه ، فأخذه المسلمون وردوه علىٰ صاحبه ، وكان الفَرَس إذا أعيا وهو في الماء . . يقيض الله عز وجل مثل النشر المرتفع ، فيقف عليه ، فيستريح ، حتىٰ إن بعض الخيل ليسير في وسط البحر ، وما يصل الماء إلىٰ حزامها .

وكان يوماً عظيماً ، وأمراً هائلاً ، وخطْباً جليلاً ، وخارقاً باهراً ، ومعجزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم خلقها الله عز وجل لأصحابه رضي الله عنهم لم يُرَ مثلُها في تلك البلاد ، ولا في بقعة من البقاع ، سوىٰ قضية العلاء ابن الحضرمي رضي الله عنه المذكورة ، لٰكن هٰذه أجل منها وأعظم ؛ فإن هٰذا الجيش كان أضعاف أولٰئك ، وكان الذي يساير سعد بن أبي وقاص في الماء سلمان الفارسي رضي الله عنهما ، وجعل سعد يقول : حسبنا الله ونعم الوكيل ، والله ؛ لينصرن الله وليه ، وليظهرن دينه ، وليقهرن عدوه ، إن لم يكن في الجيش بَغْيٌ أو ذنوب تغلب الحسنات .

ولما استقل المسلمون علىٰ وجه الأرض . . خرجت الخيول تنفض أعرافها صاهلة ، فساروا وراء الأعاجم ، حتىٰ دخلوا المدائن ، فوجدوها قد هرب أكثرهم ، فقتلوا من بقي منهم ، وأسروا خلائق ، وأخذوا من الأموال وغيرها ما لا يدرىٰ قيمته ، بحيث إنه بلغ نصيب كل فارس اثني عشر ألفاً ، وكانوا كلهم فرساناً ، وكان مع أكثرهم جنائب[1] ، وكانوا ستين ألفاً ، هٰذا كله خارج عن الخُمُس ، وتاجِ كسرىٰ ، وحليِّهِ ، وثيابه ، وبساط إيوانه ؛ فإنه أُرسل إلىٰ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى المدينة يقسمه ، فقسمه أمير المؤمنين رضي الله عنه بين المسلمين ، بحيث أن نصيب علي بن أبي طالب رضي الله عنه خرج قطعةً من البساط قدر شبر ، باعها بعشرين ألف دينار ، وما هي بأجود القطع .

---

(١) جنائب : جمع جنيبة ، وهي : الدابة تقاد إلى الجنب من الخيل وغيرها .

زاد في رواية أخرىٰ : أنه كان هناك تماثيل مصورة ، فنظر سعد إلىٰ إحداها ، وإذا هو يشير بإصبعه إلىٰ مكان ، فقال سعد : إن لهـٰذا سراً لم يوضع سدىً ، فأمرهم أن يحفروا ما يسامت إصبعه ، فحفروا ، فوجدوا قبالتها كنزاً عظيماً من كنوز الأكاسرة الأوائل ، فأخرجوا منه أموالاً جزيلة ، وحواصل باهرة ، وتحفاً فاخرة ، فأخذ المسلمون جميع ما هنالك مما لم يُرَ في الدنيا أعجب منه ؛ لأن من جملة ذلك تاج كسرىٰ ، وهو مكلل بالجواهر التي تحير الأبصار ، وكذا مِنطقَته[1] ، وسيفه ، وسواره ، وقباه ، وبساط إيوانه مربعاً ستين ذراعاً في ستين ذراع ، من كل جانب قدر الإيوان سواء ، وهو منسوج بالذهب ، مرصع باللآلِىء واليواقيت والجواهر التي لم يُرَ مثلها ، وفيه مصور جميع ممالك كسرىٰ ، وسائر بلاده ، بأنهارها وأشجارها وقلاعها وسائر حصونها ، وصفة الزروع والثمار ، وسائر ما في مملكته ، فكان إذا جلس علىٰ كرسي مملكته . . نظر في بلاده بلداً بلداً ، فيسأل عنه وعمن فيه ، فيزيل ما يخبرونه من الظلم ، وقد جعلوا البساط تذكرة للنظر في أمر المملكة ، ولم يزالوا علىٰ ذلك إلىٰ أن أخذها المسلمون بأمر الله عز وجل وإذنه وإرادته سبحانه وتعالىٰ ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم . انتهىٰ .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يَسقط خطام راحلته ، فينيخ راحلته ، ويأخذه ، فيقال له : هلا أمرتنا ؟ فيقول : (إن حِبِّي رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرني ألاَّ أسأل الناس شيئاً) .

بويع بالخلافة يوم موت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لاثنتي عشرة ليلةً خلت من ربيع الأول ، سنة إحدىٰ عشرة من مهاجَر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما ولي . . استعمل عمر على الحج ، ثم حج هو من قابل ، ثم اعتمر في رجب سنة اثنتي عشرة ، فدخل مكة ضحوة نهاراً ، فأتىٰ منزله ، وأبوه أبو قحافة جالس علىٰ باب داره ومعه فتيان يحدثهم ، فقيل له : هـٰذا ابنك ، فنهض قائماً ، وعجل أبو بكر أن ينيخ راحلته ، فنزل عنها وهي قائمة ، وجعل يقول : يا أبت ؛ لا تقم ، ثم التزمه ، وقبَّل بين عينيه ، وأبو قحافة يبكي فرحاً بقدومه ، وجاء والي مكة عتَّاب بن أَسِيد ومعه سهيل بن عمرو وجماعة ، فسلموا عليه سلام الخلافة : سلام عليك يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصافحوه جميعاً ، فجعل أبو بكر يبكي حين يذكرون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم يسلمون علىٰ أبي قحافة ،

---

(١) **المِنطقة** : ما يشدُّ به الوسط .

فقال أبو قحافة : يا عتيق ؛ هـٰؤلاء الملأ ، فأحسن صحبتهم ، فقال أبو بكر : يا أبت ؛ لا حول ولا قوة إلا بالله ، طوِّقْتُ عظيماً من الأمر ، ولا قوة لي به ولا يدان إلا بالله ، ثم قال : هل من أحد يشتكي ظلامة ؟ فما أتاه أحد ، وأثنى الناس علىٰ واليهم .

ومن كلامه رضي الله عنه : (قد وليت أمركم ولست بأخيركم ، إن أقواكم عندي الضعيفُ حتىٰ آخذ له الحق ، وإن أضعفَكم عندي القويُّ حتىٰ آخذ منه الحق ، فإن أحسنت . . فأعينوني) .

وفي رواية : (إذا رأيتموني استقمت . . فاتبعوني ، وإذا رأيتموني زغت[1] . . فقوموني) .

وكان سبب موت أبي بكر رضي الله عنه وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه ما زال منها كمِداً ، فما زال جسمه يجري كمداً وحزناً حتىٰ مات رضي الله عنه .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : لما مرض أبو بكر مرض الموت . . قال : (انظروا ما زاد في مالي منذ دخلت في الإمارة ، فابعثوا به إلى الخليفة من بعدي) فنظرنا ، فإذا عبد نوبيٌّ كان يحمل صبيانه ، وناضح كان يسقي بستاناً له ، فبعثناهما إلىٰ عمر ، فبكىٰ عمر حتىٰ بلَّ التراب من دموعه ، وقال : (رحمة الله علىٰ أبي بكر ؛ لقد أتعب مَن بعده تعباً شديداً) .

وعنها قالت : (لما ثقل أبو بكر رضي الله عنه . . قال : أي يوم هـٰذا ؟ قلنا : يوم الإثنين ، قال : فإني أرجو ما بيني وبين الليل .

وكان عليه ثوب فيه آثار ؛ فقال : إذا أنا مت . . فاغسلوا ثوبي هـٰذا وضموا إليه ثوبين جديدين ، وكفنوني في ثلاثة أثواب ؛ فقلنا : أفلا نجعلها كلها جدداً ؟ قال : لا ، إنما هو للمهلة ، فمات من ليلة الثلاثاء) أخرجه البخاري [١٣٢١] .

توفي أبو بكر رضي الله عنه بين المغرب والعشاء ، لثمان ليالٍ بقين من جمادى الآخرة ، سنة ثلاث عشرة من الهجرة ، وهو ابن ثلاث وستين سنة ، وأوصىٰ أن تغسله أسماء ، وأن يدفن إلىٰ جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصلىٰ عليه عمر رضي الله عنهما بين القبر والمنبر ، ونزل في حفرته ابنه عبد الرحمـٰن وعمر وعثمان وطلحة . رضي الله عنهم أجمعين . انتهىٰ [« الصفوة » ١/١٠٥-١١٠] .

---

(١) ملت عن الحق .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : رأيت في كلام بعض الأئمة رحمهم الله صفة السلام علىٰ أبي بكر الصديق رضي الله عنه عند زيارته ، فأحببت أن أختم ترجمته به ؛ ليكون ختامه مسكاً ، وهو : أن يقول بعد السلام علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم : السلام عليك يا خَليفةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأمة ، ومعينَه علىٰ حفظ الملة ، السلام عليك يا صاحب رسول الله في الغار ، ورفيقه في الأسفار ، السلام عليك يا علم المهاجرين والأنصار ، وأمينه في الأسرار ، وصِدِّيقَهُ في جميع الأخبار ، أشهد أنك ما زلت علىٰ طريقته وسنته ، قائماً بالعدل والحق في ملته ، والعمل بشريعته ، والنصرة لدعوته ، كفلت الأيتام ، ووصلت الأرحام ، فجزاك الله عن الإسلام وعن نبيه ورسوله سيّد المرسلين محمدٍ صلى الله عليه وسلم وسائرِ أمته أفضل الجزاء ، ورضي عنك عدد الرمل والحصىٰ ، واللهَ أسأل أن يتوفانا علىٰ محبتك ، وأن يحشرنا في زمرة سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم وزمرتك ، كما أنعم علينا ووفقنا لزيارته صلى الله عليه وسلم وزيارتك ، ورضي الله عنك عدد عفوه عن خلقه ، وعدد ما أحاط به علمه سبحانه وتعالىٰ .

وقد روي عن ابن عمر رضي الله عنهما : أنه كان يقول إذا زار : (السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليك يا خليفة رسول الله ، السلام عليك يا أبتاه) ثم ينصرف .

وقال أهل السِّيَر : أصدق الناس فراسة أربعة : الصديق رضي الله عنه في عهده بالخلافة إلىٰ عمر رضي الله عنه ، والعزيز في قوله لامرأته عن يوسف عليه الصلاة والسلام : ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ ، وابنة شعيب عليه الصلاة والسلام في قولها لأبيها عن موسىٰ عليه الصلاة والسلام : ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ ، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون ، حيث قالت عن موسىٰ عليه الصلاة والسلام : ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم[1]

* * *

(١) ورد في نسخة : (وقا أبو بكر الصديق رضي الله عنه عدد عفوه عن خلقه : من مقت نفسه في ذات الله عز وجل . . آمنه الله من مقته) .

وثاني الأئمة : الإمام أمير المؤمنين :

عمر بن الخطاب
رضي الله عنه

قال شيخ شيخنا شيخ الإسلام محيي الدين النووي ـ قدس الله روحه ـ : هو أبو حفص عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح ـ بالمثناة من تحت ـ ابن عبد الله بن قُرَّط بن رزاح ـ براء مفتوحة مهملة ، ثم زاي معجمة ، ثم ألف ، ثم حاء مهملة ـ ابن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي العدوي . انتهىٰ [« التهذيب » ٣/٢] .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : يجتمع نسبه مع النبي صلى الله عليه وسلم في كعب . [انتهىٰ] .

وقال النووي ـ قدس الله روحه ـ : ولد بعد الفيل بثلاث عشرة سنة ، وكان من أشراف قريش ، وإليه كانت السفارة في الجاهلية ، فكانت قريش إذا وقعت الحرب بينهم أو بينهم وبين غيرهم . . بعثوه سفيراً ؛ أي : رسولاً .

ولما بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم . . كان عمر شديداً عليه وعلى المسلمين ، ثم لطف الله عز وجل به ، فأسلم قديماً بعد أربعين رجلاً وإحدىٰ عشرة امرأة .

قال سعيد بن المسيب ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : فما هو إلا أن أسلم عمر ، فظهر الإسلام بمكة .

وقال الزبير بن بكار : أسلم عمر بعد دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم دار الأرقم .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اللهم ؛ أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك : عمر بن الخطاب ، أو عمرو بن هشام »[1] ؛ يعني : أبا جهل .

وسبب إسلامه مشهور ، وهو : أن أخته فاطمة بنت الخطاب رضي الله عنها كانت زوجة سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل ، أحد العشرة رضي الله عنهم ، وكانت قد أسلمت هي

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٥٧٤) .

وزوجها ، فسمع عمر بذلك ، فقصدهما ليعاقبهما ، فقرأا عليه القرآن ، فأوقع الله تعالىٰ في قلبه الإسلام ، فأسلم ، ثم جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وهم مختفون في دار عند الصفا ، فأظهر إسلامه ، فكبَّر المسلمون فرحاً بإسلامه ، ثم خرج إلىٰ مجامع قريش ، فنادىٰ بإسلامه ، وضربه جماعة منهم وضاربَهم ، فأجاره خاله ، فكفوا عنه ، ثم لم تطب نفس عمر رضي الله عنه حين رأى المسلمين يُضرَبون ، وهو لا يُضرَب في الله ، فرد جوار خاله ، وكان يضاربهم ويضاربونه إلىٰ أن أظهر الله الإسلام .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : (كان إسلام عمر فتحاً ، وكانت هجرته نصراً ، وكانت إمامته رحمة ، ولقد رأيتُنا وما نستطيع أن نصلي في البيت[1] حتىٰ أسلم عمر ، فلما أسلم . . قاتلهم حتىٰ تركونا فصلينا) .

وعن حذيفة رضي الله عنه قال : (**لما أسلم عمر . . كان الإسلام كالرجل المقبل ، لا يزداد إلا قرباً ، فلما قتل . . كان الإسلام كالرجل المدبر ، لا يزداد إلا بعداً**) .

قال محمد بن سعد : كان إسلامه في السنة السادسة من النبوة .

واتفقوا علىٰ تسميته بالفاروق ، ورَوَوْا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله جعل الحق علىٰ لسان عمر وقلبه »[2] .

وهو الفاروق ؛ فرق الله به بين الحق والباطل .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : (سمىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر : الفاروق) .

واتفقوا علىٰ أنه **أوَّل من سمي أمير المؤمنين** ، وهو أحد السابقين ، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وأحد الخلفاء الراشدين ، وأحد أصهار[3] رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحد كبار علماء الصحابة وزهادهم ، رضي الله عنهم

روي له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس مئة حديث وتسعة وثلاثون حديثاً ، اتفق البخاري ومسلم رحمهما الله تعالىٰ منها علىٰ ستة وعشرين حديثاً ، وانفرد البخاري رحمه الله تعالىٰ بأربعة وثلاثين ، ومسلم بأحدٍ وعشرين .

---

(١) البيت الحرام .

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٩٣) .

(٣) **الصهر** : قريب الزوجة .

وروىٰ عنه : عثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، وطلحة ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمـٰن بن عوف ، وغيرهم نحو أحد وخمسين صحابياً ، وروىٰ عنه من التابعين خلائق ، رضي الله عنهم أجمعين .

وأجمعوا علىٰ كثرة علمه ، ووفور فهمه ، وزهده ، وتواضعه ، ورفقه بالمسلمين ، وإنصافه ، ووقوفه مع الحق ، وتعظيمه آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشدة متابعته له ، واهتمامه بمصالح المسلمين ، وإكرامه أهل الفضل والخير ، ومحاسنُه أكثر من أن تستقصىٰ .

قال ابن مسعود رضي الله عنه : (حين توفي عمر . . ذُهِبَ بتسعة أعشار العلم) .

وأقوال السلف في علمه مشهورة .

وهاجر إلى المدينة حين أراد النبي صلى الله عليه وسلم الهجرة .

قال البراء بن عازب رضي الله عنه : (أول من قدم علينا من المهاجرين مصعب بن عمير ، ثم ابن أم مكتوم ، ثم عمر بن الخطاب في عشرين راكباً ، فقلنا : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : هو علىٰ إثري ، ثم قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضي الله عنه) .

وعن علي رضي الله عنه قال : (ما علمت أحداً هاجر إلا مختفياً ، ما خلا عمر بن الخطاب ؛ فإنه لما هم بالهجرة . . تقلد سيفه ، وتنكب قوسه ، وانتضىٰ في يده سهماً ، وأتى الكعبة وأشرافُ قريش بفنائها ، فطاف سبعاً ، ثم صلىٰ ركعتين عند المقام ، ثم أتىٰ حلقهم واحدة واحدة ، فقال : شاهت الوجوه ، من أراد أن تثكله أمه ويؤتم ولده وترمل زوجته . . فليلقني وراء هـٰذا الوادي ، فما تبعه منهم أحد) .

قال ابن إسحاق : هاجر عمر وزيد ابنا الخطاب ، وسعيد بن زيد ، وعمرو وعبد الله ابنا سراقة ، وخنيس بن حذافة ، وواقد بن عبد الله ، وخولىٰ وهلال ابنا أبي خولىٰ ، وعياش بن أبي ربيعة ، وخالد وإياس وعاقل بنو البكير ، فنزلوا علىٰ رفاعة بن المنذر في بني عمرو بن عوف .

وشهد عمر رضي الله عنه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المشاهد كلها .

وكان شديداً على الكفار والمنافقين ، وهو الذي أشار بقتل أسارىٰ بدر ، ونزل القرآن علىٰ وفق قوله في ذلك ، وكان من الذين ثبتوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد .

وأما زهده وتواضعه . . فمن المشهورات التي استوى الناس في العلم بها ، وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه : قد علمت بأي شيء فضلنا عمر ، كان أزهدَنا في الدنيا .

وروِّينا : أن عمر رضي الله عنه دخل علىٰ بنته حفصة ، فقدمت إليه مرقاً بارداً ، وصبت عليه زيتاً ، فقال : (إدامان في إناء واحد ؟ لا آكله حتىٰ ألقى الله عز وجل) . [انتهىٰ « التهذيب » ٢/٣ـ٦] .

وزاد في رواية ابن سعد : عن الحسن : أن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه دخل علىٰ رجل ، فاستسقاه وهو عطشان ، فأتاه بإناء فيه عسل وماء ، فقال : (ما هـٰذا ؟) قال : عسل وماء ، قال : (والله ؛ لا يكون ما أحاسب به يوم القيامة) فلم يذقه .

وعن حميد بن هلال : أن حفص بن أبي العاص كان يحضر طعام أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ، فكان لا يأكل ، فقال له : (ما يمنعك من طعامنا ؟) قال : يا أمير المؤمنين ؛ طعامك جَشْبٌ[1] غليظ ، وإني راجع إلىٰ طعام ليِّنٍ قد صُنع لي ما شئتُ منه ، فقال أمير المؤمنين رضي الله عنه : (والله ؛ لو شئتُ . . لكنت أطيبَكم طعاماً ، وأرفعكم عيشاً ، ولـٰكن ـ والذي نفسي بيده سبحانه وتعالىٰ ـ لولا أن تنتقص حسناتي . . لشاركتكم في لين عيشكم) [انتهىٰ « الطبقات » ٣/ ٢٨٠] .

وقال النووي ـ قدس الله روحه ـ : وعن أنس رضي الله عنه قال : (لقد رأيت في قميص عمر أربع رقاع بين كتفيه) .

وعن أبي عثمان رحمه الله تعالىٰ قال : (رأيت عمر يرمي الجمرة وعليه إزار مرقوع بقطعة جراب) .

وعن غيره : أن قميص عمر رضي الله عنه كان فيه أربعَ عشرة رقعة ، إحداها من أدم .

وأما **فضائل عمر** رضي الله عنه الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في « الصحيحين » . . فأكثر من أن تحصر .

منها : عن سعيد بن زيد ـ أحد العشرة رضي الله تعالىٰ عنهم ـ قال : (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أبو بكر في الجنة ، وعمر في الجنة ، وعثمان في الجنة ، وعلي في الجنة ، وطلحة في الجنة ، والزبير في الجنة ، وسعد بن مالك ـ هو ابن أبي وقاص

---

(١) **الجَشْبُ من الطعام** : الخشن الغليظ .

ـ في الجنة وعبد الرحمـٰن بن عوف في الجنة ، وأبو عبيدة ابن الجراح في الجنة » . وسكت عن العاشر ، قالوا : من العاشر ؟ قال : سعيد بن زيد) يعني : نفسه . رواه أبو داوود [٤٦٥٠] والترمذي [٣٧٤٨] والنسائي [في « الكبرىٰ » ٥/٥٦] وغيرهم ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه في حديثه الطويل المشهور قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « افتح له ـ يعني : لعمر ـ وبشره بالجنة » رواه البخاري [٣٤٧١] ومسلم [٢٤٠٣] .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « بينا أنا نائم ؛ رأيت الناس يُعرَضون عليَّ وعليهم قُمص ، فمنها ما يبلغ الثدي ، ومنها دون ذلك ، وعرض عليَّ عمر بن الخطاب ، وعليه قميص يجره » ، قالوا : ما أولته يا رسول الله ؟ قال : « الدِّين » رواه البخاري [٢٣] ومسلم [٢٣٩٠] .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « بينا أنا نائم ؛ أُتيت بقدح لبن ، فشربت منه حتىٰ إني لأرى الرِّيَّ يخرج من أظفاري ، ثم أعطيت فضلي عمر بن الخطاب » ، قالوا : فما أولت ذلك يا رسول الله ؟ قال : « العلم »[1] .

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في حديثه الطويل المشهور : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعمر بن الخطاب : « والذي نفسي بيده ؛ ما لقيك الشيطان سالكاً فجّاً . . إلا سلك فجّاً غير فَجِّكَ » رواه البخاري [٣١٢٠] ومسلم [٢٣٩٦] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بينا أنا نائم رأيتني في الجنة ، وإذا امرأة تتوضأ إلىٰ جانب قصر ، فقلت : لمَن هـٰذا القصر ؟ فقالوا : لعمر ، فذكرت غيرتك » ، فبكىٰ عمر ، وقال : عليك أغار يا رسول الله ؟!) رواه البخاري [٣٠٧٠] ومسلم [٢٣٩٥] رحمهما الله تعالىٰ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدَّثون ، فإن يكن في أمتي أحد . . فإنه عمر » رواه البخاري [٣٤٨٦] ، ورواه مسلم [٢٣٩٨] من رواية عائشة رضي الله عنها .

---

(١) أخرجه البخاري (٨٢) .

وفي روايتها : قال ابن وهب : محدثون : أي ملهَمون ، وقال ابن عيينة رحمه الله تعالىٰ : معناه : مفهمون .

وعن ابن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهم أيضاً قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بينا أنا نائم ؛ رأيتني علىٰ قليب[1] عليها دلو ، فنزعت منها ما شاء الله ، ثم أخذها أبو بكر ، فنزع ذَنوباً[2] أو ذَنوبين ، وفي نزعه ضعف ، والله يغفر له ، ثم جاء عمر ، فاستقىٰ ، فاستحالت في يده غَرْباً[3] ، فلم أر عبقرياً[4] من الناس يفري فَرِيَّه[5] ، حتىٰ رَوِيَ الناس ، وضربوا بعطن »[6] رواه البخاري [٣٤٦٤] ومسلم [٢٣٩٢] رحمهما الله تعالىٰ .

قال العلماء : هـٰذه إشارة إلىٰ خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وكثرة الفتوح ، وظهور الإسلام في زمن عمر .

وعن ابن عمر وأنس ، عن عمر رضي الله عنهم قال : (وافقت ربي في ثلاث : قلت : يا رسول الله ؛ لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلىٰ ، فنزلت : ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ ، وقلت : يا رسول الله ؛ يدخل علىٰ نسائك البر والفاجر ، فلو أمرتهن يحتجبن ، فنزلت آية الحجاب ، واجتمع نساء النبي صلى الله عليه وسلم في الغيرة ، فقلت : عسىٰ ربه إن طلقكن . . أن يبدله أزواجاً خيراً منكن ، فنزلت كذلك[7]) .

والحديث الذي رواه البخاري [٣٤٦٢] ومسلم [٢٣٨٨] رحمهما الله تعالىٰ : « بينما راع في غنمه . . . » ، وقد ذكرناه في مناقب أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : إني لواقف في قوم يدعون الله لعمر ، وقد وُضع علىٰ سريره ، فتكنَّفه الناس يدعون ويصلون قبل أن يُرفع ، فلم يَرُعني إلا رجل أخذ بمنكبي ؛ فإذا عليٌّ ، فترحم علىٰ عمر وقال : ما خلفتَ أحداً أحب إلي أن ألقى الله بمثل عمله منك ،

---

(١) **القليب** : البئر قبل أن تبنىٰ بالحجارة من داخلها .

(٢) **الذنوب** : الدلو التي فيها ماء .

(٣) **الغرب** : الدلو العظيمة التي تُتخذ من جلد ثور .
ومعناه : أن عمر رضي الله عنه لما أخذ الدلو ليسقي الناس . . عظمت في يده وتحولت من الصغر إلى الكبر ، وذلك أن الفتوح كانت في زمنه منها في زمن أبي بكر رضي الله عنهما .

(٤) **العبقري** : سيد القوم وكبيرهم .

(٥) **يفري فريه** : أي يعمل عمله ، ويقطع قطعه ، وأصل الفري : القطع للإصلاح .

(٦) **العطن** : مَبْرَك الإبل حول الماء ، هو إشارة إلى اتساع في زمن عمر ، وكثرة مافتح الله عليهم من الأمصار .

(٧) البخاري (٣٩٣) .

وايم الله ؛ إن كنت لأظن أن يجعلك الله مع صاحبيك ؛ لأني كنت كثيراً أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ذهبت أنا وأبو بكر وعمر ، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر ، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر » رواه البخاري [٣٤٨٢] ومسلم [٢٣٨٩] رحمهما الله تعالىٰ .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (دخل عيينة بن حصن فقال : هِيْ يابن الخطاب ، فوالله ؛ ما تعطينا الجَزْل[١] ، ولا تحكم بيننا بالعدل ، فغضب عمر حتىٰ هَمَّ أن يوقع به ، فقال الحر بن قيس : يا أمير المؤمنين ؛ إن الله تعالىٰ قال لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ ، وإن هـٰذا من الجاهلين ، فوالله ؛ ما جاوزها عمر رضي الله عنه حين تلاها عليه ، وكان وقافاً عند كتاب الله عز وجل) رواه البخاري [٦٨٥٦] .

وعن حفصة رضي الله عنها قالت : قال عمر : (اللهم ؛ ارزقني شهادة في سبيلك ، واجعل موتي في بلد رسولك صلى الله عليه وسلم ، فقلت : أنىٰ يكون هـٰذا ؟ قال : يأتيني به الله عز وجل إذا شاء) رواه البخاري [١٧٩١] رحمه الله تعالىٰ .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : (ما رأيت أحداً قط بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم من حين قبض كان أجدَّ وأجود ، حتى انتهىٰ من عمر) رواه البخاري [٣٤٨٤] .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اللهم ؛ أعز الإسلام بأحب هـٰذين الرجلين إليك : بأبي جهل ، أو بعمر بن الخطاب ، فكان أحبهما إليه عمر » رواه الترمذي [٣٦٨١] وقال : حديث حسن صحيح .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله جعل الحق علىٰ لسان عمر وقلبه »[٢] .

وقال ابن عمر رضي الله عنهما : (ما نزل بالناس أمر قط فقالوا فيه وقال فيه عمر . . إلا نزل فيه القرآن علىٰ نحو ما قال عمر) رواه الترمذي [٣٦٨٢] وقال : حديث حسن صحيح .

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو كان بعدي نبي . . لكان عمر بن الخطاب » رواه الترمذي [٣٦٨٦] وقال : حديث حسن غريب .

وعن عمر رضي الله عنه قال : (استأذنت النبي صلى الله عليه وسلم في العمرة ، فأذن لي ، وقال : « لا تنسنا ـ يا أخي ـ من دعائك » ، فقال كلمة ما يسرني أن لي بها الدنيا) .

---

(١) **الجزل** : الكثير العظيم من كل شيء .

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٩٣) .

وفي رواية : « أشركنا ـ يا أخي ـ في دعائك » رواه أبو داوود [١٤٩٨] ، والترمذي [٣٥٦٢] وقال : حديث حسن صحيح .

وعن أبي سعيد رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أهل الدرجات العلىٰ ليراهم مَن تحتهم كما ترون النجم الطالع في أفق السماء ، وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعما » رواه أبو داوود [٣٩٨٧] ، والترمذي [٣٦٥٨] .

ومعنىٰ (أنعما) : زادا فضلاً ، وقيل : دخلا في النعيم .

وفي « الموطأ » [٩٩٣] عن يحيى بن سعيد الأنصاري : أن عمر بن الخطاب كان يحمل في العام الواحد علىٰ أربعين ألف بعير ، يحمل الرجل إلى الشام علىٰ بعير ، والرجلين إلى العراق علىٰ بعير .

وفي « مسند » الشافعي [١/ ٣٩٠] : بإسناده عن مولىٰ لعثمان ، قال : بينما أنا مع عثمان في مال له بالعالية في يوم صائف ؛ إذ رأىٰ رجلاً يسوق بَكْرين[1] ، وعلىٰ وجه الأرض مثل الفراش من الحر ، فقال : ما علىٰ هـٰذا لو أقام بالمدينة حتىٰ يُبْرِد ثم يروح ؟ فدنا الرجل ، فقال : انظر ، فنظرت ؛ فإذا عمر بن الخطاب ، فقلت : هـٰذا أمير المؤمنين ، فقام عثمان ، فأخرج رأسه من الباب ، فآذاه نفح السموم ، فأعاد رأسه حتىٰ حاذاه ، فقال : (ما أخرجك في هـٰذه الساعة ؟ فقال : بكران من إبل الصدقة تخلفا ، وقد مُضي بإبل الصدقة ، فأردت أن ألحقهما بالحِمىٰ ، وخشيت أن يضيعا ، فيسألني الله عنهما ، فقال عثمان : يا أمير المؤمنين ؛ هلم إلى الماء والظل ، ونكفيك ، فقال : عُدْ إلىٰ ظلك ، فقلت : عندنا من يكفيك ، قال : عُدْ إلىٰ ظلك ، فمضىٰ ، فقال عثمان : من أحب أن ينظر إلى القوي الأمين . . فلينظر إلىٰ هـٰذا ، فعاد إلينا ، فألقىٰ نفسه) .

ومن المشهورات من كرامات عمر رضي الله عنه : أنه كان يخطب يوم جمعة بالمدينة ، فقال في خطبته : (يا سارية بن حصن ؛ الجبل الجبل) فالتفت الناس بعضهم إلىٰ بعض ، فلم يفهموا مراده ، فلما قضىٰ صلاته . . قال له علي رضي الله عنه : (ما هـٰذا الذي قلته ؟ قال : وسمعته ؟! قال : نعم ، أنا وكل أهل المسجد ، قال : وقع في خلدي أن المشركين هزموا إخواننا وركبوا أكتافهم ، وأنهم يمرون بجبل ، فإن عدلوا إليه . . قاتلوا من وجدوا وظفروا ، وإن جاوزوه . . هلكوا ، فخرج مني هـٰذا الكلام ، فجاء البشير بعد شهر يذكر أنهم

---

(١) مثنىٰ بَكْر : وهو الفتيُّ من الإبل .

سمعوا في ذلك اليوم وتلك الساعة حين حاذَوا الجبل صوتاً يشبه صوت عمر : يا سارية بن حصن . . الجبل الجبل ، فعدلنا إليه ، ففتح الله علينا) .

وأحوال عمر رضي الله عنه ، وفضائله ، وسيرته ، ورفقه برعيته ، وتواضعه ، وجميل سيرته ، واجتهاده في الطاعة وفي حقوق المسلمين . . أشهر من أن تذكر ، وأكثر من أن تحصىٰ ، ومقصودنا في هـٰذا الكتاب ـ كما تقدم ـ الإشارة إلىٰ بعض المقاصد .

ولي الخلافة رضي الله عنه باستخلاف أبي بكر رضي الله عنه .

وكان أبو بكر شاور الصحابة في استخلافه عمر ، فأشار به عبد الرحمـٰن ابن عوف ، وقال : هُو أفضَلُ مِنْ رَأيكَ فيهِ ، ثم استشار عثمان بن عفان ، فقال : أنت أخبرنا به ، وعلمي به أن سريرته خير من علانيته ، وأن ليس فينا مثله ، وشاور معهما سعيد بن زيد ، وأُسَيْد بن حضير ، وغيرهم من المهاجرين والأنصار ، فقال أسيد : هو أعلم للخير بعدك ، يرضىٰ للرضىٰ ، ويسخط للسخط ، وسريرته خير من علانيته ، ولن يليَ هـٰذا الأمرَ أحد أقوىٰ عليه منه .

ثم دعا أبو بكر عثمان بن عفان ، فقال : اكتب : بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، هـٰذا ما عهد أبو بكر ابن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها ، وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها ، حين يؤمن الكافر ، ويوقن الفاجر ، ويصدق الكاذب ، إني مستخلف عليكم بعدي عمر بن الخطاب ، فاسمعوا له وأطيعوا ، فإني لم آلِ الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ودينه ونفسي وإياكم خيراً ، فإن عدل . . فذلك ظني به ، وإن بدَّل . . فلكل امرىء ما اكتسب ، والخيرَ أردتُ ، ولا أعلم الغيب ، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ثم أمره فختم الكتاب ، وخرج به إلى الناس ، فبايعوا عمر جميعاً ، ورضوا به ، ثم دعا أبو بكر عمر ، فأوصاه بما أوصاه ، ثم خرج ، فرفع أبو بكر يديه مُدّاً ، ثم قال : اللهم ؛ إني لم أرد بذلك . . إلا صلاحهم ، وخفت عليهم الفتنة ، فعملت فيهم ما أنت أعلم به مني ، فوليت عليهم خيرهم وأقواهم عليهم ، وأحرصهم علىٰ ما أرشدهم ، وقد حضرني من أمرك ما حضرني ، فاخلفني فيهم ، فهم عبادك ، ونواصيهم في يدك ، وأصلح لهم ولايته ، واجعله من خلفائك الراشدين ، يتبع هدي نبي الرحمة ، وأصلح له رعيته .

زاد في رواية أخرىٰ : ثم دعا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال له : يا عمر ؛ إني قد

عهدت إليك ، فدونك هـٰذا العهد ، فخذه إليك ، فأنت خليفتي من بعدي على الأمة ، فقال عمر : يا خليفة رسول الله ؛ لا حاجة لي فيها ، فقال أبو بكر : إن لم تكن محتاجاً إليها . . فهي محتاجة إليك ، **وبعد** : فإني ما حبوتك بالخلافة ، لـٰكني حبوتها بك ، ومع ذلك فإني أحذرك نفسك ؛ فإن النفس لأمارة بالسوء ، وأحذرك الناس ، **واعلم** : بأنهم خائفون منك ما خفت الله عز وجل ، وآثرت رضاه جل جلاله علىٰ هواك .

قال : وقد قدَّمْنا أنه أول من سُمي أميرَ المؤمنين ، سماه بذلك عدي بن حاتم ولبيد بن ربيعة ، حين وفدا إليه من العراق ، وقيل : سماه المغيرة بن شعبة ، وقيل : إن عمر قال للناس : أنتم المؤمنون وأنا أميركم ، فسُمي أمير المؤمنين ، وكان قبل ذلك يقال له : خليفةَ خليفةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعدلوا عن تلك العبارة ؛ لطولها .

ثم قام في الخلافة أتم قيام ، وجاهد في الله حق جهاده ، فجَيَّش الجيوش ، وفتح البلدان ، ومصَّر الأمصار ، وأعز الإسلام ، وأذل الكفر أشد إذلال .

فتح الشام ، والعراق ، ومصر والجزيرة ، وديار بكر ، وأرمينية ، وأذربيجان ، وأرّان ، وبلاد أطيال ، وبلاد فارس ، وخوزستان ، وغيرها .

واختلفوا في خراسان ، فقيل : فتحها عثمان ، وقيل : فتحها عمر ، **والصحيح** : أن عثمان فتحها .

وكان عمر أول من دون الدواوين للمسلمين ، ورتب الناس علىٰ سابقتهم في العطاء ، وفي الإذن والإكرام ، فكان أهل بدر أول الناس دخولاً عليه ، وكان علي بن أبي طالب أولَهم ، وأثبت أسماءهم في الديوان علىٰ قربهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبدأ ببني هاشم وبني المطلب ، ثم الأقرب فالأقرب .

وقد رُوِّينا عن عثمان وعلي أنهما قالا في عمر : هـٰذا القوي الأمين .

وثبت في « صحيح البخاري » [١٩٠٦] وغيره : أن عمر رضي الله عنه أول من جمع الناس لصلاة التراويح ، فجمعهم علىٰ أُبي بن كعب رضي الله عنه ، وأجمع المسلمون ـ في زمنه وبعده ـ على استحبابها .

ورووا عن علي رضي الله عنه : أنه مر على المساجد في رمضان وفيها القناديل ، فقال : (نَوَّرَ الله علىٰ عمر قبره كما نور علينا مساجدنا) انتهىٰ [« التهذيب » ٢/٦ـ١٢] .

وقال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه[1] : (مرضت فعادني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، أعيذك بالله الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، من شر ما تجد » ، قاله مراراً) [انتهىٰ « الإحياء » ٢/٢٠٩] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : وقفت علىٰ مصنف في سيرة العمرين رضي الله عنهما ، لم أر فيما وقفت عليه تصنيفاً أحسن منه للشيخ جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمـٰن بن علي بن محمد بن علي بن الجوزي رحمه الله ، فأحببت أن أذكر منه ما ليس في كتابي هـٰذا إن شاء الله عز وجل .

قال أبو الفرج رحمه الله : أخبرنا أبو عمر الزاهد قال : الحفص : الأسد .

قال : وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (أول يوم كناني رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي : « يا أبا حفص ؛ أتقتل عم نبيك ؟ » ، فقلت : يارسول الله ؛ دعني حتىٰ أقتله ، فقال : « لا يتحدث الناس أني أقتل أصحابي » ، وكنَّاني : أبا حفص ؛ يعني : أبا الأسد) .

وعن زيد بن أسلم ، عن أبيه رضي الله عنهما قال : (رأيت عمر يمسك أذن فرسه بإحدىٰ يديه ، ويمسك أذنه بالأخرىٰ ، ثم يثب حتىٰ يقعد عليه) .

وعن صهيب بن سنان قال : لما أسلم عمر ودعا إليه علانية . . جلسنا حول البيت حلقاً ، وطفنا بالبيت ، وانتصفنا ممن غلظ علينا ، ورددنا عليه بعض ما يأتي به .

وعن الحسن قال : يجيء الإسلام يوم القيامة ، فيتصفح وجوه الخلق ، حتىٰ يجيء إلىٰ عمر ، فيأخذَ بيده ، فيصعد به ، فيقول : أي رب ؛ إني كنت خفياً وأُهانُ ، وهـٰذا أظهرني ، وأنت أعلم ، قال : فتجيء ملائكة ، فتأخذ بيده ، فتدخله الجنان والناس في الحساب ، أو كما قال .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (جاء جبريل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له : أقرىء عمر السلام ، وأخبره أن رضاه عِزٌّ ، وغضبه حُكمٌ) .

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا غضب عمر ؛ فإن الله يغضب إذا غضب »[2] .

---

(١) القائل في « الإحياء » عثمان لا عمر ، رضي الله عنهما .

(٢) أخرجه الديلمي (١/ ٩٤) .

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو كان بعدي نبي . . لكان عمر بن الخطاب »[1] .

وعن سالم ، عن أبيه رضي الله عنهما قال : رأى النبي صلى الله عليه وسلم علىٰ عمر ثوباً ، فقال : « أجديد ثوبك ، أم غسيل ؟ » ، قال : غسيل ، قال : « البس جديداً ، وعش حميداً ، ومُت شهيداً »[2] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : حدثني عمر بن الخطاب قال : قتل يوم بدر من المشركين سبعون رجلاً ، وأُسر منهم سبعون ، واستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر ، فقال أبو بكر : يا نبي الله ؛ هـٰؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان ، وإني أرىٰ أن تأخذ منهم الفدية ، فيكون ما أخذناه قوة لنا على الكفار ، وعسى الله أن يهديهم فيكونون لنا عضداً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما ترىٰ يا بن الخطاب ؟ » ، فقلت : والله ؛ ما أرىٰ رأي أبي بكر ، ولـٰكنني أرىٰ أن تمكنني من فلان ـ قريب لعمر ـ فأضرب عنقه ، وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه ، حتىٰ يعلم الله أنه ليست في قلوبنا هوادة للمشركين ، هـٰؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم ، فهوِيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ، ولم يَهْوَ ما قلته ، فأخذ منهم الفداء .

فلما كان من الغد . . غدوت إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فإذا هو قاعد وأبو بكر وهما يبكيان ، فقلت : يارسول الله ؛ أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاءً . . بكيت ، وإن لم أجد بكاءً . . تباكيت لبكائكما ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أبكي للذي عَرض عليَّ أصحابك من الفداء ، لقد عُرض علي عذابكم أدنىٰ من هـٰذه الشجرة » لشجرة قريبة ، وأنزل الله عز وجل :

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ * لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ ﴾ من الفداء ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾[3] .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما : أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أسر الأسارىٰ يوم بدر . . استشار أبا بكر ، فقال : قومك وعشيرتك ، فخل سبيلهم ، واستشار عمر ، فقال :

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٩٢) .
(٢) أخرجه ابن حبان (٦٨٩٧) .
(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣٢) .

اقتلهم ، ففاداهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالىٰ : ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الآية ، فلقي عمر النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : « كاد يصيبنا في خلافك شر » .

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : (سمعت عمر بن الخطاب يقول : لما توفي عبد الله بن أُبي . . دُعي رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة عليه ، فقام عليه ، فلما وقف عليه يريد الصلاة . . تحولت حتىٰ قمت في صدره ، فقلت : يارسول الله ؛ أَعَلىٰ عبدِ الله بن أُبَيٍّ القائلِ يوم كذا وكذا : كذا ؟ أُعدِّد أيامه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتبسم ، حتىٰ إذا أكثرت عليه . . قال : « أخر عني يا عمر ، إني خيرت فاخترت ؛ قد قيل لي : ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾ ، لو أعلم أني إن زدت على السبعين غفر لهم . . لزدت » ، قال : ثم صلىٰ عليه ومشىٰ معه ، فقام علىٰ قبره حتىٰ فرغ منه ، فعجباً لي وجرأتي علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله ورسوله أعلم ، قال : فوالله ؛ ما كان إلا يسيراً حتىٰ نزلت هاتان الآيتان : ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ ، فما صلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده علىٰ منافق ، ولا قام علىٰ قبره حتىٰ توفاه الله عز وجل[1]) .

وعن ابن سيرين ، عن عبيدة قال : جاء عيينة بن حصن والأقرع بن حابس إلىٰ أبي بكر رضي الله عنه ، فقالا : يا خليفة رسول الله ؛ إن عندنا أرضاً سبخة ليس فيها كلأ ولا منفعة ، فإن رأيت أن تقطعناها لعلنا نحرثها ونزرعها ، ولعل الله أن ينفع بها بعد اليوم ، فقال أبو بكر رضي الله عنه لمن حوله : ما ترون فيما قالا ؟ فقالوا : إن كانت أرضاً سبخة لا ينتفع بها . . فنرىٰ أن تقطعها ، لعل الله أن ينفع بها بعد اليوم ، فأقطعهما إياها ، وكتب لهما بذلك كتاباً ، وأشهد عمر ، وليس في القوم ، فانطلقا إلىٰ عمر يشهدانه ، فلما تناول الكتاب من أيديهما وعلم ما فيه . . تفل فيه ومحاه ، وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتألفكما ، والإسلام يومئذ ذليل ، وإن الله قد أعز الإسلام ، فاذهبا ، قال : فأقبلا إلىٰ أبي بكر رضي الله عنه ، فقالا : والله ؛ ما ندري أأنت الخليفة ، أم عمر ؟ قال : بل هو لو كان شاء .

قال : فجاء عمر رضي الله عنه وهو مغضب حتىٰ وقف علىٰ أبي بكر ، فقال : أخبرني عن هـٰذه الأرض التي أقطعتها هـٰذين ، أرض هي لك خاصة ، أم بين المسلمين عامة ؟

---

(١) أخرجه ابن حبان (٣١٧٦) .

قال : هي بين المسلمين عامة ، قال : فما حملك علىٰ أن تخص بها هـٰذين دون جماعة المسلمين ؟ قال : استشرت الذين حولي فأشاروا عليَّ بذلك ، قال : فكل المسلمين أوسعتهم مشورة ورضىً ؟ فقال أبو بكر : قد كنت قلت لك : أنت أقوىٰ علىٰ هـٰذا مني ، ولـٰكنك غلبتني . أو كما قال رضي الله عنهما ، وأرضاهما ، ورضي عنا بهما .

وعن ابن المسيب ـ رحمه الله تعالىٰ ـ قال : أول من كتب التاريخ : عمر رضي الله عنه لسنتين ونصف من خلافته ، فكتبه لست عشرة من المحرم بمشورة من علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

وفي رواية : استشار عمرُ رضي الله عنه في التاريخ ، فأجمعوا على الهجرة .

وفي رواية : قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : تكتب منذ خرج النبي صلى الله عليه وسلم من أرض الشرك ؛ يعني : من يوم هاجر ، قال : فكتب ذلك عمر .

وكان عمر رضي الله عنه أول من مسح السواد[1] ، وأرَّض الجبل ، ووضع الخراج على الأرض ، والجزية علىٰ جماجم أهل الذمة فيما فتح من البلدان ، فوضع على الغني ثمانية وأربعين درهماً ، وعلى الوسط أربعة وعشرين ، وعلى الفقير اثني عشر ، واستعمل أول سنة وُلِّيَ على الحج عبدَ الرحمـٰن بن عوف ، فحج عبد الرحمـٰن بن عوف رضي الله عنه بالناس ، ثم لم يزل عمر رضي الله عنه يحج بالناس خلافَتَه كلَّها ، فحج بهم عشر سنين ، وحج بأزواج النبي صلى الله عليه وسلم في آخر حجة حجها ، واعتمر في خلافته ثلاث مرات ، وأخَّر المقام إلىٰ موضعه اليوم ، وكان ملصقاً بالبيت .

وقال عبيد الله بن إبراهيم : وألقى الحصىٰ في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان الناس إذا رفعوا رؤوسهم من السجود . نفضوا أيديهم ، فأمر عمر بالحصىٰ ، فجيء به من العقيق ، فبسط في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وخرج عمر رضي الله عنه ليلة في رمضان إلى المسجد ، فإذا الناس أوزاع[2] متفرقون يصلي الرجل لنفسه ، ويصلي الرجل فيصلي بصلاته الرهط[3] ، فقال عمر رضي الله عنه : إني لأرىٰ لو جمعت هـٰؤلاء علىٰ قارىء واحد . لكان أمثل ، فجمعهم علىٰ أُبي بن كعب

---

(١) المراد سواد العراق ، وهو مسح الأراضي الزراعية ، وهـٰذا مايسمى الآن (التحديد والتحرير) .

(٢) طوائف متفرقة .

(٣) جَمعٌ لا واحد له من لفظه ، هو ما دون العشرة من الرجال ليس فيهم امرأة .

رضي الله عنه ، فلما رآهم في ليلة أخرىٰ . . قال : نِعمت البدعة هـٰذه ، والتي ينامون عنها أفضل من التي يقومون ، يريد : آخر الليل ، وكان الناس يقومون أوله .

وفي رواية : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دعا ثلاثة قراء ، فأمر أسرعهم قراءة أن يقرأ ثلاثين آية ، وأوسطهم أن يقرأ بخمسٍ وعشرين ، وأمر أبطأهم أن يقرأ عشرين آية .

وعن الشعبي قال : لما سمع الناس قول عمر ، ورأوا عمله ، وكان يمشي في الأسواق ، ويطوف في الطرقات ، ويقضي بين الناس في قبائلهم ، ويعلمهم في أماكنهم . . ذكروا أبا بكر والنبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : كان النبي صلى الله عليه وسلم أعلم بأبي بكر ، وكان أبو بكر أعلم بعمر ، فجرىٰ أبو بكر وعمر مجرىً واحداً ، وقد كانوا يخافون من لين هـٰذا ومن شدة هـٰذا ، فكان أبو بكر رضي الله عنه مع لينه أقواهم فيما لا بد منه ، وألينهم فيما ينبغي ، وكان عمر رضي الله عنه ألينهم فيما ينبغي وأقواهم فيما لا بد منه .

وعن ابن شهاب الزهري رحمه الله تعالىٰ قال : قال ثعلبة ابن [أبي] مالك : قسم عمر بن الخطاب مُرُوطاً[1] بين نساء أهل المدينة ، فبقي منها مِرْط جيد ، فقال له بعض من عنده : يا أمير المؤمنين ؛ أعط هـٰذا ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي عندك ، يريدون : أم كلثوم بنت علي رضي الله عنها ، فقال عمر : (أم سليط أحق به ؛ فإنها ممن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت تزفر[2] لنا القِرَب يوم أحد) وهـٰذا من أفراد البخاري [٢٧٢٥] .

وقال ابن سعد [في « الطبقات » ٣/٣١٦-٣١٧] : عن زيد بن أسلم ، عن أبيه قال : لما كان عام الرمادة[3] . . جاءت العرب من كل ناحية إلى المدينة ، وكان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه قد أمَر رجالاً يقومون عليهم ، ويقسمون عليهم طعامهم وإدامهم ، فكان كل رجل علىٰ ناحية من المدينة في عدة رجال ، فكان الأعراب نزولاً فيما بين رأس الثنية إلىٰ بني عبد الأشهل إلىٰ بني حارثة إلىٰ بني قريظة إلىٰ ناحية بني سلمة ، فكانوا إذا اجتمعوا عند أمير المؤمنين . . يخبرونه بكل ما كانوا فيه ، فقال لهم ليلة وقد تعشى الناس عنده : أحصوا من يتعشىٰ عندنا ، فأحصوهم ، فوجدوهم سبعة آلاف رجل ، وقال : أحصوا العيالات[4] الذين لا يأتون

---

(١) **مرُوط** : واحدها مِرْط ، وهي أكسيةٌ من صوفٍ أو خزٍّ ، كان يُؤتزر بها .

(٢) **تزفر** : أي تحمل القرب التي فيها ماء للشرب وتسقي المقاتلين .

(٣) سنة (١٨هـ) عام حصل فيه جدب وقحط ، وسمي بالرمادة ؛ لأن الناس لما أجدبوا . . صارت ألوانهم كلون الرماد ، واستمر هـٰذا القحط تسعة أشهر .

(٤) **العَيالات** : الفقراء .

والمرضىٰ والصبيان ، فأحصوهم ، فوجدوهم أربعين ألفاً ، ثم زاد الناس حتىٰ صار مَن يتعشىٰ عنده نحو عشرة آلاف ، والآخرون خمسين ألفاً ، فلم يزالوا كذلك حتىٰ أرسل الله السماء ، فلما مُطِروا . . وَكَّل بكل قوم جماعة حتىٰ يخرجوهم إلىٰ بلادهم ، وأعطاهم زاداً يوصلهم .

وعن مالك بن أوس بن الحدثان من بني نصر قال : قدم من قومي مئة بيت ، فكان من جاءه منهم . . يطعمه ، ومن لم يأت . . أرسل إليه بالدقيق والتمر والأدم شهراً بشهر ، ويتعاهد مرضاهم ، ويرسل أكفان من مات منهم ، ويأتي بنفسه فيصلي عليهم .

وكانت قدور أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يقوم إليها العمال في السحر يعملون حتىٰ يصبحوا ، ثم يطعمون المرضىٰ منهم ، ويعملون العصائد[1] ، ويأمر بالزيت ، فيوضع في القدور الكبار ليكسر حره ، ثم يثرد فيه الخبز ، فيأكل الناس ، وهو مع ذلك صائم ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« تاريخ عمر بن الخطاب » ٢٠ـ٨٣] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : وقال زيد بن أسلم ؛ عن أبيه : كنا نقول : لو لم يرفع الله عام الرمادة . . لظننا أن عمر رضي الله عنه يموت هَمّاً بأمر المسلمين .

وعن ابن شهاب رحمه الله تعالىٰ : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال عام الرمادة ـ وكانت سنةً شديدة ، بعدما اجتهد في إمداد العرب بالإبل والقمح والزيت ، قام يدعو ، وقال : (اللهم ؛ اجعل رزقهم علىٰ رؤوس الجبال) ، فاستجاب الله عز وجل له وللمسلمين ، وقال : فقال عمر رضي الله عنه حين نزل الغيث : (الحمد لله ، فوالله ؛ لو أن الله عز وجل لم يفرجها : ما تركتُ بأهل بيت من المسلمين معهم سعة . . إلا أدخلت معهم أعدادهم من الفقراء ، فلم يكن اثنان يهلكان من الطعام علىٰ ما يقيم واحداً) .

وعن الفضل بن عميرة : أن الأحنف بن قيس قدم علىٰ عمر بن الخطاب رضي الله عنه في وفد من العراق ؛ قدموا عليه في يوم صائف شديد الحر ، وهو محتجز بعباءة له ، يَهنَأُ[2] بعيراً من إبل الصدقة ، فقال : يا أحنف ؛ ضع ثيابك ، وهلم فأعن أمير المؤمنين علىٰ هـٰذا البعير ؛ فإنه من إبل الصدقة ، فيه حق لليتيم والمسكين والأرملة ، فقال رجل من القوم :

---

(١) عَصائد ـ جمع عَصِيدة ـ : هي دقيق يُلَتُّ بالسمن ويطبخ .

(٢) يهنَأ : يطلي بالهناء ، وهو القطران ، وكان هـٰذا البعير أجرب ، والذي عندنا في المخطوطات : (فشرد بعير) ولعل ما أثبتناه الصواب ، والله أعلم .

يغفر الله لك يا أمير المؤمنين ، فهلا تأمر عبداً من عبيد الصدقة فيكفيك هـٰذا ؟ قال عمر : (وأي عبد هو أعبد مني ومن الأحنف بن قيس ؟ إنه من ولي أمر المسلمين . . فهو عبد المسلمين ، يجب عليه لهم ما يجب على العبد لسيده من النصيحة وأداء الأمانة) .

وعن إبراهيم النخعي قال : لما ولي عمر . . قال لعلي : (اقض بين الناس ، وتجرد للحرب) .

وعن عبد الملك بن عمير قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (من استعمل رجلاً لمودة أو لقرابة لا يشغله إلا ذلك . . فقد خان الله ورسوله والمؤمنين) .

وعن عمران بن سليم ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم قال : (من استعمل فاجراً وهو يعلم أنه فاجر . . فهو مثله) .

عن عبد الله بن المبارك قال : اشترىٰ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أعراض المسلمين من الحطيئة بثلاثة آلاف درهم .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : كان عمر يأتي مجزرة الزبير بن العوام بالبقيع ـ ولم يكن بالمدينة مجزرة غيرها ـ ومعه الدِّرَّة ، فإذا رأىٰ رجلاً اشترىٰ لحماً يومين متتابعين . . ضربه بالدرة ، وقال : (ألا طويت بطنك لجارك وابن عمك ؟!) .

وعن ابن شهاب : أن القاسم بن محمد أخبره : أن رجلاً ضاف ناساً من هذيل ، فخرجت لهم جارية ، فاتبعها ذلك الرجل ، فراودها علىٰ نفسها ، فتعافسا في الرمل[1] ، فرمته بحجر ، فقضت كبده[2] ، فبلغ ذلك عمر ، فقال : (ذاك قتيل الله لا يودىٰ أبداً) .

قالوا : أول ما عمل به عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن ندب الناس مع المثنى بن حارثة الشيباني إلىٰ فارس قبل صلاة الفجر من الليلة التي مات فيها أبو بكر ، ثم أصبح ، فبايع الناس ، وعاد فندب الناس إلىٰ فارس ، فندبهم ثلاثاً كلَّ يوم ينتدب .

وعن إبراهيم التيمي قال : لما افتتح المسلمون السواد . . قالوا لعمر بن الخطاب : اقسمه بيننا ، فأبىٰ ، فقالوا : إنا افتتحناها عنوة ، قال : (فما لمن جاء بعدكم من المسلمين ؟ فأخاف أن تفاسدوا بينكم في المياه ، وأخاف أن تقتتلوا) فأقرَّ أهل السواد في أرضهم ،

---

(١) تعافسا : تصارعا .

(٢) قضَّت كبده : ثقبتها .

وضرب علىٰ رؤوسهم الضرائب ـ يعني : الجزية ـ وعلىٰ أرضهم الطَّسْق ـ يعني : الخراج ـ ولم يقسمها بينهم .

وفي رواية : قال عمر : (لولا آخر المسلمين : ما فتحت قرية . . إلا قسمتها كما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر) .

وفي رواية : (لولا أني أترك الناس لا شيء لهم : ما فتحت قرية . . إلا قسمتها كما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر) .

وعن يزيد بن أبي حبيب قال : كتب عمر بن الخطاب إلىٰ سعد حين افتتح البلاد : أما بعد : فقد بلغني كتابك ، تذكر أن الناس سألوك أن تقسم بينهم مغانمهم ، وما أفاء الله عليهم ، فإذا أتاك كتابي هـٰذا . . فانظر ما أجلب الناس به عليك إلى العسكر من كراع أو مال ، فاقسمه بين من حضر من المسلمين ، واترك الأرضين والأنهار لعمالها ؛ ليكون ذلك في أعطيات المسلمين ؛ فإنك إن قسمتها بين من حضر . . لم يكن لمن بقي بعدهم شيء .

وعن هشام بن محمد بن السائب قال : سمعت أبي يقول : إنما سمي السواد ؛ لأن العرب حين جاؤوا نظروا إلىٰ مثل الليل من النخل والشجر والماء ، فسموه سواداً .

وكان عمر رضي الله عنه إذا أتاه الخصمان . . برك علىٰ ركبتيه وقال : (اللهم ؛ أعِنِّي عليهما ؛ فإن كل واحد منهما يُريدني عن ديني) .

وعن يحيى بن عبد الرحمـٰن بن حاطب ، عن أبيه قال : قدمنا مكة مع عمر رضي الله عنه ، فأقبل أهل مكة يسعون ، ياأمير المؤمنين ، يا أمير المؤمنين ؛ أبو سفيان حبس مسيل الماء علينا ليهدم منازلنا ، فأقبل عمر ومعه الدرة ، فإذا أبو سفيان نصب أحجاراً ، فقال : ارفع هـٰذا وهـٰذا ، فرفعه ، ثم قال : وهـٰذا وهـٰذا حتىٰ رفع أحجاراً خمسة أو ستة ، ثم استقبل عمر رضي الله عنه الكعبة ، فقال : الحمد لله الذي جعل عمر يأمر أبا سفيان ببطن مكة ، فيطيعه .

وعن جرير بن حازم قال : سمعت الحسن يقول : (حضر بابَ عمر بن الخطاب سهيل بن عمرو ، والحارث بن هشام ، وأبو سفيان ابن حرب ، ونفر من قريش من تلك الرؤوس ، وصهيب ، وبلال ، وتلك الموالي الذين شهدوا بدراً ، فخرج آذن عمر ، فأذن لهم وترك هـٰؤلاء ، فقال أبو سفيان : لم أر كاليوم قط ، يأذن لـهـٰؤلاء العبيد ويتركنا علىٰ بابه لا يلتفت إلينا ؟ فقال سهيل بن عمرو ـ وكان رجلاً عاقلاً ـ : أيها القوم ؛ إني ـ والله ـ لقد

أرى الذي في وجوهكم ، إن كنتم غضاباً . . فاغضبوا علىٰ أنفسكم ، دعي القوم ودعيتم ، فأسرعوا وأبطأتم ، فكيف بكم إذا دعوا يوم القيامة وتُركتم ؟!) .

وعن نوفل بن عمارة قال : جاء الحارث بن هشام وسهيل بن عمرو إلىٰ عمر رضي الله عنه ، فجلسا عنده وهو بينهما ، فجعل المهاجرون الأولون يأتون عمر ، فيقول : هـٰهنا ياسهيل ، هـٰهنا ياحار[1] ، فينحيهما عنهم ، فجعل الأنصار يأتون عمر ، فينحيهما عنهم ، حتىٰ صارا في آخر الناس ، فلما خرجا من عند عمر رضي الله عنه . . قال الحارث بن هشام لسهيل بن عمرو : ألم تر ما صنع بنا ؟ فقال سهيل بن عمرو : أيها الرجل . . لا لوم عليه ، ينبغي أن نرجع باللوم علىٰ أنفسنا ، دعي القوم فأسرعوا ، ودعينا فأبطأنا .

وعن الحسن رضي الله عنه : أن رجلاً أتىٰ أهل ماء ، فاستسقاهم ، فلم يسقوه حتىٰ مات عطشاً ، فأغرمهم عمر بن الخطاب ديته .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كنا عند عمر بن الخطاب ؛ إذ جاءه رجل من أهل مصر ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ هـٰذا مقام العائذ بك ، قال : ما شأنك ؟ قال : أجرىٰ عمرو بن العاصي الخيل بمصر ، فأقبلت علىٰ فرسي ، فلما حضر الناس . . قام محمد بن عمرو يقول : هـٰذه فرسي ورب الكعبة ، فلما دنا مني . . قلت له : هـٰذه فرسي ورب الكعبة ، فقام يضربني بالسوط ، ويقول : خذها وأنا ابن الأكرمين ، قال : فوالله ؛ مازاد عمر علىٰ أن قال : اجلس ، ثم كتب إلىٰ عمرو بن العاصي : إذا جاءك كتابي هـٰذا . . فأقبل وأحضر ابنك محمداً معك ، قال : فدعا عمرو ابنه محمداً ، فقال : هل أحدثتَ حدثاً أو جنيت جناية ؟ قال : لا ، قال : فما بال أمير المؤمنين عمر يكتب فيك ؟ قال : فقدم علىٰ عمر .

قال أنس رضي الله عنه : فوالله إنا لعند عمر بمنىٰ ؛ إذا نحن بعمرو قد أقبل في إزار ورداء ، فجعل عمر يلتفت هل يرى ابنه ؛ فإذا هو خلف أبيه ، فقال : أين المصري ؟ قال : ها أنذا ، قال : دونك الدرة ، اضرب ابن الأكرمين ، اضرب ابن الأكرمين ، اضرب ابن الأكرمين ، قال : فضربه حتىٰ أثخنه ، ثم قال : أجِلْها علىٰ صلعة أبيه عمرو ، فوالله ؛ ما ضربك . . إلا بفضل سلطانه ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ قد ضربتُ من ضربني ، فقال : أمَا والله ؛ لو ضربتَ من ضربك . . لما حُلْنا بينك وبينه حتىٰ تكون أنت الذي تدعه ، يا

---

(١) أي : يا حارث ، وهـٰذا ما يسمىٰ بالترخيم ، وهو حذف آخر المنادىٰ .

عمرو ؛ متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهم أحراراً ؟!

ثم التفت رضي الله عنه إلى المصري ، فقال : انصرف راشداً ، فإن رابك ريب . . فاكتب إلي .

وعن قتادة قال : آخر مال قدم علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم من البحرين : ثمان مئة ألف درهم ، فما قام من مجلسه حتىٰ فرقها ، ولم يكن للنبي صلى الله عليه وسلم بيت مال ولا لأبي بكر ، وأول من اتخذ بيت المال : عمر بن الخطاب .

عن مالك بن أوس قال : كان عمر يحلف علىٰ أيمان ثلاث ، يقول : (والله ؛ ما أحد أحق بهـٰذا المال من أحد ، وما أنا بأحق به من أحد ، ووالله ؛ ما من المسلمين أحد إلا وله في هـٰذا المال نصيب ، إلا عبداً مملوكاً ، ولـٰكنا علىٰ منازلنا من كتاب الله عز وجل ، وقسمنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالرجل وبلاؤه في الإسلام ، والرجل وقِدَمه في الإسلام ، والرجل وغناه في الإسلام ، والرجل وحاجته ، ووالله ؛ لئن بقيتُ لهم . . ليأتين الراعيَ بجبل صنعاء حظُّه من هـٰذا المال وهو يرعىٰ مكانه) .

وخطب يوماً بالجابية فقال : (من أراد أن يسأل عن القرآن . . فليأت أُبي بن كعب ، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض . . فليأت زيد بن ثابت ، ومن أراد أن يسأل عن الفقه . . فليأت معاذ بن جبل ، ومن أراد أن يسأل عن المال . . فليأتني) .

وقال ابن سعد : قال محمد بن إبراهيم : كان عمر رضي الله عنه يستنفق كل يوم درهمين له ولعياله ، وأنفق في حجته مئة وثمانين درهماً ، وكان عمر رضي الله عنه ربما احتاج ، فيستقرض من صاحب بيت المال ـ وكان صاحبَ بيت المال عبدُ الله بن مسعود رضي الله عنه ـ فإذا مضت المدة . . جاء صاحبُ بيت المال ، وكان صاحبُ بيت المال يتقاضاه ، فيحتال[1] له عمر رضي الله عنه ويعطيه ، وربما خرج عطاؤه ، فيقضيه .

وصعد المنبر يوماً وكان به ضَعْفٌ ، وقد وصف له العسل ، وكان في بيت المال عُكَّة[2] فيها عسل ، فقال : (إن أذنتم لي فيها . . أخذتها ، وإلا . . فإنها عليَّ حرام) فأذنوا له فيها .

وعن الزهري : أن عمر رضي الله عنه كسا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن

---

(١) أي : يحيله علىٰ من عليه دين لعمر رضي الله عنه يتقاضاه منه .

(٢) **العُكّة** : وعاء من جلد ، يوضع فيه السمن أو العسل .

فيها ما يصلح للحسن والحسين رضي الله عنهما ، فبعث إلى اليمن ، فأُتي لهما بكسوة ، فقال : الآن طابت نفسي .

وكان عمر رضي الله عنه إذا استعمل عاملاً . . كتب عليه كتاباً ، وأشهد عليه رهطاً من الأنصار ، ألاَّ يركب بِرْذَوْناً ، ولا يأكل نقياً ، ولا يلبس رقيقاً ، ولا يغلق بابه دون حاجات المسلمين ، ثم يقول : اللهم ؛ اشهد .

وعن الشعبي قال : قال عمر رضي الله عنه : (لا أوتىٰ برجل فضَّلَني علىٰ أبي بكر . . إلا جلدته أربعين) .

قال : وكان إذا بعث عاملاً . . كتب ما له .

وعن الحسن قال : قال عمر رضي الله عنه : (لئن عشت إن شاء الله . . لأسيرنَّ في الرعية حولاً ، فإني أعلم أن للناس حوائجَ تُقطع عني . أمَّا هُم . . فلا يصلون إلي ، وأمَّا عُمَّالهم . . فلا يرفعونها إلي ، فأسير إلى الشام ، فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلىٰ مصر ، فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى البحرين ، فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى الكوفة ، فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى البصرة ، فأقيم بها شهرين) .

وعن الزهري : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه جلد صبيغاً التيمي عن مسائلته عن حروف في القرآن ، حتى اضطربت الدماء في ظهره .

وعن الحسن : أن عمران بن حصين أحرم من البصرة ، فقدم علىٰ عمر بن الخطاب ، فأغلظ له ونهاه عن ذلك ، وقال : (يتحدث الناس أن رجلاً من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أحرم من مصرٍ من الأمصار ؟!) .

وعن أنس رضي الله عنه قال : (كتب عمر بن الخطاب إلىٰ عماله : اكتبوا عن الزاهدين في الدنيا ؛ فإن الله عز وجل وكَّل بهم ملائكة واضعي أيديهم علىٰ أفواههم ، لا يتكلمون . . إلا بما هيّأه الله لهم) .

وعن القاسم بن محمد قال : بينما عمر يمشي وخلفه عدة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ إذ بدا له ، فالتفت ، فلم يبق أحد من القوم إلا جثا لركبتيه ساقطاً ، قال : فأرسل عمر عينيه بالبكاء ، ثم قال : (اللهم ؛ إنك تعلم أني منك أشد فرقاً منهم مني) .

وعن أنس رضي الله عنه قال : كنا عند عمر بن الخطاب وعليه قميص في ظهره أربع

رقاع ، فقرأ : ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ ، فقال : ما الأبُّ[1] ؟ ثم قال : (إنَّ هـٰذا لهو التكلف ، فما عليك ألاَّ تدري ما الأبُّ ؛ لأنه ليس بالناس إلى البحث عنه حاجة) .

وفي رواية : عن أبي عثمان النهدي قال : رأيت إزار عمر بن الخطاب فيه ثنتا عشرة رقعة ، إحداهن بأديم أحمر .

وعن قتادة : أن عمر أبطأ على الناس يوم جمعة ، ثم خرج ، فاعتذر إليهم في احتباسه ، وقال : (إنما حبسني غسل ثوبي هـٰذا كان يُغسَل ، ولم يكن لي ثوب غيره) .

وقال عمر رضي الله عنه : (لولا مخافة طول الحساب . . لأمرت بحَمَل يشوىٰ لنا في التنور) .

وقيل : دخل عمر رضي الله عنه بيته وقد أصابه الجوع ، فقال لأهله : عندكم شيء ؟ فقالت امرأته : تحت السرير ، فتناول متاعاً فيه تمر ، فأكل ثم شرب الماء ، ثم قال : (ويحٌ لمن أدخله بطنُه النارَ) .

وعن سفيان : كان عمر رضي الله عنه يشتهي الشيء لعله يكون بثمن درهم ، فيؤخره سنة [انتهىٰ « تاريخ عمر بن الخطاب » : ٨٨ـ١٦٩] .

وأما فتح بيت المقدس . . فقد روى ابن جرير من رواية سيف بن عمر : أن أبا عبيدة رضي الله عنه لما فرغ من دمشق . . كتب إلىٰ إيلياء يدعوهم إلى الله عز وجل وإلى الإسلام ، أو يبذلوا الجزية ، أو يؤذنوا بالحرب ، فأبوا أن يجيبوا إلىٰ ما دعاهم إليه ، فركب أبو عبيدة رضي الله عنه في جنوده ، واستخلف علىٰ دمشق سعيد بن زيد رضي الله عنه ، ثم حاصر أهل بيت المقدس ، وضيق عليهم حتىٰ أجابوا إلى الصلح ، بشرط أن يَقْدُمَ إليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فكتب أبو عبيدة إلىٰ أمير المؤمنين يعلمه بذلك ، فاستشار أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه الناس في ذلك ، فأشار عثمان بن عفان رضي الله عنه بأن لا يركب إليهم ؛ ليكون أحقر لهم وأرغم لآنافهم ، وأشار علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالمسير إليهم ؛ ليكون أخف وطأة على المسلمين في حصارهم ، فهوي ما قال علي رضي الله عنه ، ولم يهوَ ما قال عثمان رضي الله عنه ، وسار بالجيوش ، وذلك في سنة خمس عشرة ، بعد أن استخلف على المدينة علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

وسار العباس رضي الله عنه معه علىٰ مقدمته ، فلما وصل إلى الشام . . تلقاه أبو عبيدة ،

---

(١) **الأبُّ** : المرعىٰ ، والأبُّ للدواب كالفاكهة للإنسان .

ورؤوس الأمراء ؛ كخالد بن الوليد ، ويزيد ابن أبي سفيان رضي الله عنهم ، وترجَّل أبو عبيدة رضي الله عنه ، وترجل عمر بن الخطاب ، فأشار أبو عبيدة ليقبِّلَ يدَ عمر ، فهَمَّ عمر بتقبيل رجل أبي عبيدة ، فكف أبو عبيدة ، فكف عمر رضي الله عنهما ، وكان العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه بين يديه علىٰ فرس ، وكان وسيماً جميلاً ، فجعل البطارقة والعظماء من الروم يسلمون على العباس ، وهو يشير إلىٰ عمر رضي الله عنه ، فيرجعون ، فيسلمون عليه ، وسجد له جماعة من الرهبان والقسيسين ، فنهاهم ومنعهم ، وقال : لا يحل السجود لغير الله عز وجل ، فقالوا : مارأينا أحداً أشبه بالحواريين من هـٰذا الرجل .

وتلقاه جمع كثير من أهل الأديان بالسيوف ، فكره النظر إليهم وأمر بردهم ، فقال له أبو عبيدة رضي الله عنه : إنها سنة الأعاجم يا أمير المؤمنين ، وتلقاه معاوية ابن أبي سفيان رضي الله عنه في موكب نبيل ، فجاوز عمر رضي الله عنه ولم يعرفه ، فأُخبر معاوية أن أمير المؤمنين قد تقدمه ، فرجع إليه ، فترجل وقبَّل يده ، ومشىٰ في ركابه ، وأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يعرض عنه ساعة طويلة ، وهو سائر لا يلتفت إليه ، وهو ماش في ركابه ، فقال عبد الرحمـٰن بن عوف رضي الله عنه : يا أمير المؤمنين ؛ أتعبت الرجل ، فقال : يابن أبي سفيان ؛ أنت صاحب الموكب آنفاً مع ما بلغني وقوف ذوي الحاجات ببابك ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إنَّا في بلاد فيها جواسيس العدو ، ولا بد ما يردعهم بمثل ما يردعهم به من هيبة السلطان ، فإن أمرتني أن أترك هـٰذا . . فعلت ، فلم يَرُدَّ عليه شيئاً .

ثم إنه لما وصل أمير المؤمنين إلىٰ بيت المقدس . . خرج إليه الرهبان والقساوسة وأكابرهم ، فتلقَّوه ودخلوا بين يديه إلىٰ بيت المقدس ، ثم سار عمر رضي الله عنه حتىٰ صالح نصارىٰ بيت المقدس ، واشترط عليهم إجلاء الروم إلىٰ ثلاث ، ثم إنه لما دخل المسجد . . إنما دخله من الباب الذي دخل منه رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليلة الإسراء .

زاد في رواية : فبينا أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بالجابية ؛ إذا بكُرْدُوس[1] من الروم بأيديهم السيوف مسللة ، فثار إليهم المسلمون بالسلاح ، فقال لهم أمير المؤمنين : إن هـٰؤلاء القوم مستأمَنون ، فساروا نحوهم ، فوجدوهم جنداً من بيت المقدس يطلبون الأمان

---

(١) **الكردوس** : كتيبة من الفرسان علىٰ خيولهم .

والصلح من أمير المؤمنين ؛ لأنهم كانوا قد سمعوا بقدومه ، فأجابهم أمير المؤمنين رضي الله عنه إلىٰ ما سألوا ، وكتب لهم كتاب أمان ومصالحة ، وضرب عليهم الجزية ، واشترط عليهم شروطاً ذكرها ابن جرير وغيره ، وشهد في الكتاب خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاصي ، وعبد الرحمٰن بن عوف رضي الله عنهم ، ومعاوية ابن أبي سفيان رضي الله عنه ـ وهو كاتب الكتاب ـ وذلك في سنة خمس عشرة ، ثم كتب لأهل لُدٍّ ومَن هناك كتاباً آخر ، وضرب عليهم الجزية ، ودخلوا فيما صالح عليه أهل إيليا ، ثم سار من الجابية إلىٰ بيت المقدس ، ثم إلى المدينة ، ولم يدخل دمشق بعد خلافته أصلاً .

وقيل : إن فتح بيت المقدس كان في سنة ست عشرة ، ورجع من سَرْغَ[1] سنة سبع عشرة .

وقيل : إنه دخل في الثالثة دمشق وحمص ، وأنكر الواقدي رحمه الله تعالىٰ ذلك ، وقال : لا نعرف أنه دخل دمشق إلا في الجاهلية ؛ فإنه قدم دمشق وهو شاب في تجار من تجار قريش ، فلما خرجوا منها . . تخلف عمر رضي الله عنه لبعض حاجته ، فبينما هو بالبلد ؛ إذا هو ببطريق ، فأخذ بعنقه ، فذهب ينازعه ، فلم يقدر ، فأدخله داراً فيها تراب وفأس ومجرفة وزنبيل[2] ، وقال له : حوِّل هٰذا من هٰهنا إلىٰ هٰهنا ، وغلق عليه الباب ، وانصرف ، فلم يجىء إلىٰ نصف النهار ، قال : وجلست مفكراً ولم أفعل مما قال شيئاً ، فلما جاء . . قال : مالَك لم تفعل ما قلت لك ؟ ولكمني في رأسي بيده ، قال : فأخذت الفأس ، فضربته به ، فقتلته ، وخرجت علىٰ وجهي ، فجئت دير راهب ، فجلست عنده إلى العشي ، فأشرف عليَّ ونزل ، وأدخلني الدير ، وأطعمني وسقاني وأتحفني ، وجعل يحقق النظر فيَّ ، وسألني عن أمري ، فقلت : إني أضللت أصحابي ، فقال : إنك لتنظر بعين خائف ، وجعل يتوسمني ، ثم قال : لقد علم أهل دين النصرانية أني أعلمهم بكتابهم ، وإني لأراك الذي تخرجنا من بلادنا هٰذه ، فهل لك أن تكتب لي كتاب أمان علىٰ ديري هٰذا ؟ فقلت له : يا هٰذا ؛ لقد ذهبت غير مذهب ، فلم يزل بي حتىٰ كتبت له صحيفةَ ما طلب مني ، فلما كان وقت الانصراف . . أعطاني أتاناً[3] ، وقال : اركبها ، وإذا وصلت إلىٰ أصحابك . . فابعث بها إلي وحدها ، فإنها لا تمر بدير إلا أكرموها حتىٰ تصل إليَّ ، ففعلت

---

(١) **سَرْغ** : مدينة بالشام افتتحها أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه ، هي واليرموك والجابية والرمادة متصلة .

(٢) **الزَّنْبِيل** : المراد به هنا : القفة التي يُحمل فيها التراب .

(٣) **الأتان** : أُنثى الحمار .

ما قال لي ، فلما قدم أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه لفتح بيت المقدس . . جاءه ذلك الراهب إلى الجابية ومعه تلك الصحيفة ، فأمضاها له أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ، واشترط عليه ضيافة من يمر به من المسلمين ، وأن يرشدهم إلى الطريق . رواه الحافظ ابن عساكر رحمه الله .

وروى الإمام أبو بكر ابن أبي الدنيا رحمه الله بسنده : عن أبي العالية قال : لما قدم أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه إلى الجابية . . كان راكباً علىٰ جمل أورق[١] ، تلوح صلعته للشمس ، ليس عليه قلنسوة ، تصطفق رجلاه بين شعبتي الرحْل بلا ركاب ، وِطاؤه كساء أَنْبِجَاني[٢] ذو صوف ، هو وِطاؤه إذا ركب ، وفراشه إذا نزل ، وحقيبته نمرة[٣] أو شملة[٤] حشوها ليف ، كانت حقيبته إذا ركب ، ووسادته إذا نزل ، وعليه قميص من كَرَابيس[٥] ، قد دَسِمَ[٦] وتخرق جيبه ، فقال : ادعوا لي رأس القرية ، فدعوا له ، فقال : اغسلوا قميصي وخيطوه ، وأعيروني قميصاً أو ثوباً ، فأتي بقميص كتان ، فقال : ما هـٰذا ؟ قالوا : كتان ، فقال : وما الكتان ؟ فأخبروه ، فنزع قميصه ، فغُسل ورُقع ، وأتي به ، فنزع قميصهم ولبس قميصه ، فقيل له : أنت ملك العرب ، وهـٰذه بلاد لا يصلح بها الإبل ، فلو لبست شيئاً غير هـٰذا ، وركبت برذوناً . . لكان ذلك أعظم في أعين الروم ، فقال : نحن قوم أعزنا الله بالإسلام ، فلا نطلب العز بغير الله . . يذلنا .

زاد في رواية : فأُتي ببرذون ، فطرح عليه قطيفة بلا رحل ولا سرج وركبه ، فجعل يُهَمْلِج[٧] ، فقال : (احبسوا احبسوا ، ما كنت أرى الناس يركبون الشياطين قبل هـٰذا) فأتي بِجَمَلِه ، فركبه رضي الله عنه .

وقال أسلم مولىٰ عمر رضي الله عنه : قدم رفقة من تجار ، فنزلوا المصلىٰ ، فقال أمير المؤمنين عمر لعبد الرحمـٰن بن عوف رضي الله عنهما : هل لك أن تحرسهم الليلة ؟ قال :

---

(١) **الأورق من الإبل** : الذي في لونه بياض إلىٰ سواد .

(٢) **أَنْبِجَانِيّ** : هو كساء منسوب إلى المدينة المعروفة « مَنْبِجْ » ، وهو كساء يُتخذ من الصوف وله خَمْل ولا عَلَم له ، وهو من أَدْوَنِ الثِّياب الغليظة .

(٣) **النَّمِرةُ** : شملة فيها خطوط بيض وسود .

(٤) **الشَّملَة** : كساء يتغطىٰ به .

(٥) **كرابيس** : جمع كِرْباس ، وهو القطن .

(٦) **دَسِمَ** : اتَّسَخَ .

(٧) **الهَمْلَجَة** : كلمة فارسية معربة ، ومعناها : حُسن سير الدابة في سرعة وتبختر .

نعم ، فباتا يحرسانهم ويصليان ، فسمع عمر رضي الله عنه بكاء صبي فتوجه نحوه فقال لأمه : اتقي الله وأحسني إلىٰ صبيك ، ثم عاد إلىٰ مكانه ، فسمع بكاءه ، فعاد إلىٰ أمه ، فقال لها مثل ذلك ، ثم عاد إلىٰ مكانه ، فلما كان آخر الليل . . سمع بكاء الصبي ، فجاء إلىٰ أمه ، فقال لها : ويحك! إنك أم سوء ، ما لي أرى ابنك لا يقر منذ الليلة من البكاء ؟ قالت : يا عبد الله ؛ إني أشغله عن الفطام ، فيأبىٰ ذلك ، قال : ولِمَ ؟ قالت : لأن أمير المؤمنين عمر لا يفرض إلا للمفطوم ، قال : وكم عمر ابنك هـٰذا ؟ قالت : كذا وكذا شهراً ، فقال : ويحك! لا تعجليه عن الفطام ، فلما صلى الصبح ـ وهو لا تستبين للناس قراءته من البكاء ـ فقال : بؤساً لعمر ، كم قتل من أولاد المسلمين ، ثم أمر مناديه فنادىٰ : لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام ؛ فإنا نفرض لكل مولود في الإسلام ، وكتب بذلك إلى الآفاق .

وقال أسلم رضي الله عنه : خرجت ليلة مع أمير المؤمنين عمر إلىٰ ظاهر المدينة ، فلاح لنا بيت شعر ، فقصدناه ، فإذا فيه امرأة قد أخذها المخاض وهي تبكي ، فسألها عن حالها ، فقالت : أنا امرأة غريبة ، وليس عندي شيء ، فبكىٰ أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ، وعاد يهرول إلىٰ بيته ، وقال لامرأته أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب رضي الله عنهما : هل لك في أجر ساقه الله إليك ؟ وأخبرها الخبر ، فقالت : نعم ، فحمل علىٰ ظهره عِدْلَ دقيق ، ومعه شحم ، وحملت أم كلثوم رضي الله عنها ما يصلح للولادة ، وراح إلىٰ بيت المرأة ، فدخلت أم كلثوم إلى المرأة ، وجلس أمير المؤمنين رضي الله عنه مع زوجها وهو لا يعرفه يتحدث معه ، فوضعت المرأة غلاماً ، فقالت أم كلثوم رضي الله عنها : يا أمير المؤمنين ؛ بشر صاحبك بغلام ، فلما سمع الرجل قولها . . هاله ذلك واستعظمه ، وأخذ يعتذر إلىٰ أمير المؤمنين ، فقال له : لا بأس عليكم ، ثم أعطاهم نفقة ، وانصرف .

زاد في رواية أخرىٰ : طبخ عمر رضي الله عنه ما يصلح لها ، فلما وضعت الغلام . . كان قد استوى الطعام ، فقدمته أم كلثوم رضي الله عنها إليها ، ثم انصرف عمر رضي الله عنه وأرضاه .

وقال أسلم رضي الله عنه : خرجت ليلة مع أمير المؤمنين إلى الحَرَّة ، فرأينا ناراً علىٰ بعد ، فقال : يا أسلم ؛ هـٰهنا ركب قد قصر بهم الليل ، انطلق بنا إليهم ، فأتيناهم ، فإذا امرأة معها صبيان يتضاغَون ، وإذا قدر منصوبة على النار ، فقال أمير المؤمنين رضي الله عنه : سلام عليكم يا أصحاب الضوء ، وكره أن يقول : يا أصحاب النار ، فردت عليه السلام ، فقال لها : يا أمة الله ؛ ما بال هـٰؤلاء الصغار يتضاغون ؟ فقالت : من الجوع ،

فقال : وأي شيء في القدر على النار ؟ قالت : ماء أعللهم به كي يناموا ، فالله تعالىٰ بيننا وبين عمر ، فقال عمر رضي الله عنه : يا أمة الله ؛ رحمك الله ، وما يدري عمر بكم ؟ قالت : يتولىٰ أمرنا ثم يغفل عنا ؟!

فبكىٰ عمر رضي الله عنه ، وجعل يهرول إلىٰ دار الدقيق ، فأخرج عِدلاً من دقيق ، وجراباً فيه شحم ، وقال : يا أسلم ؛ احمله علىٰ ظهري ، فقلت : أنا أحمله عنك ، فقال : أنت تحمل عني وزري يوم القيامة ؟ قال : فحملته علىٰ ظهره ، وانطلقنا إلى المرأة ، فألقاه عن ظهره ، ووضع في القدر شيئاً من الدقيق ، وشيئاً من الشحم ، وجعل ينفخ النار ، والدخانُ يتخلل لحيته رضي الله عنه ، فلما نضج الطعام . . أنزله عن النار ، وغرف لهم ، وترك الطعام بين أيديهم ، وجعل يطعمهم ، ويحدثهم ، والمرأة تدعو له وهي لا تعرفه ، ولم يزل عندهم يلاطفهم حتىٰ شبعوا وناموا ، فدفع إلىٰ أمهم نفقة وانصرف رضي الله عنه ، فقال لي : يا أسلم ؛ الجوع أسهرهم وأبكاهم ، فأحببت أن لا أنصرف حتىٰ أرىٰ ما رأيت .

وقال ابن إسحاق رحمه الله : كان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يضع علىٰ عماله العيون ، فله علىٰ كل عامل عين ، وكان يقول : **أشكو إلى الله عز وجل جَلَدَ الخائن ، وعجز الثقة** .

وقاسَمَ أبا موسى الأشعري رضي الله عنه ماله ؛ لأنه كان قد ولاّه البصرة ، ثم استقدمه منها ، فقال : ما جاريتان عندك إحداهما من بنات الملوك ؟ فقال : أمَّا إحداهما . . فبيني وبين الناس ، وأما التي من بنات الملوك . . فأردت بها غلاء الفداء ، قال : فما جفنتان تعملان عندك ؟ قال : إنك رزقتني كل يوم شاة ، أعمل نصفها بُكرة ونصفها عشية ، قال : ارفع إلي إحدىٰ جواريك ـ أي : ثمنها ـ وارجع إلىٰ عملك ، وإن بلغني عنك بعدها أمر . . عاقبتك وأخذت جميع مالك .

وولىٰ أبا هريرة رضي الله عنه البحرين ، ثم استقدمه ، فقال له : هل علمتَ أني حين استعملتك على البحرين كنتَ بغير فرس ؟ وقد بلغني أنك بعت أفراساً لك بألف وست مئة دينار ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ كانت لنا أفراس تناتجت ، وعطايا تلاحقت ، فقال : أخذت مال الله فأدِّه ، وقد حسبنا رزقك ومؤونتك ، ومعك فضل فأدِّه ، فقال أبو هريرة رضي الله عنه : ليس ذلك لك ، قال : بلىٰ ، وأُوجِعُ ظهرك ، ثم قام إليه ، فضربه بالدرة ، ثم قال : إيت بها ، قال : عند الله أحتسبها ، فقال : يا لُكَع ؛ ذاك لو أخذتها من حلال وأديتها طائعاً ، هل ورَّثت لك أمك إلا رعيَ الحمر ؟ أخذت مال المسلمين ، قال :

ما أخذتُ لهم شيئاً ، قال : فمن أين لك عشرة آلاف درهم ؟ ثم أخذها منه ، وقال له : ألا تعمل ؟ قال : لا ، قال : قد عمل من هو خير منك يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام حيث قال : ﴿ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ .

وقاسَمَ عمرو بن العاصي رضي الله عنه ماله ، وبعث إليه محمد بن مسلمة الأنصاري رضي الله عنه ، وكتب إليه : عهدي بك وأنت فقير لا مال لك ، وقد بلغني أنه صار لك ماشية من خيل وإبل وبقر وعبيد ، فمن أين لك هٰذا المال ؟ فكتب إليه : إني ببلدٍ السعرُ فيه رخيص ، وإني أعالج من الزراعة ما يعالج الناس ، وفيما رزقني الله عز وجل من رزق أمير المؤمنين سعة ، ووالله ؛ لو رأيتُ خيانتك حلالاً . . لما خنتك ، فأَقصر يا أمير المؤمنين ؛ فإن لنا أحساباً ، فإن رجعنا إليها . . عشنا بها .

فكتب إليه أمير المؤمنين رضي الله عنه : ما يغني عنك أن تزكي نفسك ، وقد بعثت إليك محمد بن مسلمة ، فشاطره مالَك ؛ فإنكم ـ أيها العمال ـ جلستم علىٰ عيون المال ، تجمعون لأبنائكم ، وتمهدون لأنفسكم ، وإنما تجمعون للنار ، فلما ورد محمد بن مسلمة علىٰ عمرو بن العاصي رضي الله عنهم . . صنع له طعاماً ، فقال : والله ؛ لا أكلت لك طعاماً ولا شربت لك ماء حتىٰ أنفذ أمر أمير المؤمنين ، فشاطره ماله جميعه ، حتىٰ إنه أخذ أحد نعليه وترك الآخر .

قال ابن إسحاق رحمه الله تعالىٰ : واستدعىٰ أمير المؤمنين رضي الله عنه الحارث بن وهب ، وكان عامله علىٰ صنعاء ، وقال له : ما قلاص وأَعبُدٌ بعتها بمئتي دينار ؟ فقال : خرجت معي نفقة ، فاتجرت فيها ، فقال : أمَا والله ؛ ما بعثناكم لتتجروا في أموال المسلمين ، ثم قال : أدِّها ، فقال : والله ؛ لا عملت لك عملاً ، فقال : انتظرني حتىٰ أستعملك .

وقاسَمَ سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ماله لما عزله عن الكوفة ، وكان سعد مستجاب الدعوة ، فقال سعد لما شاطره ماله : والله ؛ لقد هممت ، فقال له أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه : أن تدعو عليَّ ؟ قال : نعم ، قال أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه : إذاً لا تجدني بدعاء ربي شقياً .

وقيل : إن أبا سفيان زار ابنه معاوية رضي الله عنهما بالشام ، ثم رجع إلى المدينة ، فقال له أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه : ماذا أجازك ابنك معاوية ؟ فقال : ما أصبنا عنده خيراً ،

فأخذ أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه خاتمه من يده ، وجعل يقلبه ، وغافله ، ثم بعث به إلىٰ هند زوجة أبي سفيان رضي الله عنهما ، وقال للرسول : يقول لها : إن أبا سفيان يقول لك : ابعثي إلي بالخُرج[1] الذي وصل معي إلىٰ عندك من الشام ، فبعثت به ، فإذا فيه عشرة آلاف درهم ، فأخذها أمير المؤمنين رضي الله عنه ، فألقاها في بيت المال ، فلما ولي عثمان الخلافة . . قال لأبي سفيان رضي الله عنه : إن شئت . . رددنا إليك عشرة آلاف ، فقال أبو سفيان رضي الله عنه : والله ؛ لا آخذ مالاً لم يرضه لي أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه .

وقيل : إن معاوية رضي الله عنه بعث بمال وقيود إلىٰ أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ، وقال : وجدنا هـٰذه القيود في بعض حصون الروم ، وقال للرسول : أوصلها إلىٰ أبي سفيان ليوصلها إلىٰ أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ، فبعث أبو سفيان بالقيود إلىٰ أمير المؤمنين ، ولم يبعث بالمال ، فلما قرأ أمير المؤمنين رضي الله عنه كتاب معاوية وفيه ذِكر المال . . قال لأبي سفيان رضي الله عنه : أين المال ؟ فقال : أنفقته ، فأمر أن توضع القيود في رجليه ، وقال : والله ؛ لا تخرج إلا بالمال ، فأحضر المال ، وبلغ معاوية رضي الله عنه ذلك ، فقال : والله ؛ لو فعل الخطاب ما فعل أبو سفيان . . لفعل به أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ذلك .

وكان سبب مقاسمة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه عماله أموالهم ؛ لأنه استعملهم وهم فقراء ، فأثروا وكثرت أموالهم ، ففعل بهم ذلك ؛ لأن الزائد عن حاجاتهم هو مال المسلمين .

وقيل لأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه : ألا تستخلف ولدك عبد الله ؟ فقال : يكفي واحد من آل الخطاب يؤتىٰ به يوم القيامة يده مغلولة إلىٰ عنقه ، إن هـٰذا الأمر لا يصلح إلا بالشدة التي لا جرأة فيها ، وباللين الذي لا وهْن فيه ، ولـٰكن يحضرهم عبد الله ـ يعني : في المشورة ـ وليس له من الأمر شيء ؛ يعني : كهيئة التعزية .

وكان قضاته : على المدينة علي بن أبي طالب ، وعلىٰ دمشق أبو الدرداء ، ثم نقله إلىٰ حمص ، ثم أعاده إلىٰ دمشق ، وكانت دار أبي الدرداء رضي الله عنه بباب البريد ، وكان يُسبِّح في كل يوم مئة ألف مرة ، وعلى الكوفة شريح ، وعلى البصرة كعب بن سور ، ثم عبيد الله بن معمر ، وكان حاجبه مرقل ، ومولاه أسلم ، وكان عامله علىٰ مكة نافع بن

---

(١) **الخُرْج** : وعاء من شعر أو جلد ، ذو عدلين ، يوضع علىٰ ظهر الدابة لوضع الأمتعة فيه .

عبد الحارث ، وعلى الطائف سفيان بن عبد الله الثقفي ، وعلىٰ صنعاء يعلى بن منبه ، وعلى الكوفة أبو موسى الأشعري ، وقيل : المغيرة ، وعلى البصرة أبو موسىٰ رضي الله عنهم .

ولما حج أبو بكر الصديق رضي الله عنه . . شكا إليه أناس من أبي سفيان ، فأحضره ، وانتهره ، وأبو سفيان رضي الله عنه يتذلل له ، فقال له أبوه أبو قحافة رضي الله عنه : يا عتيق ؛ أتنتهر ابن حرب سيد قريش ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : نعم يا أبه ، إن الله عز وجل هدم بالإسلام بيوتاً منها بيته ، وعمر به بيوتاً منها بيتك .

وهٰكذا لما حج عمر رضي الله عنه . . شكا إليه أناس من أبي سفيان رضي الله عنه أيضاً ، وقالوا : إنه بنىٰ دكة يَسمُرُ عليها ، فجاء أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ، ووقف عليها ، ودعاه ، وقال له : أَخرب هٰذا ، فأبىٰ فضربه بالدرة ، فصاح ، فضربه ثانياً وثالثاً ، وهو يستغيث ويرفع تلك الأحجار ، وأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يقول : الحمد لله الذي أذل أبا سفيان ، فأصبح يستغيث بمكة فلا يغاث ، ثم قال : والله ؛ لتنقلن هٰذه الحجارة علىٰ ظهرك ، ففعل .

وقد ذكرنا أنه أول من كتب التاريخ ، وسبب ذلك : أنه رفع إليه صك بدَين يحل في شعبان ، فقال : أي شيء شعبان ؟ شعبان هٰذا ؟ أم شعبان الماضي ؟ أو الآتي ؟ ثم أمرهم بالتاريخ ؛ ليعرف الناس محل ديونهم .

وفتح الشام كله ، والجزيرة ، والموصل ، ومَيَّافارقين ، وآمد ، وأرمينية ، ومصر ، وإسكندرية ، واليرموك ، وبصرىٰ ، ودمشق ، والأردن ، وبيسان ، وطبرية ، والجابية ، وفلسطين ، والرملة ، وعسقلان ، وغزة ، والسواحل ، والفرس ، وطرابلس الغرب ، وبرقة .

ومن مدن الشام : بعلبك ، وحمص ، وقنّسرين ، وحلب ، وأنطاكية ، والجزيرة ، وحرّان ، والرّها ، والرّقة ، ونصيبين ، ورأس العين ، وسميساط ، وعين وردة ، وديار بكر ، وديار ربيعة ، وبلاد الموصل .

وبالعراق : القادسية ، والحيرة ، ونهرشير ، وساباط ، ومدائن كسرىٰ ، وكور الفرات ، ودجلة ، والأيلة ، والبصرة ، والكوفة ، والأهواز ، وفارس ، ونهاوند ، وهمدان ، والري ، وإصطخر ، وأصبهان ، والسوس ، ونيسابور ، وجرجان ، وأذربيجان ، وغير ذلك ، وقطعت جيوشه النهر مراراً راكبين على الخيل ، لا يبلغ الماء إلىٰ

حزمها ، وهم يتحادثون ؛ لأمنهم ، وما أكرمهم الله عز وجل به من توطئة البحر لهم ببركة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ، وكل ذلك معجزات ظاهرة ، وآيات متباصرة لسيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك ظاهر لا يخفىٰ :

كالشمس في أفق السماء وضوؤها يغشى البلاد مشارقاً ومغاربا

وكان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه متواضعاً في الله عز وجل ، خشن العيش ، خشن المطعم ، شديداً في ذات الله عز وجل ، يرقع الثوب بالأديم ، ويحمل القربة علىٰ كتفه مع عُظْمِ هيبته ، ويركب الحمار عرياناً[1] ، والبعير مخطوماً بالليف ، وكان قليل الضحك ، لا يمازح أحداً ، مقبلاً علىٰ شأنه ، وكان أيسر ، وكان يتختم في اليسار ، وكان نقش خاتمه : كفىٰ بالموت واعظاً يا عمر ، وإذا مشىٰ . . كان شديد الوطء على الأرض ، وجهوري الصوت ، رضي الله عنه وأرضاه .

وأما فتح نهاوند . . فكانت ـ كما تقدم ـ في خلافته أيضاً في سنة إحدىٰ وعشرين ، وكان الأمير على الجيش النعمان بن مقرن المزني رضي الله عنه ؛ فإنه صحابي جليل ، قدم مع قومه مزينة في أربع مئة راكب ، ثم سكن البصرة ، وأمَّره أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه على الجنود إلىٰ نهاوند ، ففتح الله عز وجل علىٰ يديه فتحاً عظيماً ، ومكن له في تلك البلاد ، ومكنه من رقاب أولئك العباد ، ومكن به للمسلمين هنالك إلىٰ يوم التناد ، ومنحه النصر في الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد ، وأباح له ـ بعدما أراه ما أحب ـ شهادةً عظيمة ، وذلك غاية السؤل والمراد ، فكان ممن قال الله عز وجل في حقه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

قال ابن الجوزي : وعن أنس رضي الله عنه قال : (سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوماً ـ وبيني وبينه جوف حائط ـ [يقول] : عمر أمير المؤمنين ، بخ بخ! والله ؛ بُنَيَّ الخطاب لتتقيَنَّ الله أو ليعذبنك) .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : نادىٰ عمر في الناس : الصلاة جامعة ، ثم جلس على المنبر ، فما تكلم حتى امتلأ المسجد ، ثم قام ، فقال : (الحمد لله ، إني كنت

---

(١) أي : يركب حماره دون أن يضع عليه البَرْدَعَة .

أؤاجر نفسي بطعام نفسي ، ثم أصبحت علىٰ ما ترون ليس فوقي أحد) ، ونزل ، فقيل له : ما حملك علىٰ ما صنعت ؟ قال : (إظهاراً للشكر) .

وفي رواية : (إن أباك أعجبته نفسه ، فأحب أن يضعها) .

وفي رواية ابن سعد [في « الطبقات » ٣/٢٦٦] : عن سليمان بن يسار قال : مر أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه في موضع ، فقال : (لقد رأيتني وإني لأرعىٰ إبل الخطاب في هـٰذا المكان ، وكان ـ والله كما علمت ـ فظاً غليظاً ، ثم أصبحت إلىٰ أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم) .

وقال عمر رضي الله عنه : (من خاف الله . . لم يُشْفَ غيظه ، ومن يتق الله . . لم يصنع ما يريد ، ولولا يوم القيامة . . لكان غير ما ترون) .

وزار عمر أبا الدرداء رضي الله عنهما ، فقال له أبو الدرداء : أتذكر حديثاً حدَّثناه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : أي حديث ؟ قال : « ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب »[1] ؟ قال : نعم ، قال : فما فعلنا بعده يا عمر ، قال : فما زالا يتجاوبان بالبكاء حتىٰ أصبحا ، رضي الله عنهما .

وعن نافع قال : كان البِر لا يُعرف في عمر ولا ابنه حتىٰ يقولا أو يعملا .

ومن دعائه : (اللهم ؛ أوجب لي بموالاتك وموالاة أوليائك ولايتك ومعونتك ، وأبِرَّني بمعاداة عدوك من الآفات .

اللهم ؛ توفني مع الأبرار ، ولا تُخَلِّفني في الأشرار ، وألحقني بالأخيار .

اللهم ؛ لا تكثر لي من الدنيا فأطغىٰ ، ولا تقلل لي منها فأنسىٰ ؛ فإنه ما قَلَّ وكفىٰ . . خيرٌ مما كثر وألهىٰ .

(اللهم ؛ إني أعوذ بك أن تأخذني علىٰ غِرَّة ، أو تذرني في غفلة ، أو تجعلني من الغافلين) .

وعن قيس بن الحجاج قال : لما فتحت مصر . . أتىٰ أهلها عمرو بن العاصي حين دخل بؤنة ـ من أشهر العجم ـ فقالوا له : أيها الأمير ؛ إن لنِيلنا هـٰذا سُنَّةٌ لا يجري إلا بها ، فقال لهم : وما ذاك ؟ فقالوا : إذا كان ثنتا عشرة ليلة تخلو من هـٰذا الشهر . . عمدنا إلىٰ جارية

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ٣٥٣) .

بِكْرٍ بين أبويها ، فأرضينا أباها ، وحملنا عليها من الحُلي والثياب أفضل ما يكون ، فألقيناها في النيل ، فقال لهم عمرو رضي الله عنه : إن هـٰذا لا يكون في الإسلام ، وإن الإسلام يهدم ما كان قبله ، فأقاموا بؤنة وأبيب ومسرىٰ[1] ، والنيل لا يجري قليلاً ولا كثيراً ، حتىٰ همُّوا بالجلاء منها ، فلما رأىٰ ذلك عمرو بن العاصي . . كتب إلىٰ عمر بن الخطاب بذلك ، فكتب إليه عمر : إنك قد أصبت بالذي فعلت ؛ لأن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وكتب بطاقة داخل كتابه ، وكتب إلىٰ عمرو : وإني قد بعثت إليك بطاقة في داخل كتابي هـٰذا ، فألقها في النيل إذا وصل إليك كتابي .

فلما قدم كتاب أمير المؤمنين عمر إلىٰ عمرو بن العاصي رضي الله عنهما . . أخذ البطاقة ، فإذا فيها : من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلىٰ نيل مصر ، أما بعد : فإن كنت إنما تجري من قبلك . . فلا تجرِ ، وإن كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك . . فنسأل الله تعالى الواحد القهار أن يجريك ، فألقى البطاقة في النيل قبل يوم الصليب[2] بيوم ، وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج ؛ لأنه لا تقوم مصلحتهم إلا بالنيل ، فلما ألقى البطاقة . . أصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة ، فقطع الله تلك السُّنَّةَ السوء عن أهل مصر إلى اليوم .

ومن مسانيد حديثه : ما رواه النعمان بن بشير ، عن عمر رضي الله عنهما قال : (لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلتوي ، ما يجد ما يملأ به بطنه من الدقل[3]) .

وعن هشام بن عروة قال : قال عمر رضي الله عنه : (إذا رأيتم الرجل يضيع الصلاة . . فهو ـ والله ـ لغيرها من حق الله تعالىٰ أشدُّ تضييعاً) .

وعن يحيى بن جعدة قال : قال عمر رضي الله عنه : (لولا ثلاث . . لأحببت أن ألحق بالله تعالىٰ : لولا أن أسير في سبيل الله ، أو أضع وجهي لله ، أو أجالس أقواماً يتلقطون طيب الكلام كما يُتلقَّط طيب التمر) .

وقال عمر رضي الله عنه : (لا يُتعلم العلمُ لثلاث ، ولا يترك لثلاث : لا يتعلم ليمارىٰ به ، ولا يباهىٰ به ، ولا يراءىٰ به ، ولا يُترك حياء من طلبه ، ولا زهادة فيه ، ولا يُرضىٰ بالجهل منه) .

---

(١) ثلاثة من أشهر الأقباط تُسمّىٰ بهـٰذه الأسماء .

(٢) هو اليوم الموافق الرابع عشر من شهر أيلول (سبتمبر) وهو الأسبوع قبل الأخير من فصل الصيف .

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤١٤٦) ، والدَّقَلُ : الرديء من التمر .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت بعد أن دفن عمر رضي الله عنه في بيتها : (كنت أدخل بيتي الذي فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي ، فأضع ثوبي ، وأقول : إنما هو زوجي وأبي ، فلما دفن عمر عندهما . . فوالله ؛ ما دخلتُه إلا وأنا مشدودة عليَّ ثيابي ؛ حياء من عمر[1]) .

وعن عمر رضي الله عنه قال : (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كل نسب وسبب وصهر منقطع يوم القيامة ، إلا نسبي وسببي وصهري »[2] ، فكان لي به النسب والسبب ، فأردت أن أجمع إليهما الصهر) فتزوج أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، فولدت له زيداً ورقية .

ولما خطب عمر أمَّ كلثوم إلىٰ علي بن أبي طالب رضي الله عنهم . . فقال له : إنها صغيرة ، فقال له عمر رضي الله عنه : زوجنيها يا أبا الحسن ؛ فإني أرصد من كرامتها ما لا يرصد أحد ، فقال له علي رضي الله عنه : أنا أبعثها إليك ، فإن رضيتَها . . زوجتكها ، فبعثها إليه ببُرْدٍ ، ثم قال لها : انطلقي بهـٰذا إلىٰ أمير المؤمنين ، فقولي له : أرسلني أبي يقرئك السلام ، ويقول : إن رضيت البُرْدَ . . فأمسكه ، وإن سخطته . . فرُدَّهُ ، فلما أتت عمر . . قالت له ذلك ، فقال لها : قولي له : قد رضيته رضي الله عنك ، قال : فرجعت إلىٰ أبيها ، فقالت : ما نشر البُرْدَ ، ولا نظر إلا إليَّ ، فقال : مهلا يا بنية ، إنه زوجك ، فزوجه إياها .

قال عطاء الخراساني : أمهرها عمر رضي الله عنه أربعين ألفاً .

وعن ابن عمر قال : كان عمر إذا نهى الناس عن شيء . . دخل علىٰ أهله ـ أو قال : جمع أهله ـ فقال : إني قد نهيت الناس عن كذا وكذا ، وإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم ، فإن وقعتم . . وقعوا ، وإن هبتم . . هابوا ، وإني ـ والله ـ لا أوتىٰ برجل وقع فيما نهيت الناس عنه إلا أضعفت له العقوبة ؛ لمكانه مني ، فمن شاء منكم . . فليتقدم ، ومن شاء . . فليتأخر ؛ والله سبحانه أعلم .

وروي عن علي بن أبي طالب[3] رضي الله عنه : أنه كان يبكي عند موت عمر رضي الله

---

(١) وهـٰذا يدلُّ على اعتقادها أنهم أحياء ، وإلاَّ : فالذي لا يرىٰ غيره . . لا يستحيي منه!! .

(٢) أخرجه بنحوه البيهقي في « الكبرىٰ » (٧/ ٦٤) ، وأبو الحسين الصيداوي في « معجم الشيوخ » (٣٣٨) .

(٣) في « تاريخ عمر بن الخطاب » روى الخبر عن سعيد بن زيد ، والله أعلم .

عنه ، فقيل له في ذلك ، فقال : (على الإسلام أبكي ، إن موت عمر ثلم الإسلام ثلمة لا تُرتَق إلىٰ يوم القيامة[1]) .

وقالت عائشة رضي الله عنها : (**من رأى ابن الخطاب . . علم أنه خُلِقَ غنىً للإسلام**) .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : (كان أبو بكر أوَّاهاً حليماً ، وكان عمر مخلصاً ، ناصَحَ اللهَ فناصحه ، وإن كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ونحن متوافرون ، والله ؛ إن كنا لنرىٰ أن السكينة تنطق علىٰ لسان عمر ، وإن كنا لنرىٰ أن شيطان عمر ليهابه أن يأمره بالخطيئة) انتهىٰ [« تاريخ عمر بن الخطاب » ١٧٦ـ ٢٧٨] .

وقال النووي ـ قدس الله روحه ـ : وعن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال : خرجنا مع عمر رضي الله عنه إلىٰ مكة ، فما ضَرب فسطاطاً ولا خباء حتىٰ رجع ، وكان إذا نزل . . نلقي له كساء أو نطعاً علىٰ شجرة ، فيستظل به ، وختم الله تعالىٰ لعمر بالشهادة ، وكان يسألها ، فطعنه العِلْج[2] عدو الله أبو لؤلؤة فيروز غلام المغيرة بن شعبة ، وهو قائم في صلاة الصبح حين أحرم بالصلاة ، طعنه بسكين مسمومة ذات طرفين ، فضربه في كتفه وخاصرته ، وقيل : ضربه ست ضربات ، فقال : (الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل يدَّعي الإسلام) .

وطعن العلج مع عمر رضي الله عنه ثلاثة عشر رجلاً ، توفي منهم سبعة وعاش الباقون ، فطرح عليه مسلم بُرْنُساً[3] ، فلما أحس العلج أنه مقتول . . قتل نفسه .

وشرب عمر رضي الله عنه لبناً ، فخرج من جرحه ، فعلم هو والناس أنه لا يعيش ، فأشاروا عليه بالوصية ، فجعل الخلافة شورىٰ بين عثمان ، وعلي ، وطلحة ، والزبير ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمٰن بن عوف ، رضي الله عنهم أجمعين ، وقال : لا أعلم أحداً أحق بها من هٰؤلاء الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، وقال : يُؤَمِّر المسلمون أحد هٰؤلاء الستة . [انتهىٰ « التهذيب » ٢/ ١٢ـ ١٣] .

زاد في رواية ابن سعد [في « الطبقات » ٣/ ٣٤١ـ ٣٤٢] **قال** : لما طعن أمير المؤمنين عمر . . دعا

---

(١) أخرجه ابن سعد في « الطبقات » (٣/ ٣٧٢) ، عن سعيد بن زيد .

(٢) **العِلْجُ** : الرجل من كفار العجم ، ويقال للرجل القوي الضخم من الكفار .

(٣) **البُرْنُس** : جبَّة لها رأس منها ملتزق بها ، وكان النسّاك يلبسونها في صدر الإسلام ، وهٰذا اللباس معروف الآن في بلاد المغرب وبنفس الاسم : بُرْنُس .

أصحاب الشورىٰ ، فلم يكلم أحداً منهم غير عليٍّ وعثمان ، فقال : يا علي ؛ لعل هـٰؤلاء القوم أن يعرفوا لك قرابتك من النبي صلى الله عليه وسلم ، وصهرك ، وما آتاك الله من الفقه والعلم ، فإن وُلِّيتَ هـٰذا الأمر . . فاتقِ الله فيه .

ثم دعا عثمان ، فقال : يا عثمان ؛ لعل هـٰؤلاء القوم أن يعرفوا لك صهرك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسنَّك ، وشرفك ، فإن وُلِّيتَ هـٰذا الأمر . . فاتقِ الله فيه ، ولا تحملنَّ بغيظ علىٰ رقاب الناس .

ثم قال : ادعوا لي صهيباً ، فدُعي ، فقال : صلِّ بالناس ثلاثاً ، ولتجعلوا هـٰؤلاء القوم في بيتٍ ، فإذا اجتمعوا علىٰ رجلٍ : فمن خالفهم . . فاضربوا رأسه ، فلما خرجوا من عنده . . قال : إن وَلَّوها علياً . . سلك بهم الطريق ، فقال له ابنه عبد الله : فما يمنعك يا أمير المؤمنين ، قال : أكره أن أتحملها حياً وميتاً .

ودعا أبا طلحة الأنصاري فقال : يا أبا طلحة ؛ كن في خمسين من قومك من الأنصار مع هـٰؤلاء النفر أصحاب الشورىٰ ؛ فإنهم ـ فيما أحسب ـ سيجتمعون في بيت أحدهم ، فقم علىٰ ذلك الباب بأصحابك ، فلا تترك أحداً يدخل عليهم ، ولا تتركهم يمضي اليوم الثالث حتىٰ يؤمِّروا أحدهم ، اللهم ؛ أنت خليفتي عليهم .

قال ابن إسحاق : وصنع أبو طلحة كما أمره عمر رضي الله عنه .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : الذي خطر لي ـ والله أعلم ـ أن أمير المؤمنين رضي الله عنه إنما ترك ذِكر سعيد بن زيد ؛ لكونه ابن ابن عمه ، فما أحب أن يتقلدها ولا أحد من جهته ، ولهـٰذا قال عن ابنه عبد الله : يحضركم عبد الله وليس له من الأمر شيء ، والظاهر ـ والله أعلم ـ : أنه لولا هـٰذا المعنىٰ . . لأدخله معهم في الشورىٰ ؛ لأنه أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، رضوان الله عليهم أجمعين . انتهىٰ .

وقال الغزالي ـ رحمه الله ـ : شهد عند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجل ، فقال : ائتني بمن يعرفك ، فأتاه برجل ، فأثنىٰ عليه خيراً ، فقال له عمر : أنت جاره الأدنىٰ ، تعرف صباحه ومساءه ، ومدخله ومخرجه ؟ فقال : لا ، فقال : كنت رفيقه في السفر الذي يسفر عن أخلاق الرجال ومكارم الأخلاق ؟ فقال : لا ، قال : فعاملته بالدراهم والدنانير الذي يستبين به ورع الرجل ؟ فقال : لا ، قال : أظنك رأيته قائماً في المسجد يهمهم بالقرآن ، يخفض رأسه طوراً ، ويرفعه ، قال : نعم ، قال : اذهب ، فلست تعرفه ،

وقال للرجل : اذهب فأتني بمن يعرفك . أو كما قال . انتهىٰ [« الإحياء » ٢/ ٨٢ـ٨٣] .

وقال النووي ـ قدس الله روحه ـ : وحسب الدَّين الذي عليه ، فوجده ستة وثمانين ألفاً أو نحوه ، فقال لابنه عبد الله : إن وفَّىٰ مالُ آلِ عمر به . . فأدوه منه ، وإلا . . فسل في بني عدي ، فإن لم تف أموالهم . . فسل في قريش ، ولا تَعْدُهم إلىٰ غيرهم .

زاد في رواية ابن سعد : فقال عبد الرحمـٰن بن عوف رضي الله عنه : ألا نستقرضها من بيت المال حتىٰ نؤديَها ؟ فقال عمر رضي الله عنه : معاذ الله ، ثم قال لابنه عبد الله : اضمنها ، فضمنها وأشهد بها علىٰ نفسه أهلَ الشورىٰ وغيرَهم من الأنصار ، فما مضت جمعة بعد موته . . حتىٰ وفَّاها عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

وقال أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه : (إن هـٰذا الأمر في أهل بدر ما بقي منهم أحد ، ثم في أهل أُحد ما بقي منهم أحد ، وفي كذا وكذا وليس فيها لطليق ولا لولد طليق ولا لمسلمة الفتح شيء) .

ثم بعث ابنه عبد الله إلىٰ عائشة رضي الله عنها ، فقال : قل : يقرأ عليك عمر السلام ، ولا تقل أمير المؤمنين ؛ فإني لست اليوم للمؤمنين أميراً ، وقل : يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه ، فجاء ، وسلم ، واستأذن ، فدخل ، فوجدها تبكي ، فقال لها ، فأذنت ، وقالت : كنت أردته لنفسي ، ولأوثرنه اليوم علىٰ نفسي ، فلما أقبل عبد الله من عندها . . قيل لعمر رضي الله عنه : هـٰذا عبد الله ، فقال : ارفعوني ، فأسنده رجل ، فقال : ما لديك ؟ قال : الذي تحب ، قد أذنت ، قال : الحمد لله ، ما كان شيء أهم إلي من ذلك ، فإذا أنا قبضت . . فاحملوني ، ثم سلِّمْ ، فقل : يستأذن عمر بن الخطاب ، فإن أذنت لي . . فأدخلوني ، وإن ردتني . . ردوني إلىٰ مقابر المسلمين .

وأوصاهم أن يقتصدوا في كفنه ، ولا يغالوا ، وغسله ابنه عبد الله ، وحُمل علىٰ سرير رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصُلي عليه في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصلىٰ بهم عليه صهيب رضي الله عنه ، وكبر أربعاً ، ونزل في قبره ابنه عبد الله ، وعثمان بن عفان ، وسعيد بن زيد ، وعبد الرحمـٰن بن عوف ، رضي الله عنهم أجمعين .

وكان طَعْنه رضي الله عنه يوم الأربعاء ، لأربع ليال بقين من ذي الحجة ، سنة ثلاث وعشرين من الهجرة ، ودفن يوم الأَحد ، هلال المحرم ، سنة أربع وعشرين من الهجرة .

وكانت خلافته عشر سنين وخمسة أشهر وأحداً وعشرين يوماً ، وهو ابن ثلاث وستين سنة

على الصحيح المشهور عند الجمهور ، رضي الله عنه وأرضاه .

وسِنُّ أبي بكر ، وسِنُّ عمر ، وعلي ، وعائشة رضي الله عنهم . . ثلاث وستون سنة .

وكان عمر رضي الله عنه أبيض ، تعلوه حمرة ، وإنما صار في لونه سمرة في عام الرمادة ؛ لأنه أكثر من أكل الزيت ، وترك السمن للغلاء الذي وقع بالناس ، فامتنع من أكل اللبن والسمن ؛ حتىٰ لا يتميز على الضعفة .

وقال زر بن حبيش : كان عُمَرُ آدم[1] ، قال الواقدي : لا يُعرف عندنا أن عمر رضي الله عنه كان آدم إلا أن يكون [رآه] عام الرمادة .

وقال ابن عبد البر : عن زر بن حبيش قال : كان عمر آدم شديد الأدمة ، وهو الأكثر عند أهل العلم . انتهىٰ [« التهذيب » ٢/ ١٣ـ١٤] .

وقال محمد بن سعد في « الطبقات » : إن أمير المؤمنين عمر رضي الله تعالىٰ عنه لما أجمع علىٰ أن يستسقي . . بعث إلىٰ عماله أن يخرجوا للاستسقاء يوم كذا وكذا ، وأن يتضرعوا إلىٰ ربهم سبحانه بأن يرفع هـٰذا المَحْل عنهم ، وخرج لذلك اليوم وعليه بُرْدُ رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهىٰ إلى المصلىٰ ، فخطب الناس ، وتضرع إلى الله عز وجل ، وكان أكثر دعائه الاستغفار والاعتذار ، خرج رضي الله عنه متبذلاً متضرعاً ، عليه بُرْدٌ قصير لا يكاد يبلغ ركبتيه ، رافعاً صوته بالاستغفار ، وعيناه تذرفان علىٰ خده ، وعن يمينه العباس بن عبد المطلب رافعاً يديه إلى السماء ، والناس معه متضرعون ، ثم أخذ بيد العباس ، وقال : اللهم ؛ إنا نستشفع بعم رسولك صلى الله عليه وسلم إليك ، والعباس يدعو وعيناه تهملان ، فلم يبرحوا حتىٰ سُقُوا ، فأطبقت السماء عليهم أياماً ، فلما مطروا . . قال للعرب : الحقوا ببلادكم ، وزودهم رضي الله تعالىٰ عنه . انتهىٰ [٣/ ٣٢٠ـ٣٢١] .

وروى الحافظ البيهقي ـ قدس الله روحه ـ بإسناده : عن الأحنف بن قيس قال :

كنا بباب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ننظر أن يؤذن لنا ، فخرجت جارية ، فقلنا : سُرِّيَّةُ أمير المؤمنين ، فسمعت ، فقالت : ما أنا بسرية أمير المؤمنين ، وما أَحِل له ، وإني لِمن مال الله ، قال : فذُكِرَ ذلك لعمر ، فدخلنا عليه ، فأخبرناه بما قلنا وما قالت ، فقال : (صَدَقَتْ ، ما تحل لي ، وما هي لي بسُرية ، وإنها لمن مال الله عز وجل ، وسأخبركم بما أستحل من هـٰذا المال ، أستحل منه حلتين حلة للشتاء وحلة للصيف ، وما يسعني لِحجِّي

---

(١) أدم : أسمر .

وعمرتي ، وقوّتي وقوت أهل بيتي ، وسهمي مع المسلمين كسهم رجل لست بأرفعهم ولا أوضعهم) .

زاد في رواية أخرىٰ : (إني أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة والي اليتيم ، إن احتجت . . أخذت منه ، فإذا أيسرت . . رددته ، وإن استغنيت . . استعففت) .

وفي رواية أخرىٰ : عن قتادة ، عن لاحق بن حميد قال : لما بعث عمر بن الخطاب رضي الله عنه عمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود وعثمان بن حنيف إلى الكوفة . . بعث عمار بن ياسر على الصلاة وعلى الجيوش ، وبعث ابن مسعود على القضاء وعلىٰ بيت المال ، وبعث عثمان بن حنيف علىٰ مساحة الأرض ، جعل بينهم كل يوم شاة ، شطرها وسواقطها[1] لعمار بن ياسر ، والنصف بين هـٰذين ، قال سعيد : ولا أحفظ الطعام ، ثم قال : أنزلتكم وإياي من هـٰذا المال كمنزلة والي اليتيم ، من كان غنياً . . فليستعفف ، ومن كان فقيراً . . فليأكل بالمعروف ، وما أرىٰ قرية يؤخذ منها كل يوم شاة . . إلا كان ذلك سريعاً في خرابها .

وفي رواية : عن عامر بن شقيق : أنه سمع أبا وائل يقول : استعملني ابن زياد علىٰ بيت المال ، فأتاني رجل بصكٍّ فيه : أعط صاحب المطبخ ثمان مئة درهم ، فقلت له : مكانك ، ودخلت على ابن زياد ، فحدثته ، فقلت : إن عمر بن الخطاب استعمل عبد الله بن مسعود على القضاء وبيت المال ، وعثمان بن حنيف علىٰ ما سقى الفرات ، وعمار بن ياسر على الصلاة والجند ، ورزقهم كل يوم شاة ، فجعل نصفها وسقطها وأكارعها لعمار ؛ لأنه كان على الصلاة والجند ، وجعل لعبد الله بن مسعود ربعها ، وجعل لعثمان بن حنيف ربعها ، ثم قال : إن مالاً يؤخذ منه كل يوم شاة إن ذلك فيه لسريع ، قال ابن زياد : ضع المفتاح ، واذهب حيث شئت .

وفي رواية : عن ابن الساعدي قال : استعملني عمر بن الخطاب على الصدقة ، فلما فرغت . . أمر لي بعمالة ، فقلت : إنما عملت لله ، قال : (خذ ما أعطيت ؛ فإني قد عملت علىٰ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعَمَّلني)[2] رواه مسلم في « الصحيح » [١٠٤٥] .

زاد في رواية : أن عبد الله بن السعدي[3] أخبره أنه قدم علىٰ عمر بن الخطاب في

---

(١) المقصود هنا : أحشاء الذبيحة كالكرش والمصران .

(٢) أعطاني عُمالة ، وهي : رزق العامل .

(٣) هو ابن الساعدي المذكور آنفاً ، انظر « تهذيب التهذيب » في (عبد الله بن السعدي) .

خلافته ، فقال له عمر : ألم أحدث أنك تلي من أعمال الناس أعمالاً ، فإذا أعطيت العمالة . . كرهتها ؟ قال : فقلت : بلىٰ ، قال : فقال عمر رضي الله عنه : فما تريد إلىٰ ذلك ؟ قال : فقلت : إن لي أفراساً وأعبداً ، وأنا بخير ، وأريد أن تكون عمالتي صدقة على المسلمين ، فقال عمر : فلا تفعل ؛ فإني قد كنت أردت ذلك ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيني العطاء ، فأقول : أعطه أفقر إليه مني ، حتىٰ أعطاني مرة مالاً ، فقلت : أعطه أفقر إليه مني ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خذه ، فتموَّلْه ، أو تصدق به ، وما جاءك من هـٰذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل . . فخذه ، وما لا . . فلا تتبعه نفسك » رواه البخاري في « الصحيح » [١٤٠٤] .

وفي رواية[1] : لما كان عام الرمادة وأجدبت بلاد العرب . . كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلىٰ عمرو بن العاصي :

من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلىٰ عمرو بن العاصي ، إنك ـ لعمري ـ ما تبالي إذا سمنت ومَن قِبَلك أن أعجف أنا ومَن قِبَلي ، ويا غوثاه .

فكتب عمرو : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، أما بعد : لبيك لبيك ، أتتك عير أولها عندك وآخرها عندي ، مع أني أرجو أن أجد سبيلاً أن أحمل في البحر .

فلما قدم أول عير . . دعا الزبير ، فقال : اخرج في أول هـٰذه العير ، فاستقبل بها نجداً ، فاحمل إلىٰ أهل كل بيت ما قدرت أن تحملهم إلي ، ومن لم تستطع حمله . . فمر لأهل كل بيت ببعير بما عليه ، ومرهم فليكتسوا كساءين ، ولينحروا البعير ، فيحملوا شحمه ، وليقددوا لحمه ، وليحتذوا جلده ، ثم ليأخذوا كبة من قديد وكبة من شحم وجفنة من دقيق ، فيطبخوا ويأكلوا حتىٰ يأتيهم الله برزق ، فأبى الزبير أن يخرج ، فقال : أمَا والله لا تجد مثلها حتىٰ تخرج من الدنيا ، ثم دعا آخر ـ أظنه طلحة ـ فأبىٰ ، ثم دعا أبا عبيدة بن الجراح ، فخرج في ذلك ، فلما رجع . . بعث إليه بألف دينار ، فقال أبو عبيدة : إني لم أعمل لك يا بن الخطاب ، إنما عملت لله عز وجل ، ولست آخذ في ذلك شيئاً ، فقال عمر رضي الله عنه : قد أعطانا رسول الله صلى الله عليه وسلم في أشياء بَعَثَنا لها ، فكرهنا ذلك ، فأبىٰ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاقبلها أيها الرجل ، فاستعن بها علىٰ دِينك ودنياك ، فقبلها أبو عبيدة .

---

(١) عند الحاكم (١/ ٥٦٣) .

وفي رواية : عن مالك بن مغول ، عن يحيى بن سعيد ، عن أبيه ، قال : قال عمر بن الخطاب لعبد الله بن الأرقم : اقسم بيت مال المسلمين في كل شهر مرة ، اقسم مال المسلمين في كل جمعة مرة ، ثم قال : اقسم بيت مال المسلمين في كل يوم مرة ، قال : فقال رجل من القوم : يا أمير المؤمنين ؛ لو أبقيت في مال المسلمين بقية تعدها لنائبة[1] أو صوت ؛ يعني : حادثة ، قال : فقال عمر للرجل الذي كلمه : جرى الشيطان علىٰ لسانه ، لقنني الله حجتها ، ووقاني شرها ، أُعِدُّ لها ما أَعَدَّ لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : طاعة الله وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي رواية : عن الربيع بن سليمان ، أخبرنا الشافعي ، أنبأنا غير واحد من أهل العلم : أنه لما قدم علىٰ عمر بن الخطاب ما أصيب من العراق . . قال له صاحب بيت المال : أنا أدخله بيت المال ، قال : لا ورب الكعبة ، لا يؤوىٰ تحت سقف بيت حتىٰ أَقسمه ، فأمر به ، فوضع في المسجد ، ووضعت عليه الأنطاع ، وحرسه رجال من المهاجرين والأنصار .

فلما أصبح . . غدا معه العباس بن عبد المطلب وعبد الرحمٰن بن عوف ، أخذ بيد أحدهما ، أو أحدهما آخذ بيده ، فلما رأوه . . كشطوا الأنطاع عن الأموال ، فرأىٰ منظراً لم يُر مثله ، رأى الذهب فيه والياقوت والزبرجد واللؤلؤ يتلألأ ، فبكىٰ ، فقال له أحدهما : إنه ـ والله ـ ما هو بيوم بكاء ، ولٰكنه يوم شكر وسرور ، فقال : والله ؛ إني ما ذهبتُ حيث ذهبتَ ، ولٰكنه ـ والله ـ ما كثر هٰذا في قوم قط . . إلا وقع بأسهم بينهم ، ثم أقبل عَلى القبلة ، ورفع يديه إلى السماء وقال : اللهم ؛ إني أعوذ بك أن أكون مستدرجاً ؛ فإني أسمعك تقول ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

ثم قال : أين سراقة ابن جعشم ؟ فأتي به أشعر الذراعين دقيقهما ، فأعطاه سواري كسرىٰ ، فقال : البسهما ، ففعل ، قال : قل : الله أكبر ، فقال : الله أكبر ، قال : قل : الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز وأَلْبَسَهما سراقة ابن جعشم أعرابياً من بني مدلج ، وجعل يقلب بعض ذلك بِعَصاً ، **فقال : إن الذي أدىٰ إليَّ هٰذا . . لأمين ، فقال له رجل : أنا أخبرك ، أنت أمين الله ، وهم يؤدون إليك ما أديت إلى الله ، فإذا رتعت . . رتعوا ، [قال : صدقت] ، ثم فرقه .**

قال الشافعي ـ رحمه الله ـ : وإنما ألبسهما سراقة ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال

---

(١) **النائبة** : الحادثة ، وأما **الصوت** : فالمراد صوت استغاثة ، أو نداء حرب واستنفار .

لسراقة ونظر إلىٰ ذراعيه : « كأني بك قد لبست سواري كسرىٰ » ، قال : ولم يجعل له إلا سوارين .

وفي رواية أخرىٰ : فجعلهما في يده ، فبلغا منكبيه ، فلما رآهما في يدي سراقة . . قال : الحمد لله ، سواري كسرى بن هرمز في يد سراقة بن مالك بن جعشم أعرابي من بني مدلج ، ثم قال : اللهم ؛ إني قد علمت أن رسولك صلى الله عليه وسلم كان يحب أن يصيب مالاً فينفقه في سبيلك وعلىٰ عبادك ، وزويت ذلك عنه نظراً منك له وخياراً ، اللهم ؛ إني قد علمت أن أبا بكر رضي الله عنه كان يحب أن يصيب مالاً فينفقه في سبيلك وعلىٰ عبادك ، فزويت ذلك عنه نظراً منك له وخياراً ، اللهم ؛ إني أعوذ بك أن يكون هـٰذا مكراً منك بعمر ، ثم قال : تلا[1] : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ .

وفي رواية أبي هريرة قال : قدمت علىٰ عمر بن الخطاب رضي الله عنه من عند أبي موسى الأشعري بثمان مئة ألف درهم ، فقال لي : بماذا قدمت ؟ قلت : قدمت بثمان مئة ألف درهم ، قال : ألم أَقُل لك إنك ثمَّان أحمق ؟ إنما قدمت بثمانين ألف درهم ، قلت : بل قدمت بثمان مئة ألف درهم ، قال : ألم أقل لك بثمانين ألف ؟ إنما قدمت بثمانين ألف درهم ، وكم ثمان مئة ألف درهم ؟ فعددت مئة ألف ومئة ألف ، حتىٰ عددت ثمان مئة ألف ، قال : أَطَيِّبٌ ويلك ؟ قال : نعم .

قال : فبات عمر ليلته أرقاً ، حتىٰ إذا نودي بصلاة الصبح . . قالت امرأته : يا أمير المؤمنين ؛ ما نمت الليلة ، قال : كيف ينام عمر بن الخطاب وقد جاء الناس ما لم يكن يأتيهم مثله منذ كان الإسلام ؟ فما يؤمِّن عمر لو هلك وذلك المال عنده فلم يضعه في حقه ؟! فلما صلى الصبح . . اجتمع إليه نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لهم : إنه قد جاء الناسَ الليلة ما لم يأتهم مثله منذ كان الإسلام ، وقد رأيت رأياً ، فأشيروا عليَّ ، رأيت أن أكيل للناس بالمكيال ، فقالوا : لا تفعل يا أمير المؤمنين ، إن الناس يدخلون في الإسلام ، ويكثر المال ، ولـٰكن أعطهم علىٰ كتاب ، فكلما كثر الناس وكثر المال . . أعطيتهم عليه ، قال : فأشيروا عليَّ بمن أبدأ منهم ، قالوا : بك يا أمير المؤمنين ، إنك ولي ذلك ، ومنهم من قال : أمير المؤمنين أعلم ، قال : لا ، ولـٰكن أبدأ برسول الله

---

(١) كذا في بعض النسخ ، وفي بعضها : (ثم قال : بلىٰ) ، والقصة مروية في « تاريخ دمشق » (٧/ ٣٣٨) وفي آخرها : (. . . اللهم فلا يكن ذلك مكراً بي منك ، ثم تلا : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ . . . ﴾) .

صلى الله عليه وسلم ، ثم الأقرب فالأقرب إليه ، فوضع الديوان علىٰ ذلك . [انتهىٰ « السنن الكبرىٰ » ٦/ ٣٥٣ـ٣٦٤] .

وفي رواية ابن سعد [في « الطبقات » ٣/ ٢٩٥] : قال : دعا أمير المؤمنين عمر رضي الله تعالىٰ عنه عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم ـ وكانوا من نسابة قريش ـ فقال : اكتبوا الناس علىٰ منازلهم ، فبدؤوا ببني هاشم ، ثم أتبعوهم أبا بكر وقومه ، ثم عمر وقومه على الخلافة ، فلما نظر فيه . . قال : وددت ـ والله ـ أنه هٰكذا ، ولٰكن ابدؤوا بقرابة النبي صلى الله عليه وسلم الأقرب فالأقرب ، حتىٰ تضعوا عمر حيث وضعه الله عز وجل .

قال البيهقي ـ [رحمه الله] ـ : قال عبيد الله : بدأ ببني هاشم والمطلب ، فأعطاهم جميعاً ، ثم أعطىٰ بني عبد شمس ، ثم بني نوفل بن عبد مناف ، وإنما بدأ ببني عبد شمس ؛ لأنه كان أخا هاشم لأمه ، قال عبيد الله : فأول من فرق بين بني هاشم والمطلب في الدعوة عبد الملك ، فذكر في ذلك قصة .

وفي رواية أخرىٰ : قال : ابدأ ببني هاشم ، ثم قال : حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيهم وبني المطلب ، فإذا كان السن في الهاشمي . . قدِّمه على المطلبي ، وإذا كانت في المطلبي . . قدِّمه على الهاشمي ، فوضع الديوان علىٰ ذلك ، وأعطاهم عطاء القبيلة الواحدة ، ثم استوت له عبد شمس ونوفل في جذم[1] النسب ، فقال : عبد شمس إخوة النبي صلى الله عليه وسلم لأبيه وأمه دون نوفل ، فقدمهم ، ثم دعا بني نوفل يتلونهم ، ثم استوت له عبد العزىٰ وعبد الدار ، فقال في بني أسد بن عبد العزىٰ : أصهار النبي صلى الله عليه وسلم وفيهم أنهم من المطيبين ، وقال : بعضهم حلف من الفضول ، وفيهما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد قيل : ذكر سابقة فقدَّمهم علىٰ بني عبد الدار يتلونهم ، ثم انفردت له زُهرة ، فدعاها تتلو عبد الدار ، ثم استوت له تيم ومخزوم ، فقال في بني تيم : إنهم من حلف الفضول والمطيبين ، وفيهما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل : ذكر سابقة .

وقيل : ذكر صهراً فقدَّمهم علىٰ مخزوم ، ثم دعا مخزوماً يتلونهم ، ثم استوت له سهم وجمح وعدي بن كعب ، فقيل له : ابدأ بِعَدِي ، فقال : بل أُقِرُّ نفسي حيث كنت ؛ فإن الإسلام دخل ، وأَمْرُنا وأمر بني سهم واحد ، ولٰكن انظروا بني جمح وسهم ، فقيل : قدم

---

(١) **الجذم** : الأصل .

بني جمح ، ثم دعا بني سهم ـ وكان ديوان عدي وسهم مختلطاً كالدعوة الواحدة ـ فلما خلصت إليه دعوته . . كبر تكبيرة عالية ، ثم قال : الحمد لله الذي أوصل إلي حظي من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم دعا بني عامر بن لؤي .

قال الشافعي : فقال بعضهم : إن أبا عبيدة بن عبد الله بن الجراح الفهري لما رأىٰ من يتقدم عليه . . قال : أَكُلُّ هـٰؤلاء يدعون أمامي ؟ فقال : يا أبا عبيدة ؛ اصبر كما صبرت ، أو كلم قومك ، فمن قدمك منهم علىٰ نفسه . . لم أمنعه ، فأما أنا وبنو عدي . . فنقدمك ـ إن أحببت ـ علىٰ أنفسنا ، قال : فقدَّم معاوية بعد بني الحارث بن فهر ، فصل بهم بين بني عبد مناف وأسد بن عبد العزىٰ ، وشجر بين بني سهم وعدي شيء في زمان المهدي ، فافترقوا ، فأمر المهدي ببني عدي ، فقُدِّموا علىٰ سهم وجمح ؛ للسابقة فيهم . [انتهىٰ « السنن الكبرىٰ » ٦/ ٣٦٤ـ٣٦٥] .

وروى الحافظ البيهقي ـ قدس الله روحه ـ بإسناده : عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أنه قال يوم الجابية وهو يخطب الناس : إن الله جعلني خازناً لهـٰذا المال ، وقاسماً له ، ثم قال : بل الله يقسمه ، وأنا باد بأهل النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم أشرَفِهم ، ففرض لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم إلا جويرية وصفية وميمونة رضي الله عنهن .

وقالت عائشة رضي الله عنها : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعدل بيننا ، فعدل بينهن عمر ، ثم قال : إني باد بي وبأصحابي المهاجرين الأولين ؛ فإنا أُخرجنا من ديارنا ظلماً وعدواناً ، ثم أشرفهم ، ففرض لأصحاب بدر منهم خمسة آلاف ، ولمن شهد بدراً من الأنصار أربعة آلاف ، وفرض لمن شهد الحديبية ثلاثة آلاف ، وقال : من أسرع في الهجرة . . أسرع به العطاء ، ومن أبطأ في الهجرة . . أبطأ به العطاء ، فلا يلومن رجل إلا مناخ راحلته .

زاد في رواية أخرىٰ : عن أبي هريرة رضي الله عنه : أنه قدم علىٰ عمر رضي الله عنه من البحرين مال ، فصليت معه العشاء ، فلما رآني . . سلمت عليه ، فقال : ما قدمت به ؟ فقلت : قدمت بخمس مئة ألف ، قال : تدري ما تقول ؟ قال : فقلت : قدمت بخمس مئة ألف ، قال : إنك ناعس ، ارجع إلىٰ بيتك فنم ، ثم اغد عليَّ ، قال : فغدوت عليه ، فقال : ما جئت به ؟ قلت : خمس مئة ألف ، قال : طيب ؟ قلت : نعم ؛ لا أعلم إلا ذاك ، قال : فقال للناس : إنه قد قدم عليَّ مال كثير ، فإن شئتم أن نعده لكم عداً ، وإن شئتم أن نكيله لكم كيلاً ، فقال رجل : يا أمير المؤمنين ؛ إني رأيت هـٰؤلاء الأعاجم يدونون

ديواناً يعطون الناس عليه ، قال : فدوَّنَ الدواوين ، وفرض للمهاجرين في خمسة آلاف خمسة آلاف ، وللأنصار أربعة آلاف أربعة آلاف ، وفرض لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم في اثني عشر ألف اثني عشر ألفاً .

وفي رواية أخرىٰ : لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم . . جاء مال من البحرين . ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : من كان له علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء أو عِدَة . . فليقم ، فليأخذ ، فقام جابر بن عبد الله رضي الله عنه فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن جاءني مال من البحرين . . لأعطينك هـٰكذا وهـٰكذا » ، ثلاث مرات ، وحثا بيده ، فقال له أبو بكر : قم فخذ بيدك ، فأخذ ، فإذا هن خمس مئة ، فقال : عدُّوا له ألفاً ، وقسم بين الناس عشرة دراهم عشرة دراهم ، وقال : إنما هـٰذه مواعيد وعدها رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس .

حتىٰ إذا كان عام مقبل . . جاء مال أكثر من ذلك المال ، فقسم بين الناس عشرين درهماً عشرين درهماً ، وفضلت منه فضلة ، فقسم للخدم خمسة دراهم خمسة دراهم ، وقال : إن لكم خدماً يخدمونكم ويعالجون لكم ، فرضخنا لهم[1] ، فقالوا : لو فضلت المهاجرين والأنصار ؛ لِسابقتهم ولمكانهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أجر أولـٰئك على الله ، إن هـٰذا المعاش : الأسوة فيه خير من الأثرة ، فعمل بهـٰذا ولايته ، حتىٰ إذا كان سنة ـ أراه ـ ثلاث عشرة في جمادى الآخرة من ليال بقين منه . . مات رضي الله عنه ، فوُلِّي عمر بن الخطاب ، ففتح الفتوح ، وجاءته الأموال ، فقال : إن أبا بكر رضي الله عنه رأىٰ في هـٰذا المال رأياً ، ولي فيه رأي آخر ، لا أجعل مَن قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم كمن قاتل معه ، ففرض للمهاجرين والأنصار ممن شهد بدراً خمسة آلاف خمسة آلاف ، وفرض لمن كان له إسلام كإسلام أهل بدر ولم يشهد بدراً أربعة آلاف أربعة آلاف ، وفرض لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم اثني عشر ألفاً اثني عشر ألفاً ، إلا صفية وجويرية فرض لهما ستة آلاف ، فأبتا أن تقبلا ، فقال لهما : إنما فرضت لهن للهجرة ، فقالتا : إنما فرضت لهن لمكانهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففرض لهما اثني عشر ألفاً اثني عشر ألفاً ، وفرض للعباس رضي الله عنه اثني عشر ألفاً ، وفرض لأسامة بن زيد أربعة آلاف ، وفرض لعبد الله بن عمر ثلاثة آلاف ، فقال : يا أبت ؛ لِمَ زدته عليَّ ألفاً ؟ ما كان لأبيه من الفضل

---

(١) رضخ : أعطاه عطاءً قليلاً ، والرَّضخُ : العطية القليلة .

ما لم يكن لأبي ، وما كان له ما لم يكن لي ، فقال : إن أبا أسامة كان أحب إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبيك ، وكان أسامة أحب إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم منك .

وفرض للحسن والحسين رضي الله عنهما خمسة آلاف [خمسة آلاف] ، ألحقهما بأبيهما ؛ لمكانهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفرض لأبناء المهاجرين والأنصار ألفين ألفين ، فمر به عمر ابن أبي سلمة ، فقال : زيدوه ألفاً ، فقال محمد بن عبد الله بن جحش : ما كان لأبيه ما لم يكن لآبائنا ، وما كان له ما لم يكن لنا ، قال : إني فرضت له بأبيه أبي سلمة ألفين ، وزدته بأمه أم سلمة ألفاً ، فإن كانت لك أُمٌّ مثل أمِّه . . زدتك ألفاً .

وفرض لأهل مكة والناس ثمان مئة ، فجاءه طلحة بن عبيد الله بأخيه عثمان ، ففرض له ثمان مئة ، فمر به النضر بن أنس رضي الله عنه ، فقال عمر : افرضوا له ألفين ، فقال له طلحة : جئتك بمثله ففرضت له ثمان مئة ، وفرضت لهـٰذا ألفين ؟! فقال : إن أبا هـٰذا لقيني يوم أحد ، فقال لي : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقلت : ما أراه إلا قد قتل ، فسلَّ سيفه ، وكسر غمده ، فقال : إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل . . فإن الله حي لا يموت ، فقاتل حتىٰ قتل ، وهـٰذا يرعى الشاء في مكان كذا وكذا .

زاد في رواية أخرىٰ : إنَّ من لم يشهد بدراً من أبناء المهاجرين علىٰ أربعة آلاف ، وكان منهم عمر بن أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي ، وأسامة بن زيد ، ومحمد بن عبد الله بن جحش الأسدي ، وعبد الله بن عمر ، فقال عبد الرحمـٰن بن عوف : إن ابن عمر ليس من هـٰؤلاء ، وإنه ، وإنه ، فقال ابن عمر : إن كان لي حق فأعطنيه ، وإلا . . فلا تعطني ، فقال عمر لابن عوف : اكتبه علىٰ خمسة آلاف ، واكتبني علىٰ أربعة آلاف ، فقال عبد الله : لا أريد هـٰذا ، فقال عمر : والله ؛ لا أجتمع أنا وأنت علىٰ خمسة آلاف . وكذلك رواه عفان عن حماد بن سلمة . [« السنن الكبرىٰ » ٦/٣٤٩ـ٣٥١] .

وروى الحافظ البيهقي ـ قدس الله روحه ـ أيضاً بإسناده قال : قال عبد الله بن سلام : إن الله لما أراد هدي زيد بن سعنة . . قال زيد : ما من علامات النبوة شيء . . إلا وقد عرفتها في وجه محمد صلى الله عليه وسلم حين نظرت إليه ، إلا اثنتان لم أَخبرهما منه ، يسبق حلمُه جهلَه ، ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً ، فذكر الحديث في مبايعته ، قال زيد بن سعنة : فلما كان قبل محلِّ الأجل بيومين أو ثلاثة . . خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار ، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان في نفر من أصحابه ، فلما صلىٰ على الجنازة ودنا من جدار ليجلس إليه . . أتيته ، فنظرت إليه بوجه غليظ ، ثم أخذت بمجامع

قميصه وردائه ، فقلت : اقضني يا محمد حقي ، فوالله ؛ ما علمتكم بني عبد المطلب لمُطَّالٌ ، لقد كان لي بمخالطتكم علم ، فنظرت إلىٰ عمر وعيناه تدوران في وجهه كالفلك المستدير ، ثم رماني ببصره ، فقال : يا يهودي ؛ أتفعل هـٰذا برسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فوالذي بعثه بالحق ؛ لولا ما أحاذر فوته . . لضربت بسيفي رأسك ، قال : ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إلىٰ عمر في سكون وتؤدة وتبسُّم ، ثم قال : يا عمر ؛ أنا وهو كنا إلىٰ غير هـٰذا منك أحوج ، أن تأمرني بحسن الأداء ، وتأمره بحسن التباعة ، اذهب يا عمر ، فاقضه حقه ، وزده عشرين صاعاً من تمر مكان ما رعتَهُ . . . وذكر الحديث في إسلامه . انتهىٰ [« السنن الكبرىٰ » ٦/٥٢] .

وقال الإمام أبو حامد الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : روي عن عمر رضي الله عنه : أنه قالت له ابنته حفصة حين فتح الفتوحات : البِس ألين الثياب إذا قدمَتْ عليك الوفود من الآفاق ، ومُرْ بصنيعة طعام تَطعم وتُطعَمُ لمن حضر ، فقال : يا حفصة ؛ ألست تعلمين أن أعلم الناس بحال الرجل أهل بيته ؟ فقالت : نعم ، قال : ناشدتك الله ؛ هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبث في النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع هو ولا أهل بيته غدوة . . إلا جاعوا عشية ، ولم يشبعوا عشية . . إلا جاعوا غدوة ؟ وناشدتك الله ؛ هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبث في النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع من التمر هو ولا أهله حتىٰ فتح الله عز وجل عليهم خيبر ؟ وناشدتك الله ؛ هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدَّمْتم إليه يوماً طعاماً علىٰ مائدة فيها ارتفاع ، فشق ذلك عليه حتىٰ تغير لونه ، ثم أمر بالمائدة ، فرفعت ، ووضع الطعام علىٰ دون ذلك ، أو وضع على الأرض ؟ وناشدتكِ الله ؛ هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينام علىٰ عباءة مثنية ، فطويتموها ليلة ، فنام عليها ، فلما استيقظ . . قال : « منعتموني قيامي الليلة بهـٰذه العباءة ، أعيدوها كما كانت » ، وناشدتك الله ؛ هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يضع ثيابه لتُغسل ، فيأتيه بلال ، فيؤذِنه بالصلاة ، فما يجد ثوباً يخرج به إلى الصلاة حتىٰ يلبس ثياب النساء فيخرج فيها إلى الصلاة ؟ وناشدتك الله ؛ هل تعلمين أن امرأة من بني ظفر صنعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم كساءين إزاراً ورداء وبعثت إليه بأحدهما قبل أن يبلغ الآخر ، فخرج إلى الصلاة وهو مشتمل به ليس عليه غيره ، وقد عقد طرفيه إلىٰ عنقه صلى الله عليه وسلم ؟ فما زال يذكِّرها حتىٰ أبكاها ، وبكىٰ عمر وانتحب ، حتىٰ ظننا أن نفسه ستخرج ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الإحياء » ٤/٢٢١ـ٢٢٢] .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : لما كان يوم أحد.. جاء أبو سفيان بن حرب فقال : أفيكم محمد ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تجيبوه » ، ثم قال : أفيكم محمد ؟ فلم يجيبوه ، ثم قال الثالثة : أفيكم محمد ؟ فلم يجيبوه ، فقال : أفيكم ابن أبي قحافة ؟ فلم يجيبوه ـ قالها ثلاثاً ـ ثم قال : أفيكم ابن الخطاب ؟ ـ قالها ثلاثاً ـ فلم يجيبوه ، فقال : أمَّا هـٰؤلاء.. فقد كفيتموهم ، فلم يملك عمر نفسه ، فقال : كذبت يا عدو الله ، ها هو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وأنا أحياء ، ولك منا يوم سوء ، فقال : يوم بيوم بدر ، والحرب سِجَال ، ثم قال أبو سفيان : أُعْلُ هبل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أجيبوه » ، قالوا : يا رسول الله ؛ وما نقول ؟ قال : « قولوا : الله أعلىٰ وأجل » ، قال : لنا العزىٰ ولا عزىٰ لكم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أجيبوه » ، فقالوا : يا رسول الله ؛ ما نقول ؟ قال : « قولوا : الله مولانا ولا مولىٰ لكم » انتهىٰ [« الحلية » ١/٣٨ـ٣٩] .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : هـٰذا الحديث انفرد بإخراجه البخاري [٢٨٧٤] .

وروي عن عكرمة : أن أبا سفيان بن حرب لما قال : اعل هبل.. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب : « قل : الله أعلىٰ وأجل » ، فقال أبو سفيان : لنا العزىٰ ولا عزىٰ لكم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قل : الله مولانا ولا مولىٰ لكم » .

واعلم : أن السر في أمر النبي صلى الله عليه وسلم أميرَ المؤمنين عمر أن يخاطب أبا سفيان دون غيره من الصحابة رضوان الله عليهم وجوه : منها : أن عمر رضي الله عنه هو الذي ابتدأ بالرد علىٰ أبي سفيان ، فلما رأىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم غليان قلب عمر وتغيظه على المشركين.. أحب أن يتمم شفاء صدره بتوليته الجواب . انتهىٰ .

وروى الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ بإسناده قال : قالت حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما : يا أمير المؤمنين ؛ لو لبست ثوباً هو ألين من ثوبك ، وأكلت طعاماً أطيب من طعامك ، فقد وسع الله عليك من الرزق ، وأكثر من الخير ، فقال لها : إني سأخصمك[1] إلىٰ نفسك ، أما تذكرين ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقىٰ من شدة

---

(١) كذا في نسخة ، وفي أخرىٰ : (إني أخصمك) .

العيش ؟ فما زال يذكِّرها حتىٰ أبكاها ، ثم قال لها : أمَا والله لئن استطعت . . لأشاركنهما بمثل عيشهما الشديد ، لَعَلِّي أُدرِكُ معهما عيشهما الرخي . وقد تقدم الحديث بطوله .

قال : وكان رضي الله عنه في وجهه خطان أسودان من البكاء .

وكان يمر بالآية في ورده ، فتخنقه العَبْرة ، فيبكي حتىٰ يسقط ، ثم يلزم بيته حتىٰ يُعاد ، يحسبونه مريضاً .

وكان يُسمع حنينه في الصلاة من وراء ثلاثة صفوف ، وقال : (ليتني كنت كبش أهلي ، سمَّنُوني ما بدا لهم ، ثم ذبحوني ، فأكلوني ، وأخرجوني عَذِرَةً ، ولم أكُ بشراً) .

وقال سالم بن عبد الله بن عمر ، عن أبيه : (كان رأس عمر علىٰ فخذي في مرض موته ، فقال لي : ضع رأسي على الأرض ، فقلت : وما عليك إن كان علىٰ فخذي أم على الأرض ؟ فقال : ضعه على الأرض ، فوضعته ، فقال : ويلي وويل أمي إن لم يرحمني ربي) .

ولما طُعن . . قال : (والله ؛ لو أن لي طلاع الأرض[1] ذهباً . . لافتديت به من عذاب الله من قبل أن أراه) .

وخطب بالناس وهو خليفة وعليه إزار فيه ثنتا عشرة رقعة .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : لما طعن عمر . . دخلت عليه ، فقلت : أبشر يا أمير المؤمنين ، فإن الله قد مصَّرَ بك الأمصار ، ودفع بك النفاق ، وأفشىٰ بك من الرزق ، فقال : أفي الإمارة تثني عليَّ يابن عباس ؟! فقلت : وفي غيرها ، فقال : والذي نفسي بيده ؛ لوددت أني خرجت منها كما دخلت ، لا أجر ولا وزر .

وقال حماد بن زيد ـ رحمه الله ـ : حدثنا أيوب ، عن أنس بن أبي مليكة قال : قال ابن عباس رضي الله عنهما : لما طعن عمر . . كنت قريباً منه ، فمسست بعض جسده ـ أو قال : جلده ـ وقلت : هنيئاً لك ، جلد لا تمسه النار ، قال : فنظر إلي نظرة جعلت أرثي له منها ، ثم قال : وما علمك بذلك ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ صحبتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحسنت صحبته ، ففارقك وهو عنك راض ، ثم صحبت المسلمين فأحسنت صحبتهم ، فإن فارقتهم . . فهم عنك راضون ، فقال : أمَّا ما ذكرت من صحبتي لرسول الله

---

(١) **طلاع الأرض** : أي : ملؤها .

صلى الله عليه وسلم . . فإنما كان ذلك منّاً مِن الله عز وجل مَنَّ به عليَّ ، وأما الذي ترىٰ لي من صحبتكم : فلو أن لي ما في الأرض من شيء . . لافتديت به من عذاب الله عز وجل من قبل أن أراه .

وروي : أن عمر رضي الله عنه كوم كومة من بطحاء ، وألقىٰ عليها طرف ثوبه ، ثم استلقىٰ عليها ، ورفع يديه إلى السماء ، ثم قال : (اللهم ؛ كبرت سني ، وضعفت قوتي ، وانتشرت رعيتي ، فاقبضني إليك غير مضيِّع ولا مفرِّط) .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : كنا نتحدث أن ملَكاً ينطق علىٰ لسان عمر ، وكان يقول في دعائه : (اللهم ؛ اعصمنا بحبلك ، وثبتنا علىٰ أمرك) .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال : ما كان شيء أحبَّ إلي أن أعلمه من أمر عمر ، فرأيت في المنام قصراً ، فقلت : لمَن هـٰذا ؟ قالوا : لعمر بن الخطاب ، فخرج من القصر عليه ملحفة كأنه قد اغتسل ، فقلت : كيف صنعت ؟ فقال : خيراً ، كاد عرشي يهوي لولا أني لقِيت ربّاً غفوراً ، فقال : منذ كم فارقتكم ؟ فقلت : منذ ثنتي عشرة سنة ، فقال : إنما انفلتُّ الآن من الحساب .

وقال العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه : كنت جاراً لعمر بن الخطاب ، فما رأيت أحداً من الناس كان أجدَّ وأفضل من عمر ، إن ليله صلاة ، وإن نهاره صيام وفي حاجات الناس ، فلما توفي . . سألت الله عز وجل أن يُرِينيهِ في النوم ، فرأيته في النوم مقبلاً متشحاً من سوق المدينة ، فسلمت عليه وسلم عليَّ ، فقلت له : كيف أنت ؟ قال : بخير ، فقلت له : ما وجدت ؟ قال : الآن حين فرغت من الحساب ، ولقد كاد عرشي يهوي بي لولا أني وجدت رباً رحيماً .

وقال عبد الله بن عمر : لبس أبي ثوباً جديداً ، ثم دعا بشفرة ، فقال : مُدَّ يا بني كُمَّ قميصي ، وألزق يديك بأطراف أصابعي ، ثم اقطع ما فضل ، قال : فقطعت من الكمين ، فصار فم الكم بعضه فوق بعض ، فقلت : يا أبت ؛ لو سويته بالمقص ، فقال : دعه يا بني ؛ هـٰكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ، فما زال حتىٰ تقطع ، وكان ربما رأيت الخيوط تساقط علىٰ قدميه .

وقدم عليه مال من العراق ، فقسمه ، فقام إليه رجل ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ لو أبقيت من هـٰذا المال لعدوٍّ إن حضر ، أو نازلة أو نائبة إن نزلت ، فقال عمر : قاتلك الله!

نطق بها علىٰ لسانك شيطان ، لَقَّاني الله حجتها ، والله ؛ لا أعصين الله اليوم لغد ، ولٰكن أُعِدُّ لهم كما أَعَدَّ لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولما قدم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه الشام . . عرضت له مخاضة[1] ، فنزل عن بعيره ، ونزع خفيه ، وأمسكهما بيده ، وخاض الماء ومعه بعيره ، فقال له أبو عبيدة : يا أمير المؤمنين ؛ لقد صنعت اليوم صنيعاً عظيماً عند أهل الأرض ، فصك في صدره ، وقال : أَوَّه ؛ لَو غيرُك يقول هٰذا يا أبا عبيدة ، إنكم كنتم أذل الناس وأحقر الناس ، فأعزكم الله برسوله صلى الله عليه وسلم ، فمهما تطلبوا العز بغيره . . يذلكم الله سبحانه وتعالىٰ .

ولما قدم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه الشام . . استقبله الناس وهو علىٰ بعيره ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ؛ لو ركبت بِرذَوناً يلقاك عظماء الناس ووجوههم ، فقال عمر : لا أراكم هٰهنا ، إنما الأمر من هٰهنا ـ وأشار بيده إلى السماء ـ خلوا سبيل جملي .

ودخل علىٰ مزبلة ، فاحتبس عندها ، فكأن أصحابه تأذوا بها ، فلما خرج . . قال : هٰذه دنياكم التي تحرصون عليها .

وقال : (نظرت في هٰذا الأمر : إذا أردت الدنيا . . أضر بالآخرة ، وإذا أردت الآخرة . . أضر بالدنيا ، فإذا كان الأمر هٰكذا . . فأَضِرُّوا بالفانية ، واعملوا للباقية) انتهىٰ [« الحلية » ١/٤٢ـ٥٥] .

وقال ابن سعد : كان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يعم بعطائه سائر المؤمنين .

وقدم خالد بن عُرفُطة العذري علىٰ أمير المؤمنين ، فسأله عما وراءه ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ تركت مَن ورائي يسألون الله عز وجل أن يزيد في عمرك من أعمارهم ، ما وطىء أحد القادسية . . إلا عطاؤه ألفان أو ألفٌ وخمس مئة ، وكل مولود ست مئة أو خمس مئة ، فقال عمر : الله المستعان ، إنما هو حقهم ، وأنا أسعد بأدائه إليهم منهم بأخذه ، فلا يحمدوني عليه ؛ فإنه لو كان من مال الخطاب . . ما أعطيتهم .

ثم قال : (إن نصيحتي لك وأنت عندي جالس كنصيحتي لمن هو بأقصىٰ بِرْكِ الغِماد[2] ، وذلك لما طوقني الله عز وجل من أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم) .

---

(١) **المخاضة** : الموضع من الماء يجوز الناس فيه مشاة وركباناً .

(٢) **بِرْكِ الغِماد** : اسم موضع باليمن ، وقيل : هو موضع وراء مكة بخمس ليال مما يلي البحر .

وفرض للناس حتىٰ لم يدع أحداً . . إلا فرض له ، فبقيَتْ بقية لا عشائر لهم ولا موالي ، ففرض لهم ما بين المئتين وخمسين إلى الثلاث مئة ، وقال : (والله ؛ لأزيدن للناس ما زاد المال ، فإن أعياني كثرته . . لأحثون لهم حثْواً بغير حساب ، هو مالهم يأخذونه) .

وكان يقول : (أيما عامل لي ظلم أحداً فبلغتني مظلمته ، فلم أغيرها . . فأنا ظلمته) .

وكان يحمي البقيع لخيل المسلمين ، وكان يحمي الربذة ، والسرف لإبل الصدقة ، ويحمل علىٰ ثلاثين ألف بعير في سبيل الله كل سنة .

ولما ولي الخلافة . . استشارهم ، فقال : قد شغلت نفسي في هـٰذا الأمر ، فما يصلح لي منه ؟ فقال عثمان بن عفان : كُلْ وأطعم ، وكذا قال سعيد بن زيد ، وغيره ، فقال لعَلِيٍّ : يا أبا الحسن ؛ ما تقول أنت في ذلك ؟ فقال : غداء وعشاء ، فأخذ بقول عليٍّ رضي الله عنهما .

وكان يقوت نفسه وأهله ، ويكتسي الحلة في الصيف ولربما خرق الإزار فيرقعه ، فلا يبدل مكانه حتىٰ يأتي المال ، وكان ما من عام يكثر فيه المال . . إلا كانت كسوته أدنىٰ من العام الذي قبله ، فكلمتْهُ حفصة في ذلك ، فقال : (إنما أكتسي من مال المسلمين ، وهـٰذا يبلِّغني) .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : ركب أمير المؤمنين عمر فرساً ، فانكشف ثوبه عن فخذه ، فرأىٰ أهل نجران بفخذه شامة سوداء ، فقالوا : هـٰذا الذي نَجِدُ في كتابنا أنه يخرجنا من أرضنا . انتهىٰ [« الطبقات » ٣/٢٩٨ـ٣٢٦] .

وقال أبو الفرج : وكتب رضي الله عنه إلىٰ أبي موسى الأشعري :

أما بعد : فإن أسعد الرعاة . . من سعدت به رعيته ، وأشقاهم عند الله عز وجل . . من شقيت به رعيته ، وإياك أن ترتع فترتع[1] عمالك ، فيكون مَثَلُك عند ذلك مَثَلَ البهيمة ، نظرتْ إلىٰ خضرة الأرض ، فرعت فيها تبتغي بذلك السمن ، وإنما حتفها في سمنها . والسلام عليك .

وقال : (لو ماتت شاة علىٰ شط الفرات ضائعة . . لظننت أن الله سبحانه وتعالىٰ سائلي عنها يوم القيامة) .

---

(١) في « تاريخ عمر بن الخطاب » : (تزيغ فتزيغ عمالك) .

وقال عمر رضي الله عنه : (لو نادىٰ مناد من السماء : يا أيها الناس ؛ إنكم داخلون الجنة كلكم أجمعون إلا رجلاً واحداً . . لخفت أن أكون أنا هو ، ولو نادىٰ مناد : أيها الناس ؛ إنكم داخلون النار إلا رجلاً واحداً . . لرجوت أن أكون أنا هو) انتهىٰ [« تاريخ عمر بن الخطاب » ١٥١] .

وقال أبو الفرج : أسلم عمر رضي الله عنه وهو ابن ست وعشرين سنة ، بعد أربعين رجلاً وعشر نسوة .

ونزل جبريل عليه السلام ، فقال : يا محمد ؛ استبشرَ أهل السماء بإسلام عمر .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر .

وهو أول خليفة دعي بأمير المؤمنين ، وأول من كتب التاريخ للمسلمين ، وأول من جمع القرآن في المصحف ، وأول من جمع الناس علىٰ قيام رمضان ، وأول من عَسَّ[1] في عمله بالمدينة ، وحمل الدِّرة ، وأَدَّب بها ، وفتح الفتوح ، ووضع الخراج ، ومصَّر الأمصار ، واستقضى القضاة ، ودوَّن الدواوين ، وفرض الأعطية ، وحج بأزواج النبي صلى الله عليه وسلم في آخر حجة حجها .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « عمر بن الخطاب سراج أهل الجنة »[2] .

استقبل بخلافته يوم الثلاثاء صبيحة موت أبي بكر رضي الله عنه ، وكان أول كلام تكلم به : (اللهم ؛ إني شديد فليِّنِّي ، وإني ضعيف فقوِّني ، وإني بخيل فسخِّنِي) .

وكان للعباس رضي الله عنه ميزاب علىٰ طريق عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه ، فلبس عمر ثيابه يوم الجمعة ، فلما وافى الميزاب . . أصاب عمرَ من الميزاب ماءٌ فيه صفرة دم ، فأمر عمر بقلعه ، ثم رجع عمر ، فطرح ثيابه ، ولبس غيرها ، وصلىٰ بالناس ، فأتاه العباس ، فقال : والله ؛ إنه للموضع الذي وضعه النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال عمر للعباس : وأنا أعزم عليك لما صعدت علىٰ ظهري حتىٰ تضعه في الموضع الذي وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففعل ذلك العباس .

وأخذ عمر بن الخطاب رضي الله عنه تبنة من الأرض وقال : (ليتني كنت هـٰذه التبنة ، ليتني لم أُخْلَق ، ليت أمي لم تلدني ، ليتني لم أكُ شيئاً ، ليتني كنت نسياً منسياً) .

---

(١) تفقَّد رعيته ليلاً .

(٢) أخرجه أحمد في « فضائل الصحابة » (١/ ٤٢٨) .

وسرد الصوم في آخر عمره .

وقال سعيد بن المسيب : كان عمر رضي الله عنه يحب الصلاة في كبد الليل ، يعني : وسطه . انتهىٰ [« الصفوة » ١/١١٣ـ١١٨] .

وروىٰ أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد ابن أبي الدنيا رحمه الله بسنده قال :

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ؛ فإنه أهون عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم ، وتزيَّنوا للعرض الأكبر ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾) .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول ـ وبيني وبينه جدار حائط ، وهو في جوف الحائط ـ : (عمر بن الخطاب أمير المؤمنين! بخٍ بخٍ! والله ؛ لتتقيَنَّ الله ـ بُنَيَّ الخطاب ـ أو ليعذبنك) .

وكتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلىٰ بعض عماله ، فكان في آخر كتابه : أن حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة ؛ فإنه من حاسب نفسه في الرخاء قبل حساب الشدة . . عاد مرجعه إلى الرضىٰ والغبطة ، ومن ألهته حياته وشغلته أهواؤه . . عاد أمره إلى الندامة والحسرة ، فتذكرْ ما توعَظُ به لكيما تنتهي عما تنهىٰ عنه ، فتكون عند التذكرة والموعظة من أولي النهىٰ .

وقال في « الاكتفاء » : كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : (ليت شعري ، متىٰ أشفي غيظي ؟ أحين أقدر ، فيقال : لو عفوت ؟ أم حين أعجل ، فيقال : لو صبرت ؟) .

وقال في خطبته : (إنما الدنيا أمل محتوم ، وأجل منتقَص ، وبلاغ إلىٰ دارٍ غيرها ، وسير إلى الموت ليس فيه تعويج ، فرحم الله امرأً فكر في أمره ، ونصح لنفسه ، وراقب ربه ، واستقال ذنبه) .

وقال : (دلوني علىٰ رجل أستعمله علىٰ أمر قد أهمني ، فقالوا : كيف تريده ؟ فقال : إذا كان في القوم وليس أميرهم . . كان كأنه أميرهم ، وإذا كان أميرهم . . كان كأنه رجل منهم) .

وروي : أنه كان يحمل جراب الدقيق علىٰ ظهره للأرامل والأيتام ، فقال له بعضهم : دعني أحمله عنك يا أمير المؤمنين ، فقال : (ومن يحمل عني ذنوبي ؟) .

ودخل عليه عدي بن حاتم رضي الله عنه ، فسلم عليه وهو مشغول عنه ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ أنا عدي بن حاتم ، فقال : ما أعرَفَني بك! أنت الذي أقبلت إذ أدبروا ، ووفيت إذ غدروا ، وعرفت إذ أنكروا ، وأقررت إذ نفروا ، وأسلمت إذ كفروا ، فقال عدي : حسبي يا أمير المؤمنين .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : شهدت جلولاء[1] ، فابتعت من الغنم بأربعين ألف درهم ، فلما قدمت علىٰ أمير المؤمنين . . فقال : أرأيت لو عرضتُ على النار ؛ فقيل لك : افتد أباك ، أكنت فاعلاً ؟ قال : قلت : إي والله ، ما من شيء يؤذيك . . إلا وكنت مفتديك منه بنفسي ، فقال : كأني أشاهد الناس حين تبايعوا ، فقالوا : عبد الله بن عمر ابن أمير المؤمنين ، وأحب الناس إليه ـ وأنت كذلك ـ فأرخصوا عليك ، وإني قاسم ومسؤولٌ ، وأنا معطيك أكثر ما ربح تاجر من قريش ، لكل درهم درهماً ، قال : ثم دعا التجار ، فابتاعوها منه بأربع مئة ألف درهم ، فدفع إليَّ ثمانين ألف درهم ، وبعث بالباقي إلىٰ سعد بن أبي وقاص أمير الجيش ليقسمه بين المسلمين . والله أعلم [انتهىٰ] .

وقال ابن سعد ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : وعن سعيد بن المسيب ، عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أنه كان يقول : (إن الناس لا زالوا مستقيمين ما استقامت لهم أئمتهم وهداتهم) [انتهىٰ « الطبقات » ٣/ ٢٩٢] .

وروى الحافظ البيهقي في (باب مصرف أربعة أخماس الفيء في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنها كانت له خاصة دون المسلمين ، يضعها حيث أراه الله عز وجل) :

وعن مالك بن أوس بن الحدثان قال : سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه والعباس وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما يختصمان إليه في أموال النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال عمر : كانت أموال بني النضير مما أفاء الله علىٰ رسوله مما لم يوجِف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب ، فكانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم خالصاً دون المسلمين ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفق منها علىٰ أهله نفقة سنة ، فما فَضَل . . جعله في الكراع والسلاح عدة في سبيل الله ، ثم توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوَلِيَها أبو بكر الصديق رضي الله عنه بمثل ما وَلِيَها به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم وَلَيْتُها بمثل

---

(١) **جلولاء** : وقعة للمسلمين على الفرس سنة (١٧هـ) ، بلغت غنائمها ثمانية عشر ألف ألف ، وقتل فيها من الفرس مئة ألف .

ما وَلِيَها به رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر الصديق رضي الله عنه ، ثم سألتماني أن أولِّيَكماها فولَّيْتُكماها علىٰ أن تعملا فيها بمثل ما وَلِيَها به رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أبو بكر رضي الله عنه ، فجئتماني تختصمان ؟ أتريدان أن أدفع إلىٰ كل واحد منكما نصفاً ؟ أتريدان مني قضاء ؟ أتريدان غير ما قضيت به بينكما أولاً ؟ فلا والذي بإذنه تقوم السماوات والأرض ؛ لا أقضي بينكما قضاء غير ذلك ، فإن عجزتما عنها . . فادفعاها إلي أكفيكُماها .

قال الشافعي ـ رحمه الله ـ : فقال لي سفيان : لم أسمعه من الزهري ، ولـٰكن أخبرنيه عمرو بن دينار عن الزهري ، قلت : كما قصصت ؟ قال : نعم . أخرجه البخاري [٢٩٢٧] ومسلم في « الصحيح » [١٧٥٧] من حديث ابن عيينة مختصَراً .

قال الشافعي : ومعنىٰ قول عمر رضي الله عنه : (لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة) : يريد ما كان للموجفين ، وذلك أربعة أخماسه .

وفي رواية أخرىٰ : عن مالك بن أوس : أن عمر رضي الله عنه قال فيما يحتج به : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة صفايا : بنو النضير ، وخيبر ، وفَدَكٌ ، فأما بنو النضير . . فكانت حبساً لنوائبه ، وأما فَدَكٌ . . فكانت لابن السبيل ، وأما خيبر . . فجزأها ثلاثة أجزاء ، فقسم منها جزءين بين المسلمين ، وحبس جزءاً لنفسه ونفقة أهله ، فما فضل عن نفقة أهله . . رده علىٰ فقراء المهاجرين .

وفي رواية أخرىٰ : أن النبي صلى الله عليه وسلم صالح أهل فَدَكٍ وقُرىٰ قد سماها ـ قال الزهري : لا أحفظها ـ وهو محاصر قوماً آخرين ، فأرسلوا إليه بالصلح ، وكانت بنو النضير للنبي صلى الله عليه وسلم خالصاً ، لم يفتحها عنوة ، افتتحوها علىٰ صلح ، وأنزل الله عز وجل : ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ ، فقسمها النبي صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين ، ولم يعط الأنصار منها شيئاً ، إلا رجلين كانت بهما حاجة : سهل بن حنيف ، وابن عبد المنذر ـ يعني : أبا لبابة ـ وأعطىٰ أبا بكر ، وأعطىٰ عمر بن الخطاب بئر حزم ، وأعطىٰ صهيباً ، وأعطىٰ سهل بن حنيف ، وأبا دجانة ما للآخرين ، وأعطىٰ عبد الرحمـٰن البئر ، وهو الذي يقال له : مال سليمان ، وأعطى الزبير البئر . انتهىٰ [« السنن الكبرىٰ » ٦/٢٩٦ـ٢٩٧] .

ثم روى الحافظ بعد ذلك في (باب بيان مصرف أربعة أخماس الفيء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم) : وأنها تجعل حيث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجعل فضول غلات تلك الأموال ، مما فيه صلاح الإسلام وأهله ، وأنها لم تكن موروثة) .

وعنه : بإسناده عن محمد بن شهاب الزهري : أن مالك بن أوس بن الحدثان حدثه قال : أرسل إليَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فجئته حين تعالى النهار ، قال : فوجدته في بيته جالساً علىٰ سرير مفضياً إلىٰ رماله ، متكئاً علىٰ وسادة من أدم ، فقال لي : يا مالك ؛ إنه قد دف أهل أبيات من قومك[1] ، وقد أمرت فيهم برضخٍ فخُذه ، فاقسمه بينهم ، فقلت : لو أمرت بهـٰذا غيري ، قال : خذه يا مالِ ، قال : فجاء يرفأ[2] فقال : هل لك يا أمير المؤمنين في عثمان وعبد الرحمـٰن بن عوف والزبير وسعد ؟ قال عمر : نعم ، فأذن لهم ، فدخلوا ، ثم جاء ، فقال : هل لك في عباس وعلي ؟ قال : نعم ، فأذن لهما ، قال عباس : يا أمير المؤمنين ؛ اقض بيني وبين هـٰذا ، فقال بعض القوم : أجل يا أمير المؤمنين ، فاقض بينهما ، قال مالك بن أوس : فخُيِّل إلي أنهم كانوا قدموهم لذلك ، قال عمر : أنشدكم الله الذي بإذنه تقوم السموات والأرض ؛ أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا نورَثُ ، وإن ما تركنا صدقةٌ » ؟[3] قالوا : نعم ، ثم أقبل على العباس وعلي رضي الله عنهما ، فقال : أنشدكما بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض ؛ أتعلمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا نورَثُ ، وإن ما تركنا صدقةٌ » ؟ قالا : نعم ، قال عمر رضي الله عنه : فإن الله تبارك وتعالىٰ كان خص رسول الله صلى الله عليه وسلم بخاصة لم يخص بها أحداً غيره ؛ قال : ﴿ مَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ ﴾ ، ما أدري هل قرأ الآية التي قبلها ، أم لا ؟

قال : فقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم بينكم النضير ، فوالله ؛ ما استأثر عليكم ولا أخذها دونكم حتىٰ بقي هـٰذا المال ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ منه نفقة سنته ، ثم يجعل ما بقي أسوة المال ، ثم قال : أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض ؛ أتعلمون ذلك ؟ قالوا : نعم ، ثم نشد عباساً وعلياً بمثل ما نشد به القوم ، أتعلمان ذلك ؟ قالا : نعم ، قال : فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم . . قال أبو بكر : أنا ولي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجئتما تطلب ميراثك [من ابن أخيك] ، ويطلب هـٰذا ميراث امرأته [من أبيها] ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا نورَثُ ، ما تركنا صدقة » ، ثم توفي أبو بكر رضي الله عنه ، فقلت : أنا

---

(١) **دفت علينا دافة** : أي أتت علينا جماعة من بلد إلىٰ بلد ، يسيرون سيراً علىٰ مُهل .

(٢) **يرفأ** : هو حاجب سيدنا عمر .

(٣) أخرجه البخاري (٢٩٢٧) .

ولي رسول الله صلى الله عليه وسلم وولي أبي بكر ، فوُلِّيتُها ، ثم جئتماني جميعاً ـ وأمْرُكما واحد ـ فقلتما : ادفعها إلينا ، فقلت : إن شئتما . . دفعتها إليكما ، علىٰ أن عليكما عهد الله أن تعملا فيه بالذي كان يعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذتماها بذلك ، فقال : أكذلك ؟ قالا : نعم ، ثم جئتماني لأقضي بينكما ، ولا والله ؛ لا أقضي بينكما بغير ذلك حتىٰ تقوم الساعة ، فإن عجزتما عنها . . فرُدَّاها إلي .

زاد في رواية أخرىٰ : أن عمر رضي الله عنه قال : وُلِّيتُها بعد أبي بكر سنتين من إمارتي ، ثم بدا لي أن أدفعها إليكم ، فأخذت عليكما عهد الله وميثاقه أن تعملا فيها بما عمل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر بعده ، فقلتما : ادفعها إلينا علىٰ ذلك ، إن كنتما عجزتما عنها . . فادفعاها إلي ، قال : فغلبه عليٌّ رضي الله عنه عليها ، فكانت بيد عليٍّ ، ثم بيد الحسن ، ثم بيد الحسين ، ثم بيد علي بن الحسين ، ثم بيد حسن بن حسن ، ثم بيد زيد بن حسن .

قال معمر : ثم كانت بيد عبد الله بن حسن حتىٰ ولي ـ يعني : بني العباس ـ فقبضوها . رواه مسلم في « الصحيح » [١٧٥٧] .

زاد في رواية أخرىٰ : قال مالك بن أوس بن الحدثان النصري : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دعاه بعدما ارتفع النهار ، قال : فدخلت عليه ؛ فإذا هو جالس علىٰ رمال سرير ليس بينه وبين الرمال فراش .

زاد في رواية أخرىٰ : فكانت هـٰذه الصدقة بيد علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وطالت فيها خصومتهما ، فأبىٰ عمر رضي الله عنه أن يقسمها بينهما حتىٰ أعرض عنها عباس ، ثم كانت بعد علي بيد حسن بن علي ، ثم بيد حسين بن علي ، ثم بيد علي بن حسين وحسن بن حسن ، كلاهما كانا يتداولانها ، ثم بيد زيد بن حسن ، وهي صدقة رسول الله صلى الله عليه وسلم حقاً .

وفي رواية : عن عائشة رضي الله عنها : أن فاطمة والعباس رضي الله عنهما أتيا أبا بكر يلتمسان ميراثهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهما حينئذ يطلبان أرضه من فَدَكٍ ، وسهمه من خيبر ، فقال لهما أبو بكر رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا نورَثُ ، ما تركنا صدقة » ، إنما يأكل آل محمد في هـٰذا المال ، والله ؛ إني لا أدع أمراً رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنعه بعدُ . . إلا صنعته .

وفي رواية أخرىٰ : قال : كانت فاطمة تسأل أبا بكر نصيبها مما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر وفدك وصدقته بالمدينة ، فأبىٰ أبو بكر عليها ذلك ، قال : لست تاركاً شيئاً كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل به . . إلا عملت ، فإني أخشىٰ إن تركت شيئاً من أمره . . أن أزيغ ، فأما صدقته بالمدينة . . فدفعها عمر إلىٰ علي والعباس رضي الله عنهما ، فغلب عليٌّ عليها ، وأما خيبر وفدك . . فأمسكهما عمر ، وقال : هما صدقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كانت لحقوقه التي تعروه ونوائِبِه ، وأمرهما إلىٰ ولي الأمر ، فهُما علىٰ ذلك إلى اليوم . رواه البخاري في « الصحيح » [٢٩٢٦] .

زاد في رواية : عن الشعبي قال : لما مرضت فاطمة رضي الله عنها . . أتاها أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، فاستأذن عليها ، فقال علي رضي الله عنه : يا فاطمة . . هـٰذا أبو بكر يستأذن عليك ، فقالت : أتحب أن آذن له ؟ قال : نعم ، فأذنت له ، فدخل عليها يترضَّاها ، وقال : والله ؛ ما تركت الدار والمال والأهل والعشيرة . . إلا لابتغاء مرضاة الله ومرضاة رسول الله ومرضاتكم أهل البيت ، ثم ترضَّاها حتىٰ رضيت . هـٰذا مرسل حسن بإسناد صحيح .

وفي رواية : عن المغيرة قال : جمع عمر بن عبد العزيز بني مروان حين استُخلف ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت له فدك ، وكان ينفق منها ويعود منها علىٰ صغير بني هاشم ، ويزوج فيه أيِّمَهُمْ ، وإن فاطمة رضي الله عنها سألته أن يجعلها لها ، فأبىٰ ، فكانت كذلك في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتىٰ مضىٰ لسبيله ، فلما ولي أبو بكر رضي الله عنه . . عمل فيها بما عمل النبي صلى الله عليه وسلم في حياته حتىٰ مضىٰ لسبيله ، فلما ولي عمر رضي الله عنه . . عمل فيها بمثل ما عملا حتىٰ مضىٰ لسبيله ، ثم أقطعها مروان ، ثم صارت لعمر بن عبد العزيز .

قال عمر بن عبد العزيز : فرأيت أمراً منعه رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة رضي الله عنها ليس لي بحق ، وإني أشهدكم أني قد رددتها علىٰ ما كانت ؛ يعني : علىٰ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال الشيخ : إنما أقطع مروان فدكاً في أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وكأنه تأوَّلَ في ذلك ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا أطعم الله نبياً طعمة . . فهي للذي يقوم من بعده » ، وكان مستغنياً عنها بماله ، فجعلها لأقربائه ، ووصل بها رحمهم ، وكذلك

تأويله عند كثير من أهل العلم . وذهب آخرون إلىٰ أن المراد بذلك : التولية ، وقطع جريان الإرث فيه ، ثم يصرف في مصالح المسلمين ، كما كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما يفعلان ، كما رآه عمر بن عبد العزيز حين رد الأمر في فدك إلىٰ ما كان .

واحتج من ذهب إلىٰ هـٰذا بما روِّيناه في حديث الزهري ، وأما خيبر وفدك . . فأمسكهما عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وقال : هما صدقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كانت لحقوقه التي تعروه ونوائبه ، وأمرهما إلىٰ ولي الأمر ، فهُما علىٰ ذلك إلى الآن .

وفي رواية أخرىٰ : جاءت فاطمة إلىٰ أبي بكر رضي الله عنهما ، فقالت : يا خليفة رسول الله ؛ أنت ورِثت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أم أهله ؟ قال : لا بل أهله ، قالت : فما بال الخمس ؟ فقال : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا أطعم الله نبياً طعمة ثم قبضه . . كانت للذي يلي بعده » ، فلما وليت . . رأيت أن أرده على المسلمين ، قالت : أنت ورسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم ، ثم رجعت .

وفي رواية أخرىٰ : قال الشافعي ـ رحمه الله ـ : الأمر الذي لم يختلف فيه أحد من أهل العلم عندنا علمته ، ولم يزل يُحفظ من قولهم : أنه ليس لأحد ما كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم من صَفِيِّ الغنيمة .

وفي رواية سفيان عن مطرف ، عن عامر الشعبي قال : كان للنبي صلى الله عليه وسلم سهم يدعىٰ سهمَ الصَّفِيِّ ، إن شاء عبداً ، وإن شاء أمةً ، وإن شاء فرساً يختاره قبل الخُمُس .

وفي رواية ابن عون قال : سألت محمداً عن سهم النبي صلى الله عليه وسلم والصَّفِيِّ ، قال : كان يضرب له بسهم مع المسلمين وإن لم يشهد ، والصَّفِيُّ يؤخذ له رأس من الخمس قبل كل شيء .

وفي رواية عن قتادة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غزا . . كان له سهم صاف يأخذه من حيث شاء ، فكانت صفية من ذلك السهم ، وكان إذا لم يَغْزُ بنفسه . . ضُرب له بسهمه ولم يختر .

وفي رواية أخرىٰ عن ابن شهاب : أن خيبر كان بعضها عنوة وبعضها صلحاً ، والكثيبة أكثرها عنوة وفيها صلح ، قلت لمالك : وما الكثيبة ؟ قال : أرض خيبر ، وهي أربعون ألف عَذْق[1] [انتهىٰ « السنن الكبرىٰ » ٦/٢٩٧ـ٣١٨] .

---

(١) العَذْق : النخلة عند أهل الحجاز .

ثم روىٰ بإسناده : أنَّ علي بن أبي طالب رضي الله عنه أتاه مال من أصبهان ، فقسمه بسبعة أسباع ، ففضل رغيف ، فكسره بسبع كسر ، فوضع علىٰ كل جزء كسرة ، ثم أقرع بين الناس ، أيهم يأخذ أول .

وفي رواية أخرىٰ : أتت علياً امرأتان تسألانه ، عربية ومولاة لها ، فأمر لكل واحدة منهما بِكُرٍّ من طعام وأربعين درهماً أربعين درهماً ، فأخذت المولاة التي أُعطيت وذهبت ، وقالت العربية : تعطيني مثل الذي أُعطيت هـٰذه ، وأنا عربية وهي مولىٰ ، قال لها علي : إني نظرت في كتاب الله عز وجل ، فلم أر فيه فضلاً لولد إسماعيل علىٰ ولد إسحاق . انتهىٰ [« السنن الكبرىٰ » ٦/٣٤٨ـ٣٤٩] .

وروى الحافظ البيهقي بإسناده : عن عمرو بن حماد ، عن أسباط ، عن سماك ، عن حنش : أن رجلين استودعا امرأة من قريش مئة دينار علىٰ ألاَّ تدفعها إلىٰ واحد منهما دون صاحبه حتىٰ يجتمعا ، فأتاها أحدهما ، فقال : إن صاحبي توفي ، فادفعي إلي المال ، فأبت ، فاختلف إليها ثلاث سنين ، واستشفع عليها حتىٰ أعطته ، ثم إن الآخر جاء ، فقال : أعطني الذي لي ، فذهب بها إلىٰ عمر ، فقال له عمر رضي الله عنه : هل بينة ؟ قال : هي بينتي ، فقال : ما أظنكِ إلا ضامنة ، قالت : أسألك يا فلان أن ترفعنا إلىٰ علي بن أبي طالب ، فأتوه ، وهو يُطَيِّنُ حوضاً له في بستان ، وهو متزر بكساء ، فقصوا عليه القصة ، فقال : ائتني بصاحبك وإليَّ متاعك . [« السنن الكبرىٰ » ٦/٢٨٩] .

وبإسناده : عن عبد الرحمـٰن ابن أبي ليلىٰ قال : سمعت علياً رضي الله عنه يقول : اجتمعتُ أنا والعباس وفاطمة وزيد بن حارثة رضي الله عنهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأل العباس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ؛ كَبُرَ سني ، ورق عظمي ، وركبتني مؤنة ، فإن رأيت أن تأمر لي بكذا وكذا وسْقاً من طعام . . فافعل ، قال : ففعل ذلك ، ثم قالت فاطمة رضي الله عنها : يا رسول الله ؛ أنا منك بالمنزل الذي قد علمت ، فإن رأيت أن تأمر لي بكذا كما أمرت لعمك . . فافعل ، قال : ففعل ذلك ، ثم قال زيد بن حارثة : يا رسول الله ؛ كنت أعطيتني أرضاً أعيش فيها ، ثم قبضتها مني ، فإن رأيت أن تردها عليَّ . . فافعل ، قال : ففعل ذلك ، قلت : أنا يا رسول الله ؛ إن رأيت أن توليني حقاً من الخمس في كتاب الله ، فأَقسِمه حياتَك كي لا ينازعنيه أحد بعدك . . فافعل ، قال : ففعل ذلك .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم التفت إلى العباس فقال : « يا أبا الفضل ؛ ألا تسألني الذي سألَنِيه ابن أخيك ؟ » فقال : يا رسول الله ؛ انتهت مسألتي إلى الذي سألتك ، قال : فولانيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقسمته حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ولانيه أبو بكر رضي الله عنه ، فقسمته حياة أبي بكر ، ثم ولانيه عمر رضي الله عنه ، فقسمته حياة عمر ، حتىٰ كان آخر سنة من سِنِيِّ عمر رضي الله عنه أتاه مال كثير ، فعزل حقنا ، ثم أرسل إلي ، فقال : هـٰذا مالُكُم ، فخذه ، فقسمه حيث كنت تقسمه ، فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ بِنَا عنه العامَ غنىً ، وبالمسلمين إليه حاجة ، فرده عليهم تلك السنة ، ثم لم يدعُنا إليه أحد بعد عمر رضي الله عنه ، حتىٰ قمت مقامي هـٰذا ، فلقيت العباس رضي الله عنه بعدما خرجت من عند عمر ، فقال : يا علي ؛ لقد حرمتنا الغداة شيئاً لا يُرَدُّ علينا أبداً إلىٰ يوم القيامة . وفيه قال أبو عبد الله : رواته من ثقات الكوفيين .

قال الشيخ : وقد أخرجه أبو داوود في « السنن » [٢٩٨٤] ببعض معناه مختصَراً عن عثمان ابن أبي شيبة ، عن عبد الله بن نمير .

وبإسناده : عن ابن أبي ليلىٰ قال : لقيت علياً رضي الله عنه عند أحجار الزيت ، فقلت له : بأبي وأمي ، ما فعل أبو بكر وعمر في حقكم أهلَ البيت من الخُمُس ؟ فقال عليٌّ رضي الله عنه : أما أبو بكر رضي الله عنه . . فلم يكن في زمانه أخماس ، وما كان . . فقد أوفاناه ، وأما عمر رحمه الله . . فلم يزل يعطيناه حتىٰ جاءه مال السوس والأهواز ـ أو قال : الأهواز ، أو قال : فارس ، قال الشافعي رحمه الله : أنا أشك في حديث مطر أو حديث الآخر ـ فقال : في المسلمين خلة ، فإن أحببتم . . تركتم حقكم ، فجعلناه في خلة المسلمين حتىٰ يأتينا مال ، فأوفيكم حقكم منه ، فقال العباس لعليٍّ رضي الله عنهما : لا تطمعه في حقنا ، فقلت له : يا أبا الفضل ؛ ألسنا أحق من أجاب أمير المؤمنين ورفع خلة المسلمين ، فتوفي عمر قبل أن يأتيه مال فيقضيناه .

وقال الحَكَم في حديث مطر والآخر : إن عمر قال : لكم حق ، ولا يبلغ علمي ـ إذ كثر ـ أن يكون لكم كله ، فإن شئتم . . أعطيتكم منه بقدر ما أرىٰ لكم ، فأبينا عليه إلاَّ كله ، فأبىٰ أن يعطينا كله . انتهىٰ [« السنن الكبرىٰ » ٦/٣٤٣ـ٣٤٤] .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ، وحفظ عليه الإيمان ، وتوفاه عليه ، آمين ـ : اِعلم : أن لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه خصائص لم يشاركه فيها

أحد من الصحابة رضوان الله عليهم :

منها : موافقةُ قولِهِ محكم الكتاب ، علىٰ ما ثبت في الرواية المشهورة : وافقتُ ربي في ثلاث ، وفي رواية : وافقني ربي في ثلاث ، وقد وقعت الموافقة في آيات ، منها : آية الحجاب ، ومنها : أسارىٰ بدر ، ومنها : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ ﴾ ، ومنها : ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ ، ومنها : الاستئذان ، ومنها : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ ، إلىٰ غير ذلك من الآيات .

ومما اختُص به أيضاً : أن الله عز وجل أدار الحق علىٰ لسانه وقلبه .

ومنها : أنه ما سلك رضي الله عنه فجاً . . إلا سلك الشيطان فجاً غير فجه .

ومنها : تسميته بالفاروق ؛ إذ فرق الله به بين الحق والباطل .

ومنها : أن الله سبحانه وتعالىٰ أعز به الدين ، قال ابن مسعود رضي الله عنه : ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر . انفرد بإخراجه البخاري .

وقال غيره : **أُدرجت سعادة الإسلام في أكفان عمر بن الخطاب** .

وورد : أن جبريل عليه الصلاة والسلام قال : لِيبكِ الإسلام علىٰ موت عمر .

ومنها : أنه وزير النبي صلى الله عليه وسلم وسمعه وبصره ، وهـٰذه الرتبة لم يشاركه فيها غير أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

ومنها : أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر عنه أنه من المُحَدَّثين .

ومن كراماته رضي الله عنه : أنه كان يخطب على المنبر يوم جمعة ، فقال في أثناء كلامه : يا سارية بن حصن ؛ الجبل الجبل ، فنظر الناس بعضهم إلىٰ بعض ، فلم يفهموا ما قال ، فقال له علي رضي الله عنه لما نزل : ما هـٰذا الكلام الذي قلته ؟ قال : أَوَ قد سمعتني ؟ قال : سمعتك أنا وكل مَن في المسجد ، فقال : رأيت أصحابنا بنهاوند . . . وذكر الحديث .

واعلم : أن هـٰذه كرامة عظيمة مجموع ما اتفق فيها لم يشاركه فيها أحد وإن حصلت المشاركة في أصل الكرامة لخلائق قبله وبعده فمما اتفق في هـٰذه الكرامة وجوه ستة :

الأول : أنه كشف له عن حال السرية حتىٰ عاينهم ببصره ، فشاهد ما هُمْ فيه من الضيق من جهة العدو ، فأرشدهم إلىٰ طريق الظفر والنجاة .

الثاني : أنه ارتفع صوته رضي الله عنه إلىٰ أن سمعوه في ذلك الوقت ؛ فإنه لما جاء البشير إلى المدينة بعد شهر . . أخبر بأنهم سمعوا في ذلك الوقت صوتاً يشبه صوت عمر رضي الله عنه .

الثالث : تعليمهم وإرشادهم إلىٰ طريق الظفر والنجاة .

الرابع : إخباره بأنهم إنْ لم يسلكوا ما أرشدهم إليه . . غُلبوا ، وإن سلكوا ما قاله . . انتصروا ، وهـٰكذا وقع ، فكان فيه ـ مع الإرشاد إلىٰ وجهة الرأي ـ العلمُ بما سيقع .

الخامس : استغراقه بأنواع الطاعات ، من القيام بالخطبة ، والاهتمام بالسرية ، والنصح للرعية ، والاجتهاد في إقامة دين الله تعالىٰ ، وجريان هـٰذا الكلام منه وهو لا يشعر[1] ، بحيث إنه رضي الله عنه ما علم أنهم سمعوه ، ولهـٰذا قال لعلي رضي الله عنه : سمعتني ؟ فقال : سمعتك أنا وكل من في المسجد .

فانظر إلىٰ عظيم استغراق قلبه بالقيام في نصرة دين الله ، ومع ذلك فلم يمنعه اشتغاله بالخطبة عما فيه مصلحة المسلمين ، حتىٰ لشدة حرصه لَيجري ذلك علىٰ لسانه وهو لا يشعر ، وهـٰذا هو الإخلاص حقاً ، وهو إخلاص الخواص ، ألا ترىٰ إلىٰ قول بعض العارفين : إن إخلاص الخواص هو ما يجري على الولي لا به ، فتبدو منهم الطاعات وهم عنها بمعزل ، ولا يقع لهم عليها رؤية ، ولا بها اعتداد ، كما وقع لأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه في هـٰذه الكرامة .

السادس : أن الله عز وجل أكرمه بتصديق قوله في هـٰذا الموضع ، وفي ما لا يحصىٰ من المواضع ، وجعل النصر والظفر في ذلك الإرشاد .

ومما اختُصَّ به : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أشركنا يا أُخَيَّ في دعائك » .

ومنها : أنه سراج أهل الجنة .

ومنها : أنه سيد كهول أهل الجنة هو والصديق رضي الله عنهما ، ما خلا النبيين والمرسلين ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ومنها : أنه حين أسلم . . نزل جبريل عليه السلام ، فقال : استبشر أهل السماء بإسلام عمر .

---

(١) غير مسلَّم أنه قاله بغير شعور ، ولكنه أراد أن يورِّيَ فقال : (نطق لساني بما لا أريد) .

ومنها : أنه هاجر مظهراً هجرته ، وهـٰكذا لما أسلم ، وما ذاك إلا لقوته وصلابته في دين الله عز وجل ، إلىٰ غير ذلك مما لا ينحصر من المناقب .

وقد أحببت أن أختم ترجمته بصفة السلام عليه عند زيارته ـ مع ظهور أمر ذلك ـ ليكون ختامه مسكاً ، فيقول الزائر بعد السلام علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلىٰ أبي بكر رضي الله عنه :

السلام عليك يا أمير المؤمنين ، السلام عليك يا من نطق بالصواب ، ووافق قوله محكم الكتاب ، السلام عليك أيها الفاروق الأمين ، الذي أظهر الله عز وجل به الدين ، وكمل به الأربعين ، واستجاب فيه دعوة سيد المرسلين ، محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم وعلىٰ آله وصحبه أجمعين .

عاش رضي الله عنه في الدنيا حميداً ، ثم عاد إلىٰ ربه شهيداً ، فجزاك الله أفضل الجزاء ، ورضي الله عنك أفضل الرضىٰ .

ثم يسأل الله تعالى المغفرة والرضوان ، وما أحبَّ من سائر أنواع الخيرات[1] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) جاء في هامش نسخة : (مات سيدنا عمر ودَيْنه ستة وثمانون ألفاً ، وله من الولد تسعة بنين وأربع بنات . انتهىٰ من « الرياض المستطابة » [١٥٤ـ١٥٥]) .

وثالث الأئمة : الإمام أمير المؤمنين :

أبو عبد الله عثمان بن عفان
رضي الله عنه

عثمان[1] بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، يجتمع نسبه مع النبي صلى الله عليه وسلم في عبد مناف .

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : وكان عثمان يكنىٰ في الجاهلية : أبا عمرو ، فلما ولدت رقية له في الإسلام غلاماً . . سماه عبد الله ، واكتنىٰ به .

أسلم قديماً قبل دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم دار الأرقم ، وهاجر إلى الحبشة الهجرتين ، وهاجر إلى المدينة بزوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخلَّفه رسول الله صلى الله عليه وسلم في بدر على ابنته رقية يمرضها ، وضرب له بسهمه وأجره ، فكان كمن شهدها ، وزوَّجه أم كلثوم بعد رقية ، وقال صلى الله عليه وسلم : « لو كان عندي ثالثة . . لزوَّجتها عثمان »[2] ، وسمي ذا النورين ؛ لجمعه بين بنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبايع عنه النبي صلى الله عليه وسلم بيعة الرضوان . انتهىٰ [في « الصفوة » ١/١٢٣] .

وقال شيخ الإسلام محيي الدين النووي ـ قدس الله روحه ـ : رُوِّينا في « تاريخ دمشق » : عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال حين هاجر عثمان برقية إلى الحبشة : « والذي نفسي بيده ؛ إنه لأول من هاجر بعد إبراهيم ولوط صلى الله عليهما وسلم »[3] ، قالوا : ولا يعرف أحد تزوج بنتي نبي غيره .

تزوج رقية رضي الله عنها قبل النبوة ، وتوفيت عنده في غزوة بدر في رمضان من السنة

---

(١) جاء في هامش نسخة : (مَن اسمه عثمان من الصحابة ثلاثة عشر ، ليس منهم ابن عفان غيره ، بُسطت الأموال في خلافته حتىٰ بيعت جارية بوزنها ، وفرس بمئة ألف ، ونخلة بمئة ألف . انتهىٰ من « الرياض المستطابة » [١٥٦ـ١٦٠]) .

(٢) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١٧/ ١٨٤) .

(٣) أخرجه الحاكم (٤/ ٥٠) .

الثانية من الهجرة ، وكان قد تأخر عن بدر لتمريضها بإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء البشير بنصر المسلمين ببدر يوم دفنوها بالمدينة رضي الله عنها ، ثم تزوج بعد وفاتها أختها أمَّ كلثوم بنتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتوفيت عنده سنة تسع من الهجرة ، ولم تلد له شيئاً .

وروي لعثمان رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مئة حديث وستة وأربعون حديثاً ، اتفق البخاري ومسلم منها علىٰ ثلاثة ، وانفرد البخاري بثمانية ، ومسلم بخمسة .

روىٰ عنه جماعة من الصحابة رضي الله عنهم ، منهم : زيد بن خالد الجهني ، وابن الزبير ، والسائب بن يزيد ، وغيرهم .

وروىٰ عنه خلائق من التابعين ، منهم : ابنه أبان ، وعبيد الله بن عدي ، وحمران ، وغيرهم .

ولد في السنة السادسة بعد الفيل ، وقتل شهيداً يوم الجمعة ، لثمان عشرة خلون من ذي الحجة ، سنة خمس وثلاثين ، وقيل : قتل يوم الأربعاء ، وهو ابن تسعين سنة ، وقيل : ثمان وثمانين ، وقيل : غير ذلك .

وبويع بالخلافة غرة المحرم ، سنة أربع وعشرين .

وكانت خلافته رضي الله عنه ثنتي عشرة سنة إلا ليالٍ ، وحج بالناس عشر سنين متوالية ، وصلىٰ عليه جبير بن مطعم ، ودفن ليلاً بالبقيع ، وأخفي قبره ذلك الوقت ، ثم أظهر .

وقيل : دفن بحش كوكب ، قال ابن قتيبة : هي أرض اشتراها عثمان وزادها في البقيع ، و(**الحش**) : البستان ، و(**كوكب**) : اسم رجل من الأنصار ، وإنما دفن ليلاً ؛ للعجز عن إظهار دفنه بسبب غلبة قاتليه .

قال ابن قتيبة : وفي زمن عثمان كانت غزوة سابور ، ثم إفريقية ، ثم قبرص ، واصطخر الآخرة ، وفارس الأولىٰ ، ثم خوز ، وفارس الآخرة ، ثم طبرستان ، وكرمان ، وسجستان ، وغير ذلك .

ثم حصر في ذي الحجة سنة خمس وثلاثين ، فحصر عشرين يوماً في داره وقتل فيها .

وقال الواقدي : حصروه تسعة وأربعين يوماً .

وقال الزبير بن بكار : حصروه شهرين وعشرين يوماً .

وكان محبباً في قريش ، واشترىٰ بئر رومة من يهودي بعشرين ألف درهم ، وسبَّلَها

للمسلمين ، وجهز جيش العسرة بتسع مئة وخمسين بعيراً وبخمسين فرساً .

رُوِّينا في صحيحي : « البخاري » [٣٤٧١] ، و« مسلم » [٢٤٠٣] في حديث أبي موسى الأشعري الطويل : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : « بشره بالجنة » .

وفي « صحيحيهما » [خ ٣٤٩٢ـ م ٢٤٠١] عن عائشة رضي الله عنها ـ في الحديث الطويل ـ : أن النبي صلى الله عليه وسلم جمع ثيابه حين دخل عثمان ، فقال : « ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة ؟ » [انتهىٰ « التهذيب » ١/ ٣٢٢ـ٣٢٣] .

قال حجة الإسلام الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : في هٰذا الحديث دليل علىٰ أن حشمة عثمان رضي الله عنه وإن كانت جليلة رفيعة عند النبي صلى الله عليه وسلم لٰكن الحالة التي كانت بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما أرفع وأصفىٰ وأرق ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

وقال النووي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : وفي « صحيح البخاري » [٣٤٩٣] : عن عبيد الله بن عدي بن الخيار : أن عثمان قال : (**أما بعد** : فإن الله تعالىٰ بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق ، وكنت ممن استجاب لله ولرسوله ، وآمنت بما بُعث به ، ثم هاجرت الهجرتين ، وصحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونلت صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبايعته ، فوالله ؛ ما عصيته ولا غششته حتىٰ توفاه الله تعالىٰ ، ثم أبو بكر مثله ، ثم عمر مثله) .

وفي « صحيح البخاري » [٦٩٥] أيضاً : عن عبيد الله بن عدي أيضاً قال : دخلت علىٰ عثمان وهو محصور ، فقلت له : إنك إمام العامة ، وقد نزل بك ما ترىٰ ، ويصلي لنا إمامُ فتنة ، وأنا أتحرج من الصلاة معه ، فقال عثمان : (إن الصلاة أحسن ما يعمل الناس ، فإذا أحسن الناس . . فأحسن معهم ، وإذا أساؤوا . . فاجتنب إساءتهم) .

وفي « صحيح البخاري » [٢٦٢٦] : عن أبي عبد الرحمٰن السلمي التابعي : أن عثمان حين حوصر . . أشرف عليهم ، فقال : (أنشدكم بالله ؛ ولا أنشد إلا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، ألستم تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من جهز جيش العسرة . . فله الجنة » ، فجهَّزتُهم ؟ ألستم تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من حفر بئر رومة . . فله الجنة » ، فحفرتها ؟) قال : فصدقوه بما قال .

وفي « كتاب الترمذي » [٣٧٠٠] : عن عبد الرحمٰن بن خباب ـ بالخاء المعجمة ـ السلمي الصحابي قال : شهدت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يحث علىٰ جيش العسرة ، فقال

عثمان بن عفان : يا رسول الله ؛ عليَّ مئة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله ، ثم حض على الجيش ، فقال عثمان : يا رسول الله ؛ عليَّ مئتا بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله ، قال : ثم حض على الجيش ، فقال عثمان : يا رسول الله ؛ عليَّ ثلاث مئة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله ، فأنا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينزل عن المنبر وهو يقول : « ما علىٰ عثمان ما عمل بعد هـٰذه » رواه الترمذي بإسناد جيد .

وعن عبد الرحمـٰن بن سمرة قال : (جاء عثمان إلى النبي صلى الله عليه وسلم بألف دينار حين جهز جيش العسرة ، فنثرها في حجره ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم » مرتين) رواه الترمذي [٣٧٠١] ، وقال : حديث حسن .

وعن أنس رضي الله عنه قال : (لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيعة الرضوان . . كان عثمان بن عفان قد بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلىٰ أهل مكة فبايع الناسُ ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن عثمان في حاجة الله وحاجة رسوله » ، فضرب بإحدىٰ يديه على الأخرىٰ ، فكانت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم لعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم) رواه الترمذي [٣٧٠٢] ، وقال : حديث حسن .

وعن عائشة رضي الله عنها : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يا عثمان ؛ إنه لعل الله أن يقمصك قميصاً ، فإن أرادوك علىٰ خلعه . . فلا تخلعه حتىٰ يخلعوه » رواه الترمذي [٣٧٠٥] وقال : حديث حسن .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : (ذَكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنة ، فقال : « يقتل فيها هـٰذا مظلوماً » لعثمان) رواه الترمذي [٣٧٠٨] وقال : حديث حسن .

وعن أبي سلمة مولىٰ عثمان رضي الله عنهما قال : قال عثمان يوم الدار : (إن رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد إلي عهداً ، فأنا صابر عليه) رواه الترمذي [٣٧١١] وقال : حديث حسن صحيح .

وعثمان بن عفان رضي الله عنه أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، وأحد الخلفاء الراشدين ، وأحد السابقين إلى الإسلام ، وأحد المنفقين في سبيل الله الإنفاق العظيم ، وأحد أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يلبس السراويل في جاهلية ولا إسلام إلىٰ يوم قتله . انتهىٰ [« التهذيب » ١/ ٣٢٢ـ٣٢٥] .

وأما خلافة عثمان رضي الله عنه : فقد تقدم أنه لما توفي أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ، وصلىٰ عليه صهيب ، ونزل في قبره مع ابنه عبد الله وأهل الشورىٰ جميعهم إلا طلحة ؛ فإنه كان غائباً ، فلما فرغوا من شأن أمير المؤمنين رضي الله عنه . . جمعهم المقداد بن الأسود في بيت المسور بن مخرمة ـ وقيل : في حجرة عائشة ، وقيل : في بيت المال ، وقيل : في بيت فاطمة بنت قيس أخت الضحاك بن قيس ، والأول أشبه ـ فجلسوا في البيت ، وقام طلحة يحجبهم ، فجاء عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة ، فجلسا من وراء الباب ، فحصبهما سعد بن أبي وقاص ، وطردهما ، وقال لهما : جئتما لتقولا حضرنا أمر الشورىٰ . رواه المدائني عن شيوخه ، والله أعلم بصحته .

والحاصل : أن القوم خلصوا من الناس في بيت يتشاورون في أمرهم ، فكثر القوم ، وعلت الأصوات ، فقال أبو طلحة : إني كنت أظن أن تدافعوها ، ولم أكن أظن أن تنافسوها ، ثم صار الأمر ـ بعد أن حضر أبو طلحة ـ إلىٰ أن يفوض ثلاثة منهم ما لهم في ذلك إلىٰ ثلاثة ، ففوض الزبير ما يستحقه من الإمارة إلىٰ عليٍّ ، وفوض سعد ما له في ذلك إلىٰ عبد الرحمـٰن بن عوف ، وفوض طلحة حقه إلىٰ عثمان ، فقال عبد الرحمـٰن بن عوف لعليٍّ وعثمان : أيكما يبرأ من هـٰذا الأمر ، فيفوض الأمر إليه في التولية والله عليه والإسلام ؟ فيولين أفضل الرجلين الباقيين ، فسكت الشيخان عليٌّ وعثمان ، فقال عبد الرحمـٰن : إني أترك حقي من ذلك ، والله عليَّ والإسلام أن أجتهد فأولي أولاكما بالحق ، فقالا : نعم ، ثم خاطب كل واحد منهما بما فيه من الفضل ، وأخذ عليه العهد والميثاق ؛ لئن ولاه . . ليعدلن ، ولئن وُلِّيَ عليه . . ليسمعن وليطيعن ، فقال كل واحد منهما : نعم ، ثم تفرقوا .

ويروىٰ : أن أهل الشورىٰ جعلوا الأمر إلىٰ عبد الرحمـٰن بن عوف ؛ ليجتهد للمسلمين في أفضلهم ، فيوليه ، فذكروا أنه سأل كل من يمكنه سؤاله من أهل الشورىٰ وغيرهم ، فلا يشير إلا بعثمان بن عفان ، حتىٰ إنه قال لعليٍّ : أرأيت إن لم أوَلِّك . . فمن تشير عليَّ به ؟ قال : عثمان ، وقال لعثمان : أرأيت إن لم أوَلِّك . . فمن تشير عليَّ به ؟ قال : بعليٍّ بن أبي طالب .

والظاهر ـ والله أعلم ـ : أن هـٰذا كان قبل أن ينحصر الأمر في ثلاثة ، وينخلع عبد الرحمـٰن منها لينظر الأفضل ، والله ُعليه والإسلام ليجتهدن رأيه للمسلمين في أفضل الرجلين فيوليه ، ثم نهض عبد الرحمـٰن بن عوف يستشير الناس فيهما ، ويجتمع برؤوس الناس وغيرهم ، جمعاً وأشتاتاً ، مَثْنىٰ وفرادىٰ ومجتمعين ، سراً وجهراً ، حتىٰ إنه خلص

إلى النساء المخدرات في حجالهن ، وحتىٰ سأل الولدان في المكاتب ، وحتىٰ سأل من يرد من الركبان والأعراب الواردين إلى المدينة في مدة ثلاثة أيام بلياليهن ، فلم يجد اثنين يختلفان في تقديم عثمان علىٰ عليٍّ ، إلا ما ينقل عن عمار والمقداد ؛ فإنهما أشارا بعليٍّ بن أبي طالب ، ثم بايعا مع الناس علىٰ ما سيأتي ، فاجتهد عبد الرحمـٰن بن عوف في ذلك ثلاثة أيام بلياليهن كل الاجتهاد ، بحيث إنه لا يغتمض بكثير نوم إلا صلاة ودعاء[1] ، واجتهاداً واستخارة ، وسؤالاً من ذوي الرأي وغيرهم ، حتىٰ حاول ربات الحجال في خدورهن ، فلم يجد أحداً يعدِلُ بعثمان .

زاد في رواية أخرىٰ : أنه قال للمسور بن مخرمة : ادع لي الزبير وسعد بن أبي وقاص ، فدخلا عليه ، فشاورهما ، ثم انصرفا ، ثم قال : ادع لي علياً ، قال : فدعوته ، فناجاه إلىٰ ثلث الليل ، ثم قام من عنده وهو علىٰ طمع ، وكان فيما قال له : إنك تقول : إنك أحق بهـٰذا الأمر لقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم وسابقتك وحسن أمرك ، ولم تتعد ذلك ، ولـٰكن أرأيت لو صُرف هـٰذا الأمر عنك . . من كنت ترىٰ أحق به ؟ قال : عثمان ، فلما خرج من عنده . . قال : ادعوا لي عثمان ، فدعوا به ، فناجاه طويلاً حتىٰ فرَّق بينهما مؤذن الصبح ، وقال له مثل ما قال لعلي : أرأيت لو صُرف عنك هـٰذا الأمر . . من كنت ترىٰ أحق به ؟ قال : عليٌّ .

وقال للزبير كذلك ، فأشار بعثمان ، وقال لسعد كذلك ، فأشار بعثمان ، وكذلك شاور سائر المهاجرين والأنصار ، فكلهم أشار بعثمان ، فلما أن كانت الليلة التي يسفر صباحها عن اليوم الرابع من موت أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه . . جاء عبد الرحمـٰن بن عوف إلىٰ منزل ابن أخته المسور بن مخرمة ، فقال : أنائم يا مسور ؟ والله ؛ لم أغتمض بكثير نوم منذ ثلاث ، اذهب فادع لي علياً وعثمان ، قال المسور : فقلت : يا خالي . . بأيهما أبدأ ؟ فقال : بأيهما شئت ، قال : فذهبت إلىٰ عليٍّ ، فقلت : أجب خالي ، فقال : أمرك أن تدعو معي أحداً ؟ فقلت : نعم ، قال : مَنْ ؟ قلت : عثمان بن عفان ، قال : بأينا بدأ ؟ قلت : لم يأمرني بذلك ، بل قال : ادع أيهما شئت أولاً ، فجئت إليك ، قال : فخرج معي ، فلما مررنا بدار عثمان . . جلس عليٌّ حتىٰ دخلت إليه ، فوجدته يوتر مع الفجر ، فدعوته ، فقال لي مثل ما قال علي سواءً ، ثم خرج ، فدخلت بهما علىٰ خالي وهو قائم يصلي ، فلما

---

(١) أي : لا ينام إلا غلبة ، يقال : ما اغتمضت ؛ أي : ما نمت .

انصرف.. أقبل علىٰ عليٍّ وعثمان ، فقال : إني قد سألت الناس عنكما ، فلم أجد أحداً يعدل بكما أحداً ، ثم أخذ العهد علىٰ كل واحد منهما أيضاً ، لئن ولاه.. ليعدلن ، ولئن وُلِّيَ عليه.. ليسمعن وليطيعن ، فقالا : نعم .

ثم خرج بهما إلى المسجد وقد لبس عبد الرحمـٰن العمامة التي عممه بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتقلد سيفاً ، وبعث إلىٰ وجوه الناس من المهاجرين والأنصار ليحضروا المسجد ، ونودي في الناس عامة : الصلاة جامعة ، فامتلأ المسجد حتىٰ غصَّ بالناس ، وازدحم الناس ، وتراصوا ، حتىٰ إنه لم يحصل لعثمان بن عفان موضع يجلس فيه إلا في آخر باب المسجد ، وكان رجلاً حَيِيّاً ، ثم صعد عبد الرحمـٰن بن عوف منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام على الدرجة التي كان يجلس عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوقف وقوفاً طويلاً ، ودعا دعاءً طويلاً لم يسمعه الناس ، ثم تكلم ، فقال :

أيها الناس ؛ إني قد سألتكم سراً وجهراً ، مَثْنىٰ وفرادىٰ ، جمعاً وأشتاتاً ، فلم أجدكم تعدلون بأحد هـٰذين الرجلين ، إما عليٌّ وإما عثمان ، فقم إلي يا عليُّ ، فقام إليه ، فوقف تحت المنبر ، وأخذ عبد الرحمـٰن بيده ، فقال له : هل أنتَ مبايعي علىٰ كتاب الله تعالىٰ وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وفِعل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ؟ قال : اللهم ؛ لا ، ولـٰكن علىٰ جهدي من ذلك وطاقتي ، قال : فأرسل يده ، وقال : قم يا عثمان ، فأخذ بيده ، فقال : هل أنت مبايعي علىٰ كتاب الله تعالىٰ وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وفِعل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ؟ فقال : اللهم ؛ نعم ، قال : فرفع رأسه إلىٰ سقف المسجد ـ ويده في يد عثمان ـ فقال : اللهم ؛ اسمع واشهد ، اللهم ؛ اسمع واشهد ، اللهم ؛ اسمع واشهد ، اللهم ؛ قد جعلت ما في رقبتي من ذاك في رقبة عثمان ، قال : وازدحم الناس يبايعون عثمان حتىٰ غشوه تحت المنبر ، قال : وقعد عبد الرحمـٰن بن عوف مقعد النبي صلى الله عليه وسلم ، وأجلس عثمان تحته على الدرجة الثانية ، وجاء الناس يبايعونه ، وبايعه عليُّ بن أبي طالب أولاً ، ويقال : آخراً .

هـٰذا هو الثابت في ولاية عثمان ، ولا تغتر بما سوىٰ هـٰذا مما ينقله الروافض ؛ فإنه لا أصل له ، والله سبحانه أعلم .

* * *

ومما كان من الفتوحات العظيمة في خلافة عثمان رضي الله عنه : فتح إفريقية ، وذلك في

سنة سبع وعشرين ، وذلك أن المسلمين لما قصدوا إفريقية وهم عشرون ألفاً ، والأمير عليهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح من جهة عثمان رضي الله عنه ، وكان في جيش عبد الله بن سعد بن أبي سرح سادات من الصحابة رضي الله عنهم ، منهم : عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عمرو بن العاصي ، وعبد الله بن الزبير ، وكان ملك البربر جرير في عشرين ومئة ألف ، وقيل : في مئتي ألف ، فلما تراءى الجمعان . . أمر ملك البربر جرير جيشه ، فأحاطوا بالمسلمين هالة ، فوقف المسلمون موقفاً لم ير أشنع منه ولا أخوف عليهم منه .

قال عبد الله بن الزبير : فنظرت إلى الملك جرير من وراء الصفوف ، وهو راكب علىٰ برذون ، وجاريتان تظلانه بريش الطواويس ، فذهبت إلىٰ عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وقلت له : تبعث معي من يحمي ظهري حتىٰ أقصد الملك جرير ، فجهَّزَ معي جماعة من الشجعان ، قال : فأمرتهم ، فحموا ظهري ، وذهبت أخترق الصفوف إليهم ، وهم يظنون أني في رسالة إلىٰ ملكهم ، فلما اقتربت منهم . . أحس مني بالشر ، ففر علىٰ برذونه ، فلحقته ، فطعنته برمحي ، وذففت عليه بسيفي ، وأخذت رأسه ، فنصبته علىٰ رأس رمحي ، وكبرت ، فلما رأى البربر ذلك . . خافوا وفروا فرار القطا ، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ، فغنموا أموالاً كثيرة ، وسبياً عظيماً ، وكان ذلك ببلد يقال لها : صنبطلة علىٰ يومين من القيروان ، وبلغ الخُمُس خَمْسَ مئة ألف دينار ، وكان هـٰذا أول موقف اشتهرت فيه شجاعة عبد الله بن الزبير ، وعظم أمره ، والله أعلم .

وقال النووي ـ قدس الله روحه ـ : إن عثمان رضي الله عنه قال يوم قتله : (إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم البارحة في المنام وأبا بكر وعمر رضي الله عنهما ، فقالوا : اصبر ؛ فإنك تفطر عندنا القابلة) ثم دعا بمصحف ، ففتحه ، فقتل وهو بين يديه ، وأعتق عشرين مملوكاً وهو محصور ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« التهذيب » ١/ ٣٢٥] .

وروى الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله تعالىٰ ـ :

عن محمد بن حاطب قال : وذكروا عثمان بن عفان ، فقال الحسن بن عليٍّ : الآن يجيء أمير المؤمنين ، قال : فجاء عليٌّ رضي الله عنه ، فقال : كان عثمان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ثم اتقوا وآمنوا ، ثم اتقوا وأحسنوا ، والله يحب المحسنين .

وعن يحيى البَكَّاء ، عن ابن عمر رضي الله عنهما : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ قال : هو عثمان بن عفان .

وعن نافع ، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عثمان أحيىٰ أمتي وأكرمُها »[1]

وعنه ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أشد أمتي حياء عثمان بن عفان »[2] .

وعن الحسن رضي الله عنه قال : وذَكَر عثمان بن عفان وشدة حيائه ، فقال : (إن كان ليكون في البيت والباب عليه مغلق ، فما يضع عنه الثوب ليفيض عليه الماء ، يمنعه الحياء أن يقيم صلبه) .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : (ثلاثة من قريش أصبحُ قريش وجوهاً ، وأحسنها أخلاقاً ، وأثبتها حياءً ، إن حدثوك . . لم يَكْذِبوك ، وإن حدثتهم . . لم يُكَذِّبوك : أبو بكر الصديق ، وعثمان بن عفان ، وأبو عبيدة ابن الجراح) رضي الله عنهم .

وعن الزبير بن عبد الله ، عن جدته قالت : (كان عثمان يصوم الدهر ، ويقوم الليل إلا هجعة من أوله) .

وعن عثمان بن عبد الرحمٰن التيمي قال : بينا أنا قائم بين الركن والمقام . . إذا رجل وضع يده بين كتفي ، فإذا هو عثمان بن عفان ، فبدأ بأم القرآن ، فقرأ حتىٰ ختم القرآن ، فركع وسجد ، ثم أخذ نعليه ، فلا أدري أصلىٰ قبل ذلك شيئاً أم لا ؟

وعن ابن سيرين قال : قالت امرأة عثمان بن عفان حين أطافوا به يريدون قتله : إن تتركوه أو تقتلوه . . فإنه كان يحيي الليل كله في ركعة يجمع فيها القرآن .

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : (كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حائط من تلك الحوائط ؛ إذ جاء رجل ، فاستفتح الباب ، فقال : « افتح له ، وبشره بالجنة علىٰ بلوىٰ تصيبه » فإذا هو عثمان ، فأخبرته ، فقال : الله المستعان ، اللهم رب ؛ صبراً) .

وعن عثمان رضي الله عنه قال يوم الدار حين حُصر : (إن النبي صلى الله عليه وسلم عهد إلي عهداً ، فأنا صابر عليه) .

قال قيس : وكانوا يرونه ذلك اليوم الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم : « وددت أن

---

(١) ذكره المناوي في « فيض القدير » (٤/ ٣٠٢) ، وعزاه للطبراني .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٢٠٢٨) .

عندي بعض أصحابي فشكوت إليه » ، فقيل له : ألا ندعوا أبا بكر ؟ فقال : « لا » ، قيل : عمر ؟ قال : « لا » ، قيل : فعليٌّ ؟ قال : « لا » ، فدعي له عثمان ، فجعل يناجيه ويشكو إليه ، ووجه عثمان يَتَلَوَّنُ[1] .

وقال عبد الرحمٰن بن مهدي : اختص عثمان بشيئين : صبره [علىٰ] نفسه حتىٰ قتل مظلوماً ، وجمعه الناس على المصحف .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (اشترىٰ عثمان بن عفان من رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنة مرتين : حين حفر بئر رومة ، وحين جهز جيش العسرة) .

وعن الحسن رضي الله عنه قال : (رأيت عثمان نائماً في المسجد في ملحفة ليس حوله أحد ، وهو أمير المؤمنين) .

وعن عبد الله بن شداد بن الهاد قال : رأيت عثمان بن عفان يوم الجمعة على المنبر ، عليه إزار عَدَني غليظ ، ثمنه أربعة دراهم أو خمسة دراهم ، ورَيطة كوفية ممشقة[2] .

وروىٰ يونس بن عبيد : أن الحسن سئل عن القائلين في المسجد ، فقال : رأيت عثمان بن عفان يقيل في المسجد وهو يومئذ خليفة ، قال : ويقوم وأثر الحصىٰ بجنبه ، قال : فيقول الناس : هـٰذا أمير المؤمنين ، هـٰذا أمير المؤمنين .

وعن شرحبيل بن مسلم : أن عثمان كان يطعم الناس طعام الإمارة ، ويدخل بيته ، فيأكل الخل والزيت .

وعن سليمان بن موسىٰ : أن عثمان بن عفان دُعِيَ إلىٰ قوم كانوا علىٰ أمر قبيح ، فخرج إليهم ، فوجدهم قد تفرقوا ، ورأىٰ أثراً قبيحاً ، فحمد الله ؛ إذ لم يصادفهم ، وأعتق رقبة .

وعن ميمون بن مهران : حدثني الهمداني : أنه رأىٰ عثمان بن عفان رضي الله عنه وهو علىٰ بغلة ، وقد أردف خلفه غلامه نائلاً في خلافته .

وقال عثمان رضي الله عنه : (لو أني بين الجنة والنار ولا أدري إلىٰ أيهما يؤمر بي . . لاخترت أن أكون رماداً قبل أن أعلم إلىٰ أيهما أصير) .

وكان إذا وقف علىٰ قبر . . بكىٰ حتىٰ يبلَّ لحيته .

---

(١) أخرجه ابن راهويه (٣/١٠٢٦) .

(٢) **الريطة** : المُلاَءَة طلها نسخٌ واحد وقطعة واحدة ، **ممشقة** : مصبوغة .

وعن حمران بن أبان : أن عثمان بن عفان حدثه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كل شيء سوىٰ جلف هـٰذا الطعام ، والماء العذب ، وبيت يظله . . فضلٌ ليس لابن آدم فيه فضل »[1] انتهىٰ [« الحلية » ١/٥٦ـ٦١] .

وروى الحافظ البيهقي ـ قدس الله روحه ـ بإسناده : عن الأحنف بن قيس ـ في قصة ذكرها ـ قال : جاء عثمان فقال : أهـٰهنا عليٌّ ؟ قالوا : نعم ، قال : أهـٰهنا طلحة ؟ قالوا : نعم ، قال : أهـٰهنا الزبير ؟ قالوا : نعم ، قال : أهـٰهنا سعد ؟ قالوا : نعم ، قال : نشدتكم بالله الذي لا إلـٰه إلا هو ؛ أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من يبتاع مربد بني فلان . . غفر الله له » ، فابتعته ـ قال : أحسب أنه قال : بعشرين ، أو بخمسة وعشرين ألفاً ـ فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : قد ابتعته ، قال : « اجعله في مسجدنا وأجره لك » ؟ قالوا : نعم ، قال : نشدتكم بالله الذي لا إلـٰه إلا هو ؛ أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من يبتاع بئر رومة . . غفر الله له » ، فابتعتها بكذا وكذا ، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : إني ابتعت بئر رومة ، قال : « اجعلها سقاية للمسلمين وأجرها لك » ؟ قالوا : نعم ، قال : نشدتكم بالله الذي لا إلـٰه إلا هو ؛ تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر في وجوه القوم يوم جيش العسرة ، فقال : « من يجهز هـٰؤلاء . . غفر الله له » ، فجهزتهم حتىٰ ما يفقدون خطاماً ولا عقالاً ؟ قالوا : نعم ، قال : اللهم ؛ اشهد ، اللهم ؛ اشهد ، اللهم ؛ اشهد[2] .

وفي رواية أخرىٰ : عن ثمامة بن حزن القشيري [قال] : هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وليس فيها ماء يستعذب غير بئر رومة ، فقال : « من يشتري بئر رومة ، فيكون دلوه فيها مع دلاء المسلمين ، بخير له منها في الجنة » ، فاشتريتها من صلب مالي ، فأنتم اليوم تمنعوني أن أشرب منها حتىٰ أشرب من ماء البحر ؟ قالوا : اللهم ؛ نعم ، قال : أنشدكم الله والإسلام ؛ هل تعلمون أن المسجد كان ضاق بأهله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من يشتري بقعة آل فلان ، بخير له منها في الجنة » ، فاشتريتها من مالي ـ أو قال : من صلب مالي ـ فزدتها في المسجد ، فأنتم اليوم تمنعونني أن أصلي فيها ؟ قالوا : اللهم ؛ نعم . . . وذكر الحديث في تجهيز جيش العسرة ، وقصة ثبير[3] .

---

(١) أخرجه الطيالسي (١/ ١٤) . **والجلف** : الخبز وحده ليس معه إدام .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٧٧٩٨) .

(٣) **ثبير** : جبل بمنىٰ ، وقصتهُ : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان علىٰ جبل ثبير ، وكان معه أبو بكر وعمر=

وفي رواية : عن أبي عبد الرحمٰن السلمي ، قال : لما حُصر عثمان بن عفان وأحيط بداره . . أشرف على الناس ، فقال : أنشدكم بالله ؛ هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان علىٰ جبل حراء ، فتحرك ، فقال : « اسكن حراء ، فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد » ؟ قالوا : اللهم ؛ نعم ، قال : أنشدكم بالله ؛ هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في غزوة العسرة : « من ينفق نفقة متقبلة ؟ » والناس يومئذ معسرون مجهودون ، فجهزت ثلث ذلك الجيش من مالي ؟ قالوا : اللهم ؛ نعم ، ثم قال : هل تعلمون أن بئر رومة لم يكن يشرب منها أحد إلا بثمن ، فابتعتها بمالي ، فجعلتها للغني والفقير وابن السبيل ؟ قالوا : اللهم ؛ نعم . . . في أشياء عددها[1] . انتهىٰ [« السنن الكبرىٰ » ٦/١٦٧ـ١٦٨] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ، وتوفاه على الإيمان ، آمين ـ : اِعلم : أن لأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه خصائص لم يشاركه فيها أحد من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين :

منها : أنه ذو النورين ؛ لأنه تزوج بنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومنها : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال عند وفاة ابنته : « لو كان عندي ثالثة . . لزوجتها عثمان » .

ومنها : أنه بايع عنه بيعة الرضوان ؛ فإنه صلى الله عليه وسلم : كان قد بعث عثمان إلىٰ أهل مكة يبايع الناس ، وحضرت بيعة الرضوان ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن عثمان في حاجة الله ، وحاجة رسوله » ، فضرب بإحدىٰ يديه على الأخرىٰ ، فكانت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم لعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم .

ومنها : أنه صلى الله عليه وسلم جمع ثيابه حين دخل عثمان ، وقال : « ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة » وقد ذكرت بعض سر ذلك في ترجمته .

ومنها : أنه صلى الله عليه وسلم قال : « أشد أمتي حياء وأكرمها عثمان » .

ومنها : أنه صلى الله عليه وسلم قال حين هاجر عثمان برقية إلى الحبشة قال : « والذي

= وعثمان رضي الله عنهم ، فتحرك الجبل ، فركضه رسول الله صلى الله عليه وسلم برجله وقال : « اسكن ثبير ؛ فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان » .

(١) أخرجه ابن حبان في « الإحسان » (٦٩١٦) .

نفسي بيده ؛ إنه لأول من هاجر بعد إبراهيم ولوط صلى الله عليهما وسلم » .

ومنها : أنه لا يعرف أن أحداً تزوج بنتي نبي غيره .

ومنها : تجهيزه جيش العسرة .

ومنها : أنه ابتاع مربد بني فلان بخمسة وعشرين ألفاً ، وجعله في المسجد .

ومنها : أنه ابتاع بئر رومة ، وجعلها سقاية للمسلمين .

ومنها : أنه جمع الناس على المصحف .

ومنها : أنه قال لغلمانه : (من أغمد سيفه . . فهو حر) .

ومنها : أنه حين ابتلي . . صبر حتىٰ قُتل مظلوماً ؛ وفاء بالعهد الذي كان عليه ، فإنه لما كان يوم الدار حين حصر . . قال : (إن النبي صلى الله عليه وسلم عَهِد إلي عَهداً ، فأنا صابر عليه) ، فكانوا يرونه ذلك اليوم ، إلىٰ غير ذلك مما لا ينخصر ، رضي الله عنه وأرضاه ، ونفعنا به في الدارين . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ورابع الأئمة : الإمام أمير المؤمنين :

أبو الحسن علي بن أبي طالب
كرم الله وجهه

قال شيخ الإسلام محيي الدين النووي ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ : علي بن أبي طالب[1] بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، القرشي ، الهاشمي ، المكي ، المدني ، الكوفي ، أمير المؤمنين ، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واسم أبي طالب : عبد مناف ، هٰذا هو المشهور ، وقيل : اسمه : كنيته ، وأم علي رضي الله عنها : فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف الهاشمية ، وهي أول هاشمية ولدت هاشمياً ، أسلمت ، وهاجرت إلى المدينة ، وتوفيت في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم في قبرها .

وكنية علي رضي الله عنه : أبو الحسن ، وكناه رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا تراب ، وكانت أحب ما ينادىٰ به إليه ، وهو أخو رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمؤاخاة ، وصهره علىٰ فاطمة سيدة نساء العالمين ، وأبو السبطين ، وأول هاشمي وُلد بين هاشميَّيْن ، وأول خليفة من بني هاشم ، وهو أحد العشرة الذين شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة ، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، وأحد الخلفاء الراشدين ، وأحد العلماء الربانيين ، والشجعان المشهورين ، والزهاد المذكورين ، وأحد السابقين إلى الإسلام .

وقد اختلف العلماء في أول من أسلم من الأمة : فقيل : خديجة ، وقيل : أبو بكر ، وقيل : عليٌّ ، رضي الله عنهم أجمعين .

والصحيح : خديجة ، ثم أبو بكر ، ثم عليٌّ .

---

(١) جاء في هامش نسخة : (جملةُ مَن اسمه علي من الصحابة ثمانية ، ليس منهم ابن أبي طالب غيره ، له من الولد خمسة عشر ذكراً ، وثماني عشرة أنثىٰ . انتهىٰ من « الرياض » [١٦٤و١٧٥]) .

ونقل الثعلبي إجماع العلماء علىٰ أن أول من أسلم خديجة ، وقال : إنما الخلاف في الأول بعدها .

قال العلماء : والأورع أن يقال : أول من أسلم من الرجال الأحرار : أبو بكر ، ومن الفتيان : عليٌّ ، ومن النساء : خديجة ، ومن الموالي : زيد بن حارثة ، ومن العبيد : بلال .

وممن قال بأن علياً أولهم إسلاماً : ابن عباس ، وأنس ، وزيد بن أرقم ، رواه الترمذي عنهم ، ورواه الطبراني عن سلمان الفارسي ، ورَوَوْه عن محمد بن كعب القرظي .

وقال بريدة : أولهم إسلاماً : خديجة ، ثم علي ، وحكي مثله عن أبي ذر ، والمقداد ، وخباب ، وجابر ، وأبي سعيد الخدري ، والحسن البصري ، وغيرهم .

وقال آخرون : أولهم إسلاماً : أبو بكر ، وأسلم عليٌّ وهو ابن عشر سنين ، وقيل : ابن خمس عشرة ، وحكوه عن الحسن البصري ، وغيره .

وقيل : أسلم عليٌّ والزبير ، وهما ابنا ثمان سنين ، قال ابن عبد البر : لا أعلم أحداً قال بهـٰذا القول .

وهاجر عليٌّ إلى المدينة ، واستخلفه النبي صلى الله عليه وسلم حين هاجر من مكة إلى المدينة أن يقيم بعده بمكة أياماً حتىٰ يؤدي عنه أمانته والودائع والوصايا التي كانت عند النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم يلحقه بأهله ، ففعل ذلك .

وشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سائر المشاهد ، إلا تبوك ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم استخلفه على المدينة ، وله في جميع المشاهد آثار مشهورة .

وأجمع أهل التواريخ علىٰ شهوده بدراً وسائر المشاهد غير تبوك ، قالوا : وأعطاه النبي صلى الله عليه وسلم اللواء في مواطن كثيرة .

وقال سعيد بن المسيب : أصابت علياً يوم أحد ست عشرة ضربة .

وثبت في « الصحيحين » [خ ٢٧٨٣ـ م ١٨٠٧] : أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطاه الراية يوم خيبر ، وأخبر أن الفتح يكون علىٰ يديه .

وأحواله في الشجاعة معروفة ، وآثاره في الحروب مشهورة .

وأما علمه : فكان في معرفة العلوم بالمحل العالي .

روي له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس مئة حديث وستة وثمانون حديثاً ، اتفق البخاري ومسلم منها علىٰ عشرين ، وانفرد البخاري بتسعة ، ومسلم بخمسة عشر .

وروىٰ عنه : بنوه الثلاثة : الحسن والحسين ومحمد ابن الحنفية ، وابن مسعود ، وابن عمر ، وابن عباس ، وأبو موسى الأشعري ، وعبد الله بن جعفر ، وعبد الله بن الزبير ، وأبو سعيد ، وزيد بن أرقم ، وجابر بن عبد الله ، وأبو أمامة ، وصهيب ، وأبو رافع ، وأبو هريرة ، وخلائق من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، إلا ابن الحنفية ؛ فإنه تابعي .

وروىٰ عنه من التابعين خلائق مشهورون .

ونقلوا عن ابن مسعود قال : (كنا نتحدث أن أقضىٰ أهل المدينة عليٌّ) .

وقال ابن المسيِّب : ما كان أحد يقول : سلوني غير عليٍّ .

وقال ابن عباس : (أُعطي تسعةَ أعشار العلم ، ووالله ؛ لقد شاركهم في العُشْر الباقي) .

قال : وإذا ثبت لنا الشيء عن علي . . لم نعدل إلىٰ غيره .

وسؤال كبار الصحابة له ورجوعهم إلىٰ فتاويه وأقواله في المواطن الكثيرة والمسائل المعضلات . . مشهورة .

وأما زهده : فهو من الأمور المشهورة ، التي اشترك في معرفتها الخاص والعام .

ومن كلماته في الزهد : (الدنيا جيفة ، فمن أراد منها شيئاً . . فليصبر علىٰ مخالطة الكلاب) انتهىٰ [« التهذيب » ١/ ٣٤٤ـ٣٤٦] .

وقال أبو عبيد في كتاب « الأمثال » : ارتجل الإمام علي كرم الله وجهه تسع كلمات ، قطع الأطماع عن اللحاق بواحدة منهن ، ثلاث في المناجاة ، وثلاث في العلم ، وثلاث في الأدب :

فأما التي في **المناجاة** . . فقوله : (كفاني عزاً أن تكونَ لي ربّاً ، وكفاني فخراً أن أكون لك عبداً ، أنت لي كما أحب ، فوفقني لما تحب) .

وأما التي في **العلم** . . فقوله : (المرء مخبوء تحت لسانه ، تكلموا . . تعرفوا ، ما ضاع امرؤ عرف قدره) .

وأما التي في **الأدب**.. فقوله : (أنعِم علىٰ من شئت.. تكن أميره ، واستغن عمن شئت.. تكن نظيره ، وَاحتج إلىٰ من شئت.. تكن أسيره) انتهىٰ .

وقال النووي ـ قدس الله روحه ـ : وأما ما رُوِّيناه في « مسند الإمام أحمد ابن حنبل » [١٥٩/١] وغيرِه أنه قال : (لقد رأيتني وإني لأربط الحجر علىٰ بطني من الجوع ، وإن صدقتي لتبلغ اليوم أربعة آلاف دينار) ، وفي رواية : (أربعين ألف دينار).. فقال العلماء : لم يرد به زكاة مال يملكه ، وإنما أراد الوقوف[1] التي تصدق بها ، وجعلها صدقة جارية ، وكان الحاصل من غلتها يبلغ هـٰذا القدر ، قالوا : ولم يدخر قط مالاً يبلغ هـٰذا المبلغ ، ولم يترك حين توفي إلا ست مئة درهم .

ورُوِّينا عن سفيان بن عيينة قال : ما بنىٰ علي رضي الله عنه لبنة علىٰ لبنة ، ولا قصبة علىٰ قصبة .

ورُوِّينا أنه كان عليه إزار غليظ ، اشتراه بخمسة دراهم .

وأما الأحاديث الواردة في الصحيح في فضله.. فكثيرة .

رُوِّينا في صحيحي « البخاري » [٤١٥٤] ، و« مسلم » [٢٤٠٤] : عن سعد بن أبي وقاص : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خلف علي بن أبي طالب في غزوة تبوك ، فقال : يا رسول الله ؛ تخلفني في النساء والصبيان ؟ فقال : « أما ترضىٰ أن تكون مني بمنزلة هارون من موسىٰ غير أنه لا نبي بعدي ؟ » .

وفي « صحيحيهما » [خ ٣٤٩٨ـ م ١٨٠٧] : عن سهل بن سعد رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر : « لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح الله علىٰ يديه ، يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله » ، فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يُعطاها ، فلما أصبح الناس.. غدوا علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كلهم يرجو أن يُعطاها ، فقال : « أين علي بن أبي طالب ؟ » فقيل : يا رسول الله ؛ هو يشتكي عينيه ، قال : « فأرسِلوا إليه » ، فأتي به ، فبصق رسول الله صلى الله عليه وسلم في عينيه ، ودعا له ، فبرىء ، حتىٰ كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية ، فقال له علي : يا رسول الله ؛ أقاتلهم حتىٰ يكونوا مثلنا ؟ فقال : « أنفذ علىٰ رسلك حتىٰ تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب

---

(١) جمع وقف .

عليهم من حق الله تعالىٰ فيه، فوالله؛ لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً . . خير لك من حمر النعم ».

قوله : (يدوكون) أي : يخوضون ويتحدثون .

وفي « صحيحيهما » عن سلمة بن الأكوع نحوه .

وفي « صحيح مسلم » [٢٤٠٤] : عن سعد بن أبي وقاص في حديث طويل ، قال في آخره : لما نزلت هـٰذه الآية : ﴿ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ ﴾ . . دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً ، وقال : « اللهم ؛ هـٰؤلاء أهلي » .

وفي « صحيح مسلم » أيضاً [٢٤٠٨] : عن زيد بن أرقم ـ في جملة حديث طويل ـ قال : (قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيباً بماء يُدعىٰ خُمّاً بين مكة والمدينة ، فحمد الله ، وأثنىٰ عليه ، ووعظ ، وذكَّر ، ثم قال : « **أما بعد** : ألا أيها الناس ؛ فإنما أنا بشر يوشك أن يأتيَني رسول ربي فأجيب ، وأنا تارك فيكم ثقلين : أولهما : كتاب الله فيه الهدىٰ والنور ، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به » ، فحث علىٰ كتاب الله تعالىٰ ورغب فيه ، قال : « وأهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي » ، فقيل : ومَن أهل بيته يا زيد ؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال : نساؤه من أهل بيته ، ولـٰكن أهل بيته من حَرَّم الصدقة عليهم ، قيل : ومَن هم ؟ قال : آل علي ، وآل عقيل ، وآل جعفر ، وآل العباس) .

وفي « كتاب الترمذي » [٣٧١٣] : عن أبي سريحة الصحابي أو زيد بن أرقم ـ شك شعبة ـ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من كنت مولاه . . فعلي مولاه » رواه الترمذي وقال : حديث حسن ، والشك في عين الصحابي لا يقدح في صحة الحديث ؛ لأنهم كلهم عدول .

وعن بريدة رضي الله عنه [عن أبيه] قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله أمرني بحب أربعة ، وأخبرني أنه يحبهم » ، قيل : يا رسول الله ؛ سَمِّهِمْ لنا ، قال : « علي منهم ـ يقول ذلك ثلاثاً ـ وأبو ذر ، والمقداد ، وسلمان ، أمرني بحبهم ، وأخبرني أنه يحبهم » رواه الترمذي [٣٧١٨] ، وقال : حديث حسن .

وعن حبشي بن جنادة الصحابي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عليٌّ مني ، وأنا من عليٍّ ، ولا يؤدي عني إلا [أنا أو] علي » رواه الترمذي [٣٧١٩] ، والنسائي [في « الكبرىٰ » ٨١٤٧] ، وابن ماجه [١١٩] ، قال الترمذي : حديث حسن ، وفي بعض النسخ : حسن صحيح .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : آخىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه ، فجاء عليٌّ تدمع عيناه ، فقال : يا رسول الله ؛ آخيت بين أصحابك ولم تؤاخ بيني وبين أحد ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنت أخي في الدنيا والآخرة » رواه الترمذي [٣٧٢٠] وقال : حديث حسن .

وعن أم عطية قالت : بعث النبي صلى الله عليه وسلم جيشاً فيهم عليٌّ ، فسمعت النبي صلى الله عليه وسلم وهو رافع يديه يقول : « اللهم ؛ لا تمتني حتىٰ تريني علياً » رواه الترمذي [٣٧٣٧] وقال : حديث حسن .

وعن زر بن حبيش صاحب علي رضي الله عنهما قال : قال علي رضي الله عنه : (والذي فلق الحبة ، وبرأ النسمة ؛ إنه لَعَهْدُ النبي الأمي صلى الله عليه وسلم إلي ، ألاَّ يحبني . . إلا مؤمن ، ولا يُبغِضني . . إلا منافق) رواه مسلم [٧٨] .

وفي « الترمذي » : عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : (كنا نعرف المنافقين ببغضهم علياً) .

وأما الحديث المروي عن الصنابحي ، عن علي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا دار الحكمة ، وعلي بابها » وفي رواية : « أنا مدينة العلم » . . فحديث باطل[1] ، رواه الترمذي [٣٧٢٣] ، وقال : هو حديث منكر[2] ، وفي بعض النسخ : غريب ، قال : ولم يروه من الثقات غير شريك ، وروي مرسَلاً .

وأحوال علي رضي الله عنه وفضائله ومناقبه في كل شيء مشهورة غير منحصرة ، وإنما ذكرنا أحرفاً منها تبرُّكاً .

ولي الخلافة رضي الله عنه خمس سنين ، وقيل : خمس سنين إلا شهراً ، بويع بالخلافة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد قتل عثمان ؛ لكونه أفضل الصحابة حينئذ ، وذلك في ذي الحجة سنة خمس وثلاثين .

قال سعيد بن المسيب : لما قتل عثمان . . جاءت الصحابة وغيرهم إلىٰ دار علي ،

---

(١) بل هو حديث حسن كما قال العلامة ابن حجر المكي في « شرح الهمزية » ، وقال في « فتاويه الحديثية » : رواه جماعة ، وصححه الحاكم ، وحسنه الحافظان العلائي وابن حجر . اهـ
وقد أفرد لهـٰذا الحديث العلامة المحدث السيد أحمد بن الصديق الغماري كتاباً سماه : « فتح الملك العلي بصحة حديث باب مدينة العلم علي » فلينظره من أراد التحقيق حول هـٰذا الحديث .

(٢) الحديث المنكر : هو الحديث الفرد الذي لا يعرف متنه عن غير راويه .

فقالوا : نبايعك فأنت أحق بها ، فقال : إنما ذلك لأهل بدر ، فمن رَضُوا به . . فهو الخليفة ، فلم يبق أحد إلا أتىٰ علياً ، فلما رأىٰ ذلك . . خرج إلى المسجد ، فصعد المنبر ، وكان أول من صعد إليه وبايعه طلحة ، ثم بايعه الباقون .

ولما دخل الكوفة . . قال له بعض حكماء العرب : لقد زِنْتَ الخلافة وما زانتك ، ولَهي كانت أحوج إليك منك إليها .

وله في قتال الخوارج عجائب ثابتة في الصحيح مشهورة .

وأخبره النبي صلى الله عليه وسلم بأنه سيقتل .

ونقلوا عنه آثاراً كثيرة تدل علىٰ أنه رضي الله عنه عَلِم السَّنَةَ والشهر والليلة التي يقتل فيها ، وأنه لما خرج لصلاة الصبح حين خرج . . صاحت الإوز في وجهه ، فطُرِدْنَ عنه ، فقال : (دعوهن ، فإنهن نوائح) .

وقال محمد بن سعد : قال أهل السير : انتدب ثلاثة من الخوارج : عبد الرحمـٰن بن ملجم المرادي ـ وهو من حمير ، وعِداده في بني مراد ، وهو حليف بني جبلة من كندة ـ والبرك بن عبد الله التميمي ، وعمرو بن بكير التميمي ، فاجتمعوا بمكة ، وتعاقدوا ليقتُلُن علي بن أبي طالب ، ومعاوية ، وعمرو بن العاصي ، فقال ابن ملجم : أنا لعلي ، وقال البرك : أنا لمعاوية ، وقال الآخر : أنا لعمرو ، وتعاهدوا ألاَّ يرجع أحد عن صاحبه حتىٰ يقتله أو يموت دونه ، وتواعدوا ليلة سابع عشرة من رمضان ، فتوجه كل واحد إلى المصر الذي فيه صاحبه الذي يريد قتله ، فضرب ابن ملجم علياً بسيف مسموم في جبهته ، فأوصله دماغه في الليلة المذكورة في ليلة الجمعة ، ثم توفي علي رضي الله عنه في الكوفة ، ليلة الأحد ، التاسع عشر من رمضان ، سنة أربعين ، وغسله الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر رضي الله عنهم ، وكفن في ثلاثة أثواب ، ليس فيها قميص ولا عمامة .

ورُوِّينا : أنه لما ضربه ابن ملجم . . قال : فزتُ ورب الكعبة ، قالوا : ولما فرغ علي من وصيته . . قال : (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) ، ثم لم يتكلم إلا كلمة الشهادة (لا إلـه إلا الله) حتىٰ توفي ، ودفن في السحر ، وصلىٰ عليه ابنه الحسن ، وقيل : كان عنده فضل من حنوط رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أوصىٰ أن يُحَنَّطَ به .

توفي وهو ابن ثلاث وستين سنة على الأصح وقول الأكثرين ، ورثاه الناس فأكثروا فيه المراثي ، ودفن بالكوفة .

قال ابن قتيبة : ولِعليٍّ رضي الله عنه من الأولاد : الحسن ، والحسين ، ومحسن ، وأم كلثوم ، وزينب الكبرىٰ ، من فاطمة ، وله أولاد من غيرها كثيرون ، وقيل : كان له سبعةٌ وثلاثون ولداً ، والله أعلم . انتهىٰ [« التهذيب » ١/٣٤٦ـ٣٤٩] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : رأيت في بعض التصانيف : أن بعض الفضلاء صنف قصيدة ذَكر فيها جماعة من أعيان أئمة الإسلام ، فمنها :

وَخَضَّبَتْ شيبَ عثمان دَماً وخَطَتْ ... إلى الزبير ولم تستَحْيِ من عمرِ
وليتهـا إذ فـدت عَمْـراً بخـارجـةٍ ... فدت علياً بمن شاءت من البشرِ

وروى ابن هشام : عن مسلمة بن علقمة المازني قال : لما اشتد القتال يوم أحد . . جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت راية الأنصار ، وأرسل عليَّ بن أبي طالب رضوان الله عليه أن قدم الراية ، فتقدم عليٌّ ، فقال : أنا أبو القُصَم ـ ويقال : الفُصَم ـ فناداه أبو سعد بن أبي طلحة ـ وهو صاحب لواء المشركين ـ أن هل لك يا أبا القُصَم في البِرَاز من حاجة ؟ قال : فبرزا بين الصفين ، فاختلفا ضربتين ، فضربه عليٌّ ، فصرعه ولم يُجْهِز عليه ، فقال له أصحابه : أفلا أجهزت عليه ؟ فقال : (إنه استقبلني بعورته ، فعطفتني عليه الرحم ، وعرفت أن الله قد قتله) انتهىٰ [« السيرة النبوية » ٣/٧٣ـ٧٤] .

وروىٰ شيخنا برهان الدين ـ قدس الله روحه ـ بسنده : عن عبد الرحمٰن ابن أبي ليلىٰ ، عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أعلمك كلمات إذا قلتَهن . . غفر الله لك علىٰ أنه مغفور لك ؟ لا إلٰه إلا الله العلي العظيم ، لا إلٰه إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله رب العرش العظيم ، والحمد لله رب العالمين »[1] . انتهىٰ .

وروى الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ادعوا لي سيد العرب » ـ يعني : علي بن أبي طالب ـ فقالت عائشة : أَلَستَ سيد العرب ؟ فقال : « أنا سيد ولد آدم ، وعلي سيد العرب » ، فلما جاء . . أرسل إلى الأنصار ، فأتوه ، فقال لهم : « يا معشر الأنصار ؛ ألا أدلكم علىٰ ما إن تمسكتم به . . لن تضلوا بعده أبداً ؟ » قالوا : بلىٰ ، قال : « هٰذا عليٌّ ، فأحبوه بحبي ، وأكرموه بكرامتي ؛ فإن جبريل أمرني بذلك عن الله عز وجل » رواه أبو بشر عن سعيد بن

---

(١) أخرجه ابن حبان في « الإحسان » (٦٩٢٨) .

جبير ، عن عائشة رضي الله عنها نحوه في السؤدد مختصراً[1] .

وعن مجاهد ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أنزل الله تعالىٰ آية فيها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ . . إلا وعليٌّ رأسها وأميرها » لم نكتبه مرفوعاً . . إلاَّ من حديث ابن أبي خيثمة ، والناس يروونه موقوفاً .

وعن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله قال : كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فسئل عن علي فقال : « قسمت الحكمة عشرة أجزاء ، فأعطي علي تسعة أجزاء ، والناس جزءاً واحداً »[2] .

وعن أبي صالح ماهان الحنفي ، عن علي رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ؛ أوصني ، فقال : « قل : ربي الله ، ثم استقم » ، قال : قلت : ربي الله ، وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب ، فقال : « لِيَهْنِك العلم أبا الحسن ، لقد شربت العلم شرباً ، ونهلته نهلاً » .

وعن شقيق ، عن عبد الله بن مسعود قال : (إن القرآن أُنزل علىٰ سبعة أحرف ما فيها حرف إلا له ظهر وبطن ، وإن علي بن أبي طالب عنده علم الظاهر والباطن) .

وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما : (أنه قام على المنبر ، وخطب الناس ، وقال : لقد فارقكم بالأمس رجل لم يسبقه الأولون ، ولا يدركه الآخرون بعلم ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيه الراية ، ويبعثه فلا يرتد حتىٰ يفتح الله علىٰ يديه ، جبريل عن يمينه ، وميكائيل عن يساره ، ما ترك صفراء ولا بيضاء . . إلا سبع مئة درهم ، فضلت من عطائه ، أراد أن يشتري بها خادماً) .

وعن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قال عمر رضي الله عنه : (عليٌّ أقضانا ، وأُبي أقرؤُنا) .

وعن علي رضي الله عنه قال : (لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم . . أقسمت ـ أو حلفت ـ ألاَّ أضع ردائي عن ظهري حتىٰ أجمع ما بين اللوحين ، فما وضعت ردائي عن ظهري حتىٰ جمعت القرآن) .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : (كنا نمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم ،

---

(١) وكذلك الحاكم (٣/ ١٣٣) ، والطبراني في « الكبير » (٣/ ٨٨) .

(٢) أخرجه الديلمي (٣/ ٢٢٧) .

فانقطع شسع نعله ، فتناولها عليٌّ يصلحها ، فقال : « يا أيها الناس ؛ إن علياً ممن يقاتل علىٰ تأويل القرآن كما قاتلتُ علىٰ تنزيله » ، قال أبو سعيد : فخرجت ، فبشرته بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يكترث به فرحاً ؛ فإنه كان قد سمعه) أو كأنه سمعه[1] . أو كما قال .

وقوله تعالىٰ : ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ اتفق المفسرون علىٰ أن المراد بها عليٌّ .

وعن عليٍّ رضي الله عنه أنه قال : (والله ؛ ما نزلت آية . . إلا وقد علمت فيم نزلت ، وأين نزلت ، إن ربي قد وهب لي قلباً عقولاً ، ولساناً سؤولاً) .

وكان إذا سئل . . أعطىٰ ، وإذا لم يسأل . . ابتدأ .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : شكا الناس علياً ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيباً فقال : « يا أيها الناس ؛ لا تشكوا علياً ، فوالله ؛ إنه لأخشن في ذات الله عز وجل »[2] .

وعن كعب بن عجرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تسبوا علياً ؛ فإنه ممسوس في ذات الله عز وجل »[3] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (كنا نتحدث أن النبي صلى الله عليه وسلم عهد إلىٰ عليٍّ سبعين عهداً لم يعهده إلىٰ غيره)[4] .

وعن أيوب السختياني ، عن مجاهد قال : خرج علينا عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه يوماً معتجراً[5] ، فقال : (جعت مرة بالمدينة جوعاً شديداً ، فخرجت أطلب العمل في عوالي المدينة ؛ فإذا أنا بامرأة قد جمعت مدراً ، فظننتها تريد بَلَّهُ ، فأتيتها ، فقاطعتها علىٰ كل ذَنوب تمرة ، فمددت ستة عشر ذَنوباً حتىٰ مَجِلَتْ[6] يدايَ ، ثم أتيت الماء ، فأصبت منه ، ثم أتيتها ، فقلت بكفِّي هٰكذا بين يديها ـ وبسط إسماعيل يديه فجمعهما ـ فعدَّتْ لي

---

(١) أخرجه بنحوه الحاكم (٣/ ١٣٢) .
(٢) أخرجه بنحوه الحاكم (٣/ ١٤٤) .
(٣) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١٩/ ١٤٨) .
(٤) أخرجه الطبراني في « الصغير » (٢/ ١٦١) .
(٥) **الاعتجار** : لفُّ العمامة على الرأس .
(٦) **مَجِلَتْ يداه** : إذا ثَخُنَ جلدها وتعجَّر ، وظهر فيها ما يشبه البثر من العمل بالأشياء الصلبة الخشنة .

ستة عشر تمرة ، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخبرته ، فأكل معي منها[1]) زاد في رواية : (فقال لي خيراً ، ودعا لي) .

وعن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا علي ؛ إن الله تعالىٰ قد زينك بزينة لم يزين العباد بزينة أحب إلى الله تعالىٰ منها ، هي زينة الأبرار عند الله : الزهد في الدنيا ، فجعلك لا ترزأ من الدنيا شيئاً ، ولا ترزأ الدنيا منك شيئاً ، ووهب لك حب المساكين ، فجعلك ترضىٰ بهم أتباعاً ، ويرضون بك إماماً »[2] .

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من زهد في الدنيا . . علمه الله بلا تعلم ، وهداه بلا هداية ، وجعله بصيراً ، وكشف عنه العمىٰ »[3] .

وقال علي رضي الله عنه : (ما يسرني لو مت طفلاً وأُدخلت الجنة ، ولم أَكبُر فأعرفَ ربي) .

وقال : (أنصح الناس وأعلمهم بالله . . أشد الناس حباً وتعظيماً لحرمة أهل لا إله إلا الله) .

وقيل لعلي رضي الله عنه : ألا نحرسك ؟ قال : (حارس كل امرىء أجله) .

وقال : (كونوا لقَبول العمل أشد اهتماماً منكم بالعمل ؛ فإنه لن يقل عمل مع التقوىٰ ، وكيف يقل عمل يُتقبَّلُ ؟!)

وعن علي رضي الله عنه قال : (إذا كان يوم القيامة . . أتت الدنيا بأحسن زينتها ، ثم قالت : يا رب ؛ هبني لبعض أوليائك ، فيقول الله عز وجل لها : اذهبي يا لا شيء ، فلأنت أهون من أن أهبك لبعض أوليائي ، فتطوىٰ كما يطوى الثوب الخَلِق ، فتلقىٰ في النار) .

وقال علي رضي الله عنه : (لا يرجونَّ العبد إلا ربَّه ، ولا يخافن إلا ذنبَه ، ولا يستحيَنَّ جاهلٌ أن يسأل عما لا يعلم ، ولا يستحيَنَّ عالمٌ إذا سئل عما لا يعلم ؛ أن يقول : الله أعلم ، والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ولا إيمان لمن لا صبر له) .

وقال : (إن أخوف ما أخاف عليكم . . اتباع الهوىٰ ، وطول الأمل ، فأما اتباع

---

(١) أخرجه أحمد(١/ ١٣٥) .

(٢) ذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٩/ ١٢١) وعزاه للطبراني .

(٣) ذكره المناوي في « فيض القدير » (٦/ ١٤٣) .

الهوىٰ . . فيضل عن الحق ، وأما طول الأمل . . فينسي الآخرة ، ألا وإن الدنيا قد ترحَّلَتْ مدبرةً ، ألا وإن الآخرة قد ترحَّلَت مقبلة ، ولكل واحدة منهما بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا ؛ فإن اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل) .

وقال : (ألا إن الفقيه كلَّ الفقيه : من لا يقنِّطُ الناس من رحمة الله تعالىٰ ، ولا يؤَمِّنهم من عذاب الله تعالىٰ ، ولا يرخص لهم في معاصي الله تعالىٰ ، ولا يدع القرآن رغبة عنه إلىٰ غيره ، ولا خير في عبادة لا علم فيها ، ولا خير في علم لا فَهْمَ فيه ، ولا خير في قراءة لا تدبُّرَ فيها) .

وقال : (كونوا ينابيع العلم ، مصابيح الليل ، خُلْقان الثياب ، جُدُدَ القلوب . . تُعرَفون به في ملكوت السماء ، وتُذكَرون به في الأرض) .

وقال : (يا أيها الناس ؛ إنكم لو حننتم حنين الواله الثكلان ، وجأرتم جؤار متبتلي الرهبان[1] ، ثم خرجتم من أموالكم وأولادكم في التماس القرب إلى الله عز وجل ، وابتغاء رضوانه ، وارتفاع درجة عنده ، أو غفران سيئة . . كان ذلك قليلاً فيما تطلبون ، ووالله ؛ لو سالت عيونكم رغبة ورهبة إليه سبحانه وتعالىٰ ، ثم عَمَّرتم عُمرَ الدنيا مجدِّين في الأعمال الصالحة ، ولم تُبقوا شيئاً من جهدكم . . لما دخلتم الجنة بأعمالكم ، ولٰكن برحمته سبحانه وتعالىٰ ، جعلَنا الله وإياكم من التائبين العابدين) أو كما قال .

وعن كميل بن زياد قال : أخذ علي بن أبي طالب رضي الله عنه بيدي ، فأخرجني إلىٰ ناحية الجَبَّان[2] ، فلما أصحرنا[3] . . جلس ، ثم تنفس ، ثم قال : يا كميل بن زياد ؛ القلوب أوعية ، فخيرها أوعاها ، فاحفظ ما أقول لك ، الناس ثلاثة : فعالم ربَّاني ، ومتعلم علىٰ سبيل نجاة ، وهمج رعاع ، أتباع كل ناعق ، يميلون مع كل ريح ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجؤوا إلىٰ ركن وثيق ، العلم خير لك من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، العلم يزكو على العمل ، والمال تُنقِصه النفقة ، العلم حاكم ، والمال محكوم عليه ، ومحبة العالم دِين يُدان بها ، العلم يكسب العالم الطاعة في حياته ، وجميل الأحدوثة

---

(١) **الوَلَهُ** : ذهاب العقل من حزن أو حيرة ، **والجؤار** : رفع الصوت بالتضرع والاستغاثة .

(٢) **الجبَّان** : الصحراء ، وكذلك المقبرة ، والمراد هنا الأول .

(٣) تجاوزنا البيوت والأشجار دخولاً في الصحراء .

بعد موته ، وصنيعة المال تزول بزواله ، مات خُزَّان الأموال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقي الدهر ؛ أعيانهم مفقودة ، وآثارهم في القلوب موجودة ، هاه! هاه! إن هـٰهنا ـ وأشار بيده إلىٰ صدره ـ علماً لو أصبت له حَمَلَة ، بلىٰ أصبت لَقِناً[1] غير مأمون عليه ، يستعمل آلة الدِّين للدنيا ، يستظهر بحجج الله تعالىٰ علىٰ كتابه ، وبنعمه علىٰ عباده ، أو منقاداً لأهل الحق لا بصيرة له في إحيائه ، يقتدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة ، لا ذا ولا ذاك ، أو منهوماً باللذات ، سلس القياد للشهوات ، أو مغرىً بجمع الأموال والادخار ، وليسا من دعاة الدِّين ، أقرب شبَهاً بهما الأنعام السائمة ، كذلك يموت هـٰذا العلم بموت حامليه ، اللهم ؛ بلىٰ ، لن تخلو الأرض من قائم لله بحجة الله تعالىٰ ؛ لكي لا تَبطُل حجج الله تعالىٰ وبيناته ، أولـٰئك هم الأقلون عدداً ، الأعظمون عند الله قدراً ، بهم يدفع الله عن حججه حتىٰ يؤدوها إلىٰ نظرائهم ، ويزرعوها في قلوب أشباههم ، هجم بهم العلم علىٰ حقيقة الأمر ، فاستلانوا ما استوعر منه المترفون ، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، صحبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحُها معلقة بالمنظر الأعلىٰ ، أولـٰئك خلفاء الله تعالىٰ في بلاده ، ودعاته إلىٰ دينه ، هاه! هاه! شوقاً إلىٰ رؤيتهم ، وأستغفر الله لي ولك ، إذا شئت . . فقم) .

وعن علي بن ربيعة الوالبي قال : جاء ابن التياح فقال : يا أمير المؤمنين ؛ امتلأ بيت مال المسلمين من صفراء وبيضاء ، فقال : الله أكبر ، فقام متوكئاً على ابن التياح ، حتىٰ قام علىٰ بيت مال المسلمين ، ثم نودي في الناس ، فأعطىٰ جميع ما في بيت مال المسلمين ، وهو يقول : (يا صفراء ، يا بيضاء ؛ غري غيري ، ها . . وها . .) حتىٰ ما بقي منه دينار ولا درهم ، ثم أمر بنضحه[2] ، وصلىٰ فيه ركعتين .

زاد في رواية : أنه كان يكنس بيت المال ، ويصلي فيه ، يتخذه مسجداً ؛ رجاء أن يشهد له يوم القيامة .

وعن العلاء : أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه خطب الناس ، فقال : (والله الذي لا إلـٰه إلا هو ؛ ما رزأت[3] من فيئكم إلا هـٰذه) وأخرج قارورة من كُمِّ قميصه ، فقال : (أهداها إلي مولاي دهقان) .

---

(١) أي : فَهِماً غير ثقة .
(٢) نضح بيت المال : أي رشُّه بالماء .
(٣) أي : ما أخذت .

وأُتي بفالوذج ، فوضع قدامه ، وقال : (إنك طيب الريح ، حسن اللون ، طيب الطعم ، لـٰكن أكره أن أعوِّد نفسي ما لم تعتد) وفي رواية : فلم يأكل منه .

قال عبد الملك بن عمر : حدثني رجل من ثقيف : أن علياً رضي الله عنه استعمله علىٰ عكبرا ، قال : ولم يكن السواد يسكنه المصلون ، وقال لي : إذا كان عند الظهر . . فَرُحْ إلي ، فَرُحْتُ إليه ، فلم أجد عنده حاجباً يحبسني دونه ، فوجدته جالساً وحده وعنده قدح وكوز من ماء ، فدعا بطينة[1] ، فقلت في نفسي : لقد أمنني حتىٰ يخرج إلي جوهراً ، ولا أدري ما فيها ، وإذا عليها خاتم ، فكسر الخاتم ، فإذا فيها سويق ، فأخرج منه ، وصب في القدح ، وصب عليه ماء ، فشرب وسقاني ، فلم أصبر ، فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ تصنع هـٰذا بالعراق وطعام العراق أكثر من ذلك ؟ قال : (أمَا والله ؛ ما أختم عليه بخلاً عليه ، ولـٰكني أبتاع قدر ما يكفيني ، فأخاف أن يفنىٰ فيوضع من غيره ، وإنما حفظي لذاك ، وأكره أن أُدخل بطني إلا طيباً) [انتهىٰ « الحلية » ١/ ٦٣ـ٨٢] .

قال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه : أنه لم يأكل بعد قتل عثمان ونَهْبِ الدار طعاماً إلا مختوماً ؛ حذراً من الشبهة[2] .

ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم علىٰ عليٍّ بن أبي طالب وهو مريض ، فقال له : « قل اللهم ؛ إني أسألك تعجيل عافيتك ، أو صبراً علىٰ بليتك ، أو خروجاً من الدنيا إلىٰ سعة رحمتك ؛ فإنك ستُعطىٰ إحداهن »[3] .

وعن سفيان ، عن الأعمش ، قال : كان عليٌّ رضي الله عنه قوْتهُ وكسوته من شيء يجيئه من المدينة يعرف حِلَّهُ .

وعن سفيان الثوري ، عن عمرو بن قيس قال : قيل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه : يا أمير المؤمنين ؛ لِمَ ترقَعُ قميصك ؟ قال : (لأنه يُخَشِّعُ القلب ، ويقتدي بي المؤمن ، وإنه أبعد مِنَ الكِبْر) .

وعن أبي سعيد الأزدي ـ وكان من أئمة الأزد ـ قال : رأيت علياً رضي الله عنه أتى السوق

---

(١) **الطينة** : قطعة من الطين يختم بها الصك ونحوه .

(٢) الإحياء (٢/ ٩١) .

(٣) الإحياء (٢/ ٢٠٩) ، والحديث أخرجه بنحوه ابن حبان في « الإحسان » (٩٢٢) ، والحاكم (٧٠٣) عن السيدة عائشة رضي الله عنها ، وأخرجه القضاعي عن سيدنا علي رضي الله عنه (٢/ ٣٣٣) .

وقال : من عنده قميص صالح بثلاثة دراهم ؟ فقال رجل : عندي ، فجاء به ، فأعجبه ، وقال : لعله خير من ذاك ، قال : لا ، ذاك ثمنه . قال : فرأيت علياً يقرض رباط الدراهم من ثوبه ، فأعطاه ، فلبسه ، فإذا هو يفضل عن أطراف أصابعه ، فأمر به فقطع ما فَضَل عن أطراف أصابعه .

ودخل شخص عليه في داره وهو يرعد تحت شمل قطيفة ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إن الله قد جعل لك ولأهل بيتك في هـٰذا المال ، وأنت تصنع بنفسك ما تصنع ؟ فقال : (والله ؛ ما أرزأكم من مالكم شيئاً ، وإنها لقطيفتي التي خرجتُ بها من منزلي) أو قال : (من المدينة) انتهىٰ [« الحلية » ١/ ٨٢ـ٨٣] .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما بكرمه ـ : قد صح : أن علياً أمير المؤمنين رضي الله عنه طلق الدنيا ثلاثاً ، وقد نظم بعض الناس في ذلك فقال :

عتِبتُ على الدنيا فقلت : إلىٰ متىٰ ... أكابد حزناً همُّه ليس ينجليْ ؟
فقالت : نَعَم يا بن الكرام لأنني ... غضبت عليكمْ منذ طلقني عليْ
فكل وليٍّ مِن علي قرابة ... حرام عليه اليسر غير محلَّلِ

ومن شعر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه :

محمدٌ النبيُّ أخي وصهري ... وحمزة سيد الشهداء عمي
وجعفرٌ الذي يمسي ويُضحِي ... يطير مع الملائكة ابن أمي
وبنت محمد سكني وعِرسي ... مَسُوطٌ لحمُها بدمي ولحمي[1]
وسبطا أحمدٍ ولداي منها ... فأيكمُ له سهمٌ كسهمي
سبقتكمُ إلى الإسلام طراً ... صغيراً ما بلغت أوانَ حُلْمي

وزاد بعضهم :

وأَوجبَ لي الولاءَ معاً عليكم ... رسول الله يومَ غديرِ خُمِّ

ومما يُروىٰ له أيضاً :

حقيق بالتواضع من يموتُ ... ويكفي المرءَ من دنياه قوتُ
فما للمرء نصحٌ ذات يوم ... وحرص ليس تدركه النعوتُ

---

(١) مسوطٌ : ممزوج ومخلوط .

صنيـــعُ مليكنـــا حســـن جميـــل ومـــا أرزاقـــه عنـــا تفـــوت
فيـا هـٰـذا سترحـل عـن قـريـب إلـىٰ قـوم كـلامُهُـمُ السكـوتُ

وكان رضي الله عنه إذا فرغ من حرب صفين ليلاً . . يمسك لحيته ، ويبكي حتىٰ تخضل بالبكاء ، وهو يقول : (آهٍ! من قلة الزاد ، وبُعْدِ السفر ، ووَعْرِ الطريق) .

ومن أحاديثه رضي الله عنه قال : علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل بي كرب . . أن أقول : « لا إلـٰه إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله ، وتبارك الله رب العرش العظيم ، والحمد لله رب العالمين[1] » انتهىٰ .

وروى الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : عن أبي صالح قال : دخل ضرار بن ضمرة الكناني علىٰ معاوية فقال : صف لي علياً ، فقال : أَوَ تعفيني ؟ فقال : لا أعفيك ، قال : أمَا إذ لا بد . . فإنه كان ـ والله ـ بعيدَ المدىٰ ، شديد القوىٰ ، يقول فصلاً ، ويحكم عدلاً ، ويتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحِكَم من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل وظلمته ، كان ـ والله ـ غزير الدمعة ، كثير العبرة ، طويل الفكرة ، يقلِّب كفه ، ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما جشب ، كان ـ والله ـ كأحدنا ، يدنينا إذا أتيناه ، ويجيبُنا إذا سألناه ، وكان مع تقربه إلينا وقربه منا لا نكلمه ؛ هيبة له ، فإن تبسم . . فعن مثل اللؤلؤ المنظوم ، يعظِّم أهل الدِّين ، ويحب المساكين ، لا يطمع القوي في باطله ، ولا ييئس الضعيف من عدله ، فأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه ، يتمثل في محرابه ، قابضاً علىٰ لحيته ، يتململ تململ السليم ، ويبكي بكاء الحزين ، فكأني أسمعه الآن وهو يقول : (يا ربنا ؛ يا ربنا) ، يتضرع إليه ، ثم يقول للدنيا : (أَبِيْ تغررت ؟ إِلَيَّ تشوفت ؟ أم لي تزينت ؟ هيهات! هيهات! غري غيري ، قد بَتَتُّكِ ثلاثاً لا رجعة لي فيك ، فعمرك قصير ، ومجلسك حقير ، وخطرك كبير ، آه! آه! من قلة الزاد ، وبُعْدِ السفر ، ووحشة الطريق) .

فوكفت دموع معاوية علىٰ لحيته ما يملكها ، وجعل ينشفها بكمه ، وقد اختنق القوم بالبكاء ، فقال : هـٰكذا كان أبو الحسن رحمه الله ؟ كيف وَجْدُك عليه يا ضرار ؟ قال : وَجْدُ من ذبح واحدها في حِجْرها ، لا يرقأ دمعها ، ولا يسكن حزنها ، ثم قام ، فخرج .

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٦٨٨) .

وقال علي رضي الله عنه : (أشد الأعمال ثلاثة : إعطاء الحق من نفسك ، وذكر الله تعالىٰ علىٰ كل حال ، ومواساة الأخ في المال) .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : (التقوىٰ : ترك الإصرار على المعصية ، وترك الاغترار بالطاعة) .

وقال جابر بن عبد الله : (إن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه حمل الباب علىٰ ظهره يوم خيبر ، حتىٰ صعد المسلمون عليه ، ففتحوا خيبر ، وإنهم جربوا أن يرفعوا الباب بعد ذلك فلم يحمله إلا أربعون رجلاً) .

زاد في رواية : (أنه لما دنا من الحصن . . خرج إليه أهله ، فقاتلهم ، فضربه رجل من اليهود ، فوقع ترسه من يده ، فتناول عليٌّ باباً من الحصن ، فتترس به عن نفسه ، فلم يزل في يده ـ وهو يقاتل ـ حتىٰ فتح الله عليه ، ثم ألقاه [من يده] ، فلقد رأيتُنا ثمانية أنفس نجهد أن نقلب ذلك الباب فما نستطيع أن نقلبه)[1] .

لَطِيفَةٌ

وعن علي رضي الله عنه : أن يهودياً قال : اختلفتم بعد نبيكم قبل أن يجف ماؤه! فقال [علي رضي الله عنه] : (قلتم : اجعل لنا إلـٰهاً ولَمَّا تجف أقدامكم) من « الكشاف » .

وعن عبد الواحد الدمشقي قال : نادىٰ حوشب الحميري علياً يوم صفين ، فقال : انصرف عنا يابن أبي طالب ، فإنا ننشدك الله في دمائنا ودمك ، نخلي بينك وبين عراقك ، وتخلي بيننا وبين شامنا ، وتحقن دماء المسلمين ، فقال علي : (هيهات يابن أم ظليم! والله ؛ لو علمت أن المداهنة تسعني في دِين الله تعالىٰ . . لفعلت ، ولكان أهون علي في المؤنة ، ولـٰكن الله لم يرض من أهل القرآن بالإِدْهان والسكوت والله عز وجل يُعصىٰ) انتهىٰ [« الحلية » ١/ ٨٤ـ ٨٥] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : (ما انتفعت بكلام أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانتفاعي بكتابٍ كَتَب به إِليَّ عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه ؛ فإنه كتب إلي : **أما بعد** : فإن المرء يسوؤه فوت ما لم يكن ليدركه ، ويسره دَرْكُ ما لم يكن ليفوته ، فليكن سرورك بما نلت من أمر آخرتك ، وليكن أسفك علىٰ ما فاتك

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ١٣٧) .

منها ، وما نلت من دنياك . . فلا تكترثن به فرحاً ، وما فاتك منها . . فلا تأس عليه حزناً ، وليكن همُّك فيما بعد الموت) .

وعن زاذان قال : سمعت علياً رضي الله عنه في الرحبة[1] وهو ينشد الناس : مَن شهد رسولَ الله صلى الله عليه وسلم في يوم غدير خُمٍّ وهو يقول : « من كنت مولاه . . فعلي مولاه » ؟ فقام ثلاثة عشر رجلاً ، فشهدوا أنهم سمعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من كنت مولاه . . فعلي مولاه » .

وعن أبي مجلز قال : جاء رجل إلىٰ علي رضي الله عنه فقال : احترس ؛ فإن ناساً من مراد يريدون قتلك[2] ، فقال : (إن مع كل رجل ملكين يحفظانه ما لم يُقَدَّرْ[3] ، فإذا جاء القدر . . خلَّيَا بينه وبينه ، وإن الأجل جنة حصينة) انتهىٰ [« الصفوة » ١/ ١٣٢ـ١٤٠] .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ، وحفظ عليه الإيمان ، وتوفاه عليه ـ :

اِعلم : أن لأمير المؤمنين أبي الحسن علي بن أبي طالب رضي الله عنه خصائص لم يشاركه فيها أحد من هـٰذه الأمة :

منها : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « علي مني ، وأنا من علي ، ولا يؤدي عني إلا رجل مني » .

زاد في رواية : أنه أرسله بـ(سورة براءة) أو أربعين آية منها ليقرأها على الناس في الموسم ، فسأل أبو بكر النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « إني أمرت ألاَّ يبلغ عني إلا رجل مني »[4] .

ومنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سماه : أبا تراب .

ومنها : استخلافه بمكة حين هاجر النبي صلى الله عليه وسلم ليؤدي عنه الودائع .

ومنها : أنه أعطاه الراية يوم خيبر ، وأخبره أن الفتح يكون علىٰ يديه .

ومنها : أنه صلى الله عليه وسلم قال : « من كنت مولاه . . فعلي مولاه » ، فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (هنيئاً لك ، أصبحت وَليَّ كل مؤمن ومؤمنة) .

---

(١) رحبة الكوفة : اسم قرية بحذاء القادسية قريبة من الكوفة .

(٢) تقدم (ص : ٢٠٦) : أن قاتله اللعين ابن ملجم حميري معدود في بني مراد .

(٣) جاء في « الصفوة » : مما لم يَقْدِر عليه .

(٤) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٣/ ١٦٥) .

ومنها : أنه لم يسجد لغير الله عز وجل ولا طرفة عين ، علىٰ ما ورد في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « سباقو الأمم ثلاثة : حبيب النجار ، ومؤمن آل فرعون ، وعلي بن أبي طالب ؛ لم يسجدوا لغير الله ولا طرفة عين »[1] .

ومنها : أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر عنه أنه يقاتل علىٰ تأويل القرآن كما قاتلتُ علىٰ تنزيله .

ومنها : أنه صلى الله عليه وسلم قال : « أقضاكم علي » .

ومنها : أن كل آية من القرآن لها ظاهر وباطن ، فإن علي بن أبي طالب قد علم منها الظاهر والباطن .

ومنها : أنه لا يُعرف أن أحداً من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين يقول : (سلوني) غير علي ، قاله ابن المسيب .

ومنها : أنه صلى الله عليه وسلم بعث جيشاً فيهم علي ، ثم رفع يديه وقال : « اللهم ؛ لا تمتني حتىٰ تريني علياً » .

ومنها : أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله قد زينك بزينة لم يزيِّن العباد بزينة أحبَّ إليه منها ، هي زينة الأبرار عند الله : الزهد في الدنيا ، فجعلك لا ترزأ من الدنيا شيئاً ، ولا ترزأ الدنيا منك شيئاً ، ووهب لك حب المساكين ، فجعلك ترضىٰ بهم أتباعاً ، ويرضون بك إماماً » .

ومنها : أنه قال : (ما يسرني لو مت طفلاً وأُدخلت الجنة ، ولم أكبُر فأعرفَ ربي عز وجل) .

ومنها : أنه أخوه بالمؤاخاة .

ومنها : أنه [صلى الله عليه وسلم] قال : « ألا ترضىٰ أن تكون مني بمنزلة هارون من موسىٰ غير أنه لا نبي بعدي ؟ » .

ومنها : أنه طلق الدنيا ثلاثاً ، رضي الله عنه .

ومنها : أنه أبو الحسنين والسبطين الحسن والحسين ، اللذين هما ريحانتا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسيدا شباب أهل الجنة .

---

(١) أخرجه بنحوه الديلمي (٢/ ٤٢١) .

ومنها : أنه زوج سيدة نساء العالمين فاطمة بنت سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم .

ومنها : أنه في مدة خلافته لم يَصْفُ له الأمر ، وما ذاك ـ والعلم عند الله سبحانه وتعالىٰ ـ إلا لتحقيق قوله صلى الله عليه وسلم : « إنك لا ترزأ من الدنيا شيئاً . . . » الحديث .

ومنها : أنه أول من أسلم من الفتيان . . . إلىٰ غير ذلك من المناقب التي لا تنحصر .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو محمد طلحة بن عبيد الله
رضي الله عنه

أبو محمد طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن سعد بن تيم بن مرة .

يجتمع نسبه مع النبي صلى الله عليه وسلم في مرة .

قال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : أبو محمد طلحة ، أسلم قديماً ، وبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع سعيد بن زيد رضي الله عنه قبل خروجه إلىٰ بدر يتجسسان خبر العير ، فمرت بهما ، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر ، فخرج ، ورجعا يريدان المدينة ولم يعلما بخروج النبي صلى الله عليه وسلم ، فقدما في اليوم الذي لاقىٰ فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم المشركين ، فلقياه منصرفاً من بدر ، فضرب لهما بسهميهما وأجرهما ، وكانا كمن شهدها .

وكان طلحة رضي الله عنه من الذين ثبتوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، وبايعه على الموت ، ووقاه بيده ونفسه ، فشلت يده ، وجرح يومئذ أربعاً وعشرين جراحة ، ويقال : كان فيه خمس وسبعون ما بين طعنة وضربة .

وسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم : طلحة الخير ، ويوم غزوة ذات العسرة : طلحة الفياض ، ويوم حنين : طلحة الجود .

وعن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال : (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم أحد : « أوجب طلحة » يعني : حين صنع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما صنع ، وذلك أنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ظاهر بين درعين ، فأراد أن ينهض وهما عليه ليصعد صخرة هنالك فما استطاع ، فبرك له طلحة ، فصعد رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم علىٰ ظهره ، واستوىٰ عليها) انتهىٰ [« الصفوة » ١/١٤١] .

وقال الحافظ : عن عائشة رضي الله عنها قالت : (كان أبو بكر رضي الله عنه إذا ذكر يوم أحد . . بكىٰ ، وقال : ذاك يوم كان كله لطلحة ، قال أبو بكر : كنت أول من جاء يوم أحد ،

فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ولأبي عبيدة ابن الجراح : « عليكما بصاحبكما » يريد طلحة وقد نزف ، فأصلحنا من شأن النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم أتينا طلحة في بعض تلك الجفار[1] ؛ فإذا به بضع وسبعون أو أقل أو أكثر ، ما بين طعنة وضربة ورمية ، وإذا قد قطعت إصبعه ، فأصلحنا من شأنه)[2] .

وعن موسى بن طلحة ، عن أبيه طلحة رضي الله عنهما قال : لما رجع النبي صلى الله عليه وسلم من أحد . . صعد المنبر ، فحمد الله تعالىٰ ، وأثنىٰ عليه ، ثم قرأ قوله تعالىٰ : ﴿ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ فقام رجل ، فقال : يا رسول الله ؛ من هـٰؤلاء ؟ فأقبلت وعليَّ ثوبان أخضران ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أيها السائل ؛ هـٰذا منهم »[3] .

وعن عائشة بنت طلحة رضي الله عنها ، عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : إني لجالسة في بيتي ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه في الفناء ؛ إذ أقبل طلحة بن عبيد الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سره أن ينظر إلىٰ رجل يمشي على الأرض ، قد قضىٰ نحبه . . فلينظر إلىٰ طلحة »[4] .

وعن قبيصة بن جابر رضي الله عنه قال : (صحبت طلحة بن عبيد الله ، فما رأيت رجلاً أعطىٰ لجزيل ماله[5] من غير مسألة منه) .

وعن سفيان ، عن عمرو بن دينار رضي الله عنهما قال : كانت غلة طلحة كل يوم ألفاً وافياً .

وعن سعدىٰ بنت عوف ـ امرأة طلحة بن عبيد الله رضي الله عنهما ـ قالت : (لقد تصدق طلحة يوماً بمئة ألف ، ثم حبسه عن الرواح إلى المسجد أن جمعتُ له بين طرفي ثوبه) .

حدثنا عوف ، عن الحسن رضي الله عنهما قال : (باع طلحة أرضاً له بسبع مئة ألف ، فبات ذلك المال عنده ليلة ، فبات أرقاً من مخافة ذلك المال حتىٰ أصبح ، ففرقه) انتهىٰ [« الحلية » ١/٨٧ـ٨٩] .

---

(١) **الجفار** : الحُفَرُ .
(٢) أخرجه بنحوه الحاكم (٣/ ٢٩٨) .
(٣) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١/ ١١٧) .
(٤) أخرجه بنحوه الحاكم (٣/ ٤٢٤) .
(٥) أي : أشدُّ عطاءً لجزيل ماله .

ثم قال أبو الفرج في رواية أخرىٰ : إنه لما حُمل المال إليه . . قال : (إن رجلاً تبيت هـٰذه عنده في بيت ، لا يدري ما يطرقه من الله سبحانه وتعالىٰ . . لغرير بالله عز وجل) ولم ينم ، وجعل رسوله يختلف بها في سكك المدينة . . . حتىٰ أسحر وما عنده منها درهم . انتهىٰ [« الصفوة » ١/١٤٣] .

وقال شيخ الإسلام النووي ـ قدس الله روحه ـ : طلحة أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وأحد الثمانية السابقين إلى الإسلام ، وأحد الخمسة الذين أسلموا علىٰ يد الصديق رضي الله عنه ، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، وهو من المهاجرين الأولين ، وقد قدمنا أنه لم يشهد بدراً ، ولـٰكن ضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهمه وأجره كمن حضر ، وشهد أحداً وما بعدها من المشاهد ، وروي لطلحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانية وثلاثون حديثاً ، اتفقا منها علىٰ حديثين ، وانفرد البخاري بثلاثة[1] .

قتل رضي الله عنه يوم الجمل ، لعشر خلون من جمادى الأولىٰ ، سنة ست وثلاثين ، وهـٰذا لا خلاف فيه ، وكان عمره أربعاً وستين سنة ، وقيل غير ذلك ، وقبره بالبصرة مشهور ، يزار ويتبرك به .

روىٰ عنه بنوه موسىٰ وعيسىٰ وخلائق غيرهم من التابعين ، وآخىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين سعد بن أبي وقاص .

وذكر ابن قتيبة في « المعارف » [٢٢٩] : أن طلحة رضي الله عنه دفن بقنطرةٍ نَزَّةٍ[2] ، فرأته ابنته عائشة بعد دفنه بثلاثين سنة في المنام ، فشكا إليها النز ، فأمرت به ، فأُخرج فوجد طرياً ، فدفن في داره في البصرة .

وذكر غيره : أنهم حين حولوه . . قال الراوي : كأني أنظر إلى الكافور في عينيه ، ولم يتغير إلا عقيصته[3] ، فإنها مالت عن موضعها ، واخضر شقه الذي يلي الأرض من نز الماء ، فاشتروا له داراً من دور أبي بكرة بعشرة آلاف درهم ، فدفن فيها ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« التهذيب » ١/٢٥١] .

---

(١) في « التهذيب » : (انفرد البخاري بحديثين ومسلم بثلاثة) .
(٢) نزَّة : ذات نزٍّ ، والنزُّ : هو الماء المتحلِّبُ من الأرض .
(٣) هي ضفيرة الشعر ، أو الخصلة منه .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : لطلحة بن عبيد الله خصائص لم يشاركه فيها مَن بعدَهُ :

منها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سماه طلحة الخير ، والفياض ، والجود .

ومنها : أنه في يوم أحد وقى النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه ويده .

ومنها : أنه شلت يده لأجل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومنها : أنه برك حتىٰ صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم علىٰ ظهره .

ومنها : أن الصديق رضي الله عنه كان إذا ذكر يوم أحد . . يبكي ، ويقول : (ذاك يوم كله لطلحة) .

ومنها : أنه نزل فيه قوله تعالىٰ : ﴿ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ .

وقد جاء في الحديث : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من سره أن ينظر إلىٰ رجل يمشي على الأرض ، قد قضىٰ نحبه . . فلينظر إلىٰ طلحة » .

ومنها : أنه باع أرضاً له بسبع مئة ألف ، فتصدق بها في تلك الليلة ، ولم ينم من مخافة ذلك المال ، وقال : (إن رجلاً تبيت هـٰذه عنده لا يدري ما يطرقه من الله عز وجل . . لغريرٌ بالله سبحانه وتعالىٰ) وجعل رسوله يختلف بها في المدينة ، حتىٰ أسحر وما عنده منها درهم . . . إلىٰ غير ذلك .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو عبد الله الزبير بن العوام
رضي الله عنه

قال شيخ الإسلام النووي ـ قدس الله روحه ـ : الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي ، القرشي ، الأسدي ، المدني ، يلتقي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في قصي ، وأم الزبير رضي الله عنها اسمها : صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أسلمت وهاجرت إلى المدينة .

أسلم الزبير رضي الله عنه قديماً في أوائل الإسلام ، وهو ابن خمس عشرة سنة ، وقيل : ست عشرة ، وقيل : ثمان سنين ، وقيل : ابن ثنتي عشرة سنة ، وكان إسلامه بعد إسلام أبي بكر رضي الله عنهما بقليل ، قيل : كان رابعاً أو خامساً .

وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وأحد الستة أصحاب الشورىٰ .

وهاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة .

وآخىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين عبد الله بن مسعود حين آخىٰ بين المهاجرين بمكة ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وآخىٰ بين المهاجرين والأنصار . . آخىٰ بينه وبين سلمة بن سلامة بن وقش .

وكان الزبير رضي الله عنه أول من سل سيفاً في سبيل الله عز وجل .

وشهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشهد اليرموك ، وفتح مصر .

ورُوِّينا في صحيحي : « البخاري » [٢٨٤٦] و« مسلم » [٢٤١٥] عن جابر رضي الله عنه قال : ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه يوم الأحزاب ثلاث مرات ، فانتدب الزبير في الثلاث مرات ، قال : « من يأتيني بخبر القوم ؟ » قال الزبير : أنا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن لكل نبي حوارياً ، وحواريَّ الزبير » .

وفي « صحيحيهما » [خ ٣٧٢٠ـ م ٢٤١٦] عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال : قال لي أبي : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من يأت بني قريظة فيأتيني بخبرهم ؟ » فانطلقت ، فلما رجعت . . جمع لي رسول الله صلى الله عليه وسلم أبويه ، فقال : « ارم فِداك أبي وأمي » .

وفي « صحيح البخاري » [٣٧١٧] : أن عثمان بن عفان قيل له : لو استخلفت ؟ قال : فلعلهم قالوا : الزبير ، قال : نعم ، أما والذي نفسي بيده ؛ إنه لخيرهم ما علمت ، وإن كان لأحبَّهم إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي رواية للبخاري أيضاً [٣٧١٨] : قال عثمان : (أما والله ؛ إنكم لتعلمون أنه خيركم) ثلاثاً .

وفي « البخاري » [٣٧٢١] : عن عروة : أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا للزبير يوم اليرموك : ألا تشد فنشد معك ؟ فحمل عليهم ، فضربوه ضربتين علىٰ عاتقه ، بينهما ضربة ضُرِبها يوم بدر ، قال عروة : فكنت أُدخل يدي في تلك الضربات ألعب وأنا صغير .

وفي رواية للبخاري ، عن هشام بن عروة قال : اشترى الزبير سيفاً بثلاثة آلاف درهم .

وفي « الترمذي » [٣٧٤٦] : عن هشام بن عروة بن الزبير قال : أوصى الزبير إلى ابنه عبد الله صبيحة الجمل ، قال : (ما مني عضو . . إلا وقد جرح مع رسول الله صلى الله عليه وسلم) حتى انتهىٰ إلىٰ فرجه[1] . قال الترمذي : حديث حسن ، وفيما قاله نظر ؛ لأنه منقطع بين هشام والزبير .

ومن مناقبه : ما ثبت في « صحيح البخاري » [٣١٢٩] : عن عبد الله بن الزبير قال : لما وقف أبي يوم الجمل . . دعاني ، فقمت إلىٰ جنبه ، فقال : (يا بني ؛ ما أراني إلا سأُقتل اليوم مظلوماً ، وإن من أكثر همي لدَيني ، أفترىٰ دَينَنا يُبقي من مالنا شيئاً ؟) ثم قال : (يا بني ؛ بعْ ما لنا ، واقضِ دَيني) وأوصىٰ بالثلث .

قال عبد الله : فجعل يوصيني بدَينه ، ويقول : (يا بني ؛ إن عجزت عن شيء منه . . فاستعن بمولاي) فوالله ؛ ما دريت ما أراد حتىٰ قلت : يا أبت ؛ من مولاك ؟ قال : الله تعالىٰ ، فوالله ؛ ما وقعت في كربة من دَينه . . إلا قلت : يا مولى الزبير ، اقض عنه دَينه ،

---

(١) أي : فرج الزبير ، وقائل : (حتى انتهىٰ . . .) ابنه عبد الله رضي الله عنهما .

فيقضيه) قال : فقتل الزبير ولم يدعْ ديناراً ولا درهماً ، إلا أرضَين ؛ منها : الغابة ، وإحدىٰ عشرة داراً بالمدينة ، ودارين بالبصرة ، وداراً بالكوفة ، وداراً بمصر ، قال : وإنما كان دَينه : أن الرجل كان يأتيه بالمال يستودعه إياه ، فيقول الزبير : (لا ولـٰكنه سلف ، إني أخشىٰ عليه الضيعة) .

وما ولي إمارة قط ، ولا جباية ، ولا خراجاً ، ولا شيئاً إلا أن يكون غزواً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو مع أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم .

قال عبد الله : فحسبت ما كان عليه من الدَّين ، فكان ألفي ألف ومئتي ألف ، وكان الزبير اشترى الغابة بسبعين ومئة ألف ، فباعها عبد الله بألف ألف وست مئة ألف ، ثم قال : من كان له عندنا شيء . . فليوافنا بالغابة .

فلما فرغ عبد الله من قضاء دَينه . . قال بنو الزبير : اقسم بيننا ميراثنا ، قال : لا ، والله ؛ لا أقسم بينكم حتىٰ أنادي بالموسم أربع سنين : أَلاَ من كان له دَين على الزبير . . فليأتنا ، فلنقضه ، فجعل ينادي كل سنة في الموسم ، فلما مضىٰ أربع سنين . . قسم بينهم ودفع الثلث ، وكان للزبير أربع نسوة ، فأصاب كل امرأة ألف ألف ومئتي ألف ، فجميع ماله خمسون ألف ألف ومئتا ألف ، هـٰذا لفظ رواية « البخاري » .

ومما رُوِّيناه من أموال الزبير رضي الله عنه : أنه كان له ألف مملوك يؤدون إليه الخراج ، فيتصدق به في مجلسه ، ولا يقوم بدرهم منه .

ومناقبه رضي الله عنه كثيرة .

وكان الزبير رضي الله عنه يوم الجمل قد ترك القتال وانصرف ، فلحقه جماعة من الغواة ، فقتلوه بوادي السباع ، بناحية البصرة ـ وقبره هناك ـ في جمادى الأولىٰ ، سنة ست وثلاثين ، وكان عمره سبعاً وستين سنة ، وقيل : ستاً وستين ، وقيل : أربعاً وستين سنة .

وأما أولاده من أسماء بنت الصديق رضي الله عنهم . . فعبد الله ، وعروة ، والمنذر ، وعاصم ، والمهاجر ، وخديجة الكبرىٰ ، وأم الحسن ، وعائشة ، وله أولاد من غيرها . انتهىٰ [« التهذيب » ١/ ١٩٤ـ١٩٦ و٢/ ٣٢٩] .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ قدس الله روحه ـ : كان عم الزبير يعلق الزبير في حصير ، ويدخن عليه بالنار ، وهو يقول له : ارجع إلى الكفر ، فيقول الزبير : (لا أكفر أبداً) .

وعن حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد : أخبرني من رأى الزبير وإن في صدره لأمثال العيون من الطعن والرمي . انتهىٰ [« الحلية » ١/٨٩ـ٩٠] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : للزبير رضي الله عنه خصائص لم يشاركه فيها مَن بعدَهُ :

منها : أنه أول من سل سيفاً في سبيل الله .

ومنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انتدب أصحابه يوم الأحزاب ثلاث مرات ، يقول : « من يأتينا بخبر القوم ؟ » وفي كل مرة يقول الزبير : أنا ، ثم قام وأتاه بخبر القوم .

ومنها : أنه حواريّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، علىٰ ما ثبت في الحديث : « إن لكل نبي حوارياً ، وحواريَّ الزبيرُ » .

ومنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في بني قريظة : « من يأتيني بخبر القوم ؟ » ، فانطلق الزبير ، فلما رجع . . جمع له رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أبويه ، فقال : « ارم فِداك أبي وأمي » .

ومنها : منقبة عظيمة ، وهي وفاء دَينه علىٰ ما ثبت في « صحيح البخاري » .

ومنها : أنه كان له ألف مملوك يؤدون إليه الخراج كل يوم ، فيتصدق به في مجلسه ، ولا يقوم بدرهم منه . . . إلىٰ غير ذلك .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام فارس الإسلام :

أبو إسحاق سعد بن أبي وقاص
رضي الله عنه

قال أبو الفرج : اسم أبيه مالك ، وكنيته : أبو وقاص بن وهيب ـ ويقال : أُهيب ـ بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب [بن مرَّة] ، يجتمع نسبه مع النبي صلى الله عليه وسلم في الأب الخامس[1]

أسلم قديماً ، وهو ابن سبع عشرة سنة ، وكان ثالثاً في الإسلام ، وهو أول من رمىٰ بسهم في سبيل الله تعالىٰ ، وأول من أراق دماً في سبيل الله تعالىٰ .

وشهد المشاهد كلها ، وكان يقال له : فارس الإسلام .

وولي الولايات من قبل عمر وعثمان ، وهو أحد أصحاب الشورىٰ ، وما أسلم أحد في اليوم الذي أسلم فيه ، ولقد مكث سبعة أيام ، وإنه لثلث الإسلام ، وفدَّاه النبي صلى الله عليه وسلم بأبويه .

قال : ولقد رأيتنا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما لنا طعام نأكله إلا ورق الحُبْلة[2] وهـٰذا السمر ، حتىٰ إن أحدنا ليضع كما تضع الشاة ما له خلط[3] . [انتهىٰ « الصفوة » ١/١٥٠ـ١٥١] .

وقال شيخ الإسلام النووي ـ قدس الله روحه ـ : سعد بن أبي وقاص ، روي له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مئتان وسبعون حديثاً ، اتفق البخاري ومسلم علىٰ خمسة عشر ، وانفرد البخاري بخمسة ، ومسلم بثمانية عشر ، وروىٰ عنه خلائق من الصحابة والتابعين ، رضوان الله عليهم أجمعين .

---

(١) في نسخة : (في عبد مناف) .

(٢) **الحُبْلة** : ثمر السَّمُر ، يشبه اللوبياء .

(٣) **ما له خلط** : لا يختلط نَجْوُهم بعضه ببعض ؛ لجفافه ويبسه ، من أكلهم ورق الشجر وخبز الشعير ؛ لفقرهم وحاجتهم .

وقال الزهري : رمىٰ سعد يوم أحد ألف سهم .

ولما قتل عثمان رضي الله عنه . . اعتزل سعد الفتن ، فلم يقاتل في شيء من تلك الحروب .

واستعمله عمر بن الخطاب على الجيوش التي بعثها لقتال الفرس ، وكان هو أمير الجيش الذين هزموا الفرس بالقادسية وبجلولاء وغَنِموهم ، وهو الذي فتح المدائن ـ مدائن كسرىٰ ـ وهو الذي بنى الكوفة ، وولاه عمر العراق . انتهىٰ [« التهذيب » ١/٢١٣ـ٢١٤] .

وروىٰ أبو الفرج : عن جابر بن عبد الله قال : أقبل سعد ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس ، فقال : « هـٰذا خالي ، فليُرِني امرؤ خاله »[(١)] .

وعن سعد قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اللهم ؛ سدد رميته ، وأجب دعوته »[(٢)] .

ودعا سعد فقال : (يا رب ؛ إن لي بنين صغاراً ، فأخِّر عني الموت حتىٰ يبلغوا) فأخر عنه الموت عشرين سنة .

وكان بين خالد وسعد كلام ، فذهب رجل يقع في خالد عند سعد ، فقال : (مه ، إن ما بيننا لم يبلغ دِيننا) انتهىٰ [« الصفوة » ١/١٥٢] .

وروى الحافظ أبو نعيم ـ قدس الله روحه ـ : عن سعد رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لأنا في فتنة السراء أخوف عليكم من فتنة الضراء ، وإنكم ابتُليتم بفتنة الضراء فصبرتم ، وإن الدنيا حلوة خضرة »[(٣)] .

وكان سعد قد مرض بمكة ، فجاءه النبي صلى الله عليه وسلم يعوده ، وهو يكره أن يموت بالأرض التي هاجر منها ، ولم يكن له يومئذ إلا ابنة واحدة ، قال : يا رسول الله ؛ أُوصي بمالي كله ؟ قال : « لا » ، قال : فالثلث ؟ قال : « الثلث ، والثلث كثير ، فلعل الله أن يرفعك ، فينفع بك ناساً ، ويَضُرَّ بك آخرين » .

واجتمع سعد بن أبي وقاص وابن مسعود وابن عمر وعمار بن ياسر ، فذكروا الفتنة ، فقال سعد : (أما أنا . . فأجلس في بيتي ، ولا أدخل فيها) انتهىٰ [« الحلية » ١/٩٣ـ٩٤] .

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/٢٨) .

(٢) أخرجه الترمذي (٣٧٥٢) .

(٣) أخرجه بنحوه أبو يعلىٰ (٢/١١٥) .

ثم قال أبو الفرج :

توفي سعد في قصره بالعقيق ، علىٰ عشرة أميال من المدينة ، وحمل إليها ، وصلىٰ عليه مروان بن الحكم ، وهو يومئذ والي المدينة ، وصلىٰ عليه أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في حُجَرهن ، ودفن بالبقيع ، وذلك في سنة خمس وخمسين ، وهو ابن تسع وسبعين ، ويقال : اثنتين وثمانين .

وعن عائشة رضي الله عنها : أنه لما توفي سعد . . أرسل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أن يمروا بجنازته في المسجد ، ففعلوا ، فوُقف به علىٰ حجرهن ، فصلين عليه ، وأُخرج من باب الجنائز ، فبلغهن أن الناس عابوا ذلك ، وقالوا : ما كانت الجنائز يُدخَل بها المسجد ، فبلغ ذلك عائشة فقالت : (ما أسرعَ الناسَ إلىٰ أن يعيبوا ما لا علم لهم به! عابوا علينا أن نمر بجنازة في المسجد ، وما صلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم علىٰ سهيل بن بيضاء إلا في جوف المسجد)[1] انتهىٰ [« الصفوة » ١/١٥٢] .

وقال في « الاكتفاء » : دخل سعد رضي الله عنه علىٰ معاوية فلم يسلم عليه بالإمارة ، فقال له معاوية : لو شئت أن تقول غير هـٰذا . . لقلتَ ، فقال سعدٌ : (فنحن المؤمنون ولم نؤمِّرك ، فإني أتعجب مما أنت فيه ، واللهِ ؛ ما يسرني أني على الذي أنت فيه ، وأني هرقتُ مِحجَمَةَ دم) .

وسعد آخر من مات من المهاجرين ، رضوان الله عليهم أجمعين .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه خصائص لم يشاركه فيها مَن بعدَه :

منها : أنه أول من رمىٰ سهماً في سبيل الله .

ومنها : أنه أول من أراق دماً في سبيل الله .

ومنها : أنه كان يقال له : فارس الإسلام .

ومنها : أنه رمىٰ في يوم أحد بألف سهم في سبيل الله .

ومنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فدَّاه بأبويه ، وهـٰذه المنقبة قد قدمنا أن الزبير شاركه فيها أيضاً .

---

(١) أخرجه بنحوه مسلم (٩٧٣) .

ومنها : أن بعد مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه . . اعتزل سعد الفتن ، فلم يحضر في شيء من تلك الحروب .

ومنها : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمله على الجيوش التي في قتال الفرس ، وكان هو الأمير ، وكان الفتح علىٰ يديه ، فتح مدائن كسرىٰ وغيرها .

ومنها : أنه بنى الكوفة ، وولاه عمر رضي الله عنه العراق .

ومنها : أنه كان مجاب الدعوة ، مسدد الرمية ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اللهم ؛ سدد رميته ، وأجب دعوته » ، وقد دعا ، فأخَّر عنه الموت نحو عشرين سنة .

ومنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عنه : « هـٰذا خالي ، فليرني امرؤ خاله » .

ومنها : منقبة عظيمة ، وهو أنه أوصىٰ أن يكفن في جبة صوف كان قد لقي المشركين فيها يوم بدر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : (إنما كنت أخبئها لهـٰذا اليوم) فكفن بها . . . إلىٰ غير ذلك .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

سعيد بن زيد
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رَزاح بن عدي بن كعب بن لؤي ، يجتمع نسبه مع النبي صلى الله عليه وسلم في كعب بن لؤي ، أسلم قديماً قبل دخول [رسول الله صلى الله عليه وسلم] دار الأرقم ، وشهد المشاهد كلها ما خلا بدراً ؛ فإنه لم يحضرها للسبب الذي ذكرناه في ترجمة طلحة رحمه الله تعالىٰ[1] . [انتهىٰ « الصفوة » ١/١٥٣] .

قال النووي ـ قدس الله روحه ـ : أما سعيد بن زيد . . فهو ابن عم عمر بن الخطاب[2] ، وتزوج سعيد أخت عمر : فاطمة بنت الخطاب ، كانت قد أسلمت هي وزوجها سعيد قبل عمر ، وكانا سبب إسلامه .

وهو من المهاجرين الأولين ، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، وآخىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين أبي بن كعب .

وشهد جميع المشاهد غير بدر ، فاختلفوا في شهوده لها ، قال الأكثرون : لم يشهدها ؛ لعذره فإنه كان غائباً عن المدينة ، وضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهمه [منها] وأجره .

وقال جماعة : شهد بدراً ، وذكره البخاري في « صحيحه » ممن شهد بدراً ، وشهد اليرموك ، وحصار دمشق .

---

(١) انظر (ص ٢٢٥) .

(٢) وجد في أحد النسخ : (ولذلك لم يذكره في الشورىٰ ؛ خشية أن يراعىٰ في الإمارة بسببه ، بل قد جاء في رواية المديني عن شيوخه : أنه استثناه من بينهم ، وقال : لست مدخله فيهم ، كل ذلك تورعاً واحتياطاً رضي الله عنه) .

وكان مجاب الدعوة .

ورُوِّينا في صحيحي : « البخاري » [٣١٩٨] ، و« مسلم » [١٦١٠] ، عن عروة : أن سعيد بن زيد رضي الله عنه خاصمته أروىٰ بنت أوس إلىٰ مروان ، وادعت عليه أنه أخذ لها شيئاً من أرضها ، فقال سعيد بن زيد : ما كنت لآخذ من أرضها بعد أن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من أخذ شبراً من أرض ظلماً . . طُوِّقه من سبع أرضين » ، فقال مروان : لا أسألك بينة بعد هـٰذا ، ثم قال سعيد : (اللهم ؛ إن كانت كاذبة . . فأعم بصرها ، واقتلها في أرضها) فما ماتت حتىٰ ذهب بصرها ، وبينما هي تمشي في أرضها ؛ إذ وقعت في حفرة ، فماتت .

وفي رواية لمسلم [١٦١٠] : أنها قالت : أصابتني دعوة سعيد .

وروي له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانية وأربعون حديثاً ، اتفقا علىٰ حديثين ، وانفرد البخاري بحديث .

وروىٰ عنه ابن عمر ، وجماعة من الصحابة رضوان الله عليهم ، وخلائق من التابعين رضوان الله عليهم أجمعين .

وأما غسله : فغسله ابن عمر ، وقيل : سعد بن أبي وقاص ، وصلىٰ عليه ابن عمر ، ونزل في قبره سعد وابن عمر . انتهىٰ [« التهذيب » ١/٢١٧] .

وروى الحافظ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : أن سعيد بن زيد رضي الله عنه قال : (لَمَشهدٌ شهده رجل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تَغبَّر فيه وجهه . . أفضل من عمل أحدكم ولو عُمِّر عمر نوح عليه الصلاة والسلام) .

ولما خرج معاوية من الكوفة . . استعمل المغيرة بن شعبة ، قال : فأقام خطباء يقعون في علي رضي الله عنه ، فغضب سعيد بن زيد ، وقال : (ألا ترىٰ إلىٰ هـٰذا الرجل الظالم لنفسه ، الذي يأمر بلعن رجل من أهل الجنة ، فأشهد على التسعة أنهم في الجنة ، ولو شهدت على العاشر . . لم آثم) يعني نفسه رضي الله عنه . [انتهىٰ « الحلية » ١/٩٥ـ٩٦] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : توفي سعيد بن زيد بالعقيق ، وحمل إلى المدينة ، ودفن بها ، وذلك في سنة خمسين ، أو إحدىٰ وخمسين ، وكان [يوم مات] ابن بضع وسبعين سنة . انتهىٰ [« الصفوة » ١/١٥٤] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : لسعيد بن زيد رضي الله عنه خصائص لم يشاركه فيها مَن بعدَه :

منها : أنه قال : (لَمَشهدٌ شهده رجل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تغبر فيه وجهه . . أفضل من عمل أحدكم ولو عُمِّر عمر نوح [عليه الصلاة والسلام]) .

ومنها : أنه مجاب الدعوة علىٰ ما ثبت في « الصحيحين » . . . إلىٰ غير ذلك من المناقب التي لا تنحصر .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو محمد عبد الرحمـٰن بن عوف
رضي الله عنه

عبد الرحمـٰن بن عوف [بن عبد عوف] بن عبد الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة ، يجتمع نسبه مع النبي صلى الله عليه وسلم في كلاب بن مرة ، أمه الشَّفَّاء بنت عوف ، أسلمت وهاجرت .

أسلم عبد الرحمـٰن قديماً قبل [أن يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم] دار الأرقم ، فهو أحد الثمانية السابقين إلى الإسلام ، وهاجر إلى الحبشة الهجرتين ، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد .

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال ابن عمر رضي الله عنهما : إن عبد الرحمـٰن بن عوف رضي الله عنه قال لأصحاب الشورىٰ : هل لكم أن أختاره لكم ؟ فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : أنا أول من رضي ؛ فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له : « أنت أمين في أهل الأرض ، أمين في أهل السماء »[1] .

وروىٰ أيضاً عن عائشة رضي الله عنها قال : بينما هي في بيتها ؛ إذ سمعت صوتاً رجت منه المدينة ، فقالت : ما هـٰذا ؟ قالوا : عير قدمت لعبد الرحمـٰن بن عوف من الشام ، وكانت سبع مئة راحلة ، فقالت عائشة رضي الله عنها : أما إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « رأيت عبد الرحمـٰن بن عوف يدخل الجنة حبواً » ، فبلغ ذلك عبد الرحمـٰن رضي الله عنه ، فأتاها ، فسألها عما بلغه ، فحدثته ، قال : (فإني أشهدك أنها بأحمالها وأقتابها[2] وأحلاسها[3] في سبيل الله عز وجل)[4] .

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٥٠) .
(٢) **القَتَبُ** : الرحل الصغير .
(٣) **الحِلْسُ** : الكساء الذي يلي ظهر البعير تحت القتب ، شبهها به للزومها ودوامها .
(٤) أخرجه أحمد(٦/ ١١٥) .

وباع أرضاً من عثمان بأربعين ألف دينار ، فقسم ذاك المال في بني زهرة ، وفقراء المسلمين ، وأمهات المؤمنين ، وبعث إلىٰ عائشة رضي الله عنها بمال من ذلك ، فقالت عائشة : (أما إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لن يحنُوَ عليكم بعدي إلا الصالحون » سقى الله ابن عوف من سلسبيل الجنة) .

وروي : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : « لن تدخل الجنة إلا زحفاً ، فأقرِضِ الله عز وجل . . يطلق لك قدميك »[1] ، قال ابن عوف : وما الذي أُقرِضُ الله عز وجل يا رسول الله ؟ قال : « تتبرأ مما أمسيت فيه » ، قال : من كلِّه أجمع يا رسول الله ؟ قال : « نعم » ، فخرج ابن عوف وهو يهم بذلك ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال : (مر ابن عوف فليضف الضيف ، وليطعم المسكين ، وليعط السائل ، فإذا فعل ذلك . . كان كفارة لما هو فيه) .

وعن الزهري قال : تصدق عبد الرحمٰن بن عوف علىٰ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بشطر ماله أربعة آلاف دينار ، ثم تصدق بأربعين ألفاً ، ثم أربعين ألفاً ، ثم حمل علىٰ خمس مئة فرس في سبيل الله ، ثم حمل علىٰ ألف وخمس مئة راحلة في سبيل الله ، وكان عامة ماله من التجارة ، وأعتق ثلاثين ألف بيت .

وأتي بطعام وكان صائماً ، فقال : (قتل حمزة ولم نجد ما نكفنه فيه ، وهو خير مني ، وقتل مصعب بن عمير وهو خير مني فلم نجد ما نكفنه فيه ، وقد أصبنا منها ما قد أصبنا ، وإني لأخشىٰ أن تكون قد عجلت لنا طيباتنا في الدنيا) ولم يأكل[2] .

وقال علي رضي الله عنه يوم مات عبد الرحمٰن بن عوف : (اذهب عنها ابن عوف ، فقد أدركت صفوها ، ونشقت رنقها[3]) [انتهىٰ « الحلية » ١/٩٨ـ١٠٠] .

وقال شيخ الإسلام النووي ـ قدس الله روحه ـ : ولد عبد الرحمٰن بن عوف بعد عام الفيل بعشر سنين ، وهو أحد الثمانية السابقين إلى الإسلام ، وأحد الخمسة الذين أسلموا علىٰ يد أبي بكر ، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، وأحد الستة الذين هم أهل الشورىٰ ، وأحد الثلاثة الذين انتهت إليهم

---

(١) أخرجه بنحوه الحاكم (٣/ ٣٥٢) .
(٢) أخرجه البخاري (١٢٧٤) .
(٣) **الرنق** : الكدر .

الخلافة ، ثم كان هو الذي اجتهد في تقديم عثمان ، وكان من المهاجرين الأولين ، هاجر الهجرتين ، إلى الحبشة ثم إلى المدينة ، وآخىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين سعد بن الربيع ، وبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلىٰ دومة الجندل إلىٰ بني كلب ، وعممه بيده الشريفة صلى الله عليه وسلم ، وسدلها بين كتفيه ، وقال : « إن فتح الله عز وجل عليك . . فتزوج بنت ملكهم » أو قال : « شريفهم » ، ففتح الله عز وجل ، فتزوج بنت شريفهم الأصبغ ، فولدت له أبا سلمة .

ومن مناقب الإمام عبد الرحمـٰن بن عوف التي لا توجد لغيره من الناس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلىٰ وراءه في غزوة تبوك ، حين أدركه وقد صلىٰ بالناس ركعة ، وقد جاء هـٰذا في « صحيح مسلم » [٢٧٤/٨١] وغيره .

وقولنا : (لا توجد لغيره من الناس) احتراز من صلاة النبي صلى الله عليه وسلم خلف جبريل حين أعلمه بالمواقيت[1] .

وجرح عبد الرحمـٰن يوم أحد إحدىٰ وعشرين جراحة ، وجرح في رجله ، وسقطت ثنيتاه ، وكان كثير الإنفاق في سبيل الله عز وجل ، أعتق في يوم واحد أحَداً وثلاثين عبداً .

وروي له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسة وستون حديثاً ، اتفقا منها علىٰ حديثين ، وانفرد البخاري بخمسة .

وروىٰ عنه : ابن عمر ، وابن عباس ، وجابر ، وخلائق غيرهم من الصحابة والتابعين ، رضي الله عنهم أجمعين .

وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أن عبد الرحمـٰن بن عوف أمين في السماء أمين في الأرض » .

وكان كثير المال ، محظوظاً في التجارة ، قيل : إنه دخل علىٰ أم سلمة رضي الله عنها ، فقال : يا أماه ؛ خفت أن يهلكني كثرة مالي ؟ قالت : يا بني ؛ أنفق .

وعن الزهري قال : تصدق عبد الرحمـٰن علىٰ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بشطر ماله أربعة آلاف دينار ، ثم بأربعين ألفاً ، ثم تصدق بأربعين ألف دينار ، ثم تصدق بخمس مئة فرس في سبيل الله تعالىٰ ، ثم بخمس مئة راحلة ، وكان عامة ماله من التجارة .

---

(١) يعني مواقيت الصلاة ، وهـٰذا الحديث معروف عند الفقهاء بـ « حديث إمامة جبريل » أخرجه الستة وغيرهم .

وفي « كتاب الترمذي » [٣٧٤٩] : أن عبد الرحمٰن بن عوف رضي الله عنه أوصىٰ لأمهات المؤمنين بحديقة بيعت بأربع مئة ألف . قال الترمذي : حديث حسن .

وقال عروة بن الزبير رضي الله عنهما : أوصىٰ بخمسين ألف دينار في سبيل الله .

وقال الزهري : أوصىٰ لمن بقي ممن شهد بدراً لكل رجل بأربع مئة دينار ، وكانوا مئة فأخذوها ، وأخذها عثمان فيمن أخذ ، وأوصىٰ بألف فرس في سبيل الله تعالىٰ . انتهىٰ [التهذيب ، ١/ ٣٠١ـ٣٠٢] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : رأيت في كلام أبي الفرج زيادة علىٰ ما قدمت ذكره ، فأحببت إثباتها لأجل ذلك . وهي :

قال أبو الفرج : ومن مناقب عبد الرحمٰن بن عوف رضي الله عنه : أنه صلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم خلفه في غزوة تبوك ؛ فإنه صلى الله عليه وسلم كان قد ذهب لحاجته ، فأدركهم وقت الصلاة ، فأقاموا الصلاة ، فتقدمهم عبد الرحمٰن ، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فصلىٰ خلفه ركعة ، وأتم الذي فاته ، وقال : « ما يُقبَض نبي حتىٰ يصلي خلف رجل صالح من أمته » .

وكان من تواضعه رضي الله عنه : لا يُعرَف من بين عبيده . انتهىٰ [« الصفوة » ١/ ١٤٧] .

توفي سنة اثنتين وثلاثين في خلافة عثمان رضي الله عنه ، وصلىٰ عليه علي ، وقيل : الزبير رضي الله عنهما ؛ لأنه كان قد هجر عثمان بسبب تأمير أقاربه ، لمَّا قال له الناس : هٰذا فعلك . . دخل عليه ولامه ، وقال له : إنما قدمتك ووليتك لتسير بسيرة الشيخين رضي الله عنهما ، وقد خالفتَهما ، وقد أوطنتَ أهل بيتك علىٰ رقاب المسلمين ، فقال عثمان رضي الله عنه : إن عمر رضي الله عنه كان يقطع أقاربه في الله ، وأنا أوصلهم في الله عز وجل ، فقال عبد الرحمٰن : لله علي نذر ألاَّ أكلمك أبداً ، فلم يكلم عثمان حتىٰ مات ، رضي الله عنهما .

ودفن بالبقيع ، وهو ابن اثنتين وسبعين أو خمس وسبعين سنة .

وكان رضي الله عنه فيما ترك من الذهب ما قُطع بالفؤوس حتىٰ مَجَلت أيدي الرجال منه[1] ،

---

(١) قال في « الاكتفاء » : كان أهل « المدينة » عيالاً علىٰ عبد الرحمٰن بن عوف رضي الله عنه ، ثلث يقرضه من ماله ، وثلث يقضي ديونهم من ماله ، وثلث يصلهم رضي الله عنه وأرضاه .

وترك أربع نسوة ، صولحت امرأة منهن من ثمنها بثمانين ألفاً ، رضي الله عنه وأرضاه[1] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : لعبد الرحمـٰن بن عوف رضي الله عنه خصائص لم يشاركه فيها مَن بعده :

منها : أنه أمين في أهل الأرض ، أمين في أهل السماء .

ومنها : كثرة إنفاقه وصدقته في سبيل الله تعالىٰ ، حتىٰ إنه كان يريد أن يَخرُج من ماله كله ، لولا ما أمره الله تعالىٰ به علىٰ لسان جبريل عليه الصلاة والسلام ، من إطعام السائل ، وإعطاء المسكين ، وإقراء الضيف .

ومنها : أنه أعتق ثلاثين ألف بيت .

ومنها : أن النبي صلى الله عليه وسلم عممه بيده الشريفة ، وسدلها بين كتفيه ، وقال : « إن فتح الله عليك . . فتزوج بنت ملكهم » ، أو قال : « شريفهم » ، وكان الفتح علىٰ يديه ، وتزوج بنت شريفهم ، فولدت له أبا سلمة .

ومنها : أنه صلى الله عليه وسلم صلىٰ خلفه حيث لا عذر من ضعف أو غيره ، وقال عنه : « إنه رجل صالح » .

ومنها : أنه أعتق في يوم واحد أحَداً وثلاثين عبداً .

ومنها : أنه من شدة تواضعه كان لا يُعرَفُ من بين عبيده .

ومنها : أنه أوصىٰ لأمهات المؤمنين بحديقة بيعت بأربع مئة ألف .

ومنها : أنه أوصىٰ بخمسين ألف دينار في سبيل الله .

ومنها : قال الزهري : إنه أوصىٰ لمن بقي ممن شهد بدراً لكل رجل بأربع مئة دينار ، وكانوا مئة ، فأخذوها ، وأخذها عثمان بن عفان فيمن أخذ ، وأوصىٰ بألف فرس في سبيل الله . . . إلىٰ غير ذلك . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) سيدنا عبد الرحمـٰن بن عوف له من الولد عشرون ذكراً وثماني بنات ، مات في خلافة عثمان ، ودفن بالبقيع . انتهىٰ من « الرياض المستطابة » (١٨٠) .

ومنهم الإمام أمير الشام :

أبو عبيدة ابن الجراح
رضي الله عنه

عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن وهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر بن مالك ، يجتمع نسبه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأب السابع ، وهو : فهر بن مالك القرشي .

أمين هـٰذه الأمة ، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وأحد الرجلين اللَّذَينِ عينهما أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوم السقيفة للخلافة ، والآخر عمر ، وأحد الخمسة الذين أسلموا في يوم واحد علىٰ يدي الصديق ، رضي الله عنهم أجمعين .

ولما هاجر . . آخى النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين سعد بن معاذ .

أسلم مع عثمان بن مظعون ، وهاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية ، وشهد بدراً والمشاهد كلها ، وثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، ونزع يومئذ بقية الحلقتين اللتين دخلتا في وجنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم من حلق المغفر[1] ، ووقعت ثنيتا أبي عبيدة رضي الله عنه ، فكان من أحسن الناس هتماً[2] .

وقال شيخ الإسلام النووي ـ قدس الله روحه ـ : شهد أبو عبيدة رضي الله عنه بدراً ، وقَتل أباه حينئذ ، وشهد ما بعدها من المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقَبْرُ أبي عبيدة بغَوْرِ بيسان ، عند قرية تسمىٰ : عمتا ، وعلىٰ قبره من الجلالة ما هو لائق به ، وقد زرته فرأيت عنده عجباً .

وصلىٰ عليه معاذ بن جبل ، ونزل في قبره هو وعمرو بن العاصي والضحاك بن قيس ، وختم الله له بالشهادة ؛ فإنه توفي بالطاعون ، وهو شهادة لكل مسلم .

---

(١) **المِغْفَرُ** : زردٌ ينسج علىٰ قدر الرأس يُلبس تحت القلنسوة .

(٢) **الهَتْمُ** : انكسار الثنايا من أصولها خاصة ، ومعنىٰ كان أحسن الناسِ هتماً : أي أحسن من انكسرت ثناياه .

وفي « الصحيحين » [خ ٣٥٣٤ـ م ٢٤١٩] : عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لكل أمة أميناً ، وإن أميننا ـ أيتها الأمة ـ أبو عبيدة بن الجراح » وفي رواية مسلم : « هـٰذا أمين هـٰذه الأمة » انتهىٰ [« التهذيب » ٢/٢٥٩] .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : فيه نزلت : ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لكل أمة أميناً ، وأمين هـٰذه الأمة أبو عبيدة ابن الجراح » .

وجعل أبو أبي عبيدة ابن الجراح يتصدىٰ لابنه أبي عبيدة يوم بدر ، فجعل أبو عبيدة يحيد عنه ، فلما أكثر . . قصده أبو عبيدة ، فقتله ، فأنزل الله تعالىٰ فيه هـٰذه الآية ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا﴾ الآية .

ولما قدم عمر الشام . . تلقاه الناس وعظماء أهل الأرض والأمراء ، فقال عمر : أين أخي أبو عبيدة ؟ قالوا : الآن يأتيك ، فأتاه علىٰ ناقة مخطومة بخطام ليف ، فلما رآه عمر . . نزل فاعتنقه ، وقال للناس : انصرفوا عنا ، ثم دخل عليه بيته ، فلم ير في بيته إلا سيفه وترسه وقوسه ورحله ، وقال عمر لأصحابه : تَمَنَّوْا ، فقال رجل : أتمنىٰ لو أن هـٰذه الدار مملوءة ذهباً . . أنفقه في سبيل الله عز وجل ، ثم قال : تمنوا ، فقال رجل : أتمنىٰ لو أنها مملوءة لؤلؤاً وزبرجداً وجوهراً . . أنفقه في سبيل الله عز وجل ، وأتصدق به ، فقال عمر : أتمنىٰ لو أن هـٰذه الدار مملوءة رجالاً مثل أبي عبيدة ابن الجراح .

وكان أبو عبيدة يسير في العسكر ، ويقول : (ألا رُبَّ مبيض لثيابه مدنس لدينه ، ألا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين ، بادروا السيئات القديمات بالحسنات الحديثات ؛ فلو أن أحدكم عمل من السيئات ما بينه وبين السماء ، ثم عمل حسنة . . لعلت فوق سيئاته حتىٰ تقهرهن) .

وقال رضي الله عنه : (مَثَل [قلب] المؤمن . . مَثَل العصفور ، يتقلب كل يوم كذا وكذا مرة) انتهىٰ [« الحلية » ١/١٠٠ـ١٠١] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : عن أنس رضي الله عنه : أن أهل اليمن لما قدموا علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم . . سألوه أن يبعث معهم رجلاً يعلمهم السنة والإسلام ، فأخذ

بيد أبي عبيدة وقال : « هـٰذا أمين هـٰذه الأمة » .

ولما وقع الطاعون بالشام ، وبلغ عمر رضي الله عنه . . قال : إن أدركني أجلي وأبو عبيدة حي . . استخلفته ، فإن سألني الله عز وجل لِمَ استخلفته علىٰ أمة محمد ؟ قلت : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن لكل نبي أميناً ، وأميني أبو عبيدة ابن الجراح » ، فإن أدركني أجلي وقد توفي أبو عبيدة . . استخلفت معاذ بن جبل ، فإن سألني ربي لِمَ استخلفته ؟ قلت : سمعت رسولك صلى الله عليه وسلم يقول : « إن العلماء إذا حضروا ربهم عز وجل . . كان بين أيديهم رتوة[1] بحجر » .

وتوفي أبو عبيدة في طاعون عمواس بالأردن ، وقُبِر ببيسان ، وصلىٰ عليه معاذ بن جبل ، في سنة ثمان عشرة ، في خلافة عمر ، رضي الله عنهم أجمعين ، وهو ابن ثمان وخمسين سنة . انتهىٰ [« الصفوة » ١/ ١٥٥] .

وقال في كتاب « الوسيلة » : روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما أفضت إليه الخلافة . . كتب إلىٰ من بالشام يعزيهم بأبي بكر الصديق رضي الله عنه ، ويأمرهم بالجهاد في سبيل الله عز وجل ، فكان مما كتب :

بسم الله الرحمـٰن الرحيم

من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ، إلىٰ من في الشام من المسلمين والمؤمنين ، سلامٌ عليكم ، فإن الحادث الذي حدث علىٰ هـٰذه الأمة أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، رحمة الله ورضوانه على الإمام أبي بكر الصديق ، القائم بالحق ، القائل بالصدق ، والآمر بالقسط ، والآخذ بالعرف ، الرؤوف الرحيم ، الورع الحكيم ـ أو قال : الحليم ـ فنرغب إلى الله عز وجل في العصمة برحمته ، والعمل بطاعته ، والخلود في جنته ، والنظر إلىٰ وجهه الكريم إنه قريب مجيب ، وإذا ورد عليكم كتابي هـٰذا ، وقرأتموه . . فالأمير عليكم أبو عبيدة ابن الجراح ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ثم كتب كتاباً ثانياً إلى الإمام أبي عبيدة ابن الجراح في خاصته ، فكان مما كتب فيه :

بسم الله الرحمـٰن الرحيم

من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلىٰ أبي عبيدة ابن الجراح ، سلامٌ عليك .

---

(١) **الرتوةُ** : الرمية ، **والمعنىٰ** : أنه يتقدم على العلماء يوم القيامة برمية سهم أو حجر .

أما بعد :

فإنك بحمد الله في كنف من المسلمين ، وعددٍ تلقىٰ ببعضهم حصار أهل دمشق ، فإذا ورد عليك كتابي هـٰذا . . فاقرأه علىٰ مَن قِبَلك مِن المسلمين ، وخبِّرهم بأنك الوالي عليهم ، وابعث سراياك في نواحي الشام ، وانظر فكل من استغنيت عنه . . فابعثه إلي ، ومن احتجت إليه في حصارك . . فأمسكه عندك ، وأمسك فيمن تمسك عندك خالد بن الوليد ؛ فإنه لاغنىٰ لك عنه ، والسلام عليك .

فلما وصل الكتاب إلىٰ أبي عبيدة ابن الجراح بإمارته وعزل خالد بن الوليد ، وكان حين بعثه أبو بكر الصديق رضي الله عنه قد ولاه على الجيش ، فلما قرأ أبو عبيدة كتاب عمر رضي الله عنه . . أخفىٰ عزل خالد ، ولم يزل يصلي خلفه ، حتىٰ سمع خالدٌ رضي الله عنه عزله من الناس ، فقال لأبي عبيدة : هلاَّ أعلمتني بعزلي ؛ فإنك كنت تصلي خلفي ، ولك السلطان علي ؟ فقال أبو عبيدة : يا أبا سليمان ؛ ماذا عندنا من سلطان الدنيا وإمارتها ؟ إنما نحن أخوان في ذات الله سبحانه وتعالىٰ ، فأيُّنا وَلِيَ أخاه . . لم يضره ذلك شيئاً في دينه ولا في دنياه ، ولعل الوالي أن يكون إلى الفتنة أقرب من رعيته ، إلا من عصم الله عز وجل .

وبعد :

فإني قد وليتك الحرب ، وجعلت إليك أعنة الخيل .

ثم عبأ أبو عبيدة الجيوش ، ولقي القومُ المشركينَ ، فنصره الله عز وجل عليهم ، وهزمهم ، وعاد من أفلت منهم ـ انحاز ـ إلىٰ دمشق ، ولم يزالوا في حصارهم ستة أشهر ، ثم إن الروم التمسوا من أبي عبيدة الصلح ، فأجابهم إليه علىٰ مئة ألف دينار ، والجزية بعد ذلك علىٰ كل محتلم ، من الذكور أربعة دنانير في كل عامٍ ، وعلى المرأة ديناران ، وكتب لهم أبو عبيدة بذلك كتاباً ، وقبض منهم المال ، وفتحت له دمشق ، ودخلها المسلمون في يوم الجمعة من رجب ، سنة أربع عشر للهجرة ، وأخرج أبو عبيدة الخمس من المال وبعثه إلىٰ أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ، وقسم الباقي في الجيش ، وكانوا يومئذٍ سبعةً وثلاثين ألفاً ، رضي الله عنهم وأرضاهم ، ورضي عنا بهم ، آمين ، آمين ، آمين . انتهىٰ .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : لأبي عبيدة بن الجراح خصائص لم يشاركه فيها مَن بعده :

منها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن لكل أمة أميناً ، وإن أميننا ـ أيتها

الأمة ـ أبو عبيدة بن الجراح » ، وفي رواية لمسلم : « هـٰذا أمين هـٰذه الأمة » .

ومنها : أنه نزع حلقتي المغفر من وجنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسقطت ثنيتاه من أجل ذلك ، فكان من أحسن الناس هتماً .

ومنها : أنه قَتل أباه ، وفيه نزلت ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ الآية .

ومنها : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : إن أدركني أجلي . . استخلفت أبا عبيدة بن الجراح .

ومنها : أنه قال للصحابة : تمنَّوا ، فكل واحد تمنىٰ شيئاً ينفقه في سبيل الله ، فقال عمر رضي الله عنه : (أتمنىٰ لو أن هـٰذه الدار مملوءة رجالاً مثل أبي عبيدة بن الجراح) . . . إلىٰ غير ذلك من المناقب . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

جمع من الصحابة

رضي الله عنهم

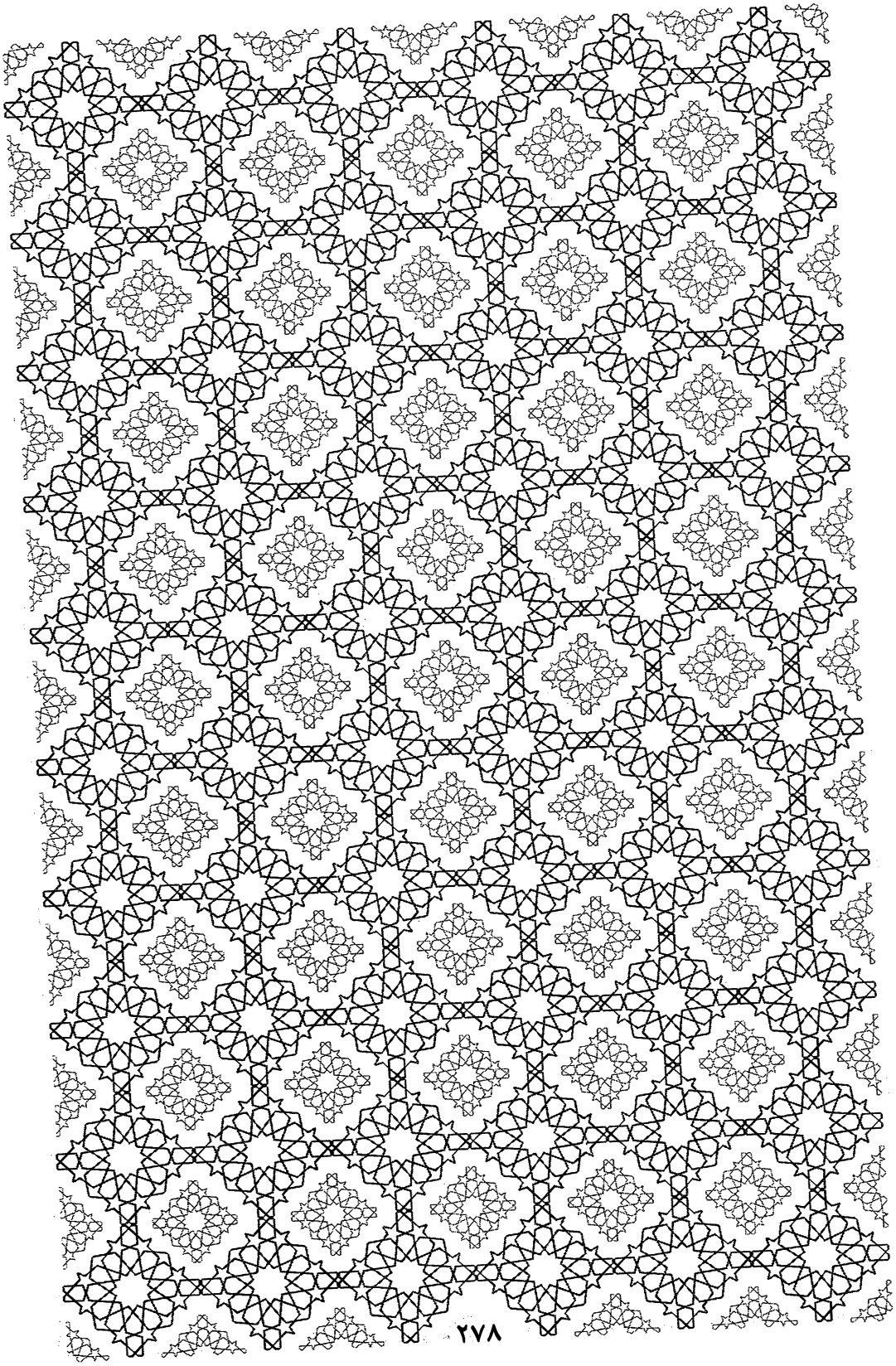

ومنهم الإمام :

إبراهيم ابن سيد المرسلين محمد
صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين

قال شيخ الإسلام النووي ـ قدس الله روحه ـ : إبراهيم : أمه مارية القبطية ، ولدته مارية رضي الله عنها في ذي الحجة سنة ثمان من الهجرة ، وتوفي سنة عشر .

ثبت في « صحيح البخاري » : أنه توفي وله من العمر سبعة عشر أو ثمانية عشر شهراً ، هٰكذا ثبت على الشك .

قال الواقدي وغيره : توفي يوم الثلاثاء لعشر خلون من ربيع الأول سنة عشر .

وفي « البخاري » [١٣١٦] أيضاً : أنه لما توفي إبراهيم . . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن له مرضعاً في الجنة » ضبطناه بوجهين أشهرهما : بضم الميم وكسر الضاد ، والثاني : بفتحهما .

وسُرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بولادته كثيراً ، وكانت قابلته سلمىٰ مولاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، امرأة أبي رافع ، وبشَّر أبو رافع به النبي صلى الله عليه وسلم ، فوهب له عبداً ، وحلق شعره يوم سابعه .

قال الزبير بن بكار : وتصدق صلى الله عليه وسلم بزنة شعره فضة ، ودفنه[١] ثم دفعه إلىٰ أم سيف امرأةِ قين[٢] بالمدينة لترضعه .

قال الزبير : تنافست الأنصار فيمن يرضعه ، كل ينافس علىٰ تحصيل البركة بإرضاعه ، وكي يفرِّغوا مارية رضي الله عنها لخدمة النبي صلى الله عليه وسلم .

---

(١) جاء في نسخة : (قال مؤلفه ـ عفا الله عنه ـ : هٰذا من أعلام النبوة ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم دفن شعره ، ولم يدفن شعر الحسن والحسين ؛ لأنهما عاشا ولم يعش إبراهيم عليه السلام ، فكان [في دفن] شعره كالإعلام بموته . والله أعلم) .

(٢) القَيْنُ : الحداد .

وفي « البخاري » [١٢٤١] : عن أنس رضي الله عنه قال : دخلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم علىٰ أبي سيف القين ، وكان ظِئراً لإبراهيم ـ أي : زوج مرضعته ـ فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم إبراهيم فقبله وشمه ، ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه ، فجعلت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم تذرفان ، فقال له عبد الرحمـٰن بن عوف : وأنت يا رسول الله ؟! فقال : « يابن عوف ؛ إنها رحمة » ، ثم أتبعها بأخرىٰ فقال : « إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون » .

ودفن بالبقيع ، وقبره مشهور عليه قبة[1] ، وصلىٰ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكبر أربع تكبيرات .

قيل : إن الفضل بن العباس رضي الله عنهما غسل إبراهيم ، ونزل في قبره هو وأسامة بن زيد ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس علىٰ شفير القبر ، ورش علىٰ قبره ماء ، وهو أول قبر رش عليه الماء ، والله سبحانه أعلم .

وأما أمه مارية رضي الله عنها . . فإنها توفيت في الحرم سنة ست عشرة ، وصلىٰ عليها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكان يجمع الناس لشهود جنازتها ، ودفنت بالبقيع عند ولدها رضوان الله عليهما . انتهىٰ [« التهذيب » : ١/ ١٠٢ـ١٠٣ و٢ / ٣٥٤ـ٣٥٥] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) وقد أُزيلت القبة في هـٰذا الزمان .

ومنهم الإمام :

حمزة بن عبد المطلب
رضي الله عنه

يكنىٰ أبا عُمارة .

قال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : قال محمد بن كعب القرظي : سبب إسلام حمزة رضي الله عنه : أنَّ أبا جهل نال من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبلغ ذلك حمزة ، فدخل المسجد مغضَباً ، فضرب رأس أبي جهل بالقوس ضربة أوضحته[1] ، وأسلم حمزة ، فسرَّ به رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون ، وكان ذلك في السنة السادسة من النبوة بعد دار الأرقم ، وأول لواء عقده رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة لحمزة رضي الله عنه[2] .

وعن علي رضي الله عنه قال : لما كان يوم بدر ، ودنا القوم منا . . إذا رجل منهم علىٰ جمل أحمر يسير في القوم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا علي ؛ ناد لي حمزة » وكان أقربهم من المشركين ، قريباً من صاحب الجمل الأحمر ، فسأل عنه ، وماذا يقول لهم ، فجاء حمزة ، فقال : هو عتبة بن ربيعة ، وهو ينهىٰ عن القتال ، قال : فبرز عتبة وشيبة والوليد ، فقالوا : من يبارز ؟ فخرج فتية من الأنصار ، فقال عتبة : لا نريد هـٰؤلاء ولـٰكن يبارزنا من بني عمنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قم يا علي ، قم يا حمزة ، قم يا عبيدة بن الحارث »[3] .

وقال الزبير رضي الله عنه : لما كان يوم أحد . . أقبلت امرأة تسعىٰ ، حتىٰ إذا كادت تشرف على القتلىٰ . . قال : فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تراهم ، فقال : « المرأةَ المرأةَ » ، قال الزبير : فتوسمت أنها أمي صفية ، فخرجتُ أسعىٰ إليها ، فأدركتها قبل أن

---

(١) **الموضحة** : شجة في الرأس توضح العظم بكشف اللحم عنه .
(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٠٧) .
(٣) أخرجه أحمد (١/ ١١٧) .

تنتهي إلى القتلىٰ ، قال : فلَدَمَتْ[1] في صدري ـ وكانت امرأة جلدة ـ وقالت : إليك لا أرض لك ، قال : فقلت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم عزم عليك ، فوقفَتْ ، وأخرجَتْ ثوبين معها ، فقالت : هـٰذان ثوبان ، جئت بهما لأخي حمزة ، فقد بلغني مقتله ، فكفِّنوه بهما ، فجئنا بالثوبين ؛ فإذا إلىٰ جنبه رجل من الأنصار قتيل ، فوجدنا غضاضة وحياء أن يكفَّن حمزة في ثوبين والأنصاري لا كفن له ، فقلنا : لكل واحد منهما ثوب ، وكان أحد الثوبين أكبر من الآخر ، فأقرعنا بينهما ، وكَفَّنَّا كل واحد منهما في الثوب الذي طار[2] له . انتهىٰ [« الصفوة » : ١/١٥٧ـ١٥٩] .

وقال شيخ الإسلام النووي ـ قدس الله روحه ـ : حمزة رضي الله عنه يقال له : أسد الرحمـٰن ، وأسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو عمه ، وأخوه من الرضاعة ، ولم يعقب .

وأمه هالة بنت أهيب بن عبد مناف بن زهرة ، وهي بنت عم آمنة بنت وهب أم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان حمزة أسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم بسنتين ، وقيل : بأربع ، وآخىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين زيد بن حارثة .

أسلم في السنة الثانية من مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهاجر إلى المدينة ، وشهد بدراً ، وبارز وأبلىٰ فيها بلاء عظيماً ، وقاتل يومئذ بسيفين .

قال أبو الحسن المدائني : أول لواء عقده رسول الله صلى الله عليه وسلم لحمزة رضي الله عنه حين بعثه في سرية سِيف البحر ـ بكسر السين ـ من أرض جهينة ، وخالفه ابن إسحاق ، فقال : أول لواء عقده لعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب .

استشهد حمزة رضي الله عنه يوم أحد ، في نصف شوال السنة الثالثة من الهجرة ، بعد أن قتل أحَداً وثلاثين من الكفار ، ودفن في موضعه ، وقبره مشهور يزار ويتبرك به ، وحزن عليه النبي صلى الله عليه وسلم ، والصحابة رضوان الله عليهم أجمعين . انتهىٰ [« التهذيب » ١/١٦٨ـ ١٦٩] .

وروىٰ أبو الفرج : عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف

---

(١) لَدَمت : ضربت ودفعت ضرباً يسمع صوته .

(٢) في « مسند أحمد » (١/ ١٦٥) : (صار) ولعله الصواب .

علىٰ حمزة حين استشهد ، فنظر إلىٰ شيء لم ينظر إلىٰ شيء قط كان أوجع لقلبه منه ، ونظر إليه وقد مُثِّل به فقال : « رحمة الله عليك ؛ فإنك كنت ـ ما علمتُ ـ فَعولاً للخيرات ، وَصولاً للرحم ، ولولا حزنُ مَنْ بعدك عليك . . لسرني أن أدعك حتىٰ تحشر من أفواه شتىٰ ، أما والله ؛ مع ذلك لأمثلن بسبعين منهم مكانك » فنزل جبريل عليه الصلاة والسلام ، والنبي صلى الله عليه وسلم واقف بعد بخواتيم النحل : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ إلىٰ آخر السورة ، فصبر النبي صلى الله عليه وسلم وأمسك عما أراد من المثلة[1] . انتهىٰ [« الصفوة » ١/١٥٩] .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : وفي رواية ابن إسحاق : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فيما بلغني ـ يلتمس حمزة بن عبد المطلب ، فوجده ببطن الوادي قد بقر بطنه عن كبده ، ومُثِّل به رضوان الله عليه ، وجُدِع أنفه وأذناه ، فحدثني محمد بن جعفر بن الزبير رضي الله عنهم : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حين رأىٰ ما رأىٰ : « لولا أن تحزن صفية ، وتكون سُنَّة من بعدي . . لتركته حتىٰ يكون في بطون السباع وحواصل الطير » ، وقال : « لئن أظهرني الله علىٰ قريش في موطن من المواطن . . لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم » .

فلما رأى المسلمون حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيظه علىٰ من فَعل بعمه ما فَعل . . قالوا : (والله ؛ لئن أظهرنا الله يوماً من الدهر . . لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب) .

قال ابن هشام : لما وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم علىٰ حمزة رضي الله عنه . . قال : « لن أُصاب بمثلك أبداً ، ما وقفت موقفاً أَغيَظَ إلي من هـٰذا » ثم قال : « جاءني جبريل ، فأخبرني : أن حمزة مكتوب في أهل السماوات السبع : حمزة بن عبد المطلب أسد الله ، وأسد رسوله » .

وبعد أن نزل قوله تعالىٰ : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ الآيات . . ما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم في مقام قط ففارقه حتىٰ يأمر بالصدقة ، وينهىٰ عن المثلة ، وأقبلت صفية رضي الله عنها لتنظر إلىٰ أخيها لأبويها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابنها الزبير : « اِلقَها فأرجعها ، لا ترىٰ ما بأخيها » ، فقال لها : يا أماه ؛ إن رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/٢١٨) .

يأمرك أن ترجعي ، قالت : ولِمَ ؟ وقد بلغني أن قد مُثِّل بأخي ، وذلك في الله ، فما أرضاني بما كان من ذلك ، لأصبرن ولأحتسبن إن شاء الله تعالىٰ ، فلما أخبره بذلك . . قال : « خلِّ سبيلها » ، فأتته ، فنظرت إليه ، فصلت عليه ، واسترجعت ، واستغفرت له . انتهىٰ[1] .

وقال أبو الفرج : عن أنس رضي الله عنه : (كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا صلىٰ علىٰ جنازة . . كبر عليها أربعاً ، وإنه كبر علىٰ حمزة سبعين تكبيرة)[2] .

وعن جابر رضي الله عنه قال : (لما أراد معاوية أن يجري عينه التي بأُحد . . كتبوا إليه : إنا لا نستطيع أن نجريها إلا علىٰ قبور الشهداء ، فكتب : انبشوهم ، قال : فرأيتهم يُحمَلون علىٰ أعناق الرجال كأنهم قوم نيام ، وأصابت المسحاة طرف رِجْلِ حمزة ، فانبعثت دماً) رضي الله عنهم أجمعين وأرضاهم . انتهىٰ [« الصفوة » ١/ ١٦٠] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) انظر « السيرة النبوية » لابن هشام (٣/ ٩٥ـ٩٧) .

(٢) وذلك أنه صلىٰ عليه أولاً ثم صلىٰ علىٰ غيره ، وتركه حتىٰ صلىٰ علىٰ جنائزَ كثيرة ، فاشترك مع تلك الجنائز فبلغت تكبيراته ذلك العدد .

ومنهم الإمام :

زيد بن حارثة
رضي الله عنه

روىٰ أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ قال : كان زيد بن حارثة رضي الله عنه قد زارت أمه قومها وزيد معها ، فأغارت خيل في الجاهلية ، فمروا علىٰ بني معن ، فاحتملوا زيداً ، وهو يومئذ غلام يفعة[1] ، فوافَوا به سوق عكاظ ، فعرضوه للبيع ، فاشتراه حكيم بن حزام رضي الله عنه لعمته خديجة بنت خويلد رضي الله عنها بأربع مئة درهم ، فلما تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وهبته له ، فحج ناس من كعب ، فرأوا زيداً ، فعرفهم وعرفوه ، فانطلقوا ، فأعلموا أباه ، فخرج حارثة وكعب ابنا شراحيل بفدائه ، فقدما مكة ، فسألا عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فقيل : هو في المسجد ، فدخلا عليه ، فقالا : يا بن هاشم ، يا بن سيد قومه ؛ أنتم أهل حرم الله وجيرانه ، تفكون العاني ، وتطعمون الأسير ، جئناك في ابننا عندك ، فامنن علينا ، وأحسن إلينا في فدائه ؛ فإنا سنرفع لك في الفداء ، قال : « ما هو ؟ » قالوا : زيد بن حارثة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فهلاَّ غير ذلك ؟ » ، قالا : وما هو ؟ قال : « أُدعوه فخيِّروه ، فإن اختاركما . . فهو لكما بغير فداء ، وإن اختارني . . فوالله ؛ ما أنا بالذي أختار علىٰ من اختارني أحداً » ، قالوا : قد غمرتنا بالعدل والإحسان ، فدعاه ، فقال : « هل تعرف هـٰؤلاء ؟ » قال : نعم ؛ هـٰذا أبي وهـٰذا عمي ، قال : « فأنا مَن قد علمتَ ورأيتَ صحبتي لك ، فاخترني أو اخترهما » ، فقال زيد : ما أنا بالذي أختار عليك أحداً ، أنت مني بمكان الأب والعم ، فقالوا : ويحك يا زيد! أتختار العبودية على الحرية ، وعلىٰ أبيك وعمك وأهل بيتك ؟! قال : نعم ؛ قد رأيت من هـٰذا السيد العظيم شيئاً ، فما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً ، فلما رأىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك . . أخرجه إلى الحِجْر ، وقال : « يا من حضر ؛ اشهدوا أن زيدا ابني » ، فلما رأىٰ ذلك أبوه وعمه . . طابت أنفسهما ، وانصرفا ، فدعي زيد ابن محمد ، حتىٰ

---

(١) غلامٌ يَفَعَةٌ : قارب الاحتلام .

جاء الله بالإسلام ، فزوجه النبي صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش ، فلما طلقها . . تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم ، فتكلم المنافقون ، وقالوا : تزوج امرأة ابنه ، فنزل : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ .

ونزل : ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ ، فدعي يومئذ زيد بن حارثة .

قال الزهري : أول من أسلم زيد .

وقال أهل السير : شهد زيد بدراً ، وأحداً ، والخندق ، والحديبية ، وخيبر ، واستخلفه رسول الله صلى الله عليه وسلم على المدينة حين خرج إلى المريسيع ، وخرج أميراً في سبع سرايا ، ولم يسمَّ أحد من الصحابة في القرآن باسمه غيره ، رضي الله عنه .

استشهد في غزوة مؤتة في جمادى الأولىٰ سنة ثمان ، وهو ابن خمس وخمسين سنة .

ولما أصيب زيد . . أتاهم النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : فجهشت بنت زيد في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبكىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتحب ، فقال له سعد بن عبادة رضي الله عنه : يا رسول الله ؛ ما هـٰذا ؟! قال : « شوق الحبيب إلىٰ حبيبه »[1] انتهىٰ [« الصفوة » ١/ ١٦٠-١٦٢] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) أورد نحوه في « فيض القدير » (٣/ ٥٢١) وقال : أخرجه الروياني في « مسنده » ، والضياء المقدسي في « المختارة » عن بريدة رضي الله عنه .

ومنهم الإمام الأمير ابنه :

أسامة بن زيد
رضي الله عنه

قال النووي : أسامة بن زيد بن حارثة ، مولىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابن مولاه ، وابن مولاته ، وحبه ، وابن حبه ، كنيته : أبو محمد ، أُمه : أُم أيمن بركة .

روي له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مئة وثمانية وعشرون حديثاً ، اتفقا منها علىٰ خمسة ، وانفرد البخاري بحديثين ، [ومسلم بحديثين] .

روىٰ عنه : ابن عباس ، ثم جماعات من أكابر التابعين .

وفي « الصحيحين » [خ ٣٥٢٤ـ م ٢٤٢٦] : عن ابن عمر قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثاً ، وأمَّر عليهم أسامة بن زيد ، فطَعن بعضُ الناس في إمارته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن تطعنوا في إمارته . . فقد طعنتم في إمارة أبيه من قبل ، وايم الله ؛ إن كان خليقاً للإمارة ، وإن كان لَمِنْ أحب الناس إليَّ » .

وزاد في رواية « مسلم » : « فإنه من صالحيكم » .

وفي « البخاري » [٣٥٢٨] : عن أسامة بن زيد : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأخذه والحسن بن علي ، فيقول : « اللهم ؛ أحبَّهُما ، فإني أحبُّهما » أو كما قال .

وفي رواية له أيضاً : قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يقعدني علىٰ فخذه ، ويُقعِد الحسن علىٰ فخذه الآخر ، ثم يضمُّنا ، ثم يقول : « اللهم ؛ إني أرحمهما فارحمهما » .

وفي « البخاري » [٣٢٨٨] ، و« مسلم » [١٦٨٨] : عن عائشة رضي الله عنها : أن قريشاً أهمهم شأن المخزومية ، فقالوا : من يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد ، حِبُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ورُوِّينا في « الترمذي » [٣٨١٣] : عن أسلم مولىٰ عمر : أن عمر رضي الله عنه فرض لأُسامة ثلاثة آلاف وخمس مئة ، وفرض لابنه عبد الله ثلاثة آلاف ، فقال : (لِمَ فضَّلْتَ

أُسامة عليَّ ؟ فقال عمر رضي الله عنه : لأن زيداً كان أَحَبَّ إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبيك ، وكان أُسامة أَحَبَّ إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم منك ، فآثرتُ حُب رسول الله صلى الله عليه وسلم علىٰ حُبي) قال الترمذي : حديث حسن .

ومناقب أُسامة رضي الله عنه كثيرة مشهورة .

ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إمارة الجيش وفيهم عمر بن الخطاب ، وعقد له اللواء ، وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وله عشرون سنة .

وثبت في « الصحيحين » [خ ٣٥٢٥ـ م ١٤٥٩] : عن عائشة رضي الله عنها قالت : دخل علي قائف[١] والنبي صلى الله عليه وسلم شاهد ، وأُسامة بن زيد وزيد مضطجعان ، فقال : إن هـٰذه الأقدام بعضها من بعض ، فسُرَّ النبي صلى الله عليه وسلم بذلك وأعجبه .

قال العلماء : سبب سروره صلى الله عليه وسلم : أن أُسامة كان لونه أسودَ ، وكان طويلاً خرج إلىٰ أمه ، وكان أبوه ـ زيد ـ قصيراً أبيض ، وقيل : بين البياض والسواد ، وكان بعض المنافقين قصد المغايظة والإيذاء ، فدفع الله عز وجل ذلك ، وله الحمد أجمع ، عدد عفوه عن خلقه .

توفي أسامة بالمدينة سنة أربع وخمسين . انتهىٰ [« التهذيب » ١/١١٣ـ١١٥] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) **القائفُ** : الذي يتتبع الآثار ، ويعرفها ، ويعرف شبه الرجل بأخيه وأبيه .

ومنهم الإمام :

عبد الله بن جحش
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : أمه : أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، شهد بدراً ، وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أخته زينب بنت جحش رضي الله عنها ، ويكنىٰ : أبا محمد ، أسلم قبل [دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم] دار الأرقم ، وهاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية ، وبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم أميراً في سرية إلىٰ نخلة ، وفيها تسمَّىٰ بأمير المؤمنين ، فهو أول من دعي بذلك .

وعن الشَّعبي : أول لواء عقد في الإسلام لواء عبد الله بن جحش ، وأول مغنم قسم في الإسلام مغنمه .

وعن سعد بن أبي وقاص : أن عبد الله بن جحش رضي الله عنه قال له يوم أحد : (ألا ندعو الله تعالىٰ ؟) فخلَوا في ناحية ، فدعا عبد الله بن جحش رضي الله عنه فقال : (يا رب ؛ إذا لقيتُ العدو . . فلقِّني رجلاً شديداً بأسه ، شديداً حرده[1] ، أقاتله فيك ويقاتلني ، ثم يأخذني فيجدع أنفي وأذني ، فإذا لقيتُك غداً . . قلتَ : يا عبد الله ؛ مَن جدع أنفك وأذنك ؟ فأقول : فيك وفي رسولك صلى الله عليه وسلم ، فتقول : صدقت) قال سعد : (فلقد رأيته آخر النهار ، وإن أنفه وأذنه لمعلقتان في خيط) .

استشهد رضي الله عنه يوم أحد ، ودفن عند حمزة ـ خاله ـ في قبر واحد ، رضي الله عنهما ، وهو ابن بضع وأربعين سنة .

وروي عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه أنه قال : إني لأرجو أن يبر الله آخر قسمه كما بر أوله ، هنيئاً له ، رضي الله عنه . انتهىٰ [« الصفوة » ١/١٦٣ـ١٦٤] .

وقال الإمام النووي ـ قدس الله روحه ـ : أسلم عبد الله بن جحش قديماً ، وهاجر

---

(١) حرده : غضبه وغيظه .

الهجرتين إلىٰ أرض الحبشة ، هو وأخواه : أبو أحمد وعبيد الله ، وأختهم : زينب بنت جحش أم المؤمنين ، وأم حبيبة ، وحمنة بنات جحش ، فأما عبيد الله . . فتنصَّر ومات بالحبشة نصرانياً .

وهاجر عبد الله رضي الله عنه وأخوه أبو أحمد وأهله إلى المدينة ، وأمَّره رسول الله صلى الله عليه وسلم علىٰ سرية ، وهو أول أمير أمَّره ، وغنيمته أول غنيمة في الإسلام ، ثم شهد بدراً ، واستشهد يوم أحد ، وكان دعا يوم أحد أن يقاتل ، ويُستَشْهَدُ ويُقطَع أنفه وأذنه ، ويمثَّلَ به في الله تعالىٰ ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فاستجاب الله تعالىٰ دعاءه ، واستُشهد ، وعمل الكفار به ذلك ، وكان يقال له : المجدَّع في الله عز وجل ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« التهذيب » ١/ ٢٦٢ـ٢٦٣] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

مصعب بن عمير
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : مصعب بن عمير ، كان يكنىٰ : أبا محمد ، دخل علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم دار الأرقم ، فأسلم ، وكتم إسلامه ، وكان يختلف إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم سراً ، فلما علموا به . . حبسوه ، ولم يزل محبوساً حتىٰ خرج إلىٰ أرض الحبشة [في الهجرة] الأولىٰ ، ثم خرج الثانية ، وكان من أَنعَم الناس عيشاً قبل إسلامه ، فلما أسلم . . زهد في الدنيا ، فتحشف جلده تحشُّفَ الحية ، وبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بعد أن بايع الأنصار البيعة الأولىٰ ؛ يفقههم ويقرئهم القرآن ، وكان يأتيهم في دُورهم ، فيدعوهم إلى الإسلام ، فأسلم منهم خلق كثير ، وفشا فيهم الإسلام ، وكتب إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم يستأذنه أن يجمع بهم ، فأَذِن له ، فجمع بهم في دار سعد بن خيثمة ، ثم قدم علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم مع السبعين الذين وافوه في العقبة الثانية ، فأقام بمكة قليلاً ، ثم قدم قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة مهاجراً ، فهو أول من قدِمَها .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلىٰ مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب كبش قد تنطَّق به ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « انظروا إلىٰ هـٰذا الرجل الذي قد نور الله قلبه ، لقد رأيته بين أبوين يغذوانه بأطيب الطعام والشراب ، فدعاه حُب الله تعالىٰ وحب رسوله إلىٰ ما ترون »[1] .

وحمل اللواء بيده يوم أحد ، فلما جال المسلمون . . ثبت به مصعب رضي الله عنه ، فقطعت يمينه وهو يقول : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ ، وأخذ اللواء

---

(١) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٥/ ١٦٠) ، ومعنىٰ تنطَّق به : جعله نطاقاً ، والنطاق : كل ما يشد به الوسط .

بيساره ، فقطعت ، فحنىٰ على اللواء وضمه بعضده إلىٰ صدره ، وهو يقول : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ ﴾ الآية ، ثم حمل عليه الثالثة بالرمح ، فأنفذه ، فاستُشْهِد رضي الله عنه ، وهو ابن أربعين سنة أو يزيد شيئاً .

وقال عبد الله بن الفضل : لما قتل مصعب . . أخذ اللواء ملَك في صورته ، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول له في آخر النهار : « تقدم يا مصعب » ، فالتفت إليه الملَك ، فقال : لستُ بمصعب ، فعرف النبي صلى الله عليه وسلم أنه ملَك أُيِّد به .

وعن عبيد بن عمير رضي الله عنه قال : لما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من أُحد . . مر علىٰ مصعب بن عمير مقتولاً علىٰ طريقه ، فقرأ : ﴿ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾[1] .

وعن خباب رضي الله عنه قال : (هاجرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نبتغي وجه الله تعالىٰ ، فوجب أجرنا على الله عز وجل ، فمِنَّا من مضىٰ ولم يأكل من أجره شيئاً ، منهم مصعب ؛ قتل يوم أحد ، فلم نجد شيئاً نكفنه فيه ، إلا نَمِرة كنا إذا غطينا بها رأسه . . خرجت رجلاه ، وإذا غطينا رجليه . . خرج رأسه ، فأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نغطي بها رأسه ونجعل علىٰ رجليه إذخِراً[2] ، ومنَّا من أينعت له ثمرته ، فهو يَهْدِبُها)[3] أخرجاه في « الصحيحين » [خ ٣٧٠١ـ م ٩٤٠] انتهىٰ [« الصفوة » ١/ ١٦٥ـ١٦٧] .

وروى الحافظ أبو نعيم ـ قدس الله روحه ـ : عن عروة بن الزبير ، وابن شهاب : أن الأنصار لما سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله ، وأيقنوا ، واطمأنت أنفسهم إلىٰ دعوته ، فصدقوه ، وآمنوا به كانوا من أسباب الخير ، وواعدوه إلى الموسم من العام القابل ، فرجعوا إلىٰ قومهم ، فدعوهم سراً ، وأخبروهم برسول الله صلى الله عليه وسلم والذي بعثه الله عزّ وجلّ به ، وتلَوا عليهم القرآن ، ثم بعثوا إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ابعث إلينا رجلاً من قِبَلِك فيدعو الناس إلىٰ كتاب الله عز وجل ؛ فإنه أدنىٰ أن يتبع ، فبعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير أخا بني عبد الدار ، فلم يزل عندهم يدعو آمِناً ويهدي اللهُ تعالىٰ علىٰ يده ، حتىٰ قَلَّ دار من دور الأنصار إلا وقد أسلم

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٢١) .

(٢) **الإذخر** : حشيشة طيبة الرائحة ، يسقف بها البيوت فوق الخشب ، وهو إذا جف . . ابيضَّ .

(٣) أي : يجتنيها .

أشرافهم ، وأسلم عمرو بن الجموح ، وكسرت أصنامهم ، وكان المسلمون أعز أهل المدينة ، ورجع مصعب إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يُدعىٰ : المقرىء .

قال ابن شهاب : وكان أولَ من جمَّع الجمعة بالمدينة بالمسلمين قبل أن يقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعن عبيد بن عمير قال : مرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم علىٰ مصعب بن عمير حين رجع من أحد ، فوقف عليه وعلىٰ أصحابه ، فقال : « أشهد أنكم أحياء عند الله » ، ثم قال : « زوروهم وسلموا عليهم ، فوالذي نفسي بيده ؛ لا يسلِّم عليهم أحد . . إلا ردوا عليه إلىٰ يوم القيامة »[1] انتهىٰ [« الحلية » ١/١٠٧-١٠٨] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٢٠/ ٣٦٤) .

ومنهم الإمام :

عبد الله بن مسعود
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان يكنىٰ : أبا عبد الرحمـٰن ، وأسلم قبل دار الأرقم ، ويقال : إنه سادس في الإسلام ، وهاجر إلى الحبشة الهجرتين ، وشهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان رضي الله عنه صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووساده ، وسواكه ، ونعليه ، وطهوره في السفر ، وكان يشبَّه بالنبي صلى الله عليه وسلم في هديه ودلِّه وسمْتِه .

وكان من أجود الناس ثوباً ، ومن أطيب الناس ريحاً .

ولي قضاء الكوفة وبيتَ مالِها لعمر ، وصدراً من خلافة عثمان رضي الله عنهم ، ثم صار إلى المدينة ، فمات بها سنة اثنتين وثلاثين .

ودفن بالبقيع وهو ابن بضع وستين سنة .

وعن زِر بن حُبيش ، عن عبد الله بن مسعود قال : (كنت غلاماً يافعاً أرعىٰ غنماً لعقبة بن أبي معيط ، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ، وقد نفرا من المشركين ، فقالا : يا غلام ؛ هل عندك من لبن تسقينا ؟ فقلت : إني مؤتمن ، ولست ساقِيَكما ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « هل عندك من جذعة[1] لم ينزُ عليها الفحل ؟ » ، فقلت : نعم . . فأتيتهما بها ، فاعتقلها النبي صلى الله عليه وسلم ، ومسح الضرع ودعا ، فحفل الضرع ، ثم أتىٰ أبو بكر بصخرة منقعرة ، فاحتلب فيها ، فشرب أبو بكر ، ثم شربتُ ، ثم قال للضرع : « أُقلص » ، فقلص ، قال : فأتيته بعد ذلك ، فقلت : علِّمني مِن هـٰذا القول ، فقال : « إنك غلام معلَّم » ، فأخذت مِن فيه سبعين سورة ، لا ينازعني فيها أحد)[2] .

---

(١) **الجَذَعَةُ من الغنم** : هي ما أتىٰ عليها سنة ودخلت في الثانية ، فإذا دخلت في الثالثة . . سُمِّيت ثنيَّة .

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤٦٢) .

وقال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه : (لقد أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وما أرىٰ إلا أن ابن مسعود من أهله) .

وعن القاسم بن عبد الرحمـٰن قال : كان ابن مسعود يُلبِس رسول الله صلى الله عليه وسلم نعليه ، ثم يمشي أمامه بالعصا ، حتىٰ إذا أتىٰ مجلسه . . نزع نعليه ، فأدخلهما في ذراعيه ، وأعطاه العصا ، فإذا أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقوم . . ألبسه نعليه ، ثم مشىٰ بالعصا أمامه ، حتىٰ يدخل الحُجْرة قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعن عبد الرحمـٰن بن يزيد قال : أتينا حذيفة رضي الله عنه ، فقلنا له : حدِّثنا بأقرب الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم هدياً وسمتاً ودلاً ؛ نأخذ عنه ونسمع منه ، فقال : كان أقرب الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم هدياً وسمتاً ودلاً عبد الله بن مسعود ، حتىٰ يتوارىٰ عنا في بيته ، ولقد عَلِمَ المحفوظون من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن ابن أم عبد من أقربهم إلى الله زلفىٰ[1] .

وعن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن علقمة قال : جاء رجل إلىٰ عمر وهو بعرفة فقال : يا أمير المؤمنين ؛ جئت من الكوفة ، وتركت بها رجلاً يملي المصاحف عن ظهر قلب ، فغضب عمر ، وانتفخ حتىٰ كاد يملأ ما بين شعبتي الرجل[2] ، فقال : ومن هو ويحك ؟ قلت : عبد الله بن مسعود ، فما زال يطفىء غضبه ويسير عنه الغضب حتىٰ عاد إلىٰ حاله التي كان عليها ، ثم قال : ويحك! والله ما أعلمه بقي من الناس أحد هو أحق بذلك منه ، وسأحدثك عن ذلك : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يزال يسمُرُ عند أبي بكر الليلة كذلك في الأمر من أمور المسلمين ، وإنه سمَرَ عنده ذات ليلة وأنا معه ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخرجنا معه ، فإذا رجل قائم يصلي في المسجد ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع قراءته ، فلما كدنا نعرفه . . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سره أن يقرأ القرآن رطباً كما أنزل . . فليقرأه علىٰ قراءة ابن أم عبد » ، قال : ثم جلس الرجل يدعو ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له : « سل . . تعطه ، سل . . تعطه » ، قال عمر : قلت : والله ؛ لأغدون عليه ، فلأبشِّرنَّه ، قال : فغدوت عليه لأبشره ، فوجدت أبا بكر قد سبقني إليه فبشره ، ولا والله ؛ ما سابقته إلىٰ خير قط . . إلا سبقني إليه)[3] .

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٨٩) .

(٢) شعبَةُ الرَّجل : هي قرن الرجل ؛ أي : مفرق رأسه .

(٣) أخرجه الحاكم (٢/ ٢٤٦) .

وعن زر بن حبيش ، عن ابن مسعود : أنه كان يجتني سواكاً من الأراك ، وكان دقيقَ الساقين ، فجعلتِ الريح تكفؤه ، فضحك القوم منه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مِمَّ تضحكون ؟ » قالوا : يا رسول الله ؛ من دقة ساقيه ، فقال : « والذي نفسي بيده ؛ لهُما أثقل في الميزان من أحد »[1] .

وسئل علي رضي الله عنه عن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فقال : (عن أيهم تسألون ؟ قالوا : أخبرنا عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قال : عَلِم القرآن ، وعَلِم السنة ، ثم انتهىٰ ، وكفىٰ بهما علماً) .

وروي : أنه انتهىٰ علم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم إلىٰ ستة : عمر ، وعلي ، وعبدِ الله ، وأبي بن كعب ، وأبو الدرداء ، وزيد بن ثابت ، ثم انتهىٰ علم هـٰؤلاء الستة إلىٰ رجلين : علي وعبد الله .

وكان يصوم الإثنين والخميس .

وعن عبد الرحمـٰن بن يزيد قال : ما رأيت فقيهاً قط أقل صوماً من ابن مسعود ، فقيل له : لِمَ لا تصوم ؟ فقال : (إني أختار الصلاة على الصوم ، فإذا صمت . . ضعفت عن الصلاة) .

وكان في السحَر يقول : (اللهم ؛ دعوتني فأجبتك ، وأمرتني فأطعتك ، وهـٰذا سحَر فاغفر لي يا أرحم الراحمين) .

وعن عمرو بن ميمون قال : اختلفت إلى ابن مسعود سنة ، ما سمعته يحدِّث فيها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يقول فيها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا أنه حدَّث ذات يوم بحديث فجرىٰ علىٰ لسانه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعلاه الكرب ، حتىٰ رأيت العرق ينحدر عن جبهته ، ثم قال : (إن شاء الله إما فوق ذلك ، وإما قريب من ذلك ، وإما دون ذلك) .

وعن مسروق قال : قال رجل عند ابن مسعود : ما أُحب أن أكون من أصحاب اليمين ، لأَنْ أكون من المقربين . . أَحب إلي ، فقال عبد الله : (لـٰكن هـٰهنا رجل يود أنه إذا مات . . لا يبعث) يعني نفسه .

---

(١) أخرجه ابن حبان في « الإحسان » (٧٠٦٩) .

وعن زيد بن وهب : أن ابن مسعود رضي الله عنه بكىٰ ، حتىٰ رأيتُه أخذ بكفه من دموعه ، فقال به : هٰكذا .

وخرج معه ناس ، فقال : ألكم حاجة ؟ قالوا : لا ، ولٰكن أردنا أن نمشي معك ، قال : ارجعوا ؛ فإنه ذلة للتابع ، وفتنة للمتبوع ، وقال : لو تعلمون ما أعلم من نفسي . . حثيتم علىٰ رأسي التراب .

وقال : (حبذا المكروهان : الموت والفقر ، وايم الله ؛ إن هو إلا الغنىٰ والفقر ، وما أبالي بأيهما بليت ، إن حق الله في كل واحد منهما واجب ، إن كان الغنىٰ . . إنَّ فيه العطف ، وإن كان الفقر . . إنَّ فيه الصبر) .

وقال : (ما أبالي إذا رجعت إلىٰ أهلي علىٰ أي حال أراهم ، بسراء أم بضراء ، وما أصبحت علىٰ حال فتمنيت أني علىٰ سواها) انتهىٰ [« الصفوة » ١/١٦٧ـ١٧٤] .

وقال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : (إن الرجل ليدخل على السلطان ومعه دِينه ، فيخرج ولا دِين له ، قيل له : لِمَ ؟ قال : لأنه يرضيه بسخط الله ، وذلك لأن الداخل على السلطان معرَّضٌ لِأنْ يعصي الله تعالىٰ ، إما بفعله ، وإما بسكوته ، وإما بقوله ، وإما باعتقاده ، ولا ينفك عن أحد هٰذه الأمور) .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : (لو أن رجلاً قام بين الركن والمقام يعبد الله تعالىٰ سبعين سنة . . لبعثه الله تعالىٰ يوم القيامة مع من يحب) انتهىٰ [« الإحياء » ٢/١٤٢ـ١٤٣ وَ١٦٠] .

وقال النووي ـ قدس الله روحه ـ : روي لابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ثمان مئة وثمانية وأربعون حديثاً ، اتفق البخاري ومسلم منها علىٰ أربعة وستين ، وانفرد البخاري بأَحَدٍ وعشرين ، ومسلم بخمسة وثلاثين .

روىٰ عنه : ابن عمر ، وابن عباس ، وابن الزبير ، وخلائق من الصحابة غيرهم ، ومن التابعين خلائق لا يُحصَون .

قال أبو طيبة : مرض ابن مسعود ، فعاده عثمان ، فقال : ما تشتكي ؟ قال : ذنوبي ، قال : فما تشتهي ؟ قال : رحمة ربي ، قال : ألا آمر لك بطبيب ؟ قال : الطبيب أمرضني ، قال : ألا آمر لك بعطاء ؟ قال : لا حاجة لي فيه ، قال : يكون لبناتك ، قال : أتخشىٰ علىٰ بناتي الفقر ؟ إني أمرتهن أن يقرأن كل ليلة سورة الواقعة ، إني سمعت رسول الله صلى الله

عليه وسلم يقول : « من قرأ الواقعة كل ليلة . . لم تصبه فاقة أبداً »[1] .

وابن مسعود هو الذي أجهز علىٰ أبي جهل يوم بدر ، وشهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة ، وهو صاحب نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبسه إياها إذا قام ، فإذا خلعها وجلس . . جعلها ابن مسعود في ذراعه . انتهىٰ [« التهذيب » ١/٢٨٨ـ٢٩٠] .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : عن عون بن عبد الله بن عتبة قال : بينما عبد الله يدعو بدعاء ؛ إذ مرَّ به رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر وعمر ، فلما جاز به رسول الله صلى الله عليه وسلم . . سمع دعاءه ورسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعرفه ، فقال : « مَنْ هـٰذا ؟ سل . . تعطه » ، فرجع أبو بكر إلىٰ عبد الله ، فقال : الدعاء الذي كنت تدعو به آنفا أعدْهُ عليَّ ، فقال : (حمدت الله ، ومجدته ، ثم قلت : لا إلـٰه إلا أنت ، وعدك حق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، ورسلك حق ، وكتابك حق ، والنبيون حق ، ومحمد صلى الله عليه وسلم حق) .

وفي رواية : قال عبد الله : (إن لي دعاء ما أكاد أن أدعه : اللهم ؛ إني أسألك إيماناً لا يرتد ، ونعيماً لا ينفد ، وقرة عين لا تنقطع ـ أو قال : لا تبيد ـ ومرافقة النبي صلى الله عليه وسلم في أعلىٰ جنة الخلد) .

وقال : (ليس العلم بكثرة الرواية ، إنما العلم بالخشية) .

وقال : (ويل لمن لا يعلم ولو شاء الله لعلمه ، وويل لمن يعلم ثم لا يعمل) سبع مرات .

وعن عبد الله بن عكيم قال : سمعت ابن مسعود في هـٰذا المسجد يبدأ باليمين قبل الكلام ، فقال : (ما منكم من أحد . . إلا أن ربه تعالىٰ سيخلو به كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر ، فيقول : يابن آدم ؛ ما غرك بي ؟ ابن آدم ؛ ماذا أجبت المرسلين ؟ ابن آدم ؛ ماذا عملت فيما علمت ؟)

وقال : (ذهب صفو الدنيا ، وبقي كدرها ، والموت اليوم تحفة لكل مسلم) .

وقال : (لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتىٰ يحل بذروته ، ولا يحل بذروته حتىٰ يكون الفقر أحب إليه من الغنىٰ ، والتواضع أحب إليه من الشرف ، وحتىٰ يكون حامده وذامه ـ عنده ـ في الحق سواء) قال : ففسرها أصحاب عبد الله ، قالوا : حتىٰ يكون الفقر في الحلال

---

(١) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٢/ ٤٩٢) .

أحب إليه من الغنىٰ في الحرام ، والتواضع في طاعة الله أحب إليه من الشرف في معصية الله ، وحتىٰ يكون حامده وذامه ـ عنده ـ في الحق سواء .

وقال : (والذي لا إلٰه غيره ؛ ما يضر عبداً يصبح على الإسلام ويمسي عليه ما أصابه في الدنيا) .

وفي رواية : (ما أحد من الناس يوم القيامة إلا يتمنىٰ أنه كان يأكل الدنيا قوتاً ، وما يضر أحدَكم علىٰ ما أصبح وأمسىٰ من الدنيا إلا أن يكون في النفس حزازة ، ولئن يعضّ أحدكم علىٰ جمرة حتىٰ تطفأ . . خير من أن يقول لأمر قضاه الله : ليت هٰذا لم يكن) .

وروي عن عبد الله أو عبيد الله بن مكرز قال : قال ابن مسعود : (إن ربكم عز وجل ليس عنده ليل ولا نهار ، ونور السماوات والأرض من نور وجهه ، وإن مقدار كل يوم من أيامكم عنده ثنتا عشرة ساعة ، فتعرض عليه أعمالكم بالأمس ـ وهو أعلم بها ؛ لأنه الخالق لها جل جلاله ـ أول النهار ، فينظر فيها ثلاث ساعات ، ويسبحه حملة العرش ، وسرادقات العرش ، والملائكة المقربون ، وسائر الملائكة ، ثم ينفخ جبريل عليه السلام بالقرن ، فلا يبقىٰ شيء إلا سمع صوته ، فيسبحون الرحمٰن ثلاث ساعات حتىٰ يمتلىء الرحمٰن رحمة ، فتلك ست ساعات ، ثم يؤتىٰ بالأرحام ، فينظر فيها ثلاث ساعات ، وهو قوله تعالىٰ : ﴿ يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ ، ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴾ الآية ، فتلك التسع ساعات ، ثم يؤتىٰ بالأرزاق ، فينظر فيها ثلاث ساعات ، وهو قوله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ ، ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ ، قال : هٰذا من شأنكم وشأن ربكم عز وجل) انتهىٰ [« الحلية » : ١/١٢٧] .

ثم روىٰ أبو الفرج ـ رحمه الله ـ بسنده : عن ابن مسعود أنه قال : (أنتم أطول صلاة ، وأكثر اجتهاداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم كانوا أفضل منكم ، ولا يدرك أحدكم مدّ أحدهم ولا نصيفه ، قيل له : بأي شيء ؟ قال : لأنهم كانوا أزهد في الدنيا ، وأرغب في الآخرة منكم) انتهىٰ [« الصفوة » ١/١٨٠] .

وعن زيد بن وهب ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الحافِظَينِ إذا نزلا على العبد . . نزلا مع أحدهما كتاب مختوم ، فيكتبان ما يلفظ العبد ، فإذا أرادا أن يصعدا . . يقول أحدهما للآخر : فك ختم الكتاب الذي معك ، فيفكه ، فإذا فيه ما كتب سواء »[1] .

---

(١) روىٰ نحوه أبو نعيم في « الحلية » (٤/١٧٣ ، ٥/٥٧) .

وقال حجة الإسلام أبو حامد الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : جميع المسلمين قالوا : إنا نحب ربنا سبحانه وتعالىٰ ، ولو علمنا في أي شيء محبته . . لفعلنا ، فأنزل الله عز وجل قوله تعالىٰ : ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ ، فقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنت منهم » أي : من القليل ، قال : وما عرفت أن فينا من يحب الدنيا حتىٰ نزل قوله تعالىٰ : ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : (إن العبد ليغيب عن المنكر ، ويكون عليه مثل وزر صاحبه ، قيل : وكيف ذاك ؟ قال : لأنه يبلغه فيرضىٰ به) [انتهىٰ « الإحياء » ٤/٢١٩ وَ٣٥١] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

المقداد بن عمرو
رضي الله عنه

قال أبو الفرج : كان المقداد رضي الله عنه قد حالف الأسود بن عبد يغوث الزهري في الجاهلية ، فتبناه ، فكان يقال له : المقداد ابن الأسود ، فلما نزل قوله تعالىٰ : ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ ﴾ . . قيل : المقداد بن عمرو ، وشهد بدراً وأحداً ، والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال علي رضي الله عنه : (ما كان فينا يوم بدر فارس غير المقداد بن عمرو) .

وعن طارق بن شهاب قال : قال عبد الله بن مسعود : (لقد شهدت من المقداد ابن الأسود مشهداً لأَن أكون أنا صاحبه أَحب إلي ـ وفي رواية الحافظ أبي نعيم [في « الحلية » ١/١٧٢] : أَحب إلي مما في الأرض من شيء ـ مما عدل به ، وذلك أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يدعو على المشركين ، فقال : أبشر يا رسول الله ، فوالله ؛ لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسىٰ عليه الصلاة والسلام : ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ ولٰكنا نقاتل عن يمينك وعن يسارك ، وبين يديك ومن خلفك ، إلىٰ أن يفتح الله عز وجل لك ، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم قد سره ذلك ، وزاد إشراق وجهه صلى الله عليه وسلم أو كما قال[1] .

وعن أنس رضي الله عنه قال : (بعث النبي صلى الله عليه وسلم المقداد علىٰ سرية ، فلما قدم . . قال له : « أبا معبد ؛ كيف وجدت الإمارة ؟ » قال : كنت أُحمَل وأُوضَع حتىٰ رأيت أن لي على الناس فضلاً ، قال : « هو ذاك ، فخذ أو دع » قال : والذي بعثك بالحق لا أتأمَّر على اثنين أبدًا)[2] .

وروىٰ عبد الرحمٰن بن جبير ، عن أبيه قال : جلسنا إلى المقداد يوماً ، فمر به رجل ،

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٣٧٣٦) .

(٢) أخرجه بنحوه الطبراني في « الكبير » (٤/ ٤٧) .

فقال له : طوبىٰ لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لوددنا أنا رأينا ما رأيت ، وشهدنا ما شهدت ، فاستغضب ، فجعلت أعجب وأقول : ما قال إلا خيراً . ثم أقبل إليه ، فقال : ما يحمل الرجلَ علىٰ أن يتمنىٰ محضراً غيّبه الله عنه ، لا يدري لو شهده كيف كان يكون فيه ، والله ؛ لقد حضر رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أقوام كبَّهم الله علىٰ مناخرهم في جهنم ، لم يجيبوه ولم يصدقوه ، أوَلاَ تحمدون الله إذ أخرجكم لا تعرفون إلا ربكم ، مصدقين بما جاء به نبيكم صلى الله عليه وسلم ، قد كفيتم البلاء بغيركم ؟ والله ؛ لقد بُعث النبي صلى الله عليه وسلم علىٰ أشد حال بعث عليها نبي من الأنبياء ، في فترة وجاهلية ما يرون أن ديناً أفضل من عبادة الأوثان ، فجاء بفرقان فرق به بين الحق والباطل ، وفرق به بين الوالد وولده ، إن كان الرجل ليرىٰ والده وولده وأخاه كافراً ، وقد فتح الله قفل قلبه للإيمان ، يعلم أنه إن هلك . . دخل النار ، فلا تقر عينه ، وهو يعلم أن حبيبه في النار ، وإنها لَلتي قال الله عز وجل : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ .

وقال أهل السير : شرب المقداد دهن الخروَع ، فمات ، وذلك بالجرف علىٰ ثلاثة أميال من المدينة ، وحمل إليها ودفن بالبقيع وصلىٰ عليه عثمان رضي الله عنه ، في سنة ثلاث وثلاثين ، وهو ابن سبعين سنة ، أو نحوها . انتهىٰ [« الصفوة » ١/ ١٨١ـ١٨٢] .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ قدس الله روحه ـ بسنده : عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : (أول من أظهر إسلامه سبعة : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر ، وعمار ، وأمه سمية ، وصهيب ، وبلال ، والمقداد ، فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فمنعه الله تعالىٰ بعمه ، وأما أبو بكر . . فمنعه الله تعالىٰ بقومه ، وأما سائرهم . . فأخذهم المشركون ، وألبسوهم دروع الحديد ، ثم صهروهم في الشمس) .

وعن عبد الله بن بريدة ، عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالىٰ أمرني بحب أربعة ، وأخبرني أنه يحبهم ، وإنك يا علي منهم ، والمقداد ، وأبو ذر ، وسلمان »[1] انتهىٰ [« الحلية » ١/ ١٧٢] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٧١٨) ، وابن ماجه (١٤٩) .

ومنهم الإمام :

خباب بن الأرَتِّ
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : أصابه سبي ، فبيع بمكة زادها الله شرفاً ، ثم أسلم قبل دار الأرقم ، وقيل : إنه سادس في الإسلام ، وكان يُعذَّب في الله عز وجل بمكة ليرجع عن دينه ، وشهد بدراً وأحداً ، والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومرض فعاده نفر من الصحابة رضوان الله عليهم ، فقالوا : أبشر يا أبا عبد الله ، إخوانك تُقدِم عليهم غداً ، فبكىٰ ، قال : (أمَا إنه ليس بي جزع ، ولـٰكن ذكّرتموني أقواماً مضوا ، وسميتم لي إخواناً ، وإن أولـٰئك مضوا بأجورهم كما هي ، وإني أخاف أن يكون ثواب ما تذكرون من تلك الأعمال ما أوتينا بعدهم) .

وفي رواية قال : (إن في هـٰذا التابوت ثمانين ألف درهم ، والله ما شددت لها من خيط ، ولا منعتها من سائل ، ثم بكىٰ ، فقيل : ما يبكيك ؟ فقال : إن أصحابي مضوا ، ولم تنقصهم الدنيا شيئاً ، وإنا بقينا بعدهم حتىٰ ما نجد موضعاً إلا التراب) .

وفي رواية : اكتوىٰ في بطنه سبع كيات وقال : (لولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهانا أن ندعو بالموت . . لدعوت به ، وقد طال بي مرضي ، ثم قال : إن أصحابنا الذين مضوا لم تنقصهم الدنيا شيئاً ، وإنا أُعطينا بعدهم ما لا نجد له موضعاً إلا التراب ، قال ـ وكان يبني حائطاً له ـ : وإن المرء المسلم يؤجر في نفقته كلها إلا في شيء يجعله في التراب) .

قال : وشكونا إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد برداء له في ظل الكعبة ، فقلنا : يا رسول الله ؛ ألا تستنصر الله لنا ، فجلس مُحْمَرّاً وجهُه ، وقال : « والله ؛ لقد كان مَنْ قبلكم يؤخذ فيُجعل المناشيرُ علىٰ رأسه ، فيُفرَق فرقتين ، ما يصرفه ذلك عن دينه ، وليتمَّن الله هـٰذا الأمر حتىٰ يسير الراكب ما بين صنعاء وحضرموت ، لا يخاف إلا الله تبارك وتعالىٰ ، والذئب علىٰ غنمه » أخرجاه في « الصحيحين » [خ ٣٦٣٩] .

وسأله عمر رضي الله عنه عما لقي من المشركين ، فقال خباب : (يا أمير المؤمنين ؛ انظر إلىٰ ظهري ، فقال عمر : ما رأيتُ كاليوم ، قال خباب : أَوقَدوا لي ناراً فما أطفأها إلا وَدَكُ[1] ظهري) .

توفي بالكوفة سنة سبع وثلاثين وهو ابن ثلاث وسبعين سنة ، وصلىٰ عليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه [يوم] منصرفه من صفين ، وهو أول قبر يظهر بالكوفة . انتهىٰ [« الصفوة » ١/ ١٨٢ـ١٨٣] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) الوَدَك : دسم اللحم .

ومنهم الإمام :

صهيب بن سنان الرومي
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : سبي وهو غلام ، ونشأ بالروم ، فبيع هناك ، وقُدِمَ به مكة ، فاشتراه عبد الله بن جدعان ، فأعتقه ، وأسلم قديماً ، وكان من المستضعفين المعذبين في الله تعالىٰ ، ثم هاجر إلى المدينة ، وشهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو من السابقين الأولين ، وهو سابق الروم ، وأمره عمر رضي الله عنه أن يصلي بالناس في زمن الشورىٰ ، فقدموه ، فصلىٰ علىٰ عمر رضي الله عنهما .

وعن سعيد بن المسيب قال : لما أقبل صهيب مهاجراً نحو النبي صلى الله عليه وسلم ، فاتبعه نفر من قريش . . نزل عن راحلته ، وانتثل[1] ما في كنانته ، ثم قال : يا معشر قريش ؛ لقد علمتم أني من أرماكم رجلاً ، وايم الله ؛ لا تصلون إلي حتىٰ أرمي بكل سهم معي ، ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي منه شيء ، افعلوا ما شئتم ، وإن شئتم دللتكم علىٰ مالي وثيابي بمكة وخليتم سبيلي ، قالوا : نعم ، فلما قدم علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم . . قال : « ربح البيعُ أبا يحيىٰ ، ربح البيع أبا يحيىٰ » ، قال : ونزلت : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[2] .

وقال صهيب : (لم يشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهداً قط إلا كنت حاضرَه ، ولم يبايع بيعة إلا كنت حاضرها ، ولم يسر سرية إلا كنت حاضرها ، ولا غزا غزوة إلا كنت فيها عن يمينه أو شماله ، وما خافوا أمامهم قط إلا كنت أمامهم ، ولا ما وراءهم إلا كنت وراءهم ، وما جعلت رسول الله صلى الله عليه وسلم بيني وبين العدو قط حتىٰ توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

---

(١) **نثل الكنانة** : استخرج نبلها فنثرها .

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٤٥٠) .

وتوفي بالمدينة في شوال ، سنة ثمان وثلاثين ، وهو ابن سبعين سنة ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الصفوة » ١/١٨٣ـ١٨٤] .

ومن أحاديثه : ما رواه الحافظ أبو نعيم رحمه الله : عن ابن عمر ، عن صهيب رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يدخل الجنة إلا من قال بالمال هٰكذا وهٰكذا ، يمنة ويسرة » انتهىٰ [« الحلية » ١/١٥٣] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

عامر بن فهيرة مولىٰ أبي بكر الصديق
رضي الله عنهما

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : اشتراه أبو بكر رضي الله عنه ، وأعتقه ، وأسلم قبل دار الأرقم ، وكان من المستضعفين ، يعذب بمكة ليرجع عن دينه ، وشهد بدراً وأحداً ، وقُتل يوم بئر معونة سنة أربع من الهجرة ، وهو ابن أربعين سنة .

قال العلماء بالسير : طعنه جبار بن سلمىٰ فأنفذه ، فقال عامر : فزتُ والله ، فقال جبار : ما قوله : فزتُ والله ؟ قالوا : الجنة ، فأسلم جبار ، ولم يوجد جسد عامر .

قال عروة بن الزبير رضي الله عنه : (يرون أن الملائكة عليهم السلام دفنته) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : (لحق رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر بغار في جبل ثور فمكثا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر ، ويدلج من عندهما بسحر ، ويرعىٰ عليهما عامر بن فهيرة مولىٰ أبي بكر منحة[1] من غنم ، فيريحها عليهما حتىٰ يذهب ساعة من العشاء ، فيبيتان في رِسْل ـ وهو لبن مِنْحَتِهما ـ حتىٰ يغبِق[2] بها عامر بن فهيرة ويغلِّس[3] ، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث)[4] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : (لم يكن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين هاجر إلى المدينة إلا أبو بكر ، وعامر بن فهيرة ، ورجل من بني الديل دليلهم) انتهىٰ [« الصفوة » ١/ ١٨٤ـ ١٨٥] .

وروى الحافظ أبو نعيم : عن أسماء ابنة أبي بكر رضي الله عنهما قالت : (خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضي الله عنه ، فمكثا في الغار ثلاث ليال ، وكان

---

(١) **المنحة** : هي الشاة أو الناقة المعارة لِلَّبن خاصة .
(٢) **يغبقُ** : الغبوق الشرب بالعشيّ .
(٣) **الغَلَسُ** : ظلمة آخر الليل .
(٤) أخرجه بنحوه البخاري (٣٦٩٢) .

يروح عليهما عامر بن فهيرة ، يرعىٰ غنماً لأبي بكر ويدلج من عندهما ، فيصبح مع الرعاة في مراعيها ، ويروح معهم ويتباطأ في المشي ، حتىٰ إذا أضلهم . . انصرف بغنمه إليهما ، فيظن الرعاة أنه معهم) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : (خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعامر بن فهيرة ، حتىٰ قدموا المدينة) .

قتل عامر يوم بئر معونة ، وأسر عمرو بن أمية الضمري ، فقال له عامر بن الطفيل : من هـٰذا ؟ وأشار إلىٰ قتيل ، فقال له عمرو بن أمية : هـٰذا عامر بن فهيرة ، فقال : لقد رأيته بعدما قتل رفع إلى السماء ، حتىٰ إني لأنظر إلى السماء بينه وبين الأرض . انتهىٰ [« الحلية » ١/١٠٩ـ١١٠] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

بلال بن رباح مولىٰ أبي بكر
رضي الله عنهما

أسلم قديماً .

قال النووي ـ قدس الله روحه ـ : هو أبو عبد الله ، مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قرشي تيمي ، مولىٰ أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، شهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان رضي الله عنه ممن يعذب في الله تعالىٰ ، فيصبر على العذاب ، وكان أمية بن خلف يعذبه ، ويتابع عليه العذاب ، فقدر الله تعالىٰ أن بلالاً قتله في بدر ، وكان بلال ممن أسلم أول النبوة ، وممن أظهر إسلامه ، وكانوا يطوفون به ويعذبونه .

وآخىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين أبي عبيدة ابن الجراح[1] .

كان بلال يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم حياتَه سفراً وحضراً ، وهو أول من أذن في الإسلام ، ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ذهب إلى الشام للجهاد ، فأقام بها إلىٰ أن مات ، وقيل : أذن لأبي بكر رضي الله عنه مدة ولايته ، وأذن لعمر رضي الله عنه مرة حين قدم عمر الشام ، فلم يُرَ من باك أكثر من ذلك اليوم ، وأذن في قَدْمَةٍ قَدِمَهَا إلى المدينة لزيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، طلب ذلك منه الصحابة رضوان الله عليهم ، فأذن ولم يتم الأذان[2] .

روىٰ عنه جماعات من الصحابة : أبو بكر الصديق ، وعمر ، وعلي ، وابن مسعود ، وابن عمر ، وأسامة بن زيد ، وكعب بن عجرة ، وجابر ، وأبو سعيد الخدري ، والبراء بن عازب ، وجماعات من كبار التابعين .

---

(١) كذا في « التهذيب » ولعله وهم ، إذ آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين بلال وبين عبيدة بن الحارث بن المطلب . وفي قولٍ : أنه آخىٰ بينه وبين أبي رُويحة الخثعمي . أما أبو عبيدة ابن الجراح . . فقد آخى النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين سالم مولىٰ أبي حذيفة . وفي قولٍ : بينه وبين محمد بن مسلمة .

(٢) جاء في هامش نسخة : (قصة أذان بلال بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم ، أوردها السيوطي في « اللآلىء » من طريق ابن عساكر ، من حديث أبي الدرداء ، وأنها قصة موضوعة بيِّنة الوضع) .

وثبت في « الصحيحين » [خ بنحوه ٣٤٧٦ـ م ٤٢٥٦] : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لبلال رضي الله عنه : « دخلتُ الجنة ، فسمعتُ خشف[1] نعليكَ بين يدي » .

وفي « البخاري » [٣٥٤٥] : عن قيس بن أبي حازم قال : قال بلال لأبي بكر رضي الله عنهما : (إن كنتَ إنما اشتريتني لنفسك . . فأمسكني ، وإن كنت إنما اشتريتني لله تعالىٰ . . فدعني وعمل الله عز وجل) .

وفضائله مشهورة .

توفي بدمشق سنة عشرين ، ودفن بباب الصغير ، وكان ينزل داريّا ، قرية بقرب دمشق ، ولم يُعْقِب ، رضي الله عنه . انتهىٰ [« التهذيب » ١/١٣٦ـ١٣٧] .

وروى الحافظ البيهقي ـ قدس الله روحه ـ بإسناده : عن عبد الله الهوزني ، يعني : أبا عامر الهوزني ، قال : لقيت بلالاً مؤذن النبي صلى الله عليه وسلم بحلب ، فقلت : يا بلال ؛ حدثني كيف كانت نفقة النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قال : (ما كان له شيء إلا ـ أنا ـ الذي كنت أَلي ذلك منه ، منذ بعثه الله تعالىٰ إلىٰ أن توفي صلى الله عليه وسلم ، وكان إذا أتاه الإنسان المسلم ، فرآه عارياً . . يأمرني ، فأنطلق ، فأستقرض ، فأشتري البردة والشيء وأكسوه وأطعمه ، حتى اعترضني رجل من المشركين ، فقال : يا بلال ؛ إن عندي سعة ، فلا تستقرض من أحد إلا مني ، ففعلت .

فلما كان ذات يوم . . توضأت ، ثم قمت لأؤذن بالصلاة ، فإذا المشرك في عصابة من التجار ، فلما رآني . . قال : يا حبشي ، قال : قلت : يا لبيه ، فتجهمني ، وقال قولاً غليظاً ، فقال : أتدري كم بينك وبين الشهر ؟ قال : قلت : قريب ، قال : إنما بينك وبينه أربع ليال ، فآخذك بالذي لي عليك ؛ فإني لم أعطك الذي أعطيتك من كرامتك ، ولـٰكن أعطيتك لتجب لي عبداً ، فأردَّك ترعى الغنم كما كنت قبل ذلك ، فأخذ في نفسي ما يأخذ في أنفس الناس ، فانطلقت ثم أذنت بالصلاة ، حتىٰ إذا صليت العتمة . . رجع النبي صلى الله عليه وسلم إلىٰ أهله ، فاستأذنت عليه ، فأذن لي ، فقلت : يا رسول الله ؛ بأبي أنت وأمي ، إن المشرك الذي ذكرت لك إني كنت أتدين منه قد قال كذا وكذا ، وليس عندك ما يقضي عني ، ولا عندي ، وهو فاضحي ، فأْذَن لي أن آتي إلىٰ بعض هـٰؤلاء الأحياء الذين قد أسلموا ، حتىٰ يرزق الله رسوله صلى الله عليه وسلم ما يقضي عني .

---

(١) الخشف : الحسُّ والحركة .

فخرجت حتىٰ أتيت منزلي ، فجعلت سيفي وجرابي ورمحي ونعلي عند رأسي ، واستقبلت بوجهي الأفق ، فكلما نمت . . انتبهت ، فإذا رأيتُ عليَّ ليلاً . . نمت ، حتى انشق عمود الصبح الأول ، فأردت أن أنطلق ، فإذا إنسان يسعىٰ يدعو : يا بلال ؛ أجب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانطلقت حتىٰ أتيته ، فإذا أربع ركائب عليهن أحمالهن ، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فاستأذنت ، فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم : « أبشر ؛ فقد جاءك الله تعالىٰ بقضائك » ، فحمدت الله تعالىٰ ، وقال : « ألم تمر على الركائب المناخات الأربع ؟ » قال : فقلت : بلىٰ ، قال : « فإن لك رقابهن وما عليهن ـ فإذا عليهن كسوة وطعام أهداهن له عظيم فدك ـ فاقبضهن إليك ، ثم اقض دينك » .

قال : ففعلت ، فحططت عنهن أحمالهن ، ثم عقلتهن ، ثم عمدت إلىٰ تأذين صلاة الصبح ، حتىٰ إذا صلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم . . خرجت إلى البقيع ، فجعلت أصبعي في أذني ، فناديت وقلت : من كان يطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم دَيناً . . فليحضر ، فما زلت أبيع وأقضي وأعوض . . حتىٰ لم يبق علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم دين في الأرض ، حتىٰ فضل عندي أوقيتان أو أوقية ونصف .

ثم انطلقت إلى المسجد ، وقد ذهب عامة النهار ؛ فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد في المسجد وحده ، فسلمت عليه ، فقال لي : « ما فعل ما قِبَلَك ؟ » قال : قلت : قد قضى الله كل شيء كان علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يبق شيء ، فقال : « أَفَضَلَ شيء ؟ » قلت : نعم ، ديناران ، قال : « أنظر أن تريحني منهما ، فلست بداخل علىٰ أحد من أهلي حتىٰ تريحني منهما » ، فلم يأتنا ، فبات النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد حتىٰ أصبح ، وظل في المسجد اليوم الثاني ، حتىٰ كان في آخر النهار جاء راكبان ، فانطلقت بهما ، فكسوتهما وأطعمتهما ، حتىٰ إذا صلى العتمة . . دعاني ، فقال : « ما فعل الذي قِبَلَك ؟ » قلت : قد أراحك الله منه ، فكبر وحمد الله ؛ شفقاً من أن يدركه الموت وعنده ذلك ، ثم اتبعته حتىٰ جاء أزواجه ، فسلم على امرأة امرأة ، حتىٰ أتىٰ في مبيته . فهـٰذا الذي سألتني عنه ، والله سبحانه أعلم) انتهىٰ [« السنن الكبرىٰ » ٦/ ٨٠ـ٨١] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان بلال من المعذبين في الله ، يقول له قومه : ربك اللات والعزىٰ ، وهو يقول : (أحدٌ أحد) فأتىٰ عليه أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، فاشتراه بسبع أواق ، وأعتقه .

شهد بدراً ، وأحداً ، والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أول من أذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يؤذن له حضراً وسفراً ، وكان خازنه علىٰ بيت ماله .

وقال محمد بن إسحاق : كان أمية بن خلف ـ لعنه الله ـ يخرجه إذا حميت الظهيرة ، فيطرحه علىٰ ظهره في بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة ، فتوضع علىٰ صدره ، ثم يقول له : لا تزال هٰكذا حتىٰ تموت ، أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزىٰ ، فيقول ـ وهو في ذلك البلاء ـ : (أحدٌ أحد) .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال عمر : (كان أبو بكر سيدَنا ، وأعتق سيدَنا) يعني : بلالاً .

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « بلال سابق الحبشة »[1] .

ودخل النبي صلى الله عليه وسلم علىٰ بلال ، وعنده صُبرة تمر[2] ، فقال : « ما هٰذا يا بلال ؟ » قال : يا رسول الله . . ادخرته لك ولضيفانك ، قال : « أما تخشىٰ أن يكون له بخار من النار ؟! أنفق بلالا ، ولا تخش من ذي العرش إقلالا »[3] .

ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم . . أذَّن بلال ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يدفن بعد ، فكان إذا قال : أشهد أن محمداً رسول الله . . انتحب الناس في المسجد ، فلما دفن [رسول الله صلى الله عليه وسلم] . . قال له أبو بكر : أذِّن ، فقال : إن كنتَ إنما أعتقتني لأكون معك . . فسبيل ذلك لَكَ ، وإن كنت إنما أعتقتني لله . . فخلني ومن أعتقتني له ، فقال : ما أعتقتك إلا لله ، فقال : فإني لا أؤذن لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، [قال : فذاك إليك ، قال :] فأقام حتىٰ خرجت بُعُوثُ الشام فسار معهم إليها ، فمات بها .

قيل : مات بدمشق ، وقيل : بحلب سنة عشرين ، وقيل : ثمان عشرة ، وهو ابن بضع وستين سنة . انتهىٰ [« الصفوة » ١/ ١٨٥ـ١٨٨] .

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٢١) .

(٢) الصُّبرَة : ما جمع من الطعام بلا كيل ولا وزن ، يوضع بعضه فوق بعض .

(٣) أخرجه بنحوه الطبراني في « الكبير » (١/ ٣٤٠) .

زاد في رواية الحافظ ابن عساكر ـ رحمه الله ـ قال : لما دخل[1] عمر بن الخطاب رضي الله عنه مِن فتح بيت المقدس ، فصار إلى الجابية . سأل بلالٌ أن يقره بالشام ، ففعل ذلك ، قال : فنزل داريا في خولان ، ثم إن بلالاً رأىٰ في منامه النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو يقول له : « ما هـٰذه الجفوة يا بلال ؟! أمَا آن لك أن تزورني يا بلال ؟! » فانتبه حزيناً وَجِلاً خائفاً ، فركب راحلته وقصد المدينة ، فأتىٰ قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فجعل يبكي عنده ، ويمرغ وجهه عليه ، فأقبل الحسن والحسين ، فجعل يقبلهما ويضمهما ، فقالا له : يا بلال ؛ نشتهي نسمع أذانك الذي كنت تؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد ، ففعل ، فعلا سطح المسجد ، فوقف موقفه الذي كان يقف فيه ، فلما أن قال : الله أكبر الله أكبر . . ارتجت المدينة ، فلما أن قال : أشهد أن لا إلـه إلا الله . . ازدادت رجتها ، فلما قال : أشهد أن محمداً رسول الله . . خرجن العواتق من خدورهن ، وارتجت المدينة بالبكاء ، وقالوا : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فما رئي يوماً أكثر باكياً ولا باكية بالمدينة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك اليوم ، ولم يقدر بلال أن يتم الأذان من البكاء والزفير والشهيق . انتهىٰ [« تاريخ دمشق » ٧ / ١٣٧] .

وروى الحافظ أبو نعيم : عن أبي سعيد الخدري ، عن بلال ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا بلال . . مُتْ فقيراً ، ولا تمُتْ غنياً » قلت : كيف لي بذاك ؟ قال : « ما رُزِقت . . فلا تبخل ، وما سُئِلت . . فلا تمنع » ، فقلت : يا رسول الله ؛ كيف لي بذاك ؟ قال : « هو ذاك ، أو النار »[2] انتهىٰ [« الحلية » ١/ ١٤٩ـ١٥٠] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) في نسخة : (رحل) ، وفي باقي النسخ و « مختصر تاريخ دمشق » لابن منظور كما أثبت ، أما عبارة « تاريخ دمشق » . . فهي : (لما دخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه الجابية . . .) .

(٢) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١/ ٣٤١) .

ومنهم الإمام :

أبو عبد الله الأرقم بن أسد
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كنيته : أبو عبد الله رضي الله عنه ، أسلم بعد ستة نفر ، وكانت داره على الصفا بمكة شرفها الله عز وجل ، وفيها استتر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعا الناس فيها إلى الإسلام ، فأسلم فيها جماعة من سادات الصحابة رضي الله عنهم ، وتصدق بها الأرقم علىٰ ولده ، فلم يزل المنصور يرغب ولده في المال . . حتىٰ باعه إياها ، ثم أعطاها المهدي للخيزران .

وشهد الأرقم بدراً وأحداً ، والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وتوفي وهو ابن بضع وثمانين سنة ، في سنة خمس وخمسين بالمدينة ، وصلىٰ عليه سعد بن أبي وقاص ، رضي الله عنهم أجمعين . انتهىٰ [« الصفوة » ١/١٨٨ـ١٨٩] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو أيوب الأنصاري
رضي الله عنه

قال النووي ـ قدس الله روحه ـ : هو أبو أيوب ، خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة بن عبد عوف بن غنم بن مالك بن النجار ، الأنصاري ، الخزرجي ، المدني .

شهد العقبة ، وبدراً ، وأحداً ، والخندق ، وبيعة الرضوان ، وجميع المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونزل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة مهاجراً ، وأقام عنده شهراً ، حتىٰ بنيت له مساكنه ومسجده .

وروي له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مئة وخمسون حديثاً ، اتفق البخاري ومسلم علىٰ سبعة منها ، وانفرد البخاري بحديث ، ومسلم بخمسة .

وروىٰ عنه : البراء بن عازب ، وجابر بن سمرة ، والمقدام بن معدي كرب ، وأبو أمامة الباهلي ، وزيد بن خالد الجهني ، وابن عباس ، وعبد الله بن يزيد الخطمي .

وروىٰ عنه من التابعين : سعيد بن المسيب ، وسالم بن عبد الله ، وعروة بن الزبير ، وخلائق سواهم .

توفي بأرض الروم غازياً [سنة خمسين ، وقيل :] سنة إحدىٰ وخمسين ، وقيل : سنة ثنتين وخمسين ، وقبره بالقسطنطينية[1] عليه قبة عظيمة ، ويزار ، ويتبرك به إلىٰ

---

(١) وذلك أن أبا أيوب شهد بدراً ، ثم لم يتخلف عن غزاة للمسلمين إلا هو في أُخرىٰ ، إلا عاماً واحداً ؛ فإنه استُعمل على الجيش رجلٌ شاب ، فقعد ذلك العام ، فجعل بعد ذاك العام يتلهف ويقول : ما عليَّ من استُعمل عليَّ ، وما عليَّ من استعمل عليَّ ، وما عليَّ من استعمل عليَّ ، فمرض ، وكان على الجيش يزيد بن معاوية ، فأتاه يعوده ، فقال : حاجتك ؟ قال : نعم ، حاجتي إذا أنا متُّ . . فاركبْ بي ثم سُغ بي في أرض العدو ما وجدت مساغاً ، فإذا لم تجد مساغاً . . فادفني ثم ارجع .
فلما مات . . ركب به ، ثم سار به في أرض العدو ما وجد مساغاً ثم دفنه ثم رجع ، وكان أبو أيوب رضي الله عنه يقول : قال الله تعالىٰ : ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ لا أجدني إلا خفيفاً وثقيلاً . انظر « الطبقات » لابن سعد (٣/ ٤٨٥) . =

يومنا هـٰذا ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« التهذيب » ٢/١٧٧] .

زاد في « تاريخ الحافظ ابن عساكر » ـ رحمه الله ـ : عن أفلح مولىٰ أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه ، أن أم أيوب قالت له : ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة ؟ فقال : بلىٰ ؛ وذلك زور وكذب وباطل ، أفكنت يا أم أيوب فاعلة ذلك ؟ قالت : لا والله ، قال : فعائشة والله خير منك ، وفيه أنزل الله تعالىٰ : ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ .

وعن سالم بن عبد الله رضي الله عنهما قال : (أعرست في عهد أَبي ، فدعا أبي الناس ، فكان ممن دعي : أبو أيوب ، وقد ستروا بيتي بجُنادي[1] أخضر ، فجاء أبو أيوب فطأطأ رأسه ، فنظر فإذا البيت مستَّر ، فقال : يا عبد الله ؛ تستر وراء الجدر ؟ فقال أبي ـ واستحيىٰ ـ : غلبنا النساء يا أبا أيوب ، فقال أبو أيوب : من خشيت أن يغلبه النساء ، فلم أخش أن يغلبنك ، لا أدخل لكم بيتاً ، ولا أطعم لكم طعاماً ، وانصرف) .

وعن ابن عمر : (أن أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنه غزا أرض الروم ، فمر علىٰ معاوية ، فجفاه ولم يلتفت إليه ، فانطلق ، ثم رجع من غزوته ، فمر عليه وشكا إليه دَيناً عليه ، فجفاه ولم يرفع به رأساً ، فقال له أبو أيوب : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنكم ستلقون بعدي أثرة » ، فقال له معاوية : وأي شيء قال لكم ؟ قال : قال صلى الله عليه وسلم : « اصبروا »[2] ، قال معاوية : فاصبروا ، قال : نعم ، أصبر ، ووالله ؛ لا أسألك شيئاً أبداً) .

وقدم [أبو أيوب] البصرة على ابن عباس وهو أمير عليها من جهة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فقال : (يا أبا أيوب ؛ إني أريد أن أَخرُج لك عن مسكني كما خرجتَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن مسكنك ، ثم قال : كم عليك من الدَّين ؟ قال : عشرون ألفاً ، فأعطاه أربعين ألفاً وأربعين[3] مملوكاً ، وقال له : لك كل شيء أغلق عليه باب داري) .

= ومعنىٰ (ثم سغ بي) : ادخل فيها ما وجدت مدخلاً .

فانظر يا أخي ـ حماك الله ـ كيف كانت همته على الجهاد في سبيل الله ، وكيف آثر أن يكون مرابطاً للعدو حتىٰ في موته ؛ ليدخل في عداد الجيش الذي تفتح القسطنطينية علىٰ يديه ، والذي قال في حقه صلى الله عليه وسلم : « أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم . . . » [البخاري : ٢٧٦٦] .

(١) **الجُنادي** : جنس من الأنماط أو الثياب يستر بها الجدران .

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٤٧) ومسلم (١٠٦١) .

(٣) في « تاريخ دمشق » : (عشرون) .

عن كثير بن أفلح قال : (قدم أبو أيوب علىٰ معاوية ، فأجلسه معه على السرير ، فجعل معاوية يحدّث ، ويقول : وفعلنا ، وأهل الشام حوله ، فالتفت إلىٰ أبي أيوب ، فقال : (يا أبا أيوب ؛ من قتل صاحب الفرس البلقاء[1] التي جعلت تجول يوم كذا وكذا ؟ فقال أبو أيوب : أنا الذي قتلته إذ أنت وأبوك على الجمل الأحمر معكما لواء الكفر ، قال : فنكس معاوية رأسه ، وقال : مه مه ، ما عن هـٰذا سألناك ، ولا هـٰذا أردنا منك) [انتهىٰ « تاريخ دمشق » ١٦/ ٤٩ـ٥٦] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) **البَلَقُ** : هو السواد والبياض الذي يكون في الفرس .

ومنهم الإمام السيد القارىء :

أُبَيُّ بن كعب
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : يكنىٰ : أبا المنذر ، شهد العقبة مع السبعين ، وبدراً ، والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهو أحد الذين حفظوا القرآن كله علىٰ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحد الذين كانوا يفتون علىٰ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حقه : (هـٰذا سيد المسلمين) .

ومات سنة ثلاثين .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بن كعب : « إن الله عز وجل أمرني أن أقرأ عليك : ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ » ، فقال : سمَّاني لك ؟ قال : « نعم » ، فبكىٰ) أخرجاه في « الصحيحين »[1] . انتهىٰ [« الصفوة » ١/٢٠٣ـ٢٠٥] .

زاد في رواية : (أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن جبريل أمرني أن أقرأ عليك القرآن ، وهو يقرئك السلام » ، فارتعد لذلك أُبي ، حتى احتضنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهدأ وسكن) ، رواه أبو القاسم الراغب في « تفسيره » . انتهىٰ .

قال النووي ـ قدس الله روحه ـ : هـٰذه منقبة عظيمة لأُبي ، لم يشاركه فيها أحد من الناس . انتهىٰ [« التهذيب » ١/١٠٩] .

وقال أبو الفرج : وعن أبي بن كعب قال : (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إني أُمرت أن أعرض عليك القرآن » ، فقال : بالله آمنتُ ، وعلىٰ يدك أسلمت ، ومنك تعلمت ، قال : فرد النبي صلى الله عليه وسلم القول ، فقال : يا رسول الله ؛ وذُكِرْت هناك ؟ قال :

---

(١) البخاري (٤٦٧٦) ومسلم (٧٩٩) ، كلاهما بدون لفظ : ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ .

« نعم ؛ باسمك ونسبك ، في الملأ الأعلىٰ » قال : فاقرأ إذن يا رسول الله)[1] .

وقد روىٰ مسلم في أفراده [٨١٠] من حديث أُبي بن كعب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أبا المنذر ؛ أتدري أيَّ آية من كتاب الله أعظمَ ؟ » قال : قلت : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ قال : فضرب في صدري وقال : « ليهْنِكَ العلمُ أبا المنذر » .

وكان يختم القرآن في ثمان ليال ، وكان تميم الداري يختمه في سبع .

وعن أبي قال : (عليكم بالسبيل والسنة ؛ فإنه ليس من عبد علىٰ سبيل وسنة ذَكَرَ الرحمٰن ، ففاضت عيناه من خشية الله . . فتمسه النار ، وليس من عبد علىٰ سبيل وسنة ذكر الرحمٰن ، فاقشعر جلده من مخافة الله تعالىٰ . . إلا كان مَثَلُه كمَثَل شجرة يبس ورقها ، فبينما هي كذلك إذ أصابها الريح ، فتحات عنها ورقها . . إلا تحاتت عنه ذنوبه كما تحات عن هٰذه الشجرة ورقها ، وإنَّ اقتصاداً في سبيل وسنة . . خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة) .

وقال : (ما من عبد ترك شيئاً لله عز وجل . . إلا أبدله الله عز وجل ما هو خير منه من حيث لا يحتسب) .

وقال : (يا رسول الله ، ما جزاء الحُمّىٰ ؟ قال : « تجري الحسنات علىٰ صاحبها ما اختلج عليه قدم ، أو ضرب عليه عرق » فقال : اللهم ؛ إني أسألك حُمَّىٰ لا تمنعني خروجاً في سبيلك ولا خروجاً إلىٰ بيتك ولا مسجد نبيك صلى الله عليه وسلم) قال : فلم يُمْسِ أُبي قط إلا وبه حمىٰ[2] . انتهىٰ [« الصفوة » ١/ ٢٠٤ـ٢٠٥] .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال أبي بن كعب : (انطلقت إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فضرب بيده صدري ثم قال : « أعيذك بالله من الشك والتكذيب » ، ففضتُ عرقاً ، وكأني أنظر إلىٰ ربي فرقاً) .

وعن قيس بن عُبَاد قال : بينا أصلي في مسجد المدينة في الصف المقدم ؛ إذ جاء رجل من خلفي ، فجذبني جذبة ، فنحاني ، فقام مقامي ، فلما سلَّم . . التفتَ إلي ، فإذا هو أبي بن كعب ، فقال : (يا فتىٰ ؛ لا يسوؤك الله ، إن هٰذا عهد من النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (١/ ١٤١) .

(٢) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١/ ٢٠٠) .

إلينا) ، ثم استقبل القبلة ، فقال : (هلك أهل العقدة ورب الكعبة ، لا آسىٰ عليهم ـ ثلاث مرات ـ أمَا والله ما عليهم آسىٰ ، ولـٰكن آسىٰ علىٰ من أضلوا) .

وعن أُبي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بشر هـٰذه الأمة بالسناء والنصر والتمكين ، مَن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا . . لم يكن له في الآخرة نصيب »[1] .

وعن أُبي قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذهب ربع الليل . . قال : « يا أيها الناس ؛ اذكروا الله عز وجلَّ ، جاءت الراجفة ، تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه »[2] يقولها ثلاثاً) انتهىٰ [« الحلية » ١/ ٢٥٢ـ٢٥٦] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرجه ابن حبان في « الإحسان » (٤٠٥) ، والحاكم (٤/ ٣٤٦) .

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٥٧) .

ومنهم الإمام :

سعد بن معاذ
سيد الأوس رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : يكنىٰ : أبا عمرو ، وأمه : كبشة بنت رافع من المبايِعات.

أسلم سعد رضي الله عنه علىٰ يد مصعب بن عمير ، فأسلم بإسلامه بنو عبد الأشهل ، وهي أول دار أسلمت من الأنصار ، وشهد بدراً ، وأحداً ، وثبت مع النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ ، ورُمي يوم الخندق ، ثم انفجر كَلْمه بعد ذلك ، فمات في شوال ، سنة خمس من الهجرة ، وهو ابن سبع وثلاثين سنة ، وصلىٰ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودفن بالبقيع ، وله من الولد : عبد الله ، وعمرو .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : خرجت يوم الخندق أقفو أثر الناس ، فسمعت وئيد الأرض[1] من ورائي ، فالتفت ، فإذا أنا بسعد بن معاذ ومعه ابن أخيه الحارث بن أوس يحمل مِجَنَّه[2] ، فجلستُ إلى الأرض ، قالت : فمر سعد وهو يرتجز ، وعليه درع قد خرجت منه أطرافه ، فأنا أتخوف علىٰ أطراف سعد ـ وكان سعد من أطول الناس وأعظمهم ـ قالت : فقمت فاقتحمت حديقة ، فإذا فيها نفر من المسلمين ، وفيهم عمر بن الخطاب ، وفيهم رجل عليه تسبغة له ـ يعني : المغفر ـ قالت : فقال لي عمر : ما جاء بكِ ؟ والله إنك لجريئة ، وما يؤمنك أن يكون تَحَوُّزٌ أو بلاء ؟ قالت : فما زال يلومني حتىٰ تمنيت أن الأرض انشقت بي ساعتئذ فدخلت فيها ، قالت : فرفع الرجل التسبغة عن وجهه ، فإذا طلحة بن عبيد الله ، فقال : ويحك يا عمر! إنك قد أكثرت منذ اليوم ، وأين التحوُّز والفرار إلا إلى الله ؟ قالت : ورمىٰ سعداً رجلٌ من المشركين بسهم ، فقال : خذها وأنا ابن العرقة ، فأصاب أكحله ، فدعا اللهَ سعدٌ ، فقال : اللهم ؛ لا تمتني حتىٰ تشفيني من بني قريظة ، وكانوا مواليه وحلفاءه في الجاهلية .

---

(١) صوتها .

(٢) المِجَنّ : الترس .

قال : فرقأ كَلْمه[1] ، وبعث الله عز وجل الريح على المشركين : ﴿ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ ، فلحق أبو سفيان ومن معه بتهامة ، ولحق عيينة ومن معه بنجد ، ورجعت بنو قريظة ، فتحصنوا في صياصيهم[2] ، ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وأمر بقبة من أدم فضربت علىٰ سعد بن معاذ في المسجد ، فجاءه جبريل عليه السلام ، وعلىٰ ثناياه النقع[3] ، فقال : أوقد وضعتم السلاح ؟ فوالله ؛ ما وضعت الملائكة السلاح بعد ، أُخرجْ إلىٰ بني قريظة فقاتلهم ، فلبس رسول الله صلى الله عليه وسلم لأُمته ، وأذَّنَ في الناس بالرحيل ، فأتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحاصرهم خمساً وعشرين ليلة ، فلما اشتد حصرهم واشتد البلاء عليهم . . قيل لهم : انزلوا علىٰ حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستشاروا أبا لبابة ابن عبد المنذر ، فأشار إليهم أنه الذبح ، فقالوا : ننزل علىٰ حكم سعد بن معاذ .

فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلىٰ سعد ، فحُمل علىٰ حمار علىٰ إكاف من ليف ، وحف به قومه ، فجعلوا يقولون : يا أبا عمرو ؛ حلفاؤك ومواليك ومن قد علمت ، ولا يرجع إليهم شيئاً[4] ، حتىٰ إذا دنا من دورهم . . التفت إلىٰ قومه ، فقال : قد آن لي ألاَّ أبالي في الله لومة لائم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « احكم فيهم » ، قال : فإني أحكم فيهم أن تُقتَّل مقاتلتهم ، وتسبىٰ ذراريهم ، وتقسم أموالهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله »[5] .

وفي رواية ابن إسحاق : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا ترضون ـ يا معشر الأوس ـ أن يحكم فيهم رجل منكم » ، قالوا : بلىٰ ، قال : « فذاك إلىٰ سعد بن معاذ » ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جعل سعداً في خيمة لامرأة من أسلم ، يقال لها : رُفَيدة ، كانت تداوي الجرحىٰ ؛ حتىٰ تعوده من قريب ، فلما حكَّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني قريظة . . أتاه قومه ، فحملوه علىٰ حمار وطووا له وسادة من أدم ، قال : ثم أقبلوا معه إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم يقولون : يا أبا عمرو ؛ أحسن في

---

(١) سكن دم جرحه عن السيلان .
(٢) الصياصي : الحصون .
(٣) الثنايا : مقدم الأسنان ، النقع : الموت ، وهو كناية .
(٤) يعني : لا يردُّ لهم جواباً .
(٥) أخرجه البخاري (٢٨٧٨) ومسلم (١٧٦٨) .

مواليك ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم ، فقال : قد آن لسعد ألاَّ تأخذه في الله لومة لائم ، فرجع بعض من كان معه من قومه إلىٰ دار بني عبد الأشهل ، فنعىٰ لهم رجال بني قريظة قبل أن يصل إليهم سعد عن كلمته التي سمع منه .

فلما انتهىٰ سعد إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين . . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قوموا إلىٰ سيدكم » ، فأما المهاجرون من قريش . . فيقولون : إنما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصار ، وأما الأنصار . . فيقولون : قد عم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين ، فقاموا إليه ، فقالوا : يا أبا عمرو ؛ إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم ، فقال سعد : عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم كما حكمتُ ؟ قالوا : نعم ، قال : وعلىٰ من هـٰهنا ؟ في الناحية التي فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وهو معرض عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إجلالاً له ـ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نعم » . قال سعد : فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجال ، وتسبى الذراري والنساء ، وتقسم الأموال ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة »[1] انتهىٰ[2]

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : ثم دعا اللهَ عز وجل سعدٌ ، فقال : (اللهم ؛ إن كنت أبقيت علىٰ نبيك من حرب قريش شيئاً . . فأبقني لها ، وإن كنت قطعت الحرب بينه وبينهم . . فاقبضني إليك) فانفجر كَلْمه ، وقد كان برىء ، قالت عائشة : (فحضره رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر ، فوالذي نفس محمد بيده ؛ إني لأعرف بكاء أبي بكر من بكاء عمر وأنا في حجرتي ، فقيل : كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع ؟ فقالت : كانت عينه الشريفة صلى الله عليه وسلم لا تدمع علىٰ أحد ، ولـٰكنه كان إذا وَجَدَ . . فإنما هو آخذ بلحيته الكريمة صلى الله عليه وسلم) .

وعن الحسن رحمه الله قال : لما مات سعد بن معاذ رضي الله عنه ، وكان رجلاً جسيماً جزلاً . . جعل المنافقون وهم يمشون خلف سريره يقولون : لم نر كاليوم رجلاً أخف ، وقالوا : تدرون لم ذاك ؟ لحكمه في بني قريظة ، فذُكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : « والذي نفسي بيده ؛ لقد كانت الملائكة عليهم السلام تحمل سريره » .

---

(١) ذكره ابن حجر في « فتح الباري » (٧/ ٤١٢) .

(٢) انظر « السيرة النبوية » لابن هشام (٣/ ٢٣٩ـ٢٤٠) .

وعن جابر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اهتز[1] عرش الرحمٰن لموت سعد بن معاذ » . أخرجاه في « الصحيحين » [خ ٣٥٩٢ـ م ٢٤٦٦] .

وعن البراء قال : أتي النبي صلى الله عليه وسلم بثوب حرير ، فجعلوا يتعجبون من حسنه ولينه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَمناديل سعد بن معاذ في الجنة . . أفضل أو خير من هٰذا » . أخرجاه في « الصحيحين » [خ ٣٥٩١ـ م ٢٤٦٨] . والله سبحانه أعلم . انتهىٰ [« الصفوة » ١/١٩٦] .

وقال النووي ـ قدس الله روحه ـ : أسلم سعد علىٰ يد مصعب بن عمير ، حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم قبله مهاجراً إلى المدينة يعلِّم المسلمينَ أمور دينهم ، فلما أسلم سعد . . قال لبني عبد الأشهل : كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتىٰ تسلموا ، فأسلموا ، فكان أعظم الناس بركة في الإسلام ، ومن أنفعهم لقومه .

توفي شهيداً عام الخندق من جرح أصابه فيه .

قال العلماء : واهتز العرش ، وفرح الملائكة بقدومه ؛ لِمَا رأوا من منزلته .

وفي « الصحيحين » : عن أبي سعيد : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بعث إلىٰ سعد بن معاذ ، فجاء علىٰ حمار ، فبلغ قريباً من المسجد . . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قوموا إلىٰ سيدكم » ، أو قال : « خيركم » .

ومناقب سعد كثيرة مشهورة .

وأنشدوا :

وما اهتز عرشُ الله من موت هالكٍ ... سمعنا به إلا لسعدٍ أبي عمرِو

روىٰ له البخاري ومسلم حديثاً من رواية ابن مسعود ، وفيه معجزة من معجزات رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] . انتهىٰ [« التهذيب » ١/٢١٤ـ٢١٥] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) **الهز** في الأصل : الحركة ، واهتز : إذا تحرك ، فاستعمله في معنى الارتياح ؛ أي : ارتاح بصعوده حين صُعِدَ به واسْتَبْشر ؛ لكرامته علىٰ ربه ، وكلُّ من خفَّ لأمرٍ وارتاح له . . فقد اهتزَّ له .
وقيل : أراد فرح أهل العرش بموته ، والله أعلم .

(٢) والحديث كما رواه البخاري (٣٤٣٣) : =

ومنهم الإمام :

عمار بن ياسر
رضي الله عنه

اسم أُمه : سمية ، أسلم قديماً ، وكان من المستضعفين الذين يعذبون بمكة ليرجع عن دينه ، وأحرقه المشركون بالنار .

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : شهد بدراً ، ولم يشهدها ابن مؤمنَين غيره ، وشهد أحداً ، والمشاهد كلها ، وسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الطيب المطيب »[1] .

وروىٰ بسنده : عن عمرو بن ميمون قال : أحرق المشركون عمار بن ياسر ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر به ويمِر يده الكريمة علىٰ رأسه ، ويقول : « يا نار ؛ كوني برداً وسلاماً علىٰ عمار ، كما كنتِ علىٰ إبراهيم عليه الصلاة والسلام »[2] .

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : أقبلتُ أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم آخذٌ

= عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : (انطلق سعد بن معاذ معتمراً ، قال : فنزل علىٰ أمية بن خلف أبي صفوان ، وكان أمية إذا انطلق إلى الشام فمر بالمدينة . . نزل علىٰ سعد ، فقال أمية لسعد : انتظر حتىٰ إذا انتصف النهار وغفل الناس انطلقت فطفت ، فبينا سعد يطوف ؛ إذا أبو جهل ، فقال : من هـٰذا الذي يطوف بالكعبة ؟ فقال سعد : أنا سعد ، فقال أبو جهل : تطوف بالكعبة آمناً ، وقد آويتم محمداً وأصحابه ؟! فقال : نعم . فتلاحيا بينهما ، فقال أمية لسعد : لا ترفع صوتك علىٰ أبي الحكم ؛ فإنه سيد أهل الوادي ، ثم قال سعد : والله ؛ لئن منعتني أن أطوف بالبيت . . لأقطعن متجرك بالشام . قال : فجعل أمية يقول لسعد : لا ترفع صوتك ، وجعل يمسكه ، فغضب سعد فقال : دعنا عنك ؛ فإني سمعت محمداً صلى الله عليه وسلم يزعم أنه قاتلك ، قال : إياي ؟ قال : نعم ، قال : والله ؛ ما يكذب محمد إذا حدث ، فرجع إلى امرأته ، فقال : أما تعلمين ما قال لي أخي اليثربي ، قالت : وما قال ؟ قال : زعم أنه سمع محمداً يزعم أنه قاتلي ، قالت : فوالله ؛ ما يكذب محمد ، قال : فلما خرجوا إلىٰ بدر ، وجاء الصريخ . . قالت له امرأته : أما ذكرت ما قال لك أخوك اليثربي ، قال : فأراد ألا يخرج ، فقال له أبو جهل : إنك من أشراف الوادي فسر يوماً أو يومين ، فسار معهم ، فقتله الله) .

(١) أخرج الترمذي (٣٧٩٨) عن علي رضي الله عنه قال : جاء عمار يستأذن على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « ائذنوا له مرحباً بالطيب المطيب » وقال : هـٰذا حديث حسن صحيح ، ومعناه : الطاهر المطهر .

(٢) ابن سعد في « الكبرىٰ » (٣/ ٢٤٨) .

بيدي نتماشىٰ في البطحاء ، حتىٰ أتينا علىٰ أبي عمار وعمار وأمه وهم يعذبون ، فقال ياسر : الدهر هـٰكذا ؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : [« اصبر » ، ثم قال :] « اللهم ؛ اغفر لآل ياسر ، وقد فعلت »[1] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن عماراً مُلِيء إيماناً ، من قرنه إلىٰ قدمه » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الجنة تشتاق إلىٰ ثلاثة : علي ، وعمار ، وسلمان »[2] .

وكان عمار طويل الصمت ، طويل الحزن والكآبة ، وكان عامة كلامه عائذاً بالله من فتنته .

وسئل عمار عن مسألة فقال : هل كان هـٰذا بعد ؟ قالوا : لا ، قال : فدعونا حتىٰ يكون ، فإذا كان . . تجشَّمناها[3] لكم .

وكان يقول : (إني لا أقاتل إلا أريد وجهك الكريم ، وأنا أرجو ألاَّ تخيبني ، وأنا أريد وجهك الكريم الباقي) .

وقال عبد الله بن سلمة : رأيت عماراً يوم صفين شيخاً آدم في يده الحربة ، وإنها لترعد ، فنظر إلىٰ عمرو بن العاصي معه الراية ، فقال : (إن هـٰذه راية قد قاتلتُ بها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات ، وهـٰذه الرابعة ، والله ؛ لو ضربونا حتىٰ يبلغونا سعفات هجر . . لعرفت أن مصلحينا[4] على الحق ، وأنتم على الضلالة) .

ودعا بشراب ، فأتي بقدح من لبن ، فشرب منه ، ثم قال : صدق الله ورسوله ، اليوم ألقى الأحبه محمداً وحزبه ؛ إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن آخر شيء تُزَوَّدُهُ من الدنيا . . صبحة لبن[5] » ثم قتل بصفين مع علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، قتله

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٦٢) .

(٢) أخرجه بنحوه الطبراني في « الكبير » (٦/ ٢١٥) .

(٣) **تجشَّم الأمر** : تكلَّفه علىٰ مشقة ، والمعنىٰ : بذلنا جهدنا للبحث عنها لكم .

(٤) في « الصفوة » : (لعرفت أن صاحبنا على الحق ، وأنهم على الضلالة) وفي « الطبقات » [٣/ ٢٥٦] : (مصلحتنا) .

(٥) **صبحة لبن** : سقاهم صَبوحاً ؛ وهو ما حلبَ من اللبن بالغداة ، وفي رواية : (ضحية لبن) : وهو اللبن الخاثر يصب فيه الماء ثم يخلط .

أبو الغادية ، ودفن هناك ، سنة سبع وثلاثين ، وهو ابن ثلاث وتسعين سنة . انتهىٰ [« الصفوة » ١/١٨٩ـ١٩١] .

وقال الإمام النووي ـ قدس الله روحه ـ : كان عمار من السابقين إلى الإسلام ، هو وأبوه وأمه ممن أسلم أولاً ، وكان إسلام عمار وصهيب في وقت واحد في دار الأرقم ، أسلم بعد بضعة وثلاثين رجلاً .

ونقلوا عن مجاهد أنه قال : أول من أظهر إسلامه أبو بكر ، وبلال ، وخباب ، وصهيب ، وعمار ، وأمه سمية ، رضي الله عنهم أجمعين .

وكان عمار وأبوه وأمه يعذَّبون في الله عز وجل علىٰ إسلامهم ، ويمر بهم النبي صلى الله عليه وسلم ، فيقول : « صبراً آل ياسر ؛ فإن موعدكم الجنة » .

وقتل أبو جهل سمية رضي الله عنها ، فهي أول شهيد في الإسلام .

وفي عمار نزل قوله تعالىٰ : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ .

وهاجر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة .

وروي له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنان وستون حديثاً ، اتفقا علىٰ حديثين منها ، وانفرد البخاري بثلاثة ، ومسلم بحديث .

روىٰ عنه جماعة من الصحابة ، وخلائق من التابعين .

ولما قتل . . كان قد أوصىٰ أن يدفن في ثيابه ، فدفنه علي رضي الله عنه في ثيابه ، ولم يغسله .

وثبت في « الصحيحين » [خ ٤٣٦ـ م ٢٩١٦] : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ويح عمار! تقتله الفئة الباغية » .

وكانت الصحابة رضي الله عنهم يتبعونه يوم صفين حيث توجه ؛ لعلمهم بأنه مع الفئة العادلة ؛ للحديث الثابت .

وعمار أول من بنىٰ مسجداً لله عز وجل في الإسلام ، بنىٰ مسجد قباء .

وشهد قتال اليمامة زمن أبي بكر رضي الله عنه ، وأشرف علىٰ صخرة ، ونادىٰ : يا معشر المسلمين ؛ أَمِنَ الجنة تفرون ؟ إلي إلي ، أنا عمار بن ياسر ، وقطعت أذنه ، وهو يقاتل أشد القتال .

واستعمله عمر بن الخطاب رضي الله عنه على الكوفة .

وعن حذيفة قال : كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : « إني لا أدري ما قدر بقائي فيكم ، فاقتدوا بالذين من بعدي ـ وأشار إلىٰ أبي بكر وعمر ـ واهتدوا بهدي عمار ، وما حدثكم ابن مسعود . . فصدقوه » رواه الترمذي [٣٧٩٩] وقال : حديث حسن .

ورُوِّينا في « مسند الإمام أحمد » [٨٩/٤] ، عن علقمة ، عن خالد بن الوليد رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من عادىٰ عماراً . . عاداه الله ، ومن أبغض عماراً . . أبغضه الله » ، هـٰذا منقطع ؛ فإن علقمة لم يدرك خالداً ، والله أعلم . انتهىٰ [« التهذيب » ٢/ ٣٧ـ ٣٨] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

زيد بن الخطاب
أخو عمر بن الخطاب
رضي الله عنهما

قال النووي ـ قدس الله روحه ـ : كان زيد أسن من أخيه عمر ، وأسلم قبله ، وهو من المهاجرين الأولين ، شهد بدراً ، وأحداً ، والخندق ، والحديبية ، والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وآخىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين معن بن عدي الأنصاري رضي الله عنهما ، فقتلا جميعاً باليمامة[1] شهيدين ، وكانت اليمامة في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، في شهر ربيع الأول ، سنة ثنتي عشرة ، وقيل : سنة إحدىٰ عشرة .

وكان طويلاً ، ظاهر الطول .

ولما استشهد . . حزن عليه عمر حزناً شديداً وقال : (ما هبت الصبا إلا وأنا أجد منها ريح زيد) .

وقال له عمر رضي الله عنهما يوم أحد : (خذ درعي ، فقال : إني أريد من الشهادة ما تريد) فتركاها جميعاً ، وكانت الراية يوم اليمامة مع زيد ، فلم يزل يتقدم بها في نحر العدو ، ثم ضارب بسيفه حتىٰ قتل ، ووقعت الراية ، فأخذها سالم مولىٰ أبي حذيفة رضي الله عنه ، ولما أُخبر عمر بقتل زيد . . قال : (رحم الله أخي ؛ سبقني إلى الحُسْنَيين : أسلم قبلي ، واستشهد قبلي) .

روىٰ له مسلم حديثاً ، والبخاري تعليقاً ، وأبو داوود ، وكان يكنىٰ : أبا عبد الرحمـٰن .

انتهىٰ [« التهذيب » ١/٢٠٣ـ٢٠٤] .

---

(١) جاء في هامش « أسرع الوسائل » : (قال في « الرياض المستطابة » [٩٠] : جملة من قتل في وقعة اليمامة من الصحابة ست مئة ، ومنهم ومن غيرهم ألف ومئتان) .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : رأيت في رواية أبي الفرج ـ رحمه الله ـ زيادة علىٰ ما تقدم ، وهي : أنه قال عمر رضي الله عنه لأخيه زيد رضي الله عنه يوم أحد : (أقسمت عليك إلا لبست درعي ، فلبسها ، ثم نزعها ، فقال له عمر رضي الله عنه : ما لك ؟ فقال : إني أريد بنفسي ما تريد بنفسك) ، فتركاها جميعاً .

وكان زيد يحمل راية المسلمين يوم اليمامة ، وقد انكشف المسلمون حتىٰ غلبت بنو حنيفة على الرحال ، فجعل زيد رضي الله عنه يقول : (أما الرحال . . فلا رحال ، أما الرجال . . فلا رجال ، ثم جعل يصيح بأعلىٰ صوته : اللهم ؛ إني أعتذر إليك من فرار أصحابي ، وأبرأ إليك مما جاء به مسيلمة) ، وجعل يشتد بالراية يتقدم بها في نحر العدو ، ثم قاتل حتىٰ قتل ، ووقعت الراية ، فأخذها سالم مولىٰ أبي حذيفة ، فقال المسلمون : يا سالم ؛ إنا نخاف أن نؤتىٰ من قِبَلِكَ ، فقال : (بئس حامل القرآن أنا إن أتيتم من قِبلي) انتهىٰ[1] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) انظر « الصفوة » (١/ ١٩١) .

ومنهم الإمام :

عثمان بن مظعون
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : عثمان بن مظعون ، كان يكنىٰ : أبا السائب ، أسلم قديماً قبل دار الأرقم ، وهاجر إلى الحبشة الهجرتين ، وحرَّم الخمر في الجاهلية ، وقال : لا أشرب شيئاً يذهب عقلي ، ويضحك بي من هو أدنىٰ مني ، ويحملني علىٰ أن أُنكح كريمتي مَن لا أريد .

شهد بدراً ، وكان كثير العبادة .

توفي في شعبان ، علىٰ رأس ثلاثين شهراً من الهجرة ، وقبَّل النبيُّ صلى الله عليه وسلم خدَّه ثلاثاً بعد موته ، وسماه : السلف الصالح[1] .

وهو أول من دفن بالبقيع .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : دخلت على امرأة عثمان بن مظعون وهي باذة الهيئة[2] ، فسألتها : ما شأنك ؟ فقالت : زوجي يقوم الليل ، ويصوم النهار ، فدخل النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، فذكرت له ذلك ، فلقي رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان ، فقال : « يا عثمان ؛ إن الرهبانية لم تكتب علينا ، أما لك فيَّ أسوة ؟ فوالله ؛ إني لأخشاكم لله ، وأحفظكم لحدوده »[3] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل علىٰ عثمان حين مات ، فأكب عليه ، ثم رفع رأسه وله شهيق ، فعرفوا أنه يبكي ، فبكى القوم ، فقال :

---

(١) لما دفن سيدنا عثمان بن مظعون . . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « نعم السلف هو لنا عثمان بن مظعون » « الاستيعاب » (٣/ ١٠٥٣) ، وروىٰ أحمد (١/ ٣٣٥) : لما ماتت رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الحقي بسلفنا الخير عثمان بن مظعون » .

(٢) **باذ الهيئة** : رث الهيئة ، سيء المنظر .

(٣) أخرجه ابن حبان في « الإحسان » (٩) .

« أذهِب عنها أبا السائب ، فقد خرجت منها ولم تلبَّس منها بشيء »[1] .

وعن خارجة بن زيد الأنصاري : أن أم العلاء قالت : لما توفي عثمان بن مظعون وجعلناه في ثيابه . . دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : رحمة الله عليك أبا السائب ، بشهادتي عليك لقد أكرمك الله ، فقال ليَ النبي صلى الله عليه وسلم : « وما يدريك أن الله أكرمه ؟ » فقلت : لا أدري ، بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما عثمان . . فقد جاءه ـ والله ـ اليقين ، والله ؛ إني لأرجو له الخير ، ووالله ما أدري ـ وأنا رسول الله ـ ما يُفعل بي » ، قالت : فوالله ؛ لا أزكي أحداً بعده أبداً ، فأحزنني ذلك ، فنمت ، فرأيت لعثمان عين ماء تجري ، فجئت إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبرته ، فقال : « ذاكِ عمله » أخرجه البخاري [٢٥٤١] انتهىٰ [« الصفوة » ١/ ١٩٢ـ١٩٤] .

وروى الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : أن امرأة عثمان بن مظعون رضي الله عنهما قالت : هنيئاً لك أبا السائب الجنة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وما علمك بذلك ؟ » قالت : كان ـ يا رسول الله ـ يصوم النهار ، ويصلي الليل ، قال : « بحسبك لو قلت : كان يحب الله ورسوله » انتهىٰ [« الحلية » ١/١٠٦] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١٠/ ٣٣٣) .

ومنهم الإمام :

معاذ بن جبل
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : معاذ بن جبل رضي الله عنه ، كان يكنىٰ : أبا عبد الرحمـٰن ، أسلم وهو ابن ثماني عشرة سنة ، وشهد العقبة مع السبعين ، وبدراً ، والمشاهد كلها ، وأردفه رسول الله صلى الله عليه وسلم وراءه ، وبعثه إلى اليمن بعد غزوة تبوك ، وشيعه ماشياً في مخرجه ، وكان معاذ راكباً .

وعن أبي مسلم الخولاني قال : أتيت مسجد دمشق ؛ فإذا حلقة فيها كُهُولٌ من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، وإذا فيهم شاب أكحل العينين ، براق الثنايا ، كلما اختلفوا في شيء . . ردوه إلى الفتىٰ ، قال : قلت لجليس لي : مَنْ هـٰذا ؟ قال : هـٰذا معاذ بن جبل .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أنه أخذ أربع مئة دينار ، فجعلها في صرة ، ثم قال لغلام له : اذهب بها إلىٰ أبي عبيدة ابن الجراح ، ثم تَلَهَّ ساعة في البيت حتىٰ تنظر ما يصنع ، فذهب الغلام ، قال : يقول لك أمير المؤمنين : اجعل هـٰذه في بعض حاجتك ، فقال : وصله الله ورحمه ، ثم قال : تعالي يا جارية ، اذهبي بهـٰذه السبعة إلىٰ فلان ، وبهـٰذه الخمسة إلىٰ فلان ، حتىٰ أنفدها ، فرجع الغلام ، فأخبره ، فوجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل رضي الله عنه ، فقال : اذهب بها إلىٰ معاذ ، وتَلَهَّ في البيت ساعة حتىٰ تنظر ما يصنع ، فذهب بها إليه ، وقال : يقول لك أمير المؤمنين : اجعل هـٰذه في بعض حاجتك ، فقال : وصله الله ورحمه ، ثم قال : تعالي يا جارية ، اذهبي إلىٰ بيت فلان بكذا ، وإلىٰ بيت فلان بكذا ، فاطلعت امرأة معاذ رضي الله عنهما ، فقالت : نحن ـ والله ـ مساكين فأعطنا ، قال : ولم يبق في الخرقة إلا ديناران ، فدحا[1] بهما إليها ، فرجع الغلام إلىٰ أمير المؤمنين ، فأخبره ، فقال : إنهم إخوة ، بعضهم من بعض .

وكان تحت معاذ بن جبل امرأتان ، فإذا كان عند إحداهما . . لم يشرب من بيت الأخرى

---

(١) دحا : رمىٰ وألقىٰ .

الماء ، ولا يتوضأ من بيت الأخرىٰ ، ثم توفيتا بالطاعون في الشام والناس في شغل ، فدفنتا في حفرة ، فأسهم بينهما أيتهما تُقَدَّم في القبر .

وكان إذا قام من الليل . . يقول : (اللهم ؛ قد نامت العيون ، وغارت النجوم ، وأنت الحي القيوم ، اللهم ؛ طلبي للجنة بطيء ، وهربي من النار ضعيف ، اللهم ؛ اجعل لي عندك هدىٰ ترده إلي يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد) .

وكان لا يُسأل شيئاً . . إلا أعطاه ، وكان سمحاً جميلاً ، من خير شباب قومه . انتهىٰ [« الصفوة » ١/ ٢١٠ـ٢١٢] .

وروى الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : عن أنس بن مالك : أن معاذ بن جبل دخل علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « كيف أصبحت يا معاذ ؟ » فقال : أصبحت بالله مؤمناً ، فقال : « إن لكل قول مصداقاً ، ولكل حق حقيقة ، فما مصداق ما تقول ؟ » قال : يا رسول الله ؛ ما أصبحت صباحاً قط . . إلا ظننت أني لا أمسي ، ولا أمسيت مساء قط . . إلا ظننت أني لا أصبح ، ولا خطوت خطوة . . إلا ظننت أني لا أتبعها أخرىٰ ، وكأني أنظر إلىٰ كل أمَّة جاثية تدعىٰ إلىٰ كتابها ، معها نبيها وأوثانها التي كانت تعبد من دون الله عز وجل ، وكأني أنظر إلىٰ عقوبة أهل النار وثواب أهل الجنة ، فقال صلى الله عليه وسلم : « قد عرفت فالزم » انتهىٰ [« الحلية » ١/ ٢٤٢] .

وقال الإمام النووي ـ قدس الله روحه ـ : آخىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم بين معاذ وبين ابن مسعود رضي الله عنهما .

روي له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مئة وسبعة وخمسون حديثاً ، اتفقا علىٰ حديثين ، وانفرد البخاري بثلاثة ، ومسلم بحديث .

وروىٰ عنه ابن عمر ، وابن عباس ، وخلائق من الصحابة ، والتابعين .

وعن أنس قال : (جمع القرآن علىٰ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة من الأنصار : أُبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد قيس بن السكن) رواه البخاري [٣٥٩٩] ومسلم [٤٦٥] .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاصي قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « خذوا القرآن من أربعة : من عبد الله بن مسعود ، وسالم مولىٰ أبي حذيفة ، ومعاذ بن جبل ، وأُبي بن كعب » رَوَياه [خ ٣٥٩٧ـ م ٢٤٦٤] .

وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أرحم أمتي بأمتي : أبو بكر ، وأشدهم في أمر الله : عمر ، وأشدهم حياء : عثمان ، وأعلمهم بالحلال والحرام : معاذ بن جبل ، وأفرضهم : زيد بن ثابت ، وأَقرَؤُهم : أُبَي ، ولكل أمة أمين ، وأمين هـٰذه الأمة : أبو عبيدة ابن الجراح » رواه الترمذي [٣٧٩] ، والنسائي ، وابن ماجه [١٥٤] ، بأسانيد صحيحة ، أو حسنة ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نِعم الرجل أبو بكر ، نعم الرجل عمر ، نعم الرجل أبو عبيدة ابن الجراح ، نعم الرجل أسيد بن حضير ، نعم الرجل ثابت بن قيس بن شماس ، نعم الرجل معاذ بن جبل ، نعم الرجل معاذ بن عمرو بن الجموح » رواه الترمذي [٣٧٩٥] ، والنسائي ، بإسناد صحيح ، قال الترمذي : حديث حسن .

ومعاذ : أحد الذين كانوا يفتون علىٰ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم : ثلاثة من المهاجرين : أبو بكر ، وعمر ، وعلي ، وثلاثة من الأنصار : أُبَي بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت .

وفي الحديث : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يأتي معاذ أمام العلماء يوم القيامة برتوة أو رتوتين »[1] .

(الرتوة) : رمية بحَجَر . انتهىٰ [« التهذيب » ٢/٩٨ـ١٠٠] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أعلم أمتي بالحلال والحرام : معاذ بن جبل » .

ولما بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن . . شيعه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوصيه ، ومعاذ راكب ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي تحت راحلته ، فلما فرغ . . قال : « يا معاذ ؛ إنك عسىٰ ألاَّ تلقاني بعد عامي هـٰذا ، ولعلك تمر بمسجدي هـٰذا وقبري » فبكىٰ معاذ ؛ جَشَعاً لفراق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم التفت ، فأقبل بوجهه نحو المدينة فقال : « إن أولى الناس بي المتقون ، مَنْ كانوا وحيث كانوا »[2] .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لو استخلفت معاذ بن جبل ، فسألني عنه ربي عز

---

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٢٠/ ٢٩) .

(٢) أخرجه ابن حبان (٦٤٧) ، **والجشع** : الجزع لفراق الإلف .

وجل : ما حملك علىٰ ذلك ؟ لقلت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن العلماء إذا حضروا ربهم عز وجل . . كان معاذ بين أيديهم رتوة بحَجَر » .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : (كان معاذ رضي الله عنه أمَّة قانتاً لله حنيفا ، فقيل : ذاك إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، فقال : ما نسيت ، هل تدري ما الأمة ، وما القانت ؟ فقلت[1] : الله أعلم ، قال : الأمة : الذي يعلِّم الناس الخير ، والقانت : المطيع لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم) .

وكان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم إذا تحدثوا وفيهم معاذ . . نظروا إليه ؛ هيبة له .

ولما وقع الطاعون بالشام . . استعر فيها ، فقال الناس : ما هـٰذا إلا الطوفان ، إلا أنه ليس بماء ، فبلغ معاذ بن جبل ، فقام خطيباً ، فقال : (إنه بلغني ما تقولون ، وإنما هـٰذا رحمة ربكم ، ودعوة نبيكم ، ونعتُ[2] الصالحين قبلكم ، ولـٰكن خافوا ما هو أشد من ذلك ، أن يغدو الرجل من منزله لا يدري أمؤمن هو أم منافق ، وخافوا إمارة الصبيان) .

وفي رواية : أن أبا عبيدة قام خطيباً وقال : (إن أبا عبيدة يسأل الله أن يَقْسُمَ له منه حظه) فطعن بالطاعون ، فمات رحمة الله عليه ، واستخلف على الناس معاذ بن جبل ، فقام خطيباً بعده ، وقال : (إن معاذاً يسأل الله أن يقسم لآل معاذ منه حظه) فطعن ابنه عبد الرحمـٰن ، ثم قام فدعا ربه لنفسه ، فطعن في راحته ، فلقد رأيته ينظر إليها ، ثم يقبل ظهر كفه ، ثم يقول : (ما أحب أن لي بما فيك شيئاً من الدنيا) فلما مات . . استخلف على الناس عمرو بن العاصي .

وفي رواية : لما طعن . . جعل يقبلها ، ويقول : (اللهم ؛ إنها صغيرة فبارك فيها ، فإنك تبارك في الصغير) حتىٰ مات رحمة الله عليه .

وقال حين اشتد به نزع الموت ، فنزع نزعاً لم ينزعه أحد ، وكان كلما أفاق من غمرته . . فتح طرفه ، ثم قال : (ربي ؛ اخنقني خنقاً ، فوعزتك إنك لتعلم أن قلبي يحبك) .

وفي رواية : لما حضره الموت . . قال : انظروا أصبحنا ؟ فقيل : لا ، إلىٰ أن قيل : قد أصبحنا ، فقال : (أعوذ بالله من ليلة صبيحتها إلى النار ، مرحباً بالموت زائر مغب ، حبيب

---

(١) هو فروة بن نوفل الأشجعي ، راوي الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه .

(٢) في « الصفوة » وغيره : (وموت الصالحين قبلكم) .

جاء علىٰ فاقة ، اللهم ؛ إنك تعلم أني كنت أخافك ، وأنا اليوم أرجوك ، اللهم ؛ إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكري الأنهار ، ولا لغرس الأشجار ، ولـٰكن لظمأ الهواجر ، ومكابدة الساعات ، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر) .

توفي رضي الله عنه بالطاعون ، سنة ثمان عشرة ، وهو ابن ثمان وثلاثين سنة ، أو ثلاث وثلاثين[1] ، ورُفع عيسىٰ عليه الصلاة والسلام وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة . [انتهىٰ « الصفوة » ١/٢١٢ـ٢١٧] .

وروى الحافظ أبو نعيم ـ [رحمه الله] ـ بسنده : عن معاذ بن جبل أنه قال : (ما عمل آدمي عملاً أنجىٰ له من عذاب الله . . من ذكر الله عز وجل ، قالوا : ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : ولا الجهاد في سبيل الله ، إلا أن يضرب بسيفه حتىٰ ينقطع ؛ لأن الله تعالىٰ يقول : ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾) .

قال : وكانوا يقولون : [آية] الدعاء المستجاب : إذا رأيت الناس قد غفلوا . . فارغب إلىٰ ربك عند ذلك رغبات .

وعن طاووس قال : قدم معاذ رضي الله عنه أرضنا ، فقال له أشياخ لنا : لو أمرت ننقل لك من هـٰذه الحجارة والخشب ، فنبني لك مسجداً ، فقال : (إني أخاف أن أكلَّف حمله يوم القيامة علىٰ ظهري) .

وروىٰ معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تعلّموا ما شئتم أن تعلَموا ، فلن ينفعكم الله بالعلم حتىٰ تعملوا »[2] .

وعنه : قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً بيدي ، ثم قال : « يا معاذ ؛ والله إني لأحبك » ، فقال له معاذ : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، وأنا والله أحبك ، فقال : « أوصيك يا معاذ ، لا تَدَعَنَّ في دبر كل صلاة أن تقول : اللهم ؛ أعني علىٰ ذكرك وشكرك وحسن عبادتك »[3] ، وأوصىٰ به معاذ الصنابحي ، وأوصى الصنابحي أبا عبد الرحمـٰن ، وأوصىٰ أبو عبد الرحمـٰن عقبة ، وأوصىٰ عقبة حيوة ، وأوصىٰ حيوة أبا عبد الرحمـٰن المقرىء ، وأوصىٰ أبو عبد الرحمـٰن المقرىء بشر بن موسىٰ ، وأوصىٰ بشر محمد بن

---

(١) وقبره قريب من قبر سيدنا أبي عبيدة عامر ابن الجراح أمين هـٰذه الأمة في مدينة إربد ، بلدة الشونة الشمالية .
(٢) أخرجه الدارمي (١/٩٣) موقوفاً علىٰ سيدنا معاذ رضي الله عنه .
(٣) أخرجه ابن حبان في « الإحسان » (٢٠٢٠) .

أحمد بن الحسن ، وأوصىٰ محمد بن أحمد بن الحسن الشيخ أبا نعيم ، قال الشيخ أبو الفضل حَمْدٌ لنا : وأنا أوصيكم به . انتهىٰ [« الحلية » ١/ ٢٣٥ـ٢٤١] .

وروى ابن سعد : عن محمد بن عمر قال : حدثني عيسى بن النعمان ، عن معاذ بن رفاعة ، عن جابر بن عبد الله قال : كان معاذ بن جبل من أحسن الناس وجهاً ، وأحسنهم خُلقاً ، وأسمحهم كفاً ، فأدَّانَ [مالاً] ، فلزمه غرماؤه ، حتى استأدىٰ غرماؤه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يا رسول الله ؛ خُذْ لنا حقنا منه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رحم الله من تصدق عليه » ، فتصدق عليه ناس ، فقالوا : يا رسول الله ؛ خذ حقنا منه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اصبر لهم يا معاذ » ، قال : فخلعه رسول الله صلى الله عليه وسلم من ماله ، فدفعه إلىٰ غرمائه ، فأصابهم خمسة أسباع حقوقهم ، قالوا : يا رسول الله ؛ بعه لنا ، قال : « خلوا عنه ، فليس لكم إليه سبيل » ، ثم دعاه فبعثه إلى اليمن ، فقال : « لعل الله يجبرك ، ويؤدي عنك دينك » ، فخرج معاذ إلى اليمن ، فلم يزل بها حتىٰ توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوافى السنَة التي حجّ فيها عمر بن الخطاب ، فالتقيا يوم التروية ، وعزَّىٰ كل واحد منهما صاحبه برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرأىٰ عمر عند معاذ غلماناً ، قال : ما هـٰؤلاء ؟ قال : أصبتهم في وجهي هـٰذا ، قال عمر : من أي وجه ؟ قال : أُهدوا إلي ، وأُكرمت بهم ، فقال عمر : اذكرهم لأبي بكر ، قال معاذ : وما ذكري لأبي بكر ؟ ونام معاذ ، فرأىٰ كأنه علىٰ شفير النار ، وعمر آخذ بحجزته من ورائه أن يقع في النار ، ففزع معاذ ، فذكره لأبي بكر ، فسوغه أبو بكر ، وقضىٰ بقية غرمائه ، وقال : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لعل الله يجبرك » انتهىٰ [« الطبقات » ٣/ ٥٨٧] .

وقال ابن عبد البر ـ رحمه الله ـ : بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم قاضياً إلى اليمن يعلم الناس القرآن وشرائع الإسلام ، ويقضي بينهم ، وجعل إليه قبض الصدقات من العمال الذين باليمن .

وقال فيه : إنه لما قدم . . قال عمر لأبي بكر : أرسل إلىٰ هـٰذا الرجل ، فدع له ما يعيشه ، وخذ سائره منه ، فقال أبو بكر : إنما بعثه النبي صلى الله عليه وسلم ليجبره ، ولست بآخذ منه شيئاً إلا أن يعطيني ، فانطلق عمر إليه ؛ إذ لم يطعه أبو بكر ، فذكر ذلك لمعاذ ، فقال معاذ : إنما أرسلني النبي صلى الله عليه وسلم ليجبرني ، ولست بفاعل ، ثم لقي معاذ عمر ، فقال : قد أطعتك ، إني رأيت في المنام كأني في حومة ماء خشيت الغرق ،

فخلصتني منه يا عمر ، فجاء معاذ أبا بكر ، فقال أبو بكر : لا آخذ منك شيئاً قد وهبته لك ، فقال عمر : هـٰذا حين حل وطاب . انتهىٰ [« الاستيعاب » ٣/ ٣٣٧ـ٣٣٩] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : اِعلم : أنه قد اشتمل هـٰذا الحديث علىٰ فوائد نفيسة :

منها : أن الحُر لا يباع في وفاء الدَّين ولا غيره ، وهـٰذا مُجمَع عليه ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ ، وسؤال هـٰؤلاء للبيع إنما وقع لعدم علمهم بأن الحُر لا يباع ، فلما قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خلوا عنه ، لا سبيل لكم عليه » . . عرفوا ذلك .

ومنها : أنه يجب على العالِم إذا علم بحكم قد خفي عن حاكم الوقت . . أن يخبره به ، وينبهه عليه ، فإن لم يرجع . . راح إلى الذي عليه الحق ، وعرفه ذلك ؛ ليخرج عما عليه من الحق .

ومنها : أن الإمام له أن يخص بما شاء من الأموال التي هي لمصالح المسلمين ، وأن تخصيصه يفيد الحل ، ولهـٰذا قال عمر رضي الله عنه : (هـٰذا حين حل وطاب) .

ومنها : أنه يجب النصح في الدِّين لأئمة المسلمين وعامتهم .

ومنها : أن طول الزمان لا يسقط الحق . . . إلىٰ غير ذلك من المعاني المودعة فيه ، والله سبحانه أعلم .

وقال الواسطي ـ قدس الله روحه ـ : وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ حين بعثه إلى اليمن : حدثني عبد الله ابن أبي بكر ، أنه حدث : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بعث معاذاً . . أوصاه ، وعهد إليه ، ثم قال : « يسر ولا تعسر ، وبشر ولا تنفر ، وإنك ستقدم علىٰ قوم من أهل الكتاب ، يسألونك : ما مفتاح الجنة ؟ فقل : شهادة أن لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له » انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

العباس بن عبد المطلب

رضي الله عنه

قال أبو الفرج : كان العباس أسنَّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاث سنين .

وله من الولد الفضل أكبر أولاده ، وبه كان يكنىٰ ، وعبد الله وهو الحبر ، وعبيد الله وكان جواداً ، وعبد الرحمٰن ، وقثم ، ومعبد ، وأم حبيبة[1] ، وأمهم جميعاً واحدة ، وله أولاد من غيرها .

وأسلم قديماً ، وكان يكتم إسلامه .

وخرج مع المشركين يوم بدر ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « من لقي العباس . . فلا يقتله ؛ فإنه أخرج مستكرهاً »[2] فأسره أبو اليسر كعب بن عمرو ، ففادىٰ نفسه ورجع إلىٰ مكة ، ثم أقبل إلى المدينة مهاجراً .

قال أهل السِّيَر : جاء قوم من أهل العقبة يطلبون النبي صلى الله عليه وسلم ، فقيل لهم : هو في بيت العباس ، فدخلوا عليه ، فقال العباس : إن معكم من قومكم من هو مخالف لكم ، فأخفوا أمركم حتىٰ ينصدع هٰذا الحاج ، ونلتقي نحن وأنتم فنوضح لكم هٰذا الأمر ، فتدخلون فيه علىٰ أمر بيِّن ، فوعدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلة التي يسفر صبيحتها عن النفْر الآخر أن يوافيهم أسفل العقبة ، وأمرهم ألاَّ ينبهوا نائماً ، ولا ينتظروا غائباً ، فخرج القوم تلك الليلة يتسللون ، وقد سبقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعه العباس ليس معه غيره ، وكان يثق به في أمره كله ، فلما اجتمعوا . . كان أول من تكلم العباس بكلام فيه طول ، فقال البراء بن معرور : قد سمعنا ما قلت ، إنا والله لو كان في

---

(١) كذا في النسخ و« الطبقات » ، وفي غيرهما كـ« المعارف » : (أم حبيب) ، وأمهم هي : أم الفضل لبابة الهلالية .

(٢) رواه ابن سعد في « الطبقات » (٤/ ١١) .

أنفسنا غير ما ننطق به.. لقلناه ، ولـٰكن نريد الوفاء والصدق ، ونبذل مهج أنفسنا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم فبايعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والعباس آخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤكد له البيعة تلك الليلة على الأنصار .

وفي رواية الشعبي قال : انطلق النبي صلى الله عليه وسلم إلى السبعين الذين بايعوا عند العقبة تحت الشجرة والعباس معه... فذكره .

ولما كانت أسارىٰ بدر.. كان فيهم العباس ، فسهر النبي صلى الله عليه وسلم تلك الليلة ، فقال له بعض أصحابه : ما يسهرك يا رسول الله ؟ قال : « أنين العباس » ، فقام رجل ، فأرخىٰ من وثاقه ، [فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما لي لا أسمع أنين العباس ؟ » فقال رجل من القوم : إني أرخيت من وثاقه] شيئاً ، قال : « فافعل ذلك بالأسارىٰ كلهم » انتهىٰ [« الصفوة » ١/ ٢٢٠ـ٢٢٢] .

وقال الواسطي ـ رحمه الله ـ : لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم مَرَّ الظَّهْران[1].. قال العباس بن عبد المطلب : قلت : واصباح قريش! والله ؛ لئن دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه.. إنه لهلاك قريش إلىٰ آخر الدهر ، قال : فركبت بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم البيضاء ، وسرت عليها حتىٰ جئت الأراك ، فقلت : لَعلِّي أجد بعض الحطَّابة ، أو صاحب لبن ، أو ذا حاجة يأتي مكة فيخبرهم بمكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عنوة ، قال : فوالله ؛ إني لأسير وألتمس ما خرجت له ؛ إذ سمعت كلام أبي سفيان وبُدَيل بن ورقاء وهما يتراجعان ، وأبو سفيان يقول : ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً ، قال : يقول بديل : هـٰذه والله خزاعة ، قال : يقول أبو سفيان : خزاعة أذل وأقل ، قال : فعرفت صوته ، فقلت : يا أبا حنظلة ؛ فعرف صوتي ، فقال : أبو الفضل ؟ قال : قلت : نعم ، قال : مالك فداك أبي وأمي ؟ قال : قلت : ويحك يا أبا سفيان! هـٰذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس ، واصباح قريش والله ، قال : فما أصنع ؟ قال : قلت : والله لئن ظفر بك.. ليضربن عنقك ، فاركب في عجز هـٰذه البغلة حتىٰ آتي بك رسول الله صلى الله عليه

---

(١) **مر الظهران** : وهو في المعاجم الجغرافية العربية : وادي فاطمة ؛ يقع في الشمال الشرقي لمكة ، بعيداً عنها بـ(٢٨) كيلو متراً ، وهو أكبر الوديان سعة ، وأكثرها خصباً وماءً ، وأوفرها قرىً وسكاناً ومساكن ، يصب فيه تسعون وادياً من أودية مكة الكبار والصغار ، فهو مجمع الأودية ، وطوله نحو ثمانين كيلو متراً .

وسلم فأستأمنه لك ، قال : فركب خلفي ورجع صاحبه .

قال : فجئت به ، كلما مر بنار من نيران المسلمين . . قالوا : من هـٰذا ؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا عليها . . قالوا : عم رسول الله علىٰ بغلته ، حتىٰ مررت بنار عمر بن الخطاب ، فقال : من هـٰذا ؟ وقام إلي ، فلما رأىٰ أبا سفيان علىٰ عجز البغلة . . قال : أبو سفيان عدو الله! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد ، ثم خرج يشتد نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وركَّضت البغلة ، فسبقته بما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطيء ، قال : فاقتحمتُ عن البغلة ، فدخلت علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودخل عليه عمر ، فقال : يا رسول الله ؛ هـٰذا أبو سفيان ، قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد ، فدعني لأضرب عنقه ، قال : قلت : يا رسول الله ؛ إني قد أجرته ، ثم جلست إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد أن أساره ، فقلت : والله ؛ لا يناجيه الليلة دوني رجل ، فلما أكثر عمر في شأنه . . قال : قلت : مهلاً يا عمر ، فوالله ؛ لو كان من رجال عدي بن كعب . . ما قلت هـٰذا ، ولـٰكنك قد عرفت أنه من رجال عبد مناف ، فقال : مهلاً يا عباس ، فوالله ؛ لإَسلامك ـ يوم أسلمت ـ كان أحبَّ إليَّ من إسلام الخطاب لو أسلم ، وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك أحبُّ إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم من إسلام الخطاب لو أسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذهب به ـ يا عباس ـ إلىٰ رحلك ، فإذا أصبحت . . فائتني به » .

قال : فذهبت به إلىٰ رحلي ، فبات عندي ، فلما أصبح . . غدوت به إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم . . قال : « ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أن لا إلـٰه إلا الله ؟ » قال : بأبي أنت وأمي ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، والله ؛ لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره . . لقد أغنىٰ شيئاً بعد ، قال : « ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ؟ » قال : بأبي أنت وأمي ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، أما هـٰذه ـ والله ـ فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً ، فقال له العباس : ويحك! أسلم واشهد أن لا إلـٰه إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، قبل أن تضرب عنقك ، قال : فشهد شهادة الحق ، فأسلم .

قال العباس : قلت : يا رسول الله ؛ إن أبا سفيان يحب هـٰذا الفخر ، فاجعل له شيئاً ، قال : « نعم ، من دخل دار أبي سفيان . . فهو آمن ، ومن أغلق بابه . . فهو آمن ، ومن دخل المسجد . . فهو آمن » ، فلما ذهب لينصرف . . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا

عباس ؛ احبسه بمضيق الوادي عند حطم الخيل[1] ، حتىٰ تمر به جنود الله فيراها » .

قال : فخرجت حتىٰ حبسته حيث أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومرت القبائل علىٰ راياتها ، كلما مرت قبيلة . . قال : يا عباس ؛ من هـٰذه ؟ فأقول : سُلَيم ، فيقول : مالي ولسليم ؟ ثم تمر القبيلة ، فيقول : يا عباس ؛ من هـٰؤلاء ؟ فأقول : مزينة ، فيقول : ما لي ولمزينة ؟ حتىٰ نفدت القبائل ، ما تمر قبيلة إلا سألني عنها ، فإذا أخبرته . . قال : ما لي ولبني فلان ؟ حتىٰ مر رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتيبته الخضراء .

قال ابن هشام : إنما قيل لها : الخضراء ؛ لكثرة الحديد ، وظهوره فيها .

قال ابن إسحاق : فيها المهاجرون والأنصار ، لا يرىٰ منهم إلا الحدق من الحديد ، فقال : سبحان الله يا عباس! مَنْ هـٰؤلاء ؟ قال : قلت : هـٰذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في المهاجرين والأنصار ، قال : ما لأحد بهـٰذا قِبَلٌ ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل ؛ لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً ، قال : قلت : يا أبا سفيان ؛ إنها النبوة ، قال : فنعم إذن ، قال : قلت : النجاء[2] إلىٰ قومك ، حتىٰ إذا جاءهم . . صرخ بأعلىٰ صوته : يا معاشر قريش ؛ هـٰذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان . . فهو آمن ، قالوا : وما تغني عنا دارك ؟ قال : ومن أغلق بابه . . فهو آمن ، ومن دخل المسجد . . فهو آمن ، فتفرق الناس إلىٰ دورهم وإلى المسجد . أو كما قال . انتهىٰ[3] .

وقال الإمام النووي ـ قدس الله روحه ـ : كان العباس أسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم بسنتين أو ثلاث ، وأمه : نُـتَيْلة ـ بضم النون وفتح المثناة فوق ـ ، وهي أول عربية كست الكعبة الحرير ، قالوا : وسببه أن العباس ضاع وهو صغير ، فنذرت إن وجدته . . أن تكسوها ، فوجدته ففعلت .

وكان العباس رضي الله عنه رئيساً جليلاً في قريش ، وكان إليه عمارة المسجد الحرام والسقاية .

---

(١) في نسخة : (حطم الجبل) ، وفي بعض روايات « السيرة » : (خطم) ، والمثبت موافقة للبخاري ، وحطم الخيل : الموضع المتضايق الذي تتحطم فيه الخيل ، وكذا أراد بخطم الجبل ، وأما حطم الجبل : فهو الموضع الذي حُطم منه : أي ثلم فبقي منقطعاً ؛ ويحتمل كذلك المعنى السابق .

(٢) **النجاء** : السرعة .

(٣) انظر « السيرة النبوية » (٤/ ٤٠٤) .

وحضر ليلة العقبة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بايعه الأنصار ، وأكد البيعة له .

وخرج مع المشركين إلىٰ بدر مكرهاً ، وأسر ، وفدىٰ نفسه ، وفدى ابني أخويه : عقيلاً ونوفل بن الحارث ، وأسلم عقيب ذلك ، وقيل : أسلم قبل الهجرة ، وكان يكتم إسلامه مقيماً بمكة ، يكتب بأخبار المشركين إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان عوناً للمسلمين المستضعفين بمكة .

قالوا : وأراد القدوم إلى المدينة ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « مقامك بمكة خير » ، وروينا هـٰذا في « مسند » أبي يعلى الموصلي ، عن سهل بن سعد الساعدي .

وشهد حنيناً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وثبت معه حين انهزم الناس عنه ، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن ينادي في الناس بالرجوع ، فنادىٰ فيهم ـ وكان صيِّتاً ـ فأقبلوا عليه ، وحملوا على المشركين ، فهزمهم الله وأظهر المسلمين .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعظمه ويكرمه ويبجِّله .

وكان وَصولاً لأرحام قريش ، محسناً إليهم ، ذا رأي وكمال عقل ، أعتق سبعين عبداً .

وكانت الصحابة تكرمه ، وتعظمه ، وتقدمه ، وتشاوره ، وتأخذ برأيه .

وذكر الحازمي في « المؤتلف في الأماكن » : أن العباس كان يقف علىٰ سَلْع ، فينادي غلمانه في آخر الليل وهم في الغابة ، فيُسمِعهم ، قال : وبين سلع والغابة ثمانية أميال .

قالوا : ولا يعرف بنو أُمٍّ تباعدت قبورهم كتباعد قبور بني أم الفضل لبابة بنت الحارث الكبرىٰ ، فقبْر الفضل بالشام باليرموك ، وعبد الله بالطائف ، وعبيد الله بالمدينة ، وقثم بسمرقند ، ومعبد بـإفريقية .

وتوفي العباس رضي الله عنه وهو معتدل القامة .

وروي له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسة وثلاثون حديثاً ، اتفقا علىٰ حديث ، وانفرد البخاري بحديث ، ومسلم بثلاثة .

وروىٰ عنه أبناؤه ، وغيرهم من الصحابة ؛ كجابر ، والأحنف بن قيس ، وعبد الله بن الحارث ، وآخرون .

وفي « صحيح مسلم » [٩٨٣] : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ـ وقد ذكر

العباس ـ : « يا عمر ؛ أمَا شعرت أن عم الرجل صِنْوُ أبيه » وهو بكسر الصاد ؛ أي : مثل أبيه .

وفي « كتاب الترمذي » [٣٧٥٨] : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للعباس : « والذي نفسي بيده ؛ لا يدخل قلبَ رجل الإيمانُ حتىٰ يحبكم لله ولرسوله » ، ثم قال : « أيها الناس ؛ من آذىٰ عمي . . فقد آذاني ؛ فإنما عم الرجل صِنْوُ أبيه » .

وفي « الترمذي » أحاديث أخر في فضل العباس .

وثبت في « صحيح البخاري » [٩٦٤] : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحطوا . . استسقىٰ بالعباس ، فقال : (اللهم ؛ إنا كنا نتوسل إليك بنبينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا ، فاسقنا) فيُسقَون .

ومناقبه كثيرة مشهورة رضي الله عنه . انتهىٰ [« التهذيب » ١/٢٥٧ـ٢٥٩] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : توفي العباس يوم الجمعة ، لأربع عشرة خلت من رجب ، سنة اثنتين وثلاثين ، في خلافة عثمان رضي الله عنه ، وهو ابن ثمان وثمانين سنة ، ودفن بالبقيع رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الصفوة » ١/٢٢٢] .

وروى الحافظ البيهقي ـ رحمه الله ـ بإسناده : عن أبي هريرة قال : (لما أراد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يزيد في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وقعت زيادته علىٰ دار العباس بن عبد المطلب ، فأراد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يُدخلها في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعوضه منها ، فأبىٰ وقال : قطيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاختلفا ، فجعلا بينهما أُبي بن كعب ، فأتياه في منزله ، وكان يسمىٰ : سيد المسلمين ، فأمر لهما بوسادة ، فألقيت لهما ، فجلسا عليها بين يديه ، فذكر عمر ما أراد ، وذكر العباس قطيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أُبي : إن الله عز وجل أمر عبده ونبيه داوود عليه السلام أن يبني له بيتاً ، قال : أي رب ؛ وأين هـٰذا البيت ؟ فقال : حيث ترى المَلَك شاهراً سيفه ، فرآه على الصخرة ، وإذا ما هناك يومئذ أندَر[1] لغلام من بني إسرائيل ، فأتاه داوود ، فقال : إني قد أُمرت أن أبني هـٰذا المكان بيتاً لله عز وجل ، فقال الفتىٰ : آلله أمرك أن تأخذها مني بغير رضاي ؟ قال : لا ، فأوحى الله تعالىٰ إلىٰ داوود عليه السلام : أني قد جعلت في يدك خزائن الأرض ، فأرضه ، فأتاه داوود ، فقال : إني قد

---

(١) **الأندَرُ** : بيدر للقمح .

أمرت برضاك ، فلك بها قنطار من ذهب ، قال : قد قبلت يا داوود ، هي خير أم القنطار ؟ قال : بل هي خير ، قال : فأرضني ، قال : فلك بها ثلاثة قناطير ، قال : فلم يزل يشدِّد علىٰ داوود . . حتىٰ رضي منه بتسعة قناطير ، قال العباس : اللهم ؛ لا آخذ لها ثواباً ، وقد تصدقت بها علىٰ جماعة المسلمين ، فقبلها عمر منه ، فأدخلها في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

زاد في رواية أخرىٰ له : عن ابن عباس ، قال : (كانت للعباس دار إلىٰ جانب المسجد في المدينة ، فقال عمر بن الخطاب : بعنيها أو هبها لي حتىٰ أدخلها في المسجد ، فأبىٰ ، فقال : اجعل بيني وبينك رجلاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فجعلا بينهما أُبي بن كعب ، فقضىٰ للعباس علىٰ عمر ، فقال عمر : ما أحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أجرأ علي منك ، فقال أُبي بن كعب : أو أنصح لك مني ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ؛ أمَا بلغك حديث داوود عليه السلام ، أن الله عز وجل أمره ببناء بيت المقدس ، فأدخل فيه بيت امرأة بغير إذنها ، فلما بلغ حُجَز الرجال[1] . . منعه الله بناءه ، قال داوود : أي رب ؛ إن منعتني بناءه . . فاجعله في خلَفي ، فقال العباس : أليس قد قضيت لي بها وصارت لي ؟ قال : بلىٰ ، قال : فإني أشهدك أني قد جعلتها لله تعالىٰ[2]) .

وروى الحافظ البيهقي ـ قدس الله روحه ـ بإسناده : عن أنس بن مالك : أن رجالاً من الأنصار استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : ائذن لنا ، فلنترك لابن أختنا العباس فداءه ، فقال : « لا ، والله ؛ لا تذرون درهماً » رواه البخاري في « الصحيح » [٢٤٠٠] عن ابن أبي أويس[3] .

وبإسناده : عن عائشة رضي الله عنها قالت : لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم . . بعثت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في فداء أبي العاص ، وبعثت فيه بقلادة كانت خديجة رضي الله عنها أدخلتها بها علىٰ أبي العاص حين بنىٰ عليها ، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم . . رق لها رقة شديدة ، وقال : « إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها ، وتردوا عليها الذي لها . . فافعلوا » ، قالوا : نعم يا رسول الله ، فأطلقوه ، وردوا عليها الذي لها ، وقال العباس رضي الله عنه : يا رسول الله ؛ إني كنت مسلماً ، فقال رسول الله

---

(١) **حجز الرجال** : جمع حجزة وهي : موضع شد الإزار من الوسط .

(٢) السنن الكبرىٰ (٦/ ١٦٨) .

(٣) هو إسماعيل بن عبد الله « تهذيب الكمال » (٣/ ١٢٤) .

صلى الله عليه وسلم : « الله أعلم بإسلامك ، فإن يكن كما تقول . . فالله يجزيك ، فافد نفسك وابني أخويك : نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ، وعقيل بن أبي طالب ابن عبد المطلب ، وحليفك عتبة بن عمرو بن جحدم أخو بني الحارث بن فهر » ، فقال : ما ذاك عندي يا رسول الله ؟ قال : « فأين المال الذي دفنت أنت وأم الفضل ، فقلتَ لها : إن أُصبتُ . . فهـٰذا المال لبني الفضل وعبد الله وقثم ؟ » فقال : والله يا رسول الله ؛ إني أعلم أنك رسوله ، إن هـٰذا لشيء ما علمه أحد غيري وغير أم الفضل ، فاحتسب لي ـ يا رسول الله ـ ما أصبتم من عشرين أوقية من مال كان معي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفعل » ، ففدى العباس نفسه وابني أخويه وحليفه ، فأنزل الله عز وجل فيه : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[1] ، فأعطاني الله مكان العشرين الأوقية في الإسلام عشرين عبداً ، كلهم في يده مال يضرب به مع ما أرجوه من مغفرة الله عز وجل[2] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) في النسخ : ﴿من الأسارى﴾ وهي قراءة أبي عمرو وأبي جعفر ، وقرأ الباقون : ﴿من الأسرى﴾ .

(٢) السنن الكبرىٰ (٦/ ٣٢٢) ، والحديث أخرجه الحاكم (٣/ ٣٦٦) .

ومنهم الإمام :

أنس بن مالك
رضي الله عنه

قال النووي ـ قدس الله روحه ـ : هو أبو حمزة أنس بن مالك ، الأنصاري ، الخزرجي ، النجاري ، خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتسمىٰ بذلك ، ويفتخر به ، وحق له ذلك ، ويا له من فخر!

كناه رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا حمزة ؛ ببقلة كان يحبها[1] .

خدم أنس رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين ، مدة إقامة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، ثبت ذلك في الصحيح[2] ، وحمل عنه حديثاً كثيراً ، فروىٰ ألفي حديث ومئتي حديث وستة وثمانين حديثاً ، اتفقا علىٰ مئة وثمانية وستين ، وانفرد البخاري بثلاثة وثمانين ، ومسلم بأحدٍ وسبعين .

وكان أكثر الصحابة أولاداً ؛ لدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم له .

وفي « البخاري » [١٨٨١] : عن أنس قال : دخل النبي صلى الله عليه وسلم علىٰ أم سليم ـ يعني : أمه ـ فأتته بتمر وسمن ، فقال : « أعيدوا سمنكم في سقائه ، وتمركم في وعائه » ، ثم قام إلىٰ ناحية البيت ، فصلىٰ غير المكتوبة ، فدعا لأم سليم وأهل بيتها ، فقالت : يا رسول الله ؛ إن لي خويصة ، قال : « ما هي ؟ » ، قالت : خادمك أنس ، فما ترك خير آخرة ولا دنيا إلا دعا له به ، « اللهم ؛ ارزقه مالاً وولداً ، وبارك له » . قال : فإني لَمِن أكثر الأنصار مالاً وولداً ، ودفن لصُلبه بضع وعشرون ومئة . هـٰذا لفظ البخاري .

واتفق العلماء علىٰ أنه جاوز عمره مئة سنة ، والصحيح : أنه توفي سنة ثلاث وتسعين .

---

(١) قال الجوهري : الحمزة : بقلة حِرِّيفةٌ ، قال أنس : كنَّاني رسول الله صلى الله عليه وسلم ببقلة كنت أجتنيها ، وكان يكنىٰ أبا حمزة .

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٦٨) .

وكان له قبل الهجرة عشر سنين فعاش فوق المئة كما يروىٰ .

وتوفي بالبصرة خارجها علىٰ نحو فرسخ ونصف ، ودفن هناك في موضع يعرف بقصر أنس .

وكان له بستان يحمل في السنة مرتين ، وكان فيه ريحان يجيء منه ريح المسك ، وكان أحدَ الرماة المصيبين .

وخرج إلىٰ بدر وهو غلام يخدم النبي صلى الله عليه وسلم .

قالوا : ثلاثة من أهل البصرة لم يموتوا حتىٰ رأىٰ كل واحد منهم مئة ذكر من صلبه : أنس بن مالك ، وخليفة بن بدر ، وأبو بكرة .

روى البخاري في « تاريخه » [٢/٢٧] : عن قتادة قال : لما مات أنس . . قال مورق : ذهب اليوم نصف العلم ، قيل له : كيف ذاك ؟ قال : كان الرجل من أهل الأهواء إذا خالَفَنا في الحديث . . قلنا له : تعال إلىٰ من سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم . انتهىٰ [« التهذيب » ١/١٢٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

سلمان الفارسي
رضي الله عنه

يكنىٰ : أبا عبد الله .

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : سافر سلمان يطلب الدِّين مع قومه[1] ، فغدروا به ، فباعوه من اليهود ، ثم إنه كوتب ، وأعانه رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتابته .

أسلم مَقدَم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة ، ومنعه الرق من شهود بدر وأحد .

وأول غزاة غزاها : الخندق ، وشهد ما بعدها ، وولاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه المدائن .

وهو سابق الفُرس ، وبلال سابق الحبشة ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سلمان منا أهل البيت »[2] .

وخطب عمر بن الخطاب يوماً وعليه حلة ـ والحلة : ثوبان ـ فقال : أيها الناس ؛ ألا تسمعون! فقال سلمان : لا نسمع ، فقال عمر : ولم يا أبا عبد الله ؟ قال : إنك قسمت علينا ثوباً ثوباً ، وعليك حلة ، فقال : لا تعجل يا أبا عبد الله ، ثم نادىٰ : يا عبد الله ؛ فلم يجبه أحد ، فقال : يا عبد الله بن عمر ؛ فقال : لبيك يا أمير المؤمنين ، قال : نشدتك بالله ، الثوب الذي ائتزرتُ به أهو ثوبك ؟ قال : اللهم ؛ نعم ، قال سلمان : الآن . . نسمع .

ودخل علىٰ أبي الدرداء في يوم جمعة ، فقيل : هو نائم ، فقال : ما له ؟ قالوا : إنه إذا كانت ليلة الجمعة . . أحياها ويصوم الجمعة ، فأمرهم فصنعوا طعاماً يوم الجمعة ، ثم قال له : كُلْ ، فقال : إني صائم ، فلم يزل به حتىٰ أكل ، ثم أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكرا ذلك له ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « عويمر ، سلمان أعلم منك ـ

---

(١) هٰكذا في النسخ ، ولعل الصواب : (مع قوم) .

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٦٩١) .

وهو يضرب بيده علىٰ فخذ أبي الدرداء ـ عويمر ، سلمان أعلم منك ـ ثلاث مرات ـ لا تخصَّنَّ ليلة الجمعة بقيام من بين الليالي ، ولا يوم الجمعة بصيام من بين الأيام »[1] .

وذهب أبو الدرداء يخطب لسلمان امرأة من بني ليث ، فدخل فذكر فضل سلمان ، وسابقته وإسلامه ، وأنه يخطب إليهم فتاتهم فلانة ، فقالوا : أما سلمان . . فلا نزوجه ، ولـٰكنا نزوجك ، فتزوجها ، ثم خرج ، فقال : إنه كان شيء ، وأنا أستحيي أن أذكره لك ، قال : وما ذاك ؟ فأخبره الخبر ، فقال سلمان : أنا أحق أن أستحيي منك أن أخطبها ، وكان الله تعالىٰ قد قضاها لك .

وكان عطاؤه خمسة آلاف ، وكان أميراً علىٰ زهاء ثلاثين ألفاً من المسلمين .

وكان يخطب على الناس في عباءة ، يفترش بعضها ويلبس بعضها ، فإذا خرج عطاؤه . . أمضاه .

وكان يأكل من سفيف[2] يديه ، وكان يستظل بالفيء حيث ما دار .

ولم يكن له بيت ، فقال له رجل : ألا نبني لك بيتاً تستظل به من الحر ، وتستكنَّ به من البرد ؟ فقال : نعم ، فلما أدبر . . صاح به ، فسأله : كيف تبنيه ؟ فقال : أبنيه ، إن قمت فيه . . أصاب رأسك ، وإن اضطجعت فيه . . أصاب رجليك ، قال سلمان : نعم .

ولما كانت ليلة بناء سلمان علىٰ أهله . . دخل بيته فوجده منجداً ، ووجد فيه ستوراً وأواني ومتاعاً كثيراً ، فقال : ما هـٰذا ؟ أمحموم[3] بيتكم أم حولت الكعبة إلىٰ هـٰهنا ؟ وما هـٰذا المتاع ؟ فقالوا : هـٰذا لك ولزوجتك ، فقال : مَعَاذَ اللهِ ؛ ما بهـٰذا أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم ، أوصاني أن يكون متاعي كزاد الراكب ، والله ؛ لا أدخل البيت حتىٰ تخرجوا ما فيه ، ففعلوا ، فلما دخل إليه . . قال لها ـ بعدما مسح بناصيتها ، ودعا بالبركة ـ : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصاني إذا اجتمعت إلىٰ أهلي . . أن أجتمع علىٰ طاعة الله ، فقام وقامت إلى المسجد ، فصليا ما بدا لهما ، ثم خرجا ، فقضىٰ حاجته .

ودخل عليه رجل وهو يعجن ، فقال : ما هـٰذا ؟ فقال : بعثنا الخادم في عمل ، فكرهنا أن نجمع عليه عملين .

---

(١) أخرجه بنحوه عبد الرزاق (٤/ ٢٧٩) .

(٢) السف : نسج الخوص .

(٣) محموم : محروق .

وكان يعمل الخوص ويقول : أشتري خوصاً بدرهم ، فأعمله ، فأبيعه بثلاثة دراهم ، فأُعيد درهماً فيه ، وأنفق درهماً علىٰ عيالي ، وأتصدق بدرهم .

وقال له بعض غلمانه : كاتبني ، فقال : ألك شيء ؟ قال : لا ، قال : فمن أين ؟ قال : أسأل الناس ، قال : تريد أن تطعمني غسالة الناس ؟!

وكان أميراً على المدائن ، فجاء رجل من أهل الشام ومعه حمل تبن ، وعلىٰ سلمان عباءة ، فقال لسلمان : تعال احمل ، وهو لا يعرفه ، فحمل ، فرآه الناس ، فقالوا له : هـٰذا الأمير ، فاعتذر إليه ، وقال : لم أعرفك ، فقال له سلمان : لا حتىٰ أبلغ منزلك .

وفي رواية : إني قد نويت فيه نية ، فلا أضعه حتىٰ أبلغ منزلك .

ومن كلامه رضي الله عنه : (إنما مثل المؤمن في الدنيا كمثل مريض معه طبيبه الذي يعلم داءه ودواءه ، فإذا اشتهىٰ ما يضره . . منعه ، وقال : لا تقربه ؛ فإنك إن أتيته . . أهلكك ، ولا يزال يمنعه حتىٰ يبرأ من وجعه ، وكذلك المؤمن يشتهي أشياء كثيرة ، فيمنعه الله عز وجل إياها ويحجزه ، حتىٰ يتوفاه ، فيدخله الجنة) .

وقال : (إذا أسأت سراً . . فأطعه سراً ، وإذا أسأت علانية . . فأطعه علانية ؛ لكي تمحىٰ هـٰذه بهـٰذه) .

وكتب أبو الدرداء إلىٰ سلمان : هلم إلى الأرض المقدسة ، فكتب إليه سلمان : إن الأرض لا تقدس أحداً ، وإنما يقدس الإنسان عملُه ، وقد بلغني أنك جُعِلت طبيباً ، فإن كنت تبرىء . . فنعمَّا لك ، وإن كنت متطبباً . . فاحذر أن تقتل إنساناً ، فتدخل النار ، فكان أبو الدرداء إذا قضىٰ بين اثنين فأدبرا عنه . . نظر إليهما وقال : متطبب والله ، ارجعا أعيدا قضيتكما .

وقال : (ثلاث أعجبنني حتىٰ يضحكنني : مؤمل الدنيا والموت يطلبه ، وغافل وليس بمغفول عنه ، وضاحك ملء فيه ولا يدري أساخط رب العالمين عليه أم راض . وثلاث أحزنني حتىٰ بكيت : فراق محمد صلى الله عليه وسلم سيد الأولين والآخرين وحزبه ، وهول المطلع ، والوقوف بين يدي ربي عز وجل لا أدري إلى الجنة أصير أم إلى النار) .

وقيل له وقد اشترىٰ وسقاً[1] من طعام : يا أبا عبد الله ؛ تفعل هـٰذا وأنت صاحب

---

(١) الوَسق : حِمل بعير .

رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟! فقال : إن النفس إذا أحرزت قوتها . . اطمأنت وتفرغت لعبادة الله عز وجل ، ويئس منها الوسواس .

ودخل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه علىٰ سلمان رضي الله عنه يعوده ، فبكىٰ سلمان ، فقال له سعد : ما يبكيك ؟ توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنك راض ، وترد عليه الحوض ، فقال سلمان : ما أبكي جزعاً من الموت ، ولا حرصاً على الدنيا ، ولـٰكن رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد إلينا عهداً فقال : « ليكن بُلْغَةُ أحدكم مثلَ زاد الراكب » ، وحولي مثل هـٰذه الأساود ، وإنما حوله إجانة وجفنة ومطهرة ، فقال له سعد : أوصنا ، قال : يا سعد ؛ اذكر الله عند كل حال ، من شدة ، ورخاء ، وعند حكمك ، وقسمك إذا قسمت[1]) .

وفي رواية : لما مات . . نظروا في بيته ، فلم يجدوا فيه إلا إكافاً ووطاءً ومتاعاً قُوِّمَ نحواً من عشرين درهماً .

وكان قد أصاب صرة مسك أودعها امرأته ، فلما حضرته الوفاة . . قال : هاتي صرة المسك فامرتيها[2] في ماء ، ثم قال : انضحيها حولي ؛ فإنه يأتيني الآن زوار ، ففعلت ، فلم يمكث إلا بقية يومه ، ثم قبض رضي الله عنه وأرضاه .

عاش مئتين وخمسين سنة ، ويقال : أكثر[3] .

وتوفي بالمدائن مبطوناً ، في خلافة عثمان رضي الله عنه . انتهىٰ [« الصفوة » ١/٢٢٨ـ٢٤٣] .

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ٣٥٣) .

(٢) مَرَتَ : فتَّت .

(٣) قال الذهبي في « السير » (١/ ٥٥٥ـ ٥٥٦) : ومجموع أمره وأحواله ، وغزوه ، وهمته ، وتصرفه ، وسفِّه للجريد ، وأشياء مما تقدم . . ينبيء بأنه ليس بمعمَّر ولا هرم ؛ فقد فارق وطنه وهو حدث ، ولعله قدِم الحجاز وله أربعون سنة أو أقل ، فلم يَنْشَبْ أن سمع بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم ثم هاجر ، فلعله عاش بضعاً وسبعين سنة ، وما أراه بلغ المئة .
وقد نقل طول عمره أبو الفرج ابن الجوزي وغيره ، وما علمت في ذلك شيئاً يركن إليه ، وقد ذكرت في « تاريخي الكبير » : أنه عاش مئتين وخمسين سنة ، وأن الساعة لا أرتضي ذلك ولا أصححه . اهـ باختصار .
وأورد ابن حجر في « الإصابة » (٢/ ٦٠) كلام الذهبي ثم قال : لم يذكر [الذهبي] مستنده في ذلك ، وأظنه أخذه من شهود سلمان الفتوح بعد النبي صلى الله عليه وسلم وتزوّجه امرأة من كِندة وغير ذلك من خوارق العادات في حقه ، وما المانع في ذلك ؟! فقد روىٰ أبو الشيخ في « طبقات الأصبهانيين » من طريق العباس بن يزيد قال : أهل العلم يقولون : عاش سلمان ثلاث مئة وخمسين سنة ، فأما مئتان وخمسون : فلا يشكون فيها . انتهىٰ ، والله أعلم بالصواب .

وروى الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : عن الحارث بن عميرة رضي الله عنه قال : انطلقت حتىٰ أتيت المدائن ؛ فإذا أنا برجل عليه ثياب رثة ، ومعه أديم أحمر يعركه ، فالتفت ، فنظر إلي ، فأومأ بيده ، فقال : مكانك يا عبد الله ، فقمت ، فقلت لمن كان عندي : من هـٰذا الرجل ؟ فقالوا : هـٰذا سلمان ، فدخل بيته ، فلبس ثياباً بيضاً ، ثم أقبل وأخذ بيدي ، وصافحني ، وسألني ، فقلت : يا أبا عبد الله ؛ ما رأيتني قبل فيما مضىٰ ولا رأيتك ، ولا عرفتني ولا عرفتك ، فقال : بلىٰ والذي نفسي بيده ؛ لقد عرفَت روحي روحك حين رأيتك ، ألست الحارث بن عميرة ؟ قلت : بلىٰ ، قال : فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها في الله . . ائتلف ، وما تناكر منها في الله . . اختلف »[1] .

وعن عطية بن عامر قال : رأيت سلمان رضي الله عنه أُكرِه علىٰ طعام يأكله ، فقال : حسبي حسبي ؛ فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أكثر الناس شبعاً في الدنيا . . أطولهم جوعاً في الآخرة ، يا سلمان ؛ إنما الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر »[2] .

ودخل سلمان علىٰ رجل يعوده وهو في النزع ، فقال : أيها الملَك ؛ ارفق به ، قال المحتَضَر : إنه يقول : إني بكل مؤمن رفيق . انتهىٰ [« الحلية » ١/١٩٨ـ٢٠٤] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ في كتاب « الحدائق » : حدثنا أحمد قال : حدثنا يعقوب ، قال : حدثنا أبي ، عن ابن إسحاق قال : حدثني عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري ، عن محمود بن لبيد ، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : حدثني سلمان الفارسي رضي الله عنه قال : كنت رجلاً فارسياً من أهل أصبهان ـ من أهل قرية منها ـ يقال لها : جَيّ ، وكان أبوه دهقان[3] قريته ، وكنت أحبَّ خلق الله إليه ، فلم يزل حبه إياي حتىٰ حبسني في بيته كما تُحبس الجارية ، واجتهدت في المجوسية حتىٰ كنت قَطِنَ[4] النار الذي يوقدها لا يتركها تخبو ساعة ، قال : وكانت لأبي ضيعة عظيمة ، قال : فشغل في بنيان له يوماً ، فقال لي : يا بني ؛ إني قد شغلت في شأني هـٰذا اليوم عن ضيعتي ، فاذهب فاطّلعها ، وأمرني فيها ببعض ما يريد ، فخرجت أريد ضيعته ، فمررت بكنيسة من كنائس

---

(١) الحديث أخرجه البخاري (٣١٥٨) ، ومسلم (٢٦٣٨) . والقصة في « المعجم الكبير » (٦/ ٢٦٤) .

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٣٥١) .

(٣) **دهقان القرية** : رئيسها .

(٤) **قطن النار** : القيم علىٰ نار المجوس وموقدها .

النصارىٰ ، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون ، وكنت لا أدري ما أمر الناس ؛ لحبس أبي إياي في بيته ، فلما مررت بهم وسمعت أصواتهم . . دخلت عليهم أنظر ما يصنعون .

قال : فلما رأيتهم . . أعجبتني صلاتهم ، ورغبت في أمرهم ، وقلت : هـٰذا والله خير من الذي نحن عليه ، فوالله ؛ ما تركتهم حتىٰ غربت الشمس ، وتركت ضيعة أبي ولم آتها ، فقلت لهم : أين أَصلُ هـٰذا الدين ؟ قالوا : بالشام ، قال : ثم رجعت إلىٰ أبي ، وقد بعث في طلبي وشغلتُه عن عمله كله ، قال : فلما جئته . . قال : أي بني ؛ أين كنت ؟ ألم أكن عهدت إليك ما عهدت ؟ قال : قلت : يا أبت ؛ مررت بناس يصلون في كنيسة لهم ، فأعجبني ما رأيت من دينهم ، فوالله ؛ ما زلت عندهم حتىٰ غربت الشمس ، قال : أي بني ؛ ليس في ذلك الدين خير من دينك ، ودينُ آبائك خير منه ، قال : قلت : كلا ، والله ؛ إنه لخير من ديننا ، قال : فخافني ، فجعل في رجلي قيداً ، ثم حبسني في بيته .

قال : وبعثتُ إلى النصارىٰ ، فقلت لهم : إذا قدم عليكم ركب من الشام تجار من النصارىٰ . . فأخبِروني بهم ، قال : فقدم عليهم ركب من الشام تجار من النصارىٰ ، فأخبَروني بهم ، فقلت لهم : إذا قضوا حوائجهم ، وأرادوا الرجعة إلىٰ بلادهم . . فآذنوني بهم .

قال : فلما أرادوا الرجعة إلىٰ بلادهم . . ألقيت الحديد من رجلي ، ثم خرجت معهم حتىٰ قدمت الشام ، فلما قدمتها . . قلت : مَن أفضل أهل هـٰذا الدين ؟ قالوا : الأسقف في الكنيسة ، قال : فجئته ، فقلت : إني قد رغبت في هـٰذا الدين ، وأحببت أن أكون معك ، أخدمك في كنيستك ، وأتعلم منك ، وأصلي معك ، قال : فادخل ، فدخلت معه ، قال : وكان رجلَ سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها ، فإذا جمعوا إليه شيئاً منها . . اكتنزه لنفسه ، ولم يعطه المساكين ، حتىٰ جمع سبع قلال من ذهب ووَرِق .

قال : وأبغضته بغضاً شديداً ؛ لِمَا رأيته يصنع ، ثم مات ، فاجتمعت إليه النصارىٰ ليدفنوه ، فقلت لهم : إن هـٰذا كان رجل سوء يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها ، فإذا جئتموه بها . . اكتنزها لنفسه ، فلم يعط المساكين منها شيئاً ، قالوا : وما علمك بذلك ؟ قلت : أنا أدلكم علىٰ كنزه ، قالوا : فدُلَّنا عليه ، قال : فأريتهم موضعه ، قال : فاستخرجوا منه سبع قلال مملوءة ذهباً وورقاً ، قال : فلما رأوها . . قالوا : والله ؛ لا ندفنه أبداً ، فصلبوه ، ثم رجموه بالحجارة ، ثم جاؤوا برجل آخر ، فجعلوه مكانه .

قال : يقول سلمان : فما رأيت رجلاً لا يصلي الخمس أرىٰ أنه أفضل منه ، وأزهد في

الدنيا ، ولا أرغب في الآخرة ، ولا أدأب ليلاً ونهاراً منه ، قال : فأحببته حباً شديداً لم أُحِبَّه مَن قبلَه ، فأقمت معه زماناً ، ثم حضرته الوفاة ، فقلت له : يا فلان ؛ إني كنت معك ، وأحببتك حباً لم أحبه مَن قبلَك ، وقد حضرك ما ترىٰ من أمر الله تعالىٰ ، فإلىٰ من توصي بي ؟ وما تأمرني ؟ قال : أي بني ؛ والله ما أعلم أحداً اليوم علىٰ ما كنت عليه ، لقد هلك الناس ، وبدلوا ، وتركوا أكثر ما كانوا عليه ، إلا رجلاً بالموصل ، وهو فلان ، فهو علىٰ ما كنت عليه ، فألحق به ، فلما مات وغيب . . لحقت بصاحب الموصل ، فقلت له : يا فلان ؛ إن فلاناً أوصاني عند موته أن ألحق بك ، وأخبرني أنك علىٰ أمره ، قال : فقال لي : أقم عندي .

قال : فأقمت عنده ، فوجدته خير رجل علىٰ أمر صاحبه ، فلم يلبث أن مات ، فلما حضرته الوفاة . . قلت له : يا فلان ؛ إن فلاناً أوصىٰ بي إليك ، وأمرني باللحوق بك ، وقد حضرك من أمر الله ما ترىٰ ، فإلىٰ من توصي بي ؟ وما تأمرني ؟ قال : أي بني ؛ والله ما أعلم رجلاً علىٰ مثل ما كنا عليه إلا رجلاً بنصيبين ، وهو فلان ، فألحق به ، قال : فلما مات وغُيِّب . . لحقت بصاحب نصيبين ، فجئت فأخبرته خبري ، وما أمرني به صاحبي ، قال : فأقم عندي ، فأقمت عنده ، فوجدته علىٰ أمر صاحبيه ، فأقمت مع خير رجل ، فوالله ؛ ما لبث أن نزل به الموت ، فلما حضر . . قلت له : يا فلان ؛ إن فلاناً كان أوصىٰ بي إلىٰ فلان ، ثم أوصىٰ بي فلان إليك ، فإلىٰ من توصي بي ؟ وما تأمرني ؟ قال : أي بني ؛ والله ما أعلم أحداً بقي علىٰ أمرنا آمرك أن تأتيه ، إلا رجلاً بعَمُّورِيَّة ؛ فإنه علىٰ مثل ما نحن عليه ، فإن أحببت . . فأته ؛ فإنه علىٰ أمرنا .

قال : فلما مات وغيب . . لحقت بصاحب عمورية ، فأخبرته خبري ، فقال : أقم عندي ، فأقمت عند رجل علىٰ هدي أصحابه وأمرهم ، قال : واكتسبت حتىٰ كانت لي بقرات وغنيمة .

قال : ثم نزل به أمر الله عز وجل ، فلما حضر . . قلت له : يا فلان ؛ إني كنت مع فلان ، فأوصىٰ بي إلىٰ فلان ، وأوصىٰ بي فلان إلىٰ فلان ، وأوصىٰ بي فلان إليك ، فإلىٰ من توصي بي ؟ وما تأمرني ؟ قال : أي بني ؛ والله ما أعلمه أصبح علىٰ ما كنا عليه أحد من الناس آمرك أن تأتيه ، ولـٰكنه قد أظلك زمان نبي ، هو مبعوث بدين إبراهيم صلى الله عليه وسلم ، يخرج بأرض العرب مهاجراً إلىٰ أرض بين حرَّتين[1] ، بينهما نخل ، به علامات

---

(١) **الحرة** : الأرض ذات الحجارة السود .

لا تخفىٰ ، يأكل الهدية ، ولا يأكل الصدقة ، بين كتفيه خاتم النبوة ، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد . . فافعل .

قال : ثم مات وغيب ، فمكثت بعمورية ما شاء الله أن أمكث ، ثم مر بي نفر من كلبٍ تجاراً ، فقلت لهم : تحملوني إلىٰ أرض العرب ، وأعطيكم بقراتي هـٰذه وغُنَيْمتي هـٰذه ؟ قالوا : نعم ، فأعطيتهم إياها ، وحملوني حتىٰ [إذا] قدموا بي وادي القرىٰ . . ظلموني ؛ فباعوني من رجل من اليهود عبداً ، وكنت عنده ، ورأيت النخل ، ورجوت أن يكون البلد الذي وصف لي صاحبي ، ولم يحق لي في نفسي .

فبينما أنا عنده . . . قدم عليه ابن عم له من المدينة من بني قريظة ، فابتاعني منه ، فاحتملني إلى المدينة ، فوالله ؛ ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي ، فأقمت بها ، وبعث الله سبحانه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقام بمكة ما أقام ، لا أسمع له بذكر مما أنا فيه من شغل الرق ، ثم هاجر إلى المدينة ، فوالله ؛ إني لفي رأس عذق لسيدي أعمل فيه بعض العمل ، وسيدي جالس ؛ إذ أقبل ابن عم له حتىٰ وقف عليه ، فقال له : يا فلان ؛ قاتل الله بني قيلة ـ يعني : الأوس والخزرج ـ الآن والله إنهم لمجتمعون بقباء علىٰ رجل قدم عليهم من مكة اليوم يزعم أنه نبي ، قال : فلما سمعتها . . أخذتني العُرَواء[1] حتىٰ ظننت سأسقط علىٰ سيدي ، قال : ونزلت عن النخلة ، فجعلت أقول لابن عمه ذلك ، ماذا تقول ؟ ماذا تقول ؟ قال : فغضب سيدي ، ولكمني لكمة شديدة ، ثم قال : ما لك وهـٰذا ؟ أقبِلْ علىٰ عملك ، قال : قلت : لا شيء ، إنما أردت أن أستثبته عما قال .

وقد كان عندي شيء قد جمعته ، فلما أمسيت . . أخذته ، ثم جئت به إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بقباء ، فدخلت عليه ، فقلت له : إنه قد بلغني أنك رجل صالح ، ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة ، وهـٰذا شيء كان عندي للصدقة ، فرأيتكم أحق به من غيركم ، قال : فقربته إليه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « كلوا » ، وأمسك يده فلم يأكل ، قال : فقلت في نفسي : هـٰذه واحدة .

ثم انصرفت عنه ، فجمعت شيئاً ، وتحول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، ثم جئته به ، فقلت : إني رأيتك لا تأكل الصدقة ، وهـٰذه هدية أكرمتك بها ، قال : فأكل

---

(١) العُرَواء : الرِّعْدَة .

رسول الله صلى الله عليه وسلم منها ، وأمر أصحابه فأكلوا معه ، قال : فقلت في نفسي : هاتان اثنتان .

قال : ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ببقيع الغرقد ، وقد تبع جنازة مع أصحابه ، عليه شملتان له ، وهو جالس في أصحابه ، فسلمت عليه ، ثم استدرت أنظر إلىٰ ظهره ، هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي ؟ فلما رآني رسول الله صلى الله عليه وسلم أَستدبِرُه . . عرف أني أستثبت في شيء وُصف لي ، قال : فألقىٰ رداءه عن ظهره ، فنظرت إلى الخاتم ، فعرفته ، فانكببت عليه أقبله وأبكي ، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تحول » ، فتحولت ، فقصصت عليه حديثي كما حدثتك يابن عباس ، فأعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسمع ذلك أصحابُه .

ثم شغل سلمانَ الرِّقُّ ، حتىٰ فاته مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدر وأحد ، قال : ثم قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كاتب يا سلمان » ، فكاتبت صاحبي علىٰ ثلاث مئة نخلة ، أحييها له بالفقير[1] ـ يعني البئر ـ وبأربعين أوقية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « أعينوا أخاكم » ، فأعانوني بالنخل ، الرجل بثلاثين ودية[2] ، والرجل بعشرين ، والرجل بخمس عشرة ، والرجل بعشرة ، يعين الرجل بقدر ما عنده ، حتى اجتمعت لي ثلاث مئة وَدِيَّة ، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذهب يا سلمان ففقِّرْ لها ، فإذا فرغت . . أكون أنا الذي أضعها بيدي » .

قال : ففقرت لها ، فأعانني أصحابي ، حتىٰ إذا فرغت منها . . جئته ، فأخبرته ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم معي إليها ، فجعلنا نقرب إليه الوَدِيَّ ، ويضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ، فوالذي نفس سلمان بيده ؛ ما ماتت منها ودية واحدة ، فأديت النخل ، فبقي علي المال ، فأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل بيضة الدجاجة من ذهب من بعض المعادن ، فقال صلى الله عليه وسلم : « ما فعل الفارسي المكاتب ؟ » قال : فدُعيت له ، فقال : « خذ هـٰذه فأدِّ بها ما عليك يا سلمان ؟ » قال : قلت : وأين تقع هـٰذه يا رسول الله مما علي ؟ قال : « خذها ؛ فإن الله عز وجل سيؤدي بها عنك » ، قال : فأخذتها ، فوزنت لهم منها ـ والذي نفس سلمان بيده ـ أربعين أوقية ، فأوفيتهم حقهم

---

(١) أي : بالحفر وبالغرس ، يقال : فقرتُ الأرض إذا حفرتها ، ومنه سميت البئر فقيراً .

(٢) الوَدِيَّة : مفرد ودي : صغار النخل .

وعتقت ، فشهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخندق ، ثم لم يفتني معه مشهد[1] .

وقد روى البخاري في أفراده [٣٧٣٠] من حديث أبي عثمان النهدي ، عن سلمان الفارسي ، أنه تداوله بضعة عشر من رب إلىٰ رب .

حدثنا عبد الله ، قال : حدثنا أبي ، قال : حدثنا سيار ، قال : حدثنا جعفر ، قال : حدثنا هشام ، قال : حدثنا الحسن ، قال : كان عطاء سلمان الفارسي رحمه الله تعالىٰ خمسة آلاف درهم ، وكان أميراً علىٰ زهاء ثلاثين ألفاً من المسلمين ، وكان يخطب الناس في عباءة ، يفترش بعضها ويلبس بعضها ، فإذا خرج عطاؤه . . أمضاه ، ويأكل من سفيف يديه ، رضي الله عنه وأرضاه[2] . انتهىٰ [« الحدائق » ١/٤١٣ـ٤١٨] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرج القصة الطبراني في « الكبير » (٦/ ٢٢٢ـ ٢٢٥) .

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في « الزهد » (١٥٠) .

ومنهم الإمام :

تميم الداري
رضي الله عنه

قال الإمام النووي ـ رضي الله عنه ـ : تميم الداري ، يكنىٰ : أبا رقية ـ بنت له ـ ولم يولد له غيرها ، وإنما العقب لأخيه لأمه أبي هند .

منسوب إلىٰ جده الدار ، وقيل : غير ذلك ؛ [فقيل : ديري] ، والديري نسبة إلىٰ دير كان يتعبد فيه قبل الإسلام ؛ وكان نصرانياً ، أسلم سنة تسع من الهجرة .

روي له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانية عشر حديثاً ، روىٰ مسلم منها حديث : « الدين النصيحة » [٥٥] .

وفي « مسلم » [٢٩٤٢] : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم روىٰ عن تميم الداري قصة الجساسة[١] .

وهـٰذه منقبة شريفة ، لا يشاركه فيها غيره ، وتدخل في رواية الأكابر عن الأصاغر .

وروىٰ عنه جماعة من الصحابة ، وجماعات من التابعين .

وكان بالمدينة ثم انتقل إلىٰ « بيت المقدس » بعد قتل عثمان رضي الله عنه .

وكان كثير التهجد ، قام ليلة حتىٰ أصبح بآية من القرآن يركع ويسجد ويبكي ، وهي : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ .

وكان له هيئة ولباس .

وهو أول من قص على الناس ، استأذن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ذلك ، فأذن له .

وهو أول من أسرج في المسجد ، قاله أبو نعيم الأصبهاني .

---

(١) انظر الحديث في « صحيح مسلم » (٢٩٤٢) .

قلت : قال الحفاظ أبو عبد الله ابن منده ، وأبو نعيم الأصبهانيان ، وأبو عمر ابن عبد البر : زار روح بن زنباع تميماً الداري ، فوجده ينقي شعيراً لفرسه ، فقال له روح : أمَا كان في هـٰؤلاء من يكفيك ؟ قال : بلىٰ ، ولـٰكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما من امرىء مسلم ينقي لفرسه شعيراً ، ثم يعلفه عليه . . إلا كتب الله له بكل حبة حسنة »[1] .

وقال ابن عساكر في « تاريخه » [٧٩/١١] : عن أنس : إن تميماً اشترىٰ رداء بألف درهم ، وكان يصلي بأصحابه فيه .

وعن ثابت : أن تميماً اشترىٰ حلة بألف درهم ، فكان يلبسها في الليلة التي يرجىٰ أنها ليلة القدر . انتهىٰ [« التهذيب » ١٣٨/١ـ١٣٩] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرجه أحمد (١٠٣/٤) .

ومنهم الإمام :

أبو موسى الأشعري
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : أسلم أبو موسىٰ بمكة ، وهاجر إلى الحبشة ، ثم قدم مع أهل السفينتين ورسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر ، وبعضهم ينكر هجرته إلى الحبشة .

وقد روي : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث معاذاً وأبا موسىٰ إلى اليمن ، وأمرهما أن يعلما الناس القرآن[1] .

وقد صح من حديث أبي موسىٰ ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو رأيتَني وأنا أستمع قراءتك البارحة ، لقد أوتيتَ مزماراً من مزامير آل داوود » ، فقلت : يا رسول الله ؛ لو علمت أنك تستمع قراءتي . . لحبرته لك تحبيراً[2] .

وفي « الصحيحين » [خ ٣٨٩٩ـ م ١٨١٦] : من حديث أبي موسىٰ قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة ، ونحن ستة نفر علىٰ بعير نعتقبه[3] ، قال : فنقبت أقدامنا ، ونقبت قدمي ، وسقطت أظفاري ، فكنا نلف الخرق علىٰ أرجلنا ، فسميت غزاة ذات الرقاع ؛ لِمَا كنا نعصب علىٰ أرجلنا من الخرق ، ثم إن أبا موسىٰ ندم علىٰ ذكر ذلك ، وقال : ما كنت أصنع بأن أذكره ، كأنه كره أن يكون شيئاً من عمله أفشاه .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأبي موسىٰ : ذكِّرنا ربنا تعالىٰ ، فيقرأ .

وعن أبي بردة قال : لما احتضر أبو موسىٰ . . قال : (يا بني ؛ اذكروا صاحب الرغيف ، قال : كان رجل يتعبد في صومعة سبعين سنة ، لا ينزل إلا في يوم واحد ، قال : فشب الشيطان في عينه امرأة ، قال : فكان معها سبعة أيام أو سبع ليال ، ثم كُشف عن الرجل

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٩٧) .

(٢) أخرجه أبو نعيم في « المسند المستخرج علىٰ صحيح مسلم » (٢/ ٣٨٤) .

(٣) أي : نتعاقبه في الركوب واحداً بعد واحد .

غطاؤه ، فخرج تائباً ، فكان كلما خطا خطوة . . صلىٰ وسجد ، وآواه الليل إلىٰ دكان عليه اثنا عشر مسكيناً ، فأدركه الإعياء ، فرمي بين رجُلين منهم ، وكان ثَم راهب يبعث إليهم كل ليلة باثني عشر رغيفاً ، فيعطي كل إنسان رغيفاً ، فجاء صاحب الرغيف ، فأعطىٰ كل إنسان رغيفاً ، ومر علىٰ ذلك الرجل الذي خرج تائباً ، فظن أنه مسكين ، فأعطاه رغيفاً ، فقال المتروك لصاحب الرغيف : ما لك لم تعطني رغيفي ؟ فقال : أتراني أمسكته عنك ، هل أعطيت أحداً منكم رغيفين ؟ قالوا : لا ، فعمد التائب إلى الرغيف الذي معه ، فأعطاه لذلك المسكين المتروك ، فأصبح التائب ميتاً ، فوزنت السبعون سنة بالسبع ليال ، فرجحت الليالي ، ووزن الرغيف بالسبع الليالي ، فرجح الرغيف ، فقال أبو موسىٰ : يا بني ؛ اذكروا صاحب الرغيف)[1] .

وقال أهل السير : توفي أبو موسىٰ سنة اثنتين وخمسين ، وقيل : اثنتين وأربعين ، ودفن بمكة ، وقيل : بالثوية علىٰ ميلين من الكوفة [انتهىٰ « الصفوة » ١/ ٢٤٣ـ٢٤٦] .

وروى الحافظ أبو نعيم : عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد مر بالصخرة من الروحاء سبعون نبياً حفاة عليهم العبا » .

وروىٰ أبو موسىٰ قال : خرجنا غازين في البحر ، فسمعنا صوتاً يقول : إن الله عز وجل قضىٰ علىٰ نفسه أنه من عطَّش نفسه لله في يوم حار . . كان حقاً على الله أن يرويه يوم القيامة ، فكان أبو موسىٰ يتوخَّىٰ ذلك اليوم الحار الشديد الحر ، فيصومه .

وخطب يوماً بالبصرة ، فقال : (أيها الناس ؛ ابكوا ، فإن لم تبكوا . . فتباكَوا ، فإن أهل النار يبكون الدموع حتىٰ تنقطع ، ثم يبكون الدماء ، حتىٰ لو أرسلت فيها السفن . . لجرت) .

وقال : (إن الشمس فوق الناس يوم القيامة ، وأعمالهم تظلهم وتصحبهم) .

وقال : (أيها الناس ؛ إنكم اليوم في زمان للعامل فيه لله عز وجل أجر ، وسيكون بعدكم زمان يكون للعامل فيه أجران) انتهىٰ [« الحلية » ١/ ٢٦٠ـ٢٦٤] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٤٢١٢) . ٤

ومنهم الإمام :

جابر بن عبد الله
رضي الله عنه

قال النووي ـ قدس الله روحه ـ : هو أبو عبد الله ، أحد المكثرين الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، روي له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ألف حديث وخمس مئة حديث وأربعون حديثاً ، اتفقا علىٰ ستين حديثاً ، وانفرد البخاري بستة وعشرين ، ومسلم بمئة وستة وعشرين .

وروىٰ عن أبي بكر ، وعمر ، وعلي ، وأبي عبيدة ، ومعاذ ، وخالد بن الوليد ، وأبي هريرة .

روىٰ عنه جماعات من أئمة التابعين .

ومناقبه كثيرة .

استُشهِد أبوه يوم أحد ، وأحياه الله تعالىٰ وكلمه وقال : يا عبد الله ؛ ما تريد ؟ قال : أن أرجع إلى الدنيا ، فأُستَشْهَد مرة أخرىٰ .

وفي « البخاري » [بنحوه ١٢٨٦] : عن جابر قال : (دفنت أبي يوم أحد مع رجل ، ثم استخرجته بعد ستة أشهر ، فإذا هو كيوم وضعته غير أذنه) .

وفي « مسلم » [١٨١٣] : عن جابر قال : (غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تسع عشرة غزوة ، ولم أشهد بدراً ولا أُحُداً ؛ منعني أبي ، فلما قتل أبي يوم أُحُد . . لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة قط) .

وفي « البخاري » [٣٦٧٨] في كتاب المبعث : عن جابر بن عبد الله قال جابر : (أنا وأبي وخالاي من أصحاب العقبة) .

توفي جابر بالمدينة سنة ثلاث وسبعين ، وهو ابن أربع وتسعين سنة رضي الله عنه .

وكان قد ذهب بصره في آخر عمره .

وروِّينا في « الصحيحين » [خ ٣٩٢٣ـ م ١٨٥٦] : عن جابر قال : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية : « أنتم خير أهل الأرض » ، وكنا ألفاً وأربع مئة ، قال جابر : (لو كنت أُبصر اليوم . . لأريتكم مكان الشجرة) .

واعلم : أنه حيث أُطلق جابر . . فالمراد به جابر بن عبد الله ، وإن أُريد غيره ـ يعني : جابر بن سمُرة ـ قيِّد . انتهىٰ [« التهذيب » ١/ ١٤٢ـ١٤٣] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو الدرداء عويمر بن زيد
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : اختلفوا في اسمه ، وفي أنه هل شهد أُحُداً أم لا .

وقد شهد أكثر المشاهد ، وولاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه القضاء بدمشق .

وقال أبو الدرداء : (ويل للذي لا يعلم مرة ، ولو شاء الله . . عَلَّمه ، وويل للذي يعلم ولا يعمل ، سبع مرات) انتهىٰ [« الصفوة » ١/ ٢٧٧] .

وقال حجة الإسلام أبو حامد الغزالي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ في « الإحياء » : قال أبو الدرداء رضي الله عنه : (والله الذي لا إلـه إلا هو ؛ ما أمن أحد علىٰ إيمانه أن يسلب . . إلا سلب) انتهىٰ [« الإحياء » ٤/ ١٧٢] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : قال أبو الدرداء : (إني لآمركم بالأمر وما أفعله ، لـٰكني أرجو فيه الأجر) .

وقال : (تفكر ساعة . . خير من قيام ليلة) .

وقال : (يا أهل دمشق ؛ أنتم الإخوان في الدين ، والجيران في الدار ، والأنصار على الأعداء ، ما يمنعكم من مودتي ، وإنما مؤنتي علىٰ غيركم ، مالي أرىٰ علماءكم يذهبون ، وجهالكم لا يتعلمون ، وأراكم قد أقبلتم علىٰ ما تُكُفِّلَ لكم به ، وتركتم ما أُمرتم به ، ألا إن قوماً بَنَوْا شديداً ، وجمعوا كثيراً ، وأمَّلوا بعيداً . . فأصبح بنيانهم قبوراً ، وأملهم غروراً ، وجمعهم بوراً ، ألا فتعلَّموا وعلِّموا ؛ فإن العالم والمتعلم في الأجر سواء ، ولا خير في الناس بعدهما) .

وقال له رجل : أوصني ، فقال له : (اذكر الله عز وجل في السراء . . يذكرك في الضراء ، وإذا أشرفت علىٰ شيء من الدنيا . . فانظر إلىٰ ماذا يصير) .

وقال : (حبذا نوم الأكياس وإفطارهم ، كيف يغبنون سهر الحمقىٰ وصومهم ، مثقال

ذرة من بِرٍّ مع تقوىٰ ويقين . . أعظم وأفضل وأرجح من أمثال الجبال من عبادة المغترين) .

وقال : (أخوف ما أخاف أن يقال لي يوم القيامة : يا عويمر ؛ أعلمت أم جهلت ؟ فإن قلت : علمت . . لا تبقىٰ آية آمرة أو زاجرة إلا أُخِذت بفريضتها ، الآمرة : هل ائتمرت ؟ والزاجرة : هل ازدجرت ؟ فأعوذ بالله من علم لا ينفع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعاء لا يسمع) .

وقالت أم الدرداء : دخل علينا يوماً أبو الدرداء مغضَباً ، فقلت : ما لك ؟ فقال : (والله ؛ ما أعرف فيهم شيئاً من أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، إلا أنهم يصلون جميعاً) .

وصعد رجل إلىٰ غرفة أبي الدرداء ، فوجده يلتقط حَباً ، فقال أبو الدرداء : (إن من فقه الرجل رِفْقَه في معيشته) .

وخطب يزيد بن معاوية إلىٰ أبي الدرداء ابنته فرده ، فقال رجل من جلساء يزيد : أصلحك الله ، تأذن لي أن أتزوجها ، قال : نعم ، فسار ذلك في الناس ، أنَّ يزيداً خطب إلىٰ أبي الدرداء فرده ، وخطب إليه رجل من ضعفاء المسلمين فأنكحه ، فقال أبو الدرداء : (إني نظرت للدرداء ، ما ظنكم بالدرداء إذا قامت وعلىٰ رأسها الخصيان[1] ، ونظرت في بيوت يلتمع فيها بصرها ، أين دينها منها يومئذ ؟!) .

وقال : (معاتبة الأخ خير من فقده ، عظ أخاك ولِنْ له ، ولا تطع به حاسداً ؛ فتكون مثله ، غداً يأتيه الموت ؛ فيكفيك قتله ، كيف تبكيه بعد الموت ، وفي حياته تركت وصله ؟!) .

وقال [لرجلٍ ينصحه] : (إن ناقدت الناس . . ناقدوك ، وإن تركتهم . . لم يتركوك ، وإن هربت منهم . . أدركوك) ، قال : يا أبا الدرداء ؛ فما تأمرني ؟ قال : (هب عِرضك ليوم فقرك ، وما تجرع مؤمن جرعة قط أحب إلى الله عز وجل من غيظٍ كظمه ، فاعفوا . . يعزكم الله ، وإياكم ودمعةَ اليتيم ، ودعوة المظلوم ؛ فإنها تسري بالليل والناس نيام ، وما تصدق مؤمن بصدقة أحب إلى الله عز وجل من موعظة يعظ بها قوماً ، فيتفرقون وقد نفعهم الله عز وجل بها) .

وقال : (لو تعلمون ما أنتم راؤون بعد الموت . . لما أكلتم طعاماً علىٰ شهوة ،

---

(١) أي : العبيد والخدم والحشم .

ولا شربتم شراباً علىٰ شهوة ، ولا دخلتم بيتاً تستظلون فيه ، ولخرجتم إلى الصُّعُدات[1] تضربون صدوركم وتبكون علىٰ أنفسكم ، ولوددت أني شجرة تعضد ثم تؤكل) .

وقال : (ذروة الإيمان : الصبر للحكم ، والرضىٰ بالقدر ، والإخلاص للتوكل ، والاستسلام للرب عز وجل) .

وقيل له : ما لك لا تُشْعِرُ ؟ فإنه ليس رجل له بيت في الأنصار إلا وقد قال شعراً ، قال : وأنا قد قلت ، فاسمعوا :

يريد المرء أن يعطىٰ مُناه ... ويأبى الله إلا ما أرادا
يقول المرء : فائدتي وزادي ... وتقوى الله أفضلُ ما استفادا

وقال : (أدركت الناس ورقاً لا شوك فيه ، فأصبحوا شوكاً لا ورق فيه) .

وقال : (ابنَ آدم ؛ طَأِ الأرض بقدمك ؛ فإنها عن قليل تكون قبرك ، إنما أنت أيام ، فكلما مضىٰ يوم . . مضىٰ بعضك ، ابن آدم ؛ لم تزل في هدم عمرك من يوم ولدتك أمك) .

وقال : (ما أحد إلا وفي عقله نقص ، وذلك أنه إذا أتته الدنيا بزيادة في مال . . ظل فرحاً مسروراً ، والليل والنهار دائبان في هدم عمره ، ولا يحزنه ذلك ، ضل ضلاله ، ما ينفع مال يزيد وعمر ينقص) .

وقال : (إن الذين لم تزل ألسنتهم رطبة بذكر الله عز وجل . . يدخل أحدهم الجنة وهو يضحك) .

وعن محمد بن كعب : أن ناساً نزلوا علىٰ أبي الدرداء رضي الله عنه ليلةً قَرَّةً ، فأرسل إليهم بطعام سخن ، ولم يرسل إليهم بلُحُف[2] ، فقال بعضهم : لقد أرسل إلينا بالطعام ، فما هنأنا مع القر[3] ، لا أنتهي أو أبيِّنَ له ، وقال الآخر : دعه ، فأبىٰ ، فجاء حتىٰ إذا قام على الباب فرآه جالساً وامرأته ليس عليهما من الثياب إلا ما لا بد منه . . فرجع ، وقال : ما أراك بِتَّ إلا بنحو ما بتنا به ، قال : إن لنا داراً ننتقل إليها قدَّمْنا لُحُفَنا وفرشنا إليها ، ولو ألفيت عندنا منه شيئاً . . لأرسلنا إليك به ، وإن بين أيدينا عقبة كؤوداً ، المُخِفُّ فيها خير من المثقل ، افهم ما أقول لك .

---

(١) الصُّعُدات : الطرق .
(٢) جمع لحاف ، وهو ما يتغطىٰ به .
(٣) القر : شدة البرد .

ومرَّ علىٰ رجل قد أصاب ذنباً والناس يسبونه ، فقال : أرأيتم لو وجدتموه في قليب ، ألم تكونوا مستخرجيه ؟ قالوا : بلىٰ ، قال : فلا تسبوا أخاكم ، واحمدوا الله عز وجل الذي عافاكم ، قالوا : أفلا تبغضه ؟ قال : إنما أبغض عمله ، فإذا تركه . . فهو أخي .

وقال : (نِعم صومعة المرء المسلم . . بيته ، يكف لسانه وفرجه وبصره ، وإياكم ومجالس الأسواق ؛ فإنها تلهي وتلغي) .

ولما مرض . . دخل عليه أصحابه ، فقالوا : ما تشتكي ؟ قال : أشتكي ذنوبي ، قالوا : ما تشتهي ؟ قال : أشتهي الجنة ، قالوا : أفلا ندعو لك طبيباً ؟ قال : هو الذي أضجعني .

وعن أم الدرداء أنها قالت : اللهم ؛ إن أبا الدرداء خطبني فتزوجني في الدنيا ، اللهم ؛ فأنا أخطبه إليك ، فأسألك أن تزوجنيه في الجنة ، فقال لها أبو الدرداء : إن أردت ذلك ، وكنت أنا الأول في الموت . . فلا تتزوجي بعدي ، قال : فمات أبو الدرداء ، وكان لها جمال وحسن ، فخطبها معاوية ، فقالت : لا ، والله ؛ لا أتزوج زوجاً في الدنيا ، حتىٰ أتزوج أبا الدرداء ـ إن شاء الله عز وجل ـ في الجنة .

وقالت أم الدرداء لأبي الدرداء : إن احتجتُ بعدك آكل الصدقة ؟ قال : لا ، اعملي وكلي ، قالت : فإن ضعفت عن العمل ؟ قال : التقطي السنبل ولا تأكلي الصدقة .

ولما احتُضِر . . جعل يقول : من يعمل لمثل يومي هـٰذا ؟ من يعمل لمثل ساعتي هـٰذه ؟ من يعمل لمثل مضجعي هـٰذا ؟ ثم يقول : ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ .

وعن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال : رأيت في المنام ، كأني أتيت مرجاً أخضر ، فيه قبة من أدم ، حولها غنم ربوض ، فقلت : لمن هـٰذه ؟ فقيل : لعبد الرحمـٰن بن عوف ، فانتظرته حتىٰ خرج من القبة ، فقال : يا عوف بن مالك ؛ هـٰذا الذي أعطاني الله عز وجل بالقرآن ، ولو أشرفت علىٰ هـٰذه الثنية . . لرأيت ما لم تر عينك ، ولسمعت ما لم تسمع أذنك ، ولم يخطر علىٰ قلبك ، أعده الله عز وجل لأبي الدرداء ؛ لأنه كان يدفع الدنيا بالراحتين والنحر .

توفي رضي الله عنه بدمشق ، سنة اثنتين وثلاثين ، في خلافة عثمان رضي الله عنه ، وله عقب بالشام رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الصفوة » ١/ ٢٧٧ـ٢٨٥] .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : قال أبو الدرداء رضي الله عنه : (بُعِث النبي

صلى الله عليه وسلم وأنا تاجر ، فأردت أن تجتمع لي العبادة والتجارة ، فلم يجتمعا ، فرفضت التجارة ، وأقبلت على العبادة ، والذي نفسي بيده ؛ ما يسرني أن ليَ اليوم حانوتاً علىٰ باب المسجد ، لا تخطئني فيه صلاة أربح في كل يوم أربعين ديناراً) .

وفي رواية : (ثلاث مئة دينار ، وأتصدق بها في سبيل الله ، قيل له : وما تكره من ذلك ؟ قال : شدة الحساب) .

وقال : (إنك لا تفقه كل الفقه حتىٰ ترىٰ للقرآن وجوهاً ، وإنك لا تفقه كل الفقه حتىٰ تمقت الناس في جنب الله تعالىٰ ، ثم ترجع إلىٰ نفسك فتكون لها أشد مقتاً من الناس) .

وقال : (لولا ثلاث خلال . . لأحببت ألاَّ أبقىٰ في الدنيا ، فقلت : ما هي ؟ قال : وضع جبهتي في السجود في الليل والنهار ، وظمأ الهواجر ، ومجالسة أقوام يبتغون العلم لله عز وجل) ، أو كما قال .

وقال : (من تمام التقوىٰ : أن تتقي الله حتىٰ في مثقال ذرة ، وحتىٰ تترك بعض ما ترىٰ أنه حلال خشية أن يكون حراماً ؛ ليكون حاجزاً بينه وبين الحرام ، فلا تحقرن شيئاً من الشر أن تدعه ، ولا شيئاً من الخير أن تفعله) .

وقال : (إنما الناس رجلان : عالم ومتعلم ، وهما في الأجر سواء ، ولا خير في الناس بعدهما) .

وقال : (لا تكون تقياً حتىٰ تكون عالماً ، ولن تكون بالعلم جميلاً حتىٰ تكون به عاملاً) .

وكتب إلىٰ أخ له :

أما بعد : فلستَ في شيء من أمر الدنيا إلا وقد كان له أهل قبلك وهو صائر له أهل بعدك ، وليس لك منه إلا ما قدمت لنفسك ، فآثرها على المصلح من ولدك ؛ فإنك تقدم علىٰ من لا يعذرك ، وتجمع لمن لا يحمدك ، وإنما تجمع لواحد من اثنين : إما عامل فيه بطاعة الله ، فيسعد بما شقيت به ، وإما عامل فيه بمعصية الله تعالىٰ ، فتشقىٰ بما جمعت له ، وليس ـ والله ـ واحد منهما بأهل أن تبرد له علىٰ ظهرك ولا تؤثره علىٰ نفسك ، ارج لمن مضىٰ منهم رحمة الله ، وثق لمن بقي منهم رزق الله تعالىٰ . والسلام .

وقال : (إن خيركم الذي يقول لصاحبه : اذهب بنا نصوم ونصلي قبل أن نموت ، وإن شراركم الذي يقول لصاحبه : اذهب بنا نأكل ونشرب ونلهو قبل أن نموت) .

ومر علىٰ قوم وهم يبنون ، فقال : (تجددون الدنيا والله تعالىٰ يريد خرابها ، والله غالب علىٰ ما أراد) .

وقيل له : إن أبا سعيد ابن منبه أعتق مئة محرر ، فقال : (إن شئت أنبأتك بما هو أفضل من ذلك : إيمان بالله ملزوم بالليل والنهار ، ولا يزال لسانك رطباً من ذكر الله عز وجل) .

وقال : (لأَن أكبِّر مئة تكبيرة . . أحب إلي من الصدقة بمئة دينار) .

وقال : (ما في المؤمن بضعة أحب إلى الله عز وجل من لسانه ، فليكن شديد المحافظة ؛ لئلا يدخله النار) .

وقال : (لا يزال العبد يزداد من الله بعداً كلما مشىٰ خلفه) .

وقال رجل له : علمني شيئاً ينفعني الله به ، قال : (لا تأكل إلا طيباً ، ولا تكسب إلا طيباً ، ولا تدخل بيتك إلا طيباً ، وسل الله يرزقك يوماً بيوم ، وإذا أصبحت . . فاعدد نفسك من الأموات ، وهب عِرضك لله ، فمن سبّك أو شتمك أو قاتلك . . فدعه لله عز وجل ، وإذا أسأت . . فاستغفر الله تعالىٰ) .

وقال : (إنا لنبشُّ في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم) .

وقال : (إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة : عالم لا ينتفع بعلمه) .

وقال : (لا تزال نفس أحدكم شابة في حبِّ الشيء ولو التفت ترقوتاه من الكبر ، إلا الذين امتحن الله قلوبهم للتقوىٰ ، وقليل ما هم) .

وقال : (رأيت في المسجد شخصاً ساجداً ، وهو يقول : اللهم ؛ إني خائف مستجير فأجرني من عذابك ، وسائل فقير فارزقني من فضلك) .

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما طلعت شمس . . إلا وبجنبتيها ملكان يناديان ، فيسمعان الخلائق غير الثقلين : يا أيها الناس ؛ هلموا إلىٰ ربكم ، ما قل وكفىٰ . . خير مما كثر وألهىٰ »[1] .

وروىٰ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : « اللهم ؛ إني أسألك حبك ، وحب من يحبك ، والعمل الذي يبلغني حبك ، اللهم ؛ اجعل حبك أحب إلي من نفسي وأهلي والماء البارد »[2] .

---

(١) أخرجه ابن حبان في « الإحسان » (٣٣٢٩) .

(٢) أخرجه الحاكم (٣٦٢١) .

وروىٰ أيضاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تفرغوا من هموم الدنيا ما استطعتم ؛ فإنه من كانت الدنيا أكبر همه . . أفشى الله عليه ضيعته ، وجعل فقره بين عينيه ، ومن كانت الآخرة أكبر همه . . جمع الله تعالىٰ له أموره ، وجعل غناه في قلبه ، وما أقبل عبد بقلبه إلى الله . . إلا جعل الله عز وجل قلوب العباد تفد عليه بالود والرحمة ، وكان الله عز وجل إليه بكل خير أسرع »[1] انتهىٰ [« الحلية » ١/٢٠٩ـ٢٢٧] .

وقال الغزالي ـ رحمه الله ـ : قال أبو الدرداء رضي الله عنه : (إذا تغير أخوك ، وحال عما كان عليه . . فلا تدعه لأجل ذلك ؛ فإن أخاك يعوج مرة ، ويستقيم أخرىٰ) .

ثم قال الغزالي : اِعلم : أن العفو عن زلات الصديق وهفواته : إن كانت في الدين بأن ارتكب معصية وأصر عليها . . فعلى الصديق التلطف في نصحه إلىٰ أن يعود إلى الصلاح ، فإن لم يعد وبقي مصرّاً . . فقد اختلف طريق الصحابة والتابعين رضي الله عنهم في إدامة حق مودته ، أو مقاطعته :

فذهب أبو ذر إلىٰ مقاطعته وقال : (إذا انقلب أخوك عما كان عليه . . فأبغضه من حيث أحببته ، ورأىٰ ذلك من مقتضى الحب في الله والبغض في الله) .

وأما أبو الدرداء وجماعة من الصحابة . . فإنهم ذهبوا إلىٰ عدم المقاطعة ، وهـٰكذا قال إبراهيم النخعي : لا تقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب بذنبه ؛ فإنه يرتكبه اليوم ويتركه غداً .

وقال النخعي أيضاً : لا تحدثوا الناس بزلة العالم ؛ فإن العالم يزل الزلة ، ثم يتركها .

وهـٰذا مذهب عمر بن الخطاب رضي الله عنه أيضاً ، ومذهب أكثر السلف ، وهو ألطف وأفقه .

أما كونه ألطف . . فلِمَا فيه من الرفق والاستمالة ، والتعطف المفضي إلى الرجوع والتوبة ؛ لاستمرار الحياء عند دوام الصحبة ، ومهما قوطع وانقطع طمعه عن الصحبة . . أصر واستمر .

وأما كونه أفقه . . فمن حيث أن الأخوة عَقد يُنَزَّلُ منزلة القرابة ، فإن انعقدت . . تأكد الحق ، ووجب الوفاء بموجب العقد ، ومن جملة الوفاء : ألاَّ يهمل أيام حاجته وفقره ، وفقر الدين أشد من فقر المال ، وقد أصابته جائحة ، وألمت به فاقة دينية ، فينبغي أن يراقب

---

(١) أخرجه الطبراني في« الأوسط » (٥/١٨٦) .

ويراعىٰ ؛ فإنه الآن أحوج ما كان إلىٰ دوام الصحبة ، ولا يهمل ، بل لا يزال يتلطف به ليعان على الخلاص من الواقعة التي ألمت به ، فالأخوة عُدة للنائبات وحوادث الزمان ، وهـٰذا أشد النوائب .

ولا شك أن الصداقة لُحمة كلُحمة النسب ، والقريب لا يجوز أن يُهجر بالمعصية ، ولذلك قال تعالىٰ لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم في عشيرته : ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ، ولم يقل : إني بريء منكم ؛ مراعاة لحق القرابة ولُحمة النسب .

وإلىٰ هـٰذا أشار أبو الدرداء لمَّا قيل له : ألا تبغض أخاك وقد فعل كذا وكذا ؟ فقال : (إنما أبغض عمله ، وإلا . . فهو أخي) ، وأخوة الدين أوكد من أخوة القرابة ، والله سبحانه أعلم .

وقال جعفر الصادق رضي الله عنه : (مودة يومٍ صلة ، ومودة شهرٍ قرابة ، ومودة سنة رحم ماسة ، من قطعها . . قطعه الله) .

فإذاً : الوفاء بعقد الأخوة إذا سبق انعقادها . . واجب ، أما ابتداء المؤاخاة مع الفاسق الأجنبي . . فإنه لا يجوز ؛ لأنه لم يتقدم له حق ، وأما القريب . . فلا ينبغي أن يقاطع ، وإنما كان ترك الأخوة بعد انعقادها منهياً عنه بخلاف تركها ابتداء ؛ لأنه شبيه بالطلاق بعد النكاح ، وقد ورد : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق »[1] ، هـٰذا فيما يتعلق بالدِّين .

أما زلته في حق أخيه بما يوجب إيحاشه . . فلا خلاف في أن الأولى العفو والاحتمال ، بل كلُّ ما يحتمل تنزيله علىٰ وجه حسن ، ويتصور تمهيد عذر فيه قريباً كان أو بعيداً . . فهو واجب بحق الأخوة ، فقد قيل : ينبغي أن تستنبط لزلة أخيك سبعين عذراً ، فإن لم يقبله قلبك . . فقل له : ما أقساك من قلب ، أنت المعيب لا أخوك . انتهىٰ [« الإحياء » ٣/١٨٣] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرجه أبو داود (٢١٧٨) .

ومنهم الإمام :

جرير بن عبد الله البجلي الأحمسي
رضي الله عنه

قال الإمام النووي ـ قدس الله روحه ـ : هو أبو عمرو جرير ، نزل الكوفة ، ثم تحول إلىٰ قرقيسياء ، وتوفي بها سنة إحدىٰ وخمسين .

روي له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مئة حديث ، اتفقا منها علىٰ ثمانية ، وانفرد البخاري بحديث ، ومسلم بستة .

وروىٰ عنه أنس بن مالك ، وجماعة من كبار التابعين ، وبنوه الثلاثة : عبيد الله وإبراهيم والمنذر ، وآخرون .

وقدِم جرير على النبي صلى الله عليه وسلم سنة عشر من الهجرة في رمضان ، فبايعه ، وأسلم .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : (جرير يوسف هـٰذه الأمة) لحسنه ، وكان طويلاً ، يصل إلىٰ سنام البعير ، وكانت نعله ذراعاً ، ويخضب لحيته بالزعفران ليلاً ، ويغسلها إذا أصبح .

واعتزل علياً ومعاوية ، وأقام بالجزيرة ونواحيها حتىٰ توفي سنة أربع وخمسين .

وفي « الصحيحين » [خ ٢٧٣١ـ م ٢٥١٣] : عن أنس قال : (خرجت مع جرير في سفر ، فكان يخدمني ، فقلت له : لا تفعل ؛ فقال : إني رأيت الأنصار تصنع برسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً ، فآليت علىٰ نفسي ألاَّ أصحب أحداً منهم إلا خدمته) ، وكان جرير أكبر من أنس .

وفيهما أيضاً [خ ٥٧ـ م ٥٦] : عن جرير قال : (بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم علىٰ إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم) .

وفيهما [خ ٢٨٧١ـ م ٢٤٧٥] : عن جرير قال : ما حجبني رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ

أسلمت ، ولا رآني إلا تبسم في وجهي ، ولقد شكوت إليه أني لا أثبت على الخيل ، فضرب بيده صلى الله عليه وسلم علىٰ صدري ، وقال : « اللهم ؛ ثبته ، واجعله هادياً مهدياً » .

وفيهما [خ ١٢١ـ م ٦٥] : عن جرير قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع : « استنصتْ ليَ الناس » انتهىٰ [« التهذيب » ١/١٤٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

عبد الله بن عمر بن الخطاب
رضي الله عنهما

قال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : يكنىٰ : أبا عبد الرحمـٰن ، أمه : زينب بنت مظعون .

أسلم مع أبيه بمكة ولم يكن بالغاً ، وهاجر مع أبيه إلى المدينة .

وعُرض علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر فرده ، ويوم أحد فرده ؛ لصغر سنه ، وعُرض عليه يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة ، فأجازه .

وقال ابن عمر : رأيت في المنام ، كأن بيدي قطعة استبرق ، ولا أشير بها إلىٰ مكان من الجنة . . إلا طارت إليه ، فقصتها حفصة على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : « إن أخاكِ رجل صالح » ، أو : « إن عبد الله رجل صالح » أخرجاه في « الصحيحين » [خ ٦٦١٣ـ م ٢٤٧٨] . انتهىٰ [« الصفوة » ١/ ٢٤٧] .

وقال حجة الإسلام الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : قال ابن عمر رضي الله عنهما : مر علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خُصَّاً ، فقال : « ما هـٰذا ؟ » قلنا : خص لنا قد وهىٰ ، فقال : « أرى الأمر أعجل من هـٰذا! »[1] ، واتخذ نوح عليه الصلاة والسلام بيتاً من قصب ؛ فقيل له : لو بنيته بالطين ، فقال : هـٰذا كثير لمن يموت!

وقال ابن عمر رضي الله عنهما : (من ذكر خطيئة ألم بها فوجل منها قلبه . . محيت عنه في أم الكتاب) .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال في أيام الحجاج : (ما شبعت من الطعام منذ انتهبت الدار ، وإلىٰ يومي هـٰذا) .

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : (والله ؛ لو صمت النهار لا أفطره ، وقمت الليل

---

(١) أخرجه أبو داوود (٥٢٣٦) ، والترمذي (٢٣٣٥) ، بلفظ : « من ذلك » .

لا أنامه ، وأنفقت مالي جميعه في سبيل الله ، أموت يوم أموت وليس في قلبي حب لأهل طاعة الله وبغض لأهل معصية الله . . ما نفعني ذلك شيئاً) انتهىٰ [« الإحياء » ٤/٢٣٦] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : وعن عبد الرحمٰن ابن أبي الزناد ، عن أبيه قال : اجتمع في الحِجر[1] مصعب وعروة وعبد الله بنو الزبير وعبد الله بن عمر ، فقالوا : تمنوا ، فقال عبد الله بن الزبير : أما أنا . . فأتمنى الخلافة ، وقال عروة : أما أنا . . فأتمنىٰ أن يؤخذ عني العلم ، وقال مصعب : أما أنا . . فأتمنىٰ إمرة العراق ، والجمع بين عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين ، وقال عبد الله بن عمر : أما أنا . . فأتمنى المغفرة ، قال : فنالوا ما تمنوا ، ولعل ابن عمر قد غفر له .

وقال نافع : دخل ابن عمر الكعبة ، فسمعته وهو ساجد يقول : (قد تعلم ما يمنعني من مزاحمة قريش علىٰ هٰذه الدنيا . . إلا خوفك) .

وعن طاووس قال : ما رأيت رجلاً أورع من ابن عمر ، ولا رأيت رجلاً أعلم من ابن عباس .

وقال سعيد بن المسيب : لو كنت شاهداً لأحد من أهل العلم أنه من أهل الجنة . . لشهدت لعبد الله بن عمر .

وسئل عن شيء فقال : لا علم لي به ، فلما أدبر الرجل . . قال لنفسه : سئل ابن عمر عما لا يعلم ، فقال : لا أعلم .

وكان يقول : (إني لقيت أصحابي علىٰ أمر ، وإني أخاف إن خالفتهم . . ألاَّ ألحق بهم) انتهىٰ [« الصفوة » ١/٢٤٨] .

وقال الإمام النووي ـ قدس الله روحه ـ : أم عبد الله وأم أخته حفصة : زينب بنت مظعون بن حبيب الجمحية .

ثبت في « صحيح البخاري » [٣٨٨١] : عن ابن عمر قال : (أول يوم شهِدْتُه : الخندق) .

وكان شديد الاتباع لآثار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتىٰ إنه ينزل في منازله ، ويصلي في مكان صلىٰ فيه ، ويبرك ناقته في مبرك ناقته .

---

(١) حجر إسماعيل بجانب الكعبة المشرفة .

ونقلوا : أن النبي صلى الله عليه وسلم نزل تحت شجرة ، فكان عبد الله بن عمر يتعاهدها بالماء لئلا تيبس .

روي له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ألف حديث وست مئة حديث وثلاثون حديثاً ، اتفق البخاري ومسلم منها علىٰ مئة وسبعين ، وانفرد البخاري بأحدٍ وثمانين ، ومسلم بأحد وثلاثين .

روىٰ عنه أولاده الأربعة : سالم ، وحمزة ، وعبد الله ، وبلال ، وخلائق لا يحصون من كبار التابعين ، وغيرهم .

ومناقبه كثيرة مشهورة ، بل قَلَّ نظيره في المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في كل شيء من الأقوال والأفعال ، وفي الزهادة في الدنيا ، ومقاصدها ، والتطلع إلى الرئاسة ، وغيرها .

رُوِّينا عن الزهري قال : لا يُعدَل برأي ابن عمر ؛ فإنه أقام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ستين سنة ، فلم يخف عليه شيء من أمره ، ولا من أمر الصحابة .

وعن مالك قال : أقام ابن عمر ستين سنة تقدم عليه وفود الناس .

وعن البخاري في (كتاب رفع اليدين في الصلاة) قال : قال جابر بن عبد الله : (لم يكن أحد منهم ألزم لطريق النبي صلى الله عليه وسلم ولا أتبع من ابن عمر) .

وقال ابن عمر : (البر : شيء هيِّن ؛ وجه طلق ، وكلام ليِّن) .

ولم يقاتل في الحروب التي جرت بين المسلمين .

ورُوِّينا : أن ابن عمر كاتَب عبداً له علىٰ خمسة وثلاثين ألف درهم ، حط عنه منها خمسة آلاف درهم .

واعلم : أن ابن عمر أحد الستة الذين هم أكثر الصحابة رواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم ستة : أبو هريرة ، ثم ابن عمر ، ثم أنس ، وابن عباس ، وجابر ، وعائشة . انتهىٰ [« التهذيب » ١/٢٧٩ـ٢٨٠] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : عن سعيد بن المسيب قال : كان أشبه ولد عمر بعمر عبد الله ، وأشبه ولد عبد الله بعبدِ الله سالم .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : ما رأيت أحداً ألزم للأمر الأول[1] من عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

وعن نافع رضي الله عنه قال : كان ابن عمر رضي الله عنهما إذا اشتد عجبه بشيء من ماله . . قربه لله عز وجل ، فكان رقيقه قد عرفوا ذلك منه ، فربما شمر أحدهم فلزم المسجد ، فإذا رآه ابن عمر رضي الله عنهما علىٰ تلك الحال الحسنة . . أعتقه ، فيقول له أصحابه : يا أبا عبد الرحمٰن ؛ والله ما بهم إلا أن يخدعوك ، فيقول ابن عمر : (من خدعنا بالله . . انخدعنا له) .

قال نافع رضي الله عنه : (راح ابن عمر رضي الله عنهما علىٰ نجيب له ، فأعجبه سيره ، فأناخه مكانه ، ثم نزل عنه ، وقال : يا نافع ؛ انزعوا زمامه ورحله ، وجللوه ، وأشعروه ، وأدخلوه في البُدْن) .

ونزل الجحفة وهو شَاكٍ فقال : (إني لأشتهي حوتاً ، فصنع له ، فلما وضع بين يديه . . جاء سائل ، فقال : أعطوه الحوت ، فقالت امرأته : نعطيه درهماً ، فهو أنفع له من هٰذا ، واقض أنت شهوتك منه ، فقال : شهوتي ما أريد) .

وفي رواية [قال] : (إن عبد الله يحبه) .

وكان لا يعجبه شيء من ماله . . إلا خرج منه لله عز وجل ، وربما تصدق في المجلس الواحد بثلاثين ألفاً .

وكان لا يدمن اللحم شهراً إلا مسافراً أو رمضان ، وكان يمكث الشهر لا يذوق فيه مزعة لحم .

وعن ميمون بن مهران قال : أتت ابن عمر رضي الله عنهما اثنان وعشرون ألف دينار في مجلس ، فلم يقم حتىٰ فرقها .

ودفع ابن جعفر بنافع عشرة آلاف دينار ؛ فقيل : يا أبا عبد الرحمٰن ؛ ما تنتظر أن تبيع ؟ قال : (ما هو خير من ذلك ، هو حر لوجه الله عز وجل) .

وكان لا يأكل إلا وعلىٰ خوانه يتيم ، وما مات حتىٰ أعتق ألف إنسان ، أو زاد .

---

(١) بداية الدعوة قبل الفتوح واتساع رقعة الإسلام ، والمراد : الزهادة والتقشف .

وكان يُرسَلُ إليه بالمال ، فيقبله ، ويقول : (لا أسأل أحداً شيئاً ، ولا أرد ما رزقني الله عز وجل) .

وكان يقبض علىٰ لحيته ، ثم يأخذ ما جاوز القبضة .

وعن نافع : أن معاوية بعث إلى ابن عمر بمئة ألف ، فلما أراد أن يبايع ليزيد . . قال : (أُرىٰ ذلك أراد : إن دِيني عندي إذن لرخيص) .

وقيل له : لا يزال الناس بخير ما أبقاك الله لهم ، فغضب ، ثم قال : (إني لأحسبك عراقياً ، وما يدريك ما يغلق عليه ابن أمك بابه ؟!) .

وعن نافع قال : اشتكى ابن عمر ، فاشتُرِيَ له عنقود عنب بدرهم ، فجيء به إليه ، فجاءه مسكين ، فسأل ، فقال : أعطوه إياه ، فخالف إليه إنسان ، فاشتراه منه بدرهم ، فأراد أن يرجع فمنع ، ولو علم ابن عمر بذلك العنقود . . ما ذاقه .

وعن ميمون بن مهران : أن امرأة ابن عمر عوتبت فيه ، فقيل لها : ما تلطفين بهـٰذا الشيخ ؟ فقالت : فما أصنع ؟ لا نصنع له طعاماً . . إلا دعا إليه مَنْ يأكله ، وأرسلت إلىٰ قوم مساكين كانوا يجلسون في طريقه إذا خرج من المسجد ، فأطعمتهم ، وقالت لهم : لا تجلسوا في طريقه ، ثم جاء إلىٰ بيته ، فقال : أرسلوا إلىٰ فلان وفلان ، وكانت امرأته أرسلت إليهم بطعام ، وقالت : إن دعاكم . . فلا تأتوه ، فقال ابن عمر رضي الله عنهما : (أردتم ألاَّ أتعشى الليلة ؟!) فلم يتعش تلك الليلة .

وقال ابن مطيع : يا أبا عبد الرحمـٰن ؛ لو اتخذت طعاماً فرجع إليك جسمك ؟ فقال : (إنه ليأتي علي ثمان سنين ما أشبع فيها شبعة واحدة) .

وعن عبيد الله بن عدي ـ وكان مولىٰ لابن عمر رضي الله عنهما ـ : أنه قدم من العراق ، فقال : أُهْدِيَت لك هدية ، فقال : وما هي ؟ قال : جوارش[1] ، قال : وما هي ؟ قال : تهضم الطعام ، قال : ما ملأت بطني طعاماً منذ أربعين سنة ، فما أصنع به ؟

وقال نافع : ما قرأ ابن عمر هاتين الآيتين قط من آخر (سورة البقرة) . . إلا بكىٰ : ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ ﴾ ، ثم يقول : (إن هـٰذا لإحصاء شديد) .

وجاء سائل إلى ابن عمر رضي الله عنهما ، فقال لابنه : أعطه ديناراً ، فلما انصرف . .

---

(١) **الجوارش** : نوع من الأدوية المركبة يقوي المعدة ، ويهضم الطعام .

قال له ابنه : تقبل الله منك يا أبتاه ، فقال : لو علمت أن الله تقبل مني سجدة واحدة أو صدقة درهم . . لم يكن غائب أحب إلي من الموت ، أتدري ممن يتقبل الله ؟ إنما يتقبل الله من المتقين .

وقال مجاهد : صحبت ابن عمر رضي الله عنهما وأنا أريد أن أخدمه ، فكان يخدمني أكثر ، وكان يحيي الليل صلاة ، ثم يقول : يا نافع ؛ أأسحرنا ؟ فيقول : لا ، فيعاود الصلاة ، ثم يقول : يا نافع ؛ أأسحرنا ؟ فيقول : نعم ، فيقعد ويستغفر ، ويدعو حتىٰ يصبح .

وكان يحيي ما بين الظهر إلى العصر .

وعن طاووس قال : ما رأيت مصلياً كهيئة ابن عمر ، أشد استقبالاً للكعبة بوجهه وكفّيه وقدميه .

وكان ابن عمر رضي الله عنهما إذا أصبح . . قال : (اللهم ؛ اجعلني من أعظم عبادك نصيباً في كل خير تقسمه الغداة ، ونور تهدي به ، ورحمة تنشرها ، ورزق تبسطه ، وضر تكشفه ، وبلاء ترفعه ، وفتنة تصرفها) .

وشَرِبَ ماء مبرداً فبكىٰ ، واشتد بكاؤه ، فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : ذكرت آية في كتاب الله عز وجل : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ . . فعرفت أن أهل النار لا يشتهون شيئاً شهوتَهم الماء البارد ، وقد قال الله عز وجل : ﴿ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ .

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : (ما أدركنا أحداً وما رأينا أحداً . . إلا وقد مالت به الدنيا ومال بها ، إلا عبد الله بن عمر) .

وكان ابن عمر رضي الله عنهما إذا قرأ : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ . . بكىٰ حتىٰ يغلبه البكاء .

وعن مجاهد ، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : (لا يصيب عبد شيئاً من الدنيا . . إلا نقص من درجاته عند الله عز وجل ، وإن كان عليه كريماً) .

وقيل له : توفي فلان الأنصاري ، وترك مئة ألف ، قال : (لـٰكن هي لم تتركه) .

وقيل له : يا خير الناس ، ويابن خير الناس ، فقال : (ما أنا بخير الناس ، ولا ابن خير الناس ، ولكني عبد من عباد الله عز وجل ، أرجو الله تعالىٰ وأخافه ، والله ؛ لن تزالوا بالرجل حتىٰ تهلكوه) .

وقال : (أحِبَّ في الله ، وأبغِض في الله ، وعادِ في الله ؛ فإنك لا تنال ولاية الله عز وجل . . إلا بذلك ، ولا يجد رجل طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصيامه . . حتىٰ يكون كذلك ، وصارت مؤاخاة الناس في أمر الدنيا ، وإن ذلك لا يجزي عن أهله شيئاً)[1] .

وقال : (إذا أصبحت . . فلا تحدث نفسك بالمساء ، وإذا أمسيت . . فلا تحدث نفسك بالصباح ، وخذ من صحتك لسقمك ، ومن حياتك لموتك ؛ فإنك ـ يا عبد الله ـ لا تدري ما اسمك غداً) .

قال : وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعض جسدي ، فقال : « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ، وعد نفسك في أهل القبور »[2] .

وقيل لنافع : ما كان بدء موت ابن عمر ؟ قال : أصابته عارضة مَحْمِل[3] بين أصبعين من أصابعه عند الجمرة في الزحام ، فمرض ، فأتاه الحجاج يعوده ، فغمض عينيه ، فكلمه الحجاج فلم يكلمه .

فلما حضرته الوفاة . . أوصىٰ ألاَّ يدفن في الحرم ، فغُلِب ، فدفن في الحرم ، وصلىٰ عليه الحجاج .

وفي رواية : لم نقدر علىٰ ذلك من الحجاج ، فدفناه في مقبرة المهاجرين بفخ نحو ذي طوىٰ .

ومات بمكة سنة أربع وسبعين ، وقيل : ثلاث وسبعين ، وهو ابن أربع وثمانين سنة ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الصفوة » ١/٢٤٩ـ٢٥٦] .

وقال النووي ـ قدس الله روحه ـ : عبد الله بن عمر رضي الله عنهما هو أحد العبادلة الأربعة ، وسيأتي بيانهم في ترجمة عبد الله بن الزبير .

وقال البخاري : أصح الأسانيد مطلقاً : مالك عن نافع عن ابن عمر ، ويسمىٰ هـٰذا الإسناد **مشبك الذهب** .

قال أبو منصور التميمي : فعلىٰ هـٰذا : أصحها : الشافعي عن مالك عن نافع عن ابن

---

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١٢/ ٤١٧) .

(٢) أخرجه بنحوه البخاري (٦٠٥٣) ، وبنصِّه الترمذي (٢٣٣٣) .

(٣) **المِحْمَل** : بوزن المِقْوَد : علاقة السيف ، **والمَحْمِل** : وزان مَجْلِس : الهودج ، ويجوز مِحْمَل وزان مِقْوَد ، وأول من اتخذ المحامل : الحجاج بن يوسف الثقفي .

عمر ؛ لإجماع أهل الحديث وغيرهم علىٰ أن الشافعي أجل الرواة عن مالك .

وفي أصل هـٰذه المسألة خلاف ، ذكرته واضحاً في أول علوم الحديث .

والمختار : أنه لا يُجْزَم في إسناد أنه أصحها . انتهىٰ [« التهذيب » ١/ ٢٨٠] .

وروى الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : أن ابن عمر أتي بثوب لين ، فلما رآه . . لمسه بيده ، وقال : أحرير هو ؟ قيل : لا ، إنه قطن ، فقال : إني أخاف إذا لبسته . . أن أكون مختالاً فخوراً ، واللهُ لا يحب كل مختال فخور .

وسأله رجل : ما الذي ألبس من الثياب ؟ فقال : ما لا يزدريك فيه السفهاء ، ولا يعيبك به الحكماء ، قال : ما بين الخمسة إلى العشرين درهماً .

وقال : (ما وضعت لبنة علىٰ لبنة وما غرست نخلة منذ قبض النبي صلى الله عليه وسلم) .

وكان إذا مر بربعهم الذي هاجر منه . . غمض عينيه ، ولم ينظر إليه ، ولم ينزله قط .

وقال : (ما صليت صلاة منذ أسلمت . . إلا وأنا أرجو أن تكون كفارة) .

وعن سعيد بن المسيب رحمه الله قال : مات ابن عمر رضي الله عنهما يوم مات ، وما في الأرض أحد أحب إلي أن ألقى الله بمثل عمله منه .

وقال : (من كان مستناً . . فليستنَّ بمن قد مات ، أولـٰئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، كانوا خير هـٰذه الأمة ، أبرّها قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، قوم اختارهم الله عز وجل لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم ، ونَقْل دِينه ، فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم ، فهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، كانوا على الهدى المستقيم) .

وقال ابن عمر رضي الله عنهما : (يابن آدم ؛ صاحب الدنيا ببدنك ، وفارقها بقلبك وهمك ؛ فإنك موقوف علىٰ عملك ، فخذ مما في يديك لما بين يديك) .

وقال : (لا يكون الرجل من أهل العلم حتىٰ لا يحسد من فوقه ، ولا يحقر مَن دونه ، ولا يبتغي بالعلم ثمناً) .

وقال : (لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتىٰ يَعُدَّ الناسَ حمقىٰ في دِينهم) .

وكان يدعو على الصفا : (اللهم ؛ اعصمني بدينك وطواعية رسولك ، اللهم ؛ جنبني حدودك ، اللهم ؛ اجعلني ممن يحبك ، ويحب ملائكتك ، ويحب رسلك ، ويحب عبادك

الصالحين ، اللهم ؛ حببني إليك ، وإلىٰ ملائكتك ، وإلىٰ رسلك ، وإلىٰ عبادك الصالحين ، اللهم ؛ يسرني لليسرىٰ ، وجنبني العسرىٰ ، واغفر لي في الآخرة والأولىٰ ، واجعلني من أئمة المتقين ، اللهم ؛ إنك قلت : ادعوني أستجب لكم ، وإنك لا تخلف الميعاد ، اللهم ؛ إذ هديتني للإسلام . . فلا تنزعني منه ، ولا تنزعه مني ، حتىٰ تقبضني وأنا عليه) .

وكان إذا رآه أحد . . ظن أن به شيئاً[1] ؛ من تتبعه آثار النبي صلى الله عليه وسلم .

وكان في طريق مكة يقول برأس راحلته ، يثنيها ويقول : (لعل خفاً يقع علىٰ خف راحلة النبي صلى الله عليه وسلم) .

وسئل : هل كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يضحكون ؟ قال : (نعم ، والإيمان في قلوبهم أعظم من الجبال) .

وقال : (إن ناساً يُدعون يوم القيامة المنقوصين) قيل : وما المنقوصون ؟ قال : (ينقص أو ينتقص أحدهم صلاته بالتفاته ووضوئِهِ) انتهىٰ [« الحلية » ١/ ٣٠٢ـ٣١١] .

روىٰ شيخنا برهان الدين ـ قدس الله روحه ـ بسنده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما من غازية تغزو في سبيل الله عز وجل يصيبون غنيمة . . إلا تعجلوا ثلثي أجرهم من الآخرة ، ويبقىٰ لهم الثلث ، فإن لم يصيبوا غنيمة . . تم لهم أجرهم »[2] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) من مسٍّ أو جنون .

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٧٨٥) عن عبد الله بن عمرو بن العاصي .

ومنهم الإمام :

جعفر بن أبي طالب
رضي الله عنه

قال النووي ـ قدس الله روحه ـ : هو الطيار ذو الجناحين ، وذو الهجرتين ، الجواد أبو الجواد ، كان من متقدمي الإسلام .

هاجر إلى الحبشة ، وكان هو وأصحابه سبب إسلام النجاشي ، وارتفق المسلمون بجعفر هناك ، واعتضدوا به ، وكان جعفر أميرهم في الهجرة ، وهاجرت معه زوجته أسماء بنت عميس ، فولدت له هناك عبد الله بن جعفر ، وهو أول مولود ولد في الإسلام بأرض الحبشة .

وقصة جعفر مع النجاشي في أول اجتماعه به ، وقراءته عليه سورة مريم ، وقوله : إن عيسىٰ عبد الله ، وغير ذلك مما جرىٰ له . . مشهور معروف .

ثم قدِم من الحبشة هو ومَن صَحِبَهُ من المهاجرين ، ومن دخل في الإسلام هناك ، وجاؤوا في سفينتين في البحر ، فقدموا علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم في خيبر ، فأسهم لهم منها ، ولم يسهم لمن لم يحضرها غيرهم ، وحديث قصتهم في « الصحيح » مشهور[1] .

ثم سكن المدينة ، ثم أمَّره النبي صلى الله عليه وسلم علىٰ جيش غزوة مؤتة بعد زيد بن حارثة ، فاستشهد هو وزيد فيها ، في جمادى الأولىٰ ، سنة ثمان من الهجرة .

وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بوفاته على المنبر ، واستغفر له ، وأمر المسلمين بالاستغفار له ، ووجدوا به يومئذ أربعاً وخمسين ضربة بالسيف في مُقَدَّمه .

وفي « البخاري » [٤٠١٣] : عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : (كنت في غزوة مؤتة ، فالتمسنا جعفراً رضي الله عنه ، فوجدناه في القتلىٰ ، ووجدنا في جسده بضعاً وتسعين من طعنة ورمية) .

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٦٧) .

زاد في رواية أخرىٰ له : (ليس فيها شيء في دبره) .

وقبره وقبر صاحبيه : زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم . . مشهور بأرض مؤتة من الشام ، علىٰ نحو مرحلتين من بيت المقدس . انتهىٰ [« التهذيب » ١/١٤٨ـ١٤٩] .

وفي رواية الواسطي : قال ابن إسحاق : ولما أصيب القوم . . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فيما بلغني ـ : « أخذ الراية زيد بن حارثة ، فقاتل بها حتىٰ قتل شهيداً ، ثم أخذها جعفر ، فقاتل بها حتىٰ قتل شهيداً » ، قال : ثم صمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتىٰ تغيرت وجوه الأنصار ، وظنوا أنه قد كان في عبد الله بن رواحة بعض ما يكرهون ، ثم قال : « أخذها عبد الله بن رواحة ، فقاتل بها حتىٰ قتل شهيداً » ثم قال : « لقد رفعوا لي في الجنة ـ فيما يرى النائم ـ علىٰ سرر من ذهب ، فرأيت في سرير عبد الله بن رواحة ازوراراً[1] عن سريري صاحبيه ، فقلت : عمَّ هـٰذا ؟ فقيل لي : مضيا وتردد بعض التردد ثم مضىٰ » رضوان الله عليهم أجمعين . انتهىٰ[2] .

وروى ابن أبي الدنيا ، عن النعمان بن بشير الأنصاري رضي الله عنه : أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه حين قتل . . دعا الناس : يا عبد الله بن رواحة ؛ يا عبد الله بن رواحة ؛ وهو جانب العسكر ومعه ضلع جمل ينهشه ، ولم يكن ذاق طعاماً قط قبل ذلك بثلاث ، فرمىٰ بالضلع ، ثم قال : وأنت مع الدنيا ؟ ثم تقدم ، فقاتل ، فأصيبت أصبعه ، فارتجز ، فجعل يقول :

هـل أنـت إلا إصبـع دميـت ... وفـي سبيـل الله مـا لقيـتِ
يـا نفـس إن لا تُقتلـي تمـوتـي ... هـٰذا حيـاض المـوت قـد صَلِيـتِ
ومـا تمنيـت فقـد لقيـت ... إن تفعلـي فِعْلَهمـا هُـديـتِ
وإن تـأخـرت فقـد شقيـتِ

قال : يا نفس ؛ إلىٰ أي شيء تتوقين ؟! إلىٰ فلانة . . فهي طالق ثلاثاً ، وإلىٰ فلان وفلان ـ غلمان له ـ وإلىٰ معجف ـ حائط له ـ فهو لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

يـا نفس مـا لـك تكـرهيـن الجنـه ... أقسمـتُ بـالله لتَنْـزِلَنَّـهْ

---

(١) الازورار : الميلان .

(٢) انظر « السيرة النبوية » (٣/ ٣٨٠) .

طـــائعـــة أو لَـتُكْـــرَهِنَّـــهْ فطـــالمـــا قـــد كنـــت مطمئنـــهْ
هـــل أنـــت إلا نطفـــة فـــي شَنَّـــهْ قـد أجلـب النـاس وشَـدُّوا الـرَّنَّـهْ

وقال النووي ـ قدس الله روحه ـ : وفي « البخاري » [٥١١٦] : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (كان خير الناس للمساكين جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ، كان ينقلب بنا ، فيطعمنا ما كان في بيته ، حتىٰ إن كان ليخرج إلينا العُكَّةَ[1] التي ليس فيها شيء ، فيشقها فنلعق ما فيها) .

وفي « البخاري » [٣٥٠٦] عن الشعبي : أن ابن عمر كان إذا سلم على ابن جعفر . . قال له : (السلام عليك يابن ذي الجناحين) .

وجاء في غير « البخاري » : أنه قطعت يداه يوم غزوة مؤتة ، فجعل الله له جناحين يطير بهما[2] .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رأيت جعفراً يطير في الجنة مع الملائكة » رواه الترمذي [٣٧٦٣] ، وفي إسناده ضعف .

وثبت : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لجعفر : « أشبهت خَلْقي وخُلُقي »[3] .

ومناقبه كثيرة مشهورة .

قالوا : وكان أسن من علي بعشر سنين ، وعقيل أسن من جعفر بعشر سنين ، وطالب بن أبي طالب أسن من عقيل بعشر سنين ، وأمهم واحدة ؛ وهي فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف ، وهي أول هاشمية تزوجها هاشمي ، وأسلمت ، وهاجرت إلى المدينة ، وتوفيت في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصلىٰ عليها ، ونزل في قبرها ، وكان يكرمها .

وكان لجعفر ثلاثة من الولد من أسماء : عبد الله ، ومحمد ، وعون ، والعقب لعبد الله دون أخويه رضي الله عنهم أجمعين .

وكان لجعفر يوم توفي إحدىٰ وأربعين سنة ، وقيل غير ذلك . انتهىٰ [« التهذيب » ١/١٤٩] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) **العكة** : وعاء صغير من الجلد يوضع فيه السمن أو العسل .
(٢) أخرجه بنحوه الطبراني في « الكبير » (٢/ ١٠٧) .
(٣) أخرجه البخاري (٥٥٢) .

ومنهم الإمام :

أبو ذر جندب بن جنادة الغفاري
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : في اسمه خلاف كثير .

وكان يتعبد قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم بمكة قديماً ، وقال : (كنت في الإسلام رابعاً) .

ورجع إلىٰ قومه ، فأقام حتىٰ مضت بدر وأحد والخندق ، ثم قدم المدينة .

وكان شجاعاً ، ينفرد وحده ، فيقطع الطريق .

وقال : صليت قبل أن ألقىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاث سنين ، فقيل : لمن ؟ قال : لله عز وجل ، قيل : فأين كنت تتوجه ؟ قال : حيث وجهني الله عز وجل .

وفي « الصحيحين » [خ ٣٦٤٨ـ م ٢٤٧٤] من حديث ابن عباس : أن أبا ذر رضي الله عنه لما دخل علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلم . . قال له النبي صلى الله عليه وسلم : « ارجع إلىٰ قومك حتىٰ يأتيك أمري » ، فقال : والذي نفسي بيده ؛ لأصرخن بها بين ظهرانيهم ، فخرج حتىٰ أتى المسجد ، فنادىٰ بأعلىٰ صوته : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وثار القوم ، فضربوه حتىٰ أضجعوه ، وأتى العباس فأكب عليه ، فقال : ويلكم! ألستم تعلمون أنه من غفار ، وأن طريق تجارتكم إلى الشام ، يعني : عليهم ، فأنقذه منهم ، ثم عاد من الغد لمثلها ، وثاروا إليه فضربوه ، فأكب عليه العباس رضي الله عنه ، فأنقذه .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء من رجل أصدق من أبي ذر »[1] .

وسئلت أم أبي ذر عن عبادته فقالت : كان نهاره أجمع في ناحية يتفكر .

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٨٥) ، **والغبراء** : الأرض ، **والخضراء** : السماء .

وعن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال : (في المال ثلاثة شركاء : القدر لا يستأمرك أن يذهب بخيرها أو شرها من هلاك أو موت ، والوارث ينتظر أن تضع رأسك ثم يستاقها وأنت ذميم ، وأنت الثالث ، فإن استطعت ألاَّ تكون أعجز الثلاثة . . فلا تكونن ؛ إن الله تعالىٰ يقول : ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ ، وإن هـٰذا الجمل مما كنت أحب من مالي ، فأحببت أن أقدمه لنفسي) .

وعن سفيان الثوري ـ رحمه الله ـ قال : قام أبو ذر فاكتنفه الناس ، فقال : أرأيتم لو أن أحدكم أراد سفراً ، أليس يتخذ من الزاد ما يصلحه ويبلغه ؟ قالوا : بلىٰ ، قال : فسفر طريق القيامة أبعد ما تريدون ، فخذوا ما يصلحكم ، قالوا : وما يصلحنا ؟ قال : حجوا حجة لعظائم الأمور ، وصوموا يوماً شديداً حره لطول يوم النشور ، وصلوا ركعتين من سواد الليل لوحشة القبور ، وكلمة خير تقولها أو كلمة سوء تسكت عنها لوقوف يوم عظيم ، تصدَّقْ بمالك لعلك تنجو ، واجعل الدنيا مجلسين : مجلساً في طلب الحلال ، ومجلساً في طلب الآخرة ، والثالث : يضرك ولا ينفعك لا تَرِدْه ، واجعل المال درهمين : درهماً تنفقه علىٰ عيالك من حله ، ودرهماً تقدمه لآخرتك ، والآخر يضرك ولا ينفعك لا تَرِدْهُ ، ثم نادىٰ بأعلىٰ صوته : يا أيها الناس ؛ قد قتلكم حرص لا تُدرِكونه أبداً .

وفي رواية : قيل : وما يوم لا ندركه ؟ قال : طول الأمل .

وقال أبو ذر رضي الله عنه : (إني لأقربكم مجلساً من رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، وذلك أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أقربكم مجلساً مني يوم القيامة . . من خرج من الدنيا بهيئة ما تركته فيها » ، وإنه واللهِ ؛ ما منكم من أحد إلا وقد تشبث بشيء منها غيري)[1] .

وجاءت ابنة أبي ذر ، وعليها ثوب صوف ، ومعها قفة ، فمثلت بين يديه وعنده أصحابه ، فقالت : يا أبتاه ؛ زعم الحراثون والزراعون أن أَفلُسَكَ هـٰذه بهرجة[2] ، فقال : (يا بنية ؛ ضعيها ، فإن أباك أصبح بحمد الله ما يملك من صفراء ولا بيضاء . . إلا أَفْلُسَه هـٰذه) .

وبعث إليه حبيب بن مسلمة ـ وهو أمير الشام ـ ثلاث مئة دينار وقال : استعن بها علىٰ

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٦٥) .

(٢) بهرجة : زيف .

حاجتك ، فقال أبو ذر : (ارجع بها إليه ، أمَا وجد أحداً أغر بالله عز وجل منا ، لنا ظل نتوارىٰ به ، وثلة من غنم تروح علينا ، ومولاة لنا تصدقت علينا بخدمتها ، ثم إني لأتخوف الفضلَ) .

ودخل رجل علىٰ أبي ذر رضي الله عنه ، فجعل يقلب بصره في بيته ، فقال : يا أبا ذر ؛ أين متاعكم ؟ قال : إن لنا بيتاً نوجه إليه صالح متاعنا ، قال : إنه لا بد لك من متاع ما دمت هنا ، قال : إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه .

وقال : (والله ؛ لو تعلمون ما أعلم . . ما انبسطتم إلىٰ نسائكم ، ولا تقاررتم علىٰ فرشكم ، والله ؛ لوددت أن الله عز وجل خلقني يوم خلقني شجرة تعضد ويؤكل ثمرها) .

تُوُفِّيَ بالربذة بفلاة من الأرض ، وشهده عصابة من المؤمنين ، فقال لهم وهو يُحتَضَر : لو كان عندي ثوب يسعني كفناً أو لامرأتي ثوب يسعني . . لم أكفن إلا في ثوب هو لي أو لها ، وإني أنشدكم بالله لا يكفِّنِّي منكم رجل كان أميراً ، ولا عريفاً ، ولا بريداً ، أو نقيباً ، ولم يكن في القوم أحد إلا وقد أصاب من ذلك إلا فتىً من الأنصار ، فقال : أنا أكفنك في ردائي هـٰذا وفي ثوبين من ثيابي من غزل أمي ، قال : أنت تكفنني ، وكفنه الأنصاري ، ودفنه مع النفر الذين معه ، سنة اثنتين وثلاثين ، وصلىٰ عليه ابن مسعود منصرفه من الكوفة ، رضي الله عنهم أجمعين . انتهىٰ [« الصفوة » ١/٢٥٨ـ٢٦٤] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

حذيفة بن اليمان
رضي الله عنهما

يكنىٰ : أبا عبد الله .

قال النووي ـ قدس الله روحه ـ : أسلم حذيفة وأبوه ، وهاجرا إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشهدا جميعاً أحداً ، وقتل أبوه يومئذ ، قتله المسلمون خطأً ، فوهب لهم دمه .

وأسلمت أم حذيفة ، وهاجرت .

وفي « الترمذي » [٣٧٨١] في مناقب الحسن والحسين حديث يتضمن إسلامها .

روىٰ عن حذيفة جماعة من أكابر الصحابة ، منهم : عمر ، وعلي ، وعمار ، وجندب ، وغيرهم رضي الله عنهم ، وخلائق من التابعين ، منهم : ابنه أبو عبيدة بن حذيفة .

وكان صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنافقين ، يَعلَمهم وحده ، وسأله عمر بن الخطاب رضي الله عنه : هل في عمالي أحد منهم ؟ قال : نعم ، واحد ، قال : من هو ؟ قال : لا أذكره ، فعزله عمر رضي الله عنه ، كأنما دُلَّ عليه .

وأرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الأحزاب سرية وحده ؛ ليأتيه بخبر القوم ، فوصلهم ، وجاءه بخبرهم ، وحديثه هٰذا في « الصحيح » مشهور طويل يشتمل علىٰ معجزات[1] .

---

(١) والحديث كما في « صحيح ابن حبان » (٧١٢٥)
عن إبراهيم التيمي ، عن أبيه قال : كنا عند حذيفة ، فقال رجل : لو أدركتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم . . لقاتلت معه ، فقال حذيفة : أنت كنت تفعل ذلك ؟! لقد رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الأحزاب ، وأخذتنا ريح شديدة وقرٌّ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا رجل يأتينا بخبر القوم ؟ جعله الله معي يوم القيامة » ، قال : فسكتنا ، فلم يجبه منا أحد ، ثم قال : « ألا رجل يأتينا بخبر القوم ؟ جعله الله معي يوم القيامة » ، قال : فسكتنا ، فلم يجبه منا أحد ، ثم قال : فسكتنا ، فقال صلى الله عليه=

وحضر حذيفة الحرب بنهاوند ، فلما قتل النعمان بن مقرن أمير الجيش . . أخذ الراية .

وكان فتح همذان والرَّي ودِينَوَر علىٰ يد حذيفة .

وشهد فتح الجزيرة ونزل نصيبين ، وولاه عمر رضي الله عنه المدائن .

وقال عمر رضي الله عنه لأصحابه : تمنوا ، فتمنوا ملء البيت الذي هم فيه جوهراً لينفقوه في سبيل الله عز وجل ، فقال عمر رضي الله عنه : لكني أتمنىٰ رجالاً مثل أبي عبيدة ومعاذ بن جبل وحذيفة ، أستعملهم في طاعة الله عز وجل .

وكان كثير السؤال لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن أحاديث الفتن والشر ؛ ليتجنبها .

وسأله رجل : أي الفتن أشد ؟ قال : أن يعرض عليك الخير والشر ، فلا تدري أيهما تدرك .

ولم يدرك حذيفة وقعة الجمل ؛ لأنها كانت في جمادى الأولىٰ سنة ست وثلاثين ، وكانت وفاته بعد قتل عثمان بأربعين ليلة .

وفي « الصحيحين » [خ ٦٢٣٠ـ م ٢٨٩١] : عن حذيفة رضي الله عنه قال : (قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً ، ما ترك شيئاً يكون من مقامه ذلك إلىٰ قيام الساعة . . إلا حدث به ، حَفِظَه من حفظه ، ونسيه من نسيه ، قد علِمه أصحابي هـٰؤلاء ، وإنه ليكون منه الشيء قد نسيته ، فأراه فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ، ثم إذا رآه . . عرفه) .

وفي « مسلم » [٢٨٩١] : عن حذيفة رضي الله عنه قال : (أخبرني رسول الله صلى الله عليه وسلم بما كان إلىٰ أن تقوم الساعة) .

وفي « مسلم » [٢٨٩١] : أيضاً عنه قال : (والله ؛ إني لأعلم الناس بكل فتنة هي كائنة فيما بيني وبين الساعة) .

= وسلم : « قم يا حذيفة ، فأتنا بخبر القوم ، ولا تذعرهم ، فلما وليت من عنده . . جعلت كأنما أمشي في حمَّام ، حتىٰ أتيتهم ، فرأيت أبا سفيان يصلي ظهره بالنار ، فوضعت سهماً في كبد القوس ، فأردت أن أرميه ، فذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تذعرهم » ولو رميته . . لأصبته ، فرجعت وأنا أمشي في مثل الحمَّام ، فلما أتيته صلى الله عليه وسلم . . أخبرته بخبر القوم ، فألبسني رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل عباءة كانت عليه ، يصلي فيها ، فلم أزل نائماً حتىٰ أصبحت ، فلما أصبحت . . قال صلى الله عليه وسلم : « قم يا نومان » .

ومناقبه كثيرة مشهورة رضي الله عنه . انتهىٰ [« التهذيب » ١/ ١٥٤ـ١٥٥] .

قال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : خرج حذيفة وأبوه رضي الله عنهما ، فأخذهما كفار قريش ، فقالوا : إنكما تريدان محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالا : ما نريد إلا المدينة ، فأخذوا منهما عهداً ألاَّ يقاتلا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن ينصرفا إلى المدينة ، فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبراه ، وقالا : إن شئت . . قاتلنا معك ، قال : « بل تفيا ، ونستعين الله تعالىٰ عليهم » ، ففاتتهما بدر ، وشهد حذيفة أحداً وما بعدها .

وقال حذيفة رضي الله عنه : (كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر ؛ مخافة أن يدركني)[1] .

وقال : (ليأتين على الناس زمان لا ينجو فيه إلا من دعا بدعاء كدعاء الغريق) .

وكان يقول : ما من يوم أقر لعيني من يوم آتي أهلي ، فلا أجد عندهم طعاماً ، فيقولون : ما نقدر علىٰ قليل ولا كثير ، وذلك أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله تعالىٰ أشد حِمْيَةً للمؤمن من الدنيا من المريض يحميه أهله الطعام ، والله تعالىٰ أشد تعاهداً للمؤمن بالبلاء من الوالد لولده بالخير » .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا بعث أميراً . . كتب إليهم : إني قد بعثت إليكم فلاناً ، وأمرته بكذا وكذا ، فاسمعوا له وأطيعوا ، فلما بعث حذيفة رضي الله عنه إلى المدائن . . كتب إليهم : إني قد بعثت إليكم فلاناً ، فأطيعوه ، فقالوا : هـٰذا رجل له شأن ، فركبوا ليتلَقَّوه ، فلَقُوه علىٰ حمار وهو معترض عليه رجلاه من جانب ، فلم يعرفوه ، فأجازوه ، فلقيهم الناس ، فقالوا : أين الأمير ؟ قالوا : هو الذي لقيتم ، قال : فركضوا في أثره ، فأدركوه وفي يده رغيف ، وفي الأخرىٰ عِرق وهو يأكل ، فسلموا عليه ، فنظر إلىٰ عظيم منهم ، فناوله العرق والرغيف ، فقالوا : سَلْنا عما شئت ، قال : أسألكم طعاماً آكله ، وعلفاً لحماري هـٰذا ما دمت فيكم ، فأقام ما شاء الله .

ثم كتب إليه عمر رضي الله عنه أن اقدم ، فقدم رضي الله عنه ، فلما بلغ عمرَ رضي الله عنه قدومُه . . كَمَنَ له على الطريق في مكان لا يراه ، فلما رآه على الحال التي خرج من عنده عليها . . أتاه ، فالتزمه ، وقال : أنت أخي وأنا أخوك .

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٧٠٨٤) .

وعن الثوري ، عن حذيفة رضي الله عنهما قال : (إن الرجل ليدخل المدخل الذي يجب عليه أن يتكلم فيه لله تعالىٰ فلا يتكلم . . فلا يعود قلبه إلىٰ ما كان عليه أبداً) .

وبكىٰ حذيفة في صلاته ، فلما فرغ . . التفت ، فإذا رجل خلفه ، فقال : لا تُعلمن بهـٰذا أحداً .

وقال في مرض موته : (لولا أني أرىٰ أن هـٰذا اليوم آخر أيامي من الدنيا . . لم أتكلم ، اللهم ؛ إنك تعلم أني كنت أحب الفقر على الغنىٰ ، وأحب الذل على العز ، وأحب الموت على الحياة ، حبيب جاء علىٰ فاقة ، لا أفلح من ندم) ، ثم مات .

وفي رواية : دخلنا عليه جوف الليل ، فقال : أي ساعة هـٰذه ؟ فقلنا : جوف الليل ، فقال : أعوذ بالله من صباح إلى النار ، ثم قال : أجئتم معكم بأكفاني ؟ قلنا : نعم ، قال : فلا تغالوا بأكفاني ؛ فإنه إن يك لصاحبكم عند الله خير . . فإنه يبدل بكسوته خيراً منها ، وإلاَّ . . يُسْلَبُ سلباً .

ومات رضي الله عنه بعد قتل عثمان بأشهر . انتهىٰ [« الصفوة » ١/٢٦٩ـ٢٧١] .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : قال حذيفة رضي الله عنه : (ليأتين على الناس زمان يقال للرجل : ما أظرفه وما أعقله ، وما في قلبه من الإيمان مثقال شعيرة) .

وقال : (لوددت أن لي إنسانا يكون في مالي ، ثم أغلق عليَّ البابَ ، فلم أُدخِل عليَّ أحداً حتىٰ ألقى الله عز وجل) .

وقال : (ليس خيركم الذين يتركون الدنيا للآخرة ، [ولا الذين يتركون الآخرة للدنيا] ، لـٰكن الذين يتناولون من كل) انتهىٰ [« الحلية » ١/ ٢٧١ـ٢٧٨] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو الدحداح ثابت بن الدحداح
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : شهد أحداً وقتل يومئذ .

قال ثابت بن الدحداح رضي الله عنه يوم أحد والمسلمون أوزاع : (يا معشر الأنصار ؛ إلي إلي ، إن كان محمد صلى الله عليه وسلم قتل . . فإن الله عز وجل حي لا يموت ، فقاتلوا عن دينكم) ، فنهض إليه نفر من الأنصار ، فجعل يحمل بمن معه ، وقد وقفت له كتيبة خشناء ، وفيها خالد بن الوليد وعمرو بن العاصي وعكرمة ، فحمل عليه خالد بن الوليد بالرمح ، فأنفذه فوقع ميتاً ، وقتل من كان معه .

ولما نزلت هـٰذه الآية : ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾ . . قال أبو الدحداح الأنصاري : وإن الله ليريد منا القرض ؟ قال [صلى الله عليه وسلم] : « نعم » ، قال : أرِني يدك يا رسول الله ، فناوله رسول الله صلى الله عليه وسلم يده الكريمة ، فقال : إني أقرضت ربي عز وجل حائطي ، وكان فيه ست مئة نخلة ، وأم الدحداح فيه وعيالها ، وجاء أبو الدحداح فنادىٰ : يا أم الدحداح ؛ قالت : لبيك ، قال : اخرجي من الحائط ، فقد أقرضته ربي عز وجل ، فعمدت إلىٰ صبيانها تخرج ما في أفواههم ، وتنفض ما في أكمامهم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « كم من عذق رداح[1] في الجنة لأبي الدحداح »[2] .

وفي رواية : قال : (يا أم الدحداح ؛ اخرجي من الحائط ، فقد بعته بنخلة في الجنة ، فقالت : ربح البيع ، ربح البيع) انتهىٰ [« الصفوة » ١/ ٢٧٢ـ٢٧٣] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) العذق الرداح : الضخم العظيم .

(٢) أخرجه المقدسي (٥/ ٥٩) .

ومنهم الإمام :

خالد بن الوليد
رضي الله عنه

قال الإمام النووي ـ قدس الله روحه ـ : هو أبو سليمان ، وقيل : أبو الوليد ابن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب ، القرشي ، المخزومي ، سيف الله .

أمه : لبابة الصغرىٰ بنت الحارث ، أخت ميمونة أم المؤمنين ، ولبابة الكبرى امرأة العباس رضي الله عنه .

أسلم بعد الحديبية ، في ذي القعدة ، سنة ست من الهجرة ، وشهد غزوة مؤتة ، وسماه النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ : سيف الله ، وشهد خيبر ، وفتح مكة وحنيناً .

روي له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانية عشر حديثاً ، اتفقا علىٰ حديث .

روىٰ عنه : ابن عباس ، وجابر ، والمقدام بن معدي كرب ، وأبو أمامة ابن سهل الصحابيون ، رضي الله عنهم .

وروىٰ عنه من التابعين : قيس ابن أبي حازم ، وأبو وائل ، وغيرهما .

وكان من المشهورين بالشجاعة ، والشرف ، والرئاسة .

وثبت في « البخاري » [٤٠١٧] عنه قال : (لقد اندق في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف ، فما ثبت في يدي إلا صفيحة يمانية) .

قال الزبير بن بكار وغيره : كان خالد رضي الله عنه هو المقدم علىٰ خيول قريش في الجاهلية ، ولم يزل من حين أسلم يولِّيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أعنة الخيل ، فيكون في مقدمتها .

وشهد فتح مكة فأبلىٰ فيها ، وبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العزىٰ فهدمها ،

وكانت بيتاً عظيماً لمضر تبجله ، ولا يصح له مشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل فتح مكة .

وأرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم إلىٰ أُكَيْدِرَ صاحب دومة الجندل ، فأسره وأحضره عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصالحه على الجزية ، ورده إلىٰ بلده .

وأرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة عشر إلىٰ بني الحارث بن كعب بن مذحج ، فقدم معه رجال منهم ، فأسلموا ، ورجعوا إلىٰ قومهم .

وأمَّره أبو بكر الصديق رضي الله عنه علىٰ قتال مسيلمة الكذاب والمرتدين [باليمامة] ، وكان له في قتالهم الأثر العظيم .

وله الآثار العظيمة المشهورة في قتال الروم بالشام ، والفرس بالعراق ، وافتتح دمشق .

وكان له في قلنسوته شعرات من شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم يستنصر به ، وببركته لا يزال منصوراً .

ولما حضرته الوفاة . . قال : (لقد شهدت مئة زحف أو نحوها ، وما في بدني موضع شبر . . إلا وفيه ضربة ، أو طعنة ، أو رمية ، وها أنا أموت علىٰ فراشي ، فلا نامت أعين الجبناء ، وما لي من عمل أرجىٰ من لا إلـه إلا الله ، وأنا متترس بها) .

توفي في خلافة عمر ، سنة إحدىٰ وعشرين في حمص ، وقبره مشهور ، علىٰ نحو ميل من حمص ، وحزن عليه عمر والمسلمون حزناً شديداً .

ولما حضرته الوفاة . . حبس فرسه وسلاحه في سبيل الله .

وفي « الصحيحين » [« البخاري » تعليقاً عند الحديث (١٣٩٩) ، و« مسلم » (٩٨٣)] : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن خالداً احتبس أدراعه وأَعْتُدَهُ في سبيل الله عز وجل » .

وفضائله كثيرة مشهورة ، رضي الله عنه . انتهىٰ [« التهذيب » ١/١٧٣ـ١٧٤] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

سعيد بن عامر بن حذْيَم[1]
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : أسلم قبل خيبر ، وشهدها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما بعدها .

وأرسل عمر بن الخطاب رضي الله عنه إليه ، فقال : إنا مستعملوك علىٰ هـٰؤلاء ، تسير بهم إلىٰ أرض العدو ، فتجاهد بهم ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ؛ لا تفتنِّي ؛ فقال عمر رضي الله عنه : والله لا أدعكم ، جعلتموها في عنقي ، ثم تخليتم عني ، ثم قال له : ألا نفرض لك رزقاً ؟ قال : قد جعل الله عز وجل في عطائي ما يكفيني دونه ، أو فضلاً علىٰ ما أريد .

وكان إذا خرج عطاؤه . . ابتاع لأهله قوتهم ، وتصدق ببقيته ، فتقول له امرأته : أين فضل عطائك ؟ فيقول : لقد أقرضته .

ولما أتىٰ عمر رضي الله عنه الشام . . طاف بِكُورها[2] ، ثم نزل حمص ، فأمر أن يُكْتَبَ له فقراؤهم ، فكُتبوا له ، فلما رفع إليه الكتاب . . إذا فيه سعيد بن عامر أمير حمص رضي الله عنه ، قال : فتعجب ، ثم قال : كيف يكون أميركم فقيراً ؟ أين عطاؤه ؟ قالوا : يا أمير المؤمنين ؛ لا يمسك شيئاً ، فبكىٰ عمر رضي الله عنه ، ثم عمد إلىٰ ألف دينار ، فصرها ، وبعث بها إليه ، وقال : أقرئوه مني السلام ، وقولوا له : بعث بهـٰذه إليك لتستعين بها علىٰ حاجتك ، فلما وصلت إليه . . نظرها ؛ فإذا هي دنانير ، فجعل يسترجع ، فقالت له امرأته : ما شأنك يا فلان ؟ أمات أمير المؤمنين ؟ قال : بل أعظم من ذاك ، قالت : فأمرٌ من أمر الساعة ؟ قال : بل أعظم ، قالت : فما شأنك ؟ قال : الدنيا أتتني ، الفتنة دخلت علي ،

---

(١) في المخطوط : (جذيم) ، وفي « أسد الغابة » (٢/ ٣١١) : (خذيم) ، وفي « الأصابة » (٢/ ٤٧) : (حديم) ، وفي « الاستيعاب » (٢/ ١٢) (جديم) : والمثبت من « الطبقات » (٤/ ٢٦٩) وغيرها .

(٢) **الكُوَرة** : المدينة والصقع ، قال ابن سيده : الكورة من البلاد المخلاف وهي : القرية من قرى اليمن .

قالت : فاصنع بها ما شئت ، قال : أعندك عون ؟ قالت : نعم ، قال : فأخذ دريعة له ، فصر الدنانير فيها صُرَراً ، ثم جعلها في مخلاة ، ثم دفعها إلىٰ جيش من جيوش المسلمين ، فأمضاها كلها ، فقالت له امرأته : رحمك الله ، لو كنت حبست منها شيئاً نستعين به ، قال : فقال لها : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلىٰ أهل الأرض . . لملأت الأرض ريح مسك » ، وإني ـ والله ـ ما كنت لأختارك عليهن ، فسكتت .

وفي رواية : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : يا أهل حمص ؛ كيف وجدتم عاملكم ، فشكوه إليه ، وكان يقال لأهل حمص : الكويفة الصغرىٰ ؛ لشكايتهم العمال ، قالوا : نشكوا منه أربعاً : لا يخرج إلينا حتىٰ يتعالى النهار ، قال : أعظِمْ بها ، ولا يجيب أحداً بليل ، قال : وعظيمة ، وله في الشهر يوم لا يخرج فيه إلينا ، ويصيح الصيحة بين الأنام فتأخذه غيبة .

قال : فجمع عمر رضي الله عنه بينه وبينهم ، ثم ذكر له ما قالوا ، فقال : والله ؛ إني كنت أكره ذكر ذلك ، اللهم ؛ إنه ليس لأهلي خادم ، فأعجن عجيني ، ثم أجلس حتىٰ يختمر ، ثم أخبز خبزي ، ثم أتوضأ ، ثم أخرج إليهم .

وأما عدم الإجابة بالليل . . فإني جعلت النهار لهم والليل لله عز وجل .

وأما اليوم في الشهر . . فإنه ليس لي خادم يغسل ثيابي ، ولا لي ثياب أبدلها ، فأجلس حتىٰ تجف ، ثم أدلكها ، ثم أخرج إليهم .

وأما الصيحة والغشية . . فإني شهدت مصرع خبيب الأنصاري بمكة ، وقد بضعت قريش لحمه ، ثم حملوه علىٰ جذعه ، وقالوا : أتحب أن محمداً مكانك ؟ فقال : والله ما أحب أني في أهلي وولدي وأن محمداً صلى الله عليه وسلم شيك بشوكة ، ثم نادىٰ : يا محمد[1] ، فما ذكرت ذلك اليوم ، وتركي نصرته في تلك الحال ، وأنا مشرك لا أؤمن

---

(١) ومما جاء في خبره : ما حكاه صاحب « الاستيعاب » (١/ ٤٣٠ـ٤٣١) : قال ابن شهاب : فمكث خبيب عندهم أسيراً حتىٰ إذا أجمعوا علىٰ قتله . . استعار موسىٰ من إحدىٰ بنات الحارث ليستحدَّ بها ، فأعارته ، قالت : فغفلت عن صبي لي ، فدرج إليه حتىٰ أتاه ، قالت : فأخذه فوضعه علىٰ فخذه فلما رأيته فزعت فزعاً عرفه فيَّ ، والموسىٰ في يده ، فقال : أتخشين أن أقتله ؟ ما كنت لأفعل إن شاء الله ، قال : فكانت تقول : ما رأيت أسيراً خيراً من خبيب ، لقد رأيته يأكل من قطف عنب وما بمكة يومئذٍ من حديقة وإنه لموثق في الحديد وما كان إلا رزقاً آتاه الله إياه ، قال : ثم خرجوا به من الحرم ؛ ليقتلوه ، فقال : دعوني أصلي =

بالله العظيم . . إلا ظننت أن الله تعالىٰ لا يغفر لي بذلك الذنب أبداً ، فتصيبني تلك الغشية والصيحة ، فقال عمر رضي الله عنه : الحمد لله الذي لم يخيب فراستي ، ثم أرسل إليه بألف دينار ، فأخذها ، وتصدق بها على الأرامل واليتامىٰ والمساكين ، ثم قال لامرأته : دفعناها إلىٰ من يأتينا بها أحوج ما نكون إليها .

قال الواقدي : توفي سنة عشرين ، في خلافة عمر ، رضي الله عنه . انتهىٰ [« الصفوة » ١/ ٢٩٤ـ٢٩٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

= ركعتين ، ثم قال : لولا أن تروا أن ما بي جزع من الموت . . لزدت ، قال : فكان أول من صلىٰ ركعتين عند القتل ، ثم قال : اللهم ؛ أحصهم عدداً ، ثم قال :

ولست أبالي حين أُقتل مسلماً ... علىٰ أي جنب كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإلٰه وإن يشأ ... يبارك علىٰ أوصال شلو ممزع

قال : ثم قام إليه عقبة بن الحارث فقتله . انتهىٰ .

ومنهم الإمام :

عبد الله بن عمرو بن العاصي
رضي الله عنهما

قال الإمام النووي ـ قدس الله روحه ـ : هو أبو محمد ، وقيل : أبو عبد الرحمٰن عبد الله بن عمرو بن العاصي ، والجمهور : علىٰ كتابة العاصي بالياء ، ويقع كثيراً في الكتب بحذفها ، وهو لغة ، وقد قرىء في السبع نحوه ؛ كالكبير المتعال والداع .

وهو الزاهد ، العابد ، الصحابي ، ابن الصحابي رضي الله عنهما .

كان بينه وبين أبيه في السن اثنتا عشرة سنة ، وقيل : إحدىٰ عشرة ، وأسلمت أمه .

قالوا : وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « نِعْمَ أهل البيت : عبد الله وأبو عبد الله وأم عبد الله » .

أسلم عبد الله قبل أبيه .

وكان كثير العلم ، مجتهداً في العبادة ، كثير التلاوة للقرآن ، وكان أكثر الناس أخذاً للحديث والعلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثبت في « الصحيح » : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (ما كان أحد أكثر حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مني إلا عبدُ الله بن عمرو ؛ فإنه كان يكتب ولا أكتب)[1] .

روي له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع مئة حديث ، اتفق البخاري ومسلم علىٰ سبعة عشر ، وانفرد البخاري بثمانية ، ومسلم بعشرين .

وإنما قلَّتِ الرواية عنه مع كثرة ما حمل ؛ لأنه سكن مصر ، والوارد إليها إذ ذاك قليل ، بخلاف أبي هريرة ؛ فإنه استوطن المدينة ، وهي مقصد المسلمين من كل جهة .

روىٰ عنه : سعيد بن المسيب ، وعروة ، وأبو سلمة وحميد ابنا عبدِ الرحمٰن ،

---

(١) أخرجه البخاري (١١٣) .

ومسروق ، وخلائق من كبار التابعين ، ونقلوا عنه أنه قال : (حفظت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ألف مَثَل) انتهىٰ [« التهذيب » ١/ ٢٨١ـ٢٨٢] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : أسلم قبل أبيه ، واستأذن النبي صلى الله عليه وسلم في كتابة ما يسمع منه ، فأذن له وقال : (حفظت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ألف مثل) .

وكان عالماً متعبداً .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : (لأَن أدمع دمعة من خشية الله عز وجل . . أحب إلي من أن أتصدق بألف دينار) .

وعن عبد الله بن بريدة ، أن سليمان بن ربيعة حدثه : أنه حج في عصابة من قراء أهل البصرة ، فقال : والله ؛ لا نرجع حتىٰ نلقىٰ رجلاً من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم مرضياً يحدثنا بحديث ، فلم نزل نسأل حتىٰ حُدِّثنا أن عبد الله بن عمرو بن العاصي نازل في أسفل مكة ، فعمدنا إليه ؛ فإذا نحن بثقل عظيم يرتحلون ثلاث مئة راحلة ، منها مئة راحلة ومئتا زاملة[1] ، فقلنا : لمن هـٰذا الثقل ؟ فقالوا : لعبد الله بن عمرو بن العاصي ؛ فقلنا : أَكُلُّ هـٰذا له ؟! وكنا نُحدَّث أنه من أشد الناس تواضعاً ، فقالوا : أما هـٰذه المئة راحلة . . فلإخوانه يحملهم عليها ، وأما المئتان . . فلمن نزل عليه من أهل الأمصار ، فعجبنا من ذلك ، فقالوا : لا تعجبوا من هـٰذا ؛ فإن عبد الله رجل غني ، وإنه يرىٰ حقاً عليه أن يكثر من الزاد لمن نزل عليه من الناس ، فقلنا : دلونا عليه ، فقالوا : إنه في المسجد الحرام ، قال : فانطلقنا نطلبه حتىٰ وجدناه عند الكعبة جالساً بين بردتين وعمامة ليس عليه قميص ، قد علق نعليه في شماله .

ولما حضرته الوفاة . . قال : (إنه كان قد خطب إليَّ ابنتِي رجل من قريش ، وقد كان مني إليه شبه الوعد ، فوالله ؛ لا ألقى الله تعالىٰ بثلث النفاق ، اشهدوا أني زوجتها إياه) .

توفي سنة خمس وستين ، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة . انتهىٰ [« الصفوة » ١/ ٢٩٢ـ٢٩٤] .

وروى الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : عن محمد بن طحلاء ، عن أبي سلمة قال : قلت لعبد الله بن عمرو بن العاصي رضي الله عنهما : حدثني مدخل رسول الله صلى الله عليه

---

(١) **الراحلة من الإبل** : البعير النجيب القوي على الأسفار والأحمال ، الذكر والأنثىٰ فيه سواء ، وهي التي يختارها الرجل لمركبه ، **والزاملة** : بعير يستظهر به الرجل ، يحمل عليه متاعه وطعامه . .

وسلم عليك وما قال لك ، قال : (دخل علي فقال : « يا عبد الله ؛ ألم أخبر أنك تُكَلَّف قيام الليل وصيام النهار ؟ » قال : قلت : إني أفعل ذلك يا رسول الله ، قال : « إن من حسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام ، فإذاً أنت صمت الدهر » ، فغلَّظتُ فغُلِّظ عليَّ ، فقلت : إني أجدني أقوىٰ من ذلك يا رسول الله ، فقال : « أَعدَلُ الصيام عند الله تعالىٰ صيام داوود عليه الصلاة السلام » ، قال : فأدركني الكبر والضعف حتىٰ وددت أني عدمت مالي وأهلي ، وأني قبلت رخصة رسول الله صلى الله عليه وسلم من كل شهر ثلاثة أيام)[1] .

وفي رواية : « إن لكل عابد شِرَّةً ، ولكل شِرَّة فترة ، فإما إلىٰ سُنَّة ، وإما إلىٰ بدعة ، فمن كانت فترته إلىٰ سُنَّة . . فقد اهتدىٰ ، ومن كانت فترته إلىٰ غير ذلك . . فقد هلك » .

وقال مجاهد : فكان عبد الله بن عمرو حين ضعف وكبر يصوم الأيام كذلك ، يصل بعضها إلىٰ بعض ليتقوىٰ بذلك ، ثم يفطر بعد ذلك الأيام .

قال : وكان يقرأ من أحزابه كذلك ، يزيد أحياناً ، وينقص أحياناً ، غير أنه يوفي به العدة إما في سبع ، وإما في ثلاث ، ثم كان يقول بعد ذلك : (لأَن أكون قبلت رخصة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . أحب إلي مما عَدَل به أو أعدل به ، لـٰكني فارقته علىٰ أمر أكره أن أخالفه إلىٰ غيره) .

ومر علىٰ رجل بعد صلاة الصبح وهو نائم ، فحركه برجله حتى استيقظ ، فقال له : (أما علمت أن الله عز وجل يطلع في هـٰذه الساعة إلىٰ خلقه ، فيدخل ثلة منهم الجنة برحمته ؟!) .

وقال : (من سئل بالله تبارك وتعالىٰ فأعطىٰ . . كُتِب له سبعون أجراً) انتهىٰ [« الحلية » ١/ ٢٨٤ـ٢٩٠] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) أخرجه بنحوه البخاري (١٨٧٤) ، ومسلم (١١٥٩) .

ومنهم الإمام :

عبد الله ذو البجادين
رضي الله عنه

قال الواسطي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : قال ابن هشام : وإنما سمي ذو البجادين ؛ لأنه كان ينازع إلى الإسلام ، فتمنعه قومه من ذلك ويضيقون عليه ، حتىٰ تركوه في بجاد ليس عليه غيره ، و(البجاد) : الكساء الغليظ الجافي ، فهرب منهم إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما كان قريباً منه . . شق بجاده باثنين ، فأتزر بواحد ، واشتمل بالآخر ، ثم أتىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقيل له : (ذو البجادين) لذلك ، والبجاد أيضاً : المسح . انتهىٰ [« السيرة النبوية » ٥/٢٠٩ـ٢١٠] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : كان يتيماً لا مال له ، مات أبوه ولم يورثه شيئاً ، وكفله عمه .

فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة . . جعلت نفسه تتوق إلى الإسلام ، ولا يقدر عليه من عمه ، حتىٰ مضت السنون والمشاهد ، فقال لعمه : يا عم ؛ إني قد انتظرت إسلامك ، فلا أراك تريد محمداً صلى الله عليه وسلم ، فائذن لي في الإسلام ، فقال : والله ؛ لئن اتبعت محمداً . . لا أترك بيدك شيئاً إلا انتزعته منك حتىٰ ثوبيك ، فقال : فأنا والله متبع محمداً ، وتارك عبادة الحجر ، وهـٰذا ما بيدي فخذه ، فأخذ ما أعطاه حتىٰ جرَّده من إزاره ، فأتىٰ أمه ، فقطعت بجاداً لها باثنين ، فأتزر بواحد ، وارتدىٰ بالآخر ، ثم أقبل إلى المدينة ، فاضطجع في المسجد في السحر ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتصفح الناس إذا انصرف من الصبح ، فنظر إليه ، فقال : « من أنت ؟ » فانتسب له ، وكان اسمه عبد العزىٰ ، فقال : « أنت عبد الله ذو البجادين » ، ثم قال : « انزل مني قريباً » ، فكان يكون في أضيافه حتىٰ قرأ قرآناً كثيراً .

فلما خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلىٰ تبوك . . قال : يا رسول الله ؛ ادع لي

بالشهادة ، فربط النبي صلى الله عليه وسلم علىٰ عضده لحىٰ سمرة[1] ، وقال : « اللهم ؛ إني أحرم دمه على الكفار » ، فقال : ليس هـٰذا أردت يا رسول الله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنك إذا أخرجت غازياً فأخذتك الحمىٰ فقتلتك . . فأنت شهيد ، أو وَقَصَتْكَ دابتك . . فأنت شهيد » ، فأقاموا بتبوك أياماً ، فتوفي .

قال بلال بن الحارث : حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع بلال المؤذن شعلة من نار عند القبر واقفاً بها ، وإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في القبر وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما يدليانه إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يقول : « أدنيا إليَّ أخاكما » ، فلما هيأه لشقه في اللحد . . قال : « اللهم ؛ إني قد أمسيت عنه راضياً ، فارض عنه » ، فقال ابن مسعود : (ليتني كنت صاحب هـٰذا اللحد ، ولقد أسلمت قبله بخمس عشرة سنة) انتهىٰ [« الصفوة » ١/ ٣٠٢ـ٣٠٣] .

سبحان من أعطاه وأسعده ووفقه ، سبحانه وتعالىٰ ، هنيئاً له ، رضي الله عنه وأرضاه .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) **اللِّحىٰ** : قشر العود ، وأكثر ما يستعمل ممدوداً ، **السَّمُرَةُ** : نوع من الشجر .

ومنهم الإمام :

أبو هريرة
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : كانت له هرة صغيرة فكني بها .

قدم المدينة سنة سبع ورسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر ، فسار إلىٰ خيبر حتىٰ قدم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة .

وقال أبو هريرة : نشأت يتيماً ، وهاجرت مسكيناً ، وكنت أجيراً لبسرة بنت غزوان بطعام بطني وعقبة رجلي ، فكنت أخدم إذا نزلوا ، وأحدو إذا ركبوا ، فزوجنيها الله .

والحمد لله عز وجل الذي جعل الدين قواماً ، وأبا هريرة إماماً .

وقال : (ما خلق الله مؤمناً يسمع بي ولا يراني . . إلا أحبني ، قيل : وما علمك بذلك يا أبا هريرة ؟ قال : إن أمي كانت مشركة ، وإني كنت أدعوها إلى الإسلام ، وكانت تأبىٰ علي ، فدعوتها يوماً ، فأسمعتني في رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أكره ، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أبكي ، فقلت : يا رسول الله ؛ إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام ، وكانت تأبىٰ علي ، وإني دعوتها اليوم ، فأسمعتني فيك ما أكره ، فادع الله تعالىٰ أن يهدِي أم أبي هريرة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم ؛ اهد أم أبي هريرة » ، فخرجت أعدو لأبشرها بدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما أتيت الباب . . إذا هو مجاف ، وسَمِعتُ خضخضة الماء ، وسَمِعتْ خشخشة رَجُلٍ ، فقالت : يا أبا هريرة ؛ كما أنت ، ثم فتحت الباب ، وقد لبست درعها ، وعجلت عن خمارها ، فقالت : إني أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، فرجعت إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم أبكي من الفرح كما بكيت من الحزن ، فقلت : يا رسول الله ؛ أبشر ، فقد استجاب الله تعالىٰ دعاءك وقد هدىٰ أم أبي هريرة ، وقلت : يا رسول الله ؛ ادع الله تعالىٰ أن يحببني وأمي إلى المؤمنين وتحببهم إلينا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« اللهم ؛ حبب عبيدك هـٰذا وأمه إلىٰ عبادك المؤمنين »[1] ، فما خُلِق من مؤمن يسمع بي ولا يراني أو يرىٰ أمي . . إلا وهو يحبني) .

وقال : إنكم تقولون : ما بال المهاجرين لا يحدثون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بهـٰذه الأحاديث ، وما بال الأنصار لا يحدثون بهـٰذه الأحاديث ، وإن أصحابي من المهاجرين كانت تشغلهم صفقاتهم في الأسواق ، وإن أصحابي من الأنصار كانت تشغلهم أرضوهم والقيام عليها ، وإني كنت امرأً معتكفاً ، وكنت أكثر مجالسة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أحضر إذا غابوا ، وأحفظ إذا نَسُوا ، وإن النبي صلى الله عليه وسلم حدثنا يوماً ، فقال : « من يبسط ثوبه حتىٰ أفرغ من حديثي ثم يقبضه إليه . . فإنه ليس ينسىٰ شيئاً سمعه مني أبداً » فبسطت ثوبي ـ أو قال : نمرتي ـ ثم حدثنا ، فقبضته إلي ، فوالله ؛ ما نسيت شيئاً سمعته منه ، وايم الله ؛ لولا آية في كتاب الله عز وجل . . ما حدثتكم بشيء أبداً أبداً : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ أخرجاه في « الصحيحين »[2] .

وعن مجاهد : أن أبا هريرة رضي الله عنه كان يقول : (والله إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع ، وإن كنت لأَشُدُّ الحَجَر علىٰ بطني من الجوع ، ولقد قعدت يوماً علىٰ طريقهم الذي يخرجون منه ، فمر أبو بكر ، فسألته عن آية من كتاب الله ، ما سألته إلا ليستتبعني[3] ، فلم يفعل ، ثم مر عمر ، فسألته عن آية من كتاب الله ، ما سألته إلا ليستتبعني ، فلم يفعل ، فمر أبو القاسم محمد صلى الله عليه وسلم ، فعرف ما في وجهي وما في نفسي ، فقال : « أبا هريرة » فقلت : لبيك يا رسول الله ، فقال : « اِلحَقْ » ، فتبعته ، فدخل ، واستأذنت ، فأذن لي ، ووجد لبناً في قدح ، فقال : « من أين لكم هـٰذا اللبن ؟ » فقالوا : أهداه لنا فلان ، أو آل فلان ، قال : « أبا هريرة » قلت : لبيك يا رسول الله ، قال : « انطلق إلىٰ أهل الصفة »[4] ـ قال : وأهل الصفة أضياف الإسلام ، لم يأووا إلىٰ أهل ولا مال ، إذا جاءت رسول الله صلى الله عليه وسلم هدية . . أصاب منها

---

(١) أخرجه ابن حبان (١٦/ ١٠٧) .

(٢) « البخاري » (٢٢٢٣) ، و« مسلم » (٢٤٩٢) .

(٣) في « البخاري » : (ليشبعني) .

(٤) **الصُّفَّة** : سدة كانت في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة ، يكون فيها فقراء المهاجرين ومن لا منزل له منهم ، وأهلها منسوبون إليها .

وبعث إليهم منها ، وإذا جاءته الصدقة . . أرسل بها إليهم ، ولم يصب منها ـ قال : فأحزنني ذلك ، وكنت أرجو أن أصيب من اللبن شربة أتقوىٰ بها بقية يومي وليلتي ، فقلت : أنا الرسول ، فإذا جاء القوم . . كنت أنا الذي أعطيهم ، فما يبقىٰ لي من هـٰذا اللبن ؟! ولم يكن من طاعة الله عز وجل وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم بُدٌّ ، فانطلقت ، فدعوتهم فأقبلوا ، فاستأذنوا فأذن لهم ، وأخذوا مجالسهم من البيت ، ثم قال : « يا أبا هر ؛ خذ فأعطهم » ، فأخذت القدح ، فجعلت أعطيهم ، فيأخذ الرجل القدح فيشرب حتىٰ يروىٰ ، ثم يرد القدح ، وأعطيه الآخر فيشرب حتىٰ يروىٰ ، ثم يرد القدح ، حتىٰ أتيت علىٰ آخرهم ، ودفعته إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ القدح ، فوضعه في يده وقد بقي فيه فضلة ، ثم رفع رأسه ، ونظر إلي ، وتبسم ، فقال : « أبا هر » فقلت : لبيك يا رسول الله ، قال : « بقيتُ أنا وأنت » ، فقلت : صدقت يا رسول الله ، قال : « فاقعد واشرب » ، قال : فقعدت وشربت ، فما زال يقول : « اشرب » ، وأشرب . . حتىٰ قلت : والذي بعثك بالحق ما أجد له فيَّ مسلكاً ، قال : « ناولني القدح » ، فرددت القدح إليه ، فشرب من الفضلة) انفرد البخاري بإخراجه [٦٠٨٧] .

وقال أبو هريرة رضي الله عنه : (ما أحد من الناس يهدي إلي هدية . . إلا قبلتها ، فأما أن أسأل . . فلم أكن لأسأل) .

وكان يسبح كل يوم اثنتي عشرة ألف تسبيحة ويقول : (أسبح بقدر ذنبي)[1] .

وقال : (لقد رأيتني أصرع بين منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين حجرة عائشة رضي الله تعالىٰ عنها ، فيقول الناس : إنه لمجنون ، وما بي جنون ، ما بي إلا الجوع) .

وكانت له جارية زنجية ، فرفع عليها السوط يوماً ، ثم قال : (لولا القصاص . . لغشيتك به ، ولكني سأبيعك ممن يوفيني ثمنك ، اذهبي فأنت لله عز وجل) .

وقال أبو عثمان النهدي : تضيفت أبا هريرة رضي الله عنه سبعاً ، وكان هو وامرأته وخادمه يعتقبون الليل ثلاثاً ، يصلي هـٰذا ثم يوقظ هـٰذا ، ويصلي هـٰذا ثم يوقظ هـٰذا .

وقال : (ما وَجَعٌ أحب إلي من الحمىٰ ؛ لأنها تعطي كل مفصل قسطه من الوجع ، وإن الله عز وجل يعطي كل مفصل قسطه من الأجر) .

وقال : (أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بتمرات ، فدعا فيهن بالبركة ، وقال :

---

(١) في نسخة : (أسبح بقدر ديتي) .

« اجعلهن في مزودك ، وإذا أردت أن تأخذ منه شيئاً . . فأدخل يدك فخذه ولا تنثره » ، فجعلته في مزودي ، فوجهت منه رواحل في سبيل الله ، وكنت آكل منه وأطعم ، حتىٰ كان يوم قتل عثمان ، فوقع ، فذهب)[1] .

وكان يحمل حزمة حطب ـ وهو يومئذ خليفة لمروان ـ فيقول : (أوسعوا الطريق للأمير) والحزمة عليه .

ولما احتضر . . جعل يبكي ، فقال : (ما أبكي علىٰ دنياكم هـٰذه ، ولـٰكني أبكي علىٰ بعد سفري ، وقلة زادي ، وإني أصبحت في مهبط علىٰ جنة ونار ، ولا أدري علىٰ أيهما يؤخذ بي) .

توفي بالمدينة ، ويقال : بالعقيق سنة سبع أو ثمان وخمسين ، في آخر خلافة معاوية ، وله ثمان وسبعون سنة . انتهىٰ [« الصفوة » ١/٣٠٦ـ٣١١] .

وقال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لأبي هريرة : « يا أبا هريرة ؛ ألا أخبرك بأمرٍ ، من تكلم به في أول مضجعه من مرضه . . نجاه الله من النار ؟ » قلت : بلىٰ يا رسول الله ، قال : « لا إلـٰه إلا الله يحيي ويميت وهو حي لا يموت ، سبحان الله رب العباد والبلاد ، والحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه علىٰ كل حال ، الله أكبر كبيراً ، اللهم ؛ إن أنت أمرضتني لتقبض روحي في مرضي هـٰذا . . فاجعل روحي في أرواح من سبقت لهم منك الحسنىٰ ، وباعدني من النار كما باعدت أولـٰئك الذين سبقت لهم منك الحسنىٰ » انتهىٰ [« الإحياء » ٢/٢١٠] .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : اسم أبي هريرة رضي الله عنه : عبد الرحمـٰن بن صخر ، وهو أشهر من سكن الصفة ، واستوطنها طول عمر النبي صلى الله عليه وسلم .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يجمع طعاماً لأهل الصفة . . تقدم إلىٰ أبي هريرة رضي الله عنه ليدعوهم ويجمعهم ؛ لمعرفته بهم وبمنازلهم . انتهىٰ [« الحلية » ١/٣٧٦ـ٣٨٣] .

ولا بأس بذكر شيء من أحوال أهل الصفة :

فقد روى الحافظ بسنده إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن رسول الله صلى الله عليه

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٨٣٩) .

وسلم كان إذا أمسىٰ . . قسم ناساً من أهل الصفة بين ناس من أصحابه ، فكان الرجل يذهب بالرجل ، والرجل يذهب بالرجلين ، والرجل يذهب بالثلاثة ، حتىٰ ذكر عشرة ، وكان سعد بن عبادة يرجع كل ليلة إلىٰ أهله بثمانين منهم يعشيهم[1] .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : أتىٰ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن أناس من ضعفاء المسلمين ، ورجل يقرأ علينا القرآن ، وإن بعضهم ليتوارىٰ من بعضهم من العري ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ، فأدارها شبه الحلقة ، فاستدارت له الحلقة ، فقال : « بم كنتم تراجعون ؟ » قالوا : هـٰذا رجل يقرأ علينا القرآن ويدعو لنا ، قال : « فعودوا لما كنتم فيه » ، ثم قال : « الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرت أن أصبر نفسي معهم » ، ثم قال : « ليبشر فقراء المسلمين المؤمنين بالفوز يوم القيامة قبل الأغنياء بمقدار خمس مئة عام ، هـٰؤلاء في الجنة يتنعمون ، وهـٰؤلاء يحاسبون »[2] .

وعن سلمان الفارسي قال : جاءت المؤلفة قلوبهم إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، وذووهم ، فقالوا : يا رسول الله ؛ لو أنك جلست في صدر المسجد ، ونحيت عنا هـٰؤلاء وأرواح جبابهم ـ يعنون أبا ذر وسلمان وفقراء المسلمين ، وكان عليهم جباب الصوف لم يكن عليهم غيرها ـ جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ حتىٰ بلغ : ﴿ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ ، يتهددهم بالنار ، فقام النبي صلى الله عليه وسلم يلتمسهم حتىٰ أصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله عز وجل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله الذي لم يمتني حتىٰ أمرني أن أصبر نفسي مع قوم من أمتي ، معكم المحيا ومعكم الممات »[3] .

وعن خباب بن الأرت ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ قال : جاء الأقرع بن حابس التميمي ، وعيينة بن حصن الفزاري ، فوجدوا النبي صلى الله عليه وسلم قاعداً مع بلال وعمار وصهيب وخباب في أناس من الضعفاء من المؤمنين ، فلما رأوهم . . حقروهم ، فخلوا به صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : إنا نحب أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٦٦٢٢) .

(٢) أخرجه بنحوه الطبراني في « الأوسط » (٨/ ٣٥٧) .

(٣) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٧/ ٣٣٧) .

لنا به العرب فضلنا ، فإن وفود العرب تأتيك ، فنستحي أن ترانا العرب قعوداً مع هـٰذه الأعبد ، فإذا نحن جئناك . . فأقمهم عنا ، فإذا نحن فرغنا . . فأقعدهم إن شئت ، قال : « نعم » ، قالوا : فاكتب لنا كتاباً ، فدعا بالصحيفة ليكتب لهم ، ودعا علياً عليه السلام ليكتب ، فلما أراد ذلك ونحن قعود في ناحية ؛ إذ نزل جبريل عليه السلام ، فقال : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ ، ثم ذكر الأقرع وصاحبه فقال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾ ليقولوا : تدني هـٰؤلاء دوننا ؟!

وكان أبو هريرة رضي الله عنه إذا مر بجنازة . . قال : (روحي فإنا غادون ، أو اغدي فإنا رائحون ، موعظة بليغة ، وغفلة سريعة ، يذهب الأول ، ويبقى الآخر لا عقل له) انتهىٰ [« الحلية » ١/ ٣٤١ـ٣٤٥] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

زيد بن ثابت
رضي الله عنه

قال النووي ـ قدس الله روحه ونور ضريحه ـ : هو الأنصاري ، النجاري ، المدني ، الفرضي ، الكاتب ، كاتب الوحي والمصحف .

وكان عمره حين قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة إحدىٰ عشرة سنة ، وكان قد حفظ من القرآن قبل مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ست عشرة سورة .

وقتل أبوه وعمره ست سنين .

واستصغره النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر فرده ، وشهد أحداً ، وقيل : لم يشهدها ، وشهد الخندق وما بعدها من المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأعطاه النبي صلى الله عليه وسلم يوم تبوك راية بني النجار .

وكان يكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويكتب له أيضاً المراسلات إلى الناس .

وكان يكتب لأبي بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما في خلافتهما .

وكان أحد الثلاثة الذين جمعوا المصحف ، أمره بذلك أبو بكر وعمر رضي الله عنهما .

وكان عمر رضي الله عنه يستخلفه إذا حج ، وكان معه حين قدم الشام ، وهو الذي تولىٰ قسم غنائم اليرموك ، وكان عثمان يستخلفه أيضاً إذا حج .

ورُميَ يوم اليمامة بسهم ، فلم يضره .

وقال ابن أبي داوود وآخرون : كان زيد أعلم الصحابة بالفرائض ؛ للحديث : « أفرضكم زيد »[1] ، قالوا : وكان من الراسخين في العلم .

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٩١) ، وأحمد (٣/ ١٨٤) بلفظ : « أعلم أمتي بالفرائض . . زيد بن ثابت » .

وكان علىٰ بيت المال لعثمان ، ومناقبه كثيرة مشهورة .

روي له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنان وتسعون حديثاً ، اتفقا منها علىٰ خمسة ، وانفرد البخاري بأربعة ، ومسلم بحديث .

وروىٰ عنه جماعات من الصحابة ، وروىٰ عنه خلائق من كبار التابعين .

ومن الغرائب المنقولة عن زيد بن ثابت : ما حكيته عنه في أنه كان يقول بصحة الدور في المسألة السريجية[1] ، وأنه لا يقع الطلاق ، والله أعلم . انتهىٰ [« التهذيب » ١/ ٢٠٠ـ٢٠٢] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : كنية زيد : أبو سعيد .

وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وهو ابن إحدىٰ عشرة سنة ، وأجيز في الخندق .

وكان يكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمره أبو بكر رضي الله عنه أن يجمع القرآن ، وأمره عثمان فكتب المصحف وأبي بن كعب يملي عليه .

وقال زيد بن ثابت الأنصاري : (أرسل إلي أبو بكر [بعد] مقتل أهل اليمامة ، وعنده عمر ، فقال أبو بكر : إن عمر أتاني ، فقال : إن القتل قد استَحَرَّ يوم اليمامة بالناس ، وإني أخشىٰ أن يستحر القتل بالقرَّاء في المواطن ، فيذهب كثير من القرآن ، وإني أرىٰ أن تجمع القرآن ، قال أبو بكر : قلت لعمر : كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟! فقال عمر : هو والله خير ، فلم يزل عمر يراجعني فيه حتىٰ شرح الله لذلك صدري ، ورأيت الذي رأىٰ عمر ، قال أبو بكر : وإنك رجل شاب عاقل لا نتهمك ، كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فَتَتَبَّعِ القرآن واجمعه ، فوالله ؛ لو كلفني نقل جبل من الجبال . . ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن .

قال : قلت : كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال أبو بكر : هو والله خير ، فلم أزل أراجعه حتىٰ شرح الله صدري للذي شرح له صدر

---

(١) **المسألة السريجية** : نسبة إلى ابن سريج الشافعي ، وصورتها : أن يقول الزوج لزوجته : إن طلقتك غداً طلقة . . فأنت طالق اليوم ثلاثاً ، ثم طلق من الغد واحدة ، طلقت واحدة ولم تقع الثلاث ؛ لأنا لو أوقعنا الثلاث . . بطلت الواحدة ، وإذا بطلت الواحدة . . بطلت الثلاث ، ففي إثبات الثلاث إبطالها ، ووافق علىٰ ذلك ابن سريج ، وقال غيره : تقع الواحدة وثنتان من الثلاث كقوله : إن طلقت واحدة فأنت طالق عشراً . . وقعت واحدة وثنتان من العشرة . انظر « الدر المنثور » للزركشي (٢/ ١٥٧) . .

أبي بكر ، فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب[1] وصدور الرجال ، حتىٰ وجدت من « سورة التوبة » آيتين مع خزيمة بن ثابت[2] لم أجدهما مع أحد غيره : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ إلىٰ آخرها ، وكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتىٰ توفاه الله ، ثم عند عمر حتىٰ توفاه الله ، ثم عند حفصة بنت عمر) انفرد بإخراجه البخاري[3] .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أرحم أمتي أبو بكر ، وأشدها في دين الله عمر ، وأصدقها حياء عثمان ، وأعلمها بالفرائض زيد بن ثابت »[4] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : أنه أخذ لزيد بن ثابت بالركاب ، فقال : تنح يابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : هـٰكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا وكبرائنا .

وكان الرجل يأتي زيد بن ثابت يسأله عن الشيء ، فيقول له : آلله نزَّل هـٰذا ؟! فإن حلف له أنه نزل . . أفتاه ، وإن لم يحلف . . تركه .

وخرج زيد بن ثابت يريد الجمعة ، فاستقبله الناس راجعين ، فدخل داراً ، فقيل له ، فقال : (إنه من لا يستحيي من الناس . . لا يستحيي من الله) .

وكان من أفكَهِ الناس في بيته ، وأَزَمِّهِ[5] إذا خرج إلى الرجال .

وفي رواية : ما رأيت أحداً أفكه في بيته ولا أحلم في مجلسه إذا جلس مع القوم . . من زيد بن ثابت .

---

(١) **الكَتِف** : عظم عريض يكون في أصل كتف الحيوان من الناس والدواب ، كانوا يكتبون فيه لقلة القراطيس عندهم ، **العُسُب** : جرائد النخل . .

(٢) في « البخاري » : (مع أبي خزيمة الأنصاري) . وقال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » (٩/ ١٥) : وقع في رواية عبد الرحمـٰن بن مهدي عن إبراهيم بن سعد : (مع خزيمة بن ثابت) أخرجه أحمد والترمذي ، ووقع في رواية شعيب عن الزهري كما تقدم في (سورة التوبة) : (مع خزيمة الأنصاري) .
وقد أخرجه الطبراني في « مسند الشاميين » من طريق أبي اليمان عن شعيب فقال فيه : (خزيمة بن ثابت الأنصاري) .
وقول من قال : عن إبراهيم بن سعد مع أبي خزيمة . . أصح ، والله أعلم .

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٠١) .

(٤) أخرجه بنحوه الترمذي (٣٧٩٠) ، والبيهقي في « الكبرىٰ » (٦/ ٢١٠) .

(٥) **الأَزَمُّ** : الصمت .

قال الواقدي : مات زيد بن ثابت سنة خمس وأربعين ، وهو ابن ست وخمسين سنة .

وقال عمار بن أبي عمار : لما مات زيد بن ثابت رضي الله عنه . . جلسنا إلى ابن عباس رضي الله عنهما في ظل قصر ، فقال : (هٰكذا ذهاب العلم ، لقد مات اليوم علم كثير) .

وقال أبو هريرة رضي الله عنه عند موت زيد بن ثابت : (لقد مات حبر هٰذه الأمة ، ولعل الله تبارك وتعالىٰ أن يجعل في ابن عباس منه خلفاً) رضي الله عنهم أجمعين . انتهىٰ [« الصفوة » ١/ ٣١٥ـ٣١٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

عبد الله بن عباس
رضي الله عنهما

قال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : ولد في الشعب وبنو هاشم محصورون قبل خروجهم منه ، وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين .

وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثلاث عشرة سنة .

وكان حبر الأمة ، ويسمىٰ : البحر ؛ لغزارة علمه .

وكان عمر وعثمان يدعوانه رضي الله عنهم فيشير عليهما مع أهل بدر ، وكان يفتي في عهدهما إلىٰ أن مات .

وكان له من الولد : العباس ، وعلي السَّجَّاد ، والفضل ، ومحمد ، وعبيد الله ، ولبابة ، وأسماء .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في بيت ميمونة ، فوضعت له وَضوءاً من الليل ، فقالت ميمونة : يا رسول الله ؛ وضع لك هـٰذا عبد الله بن عباس ، فقال صلى الله عليه وسلم : « اللهم ؛ فقهه في الدين ، وعلمه التأويل »[1] .

وعنه قال : ضمني النبي صلى الله عليه وسلم وقال : « اللهم ؛ علمه الحكمة »[2] .

وعنه رضي الله عنه قال : (رأيت جبريل عليه السلام مرتين ، ودعا لي رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحكمة مرتين) .

وكان عمر رضي الله عنه يأذن لأهل بدر ويأذن لي معهم ، فقال بعضهم : أتأذن لهـٰذا الفتىٰ ومن أبنائنا من هو مثله ؟! قال : فإنه ممن علمتم ، فأذن لهم يوماً وأذن لي معهم ،

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٦١٥) .

(٢) أخرجه الترمذي (٣٨٢٤) .

فسألهم عن هـٰذه السورة : ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ ، فقالوا : أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم إذا فتح الله عليه . . أن يستغفر ويتوب إليه ، فقال لي : ما تقول يابن عباس ؟ فقلت : ليس كذلك ، ولـٰكنه تبارك وتعالىٰ أخبر نبيه صلى الله عليه وسلم بحضور أجلِه ، فقال تعالىٰ : ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ فتح مكة ، ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ ؛ أي : فعند ذلك علامة موتك ، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾ ، فقال لهم : كيف تلوموني علىٰ هـٰذا بعد ما ترونه ؟!

وقال له عمر رضي الله عنه : (والله ؛ إنك لأَصْبَحُ فتياننا وجهاً ، وأحسنهم عقلاً ، وأفقههم في كتاب الله) .

وكان يسأله مع أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ويقول له : لا تتكلم حتىٰ يتكلموا ، فإذا تكلم ابن عباس . . يقول عمر رضي الله عنه : (غلبتموني إن تأتوا بمثل ما جاء به هـٰذا الغلام الذي لم تجتمع شؤون رأسه)[1] .

وعن الحسن رحمه الله قال : كان ابن عباس رضي الله عنهما يقوم علىٰ منبرنا هـٰذا فيقرأ (البقرة) و(آل عمران) فيفسرهما آية آية .

وكان عمر إذا ذكره . . قال : (ذاك فتى الكهول ، له لسان سؤول ، وقلب عقول) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم . . قلت لرجل من الأنصار : هلم فلنسأل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنهم اليوم كثير ، فقال : وا عجباً لك يابن عباس! أترى الناس يفتقرون إليك وفي الناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من فيهم ؟! قال : فتركت ذاك وأقبلت أسأل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحديث ، قال : كان يبلغني الحديث عن الرجل فآتي بابه وهو قائل[2] ، فأتوسد التراب ، فيخرج ، فيراني ، فيقول : يابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ما جاء بك ؟ ألا أرسلت إلي فآتيك ؟ فأقول : لا ، أنت أحق أن آتيك ، فأسأله عن الحديث ، فعاش ذلك الأنصاري حتىٰ رآني قد اجتمع الناس حولي يسألوني ، فيقول : هـٰذا الفتىٰ كان أعقلَ مني) .

وعن أبي صالح قال : لقد رأيت من ابن عباس رضي الله عنهما مجلساً ، لو أن جميع

---

(١) **شؤون الرأس** : هي عظامة وطرائقه ومَواصِل قبائله ، وهي أربعة بعضها فوق بعض .

(٢) من القيلولة .

قريش فخرت به . . لكان لها فخراً ، رأيت الناس اجتمعوا علىٰ بابه حتىٰ ضاق بهم الطريق ، فما كان أحد يقدر علىٰ أن يجيء ، ولا أن يذهب ، قال : فدخلت عليه ، فأخبرته بمكانهم علىٰ بابه ، فقال : ضع لي وَضوءاً ، قال : فتوضأ وجلس ، وقال : اخرج إليهم ، وقل لهم : من كان يريد أن يسأل عن القرآن وحروفه وما أراد منه . . فليدخل ، قال : فخرجتُ فآذنتهم ، فدخلوا حتىٰ ملؤوا البيت والحجرة ، فما سألوا عن شيء . . إلا أخبرهم به وزادهم مثل ما سألوا عنه أو أكثر ، ثم قال : إخوانكم ، قال : فخرجوا .

[ثم قال : اخرج فقل : من أراد أن يسأل عن تفسير القرآن وتأويله . . فليدخل ، قال : فخرجت فآذنتهم ، فدخلوا حتىٰ ملؤوا البيت والحجرة ، فما سألوا عن شيء . . إلا أخبرهم به ، وزادهم مثل ما سألوا عنه أو أكثر ، ثم قال : إخوانكم ، قال : فخرجوا] .

ثم قال : اخرج فقل : من أراد أن يسأل عن الحلال والحرام والفقه . . فليدخل ، فخرجتُ فآذنتهم ، قال : فدخلوا حتىٰ ملؤوا البيت والحجرة ، فما سألوا عن شيء . . إلا أخبرهم به وزادهم مثله ، ثم قال : إخوانكم ، قال : فخرجوا .

ثم قال : اخرج فقل : من أراد أن يسأل عن الفرائض وما أشبهها . . فليدخل ، قال : فخرجت فآذنتهم ، فدخلوا حتىٰ ملؤوا البيت والحجرة ، فما سألوا عن شيء . . إلا أخبرهم به وزادهم مثله ، ثم قال : إخوانكم ، قال : فخرجوا .

ثم قال : اخرج فقل : من أراد أن يسأل عن العربية والشعر والغريب من الكلام . . فليدخل ، فآذنتهم فدخلوا حتىٰ ملؤوا البيت والحجرة ، فما سألوا عن شيء . . إلا أخبرهم به وزادهم مثله .

قال أبو صالح : فلو أن بطون قريش كلها فخرت به . . لكان لها فخراً ، فما رأيت مثل هـٰذا لأحد من الناس .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما : أن رجلاً أتىٰ يسأله عن : ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ ، قال : اذهب إلىٰ ذاك الشيخ فاسأله ، ثم تعال فأخبرني ما قال ، فذهب إلى ابن عباس رضي الله عنهما ، فسأله ، فقال : كانت السماوات رتقاً لا تمطر ، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت ، ففتق هـٰذه بالمطر ، وفتق هـٰذه بالنبات ، فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره ، فقال : إن ابن عباس قد أوتي علماً ، صدق هـٰكذا كانت .

ثم قال ابن عمر : قد كنت أقول ما تعجبني جرأة ابن عباس علىٰ تفسير القرآن ، فالآن

قد علمت أنه قد أوتي [علماً] . انتهىٰ [« الصفوة » ١/٣٣٦ـ٣٣٩] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : أقام ابن عباس رضي الله عنهما حولاً يريد أن يسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن المرأتين اللتين ظاهرتا علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهيبته تمنعه عن ذلك ، إلىٰ أن وجد يوماً منه انبساطاً ، وكان قد أمره عمر رضي الله عنه أن يسكب عليه في الوضوء ، فسأله إذ ذاك ، وقال : يا أمير المؤمنين ؛ مَن المرأتان اللتان ظاهرتا علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فكرهه وقال : عجباً لك يابن عباس! هما حفصة وعائشة ، وما منعته الكراهة للسؤال عن كتمان العلم رضي الله عنه . انتهىٰ .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : وعن شقيق قال : خطب ابن عباس رضي الله عنهما وهو على الموسم ، فافتتح (سورة البقرة) ، فجعل يقرأ ويفسر ، فجعلت أقول : ما رأيت ولا سمعت كلام رجل مثله ، لو سمعته فارس والروم . . لأسلمت .

وعن أبي بردة قال : شتم رجل ابن عباس رضي الله عنهما ، فقال : (إنك تشتمني وفيَّ ثلاث خصال ؟ إني لآتي على الآية من كتاب الله تعالىٰ ، فلوددت أن جميع الناس يعلمون منها ما أعلم ، وإني لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين يعدل في حكمه ، فأفرح به ، ولعلي لا أقاضي إليه أبداً ، وإني لأسمع بالغيث قد أصاب البلد من بلاد المسلمين ، فأفرح به ، ومالي من سائمة) .

وقال : (لأن أقرأ « البقرة » في ليلة وأتفكر فيها أحب إلي من أن أقرأ القرآن كله هذذاً[1] .

وقال : (يا صاحب الذنب ؛ لا تأمن شر عاقبته ، وَلَما تُتبِع الذنب أعظم من الذنب الذي عملته ، وضَحِكُك وأنت لا تدري ما الله صانع بك أعظم من الذنب ، وفرحك بالذنب إذا ظفرت به أعظم من الذنب ، وحزنك على الذنب إذا فاتك أعظم من الذنب إذا عملته ، وخوفك من الريح إذا حركت ستر بابك وأنت على الذنب ، ولا يضطرب فؤادك من نظر الله عز وجل إليك أعظم من الذنب إذا عملته) .

وقال ابن أبي مليكة : صحبت ابن عباس من مكة إلى المدينة ، فكان إذا نزل . . قام شطر الليل ؛ يقرأ ويكثر من التسبيح .

---

(١) **الهذَذُ** : السرعة في القراءة .

وقال ابن أبي رجاء : كان هـٰذا الموضع من ابن عباس رضي الله عنهما ـ يعني : مجرى الدمع ـ كأنه الشراك البالي .

وقال طاووس : ما رأيت أحداً كان أشد تعظيماً لحرمات الله عز وجل من ابن عباس رضي الله عنهما .

وعن ابن سماك : أن ابن عباس سقط في عينيه الماء ، فذهب بصره ، فأتاه المعالجون ، فقالوا : خَلِّ بيننا وبين عينيك ؛ فإنها تبرأ إن شاء الله تعالىٰ ، ولـٰكنك تمسك خمسة أيام لا تصلي ، قال : لا والله ؛ ولا ركعة واحدة ، وإني حدثت : أنه من ترك صلاة عمداً . . لقي الله عز وجل وهو عليه غضبان .

وقال : آخر شدة يلقاها المؤمن الموت .

توفي بالطائف سنة ثمان وستين ، وهو ابن إحدىٰ وسبعين سنة .

وعن ميمون بن مهران قال : شهدت جنازة ابن عباس رضي الله عنهما ، فلما وضع ليصلىٰ عليه . . جاء طير أبيض حتىٰ دخل في أكفانه ، فالتُمِسَ فلم يوجد ، فسمعنا صوته ولا نرىٰ شخصه : ﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۞ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ۞ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ .

ولما بلغ جابراً رضي الله عنه وفاة ابن عباس رضي الله عنهما . . ضرب بإحدىٰ يديه على الأخرىٰ ، وقال : (مات أعلم الناس وأحلم الناس ، ولقد أصيبت به هـٰذه الأمة مصيبة لا تُرْتَق) .

وقال ابن الحنفية يوم موته : اليوم مات رباني هـٰذه الأمة . انتهىٰ [« الصفوة » ١/ ٣٣٩ـ٣٤٢] .

وقال الإمام النووي ـ قدس الله روحه ـ : كني بابنه العباس ، وهو أكبر أولاده .

وقال ابن مسعود : نعم ترجمان القرآن ابن عباس .

وعاش ابن عباس رضي الله عنهما بعد ابن مسعود نحو خمس وثلاثين سنة ، فشدت إليه الرحال ، وقُصد من جميع الأقطار ، وهو أكثر الصحابة فتوىٰ ، كذا قال أحمد ابن حنبل ، وغيره .

وقال علي بن المديني : لم يكن من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أحد له أصحاب يقولون بقوله في الفقه إلا ثلاثة : ابن مسعود ، وزيد بن ثابت ، وابن عباس ، رضي الله عنهم .

وذكر الأزرقي في « كتاب مكة » بإسناده الصحيح : عن ابن جريج قال : كنا مع عطاء في المسجد الحرام ، فتذاكرنا ابن عباس وفضله ، وكان ابن عبد الله بن عباس وابنه محمد في الطواف ، فعجبنا من تمام قامتهما وحسن وجوههما ، فقال عطاء : وأين حسنهما من حسن أبيهما ابن عباس! ما رأيت القمر ليلة أربع عشرة . . إلا ذكرت وجه ابن عباس .

وفي رواية : كان علي بن عبد الله بن العباس رضي الله عنهم إذا طاف . . كأنما الناس حوله مشاة وهو راكب من طوله مفرِطاً في الطول ، وكان مع هـٰذا الطول يكون إلىٰ منكب أبيه عبد الله ، وكان عبد الله إلىٰ منكب أبيه العباس ، وكان العباس إلىٰ منكب أبيه عبد المطلب ـ

وروي لابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ألف حديث وست مئة حديث وستون حديثاً ، اتفق البخاري ومسلم منها علىٰ خمسة وتسعين ، وانفرد البخاري بمئة وعشرين ، ومسلم بتسعة وأربعين .

وروى البيهقي بإسناده في « مناقب الإمام الشافعي » في (باب : ما يستدل به علىٰ معرفته لصحة الحديث) :

عن الشافعي رحمه الله قال : لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلا نحو مئة حديث .

وروىٰ عنه : ابن عمر ، وأنس ، وأبو الطفيل ، وأبو أمامة ابن سهل . ومن التابعين خلائق لا يحصون .

وكان قد كُفَّ بصره في آخر عمره ، وكذلك العباس وجدُّه عبد المطلب .

وكان يخضب لحيته بالصفرة ، وقيل : بالحناء .

وحج بالناس حين حصر عثمان ، واستعمله علي على البصرة ، ثم فارقها قبل قتل علي ، وعاد إلى الحجاز . انتهىٰ [« التهذيب » ١/ ٢٧٤ـ٢٧٦] .

وفي رواية الحافظ ابن عساكر : عن ابن عمر رضي الله عنهما : أن أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنه غزا أرض الروم ، فمر علىٰ معاوية رضي الله عنه ، فجاءه فلم يلتفت إليه ، فانطلق ، ثم رجع من غزوته ، فمر عليه وشكا إليه دَيناً عليه ، فجفاه ، ولم يرفع به رأساً ، فقال أبو أيوب : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنكم ستلقون بعدي أثرة »[1] ، فقال معاوية : وأي شيء قال لكم ؟ قال : قال : « اصبروا » ، قال : فاصبر ، فقال : نعم ، والله ؛ لأصبرن ، والله ؛ لا أسألك شيئاً أبداً .

---

(١) الحديث رواه البخاري (٣٥٨١) ، ومسلم (١٠٦١) .

وقدم البصرة ، فنزل علىٰ عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، وكان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه قد أَمَّره عليها ، فقال : يا أبا أيوب ؛ إني أريد أن أخرج لك عن مسكني كما خرجت لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن مسكنك ، ثم قال : كم عليك من الدين ؟ قال : عشرون ألفاً ، فأعطاه أربعين ألفاً وأربعين مملوكاً ، وقال له : لك كل شيء أغلق عليه باب داري . انتهىٰ [« تاريخ ابن عساكر » ١٦/ ٥٥] .

وروى الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم من آخر الليل ، فجعلني حذاءه ، فأبيت ، فلما قضىٰ صلاته . . قال : « ما منعك ألاَّ تكون بإزائي » ، قلت : يا رسول الله ؛ لا ينبغي لأحد أن يصلي حذاءك ، وأنت رسول الله الذي أعطاك الله ما أعطاك ، قال : فدعا الله أن يزيدني فهماً وعلماً) .

وعنه قال : (انتهيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وعنده جبريل عليه السلام ، فقال له جبريل عليه السلام : إنه كائن حبر هـٰذه الأمة ، فاستوص به خيراً) .

وعنه : (أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه جلس في رهط من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من المهاجرين ، فذكروا ليلة القدر ، فتكلم منهم كل من سمع فيها بما سمع ، فتراجع القوم فيها الكلام ، قال عمر : ما لك يابن عباس صامت لا تتكلم ؟ تكلم ولا تمنعك الحداثة ، قال ابن عباس : فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ الله عز وجل وتر يحب الوتر ، فجعل أيام الدنيا تدور علىٰ سبع ، وخلق الإنسان من سبع ، وخلق أرزاقنا من سبع ، وخلق فوقنا سبع سماوات ، وخلق تحتنا أرضين سبعاً ، وأعطىٰ من المثاني سبعاً ، ونهىٰ في كتابه عن نكاح الأقربين عن سبع ، وقسم الميراث في كتابه علىٰ سبع ، ويقع السجود من أجسادنا علىٰ سبع ، وطاف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكعبة سبعاً ، وبين الصفا والمروة سبعاً ، ورمى الجمار بسبع ؛ لإقامة ذكر الله تعالىٰ مما ذكر الله في كتابه ، فأراها في السبع الأواخر من رمضان ، والله أعلم) .

قال : فتعجب عمر رضي الله عنه وقال : ما وافقني فيها أحد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا هـٰذا الغلام الذي لم تستو شؤون رأسه ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « التمسوها في العشر الأواخر »[1] ، ثم قال : يا هـٰؤلاء ؛ من يؤديني في هـٰذا كأداء ابن عباس ؟

---

(١) أخرجه البخاري (١٩١٧) .

واشترى ابن عباس رضي الله عنهما ثوباً بألف درهم ، فلبسه وقال : (ما ظهر البغي في قوم . . إلا ظهر فيهم المُوتان)[1] .

وقال : (لو بغىٰ جبل علىٰ جبل . . لدُكَّ الباغي) .

وقال : (**إذا أتيت سلطاناً مهيباً تخاف أن يسطو عليك . . فقل : الله أكبر ، الله أكبر ، الله أعز من خلقه جميعاً ، الله أعز مما أخاف وأحذر ، أعوذ بالله الذي لا إلـٰه إلا هو ، الممسك السماوات السبع أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، من شر عبده فلان ، وجنده ، وأتباعه ، وأشياعه من الجن والإنس ، اللهم ؛ كن لي جاراً من شرهم ، جل ثناؤك ، وعز جارك ، وتبارك اسمك ، ولا إلـٰه غيرك . ثلاث مرات**) .

وروي : أنه ٱلتقىٰ عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاصي فقال له ابن عباس : أي آية في كتاب الله أرجىٰ عندك ؟ فقال : ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ، فقال ابن عباس : لـٰكن قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام : ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾[2] .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : قال الأئمة : أشار بهـٰذا إلىٰ أن المتبحر في هـٰذه العلوم يبتلىٰ بوساوس الشيطان ، فربما يخاف علىٰ دينه وإخلاصه ، فآمنه الله من ذلك بقصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام . انتهىٰ .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالىٰ : ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ ، قال : (شهادة أن لا إلـٰه إلا الله) .

وقال : (لوددت أن عندي رجلاً من أهل القَدَر فوجأت رأسه ، قالوا : لم ذاك ؟ قال : لأن الله تعالىٰ خلق لوحاً محفوظاً من درة بيضاء ، دفتاه ياقوتة حمراء ، قلمه نور ، وكتابه نور ، وعرضه ما بين السماء والأرض ، ينظر فيه كل يوم ستين وثلاث مئة نظرة ، يخلق بكل نظرة ، ويحيي ويميت ، ويعز ويذل ، ويفعل ما يشاء) .

---

(١) **المُوتَان** : بوزن البطلان : الموت الكثير الوقوع .

(٢) وجد في هامش نسخة : (**قلت** : في هـٰذه المباسطة بمثل هـٰذا السؤال ، وحلم ربه عنه ، وعدم روعه إياه وزجره . . رجاء عظيم ، في أن الله تعالىٰ يغفر زلات العباد ، ويرفق بهم ، ويعفو عن كثير) .
والحديث أخرجه الحاكم (١/ ١٢٨) .

وقال : (عليك بالفرائض ، وما وظف الله عليك من حقه فأَدِّه ، واستعن الله تعالىٰ علىٰ ذلك ؛ فإنه لا يعلم من عبده صدق نية وحرصاً فيما عنده من حسن ثوابه . . إلا أخره الله تعالىٰ عما يكره ، وهو المالك يصنع ما يشاء سبحانه وتعالىٰ) .

وقال : (ما من مؤمن ولا فاجر . . إلا وقد كتب الله له رزقه من الحلال ، فإن صبر حتىٰ يأتيه . . آتاه الله ، وإن جزع فتناول شيئاً من الحرام . . نقصه الله من رزقه من الحلال) .

وقال : (يأتي على الناس زمان يُعرَج فيه بعقول الناس ، حتىٰ لا تجد فيه أحداً ذا عقل) انتهىٰ [« الحلية » ١/ ٣٢٣ـ ٣٢٨] .

ثم قال الإمام النووي ـ قدس الله روحه ـ : قال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة : ما رأيت أحداً أعلم من ابن عباس رضي الله عنهما بما سمعه من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبقضاء أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم أجمعين ، ولا أفقه منه ، ولا أعلم بتفسير القرآن وبالعربية والشعر والحساب والفرائض .

وكان يجلس يوماً للتأويل ، ويوماً للفقه ، ويوماً للمغازي ، ويوماً للشعر ، ويوماً لأيام العرب ، ولا رأيت عالماً قط جلس إليه . . إلا خضع له ، ولا سائلاً سأله . . إلا وجد عنده علماً . انتهىٰ [« التهذيب » ١/ ٢٧٦] .

وقال الإمام أبو حامد الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن الخائفين فقال : (قلوبهم بالخوف قرحة ، وأعينهم باكية من الخوف ، يقولون : كيف نفرح والموت وراءنا ، والقبر أمامنا ، والقيامة موعدنا ، وعلىٰ جهنم طريقنا ، وبين يدي الله عز وجل موقفنا)[1] .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : (لا يقبل الله صلاة امرىء في جوفه حرام)[2] .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : (عيادة المريض مرة سُنَّة ، فما ازددت . . فنافلة)[3] .

روى الحافظ ابن عساكر رضي الله عنه بسنده : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (يلتقي الخضر وإلياس عليهما السلام كل عام في الموسم ، فيحلق كل منهما رأس صاحبه ،

---

(١) الإحياء (٤/ ١٨٤) .
(٢) الإحياء (٢/ ٩١) .
(٣) الإحياء (٢/ ٢١٠) .

ويتفرقان عن هـٰؤلاء الكلمات : « **باسم الله ما شاء الله ، لا يسوق الخير إلا الله ، باسم الله ما شاء الله ، لا يصرف السوء إلا الله ، باسم الله ما شاء الله ، وما بكم من نعمة فمن الله ، باسم الله ما شاء الله ، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم** »من قالها . . حُفظ من كل آفة ، وعاهة ، وعدو ، وظالم ، وحاسد ، وشيطان ، وسلطان ، وحية ، وعقرب ، وما من أحد يقولها في يوم عرفة مئة مرة قبل غروب الشمس . . إلا ناداه الله تعالىٰ : أي عبدي ؛ قد أرضيتني ، ورضيت عنك ، فسلني ما شئت ، فوعزتي وجلالي ؛ لأعطينك ما سألت) انتهىٰ [« تاريخ دمشق » ٩/ ٢٠١] .

وقال في « الاكتفاء » : قال الزبير بن بكار : كان العباس ثوباً لعاري بني هاشم ، وجفنة لجائعهم .

وكان يمتع الجار ، ويبذل المال ، ويعطي في النوائب .

قال سعيد بن المسيب : كانت جفنته تدور علىٰ فقراء بني هاشم ، وكان يطعم الجائع ، ويؤدب السفيه .

قال الزهري : هـٰذا والله هو السؤدد .

ولما رجع النبي صلى الله عليه وسلم من بدرٍ . . استأذنه العباس رضي الله عنه أن يرجع إلىٰ مكة حتىٰ يهاجر منها ، فقال له : « اطمئن يا عم ، فإنك خاتم المهاجرين كما أنا خاتم النبيين » رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » [٥/ ٥٥] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يُجلُّ أحداً ما كان يُجلُّ العباس ، أو يكرم العباس .

وروي : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى العباس . . أوسع له ، وقال : « هـٰذا بقية آبائي »[1] .

وكان يُجلُّه إجلال الوالد ويقول : « لا ينبغي لنبي أن يُجلَّ إلا أباً أو عماً » .

ويقال : إن العباس رضي الله عنه لم يمر قط بعمر وعثمان رضي الله عنهما وهما راكبان . . إلا ترجَّلا حتىٰ يجوزهما إذا كان ماشياً ، ويمشيان معه إلىٰ منزله .

وقد قال الفضل بن عباس بن عقبة ابن أبي لهب في الاستسقاء شعراً :

---

(١) أخرجه بنحوه الطبراني في « الكبير » (١١/ ٨٠) .

بعمـي سقـى الله الحجـاز وأهلـه عشيـةَ يستسقـي بشيبتـه عُمَـرْ
تَوَجَّهَ بالعباس في الجدب راغباً إليـه فمـا أن رام حتىٰ أتى المطـرْ
ومنـا رسـول الله فينـا تـراثـه فهـل فـوق هـٰذا للمفـاخـر مُفْتَخَـرْ

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من لم يحبَّ عمي هـٰذا ـ و أخذ بيد العباس يرفعها ـ لله عز وجل ولقرابته مني . . فليس بمؤمن »[1] انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٣/٢١٨) .

ومنهم الإمام :

عبد الله بن الزبير
رضي الله عنهما

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : يكنىٰ : أبا بكر ، وسماه النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله ، وكناه : أبا بكر .

أمه : أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

وهو أول مولود ولد للمهاجرين بالمدينة بعد الهجرة ، وأذَّن أبو بكر رضي الله عنه في أذنه ، وحنكه رسول الله صلى الله عليه وسلم بتمرة ، وعن أسماء : أنها حملت بعبد الله بن الزبير بمكة ، قالت : فخرجت ، فأتيت المدينة ، فنزلتها بقباء ، ثم ولدته بقباء ، ثم أتيت به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوضعه في حجره ، ودعا بتمرة فمضغها ، ثم تفل في فيه ، فكان أول ما دخل في جوفه ريق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : ثم حنكه بتمرة ، ثم دعا له ، وبرَّك عليه ، وكان أول مولود ولد في الإسلام[1] .

وعن مجاهد قال : ما كان باب من العبادة يعجز عنه الناس . . إلا تكلفه عبد الله بن الزبير .

ولقد جاء سيل طبق البيت ، فجعل عبد الله بن الزبير يطوف سباحة .

وكان إذا قام في الصلاة . . كأنه عود من الخشوع .

وكان يسجد حتىٰ تنزل العصافير علىٰ ظهره ، لا تحسبه إلا جذم حائط[2] .

وقال عمرو بن دينار : ما رأيت صلاة قط أحسن من صلاة ابن الزبير رضي الله عنه .

وكان يحيي الدهر أجمع ، ليلة قائماً حتىٰ يصبح ، وليلة يحييها راكعاً حتىٰ يصبح ، وليلة يحييها ساجداً حتىٰ يصبح .

---

(١) بالمدينة .

(٢) جذم الحائط : بقيته .

وكان يواصل الصيام سبعاً ، يصوم يوم الجمعة ولا يفطر إلا ليلة الجمعة الأخرىٰ ، ويصوم بالمدينة ولا يفطر إلا بمكة ، ويصوم بمكة ولا يفطر إلا بالمدينة ، وكان أول ما يفطر عليه لبن لقحة[1] وسمن بقر .

وكان يسمىٰ : حمامة المسجد .

وخطب بالموسم قبل يوم التروية فقال ـ بعد حمد الله والثناء عليه والصلاة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ :

أما بعد : فإنكم جئتم من آفاق شتىٰ وفوداً إلى الله عز وجل ، فحق على الله أن يكرم وفده ، فمن جاء يطلب ما عند الله . . فإن طالب الله لا يخيب ، فصدقوا قولكم بفعل ؛ فإن ملاك القول بالفعل ، والنية النية ، القلوب القلوب ، الله الله في أيامكم هـٰذه ؛ فإنها أيام تغفر فيها الذنوب .

وكتب إلىٰ وهب بن كيسان موعظة :

أما بعد : فإن لأهل التقوىٰ علامات يعرفون بها ، ويعرفونها من أنفسهم : مِنْ صبرٍ على البلاء ، ورضىً بالقضاء ، وشكرٍ للنعماء ، وذلٍّ لحكم القرآن ، **وإنما الإمام كالسوق ، ما نفق فيها حمل إليها** ، إن نفق الحق عنده . . حمل إليه وجاءه أهل الحق ، وإن نفق الباطل عنده . . حمل إليه وجاءه أهل الباطل .

ولما كانت الغداة التي قتل فيها ابن الزبير رضي الله عنه . . دخل علىٰ أمه ، وهي يومئذ ابنة مئة سنة لم يسقط لها سن ، فقالت : يا عبد الله ؛ ما فعلتَ في حربك ؟ قال : بلغوا مكان كذا وكذا ، وضحك ، وقال : إن في الموت لراحة ، فقالت أسماء : يا بني ؛ لعلك تتمناه لي ؟ ما أحب أن أموت حتىٰ آتي علىٰ أحد طرفيك ، إما أن تملك . . فتقر بذلك عيني ، وإما أن تقتل . . فأحتسبك ، ثم ودعها ، فقالت له : يا بني ؛ إياك أن تعطي خصلة من دينك مخافة القتل ، فخرج عنها ، وأنشأ يقول :

ولســـت بمبتـــاع الحيـــاة بسبـــة ولا مرتق من خشية الموت سلما

قال : والله ؛ ما لقيت زحفاً قط . . إلا كنت في الرعيل الأول ، ثم حمل عليهم ، فأصابته آجرة في مفرقه ، فلقت رأسه فوقف قائماً ، وهو يقول :

---

(١) **اللَّقِحة** : الناقة القريبة العهد بالتناج .

ولسنا على الأعقاب تَدمىٰ كُلومنا ولٰكن علىٰ أقدامنا تقطر الدما

وعن عروة قال : قلت لعبد الله بن الزبير : والله ؛ إن أخذوك . . قطعوك إرباً إرباً ، فقال :

ولست أبالي حين أقتل مسلماً علىٰ أي جنب كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإلٰه وإن يشأ يبارك علىٰ أوصال شلو ممزع

قال : فعلمت أنه لا يمكِّن من نفسه .

وعن مجاهد قال : كنت مع ابن عمر رضي الله عنهما ، فمر على ابن الزبير رضي الله عنه ، فوقف عليه ، فقال : (رحمك الله ؛ فإنك كنت ـ ما علمتُ ـ صواماً ، قواماً ، وصولاً للرحم ، وإني لأرجو ألاَّ يعذبك الله عز وجل) .

قال الواقدي : أُحصِر ابن الزبير ليلة إهلال ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين ستة أشهر وسبع عشرة ليلة ، ونصب الحجاج المنجنيق يرمي به أحث الرمي ، وألح عليهم بالقتال من كل وجه ، وحبس عنهم الميرة[1] ، وحصرهم أشد الحصار ، فقامت أسماء رضي الله عنها يوماً ، فصلَّت ودَعت ، فقالت : ([اللهم ؛ لا تخيب عبد الله بن الزبير] ، اللهم ؛ ارحم ذلك السجود والنحيب والظمأ في تلك الهواجر) .

وقتل يوم الثلاثاء لسبع عشرة خلت من جمادى الأولىٰ ، سنة ثلاث وسبعين ، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الصفوة » ١/ ٣٤٤ـ٣٤٨] .

وروى الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : عن عبد الله بن الزبير : أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يحتجم ، فلما فرغ . . قال : « يا عبد الله ؛ اذهب بهٰذا الدم ، فأهرقه حيث لا يراك أحد » ، فلما برزت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . . عمدت إلى الدم فحسوته ، فلما رجعت إلى النبي صلى الله عليه وسلم . . قال : « ما صنعت يا عبد الله ؟ » قلت : جعلته في مكان ظننت أنه خافٍ على الناس ، قال : « فلعلك شربته ؟ » قلت : نعم ، قال : « لِمَ ؟ » قلت : أحببت أن يكون دم رسول الله صلى الله عليه وسلم في جوفي ، فقال صلى الله عليه وسلم : « لا تمسّك النار إلا قَسَمُ اليمين »[2] .

---

(١) **الميرة** : الطعام .

(٢) أخرجه بنحوه الحاكم (٣/ ٦٣٨) ، **قَسَمُ اليمين** : قسمُ الله تعالىٰ في قوله : ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ .

وعن القاسم بن محمد بن أبي بكر : أن معاوية أخبر : أن عبد الله بن عمر ، وعبد الرحمٰن بن أبي بكر ، وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهم ، خرجوا من المدينة عائذين بالكعبة من بيعة يزيد بن معاوية ، فلما قدم معاوية مكة . . تلقاه عبد الله بن الزبير بالتنعيم ، فضاحكه معاوية ، وسأله عن الأموال ، ولم يعرِّض بشيء من الأمر الذي بلغه ، ثم لقي عبد الله بن عمر وعبد الرحمٰن بن أبي بكر ، فتفاوضا معه في أمر يزيد ، ثم دعا معاويةُ ابنَ الزبير ، فقال له : هٰذا صنيعك ، أنت استزللت هٰذين الرجلين ، وسننت هٰذا الأمر ، وإنما أنت ثعلب رواغ لا تخرج من جُحْر . . إلا دخلت في آخر ، فقال ابن الزبير : ليس بي شقاق ، ولٰكن أكره أن أبايع رجلين ، أيكما أطيع بعد أن أعطيتكما العهود والمواثيق ؟ فإن كنت مللت الإمارة . . فبايع ليزيد ، فنحن نبايعه معك ، فقام معاوية حين أبوا عليه ، فقال : ألا إن أحاديث الناس ذات غور ، وقد كان بلغني عن هٰؤلاء الرهط أحاديث وجدتها كذباً ، وقد سمعوا وأطاعوا ودخلوا في صالح ما دخلت فيه الأمة .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : (كان ابن الزبير عفيفاً في الإسلام ، قارئا للقرآن ، أبوه الزبير ، وأمه أسماء ، وجدُّه أبو بكر ، وعمته خديجة ، وجدَّته صفية ، وخالته عائشة ، والله ؛ لأحاسبن له نفسي محاسبة كثيرة) انتهىٰ [« الحلية » ١/ ٣٣٠ـ٣٣٥] .

وقال النووي ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ : قسم ابن الزبير رضي الله عنهما الدهر ثلاث ليالٍ : ليلة يصلي قائماً حتى الصباح ، وليلة راكعاً [حتى الصباح] ، وليلة ساجداً حتى الصباح .

وغزا عبد الله بن الزبير إفريقية مع عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، فأتاهم ملك إفريقية في مئة ألف وعشرين ألفاً ، وكان المسلمون عشرين ألفاً ، فسقط في أيديهم ، فنظر ابن الزبير ملكهم قد خرج من عسكره ، فأخذ ابن الزبير جماعة ، فقصده وقتله ، وكان الفتح علىٰ يديه .

ولما مات يزيد بن معاوية في منتصف شهر ربيع الأول سنة أربع وستين . . بويع لعبد الله بن الزبير بالخلافة ، وأطاعه أهل الحجاز واليمن والعراق وخراسان ، وجدد عمارة الكعبة ، وبقي في الخلافة إلىٰ أن حصره الحجاج بمكة في أول ليلة من ذي الحجة سنة ثنتين وسبعين ، وحج الحجاج بالناس ، ولم يزل يحاصره إلىٰ أن قتله يوم الثلاثاء سابع عشر جمادى الأولىٰ سنة ثلاث وسبعين .

وكان أطلس لا لحية له .

روي له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة وثلاثون حديثاً ، اتفقا علىٰ ستة ، وانفرد مسلم بحديثين .

روىٰ عنه : أخوه عروة ، وابن أبي مليكة ، وعباس بن سهل ، وثابت البناني ، وعطاء ، وخلائق .

وهو أحد العبادلة ، وهم : عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمرو بن العاصي ، هـٰكذا سماهم أحمد ابن حنبل وسائر المحدثين وغيرهم ، فقيل لأحمد : فأين ابن مسعود ؟ قال : ليس هو منهم .

قال البيهقي : لأنه تقدمت وفاته ، وهـٰؤلاء عاشوا زمناً طويلاً حتى احتيج إلىٰ علمهم ، فإذا اتفقوا علىٰ شيء . . قيل هـٰذا قول العبادلة أو فعلهم ، ويلتحق بابن مسعود في هـٰذا سائر المُسَمَّيْن بعبد الله ، وهم نحو مئتين وعشرين .

وأما قول الجوهري في « صحاحه » : أن ابن مسعود أحد العبادلة الأربعة ، وأخرج ابنَ عمرو بن العاصي . . فغلط ظاهر ، نبهت عليه ؛ لئلا يُغْتَرَّ به . انتهىٰ [« التهذيب » ١/٢٦٦ـ٢٦٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

سالم مولىٰ أبي حذيفة
رضي الله عنه

قال الإمام النووي ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ : وهو من فضلاء الصحابة والمهاجرين .

أعتقته مولاته امرأة أبي حذيفة الأنصارية ، فتولاه أبو حذيفة ، وتبناه ، فيقال له : قرشي ، وأنصاري ، وفارسي .

وفي « الصحيح » : أنه هاجر من مكة إلى المدينة قبل قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يؤم المهاجرين بالمدينة ؛ لأنه كان أكثرهم قرآناً[1] .

والأحاديث الصحيحة في فضله كثيرة .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يثني عليه ثناء كثيراً ، حتىٰ قال حين أوصىٰ قبل وفاته : (لو كان سالم حياً . . ما جعلته شورىٰ) .

قال أبو عمر ابن عبد البر : معناه : أنه كان يصدر عن رأيه فيمن ينجز له تولية الخلافة .

وآخىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين معاذ بن ماعض .

وكان أبو حذيفة قد زوجه بنت أخيه فاطمة بنت الوليد بن عتبة ، وهي من المهاجرات ، وكانت من أفضل الأيامىٰ .

وثبت في « الصحيح » : أن سهلة بنت سهيل بن عمرو امرأة أبي حذيفة جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يا رسول الله ؛ إن سالماً بلغ مبلغ الرجال ، وعقل ما يعقلون ، وإنه يدخل علينا ، وإني أظن في نفس أبي حذيفة من ذلك شيئاً ، فقال : « أرضعيه . . تحرمي عليه ، ويذهب ما في نفس أبي حذيفة » ، فرجعت إليه ، فقالت : إني

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٠) .

أرضعته ، فذهب الذي في نفس أبي حذيفة[1] .

وشهد سالم المشاهد كلها ، وقتل يوم اليمامة شهيداً ، وكان لواء المسلمين معه يومئذ ، فقيل له : لو أعطيته غيرك ، نخشىٰ عليه معك ، فقال : بئس حامل القرآن أنا إذاً ، فقاتل ، فقطعت يمينه ، فأخذ اللواء بيساره ، فقطعت يساره ، فاعتنق اللواء ، وهو يقول : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ ، فلما صرع . . قال لأصحابه : ما فعل أبو حذيفة ؟ قالوا : قتل ، قال : فما فعل فلان ؟ قالوا : قتل ، قال : فأضجعوني بينهما ، فلما قتل . . أرسلوا ميراثه إلىٰ معتقته ثبيتة[2] ، فلم تقبله ، وقالت : إنما أعتقته سائبة ، فجعلوا ميراثه في بيت المال .

روىٰ عنه : عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عمرو بن العاصي ، وغيرهما ، رضي الله عنهم .

رُوِّينا في صحيحي « البخاري » [٣٥٩٧] و« مسلم » [٢٤٦٤] عن مسروق قال : ذُكر [عند] عبد الله بن عمرو عبدُ الله بن مسعود فقال : لا أزال أحبه ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « خذوا القرآن من عبد الله ، وسالم مولىٰ أبي حذيفة ، ومعاذ ، وأُبي بن كعب » وفي رواية : تقديم أُبي علىٰ معاذ رضي الله عنهم . انتهىٰ [« التهذيب » ١/٢٠٦ـ٢٠٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٥٣) .
قال النووي في « شرح صحيح مسلم » (١٠/ ٣٠ـ٣١) : اختلف العلماء في هٰذه المسألة ، فقالت عائشة وداوود : تثبت حرمة الرضاع برضاع البالغ ، كما تثبت برضاع الطفل ؛ لهٰذا الحديث .
وقال سائر العلماء من الصحابة والتابعين وعلماء الأمصار إلى الآن : لا يثبت إلا بإرضاع من له دون سنتين إلا أبا حنيفة ، فقال : سنتين ونصف ، وقال زفر : ثلاث سنين ، وعن مالك رواية سنتين وأيام .
واحتج الجمهور بقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ وبالحديث الذي ذكره مسلم بعد هٰذا [١٤٥٥] : « إنما الرضاعة من المجاعة » ، وبأحاديث مشهورة ، وحملوا حديث سهلة علىٰ أنه مختص بها وسالم ، وقد روىٰ مسلم عن أم سلمة وسائر أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهن خالفن عائشة في هٰذا ، والله أعلم . .

(٢) في ثُبيتة بنت يَعار الأنصارية ، زوجة أبي حذيفة بن عتبة .

ومنهم الإمام أمير المؤمنين :

الحسن بن علي
رضي الله عنهما

قال أبو الفرج ـ رحمه الله : يكنىٰ : أبا محمد ، ولد في النصف من رمضان ، سنة ثلاث من الهجرة ، وأذَّن رسول الله صلى الله عليه وسلم في أُذنه .

وكان له من الولد خمسةَ عشر ذكراً ، وثماني بنات . انتهىٰ [« الصفوة » ١/ ٣٤٢] .

وقال النووي ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ : روى الحسن بن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وروت عنه عائشة ، وروىٰ عنه جماعات من التابعين ، منهم : ابنه الحسن بن الحسن ، وغيره في آخرين ، وسماه النبي صلى الله عليه وسلم الحسن ، وعق عنه يوم سابعه ، وحلق شعره ، وأمر أن يُتَصَدق بزنة شعره فضة ، وهو خامس أهل الكساء[1] .

قال أبو أحمد العسكري : كناه النبي صلى الله عليه وسلم أبا محمد ، ولم يكن هـٰذا الاسم يعرف في الجاهلية .

ثم روىٰ عن ابن الأعرابي ، عن المفضل قال : إن الله تعالىٰ حجب اسم الحسن والحسين حتىٰ سمىٰ بهما النبي صلى الله عليه وسلم ابنيه الحسن والحسين .

وأرضعته أم الفضل امرأة العباس مع ابنها قثم بن العباس .

وكان حليماً كريماً ورعاً ، دعاه ورعه وحلمه إلىٰ أن ترك الدنيا والخلافة لله عز وجل .

وكان من المبادرين إلىٰ نصرة عثمان رضي الله عنه .

وولي الخلافة بعد قتل أبيه ، لثلاث عشرة بقيت من رمضان ، وبايعه أكثر من أربعين ألفاً كانوا بايعوا أباه ، وبقي نحو سبعة أشهر خليفة بالحجاز ، واليمن ، والعراق ، وخراسان ، وغير ذلك ، ثم سار إليه معاوية من الشام ، وسار هو إلىٰ معاوية ، فلما تقاربا . . علم أنه لن

---

(١) **أهل الكساء** : هم الذين أدخلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت كساءٍ له خيبري ، ودعا الله عز وجل لهم وقال : « اللهم ؛ أهل بيتي أذهب الرجس عنهم ، وطهرهم تطهيراً » .

تغلب إحدى الطائفتين حتىٰ يُقتل أكثر الأخرىٰ ، فأرسل إلىٰ معاوية يبذل له تسليم الأمر ، علىٰ أن تكون الخلافة له بعده ، وعلىٰ ألاَّ يطلب أحداً من أهل المدينة والحجاز والعراق بشيء مما كان أيام أبيه ، وغير ذلك من القواعد ، فأجابه معاوية إلىٰ ما طلب ، فاصطلحا علىٰ ذلك ، وظهرت المعجزة النبوية في قوله صلى الله عليه وسلم للحسن : « إن ابني هـٰذا سيد ، يصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين »[1] .

قيل : كان صلحهما لخمس بقين من ربيع الأول سنة إحدىٰ وأربعين .

رُوِّينا في « صحيح مسلم » [٢٤٢١] : عن البراء قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم والحسن علىٰ عاتقه ، وهو يقول : « اللهم ؛ إني أُحِبُّه فأَحِبَّه » .

وفي « البخاري » [٥٦٥٧] : عن أسامة قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يأخذني فيقعدني علىٰ فخذه ، ويقعد الحسن علىٰ فخذه الأخرىٰ ، ثم يضمهما ، ثم يقول : « اللهم ؛ إني أرحمهما فارحمهما » .

وفي « البخاري » [٢٥٥٧] : عن أبي بكرة قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر ، والحسن إلىٰ جنبه ، وهو ينظر إلى الناس مرة ، وإليه مرة ، ويقول : « إن ابني هـٰذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين » .

وفيه [٣٥٤٢] : أيضاً عن أنس قال : لم يكن أحد أشبه بالنبي صلى الله عليه وسلم من الحسن بن علي .

وفيه [٣٥٤٣] : عن ابن عمر قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « هما ريحانتاي من الدنيا » يعني : الحسن والحسين .

وفيه [٣٥٠٩] : عن ابن عمر قال : قال أبو بكر : (ارقبوا محمداً صلى الله عليه وسلم في أهل بيته) .

وفي « مسلم » [٢٤٠٨] : عن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وأنا تارك فيكم ثقلين : أولهما كتاب الله ، فيه الهدىٰ والنور ، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به » فحث علىٰ كتاب الله ورغب ، ثم قال : « وأهل بيتي ، أذكركم الله تعالىٰ في أهل بيتي » .

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ١٩٢) .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة » رواه الترمذي [٣٧٦٨] وقال : حديث حسن صحيح .

وعن أسامة بن زيد قال : جئت إلى النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ، فخرج وهو مشتمل علىٰ شيء ، قلت : ما هـٰذا ؟ فكشفه ، فإذا حسن وحسين علىٰ وركيه ، فقال : « هـٰذان ابناي وابنا ابنتي ، اللهم ؛ إني أحبُّهما فأحبَّهما ، وأَحِبَّ من يحبهما » رواه الترمذي [٣٧٦٩] ، وقال : حديث حسن [انتهىٰ « التهذيب » ١/١٥٨-١٦٠] .

ومناقبه كثيرة مشهورة رضي الله عنه .

وقال أبو الفرج : عن البراء قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم واضعاً الحسن بن علي علىٰ عاتقه ، وهو يقول : « اللهم ؛ إني أحبه فأحبه » .

وعن عقبة بن الحارث قال : خرجت مع أبي بكر من صلاة العصر بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بليال ، وعلي يمشي إلىٰ جنبه ، فمر بحسن بن علي يلعب مع غلمان ، فاحتمله أبو بكر علىٰ رقبته ، وقال : بأبي شبهاً بالنبي لا شبهاً بعلي ، وعلي يضحك .

وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر ، والحسن بن علي إلىٰ جنبه ، وهو يقبِل على الناس مرة ، وعليه أخرىٰ ، ويقول : « إن ابني هـٰذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » .

وعن أنس قال : (كان الحسن بن علي رضي الله عنهما أشبههم وجهاً برسول الله صلى الله عليه وسلم) .

وسمع الحسن رجلاً يسأل الله عز وجل أن يرزقه عشرة آلاف ، فانصرف الحسن وأرسل بها إليه .

قال الحسن : (إني لأستحيي من ربي عز وجل أن ألقاه ولم أمش إلىٰ بيته) ، فمشىٰ عشرين مرة من المدينة علىٰ رجليه ، وفي رواية : خمسة عشر حجة ماشياً ، وإن الجنائب[1] لتقاد معه .

وخرج من ماله لله تعالىٰ مرتين ، وقاسم الله تعالىٰ ثلاث مرات ، حتىٰ إن كان ليعطي نعلاً ويمسك نعلاً .

---

(١) **الجنائب** : جمع جنيبة ، وهي : الدابة المقودة إلى الجنب من الخيل وغيرها .

ودخل عليه رجل يعوده ، فقال له : سلني ، قال : لا ، والله ؛ لا نسألك حتىٰ يعافيك الله تعالىٰ ، فقال له : سلني قبل ألاَّ تسألني ، قد ألقيت طائفة من كبدي ، وإني قد سُقيتُ السم مراراً ، فلم أُسقَ مثل هـٰذه المرة ، ثم دخل عليه في الغد ، فوجده يجود بنفسه والحسين عند رأسه ، فقال : يا أخي ؛ من تتهم ؟ قال : لِمَ ؟ قال : لنقتله ، قال : إن يكن الذي أظن . . فالله أشد بأساً وأشد تنكيلاً ، وإن لا يكون . . فما أحب أن يقتل بي بريء ، ثم قبض ، رحمه الله تعالىٰ .

ولما نزل به الموت . . قال : أخرجوا فراشي إلىٰ صحن الدار ، فأخرج ، فقال : (اللهم ؛ إني احتسبت نفسي عندك ؛ فإني لم أصب بمثلها) .

توفي لخمس ليال بقين من ربيع الأول سنة خمسين ، ودفن بالبقيع ، رضوان الله تعالىٰ عليه . انتهىٰ [« الصفوة » ١/ ٣٤٢ـ٣٤٣] .

وروى الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : قال أبو هريرة رضي الله عنه : ما رأيت الحسن قط . . إلا فاضت عيناي دموعاً ، وذلك أنه أتىٰ يوماً يشتد حتىٰ قعد في حِجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعل يقول بيديه هـٰكذا في لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يفتح فمه ، ثم يدخل فمه في فمه ، ويقول : « اللهم ؛ إني أحبه فأحبه ، وأَحِبَّ من يحبه » . ثلاث مرات .

وعن مجالد ، عن الشعبي قال : شهدت الحسن بن علي حين صالحه معاوية ، فقال له معاوية : قم فأخبر الناس أنك تركت لي هـٰذا الأمر وسلمته ، فقام الحسن ، فحمد الله تعالىٰ وأثنىٰ عليه ، ثم قال :

أما بعد : فإن أكيس الكيسِ التقىٰ ، وأحمق الحمق الفجور ، وإن الله هداكم بأولنا ، وحقن دماءكم بآخرنا ، وإن هـٰذا الأمر الذي اختلفت فيه أنا ومعاوية ، إما أن يكون حق امرىء . . فهو أحق به مني ، وإما أن يكون حقاً هو لي . . فقد تركته إرادة إصلاح الأمة وحقن دمائها ، ﴿ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ ، ثم نزل .

ومن كلام الحسن : (كن في الدنيا ببدنك ، وفي الآخرة بقلبك) انتهىٰ [« الحلية » ٢/ ٣٥ـ٣٧] .

وعن علي بن جعفر بن محمد قال : حدثني أخي موسىٰ ، يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه أخذ الحسن والحسين فقال : « من أحبني ، وأحب هـٰذين ، وأحب أباهما ،

وأمهما . . كان معي في درجتي يوم القيامة » رواه الترمذي [٣٧٣٣] .

واشترى الحسن رضي الله عنه حائطاً من قوم من الأنصار بأربع مئة ألف درهم ، ثم إنه بلغه أنه محتاج إلىٰ ما في أيدي الناس ، فرد الحائط إليهم ، وقال : أنتم أحق به منا ، ولم يأخذ له ثمناً .

ومن جوده : أنه لم يقل لسائل قط : لا ، ولم يعط عطية . . إلا شفع له بمثلها ، ولم يأنس به أحد قط فأحوجه إلىٰ غيره ، وكان يقول لبنيه وبني أخيه : (يا بني وبني أخي ؛ تعلموا العلم ، فمن لم يستطع منكم أن يحفظه ـ أو قال : يرويه ـ فليكتبه ، وليضعه في بيته) والله أعلم .

وقال أرباب السير : لما تزوج علي رضي الله عنه بالبصرة . . جلس علىٰ سريره ، وأقعد الحسن عن يمينه ، والحسين عن يساره ، وجلس محمد بن الحنفية دون السرير ، فخاف أن يجد من ذلك ، فقال له : (يا بني ؛ أنت ابني ، وهـٰذان ابنا رسول الله صلى الله عليه وسلم) انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

الحسين بن علي
رضي الله عنهما

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : ولد الحسين رضي الله عنه في شعبان سنة أربع من الهجرة .

وكان له من الولد : علي الأكبر ، وعلي الأصغر وله العقب ، وجعفر ، وفاطمة ، وسكينة .

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هما ريحانتاي من الدنيا » يعني : الحسن والحسين .

وعن علي رضي الله عنه قال : (كان الحسن أشبه الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم ما بين الصدر إلى الرأس ، والحسين أشبه بالنبي صلى الله عليه وسلم ما كان أسفل من ذلك) .

وعن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة »[1] .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال : حج الحسين بن علي رضي الله عنهما ـ ونجائبه تقاد معه ـ خمساً وعشرين حجة ماشياً .

وقتل شهيداً رضي الله عنه يوم الجمعة يوم عاشوراء في المحرم ، سنة إحدىٰ وستين ، وهو ابن ست وخمسين سنة وخمسة أشهر ، وقيل : ابن ثمان وخمسين ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الصفوة » ١/٣٤٣ـ٣٤٤] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : قالوا : إن عمرو بن العاصي كان يوماً عند معاوية وثَم جماعة من الأشراف ، فقال معاوية : مَنْ أكرم الناس أباً وأماً ، وجداً وجدة ، وعماً وعمة ، وخالاً وخالة ؟ فقال النعمان بن عجلان : الحسن والحسين ،

---

(١) تقدمت هـٰذه الأحاديث في الترجمة السابقة .

أبوهما : علي بن أبي طالب ، وأمهما : فاطمة ، وجدهما : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجدتهما : خديجة ، وعمهما : جعفر ، وعمتهما : أم هانىء ابنة أبي طالب ، وخالهما : القاسم ، وخالتهما : زينب ، رضي الله عنهم أجميعن .

وقال أهل السير : إن الله عز وجل قتل بسبب يحيى بن زكريا خمسة وسبعين ألفاً ، قال بعض العلماء : إن ذلك دية كل نبي ، ويقال : إن الله تعالىٰ أوحىٰ إلى النبي صلى الله عليه وسلم أني قتلت بيحيى بن زكريا سبعين ألفاً ، ولأقتلن بالحسين ابن بنتك سبعين ألفاً وسبعين ألفاً[1] .

وروى الحافظ البيهقي رضي الله عنه : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يعوذ الحسن والحسين : « أعيذكما بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة » ، ثم يقول : « كان أبوكم إبراهيم يعوذ بها إسماعيل وإسحاق »[2] صلوات الله عليهم أجمعين .

ومن كلام أبي عبد الله الحسين رضي الله عنه : (**اعلموا : أن حوائج الناس إليكم من نعم الله عز وجل عليكم ، فلا تملوا النعم ، فتعود نقماً ، واعلموا : أن المعروف يُكسِب حمداً ، ويُعقِب أجراً ، فلو رأيتم المعروف رجلاً . . لرأيتموه رجلاً حسناً جميلاً ، يسر الناظرين ، ويفوق العالمين ، ولو رأيتم اللؤم رجلاً . . لرأيتموه سمجاً مشوهاً ، تنفر منه القلوب ، وتغض دونه الأبصار ، ومن جاد . . ساد ، ومن بخل . . رذل ، ومن تعجل لأخيه خيراً . . وجده إذا قدم عليه غداً**) .

وعن عبد الله بن يحيىٰ ، عن أبيه : أنه سار مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، فلما حاذىٰ شط الفرات . . قال : صبراً أبا عبد الله ، قلت : وما ذاك ؟ قال : دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وعيناه تفيضان ، فقلت : مما ذاك يا رسول الله ؟ فقال : « قام من عندي جبريل عليه الصلاة والسلام ، وأخبرني : أن الحسين يقتل بشط الفرات ، وقال : هل لك أن أُشِمك من تربته ؟ فقلت : نعم ، فقبض قبضة من تراب ، فأعطانيها ، فلم أملك عيني أن فاضتا » رواه أحمد في « مسنده »[3] .

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٣١٩) .

(٢) وأخرجه ابن حبان (٣/ ٢٩١) .

(٣) في « المسند » (١/ ٨٥) .

وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال : (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لنسائه : « لا تُبَكُّوا هـٰذا الصبي » يعني : حسيناً ، فكان يوم أم سلمة ، فنزل جبريل عليه السلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تدعي أحداً يدخل » ، فجاء الحسين ، فمنعته ، فبكىٰ ، فخلَّتْهُ ، فدخل حتىٰ قعد في حجر النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال جبريل عليه السلام : إن أمتك ستقتله ، قال : « يقتلونه وهم مؤمنون بي ؟! » قال : نعم ، وأراه تربته)[1] .

زاد في رواية : قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا جبريل ؛ أفلا أراجع فيه ربي عز وجل ؟ **قال : لا ، إنه أمر قد قضي وفرغ منه** » .

وروي : أنه لما قتل الحسين رضي الله عنه . . احتزوا رأسه ، وقعدوا في أول مرحلة يشربون ، فخرج عليهم من حائط قلم حديد ، فكتب عليه سطراً بدم :

أتـــرجـــو أمـــة قتلـــت حسينـــاً شفـــاعـــة جـــده يـــوم الحســـابِ

وذكر أبو بكر ابن الأنباري : أن زينب بنت علي بن أبي طالب رضي الله عنهما لما قتل أخوها الحسين رضي الله عنهما . . أخرجت رأسها من الخباء ، وأنشدت رافعة صوتها :

مـاذا تقـولـون إن قـال النبـي لكـمْ مـــاذا فعلتـــم وأنتـــم آخـــر الأمـــمِ
بعتـــرتـــي وبـــأهلـــي بعـــد مفتقـــدي منهم أسارىٰ ومنهم ضُرِّجوا بدمِ
ما كان هـٰذا جزائي إذ نصحت لكمْ أن تخلفوني بسوء في ذوي رحمي

وقد رثاه الناس فأكثروا فيه المراثي ، فمن ذلك :

ألم تر أن الأرض أضحت مريضة بفقـــد حسيـــنٍ والبـــلادَ اقشعـــرتِ

وكتب عبد الملك إلى الحجاج : إياك ودماء آل أبي طالب ؛ فإني رأيت بني حرب لما قتلوا حسيناً . . نزع الله الملك منهم .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرجه بنحوه الطبراني في « الأوسط » (٦/ ٢٤٩) .

ذكر جمع من المصطَفَيات

الصحابيات رضوان الله عليهن

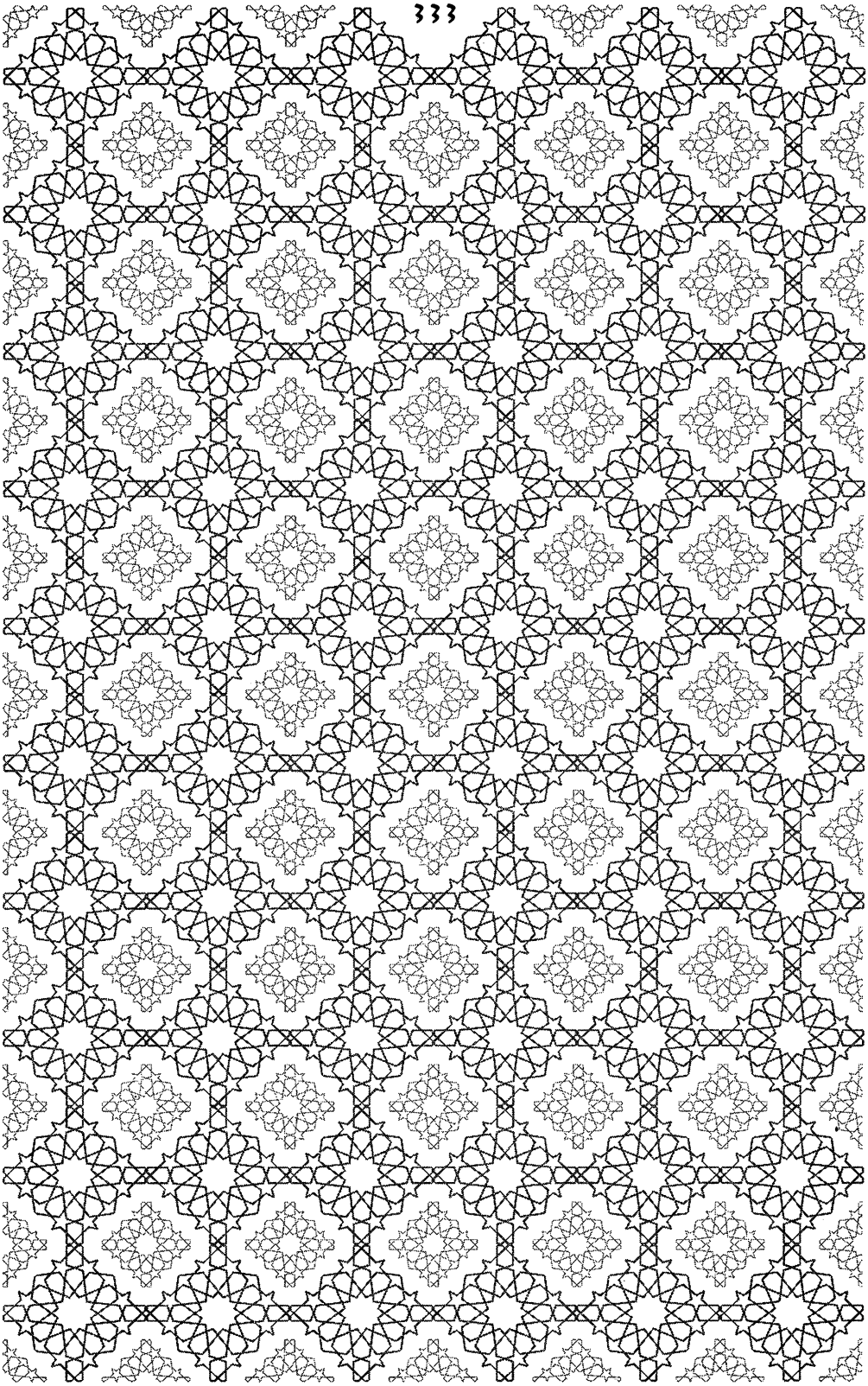

فمنهن أم المؤمنين :

خديجة بنت خويلد
رضي الله عنها

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خرج في تجارة لها ، فلما قدم صلى الله عليه وسلم . . رأته وهو قادم ، وعليه غمامة تظله ، فتزوجته ، وكانت قد تزوجت قبل ذلك زوجين ، وكانت يوم تزويجها بالنبي صلى الله عليه وسلم بنتَ أربعين سنة .

ثم جاءته الرسالة ، فأسلمت ، فهي أول امرأة أسلمت وآمنت بالنبي صلى الله عليه وسلم .

ولم يتزوج غيرها حتىٰ ماتت .

وجميع أولاده صلى الله عليه وسلم منها ، سوىٰ إبراهيم عليه السلام ؛ فإنه من مارية .

وعن علي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « خير نسائها . . مريم بنت عمران ، وخير نسائها . . خديجة »[1] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : (أتىٰ جبريل عليه الصلاة والسلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ؛ هـٰذه خديجة قد أتتك بإناء فيه إدام أو طعام أو شراب ، فإذا هي أتتك . . فاقرأ عليها السلامَ من ربها عز وجل ، وقل لها : إن الله يبشرك ببيت من قصب لا صخب فيه ولا نصب)[2] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : ما غرت علىٰ أحد من نساء النبي صلى الله عليه وسلم ما غرت علىٰ خديجة ، وما رأيتها ، ولـٰكن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر ذكرها ، وربما ذبح الشاة ، ثم يقطعها أعضاءً ، ثم يبعثها في صدائق خديجة ، فربما قلت

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٤٩) .

(٢) أخرجه بنحوه البخاري (٧٠٥٩) ، ومسلم (٢٤٣٢) .

له : كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة ، فيقول : « إنها كانت . . . وكانت . . . وكان لي منها ولد »[1] .

وعنها قالت : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يخرج من البيت حتىٰ يذكر خديجة ، فيحسن عليها الثناء ، فذكرها يوماً ، فأدركتني الغَيرة ، فقلت : هل كانت إلا عجوزاً ، وقد أخلف الله لك خيراً منها ؟ قالت : فغضب حتى اهتز مقدم شعره من الغضب ، ثم قال : « والله ؛ ما أخلف الله لي خيراً منها ، لقد آمنت إذ كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني بمالها إذ حرمني الناس ، ورزقني أولادها إذ حرمني أولاد الناس » ، فقلت بيني وبين نفسي : لا أذكرها بسوء أبداً)[2] .

توفيت رضي الله عنها بعد أن مضىٰ من النبوة عشر سنين ، وهي بنت خمس وستين سنة .

قال حكيم بن حزام : دفناها بالحجون ، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم في حفرتها ، ولم يكن يومئذ سنة الجنائز الصلاة عليها . انتهىٰ [في « الصفوة » ٢/٣ـ٤] .

وقال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكرم عجوزاً دخلت عليه ، فقيل له في ذلك ، فقال : « إنها كانت تأتينا أيام خديجة ، وإن كرم العهد من الإيمان »[3] [انتهىٰ « الإحياء » ٢/١٨٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٧) .

(٢) أخرجه بنحوه أحمد (٦/١١٧) .

(٣) أخرجه الحاكم (١/٦٢) .

ومنهن سيدة نساء العالمين :

فاطمة بنت سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم
رضي الله عنها

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : فاطمة بنت خديجة رضي الله عنهما ، ولدتها وكانت قريش تبني البيت قبل النبوة بخمس سنين .

وهي أصغر بناته صلى الله عليه وسلم سناً .

وتزوجها علي رضي الله عنه في السنة الثانية من الهجرة في رمضان ، وبنىٰ بها في ذي الحجة ، وقيل : تزوجها في رجب ، فولدت له : الحسن ، والحسين ، وزينب ، وأم كلثوم ، فتزوج زينب عبد الله بن جعفر ، وتزوج أمَّ كلثوم عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه .

وزاد ابن إسحاق في أولاد فاطمة رضي الله عنها محسناً ، مات صغيراً .

وعن علي رضي الله عنه أنه قال : (لقد تزوجت فاطمة رضي الله عنها وما لي ولها فراش غير جلد كبش ، ننام عليه بالليل ، ونعلف عليه الناضح بالنهار ، ومالي ولها خادم) .

وعن علي رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما زوجه فاطمة رضوان الله تعالىٰ عليهما . . بعث معها بخميلة ووسادة أدم حشوها ليف ورحائين ، وسقاء وجرتين ، فقال علي لفاطمة ذات يوم : قد جاء الله أباك صلى الله عليه وسلم بسبْيٍ ، فاذهبي فاطلبي منه خادماً ، فقالت : أمَا والله ؛ لقد طحنت حتىٰ مَجِلت يداي[1] ، فأتت النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال صلى الله عليه وسلم : « ما جاء بك أي بنية ؟ » قالت : جئت لأسلم عليك ، واستحيت أن تسأله ورجعت ، فقال : ما فعلت ؟ قالت : استحييت أن أسأله ، فأتياه جميعاً ، فقال علي : يا رسول الله ؛ قد جاءك الله بسَبْيٍ وسعة فأخدمنا ، فقال : « والله ؛ لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تُطوىٰ بطونهم لا أجد ما أُنفق عليهم ، ولٰكني أبيعهم وأنفق عليهم أثمانهم » . فرجعا ، فأتاهما النبي صلى الله عليه وسلم وقد دخلا في قطيفتهما ، إذا

---

(١) **مجلت يداي** : إذا ثخن جلدها وتعجر ، وظهر فيها ما يشبه البَثْر من كثرة العمل .

غطيا رؤوسهما . . تكشفت أقدامهما ، وإذا غطيا أقدامهما . . تكشفت رؤوسهما ، فثارا ، فقال : مكانكما ، ثم قال : « ألا أخبركما بخير مما سألتماني ؟ » قالا : بلىٰ ، قال : « كلمات علمنيهن جبريل عليه السلام : تسبحان الله في دبر كل صلاة عشراً ، وتحمدان الله عشراً ، وتكبران الله عشراً ، وإذا أويتما إلىٰ فراشكما . . فسبحا ثلاثاً وثلاثين ، واحمدا ثلاثاً وثلاثين ، وكبرا أربعاً وثلاثين » .

قال علي رضي الله عنه : فوالله ؛ ما تركتهن منذ علمنيهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقيل له : ولا ليلة صفين ؟ قال : ولا ليلة صِفِّين[1] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : (أقبلت فاطمة رضوان الله عليها كأن مشيتها مشية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « مرحباً بابنتي » ، ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله ، ثم أسر إليها حديثاً فبكت ، فقلت لها : استخصك رسول الله صلى الله عليه وسلم بحديثه ثم تبكين ، ثم أسر إليها حديثاً فضحكت ، فقلت : ما رأيت كاليوم فرحاً أقرب من حزن ، فسألتها عما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : ما كنت لأفشي سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتىٰ إذا قبض صلى الله عليه وسلم . . سألتها ، قالت : أمّا الآن . . فنعم ؛ إنه أسر إلي فقال : « إن جبريل عليه السلام كان يعارضني القرآن في كل عام مرة واحدة ، وإنه عارضني به العام مرتين ، ولا أراه إلا وقد حضر أجلي ، وإنك أول أهل بيتي لحوقاً بي ، ونِعم السلف أنا لك » ، فبكيتُ لذلك » ، ثم قال : « ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء هـٰذه الأمة ، أو نساء المؤمنين ؟ » قالت : فضحكت لذلك)[2] .

وعن المسور بن مخرمة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « فاطمة بضعة مني ، يريبني ما رابها ، ويؤذيني ما آذاها ، فمن أحبها . . أحبني ، ومن أبغضها . . أبغضني »[3] .

وعنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو على المنبر : « إن بني هاشم بن المغيرة استأذنوني في أن يُنكحوا ابنتهم علي بن أبي طالب ، فلا آذن ، ثم لا آذن ، إلا أن يريد ابن أبي طالب أن يطلِّق ابنتي وينكح ابنتهم ؛ فإنها بضعة مني ، يريبني ما رابها ، ويؤذيني ما آذاها »[4] .

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد (١/١٠٦) ، وبعضه في « الصحيح » .
(٢) أخرجه البخاري (٥٩٢٨) ، ومسلم (٢٤٥٠) .
(٣) أخرجه بنحوه البخاري (٤٩٣٢) ، ومسلم (٢٤٤٩) .
(٤) أخرجه بنحوه أحمد (٤/٣٢٨) .

وعن عطاء رضي الله عنه قال : إن كانت فاطمة رضوان الله عليها لتعجن ، وإن قصتها تكاد تضرب الجفنة[1] .

توفيت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بستة أشهر ، في ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من رمضان ، سنة إحدىٰ عشرة ، وهي ابنة ثمان وعشرين سنة ونصف ، غسلها علي وأسماء رضوان الله عليهم ، وصلىٰ عليها علي رضي الله عنهما ، ودفنت ليلاً رضي الله عنها . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٤ـ٧] .

قال أرباب السير : لما زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً بفاطمة رضوان الله عليهما . . قال : « يا علي ؛ لا تحدث شيئاً حتىٰ تلقاني » ، فدعا بماء فتوضأ منه ، ثم أفرغ علىٰ علي ، وقال : « اللهم ؛ بارك فيهما ، وبارك عليهما ، وبارك لهما في شملهما »[2] .

زاد في رواية : (ونضح عليه من الماء) .

وفي رواية : قال لعلي : « إذا بنيت بها . . فلا تقربنها حتىٰ آتيك » فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدق الباب ، فخرجت إليه أم أيمن ، فقال لها : « أثَمَّ أخي ؟ » قالت : وكيف يكون أخاك وقد زوجته ابنتك ؟ قال : « فإنه أخي » ، ثم أقبل عليها ، فقال لها : « جئت تكرمين ابنة رسول الله » ، فدعا لها ، وقال لها خيراً ، قالت : ثم دخل . وكانت اليهود يُؤَخِّذونَ الرجل[3] عن امرأته إذا دخل بها ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بتَوْر من ماء[4] ، فتفل فيه وعوَّذ فيه ، ثم دعا علياً فرشَّ من ذلك الماء علىٰ وجهه وصدره وذراعيه ، ثم دعا فاطمة رضي الله عنها ، فأقبلت تعثر في ثوبها حياء من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففعل بها مثل ذلك ، ثم قال لها : « إني والله ؛ ما آلوت أن أزوجك خير أهلي » ، ثم قام فخرج[5] .

زاد في رواية : قال علي : أردت أن أخطب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فذكرت أنه لا شيء لي ، ثم ذكرت صلته وعائدته ، فخطبت إليه ، فقال : « هل لك من شيء ؟ » قلت : لا ، قال : « أين درعك الحطمية التي أعطيتك يوم كذا وكذا ؟ » قلت : عندي ،

---

(١) **القصة** بالضم : كل خصلة من الشعر أو شعر مقدم الرأس خاصة ، **والجفنة** : القصعة .

(٢) أخرجه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٦/ ٧٢) .

(٣) **التَّأخيذ** : هو حبس النساء أزواجهن عن غيرهن من النساء بالسِّحر .

(٤) **التَّوْر** : إناء يشرب فيه .

(٥) أخرجه النسائي في « الكبرىٰ » (٥/ ١٤٤) .

قال : « فأعطها » ، وزوجَني ، فلما كان ليلة دخلَتْ عَلَيَّ . . قال : « لا تحدثن شيئاً حتىٰ آتيكما » ، قال : فأتانا وعلينا قطيف كساء ، فخشينا ، فقال : « مكانكما » ، ثم دعا بقدح من ماء فتوضأ فيه ، ثم رشه عَلَيَّ وعليها ، فقلت : يا رسول الله ؛ أنا أَحَبُّ إليك أم هي ؟ قال : « هي أحب إلي وأنت أعز منها »[1] انتهىٰ .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : ما رُئِيَتْ فاطمة رضوان الله عليها ضاحكة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا يوماً .

ومكثت بعده صلى الله عليه وسلم ستة أشهر ، ثم توفيت .

وعنها ، أنها قالت لأسماء[2] : يا أسماء ؛ إني قد استقبحت هـٰذا الذي يصنع بالنساء ، يطرح على المرأة الثوب فيصفها ، فقالت أسماء : يا بنت رسول الله ؛ ألا أريك شيئاً رأيته بالحبشة ؟ فدعت بجرائد رطبة ، فَحَنَتْها ، ثم طرحت عليها ثوباً ، فقالت فاطمة رضي الله عنها : ما أحسن هـٰذا وأجمله ، تعرف به المرأة من الرجل ، فإذا أنا مت . . فغسليني أنت وعليٌّ ، ولا يدخل عَلَيَّ أحد ، ثم اصنعي بي هـٰكذا . فلما توفيت رضوان الله عليها . . صنع بها ما أمرت بعد أن غسلها علي وأسماء رضي الله عنهم ، والله أعلم . انتهىٰ [« الحلية » ٢/٤٣] .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ :

خَاتِمَة

قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ ﴾ .

إعلم : أن الكلام علىٰ هـٰذه الآية من وجوه ، نذكر منها ما يتعلق بالغرض المطلوب هـٰهنا ، وهو : أن قوله تعالىٰ : ﴿ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ هل المراد به نساء هـٰذه الأمة فقط ؟ أو نساء العالمين من هـٰذه الأمة وغيرها ؟ فيه احتمالان ، وهما وجهان في المذهب ، فأحدهما ما يفهم من قوله : ﴿ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ ، وكل من الاحتمالين له مساغ ، أما القول بالعموم وهو الاحتمال الظاهر . . فقد استدل عليه بأمور :

منها : أن القاعدة في اسم الجنس المحلىٰ بالألف واللام أنه يفيد العموم ، والنساء هنا : اسم الجنس محلىٰ بالألف واللام ، فاستغرق عموم النساء ، لـٰكن لقائل أن يقول : إن مريم

---

(١) أخرجه الحميدي (١/ ٢٢) .

(٢) هي أسماء بنت عميس ، وكانت قد هاجرت مع زوجها جعفر بن أبي طالب إلى الحبشة .

ابنة عمران وأم موسىٰ عليه الصلاة والسلام وسارة وآسية بنت مزاحم ، فقد اختلف العلماء في نبوة كل واحدة منهن ، وقد قام الإجماع علىٰ أن النبي أفضل من غير النبي ، فالقول بالعموم يقتضي تفضيل نساء النبي صلى الله عليه وسلم علىٰ كل فرد من جميع النساء ، فلا يصح ادعاء العموم .

والجواب : أما عند من لا يثبت نبوة أحد من النساء . . فلا اعتراض ، ودعوى العموم صحيحة ، وأما عند من يثبت نبوة امرأة . . فإما أن يجعل هـٰذا العام مخصوصاً ، وإما أن يجنح إلى الاحتمال الآخر ، وهو أن المراد بالنساء : نساء هـٰذه الأمة ، وعلىٰ هـٰذا : فتصح دعوى العموم .

ومنها : أن هـٰذه الأمة ـ زادها الله شرفاً ـ خيرُ الأمم ، فنساؤها خير نساء الأمم ؛ فإن التفضيل على الأفضل تفضيل علىٰ من دونه بطريق الأولىٰ ، لـٰكن لقائل أن يقول : إن التفضيل إنما ورد في حق جملة هـٰذه الأمة ، وقد علم أن تفضيل الجملة على الجملة لا يقتضي تفضيل كل فرد علىٰ فرد ؛ فقد يكون في الجملة المفضولة واحدة أفضل من كل فرد من الجملة الفاضلة ، ويكون في باقي الجملة المفضولة أفراد كثيرة مجموعها أفضل من باقي الجملة المفضولة[1] .

ويحتاج هـٰذا إلىٰ زيادة بسط وتحرير ؛ فإنه قد يقال : إن دلالة العموم ترجح كل فرد ، ويجري الاحتمالان في زوجاته صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه جمع مضاف ، والمضاف كالمعرف بالألف واللام ، والذي ينبغي حمله عليه : كل فرد في المفضل عليه في قوله تعالىٰ : ﴿كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ . . فهو نص علىٰ كل فرد لا على الجملة ؛ لقوله : ﴿كَأَحَدٍ﴾ ، وهو عام ؛ لأنه نكرة في سياق النفي ، ولا شك أنه إذا أخذ واحدٌ واحدٌ . . كان مفضلاً عليه ، وإذا أخذ المجموع . . لم يلزم ذلك فيه ، وإذا أخذت جملة من آحاد المجموع . . احتمل أن يقال : إن أحداً لعمومه يشملها ، ولا يخرج عنه إلا المجموع ؛ لضرورة التبعيض .

فهـٰذا البحث ينبغي أن ينظر فيه ويكمل ما يقتضيه ، ولا شك أنك إذا قلت : ما جاءني من أحد من الناس . . اقتضىٰ نفي مجيء كل واحد منهم مطابقة ، واقتضىٰ نفي المجموع التزاماً .

---

(١) كذا في النسخ ولعل الصواب : الفاضلة .

وأما اقتضاؤه لنفي مجيء جملة منهم . . فهل هو بالالتزام كالمجموع ؟ أو بالمطابقة ؛ لأن أحداً بمنزلة بعض ، واحداً كان أو أكثر ؟ هـٰذا محل نظر ، وأما الضمير في ﴿لَسْتُنَّ﴾ . . فلنساء النبي صلى الله عليه وسلم ، والظاهر : أن المراد كل فرد أيضاً وإن كانت الصيغة محتملة للمجموع .

وقد قال القرافي ـ رحمه الله ـ : إن الضمائر عامة ، والصحيح : أنها بحسب ما تعود عليها ، وهي هنا لجمع مضاف ، فهي بحسبه ، وهو عام يدل ظاهراً علىٰ كل فرد ، ويحتمل للمجموع فضميره كذلك ، فإن جعلناه للمجموع . . فمعناه : أن جملة نساء النبي صلى الله عليه وسلم أفضل من كل جمع من النساء قل أو كثر ، وهـٰذا فائدة البحث المتقدم ، فإن (أحداً) تجيء هنا بمعنىٰ بعض ، وإن جعلناه لكل فرد . . فمعناه أن كل واحدة من النساء أفضل من كل فرد ، ويبقىٰ تفضيل كل واحدة منهن علىٰ كل جمع من النساء على البحث المتقدم ، وأما تفضيل كل واحدة منهن علىٰ مجموع النساء سواهن . . فاللفظ ساكت عنه ، وقد ظهر بهـٰذا أن نساء النبي صلى الله عليه وسلم مفضلات علىٰ سائر نساء هـٰذه الأمة ، وكذا علىٰ سائر نساء الأمم إن جعل اللفظ علىٰ عمومه ، ولم يكن في النساء نبيَّة .

فإن قلت : يرد علىٰ هـٰذا أمور :

منها : أن فاطمة رضوان الله عليها أفضل من زوجاته ، ولا جواب عنه إلا تخصيص اللفظ بها ، أو يقال : إنها داخلة في نساء النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنها ابنته ، فهي معهن داخلة في اسم النساء في الجملة ، غير أن الإضافة مختلفة فيها بمعنى البنوة ، وفيهن بمعنى الزوجية .

ومنها : أن الخطاب للنساء الموجودات حين نزول الآية الكريمة ، فيلزم أنهن أفضل من خديجة ، ولا خلاف أن خديجة أفضل من بقيتهن ، لـٰكن جرىٰ خلاف في أيما أفضل خديجة أو عائشة ، وسيأتي تحقيق ذلك إن شاء الله تعالىٰ .

وجوابه : أن خديجة داخلة في جملة نساء النبي صلى الله عليه وسلم وإن لم تكن مخاطبة ، لـٰكن دل الخطاب علىٰ أن التفضيل إنما حصل للمخاطبات ؛ لكونهن نساء النبي صلى الله عليه وسلم ، وهـٰذا الوصف حاصل في خديجة رضوان الله عليها ، فلا يعدل عن حكمه .

ومنها : أنه يلزم تفضيل حفصة ، وأم سلمة ، وزينب ، وميمونة ، وصفية ، وسودة ،

وجويرية ، وأم حبيبة ، علىٰ سائر نساء الأمم ، إذا جعلنا النساء للعموم ، ولا شك أن مريم ابنة عمران أفضل من هـٰؤلاء الثمان ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : « كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا أربع : مريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد علىٰ سائر الطعام »[1] .

وجوابه : أن يلتزم التخصيص لذلك .

ولا شك أن الآية الكريمة تضمنت تعظيم قدر نساء النبي صلى الله عليه وسلم بأمور :

منها : أن الله أعد للمحسنات منهن أجراً عظيماً ، وكلهن محسنات ، فعلمنا أن الله أعد لهن أجراً عظيماً عنده سبحانه وتعالىٰ .

. . . . . وتصغر في عين العظيم العظائم

فعُظْم الأجر المعدِّ لهن لا يعلم كنهه إلا الله سبحانه وتعالىٰ .

ومنها : أنهن يؤتَين أجرهن مرتين ، وهـٰذا لم يحصل لغيرهن إلا للثلاثة المذكورين في القرآن والحديث[2] .

ومنها : أن الله عز وجل أَعْتَدَ لهن رزقاً كريماً ، والشهداء أثنىٰ عليهم بأنهم عند ربهم يرزقون ، وهـٰؤلاء زادهم[3] مع الرزق كونه كريماً .

ومنها : المفاوتة بينهن وبين غيرهن ، وإرادة إذهاب الرجس عنهن ، وتطهيرهن تطهيراً مؤكداً بالمصدر .

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣٠) ، ومسلم (٢٤٣١) ولـٰكن فيه : « ولم يكمل من النساء غير مريم بنن عمران وآسية امرأة فرعون . . . » .

(٢) الثلاثة الذين يؤتون أجرهم مرتين ، منهم قسم واحد ذكر في القرآن الكريم ، وهو المذكور بقوله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ * أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ، وجاء توضيحهم وذكر الاثنين الآخرين بقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه البخاري (٢٨٤٩) : « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : الرجل تكون له الأمة فيعلمها فيحسن تعليمها ، ويؤدبها فيحسن أدبها ، ثم يعتقها فيتزوجها . . فله أجران ، ومؤمن أهل الكتاب الذي كان مؤمناً ، ثم آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم . . فله أجران ، والعبد الذي يؤدي حق الله وينصح لسيده » .

(٣) كذا في النسخ ولعل الصواب : زادهن .

ومنها : ما يتلىٰ في بيوتهن من آيات الله والحكمة .

ومنها : شرفهن بانتسابهن إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وإنافة قدرهن بذلك حتىٰ تفارق صفاتهن صفات غيرهن ، وليس في الآية تصريح بما أراده الفقهاء وتكلموا فيه من التفضيل حتىٰ نتكلف النظر بينهن وبين مريم عليها السلام ، فنقول ما قاله الله عز وجل ، ونسكت عما لم يدل عليه دليل .

وأما تفضيل فاطمة وخديجة وعائشة رضوان الله عليهن . . فالصحيح الذي قاله الأئمة ، ودلت عليه الأدلة ، وهو الذي أدين الله تعالىٰ به : **أن فاطمة رضوان الله عليها أفضل ثم خديجة ثم عائشة ، وعلمي محيط بالخلاف في ذلك ، ولٰكن قد قامت الأدلة علىٰ ما ذكرته** .

ومما نحتج به لتفضيل فاطمة رضي الله عنها : ما ورد في الحديث الصحيح : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لفاطمة : « أما ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين ، أو سيدة نساء هٰذه الأمة »[1] .

وروى النسائي ـ رحمه الله ـ [في « الكبرىٰ » ٥/٩٣] من حديث داوود ابن أبي الفرات ، عن علباء بن أحمر اليشكري ، عن عكرمة ، عن ابن عباس رضي الله عنهم ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد » ، وداوود ابن أبي الفرات وعلباء بن أحمر ثقتان ، فالحديث صحيح ، وهو صريح في أنها وأمها أفضل نساء أهل الجنة ، والحديث الأول يدل لتفضيلها علىٰ أمها .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « فاطمة بضعة مني ، يريبني ما رابها ، ويؤذيني ما آذاها » .

وأما تفضيل خديجة علىٰ عائشة . . فبهٰذا الحديث ، وبقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : « خير نسائها مريم بنت عمران ، وخير نسائها خديجة بنت خويلد »[2] ، والضمير قيل : إنه للسماء والأرض ، ويؤيده ما ورد من الإشارة إليهما ، وعلىٰ هٰذا : يكون المراد خير نساء الدنيا ، وهو يقتضي أن مريم وخديجة أفضل النساء مطلقاً ، فمريم أفضل نساء زمانها ، وخديجة أفضل نساء زمانها ، وليس فيه تعريض لتفضيل إحداهما على

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٢٨) ، ومسلم (٢٤٥٠) .

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٤٩) .

الأخرىٰ ، وقد قدمنا أن مريم عليها السلام اختلف في نبوتها ، فإن كانت نبية . . فلا شك أنها أفضل ، ويشهد لنبوتها ذكرها في (سورة الأنبياء) عليهم الصلاة والسلام معهم ، وهو قرينة ، وإن لم تكن نبية . . فالأقرب : أنها أفضل أيضاً ؛ لذكرها في القرآن ، وشهادته بصدِّيقيَّتها .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « خير نساء ركبن الإبل نساء قريش »[1] ، قيل : إنما قال صلى الله عليه وسلم : « ركبن الإبل » ؛ لأن مريم لم تركب بعيراً قط ، وزمان خديجة إن كان المراد به زمان ملتها . . احتجنا إلىٰ تخصيصه بفاطمة ، وإن كان المراد به زمان وجودها . . فقد يقال : عائشة لم تكن في ذلك الوقت ، فلا يدل هـٰذا الحديث علىٰ تفضيل خديجة عن عائشة ، رضوان الله عليهما .

والحديث الأول كاف في الاستدلال ، وقد تقدم : أنه اختلف في نبوة مريم عليها السلام ، وأم موسىٰ عليه الصلاة والسلام ، وآسية بنت مزاحم ، وسارة ، ولم يصح في ذلك شيء ، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا أربع . . . » الحديث ، وقد تقدم ، وأما الحديث الذي ذكرناه : « خير نسائها مريم ، وخير نسائها خديجة » . . فإنه لم يتعرض فيه لآسية ، ولا يؤخذ منه حكمها ؛ لأنها ليست في زمانهما .

وفي قوله صلى الله عليه وسلم : « خير نسائها مريم » ثَم وجه آخر ، وهو : أن الضمير يعود علىٰ مريم ، فتكون مريم مبتدأ ، وكذا خديجة ، والتقدير : مريم خير نساء مريم ، وخديجة خير نساء خديجة ، وإضافة النساء إليهما كإضافتهن في قوله تعالىٰ : ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ ، ويعود شرحه كما سبق ، إما نساء زمانها أو نساء ملتها .

وقد روِّينا في « الصحيح » [خ ٣٦٠٦ـ م ٢٤٣٥] : عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : (ما غرت على امرأة ما غرت علىٰ خديجة) ، وفي غير « الصحيح » : « ما أبدلني الله خيراً منها » ، ولا شك أنها أول من آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وظهر منها في ذلك الوقت من العقل والتؤدة ما لا يخفىٰ ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إني رزقت حبها »[2] .

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٥٠) .

(٢) أخرجه ابن حبان (٧٠٠٦) .

وقد علم الله سبحانه وتعالىٰ ـ وكفىٰ سبحانه به عالماً ـ محبتي لجميعهن محبة لا يعلم قدرها إلا الله تعالىٰ ، الذي رزقني ذلك ووفقني له ، لا سيما عائشة رضوان الله عليها ، فإني أحبها محبة كثيرة ؛ لفضلها ، وفقهها ، وورعها ، وزهدها ، ولمحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم إياها ، ولأمره صلى الله عليه وسلم بمحبتها ؛ فإنه قد روينا في « الصحيح » : (لما جاءت فاطمة إلى النبي صلى الله عليه وسلم . . قال لها : « ألست تحبين ما أحب ؟ » قالت : بلىٰ ، قال : « فأحبي هـٰذه » يعني : عائشة)[1] وهـٰذا الأمر لا صارف له عن الوجوب ، وحكمه صلى الله عليه وسلم على الواحد . . حكمه على الجماعة ، ويلزم من ذلك وجوب محبتها علىٰ كل مسلم .

وقد قال صلى الله عليه وسلم فيها ما لا يحصىٰ من الفضل ، ونطق القرآن في أمرها بما لم ينطق به في غيرها .

وفي « صحيح مسلم » [٢٣٨٤] : عن عمرو بن العاص رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم بعثه علىٰ جيش ذات السلاسل ، قال : فأتيته ، فقلت : أي الناس أحب إليك ؟ قال : « عائشة » ، قلت : من الرجال ؟ قال : « أبوها » ، قلت : ثم من ؟ قال « عمر » ، فعد رجالاً .

وقد قال المتولي من أصحابنا ـ رحمه الله ـ : اختلف الناس أيما أفضل ، عائشة أو فاطمة ؟ والأولىٰ للعاقل ألاَّ يشتغل بمثل ذلك .

وقد قال الشيخ الإمام أبو سهل الصعلوكي : من أراد أن يعرف التفاوت بينهما . . فليتأمل في زوجته وبنته .

واختلفوا في خديجة وعائشة رضوان الله عليهما ، قال قوم : خديجة أفضل ، وقيل : عائشة أفضل ، هـٰذا كلام المتولي رحمه الله .

وأما بقية أزواج النبي صلى الله عليه وسلم . . فلا يبلغن هـٰذه الرتبة وإن كن خير نساء هـٰذه الأمة بعد هـٰؤلاء الثلاث ، وهن متقاربات في الفضل ، لا يعلم حقيقة ذلك كما في غيره إلا الله سبحانه وتعالىٰ .

وقد دل الدليل علىٰ أن لحفصة بنت عمر رضي الله عنهما من الفضائل شيئاً كثيراً ،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٤٢) .

فالأشبه أن تكون هي بعد عائشة رضوان الله عليهن أجمعين .

والكلام في التفضيل صعب ، ولا ينبغي التكلم إلا بما دلت عليه الأدلة الشرعية ، والسكوت فيما عدا ذلك ، وحفظ الأدب مع الجميع ، رضوان الله عليهن أجمعين ، ورزقنا محبتهن ، ونفعنا ببركتهن ؛ إنه قريب مجيب سميع الدعاء ، واسع العطاء ، وهو حسبي ونعم الوكيل . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهن أم المؤمنين :

عائشة الصديقة بنت الصديق
رضوان الله عليها

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة بمكة في شوال ، قبل الهجرة بسنتين ، وقيل : بثلاث ، وهي بنت ست سنين ، وبنىٰ بها بالمدينة ، وهي بنت تسع سنين ، وبقيت عنده تسع سنين ، ولم يتزوج بكراً غيرها .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أُرِيتُكِ في المنام مرتين ، ورجل يحتملك في سَرَقَة من حرير ، فيقول : هـٰذه امرأتك ، فأقول : إن يك هـٰذا من عند الله . . يمضه »[1] .

وعنها قالت : (أتتني أمي أم رومان وإني لفي أرجوحة ومعي صواحب لي ، فصرخت فيَّ ، فأتيتها ما أدري ما تريد بي ، فأخذتْ بيدي حتىٰ وقفت علىٰ باب الدار ، وإني لأنهج حتىٰ سكن بعض نفسي ، ثم أخذت شيئاً من ماء ، فمسحت به وجهي ورأسي ، ثم أدخلتني الدار ، فإذا نسوة من الأنصار في البيت ، فقلن : على الخير والبركة ، وعلىٰ خير طائر ، فأسلمتني إليهن ، فأصلحن من شأني ، فلم يُرِعْني إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحىٰ ، فأسلمنني إليه ، وأنا يومئذ بنت تسع سنين) .

وعن عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن جبريل عليه الصلاة والسلام يقرأ عليك السلام » قالت : (فقلت : وعليه السلام ورحمة الله)[2] .

وعنها قالت : قلت : يا رسول الله ؛ لو نزلت وادياً فيه شجرة قد أُكِل منها ، ووجدت شجرة لم يؤكل منها . . في أيها كنت تُرتِع بعيرك ، قال : « في التي لم يؤكل منها » ، تعني : أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتزوج بكراً غيرها[3] .

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٨٢) ، ومسلم (٢٤٣٨) ، **والسَّرَقَةُ** : قطعة من جيِّد الحرير .

(٢) أخرجه البخاري (٥٨٩٨) ، ومسلم (٢٤٤٧) .

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٨٩) .

وعنها قالت : أرسل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم ، فاستأذنت والنبي صلى الله عليه وسلم مع عائشة في مرطها ، فأذن لها فدخلت عليه ، فقالت : يا رسول الله ؛ إن أزواجك أرسلنني إليك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أي بنية ؛ ألست تحبين ما أحب ؟ » قالت : بلىٰ ، قال : « فأحبي هـٰذه » ، يعني : عائشة ، قال : فقامت فاطمة فخرجت ، فجاءت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، فحدثتهن بما قالت وما قال لها ، فقلن : ما أغنيتِ عنا من شيء ، فارجعي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالت فاطمة : والله ؛ لا أكلمه فيها أبداً ، فأرسل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش ، فاستأذنت ، فأذن لها فدخلت ، فقالت : يا رسول الله ؛ أرسلنني أزواجك إليك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة ، قالت عائشة : ووقعت فيَّ زينب ، فطفقت أنظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم متىٰ يأذن لي فيها ، فلم أزل حتىٰ عرفت أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يكره أن أنتصر ، قال : فوقعت بزينب ، فلم أُنشِبها أن أفحمتها ، فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : « إنها ابنة أبي بكر »[1] .

وعنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسأل في مرضه الذي مات فيه : « أين أنا غداً ؟ أين أنا غداً ؟ » يريد يوم عائشة رضي الله عنها ، حتىٰ مات عندها ، قالت عائشة : (فمات في اليوم الذي كان يدور عليَّ فيه ، فقبضه الله وإن رأسه لَبَيْنَ سحري ونحري وخالط ريقه ريقي)[2] .

وفي رواية : أن أم سلمة ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « يا أم سلمة ؛ لا تؤذيني في عائشة ، فإنه والله ؛ ما نزل علي الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها »[3]

وعن عائشة رضي الله عنها : (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فرغ من الأحزاب . . دخل المغتسل ليغتسل ، فجاءه جبريل عليه الصلاة والسلام فقال : أوقد وضعتم

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٤٢) ، **وأنشبها** : **أُلبثها** ، **أفحمتها** : أسكتُّها .

(٢) أخرجه البخاري (٤١٨٥) ، ومسلم (٢٤٤٣) ، **والسَّحْرُ** : الرئة ، أي أنه مات صلى الله عليه وسلم وهو مستند إلىٰ صدرها وما يحاذي سَحْرَها منه ، أما الريق . . فقد كان دخل أخوها ، وبيده سواك ، فرمقته عين رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذته من أخيها ، فلاكته ثم ناولته رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٣) أخرجه بنحوه البخاري (٢٤٤٢) .

السلاح وما وضعنا أسلحتنا بعدُ ؟! ٱنْهَدْ إلىٰ بني قريظة) فقالت عائشة : (كأني أنظر إلىٰ جبريل من خلل الباب قد عصب رأسه من الغبار)[1] .

وعنها رضي الله عنها قالت : (رأيت النبي صلى الله عليه وسلم واضعاً يده علىٰ مَعْرَفَةِ[2] فرس دحية الكلبي ، وهو يكلمه ، قالت : فقلت : يا رسول الله ؛ رأيتك واضعاً يدك علىٰ معرفة فرس دحية الكلبي وأنت تكلمه ، قال : « أورأيته ؟ » قلت : نعم ، قال : « ذاكِ جبريل عليه السلام ، وهو يقرئك السلام » فقالت عائشة رضي الله عنها : وعليه السلام ، جزاه الله من صاحب ودخيلٍ خيراً ، نِعم الصاحب ، ونِعم الدخيل)[3] .

وعنها قالت : وثب رسول الله صلى الله عليه وسلم وثبة شديدة ، فنظرت ؛ فإذا رجل معه واقف علىٰ برذون[4] ، وعليه عمامة بيضاء ، طرفها بين كتفيه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم واضع يده علىٰ معرفة برذونه ، فقلت : يا رسول الله ؛ لقد راعتني وثبتك ، مَن هـٰذا ؟ قال : « أرأيتِهِ ؟ » قلت : نعم ، قال : « ومن رأيت ؟ » قلت : دحية ، قال : « ذاكِ جبريل عليه الصلاة والسلام » .

وعن عطاء قال : بعث معاوية إلىٰ عائشة رضي الله عنها بطوق من ذهب فيه جوهر قوم بمئة ألف ، فقسمته بين أزواج النبي صلى الله عليه وسلم . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٧ـ١٤] .

وقال النووي ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ : كنية عائشة أم المؤمنين : أم عبد الله ، كناها رسول الله صلى الله عليه وسلم بابن أختها عبد الله بن الزبير .

وهي من أكثر الصحابة رواية ، روي لها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ألف حديث[5] ومئتا حديث وعشرة أحاديث ، اتفق البخاري ومسلم منها علىٰ مئة وأربعة وسبعين حديثاً ، وانفرد البخاري بأربعة وخمسين ، ومسلم بثمانية وستين .

وروىٰ عنها خلق كثير من الصحابة والتابعين .

وفضائلها ومناقبها مشهورة معروفة .

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١٣١) .
(٢) **المَعْرَفَة** : اللحم الذي ينبت عليه عرف الفرس .
(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٧٤) ، **والدخيل** : الضيف .
(٤) **البِرذون** : يطلق علىٰ غير العربي من الخيل والبغال .
(٥) كذا في النسخ ، وفي « التهذيب » : (ألفا حديث) .

ورُوِّينا عن الإمام أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي من أصحابنا قال : روي : أن عائشة كانت تفتخر بأشياء لم تُعْطَها امرأةٌ غيرها :

منها : أن جبريل عليه الصلاة والسلام أتىٰ بصورتها في سَرَقَة حرير ، وقال : هـٰذه زوجتك ، وروي : أنه أتىٰ بصورتها في راحته .

ومنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتزوج بكراً غيرها ، وقُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأسه في حجرها ، ودفن في بيتها .

وكان ينزل عليه الوحي وهو معها في لحافها ، ونزلت براءتها من السماء ، وأنها بنت خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان مسروق إذا روىٰ عن عائشة . . قال : حدثتني الصديقة بنت الصديق ، حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، المبرأة من السماء رضي الله عنها . انتهىٰ [« التهذيب » ٢/٣٥١] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : وعن أم ذرة : أنها كانت تغشىٰ عائشة رضي الله عنها[١] ، قالت : بعث إليها ابن الزبير رضي الله عنه بمال في غرارتين[٢] أراه ثمانين ألفاً أو مئة ألف ، فدعت بطبق ـ وهي يومئذ صائمة ـ فجعلت تقسمه بين الناس ، فأمست وما عندها من ذلك درهم ، فلما أمست . . قالت : يا جارية ؛ هلمي أفطري ، فجاءتها بخبز وزيت ، فقالت لها أم ذرة : أما استطعت فيما قسمت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحماً نفطر عليه ؟ فقالت لها : لا تعنفيني ، لو كنتِ ذكَّرتيني . . لفعلت[٣] .

وقال عروة : لقد رأيت عائشة رضي الله عنها تقسم سبعين ألفاً وهي ترقع درعها .

وعن عوف بن مالك : أن عائشة رضي الله عنها حدثته : أن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال في بيع أو عطاء أعطته عائشة : والله ؛ لتنتهين عائشة أو لأحجرن عليها ، قالت : أهو قال هـٰذا ؟ قالوا : نعم ، قالت : هو لله علي نذر ؛ لا أكلم ابن الزبير أبداً ، فاستشفع ابن الزبير إليها حين طالت الهجرة ، فقالت : والله ؛ لا أشفع فيه أبداً ، ولا أتحنث إلىٰ نذري ، فلما طال ذلك على ابن الزبير . . كلم المسور بن مخرمة وعبد الرحمـٰن بن

---

(١) **تغشاها** : تزورها وتأتيها مرة بعد مرة .

(٢) **الغرارة** : وعاء يوضع فيه التبن ونحوه .

(٣) أخرجه هناد في « الزهد » (١/ ٣٣٧) .

الأسود بن عبد يغوث ، وهما من بني زهرة ، وقال : أنشدكما الله لما دخلتما بي علىٰ عائشة ؛ فإنه لا يحل لها أن تنذر قطيعتي ، فأقبل به المسور وعبد الرحمـٰن مشتملين بأرديتهما حتى استأذنا علىٰ عائشة رضي الله عنها ، فقالا : السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، ندخل ؟ فقالت عائشة : ادخلوا ، قالوا : كلنا ؟ قالت : نعم ، ادخلوا كلكم ، ولا تعلم أن معهما ابن الزبير ، فلما دخلوا . . دخل ابن الزبير الحجاب ، فاعتنق عائشة ، وطفق يناشدها ويبكي ، فطفق المسور وعبدُ الرحمـٰن يناشدانها إلا ما كلمتيه ، وقَبِلْتِ منه ، ويقولان : النبي صلى الله عليه وسلم نهىٰ عما قد عملت من الهجرة ، وإنه لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، فلما أكثروا علىٰ عائشة من التذكرة والتحريج . . طفقت تذكر نذرها وتبكي وتقول : إني نذرت ، والنذر شديد ، فلم يزالا بها حتىٰ كلمت ابن الزبير ، وأعتقت في نذرها ذلك أربعين رقبة ، وكانت تذكر نذرها بعد ذلك ، فتبكي حتىٰ تبل دموعها خمارها ، وكانت تسرد الصوم . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ١٤ـ١٥] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : قال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ في (باب التوبة) من « الإحياء » : كتب معاوية إلىٰ عائشة رضي الله عنها : أن اكتبي لي كتاباً توصيني فيه ولا تكثري ، فكتبت إليه : (من عائشة إلىٰ معاوية ، سلام عليك ، **أما بعد** : فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من التمس رضا الناس بسخط الله . . يكله الله إلى الناس ، ومن التمس رضى الله بسخط الناس . . كفاه الله مؤونة الناس » والسلام عليك)[1] .

فانظر إلىٰ فقهها رضي الله عنها كيف تعرضت للآفة التي تكون الولاة بصددها ، وهو مراعاة الناس ، وطلب مرضاتهم .

وكتبت إليه مرة أخرىٰ : (**أما بعد** : فاتق الله ؛ فإنك إن اتقيت الله . . كفاك الله الناس ، وإذا اتقيت الناس . . لم يغنوا عنك من الله شيئاً . والسلام) انتهىٰ [٤/ ٥٥] .

وقال محمد بن جرير الطبري : أخبرنا أبو السائب ، حدثنا وكيع عن هشام ، عن عروة ، عن عائشة رضي الله عنها : أنها كانت تنشد بيت لبيد :

ذهب الذين يعاش في أكنافهم ... وبقيت في خَلْفٍ كجلد الأجرب[2]

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤١٤) .

(٢) **الأكناف** : الجوانب والنواحي ، **والخلَف** ، **والخلْف** : ما جاء من بعد .

وتقول : رحم الله لبيداً ، فكيف لو أدرك من نحن بين ظهرانيهم ؟! وقال عروة : رحم الله عائشة ، فكيف لو أدركت من نحن بين ظهرانيهم ؟! وقال هشام : رحم الله عروة ، فكيف لو أدرك من نحن بين ظهرانيهم ؟! وقال وكيع : رحم الله هشاماً ، فكيف لو أدرك من نحن بين ظهرانيهم ؟! وقال أبو السائب : رحم الله وكيعاً ، فكيف لو أدرك من نحن بين ظهرانيهم ؟! وقال أبو جعفر : رحم الله أبا السائب ، فكيف لو أدرك من نحن بين ظهرانيهم ؟!

ونقول نحن ـ والله المستعان ـ : الأمر أعظم من أن يوصف بحال ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . انتهىٰ .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : وكانت عائشة رضي الله عنها تذكر نذرها بعد ذلك ، فتبكي حتىٰ تبل دموعُها خمارَها ، وكانت تسرد الصوم .

وعن عروة رضي الله عنه قال : كنت إذا غدوت . . أبدأ ببيت عائشة أسلم عليها ، فغدوت يوماً ؛ فإذا هي قائمة تسبح وتقرأ : ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ ، وتدعو وتبكي وترددها ، فقمت حتىٰ أطلت القيام ، فذهبتُ إلى السوق لحاجتي ثم رجعتُ ، فإذا هي قائمة كما هي تصلي [وتبكي] .

وعن عامر قال : كتبت عائشة رضي الله عنها إلىٰ معاوية : (**أما بعد** : فإن العبد إذا عمل بمعصية الله . . عاد حامده من الناس ذاماً) .

وقال عروة : ما رأيت أحداً من الناس أعلمَ بالقرآن ولا بفريضة ولا بحلال ولا بحرام ولا بشعر ولا بحديث العرب ولا بنسب . . من عائشة رضي الله عنها .

وكان يقول لها : يا أماه ؛ لا أعجب من فقهك ؛ أقول : زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أعجب من علمك بالشعر وأيام الناس ؛ أقول : ابنة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وكان أعلمَ الناس ، ولٰكن أعجب من علمك بالطب ، قال : فضربت علىٰ منكبي ، وقالت : أي عرية ؛ إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسقم آخر عمره ، فكانت تقدم عليه وفود العرب من كل وجه ، فتنعت له الأنعات ، فكنت أعالجها ، فمِن ثَمَّ .

وقال الزهري : لو جمع علم عائشة رضي الله عنها إلىٰ علم جميع أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وعلم جميع الناس[1] . . كان علم عائشة أكثرَ .

وعن ذكوان قال : جاء عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يستأذن علىٰ عائشة ، قال : فجئت

---

(١) في « الصفوة » : (النساء) .

وعند رأسها ابن أخيها عبد الله بن عبد الرحمـٰن ، فقلت : هـٰذا ابن عباس يستأذن ، فأكب عليها ابن أخيها ، فقال : هـٰذا ابن عباس يستأذن ، فقالت : دعني من ابن عباس ، فقال : يا أماه ؛ إن ابن عباس من صالحي بنيك يسلم عليك ويودعك ، فقالت : ائذن له ، فأدخلته ، فلما جلس . . قال : أبشري ، فما بينك وبين أن تلقي محمداً صلى الله عليه وسلم والأحبة إلا أن تخرج الروح من الجسد ، كنتِ أحب نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب إلا طيباً ، وسقطت قلادتك ليلة الأبواء فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنزل وأصبح الناس ليس لهم ماء ، فأنزل الله عز وجل : ﴿فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ ، فكان ذلك في سببك ما أنزل الله لهـٰذه الأمة من الرخصة ، وأنزل الله براءتك من فوق سبع سماوات ، جاء به الروح الأمين ، فأصبح ليس مسجداً من مساجد الله يُذكَر اللهُ فيه . . إلا ويتلىٰ فيه آناء الليل وآناء النهار ، فقالت : دعني منك يابن عباس ، فوالذي نفسي بيده ؛ لوددت أني كنت نسياً منسياً .

قال الواقدي : توفيت عائشة رضي الله عنها ليلة الثلاثاء ، لسبع عشرة مضت من رمضان ، سنة ثمان وخمسين ، وهي ابنة ست وستين سنة ، وأوصت أن تدفن بالبقيع مع صواحباتها ، وصلىٰ عليها أبو هريرة ، وكان خليفة لمروان بالمدينة .

وقال هشام بن عروة : مات أبو هريرة وعائشة سنة سبع وخمسين . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ١٥ـ٢٠] .

وروىٰ أبو الفرج ـ رحمه الله ـ في « الحدائق » بسنده : عن النعمان بن بشير قال : جاء أبو بكر رضي الله عنه يستأذن على النبي صلى الله عليه وسلم ، فسمع عائشة وهي رافعة صوتها علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأذن له فدخل ، فقال : يا ابنة أم رومان ـ وتناولها ـ أترفعين صوتك علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟! قال : فحال النبي صلى الله عليه وسلم : بينه وبينها ، قالت : فلما خرج أبو بكر . . جعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول لها ـ يترضاها ـ : « ألا ترين أني قد حلت بين الرجل وبينك ؟ » قال : ثم جاء أبو بكر ، فاستأذن عليه ، فوجدهُ يضاحكها ، قال : فأذن له فدخل ، قال أبو بكر : (يا رسول الله ؛ أشركاني في سلمكما كما أشركتماني في حربكما)[1] انتهىٰ [١/ ٤٤٤] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٧١) .

ومنهن أم المؤمنين :

حفصة بنت عمر بن الخطاب
رضي الله عنهما

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال عمر رضي الله عنه : تأيمت حفصة بعد الهجرة مقدمَ رسول الله صلى الله عليه وسلم من بدر ، فلقيت عثمان بن عفان ، فعرضت عليه حفصة ، فقلت : إن شئت . . أنكحتك حفصة ، قال : سأنظر في ذلك ، فلبثت ليالي ، فلقيني ، فقال : ما أريد أن أتزوج يومي هـٰذا ، قال : فلقيت أبا بكر ، فقلت : إن شئت . . أنكحتك حفصة ، فلم يرجع إلي شيئاً ، وكنت عليه أوجدَ مني علىٰ عثمان ، فلبثت ليالي ، فخطبها إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنكحتها إياه صلى الله عليه وسلم ، فلقيني أبو بكر ، فقال : لعلك وجدت عليَّ حين عرضت علي حفصة ، فلم أرجع إليك شيئاً ؟ قال : قلت : نعم ، قال : فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك شيئاً حين عرضتها علي . . إلا أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرها ، ولم أكن لأفشي سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو تركها . . لنكحتها[1] .

وعن قيس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلق حفصة بنت عمر رضي الله عنهما ، فدخل عليها خالاها (قدامة وعثمان ابنا مظعون) فبكت ، وقالت : والله ؛ ما طلقني من شبع ، وجاء النبي صلى الله عليه وسلم فتجلببت له ، فقال جبريل عليه السلام : راجع حفصة ، فإنها صوامة قوامة ، وإنها زوجتك في الجنة[2] .

توفيت في شعبان سنة خمس وأربعين ، في سلطان معاوية ، وهي ابنة ستين سنة ، وقيل : ماتت في خلافة عثمان في المدينة . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٢٠ـ٢١] .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : وعن عقبة بن عامر قال : لما طلق رسول الله صلى الله عليه

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٨٣) ، **وتأيمت** : أي أصبحت بدون زوج بعد وفاة زوجها .

(٢) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (١/ ٥٥) ، وفي المتن وهْمٌ ؛ لأن عثمان بن مظعون توفي قبل أحد كما مر في ترجمته ، بينما تزوج النبي صلى الله عليه وسلم حفصة بعد أحد ، إثر وفاة زوجها خنيس ، والله أعلم .

وسلم حفصة بنت عمر رضي الله عنهما . . فبلغ ذلك عمر ، فوضع التراب علىٰ رأسه ، وجعل يقول : ما يعبأ الله بعمر بعد هـٰذا ، قال : فنزل جبريل عليه الصلاة والسلام من الغد علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : إن الله يأمرك أن تراجع حفصة ؛ رحمة لعمر .

وعن زيد بن ثابت قال : لما أمرني أبو بكر رضي الله عنه ، فجمعت القرآن . . كتبته في قِطَع الأدم ، وكِسَر الأكتاف والعسب ، فلما مات أبو بكر . . كان عمر كتب ذلك في صحيفة واحدة ، وكانت عنده ، فلما مات . . كانت الصحيفة عند حفصة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم أرسل عثمان إلىٰ حفصة ، فسألها أن تعطيه الصحيفة ، وحلف ليردنَّها إليها فأعطته ، فعرض المصحف عليه فرده إليها ، وطابت نفسه ، وأمر الناس فكتبوا المصاحف . انتهىٰ [« الحلية » ٢/٥١] .

وقال النووي ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ : ولدت حفصة وقريش تبني البيت قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم بخمس سنين .

وأوصىٰ عمر إلىٰ حفصة ، وأوصت حفصة إلىٰ أخيها عبد الله بن عمر ، رضي الله عنهم أجمعين .

وروي لها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ستون حديثاً . انتهىٰ [« التهذيب » ٢/٣٣٩] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهن أم المؤمنين :

زينب بنت جحش
رضي الله عنها

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : أمها : أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنة خمس من الهجرة ، وكانت من المهاجرات الأول . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٢٤] .

وروى الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : عن مذكور مولىٰ زينب بنت جحش رضي الله عنها قالت : خطبني عدة من قريش ، فأرسلت أختي حمنة إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم أستشيره ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أين هي ممن يعلمها كتاب ربها وسنة نبيها صلى الله عليه وسلم ؟ » قالت : ومن هو يا رسول الله ؟ قال : « زيد بن حارثة » قال : فغضبت حمنة غضباً شديداً ، وقالت : يا رسول الله ؛ أتزوج ابنة عمتك مولاك ؟ قالت : وجاءتني فأعلمتني ، فغضبت أشد من غضبها ، فقلت أشد من قولها ، فأنزل الله عز وجل : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ قالت : فأرسلت إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : إني أستغفر الله وأطيع الله ورسوله ، افعل يا رسول الله ما رأيتَ ، فزوجَني زيداً ، فكنت أزرأ عليه[1] ، فشكاني إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعاتبني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم عدت فأخذته بلساني ، فشكاني إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمسك عليك زوجك واتق الله » ، فقال : يا رسول الله ؛ أنا أطلقها ، قالت : فطلقني ، فلما انقضت عدتي . . لم أعلم إلا ورسول الله صلى الله عليه وسلم قد دخل علي بيتي وأنا مكشوفة الشعر ، فعلمت أنه أمر من السماء ، فقلت : يا رسول الله ؛ بلا خطبة ولا إشهاد ؟ فقال : « الله عز وجل المزوج ، وجبريل الشاهد »[2] .

---

(١) أزرأ عليه : أنتقصه .

(٢) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٢٤/ ٣٩) .

وعن أنس بن مالك قال : كانت زينب تفخر علىٰ أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، وتقول : زوجكن أهاليكن ، وإن الله تعالىٰ زوجني من السماء .

وأطعم النبي صلى الله عليه وسلم عليها خبزاً ولحماً .

وعن أنس قال : لما انقضت عدة زينب بنت جحش . . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة : « اذهب ، فاذكرني لها » فلما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم . . عظمت في نفسي ، فذهبت إليها ، فجعلت ظهري إلى الباب ، فقلت : يا زينب ؛ بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرك ، فقالت : ما كنت لأحدث شيئاً حتىٰ أؤامر ربي عز وجل ، فقامت إلىٰ مسجدها ، فأنزل الله عز وجل هـٰذه الآية : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا ﴾ ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل عليها بغير إذن .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كانت زينب بنت جحش هي التي كانت تساميني من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، فعصمها الله عز وجل بالورع ، ولم أر امرأة أكثرَ خيراً وأكثر صدقة وأوصل للرحم وأبذلَ لنفسها في كل شيء يُتقرب به إلى الله عز وجل . . من زينب ، ما عدا سَوْرَةً ؛ من حدَّة كانت فيها توشك منها الفيئة[1] . انتهىٰ [« الحلية » ٢/ ٥١ـ٥٣] .

وقال الإمام النووي ـ قدس الله روحه ـ في ترجمة زينب بنت جحش : وعن عائشة رضي الله عنها ، قالت : يرحم الله زينب بنت جحش ؛ لقد نالت في هـٰذه الدنيا الشرف الذي لا يبلغه شرف ، إن الله عز وجل زوجها نبيه صلى الله عليه وسلم في الدنيا ، ونطق به القرآن ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنا ونحن حوله : « أسرعكن بي لحوقاً . . أطولكن يداً » ، فبشرها رسول الله صلى الله عليه وسلم بسرعة لحوقها به عليه السلام ، وهي زوجته في الجنة ، قالت عائشة رضي الله عنها : فكنا إذا اجتمعنا . . نتطاول ، فلم نزل نفعل ذلك حتىٰ توفيت زينب بنت جحش ولم تكن أطولنا ، فعرفنا حينئذ : أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما أراد بطول اليد الصدقةَ .

وكانت زينب امرأة تعمل بيديها ، وكانت تدبغ وتخرز وتتصدق به في سبيل الله تعالىٰ[2] ، ومناقبها كثيرة .

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد (٦/ ١٥٠) ، ومسلم (٢٤٤٢) ، **والسورة** : عجلة الغضب ، **والحِدَّة** : شدة الخلق وثورانه ، **والفيئة** : الرجعة .

(٢) أخرجه بنحوه ابن حبان (٤/ ٥٥٧) ، والطبراني في « الكبير » (٢٤/ ٥٠) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما أخبرت زينب بتزويج النبي صلى الله عليه وسلم لها . . سجدت شكراً لله سبحانه وتعالىٰ . انتهىٰ [« التهذيب » ٢/ ٣٤٥] .

وروى الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : عن عبد الله بن شداد ، عن ميمونة بنت الحارث زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت : كان النبي صلى الله عليه وسلم في رهط من المهاجرين يقسم ما أفاء الله عليه ، فبعثت إليه امرأة من نسائه وما منهن إلا وهي ذي قرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما عم أزواجه عطيته . . قالت زينب بنت جحش : يا رسول الله ؛ ما من نسائك امرأة إلا وهي تنظر إلىٰ أخيها أو أبيها أو ذي قرابتها عندك ، فاذكرني من أجل الذي زوجنيك ، فأخرق[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم قولها ، وبلغ منه كل مبلغ ، فانتهرها عمر ، فقالت : أعرض عني يا عمر ، فوالله ؛ لو كانت بنتك . . ما رضيت بهـٰذا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أعرض عنها يا عمر ؛ فإنها أواهة » ، فقال رجل : يا رسول الله ؛ ما الأواه ؟ قال : « الخاشع ، الدَّعَّاء ، المتضرع ، ثم قرأ : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة : ١١٤] » .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأزواجه : « أوَّلكن تتبعني . . أطولكن يداً » ، قالت عائشة رضي الله عنها : فكنا إذا اجتمعنا بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . نمد أيدينا في الحائط نتطاول ، فلم نزل نفعل ذلك حتىٰ توفيت زينب بنت جحش ، وكانت امرأة قصيرة ، ولم تكن أطولنا يداً ، فعرفت : أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد بطول اليد الصدقة ، وكانت امرأة صناعاً ، تعمل بيديها وتتصدق به في سبيل الله تعالىٰ[2] .

وعن برة بنت رافع قالت : لما خرج العطاء . . بعث عمر بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه إلىٰ زينب بنت جحش رضي الله عنها بعطائها ، فأُتِيَتْ به ونحن عندها ، قالت : ما هـٰذا ؟ قالوا : أرسل به إليك عمر ، قالت : غفر الله له ، والله ؛ لَغيري من أخواتي كانت أقوىٰ علىٰ قسم هـٰذا مني ، ثم قالت : سبحان الله! وجعلت تستر بينها وبينه بجلبابها أو بثوبها ، تقول : ضعوه[3] ، اطرحوا عليه ثوباً ، ثم قالت لي : أدخلي يدك ، فاقبضي منه قبضة ، واذهبي إلىٰ

---

(١) **خَرِق الرجل** : إذا بقي متحيراً من همٍّ أو شدة .

(٢) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٢٤/ ٥٠) .

(٣) في « الطبقات » لابن سعد (٨/ ١٠٩) : (صبوه) .

فلان بن فلان وإلىٰ فلان بن فلان ، من أهل رحمها وأيتامها ، فقسمته حتىٰ بقيت منه بقية تحت الثوب ، فأخذنا ما تحت الثوب ، فوجدناه بضعة وثمانين درهماً ، ثم رفعت يديها ، ثم قالت : اللهم ؛ لا يدركني عطاء لعمر بعد عامي هـٰذا أبداً .

قال : فماتت ، وكانت أول نساء النبي صلى الله عليه وسلم لحوقا به . انتهىٰ [« الحلية » ٢/٥٣ـ٥٤] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : توفيت سنة عشرين ، وهي بنت ثلاث وخمسين سنة ، رضي الله عنها . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/٢٦] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهن أم المؤمنين :

أم سلمة
رضي الله عنها

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : اسمها : هند بنت أبي أمية ، كانت عند أبي سلمة بن عبد الأسد ، فهاجر بها إلىٰ أرض الحبشة الهجرتين ، ومات أبو سلمة سنة أربع من الهجرة ، فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعن ثابت قال : حدثتني أم سلمة : أن أبا سلمة قال لها : قد سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً أحب إلي من كذا وكذا ، لا أدري ما عدل به ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يصيب أحداً مصيبة فيسترجع عند ذلك ، ويقول : اللهم ؛ عندك أحتسب مصيبتي هـٰذه ، اللهم ؛ آجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها . . إلا أعطاه الله عز وجل ذلك » ، قالت أم سلمة : فلما أصبت بأبي سلمة . . قلت : اللهم ؛ عندك أحتسب مصيبتي هـٰذه ، اللهم ؛ فآجرني فيها ، واخلف لي خيراً منها ، ثم قالت : قلتُ : مَن خير من أبي سلمة ؟ قالت : فلما انقضت عدتي . . أرسل إلي أبو بكر الصديق رضي الله عنه يخطبني فأبيت ، فأرسل إلي عمر رضي الله عنه يخطبني فأبيت ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطبني ، فقلت : مرحباً برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أرسلتُ إليه فقلت : يا رسول الله ؛ أنا امرأة شديدة الغَيرة ، فادع الله عز وجل أن يذهب الغيرة عني ، فلما تزوجها صلى الله عليه وسلم . . كانت في النساء كأنها ليست منهن ، لا تجد ما يجدن من الغيرة بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] .

توفيت رضي الله عنها سنة تسع وخمسين ، وقبرت بالبقيع ، وهي ابنة أربع وثمانين سنة . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٢١ـ٢٢] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرجه أبو يعلىٰ (١٢/ ٣٣٧) .

ومنهن أم المؤمنين :

أم حبيبة
رضي الله عنها

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : اسمها : رملة بنت أبي سفيان ابن حرب ، كانت عند عبيد الله بن جحش ، وهاجر بها إلى الحبشة الهجرة الثانية ، ثم ارتد عن الإسلام وتنصر ، ومات هناك ، وبقيت أم حبيبة علىٰ دينها ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ليخطبها له ، فزوجه إياها ، وأصدق عنه النجاشي أربع مئة دينار ، وبعث بها مع شرحبيل .

وقيل : وكلت خالد بن سعيد بن العاص ، فزوجها ، وذلك في سنة سبع من الهجرة .

قالت أم حبيبة : رأيت في النوم كأن زوجي عبيد الله بن جحش بأسوإ صورة وأشوهها ، ففزعت ، فقلت : تغيرت والله حاله ، فإذا هو يقول حين أصبح : يا أم حبيبة ؛ إني نظرت في الدين ، فلم أر دِينا خيراً من دين النصرانية ، وكنت قد دِنْتُ بها ثم دخلت في دين محمد ، ثم قد رجعت إلى النصرانية ، فقلت : والله ؛ ما هو خير لك ، وأخبرته بالرؤيا التي رأيت ، فلم يحفل بها ، وأكب علىٰ ذلك حتىٰ مات ، فرأيت في النوم كأنه أتاني آت يقول : (يا أم المؤمنين) ففرحت وأولتها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يتزوجني ، قالت : فما هو إلا أن انقضت عدتي ، فما شعرت إلا برسول النجاشي علىٰ بابي يستأذن ، فإذا جارية له يقال لها : أبرهة ، كانت تقوم علىٰ ثيابه ودهنه[1] ، فدخلت عليَّ ، فقالت : إن الملك يقول لك : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلي يخطبك مني ، فقلت : بشَّركِ الله بخير ، قالت : ويقول لك الملك : وكلي من يزوجك ، قالت : فأرسلتُ إلىٰ خالد بن سعيد بن العاص ، فوكَّلْتُه ، وأعطت أبرهة سوارين من فضة ، وخَدَمتين[2] كانتا في رجليها ، وخواتم فضة كانت في أصابع رجليها ؛ سروراً بما بشرتها به ، فلما كان العشي . .

---

(١) يعني : هي المكلفة بذلك .

(٢) **الخَدَمة** : الخلخال .

أمر النجاشي جعفر بن أبي طالب ومن كان هناك من المسلمين ، فحضروا ، فخطب النجاشي فقال :

الحمد لله الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، وأشهد أن لا إلـه إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وأنه الذي بشر به عيسى ابن مريم عليه السلام .

أما بعد : فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إليَّ أن أزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان ، فأجبت إلىٰ ما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أصدقتها عنه أربع مئة دينار . ثم سكب الدنانير بين يدي القوم .

فتكلم خالد بن سعيد فقال : الحمد لله ، أحمده ، وأستعينه ، وأستنصره ، وأشهد أن لا إلـه إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدىٰ ودين الحق ؛ ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

أما بعد : فإني قد أجبت إلىٰ ما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوجته أم حبيبة بنت أبي سفيان ، فبارك الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم أرادوا أن يقوموا ، فقال النجاشي : اجلسوا ؛ فإن سنة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم إذا تزوجوا . . أن يؤكل طعام على التزويج ، فدعا بطعام ، فأكلوا ثم تفرقوا .

قالت أم حبيبة رضي الله عنها : فلما وصل إليَّ المال . . أرسلت إلىٰ أبرهة التي بشرتني ، فقلت لها : إني كنت أعطيتك يومئذ ما أعطيتك ولا مال لي ، فهـٰذه خمسون مثقالاً ، فخذيها واستعيني بها ، فأبت ، وأخرجت حُقّاً فيه كلّ ما أعطيتها ، فردَّته عَلَيَّ وقالت : عزم عليّ الملك أَلاَّ أرزأك شيئاً ، وأنا اليوم أقوم علىٰ ثيابه ودهنه ، وقد اتبعت دين محمد صلى الله عليه وسلم ، وأسلمت لله عز وجل ، وقد أمر الملك نساءه أن يبعثن إليك بكل ما عندهن من العطر ، قالت : فلما كان الغد . . جاءتني بعود وورس وعنبر وزباد كبير ، فقدمت بذلك كله على النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان يراه عليَّ وعندي ولا ينكره ، ثم قالت أبرهة : حاجتي إليك أن تقرئي رسول الله صلى الله عليه وسلم مني السلام ، وتعلميه أني قد اتبعت دينه ، قالت : ثم لطفت بي ، وكانت هي التي جهزتني ، وكانت كلما دخلت عليَّ . . تقول : لا تنسي حاجتي إليك ، قالت : فلما قدمت علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم . . أخبرته كيف كانت الخطبة وما فعلت بي أبرهة من الخدمة ، فتبسَّم صلى الله عليه

وسلم ، وأقرأته السلام منها ، فقال : « وعليها السلام ورحمة الله وبركاته »[1] .

وقال الزهري ـ رحمه الله ـ : لما قدم أبو سفيان بن حرب المدينة . . جاء إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يريد غزاة مكة ، فكلمه أن يزيد في هدنة الحديبية ، فلم يقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام فدخل على ابنته أم حبيبة ، فلما ذهب ليجلس علىٰ فراش النبي صلى الله عليه وسلم . . طوته دونه ، فقال : يا بنية ؛ أرغبت بهـٰذا الفراش عني ؟ أم بي عنه ؟ فقالت : بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت رجل مشرك نجس ، فقال : يا بنية ؛ لقد أصابك بعدي شر . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٢٢ـ٢٤] .

وفي رواية الواسطي[2] **ـ قدس الله روحه ـ** : قالت : ثم خرج أبو سفيان حتىٰ أتىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلمه ، فلم يرُدَّ عليه شيئاً ، ثم ذهب إلىٰ أبي بكر ، فكلمه أن يكلم له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : ما أنا بفاعل ، ثم أتىٰ عمر بن الخطاب فكلمه ، قال : أنا أشفع لكم إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟! فوالله ؛ لو لم أجد إلا الذَّر . . لجاهدتكم عليه ، ثم خرج حتىٰ دخل علىٰ علي بن أبي طالب وعنده فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعندها حسن بن علي غلام يدبُّ بين يديها ، فقال : يا علي ؛ إنك أَمَسُّ القوم بي رحماً ، وإني قد جئت في حاجة ، فلا أرجعن كما جئت خائباً ، فاشفع لي إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ويحك يا أبا سفيان! والله ؛ لقد عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم علىٰ أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه ، فالتفت إلىٰ فاطمة ، فقال : يا ابنة محمد ؛ هل لك أن تأمري بُنَيَّكِ هـٰذا فيجير بين الناس ، فيكون سيد العرب إلىٰ آخر الدهر ؟ قالت : والله ؛ وما بلغ بُنَيَّ ذلك أن يجير بين الناس ، وما يجير أحد علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : يا أبا حسن ؛ إني أرى الأمور قد اشتدت علي فانصحني ، قال : والله ؛ ما أعلم شيئاً يغني عنك ، ولـٰكنك سيد بني كنانة ، فقم فأجر بين الناس ، ثم الحق بأرضك ، قال : أوترىٰ ذلك مغنياً عني شيئاً ؟ قال : لا ، والله ما أظنه ، ولـٰكني لا أجد لك غير ذلك ، فقام أبو سفيان في المسجد فقال : أيها الناس ؛ إني قد أجرت بين الناس ، ثم ركب بعيره ، فانطلق ، فلما قدم علىٰ قريش . . قالوا : ما وراءك ؟ قال : جئت محمداً فكلمته ، فوالله ؛ ما رد عليَّ شيئاً ، ثم جئت ابن أبي قحافة ، فقال :

---

(١) أخرج قصة زواج النبي صلى الله عليه وسلم بأم حبيبة الحاكم (٤/ ٢٢) .

(٢) انظر « السيرة النبوية » لابن هشام (٤/ ٣٩٦ـ٣٩٧) .

ما أنا بفاعل ، ثم جئت ابن الخطاب ، فوجدته أدنى العدو ، ثم أتيت علياً فوجدته ألين القوم ، وقد أشار علي بشيء صنعته ، فوالله ؛ ما أدري هل يغني ذلك شيئاً أم لا ، قالوا : وبما أمرك ؟ قال : أمرني أن أجير بين الناس ففعلت ، قالوا : فهل أجاز ذلك محمد ؟ قال : لا ، قالوا : ويلك! والله ؛ ما أن زاد الرجل علىٰ أن لعب بك ، فما يغني عنك ما قلت ، قال : لا ، والله ما وجدت غير ذلك . انتهىٰ .

وروىٰ **أبو الفرج ـ رحمه الله ـ قال** : قالت عائشة رضي الله عنها : دعتني أم حبيبة عند موتها ، ثم قالت : قد كان يكون بيننا ما يكون بين الضرائر ، فغفر الله لي ولك ما كان من ذلك ، فقلت : غفر الله لك ذلك كله ، وتجاوز عنك ، وحللك من ذلك ، فقالت : سررتيني سرك الله . وأرسلت إلىٰ أم سلمة ، فقالت لها مثل ذلك .

وتوفيت سنة أربع وأربعين في سلطان معاوية . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٢٤] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهن أم المؤمنين :

صفية بنت حيي
رضي الله عنها

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال أهل السير : إن صفية بنت حيي سباها النبي صلى الله عليه وسلم فاصطفاها لنفسه ، فأسلمت ، وأعتقها ، وجعل عتقها صداقها ، وقيل : وقعت في سهم دحية الكلبي ، فاشتراها رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبعة أرؤس .

وعن جابر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتىٰ بصفية يوم خيبر ، وأنه قتل أخاها وزوجها ، فقال لبلال : « خذ بيدها » فأخذها ومَرَّ بها بين القتلىٰ ، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم حتىٰ رُئِيَ في وجهه ، ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليها ، فنزعت شيئاً كانت عليه جالسة ، فألقته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم خيرها بين أن يعتقها فترجع إلىٰ من بقي من قومها ، أو تسلم فيتخذها لنفسه ، فقالت : اخترت الله ورسوله ، فلما كان عند رواحه . . أحقب بعيره[1] ، ثم خرجت تمشي حتىٰ ثنىٰ لها ركبته لتضع قدمها علىٰ فخذه ، فأجلَّت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تضع قدمها علىٰ فخذه ، فوضعت ركبتها علىٰ فخذه فركبت ، ثم ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فألقىٰ عليها كساء ، ثم سارا ، فقال المسلمون : حجبها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتىٰ إذا كان علىٰ ستة أميال من خيبر . . مال يريد أن يعرس بها ، فأبت صفية ، فوجِد النبي صلى الله عليه وسلم في نفسه ، فلما كان بالصهباء . . مال إلىٰ دوحة[2] فطاوعته ، فقال لها : « ما حملك علىٰ إبائك حين أردتُ المنزل الأول ؟ » قالت : يا رسول الله ؛ خشيت عليك قرب يهود . فأعرس بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصهباء ، وبات أبو أيوب ليلته يحرس رسول الله صلى الله عليه وسلم يدور حول خبائه ، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) **أحقب بعيره** : شدَّ عليه الحَقَبَ ، وهو : الحزام الذي يشد به وسط البعير ؛ لئلا يؤذيه التصدير .

(٢) **الدوحة** : الشجرة العظيمة المتسعة ، من أي الشجر كانت .

الوطء[1] . . قال : « من هـٰذا ؟ » قال : أنا خالد بن زيد ، فقال : « ما بالك ؟ » قال : ما نمت هـٰذه الليلة يا رسول الله ؛ مخافة هـٰذه الجارية عليك ، فدعا له ، ثم أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرجوع .

توفيت صفية رضوان الله عليها في سنة خمسين ، وقيل : اثنتين وخمسين ، ودفنت بالبقيع . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٢٧ـ٢٨] .

وقال الشيخ أبو العباس أحمد بن إبراهيم الواسطي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : كانت صفية قد رأت في المنام وهي عروس بكنانة بن الربيع أن قمراً وقع في حجرها ، فعرضت رؤياها علىٰ زوجها ، فقال : ما هـٰذا إلا أنك تتمنين ملك الحجاز محمداً ، فلطم وجهها لطمة خَضَّرَ عينها منها ، فأتي بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وبها أثر منه ، فسألها : « ما هـٰذا ؟ » فأخبرته بما كان من أمر الرؤيا[2] .

وروى الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : عن أنس قال : بلغ صفية : أن حفصة قالت : إنها بنت يهودي ، فبكت ، فدخل عليها النبي صلى الله عليه وسلم وهي تبكي ، فقال : « ما شأنك ؟ » فقالت : قالت لي حفصة : إني بنت يهودي ، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : « إنك لبنت نبي ، وإن عمك لنبي ، وإنك لتحت نبي ، فبما تفتخر عليك ؟ » ثم قال : « اتق الله يا حفصة »[3] انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٥٥] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أي : صوت وطء أقدام أبي أيوب حول الخباء .

(٢) أخرجه الطبري في « التاريخ » (٢/ ١٣٧) .

(٣) أخرجه ابن حبان (٧٢١١) ، وأبوها النبي : هو سيدنا هارون ؛ لأنها من ذريته ، وعمها النبي : موسىٰ ، وزوجها النبي محمد عليهم الصلاة والسلام .

ومنهن أم المؤمنين :

ميمونة بنت الحارث
رضي الله عنها

قال الإمام النووي ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ : تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنة ست من الهجرة ، وقيل : سنة سبع .

قيل : كان اسمها برة ، فسماها رسول الله صلى الله عليه وسلم ميمونة .

روي لها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة وأربعون حديثاً .

ماتت بسرف ، وهو ما بينه وبين مكة عشرة أميال ، قاله ابن قتيبة [في « المعارف » ١٣٧] ، وهو إلىٰ جهة المدينة ، ودفنت هناك ، وبنىٰ بها النبي صلى الله عليه وسلم هناك أيضاً ، توفيت سنة إحدىٰ وخمسين ، قاله خليفة بن خياط وغيره ، وهو الأظهر ، وصلىٰ عليها ابن عباس رضي الله عنهما ، ودخل قبرها هو ويزيد بن الأصم ، وعبد الله بن شداد بن الهاد ، وهم أبناء أخواتها ، وعبيد الله الخولاني ، وكان يتيماً في حجرها .

واسمها مُشْتَقٌّ من اليُمْن ، وهو : البركة ، والميمون : المبارك . انتهىٰ [« التهذيب » ٢/ ٣٥٥ـ٣٥٦] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهن أم المؤمنين :

جويرية بنت الحارث
رضي الله عنها

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قالت عائشة رضي الله عنها : أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم نساء بني المصطلق ، فوقعت جويرية في سهم ثابت بن قيس ، فكاتبها علىٰ تسع أواق ، وكانت امرأة حلوة لا يكاد يراها أحد إلا أخذت بنفسه ، فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم عندي إذ دخلت عليه جويرية تسأله في كتابتها ، فوالله ؛ ما هو إلا أن رأيتها فكرهت دخولها على النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلمت أنه سيرىٰ منها مثل الذي رأيت ، فقالت : يا رسول الله ؛ أنا جويرية بنت الحارث سيد قومه ، وقد أصابني من الأمر ما قد علمت ، فوقعت في سهم ثابت بن قيس ، فكاتبني علىٰ تسع أواق ، فأَعنِّي في كتابتي ، فقال : « أوَ خير من ذلك ؟ » قالت : ما هو ؟ قال : « أؤدي عنك كتابتك وأتزوجك » ، قالت : نعم يا رسول الله ، فقال : « قد فعلت » ، وخرج الخبر إلى الناس ، فقالوا : أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأعتقوا ما في أيديهم من نساء بني المصطلق ، فبلغ عتقهم مئة أهل بيت بتزويجه إياها ، فلا أعلم امرأة أعظم بركة علىٰ قومها منها[1] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : أن جويرية كان اسمها برة ، فحوله رسول الله صلى الله عليه وسلم إلىٰ جويرية ، كره أن يقال : خرج من عند برة .

وعنه عن جويرية قالت : أتىٰ عَلَيَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم غدوة وأنا أسبِّح ، ثم انطلق لحاجته ، ثم رجع قريباً من نصف النهار ، فقال : « ما زلتِ قاعدة ؟ » قلت : نعم ، فقال : « ألا أعلمك كلمات لو عُدِلْنَ بهنَّ . . عَدَلَتْهُنَّ أو لو وُزنَّ بهنَّ وَزَنَتْهُنَّ ـ يعني : جميع ما سبَّحت ـ تقولين : سبحان الله عدد خلقه ، ثلاث مرات ، وسبحان الله زنة عرشه ، ثلاثاً ، سبحان الله رضا نفسه ، ثلاثاً ، سبحان الله مداد كلماته ، ثلاثاً »[2] .

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ٢٨) .

(٢) أخرجه مسلم بنحوه (٢٧٢٦) ، وأخرجه ابن حبان (٨٢٨) ، وأحمد (٦/ ٣٢٤) .

وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم جويرية وهي بنت عشرين سنة ، وتوفيت سنة خمسين ، وفي رواية : سنة ست وخمسين ، وهي بنت خمس وستين سنة ، رحمها الله تعالىٰ . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/٢٦ـ٢٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهن أم المؤمنين :

سودة
رضي الله عنها

قال الإمام النووي ـ قدس الله روحه ـ : سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك ، القرشية ، العامرية ، أم المؤمنين .

كنيتها : أم الأسود .

أسلمت بمكة قديماً ، وبايعت ، وأسلم زوجها[1] ، وخرجا إلى الحبشة مهاجرين في الهجرة الثانية ، ثم قدما مكة ، فمات بها زوجها مسلماً ، فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم في رمضان ، سنة عشر من النبوة ، بعد وفاة خديجة رضي الله عنها وقبل تزويج عائشة رضي الله عنها ، ودخل بها بمكة ، هـٰذا قول ابن إسحاق ، وقتادة ، وأبي عبيدة ، وابن قتيبة ، وغيرهم .

فهي أول امرأة تزوجها بعد خديجة ، قال ابن الأثير : وقاله عقيل عن الزهري .

وروي لها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسة أحاديث .

وروىٰ عنها عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

ماتت في آخر خلافة عمر رضي الله عنه ، هـٰذا قول الأكثرين ، وذكر محمد بن سعد [في « الطبقات » ٨/٥٧] : عن الواقدي : أنها توفيت في شوال ، سنة أربع وخمسين ، والله أعلم .

وقال ابن إسحاق : أول من تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم خديجة ، ثم سودة ، ثم عائشة ، ثم حفصة ، ثم زينب بنت خزيمة أم المساكين ، ثم أم حبيبة ، ثم أم سلمة ، ثم زينب بنت جحش ، ثم جويرية ، ثم صفية ، ثم ميمونة ، رضوان الله عليهن أجمعين . انتهىٰ [« التهذيب » ٢/٣٤٨] .

---

(١) واسمه : السكران بن عمرو العامري .

وقال الواسطي ـ رحمه الله ـ : وكان جميع من تزوج رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ثلاث عشرة ، توفي قبله صلى الله عليه وسلم منهن ثنتان : خديجة بنت خويلد ، وزينب بنت خزيمة ، وثنتان لم يدخل بهما : أسماء بنت النعمان الكندية ، وعمرة بنت يزيد الكلابية ، وأما التسع البواقي.. فتوفين بعده صلى الله عليه وسلم ، وقد تقدم ذكرهن رضوان الله عليهن . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

وأما غير الزوجات : فمنهن :

أم شريك
رضي الله عنها

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : أم شريك ، هي بنت جابر بن حكيم الدوسية .

قال الأكثرون : وهي التي وَهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم فلم يقبلها ، فلم تتزوج حتىٰ ماتت .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : وقع في نفس أم شريك الإسلامُ ، فأسلمت وهي بمكة ، ثم جعلت تدخل علىٰ نساء قريش سرّاً ، فتدعوهن وترغبهن في الإسلام ، حتىٰ ظهر أمرها لأهل مكة ، فأخذوها وقالوا : لولا قومك . . لفعلنا بك وفعلنا ، ولٰكنا سنردك إليهم ، قالت : فحملوني علىٰ بعير ليس تحتي شيء ، ثم تركوني ثلاثاً لا يطعموني ولا يسقوني ، وكانوا إذا نزلوا منزلاً . . أوقفوني في الشمس واستظلوا ، وحبسوا عني الطعام والشراب ، فبينما هم قد نزلوا منزلاً وأوقفوني في الشمس ؛ إذا أنا بأبرد شيء علىٰ صدري ، فتناولته فإذا هو دلو من ماء ، فشربت منه قليلاً ، ثم نزع مني ، فرفع ، ثم عاد ، فتناولته فشربت منه قليلاً ، ثم نزع مني ، فرفع ، ثم عاد ، فتناولته فشربت ، ثم رفع مراراً ، ثم ترك ، فشربت منه حتىٰ رويت ، ثم أَفضْتُ سائره علىٰ جسدي وثيابي ، فلما استيقظوا . . إذا هم بأثر الماء ، فرأوني حسنة الهيئة ، فقالوا لي : انحللتِ فأخذتِ سقاءنا فشربتِ منه ، قلت : لا والله ؛ ولٰكنه كان من الأمر كذا وكذا ، قالوا : لئن كنت صادقة . . فلدينك خير من ديننا ، فلما نظروا إلىٰ أسقِيَتِهم . . وجدوها كما تركوها ، فأسلموا عند ذلك ، وأقبلوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأقبلت معهم .

قال الراوي : ثم وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم بغير مهر ، فقيل : إنه قبلها ودخل عليها . [انتهىٰ « الصفوة » ٢/٢٨] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهن :

فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف
أم علي بن أبي طالب
رضي الله عنهما

قال أهل السير : أسلمت وكانت صالحة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزورها ويقيل عندها في بيتها .

ولما ماتت . . نزع رسول الله صلى الله عليه وسلم قميصه فألبسها إياه .

وقال علي رضي الله عنه : قلت لأمي فاطمة : اِكفي فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم سقاية الماء والذهاب في الحاجة ، وتكفيك خدمة الداخل كالطحين والعجين .

وروى الحافظ ـ رحمه الله ـ : عن عاصم ، عن أنس قال : (لما ماتت فاطمة بنت أسد بن هاشم أم علي بن أبي طالب . . دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس عند رأسها ، وقال : « رحمك الله ، بأبي وأمي ، كنت تجوعين وتشبعينني ، وتعرين وتكسينني ، وتمنعين نفسك طيب الطعام وتطعمينني ، تريدين بذلك وجه الله عز وجل والدار الآخرة » ، ثم أمر أن تغسل ثلاثاً ثلاثاً ، فلما بلغ الماء الذي فيه الكافور . . سكبه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده الكريمة ، ثم خلع رسول الله صلى الله عليه وسلم قميصه وألبسها إياه ، وكفنها فوقه ، ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد وأبا أيوب الأنصاري وعمر بن الخطاب وغلاماً أسود يحفرون قبرها ، فلما بلغوا اللحد . . حفره رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخرج ترابه بيده الكريمة ، فلما فرغ . . دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فاضطجع فيه ، ثم قال : « الحمد لله الذي يحيي ويميت ، وهو حي لا يموت ، اللهم ؛ اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ، ولقنها حجتها ، ووسع عليها مدخلها ، بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي يا أرحم الراحمين » ، وكبر عليها أربعاً وأدخلها اللحد هو

والعباس وأبو بكر الصديق رضي الله عنهم) غريب من حديث عاصم والثوري ، تفرد به روح بن صلاح . انتهىٰ [« الحلية » ٣/ ١٢١] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهن :

أسماء بنت أبي بكر الصديق
رضي الله عنهما

قال حجة الإسلام أبو حامد الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : روي عن أسماء بنت الصديق رضي الله عنهما أنها قالت : تزوجني الزبير وما له في الأرض من مال ولا مملوك ولا شيء غير فرسه وناضحه ، فكنت أعلف فرسه ، وأكفيه مؤنته وأسوسه ، وأدق النوىٰ لناضحه وأعلفه ، وأستقي الماء ، وأخرز غربه وأعجن ، وكنت أنقل النوىٰ علىٰ رأسي من ثلثي فرسخ ، حتىٰ أرسل إلي أبو بكر الصديق الخادم ، فكفاني سياسة الفرس ، فكأنما أعتقني ، ولقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أصحابه ، والنوىٰ علىٰ رأسي ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إخ إخ » لينيخ ناقته ويحملني خلفه ، فاستحييت أن أسير مع الرجال ، فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أني قد استحييت ، فلما جئت الزبير . . ذكرت ذلك له ، أو كما قال[1] . انتهىٰ .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : أسلمت بمكة قديماً ، وهاجرت ، وشقت نطاقها ليلة خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغار ، فجعلت واحداً للسفرة والآخر عصاماً لقربته صلى الله عليه وسلم ، فسميت : ذات النطاقين ، فتزوجها الزبير رضي الله عنه .

وكانت صالحة تَمْرَض المَرْضَة فتعتق كل مملوك لها .

وعن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال : ما رأيت امرأتين قط أجود من عائشة وأسماء رضي الله عنهما ، وجودهما مختلف ، أما عائشة . . فكانت تجمع الشيء إلى الشيء ، حتىٰ إذا اجتمع . . قسمته ، وأما أسماء . . فكانت لا تمسك شيئاً لغد .

وعن عروة قال : دخلت أنا وعبد الله علىٰ أسماء قبل قتل عبد الله بعشر ليال ، وأسماء وجعة ، فقال عبد الله : إن في الموت لراحة ؛ أي : خشي عبد الله أن يقتل فيحزنها ذلك ،

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٤٩٢٦) ، وأخرز : أخيط ، غرب : الدلو العظيم .

فقالت : لعلك تشتهي موتي ؟ . . . ثم ذكر باقيه ، كما مر في ترجمة عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما .

توفيت أسماء بعد ابنها عبد الله بليال ، رضي الله عنهم أجمعين . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٣١ـ٣٢] .

وروى الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : عن عروة قال : دخلت علىٰ أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما وهي تصلي ، فسمعتها وهي تقرأ : ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ ، فاستعاذت ، فقمت وهي تستعيذ ، فلما طال علي . . أتيت السوق ، ثم رجعت وهي في مكانها تستعيذ .

وعن عبد الله بن الزبير ، عن أسماء رضي الله عنها قالت : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج أبو بكر معه . . احتمل أبو بكر ماله كله خمسة آلاف أو ستة آلاف درهم ، قالت : فدخل علينا جدي أبو قحافة ـ وقد ذهب بصره ـ فقال : والله ؛ إني لأراه قد أفجعكم بماله مع نفسه ، قالت : قلت : كلا يا أبت ، قد ترك لنا خيراً كثيراً ، قالت : فأخذت أحجاراً ، فوضعتها في كوة البيت كان أبي يضع فيها ماله ، ثم وضعت عليها ثوباً ، ثم أخذت بيده ، فقلت : ضع يدك يا أبت علىٰ هـٰذا المال ، قالت : فوضع يده ، فقال : لا بأس ، إن كان ترك لكم هـٰذا . . فقد أحسن ؛ ففي هـٰذا لكم بلاغ ، قالت : والله ؛ ما ترك لنا شيئاً ، ولـٰكني أردت أن أسكِّن الشيخ بذلك .

وعن أسماء أيضاً قالت : (لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر . . أتانا نفر من قريش فيهم أبو جهل ، فوقفوا علىٰ باب أبي بكر ، فخرجت إليهم ، فقالوا : أين أبوك يا ابنة أبي بكر ؟ قالت : فقلت : لا أدري والله أين أبي ، قالت : فرفع أبو جهل يده ـ وكان فاحشاً خبيثاً ـ فلطم خدي لطمة خر منها قرطي ، قالت : ثم انصرفوا) .

وعن عبد الله بن أبي مليكة قال : أتيت أسماء بعد قتل ابنها عبد الله ، فقالت : بلغني أنهم صلبوا عبد الله منكساً ، فلوددت أني لا أموت حتىٰ يُدفع إليَّ فأغسله وأحنِّطه وأكفِّنه ثم أدفنه ، فلم يلبثوا أن جاء كتاب عبد الملك أن يدفع إلىٰ أهله ، فأتي به أسماء ، فغسَّلته وطيَّبته وحنَّطته ثم دفنته ، قال أيوب : فحسبت أنها عاشت بعد ذلك ثلاثة أيام .

وعن القاسم بن محمد قال : جاءت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما مع جوار لها ـ وقد ذهب بصرها ـ فقالت : أين الحجاج ؟ قلنا : ليس هو هـٰهنا ، قالت : فمروه فليأمر لنا

بهـٰذه العظام ؛ فإني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم ينهىٰ عن المثلة ، قلنا : إذا جاء . . قلنا له ، قالت : إذا جاء . . فأخبروه ؛ فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن في ثقيف كذاباً ومبيراً »[1] . انتهىٰ [« الحلية » ٢/ ٥٥ـ٥٧] . .

وقال النووي ـ قدس الله روحه ـ : أسلمت قديماً بعد سبعة عشر إنساناً .

وكانت أسماء أسنُّ من عائشة رضي الله عنهما بعشر سنين ، وهي أختها لأبيها ، وكان عبد الرحمـٰن ابن أبي بكر رضي الله عنهما أخا أسماء شقيقها .

وهاجرت إلى المدينة وهي حامل بعبد الله بن الزبير رضي الله عنهم فولدته بعد الهجرة ، فكان أول مولود ولد في الإسلام بعد الهجرة ، وبلغت مئة سنة ، لم يسقط لها سنٌّ ، ولم ينكر من عقلها شيء .

وروي لأسماء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة وخمسون حديثاً .

وروىٰ عنها : ابن عباس ، وابناها ، وعبد الله ابن أبي مليكة ، وغيرهم .

ولها منقبة : أنها وابنها وأباها وجدها أربعة صحابيون ، لا تعرف لغيرهم إلا لمحمد بن عبد الرحمـٰن ابن أبي بكر ابن أبي قحافة ، رضي الله عنهم . انتهىٰ [« التهذيب » ٢/ ٣٢٨ـ٣٢٩] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٤٥) ، **والكذاب** : هو المختار بن أبي عبيد الثقفي ، **والمبير** : المهلِكُ ، وقصدت به الحجاج .

ومنهن :

أم أيمن
رضي الله عنها

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : أَمَ أيمن اسمها : بركة ، مولاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاضنته ، ورثها من أبيه ، فأعتقها حين تزوج خديجة ، فتزوجها عبيد بن زيد من بني الحارث ، فولدت له أيمن ، ثم تزوجها زيد بن حارثة بعد النبوة ، فولدت له أسامة .

وعن عثمان بن القاسم قال : خرجت أم أيمن مهاجرة إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة ، وهي ماشية ليس معها زاد ، وهي صائمة في يوم شديد الحر ، فأصابها عطش شديد ، حتىٰ كادت أن تموت من شدة العطش ، قال : فبينا هي بالروحاء أو ما قاربها . . قالت : إذا أنا بحفيف[1] شيء فوق رأسي ، فرفعت رأسي ، فإذا أنا بدلو من السماء مدلىٰ برشاء أبيض ، قالت : فدنا مني حتىٰ إذا كان من حيث أستمكن منه . . تناولته ، فشربت منه حتىٰ رويت ، قالت : فلقد كنت بعد ذلك في اليوم الحار أطوف في الشمس كي أعطش وما عطشت بعدها .

وعن أنس قال : ذهبت مع النبي صلى الله عليه وسلم إلىٰ أم أيمن نزورها ، فقربت له طعاماً وشراباً ، فإما كان صائماً أو لم يرده ، فجعلت تسأله أن يأكل ، فلم يأكل ، قال : فلما توفي النبي صلى الله عليه وسلم . . قال أبو بكر لعمر رضي الله عنهما : سر بنا إلىٰ أم أيمن نزورها كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزورها ، فلما رأتهما . . بكت ، فقالا لها : ما يبكيك ؟ أما علمت أن ما صار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً مما كان فيه ؟ فقالت : إني أعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد صار إلىٰ خير مما كان فيه ، ولٰكني أبكي لخبر السماء كيف انقطع عنا ، فهيجتهما على البكاء ، فجعلا يبكيان معها .

---

(١) **الحفيف** : صوت الشيء تسمعه كالرنة ، أو الرمية ، أو التهاب النار .

قال الواقدي : حضرت أم أيمن أُحداً ، وكانت تسقي الماء ، وتداوي الجرحىٰ ، وشهدت خيبر ، وتوفيت في أول[1] خلافة عثمان رضي الله عنهما . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/٢٩ـ٣٠] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) في « الصفوة » : (وتوفيت في آخر خلافة عثمان) .

ومنهن :

أم كلثوم
[ابنة عقبة بن أبي معيط]
رضي الله عنها

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : أسلمت بمكة وبايعت قبل الهجرة ، وهي أول من هاجر من النساء بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ؛ هاجرت في هدنة الحديبية .

وعن ربيعة بن عثمان وقدامة قالا : لا نعلم قرشية خرجت من بين أبويها مسلمة مهاجرة . . إلا أم كلثوم .

قالت : كنت أخرج إلىٰ بادية لنا فيها بعض أهلي ، فأقيم فيها الثلاث والأربع ، وهي ناحية التنعيم ، ثم أرجع إلىٰ أهلي ، فلا ينكرون ذهابي في البادية ، حتىٰ أجمعت السير ، فخرجت يوماً من مكة كأني أريد البادية ، فلما رجع من تبعني . . إذا رجل من خزاعة ، قال : أين تريدين ؟ قلت : ما مسألتك ؟ ومن أنت ؟ قال : رجل من خزاعة ، فلما ذكر خزاعة . . اطمأننت إليه ؛ لدخول خزاعة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعقده ، فقلت : إني امرأة من قريش أريد اللحوق برسول الله صلى الله عليه وسلم ولا علم لي بالطريق ، فقال : أنا صاحبك حتىٰ أوردك المدينة ، ثم جاءني ببعير فركبته ، وكان يقود بي البعير ، ولا والله ؛ ما كلمني بكلمة حتىٰ إذا أناخ البعير . . تنحىٰ عني ، فإذا نزلت . . جاء إلى البعير ، فقيده بالشجر ، ثم تنحىٰ إلىٰ فيء شجرة ، حتىٰ إذا كان الرواح . . خرج بالبعير ، فقربه وولىٰ عني ، فإذا ركبته . . أخذ برأسه فلم يلتفت وراءه حتىٰ أنزل ، فلم يزل كذا حتىٰ قدمنا المدينة ، فجزاه الله من صاحب خيراً .

فدخلت علىٰ أم سلمة وأنا متنقبة ، فما عرفتني حتى انتسبت وكشفت النقاب ، فالتزمتني وقالت : هاجرتِ إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قلت : نعم ، وإني أخاف أن يردّني كما رد أبا جندل وأبا بصير ، وحال الرجال ليس كحال النساء ، والقوم مصبِّحيّ ، قد طالت غيبتي عنهم اليوم خمسة أيام منذ فارقتهم ، وهم يتحينون قدر ما كنت أغيب ، ثم يطلبوني ،

فإن لم يجدوني . . رحلوا ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم علىٰ أم سلمة ، فأخبرته خبر أم كلثوم ، فرحَّب بها وسهَّل ، فقالت : إني فررت إليك بديني ، فامنعني ولا ترُدَّني إليهم يفتنونني ويعذبونني ، ولا صبر لي على العذاب ، إنما أنا امرأة ، وضعف النساء إلىٰ ما تعرف ، وقد رأيتك رددت رجلين حتى امتنع أحدهما ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله عز وجل قد نقض العهد في النساء ، وحكم سبحانه وتعالىٰ بحكمٍ رَضُوهُ كلُّهن » ، فقدم أخواها الوليد وعمارة من الغد ، فقالا : أوف لنا شرطنا وما عاهدتنا عليه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قد نقض الله عز وجل ذلك » ، فانصرفا .

وكانت أم كلثوم عاتقاً حينئذ[1] ، فتزوجها زيد بن حارثة ، فلما قتل عنها . . تزوجها الزبير ، فولدت له زينب ، ثم تزوجها عبد الرحمٰن بن عوف ، فولدت له إبراهيم ، ثم تزوجها عمرو بن العاصي ، فماتت عنده رضي الله عنها . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٣٠-٣١] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) المرأة العاتق : البكر الشابة ، التي أدركت وبلغت ، لم تتزوج بعد .

ومنهن :

أم الدرداء
رضي الله عنها

وهما اثنتان .

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : أم الدرداء الكبرىٰ ، تسمىٰ : خيرة بنت أبي حدرد ، زوج أبي الدرداء ، لها صحبة ورواية عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ويقال : إنها ماتت قبل أبي الدرداء .

والصغرى اسمها : هجيمة بنت حيي ، ويقال : جهيمة ، وهي زوجته أيضاً ، وهي التي خطبها معاوية بعد موت أبي الدرداء ، فأبت أن تتزوجه .

وهـٰذه الصغرىٰ لا صحبة لها .

ويروي عنها : ابن أبي المهاجر ، وزيد بن أسلم ، وطلحة بن عبد الله بن كريز ، وصفوان بن عبد الله ، وعثمان بن حيان ، وسالم ابن أبي الجعد ، ويونس بن ميسرة .

وقال عون بن عبد الله : كنا نجلس إليها ، فنذكر الله عز وجل عندها ، ثم نقول لها : لعلنا قد أمللناك ، فتقول : أتزعمون أنكم أمللتموني ؟ فقد طلبت العبادة في كل شيء ، فما وجدت شيئاً أشفىٰ لصدري ، ولا أحرىٰ أن أصيب به الذي أريد . . من مجالس الذكر .

وقال إبراهيم ابن أبي عبلة : قلت لها : اِدعي لي ، قالت : أوَبلغتُ أنا ذلك ؟

وقال يونس بن ميسرة : كنَّا نحضرها ويحضر إليها نساء متعبدات يقمن الليل ، حتىٰ إن أقدامهن قد انتفخت من طول القيام .

وقالت يوماً : هل تعلمون ما يقول الميت علىٰ سريره ؟ فقيل : لا ، قالت : فإنه يقول : يا أهلي ، ويا جيراني ، ويا حملة سريري ؛ لا تغرنكم الدنيا كما غرتني ، ولا تلعبنَّ بكم الدنيا كما لعبت بي ؛ فإن أهلي لا يحملون من أوزاري شيئاً ، ولو حاجُّوني عند الجبار جل جلاله . . لحجوني .

وكانت تقول : (الدنيا أسحر لقلوب العابدين من هاروت وماروت ، وما آثرها عَبْدٌ قط . . إلا صرعته) .

وقال أبو عمران الأنصاري : كنت أقود دابة أم الدرداء فيما بين بيت المقدس ودمشق ، فتقول لي : يا سليمان ؛ انظر إلى الجبال ، وانظر إلىٰ ما وعدها الله عز وجل به ، وارفع صوتك بهـٰذه الآية : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ ﴾ ، إلىٰ غيرها من الآيات .

وقال سعيد بن عبد العزيز : أشرفت أم الدرداء علىٰ وادي جهنم ومعها إسماعيل ابن أبي عبيد[1] ، فقالت : يا إسماعيل ؛ اقرأ : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ ، ثم خرت علىٰ وجهها ، وخر إسماعيل علىٰ وجهه ، فما رفعا رؤوسهما حتى ابتل ما تحت وجوههما من دموعهما .

وتوفيت ابنة لأبي الدرداء ، فصلَّت عليها أم الدرداء ، ثم رجعت من دفنها ، فقالت : اذهبي إلىٰ ربك عز وجل ، وأنا أذهب إلىٰ ربي سبحانه وتعالىٰ ، فدخلت المسجد .

وخطب معاوية أم الدرداء ، فأبت أن تتزوجه ، وقالت : سمعت أبا الدرداء يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المرأة لآخر أزواجها ، أو في آخر أزواجها » ـ أو كما قالت ـ فلست أريد بأبي الدرداء بدلاً[2] .

وكانت تقول : **إنما الوجل في قلب ابن آدم كاحتراق الشعلة ، أمَا يجد لها قشعريرة ؟ قلت**[3] : **بلىٰ ، قالت : فادع الله عز وجل إذا وجدت ذلك ؛ فإن الدعاء يستجاب عند ذلك** . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/٢٠٧ـ٢٠٩] .

وعن سليم بن عامر ، قال : أرسلتني أم الدرداء إلىٰ نوف البكالي وإلىٰ رجل آخر كان يقص في المسجد ، فقالت : قل لهما : اتقيا الله عز وجل ، ولتكن موعظتكما لأنفسكما .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) كذا في النسخ ، وفي « الصفوة » و« تهذيب الكمال » : (٣٠/١٤٣) : (إسماعيل ابن أبي عبيد الله) .
(٢) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٣/ ٢٧٥) .
(٣) القائل هو : شهر بن حوشب راوي الخبر كما في « الصفوة » .

ومنهن :

أسماء بنت عميس
رضي الله عنها

قال النووي ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ : أسماء بنت عميس امرأة أبي بكر الصديق ، وكانت قبله تحت جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ، وهاجرت معه إلىٰ أرض الحبشة ، ثم قتل عنها يوم مؤتة ، فتزوجها الصديق رضي الله عنه ، فمات عنها ، ثم تزوجها علي رضي الله عنه .

وأولادها من جعفر : عبد الله ، ومحمد ، وعون ، ومن أبي بكر الصديق : محمد ، ومن علي : يحيىٰ .

روىٰ عنها من الصحابة : عمر بن الخطاب ، وأبو موسى الأشعري ، وابن عباس ، وابنها عبد الله بن جعفر .

ومن غير الصحابة : عروة بن الزبير وغيره ، رضي الله عنهم أجمعين .

وكانت أسماء أكرم الناس أصهاراً ؛ فمن أصهارها سيد الخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحمزة ، والعباس ، وغيرهم .

قال ابن سعد [في « الطبقات » ٨/ ٢٨٠] : أسلمت قبل دخول النبي صلى الله عليه وسلم دار الأرقم بمكة ، وبايعت ، رضي الله عنها . انتهىٰ [« التهذيب » ٢/ ٣٣٠ـ٣٣١] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : أسلمت بمكة قديماً ، وهاجرت إلىٰ أرض الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه .

وعن أبي موسىٰ قال : بلَغَنا مَخرجُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن باليمن ، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأَخوان لي أنا أصغرهم ، أحدهما : أبو بردة ، والآخر : أبو رهم ـ بالراء المهملة ـ إما قال : في بضع أو ثلاثة وخمسين ، فركبنا سفينة ، فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة ، فوافقنا جعفر بن أبي طالب وأصحابه عنده ، فقال جعفر : إن رسول الله

صلى الله عليه وسلم بعثنا إلىٰ هـٰهنا ، وأمرنا بالإقامة ، فأقيموا معنا ، فأقمنا معه حتىٰ قدمنا جميعاً ، فوافقنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين افتتح خيبر ، فأسهم لنا ، أو قال : أعطانا منها ، وما قسم لأحد غاب عن فتح خيبر منها شيئاً . . إلا لمن شهدها معه ، إلا لأصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحابه ، فسهم لهم معهم ، قال : فكان ناس من الناس يقولون لنا ـ يعني لأصحاب السفينة ـ : سبقناكم بالهجرة ، قال : فدخلت أسماء بنت عميس ، وهي ممن قدم معنا علىٰ حفصة زوج النبي صلى الله عليه وسلم زائرة ، وكانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر إليه ، فدخل عمر علىٰ حفصة ـ وإنها عندها ـ فقال عمر رضي الله تعالىٰ عنه حين رأىٰ أسماء : مَن هـٰذه ؟ قالت : أسماء بنت عميس ، فقال عمر : الحبشية البحرية ؟ فقالت أسماء : نعم ، فقال عمر رضي الله عنه : سبقناكم الهجرة ، فنحن أحق برسول الله صلى الله عليه وسلم منكم ، فغضبت وقالت : يا عمر ؛ كلاَّ ، والله ؛ كنتم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يطعم جائعكم ، ويعظ جاهلكم ، وكنَّا في دار البُعَدَاء البُغَضَاء بالحبشة ، وذلك في الله وفي رسوله ، وايم الله ؛ لا أَطعَم طعاماً ولا أشرب شراباً حتىٰ أذكر ما قلتَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأسأله ، والله ؛ ما أكذب ولا أزيد علىٰ ذلك ، فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم . . قالت : يا نبي الله ؛ إن عمر قال كذا وكذا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فما قلتِ له ؟ » قالت : قلت له كذا وكذا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس بأحق بي منكم ، وله ولأصحابه هجرة واحدة ، ولكم ـ يا أصحاب السفينة ـ هجرتان » ، قالت : فلقد رأيت أبا موسىٰ وأصحاب السفينة يأتونني أرسالاً يسألونني عن هـٰذا الحديث ، ما من الدنيا شيء هم به أفرح ولا أعظم في أنفسهم . . مما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم[1] . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/٣٣ـ٣٤] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٩٠) ، ومسلم (٢٥٠٣) ، وقولها : (في دار البعداء البغضاء) أي : البعداء في النسب ، البغضاء في الدين ؛ لأنهم كفار ، إلا النجاشي ، وكان يستخفي بإسلامه عن قومه ويوري لهم ، أرسالاً : أفواجاً ، فوجٌ بعد فوج .

ومنهن :

أم سليم بنت ملحان
رضي الله عنها

روى الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : عن أنس : أن أبا طلحة خطب أم سليم ، فقالت : يا أبا طلحة ؛ ألست تعلم أن إلـهك الذي تعبد خشبة من نبات الأرض نجرها حبشيُّ بني فلان ؟ قال : بلىٰ ، قالت : أفلا تستحي أن تعبد خشبة من نبات الأرض نجرها حبشي بني فلان ؟! فلئن أسلمت . . لم أرد منك صداقاً غيره ، قال : حتىٰ أنظر في أمري ، فذهب ثم جاء ، فقال : أشهد أن لا إلـه إلا الله وأن محمداً رسول الله ، قالت : يا أنس ؛ زَوِّجْ أبا طلحة . انتهىٰ [« الحلية » ٢/ ٦٠] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : أم سليم : هي الغُميصاء ـ بالصاد المهملة ـ ويقال : الرميصاء[١] ، تزوجها مالك بن النضر ، فولدت له أنس بن مالك ، ثم قتل ، فخطبها أبو طلحة قبل أن يسلم ، فقالت : أمَا إني فيك لراغبة ، وما مثلك يُرَدُّ ، ولـٰكنك رجل كافر وأنا امرأة مسلمة ، فإن تُسْلِمْ . . فذلك مهري لا أسألك غيره ، فأسلم أبو طلحة وتزوجها ، قال ثابت : فما سمعنا بمهر قط كان أكرم من مهر أم سليم .

وعن أنس : أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يدخل بيتاً في المدينة غير بيت أم سليم ، إلاَّ علىٰ أزواجه ، فقيل له ، فقال : « إني أرحمها ، قتل أخوها معي »[٢] .

وعنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل علىٰ أم سليم ، فتبسط له النطع ، فيقيل عندها ، فتأخذ من عرَقه صلى الله عليه وسلم ، فتجعله في طيبها[٣] .

---

(١) **الغمص والرمص** : قذىٰ يابس وغير يابس يكون في أطراف العين .

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٨٩) ، ومسلم (٢٤٥٥) ، وقد ورد أنه كان يدخل بيت أم حرام أيضاً ؟ والجواب عن ذلك : أن أم سليم وأم حرام أختان ، وكانتا تقيمان في دار واحدة . كما قال ابن حجر في « الاستيعاب » (٤/ ٤٤٢) .

(٣) أخرجه البخاري (٥٩٢٥) ، ومسلم (٢٣٣٢) .

وعنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دخلت الجنة ، فسمعت خَشْفَةً بين يدي ؛ فإذا هي الغميصاء أم أنس بن مالك »[١] .

وعنه قال : جاء أبو طلحة يوم حنين ، فقال : يا رسول الله ؛ ألم تر إلىٰ أم سليم معها خنجر ؟! فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما تصنعين به يا أم سليم ؟ » قالت : إن دنا مني أحد . . طعنته[٢] .

وعنه قال : لما كان يوم أحد . . رأيت عائشة وأم سليم وإنهما لمشمرتان ، أرىٰ خَدَمَ سُوقِهما[٣] ، تنقلان القرب علىٰ متونهما ، ثم تفرغانها في أفواه القوم ، ثم ترجعان فتملآنها ، ثم تجيئان فتفرغانها في أفواه القوم[٤] .

وعنه قال : رأىٰ[٥] رسول الله صلى الله عليه وسلم أم سليم تصلي في بيتها تطوعاً ، فقال : « يا أم سليم ؛ إذا صليت المكتوبة . . فقولي : سبحان الله عشراً ، والحمد لله عشراً ، ولا إلـه إلا الله عشراً ، والله أكبر عشراً ، ثم سلي الله تعالىٰ ما شئت ؛ فإنه يقال لك : نعم . . نعم . . نعم »[٦] .

وعنه قال : كان ابن لأبي طلحة يشتكي ، فخرج أبو طلحة ، فقبض الصبي ، فلما رجع أبو طلحة . . قال : ما فعل ابني ؟ قالت أم سليم : هو أسكن مما كان ، فقربت إليه العشاء ، ثم أصاب منها ، فلما فرغ . . قالت : واروا الصبي ، فلما أصبح أبو طلحة . . أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : « أعرَّستم الليلة ؟ » فقال : نعم ، فقال : « اللهم ؛ بارك لهما في ليلتهما » ، فولدت غلاماً ، فقال أبو طلحة : احمله حتىٰ تأتي به النبي صلى الله عليه وسلم ، وبعث معه بتمرات ، فأخذها النبي صلى الله عليه وسلم ، فمضغها ، ثم أخذها من فيه ، فجعلها في فيْ الصبي ، وحنكه ، وسماه عبد الله[٧] .

وعنه قال : مات ابن لأبي طلحة من أم سليم ، فقالت لأهلها : لا تحدثوا أبا طلحة بابنه

---

(١) أخرجه ومسلم (٢٣٣٢) ، وابن حبان (٧١٩٠) ، **والخشفة** : حركة المشي وصوته .
(٢) أخرجه مسلم (١٨٠٩) .
(٣) أي : موضع الخلخال من سوقهما .
(٤) أخرجه البخاري (٢٧٢٤) ، ومسلم (١٨١١) .
(٥) في « الصفوة » : (زار رسول الله صلى الله عليه وسلم أم سليم فصلىٰ في بيتها تطوعاً . . .) .
(٦) أخرجه الديلمي (٥/ ٤٣٨) .
(٧) أخرجه البخاري (٥١٥٣) ، ومسلم (٢١٤٤) .

حتىٰ أكون أنا التي أحدثه ، قال : فجاء ، فقربت له عشاء ، فأكل وشرب ، قال : ثم تصنعت له أحسن ما كانت تصنع قبل ذلك ، فوقع بها ، فلما رأت أنه قد شبع وأصاب منها . . قالت : يا أبا طلحة ؛ أرأيت لو أن قوماً أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم ، ألهم أن يمنعوهم ؟ قال : لا ، قالت : فاحتسب ابنك ، فغضب وقال : تركتيني حتىٰ تلطخت ، ثم أخبرتيني بابني ، فانطلق حتىٰ أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخبره بما كان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بارك الله لكما في ليلتكما » ، قال : فحملت ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفرٍ وهي معه ـ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتى المدينة من سفر . . لا يطرقها طروقاً ـ فدنت من المدينة ، فضربها المخاض ، فاحتبس معها أبو طلحة ، وانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو طلحة : يا رب ؛ إنك تعلم أنه يعجبني أن أخرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خرج ، وأدخل معه إذا دخل ، وقد احتبست بما ترىٰ ، قال : فقالت أم سليم : يا أبا طلحة ؛ ما أجد الذي كنت أجد ، فانطلقا ، قال : وضربها المخاض حين قدما ، فولدت غلاماً ، فقالت لي أمي : يا أنس ؛ لا يرضعه أحد حتىٰ تغدو على النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : فلما أصبحت . . حملته ، فانطلقت به إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فصادفته ومعه ميسم ، فلما رآني . . قال : « لعل أم سليم ولدت » ، قلت : نعم ، فوضع الميسم ، وجئت فوضعته في حجره ، قال : ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعجوة من عجوة المدينة ، فلاكها في فيه حتىٰ ذابت ، ثم قذفها في فيْ الصبي ، فجعل يتلمظ ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « انظروا إلىٰ حب الأنصار التمر » قال : فمسح وجهه ، وسماه عبد الله[1] . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٣٥ـ٣٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٤٤) ، **والميسم** : الحديدة التي يُكوىٰ بها الحيوان ، **ويتلمظ** : أي يدير لسانه في فيه ويحركه .

ومنهن :

السوداء الممتَحَنة
رضي الله عنها

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : عن عطاء ابن أبي رباح قال : قال لي ابن عباس رضي الله عنهما : ألا أريك امرأة من أهل الجنة ؟ قلت : بلىٰ ، قال : هـٰذه المرأة السوداء أتت النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالت : إني أصرع وإني أتكشف ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إن شئت . . صبرت ولك الجنة ، وإن شئت . . دعوت الله لك أن يعافيك » ، قالت : أصبر وأصبر ، ولـٰكن ادع الله لي أَلاَّ أَتَكَشَّفَ ، فدعا لها ، فلم تتكشف بعد ذلك[1] . انتهىٰ [« الحلية » ٢/ ٧٢] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٥٣٢٨) ، ومسلم (٢٥٧٦) ، وأحمد (١/ ٣٤٦) .

قال :

ذِكْرُ شأن المرأة الدينارية
رضي الله عنها

قال ابن إسحاق[1] : ومرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بامرأة من بني دينار قد أصيبت بزوجها وأخيها وأبيها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأُحد ، فلما نُعوا لها . . قالت : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالوا : خيراً يا أم فلان ، هو بحمد الله كما تحبين ، قالت : أرونيه حتىٰ أنظر إليه ، فأشير لها إليه ، حتىٰ إذا رأته . . قالت : كل مصيبة بعدك جلل ؛ أي قليل ، وفي رواية : لا أبالي إذا سلمتَ بمن عطب[2] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) انظر « السيرة النبوية » لابن هشام (٣/ ٩٩) .

(٢) انظر « تاريخ الطبري » (٢/ ٧٤) ، **والجلل** : الشيء العظيم وكذلك الصغير الهين ، وهو من الأضداد في كلام العرب ، والمقصود هنا : كل مصيبة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم يسيرة هينة ، **والعَطَب** : الهلاك .

ذكر جماعة من سادات التابعين

رضي الله عنهم

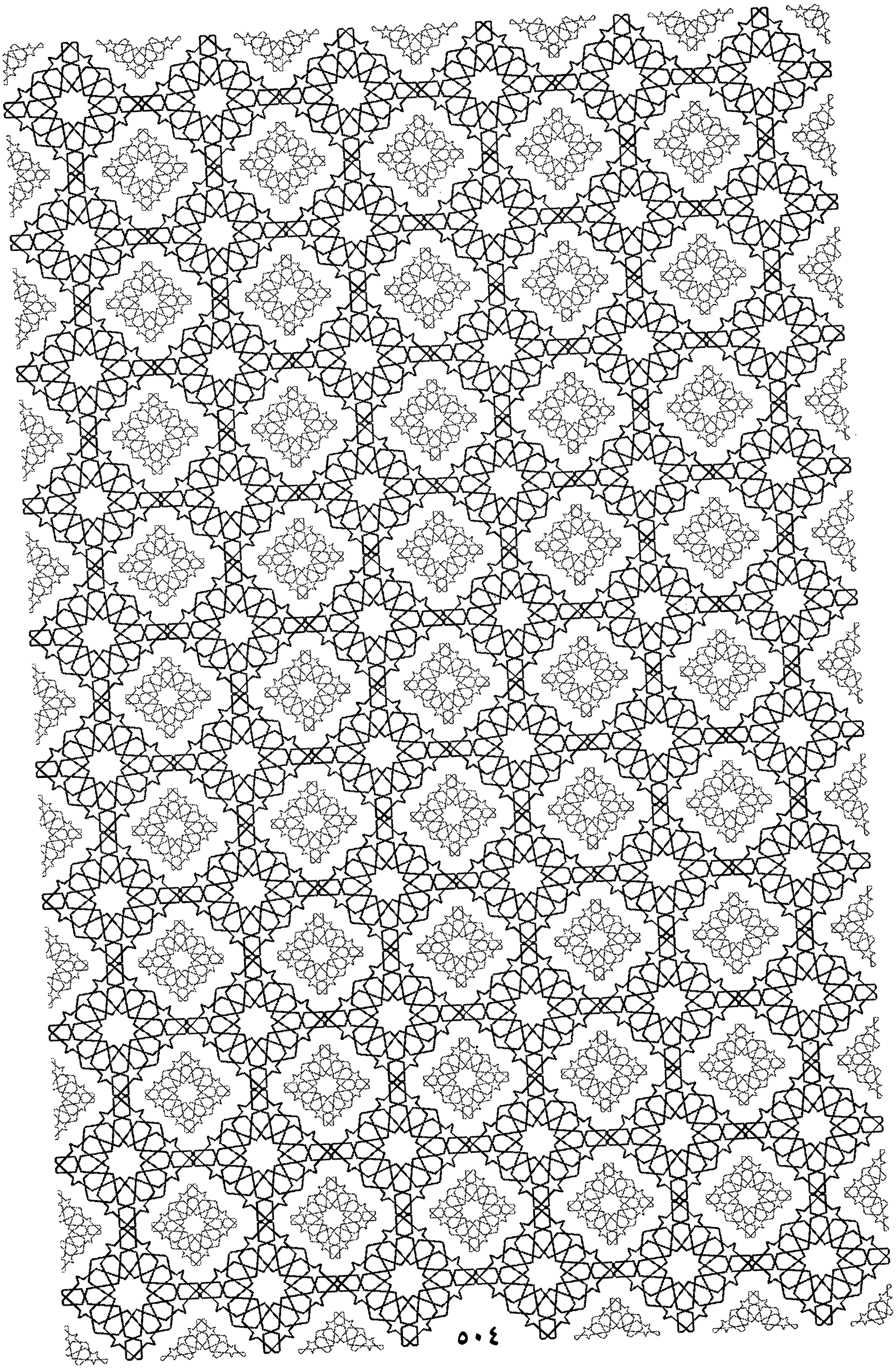

أولهم الإمام :

أويس القَرَني
رضي الله عنه

قال أبو الفرج[1] ـ رحمه الله ـ : أويس بن عامر بن مالك القرني من أهل اليمن ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا أتت إليه وفود أهل اليمن . . سألهم : هل فيكم أويس القرني ؟ حتىٰ أتىٰ علىٰ أويس ، فقال : أنت أويس بن عامر ؟ قال : نعم ، قال : ألك والدة ؟ قال : نعم ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يأتي عليكم أويس بن عامر في أمداد اليمن » ، قال : « من مراد ، ثم من قَرَن ، كان به برص ، فبرىء منه إلا موضع درهم ، له والدة هو بها بر ، لو أقسم على الله . . لأبر قسمه ، فإن استطعت أن يستغفر لك . . فافعل » ، فاستغفِر لي ، فاستغفر له ، فقال عمر رضي الله عنه : أين تريد ؟ قال : الكوفة ، قال : أكتب لك إلىٰ عاملها فليستوصي بك ؟ فقال : لا ، لأَن أكون في غُبَّر الناس[2] . . أحب إليَّ ، فلما كان في العام المقبل . . حج رجل من أشرافهم ، فوافق عمر رضي الله عنه ، فسأله عن أويس ، كيف تركته ؟ قال : تركته رث البيت قليل المتاع ، فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد اليمن » . . . فذكره ، فإن استطعت أن يستغفر لك . . فافعل ، فلما قدم الكوفة . . أتىٰ أويساً ، فقال : استغفر لي ، فقال له : أنت أحدث عهداً مني بسفر صالح ، فاستغفر لي أنت ، فقال له : استغفر لي أنت ، فقال : ألفيتَ عمر رضي الله عنه ؟ قال : نعم ، فاستغفر له ، ففطن له الناس ، فانطلق علىٰ وجهه[3] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله

---

(١) في النسخ : (أبو نعيم) ولعله وهمٌ من النسَّاخ ؛ لأن النص بحرفيته في « الصفوة » ، أما في « الحلية » فقد رواها بروايات مختلفة .

(٢) غُبَّر كل شيء : بقيّته وآخره ، ومعنىٰ غُبَّر الناس : المتأخرين لا المتقدمين المشهورين .

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٤٢) .

تعالىٰ يحب من خلقه الأصفياء ، الأخفياء ، الأبرياء ، الشعثة رؤوسهم ، المغبرة وجوههم ، الخمصة بطونهم ، الذين إذا استأذنوا على الأمراء . . لم يؤذن لهم ، وإن خطبوا المتنعمات . . لم يُنكَحوا ، وإن غابوا . . لم يُفتَقَدوا ، وإن طلعوا . . لم يفرح بطلعتهم ، وإن مرضوا . . لم يعادوا ، وإن ماتوا . . لم يشهدوا » ، قالوا : يا رسول الله ؛ كيف لنا برجل منهم ؟ قال : « ذاك أويس القرني » ، قالوا : وما أويس القرني ؟ قال : « أشهَلُ ، ذو صُهُوبة[1] ، بعيد ما بين المنكبين ، معتدل القامة ، آدم شديد الأدمة ، ضارب بذقنه إلىٰ صدره ، رامٍ ببصره إلىٰ موضع سجوده ، واضع يمينه علىٰ شماله ، يتلو القرآن ، يبكي علىٰ نفسه ، ذو طِمرين ، لا يؤبه له ، متزر بإزار صوف ورداء صوف ، مجهول في أهل الأرض ، معروف في أهل السماء ، لو أقسم على الله تعالىٰ . . لأبر قسمه ، ألا وإن تحت منكبه الأيسر لمعةَ بياض ، ألا وإنه إذا كان يوم القيامة . . قيل للعباد : ادخلوا الجنة ، وقيل لأويس : قف فاشفع ، فيشفعه الله عز وجل في مثل عدد ربيعة ومضر ، يا عمر ، ويا علي ؛ إذا أنتما لقيتماه . . فاطلبا إليه يستغفر لكما يغفر الله لكما » .

قال : فمكثا يطلبانه عشر سنين لا يقدران عليه ، فلما كان آخر السنة التي توفي فيها عمر رضي الله عنه . . قام علىٰ أبي قبيس ، فنادىٰ بأعلىٰ صوته : يا أهل الحجيج من اليمن ؛ أفيكم أويس من مراد ؟ فقام شيخ كبير طويل اللحية ، فقال : إنا لا ندري ما أويس ، ولٰكن ابن أخ لي يقال له : أويس ، وهو أخمل ذِكراً ، وأقل مالاً ، وأهون أمراً من أن نرفعه إليك ، وإنه ليرعىٰ إبلنا ، حقير بين أظهرنا ، فعمَّىٰ عليه عمر كأنه لا يريده ، وقال : أين ابن أخيك هٰذا ؟ أَبِحَرَمِنَا هو ؟ قال : نعم ، قال : وأين يصاب ؟ قال : بأراك عرفات .

قال : فركب عمر وعلي رضي الله عنهما سراعاً إلىٰ عرفات ؛ فإذا هو قائم يصلي إلىٰ شجرة ، والإبل حوله ترعىٰ ، فشدَّا حماريهما ، ثم أقبلا إليه ، فقالا : السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، فخفف أويس الصلاة ، وقال : عليكما السلام ورحمة الله وبركاته ، ثم قالا : مَن الرجل ؟ قال : راعي إبل وأجير قوم ، قالا : لسنا نسألك عن الرعاية ولا عن الإجارة ، ما اسمك ؟ قال : عبد الله ، قالا : قد علمنا أن أهل السماوات والأرض كلهم عبيد لله ، فما اسمك الذي سمتك به أمك ؟ قال : يا هٰذان ؛ ما تريدان بي ؟ قالا : وصَف لنا محمد صلى الله عليه وسلم أويساً القرني ، فقد عرفنا الصهوبة والشهولة ، وأخبرنا أن

---

(١) **أشهل** : أي يشوب سواد عينه زرقة ، **والصُّهُوبة** : الشقرة في شعر الرأس .

تحت منكبك الأيسر لمعة بيضاء ، فأوضِحْها لنا ، فإن كانت بك . . فأنت هو ، فأوضح منكبه ؛ فإذا اللمعة ، فابتدرا يقبلانها ، وقالا : نشهد أنك أويس ، فاستغفر لنا يغفر الله لك ، فقال : ما أخص باستغفاري نفسي ولا أحداً من ولد آدم ، ولـٰكنه في البر والبحر ، في المؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات ، يا هـٰذان ؛ إنه قد شهر الله لكما حالي وعرفكما أمري ، فمن أنتما ؟ قال علي بن أبي طالب : أما هـٰذا . . فعمر أمير المؤمنين ، وأما أنا . . فعلي بن أبي طالب ، فاستوىٰ أويس قائماً ، وقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، وأنت يابن أبي طالب السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، جزاكما الله عن هـٰذه الأمة خيراً ، فقال له : عمر مكانك يرحمك الله ، حتىٰ أدخل مكة فآتيك بنفقة من عطائي وفضل كسوة من ثيابي ، وهـٰذا المكان ميعادٌ بيني وبينك ، قال : يا أمير المؤمنين ؛ لا ميعادَ بيني وبينك ، لا أراك بعد اليوم ، فعرِّفني ما أصنع بالنفقة ؟ ما أصنع بالكسوة ؟ أمَا ترىٰ عليَّ إزاراً من صوف ورداء من صوف ؟! متىٰ تراني أخرقهما ؟! أمَا ترىٰ نعلاي مخصوفتين ؟! متىٰ أخرقهما ؟! أمَا تراني قد أخذت من رَعْيَتي أربعة دراهم ؟! متىٰ تراني آكلهما ؟! يا أمير المؤمنين ؛ إن بين يدي ويديك عقبة كؤوداً ، لا يجاوزها إلا ضامر مخف مهزول ، فأخف رحمك الله .

فلما سمع عمر رضي الله عنه ذلك . . ضرب بِدِرَّتِهِ الأرض ، ثم نادىٰ بأعلىٰ صوته : ألا ليت أم عمر لم تلده ، ليتها كانت عاقراً لم تعالج حملها ، ألا من يأخذها بما فيها ولها ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ؛ خذ أنت هـٰهنا ، حتىٰ آخذ أنا هـٰهنا ، فولىٰ عمر ناحية مكة ، وساق أويس إبله ، فوافى القوم بإبلهم ، وخلا عن الرعاية ، وأقبل على العبادة ، حتىٰ لحق بالله عز وجل[1] .

وقال علقمة : انتهى الزهد إلىٰ ثمانية من التابعين : منهم أويس القرني ، ظن أهله أنه مجنون ، فبنوا له بيتاً علىٰ باب دارهم ، فكانت تأتي عليه السنة والسنون لا يرون له وجهاً ، وكان طعامه مما يلتقطه من النوىٰ ، فإذا أمسىٰ . . باعه لإفطاره .

وقال هرم بن حيان : قدمت الكوفة ، فلم يكن لي هم إلا طلبه ، حتىٰ وجدته جالساً علىٰ شط الفرات نصف النهار يتوضأ ، فعرفته بالنعت الذي نعت لي مهيب المنظر ، فسلمت عليه ، ورد علي السلام ، ونظر إلي ، ومددت يدي لأصافحه ، فأبىٰ أن يصافحني ، فقلت

---

(١) أخرجه القزويني في « التدوين في أخبار قزوين » (١/ ٩٥) .

له : رحمك الله ، وغفر لك ، كيف أنت ؟ وخنقتْني العبرة من حبي إياه ورقتي عليه لما رأيت من رقة حاله ، فبكيت ، وبكىٰ ، ثم قال : وأنت حياك الله يا هرم بن حيان ، كيف أنت يا أخي ؟ من دلَّك علي ؟ قلت : الله ، قال : لا إلـه إلا الله ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ ، فقلت : من أين عرفت اسمي واسم أبي وما رأيتك قبل اليوم ؟ قال : أنبأني العليم الخبير ، عرفت روحي روحك حين كلَّمَتْ نفسك نفسي ، إن المؤمنين يعرف بعضهم بعضاً ، ويتحابون بروح الله ، وإن نأت بهم الدار ، وتفرقت بهم المنازل ، قلت : حدثني رحمك الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : إني لم أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن لي معه صحبة ، بأبي وأمي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولـٰكن قد رأيت رجالاً رأوه ، ولست أحب أن أفتح علىٰ نفسي هـٰذا الباب ، لا أحب أن أكون محدثاً ، أو قاضياً[1] ، أو مفتياً ، في نفسي شغل عن ذلك ، فقلت : اقرأ علي آيات من كتاب الله عز وجل أسمعها منك ، وأوصني بوصية أحفظها عنك ؛ فإني أحبك في الله تعالىٰ ، فأخذ بيدي ، وقال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، قال ربي وأحق القول قول ربي ، وأصدق الكلام كلام ربي ، ثم قرأ : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ * مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ ، فشهق شهقة ، فنظرت إليه كاد أن يغشىٰ عليه ، ثم قال : يابن حيان ؛ مات أبوك ، ويوشك أن تموت ، فإما إلى الجنة ، وإما إلى النار ، ومات أبوك آدم ، وماتت أمك حواء ، ومات نوح نبي الله ، ومات إبراهيم خليل الله ، ومات موسىٰ نجي الله ، ومات داوود خليفة الرحمـٰن ، ومات محمد حبيب الرحمـٰن ، صلى الله عليه وعليهم أجمعين ، ومات أبو بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومات أخي وصديقي عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قلت له : يرحمك الله ، إن عمر لم يمت ، قال : بلىٰ قد نعاه لي ربي عز وجل ، ونعىٰ إلي نفسي ، وأنا وأنت غداً في الموتىٰ ، ثم صلىٰ على النبي صلى الله عليه وسلم ، ودعا بدعوات خفاف ، ثم قال : وصيتي إليك كتاب الله ، ونعي المرسلين ، ونعي صالح المؤمنين ، وعليك بذكر الموت ، ولا يفارق قلبك طرفة عين ما بقيت ، وأنذر قومك إذا رجعت إليهم ، وانصح الأمة جميعاً ، وإياك أن تفارق الجماعة فتفارق دينك وأنت لا تعلم ، فتدخل النار ، ادع لي ولنفسك ، ثم قال : اللهم ؛ إنَّ هـٰذا زعم أنه يحبني فيك ، وزارني من أجلك ، فعرِّفني وجهه في الجنة ، وأدخله علي دار السلام ، واحفظه ما دام في الدنيا حياً ، ورضِّه في الدنيا باليسير ، واجعله

---

(١) كذا جاء في النسخ و« الحلية » ولعل الصواب : قاصّاً ، والله أعلم .

لما أعطيته من نعمك من الشاكرين ، واجزه عني خيراً ، ثم قال : السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، لا أراك بعد اليوم رحمك الله ؛ فإني أكره الشهرة ، والوحدة أحبُّ إليَّ ؛ لأني كثير الغم ما دمت مع الناس حياً ، فلا تسأل عني ولا تطلبني ، واعلم أنك مني علىٰ بال وإن لم أرك وترني ، واذكرني وادع لي ؛ فإني سأدعو لك وأذكرك إن شاء الله ، فانطلق أنت هـٰهنا حتىٰ آخذ أنا هـٰهنا ، فحرصت علىٰ أن أمشي معه ساعة ، فأبىٰ عليَّ ، ففارقته يبكي وأبكي ، فجعلت أنظر إليه حتىٰ دخل بعض السكك ، ثم سألت عنه بعد ذلك وطلبته فلم أجد من يخبرني عنه بشيء ، وما أتت عليَّ جمعة إلا وأنا أراه في منامي مرة أو مرتين . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/ ٢٤ـ٢٧] .

وقال أرباب السير[١] : كان أويس إذا أمسىٰ . . يقول : (هـٰذه ليلة الركوع) فيركع حتىٰ يصبح ، وكان إذا أمسىٰ . . يقول : (هـٰذه ليلة السجود) فيسجد حتىٰ يصبح ، وكان إذا أمسىٰ . . يتصدق بما في بيته من طعام وغيره ، ويقول : اللهم ؛ من بات جائعاً . . فلا تؤاخذني به ، ومن بات عرياناً . . فلا تؤاخذني به .

قالوا : وبلغ من عري أويس : أنه جلس في قوصرة[٢] ، وكان يلتقط الكِسَرَ من المزابل ، فيغسلها ، فيأكل بعضها ، ويتصدق ببعضها ، ويقول : اللهم ؛ إني أبرأ إليك من كل ذي كبد جائع .

وقال هرم بن حيان لأويس : أوصني ، قال : توسد الموت إذا نمت ، واجعله نصب عينيك إذا قمت ، وادع الله أن يصلح قلبك ويثبتك ، فلم تعالج شيئاً أشد عليك منه ، بينا هو مقبل إذا هو مدبر ، وبينا هو مدبر إذا هو مقبل ، ولا تنظر في صغر الخطيئة ، ولـٰكن انظر إلىٰ عظمة من عصيت .

وقال : **الدعاء بظهر الغيب أفضل من الزيارة واللقاء ؛ لأنهما قد يعرض فيهما التزين والرياء** .

وقال عبد الله بن مسلمة[٣] : غزونا أذربيجان زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ومعنا أويس القرني ، فلما رجعنا . . مرض ، فحملناه ، فلم يستمسك ، ومات ، فنزلنا ،

---

(١) انظر « الصفوة » (٣/ ٢٦ـ٢٧) .

(٢) **القَوْصَرَّة** : وعاء للتمر من قصب .

(٣) كـذا في النسخ ، وفي « الحلية » : (عبد الله بن سلمة) ولعله الأصح كما في « تهذيب الكمال » (١٥/ ٥١) .

فإذا قبر محفور ، وماء مسكوب ، وكفن ، وحنوط ، فغسلناه ، وكفناه ، وصلينا عليه ، ودفناه ، فقال بعضنا لبعض : لو رجعنا ، فعلمنا قبره ، فرجعنا ، فإذا لا قبر ولا أثر .

وروي أنه عاش بعد ذلك زماناً طويلاً ، والله أعلم .

وقال عبد الرحمـٰن ابن أبي ليلىٰ : نادىٰ رجل من أهل الشام يوم صفين : أفيكم أويس القرني ؟ قلنا : نعم ، وما تريد منه ؟ قال : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أويس القرني خير التابعين بإحسان » ، وعطف دابته ، ودخل مع أصحاب علي رضي الله عنه[1] .

وفي رواية : نادىٰ مناد يوم صفين : أفي القوم أويس القرني ؟ فوُجد في قتلىٰ علي رضي الله عنه . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) أخرجه بنحوه أحمد (٣/ ٤٨٠) .

ومنهم الإمام :

عامر بن عبد الله بن قيس[1]
رضي الله عنه

قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : قال علقمة بن مرثد : انتهى الزهد إلىٰ ثمانية : عامر بن عبد الله بن قيس ، وأويس القَرَنيّ ، وهرم بن حيان ، والربيع بن خُثَيْم ، ومسروق بن الأجدع ، والأسود بن يزيد ، وأبي مسلم الخولاني ، والحسن ابن أبي الحسن .

فأما عامر بن عبد الله . . فكان يقول : إلـٰهي ؛ إنك لتعلم أن لو كانت الدنيا لي بحذافيرها ، ثم أمرتني بإخراجها . . لجعلتها لك وفي سبيلك ، إلـٰهي ؛ فهب لي نفسي .

وكان يبكي في مرضه ، فقيل له : ما يبكيك وقد كنت وكنت ؟! فيقول : ما لي لا أبكي ، ومن أحق بالبكاء مني ، والله ؛ ما أبكي حرصاً على الدنيا ، ولا جزعاً من الموت ، ولـٰكن لبعد سفري ، وقلة زادي ، وظمأ الهواجر ، وقيام الليل في الشتاء ، وإني أمسيت في صعود وهبوط ، جنة أو نار ، فلا أدري إلىٰ أيتهما أصير .

وقال : لأجتهدن ، فإن نجوت . . فبرحمة الله سبحانه وتعالىٰ ، وإن دخلت النار . . فلبعد جهدي .

وكان قد فرض علىٰ نفسه كل يوم ألف ركعة ، يقوم عند طلوع الشمس ، فلا يزال قائماً إلى العصر ، ثم ينصرف وقد انتفخت قدماه وساقاه ، فيقول : يا نفس ؛ إنما خلقت للعبادة يا أمارة بالسوء ؛ فوالله ؛ لأعملن بك عملاً لا يأخذ الفراش منك نصيباً .

وكان يقول : أحببت الله عز وجل حباً سهَّل علي كل مصيبة ، ورضاني بكل قضية ، فلا أبالي مع حبي إياه سبحانه وتعالىٰ علىٰ ما أصبحت وعلىٰ ما أمسيت . انتهىٰ [« الحلية » ٢/٨٧ـ٩٠] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : هبط عامر وادياً يقال له : وادي السباع ، وفي الوادي

---

(١) كذا فيما لدينا من النسخ ، وفي « الحلية » و« سير أعلام النبلاء » و« تهذيب الكمال » : (عامر بن عبد الله بن عبد قيس) .

عابد حبشي ، يقال له : حممة ، فانفرد عامر في ناحية وحممة في ناحية ، لا هـٰذا ينصرف إلىٰ هـٰذا ، ولا هـٰذا ينصرف إلىٰ هـٰذا ، أربعين يوماً وليلة ، إذا جاء وقت الفريضة . . صليا جميعاً وأقبلا يتطوعان ، ثم انصرف عامر بعد أربعين يوماً إلىٰ حممة ، فقال : من أنت يرحمك الله ؟ فقال له : دعني وهمي ، قال : أقسمت عليك ، قال : أنا حممة ، قال عامر : لئن كنت حممة الذي ذُكِرْتَ لي . . لأنت أعبد أهل الأرض ، فأخبرني عن أفضل خصلة ؟ قال : إني لمقصر ، لولا مواقيت الصلاة تقطع عني القيام والسجود . . لأحببت أن أجعل عمري راكعاً ووجهي مفترشاً حتىٰ ألقاه ، ولـٰكن الفرائض لا تدعني أفعل ذلك ، فمن أنت يرحمك الله ؟ قال : عامر بن قيس ، قال : إن كنت عامراً الذي ذُكِرْتَ لي . . فأنت أعبد الناس في زمانك ، فأخبرني بأفضل خصلة ؟ قال : إني لمقصر ، ولـٰكن واحدة عظمت هيبة الله عز وجل في قلبي ـ أو قال : في صدري ـ حتىٰ لا أهاب شيئاً غيره ، فاكتنفته السباع ، فأتاه سبع منها ، فوثب عليه من خلفه ، ووضع يده علىٰ منكبه ، وعامر يتلو هـٰذه الآية : ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ ، فذهب السبع ، فقال له حممة : يا عامر ؛ ما هالك ما رأيت ؟ فقال : إني لأستحي من الله عز وجل أن أهاب شيئاً غيره ، وقال حممة رحمه الله : لولا أن الله سبحانه وتعالى ابتلانا بالبطن ، فإذا أكلنا لا بد لنا من الحدث . . ما رآني ربي عز وجل إلا راكعاً أو ساجداً .

وكان يصلي في اليوم والليلة ثمان مئة ركعة ، ويقول : إني لمقصر في العبادة . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/١٠٦ـ١٠٧] .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : مرَّ عامر رحمه الله برجل من أعوان السلطان وهو يجرُّ ذِمِّياً ، والذمي يستغيث به ، فأقبل على الذمي ، فقال : أديت جزيتك ؟ قال : نعم ، فقال : ما تريد منه ؟ قال : أذهب به يكسح[1] دار الأمير ، فقال للذمي : تطيب نفسك له بهـٰذا ؟ قال : يشغلني عن صنعتي ، قال : دعه ، قال : لا أدعه ، قال : دعه ، قال : لا أدعه ، قال : فوضع كساءه ، ثم قال : لا تخفر ذمة محمد صلى الله عليه وسلم وأنا حي ، قال : ثم خلصه منه ، فتراقىٰ ذلك حتىٰ كان سبب تسييره إلى الشام من البصرة ، ولما سُيِّر . . شيعه إخوانه ، فقال : إني داع فأمنوا : اللهم ؛ من وشا بي ، وكذب علي ، وأخرجني من مصري ، وفرق بيني وبين إخواني . . اللهم ؛ أكثر ماله [وولده] ، وأصح جسمه ، وأطل عمره .

---

(١) يكسح : يكنس .

وكان قد سأل ربه عز وجل أن يهون عليه الطهور في الشتاء ، فكان يؤتىٰ بالماء وله بخار .

ومر علىٰ قافلة قد احتبست ، فقال : ما لهم ؟ قالوا : الأسد ، قال : هـٰذا كلب من الكلاب ، فمرَّ به حتىٰ أصاب ثوبه فم الأسد ، ثم قال للقافلة : امضوا ، فلا بأس عليكم إن شاء الله ، فذهبت القافلة ولم يعرض لهم الأسد .

ووقعت نار قريباً من داره ، فقال عامر رحمه الله : هـٰذه مأمورة ، وأقبل علىٰ صلاته ، فلما بلغت النار داره . . عدلت عنها .

وقال مالك بن دينار : رأىٰ رجل في المنام كأن منادياً ينادي : أخبروا الناس أن عامر بن عبد الله يلقى الله سبحانه وتعالىٰ يوم يلقاه ووجهه مثل القمر ليلة البدر .

وقال لِابْنَي عم له : فوضا أمركما إلى الله سبحانه وتعالىٰ . . تستريحا .

وقال له رجل : استغفر لي ، فقال : إنك لتسأل من قد عجز عن نفسه ، ولـٰكن أطع الله ، ثم ادعه . . يستجب لك .

وكانت ابنة عمه يقال لها : عبيدة تصنع له الطعام ، فتأتيه به ، فيخرج به إلىٰ أيتام الحي ، فيدعوهم ، فتقول له ابنة عمه : إنما صنعته لك بيدي لتأكله ، فيقول : أليس إنما أردت نفعي ؟

وكان يقول لها : تعزَّي عن الدنيا بالقرآن ؛ فإنه من لم يتعز بالقرآن عن الدنيا . . تقطعت نفسه على الدنيا حسرات . انتهىٰ [« الحلية » ٢/ ٩١ـ٩٣] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : بعث معاوية إلىٰ عامله : أن انظر عامر بن عبد الله ، فأحسن إذنه ، وأكرمه ، ومره أن يخطِب إِلَىٰ من شاء ، وأمهر عنه من بيت المال ، فأرسل إليه ، فأخبره بذلك ، فقال : فلان أحوج إلىٰ ذلك مني ، رجلاً كان قد أطال الاختلاف إليهم لا يؤذن له ، وقال عن الخِطبة : أنا في الخِطبة دائب ، فقيل : إلىٰ من ؟ قال : إلىٰ من يقبل الفلقة والتمرة ، ثم أقبل علىٰ جلسائه ، وقال : هل منكم من أحد إلا لمالِه من قلبه شعبة ؟ قالوا : اللهم نعم ، قال : هل منكم من أحد إلا لولده من قلبه شعبة ؟ قالوا : اللهم نعم ، قال : والذي نفسي بيده ؛ لأن تختلف الأسنة في جوانحي . . أحب إليَّ من أن أكون هـٰكذا ، أمَا والله ؛ لأجعلنَّ الهم همّاً واحداً ، قال الحسن : وفعل . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/ ١٠٨] .

وروى الحافظ بإسناده قال : كان له مجلس في المسجد فتركه ، فقيل له في ذلك ، فقال : إنه مجلس كثير اللغط والتخليط ، وقد رأيت نفراً من أصحاب النبي صلى الله عليه

وسلم وصحبتهم ، فحدثونا : أن أصفى الناس إيماناً يوم القيامة . . أشدهم محاسبة لنفسه في الدنيا ، وأن أشد الناس فرحاً في الدنيا . . أشدهم حزناً يوم القيامة ، وأن أكثر الناس ضحكاً في الدنيا . . أكثرهم بكاء يوم القيامة ، وحدثونا : أن الله تعالىٰ فرض فرائض ، وسَنَّ سنناً ، وحَدَّ حدوداً ، فمن عمل بفرائض الله وسننه واجتنب حدوده . . دخل الجنة بغير حساب ، ومن عمل بفرائض الله وسننه وركب حدوده ثم تاب . . استقبل الزلازل والشدائد والأهوال ، ثم يدخله الله الجنة ، ومن عمل بفرائض الله وسننه وركب حدوده ثم مات مصرّاً علىٰ ذلك ولقي الله مسلماً : فإن شاء . . غفر له ، وإن شاء . . عذبه .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : كذا رواه عامر موقوفاً ، وهـٰذه الألفاظ قد رويت من غير جهة مرفوعة من حديث أبي الدرداء ، وأبي ثعلبة ، وعبادة بن الصامت ، وغيرهم .

وعن عامر بن عبد الله قال : يُعرَض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات ، فعرضتان حساب ومعاذير ، والعرضة الثالثة تطاير الكتب ، فآخذ بيمينه ، وآخذ بشماله .

وكان عامر رضي الله عنه ممن تخرَّج علىٰ أبي موسى الأشعري رضي الله عنه في النسك والتعبد ، ومنه تلقن القرآن ، وعنه أخذ هـٰذه الطريقة ، رضي الله عنهم أجمعين . انتهىٰ [« الحلية » ٢/٩٣ـ٩٤] .

وروىٰ أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : عن مالك بن دينار ، قال : قالت المرأة التي نزل عليها عامر : مالي أرى الناس ينامون ولا أراك تنام ؟ فقال عامر : إن ذِكر جهنم لا يدعني أن أنام .

وقال : أربع آيات من كتاب الله عز وجل إذا ذكرتهن . . لا أبالي علىٰ ما أصبحت أو أمسيت : ﴿ مَا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ ، و﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾ ، و﴿ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ ، و﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ .

وقال أبو المتوكل الناجي : قال لي عامر : يا أبا المتوكل ؛ عليك بما يرغبك في الآخرة ، ويزهدك في الدنيا ، ويقربك إلى الله سبحانه وتعالىٰ ، قلت : ما هو ؟ قال : تقصر عن الدنيا همك ، وتشحذ إلى الآخرة نيتك ، وتصدق ذلك بفعلك ، فإذا فعلت ذلك . . لم يكن شيء أحب إليك من الموت ، ولا شيء أبغض إليك من الحياة ، فقلت : يا أبا عبد الله ؛ كنت لا أحسبك تحسن مثل هـٰذا ، فقال : كم من شيء كنت أحسنه وددت أني لا أحسنه ، وما يغني عني ما أحسن من الخير إذا لم أعمل به .

وكان يشترط علىٰ رفقائه أن ينفق عليهم بقدر طاقته .

وخرج من البصرة إلى الشام ، ومعه شكوة[1] فيها ماء ، يتوضأ منه للصلاة ، ويشرب منها لبناً إذا شاء .

وكان إذا أصبح . . يقول : اللهم ؛ عمد الناس إلىٰ أسواقهم ، وأصبح كل امرىء منهم له حاجة ، وحاجتي إليك ـ يا رب ـ أن تغفر لي وترحمني .

وكان له رغيفان ، قد جعل عليهما ودكاً[2] ، يتسحر بواحد ، ويفطر بآخر .

وكان يحيي ما بين المغرب والعشاء ، فإذا صلى العشاء . . رجع إلىٰ منزله ، فيتناول أحد رغيفيه ، ثم يهجع هجعة خفيفة ، ثم يقوم ، فإذا أسحر . . تناول رغيفه الآخر ، ثم يشرب شربة من ماء ، ثم يخرج إلى المسجد .

وكان يأخذ عطاءه ، فيجعله في طرف ثوبه ، فلا يلقىٰ مسكيناً يسأله . . إلا أعطاه ، فإذا دخل علىٰ أهله . . رمىٰ به إليهم ، فيعدونها فيجدونها كما أعطيها .

وجلس إليه رجل وهو يصلِّي ، فتجوَّز في صلاته ، ثم أقبل عليه ، وقال : أرحني بحاجتك ؛ فإني أبادَرُ ، فقال له : وما تُبادَرُ ؟ قال : ملك الموت .

وفي رواية : قال : خروج روحي ، رحمك الله .

أدرك الصدر الأول ، وروىٰ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

ولما هبط المسلمون المدائن وجمعوا الأقباض . . أقبل رجل بحُقٍّ[3] فيه جواهر ، [فقال الذين معه : ما رأينا مثل هـٰذا قط] جميع ما عندنا لا يعدله نفاسة ، ولا يقاربه ، فدفعه إليهم ، فقالوا له : هل أخذت منه شيئاً ؟ فقال : أما والله ؛ لولا الله عز وجل . . لما أتيتكم به ، فعرفوا أن للرجل شأناً ، فسألوه من أنت ؟ فلم يخبرهم بنفسه ، ثم عرفوا بعد ذلك أنه عامر بن عبد الله بن قيس ، رضي الله عنه . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/١٠٨ـ١١١] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) **الشكوة** : وعاء من جلد يوضع فيها الماء واللبن ونحوهما .

(٢) **الوَدَك** : دسم اللحم وشحمه الذي يستخرج منه .

(٣) **الحُقُّ** : وعاءٌ صغير ذو غطاء يتخذ من الخشب أو العاج .

ومنهم الإمام :

مسروق
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله : مسروق بن عبد الرحمـٰن سُرِق وهو صغير ، ثم وُجِدَ فسمي : مسروقاً .

وقال مسروق : بحَسْب امرىء من الجهل أن يُعجَبَ بعمله ، وبحسب المؤمن من العلم أن يخشى الله عز وجل .

وقال : إذا بلغ أحدكم أربعين سنة . . فليأخذ من الله عز وجل حذره .

وقيل له : لو قصرتَ عن بعض ما تصنع من العبادة ، قال : لا ، قيل : ولِمَ ؟ قال : حتىٰ تعذرني نفسي إن دخلت جهنم . . لا ألومها ، أمَا سمعت قوله عز وجل : ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ ، إنما لاموا أنفسهم حين صاروا إلىٰ جهنم ، فحيل بينهم وبين ما يشتهون ، وأعيتهم[1] الزَّبانية ، وانقطعت عنهم الأمانيُّ ، ورفعت عنهم الرحمة ، وأقبل كل امرىء منهم يلوم نفسه .

وقال أبو إسحاق ـ رحمه الله ـ : حج مسروق فلم ينم إلا ساجداً علىٰ وجهه حتىٰ رجع .

وكان يصلي حتىٰ تورمت قدماه ، وكان يرخي الستر بينه وبين أهله ، ثم يقبل علىٰ صلاته ويخليهم ودنياهم .

وقال : إن أحسن ما أكون ظناً حين يقول الخادم : ليس في البيت قفيز ولا درهم .

وقال : حقيق بالمرء أن يكون له مجالس يخلو فيها ، ويتذكر ذنوبه ، ويستغفر الله عز وجل منها .

ولما احتضر . . بكىٰ ، فقيل له : ما هـٰذا الجزع ؟! فقال : ما لي لا أجزع وإنما هي

---

(١) في « الصفوة » : (واعتقبتهم) .

ساعة واحدة ، ولا أدري أين يُسلَكُ بي ، بين يدي طريقان ؛ لا أدري إلى الجنة أم إلى النار .

وغشي عليه في يوم صائف وهو صائم ، فقالت له ابنته : أفطر ، قال : ما أردتِ بي ؟ قالت : الرفق ، قال : يا بنية ؛ إنما طلبت الرفق بنفسي في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة .

أسند مسروق عن عمر ، وعلي ، وابن مسعود ، وأُبيّ ، وخباب ، وزيد ، والمغيرة ، وابن عمر ، وعائشة ، ولم يرو عن عثمان ، لٰكنه رآه ، ورأىٰ أبا بكر أيضاً ، رضوان الله عليهم أجمعين .

وكان ابن المديني يقول : لا أقدِّم علىٰ مسروق أحداً من أصحاب عبد الله بن مسعود .

توفي بالكوفة سنة ثلاث وستين ، رحمه الله تعالىٰ . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/١٣ـ١٤] .

وروى الحافظ : عن الشعبي قال : **خرج مسروق إلى البصرة إلىٰ رجل يسأله عن آية ، فلم يجد عنده فيها علماً ، فأُخبِرَ عن رجل آخر بالشام ، فقدم علينا هٰهنا**[1] **، ثم راح إلى الشام إلىٰ ذلك الرجل في طلبها** .

وقال مسروق : **من سره أن يعلم علم الأولين والآخرين والدنيا والآخرة . . فليقرأ (سورة الواقعة)**[2] .

وعن سعيد بن جبير قال : لَقِيَني مسروق فقال : يا سعيد ؛ ما بقي ما يُرغَب فيه إلا أن نعفِّر وجوهنا في التراب .

وكان يقول لأهله : هاتوا كل حاجة لكم فاذكروها قبل أن أقوم إلى الصلاة .

وكان لا يأخذ على القضاء أجراً ، ويتأول هٰذه الآية : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

وأخذ بيد ابن أخ له وارتقىٰ به علىٰ كناسة بالكوفة ، فقال : ألا أريك الدنيا ؟ هٰذه

---

(١) أي : إلى الكوفة .

(٢) قال الذهبي في « السير » (٤/٦٨) : هٰذا قاله مسروق على المبالغة ؛ لعظم ما في السورة من جُمَلِ أمور الدارين .

الدنيا ، أكلوها فأفنوها ، لبسوها فأبلوها ، ركبوها فأنضوها ، سفكوا فيها دماءهم ، واستحلوا فيها محارمهم ، وقطعوا فيها أرحامهم .

وقال : ما من شيء للمؤمن خير من لحد قد استراح من هموم الدنيا ، وأمن من عذاب الله سبحانه وتعالىٰ .

وعن مسروق ، عن عبد الله يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الخبيث لا يكفِّر السيء ، ولٰكن الطيب يكفِّر السيء »[1] انتهىٰ [« الحلية » ٢/ ٩٥ـ٩٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) أخرجه بنحوه أحمد (١/ ٣٨٧) .

ومنهم الإمام :

علقمة بن قيس
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : يكنَّىٰ : أبا شبل ، وهو عم الأسود ، وخال إبراهيم التيمي[1] .

وقال أبو ظبيان : أدركت ما شاء الله من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يسألون علقمة ويستفتونه .

وقال إبراهيم النخعي : كان عبد الله بن مسعود يُشبَّه بالنبي صلى الله عليه وسلم في هديه ودله وسمته ، وكان علقمة يشبه بعبد الله بن مسعود .

وقال مرة بن شراحيل : كان علقمة من الرَّبَّانيين ، وكان يختم القرآن في كل خمس .

وقال المسيب بن رافع : قيل لعلقمة : لو جلست فأقرأت [الناس] القرآن وحدثتهم ، فقال : أكره أن يوطأ عقبي ، وأن يقال : هـٰذا علقمة .

وكان في بيته يعلف غنمه ويفت لهن[2] .

وقيل له : ألا تدخل على السلطان فتشفع ؟ فقال : لا أصيب من دنياهم شيئاً . إلا أصابوا من ديني مثله .

وروىٰ إبراهيم عنه قال : لا تنعوني كنعي الجاهلية ، ولا تؤذنوا بي أحداً ، وأغلقوا الباب ، ولا تتبعني امرأة ، وإن استطعتم أن يكون آخر كلامي لا إلـٰه إلا الله . فافعلوا .

أسند علقمة عن عمر ، وعثمان ، وعلي ، وابن مسعود ، وعائشة ، رضي الله عنهم .

---

(١) كذا جاء في النسخ و« الصفوة » ، والصحيح ـ والله أعلم ـ : أنه إبراهيم النخعي كما جاء في « تهذيب الكمال » و« سير أعلام النبلاء » وغيرهما .

(٢) في « الصفوة » : (يقت لهن) ، قَتَّ الشيء : هيأه ، والفت : أخذ الشيء بالإصبع وتصييره فتاتاً .

توفي بالكوفة سنة إحدىٰ وستين ، وله تسعون[1] سنة . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/ ١٤ـ١٥] .

وروى الحافظ ـ رحمه الله ـ : أن علقمة قرأ على ابن مسعود ، وكان حسن الصوت ، فقال له : رتل فداك أبي وأمي .

وكان علقمة يقول : امشوا بنا نزداد إيماناً ؛ أي : تفقهاً .

ولم يترك علقمة إلا داره وبرذوناً ومصحفه ، وأوصىٰ به لمولىً له كان يقوم عليه في مرضه .

وكان يتروح إلىٰ أهل بيت دون أهل بيته ، يريد بذلك : التواضع .

وقال : ما حفظت وأنا شاب . . فكأني أنظر إليه في ورقة أو قرطاس .

وقال : **إحياء العلم بالمذاكرة** .

وعن إبراهيم : قلت لعلقمة : علمني الفرائض ، قال : أمت جيرانك .

وعن علقمة ، عن عبد الله ، قال : اضطجع رسول الله صلى الله عليه وسلم علىٰ حصير ، فأثر في جلده ، ثم قال : « مالي وللدنيا ، ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ، ثم راح فتركها رغبة »[2] .

وعنه عن عبد الله بن مسعود ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا تكون زاهداً حتىٰ تكون متواضعاً »[3] ، لا أعلم أحداً رفعه من حديث علقمة إلا فرقد السبخي البصري .

وعنه عن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أهلك من كان قبلكم الدينارُ والدرهمُ ، وهما مهلكاكم »[4] انتهىٰ [« الحلية » ٢/ ٩٩ـ١٠٢] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) كذا في نسخة و« الصفوة » و« سير أعلام النبلاء » و« تهذيب الكمال » ، وجاء في بعض النسخ : (سبعون) .

(٢) أخرجه بنحوه الحاكم (٤/ ٣٤٤) .

(٣) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١٠/ ٩٠) .

(٤) أخرجه بنحوه الطبراني في « الكبير » (١٠/ ٩٥) .

ومنهم الإمام :

الأسود بن يزيد النخعي
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : يكنَّىٰ : أبا عمرو ، هو ابن أخي علقمة ، وهو أكبر منه .

وقال إبراهيم : كان الأسود يختم القرآن في رمضان في كل ليلتين ، وفي غير رمضان في ست ليال .

وقال [أبو] إسحاق : حج الأسود ثمانين ما بين حجة وعمرة .

وكان يجهد نفسه في الصوم والعبادة ، حتىٰ يخضر جسده ويصفر .

وكان علقمة يقول له : ويحك! لمَ تعذب هـٰذا الجسد ؟ فيقول : أي علقمة ؛ إن الأمر جدٌّ ، إن الأمر جد .

زاد في رواية : قيل له : يرحمك الله ، لِمَ تعذب نفسك ؟ فقال : راحتها أطلب ، والحبيب جل جلاله يفعل ما يشاء ، والله الذي لا إلـٰه إلا هو ؛ إن الأكوان تعجز عن عبادته حق العبادة ، وعزَّته وجلاله ؛ لو عبدته حَسَبما في ضميري من الخوف وشدَّة المحبة . . لما أمهلت نفسي ساعة واحدة ، ولـٰكنه سبحانه وتعالىٰ هو المالك للنفس ، وقد اشتراها من المؤمنين ، ونهىٰ عن قتلها وإهلاكها ، فلم يمكن التصرف في ملكه بغير إذنه سبحانه وتعالىٰ .

ولما احتضر . . بكىٰ ، فقيل له : ما هـٰذا الجزع ؟! فقال : ما لي لا أجزع ، ومن أحق مني بالجزع ، والله ؛ لو أُتِيت بالمغفرة من الله عز وجل . . لأهمني الحياء منه مما قد صنعت ، إن الرجل ليكون بينه وبين الرجل الذنب الصغير ، فيعفو عنه ، فلا يزال مستحياً منه .

وذهبت إحدىٰ عينيه من الصوم ، وكان يصوم الدَّهر .

أسند عن أبي بكر ، وعمر ، وعلي ، وابن مسعود ، ومعاذ ، وأبي موسىٰ ، وسلمان ، وعائشة ، رضوان الله عليهم أجمعين .

توفي بالكوفة سنة خمس وسبعين . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/ ١٢-١٣] .

وروى الحافظ ـ رحمه الله ـ : عن الأسود ، عن ابن مسعود قال : لو أن أهل العلم صانوا علمهم ووضعوه عند أهله . . لسادوا أهل زمانهم ، ولكن بذلوه لأهل الدنيا ؛ لينالوا من دنياهم ، فهانوا علىٰ أهلها ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من جعل الهموم همّاً واحداً . . كفاه الله تعالىٰ همَّ آخرته ودنياه ، ومن تشعبت به الهموم . . لم يبال الله سبحانه وتعالىٰ في أي أوديتها وقع »[1] غريب من حديث الأسود رحمه الله . انتهىٰ [« الحلية » ٢/ ١٠٥] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٥٧) .

ومنهم الإمام :

الرَّبيع بن خُثَيْم الثوري
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال ابن مسعود رضي الله عنه للربيع بن خثيم : لو رآك رسول الله صلى الله عليه وسلم . . لأحبك .

وكان يقول له : ما رأيتك . . إلا ذكرت المخبتين[1] .

وكان الربيع إذا أتىٰ عبدَ الله بن مسعود . . لم يكن عليه إذن حتىٰ يفرغ كل واحد منهما من صاحبه .

وكان إذا جاء إلىٰ باب عبد الله . . يقول عبد الله للجارية : مَن بالباب ؟ فتقول الجارية : ذاك الشيخ الأعمىٰ .

وكان يقول : أما بعد : فأَعِدَّ زادك ، وجِدَّ في جهازك ، وكن وصي نفسك .

وقال : إن الناس خافوا الله في ذنوب الناس ، وأمنوا منه سبحانه وتعالىٰ علىٰ ذنوبهم .

وقيل له حين أصابه الفالج : لو تداويت ؟ فقال : لقد عرفت أن الدواء حق ، ولٰكني ذكرت عاداً وثموداً وقروناً بين ذلك كثيراً ، كانت فيهم الأوجاع ، وكان لهم الأطباء ، فما بقي المداوي ولا المداوىٰ .

وقال إبراهيم التيمي : أخبرني مَن جالَس الربيع عشرين سنة ، فما سمع منه كلمة تُعاب يوماً ، وما رُئِي متطوعاً في مسجد قومه إلا مرة .

وقال سفيان : أخبرتني سُرِّيَّة الربيع قالت : كان عمل الربيع كله سراً ، كان الرجل إذا جاءه وقد نشر المصحف . . غطاه بكمه .

وقال الربيع : كل ما لا يبتغىٰ به وجه الله . . يضمحل .

---

(١) أخبت إلىٰ ربه : اطمأن إليه ، وقيل : المخبتون : المتواضعون .

وما كان يذكر شيئاً من أمر الدنيا .

وسرق له فرس كان قد أعطي به عشرين ألفاً ، فقالوا : ادع الله تعالىٰ عليه ، فقال : اللهم ؛ إن كان غنياً . . فاغفر له ، وإن كان فقيراً . . فأغنه .

وأصابه حجر فشجه ، فجعل يمسح الدم عن وجهه ، ويقول : اللهم ؛ اغفر له ، فإنه لم يتعمدني .

وكان في الليل إذا وجد غفلة من الناس . . خرج إلى المقابر ، فيقول : يا أهل المقابر ؛ كنا وكنتم ، ثم يحيي الليل كله ، فإذا أصبح . . كان كأنه نُشِرَ من قبره .

وكان يقول : السرائرَ السرائرَ التي تخفىٰ على الناس ، وهي عند الله عز وجل معلومة ، التمسوا دواءهن ؛ فإن دواءهن أن يتوب فلا يعود .

وقال لأصحابه : أتدرون ما الداء والدواء والشفاء ؟ قالوا : لا ، قال : الداء : الذنوب ، والدواء : الاستغفار ، والشفاء : أن يتوب فلا يعود .

وقال بشر : بِتُّ عند الربيع ليلة ، فقام يصلي ، فمر بهـٰذه الآية : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ ، فمكث ليلته يرددها ، حتىٰ أصبح ما يجوزها إلىٰ غيرها ببكاء شديد .

وكان يحيي الليل كله ، ولا يضع جنبه علىٰ فراشه .

وكان بعد ما سقط يهادىٰ بين رجُلين إلىٰ مسجد قومه ، فيقال له : قد أرخص الله عز وجل لك ، فيقول : إنه كما تقولون ، ولـٰكن أسمعه ينادي : حيَّ على الصلاة ، حيَّ على الفلاح ، فمن سمع منكم . . فليجبه ولو حبْواً .

وكان إذا سجد كأنه ثوب مطروح ، تجيء العصافير فتقع عليه .

وقيل له : قتل ابن فاطمة رضوان الله عليهما ، فاسترجع ، ثم تلا هـٰذه الآية : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَـٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ فقيل له : ما تقول ؟ قال : أقول : إلى الله إيابهم وعليه حسابهم .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : بلغني أن الربيع رحمه الله قال : لو كنتُ ـ والعياذ بالله ـ ممن أعان علىٰ قتل الحسين رضي الله عنه ، ثم غفر لي ، وأمر بي إلى الجنة . . لاستحييت أن أدخلها ؛ حياءً من النَّبي صلى الله عليه وسلم .

واللهِ العظيم الذي لا إلـه إلا هو . . لقد صدق .

وكانت أم الربيع تقول : يا بُنَيَّ ، يا ربيع ؛ ألا تنام ؟ فيقول : يا أمَّاه ؛ من جنَّ عليه الليل وهو يخاف البيات . . حق له ألاَّ ينام ، فلما بلغ ورأت ما يلقىٰ من البكاء والسهر . . قالت : يا بني ؛ لعلك قَتلت قتيلاً ، فقال : نعم ، هي نفسي .

وقالت ابنة الربيع : يا أبتاه ؛ ما لي أرى الناس ينامون ولا تنام ؟ قال : إن جهنم لا تدعني أن أنام .

وقالت له ابنته يوماً : أذهب ألعب ؟ فقال : اذهبي فقولي خيراً ، فعل ذلك غير مرة ، فقال له القوم : أصلحك الله ، وما عليك أن تقول لغواً ، قال : وما عليَّ ألاَّ يكتب هـٰذا في صحيفتي .

وجالسه رجل سنين ، قال : فما سألني عن شيء مما فيه الناس ، إلا أنه قال لي مرَّة : أمك حيَّة ؟ وكم لكم مسجد ؟

ولما أصابه الفالج وطال وجعه . . اشتهىٰ لحم دجاج ، فكف نفسه أربعين يوماً ، ثم قال لامرأته : اشتهيت لحم دجاج ، فكففت نفسي ، فقالت : سبحان الله! قد أحله الله عز وجل ، فلأي شيء تكف نفسك عنه ؟ فاشتُريَ له دجاجة بدرهم ودانقين ، فذبحتْها ، وشوتْها ، وخبزتِ الخبز ، ثم جاءت بالخِوَان[1] ، فوضعته بين يديه ، فلما ذهب ليأكل . . قام سائل على الباب ، فقال : تصدقوا عليَّ بارك الله فيكم ، فكفَّ عن الأكل ، وقال لامرأته : خذي هـٰذه فادفعيها إلى السائل ، فقالت : سبحان الله! فقال : افعلي ما آمرك ، فقالت : أنا أصنع ما هو خير له ، وأحب إليه ، قال : وما هو ؟ قالت : نعطيه ثمن هـٰذا ، وتأكل أنت شهوتك ، قال : قد أحسنت ، ائتني بثمنه ، قال : فجاءت بثمن الدجاجة والخبز والأصباغ[2] ، فقال : ضعيه علىٰ هـٰذا وادفعي الجميع إلى السائل .

وقال لأهله : اصنعوا لي خبيصاً[3] ، وكان لا يكاد يشتهي عليهم شيئاً ، قال : فصنعوه ، فأرسل إلىٰ جار له مصاب ، قال : فجعل يأكل ولعابه يسيل ، فقالت له امرأته : ما يدري هـٰذا ما أكل ؟ فقال الربيع : لـٰكن الله عز وجل يدري .

---

(١) **الخوان** : ما يؤكل عليه .

(٢) **الصِّبْغُ** : ما يؤتدم به ، ومنه قوله تعالىٰ في الزيتون : ﴿ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ ﴾ .

(٣) الخبيص : الحلواء من التمر والسمن .

وكان إذا جاءه سائل . . يقول : أعطوه سكَّراً ؛ فإني أحب السكَّر .

وكان يلبس قميصاً بثلاثة دراهم أو أربعة ، فإذا مد كمه . . بلغ ظفره ، وإذا أرسله . . بلغ ساعده ، وإذا رأىٰ بياض القميص . . قال : أي عبد ؛ تواضع لربك عز وجل ، ثم يقول : أي لحيمة ، أي دمية ؛ كيف تصنعان إذا سُيِّرت الجبال ، ودُكَّت الأرض دكاً ، وجاء ربك والملك صفّاً صفّاً ، وجيء يومئذ بجهنم ؟!

وقيل له : لو جالستنا ؟ فقال : لو فارق قلبي ذكر الموت ساعة . . فَسَدَ عليَّ .

وقال بشر : قال الربيع : أنا بعصافير المسجد آنس مني بأهلي .

وكان يكنس الحش[1] بنفسه ، فيقال له في ذلك ، فيقول : إنِّي أحب أن أجد لنفسي من المهنة .

ومرَّ في الحدَّادِين ، فنظر إلىٰ كير ، فصعق .

وكان إذا قيل له : كيف أصبحت يا أبا يزيد ؟ فيقول : أصبحنا ضعفاء مذنبين ، نأكل أرزاقنا ، وننتظر آجالنا .

وكان لا يعطي السائل أقل من رغيف ، ويقول : إني لأستحيي أن أرىٰ في ميزاني أقل من رغيف .

وكان إذا أصبح . . يقول : مرحباً بملائكة الله ، اكتبوا بسم الله الرحمٰن الرحيم ، سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إلٰه إلا الله ، والله أكبر .

وكان يقول في دعائه : أشكوا إليك حاجة لا يحسن بثها إلا إليك .

وكان جالساً علىٰ باب داره ، فجاءه حجر ، فصك جبهته ، فقال : لقد وعظت يا ربيع ، ودخل ، وأغلق الباب ، وما رئِي في ذلك المجلس حتىٰ مات .

وكان يقول : إذا تكلمت . . فاذكر سمع الله إليك ، وإذا هممت . . فاذكر علمه سبحانه وتعالىٰ بك ، وإذا نظرت . . فاذكر نظره إليك جل جلاله ، وإذا تفكرت . . فاذكر اطلاعه عليك ؛ فإنه تبارك وتعالىٰ قال : ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ .

وكان يبكي حتىٰ تبتل لحيته من دموعه ، ثم يقول : أدركنا أقواماً كنا في جنبهم لصوصاً .

أسند عن ابن مسعود ، وغيره .

---

(١) **الحش** : البستان ، وهو أيضاً : مكان قضاء الحاجة .

وتوفي بالكوفة ، في ولاية عبيد الله بن زياد . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/ ٢٩ـ٣٣] .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : لما احتضر الربيع . . بكت ابنته ، فقال : يا بنية ؛ ما تبكين ، قولي : يا بُشراي! لقي أبي الخيرَ .

وقيل لأبي وائل : أنت أكبر أم الربيع ؟ قال : أنا أكبر منه سناً ، وهو أكبر مني عقلاً .

وعنه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً مربعاً ، وخط في وسط الخط خطاً ، وخط خطاً خارجاً من الخط المربع دارة ، وجعل حوله حروفاً ، وخط حولها خطوطاً ، فقال : « المربع : الأجل ، والخط الوسط : الإنسان ، وهـٰذه الدارة الخارجة : الأمل ، وهـٰذه الحروف : الأعراض ، فالأعراض تصيبه من كل مكان ، كلما انفلت من واحدة . . أخذته واحدة ، والأجل قد حال دون الأمل[1] » انتهىٰ [« الحلية » ٢/ ١١٥ـ١١٧] .

وقال العارفون : الأمل يتقسَّم ، والأجل يتبسَّم ، ومن هـٰذا قولهم : يقدِّر المقدِّرون والقضاء يضحك .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٦٠٥٤) ، وكذلك أحمد (١/ ٣٨٥) .

ومنهم الإمام :

هَرِم بن حيَّان
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : بات هرم بن حيان عند حممة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبات ليلته يبكي كلها ، فلما أصبح . . قال له هرم : يا حممة ؛ ما أبكاك ؟ قال : ذكرت ليلة يبعثر ما في القبور ، فيخرج من فيها .

قال : وبات حممة عند هرم ، فبات ليلته يبكي حتىٰ أصبح ، فسأله : ما الذي أبكاك ؟ فقال : ذكرت ليلة تناثر نجوم السماء ، فأبكاني ذلك ، فكانا يصطحبان أحياناً بالنهار ، فيأتيان سوق الريحان ، فيسألان الله تعالى الجنة ، ويدعوان ، ثم يأتيان الحدادين ، فيتعوذان من النار .

وكان هرم يخرج من الليل ، وينادي بأعلىٰ صوته : عجبت من الجنة كيف ينام طالبها ؟! وعجبت من النار كيف ينام هاربها ؟! ثم يقول : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ ، ثم يقرأ (العصر) ، و(ألهاكم التكاثر) ، ثم يرجع .

وكان يقول : أخرجوا الدنيا من قلوبكم ، وأدخلوا الآخرة فيها .

وخرج هرم وعبد الله بن عامر يؤمان الحجاز ، فجعلت أعناق رواحلهما تخالجان الشجر ، فقال هرم لابن عامر : أتحب أنك شجرة من هـٰذا الشجر ؟ فقال ابن عامر : لا والله ، وإنا لنرجو من رحمة الله ما هو أوسع من ذلك ، فقال هرم ـ وكان أفقه الرجلين وأعلمهما بالله ـ : ولـٰكني والله ؛ لوددت أني شجرة من هـٰذا الشجر ، أكلتني هـٰذه الراحلة ، فقذفتني بعراً ، ولم أكابد الحساب يوم القيامة ، إمَّا إلىٰ جنة ، وإمَّا إلىٰ نار ، ويحك يابن عامر! إني أخاف الداهية الكبرىٰ .

وقال مالك بن دينار : استُعمل هَرِم بن حيان فظن أن قومه سيأتونه ، قال : فأمر بنار ، فأوقدت بينه وبين من يأتيه من القوم ، فجاء قومه يسلمون عليه من بعيد ، فقال : مرحباً

بقومي ، ادنوا ، قالوا : والله ؛ ما نستطيع أن ندنو منك ، لقد حالت النار بيننا وبينك ، قال : وأنتم تريدون أن تلقوني في نار أعظم منها ؛ في نار جهنم ، قال : فرجعوا .

وكان يدعو ، ويقول : اللهم ؛ إني أعوذ بك من شر زمان يتمرَّد فيه صغيرهم ، ويأمل فيه كبيرهم ، وتُقَرَّب فيه آجالهم .

وعن أبي نضرة : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعث هرم بن حيان على الخيل ، فغضب علىٰ رجل ، فقال له قولاً شديداً ، ثم أقبل علىٰ أصحابه الحاضرين وقال : لا جزاكم الله خيراً ، ما نصحتموني حين قلت ، ولا كففتموني عن غضبي ، والله ؛ لا أَلِيْ لكم عملاً ، ثم كتب إلىٰ عمر : يا أمير المؤمنين ؛ لا طاقة لي ، فابعث إلىٰ عملك .

وفي رواية : تروني أقول لأخي ما أقول ، ولم ينهني أحد منكم عن ذلك ، اللهم ؛ خلِّفْ رجال السوء لزمان السوء .

ولما احتُضِر . . قيل له : أوصِ ، قال : لا أدري ما أوصي ، ولـٰكن بيعوا درعي ، فاقضوا عني ديني ، فإن لم يف . . فبيعوا غلامي ، وأوصيكم بخواتيم (سورة النحل) : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ إلىٰ آخرها .

وكان إذا رأىٰ أهله يكثرون الضحك . . يأمرهم بالصلاة .

وقال : لو قيل لي إني من أهل النار . . لم أدع العمل ؛ لئلا تلومني نفسي ، فتقول لي : ألا صنعت ، ألا فعلت ؟ انتهىٰ [« الحلية » ٢/١١٩ـ١٢٢] .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : لو قيل : أنت من أهل النار ـ والعياذ بالله تعالىٰ ، وحاشا كرمه جل جلاله ؛ فإنه سبحانه وتعالىٰ عند حسن ظن عبده ، وهو سبحانه وتعالىٰ يعلم حسن ظني به جل جلاله ، وهو أهل التقوىٰ وأهل المغفرة ، وولي الخيرات في الدنيا والآخرة ـ لما تركت العمل تعظيماً للربوبية ، وتحققاً بالعبودية ؛ فإن العبد لا يترك خدمة مولاه لأَجَلِ ضربه له ، بل يدأب ويجتهد في الخدمة كما هو شأن العبيد ، واللهُ مالكٌ سبحانه وتعالىٰ يتصرف في عبده كيف يشاء ، إن وضعه في النار . . فباستحقاقه ؛ لأنه عبده ، فلو عبده علىٰ جفون عينيه أبد الآبدين ودهر الداهرين . . لكان مقصِّراً ، فاستحقَّ النار لتقصيره ، ثم إن الفعل الذي أتىٰ به في طاعته . . هو سبحانه وتعالىٰ أقامه فيه وأقدره عليه ووفق له ، فالمنَّة له سبحانه وتعالىٰ في الأول والآخر ، وهو بكل شيء عليم ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . انتهىٰ .

وقال الحافظ : توفي هرم في يوم صائف شديد الحر ، فلما نفضوا أيديهم عن قبره . . جاءت سحابة تسير ، حتىٰ قامت علىٰ قبره ، فلم تكن أطول منه ولا أقصر منه ، ورشَّتْه حتىٰ روَّتْه ، ثم انصرفت .

وفي رواية : نبت العشب علىٰ قبره من يومه .

وفي رواية : جاءت سحابة ، فأظلت سريره ، فلما دفن . . رشت على القبر ، وما أصابت خارج القبر شيئاً . انتهىٰ [« الحلية » ٢/١٢٢] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

عبد الله أبو مسلم الخَوْلاني
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : كان أبو مسلم عبد الله بن ثُوَب الخَوْلاني إذا جلس عنده أحد فتكلم في شيء من أمر الدنيا . . يتحول عنه .

وقال أبو مسلم : كان الناس ورقاً لا شوك فيه ، وإنهم اليوم شوك لا ورق فيه ، إن تركتهم . . لم يتركوك ، قيل له : فما أصنع ؟ قال : هب عرضك ليوم فقرك ، وخذ شيئاً من لا شيء .

وكان كعب يقول : إن حكيم هـٰذه الأمة : أبو مسلم الخولاني .

وكان لو قيل له : إن جهنم تسعَّر . . لما استطاع أن يزيد في عمله شيئاً .

وعن أبي مسلم ، أنه نادىٰ معاوية وهو جالس علىٰ منبر دمشق فقال :

يا معاوية ؛ إنما أنت قبر من القبور ، إن جئت بشيء . . كان فيك شيء ، وإن لم تجىء بشيء . . فلا شيء لك .

يا معاوية ؛ لا تحسبنَّ الخلافة جمع المال وتفرقته ، وإنما الخلافة العمل بالحق ، والقول بالمعدلة ، وأَخْذُ الناس في ذات الله عز وجل .

يا معاوية ؛ إنا لا نبالي بكدر الأنهار إذا ما صفت لنا رأس عيننا ، وإنك رأس عيننا .

يا معاوية ؛ إيَّاك أن تحيف علىٰ قبيلة من قبائل العرب . . فيذهب حيفك بعدلك .

فلما فرغ أبو مسلم رحمه الله . . قال له معاوية : يرحمك الله ، يرحمك الله .

وكان أبو مسلم من المجدين في العبادة ، وسأل رجل عنه ، فقيل له : إنه في المسجد ، فأتاه ، فوجده راكعاً ، فانتظر انصرافه ، وأحصىٰ ركوعه ، فإذا هو نحواً من ثلاث مئة ركعة أو أربع مئة قبل أن ينصرف ، وكان يصوم في السفر ، فيقال له في ذلك ، فيقول : لو حضر قتال . . لأفطرتُ وتقويتُ علىٰ قتال العدو ، وإن الخيل لا تجري [إلىٰ] الغايات وهي بُدْنٌ ،

إنما تجري وهي ضُمْرٌ ، إن بين أيدينا أياماً لها نعمل .

وكان إسلامه عام حنين ، وقدم إلى المدينة في خلافة أبي بكر رضي الله عنه ، وانتقل إلى الشام في أيام معاوية ، طرحه الأسود بن قيس العنسي المتنبىء في النار ، فلم تضره .

وكان يشبه بالخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام في حاله .

ومرَّ علىٰ دجلة ، فمشىٰ على الماء ، ثم التفت إلىٰ أصحابه ، فقال : هل تفقدون من متاعكم شيئاً فندعو الله عز وجل ؟

وكان إذا غزا أرض الروم فمروا بنهر . . قال اعبروا باسم الله ، ويمر بين أيديهم ، فيمرون في النهر الغمر ، فربما لم يبلغ من الدواب إلا إلى الركب أو بعض ذلك ، فإذا جازوا . . يقول للناس : هل ذهب لكم شيء ؟ مَنْ ذهب له شيء . . فأنا له ضامن ، قال : فألقىٰ بعضهم مخلاة عمداً فلما جازوا . . قال الرجل : مخلاتي وقعت في النهر يا أبا مسلم ، فقال له : اتبعني ، فإذا المخلاة تعلقت ببعض أعواد النهر .

وكان قد علق سوطاً في مسجده ، ويقول : أنا أولىٰ بالسوط من الدواب ، فإذا دَخَلَتْه فترة . . مشق[1] ساقه سوطاً أو سوطين .

وقال لأمِّه : يا أم أبي مسلم ؛ سوِّي رحلك ؛ فإنه ليس علىٰ جسر جهنم معبر .

وعن بعض مشيخة دمشق قال : أقبلنا من الروم متوجهين إلىٰ دمشق فلما مررنا بالعُمَيْر الذي يلي حمص ـ علىٰ نحو أربعة أميال في آخر الليل ـ سمع الراهب الذي في الصومعة كلامنا ، فاطلع إلينا ، فقال : من أين أنتم يا قوم ؟ فقلنا : ناس من دمشق ، قال : هل تعرفون أبا مسلم ؟ قلنا : نعم ، قال : إذا رأيتموه . . فأقرئوه السلام ، وأعلموه أنا نجده في الكتب رفيق عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام ، وما أظنكم تجدوه حيّاً ، فلما أشرفنا على الغوطة . . بلغنا موته رحمه الله .

وعن شرحبيل ابن أبي مسلم الخولاني قال : تنبأ الأسود بن قيس ابن ذي الحمار العنسي باليمن ، فأرسل إلىٰ أبي مسلم ، فقال له : تشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم ، قال : فتشهد أني رسول الله ، قال : ما أسمع ، قال : فأمر بنار عظيمة ، فأججت له وطرح فيها أبو مسلم ، فلم تضرَّه ، فقال له أهل مملكته : إن تركت هـٰذا في بلادك . . أفسدها عليك ، فأمره بالرحيل ، فقدم المدينة وقد قُبِض رسول الله صلى الله عليه وسلم واستُخلِف أبو بكر

---

(١) مشق ساقه : ضربها بسرعة .

الصديق رضي الله عنه ، فجاء ، فعقل علىٰ باب المسجد ناقته ، وقام إلىٰ سارية من سواري المسجد يصلي إليها ، فبصر به عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فأتاه ، فقال : من أين الرجل ؟ قال : من اليمن ، قال : فما فعل عدو الله بصاحبنا الذي حرقه بالنار فلم تضره ؟ قال : ذاك عبد الله بن ثوب ، قال : نشدتك بالله أأنت هو ؟ قال : نعم ، قال : فقبل ما بين عينيه ، ثم جاء به حتىٰ أجلسه بينه وبين أبي بكر رضي الله عنهم ، وقال : الحمد لله الذي لم يُمِتني حتىٰ أراني في أمة محمد صلى الله عليه وسلم من فُعِل به كما فُعِل بإبراهيم خليل الرحمـٰن عليه أفضل الصلاة والسلام .

وكان أبو مسلم إذا انصرف إلىٰ منزله من المسجد . . كبر علىٰ باب منزله ، فتكبر امرأته ، فإذا كان في صحن الدار . . كبر وتجيبه امرأته ، فإذا بلغ باب بيته . . كبر ، فتجيبه امرأته ، فانصرف ذات ليلة ، فكبر عند باب داره ، فلم يجبه أحد ، فلما كان في الصحن . . كبر ، فلم يجبه أحد ، وكان إذا دخل بيته . . أخذت امرأته رداءه ونعليه ، ثم أتته بطعامه ، قال : فدخل البيت فلم ير فيه سراجاً ، وامرأته جالسة منكِّسة تنكت بعود معها ، فقال لها : ما شأنك ؟ قالت : أنت لك منزلة من معاوية وليس لنا خادم ، فلو سألتَه ، فأخدَمَنا وأعطاك ، فقال : اللهم ؛ من أفسد علي امرأتي . . فأعم بصره ، وكان قد جاءتها امرأة قبل ذلك ، فقالت : زوجك له منزلة من معاوية ، فلو قلت له يسأل معاوية يخدمه ويعطيه . . عشتم ، قال : فبينا تلك المرأة جالسة في بيتها إذ أنكرت بصرها ، فقالت : ما لسراجكم انطفأ ؟ قالوا : لا ، فعرفت ذنبها ، فأقبلت إلىٰ أبي مسلم تبكي ، وتسأله أن يدعو الله عز وجل لها برد بصرها ، قال : فرحمها أبو مسلم ، فدعا الله عز وجل لها ، فرد عليها بصرها .

وكان أبو مسلم يسمي معاوية : الأجير ، فيقول : (أيها الأجير) ، في مخاطبته إياه .

ثم روى الحافظ عن عبد الله الحرسي ـ وكان من حرس عمر بن عبد العزيز ـ قال : دخل أبو مسلم الخولاني علىٰ معاوية ابن أبي سفيان ، فقال : السلام عليك أيها الأجير ، فقال الناس : الأمير ، فقال معاوية : دعوا أبا مسلم ؛ هو أعلم بما يقول ، فقال أبو مسلم : إنما مَثَلُك مَثَلُ رجل استأجر أجيراً ، فولاه ماشيته ، وجعل له الأجر علىٰ أن يحسن الرِّعْيَة ويوفر جزازها وألبانها ، فإن هو أحسن رعيتها ووفر جزازها حتىٰ تلحق الصغيرة وتسمن العجفاء . . أعطاه أجره ، وزاده من قبله زيادة ، وإن هو لم يحسن رِعيتها وأضاعها حتىٰ تهلك العجفاء ، وتعجف السمينة ولم يوفر جزازها وألبانها . . غضب عليه صاحب الأجر ، فعاقبه ، ولم يعطه الأجرة ، فقال معاوية : ما شاء الله لا قوة إلا بالله .

وعن أبي مسلم : أن معاوية خطب الناس وقد حبس العطاء عنهم شهرين أو ثلاثة ، فقال له أبو مسلم : يا معاوية ؛ إن هـٰذا المال ليس بمالك ولا مال أبيك ولا مال أمك ، فأشار معاوية إلى الناس أن امكثوا ، ونزل فاغتسل ورجع ، فقال : أيها الناس ؛ إن أبا مسلم ذكر أن هـٰذا المال ليس بمالي ولا مال أبي ولا مال أمي ، وصدق أبو مسلم ، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الغضب من الشيطان ، والشيطان من النار ، والماء يطفىء النار ، فإذا غضب أحدكم . . فليغتسل »[1] ، اغدوا علىٰ عطاياكم علىٰ بركة الله عز وجل .

وعن أبي مسلم قال : دخلت مسجد دمشق ؛ فإذا فيه نحواً من ثلاثين كهلاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وإذا فيهم شاب أكحل العينين ، براق الثنايا ، لا يتكلم ، فإذا امترىٰ[2] القوم في شيء . . أقبلوا عليه ، فسألوه ، فقلت لجليس لي : مَن هـٰذا ؟ قال : معاذ بن جبل ، فوقع في نفسي حبه ، فكنت معهم حتىٰ تفرقوا ، ثم هَجَّرت[3] إلى المسجد ؛ فإذا معاذ بن جبل قائم يصلِّي إلىٰ سارية ، فصليت ، ثم جلست ، فاحتبيت بردائي ، وجلس ، فسكتُّ لا أكلمه ، وسكت لا يكلمني ، ثم قلت : والله ؛ إني لأحبك ، قال : فيم تحبني ؟ قلت : في الله تبارك وتعالىٰ ، قال : فأخذ بحبوتي ، فجرني إليه هنيهة ، ثم قال : أبشر إن كنت صادقاً ؛ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « المتحابون في جلالي لهم منابر من نور ، يغبطهم النبيون والشهداء » ، قال : فخرجت ، فلقيت عبادة بن الصامت ، فقلت : يا أبا الوليد ؛ ألا أحدثك بما حدثني به معاذ بن جبل في المتحابين ؟ قال : فأنا أحدثك عن النبي صلى الله عليه وسلم يرفعه إلى الرب عز وجل ، قال : (حقت محبتي للمتحابين فيَّ ، وحقت محبتي للمتزاورين فيَّ ، وحقت محبتي للمتباذلين فيَّ ، وحقت محبتي للمتناصحين فيَّ)[4] انتهىٰ [« الحلية » ٢/١٢٣ـ١٣١] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال أبو مسلم رحمه الله : ما طلبت شيئاً من الدنيا قط فوفِّي لي ، حتىٰ لقد ركبت مرة حماراً ، فلم يمش ، فنزلت عنه ، فركبه غيري ، فعدا ، قال : ورأيت في منامي كأن قائلاً قال لي : لا يحزنك ما زويَ عنك من الدنيا ؛ فإنما

---

(١) أخرجه ابن عساكر (٥٩/١٦٩) .

(٢) امترىٰ : شك .

(٣) هجَّرت : جئت في الهاجرة ، وهي منتصف النهار .

(٤) أخرجه أحمد (٥/٢٣٩) ، ولـٰكن فيه : مسجد حمص بدل دمشق .

يفعل الله عز وجل ذلك بأوليائه وأحبائه وأهل طاعته .

وقال : لأَن يولد لي مولود يحسن الله تعالىٰ نباته ، حتىٰ إذا استوىٰ علىٰ شبابه ، وكان علىٰ أعجب ما يكون إلي قبضه الله عز وجل . . أحب إلي من أن تكون لي الدنيا وما فيها .

وكان يقول : لو رأيت الجنة عِياناً . . ما كان عندي من مستزاد ، ولو رأيت النار عياناً . . ما كان عندي من مستزاد .

واختلفوا في وقت وفاته رحمه الله ، فقيل : توفي في زمن معاوية ، وقيل : في سلطنة ابنه يزيد ، والله أعلم . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ١٤٤ـ١٤٥] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : اعلم : أن راوي هـٰذا الحديث عن معاذ رضي الله عنه إنما هو أبو إدريس الخولاني ، وهـٰذا هو الصواب المعروف المقطوع به عند الحُفَّاظ ، وأما رواية الحافظ أبي نعيم له عن أبي مسلم الخولاني . . فإنه وَهَمٌ أو سَبْقُ قلم ، والعلم عند الله سبحانه وتعالىٰ ، وممن رواه عن أبي إدريس الخولاني ـ كما قلنا ـ الحافظ عبد الحق في « أحكامه الكبرىٰ » .

قال الحافظ عبد الحق ـ رحمه الله ـ الطحاوي قال : حدثنا علي بن زيد الفرائضي وفهد بن سليمان والحسن بن عبد الله بن منصور البالسي قالوا : حدثنا محمد بن كثير عن الأوزاعي ، عن يونس بن حلبس ، عن أبي إدريس عائذ الله قال : دخلت مسجد حمص ، فقعدت في حلقة فيها نيف وثلاثون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الرجل منهم يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كذا وكذا ، وينصت الآخرون ، وفيهم فتىً أدعج ، براق الثنايا ، إذا اختلفوا في شيء . . انتهوا إلىٰ قوله ، فلما انصرفت إلىٰ منزلي . . بت بأطول ليلة ، فقلت : جلست في حلقة فيها كذا وكذا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا أعرف منازلهم ، ولا أسماءهم ، فلما أصبحت . . غدوت إلى المسجد ، فإذا الفتى الأدعج قاعد إلىٰ سارية ، فجلست إليه ، فقلت : إني لأحبك لله عز وجل ، فأخذ بحبوتي ، حتىٰ مست ركبتي ركبته ، ثم قال : آللهِ إنك لتحبني لله عز وجل ؟ فقلت : آللهِ إني لأحبك لله عز وجل ، قال : أفلا أخبرك بشيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقلت : بلىٰ ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « المتحابون في الله يظلهم الله عز وجل بظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله » ، قال : فبينا نحن كذلك ؛ إذ مرَّ رجل ممن كان في الحلقة ، فقمت إليه ، فقلت : إن هـٰذا حدثني بحديث عن

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهل سمعته منه ؟ فقال : وما حدثك ؟ ما كان ليحدثك إلاَّ حقاً ، فأخبرته ، فقال : قد سمعت هـٰذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما هو أفضل منه ، سمعته يقول ـ يؤثر عن الله عز وجل ـ : (حقت محبتي للمتحابين فيَّ ، وحقت محبتي للمتواصلين فيَّ ، وحقت محبتي للمتزاورين فيَّ ، وحقت محبتي للمتباذلين فيَّ) ، قلت : من أنت يرحمك الله ؟ قال : عبادة بن الصامت ، قلت : فمن الفتىٰ ؟ قال : معاذ بن جبل .

ذَكَرَ سماع أبي إدريس من معاذ في هـٰذا الحديث عطاءُ بن عبد الله الخراساني ، ويونس بن ميسرة بن حلبس ، والوليد عبد الرحمـٰن ، وأبو حازم ابن دينار . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن البصري
رضي الله عنه

قال أبو القاسم القشيري ـ رحمه الله ـ : دخل الحسن البصري رحمه الله مكة ، فرأىٰ غلاماً من أولاد علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، قد أسند ظهره إلى الكعبة يعظ الناس ، فوقف عليه الحسن ، ثم قال له : ما ملاك الدين ؟ فقال : الورع ، قال : ما آفة الدين ؟ قال : الطمع ، قال : فتعجب الحسن من حُسن جوابه مع صغر سنه . انتهىٰ [« الرسالة القشيرية » ٩٢] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان والد الحسن من أهل ميسان ، فسبي ، فهو مولىً للأنصار .

ولد في خلافة عمر رضي الله عنه ، وحنكه عمر بيده .

وكانت أمه تخدم أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، فربما غابت ، فتعطيه أم سلمة ثديها ، فيشرب منه ، وكانوا يقولون : فصاحته من بركة ذلك .

وعن إبراهيم بن عيسىٰ قال : ما رأيت أحداً أطول حزناً من الحسن ، وما رأيته قط . . إلا حسبته حديثَ عهد بمصيبة .

وقال يونس : قال الحسن : كيف نضحك ، ولعل الله قد اطلع علىٰ بعض أعمالنا ، فقال : لا أقبل منكم شيئاً ؟!

وقال حكيم بن جعفر : قال لي مسمع : لو رأيت الحسن . . لقلت : قد بُث عليه حزن الخلائق ؛ من طول تلك الدمعة ، وكثرة ذلك النشيج .

وقال حوشب : ما رأيت أخوف من الحسن وعمر بن عبد العزيز ، كأن النار لم تخلق إلا لهما .

وقال يوسف بن أسباط : مكث الحسن ثلاثين سنة لم يضحك ، وأربعين سنة لم يمزح .

وكان يوماً في المسجد ، فتنفس تنفساً شديداً ، ثم بكىٰ حتىٰ أرعدت منكباه ، ثم قال : لو أن بالقلوب حياة ، لو أن بالقلوب صلاحاً . . لأبكتكم من ليلة صبيحتها يوم القيامة ، ما سمع الخلائق بيوم قط أكثر من عورة بادية ، ولا عين باكية من يوم القيامة .

وقال : إنك لا تصيب حقيقة الإيمان حتىٰ لا تعيب الناس بعيب هو فيك ، وحتىٰ تبدأ بصلاح ذلك العيب من نفسك فتصلحه ، فإذا فعلت ذلك . . لم تصلح عيباً إلا وجدت عيباً آخر لم تصلحه ، فإذا فعلت ذلك . . كان شغلك في خاصة نفسك ، وأَحبُّ العباد إلى الله تعالىٰ من كان كذلك .

وقال : إن المؤمن قوَّام علىٰ نفسه ، يحاسب نفسه لله عز وجل ، وإنما خف الحساب يوم القيامة علىٰ قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا ، وإنما شق الحساب علىٰ قوم أخذوا هـٰذا الأمر من غير محاسبة ، إن المؤمن يَفْجَؤُهُ الشيء ، يعجبه فيقول : والله ؛ إني لأحبك ، وإني محتاج إليك ، ولـٰكن ـ والله ـ ما من وصلة إليك ، هيهات! حيل بيني وبينك ، ويفرط منه الشيء ، فيرجع إلىٰ نفسه ، فيقول : ما أردت بهـٰذا ؟ ما لي ولهـٰذا ؟ والله ؛ لا أعود إلىٰ هـٰذا أبداً إن شاء الله تعالىٰ .

وإن المؤمنين قد أوثقهم القرآن ، وحال بينهم وبين هلكتهم ، إن المؤمن أسير في الدنيا ، يسعىٰ في فكاك رقبته ، لا يأمن شيئاً حتىٰ يلقى الله تعالىٰ ، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه وبصره ولسانه وجوارحه .

وقال له شاب : **أعياني قيام الليل ، فقال : قيدتك خطاياك** .

وقال : يابن آدم ؛ بع دنياك بآخرتك . . تربحْهما جميعاً ، ولا تبع آخرتك بدنياك . . فتخسرهما جميعاً .

أدرك الحسن خلْقاً من الصحابة رضوان الله عليهم ، وأرسل عن بعضهم ، وسمع من بعضهم .

توفي سنة عشرٍ ومئة ، رحمه الله تعالىٰ . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/١٢٧ـ١٢٩] .

وقال أبو القاسم القشيري ـ رحمه الله ـ : لما كان الليلة التي توفي فيها الحسن رحمه الله . . رأىٰ بعض أصحابه في النوم كأنَّ أبواب السماء قد فتحت ، وكأنَّ منادياً ينادي : ألا إن الحسن قد قدم على الله سبحانه وتعالىٰ وهو عنه راض . انتهىٰ [« الرسالة » ٣٠٨] .

وقال السلمي ـ رحمه الله ـ في « الحقائق » : قال الحسن في قوله سبحانه وتعالىٰ :

﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ﴾ : إنه ما استقصىٰ حليم كريم قط .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾ ، أي : يذكر المصائب وينسى النعم . [انتهىٰ] .

وقال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : قال رجل للحسن البصري رحمه الله : أوصني ، فقال : أعز أمر الله عز وجل . . يعزَّك .

وكتب الحسن إلىٰ عمر بن عبد العزيز رحمه الله : **أما بعد** : فخف مما خوَّفك الله منه ، واحذر مما حذَّرك الله منه ، وخذ مما في يديك لما بين يديك ، فعند الموت يأتيك [الخبر] اليقين . والسلام[1] .

وقال الغزالي : قال الحسن : **يوزن مداد العلماء بدم الشهداء** . انتهىٰ [« الإحياء » ١/٨] .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : قال الحسن : ذهبت المعارف وبقيت المناكير ، ومن بقي من المسلمين . . فهو مغموم .

وقال : إن المؤمن يصبح حزيناً ، ويمسي حزيناً ، ولا يسعه إلا ذلك ؛ لأنه بين مخافتين : بين ذنب قد مضىٰ لا يدري ما الله يصنع فيه ، وبين أجل قد بقي لا يدري ما يصيب فيه من المهالك .

وكان الحكم بن حجل صديقاً لابن سيرين ، فلما مات ابن سيرين . . حزن عليه ، حتىٰ جُعِل يعاد كما يعاد المريض ، ثم رآه في المنام ، قال : فرأيته في قصر علىٰ أفضل حال ، فقلت له : أي أخي ؛ قد أراك في حال يسرني ، فما صنع الحسن ، قال : رفع فوقي بسبعين درجة ، قلت : وبِمَ ذاك ؟ قال : بطول حزنه .

وقال الحسن : إن المؤمن يتقلب باليقين ، ويكفيه ما يكفي العنيزة ، الكف من التمر ، والشربة من الماء .

وكان يحلف بالله الذي لا إلـٰه إلا هو : ما يسع المؤمنَ في دينه إلا الحزن .

وقال : من علم أن الموت مورده ، والساعة موعده ، والقيامة ـ بين يدي الله تعالىٰ ـ مشهده ، كيف لا يطول حزنه ؟!

---

(١) الإحياء (٤/٥٥ـ٥٦) .

وكان يقول : لا يؤمن عبد بهـٰذا القرآن . . إلا حزن وذبل ، وإلا ذاب ، وإلا تعب .

وكان يحلف بالله ويقول : يابن آدم ؛ لئن قرأت القرآن ، ثم آمنت به . . ليطولنَّ في الدنيا حزنك ، وليشتدنَّ في الدنيا خوفك ، وليكثرن في الدنيا بكاؤك .

وكان يقول : ويحك يابن آدم! هل لك بمحاربة الله عز وجل طاقة ؟! إنه من عصى الله . . فقد حاربه ، والله ؛ لقد أدركت سبعين بدرياً ، أكثر لباسهم الصوف ، لو رأيتموهم . . قلتم : مجانين ، ولو رأوا خياركم . . لقالوا : ما لهـٰؤلاء من خلاق ، ولو رأوا شراركم . . لقالوا : ما يؤمن هـٰؤلاء بيوم الحساب ، والله ؛ لقد رأيت أقواماً كانت الدنيا أهون علىٰ أحدهم من التراب تحت قدميه ، ولقد رأيت أقواماً يمسي أحدهم ولا يجد عنده إلا قوتاً ، فيقول : لا أجعل هـٰذا كله في بطني ، لأجعلن بعضه لله تعالىٰ ، فيتصدق ببعضه ، وإن كان هو أحوج إليه ممن تصدق به عليه .

وكتب الحسن إلىٰ عمر بن عبد العزيز رحمهما الله :

اعلم : أن التفكر يدعو إلى الخير والعمل به ، والندم على الشر يدعو إلىٰ تركه ، فاحذر الدنيا الصارعة الخادعة ، التي تزينَتْ بخدعها ، وغرَّتْ بغرورها ، وقتلَتْ بأملها ، وتشوَّفَتْ لخُطَّابها ، فهي كالعروس المجلية ، العيون إليها ناظرة ، والنفوس لها عاشقة ، والقلوب إليها والهة ، وهي لأزواجها كلهم قاتلة ، فلا الباقي بالماضي معتبر ، ولا الآخِر بما رأىٰ من الأول مزدجر ، والناس فيها قسمان :

قسم قد ظفر بها فاغتر وطغىٰ ، ونسي بها المعاد والمبدأ ، فاشتغل فيها لبه ، وذهل عقله ، حتىٰ زالت عنه قدمه ، وجاءته أَسَرَّ ما كانت منيته ، فعظمت ندامته ، وكبرت حسرته ، واشتدت كربته مع ما عالج من سكرات الموت .

وقسم مات قبل أن يظفر منها بحاجته ، فذهب بكربه وغمه ، لم يدرك منها ما طلب ، ولم يُرِحْ نفسه من التعب . خرجا جميعا بغير زاد ، وقدما علىٰ غير مهاد ، فاحذرها الحذر كله ؛ فإنها مثل الحية ، ليِّنٌ مسُّها ، وسمها يقتل ، فأعرض عما يعجبك فيها ؛ لقلة ما يصحبك منها ، وضع عنك همومها ؛ لما عاينتَ من فجائعها ، وأيقنت به من فراقها ، وكن أسرَّ ما تكون فيها أَحْذَرَ ما تكون لها ؛ فإن صاحبها كلما اطمأن إلىٰ سرور له . . أعقبته بمكروه ، وكلما ظفر منها بشيء . . انقلبت به ، فالسار فيها غار ، والباقي فيها غداً ضار ، وُصِلَ الرخاء منها بالبلاء ، وجُعِلَ البقاء فيها إلى الفناء ، سرورها مشوب بالحزن ، وآخر

الحياة فيها الضعف والوهن ، فانظر إليها نظر الزاهد المفارق ، أمانيها كاذبة ، وآمالها باطلة ، وعيشها نكد ، وصفوها كدر .

وأنت منها علىٰ خطر ، إما نعمة زائلة ، وإما بلية نازلة ، وإما منية قاضية ، ولو كان الخالق تبارك وتعالىٰ لم يخبر عنها بخبر ، ولم يضرب لها مثلاً ، ولم يأمر فيها بزهد . . لكان حالها قد أيقظ النائم ونبه الغافل ، فكيف وقد جاء عن الله سبحانه وتعالىٰ زاجر وواعظ ؟! فما لها عند الله عز وجل قدر ولا وزن ، وكيف يكون لها وزن وهي لا تزن مقدار حصاة من الحصىٰ! ولا قدر ثراة في جميع الثرىٰ! ولا خَلَقَ خلقاً ـ فيما بلغني ـ أبغضَ إليه منها! ولا نظر إليها مذ خلقها ؛ مقتاً لها ؟!

ولقد عرضت علىٰ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم سيد الأولين والآخرين بمفاتيحها وخزائنها ، لا ينقصه ذلك عند الله جناح بعوضة ، فأبىٰ أن يقبلها ، وما منعه من القبول لها ـ مع كونها لا تنقصه مما له عند الله تعالىٰ ـ إلا أنه علم صلى الله عليه وسلم أنها أبغض الأشياء إلى الله سبحانه وتعالىٰ ، فأبغضها لبغض مولاه إياها ، فصغَّرَ شيئاً صغره الله ، ووضع شيئاً وضعه الله ، ولو قبلها . . كان دليلا علىٰ حبه إياها ، ولٰكنه صلى الله عليه وسلم كره أن يحب ما أبغض خالقه ، وأن يرفع ما وضع مالكه .

ومما يدل علىٰ شر هٰذه الدنيا : أن الله سبحانه وتعالىٰ زواها عن أنبيائه وأحبائه اختياراً ، وبسطها لغيرهم اعتباراً واغتراراً ، فيظن المغرور بها أنه إنما أُكرِم بها ، ونسي المغرور المغبون ما صنع الله تعالىٰ بأنبيائه وأحبائه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

أما محمد سيد البشر صلى الله عليه وسلم . . فقد شد الحجر علىٰ بطنه من الجوع .

وأما موسى الكليم عليه الصلاة والسلام . . فقد رُئِيَ خضرة البقل من صفاق بطنه ؛ من هزاله ، وما سأل الله تعالىٰ يوم آوىٰ إلى الظل طعاماً يأكله من جوعه ، ولقد جاءت الروايات عنه : (أن الله تعالىٰ أوحىٰ إليه : أن يا موسىٰ ؛ إذا رأيت الفقر مقبلاً . . فقل : مرحباً بشعار الصالحين ، وإذا رأيت الغنىٰ قد أقبل . . فقل : ذنب عجلت عقوبته) .

وأما عيسىٰ عليه الصلاة والسلام روح الله وكلمته . . ففي أمره عجيبة ؛ كان يقول : أُدُمي الجوع ، وشعاري الخوف ، ولباسي الصوف ، ودابتي رجلي ، وسراجي بالليل القمر ، وصلاتي في الشتاء مشارق الشمس ، وفاكهتي وريحاني ما أنبتت الأرض للسباع والأنعام ، أبيت وليس لي شيء ، ولَيس أحد أغنىٰ مني .

وأما سليمان بن داوود عليهما الصلاة والسلام . . فكان ـ مع ملكه ـ يأكل الخبز الشعير في خاصته ، ويطعم أهله الخشكار[1] ، ويطعم الناس الدرمك[2] ، فإذا جنَّه الليل . . لبس المسوح ، وغل اليد إلى العنق ، وبات باكياً حتىٰ يصبح ، ويأكل الجشب[3] من الطعام .

يفعلون ذلك قربة إلى الله سبحانه وتعالىٰ ، يبغضون ما أبغض الله عز وجل ، ويصغِّرون ما صغر الله عز وجل .

ثم جاء الأئمة الصحابة والتابعون بإحسان ، فمَن بعدهم من الأئمة الصالحين ، فسلكوا منهاجهم ، وألزموا أنفسهم الفكر والعبر ، ونظروا إلىٰ آخر الدنيا وباطنها ، ولم ينظروا إلىٰ أولها وظاهرها ، بل إلىٰ عاقبة مرارتها ، ولم ينظروا إلىٰ عاجل حلاوتها ، وألزموا أنفسهم الصبر عنها ، أنزلوها بمنزلة الميتة التي لا يحل الشبع منها في حال الضرورة إليها ، فأكلوا منها قدر ما ردَّ النَّفْس ، وأبقى الروح ، ومكَّن من النوم ، وجعلوها بمنزلة الجيفة التي قد اشتدَّ نتن ريحها ، فكل من مرَّ بها . . أمسك علىٰ أنفه منها .

هـٰذه منزلتها عندهم ، فهم يعجبون من الآكل منها شبعاً ، والمتلذذ بها أشراً ، ويقولون في أنفسهم : أترىٰ هـٰؤلاء لا يخافون من الأكل ؟! أما يجدون ريح النتن ؟!

وهي ـ والله يا أخي ـ في العاقبة والعاجلة أنتن من الجيفة الموصوفة ، غير أن أقواماً استحلوا الصَّبِرَ[4] ، فلا يجدون ريح النتن ، والذي نشأ في ريح الإهاب . . لا يجد ريح نتنه ، ويكفي العاقل منها أنه من مات عنها وترك مالاً . . سرَّه أن كان فيها فقيراً ، أو شريفاً . . أنه كان فيها وضيعاً ، أو كان فيها معافىٰ . . سره أن كان فيها مبتلىٰ ، أو سلطاناً . . سره أن كان فيها سوقة[5] .

وإن فارقتها . . سرك أنك كنت أوضع أهلها وأشدهم فاقة .

والله ؛ لو كانت الدنيا من أراد منها شيئاً وجده في وقته من غير تعب ، غير أنه إذا أخذ منها شيئاً لزمه حقوق الله تعالىٰ فيه ، وسأله عنه ، ووقفه علىٰ حسابه . . لكان ينبغي للعاقل

---

(١) **الخشكار** : الخبز الأسمر .
(٢) **الدرمك** : الخبز المصنوع من الدقيق الأبيض .
(٣) **الجشب من الطعام** : الغليظ الخشن .
(٤) **الصَّبِر** : الدواء المر .
(٥) أي : أوساط الناس ، أو الرعية .

ألاَّ يأخذ منها إلا قدر قوته ؛ حذراً من السؤال والحساب .

وإنما الدنيا ـ إذا فكرت فيها ـ ثلاثة أيام : يوم [مضىٰ] لا ترجوه ، ويوم أنت فيه ينبغي لك أن تغتنمه ، ويوم يأتي لا تدري أأنت من أهله أم لا ؟ ولا تدري لعلك تموت قبله ؟

فأما أمس . . فحكيم مؤدِّب ، وأما اليوم . . فصديق مودِّع ، غير أن أمس ـ وإن كان قد فجعك بنفسه ـ فقد أبقىٰ في يديك حكمته ، وإن كنت قد أضعته . . فقد جاءك خلف منه قد كان عنك طويل الغيبة ، وهو الآن عنك سريع الرحلة .

وغداً أيضاً في يديك منه أمله ، فجد في العمل ، واترك الغرور بالأمل قبل حلول الأجل .

وإياك أن تدخل على اليوم هَمَّ غده وهَمَّ ما بعده ، يكفي اليومَ همُّه ، وغداً إذا دخل عليك . . دخل بشغله ؛ فإنك إذا أدخلت على اليوم هَمَّ ما بعده . . زدت في حزنك وتعبك ، وأردت أن يجتمع لك في يومك ما يكفيك أيامَك ، هيهات! كثر الشغل ، وزاد الحزن ، وعظم التعب ، وأضاع العبدُ العملَ بالأمل ، ولو كان الأمل في غدك خرج من قلبك . . لأحسنت اليوم في عملك ، واقتصرت علىٰ هَمِّ يومك ، غير أن الأمل منك في الغد دعاك إلى التفريط ، ودعاك إلى المزيد في الطلب .

ولئن شئت واقتصرت . . لأصفن لك ، الدنيا ساعة بين ساعتين : ساعة ماضية ، وساعة باقية ، [وساعة] أنت فيها ، فالماضية والباقية لا تجد لراحتهما لذة ، ولا لبلائهما ألماً ، فإنما الدنيا ساعة أنت فيها ، فخدعتك تلك الساعة عن الجنة ، وصيَّرتك غداً إلى النار .

وإنما اليوم ـ إن عقلت ـ ضيف نزل بك ، هو مرتحل عنك ، فإن أحسنت نُزله وقِراه . . شهد لك ، وأثنىٰ عليك بذلك ، وصدق فيك ، وإن أسأت ضيافته ولم تحسن قراه . . جال في عيبك .

وهُما يومان بمنزلة الأخوين ، نزل بك أحدهما فأسأت إليه ، ولم تحسن فيما بينك وبينه ، فجاءك الآخر بعده فقال : إني قد جئتك بعد أخي ، وإن إحسانك إلي يمحو إساءتك إليه ، ويغفر لك ما قد صنعت ، فدونك قد جئتك بعد أخي المرتحل عنك ، فقد ظفرت بخلف منه ، إن عقلت . . فتدارك ما قد أضعت .

وإن ألحقت الآخر بالأول . . فما أخلقك أن تهلك بشهادتهما عليك ، وإن الذي بقي من العمر لا ثمن له ولا عدل ، فلو جمعت الدنيا كلها . . ما عدلت يوماً ولا ساعة بقي من عمر

صاحبه ، فلا تبع اليوم بغير ثمنه ، ولا يكونن المقبور المدفون أعظم تعظيماً لما في يديك منك .

ولعمري ؛ لو أن مدفوناً في قبره قيل له : هـٰذه الدنيا من أولها إلىٰ آخرها ، نجعلها لولدك من بعدك ، يتنعمون فيها من ورائك ـ فقد كنت وليس لك هم غيرهم ـ أحب إليك ؟ أم يوم نؤثرك فيه تعمل لنفسك ؟ . . لاختار ذلك اليوم ، بل لو اقتصر علىٰ ساعة . . لاختارها ، بل لو اقتصر علىٰ كلمة واحدة يقولها . . لاختار الكلمة الواحدة .

فانتقد اليوم لنفسك ، وأبصر الساعة ، وأعظم الكلمة ، واحذر الحسرة عند نزول السكرة ، ولا تأمن أن يكون هـٰذا الكلام حجة عليك ، نفعنا الله وإياك بالموعظة ، ورزقنا وإياك حسن العواقب ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

ووعظ الحسن أصحابه فقال : إن الدنيا دار عمل ، من صحبها بالبغض لها والزهادة فيها . . سعد بها ونفعته صحبتها ، ومن صحبها على الرغبة فيها والمحبة لها . . شقي فيها وأجحف بحظه من الله عز وجل ، ثم أسلمته إلىٰ ما لا صبر له عليه ، ولا طاقة له به من عذاب الله ، فأمْرُها صغير ، ومتاعها قليل ، والفناء عليها مكتوب ، وأهلها يتحولون عنها إلىٰ منازل لا تبلىٰ ، ولا يغيرها طول الزمن ، لا العمر فيها يفنىٰ فيموتون ، ولا وإن طال الثوىٰ فيها يخرجون ، فاحذروا ـ ولا قوة إلا بالله ـ ذلك الموطن ، وأكثروا ذِكر ذلك المنقلب ، واقطعوا من الدنيا أكثر همومكم ؛ فإنها ـ والله ـ مفضية بأهلها إلىٰ ندامة طويلة ، وعذاب شديد ، فلا تكونن يابن آدم مغتراً ، ولا تأمن ما لم يأتك الأمان فيه ؛ فإن الهول الأعظم ومقطعات[1] الأمور أمامك ، ويحك يابن آدم! ما يضرك ما أصابك من شدائد الدنيا إذا خلص لك خير الآخرة ، فضح القوم (ألهاكم التكاثر) عن الجنة ، والله ؛ لقد صحبنا أقواماً كانوا يقولون : ليس لنا في الدنيا حاجة ، ليس لها خُلِقنا ، فطلبوا الجنة بغدوهم ورواحهم وسهرهم ، نعم والله ؛ حتىٰ أهرقوا فيها دماءهم ، ورجوا فأفلحوا ونجوا ، فهنيئاً لهم ، لا يطوي أحد ثوباً ، ولا يفترشه ، ولا تلقاه . . إلا صائماً ذليلاً ، إذا دخل إلىٰ أهله : إن قرب إليه شيء . . أكله ، وإلا . . سكت لا يسألهم عن شيء ما هـٰذا وما هـٰذا ، ثم قال :

ليس من مات واستراح بمَيْتٍ ... إنما المَيْتُ مَيِّت الأحياء

---

(١) في نسخة و« الحلية » : (ومفظعات الأمور) .

وقال : يابن آدم ؛ أُعْلِمُكَ أن لأهل التقوىٰ علامات يعرفون بها : صدق الحديث ، ووفاء العهد ، وصلة الرحم ، ورحمة الضعفاء ، وقلة الفخر والخيلاء ، وبذل المعروف ، وقلة المباهاة للناس ، وحسن الخلق مما يقرب إلى الله تبارك وتعالىٰ .

ابن آدم ؛ إنك ناظر إلىٰ عملك يوزن خيره وشره ، [فلا تحقرنَّ من الخير شيئاً وإن هو صغر ؛ فإنك إذا رأيته . . سرَّك مكانه ، ولا] تحقرنَّ من الشر شيئاً ؛ فإنك إذا رأيته . . ساءك مكانُه ، فرحم الله من كسب طيِّباً ، وأنفق قصداً ، وقدَّم فضلاً ليوم فقره وفاقته .

وعن الحسن في قوله عز وجل : ﴿ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ۞ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ قال : إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل ، وإن المنافق أساء الظن فأساء العمل .

وقال : من كان فيه أربع خلال . . أعاذه الله من الشيطان : من يملك نفسه عند الرغبة ، والرهبة ، والشهوة ، والغضب .

وقال : إن أعظم الحسرات غداً . . أن يرى الرجل ماله في ميزان غيره ، أتدرون كيف هـٰذا ؟ رجل آتاه الله مالاً ، فأمره بإنفاقه في صنوف حقوق الله ، فبخل به ، فورثه الوارث ، ففعل به ما أمره الله تعالىٰ ، فهو يرىٰ ماله في ميزان غيره ، فَيَا لَها عثرة لا تقال ، وتوبة لا تنال .

وقال : ابن آدم ؛ دِينك هو لحمك ودمك ، إن سلم لك دينك . . يسلم لك لحمك ودمك ، وإن تكن الأخرىٰ . . فنعوذ بالله ؛ فإنها نار لا تُطْفَأُ .

ابن آدم ؛ إنك موقوف بين يدي ربك عز وجل ، ومرتهن بعملك ، فخذ مما في يديك لما بين يديك ، إن العبد لايزال بخير ما كان له واعظ من نفسه ، وكانت المحاسبة من همه .

وقال : أدركت أقواماً ما طوي لأحدهم في بيته ثوب قط ، ولا أمر في أهله بصنعة طعام قط ، وما جعل بينه وبين الأرض شيئاً ، وإن كان أحدهم ليقول : لوددت أني أَكلْتُ أكلة تصير في جوفي مثل الآجرة ، قال : وبلغنا أن الآجرة تبقىٰ في الماء ثلاث مئة سنة .

ولقد أدركت أقواماً إن كان أحدهم ليرث المال العظيم ، وإنه لمجهود الجهد الشديد ، قال : فيقول لأخيه : يا أخي ؛ إني قد علمت أن ذا ميراث ، وهو حلال ، ولـٰكنِّي أخاف أن يفسد عليَّ قلبي وعملي ، فهو لك لا حاجة لي فيه ، فلا يرزأ منه شيئاً أبداً ، وهو ـ والله ـ مجهود شديد الجهد .

وعن علقمة بن مرثد قال : لما ولي عمر بن هبيرة العراق . . أرسل إلى الحسن

والشعبي ، فأمر لهما ببيت ، فكانا فيه شهراً أو نحوه ، ثم إن الخَصِيَّ[1] غدا عليهما ذات يوم ، فقال : إن الأمير داخل عليكما ، فجاء عمر يتوكأ علىٰ عَصاً له ، فسلم ، ثم جلس معظماً لهما ، ثم قال لهما : إنَّ أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك يكتب إليَّ كتباً أعرف أن في إنفاذها الهلكة ، فإن أطعته . . عصيت الله ، وإن عصيته . . أطعت الله عز وجل ، فهل تريان في متابعتي إياه فرجاً ؟ فتكلم الشعبي بما يلائم ابن هبيرة ، فقال ابن هبيرة : ما تقول أنت يا أبا سعيد ؟ فقال : يا عمر بن هبيرة ؛ يوشك أن ينزل بك ملك من عند الله سبحانه وتعالىٰ لا يعصي الله ما أمره قط ، غليظ ، فيخرجك من سعة قصرك إلىٰ ضيق قبرك ، فإن تتقي الله عز وجل . . يعصمك من يزيد بن عبد الملك ، وإن لم تتق الله . . لا يعصمك يزيد بن عبد الملك من الله عز وجل .

يا عمر ؛ لا تأمن أن ينظر الله إليك ـ وأنت علىٰ أقبح ما تعمل في طاعة يزيد بن عبد الملك ـ نظر مقت ، فيغلق باب المغفرة دونك ، لقد أدركتُ ناساً من صدر هـٰذه الأمة ، كانوا ـ والله ـ على الدنيا وهي مقبلة أشد فراراً من إقبالكم عليها وهي مدبرة ، وإني أخوِّفك مقاماً خوَّفه الله تعالىٰ فقال : ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ ، فإن تك مع الله في طاعته . . يكفك بائقة يزيد بن عبد الملك ، وإن تك علىٰ معاصي الله مع يزيد . . وكلك الله عز وجل إليه .

فبكىٰ عمر بن هبيرة ، وقام بعَبرته ، فلما كان من الغد . . أرسل إليهما بإذنهما وجوائزهما ، وكانت جائزة الحسن أكثر ، فخرج الشعبي إلى المسجد ، فقال : يا أيها الناس ؛ من استطاع منكم أن يؤثر الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ خلقه . . فليفعل ، فوالذي نفسي بيده ؛ ما خفي عليَّ مما قال الحسن شيئاً ، ولـٰكن أردت وجه ابن هبيرة ، فأقصاني الله منه . أو كما قال .

وعن عمران القصير قال : سألت الحسن عن شيء ، فقلت : إن الفقهاء يقولون كذا وكذا ، فقال : وهل رأيت فقيهاً بعينك ؟! إنما الفقيه : الزاهد في الدنيا ، البصير بدينه ، المداوم علىٰ عبادة ربه عز وجل .

وعن سفيان بن عيينة ، عن أيوب قال : لو رأيتَ الحسن . . لقلتَ : إنك لم تجالس فقيهاً قط .

---

(١) خادم الأمير الخاصُّ بالدخول على النساء .

وقال الأعمش : مازال الحسن البصري يعي الحكمة حتىٰ نطق بها .

وكان إذا ذكر عند أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنهم أجمعين . . قال : ذاك الذي يشبه كلامه كلام الأنبياء .

وعن خالد بن صفوان قال : لقيت مسلمة بن عبد الملك بالحِيرة ، فقال : يا خالد ؛ أخبرني عن حسن أهل البصرة ، قلت : أصلح الله الأمير ، أُخبرك عنه بعلم ، أنا جاره إلىٰ جنبه ، وجليسه في مجلسه ، إنه أشبه الناس سريرة بعلانية ، وقولاً بفعل ، إن قعد علىٰ أمر . . قام به ، وإن قام علىٰ أمر . . قعد عليه ، وإن أمر بأمر . . كان أعمل الناس به ، وإن نهىٰ عن شيء . . كان أترك الناس له ، رأيته مستغنياً عن الناس ، ورأيت الناس محتاجين إليه ، قال : حسبك يا خالد ، كيف يضل قوم هـٰذا فيهم ؟! انتهىٰ [« الحلية » ٢/ ١٣٢ـ١٥٠] .

وقال في « المنتخب » : أغمي على الحسن البصري في مرض موته ، ثم أفاق ، فقال : لقد نبهتموني من جنات وعيون ومقام كريم . انتهىٰ .

قال في « لوامع أنوار القلوب » : إنه لما دخل الزنج البصرة . . انحاز الناس إلى الحسن البصري رحمه الله في أن يدعو الله تعالىٰ على الظالمين ، فقال لهم الحسن : إن في هـٰذه البلدة أقواماً لو دعوا الله تعالىٰ على الظالمين . . لهلكوا ، ولـٰكنهم لا يريدون إلا ما يريد الله سبحانه وتعالىٰ ، الذي هو خالقهم ومالكهم وحبيبهم ، ولا يحبون إلا ما أحب ، ثم قال : يا رب ؛ هـٰذا سوطك تدعو به الخلق إلىٰ بابك ، فلبيك لبيك ، قد التجأنا إليك ، وألقينا مقالدنا لديك ، وأنت الشافي الكافي .

فكان من الغد ما كان من رحيل الزنج ﴿ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ .

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « سلوا الله عز وجل اليقين والعافية »[1] .

زاد في رواية : « فإنه ما أوتي العبد بعد اليقين خيراً من العافية » .

وعن الحسن رَفَعَهُ : « إن الناس لم يُؤْتَوا في الدنيا خيراً من اليقين والعافية ، فسلوهما » .

قال الحسن : صدق الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ؛ باليقين طلبت الجنة ، وباليقين

---

(١) أخرجه البيهقي في « الصغرىٰ » (١/ ٢٦) .

أديت الفرائض ، وباليقين صُبِر على الحق ، وفي معافاة الله عز وجل خير كثير ، قد رأيناهم متقاربين[1] في العافية ، فإذا نزل البلاء . . تفارقوا . انتهىٰ .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان الحسن البصري ـ رحمه الله ـ كثيراً ما يأكل اللحم ، فيقال له ؟ فيقول : نعم لا صحناة[2] فرقد[3] ، ولا رغيفي مالك .

ولبس يوما ثوباً جديداً ، فجعل فرقد يلمسه ويتعجب ، وكان علىٰ فرقد كساء ، فقال له الحسن : أما بلغك أن أكثر أهل النار أصحاب الأكسية ؟ يشير إلى الرهبان . انتهىٰ .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : وعن طلحة بن عمرو الحضرمي ، قال : قدم علينا الحسن ، فجلسنا إليه مع عطاء ، فسمعته يقول : بلغنا : أن الله تعالىٰ يقول : (يابن آدم ؛ خلقتك وتعبد غيري ، وتُذكر بي وتنساني ، وتدعو إلي وتفر مني ، إن هـٰذا لأظلم ظلم في الأرض) ، ثم تلا الحسن : ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾ .

وقال الحسن : ما من رجل يرىٰ نعمة الله عليه ، فيقول : الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وتثمر . . إلا أغناه الله وزاده .

وقال : ابن آدم ؛ إنما أنت أيام ، كلما ذهب يوم . . ذهب بعضك .

وقال : رحم الله رجلاً لبس خَلَقاً ، وأكل كسرة ، ولزق بالأرض ، وبكىٰ على الخطيئة ، ودأب في العبادة .

وقال : أبى الله عز وجل أن يعصيه عبد . . إلا أذله .

وقال : فضح الموت الدنيا ، فلم يترك فيها لذي لُبٍّ فرحاً .

وكان الحسن يحلف بالله : ما أعز أحد الدرهم . . إلا أذله الله تعالىٰ .

وقال : ابن آدم ؛ أصبحت بين مطيتين : الليل والنهار ، يعرجان بك حتىٰ تقدم الآخرة ، فإما إلىٰ جنة ، وإما إلىٰ نار ، فمن أعظم خطراً منك ؟!

وأتاه رجل فقال : إني أريد السند ، فأوصني ، فقال له : حيثما كنت فأعز الله تعالىٰ . . يعزك ، قال : فحفظت وصيته ، فما كان أحد أعز مني .

---

(١) في « الحدائق » : (قد والله رأيتهم يتفاوتون في العافية ، فإذا نزل البلاء . . تساووا) .

(٢) **الصحناة** : إدام يتخذ من السمك .

(٣) **فرقد** : هو فرقد السبخي .

وقال : ضَحِكُ المؤمن غفلة من قلبه .

وخطب رجل إلى الحسن ، فرضيه ، فذهب السفير بينهما يوماً يثني عليه ، فقال له : يا أبا سعيد ؛ وأزيدك أن له خمسين ألف درهم ، فقال له الحسن : خمسون ألفاً ؟! ما اجتمعت من حلال ، فقال له : يا أبا سعيد ؛ إنه ـ ما علمت ـ لورع مسلم ، فقال : إن كان قد جمعها من حلال . . فقد ضن بها عن حق ، لا والله ؛ لا يجري بيننا وبينه صهر أبداً .

وقال : الإسلام ، وما الإسلام ؟ السر والعلانية فيه سواء ، وأن يسلم قلبك لله عز وجل ، وأن يسلم منك كل مسلم ، وكل ذي عهد .

وجاءه رجل فقال : كيف نصنع بأقوام يخوفوننا حتىٰ تكاد قلوبنا تطير ؟ فقال الحسن له : والله ؛ لئن تصحب أقواماً يخوفونك حتىٰ يدركك أمن . . خير لك من أن تصحب أقواماً يؤمنونك حتىٰ تلحقك المخاوف ، فقال له بعض القوم : أخبرنا عن صفة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبكىٰ ، ثم قال : ظهرت منهم علامات الخير في السيماء والسمت والصدق ، وخشونة ملابسهم بالاقتصاد ، وممشاهم بالتواضع ، ومنطقهم بالعمل ، ومطعمهم ومشربهم بالطيب من الرزق ، وخضوعهم بالطاعة لربهم سبحانه وتعالىٰ ، وانقيادهم للحق فيما أحبوا وكرهوا ، وإعطاؤهم الحق من أنفسهم ، ظمئت هواجرهم ، ونحلت أجسامهم ، واستخفُّوا بسخط المخلوقين ؛ لرضى الخالق جل جلاله ، ولم يفرطوا في غضب ، ولم يحيفوا في جور ، ولم يجاوزوا حكم الله تعالىٰ ، مستمسكين بالكتاب والسنة ، قد شغلوا الألسن بالذكر ، بذلوا دماءهم حين استنصرهم ، وبذلوا لله تعالىٰ أموالهم حين استقرضهم ، لم يكن خوفهم من المخلوقين ، حسنت أخلاقهم ، وهانت مؤونتهم ، وكفاهم اليسير من دنياهم إلىٰ آخرتهم .

وقال : المؤمن : من يعلم أن ما قال الله عز وجل كما قال ، ويكون من أحسن الناس عملاً ، وأشد الناس خوفاً ، لو أنفق جبلاً من مال . . ما أمن دون أن يُعَايِن ، كلما ازداد صلاحاً وبراً وعبادة . . ازداد خوفاً ، يقول : لَعَلِّي لا أنجو . والمنافق يقول : سواد الناس كثير ، وسيغفر لي ، ولا بأس عليَّ ، فيسيء[1] العمل ، ويتمنىٰ على الله عز وجل .

وكان الحسن رحمه الله إذا تلا هـٰذه الآية : ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ . . يقول : مَن قال ذا ؟! قاله مَن خلقها ، وهو سبحانه وتعالىٰ أعلم بها .

---

(١) في « الحلية » ونسخة : (فينسىء) .

وقال : إياكم وما يشغل من الدنيا ؛ فإنها كثيرة الأشغال ، لا يفتح رجل علىٰ نفسه باب شغل . . إلا أوشك ذلك الباب أن يفتح عليه عشرة أبواب .

ولما احتضر . . دخل عليه رجال من أصحابه ، فقالوا له : يا أبا سعيد ؛ زودنا منك بكلمات ينفعنا الله بهن ، قال : إني مزودكم ثلاث كلمات ، ثم قوموا عني ودعوني وما توجهت له :

ما نهيتم عنه من أمر . . فكونوا من أترك الناس له .

وما أمرتم به من معروف . . فكونوا من أعمل الناس به .

واعلموا أن خطاكم خطوتان : خطوة لكم ، وخطوة عليكم ، فانظروا أين تغدون ، وأين تروحون .

وقال : رحم الله رجلاً لم يغرَّه ما يرىٰ من كثرة مخالفات الناس ، ابن آدم ؛ إنك تموت وحدك ، وتدخل القبر وحدك ، وتبعث وحدك ، وتحاسب وحدك ، ابن آدم ؛ أنت المعنيُّ ، وإيَّاك يراد .

وقال : لقد أدركت أقواماً كانوا آمَرَ الناس بالمعروف آخذين به ، وأنهى الناس عن منكر تاركين له ، ولقد بقينا في أقوام آمَرُ الناس بالمعروف وأبعدُهُم منه ، وأنهاهم عن منكر وأوقعُهم فيه ، فكيف الحياة مع هـٰؤلاء ؟!

وقال : بئس الرفيقان الدرهم والدينار ، لا ينفعانك حتىٰ يفارقانك .

وقال : لا تخالفوا الله تعالىٰ عن أمره ؛ فإن من مخالفة أمره عمرانَ دار قد قضى الله عليها بالخراب .

وجاء ابنه ، فقال له : إن هـٰذا السَّهم قد انكسر ، فنظر إليه الحسن ، ثم قال له : يا بني ؛ الأمر أعجل من ذلك .

وسأله رجل فقال له : ما الإيمان ؟ فقال : الصَّبر والسَّماحة ، فقال له الرجل : ما الصبر والسماحة ؟ فقال : الصبر عن معصية الله سبحانه وتعالىٰ ، والسماحة بأداء فرائض الله عز وجل .

وقال : فضل الفِعال على المَقال مكرمة ، وفضل المَقال على الفِعال منقصة .

وقال : الرجاء والخوف مطيتا المؤمن .

وقال الحسن : وايم الله ؛ ما من عبد قسم له رزق يوم بيوم ، فلم يعلم أنه قد خِيْرَ له . . إلا عاجز ، أو غبي الرأي .

وعن الأعمش[1] قال : كنا إذا دخلنا على الحسن رحمه الله . . خرجنا ولا نَعُدُّ الدنيا شيئاً .

وقال : إن المؤمن ليعمل الذنب ، فلا يزال به كئيباً .

وقرأ الحسن قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ، فقال : إن الله قد جمع لكم الخير كله والشر كله في آية واحدة ، فوالله ما ترك العدل والإحسان شيئاً من طاعة الله عز وجل . . إلا جمعه ، ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغي شيئاً من معصية الله سبحانه وتعالىٰ . . إلا جمعه .

وأُخبر الحسن بموت الحجاج : فسجد ودعا عليه فقال : اللهم ؛ أنت قتلته ، فاقطع سُنَّتَه ، وأرحنا من سُنَّتِه وأعماله الخبيثة[2] .

وكان يقول : لو علم العابدون أنهم لا يرون ربهم يوم القيامة . . لماتوا . انتهىٰ [« الحلية » ١٤٨/٢-١٥٩] .

زاد غيره فقال : قال غالب القطان : رأيت الحسن في المنام كأنه في سكة الموالي ، وقد حال بيني وبينه الجدول ، وبيده ريحان ، وهو يمسح يديه من غمره ، فقلت له : يا أبا سعيد ؛ أخبرني بعمل يسير له أجر عظيم ، فقال : نَعم ، نصيحة بقلبك ، وذِكر لله عز وجل بلسانك . انتهىٰ .

وقال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : قال الحسن البصري رحمه الله : يخرج من النار رجل بعد ألف عام ، ويا ليتني أنا ذلك الرجل .

---

(١) كذا فيما بين أيدينا من النسخ ، وفي « الحلية » و« مصنف ابن أبي شيبة » : (عن أشعث) .

(٢) من أعماله تلك : حصاره لعبد الله بن الزبير بالكعبة ثم صلبه إياه بعد قتله ، ورميه الكعبة بالمنجنيق ، وإذلاله لأهل الحرمين ، وما رافق ذلك من قتل وتعذيب ومضايقة لجلّة الصحابة والتابعين كأنس بن مالك ، وعبد الله بن عمر ، وسعيد بن جبير ، وإبراهيم التيمي ، وغيرهم ، وتأخيره للصلوات إلىٰ أن أهلكه الله سنة خمس وتسعين .

قال الغزالي : وإنما قال ذلك لخوفه الخلود لسوء الخاتمة ، نسأل الله سبحانه وتعالىٰ حسن الخاتمة ، بالإماتة على التوحيد ؛ إنه قريب مجيب .

وكان الحسن رحمه الله إذا تكلم . . كأنه يعاين الآخرة ، فيخبر عن مشاهدتها ، وإذا سكت . . كأن النار تسعر بين عينيه . انتهىٰ [« الإحياء » ٤/١٨٨] .

وقال الحسن رحمه الله : إذا حمد المريض الله عز وجل وشكره ثم ذكر أوجاعه . . لم يكن ذلك شكوىٰ[١] .

وقيل للحسن : يا أبا سعيد ؛ ألا نغسل قميصك ؟ فقال : الأمر أعجل من ذلك[٢] .

وقال الحسن : الموت معقود بنواصيكم ، والدنيا تطوىٰ من ورائكم[٣] .

روي عن الحسن : أنه كان قائماً يأكل من متاع بقال ، يأخذ من هـٰذه الجونة تينة ، ومن هـٰذه قسبة[٤] ، فقيل له : ما بدا لك يا أبا سعيد في الورع ؛ تأكل من متاع الرجل بغير إذنه ؟! فقال : يا لكع ؛ اتل علي آية الأكل ، فتلا إلىٰ قوله : ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ ، قال : فمَن الصديق يا أبا سعيد ؟ قال : من استرْوَحَتْ إليه النفس ، واطمأنَّ إليه القلب[٥] .

وقال الحسن : مصارمة الفاسق . . قربان إلى الله سبحانه وتعالىٰ[٦] .

وقال النووي ـ قدس الله روحه ـ : هو الإمام المشهور ، المجمع علىٰ جلالته وإمامته في كل شيء ، نشأ بوادي القرىٰ ، وكان فصيحاً ، رأىٰ طلحة بن عبيد الله ، وعائشة ، ولم يصح سماعه منهما ، وقيل : إنه لقي علي بن أبي طالب ، ولم يصح ، وسمع ابنَ عمر ، وأنساً ، وسمرة ، وأبا بكرة ، وجماعة من الصحابة ، وسمع خلائق من كبار التابعين .

وروىٰ عنه خلائق من التابعين وغيرهم .

روينا عن الفضيل بن عياض قال : سألت هشام بن حسان : كم أدرك الحسن من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : مئة وثلاثين ، قلت : فابن سيرين ؟ قال : ثلاثين .

---

(١) الإحياء (٤/ ٣٩٣) .
(٢) الإحياء (٤/ ٣٣٥) .
(٣) الإحياء (٤/ ٤٥٤) .
(٤) القَسْبَةُ : التمرة اليابسة .
(٥) الإحياء (٣/ ١٠) .
(٦) الإحياء (٣/ ١٦٠) .

وروينا عن الحسن قال : غزونا غزوة إلىٰ خراسان ، معنا فيها ثلاث مئة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان الرجل منهم يصلي بنا ، ويقرأ الآيات من السورة ، ثم يركع .

وأثنىٰ عليٌّ بن المديني وأبو زرعة علىٰ مراسيل الحسن[1] .

قال يحيى بن معين ، وأبو حاتم ، وابن أبي خيثمة ، وغيرهم : لم يصح للحسن سماع من أبي هريرة ، فقيل ليحيىٰ : يجيء في بعض الحديث عن الحسن قال : حدثنا أبو هريرة رضي الله عنه ؟ قال : ليس بشيء ، قيل : فسالم الخياط قال : سمعت الحسن يقول : سمعت أبا هريرة ؟ فقال : سالم الخياط ليس بشيء .

وروينا عن مطرٍ الوراق قال : كان الحسن كأنما كان في الآخرة ، فهو يخبر عما رأىٰ وعايَن .

وقال أبو بردة : لم أر من لم يصحب النبي صلى الله عليه وسلم أشبه بأصحابه من الحسن .

وروينا عن الربيع بن أنس قال : اختلفنا إلى الحسن عشر سنين أو ما شاء الله ، ما من يوم . . إلا أسمع منه ما لم أسمع قبله .

وروينا عن محمد بن سعد قال : كان الحسن جامعاً ، عالماً ، رفيعاً ، فقيهاً ، ثقة ، مأموناً ، عابداً ، ناسكاً ، كثير العلم ، فصيحاً ، جميلاً .

قدم مكة ، فأجلسوه علىٰ سرير ، واجتمعوا حوله ، فمنهم : طاووس ، وعطاء ، ومجاهد ، وعمرو بن شعيب ، فحدثهم ، فقالوا ـ أو قال بعضهم ـ : لم نر مثل هـٰذا قط .

وقال بكر بن عبد الله : الحسن أفقه مَن رأينا .

ومناقبه كثيرة مشهورة .

ومن حِكَم الحسن ـ رحمه الله ـ : ما ذكره الشافعي ـ رحمه الله ـ في « المختصر »[2] : في قول الله تبارك وتعالىٰ : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ قال الحسن : كان رسول الله صلى الله عليه

---

(١) قال أبو زرعة : كل شيء قال الحسن : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وجدت له أصلاً ثابتاً ، ما خلا أربعة أحاديث . « تهذيب الكمال » (٦/ ١٢٤) .

(٢) المختصر للمزني يحكي فيه مذهب الشافعي فعزي إليه .

وسلم غنياً عن مشاورتهم ، ولـٰكن أراد الله تعالىٰ أن يستنَّ به الحكَّامُ بعده .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ : لولا هـٰذه الآية . . لرأيت الحكام هلكوا ، ولـٰكن أثنىٰ علىٰ هـٰذا بصوابه ، وأثنىٰ علىٰ هـٰذا باجتهاده ، والله سبحانه أعلم . انتهىٰ [« التهذيب » ١/ ١٦١-١٦٢] .

وروى ابن أبي الدنيا ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : عن الحسن ـ رحمه الله ـ في قوله تعالىٰ : ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ قال : لا تلقى المؤمن . . إلا يعاتب نفسه ، ماذا أردت بأكلتي ؟ ماذا أردت بكلمتي ؟ ماذا أردت بشربتي ؟ والفاجر يمضي قدماً لا يعاتب نفسه[1] .

وروىٰ[2] : أن امرأة جاءت بابنها إلى الحسن البصري رحمه الله ، فقالت : إن ابني هـٰذا أحب أن يلزمك ، فلعل الله عز وجل أن ينفعه بك ، فلزمه ، فقال له يوماً : يا بني ؛ أَلزِم قلبك الحزن على الآخرة ؛ لتأنس بالحق جل جلاله ، وتستوحش من الخلق ، فلعل الله تبارك وتعالىٰ أن يوصلك إليه ، وٱبْكِ علىٰ ساعات خلواتك ، فلعل مولاك سبحانه وتعالىٰ يَمُنُّ عليك ، فيرحم عبرتك ، ويقيل عثرتك .

وكان الحسن ـ رحمه الله تعالىٰ ـ لا يفارق الحزن والبكاء إذا كان في خلوته ، أو كان مع الناس ، فقيل له في ذلك ، فقال : إن المؤمن يدَّعي محبة مولاه جل جلاله ، فلهـٰذا لا ينفك عن البكاء والحزن علىٰ ما فات ، والمراقبة والخوف لما هو آت ، فالمحب سكران حيران ، لا يفيق إلا عند مشاهدة محبوبه سبحانه وتعالىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في « الزهد » (٢٨١) .

(٢) ذكره في « الرقة والبكاء » (٥٥) .

ومنهم الإمام :

قيس بن أبي حازم
رضي الله عنه

قال شيخ الإسلام النووي ـ قدس الله روحه ـ : هو أبو عبد الله ، قيس بن أبي حازم ، اسمه : عبد عوف بن الحارث ، وقيل : اسمه : عوف الأَحْمَسِيّ ـ بالحاء والسين المهملتين ـ البَجَلي ، الكوفي ، التابعي ، الجليل ، المخضرم .

أدرك الجاهلية ، وجاء ليبايع النبي صلى الله عليه وسلم ، فتوفي النبي صلى الله عليه وسلم وهو في الطريق ، وأبوه صحابي .

روىٰ قيس عن جماعات من الصحابة ، وروىٰ عنه جماعات من التابعين .

قال جماعة من الحفَّاظ : روىٰ قيس عن العشرة المشهود لهم بالجنة ، هٰكذا رُوِّيناه عن الحفاظ عبد الرحمٰن بن يوسف بن خراش ، والحاكم أبي عبد الله ، وغيرهما .

قال ابن خراش وغيره : وليس في التابعين من روىٰ عن العشرة غير قيس .

وقال أبو داوود السجستاني : روىٰ عن تسعة منهم ، ولم يرو عن عبد الرحمٰن بن عوف .

قال أبو داوود : أجود الناس إسناداً . . قيس ابن أبي حازم .

توفي سنة أربع وثمانين ، وقيل : سبع ، وقيل : ثمان . انتهىٰ [« تهذيب الأسماء واللغات » ٦١/٢] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : قد رُوِّينا عن الإمام الحافظ تقي الدين أبي عمرو ابن الصلاح ـ رحمه الله تعالىٰ ـ أنه قال في « علوم الحديث » [ص ٥١٢ ـ ٥١٥] : المخضرمون من التابعين : هم الذين أدركوا الجاهلية وحياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأسلموا ، ولا صحبة لهم ، واحدهم مخضرم ـ بفتح الراء ـ كأنه خُضْرِم ؛ أي : قُطع عن نظرائه الذين أدركوا الصحبة وغيرها .

وذكرهم مسلم ، فبلغ بهم عشرين نفساً ، منهم : أبو عمرو الشيباني ، وسويد بن غفلة الكندي ، وعمرو بن ميمون الأودي ، وعبد خير بن يزيد الخيواني ، وأبو عثمان النهدي[1] عبدُ الرحمٰن بن مل ، وأبو الحلال العتكي ، وربيعة بن زرارة .

وممن لم يذكرهم مسلم منهم : أبو مسلم الخولاني ، وهو عبد الله بن ثُوَب ـ بضم الثاء المثلثة ـ والأحنف بن قيس ، والله أعلم .

ومن أكابر التابعين : الفقهاء السبعة من أهل المدينة ، وهم : سعيد بن المسيِّب ، والقاسم بن محمد ، وعروة بن الزبير ، وخارجة بن زيد ، وأبو سلمة بن عبد الرحمٰن ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وسليمان بن يسار .

ورُوِّينا عن الحافظ أبي عبد الله أنه قال : هٰؤلاء الفقهاء السبعة عند الأكثر من علماء الحجاز .

ورُوِّينا عن ابن المبارك ، قال : فقهاء أهل المدينة الذين يصدرون عن رأيهم سبعة : فذكر هٰؤلاء ، إلا أنه لم يذكر أبا سلمة ابن عبد الرحمٰن ، وذكر بدله سالم بن عبد الله بن عمر .

ورُوِّينا عن أبي الزناد تسميتهم في كتابه عنهم ، فذكر هٰؤلاء ، إلا أنه ذكر أبا بكر ابن عبد الرحمٰن بدل أبي سلمة وسالم . انتهىٰ .

وقد نظمهم بعض الشعراء فقال :

أَلاَ كُلُّ مَن لا يقتدي بأئمةٍ ... فقسمته ضيزىٰ عن الحق خارجهْ

فخذهُمْ عبيد الله عروةُ قاسمٌ ... سعيدٌ أبو بكرٍ سليمانُ خارجهْ

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) وجد في هامش نسخة : (قال أبو الفرج [في « الصفوة » (٣/ ١٠٤ـ١٠٥)] : عن معتمر بن سليمان ، عن أبيه قال : لأحسب أن أبا عثمان النهدي لم تكتب الملائكة عليه خطيئة ، كان نهاره صائماً ، وليله قائماً ، وكان من ساكني الكوفة ، فلما قتل الحسين بن علي رضي الله عنهما . . انتقل إلى البصرة ، وقال : لا أسكن بلداً قتل فيه ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومات بالبصرة ، عن مئة وثلاثين سنة ، وقال : قد نقص مني كل شيء إلا أملي ، وهٰذا لتصديق حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم [الذي روي بنحوه في « الترمذي » ٢٤٥٥] : « يشيب ابن آدم ، ويشب فيه خصلتان : الحرص ، وطول الأمل ») .

ذكر الفقهاء السبعة

منهم الإمام :

أبو محمد سعيد بن المسيِّب

رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال بكر بن خُنيس : قلت لسعيد بن المسيب عن قوم يصلون ويتعبدون : يا أبا محمد ؛ ألا تتعبد مع هـٰؤلاء القوم ؟ فقال لي : يابن أخي ؛ إنها ليست عبادة ، **قلت له : فما العبادة يا أبا محمد ؟ قال : التفكر في أمر الله ، والورع عن محارم الله ، وأداء فرائض الله تعالىٰ .**

وفي رواية صالح بن محمد بن زائدة : أن فتية من بني ليث كانوا عُبَّاداً ، وكانوا يروحون بالهاجرة إلى المسجد ، ولا يزالون يصلون حتىٰ يصلى العصر ، فقال صالح لسعيد : هـٰذه العبادة ، لو تقوىٰ علىٰ ما يقوىٰ عليه هـٰؤلاء الفتيان ، فقال سعيد : **ما هـٰذه العبادة ، ولـٰكن العبادة : التفقه في الدين ، والتفكر في أمر الله تعالىٰ .**

وعن سعيد بن عبد العزيز قال : لما كان أيام الحرَّة[1] لم يؤذن في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثاً ، ولم يبرح سعيد بن المسيب من المسجد ، وكان لا يعرف وقت الصلاة إلا بهمهمة يسمعها من قبر الرسول صلى الله عليه وسلم[2] .

وعن سعيد بن المسيب قال : من حافظ على الصلوات الخمس في جماعة . . فقد ملأ اليدين والنحر[3] عبادة .

وحصل له وجع في عينيه ، فقيل له : يا أبا محمد ؛ لو خرجت إلى العقيق ، فنظرت إلى الخضرة ، فوجدت ريح البَرِّيَّة . . لنفع ذلك بصرك ، فقال سعيد : كيف أصنع بشهود العشاء والصبح ؟

---

(١) **الحرة** : أرض بظاهر المدينة بها حجارة سُود كثيرة ، جرت بها وقعة مشهورة بين المسلمين أنفسهم . انظر « النهاية في غريب الحديث » (١/ ٣٦٥) .

(٢) وعند ابن سعد (٥/ ١٣٢) وغيره : أنه كان يسمع أذاناً يخرج من قبل القبر ثم يقيم ، ويصلي .

(٣) في « الحلية » : (ملأ البر والبحر عبادة) .

وقال : **ما فاتتني الصلاة في جماعة منذ أربعين سنة .**

وقال : **ما أذن المؤذن منذ ثلاثين سنة . . إلا وأنا في المسجد .**

وقال : ما دخل علي وقت صلاة . . إلا وقد أخذت أهبتها ، وما دخلت علي . . إلا وأنا مشتاق إليها .

وصلى الغداة بوضوء العتمة خمسين سنة .

وقال : **ما فاتتني تكبيرة الإحرام منذ خمسين سنة .**

وسئل : ما يقطع الصلاة ؟ قال : الفجور ، ويسترها التقوىٰ[1] .

وكان يسرد الصوم ، وقال : لقد حججت أربعين حجة .

وقال عمران بن عبد الله بن طلحة الخزاعي : إن نفس سعيد بن المسيب كانت أهون عليه ـ في ذات الله عز وجل ـ من نفس ذباب .

وقال سعيد بن المسيب : ما أكرَمَتِ العبادُ أنفسها بمثل طاعة الله سبحانه وتعالىٰ ، ولا أهانت أنفسها بمثل معصية الله عز وجل ، وكفىٰ بالمؤمن نصرة من الله أن يرىٰ عدوه يعمل بمعصية الله تعالىٰ . انتهىٰ [« الحلية » ٢/١٦١ـ ١٦٤] .

وقال الغزالي : قال عطاء : دخلت علىٰ سعيد بن المسيب وهو يبكي ، فقلت له : ما يبكيك ؟ فقال : ليس أحد يسألني عن شيء .

قال الغزالي : وإنما قال ذلك حرصاً علىٰ فضيلة التعليم ، واستيفاء للعلم . انتهىٰ [« الإحياء » ١/١١] .

وروى الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : عن ابن حرملة قال : حفظت صلاة ابن المسيب وعمله بالنهار ، فسألت مولاه عن عمله بالليل ، فأخبرني ، فقال : لا يدع أن يقرأ بـ (ص والقرآن) كل ليلة ، فسألته عن ذلك ، فأخبر أن رجلاً من الأنصار صلىٰ إلىٰ شجرة ، فقرأ بـ ﴿ص﴾ ، فلما مرَّ بالسجدة . . سجد وسجدت الشجرة معه ، فسمعها تقول : **اللهم ؛ أعطني بهـٰذه السجدة أجراً ، وضع عني بها وزراً ، وارزقني بها شكراً ، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داوود عليه الصلاة والسلام .**

---

(١) كذا في « الحلية » وما لدينا من المخطوطات ، ولعلها ـ والله أعلم ـ : (ويُسيِّرها التقوىٰ) .

وعن سعيد بن المسيب في قوله تعالىٰ : ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ قال : الذي يذنب ثم يتوب ، ثم يذنب ثم يتوب ، ثم يذنب ثم يتوب ، ثم لا يعود في شيء منه .

وكان يكثر أن يقول في مجلسه : اللهم ؛ سلم سلم .

وعن يحيى بن سعيد قال : دخلنا علىٰ سعيد بن المسيب نعوده ، ومعنا نافع بن جبير ، فقالت أم ولده : إنه لم يأكل منذ ثلاث ، فكلموه ، فقال نافع بن جبير : إنك من أهل الدنيا مادمت فيها ، ولا بد لأهل الدنيا مما يصلحهم ، فلو أكلت شيئاً ؟ فقال : كيف يأكل من كان علىٰ مثل حالي ؟ هـٰذه بضعة يُذهب بها إلى النار أو إلى الجنة ، فقال نافع : ادع الله تعالىٰ أن يشفيك ؛ فإن الشيطان قد كان يغيظه مكانك من المسجد ، فقال : بل أخرجني الله سالماً منها . أو كما قال .

ودعي سعيد بن المسيب إلىٰ نيِّف وثلاثين ألفاً ليأخذها ، فقال : لا حاجة لي فيها ولا في بني مروان ، إلىٰ أن ألقى الله عز وجل ، فيحكم بيني وبينهم .

وكان يماري غلاماً له في ثلثي درهم ، وأتاه ابن عمه بأربعة آلاف درهم ، فأبىٰ أن يأخذها .

وقال سعيد وهو ابن أربع وثمانين سنة ، وقد ذهبت إحدىٰ عينيه وهو يعشو بالأخرىٰ : **ما شيءٌ أخوف عندي من النساء** .

وقال : يد الله عز وجل فوق عباده ، فمن رفع نفسه . . وضعه الله ، ومن وضعها . . رفعه الله ، الناس تحت كنفه يعملون أعمالهم ، فإذا أراد الله عز وجل فضيحة عبد . . أخرجه من تحت كنفه ، فبدت للناس عورته .

وقيل له : إن قومك يزعمون أنه ما يمنعك من الحج . . إلا أنك جعلت لله عليك إذا رأيت الكعبة . . أن تدعو علىٰ بني مروان ، فقال : ما فعلت ذلك ، وما أصلي صلاة لله عز وجل . . إلا دعوت عليهم ، وإني قد حججت واعتمرت بضعاً وعشرين مرة ، وإنما كتبت علي حجة وعمرة .

وما سابَّ أحداً من الأئمة قط ، إلا أنه كان يقول : قاتل الله فلاناً ، كان أول مَن غَيَّرَ قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كان لا يقبل من أحد ديناراً ولا درهماً ولا شيئاً ، ولا يشرب من شراب أحد .

وعن عبد الله بن أبي وداعة كثير بن المطلب قال : كنت أجالس سعيد بن المسيب ، ففقدني أياماً ، فلما جئته . . قال : أين كنت ؟ قلت : توفيت أهلي فاشتغلت بها ، فقال : ألا أخبرتنا فشهدناها ؟ قال : ثم أردت أن أقوم ، فقال : هل استحدثت امرأة ؟ فقلت : يرحمك الله ، ومن يزوجني وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة ؟! فقال : أنا ، فقلت : وتفعل ؟ قال : نعم ، ثم تحمَّد ، وصلىٰ على النبي صلى الله عليه وسلم ، وزوجني علىٰ درهمين ـ أو قال : ثلاثة ـ قال : فقمت وما أدري ما أصنع من الفرح ، فصرت إلىٰ منزلي ، وجعلت أتفكر ممن آخذ وممن أستدين ، فصليت المغرب ، وانصرفت إلىٰ منزلي ، وأسرجت وكنت صائماً ، فقدمت خبزاً وزيتاً أفطر عليه ، فإذا باب بيتي يقرع ، فقلت : من هـٰذا ؟ قال : سعيد ، فأفكرت في كل إنسان اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيب ؛ فإنه لم يُرَ منذ أربعين سنة . . إلا بين بيته والمسجد ، فقمت ، فخرجت ، فإذا سعيد بن المسيب ، فظننت أنه قد بدا له ، فقلت : يا أبا محمد ؛ ألا أرسلت إلي فآتيك ؟ قال : لا ، أنت أحق أن تؤتىٰ ، قلت : فما تأمر ؟ قال : إنك كنت رجلاً عزباً فتزوجت ، فكرهت أن أبيتك الليلة وحدك ، وهـٰذه امرأتك ، فإذا هي قائمة من خلفه في طوله ، ثم أخذها بيدها ، فدفعها في الباب ، ورد الباب ، فسقطت المرأة من الحياء ، فاستوثقتُ من الباب ، ثم جعلتُ القُصيعة التي فيها الخبز والزيت في ظل السراج لكي لا تراه ، وصعدت إلى السطح ، فرميت الجيران ، فجاؤوني ، فقالوا : ما شأنك ؟ قلت : ويحكم زوجني سعيد بن المسيب ابنته اليوم ، وقد جاء بها علىٰ غفلة ، وهي في الدار ، فنزلوا إليها .

وبلغ أمي الخبر ، فجاءت ، وقالت : وجهي من وجهك حرام إن مسستها قبل أن أصلحها إلىٰ ثلاثة أيام ، فأقمت ثلاثاً ، ثم دخلت بها ، فإذا هي من أجمل الناس ، وإذا هي من أحفظ الناس لكتاب الله عز وجل ، وأعلمهم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأعرفهم بحق زوج .

قال : فمكثت شهراً لا يأتيني سعيد ولا آتيه ، فلما كان بعد ذلك . . أتيت سعيداً وهو في حلقته ، فسلمت عليه ، فردَّ علي السلام ، ولم يكلمني حتىٰ تقوض أهل المجلس ، فلما لم يبق غيري . . قال : ما حال ذلك الإنسان ؟ قلت : خير حال يا أبا محمد ، علىٰ ما يحب الصديق ويكره العدو ، **قال : إن رابك شيء . . فالعصا** ، ثم انصرفت إلىٰ منزلي ، فوجه إليَّ بعشرين ألف درهم .

قال عبد الله بن سليمان : وكانت هـٰذه بنت سعيد بن المسيب قد خطبها عبد الملك بن

مروان لابنه الوليد حين ولاه العهد ، فأبىٰ سعيد أن يزوجه ، فلم يزل عبد الملك يحتال علىٰ سعيد حتىٰ ضربه مئة سوط في يوم بارد ، وصب عليه جرة ماء ، وألبسه جبة صوف .

وقال سعيد بن المسيب ـ رحمه الله ـ : دخلت المسجد في ليلة ، وظننت أني قد أصبحت ، وإذا الليل علىٰ حاله ، فقمت أصلي ، وجلست أدعو ، فإذا هاتف يهتف من خلفي : يا عبد الله ؛ قل ، قلت : وما أقول ؟ قال : قل : اللهم ؛ إني أسألك بأنك ملك ، وأنك علىٰ كل شيء قدير ، وما تشاء من أمر يكن ، قال سعيد : فما دعوت بها لشيء قط . . إلا رأيت نجحه .

وسأله شخص عن حديث وكان مريضاً مضطجعاً ، فقال : أقعدوني ، فأقعدوه ، **ثم قال : إني أكره أن أحدِّث حديث رسول الله صلى الله عليه وسلموأنا مضطجع .**

وعن ميمون بن مهران قال : إن عبد الملك بن مروان قدم المدينة ، فاستيقظ من قائلته ، فقال لحاجبه : انظر ، هل ترىٰ في المسجد أحداً من حُدَّاثي ؟ فدخل المسجد ، فلم ير فيه إلا سعيد بن المسيب ، فأشار إليه بأصبعه ، فلم يتحرك سعيد ، ثم أتاه الحاجب ، فقال : ألم ترني أشير إليك ؟ قال : وما حاجتك ؟ قال : استيقظَ أمير المؤمنين ، فقال : انظر هل ترىٰ في المسجد أحداً من حُدَّاثي ؟ فقال سعيد بن المسيب : لست من حداثه ، فخرج الحاجب ، فقال : ما وجدت في المسجد إلا شيخاً ، أشرت إليه ، فلم يقم ، فقلت له : إن أمير المؤمنين قال لي : انظر ، هل ترىٰ أحداً من حُدَّاثي ؟ قال : إني لست من حداث أمير المؤمنين ، قال عبد الملك بن مروان حين أخبره الحاجب بمقالة سعيد بن المسيب : ذاك سعيد بن المسيب ، دعه ؛ فإنه لا يأتينا .

وقال سعيد بن المسيب : إن الدنيا نذلة ، وهي إلىٰ كل نذل أَمْيَل ، وأنذل منها من أخذها بغير حقها ووضعها في غير سبيلها .

وقال : لا تملؤوا أعينكم من أعوان الظلمة إلا بالإنكار من قلوبكم ؛ لكي لا تحبط أعمالكم الصالحة .

ودُعي سعيد بن المسيب إلى المبايعة للوليد وسليمان بعد عبد الملك بن مروان ، فقال : لا أبايع لاثنين ما اختلف الليل والنهار ، فقيل له : ادخل من باب ، واخرج من باب آخر ، قال : لا ، والله ؛ لا أفعل ؛ لئلا يقتدي بي أحد من الناس ، قال : فجلده مئة ، وألبسه المسوح .

وفي رواية : إن عبد الرحمٰن بن القاري قال لسعيد بن المسيب حين قدمت البيعة للوليد وسليمان بالمدينة من بعد أبيهما : إني مشير عليك بخصال ثلاث ، قال : وما هُنَّ ؟

قال : تُغَيِّرُ مقامك ؛ فإنك تقوم حيث يراك هشام بن إسماعيل ، قال : ما كنت لأغير مقاماً قمته منذ أربعين سنة .

قال : تخرج معتمراً ، قال : ما كنت لأنفق مالي وأجهد بدني في شيء ليس لي فيه نية .

قال : فتبايع ، قال : أرأيت إن كان الله أعمىٰ قلبَك كما أعمىٰ بصرك . . فما عليَّ ، فجاء هشام ، فدعاه إلى البيعة ، فأبىٰ ، فكتب فيه إلىٰ عبد الملك ، فكتب إليه عبد الملك : ما لك ولسعيد ؟ ما كان علينا منه شيء نكرهه ، فأمَّا إذا فعلت . . فاضربه ثلاثين سوطاً ، وألبسه جبة من صوف ، وأوقفه للناس ؛ لئلا يقتدي به الناس ، فدعاه هشام إلى المبايعة ، فقال : لا أبايع لاثنين ، ففعل ما أمره به عبد الملك بن مروان .

وفي رواية : كتب والي المدينة إلىٰ عبد الملك : إن أهل المدينة قد أطبقوا على البيعة للوليد وسليمان إلا سعيد بن المسيب ، فكتب إليه : اعرضه على السيف ، فإن أبىٰ . . فاجلده خمسين جلدة ، وطف به أسواق المدينة ، فلما قدم الكتاب على الوالي . . دخل سليمان بن يسار وعروة بن الزبير وسالم بن عبد الله علىٰ سعيد بن المسيب ، فقالوا : إنا جئناك في أمر قد قدم فيه كتاب من عبد الملك ، إن لم تبايع . . ضرب عنقك ، ونحن نعرض عليك خصالاً ثلاثاً أعطنا إحداهن ؛ فإن الوالي قد قبل منك أن يقرأ عليك كتاب العهد ، فلا تقل : لا ولا نعم ، قال : يقول الناس : بايع سعيد بن المسيب ؟ ما أنا بفاعل ، قال : وكان إذا قال : لا . . لم يمكنهم أن يراجعوه .

قالوا : تجلس في بيتك ، فلا تخرج إلى الصلاة أياماً ؛ فإنه يقبل منك إذا طلبك في مجلسك فلم يجدك ، قال : وأنا أسمع الأذان فوق أذني حي على الصلاة حي على الفلاح وأتأخر ؟! ما أنا بفاعل .

قالوا : فانتقل من مجلسك إلىٰ غيره ؛ فإنه يرسل إلىٰ مجلسك ، فإن لم يجدك . . أمسك عنك ، قال : أنتقل عنه فرقاً من مخلوق ؟ ما أنا متقدم لذلك شبراً ، ولا متأخر شبراً ، فخرجوا وخرج إلىٰ صلاة الظهر ، وجلس في مجلسه الذي كان يجلس فيه ، فلما صلى الوالي . . بعث إليه ، فأتىٰ به ، فقال : إن أمير المؤمنين كتب يأمرنا ، إن لم تبايع . . ضربنا عنقك ، قال : نهىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيعتين ، فلما رآه لا يجيب . . أُخرِج

إلى السدة ، فمدت عنقه ، وسلت عليه السيوف ، فلما رآه قد مضىٰ . . أَمَر به ، فجرد ؛ فإذا عليه تُبَّان[1] من شعر ، فقال : لو علمت أني لا أقتل . . ما اشتهرت بهـٰذا التبان ، فضربه خمسين سوطاً ، ثم طاف به أسواق المدينة ، فلما ردوه والناس منصرفون من صلاة العصر . . قال : إن هـٰذه وجوه ما نظرت إليها منذ أربعين سنة .

وفي رواية : لما جرد ليضرب . . قالت امرأة : إن هـٰذا مقام خزي ، فقال لها سعيد : من مقام الخزي فررنا .

وعن عبد الله بن القاسم ، قال : جلست إلىٰ سعيد بن المسيب ، فقال لي : إنه قد نهي عن مجالستي ، قال : قلت : إني رجل غريب ، قال : إنما أحببت أن أعلمك .

وفي رواية : كان إذا أراد الرجل أن يجالسه . . يقول له : إنهم قد جلدوني ومنعوا الناس أن يجالسوني .

وقال : لا تصغروا لفظة المصحف ولا لفظة المسجد ، ما كان لله عز وجل فهو عظيم حسن جليل .

وما كان أحد يجترىء علىٰ سعيد بن المسيب أن يسأله عن شيء حتىٰ يستأذنه كما يستأذن الأمير .

وقال : نِعم المال الصالح مع العبد الصالح ، يؤدي حق الله فيه ، ويكف وجهه عن الناس . أو كما قال .

وإنه لمَّا مات . . ترك ألفين أو ثلاثة آلاف دينار ، وقال : ما تركتها . . إلا لأصون بها دِيني .

وقال : من استغنىٰ بالله . . افتقر الناس إليه .

وعن علي بن زيد قال : رأىٰ عَلَيَّ سعيد بن المسيب جبة خز ، فقال : إنك لجيد الجبة ، فقلت : وما يغني عني وقد زهدني فيها سالم ؟ فقال سعيد بن المسيب : أصلح قلبك والبس ما شئت من حلال . أو كما قال .

ومن مسانيد أحاديثه : عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله

---

(١) **التُّبَّان** : سراويل صغير مقدار شبر يستر العورة المغلظة .

عليه وسلم : « أول ما يرفع من الناس . . الأمانة ، وآخر ما يبقىٰ . . الصلاة ، ورُب مصل لا خير فيه »[1] .

وعنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من اعتز بالعبيد . . أذله الله سبحانه وتعالىٰ »[2] .

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من اتقى الله . . عاش قوياً ، وسار في بلاده آمناً »[3] .

وعن عمار بن ياسر قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « حُسن الخلق من خلق الله الأعظم » .

وعن أُبي بن كعب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال لي جبريل عليه الصلاة والسلام : ليَبكِ الإسلام علىٰ موت عمر » رضي الله عنه[4] وأرضاه . انتهىٰ [« الحلية » ٢/ ١٦٤ـ ١٧٥] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : ولد سعيد بن المسيب لسنتين خلتا من خلافة عمر رضي الله عنه .

وقال سعيد بن المسيب : ما بقي أحد أعلم بكل قضاء قضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما . . مني .

وعنه قال : كان عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ يقول : ما كان بالمدينة عالمٌ . . إلا يأتيني بعلمه وأوتىٰ بما عنده ، غير سعيد بن المسيب[5] .

وكان يسرد الصوم .

وقال : ليس من شريف ولا عالم ولا ذي فضل . . إلا وفيه عيب ، ولٰكن من الناس من لا ينبغي أن تذكر عيوبه ، فمن كان فضله أكثر من نقصه . . وُهِبَ نقصه لفضله .

---

(١) أخرجه الطبراني في « الصغير » (١/ ٢٣٨) .
(٢) أخرجه الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (٤/ ١٣٨) .
(٣) أخرجه الديلمي (٣/ ٥٦٢) .
(٤) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١/ ٦٧) .
(٥) في « الصفوة » : (ما كان عالم بالمدينة إلا يأتيني بعلمه ، وأُوتىٰ بما عند سعيد بن المسيب) . ولعله الصواب ، وانظر « الطبقات » لابن سعد (٥/ ١٢٢) .

أسند عن خلائق من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين[1] .

ومات بالمدينة ، وهو ابن أربع وثمانين سنة ، علىٰ خلاف في ذلك . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/٤٥ـ٤٦] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) وهو من الذين صحح العلماء مراسيلهم ، كالإمام أحمد وغيره ، وأكثر مراسيله عن والد زوجته أبي هريرة رضي الله عنه .

ومنهم الإمام :

عروة بن الزبير
رضي الله عنهما

قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : أمه : أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما .

وقد ذكرنا : أنه اجتمع في الحِجر مصعب بن الزبير ، وعروة بن الزبير ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر ، فقالوا : تمنَّوا .

فقال عبد الله بن الزبير : أما أنا . . فأتمنى الخلافة .

وقال عروة : أما أنا . . فأتمنىٰ أن يؤخذ عني العلم .

وقال مصعب : أما أنا . . فأتمنىٰ إمرة العراق ، والجمع بين عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين .

وقال عبد الله بن عمر : أما أنا . . فأتمنى المغفرة .

فنالوا كلهم ما تمنوا ، ولعل ابن عمر قد غفر له ، رضي الله عنهم أجمعين .

وعن عروة رحمه الله : أنه كان يتألف الناس علىٰ حديثه .

قال عمرو بن دينار : أتيناه ، فقال : ائتوني فتلقَّوا مني .

وفي رواية[1] : يا بَنِيَّ ؛ سلوني ، فلقد تُركت حتىٰ كدتُ أنسىٰ ، وإني لأُسأل عن الحديث ، فيفتح لي حديث يومين .

وأودع عروة بن الزبير عند طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمٰن ابن أبي بكر الصديق رضي الله عنه مالاً لما خرج إلى الشام ، فبلغه أن طلحة يبني ويبتاع الرقيق والإبل والغنم ، فلما قدم . . كره أن يسأله عن الوديعة ؛ لئلا يكشفه ، فجعل يلقاه ويستحي من تقاضيه الوديعة ، فقال له طلحة ذات يوم : ألا تأخذ وديعتك ؟ فقال : بلىٰ ، متىٰ ؟ قال طلحة :

---

(١) في « الصفوة » (٢/٤٨) .

متىٰ شئت ، فبعث طلحة معه رسولاً ، فإذا الوديعة مدفونة تحت الأرض علىٰ حالها . أو كما قال .

وقال عروة : رب كلمةٍ ذل احتمَلْتُها . . أورثتني عزاً طويلاً .

وقال : **إذا رأيت الرجل يعمل الحسنة . . فاعلم : أن لها عنده أخوات ، وإذا رأيته يعمل السيئة . . فاعلم أن لها عنده أخوات ؛ فإن الحسنة تدل علىٰ أختها ، وإن السيئة تدل علىٰ أختها .**

وقال عروة لبنيه : يا بَني ؛ لا يهدينَّ أحدكم إلىٰ ربه سبحانه وتعالىٰ ما يستحيي أن يهديَه إلىٰ كريمه[1] ؛ فإن الله عز وجل أكرم الكرماء سبحانه وتعالىٰ . وأعظم وأحق من اختير له سبحانه وتعالىٰ . أو كما قال .

وكان يقول : يا بَني ؛ تعلموا ؛ فإنكم إن تكونوا صغار قوم . . عسىٰ أن تكونوا كبار قوم آخرين ، ما أقبح الجهل لا سيما من شيخ .

و[كان يقول] : لتكن ـ يا بُني ـ كلمتك طيبة ، ووجهك بسيطاً . . تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم العطاء . انتهىٰ [« الحلية » ٢/١٧٦ـ١٧٨] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان عروة إذا كانت أيام الرُّطَب . . ثَلَمَ[2] حائطه ، فيأكل الناس ما يأكلون ، ويحملون ما يحملون .

وكان إذا دخله . . ردد هٰذه الآية فيه حتىٰ يخرج : ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ .

وكان يقرأ كل يوم ربع القرآن نظراً في المصحف ، ويقوم الليل به ، فما تركه . . إلا ليلة قطعت رجله ، ثم عاود من الليلة المقبلة .

وعن هشام بن عروة قال : خرج أبي إلى الوليد بن عبد الملك ، فوقعت في رجله الأكلة ، فقال له الوليد : يا أبا عبد الله ؛ أرىٰ قطعها ، فقطعت ، وإنه لصائم .

وفي رواية أخرىٰ : وما حرك عضواً من عضو ، وصبر ، فلما رأى القدم بأيديهم . . دعا بها ، وقبَّلها[3] في يده ، ثم قال : أما والذي حملني عليك ؛ إنه ليعلم سبحانه وتعالىٰ

---

(١) كريمه : العزيز عنده .

(٢) ثلم الشيء : كسر حرفه ، والثُّلمة : الفُرجة .

(٣) في بعض الروايات : (وقلَّبها) .

أني ما مشيت بك إلىٰ حرام ، أو قال : إلىٰ معصية .

وفي رواية أخرىٰ : دخل ابن له ـ أكبر ولده ـ اصطبله ، فرفسته دابة ، فقتلته ، فقال : اللهم ؛ إنه كان لي أطراف أربعة ، فأخذت واحداً وأبقيت لي ثلاثة ، فلك الحمد ، وكان لي بنون أربعة ، فأخذت لي واحداً وأبقيت لي ثلاثة ، فلك الحمد ، وايم الله ؛ لئن أخذت . . لقد أبقيت ، ولئن ابتليت . . لطالما عافيت .

زاد في « لوامع أنوار القلوب » فقال : روي : أنه لما وقعت الأكلة في رجله . . أشاروا عليه بقطعها ، وحذروه من الغفلة عنها ، فقال : هـٰذا أمر شرفني الله عز وجل به ، فلما ارتفعت إلى الساق . . قيل له : إن بلغَت إلى الركبة . . قتلتك ، فأجاب إلىٰ قطعها لتقوى الله عز وجل ؛ خشية أن يكون قد قتل نفسه ، فأشار عليه الطبيب بشرب دواء ؛ لئلا يحس بألم القطع ، فقال : ما كنت لأمنع نفسي أجراً ساقه الله عز وجل لي ، فقيل له : لو أمسكك بعض أولادك ؛ ليكون أثبت لك ، فقال : الرضا بقضاء الله عزوجل يمنعني من ذلك ، فجلس الوليد بن عبد الملك عنده والجماعة ، والطبيب يقطع ، فلم يزل يهلل ويكبر ويذكر الله سبحانه وتعالىٰ حتىٰ قطعت ، ولم يتغير حاله ، ولم يعلم الحاضرون إلا بنشيش الزيت[1] ، ثم بعد ساعة وقع ابنه بين الدواب ، فقتلته ، فجاء رجل يعزيه ، فقال : إن كنت تعزيني برجلي . . فإني قد احتسبتها عند الله عز وجل ، فقال : بل أعزيك بابنك ، فقال : ما شأنه ؟ فأخبره خبره ، ثم ذكر باقيه .

وفي رواية : وكان أحسن من عزاه إبراهيم بن محمد بن طلحة ، فقال : **والله ؛ ما بك حاجة إلى المشي ، ولا أرَب في السعي ، وقد تقدمك عضو من أعضائك ، وابن من أبنائك إلى الجنة ، والكل تبع للبعض إن شاء الله عز وجل ، وقد أبقى الله لنا منك ما كنا إليه فقراء ، وعنه غير أغنياء ؛ من علمك ورأيك ، نفعك الله وإيانا به ، والله عز وجل وليُّ ثوابك ، والضمين بحسابك .**

وكان عروة رحمه الله يسرد الصوم .

ورأىٰ عروة رجلاً يصلِّي وهو يخفف الصلاة ، فدعاه ، فقال له : أمَا كانت لك إلىٰ ربك سبحانه وتعالىٰ حاجة ، ما هـٰذا التخفيف ؟! إني لأسأل الله عز وجل في صلاتي حتىٰ أسأله الملح .

---

(١) **النشيش** : الصوت الذي يصدر عند الغليان .

وعن هشام بن عروة قال : كان أبي لا يفطر ، ولقد مات يوم مات وهو صائم .

أسند عن خلائق من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .

وكانت ولادته سنة اثنتين وعشرين ، وقيل : ست وعشرين للهجرة ، وتوفي سنة أربع وتسعين ، رحمه الله . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/٤٩ـ٥٠] .

وقال الحافظ : لما قدم عروة من عند الوليد إلى المدينة . . أتته قريش والأنصار يعزونه في ابنه ورِجله ، فقال له عيسى بن طلحة بن عبيد الله : قد صنع الله عز وجل بك خيراً ، والله ؛ ما بك حاجة إلى المشي ، فقال : ما أحسن ما صنع الله عز وجل إلي! وهب لي سبع بنين فمتعني بهم ما شاء ، ثم أخذ واحداً وأبقىٰ ستة ، وأخذ عضواً وأبقىٰ لي خمساً ، يدين ورجلاً وسمعاً وبصراً .

وعن هشام بن عروة قال : قال أبي : إذا رأىٰ أحدكم شيئاً من زينة الدنيا وزهرتها . . فليأت أهله ، وليأمرهم بالصلاة ، وليصطبر عليها ، قال الله سبحانه وتعالىٰ لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۞ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ .

وعن هشام بن عروة قال : لما اتخذ أبي قصره بالعقيق . . قال له الناس : جفوت مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : إني رأيت مساجدهم لاهية ، وأسواقهم لاغية ، والفاحشة في فجاجهم عالية ، فكان فيما هنالك عما هم فيه عافية .

ومن مسانيد حديثه : عن عروة ، عن الزبير بن العوام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « غيروا الشيب ، ولا تشبهوا باليهود »[1] غريب من حديث عروة .

وعن عروة ، عن عائشة رضي الله عنهما قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أوىٰ إلىٰ فراشه . . قال : « اللهم ؛ متعني بسمعي وبصري وعقلي ، واجعلها الوارث مني ، وانصرني علىٰ عدوي ، وأرني فيه ثأري »[2] .

وعنه عن عائشة رضي الله عنها قالت : عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً من بني غفار ، فوجده محموماً وله ضجيج من شدة ما يجد من الحمىٰ ، فقال النبي صلى الله عليه

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٦٥) .

(٢) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٤/ ١٧٠) .

وسلم : « الحمىٰ من فيح جهنم ، وهي نصيب المؤمن من النار » ، ثم قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما تشتهي ؟ » قال : أشتهي ـ يارسول الله ـ برد الجنة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم ؛ أعطه ما تمنىٰ » ، فقال : هاه ، فشهق ، فمات ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من أمتي من لو أقسم على الله عز وجل . . لأبره » انتهىٰ [« الحلية » ٢/ ١٧٩ـ١٨٢] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق
رضي الله عنهم أجمعين وأرضاهم

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : لما توفي عبد الملك بن مروان . . أسف عليه عمر بن عبد العزيز أسفاً منعه من العيش ، وقد كان ناعماً ، فاستشعر مِسْحاً[1] سبعين ليلة ، فقال له القاسم بن محمد : أُعْلِمْتُ أن من مضىٰ من سلفنا كانوا يحبون استقبال المصائب بالتجمل ، ومواجهة النِّعم بالتذلل ، فراح من عشية يومه في مقطعات من حِبَرَةٍ[2] أهل اليمن ، شراؤها ثمان مئة دينار ، وفارق ما كان يصنع .

وعن يحيى بن سعيد قال : ما أدركنا بالمدينة أحداً نفضله على القاسم بن محمد .

وعن حماد بن زيد ، عن أيوب قال : سمعت القاسم يُسأل بمنىٰ ، فيقول : لا أدري ، لا أعلم ، فلما أكثروا عليه . . قال : والله ؛ ما نعلم كل ما تسألونا عنه ، ولو علمنا . . ما كتمناكم ، ولا حل لنا أن نكتمكم .

وفي رواية : ولأن يعيش الرجل جاهلاً بعد أن يعرف حق الله تعالىٰ عليه . . خير له من أن يقول ما لا يعلم .

وعن عبد الرحمٰن ابن أبي الزناد ، عن أبيه قال : ما رأيت أحداً أعلم بالسُّنَّة من القاسم ، وكان الرجل لا يُعَدُّ رجلاً حتىٰ يعرف السُّنَّة .

مات القاسم بين مكة والمدينة حاجاً ـ أو معتمراً ـ فقال لابنه : شن علي التراب شناً ، وشق علي قبري[3] ، وألحق بأهلك ، وإياك أن تقول : كان وكان .

---

(١) أي : لبس ثوباً غليظاً من الشعر .

(٢) **الحِبَرَةُ** : ثوب يماني من قطن ، أو كتان مخطط .

(٣) في « الحلية » و« التمهيد » : (سنَّ عليَّ التراب سنّاً ، وسوِّ علىٰ قبري) ، **والشنُّ والسنُّ** واحدٌ ، وهو : الصبُّ .

وجاء أعرابي إلى القاسم ، فقال له : أنت أعلم أو سالم ؟ فقال : ذاك منزل سالم ، فلم يزده عليها حتىٰ قام الأعرابي .

قال محمد بن إسحاق : كره أن يقول : هو أعلم مني فيكذب ، أو يقول : أنا أعلم منه فيزكي نفسه .

أسند الكثير ، وعامة مسانيده في المناسك والأحكام . انتهىٰ [« الحلية » ٢/١٨٣ـ١٨٥] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : أم القاسم أم ولد ، يكنىٰ : أبا محمد[١] .

وعن أيوب قال : رأيت على القاسم بن محمد رداء قد صبغ بشيء من زعفران ، ويدع مئة ألف لا يرىٰ لها قدراً . أو كما قال .

وفي رواية : ولقد ترك مئة ألف وهي له حلال .

وقال مالك : قال عمر بن عبد العزيز : لو كان إلي من الأمر شيء . . لوليت القاسم الخلافة .

وما كان القاسم يجيب في الشيء الظاهر[٢] .

وقال سفيان : اجتمعوا إلى القاسم بن محمد في صدقة قسمها وهو يصلي ، فجعلوا يتكلمون ، فقال ابنه : إنكم اجتمعتم إلىٰ رجل ـ والله ـ ما نال منها درهماً ولا دانقاً ، قال : فأوجز القاسم في صلاته ، وقال : يا بني ؛ قل : فيما علمتُ ، قال سفيان : وصدق ابنه ، ولٰكنه أراد تأديبه في النطق ، وحفظَه .

توفي سنة ثمان ومئة ، وقيل : تسع ، وهو ابن سبعين أو اثنتين وسبعين سنة ، وكان قد ذهب بصره ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/٥١ـ٥٢] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) في « الطبقات » لابن الخياط (١/ ٢٤٤) : (أبا عبد الرحمٰن) .

(٢) في « الصفوة » ، و« سير أعلام النبلاء » (٥/ ٥٧) : (وما كان القاسم يجيب إلا في الشيء الظاهر) .

ومنهم الإمام :

أبو بكر بن عبد الرحمـٰن بن الحارث بن هشام
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : كان أبو بكر بن عبد الرحمـٰن أكثرُ أحاديثِهِ في الأقضية والأحكام .

وقال الزبير بن بكار : كان أبو بكر بن عبد الرحمـٰن يقال له : راهب المدينة ، وفي رواية : راهب قريش ؛ لكثرة صلاته .

وعن أبي بكر بن عبد الرحمـٰن أنه قال : إنما هـٰذا العلم لِواحد من ثلاثة : لذي نسب يزين به نسبه ، أو لذي دِين يزين به دينه ، أو مختلط بسلطان يعرِّفه أمر الله عز وجل ونهيه ، ولا أعلم أحداً اجتمعت فيه الخلال من عروة بن الزبير وعمر بن عبد العزيز ، كلاهما ذو نسب ، ودين ، وقرب من السلطان . أو كما قال .

ومما أسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إني لأستغفر الله عز وجل وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة »[1] انتهىٰ [« الحلية » ٢/ ١٨٧ـ١٨٨] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : أبو بكر بن عبد الرحمـٰن ، كنيته : اسمه ، ولد في خلافة عمر رضي الله عنه .

وكان حارساً لعرضه ، يصونه أشد الصيانة ، ومن ذلك : أنه أُودِع مالاً ، فأصيب ، فقال له عروة : لا ضمان عليك ، فقال : قد علمت ، ولـٰكن لا تتحدث قريش أن أمانتي خربت ، فباع مالاً له ، فقضاه .

---

(١) أخرجه النسائي في « الكبرىٰ » (٦/ ١١٥) .

وكان قد ذهب بصره ، ودخل يوماً إلىٰ مغتسله ، فمات فيه فجأة ، وذلك في سنة أربع وتسعين ، وهي سَنَة الفقهاء[1] رضي الله عنهم . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/٥٣] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) يقال لها : سَنَةُ الفقهاء ؛ لأنه مات فيها : علي بن الحسين ، وعروة بن الزبير ، وسعيد بن المسيب ، وأبو بكر بن عبد الرحمـٰن ، رضي الله عنهم .

ومنهم الإمام :

عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : عن الزهري قال : أدركت أربعة بحور من قريش : سعيد بن المسيب ، وأبا سلمة ابن عبد الرحمٰن بن عوف[1] ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وعروة بن الزبير .

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : لو أدركني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة إذ وقعت فيما وقعت فيه . . لهان عليَّ ما أنا فيه .

وعن أبي الزناد قال : ربما كنت أرىٰ عمر بن عبد العزيز في إمارته يأتي عبيد الله بن عبد الله ، فربما حجبه ، وربما أذن له .

كتب عبيد الله بن عبد الله بن عتبة إلىٰ عمر بن عبد العزيز :

باسم الذي أنزلت من عنده السورُ ... والحمد لله أما بعد يا عمرُ
إن كنت تعلم ما تأتي وما تذرُ ... فكن علىٰ حذر قد ينفع الحذرُ
واصبر على القدر المحتوم وارض ... به وإن أتاك بما لا تشتهي القدرُ
فما صفا لامرىءٍ عيش يُسَرُّ به ... إلا سيتبع يوماً صَفْوَه كدرُ

أسند كثيراً من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم مما أعلم به النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه من حقارة الدنيا والزهادة فيها .

وعن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، عن ابن عباس رضي الله عنهم : أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بشاة ميتة ، فقال صلى الله عليه وسلم : « لَلدنيا أهون على الله سبحانه وتعالىٰ من هٰذه علىٰ أهلها »[2] .

---

(١) في « الحلية » : (وأبا بكر بن عبد الرحمٰن بن الحارث) .
(٢) أخرجه بنحوه أحمد (١/ ٣٢٩) .

وعنه عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لو أن لي مثل أحد ذهباً . . ما يسرني أن يأتي علي ثلاث ليال وعندي منه شيء ، إلا شيء أرصده للدِّين »[1] .

وعنه عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً ما أسمعه يقول : « إن الله لم يقبض نبياً حتىٰ يخيره » ، قالت : فلما حُضِر رسول الله صلى الله عليه وسلم . . كان آخر كلمة سمعتها منه يقول : « بل الرفيق الأعلىٰ من الجنة » ، قالت : قلت : إذاً والله لا يختارنا ، وعرفت أنه الذي كان يقول لنا : « إن نبياً لا يقبض حتىٰ يخير »[2] انتهىٰ [« الحلية » ٢/١٨٨] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : أسند عن جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .

وذهب بصره ، وتوفي بالمدينة ، سنة ست وتسعين[3] ، وقيل : سبع وتسعين ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/٥٩] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرجه البيهقي في « الكبرىٰ » (٧/ ٤٦) ، وبنحوه البخاري (٥٩١٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٢٧٤) .

(٣) كذا فيما بين أيدينا من النسخ ، وفي « الصفوة » ، و« تهذيب الكمال » ، و« سير أعلام النبلاء » : (ثمان وتسعين) .

ومنهم الإمام :

خارجة بن زيد بن ثابت الأنصاري
رضي الله عنهما

قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : ومن مسانيد خارجة بن زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنهما : عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ هـٰذا المال خضر حلو »[1] .

وعنه عن أبيه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعظنا ويحدثنا ، ويقول : « والذي نفسي بيده ؛ ما عُمِل علىٰ وجه الأرض عمل بعد الشرك . . أعظم من سفك دم حرام ، والذي نفسي بيده ؛ إن الأرض لتعج إلى الله عز وجل من ذلك عجيجاً تستأذنه فيمن فعل ذلك علىٰ ظهرها ؛ لتخسف به »[2] انتهىٰ [« الحلية » ٢/ ١٩٠] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرجه بنحوه ابن حبان في « الإحسان » (٣٢٢٠) .

(٢) أخرجه الديلمي (٤/ ٣٧٢) ، **وعج عجيجاً** : رفع صوته وصوَّت مرة بعد أخرىٰ .

ومنهم الإمام :

أبو أيوب سليمان بن يسار
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : كان سليمان بن يسار من أحسن الناس وجهاً ، فخرج حاجاً من المدينة ومعه رفيق له ، حتىٰ نزلوا بالأبواء[1] ، فقام رفيقه ، وأخذ السفرة ، وانطلق إلى السوق يبتاع لهم ، وقعد سليمان في الخيمة ، وكان من أورع الناس ، فبصرت به أعرابية من قُلة جبل[2] ، وهي في خيمتها ، فلما رأت حسنه وجماله . . انحدرت وعليها البرقع والقفازان[3] ، فجاءت ، فوقفت بين يديه ، وأسفرت عن وجهها كأنه فلقة قمر ، فقالت : أهنيني ، فظن أنها تريد طعاماً ، فقام إلىٰ فضل السفرة ليعطيها ، فقالت : لست أريد هـٰذا ، إنما أريد ما يكون من الرجل إلىٰ أهله ، فقال : جهزك إليَّ إبليس ؟ ثم وضع رأسه بين كميه ، وأخذ في النَّحيب ، فلم يزل يبكي ، فلما رأت ذلك . . سدلت برقعها ، ورجعت إلىٰ خيمتها ، فجاء رفيقه ، فرآه قد انتفخت عيناه من البكاء ، فقال : ما يبكيك ؟ فقال : خير ، فلم يزل به رفيقه حتىٰ أخبره بشأن الأعرابية ، فجعل رفيقه يبكي بكاء شديداً ، فقال له سليمان : فأنت ما يبكيك ؟ قال : أنا أحق بالبكاء منك ، قال : ولِمَ ؟ قال : لأني أخشىٰ أن لو كنت مكانك . . لما صبرت عنها ، فما زالا يبكيان ، فلما انتهىٰ سليمان إلىٰ مكة ، فبينما هو نائم رأىٰ رجلاً وسيماً جميلاً ، له شارة حسنة ، ورائحة طيبة ، فقال له سليمان : من أنت رحمك الله ؟ قال : أنا يوسف الصديق ، قال : إن في شأنك وشأن امرأة العزيز لشأناً عجيباً ، فقال له يوسف عليه الصلاة والسلام : شأنك وشأن صاحبة الأبواء أعجب . أو كما قال .

---

(١) **الأبواء** : موضع بين مكة والمدينة ، وهي إلى المدينة أقرب ، وقعت عندها أول غزوة للرسول صلى الله عليه وسلم ، في آخر السنة الأولىٰ للهجرة .

(٢) **قلة الجبل** : أعلاه وقمته .

(٣) **القفاز** : لباس الكفِّ من نسيج أو جلد .

ومن مسانيد حديثه : ما رواه بسنده إلىٰ أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أول الناس يُقضىٰ فيه يوم القيامة ثلاثة : رجل استشهد ، فأتي به ، فعرَّفه نعمه ، فعرفها ، فقال : ما عملت فيها ؟ قال : قاتلت في سبيلك حتى استشهدت ، قال : كذبت ، إنما أردت أن يقال : فلان جريء ، وقد قيل ، فأمر به ، فسحب علىٰ وجهه ، حتىٰ ألقي في النار .

ورجل تعلم العلم وقرأ القرآن ، فأتي به ، فعرَّفه نعمه ، فعرفها ، فقال : ما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وقرأت القرآن ، وعلَّمته فيك ، قال : كذبت ، إنما أردت أن يقال : فلان عالم ، وفلان قارىء ، وقد قيل ، فأمر به ، فسحب علىٰ وجهه إلى النار .

ورجل آتاه الله من أنواع المال ، فأتي به ، فعرَّفه نعمه ، فعرفها ، فقال : ما عملت فيها ؟ فقال : ما تركت من شيء تحبّ أن ينفق فيه . . إلا أنفقت فيه لك ، قال : كذبت ، إنما أردت أن يقال : فلان جواد ، وقد قيل ، فأمر به ، فسحب علىٰ وجهه ، حتىٰ ألقي في النار » صحيح متفق عليه[1] .

وعنه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما عُبِدَ الله بشيء أفضلَ من فقه في دين »[2] ، قال أبو هريرة رضي الله عنه : لأَن أتفقه ساعة . . أحَبُّ إليَّ من أن أحيي ليلة أصليها حتىٰ أصبح ، ولَفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ، ولكل شيء دعامة ، ودعامة الدين : الفقه[3] . انتهىٰ [« الحلية » ٢/ ١٩٠ـ١٩٣] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان سليمان بن يسار مولىٰ ميمونة بنت الحارث زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، ويقال : كان مكاتباً لها ، وكان يسرد الصوم ، وكان أخوه عطاء يصوم يوماً ويفطر يوماً .

أسند سليمان عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وابن عمر ، وابن عباس ، في خلق كثير من الصحابة ، رضوان الله عليهم .

وتوفي سنة تسع ومئة[4] ، وهو ابن ثلاث وسبعين سنة .

---

(١) الحديث بنحوه في « مسلم » (١٩٠٥) .
(٢) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٦/ ١٩٤) .
(٣) أخرجه بنحوه الدارقطني (٣/ ٧٩) .
(٤) في « الصفوة » و« السير » : (سنة سبع ومئة) .

وأسند أخوه عطاء عن أُبي ، وابن مسعود ، وأبي أيوب ، في خلق كثير من الصحابة ، رضوان الله عليهم .

وتوفي سنة ثلاث ومئة ، وقيل : سنة أربع وتسعين ، وكان يكنىٰ : أبا محمد ، وهو مولىٰ ميمونة أيضاً . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/٤٦ـ٤٨] .

تَنبـيّه

اعلم : أن أبا الفرج ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ ذكر أن واقعة الأعرابية إنما وقعت مع عطاء بن يسار أخي سليمان بن يسار ، والحافظ ـ كما رأيت ـ رواها عن سليمان ولم يذكر أخاه هنا .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو عمرو سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب[1] رضي الله عنهم

قال النووي ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ : هو التابعي الإمام الفقيه الزاهد العابد ، سمع أباه ، وأبا أيوب الأنصاري ، ورافع بن خديج ، وأبا هريرة ، وعائشة ـ رضي الله عنهم ـ وسمع جماعات من التابعين .

وروىٰ عنه جماعات من التابعين، منهم : عمرو بن دينار ، ونافع مولىٰ أبيه ، والزهري، وموسى بن عقبة ، وحميد الطويل ، وعبيد الله العمري ، وخلائق من التابعين ، وتابعي التابعين .

وأجمعوا علىٰ إمامته ، وجلالته ، وزهادته ، وعلو مرتبته .

ورُوِّينا عن سعيد بن المسيب قال : كان عبد الله بن عمر أشبه ولد عمر به ، وكان سالم أشبه ولد عبد الله به .

ورُوِّينا عن مالك بن أنس قال : لم يكن أحد أشبه بمن مضىٰ من الصالحين في الزهد والقصد في العيش . . من سالم ؛ كان يلبس الثوب بدرهمين .

رُوِّينا عن إسحاق بن راهويه ، أنه قال : أصح الأسانيد كلها : الزهري عن سالم عن أبيه ، وفي هـٰذه المسألة خلاف قد تقدم ذكره[2] .

---

(١) كذا في النسخ و« المعارف » ، وفي « الحلية » ، و« الصفوة » ، و« سير أعلام النبلاء » : (أبو عُمر) وليس (أبا عمرو) .

(٢) إذ قال النووي في « التهذيب » في ترجمة الزهري (١/ ٩١) :
قال أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه : أصح الأسانيد مطلقاً : الزهري عن سالم عن أبيه .
وقال أبو بكر ابن أبي شيبة : أصحها الزهري عن علي بن الحسين عن أبيه عن علي .
وقال علي بن المديني وعمرو بن علي الفلاس وغيرهما : أصحها الأعمش عن إبراهيم النخعي عن علقمة عن ابن مسعود .
وقال البخاري : أصحها : مالك عن نافع عن ابن عمر ؛ لإجماع أهل الحديث علىٰ أن الشافعي أجلُّ أصحاب مالك رحمهم الله أجمعين . =

ورُوِّينا عن محمد بن سعد ، قال : كان سالم كثير الحديث ، عالياً من الرجال ، ورعاً .

وفي « تاريخ ابن أبي خيثمة » : أن ابن عمر رضي الله عنهما كان يلقى ابنه سالماً ، فيقبِّله ، فيقولون : ألا تعجبون من شيخ يقبل شيخاً ؟

ورُوِّينا عن ابن المبارك : أنه عدَّ فقهاء المدينة السبعة ، فجعل سالماً أحدهم . انتهىٰ [« التهذيب » ١/٢٠٧ـ٢٠٨] .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قدم سليمان بن عبد الملك المدينة ، فدخل عليه القاسم وسالم بن عبد الله ؛ فإذا سالم أحسنهما صورة ، فقال : يا أبا عمر ؛ ما طعامك ؟ قال : الخبز والزيت ، قال : أوتشتهيه ؟ قال : أدَعُهُ حتىٰ أشتهيَهُ ، قال : ثم دعا لهما بغالية[1] ، وجاءت جارية وضيئة الوجه ، مديدة القامة ، فذهبت تغليهما ، فقال : تنحَّي عنا ، ثم تناولا المدهن[2] ، فلعقا منه ، ثم ادَّهَنا ، ثم قالا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أتي بمدهن الطيب . . لعق منه ، ثم ادَّهن[3] .

وقال سالم : إياكم وإدامة اللحم ؛ فإن له ضراوة كضراوة الشراب .

وكان يخرج إلى السوق فيشتري حوائج نفسه .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلىٰ سالم رحمهما الله : أن اكتب إلي بشيء من رسائل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فكتب : يا عمر ؛ اذكر الملوك الذين تفقأت أعينهم ، الذين كانوا لا تنقضي لذتهم ، وانفقأت بطونهم ، وصاروا جيفاً تحت الأرض .

وكان لا يمر بنفر بليل أو نهار . . إلا سلم ، يقول : السلام عليكم ، فقيل له في ذلك ، فأخبر عن أبيه رضي الله عنهما أنه كان يفعل ذلك .

أسند سالم مٰا لا يعد كثرة عن أبيه ، وعن جلة الصحابة أجمعين .

فمن حديثه عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يُسلمه ، ومن كان في حاجة أخيه . . كان الله عز وجل في حاجته ، ومن فرَّج

= والمختار : أنه لا يجزم لإسنادٍ أنه أصحها على الإطلاق ؛ لعسر ذلك . انتهىٰ .

(١) **الغالية** : أخلاط من الطيب ، كالمسك والعنبر .

(٢) **المُدْهن** : آلة الدُّهنِ ، وجاء في النسخ ، و« الحلية » : (الدهن) . والمراد هنا بمدهن الطيب : الدهن المطيب .

(٣) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٠/٦٧) .

عن مسلم كربة من كرب الدنيا . . فرَّج الله بها عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً في الدنيا . . ستره الله يوم القيامة » حديث صحيح[1] .

وعنه عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما ترك عبد شيئاً لله لا يتركه إلا له . . عوضه الله منه ما هو خير له في دينه ودنياه »[2] انتهىٰ [« الحلية » ٢/١٩٣ـ١٩٦] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كانت أم سالم أُمَّ ولد ، وكان أبوه يحبه حباً شديداً ؛ لأنه أشبه أولاده به ، وكان إذا قيل له في ذلك . . ينشد :

يلومونني في سالمٍ وأَلومُهمْ وجلدة بين العين والأنف سالم[3]

وزحمه رجل ، فقال له سالم : بعض هٰذا رحمك الله ، فقال له الرجل : ما أراك إلا رجل سوء ، فقال له سالم : ما أحسبك أبعدْتَ ، ودخل الكعبة ، فصلى العشاء ، ثم أحيا الليل كله . أو كما قال .

وقال سفيان بن عيينة : دخل هشام بن عبد الملك الكعبة ، فإذا هو بسالم ، فقال : يا سالم ؛ سلني حاجتك ، فقال : إني لأستحيي أن أسأل في بيت الله عز وجل غير الله سبحانه وتعالىٰ ، فلما خرج . . خرج في أثره ، فقال : الآن خرجت ، فسلني حاجتك ، فقال : له سالم : من حوائج الدنيا ؟ أم حوائج الآخرة ؟ فقال : من حوائج الدنيا ، فقال له سالم : ما سألت الدنيا ممن يملكها ، فكيف أسأل ممن لا يملكها ؟!

توفي في آخر ذي الحجة ، سنة ست ومئة ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/٥٢ـ٥٣] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣١٠) ، ومسلم (٢٥٨٠) .

(٢) أخرجه الديلمي (٤/٦٦) .

(٣) جعل ابن عمر رضي الله عنهما منزلة ابنه سالم منزلة سالم ، وهي الجلدة التي بين عينيه وأنفه . ورواية الشطر الأول في « اللسان » :

يديرونني عن سالم وأُريغُهُ

ومنهم الإمام :

محمد بن علي بن أبي طالب
رضي الله عنهما

قال الإمام النووي ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ : هو من كبار التابعين ، دخل علىٰ عمر بن الخطاب ، وسمع عثمان ، وأباه علياً رضي الله عنهم .

روىٰ عنه بنوه : الحسن ، وعبد الله ، وإبراهيم ، وعون ، وجماعات من التابعين .

ورُوِّينا عنه ، عن أبيه قال : قلت : يا رسول الله ؛ إن ولد لي مولود بعدك . . أأسميه باسمك وأكنيه بكنيتك ؟ قال : « نعم »[1] .

وقال أحمد بن عبد الله العقيلي الإمام الحافظ : ثلاثة يسمون محمداً ، ورخص في كنيتهم بأبي القاسم : محمد ابن أبي بكر ، ومحمد بن علي ، ومحمد بن طلحة بن عبيد الله .

وقال إبراهيم بن عبد الله بن الجنيد الحافظ : لا نعلم أحداً أسند عن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم أكثر ولا أصح مما أسند ابن الحنفية . انتهىٰ [« التهذيب » ١/٨٨] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : هو ابن الحنفية ، أمه : الحنفية[2] ، خولة بنت جعفر بن قيس ، ويقال : بل كانت أمه من سبي اليمامة ، فصارت إلىٰ علي رضي الله عنه .

قالت أسماء : رأيت أم محمد سندية سوداء ، وكانت أمة لبني حنيفة .

وقال محمد ابن الحنفية : ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لم يجد مِن معاشرته بُدّاً ، حتىٰ يجعل الله عز وجل له فرجاً ، أو قال : مخرجاً .

وقال : من كرمت عليه نفسه . . لم يكن للدنيا عنده قدر .

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٨٤٣) .

(٢) نسبة لبني حنيفة علىٰ غير القياس ، وكانت أَمَةً لهم .

وقال : إن الله عز وجل جعل الجنة ثمناً لأنفسكم ، فلا تبيعوها بغيرها .

وعن المنذر قال : قال لي محمد ابن الحنفية : يا منذر ؛ قلت : لبيك ، قال : كل ما لا يُبتغَىٰ به وجه الله عز وجل . . يضمحل .

وعن علي بن الحسين قال : كتب ملك الروم إلىٰ عبد الملك بن مروان يتهدده ، ويتواعده ، ويحلف ليحملن إليه مئة ألف في البَر ، ومئة ألف في البحر ، أو يؤدي الجزية ، فسقط في يده ، فكتب إلى الحجاج : أن اكتب إلى ابن الحنفية فهدِّدْه وتوعَّدْه ، ثم أعلمني ما يرد عليك ، فكتب الحجاج كتاباً شديداً يتهدده ويتوعده بالقتل ، فكتب إليه ابن الحنفية : إن لله عز وجل ثلاث مئة وستين نظرة إلىٰ خلقه ، وأنا أرجو أن ينظر الله عز وجل إليَّ نظرة يمنعني بها منك ، فبعث الحجاج بكتابه إلىٰ عبد الملك ، فكتب عبد الملك إلىٰ ملك الروم ذلك ، فقال ملك الروم : ما خرج هـٰذا منك ، ولا أنت كتبت به ، وما خرج إلا من بيت نبوة .

أسند محمد ابن الحنفية الحديث عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم ، وعامة حديثه عن علي رضي الله عنه[1] .

وبعث ابن الزبير إلىٰ محمد ابن الحنفية : أن بايع لي ، وبعث إليه عبد الملك : أن بايع لي ، فقال في الجواب : أنا رجل من المسلمين ، فإذا اجتمع المسلمون علىٰ أحدكما . . بايعت له ، فلما قتل ابن الزبير . . بايع لعبد الملك .

ومات في سنة إحدىٰ وثمانين ، وله خمس وستون سنة ، ودفن بالبقيع ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/٤٣-٤٤] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) وهو أكثر وأصح من روىٰ عن علي رضي الله عنهما .

ومنهم الإمام :

زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب

رضي الله عنهم

قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : عن أبي حمزة قال : أتيت باب علي بن الحسين ، فكرهت أن أصوِّت ، فقعدت حتىٰ خرج ، فسلمت عليه ، ودعوت له ، فأخذني معه إلىٰ حائط له ، فقال لي : اتكأتُ يوماً علىٰ هـٰذا الحائط وأنا حزين ، وإذا برجل حسن الوجه والثياب ينظر في وجهي ، ثم قال : يا علي بن الحسين ؛ ما لي أراك كئيباً حزيناً ، أَعَلى الدنيا ؟ فهو رزق حاضر ، يأكل منه البر والفاجر ، فقلت : ما عليها أحزن ؛ هو كما تقول[1] ، فقال : أَعَلى الآخرة ؟ فهو وعد صادق ، يحكم فيها ملك قاهر ، قلت : ما علىٰ هـٰذا أحزن ، هو كما تقول ، فقال : وما حزنك ؟ فقلت : أتخوف من فتنة ابن الزبير ، فقال : يا علي بن الحسين ؛ هل رأيت أحداً سأل الله عز وجل فلم يعطه ؟ قلت : لا ، قال : فخافه فلم يكفه ؟ قلت : لا ، ثم غاب عني ، فقيل لي : يا علي بن الحسين ؛ هـٰذا الخضر ناجاك . انتهىٰ [« الحلية » ٣/ ١٣٤ـ١٣٥] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : علي بن الحسين هو زين العابدين ، أمه : أم ولد ، اسمها : غزالة[2] .

وهو علي الأصغر ، وأما الأكبر : فقتل مع الحسين ، وكان علي هـٰذا مع أبيه ، وهو ابن ثلاث وعشرين سنة ، إلا أنه كان مريضاً نائماً علىٰ فراش ، فلم يقتل .

وكان يكنىٰ : أبا الحسن ، وقيل : أبا محمد .

قال عبد الرحمـٰن بن حفص : كان علي بن الحسين إذا توضأ . . اصفر وجهه ، فيقول له أهله : ما هـٰذا الذي يعتادك عند الوضوء ؟ فيقول : أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم ؟!

---

(١) في « الحلية » : (لأنه كما تقول) .

(٢) وقيل : إنها بنت ملك الفرس يَزْدَجِرْد ، ويقال لها : سُلافة .

وقال عبد الله ابن أبي سليمان : كان علي بن الحسين إذا مشىٰ . . لا تجاوز يده فخذه ، ولا يخطر بيده ، وكان إذا قام إلى الصلاة . . أخذته رِعْدة ، فقيل له : ما لك ؟ فقال : أتدرون بين يدي من أقوم ، ومن أناجي ؟!

وقال أبو نوح : وقع حريق في بيت فيه علي بن الحسين وهو ساجد ، فجعلوا يقولون له : يابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ النار ، يابن رسول الله ؛ النار ، فما رفع رأسه حتىٰ أطفئت ، فقيل له في ذلك ، فقال : لم أشعر بها ، فقيل له : ما الذي ألهاك عنها ؟ فقال : ألهاني عنها النارُ الكبرىٰ .

وقال سفيان : جاء رجل إلىٰ علي بن الحسين فقال : إن فلاناً قد آذاك ووقع فيك ، قال : فانطلق بنا إليه ، فانطلق معه وهو يرىٰ أنه سينتصر لنفسه ، فلما أتاه . . قال : **يا هٰذا ؛ إن كان ما قلتَه فيَّ حقاً . . فغفر الله لي ، وإن كان ما قلت فيَّ باطلاً . . فغفر الله لك** .

وقال أبو يعقوب المدني : كان بين حسن بن حسن وبين علي بن الحسين بعض الأمر ، فجاء حسن بن حسن إلىٰ علي بن الحسين وهو مع أصحابه في المسجد ، فما ترك شيئاً . . إلا قاله له ، وعلي ساكت ، فانصرف حسن ، فلما كان الليل . . أتاه في منزله ، فقرع بابه ، فخرج إليه ، فقال له علي : يا أخي ؛ إن كنت صادقاً فيما قلت . . فغفر الله لي ، وإن كنت كاذباً . . فغفر الله لك ، السلام عليك ، وولىٰ ، قال : فاتبعه حسن ، والتزمه من خلفه ، وبكىٰ حتىٰ رثىٰ له ، ثم قال : لا جرم لا عدت في أمر تكرهه ، فقال علي : وأنت في حل مما قلت لي .

وقال : **فَقْدُ الأحبة غربة** .

وكان يقول : اللهم ؛ إني أعوذ بك أن تحسِّن في لوامع العيون علانيتي ، وتُقبِّح في خفايا العيون سريرتي ، اللهم ؛ كما أسأتُ وأحسنتَ إلي ، فإذا عدتُ . . فعدْ علي .

وكان يقول : إن قوماً عبدوا الله رهبة . . فتلك عبادة العبيد ، وآخرين عبدوه رغبة . . فتلك عبادة التجار ، وقوماً عبدوا الله شكراً . . فتلك عبادة الأحرار . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/٥٤ـ٥٥] .

وقال الحافظ : قال الزهري : شهدت علي بن الحسين يوم حمله عبد الملك بن مروان من المدينة إلى الشام ، فأثقله حديداً ، ووكل به حفاظاً في عدة وجمع ، فاستأذنتهم في التسليم عليه والتوديع له . . فأذنوا لي ، فدخلت عليه وهو في قبة والأقياد في رجليه ويديه ،

فبكيت ، وقلت : وددت أني مكانك وأنت سالم ، فقال : يا زهري ؛ أو تظن أن هـٰذا علي أو يكربني[1] ؟ فإني لو شئت . . لما كان هـٰذا ، ثم أخرج يديه ورجليه من الأقياد ، ثم قال : يا زهري ؛ لا أجوز معهم علىٰ ذا سوىٰ منزلتين من المدينة ، فما لبث إلا أربع ليال . . حتىٰ قدم الموكلون به يطلبونه بالمدينة ، فما وجدوه ، فكنت فيمن سألهم عنه ، فقال لي بعضهم : بينما نحن معه ونحن نراصده ليلاً ، فلما أصبحنا لم نر إلا حديده بين محمليه .

قال الزهري : فقدمت بعد ذلك علىٰ عبد الملك بن مروان ، فسألني عن علي بن الحسين ، فأخبرته ، فقال لي : إنه جاءني في يومٍ فَقَدَهُ الأعوان ، فدخل عَلَيَّ ، فقال : ما أنا وأنت ، فقلت : أقم عندي ، فقال : لا أحب ، ثم خرج ، فوالله ؛ لقد امتلأ ثوبي منه خيفة ، قال الزهري : قلت : يا أمير المؤمنين ؛ ليس علي بن الحسين حيث تظن من جهة الخلافة ، إنه مشغول بنفسه وعبادة ربه عز وجل ، فقال : حبذا شُغْلُ مثله ، فنِعم ما شغل به نفسه .

وكان الزهري إذا ذكر علي بن الحسين . . يبكي ، ويقول : زين العابدين[2] .

وكان علي بن الحسين يقول : من قنع بما قسم الله له . . فهو مِن أغنى الناس .

وعن يحيى بن سعيد قال : سمعت علي بن الحسين وقد اجتمع عليه ناس وهو يقول لهم : أحبونا حب الإسلام لله عز وجل ؛ فإنه مابرح بنا حبكم . . حتىٰ صار علينا عاراً .

وفي روايةٍ أخرىٰ : أحبونا حب الإسلام لله عز وجل ، ولا ترفعونا فوق قدرنا ، أو قال : حقنا .

وكان إذا ناول السائل صدقة . . قبَّلها ، ثم ناولها .

وسئل عن كثرة بكائه ، فقال : لا تلوموني ؛ فإن يعقوب عليه السلام فَقَدَ سبطاً من ولده ، فبكىٰ حتى ابيضت عيناه ، ولم يعلم أنه مات ، وقد نظرت إلىٰ أربعة عشر رجلاً قُتلوا من أهلي في غداة واحدة ، فترون حزنهم يذهب من قلبي ؟ انتهىٰ [« الحلية » ٣/ ١٣٥ـ١٣٨] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : وكان لا يحب أن يعينه علىٰ طهوره أحد ، كان يستقي الماء لطهوره ويخمره قبل أن ينام ، فإذا قام من الليل . . بدأ بالسواك ، ثم يتوضأ ، ثم يأخذ في صلاته ، وكان يقضي ما فاته من صلاته بالنهار بالليل ، ثم يقول : يا بني ؛ ليس هـٰذا

---

(١) في « الحلية » : (أتظن أن هـٰذا مما ترىٰ عليَّ وفي عنقي يكربني) .

(٢) كان يسمىٰ زين العابدين لعبادته ؛ فإنه كان يصلي في كل يوم وليلة ألف ركعة إلىٰ أن مات .

عليكم بواجب ، ولـٰكن أُحب لمن عود نفسه شيئاً من الخير . . أن يداوم عليه .

وكان لا يترك صلاة الليل سفراً أو حضراً .

وكان يقول : عجبت للمتكبر الفخور ، الذي كان بالأمس نطفة مذرة ، ثم يكون غداً جيفة قذرة!

وعجبت كل العجب ممن شك في الله عز وجل ، وهو يرىٰ خلقه وآياته ، وعجبت كل العجب لمن أنكر النشأة الأخرىٰ ، وهو يرى النشأة الأولىٰ!

وعجبت كل العجب لمن عمل لدار الفناء ، وترك دار البقاء!

وكان إذا أتاه السائل . . رحَّب به ، وقال : مرحباً بمن يحمل زادي إلى الآخرة .

وكلمه رجل ، فافترىٰ عليه ، قال : إن كنا كما قلتَ . . فغفر الله لنا ، وإن لم نكن كما قلت . . فيغفر الله لك ، فقام الرجل ، فقبَّل رأسه ، وقال : جُعلت فداك ، ليس كما قلتُ أنا ، فاغفر لي ، قال : غفر الله لك ، فقال الرجل : ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالاتِهِ﴾[1] .

وكان علي بن الحسين رحمه الله يُبَخَّل ، فلما مات . . وجدوه يقوت مئة أهل بيت بالمدينة .

وقال محمد بن إسحاق : كان ناس من أهل المدينة يعيشون ولا يدرون من أين معايشهم ، فلما مات علي بن الحسين رضي الله عنهما . . فقدوا ما كانوا يؤتَون به بالليل .

وكان يحمل جراب الخبز علىٰ ظهره بالليل ، فيتصدق به ، ويقول : إن صدقة السر تطفىء غضب الرب عز وجل .

ولما مات وغسلوه . . جعلوا ينظرون إلىٰ آثار سواد في ظهره ، فقالوا : ما هـٰذا ؟ فقيل : كان يحمل جِراب الدقيق علىٰ ظهره ليلاً ، يعطيه فقراء أهل المدينة .

وكان أهل المدينة يقولون : ما فقدنا صدقة السر . . إلا بعد موت علي بن الحسين رضي الله عنهما .

وكان إذا خرج في حج أو عمرة . . اتخذت له سكينة بنت الحسين سفرة ، أنفقت عليها ألف درهم أو نحو ذلك ، وأرسلت بها إليه ، فإذا صار بظهر الحرة . . أمر بها ، فقسمت على المساكين .

---

(١) قرأ حفص وابن كثير : ﴿رسالته﴾ ، وقرأ الباقون : ﴿رسالاته﴾ .

وبلغه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من أعتق رقبة مؤمنة . . أعتق الله بكل عضو منه عضواً منه من النار ، حتى الفرْج بالفرْج »[1] ، فقال لأعظم غلمانه قيمة ونفاسة : اذهب ؛ فأنت حر لله عز وجل ، وكان قد أُعطي بهٰذا الغلام الذي أعتقه ألف دينار . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٥٥ـ٥٦] .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : كان علي بن الحسين عنده جماعة ، فسمع صوت واعية[2] في بيته ، فنهض إلىٰ منزله ، ثم عاد قريباً ، فقيل له : أمِن حدث كانت الواعية ؟ قال : نعم ، فعزَّوه ، وتعجبوا من حسن صبره ، فقال : إنا أهل بيت نطيع الله عز وجل فيما نحب ، ونحمده علىٰ ما نكره .

وحج هشام بن عبد الملك قبل أن يلي الخلافة ، فاجتهد أن يستلم الحجر ، فلم يمكنه ، وجاء علي بن الحسين ، فوقف له الناس ، وتنحوا حتى استلم ، فقال الناس لهشام : من هٰذا ؟ فقال : لا أعرفه ، فقال له الفرزدق : لٰكني أعرفه ، هٰذا علي بن الحسين :

هٰذا الذي تعرف البطحاءُ وطأتَه ... والبيت يعرفه والحل والحرمُ
هٰذا ابن خير عباد الله كلهم ... هٰذا التقي النقي الطاهر العَلَمُ
هٰذا ابن فاطمةٍ إن كنت جاهله ... بجده أنبياء الله قد ختموا
وليس قولك : مَن هٰذا ؟ بضائره ... العُرْب تعرف مَن أنكرتَ والعجمُ
سهل الخليقة لا تُخشىٰ بوادرُه ... يزينه أثنانِ حسنُ الخلق والكرمُ
إذا رأته قريش قال قائلها ... إلىٰ مكارم هٰذا ينتهي الكرمُ
يغضي حياءً ويُغضىٰ من مهابته ... فلا يُكلَّم إلا حين يبتسمُ
يكاد يمسكه عرفانَ راحته ... ركنُ الحطيم إذا ما جاء يستلمُ
الله شرَّفه قِدْماً وفضَّله ... جرىٰ بذاك له في لوحه القلمُ
أيُّ الخلائق ليست في رقابِهِمُ ... لأَوَّلِيَّةِ هٰذا أو له نِعَمُ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٣٧) بلفظ : « من أعتق رقبة مسلمة . . أعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار ، حتىٰ فرجه بفرجه » ، ومسلم (١٥٠٩) بلفظ : « من أعتق رقبة مؤمنة . . أعتق الله بكل إرب منها إرباً منه من النار » .

(٢) في « الحلية » : (ناعية) . وفي « البداية والنهاية » : (داعية) ، الواعية : الصراخ والصوت الشديد ، والله أعلم بالصواب .

مَـنْ يعـرِفِ الله يعـرِفْ أوليَّـةَ ذا ... والدين من بيت هـٰذا ناله الأممُ[1]

مَـنْ جَـدُّه دانَ فضـلُ الأنبيـاء لـه ... وفضـل أمتـه دانـت لـه الأمـمُ

مشتقـةٌ مـن رسـول الله نبعتُـه ... طابت عناصره والخِيْمُ والشِّيَمُ[2]

ينشق نور الهدىٰ عن نور غرته ... كالشمس تنجاب عن إشراقها الظُلَمُ

مـن معشـر حبهـمْ دِيـن وبغضهُـمُ ... كفـر وقـربهُـمُ مَنجـىٰ ومعتصـمُ

مقـدم بعـد ذكـر الله ذكـرهُـمُ ... فـي كـل بَـدْءٍ ومختـومٌ بـه الكَلِـمُ

إن عُـدَّ أهـل التقىٰ كـانـوا أئمَّتَهـم ... أو قيل مَن خير أهل الأرض قيل هُمُ[3]

وقال : إذا كان يوم القيامة . . نادىٰ مناد : ليقم أهل الفضل ، فيقوم ناس قليل ، فيقال : انطلقوا إلى الجنة ، فتتلقاهم الملائكة ، فيقولون : إلىٰ أين ؟ فيقولون : إلى الجنة ، فيقولون : قبل الحساب ؟! قالوا : نعم ، قالوا : ومن أنتم ؟ قالوا : أهل الفضل ، فيقولون : ما كانت أعمالكم ؟ قالوا : كنا إذا جُهِل علينا . . حلمنا ، وإذا ظُلمنا . . صبرنا ، وإذا أُسيء إلينا . . غفرنا ، فيقولون لهم : ادخلوا الجنة فنِعم أجر العاملين .

ثم ينادي مناد : ليقم أهل الصبر ، فيقوم ناس قليل ، فيقال لهم : انطلقوا إلى الجنة ، فتتلقاهم الملائكة عليهم الصلاة والسلام ، فتقول لهم مثل ذلك ، فيقولون : صبَّرنا أنفسنا علىٰ طاعة الله ، وصبرناها عن معصية الله سبحانه وتعالىٰ ، فيقولون : ادخلوا الجنة فنِعم أجر العاملين .

ثم ينادي مناد : ليقم جيران الله عز وجل في داره ، فيقوم ناس ـ وهم قليل ـ فيقال : انطلقوا إلى الجنة ، فتتلقاهم الملائكة ، فتقول لهم مثل ذلك : بِمَ جاورتم الله عز وجل في

---

(١) في « الديوان » :

مـــن يشكـــر الله يشكـــر أوليـــة ذا ... فـالـديـن مـن بيـت هـٰذا نـالـه الأمـم

(٢) في « الديوان » :

مشتقـــة مـــن رســـول الله نبعتـــه ... طـابـت مغـارسـه والخيـم والشيـم

والنبعة : الأصل ، **والخيم** : الأخلاق .

(٣) وتتمة هـٰذه القصة : أن هشام أمر بحبس الفرزدق ، فحبس بعُسْفَان ، وبعث إليه عليُّ بن الحسين باثني عشر ألف درهم وقال : اعذر أبا فراس ، فردَّها وقال : ما قلت ذلك إلا غضباً لله ولرسوله ، فردَّها إليه وقال : بحقي عليك لما قبلتها ، فقد علم الله نيتك ورأىٰ مكانك ، فقبلها .

داره ؟ قالوا : كنا نتزاور في الله ، ونتجالس في الله ، ونتباذل في الله سبحانه وتعالىٰ ، فتقول : ادخلوا الجنة فنِعم أجر العاملين .

وقال غير واحد : إن علي بن الحسين رضي الله عنهما قاسم الله عز وجل ماله مرتين .

وكان يقول : إن الله يحب المؤمن المذنب التواب .

وكانت العصافير تطير حوله ويصرخن ، فقال : أتدرون ما تقول ؟ قالوا : لا ، قال : إنها تقدس ربها عز وجل ، وتسأله قُوت يومها . انتهىٰ [« الحلية » ٣/١٣٨-١٤٠] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : وأتاه نفر من العراق ، فقالوا في أبي بكر وعمر وعثمان ، فقال لهم علي : ألا تخبروني أأنتم من المهاجرين الأولين ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴾ ؟ قالوا : لا ، قال : أفأنتم من [الذين قال الله فيهم] : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ ؟ قالوا : لا ، قال : أما أنتم . . فقد تبرأتم أن تكونوا من أحد هـٰذين الفريقين ، ثم قال : أشهد أنكم لستم من الذين قال الله عز وجل فيهم : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ ، اخرجوا عني ، فعل الله عز وجل بكم وفعل . أو كما قال .

وقال نافع بن جبير لِعلي بن الحسين : أنت سيد الناس وأفضلهم ، تذهب إلىٰ هـٰذا العبد فتجلس معه ؟! يعني : زيد بن أسلم ، قال : إنه ينبغي أن يُتَّبَعَ العالم حيثما كان[1] .

وقال رجل لسعيد بن المسيب : ما رأيتُ أحداً أورع من فلان ، قال : فهل رأيت علي بن الحسين ؟ قال : لا ، قال : ما رأيتُ أحداً أورع منه .

وقال الزهري : لم أر هاشمياً أفضل من علي بن الحسين ، وما رأيت أفقه منه .

وقال أبو حازم : ما رأيت هاشمياً أفضل من علي بن الحسين .

وقال طاووس : رأيت علي بن الحسين ساجداً بالحِجْر ، فقلت : رجل صالح من أهل بيت طيب ، لأسمعن ما يقول ، فأصغيت إليه ، فسمعته يقول : **عُبَيْدُكَ بفِنائك ، فقيرك بفنائك ، مسكينك بفنائك ، سائلك بفنائك . فوالله ؛ ما دعوت بها في كرب . . إلا كشف عني .**

---

(١) العبارة في « الصفوة » (٢/ ٥٧) : (. . . إنه ينبغي للعلم أن يتبع حيثما كان) .

وقال أبو جعفر : كان علي بن الحسين يصلي في كل يوم وليلة ألف ركعة ، وتهيج الريح فيسقط مغشياً عليه .

وخرج يوماً من المسجد ، فلقيه رجل ، فسبَّه ، فثارت إليه العبيد والموالي ، فقال علي بن الحسين : مهلاً على الرجل ، ثم أقبل عليه ، فقال : ما ستر عنك من أمرنا أكثر ، ألك حاجة نعينك عليها ؟ فاستحيى الرجل ، فألقىٰ إليه خميصة كانت عليه ، وأمر له بألف درهم ، فكان الرجل بعد ذلك يقول : أشهد أنك من أولاد الرسل صلوات الله عليهم وسلامه .

وكان عنده ضيف ، فاستعجل الخادمَ في الشواء الذي كان في التنور ، فأقبل به مسرعاً ، فسقط السَّفُّود[1] من يده على ابن له صغير في أسفل الدرجة ، فأصاب رأسه ، فقتله ، فقال علي رحمه الله للغلام الذي قتله : أنت حر لوجه الله عز وجل ؛ فإنك لم تتعمده ، وأخذ في جهاز ابنه .

وعن عمرو بن دينار قال : دخل علي بن الحسين علىٰ محمد بن أسامة بن زيد في مرضه ، فجعل يبكي ، فقال له علي : ما شأنك ؟ قال : عَلَيَّ دَين ، قال : كم هو ؟ قال : خمسة عشر ألف دينار ، قال : فهو عَلَيَّ .

وقال محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنهم : أوصاني أبي فقال : لا تصحبن خمسة ، ولا تحادثهم ، ولا ترافقهم في طريق ، قلتُ : جُعلت فداك يا أبتِ ، مَن هـٰؤلاء الخمسة ؟

قال : **لا تصحبن فاسقاً** ؛ فإنه يبيعك بأكلة فما دونها ، قلت : يا أبتِ ؛ فما دونها ؟ قال : يطمع فيها ولا تحصل له .

قلت : ومَن الثاني ؟ قال : **لا تصحبن البخيل** ؛ فإنه يقطع بك في ماله أحوج ما كنت إليه .

قلت : ومَن الثالث ؟ قال : **لا تصحبن كذاباً** ؛ فإنه بمنزلة السراب ، يبعِّد منك القريب ، ويقرب منك البعيد .

قلت : ومَن الرابع ؟ قال : **لا تصحبن أحمق** ؛ فإنه يريد أن ينفعك فيضرك .

---

(١) **السَّفُّود** : الحديدة التي يشوىٰ بها اللحم .

قلت : ومَن الخامس ؟ قال : **لا تصحبن قاطع رحم** ؛ فإني وجدته ملعوناً في كتاب الله عز وجل في ثلاثة مواضع .

أسند علي بن الحسين عن أبيه ، وابن عباس ، وجابر ، وصفية ، وأم سليم ، وغيرهم ، وعن خلق من التابعين رضي الله عنهم .

توفي رحمه الله بالمدينة ، سنة أربع وتسعين ، وقيل : اثنتين ، ودفن بالبقيع ، وهو ابن ثمان وخمسين سنة ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/٥٦ـ٥٩] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو جعفر محمد الباقر بن علي زين العابدين ابن الحسين بن علي بن أبي طالب

رضي الله عنهم

قال النووي ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ : هو أبو جعفر المعروف بالباقر ، سمي بذلك ؛ لأنه بقر العلم ؛ أي : شقه ، فعرف أصله ، وعلم خفيَّه .

وهو تابعي جليل ، إمام بارع ، مجمع علىٰ جلالته وإمامته ، معدود في فقهاء المدينة وأئمتهم .

سمع جابراً ، وأنساً ، وسمع جماعات من كبار التابعين ؛ كابن المسيب ، وابن الحنفية ، وغيرهم .

وروىٰ عنه أبو إسحاق السَّبِيعي ، وعطاء ابن أبي رباح ، وعمرو بن دينار ، والزهري ، وربيعة ، وخلائق آخرون من التابعين وكبار الأئمة .

وروىٰ له البخاري ومسلم . انتهىٰ [« التهذيب » ١/٨٧] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : ومن كلامه رحمه الله : **الصواعق تصيب المؤمن وغير المؤمن ، ولا تصيب الذاكر لله عز وجل** .

وقال : الغنىٰ والعز يجولان في قلب المؤمن ، فإذا وصلا إلىٰ مكان فيه التوكل . . جعلاه وطنا .

وقال : ما دخل قلب امرىء شيء من الكبر . . إلا نقص من عقله مثل ما دخله من ذلك أو أكثر .

وقال جابر الجعفي : قال لي محمد بن علي رحمهما الله : إني لمحزون ، وإني لمشتغل

القلب ، قلت : وما حزنك ؟ وما شغل قلبك ؟ قال : يا جابر ؛ إنه من دخل قلبه صافي خالصِ دين الله عز وجل . . شغله عما سواه .

يا جابر ؛ ما الدنيا ؟ وما عسىٰ أن تكون ؟ هل هو إلا مركب ركبته ؟! أو ثوب لبسته ؟! أو امرأة أصبتها ؟!

يا جابر ؛ إن المؤمنين لم يطمئنُّوا إلى الدنيا ؛ لفنائها[1] ، و[لم] يأمنوا قدوم الآخرة عليهم ، ولم يُصِمَّهم عن ذكر الله عز وجل [ماسمعوا] بآذانهم من الفتنة ، ولم يُعْمِهم من نور الله تعالىٰ ما رأوا بأعينهم من الزينة ، ففازوا بثواب الأبرار ، إن أهل التقوىٰ أيسر أهل الدنيا مؤونة ، وأكثرهم معونة ، إن نسيت . . ذكروك ، وإن ذكرت . . أعانوك ، قوَّالين بحق الله عز وجل ، قوَّامين بأمر الله سبحانه وتعالىٰ ، فأنزل الدنيا بمنزلةِ منزلٍ نزلتَ فيه ، وارتحلت عنه ، أو كمالٍ أصبته في منامك فاستيقظت وليس معك منه شيء ، فاحفظ الله فيما استرعاك من دينه وحكمته .

وقال : ما اغرورقت عين بمائها . . إلا حرَّم الله عزَّ وجلَّ وجه صاحبها على النار ، وإن سالت على الخدَّين . . لم يرهق وجهه قتر ولا ذلَّة ، وما من شيء إلا له أجر ، إلاَّ الدَّمعة ؛ فإن الله تعالىٰ يكفِّر بها بحور الخطايا ، ولو أن باكياً بكىٰ في أمَّةٍ . . لحرم الله تعالىٰ تلك الأمَّة على النار .

وقال لابنه : **إياك والكسل والضَّجر ؛ فإنهما مفتاح كل شر ؛ فإنك إذا كسلت . . لم تؤد حقاً ، وإذا ضجرت . . لم تصبر علىٰ حق .**

وسأله رجل عن تحلية السيوف ، فقال : لا بأس بها قد حَلَّىٰ أبو بكر الصديق رضي الله عنه سيفه ، فقيل له : وتقول الصديق ؟! فغضب ، ووثب وثبة ، واستقبل القبلة ، ثم قال : نَعَم الصدِّيق ، نَعَم الصدِّيق ، نَعَم الصدِّيق ، من لم يقل له الصدِّيق . . فلا صدَّق الله له قولاً في الدنيا ولا في الآخرة .

وعن جابر قال : قال لي محمد بن علي : **يا جابر ؛ بلغني أن أقواماً بالعراق يزعمون أنهم يحبونا وينالون من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، ويزعمون أني أمرتُهم بذلك ، فأبلغهم أني إلى الله منهم بريء ، والذي نفس محمد صلى الله عليه وسلم بيده ؛ لو وُلِّيت . . لتقربت**

---

(١) في « الصفوة » : (. . . لبقاء فيها) .

إلى الله عز وجل بدمائهم ، لا نالتني شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم إن لم أكن أستغفر لهما وأترحم عليهما ، ألا إن أعداء الله لغافلون عن أقدارهما عند الله عز وجل . أو كما قال .

وعن أفلح مولىٰ محمد بن علي قال : خرجت مع محمد بن علي حاجّاً ، فلما دخل المسجد الحرام . . نظر إلى البيت ، فبكىٰ حتىٰ علا صوته ، فقلت : بأبي أنت وأمي ، إن الناس ينظرون إليك ، فلو رققت[1] صوتك قليلاً ، فقال : ويحك يا أفلح! ولِمَ لا أبكي ؟ لعل الله عز وجل أن ينظر إليَّ برحمة فأفوز بها عنده غداً ، قال : ثم طاف بالبيت ، ثم جاء حتىٰ ركع عند المقام ، فرفع رأسه من سجوده ، فإذا موضع سجوده مبتل من دموع عينيه .

وعن خالد بن دينار قال : كان محمد إذا ضحك . . قال : اللهم ؛ لا تمقتني .

وعن عبد الله بن عطاء قال : ما رأيت العلماء عند أحد . . أصغر علماً منهم عند أبي جعفر محمد ، لقد رأيت الحَكَم عنده كأنه متعلم .

وعن أحمد بن يحيىٰ قال : قال محمد بن علي : **كان لي أخ في عينيَّ عظيماً ، وكان الذي عظمه في عيني صغر الدنيا في عينه** ، وكان يقول في جوف الليل : اللهم ؛ إنك أمرتني فلم أأتمر ، وزجرتني فلم أزدجر ، وهـٰذا عبدك بين يديك ، فبم أعتذر ؟

وقال : ما من عبادة أفضل من عفة بطن أو فرج ، وما من شيء أحب إلى الله تعالىٰ من أن يُسأل ، وما يدفع القضاء إلا الدعاء ، وإن أسرع الخير ثواباً . . البرُّ ، وأسرع الشر عقوبةً . . البغي ، وكفىٰ بالمرء عيباً أن يرىٰ من الناس ما يعمىٰ عنه من نفسه ، وأن يأمر الناس بما لا يستطيع التحول عنه ، وأن يؤذي جليسه بما لا يعنيه .

وعن عبيد الله بن الوليد قال : قال لنا أبو جعفر محمد : أيُدخِل أحدكم يده كُمَّ صاحبه فيأخذ منه ما يريد ؟ قلنا : لا ، قال : فلستم إخوانا كما تزعمون .

وعن سلمىٰ مولاة أبي جعفر قالت : كان يدخل عليه إخوانه ، فلا يخرجون من عنده حتىٰ يطعمهم الطعام الطيب ، ويكسوهم الثياب الحسنة ، ويهب لهم الدراهم ، فأقول له : بعض ما تصنع ، فيقول : يا سلمىٰ ؛ ما نؤمل في الدنيا بعد المعارف والإخوان ؟!

وكان يعطي الست مئة والخمس مئة إلى الألف ، وكان لا يملُّ من مجالسة إخوانه .

وشُكي إليه جفاء الإخوان فقال : بئس الأخ أخ يرعاك غنياً ، ويقطعك فقيراً ، ثم أمر

---

(١) في « الصفوة » : (فلو رفقت بصوتك) .

غلامه ، فأخرج كيساً فيه سبع مئة درهم ، وقال للشاكي : استنفق هـٰذه ، فإذا نفدت . . فأعلمني .

وقال : **اعرف المودة في قلب أخيك بما له في قلبك** .

أسند عن جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم .

وروىٰ عن سعيد بن المسيب وغيره من التابعين .

ومات في سنة سبع عشرة ومئة ، وهو ابن ثلاث وسبعين سنة[1] ، وأوصىٰ أن يكفن في قميصه الذي كان يصلِّي فيه ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/٦٣ـ٦٦] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) جاء في هامش نسخة : (قيل صوابه : سبع وخمسين سنة) . وجاء في « الصفوة » : (وقيل : ثمان وخمسين) .

ومنهم الإمام :

أبو عبد الله جعفر الصادق ٱبن محمد الباقر ٱبن علي زين العابدين ٱبن الحسين بن علي بن أبي طالب

رضي الله عنهم

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال الليث : حججت سنة ثلاث عشرة ومئة ، فأتيت مكة ، فلما صليت العصر . . رَقِيت أبا قبيس ؛ فإذا رجل جالس وهو يدعو ، فقال : يا رب ، يا رب ، حتى انقطع نَفَسُه ، ثم قال : يا ربَّاه ، يا ربَّاه ، حتى انقطع نَفَسُه ، ثم قال : يا رب ، يا رب ، حتى انقطع نَفَسُه ، ثم قال : يا الله ، يا الله ، حتى انقطع نَفَسُه ، ثم قال : يا رحيم يا رحيم ، حتى انقطع نَفَسُه ، ثم قال : يا أرحم الراحمين (سبع مرات) ثم قال : اللهم ؛ إني أشتهي عنباً ، فأطعمني ، وأريد بُرْدين ؛ فإن بُرْدَيَّ قد خَلُقا ، قال الليث : فما استتم كلامه حتىٰ نظرت إلىٰ سلة مملوءة عنباً ـ وليس علىٰ وجه الأرض يومئذ عنبٌ ـ وبُرْدين موضوعين ، فلما أراد أن يأكل من العنب . . تقدمت إليه ، وقلت له : إني شريكك ، فقال : ولِمَ ؟ قلت : لأنك كنت تدعو وأنا أؤمِّن ، فقال لي : كُلْ ، ولا تخبىء منه شيئاً ، فأكلت ، فلم آكل في عمري مثله ؛ لأنه عنب لا عجم[1] فيه ، فأكلت حتىٰ شبعت ، والسلة لم تنقص شيئاً ، ثم قال لي : خذ أَيَّ البردين شئت ، فقلت : فأما البُردان . . فإني غني عنهما ، فقال : توارَ عني حتىٰ ألبسهما ، فتواريت عنه ، فاتزر بأحدهما ، وارتدىٰ بالآخر ، ثم أخذ البردين الذين كانا عليه ، وجعلهما علىٰ يده ، ونزل ، فاتبعته ، حتىٰ إذا كان بالمسعىٰ . . لقيه رجل ، فقال : اكسني كساك الله يابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدفعهما إليه ، فتبعت السائل ، وقلت له : من هـٰذا ؟ قال : هـٰذا جعفر بن محمد ، قال الليث : فطلبته لأسمع منه ، فلم أجده .

---

(١) العَجَمْ : النوىٰ .

توفي بالمدينة سنة ثمان وأربعين ومئة[1] . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ١٠١ـ١٠٢] .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال سفيان الثوري لجعفر : حدِّثنا ، فقال : إذا أنعم الله عليك بنعمة فأحببت بقاءها . . فأكثر من الحمد والشكر عليها لله عز وجل ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ ، وإذا استبطأت الرزق . . فأكثر من الاستغفار ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۞ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۞ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ ، وإذا حَزَبَكَ أمر من سلطان أو غيره . . فأكثر من : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ؛ فإنها مفتاح الفرج ، وكنز من كنوز الجنة . انتهىٰ [« الحلية » ٣/ ١٩٣] .

وحكى الإمام فخر الدين الرازي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ في « أسرار التنزيل » : عن جعفر بن محمد الصادق رحمهما الله قال : عجبت لمن أُعجب بأمر لنفسه كيف لا يقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، والله تعالىٰ يقول : ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ ؟! .

---

(١) وكان مولده سنة ثمانين ، وأمه هي أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ، وأمها هي أسماء بنت عبد الرحمٰن ابن أبي بكر ؛ ولهٰذا كان يقول : ولدني أبو بكر الصديق مرتين .
وكان يغضب من الرافضة ، ويمقتهم إذا علم أنهم يتعرضون لجده أبي بكر ظاهراً وباطناً وهو أمر لا ريب فيه ، وقد أورد العلماء أخباراً كثيرة تدلل علىٰ موقف أهل البيت الطاهرين من الشيخين أبي بكر وعمر ومحبتهم لهما ، من ذلك :
ـ قال عليُّ بن الجعد : عن زهير بن معاوية : قال أبي لجعفر بن محمد : إن لي جاراً يزعم أنك تبرأ من أبي بكر وعمر ، فقال جعفر : برىء الله من جارك ، والله ؛ إني لأرجو أن ينفعني الله بقرابتي من أبي بكر ، ولقد اشتكيت شكاية ، فأوصيت إلىٰ خالي عبد الرحمٰن بن القاسم .
ـ وعن سفيان بن عيينة قال : حدَّثونا عن جعفر بن محمد ـ ولم أسمع منه ـ قال : كان آل أبي بكر يُدْعَوْن علىٰ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم : آل رسول الله صلى الله عليه وسلم .
ـ وقال محمد بن فضيل : عن سالم ابن أبي حفصة : سألت أبا جعفر محمد بن علي وابنه جعفر عن أبي بكر وعمر ، فقالا لي : يا سالم ؛ تولَّهما وابرأ من عدوهما ؛ فإنهما كانا إمامي هدىٰ ، لا نالتني شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة إن لم أكن أتولاهما وأبرأ من عدوهما . وسالم وابن فضيل شيعيان .
ـ وقال حفص بن غياث : سمعت جعفر بن محمد يقول : ما أرجو من شفاعة علي شيئاً إلا وأنا أرجو من شفاعة أبي بكر مثله ، ولقد ولدني مرتين .
هٰذا غيض من فيض ، ومن أراد الاستزادة . . فليراجع كتب التراجم ، يجد العجب ، فجعفر بن محمد إمام جليل ، أخباره كثيرة ، ومناقبه جمة ، وقد وُضعت عليه أشياء لم يسمع بها ككتاب « الجفر » وكتاب « اختلاج الأعضاء » ، وغيرها . . .
انظر « تهذيب الكمال » (٥/ ٨٠) وما بعدها ، و« سير أعلام النبلاء » (٦/ ٢٥٨ـ٢٦٠) ، و« تاريخ الإسلام » للذهبي (٦/ ٤٥ـ٤٨) .

وعجبت لمن خاف قوماً كيف لا يقول : حسبي الله ونعم الوكيل ، والله تعالىٰ يقول : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ * فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ ﴾ ؟! .

وعجبت لمن مُكِر به كيف لا يقول : [فوضت أمري إلى الله ، والله تعالىٰ يقول] : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ * فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ﴾ ؟! .

وعجبت لمن أصابه غم كيف لا يقول : [لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، والله تعالىٰ يقول] : ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ * فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؟! .

وقال سفيان بن عيينة : إنه عامٌّ في كل المؤمنين أن ينجيه من الغم إذا قرأ هٰذه الآية ؛ لأنه وَعْدٌ من الله عز وجل لكل مؤمن ، والله سبحانه وتعالىٰ لا يخلف الميعاد . انتهىٰ .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : قال سفيان الثوري : دخلت علىٰ جعفر بن محمد وعليه جبة من خز فيها حرير وقطن ، وهي فاخرة جدّاً ، فجعلت أنظر إليه تعجُّباً ، فقال لي : يا ثوري ؛ ما لك تنظر إلينا ؟ لعلك تعجبت مما ترىٰ ، قال : قلت : يابن رسول الله ؛ ليس هٰذا من لباسك ولا لباس آبائك ، فحسر عن ردن جبته ، فإذا تحتها جبة صوف غليظ بيضاء ، تقصر عن الذيل والردن ، فقال : لبسنا هٰذا لله عز وجل ، وهٰذا لكم ، فما كان لله أخفيناه ، وما كان لكم أبديناه . أو كما قال[1] .

---

(١) جاء في نسخة : (وعن علي بن يوسف المدائني قال : سمعت سفيان الثوري رحمه الله يقول : دخلت علىٰ أبي عبد الله جعفر بن محمد رحمهما الله ، فقلت : يابن رسول الله ؛ أوصني ، فقال : يا سفيان ؛ لا مروءة لكذوب ، ولا راحة لحسود ، ولا خلة لبخيل ، ولا إخاء لملول ، ولا سؤدد لسيء الخلق .

قلت : يابن رسول الله ؛ زدني ، فقال : يا سفيان ؛ كف عن محارم الله عز وجل ، وامتثل أوامر الله . . تكن عابداً ، وارض بما قسم الله عز وجل لك . . تكن مسلماً ، واصحب الناس بما تحب أن يصحبوك . . تكن مؤمناً ، ولا تصحب الفاجر . . فيعلِّمك من فجوره ، وشاور في أمرك الذين يحبون الله عز وجل .

قلت : يابن رسول الله ؛ زدني ، فقال : من أراد عزاً بلا عشيرة وهيبة بلا سلطان . . فليخرج من ذل المعصية إلىٰ طاعة الله عز وجل .

قلت : يابن رسول الله ؛ زدني ، فقال : يا سفيان ؛ أدَّبَني أبي بثلاث وأتبعني بثلاث ، قلت : يابن رسول الله ؛ ما الثلاث التي أدبك بهن أبوك ؟ فقال : قال لي أبي : من يصحب صاحب السوء . . لا يسلم ، ومن يدخل مدخل السوء . . يتهم ، ومن لا يملك لسانه . . يندم ، ثم أنشدني :

عوِّد لسانك فعل الخير تَحظ به ... إن اللسان لما عوَّدْتَ معتادُ =

وعن جعفر بن محمد قال : أوحى الله تبارك وتعالىٰ إلى الدنيا : أن اخدمي من خدمني ؛ وأتعبي من خدمك .

وكان يطعم المساكين حتىٰ لا يبقىٰ لعياله شيء .

وسئل : **ما الحكمة في تحريم الربا ؟ فقال : لئلا يتمانع الناس المعروف والفضل .**

وقال : يُطبع المرء علىٰ كل شيء ، ليس الخيانة والكذب . أو كما قال .

وقال : الفقهاء أمناء الرسل ، فإذا رأيتم الفقهاء بباب السلاطين . . فاتهموهم .

ومن دعائه : اللهم ؛ أعزني بطاعتك ، ولا تذلني بمعصيتك .

اللهم ؛ ارزقني مواساة من قترت عليه رزقك بما وسعت علي من فضلك .

وكان يقول : لا زاد كالتقوىٰ .

وقال نصر بن كثير : دخلت أنا وسفيان الثوري علىٰ جعفرٍ الصادق ، فقلت : إني أريد البيت الحرام ، فعلمني شيئاً أدعو به ، فقال : إذا بلغت الحرم . . فضع يدك على الحائط ، وقل : **يا سابق الفوت**[1] ، **ويا سامع الصوت ، ويا كاسي العظام لحماً بعد الموت ، ثم ادع بما شئت** .

وقال : إذا بلغك عن أخيك أنه قال فيك ما تكره . . فلا تغتم لذلك ؛ فإنه : إن كان حقاً . . كانت عقوبة عُجِّلت ، وإن كان غير ذلك . . فحسنة لم تعملها .

وقال : روي عن موسىٰ عليه الصلاة والسلام أنه قال : يا رب ؛ أسألك ألاَّ يذكرني أحد . . إلا بخير ، فقال الله عز وجل : يا موسىٰ ؛ ما فعلت ذلك لنفسي .

وقال : لا يتم المعروف إلا بثلاثة : بتعجيله ، وتصغيره ، وستره .

أسند عن جماعة ، منهم : أبوه ، وعطاء بن أبي رباح ، وعكرمة ، وعبيد الله بن أبي رافع ، وعبد الرحمٰن بن القاسم ، وغيرهم .

= مـوكَّـل يتقـاضـىٰ مـا سَنَّـتَ لـه في الخير والشر فانظر كيف ترتادُ

قال سفيان : ثم قلت : ما الثلاث الأخر ؟ فقال : قال أبي : إنما يُتَّقىٰ حاسدُ نعمة ، أو شامت بمعصية ، أو حامل نميمة) .

(١) **الفَوت** : السبق ، من قولهم : فاتني فلان بكذا ؛ أي : سبقني به .

وروىٰ عنه جماعات من التابعين ، منهم : يحيى بن سعيد الأنصاري ، وأيوب السختياني ، وأبان بن تغلب ، وأبو عمرو بن العلاء ، ويزيد بن عبد الله بن الهاد .

وحدث عنه من الأئمة الأعلام جماعة ، منهم : مالك بن أنس ، وشعبة بن الحجاج ، وسفيان الثوري ، وابن جريج ، وعبيد[1] الله بن عمرو ، وروح بن القاسم ، وسفيان بن عيينة ، وسليمان بن بلال ، وإسماعيل بن جعفر ، في آخرين .

وأخرج عنه مسلم في « صحيحه » محتجّاً بحديثه ، رضي الله عنهم أجمعين .

وعن جعفر بن محمد ، عن أبيه قال : لما طعن عمر رضي الله عنه . . بعث إلىٰ حلقة من أهل بدر كانوا يجلسون بين القبر والمنبر ، فقال : يقول لكم عمر : أنشدكم بالله أكان هـٰذا عن رضىً منكم ؟ فقام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال : لا ، ووددنا أنَّا زدنا في عمره من أعمارنا . غريب من حديث أيوب وجعفر ، وأيوب تابعي من البصرة . انتهىٰ [« الحلية » ٣/١٩٣ـ١٩٩] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال ابن أبي حازم : كنت عند جعفر إذ جاء آذنه ، فقال : سفيان الثوري بالباب ، فقال : ائذن له ، فدخل ، فقال جعفر : يا سفيان ؛ إنك رجل يطلبك السلطان ، وأنا أتقي السلطان ، اخرج عني عن غير إيثار لذلك ، فقال سفيان : حدِّثني حتىٰ أسمع وأقوم ، فقال : حدَّثني أبي عن جدي : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من أنعم الله عليه نعمة . . فليحمد الله ، ومن استبطأ الرزق . . فليستغفر الله ، ومن حزبه أمر . . فليقل : لا حول ولا قوة إلا بالله »[2] .

وقال أرباب السير : وقع الذباب علىٰ وجه المنصور ، فذبه حتىٰ أعجزه وأضجره ، فدخل جعفر ، فقال له : **يا أبا عبد الله ؛ ما الحكمة في خلق الذباب ؟ قال : ليذل به الجبابرة** .

وكان رجل من أهل السواد يؤم جعفراً ، فغاب عنه ، فسأل عنه ، فقال له رجل : إنه نبطي ، يريد أن يضع منه عنده ، فقال جعفر : أَصْلُ الرجل عقله ، وحسبه دِينه ، وكرمه تقواه ، والناس في آدم مستوون .

وحج المنصور سنة سبع وأربعين ومئة ، فقدم المدينة ، فقال : عَلَيَّ بجعفر بن محمد

---

(١) في نسخة : (عبد) . وفي « الحلية » : (عبد الله بن عمر) .

(٢) أخرجه بنحوه البيهقي في « الشعب » (١/ ٤٤١) .

متعباً ، قتلني الله إن لم أقتله ، فتغافل عنه الربيع لينساه ، ثم أعاد ذِكره ، فتغافل عنه ، فأعاد ذِكره ثالثاً برسالة قبيحة للربيع ، فلما جيء به . . قال له الربيع : العذر إليك قد شدد في طلبك ، فقال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فلما دخل عليه . . قال : يا عدو الله ؛ اتخذك أهل العراق إماماً يحملون إليك زكاة أموالهم ، وتلحد في سلطاني وبيعتي[1] ، قتلني الله إن لم أقتلك ، فقال جعفر : يا أمير المؤمنين ؛ إن سليمان عليه الصلاة والسلام أعطي فشكر ، وإن أيوب عليه الصلاة والسلام ابتلي فصبر ، وإن يوسف عليه الصلاة والسلام ظُلِم فغَفر ، وأنت من ذلك العنصر ، فقال له المنصور : إليَّ وعندي ، أبو عبد الله البريء الساحة ، جزاك الله من ذي رحم أفضل ما جزىٰ ذوي الأرحام عن أرحامهم ، ثم تناول يده ، وأجلسه معه علىٰ فراشه ، فطيبه بيده ، حتىٰ جعل لحيته قاطرة طيباً ، ثم أمر له بجائزة وكسوة ، وقال : انصرف في حفظ الله تعالىٰ وكنفه ، فانصرف ، فقال له الربيع : إني رأيت عجباً ، فما قلت يا أبا عبد الله حين دخلت ؟ قال : قلت :

اللهم ؛ احرسني بعينك التي لا تنام ، واكنفني بركنك الذي لا يرام ، واحفظني بقدرتك علي ، لا أهلك وأنت رجائي .

اللهم ؛ إنك أعظم وأجل مما أخاف وأحذر .

اللهم ؛ بك أدفع في نحره ، وبك أستعيذ من شره . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/٩٩-١٠١] .

وزاد في رواية أخرىٰ[2] :

اللهم ؛ احرسني بعينك التي لا تنام ، واكفني بركنك الذي لا يرام ، واحفظني بقدرتك عليَّ ؛ حتىٰ لا أهلك وأنت رجائي ، رب ؛ كم من نعمة أنعمت بها عليَّ . . قَلَّ لك عندها شكري ، وكم من بليَّة ابتليتني بها . . قَلَّ لك عندها صبري ، فيا من قَلَّ عند نعمته شكري . . فلم يحرمني ، ويا من قَلَّ عند بليته صبري . . فلم يخذلني ، ويا من رآني على المعاصي . . فلم يفضحني ، يا دائم المعروف الذي لا ينقطع أبداً ، ولا يحصىٰ عدداً ، يا ذا النعماء التي لا تحصىٰ عدداً ؛ أسألك أن تصلي علىٰ محمد وعلىٰ آل محمد .

اللهم ؛ بك أدرأ في نحور أعدائي والجبارين .

---

(١) في نسخة : (تبغي) . وفي « الصفوة » : (وتبغيه الغوائل) .

(٢) أنظر « سير أعلام النبلاء » (٦/٢٦٦) .

اللهم ؛ أعني علىٰ دِيني بدنياي ، وعلىٰ آخرتي بتقواي ، واحفظني حيثما كنت ، ولا تكلني إلىٰ نفسي طرفة عين ، ولا أقل من ذلك ولا أكثر .

يا من هو بكل شيء عليم ؛ أسألك صحة في تقوىٰ ، وطول عمر في حسن عمل ، ورزقاً واسعاً لا تعذبني عليه يا أرحم الراحمين . أو كما قال ، رضي الله عنه وأرضاه .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

علي بن عبد الله بن العباس
رضي الله عنهم

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : كان علي بن عبد الله يسجد كل يوم ألف سجدة ، يريد خمس مئة ركعة .

وكان إذا قدم مكة حاجّاً أو معتمراً . . عطلت قريش مجالسها في المسجد الحرام ، وهجرت مواضع حلقها ، ولزمت مجلس علي بن عبد الله ؛ إعظاماً وإجلالاً وتبجيلاً ، فإن قعد . . قعدوا ، وإن نهض . . نهضوا ، وإن مشىٰ . . مشوا جميعاً حوله ، وكان لا يُرَىٰ لقرشي في المسجد الحرام مجلس يجتمع إليه فيه حتىٰ يخرج عليّ بن عبد الله من الحرم .

زاد في رواية « مختصر الوفيات » : إنه كان إذا طاف . . كأنما الناس حوله مشاة وهو راكب من طوله ، مفرطاً في الطول ، وكان مع هـٰذا الطول يكون إلىٰ منكب أبيه عبد الله ، وكان عبد الله إلىٰ منكب أبيه العباس ، وكان العباس إلىٰ منكب أبيه عبد المطلب[1] [انتهىٰ « الحلية » ٣/ ٢٠٧] .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : وكان يكنَّىٰ : أبا الحسن ، فلما قدم علىٰ عبد الملك . . قال له : غيِّر اسمك وكنيتك ، فلا صبر لي على اسمك وكنيتك ، قال : أما الاسم . . فلا ، وأما الكنية . . فأُكَنَّىٰ بأبي محمد ، فغيَّر كنيته .

أسند عامة حديثه عن أبيه .

وحدث عنه من التابعين : الزهري ، وسعد بن إبراهيم ، ومنصور بن المعتمر ، وعبد الله ابن أبي بكر ، والمنهال بن عمرو ، وأولاده أيضاً : محمد ، وداوود ، وعيسىٰ ، وسليمان ، وصالح .

---

(١) انظر « وفيات الأعيان » (٣/ ٢٧٧) .

ومن أحاديثه عن أبيه قال : بعثني العباس إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتيته ممسياً ، وهو في بيت خالتي ميمونة ، قال : فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي من الليل ، فلما صلى الركعتين قبل الفجر . . قال : « اللهم ؛ إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي ، وتجمع بها شملي ، وترد بها ألفتي ، وتصلح بها دِيني ، وتحفظ بها غائبي ، وترفع بها شاهدي ، وتزكي بها عملي ، وتبيض بها وجهي ، وتلهمني بها رشدي ، وتعصمني بها من كل سوء .

اللهم ؛ إني أسألك إيماناً صادقاً ، ويقيناً ليس بعده كفر ، ورحمة أنال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة .

اللهم ؛ إني أسألك الفوز عند القضاء ، ومنازل الشهداء ، وعيش السعداء ، [ومرافقة الأنبياء] ، والنصر على الأعداء .

اللهم ؛ إني أنزلت بك حاجتي .

اللهم ؛ ما قصر عنه رأيي ، وضعف عنه عملي ، ولم تبلغه نيتي ، ولم تنله مسألتي ، من خير وعدته أحداً من خلقك ، وخير أنت تعطيه أحداً من عبادك . . فإني أرغب إليك فيه ، وأسألك أن ترزقنيه يا رب العالمين .

اللهم ؛ اجعلنا هادين مهديين ، غير ضالِّين ولا مضلِّين ، سِلماً لأوليائك ، وحرباً لأعدائك ، نحبُّ لحبِّك ، ونعادي لعداوتك من خالفك من خلقك .

اللهم ؛ هـٰذا الدعاء وعليك الإجابة ، اللهم ؛ هـٰذا الجُهد وعليك التُّكلان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم ، سبحان الذي لا ينبغي التسبيح إلا له سبحان ذي العز والبهاء ، سبحان ذي القدرة والبقاء ، سبحان الذي أحصىٰ كل شيء علمه .

اللهم ؛ اجعل في قلبي نوراً ، وفي بصري نوراً ، وفي سمعي نوراً ، ومن خلفي نوراً ، وقدامي نوراً يا أرحم الراحمين ، يا حي يا قيوم ، يا ذا الجلال والإكرام »[1] ، أو كما قال . انتهىٰ [« الحلية » ٣/٢٠٧-٢١٠] .

---

(١) أخرجه بنحوه ابن خزيمة (٢/١٦٦) .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : ولد في رمضان ، سنة أربعين ، وكان أجمل قرشي علىٰ وجه الأرض ، وأكثرهم صلاة ، وكان يقال له : السَّجَّاد .

توفي بالشام ، سنة سبع عشرة ومئة ، رضي الله عنه وأرضاه[1] . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٦٢] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) وهو جدُّ الخلفاء ، وقد خاف هشام بن عبد الملك منه ومن أولاده فأسكنهم بالحُميمة ـ بلد في أطراف الشام ـ فمن أولاد أولاده : السفاح والمنصور .

ومنهم الإمام أمير المؤمنين :

عمر بن عبد العزيز

رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال أسلم : بينا أنا مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو يعس بالمدينة ، فلما أعيىٰ . . اتكأ علىٰ جدار في جوف الليل ؛ فإذا امرأة تقول لابنتها : قومي إلىٰ ذلك اللبن فامذقيه بالماء ، فقالت : يا أماه ؛ أوما علمت ما كان من عزمة أمير المؤمنين عمر اليوم ؟ قالت : وما كان من عزمته يا بنية ؟ قالت : إنه أمر منادياً ، فنادىٰ : لا يُشابُ لبنٌ بماء ، فقالت لها : يا بنية ؛ قومي إلى اللَّبن فامذقيه بالماء ؛ فإنك بموضع لا يراكِ عمر ، ولا منادي عمر ، فقالت الجارية لأمّها : **يا أمّاه ؛ ما كنت لأطيعه في الملأ وأعصيه في الخلا** ، وعمر رضي الله عنه يسمع ذلك جميعه ، فقال : يا أسلم . . أَعْلِمِ الباب ، واعرف الموضع ، ثم مضىٰ في عسسه ، فلما أصبح . . قال : يا أسلم ؛ امض إلى الموضع ، فانظر من القائلة ومن المقول لها ، وهل لهما من بعل ؟ قال : فأتيت الموضع ، فنظرت ، فإذا الجارية أيم لا بعل لها ، وإذا القائلة لها أمها ، وإذا ليس لهما رجل ، فأتيت عمر ، فأعلمته ، فدعا عمر ولده ، فجمعهم ، ثم قال : أفيكم من يحتاج إلى امرأة أو زوجة ؟ ولو كان بأبيكم حركة إلى النساء . . ما سبقه منكم أحد إلىٰ هـٰذه الجارية ، فقال عبد الله : لي زوجة ، وقال عبيد الله : لي زوجة ، وقال عاصم : يا أبت ؛ لا زوجة لي ، فزوجني ، فبعث إلى الجارية ، فزوجها من عاصم ، فولدت لعاصم بنتاً ، وولدت البنت بنتاً[1] ، وولدت الابنة عمر بن عبد العزيز . انتهىٰ [« سيرة عمر بن عبد العزيز » ١٢ـ١٣] .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : سئل محمد بن علي بن الحسين عن عمر بن عبد العزيز

---

(١) كذا جاء في النسخ وفي « سيرة عمر بن عبد العزيز » لابن الجوزي .
ثم علَّق ابن الجوزي علىٰ هـٰذا الخبر قائلاً : هـٰكذا وقع في رواية الآجري ، فلا أدري ممن الغلط وإنما الصواب : فولدت لعاصم بنتاً ، وولدت البنت عمر بن عبد العزيز ، كذلك نسبه العلماء عن محمد بن سعد وغيره . انتهىٰ .

فقال : أما علمت أن لكل قوم نجيباً ، وأن نجيب بني أمية عمر بن عبد العزيز ، وأنه يبعث يوم القيامة أمَّة وحده .

وعن نافع قال : كنت أسمع من عمر كثيراً يقول : ليت شعري ، من هـٰذا الذي من ولد عمر ، في وجهه علامة ، يملأ الأرض عدلاً ؟!

وعن رياح بن عبيدة قال : خرج عمر بن عبد العزيز إلى الصلاة وشيخ متوكىء علىٰ يده ، فقلت في نفسي : إنَّ هـٰذا الشيخ جافٍ ، فلما صلىٰ ودخل . . لحقته ، فقلت : أصلح الله الأمير ، مَن الشيخ الذي كان متوكئاً علىٰ يدك ؟ قال : يا رياح ؛ أرأيته ؟ قلت : نعم ، قال : ما أحسبك ـ يا رياح ـ إلا رجلاً صالحاً ، ذاك أخي الخضر ، أتاني فأعلمني أني سَأَلي أمر هـٰذه الأمة ، وأنِّي سأعدل فيها[1] .

ومرَّ شخص في خلافته براعٍ ، وفي غنمه ثلاثون ذئباً ، فحسبها كلاباً ؛ لأنه لم ير الذئاب قبل ذلك ، فقال : يا راعي ؛ ما تصنع بهـٰذه الكلاب كلها ؟ فقال : إنها ليست كلاباً ، إنما هي ذئاب ، فقال : سبحان الله! ذئب وغنم لا يضرها ، فقال : يا بني ؛ إذا صلح الرأس . . فليس على الجسد بأس ، وكانت رعاء الشاء تقول عند ولايته : مَن هـٰذا العبد الصالح الذي قام على الناس ؟ فيقال لهم : وما علمكم بذلك ؟ قالوا : إنه إذا قام على الناس خليفة عدل . . كفت الذئاب عن شائنا .

وكانت الشياه والذئب ترعىٰ في مكان واحد ، فبينا نحن ذات ليلة إذ عرض الذئب لشاة ، فقالوا : ما نرى الرجل الصالح إلا هلك ، وكان ذلك في كرمان[2] ، فلما بلغهم خبر موته بعد شهر أو نحوه . . حسبوا ، فوجدوه قد هلك في تلك الليلة .

وعن أبي الأعيسر قال : كنت في صحن بيت المقدس مع خالد بن يزيد بن معاوية ؛ إذ أقبل فتىٰ شاب ، فسلم علىٰ خالد ، فأقبل عليه خالد ، فقال الفتىٰ لخالد : هل علينا من عين ؟ قال : فبدرت أنا ، فقلت : نعم ، عليكما من الله عز وجل عين سميعة بصيرة ، قال : فاغرورقت عينا الفتىٰ ، ونزع يده من خالد ، ثم ولىٰ ، فقلت لخالد : مَن هـٰذا ؟ قال : هـٰذا

---

(١) قال ابن حجر في « الإصابة » (١/٤٤٦) ـ بعد أن ساق الكثير من الأدلة لمن قال بموت الخضر عليه السلام ، ولمن قال بحياته ـ : هـٰذا أصلح إسناد وقفت عليه في هـٰذا الباب .
وسيجد القارىء أخباراً كثيرة عن الخضر عليه السلام في هـٰذا الكتاب .

(٢) كرمان : ولاية مشهورة ، وناحية كبيرة معمورة ، ذات بلاد وقرىٰ ومدن واسعة تقع الآن في (إيران) بين قم وأصفهان .

عمر بن عبد العزيز ، ولئن طال بك وبه حياة . . لترينه إمام هدىٰ .

وقال مالك بن دينار : الناس يقولون عني : إني زاهد ، إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز ؛ أتته الدنيا ، فتركها .

ولقد كان يطوف بالبيت وحجزة إزاره غائبة في عكنه[1] ، فلما استخلف . . لو شاء شخص أن يعد أضلاعه من غير أن يمسها . . لفعل .

وكانت غلته حين ولي الخلافة أربعون ألف دينار ـ أو خمسون ألف دينار ـ وكانت يوم موته مئتي دينار ـ أو أربع مئة دينار ـ ولو بقي . . لنقصت ؛ لأنه مازال يردها .

ودخل مسلمة بن عبد الملك علىٰ عمر بن عبد العزيز يعوده في مرضه ؛ فإذا عليه قميص وسخ مخرَّق الجيب ، فقال مسلمة لأخته فاطمة ـ امرأة عمر بن عبد العزيز ـ : لو أبدلتم هـٰذا القميص ؛ فإن الناس يدخلون عليه ، فسكتت ، قال : ثم أعدتُ القول عليها مراراً ، حتىٰ أغلظتُ ، فقالت : والله ؛ ما له قميص غيره .

وفي رواية : قال عمر : دعها يا مسلمة ، فما أصبح ولا أمسىٰ لأمير المؤمنين ثوبٌ غير الذي عليه .

وقال لبنيه : لا تتهموا الخازن ؛ فإني لا أدع إلا أحداً وعشرين ديناراً ، فيها لأهل الدير أجرة مساكنهم ، وثمن حقل أعددته لموضع قبري .

وأرسل إلىٰ أهل الدير فقال : إن بعتموني موضع قبري ، وإلا . . تحولت عنكم ، فأخبرهم رسوله بذلك ، فقالوا : لولا أنا نكره أن يتحول عنا . . ما قبلناه .

ودخل عمر على امرأته يوماً فقال : يا فاطمة ؛ أعندك درهم أشتري به عنباً ؟ قالت : لا ، قال : أفعندك فلوس ؟ قالت : لا ، فأقبلت عليه ، فقالت : أنت أمير المؤمنين لا تقدر علىٰ درهم ولا فلوس تشتري بها عنباً ، فقال : هـٰذا أهون علينا من معالجة الأغلال غداً في جهنم .

وإنه من حين ولي الخلافة ما اغتسل من جنابة ولا احتلام منذ استخلفه الله عز وجل .

ولما أفضت إليه الخلافة . . سمعوا في منزله بكاء عالياً ، فسألوا عن البكاء ، فقالوا : إن عمر خيَّر جوارِيَه ، فقال : قد نزل بي أمر قد شغلني عنكن ، فمن أحبت أن أعتقها ، ومن

---

(١) **الحجزة** : الموضع الذي فيه تكة السراويل ، **العُكن** : ما تكسَّر من البطن ، وهـٰذا كناية عن شدة سِمَنه .

أحبت أن أمسكها علىٰ ألاَّ يكون مني إليها شيء ؟ فبكين إياساً منه ، وخيَّر امرأته بين أن تقيم في منزلها ـ وأعلمها أنه قد شُغل عن النساء بما في عنقه ـ وبين أن تلحق بمنزل أبيها ، فبكت ، وبكى الجواري لبكائها .

وكانت فاطمة امرأته تقول : قد يكون من الرجال من هو أكثر صلاة وصياماً من عمر ، ولـٰكن لم أر أحداً من الناس كان أشد فرقاً من الله عز وجل من عمر ، كان إذا دخل البيت . . ألقىٰ نفسه في مسجده ، فلايزال يبكي ويدعو حتىٰ تغلبه عيناه ، ثم يستيقظ ، فيفعل مثل ذلك ليلته أجمع .

وكان له غلام يعمل علىٰ بغل له ، يأتيه كل يوم بدرهم ، فجاء يوماً بدرهم ونصف ، فقال : كيف هـٰذا ؟ قال : نفقت السوق ، قال : لا ، ولـٰكنك أتعبت البغل ، أَجِمَّهُ[1] ثلاثة أيام .

وكان لامرأته جارية بعثتها إليه وقالت : إني كنت أعلم أنها تعجبك ، وقد وهبتها لك ، فتناولْ منها حاجتك ، فقال لها عمر : اجلسي يا جارية ، فوالله ؛ ما شيء من الدنيا كان أعجب إليَّ أن أناله منكِ ، فأخبريني بقصتك وما كان من سببك ، قالت : كنت جارية من البربر ، جنىٰ أبي جناية ، فهرب من موسى بن نصير ـ عامل عبد الملك علىٰ إفريقية ـ فأخذني موسى بن نصير ، فبعث بي إلىٰ عبد الملك ، فوهبني عبد الملك لفاطمة ، فأرسلت بي إليك ، فقال : كدنا والله أن نفتضح ، فجهزها وأرسل بها إلىٰ أهلها .

وصلَّىٰ بهم يوم الجمعة وعليه قميص مرقوع الجيب من بين يديه ومن خلفه ، فقال له رجل : يا أمير المؤمنين ؛ إن الله تعالىٰ قد أعطاك ، فلو لبست ، فنكس ملياً ، ثم رفع رأسه فقال : أَفضلُ القصد . . عند الجِدَة ، وأفضل العفو . . عند القدرة .

ومرت ابنة لعمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ، اسمها أمينة ـ فدعاها عمر . . فلم تجبه ، فأمر غلاماً له جاء بها ، فقال لها : ما منعك أن تجيبيني ؟ قالت : إني عريانة ، فقال : يا مزاحم ؛ انظر إلىٰ تلك الفرش التي فتقناها ، فاقطع لها قميصاً ، فقطع لها منها قميصاً ، فذهب الخبر إلىٰ أم البنين عمتها ، فقيل لها : بنت أخيك عريانة ، وأنت عندك ما عندك ، فأرسلت إليها بتخت من ثياب ، وقالت : لا تطلبي من عمر شيئاً .

وشيع عمر بن عبد العزيز جنازة ، فلما انصرفوا . . تأخر عمر وأصحابه ناحية عن

---

(١) من الإجمام ، وهو : أن تترك الفرس يومين أو ثلاثة دون أن تركب عليه ، وفي « الحلية » : (أرحه) .

الجنازة ، فقال له أصحابه : يا أمير المؤمنين ؛ جنازة أنت وليها تأخرت عنها وتركتها ؟! قال : نعم ؛ ناداني القبر من خلفي : يا عمر بن عبد العزيز ؛ ألا تسألني ما صنعت بالأحبة ؟ قلت : بلىٰ ، قال : خَرَّقْتُ الأكفان ، ومزقت الأبدان ، ومصصت الدم ، وأكلت اللحم ، ألا تسألني ما صنعت بالأوصال ؟ قلت : بلىٰ ، قال : نزعت الكفين من الذراعين ، والذراعين من العضدين ، والعضدين من الكتفين ، والوركين من الفخذين ، والفخذين من الركبتين ، والركبتين من الساقين ، والساقين من القدمين .

ثم بكىٰ عمر وقال : ألا إن الدنيا بقاؤها قليل ، وعزيزها ذليل ، وغنيها فقير ، وشابُّها يهرم ، وحيها يموت ، فلا يغرنكم إقبالها مع معرفتكم بسرعة إدبارها ، والمغرور من اغتر بها ، أين سكانها الذين بنوا مدائنها ، وشققوا أنهارها ، وغرسوا أشجارها ؟! أقاموا فيها أياماً يسيرة ، غرتهم بصحتهم ، وغُرُّوا بنشاطهم ، فركبوا المعاصي ، إنهم كانوا في الدنيا ـ والله ـ مغبوطين بالأموال علىٰ كثرة المنع عليه محسودين علىٰ جمعه .

ما صنع التراب بأبدانهم ، والرّمل بأجسادهم ، والديدان بعظامهم وأوصالهم ؟ كانوا في الدنيا علىٰ أَسِرَّة ممهَّدة ، وفرش منضَّدة ، بين خدم يخدمون ، وأهل يكرمون ، وجيران يعضدون ، فإذا مررت بهم . . فنادِهِم إن كنت منادياً ، وادعهم إن كنت لابد داعياً ، ومُرَّ بعسكرهم ، وانظر إلىٰ تفاوت منازلهم ، وكم بين منعم ومعذب ، وسل قصرهم ما بقي من قصرهم[1] ، وسلهم عن اللسان الذي كانوا يتكلمون به ، وعن الأعين التي كانوا ينظرون بها إلى اللذات .

وسلهم عن الجلود الرقيقة ، والوجوه الحسنة ، والأجساد الناعمة ، ما صنع بها الديدان ، قد محت الألوان ، وأكلت اللحمان ، وعفرت الوجوه ، ومحت المحاسن ، وكسرت الفقار ، وأبانت الأعضاء . أين قيانهم ؟ وأين خدمهم ، وعبيدهم ، وجمعهم ، ومكنوزهم ؟

والله ؛ ما زوَّدوهم لهم فراشاً ، ولا وضعوا لهم هناك متكأً ، ولا غرسوا لهم شجراً ، ولا أنزلوهم من اللحد قراراً ، أليسوا في منازل الخلوات والفلوات ؟! أليس الليل والنهار عليهم سواء ؟! أليس هم في مدلهمة ظلماء ، قد حيل بينهم وبين العمل ، وفارقوا الأحبة ؟!

---

(١) في نسخة : (وسل فقيرهم ما بقي من فقرهم) ، وفي « الحلية » : (وسل غنيهم ما بقي من غناه ، وسل فقيرهم ما بقي من فقره) .

فكم من ناعم وناعمة أصبحوا ووجوههم بالية ، وأجسادهم من أعناقهم بائنة ، وأوصالهم متمزقة ، قد سالت الحدق على الوجنات ، وامتلأت الأفواه دماً وصديداً ، ودبت دواب الأرض في أجسادهم ، ثم لم يلبثوا ـ والله ـ إلا يسيراً حتىٰ عادت العظام رميماً ، قد فارقوا الحدائق ، وصاروا بعد السعة إلى المضائق ، قد تزوجت نساؤهم ، وترددت في الطرق أبناؤهم ، وتوزعت القرابات ديارهم وتراثهم ، فمنهم ـ والله ـ الموسَّع له في قبره الغض الناظر فيه المتنعم بلذته .

يا ساكن القبر غداً ؛ ما الذي غرك من الدنيا ؟ هل تعلم أنك تبقىٰ ، أو تبقىٰ لك ؟

أين دارك الفيحاء ، ونهرك المطرد ؟ وأين ثمرتك الخضِرة[1] ؟ وأين ثيابك الفاخرة ؟ وأين طيبك وبخورك ؟ أين كسوتك لصيفك وشتائك ؟

أما رأيته وقد نزل به الأمر فما يدفع عن نفسه شيئاً وهو يرشح عرقاً ، ويتلمظ عطشاً[2] ، يتقلب في سكرات الموت وغمراته ، جاء الأمر من السماء ، وجاء غالب القدر والقضاء ، جاء من العظائم ما لا يمتنع منه ، هيهات هيهات! يا مغمِّضَ الولد والأخ وغاسله ، يا مكفن الميت وحامله ، يا مخلِّيَهُ في القبر وراجع عنه ، ليت شعري كيف كنت علىٰ خشونة الثرىٰ ؟ يا ليت شعري بأي خديك بدأ البِلىٰ ؟

يا مجاور الهلكات ؛ صرت في محلة الموتىٰ ، ليت شعري ما الذي يلقاني به ملك الموت عند خروجي من الدنيا ؟ وما يأتيني به من رسالة ربي ؟

ثم انصرف ، فما بقي بعد ذلك إلا يسيراً ، ثم مات ، رحمه الله .

ومر عمر بن عبد العزيز علىٰ بعض جنائز بني مروان ، فلما صلىٰ عليها وفرغ . . قال لأصحابه : توقفوا ، فوقفوا ، فضرب بطن فرسه حتىٰ أمعن في القبور وتوارىٰ عنهم ، فاستبطأه الناس ، فجاء وقد احمرت عيناه ، وانتفخت أوداجه ، قالوا : يا أمير المؤمنين ؛ أبطأتَ علينا ، قال : أتيت قبور الأحبة ، قبور بني آبائي ، فسلمت عليهم ، فلم يردُّوا عليَّ السلام ، فلما ذهبت . . ناداني التراب : ألا تسألني ـ يا عمر ـ ما لَقِيَتِ الأحبّة ؟ قال : قلت : وما لقيت الأحبة ؟ قال : خرقت الأكفان ، وأكلت الأبدان ، ونزعت المقلتين . . . فذكر نحوه .

---

(١) في « الحلية » : (ثمرك الناضر ينعه) .

(٢) التلمُّظ المراد هنا : أنه يحرك لسانه في فمه من شدة العطش .

زاد فيه : يا عمر ؛ وعليك بكفن لا يبلىٰ ، قال : قلت : وما كفن لا يبلىٰ ؟ قال : اتقاء الله ، والعمل الصالح لله عز وجل .

وقال عمر : لقد نغص هـٰذا الموت علىٰ أهل الدنيا ما هم فيه من غضارة الدنيا وزهرتها ، فبينما هم كذلك ؛ إذ أتاهم حاد من الموت ، فاخترمهم مما هُم فيه ، فالويل والحسرة هنالك لمن لم يحذر الموت ويذكره في الرخاء ، فمقدم لنفسه خيراً يجده بعد الموت ، ثم بكىٰ حتىٰ غلب عليه البكاء .

ودخل عنبسة بن سعيد علىٰ عمر بن عبد العزيز فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إن من كان قبلك من الخلفاء كانوا يعطون عطايا منعتنا إياها ، ولي عيال وضيعة ، أفتأذن لي أن أخرج إلىٰ ضيعتي وما يصلح عيالي ؟ فقال عمر : أحبكم إلينا . . من كفانا مؤونته ، فخرج ، فلما صار عند الباب . . قال عمر : أبا خالد ، فرجع ، فقال : أكثِر من ذكر الموت ، فإن كنت في ضيق من العيش . . وسعه عليك ، وإن كنت في سعة من العيش . . ضيقه عليك .

وقال عمر : إنما أنتم أغراض تنتضل[1] فيها المنايا ، إنكم لا تؤتون نعمة إلا بفراق أخرىٰ ، أصلحوا سرائركم . . تصلح علانيتكم ، واعملوا لآخرتكم . . تكفوا دنياكم ، واعلموا : أن رجلاً ليس بينه وبين آدم أب حي لمُعْرَقٌ[2] له في الموت ، واعلموا : أنَّا قوم من أهل الآخرة ، أُسكِنَّا الدنيا ، أموات ، أبناء أموات ، والعجب لميت يكتب إلىٰ ميت يعزيه عن ميت . والسلام .

وآخر خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ أنه لما صعد المنبر . . حمد الله تعالىٰ ، وأثنىٰ عليه ، ثم صلىٰ علىٰ رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

أما بعد : فإن ما في أيديكم أسلاب الهالكين ، وسيتركها الباقون كما تركها الماضون ، ألا ترون أنكم في كل يوم وليلة تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله تعالىٰ وتضعونه في صدع من الأرض ؟! ثم إن بطن الصدع غير ممهد ولا موسَّد ، قد خلع الأسباب ، وفارق الأحباب ، وأسكن التراب ، وواجه الحساب ، فقير إلىٰ ما قدم أمامه ، غني عما ترك بعده ، أما والله ؛ إني لأقول لكم هـٰذا ، وما أعرف من أحد من الناس مثل ما أعرف من نفسي .

---

(١) **الغرض** : الهدف الذي يرمىٰ بالسهام ، **تنتضل** : تتبارىٰ في الرمي .

(٢) **أعرق** : صار له عروق ، واستأصل ، ومنه رجلٌ عريق ؛ أي : صار له عروق في الكرم .

قال : ثم قال بطرف ثوبه علىٰ عينيه هـٰكذا ، وبكىٰ ، ثم نزل ، فما خرج حتىٰ أخرج إلىٰ حفرته .

وفي رواية : أنه قال : أيها الناس ؛ إن الله تعالىٰ خلق خلقه ، ثم أرقدهم حتىٰ يبعثهم من رقدتهم ، فإما إلىٰ جنة ، وإما إلىٰ نار ، والله ؛ إن كنا مصدقين بهـٰذا . . إنا لحمقىٰ ، وإن كنا مكذبين بهـٰذا . . إنا لهلكىٰ .

ولما مات عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز . . جعل عمر يثني عليه ، فقال له مسلمة : يا أمير المؤمنين ؛ لو بقي كنتَ تعهد إليه ؟ قال : لا ، قال : ولمَ أنت تثني عليه ؟ قال : أخاف أن يكون زُيِّن في عيني منه ما زُيِّن في عين الوالد من ولده .

وعن وهيب بن الورد قال : اجتمع بنو مروان علىٰ باب عمر بن عبد العزيز ، وجاء عبد الملك ابنه ليدخل ، فقالوا له : إما أن تستأذن لنا ، وإما أن تُبَلِّغ أمير المؤمنين عنا الرسالة ، قال : قولوا ، قالوا : إن من كان قبله من الخلفاء يعرفون لنا موضعنا ، ويعطونا ، وإن أباك قد حرمنا ما في يديه ، قال : فدخل عليه ابنه ، فأخبره عنهم ، فقال : قل لهم : إن أبي يقول لكم : ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾ .

وقال رجل لعمر : أوصني ، قال : أوصيك بتقوى الله عز وجل وإيثاره . . تخفَّ عليك المؤونة ، وتحسُنْ لك من الله المعونة .

وفي رواية أخرىٰ عنه : أوصيك بتقوى الله عز وجل الذي لا يقبل غيرها ، ولا يرحم إلا أهلها ، ولا يثيب إلا عليها ؛ فإن الواعظين بها كثير ، والعاملين بها قليل .

وبكىٰ يوماً عمر بن عبد العزيز ، فبكت فاطمة ، فبكىٰ أهل الدار ، لا يدري هـٰؤلاء ما أبكىٰ هـٰؤلاء ، فلما تجلىٰ عنهم العبرُ[1] . . قالت فاطمة : بأبي أنت يا أمير المؤمنين! ممَّ بكيت ؟ قال : ذكرت ـ يا فاطمة ـ منصرف القوم من بين يدي الله عز وجل ، فريق إلى الجنة ، وفريق إلى السعير ، ثم صرخ وغشي عليه . انتهىٰ [« الحلية » ٥/ ٢٥٤ـ٢٦٩] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : روي أن عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ كان يرسل البُرُدَ[2] بالسلام إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما .

---

(١) العبرُ : البكاء بالحزن .

(٢) البُرُد : جمع بريد ، وهو : الرسول .

وقال حجة الإسلام أبو حامد الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : كتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن يسأله أن يعظه ، فكتب إليه :

أما بعد : فإن الهول الأعظم ، والأمور المفظعات أمامك ، ولا بد لك من مشاهدة ذلك ، إما بالنجاة ، وإما بالعطب .

واعلم : أن من حاسب نفسه ربح ، ومن غفل عنها خسر ، ومن نظر في العواقب نجا ، ومن أطاع هواه ضل ، ومن حَلِمَ غنم ، ومن خاف أمن ، [ومن أمن اعتبر] ، ومن اعتبر أبصر ، ومن أبصر فهم ، ومن فهم علم ، فإذا زللت . . فارجع ، وإذا ندمت . . فأقلع ، وإذا جهلت . . فسل ، وإذا غضبت . . فأمسك .

وكتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلىٰ عدي بن أرطاة :

أما بعد : فإن الدنيا عدوة أولياء الله تعالىٰ ، وعدوة أعداء الله تعالىٰ ، أما أولياؤه . . فغمتهم ، وأما أعداؤه . . فغرتهم .

وكتب أيضاً إلىٰ بعض عماله :

أما بعد : فقد أمكنتك القدرة من ظلم العباد ، فإذا هممت بظلم أحد . . فاذكر قدرة الله عز وجل عليك .

واعلم: أن الله سبحانه وتعالىٰ يأخذ للمظلومين من الظالمين. والسلام. انتهىٰ [« الإحياء » ٤/٥٦].

وقال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : وعن ميمون بن مهران قال : خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة ، فلما نظر إلى القبور . . بكىٰ ، ثم أقبل عليَّ ، فقال : يا أبا أيوب ؛ هـٰذه قبور آبائي بني أمية ، كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذتهم وعيشهم ، أمَا تراهم صرعىٰ قد حلت بهم المثلات ، واستحكم فيهم البلاء ، وأصابت الهوام في أبدانهم مقيلاً ؟! قال : ثم بكىٰ حتىٰ غشي عليه ، ثم أفاق ، فقال : انطلق بنا ، فوالله ؛ ما أعلم أحداً أنعم ممن صار إلىٰ هـٰذه القبور ، وقد أمن من عذاب الله سبحانه وتعالىٰ .

وأراد عمر بن عبد العزيز أن يستعمل رجلاً علىٰ عمل ، فأبىٰ ، فقال له عمر : عزمت عليك ، فقال الرجل : يا أمير المؤمنين ؛ وأنا أعزم علىٰ نفسي ألاَّ أفعل ، فقال عمر : أتعصيني ؟ فقال الرجل : إن الله تعالىٰ قال : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ ، أفمعصيةً كان ذلك منهن ؟ فأعفاه عمر رحمه الله .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلىٰ عمر بن الوليد كتاباً فيه : وقسم أبوك لك الخمس كله ، وإنما سهم أبيك كسهم رجل من المسلمين ، وفيه حق الله عز وجل ، وحق رسوله صلى الله عليه وسلم ، وذي القربىٰ ، واليتامىٰ ، والمساكين ، وابن السبيل ، فما أكثر خصماء أبيك يوم القيامة ، وكيف ينجو مَن كثُر خصماؤه ؟ وإظهارك المعازف والمزامير بدعة في الإسلام ، ولقد هممت أن أبعث إليك من يجز جمتك جمة السوء .

ولما قطع عمر بن عبد العزيز رحمه الله عن أهل بيته ما كان يجري عليهم من أرزاق الخاصَّة ، وأمرهم بالانصراف إلىٰ منازلهم . . تكلَّم في ذلك عنبسة بن سعيد ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إن لنا قرابة ، فقال : لن يتَّسع مالي لكم ، وأما هـٰذا المال . . فإنما حقكم فيه كحق رجل بأقصىٰ برك الغماد[1] لا يمنعه من أخذه . . إلا بُعد مكانه ، والله ؛ إني لأرىٰ أن الأمور لو استحالت حتىٰ يصبح أهل الأرض يرون مثل رأيكم . . لنزلت بهم بائقة من عذاب الله عز وجل ، أو لفُعِل بهم .

وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله يجلس إلىٰ قاص العامة بعد الصلاة ، ويرفع يديه إذا رفع .

ودخلت بنت أسامة بن زيد علىٰ عمر بن عبد العزيز ومعها مولاة لها تمسك بيدها ، فقام لها عمر ، ومشىٰ إليها حتىٰ جعل يديها في يده ، ويداه في ثيابه ، ومشىٰ بها حتىٰ أجلسها في مجلسه ، وجلس بين يديها ، وما ترك لها حاجة إلا قضاها .

وولَّىٰ عمر بن عبد العزيز الموصل رجلاً ، فلما قدمها العامل . . وجدها من أكثر البلاد سَرَقاً ونقباً[2] ، فكتب إلىٰ أمير المؤمنين يعلمه بذلك ، ويسأله : هل يأخذ الناس بالظنة ، ويضربهم على التهمة ؟ أو بالبيِّنة وما جرت عليه السُّنة ؟ فكتب إليه عمر أن يأخذ الناس بالبينة وما جرت عليه السُّنة ، فإن لم يصلحهم الحق . . فلا أصلحهم الله عز وجل ، ففعل العامل ذلك ، قال : فما خرجت من الموصل حتىٰ كانت من أصلح البلاد ، وأقلها سرقاً ونقباً .

وحج سليمان بن عبد الملك ومعه عمر بن عبد العزيز ، فلما أشرف علىٰ عقبة عسفان . . نظر سليمان إلىٰ عسكره ، فأعجبه ما رأىٰ من حجره وأبنيته ، فقال : كيف ترىٰ ما هـٰهنا

---

(١) موضع في اليمن .

(٢) **السَّرَقُ** : بمعنى السرقة ، **النقب** : ثقب الجدار للسرقة دون دخول فيه ، وذلك لدرء حدِّ السرقة .

يا عمر ؟ قال : أرىٰ ـ يا أمير المؤمنين ـ دنيا يأكل بعضها بعضاً ، أنت المسؤول عنها ، والمأخوذ بما فيها .

وطار غراب من حجرة سليمان وهو ينعب ، وفي منقاره كسرة ، فقال سليمان : تُرىٰ ما يقول هـٰذا الغراب ؟ فقال عمر : أظنه يقول : انظر من أين دخلت هـٰذه الكسرة ، وانظر كيف خرجت ، فقال سليمان : إنك لتجيء بالعجب ، فقال عمر : إن شئت . . أخبرتك بأعجب من هـٰذا ، قال : أخبرني ، قال : أعجب من هـٰذا من عرف الله فعصاه ، وعرف الشيطان فأطاعه ، ورأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم اطمأنَّ إليها ، فقال سليمان : غثثت[1] علينا ما نحن فيه ، وضرب دابته وسار ، فأقبل عمر حتىٰ نزل عن دابته ، فرأى الناس كل من سبَّق ثقله . . وجده ، فبكىٰ ، فقال سليمان : ما يبكيك ؟ قال : هـٰكذا يوم القيامة ، من قدَّم شيئاً . . قدم عليه ، ومن لم يقدِّم شيئاً . . قدم علىٰ غير شيء .

وعن إياس بن معاوية بن قرَّة قال : ما شبهت عمر بن عبد العزيز إلا برجل صناع حسن الصنعة ، ليس له أداة يعمل بها ، يعني : لا يجد من يعينه .

ومن وصيته لابنه عبد الملك : إني لأعظك بهـٰذا ، وإني لكثير الإسراف علىٰ نفسي ، ولو أن المرء لم يعظ أخاه حتىٰ يُحكِم أمر نفسه ويكمُل في الذي خلق له من عبادة ربه عز وجل . . لتواكل الناس الخير ، ولرفع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واستُحلت المحارم ، وقلَّ الواعظون والساعون لله عز وجل بالنصيحة .

وقال مسلمة بن عبد الملك : دخلت علىٰ عمر بعد الفجر في بيت كان يخلو فيه لا يدخل عليه أحد ، فجاءت جارية بطبق فيه تمر صيحاني[2] ، وكان يعجبه التمر ، فرفع بكفه منه ، فقال : يا مسلمة ؛ أترىٰ لو أن رجلاً أكل هـٰذا ثم شرب عليه الماء ـ فإن الماء على التمر طيب ـ أكان يجزيه إلى الليل ؟ قلت : لا أدري ، فرفع أكثر منه ، ثم قال : فهـٰذا ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين هـٰذا يكفيه ، حتىٰ ما يبالي ألاَّ يذوق طعاماً غيره ، قال : فعلام ندخل النار ؟ قال مسلمة : فما وقعت مني موعظة موقعها .

وقال رياح : كنت قاعداً عند عمر بن عبد العزيز ، فذكر الحجاج ، فشتمتُه ، ووقعت فيه ، فقال عمر : مهلاً يا رياح ، إنه بلغني أن الرجل ليظلم ، فلا يزال المظلوم يشتم الظالم وينتقصه حتىٰ يستوفي حقه ، فيكون للظالم عليه الفضل .

---

(١) أفسدت .

(٢) **الصيحاني** : ضرب من تمر المدينة ، أسود ، صلب .

وكان يقول : أحسن الظن بصاحبك ما لم تتيقن ، وإذا سمعت كلمة من امرىء مسلم . . فلا تحملها علىٰ شيء من الشر ما وجدت لها محملاً من الخير .

وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز : يا أمير المؤمنين ؛ إن بيت المال لم يبق فيه إلا اليسير ، قال : فكتب عمر : أن أعط جميع ما فيه ، فإذا لم يبق فيه شيء . . فاكنسه . أو كما قال .

وجاء رجل مستقتل[1] إلىٰ سليمان بن عبد الملك ـ وكان عمر حاضراً ـ فسأله سليمان عن شيء ، فغضب ذلك الرجل من سليمان ، وقال له : يا فاسق ، يابن الفاسق ، فقال سليمان لعمر : ماذا ترىٰ عليه ؟ قال : أرىٰ أن تشتمه كما شتمك ، وتشتم أباه كما شتم أباك ، فقال سليمان : ليس إلا ؟! ثم أمر بذلك الرجل فضربت عنقه ، وقام سليمان ، وخرج عمر ، فأدركه خالد بن الريان صاحب حرس سليمان ، فقال : يا أبا حفص ؛ تقول لأمير المؤمنين : ما أرىٰ عليه إلا أن تشتمه كما شتمك ، والله ؛ لقد كنت متوقعاً أن يأمرني بضرب عنقك ، فقال له عمر : ولو أمرك . . فعلت ؟ قال : أي والله ؛ ولو أمرني . . لفعلت ، فلما أفضت الخلافة إلىٰ عمر . . جاء خالد بن الريان ، فقام مقام صاحب الحرس ، وكان قبل ذلك علىٰ حرس الوليد وعبد الملك ، فنظر إليه عمر ، وقال : يا خالد ؛ ضع هـٰذا السيف عنك ، وقال : اللهم ؛ إني قد وضعت لك خالد بن الريان ، فلا ترفعه أبداً ، ثم نظر في وجوه الحرس ، فدعا عمرو بن مهاجر الأنصاري ، فقال : يا عمرو ؛ والله لتعلمن أنه ما بيني وبينك قرابة إلا قرابة الإسلام ، ولـٰكن قد سمعتك تكثر تلاوة القرآن ، ورأيتك تصلي في موضع تظن ألاَّ يراك أحد ، فرأيتك تحسن الصلاة ، وأنت رجل من الأنصار ، خذ هـٰذا السيف ، فقد وليتك حرسي . [انتهىٰ « الحلية » ٥/٢٦٩ـ٢٨٠] .

زاد في رواية الحافظ ابن عساكر ـ رحمه الله ـ : قال يحيى بن يحيىٰ : فما رأيت شريفاً خمل ذِكره حتىٰ لا يذكر مثل خالد بن الريان ، حتىٰ إن كان الناس ليقولون : ما فعل خالد ؟ أحي هو أو قد مات[2] ؟ لخمول ذِكره بدعوة عمر بن عبد العزيز رحمه الله .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ قدس الله روحه ـ :

وبينما عمر بن عبد العزيز يسير يوماً في سوق حمص . . قام إليه رجل عليه بردان

---

(١) **المستقتل** : الذي لا يبالي في الحرب بالموت ؛ لشجاعته .

(٢) في « تاريخ دمشق » (١٦/٢٩) .

قِطْرِيَّان[1] ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أمرت من كان مظلوماً أن يأتيك ؟ قال : نعم ، قال : فقد أتاك مظلوم بعيد الدار ، فقال له عمر : أين دارك ؟ قال : عدن ، فقال عمر : والله ؛ إنك لبعيد الدار ، ونزل عن دابته في موضعه ، وقال : ما ظلامتك ؟ قال : ضيعة لي ، وثب عليها واثب ، فانتزعها مني ، فكتب إلىٰ عروة بن محمد يأمره أن يسمع بينته ، فإن ثبت له حق . . دفعه إليه وختم كتابه ، فلما أراد الرجل القيام . . قال له عمر : علىٰ رسلك ، إنك قد أتيتنا من بلد بعيد ، فكم نفد لك زاد ، ونفقت لك راحلة ، وأُخلق لك ثوب ، فحُسِبَ ذلك ، فبلغ أحد عشر ديناراً ، فدفعها عمر إليه .

وجاء كتاب من بعض بني مروان إلىٰ عمر بن عبد العزيز فيه ما أغضبه ، فاستشاط غضباً ، ثم قال : إن لله عز وجل في بني مروان ذبحاً ، وايم الله ؛ لئن كان الذبح علىٰ يدي ، فلما بلغهم ذلك . . كفوا ، وكانوا يعلمون صرامته ، وأنه إن وقع في أمر . . مضىٰ فيه .

وقال عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز لأبيه : ما يمنعك أن تنفذ لرأيك في هـٰذا الأمر ؟ فقال عمر : يا بني ؛ إني أروض الناس رياضة الصَّعب ، فإن أبقاني الله . . مضيت ، وإن عجلت علي منية . . فقد علم الله سبحانه وتعالىٰ نيتي ، إني أخاف إن بادهت[2] الناس بالقوة والقهر . . يلجئوني إلى السيف ، **ولا خير في خير لا يجيء إلا بالسيف** .

وجاء ابن لسليمان بن عبد الملك إلىٰ مزاحم ، فقال : إن لي حاجة إلىٰ أمير المؤمنين عمر ، فاستأذن له ، فأذن له ، فلما دخل . . قال : يا أمير المؤمنين ؛ رد علي قطيعتي التي أخذت مني ، فقال : معاذ الله أن أرد قطيعة أصبحت في الإسلام ، قال : فهـٰذا كتابي ـ وأخرج كتاباً من كمه ـ فقرأه عمر ، فقال : لمن كانت هـٰذه الأرض قبلك ؟ فقال : للفاسق ابن الحجاج ، فقال عمر : فهو أولىٰ بدعواها ، قال : فإنها من بيت مال المسلمين ، قال : فالمسلمون أولىٰ بها ، قال : يا أمير المؤمنين ؛ رد علي كتابي ، قال : لا أفعل ، لو لم تأتني به . . لم أسألكه ، فأمَّا إذ جئتني به . . فلن ندعك تطلب باطلاً ، قال : فبكى ابن سليمان ، فقال مزاحم : يا أمير المؤمنين ؛ ابن سليمان تصنع به هـٰذا ؟ قال : ويحك يا مزاحم! إنها نفسي أحاول[3] عنها ، وإني لأجد له من الشفقة ما أجد لولدي .

---

(١) نوع من البرود فيها حمرة ، ولها أعلام فيها بعض الخشونة ، لعلها نسبة إلىٰ قَطَر ، وكسرت القاف للنسبة علىٰ غير قياس .

(٢) **بادهت** : فاجأت ، وبدهه بأمرٍ إذا استقبله به .

(٣) في بعض النسخ : (أجادل) .

ودخل عبد الملك بن عمر علىٰ أبيه يوماً فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إن لي إليك حاجة ، فَأَخْلِني ، وعنده مسلمة بن عبد الملك ، فقال له عمر : أَسِرٌّ دون عمك ، فقال : نعم ، فقام مسلمة وخرج ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ ما أنت قائل غداً لربك إذا سألك فقال : رأيتَ بدعةً فلم تمتها ، أو سنةً فلم تحيها ؟ فقال له : يا بني ؛ أشيء قالته لك الرعية ؟ أم رأي رأيته من قبل نفسك ؟ قال : لا والله ؛ ولٰكن رأي رأيته ، فقال له أبوه : رحمك الله وجزاك من ولدٍ خيراً ، فوالله ؛ إني لأرجو أن تكون من الأعوان لي على الخير ، يا بني ؛ إن قومك سدوا هـٰذا الباب عقدة عقدة ، وعروة عروة ، ومتىٰ ما أريد مكايدتهم على انتزاع ما في أيديهم . . لم آمن أن يفتقوا عليَّ فتقاً تكثر فيه الدماء ، ووالله ؛ لزوال الدنيا . . أهون عليَّ من أن يهراق في سببي محجمة[1] من دم ، أوما ترضىٰ ألاَّ يأتي علىٰ أبيك يوم . . إلا وهو يميت فيه بدعة ويحيي فيه سنة ، حتىٰ يحكم الله بيننا وبين قومنا بالحق ، وهو خير الحاكمين .

وقال عمر لامرأته فاطمة بنت عبد الملك وكان عندها جوهر لم ير مثله ـ أمر لها به أبوها ـ : اختاري ، إما أن تردِّي حليَّك إلىٰ بيت المال ، وإمَّا أن تأذني لي في فراقك ؛ فإني أكره أن أكون أنا وأنت في بيت واحد وعندك هـٰذا الجوهر ، فقالت : أختارك يا أمير المؤمنين عليه وعلىٰ أضعافه لو كان لي ، فُحمِل حتىٰ وضع في بيت المال ، فلما هلك عمر ، واستُخلِف يزيد . . قال لفاطمة : إن شئت . . رددْتُه عليك ، قالت : لا أشاء ، طبت به نفساً في حياة عمر ، وأرجع فيه بعد موته ، لا والله ؛ لا كان هـٰذا أبداً ، فلما رأىٰ ذلك . . قسمه بين أهله وولده .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلىٰ سالم بن عبد الله بن عمر رضي الله عنهم : من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلىٰ سالم بن عبد الله ، سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إلـٰه إلا هو .

أما بعد : فإن الله عز وجل ابتلاني بما ابتلاني به من أمر هـٰذه الأمة من غير مشاورة مني فيها ، ولا طلبة مني لها ، إلا قضاء الرحمـٰن سبحانه وتعالىٰ وقدره ، فأسأل الله تعالىٰ ـ الذي ابتلاني من أمر هـٰذه الأمة بما ابتلاني به ـ أن يعينني علىٰ ما ولاَّني ، وأن يرزقني منهم السمع والطاعة وحسن مؤازرة ، وأن يرزقني فيهم الرأفة والمعدلة ، فإذا أتاك كتابي هـٰذا . . فابعث

---

(١) **المحجمة** : قارورة الحجام .

إليَّ بكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه وسيرته وقضاياه في أهل القبلة وأهل العدل ؛ فإني متبع أثر عمر وسائر سيرته إن أعانني الله علىٰ ذلك . والسلام .

فكتب إليه سالم بن عبد الله رضي الله عنهما : بسم الله الرحمٰن الرحيم ، من سالم بن عبد الله بن عمر إلىٰ عبد الله عمر أمير المؤمنين ، سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إلٰه إلا هو .

أما بعد : فإن الله تعالىٰ خلق الدنيا لما أراد ، وجعل لها مدة قصيرة ، كأن بين أولها وآخرها ساعة من نهار ، ثم قضىٰ عليها وعلىٰ أهلها بالفناء ، فقال تعالىٰ : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ، لا يقدر منها أهلها علىٰ شيء حتىٰ تفارقهم ويفارقونها ، أنزل بذلك كتابه ، وبعث به رسوله صلى الله عليه وسلم ، وقدم منه بالوعيد ، وضرب فيه الأمثال ، وأحل الحلال ، وحرم الحرام ، وشرع فيه دينه ، وقصَّ فأحسن القصص ، وجعل دينه في الأولين والآخِرين دِيناً واحداً ، فلم يفرق بين كتبه ، ولم تختلف رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ولم يشْقَ أحد من أمره بشيء سعد به أحد ، ولم يسعد أحد من أمره بشيء شقي به أحد .

وإنك اليوم كما كنت قبل ولايتك ، يكفيك من الطعام والشراب والكسوة ما يكفي رجلاً واحداً ، فاجعل ذلك فيما بينك وبين الرب جل جلاله ، الذي توجه إليه شكر النعم ؛ فإنك قد وُلِّيت أمراً عظيماً ، ليس بين الله عز وجل وبين خلقه غيرك ، فإن استطعت أن تغنم نفسك وأهلك وألاَّ تخسر . . فافعل .

ولا حول ولا قوة إلا بالله ، فقد كان من قبلك رجال عملوا بما عملوا ، وأماتوا ما أماتوا من الحق ، وأحيَوْا ما أحيَوْا من الباطل ، حتىٰ ولد فيه رجال ونشؤوا فيه ، وظنوا أنها السنة ، ولم يسدوا على العباد باب رخاء[1] . . إلا فتح الله عليهم باب بلاء ، فإن استطعت أن تفتح أبواب الرخاء ؛ فإنك لا تفتح منها باباً . . إلا سد عنك باب بلاء ، ولا يمنعنك من نزع عامل أن تقول : لا أجد من يكفيني عملي ؛ فإنك إذا كنت تنزع لله ، وتعمل لله عز وجل . . أتاح الله لك رجالاً ، ورزقت العون من الله عز وجل علىٰ قدر النية ، فإذا تمت نية العبد . . تمَّ عون الله تعالىٰ له ، ومن قصرت نيته . . قصر العون له من الله عز وجل بقدر ذلك ، فإن استطعت أن تأتي يوم القيامة ولا يتبعك أحد بظلم ، ويجيء من كان قبلك وهم غابطون لك

---

(١) في بعض النسخ : (رجاء في الموضعين) .

لقلة أتباعك ، وأنت غير غابط لهم لكثرة أتباعهم . . فافعل .

ولا حول ولا قوة إلا بالله ، فإنهم قد عاينوا وعالجوا نزع الموت الذي كانوا منه يفرُّون ، وانشقت بطونهم التي كانوا فيها لا يشبعون ، وانفقأت أعينهم التي كانت لا تنقضي لذتها ، واندقت رقابهم في التراب غير موسَّدين ـ بعد ما تعلم من تظاهر[1] الفرش ـ فصاروا جيفاً تحت بطون الأرض ، يودون أن[2] لو كانوا إلىٰ جنب مسكين يتأذىٰ بريحهم ، بعد الطيب الذي قد أنفقوا عليه ما لا يحصىٰ إسرافاً وبداراً[3] ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

ما أعظم ـ يا عمر ـ وأفظع الذي سيق إليك من أمر هـٰذه الأمة ، وأهل العراق ، فليكونوا من صدرك بمنزلة من لا فقر بك إليه ، ولا غنىٰ بك عنه ؛ فإن عمالهم ظلمة ، قسموا الأموال ، وسفكوا الدماء ، فتفقد أحوالهم أشد الافتقاد يا عمر ، إن فعلت ما أمرتك به . . وجدت راحته علىٰ ظهرك وسمعك وبصرك ، ثم إنك كتبت تسأل أن أبعث إليك بكتب عمر بن الخطاب وسيرته ، وإن عمر رضي الله عنه عمل في غير زمانك ، وكان له مساعد ومعين علىٰ ما يريد من الحق ، فاجهد يا عمر ، وقل كما قال العبد الصالح : ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ . والسلام عليك . أو كما قال .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلىٰ عبد الحميد صاحب الكوفة : بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، من عبد الله عمر أمير المؤمنين ، إلىٰ عبد الحميد بن عبد الرحمـٰن ، سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله عز وجل الذي لا إلـٰه إلا هو .

أما بعد : فإن أهل الكوفة قوم قد أصابهم بلاء[4] وشدة وجور في أحكام الله تعالىٰ ، وسنن خبيثة سنها عليهم عمال السوء ، وإن قِوامَ هـٰذا الدين العدل والإحسان ، فلا يكونن شيء أهم إليك من نفسك أن توطِّنها لطاعة الله عز وجل ؛ فإنه لا قليل من الإثم ، وآمرك أن تنظر في أرضهم ، ولا تحمل خراباً علىٰ عامر ، ولا عامراً علىٰ خراب ، وإني قد وليتك من ذلك ما ولاني الله عز وجل .

وقال رجل لعمر بن عبد العزيز : يا أمير المؤمنين ؛ كيف أصبحت ؟ فقال : بطيئاً

---

(١) أي إرداف بعضها فوق بعض .

(٢) في « الحلية » : (لو كانوا إلىٰ جنب مسكين . . لتأذىٰ بريحهم) .

(٣) أي : مسارعة ومبادرة .

(٤) في نسخة : (غلاء) ، وفي أخرىٰ : (جلاء) .

بطيناً ، متلوثاً في الخطايا والذنوب ، أتمنَّىٰ على الله منازل الأبرار ، وأخالف أعمالهم .

وقال عمر بن عبد العزيز : إنما خلقتم للأبد ، وإنما تنقلون من دار إلىٰ دار .

ومر عمر بن عبد العزيز رحمه الله برجل في يده حصاة يلعب بها ، وهو يقول : اللهم ؛ زوجني من الحور العين ، فقام إليه عمر ، وقال : بئس الخاطب أنت ، ألا ألقيت الحصاة ، وأخلصت إلى الله عز وجل في الدعاء ؟!

وقال عمر : يا معشر المستترين ؛ اعلموا : أن عند الله عز وجل مسألة فاضحة ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .

وكان عمر بن عبد العزيز واقفاً مع سليمان بعرفة ، فرعدت رعدةٌ من رعد تِهامة ، فوضع سليمان صدره علىٰ مقدم الرحل ، وصرخ منها ، فقال له عمر : يا أمير المؤمنين ؛ هـٰذه جاءت برحمة ، فكيف لو جاءت بسخط ؟! قال : ثم نظر سليمان إلى الناس ، فقال : ما أكثر الناس! فقال عمر : هم خصماؤك يا أمير المؤمنين ، فقال له سليمان : **ابتلاك الله بهم** .

ودخل عليه شخص يوماً ، فرآه قد نصب ركبتيه ، ووضع يديه عليهما ، وذقنه علىٰ ركبتيه ، كأن عليه حزن هـٰذه الأمة كلها ، فقال له : ما لي أراك مغتماً ؟ فقال : وكيف لا أغتم وليس أحد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم في شرق الأرض وغربها . . إلا ويلزمني أن أؤدي إليه حقه! غير كاتب إلي فيه ، ولا طالبه مني . أو كما قال .

وخرج في جنازة يوماً ، فأتي ببرد كان يلقىٰ للخلفاء يقعدون عليه إذا خرجوا إلىٰ جنازة ، فلما رآه قد ألقي له . . ضربه برجله ، ثم قعد على الأرض ، فقالوا : ما هـٰذا ؟! وجاء رجل ، فقام بين يديه ، وقال : يا أمير المؤمنين ؛ اشتدت بي الحاجة ، وانتهت بي الفاقة ، والله تعالىٰ سائلك عن مقامي هـٰذا بين يديك ـ وفي يده قضيب قد اتكأ عليه ـ فقال : أعد عليَّ ما قلت ، فأعاد عليه ، فبكىٰ حتىٰ جرت دموعه على القضيب ، ثم قال : ما عيالك ؟ قال : خمسة ، أنا وامرأتي وثلاثة أولاد لي ، قال : فإنا نفرض لك ولعيالك عشرة دنانير ، ونأمر لك بخمس مئة ، مئتين من مالي وثلاث مئة من مال الله تعالىٰ ، تَبلَّغْ بهما حتىٰ يخرج عطاؤك .

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : أحسب أن من لم يلِ . . لم يذنب .

واستعمل عاملاً ، فبلغه أنه عمل للحجاج ، فعزله ، فأتاه يعتذر إليه ، وقال : يا أمير

المؤمنين ؛ لم أعمل له إلا قليلاً ، فقال : حسبك من صحبته شر يوم أو بعض يوم .

وقال : **ما طاوعني الناس علىٰ ما أردت من الحق . . حتىٰ بسطت لهم شيئاً من الدنيا .**

وأرسل عمر بن عبد العزيز بأسارىٰ من أسارى الروم ، ففادىٰ بهم أسارىٰ من أسارى المسلمين ، وكان الرسول إذا دخل علىٰ ملك الروم . . لم يبرح حتىٰ يدخل عظماء الروم ، فإذا دخل عظماؤهم . . خرج ، فدخل يوماً ، فوجد ملك الروم جالساً على الأرض ، مكتئباً حزيناً ، فقلت : ما شأن ملك الروم ؟ فقالوا : وما تدري ما حدث ؟! قلت : وما حدث ؟!! قال : مات الرجل الصالح ، قلت : مَنْ ؟ قال : عمر بن عبد العزيز ، ثم قال ملك الروم : إني لأحسب أنه لو كان أحد يحيي الموتىٰ بعد عيسى ابن مريم . . لأحياهم عمر بن عبد العزيز ، ثم قال : إني لست أعجب من الراهب أن أَغلق بابه ، ورفض الدنيا ، وترهَّب ، وتعبد ، ولٰكن أعجب ممن كانت الدنيا تحت قدمه ، فرفضها ثم ترهَّب .

وأرسل مرة غلاماً له يشوي له لحماً ، فعجل الغلام بها ، فقال له : أسرعت بها ، قال : شويتها في نار المطبخ ، وكان للمسلمين مطبخ يغديهم ويعشيهم ، فقال لغلامه : اذهب فكلها يا بني ؛ فإنك رُزقتَها ولم أُرزقْها .

وكان له سفط[1] فيه دَرَّاعَة[2] من شعر وغل ، وكان له بيت في جوف بيت يصلي فيه ، لا يدخل فيه أحد ، فإذا كان في آخر الليل . . فتح ذلك السفط ، ولبس تلك الدراعة ، ووضع الغل في عنقه ، فلا يزال يناجي ربه ويبكي حتىٰ يطلع الفجر ، ثم يعيده في السفط .

وقيل له : لو اتخذت حرساً في طعامك وشرابك ؛ فإن من كان قبلك يفعله ، فقال : اللهم ؛ إن كنت تعلم أني أخاف شيئاً دون يوم القيامة . . فلا تؤمِّن خوفي .

وعن عمرو بن مهاجر قال : قال لي عمر بن عبد العزيز : إذا رأيتني قد مِلْتُ عن الحق . . فضع يدك في تلبابي ، ثم هُزَّني ، ثم قل لي : يا عمر ؛ ما تصنع ؟!

وكان لا يحمل على البريد . . إلا في حاجة المسلمين .

وقال : لا أعلمن أنكم بعثتم إلىٰ أحد من أهل عملي بشيء إلا فعلت بكم وفعلت ، قيل له : ألم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ؟ قال : بلىٰ ، ولٰكنها لنا ولمن بعدنا رِشوة .

---

(١) **السفط** : الوعاء الذي يوضع فيه الحوائج الخاصة .

(٢) **الدراعة** : جبة مشقوقة المقدم .

وخطب يوماً فقال : أيها الناس ؛ ما منكم من أحد يبلغنا عنه حاجة . . إلا أحببت أن أسد من حاجته بما قدرت عليه ، وما منكم من أحد لا يسعه ما عندنا . . إلا وددت أنه بُدىء به ، وبلحمتي الذين يلوني حتىٰ يستوي عيشنا وعيشه ، وايم الله ؛ إني لو أردت غير ذلك من العيش . . لكان اللسان به مني ذلولاً عالماً بأسبابه ، ولٰكنه قضاء من الله تعالىٰ ، كتاب ناطق ، وسنة عادلة ، يدل فيها علىٰ طاعته ، وينهىٰ فيها عن معصيته ، ثم رفع طرف ردائه ، وبكىٰ حتىٰ شهق ، وأبكى الناس حوله .

وقال في آخر خطبة خطبها : لولا سنة أحييها ، أو بدعة أميتها . . لم أبال ألاَّ أبقىٰ في الدنيا فواقاً[1] .

زاد في رواية : أنه قال وهو على المنبر بعرفة : اللهم ؛ زد في إحسان محسنهم ، وراجع بمسيئهم التوبة ، وحط من وراءهم بالرحمة ، وأومأ بيده إلى الناس ، وقال : ما أنعم الله تعالىٰ علىٰ عبد نعمة ثم انتزعها منه وعوضه عنها الصبر . . إلا كان ما عوضه خيراً مما انتزع منه ، ثم قرأ : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

وكان يدعو ويقول : اللهم ؛ إن لم أكن أهلاً أن أبلغ رحمتك . . فإن رحمتك أهل أن تبلغني ، رحمتك وسعت كل شيء ، فلتسعني رحمتك يا أرحم الراحمين .

اللهم ؛ إنك خلقت قوماً فأطاعوك فيما أمرتهم ، وعملوا في الذي خلقتهم له ، فرحمتك إياهم كانت قبل طاعتهم لك يا أرحم الراحمين .

وأول كلمة قالها عمر بن عبد العزيز على المنبر يوم استخلف ـ بعد حمد الله ، والثناء عليه ، والصلاة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ : أيها الناس ؛ إني والله ؛ ما سألت في سر ولا علانية هٰذا الأمر ، فمن كره منكم . . فأمره إليه ، فقام رجل من الأنصار ، فبايعه ، وبايعه الناس .

وقال أبو حازم : قال لي عمر بن عبد العزيز : يا أبا حازم ؛ أناشدك الله إلا حدثتني الحديث الذي سمعتُه منك عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن بين أيديكم عقبة كؤوداً[2] ، لا يجوزها إلا كل ضامر مهزول » .

قال أبو حازم : فلما انتهىٰ إلىٰ هٰهنا . . بكىٰ أمير المؤمنين بكاء عالياً ، حتىٰ علا نحيبه ،

---

(١) **الفواق المراد هنا** : الفترة القصيرة ، وتستعمل في الأصل للمقدار بين الضغطة والأخرىٰ علىٰ ضرع الناقة .
(٢) **الكؤود** : الشاقة .

ثم قال : يا أبا حازم ؛ أفتلومني أن أُضمر نفسي لتلك العقبة لعلِّي أنجو منها ، وما أظنُّني منها بناج ، ثم أغمي عليه زماناً ، ثم بكىٰ في إغمائه بكاءً عالياً ، وضحك ضحكاً عالياً ، فلما أفاق من غشيته . . قلت : يا أمير المؤمنين ؛ لقد رأيت منك عجباً ، قال : ورأيتم ما كنت فيه ؟ قلت : نعم ، فقال : أنا أحدثكم ، لما أغمي عليَّ . . رأيت كأن القيامة قد قامت ، وحشر الله الخلائق ، وكانوا عشرين ومئة صف ، أمة محمد صلى الله عليه وسلم ثمانون صفاً ؛ وسائر الأمم من الموحدين أربعون صفاً ؛ إذ وضع الكرسي ، ونصب الميزان ، ونشرت الدواوين .

ثم نادى المنادي : أين عبد الله ابن أبي قحافة ؟ فإذا شيخ طوال يخضب بالحناء والكتم[1] ، فأخذت الملائكة بضبعيه[2] ، فأوقفوه أمام الله تعالىٰ ، فحوسب حساباً يسيراً ، ثم أمر به ذات اليمين إلى الجنة .

ثم نادى المنادي : أين عمر بن الخطاب ؟ فإذا شيخ طوال يخضب بالحناء بحتاً ، فأخذت الملائكة بضبعيه ، فأوقفوه أمام الله تعالىٰ ، فحوسب حساباً يسيراً ، ثم أمر به ذات اليمين إلى الجنة .

ثم نادى المنادي : أين عثمان بن عفان ؟ فإذا شيخ طوال يصفر لحيته ، فأخذت الملائكة بضبعيه ، فأوقفوه أمام الله تعالىٰ ، فحوسب حساباً يسيراً ، ثم أمر به ذات اليمين إلى الجنة .

ثم نادى المنادي : أين علي بن أبي طالب ؟ فإذا شيخ طوال أبيض الرأس واللحية ، عظيم البطن ، دقيق الساقين ، فأخذت الملائكة بضبعيه ، فأوقفوه أمام الله تعالىٰ ، فحوسب حساباً يسيراً ، ثم أمر به ذات اليمين إلى الجنة .

فلما رأيت الأمر قد قرب مني . . اشتغلت بنفسي ، فلا أدري ما فعل الله بمن كان بعد علي ؛ إذ نادى المنادي : أين عمر بن عبد العزيز ؟ فقمت ، فوقعت علىٰ وجهي ، ثم قمت ، فوقعت علىٰ وجهي ، ثم قمت ، فوقعت علىٰ وجهي ، وأتاني ملكان ، فأخذا بضبعي ، فأوقفاني أمام الله تعالىٰ ، فسألني عن النقير والقطمير والفتيل[3] ، وعن كل قضية

---

(١) **الكَتَمُ** : نبت فيه حُمرة يُختضب به .

(٢) الضَّبْعُ : وسط العضد .

(٣) **النقير** : هي النقرة التي تكون في ظهر النواة ، **القطمير** : القشرة البيضاء التي تكون على النواة ، **الفتيل** : ما يكون في شق النواة .

قضيت بها ، حتىٰ ظننت أني لست بناج ، ثم إن ربي عز وجل تفضل عليَّ ، فتداركني منه برحمة ، وأمر بي ذات اليمين إلى الجنة .

فبينا أنا مار مع الملكين الموكلين بي ؛ إذ مررت بجيفة ملقاة علىٰ رماد ، فقلت : ما هـٰذه الجيفة ؟ قالوا : اُدْنُ منه وسَلْهُ . . يخبرك ، فدنوت منه ، فوكزته برجلي ، وقلت له : مَن أنت ؟ فقال لي : من أنت ؟ قلت : أنا عمر بن عبد العزيز ، قال لي : ما فعل الله بك وبأصحابك ؟ قلت : أما أربعة . . فأمر بهم ذات اليمين إلى الجنة ، ثم لا أدري ما فعل الله بمن كان بعد علي ، فقال لي : أنت ما فعل الله بك ؟ قلت له : تفضل عليَّ ربي عز وجل ، وتداركني منه برحمة ، وقد أمر بي ذات اليمين إلى الجنة ، ثم قلت : من أنت ؟ قال : أنا الحجاج ، قلت له : حجاج ؟ أرددها ثلاثاً ، ما فعل الله بك ؟ قال : قدمت علىٰ رب شديد العقاب ، ذي بطش ، منتقم ممن عصاه ، فقتلني بكل قتلة قتلت بها مثلها ، ثم هاأنـٰذا موقوف أنتظر ما ينتظر الموحدون ، إمَّا إلىٰ جنة ، وإمَّا إلىٰ نار .

قال أبو حازم : فأعطيتُ الله تعالىٰ عهداً بعد رؤيا عمر بن عبد العزيز ألاَّ أقطع لأحد من هـٰذه الأمة بنار . [انتهىٰ « الحلية » ٥/ ٢٨٠ـ٣٠١] .

وقال الإمام حجة الإسلام الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : دخلت مولاة لعمر بن عبد العزيز علىٰ عمر ، فسلمت عليه ، ثم قامت إلىٰ مسجد في بيته ، فصلت فيه ركعتين ، ثم غلبتها عيناها ، فرقدت ، فاستبكت في منامها ، فلما استيقظت . . قالت : يا أمير المؤمنين ؛ إني رأيت والله عجباً ، فقال : وما ذاك ؟ قالت : رأيت النار وهي تزفر علىٰ أهلها ، ثم جيء بالصراط ، فوضع علىٰ متنها ، فقال : هيه! قالت : فجيء بعبد الملك بن مروان ، فحمل عليه ، فما مضىٰ عليه إلا يسيراً حتى انكفأ به الصراط ، فهوىٰ إلىٰ جهنم ، فقال : هيه! قالت : ثم جيء بالوليد بن عبد الملك ، فحمل عليه ، فما مضىٰ إلا يسيراً حتى انكفأ به الصراط ، فهوىٰ في جهنم ، فقال عمر : هيه! قالت : ثم جيء بسليمان بن عبد الملك ، فما مضىٰ عليه إلا يسيراً حتى انكفأ به الصراط ، فهوىٰ إلىٰ جهنم ، فقال عمر : هيه! قالت : ثم جيء بك والله يا أمير المؤمنين ، فصاح عمر صيحة خر مغشياً عليه ، فقامت إليه ، فجعلت تنادي في أذنه : يا أمير المؤمنين ؛ إني رأيتك والله تمر حتىٰ نجوت ، إني رأيتك والله تمر حتىٰ نجوت ، قال : وهي تنادي وهو يصيح ويفحص[1] برجليه . انتهىٰ [« الإحياء » ٤/ ١٨٧] .

---

(١) **يفحص** : يبحث ويحرك التراب .

وقال في « الاكتفاء » : كان عمر بن عبد العزيز إذا صلى العشاء . . دخل منزله ودعا بكُتَّاب العامة ، فلم يزل في أمور المسلمين إلىٰ ثلث الليل ، ثم يأمر بانصرافهم ، ويأمر بإحضار كُتَّاب الخاصة ، فلم يزل معهم في حساب وكتاب إلىٰ ثلث الليل الأوسط ، ثم ينصرفون ، فيقوم إلىٰ مصلاَّه إلى الفجر .

وقال له رجل : لو تفرغت لنا يا أمير المؤمنين ، فقال : وأين الفراغ ؟ ذهب الفراغ ، فلا فراغ إلا عند الله عز وجل .

وعن حماد ابن أبي سلمىٰ : أن عمر بن عبد العزيز قام على المنبر في مسجد دمشق ، ثم نادىٰ بأعلىٰ صوته : لا طاعة لنا في معصية الله عز وجل .

وكتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلىٰ عدي بن أرطاة في كتاب : عليك بأربع ليالٍ من السَّنَةِ ؛ فإن الله ينزل فيهن الرحمة : أول ليلة [من رجب ، وليلة النصف من شعبان ، وليلة الفطر ، وليلة النحر[1]] .

ولما كان صغيراً . . بعثه أبوه ـ لما كان أمير مصر ـ إلى المدينة ، فتفقه بها حتىٰ بلغ رتبة الاجتهاد .

وقال سعيد بن المسيِّب : الخلفاء الراشدون المهديون خمسة : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وعمر بن عبد العزيز ، قالوا : يا أبا محمد ؛ هـٰذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد عرفناه ، فمن عمر بن عبد العزيز ؟ قال : إن عشتم . . سترَوه .

وقال سعيد بن المسيب ـ لما ولي عمر بن عبد العزيز ـ للعلماء : اجعلوا نصف دعائكم لأمير المؤمنين ؛ ليسلم لكم دينكم ودنياكم .

ولما ولي . . قال لإياس بن معاوية : دلني علىٰ قوم من العلماء أستعملهم ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ منهم قوم يعملون للآخرة ، فما يعملون لك ؟ ومنهم قوم يعملون للدنيا ، فما ظنك بهم إذا أمكنتهم منها ؟ قال : فما أصنع ؟ قال : **عليك بأرباب البيوت ، الذين يستحيون لأنسابهم ، ويرجعون إلىٰ أعراقهم فولِّهم** .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : كتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز إليه :

أما بعد : فإن مدينتنا قد خربت ، فإن رأىٰ أمير المؤمنين أن يقطع لنا مالاً نرمُّها به . . فعل .

---

(١) وقال الشافعي : بلغنا أن الدعاء يستجاب في خمس ليال : في ليلة الجمعة ، وليلة الأضحىٰ ، وليلة الفطر ، وأول ليلة من رجب ، وليلة النصف من شعبان . اهـ « تلخيص الحبير » (٢/ ٨٠) .

فكتب إليه عمر :

أما بعد : فقد فهمت كتابك ، وما ذكرت أن مدينتكم قد خربت ، فإذا قرأت كتابي هـٰذا . . فحصنها بالعدل ، ونقِّ طرقها من الظلم ؛ فإنه مَرمَّتُها . والسلام .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلىٰ عدي بن أرطاة ـ وكان قد استخلفه على البصرة ـ :

أما بعد : فإنك غررتني بعمامتك السوداء ، وإرسالك طرفها من ورائك ، ومجالستك القراء ، وإنك أظهرت لي الخير ، فأحسنت بك الظن ، وقد أظهر الله تعالىٰ عليَّ ما كنت تكتم . والسلام .

وكتب عدي بن أرطاة إلىٰ عمر بن عبد العزيز :

أما بعد : فإن الناس قد كثروا في الإسلام ، وخِفْتُ أن يقل الخراج ، فكتب إليه عمر : فهمت كتابك ، ووالله ؛ لوددت أن الناس كلهم أسلموا ، وأكون أنا وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا . انتهىٰ [« الحلية » ٥/٣٠٥] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : وقفت علىٰ سيرة العمرين رضي الله عنهما للإمام أبي الفرج ابن الجوزي ـ قدس الله روحه ـ فأحببت أن أذكر منها ما ليس في كتابي ـ إن شاء الله ، وبه التوفيق ـ :

قال أبو الفرج : عن محمد بن سعد قال : ولد عمر بن عبد العزيز رحمه الله سنة ثلاث وستين ، وهي السنة التي ماتت فيها ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم .

ولما أراد عبد العزيز بن مروان أن يتزوج أم عمر بن عبد العزيز . . قال لقَيِّمه : اجمع لي أربع مئة دينار من طيب مالي ؛ فإني أريد أن أتزوج إلىٰ أهل بيت لهم صلاح ، فتزوج من أم عمر بن عبد العزيز .

قال ابن سعد : وهو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم ابن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس .

أمه : أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ويكنىٰ : أبا حفص .

وعن نافع قال : كنت أسمع أن عمر كثيراً ما يقول : ليت شعري مَن هـٰذا الذي مِن ولد عمر في وجهه علامة يملأ الأرض عدلاً ؟

زاد في رواية أخرىٰ : كما ملئت جَوراً .

وقال صالح بن حسان : أرسل عمر بن عبد العزيز إلىٰ محمد بن كعب القرظي فقال : صف ليَ العدل ، فقال : سألتَ عن أمر حسن ، كن لصغير المسلمين أباً ، ولكبيرهم ابناً ، وللمثل منهم أخاً ، وعاقب الناس بقدر ذنوبهم علىٰ قدر أحسابهم ، ولا تضربنَّ لغضب سوطاً واحداً فتتعدىٰ ، فتكون عند الله عز وجل من العادِين .

وقال محمد بن كعب لعمر بن عبد العزيز : لا تصحب من الأصحاب من خطرك عنده علىٰ قدر قضاء حاجته ، فإذا انقطعت حاجته . . انقطعت أسباب مودته ، واصحب من الأصحاب ذا العلا في الخير ، والأناة في الحق . . يعينك علىٰ نفسك ، ويكفيك مؤونته .

ومن أحاديثه المروية عنه بإسناده : عن أسماء بنت عُمَيْس قالت : علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوة الكرب ، قال : « إذا نزل بك كرب . . فقولي : الله ربي لا أشرك به شيئاً »[1] ، وفي رواية : « لا شريك له » .

وعن عبادة بن الصامت : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا دخل رمضان . . قال : « اللهم ؛ سلمني لرمضان ، وسلم رمضان لي ، وتسلمه مني متقبَّلاً »[2] .

وعن عمر بن عبد العزيز ، عن تميم الداري قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من لقي الله بخمس . . لم يحجب عن الجنة : النصح لله عز وجل ، والنصح لكتاب الله ، والنصح لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والنصح لأئمة المسلمين ، والنصح لعامة المسلمين »[3] .

وعن عمر ابن أبي سلمة بن عبد الرحمٰن ، عن أبي هريرة وابن عباس رضي الله عنهم قال : من قرأ (قل هو الله أحد) إحدىٰ عشرة مرة ابتغاء وجه الله . . نزع الله الفقر من بين عينيه ، وجعل غناه في قلبه ، وحشا فيه الحكمة .

وعن زيد بن أسلم قال : صلينا مع عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ الظهر ، ثم انصرفنا إلىٰ أنس بن مالك ـ رحمه الله ، وكان شاكياً ـ فلما جلسنا . . قال : أصليتم ؟ قلنا : نعم ، قال : يا جارية ؛ هلمي وضوءاً ، ما صليت خلف إمام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) أخرجه بنحوه ابن راهوية (٥/ ٣٣) .

(٢) أخرجه الديلمي (١/ ٤٧١) .

(٣) روى البخاري تعليقاً ، ومسلم (٥٥) : عن تميم الداري : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الدين النصيحة » ، قلنا : لمن ؟ قال : « لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين ، وعامتهم » .

أشبه بصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم من إمامكم ؛ يعني : عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، قال زيد : وكان عمر يتم الركوع والسجود ، ويخفف القيام والقعود .

وعن سفيان قال : مات عمر بن عبد العزيز رحمه الله حينَ مات ، وما يزداد عاماً بعد عام إلا فضلاً .

وقال أبو الزناد : ولي عمر بن عبد العزيز المدينة في ربيع الأول ، سنة سبع وثمانين ، وهو ابن خمس وعشرين سنة ، ولاه إياها الوليد بن عبد الملك ، فولىٰ عمر علىٰ قضائها أبا بكر محمد بن عمرو بن حزم .

ودعا عمر عشرة نفر من فقهاء البلد ـ يعني : المدينة ـ منهم : عروة ، والقاسم ، وسالم[1] ، وقال : إني دعوتكم لأمر تؤجرون فيه ، وتكونون فيه أعواناً على الحق ، إن رأيتم أحداً يتعدىٰ ، أو بلغكم عن عامل ظلامة . . فأحرّج بالله علىٰ أحد بلغه ذلك إلا أبلغني ، فجَزَوْه خيراً وافترقوا .

وأراد الوليد بن عبد الملك من عمر بن عبد العزيز أن يخلع سليمان ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إنما بايعنا لكما في عقد واحد ، فكيف نخلعه ونتركك ؟

وعن محمد بن سعيد الدارمي : أنه سمع أباه يذكر أن سليمان بن عبد الملك كان ربما نظر في المرآة فيقول : أنا الملك الشاب ، قال : فنزل مرج دابق ، فمرض مرضه الذي مات فيه ، وفشَت الحمىٰ في أهله وأصحابه ، فدعا جارية بوضوء ، فبينا هي توضئه ؛ إذ سقط الكوز من يدها ، فقال : ما قصتك ؟ قالت : محمومة ، قال : ففلانة ؟ قالت : محمومة ، قال : الحمد لله الذي جعل خليفته في أرضه ليس عنده من يوضئه ، ثم التفت إلىٰ خاله الوليد بن القعقاع العبسي فقال :

قـرِّب وضـوءك يـا وليـد فـإنمـا ... هـٰـذي الحيـاة تعلّـةٌ ومتـاع[2]

فأجابه الوليد :

فاعمل لنفسك في حياتك صالحاً ... فـالـدهـر فيـه فـرقـةٌ وجمـاعُ

وزاد في رواية : إنه لما نظر في المرآة ـ وكان حسن الوجه ، فأعجبه ما رأىٰ من حاله ،

---

(١) ذكر بقيتهم ابن سعد في « الطبقات » (٥/ ٣٣٤) .

(٢) التعلَّة : ما يعلَّلُ به الصبي ليسكت .

وكان علىٰ رأسه وصيفة له ـ قال : أنا الملك الشاب ، فرأىٰ شفتي جاريته تتحركان عند قوله ما قال ، [فقال : ما قلت ؟ قالت : خيراً . قال : فتخبريني ـ وأعاد عليها ـ قالت : قلت :

أنت نعم المتاع لو كنت تبقىٰ غير أنْ لا بقاء للإنسان

ثم خرج إلى المسجد ، فخطب الناس ، فسمع أقصىٰ مَن في المسجد صوته ، ثم لم يزل يضعف حتى انصرف محموماً حمىٰ موصولة بمنيته .

وكانت وفاته سنة تسع وتسعين ، وهو ابن أربعين سنة ، واستخلف عمر بن عبد العزيز .

قال رجاء بن حَيْوَة رحمه الله : لما كان يوم الجمعة . . لبس سليمان بن عبد الملك ثياباً خضراً من خز ، ونظر في المرآة ، فقال : أنا ـ والله ـ الملك الشاب ، ثم خرج إلى الصلاة يصلي بالناس ، فلم يرجع حتىٰ ثقل ، فلما ثقل . . كتب كتاب عهده إلى ابنه أيوب ـ وهو غلام لم يبلغ ـ قال رجاء : فقلت له : ما تصنع يا أمير المؤمنين ؟ إنه مما يحفظ الخليفة في قبره أن يستخلف الرجلَ الصالحَ ، فقال : كتابٌ أستخير الله تعالىٰ فيه ، وأنظر ولم أعزم ، فمكث يوماً أو يومين ، ثم خرَّقه ، ثم دعاني ، فقال : داوود بن سليمان ، فما ترىٰ ؟ فقلت : هو غائب بقُسْطَنْطينية ، وأنت لا تدري ، أحي هو ، أم ميت ؟ قال : يا رجاء ؛ فمن ترىٰ ؟ فقلت : أرىٰ رأيك يا أمير المؤمنين ـ وأنا أريد أن أنظر من يذكر ـ فقال : كيف ترىٰ في عمر بن عبد العزيز ؟ فقلت : والله ؛ أعلمه فاضلاً خياراً مسلماً ، فقال : هو علىٰ ذلك ، والله ؛ لئن وليته ولم أُوَلِّ أحداً من ولد عبد الملك . . لتكونن فتنة ، ولا يتركونه أبداً يلي عليهم . . إلا أن أجعل أحدهم بعده ، ويزيد بن عبد الملك غائب يومئذٍ على الموسم ، قال : فأَجعَلُ يزيد بن عبد الملك بعده ؛ فإن ذلك مما يسكنهم ويرضون به ، قلت : رأيك ، فكتب بيده :

بسم الله الرحمٰن الرحيم ، هٰذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز : إني قد وليته الخلافة بعدي[1] ، وبعده يزيد بن عبد الملك ، فاسمعوا له ، وأطيعوا ، واتقوا الله ، ولا تختلفوا عليه ، فيُطمَع فيكم .

وختم الكتاب ، وأرسل إلىٰ كعب بن حامز صاحب شرطته أن مُرْ أهل بيتي ،

---

(١) عن ابن سيرين قال : يرحم الله سليمان ؛ افتتح خلافته بإحياء الصلاة ، واختتمها باستخلافه عمر ، وذلك لأن الحجاج وعماله كانوا يؤخرون الصلاة عن وقتها فعزلهم وكتب : إن الصلاة قد أميتت ، فأحيوها بوقتها ، وكان ديناً فصيحاً مفوهاً عادلاً محباً للغزو ، وكان يستعين في أمر الرعية بعمر بن عبد العزيز .

فليجتمعوا ، فجمعهم ، ثم قال سليمان لرجاء بعد اجتماعهم : اذهب بكتابي هـٰذا إليهم ، فأخبرهم أنه كتابي ، ومُرْهُم ، فليبايعوا من وليت ، ففعل رجاء ، وقالوا : سمعنا وأطعنا لمن فيه ، وقالوا : ندخل فنسلم علىٰ أمير المؤمنين ، قال : نعم ، فدخلوا ، فقال لهم سليمان : هـٰذا الكتاب ـ وهو يشير لهم ، وهم ينظرون إليه في يد رجاء ـ هـٰذا عهدي ، فاسمعوا له ، وأطيعوا ، وبايعوا لمن سميت في هـٰذا الكتاب ، قال : فبايعوه رجلاً رجلاً ، ثم خرج بالكتاب مختوماً في يد رجاء .

قال : فلما تفرقوا . . جاءني عمر بن عبد العزيز ، فقال : يا أبا المقدام ؛ إن سليمان كانت لي به حرمة ومودة ، وكان بي براً ملطفاً ، فأنا أخشىٰ أن يكون قد أسند إلي من هـٰذا الأمر شيئاً ، فأنشدك الله إلا أعلمتني إن كان ذلك حتىٰ أستعفيه الآن قبل أن يأتي حال لا أقدر فيها علىٰ ذلك ، فقال رجاء : لا والله ؛ ما أنا بمخبرك حرفاً واحداً ، فذهب غضبان .

قال رجاء : ولقيني هشام بن عبد الملك ، فقال : يا رجاء ؛ لي حرمة ومودة قديمة ، وعندي شكر ، فأعلمني ، أهـٰذا الأمر إليّ ؟ فإن كان إليّ . . علمت ، وإن كان إلىٰ غيري . . تكلمت ، وليس مثلي من ينحَّىٰ عنه هـٰذا الأمر ، ولك الله ألاَّ أذكر اسمك أبداً ، فأَبيتُ ، وقلت : والله ؛ لا أخبرك حرفاً واحداً مما أسرَّ إليّ ، فانصرف هشام وهو مؤيس ، وهو يضرب بإحدىٰ يديه على الأخرىٰ ، وهو يقول : فإلىٰ من إذا نُحِّيَتْ عني ؟ والله ؛ إني لعين بني عبد الملك .

قال رجاء : ودخلت علىٰ سليمان وهو يموت ، فجعلت إذا أخذته سكرة من سكرات الموت . . حرفته إلى القبلة ، فجعل يقول وهو يفأق[1] : لم يأن لذلك بعد يا رجاء ، حتىٰ فعلت ذلك مرتين ، فلما كانت الثالثة . . قال : من الآن يا رجاء ، إن كنت تريد شيئاً ، أشهد أن لا إلـٰه إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فحرفته إلى القبلة ، فمات ، فلما أغمضته . . سجَّيته بقطيفة خضراء ، وأغلقت الباب ، وأرسلَت زوجته تقول لي : كيف أصبح ؟ قلت : نام وقد تغطىٰ ، فنظر رسولها إليه وهو مغطىٰ ، فرجع ، فأخبرها ، فقبِلت .

قال رجاء : وأجلست على الباب من أثق به ، وأوصيته ألاَّ يريم[2] حتىٰ آتيه ، ولا يُدخِلَ على الخليفة أحداً ، فخرجت ، فأرسلت إلىٰ كعب بن حامز ، فجمع أهل بيت أمير

---

(١) فأق : أخذه الفُوَاق أو الفُوَاق ، وهو ما يأخذ المحتضر عند النزع .

(٢) لا يريم : لا يبرح .

المؤمنين ، فاجتمعوا في مسجد دابق[1] ، فقلت : بايعوا ، فقالوا : قد بايعنا مرة ونبايع أخرىٰ ؟ فقلت : هـٰذا أمر أمير المؤمنين ، بايعوا علىٰ ما أمر به ولمن سمَّىٰ في هـٰذا الكتاب المختوم ، فبايعوا رجلاً رجلاً ، فلما رأيت أني قد أحكمت الأمر . . قلت : قوموا إلىٰ صاحبكم ، فقد مات ، وقرأت عليهم الكتاب ، فلما انتهيت إلىٰ ذِكْرِ عمر بن عبد العزيز . . نادىٰ هشام : لا نبايعه أبداً ، قال : قلت : أضرب ـ والله ـ عنقك ، قم فبايع ، فقام يجر رجليه .

قال رجاء : وقد أخذت بضبعي عمر ، فأجلسته على المنبر ، وهو يسترجع لِما وقع فيه ، وأما هشام . . فإنه يسترجع لِما أخطأه ، فلما انتهىٰ هشام إلىٰ عمر . . قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، حين صار هـٰذا الأمر إليك علىٰ ولد عبد الملك ، فقال عمر : إنا لله وإنا إليه راجعون ، حين صار هـٰذا الأمر إليَّ لكراهتي له .

وغُسِّل سليمان ، وكفن ، وصلىٰ عليه عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، فلما فرغ من دفنه . . أُتِيَ بمراكب الخلافة ، البراذين والخيل والبغال ، ولكل دابة سائس ، فقال : ما هـٰذا ؟ قالوا : مراكب الخلافة ، قال عمر : دابتي أوفق لي ، فركب بغلته ، وصرف تلك الدواب ، ثم أقبل ، فقيل له : تنزل منزل الخلافة ، فقال : فيه عيال أبي أيوب ، وفي فسطاطي[2] كفاية .

وزاد ابن سعد في طريق آخر : قال رجاء بن حيوة : لما ثقل سليمان . . رآني عمر في الدار أدخل وأخرج ، فقال : يا رجاء ؛ أذكِّرك اللهَ والإسلام أن تذكرني لأمير المؤمنين ، أو تشير بي عليه إن استشارك ، فوالله ؛ ما أقوىٰ علىٰ هـٰذا الأمر ، فانتهرته ، وقلت : إنك لحريص على الخلافة ، أتطمع أن أشير عليه بك ، فاستحيا ، ودخلت ، فقال سليمان : من ترىٰ لهـٰذا الأمر ؟ فقلت : اتق الله ؛ فإنك قادم عليه ، وسائلك عن هـٰذا الأمر ، وما صنعت فيه ، قال : فمن ترىٰ ؟ قلت : عمر بن عبد العزيز .

وفي رواية أخرىٰ : لما فُتح الكتاب وفيه العهد لعمر بن عبد العزيز . . قالوا : أين عمر ؟ فطلبوه ، فما وجدوه ، فإذا هو في مؤخر المسجد ، فأتوه ، فسلموا عليه بالخلافة ، فَعَقِرَ

---

(١) **دابق** : قرية قرب حلب ، من أعمال عَزَاز ، عندها مرج معشب كان ينزله الأمويون إذا غزوا الصائفة ، ووقعت فيه موقعة مرج دابق ، بين العثمانيين والمماليك ، والتي علىٰ إثرها دخل العثمانيون بلاد الشام ، ويوجد فيها قبر سليمان بن عبد الملك رحمه الله .

(٢) **الفسطاط** : بيت يُتَّخذ من الشَّعَر .

به[1] ، فلم يستطع النهوض حتىٰ أخذوا بضبعه ، فدنوا به إلى المنبر ، فلم يقدر على الصعود حتىٰ أصعدوه ، فجلس طويلاً لا يتكلم ، ثم بايعوه ، فجاء منزله ، فجعل يكتب بيده إلى العمال بالأمصار .

وفي رواية : لما رجع منزله . . قال له مولاه : يا أمير المؤمنين ؛ كأنك مهتم ، فقال : لمثل هـٰذا الأمر الذي نزل بي اهتممت ؛ إنه ليس أحد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم في مشرق الأرض ولا مغربها . . إلا له قِبَلي حق يحق علي أداؤه إليه ، غير كاتب إلي فيه ، ولا طالبه مني .

وعن سيَّارٍ أبي الحكم ، قال : لما أدخل سليمان بن عبد الملك قبره . . أدخله عمر بن عبد العزيز ، وابن سليمان ، فاضطرب علىٰ أيديهما ، فقال ابنه : عاش ـ والله ـ أبي ، فقال عمر : لا والله ، ولـٰكن عوجل أبوك .

وقال عمر بن عبد العزيز : ليس أحد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلا له عندي حق ، شرقها وغربها .

وعن سليمان بن داوود الخولاني ، أن رجلاً بايع عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، فمد يده إليه ، ثم قال : بايعني بلا عهد ولا ميثاق ، تطيعني ما أطعت الله ، فإن عصيت الله . . فلا طاعة لي عليك ، فبايعه .

ولما صعد المنبر . . حمد الله ، وأثنىٰ عليه ، وكان من كلامه أن قال : ألا إني لست بخيركم ، ولـٰكني رجل منكم ، غير أن الله جعلني أثقلَكم حِمْلاً ، ثم ذكر حاجته .

وعن حميد بن زنجويه النسائي قال : قال أحمد ٱبن حنبل : يروىٰ في الحديث : « أن الله تبارك وتعالىٰ يبعث علىٰ رأس كل مئة عام من يصحح لهـٰذه الأمة دينها »[2] فنظرنا في المئة الأولىٰ ؛ فإذا هو عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، ونظرنا في المئة الثانية ؛ فنراه الإمام الشافعي رحمه الله .

قالوا : وكان لعمر بن عبد العزيز رحمه الله جماعة يسمرون عنده ، ويستشيرهم فيما يُرفع إليه من أمور الناس ، وكان بينه وبينهم علامة ، إذا أحب أن يقوموا . . قال : إذا شئتم .

وكان عمر بن عبد العزيز إذا خطب على المنبر فخاف فيه العُجبَ . . قطع ، وإذا كتب

---

(١) عَقِرَ الرجُل : بقي مكانه لم يتقدم أو يتأخر ؛ لفزعٍ أصابه كأنه مقطوع الرجْل .

(٢) أخرجه بنحوه الحاكم (٤/ ٥٦٧) .

كتاباً فخاف فيه العجب . . مزقه ، ويقول : اللهم ؛ إني أعوذ بك من شر نفسي .

وكان عمر بن عبد العزيز يأتي العيدين ماشياً .

وقال عمر بن عبد العزيز : كانت لي نفس تواقة ، فكنت لا أنال شيئاً . . إلا تاقت إلىٰ ما هو أعظم منه ، فلما بلغت نفسي الغاية . . تاقت إلى الآخرة .

وقال ميمون بن مهران ـ وكان كاتباً لعمر بن عبد العزيز ـ : مازلت أنا وعمر بن عبد العزيز ننظر في أمور الناس حتىٰ قلت : يا أمير المؤمنين ؛ ما بال هـٰذه الطَّوامِير[1] التي يُكتب فيها بالقلم الجليل ، ويُمَد فيها وهي من بيت مال المسلمين ؟ فكتب إلى العمال : ألاَّ تكتبوا في طُومَار بقلم جليل ، ولا يمد فيه .

قال : وكانت كتبه شبراً ، ونحو ذلك .

وقال عمر لميمون بن مهران : كيف لي بأعوان علىٰ هـٰذا الأمر أثق بهم وآمَنُهم ؟ قال : قلت : يا أمير المؤمنين ؛ لا تشغل قلبك بهـٰذا ؛ فإنك سوق ، وإنما يحمل إلىٰ كل سوق ما ينفق فيه ، فإذا عرف الناس منك النصح . . لم يأتوك إلا بالنصح .

وكان يقول : أيها الناس ؛ الحقوا ببلادكم ؛ فإني أذكركم هناك ، وأنساكم عندي ، إلا من ظلمه أمير . . فليس عليه إذن ، فليأتني .

وكان يكتب في المحابس : لا تقيدوا أحداً بقيد يمنع من تمام الصلاة .

وكتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلىٰ أهل الموسم :

أما بعد : فإني أشهد الله ، وأبرأ إليه في الشهر الحرام ، والبلد الحرام ، ويوم الحج الأكبر . . أني بريء من ظلم من ظلمكم ، وعدوان من اعتدىٰ عليكم ، أن أكون أنا أمرت بذلك ، أو رضيت به ، أو تعمدته ، إلا أن يكون ذلك وَهْماً مني ، أو أمراً خفي علي لم أتعمده ، وأرجو أن يكون ذلك موضوعاً عني مغفوراً لي إذا عُلم مني الحرص والاجتهاد ، ألا وإنه لا إذن على المظلوم دوني ، ألا وأي عامل من عمالي زل عن الحق ولم يعمل بالكتاب والسنة . . فلا طاعة له عليكم ، وقد صيرت أمره إليكم ، حتىٰ يراجع الحق ، وهو ذميم ، ألا وإنه لا دُولة بين أغنيائكم ، ولا أثرة علىٰ فقرائكم في شيء من فيئكم ، ألا وأيما وارد ورد في أمر يصلح الله به خاصة أو عامة . . فله ما بين مئة دينار إلىٰ ثلاث مئة دينار ،

---

(١) **الطوامير** : الصُّحف ، **والقلم الجليل** : العظيم .

علىٰ قدر ما نوىٰ من الحسبة ، وتجشم من المشقة ، فرحم الله امرءاً لم يتعاظمه سفر يحيي الله به حقاً لمن وراءه ، ولولا أن أشغلكم عن مناسككم . . لرسمت لكم أموراً من الحق أحياها الله لكم ، وأموراً من الباطل أماتها الله سبحانه وتعالىٰ عنكم ، فلا تحمدوا غيره ، ولو وكلني إلىٰ نفسي . . كنت كغيري . والسلام عليكم .

وكتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلىٰ صاحب الحجاز : أنْ مُرْ فاضلاً أن يقص على الناس كل ثلاثة أيام مرة ، أو قال : قاصَّكم .

وأرسل عمر بن عبد العزيز رحمه الله يزيد ابن أبي مالك الدمشقي والحارث بن يُمْجِد يفقهان الناس في البدو ، وأجرىٰ عليهما رزقاً ، فأما يزيد : فقبل الرزق ، وأما الحارث : فأبىٰ أن يقبل ، فأُخبر عمر بن عبد العزيز بذلك ، فكتب عمر : إنا لا نعلم بما صنع يزيد بأساً ، وأكثر الله فينا مثل الحارث بن يُمْجِد .

ولما ولي عمر . . جاءه الناس ، فلم يقبل إلا رجلاً فيه خير وتقوىٰ ، فكُلِّم في صديق له ، فقال : تركناه كما تركنا الخز والوشي .

وجاء رجل من أهل أذربيجان إلىٰ عمر بن عبد العزيز ، فقام بين يديه ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ أذكرك بمقامي هـٰذا مقاماً لا يشغل اللهَ عنك فيه كثرةُ من يخاصم من الخلائق ، يوم تلقاه بلا ثقة من العمل ، ولا براءة من الذنب ، قال : فبكىٰ عمر بكاء شديداً ، ثم قال : ويحك! اردد علي كلامك هـٰذا ، قال : فجعل يردد عليه وعمر يبكي وينتحب ، ثم قضىٰ حاجته .

وعن رياح [بن عثمان بن حيان] ـ وكان على المدينة ـ قال : ما قدم علينا بريد لعمر بن عبد العزيز من الشام . . إلا بإحياء سُنَّة ، أو قسم مال ، أو أمر فيه خير .

وجاء رجل إلىٰ عمر بن عبد العزيز فقال : إني زرعت زرعاً ، فمرَّ به جيش من أهل الشام فأفسده ، فعوضه منه عشرة آلاف درهم .

وعن زياد قال : أتي إلىٰ عمر بن عبد العزيز بسارق ، فشكا إليه الحاجة ، فعزره ، وأمر له بعطاء .

وعن إبراهيم بن جعفر ، عن أبيه قال : رأيت أبا بكر ابن حزم يعمل بالليل كعمله بالنهار ؛ لاستحثاث عمر بن عبد العزيز إياه .

وكتب عدي بن أرطاة إلىٰ عمر بن عبد العزيز : **أما بعد** : فإن قِبَلي ناساً من العمال ، قد

اقتطعوا من مال الله مالاً عظيماً ، لست أقدر على استخراجه من أيديهم إلا أن يمسهم شيء من العذاب ، فإن رأىٰ أمير المؤمنين أن يأذن لي في ذلك . . أفعل .

فكتب إليه عمر رحمه الله : **أما بعد** : فالعجب كل العجب من استئذانك إياي في عذاب بشر ، كأني لك جُنَّة من عذاب الله تعالىٰ ، وكأن رضائي ينجيك من سخط الله عز وجل ، فانظر : فمن قامت عليه البينة . . فخذه بما قامت به عليه ، ومن أقرَّ لك بشيء . . فخذه بإقراره ، ومن أنكر . . فاستحلفه بالله عز وجل وخَلِّ سبيله ، فوالله ؛ لأن يلقوا الله تعالىٰ بجناياتهم . . أحبّ إلي من أن ألقى الله تعالىٰ بدمائهم .

وعن إبراهيم بن يزيد : أن عمر بن عبد العزيز خرج علىٰ حلقة من حرسه ـ وقد نهاهم قبل ذلك أن يقوموا له إذا خرج عليهم ـ قال : فوسعوا له ، فجلس .

وبعث عمر بن عبد العزيز بآل أبي عقيل أهل بيت الحجاج إلىٰ صاحب اليمن ، وكتب إليه :

أما بعد : فإني قد بعثت إليك بآل أبي عقيل ، وهم شر بيت في العرب ، ففرقهم في عملك علىٰ قدر هوانهم على الله عز وجل . وعلينا وعليك السلام .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلىٰ عامل حمص : انظر إلى القوم الذين نصبوا أنفسهم للفقه ، وحبسوها في المسجد عن طلب الدنيا ، فأعط كل رجل منهم مئة دينار ـ يستعينون بها علىٰ ما هم عليه ـ من بيت مال المسلمين حين يأتيك كتابي هـٰذا ؛ فإن خير الخير أعجله . والسلام عليك .

وكان عمرو بن قيس[1] وأسد بن وداعة[2] فيمن أخذها .

وكتب عامل إفريقية إلىٰ عمر بن عبد العزيز يشكو إليه الهوام والعقارب . . فكتب إليه : وما علىٰ أحدكم أن يقول إذا أمسىٰ وأصبح : ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ ، قال : وهي تنفع من البراغيث .

---

(١) عمرو بن قيس بن ثور ، أبو ثور السكوني ، شيخ أهل حمص ، قال إسماعيل بن عياش : أدرك سبعين صحابياً ، وولي إمرة الغزو لعمر بن عبد العزيز ، توفي سنة أربعين ومئة هجرية ، وقيل سنة خمس وعشرين ومئة رحمه الله . انظر « سير أعلام النبلاء » (٥/ ٣٢٢) .

(٢) أسد بن وداعة أبو العلاء ، من عباد أهل الشام وقرائهم ، قتل سنة ست وثلاثين ومئة هجرية ، رحمه الله تعالىٰ . انظر « مشاهير علماء الأمصار » (١١٣) .

وقال الفضيل بن عياض : بلغني : أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز شكا إليه ، فكتب إليه عمر : يا أخي ؛ أذكرك سهر أهل النار في النار مع خلود الأبد ، وإياك أن يُنصَرَف بك من عند الله عز وجل ؛ فيكون آخر العهد ، وانقطاع الرجاء .

فلما قرأ الكتاب . . طوى الأرض حتىٰ قدم علىٰ عمر ، فقال له : ما أقدمك ؟ قال : خلعتَ قلبي بكتابك ، لا أعود إلىٰ ولاية أبداً حتىٰ ألقى الله عز وجل .

وكتب إلىٰ بعض عماله :

أما بعد : فإذا دعتك قدرتك على الناس إلىٰ ظلمهم . . فاذكر قدرة الله عز وجل عليك ، ونفاد ما يأتي إليهم ، وبقاء ما يؤتىٰ إليك .

زاد في رواية :

واعلم : أنك لا تأتي إليهم أمراً . . إلا كان زائلاً عنهم باقياً عليك ، وأن الله سبحانه وتعالىٰ آخذ للمظلوم من الظالم ، فمهما ظلمت من أحدٍ . . فلا تظلمن من لا ينتصر عليك إلا بالله عز وجل . .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلىٰ فقهاء العراق أن يأتوه . . فاعتل الحسن بفتق في بطنه وكتب إليه :

يا أمير المؤمنين ؛ إن استقمتَ . . استقاموا ، وإن ملت . . مالوا ، يا أمير المؤمنين ؛ لو أن لك عمر نوح ، وسلطان سليمان ، ويقين إبراهيم ، وحكمة لقمان . . ما كان لك بد من أن تقتحم العقبة ، ومِنْ وراء العقبة الجنة والنار ، مَن أخطأتْه هـٰذه . . دخل هـٰذه . فلما أتاه الكتاب . . أخذه ووضعه علىٰ عينيه ، وقرأه ، وبكىٰ ، وقال : من لي بعمر نوح ، وسلطان سليمان ، ويقين إبراهيم ، وحكمة لقمان ؟ ولو نلت ذلك . . لم يكن لي بد أن أشرب بكأس الأولين .

ولما استخلف عمر بن عبد العزيز . . دخل عليه سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب وهو مكتئب حزين ، فأقبل علىٰ أحدهما فقال له : عظني ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إن الله سبحانه وتعالىٰ لم يجعل أحداً من خلقه فوقك ، فلا ترض لنفسك أن يكون أحد من خلقه أطوع له منك ـ زاد في رواية : فلا ترض أن يكون أحد أولىٰ بالشكر منك ـ قال : فبكىٰ عمر رحمه الله حتىٰ غشي عليه ، ثم أفاق ، فقال : هيه يا أبا خالد! لم يرض أن يكون أحد فوقي ، فوالله ؛ لأخافنه خوفاً ، ولأحذرنه حذراً ، ولأرجونه رجاءً ، ولأحبنه محبةً ،

ولأشكرنه شكراً ، ولأحمدنه حمداً . . يكون ذلك كله غاية طاقتي ، ولأجتهدن في العدل ، والنصفة والزهد في فاني الدنيا ، والرغبة في باقي الآخرة ودوامها ، حتىٰ ألقى الله عز وجل ؛ لعلي أنجو مع الناجين ، وأفوز مع الفائزين ، ثم بكىٰ حتىٰ غشي عليه .

وقال له الآخر : اجعل الناس ثلاثاً : الكبير بمنزلة الأب ، والوسط بمنزلة الأخ ، والصغير بمنزلة الولد ، فبرَّ أباك ، وصِلْ أخاك ، واعطف علىٰ ولدك .

وكتب أبو حازم إلىٰ عمر بن عبد العزيز : اتق أن تلق محمداً صلى الله عليه وسلم وأنت بتبليغ الرسالة مصدق ، وهو عليك بسوء الخلافة في أمته شهيد .

وقال خالد بن صفوان : يا أمير المؤمنين ؛ إن قوماً غرهم ستر الله ، وفتنهم حسن الثناء ، فلا يغلبن جهلُ غيرك علمَك ، بل أنت أعلم بنفسك ، فاعمل بما تعرف من نفسك ، أعاذنا الله وإياك أن نكون بستر الله تعالىٰ مغرورين ، وبثناء الناس مفتونين ، وعما افترض علينا متخلفين ، وإلى الهوىٰ مائلين .

وقال عمر بن عبد العزيز لزياد[1] : يا زياد ؛ ما ترىٰ فيما ابتليتُ به من أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ؛ لا تُعمِل نفسك في الوصف ، وأَعمِل نفسك في المخرج مما وقعت فيه ، فلو أن كل شعرة منك نطقت . . ما بلغت كُنْهَ ما أنت فيه ، ثم قال زياد : يا أمير المؤمنين ؛ أخبرني عن رجل له خصم أَلَدُّ ، ما حاله ؟ قال : سيء الحال ، قال : فإن كانا خصمين أَلَدَّين ؟ قال : ذاك أسوأ لحاله ، قال : فإن كانوا ثلاثة ؟ قال : ذلك حين لا يهنيه عيش ، قال : فوالله يا أمير المؤمنين ؛ ما أحد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلا وهو خصم لك ، قال : فبكىٰ عمر حتىٰ تمنيت ألاَّ أكون قلت له .

وعن زياد مولى ابن عياش قال : دخلت علىٰ عمر بن عبد العزيز في ليلة شاتية ، وبين يديه كانون ، وعمر علىٰ كتابه ، فجلست أصطلي ، فلما فرغ من كتابه . . مشىٰ إلي حتىٰ جلس معي على الكانون وهو خليفة .

وعن نعيم قال : قلت لعمر بن عبد العزيز ورأيته قاعداً : يا أمير المؤمنين ؛ ما يقعدك هٰهنا ؟ قال : أنتظر ثيابي تغسل لأصعد بها المنبر ، فقلت : وما هي ؟ قال : قميص وإزار ورداء ، قيمتهن أربعة عشر درهماً .

---

(١) زياد بن أبي زياد ، مولىٰ عبد الله بن عياش ، من مشايخ وقته بدمشق ، كان يدخل علىٰ عمر بن عبد العزيز فيكرمه ، وكان متعبداً منعزلاً ، له دراهم يتقوت منها . انظر « سير أعلام النبلاء » (٥/ ٤٥٦ـ٤٥٧) .

وفي رواية أخرىٰ : أَخَّر الجمعة يوماً عن وقته الذي كان يصلي فيه ، فقلت له : أخرت الجمعة عن وقتك ، فقال : إن الغلام ذهب بالثياب ليغسلها ، فحبسها ، فعرفنا أن ليس له غيرها .

وقال إسماعيل بن عياش : قلت لعمرو بن المهاجر صاحب حرس عمر : ما كان يلبس في بيته ؟ قال : جبة سوداء مبطنة .

وكان عمر بن عبد العزيز قبل الخلافة فاخر الثياب ، يسرف في عطره ، ولقد كان يدخل في عطره حمل القرنفل ، ولقد رأيت العنبر علىٰ لحيته كالملح ، فلما أفضت إليه الخلافة . . ترك ذلك وتبذَّل .

قال : وأخبرني رياح بن عبيدة ، وكان تاجراً من أهل البصرة ، يعامل عمر بن عبد العزيز ، فأمره وهو بالمدينة أن يشتري له جبة خز ، قال : فاشتريتها بعشرة دنانير ، ثم أتيته بها ، فمسها ، وقال : إني لأستخشنها ، فلما ولي الخلافة . . أمرني ، فاشتريت له جبة صوف بدينار ، فأتيته بها ، فجعل يدخل يده فيها ، ويقول : ما ألينها! فقلت : عجباً تستخشن الخز أمسِ ، وتستَلْين الصوف اليوم ، قال : تلك حال ، وهـٰذه حال .

وقال عاصم : دخلت علىٰ عمر بن عبد العزيز وعليه ثياب ، فقوَّمتُها بستين درهماً .

وعن نعيم بن سلامة قال : دخلت علىٰ عمر بن عبد العزيز وهو يأكل ثوماً مسلوقاً بزيت وملح .

وقال مالك بن دينار : قال عمر بن عبد العزيز : ما تركت شيئاً من الدنيا . . إلا أعقبني في قلبي ما هو أفضل منه ـ يعني : من الزهد ـ وما أنعم الله علي في ديني أفضل .

وعن أبي أمية غلام عمر بن عبد العزيز رحمه الله قال : دخلت يوماً علىٰ مولاتي ، فغدتني عدساً ، فقلت : كل يوم عدساً ؟ قالت : يا بني ؛ هـٰذا طعام مولاك أمير المؤمنين عمر .

وقال أحمد ابن أبي الحواري : سمعت أبا سليمان الداراني وأبا صفوان يتناظران في عمر بن عبد العزيز وأويس القرني ، فقال أبو سليمان لأبي صفوان : كان عمر بن عبد العزيز أزهد من أويس ، فقال له : ولِمَ ؟ قال : لأن عمر مَلَكَ الدنيا فزهد فيها ، فقال له أبو صفوان : وأويس لو ملكها . . لزهد فيها مثل ما فعل عمر ، فقال أبو سليمان : لا تجعل من جرَّب كَمن لم يجرِّب ، إن من جرت الدنيا علىٰ يديه وليس لها في قلبه موقع . . أفضل ممن لم تجر علىٰ يديه وإن لم يكن لها في قلبه موقع .

وكان في دار عمر بن عبد العزيز درجة فيها لبنة تتحرك ، فكان كلما صعد أو نزل . . ارتاع منها ، فعمد مولىٰ له فشدها بطين ، فلما صعد عمر . . لم يرها ، فسأل عنها ، فقال له مولاه : رأيتك ترتاع منها فشددتها ، فقال له عمر : أعدها إلىٰ حالها ، فإني أعطيت الله عهداً إن وليت هـٰذا الأمر . . أن لا أضع لبنة علىٰ لبنة ، ولا آجرة علىٰ آجرة .

وعن حفص بن عمر قال : احتبس عمر بن عبد العزيز غلاماً يحتطب عليه ويلقط له البعر ، فقال له الغلام : الناس كلهم بخير غيري وغيرك ، قال : اذهب فأنت حر .

وقال : ما أعطيت أحداً مالاً . . إلا وأنا أستقلُّه[1] ، وإني لأستحيي من الله تعالىٰ أن أسأله الجنة لأخ من إخواني وأبخل عليه بالدنيا ، فإذا كان يوم القيامة . . قيل لي : لو كانت الجنة بيدك . . كنت بها أبخل .

وقال نصيب[2] : دخلت علىٰ عمر بن عبد العزيز فقلت له : أنت عالم بانقطاعي إلىٰ أبيك ، فقال : إن ذلك لكذلك ، قلت : فتأذن لي في الإنشاد ، فقال : ما نحن علىٰ حال إنشاد ، فلم أزل أسأله حتىٰ أذن لي ، فأنشدته أبياتاً ، أولها :

أميـرَ المـؤمنيـن فـدتـك نفسـي ومَـن فـوق التـراب لـك الفـداءُ[3]

فلما أكملتها . . قال : يا مزاحم ؛ ما عندك من بقية غلتنا بالحجاز ؟ فقال : خمسون درهماً ، فقال : أعطه إياها ، قلت : يا أمير المؤمنين ؛ قد علفت راحلتي بأكثر من هـٰذا ، فقال : أعطه ثياب الجمعة ، فأعطاني ثوبين أراهما مصريين .

وكان عمر يعجبه أن يتأدم بالعسل ، فطلب من أهله يوماً عسلاً ، فلم يكن عندهم ، ثم أتوه بعد ذلك بعسل ، فأكل منه ، فأعجبه ، فقال لأهله : من أين لكم هـٰذا ؟ قالت امرأته : بعثت مولاي بدينارين علىٰ بغل البريد فاشتراه لي ، قال : أقسمت عليك لما أتيتيني به ، فأتته بعكة فيها عسل ، فباعها بأكثر من ثمنها ، وأعطىٰ زوجته رأس مالها ، وألقى الفاضل في بيت مال المسلمين ، وقال عمر مخاطباً نفسه : يا عمر ؛ أنصَبْتَ دواب المسلمين في شهوتك ؟

واشتهىٰ عمر تفاحاً ، فطلب ، فلم يوجد ، فقام رجل من أهل بيته ، فأهدىٰ إليه تفاحاً ،

---

(١) استقلُّه : أراه قليلاً .

(٢) نصيب : هو أبو محْجن الأسود الشاعر مولىٰ عمر بن عبد العزيز ، مدح عبد الملك بن مروان ، وشعره في الذِّروة ، تنسَّك ، وأقبل علىٰ شأنه وترك التغزل . « سير أعلام النبلاء » (٥/ ٢٦٦ـ٢٦٧) .

(٣) انظر تمام الأبيات في « تاريخ ابن عساكر » (٦٢/ ٥٦) .

فلما وصل إليه.. قال : ما أطيب ريحه وأحسنه! ارفعه يا غلام ، وأقرىء فلاناً السلام ، وقل له : إن هديتك قد وقعت منا حيث تحب ، فقيل له : يا أمير المؤمنين ؛ ابن عمك ، ورجل من أهل بيتك ، وقد بلغك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، وكان أبو بكر وعمر يقبلان الهدية ، فقال عمر : إنها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأبي بكر وعمر رضي الله عنهما هدية ، وللعمال بعدهم رِشوة .

وكان عمر يوماً ساكتاً وأصحابه يتحدثون ، فقالوا : ما لك لا تتكلم يا أمير المؤمنين ؟! قال : كنت مفكراً في أهل الجنة كيف يتزاورون فيها ، وفي أهل النار كيف يصطرخون فيها ، ثم بكىٰ .

وكان يجمع الفقهاء ليالي ، فيذكرون الموت والقيامة والآخرة ، [ثم يبكون] حتىٰ كأن بين أيديهم جنازة .

وعن عبد الأعلى ابن أبي عبد الله قال : رأيت عمر بن عبد العزيز خرج يوم جمعة في ثياب رثة ، وراءه حبشي يمشي ، فلما انتهىٰ إلى الناس.. رجع الحبشي ، فكان عمر إذا انتهىٰ إلى الرجلين.. قال : هٰكذا رحمكم الله ، حتىٰ صعد المنبر ، فخطب ، فقرأ : ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ ، فلما وصل إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾.. بكىٰ وأبكىٰ أهل المسجد ، حتى ارتجَّ المسجد بالبكاء ، حتىٰ رأيت حيطان المسجد تبكي معه .

وعن أبي زيد قال : رأيت عمر بن عبد العزيز رحمه الله على المنبر ما يستطيع أن يتكلم من شدة البكاء ، ولم يزل عمر يبكي حتىٰ بكى الدم .

زاد في رواية أخرىٰ : قال الأوزاعي : قد بلغنا عن داوود عليه الصلاة والسلام فمن دونه ، فما رأينا أحداً بكى الدم .

وعن مسلمة قال : بكت فاطمة حتىٰ عشي بصرها ، فقلت لها أنا وأخي هشام : ما هٰذا الأمر الذي دمت عليه ؟ أَعَلَىٰ شيء فاتك من الدنيا ؟ فها نحن بين يديك وأموالنا وأهلونا ، فقالت : إنما جزعت لمنظر رأيته منه ، فعلمت أن الذي أوجب له ذلك هول عظيم قد سكن قلبي معرفته ، فقلت : ما الذي رأيتِ ؟ قالت : رأيته ذات ليلة قائماً يصلي ، فأتىٰ علىٰ هٰذه الآية : ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ ، فصاح : واسوء صباحاه! ثم وثب ، فسقط ، فجعل يخور ، حتىٰ ظننت أن نفسه ستخرج ، ثم هدأ ، فظننت أنه قد قضىٰ ، ثم أفاق إفاقة ، فنادىٰ : يا سوء صباحاه! ثم وثب ، فجعل

يجول في الدار ، وجعل يقول : ويلي من يوم يكون الناس فيه كالفراش المبثوث ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش ، قالت : فلم يزل كذلك حتىٰ طلع الفجر ، ثم سقط كأنه ميت ، ثم أتاه الآذن للصلاة ، فوالله ؛ ما ذكرت ليلته تلك . . إلا غلبتني عيناي ، فلم أملك عبرتي .

ولما خرج من المدينة . . قال : يا مزاحم ؛ نخشىٰ أن نكون ممن نَفَتِ المدينة ، أشار بهـٰذا إلىٰ قوله صلى الله عليه وسلم في صفة المدينة : « تنفي خبثها »[1] .

وكان عمر بن عبد العزيز يكثر أن يقول : اللهم ؛ سلِّمْ سلِّمْ .

وكان يقول : كيف يشبع رجل من الطعام والشراب ، وليس أحد من المشرق والمغرب يظلم بظلامة . . إلا كنت أنا صاحبه ؟

وقال عمر بن عبد العزيز : إني نظرت في أمري وأمر الناس ، فلم أر شيئاً خيراً من الموت ، قال عبد الله : يعني : لفساد الناس وما داخلَهم ، فقال لقاصه محمد بن قيس : ادع لي بالموت ، قال : فأبيت ، فأبىٰ علي ، قال : فدعوت له ، وعمر رافع يديه يؤمن علىٰ دعائي ، وهو يبكي ، وقد حضر ابن له صغير ، فلما رأىٰ عمر يبكي . . بكىٰ ، فقال عمر : وهـٰذا معنا ، فدعوت بذلك أيضاً ، قال : يقول محمد بن قيس : واستحييت ، فدعوت لنفسي معهم بالموت ، قال : فعلم الله عز وجل الصدق من عمر ، فلم يلبث إلا قليلاً حتىٰ مات رحمه الله ، ومات ابنه ، وبقي محمد بن قيس بعد ذلك .

وكان يقول في دعائه : اللهم ؛ إن لم أكن أهلاً أن أَبلُغ رحمتك . . فإن رحمتك أهل أن تبلُغني ، رحمتك وسعت كل شيء ، وأنا شيء ، فلتسعني رحمتك يا أرحم الراحمين .

اللهم ؛ إنك خلقت قوماً فأطاعوك فيما أمرتهم به ، وعملوا في الذي له خلقتهم ، فرحمتك إياهم كانت قبل طاعتهم لك يا أرحم الراحمين .

اللهم ؛ إن رجالاً أطاعوك فيما أمرتهم ، وانتهوا عما نهيتهم .

اللهم ؛ وإن توفيقك إياهم كان قبل طاعتهم إياك ، فوفقني لما وفقتهم له .

اللهم ؛ أصلح من كان في صلاحه صلاح لأمة محمد صلى الله عليه وسلم .

اللهم ؛ أهلك من كان في هلاكه صلاح لأمة محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال غالب القطان : أخبرني من رأىٰ عمر بن عبد العزيز واقفاً بعرفة ، وهو يقول ويدعو بأصبعه هـٰكذا ـ يعني : يشير بها ـ ويقول :

---

(١) أخرجه البخاري (١٧٨٤) ، ومسلم (١٣٨٣) .

اللهم ؛ زد محسن أمة محمد صلى الله عليه وسلم إحساناً ، وأرجع مسيئهم إلى التوبة .

ثم يقول هـٰكذا ، ثم يشير بأصبعه :

اللهم ؛ وحط من أوزارهم برحمتك .

اللهم ؛ سلم لي ديني ، ومُنَّ علي بطاعتك ورضاك ، وترك ما لا يعنيني . يرددها حتىٰ غربت الشمس .

اللهم ؛ إني أطعتك في أحب الأشياء إليك وهو التوحيد ، ولم أعصك في أبغض الأشياء إليك وهو الشرك ، فاغفر لي ما بينهما .

وكان كلما نظر إلىٰ نعمة من نعم الله سبحانه وتعالىٰ عليه . . يقول : اللهم ؛ إني أعوذ بك أن أبدل نعمة كفراً ، وأن أكفرها بعد معرفتها ، وأن أنساها فلا أثني عليك بها .

وكان يقول : لقد تركتني هـٰذه الدعوات وما لي في شيء من الأمور كلها أربٌ . . إلا مواقع قدر الله .

وكان يكثر من الدعاء بهـٰذه : اللهم ؛ رضني بقضائك ، وأوزعني شكر نعمائك ، وبارك لي في قضائك وقدرك ، حتىٰ لا أحب تعجيل ما أخرت ، ولا تأخير ما عجلت .

وكان يقول : لولا سنة أحييها أو بدعة أميتها . . لم أبال ألاَّ أبقىٰ في الدنيا فواقاً .

وكان يقول : أيم الله ؛ إني لأقول هـٰذه المقالة وما أعلم عند أحد من الذنوب أكثر مما عندي ، وأستغفر الله وأتوب إليه .

وكان يقول : ليس تقوى الله عز وجل بصيام النهار وقيام الليل والتخليط فيما بين ذلك ، ولـٰكن تقوى الله ترك ما حرم الله ، وأداء ما افترض الله ، فمن رزق بعد ذلك خيراً . . فهو خير إلىٰ خير .

وخطب الناس فقال : أيها الناس ؛ لا يبعدن عليكم ولا يطولن يوم القيامة ؛ فإن من وافته منيته . . فقد قامت قيامته .

وقال : أيها الناس ؛ إنما يراد الطبيب للوجع الشديد ، ولا وجع أشد من الجهل ، ولا داء أخبث من الذنوب ، ولا خوف أخوف من الموت ، ثم نزل .

وكتب إلىٰ بعض أصحابه : إن استطعت أن تحيي ليلة النحر . . فإنها ليلة العابدين .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾ : لم تكن إضاعتها أن تركوها ، ولـٰكن أضاعوا المواقيت .

وكان يقول : إن الله عز وجل لا يعذب العامة بذنب الخاصة ، ولـٰكن إذا عُمِل المنكرُ جهاراً . . استحقوا العقوبة كلهم .

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : إن الله سبحانه وتعالىٰ لم ينعم علىٰ عبده نعمة فحمد الله عليها . . إلا كان حمده أفضل من نعمه ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ * وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ ، وأيُّ نعمة أفضل من دخول الجنة ؟!

وقال عمر بن عبد العزيز : لما أمر الله عز وجل الملائكة بالسجود لآدم عليه وعليهم الصلاة والسلام . . كان أول من سجد له إسرافيل ، فأثابه الله عز وجل أن كتب القرآن في جبهته .

وتذاكروا عند عمر بن عبد العزيز الزهاد ، فقال قائلون : فلان ، وقال قائلون : فلان ، فقال عمر بن عبد العزيز : أزهد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

وقال : ينبغي أن يكون في القاضي خمس خصال : [أن يكون] عالماً فهماً ، عالماً بما مضت عليه السنة ، حليماً ذا أناة ، عفيفاً ، مشاوراً ، فإذا اجتمع ذلك في القاضي . . كان قاضياً ، وإن نقص منهن شيئاً . . كان وصماً فيه .

وقال : ما يسرني لو أن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم لم يختلفوا ؛ لأنهم لو لم يختلفوا . . لم يكن رخصة .

وكان إذا عرض أمر يكرهه . . يقول : مقدر ما كان وعسىٰ أن يكون فيه خير .

وقال : احذروا المراء ؛ فإنه لا تؤمن فتنته ، ولا تفهم حكمته .

وروىٰ بإسناده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بارك الله لرجل في حاجة أكثر الدعاء فيها ، أُعطيها أو مُنعَها »[1] .

وكان يقول : أيها الناس ؛ قيدوا النعم بالشكر ، والعلم بالكتاب .

---

(١) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٢/ ٥٠) .

وقال عمر بن عبد العزيز لجلسائه : أخبروني عن أحمق الناس ، قالوا : رجل باع آخرته بدنياه ، فقال عمر : ألا أنبئكم بأحمق منه ؟ قالوا : بلىٰ ، قال : رجل باع آخرته بدنيا غيره .

وقال : الفقه الأكبر . . القناعة ، وكف الأذىٰ .

وتكلم رجل فأحسن ، فقال : هـٰذا ـ والله ـ السحر الحلال .

وقال : وجدت لقاء الرجال تلقيحاً لألبابهم .

وقال عمر : إذا وافق الحق الهوىٰ . . فهو ألذ من الشَّهْد .

وقالت فاطمة بنت عبد الملك بن مروان امرأة عمر بن عبد العزيز رحمه الله : قمت في جوف الليل ، فانتبه لي عمر ، فقال : لقد رأيت رؤيا معجبة ، قالت : قلت : جعلت فداك ، فأخبرني بها ، قال : ما كنت لأخبرك بها حتىٰ أُصبِح ، قالت : فلما طلع الفجر . . جاءه آذنه بالصلاة ، فخرج ، فصلىٰ بالناس ، ثم عاد إلىٰ مجلسه ، قالت : فاغتنمت خلوته ، فقلت : أخبرني بالرؤيا التي رأيت ، قال : رأيت فيما يرى النائم : كأني دفعت إلىٰ أرض خضراء واسعة ، كأنها بساط أخضر ، وإذا فيها قصر أبيض كأنه الفضة ، أو كأنه اللبن ، وإذا خارج قد خرج من ذلك القصر يهتف بأعلىٰ صوته : أين محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ إذ أقبل محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم حتىٰ دخل ذلك القصر ، ثم خرج آخر ، فنادىٰ : أين أبو بكر الصديق ؟ فأقبل حتىٰ دخل ذلك القصر ، ثم خرج آخر ، فنادىٰ : أين عمر بن الخطاب ؟ فأقبل حتىٰ دخل القصر ، ثم خرج آخر ، فنادىٰ : أين عثمان بن عفان ؟ فأقبل حتىٰ دخل القصر ، ثم خرج آخر ، فنادىٰ : أين علي بن أبي طالب ؟ قال : فأقبل حتىٰ دخل القصر ، ثم إن آخر خرج ، فنادىٰ : أين عمر بن عبد العزيز ؟ فقمت حتىٰ دخلت القصر ، قال : فدُفعت إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم والقوم حوله ، فقلت في نفسي : أين أجلس ؟ فجلست إلىٰ جنب عمر ، فنظرت ، فإذا أبو بكر عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وإذا بعمر عن يساره صلى الله عليه وسلم ، فتأملت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإذا بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أبي بكر رجل آخر ، فقلت[1] : من هـٰذا الرجل الذي بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أبي بكر ؟ قال : هـٰذا عيسى ابن مريم ، فسمعت هاتفاً يهتف وبيني وبينه حجاب من نور : يا عمر بن

---

(١) في « سيرة عمر بن عبد العزيز » : (فقلت : أي أبتي لعمر بن الخطاب من هـٰذا الرجل) .

عبد العزيز ؛ تمسك بما أنت عليه ، واثبت علىٰ ما أنت عليه ، قال : ثم كأنه أذن لي بالخروج ، فقمت ، فخرجت من ذلك القصر .

وتناول الوليد بن عبد الملك عمر بن عبد العزيز بلسانه ، فرد عليه عمر ، فغضب الوليد من ذلك غضباً شديداً ، وأمر بعمر ، فعُدِل به إلىٰ بيت فحبس فيه ، قال راشد : فحدثني [أبي زفرُ] مولىٰ مسلمة ، عن مسلمة ، عن أخته فاطمة أن عمر مكث ثلاثاً لا يدخل عليه أحد ، ثم أمر بإخراجه إن وجد حياً ، قالت : فأدركناه وقد زالت رقبته شيئاً ، فلم نزل نعالجه حتىٰ صار إلى العافية ، ثم قلت له يوماً : قد عرفت الوليد وعَجَلَتَهُ ، فلو داريته بعض المداراة ، فقال : أحدثك ـ يا فاطمة ـ حديثاً ، فاكتميه ما دمت حياً ؟ قلت : نعم ، قال : إنه لما حبسني الوليد . . أتاني تلك الليلة آت في منامي ، فقال لي :

ليس للعلم في الجهالة حظ إنما العلم ظُرفُهُ الإغضاءُ[1]

قال : فرفعت طَرْفي إلى القائل ؛ فإذا هو عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، قال : فسلمت عليه في منامي ، فقال لي : إن الوليد جاهل بالعلم بأمر الله عز وجل مع ما حرمه من ذلك ؛ ليبين فضل نعمة الله عليك في العلم بأمر الله عز وجل علىٰ كثير ممن جهله ؛ فإنه أحرىٰ وأجدر ألاَّ يُتركا جميعاً ، قالت : قال عمر : فوالله ـ يا فاطمة ـ ما أكاد أغضب . . إلا كأني أنظر إلىٰ عبيد الله بن عبد الله يخاطبني تلك المخاطبة .

وعن محمدْ بن نضر الحارثي ، عن مسلمة بن عبد الملك قال : رأيت عمر بن عبد العزيز في المنام بعد موته ، فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ ليت شعري إلىٰ أي الحالات صرت بعد الموت ؟ قال : يا مسلمة ؛ هـٰذا أوان فراغي ، والله ؛ ما استرحت . . إلا الآن ، قال : فقلت : فأين أنت يا أمير المؤمنين ؟ قال : أنا مع أئمة الهدىٰ في جنات عدن .

وعن علي بن حصن قال : شهدت عمر بن عبد العزيز قد تتابعت عليه مصائب ، مات أخ له ، ثم مات مزاحم ، ثم مات ابنه عبد الملك ، فلما مات عبد الملك . . حمد الله ، وأثنىٰ عليه ، ثم قال : لقد دفعته إلى النساء في الخرق ، فمازلت أرىٰ فيه السرور وقرة العين إلىٰ يوم اليأس منه هـٰذا اليوم ، فما رأيت فيه أمراً قط أقر لعيني من أمر رأيته فيه اليوم .

زاد في رواية : اللهم ؛ إنك قد علمت ما كان من عونهم ومعونتهم إياي ، فأخذتَهم ، فلم يزدني ذلك إلا حباً ، ولا إلىٰ ما عندك إلا شوقاً ، ثم رجع إلىٰ مجلسه .

---

(١) كذا في « سيرة عمر بن عبد العزيز » ، وفيما لدينا من النسخ : (طرفة الإغضاء) .

وعن سليمان بن أرقم : أن عمر بن عبد العزيز قال لأبي قلابة : إذا غسلته وكفنته . . فآذنّي قبل أن تغطي وجهه ، ففعل ، فنظر إليه ، فقال : رحمك الله ـ يا بني ـ وغفر لك .

زاد في رواية : أنه قال : فاتقوا الله ، واعملوا ليوم : ﴿ لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا ﴾ .

وعن يحيى بن سعيد قال : قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : ما لي في الأمور هوًىٰ سوىٰ مواقع قضاء الله عز وجل فيها .

وفي رواية : ما كنت علىٰ حال من حالات الدنيا فسرني أني علىٰ غيرها .

ومن أولاده : عبد العزيز ، وقد أسند الحديث .

روىٰ عبد العزيز عن صالح بن كيسان ، عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من مسلم خرج من بيته يريد سفراً أو غيره فقال حين خرج : باسم الله ، آمنت بالله ، اعتصمت بالله ، توكلت على الله ، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . . إلا رزق خير ذلك المخرج ، وصرف عنه شره »[1] .

وروىٰ عن مكحول قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من صلىٰ بعد المغرب ركعتين قبل أن يتكلم . . رفعتا في عليين »[2] .

وقال عمر[3] : كنت أحب لقاء الزهري ، فرأيته في النوم ، فقلت له : يا أبا بكر ؛ هل من خاصة دعوة ؟ قال : قل : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، توكلت على الحي الذي لا يموت ، اللهم ؛ إني أسألك العافية ، وأسألك أن تعيذني وذريتي من الشيطان الرجيم .

ومن أولاده : عبد الله ، ولي الكوفة .

وعن أسامة بن زيد ، عن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز قال : جئت إلىٰ أبي وهو خليفة ، فقلت : اكسني ، فقال : اذهب إلىٰ فلان ؛ فإن لي عنده أثواباً ، فخذ منها ما بَدا لك ، قال : فلما جئت إليه . . أخرج إليَّ ثياباً غلاظاً ، فقال : هـٰذا الذي عندي لأمير المؤمنين ، قال : فرجعت إلىٰ أبي وقلت له : هـٰذه الثياب ليست من ثيابي ولا ثياب قومي ، فقال : هـٰذا الذي لنا عند الرجل ، قال : فلما انصرفت . . ناداني فقال : هل لك أن أسلفك

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٦٥) .

(٢) أخرجه بنحوه عبد الرزاق (٣/ ٧٠) .

(٣) كذا في النسخ ، وفي « سيرة عمر » : (وعن عبد العزيز بن عمر) .

من عطائك مئة درهم ؟ قلت : نعم ، فأسلفني ، فلما خرج عطائي . . حوسبت بها .

وقال عمر بن عبد العزيز للزهري : ما أعلمك تعرض علي شيئاً . . إلا وقد مرَّ علىٰ مسامعي ، إلا أنك أوعىٰ له مني .

وقيل لفاطمة امرأة عمر : ما ترين بَدْءَ مرضه الذي مات فيه ؟ قالت : أرىٰ جل ذلك ـ أو بدأه ـ الخوف .

وعن عبد الحميد بن سهيل قال : رأيت الطبيب قد خرج من عند عمر بن عبد العزيز ، فقلت له : رأيت بوله اليوم ؟ قال : ما ببوله إلا الهم بأمر الناس .

قال ابن سعد : وقال ابن لهيعة : وجدوا في بعض الكتب تقتله خشية الله عز وجل .

وقال محمد بن قيس : أول مرضه : اشتكىٰ لهلال رجب سنة إحدىٰ ومئة ، فكان شكواه عشرين يوماً .

وقال في مرضه ـ وكان قد سقي السم ـ : اللهم ؛ خِر لعمر في لقائك ، قال : فلم يلبث إلا أياماً حتىٰ مات .

وكتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلىٰ ولي العهد من بعده :

بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، من عبد الله عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين إلىٰ يزيد بن عبد الملك ، السلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إلـٰه إلا هو .

أما بعد : فإني كتبت إليك وأنا دنف من وجعي ، وقد علمت أني مسؤول عما وليت ، يحاسبني عليه مليك الدنيا والآخرة سبحانه وتعالىٰ ، ولست أستطيع أن أخفي عليه من عملي شيئاً ؛ يقول الله تعالىٰ فيما يقول : ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ ، فإن رضي عني الرحيم . . فقد أفلحت ونجوت من الهول الطويل ، وإن سخط علي . . فيا ويح نفسي إلىٰ ما أصير ! أسأل الله ـ الذي لا إلـٰه إلا هو ـ أن يجيرني من النار برحمته ، وأن يَمُنَّ علي برضوانه والجنة ، وعليك بتقوى الله ، والرعيةَ الرعية ؛ فإنك لن تبقىٰ بعدي إلا قليلاً حتىٰ تلحق باللطيف الخبير . والسلام .

زاد في رواية : إياك أن تدركك الصرعة عند الغِرَّة ، فلا تقال العثرة ، ولا تُمَكَّن من الرجعة ، ولا يحمدك من خلفت بما تركت ، ولا يعذرك من تقدُم عليه بما اشتغلت به عنه سبحانه وتعالىٰ .

وفي رواية : إن سليمان بن عبد الملك استخلفني وبايع بعدي ليزيد بن عبد الملك ، ولو

كان الذي أنا فيه لاتخاذ أزواج أو جمع أموال . . كان الله قد بلغ بي أحسن ما بلغ بأحد من خلقه ، ولـٰكني أخاف حساباً شديداً ، ومساءلةً لطيفةً ، إلا ما أعان الله عليه ، ثم قال : لو كان لي أن أعهد . . ما عدوت أحد رجلين : إسماعيل بن عمرو ، أو القاسم بن محمد .

أما إسماعيل بن عمرو : فإنه ابن سعيد بن العاص ، كان له فضل كثير ، وكان يسكن شرقي المدينة ، علىٰ بضعة عشر ميلاً .

ودخل مسلمة بن عبد الملك علىٰ عمر بن عبد العزيز في مرضه فقال : يا أمير المؤمنين ؛ ألا توصي ؟ قال : وهل من مال أوصي فيه ؟ فقال مسلمة : هـٰذه مئة ألف أبعث بها إليك فأوصِ فيها ، فقال له عمر : أو غير ذلك يا مسلمة ؟ قال : وما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : تردها من حيث أخذتها ، فبكىٰ مسلمة وقال : رحمك الله يا أمير المؤمنين ، لقد ألنت منا قلوباً قاسية ، وزرعت في قلوب الناس لنا مودة ، وأبقيت لنا في الصالحين ذِكراً ، قال مسلمة : فأوصِ إلي ببنيك ، فقال عمر : أوصي بهم إلى الله عز وجل ، الذي نزَّل الكتاب ، وهو يتولى الصالحين .

وقال عمر : لقد تمت حجة الله على ابن الأربعين ، فمات لها عمر لعشر ليال بقين من رجب ، سنة إحدىٰ ومئة ، وهو ابن تسع وثلاثين سنة وأشهراً ، وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر ، ومات بدير سمعان من أرض المعرة من أعمال قنسرين[1] ، وقبره هناك معروف يزار .

وقال يوسف بن ماهك : بينا نحن نسوي التراب علىٰ قبر عمر بن عبد العزيز ؛ إذ سقط علينا رق[2] من السماء فيه كتاب : بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، أمان من الله تعالىٰ لعمر بن عبد العزيز من النار .

وعن خالد الربعي قال : مكتوب في التوراة : إن السماء والأرض تبكي علىٰ عمر بن عبد العزيز أربعين صباحاً .

ولما بلغ الحسنَ رحمه الله موتُ عمر بن عبد العزيز . . قال : إنا لله وإنا إليه راجعون يا صاحب كل خير .

---

(١) بلدة بالشام في الجنوب الغربي من مدينة حلب ، وإليها ينسب أحد أبواب حلب ، فتحها المسلمون سنة (١٧هـ) ، وتدعى الآن بـ(العيس) .

(٢) الرَّق : ما يكتب فيه ، وهو جلد رقيق .

وعن وهيب بن الورد قال : بلغنا : أن عمر بن عبد العزيز لما توفي . . جاء الفقهاء إلىٰ زوجته يعزونها ، فقالوا لها : جئناك لنعزيك بعمر ؛ فقد غمرت مصيبته الأمة ، فأخبرينا ـ رحمك الله ـ عن عمر كيف كانت حالته في بيته ؛ فإن أعلم الناس بالرجل أهله ، فقالت : والله ؛ ما كان عمر بأكثرهم صلاةً ولا صياماً ، ولـٰكني ـ والله ـ ما رأيت عبداً قط كان أشد خوفاً لله عز وجل من عمر ، والله ؛ إن كان ليكون بالمكان الذي ينتهي إليه سرور الرجل بأهله ، وبيني وبينه لحاف ، يخطر علىٰ قلبه الشيء من أمر الله ، فينتفض كما ينتفض العصفور طائراً إذا وقع في الماء ، ثم ينشج ، ثم يرتفع بكاؤه ، حتىٰ أقول : والله لتخرجن نفسه الساعة ، فأطرح اللحاف عني وعنه ؛ رحمة له وأنا أقول : يا ليتنا كان بيننا وبين هـٰذه الإمارة بُعْدَ المشرقين ، فوالله ؛ ما رأينا سروراً منذ دخلنا فيها .

ثم روىٰ أبو الفرج ـ رحمه الله ـ بإسناده : أن الخليفة المنصور قال لعبد الرحمـٰن بن القاسم بن محمد ابن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين : عظني ، قال : بما رأيتُ أو بما سمعتُ ؟ قال : بما رأيت ، قال : مات عمر بن عبد العزيز رحمه الله وخلف أحد عشر ابناً ، وبلغت تركته سبعة عشر ديناراً ، كفن منها بخمسة دنانير ، واشتري له موضع قبره بدينارين ، وأصاب كل واحد من ولده تسعة عشر درهماً ، ومات هشام بن عبد الملك وخلف أحد عشر ابناً ، أصاب كل واحد من تركته ألف ألف .

ورأيت رجلاً من ولد عمر بن عبد العزيز قد حمل في يوم واحد علىٰ مئة فرس في سبيل الله عز وجل ، ورأيت رجلاً من ولد هشام يُتصدَّق عليه ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم ، ورضي الله عنه ، ونفعنا الله بمحبته ، إنه قريب مجيب . انتهىٰ [« سيرة عمر بن عبد العزيز » ٣٦١/١١] .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : وبلغ عمر بن عبد العزيز رحمه الله أن ابناً له اشترىٰ فصّاً بألف درهم وتختم به ، فكتب إليه : عزيمة مني عليك لَمَا بعت الفص ، وتصدقت بثمنه ، واشتريت فصّاً بدرهم ، ونقشت عليه : رحم الله امرءاً عرف نفسه . والسلام .

وكتب إلىٰ عامله علىٰ فلسطين عبد الله بن عوف : اركب إلى البيت الذي يقال له : المكس[1] ، فاهدمه ، ثم احمله إلى البحر ، وانسفه في اليم نسفاً .

وكتب الحجبة إلىٰ عمر بن عبد العزيز أن يأمر للبيت العتيق بكسوة ، كما كان يفعل مَن

---

(١) هو المكان الذي تجبىٰ إليه الضرائب وما شابهها .

قبله ، فكتب إليهم : إني رأيت أن أجعل ذلك في أكباد جائعة ؛ فإنه أولىٰ بذلك .

وقال مبشر : عن نوفل ابن أبي الفرات قال : كنت عاملاً لعمر بن عبد العزيز ، فكنت أختم علىٰ بيادر أهل الذمة ، فجاءني كتاب عمر بن عبد العزيز ألاَّ تفعل ؛ فإنه بلغني أنها كانت من صنائع الحجاج ، وأنا أكره أن أتأسَّىٰ به .

ولما مات عبد الملك بن عمر . . كتب إلى الأمصار ، ينهىٰ أن يُناح عليه .

وكتب : إن الله عز وجل أحب قبضه ، وأعوذ بالله أن أخالف محبته .

وكتب إلىٰ عدي بن أرطاة : **أما بعد** : فإنك لن تزال تُعني إلي رجلاً من المسلمين في الحر والبرد ، تسألني عن السُّنَّة ، كأنك إنما تعظمني بذلك ، وايم الله ؛ لحسبك بالحسن ، فإذا أتاك كتابي هـٰذا . . فسل الحسن لي ولك وللمسلمين ، فرحم الله الحسن ؛ فإنه من الإسلام بمنزل ومكان ، ولا تقرئنه كتابي هـٰذا .

وكتب إلىٰ عامل له : الزم الحَق . . ينزلك الحق منازل أهل الحق ، يوم لا يقضىٰ بين الناس إلا بالحق ، ولتخف يداك عن[1] دماء المسلمين ، وبطنك عن أموالهم ، ولسانك عن أعراضهم .

وكان صالح بن عبد الرحمـٰن وصاحب له قد ولاهما عمر شيئاً من أمر العراق ، فكتبا إلىٰ عمر يعرضان له أن الناس لا يصلحهم إلا السيف ، فكتب إليهما : خبيثين من الخبث ، رديين من الردىٰ ، يعرضان لي بدماء المسلمين ، ما أحد من الناس . . إلا ودماؤكما أهون علي من دمه .

وكتب أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم إلىٰ عمر بن عبد العزيز ـ وكان عامله على المدينة ـ : إن أشياخاً من الأنصار قد بلغوا أسناناً ، ولم يبلغوا الشرف من العطاء ، فإن رأىٰ أمير المؤمنين أن يبلغ بهم الشرف من العطاء . . فعل ذلك ، وإن مَن كان قبلي من أمراء المدينة كان يُجرىٰ عليهم رزق في شمعة ، فإن رأىٰ أمير المؤمنين أن يأمر لي برزق في شمعة . . فعل ، وإن بني عدي بن النجار أخوال رسول الله صلى الله عليه وسلم انهدم مسجدهم ، فإن رأىٰ أمير المؤمنين أن يأمر لهم ببنائه . . فعل ، فأجابه رحمه الله عن الثلاث صحائف بجواب واحد : أما الأشياخ الذين ذكرت من الأنصار . . فإنما الشرف شرف الآخرة ، فلا أعرف ما كتبت إلي في مثل هـٰذا ، وأما الرزق في شمعة . . فلعمري يابن

---

(١) في « الحلية » : (ولتجف يداك من) .

حزم ؛ لطالما مشيتَ إلىٰ مصلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم في الظلام لا يُمشىٰ بين يديك بالشمع ، ولا يوجف خلفك أبناء المهاجرين والأنصار ، فارض لنفسك اليوم ما كنت ترضىٰ به قبل اليوم ، وأما مسجد بني النجار . . فقد كنت أحب أن أخرج من الدنيا ، ولم أضع حجراً علىٰ حجر ، ولا لبنة علىٰ لبنة ، فإذا أتاك كتابي هـٰذا . . فابنه لهم بلَبِنٍ بناء مقتصداً . والسلام .

وكتب إليه أن يقطع له شيئاً من القراطيس مثل الذي كان يقطعه سليمان ابن عبد الملك لمن كان قبله ، فكتب إليه : قد أقطعت لك دون ما كان يقطع لمن قبلك ، فأدق قلمك ، وقارب بين أسطرك ، واجمع حوائجك ؛ فإني أكره أن أخرج شيئاً من أموال المسلمين فيما لا ينتفعون به .

وقال عمر بن عبد العزيز يوماً : الوليد بالشام ، والحجاج بالعراق ، وعثمان بن حيان بالحجاز ، وقرة بن شريك بمصر ، امتلأت الأرض ـ والله ـ جَوراً .

وكتب : من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلىٰ خاقان وقومه ، ثبت السلام علىٰ أولياء الله سبحانه .

وكتب إلىٰ خُزَّان ـ مُتَوَلِّي ـ بيوت الأموال : إذا أتاكم الضعيف بالدينار ، ولا يَنْفُقُ عنه . . فأبدلوه من بيت المال .

وقال : ادرؤوا الحدود ما استطعتم في كل شبهة ؛ فإن الوالي إن أخطأ في العفو . . خَير من أن يتعدىٰ في العقوبة .

وقام عمر بن عبد العزيز إلىٰ قائلته يوماً ، فجاء رجل بيده طُومَار ، فظن القوم أنه يريد أمير المؤمنين ، وخاف الرجل ألاَّ يصل إليه ، فرماه بالطومار ، فالتفت أمير المؤمنين ، فأصابه في وجهه ، فشجه ، فسال الدم علىٰ وجهه وهو في الشمس ، فقرأه ، ولم يلُمْهُ ، وأمر بقضاء حاجته ، وخلىٰ سبيله .

وكتب إلىٰ بعض عماله : **أنِ أفدِ أسراء المسلمين بمهما أمكن ، وإن أحاط ذلك بجميع مالهم** .

وكان يقول : وايم الله ؛ لو أني أعلم أنه يسوغ لي فيما بيني وبين الله تعالىٰ أن أخليكم وأمركم هـٰذا ، وألحق بأهلي . . لفعلت ، ولـٰكني أخاف ألاَّ يسوغ ذلك .

وقال : قال موسىٰ عليه الصلاة والسلام : إلـٰهي ؛ ما الذي يخلصني من عقابك ،

ويبلغني رضوانك ، وينجيني من سخطك ؟ قال : الاستغفار باللسان ، والندم بالقلب ، والترك بالجوارح .

وقال عمر بن عبد العزيز : ذِكر الله عز وجل حسن عظيم ، والفكر في نعم الله سبحانه وتعالىٰ أفضل العبادة .

وقال عمر لبنيه[1] : كيف أنتم إذا أنا وليت كل رجل منكم جنداً ؟ فقال ابنه : لِمَ تعرض علينا أمراً لا تريد أن تفعله ؟ قال : أترون بساطي هـٰذا ؟ إنه لصائر إلىٰ بِلًى ، وإني أكره أن تُدنِّسوه بخفافكم ، فكيف أرضىٰ لنفسي أن تدنسوا عليَّ ديني ؟!

وكتب إلىٰ عماله : احتبسوا الأشغال عند حضور الصلوات ، فمن أضاعها . . فهو لما سواها من شرائع الإسلام أشد تضييعاً .

وقال : لولا أخشىٰ أن تكون بدعة . . لحلفت ألاَّ أفرح بشيء من أمر الدنيا أبداً حتىٰ أعلم ما في وجوه رسل ربي لي عند الموت ، وما أحب أن يهون علي الموت ؛ لأنه آخر ما يؤجر عليه المؤمن .

واشترىٰ جارية أعجمية فقالت : أرى الناس فرحين ، ولا أرىٰ هـٰذا يفرح ، فقال : ما تقول لكع ؟ فأخبر بما قالت ، فقال : ويحها! حدثوها أن الفرح في الدار الآخرة .

ولما بلغ محارب بن دثار موتُ عمر بن عبد العزيز . . دعا كاتبه فقال : اكتب ، فكتب : بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، فقال : امحه ، فإن الشعر لا يكتب فيه بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، قال : ثم رثاه بأبيات[2] .

وقال رجاء بن حيوة : قومت ثياب عمر بن عبد العزيز وهو خليفة اثنا عشر درهماً . . .

---

(١) في بعض الروايات : أن المقول لهم بنو مروان ، والله أعلم .

(٢) الأبيات كما ذكرها الحافظ أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٣٢١) :

لو أعظم الموت خلقاً أن يواقعه ... لعدله لم يصبك الموت يا عمر
كم من شريعة حق قد نعشت لها ... كادت تموت وأخرىٰ منك تنتظر
يا لهف نفسي ولهف الواجدين معي ... على العدول التي تغتالها الحفر
ثلاثة ما رأت عيني لهم شبهاً ... تضم أعظمهم في المسجد الحفر
وأنت تتبعهم لا زلت مجتهداً ... سقيا لها سنن بالحق تقتفر
لو كنت أملك والأقدار غالبة ... تأتي رواحاً وتبياتاً وتبتكر
صرفت عن عمر الخيرات مصرعه ... بدير سمعان لكن يغلب القدر

فذكر قميصه ، ورداءه ، وقباءه ، وسراويله ، وعمامته ، وقلنسوته ، وخفيه .

وكان يلبس الفرو الغليظ ، وكان سراجه علىٰ ثلاث قصبات فوقهن طين .

وعن رياح بن عبيدة قال : كنت أَتَّجِرُ ، فقال لي عمر بن عبد العزيز : يا رياح ؛ اتخذ لي كساءين ، أحدهما خزاً أتخذه محبساً ، والآخر شعاراً ، قال : ففعلت ، فصنعتهما بالبصرة بأربع مئة أو نحوها ، ثم قدمت بهما ، فأمر بأخذهما ، فلما أصبح . . غدوت عليه ، فقال لي : يا رياح ؛ ما أجود ثوبيك لولا خشونة فيهما! فلما ولي . . قال لي : يا رياح ؛ اتخذ لي من هـٰذه الجباب الهروية ، واجعل فيهن قطناً يسيراً ، قال : فاشتريت له ثلاث شقاق ، وقطعت له من الثلاث جبتين ثمنهما اثني عشر درهماً ، ثم أتيته بهما ، فأخذهما ، وقال لي : يا رياح ؛ ما أجود ثوبيك لولا لين فيهما! فذكرت قوله الأول وقوله الآخر . أو كما قال .

وعن عبد الله بن مسلم ، عن أبيه قال : دخلت علىٰ عمر بن عبد العزيز وعنده كاتب يكتب ، وشمعة تزهر ، وهو ينظر في أمور المسلمين ، فلما فرغ الكاتب وخرج . . أطفئت الشمعة ، وجيء بسراج إلىٰ عمر ، فدنوت منه ، فرأيت عليه قميصاً فيه رقعة قد طبق ما بين كتفيه ، قال : فنظر في أمري .

وقال له شخص : أبقاك الله يا أمير المؤمنين ما دام البقاء لك خيراً ، فقال : قد فرغ من ذا ، ولـٰكن قل : أحياك الله حياة طيبة ، وتوفاك مع الأبرار .

وعُرض عليه مسك[1] ، فلما فاحت رائحته . . جعل عمر كمه علىٰ أنفه ، ثم أمر برفعه ، وقال : إنما يُستمتع من هـٰذا برائحته .

وكان عنده سرير النبي صلى الله عليه وسلم ، وعصاه ، وقدح ، وجفنة ، ووسادة حشوها ليف ، وقطيفة ، ورداء ، فكان إذا دخل عليه النفر من قريش . . قال لهم : هـٰذا ميراث من أكرمكم الله تعالىٰ به ، وأعزكم به ، وهو سيد الأولين والآخرين محمد صلى الله عليه وسلم . أو كما قال .

وقيل له : جزاك الله عن الإسلام خيراً ، فقال : بل جزى الله الإسلام عني خيراً .

وقال : كانت لي نفس تواقة ، وكنت لا أنال منها شيئاً . . إلا تاقت إلىٰ ما هو أعظم منه ، فلما بلغت نفسي الغاية . . تاقت إلى الآخرة .

---

(١) من بيت مال المسلمين .

وعن رجاء بن حيوة قال : سمرت ليلة عند عمر بن عبد العزيز ، فاعتل السراج ، فذهبت أقوم لأصلحه ، فأمرني عمر بالجلوس ، ثم قام ، فأصلحه ، ثم عاد فجلس ، فقال : قمت وأنا عمر بن عبد العزيز ، وجلست وأنا عمر بن عبد العزيز ، ولؤم بالرجل استخدام ضيفه .

وقال محمد بن كعب : لما استُخلف عمر بن عبد العزيز . . بعث إلي وأنا بـالمدينة ؛ فقدمت عليه ، فلما دخلت عليه . . جعلت أنظر إليه نظراً لا أصرف بصري عنه تعجُّباً ، فقال : يابن كعب ؛ إنك لتنظر إلي نظراً ما كنت تنظره ، قال : قلت : تعجُّباً ، قال : فيم تعجُّبُك ؟ قال : قلت : يا أمير المؤمنين ؛ تعجُّبي مما حال من لونك ، ونَحِل من جسمك ، ومن خشونة ملبسك ، فقال : كيف لو رأيتني بعد ثلاث ، وقد دليت في حفرتي ، وسالت حدقتاي علىٰ وجنتي ، وسال منخري صديداً ودماً . . كنتَ أشد نَكرة ، ثم قال لي : حدثنا حديثك عن ابن عباس . . . فذكره[1] .

ودخل مسلمة بن عبد الملك فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إنك أفقرت أولادك ، فتركتهم عَيلىٰ لا شيء لهم ، فلو أوصيت بهم إلي أو إلىٰ نظرائي من أهل بيتك ، فقال : أسندوني ، أسندوني ، ثم قال : أمَّا قولك أني أفقرتهم من هـٰذا المال . . فإني ـ والله ـ ما منعتهم حقاً هو لهم ، ولم أعطهم ما ليس لهم ، وأمَّا قولك : لو أوصيت بهم إلي أو إلىٰ نظرائي . . فإن وصيي وولي فيهم الله ، الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ، بَنِيَّ أحد رجلين : إما رجل يتقي الله سبحانه وتعالىٰ . . فسيجعل الله له مخرجاً ، وإما رجل مكب على المعاصي . . فإني لم أكن لأقوِّيه علىٰ معصية الله عز وجل .

ثم بعث إليهم وهم بضعة عشر ولداً ، قال : فنظر إليهم ، وذرفت عيناه وبكىٰ ، ثم قال : بنفسي الفتية الذين تركتهم عيلىٰ لا شيء لهم ، بلىٰ بحمد الله قد تركتهم بخير ، أي بَنيَّ ؛ إنكم لم تلقوا أحداً من العرب ولا من المعاهدين . . إلا أن لكم عليه حقاً ، أي بَنيَّ ؛ إن أباكم مَثَّل نفسه بين أمرين ، بين أن تستغنوا ويدخل أبوكم النار ، وبين أن تفتقروا ويدخل أبوكم الجنة ، فكان أن تفتقروا ويدخل أبوكم الجنة . . أحب إلي من أن تستغنوا ويدخل أبوكم النار ، قوموا عصمكم الله تعالىٰ .

ولما احتُضِر عمر . . سأل الذي كان يلي نفقته فقال له : كم عندك من المال ؟ فقال : أربعة عشر ديناراً ، قال : فقال : تحتملوني بها من منزل إلىٰ منزل .

---

(١) حديث ابن عباس أخرجه الحاكم (٤/ ٣٠٠) ، وعبد بن حميد (٢٢٥) .

وقيل لولده بعد موته : كم ترك من الغلة ؟ قال : ترك غلة ست مئة دينار ، ورثناها عنه ، وثلاث مئة ورثناها عن أخينا عبد الملك[1] ، وكنا اثنا عشر ذَكراً وست نسوة ، اقتسمنا ماله علىٰ خمس عشرة .

ولما استعمل جعونة بن الحارث علىٰ مَلَطْيَةَ[2] وغزا . . فأصاب وغنم ، فأرسل ابنه إلىٰ عمر بن عبد العزيز ، فلما دخل عليه . . أخبره الخبر بما غنم ، فقال عمر : هل أصيب من المسلمين أحد ؟ قال : لا ، إلا رويجل ، فغضب عمر ، وقال : رويجل ؟! رويجل ؟! مرتين ، تجيؤوني بالشاة والبقرة ، ويصاب رجل من المسلمين ؟ لا تلي أنت ولا أبوك عملاً لي ما كنتُ حيّاً .

وكان يقول : لقد تمت حجة الله على ابن الأربعين ، فمات لها عمر بن عبد العزيز .

وقال أيوب : نبئت أن عمر ذكر له ذلك الموضع الرابع الذي فيه قبرُ النبي صلى الله عليه وسلم ، فعرَّضوا له به ، قالوا : لو دنوت من المدينة ، فقال : لأَن يعذبني الله عز وجل بكل عذاب إلا النار . . أحب إلي من أن يعلم الله تعالىٰ أني أرىٰ نفسي أهلاً لذلك .

وقالت فاطمة امرأة عمر : كنت أسمعه كثيراً يقول : اللهم ؛ أخفِ عليهم موتي ولو ساعة ، فقلت له يوماً : لو خرجتُ عنك ، فقد سهرت يا أمير المؤمنين ؛ لعلك تنام ، فخرجت إلىٰ جانب البيت الذي كان فيه ، فسمعته يقول : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ، وجعل يرددها ، قالت : ثم أطرق فلبثت ساعة ، ثم قلت لوَصِيف له كان يخدمه : ادخل فانظر ، فدخل ، فنظر ، فصاح ، فدخلت ، فإذا هو قد أقبل بوجهه إلى القبلة ، وغمض عينيه بإحدىٰ يديه ، وضم فاه بالأخرىٰ .

وفي رواية : لما كان في مرضه الذي قبض فيه . . قال : أجلسوني أجلسوني ، فأجلسوه ، فقال : أنا الذي أمرتني فقصرت ، ونهيتني فعصيت ، ولٰكن لا إلٰه إلا الله ، ثم رفع رأسه وأحَدَّ النظر ، فقيل له : إنك لتنظر نظراً شديداً ، فقال : إني لأرىٰ حضَرةً ، ما هم بإنس ولا جن ، ثم قبض .

وعن الأوزاعي قال : شهدت جنازة عمر ، ثم خرجت أريد مدينة قنسرين ، فمررت علىٰ

---

(١) في « الحلية » : (ترك لنا غلة ست مئة دينار ـ كل سنة ثلاث مئة دينار ـ ورثناها عنه ، وثلاث مئة دينار ورثناها عن أخينا عبد الملك) .

(٢) مَلَطْيَة : بلدة من بلاد الروم ، فيها مسجد من بناءِ الصحابة رضوان الله عليهم .

راهب ، فقال : يا هـٰذا ؛ أحسبك شهدت وفاة هـٰذا الرجل الصالح ، قلت له : نعم ، فأرخىٰ عينيه ، فبكىٰ سِجاماً[1] ، فقلت له : ما يبكيك ، ولست من أهل دينه ؟ قال : إني لست عليه أبكي ، ولـٰكن أبكي علىٰ نور كان في الأرض فطفىء بموته .

وعن الأوزاعي قال : قال عمر لجلسائه : من صحبني منكم . . فليصحبني بخمس خصال :

يدلني من العدل إلىٰ ما لا أهتدي له ، ويكون لي على الخير عوناً ، ويبلغني حاجة من لا يستطيع إبلاغها ، ولا يغتاب عندي أحداً ، ويؤدي الأمانة التي حملها مني ومن الناس .

فإذا كان كذلك . . فحيَّهلاً به ، وإلا . . فهو في حرج من صحبتي والدخول عليَّ .

وجاءه رجل فقال له : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام ، وبنو هاشم يشكون إليه الحاجة ، فقال لهم : فأين عمر بن عبد العزيز ؟

وقال الحسن ابن أبي أمية : سمعت أبا أسامة يقول : رأىٰ رجل في منامه علىٰ باب الجنة مكتوباً : براءة من الله العزيز الرحيم لعمر بن عبد العزيز من عذاب يوم أليم .

وفي رواية : بينما نحن نسوي التراب علىٰ قبر عمر بن عبد العزيز ؛ إذ سقط علينا رَق من السماء فيه كتاب فيه : بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، أمان من الله تعالىٰ لعمر بن عبد العزيز من النار .

وعن وهيب بن الورد قال : بينا أنا نائم خلف المقام . . رأيت فيما يرى النائم : كأن داخلاً دخل من باب بني شيبة وهو يقول : يا أيها الناس ؛ وُلِّيَ عليكم كتابُ الله ، فقلت : مَن ؟ فأشار إلىٰ ظفره ، فإذا مكتوب (ع م ر) ، فجاءت بيعة عمر بن عبد العزيز .

وعن عمر بن عبد العزيز قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقال : أُدنُ يا عمر ، فدنوت ، حتىٰ كدت أن أصافحه ، وإذا كهلان قد اكتنفاه ، فقال : إذا وليت أمر أمتي . . فاعمل في ولايتك مثل ما عمل هـٰذان في ولايتهما ، فقلت : ومَن هـٰذان يارسول الله ؟ قال : هـٰذا أبو بكر وهـٰذا عمر ، وكان بعد ذلك يبكي بكاء شديداً ، ويقول : أنىٰ لي بطريقة هـٰذا وطريقة هـٰذا .

ونال رجل من عمر ، فقيل : ما يمنعك منه ؟ فقال : إن المتقي ملجم .

---

(١) **السِّجام** : السيلان .

وعن الزهري ، عن عبيد الله بن عبد الله قال : كانت العلماء عند عمر تلامذة .

وقال ميمون بن مهران : أتينا عمر بن عبد العزيز . . فظننا أنه يحتاج إلينا ؛ فإذا نحن عنده تلامذة .

وعن مجاهد قال : أتينا عمر نعلِّمه ، فما برحنا حتىٰ تعلمنا منه .

وكان ميمون بن مهران يقول : عمر بن عبد العزيز معلم العلماء .

وقال عمر بن عبد العزيز : قيدوا النعم بالشكر ، وقيدوا العلم بالكتاب .

وقال عمر : إني لأدَع كثيراً من الكلام مخافة المباهاة .

وقال ميمون بن مهران لعمر ليلة : يا أمير المؤمنين ؛ ما بقاؤك علىٰ ما أرىٰ ؟ أما أول الليل : فأنت في حاجات الناس ، وأما وسط الليل : فمع جلسائك ، وآخر الليل : فالله أعلم ما تصير إليه ، قال : فضرب علىٰ كتفي ، وقال : ويحك يا ميمون ؛ إني وجدت لقاء الرجال تلقيحاً لألبابهم .

ودخل مسلمة علىٰ عمر وهو مسجَّىٰ ، فقال : رحمك الله ، لقد أحييت لنا قلوباً ميتة ، وجعلت لنا في الصالحين ذِكراً .

واستُشهد رجل من الشام ، فكان يأتي إلىٰ أبيه كل ليلة جمعة في المنام ، فيحدثه ويستأنس به ، فغاب عنه جمعة ، ثم جاءه في الجمعة الأخرىٰ ، فقال له : يا بني ؛ لقد أحزنتَني ، وشق علي تخلفك ، فقال : إنما شغلني عنك أن الشهداء أُمروا أن يتلقوا عمر بن عبد العزيز ، فتلقيناه ، وذلك عند موت عمر رحمه الله .

وضُرِبَ لعمر فلوس ، وكتب عليها : أَمر عمر بالوفاء والعدل ، فقال : اكسروها واكتبوا : أمر الله بالوفاء والعدل .

ولما سُقي السم . . قيل له : تدارك نفسك ، فقال : والله ؛ لقد عرفت الساعة التي سقيت فيها ، ولو كان شفائي أن أَمَسَّ شحمة أذني . . ما فعلت ، أو أن أوتىٰ بطيب أرفعه إلىٰ أنفي . . ما فعلت .

وقال عمر : ما حسدت الحجاج ـ عدو الله ـ علىٰ شيء . . إلا حبه القرآن ، وإعطائه أهله ، وقوله حين حضرته الوفاة : اللهم ؛ اغفر لي ؛ فإن عبادك يزعمون أنك لا تفعل .

وجاء رجل إلىٰ هشام بن عبد الملك فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إن عبد الملك أقطع جدي

قطيعة ، فأقرها الوليد وسليمان ، حتىٰ إذا استُخلف عمر رحمه الله . . نزعها مِنِّي ، فقال هشام : أعد مقالتك ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إن عبد الملك أقطع جدي قطيعة ، فأقرها الوليد وسليمان ، حتىٰ إذا استخلف عمر رحمه الله . . نزعها مِنِّي ، فقال : والله ؛ إن فيك لعجباً أنك تذكر من أقطع جدك القطيعة ، ومن أقرَّها ، ولا تترحم عليه ، وتذكر من انتزعها منك فتترحم عليه ، وإنا قد أمضينا ما قد صنع عمر رحمه الله . انتهىٰ [« الحلية » ٥/٣٠٦ـ٣٤٥] .

وقال أبو الفرج ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ : عمر يكنىٰ : أبا حفص ، أمه : أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ولما أراد عبد العزيز بن مروان أن يتزوج أم عمر . . قال لقيِّمه : اجمع لي أربع مئة دينار من طيب مالي ؛ فإني أريد أن أتزوج من أهل بيت لهم صلاح . فتزوج أم عمر .

وقال سفيان الثوري رحمه الله : الخلفاء خمسة : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وعمر بن عبد العزيز .

وقال أحمد ابن حنبل : يروىٰ في الحديث : أن الله يبعث علىٰ رأس كل مئة عام من يصحح لهـٰذه الأمة دينها ، فنظرنا في المئة الأولىٰ ؛ فإذا هو عمر بن عبد العزيز ، ونظرنا في المئة الثانية . . فنراه الشافعي .

وعن الضحاك بن عثمان قال : لما انصرف عمر بن عبد العزيز عن قبر سليمان بن عبد الملك . . صُفَّتْ له مراكب سليمان ، فقال : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، قدموا إلي بغلي .

وفي رواية : أنه سمع للأرض هزة ـ أو رجة ـ فقال : ما هـٰذه ؟ فقيل : هـٰذه مراكب الخلافة يا أمير المؤمنين ، قربت إليك لتركبها .

وجاء صاحب الشرطة يسير بين يديه بالحربة فقال : تنح عني ما لي ولك ، إنما أنا رجل من المسلمين ، فسار وسار معه الناس حتىٰ دخل المسجد ، فصعِد المنبر ، واجتمع الناس إليه ، فقال : يا أيها الناس ؛ إني قد ابتليت بهـٰذا الأمر من غير رأي مني ، ولا طلبة له ، ولا مشورة من المسلمين ، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي ، فاختاروا لأنفسكم ، فصاح المسلمون صيحة واحدة : قد اخترناك يا أمير المؤمنين ، ورضيناك ، فَلِ أمرنا باليُمن والبركة ، فلما رأى الأصوات قد هدأت ورضي الناس جميعاً . . حمد الله ، وأثنىٰ عليه ، وصلىٰ على النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال : أوصيكم بتقوى الله . . . إلىٰ أن قال :

إن هـٰذه الأمة لم تختلف في ربها ، ولا في نبيها ، ولا في كتابها ، وإنما اختلفوا في الدنانير والدراهم ، والله ؛ لا أعطي أحداً باطلاً ، ولا أمنع أحداً حقاً ، ثم رفع صوته حتىٰ أسمع الناس ، فقال :

أيها الناس ؛ من أطاع الله تعالىٰ . . فقد وجبت طاعته ، ومن عصى الله تعالىٰ . . فلا طاعة له ، أطيعوني ما أطعت الله ، فإذا عصيت الله . . فلا طاعة لي عليكم .

ثم نزل ، فدخل داره ، فأمر بالستور فهتكت ، والثياب التي كانت تبسط للخلفاء فحملت ، وأمر ببيعها وإدخال أثمانها بيت مال المسلمين ، ثم ذهب ليقيل ، فأتاه ابنه عبد الملك فقال : يا أمير المؤمنين ؛ ما تريد أن تصنع ؟ قال : يا بني ؛ أقيل ، قال : تقيل ولا ترد المظالم ، قال : يا بني ؛ إني قد سهرت البارحة في أمر عمك سليمان ، فإذا صليت الظهر . . رددت المظالم ، قال : يا أمير المؤمنين ؛ من أين لك أن تعيش إلى الظهر ؟ قال : ادن مني أي بني ، فدنا منه ، فالتزمه ، وقَبَّل بين عينيه ، وقال : الحمد لله الذي أخرج من صلبي من يعينني علىٰ ديني ، فخرج ولم يَقِل ، وأمر مناديه أن ينادي : ألا من كانت له مظلمة . . فليرفعها ، فقام إليه ذِميٌّ من أهل حمص أبيض الرأس واللحية ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ أسألك كتاب الله ، قال : وما ذاك ؟ قال : العباس بن [الوليد] بن عبد الملك غصبني أرضي ، والعباس جالس ، فقال : ما تقول يا عباس ؟ فقال : أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ، وكتب لي بها سجله ، فقال عمر : ما تقول يا ذمي ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ؛ أسألك كتاب الله عز وجل ، فقال عمر : كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد بن عبد الملك ، قم فاردد عليه يا عباس ضيعته ، فردها عليه ، وجعل لا يدع شيئاً مما كان في يده وفي يد أهل بيته من المظالم . . إلا ردها مظلمة مظلمة ، فلما بلغ الخوارج سيرة عمر وما رد من المظالم . . اجتمعوا ، وقالوا : ما ينبغي لنا أن نقاتل هـٰذا الرجل .

ولما بلغ عمر بن الوليد بن عبد الملك سيرة عمر رحمه الله . . كتب إليه : إنك قد أزريتَ علىٰ مَن قبلك من الخلفاء ، وعبت عليهم ، وسرت بغير سنتهم ، بغضاً لهم ، وشَيناً[1] لمن بعدهم من أولادهم ، وقطعت ما أمر الله به أن يوصل ؛ إذ عمدت إلىٰ أموال قريش ومواريثهم فأدخلتها بيت المال جوراً وعدواناً ، ولن تُترَكَ علىٰ هـٰذا .

---

(١) الشين : ضد الزين ، وفي « الصفوة » : (شنئاً) ، والشنأ : البغض . .

فلما قرأ كتابه . . كتب إليه : بسم الله الرحمٰن الرحيم ، من عبد الله عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين إلىٰ عمر بن الوليد ، السلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين ، **أما بعد** : فإنه بلغني كتابك ، وسأجيبك بنحو منه ، أما أول شأنك . . فإن كنت ابن الوليد ـ كما زعم ـ فأمك بنانة بنت السكون ، كانت تطوف في سوق حمص وتدخل حوانيتها ، ثم الله عز وجل أعلم بها ، اشتراها ذبيان من فيء المسلمين ، فأهداها لأبيك ، فحملت بك ، فبئس المحمول وبئس المولود ، ثم نشأت ، فكنت جباراً عنيداً ، تزعم أني من الظالمين ؛ لِمَا حرمتك وأهل بيتك فيء الله الذي فيه حق القرابة والمساكين والأرامل ، وإنَّ أظلَمَ مني وأَترَكَ لعهد الله سبحانه وتعالىٰ مَن استعملك صبياً سفيهاً علىٰ جند المسلمين ، تحكم فيهم برأيك ، ولم تكن له في ذلك نية إلا حب الوالد ولده ، فويل لك ، وويل لأبيك ، ما أكثر خصماؤكما يوم القيامة! وكيف ينجو والدك من خصمائه ؟! [وإن أظلم مني وأترك لعهد الله من استعمل الحجاج بن يوسف يسفك الدم الحرام ، ويأخذ المال الحرام] ، وإن أظلم مني وأترك لعهد الله سبحانه من استعمل قرة بن شريك أعرابياً جافياً علىٰ مصر ، وأذن له في المعازف واللهو والشرب ، ومن جعل لعالية البربرية سهماً في خمس العرب ، فرويداً ابن بنانة ، فلو التقت حلقتا البطان[1] ورُدَّ الفيءُ إلىٰ أهله . . لتفرغت لك ولأهل بيتك ، فوضعتكم علىٰ المحجة البيضاء ، فطالما تركتم الحق ، ومن وراء هٰذا ما أرجو أن أكون رأيته من بيع رقبتك ، وقسم ثمنك بين اليتامىٰ والمساكين والأرامل ؛ فإن لكلٍّ فيك حقاً . والسلام علينا وعلىٰ عباد الله الصالحين ، ولا ينال سلام الله الظالمين .

وكان عمر يقسم تفاح الفيء ، فتناول ابن له تفاحة . . فأخذها من فيه ، فسعىٰ إلىٰ أمه باكياً ، فأرسلت إلى السوق واشترت لابنها تفاحاً ، فلما جاء عمر . . وجد ريح التفاح فقال : يا فاطمة ؛ هل جاءكم شيء من الفيء ؟ قالت : لا ، وأخبرتْه الخبر ، فقال : والله ؛ لما انتزعت التفاحة من ابني . . كأنما نزعتها من قلبي ، ولٰكن كرهت أن أضيع نصيبي من الله بتفاحة من فيء المسلمين .

ولما مات عمر بن عبد العزيز رحمه الله . . كان قد أودع عند بعض مواليه سفطاً يكون عنده ، فجاؤوه فقالوا له : نريد السفط الذي أودعك عمر بن عبد العزيز ، فقال لهم : ما لكم فيه خير ، فأبوا حتىٰ دَفعوا ذلك إلىٰ يزيد بن عبد الملك ، فدعا بالسفط ، ودعا بني

---

(١) **البِطَان** للقتب : الحزامُ الذي يُجعل تحت بطن البعير ، يقال : التقت حلقتا البطان للأمر إذا اشتد .

أمية ، وقال : هـٰذا خيركم وصالحكم ، قد وجدنا له سفطاً وديعة ، ففتحوه ، فإذا فيه مقطعات من مسوح كان يلبسها بالليل ، والغل الذي كان يغل به نفسه . أو كما قال .

وعن ابن أبي زياد قال : أرسلني ابن عياش ابن أبي ربيعة إلىٰ عمر بن عبد العزيز في حوائج له ، فدخلت إليه وعنده كاتب يكتب ، فقلت : السلام عليكم ، قال : وعليكم السلام ، ثم انتبهت ، فقلت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فقال : يابن أبي زياد ؛ إنا لسنا نكره الأولى التي قلت ، والكاتب يقرأ عليه مظالم جاءت من البصرة ، فقال لي : اجلس ، فجلست علىٰ أُسكفَّة الباب[1] ، وهو يقرأ عليه ، وعمر يتنفس الصعداء ، فلما فرغ . . أخرج من كان في البيت حتىٰ وصيفاً كان فيه ، ثم قام يمشي إليَّ ، حتىٰ جلس بين يدي ، ووضع يده علىٰ ركبتي ، ثم قال : يابن أبي زياد ؛ استدفأتَ في مدرعتك هـٰذه ـ قال : وكان عليّ مِدْرَعَة من صوف ـ فاسترحت مما نحن فيه ، ثم سألني عن صلحاء أهل المدينة وحالهم وشأنهم ، فما ترك منهم أحداً . . إلا سألني عنه ، وسألني عن أمور كان قد أمر بها في المدينة ، فأخبرته ، ثم قال : يابن أبي زياد ؛ ألا ترىٰ ما وقعتُ فيه ؟ قال : قلت : أبْشر يا أمير المؤمنين ؛ بعض ما تصنع ؛ فإني لأرجو لك خيراً ، قال : هيهات ، هيهات! ثم بكىٰ حتىٰ جعلت أرثي له ، فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ بعض ما تصنع ؛ فإني أرجو لك خيراً ، قال : هيهات ، هيهات ، أَشتِم ولا أُشتَم ، وأَضرِب ولا أُضرَب ، وأُوذي ولا أُوذَىٰ ، ثم بكىٰ حتىٰ جعلت أرثي له ، فأقمت عنده حتىٰ قضىٰ حوائجي ، ثم أخرج من تحت فراشه عشرين ديناراً ، وقال : استعن بهـٰذه ؛ فإنه لو كان لك في الفيء حق . . لأعطيناك حقك ، إنما أنت عبد ، فأبيت أن آخذها ، فقال : إنما هي من نفقتي ، فلم يزل بي حتىٰ أخذتها ، وكتب إلىٰ مولاي يسأله أن يبيعني منه ، فأبىٰ وأعتقني .

ولما ولي الخلافة . . منع قرابته ما كان يجري عليهم ، فأخذ منهم القطائع التي كانت في أيديهم ، فشكوا ذلك إلىٰ عمته ، فدخلت عليه وقالت : إن قرابتك يشكونك ، ويزعمون أنك أخذت منهم خير غيرك ، قال : ما منعتهم حقاً ، ولا أخذت منهم حقاً ، قالت : إني رأيتهم يتكلمون ، وإني أخاف أن يهيجوا عليك يوماً عصيباً ، فقال : كل يوم أخافه دون يوم القيامة . . لا وقاني الله شره ، ثم دعا بدينار وجنب[2] ومجمرة ، فألقىٰ ذلك الدينار في

---

(١) أُسكفَّةُ الباب : عتبته .

(٢) الجَنْب : القطعة من الشيء تكون معظمه أو شيئاً كثيراً منه ، والمراد هنا : قطعة من الجلد .

النار ، وجعل ينفخ عليه ، حتىٰ إذا احمر . . تناوله بشيء ، فألقاه على الجنب فنش[1] ، ثم قال : يا عمة ؛ أما ترثين لابن أخيك من مثل هـٰذا ، فقامت ، فخرجت علىٰ قرابته ، وقالت لهم : هـٰذا شخص يخاف الله عز وجل ، فاصبروا له . أو كما قال .

وفي رواية : أنها قالت : تتزوجون من بنات عمر بن الخطاب ، ثم تسألون أن يكونوا علىٰ ما أنتم عليه ؟! إنما يكونون علىٰ ما كان عليه جدهم .

أسند عن عدة من الصحابة وكبار التابعين ، وسمع منهم ، فمن الصحابة : عبد الله بن عمر ، وأنس بن مالك ، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، وأبي[2] سلمة المخزومي ، والسائب بن يزيد ، ويوسف بن عبد الله بن سلام .

وأرسل الحديث[3] عن القدماء ، منهم : عبادة بن الصامت ، والمغيرة ، وتميم ، وعائشة ، وأم هانىء .

وروىٰ عن خلق كثير من التابعين .

توفي لعشر ليال بقين من رجب ، سنة إحدىٰ ومئة ، وهو ابن تسع وثلاثين سنة وأشهر ، وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر ، وتوفي بدير سمعان ، وقبره هناك ، رحمه الله . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/٦٦ـ٧٤] .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : ومن مسانيد حديثه : أن أسماء بنت عميس علمها رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تقول : « الله ربي لا أشرك به شيئاً » .

وعن أبي سلمة : أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم يصلي في ثوب واحد قد خالف بين طرفيه[4] ، قال عمر بن عبد العزيز : قلت للسائب بن يزيد : يا سائب ؛ هل رأيت أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتزر الرداء أو يرتدي الرداء ، ثم يخرج ؟ قال : نعم ، ثم قال : لو صنع ذلك أحد اليوم . . لقيل إنه مجنون .

---

(١) **النشيش** : صوت غليان الماء وغيره .

(٢) في النسخ : (عمر ابن أبي سلمة) وهو تصحيف ، والثابت كما في كتب الرجال : أنَّ عمر بن عبد العزيز قد حدث عن أبي سلمة بن عبد الرحمٰن بن عوف وليس عن ابنه عمر ، وكذا في جميع مواضع الترجمة ، فليتنبه .

(٣) **الحديث المرسل** : هو ما رواه التابعي صغيراً أو كبيراً عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يذكر من حدثه بذلك .

(٤) أخرجه بنحوه مسلم (٥١٨) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما من ساعة تمر بابن آدم لم يذكر الله عز وجل فيها . . إلا خسر عندها يوم القيامة »[1] .

وعن سعد بن أبي وقاص : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من أكل سبع تمرات عجوة مما بين لابتي المدينة حين يصبح . . لم يضره شيء حتىٰ يمسي »[2] .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لكل دين خُلُقاً ، وإن خُلق الإسلام الحياء »[3] .

وعن يزيد بن مورق قال : كنت بالشام وعمر بن عبد العزيز يعطي الناس ، فتقدمت إليه ، فقال لي : ممن أنت ؟ فقلت : من قريش ، قال : من أي قريش ؟ قلت : من بني هاشم ، قال : من أي بني هاشم ؟ فسكتُّ ، فأعاد القول ، قلت : مولىٰ علي ، قال : من علي ؟ فسكتُّ ، فوضع يده علىٰ صدري وقال : أنا ـ والله ـ مولىٰ علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ثم قال : حدَّثني عدة من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين : أنهم سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « من كنت مولاه . . فعلي مولاه »[4] ، ثم قال : يا مزاحم ؛ كم نعطي أمثاله ؟ قال : مئة أو مئتي درهم ، قال : أعطه خمسين ديناراً أو ستين ديناراً ؛ لولايته لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ثم قال : اِلحق ببلدك ، فسيأتيك مثلما يأتي نظراءك . والله أعلم . انتهىٰ [« الحلية » ٥/ ٣٦٠ـ٣٦٤] .

وقال في « الاكتفاء » : روىٰ حماد بن سلمة ، عن يونس بن عبيد : أن رجلاً من الأنصار أتىٰ عمر بن عبد العزيز فقال : يا أمير المؤمنين ؛ أنا فلان بن فلان ، قتل جدي يوم بدر ، وقتل أبي يوم أحد ، فجعل يذكر مناقب آبائه ، فنظر عمر إلىٰ عنبسة ، فقال : هٰذه ـ والله ـ المناقب ، لا مناقبكم .

ووفد عليه رجل من ولد قتادة بن النعمان الأنصاري فقال له : مَن الرجل ؟ فقال :

أنا ابن الذي سالت على الخد عينُه ... فردت بكف المصطفىٰ أحسنَ الردِّ

فعادت كما كانت لأول أمرها ... فيا حُسنَ ما عين ويا حُسن ما رَدِّ

---

(١) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٨/ ١٧٥) .

(٢) أخرجه بنحوه البخاري (٥١٣٠) ، ومسلم (٢٠٤٧) بلفظ : « لم يضره سم حتىٰ يمسي » .

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤١٨١) ، والطبراني في « الصغير » (١/ ٣١) .

(٤) أخرجه أحمد (١/ ١١٨) ، وابن حبان في « الإحسان » (٦٩٣١) .

وكان قتادة قد أصيبت عينه يوم أحد ، وكان حديث عهد بعرس ، فقال : يا رسول الله ؛ إن عندي امرأة أحبها ، وهي إن رأت عيني علىٰ هـٰذه الصورة . . خشيتُ أن تقذرني ، فرفع النبي صلى الله عليه وسلم حدقته بيده الكريمة صلى الله عليه وسلم ، فردها مكانها ، فكانت أحسن عينيه وأحدَّهما نظراً ، فقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله :

تلـك المكـارم لا قَعبـانِ مـن لبـنٍ شِيْبَـا بمـاء فعـادا بَعـدُ أبـوالاَ[1]

وكانت فاطمة بنت علي بن أبي طالب رضي الله عنهما تكثر من الترحم عليه[2] ، فقيل لها في ذلك ، فقالت : دخلت عليه وهو أمير المدينة ، فأخرج عني كل خصي وحرسي ، حتىٰ لم يبق في البيت غيري وغيره ، ثم قال : يا ابنة أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه ؛ والله ما علىٰ ظهر الأرض بيت أحب إليَّ منكم ، ولأَنتم أحب إلي من أهل بيتي ، وما ترك لي حاجة إلا قضاها .

وكتب الحسن إليه في موعظة : إنما الزهد باليقين ، واليقين بالتفكر ، والتفكر بالاعتبار ، فإذا أنت تفكرت في الدنيا . . لم تجدها أهلاً أن تمتع بها نفسك ، ووجدت نفسك أهلاً أن تكرمها بهوان الدنيا ، فإنما الدنيا دار بلاء ومنزل غفلة . والسلام . رضي الله عنهم أجمعين .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) تثنية قعب والقَعْبُ : قدح ضخم غليظ .

(٢) أي : عمر بن عبد العزيز .

ومنهم الإمام ابنه :

عبد الملك
رضي الله عنهما

قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : قال عبد الملك لأبيه عمر ـ وكان يُفضَّل علىٰ عمر ـ : يا أبت ؛ أقم الحق ولو ساعة من نهار .

وقال مشيخة أهل الشام : كنا نرىٰ أن عمر بن عبد العزيز إنما أدخله في العبادة . . ما رأىٰ من ابنه عبد الملك .

وأصاب عبد الملك الطاعون في خلافة أبيه فمات ، وقال قبل موته : والله ؛ ما من أحد أعز عليَّ من والدي عمر ، ولأَن أكون سمعت بموته . . أحب إلي مما صار من الخلافة .

وقال عبد الملك لأبيه : يا أبت ؛ ما يمنعك أن تمضي لما تريد من العدل ؟ فوالله ؛ ما كنت أبالي لو غَلَتْ بي وبك القدور في ذلك ، قال : يا بني ؛ إنما أروض الناس رياضة الصعب ، إني لأريد أن أحيي الأمر من العدل ، فأؤخر ذلك حتىٰ أُخرج معه طمعاً من طمع الدنيا ، فيفروا من هـٰذا ، ويسكنوا لهـٰذا .

وقال عمر بن عبد العزيز لمولاه مزاحم : كم ترىٰ فيما أصبنا من أموال المسلمين حتىٰ نرده عليهم ؟ قال مزاحم : قلت : يا أمير المؤمنين ؛ أتدري ما عيالك ؟ قال : نعم ، لهم الله عز وجل ، قال مزاحم : فلما خرجت . . لقيت ابنه عبد الملك ، فأخبرته الخبر ، فقال : بئس الوزير أنت يا مزاحم ، ثم جاء إلىٰ أبيه يستأذن عليه ، فقال الآذن : إنما لأبيك من الليل والنهار هـٰذه الساعة ، قال : لابد من لقائه ، فسمع عمر مقالتهما ، فقال : مَن هـٰذا ؟ قال الآذن : عبد الملك ، قال : ائذن له ، فدخل ، فقال : ما جاء بك هـٰذه الساعة ؟ قال : شيء ذكره لي مزاحم ، قال : نعم ، فما رأيك ؟ قال : أرىٰ أن تمضيه ، قال : إني إذا رحت إلى الصلاة . . أصعد المنبر ، وأرده علىٰ رؤوس الناس ، قال : ومن أين

لك أن تعيش إلى الصلاة ؟ قال : فما أصنع ؟ قال : ترده الساعة ، قال : فخرج ، ونودي في الناس : الصلاة جامعة ، وصعد المنبر ، ورده علىٰ رؤوس الناس .

وفي رواية : نادىٰ مناديه : الصلاة جامعة ، فطلع المنبر ، فحمد الله تعالىٰ ، وأثنىٰ عليه ، وصلىٰ على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : **أما بعد** : فإن هـٰؤلاء أعطونا عطايا ما كان ينبغي لنا أن نأخذها ، وإني قد رأيت ذلك ، وأعلم أنه ليس عليَّ فيه وفي غيره دون الله عز وجل محاسب ، وإني قد بدأت بنفسي وأهل بيتي ، اقرأ يا مزاحم ، فجعل مزاحم يقرأ كتاباً كتاباً ، ثم يأخذه عمر ـ وبيده الجلم[1] ـ فيقطعه ، ثم نودي بالظهر .

ودخل عبد الملك علىٰ أبيه يوماً فقال : يا أمير المؤمنين ؛ ما تقول لربك إذا أتيت وقد تركت حقاً لم تحيه ، وباطلاً لم تمته ، فقال : أُقعد يا بني ، إن أجدادك خدعوا الناس عن الحق ، فانتهت الأمور إلي ، وقد أقبل شرها ، وأدبر خيرها ، ولـٰكن أرجو ألاَّ تطلع علي شمس يوم إلا وقد أحييت فيه حقاً ، وأَمَتُّ فيه باطلاً ، حتىٰ يأتيني الموت وأنا علىٰ ذلك إن شاء الله تعالىٰ .

ولما توفي عبد الملك رحمه الله ودفن . . وضعوا عنده خشبتين من زيتون ، إحداهما : عند رأسه ، والأخرىٰ : عند رجليه ، ثم إن أباه وقف وجعل قبره بينه وبين القبلة ، واستمر واقفاً ، وأحاط به الناس ، وقال : رحمك الله يا بني ؛ لقد كنت بارَّاً بأبيك ، والله ؛ مازلت منذ وهبك الله لي مسروراً بك ، ولا والله ، ما كنت قط أشد سروراً بك ولا أرجىٰ لحظِّي من الله عز وجل فيك . . من هـٰذا اليوم الذي وضعتك في هـٰذا المنزل الذي صيرك الله تعالىٰ إليه ، فرحمك الله ، وغفر لك ذنبك ، وجزاك بما هو أهله ، وقبل منك أحسن عملك ، ورحم الله كل شافع يشفع لك بخير من شاهد أو غائب ، رضيتُ بقضاء الله تعالىٰ ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، وسلمنا لأمره سبحانه وتعالىٰ ، والحمد لله رب العالمين . ثم انصرف .

زاد في « الاكتفاء » : قال سفيان الثوري رحمه الله : قال عمر بن عبد العزيز لابنه عبد الملك وهو مريض : كيف تجدك ؟ قال : في الموت ، قال : **لأَن تكون في ميزاني . . أحب إلي من أن أكون في ميزانك ، فقال : والله يا أبت ؛ لأَن يكون ما تحب . . أحب إلي من أن يكون ما أحب** .

وفي رواية قال : إن عبد الملك أحياه الله ما أحب أن يحييه ، ثم قبضه إليه حين أحب أن

---

(١) **الجلم** : آلة كالمقص يُجَزُّ بها .

يقبضه ، وهو ـ فيما علمت ـ مغبط بالموت ، نرجو فيه من الله تعالىٰ رجاء حسناً ، وأعوذ بالله أن يكون لي محبة في شيء من الأشياء تخالف محبة الله عز وجل ؛ فإن خلاف ذلك لا ينبغي في بلائه وإحسانه إلي ونعمته عليَّ ، وقد قلت عندما كان من سبيله : الحمد لله ما رجوت به ثواب الله وموعده الصادق من المغفرة إنا لله وإنا إليه راجعون ، ورضيت بقضاء الله سبحانه وتعالىٰ ، ولم أجد في نفسي إلا خيراً ، وأحتسب ما كان من مصيبتي فيه عند الله تعالىٰ ، فالحمد لله علىٰ ما مضىٰ ، وعلىٰ ما بقي ، وعلىٰ كل حال من أمر الدنيا والآخرة .

قالوا : وغضب عمر بن عبد العزيز يوماً ، فاشتد غضبه ، وكان ابنه عبد الملك حاضراً ، فلما سكن غضبه . . قال : يا أمير المؤمنين ؛ أنت في قَدْر نعمة الله عز وجل عليك ، وموضعك الذي وضعك فيه ، وما ولاك الله تعالىٰ من أمر عباده . . يبلغ بك الغضب إلىٰ ما أرىٰ ؟! قال : كيف قلت ؟ قال : فأعاد عليه كلامه ، فقال : يا بني ؛ أما نغضب ؟ فقال : ما يغني عني سعة جوفي . . إن لم أردد فيه الغضب حتىٰ لا يظهر منه شيء أكرهه ؟! انتهىٰ [« الحلية » ٥/٣٥٣ـ٣٥٨] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

زيد بن أسلم التابعي
رضي الله عنه

قال الشيخ محيي الدين النووي ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ : زيد بن أسلم القرشي العدوي المدني ، مولىٰ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، التابعي الصالح الفقيه .

روىٰ عن ابن عمر ، وأنس ، وجابر ، وربيعة بن عِباد ـ بكسر العين ـ وسلمة بن الأكوع الصحابيين رضي الله عنهم .

وروىٰ عن أبيه ، وعطاء بن يسار ، وحمران ، وعلي بن الحسين ، وأبي صالح السمان ، وآخرين من التابعين .

وروىٰ عنه الزهري ، ويحيى الأنصاري ، وأيوب السختياني ، ومحمد بن إسحاق التابعيون ، ومالك ، والثوري ، ومَعْمَر ، وخلائق من الأئمة .

قال يحيى بن معين : سمع زيد بن أسلم من ابن عمر ، ولم يسمع جابراً ولا أبا هريرة .

وقال محمد بن سعد : كانت لزيد بن أسلم حلقة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان ثقة كثير الحديث .

وقال أبو حازم : لقد رأيتنا في مجلس زيد بن أسلم أربعين فقيهاً ، أدنىٰ خصلة فينا التواسي بما في أيدينا ، وما رأيت فيه متماريَينِ ولا متنازعَينِ في حديث لا ينفعهما .

وكان أبو حازم يقول لهم : لا يريني الله عز وجل يوم زيد ، وقدمني بين يدي زيد أنه لم يبق أحد أرضىٰ لنفسي وديني غيره ، فأتاه نعي زيد ، فعَقِر ، فما قام ولا شهده .

وكان أبو حازم يقول : اللهم ؛ إنك تعلم أني أنظر إلىٰ زيد فأذكر بالنظر إليه القوةِ علىٰ عبادتك ، فكيف بملاقاته ومحادثته ؟

ومناقبه كثيرة .

توفي بالمدينة ، سنة ست وثلاثين ومئة ، وقيل : سنة ثلاث وثلاثين ، وقيل : ثلاث وأربعين .

وحكى البخاري رحمه الله في « تاريخه » : أن علي بن الحسين رضي الله عنهما كان يجلس إلىٰ زيد بن أسلم ، ويتخطىٰ مجالس قومه ، فقيل له : تتخطىٰ مجالس قومك إلىٰ مولىٰ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال : إنما يجلس الرجل إلىٰ من ينفعه في دينه . انتهىٰ [« التهذيب » ١/ ٢٠٠] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

مطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير
رضي الله عنه

روى الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ بإسناده : عن مطرِّف : أنه قال لابن أبي مسلم : ما مدحني أحد قط . . إلا تصاغرَتْ إليَّ نفسي .

وقال : إني لأستلقي من الليل علىٰ فراشي ، فأتدبر القرآن ، وأعرض عملي علىٰ عمل أهل الجنة . . فإذا أعمالهم شديدة ؛ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ، يبيتون لربهم سجداً وقياماً ، أمَّنْ هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً ، فلا أراني فيهم ، فأعرض نفسي علىٰ هـٰذه الآية : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴾ ، فأرى القوم مكذبين ، وأمر بهـٰذه الآية : ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، أرجو أن أكون أنا وأنتم ـ يا إخوتاه ـ منهم .

وقال : لو سألنا الله تعالىٰ أن يميتنا من خشيته . . كنا أحقاء بذلك ، وقد علمتُ أن ربي سبحانه وتعالىٰ ليرضىٰ منا بدون ذلك .

وقال : لو أتاني آت من ربي عز وجل فقال لي : أنت مخير في الجنة أو في النار ، أو بين أن تصير تراباً . . لاخترت أن أصير تراباً .

وقال : صلاح القلب بصلاح العمل ، وصلاح العمل بصلاح النية .

ومات ابن لمطرف ، فخرج على الحي وقد رجَّل جُمَّته[1] ، ولبس جبة ، فقيل له : كيف هـٰذا وقد مات ابنك ؟! فقال : أتأمروني أن أستكين للمصيبة ؟ والله ؛ لو أن الدنيا وما فيها لي ، وأخذها الله عز وجل مني ، ووعدني عليها شربة ماء غداً في الآخرة . . ما رأيتها لتلك الشربة أهلاً ، فكيف بالصلاة والهدىٰ والرحمة ؟!

---

(١) **الجُمَّة** : مجتمع شعر الرأس .

وكان يقول : إن من أحب عباد الله إلى الله تعالىٰ . . الصابر الشكور ، الذي إذا ابتلي . . صبر ، وإذا أعطي . . شكر .

ولبس مطرف الصوف ، وجلس مع المساكين ، فسئل عن ذلك ، فقال : إن أبي كان جباراً ، فأحب أن أتواضع لربي عز وجل لعله أن يخفف عني وعن أبي تجبره .

وقال : **لئن أعافىٰ فأشكر . . أحب إلي من أن أبتلىٰ فأصبر** .

وقال : لئن أبيت نائماً وأصبح نادماً . . أحب إلي من أن أبيت قائماً وأصبح معجباً .

وقال : **لئن يسألني ربي عز وجل يوم القيامة فيقول : يا مطرّف ؛ ألا فعلت . . أحب إلي من أن يقول : لِمَ فعلت ؟**

وقال : لو حلفت . . لرجوت أن أُبَرَّ : إنه ليس من أحد من الناس . . إلا وهو مقصِّر فيما بينه وبين ربه عز وجل .

وكان إخوان مطرف عنده ، فخاضوا في ذِكر الجنة ، فقال مطرف : لا أدري ما تقولون ، قد حال ذِكر النار بيني وبين الجنة .

وكان يقول : كأن القلوب ليست منا ، وكأن الحديث يُعنىٰ به غيرنا .

وقال : **ما أوتي العبد بعد الإيمان . . أفضل من العقل** .

وقال : عقول الناس علىٰ قدر زمانهم .

وقال : إن العبد إذا استوت سريرته وعلانيته . . قال الله عز وجل : هـٰذا عبدي حقاً .

وكان مطرف إذا كان ليلة الجمعة . . أدلج علىٰ فرسه ، فربما نَوَّر له سوطه ، فأدلج ليلة ، فنور له سوطه ، حتىٰ إذا كان عند القبور . . هوَّم[1] علىٰ فرسه ، قال : فرأيت أهل القبور صاحب كل قبر جالساً علىٰ قبره ، فلما رأوني . . قالوا : هـٰذا مطرف يأتي الجمعة ، قال : قلت : أتعلمون عندكم الجمعة ؟ قالوا : نعم ، نعلم ما يقول الطير فيه ، قال : قلت : وما يقول ؟ قال : يقول : سلام سلام من يوم صالح .

وكان إذا دخل بيته . . سبحت معه آنية بيته .

وكان بين مطرف وبين رجل من قومه شيء ، فطالبه ، فأنكره ، فقال له مطرف : إن كنت كاذباً . . فأماتك الله ـ أو قال له : تعجَّل الله بك ـ قال : فخر ميتاً مكانه ، قال : فاستعدىٰ

---

(١) هوَّم : هزَّ رأسه من النعاس .

أهله زياداً ـ وهو على البصرة ـ فقال لهم زياد : هل ضربه ؟ هل مسَّهُ ؟ قالوا : لا ، فقال زياد : هل هي إلا دعوة رجل صالح وافقت قدراً .

وعن ثابت البناني ورجل آخر : أنهما دخلا علىٰ مطرف وهو مغمىٰ عليه ، قال : فسطعت منه أنوار ثلاثة ملأته ، نور من رأسه ، ونور من وسطه ، ونور من رجليه وقدميه ، قال : فهالَنا ذلك ، فلما أفاق . . قلنا : كيف أنت يا أبا عبد الله ؟ فقال : صالح إن شاء الله تعالىٰ ، فقلنا : قد رأينا شيئاً هالَنا ، قال : وما هو ؟ قلنا : أنوار سطعت منك ، قال : فنكس رأسه وقال : تلك ﴿الٓمٓ﴾ السجدة ، وقد صُوِّرت لي تشفع لي ، وهـٰذا ثوابها ، جعله الله عز وجل يحرسني . أو كما قال .

وكان شخص ـ يقال له : مورق ـ سجنه الحجاج ، فسأل والده مطرفاً أن يدعو له ، فدعا له وأمَّن الحاضرون علىٰ دعائه ، فلما كان العشي . . خرج الحجاج ، ودخل الناس ، ودخل أبو مورق فيمن دخل ، فقال الحجاج لحرسه : اذهب إلى السجن ، فادفع ابن هـٰذا الشيخ إليه . من غير أن يكلمه فيه أحد من الناس .

وكان من دعاء مطرف : اللهم ؛ إني أعوذ بك من شر السلطان ، ومن شر ما تجري به أقلامهم ، وأعوذ بك أن أقول بحق أطلب به غير طاعتك ورضىٰ وجهك الكريم ـ أو قال : ابتغاء مرضاتك ـ وأعوذ بك أن أتزين للناس بشيء يشينني عندك ، وأعوذ بك أن أستعين بشيء من معاصيك علىٰ ضر نزل بي ، وأعوذ بك أن تجعلني عبرة لأحد من خلقك ، وأعوذ بك أن تجعل أحداً أسعد بما علمته مني .

اللهم ؛ لا تخزني فإنك بي عالم ، ولا تعذبني فإنك علي قادر .

وكان يقول : اللهم ؛ إني أستغفرك مما تبت منه إليك ثم عدت فيه ، وأستغفرك مما جعلته لك علىٰ نفسي ثم لم أوف لك به ، وأستغفرك مما زعمت أني أردت به وجهك فخالط قلبي فيه ما قد علمت .

وكان يقول : اللهم ؛ ارض عنا ، فإن لم ترض عنا . . فاعف عنا ؛ فإن المولىٰ قد يعفو عن عبده وهو غير راض عنه .

وكان يقول : اللهم ؛ تقبل مني صياماً ، اللهم ؛ تقبل مني صلاة ، اللهم ؛ اكتب لي حسنة ، ثم قال : ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ .

وقال : نظرت في بدء هـٰذا الأمر ممن هو ؟ فإذا هو من الله تعالىٰ ، قال : قلت : فعلىٰ

من تمامه ؟ فإذا هو على الله عز وجل ، ونظرت ما ملاكه ؟ فإذا ملاكه الدعاء .

وقال : إذا دخلتم على المريض . . فإن استطعتم أن يدعو لكم ؛ فإنه قد حُرِّك .

وقال : أقبح ما طُلِب به الدنيا . . عمل الآخرة .

وقال مطرف : ليُعظَّمْ جلال الله سبحانه وتعالىٰ أن يُذكَر عند الحمار والكلب ، فيقول أحدكم لكلبه أو لشاته : أخزاك الله ، وفعل الله بك .

وغاب ابن لمطرف . . فلبس جبة ، وأخذ عصىٰ في يده ، وقال : أتمسكن لربي عز وجل ؛ لعله يرحمني ، فيرد علي ولدي .

وقال لبعض إخوانه : إذا كانت لك حاجة إلي . . فاكتبها في ورقة ولا تكلمني بها ؛ فإني أكره أن أرىٰ في وجهك ذل السؤال .

وقال : وجدت الغفلة التي ألقاها الله عز وجل في قلوب الصديقين رحمة رحمهم بها ؛ فإنه لو ألقىٰ في قلوبهم الخوف علىٰ قدر معرفتهم به . . لما هنأهم العيش ، أو لماتوا .

أسند مطرف عن غير واحد من الصحابة ، فمما رواه عن أبيه عبد الله قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ، ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء[1] .

وعن مطرف بن عبد الله ، عن حذيفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فضل العلم أحبُّ إليَّ من فضل العبادة ، وخير دينكم الورع »[2] . لم يروه متصلاً عن الأعمش . . إلا عبد الله بن عبد القدوس . انتهىٰ [« الحلية » ٢/١٩٨-٢١٢] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان مطرِّف يلبَس البرانس والمطارف ، ويركب الخيل ، ويغشى الأمراء غير أنك إذا أفضيت إليه . . أفضيت إلىٰ قرة العين .

وكان يقول : يا إخوتاه ؛ اجتهدوا في العمل ، فإن يكن الأمر كما نرجو من رحمة الله عز وجل وجميل عفوه . . كانت لنا درجات في الجنة ، وإن يكن الأمر شديداً كما نخاف ونحذر . . لم نقل : ربنا أرجعنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل ، قد عملنا فلم ينفعنا ذلك .

وقال : سمعت رجلاً يقول بعرفة : اللهم ؛ لا ترد هـٰذا الجمع من أجلي ، فقال مطرف : هـٰذا العارف بنفسه .

---

(١) أخرجه أحمد (٤/٢٦) .

(٢) أخرجه الحاكم (١/١٧٠) .

وكان يقول : إن هـٰذا الموت قد أفسد علىٰ أهل النعيم نعيمهم ، فاطلبوا نعيماً لا موت فيه .

وقال : لو علمت متىٰ أجلي . . لخشيت علىٰ عقلي ، ولـٰكن الله تعالىٰ مَنَّ علىٰ عباده بالغفلة عن الموت ، ولولا الغفلة . . ما تهنَّأوا العيش ، ولا قامت بينهم الأسواق .

توفي رحمه الله بعد الطاعون الجارف ، لما تولى الحجاج العراق ، وكان سنة سبع وثمانين ، في خلافة الوليد بن عبد الملك . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/١١٩-١٢٢] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو العلاء يزيد بن الشخير
أخو مطرف بن الشخير
رضي الله عنهما

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : عن عمر بن السكن قال : كنت عند سفيان بن عيينة ، فقام إليه رجل ، فقال : يا أبا محمد ؛ أخبرني عن قول مطرف : لأَن أعافىٰ فأشكر . . أحب إلي من أن أُبتلىٰ فأصبر ، أهو أحب إليك أم قول أخيه أبي العلاء : اللهم ؛ رضيت لنفسي ما رضيت لي ؟ قال : فسكت سكتة ، ثم قال : قول مطرف أحب إلي ، فقال الرجل : كيف وقد رضي هـٰذا لنفسه ما رضيه الله عز وجل له ؟! فقال سفيان رحمه الله : إني قرأت القرآن ، فوجدت صفة سليمان عليه الصلاة والسلام مع العافية التي كان فيها : ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ ، ووجدت صفة أيوب عليه الصلاة والسلام مع البلاء الذي كان فيه : ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ ، فاستوت الصفتان ، وهـٰذا معافىٰ وهـٰذا مبتلىٰ ، فوجدت الشكر قد قام مقام الصبر ، فلما اعتدلا . . كانت العافية مع الشكر أحب إلي من البلاء مع الصبر .

وعن ثابت البناني قال : كان الحسن في مجلس ، فقيل لأبي العلاء يزيد : تكلم ، فقال : أوَهناك أنا ؟! ثم ذكر الكلام ومؤونته وتبعته ، قال ثابت : فأعجبني[1] .

ومما أسند ـ وهو غريب ـ أنه قال : روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ في مرض موته . . لم يفتن في قبره ، وأمن من ضغطة القبر ، وحملته الملائكة يوم القيامة بأكفها حتىٰ تجيزه من الصراط إلى الجنة »[2] .

وعن يزيد ، عن أبيه عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله عز

---

(١) قال الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (٤/ ٤٩٤) : ينبغي للعالم أن يتكلم بنية وحسن قصدٍ ، فإن أعجبه كلامه . . فليصمت ، فإن أعجبه الصمت . . فلينطق ، ولا يَفْتُرْ عن محاسبة نفسه ؛ فإنها تحب الظهور والثناء .

(٢) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٦/ ٥٧) .

وجل ليبتلي العبد بالرزق ؛ لينظر كيف يعمل ، فإن رضي . . بورك له ، وإن لم يرض . . لم يبارك له »[1] وهـٰذا غريب أيضاً . انتهىٰ [« الحلية » ٢/٢١٢ـ٢١٣] .

.وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان يزيد يقرأ في المصحف حتىٰ يُغشىٰ عليه .

وحدَّث يزيد عن أبيه وغيره ، وتوفي بالبصرة ، سنة إحدىٰ عشرة ومئة . [انتهىٰ « الصفوة » ١٢٦/٣] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) أخرجه أيضاً الطبراني في « الأوسط » (٨/ ١٨٩) ، بلفظ : « إن الله ليبتلي العبد لينظر . . . » .

ومنهم الإمام :

صفوان بن مُحْرِز المازني
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : عن الحسن ، عن صفوان بن محرز قال : إذا رجعت إلىٰ أهلي وقدموا إليَّ رغيفاً طرد عني الجوع وكوز ماء . . فعلى الدنيا وأهلها العفاء .

وكان إذا قرأ هـٰذه الآية : ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ . . يبكي بكاء شديداً حتىٰ يغمىٰ عليه .

وكان له سَرَبٌ[1] يبكي فيه .

وكان قومه وإخوانه يجتمعون ويتحدثون في أمر الآخرة وأهوال القيامة ، فلا يجدون رقة ، فيقولون : يا صفوان ؛ حدث أصحابك ، قال : فبمجرد ما يقول : الحمد لله . . يرق القوم ، وتسيل دموعهم ، كأنها أفواه المزاود[2] .

وأخذ عبيد الله بن زياد ابنَ أخي صفوان ، فشفع الناس فيه ، حتىٰ لم يبق أحد إلا كلمه فيه ، فلم يقبل ابن زياد ، فقال صفوان : أخطأتم الطريق ؛ لأنكم طلبتم حاجتكم من غير وجهها ، فصلىٰ ودعا ، فَنُبِّه ابن زياد لحاجة صفوان خاصة في الليل ، فقال : عَلَيَّ بابن أخي صفوان ، فجاء الحرس والشرط والنيران ، وفتحت أبواب السجون ، وجيء بابن أخي صفوان إلىٰ ابن زياد ، فقال له : أنت ابن أخي صفوان ؟ قال : نعم ، قال ابن زياد : أطلقوه ؛ فإني قد منعت النوم منذ الليلة ، فأُطلق ، فجاء إلىٰ صفوان ، وأخبره الخبر ، وأنه خلىٰ عنه بلا كفيل ولا شيء .

وعنه قال : كان لداوود عليه الصلاة والسلام يوم يتأوه فيه ، يقول : أوه من عذاب الله! أوه من عذاب الله! أوه من عذاب الله! فذكر صفوان هـٰذا يوماً في مجلسه ، فبكىٰ حتىٰ أغمي عليه ، وقام من مجلسه .

---

(١) **السَّرَب** : بيت في جوف الأرض .

(٢) **المزاود** : جمع المزادة ، وهي : الظرف الذي يحمل فيه الماء كالراوية والقربة .

وكان له خص[1] فيه جذع ، فانكسر الجذع ، فقيل له : ألا تصلحه ؟ فقال : دعوه ، إنما أنا أموت غداً .

أسند عن عدة من الصحابة رضوان الله عليهم . انتهىٰ [« الحلية » ٢/ ٢١٤ـ٢١٥] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال الحسن : لقيت يوماً أقواماً كانوا فيما أحل الله لهم أزهد منكم فيما حرم الله عليكم ، ولقد لقيت أقواماً كانوا من حسناتهم أشفق ألاَّ تقبل منكم من سيئاتكم ، ولقد صحبت أقواماً كان أحدهم يأكل على الأرض ، وينام على الأرض ، منهم صفوان بن محرز المازني ، ما زاد علىٰ رغيف حتىٰ فارق الدنيا ، يظل صائماً ، ويفطر علىٰ رغيف ، ويشرب عليه من الماء حتىٰ يروىٰ ، ثم يقوم يصلي إلى الفجر ، فإذا صلى الفجر . . أخذ المصحف ، ووضعه في حجره ، يقرأ حتىٰ يدخل النهار ، ثم يقوم فيصلي حتىٰ ينتصف النهار ، فإذا انتصف النهار . . رمىٰ نفسه على الأرض ، فنام إلى الظهر ، كانت تلك نومته حتىٰ فارق الدنيا ، فإذا صلى الظهر . . قام فصلى العصر ، فإذا صلى العصر . . وضع المصحف في حجره ، فلا يزال يقرأ حتىٰ تصفَرَّ الشمس .

وكان له سَرَب لا يخرج منه إلا إلى الصلاة .

توفي بالبصرة ، في ولاية بشر بن مروان . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/ ١٢٢ـ١٢٣] .

وقال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : قال الحسن : دخلنا علىٰ صفوان بن محرز ، وهو في بيت من قصب قد مال عليه ، فقيل : لو أصلحته ؟ فقال : كم من رجل قد مات وهـٰذا قائم . [انتهىٰ « الإحياء » ٤/ ٢٣٦] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) **الخصُّ** : البيت من القصب .

ومنهم الإمام :

أبو العالية
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : قال أبو العالية[1] : تعلمت القرآن والكتابة ، فما شعر بي أهلي ، ولا رُئِيَ في ثوبي مداد قط .

وقال أبو العالية : زارني عبد الكريم أبو أمية وعليه ثياب من صوف ، فقلت له : هـٰذا زي الرهبان ، إن المسلمين إذا تزاوروا . . تجملوا .

وكان إذا جلس إليه أكثر من أربعة . . قام .

وقال : اعمَلْ بالطاعة ، وأَحِبَّ عليها من عمل بها ، واجتنب المعصية ، وعادِ عليها من عمل بها ، فإن شاء الله . . عذبهم ، وإن شاء . . غفر لهم .

وقال : مِن نِعَمِ الله عز وجل عَلَيَّ أن هداني للإسلام ، وعافاني من هـٰذه الأهواء .

وقال : ما مسست ذكري بيميني منذ خمسين سنة[2] .

وقال : إني لأرجو ألاَّ يهلك عبد بين نعمتين ، نعمةٍ يحمد الله تعالىٰ عليها ، وذنب يستغفر الله تعالىٰ منه .

وعنه قال : كنا نحدث منذ خمسين سنة أن الرجل إذا مرض . . قال الله لملائكته : اكتبوا لعبدي ما كان يعمل في صحته ، حتىٰ أقبضه أو أخلي سبيله ، وكنا نحدث منذ خمسين سنة أن الأعمال تعرض على الله عز وجل ، فما كان لله عز وجل . . قال : هـٰذا لي وأنا أجزي به ، وما كان لغيره . . قال : اطلبوا ثواب هـٰذا ممن عملتموه له .

وكان يقول : تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات ؛ فإنه أحفظ لكم ، فإن جبريل عليه الصلاة والسلام كان ينزل بخمس آيات خمس آيات .

---

(١) **أبو العالية** : رُفَيع بن مِهْران ، الإمام المقرىء الحافظ المفسر .

(٢) في « الحلية » : (منذ ستين سنة أو سبعين سنة) .

وقال في قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ قال : لا تأخذوا علىٰ ما علَّمتم أجراً ؛ فإنما أجر العلماء والحكماء على الله عز وجل .

وقال : كنت أرحل مسيرة أيام إلىٰ رجل ؛ فإذا وصلت إليه . . فأول ما أتفقد منه أمر صلاته ، فإن وجدته يقيمها ويتمها . . أقمت عنده وسمعت منه ، وإن وجدته يضيِّعها . . رجعت ولم أسمع منه ، وأقول : هو لغير الصَّلاة أضيَع .

وعنه قال : قال لي أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم : لا تعمل لغير الله تعالىٰ . . فيكلك الله عز وجل إلىٰ من عملت له .

وكان إذا أراد أن يختم القرآن من آخر النهار . . أخَّره إلىٰ أن يمسي ، فإذا أراد أن يختمه من آخر الليل . . أخَّره إلىٰ أن يصبح .

وعن مغيرة قال : أول من أذن وراء النهر أبو العالية .

وقال مهاجر أبو خالد مولىٰ ثقيف : كان أبو العالية جاري ، وكان يقول لي : سلني واكتب عني قبل أن تلتمس العلم عند غيري فلا تجده .

وكان إذا دخل عليه أصحابه . . يُرحِّب بهم ، ثم يقرأ : ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .

وعن أبي العالية قال : كان يقال : ابتدروا بين خلال الكلام : لا إلـه إلا الله .

وعنه قال : قال موسىٰ عليه الصلاة والسلام لقومه : قدِّسوا الله عز وجل بأصوات حسنة .

وقال : إن الله عز وجل قضىٰ علىٰ نفسه أن من آمن به . . هداه ، وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل : ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ ، ومن توكل على الله . . كفاه ، وتصديق ذلك : ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ ، ومن أقرضه . . جازاه ، وتصديق ذلك من كتاب الله : ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ، ومن استجاره من عذابه . . أجاره ، وتصديق ذلك من كتاب الله عز وجل : ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ ، والاعتصام الثقة بالله تعالىٰ ، ومن دعاه . . أجابه ، وتصديق ذلك : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ .

وعن سيار أبي المنهال قال : رأيت أبا العالية يتوضَّأ ، فقلت : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ

﴿ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ ، قال : ليس المتطهرون من الماء ، ولـٰكن المتطهرون من الذنوب .

وروىٰ أبو العالية عن أبي بكر الصديق ، وعلي بن أبي طالب ، وأُبي بن كعب ، وابن عباس ، وغيرهم من الصحابة ، رضوان الله عليهم أجمعين .

فمن أحاديثه : ما رواه عن أُبي بن كعب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالىٰ : ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ﴾ « أي : بعد الإقرار بالميثاق الأول في صلب آدم عليه الصلاة والسلام » هـٰذا حديث غريب .

وعن أبي العالية ، عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن النبي صلى الله عليه وسلم أتىٰ علىٰ وادي الأزرق ، فقال : « كأني أنظر إلىٰ موسىٰ عليه الصلاة والسلام وله جؤار إلىٰ ربه عز وجل بالتلبية » ، ثم مرَّ علىٰ ثنية ، فقال : « ما هـٰذه الثنية ؟ » قيل : ثنية كذا وكذا ، قال : « كأني أنظر إلىٰ يونس بن متَّىٰ عليه الصلاة والسلام علىٰ ناقة جعدة حمراء ، خطامها من ليف ، وعليها جبة من صوف »[1] انتهىٰ [« الحلية » ٢/٢١٧ـ٢٢٣] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : أبو العالية اسمه : رفيع ، أعتقته امرأة من بني رياح .

قال أبو العالية : دخلت المسجد مع مولاتي ، فلما رأت الإمام على المنبر . . أخذت بيدي ، وقالت : اللهم ؛ إني أدَّخره عندك ذخيرة ، فاشهدوا يا أهل المسجد أنه سائبة لله عز وجل .

وقال أبو العالية : كنا نعد من أعظم الذنوب أن يتعلم الرجل القرآن ، ثم ينام عنه حتىٰ ينساه .

وقال سيار بن سلامة : دخلت علىٰ أبي العالية في مرضه الذي مات فيه ، فقلت له : يعافيك الله عز وجل ، فقال : إنَّ أحبَّه إليَّ . . أَحبُّه إلى الله عز وجل .

توفي في شوال ، سنة تسعين ، رحمه الله تعالىٰ . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/١١١ـ١١٢] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرج مسلم (١٦٦) عن أبي العالية ، عن ابن عباس رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ بوادي الأزرق فقال : « أي واد هـٰذا ؟ » فقالوا : هـٰذا وادي الأزرق ، قال : « كأني أنظر إلىٰ موسىٰ عليه السلام هابطاً من الثنية وله جؤار إلى الله بالتلبية » ، ثم أتىٰ علىٰ ثنية هرشي ، فقال : « أي ثنية هـٰذه ؟ » قالوا : ثنية هرشي ، قال : « كأني أنظر إلىٰ يونس بن متىٰ عليه السلام علىٰ ناقة حمراء جعدة ، عليه جبة من صوف ، خطام ناقته خلبَةٌ ـ ليف ـ وهو يلبي » .

ومنهم الإمام :

بكر بن عبد الله المزني
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال معاوية بن عبد الكريم : سمعت بكر بن عبد الله المزني يقول يوم الجمعة وأهل المسجد أحفل[1] ما كانوا : لو قيل لي : خذ بيد خير أهل المسجد . . لقلت دلوني علىٰ أنصحهم لعامتهم ؛ فإنه خيرهم ، ولو قيل لي : خذ بيد شرهم . . لقلت : دلوني علىٰ أغشهم لعامتهم ؛ فإنه شرهم ، ولو أن منادياً من السماء قال : لا يدخل الجنة منكم إلا رجل واحد . . لكان ينبغي لكل إنسان أن يجتهد في العبادة لعله أن يكون ذلك الواحد ، ولو قيل : لا يدخل النار منكم إلا رجل واحد . . لكان ينبغي لكل إنسان أن يخشىٰ أن يكون هو ذلك الواحد .

زاد في رواية : وما كنت لأشهد علىٰ خيرهم أنه مؤمن مستكمل الإيمان ؛ إذاً لشهدت أنه من أهل الجنة ، وما كنت لأشهد علىٰ شرهم أنه منافق بريء من الإيمان ؛ إذاً لشهدت أنه من أهل النار ، ولـٰكني أخشىٰ علىٰ محسنهم ، وأرجو لمسيئهم .

وقال : لا يكون الرجل تقياً حتىٰ يكون تقي الطمع ، تقي الغضب .

وكان قد جعل لله عز وجل علىٰ نفسه أنه لا يسمع رجلين يتنازعان في القَدَر . . إلا قام فصلىٰ ركعتين .

وقال : يكفيك من الدنيا ما قَنِعَتْ به نفسك ، وهو : كفٌّ من تمر ، وشربة من ماء ، وظل خباء ، وكلما انفتح عليك من الدنيا شيء . . ازدادت نفسك لها مقتاً .

وكان يدعو أبداً بهـٰذا الدعاء ـ لا يدعه ـ : **اللهم ؛ افتح لنا من خزائن رحمتك رحمة لا تعذبنا بعدها أبداً في الدنيا ولا في الآخرة ، وافتح لنا من رزقك الواسع رزقاً حلالاً طيباً**

---

(١) **الحفلُ** : الجمع من الناس ، وأحفل ما كانوا : أكثر ما كانوا .

لا نفتقر بعده إلىٰ أحد غيرك ، نزداد لك بهما شكراً ، وإليك فاقة وفقراً ، ونستغني بفضلك عمن سواك يا أرحم الراحمين .

وكان إذا رأىٰ شيخاً . . قال : هـٰذا خير مِنِّي ، عَبَدَ اللهَ تعالىٰ قبلي ، وإذا رأىٰ شابّاً . . قال : هـٰذا خير مني ، ارتكبت من الذنوب أكثر مما ارتكب .

وكان يحذِّر من سوء الظن بالناس ويقول : إنكم إن أصبتم فيما ظننتم أو أخطأتم . . أثمتم ، فينبغي الاحتراز منه علىٰ كل حال .

وقال : إذا رأيت إخوانك من المسلمين يكرمونك . . فقل : هـٰذا فضل منهم ، وإن رأيت منهم جفاء . . فقل : هـٰذا بذنب أحدثتُه ، فتب إلى الله عز وجل منه .

وكانت كسوة بكر بن عبد الله قيمتها أربعة آلاف درهم ، وكان لا يبرح عن مجالسة الفقراء والمساكين ، وقال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين يلبسون لا يعيبون على الذين لا يلبسون ، والذين لا يلبسون لا يعيبون على الذين يلبسون .

وقال : أنا أعيش عيش الأغنياء ، وأموت موت الفقراء ، فمات وعليه دَين . وقال : من يأتي الخطيئة وهو يضحك ثم لا يتوب . . دخل النار وهو يبكي .

وكان مجاب الدعوة .

وأسند عن جماعة من الصحابة ، رضوان الله عليهم أجمعين . انتهىٰ [« الحلية » ٢/ ٢٢٤ـ٢٣٠] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : وقف مطرّف بن الشخير في الموقف وبكر بن عبد الله المزني ، فقال مطرّف : اللهم ؛ لا تردهم من أجلي ، وقال بكر : ما أشرفه من جمع وأعظمه! لولا أني فيهم . رحمهما الله تعالىٰ[1] .

وقال بكر : من مثلك يابن آدم ؟! قد خلي بينك وبين المحراب والماء ، كلما اشتهيت . . دخلت في الوقوف بين يدي الله سبحانه وتعالىٰ ، ليس بينك وبينه ترجمان .

وقال بكر بن عبد الله : إذا رأيتم الرجل موكَّلاً بعيوب الناس ، ناسياً لعيبه . . فاعلموا أنه قد مُكِرَ به .

---

(١) جاء في هامش نسخة : (وفي رواية أخرىٰ : قال لما نظر إلىٰ أهل عرفات : إنهم قد غفر لهم ؛ لولا أني كنت فيهم) .

وقال مسمع بن عاصم : حدثني رجل من آل عاصم قال : رأيت عاصماً بعد موته بسنتين ، فقلت : أليس قد مِتَّ ؟ قال : بلىٰ ، فقلت : فأين أنت ؟ قال : أنا ـ والله ـ في روضة من رياض الجنة ، أنا ونفر من أصحابي ، نجتمع كل ليلة جمعة ، وفي صبيحتها نروح إلىٰ بكر بن عبد الله المزني نزوره ، ونسمع أخباركم ، قلت : أجسامكم وأرواحكم ؟ فقال : بليت الأجسام ، وإنما التلاقي الآن بالأرواح ، إلىٰ أن يُنفخ في الصور ، وتقوم الساعة ، فعندها تعود الأجسام ، فتدخل فيها الأرواح .

توفي سنة ثمان ومئة ، رضي الله عنه . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/١٣٨ـ١٣٩] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

صِلَة بن أَشْيَمَ العدوي
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : كنيته : أبو الصهباء .

وعن ثابتٍ البناني قال : كان صلة بن أشيم يخرج إلى الجَبَّانِ[1] ، فيتعبد فيها في ناحية عن القبور ، ويمر في طريقه علىٰ شباب يلعبون ، فيقول لهم : أخبروني عن قوم أرادوا سفراً ، فقطعوا النهار عن الطريق ، وناموا ليلاً ، متىٰ يصلون مقصدهم ؟ فكان يقول لهم ذلك كلما مر بهم ، فقال لهم يوماً هـٰذه المقالة ، فتنبه شاب منهم ، وقال : يا قوم ؛ والله ما يعني بهـٰذا غيرنا ، نحن بالنهار نلهو ، وبالليل ننام ، ثم إنه أَتَّبعَ صلة بن أشيم ، وجعل يتعبد معه حتىٰ مات .

ومات له أخ ، فجاءه شخص وهو يأكل ، فقال : يا أبا الصهباء ؛ إن أخاك مات ، فقال له : هلم فكل ؛ فقد نعي إلي قبل ذلك ، فقال له : والله ؛ ما سبقني إليك أحد من الناس ، فمن نعاه ؟! قال : فقال له : قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ .

وقالت معاذة العدوية امرأته ـ رحمها الله ـ : كان أبو الصهباء يصلي حتىٰ ما يستطيع أن يأتي فراشه إلا زحفاً .

وقال جعفر بن زيد : خرجنا في غزاة وفي الجيش صلة بن أشيم ، فنزل الناس عند العشاء ، فقلت : لأرمقن عمله ، فاضطجع ، فالتمس غفلة الناس ، حتىٰ إذا هدأت العيون . . وثب ، فدخل غَيْضة[2] قريباً منه ، ودخلت في أثره ، فتوضأ ، ثم قام يصلي ، وجاء الأسد حتىٰ دنا منه ، قال : فصعدت في شجرة ، قال : فتراه التفت إليه أو عَدَّه كلباً حتىٰ سجد ، فقلت : الآن يفترسه ، فجلس ، ثم سلم ، وقال : أيها السبع ؛ اطلب الرزق

---

(١) **الجَبَّان** : المقبرة .

(٢) **الغيضة** : الموضع الذي يكثر فيه الشجر ويلتف .

من مكان آخر ، فولى الأسد هارباً ، ومازال يصلي إلى الصباح ، فلما كان الصبح . . جلس ، فحمد الله تعالىٰ بمحامد لم أسمع بمثلها إلا ما شاء الله ، ثم قال : اللهم ؛ إني أسألك أن تجيرني من النار ، أَوَمثلي يجترىء أن يسألك الجنة ؟! ثم رجع ، فأصبح كأنه بات على الحشايا[1] .

وأصبحت وبي من الفترة شيء الله به عليم ، قال : فلما دنونا من أرض العدو . . ذهبت بغلته بثقلها ، فقال الأمير : لا يتأخرن أحد عن العسكر ، وكان صلة يصلي ، فقالوا له : إن الناس قد ذهبوا ، فقال : دعوني أصلي ركعتين ، فقالوا : الناس قد ذهبوا ، فقال : إنهما خفيفتان ، قال : فصلىٰ ودعا ، فقال : اللهم ؛ إني أقسم عليك أن ترد بغلتي بثقلها ، قال : فجاءت حتىٰ وقفت بين يديه ، قال : فلما لقينا العدو . . حمل هو وهشام بن عامر ، فصنعا بهم طعناً وضرباً وقتلاً ، فانكسر العدو ، وقالوا : رجلان من العرب صنعا بنا هـٰذا ؟ فكيف لو قاتلونا كلهم ؟! فأعطوا المسلمين ما أرادوا منهم .

وقال صلة بن أشيم : كنت أسير علىٰ دابة ؛ إذ جعت جوعاً شديداً ، فلم أجد أحداً يبيعني طعاماً ، فبينا أنا أسير ؛ دعوت ربي سبحانه وتعالىٰ واستطعمته ، فلم ألبث إذ سمعت وَجْبَةً[2] من خلفي ؛ فإذا أنا بمنديل أبيض ، فنزلت عن دابتي وأخذت المنديل ؛ فإذا فيه دَوخلَّة[3] ملأىٰ رطباً ، فأخذته ، وركبت دابتي ، وأكلت منه حتىٰ شبعت ، وأدركني المساء ، فنزلت إلىٰ راهب في دير له ، فحدثته الحديث ، فاستطعمني من الرطب ، فأطعمته رطبات ، فلم يأكلهن ، ثم فارقته ، وأتيت إليه بعد مدة ؛ فإذا نخلاتٌ حسانٍ يحملن أكثر ما يكون ، فقال لي : إن هـٰذه النخلات رطباتك التي أطعمتني .

ولما كان ليلة بنائه بزوجته معاذة العدوية . . أُدخِل إلى الحمَّام ، ثم أُدخِل عليها في بيت فيه طِيب كثير ، فقام يصلِّي ، فلما رأته يصلِّي . . قامت هي أيضاً تصلِّي ، فلم يزالا يصلِّيان حتىٰ برق الفجر ، فأتاه ابن أخيه ، فقال له : يا عم ؛ أُهديت إليك ابنة عمك ، فقمت تصلي وتركتها ؟ فقال : يابن أخي ؛ إنك أدخلتني أمس بيتاً أذكرتني به النار ، ثم أدخلتني اليوم بيتاً أذكرتني به الجنة ، فما زالت فكرتي فيهما حتىٰ أصبحت .

---

(١) **الحَشَايا** : جمع حَشِيَّة ، وهي : الفراش المحشو .
(٢) **الوَجْبَةُ** : صوت السقوط .
(٣) **الدَّوخَلَّةُ** : ما ينسج من الخوص ويجعل فيه الرطب .

وقال صلة بن الأشيم لامرأته معاذة ـ رحمها الله ـ : ليكن شعارك الموت ، فإذا كنت كذلك . . لا تبالين علىٰ يسير أصبحت من الدنيا أو علىٰ كثير .

وقال الحسن : مات أخ لنا ، فصلينا عليه ، فلما وضع في قبره . . جاء صلة ، ونادىٰ : يا فلان بن فلان :

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة وإلا . . فـإنـي لا إخـالُـك نـاجيـا

وقال رجل لصلة : ادع لي ، فقال : رغَّبك الله فيما يبقىٰ ، وزهَّدك فيما يفنىٰ ، ووهب لك اليقين حتىٰ لا تسكن إلا إليه ، ولا تعول إلا عليه سبحانه وتعالىٰ .

وقال ثابت : كان صلة في مغزىً له ومعه ابن له ، فقال : أي بني ؛ تقدم فقاتل ، حتىٰ أحتسبك ، فتقدم فقاتل حتىٰ قتل ، ثم تقدم هو ، فقاتل حتىٰ قتل ، فجاء النساء إلى امرأته معاذة العدوية ـ رحمها الله ـ فقالت : إن كنتن جئتن لتُهنِّئْنَنِي . . فمرحباً بكنّ ، وإن كنتنّ جئتنّ لغير ذلك . . فارجعن .

ولقي صلة بن أشيم جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم .

وأسند عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وقتل شهيداً في أول إمرة الحجاج . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/ ١١٥ـ١١٧] .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : عن ثابت ، عن معاذة قالت : كان أصحاب صِلَةَ إذا التقوا . . عانق بعضهم بعضاً .

وقال صلة : طلبت المال من وجهه ، فأعياني ، إلا رزق يوم بيوم ، فعرفت أنه قد خِيْر لي .

قال الحسن : وايم الله ؛ ما رُزِق رجلٌ رِزْقَ يوم بيوم ، فلم يعلم أنه قد خِيْر له . . إلا غبي الرأي ، أو عاجز . انتهىٰ [« الحلية » ٢/ ٢٣٨ـ٢٤١] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

العلاء بن زياد
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان للعلاء بن زياد مال ورقيق ، فأعتق ، وأمسك غلاماً أو اثنين يأكل غلتهما ويتعبد ، وكان كل يوم يأكل رغيفين ، وترك مجالسة الناس ، فلم يكن يجالس أحداً .

وكان يصلي في جماعة ، ثم يرجع إلىٰ أهله ، ويروح إلى الجمعة ، ثم يرجع إلىٰ أهله ، ويشيع الجنائز ، ويعود المرضىٰ ، فقالوا : رحمك الله ، أهلكت نفسك ، لا يسعك هـٰذا ، وكلموه وهو ساكت ، فلما فرغوا من كلامهم . . قال : إنما أتذلل لله عز وجل لعله يرحمني .

وقال ابن هلال : دخلت مع الحسن إلى العلاء بن زياد نعوده وقد سله الحزن ، وكانت أخته تندف[1] تحته القطن غدوة وعشية ، فقال له الحسن : كيف أنت يا علاء ؟ فقال : واحزناه على الحزن ، فقال الحسن : قوموا ، فإلىٰ هـٰذا ـ والله ـ انتهى الحزن .

وكان العلاء بن زياد يحيي كل ليلة جمعة ، فوجد ليلة فترة ، فقال لامرأته : إني لأجد فترة ، فإذا مضىٰ من الليل كذا وكذا . . فأيقِظيني ، قالت : نعم ، فأتاه آت في منامه ، فأخذ بناصيته ، فقال : يابن زياد ؛ قم فاذكر الله عز وجل . . يذكرك ، قال : فقام ، فمازالت تلك الشعرات التي أُخذ بها قائمة حتىٰ مات .

وعن هشام ، عن العلاء قال : إنما نحن قوم وضعنا أنفسنا في النار ، فإن شاء الله أن يخرجنا منها . . أخرجنا .

وكان يقول : ليحسبْ أحدكم أنه قد حضر أجله ، فاستقال ربه عز وجل ، فأقاله ، فليعمل بطاعة الله سبحانه وتعالىٰ .

---

(١) **تندف القطن** : تضربه بخشبة كي يصبح طرياً مريحاً .

وكان زياد العدوي قد بكىٰ حتىٰ عمي ، وبكىٰ بعده ابنه العلاء حتىٰ عشي بصره .

وكان إذا أراد أن يتكلم أو يقرأ . . أجهشه البكاء .

وقال هشام بن حسان : تجهز رجل من أهل الشام للحج ، فأتاه آت في منامه ، فقال له : ائت العراق ، ثم ائت البصرة ، ثم ائت بني عدي فأت العلاء بن زياد ؛ فإنه رجل رَبْعة أقصم[1] الثنية بسَّام ، فبشِّرْه بالجنة ، قال : هـٰذه رؤيا ليست بشيء ، فلما كانت الليلة الثانية ورقد . . أتاه الآتي وذكر له مثل ذلك ، فلما كانت الليلة الثالثة . . جاءه بوعيد ، فقال : ألا تأتي العراق ، ثم البصرة ، ثم بني عدي ، فتلقى العلاء بن زياد ، فتبشِّره بالجنة ؟! قال : فأصبح ، فأعد جهازه إلى العراق ، فلما خرج من البيوت ؛ فإذا الذي أتاه في منامه يسير بين يديه ، يراه كيفما سار ، فإذا نزل . . فقده ، فلم يزل يراه حتىٰ دخل الكوفة ، ثم فقده ، فتجهز من الكوفة ، فخرج فرآه يسير بين يديه حتىٰ قدم البصرة ، فأتىٰ بني عدي ، فوقف علىٰ باب العلاء ، فسلم ، قال هشام : فخرجت إليه ، فقال لي : أنت العلاء بن زياد ؟ قلت : لا ، انزل رحمك الله ، فتضع رحلك ومتاعك ، قال : لا ، أين العلاء بن زياد ؟ قال : قلت : هو في المسجد ، وكان العلاء يجلس في المسجد يدعو بدعوات ويتحدث ، قال هشام : فأتيت العلاء ، فخفف من حديثه ، وصلىٰ ركعتين ، ثم جاء ، فلما رآه العلاء . . تبسم ، فبدت ثنيته ، فقال : هـٰذا ـ والله ـ صاحبي ، فقال العلاء لهشام : هلا حططت رحْل الرجل ؟ ألا أنزلته ؟ قال : قد قلت له فأبىٰ ، قال له العلاء بن زياد : انزل رحمك الله ، قال : أخْلِني ، فدخل العلاء منزله ، وقال لامرأته : يا أسماء ؛ تحولي إلى البيت الآخر ، فتحولت ، ودخل الرجل ، فبشره برؤياه ، ثم خرج وركب ، فقام العلاء ، فأغلق بابه ، وبكىٰ بكاء شديداً ثلاثة أيام ـ أو قال : سبعة أيام ـ لا يذوق فيها طعاماً ولا شراباً ، ولا يفتح بابه ، قال هشام : فسمعته في خلال كلامه يقول : أنا ؟ أنا ؟ قال : فكنا نهابه ، وخشينا أن يموت ، فأتيت الحسن ، فذكرت له ذلك ، وقلت : لا أراه إلا ميتاً لا يأكل ولا يشرب باكياً ، فجاء الحسن ، فضرب الباب ، وقال : افتح يا أخي ، فلما سمع كلام الحسن . . قام ففتح بابه وبه من الضر شيء الله به عليم ، فكلمه الحسن ، ثم قال : رحمك الله ، ومِن أهل الجنة إن شاء الله ، أفقاتل نفسك أنت ؟!

قال هشام : حدثنا العلاء ـ لي وللحسن ـ بالرؤيا ، وقال : لا تحدثوا بها ما دمت حياً .

---

(١) أقصم : فلان أقصم الثنية : إذا كان منكسرها من النصف .

توفي رحمه الله في ولاية الحجاج على العراق . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/١٤٢-١٤٤] .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : كان العلاء قد قوَّت نفسه برغيف كل يوم ، وكان يصوم حتىٰ يخضر[1] ، ويصلي حتىٰ يسقط ، فدخل عليه أنس بن مالك والحسن ، فقالا : إن الله عز وجل لم يأمرك بهـٰذا كله ، فقال : إنما أنا عبد مملوك ، لا أدع من الاستكانة والذلة شيئاً . . إلا جئته .

وعن هشام بن حسان قال : كنت أمشي خلف العلاء بن زياد ، فكان يتوقى الطين ، قال : فدفعه إنسان ، فوقعت رجله في الطين ، قال : فخاضه ، فلما وصل إلى الباب . . وقف وقال : رأيت يا هشام ؟ قلت : نعم ، قال : كذلك المرء المسلم يتوقى الذنوب ، فإذا وقع فيها . . خاضها .

• وقال له قائل : إني رأيت كأنك في الجنة ، فقال : ويحك! أمَا وجد الشيطان أحداً يسخر به غيري وغيرك ؟!

وقال : **إنكم في زمان أقلكم الذي ذهب عُشر دينه ، وسيأتي عليكم زمان أقلكم الذي يسلم له عشر دينه .**

وأسند عن جماعة من الصحابة ، رضوان الله عليهم أجمعين . انتهىٰ [« الحلية » ٢/٢٤٣-٢٤٦] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) **الخضرة في ألوان الناس** : السُّمرة .

ومنهم الإمام :

محمد بن سيرين الأنصاري
رضي الله عنه

مولاهم التابعي الإمام في التفسير والحديث والفقه وعبر الرؤيا ، والمقدم في الزهد والورع .

روىٰ أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : عن عبيد الله[1] ابن أبي بكر ابن أنس ، قال : هـٰذه مكاتبة سيرين عندنا : هـٰذا ما كاتب عليه أنس بن مالك فتاه سيرين علىٰ كذا وكذا ألفاً ، وعلىٰ غلامين يعملان عنه .

واسم أم محمد بن سيرين : صفية ، مولاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، طيبها ثلاث من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، ودعين لها ، وحضر إملاكها ثمانية عشر بدرياً ، منهم : أُبي بن كعب يدعو وهم يؤمِّنون .

وكان محمد بن سيرين إذا حدَّث . . كأنه يتقي شيئاً ، أو كأنه يحذر شيئاً .

وكانوا إذا ذكروا رجلاً عند ابن سيرين بسبة . . ذكره محمد بأحسن ما يعلم .

وعن طوق بن وهب قال : دخلت على ابن سيرين فقال : كأني أراك شاكياً ، قلت : أجل ، قال : اذهب إلىٰ فلان الطبيب ، ثم قال : اذهب إلىٰ فلان ؛ فإنه أطب منه ، ثم قال : أستغفر الله ، أراني قد اغتبته .

وعن مورق قال : ما رأيت أفقه في ورعه ، ولا أورع في فقهه . . من ابن سيرين .

وقال أبو قلابة : اصرفوه حيث شئتم . . تجدوه أشدكم ورعاً ، وأملككم لنفسه ، ثم قال : وأينا يطيق ما يطيق ابن سيرين ؟! يركب مثل حد السنان .

وعن أبي عوانة قال : رأيت ابن سيرين يمر في السوق ، فيكبر الناس .

---

(١) في المخطوط : (عبد الله) .

وقال خلف : كان محمد بن سيرين قد أعطي هدْياً وسمتاً وخشوعاً ، وكان الناس إذا رأوه . . ذكروا الله ، وكان إذا مشىٰ معه رجل . . وقف وقال : ألك حاجة ؟

وقال : إذا أراد الله بعبد خيراً . . جعل له واعظاً من نفسه يأمره وينهاه .

وعن ابن عون قال : سمعت ابن سيرين يقول في شيء راجعته فيه : إني لم أقل لك : ليس به بأس ، إنما قلت لك : لا أعلم به بأساً .

وكان إذا سئل عن شيء من الحلال والحرام . . تغير لونه وتبدل ، حتىٰ كأنه ليس بالذي كان .

وعن هشام قال : أوصىٰ أنس بن مالك أن يغسله ابن سيرين وكان محبوساً ؛ فقال : أنا محبوس ، قالوا : قد استأذنَّا الأمير في ذلك ، قال : إن الأمير لم يحبسني ، وإنما حبسني الذي له عليَّ الحق ، فأذن له صاحب الحق ، فخرج فغسله .

ولم يعرض له أمران في دينه . . إلا أخذ بأوثقهما .

وعن هشام : أن ابن سيرين اشترىٰ شيئاً ، فأشرف منه علىٰ ثمانين ألفاً ، فعرض في قلبه منه شيء ، فتركه ، قال هشام : ما هو ـ والله ـ برِبا .

وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، اليوم الذي يفطر فيه يتغدىٰ ولا يتعشىٰ ، ثم يتسحَّر ، ويصبح صائماً .

وكان يدخل السوق نصف النهار يكبِّر ويسبِّح ويذكر الله تعالىٰ ، فقيل له في ذلك ، فقال : إنها ساعة غفلة .

وكان لا يكلم أمه بلسانه كله ؛ تخشعاً وإكراما لها . انتهىٰ [« الصفوة » ١٣٣ـ١٣٥] .

وقال النووي ـ قدس الله روحه ـ : أولاد سيرين ستة : محمد ، ومعبد ، وأنس ، ويحيىٰ ، وحفصة ، وكريمة ، كلهم رواة ثقات ، وروىٰ محمد عن يحيىٰ عن أنس عن أنس بن مالك حديثاً ، وهـٰذا من المستطرفات ؛ لكونهم ثلاثة إخوة روىٰ بعضهم عن بعض[1] .

وقال ابن عون : كان ابن سيرين يحدث بالحديث علىٰ حروفه .

---

(١) الحديث ذكره ابن الصلاح في النوع الثالث والأربعون من مقدمته ، ورواه الخطيب البغدادي في « تاريخه » (٢١٨/١٤) .

وقال محمد بن سعد : كان ثقة ، مأموناً ، عالياً ، رفيعاً ، فقيهاً ، إماماً ، كثير العلم ، ورعاً .

وعن محمد بن سيرين قال : حججنا ، فدخلنا المدينة علىٰ زيد بن ثابت رضي الله عنه ونحن سبعة من ولد سيرين ، فقال : هـٰذان لأم ، وهـٰذان لأم ، وهـٰذان لأم ، وهـٰذا لأم ، فما أخطأ رضي الله عنه ، وكان معبد أخاه لأمه .

ولما حبس ابن سيرين . . قال له السَّجَّان : إذا كان الليل . . فاذهب إلىٰ أهلك ، وإذا أصبحت . . تعال ، فقال : لا ، والله ؛ لا أعينك علىٰ خيانة السلطان .

قال الخطيب : وكان سبب حبسه أنه اشترىٰ زيتاً بأربعين ألف درهم ، فوجد في زقّ[1] منه فأرة ، فقال : الفأرة كانت في المعصرة ، فصب الزيت كله ، وكان يقول : عيرت رجلاً بشيء من ثلاثين سنة ، أحسبني عوقبت به . انتهىٰ [« التهذيب » ١/ ٨٢ـ٨٤] .

وقال أبو الفرج : وعن ابن عون قال : دخل رجل على ابن سيرين وهو عند أمه كأنه عليل ، فقال : ما شأن ابن سيرين ؟ أيشتكي شيئاً ؟ قالوا : لا ، لـٰكنه ، هـٰكذا يكون إذا كان عند أمه .

وقال : إن من الظلم البين لأخيك . . أن تذكر شر ما فيه وتكتم خيره .

وقال ابن عون : أرسل ابن هبيرة إلى ابن سيرين ، فأتاه ، فقال له : كيف تركت أهل مصرك ؟ قال : تركتهم والظلم فيهم فاش ، قال ابن عون : كان ابن سيرين يرىٰ أنها شهادة يسأل عنها ، فكرِهَ أن يكتمها .

وكانت لابن سيرين منازل لا يكريها إلا لأهل الذمة ، فقيل له في ذلك ، فقال : لأنه إذا جاء رأس الشهر . . رُعْته ، وإني أكره أن أروع مسلماً .

وعن عبد الله بن السري قال : قال ابن سيرين : **إني لأعرف الذنب الذي حمل عَلَيَّ الدَّين ما هو ، وذلك أني قلت لرجل من أربعين سنة : يا مفلس ، فحدثت به أبا سليمان الدَّاراني ، فقال : قَلَّتْ ذنوبهم ، فعرفوا من أين يؤتون ، وكثرت ذنوبي وذنوبك ، فليس ندري من أين نؤتىٰ .**

وكان عامة كلام ابن سيرين : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم .

---

(١) الزِّق : السِّقاء .

وكان له سبعة أوراد يقرؤها بالليل ، فإذا فاته منها شيء . . قرأه بالنهار .

وكان يحيي الليل كله في رمضان .

وكان يجالس أصحابه ويتحدث معهم ، فإذا ذكروا الموت . . تغير لونه واصفرَّ ، وأنكرناه ، كأنه ليس بالذي كان .

وكان إذا سئل عن الرؤيا . . يقول للسائل : اتق الله في اليقظة ، ولا يضرك ما رأيت في النوم .

وعن حبيب بن الشهيد قال : كنت أنا وأيوب السختياني عند عمرو بن دينار ، فحلف أنه ما رأىٰ أحداً أفضل من طاووس ، فقال أيوب : لو رأى ابن سيرين . . لم يحلف .

أسند ابن سيرين عن زيد بن ثابت ، وابن عمر ، وابن عباس ، وغيرهم ، رضي الله عنهم .

وتوفي سنة عشر ومئة ، بعد الحسن بمئة يوم ، وهو ابن نيف وثمانين سنة . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/١٣٦ـ١٣٨] .

وقال الحافظ : قال رجل لابن سيرين : إني قد اغتبتك ، فاجعلني في حل ، قال : إني أكره أن أحل ما حرم الله عز وجل .

وسئل مرة عن فتيا ، فأحسن الإجابة فيها ، فقال له رجل : والله يا أبا بكر ؛ لقد أحسنت الفتيا والقول فيها ، قال : وعرَّض الرجل كأنه يقول : ما كانت الصحابة رضوان الله تعالىٰ عليهم لتحسن أكثر من هـٰذا ، فقال ابن سيرين بانزعاج : لو أردنا فقههم . . لما أدركتْه عقولنا . انتهىٰ [« الحلية » ٢/٢٦٣] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

ثابت البُناني
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال أنس بن مالك : إن للخير مفاتيح ، وإن ثابتاً البُناني من مفاتيح الخير .

وقال بكر بن عبد الله : من أراد أن ينظر إلىٰ أعبد أهل زمانه . . فلينظر إلىٰ ثابت البُناني .

وكان يقول : لا يسمى الشخص عابداً حتىٰ يجهد نفسه في الصوم والصلاة ؛ لأنهما من لحمه ودمه .

وقال ثابت لحُميدٍ الطويل : هل بلغك يا أبا عبيدة : أن أحداً يصلي في قبره إلا الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ؟ قال : لا ، قال ثابت : اللهم ؛ إن كنت أذنت لأحد أن يصلي في قبره . . فأْذَنْ لثابت أن يصلي في قبره .

قال : وكان ثابت يصلي قائماً حتىٰ يعيىٰ ، فإذا أعيىٰ . . جلس ، فيصلي وهو جالس ، ويحتبي في قعوده ، ويقرأ ، فإذا أراد أن يسجد وهو جالس . . فتح حبوته .

وحدثنا شيبان بن جسر عن أبيه قال : أَنَا ـ والله الذي لا إلـه إلا هو ـ أدخلت ثابتاً لحده ومعي حميد الطويل ـ أو رجل غيره ـ فلما سوينا عليه اللبن . . سقطت لبنة ، فإذا أنا به يصلي في قبره ، فقلت للذي معي : ألا ترىٰ ؟ قال : اسكت ، فلما سوَّينا عليه وفرغنا . . أتينا ابنته ، فقلنا لها : ما كان عمل ثابت ؟ قالت : وما رأيتم ؟ فأخبرناها ، فقالت : كان يقوم الليل خمسين سنة ، فإذا كان السحر . . قال في دعائه : اللهم ؛ إن كنت أعطيت أحداً من خلقك الصلاة في قبره ، فأعطنيها ، فما كان الله ليرد ذلك الدعاء .

وقال : الصلاة خدمة الله في الأرض ، لو علم الله عز وجل شيئاً أفضل من الصلاة . . لما قال : ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ ﴾ .

وقال : كابدت الصلاة عشرين سنة ، وتنعمت بها عشرين سنة .

وما ترك سارية من سواري المسجد الجامع . . إلا وقد ختم عندها القرآن وبكىٰ عندها .

واستعان رجل بثابت البُناني على القاضي في حاجة ، فجعل لا يمر بمسجد . . إلا دخل فصلىٰ فيه ، حتى انتهىٰ إلى القاضي وقد ختمت القماطر[1] ، فكلموه في حاجة الرجل ، فقضاها .

وكان يقول في دعائه : يا باعث ، يا وارث ؛ لا تدعني فرداً ، وأنت خير الوارثين .

وقال محمد بن ثابت : ذهبت ألقِّن أبي في الموت : لا إلـه إلا الله ، فقال : يا بني ؛ دعني ، فإني في وردي السادس أو السابع .

وبكىٰ ثابت حتىٰ كادت عيناه أن تذهب ، فجاؤوا برجل يعالجها ، فقال : أعالجهما علىٰ أن تطيعني ، قال : في أي شيء ؟ قال : لا تبكي ، قال : فما خيرهما إن لم تبكيا ؟ وأبىٰ أن يتعالج[2] .

وقال أحمد ابن حنبل : بلغني أن أنس بن مالك قال لثابت البُناني : ما أشبه عينيك بعيني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمازال يبكي حتىٰ عمشت عيناه من أجل ذلك ، حتىٰ لا يقال ما أشبه عينيك .

وقال ثابت : **بلغنا أن الله عز وجل أوحىٰ إلىٰ جبريل عليه الصلاة والسلام : يا جبريل ؛ استنسخ[3] حلاوة فلان بن فلان ، قال : فينسخها فيبقىٰ والهاً مكروباً محزوناً ، فيقول :**

---

(١) **القماطر** : جمع قِمَطْر ، وهو : ما تصان فيه الكتب ؛ أي : انتهى الوقت الذي يجلس فيه القاضي للناس .

(٢) قال الإمام الغزالي في « الإحياء » (٤/ ٢٨٣) :
اعلم أن الأسباب المزيلة للمرض تنقسم إلىٰ مقطوع به كالماء المزيل لضرر العطش . . . . وإلىٰ موهوم كالكي والرقية ، أما المقطوع . . فليس من التوكل تركه ، بل تركه حرام عند خوف الموت ، وأما الموهوم . . فشرط التوكل تركه . . . ، وأما الدرجة المتوسطة وهي المظنونة كالمداواة بالأسباب الظاهرة عند الأطباء . . ففعله ليس مناقضاً للتوكل بخلاف الموهوم . . . ، وتركه ليس محظوراً بخلاف المقطوع ، بل قد يكون أفضل من فعله في بعض الأحوال وفي بعض الأشخاص .
ثم عدَّد أسباب ترك التداوي فقال : السبب الثالث : أن تكون العلة مزمنة والدواء الذي يؤمر به ـ بالإضافة إلىٰ علته ـ موهوم النفع جار مجرى الكي والرقية فيتركه المتوكل . . . وأكثر مَن تَرَكَ التداوي من العباد والزهاد هـٰذا مستندهم .
ونقل الغزالي عن الإمام أحمد قوله : أحب لمن اعتقد التوكل وسلك هـٰذا الطريق ترك التداوي مِنْ شرب الدواء وغيره . انتهىٰ باختصار .

(٣) **استنسخ** : أزِلْ ، والنسخ : الإزالة .

يا جبريل ؛ إني قد بلوته ، فوجدته صادقاً ، فاردد حلاوته ، إني قد بلوته ، فوجدته صادقاً ، وسأمدُّه بالزيادة ، وهو سبحانه وتعالىٰ أعلم بعبده ، وبما يكون منه .

وعن ثابت قال : بلغنا أن المؤمن يوقَف يوم القيامة بين يدي الله عز وجل ـ وهو أعلم سبحانه وتعالىٰ ـ فيقول له : يا عبدي ؛ أكنت تعبدني فيمن يعبدني ؟ فيقول : يا رب ؛ نعم ، فيقول : أكنت تدعوني فيمن يدعوني ؟ فيقول : يا رب ؛ نعم ، فيقول : أكنت تذكرني فيمن يذكرني ؟ فيقول : أي رب ؛ نعم ، فيقول له : وعزتي وجلالي ما ذكرتني في موطن قط . . إلا ذكرتك فيه ، ولا دعوتني دعوة قط . . إلا استجبتها لك .

ثم قال ثابت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن العبد المسلم لا تُرَدُّ له دعوة ، إما أن تعجل له في الدنيا ، وإما أن تدخر له في الآخرة ، وإما أن يكفر عنه بها خطاياه »[1] .

وقال ثابت : **إذا وجل قلبي ، واقشعر جلدي ، وفاضت عيني ، وفتح لي في الدعاء . . فثَمَّ أعلم أنه قد استجيب لي .**

وقال : إن أهل ذكر الله سبحانه وتعالىٰ يجلسون إلىٰ ذكر الله عز وجل وعليهم من الآثام أمثال الجبال ، فإذا ذكروا الله تعالىٰ . . يقومون من مجلسهم بعد ذكر الله عز وجل عُطلاً[2] من الذنوب ، ما عليهم منها شيء .

وكان يقول : إذا وضع المؤمن في قبره . . احتوشته أعماله الصالحة .

وكان يقول : إن المؤمن إذا بعث من قبره . . تلقاه الملكان اللذان كانا معه في الدنيا ، يقولان له : لا تخف ، ولا تحزن ، وأبشر بالجنة التي كنت توعد .

وقال ثابت : كان داوود عليه الصلاة والسلام قد جزأ الليل والنهار ساعات علىٰ أهله ، فلم تكن ساعة من ليل ولا نهار . . إلا وإنسان من آل داوود قائم يصلِّي ، قال : فعمَّهم [الله] في هـٰذه الآية : ﴿ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ .

وقال : **بلغني أنه ما من قوم جلسوا مجلساً فيقومون قبل أن يسألوا الله الجنة ويتعوذوا بالله عزّ وجلّ من النار . . إلا قالت الملائكة : المساكين أغفلوا العظيمتين .**

وقال ثابت : كان داوود عليه الصلاة والسلام إذا ذكر عقاب الله عز وجل . . تخلعت أوصاله ، وإذا ذكر رحمة الله سبحانه وتعالىٰ . . رجعت إليه .

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد (٣/ ١٨) .

(٢) **العُطُلُ** : الخالي .

وأسند ثابت عن غير واحد من الصحابة ، رضوان الله عليهم أجمعين . انتهىٰ [« الحلية » ٢/٣١٨ـ٣٢٩] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان ثابت يصلي في كل يوم ثلاث مئة ركعة ، ثم يقول : مضى العابدون وقطع بي ، وَالَهْفاهُ!

وكان يختم القرآن في اليوم والليلة ، ويصوم الدهر .

وقال حماد : رأيت ثابتاً يبكي حتىٰ تختلف أضلاعه .

وعن هشام قال : ما رأيت قط أصبر علىٰ طول القيام والسهر . . من ثابت ؛ صحبناه مرة من البصرة إلىٰ مكة ، فكنا إن نزلنا ليلاً . . فهو قائم يصلي ، فإذا سرنا . . فهو إما باكياً وإما تالياً ، وكان الذين يمرون بالحضر[1] في الأسحار إذا مروا عند قبر ثابت . . يسمعون قراءة القرآن .

توفي في ولاية خالد بن عبد الله على العراق . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/١٤٨ـ١٥٠] .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : ومما أسنده ثابت البناني عن أنس بن مالك قال : لما كان يوم أُحد . . حاص[2] أهل المدينة حيصة ، فخرجت امرأة من الأنصار متحزمة ، فاستُقبِلت بأبيها وابنها وأخيها وزوجها ـ لا أدري أيهم استقبلت به أولاً ـ فلما مرت علىٰ آخرهم . . قالت : من هـٰذا ؟ قالوا : أبوك أخوك زوجك ابنك ، وهي تقول : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فيقولون : أمامك ، حتىٰ جاءت إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخذت بناحية ثوبه ، ثم جعلت تقول : بأبي أنت وأمي يارسول الله ، لا أبالي ؛ إذ سلمتَ من عطب . انتهىٰ [« الحلية » ٢/٣٣٢] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) جاء في بعض النسخ : (بالحصن) ، وفي « الصفوة » : (بالجص) . والمراد موضع دفنه . .

(٢) **حاصوا حيصة** : جالوا جولة يطلبون الفرار .

ومنهم الإمام :

أبو الخطاب قتادة

رضي الله عنه

روى الحافظ ـ رحمه الله ـ : عن بكر بن عبد الله المزني قال : من أراد أن ينظر إلىٰ أحفظ أهل زمانه . . فلينظر إلىٰ قتادة ؛ فما أدركنا أحفظ منه .

وعن قتادة قال: لزمت سعيد بن المسيب أربعة أيام يحدثني ، فقال لي يوماً : لِمَ لا تكتب ؟ فهل في يدك شيء مما أحدثك به ؟ قلت : إن شئت حدثتك بما حدثتني به ، قال : فأعدتها عليه ، قال : فبقي ينظر إلي ويقول : أنت أَهْلٌ أن تُحدَّث ، فسل ، فأقبلت أسأله .

وقال قتادة : ما سمعت أذناي قط شيئاً . . إلا وعاه قلبي .

وعن مطر قال : كان قتادة فارس العِلم ، وما زال متعلماً حتىٰ مات .

وقال قتادة : يستحب ألاَّ تُقرأَ أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا علىٰ طهور .

وقال : لا تَعتبر الناس بأموالهم وأولادهم ، وإنما اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح ، إذا رأيت عبداً صالحاً يعمل فيما بينه وبين الله عز وجل خيراً . . ففي ذلك فسارع ، وفي ذلك فنافس ما استطعت ، ولا قوة إلا بالله .

وقال : إن الذنب الصغير يجتمع إلىٰ مثله ، فيهلك صاحبه ، إنَّ أهيَبكم للذنب الصغير . . أورعكم عن الكبير ، ثم قرأ قوله تعالىٰ : ﴿ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾ ، هـٰذا عبد نوى الدنيا ، لها أنفق ، ولها أشخص ، ولها عمل ، ولها نصب وتعب ، وهي نيته وطلبته ، ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً﴾ ، هـٰذا عبد نوى الآخرة ، ولها عمل ، ولها أنفق ، ولها نصب وتعب ، وكانت الآخرة همه وطلبته ونيته .

وكان يختم القرآن في كل سبع ليال مرة ، فإذا جاء رمضان . . ختم في كل ثلاث ليال مرة ، فإذا جاء العشر الأخير منه . . ختم كل ليلة .

وعن قتادة في قوله عز وجل : ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ : هو كل ما أريد به وجه الله عز وجل[1] .

وعنه قال : إن يوسف عليه الصلاة والسلام لما تكاملت عليه النعم وجمع له الشمل . . اشتاق إلىٰ لقاء ربه عز وجل فقال : ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ .

وقال : من أطاع الله في الدنيا . . حصلت له كرامة الله عز وجل في الآخرة .

وقال قتادة : باب من العلم يحفظه الرجل يطلب به صلاح نفسه ، وصلاح الناس . . أفضل من عبادة حول كامل .

أسند عن جماعة من الصحابة ، رضوان الله تعالىٰ عليهم .

وروىٰ عن قتادة خلائق من التابعين رحمهم الله جميعاً . انتهىٰ [« الحلية » ٣/ ٣٣٣ـ٣٤١] .

وقال شيخ الإسلام النووي ـ قدس الله روحه ونور ضريحه ـ : قتادة بن دِعامة ـ بكسر الدال المهملة ـ التابعي ، أجمعوا علىٰ جلالته ، وتوثيقه ، وحفظه ، وإتقانه ، وفضله .

قال سعيد بن المسيب : ما أتانا عراقي أحفظ من قتادة .

وقال شعبة : قال سفيان : وكان في الدنيا مثل قتادة ؟!

ورُوِّينا عن معمر قال : جاء رجل إلى ابن سيرين فقال : رأيت حمامة التقمت لؤلؤة ، فخرجت منها أعظم مما دخلت ، ورأيت حمامة أخرى التقمت لؤلؤة ، فخرجت أصغر مما دخلت ، ورأيت حمامة أخرى التقمت لؤلؤة ، فخرجت كما دخلت سواء ، فقال ابن سيرين : الحمامة الأولىٰ : الحسن يسمع الحديث ، فيجوده بمنطقه ، ثم يصل فيه من مواعظه ، والثانية : ابن سيرين ، يشك ، فينقص منه ، والثالثة : قتادة ؛ فهو أحفظ الناس .

وقال ابن سعد : كان قتادة ثقة مأموناً حجة في الحديث .

وقال قتادة : جالست الحسن اثنتي عشرة سنة ، وما قلت برأيي منذ أربعين سنة .

ووفد قتادة على ابن المسيِّب ، فسأله أياماً ، فأكثر ، فقال : أتحفظ كل ما سألتني عنه ؟

---

(١) جاء في هامش نسخة : (وعن قتادة في قوله تعالىٰ : ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ قال : أضاع أكبر الضيعة ، أضاع نفسه ، وعسىٰ ـ مع ذلك ـ أن تجده حافظاً لماله مضيعاً لدينه) .

قال : نعم ، سألتك عن كذا ، فقلتَ فيه كذا ، وأعاد عليه جميع ما سأله عنه ، وكان شيئاً كثيراً ، فقال ابن المسيب : ما كنت أظن أن الله عز وجل خلق مثلك .

وذكره أحمد ابن حنبل فأطنب في الثناء عليه ، ونشر من علمه وفقهه ومعرفته بالتفسير والاختلاف ، وغير ذلك ، وقَلَّ من يتقدمه ، وكان أحفظ أهل البصرة ، ولا يسمع شيئاً . . إلا حفظه ، وقرئت عليه صحيفة جابر مرة واحدة ، فحفظها ، وكان من العلماء .

وقال ابن مهدي : قتادة أحفظ من خمسين مثل حميد .

وقال أبو حاتم : أكبر أصحاب الحسن . . قتادة ، وأَثبتُ أصحاب أنس . . الزهري ، ثم قتادة .

توفي سنة سبع عشرة ، وقيل : ثمان عشرة ومئة ، وهو ابن ست وخمسين ، وقيل : خمس وخمسين سنة ، رضي الله عنهم أجمعين . انتهىٰ [« التهذيب » ٢/٥٧ـ٥٨] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

محمد بن واسع
رضي الله عنه

قال القشيري ـ رحمه الله ـ : قال بعض العارفين : رأيت كأن القيامة قد قامت ، فقيل : أدخِلوا مالك بن دينار ومحمد بن واسع الجنة ، فنظرت أيهما يتقدم ، فتقدم محمد بن واسع ، فسألت عن سبب ذلك ، فقيل : إنه كان له قميص واحد ولمالك قميصان .

وقال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : دخل محمد بن واسع علىٰ قتيبة بن مسلم وعليه جبة صوف ، فقال له قتيبة : ما دعاك إلى الصوف ؟ فسكت ، فقال : أكلمك فلا تجيبني ، فقال : أكره أن أقول زهداً فأزكِّي نفسي ، أو فقراً فأشكو ربي عز وجل .

وكان محمد بن واسع وأصحابه يدخلون منزل الحسن ، فيأكلون ما يجدون بغير إذن ، وكان الحسن يدخل ، فيرىٰ ذلك ، فيُسر ، ويقول : هٰكذا أدركناهم . انتهىٰ [« الإحياء » ٤/ ٢٣٤] .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال مالك بن دينار : كان محمد بن واسع من قراء الرحمٰن .

وعن محمد بن واسع قال : إذا أقبل العبد بقلبه إلى الله عز وجل . . أقبل الله إليه بقلوب المؤمنين .

وكان يقول في دعائه : اللهم ؛ إني أستغفرك من كل مقام سوء ، ومقعد سوء ، ومدخل سوء ، ومخرج سوء ، وعمل سوء ، ونية سوء . . فاغفر لي وتب عَلَيَّ ، إنك أنت التواب الرحيم .

وقال سليمان التيمي : ما أحد أحب إلي من أن ألقى الله عز وجل بمثل صحيفته من محمد بن واسع .

وقدم من مكة إلى البصرة ، فكان يصلِّي اللَّيل كله في المَحْمِل جالساً ، يومىء برأسه

إيماء ، ويأمر الحادي خلفه فيرفع صوته ؛ لئلا يُعرَف أنه يصلي .

وجاء حوشب إلىٰ مالك بن دينار فقال له : يا أبا يحيىٰ ؛ رأيت البارحة كأن منادياً ينادي يقول : يا أيها الناس ؛ الرحيلَ الرحيل ، فما رأيت أحداً يرحل . . إلا محمد بن واسع ، فصاح مالك وخر مغشياً عليه .

وقال محمد بن واسع : **القرآن بستان العارفين ، فأينما حلوا منه . . حلوا في نزهة .**

وقال : أدركت رجالاً كان الرجل منهم رأسه مع رأس امرأته علىٰ وسادة واحدة ، قد بل ما تحت خده من دموعه عشرين سنة ، لا تشعر به امرأته ، ولقد أدركت رجالاً يقوم أحدهم في الصف ، فتسيل دموعه علىٰ خده لا يشعر به الذي إلىٰ جانبه .

وقال جعفر : كنت إذا وجدت من قلبي قسوة . . نظرت إلىٰ وجه محمد بن واسع نظرة ، وكنت إذا نظرت إليه . . حسبت أن وجهه وجه ثكلىٰ .

وكان إذا قيل له : كيف أصبحت ؟ يقول : ما ظنك برجل يرتحل إلى الله عز وجل كل يوم مرحلة ، ويلقاه بأعمال غير صالحة .

وقال وهب بن منبه ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام ، فقلت : يا رسول الله ؛ أين الأبدال من أمتك ؟ فأومأ بيده الكريمة قِبل الشام ، فقلت : يا رسول الله ؛ أمَا بالعراق منهم أحد ؟ قال : « بلىٰ ، محمد بن واسع » .

ولما ثقل محمد بن واسع في مرضه . . كثر الناس عليه في العيادة ، ناس قيام ، وناس قعود ، فلما نظر إليهم . . قال : ما يغني عني هـٰؤلاء غداً إذا أُخذ بناصيتي وقُذف بي في النار ، ثم تلا هـٰذه الآية : ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴾ ، وقال : يا إخوتاه ؛ أتدرون أين يُذهَب بي ؟ والله الذي لا إلـٰه إلا هو ؛ إلى النار ، أو يعفو الله عز وجل عني .

وقال له شخص : إني لأحبك في الله عز وجل ، قال : أحبك الله الذي أحببتني له ، ثم قال : اللهم ؛ إني أعوذ بك أن أُحَبَّ فيك وأنت لي ماقت أو مبغض .

وقال : لو كان للذنوب ريح . . لما قدر أحد أن يدنو مني من نتن ريحي ؛ لكثرة ذنوبي .

وقال مالك بن دينار : إنما هو طاعة الله عز وجل أو النار ، فقال محمدَ بن واسع : إنما هو عفو الله أو النار .

وطلب مالك بن المنذر ـ وكان عاملاً على البصرة ـ محمدَ بن واسع ، فقال له : اجلس

على القضاء ، فأبىٰ ، فعاوده ، فأبىٰ ، فقال : تجلس أو أجلدك ثلاث مئة ، فقال : إن تفعل . . فأنت مسلط ، ولا ذل خير من الذل في رضى الله سبحانه وتعالىٰ .

وسأله بعض الأمراء في قَبول شيء ، فأبىٰ ، فقال له : إنك أحمق ، فقال : ما زلت يقال لي هـٰذا مذ كنت صغيراً .

ونظر محمد بن واسع إلى ابن له يَخْطِر بيده[1] ، فقال له : تعال ويحك! أتدري ابن من أنت ؟ أمك اشتريتها بمئتي درهم ، وأما أبوك . . فلا كثَّر الله في المسلمين أضرابه ، أو : نحوه ، أو : مثله .

وقال : إنه ليُعرف فجور الفاجر في وجهه .

وقال : مَن مقت نفسه في ذات الله عز وجل . أمَّنه الله تعالىٰ من مقته .

وكان يصوم الدهر ، ويُخفي ذلك .

وعن عبد العزيز ابن أبي رَوَّادٍ قال : رأيت في يد محمد بن واسع قرحة ، فكأنه علم ما شق عليَّ منها ، فقال : أتدري ماذا لله عز وجل عليَّ في هـٰذه القرحة من نعمة ؟ قال : فسكت ، قال : حيث لم يجعلها علىٰ حدقتي ، ولا علىٰ طرف لساني ، ولا علىٰ طرف ذكري ، قال : فهانت عليَّ قرحته .

وكان محمد بن واسع مع يزيد بن المهلب بخراسان غازياً ، فاستأذنه للحج ، فأذن له ، فقال له : نأمر لك بشيء ؟ قال : تأمر للجيش كله بمثله ؟ قال : لا ، قال : لا حاجة لي به .

ودخل محمد بن واسع رحمه الله علىٰ بلال ابن أبي بردة ، فدعاه إلىٰ طعامه ، فأبىٰ واعتل عليه ، فغضب بلال ، وقال : أراك تكره طعامنا ، فقال : لا تَقُلْ هـٰذا أيها الأمير ، فوالله ؛ إن خياركم أحب إلينا من أبنائنا .

وكان محمد بن واسع مع قتيبة بن مسلم صاحب خراسان في جيش ، وكان الترك قد خرجت إليهم ، فبعث إلى المسجد ينظر مَن فيه ، فقيل له : ليس فيه إلا محمد بن واسع رافعاً إصبعه ، فقال قتيبة : تلك الأصبع أحب إلي من ثلاثين ألف عنان .

---

(١) يخطر بيده : أي يتمايل ويمشي مشية المعجب ، وورد في « السير » (٦/ ١٢١) : (سبب هـٰذا القول : أن رجلاً شكىٰ إلىٰ محمد ابنه بأنه كان يستطيل على الناس) .

وكانَ يقول : اللهم ؛ إن كان أخلق وجهي كثرة ذنوبي . . فهبني لمن أحببتَ من خلقك .

ولما أريد على القضاء وامتنع . . عاتبته امرأته ، وقالت : لك عيال وأنت محتاج ، فقال لها : ما دمت تريني أصبر على الخل والبقل . . فلا تطمعي في هـٰذا مني .

وقسم أمير من أمراء البصرة مالاً علىٰ قراء أهل البصرة ، فأرسل إلىٰ مالك بن دينار ، فقبل ، ولم يقبل محمد بن واسع ، ثم قال له : يا مالك ؛ قبلت جوائز السلطان ؟ فقال : يا أبا بكر ؛ سل جلسائي ، قالوا : اشترىٰ بها رقاباً ، فأعتقهم ، فقال له محمد بن واسع : أنشدك الله أَقلبُك الساعة له علىٰ ما كانَ عليه قبل أن يرسل إليك الجائزة ؟ قال : اللهم لا ، قال : أتعلم أي شيء دخل عليك ؟! فقال مالك لجلسائه : إن مالكاً حمار ، إنما يَعبُد اللهَ مثلُ محمد بن واسع .

وقال بلال ابن أبي بردة لمحمد بن واسع : ما تقول في القضاء والقدر ؟ قال : أيها الأمير ؛ إن الله عز وجل لا يسأل الناس يوم القيامة عن قضائه وقدره ، وإنما يسألهم عن أعمالهم .

وقال محمد بن واسع : **جاءني رجل في حاجة لرجل آخر ، فقال : أتيتك في حاجة رفعتها إلى الله عز وجل قَبلك ، فإن يأذن الله في قضائها . . قضيتَها وكنتَ محموداً ، وإن لم يأذن الله في قضائها . . لم تقضها وكنتَ معذوراً .**

وقال محمد بن واسع ـ رحمه الله ـ : ليس لِملولٍ صديقٌ ، ولا لحاسد غنىٰ ، وإياك أن تشير علىٰ معجب برأيه ؛ فإنه لا يقبل منك .

أسند عن جماعة من الصحابة ، رضوان الله تعالىٰ عليهم . انتهىٰ [« الحلية » ٢/٣٤٥ـ٣٥٤] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : توفي محمد بن واسع رحمه الله سنة عشرين ومئة . انتهىٰ[1] [« الصفوة » ٣/١٥٦] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) جاء في هامش نسخة : (وعن علي بن الجعد قال : سمعت أبا جعفر يقول : رأىٰ رجل من أهل البصرة وكأن منادياً ينادي من السماء : خير رجل بالبصرة محمد بن واسع).

ومنهم الإمام :

أبو يحيىٰ مالك بن دينار
رضي الله عنه

قال الإمام الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال مالك بن دينار : خرج أهل الدنيا من الدنيا ولم يذوقوا أطيب شيء فيها ، قيل : وما هو يا أبا يحيىٰ ؟ قال : معرفة الله عز وجل .

وقال : ما تنعم المتنعمون بمثل ذِكر الله سبحانه وتعالىٰ .

وقال : إن الصديقين إذا قرىء عليهم القرآن . . طربت قلوبهم إلى الآخرة .

وقال : لا يبلغ الرجل منزلة الصديقين حتىٰ يترك زوجته كأنها أرملة ، ويأوي إلىٰ مزابل الكلاب .

وقال : نظرت في أصل كل إثم . . فوجدته حب الدنيا ، فمن ألقىٰ عنه حبها . . استراح .

وقال : رأيت في بعض الكتب : أن الله عز وجل يقول : (إن أهون ما أنا صانع بالعالِم إذا أحب الدنيا . . أن أخرج حلاوة ذِكْري من قلبه) .

وقال : إذا لم يكن في القلب حزن . . خرب ، كما إذا لم يكن في البيت ساكن . . فإنه يخرب .

وقال : لولا أخشىٰ أن تكون بدعة . . لأمرت أني إذا مِتُّ أن أغل ، فأُدفع إلىٰ ربي سبحانه وتعالىٰ مغلولاً ، كما يدفع العبد الآبق إلىٰ مولاه .

وكان في مرض موته يقول : اللهم ؛ إنك تعلم أني لم أكن أحب البقاء في الدنيا لبطن ولا فرج .

وكان يصلي العشاء ، ثم يقرب رغيفه ، فيفطر عليه بعد إفطاره بالماء في أول الوقت ، ثم يقوم ، فيصلي ، ويأخذ بلحيته ، ويقول : يا رب ؛ إذا جمعت الأولين والآخرين . . فحرم شيبة مالك بن دينار على النار ، فلا يزال يصلي ويقول ذلك إلى الفجر .

وقال مالك بن دينار : قرأت في الحكمة : (إن الله تعالىٰ يبغض كل حبر[1] سمين) .

وقال : كم من رجل يحب أن يلقىٰ أخاه ويزوره ، فيمنعه من ذلك الشغل والأمر يعرض له ؛ عسى الله أن يجمع بينهما في دار لا فرقة فيها .

ثم يقول مالك : وأنا أسأل الله عز وجل أن يجمع بيننا وبينكم في ظل طوبىٰ ، ومستراح العابدين .

وكان يقول : إذا ذُكِرَ الصالحون . . فأُفٍّ لي وتُفْ .

وكان يقول : إن القلب المحب لله عز وجل يحب النَّصَبَ لله سبحانه وتعالىٰ .

وقال : قد اصطلحنا علىٰ حب الدنيا ، فلا يأمر بعضنا بعضاً ، ولا ينهىٰ بعضنا بعضاً ، ولا يذرنا الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ هـٰذا ، فليت شعري أي عذاب ينزل بنا ؟!

وقال : إنكم في زمان قد طُلِبت الدنيا فيه بعمل الآخرة ، فاحذروا أولـٰئك علىٰ أنفسكم ، لا يوقعونكم في شبكاتهم .

وقال : إن البدن إذا سقم . . لم ينجع فيه طعام ولا شراب ولا نوم ولا راحة ، وكذلك القلب إذا علق فيه حب الدنيا . . لم تنجع فيه الموعظة .

وكان يقول : لو أني أعلم أن قلبي يصلح علىٰ كناسة . . لجلست عليها .

وكان يقول : اتقوا السَّحَّارة ؛ فإنها تسحر قلوب العلماء . يعني : الدنيا .

وعنه قال : قال موسىٰ عليه الصلاة والسلام : يا رب ؛ أين أطلبك ؟ قال : (اطلبني عند المنكسرة قلوبهم) .

وحدثنا الحارث بن نبهان قال : قدمت من مكة ، فأهديت إلىٰ مالك بن دينار ركوة ، قال : فجئت يوماً ، فقال : يا حارث ؛ تعال فخذ تلك الركوة ، فقد شغلت عليَّ قلبي ، جاءني الشيطان فقال لي : يا مالك ؛ إن الركوة قد سرقت ، فقد شغَلَت عليَّ قلبي .

وقال : من تباعد عن زهرة الدنيا . . فذلك الغالب لهواه ، ومن فرح بمدح الباطل . . فقد استمكن الشيطان من قلبه .

---

(١) الحَبْرُ : العالم .

وقال : ينبغي للعالم أن يقتصد في لباسه ، ويفر من ذنوبه إلى الله سبحانه وتعالىٰ ، ويحوش العباد[1] علىٰ طاعة الله عز وجل .

وقال : إن استطعت أن تجعل بينك وبين الشهوات حائطاً من حديد . . فافعل .

وقال : من غلب شهوة الدنيا . . فذلك الذي يخاف الشيطان من ظله .

وكان رجل من الأغنياء بالبصرة له ابنة نفيسة فائقة في الجمال ، فقال لها أبوها يوماً : قد خطبك بنو هاشم والعرب والموالي ، فأبيتِ ، فمَن تريدين ؟ قالت : ما أريد إلا مالك بن دينار ، هو ـ والله ـ غايتي ، فقال الأب لأخ له : ائت مالك بن دينار ، فأخبره بمكان ابنتي وهواها له ، قال : فأتاه ، وقال له : فلان يقرئك السلام ، ويقول لك : إنك تعلم أني أكثر أهل هـٰذه المدينة مالاً ، وأفشاهم ضيعة ، ولي ابنة نفيسة ، وقد هَوِيَتْك ، فشأنك وهي ، فقال مالك للرجل : عجباً لك يا فلان! أوما تعلم أني قد طلقت الدنيا ثلاثاً ؟!

وعن سلام ابن أبي مطيع قال : دخلنا علىٰ مالك ليلاً وهو في بيته بغير سراج ، وفي يده رغيف يكدمه[2] ، فقلنا : أبا يحيىٰ ؛ ألا سراج ؟ ألا شيء تضع عليه خبزك ؟ قال : دعوني ، فوالله ؛ إني لنادم علىٰ ما مضىٰ .

وقال لرجل من أصحابه : إني لأشتهي رغيفاً ليناً بلبن رائب ، فجاءه به ، فجعل يقلبه وينظر إليه ، وقال : اشتهيتك منذ أربعين سنة ، فغلبتك حتىٰ إذا كان اليوم . . تريد أن تغلبني ، إليك عني ، وأبىٰ أن يأكله .

وقال : إنه لتأتي عَلَيَّ السنة لا آكل فيها لحماً ، إلا في يوم الأضحىٰ ؛ فإني آكل من أضحيتي ؛ لما يذكر فيه .

وقال : اشتريت لأهلي طِيباً بدرهم ، وإني لأحاسب نفسي فيه منذ عشرين سنة ، فما أجد لي مخرجاً .

وما كان يملك من الدنيا إلا درهمين ، درهم يتقوت به ، ودرهم يشتري به خوصاً يعمل فيه ، فاشترىٰ بفلسين ملحاً وكان أدمه في جميع سنته .

وكان يأخذ حصاة من المسجد فيقول : وددت أن تكون هـٰذه أجزأتْني عن الدنيا .

وقال مالك : لما وقعت الفتنة . . أتيت الحسن ثلاثة أيام أقول : يا أبا سعيد ؛

---

(١) يحوش العباد : يأخذهم من حواليهم ؛ ليضمهم إلىٰ طاعة الله .

(٢) الكدم : العض بأدنى الفم .

ما تأمرني ؟ فلا يجيبني ، قال : فقلت : يا أبا سعيد ؛ أتيتك ثلاثة أيام أسألك وأنت معلمي فلا تجيبني! والله ؛ لقد هممت أن آخذ الأرض بقدمي ، وأشرب من أفواه الأنهار ، ومن نبات البرية ، حتىٰ يحكم الله بين عباده ، فأرسل الحسن عينيه وبكىٰ وقال : يا مالك ؛ ومن يطيق ما تطيق ؟! لٰكنا والله ما نطيق هٰذا .

وقال جعفر : كنت عند مالك بن دينار ، فجاء هشام بن حسان ـ وكان يأتيه هشام كثيراً ـ وسعيد ابن أبي عروبة ، وحوشب ، يطلبون قلوبهم ، فجاء هشام ، فسأل عن أبي يحيىٰ ، فقيل له : عند البقال ، فقال : قوموا بنا إليه ، قال : فحانت منه نظرة إلىٰ هشام ، فقال له : يا هشام ؛ إني أعطي هٰذا البقَّال كل شهر درهماً ودانقين ، وآخذ منه في كل شهر ستِّين رغيفاً ؛ لكل ليلة رغيفين ، فإذا أصبتهما سخنين . . فهو إدامهما .

وكان يلبس إزاراً من صوف ، وعباءة خفيفة ، فإذا كان الشتاء . . ففروة وعباءة .

وكان يكتب المصاحف ، ولا يأخذ عليها من الأجرة أكثر من عمل يده ، فيعطيه للبقَّال ، وكان يكتب المصحف في كل أربعة أشهر .

ووقع حريق في بيت مالك ، فأخذ المصحف والقطيفة ، فأخرجهما ، فقيل له : يا أبا يحيىٰ ؛ البيت ، فقال : ما فيه إلا السندانة[1] ، ما أبالي أن يحترق .

وفي رواية : جر بطرف كسائه وقال : هلك أصحاب الأثقال .

وكان يقول : لولا أن جهالكم كثير . . للبست المسوح[2] .

وقال : قال عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام : خشية الله وحب الفردوس يباعدان من زهرة الدنيا ، ويورِّثان الصَّبر على المشقّة .

وعنه قال : قال عيسىٰ عليه الصلاة والسلام : بحق أقول لكم : إن أكل الشعير والنوم على المزابل مع الكلاب . . لقليل في طلب الفردوس .

وعن سلام بن مسكين قال : دخلت علىٰ مالك بن دينار في مرضه الذي مات فيه ؛ فإذا البيت فيه سرير أثل[3] ، مزمول[4] بالشريط ، وعليه قطعة بوري[5] ، وتحت رأسه قطعة

---

(١) السندان : ما يطرق الحداد الحديد عليه .

(٢) المسوح : الأكسية المصنوعة من الشعر .

(٣) الأَثْلُ : شجر يشبه الطرفاء ، إلا أنه أعظم منه وأكرم وأجود ، ومنه اتخذ منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٤) مزمول : ملفوف .

(٥) البوري : الحصير المنسوج من القصب .

كساء ، وركوة ، وصاغرة[1] ، فرفع رأسه ، فأخرج من تحت رأسه رغيفين يابسين ، فَبَلَّ الرغيفين بالماء ، حتىٰ إذا ظن أنه قد ابتل . . قال : ناولني الدوخَلَّة ، وإذا دوخَلَّةٌ معلقة يابسة ، فأخرج منها صرَّة ملح ، فقال لي : ادن فكل ، فقلت : يا أبا يحيىٰ ؛ لا أشتهي ، قال : هيهات ، هيهات! أنت ممن غذي بالماء العذب ، فلا تصبر في الماء المالح .

ودعا مالك بن دينار رحمه الله في طريق مكة فقال : إني داع بشيء فأمِّنوا ، ثم قال : اللهم ؛ لا تُدخِل بيت مالك بن دينار من الدنيا قليلاً ولا كثيراً . انتهىٰ[2] [« الحلية » ٢/٣٥٨-٣٨٦] .

---

(١) كذا في النسخ والحلية والصواب بالخاء بدل الغين كما قال الصفدي في « تصحيح التصحيف » ، والصاخرة : إناء من الخزف .

(٢) جاء في هامش نسخة : (وفي كتاب « التوابين » [٢٠٢-٢٠٥] قال : روي عن مالك بن دينار أنه سئل عن سبب توبته ، فقال : كنت شرطياً ، وكنت منهمكاً علىٰ شرب الخمر ، ثم إنني اشتريت جارية نفيسة ، ووقَعَتْ مني أحسن موقع ، فولدت لي بنتاً ، فشغفت بها ، فلما دبت على الأرض . . ازدادت في قلبي حباً ، وأَلِفتني وأَلِفتُها ، قال : فكنت إذا وضعت المسكر بين يدي . . جاءت إلي ، وجاذبتني عليه ، وأراقته علىٰ ثوبي ، فلما تم لها سنتان . . ماتت ؛ فأكمدني حزنها ، فلما كانت ليلة النصف من شعبان ، وكانت ليلة الجمعة ، بت ثملاً من الخمر ، ولم أُصلِّ فيها عشاء الآخرة ، فرأيت في منامي كأن القيامة قد قامت ، ونفخ في الصور ، وبعثرت القبور ، وحشر الخلائق وأنا معهم ، فسمعت حساً من ورائي ، فالتفت ، فإذا [أنا] بتنين أعظم ما يكون ، أسود أزرق ، قد فتح فاه مسرعاً نحوي ، فمررت بين يديه هارباً فزعاً مرعوباً ، فمررت في طريقي بشيخ نقي الثوب طيب الرائحة ، فسلمت عليه ، فرد السلام ، فقلت : أيها الشيخ ؛ أجرني من هـٰذا التنين أجارك الله عز وجل ، فبكىٰ ، وقال لي : أنا ضعيف ، وهـٰذا أقوىٰ مني ، وما أقدر عليه ، ولـٰكن مر وأسرع ، فلعل الله سبحانه وتعالىٰ أن يقيض لك ما ينجيك منه ، فوليت هارباً علىٰ وجهي ، فصعدت علىٰ شَرَف من شُرُف القيامة ، فأشرفت علىٰ طبقات النيران ، فنظرت إلىٰ هولها ، وكدت أهوي فيها من فزع التنين ، فصاح بي صائح : ارجع ، فلست من أهلها ، فاطمأننت إلىٰ قوله ورجعت ، ورجع التنين في طلبي ، فأتيت الشيخ ، فقلت : يا شيخ ؛ سألتك أن تجيرني من هـٰذا التنين ، فلم تفعل ، فبكى الشيخ ، وقال : أنا ضعيف ، ولـٰكن سر إلىٰ هـٰذا الجبل ، فإن فيه ودائع المسلمين ، فإن كان لك فيه وديعة . . فستنصرك ، قال : فنظرت إلىٰ جبل مستدير من فضة ، وفيه طاقات مخرمة ، وستور معلقة ، علىٰ كل خوخة ـ نافذة كبيرة ـ وطاقة مصراعان من الذهب الأحمر ، مفصلة بالياقوت ، مكوكبة بالدُّر ، علىٰ كل مصراع ستر من الحرير ، فلما نظرت إلى الجبل . . هرولت إليه ، والتنين من ورائي ، حتىٰ إذا قربت منه . . صاح بعض الملائكة عليهم السلام : ارفعوا الستور ، وافتحوا المصاريع ، وأشرفوا ، فلعل لهـٰذا البائس فيكم وديعة تجيره من عدوه ، قال : ففُتِحت المصاريع ، وأشرفوا عَلَيَّ ، فرأيت أطفالاً كالأقمار ، وقرب التنين مني ، فتحيرت في أمري ، فصاح بعض الأطفال : ويحكم ، أشرفوا كلكم ، فقد قرب منه عدوه ، فأشرفوا فوجاً بعد فوج ، وإذا أنا بابنتي التي ماتت قد أشرفت عَلَيَّ وبكت ، وقالت : أبي والله ، ثم وثبت في كفة من نور كرَمْية السهم ، حتىٰ صارت عندي ، فمدت يدها الشمال إلىٰ يدي اليمنىٰ ، فتعلقت بها ، ومدت يدها اليمنىٰ إلى التنين ، فولىٰ هارباً ، ثم أجلستني وقعدت في حجري ، وضربت بيدها اليمنىٰ إلىٰ لحيتي ، وقالت : يا أبتِ ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ ، =

وقال : بلغني أن عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام قال لأصحابه : أجيعوا أنفسكم ، وأَظْمِئُوها وأعروها وأَنصِبوها ؛ لعل قلوبكم ترى الله عز وجل .

وكان يقول : إن الله تعالىٰ إذا أحب عبداً . . انتقصه من دنياه ، فكفَّ عليه ضيعته ، ويقول : لا تبرح من بين يدي ، فيبقىٰ متفرغاً لخدمة ربه سبحانه وتعالىٰ ، وإذا أبغض عبداً . . أوسع له الدنيا ، ويقول : اغرب من بين يدي ، فتراه معلق القلب بأرض كذا وبتجارة كذا .

وقال : إن الأبرار تغلي قلوبهم بأعمال البرّ ، وإن الفجار تغلي قلوبهم بأعمال الفجور ، والله سبحانه وتعالىٰ يرىٰ همومكم ، فانظروا كيف تكون همومكم يرحمكم الله .

وقال : لأن أتصدق بتمرة من حلال . . أحب إليَّ من أن أتصدق بمئة ألف درهم من حرام .

وقال : لولا أن يقول الناس جنَّ مالك . . للبست المسوح ، ووضعت الرَّماد علىٰ رأسي أنادي في الناس : من رآني . . فلا يعص الله عز وجل .

وقال : أوحى الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ نبي من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين : قل لقومك : لا يدخلوا مداخل أعدائي ، ولا يطعموا مطاعم أعدائي ، ولا يلبسوا ملابس أعدائي ، ولا يركبوا مراكب أعدائي ؛ فيكونوا أعدائي كما هم أعدائي .

وقال : كل جليس لا تستفيد منه خيراً . . فاجتنبه .

وقال : في التوراة : إن الله عز وجل يبدد عظام رجل تكلم بين اثنين بهوىٰ ، يوم يجمع الله تعالى الأولين والآخرين .

وقال : منذ عرفت الناس . . لم أفرح بمدحهم ، ولم أكره مذمتهم ، قيل : ولِمَ ذاك ؟ قال : لأن حامدهم مفرط ، وذامهم مفرط .

= فبكيت ، وقلت : يا بنية ؛ وأنتم تعرفون القرآن ؟ فقالت : يا أبت ؛ نحن أعرف به منكم ، قلت : فأخبريني عن التنين الذي أراد أن يهلكني ، قالت : ذلك عملك السوء قَوَّيتَه ، فأراد أن يغرقك في نار جهنم ، قلت : فأخبريني عن الشيخ الذي رأيته ، قالت : يا أبت ؛ ذلك عملك الصالح أضعفته حتىٰ لم يكن له طاقة بعملك السوء ، فقلت : يا بنية ؛ وما تصنعون في هٰذا الجبل ؟ قالت : نحن أطفال المسلمين ، قد أُسكنَّا فيه إلىٰ أن تقوم الساعة ، ننتظركم ، فتقدمون علينا ، فنشفع لكم .

قال مالك : فانتبهت فزعاً مرعوباً ، فكسرت الآنية المخالفة ، ونزعت عن ذلك ، وعقدت مع الله عز وجل توبة نصوحاً ، فتاب عَلَيَّ سبحانه وتعالىٰ) .

وقال : إذا تعلم العبد العلم ليعمل به . . كثر علمه ، وإذا تعلم العلم لغيره . . زاده فخراً وخيلاء .

وقيل له : ألا تستسقي ؟ قال : أنتم تستبطئون المطر ، وأنا أستبطىء الحجارة .

ومر تاجر بعَشَّارين[1] فحبسوا عليه سفينته ، فاستشفع بمالك بن دينار ، فقام معه إليهم ، فلما رآه العشارون . . قالوا : يا أبا يحيىٰ ؛ ألا بعثت إلينا ما حاجتك ؟ قال : خلوا سفينة هـٰذا ، قالوا : نعم ، ورأىٰ عندهم كوزاً يجعلون فيه ما يأخذون من الناس من الدراهم ، فقالوا : ادع الله لنا يا أبا يحيىٰ ، قال : قولوا للكوز يدعو لكم ، **كيف أدعو لكم وألف واحد يدعو عليكم ؟! أترىٰ يستجاب لواحد ولا يستجاب لألف ؟!**

وقال مالك : لو أن القوم كلفوا ثمن الصحف التي يكتب فيها ما يتلفظون به . . لأقلوا المنطق .

زاد في رواية : فإذا كانت الصحف من عند ربكم . . أفلا تتقون الله عز وجل وتستحيون منه جل جلاله ؟!

وقال : كان الأبرار يتواصون بثلاث : سجن اللسان ، وكثرة الاستغفار ، والعزلة .

وقال : الخوف على العمل ألاَّ يقبل أشد من العمل .

وقال : يقول الله تعالىٰ : يا عبدي ؛ خيري ينزل إليك ، وشرّك يصعد إليّ ، وأتحبب إليك بالنعم ، وتتبغَّض إلي بالمعاصي ، ولا يزال ملك كريم يعرج إلي منك بعمل قبيح .

وقال : خرج سليمان بن داوود عليهما الصلاة والسلام في موكبه ، فمر ببلبل علىٰ غصن شوك يصيح ويضرب بذَنَبه فقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : إنه يقول : (قد أصبت اليوم نصف تمرة ، فعلى الدنيا العفاء) .

وقال : ما من خطيب يخطب . . إلا عرضت خطبته علىٰ عمله ، فإن كان صادقاً . . صدق ، وإن كان كاذباً . . قرضت شفتاه بمقراض من نار ، كلما قرضتا . . نبتتا .

وقال : بلغني أن المذكِّر الصادق يوضع علىٰ رأسه تاج المُلك ، ثم يؤمر به إلى الجنة ، فيقول : إلـٰهي ؛ كان أقوام يعينوني في الدنيا علىٰ ما كنت عليه ، وأنت أعلم ، قال : فيأمر الله عز وجل أن يفعل بهم مثله ، ثم يأخذهم ويدخل الجنة .

---

(١) **العشَّارين** : الذين يقبضون العشر .

وعن غالب القطَّان قال : رأيت مالك بن دينار في المنام كأنه قاعد في مسجده الذي كان يصلي فيه ، وهو يقول بأصبعه هـٰكذا : صنفان لا تجالسوهما ؛ لأن مجالستهما مفسدة لقلب كل مسلم : صاحب بدعة قد غلا فيها ، وصاحب دنيا مُتْرَف فيها .

وقال : عرس المتقين يوم القيامة .

وكان يقول : إلـٰهي ؛ أنت أصلحت الصالحين ، فاجعلنا صالحين يا أرحم الراحمين .

وقال : بلغنا أن عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام أكب الدنيا علىٰ وجهها ، ثم رفعها الناس بعده ، وإن سيد الخلق محمداً صلى الله عليه وسلم أكبها علىٰ وجهها ، ثم رفعناها بعده ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وكان عند الموت يقول : لمثل هـٰذا اليوم كان دأب أبي يحيىٰ .

وقال : أوحى الله عز وجل إلىٰ عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام : (يا عيسىٰ ؛ عظ نفسك ، فإن اتعظت . . فعظ الناس ، وإلا . . فاستحيي مني) .

وقال : تلقى الرجل وما يلحن حرفاً ، وعلمه[1] وعمله كله لحن .

وقال : أخذ السَّبُعُ صبياً لامرأة ، فتصدقت بلقمة ، فألقاه السَّبُع ، فنوديت : لقمة بلقمة .

ودخل مالك بن دينار علىٰ والي البصرة فقال له : ادع لي ، فقال : مظلوم بالباب يدعو عليك .

وقال بلال ابن أبي بردة يوماً لمالك بن دينار ـ والناس حوله ـ فقال له : يا مالك ؛ أتعرفني ؟ قال : نعم ، أوَّلُك نطفة مذرة ، وآخرك جيفة قذرة ، وأنت فيما بين ذلك في ثيابك تحمل العذرة ، فقال : صدقت ، أنت تعرفني .

أسند مالك بن دينار عن أنس بن مالك عدة أحاديث ، وروىٰ عن جلة التابعين : عن الحسن ، والقاسم بن محمد ، وسالم ، وغيرهم .

من أحاديثه : عن أنس بن مالك : قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خشية الله تعالىٰ رأس كل حكمة ، والورع سيد العمل ، ومن لم يكن له ورع يحجزه عن

---

(١) في نسخة : (وعلمه) ، وفي « الحلية » : (وعمله) .

معصية الله تعالىٰ إذا خلا بها . . لم يعبأ الله تعالىٰ بعمله »[1] انتهىٰ .

وفي كتاب « التوابين » قال : رأىٰ مالك بن دينار شاباً حسناً بالبصرة ، يأمر ببناء قصر ، وهو يقول : افعلوا كذا وكذا ، فقال مالك لأصحابه : ألا ترون هـٰذا وحسنه وحرصه علىٰ هـٰذا البناء ؟ أريد أن أسأل الله عز وجل أن يخلصه ، فلعله يجعله من شباب الجنة ، ادخلوا بنا إليه ، فدخلنا ، فسلمنا ، فرد السلام ، ولم يعرف مالكاً ، فلما عرَّفوا به . . قام إليه ، فقال : يا سيدي ؛ هل من حاجة ؟ قال : كم عزمت أن تنفق علىٰ هـٰذا القصر ؟ قال : مئة ألف درهم ، قال : ألا تعطيني هـٰذا المال ، فأضعه في حقه ؟ وأضمن لك عند الله عز وجل قصراً خيراً من هـٰذا ، بولدانه وخدمه وقبابه وخِيَمه ، من ياقوتة حمراء ، مرصع بالجواهر ، ترابه الزعفران ، وملاطه[2] المسك ، فيه قصور وأنهار وأشجار وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون ؟ فقال الشاب : يا أبا يحيىٰ ؛ أجِّلني الليلة ، وفي غد إن شاء الله عز وجل يكون الجواب .

قال : فبات مالك وهو متفكر في الشاب ، فعند السحر دعا الله تعالىٰ ، وتضرع إليه ، فلما أصبح . . غدَوْا إلى الشاب ، فهش إلىٰ مالك ، وقال له : نعم ، قد أجبت إلىٰ ما تقول ، فاكتب لي كتاب عهد ، فكتب مالك : بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، هـٰذا ما ضمن مالك ابن دينار لفلان ابن فلان ، إني ضمنت لك على الله سبحانه وتعالىٰ قصراً بدل قصرك . . . وذكر جميع ما وصف له ، فدفع الشاب المال ، ففرقه مالك في يومه ذلك ، فلما كان بعد أربعين يوماً أو نحوها . . رأىٰ مالك في محرابه كتاباً موضوعاً ، فقرأه ، فإذا في ظهره مكتوب بغير مداد : هـٰذه براءة من الله العزيز العليم لمالك بن دينار ، إنَّا وفينا الشاب القصر الذي ضمنت له ، وزيادة سبعين ضعفاً ، قال : فأخذ الكتاب ، ومضينا معه إلىٰ منزل الشاب ، فإذا هو قد مات بالأمس ، فسألنا عن الوصية ، فقال أهله والذي غسله : إنه أوصىٰ أن يجعل كتاباً في كفنه ، فجعلنا ذلك الكتاب في كفنه ، فقال مالك : أتعرفون الكتاب ؟ قالوا : نعم ، فأخرج مالك الكتاب ، فقال أهله والذي غسله : هـٰذا ـ والله ـ هو الكتاب بعينه ، والذي قبضه سبحانه وتعالىٰ ؛ لقد جعلت هـٰذا الكتاب بين كفنه وبدنه بيدي ، قال : فكثر البكاء ، فقام شاب آخر ، فقال : سيدي أبا يحيىٰ ؛ خذ مئتي ألف درهم ، واضمن لي

---

(١) أخرجه بنحوه الديلمي (٢/ ١٩٣) .

(٢) طلاؤه .

مثل هـٰذا ، فقال : هيهات! كان ما كان ، والله يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم . انتهىٰ [٢٤٥ـ٢٤٧] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن عفا الله عنهما : ذَكَرَ الحافظ أبو نعيم ـ قدس الله روحه ـ نظير هـٰذه الحكاية بعينها في ترجمة محمد بن حبيب العجمي[١] ، وقد ذكرتها في ترجمته رحمه الله . انتهىٰ .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان مالك بن دينار يُرىٰ يوم التروية بالبصرة ، ويوم عرفة بعرفات .

وكان يقول : قولوا لمن لم يكن صادقاً : لا يتعنىٰ[٢] .

وقال بشر : قال رجل لمالك بن دينار : يا مرائي ، فقال : متىٰ عرفت اسمي ؟ ما عرف اسمي غيرك .

ودخل اللصوص إلىٰ بيت مالك بن دينار ، فلم يجدوا في البيت شيئاً ، فلما أرادوا الخروج . . قال لهم مالك : ما عليكم لو صليتم ركعتين .

ولما حضره الموت . . قال : لولا أن أصنع شيئاً لم يصنعه أحد كان قبلي . . لأوصيت أهلي إذا مت أن يقيدوني ، وأن يجمعوا يدي إلىٰ عنقي ، فينطلقوا بي علىٰ تلك الحال حتىٰ أدفن كما يصنع بالعبد الآبق .

وفي رواية أخرىٰ : إذا سألني ربي عز وجل لِمَ فعلت هـٰذا ؟ أقول : أي رب ؛ لم أرض لك نفسي قط .

وقيل لعبد الواحد بن زيد : ما كان سبب موت مالك ؟ قال : أنا كنت سببه ، سألته عن رؤياه لمسلم بن يسار في المنام كيف كانت ، فقصها عَلَيَّ ، وهو أنه قال : رأيت مسلم بن يسار في نومي ، فقلت له : ماذا لقيت من ربك عز وجل ؟ فقال : لقيت أهوالاً وزلازل عظاماً شداداً ، قلت : وماذا كان بعد ذلك ؟ قال : وما تراه يكون من الكريم سبحانه وتعالىٰ ؟! قَبِل منا الحسنات ، وعفا لنا عن السيئات ، وضمن عنا التَّبعات ، فلما قصَّها عَلَيَّ . . انتفض ، وجعل يشهق ، ويضطرب ، حتىٰ قلت : إن كبده قد تقطعت في جوفه ، ثم أفاق ، فحملناه إلىٰ بيته ، فلم يزل مريضاً يعوده إخوانه إلىٰ أن مات ، رحمه الله .

---

(١) ذكرها الحافظ أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ١٥٠ـ١٥٢) في ترجمة أبي محمد حبيب الفارسي .

(٢) لا يتعب ؛ إذ الصدق أساس ، ومن لا أساس له . . لا بنيان يقيمه .

توفي قبل الطاعون بيسير ، وكان سنة إحدىٰ وثلاثين ومئة . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/١٥٩ـ١٦٦] .

وقال القشيري : مكث مالك بن دينار بالبصرة أربعين سنة ، لم يصح له أن يأكل من تمر البصرة ولا من رطبها ، حتىٰ مات ولم يذقه .

وكان إذا انقضىٰ وقت الرطب . . يقول : يا أهل البصرة ؛ هـٰذا بطني ما نقص منه شيء ، ولا زاد أكلكم فيكم شيئاً ، يفعل ذلك ورعاً . انتهىٰ .

وعن مالك بن دينار قال : رحم الله عبداً قال لنفسه : ألستِ صاحبة كذا ؟ ألست صاحبة كذا ؟ ثم زمَّها[1] ، ثم خطمها ، ثم ألزمها كتاب الله سبحانه وتعالىٰ ، فكان لها قائداً .

وعن عبد السلام قال : سمعت مالكاً يقول لنفسه : إني ـ والله ـ ما أريد بك .

وقال في « لوامع أنوار القلوب » : [إن جاراً له] دخل عليه في مرضه الذي توفي فيه فقال : [أتشتهي شيئاً] ؟ فقال : نعم ، نفسي تنازعني منذ أربعين [سنةً علىٰ] رغيف أبيض ولبن رائب حلو ، [فأحضرها له في] الحال ، فجعل ينظر إليه [ويقول : غلبت] شهوتي عمري ، حتىٰ إذا لم يبق [إلا اليوم تغلبني] ؟! اذهبوا به إلىٰ يتيم فلان [ومات ، ثم رآه] ذلك الجار في النوم ، فسأله [عن حاله] ، فقال له : اسفكوا العبرات ، [وأقيلوا] العثرات ، وأديموا الحساب ، [واهجروا] الشهوات ، ونازعوا [الأهواء في] ترك المنىٰ بالدمع [والمنع] .

وعن مغيرة بن جبير قال : [بت عند مالكٍ ليلةً] ، فرمقته علىٰ غفلة من حيث لا يراني بعد العشاء يجدد الوضوء ، [ويقوم الليل] ، فتارة يفني ليلته في تكرار [آية] ، وتارة يدرج القرآن ، فإذا مر بآية فيها ذكر النار . . قبض علىٰ لحيته وخنقته العبرة وهو يقول بحنين كحنين الثكلىٰ وأنين الولهىٰ : إلـٰهي وسيدي ومولاي ، يا مالك رقي ، ويا سامع نجواي ، ويا راحم شكواي ؛ سبق قولك تفضلاً وامتناناً : ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ والمحب لا يعذب حبيبه ؛ فحرم شيبة عبدك مالك بن دينار على النار ، إلـٰهي ؛ قد علمتَ ساكن الجنة مِن ساكن النار ، فأي الرجلين مالك ؟! وأي الدارين دار مالك ؟! ثم لا يزال كذلك إلى الفجر . انتهىٰ [« الرسالة » : ٩١] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) جمعها بالزمام ، وهو الرسن ؛ كناية عن سهولة قيادها .

ومنهم الإمام :

أبو عبد الله محمد بن المنكدر
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : بينما محمد بن المنكدر ذات ليلة يصلي إذ بكىٰ بكاء شديداً ، وغُشي عليه ، فلما أفاق . . سأله أهله عن سبب البكاء ، فاستعجم[1] عليهم ، واستمر باكياً ، فأرسلوا إلىٰ أبي حازم[2] ، فأخبروه ، فجاء أبو حازم ، فوجده باكياً ، فقال : يا أخي ؛ ما الذي أبكاك ؟ فقد خاف أهلك عليك ، فقال : ذكرت قوله تعالىٰ : ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ ، قال : فبكىٰ أبو حازم معه ، واشتد بكاؤهما ، فقال بعض أهله لأبي حازم : جئنا بك لتفرج عنه ، فزدته ؟! فأخبرهم بالذي أبكاهما .

وعن عكرمة ، عن ابن المنكدر : أنه جزع عند الموت ، فقيل له : لِمَ تجزع ؟ فقال : أخشىٰ آية من كتاب الله عز وجل : ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ فأنا أخشىٰ من الله عز وجل أن يبدوَ لي ما لم أكن أحتسب .

وكان إذا قام من الليل . . يحمد الله عز وجل ، ويشكره جهراً ، ويرفع صوته عالياً بالذِّكر ، فقيل له في ذلك ، فقال : إن لي جاراً مبتلىً يرفع صوته بالبلاء ، وأنا أرفع صوتي بالنعمة .

وكان يقول في الليل : كم من عين الآن ساهرة في رزقي .

وقال : كابدت نفسي أربعين سنة حتى استقامت .

وجاء صفوان بن سليم إلى ابن المنكدر وهو في الموت ، فقال له : يا أبا عبد الله ؛ كأني أراك قد شق عليك الموت ، قال : فما زال يهون عليه الأمر وينجلي ويشرق وجهه حتىٰ كأن المصابيح في وجهه ، ثم أفاق ، ثم قال له ابن المنكدر : لو ترىٰ ما أنا فيه . . لقرت عينك ، ثم قضىٰ رحمة الله عليه .

---

(١) **استعجم** : لم يستطع أن يعبر بكلامه من شدة البكاء .

(٢) **أبو حازم** : سلمة بن دينار ، شيخ المدينة النبوية .

وقال : بلغني أن الجبلين إذا أصبحا . . ينادي أحدهما صاحبه فيقول : هل مرَّ بك اليوم ذاكر لله عز وجل ؟ فيقول : نعم ، فيقول : لقد أقرَّ الله عينك ، لـٰكن أنا ما مرَّ بي ذاكر اليوم .

وقال : إن الله عز وجل يحفظ العبد المؤمن في ولده وولد ولده ، ويحفظه في دويرته ، وفي دويرات حوله ، فما يزالون في حفظ وعافية ما كان بين أظهرهم .

وبعث ابن المنكدر إلىٰ صفوان بن سليم أربعين ديناراً ، وقال : تتقوىٰ بها علىٰ طاعة الله عز وجل .

وقال : نِعم العون علىٰ طاعة الله عز وجل الغنىٰ .

وقيل له : أي شيء أحب إليك ؟ قال : الإفضال على الإخوان .

زاد في رواية : التقاء الإخوان ، وإدخال السرور عليهم .

وقال : إن من موجبات المغفرة . . إطعام المسكين .

وكان يحج وعليه دَين ، فيقال له في ذلك ، فيقول : الحج أقضىٰ للدَّين .

وكان يحج بالصبيان ، فيقال له في ذلك ، فيقول : أعْرِضهم على الله تبارك وتعالىٰ .

وكان يضع خده على الأرض ، ثم يقول لأمه : قومي ضعي قدمك علىٰ خدي .

وقال : إن في التوراة : (اتق ربك ، وبر والدتك ، وصِل رحمك . . أمد لك في عمرك ، وأيسِّر لك يسرك ، وأصرف عنك عسرك) .

وقال : لما خلقت النار . . فزعت الملائكة فزعاً شديداً ، حتىٰ طارت أفئدتهم ، فلم يزالوا كذلك حتىٰ خلق آدم ، فسكن عنهم بعض ما كانوا يجدون .

وقال : إذا كان يوم القيامة . . يقول الله عز وجل للذين كانوا ينزِّهون أسماعهم وأنفسهم عن اللهو ومزامير الشيطان : ادخلوا في رياض الجنة ، ثم يقول للملائكة : أسمعوهم حمدي وثنائي ، وألاَّ خوف عليهم ولا هم يحزنون .

وقال : قد روي : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من جعل هموم الدنيا همّاً واحداً . . كفاه الله هَمَّ الدنيا والآخرة »[1] .

---

(١) أخرجه بنحوه الحاكم (٤/ ٣٦٤) .

وقال ابن المنكدر : **سيأتي على الناس زمان لا يخلص فيه . . إلا من دعا كدعاء الغريق .**

وقال : كنت ليلة قبالة المنبر ، فرأيت في جوف الليل إنساناً يدعو عند أسطوانة ، مقنَّع الرأس ، فسمعته يقول : يا رب ؛ إن القحط قد اشتد علىٰ عبادك ، وأنت أعلم بهم يا أرحم الراحمين ، وإني أقسم عليك ـ يا رب ـ إلا أسقيتهم ، فما كان إلا ساعة ؛ وإذا سحابة قد أقبلت ، ثم أرسلها الله عز وجل ـ قال الراوي : وكان قَلَّ أن يخفىٰ على ابن المنكدر من أهل الخير أحد فقال : هـٰذا بالمدينة ولا أعرفه ، فلما سلَّمَ الإمام . . تقنَّع ، وانصرف ، ولم يجلس ، فتبعته حتىٰ دخل دار أنس ، فدخل موضعاً ، فأخرج مفتاحاً ، ثم دخل ، قال : ورجعت ، فلما أضاء النهار . . أتيته ، فإذا أنا أسمع نجراً في بيته ، فسلَّمت ، ثم قلت : أدخل ؟ قال : ادخل ، فإذا هو ينجر أقداحاً يعملها ، فقلت : كيف أصبحت أصلحك الله ؟ قال : فاستكبر هـٰذه الكلمة ، وأعظمه ذلك مني ، فلما رأيت ذلك . . قلت : إني سمعت إقسامك البارحة على الله عز وجل ، يا أخي ؛ هل لك في نفقة تغنيك عن هـٰذا ، وتفرغك لما تريد من الآخرة ؟ فقال : لا ، ولـٰكن أريد غير ذلك ، لا تذكرني لأحد ، ولا تذكر هـٰذا لأحد حتىٰ أموت ، ولا تأتيني يابن المنكدر ؛ فإنك إن جئتني . . شهرتني ، فقلت : إني أحبّ لقاءك ، قال : في المسجد ، وكان فارسيّاً ، فلما خرج ابن المنكدر . . انتقل من تلك الدار ، فلم يدر ابن المنكدر أين ذهب ، فقال أهل تلك الدار : الله بيننا وبين ابن المنكدر ، أخرج عنا الرجل الصالح ، ولم يذكر أمره فيما وقع له معه إلا بعد موته ، رحمة الله تعالىٰ عليهما .

وقال : أودعني رجل مئة دينار ، فقلت له : يا أخي ؛ إن احتجنا إليها . . أنفقناها ، ثم نقضيك ، قال : نعم ، فاحتجنا إليها ، فأنفقناها ، فأتىٰ رسوله ، فقال : إنا احتجنا إليها ، قال : ولم يكن عندي شيء ، فقلت : يا رب ؛ لا تخرب أمانتي وأَدِّها عني ، قال : فخرجت ، فحين أردت أن أدخل ، فإذا رجل أخذ بمنكبي لا أعرفه ، فدفع إلي صرّة ، فإذا فيها مئة دينار ، فأديتها ولم أعلم من أين ذلك ، فلما مات عامر بن عبد الله بن الزبير . . أخبرني رجل أنه بعث بها إليه عامر بن عبد الله بن الزبير وقال : لا تعلمه من أين هي ، ولا مَن أرسلها ، رضوان الله عليهم أجمعين .

وقال : إن الفقيه يدخل بين الله عز وجل وبين عباده ، فلينظر كيف يدخل .

وقال ابن المنكدر ـ رحمه الله ـ : إن آدم عليه الصلاة والسلام مدة مكثه في الأرض قال :

ما زلت مستَحْيِياً من ربي عز وجل أن أرفع طَرْفي إلىٰ أديم السماء منذ صنعت ما صنعت .

أسند ابن المنكدر عن عدة من الصحابة .

وروىٰ عنه من التابعين جماعة ، رضي الله عنهم أجمعين .

ومن مسانيد حديثه عن جابر : قال : قتل أَبي يوم أحد ، فبلغني ذلك ، فأقبلت ؛ فإذا هو بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم مسجَّىً بثوب ، فرفعت الثوب عن وجهه ، وأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ينهونني ؛ كراهية أن أرىٰ ما به من المثلة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد لا ينهاني ، فلما رُفع . . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما زالت الملائكة حافة بأجنحتها حتىٰ رفع » ، ثم لقيني بعد أيام ، فقال لي : « يا جابر ؛ ألا أبشرك ؟ إن الله تعالىٰ أحيا أباك ، فقال : تمنه ، فقال : أتمنىٰ ـ يا رب ـ أن تعيد روحي وتردني إلىٰ دار الدنيا حتىٰ أقتل مرة أخرىٰ ، قال : إني قضيت أنهم إليها لا يرجعون » صحيح متفق عليه[1] .

وعن ابن المنكدر ، عن جابر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طَعَن في خاصرة أبي عبيدة ، فقال : « إن هـٰهنا خويصرة مؤمنة » غريب من حديث محمد وموسىٰ ، تفرد به عصمة .

وعنه عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة . . أُجير من عذاب القبر ، وجاء يوم القيامة عليه طابع الشهداء »[2] غريب .

وعنه عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اطلبوا الخير عند حسان الوجوه »[3] .

وعنه عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قال لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له ، أحد صمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد . . كتب الله له ألفي ألف حسنة ، ومن زاد . . زاده الله »[4] .

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٥٢) ، ومسلم (٢٤٧١) إلىٰ قوله : « حتىٰ رفع » ، وأخرجه بنحوه الحاكم (٢/ ١٣٠) . .

(٢) أخرج عبد الرزاق (٣/ ٢٦٩) : عن ابن شهاب ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من مات ليلة الجمعة أو يوم الجمعة . . برىء من فتنة القبر ، وكتب شهيداً » .

(٣) ذكره بهـٰذا السند ابن حجر في « لسان الميزان » (٣/ ١٠١) ، وأخرجه القضاعي (١/ ٣٨٤) عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وأخرجه البيهقي في « الشعب » (٣/ ٢٧٨) عن عائشة رضي الله عنها .

(٤) انظر « مجمع الزوائد » (١٠/ ٨٥) ، والحديث فيه عن عبد الله ابن أبي أوفىٰ .

وعنه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حمْدانِ عظيمان : الإنسان إذا جاءه ما يكره . . قال : الحمد لله علىٰ كل حال ، وإذا جاءه ما يسُرُّه . . قال : الحمد لله رب العالمين ، الرحمـٰن الرحيم ، الذي بنعمته تتم الصالحات وتثمر » انتهىٰ [« الحلية » ٣/١٤٦ـ١٥٧] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : جاء المنكدر والد محمد إلىٰ عائشة رضي الله عنها يشتكي إليها الحاجة ، فقالت : أول شيء يأتيني . . أبعث به إليك ، فجاءتها عشرة آلاف درهم ، فقالت : ما أسرع ما امتحنت عائشة ، وبعثت بها إليه ، فاشترىٰ منها جارية ، فولدت له محمداً ، وأبا بكر ، وعمر ، فكلهم يُذكَر بالصلاح والعبادة ، ويُحمل عنه الحديث .

وقال سفيان : صلى ابن المنكدر علىٰ رجل ، فقيل له : أتصلي علىٰ فلان ؟ فقال : إني لأستحيي من الله عز وجل أن يعلم مني أني أعتقد أن رحمته تعجز عن أحد من المسلمين .

وقال محمد بن المنكدر : بات أخي عمر يصلي ، وبتُّ أغمز رجل أمي ، وما أحب أن ليلتي بليلته .

توفي بالمدينة ، سنة ثلاثين ـ أو إحدىٰ وثلاثين ـ ومئة ، رضي الله عنه [انتهىٰ « الصفوة » ٢/٨٢ـ٨٥] .

وقال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : كان محمد بن المنكدر إذا بكىٰ . . مسح وجهه ولحيته بدموعه ، ويقول : بلغني أن النار لا تأكل موضعاً مسته الدموع[1] [« الإحياء » ٤/١٦٣] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرج ابن ماجه في « سننه » (٢/ ١٤٠٤) : عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من عبد مؤمن يخرج من عينيه دموعٌ وإن كان مثل رأس الذباب من خشية الله ، ثم تصيب شيئاً من حُرِّ وجهه . . إلاَّ حرمه الله على النار » قال في الزوائد : إسناده ضعيف .

ومنهم الإمام :

عمر بن المنكدر
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : عن ابن عمر ـ رحمه الله ـ قال : قالت أم عمر بن المنكدر لعمر : يا بني ؛ إني أشتهي أن أراك نائماً ، فقال : يا أماه ؛ والله إن الليل ليرِدُ عَلَيَّ فيهولني ، فينقضي عني وما قضيت منه أَرَبي[1] .

وقال سالم أبو بسطام : كان عمر بن المنكدر لا ينام الليل ؛ لكثرة البكاء علىٰ نفسه ، فشق ذلك علىٰ أمه ، فقالت لأخيه محمد : إن الذي يصنع عمر يشق عَلَيَّ ، فلو كلمته في ذلك ، فاستعان عليه بأبي حازم ، فقالا له : إن الذي تصنع بنفسك يشق علىٰ أمك ، قال : وكيف أصنع ؟ إن الليل إذا دخل عَلَيَّ . . هالني ، فأستفتح القرآن ، فينقضي عني وما تنقضي نهمتي منه ، قالا له : فالبكاء ؟! قال : من آية في كتاب الله ، وهي قوله تعالىٰ : ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ .

وقال عبد الرحمٰن بن حفص : أرسل بعض الأمراء إلىٰ عمر بن المنكدر بمال ، فجاء به الرسول ، فوضعه بين يديه ، فجعل ينظر إليه ويبكي ، فجاء أخوه أبو بكر ، فلما رأىٰ أخاه عمر يبكي . . جلس يبكي لبكائه ، ثم جاء محمد ، فجلس يبكي لبكائهما ، فاشتد بكاؤهم جميعاً ، فبكى الرسول أيضاً لبكائهم ، ثم أرسل إلىٰ صاحب المال ، فأخبره بذلك ، فأرسل ربيعة ابن أبي عبد الرحمٰن يستعلم علم ذلك ، فجاء ربيعة فقال : يا أخي ؛ ما الذي أبكاك من صلة الأمير ؟ قال : إني ـ والله ـ خشيت أن تغلب الدنيا علىٰ قلبي ، فلا يكون للآخرة فيه نصيب ، فذلك الذي أبكاني ، وأمر بالمال فتصدق به علىٰ فقراء أهل المدينة ، فراح ربيعة وأخبر الأمير بذلك ، فبكىٰ ، وقال : هٰكذا يكون أهل الجنة إن شاء الله تعالىٰ . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٨٥] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أَرَبي : طلبي .

ومنهم الإمام :

صفوان بن سليم الزهري

رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : عن عبد العزيز ابن أبي حازم قال : عادلني[1] صفوان بن سليم إلىٰ مكة ، فما وضع جنبه في المَحْمِل حتىٰ رجع .

قالوا : وكان في الصيف يصلي في الليل بالبيت ، فإذا كان الشتاء . . صلىٰ في السطح ؛ لئلاّ ينام ، ثم يقول : هـٰذا الجهد من عبدك صفوان ، وأنت أعلم به ، وأنت وفقته .

وكان قد تورمت رجلاه من قيام الليل ، وظهر فيها عروق خضر .

وقال أبو ضمرة أنس بن عياض : رأيت صفوان بن سليم ، ولو قيل له غداً القيامة . . ما كان عنده مزيد علىٰ ما كان عليه من العبادة .

وقال سفيان بن عيينة : آلىٰ صفوان بن سليم ألاَّ يضع جنبه إلى الأرض حتىٰ يلقى الله عز وجل ، فعاش بعد ذلك أربعين سنة لم يضع جنبه ، فلما حضره الموت وهو منتصب . . قالت له ابنته وهو في هـٰذه الحال : لو ألقيت نفسك ؟ قال : إذاً ـ يا بنية ـ ما وفيت له بالقول ، فما زال مستنداً حتىٰ خرجت روحه .

وقال ابن أبي حازم : دخلت أنا وأبي نسأل عن حال صفوان بن سليم وهو في مصلاه ، فما زال به أبي حتىٰ ردَّه إلىٰ فراشه ، فأخبرتني مولاته أن ساعة خرجتم مات ، رحمه الله تعالىٰ .

وقال أبو ضمرة أنس بن عياض : انصرف صفوان بن سليم يوم فطر أو أضحىٰ إلىٰ منزله ، ومعه صديق له ، فقرب إليه خبزاً وزيتاً ، فجاء سائل ، فوقف على الباب ، فقام إليه ، فأعطاه ديناراً .

وفي رواية : قام إلىٰ كوة في البيت ، فأخذ منها شيئاً ، ثم خرج إليه ، فأعطاه ، فتبعت

---

(١) عَادَلَ الرجلُ الرجلَ : وازنه في المَحْمِل ؛ ركب معه .

السائل ؛ لأنظر ما أعطاه ، فإذا هو يقول : أعطاه الله أفضل ما أعطىٰ أحداً من خلقه ، وذَكَرَ دعاء مُخلَصاً ، فقلت له : ما الذي أعطاك ؟ قال : أعطاني ديناراً .

وحج ومعه سبعة دنانير ، فاشترىٰ بها بدنة ، فقيل له : ليس معك سوىٰ سبعة دنانير ، تشتري بها بدنة ؟! فقال : إني سمعت قول الله عز وجل : ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ .

وقدم سليمان بن عبد الملك المدينة وعمر بن عبد العزيز عامله عليها ، فصلىٰ بالناس الظهر ، وفتح باب المقصورة ، واستند إلى المحراب ، واستقبل الناس بوجهه ، فنظر إلىٰ صفوان بن سليم ، فقال سليمان : يا عمر ؛ مَن هـٰذا الرجل ؟ ما رأيت سمْتاً أحسن منه ، قال : يا أمير المؤمنين ؛ هـٰذا صفوان بن سليم ، قال : يا غلام ؛ هات كيساً فيه خمس مئة دينار ، فأتىٰ بكيس فيه خمس مئة دينار ، فقال لخادمه : تَرىٰ هـٰذا الرجل القائم يصلي ـ فوصفه للغلام حتىٰ أثبته ـ ادفع هـٰذا المال إليه ، قال : فخرج الغلام بالكيس حتىٰ جلس إلىٰ صفوان ، فلما نظر إليه صفوان . . ركع وسجد ، ثم سلَّم وأقبل عليه ، فقال : ما حاجتك ؟ قال : أمرني أمير المؤمنين ـ وهو ذا ينظر إليك وإليّ ـ أن أدفع إليك هـٰذا الكيس ، فيه خمس مئة دينار ، ويقول لك : استعن بهـٰذه علىٰ زمانك وعيالك ، فقال صفوان للغلام : لست أنا بالذي أُرْسِلْتَ إليه ، فقال له الغلام : ألست صفوان بن سليم ؟ قال : بلىٰ ، قال : فإليك أُرْسِلْتُ ، فقال صفوان : اذهب فاستثبت ، فإذا استثبت . . فهلم ، فقال الغلام : أمسك الكيس معك حتىٰ أذهب ، قال : لا ، إذا أمسكت . . فقد أخذته ، ولـٰكن اذهب فاستثبت ، فولى الغلام ، وأخذ صفوان نعليه وخرج ، فلم يُرَ بالمدينة حتىٰ خرج سليمان منها .

وجاء رجل من أهل الشام فقال : دلوني علىٰ صفوان بن سليم ؛ فإني رأيته دخل الجنة ، فقيل له : بأي شيء ؟ قال : بقميص كساه إنساناً ، فسئل بعض إخوان صفوان عن قصة القميص فقال : خرج من المسجد في ليلة باردة ، فوجد رجلاً عارياً ، فنزع قميصه ، فألبسه إياه .

أسند عن جماعة من الصحابة ، رضوان الله عليهم أجمعين .

وسمع من كبار التابعين ، وأخذ عنهم .

وحدث عنه من التابعين جماعة ، منهم : محمد بن المنكدر ، وموسى بن عقبة ، ومحمد بن عجلان ، وزيد بن أسلم .

فمن أحاديثه : عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل عين باكية يوم القيامة . . إلا عيناً غضت عن محارم الله تعالىٰ ، وعيناً سهرت في سبيل الله ، وعيناً خرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله عز وجل »[1] غريب من حديث صفوان . انتهىٰ [« الحلية » ٣/١٥٨ـ١٦٣] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان صفوان لا يكاد يخرج من مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، فإذا أراد أن يخرج . . بكىٰ ، وقال : أخاف ألاَّ أعود إليه .

وقال أبو بكر ابن صدقة : ذُكِرَ لأحمد ابن حنبل صفوان بن سليم ، وقلة حديثه ، وأشياء خولف فيها ، فقال : هـٰذا رجل كان يُستشفىٰ بحديثه ، ويُستنزَل القَطْرُ بذِكره .

توفي بالمدينة سنة اثنتين وثلاثين ومئة . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٩٠ـ٩٢] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرجه الديلمي (٣/ ٢٥٦) .

ومنهم الإمام :

عامر بن عبد الله بن الزبير
رضي الله عنهم أجمعين

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : كان عامر يقف عند موضع الجنائز يدعو ، وعليه قطيفة ، فربما سقطت عنه القطيفة وهو لا يشعر بها .

وفي رواية : قال مالك بن أنس : ربما خرج عامر منصرفاً من العِشاء من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيعرض له الدعاء قبل أن يصل إلىٰ منزله ، فيرفع يديه ، فما يزال كذلك حتىٰ ينادىٰ بالصبح ، فيرجع إلى المسجد ، فيصلي الصبح بوضوء العشاء .

وقال عامر : أقمت سنة بعد موت أبي لا أسال الله عز وجل حاجة لنفسي ، وإنما أسأله لأبي .

وقال سفيان بن عيينة : اشترىٰ عامر نفسه من الله عز وجل ست مرات أو سبع مرات بسبع ديات[1] .

وكان يخرج بالبدرة فيها عشرة آلاف درهم يقسمها ، فما يصلي العشاء ومعه منها درهم .

وسرقت نعلا عامر ، فما انتعل بعدها حتىٰ مات رحمه الله .

أسند عن أبيه ، وعن غيره من الصحابة ، رضوان الله عليهم أجمعين .

وحدث عن عدة من التابعين . انتهىٰ [« الحلية » ٣/١٦٦ـ١٦٧] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان عامر يتخير العُبَّاد وهم سجود ، أبا حازم ، وصفوان بن سليم ، وسليمان ، وأشباههم ، فيأتيهم بالصرة فيها الدنانير والدراهم ، فيضعها عند نعالهم بحيث يحسون بها ، ولا يشعرون بمكانه ، فيقال له : ما يمنعك أن ترسل بها إليهم ؟ فيقول : أكره أن يتمعر[2] وجه أحدهم إذا نظر إلى الرسول وإذا لقيني .

---

(١) يعني : يتصدق كلَّ مرةٍ بِدِيته .

(٢) **تمعَّر وجهه** : تغيَّر وعَلَتْه صفرة .

وكان إذا شهد جنازة . . وقف على القبر ، فقال : ألا أراك ضيقاً ؟ ألا أراك مظلماً ؟ لئن سلمت . . لأتأهبن لك أهبتك ، فأول شيء تراه عيناه من ماله . . يتقرب به إلىٰ ربه عز وجل ، وكان رقيقه يتعرضون له عند انصرافه من الجنازة ليعتقهم .

وقال مصعب : سمع عامر المؤذن وهو يجود بنفسه ، ومنزله قريب من المسجد ، فقال : خذوا بيدي ، فقيل له : إنك عليل ، وفي هـٰذا الحال ؟ فقال : أسمع داعي الله تعالىٰ فلا أجيبه ؟! فدخل في صلاة المغرب ، فركع مع الإمام ركعة ، ثم مات رضي الله عنه ، سنة أربع وعشرين ومئة[1] . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٧٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) كذا في « السير » (٥/ ٢٢٠) ، « والصفوة » ، و« تهذيب الكمال » (١٤/ ٥٩) ، وفي « النسخ » : (أربع وستين ومئة) .

ومنهم الإمام :

أبو الحسن موسى الكاظم ابن جعفر الصادق ابن محمد بن علي زين العابدين ابن الحسين بن علي بن أبي طالب

رضوان الله عليهم

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : يكنىٰ : أبا الحسن الهاشمي .

وكان يدعى العبدَ الصالح ؛ من كثرة عبادته واجتهاده وقيامه الليل[1] .

وكان كريماً حليماً ، إذا بلغه عن رجل أنه يؤذيه . . بعث إليه بمال .

وقال الربيع : لَمَّا حبَس المهدي موسى بن جعفر . . رأىٰ في النوم عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه وهو يقول : يا محمد : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾ ، قال الربيع : فأرسل إلي ليلاً ، فهالني ، فجئته وإذا هو يقرأ هٰذه الآية ، وكان أحسن الناس صوتاً ، فقال : عَلَيَّ بموسى بن جعفر ، فجئته به ، فعانقه ، وأجلسه إلىٰ جانبه ، وقال : يا أبا الحسن ؛ رأيتُ علي بن أبي طالب يقرأ عَلَيَّ كذا وكذا ، فتؤمِّنُني ألاَّ تخرج عَلَيَّ أو علىٰ أحد من ولدي ، فقال : والله ؛ لا فعلت ذلك ، ولا هو من شأني ، فقال : صدقت ، يا ربيع ؛ أعطه ثلاثة آلاف دينار ، ورُدَّهُ إلىٰ أهله إلى المدينة ، قال الربيع : فأحكمت أمره ليلاً ، فما أصبح . . إلا وهو على الطريق خوف العوائق .

وقال شقيق : خرجت حاجّاً سنة تسع وأربعين ومئة ، فنزلت القادسية ، فبينا أنا أنظر إلى الناس في زينتهم وكثرتهم ؛ رأيت فتىً حسن الوجه ، شديد السمرة ، فوق ثيابه ثوب صوف ، مشتمل بشَمْلة[2] ، في رجليه نعلان ، وقد جلس منفرداً وحده ، فقلت في نفسي :

---

(١) نقل الذهبي في « السير » (٦/ ٢٧٣) عن أخت موسى الكاظم كلامها في ذلك ، فقالت : كان إذا صلى العَتَمة . . حمد الله ومجده ودعاه ، فلم يزل كذلك حتىٰ يزول الليل ، فإذا زال الليل . . قام يصلي حتىٰ يصلي الصبح ، ثم يذكر حتىٰ تطلع الشمس ، ثم يقعد إلى ارتفاع الضحىٰ ، ثم يتهيأ ويستاك ويأكل ، ثم يرقد إلىٰ قبل الزوال ، ثم يتوضأ ويصلي العصر ، ثم يذكر في القبلة حتىٰ يصلي المغرب ، ثم يصلي ما بين المغرب إلى العَتَمة .

(٢) **الشَّمْلة** : كساء يُشتمل به ؛ أي : يتلفف به .

هـٰذا الفتىٰ من الصوفية ، يريد أن يكون كَلاًّ على الناس في طريقهم ، والله ؛ لأمضينَّ إليه ، ولأُوبِّخَنَّه ، فدنوت منه ، فلما رآني مقبلاً . . قال : يا شقيق ؛ ﴿ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ ثم تركني ومضىٰ ، فقلت في نفسي : إن هـٰذا لأَمر عظيم ، قد تكلم بما في نفسي ، ونطق باسمي ، ما هـٰذا إلا عبد صالح ، لأَلحقنه ، ولأسألنه يحاللني ، فأسرعت في أثره ، فلم ألحقه ، وغاب عني ، فلما نزلنا واقصة[1] . . رأيته يصلي ، وأعضاؤه تضطرب ، ودموعه تجري ، فقلت : هـٰذا صاحبي ، أمضي إليه وأستحله ، فقعدت حتىٰ جلس ، فأقبلت نحوه ، فلما رآني مقبلاً . . قال : يا شقيق ؛ اتل قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ ، ثم تركني ومضىٰ ، فقلت : إن هـٰذا الفتىٰ من الأبدال ، قد تكلم علىٰ سِرِّي مرتين ، فلما نزلنا زبالة[2] ؛ إذ الفتىٰ قائم على البئر ، وبيده ركوة يريد أن يستقي ماء ، فسقطت الركوة من يده في البئر ، وأنا أنظر إليه ، فرأيته قد رمق السماء بطَرْفه ، وسمعته يقول : اللهم ، يا سيدي ؛ أنت تعلم أن مالي سواها ، فلا تعدمنيها . فوالله ؛ لقد رأيت البئر وقد ارتفع ماؤها ، فمد يده ، وأخذ الركوة ، وملأها ، وتوضأ ، وصلىٰ أربع ركعات ، ثم مال إلىٰ كثيب رمل ، فجعل يقبض بيده ، ويطرح في الركوة ، ويحركه ، ويشرب ، فأقبلت إليه ، وسلمت عليه ، فرد عَلَيَّ السلام ، فقلت : أطعمني من فضل ما أنعم الله تعالىٰ به عليك ، فقال : يا شقيق ، لم تزل نعمة الله علينا ظاهرة وباطنة ، فأحسِن ظنك بربك ، ثم ناولني الركوة ، فشربت منها ، فإذا سويق وسكر ، فوالله ؛ ما شربت قط ألذ منه ، ولا أطيب ريحاً ، فشبعت ورويت وأقمت أياماً لا أشتهي طعاماً ولا شراباً ، ثم لم أره حتىٰ دخلنا مكة ، فرأيته ليلة إلىٰ جنب قبة الشراب في نصف الليل يصلي بخشوع وأنين وبكاء ، فلم يزل كذلك حتىٰ ذهب الليل ، فلما رأى الفجر . . جلس في مصلاه يسبح الله عز وجل ويدعو ، ثم قام يصلي الغداة ، وطاف بالبيت أسبوعاً وخرج ، فتبعته ، وإذا له حاشية وموالي ، وهو علىٰ خلاف ما رأيته في الطريق ، ودار به الناس من حوله يسلمون عليه ، فقلت لبعض من رأيته يقرب منه : من هـٰذا الفتىٰ ؟ فقال : هـٰذا موسى بن جعفر ، فقلت : وقد عجبت أن تكون هـٰذه العجائب إلا لمثل هـٰذا السيد من هـٰذا البيت العظيم الطاهر .

وقال أحمد بن إسماعيل : بعث موسى بن جعفر إلى الرشيد برسالة من الحبس ، كان

---

(١) **واقصة** : منزل بطريق مكة ، بعد القرعاء ، وقبل العقبة ، ويقال لها واقصة الحزون ، وهي قبل زبالة بمرحلتين .

(٢) **زبالة** : منزل بطريق مكة ، وهي قرية عامرة ، بها أسواق ، بين واقصة والثعلبية .

منها : إنه لم يَنْقَضِ عني يوم من البلاء . . إلا انقضىٰ عنك معه يوم من الرخاء ، حتىٰ نفضي جميعاً إلىٰ يوم ليس له انقضاء ، يخسر فيه المبطلون .

ولد موسى بن جعفر بالمدينة ، سنة ثمان وعشرين ومئة ، وأقدمه المهدي إلى العراق ، ثم رده إلى المدينة ، فأقام بها إلىٰ أيام الرشيد ، فقدم الرشيد المدينة ، فحمله معه ، وحبسه ببغداد إلىٰ أن توفي بها[1] .

وكانت وفاته لخمس بقين من رجب ، سنة ثلاث وثمانين ومئة ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/١٠٧ـ١٠٩] .

وقال في « المختار » : موسى الكاظم أحد الأئمة الاثني عشر . [انتهىٰ] .

قال الحافظ الخطيب : روي : أنه دخل موسىٰ مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم أوَّل الليل ، فسجد ، وهو يقول : عظم الذنب مني ، فَلْيَحْسُنِ العفو منك ، فجعل يرددها حتىٰ أصبح .

وكان حليماً كريماً ، يبلغه عن الرجل أنه يؤذيه . . فيبعث إليه بالصرة فيها ألف دينار .

وكان يصر الصرر ثلاث مئة دينار وأربع مئة دينار ، ثم يقسمها بالمدينة .

وحكىٰ عبد الله بن مالك الخزاعي قال : أتاني رسول هارون الرشيد ليلاً ، فراعني ، فلما دخلت عليه . . سلمت ، فسكتَ ساعة ، فطار عقلي ، ثم قال لي : إني رأيت في هـٰذه الساعة أنه قد أتاني شخص معه حربة ، فقال : إن خليت عن موسىٰ ، وإلا . . نحرتك بهـٰذه الحربة ، اذهب فخَلِّ عنه ، وأعطه ثلاثين ألف درهم ، وقُلْ له : إنه مخير بين المقام عندنا وله كل ما يحب ، وبين المضيّ إلىٰ أهله ، قال : فجئت إليه ، ودفعت إليه المال ، وأبلغته ما قال أمير المؤمنين ، فقال لي : إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لي : « **يا موسىٰ ؛ حُبست مظلوماً ، فقل هـٰذه الكلمات : اللهم ، يا سامع كل صوت ، ويا سابق كل فوت ، ويا كاسي العظام لحماً بعد الموت ؛ أسألك بأسمائك الحسنىٰ ، وباسمك الأعظم ، يا حليماً لا يعجل من عصاه ، يا ذا المعروف الذي لا ينقطع أبداً ، ولا يحصىٰ عدداً ؛ فرِّج عني** » ، ثم استيقظت ، فكان ما ترىٰ[2] انتهىٰ [« تاريخ بغداد » ١٣/٢٩] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) قيل : مسموماً ، ودفن في مقابر الشونيزية خارج القبة ، وقبره مشهور يزار .

(٢) « وفيات الأعيان » (٥/٣٠٩) .

ومنهم الإمام :

أبو حمزة محمد بن كعب القرظي
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال محمد بن كعب : إذا أراد الله بعبد خيراً . . جعل فيه ثلاث خصال : فقهاً في الدين ، وزهادة في الدنيا ، وبصراً بعيوبه .

وكان يقول : الدنيا دار فناء ومنزل قُلْعَة[1] ، رغبت عنها السعداء ، فأشقى الناس بها أرغبُ الناس فيها ، وأزهدُ الناس فيها . . أسعد الناس بها ، هي المغوية لمن أطاعها ، المهلكة لمن اتبعها ، الخائنة لمن انقاد لها ، عِلمُها جهل ، وغناؤها فقر ، وزيادتها نقصان ، وأيامها دُوَل .

وقال : إن الدنيا لتبكي من رجل ، وتبكي علىٰ رجل : تبكي علىٰ من كان يعمل علىٰ ظهرها بطاعة الله عز وجل ، وتبكي من رجل كان يعمل علىٰ ظهرها بمعصية الله سبحانه وتعالىٰ قد أثقلها ، ثم قرأ : ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ .

وقال عمرو بن دينار : سألت محمد بن كعب عن هٰذه الآية الكريمة : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ قال : من يعمل مثقال ذرة من خير من كافر . . يرىٰ ثوابها في نفسه وأهله وماله ، حتىٰ يخرج وليس له من خير ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً من مؤمن . . يرىٰ عقوبتها في نفسه وأهله وماله ، حتىٰ يخرج وليس له من شر .

وقالت أم محمد بن كعب لابنها : يا بني ؛ لولا أني أعرفك صغيراً طيباً ، وكبيراً طيباً . . لظننت أنك أحدثت ذنْباً موبقاً ؛ مما أراك تصنع بنفسك في الليل والنهار ، فقال : يا أماه ؛ وما يؤمِّنُني أن يكون الله عز وجل قد اطلع عَلَيَّ في بعض ذنوبي فمقتني وقال : اذهب لا أغفر لك ، مع أن عجائب القرآن توردني علىٰ أمور ، حتىٰ إنه لينقضي الليل ولم أفرغ من حاجتي .

---

(١) **منزل قُلْعَة** : أي تحوُّل وارتحال ، ومنه حديث علي رضي الله عنه : « أحذركم الدنيا ؛ فإنها منزل قلعة » .

وكتب عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ إلىٰ محمد بن كعب يسأله أن يبيعه غلامه سالماً ، وكان عابداً خيِّراً ، فقال : إني دبَّرتُه ، قال : مُرْهُ فليزُرني ، فأتاه سالم ، فقال له عمر : إني قد ابتليت بما ترىٰ ، وأنا ـ والله ـ أتخوف ألاَّ أنجو ، فقال له سالم : إن كنت كما تقول . . فهـٰذا نجاتك ، وإلا . . فهو الأمر الذي تخاف .

وسئل محمد بن كعب : ما علامة الخذلان ؟ قال : أن يستقبح الرجل ما كان يستحسن ، ويستحسن ما كان يستقبح .

وقال : لأن أتفكر ليلة حتىٰ أصبح في (إذا زلزلت) و(القارعة) فقط . . أحب إلي من أن أَهُذَّ القرآن هَذّاً .

وقال : **لو رخص لأحد في ترك الذِّكر . . لرخص لزكرياء عليه الصلاة والسلام ؛ قال الله تعالىٰ** : ﴿ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا ﴾ ، **ولو رخص لأحد في ترك الذِّكر . . لرخص للذين يقاتلون في سبيل الله ؛ قال الله تعالىٰ** : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ : قال : اصبروا علىٰ دينكم ، وصابروا لوعدي الذي وعدتكم ، ورابطوا عدوي ، واتقوا الله فيما بيني وبينكم ، لعلكم تفلحون إذا لقيتموني .

أسند عن عدة من الصحابة ، رضوان الله عليهم أجمعين .

وروىٰ عنه من التابعين : محمد بن المنكدر ، وغيره .

فمن أحاديثه : ما رواه عن المغيرة بن شعبة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة . . ما بينه وبين أن يدخل الجنة إلا أن يموت ، فإذا مات . . دخل الجنة »[1] غريب من حديث المغيرة . انتهىٰ [« الحلية » ٣/٢١٣ـ٢٢١] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال محمد بن كعب القرظي : **من قرأ القرآن . . مُتِّع بعقله ، وإن بقي مئتي سنة** .

وسأله رجل فقال : يا أبا عبد الله ؛ ما تقول في التوبة ، قال : ما أُحسنها ، قال :

---

(١) أخرج الطبراني في « الكبير » (٨/ ١١٤) : عن أبي أمامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة مكتوبة . . لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت » .

أفرأيت إن أَعطيت الله عز وجل عهداً ألاَّ أعصيه أبداً ؟ فقال له محمد : فمن حينئذ أعظم منك جرماً ؟! تتألَّىٰ على الله سبحانه وتعالىٰ ألاَّ ينفذ فيك أمره .

توفي سنة سبع عشرة ـ أو ثمان عشرة ـ ومئة .

وقيل : كان يقص علىٰ أصحابه ، فسقط المسجد عليهم ، رحمة الله عليهم أجمعين .

انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٧٨ـ٧٩] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو حازم سلمة بن دينار
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال عون بن عبد الله : ما رأيت أحداً يفرفر[1] الدنيا فرفرة أبي حازم .

وقال أبو حازم : يسيرُ الدنيا يُشغل عن كثير الآخرة ، وإنك لتجد الرجل يشغل نفسه بهَمِّ غيره ، حتىٰ يكون أشد اهتماماً من صاحب الهم بهَمِّ نفسه .

وقال : عند تصحيح الضمائر . . تغفر الكبائر ، وإذا عزم العبد علىٰ ترك الآثام . . أتته الحكمة .

وقال : كل نعمة لا تقرب من الله عز وجل . . فهي بلية .

وقال : ينبغي للمؤمن أن يكون حفظه للسانه أشد منه لموضع قدميه .

وقال لابنه : يا بني ؛ لا تقتدِ بمن لا يخاف الله عز وجل بظهر الغيب ، ولا يقف عن العيب ، ولا يصلح عند الشيب .

وقال : لو نادىٰ مناد من السماء : أَمِنَ أهل الأرض من دخول النار . . لكان يحق عليهم الوجل من حضور ذلك الموقف ومعاينة ذلك اليوم .

وقال : يا أعرج ؛ يُنادىٰ يوم القيامة : يا أهل خطيئة كذا وكذا ؛ فتقوم معهم ، ثم يُنادىٰ : يا أهل خطيئة كذا وكذا ؛ فتقوم معهم ، فأراك يا أعيرج تقوم مع أهل كل خطيئة .

وقال رجل لأبي حازم : إنك متشدد ، فقال أبو حازم : ومالي لا أتشدد وقد يرصدني أربعة عشر عدواً :

أما أربعة : فشيطان يفتنني ، ومؤمن يحسدني ، وكافر يقاتلني ، ومنافق يبغضني .

وأما العشرة : فالجوع ، والعطش ، والحر ، والبرد ، والعري ، والهرم ، والمرض ، والفقر ، والموت ، والنار .

---

(١) يفرفر : يذم ويحقِّر .

ولا أطيقهن إلا بسلاح تام ، ولا أجد لهن سلاحاً أفضل من التقوىٰ .

وقال : إن الشيطان إذا استمكن من عصمة امرىءٍ . . لم يبال بعد ذلك بما صنع ولو صلىٰ حتىٰ يسقط لِحُرِّ وجهه[1] ، ولم يكده فيما سوىٰ ذلك .

وكان إذا قيل له : ما مالُك ؟ قال : ثقتي بالله تعالىٰ ، وإياسي مما في أيدي الناس .

وقال أبو حازم : نحن لا نريد أن نموت حتىٰ نتوب ، ونحن لا نتوب حتىٰ نموت .

وقال : ما رأيت يقيناً لا شك فيه . . أشبه بشك لا يقين فيه . . من شيء نحن فيه .

وقال : إن كنت تطلب من الدنيا ما يكفيك . . فأدنىٰ ما فيها يُجزيك ، وإن كان لا يغنيك ما يكفيك . . فليس فيها شيء يغنيك .

وقال : نعمة الله فيما زوىٰ عني من الدنيا . . أعظم من نعمته فيما أعطاني منها ، إني رأيته أعطاها قوماً فهلكوا .

وقدم سليمان بن عبد الملك المدينة حاجّاً ، فقال : هل بها أحد أدرك عدة من الصحابة رضي الله عنهم ؟ قالوا : نعم ، أبو حازم ، فأرسل إليه ، فلما أتاه . . قال له : يا أبا حازم ؛ ما هـٰذا الجفاء ؟ قال : أي جفاء رأيت مني يا أمير المؤمنين ؟ قال : وجوه الناس أتوني ولم تأتني ، قال : والله ؛ ما عرفتني قبل هـٰذا ، ولا أنا رأيتك ، فأي جفاء رأيت مني ؟! فالتفت سليمان إلى الزهري وقال : أصاب الشيخ ، وأخطأت أنا .

فقال : يا أبا حازم ؛ ما لنا نكره الموت ، قال : لأنكم عمرتم الدنيا وخرَّبتم الآخرة ، فتكرهون الخروج من العمران إلى الخراب ، قال : صدقت .

يا أبا حازم ؛ ليت شعري! ما لنا عند الله عز وجل غداً ؟ قال : اعرض عملك علىٰ كتاب الله تعالىٰ ، قال : وأين أجده من كتاب الله سبحانه وتعالىٰ ؟ قال : في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ ، قال سليمان : فأين رحمة الله تعالىٰ ؟ قال أبو حازم : ﴿ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ، قال سليمان : ليت شعري ، كيف العرض على الله عز وجل ؟ فقال أبو حازم : أما المحسن . . فكالغائب يقدم علىٰ أهله ، وأما المسيء . . فكالآبق يُقدَم به إلىٰ مولاه ، فبكىٰ سليمان حتىٰ علا نحيبه واشتد بكاؤه ، فقال : يا أبا حازم ؛ كيف لنا أن نصلح ؟ قال : تَدَعون عنكم الصَّلَفَ[2] ، وتتمسكون بالمروءة ،

---

(١) في « الحلية » : (لحم وجهه) .

(٢) الصَّلَف : التمدح بماليس عندك ، وقيل أيضاً : قلة الخير .

وتقسمون بالسوية ، وتعدلون في القضية ، قال : وكيف المأخذ من ذلك ؟ قال : تأخذ بحقه ، وتضع بحقه .

قال : يا أبا حازم ؛ من أفضل الخلائق ؟ قال : أهل التقىٰ والمروءة والنُّهىٰ ، قال : فما أعدل العدل ؟ قال : كلمة عدل عند من ترجوه أو تخافه ، قال : فما أسرع الدعاء إجابة ؟ قال : دعاء المحسن للمحسن ، قال : فما أفضل الصدقة ؟ قال : جُهْدٌ من مُقِلٍّ إلىٰ بائس فقير ، لا يتبعها منّاً ولا أذىً ، قال : من أكيس الناس ؟ قال : رجل وفق لطاعة الله عز وجل ، فعمل بها ، ثم دل الناس عليها ، قال : فمن أحمق الخلق ؟ قال : رجل اغتاظ في هوىٰ أخيه وهو ظالم ، فباع آخرته بدنيا غيره .

قال : يا أبا حازم ؛ هل لك أن تصحبنا فتصيب منا ونصيب منك ؟ قال : كلا ، قال : ولِمَ ؟ قال : إني أخاف أن أركن إليكم شيئاً قليلاً ، فيذيقني الله ضعف الحياة وضعف الممات ، ثم لا يكون لي منه نصيراً .

قال : يا أبا حازم ؛ ارفع إليَّ حاجتك ، قال : نعم ، تدخلني الجنة ، وتخرجني من النار ، قال : ذاك ليس إليَّ ، قال : فما لي حاجة سواها .

قال : يا أبا حازم ؛ ادع الله عز وجل لي ، قال : نعم ، اللهم ؛ إن كان سليمان من أوليائك . . فيسره لخير الدنيا والآخرة ، وإن كان من أعدائك . . فخذ بناصيته إلىٰ ما تحب وترضىٰ ، قال سليمان : زدني ، قال : قد أكثرت وأطنبت إن كنت من أهله ، وإن لم تكن من أهله . . فما حاجتك أن ترمي عن قوس ليس لها وَتَرَ ؟!

قال سليمان : يا أبا حازم ؛ ما تقول فيما نحن فيه ؟ فقال : أوتعفيني يا أمير المؤمنين ؟ قال : بل نصيحة تلقيها إليَّ ، قال : إن آباءك غصبوا الناس هـٰذا الأمر ، فأخذوه عنوة بالسيف عن غير مشورة ولا اجتماع من الناس ، وقد قتلوا فيه مقتلة عظيمة ، وارتحلوا ، فلو شعرت ما قالوا ، وما قيل لهم ، قال رجل من جلساء سليمان : بئسما قلت ، قال أبو حازم : كذبت ، إن الله عز وجل أخذ الميثاق على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه .

قال : يا أبا حازم ؛ أوصني ، قال : نعم ، سوف أوصيك وأُوجز ، نزِّهِ الله عز وجل ، وعظِّمْه أن يراك حيث نهاك ، أو يفقدك حيث أمرك ، فلما ولىٰ . . قال : يا أبا حازم ؛ هـٰذه مئة دينار أنفقها ولك عندي أمثالها كثير ، فرمىٰ بها .

إليه وقال : والله ؛ ما أرضاها لك ، فكيف أرضاها لنفسي ؟ إني أعيذك بالله أن يكون

سؤالك إياي هزلاً ، وردي عليك بذلاً ، إن موسىٰ عليه الصلاة والسلام لما ورد ماء مدين . . قال : ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ ، فسأل ربه ولم يسأل الناس ، ففطنت الجاريتان ولم يفطن الرعاء ، فأتيا أباهما شعيباً عليه الصلاة والسلام فأخبرتاه ، فقال شعيب : ينبغي أن يكون هـٰذا جائعاً ، ثم قال لإحداهما : اذهبي فادعيه ، فلما أتته . . أعظمته وغطت وجهها ، ثم قالت : ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ ، فكره موسىٰ عليه الصلاة والسلام ذلك ، وأراد ألاَّ يتبعها ، ثم لم يجد بُدّاً من أن يتبعها ؛ لأنه كان في أرض مَسْبَعَة[1] وخوف ، فتبعها ، وكانت امرأة ذات عجز ، فكانت الرياح تضرب ثوبها ، فتصف لموسىٰ عجزها ، فيغض مرة ويُعرِض أخرىٰ ، ثم قال : يا أمة الله ؛ كوني خلفي ، ثم دخل إلىٰ شعيب عليه الصلاة والسلام والعَشاء مهيأ ، فقال : كل يا موسىٰ ، قال موسىٰ : لا ، قال شعيب : ألست جائعاً ؟ قال : بلىٰ ، ولـٰكني من أهل بيت لا نبيع شيئاً من عمل الآخرة بملء الأرض ذهباً ، وأخشىٰ أن يكون هـٰذا أجرَ ما سقيتُ لهما ، قال شعيب : لا يا شاب ، ولـٰكنها عادتي وعادة آبائي قرى الضيف وإطعام الطعام ، قال : فجلس ، فأكل . فإن كانت هـٰذه المئة دينار عوضاً عمَّا حدثتك . . فهي حرام كالميتة والدم ولحم الخنزير ، وإن كانت من مال المسلمين . . فلي فيها شركاء ونظراء ، إن ساويتهم بي ، وإلا . . فلا حاجة لي بها ، إن بني إسرائيل لم يزالوا على الهدىٰ والتقىٰ حيث كانت أمراؤهم يأتون إلىٰ علمائهم رغبة في علمهم ، فلما نكسوا وتعسوا وسقطوا من عين الله عز وجل . . صار علماؤهم يأوون إلىٰ أمرائهم ، فشاركوهم في دنياهم ، واشتركوا معهم في فتنتهم .

قال ابن شهاب : يا أبا حازم ؛ إياي تعني ؟ أَوَ بي تعرِّض ؟ قال : ما إياك أعني ، ولـٰكن هو كما تسمع ، ثم ذهب .

وقال أبو حازم رحمه الله : انظر إلى الذي تحب أن يكون معك في الآخرة . . فقدمه اليوم ، وانظر إلى الذي تكره أن يكون معك في الآخرة . . فاتركه اليوم .

وقال : كل عمل تكره الموت من أجله . . فاتركه ، ثم لا يضرك متىٰ مِتَّ .

وقال : من عرف الدنيا . . لم يفرح فيها برخاء ، ولم يحزن علىٰ بلوىٰ .

وقال : ما في الدنيا شيء يسرك . . إلا وقد ألزق به شيء يسوؤك .

وقال : إني لأعظ ، وما أرىٰ للموعظة موضعاً ، وما أريد بذلك إلا نفسي .

---

(١) أرض مَسْبَعَةٌ : أي ذات سباع .

وقال : خصلتان من تكفل بهما . . أصاب خير الدنيا والآخرة : تركك ما تحب ، واحتمالك ما تكره لما أحبه الله عز وجل .

ولما احتضر . . قيل له : كيف تجدك ؟ قال : بخير ، راجياً لله عز وجل ، حسن الظن به .

وعن سفيان بن عيينة : قال أبو حازم : إني لأستحيي من ربي عز وجل أن أسأله شيئاً ، فأكون كالأجير السوء ، إذا عمل . . طلب أجرة ، ولكن أعمل تعظيماً له .

أسند أبو حازم عن خلائق من الصحابة ، رضوان الله تعالىٰ عليهم أجمعين .

وروىٰ عنه من التابعين جماعة . انتهىٰ [« الحلية » ٣/ ٢٣٠ـ٢٥٠] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال أبو حازم : ما مضىٰ من الدنيا . . فحلم ، وما بقي . . فأماني .

وقال : لا يحسن عبد فيما بينه وبين الله عز وجل . . إلا أحسن الله ما بينه وبين العباد .

وقال : إذا رأيت الله عز وجل يتابع نعمه عليك وأنت تعصيه . . فاحذره .

وكان يقص في المسجد ، ويبكي ، ويمسح دموعه علىٰ وجهه ، فقيل له في ذلك ، فقال : بلغني أن النار لا تصيب موضعاً أصابته الدموع من خشية الله تعالىٰ .

وقال سليمان العمري : رأيت أبا جعفر القاري في المنام على الكعبة ، فقلت : أبا جعفر ؟! قال : نعم ، أقرىء إخواني مني السلام ، وأخبرهم أن الله عز وجل جعلني مع الشهداء الأحياء المرزوقين ، وأقرىء أبا حازم السلام ، وقل له : يقول لك أبو جعفر : الكَيْس الكَيْس ؛ فإن الله عز وجل وملائكته يتراؤون مجلسك بالعشيات .

توفي بعد سنة أربعين ومئة . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٩٢ـ٩٨] .

وقال حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : قال رجل لأبي حازم : أوصني ، فقال : كل ما لو جاءك الموت عليه رأيته غنيمة . . فالزمه ، وكل ما لو جاءك الموت عليه رأيته مصيبة . . فاجتنبه . انتهىٰ [« الإحياء » ٤/ ٥٥] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو عاصم عُبيد بن عُمير
رضي الله عنه

قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : قال مجاهد : كنا نفخر بفقيهنا ، ونفخر بقاصِّنا ، أما فقيهنا . . فابن عباس ، وأما قاصُّنا . . فعبيد بن عمير[1] .

وعن مجاهد : أن ابن عباس رضي الله عنهما دخل المسجد وعبيد بن عمير يقص ، فقال لقائده : اذهب في نحوه ، فجاء حتىٰ قام علىٰ رأسه ، فقال : يا أبا عاصم ؛ ذكِّر بالله تعالىٰ من ذَكَر الله : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾ ، ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ﴾ ، ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ﴾ .

وقال عبيد بن عمير : عليكم بالإكثار من ذِكر الله عز وجل ؛ فإنه أحب إلى الله سبحانه وتعالىٰ من إنفاق جبلي ذهب وفضة : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم .

وقال : آثروا الحياء من الله عز وجل على الحياء من الناس .

وقال : إن مِن صدق الإيمان وبِرِّه أن يخلو الرجل بالمرأة الحسناء ، فيدعها لا يدعها إلا لله عز وجل ، ومِن صدق الإيمان وبِرِّه إسباغ الوضوء في المكاره .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴾ : إن الأواب هو الذي يتذكر ذنوبه في الخلاء ، فيستغفر الله عز وجل منها .

وكان إذا دخل المسجد وقد غابت الشمس : فإذا سمع النداء . . قال : اللهم ؛ إني أسألك عند إقبال ليلك ، وإدبار نهارك ، وقيام دعاتك ، وحضور صلواتك . . أن تغفر لي وترحمني ، وأن تجيرني من النار . وإذا أصبح . . قال مثل ذلك قبل أن يصلي الفجر .

وقال : ما المجتهد فيكم إلا كاللاعب فيمن مضىٰ .

---

(١) الواعظ المفسر ، ولد في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان من ثقات التابعين وأئمتهم بمكة ، وهو أول من قصَّ علىٰ عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وعن عبيد بن عمير في قوله تعالىٰ : ﴿ عُتُلٍّ﴾ قال : هو القوي الكثير الأكل والشرب ، يوضع في الميزان ، فلا يزن شعيرة ، يدفع المَلَكُ من أولـئك سبعين ألفاً دفعة واحدة في النار .

وقال : يجعل الله تعالىٰ للقبر لساناً ينطق به ، فيقول : يابن آدم ؛ كيف نسيتني ؟ أما علمت أني بيت الأكلة ، وبيت الدود ، وبيت الوحشة ، وبيت الوحدة ؟!

وقال : إنكم مكتوبون عند الله يوم القيامة بأسمائكم وسيماكم وحلاكم ومجالسكم .

وقال : إن أهل القبور ليتلقون الأخبار ممن قد مات عمن بقي ، فيسألونه ما فعل فلان ؟ ما فعل فلان ممن قد مات ؟ فيقول : ألم يأتكم ؟ فيقولون : لا ، فيقولون : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ذُهِب به إلىٰ أمه الهاوية .

وحدثنا غيلان : عن عبيد بن عمير : أنه كان آخىٰ في الله رجلاً ، وأخذ بيده يوماً ، واستقبل به القبلة ، وقال : اللهم ؛ اجعلنا شهداء بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، واجعل محمداً صلى الله عليه وسلم شهيداً علينا بالإيمان ، واجعلنا من الذين سبقت لهم منك الحسنىٰ وزيادة ، ولا تجعلنا من القاسية قلوبهم ، ولا قائلين ما ليس لنا بحق ، ولا سائلين ما ليس لنا به علم .

أسند عن عدة من الصحابة ، رضوان الله تعالىٰ عليهم .

وأسند عنه من التابعين عدة ، منهم : مجاهد ، وعطاء في آخرين [انتهىٰ « الحلية » ٣/ ٢٦٧ـ٢٧٥] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

مجاهد بن جبير
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال مجاهد : من أعز نفسه . . أذل دينه ، ومن أذل نفسه . . أعز دينه .

وقد عرضت القرآن على ابن عباس رضي الله عنهما ثلاث عرضات ، أسأله عن كل آية فيم نزلت وكيف كانت .

وقال : الفقيه : من يخاف الله عز وجل .

وقال : إن العبد إذا أقبل على الله عز وجل بقلبه . . أقبل الله سبحانه وتعالىٰ إليه بقلوب المؤمنين .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ قال : أخلص له إخلاصاً .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ قال : عن كل شيء من لذة الدنيا .

وفي قوله تعالىٰ : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ قال : الذي يذكر الله عز وجل عند المعاصي .

وفي قوله تعالىٰ : ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم﴾ قال : الخشوع في الصلاة[1] .

وقال : لا يكون الرجل من الذاكرين الله سبحانه وتعالىٰ حتىٰ يذكر الله تعالىٰ قائماً وقاعداً ومضطجعاً .

وقال : إن لابن آدم جلساء من الملائكة ، فإذا ذكر المسلم أخاه المسلم بخير . . قالت الملائكة : ولك بمثله ، وإذا ذكره بسوء . . قالت الملائكة : يابن آدم المستور عورته ؛

---

(١) ولا يستبعد كثرة ما نقل عنه في التفسير ؛ فقد قال النووي في « التهذيب » (٢/ ٨٣) : مجاهد بن جبر ويقال ابن جبير بالتصغير . . واتفق العلماء علىٰ إمامته وجلالته وتوثيقه وهو إمام في الفقه والتفسير والحديث . اهـ

اِربعْ[1] علىٰ نفسك ، واحمد الله عز وجل الذي ستر عيبك .

وقال : ما من يوم يمضي من الدنيا . . إلا قال ذلك اليوم : الحمد لله الذي أخرجني فلا أعود إليها أبداً ، ثم يطوىٰ عليه ، فيختم إلىٰ يوم القيامة حتىٰ يكون الله عز وجل هو الذي يفض خاتمه .

وقال في قوله عز وجل : ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ ، قال : الأوصال التي كانت بينهم في الدنيا .

وقال : صحبت ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ وأنا أريد أن أخدمه ، فكان يريد أن يخدمني أكثر .

وقال : ما من يوم . . إلا وهو يقول : يا بن آدم ؛ قد دخلت عليك اليوم ، ولن أرجع إليك بعد اليوم إلىٰ يوم القيامة ، فانظر ماذا تعمل فيَّ وماذا تُوْدِعُني ، ولا ليلة . . إلا قالت كذلك .

وقال : كان بالمدينة أهل بيت ذو حاجة ، عندهم رأس شاة ، فأصابوا شيئاً ، فقالوا : لو بعثنا بهـٰذا الرأس إلىٰ من هو أحوج إليه منا ، فبعثوا به ، فلم يزل يدور بالمدينة حتىٰ رجع إلىٰ أصحابه الذين خرج من عندهم .

وقال : إذا لقي المسلم المسلم فضحك في وجهه . . تحاتَّتْ عنهم الذنوب كما تنثر الريحُ الورقَ اليابس من الشجر .

وقال : ما من مؤمن يموت . . إلا تبكي عليه الأرض أربعين صباحاً .

وقال : النملة التي كلمت سليمان عليه السلام . . كانت مثل الذئب العظيم .

وقال : كان الغلام من قوم عاد لا يحتلم حتىٰ يبلغ مئتي سنة .

وقال : ليس أحد إلا يؤخذ من قوله ويترك . . إلا النبي صلى الله عليه وسلم .

أسند عن خلائق من الصحابة ، رضوان الله عليهم .

وحدث عنه جماعة من التابعين وعلماء الأمصار ؛ كعطاء ، وعكرمة ، وعمرو بن دينار في آخرين . انتهىٰ [« الحلية » ٣/ ٢٧٩ـ٣٠٠] .

---

(١) اِربع : توقف وانتظر ، ولا تتكلم في عورات الناس .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : مجاهد يكنىٰ : أبا الحجاج ، هو مولىٰ عبد الله بن السائب .

وقال مجاهد : لا تحد النظر إلىٰ أخيك ، ولا تسأله من أين جئت ؟ ولا أين تذهب ؟

وقال : ما من مرضة يمرضها العبد . . إلا ورسول ملك الموت عنده ، حتىٰ إذا كان آخر مرضة يمرضها . . أتاهم ملك الموت ، فيقول : أتاك رسول بعد رسول ، فلم تعبأ به ، وقد أتاك رسول يقطع أثرك من الدنيا .

وقال : يؤمر بالعبد إلى النار ، فيقول : يا رب ؛ ما كان هـٰذا ظني فيك وأنت أعلم ، فيقول الله تعالىٰ وهو سبحانه وتعالىٰ أعلم : ما كان ظنك بي ؟ فيقول : أن تغفر لي ، فيقول : خلوا سبيله .

وقال : إذا أراد أحدكم أن ينام . . فليكن علىٰ طهارة ، ويستقبل القبلة ، ولينم علىٰ يمينه ، وليذكر الله عز وجل ، وليكن آخر كلامه عند منامه : لا إلـه إلا الله ؛ فإنها وفاة لا يدري لعلها تكون منيته ، ثم قرأ : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ .

توفي سنة اثنتين ومئة ، يوم السبت ، وهو ساجد ، وله ثلاث وثمانون سنة رحمه الله تعالىٰ . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/١٢٣ـ١٢٥] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام فقيه الحرم :

أبو محمد عطاء ابن أبي رباح
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال ابن جريج : كان المسجد فراش عطاء عشرين سنة .

وعنه قال : كان من أحسن الناس صلاة ، وكان بعدما كبر وضعف يقوم إلى الصلاة ، فيقرأ مئتي آية من البقرة ، وهو قائم لا يزول منه شيء ، ولا يتحرك .

وقال سفيان بن عيينة : قلت لابن جريج : ما رأيت مصلياً مثلك ، قال : لو رأيت عطاء .

وقال معاذ بن سعد : كنت جالساً عند عطاء ، فحدث بحديث ، فعرض رجل من القوم في حديثه ، فغضب ، وقال : ما هـٰذه الأخلاق ؟ وما هـٰذه الطبائع ؟ **إني لأسمع الحديث من الرجل وأنا أعلم به منه ، فأريه أني لا أحسن شيئاً منه** .

وقدم ابن عمر رضي الله عنهما مكة ، فسألوه ، فقال : تجمعون لي المسائل وفيكم عطاء ابن أبي رباح ؟

ومر عطاء علىٰ أبي جعفر ، فقال أبو جعفر : ما بقي أحد علىٰ وجه الأرض أعلم بمناسك الحج من هـٰذا ؛ [أي] : عطاء[1] .

وكانت الحلقة في الفتيا بمكة في المسجد الحرام لابن عباس ، وبعده لعطاء ابن أبي رباح .

وعن سلمة بن كهيل قال : ما رأيت أحداً يطلب بعلمه ما عند الله إلا ثلاثة : عطاء ، وطاووس ، ومجاهد .

---

(١) نقل الذهبي في « السير » (٥/ ٨٢) عن ابن أبي ليلىٰ قوله : (وكان عالماً بالحج ، وقد حج زيادةً علىٰ سبعين حجة) .

قال عمرو بن دينار : ما رأيت مثل عطاء قط ، ما رأيت عليه قميصاً ، ولا رأيت عليه ثوباً يساوي خمسة دراهم .

وعن الأوزاعي ، عن عطاء قال : كانت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم لتعجن ، وإن قُصَّتها[1] لتكاد أن تضرب الجفنة .

وقال : من جلس مجلس ذكر . . كفَّر الله عز وجل عنه بذلك المجلس عشرة مجالس من مجالس الباطل ، وإن كان ذلك في سبيل الله سبحانه وتعالىٰ . . كفَّر الله بذلك المجلس سبع مئة من مجالس الباطل ، قيل لعطاء : ما مجالس الذكر ؟ قال : مجالس الحلال والحرام ، كيف يصلي ، وكيف يصوم ، وكيف ينكح ، وكيف يطلق ويبيع ويشتري .

وقال عطاء : **ما من عبد مؤمن قال : يا رب ، يا رب ، يا رب (ثلاث مرات) . . إلا نظر الله إليه** ، فذكر ذلك للحسن ، فقال : أما تقرؤون القرآن ؟ ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ * فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ .

وعن ابن جريج ، عن عطاء قال : النظر إلى العابد عبادة .

وقال عطاء : **ما أجمعت عليه الأمة أقوىٰ عندنا من الإسناد** .

وقال يحيى بن عبيد : دخلنا علىٰ محمد بن سوقة فقال : ألا أحدثكم بحديث لعله أن ينفعكم ؟ فإنه نفعني ، قال لنا عطاء : يا بن أخي ؛ إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام ، وكانوا يعدون فضول الكلام ما عدا : آية من كتاب الله ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، أو أمر بمعروف ، أو نهي عن منكر ، أو أن تنطق بحاجتك في معيشتك التي لا بد لك منها ، أتنكرون أن عليكم لحافظين كراماً كاتبين ، عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ؟! أما يستحي أحدكم لو نشرت صحيفته التي أملاها صدر نهاره يجد أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه ؟!

وقال عطاء : أفضل ما أُعطي العبادُ : العقلُ عن الله عز وجل ، وهو المعرفة بالدين .

أسند عطاء عن خلائق من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، منهم : عمر بن الخطاب[2] ، وابنه عبد الله ، رضي الله عنهما .

---

(١) **القُصَّة** : شعر مقدم الرأس .

(٢) قال النووي في « التهذيب » (١/ ٣٣٣) : (ولد في آخر خلافة عثمان بن عفان) ، وكذلك في « تهذيب =

وروىٰ عنه جماعة من التابعين .

فمن أحاديثه : ما رواه عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : رآني النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أمشي أمام أبي بكر ، فقال : « أتمشي أمام أبي بكر ، وما طلعت الشمس ولا غربت علىٰ أحد بعد النبيين والمرسلين أفضل من أبي بكر ؟! »[1] انتهىٰ [« الحلية » ٣/ ٣١٠ـ٣٢٥] .

وقال أبو الفرج : كان عطاء مولىٰ أبي ميسرة الفهري ، نشأ بمكة .

وقال أحمد ابن حنبل : العلم خزائن الله تعالىٰ يقسمه لمن أحب ، ولو كان يخص بالعلم أحداً . . لكان أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أولىٰ ، وكان عطاء ابن أبي رباح عبداً حبشياً ، وكان يزيد ابن أبي حبيب عبداً نوبياً ، وكان الحسن ابن أبي الحسن مولىٰ ، وكان ابن سيرين مولىٰ للأنصار .

وقال إبراهيم الحربي : كان عطاء عبداً أَسْوَدَ لامرأة من مكة ، وكان أنفه كأنه باقلاة[2] .

قال : وجاء سليمان بن عبد الملك إلىٰ عطاء هو وابناه ، فجلسوا إليه وهو يصلي ، فلما فرغ من صلاته . . انفتل إليهم ، فما زالوا يسألونه عن مناسك الحج ، وقد حول قفاه إليهم ، ثم قال سليمان لابنيه : قوما ، فقاما ، فقال : يا بَني ؛ لا تنيا[3] في طلب العلم ؛ فإني لا أنسىٰ ذلنا بين يدي هـٰذا العبد الأسود .

وقال إسماعيل بن أمية : كان عطاء يطيل الصمت ، فإذا تكلم . . يخيل لنا أنه مؤيد .

وقال إبراهيم بن عمر بن كيسان : أدركتهم في زمان بني أمية يأمرون في الحج صائحاً يصيح ، لا يُفْتِ الناسَ . . إلا عطاء ابن أبي رباح ، فإن لم يكن . . فعبد الله ابن أبي نجيح .

وقال الأوزاعي : ما رأيت أحداً أخشع لله عز وجل من عطاء ، ولا أطول حزناً من يحيى ابن أبي كثير .

وقال عطاء : المجالس بالأمانة .

= الكمال » (٢٠/ ٧٠) فلم يرو عن سيدنا عمر بن الخطاب .

(١) أخرجه بنحوه الديلمي (٥/ ٣٥١) .

(٢) **باقلاة** : فولة .

(٣) **لا تنيا** : لا تَفْتُرا . .

وقال ابن أبي ليلىٰ : حج عطاء سبعين حجة ، وعاش مئة سنة ، وتوفي بمكة ، سنة خمس عشرة ومئة . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ١٢٥ـ١٢٧] .

وقال حجة الإسلام الغزالي ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ : وعن الأصمعي قال : دخل عطاء ابن أبي رباح ـ رحمه الله ـ علىٰ عبد الملك بن مروان ـ وهو جالس علىٰ سريره ، وحواليه الأشراف من كل بطن ، وذلك بمكة في وقت حجه في خلافته ـ فلما بصر به . . قام إليه ، وأجلسه معه على السرير ، وقعد بين يديه ، وقال له : يا أبا محمد ؛ ما حاجتك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ؛ اتق الله في حرم الله وحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتعاهده بالعمارة ، واتق الله في أولاد المهاجرين والأنصار ؛ فإنك بهم جلست هـٰذا المجلس ، واتق الله في أهل الثغور ؛ فإنهم حصن المسلمين ، وتفقد أمور المؤمنين وسائر أهل ولايتك ؛ فإنك وحدك المسؤول عنهم ، واتق الله فيمن علىٰ بابك ، فلا تغفل عنهم ، ولا تغلق بابك دونهم ، فقال له : أفعل إن شاء الله عز وجل ، ثم نهض ، وقام ، فقبض عليه عبد الملك ، وقال : يا أبا محمد ؛ إنما سألتنا حاجة لغيرك ، وقد قضيناها ، فما حاجتك ؟ فقال : ما لي إلىٰ مخلوق حاجة ، ثم خرج ، فقال عبد الملك : هـٰذا ـ وأبيك ـ الشرف .

وروي : أن الوليد بن عبد الملك قال لحاجبه يوماً : قف على الباب ، فإذا مر بك رجل . . فأدخله عَلَيَّ ، فيحدثني ، فخرج الحاجب ، فوقف على الباب مدة ، فمر به عطاء ابن أبي رباح وهو لا يعرفه ، فقال له : يا شيخ ؛ ادخل إلىٰ أمير المؤمنين ؛ فإنه أمرك بذلك ، فدخل عطاء على الوليد وعنده عمر بن عبد العزيز ، فلما دنا عطاء من الوليد . . قال : السلام عليك يا وليد ، قال : فغضب الوليد علىٰ حاجبه ، فقال له : ويلك! أمرتك أن تدخل إلي رجلاً يحدثني ويسامرني ، فأدخلت إلي رجلاً لم يرض أن يسميني بالاسم الذي اختاره الله عز وجل لي ، فقال له حاجبه : ما مر بي غيره ، ثم قال لعطاء : حدثني ، فأقبل عليه عطاء يحدثه ، فكان فيما حدثه عطاء أن قال : بلغنا أن في جهنم وادياً يقال له : هبهب ، أعده الله عز وجل لكل إمام جائر في حكمه ، فصعق الوليد من قوله ، وكان جالساً بين يدي عَتَبَةِ باب المجلس ، فوقع علىٰ قفاه إلىٰ جوف المجلس مغشياً عليه ، فقال عمر لعطاء : قتلت أمير المؤمنين ، فقبض عطاء علىٰ ذراع عمر بن عبد العزيز ، فغمزه غمزة شديدة ، وقال له : يا عمر ؛ إن الأمر جِدٌّ فجِدَّ ، ثم قام عطاء ، وانصرف ، فبلغنا عن عمر بن عبد العزيز أنه قال : مكثت سنة أجد أَلَم غمزته في ذراعي . انتهىٰ [« الإحياء » ٢/ ٣٤٥] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : رُوِّينا عن الإمام الحافظ تقي الدين

أبي عمرو ابن الصلاح ـ رحمه الله تعالىٰ ـ قال : رُوِّينا عن الزهري قال : قدمت علىٰ عبد الملك بن مروان فقال : من أين قدمت يا زهري ؟ قلت : من مكة ، قال : فمن خلفت بها يسُود أهلها ؟ قال : قلت : عطاء ابن أبي رباح ، قال : فمن العرب ، أم من الموالي ؟ قال : قلت : من الموالي ، قال : وبِمَ سادهم ؟ قلت : بالديانة والرواية ، قال : إن أهل الديانة والرواية من ينبغي أن يسوَّدوا .

قال : فمن يسود أهل اليمن ؟ قال : قلت : طاووس بن كيسان ، قال : فمِن العرب ، أم من الموالي ؟ قال : قلت : من الموالي ، قال : فبِمَ سادهم ؟ قلت : بما سادهم به عطاء .

قال : إنه لينبغي ، فمن يسود أهل مصر ؟ قال : قلت : يزيد ابن أبي حبيب ، قال : فمِن العرب ، أم من الموالي ؟ قال : قلت : من الموالي .

قال : فمن يسود أهل الشام ؟ قال : قلت : مكحول ، قال : فمِن العرب ، أم من الموالي ؟ قال : قلت : من الموالي ، عبد نوبي أعتقته امرأة من هـٰذيل .

قال : فمن يسود أهل الجزيرة ؟ قال : قلت : ميمون بن مهران ، قال : فمِن العرب ، أم من الموالي ؟ قال : قلت : من الموالي .

قال : فمن يسود أهل خراسان ؟ قال : قلت : الضحاك بن مزاحم ، قال : فمن العرب ، أم من الموالي ؟ قال : قلت : من الموالي .

قال : فمن يسود أهل البصرة ؟ قال : قلت : الحسن ابن أبي الحسن ، قال : فمن العرب ، أم من الموالي ؟ قال : قلت : من الموالي .

قال : ويلك! فمَن يسود أهل الكوفة ؟ قال : قلت : إبراهيم النخعي ، قال : فمِن العرب ، أم من الموالي ؟ قال : قلت : من العرب ، قال : ويلك يا زهري! فرَّجت عني ، والله ؛ لتسودن الموالي على العرب ، حتىٰ يُخطَبَ لها على المنابر وإن العرب تحتها ، قال : قلت : يا أمير المؤمنين ؛ إنما هو أمر الله ودِينه ، من حفظه . . ساد ، ومن ضيعه . . سقط . انتهىٰ .

وقال النووي ـ قدس الله روحه ـ : رُوِّينا عن سعيد ابن أبي عروبة قال : إذا اجتمع أربعة . . لم أبال من خالفهم : الحسن ، وسعيد بن المسيب ، وإبراهيم ، وعطاء ، هـٰؤلاء أئمة الأمصار .

وقال : ليس في التابعين أحد أكثر اتباعاً للحديث من عطاء .

وعن ربيعة قال : فاق عطاء أهل مكة في الفتوىٰ .

وعن محمد الباقر ـ رحمه الله ـ قال : ما بقي أحد من الناس أعلم بأمر الحج من عطاء .

واتفقوا علىٰ توثيقه ، وجلالته ، وإمامته .

ومن غرائبه : أنه قال : إذا أراد الإنسان سفراً . . فله القصر قبل خروجه ، ووافقه طائفة من أصحاب ابن مسعود ، وخالفه الجمهور ، وقد أوضحته في « شرح مسلم »[1] . انتهىٰ [« التهذيب » ١/ ٣٣٣ـ٣٣٤] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) انظر « شرح صحيح مسلم » للنووي (٥/ ٢٠٠) .

ومنهم الإمام مولىٰ [آل] المنكدر :

ربيعة ابن أبي عبد الرحمـٰن فَرُّوخ
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : يكنَّىٰ : أبا عثمان ، قال مشيخة أهل المدينة : إن أبا ربيعة خرج في البعوث إلىٰ خراسان أيام بني أمية غازياً ، وربيعة حَمْل في بطن أمه ، وخلف عند أمه ثلاثين ألف دينار ، فقدم المدينة بعد سبع وعشرين سنة ، فنزل عن فرسه ، ودفع الباب برمحه ، فخرج ربيعة ، فقال له : يا عبد الله ؛ أتهجم عَلَيَّ في منزلي ؟ فقال له : أنت رجل دخلت علىٰ حرمي ، فتكلما في ذلك حتى اجتمع الجيران ، فبلغ مالك بن أنس والمشيخة ، فأتوا يساعدون ربيعة ، فقال ربيعة : والله ؛ لا فارقتك إلا عند السلطان ، وقال أبوه : لا فارقتك إلا بالسلطان وأنت مع امرأتي ، فلما جاء مالك.. سكت الناس كلهم ، فقال مالك : أيها الشيخ ؛ لك سعة في غير هـٰذه الدار ، فقال الشيخ : هـٰذه الدار داري ، وأنا فَرُّوخ مولىٰ بني فلان ، فسمعت امرأته كلامه فخرجت ، وقالت : هـٰذا زوجي وهـٰذا ابني ، تركه وأنا حامل به ، فاعتنقا جميعاً وبكيا ، فدخل فروخ المنزل ، وقال : هـٰذا ابني ؟ قالت : نعم ، قال : فأخرجي المال الذي كان عندك ، وهـٰذا معي أربعة آلاف دينار ، فقالت : المال قد دفنته ، وأنا أخرجه بعد أيام ، فخرج ربيعة إلى المسجد ، وجلس في حلقته ، وأتاه مالك بن أنس والحسن بن زيد وأشراف المدينة ، وأحدق الناس به ، فقالت امرأته : اخرج فصل في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فخرج ، فنظر إلىٰ حلقة وافرة ، فأتاه ، فوقف عليه ، ففرجوا له قليلاً ، فنكس ربيعة رأسه يوهمه أنه لم يره ، فقال : مَن هـٰذا الرجل ؟ فقالوا : هـٰذا ربيعة ابن أبي عبد الرحمن ، فقال : الحمد لله ، لقد رفع الله ابني ، ثم رجع إلىٰ منزله ، فقال لوالدته : لقد رأيت ولدك في حالة ما رأيت أحداً من أهل الفقه والعلم عليها ، فقالت أمه : أيما أحب إليك ، ثلاثون ألف دينار ، أو هـٰذا الذي فيه ابنك من العلم ؟ قال : لا ، والله هـٰذا ، قالت : فإني أنفقت المال كله عليه ، قال : والله ؛ ما ضيعته .

قالوا : ومكث ربيعة دهراً طويلاً يصلي الليل والنهار ، وكان يجالس القاسم ، فينطق بلب وعقل ، وكان القاسم إذا سئل عن شيء . . يقول : سلوا هـٰذا ربيعة .

وقال الليث : قال مولىٰ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في ربيعة : هو صاحب معضلاتنا ، وعالمنا ، وأفضلنا .

وقال يحيى بن سعيد : ما رأيت أحداً أسد عقلاً من ربيعة الرأي ، قلت : ولا الحسن وابن سيرين ؟ قال : ولا الحسن وابن سيرين .

وقال بكر بن عبد الله : أتينا مالك بن أنس ، فجعل يحدثنا عن ربيعة ، فكنا نستزيده من أحاديث ربيعة ، وكان السفاح قد أقدمه إليه في الأنبار ليوليه القضاء . . فلم يفعل ، وعرض عليه العطاء . . فلم يقبل .

وقال مالك : قال لي ربيعة حين أراد الخروج إلى العراق : إن سمعت أني حدثتهم شيئاً أو أفتيتهم بشيء . . فلا تعدَّني شيئاً ، وكان كما قال ، لما قدمها . . لزم بيته ، فلم يخرج إليهم ، ولم يحدثهم شيئاً حتىٰ رجع .

وقال مالك : لما قدم ربيعة على السفاح . . أمر له بجائزة ، فأبىٰ أن يقبلها ، فأعطاه خمسة آلاف درهم يشتري منها جارية ، فأبىٰ أن يقبلها .

وقال سفيان : كان ربيعة يوماً جالساً ، فغطىٰ رأسه ، ثم اضطجع ، فبكىٰ ، فقيل له في ذلك ، فقال : رياء ظاهر وشهوة خفية .

وقال : لقد رأيت مشيخة أهل المدينة وإن لهم لغدائر[1] ، وعليهم الممصر[2] والمورد ، في أيديهم آثار الحناء ، وفي أيديهم مخاصر[3] في هيئة الفتيان ، ودِين أحدهم أبعد من الثريا إذا أريد علىٰ دِينه .

سمع ربيعة من أنس ، والسائب بن يزيد ، وعامة التابعين من أهل المدينة .

وروىٰ عنه مالك ، والثوري ، وشعبة ، والليث .

وقال أحمد ابن حنبل رحمه الله تعالىٰ : ربيعة ثقة .

---

(١) **الغدائر** : الضفائر .

(٢) **المُمَصَّر** : المصبوغ بالطين الأحمر .

(٣) **المخاصر** : ما يختصر به الإنسان بيده فيمسكه ؛ من عصا أو عكازة أو مقرعة أو نحوها ، وهي من شعار الملوك . .

توفي بالأنبار ، وقيل : بل رجع إلى المدينة فمات بها سنة ست وثلاثين ومئة .

وقال مالك : ذهبت حلاوة الفقه منذ مات ربيعة ، رضي الله عنهم أجمعين . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٨٧ـ٨٩] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام مولى ابن عباس :

أبو عبد الله عكرمة
رضي الله عنهم

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : عن عكرمة قال : كان ابن عباس رضي الله عنهما يجعل في رجليَّ الكبل[1] ، ويعلمني القرآن والسنن .

وعن حبيب ابن أبي ثابت قال : اجتمع عندي خمسة لا يجتمع عندي مثلهم أبداً : عطاء ، وطاووس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، فأقبل مجاهد وسعيد بن جبير يلقيان علىٰ عكرمة التفسير ، فلم يسألاه عن آية . . إلا فسرها لهما ، فلما نفد ما عندهما . . جعل يقول : آية كذا وكذا نزلت في كذا ، وآية كذا نزلت في كذا ، قال : ثم دخلوا الحمام ليلاً .

وقال جابر بن زيد : هـٰذا عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهما أعلم الناس .

وقال الشعبي : ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة .

وهـٰكذا قال قتادة ؛ قال : أعلمهم بالتفسير عكرمة .

وعن أيوب قال : قدم علينا عكرمة ، فاجتمع الناس عليه حتىٰ أصعد فوق ظهر بيت .

وقدم عكرمة علىٰ طاووس ، فحمله علىٰ نجيب[2] ثمنه ستين ديناراً ، وقال : ألا أشتري علم هـٰذا العبد بستين ديناراً ؟

ومات عكرمة وكثيِّر عزَّة في يوم واحد ، فأخرجت جنازتهما ، فقال الناس : مات أفقه الناس وأشعر الناس .

وقال ابن عباس لعكرمة : انطلق فأفت الناس ، فمن سألك عما يعنيه . . فأَفْتِه ، ومن سألك عما لا يعنيه . . فلا تُفْتِه ، فإنك تطرح عني ثلثي مؤونة الناس .

---

(١) **الكبل** : القيد الضخم .

(٢) **النَّجِيب** : هو القوي الخفيف السريع من الإبل .

وكان عكرمة إذا حدث في المغازي.. كأنه مشرف عليهم ينظر كيف كانوا يصنعون ويقتتلون .

وقيل لعكرمة : الرجل يدخل الخلاء وفي أصبعه خاتم فيه اسم الله تعالىٰ ، قال : يجعل فصه في باطن كفه ، ثم يقبض عليه .

وقال خالد الحذَّاء : كل شيء قال محمد بن سيرين : نبئت عن ابن عباس.. فهو إنما سمعه من عكرمة ؛ لقيه أيام المختار بالكوفة .

وقال سفيان الثوري رحمه الله : خذوا المناسك عن سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعكرمة .

وقال سفيان الثوري : خذوا التفسير عن أربعة : عن سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعكرمة ، والضحاك .

أدرك عكرمة مئين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال عكرمة : كانت الخيل التي شغلت سليمان بن داوود عليه الصلاة والسلام عشرين ألفاً ، فعقرها .

وقال عكرمة : لما زوج النبي صلى الله عليه وسلم فاطمة بعلي رضي الله عنهما.. كان ما جهزت به سرير مزمول بشريط ، ووسادة من أدم حشوها ليف ، وتور من أَقِط[1] ، وجاؤوا ببطحاء[2] ، فنثروها في البيت .

وعن عكرمة في قوله : ﴿ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ قال : الدنيا كلها قريب ، وكلها جهالة .

وعن عكرمة قال : قال الله عز وجل ليوسف : (يا يوسف ؛ بعفوك عن إخوتك.. رفعت ذِكرك مع الذاكرين) .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ : إنه ما وقع منها شيء.. إلا في عين رجل ، جل الله العظيم الديان ، القادر علىٰ كل شيء .

وعنه أنه قال : من قرأ يَس.. لم يزل ذلك اليوم في سرور حتىٰ يمسي .

---

(١) **الأَقِطُ** : اللبن المجفف .

(٢) **البطحاء** : الحصى الصغار .

وقال : إن الذين يغرقون في البحر تتقسم لحومهم الحيتان ، ولا يبقىٰ منهم إلا العظام ، فتلقيها الأمواج إلى البر ، فتمكث العظام حيناً حتىٰ تصير نخرة ، فتمر بها الإبل ، فتأكلها ، ثم تبعر ، فيجيء قوم ، فينزلون ذلك المنزل ، ويأخذون ذلك البعر ، فيوقدونه ، ثم تخمد تلك النار ، فتجيء ريح ، فتلقي ذلك الرماد على الأرض ، فإذا جاءت النفخة . . خرج أهل القبور وهـٰؤلاء دفعة واحدة جميعاً ، هم والذين دُسوا في القبور ، وذلك قول الله تبارك وتعالىٰ : ﴿ فَإِذَاهُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ فيخرج أولـٰئك وأهل القبور سواء .

وعنه قال : ما من عبد يقربه الله سبحانه وتعالىٰ للحساب . . إلا قام من عند الله بعفوه .

وقال : لكل شيء أساس ، وأساس الإسلام : الخُلُق الحسن .

وعنه قال : سعة الشمس : سعة الأرض وزيادة ثلاث مرات ، وسعة القمر سعة الأرض مرة ، وإن الشمس إذا غربت . . دخلت بحراً تحت العرش ، فتسبِّح الله عز وجل ، حتىٰ إذا هي أصبحت . . استعفت ربها من الخروج ، فيقول لها الرب تبارك وتعالىٰ : (ولِمَ ذاك) والرب عز وجل أعلم ، قالت : لأني إذا خرجت . . عُبِدتُ من دونك ، فيقول لها الرب جل جلاله : (اخرجي فليس عليك من ذلك ، حسبهم جهنم ، أبعثها إليهم مع ثلاثة عشر ألف ملك يقودونها حتىٰ يدخلوهم فيها)[1] .

أسند عكرمة عن عدة من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، منهم : حبر الأمة مولاه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، وعبد الله بن عمرو بن العاصي ، وأبو سعيد الخدري ، وأبو هريرة ، وعائشة ، وغيرهم ، رضي الله عنهم أجمعين .

وروىٰ عنه جلة التابعين وقادة الخير ، منهم : طاووس ، وعطاء ابن أبي رباح ، ومجاهد ، وأبو الشعثاء ، في آخرين ممن لا يحصون كثرة من التابعين والأئمة .

ومن أحاديثه عن ابن عباس قال : التفت النبي صلى الله عليه وسلم إلىٰ حراء فقال : « ما يسره أنه لآل محمد ذهباً ينفقه في سبيل الله عز وجل ، يموت يوم يموت وعنده منه دينار ولا درهم » ، قال عكرمة : قال ابن عباس ولقد ترك درعه التي كان يقاتل فيها مرهونة بثلاثين

---

(١) ما ذكر هنا عن حجم الشمس وحجم القمر ربما لايقره العلم الحديث ، وحيث أن الكتاب لايبحث في هـٰذا الفن فإننا لن ندخل في تفصيلات ذلك ، والمهم هو التفكر والاستدلال بها علىٰ وحدة الصانع وكماله جل شأنه ، فسبحان من رفع السماء بغير عمد ، ومد الأرض وجعل فيها رواسي .

صاعاً من شعير ، قال ابن عباس : ولقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وما ترك ديناراً ولا درهماً ، وربما أتىٰ علىٰ آل محمد صلى الله عليه وسلم ليال لا يجدون عشاء[1] .

وعن عكرمة ، عن ابن عباس قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يبيت الليالي المتتابعة طاوياً ، وأهله لا يجدون عشاء ، وكان أكثر خبزهم خبز الشعير[2] .

وعنه عن ابن عباس قال : دخل عمر بن الخطاب على النبي صلى الله عليه وسلم وهو علىٰ حصير قد أثر في جنبه ، فقال : يا رسول الله ؛ لو اتخذت فراشاً أَوْثر من هـٰذا ، فقال صلى الله عليه وسلم : « ما لي وللدنيا ؟! ما لي وللدنيا ؟! والذي نفسي بيده ، ما مَثَلي ومَثَل الدنيا . . إلا كراكب سار في يوم صائف ، واستظل تحت شجرة [ساعة] ، ثم راح وتركها »[3] .

وعن عكرمة ، عن ابن عباس قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي مات فيه عاصباً رأسه بخرقة ، فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنىٰ عليه ، ثم قال : « إنه ليس أحد أَمَنَّ عَلَيَّ في نفسه وماله من أبي بكر ابن أبي قحافة ، ولو كنت متخذاً خليلاً . . لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولـٰكن خلة الإسلام أفضل ، سدوا كل خوخة في المسجد إلا خوخة أبي بكر »[4] .

وقال عكرمة : قال موسىٰ عليه الصلاة والسلام : إن أهل الشبع في الدنيا . . هم أهل الجوع في الآخرة . هـٰذا غريب .

وعن عكرمة ، عن أبي هريرة رضي الله عنه : (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا عطس . . غطىٰ وجهه بثوبه ، ووضع يده علىٰ حاجبيه[5]) .

---

(١) روىٰ أحمد (١/ ٣٠٠) : عن عكرمة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن النبي صلى الله عليه وسلم التفت إلىٰ أحد فقال : « والذي نفس محمد بيده ؛ ما يسرني أن أُحداً يحول لآل محمد ذهباً ، أنفقه في سبيل الله ، أموت يوم أموت أدع منه دينارين . . إلا دينارين أعدهما لِدَينٍ » .

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٥٥) .

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣٠١) .

(٤) أخرجه البخاري (٤٥٥) ، وأحمد (١/ ٢٧٠) .
الخَوخَةُ : باب صغير وسط باب كبير نصب حاجزاً بين دارين ، وخوخة سيدنا أبي بكر معروفة يدخل منها الزائرون إلى الحرم .

(٥) أخرج الحاكم (٤/ ٣٢٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه : (أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا عطس . . غطىٰ وجهه بيده أو بثوبه ، وغض بها صوته) .

ومن غريب حديثه : عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من حلف علىٰ أحد بيمين ، وهو يرىٰ أنه سيبره ، فلم يفعل . . فإنما إثمه على الذي لم يبره »[1] .

وعن عكرمة قال : قالت عائشة رضي الله عنها : ما شبعنا من الأسودين التمر والماء حتىٰ أجلى الله بني النضير ، وأهلك بني قريظة . انتهىٰ [« الحلية » ٣/٣٢٦ـ٣٤٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرجه البيهقي في « الكبرىٰ » (١٠/ ٤١) .
فمن حق المسلم علىٰ أخيه : أن يبرَّه إذا أقسم عليه ؛ لحديث البراء بن عازب الذي رواه البيهقي أيضاً في « الكبرىٰ » (٦/ ٩٤) : « أُمرنا بسبع منها إبرار المُقْسِم » .

ومنهم الإمام :

أبو محمد عمرو بن دينار
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال سفيان بن عيينة : لما مات عطاء . . قال هشام لعمرو بن دينار : اجلس وأفت الناس ، وأُجري عليك رزقاً ، قال : لست أريد أن أفتي الناس ولا تُجري عَلَيَّ رزقاً .

وقالوا لعطاء حين حضرته الوفاة : بمَن توصينا ؟ قال : بعمرو بن دينار .

وقال شعبة : ما رأيت أحداً أثبت من عمرو بن دينار ، لا الحَكَم ، ولا قتادة .

وكان قد جزأ الليل ثلاثاً : ثلثاً ينام ، وثلثاً يحدث ، وثلثاً يصلي .

وقال : ما من ميت يموت . . إلا وروحه في يد ملك الموت تنظر إلىٰ جسده كيف يغسل ، وكيف يكفن ، وكيف يُمشىٰ به ، ويُجلَس في قبره .

زاد في هـٰذا الحديث : يُقال له وهو علىٰ سريره : اسمع ثناء الناس عليك .

وقال : الأواب الحفيظ : الذي لا يقوم من مجلسه . . إلا استغفرَ اللهَ عز وجل ، يقول : اللهم ؛ اغفر لنا ما أصبنا في مجلسنا ، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم .

أسند عمرو بن دينار عن جماعة من الصحابة ، رضوان الله عليهم أجمعين . انتهىٰ [« الحلية » ٣/٣٤٨ـ٣٤٩] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

حماد بن زيد

رضي الله عنه

قال شيخ الإسلام في عصره محي الدين النووي ـ قدس الله روحه ـ : هو الإمام البارع ، المجمع علىٰ جلالته ، أبو إسماعيل ، حماد بن زيد بن درهم ، الأزدي ، الجهضمي ، بلبصري ، مولىٰ آل جرير بن حازم .

سمع ثابتاً البُناني ، ومحمد بن سيرين ، وعمرو بن دينار ، وخلائق من التابعين ، وغيرهم .

وروىٰ عنه جماعات من أعلام الأئمة ، منهم : الثوري ، وابن عيينة ، وابن المبارك ، وابن مهدي ، ويحيى القطان ، ووكيع ، ويزيد بن هارون ، وخلائق .

رُوِّينا عن عبد الرحمٰن بن مهدي أنه قال : أئمة الناس في زمانهم أربعة : الثوري بالكوفة ، ومالك بالحجاز ، والأوزاعي بالشام ، وحماد بن زيد بالبصرة .

وقال عبيد الله بن الحسن : إنما هما الحمَّادان ، فإذا طلبتم العلم . . فاطلبوه من الحمَّادَين ، يعني : ابن زيد ، وابن سلمة .

وقال يحيى بن مَعين : ليس أحد أتقن من حماد بن زيد .

وقال يحيى بن يحيى النيسابوري : ما رأيت أحداً من الشيوخ أحفظ من حماد بن زيد .

وقال ابن مهدي : ما رأيت أعلم من حماد بن زيد .

وقال حماد : جالست أيوب عشرين سنة .

ولد حماد بن زيد سنة ثمان وتسعين ، وتوفي في رمضان سنة تسع وسبعين ومئة بالبصرة .

وقد ذكر ابن أبي حاتم جملة صالحة من مناقبه رحمه الله[1] . انتهىٰ [« التهذيب » ١/١٦٧ـ١٦٨] .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : قال عبد الرحمٰن بن مهدي : ما رأيت أحداً أعرف بالسنة من حماد بن زيد .

وقال أبو عاصم : مات حماد بن زيد يوم مات ولا أعلم له في الإسلام نظيراً في هيئته ودلّه[2] . أظنه قال : وسمْتِه[3] .

وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله :

أيهـــا الطـــالـــب علمـــاً ... إئـــت حمـــاد بـــن زيـــدِ
واطلـــب العلـــم بحِلـــمٍ ... ثـــم قيِّـــده بقيـــدِ[4]

وروىٰ حماد بن زيد عن أيوب عن يحيى ابن أبي كثير ، عن عبد الله ابن أبي قتادة ، عن أبيه ، أنه كان له دَين علىٰ رجل ، فجاء يتقاضاه ، فتوارىٰ عنه ، ثم لقيه فطالبه ، فقال : ليس عندي شيء ، ولا أجد وفاء ، فقال : أتحلف بالله إنك لا تجد له وفاء ، فقال : والله ؛ ما أجد له وفاء ، فدعا بالكتاب ، فحرقه ، وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من أنظر معسراً أو وهب له . . أظله الله عز وجل في ظله يوم لا ظل إلا ظله »[5] انتهىٰ [« الحلية » ٦/٢٥٧ـ٢٦٦] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) منها : ما نقله ابن أبي حاتم عن ابن مهدي : يقول : لم أر أحداً قط أعلم بالسنة ولا بالحديث الذي يدخل في السنة من حماد بن زيد .

(٢) **الدَّل** : قريب المعنىٰ من الهَدْي ، وهما عبارة عن الحالة التي يكون عليها الإنسان من السكينة والوقار وحسن السيرة والطريقة .

(٣) **السَّمت** : هيئة أهل الخير .

(٤) ويروىٰ أيضاً بدل البيت الثاني قوله :

تَقْتَبِـــس حِكْمـــاً وعِلْمـــاً ... ثـــم قَيِّـــده بِقَيْـــد

(٥) أخرج الحديث والقصة بنحوها مسلم (٣٠٠٦) ، عن أبي اليسر الصحابي رضي الله عنه .

ومنهم الإمام :

حماد بن سلمة
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : حمّاد بن سلمة يكنىٰ : أبا سلمة ، وهو مولىٰ لبني تميم ، وهو ابن أخت حميدٍ الطويل .

قال عبد الرحمـٰن بن مهدي : لو قيل لحمّاد بن سلمة بن دينار : إنك تموت غداً . . ما قدر أن يزيد في العمل شيئاً .

وقال مقاتل بن صالح : دخلت علىٰ حماد بن سلمة ، فلم أر في البيت إلا حصيراً وهو جالس عليه ، ومصحفاً يقرأ فيه ، وجراباً فيه علمه ، ومطهرة يتوضأ منها ، فبينا أنا جالس عنده ؛ دق داق الباب ، فقال : يا فلانة ؛ اخرجي فانظري مَن هـٰذا ، قالت : رسول محمد بن سليمان يستأذن ، قال : قولي له يدخل وحده ، فدخل ، فناوله كتاباً ؛ فإذا فيه : بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، من محمد بن سليمان إلىٰ حماد بن سلمة . **أما بعد** : فصبحك الله بما صبح به أولياءه وأهل طاعته ، وقعت مسألة ، فأتنا نسألك عنها . والسلام .

فقال لي : اقلب الكتاب ، واكتب : **أما بعد** : فأنت صبحك الله بما صبح به أولياءه وأهل طاعته ، إنا عهدنا العلماء وهم لا يأتون أحداً ، فإن كانت وقعت لك مسألة . . فأتنا ، واسألنا عما بدا لك ، وإن أتيتني . . فلا تأتني إلا وحدك ، ولا تأتني بخيلك ورجلك[1] ؛ فإني لا أنصحك ولا أنصح نفسي . والسلام .

قال : فبينا أنا عنده ؛ إذ دق داق الباب ، قال : يا فلانة ؛ اخرجي فانظري مَن هـٰذا ، قالت : محمد بن سليمان ، قال : قولي له ليدخلْ وحده ، قال : فدخل ، فسلم ، ثم جلس بين يديه ، وقال له : ما لي إذا نظرت إليك امتلأت رعباً ؟ فقال حماد : سمعت ثابتاً البُناني يقول : سمعت أنس بن مالك يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن

---

(١) **الخيل** : الفرسان ، **الرَّجْلُ** : المشاة .

العالم إذا أراد بعمله وجه الله عز وجل . . هابه كل شيء ، وإذا أراد به الدنيا . . خاف من كل شيء »[1] .

ثم سأله عن مسألة ، فأجابه ، ثم قال له : هٰذه أربعون ألف درهم تستعين بها علىٰ ما أنت عليه ، قال : اردها علىٰ من ظلمتَه بأخذها منه ، قال : والله ؛ ما أعطيتك إلا مما ورثته ، قال : لا حاجة لي فيها ، ازوها عني وفقك الله وسددك ، قال : فاقسمها علىٰ من ترىٰ ، قال : لا أفعل ، ازوها عني ؛ فإني لا أحب أن أُسأل عنها ، ثم قام فخرج .

وقال موسى بن إسماعيل : لو قلت لكم إني ما رأيت حماد بن سلمة افترَّ ضاحكاً[2] قط . . لصدقت ؛ كان مشغولاً بنفسه ، إما يحدث ، وإما يقرأ ، وإما يسبح ، وإما يصلي ، كان قد قسم ليله ونهاره علىٰ هٰذه الأعمال ، كأنه يبادر أموراً تفوته .

وقال عبد الله : كنت آتي حماد بن سلمة في سوقه ؛ فإذا ربح في ثوب حبة أو حبتين . . شد جونته[3] ، ودفع سفطه ، ولم يبع شيئاً ، فكنت أظن أن ذلك يقوته ، فإذا وجد قوته . . لم يزد عليه شيئاً .

وقال يونس بن محمد : مات حماد بن سلمة في المسجد وهو يصلي .

أسند حماد بن سلمة عن خلائق لا يحصون من التابعين .

وتوفي سنة ثمان وستين ومئة ، رحمه الله .

وقال أبو عبد الله التميمي عن أبيه : رأيت حماد بن سلمة في النوم ، فقلت : ما فعل بك ربك ؟ قال : كل خير ، قلت : بماذا ؟ قال : قال لي سبحانه وتعالىٰ : طالما أكددت نفسك لي وأنصبتها ، فاليوم أطيل راحتك وراحة المتعوبين في الدنيا ، لو يعلمون ما أعددت لهم . أو كما قال . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/٢١٣ـ٢١٤] .

وروى الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : أن حماد بن سلمة كان يبيع الخُمُرَ ـ التي تتخمر بها النساء ـ فإذا كسب حبة أو حبتين . . شد سفطه ، وأغلق حانوته ، وانصرف .

وقال حمّاد : إن دعاك الأمير ليقرأ عليك (قل هو الله أحد) . فلا تأته .

وقال : من طلب الحديث لغير الله عز وجل . . مُكر به .

---

(١) أخرجه بنحوه الديلمي (٣/ ٧١) .

(٢) **افترَّ ضاحكاً** : أبدىٰ أسنانه .

(٣) **الجونة** : شيء يتخذه العطار ليحفظ فيه العطر ، والمراد هنا : الشيء الذي يتخذ فيه المتاع .

وقال : ما كان من شأني أن أحدث أبداً حتىٰ رأيت أيوب السختياني في النوم ، فقال لي : حدِّثْ ؛ فإن الناس يقبلون منك .

وعن أبان بن عبد الرحمـٰن قال : رُئِيَ حماد بن زيد في المنام ، فقيل له : ما فعل بك ربك ؟ قال : غفر لي ، قيل : فما فعل حماد بن سلمة ؟ قال : هيهات! ذاك في أعلىٰ عليين ، رضي الله عنهم . انتهىٰ [« الحلية » ٦/ ٢٥٠ـ٢٥٢] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

عبد الله بن عبيد بن عمير
رضي الله عنهم

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : كان من كلامه : لا تقنعنّ لنفسك باليسير من الأمر في طاعة الله عز وجل كعمل المهين الدنيّ ، ولـٰكن اجهد ، واجتهد ، وافعل فعل الحريص الحفيّ ، وتواضع لله عز وجل ما استطعت . أو كما قال .

وقال : الهوىٰ قائد ، والعمل سائق ، والنفس حرون[1] ، فإن ونىٰ[2] قائدها . . لم تستقم لسائقها ، وإن ونىٰ سائقها . . لم تستقم لقائدها ، ولا يصلح هـٰذا إلا مع هـٰذا حتىٰ يرِدا معاً .

وقال : العلم ضالة المؤمن ، يغدو في طلبه ، فكلما أصاب منه شيئاً . . حواه ، ويطلب إليه غيره .

وقال : لما طعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه . . قالوا : لو شربت لبناً يا أمير المؤمنين ، فلما شرب اللبن . . خرج من جرحه ، فبكىٰ وأبكىٰ من حوله ، وقال : هـٰذا حينٌ لو أن لي ما طلعت عليه الشمس . . لافتديت به من هول المطلع .

وقال عبد الله بن عبيد : بينما الناس يأخذون عطاياهم بين يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ إذ رفع رأسه ، فنظر إلىٰ رجل في وجهه ضربة ، فسأله عنها ، فأخبره أنها أصابته في غزاة كان فيها ، قال : عدُّوا له ألفاً ، فأعطي ألف درهم ، ثم حوَّل المال ساعة ، ثم قال : عدُّوا له ألفاً أخرىٰ ، فأعطي ألفاً أخرىٰ ، ثم قال ذلك أربع مرات ، كل ذلك يعطيه ألف درهم ، فاستحيا الرجل من كثرة ما أعطي ، فخرج ، فسأل عنه أمير المؤمنين ، فقيل له : إنه استحيا من كثرة ما أعطي ، فخرج ، فقال : أما والله ؛ إنه لو

---

(١) حرون : لا تنقاد .

(٢) ونىٰ : فتر وقصَّر . .

مكث . . ما زلت أعطيه ما بقي منها درهم ، رجل ضُرِب ضربة في سبيل الله عز وجل حَفَرَتْ وجهه!

وقال الحافظ : قال عبد الله بن عبيد بن عمير : لا ينبغي لمن أخذ بالتقوىٰ ، ووزن بالورع . . أن يذل لصاحب الدنيا .

أسند عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبيه عن جده ، وأرسل عن أبي الدرداء ، وحذيفة ، وغيرهم ، رضي الله عنهم . انتهىٰ [« الحلية » ٣/ ٣٥٤ـ٣٥٦] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان عبد الله من أفصح أهل مكة ، وتوفي بها سنة ثلاث عشرة ومئة ، رحمه الله تعالىٰ . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ١٢٧ـ١٢٨] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو بكر محمد بن مسلم ابن شهاب الزهري
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال سفيان بن عيينة : عن عمرو بن دينار ، قال : ما رأيت أحداً أنص للحديث من ابن شهاب .

وقال أيوب : ما رأيت أحداً أعلم من الزهري ، فقيل : ولا الحسن ؟ قال : ما رأيت أحداً أعلم من الزهري .

وعن عبد الرزاق ، عن مَعْمَرٍ قال : قال عمر بن عبد العزيز لجلسائه : هل تأتون ابن شهاب ؟ قالوا : إنا لنفعل ، قال : فَأْتُوه ؛ فإنه لم يبق أحد أعلم بُسنَّة ماضية منه . وعن مكحول مثله .

وقال سفيان : مات الزهري يوم مات وما علىٰ وجه الأرض أحد أعلم بالسنة منه . انتهىٰ [« الحلية » ٣/ ٣٦٠] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال مالك : إن هـٰذا الحديث دِينٌ ، فانظروا عمن تأخذون دينكم ، والله ؛ لقد أدركت هـٰهنا ـ وأشار إلىٰ مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ سبعين رجلاً ، كلهم يقول : قال فلان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم آخذ من أحد منهم حرفاً ؛ لأنهم لم يكونوا من أهل هـٰذا الشأن ، ولقد قدم علينا الزهري وهو شاب ، فازدحمنا علىٰ بابه ؛ لأنه كان من أهل هـٰذا الشأن .

وقال جعفر بن ربيعة : قلت لعراك بن مالك : مَن أفقه أهل المدينة ؟ قال : أما أعلمهم بقضايا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقضايا أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، وأفقههم فقهاً ، وأعلمهم بما مضىٰ من أمر الناس . . فسعيد بن المسيب ، وأما أغزرهم حديثاً . . فعروة بن الزبير ، ولا تشاء أن تفجر من عبيد الله بن عبد الله بحراً . . إلا فجرته ، قال عراك : وأعلمهم عندي جميعاً الزهري ؛ لأنه جمع علمهم جميعاً إلىٰ علمه . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٨٠] .

وقال الحافظ : قال صالح بن كيسان : اجتمعت أنا والزهري نطلب العلم ، فقلنا :

نكتب السنن ، فكتبنا ما جاءنا عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : ثم قال : نكتب ما جاء عن الصحابة رضوان الله عليهم ؛ فإنه سنة ، فقلت أنا : ليس بسنة ، فلا نكتبه ، قال : فكتب ولم أكتب ، فأنجح وضيعت .

وعن عبد الرزاق ، عن معمر قال : ما رأيت مثل الزهري في وجهه قط ، يعني : الحديث ، ولا مثل حماد ابن أبي سليمان في وجهه قط ، يعني : الرأي .

وقال معمر : كنا نرىٰ أننا قد أكثرنا عن الزهري ، حتىٰ قتل الوليد ، فإذا الدفاتر قد حملت على الدواب من خزانته ، يقول : من علم الزهري .

وقال الليث : ما رأيت عالماً قط أجمع من ابن شهاب ، ولا أكثر علماً منه ، ولو سمعتَ ابن شهاب يحدث في الترغيب . . لقلتَ : لا يحسن إلا هـٰذا ، وإن حدث عن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وعن أهل الكتاب . . لقلت : لا يحسن إلا هـٰذا ، وإن حدث عن العرب والأنساب . . لقلت : لا يحسن إلا هـٰذا ، وإن حدث عن القرآن والسنة . . كان حديثه جامعاً .

وقال الليث بن سعد : وضع الطشت بين يدي ابن شهاب ، فتذكر حديثاً ، فلم تزل يده في الطشت[1] حتىٰ طلع الفجر ، حتىٰ صححه .

وقال الزهري : العلم وادٍ ، فإذا هبطتَ وادياً . . فعليك بالتؤدة حتىٰ تخرج منه ؛ فإنك لا تقطع حتىٰ يقطع بك .

وقال الزهري : إن كنت لآتي باب عروة ، فأجلس ثم أنصرف ولا أدخل ، ولو أشاء أن أدخل . . لدخلت ؛ إعظاماً له .

وقال : مست ركبتي ركبة سعيد بن المسيب ثمان سنين .

وقال : خدمت عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، حتىٰ إن كان خادمه ليخرج فيقول : مَن بالباب ؟ فتقول الجارية : غلامك الأعمش ، فتظن أني غلامه ، وإن كنت لأخدمه حتىٰ أستقي له وضوءه .

وقال الزهري : مكثت خمساً وأربعين سنة أختلف بين الشام والحجاز ، فما وجدت حديثاً استطرفته .

---

(١) **الطشت أو الطست** : لفظ فارسي دخل العربية ، بمعنىٰ : وعاء كبير للغسيل .

وقال عبد الوهاب في حديثه : (خمساً وعشرين سنة[1]) .

وقال : تبعت سعيد بن المسيب في طلب حديث ثلاثة أيام .

وعن الأوزاعي قال : كنا نأتي العالم ، فما نتعلم من أدبه . . أحب إلينا من علمه .

قال سفيان : كنت أسمع الزهري يقول : حدثني فلان وكان من أوعية العلم ، ولا يقول : كان عالماً .

وعن مالك بن أنس قال : أول من دوَّن العلم : ابن شهاب .

وقال الزهري : كنا نكره الكتاب حتىٰ أكرَهَنا عليه السلطان[2] ، فكرهنا أن نمنعه الناس .

وقال : العلم خزائن ، وتفتحها المسائل .

وقال : يُصطاد العلم بالمسألة كما يصطاد الوحش .

وكان ينزل بالأعراب يعلمهم .

وقال الليث : قال الزهري : ما استودعت قلبي شيئاً قط فنسيته .

وقال : إنما يُذهب العلمَ : النسيانُ ، وتركُ المذاكرة .

وقال : إن هـٰذا العلم إن أخذته بالمكاثرة[3] . . غلبك ولم تظفر منه بشيء ، ولـٰكن خذه مع الأيام والليالي أخذاً رفيقاً . . تظفر به .

وقال : العلم ذَكَرٌ ، لا يحبه إلا الذكور من الرجال .

وعن الوليد بن محمد قال : مررت مع الزهري علىٰ أبي حازم وهو يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال الزهري : ما لي أرىٰ أحاديث ليس لها خُطُم ولا أزِمَّة . انتهىٰ [« الحلية » ٣/ ٣٦٠ـ٣٦٥] .

وقال أبو الفرج : كان الزهري يعطي من جاءه وسأله ، حتىٰ إذا لم يبق معه شيء . . استلف من أصحابه ، فلا يزالون يسلفونه حتىٰ لم يبق معهم شيء ، فيحلفون له إنه لم يبق معهم شيء ، فيستلف من عبيده ، فيقول : أي فلان ؛ أسلف لي ، وأُضعف لك كما تعلم ، فيسلفونه ، ولا يرىٰ بذلك بأساً ، فربما جاءه السائل فيقول : أبشر ، فسيأتي الله بخير ،

---

(١) أي بدلاً من : (خمساً وأربعين سنة) في كلام الزهري السابق .

(٢) وذلك أن الخليفة هشام بن عبد الملك ألزمه أن يُملي علىٰ بنيه ، عندها أذن للناس أن يكتبوا عنه .

(٣) في بعض النسخ : (بالمكابرة) .

فيقيض الله عز وجل للزهري أحد رجلين : إما رجل يهدي له ما يبيعه ، وإما رجل يبيعه وينظره .

وكان يطعمهم الزُّبد[1] ويسقيهم العسل .

ولد سنة ثمان وخمسين ، في آخر سلطان معاوية ، وأوصىٰ أن يدفن علىٰ قارعة الطريق .

ومات لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان ، سنة أربع وعشرين ومئة ، وهو ابن خمس وسبعين سنة ، رحمه الله . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٨١] .

وقال الحافظ : قال الزهري : أَعْيَا الفقهاءَ وأعجزَهم أن يعرفوا ناسخ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من منسوخه .

وقال الزهري : ما عُبد الله عز وجل بأفضل من العلم .

وقال : فضل العالم على المجتهد مئة درجة ، ما بين كل درجة خمس مئة سنة .

وقال : لا يوثق بعلم عالم إلا بعمل ، ولا يُرضىٰ بقول عالم إلا برضىٰ[2] .

وقال : إياك وغلول الكتب ، قلت : وما غلولها ؟ قال : حبسها عن أهلها .

وقال : ما صبر أحد على العلم صبري ، وما نشره أحد قط نشري ، وأما عروة ابن الزبير . . فبئر لا تكدره الدلاء ، وأما ابن المسيب . . فانتصب للناس ، فذهب اسمه كل مذهب .

وسأل بعض بني أمية الزهري عن حال سعيد بن المسيب ، فذكره ، وأخبره بحاله ، فبلغ ذلك سعيد بن المسيب ، فقدم الزهري ، فسلم علىٰ سعيد ، فلم يكلمه ولم يرد عليه ، فلما انصرف سعيد . . مشىٰ معه الزهري ، فقال له : لِمَ لَمْ تكلمني ؟ ما بلغك عني ؟ قال : لِمَ ذكرتني لبني مروان ؟

قال الراوي : وصلىٰ رجل خلف الزهري شهراً ، وكان يقرأ في الفجر : (تبارك الذي بيده الملك) ، و : (قل هو الله أحد) .

---

(١) في « الصفوة » و« السير » : (الثريد) .

(٢) عبارة « الحلية » : (لا يوثق الناس بعلم عامل لا يعمل ، ولا يرضىٰ بقول عالم لا يرضىٰ) ، وفي « سير أعلام النبلاء » (٥/ ٣٤١) : (لا يُرضي الناس قول عالم لا يعمل ، ولا عمل عاملٍ لا يعلم) .

وكان الزهري يتطيب حتىٰ يُشَمَّ المسكُ من سوط دابته .

وما رأينا أحداً كانت الدنانير والدراهم أهونَ عنده من الزهري ، ما كانت عنده إلا مثل البعر .

وقال الزهري : استكثروا من شيء لا تمسه النار ، قيل : وما هو ؟ قال : المعروف .

أدرك الزهري جماعة من الصحابة ، رضوان الله عليهم ، وحدث عنهم .

وروىٰ عنه من التابعين جم غفير . انتهىٰ [« الحلية » ٣/ ٣٦٥ـ٣٧٢] .

وقال النووي ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ : الزهري تارة يقال له الزهري ، وتارة ابن شهاب ، وهو تابعي صغير .

روىٰ عنه خلائق من التابعين ، ومن أتباع التابعين ، ومن شيوخه .

رُوِّينا بالإسناد الصحيح : عن عمرو بن دينار قال : ما رأينا أحداً كانت الدنانير والدراهم أهون عنده منه ، إن كانت عنده بمنزلة البعر .

ورُوِّينا عن إبراهيم بن سعد بن إبراهيم قال : قلت لأبي : بِمَ فاقكم الزهري ؟ قال : كان يأتي المجالس من صدرها ، ولا يأتيها من خلفها ، ولا يبقىٰ في المجلس شاب إلا سأله ، ولا كهل إلا سأله ، ولا فتىً إلا سأله ، ثم يأتي الدار من دور الأنصار ، فلا يبقىٰ شاب ، إلا سأله ، ولا كهل إلا سأله ، ولا فتىً إلا سأله ، ولا عجوز إلا سألها ، ولا كهلة إلا سألها ، حتىٰ يحاول ربَّاتِ الحجال .

قال البخاري : قال علي بن المديني : للزهري نحو ألفي حديث .

وقال أحمد ابن حنبل وإسحاق بن راهويه : أصح الأسانيد مطلقاً : الزهري ، عن سالم ، عن أبيه .

وقال أبو بكر بن أبي شيبة : أصحها : الزهري ، عن علي بن الحسين ، عن أبيه ، عن علي بن أبي طالب ، رضي الله عنهم .

وقال علي بن المديني وعمرو ابن الفلاس وغيرهما : أصحها : محمد بن سيرين ، عن عبيدة ، عن علي رضي الله عنه .

وقال يحيى بن معين : أصحها : الأعمش ، عن إبراهيم النخعي ، عن علقمة ، عن ابن مسعود .

وقال البخاري : أصحها : مالك ، عن نافع ، عن ابن عمر .

فعلىٰ هـٰذا : قال أبو منصور البغدادي : أصحها : الشافعي ، عن مالك ، عن نافع ، عن ابن عمر ، رضي الله عنهم .

والمختار : أنه لا يجزم لإسناد أنه أصحها على الإطلاق ؛ لعسر ذلك .

وقال الشافعي : لولا الزهري . . لذهبت السنن من المدينة .

ومناقبه والثناء عليه أكثر من أن يحصر .

وقال البخاري في « التاريخ » [الكبير ١/ ٢٢٠] : قال لي إبراهيم بن المنذر عن معن ، عن ابن أخي الزهري : إنه أخذ القرآن في ثمانين ليلة .

وهـٰذا إسناد في نهاية الصحة ، ومعناه : أن الزهري حفظ القرآن في ثمانين ليلة . انتهىٰ [« التهذيب » ١/ ٩٠ـ٩١] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

مُحْتَوى الكِتَابِ

الإهداء ٧

بين يدي الكتاب ٩

الكلام على الترجمة ونشأتها وأهم مدارسها وأنواعها ١٨

ترجمة المؤلف ٢٦

عصر المؤلف ٣١

الكلام عن مجمع الأحباب ٣٣

مخطط توضيحي لكتاب حلية الأولياء ٤٠

علماء حضرموت وعنايتهم بكتاب مجمع الأحباب ٤١

دراسة عن بعض الكتاب التي نهل المؤلف مادته منها ٥٠

وصف النسخ الخطية ٥٩

منهج تحقيق الكتاب ٦٣

خاتمة ٦٤

صور المخطوطات المستعان بها في الكتاب ٦٧

«مجمع الأحباب وتذكرة أولي الألباب» ٨٩

مقدمة الكتاب ٩١

سبب تأليف الكتاب ٩١

انتقاد ابن الجوزي على «الحلية» ٩٢

سبب عدم إثبات بعض الحكايات ٩٢

ما يتميز به هذا الكتاب من فوائد وزيادات ٩٢

حكاية عن الإمام أبي حنيفة في التفضيل ٩٢

الباعث الأول على تأليف الكتاب ٩٢

ما ينبغي لكل مسلم تجاه سِيَر السلف ٩٣

إفراد بعض العلماء باباً للمحبة في كتب السنة ٩٤
باب: المرء مع من أحب ٩٤
حديث المرء مع من أحب ورواياته ٩٤
ذكر حقيقة المحبة وشروطها في مؤلَّف آخر ٩٦
ما يترتب على حصول المحبة ٩٦
ذكر الباعث الثاني ٩٦
حكاية سيدنا عيسى عليه السلام والحجر ٩٧
دلائل على كون الحجارة أعقل من الإنسان ٩٧
ذكر الباعث الثالث ٩٨
مطلب في عدم الإحاطة بأسماء الأولياء وأوصافهم تفصيلاً ٩٨
اعتذار المؤلف عن أمور كان يحتاجها الكتاب ١٠٠
منهج المؤلف في ترتيب الكتاب ١٠٠
مسائل مهمة ١٠١
تعريف الصحابي والتابعي ١٠١
الخلاف في المراد بالسابقين الأولين ١٠٢
مراتب الصحابة في الفضل ١٠٣
مراتب التابعين وأفضلهم ١٠٣
رواية للمؤلف عن «مقدمة ابن الصلاح» ١٠٤
الفقهاء السبعة والخلاف في السابع منهم ١٠٤
فضل تابعي التابعين ١٠٥
إخبار النبي ﷺ بصيانة العلم بعده ١٠٥
تعريف الولي الخاص ١٠٦
دوام الولاية في الأمة ١٠٧
عبارات الأولياء الموهمة ١٠٧
سبب ورود ما يوهم من بعض الأولياء ١٠٧
قصة السهروردي مع ابن حمويه ١٠٨

العمدة في أمر الولاية هو العمل بالسنة ١٠٨
العشرة المشهود لهم بالجنة ١٠٩
أبو بكر الصديق عبد الله بن أبي قحافة رضي الله عنهما ١١١
نسبه من جهة أبيه وأمه ١١١
خصيصة عظيمة لآل أبي بكر ١١١
خلافهم في اسمه ١١١
سبب تسميته بالصديق ١١١
مواقفه الرفيعة في الإسلام ١١١
السر في تصديقه وثباته ليلة الإسراء ١١٢
من أحسن مناقب الصديق استخلافه عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ١١٢
عدة مروياته رضي الله عنه ١١٣
ذكر من روى عنه ١١٣
اختلافهم في أول الناس إيماناً ١١٣
ذكر من أسلم على يده ١١٣
قصة صحبته للنبي ﷺ في الهجرة ١١٤
من خصائص الصديق رضي الله عنه ١١٥
منكر صحبته كافر ١١٥
استدلال الإمام الشافعي من القرآن على صحة خلافته رضي الله عنه ١١٥
خبر التابوت المنزل على سيدنا آدم عليه السلام ١١٨
مكانة الصديق عند النبي ﷺ ومَشاهده معه ١١٩
من كلامه لما استُخلف ١٢٠
فصل مختصر في بعض الأحاديث الصحيحة المصرحة بفضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه ١٢١
خروجه مع النبي ﷺ من مكة وطلب المشركين لهما ١٢١
معنى قول النبي ﷺ: «يا علي لا تخبرهما بذلك» ١٢٦

فصل في علمه وزهده وتواضعه رضي الله عنه ١٢٨
الدليل على عظم علمه رضي الله عنه ١٢٨
إشارة لطيفة ١٢٨
قصة تدل على ورعه رضي الله عنه ١٢٨
من دعائه إذا مُدِح ١٢٩
لا يعرف خليفة ورثه أبوه إلا الصديق ١٣٠
أحاديث وأخبار في فضل سيدنا أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ١٣٠
استخلافه عمر رضي الله عنهما ١٣٤
من خوفه رضي الله عنه ١٣٥
من كلامه رضي الله عنه ١٣٦
من الدلائل على رضا عليٍّ كرم الله وجهه بخلافة الصديق ١٣٨
إنفاذه رضي الله عنه لجيش أسامة بن زيد ١٣٨
مسيره إلى ذي القصة لقتال الأعراب ١٤١
بعوثه وتوليته الأمراء ١٤١
وصيته ليزيد بن أبي سفيان ١٤٢
واقعة غريبة ١٤٢
كرامات خارقة للعلاء بن الحضرمي ١٤٤
كرامة لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ١٤٧
كنوز كسرى غنيمة للمسلمين ١٥٠
تاريخ بيعة الصديق وعمرته إلى مكة ١٥٠
سبب موته رضي الله عنه ١٥١
صفة السلام على الصديق رضي الله عنه عند زيارته ١٥٢
أصدق الناس فراسة ١٥٢
أبو حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه ١٥٣
نسبه ومولده رضي الله عنه ١٥٣
سبب إسلامه ١٥٣

إعزاز الدين بإسلامه ١٥٤
تسميته بالفاروق ١٥٤
مروياته ومن روى عنه ١٥٤
هجرته رضي الله عنه ١٥٥
زهده وتواضعه ١٥٦
من فضائله رضي الله عنه ١٥٦
كرامة مشهورة للفاروق رضي الله عنه ١٦٠
استخلافه وولايته ١٦١
تسميته بأمير المؤمنين ١٦٢
ترتيبه دواوين المسلمين ١٦٢
دعاء النبي ﷺ لعمر في مرضه ١٦٣
ذكر بعض أخبار ومناقب الفاروق رضي الله عنه من مصنف لابن الجوزي ١٦٣
معنى الحفص ١٦٣
موقفه من أسرى بدر وموافقة القرآن له ١٦٤
موافقة أخرى ١٦٥
قوة وصلابة في الدين ١٦٥
كتابته للتاريخ ١٦٦
من أوليّاته رضي الله عنه ١٦٦
جمعه الناس لصلاة التراويح ١٦٦
بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ١٦٧
إطعامه المسلمين في عام الرمادة ١٦٧
تواضع لا نظير له ١٦٨
أول أعماله بعد توليه الخلافة ١٦٩
رفضه قسمة السواد بين المسلمين ١٦٩
سبب تسميته بالسواد ١٧٠
تقديمه السابقين للإسلام على من عداهم ١٧٠

انتصافه للمصري من ابن الأكرمين ١٧١
اتخاذه بيت المال ١٧٢
نفقته في أموره الخاصة ١٧٢
كتابه على ولاته ١٧٣
أمنية للخليفة العادل ١٧٣
خوف الصحابة منه وخوفه من الله ١٧٣
من زهده وخوفه ١٧٤
فتح بيت المقدس ١٧٤
قصة دخوله دمشق في الجاهلية ١٧٦
تواضع وزهد لا مثيل لهما ١٧٧
شواهد على اهتمامه بأحوال الرعية ١٧٧
محاسبته لولاته ١٧٩
مع أبي هريرة رضي الله عنه ١٧٩
مقاسمته لعمرو بن العاص ١٨٠
مقاسمته مالَ سعد بن أبي وقاص ١٨٠
مع أبي سفيان وابنه معاوية رضي الله عنهم ١٨٠
سبب مقاسمته أموال عماله ١٨١
ذكر قضاته في البلدان ١٨١
شكوى الناس من أبي سفيان لأبي بكر وعمر رضي الله عنهم ١٨٢
سبب كتابته للتاريخ ١٨٢
ذكر البلدان والمدن التي فتحها ١٨٢
بعض صفاته رضي الله عنه ١٨٣
فتح نهاوند ١٨٣
من دعائه رضي الله عنه ١٨٤
الفاروق رضي الله عنه يكتب إلى نيل مصر ١٨٤
من مسانيد حديثه ١٨٥

زاوجه بأم كلثوم بنت علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ١٨٦
إذا نهى الناس عن شيء بدأ بأهله ١٨٦
حادثة استشهاده رضي الله عنه ١٨٧
جعله الأمر شورى من بعده ١٨٧
رأي المؤلف في الحكمة من عدم ذكر سعيد بن زيد رضي الله عنه في أصحاب
الشورى ١٨٨
ما يعرف به الرجال عند أمير المؤمنين ١٨٨
قدر دَينه الذي كان عليه عند وفاته ١٨٩
استئذانه من عائشة رضي الله عنها أن يدفن مع صاحبيه ١٨٩
غسله والصلاة عليه ودفنه ١٨٩
تاريخ وفاته، وعُمره رضي الله عنه ١٨٩
صفته رضي الله عنه ١٩٠
استسقاؤه رضي الله عنه ١٩٠
ما يستحله أمير المؤمنين من بيت المال ١٩٠
تقديره لأجرة عماله ١٩١
جواز أخذ الأجرة على عمل للمسلمين ١٩١
صنيعه لما قدم عليه ما أصيب من مال العراق ١٩٣
لبس سراقة بن مالك لسواري كسرى ١٩٣
قصة وضعه ديوان العطاء وترتيبه وما في ذلك من الروايات والأخبار ١٩٤
غضبه لرسول الله ﷺ ١٩٨
تذكيره ابنته حفصة بزهد رسول الله ﷺ ١٩٩
رده على أبي سفيان يوم أحد ٢٠٠
السر في أمر النبي ﷺ ابنَ الخطاب رضي الله عنه بمخاطبة أبي سفيان ٢٠٠
من خوفه رضي الله عنه ٢٠١
بعض ما قال وما قيل له لما طعن ٢٠١
رؤيا لابنه عبد الله بعد وفاته ٢٠٢

رؤيا أخرى للعباس رضي الله عنه ٢٠٢
ذمُّه للدنيا ٢٠٣
عموم عطائه لسائر المسلمين ٢٠٣
قدر ما كان يأخذ من بيت المال ٢٠٤
كتابه لأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما ٢٠٤
بعض مناقبه وأخباره ٢٠٥
العباس يصعد على ظهر أمير المؤمنين ليرد الميزاب ٢٠٥
إنصافه من أقرب الناس إليه ٢٠٧
موقفه من أربعة أخماس الفيء بعد النبي ﷺ ٢٠٧
العباس وعلي بن أبي طالب يختصمان إلى الفاروق في بني النضير ٢٠٩
موقفه من أموال فدك هو والصديق رضي الله عنهما ٢١٠
عمر بن عبد العزيز يرد فَدَكاً على ما كانت عليه في عهد رسول الله ﷺ ٢١١
عثمان بن عفان يقطع فدكاً لمروان وتأويله ذلك ٢١١
ما اختص به ﷺ من صَفِيِّ الغنيمة ٢١٢
أرض خيبر كان بعضها صلحاً وبعضها عنوة ٢١٢
ما جرى في أمر الخمس بعد النبي ﷺ ٢١٣
خصائص عمر بن الخطاب رضي الله عنه التي لم يشاركه فيها أحد ٢١٤
ما اختصت به كرامة (يا سارية الجبل) من خصائص ٢١٥
صفة السلام على سيدنا عمر بن الخطاب عند زيارته ٢١٧
أبو عبد الله عثمان بن عفان رضي الله عنه ٢١٨
نسبه وإسلامه ٢١٨
هجرته رضي الله عنه ٢١٨
زواجه برقية وأم كلثوم رضي الله عنهم ٢١٨
عدة ما رواه ومن روى عنه ٢١٩
مولده ووفاته رضي الله عنه ٢١٩
بعض فتوحاته ٢١٩

بعض مناقبه وأخباره ٢١٩
حشمته عند النبي ﷺ ٢٢٠
خبر توليه الخلافة ٢٢٢
من الفتوحات العظيمة في خلافته فتح إفريقيا ٢٢٤
بعض فضائله ومناقبه ٢٢٥
بعض ما قيل في حيائه رضي الله عنه ٢٢٦
رسول الله ﷺ يشكو إلى عثمان رضي الله عنه ٢٢٦
خصائص عثمان رضي الله عنه التي لم يشاركه فيها أحد ٢٢٩
أبو الحسن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ٢٣١
نسبه وكنيته ٢٣١
اختلاف العلماء في أول الناس إسلاماً ٢٣١
عمره رضي الله عنه لما أسلم ٢٣٢
علمه رضي الله عنه وعدة مروياته ومن روى عنه ٢٣٢
زهده رضي الله عنه ٢٣٣
تسع كلمات لم يُقل مثلهن ٢٣٣
بعض الأحاديث الواردة في فضله ٢٣٤
كلام المؤلف على حديث «أنا مدينة العلم» ٢٣٦
توليه الخلافة ٢٣٦
علمه كرم الله وجهه بزمان مقتله ٢٣٧
مقتله رضي الله عنه ٢٣٧
بيتان في مدح الإمام علي كرم الله وجهه ٢٣٨
شجاعة وعطف ٢٣٨
من مناقبه وفضائله كرم الله وجهه ٢٣٨
بعض من غرر كلامه ودرره ٢٤١
من أجلِّ ما قيل في شأن العلم والعلماء ٢٤٢
من زهده وورعه كرم الله وجهه ٢٤٣

طلاقه الدنيا ثلاثاً ٢٤٥
من شعره كرم الله وجهه ٢٤٥
من أحاديثه رضي الله عنه ٢٤٦
ضرار بن ضمرة يصف علياً كرم الله وجهه ٢٤٦
شاهد على قوته رضي الله عنه ٢٤٧
جواب مسكتٌ ٢٤٧
كتابه لابن عباس رضي الله عنهم ٢٤٧
من خصائص علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ٢٤٨
أبو محمد طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه ٢٥١
نسبه وإسلامه رضي الله عنه ٢٥١
مواقفه المشهودة يوم أحد ٢٥١
كرمه رضي الله عنه ٢٥٢
بعض مناقبه وفضائله رضي الله عنه ٢٥٣
تحويل قبره بعد وفاته رضي الله عنه بثلاثين سنة ٢٥٣
من خصائصه رضي الله عنه ٢٥٤
أبو عبد الله الزبير بن العوام رضي الله عنه ٢٥٥
نسبه وإسلامه رضي الله عنه ٢٥٥
بعض مناقبه وفضائله رضي الله عنه ٢٥٥
ابنه عبد الله يقضي دينه ٢٥٦
تركته وقدر الدين الذي كان عليه رضي الله عنه ٢٥٧
من خصائص الزبير رضي الله عنه ٢٥٨
أبو إسحاق سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ٢٥٩
نسبه وإسلامه رضي الله عنه ٢٥٩
بعض مناقبه وفضائله رضي الله عنه ٢٥٩
عدة مروياته رضي الله عنه ٢٥٩

وفاته رضي الله عنه ٢٦١
من خصائص سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ٢٦١
سعيد بن زيد رضي الله عنه ٢٦٣
نسبه وإسلامه رضي الله عنه ٢٦٣
بعض فضائله ومناقبه رضي الله عنه ٢٦٣
من مناقبه أنه كان مجاب الدعوة ٢٦٤
عدة مروياته ومن روى عنه ٢٦٤
من خصائصه رضي الله عنه ٢٦٥
أبو محمد عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ٢٦٦
نسبه وإسلامه رضي الله عنه ٢٦٦
كرمه وصدقاته رضي الله عنه ٢٦٦
من مناقبه رضي الله عنه ٢٦٧
من مناقبه التي لا توجد لغيره ٢٦٨
عدة مروياته ومن روى عنه ٢٦٨
ما جرى بينه وبين عثمان رضي الله عنهما ٢٦٩
شاهد على عظم تركته رضي الله عنه ٢٦٩
من خصائصه رضي الله عنه ٢٧٠
أبو عبيدة عامر ابن الجراح رضي الله عنه ٢٧١
نسبه رضي الله عنه ٢٧١
من مناقبه وفضائله رضي الله عنه ٢٧١
من كلامه رضي الله عنه ٢٧٢
كتاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأهل الشام لما ولي الخلافة ٢٧٣
كتاب عمر لأبي عبيدة ابن الجراح في خاصته ٢٧٣
توليته الإمارة وعزل خالد بن الوليد رضي الله عنهما ٢٧٤
من خصائص أبي عبيدة رضي الله عنه ٢٧٤

إبراهيم بن سيد المرسلين محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ٢٧٩
ولادته ووفاته ٢٧٩
الحكمة من دفن النبي ﷺ شعر ابنه إبراهيم يوم سابعه ٢٧٩
قبره أول قبر يُرش عليه الماء ٢٨٠
وفاة مارية رضي الله عنها ٢٨٠
حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه ٢٨١
سبب إسلامه رضي الله عنه ٢٨١
أول لواء عقده النبي ﷺ كان لحمزة رضي الله عنه ٢٨٢
استشهاده رضي الله عنه، وحزن النبي ﷺ عليه ٢٨٢
نبش قبور شهداء أحد في خلافة معاوية رضي الله عنهم ٢٨٤
زيد بن حارثة رضي الله عنه ٢٨٥
قصة رِقه وتبني النبي ﷺ له ٢٨٥
بعض مناقبه رضي الله عنه ٢٨٦
استشهاده رضي الله عنه ٢٨٦
أسامة بن زيد رضي الله عنهما ٢٨٧
عدة مروياته ومن روى عنه ٢٨٧
بعض مناقبه رضي الله عنه ٢٨٧
قيافة تسرُّ النبي ﷺ ٢٨٨
عبد الله بن جحش رضي الله عنه ٢٨٩
نُبذة عنه وأنه أول من دعي بأمير المؤمنين ٢٨٩
مصعب بن عمير رضي الله عنه ٢٩١
إسلامه وهجرته ٢٩١
من مناقبه وفضائله رضي الله عنه ٢٩١
تعليمه الإسلام في المدينة قبل هجرة النبي ﷺ ٢٩٢

عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ٢٩٤
إسلامه رضي الله عنه ٢٩٤
صاحب نعلَي رسول الله ﷺ ٢٩٥
من مناقبه وفضائله رضي الله عنه ٢٩٥
من كلامه وأقواله رضي الله عنه ٢٩٧
عدة مروياته ومن روى عنه ٢٩٧
من قرأ الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة ٢٩٧
دعاء كان لا يتركه ابن مسعود رضي الله عنه ٢٩٨
جملة من درر كلامه ومواعظه ٢٩٨
المقداد بن عمرو رضي الله عنه ٣٠١
بعض مناقبه وفضائله رضي الله عنه ٣٠١
كلام له رائق حول الصحبة ورؤية النبي ﷺ ٣٠١
أول من أظهر إسلامه ٣٠٢
خباب بن الأرت رضي الله عنه ٣٠٣
إسلامه وعذابه في الله عز وجل ٣٠٣
المسلم يؤجر على نفقته إلا فيما يجعله في التراب ٣٠٣
صهيب بن سنان الرومي رضي الله عنه ٣٠٥
هجرته رضي الله عنه ٣٠٥
من أحاديثه رضي الله عنه ٣٠٦
عامر بن فهيرة مولى أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ٣٠٧
مواقفه في الهجرة رضي الله عنه ٣٠٧
بلال بن رباح مولى أبي بكر رضي الله عنهما ٣٠٩
بعض من روى عنه ٣٠٩
حديثه العظيم حول نفقة النبي ﷺ ٣١٠
زيارته قبر النبي ﷺ وأذانه في مسجده ٣١٣

أبو عبد الله الأرقم بن أسد رضي الله عنه ٣١٤
أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه ٣١٥
نسبه رضي الله عنه ٣١٥
عدة مروياته ومن روى عنه ٣١٥
موقفه من حديث الإفك ٣١٦
ابن عباس يخرج له عن مسكنه رضي الله عنهم ٣١٦
أُبي بن كعب رضي الله عنه ٣١٨
منقبة عظيمة له لم يشاركه فيها أحد ٣١٨
من كلامه رضي الله عنه ٣١٩
من أحاديثه رضي الله عنه ٣١٩
سعد بن معاذ (سيد الأوس) رضي الله عنه ٣٢١
إسلامه ومشاهده ٣٢١
خبر استشهاده وحكمه في بني قريظة ٣٢١
بعض مناقبه وفضائله ٣٢٣
عمار بن ياسر رضي الله عنهما ٣٢٥
لم يشهد بدراً ابن مؤمنَين غيرُه رضي الله عنه ٣٢٥
من مناقبه رضي الله عنه ٣٢٦
زيد بن الخطاب أخو عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ٣٢٩
استشهاده رضي الله عنه ٣٢٩
عثمان بن مظعون رضي الله عنه ٣٣١
من مناقبه وفضائله رضي الله عنه ٣٣١
معاذ بن جبل رضي الله عنه ٣٣٣
أخوّة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ٣٣٣
عدلُه رضي الله عنه بين امرأتيه ٣٣٣
دعاؤه إذا قام الليل ٣٣٤
عدة مروياته ومن روى عنه ٣٣٤

من مناقبه وفضائله رضي الله عنه ٣٣٤
إصابته بالطاعون ووفاته رضي الله عنه ٣٣٦
من أحاديثه رضي الله عنه ٣٣٧
حديث دَين معاذ وبعثه إلى اليمن ٣٣٨
فوائد نفيسة من هذا الحديث ٣٣٩
العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه ٣٤٠
مع النبي ﷺ في بيعة العقبة ٣٤٠
أسارى بدر وأنين العباس ٣٤١
حديث فتح مكة وإجارته لأبي سفيان رضي الله عنهما ٣٤١
أم العباس أول عربية كَسَتِ الكعبة حريراً ٣٤٣
بعض مناقبه رضي الله عنه ٣٤٤
بنو أمٍّ واحدة قد تباعدت قبورهم ٣٤٤
عدة مروياته ومن روى عنه ٣٤٤
تصدقه بداره لتدخل في توسعة المسجد النبوي ٣٤٥
أسره يوم بدر وفداؤه نفسه وابنَي أخوَيه وحليفه ٣٤٦
أنس بن مالك رضي الله عنه ٣٤٨
عدة مروياته رضي الله عنه ٣٤٨
فائدة عجيبة ٣٤٩
سلمان الفارسي رضي الله عنه ٣٥٠
بعض مناقبه وفضائله رضي الله عنه ٣٥٠
تواضعه وزهده رضي الله عنه ٣٥١
من كلامه رضي الله عنه ٣٥٢
من أحاديثه رضي الله عنه ٣٥٤
قصة إسلامه المشهورة رضي الله عنه ٣٥٤
تميم الداري رضي الله عنه ٣٦٠
منقبة شريفة له رضي الله عنه ٣٦٠

قصة الجساسة ٣٦٠
أول من قصَّ على الناس وأسرج في المسجد ٣٦٠
أبو موسى الأشعري رضي الله عنه ٣٦٢
من مناقبه رضي الله عنه ٣٦٢
أبو موسى يروي قصة صاحب الرغيف ٣٦٢
من كلامه رضي الله عنه ٣٦٣
جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ٣٦٤
عدة مروياته ومن روى عنه ٣٦٤
إذا أطلق اسم (جابر) فهو المراد رضي الله عنه ٣٦٥
أبو الدرداء عويمر بن زيد رضي الله عنه ٣٦٦
من كلامه ومواعظه رضي الله عنه ٣٦٦
من شعره رضي الله عنه ٣٦٨
من أحاديثه رضي الله عنه ٣٧١
كلام للإمام الغزالي في العفو عن زلات الصَّدِيق ومذهب السلف في ذلك ٣٧٢
جرير بن عبد الله البجلي الأحمسي رضي الله عنه ٣٧٤
عدة مروياته ومن روى عنه ٣٧٤
عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ٣٧٦
من كلامه رضي الله عنه ٣٧٦
أمنيات تحققت جميعها ٣٧٧
عدة مروياته ومن روى عنه ٣٧٨
من مناقبه وفضائله رضي الله عنه ٣٧٨
أكثر الصحابة رواية عن رسول الله ﷺ ٣٧٨
من كلامه رضي الله عنه ٣٨١
أصح الأسانيد ٣٨٢
من دعائه على الصفا ٣٨٣
جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ٣٨٥

إخبار النبي ﷺ باستشهاده وصاحبيه في غزوة مؤتة ٣٨٦
من مناقبه رضي الله عنه ٣٨٧
أبو ذر جندب بن جنادة الغفاري رضي الله عنه ٣٨٨
إسلامه رضي الله عنه ٣٨٨
من كلامه وأحواله رضي الله عنه ٣٨٩
زهده وتقشفه رضي الله عنه ٣٨٩
حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما ٣٩١
من مناقبه رضي الله عنه ٣٩١
معرفته بأحاديث الفتن ٣٩٢
من كلامه رضي الله عنه ٣٩٣
إمارته على المدائن ٣٩٣
أبو الدحداح ثابت بن الدحداح رضي الله عنه ٣٩٥
استشهاده رضي الله عنه ٣٩٥
أبو الدحداح يقرض ربه عز وجل ٣٩٥
خالد بن الوليد رضي الله عنه ٣٩٦
نسبه رضي الله عنه ٣٩٦
عدة مروياته ومن روى عنه ٣٩٦
من مناقبه رضي الله عنه ٣٩٦
سعيد بن عامر بن حذيم رضي الله عنه ٣٩٨
إمارته لحمص وزهده رضي الله عنه ٣٩٨
عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ٤٠١
جواز كتابة (العاص) بالياء وحذفها ٤٠١
مروياته ومن روى عنه ٤٠١
من مناقبه رضي الله عنه ٤٠٢
عبد الله ذو البجادين رضي الله عنه ٤٠٤
سبب تسميته ذا البجادين ٤٠٤

إسلامه ومقدمه المدينة ٤٠٤
منقبة جليلة له رضي الله عنه ٤٠٥
أبو هريرة رضي الله عنه ٤٠٦
لا يراه مؤمن أو يسمع به إلا أحبه ٤٠٦
مجالسته النبي ﷺ وسبب إكثاره من الحديث ٤٠٧
معجزة للنبي ﷺ ٤٠٧
من مناقبه وأخباره رضي الله عنه ٤٠٨
دعاء علمه النبي ﷺ لأبي هريرة ٤٠٩
ذكر شيء من أحوال أهل الصُّفَّة ٤٠٩
زيد بن ثابت رضي الله عنه ٤١٢
من مناقبه رضي الله عنه ٤١٢
مروياته ومن روى عنه ٤١٣
من الغرائب المنقولة عنه ٤١٣
من مناقبه رضي الله عنه ٤١٣
قصة جمع القرآن ٤١٣
عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ٤١٦
من مناقبه وفضائله رضي الله عنه ٤١٦
حرصه على طلب العلم ٤١٧
سعة علمه رضي الله عنه ٤١٧
معرفته بالتفسير وعلوم القرآن ٤١٨
موعظة بليغة ٤١٩
أكثر الصحابة فتوى ٤٢٠
طول قامته رضي الله عنه ٤٢١
عدة مروياته ومن روى عنه ٤٢١
يخرج عن مسكنه لأبي أيوب الأنصاري رضي الله عنهما ٤٢١
رأيه في ليلة القدر ٤٢٢

فائدة جليلة: دعاء للخوف من سطوة السلطان ٤٢٣
أرجى آية في القرآن عند ابن عباس رضي الله عنهما ٤٢٣
من كلامه رضي الله عنه ٤٢٣
أثر ابن عباس في عروج عقول الناس ٤٢٤
أثر ابن عباس في اجتماع سيدنا الخضر وإلياس عليهما السلام وفي كلمات يفترقان عنها ٤٢٤
محبة النبي ﷺ وإجلاله لعمه العباس ٤٢٥
عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ٤٢٧
ولادته رضي الله عنه ٤٢٧
من مناقبه رضي الله عنه ٤٢٧
من كلامه ومواعظه رضي الله عنه ٤٢٨
شجاعته رضي الله عنه ٤٢٨
حصاره ومقتله رضي الله عنه ٤٢٩
ابن الزبير يشرب دم النبي ﷺ ٤٢٩
مروياته ومن روى عنه ٤٣١
ذكر العبادلة الأربعة، وأن ابن مسعود ليس منهم ٤٣١
سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنهما ٤٣٢
من مناقبه رضي الله عنه ٤٣٢
رضاعه من امرأة أبي حذيفة رضي الله عنهم ٤٣٢
استشهاده رضي الله عنه ٤٣٣
الحسن بن علي رضي الله عنهما ٤٣٤
من روى عنه الحسن ومن روى عنه رضي الله عنه ٤٣٤
توليه الخلافة ثم تنحّيه عنها ٤٣٤
من مناقبه رضي الله عنه ٤٣٦
وفاته رضي الله عنه ٤٣٧
كلمته حين صالحه معاوية رضي الله عنه ٤٣٧

من كلامه رضي الله عنه ٤٣٧
من جوده رضي الله عنه ٤٣٨
بين علي بن أبي طالب وأبنائه رضي الله عنهم ٤٣٨
الحسين بن علي رضي الله عنهما ٤٣٩
من مناقبه رضي الله عنه ٤٣٩
الحسن والحسين رضي الله عنهما أكرم الناس ٤٣٩
دية الحسين رضي الله عنه ٤٤٠
ما كان النبي ﷺ يعوِّذ به الحسن والحسين ٤٤٠
من كلامه رضي الله عنه ٤٤٠
جبريل عليه السلام يخبر النبي ﷺ بمقتل الحسين ٤٤٠
أخته زينب تذم قاتليه شعراً ٤٤١
ذكر جمع من المصطفيات الصحابيات رضوان الله عليهن ٤٤٣
خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ٤٤٥
زواجه ﷺ منها ٤٤٥
من مناقبها رضي الله عنها ٤٤٥
فاطمة بنت سيد المرسلين محمد ﷺ رضي الله عنها ٤٤٧
رسول الله ﷺ يعلمها ما هو خير من الخادم ٤٤٧
من مناقبها رضي الله عنها ٤٤٨
صنيع رسول الله ﷺ ليلة زواجها ٤٤٩
في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ وما يتبعه من التفصيل وغيره ٤٥٠
رأي المؤلف في تفضيل فاطمة رضي الله عنها ودليله على ذلك ٤٥٤
عائشة الصديقة بنت الصديق رضوان الله عليهما ٤٥٨
زواجها برسول الله ﷺ ٤٥٨
من مناقبها رضي الله عنها ٤٥٨
جبريل عليه السلام يقرئها السلام ٤٥٩

مروياتها عن النبي ﷺ ٤٦٠
افتخارها بأشياء لم تعطها امرأة غيرها ٤٦١
كرمها وإنفاقها رضي الله عنها ٤٦١
نذرها لا تكلم ابن الزبير وتكفيرها عنه رضي الله عنهما ٤٦١
وصيتها لمعاوية رضي الله عنهما ٤٦٢
علمها وفقهها رضي الله عنها ٤٦٣
ابن عباس يذكر لها مناقبها في مرض موتها ٤٦٣
حكاية لطيفة ٤٦٤
حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ٤٦٥
قصة زواجها بالنبي ﷺ ٤٦٥
رسول الله ﷺ يطلقها ثم يراجعها ٤٦٥
زينب بنت جحش رضي الله عنها ٤٦٧
زواجها من النبي ﷺ ٤٦٧
من مناقبها رضي الله عنها ٤٦٨
أم سلمة رضي الله عنها ٤٧١
زواجها برسول الله ﷺ ٤٧١
أم حبيبة رضي الله عنها ٤٧٢
قصة زواجها من رسول الله ﷺ ٤٧٢
أبو سفيان يطلب الزيارة في هدنة الحديبية ٤٧٤
أم حبيبة تدعو عائشة رضي الله عنهما في مرض موتها ٤٧٥
صفية بنت حيي رضي الله عنها ٤٧٦
زواجها من رسول الله ﷺ ٤٧٦
رسول الله ﷺ ينتصر لها من حفصة رضي الله عنهما ٤٧٧
ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها ٤٧٨
جويرية بنت الحارث رضي الله عنها ٤٧٩
زواجها من رسول الله ﷺ وبركتها على قومها ٤٧٩

يعلمها النبي ﷺ كلمات فضلهن عظيم ٤٧٩
سودة بنت زمعة رضي الله عنها ٤٨١
ترتيب أزواج النبي ﷺ في الأوليّة ٤٨١
الصحابيات غير الزوجات رضوان الله عليهن ٤٨٣
أم شريك رضي الله عنها ٤٨٣
كرامة جليلة لأم شريك ٤٨٣
فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف أم علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ٤٨٤
منقبة جليلة لفاطمة بنت أسد رضي الله عنها ٤٨٤
أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ٤٨٦
من مناقبها رضي الله عنها ٤٨٦
منقبة لا تعرف إلا لها ولابن أخيها ٤٨٨
أم أيمن رضي الله عنها ٤٨٩
كرامة وقعت لأم أيمن رضي الله عنها ٤٨٩
أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط رضي الله عنها ٤٩١
هجرتها إلى رسول الله ﷺ ٤٩١
أم الدرداء رضي الله عنها ٤٩٣
من مناقبها وأقوالها رضي الله عنها ٤٩٣
أسماء بنت عميس رضي الله عنها ٤٩٥
لهم هجرة ولكم هجرتان ٤٩٥
أم سليم بنت ملحان رضي الله عنها ٤٩٧
زواجها من أبي طلحة رضي الله عنهما ٤٩٧
أكرم مهر على الإطلاق ٤٩٧
من مناقبها رضي الله عنها ٤٩٧
من رجاحة عقلها ٤٩٨
السوداء الممتَحَنة رضي الله عنها ٥٠٠
ذكر شأن المرأة الدينارية رضي الله عنها ٥٠١

ذكر جماعة من سادات التابعين رضي الله عنهم ٥٠٣
أويس القرني رضي الله عنه ٥٠٥
عمر بن الخطاب رضي الله عنه يلقاه في وفد اليمن ٥٠٥
رسول الله ﷺ ينعت أويساً لأصحابه ٥٠٥
هرم بن حيان يلقاه ويطلب منه الوصية ٥٠٧
عبادته وزهده في الدنيا ٥٠٩
عامر بن عبد الله بن قيس رضي الله عنه ٥١١
الثمانية الذين انتهى إليهم الزهد ٥١١
وِرده كل يوم ألف ركعة ٥١١
قصة التقائه بالعابد الحبشي ٥١١
انتصاره للذمي المشهور ٥١٢
من كراماته ومناقبه رضي الله عنه ٥١٣
من كلامه ومواعظه رضي الله عنه ٥١٣
شيخه الذي تخرج عليه ٥١٤
من زهده رضي الله عنه ٥١٥
مسروق رضي الله عنه ٥١٦
من غرر كلامه رضي الله عنه ٥١٦
علقمة بن قيس رضي الله عنه ٥١٩
من مناقبه رضي الله عنه ٥١٩
الأسود بن يزيد النخعي رضي الله عنه ٥٢١
مجاهدته رضي الله عنه ٥٢١
الربيع بن خُثيم الثوري رضي الله عنه ٥٢٣
من مناقبه وفضائله رضي الله عنه ٥٢٣
من كلامه رضي الله عنه ٥٢٤
ما قاله في مقتل الحسين رضي الله عنه ٥٢٤
من مجاهداته لنفسه رضي الله عنه ٥٢٥

من أخباره وأحواله رضي الله عنه ٥٢٦
هرِم بن حيان رضي الله عنه ٥٢٨
بين هرِم وحممة رضي الله عنهما ٥٢٨
شواهد على خوفه من الله عز وجل ٥٢٨
المؤلف رحمه الله يعلق على كلام لهرم رضي الله عنه ٥٢٩
كرامة له بعد موته رضي الله عنه ٥٢٩
عبد الله أبو مسلم الخولاني رضي الله عنه ٥٣١
كلامه لمعاوية رضي الله عنه ٥٣١
إسلامه وذكر بعض كراماته رضي الله عنه ٥٣٢
نعته موجود في الكتب السماوية ٥٣٢
كرامة خارقة لأبي مسلم رضي الله عنه ٥٣٢
كان رضي الله عنه مستجاب الدعوة ٥٣٣
بين أبي مسلم ومعاوية رضي الله عنهما ٥٣٣
جرأة في الحق وحِلم نادر ٥٣٤
أبو مسلم يروي حديثاً في المحبة في الله عز وجل ٥٣٤
كلام المؤلف رحمه الله حول رواية أبي مسلم لحديث المتحابين عن معاذ رضي الله عنه ٥٣٥
حديث المتحابين كما يرويه الحافظ عبد الحق في «الأحكام الكبرى» ٥٣٥
أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن البصري رضي الله عنه ٥٣٧
فائدة في ملاك الدين وآفته ٥٣٧
من مناقبه رضي الله عنه ٥٣٧
حقيقة الإيمان ٥٣٨
محاسبة النفس ٥٣٨
من كلامه رضي الله عنه وحكمه البالغة ٥٣٨
من كلامه في الحزن ٥٣٩
يصف من أدركهم من أهل بدر رضي الله عنهم ٥٤٠

كتابه إلى عمر بن عبد العزيز وما فيه من وصايا جليلة ومواعظ بليغة ٥٤٠
في التحذير من الدنيا ٥٤٤
علامات أهل التقوى ٥٤٥
معنى قوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ ٥٤٥
أربع خلال تعيذ من الشيطان ٥٤٥
أعظم الحسرات يوم القيامة ٥٤٥
صفة من أدركهم الحسن من الصحابة رضي الله عنهم ٥٤٥
موعظة لعمر بن هبيرة والي العراق ٥٤٥
الفقيه الحق ٥٤٦
خالد بن صفوان يصف الحسن رضي الله عنه ٥٤٧
رحيل الزنج عن البصرة ببركة دعائه رحمه الله ٥٤٧
اليقين والعافية ٥٤٧
من حكمه رضي الله عنه ٥٤٨
صفة أصحاب رسول الله ﷺ ٥٤٩
بين المؤمن والمنافق ٥٤٩
وصيته لأصحابه في احتضاره ٥٥٠
الخير كله والشر كله في آية واحدة ٥٥١
عدد من أدركهم الحسن من الصحابة رضي الله عنهم ٥٥٢
ما قيل في سماعه من أبي هريرة رضي الله عنه ٥٥٣
ثناؤهم على الحسن رضي الله عنه ٥٥٣
من حكمه رحمه الله ٥٥٣
قيس بن أبي حازم رضي الله عنه ٥٥٥
روايته عن العشرة رضي الله عنهم ٥٥٥
المخضرمون من التابعين ٥٥٥
الفقهاء السبعة ٥٥٦

ذكر الفقهاء السبعة ٥٥٧
أبو محمد سعيد بن المسيب رضي الله عنه ٥٥٧
العبادة في رأي ابن المسيب رضي الله عنه ٥٥٧
لزومه مسجد النبي ﷺ أيام الحرة ٥٥٧
حرصه على الصلاة ومحافظته عليها ٥٥٧
دعاء سجود التلاوة ٥٥٨
تزويجه ابنته في قصة مشهورة ٥٦٠
يسمع هاتفاً يعلمه دعاء ٥٦١
رفضه المبايعة للوليد وسليمان وما جرى له بسبب ذلك ٥٦١
من مسانيد أحاديثه ٥٦٣
عروة بن الزبير رضي الله عنهما ٥٦٦
من كلامه رضي الله عنه ٥٦٧
من مناقبه وفضائله رضي الله عنه ٥٦٧
قصة قطع رجله بسبب الأكلة ٥٦٧
من أحسن ما قيل له في العزاء وأجمله ٥٦٨
من مسانيد حديثه ٥٦٩
القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم ٥٧١
نصيحته لعمر بن العزيز رضي الله عنهما ٥٧١
من مناقبه رضي الله عنه ٥٧١
أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام رضي الله عنه ٥٧٣
من مسانيده رضي الله عنه ٥٧٣
عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي رضي الله عنه ٥٧٥
أبيات يكتبها لعمر بن عبد العزيز ٥٧٥
من مسانيده رضي الله عنه ٥٧٥
خارجة بن زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنهما ٥٧٧
من مسانيده رضي الله عنه ٥٧٧

أبو أيوب سليمان بن يسار رضي الله عنه ٥٧٨
قصته مع الأعرابية التي راودته عن نفسه ٥٧٨
من مسانيد حديثه رضي الله عنه ٥٧٩
تنبيه في ابن الجوزي نسب واقعة الأعرابية لعطاء بن يسار أخي سليمان ٥٨٠
أبو عمرو سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم ٥٨١
من مناقبه رضي الله عنه ٢٨١
فائدة: فيما كان يفعل رسول الله ﷺ إذا أُتَي بمدهن الطيب ٥٨٢
من مسانيد أحاديثه رضي الله عنه ٥٨٢
حب أبيه له رضي الله عنهما ٥٨٣
لا يسأل أحداً غير الله سبحانه ٥٨٣
محمد بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ٥٨٤
الثلاثة الذين اسمهم (محمد) ورُخص في كنيتهم بأبي القاسم ٥٨٤
من كلامه رضي الله عنه ٥٨٤
كلام لا يخرج إلا من بيت نبوة ٥٨٥
زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ٥٨٦
الخضر عليه السلام يناجيه ٥٨٦
تعظيمه أمر الصلاة وخشوعه فيها ٥٨٦
حلمه وعدم انتصاره لنفسه ٥٨٧
من درر كلامه رضي الله عنه ٥٨٧
قصة حمله مقيداً إلى الشام وما وقع له من كرامات ٥٨٧
سبب كثرة بكائه رضي الله عنه ٥٨٨
من مناقبه وفضائله رضي الله عنه ٥٨٨
كرمه وصدقاته في السر ٥٨٩
قصيدة الفرزدق المشهورة في حقه رضي الله عنه ٥٩٠
أهل الفضل والصبر ومجاورة الله سبحانه يوم القيامة ٥٩١
كلامه لمن سب أصحاب النبي ﷺ ٥٩٢

من دعائه في السجود ٥٩٢
من عفوه وحلمه رضي الله عنه ٥٩٣
لا تصحبن هؤلاء الخمسة ٥٩٣
أبو جعفر محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ٥٩٥
من كلامه رحمه الله ٥٩٥
موقفه من الشيخين رضي الله عنهما ٥٩٦
من حِكَمه رضي الله عنه ٥٩٧
أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ٥٩٩
يسأل الله عز وجل فيرزقه ٥٩٩
فوائد قرآنية باستنباط نبوي للإمام جعفر الصادق رضي الله عنه ٦٠٠
من دعائه رحمه الله ٦٠٢
من أسند عنهم ومن روى عنه ٦٠٢
من مسانيده رضي الله عنه ٦٠٣
الحكمة في خلق الذباب ٦٠٣
أبو جعفر المنصور يريد قتله وما جرى بينهما ٦٠٣
دعاؤه قبل أن يدخل على المنصور ٦٠٤
علي بن عبد الله بن العباس رضي الله عنهم ٦٠٦
من مناقبه رضي الله عنه ٦٠٦
دعاء الفجر مسنداً عن الإمام علي بن عبد الله بن العباس رضي الله عنهم ٦٠٧
عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ٦٠٩
زواج مبارك ينجب عمر بن عبد العزيز ٦٠٩
يبعث يوم القيامة أمة وحده ٦٠٩
يلتقي بالخضر ويخبره بولايته الخلافةَ وعدله ٦١٠
الشياه والذئاب ترعى في مكان واحد أيام خلافته ٦١٠

فراسة صائبة ٦١٠
من زهده في الدنيا رضي الله عنه ٦١١
من حين ولي الخلافة لم يجب عليه غسل ٦١١
خوفه من الله تعالى ٦١٢
أفضل القصد عند الجِدَة ٦١٢
يعظ أصحابه موعظة جليلة ٦١٢
أكثر من ذكر الموت ٦١٥
حكمة بليغة ٦١٥
آخر خطبة خطبها ٦١٥
وصيته بتقوى الله عز وجل ٦١٦
بكاؤه من خشية الله ٦١٦
إرسال البُرُد بالسلام إلى رسول الله ﷺ ٦١٦
الحسن البصري يكتب إلى عمر يعظه ٦١٧
موعظته لعدي بن أرطاة ٦١٧
كتابه لعمر بن الوليد ٦١٨
حق قرابته في المال كحقِّ باقي المسلمين ٦١٨
موعظته لسليمان بن عبد الملك ٦١٩
من وصيته لابنه عبد الملك ٦١٩
موعظة تقع موقعها ٦١٩
يدعو على خالد بن الريان فتستجاب دعوته ٦٢٠
ينتصر لمظلوم بعيد الدار ٦٢٠
صرامته مع بني مروان ٦٢١
ابن لسليمان بن عبد الملك يطالبه بقطيعة فيرده ٦٢١
ابنه عبد الملك يناصحه ٦٢٢
يخير امرأته بينه وبين جوهر لها ٦٢٢
كتابه لسالم بن عبد الله رضي الله عنهما ٦٢٢

كتاب سالم بن عبد الله إليه في سيرة عمر بن الخطاب وقضاياه ٦٢٣
كتابه لعامله على الكوفة ٦٢٤
من درر كلامه رضي الله عنه ٦٢٤
مَلك الروم يثني على عمر بن عبد العزيز ٦٢٦
شواهد على ورعه وخوفه من الله تعالى ٦٢٦
من خطبه رضي الله عنه ٦٢٧
في آخر خطبة خطبها ٦٢٧
من دعائه رضي الله عنه ٦٢٧
أول كلمة قالها يوم استخلف ٦٢٧
رؤيا عظيمة لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ٦٢٧
رؤيا أخرى لمولاة له ٦٢٩
اشتغاله بأمور المسلمين ٦٣٠
أربع ليالٍ ينزل الله فيهن الرحمة ٦٣٠
سعيد بن المسيب يخبر بخلافته رضي الله عنهما ٦٣٠
يستشير إياس بن معاوية فيمن يستعملهم ٦٣٠
بينه وبين بعض عماله ٦٣٠
صفة العدل ٦٣٢
من أحاديثه المسندة عنه ٦٣٢
صلاته تشبه صلاة النبي ﷺ ٦٣٢
ولايته المدينة قبل الخلافة ٦٣٣
قصة وفاة سليمان بن عبد الملك ٦٣٣
رجاء بن حيوة يروي قصة استخلاف عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ٦٣٤
مجدد المئة الأولى ٦٣٧
من أحواله ومناقبه رضي الله عنه ٦٣٧
كتابه إلى أهل الموسم ٦٣٨
رجل من أذربيجان يعظ أمير المؤمنين ٦٣٩

ينهى عامله عن تعذيب من أذنب بغير بينة ٦٣٩
بعثه أهل بيت الحجاج إلى اليمن ٦٤٠
كتابه لعامل حمص ٦٤٠
فائدة للحفظ من العقارب والبراغيث ٦٤٠
يخوف عامله من الله فيعتزل الولاية ٦٤١
كتابه في التحذير من الظلم ٦٤١
كتاب الحسن البصري إليه ٦٤١
سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب يعظانه ٦٤١
خالد بن صفوان ينصحه ٦٤٢
من تواضعه وزهده رضي الله عنه ٦٤٢
حاله قبل الخلافة وبعدها ٦٤٣
مناظرة في زهد عمر بن عبد العزيز وأويس القرني ٦٤٣
حرصه على مال المسلمين ٦٤٤
ورع لا نظير له ٦٤٤
بكاؤه من خشية الله ٦٤٥
بكاؤه الدم رضي الله عنه ٦٤٥
يطلب من قاصِّه أن يدعو عليه بالموت ٦٤٦
من دعائه رضي الله عنه ٦٤٦
من أقواله وحِكمه رضي الله عنه ٦٤٧
خمس خصال ينبغي أن تكون في القاضي ٦٤٨
رؤيا معجبة يرويها لزوجته ٦٤٩
رؤيا أخرى ٦٥٠
يراه مسلمة بعد موته ٦٥٠
صبره على المصائب رضي الله عنه ٦٥٠
من أولاده رضي الله عنه ٦٥١
الخوف سبب مرضه مرض الموت ٦٥٢

كتابه إلى ولي العهد من بعده ٦٥٢
وفاته رضي الله عنه ٦٥٣
زوجته تصف كيف كانت حالته في بيته ٦٥٤
موعظة مؤثرة ٦٥٤
شيء من أخباره وأحواله رضي الله عنه ٦٥٤
كتابه إلى عامله بالمدينة ٦٥٥
من كلامه رضي الله عنه ٦٥٦
قبل الخلافة وبعدها ٦٥٨
ما كان عنده من آثار النبي ﷺ ٦٥٨
تواضعه للضيف ٦٥٩
وصيه ووليه على أولاده من بعده هو الله عز وجل ٦٥٩
دعاؤه بإخفاء موته ٦٦٠
طفىء بموته نور كان في الأرض ٦٦٠
خمس خصال يصحب بهن الحكام ٦٦١
بعض المرائي والمبشرات التي رؤيت له ٦٦١
لقاء الرجال تلقيح لألبابهم ٦٦٢
يغبط الحجاج على أشياء ٦٦٢
توليه الخلافة وما فعله بعد دفن سليمان من رد المظالم ٦٦٣
ابن أبي زياد يروي طرفاً من أخباره ٦٦٦
من مسانيد حديثه رضي الله عنه ٦٦٧
هذه المناقب لا مناقبكم ٦٦٨
مع ولد قتادة بن النعمان رضي الله عنه ٦٦٨
عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما ٦٧٠
من مناقبه رحمه الله ٦٧٠
يقوم أبوه على قبره يدعو له ٦٧١
ينصح أباه رضي الله عنهما ٦٧٢

زيد بن أسلم رضي الله عنه ٦٧٣
من روى عنهم ورووا عنه ٦٧٣
مطرف بن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه ٦٧٥
من كلامه رضي الله عنه ٦٧٥
شيء من كراماته وأحواله رضي الله عنه ٦٧٦
من دعائه رضي الله عنه ٦٧٧
من مسانيد حديثه رضي الله عنه ٦٧٨
أبو العلاء يزيد بن الشخير أخو مطرف بن الشخير رضي الله عنهما ٦٨٠
مفاضلة بين قولين لمطرف وأخيه في العافية والبلاء ٦٨٠
من مسانيد حديثه رضي الله عنه ٦٨٠
صفوان بن محرز المازني رضي الله عنه ٦٨٢
من مناقبه وأحواله رضي الله عنه ٦٨٢
يطْلق ابن أخيه ببركة دعائه ٦٨٢
الحسن البصري يصفه رضي الله عنهما ٦٨٣
أبو العالية رفيع بن مهران رضي الله عنه ٦٨٤
من مناقبه وأقواله رضي الله عنه ٦٨٤
ما قضى الله عز وجل به على نفسه ٦٨٥
من أحاديثه التي رواها ٦٨٦
بكر بن عبد الله المزني رضي الله عنه ٦٨٧
من كلامه رضي الله عنه ٦٨٧
دعاء كان لا يتركه ٦٨٧
ما قاله مطرف وبكر رضي الله عنهما في الموقف ٦٨٨
صلة بن أشيم العدوي رضي الله عنه ٦٩٠
من أحواله ومناقبه رضي الله عنه ٦٩٠
خروجه في جيش للمسلمين وما وقع له ٦٩٠
يسأل الله طعاماً فيرزقه ٦٩١

ما فعل ليلة بنائه بزوجته ٦٩١
استشهاده رحمه الله ٦٩٢
العلاء بن زياد رضي الله عنه ٦٩٣
من مناقبه وأحواله رحمه الله ٦٩٣
رؤيا لرجل من أهل الشام فيها بشارة له بالجنة ٦٩٤
محمد بن سيرين الأنصاري رضي الله عنه ٦٩٦
من مناقبه وأحواله رضي الله عنه ٦٩٦
ثلاثة إخوة روى بعضهم عن بعض ٦٩٧
فراسة سيدنا زيد بن ثابت رضي الله عنه ٦٩٨
سبب حبس ابن سيرين ٦٩٨
يكري منازله لأهل الذمة ٦٩٨
ثابت البناني رضي الله عنه ٧٠٠
من مناقبه وفضائله رضي الله عنه ٧٠٠
منقبة عظيمة لثابت رضي الله عنه ٧٠٠
من كلامه رضي الله عنه ٧٠١
من مسانيده رضي الله عنه ٧٠٣
أبو الخطاب قتادة بن دعامة رضي الله عنه ٧٠٤
من مناقبه رضي الله عنه ٧٠٤
من كلامه رضي الله عنه ٧٠٤
رؤيا يفسرها ابن سيرين ٧٠٥
محمد بن واسع رضي الله عنه ٧٠٧
من مناقبه وفضائله رضي الله عنه ٧٠٧
من أقواله رحمه الله ٧٠٨
يُطلب للقضاء فيأبى ٧٠٨
من أخباره وأحواله الجليلة ٧٠٩
من حسن السؤال ٧١٠

أبو يحيى مالك بن دينار رضي الله عنه ٧١١
من كلامه وحِكمه رضي الله عنه ٧١١
طلاقه الدنيا ثلاثاً ٧١٣
زهده في الدنيا وورعه رضي الله عنه ٧١٣
قصة توبته رضي الله عنه ٧١٥
من أقواله ومواعظه رضي الله عنه ٧١٦
من أحاديثه رضي الله عنه ٧١٨
يضمن على الله عز وجل لشاب قصراً في الجنة ٧١٩
سبب موته رضي الله عنه ٧٢٠
أبو عبد الله محمد بن المنكدر رضي الله عنه ٧٢٢
بكاؤه من خشية الله تعالى ٧٢٢
من كلامه وحكمه رضي الله عنه ٧٢٣
يروي قصة لقائه بأحد الصالحين ٧٢٤
عمر بن المنكدر رضي الله عنه ٧٢٧
أمه تشكو كثرة بكائه وسهره بالليل ٧٢٧
يخشى أن تغلبه الدنيا على قلبه ٧٢٧
صفوان بن سليم الزهري رضي الله عنه ٧٢٨
من مناقبه وأحواله رضي الله عنه ٧٢٨
لم يضع جنبه على الأرض أربعين سنة ٧٢٨
يهرب من عطية الخليفة ٧٢٩
رؤيا لبعض أهل الشام ٧٢٩
من أحاديثه المسندة ٧٣٠
عامر بن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهم ٧٣١
من مناقبه رضي الله عنه ٧٣١
يصلي الصبح بوضوء العشاء ٧٣١
يتصدق على العباد ولا يعرفون ذلك ٧٣١

يلبي النداء وهو في سكرات الموت ٧٣٢
أبو الحسن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضوان الله عليهم ٧٣٣
من مناقبه رضي الله عنه ٧٣٣
يطلقه المهدي من الحبس لرؤيا رآها ٧٣٣
حكاية عجيبة في كشفه وفراسته وكرامات أخرى له رضي الله عنه ٧٣٣
فائدة جليلة في دعاء للفرج سمعه من النبي ﷺ في المنام ٧٣٥
أبو حمزة محمد بن كعب القرظي رضي الله عنه ٧٣٦
من كلامه رضي الله عنه ٧٣٦
من أحاديثه المسندة ٧٣٧
أبو حازم سلمة بن دينار رضي الله عنه ٧٣٩
من كلامه وحكمه رضي الله عنه ٧٣٩
أربعة عشر عدواً للإنسان ٧٣٩
لقاؤه بسليمان بن عبد الملك ونصحه ووعظه له ٧٤٠
أبو عاصم عبيد بن عمير رضي الله عنه ٧٤٤
من كلامه رضي الله عنه ٧٤٤
مجاهد بن جبير رضي الله عنه ٧٤٦
من كلامه وبعض ما نقل عنه في التفسير ٧٤٦
أبو محمد عطاء بن أبي رباح رضي الله عنه ٧٤٩
من مناقبه رضي الله عنه ٧٤٩
من كلامه رضي الله عنه ٧٥٠
من أحاديثه المسندة ٧٥١
كلام العلماء في مناقبه والثناء عليه ٧٥١
يدخل على عبد الملك بن مروان وينصحه في أمور المسلمين ٧٥٢
مع الوليد بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز ٧٥٢
من حفظ أمر الله ودينه ساد ومن ضيَّعه سقط ٧٥٢

من غرائب المسائل المنقولة عنه ٧٥٤
ربيعة بن أبي عبد الرحمن فروخ رضي الله عنه ٧٥٥
يقدم أبوه بعد سبع وعشرين سنة فلا يعرفه ٧٥٥
مناقبه وثناء العلماء عليه ٧٥٦
صفة مشيخة المدينة ٧٥٦
أبو عبد الله عكرمة (مولى ابن عباس) رضي الله عنهم ٧٥٨
مناقبه وثناء العلماء عليه ٧٥٨
دخول الخلاء بخاتم فيه اسم الله ٧٥٩
من كلامه وتفسيره رضي الله عنه ٧٥٩
جهاز سيدتنا فاطمة رضي الله عنها ٧٥٩
من روى عنهم الحديث ورووا عنه ٧٦٠
من أحاديثه المسندة ٧٦٠
من غريب حديثه ٧٦٢
أبو محمد عمرو بن دينار رضي الله عنه ٧٦٣
ثناء العلماء عليه ٧٦٣
من كلامه رضي الله عنه ٧٦٣
حماد بن زيد رضي الله عنه ٧٦٤
من ورى عنهم ورووا عنه ٧٦٤
مناقبه وثناء العلماء عليه ٧٦٤
شعر لعبد الله بن المبارك ٧٦٥
من أحاديثه المسندة ٧٦٥
حماد بن سلمة رضي الله عنه ٧٦٦
عزة العلم وهيبته ٧٦٦
من أقواله رضي الله عنه ٧٦٧
عبد الله بن عبيد بن عمير رضي الله عنهم ٧٦٩
من كلامه رضي الله عنه ٧٦٩

أبو بكر محمد بن مسلم بن شهاب الزهري رضي الله عنه ٧٧١
مناقبه وثناء العلماء عليه ٧٧١
من كلامه وحِكمه رضي الله عنه ٧٧٢
أقوال أهل العلم في أصح الأسانيد مطلقاً ٧٥٥
محتوى الكتاب ٧٧٩

مجمع الأحباب

وتذكرة أولي الألباب

تأليف

الشيخ الإمام العالم الورع

الشريف محمد بن الحسن بن عبد الله الحسيني الواسطي

رحمه الله تعالى

(٧١٧ - ٧٧٦هـ)

عُني به

محمد ابراهيم الخضر

محمد زكريا قاسم المقداد

محمد مصطفى الخطيب

عبد الله عبد السلام حميدان

الجزء الثاني

دار المنهاج

الطّبعة الثّانية
١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٨م
جميع الحقوق محفوظة للناشر

دار المنهاج للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية ـ جدة ـ حي الكندرة ـ شارع أبها تقاطع شارع ابن زيدون
هاتف رئيسي 6326666 ـ الإدارة 6300655 ـ المكتبة 6322471 ـ فاكس 6320392
ص. ب 22943 ـ جدة 21416

مجمع الأحباب

وتذكرة أولي الألباب

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب

يحوي هذا السِّفر الأثريّ .. سِيَرَ الصَّفوة من الجيل المثاليّ ، ومَنْ ترسَّم خُطاهم .

فهو دستورٌ وضّاءٌ ، تجلّتْ فيه حقائقُ التّنزيل ، وازْدانَ بحقائق المعْرفة ومحاسنِ أولئك العظام الّذين هُدُوا إلى الكَلِم الطّيّب ، ونَسَجُوا رَوائع الحِكَم .. ممّا يَهْدي إلى النّهْج القويم .

وما من مُخلصٍ نَهَلَ من مَعينه .. إلّا وبرقتْ أساريرُ الإيمان في أعماقه ، وسرتْ روح التّوفيق في أوصاله .. وكأنّما خُلِقَ خَلْقاً جديداً .

ومنهم الإمام :

أبو عبد الرحمـٰن طاووس بن كيسان
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : عن ابن شَوْذَب قال : شهدت جنازة طاووس بمكة سنة خمس ومئة ، فجعلوا يقولون : رحم الله أبا عبد الرحمـٰن لقد حج أربعين حجة .

ومات طاووس بمكة ، ولم يصلوا عليه حتىٰ بعث ابن هشام بالحرس ، قال : فلقد رأيت عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي واضعاً السرير علىٰ كاهله ، وسقطت قلنسوة كانت عليه ، ومُزِّق رداؤه من خلفه .

قالوا : وكان طاووس يصلي في غداة باردة معتمة ، فمر به محمد بن يوسف أخو الحجاج أو أيوب بن يحيىٰ وهو ساجد ، فأمر بساج[1] أو طيلسان مرتفع ـ يعني : له قيمة كثيرة ـ فطرحه عليه ، فلم يرفع رأسه حتىٰ فرغ من حاجته ، فلما سلم . . نظر ، فإذا الساج عليه ، فانتفض ، فوقع الساج ولم ينظر إليه ، ومضىٰ إلىٰ منزله .

وعن عطاء ، عن ابن عباس رضي الله عنهم قال : إني لأظن طاووساً من أهل الجنة .

قال طاووس : ما من شيء يتكلم به ابن آدم . . إلا أحصي عليه ، حتىٰ أنينه في مرضه .

وقال رجل لطاووس : ادع الله عز وجل لنا ، قال : ما أجد لقلبي خشية فأدعو لك .

ومر طاووس بروَّاس[2] وقد أخرج رأساً ، فغشي عليه .

زاد في رواية : كان له طريقان إلى المسجد ، طريق في السوق ، وطريق آخر ، فكان يأخذ في هـٰذا يوماً وفي هـٰذا يوماً ، فإذا مر في طريق السوق فرأىٰ تلك الرؤوس المشوية . . لم ينعس ـ أو لم يغف ـ تلك الليلة .

وكان طاووس يجلس في بيته ، فقيل له في ذلك ، فقال : حَيف الأئمة ، وفساد الناس .

---

(١) **الساج** : الطيلسان الأخضر .

(٢) **الرَّواس** : بائع الرؤوس المطبوخة .

وقال : لما خلقت النار . . طارت أفئدة الملائكة ، فلما خلق آدم . . سكنت .

وقال مجاهد لطاووس : رأيتك تصلي في الكعبة ، والنبي صلى الله عليه وسلم علىٰ بابها يقول لك : « اكشف قناعك ، وبيِّن قراءتك » ، فقال : اسكت ، لا يسمعن هـٰذا منك أحد .

وجاء طاووس إلىٰ رجل في السَّحَر ، فقالوا : هو نائم ، قال : ما كنت أرىٰ أن أحداً ينام في السحر .

وقال : لا يتم نسك الشاب حتىٰ يتزوج .

وقال طاووس : حَجُّ الأبرار على الرحال .

وعن عمران بن خالد الخزاعي قال : كنت عند عطاء ، فجاء رجل ، فقال : يا أبا محمد ؛ إن طاووساً قال : من صلى العشاء ثم صلىٰ بعدها ركعتين يقرأ فيهما في الأولىٰ : (الم تنزيل) السجدة ، وفي الثانية : (تبارك الذي بيده الملك) . . كتب له مثل وقوف ليلة القدر ، فقال عطاء : صدق طاووس ، ما تركتها .

وقيل لطاووس : إن منزلك قد استرم[1] ، قال : قد أمسينا .

وكان من دعاء طاووس : اللهم ؛ احرمني كثرة المال والولد ، وارزقني الإيمان والعمل .

وقيل لعبيد الله ابن أبي يزيد : مع من كنت تدخل على ابن عباس ؟ قال : مع عطاء والعامة ، وكان طاووس يدخل مع الخاصة .

وعن حبيب قال : قال لي طاووس : إذا أخبرتك أني أُثبتُ شيئاً . . فلا تسأل عنه أحداً غيري .

وقال طاووس : أدركت خمسين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال ابن طاووس : قلت لأبي : أريد أن أتزوج فلانة ، قال : اذهب فانظر إليها ، فذهبت ، فلبست من صالح ثيابي ، وغسلت رأسي ، وادَّهنت ، فلما رآني في تلك الهيئة . . قال لي : اقعد لا تذهب .

وأقام طاووس رحمه الله لأجل رفيق له يمرضه حتىٰ فاته الحج .

وعن عبد الله بن طاووس قال : كان سيرنا إلىٰ مكة مع أبي شهراً ، فإذا رجعنا . . سار بنا

---

(١) **استرم الحائط** : حان له أن يُرَمَّ ، وذلك إذا بَعُد عهده بالتطيين .

شهرين ، فقلنا له ، فقال : بلغني أن الرجل لا يزال في سبيل الله حتىٰ يأتي بيته .

وكان إذا خرج من اليمن . . لم يشرب إلا من تلك المياه القديمة الجاهلية .

وعاد مريضاً ، فقال له المريض : ادع الله لي ، فقال : ادع لنفسك ؛ فإنه يجيب المضطرَّ إذا دعاه .

وقال أبو عبد الله الشامي : أتيت طاووساً ، فخرج إليَّ ابنه شيخ ، فقلت له : أنت طاووس ؟ فقال : أنا ابنه ، قلت : إذاً إن الشيخ قد خَرِفَ ، فقال : إن العالم لا يَخْرَفُ ، فدخلت ، فقال لي طاووس : سل وأوجز ، قلت : إن أوجزتَ . . أوجزتُ لك ، قال : تريد أن أجمع لك في مجلسي هـٰذا التوراة والإنجيل والزبور والفرقان ، قلت : نعم ، قال : خف الله مخافة لا يكون عندك شيء أخوف منه ، وارجه رجاء هو أشد من خوفك إياه ، وأحب للناس ما تحب لنفسك .

وعن عطاء قال : جاءني طاووس ، فقال لي : يا عطاء ؛ إياك أن ترفع حوائجك إلىٰ من أغلق دونك بابه ، وجعل دونه حجاباً ، وعليك بطلب حوائجك ممن بابه مفتوح لك إلىٰ يوم القيامة ، أمرك أن تدعوه ، ووعدك بالإجابة .

وقال : إن الموتىٰ يفتنون في قبورهم سَبْعاً ، وكانوا يستحبون أن يُطعَم عنهم تلك الأيام .

وقال طاووس : ما تعلمت فتعلمه لنفسك ؛ فإن الأمانة والصدق قد ذهبَا من الناس .

وسأل سالم بن قتيبة طاووساً عن مسألة أو عن شيء ، فانتهره ، فقيل له : هـٰذا سالم بن قتيبة صاحب خراسان ، قال : ذاك أهون له عندي .

وقال طاووس : حلوُ الدنيا مُرُّ الآخرة ، ومُرُّ الدنيا حلوُ الآخرة .

وعن ابن أبي روَّاد قال : رأيت طاووساً وأصحاباً له ، إذا صلوا العصر . . استقبلوا القبلة ، ولم يكلموا أحداً ، وابتهلوا في الدعاء .

وقال طاووس : لم يجهد البلاء من لم يتول اليتامىٰ ، أو يكون قاضياً [بين الناس في أموالهم] ، أو أميراً علىٰ رقابهم .

وحج سليمان بن عبد الملك ، فخرج حاجبه ذات يوم فقال : إن أمير المؤمنين قال : ابعثوا لي فقيهاً أسأله عن بعض المناسك ، فمر طاووس ، قالوا : هـٰذا طاووس اليماني ، فأخذه الحاجب ، فقال : أجب أمير المؤمنين ، فقال له : اعفني ، فأبىٰ ، فأُدخل عليه ، قال طاووس : فلما وقفت عنده . . قلت : إن هـٰذا المجلس يسألني الله عز وجل عنه ،

فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ إن صخرة كانت علىٰ شفير جب في جهنم هوت في الجب سبعين خريفاً حتى استقرت ، أتدري لمن أعدها الله سبحانه وتعالىٰ ؟ قال : لا ، لمن أعدها ؟ قال : لمن أشركه الله عز وجل في حكمه فَجَارَ ، قال : فبكىٰ لها .

وعن الزهري قال : نظر سليمان بن عبد الملك إلىٰ رجل يطوف بالكعبة ، لَهُ جمَال وتمام ، فقال : يابن شهاب . . مَن هـٰذا ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ؛ طاووس اليماني ، وقد أدرك عدة من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، فأرسل إليه سليمان ، فأتاه ، فقال : حدثني ، فقال : حدثني أبو موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أهون الخلق على الله تعالىٰ من ولي من أمر المسلمين شيئاً فلم يعدل فيهم »[1] ، فتغير وجه سليمان ، وأطرق طويلاً ، ثم رفع رأسه ، وقال : حدثنا ، فقال : حدثني علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلىٰ طعام في مجلس من مجالس قريش ، ثم قال : « إن لكم علىٰ قريش حقاً ، ولهم على الناس حق ما استرحموا فرحموا ، واستحكموا فعدلوا ، وائتُمِنوا فأدَّوا ، فمن لم يفعل ذلك . . فعليه لعنة الله ، والملائكة ، والناس أجمعين »[2] ، فتغير وجه سليمان طويلاً ، ثم رفع رأسه ، فقال : حدثنا ، فقال : حدثني ابن عباس رضي الله عنهما : أن آخر آية نزلت : ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

وعن ابن عيينة قال : قال عمر بن عبد العزيز لطاووس : ارفع حاجتك إلىٰ أمير المؤمنين ؛ يعني : سليمان بن عبد الملك ، فقال طاووس : ما لي إليه حاجة .

قال سفيان : حلف لنا إبراهيم بن ميسرة ـ وهو مستقبل الكعبة ـ فقال : ورب هـٰذه البَنِيَّة[3] ؛ ما رأيت أحداً الشريف والوضيع عنده بمنزلة واحدة . . إلا طاووساً .

وقال سفيان : جاء ابن لسليمان بن عبد الملك فجلس إلىٰ جنب طاووس ، فلم يلتفت إليه ، فقيل له : جلس إليك ابن أمير المؤمنين فلم تلتفت إليه ؟! فقال : أردت أن يعلم أن لله عز وجل عباداً يزهدون فيما في يديه .

---

(١) يوافق المعنى العام للحديث ما أخرج مسلم (١٨٢٨) عن عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اللهم ؛ من ولي من أمر أمتي شيئاً فشَقَّ عليهم . . فاشقق عليه ، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم . . فارفق به » .

(٢) أخرج بنحوه ابن حبان (٤٥٨١) .

(٣) البنيَّة : هي الكعبة المشرفة ، ودار الندوة في الحرم ، فكأنه ينظر إليها وهو يقسم بها .

وعن عبد الرزاق ، عن معمر قال : قال عبد الله بن طاووس : كنت لا أزال أقول لأبي : ينبغي لنا أن نخرج علىٰ هـٰذا السلطان ونفعل به ، فخرجنا حجاجاً ، فنزلنا في بعض القرىٰ ، وفيها عامل لمحمد بن يوسف ـ أو أيوب بن يحيىٰ ـ يقال له : ابن نَجيح ، وكان من أخبث عمالهم ، فشهدنا صلاة الصبح في المسجد ؛ فإذا ابن نجيح قد أخبر بطاووس ، فجاء ، فقعد بين يديه ، فسلم عليه ، فلم يجبه ، ثم كلمه ، فأعرض عنه ، ثم عدل إلى الشق الآخر ، فأعرض عنه ، فلما رأيت ما به . . قمت إليه ، فمددت بيده وجعلت أسائله ، وقلت له : إن أبا عبد الرحمـٰن لم يعرفك ، فقال : بلىٰ ، معرفتُه بي أوجبت هـٰذا الفعل ، ثم مضىٰ ـ وأبي ساكت لا يقول شيئاً ـ فلما دخلت المنزل . . التفت إليَّ ، فقال : يا لكع ؛ بينما أنت زعمت أنك تريد أن تخرج عليهم بسيفك . . لم تستطع أن تحبس عنهم لسانك .

أدرك طاووس جماعة من الصحابة ، رضوان الله عليهم .

وروىٰ عنه خلائق من التابعين .

فمن أحاديثه : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل يتهجد . . قال : « اللهم ؛ لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت قيُّوم السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت ملك السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت الحق ، وقولك الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة حق ، ومحمد حق ، والنبيون حق .

اللهم ؛ لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لي ما قدمت ، وما أخرت ، وما أسررت ، وما أعلنت ، أنت المقدم ، وأنت المؤخر ، لا إلـٰه إلا أنت » أو قال : « لا إلـٰه غيرك »[1] شك سفيان ، قال سفيان : وزاد فيه عبد الكريم : « ولا حول ولا قوة إلا بك » .

وعنه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بمنىٰ يقول : « لو يعلم أهل الجمع بمن حلُّوا . . لاستبشروا بالفضل بعد المغفرة »[2] .

وعنه عن ابن عباس رضي الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٥٨) .

(٢) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١١/ ٥٣) .

أخذ على القرآن أجراً . . فقد تعجل حسناته في الدنيا ، والقرآن يخاصمه يوم القيامة »[1] غريب من حديث طاووس . انتهىٰ [« الحلية » ٤/٣ـ٢٠] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال عمرو : ما رأيت أحداً أشد تنزهاً عما في أيدي الناس من طاووس .

وقال يوسف بن أسباط : مر طاووس بنهر قد أكراه السلطان ، فأرادت بغلته أن تشرب منه ، فأبىٰ أن يدعها .

وقال إدريس : صلىٰ وهب بن منبه وطاووس الغداة بوضوء العتمة أربعين سنة .

وقال أبو سليمان : كان طاووس يفترش فراشه ، ثم يضطجع عليه ، ويتقلَّىٰ كما تتقلَّى الحبة ، ثم يثب ، فيدرجه ، ثم يصلي حتى الصباح ، ويقول : طيَّر ذِكرُ جهنم نومَ العابدين .

مات وهو ابن بضع وتسعين سنة ، سنة ست ـ أو خمس ـ ومئة ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ١٧١ـ١٧٣] .

وقال حجة الإسلام الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : فإن قيل : قد كان علماء السلف رضي الله عنهم يدخلون على السلاطين . . فأقول : نعم ، تعلَّم الدخول منهم وادخل ؛ فقد حكي أن هشام بن عبد الملك قدم حاجّاً إلىٰ مكة ، فلما دخلها . . قال : ائتوني برجل من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، فقيل : يا أمير المؤمنين ؛ قد ماتوا ، قال : من التابعين ، قال : فأتي بطاووس اليماني ، فلما دخل عليه . . خلع نعليه بحاشية بساطه ، ولم يسلم بإمرة المؤمنين ، وإنما قال : السلام عليكم ، ولم يُكَنِّهِ ، وجلس بإزائه ، وقال : كيف أنت يا هشام ؟ فغضب هشام غضباً شديداً حتىٰ هَمَّ بقتله ، فقيل له : أنت في حرم الله وحرم رسوله صلى الله عليه وسلم ، فلا يمكن ذلك ، فقال له : يا طاووس ؛ ما الذي حملك علىٰ ما صنعت ؟ قال : وما الذي صنعتُ ؟ فازداد غضباً وغيظاً ، فقال : خلعت نعليك بحاشية بساطي ، ولم تقبِّل يدي ، ولم تسلم بإمرة المؤمنين ، ولم تُكَنِّني ، وجلست

---

(١) لم يخرجه بهٰذا اللفظ سوىٰ أبي نعيم رحمه الله ، ولٰكن أخرج البخاري (٥٤٠٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أحق ما أخذتم عليه أجراً . . كتاب الله تعالىٰ » وذلك في قصة اللديغ الذي رقاه ابن مسعود بفاتحة الكتاب علىٰ قطيع من الغنم ، فبرىء ؛ فأخذها ، وكره منه أصحابه ذلك ، وقالوا له : أخذت أجراً علىٰ كتاب الله ؟! ، حتىٰ قدموا المدينة فقالوا : يا رسول الله ؛ أخذ علىٰ كتاب الله أجراً!! . . . فذكره .

بإزائي بغير إذن ، وقلتَ : كيف أنت يا هشام ؟! فقال : أما ما خلعت نعلي بحاشية بساطك . . فإني أخلعها بين يدي رب العزة جل جلاله في بيته كل يوم خمس مرات ، ولا يعاقبني ولا يغضب عَلَيَّ ، وأما قولك : لم تقبِّل يدي . . [فإني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يقول] : (لا يحل لرجل أن يقبِّل يد أحد إلا لوالد أو زوجة من شهوة[1]) ، وأما قولك : لم تسلم بإمرة المؤمنين . . فليس كل الناس راضين بإمرتك ، فكرهت أن أكذب ، وأما قولك : لم تُكَنِّني . . فإن الله عز وجل سمَّىٰ [أنبياءه و] أولياءه [فقال] : يا داوود ، يا يحيىٰ ، يا عيسىٰ ، وكنَّىٰ أعداءه فقال : ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ وأما قولك : جلست بإزائي بغير إذني . . فإني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يقول : (إذا أردت أن تنظر إلىٰ رجل من أهل النار . . فانظر إلىٰ رجل جالس وحوله قوم قيام) ، فقال له هشام : عظني ، فقال : سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يقول : (إن في جهنم حيات كالقلال[2] وعقارب كالبغال ، تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته) ثم قام ، وهرب .

وقال الغزالي ـ رحمه الله ـ : فهٰذه كانت سيرة العلماء وعادتهم في الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وقلة مبالاتهم بسطوة السلاطين ، لٰكنهم اتكلوا علىٰ فضل الله أن يحرسهم ، ورضوا بحكم الله إن رزقهم الشهادة ، فلما أخلصوا فيه النية . . أثر كلامهم في القلوب القاسية ، فليَّنَها وأزال قساوتها ، وأما الآن . . فقد قيدت الأطماع ألسن العلماء ، فسكتوا ، وإن تكلموا . . لم تساعد أقوالهم أحوالهم ، فلم ينجحوا ، ولو صدقوا الله عز وجل وقصدوا أداء حق العلم . . لأفلحوا ، ففساد الرعايا بفساد الملوك ، وفساد الملوك بفساد العلماء ، وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه ، ومن استولىٰ عليه حب الدنيا . . لم يقدر على الحسبة على الأراذل ، فكيف على الملوك والأكابر ؟! والله المستعان علىٰ كل حال . انتهىٰ [« الإحياء » ٢/١٤٦ـ٣٥٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) في « الإحياء » : (إلا لزوجة من شهوة ، أو لولد من رحمة) .

(٢) **القلال** : جمع قلة ، وهي : قمة الجبل ؛ يشير إلىٰ ضخامة الحيات .

ومنهم الإمام :

محمد بن عبد الرحمـٰن بن المغيرة بن الحارث ابن أبي ذئب رضي الله عنه

قال النووي ـ قدس الله روحه ـ : هو من تابعي التابعين ، سمع نافعاً ، وعكرمة ، وغيرهما .

وروىٰ عنه جماعات من الأئمة الكبار تابعي التابعين ، منهم : معمر ، والثوري ، ووكيع ، ويحيى القطان ، وابن المبارك .

واتفقوا علىٰ إمامته وجلالته .

روىٰ له البخاري ومسلم في « صحيحيهما » .

قال أحمد ابن حنبل : يشبه بسعيد بن المسيب .

قيل لأحمد : هل خلف ببلاده مثله ؟ قال : لا ، ولا بغيرها .

وكان ثقة صدوقاً .

وقال يحيى بن معين : كل من روىٰ عنه ابن أبي ذئب . . ثقة ، إلا أبا جابر البياضي .

ولد محمد بن عبد الرحمـٰن ابن أبي ذئب سنة ثمانين ، وأقدمه المهدي بغداد ، فحدث بها ، ثم رجع يريد المدينة ، فتوفي بالكوفة ، سنة تسع وخمسين ومئة ، وهو ابن تسع وسبعين سنة ، وكان يفتي بالمدينة .

ذكر له الخطيب ترجمة نفيسة[1] ، منها : أنه قال : كان ثقة ، صالحاً ، ورعاً ، آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر .

قال مصعب الزبيري : كان ابن أبي ذئب فقيهَ المدينة .

---

(١) انظر« تاريخ بغداد » (٣/ ٩٧ـ١٠٦) .

وعن محمد بن القاسم قال : لما حج المهدي . . دخل مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يبق أحد إلا قام له . . إلا ابن أبي ذئب ، فقال له المسيب بن زهير : قم ، هـٰذا أمير المؤمنين ، فقال : إنما يقوم الناس لرب العالمين ، فقال المهدي : دعه ؛ فلقد قامت كل شعرة في رأسي عند رؤيته .

وعن أبي نعيم قال : حججت سنة حج أبو جعفر وأنا ابن إحدىٰ وعشرين سنة ، ومعه ابنُ أبي ذئب ومالك بن أنس ، فدعا ابن أبي ذئب ، فأقعده معه في دار الندوة ، ثم قال له : ما تقول في الحسن بن زيد بن الحسن ابن فاطمة ؟ فقال : إنه ليتحرى العدل ، فقال : ما تقول فيَّ ؟ ـ مرتين أو ثلاثاً ـ فقال : ورب هـٰذه البَنِيَّة ؛ إنك لجائر ، فأخذ الربيع بلحيته ، فقال أبو جعفر : كف يابن اللخناء[1] ، وأمر له بثلاث مئة دينار .

وكان يصلي الليل أجمع ، ويصوم يوماً ويفطر يوماً ، ثم سرد الصوم .

وكان مجتهداً في العبادة ، ولو قيل له : إن القيامة تقوم غداً . . ما كان فيه مزيد اجتهاد .

وكان يقول الحقَّ ، آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر على الخلفاء وغيرهم ، لا تأخذه في الله عز وجل لومة لائم ، وتميز علىٰ علماء عصره في ذلك ، رضي الله عنه . انتهىٰ [« التهذيب » ١/٨٦ـ٨٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) **اللَّخَنُ** : نتن الريح عامة ، وقيل : قبح ريح الفرج ، ورجل ألْخَن وأمة لَخْناء : لم يختنا ، ومن شتم العرب يابن اللخناء كأنهم يقولون يا دني الأصل أو يا لئيم الأم .

ومنهم الإمام :

أبو بكر أيوب السّخْتِياني
رضي الله عنه

قال ابن سعد ـ رحمه الله تعالىٰ ـ في « الطبقات » : أيوب ابن أبي تميمة السختياني ، يكنىٰ : أبا بكر ، مولىٰ لعنزة ، واسم أبي تميمة : كيسان .

وكان أيوب ثقة ، ثبْتاً في الحديث ، جامعاً ، عدلاً ، ورعاً ، كثير العلم .

قال حماد بن زيد : ولد أيوب قبل الجارف بسنة ، وكان الجارف سنة سبع وثمانين .

وعن حماد بن زيد قال : حدثنا ميمون قال : كنا عند الحسن وعنده أيوب ، فسأله عن شيء ، ثم قام ، فأتبعه الحسن بصره ، حتىٰ إذا كان لا يسمع أيوب . . قال : هـٰذا سيد الفتيان .

وعن محمد بن سيرين : أنه حدث يوماً حديثاً ، فقالوا : عمن هـٰذا يا أبا بكر ؟ قال : حدثنيه أيوب السختياني ، فعليك به .

وعن حماد بن زيد ، عن أيوب قال : لما قرأ محمد بن سيرين وصيته . . فذهبت أتنحىٰ ، قال : ادنه ، فليس دونك سر .

وقال حماد : ما رأيت أحداً أكثر من قول (لا أدري) من أيوب ويونس ، وأما ابن عون . . فكان شيئاً عجيباً .

وقال حماد : كان الرجل إذا سأل أيوب عن شيء . . استعاده ، فإن أعاد عليه مثل ما قال أولاً . . أجابه ، وإن خلط عليه . . لم يجبه .

وكان أيوب إذا سئل عن الشيء ليس عنده فيه شيء . . قال : سل أهل العلم .

وقال أيوب : ومن يَسْلَمْ ؟ يعني : من آفة العلم ، إن الرجل ليحدث بالحديث ، فيرىٰ أنه قد وقع من القوم موقعاً ، فيخالط قلبه من ذلك شيء .

وسئل أيوب عن شيء ، فقال : لم يبلغني فيه شيء ، فقال : قل فيه برأيك ، فقال : لم يبلغه رأي .

وقال حماد بن زيد : فقهاؤنا : أيوب ، وابن عون .

وقال حماد بن سلمة : كان أيوب يوفر شعره من السنة إلى السنة .

وفي رواية أخرىٰ : فكان ربما طال ، فيصنع به هـٰكذا كأنه يفرقه .

وقال أيوب : **إن قوماً يريدون أن يرتفعوا ، فيأبى الله إلا أن يضعهم ، وآخرين يريدون أن يتواضعوا ، ويأبى الله إلا أن يرفعهم** .

وقال حماد بن زيد : وكان أيوب يأخذ بي في طريق بَعُدَ ، فأقول : هـٰذا أقرب ، فيقول : هـٰذا أتقىٰ ، أو كما قال .

قال حماد : وكان أيوب إذا سلم . . يردون عليه سلاماً فوق ما يردون علىٰ غيره ، فيقول : اللهم ؛ إنك تعلم أني لا أريده ، اللهم ؛ إنك تعلم أني لا أريده .

قال حماد بن زيد : وكان النساك يومئذ يشمرون ثيابهم ـ يعني : قمصهم ـ وكان أيوب يجر قميصه .

قال : وقال عبد الرزاق : رأيت علىٰ أيوب قميصاً يجره ، فقلت له فيه ، فقال : يا أبا عروة ؛ كانت الشهرة فيما مضىٰ في تذييلها ، فالشهرة اليوم في تشميرها .

وقال حماد بن زيد : تلقاني أيوب وأنا أذهب إلى السوق وهو في جنازة ، فرجعت معه ، فقال : اذهب إلىٰ سوقك .

وقال الربيع بن مسلم : سافرنا مع أيوب السختياني ، فلما كنا بالأبطح ؛ إذا رجل عليه ثياب غلاظ من القطن ، قال : فجعل يتتبع رجال البصريين ، ويقول : ألكم علم بأيوب ابن أبي تميمة ؟ قال : فقلت لأيوب : هـٰذا رجل يريدك ، فلما رآه . . أسرع إليه ، فتعانقا ، قال : فسألت عن الرجل ، فقالوا : هـٰذا سالم بن عبد الله بن عمر رضي الله عنهم .

وقال حماد بن زيد : ما رأيت أحداً أعظم رجاء لأهل القبلة من أيوب وابن عون .

وقال حماد : ما رأيت أحداً أشد تبسماً في وجوه الرجال من أيوب إذا لقيهم ، وهارون بن رئاب كان شيئاً عجيباً .

وقال حماد : قال أيوب : لأَن يستر الرجل زهده . . خير له من أن يظهره .

وقال حماد بن زيد : كنت أمشي مع أيوب ، فيأخذ في طريق إني لأعجب له كيف يهتدي لها ؛ فراراً من الناس أن يقال : هـٰذا أيوب .

وقال ابن عون : لما مات محمد . . قلنا : مَن لنا ؟ فقلنا : لنا أيوب .

وقال شعبة : قال أيوب : ذُكِرت وما أحب أن أُذكر .

قال : وربما ذهب في الحاجة ، فأريد أن أمشي معه ولا يدعني ، فيأخذ هـٰهنا وهـٰهنا ؛ كي لا يُفطَنَ به .

وقال حماد بن زيد : قال أيوب : ما علىٰ ظهر الأرض رجل أحب إلي من بكر ـ يعني : ابنه ـ ولأَن أدفنه . . أحب إلي من أن يأتيني هشام أو بعض الخلفاء .

وقال حماد بن زيد : حدثني بعض جيران أيوب ، أن قصاع أيوب كانت تختلف في جيرانه يوم الفطر قبل أن يَغدُوَ إلى المصلىٰ .

وقال حماد : قال لي أيوب : اشتر لي إما قبطية[1] وإما كساء أعلف عليها الناقة ـ حين أراد الخروج إلىٰ مكة ـ قال : فلما قدم . . رأيتها عليه تحت قميصه ، ففطن ، فقال : لو خَفِيَتْ . . لسرني ألاَّ ألزمها .

وقال حماد بن زيد : كان لأيوب بُرْد أحمر ، وكان يلبسه إذا أحرم ، وكان يعده للكفن ، وكان إذا كان ليلة ثلاثٍ وعشرين وأربع وعشرين من رمضان . . لبسه ، فقالت امرأته : خرج أيوب الليلة في ثوب معصفر ، قال حماد : فسُرقت عيبته[2] وذلك البرد فيها ، فذهب .

وقال إسماعيل بن إبراهيم : قال أيوب : إن أبا قلابة أوصىٰ لي بكتبه ، فلما حملت إلي من الشام . . أَعطيت كراها بضعة عشر درهماً .

وقال حماد بن زيد : كان أيوب ربما حمَّر[3] رأسه ولحيته .

وقال حماد بن زيد : أنا زررت علىٰ أيوب ، يعني : القميص الذي كفن فيه .

قال : وأجمعوا علىٰ أن أيوب مات في الطاعون بالبصرة ، سنة إحدىٰ وثلاثين ومئة ، وهو ابن ثلاث وستين ، رحمه الله .

---

(١) **القبطية** : ثوب من كتان أبيض رقيق كان ينسج في مصر منسوب إلى القبط .
(٢) **العيبة** : وعاء يجعل فيه المتاع .
(٣) في بعض النسخ : (خمَّرَ) .

وقال حماد بن زيد : قدم علينا البصرة حماد ابن أبي سليمان ، فلم يأته أيوب ، فلم نأته ، وكان إذا لم يأت أيوب أحداً . . لم نأته .

قال : وقدم علينا ليث ابن أبي سليم ، فأتاه أيوب ، فأتيناه . انتهىٰ [٧/ ٢٤٦ـ٢٥١ و٢٨٦] .

وقال الحافظ أبو الحجاج جمال الدين يوسف بن الزكي عبد الرحمـٰن بن يوسف المزي رحمه الله في كتابه « تهذيب الكمال » : رأىٰ أيوب السختياني رحمه الله أنس بن مالك رضي الله عنه .

وروىٰ عن إبراهيم بن مرة ، وإبراهيم بن ميسرة الطائفي ، وأبي الشعثاء جابر بن زيد الأزدي ، والحسن البصري ، وحميد بن هلال العدوي ، وخالد بن دُرَيْك ، وذكوان ابن أبي صالح السمان ، وزيد بن أسلم ، وسالم بن عبد الله بن عمر ، وسعيد بن جبير ، وسعيد بن ميناء ، وأبي الخليل صالح ابن أبي مريم ، وأبي الوليد عبد الله بن الحارث البصري ، وأبي قلابة عبد الله بن زيد الجرمي ، وعبد الله بن سعيد بن جبير ، وعبد الله بن شقيق ، وعبد الله بن عبيد ابن أبي مليكة ، وعبد الله بن كثير القارىء ، وعبد الرحمـٰن بن القاسم ، وعبد الرحمـٰن بن هرمز الأعرج ، وعبد الكريم بن مالك الجزري ، وعدي بن عدي الكندي ، وعطاء ابن أبي رباح ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وعمرو بن دينار ، والقاسم بن محمد ابن أبي بكر الصديق ، وقتادة بن دعامة ، ومجاهد بن جبر ، ومحمد بن سيرين ، والزهري ، وهشام بن عروة ، ووهب بن كيسان ، وأبي حيان يحيى بن سعيد بن حيان التيمي ، ويحيى بن عروة بن الزبير ، وحفصة بنت سيرين ، ومعاذة العدوية ، وخلائق لا يحصون كثرة .

وروىٰ عنه إبراهيم بن طهمان ، وإسماعيل ابن علية ، وحماد بن زيد ، وحماد بن سلمة ، وحميدٌ الطويل ـ وهو من أقرانه ـ وسفيان الثوري ، وسفيان بن عيينة ، وسفيان بن موسىٰ ، وسليمان الأعمش ـ وهو من أقرانه ـ وشعبة بن الحجاج ، وعبد الله بن عون ، وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج ، وعمرو بن دينار ، وقتادة ـ وهُما من شيوخه ـ ومعمر بن راشد ، وهشام الدَّسْتُوائي ، وجماعات .

قال البخاري : عن علي بن المديني : له نحو ثمان مئة حديث .

وقال بشر بن آدم : سمعت إسماعيل ابن علية يقول : كنا نقول : حديث أيوب ألفَا حديث ، فما أقل ما ذهب عليَّ منها .

وقال وهيب بن خالد : عن الجعد أبي عثمان : سمعت الحسن يقول : أيوب سيد شباب أهل البصرة .

وقال أبو الوليد : عن شعبة : حدثني أيوب ، وكان سيد الفقهاء .

وقال أبو داوود : عن شعبة : ما رأيت مثل أيوب ، ويونس بن عبيد ، وابن عون .

وعن حماد بن زيد : كان أيوب عندي أفضل من جالسته ، وأشده اتباعاً للسنة .

وقال أبو بكر الحميدي : لقي ابن عيينة ستة وثمانين من التابعين ، وكان يقول : ما لقيت فيهم مثل أيوب .

وقال مُعَلَّى بن منصور : سألت إبراهيم[1] ابن علية عن حفاظ البصرة ، فذكر أيوب ، وابن عون ، وسليمان التيمي ، وهشاماً الدستوائي ، وسليمان بن المغيرة .

وقال عثمان بن سعيد الدارمي : قلت ليحيى بن معين : [أيوب] أحب إليك عن نافع ، أو عبيد الله ؟ قال : كلاهما ، ولم يفضِّل .

وقال أبو بكر ابن أبي خيثمة : عن يحيى بن معين : أيوب ثقة ، وهو أثبت من ابن عون ، وإذا اختلف أيوب وابن عون . . فأيوب أثبت منه .

وقال أبو حاتم : سئل ابن المديني ، مَن أثبت أصحاب نافع ؟ قال : أيوب وفضلُه ، ومالكٌ وإتقانُه ، وعبيد الله وحفظُه .

وقال محمد بن أحمد بن البراء : عن علي بن المديني : وليس في القوم ـ يعني : هشام بن حسان ، وسلمة بن علقمة ، وعاصماً الأحولَ ، وخالداً الحذَّاءَ ـ مثل أيوب ، وابن عون ، وأيوب أثبت في ابن سيرين من خالد الحذاء .

وقال محمد بن سعد : كان ثقة ، ثبْتاً في الحديث ، جامعاً ، كثير العلم ، حجة ، عدلاً .

وقال أبو حاتم : هو أحب إلي في كل شيء من خالد الحذَّاء ، وهو ثقة لا يُسأل عن مثله ، وهو أكبر من سليمان التيمي . انتهىٰ [٣/ ٤٥٧ـ٤٦٣] .

---

(١) كذا في ما لدينا من النسخ ، وفي « التهذيب » : (إسماعيل ابن علية) ، ولعله الصواب ؛ لأن اسمه إسماعيل بن إبراهيم ، ويلقب بابن علية . .

وقال حماد بن زيد : غدا عليَّ ميمون أبو حمزة يوم الجمعة قبل الصلاة فقال : إني رأيت البارحة أبا بكر وعمر رضي الله عنهما في النوم ، فقلت : ما جاء بكما ؟ قالوا : جئنا نصلي علىٰ أيوب السختياني ، قال : ولم يكن عَلِم بموته ، فقلت له : قد مات أيوب البارحة[1] ، رضي الله عنهم أجمعين .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) انظر « الحلية » (٣/ ٥) و« سير أعلام النبلاء » (٦/ ٢٣) .

ومنهم الإمام :

أبو عبد الله وَهْبُ بن مُنَبِّه
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : كان وهب بن منبه يقول في موعظة له : يا بن آدم ؛ إنه لا قوي أقوىٰ من الخالق جل جلاله ، ولا ضعيف أضعف من المخلوق ، ولا أقدر ممن طَلِبَتُه في يده سبحانه وتعالىٰ ، ولا أضعف ممن هو في يد طالبه .

وقال ابن منبه لعطاء : قرأت نيفاً وتسعين كتاباً من كتب الله عز وجل ، منها سبعون أو نيف وسبعون ظاهرة في الكنائس ، ومنها عشرون لا يعلمها إلا قليل من الناس ، فوجدت فيها كلها : أن من وكَّل إلىٰ نفسه شيئاً من المشيئة . . فقد كفر .

وقال : لا يشك ابن آدم أن الله عز وجل قسم الأرزاق متفاضلة ، فلتكن رغبتك إلى الله سبحانه وتعالىٰ .

واعلم : أن الله تعالىٰ هو الذي خلق ذلك وقدره ، أَوَلا يعتبر ابن آدم في غير ذلك مما يتفاضل فيه الناس من الأجسام ، والألوان ، والعقول ، والأحلام ؟! فإن الذي فضله عليه في ذلك . . هو الذي فضله عليه في رزقه ، أَوَلا يعلم أن الذي رزقه في ثلاثة أوان من عمره لم يكن له في واحدة منهن كسب ولا حيلة . . أنه هو الذي يرزقه في الزمن الرابع ، أولُ زمانٍ من أزمانه يوم كان في رحم أمه ، يُخلَق فيه ويُرزَق في قرار مكين ، لا يؤذيه فيه حر ولا برد ، ولا شيء أهمه ، ثم يحوله من ذلك الموضع إلىٰ غيره ، ويحدث له في الزمن الثاني رزقاً من أمه يكفيه ويغنيه من غير حول ولا قوة ، ثم يفطمه من ذلك اللبن ويحوله في الزمن الثالث في رزق يحدثه له من كسب أبويه ، يجعل له الرحمة في قلوبهما حتىٰ يؤثرانه علىٰ أنفسهما حتىٰ يعقل ، ويحدث نفسه أن له حيلة ومكسباً ، ومعلوم أنه لا يغنيه في الزمان الرابع . . إلا الذي أوجده وأغناه في الأزمان الثلاثة ، وهو الله سبحانه وتعالىٰ .

وقال عطاء الخراساني : قلت لابن منبه : حدثني حديثاً أحفظه عنك ، وأَوجِزْ ، فقال : أوحى الله عز وجل إلىٰ داوود عليه الصلاة والسلام : (يا داوود ؛ أما وعزتي وعظمتي ؛

لا ينتصر بي عبد من عبادي دون خلقي ـ أعلم ذلك من نيته ـ فتكيده السماوات السبع ومن فيهن ، والأرضون السبع ومن فيهن . . إلا جعلت له فرجاً ومخرجاً ، أما وعزتي وعظمتي ؛ لا يعتصم عبد من عبادي بمخلوق دوني ، أعلم ذلك من نيته . . إلا قطعت أسباب السماوات من يده ، وأسخت الأرض من تحته ، ولا أبالي في أي واد هلك) .

وقال ابن منبه : يقول الله عز وجل : (كفىٰ بي للعبد مآلاً ، إذا كان عبدي في طاعتي . . أعطيته قبل أن يسألني ، وأستجيب له قبل أن يدعوني ؛ فإني أعلم بحاجته من نفسه) .

وقال : قرأت أحداً وسبعين كتاباً ، فوجدت في جميعها : أن الله عز وجل لم يعط جميع الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها من العقل في جنب عقل محمد صلى الله عليه وسلم إلا كحبة رمل من بين جميع رمال الدنيا ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم أرجحُ الناس عقلاً ، وأفضلُهم رأياً .

وقال ابن منبه : لإزالةُ الجبلِ صخرةً صخرةً وحجراً حجراً . . أيسرُ على الشيطان من مكايدة المؤمن العاقل ذي البصيرة ، وهو أثقل على الشيطان من الجبال ، وأصعب من الحديد ، وإنه ليزاوله بكل حيلة ، فإذا لم يقدر عليه . . قال : يا ويله! ما له[1] ولهـٰذا ، لا حاجة لي بهـٰذا ، فيرفضه ويتحول إلى الجاهل ، فيستأسره ، ويستمكن من قياده ، حتىٰ يسلمه إلى الفضائح التي يحصل عاجلها في الدنيا وآجلها في الآخرة ، وإن الرجلين ليستويان في أعمال البر ، ويكون بينهما كما بين المشرق والمغرب أو أبعد ؛ إذا كان أحدهما أعقل من الآخر .

وقال : يقول الله عز وجل : (ابن آدم ؛ ما قمت لي بما يجب لي عليك ، تذكرني وتنساني ، وتدعوني وتفر مني ، خيري إليك نازل ، وشرُّك إليَّ صاعد ، لا يزال ملك كريم قد أنزلته إليك من أجلك ويصعد إلي بقبيح عملك ، أحبُّ ما يكون مني إذا رضيتَ بما قسمت لك ، وأبغض ما يكون إلي إذا سخطت ما قسمت لك ، أطعني فيما أمرتك ، ولا تعلمني بما يصلحك ، إني عالم بخلقي) جل الله العظيم الديان سبحانه وتعالىٰ .

وروى ابن منبه : أنه لقي راهباً ، فقال له الراهب : إنك إن ضحكت وأنت معترف بخطيئتك . . خير لك من أن تبكي وأنت مُدِلٌّ بعملك ؛ فإن المُدِلَّ لا يُرفع له عمل ، وازهد في الدنيا ، ولا تنازع أهلها فيها ، وكن فيها كالنحلة ، إن أكلَتْ . . أكلَتْ طيباً ، وإن

---

(١) كذا في « الحلية » ، ولعل الصواب : (ما لي ولهـٰذا) ، والله أعلم .

وضعَتْ.. وضعَتْ طيباً ، وانصح لله عز وجل نصح الكلب لأهل يجيعونه ويطردونه ويضربونه ، ويأبىٰ إلا أن ينصح لهم .

وكان وهب إذا ذكر هـٰذا.. يقول : واسوأتاه إذا كان الكلب أنصح لأهله منك!

وقال وهب : لما أُهبط آدم عليه الصلاة والسلام إلى الأرض.. استوحش لفَقْدِ أصوات الملائكة عليهم الصلاة والسلام ، فهبط عليه جبريل ، فقال : ألا أعلمك شيئاً تنتفع به ؟ قل : اللهم ؛ تمم النعمة علي حتىٰ تهنئني المعيشة ، اللهم ؛ اختم لي بخير حتىٰ لا تضرني ذنوبي ، اللهم ؛ اكفني مؤونة الدنيا ، وكل هول في القيامة حتىٰ تدخلني الجنة في عافية .

وقال وهب لعطاء الخراساني : كان العلماء قبلنا قد استغنوا بعلمهم عن دنيا غيرهم ، فكانوا لا يلتفتون إلىٰ دنيا غيرهم ، وكان أهل الدنيا يبذلون لهم دنياهم رغبة في علمهم ، فلا يقبَلونها ، فأصبح أهل العلم فينا اليوم يبذلون لأهل الدنيا علمهم رغبة في دنياهم ، فزهد أهل الدنيا في علمهم ؛ لما رأوا من صنيعهم ، فإياك وأبواب السلطان ؛ فإن عند أبوابهم فتناً كمَبَارِكِ الإبل ، لا تصيب من دنياهم شيئاً.. إلا أصابوا من دينك مثله ، ثم قال : يا عطاء ؛ إن كان يكفيك ما يغنيك.. فكلُّ عيشك يكفيك ، وإن كان لا يغنيك ما يكفيك.. فليس شيء يكفيك ، إنما بطنك بحر من البحور ، أو واد من الأودية ، لا يشبعه إلا التراب .

وقال : مرَّتْ بنوح عليه الصلاة والسلام خمس مئة سنة ، لم يقرب النساء ؛ وجلاً من الموت .

وقال : مكث داوود عليه الصلاة والسلام بعدما أذنب مدة حياته لا يشرب ماء.. إلا مزجه بدموعه ، ولا يأكل طعاماً.. إلا مزجه بدموعه ، ولا يضطجع علىٰ فراش.. إلا عراه بدموعه[1] ، حتىٰ كان لا يدفئه لحافه .

وقال وهب : ما عُبِدَ اللهُ عز وجل بشيء أفضل من العقل ، وما يتم عقل امرئٍ حتىٰ يكون فيه عشر خصال :

حتىٰ يكون الكِبر منه مفقوداً ، والرشد فيه موجوداً ، راضياً من الدنيا بالقوت والفاضل يبذله محباً لذلك ، الذل أحب إليه من الشرف ، والفقر أحب إليه من الغنىٰ ، لا يسأم من طلب العلم دهره ، ولا يتبرم مِنْ طلب الخير ، يستكثر قليل المعروف من غيره ، ويستقل

---

(١) عراه : أصابه .

كثير المعروف من نفسه ، **والعاشرة** هي ملاك أمره : أن يرىٰ جميع الناس من المسلمين خيراً منه وأفضل .

وقال : من خصال المنافق : أن يحب الحمد ويكره الذم .

وقال : أوحى الله عز وجل إلىٰ داوود عليه الصلاة والسلام : (يا داوود ؛ هل تدري من أَغْفِر له ذنوبه من عبادي ؟ قال : أنت أعلم يا رب ، مَن هو ؟ قال : الذي إذا ذكر ذنوبه . . ارتعدت فرائصه من خوفي ، فذلك الذي آمر ملائكتي أن تمحي عنه ذنوبه) .

وقال وهب : أَعْوَن الأخلاق على الدين . . الزهادة في الدنيا ، وأسرعها ردىً[1] . . اتِّباع الهوىٰ ، ومِن اتباع الهوىٰ : حب المال والشرف ، ومِن حب المال والشرف تنتهك المحارم ، ومِن انتهاك المحارم يغضب الله عز وجل ، وغضب الله عز وجل لا يقوم له شيء ، وليس له دواء .

وقال وهب رحمه الله : يقول الله عز وجل : (إني إذا أُطعت . . رضيت ، وإذا رضيت . . باركت ، وليس لبركتي نهاية ، وإذا عُصيت . . غضبت ، وإذا غضبت . . لعنت ، وإن اللعنة مني تبلغ السابع من الولد) .

وقال وهب : كان في بني إسرائيل رجل عصى الله عز وجل مئتي سنة ، ثم مات ، فأخذوا برجله ، وألقوه علىٰ مزبلة ، فأوحى الله عز وجل إلىٰ موسىٰ عليه الصلاة والسلام : (أن اخرج ، فصلِّ عليه) ، فقال : يا رب ؛ بنو إسرائيل شهدوا أنه عصاك مئتي سنة ، فأوحى الله عز وجل إليه : (هٰكذا كان ، إلا أنه كان كلما نشر التوراة ونظر إلى اسم محمد . . قبَّله ، ووضعه علىٰ عينيه ، وصلىٰ عليه ، فشكرت له ذلك ، وغفرت له ذنوبه ، وزوجته سبعين حوراء) .

وقال : قال موسىٰ عليه الصلاة والسلام : يا رب ؛ احبس عني كلام الناس ، فقال الله عز وجل : (لو فعلت هٰذا بأحد . . لجعلت ذلك لي) .

وعن وهب قال : لما دعي يوسف عليه الصلاة والسلام إلى المَلِك . . وقف بالباب وقال : حسبي ديني من دنياي ، وحسبي ربي عز وجل من خلقه ، عز جاره ، وجل ثناؤه ، ولا إلٰه غيره ، ثم دخل ، فلما أن نظر المَلِك إليه . . نزل عن سريره ، وخر له ساجداً ، ثم أقعده على السرير معه ، فقال : إنك اليوم لدينا مكين أمين ، فقال : اجعلني علىٰ خزائن

---

(١) رَدَىً : سقوطاً وهلاكاً .

الأرض إني حفيظ عليم ، حفيظ بهـٰذه السنين وما استودعتني عليه ، عليم بلغة من يأتيني .

وسئل وهب عن رجلين : أحدهما أطول قنوتاً وصمْتاً ، والآخر أطول سجوداً ، أيهما أفضل ؟ قال : أنصحهما لله عز وجل .

وقال وهب : قال موسىٰ عليه الصلاة والسلام : إلـٰهي ؛ ما جزاء من ذكرك بلسانه وقلبه ؟ قال : يا موسىٰ ؛ أظله يوم القيامة بظل عرشي ، وأجعله في كنفي ، قال : يا رب ؛ أي عبادك أشقىٰ ؟ قال : من لا تنفعه موعظة ، ولا يذكرني إذا خلا .

وقال وهب بن منبه في المسجد الحرام : وجدت في آخر زبور داوود عليه الصلاة والسلام ثلاثين سطراً :

يا داوود ؛ اسمع مني والحقَّ أقول : من لقيني وهو يحبني . . أدخلته جنتي .

يا داوود ؛ اسمع مني والحقَّ أقول : من لقيني وهو يخاف عذابي . . لم أعذبه .

يا داوود ؛ اسمع مني والحقَّ أقول : من لقيني وهو مستحي من معاصيه . . أنسيت حافظيه ذنوبه ، ولم أسأله عنها .

يا داوود ؛ اسمع مني والحقَّ أقول : لو أن عبداً من عبادي عمل حشو الدنيا ذنوباً ، مشارقها ومغاربها ، ثم ندم حَلْبَ شاة ، واستغفرني مرة واحدة ، فعلمت ذلك من قلبه ألاَّ يعود إليها . . ألقيتها عنه أسرع من هبوط المطر من السماء إلى الأرض .

يا داوود ؛ اسمع مني والحقَّ أقول : لو أن عبداً أتاني بحسنة واحدة . . حكمته في جنتي .

قال داوود : من أجل ذلك لا يحل لمن عرفك أن يقطع رجاءه منك ؟ قال : يا داوود ؛ إنما يكفي أوليائي اليسير من العمل ، كما يكفي الطعام من الملح .

يا داوود ؛ هل تدري متىٰ أتولاهم ؟ إذا طهروا قلوبهم من الشرك ، ونزعوا قلوبهم من الشك ، وعلموا أن لي جنة وناراً ، وأني أحيي وأميت ، وأبعث من في القبور ، وأني لم أتخذ صاحبة ولا ولداً ، فإن توفيتهم بيسير من العمل وهم موقنون بذلك . . جعلته عظيماً عندي .

هل تدري يا داوود من أسرع مَرّاً على الصراط ؟ الذين يرضون بحكمي ، وألسنتهم رطبة من ذِكري .

يا داوود ؛ أعظم المؤمنين منزلة عندي . . الراضي الذي هو بما لم يُعطَ أشد فرحاً بما أعطي .

يا داوود ؛ أفضل الفقراء عندي . . الذين يرضون بحكمي وقسمتي ، ويحمدوني علىٰ كل حال ، وأحب المؤمنين إلي أن أطيل حياته الذي إذا قال : لا إلـه إلا الله . . اقشعر جلده ؛ فإني أكره له الموت ، ولا بد له منه ؛ لأني أريد أن أسره في دارٍ نعيمُها لا يفنىٰ .

يا داوود ؛ إني أثيب المؤمن علىٰ عثرة يعثرها ، فكيف إذا ذاق الموت ، وهو من أعظم المصائب ، ويبقىٰ جسده بين أطباق الثرىٰ ؟! إنما أحبسه طول ما أحبسه ؛ لأُعظِمَ له الأجر ، وأجري عليه أحسن ما كان يعمله إلىٰ يوم القيامة .

قال داوود : إلـهي ؛ لك الحمد ، من أجل ذلك سميت نفسك أرحم الراحمين ، إلـهي ؛ فما جزاء من يعزي الحزين على المصائب ابتغاء مرضاتك ؟ قال : جزاؤه أن ألبسه رداء الإيمان ، ثم لا أنزعه عنه أبداً .

قال : إلـهي ؛ فما جزاء من شيع الجنازة ابتغاء مرضاتك ؟ قال : جزاؤه أن تشيعه ملائكتي يوم يموت ، وأصلي علىٰ روحه في الأرواح .

قال : إلـهي ؛ فما جزاء من سدد الأرملة واليتيم ابتغاء مرضاتك ؟ قال : جزاؤه أن أظله في ظل عرشي يوم لا ظل إلا ظلي .

قال : إلـهي ؛ فما جزاء من يبكي من خشيتك حتىٰ تسيل دموعه علىٰ وجنتيه ؟ قال : جزاؤه أن أحرم وجهه على النار .

وقال وهب رحمه الله : كان رجل من أفضل أهل زمانه يزار فيعظهم ، فاجتمعوا إليه ذات يوم ، فقال في موعظته : إنا قد خرجنا من الدنيا ، وفارقنا الأهل والأموال مخافة الطغيان ، وقد خفت أن يكون قد دخل علينا في حالنا هـٰذه من الطغيان أكثر مما يدخل علىٰ أهل الأموال في أموالهم ؛ فإن أحدنا يحب أن تُقضىٰ له حاجته ، وإن اشترىٰ شيئاً . . يُقارب لمكان دِينه ، وإن لُقي . . حُيي ووُقِّر لمكان دِينه .

فشاع هـٰذا الكلام حتىٰ بلغ المَلك . . فعجب به ، ثم ركب المِلك ليسلم عليه وينظر إليه ، فأسرعت البشرىٰ إلى الراهب بذلك ، فلما كان اليوم الذي ظن أنه يأتيه فيه . . خرج ذلك العابد إلىٰ متضحّىٰ له قدام مصلاه ، وأخرج بمنسف فيه بقل وزيت وحمص ، فوضعه قريباً منه ، فلما رأى المَلِك مقبلاً ومعه سواد من الناس قد أحاطوا به بحيث لا يُرىٰ سهل

ولا جبل إلا قد مُلِيءَ من الناس.. أخذ العابد يجمع من تلك البقول والطعام ، ويعظم اللقمة ، ويغمسها في الزيت ، ويأكل أكلاً عنيفاً ، وهو واضع رأسه لا ينظر إلىٰ من أتاه ، وكان يصوم النهار ولا يفطر ، فقال المِلك : أين صاحبكم ؟ قالوا : هو هـٰذا ، قال المِلك : كيف أنت يا فلان ؟ فقال العابد وهو يأكل ذلك الأكل : كالناس ، فرد الملك عنان دابته ، وقال : ما في هـٰذا من خير ، فلما ذهب.. قال الراهب : الحمد لله الذي أذهبه عني وهو لي لائم .

زاد في رواية أخرىٰ : أنه قال : الحمد لله الذي صرفك عني بما صرفك به .

وقال وهب بن منبه : إن أزهد الناس في الدنيا وإن كان مكباً عليها حريصاً : من لم يرض منها إلا بالكسب الحلال الطيب .

وإن أرغب الناس فيها وإن كان عنها معرضاً : من لم يبال من أين كان كسبه فيها حلالاً أو حراماً .

وإن أجود الناس في الدنيا : من جاد بحقوق الله تعالىٰ وإن رآه الناس بخيلاً فيما سوىٰ ذلك ، وإن أبخل الناس في الدنيا : من بخل بحقوق الله عز وجل وإن رآه الناس جواداً فيما سوىٰ ذلك .

وقال : إن موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام لم يقرب النساء منذ كلمه الله عز وجل ، وإن الله عز وجل كلمه في ألف مقام ، وكان إذا كلمه.. رئي النور علىٰ وجهه ثلاثة أيام .

وقال : إن للنبوة أثقالاً ومؤونة لا يحملها إلا القوي ، وإن يونس بن متَّىٰ كان عبداً صالحاً ، وكان في خلقه ضِيق ، فلما حملت عليه النبوة.. تفسخ تحتها ، فرفضها من يده ، وخرج هارباً ، فقال الله عز وجل لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾ .

وقال : مثل الدنيا والآخرة مثل ضرتين ؛ إن أرضيتَ إحداهما.. أسخطت الأخرىٰ .

وقال : **إن أعظم الذنوب عند الله سبحانه وتعالىٰ بعد الشرك بالله.. السخرية بالناس** .

وقال : إذا صام الإنسان.. زاغ بصره ، فإذا أفطر علىٰ حلاوة.. عاد بصره .

وقال : كان عابد جاءه الشيطان من قبل الشهوة والرغبة والغضب ، فلم يقدر عليه ، فقال له : قد بدا لي أن أصادقك ؟ قال : ما لي في مصادقتك حاجة ، قال : ألا تسألني ما صُنع

بمَالِكَ بعدك ؟ قال العابد : لو أردت ذلك . . لما فارقته ، قال : أفلا تسألني عن أهلك من مات منهم بعدك ؟ قال : أنا مت قبلهم ، قال : أفلا تسألني عما أُضِلُّ به بني آدم ؟ قال : بلىٰ ، قال : في ثلاثة أخلاق : الشح ، والحدة ، والسكْر ؛ فإن الرجل إذا كان شحيحاً . . قللنا ماله في عينه ، ورغبناه في أموال الناس ، وإذا كان حديداً . . تداورناه بيننا كما يتداور الصبيان الكرة ، ولو كان يحيي الموتىٰ بدعوته ، ولم نيأس منه ، كل ما يبني . . نهدمه بكلمة ، وإذا سكر . . قدناه إلىٰ كل سوء كما تقاد العنزة بأذنها .

وقال : مثل الذي يدعو بغير عمل . . كمثل الذي يرمي بغير وَتَر .

وكتب وهب إلىٰ مكحول : إنك قد أصبت بما ظهر فيك من علم الإسلام عند الناس محبة وشرفاً ، فاطلب بما يُظَن فيك من علم الإسلام محبة وزلفىٰ ، واعلم : أن إحدى المحبتين سوف تمنعك من الأخرىٰ .

وقال : إن للعلم طغياناً كطغيان المال .

وقيل لوهب بن منبه : كنت ترى الرؤيا ، فتخبرنا بها ، فلا نلبث أن نراها ، قال وهب : ذهب ذاك عني منذ وُلِّيت القضاء .

وقال : من أصيب بشيء من البلاء . . فقد سُلك به طريق الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وقال وهب لسعيد بن جبير في يوم عرفة : يا أبا عبد الله ؛ كم لك منذ خِفْت [من] الحجاج ؟ قال : خرجت عن امرأتي وهي حامل ، فجاءني ولد ، وقد نبت الآن عذاره ، فقال له وهب : إن من كان قبلكم كان إذا أصاب أحدهم بلاء . . عده رخاء ، وإذا أصابه رخاء . . عده بلاء .

وقال : دخول الجمل في سَمِّ الخياط . . أيسر من دخول الأغنياء الجنة ، إلا من قال هٰكذا وهٰكذا . أو كما قال .

وقال : من يتعبد . . يزدد قوة ، ومن يكسل . . يزدد فترة .

وقال : إياكم وهوىً متبعاً ، وقرين سوء ، وإعجاب المرء بنفسه .

وقال : إن الله عز وجل يحفظ بالعبد الصالح القبيل من الناس .

وقال : ليس أحد إلا ومعه شيطان موكل به ، أما الكافر : فيأكل معه من طعامه ، ويشرب من شرابه ، وينام معه علىٰ فراشه ، وأما المؤمن : فهو مجانب له ، ينتظر متىٰ

يصيب منه غفلة ، فيثب عليه ، وأحب الآدميين إلى الشيطان الأكول النؤوم .

وقال : كان لسليمان بن داوود عليهما الصلاة والسلام ألف بيت ، أعلاه قوارير ، وأسفله حديد ، فركب الريحَ يوماً ، فمرَّ بحرَّاث ، فنظر إليه الحرَّاث ، فقال : لقد أوتي آل داوود مُلكاً عظيماً ، فحملت الريح كلامه ، فألقته في أذن سليمان ، قال : فنزل حتىٰ أتى الحرَّاث ، ومشىٰ معه ، وقال : إني سمعت قولك ، وإنما مشيت معك ؛ لئلا تتمنىٰ ما لا تقدر عليه ، لَتسبيحة واحدة يتقبلها الله منك . . خير مما أوتي آل داوود ، فقال الحرَّاث : أذهب الله همَّك كما أذهبت همِّي .

وقال : قال الله سبحانه وتعالىٰ لإبراهيم عليه الصلاة والسلام : أتدري لِمَ اتخذتك خليلاً ؟ قال : لا يا رب ، قال : لذلِّ مقامك بين يديَّ في الصلاة .

وقال وهب : إن لله عز وجل في السماء السابعة داراً يقال لها : البيضاء ، تجتمع فيها أرواح المؤمنين ، فإذا مات الإنسان من أهل الدنيا . . تلقته الأرواح ، فيسائلونه عن أخبار الدنيا كما يسائل الغائب أهله إذا قدم إليهم .

وقال : من جعل شهوته تحت قدمه . . فزع الشيطان من ظله ، ومن غلب عملُه هواه . . فذلك العالم .

وقال : قال الله عز وجل لموسى بن عمران عليه الصلاة والسلام : (يا موسىٰ ؛ لو أن النفس التي قتلتَها اعترفَتْ لي ساعة من ليل أو نهار بأني لها خالق أو رازق . . أذقتك فيها طعم العذاب ، ولٰكني عفوت عنك ؛ لأنها لم تعترف بأني لها خالق أو رازق) .

وقال : أوحى الله عز وجل إلىٰ بعض أنبيائه عليهم الصلاة والسلام : (لِيَهُنْ ما يتحمل المتحملون من أجلي ، وما يكابد المكابدون في مرضاتي ، فكيف بهم إذا صاروا إلىٰ داري ، وتبحبحوا في رياض رحمتي ، أتراني أنسىٰ لهم عملاً ؟! فكيف وأنا ذو الفضل العظيم ، أجود على المُوَلِّين عني ، فكيف بالمقبلين عليَّ ؟! وما غضبت علىٰ شيء كغضبي علىٰ من أخطأ خطيئة ، فاستعظمها في جنب عفوي ، ولو تعاجلتُ بالعقوبة أحداً ، أو كانت العجلة من شأني . . لعاجلت القانطين من رحمتي ، ولو رأى المؤمنون كيف أستوهبهم ممن اعتدوا عليه ، ثم أحكم لمن وهبهم بالخلد المقيم . . ما اتهموا فضلي وكرمي ، وأنا الديان الذي لا تحل معصيتي ، وأنا الذي أُطاعُ برحمتي ، ولا أهين من خاف مقامي ، ولو رآني عبادي يوم القيامة كيف أرفع قصوراً تحار فيها الأبصار ، فيسألوني : لمَن هٰذا يا رب ؟

فأقول : لمن وهب لي مظلمة أخيه ، ولمن لم يجمع علىٰ نفسه معصيتي والقنوط من رحمتي ، وإني مكافىء على الحمد . . فاحمدوني) الحمدُ لله عدد عفوه عن خلقه .

وعن وهب قال : مر عيسىٰ عليه الصلاة والسلام بقرية قد مات أهلها ، إنسها وجنها ، وهوامها وأنعامها وطيرها ، فقام عليه الصلاة والسلام ينظر إليها ساعة ، ثم أقبل علىٰ أصحابه ، فقال : مات هـٰؤلاء بعذاب الله عز وجل ، ولو ماتوا بغير ذلك . . ماتوا متفرقين ، ثم ناداهم عيسىٰ عليه الصلاة والسلام : يا أهل القرية ؛ فأجابه مجيب : لبيك يا روح الله ، قال : ما كانت جنايتكم ؟ قال : عبادة الطاغوت ، وحب الدنيا ، قال : وما كانت عبادتكم الطاغوت ؟ قال : الطاعة لأهل معاصي الله ، قال : فما كان حبكم للدنيا ؟ قال : حبُّ الصبي لأمه ، كنا إذا أقبلت . . فرحنا ، وإذا أدبرت . . حَزِنَّا ، مع أمل بعيد ، وإدبار عن الله سبحانه وتعالىٰ ، وإقبال في سخطه سبحانه وتعالىٰ ، قال : فكيف كان شأنكم ؟ قال : بتنا ليلة في عافية ، وأصبحنا في الهاوية ، قال عيسىٰ عليه الصلاة والسلام : وما الهاوية ؟ قال : سجِّين ، قال : وما سجِّين ؟ قال : جمرة من نار مثل أطباق الدنيا كلها ، دفنت أرواحنا فيها ، قال : فما لأصحابك لا يتكلمون ؟ قال : لا يستطيعون أن يتكلموا ، قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأنهم ملجمون بلجام من نار ، قال : فكيف كلمتني أنت من بينهم ؟ قال : إني كنت فيهم ، ولم أكن علىٰ حالهم ، فلما جاء البلاء عمني معهم ، وأنا معلق بشعرة في الهاوية ، لا أدري أَأُكْرَدَسُ[1] في النار أم أنجو ؟ فقال عيسىٰ عليه الصلاة والسلام : بحقٍّ أقول لكم : لأَكل خبز الشعير ، وشرب الماء القراح ، والنوم على المزابل مع الكلاب . . لَكَثير مع عافية الدنيا والآخرة .

وقال وهب : إذا قامت الساعة . . صرخت الحجارة صراخ النساء ، وقطرت العِضَاهُ[2] دماً .

وقال وهب : ربما صليت الضحىٰ بوضوء العتمة .

وقال : إني لأتفقد أخلاقي ، ما فيها شيء يعجبني .

وقال عيسىٰ عليه الصلاة والسلام للحواريين : إن أشدكم جزعاً على المصيبة . . أشدكم حباً للدنيا .

---

(١) **المكردس** : الذي جمعت يداه ورجلاه وألقي في موضع .

(٢) **العِضَاهُ** : كل شجر له شوك .

وقال : أوحى الله عز وجل إلىٰ موسىٰ عليه الصلاة والسلام : (يا موسىٰ ؛ إذا دعوتني . . فكن خائفاً مشفقاً ، وعفر خدك بالتراب ، واسجد لي بمكارم وجهك وبدنك ، وسلني حين تسألني بخشية قلب وَجِلٍ ، واخش مني كل الخشية ، وعلِّم الجاهل الأبيَّ[1] ، وقل لعبادي : لا يتمادَوا في غي ما هم فيه ؛ فإن أخذي أليم شديد) .

وقال : اتخذوا يداً عند المساكين ؛ فإن لهم يوم القيامة دولة .

وقال وهب : قرأت في الكتب : ابن آدم ؛ اِحتَلْ لدينك ؛ فإن رزقك قد فرغ منه سيأتيك .

أسند وهب عن عدة من الصحابة ، رضوان الله تعالىٰ عليهم أجمعين .

وروىٰ عنه جماعة من التابعين . انتهىٰ [« الحلية » ٤/ ٢٤ـ٧٢] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال وهب : الإيمان عريان ، ولباسه التقوىٰ ، وزينته الحياء ، وماله الفقه .

وقال في موعظة له : يا بن آدم ؛ إنه قد ذهب منك ما لا يرجع إليك ، وأقام معك ما سيذهب عنك ، أَقصِرْ عن تناول ما لا ينال ، وعن طلب ما لا يدرك ، وعن ابتغاء ما لا يوجد ، واقطع الرجاء منك عما فقدت من الأشياء ، واعلم أنه رُبَّ مطلوب هو شر لطالبه .

يابن آدم ؛ إنما الصبر عند المصيبة .

يابن آدم ؛ قد مضت لنا أصول نحن فروعها ، فما بقاء الفرع بعد أصله .

يابن آدم ؛ إنما البقاء بعد الفناء ، وقد خُلقنا ولم نك شيئاً ، وسنبلىٰ ثم نعود ، ألا إنما العواري[2] اليوم ، والهبات غداً .

أيها الناس ؛ إنما أنتم في هـٰذه الدار غرض ، فيكم المنايا تنتضل ، وإن الذي أنتم فيه من دنياكم نهب للمصائب ، لا تنالون منها نعمة . . إلا بفراق أخرىٰ ، ولا يستقبل معمر منكم من عمره يوماً . . إلا بفراق آخر من أجله ، ولا يحيىٰ له أثر . . إلا مات له أثر ، فنسأل الله العظيم أن يغفر لنا ولكم ما مضىٰ من هـٰذه الغفلة .

وقال : مر عابد علىٰ عابد ، فقال : ألا تعجب من فلان ؟ إنه كان بلغ من عبادته كذا ،

---

(١) في « الحلية » : (آلائي) .

(٢) جمع عاريَّة .

فمالت به الدنيا ، فقال له الآخر : لا تعجب ممن مالت به الدنيا ، ولكن اعجب ممن استقام .

وقال داوود عليه الصلاة والسلام : إلـهي ؛ أين أجدك إذا طلبتك ؟ قال : عند المنكسرة قلوبهم من مخافتي .

وقال وهب : إن منادياً ينادي من السماء الرابعة كل صباح : أبناءَ الأربعين ؛ زرع قد دنا حصاده ، أبناءَ الخمسين ؛ ماذا قدمتم ؟ وماذا أخرتم ؟ أبناءَ الستين ؛ لا عذر لكم ، ليت ذا الخلق لم يُخلقوا ، وإذا خلقوا . . علموا لماذا خلقوا ، وقد أتتكم الساعة ، فخذوا حِذركم .

وأقام وهب عشرين سنة لم يجعل بين العشاء والصبح وضوءاً .

وأتاه شخص فقال : إني مررت بفلان وهو يشتمك ، فغضب ، وقال : أمَا وجد الشيطان رسولاً غيرك ، ثم ما قام من موضعه حتىٰ جاءه ذلك الشاتم ، فسلم عليه ، فرد عليه السلام ، ومدَّ يده ، وصافحه ، وأجلسه إلىٰ جنبه .

وقال وهب : **إذا مدحك الرجل بما ليس فيك . . فلا تأمنه أن يذمك بما ليس فيك** .

توفي بصنعاء، سنة عشر [ومئة] ، وقيل : أربع عشرة ومئة . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ١٧٤ـ١٧٧] .

وقال حجة الإسلام الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : قال وهب بن منبه : وجدت علىٰ حاشية التوراة أسطراً كان صلحاء بني إسرائيل يجتمعون فيقرؤونها ويتدارسونها ، وهي : لا كنزَ أنفعُ من العلم ، ولا مال أربح من الحلم ، ولا حسَبَ أبلغُ من ترك الغضب ، ولا قرين أزين من العمل ، ولا رفيق أقبح من الجهل ، ولا شرفَ أعزُّ من التقوىٰ ، ولا كرم أوفىٰ من ترك الهوىٰ ، ولا عمل أفضل من الفكر ، ولا حسنة أعلىٰ من الصبر والرضا ، ولا سيئة أخزىٰ من الكبر ، ولا دواء ألين من الرفق ، ولا شيء أعدل من الصدق ، ولا فقر أذل من الطمع ، ولا معيشةَ أهنأُ من القناعة والعفة ، ولا عبادة أحسن من الخشوع ، ولا زهد أعلىٰ من ترك الرئاسة ، ولا حارس أحفظ من الصمت ، ولا غائب أقرب من الموت . أو كما قال . انتهىٰ [« الإحياء » ٤/ ٣٨٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو أيوب ميمون بن مهران
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : ما كان ميمون بن مهران بكثير صلاة ولا صيام ، ولـٰكنه كان يكره أن يعصي الله عز وجل .

وقال عمرو بن ميمون : خرجت بأبي أقوده في بعض سكك البصرة ، فمررت بجدول ، فلم يستطع أن يتخطاه ، فاضطجعت له ، فمر علىٰ ظهري ، ثم أخذت بيده إلىٰ منزل الحسن ، فطرقت الباب ، فخرجت جارية سداسية[1] ، فقالت : مَن هـٰذا ؟ قلت : ميمون بن مهران يريد لقاء الحسن ، فقالت : كاتب عمر بن عبد العزيز ؟ فقلت : نعم ، قالت : يا شقي ؛ ما بقاؤك إلىٰ هـٰذا الزمان السوء ؟ فبكى الشيخ ، فسمع الحسن بكاءه ، فخرج إليه ، فاعتنقا ، ثم دخلا ، فقال ميمون : يا أبا سعيد ؛ إني قد آنست من قلبي غلظة ، فاستلن لي ، فقرأ الحسن : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ ۞ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۞ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴾ ، قال : فسقط الشيخ ، فرأيته يفحص برجليه ولا كفحص الشاة المذبوحة ، فأقام طويلاً ، ثم أفاق ، فجاءت الجارية ، وقالت : قد أتعبتم الشيخ ، فقوموا ، فأخذتُ بيد أبي ، فخرجت به ، ثم قلت : يا أبتاه ؛ هـٰذا الحسن ، قد كنت أحسب أنه أكبر من هـٰذا ، فوكز في صدري وكزة ، ثم قال : يا بني ؛ لقد قرأ علينا آية لو فهمتها بقلبك . . لجعلَتْ فيه كُلوماً .

وقال عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ عن ميمون بن مهران : إذا ذهب هـٰذا وضرباؤه . . لم يبق من الناس إلا رجاجة[2] .

---

(١) **جارية سداسية** : طولها ستة أشبار .

(٢) **رجاج الناس** : هم رعاع الناس وجهالهم .

وقال ميمون بن مهران : لا خير في الدنيا إلا لرجلين : رجل تائب ، أو رجل يعمل في الدرجات .

وقال : لا يسلم للشخص الحلال حتىٰ يجعل بينه وبين الحرام حاجزاً من الحلال .

وقال : ما بلغني عن أخ مكروه قط . . إلا كان إسقاط المكروه عنه أحب إلي من تحقيقه عليه ، فإن قال : لم أقل . . كان قوله : لم أقل أحب إلي من ثمانية تشهد عليه ، فإن قال : قلت ، ولم يتعذر . . أبغضته من حيث أحببته .

وقال : **سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول : ما بلغني عن أخ مكروه . . إلا أنزلته أحد ثلاثة منازل : إن كان فوقي . . عرفت له قدره ، وإن كان نظيري . . تفضلت عليه ، وإن كان دوني . . لم أحفل به ، هٰذه سيرتي في نفسي ، فمن رغب عنها . . فإن أرض الله واسعة .**

وكان إذا ودعه رجل . . لا يزيده علىٰ كلمتين ؛ يقول له : اتق الله ، ولا يغيرك غضب ولا طمع .

وكان يقول : العلماء ضالتي في كل بلدة ، وهم بغيتي ، وجدت صلاح قلبي في مجالسة العلماء .

وقال : وددت أن إحدىٰ عيني ذهبت وبقيت الأخرىٰ أتمتع بها ، وأني لم أَلِ عملاً لأحد قط ، قيل : ولا لعمر بن عبد العزيز ؟ قال : ولا لعمر بن عبد العزيز ، لا خير في العمل لعمر ولا لغيره .

وقال : ما عرضت قولي علىٰ عملي . . إلا وجدت في نفسي اعتراضاً .

وحدثنا جعفر بن برقان ، قال : قال لي ميمون : يا جعفر ؛ قل لي في وجهي ما أكره ؛ فإن الرجل لا ينصح أخاه حتىٰ يقول له في وجهه ما يكره .

وقال : أول من مشت معه الرجال وهو راكب . . الأشعث بن قيس الكندي[1] ، ولقد

---

(١) الأشعث بن قيس الكندي ، له صحبة ورواية ، أصيبت عينه يوم اليرموك ، وكان أكبر أمراء علي رضي الله عنه يوم صفين ، توفي سنة أربعين بعد وفاة علي بأربعين ليلة ، وصلّىٰ عليه الإمام الحسن ، حفيده عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث صاحب المواقع المشهورة مع الحجاج ، والذي كانت له فيها الغلبة حتى انكسر بموقعة دير الجماجم .

أدركت السلف وهُمْ إذا نظروا إلىٰ رجل راكب ورجل [ماشٍ] يحضر معه.. قالوا : قاتله الله ، جبار .

وقال : لأَن أتصدق بدرهم في حياتي.. أحب إلي من أن يُتصدق عني بعد موتي بمئة درهم .

وقال : الذِّكر ذِكران : ذكر الله عز وجل باللسان ، وبالقلب ، وأفضل من ذلك : أن تذكره عند المعصية إذا أشرفتَ عليها .

وقال ميمون : بعث الحجاج إلى الحسن وقد همَّ به ، فلما دخل عليه.. قام الحجاج بين يديه ، فقال له الحسن : يا حجاج.. كم بينك وبين آدم من أب ؟ قال : كثير ، قال : فأين هم ؟ قال : ماتوا ، فنكس الحجاج رأسه ، وخرج الحسن .

وولىٰ عمرُ بن عبد العزيز لميمون بن مهران قضاء الجزيرة وخراجها ، فكتب إليه يستعفيه وقال : كلفتني ما لا أطيق ، أقضي بين الناس وأنا شيخ كبير ضعيف رقيق ؟ فكتب إليه عمر : اِجْبِ من الخراج الطيب ، واقض ما استبان لك ، فإذا التبس عليك أمر.. فارفعه إلي ؛ فإن الناس لو كانوا إذا كبر عليهم أمر تركوه.. ما قام دين ولا دنيا .

وقال ميمون : لا يُضرب المملوك في كل ذنب ، ولٰكن احفظ له ذاك ، فإذا عصى الله عز وجل.. فعاقبه علىٰ معصية الله سبحانه وتعالىٰ ، وذكره الذنوب التي أذنب بينك وبينه .

وقال : لا يكون الرجل من المتقين حتىٰ يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه ، وحتىٰ يعلم من أين مطعمه ، ومن أين ملبسه ، ومن أين مشربه ، أمن حلال ، أم من حرام ؟

وقال : في المال ثلاث خصال ، إن نجا من خصلة.. لا ينجو من اثنتين ، وإن نجا من اثنتين.. لا ينجو من الثالثة ، ينبغي أن يكون أصله حلالاً ، فإن حصل ذلك.. فيؤدي منه الحقوق ، فإن حصل ذلك.. فينبغي أن يكون في نفقته ليس بمسرف ولا مقتر .

وقال : أهون الصيام.. ترك الطعام والشراب .

وأتاه رجل فقال له : لا يزال الناس بخير ما كنت فيهم ، فقال : لا يزال الناس بخير ما اتقَوُا الله .

وعن عمرو بن ميمون قال : كنت مع أبي ونحن نطوف بالكعبة ، فلقي أبي شيخ ، فعانقه أبي ، ومع الشيخ فتىً نحواً مني ، فقال له أبي : من هٰذا ؟ فقال : ابني ، فقال : كيف رضاكَ عنه ؟ قال : ما بقيت خصلة من خصال الخير.. إلا وقد رأيتها فيه إلا واحدة ، قال :

وما هي ؟ قال كنت أحب أن يموت ، فأؤجر فيه ، ثم فارقه أبي ، فقلت : من هـٰذا الشيخ ؟ قال : هـٰذا مكحول .

وعن ميمون : أن راهباً دخل علىٰ عمر بن عبد العزيز ، فقال له عمر : ألم أُخبَرْ أنك تديم البكاء ؟ فممَّ ذاك ؟ قال : إني ـ والله يا أمير المؤمنين ـ عهدت الناس وما شيء آثر عندهم من دينهم ، وما شيء اليوم آثر عندهم من دنياهم ، فعلمت أن الموت اليوم خير للبر والفاجر ، فلما خرج . . قال عمر : صدق الراهب .

وقال : من سره أن ينظر إلىٰ منزلته غداً . . فلينظر في عمله في الدنيا ، فعليه ينزل في الآخرة .

وقال جعفر : قلت لميمون : إن فلاناً يستبطىء نفسه في زيارتك ، قال : إذا ثبتت المودة . . فلا بأس وإن طال المكث .

وقال : لا تجد غريماً أهون عليك من بطنك أو فرجك .

وعن حبيب ابن أبي مرزوق قال : رأيت علىٰ ميمون جبة صوف تحت ثيابه ، فقلت : ما هـٰذا ؟ قال : لا تخبر به أحداً .

وقال : من أساء سراً . . فليتب سراً ، ومن أساء علانية . . فليتب علانية ؛ فإن الله عز وجل يغفر ولا يعيِّر ، والناس يعيرون ولا يغفرون .

وقال فرات بن السائب : سألت ميمون بن مهران قلت : أَعَلِيٌّ عندك أفضل ، أم أبو بكر وعمر ؟ قال : فارتعد حتىٰ سقطت عصاه من يده ، ثم قال : ما كنت أظن أن أعيش إلىٰ زمان يعدل بهما ، ذَرْهُما ، كانا رأسي الإسلام ورأسي الجماعات ، قلت : فأبو بكر كان أول إسلاماً ؟ أم علي ؟ قال : والله لقد آمن أبو بكر بالنبي صلى الله عليه وسلم زمن بَحِيرة الراهب حين مر به ، واختلف فيما بينه وبين خديجة حين أنكحها إياه ، وذلك قبل أن يولد علي رضي الله عنهم أجمعين .

أسند ميمون بن مهران عن عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس ، رضي الله عنهم .

فمن أحاديثه : عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قلما يوجد في آخر الزمان درهم حلال أو أخ يوثق به »[1] .

---

(١) أخرجه الديلميُّ (٣/ ٢٢٣) .

وعنه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أدلكم علىٰ كلمة تنجيكم من الإشراك ؟ (قل يا أيها الكافرون) عند منامكم »[1] . انتهىٰ [« الحلية » ٤/ ٨٢ـ٩٦] .

وقال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : كان عند ميمون بن مهران ضيف ، فاستعجل علىٰ جاريته بالعَشاء ، فجاءت مسرعة ومعها قصعة مملوءة ، فعثرت ، وأراقتها علىٰ رأس سيدها ميمون ، فقال : يا جارية ؛ أحرقتني ، فقالت : يا معلم الخير ومؤدب الناس ؛ ارجع إلىٰ ما قال الله تعالىٰ ، قال : وما قال سبحانه وتعالىٰ ؟ قالت : ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ ، قال : قد كظمت غيظي ، قالت : ﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ ، قال : قد عفوت عنك ، قالت : زد ؛ فإن الله يقول : ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ، فقال : أنت حرة لوجه الله عز وجل . [انتهىٰ « الإحياء » ٢/ ٢٢٠] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١٢/ ٢٤١) .

ومنهم الإمام :

أبو وائل شقيق بن سلمة
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال أبو عاصم : كان أبو وائل إذا صلىٰ في بيته . . ينشج نشيجاً[1] ، ولو جعلت له الدنيا علىٰ أن يفعله وأحد يراه . . ما فعله .

وقال مغيرة : كان إبراهيم التيمي يذكِّر في منزل أبي وائل ، وكان أبو وائل ينتفض انتفاض الطير .

وقال شقيق : خرجنا في ليلة مخوفة ، فمررنا بأجَمَة[2] فيها رجل نائم ، وقد قيد فرسه ، وهي ترعىٰ عند رأسه ، فأيقظناه ، وقلنا له : أتنام في مثل هـٰذا المكان ؟ قال : فرفع رأسه وقال : إني لأستحيي من ذي العرش جل جلاله أن يعلم أني أخاف شيئاً دونه ، ثم وضع رأسه فنام .

وقال عاصم ابن أبي النجود : كان عطاءُ شقيقٍ في كل عام ألفين ، فإذا خرج عطاؤه . . أمسك ما يكفي أهله سنة ، ثم يتصدق بما سوىٰ ذلك .

وقال عاصم : ما رأيت أبا وائل ملتفتاً في صلاة ولا في غيرها ، ولا قائلاً لأحد : كيف أصبحت ؟ ولا كيف أمسيت ؟ ولا يسب قط شيئاً ، إلا أنه ذكر الحَجاج يوماً فقال : اللهم ؛ أطعم الحجاج طعاماً لا يسمن ولا يغني من جوع ، ثم تداركها ، فقال : إن كان ذلك أحب إليك .

وكان أبو وائل يقول لجاريته : يا بركة ؛ إذا أرسل ابني يحيىٰ شيئاً . . لا تأخذيه ، وإذا جاءك أصحابي بشيء . . فخذيه ، وذاك لأن ابنه كان قاضياً .

وقال أبو وائل : إن أهل بيت يضعون علىٰ مائدتهم رغيفاً حلالاً . . لأهل بيت غرباء .

---

(١) **نشج نشيجاً** : تردد البكاء في صدره من غير انتحاب .

(٢) **الأجمة** : الشجر الكثير الملتف .

وقال أبو وائل للذي أخبره بأن ابنه ولي القضاء : والله الذي لا إلـه إلا هو ؛ لو أخبرتني بموته . . كان أحب إلي ؛ لأني أكره أن يدخل بيتي مَن عَمِل عملهم .

وعن عاصم : أن أبا وائل كان له خص من قصب ، فكان يسكن فيه هو وأهله ، فإذا غزا . . نقضه وتصدق به ، فإذا رجع . . بناه .

وكان يقول في دعائه : **اللهم ؛ إن كنت كتبتنا عندك أشقياء . . فامْحُنَا ، واكتبنا سعداء ، وإن كنت كتبتنا سعداء . . فأثبتنا ؛ فإنك تمحو ما تشاء وتثبت ، وعندك أم الكتاب .**

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ قال : القربة في الأعمال .

أدرك زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يلقه .

وأسند عن الأكابر من الصحابة ، رضوان الله عليهم أجمعين ، وعن جماعة من التابعين .

فمن أحاديثه : عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالىٰ : ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ ﴾ قال : « يدخلهم الجنة » ، ﴿ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ قال : « الشفاعة لمن وجبت له النار ممن صنع إليهم المعروف في الدنيا »[1] هـٰذا حديث غريب ، تفرد به الأعمش . انتهىٰ [« الحلية » ٤/ ١٠١ـ١٠٨] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال سعيد : كان أبو وائل يؤمُّ جنائزنا وهو ابن مئة وخمسين سنة .

وتوفي في زمان الحجاج ، بعد الجماجم[2] ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الصفوة : ٣/ ١٦] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرجه بنحوه الطبراني في « الأوسط » (٦/ ٥٣) .

(٢) **الجماجم** : وقعة كانت بين جيش الحجاج بن يوسف الثقفي وجيش القرَّاء بقيادة عبد الرحمـٰن بن محمد بن الأشعث الكندي .

ومنهم الإمام :

خيثمة بن عبد الرحمن
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال الأعمش : ورث خيثمة مئتي ألف درهم ، فأنفقها على الفقهاء والفقراء .

وكان له سلة يضع فيها الفالوذج[1] والخبيص[2] والطعام الطيب ، ثم يدعو إبراهيم النخعي وأصحابه ، فيقول : كلوا ، ما أشتهيه ، إنما أصنعه من أجلكم . أو كما قال .

وكان يصر صرراً فيها الدراهم ، فإذا رأىٰ رجلاً من أصحابه قد تخرق قميصه أو شيئاً من ثيابه . . يقصده ، فإذا خرج من باب . . أتاه من باب آخر ، حتىٰ يلقاه ويعطيه ، ويقول له : اشتر بهـٰذا كذا ، واشتر بهـٰذا كذا .

وعن الأعمش قال : رأيت علىٰ إبراهيم ثياباً بياضاً ، فسألته عنها ، فقال : كسانيها خيثمة .

وعن الأعمش قال : نفست امرأة المسيب بن رافع ، فاشترىٰ لها خيثمة خادماً بست مئة .

وكان يُجري على المسيب بن رافع في كل شهر خمسين .

وكان يتمنى الموت في كل عام مرتين .

ولقي خيثمة محارب بن دثار فقال له : كيف حبك للموت ؟ فقال : ما أحبه ، فقال خيثمة : إن هـٰذا بك لنقص كثير .

وقال خيثمة : كان يعجبهم أن يموت الرجل عند خير يعمله ، إما حج ، وإما عمرة ، وإما غزاة ، وإما صيام رمضان .

---

(١) **الفالوذج** : حلواء هلامية رجراجة تعمل من الدقيق والماء والعسل ومواد أخرىٰ ، وتصنع الآن من النَّشَا والماء والسكر ومواد أخرىٰ .

(٢) **الخبيص** : الحلواء المخبوصة من التمر والسَّمن .

وعن محمد بن خالد قال : لم يكن يعلم الناس كم كان خيثمة يقرأ كل يوم من القرآن حتىٰ مرض ، فجاءته امرأته ، فبكت ، فقال : ما يبكيكِ ؟! الموت لا بد منه ، فقالت : الرجال بعدك علي حرام ، فقال لها خيثمة : ما كل هـٰذا أردت منكِ ، إنما كنت أخاف رجلاً واحداً ، وهو أخي محمد ، وهو رجل فاسق يشرب الشراب ، فكرهت أن يشرب في بيتي الشراب بعد تلاوة القرآن في كل ثلاث .

وربما قالت امرأة خيثمة : يا جارية ؛ أسلمي ذلك الدلو ، فيقول خيثمة : كم تعطون عليه ؟ فيقولون : دانقاً ونصفاً أو دانقين ، فيقول لها : أنا أرقعه ، فيرقعه ، ثم يقول : انظروا ماذا أردتم أن تعطوا عليه ، فأعطوه بعض من يأتيكم من المساكين .

وتخرق دلو لخيثمة ، فبعث به إلى الخراز ، فسأله صاعاً من تمر ، فخرزه خيثمة بيده ، وتصدق بالصاع .

وعن الأعمش قال : دعاني خيثمة ، فلما جئت ؛ إذا أصحاب العمائم والمطارف على الخيل ، فحقرت نفسي ورجعت ، فلقيني بعد ذلك ، فقال لي : لِمَ لا تجيء ؟ قلت : جئت ، ولـٰكن رأيت أصحاب العمائم والمطارف على الخيل ، فحقرت نفسي ، قال : فأنت والله أحب إلي منهم .

وأوصىٰ أن يدفن في مقبرة فقراء قومه .

وقال خيثمة : مكتوب في التوراة : ابن آدم ؛ تفرَّغ لعبادتي . . أملأ قلبك غنىً ، وأسد فقرك ، وإن لم تفعل . . أملأ قلبك شغلاً ، ولا أسد فقرك .

وقال : طوبىٰ للمؤمن كيف يُحفظ في ذريته من بعده .

وعن خيثمة قال : تقول الملائكة عليهم الصلاة والسلام : يا رب ؛ عبدك المؤمن تزوي عنه الدنيا وتعرضه للبلاء ؟! قال : فيقول الله عز وجل للملائكة : انظروا ثوابه ، فإذا رأوا [ثوابه] . . قالوا : يا رب ؛ لا يضره ما أصابه في الدنيا ، ويقولون : عبدك الكافر تزوي عنه البلاء ، وتبسط له الدنيا ؟! [قال] : فيقول [للملائكة] : انظروا عقابه ، فإذا رأوا [عقابه] . . قالوا : يا رب ؛ لا ينفعه ما أصابه في الدنيا .

وقال : قال سليمان عليه الصلاة والسلام : كل العيش قد جربناه ، لينه وشديده ، فوجدناه يكفي منه أدناه .

وقال خيثمة في قوله تعالىٰ : ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ قال : ينادي مناد يوم القيامة :

ليخرج بعث النار من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعون إلى النار ، مِن ذلك يشيب الولدان .

وقال خيثمة : إذا سألت الله عز وجل شيئاً فوجدته . . فاسأل الله تعالى الجنة ، فلعله أن يكون يومك الذي يستجاب لك فيه .

أسند عن جماعة من الصحابة ، رضوان الله عليهم أجمعين ، وروىٰ عنه جماعة من التابعين . انتهىٰ [« الحلية » ٤/١١٣ـ١٢١] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو أمية شريح القاضي
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : اشتكىٰ شريح رجله ، فطلاها بالعسل ، وجلس في الشمس ، فدخل عليه عُوَّاده ، فقالوا : كيف تجدك ؟ فقال : صالح ، فقالوا : ألا نطلب طبيباً ؟ قال : قد فعلت ، قالوا : ما قال لك ؟ قال : وعد خيراً .

وفي رواية : خرج بإبهامه قرحة ، فقالوا : لو أريتها الطبيب ؟ قال : هو الذي أخرجها .

وكانت فتنة ابن الزبير تسع سنين ، فمكث شريح لا يُخبَر ولا يَستَخبِر .

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه لشريح : أنت أقضى العرب .

وعن شريح قال : كنت مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الكوفة ، فقال علي كرم الله وجهه لقاص رآه يقص : ما ثبات الإيمان وزواله ؟ فقال القاص : ثبات الإيمان بالورع ، وزواله بالطمع ، قال علي رضي الله عنه : فمثلك من يقص .

أسند شريح عن البدريين ، منهم : عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، رضي الله عنهم ، وجماعة آخرون .

فمما رواه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من شاب يدع لذة الدنيا ولهوها ويستقبل شبابه بطاعة الله عز وجل . . إلا أعطاه الله أجر اثنين وسبعين صديقاً » ، ثم قال : « يقول الله تبارك وتعالىٰ : (أيها الشاب التارك شهوته من أجلي ، الباذل شبابه لي ؛ أنت عندي كبعض ملائكتي)[1] هـٰذا غريب .

وعن إبراهيم بن يزيد التيمي ، عن أبيه قال : وجد علي بن أبي طالب رضي الله عنه درعاً له عند يهودي ، فقال : هـٰذا الدرع درعي ، سقط عن جمل لي أورَقَ ، فقال اليهودي : درعي وفي يدي ، فقال علي رضي الله عنه : تصير معي إلى القاضي ، فأتيا شريحاً ، فلما

---

(١) أخرجه بنحوه الديلمي (٤/ ١١٢) .

رأىٰ علياً قد أقبل . . تحرف عن موضعه وجلس عليٌّ فيه ، ثم قال علي رضي الله عنه : لو كان خصمي من المسلمين . . لساويته ، فقال شريح : ما تشاء يا أمير المؤمنين ؟ قال : درعي سقط عن جمل لي أورَقَ ، والتقطها هـٰذا اليهودي ، فقال شريح : ما تقول يا يهودي ؟ قال : درعي وفي يدي ، فقال شريح : صدقت والله يا أمير المؤمنين ؛ إنها لدرعك ، ولـٰكن لا بد من شاهدين ، فدعا قنبراً مولاه والحسن ابنه ، فشهدا أنها درعه ، فقال شريح : أما شهادة مولاك . . فقد أجزناها ، وأما شهادة ابنك لك . . فلا نجيزها ، فقال عليٌّ : ثكلتك أمك ، أمَا سمعت عمر بن الخطاب يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة » ؟[1] قال : اللهم نعم ، قال : أفلا تجيز شهادة سيد شباب أهل الجنة ؟ ثم قال عليٌّ رضي الله عنه لليهودي : خذ الدرع ، فقال اليهودي : إن أمير المؤمنين جاء معي إلىٰ قاضي المسلمين ، وقضىٰ لي عليه ورضي ، أشهد أن هـٰذا الدين هو الدين الحق ، وصدقت والله يا أمير المؤمنين ؛ الدرع درعك ، سقطت عن جمل أورَقَ ، وأنا التقطتها ، أشهد أن لا إلـٰه إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، فوهب علي رضي الله عنه الدرع له ، وأجازه بتسع مئة ، وقتل معه يوم صفين[2] . غريب من حديث الأعمش . انتهىٰ [« الحلية » ٤/١٣٢-١٤٠] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرجه ابن حبان (٦٩٥٩) .

(٢) أي : اليهودي ، أما شريح . . فقد مات سنة ثمانين أو تسع وسبعين أو ما يقاربها .

ومنهم الإمام :

أبو ميسرة عمرو بن شرحبيل
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : كان عمرو بن شرحبيل إذا أوىٰ إلىٰ فراشه . . يقول : وددت أني لم أك شيئاً .

وقال شقيق : ما ولدت هَمْدانية قط أحب إليَّ أن أكون في مِسلاخِهِ[1] من عمرو بن شرحبيل .

وكان من أفاضل أصحاب عبد الله بن مسعود .

وعن مرة بن شرحبيل قال : سئل سلمان بن ربيعة عن فريضة ، فأجاب فيها ، فخالفه عمرو بن شرحبيل ، فغضب سلمان بن ربيعة ، ورفع صوته ، فقال عمرو بن شرحبيل : لَكذلك أنزلها الله سبحانه وتعالىٰ ، فأتيا أبا موسى الأشعري ، فقال : القول ما قال أبو ميسرة ، وقال لسلمان : ما كان ينبغي لك أن تغضب إن أرشدك رجل ، وقال لعمرو : كان ينبغي أن تساره ؛ أي : لا ترد عليه والناس يسمعون . رواه الثوري .

ودخل شريح علىٰ أبي ميسرة يعوده ، فقال : أتصلي إيماء ؟ قال : نعم ، قال : أنت أعلم مني .

وقال أبو معمر عبد الله : لما مات أبو ميسرة . . قال : يا أصحاب عبد الله ؛ اِمشوا خلف أبي ميسرة ؛ فإنه كان يستحب أن يمشي خلف الجنائز ، وأوصىٰ أبو ميسرة أن يصلي عليه شريح .

وقال أبو ميسرة : رأيت في المنام كأني دخلت الجنة ، فإذا قباب مضروبة ، فقلت : لمَن هـٰذا ؟ فقيل : لذي الكلاع وحوشب ، وكانا ممن قتل مع معاوية ، قلت : فأين عمار

---

(١) أي : في هديه سمته .

وأصحابه ؟ فقالوا : أمامك ، قلت : وقد قَتل بعضهم بعضاً ، فقال : إنهم لقوا الله عز وجل ، فوجدوه واسع المغفرة .

أسند عن كبار الصحابة ، رضوان الله عليهم ، منهم : عمر بن الخطاب ، وجماعة آخرون . انتهىٰ [« الحلية » ٤/١٤٢ـ١٤٤] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

عمرو بن عتبة بن فرقد
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : عن عبد الرحمٰن بن يزيد قال : خرجنا في جيش ، فيهم : علقمة ، ويزيد بن معاوية النخعي ، وعمرو بن عتبة ، ومِعْضَد العجلي ، قال : فخرج عمرو بن عتبة وعليه جبة جديدة بيضاء ، فقال : ما أحسن ما ينحدر الدم علىٰ هٰذه ، قال : فأصابه حجر ، فشجه ، فرأيت الدم ينحدر على المكان الذي وضع يده عليه ، فمات منها ، فدفناه ، رحمه الله .

وعن الأعمش قال : قال عمرو بن عتبة : سألت الله عز وجل ثلاثاً ، فأعطاني اثنتين ، وأنا أنتظر الثالثة : سألته أن يزهدني في الدنيا . . فلَمْ أُبالِ ما أقبل منها وما أدبر ، وسألته أن يقويني على الصلاة . . فرزقني منها ما سألت ، وسألته الشهادة . . فأنا أرجوها .

وحدثني ابن عم عمرو بن عتبة قال : نزلنا في مَرْجٍ حَسَنٍ ، فقال عمرو : ما أحسن هٰذا المرج! لو أن منادياً ينادي : يا خيل الله اركبي ، فخرج رجل وكان أول من لقي المشركين ، فأصيب ، ثم جيء به ، فدفن في هٰذا المرج . قال : فما كان بأسرع من أن نادىٰ مناد : يا خيل الله اركبي ، فخرج عمرو في سرعان الناس في أول من خرج ، فأُخبِر والدهُ عتبةُ بذلك ـ وكان هو أمير الجيش ـ فقال : عَلَيَّ بعمرو ، عَلَيَّ بعمرو ، فأرسل في طلبه ، فما أُدرِك حتىٰ أصيب ، قال : فما أراه دفن إلا في موضع مركز رمحه .

وفي رواية : أصابه جرح ، فقال : والله ؛ إنك لصغير ، وإن الله تبارك وتعالىٰ ليبارك في الصغير ، دعوني في مكاني هٰذا حتىٰ أمسي ، فإن أنا عشت . . فارفعوني ، قال : فمات في ذلك المكان .

وعن عبد الله بن ربيعة قال : قال عتبة بن فرقد لعبد الله : يا عبد الله ؛ ألا تعينني على ابن أخيك يعينني علىٰ ما أنا فيه من عمل ؟ فقال له عبد الله : يا عمرو ؛ أطع أباك ، قال : فنظر إلىٰ مِعْضَد وهو جالس معه ، فقال له معضد : لا تطعهم واسجد واقترب ، فقال عمرو : يا أبت ؛ إنما أنا عبد أعمل في فكاك رقبتي ، فدعني أعمل في فكاك رقبتي ، قال : فبكىٰ

أبوه عتبة ، ثم قال : يا بني ؛ إني لأحبك حبين : حباً لله عز وجل ، وحب الوالد لولدِه ، قال عمرو : يا أبت ؛ إنك كنت أتيتني بمال قد بلغ سبعين ألفاً ، فإن كنت سائلي عنه . . فهو ذا فخذه ، وإلا . . فدعني أُمْضِهِ ، فقال له عتبة : أمضه ، فأمضاه حتىٰ ما بقي منه درهم .

وخرج عمرو ، فاشترىٰ فرساً بأربعة آلاف درهم ، فعنَّفوه ـ يسْتغْلونه ـ فقال : ما [من] خطوة يخطوها إلىٰ أعداء الله تعالىٰ . . إلاَّ وهي أحب إلي من الأربعة آلاف .

وكان له كل يوم رغيفان ، يتسحر بأحدهما ، ويفطر على الآخر .

وكان يشترط علىٰ أصحابه أن يكون خادمهم .

قال : فخرج في الرعي في يوم حار ، فأتىٰ بعض أصحابه ، فرأىٰ عليه سحابة غيم وهو قائم يصلي ، فقال له : أَبْشر يا عمرو ، لقد رأيت سحابة غيم وأنت قائم تصلي ، قال : فأخذ عليه عمرو ألاَّ يخبر بما رأىٰ ما دام حياً .

وكان يصلي والسَّبُع حوله يضرب بذنبه يحميه ، قالوا : فكان يصلي ليلة ، فسمعنا زئير الأسد ، فهربنا وهو قائم يصلي لم ينصرف ، فقلنا له : أما خفت الأسد ؟! فقال : إني لأستحيي من ربي عز وجل أن أخاف شيئاً سواه .

ولما توفي عمرو بن عتبة . . دخل بعض أصحابه علىٰ أخته فسألها من وراء حجاب عنه ، فقالت : قام ذات ليلة فاستفتح (حم) ، فلما أتىٰ علىٰ هـٰذه الآية : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ﴾ . . فما جاوزها حتىٰ أصبح .

وكان يخرج علىٰ فرسه ليلاً ، فيقف على القبور ، فيقول : يا أهل القبور ؛ قد طُويَت الصحفُ ، وقد رُفعت الأعمالُ ، ثم يبكي ، ويَصُفُّ قدميه يصلي حتىٰ يصبح ، فيرجع ، فيشهد الصبح .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : عمرو بن عتبة من كبار تابعي أهل الكوفة ، مشهور بالتعبد والزهد ، شغلته العبادة عن الرواية ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الحلية » ٤/١٥٥ـ١٥٨] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : استشهد في غزاة أَذْرَبِيجان ، وذلك في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/٣٥] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود
رضي الله عنهما

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : عن أبي عبيدة[1] قال : ما دام قلب الرجل يذكر الله سبحانه وتعالىٰ . . فهو في الصلاة وإن كان في السوق ، وإن يحرك به شفتيه . . فهو أعظم .

وقال : لو أن رجلاً جلس في الطريق ومعه دنانير ، لا يمر إنسان إلا أعطاه ديناراً ، وآخر إلىٰ جنبه يكبر الله تعالىٰ . . كان صاحب التكبير أعظم أجراً .

قال : وكان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم لا يقولون في أحد شيئاً حتىٰ يعلموا علىٰ ما يموت ، فإن ختم له بخير . . علموا أنه أصاب خيراً ، وإن ختم له بشر . . خافوا عليه .

وعن أبي عبيدة ، عن عبد الله بن مسعود قال : رجلان يضحك الله عز وجل إليهما :

رجل تحته فرس في غزاة ، فلقيهم العدو ، فانهزموا وثبت هو ، إن قتل . . قتل شهيداً ، فذلك يضحك الله عز وجل إليه .

ورجل قام من الليل لا يعلم به أحد ، فأسبغ الوضوء ، وصلىٰ علىٰ النبي صلى الله عليه وسلم ، وحمد الله ، واستفتح القراءة ، فيضحك الله إليه ، فيقول : انظروا إلىٰ عبدي ، لا يراه أحد غيري[2] .

---

(١) قال المزي في « تهذيب الكمال » (١٤/ ٦١) : عامر بن عبد الله بن مسعود الهذلي ، أبو عبيدة الكوفي ، ويقال : اسمه كنيته ، وهو أخو عبد الرحمٰن بن عبد الله بن مسعود .

(٢) أخرجه بنحوه الطبراني في « الكبير » (٩/ ١٥٩) ، وهٰذا الحديث من أحاديث الصفات ، وفيها مذهبان ـ كما قال النووي في « شرح صحيح مسلم » (٥/ ٢٤) ـ :

أحدهما : الإيمان به من غير خوض في معناه مع اعتقاد أن الله تعالىٰ ليس كمثله شيء ، وتنزيهه عن سمات المخلوقين .

والثاني : تأويله بما يليق به . انتهىٰ .

ومنهم من أوَّل الضحك بمعنى الرضا ، فقال ابن حجر في « فتح الباري » (٧/ ١٢٠) في شرحه لحديث =

أسند عن أبيه ، فمن أحاديثه عن أبيه : قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « استحيوا من الله حق الحياء » ، قالوا : يا رسول الله ؛ كيف ذاك ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « من استحيىٰ من الله حق الحياء . . فليحفظ الرأس وما وعىٰ ، والبطن وما حوىٰ ، وليذكر الموت والبلىٰ ، ومن أراد الآخرة . . ترك زينة الدنيا ، فمن فعل ذلك . . فقد استحيىٰ من الله حق الحياء »[1] .

ومن أحاديثه أيضاً : عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « التائب من الذنب . . كمن لا ذنب له »[2] . انتهىٰ [« الحلية » ٤/ ٢٠٤ـ٢١٠] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

= « ضحك الله من فعالكما » : ونسبة الضحك والتعجب إلى الله مجازية ، والمراد بها : الرضا بصنيعهما . انتهىٰ ، والله أعلم .

(١) أخرجه بنحوه الطبراني في « الصغير » (١/ ٢٩٨) ، والحاكم (٤/ ٣٥٩) عن مرة الهمداني ، عن عبد الله بن مسعود .

(٢) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١٠/ ١٥٠) .

ومنهم الإمامان :

يزيد بن شريك التَّيْمي وابنه إبراهيم
رضي الله عنهما

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : عن يزيد بن شريك قال : قدمت البصرة ، فربحت فيها عشرين ألفاً ، فما اكترثت بها فرحاً .

وقال : ما أريد أن أعود إليها ؛ لأني سمعت أبا ذر يقول : صاحب الدرهم يوم القيامة أخف حساباً من صاحب الدرهمين .

وقال : إني لأقعد من امرأتي مقعد الرجل من أهله ، فأذكر الموت ، فما أنا بأقدر عليه مني من أن أمس السماء .

وقال إبراهيم التيمي بن يزيد : مثَّلت نفسي في النار أعالج أغلالها وسعيرها ، وآكل من زقومها ، وأشرب زمهريرها[1] ، فقلت : يا نفس ؛ أي شيء تشتهين ؟ قالت : أرجع إلى الدنيا ، فأعمل عملاً صالحاً ؛ لعلي أنجو به من هـٰذا العذاب ، ومَثَّلت نفسي في الجنة مع حورها ، وأَلْبَس من سندسها وإستبرقها وحريرها ، فقلت : يا نفس ؛ أي شيء تشتهين ؟ قالت : أرجع إلى الدنيا ، فأعمل عملاً أزداد به من هـٰذا الثواب ، قلت : فأنت في الدنيا وفي الأمنية .

وقال إبراهيم التيمي : ما عرضت عملي علىٰ قولي . . إلا خشيت أن أكون مكذباً .

وربما قيل لإبراهيم : تكلم ، فيقول : ما يحضرني نية .

وكان من دعائه : اللهم ؛ اعصمني بكتابك وسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم من الاختلاف في الحق ، ومن اتباع الهوىٰ بغير هدًىٰ منك ، ومن سبل الضلالة ، ومن شبهات الأمور ، ومن الزيغ واللَّبس والخصومات .

---

(١) **الزمهرير** : هو ريح جهنم ، وقيل هو : الصديد وما يسيل من دموع وغُسالة أهل النار ، ولعله المراد هنا ، أعاذنا الله والمسلمين منها .

وقال : ما أكل آكل أكلة تسره ، ولا شرب شربة تسره . . إلا نقص بها من حظه في الآخرة .

وكان إذا سجد . . تجيء العصافير ، فتنقر علىٰ ظهره ، كأنه جِذمُ[1] حائط .

وقال : كم بينكم وبين القوم ؟! أقبلت عليهم الدنيا فهربوا منها ، وأدبرت عنكم فاتبعتموها .

وقرأ في قصصه : ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ﴾ ، فقال إبراهيم : سبحان من قطَّع من النيران ثياباً .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾ ، قال : حتىٰ من موضع كل شعرة ، وقال الحسن بن هارون : من أطراف كل شعرة .

وقال إبراهيم النخعي : ما أحد ممن يتكلم أحرىٰ أن يُطلَب به وجهُ الله من إبراهيم التيمي .

وعن العَوَّام بن حوشب قال : ما رأيت رجلاً قط خيراً من إبراهيم التيمي ، وما رأيته رافعاً بصره إلى السماء في صلاة ولا في غيرها ، وسمعته يقول : إن الرجل ليظلمني فأرحمه .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ قال : ما طول يوم القيامة على المؤمنين إلا ما بين الظهر والعصر .

وقال إبراهيم التيمي : رأيت في المنام كأني وردت علىٰ نهر ، فقيل لي : اشرب واسق من شئت ؛ بما صبرتَ وكنتَ من الكاظمين . انتهىٰ [« الحلية » ٤/ ٢١٠ـ٢١٣] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : توفي إبراهيم التيمي في حبس الحجاج ، سنة اثنتين وتسعين ، قال علي بن محمد : كان سبب حبس إبراهيم التيمي : أن الحجاج طلب إبراهيم النَّخعي ، فجاء الذي طلبه ، فقال : أريد إبراهيم ، فقال : أنا إبراهيم ، فأخذه وهو لا يعلم أنه إبراهيم التيمي ، ولم يَستحِلَّ أن يدل عليه[2] ، فجاء الحجاج ، فأمر بحبسه في الديماس[3] ، ولم يكن له ظل من الشمس ، ولا كِنٌّ من البرد ، وكان كل اثنين في سلسلة ،

---

(١) **جذم الحائط** : بقيته .

(٢) أي : لم يُبح لنفسه أن يدل رسولَ الحجاج علىٰ إبراهيم النخعي .

(٣) **الديماس** : البيت المظلم في جوف الأرض وأيضاً : الحمَّام .

فتغير إبراهيم ، فجاءته أمه في الحبس ، فلم تعرفه حتىٰ كلَّمَها ، فمات في السجن ، فرأى الحجاجُ في منامهَ قائلاً يقول له : مات في هـٰذه البلدة الليلة رجل من أهل الجنة ، فلما أصبح . . قال : مات الليلة أحد بواسط ؟ قالوا : نعم ، إبراهيم التيمي مات في السجن ، فقال : حُلُمٌ ، نَزْغَةٌ من نزغات الشيطان ، فأمر به ، فألقي على الكناسة . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/٤٤] .

وقال الحافظ : قال الأعمش : قلت لإبراهيم التيمي : بلغني أنك تمكث شهراً لا تأكل شيئاً ، قال : نعم ، وشهرين ، ما أكلت منذ أربعين ليلة ، إلا حبة عنب ، ناولنيها أهلي ، فأكلتها ، ثم لفظتها .

ومن كلامه : أي حسرة على امرىء أكبر من أن يكون له غلام في الدنيا يراه يوم القيامة أفضل منزلة منه عند الله عز وجل! وأي حسرة على امرىء أكبر من أن يصيب مالاً ، فيرثه غيره ، فيعمل فيه بطاعة الله ، فيصير وزره عليه وأجره لغيره! وأي حسرة على امرىء أكبر من أن يرىٰ من كان مكفوف البصر ، ففتح له عن بصره يوم القيامة وعمي هو! إن من كان قبلكم يفرون من الدنيا وهي مقبلة عليهم ، ولهم من القَدَم ما لهم ، وأنتم تتبعونها وهي مدبرة عنكم ، ولكم من السيئات ما لكم ، فقيسوا أمركم وأمْرَ القوم .

وقال : بلغني أنه يقسم للرجل من أهل الجنة شهوة مئة وأكلهم ونهمتهم ، فإذا أكل . . سقي شراباً طهوراً ، فخرج من جلده رشح كرشح المسك ، ثم تعود شهوته .

وقال : **إذا رأيت الرجل يتهاون في التكبيرة الأولىٰ . . فاغسل يدك منه** .

وقال : **ينبغي لمن لم يحزن أن يخاف أن يكون من أهل النار ؛ لأن أهل الجنة قالوا : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ ، وينبغي لمن لم يشفق[1] أن يخاف ألاَّ يكون من أهل الجنة ؛ لأنهم قالوا : ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾** .

وقال : أعظم الذنب عند الله عز وجل . . أن يُحدِّث العبد بما ستر الله سبحانه وتعالىٰ عليه .

أسند إبراهيم بن يزيد عن جماعة ، وأكثر روايته عن أبيه ، وعن الحارث بن سويد . انتهىٰ [« الحلية » ٤/٢١٣ـ٢١٥] .

---

(١) **يشفق** : الشفقة هنا بمعنى الخوف من الله عز وجل ، وبسبب هـٰذه الشفقة منَّ الله على المؤمنين بالمغفرة والرحمة .

وقال أبو حامد الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : كان إبراهيم التيمي يسأل أصحابه الدرهمين ونحوهما ، ويعرض عليه غيرهم المئتين فلا يأخذ ، وإنما فعل ذلك لشدة ورعه ؛ فإنه يراعي ـ بعد سلامته عن الآفات ـ التخلص عن المنة .

وقد قال العارفون : متىٰ علم المُهدىٰ إليه حصول المنة . . فالأولى الترك ، فإن كانت المنة في البعض دون البعض . . فليرد ما فيه المنة .

جاءت صرة إلىٰ فتح الموصلي فيها خمسون درهماً ، فأخذ درهماً ورد سائرها ، فجمع بين الرد والقبول ، وما ذاك إلا لحذر الآفة من الرد والآفة من القبول ، ولا شك أن أعمالهم دقيقة جليلة في جميع أفعالهم .

وقد حكي عن بعض العارفين : أنه أعطاه صديقه شيئاً ، فقال له : اتركه عندك ، ثم انظر : إن كنتُ عندك بعد قبوله في قلبك أفضل مني قبل القبول . . فأخبرني حتىٰ آخذه ، وإلا . . فلا ، وأمارة هـٰذا أن يشق عليه الرد لو رده ، ويفرح بالقبول ، ويرى المنة علىٰ نفسه في قبول صديقه هديته ، فإن علم أنه يمازجه منة . . فأخْذه مباح ، ولـٰكنه مكروه عند الفقراء الصادقين ، ولهـٰذا قال بشر بن الحارث رحمه الله : ما سألت أحداً قط شيئاً إلا سريّاً السقطي ؛ لأنه قد صح عندي زهده في الدنيا ، فهو يتبرم بما يبقىٰ عنده ، ويفرح بإخراجه ، فأكون عوناً له علىٰ ما يحب . انتهىٰ [« الإحياء » ٤/٢٠٧ـ٢٠٨] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو عمران إبراهيم بن يزيد النَّخعي
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : عن الأعمش قال : كان إبراهيم يتوقى الشهرة ، وكان لا يجلس إلى الأسطوانة ، وكان إذا سئل عن مسألة . . لم يزد علىٰ جوابها ، فأقول له في الشيء يُسأل عنه ، أليس فيه كذا وكذا ؟ فيقول : إنه لم يسألني عن هـٰذا .

وكان إبراهيم صيرفي الحديث[1] ، وكنت إذا سمعت الحديث . . أعرضه عليه .

وقال منصور : ما سألت إبراهيم قط عن مسألة . . إلا رأيت الكراهية في وجهه ، يقول : أرجو أن تكون وعسىٰ .

وعن الأعمش قال : كنت عند إبراهيم وهو يقرأ في المصحف ، فاستأذن عليه رجل ، فغطى المصحف ، وقال : لا يحسَب هـٰذا أني أقرأ فيه كل ساعة .

وأرسل إليه المختار ابن أبي عبيد يطلبه ، فطلىٰ وجهه بطلاء ، وشرب دواء ، ولم يأتهم ، فتركوه .

وعن شعيب قال : كنت فيمن صلىٰ علىٰ إبراهيم ليلاً ، ودفن في زمان الحجاج ، إما تاسع تسعة ، وإما سابع سبعة ، ثم أصبحت ، فغدوت على الشعبي فقال : دفنتم ذاك الرجل الليلة ؟ قال : قلت : نعم ، قال : دفنتم أفقه الناس ، قلت : ومِنَ الحسن ؟ قال : أفقه من الحسن ، ومن أهل البصرة ، وأهل الكوفة ، وأهل الشام ، وأهل الحجاز .

وعن عبد الله بن أشعث قال : قلت للحسن : مات إبراهيم ، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، إن كان لَقَديمَ السن لَكَثيرَ العلم .

---

(١) **الصيرفي** : النَّقَّاد الذي يبين زيف الدراهم والدنانير .
والمقصود هنا : الإمام الذي يبين ضعف الحديث دون أن يشير إلى العلة ؛ لخفائها وعدم القدرة علىٰ بيانها ، لـٰكنه يعرفها بالخبرة والممارسة .

وكان الشعبي وأبو الضحىٰ وإبراهيم وأصحابنا يجتمعون في المسجد ، فيتذاكرون الحديث ، فإذا جاءتهم فتيا ليس عندهم منها شيء . . رموا بأبصارهم إلىٰ إبراهيم النخعي .

وقال الأعمش : ما عرضت علىٰ إبراهيم حديثاً قط . . إلا وجدت عنده منه شيئاً .

وعن عبد الملك ابن أبي سليمان قال : سمعت سعيد بن جبير يُسأل ، فيقول : تستفتوني وفيكم إبراهيم النخعي ؟!

وعن الأعمش قال : رأيت علىٰ إبراهيم قباء محشواً ، وملحفة حمراء .

وعن مغيرة ، عن إبراهيم قال : كان أصحابنا يكرهون تفسير القرآن ، ويهابونه .

وقال إبراهيم : وددت أني لم أكن تكلمت ، ولو وجدت بُدّاً من الكلام . . ما تكلمت ، وإن زماناً صرت فيه فقيهاً . . لزمان سوء .

وذُكِر عثمانُ وعليٌّ رضي الله عنهما ، ففضل رجل علياً علىٰ عثمان ، فقال له إبراهيم : إن كان هـٰذا رأيك . . فلا تجالسنا .

وكان إبراهيم يصوم يوماً ويفطر يوماً .

ولما احتُضر . . بكىٰ ، فقيل له في ذلك ، فقال : كيف لا أبكي وأنا أنتظر رسولاً من ربي يبشرني إما بهـٰذه وإما بهـٰذه ؟!

وقال : كانوا يقولون ويرجون إذا لقي اللهَ الرجلُ المسلمُ وهو نقي الكف من الدم . . أن يتجاوز الله تعالىٰ عنه ، ويغفر له ما سوىٰ ذلك من ذنوبه .

وكانوا إذا أتوا إلى الرجل ليأخذوا عنه . . نظروا إلىٰ صلاته ، وإلىٰ هديه ، وإلىٰ سمْته .

وقال إبراهيم : إني لأسمع الحديث ، فأنظر إلىٰ ما يؤخذ به ، فآخذ به ، وأدع سائره .

وقال إبراهيم : من جلس ليُجلَسْ إليه . . فلا تجلسوا إليه .

وسئل إبراهيم عن شيء ، فجعل يتعجب ، ويقول : احتيج إليَّ ، احتيج إليَّ .

وعن أبي حصين قال : أتيت إبراهيم أسأله عن شيء ، فقال : أمَا وجدت أحداً فيما بيني وبينك تسأله غيري ؟!

وعن أشعث بن سوار قال : جلست إلىٰ إبراهيم ما بين العصر إلى المغرب ، فلم يتكلم ، فلما مات . . سمعت الحكم وحماداً يقولان : قال إبراهيم ، فأخبرتهما بجلوسي إليه وأنه لم يتكلم ، فقالا : إنه كان لا يتكلم حتىٰ يُسأل .

وعن الأعمش ، عن إبراهيم قال : يكره أن يقال : حانت الصلاة .

وعن الأعمش قال : قلت لإبراهيم : يمر الكَحَّال وهو نصراني ، فأسلم عليه ؟ فقال : لا بأس أن تسلم عليه إذا كانت لك حاجة إليه ، أو بينكما معروف .

وقال إبراهيم : إذا قرأ القرآن الرجل نهاراً . . صلت عليه الملائكة حتىٰ يمسي ، وإذا قرأه ليلاً . . صلت عليه الملائكة حتىٰ يصبح ، قال الأعمش : فرأيت أصحابنا يعجبهم أن يكون ختمهم أول النهار وأول الليل .

وقال إبراهيم : إذا قال الإنسان حين يصبح : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم عشر مرات . . أجير من الشيطان حتىٰ يمسي ، وإذا قاله ممسياً . . أجير من الشيطان حتىٰ يصبح .

وكان رجل[1] آخذاً بيد إبراهيم وهما ماشيان إلى المسجد ، فذكر رجلاً ، فتنقصه ، فلما دنا من المسجد . . انتزع إبراهيم يده من يده ، وقال : اذهب فتوضأ ، قد كانوا يعدون هٰذا هجراً .

وقال إبراهيم : الكذب يفطِّر الصائم .

وقال إبراهيم : كانت تكون فيهم الجنازة يظلون الأيام محزونين ، يُعْرَف ذاك فيهم .

وقال إبراهيم : لو أن عبداً اكتتم بالعبادة كما يكتتم بالفجور . . لأظهر الله عز وجل ذلك منه .

وقال إبراهيم : ما ذكرت هٰذه الآية الكريمة . . إلا ذَكَرْت بَرْدَ الشراب : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ .

وقال : من ابتغىٰ شيئاً من العلم يبتغي به وجه الله عز وجل . . آتاه الله منه ما يكفيه .

وقال : إذا دعا أحدكم . . فليبدأ بنفسه ؛ فإنه لا يدري أي دعاء يستجاب له .

وعن إبراهيم قال : كانوا يكرهون إذا اجتمعوا أن يُخْرِج الرجل أحسن حديثه ، أو من أحسن ما عنده .

وعن الأعمش : أن رجلاً أعطاه مالاً يخرج به إلىٰ ماه[2] يشتري به زعفراناً ، قال :

---

(١) الحارث العكلي .

(٢) ماه : اسم يعني : قصبة البلد ، يضاف لكثير من المواضع فيقال : ماه البصرة وماه الكوفة وماه فارس . . . إلخ ، والمراد هنا : ماه الكوفة والله أعلم ، انظر « معجم البلدان » مادة (ماه) .

فذكرت ذلك لإبراهيم فقال : ما كانوا يطلبون الدنيا هـٰذا الطلب .

وعن إبراهيم قال : إن الرجل ليتكلم بالكلام علىٰ كلامه المقت ينوي به الخير ، فيُلقي الله عز وجل له العذر في قلوب الناس ، حتىٰ يقولوا : ما أراد بكلامه إلا الخير ، وإن الرجل ليتكلم بالكلام الحسن لا يريد به الخير ، فيلقي الله عز وجل في قلوب الناس ما أراد ، حتىٰ يقولوا : ما أراد بكلامه الخير .

وقال إبراهيم : [قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه] : كل نفقة ينفقها العبد . . فإنه يؤجر عليها ، غير نفقة البناء ، إلا بناء مسجد يراد به وجه الله عز وجل ، فقيل لإبراهيم : أرأيت إن كان بناء كفافاً ؟ قال : لا أجر ولا وزر .

وقال : **إن مَن كان مِن قبلكم كان خصبهم في بيوتهم ، وفي لباسهم تَجَوُّزٌ ، فإذا فضل عنهم شيء . . فعلى الأقارب ، وإن فضل عنهم . . فعلى الجيران ، وإن فضل . . فهـٰهنا وهـٰهنا من مسكين وفقير .**

وكان يعجبهم أن يكون في بيوتهم التمر للزائر والسائل .

وقال : كانوا يكرهون أن يصغروا المصحف ، وكان يقال : عظموا كتاب الله عز وجل . انتهىٰ [« الحلية » ٤/٢١٩ـ ٢٣٠] .

وقال القشيري ـ رحمه الله ـ : استأجر إبراهيم النخعي دابة ، فسقط سوطه من يده ، فنزل وربط الدابة موضع نزوله ، ورجع وأخذ السوط ، فقيل له : لو حولت الدابة إلى الموضع الذي سقط فيه السوط فأخذتَه ، فقال : إنما استأجرتها لأمضي هـٰكذا لا هـٰكذا . انتهىٰ [« الرسالة » ٩٢ـ٩٣] .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : وقال إبراهيم : كانوا يكرهون أن يسموا العبد عبد الله ؛ يخافون أن يكون ذلك عتقاً ، وكانوا يكرهون أن يظهروا صالح ما يسرون ، يقول الرجل : إني لأستحب أن أفعل كذا وكذا ، وأصنع كذا وكذا ، وكانوا يعطون الشيء ويكرهون أن يقولوا : أعطيتك أحتسب بك الخير ، أو يقول : هو حر لوجه الله ، وكانوا يعطون ويسكتون ، ولا يقولون شيئاً .

قال الحافظ : قال إبراهيم : وإني لأرى الشيء أكرهه في نفسي ، ما يمنعني أن أعيبه . . إلا كراهية أن أبتلىٰ بمثله .

وعن خلف بن حوشب أن جواباً التيمي كان يرتعد عند الذِّكر ، فقال له إبراهيم : إن كنت

تملكه . . فما أبالي ألاَّ أعتد بك ، وإن كنت لا تملكه . . فقد خالفت من هو خير منك .

وقال : كان يقال : (الحمد لله) أكثر الكلام تضعيفاً .

وقال : العتل : الفاجر ، والزنيم : اللئيم في أخلاف الناس .

وقال : كانوا يرون أنه سبحانه وتعالىٰ يفرغ من حساب الناس يوم القيامة في مقدار نصف النهار ، ثم يَقِيل هـٰؤلاء في الجنة وهـٰؤلاء في النار .

وقال : كانوا يستحبون شدة الفزع للسيئة قد عملها لتكون بها .

وعن إبراهيم والحسن قالا : كفىٰ بالمرء إثماً أن يشار إليه بالأصابع في دين أو دنيا ، إلا من عصم الله تعالىٰ ، التقوىٰ هـٰهنا . يومىء إلىٰ صدره ثلاث مرات .

وعن مغيرة قال : كان رجل علىٰ حال حسنة ، فأحدث ـ أو أذنب ذنباً ـ فرفضه أصحابه ونبذوه ، فبلغ ذلك إبراهيم ، فقال : تداركوه وعظوه ، ولا تدعوه .

وقال إبراهيم : كانوا يكرهون التلون في الدين .

أدرك إبراهيم جماعة من الصحابة ، رضوان الله تعالىٰ عليهم ، وأكثر روايته عن علماء التابعين .

فمن أحاديثه : عن الأسود ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : جاء رجل إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ؛ إنك لأحب إلي من نفسي ، وإنك لأحب إلي من أهلي ، وإنك لأحب إلي من ولدي ، وإني لأكون في البيت فأذكرك ، فما أصبر حتىٰ آتيك فأنظر إليك ، فإذا ذكرت موتي وموتك . . عرفت أنك إذا دخلت الجنة . . رفعت مع النبيين ، وإني وإن أدخلت الجنة . . خشيت ألاَّ أراك ، فلم يَرُدَّ إليه النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً ، حتىٰ نزل جبريل عليه الصلاة والسلام بهـٰذه الآية : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1] . انتهىٰ [« الحلية » ٤/ ٢٣٠ـ٢٤٠] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : عن مغيرة : أن إبراهيم كان يلبس الثوب المصبوغ بالزعفران أو بالعصفر ، وكان من يراه لا يدري من القراء هو أم من الفتيان .

وعن الأعمش قال : جهدنا بإبراهيم أن يستند إلىٰ سارية ، فأبىٰ علينا ، وكان يتوقى

---

(١) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (١/ ١٥٣) .

الشهرة ، ولا يجلس إلى الأسطوانة ، وكان يجلس مع القوم ، فيجيء الرجل ، فيوسع له ، فإذا اضطره المجلس إلى الأسطوانة . . قام .

وقال مغيرة : كنا نهاب إبراهيم كما نهاب الأمير .

وقال سفيان : قال إبراهيم : إنه ليطول عليَّ الليل حتىٰ ألقىٰ أصحابي فأذاكرهم .

توفي سنة خمس وتسعين ، وهو ابن أربع وأربعين[1] ، وقيل : نيف وخمسين سنة ، رضي الله عنه . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/ ٤٢ـ٤٣] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) وجاء في « الصفوة » : (وهو ابن تسع وأربعين) .

ومنهم الإمام :

عون بن عبد الله بن عتبة
رضي الله عنهم

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال عون بن عبد الله : إن لكل رجل سيداً من عمله ، وإن سيد عملي الذِّكر .

وقال : مجالس الذكر . . شفاء القلوب .

وقال : ذكر الله عز وجل . . صقال القلوب .

وقال : ذاكر الله في الغافلين . . كالمقاتل عن الفارِّين ، والغافل في الذاكرين . . كالفارِّ عن المقاتلين .

وفي رواية : ذاكر الله في غفلة الناس . . كمثل الفئة المنهزمة يحميها الرجل ، ولولا ذلك الرجل . . لهزمت الفئة ، ولولا من يذكر الله عز وجل في غفلة الناس . . هلك الناس .

وقال : لو يأتي على الناس ساعة لا يُذكر الله عز وجل فِيها . . هلك من في الأرض جميعاً .

وعن مسعر ، عن عون قال : كانوا يتلاقَون فيتساءلون ، وما يريدون بذلك إلا أن يحمدوا الله عز وجل .

ووصل إلىٰ عون بن عبد الله أكثر من عشرين ألف درهم [فتصدق بها] ، فقال له أصحابه : لو اعتقدت عُقْدَةً[1] لولدك ، فقال : أعتقدها لنفسي ، وأعتقد الله عز وجل لولدي ، قال أبو أسامة : فلم يكن في المسعوديين أحسن حالاً من عبد الله بن عون ، وإنه لما حضرته الوفاة وكانت له ضيعة . . أوصىٰ أن تباع ويُتصدق بها عنه ، فقيل له : أتتصدق بضيعتك وتدع عيالك ، فقال : أقدم هـٰذه لنفسي ، وأدع الله سبحانه وتعالىٰ لعيالي ، وكان

---

(١) **العقدة** : كل ما يمتلكه الإنسان من ضيعة أو عقار أو مال أو متاع .

مَن قبلنا يجعلون للدنيا ما فضل عن آخرتهم ، وإنكم اليوم تجعلون لآخرتكم ما فضل عن دنياكم .

وقال : لو تنظرون إلى الأجل ومسيره . . لأبغضتم الأمل في غروره .

وكان أحياناً يلبس الخز ، وأحياناً يلبس الصوف ، فقيل له في ذلك ، فقال : الخز لئلاَّ يستحي ذو الهيئة أن يجلس إلي ، والصوف لئلاَّ يهابني ضعفاء الناس أن يجلسوا إلي .

وقال : إن من تمام التقوىٰ طلب علم ما لم يعلم ، وإن من نقص التقوىٰ . . ترك الزيادة فيه ، وإنما يحمل الرجل علىٰ ترك ابتغاء الزيادة فيه . . قلة الانتفاع بما قد علم .

وكان يقول : اليوم المضمار ، وغداً السباق إلى الجنة ، والغاية الجنة أو النار ، فبالعفو تنجون ، وبالرحمة تدخلون ، وبالأعمال تقتسمون المنازل .

وقال : كفىٰ بك من الكبر . . أن ترىٰ لك فضلاً علىٰ من هو دونك .

وكانوا يقولون : ذلوا عند الطاعة ، وعزوا عند المعصية .

وقال : إن الله عز وجل ليُدخل الجنة خلقاً ، فيعطيهم حتىٰ يتملوا ، وفوقهم ناس في الدرجات العلىٰ ، فلما نظروا إليهم . . عرفوهم ، فيقولون : يا ربنا ؛ إخواننا كنا معهم فضلتهم علينا ؟ فيقول الرب جل جلاله ، ولا إلٰه غيره : هيهات ، هيهات! إنهم كانوا يجوعون حين تشبعون ، ويظمؤون حين تروون ، ويقومون حين تنامون ، ويبذلون حين تحفظون[1] .

وقال : كان الفقهاء يتواصون بينهم بثلاث ، ويكتب بعضهم إلىٰ بعض : مَن عمل لآخرته . . كفاه الله عز وجل دنياه ، ومَن أصلح سريرته . . أصلح الله سبحانه وتعالىٰ علانيته ، ومن أصلح ما بينه وبين الله تعالىٰ . . أصلح الله تعالىٰ ما بينه وبين الناس .

وعن عون قال : قال رجل من الفقهاء في قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ قال الفقيه : والله ؛ إنه ليجعل لنا مخرجاً ، وما بلغنا من التقوىٰ ما هو أهله ، وإنه ليرزقنا وما اتقينا كما ينبغي ، وإنه ليجعل لنا من أمرنا يسراً وما اتقينا ، وإنا لنرجو الثالثة ، ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾ .

وكان عون بن عبد الله يحدث ولحيته تَرْتَشُّ بالدموع .

---

(١) جاء في نسخة : (يُذَلُّون حين تُحفَظون) وفي « الحلية » : (ويشخصون حين تخفضون) .

وقال : جالسوا التوابين ؛ فإنهم أرق الناس قلوباً .

وقال : فواتح التقوىٰ . . حسن النية ، وخواتمها . . التوفيق ، والعبد فيما بين ذلك هلكات وشبهات .

وقال : صدأ القلوب من كثرة رين الذنوب[1] ، وجلاؤها بالتوبة ، حتىٰ تدع القلوب كالسيف النقي المرهف .

وقال : دواء الذنوب بالتوبة ؛ فلرب تائب دعته توبته إلى الجنة حتىٰ أدخلته فيها .

وقال : جالسوا التوابين ؛ فإن رحمة الله تعالىٰ إلى التائبين أقرب .

وقال : اهتمام العبد بذنبه . . داع إلىٰ تركه ، وندمه عليه . . مفتاح للتوبة ، ولا يزال العبد يهتم بالذنب يصيبه حتىٰ يكون أنفع له من بعض حسناته .

وكان يقول : إن العباد في فسحة من ستر الله عز وجل ما أقاموا العبادة ، ولم يهرقوا دماً حراماً .

وكان إذا خرج من بيته . . قال : بسم الله ، توكلت على الله ، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، قال محمد بن كعب القرظي : هـٰذا في القرآن ﴿ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ ﴾ ، وقالوا : ﴿ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا ﴾ .

وقال رجل لعون بن عبد الله : إني أخاف أن أكون منافقاً ، فقال : لو كنت منافقاً . . ما خفت ذلك .

وقال : يخرج لابن آدم يوم القيامة دواوين ، ديوان فيه الحسنات ، وديوان فيه السيئات ، وديوان فيه النعم ، فلا تخرج حسنة . . إلا خرجت نعمة تستوعبها ، وتبقى السيئات عليه ، لله عز وجل فيه المشيئة .

وقال : كان رجل يجالس قوماً ، فترك مجالستهم ، فأُتي في منامه ، فقيل له : تركت مجالستهم ، لقد غُفر لهم بعدك سبعين مرة .

وعن يحيى بن جابر قال : قدم علينا عون بن عبد الله ، فقعدنا إليه في المسجد ، فوعَظَنا بموعظة لم نسمع بمثلها ، ثم قال أين مسجدكم الذي كان يصلي فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فذهبنا به إليه ، فصلىٰ فيه ركعتين ، ثم قال : هل من مريض نعوده ؟

---

(١) ران ذنبه علىٰ قلبه : غلب عليه وغطاه ، قال الحسن : هو الذنب على الذنب حتىٰ يسوادَّ القلب .

قلنا : نعم ، فأتينا يزيد بن ميسرة ، فلما قعدنا . . وعظَنا موعظة أخرىٰ أُنسينا التي كانت قبلها ، فاستوىٰ يزيد بن ميسرة وهو مريض ، فقال : بخٍ بخٍ! لقد استعرضتَ بحراً عريضاً ، واستخرجتَ منه نهراً غزيراً ، ونصبتَ عليه شجراً كثيراً ، فإن كان شجرك مثمراً . . أكلت وأطعمت ، وإن كان شجرك غير مثمر . . فإن في أصل كل شجرة فأساً ، قال عون لابن ميسرة : ثم ماذا ؟ قال : ثم تقطع ، فقال ابن عون : ثم ماذا ؟ قال ثم توقد في النار ، فقال عون : ما وقعت من قلبي موعظة كموعظة يزيد بن ميسرة .

وقال عون : اجعلوا حوائجكم التي تهمكم في الفريضة ؛ فإن الدعاء فيها كفضلها على النافلة .

وقال : إذا أعطيت المسكين شيئاً ، فقال : بارك الله فيك . . فقل : أنت بارك الله فيك ، حتىٰ تخلص صدقتك .

وقال عون : المؤمن يأْلَف ، ولا خير فيمن لا يأْلَف ولا يؤْلَف .

وقال : صِلْ من كان أبوك يصله ؛ فإن صلة الميت في قبره . . أن تصل من كان أبوك يواصل .

وقال : الخير الذي لا شر فيه . . الشكر مع العافية ، فكم من مُنعَم عليه غير شاكر ، وكم من مبتلًىٰ غير صابر .

وكان يقول : الحمد لله علىٰ كل حال .

وكان يقول : يا ويح نفسي! كيف أَغفل ولا يُغفَل عني ؟! أم كيف تهنئني المعيشة واليوم الثقيل ورائي ؟! أم كيف يشتد عجبي بدار في غيرها قراري وخُلدي ؟!

وكان يقول : ويحي! بأي شيء أستقبل ربي سبحانه وتعالىٰ ؟! بلساني ، أم بيدي ، أم بسمعي ، أم بقلبي ، أم ببصري ؟! ففي كل هـٰذا له الحجة عليَّ سبحانه وتعالىٰ .

وكان يقول : اقبل توبتي ، واستجب دعوتي ، ولا تخذلني بالمعاصي التي كانت مني ، ولا تجعلني لنار جهنم وقوداً بعد توحيدي وإيماني بك ، واغفر لي ولوالدي ولجميع المسلمين يا أرحم الراحمين ، آمين .

ومن وصيته لابنه : إياك ومَن زهادته فيما أُمر به من العمل ، وإياك ومَن يتفرغ لما فُرِغ له من الرزق ، وتخشى الخلق ولا تخشىٰ من الموت ، نعوذ بالله من ذلك .

وقال عون بن عبد الله : ما كان الله عز وجل لينقذنا من شيء ثم يعيدنا فيه ؛ قال الله

تعالىٰ : ﴿ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ ، وما كان الله عز وجل ليجمع أهل قَسَمين في النار ؛ قال الله تبارك وتعالىٰ : ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ ، ونحن نقسم بالله العظيم الذي لا إلـه إلا هو وهو سبحانه وتعالىٰ يعلم جَهد أيماننا ؛ ليبعثن الله من يموت ؛ أي : والله الذي لا إلـه إلا هو ؛ ليبعثن الله من يموت .

أدرك عون جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، وصحب كبار التابعين وعلمائهم .

روىٰ عنه جماعة من التابعين ، فمن حديثه : عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : بينما نحن نصلي مع النبي صلى الله عليه وسلم ؛ إذ قال رجل من القوم : الله أكبر كبيراً ، والحمد لله كثيراً ، وسبحان الله بكرة وأصيلاً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَن القائل كذا وكذا ؟ » فقال رجل من القوم : أنا يا رسول الله ، قال : « عجبت لها ؛ فُتحت لها أبواب السماء » ، قال ابن عمر رضي الله عنهما : فما تركتهن منذ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك[1] .

وعن عون بن عبد الله ، عن ابن أبي فاختة ، عن الأسود بن يزيد قال : قرأ عبد الله بن مسعود : ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴾ قال : يقول الله تبارك وتعالىٰ يوم القيامة : من كان له عندي عهد . . فليقم ، قالوا : يا أبا عبد الرحمن ؛ فعلِّمنا ، قال : قولوا : **اللهم ، فاطر السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ؛ إني أعهد إليك في هـٰذه الحياة الدنيا أنك أنت الله الذي لا إلـه إلا أنت ، وحدك لا شريك لك ؛ فإنك إن تكلني إلىٰ نفسي . . تقربني من الشر ، وتباعدني من الخير ؛ فإني لا أثق إلا برحمتك ، فاجعل لي عندك عهداً توفينيه يوم القيامة ؛ إنك لا تخلف الميعاد** . انتهىٰ [« الحلية » ٤/٢٤١ـ٢٧٢] .

وقال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : كان عون بن عبد الله إذا عصاه مولاه . . قال له : ما أشبهك بمولاك ، مولاك يعصي مولاه جل جلاله ، وأنت تعصي مولاك .

وأغضبَه يوماً ، فقال : إنما تريد أن أضربك ، اذهب فأنت حر . انتهىٰ [« الإحياء » ٢/٢٢٠] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرجه مسلم (٦٠١) .

ومنهم الإمام :

أبو عبد الله سعيد بن جبير
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : كان سعيد بن جبير يبكي حتىٰ عَمِشَ ، وكان يردد هـٰذه الآية في الصلاة بضعاً وعشرين مرة : ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ .

ودخل الكعبة ، فقرأ القرآن في ركعة ، وكان يختم القرآن فيما بين المغرب والعشاء في رمضان .

وكان ابن عباس رضي الله عنهما إذا أتاه أهل الكوفة يستفتونه . . يقول : أليس فيكم ابن أم الدهماء ؟

وعن سفيان ، عن عمرو بن ميمون ، عن أبيه قال : لقد مات سعيد بن جبير وما علىٰ ظهر الأرض أحد . . إلا وهو محتاج إلىٰ علمه .

ولما أخذ الحجاج سعيد بن جبير . . قال : ما أراني إلا مقتولاً ، وسأخبركم أني كنت أنا وصاحبين لي دعونا حين وجدنا حلاوة الدعاء ، ثم سألْنا اللهَ تعالى الشهادة ، فاستُشهِدا ، وأنا أنتظرها .

فكان يرىٰ أن الإجابة عند حلاوة الدعاء .

وقال سعيد : اللهم ؛ إني أسألك صدق التوكل عليك ، وحسن الظن بك .

وعن أبي حصين قال : أتيت سعيد بن جبير بمكة ، فقلت : إن خالد بن عبد الله قادم[1] ، ولا آمنه عليك ، فأطعني واخرج ، فقال : والله ؛ لقد فررت حتى استحييت من الله

---

(١) خالد بن عبد الله القسري الدمشقي : أمير العراقين لهشام حتىٰ سنة عشرين ومئة ، وولي قبل ذلك مكة للوليد بن عبد الملك ، ثم لسليمان ، وذلك من سنة تسع وثمانين إلىٰ سنة ست ومئة ، وفي أخبار وفاته خلاف .

تبارك وتعالىٰ ، فقلت له : والله ؛ إني لأراك كما سمَّتك أمك سعيداً .

قال : فقدم خالد مكة ، فأرسل إليه ، فأخذه . زاد في حديثه : فأخبرني يزيد بن عبد الله قال : أتينا سعيد بن جبير حين جيء به ؛ فإذا هو طيب النفس ، وبُنَيَّة له في حجره ، فنظرَتْ إلى القيد ، فبكت ، وشيعناه إلىٰ باب الجسر ، ودعا سعيد بن جبير ابنه حين دعي ليُقتل ، فجعل ابنه يبكي ، فقال : ما يبكيك ؟ ما بقاء أبيك بعد سبع وخمسين سنة .

وعن هلال بن خباب قال : خرجت مع سعيد بن جبير في أيام مضين من رجب ، فأحرم من الكوفة بعمرة ، ثم رجع من عمرته ، ثم أحرم بالحج في النصف من ذي القعدة .

وكان يخرج في كل سنة مرتين : مرة للحج ومرة للعمرة .

وقال كثير بن تميم الداري : كنت جالساً مع سعيد بن جبير ، فطلع عليه ابنه عبد الله ، وكان به من الفقه ما به ، فقال : إني لأعلم خير حالاته ، قال : وما هو ؟ قال : أن يموت فأحتسبه .

وقال سعيد بن جبير : لدغتني عقرب ، فأقسمَتْ عَلَيَّ أمي أن أسترقي ، فأعطيت الراقي يدي التي لم تلدغ ، وكرهت أن أحنِّثَها .

وقال سعيد بن جبير : اعلم : أن كل يوم يعيشه المؤمن غنيمة .

وقال : إن الخشية أن تخشى الله تعالىٰ حتىٰ تحول خشيتك بينك وبين معصيتك ، فتلك الخشية ، والذِّكر هو طاعة الله عز وجل ، فمن أطاع الله عز وجل . . فقد ذكره ، ومن لم يطعه . . فليس بذاكر وإنْ أكثر التسبيح وتلاوة القرآن .

وقال : ما رأيت أرعىٰ لحرمة هـٰذا البيت ، ولا أحرص عليه من أهل البصرة ، لقد رأيت جارية ذات ليلة تعلقت بأستار الكعبة ، فجعلت تدعو وتبكي وتتضرع حتىٰ ماتت .

وقيل له : ما علامة هلاك الناس ؟ قال : إذا ذهب علماؤهم .

وقيل له : من أعبد الناس ؟ قال : رجل اجترح من الذنوب ثم تاب ، فكلما ذكر ذنوبه . . احتقر عمله .

وقال : لو فارق ذِكرُ الموت قلبي . . خشيت أن يَفْسُدَ عَلَيَّ قلبي .

وقال : إنما الدنيا جمعة من جمع الآخرة .

وكان لا يرىٰ أن يوتر مرتين ، ويقول : إنه من البدع ، ولـٰكن يصلي شفْعاً ما شاء .

وكان إذا طلع الفجر . . لا يتكلم ، ولا يزال يذكر الله عز وجل حتىٰ يصلي الصبح .

وقال : ما زال البلاء في أصحابي حتىٰ رأيت أن ليس لله عز وجل فيَّ حاجة حتىٰ نزل بي البلاء .

وسئل : الشكر أفضل ، أم الصبر ؟ فقال : الصبر ، والعافية أحب إلي .

وسئل عن أولاد المؤمنين ، فقال : هم مع خير آبائهم ؛ فإن كان الأب خيراً من الأم . . فَهُم مع الأب ، وإن كانت الأم خيراً من الأب . . فَهُم مع الأم .

وقال : وددت أن الناس أخذوا ما عندي ؛ فإنه مما يهمني .

وقال : كنت أسمع الحديث من ابن عباس رضي الله عنهما ، فلو يأذن لي . . لقبَّلت رأسه .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ ﴾ قال : إذا عُمل في أرض بالمعاصي . . فاخرجوا .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡ ﴾ قال : ما سَنُّوا .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ﴾ قال : أردفه جبريل عليه الصلاة والسلام حتىٰ سمع صرير القلم ، والتوراة تُكتَب له .

وقال : لما خلق الله عز وجل آدم . . نفخ الروح في رأسه قبل جسده ، فعطس ، فقال : الحمد لله الذي خلقني ، فقالت له الملائكة : يرحمك الله يا أبا محمد . أو كما قال .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا ﴾ : كان يؤدي الأمانات والودائع إلىٰ أهلها ، فحفظ الله له كنزه حتىٰ أدرك ولداه ، فاستخرجا كنزهما .

وقال سعيد بن جبير : نخل الجنة كَرَبُها[1] ذهب أحمر ، وجذوعها زمرد أخضر ، وسعفها[2] كسوة لأهل الجنة ، منها مُقطَّعاتهم[3] وحللهم ، وثمرها أمثال القلال والدلاء ، أحلىٰ من العسل ، وألين من الزُّبْد ليس له عَجَم[4] .

---

(١) **الكَرَبُ** ـ بالتحريك ـ : الأصل العريض للسعف إذا يبس .

(٢) **السعف** : جريد النخل وورقه .

(٣) **المقطعات** : كل ما يفصَّلُ من الثياب ويخاط .

(٤) **العَجَمُ** : النوىٰ .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ : الأرض : الجنة ، وهي فضة .

وقال في قوله تعالىٰ عن موسىٰ عليه الصلاة والسلام : ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ قال : إنه يومئذ لفقير إلىٰ شق تمرة .

وسئل عن فريضة من فرائض الجَد فقال : يابن أخي ؛ إنه كان يقال : من أحب أن يتجرأ علىٰ حَرِّ أثيمِ جهنم . . فليتجرَّأ علىٰ فرائض الجَد .

وعن خلف بن خليفة ، عن أبيه قال : شهدت مقتل سعيد بن جبير ، فلما بان رأسه . . قال : لا إلٰه إلا الله مرتين ، ثم قالها الثالثة ، فلم يتمَّها .

وعن يحيى بن سعيد ، عن كاتب للحجاج قال : كنت أكتب للحجاج ، وكان يستحسن كتابتي ، فأدخل عليه بغير إذن ، فدخلت عليه يوماً بعد قتل سعيد بن جبير ، وهو في قبة لها أربعة أبواب ، فدخلت مما يلي ظهره ، فسمعته يقول : ما لي ولسعيد بن جبير ، ما لي ولسعيد بن جبير ، فخرجت ، وعلمت أنه إن علم بي . . قتلني ، فلم يَنْشَبِ[1] الحجاج بعد ذلك إلا يسيراً .

وعن عون ابن أبي شداد قال : أرسل الحجاج إلىٰ سعيد بن جبير قائداً من أهل الشام من خاصة أصحابه ، يسمىٰ : المُتَلمِّس بن الأحوص ، ومعه عشرون رجلاً من أهل الشام من خاصة أصحابه ، فبينا هُم يطلبونه ؛ إذا هُمْ براهب في صومعة ، فسألوه عنه ، فقال الراهب : صِفُوه لي ، فوصفوه له ، فدَلَّهم عليه ، فانطلقوا ، فوجدوه ساجداً يناجي ربه عز وجل بأعلىٰ صوته ، فدنوا منه ، فسلموا عليه ، فرفع رأسه ، فأتم بقية صلاته ، ثم رد عليهم السلام ، فقالوا : إنا رسل الحجاج إليك ، فأجبه ، قال : ولا بد من الإجابة ؟ قالوا : لا بد ، فحمد الله تعالىٰ ، وأثنىٰ عليه ، وصلىٰ علىٰ نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم قام ، فمشىٰ معهم حتى انتهىٰ إلىٰ دير الراهب ، فقال الراهب : يا معشر الفرسان ؛ أأصبتم صاحبكم ؟ قالوا : نعم ، فقال لهم : اصعدوا الدير ؛ فإن اللبوة والأسد يأويان حول الدير ، فعجِّلوا الدخول قبل المساء ، ففعلوا ذلك وأبىٰ سعيد أن يدخل الدير ، فقالوا : ما نراك إلا وأنت تريد الهرب منا ، قال : لا ، ولٰكن لا أدخل منزل مشرك أبداً ، قالوا : فإنا لا ندعك ؛ فإن السباع تقتلك ، قال سعيد : لا ضير ، إن معي ربي فيصرفها عني ، ويجعلها

---

(١) لم يَنْشَبْ : لم يلبَث .

حرساً حولي يحرسونني من كل سوء إن شاء الله تعالىٰ ، قالوا : أفأنت من الأنبياء ؟! قال : ما أنا من الأنبياء ولٰكن عبد من عبيد الله خاطىء مذنب ، قال الراهب : فليعطني ما أثق به ، فعرضوا علىٰ سعيد أن يعطي الراهب ما يريد ، فقال سعيد : إني أعطي العظيم الذي لا شريك له ألاَّ أبرح من مكاني حتىٰ أصبح إن شاء الله تعالىٰ ، فرضي الراهب بذلك ، فقال لهم : اصعدوا وأوتروا القسي[1] لتُنَفِّروا السباع عن هٰذا العبد الصالح ؛ فإنه كره الدخول عليَّ في الصومعة . فلما صعدوا وأوتروا القسي ؛ إذا هُم بلبوة قد أقبلت ، فلما دنت من سعيد . . تحاكَّت به وتمسحت به ، ثم ربضت قريباً منه ، وأقبل الأسد ، فصنع مثل ذلك ، فلما رأى الراهب ذلك وأصبحوا . . نزل إليه ، فسأله عن شرائع دينه وسنن رسوله صلى الله عليه وسلم ، ففسر له سعيد ذلك كله ، فأسلم الراهب ، وحسن إسلامه ، وأقبل القوم علىٰ سعيد يعتذرون إليه ، ويقبِّلون يديه ورجليه ، ويأخذون التراب الذي وطئه بالليل ، ويقولون : يا سعيد ؛ قد حلَّفنا الحجاج بالطلاق والعتاق إن نحن رأيناك لا ندعك حتىٰ نشخصك إليه ، فمُرنا بما شئت ، فقال : امضوا لأمركم ؛ فإني لائذ بخالقي عز وجل ، لا راد لقضائه .

فساروا حتىٰ بلغوا واسطاً ، فلما انتهوا إليها . . قال لهم سعيد : يا معشر القوم ؛ لست أشك أن أجلي قد حضر ، وأن المدة قد انقضت ، فدعوني الليلة حتىٰ آخذ أهبة الموت ، وأستعد لمنكر ونكير ، وعذاب القبر ، وما يحثىٰ من التراب عليَّ ، فإذا أصبحتم . . فالميعاد بيني وبينكم الموضع الذي تريدون .

قال بعضهم : لا نريد أثراً بعد عين ، وقال بعضهم : قد بلغتم مأمنكم ، واستوجبتم جوائزكم من الحجاج ، فلا تعجزوا عنه ، وقال بعضهم : يعطيكم ما أعطى الراهب ، ويلكم! أما لكم عبرة بالأُسد كيف تحاكت به وتمسحت وحرسته إلى الصباح ؟! وقال بعضهم : هو عليَّ ، أدفعه إليكم إن شاء الله تعالىٰ .

فنظروا إلىٰ سعيد ، وقد دمعت عيناه ، وشعث رأسه ، واغبرَّ لونه ، ولم يأكل ولم يشرب ولم يضحك منذ لقوه وصحبوه ، فقالوا له جميعاً : يا خير أهل الأرض الآن ؛ ليتنا لم نعرفك ، ولم نُسَرِّحْ[2] إليك ، الويل لنا ويلاً طويلاً كيف ابتلينا بك ؟! اعذرنا عند خالقنا يوم الحشر الأكبر ؛ فإنه الحكم العدل الذي لا يجور .

فقال سعيد : ما أعذرني لكم ، وأرضاني لما سبق من علم الله سبحانه وتعالىٰ فيَّ .

---

(١) القِسِيُّ : جمع قوس ، والمعنىٰ : شدوا أوتار أقواسكم لتستعدُّوا للدفاع عنه .

(٢) سرَّح الرسول : أرسله في حاجة .

فلما فرغوا من البكاء والكلام فيما بينهم.. قال كفيله : أسألك بالله يا سعيد ؛ لما زودتنا من دعائك وكلامك ؛ فإنا لن نلقىٰ مثلك أبداً ، ولا نرىٰ أنه نلتقي إلىٰ يوم القيامة ، قال : ففعل سعيد ذلك ، فخلَّوا سبيله ، فغسل رأسه ومدرعته وكساءه ، وباتوا وهم خائفون الليل كله ، ينادون بالويل واللهف .

فلما انشق عمود الصبح.. جاءهم سعيد ، فقرع الباب ، فقال : صاحبكم ورب الكعبة ، فنزلوا إليه ، وبكوا معه طويلاً ، ثم ذهبوا به إلى الحجاج وآخرَ معه ، فدخلا على الحجاج ، فقال : أتيتموني بسعيد بن جبير ؟ قالوا : نعم ، وعاينَّا منه العجب ، فصرف بوجهه عنهم ، فقال : أدخلوه عليَّ ، فخرج المتلمِّس ، فقال [لسعيد] : أستودعك الله ، وأقرأ عليك السلام ، فأُدخل عليه ، فقال له : ما اسمك ؟ قال : سعيد بن جبير ، قال : أنت الشقي بن كسير ، قال : بل أمي كانت أعلم باسمي منك ، قال : شقيْتَ وشقيَتْ أمك ، قال : الغيب يعلمه غيرك ، قال : لأبدلنك بالدنيا ناراً تلظَّىٰ ، قال : لو علمت أن ذلك بيدك.. لاتخذتك إلـٰهاً ، قال : فما قولك في محمد ؟ قال سعيد : نبي الرحمة وإمام الهدىٰ صلى الله عليه وسلم ، قال : فما قولك في عليٍّ ؟ هو في الجنة أو في النار ؟ قال : لو دخلتُها فرأيتُ أهلها.. عرفتُ من فيها ، قال : فما قولك في الخلفاء ؟ قال : لستُ عليهم بوكيل ، قال : فأيهم أعجب إليك ؟ قال : أرضاهم لخالقي ، قال : فأيهم أرضاهم لخالقك ؟ قال : عِلْم ذلك عند الذي يعلم سرهم ونجواهم ، قال : أبيت أن تَصدُقَني ، قال : إني لم أحب أن أكذِبك ، قال : فما بالك لم تضحك ؟ قال : وكيف يضحك مخلوق من الطين ، والطين تأكله النار ، قال : فما بالُنا نضحك ؟ قال : لم تستوِ القلوب .

قال : ثم أمر الحجاج باللؤلؤ والزبرجد والياقوت ، فجمعه بين يدي سعيد بن جبير ، فقال له سعيد : إن كنت جمعت هـٰذا لتفتدي به من فزع يوم القيامة.. فصالح ، وإلا.. ففزعة واحدة تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، ولا خير في شيء جُمع للدنيا إلا ما طاب وزكا .

قال : ثم دعا الحجاج بالعود والناي ، فلما ضرب بالعود ونفخ في الناي.. بكىٰ سعيد بن جبير ، فقال : ما يبكيك عند اللهو ؟! قال : هـٰذا هو موضع الحزن ، أما النفخ.. فذكرني يوماً عظيماً يوم ينفخ في الصور ، وأما العود.. فشجرة قطعت في غير الحق .

فقال الحجاج : ويلك يا سعيد! فقال سعيد : الويل لمن زحزح عن الجنة وأدخل النار ، قال الحجاج : أخبرني أي قتلة تريد أن أقتلك ؟ قال : أنت اختر لنفسك يا حجاج ، فوالله ؛

ما تقتلني قتلة . . إلا قُتلت مثلها في الآخرة ، قال : فتريد أن أعفو عنك ؟ قال : إن كان العفو . . فمن الله سبحانه وتعالىٰ ، وأما أنت . . فلا براءة لك ولا عذر ، قال : اذهبوا به فاقتلوه ، فلما خرج من الباب . . ضحك ، فأُخبِر الحجاج بذلك ، فأمر برده ، فقال : ما أضحكك ؟ قال : عجبت من جرأتك على الله عز وجل وحلم الله تعالىٰ عنك ، فأمر بالنِّطْع[1] ، فبسط ، قال : اقتلوه ، فقال سعيد : وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض ، حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين ، فقال : حولوه عن القبلة ، قال سعيد : ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ ، قال : كبوه لوجهه ، قال سعيد : ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ ، قال الحجاج : اذبحوه ، قال سعيد : أما إني أشهد وأحاجّ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، خذها مني حتىٰ تلقاني بها يوم القيامة .

ثم دعا سعيد الله عز وجل ، وقال : اللهم ؛ لا تسلطه علىٰ أحد يقتله بعدي . فذبح على النِّطْع ، رحمه الله تعالىٰ .

وبلغنا : أن الحجاج عاش بعده خمس عشرة ليلة ، ووقعت الأكلة في بطنه ، فدعا بالطبيب لينظر إليه ، فنظر إليه ، ثم دعا بلحم منتن ، فعلقه في خيط ، ثم أرسله في حلقه ، فتركه ساعة ، ثم استخرجه وقد لزق به من الدم ، فعلم أنه ليس بناج .

وبلغنا أنه كان ينادي بقية حياته : ما لي ولسعيد بن جبير ، كلما أردت النوم . . أخذ برجلي . انتهىٰ [« الحلية » ٤/ ٢٧٢ـ٢٩٤] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان سعيد بن جبير مولىٰ لبني والبة بن الحارث .

وعن عبد الله بن مسلم قال : كان سعيد بن جبير إذا قام إلى الصلاة . . كان كأنه وتد ، وكان يختم القرآن في كل ليلتين ، وقرأ القرآن كله في ركعة في جوف الكعبة ، وفي الثانية : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ .

أسند سعيد بن جبير عن علي ، وابن عمر ، وأَبي موسىٰ وغيرهم ، رضي الله عنهم ، وأكثر رواياته عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وقتل سنة أربع ، وقيل : خمس وتسعين ، وله تسع وخمسون سنة ، وقيل : غير ذلك . والله أعلم . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/ ٣٧ـ٤١] .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : ومما رواه سعيد بن جبير : عن ابن عمر رضي الله عنهم :

---

(١) **النطع** : بساط من الجلد ، كثيراً ما كان يُقتل فوقه المحكوم عليه بالقتل .

أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الحياء والإيمان قُرِنا جميعاً ، فإذا رفع أحدهما . . رفع الآخر »[1] .

وعنه عن ابن عمر رضي الله عنهم ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن للمرأة في حملها إلىٰ وضعها إلىٰ فصالها من الأجر كالمرابط في سبيل الله ، فإن هلكت فيما بين ذلك . . فلها أجر شهيد »[2] .

وعنه عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه السلام : « يا جبريل ؛ ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ؟ » قال : فنزلت : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾[3] .

وعنه عن ابن عمر رضي الله عنهم : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعوِّذ حسناً وحسيناً ، يقول : « أعيذكما بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامَّة ، ومن كل عين لامَّة »[4] .

وعنه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه في العمل ، لَتَقرَّ بهم عينه »[5] ثم قرأ : ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱتَّبَعْنَاهُمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾[6] قال : ما أنقصنا الآباء مما أعطينا البنين .

وعنه عن ابن عباس رضي الله عنهم ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يجيء الحجر يوم القيامة وله عينان يبصر بهما ، ولسان ينطق به ، يشهدان لمن استلمه بحق »[7] انتهىٰ [« الحلية » ٤/٢٩٧ـ٣٠٦] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٧٣) .
(٢) أخرجه بنحوه الديلمي (١/ ٢٠٨) .
(٣) أخرجه البخاري (٣٠٤٦) .
(٤) أخرجه ابن حبان في « الإحسان » (١٠١٢) .
(٥) أخرجه بنحوه الديلمي (٢/ ٢٤٥) ، والحاكم (٢/ ٥٠٩) ، والبيهقي في « السنن » (١٠/ ٢٦٨) .
(٦) هـٰذه الآية علىٰ قراءة أبي عمرو .
(٧) أخرجه بنحوه أحمد (١/ ٢٤٧) .

ومنهم الإمام :

أبو عمرو عامر بن شَراحيل الشَّعْبي
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : عن عاصم قال : حدثت الحسن بموت الشعبي ، فقال : رحمه الله ، إن كان لمن الإسلام بمكان .

وفي رواية : إنا لله وإنا إليه راجعون ، إن كان لَقديمَ السن كثيرَ العلم[1] ، وإنه لمن الإسلام بمكان . ثم أتيت محمد بن سيرين ، فأخبرته ، فقال مثلما قال الحسن .

وعن ابن سيرين قال : قدمت الكوفة وللشعبي حلقة عظيمة ، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ كثير .

وعن عاصم بن سليمان قال : ما رأينا أحداً كان أعلم بحديث أهل الكوفة والبصرة والحجاز والآفاق من الشعبي .

وعن أبي مجلز قال : ما رأيت أفقه من الشعبي .

وقال له رجل : يا معشر الفقهاء والعلماء ، فقال : لسنا بفقهاء ولا علماء ، ولـٰكنا قوم قد سمعنا حديثاً ، فنحن نحدثكم بما سمعنا ، إنما الفقيه من وَرِعَ عن محارم الله عز وجل ، والعالم من خاف الله سبحانه وتعالىٰ .

وفي رواية : ما أنا بعالم وما أرىٰ عالماً ، وإن أبا حصين رجل صالح .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ قال : بيان للناس من العمىٰ ، وهدىٰ من الضلالة ، وموعظة من الجهل .

وقال : ما ترك أحد في الدنيا شيئاً لله عز وجل . . إلا أعطاه الله في الآخرة ما هو خير له .

وقال : يشرف قوم دخلوا الجنة علىٰ قوم دخلوا النار ، فيقولون : ما لكم في النار ،

---

(١) ذكر ابن منظور في « مختصره علىٰ تاريخ دمشق » (١١/ ٢٥٣) سبب كثرة علم الشعبي ـ رحمه الله ـ فقال : قيل للشعبي : من أين لك كل هـٰذا العلم ؟ قال : بنفي الاغتمام ، والسير في البلاد ، وصبر كصبر الحمار ، وبكور كبكور الغراب .

وإنما كنا نعمل بما تعلموننا ؟! فيقولون : إنا كنا نعلمكم ولا نعمل به .

وقال الشعبي : تعايَشَ الناس بالدِّين زمناً طويلاً حتىٰ ذهب الدين ، ثم تعايش الناس بالمروءة زمناً طويلاً حتىٰ ذهبت المروءة ، ثم تعايش الناس بالحياء زمناً طويلاً حتىٰ ذهب الحياء ، ثم تعايش الناس بالرغبة والرهبة ، وأظن أنه سيأتي بعد ذلك ما هو أشد منه .

وقال : كانت العرب تقول : إذا كانت محاسن الرجل تغلب مساوئه . . فذلك الرجل الكامل ، وإذا كانا متقاربين . . فذلك المتماسك ، وإن كانت المساوىء أكثر من المحاسن . . فذلك المتهتك[1] .

وقال : ليتني لم أتعلم علماً .

وفي رواية : وددت أني أنجو كفافاً ، لا عليَّ ولا لي .

وقال : ما ترك عبد مالاً هو فيه أعظم أجراً من مال يتركه لولده يتعفف به عن الناس .

وقال : كان عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام إذا ذُكر عنده الساعة . . صاح ، وقال : لا ينبغي أن تذكر الساعة عند ابن مريم ، فيسكت .

وقال : العلم أكثر من عدد القطر ، فخذ من كل شيء أحسنه ، ثم تلا : ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ﴾ .

وقال : من زوج كريمته من فاسق . . فقد قطع رحمها .

وعن الشعبي قال : كان يقال : التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، إن الله يحب التوابين ، ويحب المتطهرين ، وإذا أحب عبداً . . لم يضره ذنب ، وذنب لا يضر كذنب لا يُعمل .

وقال : البس من الثياب ما لا تزدريك فيه السفهاء ، ولا تعيبه عليك العلماء .

وقال : إني لا أدع[2] اللحم مخافة النسيان .

وعن صالح بن مسلم قال : سألت الشعبي عن مسألة ، فقال : قال فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه كذا ، وقال فيها علي بن أبي طالب رضي الله عنه كذا ، فقلت للشعبي : ما ترىٰ ؟ قال : ما تصنع برأي بعد قولهما ؟! إذا أخبرتك بِرَأْي . . فَبُلْ عليه .

---

(١) كذا في « الحلية » ، وفي النسخ : (المستهلك) ولعل الصواب ما أثبت ، والله أعلم .

(٢) كذا في النسخ ، وفي « الحلية » (٤/٣١٨) : (إني لأدع . . .) .

وقال : ما كتبت سوداء في بيضاء قط ، وما سمعت من رجل حديثاً فأردت أن يعيده عليَّ[1] .

وقال : إن الذي يفسر القرآن برأيه إنما يرويه عن ربه عز وجل .

وقال : أدركت خمس مئة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .

وقال الشعبي : ما بكيت من زمان . . إلا بكيت عليه . انتهىٰ [« الحلية » ٤/ ٣١٠ـ٣٢٣] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ :

وقد نظم بعضهم في هـٰذا المعنىٰ :

عجباً للزمان في حالَتَيْهِ ... ولأَمرٍ دُفعت منه إليهِ
رب يوم بكيتُ منه فلما ... صرتُ في غيره بكيت عليهِ[2]

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال رجل للشعبي : إن فلاناً عالم ، قال : ما رأيت عليه بهاء العلم ، قيل : وما بهاؤه ؟ قال : السكينة ، وإذا علَّم . . لا يعنِّف ، وإذا عُلِّمَ . . لا يأنف .

وقال : إنما كان يَطلُب هـٰذا العلمَ من اجتمع فيه خصلتان : العقل والنسك ، فإن كان عاقلاً ولم يك ناسكاً . . قيل : هـٰذا أمر لا يناله إلا النساك ، فلِمَ تطلبه ؟! وإن كان ناسكاً ولم يك عاقلاً . . قيل : هـٰذا أمر لا يناله إلا العقلاء ، فلِمَ تطلبه ؟! قال الشعبي : فقد صار اليوم يطلبه من ليس فيه واحدة منهما لا عقل ولا نسك .

وقال : لا تمنعوا العلم أهله فتأثموا ، ولا تحدثوا به غير أهله فتأثموا .

وقال الشعبي : أتي بي إلى الحجاج موثقاً ، فلما انتهيت إلىٰ باب القصر . . لقيني يزيد ابن أبي مسلم ، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون يا شعبي ؛ لما بين جنبيك من العلم ، وليس بيوم شفاعة ، قال : فلما دخلت عليه وكفاني الله سبحانه وتعالىٰ أمره ، ثم سألني عن فريضة ، فقال : ما تقول في أخت وأم وجد ؟ قلت : اختلف فيها خمسة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عثمان ، وعلي ، وزيد بن ثابت ، وابن مسعود ، وابن

---

(١) وتتمة القول : ولا حدثني رجل بحديث قط . . إلا حفظته .

(٢) وجد في هامش نسخة :

بكيت زمان الوصل خوف التفرق ... فها أنا فيما كنت أخشىٰ وأتقي
فلا في زمان الوصل ألفيت راحة ... ولا راحةٌ في في زمان التفرق)

عباس رضي الله عنهم ، قال : فما قال فيها ابن عباس إن كان لمنقباً ؟ قلت : جعل الجد أباً وأعطى الأم الثلث ، ولم يعط الأخت شيئاً ، قال : فما قال فيها أمير المؤمنين عثمان ؟ قلت : جعلها أثلاثاً ، قال : فما قال فيها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ؟ قلت : جعلها من ستة ، فأعطى الأخت ثلاثاً ، وأعطى الجد سهماً ، وأعطى الأم سهمين ، قال : فما قال فيها زيد بن ثابت ؟ قلت : جعلها من تسعة ، أعطى الأم ثلاثاً ، وأعطى الجد أربعاً ، وأعطى الأخت سهمين ، قال : فما قال فيها ابن مسعود ؟ قلت : جعلها من ستة ، أعطى الأخت ثلاثاً ، وأعطى الأم سهماً ، وأعطى الجد سهمين ، قال : مر القاضي فليمضها علىٰ ما أمضاها عليه أمير المؤمنين عثمان .

قالوا : وكان الشعبي من أولع الناس بهـٰذا البيت :

ليست الأحلام في حين الرضا إنما الأحلام في حين الغضب

أدرك الشعبي أكابر الصحابة وأعلامهم ، وروىٰ عنه جماعة من التابعين .

فمما رواه عن ابن عباس رضي الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تبارك وتعالىٰ ليعمر بالقوم الديار ، ويثمر لهم الأموال ، وما نظر إليهم منذ خلقهم ؛ بغضاً لهم »[1] حديث غريب .

وعنه عن ابن عمر رضي الله عنهم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من صلى الضحىٰ ، وصام ثلاثة أيام من الشهر ، ولم يترك الوتر في حضر ولا سفر . . كتب له أجر شهيد »[2] حديث غريب ، تفرد به أيوب . انتهىٰ [« الحلية » ٤/ ٣٢٣ـ٣٣٢] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : توفي بالكوفة ، فجأة ، سنة أربع أو خمس ومئة ، وهو ابن سبع وسبعين سنة ، وقيل : اثنتين وثمانين سنة . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/ ٣٧] .

وقال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : حكي أن عمر بن هبيرة دعا فقهاء البصرة والكوفة والمدينة والشام ، فجعل يسألهم ، فكلم الشعبي ، فجعل لا يسأله عن شيء . . إلا وجد عنده فيه علماً ، ثم أقبل على الحسن البصري فسأله ، ثم قال : هُما هـٰذان ، فأقبل على الشعبي ، وقال : يا أبا عمرو ؛ إني أمين أمير المؤمنين على العراق ، وعامله عليها ، ورجل مأمور على الطاعة ، ابتليت بالرعية ، ولزمني حقهم ، فأنا أحب حفظهم ، وتعهد

---

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١٢/ ٨٥) .

(٢) ذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٢/ ٢٤١) ، وعزاه للطبراني في « الكبير » .

ما يصلحهم مع النصيحة لهم ، وقد يبلغني عن العصابة من أهل الديار الأمر أجد عليهم فيه ، فأقبض طائفة من عطاياهم ، فأضعه في بيت المال ، ومن نيتي أن أرده عليهم ، فيبلغ أمير المؤمنين أني قبضته علىٰ ذلك النحو ، فيكتب إلي ألاَّ ترده ، فلا أستطيع رد أمره ، ولا إنفاذ كتابه ، وإنما أنا رجل مأمور على الطاعة ، فهل علي في هـٰذا تبعة ، وفي أشباهه من الأمور ، والنية فيه علىٰ ما ذكرت ؟

قال الشعبي : فقلت : أصلح الله الأمير ، إنما السلطان والد يخطىء ويصيب ، قال : فسُرَّ بقولي وأعجب به ، ورأيت البشر في وجهه ، وقال : فللٰه الحمد .

ثم أقبل على الحسن فقال : ما تقول يا أبا سعيد ؟ فقال : حق الرعية لازم لك ، وحق عليك أن تحوطهم بالنصيحة ؛ فإني سمعت عبد الرحمـٰن بن سمرة يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من استرعي رعية فلم يحطها بالنصيحة . . حرم الله عليه الجنة »[1] ، وتقول : إنما قبضتَ من عطاياهم إرادة صلاحهم واستصلاحهم ، وأن يرجعوا إلىٰ طاعته ، فيكتب إلي ألاَّ أرده ، فحق الله عز وجل ألزم من حق أمير المؤمنين ، والله أحق أن يُطاع ، ولا طاعة لمخلوق في معصية الله عز وجل ، اعرض كتاب أمير المؤمنين علىٰ كتاب الله عز وجل ، فإن وجدتَه موافقاً لكتاب الله . . فخذ به ، وإن وجدتَه مخالفاً لكتاب الله . . فانبذه ، يابن هبيرة ؛ اتق الله ، فإنه يوشك أن يجيئك رسول من الله ، يزيلك عن سريرك ، ويخرجك من سعة قصرك إلىٰ ضيق قبرك ، فتدع سلطانك ودنياك خلف ظهرك ، وتقدم علىٰ ربك ، وتنزل علىٰ عملك ، يابن هبيرة ؛ اتق الله ، فإن الله يمنعك من يزيد ، ويزيد لا يمنعك من الله ، وإن أمر الله فوق كل أمر ، وإني أحذرك بأس الله الذي لا يرد عن القوم المجرمين .

فقال ابن هبيرة : اربع علىٰ ظلعك[2] أيها الشيخ ، وأعرض عن ذِكر أمير المؤمنين ؛ فإن أمير المؤمنين صاحب العلم ، وصاحب الحكم ، وصاحب الفضل ، وإنما ولاه الله أمر هـٰذه الأمة لعلمه به ، وما يعلم من نيته ، فقال الحسن : يابن هبيرة ؛ الحساب من ورائك سوط بسوط ، وغضب بغضب ، والله عز وجل بالمرصاد ، يابن هبيرة ؛ إنك إن تلقىٰ من ينصحك في دينك ويحملك علىٰ أمر آخرتك . . خير من أن تلقىٰ رجلاً يغرك ويمنِّيك ، فقام ابن هبيرة قد بَسَرَ[3] وجهَهُ ، وتغير لونه .

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٦٧٣١) ، ومسلم (١٤٢) .

(٢) هـٰذا مثلٌ يقال لمن يحمِّل نفسَه أكثر مما تطيق .

(٣) بَسَرَ : قطَّبَ .

قال الشعبي : قلت : يا أبا سعيد ؛ أغضبت الأمير ، وأوغرت صدره ، وحرمتنا معروفه وصلته ، فقال : إليك عني يا عامر ، قال : فخرَجتْ إلى الحسن التُّحفُ والطُّرفُ وكانت له المنزلة ، واستُخِفَّ بنا وجُفينا ، فكان أهلاً لما أُدِّي إليه ، وكنا أهلاً أن يُفعل بنا ذلك .

قال الشعبي : فما رأيت مثل الحسن فيمن رأيت من العلماء ، وما شهدنا مشهداً . . إلا برز علينا ، وقال لله عز وجل ، وقلنا مقارَبة لهم ، وأنا أعاهد الله عز وجل ألاَّ أشهد سلطاناً بعد هـٰذا المجلس فأُحابِيَهُ . انتهىٰ [« الإحياء » ٢/٢٤٦ـ٢٤٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو إسحاق عمرو بن عبد الله السَّبيعي
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال شريك : ولد أبو إسحاق في خلافة عثمان رضي الله عنه ، لثلاث سنين بقين منه .

وعن مغيرة قال : كنت إذا رأيت أبا إسحاق . . ذكرت الضرب الأول .

وعن جرير قال : كان يقال : من جالس أبا إسحاق . . فقد جالس علياً وعبد الله[1] رضي الله عنهم .

وروىٰ أبو إسحاق عن أربعة ـ أو ثلاثة ـ وعشرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال الأعمش : كنت إذا اجتمعت أنا وأبو إسحاق . . جئنا بحديث عبد الله طرياً[2] .

وعن يحيى بن آدم : قال أبو بكر ابن عياش : دَفَنَّا أبا إسحاق أيام الخوارج سنة ست أو سبع وعشرين ومئة .

واجتمع الشعبي وأبو إسحاق ، فقال الشعبي : أنت خير مني يا أبا إسحاق ، فقال : لا والله ؛ ما أنا خير منك ، بل أنت خير مني وأسن .

وقال أبو بكر ابن عياش : سمعت أبا إسحاق يقول : ما أقلت[3] عينيَّ غمضاً منذ أربعين سنة .

وعن العلاء بن سالم العبدي قال : ضعف أبو إسحاق قبل موته بسنتين ، فما كان يقدر أن يقوم حتىٰ يُقامَ ، فكان إذا استتم قائماً . . قرأ وهو قائم ألف آية .

وقال عون بن عبد الله لأبي إسحاق : ما بقي منك ؟ قال : أصلي فأقرأ البقرة في ركعة .

---

(١) أي : الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .
(٢) طَرِيّاً : أي كأنه حديث السمع به .
(٣) أقلت : حَمَلَت ، والمعنىٰ : أنها لم تصب نوماً .

وفي رواية أخرىٰ : ذهبتِ الصلاةُ مني وضَعُفْتُ ، وإني لأصلي وأنا قائم ، فما أقرأ إلا البقرة وآل عمران .

وفي رواية : ضعفت عن الصوم ، فما أصوم إلا ثلاثة أيام من الشهر ، والإثنين والخميس والأشهر الحرم .

وقيل له : كيف أنت يا أبا إسحاق ؟ قال : مِثْلُ الذي أصابه الفالج ، ما تنفعني يد ولا رجل ، وهو ابن مئة سنة يومئذ تقريباً .

وقال الأعمش : كان أصحاب عبد الله إذا رأوا أبا إسحاق . . قالوا : هـٰذا عمرٌو القارىء ، هـٰذا عمرو الذي لا يلتفت .

وقال أبو إسحاق : إذا استيقظت بالليل . . لم أرجع أقل عيني .

وقال أبو إسحاق : كانوا يعدون الغنىٰ عوناً على الدين .

وعن سفيان الثوري ، عن أبي إسحاق . . . فذَكر مثله .

وقال أبو بكر ابن عياش : دخل الضحاك بن قيس الكوفة يوم مات أبو إسحاق رحمه الله ، فرأى الجنازة وكثرة من فيها ، فقال : كان هـٰذا فيكم ربَّانيّاً .

أسند عن جماعة من الصحابة رضوان الله تعالىٰ عليهم ، وتفرد بالرواية عن جماعة من الصحابة والتابعين ، لم يشاركه فيها أحد .

فمن أحاديثه : عن عمرو بن الحارث الخزاعي قال : قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وما ترك ديناراً ولا درهماً ولا شاة ولا بعيراً ، ولا أوصىٰ بشيء إلا بغلته البيضاء وسلاحه وأرضاً تركها صدقةً صلى الله عليه وسلم[1] . انتهىٰ [« الحلية » ٤/٣٣٨ـ٣٤٥] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٢٥٨٨) .

ومنهم الإمام :

أبو عيسىٰ عبد الرحمـٰن بن أبي ليلىٰ
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : امتحن ابن أبي ليلىٰ بالحكم والقضاء .

وعن ثابت البناني ، عن ابن أبي ليلىٰ قال : طفت هـٰذه الأمصار ، فلم أر مصراً أبكر علىٰ ذكر الله عز وجل ولا أكثر تهجداً بالليل من أهل البصرة .

وكان ابن أبي ليلىٰ يصلي ، فإذا دخل الداخل . . نام علىٰ فراشه .

وكان له بيت تجتمع فيه القراء ، فيه مصاحف ، فقَلَّما تفرقوا إلا عن طعام .

ولما ولي القضاء . . ركب أول يوم للقضاء ، فاصطف له الناس ينظرون إليه ، فقال مجنون من مجانين أهل الكوفة : انظروا إلىٰ من جمع الله له سرور الدنيا بحزن الآخرة ، فقال ابن أبي ليلىٰ : لو قد سمعتها قبل أن ألي . . ما وليت لهم شيئاً .

وقال : أدركت مئة وعشرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال : ما علىٰ أحدكم إذا أصبح أن يقول للحافظين : اكتبا رحمكما الله ، فيُملي خيراً .

ولد في خلافة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه .

وأسند عن علماء الصحابة وأعلامهم ، وروىٰ عنه جماعات من التابعين .

فمن أحاديثه : عن كعب بن عجرة قال : (جلسنا يوماً أمام بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد في رهط[1] منا معشرَ الأنصار ، ورهط من المهاجرين ، ورهط من بني هاشم ، فاختصمنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أيُّنا أولىٰ به وأحب إليه ؟ قلنا : نحن معاشر الأنصار ، آمنا به ، واتبعناه ، وقاتلنا معه ، وكتيبته في نحر عدوه ، فنحن أولىٰ برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحبهم إليه ، وقال إخواننا من المهاجرين : نحن الذين

---

(١) **الرَّهْط** : ما دون العشرة من الرجال لا يكون فيهم امرأة .

هاجرنا إلى الله وإلىٰ رسوله صلى الله عليه وسلم ، وفارقنا العشائر والأهلين والأموال ، قد حضرنا ما حضرتم ، وشهدنا ما شهدتم ، فنحن أولىٰ برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحبهم إليه ، وقال إخواننا من بني هاشم : نحن عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد حضرنا الذي حضرتم ، وشهدنا الذي شهدتم ، فنحن أولىٰ برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحبهم إليه ، فخرج إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقبل علينا ، وقال : « إنكم لتقولون شيئاً » ، فقلنا له مثل مقالتنا ، فقال للأنصار : « صدقتم ، مَن يَرُدُّ هـٰذا عليكم ؟! » وأخبرناه بما قال إخواننا من المهاجرين ، فقال : « صدقوا وبروا ، من يرد هـٰذا عليهم ؟! » وأخبرناه بما قال بنو هاشم ، فقال : « صدقوا وبروا ، من يرد هـٰذا عليهم ؟! » ثم قال : « ألا أقضي بينكم ؟ » قلنا : بلىٰ بأبينا أنت وأمنا يا رسول الله ، فقال : « أما أنتم معشر الأنصار . . فإنما أنا أخوكم » فقالوا : الله أكبر ، ذهبنا به ورب الكعبة ، « وأما أنتم معشر المهاجرين . . فإنما أنا منكم » ، فقالوا : الله أكبر ، ذهبنا به ورب الكعبة ، « وأما أنتم بنو هاشم . . فأنتم مني وإليَّ » فقمنا وكلنا راض مغتبط برسول الله صلى الله عليه وسلم[1]) غريب من حديث ابن أبي ليلىٰ عن كعب ، لم نكتبه إلا من هـٰذا الوجه . انتهىٰ [« الحلية » ٤/ ٣٥٠ـ٣٥٨] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : قال شيخنا شيخ الإسلام برهان الدين إبراهيم بن عبد الرحمـٰن الفزاري قدس الله روحه ونور ضريحه ـ ومن خطه نقلت ـ : قال الخطابي ـ رحمه الله ـ في كتاب « معالم السنن » في (باب بيع وشرط) :

حدثني محمد بن هاشم بن هشام ، حدثنا عبد الله بن فيروز الديلمي ، حدثنا محمد بن سليمان الذهلي ، حدثنا عبد الوارث بن سعيد قال : قدمت مكة ، فوجدت بها ابن أبي ليلىٰ وأبا حنيفة وابن شبرمة ، فسألت أبا حنيفة عن رجل باع بيعاً وشرط شرطاً ، فقال : البيع باطل ، والشرط باطل ، ثم أتيت ابن أبي ليلىٰ ، فسألته ، فقال : البيع جائز ، والشرط باطل ، ثم أتيت ابن شبرمة ، فسألته ، فقال : البيع جائز ، والشرط جائز ، فقلت : يا سبحان الله! ثلاثة من فقهاء العراق اختلفوا عليَّ في مسألة واحدة .

فأتيت أبا حنيفة ، فأخبرته ، فقال : ما أدري ما قالا ، حدثني عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده : (أن النبي صلى الله عليه وسلم نهىٰ عن بيع وشرط) البيع باطل والشرط باطل .

---

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١٩/ ١٣٣) .

فأتيت ابن أبي ليلىٰ ، فأخبرته ، فقال : ما أدري ما قالا ، حدثني هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة رضي الله عنهم قالت : (أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أشتري بريرة ، فأُعتِقَها)[1] وقال : يعني : اشترطي الولاء لأهلها ، البيع جائز ، والشرط باطل .

ثم أتيت ابن شبرمة ، فأخبرته ما قالا ، فقال : لا أدري ما قالا ، حدثني مسعر بن كدام ، عن محارب بن دثار ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهم قال : (بعت النبي صلى الله عليه وسلم ناقة أو جملاً ، وشرط لي حُملانه إلى المدينة) ، البيع جائز ، والشرط جائز[2] . انتهىٰ .

وقال الإمام النووي ـ قدس الله روحه ونور ضريحه ـ :

اسم أبي ليلىٰ : يسار ، وهو صحابي ، شهد أحداً وما بعدها من المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم انتقل إلى الكوفة ، فسكنها ، وحضر مع علي بن أبي طالب مشاهده كلها ، وقتل معه بصفين .

وأما ابنه عبد الرحمٰن صاحب الترجمة . . فتابعي كبير جليل ، ولد لست سنين بقيت من خلافة عمر رضي الله عنه .

وروىٰ عن عمر[3] ، وعثمان ، وعلي ، وسعد ، وأُبي بن كعب ، وابن مسعود ، رضي الله عنهم ، وخلائق من الصحابة .

وروىٰ عنه ابنه عيسىٰ ، ومجاهد ، وثابت ، والحكم ، والشعبي ، وابن سيرين ، وعمرو بن ميمون ، وعمرو بن مرة ، وآخرون من التابعين .

واتفقوا علىٰ توثيقه وجلالته .

قال الشافعي ـ رضي الله عنه ـ وغيره : لم يدرك ابن أبي ليلىٰ بلالاً ؛ لأن بلالاً توفي سنة عشرين بالشام ، وولد ابن أبي ليلىٰ قبل ذلك بنحو سنة بالكوفة .

وقال عطاء بن السائب : قال ابن أبي ليلىٰ : أدركت عشرين ومئة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم من الأنصار .

---

(١) أخرج حديث بريرة بنحوه البخاري (١٤٢٢) .

(٢) أخرج حديث سيدنا جابر رضي الله عنه ، بنحوه البخاري (٢٥٦٩) والطبراني في الأوسط (٤٣٥٨) .

(٣) في « تقريب التهذيب » : (اختلف في سماعه من سيدنا عمر) .

وقال عبد الملك بن عمير : رأيت عبد الرحمـٰن ابن أبي ليلىٰ في حلقة فيها نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمعون لحديثه ، وينصتون له ، منهم البراء بن عازب .

وقال عبد الله بن الحارث : ما شعرت أن النساء ولدن مثل ابن أبي ليلىٰ .

توفي سنة ثلاث وثمانين ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« التهذيب » ١/ ٣٠٤] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو صالح الحنفي ماهانُ
رضي الله عنه

وقيل : إن اسمه عبد الرحمـٰن بن قيس أخو طليق[1] .

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال ماهان الحنفي : أما يستحيي أحدكم أن تكون دابته وثوبه الذي يلبس أكثر ذكراً لله عز وجل منه[2] .

وكان لا يفتر من التكبير والتسبيح والتهليل .

وقال إبراهيم مؤذن بني حنيفة : رأيت أبا صالح ماهان لما صلبه الحجاج علىٰ بابه ، فلما رفع علىٰ خشبة . . رأيته يسبح ويهلل ويكبر ويعقد بيده حتىٰ بلغ تسعاً وعشرين ، قال : فطعنه الرجل علىٰ تلك الحال ، فلقد رأيته بعد شهر معقوداً بيده تسعاً وعشرين ، وكنا نرىٰ عنده الضوء بالليل شبه السراج .

وعن أبي إسحاق الشيباني قال : دنوت من ماهانَ أبي صالح لما أراد ابن أبي مسلم أن يقطعه ويصلبه ، فقال : تنح يابن أخي ، لا تُسأل عن هـٰذا المقام .

وقال : ما أبالي ما قالت ابنتي ، أعافىٰ فأشكر ، أو أبتلىٰ فأصبر .

وقال : الحق ثقيل ، وابن آدم ضعيف ، والذِّكر ساعة بعد ساعة .

وسئل ماهان : ما كانت أعمال القوم ؟ فقال : كانت أعمالهم قليلة ، وكانت قلوبهم سليمة .

---

(١) وفرق ابن سعد في « الطبقات » (٦/ ٣٣٧) بين اثنين كنية كل منهما أبو صالح الحنفي ، فسمىٰ واحداً أبا صالح الحنفي عبد الرحمـٰن بن قيس أخا طليق بن قيس ، والآخر أبا صالح الحنفي واسمه ماهان .
وكذلك فعل الحافظ المزي في « تهذيب الكمال » .

(٢) لعله أشار بذلك إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ . ومنه سماع تسبيح الحصىٰ في يد المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم ، وتأويب الجبال مع سيدنا داود عليه السلام ، وتأمين اسكتة الباب ، وغير ذلك كثير .

أسند ماهان عن علي بن أبي طالب ، وابن مسعود ، وحذيفة ، رضي الله عنهم .

فمما رواه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ولأبي بكر يوم بدر : « علىٰ يمين أحدكم جبريل ، والآخر ميكائيل ، وإسرافيل ملك عظيم يشهد القتال ويكون في الصف »[1] انتهىٰ [« الحلية » ٤/ ٣٦٤ـ٣٦٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٧٢) .

ومنهم الإمام :

رِبْعيُّ بن حِراش
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : عن ربعي بن حراش قال : كنا أربعة إخوة ، وكان الربيع أكثرنا صلاة وصياماً في الهواجر ، فتوفي ، فبينا نحن حوله وقد بعثنا من يشتري كفناً . . إذ كشف الثوب عن وجهه فقال : السلام عليكم ، فقال القوم : وعليكم السلام ، أَعَيشٌ بعد الموت الآن ، فقال : نعم ، إني لقيت ربي عز وجل ، فلقيت رباً غير غضبان ، استقبلني بروح وريحان ، وإستبرق مختلفٍ ألوان ، وإن أبا القاسم محمداً صلى الله عليه وسلم ينتظر الصلاة عليَّ ، فعجلوا بي ولا تؤخروني ، ثم كان بمنزلة حصاة رُمي بها في طست ، فوصل الحديث إلىٰ عائشة رضوان الله عليها ، فقالت : أما إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يتكلم رجل من أمتي بعد الموت » .

وفي رواية أخرىٰ : وإنه كساني ثياباً خضراً من سندس وإستبرق ، وإن الأمر أيسر مما في أنفسكم فلا تغتروا[1] .

وكان ربعي بن حراش لم يكذب قط ، فسعىٰ به ساع إلى الحجاج ، وقالوا : هـٰهنا رجل من أشجع ، زعم قومه أنه لم يكذب قط ، وإنه سيكذب لك اليوم ؛ لأنك ضربت على ابنيه البعْثَ[2] فعصيا ، وهما في البيت ، فبعث إليه ، فلما حضره . . قال له : ما فعل ابناك ؟ قال : هما هـٰذان في البيت ، قال : فحمله وكساه وأوصىٰ به خيراً لصدقه .

أسند ربعي عن عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، وحذيفة ، وغيرهم ، رضوان الله عليهم أجمعين .

---

(١) وقد روىٰ هـٰذه القصة ابن عبد البر في « الاستيعاب » (١/ ٥٤١ـ ٥٤٣) في ترجمة زيد بن خارجة الصحابي ، والذي تكلم أيضاً بعد الموت ، وللحافظ ابن أبي الدنيا رسالة سماها : « من عاش بعد الموت » ، ذكر فيها كثيراً ممن تكلم بعد موته .

(٢) **البَعْثُ** : بعث الجند إلى الغزو ؛ أي : أنه ألزمهما الجندية .

فمما رواه عن حذيفة : قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سيأتي عليكم زمان لا يكون فيه شيء أعز من ثلاثة : من أخ يستأنس به ، أو درهم حلال ، أو سنة يُعمل بها »[1] غريب من حديث الثوري ، تفرد به روح بن صلاح عنه . انتهىٰ [« الحلية » ٤/ ٣٦٧ـ٣٧٠] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : آلىٰ ربعي بن حراش ألاَّ يضحك حتىٰ يعلم أيصير إلى الجنة أم إلى النار ، قال : فلقد أخبر غاسله أنه لم يزل متبسماً علىٰ سريره ونحن نغسله حتىٰ فرغنا منه .

توفي سنة أربع ومئة ، رضي الله عنه . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/ ١٩] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (١/ ٣٥) .

ومنهم الإمام :

أبو عبد الله محمد بن سوقة
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال يعلى بن عبيد : دخلنا علىٰ محمد بن سوقة ، فقال لنا : قال لي عطاء : إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام ، وهو ما عدا آية من كتاب الله ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، أو أمراً بمعروف ، أو نهياً عن منكر ، وأن ينطق بحاجته التي لا بد منها : ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ * كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ أما يستحي أحدكم لو نشرت صحيفته في آخر نهاره وقد أملىٰ فيها ما ليس له فيه حاجة من حاجات الدنيا والآخرة .

وقال محمد بن سوقة : أمران لو لم نعذب إلا بهما . . لكنا مستحقين بهما العذاب : يزداد أحدنا في دنياه فيفرح فرحاً يعلم الله عز وجل أنه لم يفرح بمثله لزيادة في دينه ، وينقص من دنياه فيحزن حزناً يعلم الله عز وجل أنه لم يحزن بمثله علىٰ نقص دينه .

وكان محمد بن سوقة وضرار بن مرة إذا كان يوم الجمعة . . اجتمعا يبكيان .

وعن جعفرٍ الأحمرِ قال : كان أصحابنا البكاؤون أربعة : مطرف بن طريف ، ومحمد بن سوقة ، وعبد الملك بن أبجر ، وضرار بن مرة .

وقال طلحة : لا أعلم بالكوفة رجلين يريدان الله عز وجل إلا : محمد بن سوقة ، وعبد الجبار بن وائل .

وقال سفيان : ما أرىٰ كان يُدفع عن أهل هـٰذه المدينة . . إلا بمحمد بن سوقة ، ورث عن أبيه مئة ألف ، فتصدق بها كلها .

واشترىٰ محمد بن سوقة من غزوان خزّاً[1] بوزن معلوم ، فدفعه إليه بالوزن الذي اشتراه به ، فوزنه ، فوجده يزيد ثلاث مئة دينار ، فقال محمد بن سوقة لغزوان : اشتريت منك كذا

---

(١) **الخَز** : نوع من الثياب .

وكذا مَنّاً[1] ، فوجدته كذا وكذا مَنّاً ، فقال له غزوان : لا أدري ما تقول ، اشتريتَ كذا وكذا مَنّاً ، فدفعت إليك بالوزن الذي اشتريت فمكثا يترادَّان الكلام ، محمد بن سوقة يريد أن يرد الفضل علىٰ غزوان ، وغزوان يأبىٰ أن يقبله ، فقال له غزوان : يا هـٰذا ؛ إن يكن لي . . فهو لك ، وإن يكن لك . . فهو لك .

وقال سفيان الثوري رحمه الله : ما رأيت بالكوفة شيخاً أفضل من محمد بن سوقة ، كان له مال ، فلم يزل يحج ويغزو .

وقال أبو حنيفة رحمه الله وهو في جنازة محمد بن سوقة : لقد دخل مكة ثمانين مرة ما بين حجة وعمرة .

وعن سفيان ، عن ابن سوقة أنه كان يحج وعليه دَين ، فيقول : أتحج وعليك دَين ؟ فيقول : الحج أقضىٰ للدين .

وطلب رجل من ابن سوقة شيئاً ، فبكىٰ ، فقال له الرجل : والله يا عم ؛ لو علمت أن مسألتي تبلغ منك هـٰذا . . ما سألتك ، قال : ما بكيت لسؤالك ، إنما بكيت لأني لم أبتدئك قبل سؤالك .

وكان ابن سوقة يعجن في جفنة ودموعه تسيل ، وهو يقول : لما قَلَّ مالي . . جفاني أحبابي .

وقال سفيان بن عيينة : عن ابن سوقة : دخلت مع عمر[2] قصراً بالكوفة ، فقلت له : رأيتُنا في زمان الحجَّاج وقد جيء بنا ونحن في هـٰذا المكان محبوسين مرعوبين ، نَفْرَق فرقاً شديداً ، فمررتَ كأنك لم تدعه إلىٰ ضر مسَّك ، ارجع إلىٰ ذلك المكان ، فادعه واحمده واشكره علىٰ ما أعطاك .

وقال محمد بن سوقة : ما استفاد رجل أخاً في الله عز وجل . . إلا رفعه الله بذلك درجة .

أدرك محمد بن سوقة من الصحابة رضي الله عنهم أنسَ بن مالك ، وأبا الطفيل عامر بن واثلة ، وسمع منهما .

---

(١) المَنُّ : كيل ، وهو رطلان .

(٢) في هامش نسخة : (عمر بن عبد العزيز) .

وأكثرُ روايته عن عِلْيَةِ التابعين رضي الله عنهم أجمعين .

فمن أحاديثه : عن إبراهيم ، عن الأسود ، عن عبد الله قال : كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم جلوساً ، فجاء سائل ، فسأل ، فناوله رجل درهماً ، فأخذه رجل ، فناوله إياه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « من فعل مثل هـٰذا . . كان له مثل أجر المعطي ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً » هـٰذا حديث غريب .

وعنه عن الحارث ، عن علي ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من اشتاق إلى الجنة . . سارع في الخيرات ، ومن أشفق من النار . . لَهِيَ عن الشهوات ، ومن ترقب الموت . . هانت عليه اللذات ، ومن زهد في الدنيا . . هانت عليه المصائب »[1] حديث غريب .

وعنه عن نافع ، عن ابن عمر قال : (إن كنا لَـنَعُدُّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المجلس الواحد يقول : « رب اغفر لي وتب عليَّ إنك أنت التواب الرحيم »[2] مئة مرة) .

وعنه عن نافع ، عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من رأىٰ مبتلىٰ فقال : الحمد لله الذي عافاني مما ابتلىٰ هـٰذا به ، وفضلني عليه وعلىٰ كثير ممن خلق تفضيلاً ، عافاه الله عز وجل من ذلك البلاء كائناً ما كان »[3] انتهىٰ [« الحلية » ٥/٣ـ١٤] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرجه الديلمي (٣/ ٦٠٢) .

(٢) أخرجه بنحوه الترمذي (٣٤٣٤) .

(٣) أخرجه بنحوه الترمذي (٣٤٠١) ، والطبراني في « الأوسط » (٥/ ٢٨٣) .

ومنهم الإمام :

أبو محمد طلحة بن مصرِّف
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : أرسل طلحة بن مصرف رحمه الله إلىٰ جارٍ له يستأذنه في أن يَتِدَ في جداره وتداً ، فأرسل إليه الجار : نعم ، وافتح فيه كوة .

ودخلت جارية منزل طلحة تقتبس ناراً وطلحة يصلي ، فقالت لها امرأته : مكانك يا فلانة حتىٰ نشوي لأبي محمد هـٰذا القديد[1] علىٰ قصبتك يفطر عليه ، قال : فلما قضى الصلاة . . قال : ما صنعت ؟ لا أذوقها حتىٰ ترسلي إلىٰ سيدتها فتستأذنيها حبْسَكِ إياها وشواءك علىٰ قصبتها .

وقال طلحة بن مصرف : **لولا أني علىٰ وضوء . . لأخبرتك بما تقول الرافضة** .

وقيل له : لو ابتعت طعاماً[2] فربحت فيه ، قال : إني أكره أن يعلم الله عز وجل من قلبي إرادة غلاء على المسلمين .

وقال : يستحب من الدعاء أن يقول العبد : اللهم ؛ اجعل صمتي تفكُّراً ، واجعل نظري عِبَراً ، واجعل منطقي ذِكراً .

وقال الفضيل بن عياض : بلغني عن طلحة أنه ضحك يوماً ، فوثب علىٰ نفسه ، وقال : فيم الضحك ؟ إنما يضحك من قطع الأهوال ، وجاز الصراط ، ثم قال : آليت ألاَّ أَفْتَرَّ ضاحكاً حتىٰ أعلم بمَ تقع الواقعة ، فما رئي ضاحكاً حتىٰ صار إلى الله عز وجل .

وكان يقول في دعائه : اللهم ؛ اغفر لي ريائي وسمعتي .

وعن الفضيل قال : دخلنا علىٰ طلحة بن مصرف نعوده ، فقال له أبو كعب : شفاك الله ، قال : أستخير الله .

---

(١) **القديد من اللحم** : ما قطع طولاً وملِّح وجُفِّف في الهواء والشمس .

(٢) في هامش نسخة : (الطعام : هو القمح في عرف أهل العراق) .

وسمع طلحة رجلاً يعتذر إلىٰ رجل ، فقال : لا تكثر الاعتذار إلىٰ أخيك ؛ أخاف أن يبلغ بك الكذبَ .

وعن ليث قال : كنت أمشي مع طلحة ، فقال : لو علمت أنك أسن مني في ليلة . . ما تقدمتك .

وقال أبو خالد : أُخبِرتُ أن طلحة اشتُهِر بالقراءة ، فقرأ على الأعمش ؛ ليزول ذلك عنه .

وقال الأعمش : كان طلحة يجيء ، فيجلس على الباب ، فتخرج الجارية وتدخل لا يقول لها شيئاً ، حتىٰ أخرج ، فيجلس ، فيقرأ ، فما ظنكم برجل لا يخطىء ولا يلحن ، فإن استندت إلى الحائط . . قال : السلام عليكم ، ثم يذهب .

قالوا : وسبب قراءته عليه ما ذكرناه من الشهرة ، فأحب زوالها عنه .

وعن ليث قال : حدثت طلحة في مرضه الذي مات فيه : أن طاووساً كان يكره الأنين ، قال : فما سُمع طلحة يئن حتىٰ مات ، رحمه الله .

وكان طلحة إذا ذكر عنده الاختلاف . . قال : لا تقولوا الاختلاف ، ولٰكن قولوا السَّعة .

وعن أبي حصين وطلحة ، قال أحدهما : لقد أدركت أقواماً لو رأيتَهم . . احترقت كبدك ، وقال الآخر : لقد أدركت أقواماً ما كنا في جنبهم إلا لصوصاً .

وقال طلحة : إذا أكلنا بالدَّين . . ائتدمنا بالخَل ، وإذا لم نأكل بالدَّين . . أكلنا بالإدام .

وقال عبد الملك بن أبجر ، عن أبيه قال : ما رأيت طلحة بن مصرف في ملأ . . إلا رأيت له الفضلَ عليهم .

أدرك طلحة جماعة من الصحابة ، وسمع من بعضهم ومن كبار التابعين ، رضي الله عنهم أجمعين . انتهىٰ [« الحلية » ٥/ ١٤ـ٢٠] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : خرج طلحة مع قراء الكوفة إلى الجماجم أيام الحجاج ، وتوفي بعد ذلك سنة اثنتي عشرة ومئة ، رحمه الله . [انتهىٰ « الصفوة » ٣/ ٤٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو عبد الرحمـٰن زُبَيْدٌ اليامي
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال إسماعيل بن حماد : كنت إذا رأيت زبيداً مقبلاً من السوق . . رجف قلبي .

وقال شعبة : ما رأيت رجلاً خيراً وأفضل من زبيد .

وعن سفيان قال : كان لزُبَيد جارية أعجمية ، فكان إذا فرغ من صلاته . . يقول : سبحان الملك القدوس ، فتقول الجارية : رُوزْ آمَد[1] ؛ يعني : جاء النهار .

وعن سفيان قال : دخلنا علىٰ زبيد وهو مريض ، فقلنا له : استشف الله أو شفاك الله تعالىٰ ، فقال : أستخير الله .

وقال سفيان : رأىٰ زبيد في بيته بعراً ، فقال : ما يسرني أن لي عدد كل بعرة ديناراً .

وكان يؤذن في مسجده ، ويقول للصبيان : تعالوا صلوا حتىٰ أهب لكم الجوز ، فيجيئون ، فيصلون ، ثم يحيطون حوله ، فقلنا : ما تصنع ؟ فقال : وما عليَّ أن أشتري لهم جوزاً بخمسة دراهم ويتعودون الصلاة ؟!

وكانت له شاة داجن[2] في البيت ، وعنده بعر كثير ، فيقول : ما أحب أن لي بكل بعرة منها درهماً .

وإذا كانت الليلة المطيرة . . أخذ شعلة نار ، ويطوف علىٰ عجائز الحي ، ويقول لهم : أوكف[3] عليكم ؟ أتريدون ناراً ؟ فإذا أصبح . . طاف عليهم ، ويقول : ألكم في السوق حاجة ؟ أتريدون شيئاً ؟

---

(١) كلمة فارسية .

(٢) **الداجن** : الشاة التي يعلفها الناس في منازلهم .

(٣) **وَكَفَ** الماء وغيره : سال وقطَرَ ، ووكف البيت بالمطر : تقاطر سقفه .

وعن وكيع قال : حدثني أبي قال : كنت جالساً مع زبيد ، فأتاه رجل ضرير يريد أن يسأله ، فقال له زبيد : إن كنت تريد أن تسألني عن شيء . . فإن معي غيري .

وعن الأشعث بن عبد الرحمٰن بن زبيد ، عن أبيه قال : كان زبيد قد قسم علينا الليل أثلاثاً ، ثلثاً عليه ، وثلثاً علىٰ أخي ، وثلثاً عليَّ ، فكان زبيد يبدأ ، فيقوم ثلثه ، ثم يضربني برجله ، فإذا رأىٰ مني كسلاً . . قال : نَمْ يا بني ، فأنا أقوم عنك ، قال : ثم يجيء إلىٰ أخي ، فيضربه برجله ، فإن رأىٰ منه كسلاً . . قال : نَمْ يا بني ، فأنا أقوم عنك ، قال : فيقوم حتىٰ يصبح .

وعن يحيى بن كثير الضريرِ قال : رأيت زبيداً في النوم ، فقلت له : إلىٰ ماذا صرت يا أبا عبد الرحمن ؟ قال : إلىٰ رحمة الله تعالىٰ ، قلت : فأي العمل وجدت أفضل ؟ قال : الصلاة ، وحب علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

أدرك من الصحابة ابن عمر ، وأنس بن مالك ، رضي الله عنهم ، وسمع أبا وائل ، والشعبي ، ومرة الهمداني .

وروىٰ عنه من التابعين جماعة ، رضي الله عنهم أجمعين .

فمن روايته : عن أنس بن مالك قال : (من قال سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إلـه إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . . غفرت ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر ، قال : فقال معاذ : ألا أدلك علىٰ ما هو أهون من ذلك ؟ ما من عبد يقول : أستغفر الله العظيم الذي لا إلـه إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه ، ثلاث مرات . . إلا غفرت ذنوبه وإن كان فر من الزحف[1]) حديث غريب .

وعنه عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يزالون مدفوعاً عنهم البلاء بلا إلـه إلا الله ما لم يبالوا ما نقص من دنياهم ، فإذا فعلوا ذلك . . ردها الله عليهم وقال : لستم من أهلها » .

وعن زبيد ، عن مرَّة ، عن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَسِرُّوا ما شئتم ، فوالله ؛ ما أسرَّ عبد ولا أمة سريرة . . إلا ألبسه الله عز وجل رداءها ، خيراً فخيراً ، أو شراً فشراً ، حتىٰ لو أن أحدكم عمل خيراً من وراء سبعين حجاباً . . لأظهر الله ذلك الخير

---

(١) أخرج الشطر الأخير منه مرفوعاً بنحوه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الحاكم (١/ ٦٩٢) .

حتىٰ يكون ثناؤه في الناس خيراً ، ولو أن أحدكم أسر شراً من وراء سبعين حجاباً . . لأظهر الله ذلك الشر حتىٰ يكون ثناؤه في الناس شراً »[1] **انتهىٰ** [« الحلية » ٥/ ٢٩ـ٣٧] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : توفي زبيد سنة اثنتين وعشرين ومئة ، رحمه الله تعالىٰ . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/ ٤٨] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرجه بنحوه الطبراني في « الكبير » (٢/ ١٧١) .

ومنهم الإمام :

أبو غياث منصور بن المعتمر
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : عن الثوري رحمه الله قال : لو رأيتَ منصوراً يصلي . . لقلتَ : يموت الساعة .

وعن أبي بكر ابن عياش قال : لو رأيت منصور بن المعتمر وعاصماً[1] والربيع ابن أبي راشد في الصلاة وقد وضعوا لحاهم علىٰ صدورهم . . عرفت أنهم من أبرار الصلاة .

وقالت ابنة لجار المنصور بن المعتمر : يا أبت ؛ أين الخشبة التي كانت في سطح منصور ؟ قال : يا بنية ؛ ذاك منصور كان يقوم الليل .

وفي رواية أخرىٰ : كان منصور يصلي في سطحه ، فلما مات . . قال غلام لأمه : يا أماه ؛ الجذع الذي كان في سطح منصور ما أراه ؟ قالت : يا بني ؛ ليس ذاك بجذع ، ذاك منصور قد مات رحمه الله .

وعن ابن عيينة قال : رأيت منصور بن المعتمر في المنام ، فقلت : ما فعل الله بك ؟ قال : كدت أن ألقى الله عز وجل بعمل نبي .

قال سفيان : إن منصوراً صام ستين سنة ، يقوم ليلها ويصوم نهارها .

وكان يبكي ، فتقول له أمه : يا بني ؛ قتلت قتيلاً ؟ فيقول : أنا أعلم بما صنعت بنفسي ، فإذا كان الصبح . . كحل عينيه ، ودهن رأسه ، وبرق ثناياه ، وخرج إلى الناس .

وكان قد عمش من البكاء ، وكانت أمه تقول له : إن لعينك عليك حقاً ، ولجسمك عليك حقاً ، فكان يقول لها : دعي عنك منصوراً ؛ فإن بين النفختين نوماً طويلاً .

وقال أبو عوانة : لما أُجلس منصور بن المعتمر على القضاء قهراً . . كان يأتيه الرجل ، فيقص عليه ، فيقول : قد فهمت ما قلت ، ولا أدري ما الجواب فيه . وكان يفعل ذلك ،

---

(١) أي : عاصم بن أبي النجود .

فذُكِر ذلك لابن هبيرة ـ وكان هو الذي ولاه ـ فقال : هـٰذا أمر لا يصلح إلا أن يعين عليه صاحبه بشهوة ، فتركه ، وكان قد حبسه شهراً قبل ذلك يريده على القضاء ويأبىٰ عليه .

وعن أبي بكر ابن عياش قال : ربما كنت مع منصور في منزله جالساً ، فتصيح به أمه ـ وكانت غليظة عليه ـ تقول : يا منصور ؛ يريدك ابن هبيرة على القضاء فتأبىٰ عليه ؟! وهو واضع لحيته علىٰ صدره ما يرفع طرفه إليها .

وعن سفيان ، عن منصور قال : كان يقال : للأم ثلاثة أرباع البر .

وقال حسن بن صالح : كان منصور في الديوان ، فقال له إنسان : ناولني الطين أختم به ، قال : أرني كتابك حتىٰ أنظر أي شيء فيه .

وروىٰ عن أنس بن مالك ، ورأى ابن أبي أوفىٰ ، وحدث عن جماعة من التابعين ، رضي الله عنهم أجمعين . انتهىٰ [« الحلية » ٥/ ٤٠ـ٤٣] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال زائدة بن قدامة : أخذ يوسف بن عمر عامل الكوفة منصوراً يريده على القضاء ، فامتنع ، فدخلت عليه وقد جيء بالقيد ليُقَيَّد ، قال : فجاءه خصمان ، فقعدا بين يديه ، فلم يسألهما ولم يكلمهما ، فقيل ليوسف : إنك لو نثرت لحمه . . لم يل لك قضاء ، فخلىٰ عنه .

وقال زائدة بن قدامة : كنت إذا رأيته . . قلت : رجل قد أصيب بمصيبة ، منكسر الطرْف ، منخفض الصوت ، رطب العينين ، إن حركته . . جادت عيناه بالدموع .

وكان إذا صلى الصبح . . أظهر النشاط لأصحابه فيحدثهم ، ولعله إنما بات قائماً علىٰ أطرافه ، يفعل كل ذلك ليُخفِي عليهم العمل .

وسألوا أمه عن عمله ، فقالت : كان ثلث الليل يقرأ ، وثلثه يصلي ويبكي ، وثلثه يدعو .

توفي سنة اثنتين وثلاثين ومئة ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/ ٥٤ـ٥٦] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

سليمان بن مِهْران الأعمش

رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : عن الأعمش قال : قرأت القرآن علىٰ يحيى بن وَثَّاب ، وقرأ يحيىٰ علىٰ علقمة أو مسروق ، وقرأ هو علىٰ عبد الله بن مسعود ، وقرأ ابن مسعود علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعن عيسى بن يونس قال : ما رأينا في زماننا مثل الأعمش ، ولا الطبقة الذين كانوا قبلنا ، ما رأينا الأغنياء والسلاطين في مجلس قط أحقر منهم في مجلس الأعمش ، وهو محتاج إلىٰ درهم ، رحمه الله .

وكان القاسم بن عبد الرحمـٰن يقول : ليس أحد أعلمَ بحديث عبد الله من الأعمش .

وقال شريك : ما كان العلم إلا في العرب وأشراف الناس ، فقال له رجل من جلسائه : وأي نُبل كان للأعمش ؟ فقال شريك : أمَا لو رأيت الأعمش ومعه لحم يحمله ، وسفيان الثوري عن يمينه ، وشريك عن يساره ، وكلاهما ينازعه حمل اللحم . . لعلمت أن ثَمَّ نُبلاً كثيراً .

وقال الأعمش : نقض العهد وفاء بالعهد لمن ليس له عهد .

وبعث عيسى بن موسىٰ إلى الأعمش ألف درهم ، وصحيفة ليكتب له فيها حديثاً ، فأخذ الأعمش الدراهم ، وكتب في الصحيفة : بسم الله الرحمـٰن الرحيم ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ إلىٰ آخرها ، وطوى الصحيفة ، وبعث بها إليه ، فلما نظر . . قال : ظن أني لا أحسن كتاب الله عز وجل ؟ فبعث إليه الأعمش ، أظننت أني أبيع الحديث ؟! ولم يكتب له ، وحبس المال لنفسه .

وقام الأعمش من النوم لحاجة ، فلم يصب ماء ، فوضع يده على الجدار فتيمم ، ثم قام ، فقيل له في ذلك ، فقال : إني أخاف أن أموت علىٰ غير وضوء .

وقال عبد الرزاق : وربما فعله مَعْمَر .

وقال وكيع : كان الأعمش قريباً من سبعين سنة ، لم تفته التكبيرة الأولىٰ ، واختلفت إليه قريباً من ستين سنة ، فما رأيته يقضي ركعة .

وكان يحافظ على الصلاة في جماعة ، وعلى الصف الأول .

وقال الأعمش : إن كنا لنشهد الجنازة فما ندري من نعزي من حزن القوم .

وسئل عن قوله تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ فقال : سمعتهم يقولون : إذا فسد الناس . . أُمِّرَ عليهم شرارهم .

وقال أبو بكر ابن عياش : دخلت على الأعمش في مرض موته ، فقلت : أدعو لك الطبيب ؟ فقال : ما أصنع به ؟! فوالله ؛ لو كانت نفسي في يدي . . لطرحتها في الحش[1] ، إذا أنا مت . . فلا تؤْذن بي أحداً ، واذهب بي واطرحني في لحدي .

وكان يلبس القميص مقلوباً ، ويقول : الناس مجانين يجعلون الخشن يلاقي جلودهم .

وكان إذا حَدَّث . . يتخشع ويعظم العلم .

وكان ربما يحدثنا بالحديث ، ثم يقول : بقي رأس المال ؛ يعني : الإسناد .

واكترى الأعمش إلى الحج من أعرابي ، وخرج معه قوم يرجون أن يسمعوا منه ، قال : فلما أحرم ـ وكان الجمَّال يؤذيهم ـ اجتمعوا يوماً في خيمة ، فجاء إليهم وهم مجتمعون ، فآذاهم ، فقام الأعمش ، فشد إزاره ، وقام إليه بعمود الخيمة ، فضربه وشجه ، فقالوا : يا أبا محمد ؛ تقوم إليه فتشجه وأنت محرم ؟! فقال : إن من سنة الإحرام ضرب الجمَّال . انتهىٰ [« الحلية » ٥/٤٦ـ٥٣] .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : يحتمل أن يكون الأعمش رحمه الله تعالىٰ أخذ بما روي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان محرماً مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وأضل غلامه بعيراً له ، فقام إليه ، فضربه ، ويقول له : بعير واحد وأضللته ؟ والنبي صلى الله عليه وسلم يضحك ، ويقول : « انظروا إلىٰ هٰذا المحرم »[2] انتهىٰ .

وقال الحافظ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : قيل لقيس ابن أبي حفص الأبار : رأيت الأعمش ؟

---

(١) **الحشُّ** : مكان قضاء الحاجة .

(٢) أخرجه بنحوه الحاكم (١/ ٦٢٣) ، وابن خزيمة (٤/ ١٩٨) .

قال : نعم ، وسمعته يقول : إن الله يرفع بالعلم أو بالقرآن أقواماً ويضع به آخرين ، وأنا ممن رفعني الله تعالىٰ به ، ولولا ذلك . . لكان علىٰ عنقي صحن أطوف به في سكك الكوفة .

أدرك عدة من الصحابة ، رضوان الله عليهم .

وتوفي أنس بن مالك وللأعمش ثلاث وثلاثون سنة ، سمعه يقرأ [ولم يحمل عنه شيئاً مرفوعاً] .

وأرسل عن ابن أبي أوفىٰ .

ومولده عام قتل الحسين رضي الله عنه ، سنة ستين ، ووفاته سنة ثمان وأربعين ومئة .

وروىٰ عن الأعمش جماعة من التابعين ، رضي الله عنهم أجمعين .

قال الحافظ ـ رحمه الله : وكان الأعمش إذا قام من الليل . . يقرأ : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ ، ثم يقول : وأنا أشهد بما شهد الله به وشهدت به ملائكته وأولو العلم من عباده ، وأستودع الله عز وجل هـٰذه الشهادة عنده إلىٰ وقت خروج روحي ، ودخول قبري ، ولقاء ربي سبحانه وتعالىٰ .

ثم قال : عن شقيق بن سلمة ، عن عبد الله بن مسعود : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يؤتىٰ بقائلها يوم القيامة ، فيقول الله عز وجل : إن عبدي له عندي عهد عهده إليَّ في الدنيا ، وأنا أحق من وفىٰ بعهده ، أدخلوه الجنة »[1] غريب من حديث الأعمش . انتهىٰ [« الحلية » ٥/ ٥٤ و٦/ ١٨٧ـ١٨٨] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) أخرجه بنحوه الطبراني في « الكبير » (١٠/ ١٩٩) .

ومنهم الإمام :

مُجَمِّع بن صمغان التيمي
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال أبو بكر ابن عياش : رأيت مجمعاً التيمي كأني أنظر إليه في سوق الغنم ، قالوا له : كيف شاتك هـٰذه ؟ قال : ما أرضاها لنفسي! قال أبو بكر : ومَن كان أورع من مجمع ؟!

ودخل سفيان الثوري علىٰ مجمع التيمي ؛ فإذا في إزار سفيان خرق ، قال : فأخذ أربعة دراهم ، فناول سفيان فقال : اشتر إزاراً ، قال سفيان : لا أحتاج إليها ، قال مجمع : صدقت ، أنت لا تحتاج ، ولـٰكني أحتاج ، قال : فأخذها ، فاشترىٰ بها إزاراً ، فكان سفيان يقول : كساني أخي مجمع جزاه الله خيراً .

وقال سفيان : ليس من عملي شيء أرجو ألاَّ يشوبه شيء كحبي مجمعاً التيمي .

وقال سفيان : حلف لنا أبو حيان التيمي ، قال : ما من عملي شيء أوثق في نفسي من حبي مجمعاً التيمي .

وعن الأعمش قال : كنت مع مجمع التيمي ، فاشترىٰ تمراً بدرهم ، فجاء سائل يسأل التَّمَّار[1] ، فقال مجمع للتمار : أعطه بنصف ، وأعطني بنصف .

وقال مجمع التيمي : ذِكر الموت غنىٰ .

وعن أبي حيان التيمي قال : رأيت مجمعاً يبكي في جنازة ابنه ، فقلت : ما يبكيك ؟ فقال : إني أجد له ما يجد الوالد لولده ، وأبكي عليه ، لا أدري إلىٰ جنة يصير أم إلىٰ نار ؟

وقال أبو بكر ابن عياش : قيل لمجمع : أيسرك أن يكون لك مال ؟ قال : لا ، قيل : تحج وتعتق وتتصدق ، قال : شيء ليس عليَّ ، ما أرجو به ؟!

وذُكر عنده الحب في الله والبغض في الله ، فقال : ما من شيء يعدله عندي .

---

(١) **التَّمَّار** : بائع التمر .

وقال أبو بكر : ما نرىٰ بالكوفة أحداً خيراً من مجمع .

وعن الأعمش قال : نزل علىٰ مجمع ضيف ، فما سأله من أين جئت ولا ما حالك حتىٰ خرج من عنده . انتهىٰ [« الحلية » ٥/٨٩ـ٩١] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : مجمع بن صمغان[١] ، كنيته : أبو حمزة .

وقال مسعر : جاء مجمع بشاة إلى السوق يبيعها ، فقال : يخيل إلي أن في لبنها ملوحة .

وقال أبو حاتم : دعا مجمع ربه سبحانه وتعالىٰ أن يتوفاه قبل الفتنة[٢] ، فمات من ليلته ، وخرج زيد بن عليٍّ من الغد . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/٥٢ـ٥٣] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) مجمع بن صمغان : كذا في النسخ « والحلية » ، وفي « الصفوة » : (مجمع بن يسار) ، وفي كتاب « الجرح والتعديل » (٨/ ٢٨٥) لابن أبي حاتم الرازي : (ابن سمعان) والله أعلم بالصواب .

(٢) وهي الخروج علىٰ هشام بن عبد الملك .

ومنهم الإمام :

عمرو بن قيسٍ المُلائيُّ
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال سفيان الثوري رحمه الله : خمسة من أهل الكوفة يزدادون كل يوم خيراً : فذكر ابن أبجر ، وأبا حيان التيمي ، وعمرو بن قيس ، وابن سوقة ، وأبا سنان .

وقال سفيان الثوري : عمرو بن قيس هو الذي أدبني ، علمني القرآن ، وعلمني الفرائض ، وكنت أطلبه في سوقه ، فإن لم أجده في سوقه . . وجدته في بيته إما يصلي ، وإما يقرأ في المصحف ، كأنه يبادر أموراً تفوته ، فإن لم أجده في بيته . . وجدته في بعض مساجد الكوفة في زاوية من زوايا المسجد ، كأنه سارِقٌ قاعد يبكي ، فإن لم أجده . . وجدته في المقبرة قاعداً ينوح علىٰ نفسه ، فلما مات عمرو بن قيس . . أغلق أهل الكوفة أبوابهم ، وخرجوا لجنازته ، فلما أخرجوه إلى الجبَّان[1] وبرزوا بسريره . . كان قد أوصىٰ أن يصلي عليه أبو حيان التيمي ، فتقدم أبو حيان ، وكبر عليه أربعاً ، وسمعوا صائحاً يصيح : قد جاء المحسن ، قد جاء المحسن عمرو بن قيس ، وإذا البرِّيَّةُ مملوءة من طيور بيض لم يُرَ علىٰ خلقتها وحسنها ، فجعل الناس يتعجبون من حسنها وكثرتها ، فقال أبو حيان : من أي شيء تعجبون ؟! هـٰذه ملائكة جاءت فشهدت عَمراً رحمه الله .

وكان عمرو بن قيس الملائي[2] يؤاجر نفسه من التجار ، ولما مات . . رُئِيَتِ الصحراء مملوءة من رجال عليهم ثياب بيض ، فلما صُلي عليه . . فُقدوا ، فكتب صاحب البريد إلىٰ عيسى بن موسىٰ يذكر له ذلك ، فقال عيسى بن موسىٰ لابن شبرمة وابن أبي ليلىٰ : لِمَ لَمْ تكونوا تذكرون لي هـٰذا الرجل ؟ فقالوا : كان يقول لنا : لا تذكروني عنده .

---

(١) **الجبَّان أو الجبَّانة** : المقبرة .

(٢) **الملائي** : نسبة لبيع المُلاء : وهو نوع من اللباس .

وقال عمرو بن قيس : ثلاث من رؤوس التواضع : أن تبدأ بالسلام علىٰ من لقيت ، وأن ترضىٰ بالمجلس الدون من الشرف ، وألاَّ تحب الرياء والسمعة والمدحة في عمل الله عز وجل .

وكان عمرو يقرىء الناس القرآن ، ويجلس بين يدي رجل رجل حتىٰ يفرغ منهم ، وإذا مشىٰ . . لا يمشي أمامهم ، يقول : تعالوا نمشي جميعاً .

وكان إذا أتى الرجلَ من أهل العلم . . جثا علىٰ ركبتيه ، ويقول : علمني مما علمك الله تعالىٰ ، ويتأول قوله تعالىٰ : ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ .

وقيل له : ما الذي نرىٰ بك من تغير الحال ؟ قال : رحمة للناس من غفلتهم عن أنفسهم ، وكان إذا نظر إلىٰ أهل السوق . . بكىٰ ، ويقول : ما أغفلَ هـٰؤلاء عما أُعدَّ لهم!

وقال : إذا اشتغلت بنفسك . . ذهلت عن الناس ، وإذا اشتغلت بالناس . . ذهلت عن نفسك .

وكان يقول : إذا سمعت بالخير : فاعمل به ولو مرة واحدة . . تكن من أهله .

وكان إذا بكىٰ . . حوَّل وجهه إلى الحائط ، ويقول لأصحابه : الزكام لا يخلو منه أحد .

وقال : لا تجالس صاحب زيغ ؛ فيزيغ قلبك .

وقال : من احتكر طعاماً عشرين ليلة ثم تصدق به . . لم يكن كفارة له .

وكان سفيان الثوري يجيء إلىٰ عمرو ينظر إليه لا يكاد يصرف بصره عنه ، أظنه يحتسب في ذلك .

وقال سفيان : عمرو بن قيس أستاذي ، سمعته يقول : ينبغي لصاحب الحديث أن يكون مثل الصيرفي[1] ؛ ينتقد الحديث كما ينتقد الصيرفي الدراهم ، فيها الزائف والبهرج ، وكذلك الحديث .

أسند عن عدة من التابعين ، رضي الله عنهم . انتهىٰ [« الحلية » ٥/ ١٠٠ـ١٠٣] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : أقام عمرو بن قيس عشرين سنة صائماً ما يعلم به أهله ، يأخذ الغداء ويغدو إلى الحانوت فيتصدق به وأهله لا يدرون .

---

(١) **الصَّيرفي** : النقاد الذي يبين زيف الدراهم ، وصير في الحديث : الذي يعرف أن الحديث معلول من مجرد سماعه إياه .

وجاءت امرأة إلىٰ عمرو بثوب ، فقالت : يا أبا عبد الله ؛ اشتر هـٰذا الثوب واعلم أن في غزله ضعفاً ، قال : وكان إذا جاءه إنسان يعرضه عليه ويقول له بما أخبرته صاحبته ، فأقام مدة ، حتىٰ جاءه رجل ، فاشتراه علىٰ هـٰذا العيب ، وقال : قد أبرأناك منه .

وقال حفص بن غياث : لما احتُضر عمرو بن قيس . . بكىٰ ، فقال له أصحابه : علام تبكي من الدنيا ؟ فوالله ؛ لقد كنتَ فيها منغَّص[1] العيش أيام حياتك ، فقال : والله ؛ ما أبكي على الدنيا ، إنما أبكي خشية أن أحرم خير الآخرة .

وقال محمد بن يزيد : سمعت من لا أحصي كثرة يقول : لما مات عمرو . . اجتمع علىٰ جنازته من الخلائق ما لا يحصىٰ ، ولا يُعرَفون ، فلما دفن . . ذهبوا ولم يُرَوا .

سمع من عكرمة وعطاء في خلق من التابعين .

وتوفي بسجستان ، ويقال : بالكوفة ، ويقال : بالشام ، ويقال : ببغداد ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/ ٦١ـ٦٢] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) **مغَّص** : مكدَّر .

ومنهم الإمام :

أبو ذر عمر بن ذر
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : لما مات ذر بن عمر الهمداني ـ وكان موته فجأة ـ جاء أبوه ، فوجدهم يبكونه ، فقال : ما لكم ؟ إنا ـ والله ـ ما ظُلمنا ، ولا قُهرنا ، ولا ذُهب لنا بحق ، ولا أُريدَ غيرُنا ، فلما وضع في قبره . . قال : رحمك الله يا بني ، والله ؛ لقد كنت بي بارًّاً ، ولقد كنت عليك حدباً[1] ، ومابي إليك من وحشة ، ولا إلىٰ أحد بعد الله عز وجل من فاقة ، ولا ذهبتَ لنا بعزٍّ ، ولا أبقيتَ علينا من ذل ، ولقد شغلني الحزن لك عن الحزن عليك ، يا ذر ؛ لولا هول المطلع ومحشرُه . . لتمنيتُ ما صرتَ إليه ، فليت شعري ، يا ذر! ما قيل لك وماذا قلت ، ثم قال : اللهم ؛ إنك وعدتني الثواب بالصبر علىٰ ذر ، اللهم ؛ فعلىٰ ذر صلواتُك ورحمتك ، اللهم ؛ إني قد وهبت ما جعلتَ لي من أجر علىٰ ذر لذر صلة مني ، فلا تعرِّفه قبيحاً ، وتجاوز عنه ؛ فإنك أرحم به مني ، اللهم ؛ وإني قد وهبت لذر إساءته إليَّ ، فهب له إساءته لنفسه ؛ فإنك أنت الجواد الكريم ، فلما ذهب لينصرف . . قال : يا ذر ؛ انصرفنا وتركناك ، ولو أقمنا . . ما نفعناك .

وفي رواية : اللهم ؛ إني قد وهبت لذر ما فرَّط منه في حقي ، فهب له ما فرَّط فيه من حقك يا أرحم الراحمين .

وفي رواية : لما مات ذر بن عمر . . قال أصحابه : الآن يضيع الشيخ ؛ لأنه كان باراً بوالديه ، فسمعهم الشيخ ، فبقي متعجباً يقول : أنَّىٰ أضيع والله تبارك وتعالىٰ حي لا يموت ؟! فسكت القوم ، فلما واراه في التراب . . قام أبوه فذكر مثله .

وقال عمر بن ذر رحمه الله : اعملوا لأنفسكم ـ رحمكم الله ـ في هـٰذا الليل وسواده ؛ فإن المغبون : من غُبن خير الليل والنهار ، والمحروم : من حرم خيرهما ، وإنما جُعِلا سبيلاً للمؤمنين إلىٰ طاعة ربهم سبحانه وتعالىٰ ، ووبالاً للآخَرين للغفلة عن أنفسهم ، فأحيوا

---

(١) حَدِباً : عطوفاً .

أنفسكم بذِكره ؛ فإن القلوب إنما تحيا بذكر الله عز وجل ، وكم من قائم لله عز وجل في الليل قد اغتبط بقيامه في ظلمة حفرته ، وكم من نائم في الليل قد ندم علىٰ طول نومه عندما يرىٰ من كرامة الله عز وجل للعابدين غداً ، فاغتنموا ممر الساعات والليالي والأيام ؛ رحمكم الله تبارك وتعالىٰ .

وكان عمر بن ذر إذا قرأ قوله تعالىٰ : ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ . . قال : يا لك من يوم ما أملأَ ذِكرك لقلوب الصادقين!

وقال ذر لأبيه عمر : ما بال المتكلمين يتكلمون فلا يبكي أحد ، فإذا تكلمت أنت . . سُمع البكاء من هٰهنا وهٰهنا ، فقال : يا بني ؛ ليست النائحة المستأجَرة كالنائحة الثكلىٰ .

وقال عمر بن ذر رحمه الله تعالىٰ : آنسك جانبُ حلمه ، فتوثبت علىٰ معاصيه ، أَفَأَسَفَهُ تريد ؟ أما سمعت قوله عز وجل : ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ ﴾ ؟ أيها الناس ؛ أجِلُّوا مقام الله عز وجل بالتنزه عما لا يحل ؛ فإن الله تعالىٰ لا يؤمَنُ إذا عصي .

وقال : ما دخل الموت دار قوم . . إلا شتت جمعهم ، وقَنَّعهم بعيشهم بعد أن كانوا يفرحون ويمرحون .

وقال : مَن أجمع على الصبر في الأمور . . فقد حوى الخير ، والتمس معاقد البر وكمال الأجور .

وكان إذا نظر إلى الليل قد أقبل . . قال : جاء الليل ، ولليل مهابة ، والله عز وجل أحق أن يُهاب .

وكان عمر بن ذر يقول في دعائه : اللهم ؛ إني أسألك خيراً يبلِّغُنا ثواب الصابرين لديك ، وأسألك اللهم شكراً يبلغنا مزيد الشاكرين ، وأسألك اللهم توبة تطهرنا بها من دنس الآثام . . حتىٰ نَحِلَّ بها عندك محل المنيبين إليك ، فأنت ولي جميع النعم والخير ، وأنت المرغوب إليه في كل شديدة وكرب وضر ، اللهم ؛ هب لنا الصبر علىٰ ما كرهنا من قضائك ، والرضا بذلك طائعين ، وهب لنا الشكر علىٰ ما جرىٰ به قضاؤك من محنتنا ، والاستكانة لحسن قضائك ، متذللين لك خاضعين ، رجاء المزيد والزلفىٰ لديك يا كريم ، اللهم ؛ فلا شيء أنفع لنا من الإيمان بك ، وقد مننت به علينا ، فلا تنزعه منا ، ولا تنزعنا منه حتىٰ تتوفانا عليه موقنين بثوابك ، خائفين لعقابك ، صابرين علىٰ بلائك ، راجين لرحمتك يا كريم .

وقال الربيع ابن أبي راشد ـ رحمه الله ـ : يا أبا ذر ؛ من سأل الله عز وجل الرضا . . فقد سأله عظيماً .

وقال ابن ذر : لولا أني أخاف ألاَّ يكون براً من القسم . . لأقسمت ألاَّ أفرح بشيء من الدنيا حتىٰ أعلم ما لي في وجوه رسل الله عز وجل .

وسمع عمر بن ذر قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ فقال عمر : الجهل .

ووعَظ عمر بن ذر ، فجعل فتًىٰ من بني تميم يصرخ ويتغير لونه ، ولا أرىٰ له دمعة تسيل ، ثم سقط مغشياً عليه ، ثم رأيته في مجلس آخر لابن ذر يبكي ، حتىٰ أقول : الآن تخرج نفسه ، فذكرت ذلك لابن ذر ، فقال : إن العقل إذا طاش . . فُقدت الحرقة ، وقلصت الدمعة ، وإذا ثبت العقل . . فَهِمَ صاحبه الموعظة ، فأحرقته ـ واللهِ ـ فحزن وبكىٰ .

وكان شخص يشتم عمر بن ذر ، فلقيه عمر بن ذر ، فقال : يا هـٰذا ؛ لا تفرط في شتمنا ، وأبق للصلح موضعاً ؛ فإنَّا لا نكافىء من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله تعالىٰ فيه .

وسمع عمر بن ذر قوله تعالىٰ : ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ ، فقال : وعزتك وجلالك يا رب ؛ لا نحتمل وعيد من لا يضر ولا ينفع ، فكيف نحتمل وعيد الضار النافع ؟ لـٰكنك أرحم الراحمين ، وأكرم الأكرمين ، وأنت الجواد الكريم . أو كما قال .

وشهد ابن ذر جنازة رجل والناس حوله ، فلما وضع الميت على القبر . . بكىٰ عمر ، ثم قال : أيها الميت ؛ أما أنت : فقد قطعت سفر الدنيا ، فطوبىٰ لك إن توسدت في قبرك خيراً .

أسند عمر عن عطاء ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وغيرهم من التابعين ، رضوان الله عليهم أجمعين .

ومما رواه عن عكرمة : عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « موت الغريب شهادة »[1] حديث غريب من حديث عمر ، لم نكتبه إلا من هـٰذا الوجه . انتهىٰ [« الحلية » ٥/١٠٨ـ١١٩] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١١/٢٤٦) .

ومنهم الإمام :

أبو إِدْريس الخَولاني[1]
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : عن ضرار بن مرة رحمه الله قال : لقيت الضحاك بخراسان وعليَّ فرو خَلَقٌ[2] ، فقال لي الضحاك : قال أبو إدريس : قلب نقي في ثياب دنسة . . خير من قلب دنس في ثياب نقية .

وعن أبي إدريس قال : المساجد مجالس الكرام .

وقال : ما تقلد امرؤ قلادة أفضل من سكينة مع تقوىٰ ، وما زاد الله عبداً قط فقهاً . . إلا زاده الله قصداً . أو كما قال .

وقال : لأَن أرىٰ في طائفة المسجد ناراً تَقِدُ . . أحب إلي من أن أرىٰ فيها رجلاً يقص ليس بفقيه .

وقال : من تتبع الأحاديث ليحدث بها . . لا يجد ريح الجنة ؛ يعني : لغير الله عز وجل .

وقال : لا يهتكُ الله ستر عبد في قلبه مثقالُ ذرة من خير .

وقال : يُرفع من هٰذه الأمة الخشوع حتىٰ لا ترىٰ خاشعاً .

وقال : ما علىٰ ظهرها من بشر لا يخاف علىٰ إيمانه أن يذهب . . إلا ذهب .

أسند عن معاذ بن جبل ، وجماعة من الصحابة ، رضي الله عنهم .

وروىٰ عنه جماعة من التابعين . انتهىٰ [« الحلية » ٥/ ١٢٢ـ١٢٥] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) وهو عائذ الله بن عبد الله ، ويقال فيه : عيِّذُ اللهِ بنُ إدريس بن عبد الله بن عتبة ، قاضي دمشق وعالمها ، ولد عام حنين ، ولأبيه صحبة .

(٢) خَلَقٌ : بالٍ .

ومنهم الإمام :

عبد الله بن مُحَيْريزٍ
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : ذهب ابن محيريز إلىٰ بزَّاز[1] يشتري منه ثوباً ، والبزَّاز لا يعرفه ، وعنده رجل يعرفه ، فقال : بِكَمْ هـٰذا الثوب ؟ قال التاجر : بكذا وكذا ، فقال الرجل الذي يعرفه : أحسِن إلى ابن محيريز ، فقال ابن محيريز : إنما أنا جئت أشتري بمالي ، ولم [أجيء] أشتري بدِيني ، فقام ولم يشتر .

وقيل له : إن الناس يقولون : إنما يدعوك إلىٰ هـٰذه الثياب الخَلَقَةِ البخل ليس القصد ، فاشترىٰ ثوبين أبيضين ، قال : أردُّ بهما عني ألسنة الناس .

ودخل ابن محيريز علىٰ سليمان ، فقال له : بلغني أنك زوجت ابنك ، قال : نعم ، قال : فقد أصدقنا عنه ، فقال ابن محيريز : أما العاجل . . فقد دفع إليهم ، وأما الآجل . . فهو عليه ، وهم لا يطالبونه الآن ، فليس ثَمَّ حاجة ، ولم يقبَلْ ، وكان بلال ابن أبي بردة معه على السرير ، فقال بلال : يابن محيريز ؛ اقبل عطية الأمير ، فلم يجبه ، قال بلال : فلما خرج . . تبعته ، فقال لي : متىٰ كان ابن أبي بردة شرطياً لسليمان .

وأرسل عبد الملك بن مروان جارية إلى ابن محيريزٍ ، فترك ابن محيريز منزله ، فلم يكن يدخله ، فقيل : يا أمير المؤمنين ؛ أخرجت ابن محيريز عن منزله ، قال : ولِمَ ؟ قال : من أجل الجارية التي بعثت بها إليه ، قال : فبعث عبد الملك مَن يأخذها .

وكان يقول : اللهم ؛ إني أسألك ذِكراً خاملاً .

وكان إذا مُدح . . يقول : وما يدريك ؟ وما علمك ؟

وقال : كلُّكم يلقى الله عز وجل غداً كاذباً ، وذلك أن أحدكم لو كانت إصبعه من ذهب . . أشار بها وأظهرها ، ولو كان بها شلل . . لسترها ووراها .

---

(١) **البزَّاز** : بائع البزِّ ، والبزُّ : الثياب .

وقال له رجل : أوصني ، قال : إن استطعت أن تَعْرف ولا تُعْرف . . فافعل ، وإن استطعت أن تمشي ولا يُمشىٰ إليك . . فافعل .

وعن أبي زرعة قال : لم يكن بالشام أحد يظهر عيب الحَجَّاجِ . . إلا ابن محيريزٍ وأبو الأبيض العنسي .

وقال : من مشىٰ أمام أبيه . . فقد عقَّه ، إلا أن يميط الأذىٰ عن طريقه ، ومن دعا أباه باسمه أو كنيته . . فقد عقَّه ، إلا أن يقول : يا أبت .

وقال رجاء بن حَيوَة رحمه الله : كنا في مجلس ابن محيريز ، فأتانا نعي ابن عمر رضي الله عنهما ، فقال ابن محيريز : والله ؛ لقد كنت أَعُدُّ بقاءه أماناً لأهل الأرض .

وقال رجاء بن حيوة لما مات ابن محيريز : والله ؛ لئن كنت أعد بقاء ابن محيريز أماناً لأهل الأرض .

وعن الأوزاعي قال : كان عبد الله ابن أبي زكرياء إذا قدم فرأى ابن محيريز . . صغرت إليه نفسه ؛ لما يرىٰ من فضله .

وقال ابن محيريزٍ : إذا رأيت خيراً . . فاحمد الله عز وجل ، وإذا رأيت منكراً . . فَأَلْطَأْ[1] بالأرض ، وسَلِ الله تعالىٰ أن يخفف البلاء عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

وكان يختم القرآن في كل سبع .

وكان ابن محيريز يجيء إلىٰ عبد الملك بصحيفة فيها النصيحة يقرئه ما فيها ، فإذا فرغ منها . . أخذ الصحيفة .

ومر برجل يكلم امرأة ، فَهَمَّ بأن يكلمهما ، ثم قال : الله أعلم بما يقولان ، فمضىٰ ولم يكلمْهما .

وكانت فيه خصلتان : كان أبعد الناس عن أن يسكت عن حق ، إذا تبين له . . يتكلم فيه ، غضب من غضب ورضي من رضي ، وكان من أحرص الناس أن يكتم من نفسه أحسن ما عنده .

أسند ابن محيريز عن عدة من الصحابة ، وروىٰ عنه من التابعين جماعة ، رضي الله عنهم أجمعين . انتهىٰ [« الحلية » ٥/١٣٨ـ١٤٥] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) إِلطأ : إِلصق بالأرض ، وكن كالتراب .

ومنهم الإمام :

عبد الله بن أبي زكرياء

رضي الله عنه

وروى الحافظ ـ رحمه الله ـ : عن الأوزاعي قال : لم يكن بالشام رجل يفضل على ابن أبي زكرياء .

وقال : عالجت لساني عشرين سنة قبل أن يستقيم لي .

وفي رواية : عالجت الصمت عشرين سنة ، فلم أقدر منه علىٰ ما أريد .

وكان لا يذكر في مجلسه أحداً ، يقول : إن ذكرتم الله عز وجل . . أعنَّاكم ، وإن ذكرتم الناس . . تركناكم .

وقال : واللهِ ؛ لَلُبْسُ المسوح ، وسف الرماد ، والنوم على المزابل مع الكلاب . . ليسيرٌ في مرافقة الأبرار .

وقال ابن أبي زكرياء : من قال : **سبحان الله وبحمده عند البرق . . لم تصبه صاعقة** .

وقال حسان بن عطية : تذاكروا في مجلس فيه ابن أبي زكرياء ومكحول : أن العبد إذا عمل الخطيئة . . لم تكتب عليه ثلاث ساعات ، فإن استغفر الله تعالىٰ ، وإلا . . كتبت عليه .

وقال ابن أبي زكرياء : ما مَسِسْت ديناراً ولا درهماً قط ، ولا اشتريت شيئاً ، ولا ساومته ، إلا مرة رأيت جوربين معلقين ، فقلت : بكم هـٰذا ؟ ثم ذكرت ، فسكتُّ .

وكان من أبشِّ الناس ، وأكثرهم تبسمُّاً .

وكان له إخوة يكفونه .

وقال : لو خيرت بين أن أعمر مئة سنة في طاعة الله سبحانه وتعالىٰ ، أو أقبض في يومي هـٰذا ، أو ساعتي هـٰذه . . لاخترت أن أقبض في يومي هـٰذا ؛ شوقاً إلى الله سبحانه وتعالىٰ ، وإلىٰ رسوله صلى الله عليه وسلم ، وإلى الصالحين من عباده ، رضوان الله عليهم أجمعين .

وكان عنده مصاحف كثيرة ، فقيل له في ذلك ، فقال : أمَّا واحد . . فأقرأ فيه ، والآخر للمرأة ، والآخر لابني .

وكنتَ لا تراه أبداً إلا وثيابه كأنما غسلت يومئذ ؛ لشدة نقائها .

أسند عن عبادة بن الصامت ، وأبي الدرداء ، وأم الدرداء ، ومن التابعين عن رجاء بن حيوة ، رضي الله عنهم . انتهىٰ [« الحلية » ٥/١٤٩ـ١٥٢] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو عبد رب عبيدة بن المهاجر
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : إن أبا عبد رب[1] خرج من عشرة آلاف دينار ، أو من مئة ألف .

وكان يقول : لو سالَتْ بَرَدىٰ أمثال الذهب . . ما كنت أول الناس يقوم إليها ، ولو قيل : إن الموت في هـٰذا العُود . . ما سبقني إليه أحد إلا بفضل قوة .

وكان يشتري الرقاب فيعتقهم ، فاشترىٰ يوماً عجوزاً رومية ، فأعتقها ، فقالت له : ما أدري أين آوي ، فبعث بها إلىٰ منزله ، فلما انصرف من المسجد . . أُتي بالعشاء ، فدعاها ، فأكل معها ، ثم راطَنُوها[2] ، فإذا هي أمه ، فسألها الإسلام ، فأبت ، فكان يبلغ من برها ما يبلغ ، فأُتي يوماً بعد العصر يوم الجمعة ، فأُخبر أنها أسلمت ، فخرَّ ساجداً حتىٰ غربت الشمس .

وعن ابن جابر : أن أبا عبد رب كان من أكثر أهل دمشق مالاً ، فخرج إلىٰ أذربيجان في تجارة ، فأمسىٰ إلىٰ جانب مرعًىٰ ونهر ، فنزل به ، قال أبو عبد رب : فسمعت صوتاً يكثر حمد الله سبحانه وتعالىٰ في ناحية ، فاتبعته ، فوجدت رجلاً في حَفِير من الأرض ملفوفاً في حصير ، فسلمت عليه ، وقلت له : من أنت يا عبد الله ؟ قال : رجل من المسلمين ، قال : قلت : ما حالك هـٰذه ؟ قال : نعمة يجب عليَّ حَمْدُ الله فيها ، قال : قلت : وكيف وإنما أنت في حصير ؟ قال : وما لي لا أحمد الله عز وجل أن خلقني فأحسن خلقي ، وجعل مولدي ومنشئي في الإسلام ، وألبسني العافية في أركاني ، وستر عليَّ ما أكره ذِكره أو نشره ، فمَن أعظمُ نعمة ممن أمسىٰ في مثل ما أنا فيه ؟! قلت : رحمك الله ، إن رأيت أن

---

(١) اختلف في كنيته ، ففي « تهذيب الكمال » و« تاريخ ابن عساكر » : أبو عبد ربه ، وأبو عبد رب العِزَّة ، واسمه : عبد الجبار بن عبيد الله بن سلمان .

(٢) **راطَنُوها** : كلمة أعجمية معناها : كلموها .

تقوم معي إلى المنزل ؛ فإنَّا نُزولٌ على النهر هـٰهنا ، قال : ولِمَ ؟ قلت : لتصيب من الطعام ، ونعطيك ما يغنيك عن لبس الحصير ، قال : ما بي حاجة ، إن لي في أكل العشب كفاية ، فأردته علىٰ أن يتبعني ، فأبىٰ ، وقال : ما لي به من حاجة .

قال أبو عبد رب : فانصرفت ، وقد تقاصرَتْ إلي نفسي ومقتُّها ؛ لأني لم أخلِّفْ بدمشق رجلاً في الغنىٰ يكاثرني ، وأنا أطلب الزيادة ، قال : ثم قلت : اللهم ؛ إني أتوب إليك من سوء ما أنا فيه ، قال : فبتُّ ولم يعلم إخواني ما أجمعت عليه ، فلما كان من السحر . . رحلوا وقدَّموا لي دابتي ، فركبتها ، وصرفتها إلىٰ دمشق ، وقلت : ما أنا بصادق في التوبة إن مضيت معهم ، فسألني القوم ، فأخبرتهم ، وعاتبوني على المضي معهم ، فأبيت ، قال ابن جابر : فلما قدم دمشق . . تصدق بصامت ماله[1] ، وتجهز به في سبيل الله تعالىٰ .

قال ابن جابر : فحدثني بعض إخواني قال : ماكَسْتُ[2] صاحب عباء بدانق في عباءة ، أعطيته ستة ، وهو يقول : سبعة ، فلما أكثرت . . قال : مِمَّن أنت ؟ قلت : من أهل دمشق ، قال : أمَا تشبه شيخاً وفد عليَّ أمس ، يقال له : أبو عبد رب ، اشترىٰ مني سبع مئة كساء بسبعة سبعة ، ما سألني أن أضع له درهماً ، وسألني أن أحملها له ، فبعثت أعواني ، فما زال يفرقها بين فقراء الجيش ، فما دخل منزله منها بكساء .

وقال ابن جابر : قد تصدق ـ كما ذكرنا ـ بصامت ماله وباع عُقَدَهُ[3] ، فتصدق بها إلا داراً بدمشق .

وكان يقول : والله ؛ لو أن نهركم هـٰذا ـ يعني : بردىٰ ـ سال ذهباً وفضة ، من شاء خرج إليه فأخذه . . ما خرجت إليه ، ولو أنه قيل : من مس هـٰذا العود لمات . . لسرني أن أقوم إليه ؛ شوقاً إلىٰ لقاء الله ، وإلىٰ رسوله صلى الله عليه وسلم .

وقال ابن جابر : وافيتُه ذات يوم يتوضأ علىٰ مِطهرة دمشق ، فسلمت عليه ، فرد عليَّ السلام ، فقال : يا طويل ؛ لا تعجل ، فانتظرته ، فلما فرغ من وضوئه . . أقبل عليَّ ، فقال : إني أريد أن أستشيرك ، فأشر عليَّ ، قال : قلت : اذكر ، قال : خرجت من صامت مالي وعقدي ، ولم يبق إلا داري هـٰذه أعطيت بها كذا وكذا ألفاً ، فما ترىٰ ؟ قال : قلت :

---

(١) **المال الصامت** : الذهب والفضة ، **والناطق** : الإبل والغنم .

(٢) **المماكسة** : في انتقاص واستحطاطه في البيع .

(٣) **العُقَدَةُ** : كل ما يمتلكه الإنسان من ضيعة أو عقار أو مال وغيره .

والله ؛ ما ندري ما بقي من عمرك ، وأخاف أن تحتاج إلى الناس ، وفي غَلَّتها قوام لعيشك ، وتسكن طائفة منها تسترك وتغنيك عن منازل الناس ، قال : وإن هـٰذا لرأيك ، قلت : نعم ، قال : أصابك ـ والله ـ المَثَل ، قلت : وما ذاك ؟ قال : لا يخطئك من طويل حمق ، بالفقر تخوفني ؟! قال ابن جابر : فباعها بمال عظيم ، وفرقه ، وكان مع ذلك موته ، فما وُجِدَ من ثمنها إلا قدر الكفن .

أدرك بعض الصحابة ، رضي الله عنهم أجمعين . انتهىٰ [« الحلية » ٥/ ١٦٠ـ١٦٢] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

يزيد بن مَرْثَد
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال عبد الرحمـٰن بن يزيد بن جابر : قلت ليزيد بن مرثد : ما لي أرىٰ عينيك لا تجف ؟ قال : وما مسألتك عنه ؟ قلت : عسى الله أن ينفعني به ، قال : يا أخي ؛ إن الله عز وجل قد توعدني إن أنا عصيته . . أن يسجنني في النار ، واللهِ ؛ لو لم يتوعدني إلا أن يسجنني في الحَمَّام . . لكنت حرياً ألاَّ تجف لي دمعة عين ، قال : فقلت له : فهـٰكذا أنت في خلوتك ؟ قال : وما مسألتك عنه ؟ قلت : عسى الله أن ينفعني به ، فقال : والله ؛ إن ذلك ليعرض لي حين أسكن إلىٰ أهلي ، فيحول بيني وبين ما أريد ، وإنه ليوضع الطعام بين يدي ، فيعرض لي ، فيحول بيني وبين أكله . . حتىٰ تبكي امرأتي ، ويبكي صبياننا ، ما يدرون ما أبكانا ، ولربما أضجر ذلك امرأتي ، فتقول ـ يا ويحها ـ : ما خُصِصتُ به من طول الحزن معك في الحياة الدنيا ؟! ما تقر لي عين معك .

وعن يزيد بن مرثد : أن أبا الدرداء قال لمعاوية : والذي نفسي بيده ؛ لا تنقصون من أرزاق الناس شيئاً . . إلا نقص من الأرض مثله .

وأراد الوليد بن عبد الملك أن يولي يزيد بن مرثد القضاء ، فلبس يزيد فروا قد قَلَبَه ، فجعل الجلد علىٰ ظهره والصوف خارجاً ، وأخذ بيده رغيفاً وعَرْقاً[1] ، وخرج بلا رداء ، ولا قلنسوة ، ولا نعل ، ولا خف ، وجعل يمشي في الأسواق ، ويأكل الخبز واللحم ، فقيل للوليد : إن يزيد بن مرثد قد اختُلِط ، وأُخبر بما فعل ، فتركه .

أسند عن معاذ بن جبل ، وأبي الدرداء ، وغيرهما ، رضي الله عنهم أجمعين .

فمما رواه عن أبي ذر : عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن داوود عليه الصلاة

---

(١) **العَرْقُ** ـ بسكون الراء ـ : العظم إذا أخذ عنه معظم اللحم .

والسلام قال : إلـٰهي ؛ ما حق عبادك عليك إذا هم زاروا بيتك ؟ فإن لكل زائر على المزور حقاً ، قال : يا داوود ؛ إن لهم عليَّ أن أعافيهم في الدنيا ، وأغفر لهم إذا لقيتهم »[1] انتهىٰ [« الحلية » ٥/ ١٦٤ـ١٦٦] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) أخرجه بنحوه الطبراني في « الأوسط » (٦/ ١٤٤) .

ومنهم الإمام :

رَجَاء بن حَيْوَة
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : عن مطرٍ الورَّاق قال : ما رأيت شامياً أفضل من رجاء بن حيوة رحمه الله .

وقال ابن عون : ثلاثة لم أر مثلهم ، التقوا فتواصوا : ابن سيرين بالعراق ، وقاسم بن محمد بالحجاز ، وأبو المقدام رجاء بن حيوة بالشام .

وعن عبد الرحمٰن بن عبد الله : أن رجاء بن حيوة قال لعدي بن عدي ولمعن بن المنذر يوماً وهو يعظهما : انظرا إلى الأمر الذي تحبان أن تلقيا الله عز وجل عليه . . فخذا فيه الساعة ، وانظرا إلى الأمر الذي تكرهان أن تلقيا الله عز وجل [عليه] . . فدعاه الساعة .

وعن المُعلَّى بن رؤبة[1] ، قال : كانت لي حاجة إلىٰ رجاء بن حيوة ، فسألت عنه ، فقالوا : هو عند سليمان بن عبد الملك ، قال : فلقيته ، فقال : ولىٰ أمير المؤمنين اليوم ابن موهب القضاء ، ولو خيرت بين أن أَلِيَ وبين أن أُحمل إلىٰ حفرتي . . لاخترت أن أحمل إلىٰ حفرتي ، قلت : إن الناس يقولون : إنك أنت الذي أشرت به ، قال : صدقوا ، إني نظرت للعامة ولم أنظر له .

وعن رجاء بن حيوة قال : إني لواقف مع سليمان بن عبد الملك ، وكانت لي منه منزلة ؛ إذ جاء رجل حسن الهيئة ، قال : فسلم عليَّ ، فقال : يا رجاء ؛ إنك قد ابتليت بهٰذا الرجل وفي قربه الوقع[2] ، يا رجاء ؛ عليك بالمعروف وعون الضعيف ، واعلم يا رجاء : أنه من كانت له منزلة من السلطان فرفع إليه حاجةَ إنسانٍ ضعيف لا يستطيع رفعها . . لقي الله عز وجل ـ يوم يلقاه ـ وقد ثبَّتَ قدميه على الصراط ، وخفف عليه الحساب ، واعلم يا رجاء :

---

(١) في « الحلية » : (العلاء بن روبة) .

(٢) في نسخة : (الواقع) ، وفي « سير أعلام النبلاء » : (الوتغ) ، **والوقع** : السقوط ، **والوتغ** : الهلاك .

أنه من كان في حاجة أخيه المسلم.. كان الله في حاجته ، واعلم يا رجاء : أن مِن أحبِّ الأعمال إلى الله سبحانه وتعالىٰ.. فرحاً أدخلته علىٰ مسلم . ثم فقده ، فكان يرىٰ أنه الخضر .

ووفد يزيد بن عبد الملك بيت المقدس ، فسأل رجاء بن حيوة أن يصحبه ، فأبىٰ واستعفاه ، فقال له عقبة بن وساج : إن الله ينفع بمكانك ، فقال : إن أولـٰئك الذين تريد قد ذهبوا ، فقال له عقبة : إن هـٰؤلاء القوم ما باعدهم رجل بَعْدَ مقاربة.. إلا ركبوه ، فقال : إني لأرجو أن يكفِيْنِيَهُم الذي أَدَعُهم له سبحانه وتعالىٰ[1] .

وكان رجاء بن حيوة رحمه الله يصلي ما بين الظهر إلى العصر .

وقال : الحلم أرفع من العقل ؛ لأن الله تبارك وتعالىٰ تَسَمَّىٰ به .

وقال سعيد بن عبد العزيز : رأىٰ إنسان في منامه أن إنساناً من الأبدال قد مات ، فكُتب رجاء بن حيوة مكانه .

وودع رجلٌ رجاءَ بن حيوة فقال : حفظك الله يا أبا المقدام ، فقال : يا أخي ؛ لا تسأل عن حفظي ، ولـٰكن قل : يحفظ الله عليك الإيمان .

وقال رجاء : ما أكثر عبدٌ ذِكر الموت.. إلا ترك الحسد والفرح .

وعن رجاء قال : ما أحسنَ الإسلامَ يزينه الإيمان ، وما أحسن الإيمان يزينه التقىٰ ، وما أحسن التقىٰ يزينه العلم ، وما أحسن العلم يزينه الحلم ، وما أحسن الحلم يزينه الرفق .

أسند عن عبد الله بن عمرو بن العاصي ، وأبي الدرداء ، وأبي أمامة ، وغيرهم من الصحابة ، رضي الله عنهم أجمعين . انتهىٰ [« الحلية » ٥/ ١٧٠ـ١٧٣] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) قال الذهبي في « السير » (٤/ ٥٦٠) : (كان رجاء كبير المنزلة عند سليمان بن عبد الملك ، وعند عمر بن عبد العزيز ، وأجرى الله علىٰ يديه الخيرات ، ثم إنه بعد ذلك أُخِّر ، فأقبل علىٰ شأنه ، فعن ابن عون قال : قيل لرجاء : إنك كنت تأتي السلطان فتركتهم! فقال : يكفيني الذي أدعهم له) انتهىٰ .

ومنهم الإمام :

فقيه الشام أبو عبد الله مكحول
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال أبو عبد الله مكحول : من لم ينفعه علمه . . ضَرَّه جهله .

وقال عبد ربه بن صالح : دخلت علىٰ مكحول في مرض موته ، فقلت : أحسَنَ الله عافيتك أبا عبد الله ، فقال : الإلحاق بمن يُرجىٰ عفوه سبحانه وتعالىٰ . . خير من البقاء [مع من لا يؤمن شره] .

وقيل لمكحول : يا أبا عبد الله ؛ أتحب الجنة ؟ قال : ومن لا يحب الجنة ؟ قال : فأَحِبَّ الموت ؛ فإنك لن ترى الجنة حتىٰ تموت .

وقال [علي بن حوشب : سمعت مكحولاً يقول] : قدمت دمشق وما أنا بشيء من العلم ـ أراه قال : أعلم مني بكذا ـ فأمسك أهلها عن مسألتي حتىٰ ذهب .

وعن مكحول : أنه عاد حكيم بن حزام ، فقال : أتراك مرابطاً العام ؟ فقال له : كيف تسألني عن هـٰذا وأنا علىٰ هـٰذا الحال ؟ قال : وما عليك أن تنوي ذلك ؟ فإن شفاك الله عز وجل . . مضيت لوجهك ، وإن حال بينك وبينه أجل . . كُتبت لك نيتك .

وعن بركة الأزدي قال : وَضَّأت مكحولاً ، فأتيته بمنديل ، فأبىٰ أن يمسح به وجهه ، ومسح وجهه بطرف ثوبه ، وقال : الوضوء بركة ، وأنا أحب ألاَّ تعدُوَ ثوبي .

وعن الزهري قال : العلماء أربعة : سعيد بن المسيب بالمدينة ، وعامر الشعبي بالكوفة ، والحسن البصري بالبصرة ، ومكحول بالشام .

وقال مكحول : لا يؤخذ العلم إلا عمن شُهد له بالطلب .

وقال مكحول : لأَن يضرب عنقي . . أحب إلي من أن أَلِيَ القضاء ، ولأَن أَلِيَ القضاء . . أحب إلي من بيت المال .

وقال مكحول : أرق الناس قلوباً أقلهم ذنوباً .

وقال مكحول : من أحب رجلاً صالحاً . . فإنما أحب الله عز وجل ، ومن ذهب إلىٰ علم يتعلمه . . فهو في طريق الجنة إلىٰ أن يرجع .

وكان يصوم الإثنين والخميس .

وقال : من أحيا ليلة في ذِكر الله عز وجل . . أصبح كيوم ولدته أمه .

وقال : من قال : أستغفر الله العظيم الذي لا إلـه إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه . . غفرت ذنوبه ولو كان فاراً من الزحف .

وقال : عينان لا يمسهما العذاب : عين بكت من خشية الله عز وجل ، وعين باتت من وراء المسلمين .

وقال : المؤمنون هيِّنون ليِّنون ، مثل الجمل الأَنِفِ[1] ، إن قُدْتَهُ . . انقاد ، وإن أنخته علىٰ صخرة . . استناخ .

وقال : إن كان الفضل في الجماعة . . فإن السلامة في العزلة .

وعن مكحول قال : بينما سليمان بن داوود عليهما الصلاة والسلام علىٰ بساط من شعر وأصحابه حوله ؛ إذ أمر الريح ، فاستقلته ، وسارت الجن والإنس أمامه ، والطير تظله ؛ وإذا حرَّاث يحرث علىٰ جانب الطريق ، فقال الحرَّاث : لو أن سليمان بن داوود عندي . . كلمته بثلاث كلمات ، فأوحى الله عز وجل إلىٰ سليمان : أن ائت الحرَّاث ، قال : فركب علىٰ فرس له حتىٰ أتاه ، وقال : السلام عليك يا حرَّاث ، أنا سليمان بن داوود ، فقل ما أردت أن تقول ، قال : فرد عليه السلام ، وقال : وما علمك أني أردت أن أقول ؟ قال : الله عز وجل أعلمني بذلك ، قال الحرَّاث : أشهد أنه بكل شيء عليم ، ثم قال : والله ؛ لما رأيتك فيما أنت فيه . . قلت : والله ؛ ما يجد سليمان لذة أَمس ، ولا نعيماً نَعِمَهُ أمس ، وأنا لا أجد تعباً تعبته أمس ولا نصباً نصبته أمس ، فما أنا وإياه إلا سواءً ؛ لأنه لا يجد لذة ما مضىٰ ، وأنا لا أجد تعب ما مضىٰ ، قال : وقلت : إن سليمان يموت وأنا أموت ، قال : صدقت ، ثم قال : قلت : يا سليمان ؛ كلمة طابت بها نفسي ، قلت : سليمان عليه الصلاة والسلام يُسأل غداً عما أعطي ، وأنا لا أُسأل ، قال : فخرَّ سليمان ساجداً علىٰ فرسه يبكي ، وهو يقول : يا رب ؛ لولا أنك جواد كريم لا ترجع فيما وهبت . . لسألتك أن تنزع مني ما أعطيتني ، قال : فأوحى الله عز وجل إليه : يا سليمان ؛ ارفع

---

(١) أنِفَ البعير : ذلَّ وانقادَ .

رأسك ؛ فإني لم أنعم علىٰ عبد لي نعمة فتكون تلك النعمة رضا ، فأحاسبه عليها . انتهىٰ [« الحلية » ٥/ ١٧٧ـ١٨٣] .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : اعلم : أن هـٰذا ليس بصحيح ، وذلك لأنه لا خلاف في أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين لا يُسألون عن معجزاتهم ، ومعلوم أن ما أوتيه سليمان عليه الصلاة والسلام من المُلك كان معجزة له ، وقد نطق القرآن بذلك فقال سبحانه وتعالىٰ : ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ۞ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ۞ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۞ هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فلو كان هـٰذا صحيحاً . . لقال سليمان عليه الصلاة والسلام للحرَّاث : إنك قد أخطأت في قولك ، أَنِّي أُسأل ؟! فإن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لا يُسألون عن معجزاتهم ، وهـٰذا معجزتي ، فكيف أُسأل عنه ؟! والله سبحانه أعلم . انتهىٰ .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : وعن مكحول قال : كان من دعاء داوود عليه الصلاة والسلام : يا رازق [الغراب] النَّعَّاب في عشه ، وذلك أن الغراب إذا فقَّص عن فراخه . . فقَّص عنها بيضاء ، فإذا رآها كذلك . . نفر عنها ، فتفتح أفواهها ، فيرسل الله عز وجل عليها ذباباً يدخل في أفواهها ، فيكون ذلك غذاء لها حتىٰ تسودَّ ، فإذا اسودَّت . . انقطع الذباب عنها ، فعاد الغراب إليها ، فغذاها .

وقال : إذا كان في أمة خمسة عشر رجلاً يستغفرون الله عز وجل كل يوم خمساً وعشرين مرة . . لم يؤاخذ الله تعالىٰ تلك الأمة بعذاب العامة .

وقال مكحول : بر الوالدين كفارة للكبائر .

وعن مكحول قال : من مات مُدارياً . . مات شهيداً .

وعن [ابن] جابر قال : أقبل يزيد بن عبد الملك بن مروان إلىٰ مكحول ومعه أصحابه ، فلما رأيناه . . هممنا بالتوسعة له ، فقال مكحول : مكانكم ، دعوه يجلس حيث أدرك . . يتعلم التواضع .

وقال مكحول في قوله تعالىٰ : ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ ، قال : تكونون في كل عشرين سنة علىٰ حال لم تكونوا علىٰ مثلها .

وقال مكحول : من طاب ريحه . . زاد في عقله ، ومن نظف ثوبه . . قلَّ همه .

وقال : الطيب غذاء الصائم .

وقال مكحول : رأيت رجلاً يصلي ويبكي في ركوعه وسجوده ، فاتهمته أنه يرائي ببكائه ، فحُرمت البكاء سنة .

وقال مكحول : لا تعاهدوا السفيه ولا المنافق ، فما نقضوا من عهد الله تعالىٰ أكبر من عهدكم .

أسند عن عدة من الصحابة ، منهم : أنس بن مالك .

وروىٰ عن حذيفة ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، في آخرين رضي الله عنهم أجمعين .

فمما رواه عن أنس بن مالك رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قال حين يصبح أو يمسي : اللهم ؛ إني أصبحت أشهدك ، وأشهد حملة عرشك ، وملائكتك ، وجميع خلقك ، أنك أنت الله الذي لا إلـه إلا أنت وحدك لا شريك لك ، وأن محمداً عبدك ورسولك . . أعتق الله رُبْعه من النار ، ومن قالها مرتين . . أعتق الله نصفه من النار ، ومن قالها ثلاثاً . . أعتق الله ثلاثة أرباعه من النار ، ومن قالها أربعاً . . أعتقه الله من النار »[1] .

وعنه عن واثلة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تظهر الشماتة لأخيك ؛ فيعافيه الله ويبتليك »[2] .

وعنه عن واثلة بن الأسقع قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أُحضروا موتاكم ، ولقنوهم لا إلـه إلا الله ، وبشروهم بالجنة ؛ فإن الحليم من الرجال والنساء يتحيرون عند ذلك المصرع ، وإن الشيطان أقرب ما يكون من ابن آدم عند ذلك المصرع ، والذي نفسي بيده ؛ لمعاينة ملك الموت أشد من ألف ضربة بالسيف ، والذي نفسي بيده ؛ لا تخرج نفس عبد من الدنيا . . حتىٰ يألم كل عرق منه علىٰ حياله »[3] .

وعنه عن واثلة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يبعث الله عز وجل عبداً يوم القيامة لا ذنب له ، فيقول له الله تبارك وتعالىٰ : أي الأمرين أحب إليك : أن أجزيك بعملك ، أو بنعمتي عليك ؟ فيقول : يا رب ؛ إنك تعلم أني لم أعصك ، قال : خذوا عبدي بنعمة من نعمي ، فما تبقىٰ له حسنة إلا استغرقَتْها تلك النعمة ، فيقول : يا رب ؛

---

(١) أخرجه أبو داوود (٥٠٦٩) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٦/٦) بنحوه .

(٢) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٢٢/ ٥٣) ، والترمذي (٢٥٠٦) بلفظ : « فيرحمه » بدل « فيعافيه » .

(٣) أخرجه بنحوه الديلمي (٤/ ٣٦٥) .

بنعمتك ورحمتك ، فيقول تبارك وتعالىٰ : بنعمتي ورحمتي ، ويؤتىٰ بعبد محسن في نفسه ، لا يرىٰ أن له ذنباً ، فيقول له : هل كنت توالي أوليائي ؟ فيقول : كنت سِلماً من الناس ، قال : فهل كنت تعادي أعدائي ؟ قال : رب ؛ لم يكن بيني وبين أحد شيء ـ والرب جل جلاله أعلم بذلك ـ فيقول الله تبارك وتعالىٰ : لا ينال رحمتي من لم يوال أوليائي ويعادي أعدائي »[1] .

وعنه عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أخلص لله تعالىٰ أربعين يوماً . . ظهرت ينابيع الحكمة علىٰ لسانه »[2] .

وعنه عن أبي أيوب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل صلاة تحط ما بين يديها من الخطيئة »[3] .

وعن مكحول ، عن شرحبيل بن السمط قال : مر بي سلمان فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « رباط يوم وليلة . . خير من صيام شهر وقيامه ، وإن مات . . جرىٰ عليه عمله الذي كان يعمل ، وأمن الفتّان ، وجرىٰ عليه رزقه »[4] انتهىٰ [« الحلية » ٥/١٨٣ـ١٩٠] .

وقال القشيري ـ رحمه الله ـ : كان الغالب علىٰ مكحول الحزن ، فلما كان في مرض موته . . وجدوه ضاحكاً ، فقيل له في ذلك ، فقال : ولِمَ لا أضحك وقد دنا فراق من كنت أحذره ، وقدومي علىٰ من كنت أرجوه وأؤمله ، وهو الله سبحانه وتعالىٰ . [انتهىٰ « الرسالة » ٢٣٦] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٢٢/ ٥٩) .

(٢) أخرجه الديلمي (٣/ ٥٦٤) .

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٤١٣) ، والطبراني في « الكبير » (٤/ ١٢٦) .

(٤) أخرجه مسلم (١٩١٣) ، أحمد (٥/ ٤٤٠) ، **والفُتَّان** ـ بالضم ـ : جمع فاتن ، وهو الذي يضل الناس ، وبالفتح : الشيطان .

ومنهم الإمام :

أبو عثمان عطاء بن ميسرة الخراساني

رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال عبد الرحمٰن بن يزيد بن جابر : كنا نغازي مع عطاء ، فكان يحيي الليل صلاة ، فإذا ذهب من الليل ثلثه أو نصفه . . نادانا وهو في فسطاطه يسمعنا : يا عبد الرحمٰن بن يزيد بن جابر ، ويا يزيد بن يزيد ؛ ويا هشام بن الغاز ، ويا فلان ، ويا فلان ؛ قوموا وصلوا ؛ فإن قيام هٰذا الليل وصيام هٰذا النهار . . أيسر من شراب الصديد ومقطعات الحديد ، الوَحاءَ الوَحاء[1] ، النجاء النجاء ؛ ثم يقبل علىٰ صلاته .

وقال ابن جابر : كان عطاء يقول : إني لا أوصيكم بدنياكم ؛ أنتم بها مستوصون ، وأنتم عليها حراص ، ولٰكن إنما أوصيكم بآخرتكم ، اعلموا : أنه لن يُعتَق عبد ـ وإن كان في الشرف والمال ، وإن قال : أنا ابن فلان ـ حتىٰ يعتقه الله سبحانه وتعالىٰ من النار ، فجدُّوا في دار العمل لدار الثواب ، وفي دار الفناء لدار البقاء ، وإنما سُمِّيَتِ الدنيا ؛ لأنها أُدنيَ فيها العمل ، وإنما سُمِّيَتِ الآخرة ؛ لأن كل شيء فيها مستأخِرٌ ، وهي دار جزاء وثواب ، ليس فيها عمل ، فإذا أذنبتم . . فألصِقوا إلىٰ كل ذنب : اللهم ؛ اغفر لي ؛ فإنه التسليم لأمر الله سبحانه وتعالىٰ ، وألصِقوا إلى الذنوب : لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له ، الله أكبر كبيراً ، والحمد لله رب العالمين ، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وأستغفر الله تعالىٰ وأتوب إليه ، فإذا نشرت الصحف ، وجاء هٰذا الكلام قد ألصق عنده . . رُجي لصاحبه المغفرة ، وأَذهبت هٰذه الحسنات سيئاته ؛ فإن الله عز وجل يقول : ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ ، فمن خرج من الدنيا بحسنات وسيئات . . رُجي له مغفرة سيئاته ، ومن أصر على الذنوب ولم يستغفر . . كان في مشيئة الله سبحانه وتعالىٰ ؛ فإنه تبارك وتعالىٰ لذو مغفرة للناس علىٰ ظلمهم ، وهو سريع الحساب ، واجعلوا الدنيا كشيء فارقتموه ، فوالله ؛ لتفارقُنَّها ، واجعلوا الموت كشيء ذقتموه ،

---

(١) الوَحاءَ : الإسراع .

فوالله ؛ لتذوقُنَّه ، واجعلوا الآخرة كشيء نزلتموه ، فوالله ؛ لتنزلُنَّها ، وهي دار للناس كلهم ، وأكيس الناس : من تجهز لسفر لا بد منه ، فأخذ في الدنيا لما يجده في الآخرة من الكرامة والزلفىٰ . أو كما قال .

وقال عطاء الخراساني : مَجالس الذكر هي مَجالس الحلال والحرام .

وقال : طلب الحوائج من الشباب أسهل منه من الشيوخ ، ألم تر إلىٰ قول يوسف عليه الصلاة والسلام : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ ، وقال يعقوب عليه الصلاة والسلام : ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

وقال : نسجت العنكبوت مرتين : مرة علىٰ داوود عليه الصلاة والسلام لما كان طالوت يطلبه ، ومرة على النبي صلى الله عليه وسلم في الغار[1] .

وقال : يحاسَب العبد يوم القيامة عند معارفه ؛ لتكون أشد عليه .

وقال : إن استطعت أن تخلو بنفسك عشية عرفة . . فافعل .

وقال : أبى الله عز وجل أن يأذن لصاحب بدعة بتوبة .

وقال : قالت امرأة سعيد بن المسيب : ما كنا نكلم أزواجنا إلا كما تكلمون أمراءكم : أصلحك الله ، عافاك الله .

وقال : إن أوثق عملي في نفسي . . نشر العلم .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴾ قال : من طول ما اغبرَّتْ في سبيل الله عز وجل .

وقال : إن ساعة ما بين المغرب والعشاء ساعة الغفلة ، وهي صلاة الأوابين ، ومن جمع القرآن ، فقرأ من أوله إلىٰ آخره في الصلاة . . كان في رياض الجنة .

أسند عن أنس بن مالك ، وعبد الله بن عمر ، وأبي هريرة ، وغيرهم من الصحابة ، رضي الله عنهم أجمعين ، وجُلُّ سماعه وأخذه العلم عن كبار التابعين .

توفي سنة خمس وثلاثين ومئة .

ومما رواه عن معاذ بن جبل رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يا

---

(١) جاء في نسخة : (وعلىٰ ثالث ، وهو زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين صلب عرياناً ، فنسجت العنكبوت علىٰ عورته) اهـ

معاذ ؛ تحب أن يقضي الله دَينك ؟ » قال : نعم يا رسول الله ، فقال : « ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ، رحمٰن الدنيا والآخرة ورحيمهما ، تعطي منهما من تشاء ، وتمنع منهما من تشاء ، اقض عني الدَّين ، فلو كان عليك ملء الأرض ذهباً . . لأداه الله عز وجل عنك »[1] حديث غريب .

وعن عطاء ، عن أبي رزين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أشعرت أن العبد إذا خرج يزور أخاه . . شيعه سبعون ألف ملك ، يقولون : اللهم ؛ صله كما وصل فيك »[2] .

زاد في رواية : « فإن كان صباحاً . . صلَّوا عليه حتىٰ يمسي ، وإن كان مساء . . صلَّوا عليه حتىٰ يصبح ، فإن قدرت أن تعمل جِدَّكَ في ذلك . . فافعل » .

وعن عطاء ، عن نعيم ابن أبي هند ، عن أبي مسهر ، عن حذيفة قال : دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي توفي فيه وعليٌّ مسنده إلىٰ صدره ، فقلت : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، كيف تجدك ؟ قال : « صالح » ، فقلت لعليٍّ : ألا تَدَعُني فأُسنِد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلىٰ صدري ؛ فإنك قد سهرت وأعييت ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا ، هو أحق بذلك ، يا حذيفة ؛ ادن مني » فدنوت منه ، فقال : « يا حذيفة ؛ من خُتم له بصوم يوم يبتغي به وجه الله تعالىٰ . . أدخله الله تعالى الجنة ، يا حذيفة ؛ من خُتم له بصدقة علىٰ مسكين يبتغي بها وجه الله . . أدخله الله الجنة » ، قلت : بأبي وأمي ، أُعْلِنُ أم أُسِرُّ ؟ قال : « أَعْلِنْ »[3] هٰذا حديث مشهور من حديث نعيم ، غريب من حديث عطاء ، تفرد به داوود . انتهىٰ [« الحلية » ٥/١٩٣ـ٢٠٨] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرجه بنحوه الطبراني في « الكبير » (٢٠/ ١٤٥) .

(٢) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٦/ ٤٩٣) .

(٣) أخرجه بنحوه البزار (٧/ ٣٢٠) .

ومنهم الإمام :

خالد بن معدان
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : كان خالد بن معدان يسبح في اليوم والليلة أربعين ألف تسبيحة ، سوىٰ ما يقرأ من القرآن ، فلما مات ووضع علىٰ سريره ليغسل . . جَعل بأصبعه كذا يحركها ؛ يعني : بالتسبيح ، ومات وهو صائم .

وقال خالد بن معدان : قرأت في بعض الكتب : أجع نفسك وأَعْرِها ؛ لعلك ترى الله عز وجل .

وكان إذا أوىٰ إلىٰ فراش مقيله . . ذكر شوقه إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإلىٰ أصحابه من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم أجمعين ، ثم يُسَمِّيهم ، ويقول : هم أصلي وفصلي ، وإليهم يحن قلبي ، طال شوقي إليهم ، فعجل ربي قبض روحي إليك ، حتىٰ يغلبه النوم وهو في بعض ذلك .

وقال : والله ؛ لو كان الموت في مكان موضوعاً . . لكنت أول من يسبق إليه .

وقال : إن أدنىٰ حالات المؤمن أن يكون نائماً ، وخير حالات الفاجر أن يكون نائماً .

وقال : إذا فتح الله لأحدكم باب خير . . فليسرع إليه ؛ فإنه لا يدري متىٰ يغلق عنه .

وقال : من قال : سبحان الله وبحمده ، من غير تعجب ، ولا سمعها منه أحد . . جُعل لها عينان وجناحان ، ثم صارت تسبح مع المسبحين .

وقال : إنه ليُشكَر للعبد إذا قال : الحمد لله ، وإن كان علىٰ فراش وَطِيء[1] ، وعنده شابة حسناء .

وعن خالد بن معدان قال : كان إبراهيم عليه الصلاة والسلام ـ خليلُ الله ـ إذا أُتِيَ بقطف من العنب . . أكل حبة حبة ، وذَكر اسم الله علىٰ كل حبة .

---

(١) وَطِيء : لا يؤذي جنب النائم ، والمعنىٰ : ولو كان في رفاهية من العيش .

وقال خالد : لا يفقه الرجل كل الفقه حتىٰ يرى الناس في جنب الله أمثال الأباعر[1] ، ثم يرجع إلىٰ نفسه ، فيكون لها أحقر حاقر .

وقال : ما من عبد إلا وله أربعة أعين : عينان في وجهه يبصر بهما أمر الدنيا ، وعينان في قلبه يبصر بهما أمر الآخرة ، فإذا أراد الله بعبد خيراً . . فتح عينيه اللتين في قلبه ، فيبصر بهما ما وُعِد بالغيب [ـ وهما غيب ـ فآمن الغيب بالغيب][2] .

وعن خالد بن معدان : عن كثير بن مرة قال : إن من المزيد : أن تمر السحابة بأهل الجنة فتقول : ما تريدون أن أمطركم ؟ فلا يتمنون شيئاً إلا مطروا ، قال خالد : قال كثير : لئن أشهدني الله عز وجل ذلك . . لأقول : أمطرينا جوارٍ مزيَّنات .

وروىٰ خالد بن معدان عن معاذ بن جبل ، وعبادة بن الصامت ، وأبي عبيدة ابن الجراح ، في آخرين من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .

وأكثر روايته عن جبير بن نُفَيْر ، وغيره من التابعين ، رضي الله عنهم أجمعين .

فمن أحاديثه : عن كثير بن مرة ، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تؤذي امرأةٌ زوجَها في الدنيا . . إلا قالت زوجته من الحور العين : لا تؤذيه ـ قاتَلَكِ الله ـ فإنما هو عندك دخيل ، أوشَكَ أن يفارقك إلينا »[3] غريب من حديث خالد عن كثير .

وعنه عن عبد الله بن بسر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من وَقَّرَ صاحب بدعة . . فقد أعان علىٰ هدم الإسلام »[4] .

وعنه عن عتبة بن عبد الله : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لو أن رجلاً يخر علىٰ وجهه من يوم ولد إلىٰ أن يموت في مرضاة الله تعالىٰ . . لَحَقَرَ ما عمل يوم القيامة »[5] .

وعنه عن عبد الله ابن أبي بلال الخزاعي ، عن العرباض بن سارية قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يختصم الشهداء والمتَوَفَّوْن علىٰ فرشهم في الذين

---

(١) **الأباعر** : جمع بعير .
(٢) الغيب الأول : عينا قلبه ، والثاني : أمر الآخرة .
(٣) أخرجه الترمذي (١١٧٤)، وابن ماجه (٢٠١٤) .
(٤) أخرجه بنحوه الطبراني في « الكبير » (٢٠/ ٩٦) .
(٥) أخرجه أحمد (٤/ ١٨٥) .

طعنوا وماتوا علىٰ فرشهم إلى الله سبحانه وتعالىٰ ، فيقول الشهداء : إخواننا قتلوا كما قتلنا ، ويقول المتوفون علىٰ فرشهم : إخواننا ماتوا علىٰ فرشهم كما متنا ، قال : فيقضي الله عز وجل بينهم ، فيقول : انظروا إلىٰ جراح المطعونين ، فإن أشبهت جراح الشهداء . . فهم منهم ، فينظروا إلىٰ جراح المطعونين ، فإذا هي قد أشبهت جراح الشهداء ، فيلحقون بهم »[1] غريب من حديث عبد الله عن العرباض ، تفرد به خالد . انتهىٰ [« الحلية » ٥/ ٢١٠ـ٢٢١] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) أخرجه بنحوه أحمد (٤/ ١٢٨) .

ومنهم الإمام :

بلال بن سعد
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال الأوزاعي : كان بلال بن سعد من العبادة علىٰ شيء لم أسمع أحداً من أمة محمد صلى الله عليه وسلم كان مثله .

وكان له في كل يوم وليلة اغتسالة .

وقال الأوزاعي : سمعت بلال بن سعد ولم أسمع واعظاً قط أبلغ منه . انتهىٰ [« الحلية » ٥/٢٢٢] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال عبد الله بن المبارك : كان محل بلال بن سعد بالشام ومصر كمحل الحسن البصري بالبصرة .

وعن الأوزاعي قال : سمعت بلال بن سعد يقول : واحزناه علىٰ أني لا أحزن! انتهىٰ [« الصفوة » ٤/١٤٩] .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : هلك ابن لبلال بن سعد بالقسطنطينية ، فجاء رجل يدعي عليه بضعة وعشرين ديناراً ، فقال له بلال : ألك بينة ؟ قال : لا ، قال : فلك كتاب ؟ قال : لا ، قال : فتحلف ؟ قال : نعم ، فدخل منزله ، وأعطاه الدنانير ولم يحلِّفه ، فقال : إن كنتَ صادقاً . . فقد أديتُ عن ابني ، وإن كنت كاذباً . . فهي عليك صدقة .

وعن الأوزاعي ، عن بلال بن سعد قال : إن الخطيئة إذا أخفيت . . لم تضُرَّ إلا أهلَها ، وإذا ظهرت فلم تُغيَّر . . ضَرَّتِ العامة .

وقال بلال بن سعد في قصصه ـ وكان قاصاً لأهل دمشق ـ : قال الله تعالىٰ : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ فكيف بإيمان قوم متباغضين ؟!

وقال بلال بن سعد : لا تنظر إلىٰ صغر المعصية ، ولـٰكن انظر إلىٰ من عصيته .

وقال بلال بن سعد : رُبَّ مسرورٍ مغبونٌ ، ورب مغبون لا يشعر ، فويل لمن له الويل

وهو لا يشعر ، يأكل ويشرب ، ويضحك ويلعب ، وقد حق عليه في قضاء الله سبحانه وتعالىٰ أنه من أهل النار .

وقال بلال بن سعد : أدركت الناس يتحاثُّون على الأعمال الصالحة : الصلاة ، والصيام ، والزكاة ، وفِعل الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وإنهم اليوم يتحاثون على الرأي .

وعن بلال قال : كفىٰ به ذنباً أن الله عز وجل يزهِّدُنا في الدنيا ونحن نرغب فيها .

وعن الأوزاعي ، عن بلال قال : أدركتهم يضحك بعضهم إلىٰ بعض ، فإذا كان الليل . . كانوا رهباناً .

وقال بلال بن سعد : إذا تقاربت الأعمال . . اشتد البلاء .

وقال بلال : الذِّكر ذِكران : ذكر الله عز وجل باللسان حسن جميل ، وذِكر الله سبحانه وتعالىٰ عند ما أَحَلَّ وحَرَّم أفضل .

وقال بلال : لو أن دلواً من الغساق[1] وضع على الأرض . . لمات مَن عليها .

وقال بلال : زاهدكم راغب ، ومجتهدكم مقصر ، وعالمكم جاهل ، وجاهلكم مغتر .

وقال بلال : أخ لكِ كلما لقيك ذَكَّرك بحظك من الله عز وجل . . خير لك من أخ كلما لقيك وضع لك في كفِّك ديناراً .

وقال بلال : يا أيها الناس ؛ ألستم تقرون بالإساءة ؟ قالوا : نعم ، قال : اللهم ؛ إنك قلت : ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ ، وكل عبادك مُقِرِّين لك بالإساءة ، فاغفر لنا ، واسقنا ، قال : فسُقُوا .

وقال بلال : يا أيها الناس ؛ اتقوا الله فيمن لا ناصر له إلا الله سبحانه وتعالىٰ .

وقال بلال : إن الله سبحانه وتعالىٰ يغفر الذنوب ، ولٰكن لا يمحوها من الصحيفة حتىٰ يوقفه عليها يوم القيامة وإن تاب .

وقال بلال : يأمر الله عز وجل بإخراج رجلين من النار ، فيخرجان بسلاسلهما وأغلالهما ، فيوقفان بين يديه عز وجل ، فيقول الله عز وجل : (كيف وجدتما مقيلكما ومصيركما ؟) ، فيقولان : شر مقيل وأسوأ مصير ، فيقول الله عز وجل : (بما قدمت

---

(١) **الغسَّاق** : ما يسيل من صديد أهل النار وغسالتهم ، وقيل : ما يسيل من دموعهم .

أيديكما ، وما أنا بظلام للعبيد) ، فيأمر بهما إلى النار ، فأما أحدهما . . فيمضي بسلاسله وأغلاله حتىٰ يقتحمها ، وأما الآخر . . فيمضي وهو يلتفت ، فيأمر الله عز وجل برَدِّهما ، فيقول الله سبحانه وتعالىٰ للذي غدا بسلاسله وأغلاله حتى اقتحمها : (ما حملك علىٰ ما صنعت وقد اختبرتها ؟) وهو سبحانه أعلم ، فيقول : يا رب ؛ قد ذقت من وبال معصيتك ما لم أكن أتعرض لسخطك ثانياً ، ويقول للذي مضىٰ وهو يلتفت : (ما حملك علىٰ ما صنعت ؟) ، قال : لم يكن هـٰذا ظني بك يا رب ، وأنت أعلم ، قال : (فما كان ظنك ؟) وهو سبحانه وتعالىٰ أعلم ، قال : كان ظني حيث أخرجتني منها أنك لا تعيدني إليها ، قال : فيقول سبحانه وتعالىٰ : (أنا عند ظن عبدي) ، ويأمر بصرفهما إلى الجنة .

وعن الأوزاعي ، عن بلال قال : تُنادى النار يوم القيامة : يا نار أحرقي ، يا نار اشتفي ، يا نار أنضجي ، يا نار كلي ولا تقتلي .

وقال بلال : لكأنا قوم لا يعقلون ، ولكأنا قوم لا يوقنون .

وقال بلال بن سعد في قوله تعالىٰ : ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ ، قال : يلتقي أهل السماء والأرض .

وقال بلال : إذا رأيت لَجوجاً مماريا معجَباً برأيه . . فقد تمت خسارته .

وقال بلال بن سعد : لا تكن ولياً لله عز وجل في العلانية ، وعدوه في السر .

وقال : إن أحدكم إذا لم تنهه صلاته عن ظلمه . . لم تزده عند الله سبحانه وتعالىٰ إلا مقتاً ، وكان يتأول هـٰذه الآية : ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ .

وعن بلال قال : كان أبو الدرداء يقول : (اللهم ؛ إني أعوذ بك من تفرقة القلب ، قيل : وما تفرقة القلب ؟ قال : أن يوضع لي في كل واد مال) .

وكان بلال في دعائه يقول : اللهم ؛ إني أعوذ بك من زيغ القلوب ، ومن تبعات الذنوب ، ومن مرديات الأعمال ، ومضلات الفتن .

وقال بلال في مواعظه : إنكم لم تخلقوا للفناء ، وإنما خلقتم للخلود والأبد ، ولـٰكنكم تنقلون من دار إلىٰ دار .

زاد في رواية : كما نقلتم من الأصلاب إلى الأرحام ، ومن الأرحام إلى الدنيا ، ومن الدنيا إلى القبور ، ومن القبور إلى الموقف ، ثم الخلود في الجنة أو النار .

وقال بلال : يا عباد الرحمن ؛ يقال لأحدنا : أتحب أن تموت ؟ فيقول : لا ، فيقال :

لِمَ ؟ فيقول : حتىٰ أعمل ، فيقال له : اعمل ، فيقول : سوف أعمل ، فلا يحب أن يموت ، ولا يحب أن يعمل ، وأحب الأشياء إليه . . أن يؤخر العمل لله عز وجل ، ولا يحب أن يؤخر عنه عرض الدنيا .

وقال : مِنَ النِّعم الجاريات عليكم من الرحمٰن تبارك وتعالىٰ ـ مع ظلمكم أنفسكم وخطاياكم ـ : رزقه سبحانه وتعالىٰ دارٌّ عليكم ، ورحمته غير محجوبة عنكم ، وستره سبحانه وتعالىٰ سابغ عليكم ، وعقابه لم يعجل لكم ، ثم أنتم علىٰ ذلك لاَهُون .

وقال : لو سلِمتم من الخطايا ، فلم تعملوا فيما بينكم وبين الله عز وجل خطيئة ، ولم تتركوا لله عز وجل طاعة إلا أجهدتم أنفسكم في أدائها ، ولم يبق فيكم إلا حب الدنيا . . لَوَسعكم ذلك شراً ، إلا أن يتجاوز الله عز وجل عنكم ويعفو .

وقال : أترغبون عن طاعة الله عز وجل لتعجيل دنيا تفنىٰ عن قريب ؟ ولا ترغبون ولا تنافسون في جنة ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ واللهِ ؛ لو عُجِّل لكم الثواب في الدنيا . . لاستقللتم جميع ما افترض الله عز وجل عليكم بالنسبة إليه .

وعن الأوزاعي ، عن بلال بن سعد قال : لما حضرت أبي الوفاة . . قال : يا بني ؛ ادع بنِيْك ، فأمرت أهلي ، فألبَسُوهم قمصاً بيضاً ، فقال : اللهم ؛ إني أعيذهم بك من الكفر ، وضلالة العمل ، ومن السِّباء[1] والفقر إلىٰ بني آدم .

أسند بلال بن سعد عن أبيه سعد بن تميم السكوني ، وعن ابن عمر بن الخطاب ، وجَابر بن عبد الله ، رضي الله عنهم أجمعين .

فمن أحاديثه عن أبيه : قال : قيل : يا رسول الله ؛ ما للخليفة بعدك ؟ قال : « مِثلُ الذي لي ما عدل في الحكم ، وأقسط في القسم ، ورحم ذا الرحم ، فمن فعل غير ذلك . . فليس مني ولست منه »[2] انتهىٰ [« الحلية » ٥/ ٢٢٢ـ٢٣٣] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) السِّباء : الأسر .

(٢) أخرجه بنحوه الطبراني في « الكبير » (٦/ ٤٥) .

ومنهم الإمام :

أبو يوسف يزيد بن ميسرة
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : عن الأوزاعي قال : قدم عطاء الخراساني علىٰ هشام[1] ، فنزل علىٰ مكحول ، ثم قال له : هل هـٰهنا أحد يحركنا ؟ قال : نعم ؛ يزيد بن ميسرة ، فأتوه ، فقال له عطاء : حرِّكنا رحمك الله ، قال : نعم ، كانت العلماء إذا علموا . . عملوا ، فإذا عملوا . . شغلوا بأنفسهم ، فإذا شغلوا . . فُقِدوا ، فإذا فُقِدوا . . طُلِبوا ، فإذا طُلِبوا . . هربوا ، قال : أعد عليَّ ، فأعاد عليه ، فرجع عطاء ولم يلق هشاماً .

وقال يزيد بن ميسرة : لا تبذل علمك لمن لا يسأله ، ولا تنثر الدر أو اللؤلؤ عند من لا يلتقطه ، ولا تنشر بضاعتك عند من يكسدها عليك .

وقال : كان أشياخنا يسمون الدنيا : الدنية ، ولو وجدوا لها اسماً شراً منه . . لسموها به ، وكانوا إذا أقبلت علىٰ أحدهم دنيا . . قالوا : إليكِ إليكِ عنا يا خنزيرة ، لا حاجة لنا بك ، إنا نعرف إلـٰهنا .

وقال : البكاء من خمسة أشياء : من الفرح والحزن ، والفزع ، والوجع ، والرياء ، والشكر .

وبكاء من خشية الله سبحانه وتعالىٰ ، فذلك الذي تطفِىء الدمعةُ منه أمثالَ الجبال من النار .

وقال : لا تضر نعمة معها شكر ، ولا بلاء معه صبر ، ولَبلاء في طاعة الله سبحانه وتعالىٰ . . خير من نعمة في معصية الله تعالىٰ .

وقال : كل مَهْرٍ لا يوضع لله عز وجل منه شيء . . فهو غير مبارك .

وقال : المرأة الفاجرة كألف فاجر ، والمرأة الصالحة يكتب لها عمل مئة صدِّيق .

---

(١) ابن عبد الملك ، وهو والي أمور المسلمين يومئذ .

وقال : كانت أحبار بني إسرائيل الصغير منهم والكبير لا يمشي إلا بالعصا ؛ مخافة أن يختال في مشيته إذا مشىٰ .

وقال : إن ظللت تدعو علىٰ رجل ظلمك . . فإن الله عز وجل يقول : إن رجلاً آخر قد ظلمته يدعو عليك ، إن شئت . . استجبنا لك وأجبنا عليك ، وإن شئت . . أخرتكما إلىٰ يوم القيامة ، ووَسِعَكُما عفوي . أو كما قال .

وعن يزيد بن ميسرة رحمه الله : أن عيسىٰ عليه الصلاة والسلام كان يقول لأصحابه : (إن استطعتم أن تكونوا بُلْهاً في الله عز وجل مثل الحمام . . فافعلوا ؛ فإنه لا شيء أبْلَهُ من الحمام ، تأخذ فرخيه من تحته ، فتذبحهما ، ثم يعود إلىٰ مكانه ذلك ، فيفرِّخ فيه .

وقال أبو راشد : بعثني يزيد بن ميسرة إلىٰ غريم له ، فلزمته ، فقال لي غريمه : مُرْ أبا يوسف يأتي ليقبض حقه ، فأخرجته من المسجد ، فقعد علىٰ موضع ، ثم قال لغريمه : أعطني حقي ، قال له : ائت القاضي ، قال : ولِمَ ؟ قال : أخاصمك إليه ، قال له : ادفع إليَّ حقي ، وإلا . . فانطلِقْ ، فقلت له : يا أبا يوسف ؛ ائت القاضي ، فقال : وما يؤمنني أن يكلمني القاضي بكلام لا أرضىٰ به ؟! وقد قال الله عز وجل : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ .

وعن يحيى بن جابر : أن يزيد بن ميسرة سأل العباس بن الوليد أن يطرح عطاءه ، وأنه باع جميع ما كان له ، وتصدق به ، حتىٰ باع منزله الذي كان يسكنه ، وكان يقول بعد ذلك : اللهم ؛ لا تجعل لي حاجةً إلىٰ غير وجهك الكريم ، اللهم ؛ عجل قبضي إليك ، فلم يلبث إلا يسيراً حتىٰ قبضه الله عز وجل .

أسند ابن ميسرة عن أم الدرداء رضي الله عنها .

فمن أحاديثه عن أم الدرداء : عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من شيء أثقل في الميزان من الخُلُق الحَسن »[1] انتهىٰ [« الحلية » ٥/٢٣٤-٢٤٣] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرجه أبو داوود (٤٧٩٩) ، وأحمد (٦/٤٤٨) .

ومنهم الإمام :

إبراهيم ابن أبي عبلة
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : أمر الوليد بن عبد الملك إبراهيم ابن أبي عبلة أن يتكلم ، قال : فتكلمت ، فلقيني عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، فقال : يا إبراهيم ؛ لقد وعظت موعظة وقعت من القلوب .

زاد في رواية : قال لي الوليد بن عبد الملك : في كم تختم القرآن ؟ قلت : في كذا وكذا ، فقال : إن أمير المؤمنين علىٰ شغله يختم القرآن في كل سبع أو ثلاث .

وبعث لي هشام بن عبد الملك فقال : يا إبراهيم ؛ إنا قد عرفناك صغيراً ، واختبرناك كبيراً ، فرضينا سيرتك وحالك ، وقد رأيت أن أخلطك بنفسي وخاصتي ، وأشركك في عملي ، وقد وليتك خراج مصر ، فقال إبراهيم : أمَّا الذي عليه رأيك يا أمير المؤمنين . . فالله يجزيك ويثيبك ، وكفىٰ بالله سبحانه وتعالىٰ جازياً ومثيباً ، وأما الذي أنا عليه . . فما لي بالخراج بَصَرٌ ، وما لي عليه قوة ، قال : فغضب حتى اختلج[1] وجهه ، ونظر إلي نظراً منكراً ، ثم قال : لَتَلِيَنَّ طائعاً أو لَتَلِيَنَّ كارهاً ، قال : فأمسكت عن الكلام حتىٰ رأيت غضبه قد انحدر ، فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ إن الله عز وجل قال في كتابه العزيز : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ ، فوالله يا أمير المؤمنين ؛ ما غضب الله عليهن إذ أبين ، وهو سبحانه وتعالىٰ خالقهن ، قال : فضحك ، ثم قال : يا إبراهيم ؛ قد أبيت إلا فقهاً ، قد رضينا عنك وأعفيناك .

وقال إبراهيم : رحم الله الوليد ، فأين مثل الوليد ، هدم كنيسة دمشق ، وبنىٰ مسجد دمشق ، وكان يعطيني قصاع الفضة أقسمها علىٰ قراء بيت المقدس .

---

(١) **اختلج لحم وجهه** : أي ضمر وتقبض .

أدرك إبراهيم عدة من الصحابة ، منهم : أنس بن مالك ، وغيره ، رضي الله عنهم أجمعين ، وروىٰ عن عبادة بن الصامت ، وغيره . انتهىٰ [« الحلية » ٥/٢٤٣ـ٢٤٥] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو إسحاق كعب الأحبار

رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال كعب : المؤمن الزاهد والمملوك الصالح . . آمنان من الحساب ، وطوبىٰ لهم كيف يحفظهم الله تعالىٰ في ديارهم ، إن الله إذا أحب عبده المؤمن . . زوىٰ عنه الدنيا ؛ ليرفعه درجاتٍ في الجنة ، وإذا أبغض عبده الكافر . . بسط له من الدنيا ؛ حتىٰ يسفله درجات في النار ، ويقول الله عز وجل لعباده الصابرين الراضين بالفقر : أبشروا ولا تحزنوا ؛ فإن الدنيا لو وزنت عندي جناح بعوضة مما لكم عندي . . لما أعطيتهم منها شيئاً .

وقال كعب : إذا اشتكى الفقراء الفقر والحاجة إلى الله عز وجل . . قيل لهم : أبشروا ولا تحزنوا ؛ فإنكم سادة الأغنياء ، والسابقون إلى الجنة يوم القيامة .

وقال كعب : كان الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم بالفقر والبلاء أشدَّ فرحاً منهم بالرخاء ، وكان البلاء عليهم مضعَّفاً ، حتىٰ إن كان أحدهم ليقتل في الله عز وجل ، فإذا رأىٰ رخاء . . ظن أنه قد أصاب ذنباً .

وقال : مَن تضعضع[1] لصاحب دنيا أو مال . . تضعضع دِينه ، ومن التمس الفضل عند غير الله عز وجل . . مَقَتَه الله تعالىٰ ، ولم يصب من الدنيا إلا ما كتب الله له ، وإن الله تبارك وتعالىٰ ليبغض كل جمَّاع للمال ، منَّاع للخير مستكبر ، ويبغض كل حبر سمين .

وقال كعب : قال موسىٰ عليه الصلاة والسلام : تلبسون ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الجبارين والذئاب الضواري!! فإن أحببتم أن تبلغوا ملكوت السماوات . . فأميتوا قلوبكم لله عز وجل .

وقال كعب : ما كَرُمَ عبد على الله عز وجل . . إلا زاد البلاءُ عليه شدة ، ولا أعطىٰ رجل

---

(١) تَضعضَع : خضع وذلَّ .

صدقَةَ مالِهِ فنقصت من ماله ، ولا حبسها فزادت في ماله ، ولا سرق سارق . . إلا حسب من رزقه .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوماً لكعب : يا كعب ؛ حدثنا عن الموت ، قال : يا أمير المؤمنين ؛ غصن كثير الشوك ، يدخل في جوف الرجل ، فتأخذ كل شوكة بعرق ، يجذبه رجل شديد الجذب ، فأخذ ما أخذ ، وأبقىٰ ما أبقىٰ .

وقال كعب : ما من رجل بكىٰ من خشية الله عز وجل ، فتسيل دموعه على الأرض ، فتقطر ، فتصيبه النار أبداً . . حتىٰ يرجع قطر السماء إذا وقع على الأرض إلى السماء .

ودخل جماعة علىٰ كعب وهو مريض ، فقيل له : كيف تجدك ؟ قال : جسد أُخِذ بذنبه ، فإن قُبض علىٰ هـٰذه الحالة . . فإلىٰ رحيم ، وإن يعافيه . . ينشئه خَلْقاً لا ذَنْب له .

وعن كعب قال : ما استقر لعبد ثناء في الأرض . . حتىٰ يستقر له في السماء .

وقال : وددت أني كبش أهلي ، فذبحوني ، فأكلوا ، وأطعموا ضيفهم .

وقال : أنيروا بيوتكم بذِكر الله عز وجل ، واجعلوا في بيوتكم حظّاً من صلاتكم ، فوالذي نفس كعب بيده ؛ إنكم لمعروفون في أهل السماء ، فلان بن فلان يعمر بيته بذكر الله عز وجل .

وقال كعب : الرعية تصلح بصلاح الوالي ، وتفسد بفساده .

وقال : يأتي على الناس زمان ، ترفع فيه الأمانة ، وتنزع فيه الرحمة ، وتكثر فيه المسألة ، فمن سأل في ذلك الزمان . . لم يبارَك له فيه .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ : أتدرون ما ورودها ؟ تبرز جهنم للناس كأنها متن إهالة[1] ، حتىٰ تستوي عليها أقدام الخلائق ، برهم وفاجرهم ، فينادي مناد : أن خذي أصحابك ودعي أصحابي ، فيخسف بكل ولي لها ، فلهي أعرف بهم من الرجل بولده ، ويخرج المؤمنون منها ندية ثيابهم .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لكعب : خوِّفنا يا كعب ، قال : والله ؛ إن لله تعالىٰ ملائكة قياماً ، منذ خَلَقَهم ما ثنوا أصلابهم ، وآخرين ركوع ما رفعوا أصلابهم ، وآخرين

---

(١) **الإهالة** : للشحم أو ما أذيب منه ، أو الزيت وكل ما ائتدم به ، **والمتن** : ما صلب من الأرض وارتفع ، فكأنه شبه جهنم بالشحم الصلب المتجمد ، ما أن يذوب حتىٰ يغور فيه كل ما كان عليه لميوعته عند ذوبانه .

سجود ما رفعوا رؤوسهم ، حتىٰ يُنفَخَ في الصور النفخة الأخيرة ، فيقولون جميعاً : سبحانك وبحمدك ، ما عبدناك حق عبادتك ، ثم قال : والله ؛ لو أن الرجل يومئذ عمل عمل سبعين نبياً . . لاستقل عمله ؛ من شدة ما يراه يومئذ ، والله ؛ لو دُلِّيَ من غِسلين[1] دلو واحد في مطلع الشمس . . لغلت منها جماجم قوم في مغربها ، والله ؛ لتزفرن جهنم زفرة لا يبقىٰ ملَك مقرَّبٌ ولا غيره إلا خرَّ جاثياً علىٰ ركبتيه ، يقول : رب ؛ نفسي نفسي ، وحتىٰ إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، قال : فأبكى القومَ ، فقال عمر رضي الله عنه : بشِّرْنا ، فقال : أبشروا ؛ فإن لله سبحانه وتعالىٰ ثلاث مئة وأربع عشرة شريعة ، لا يأتي بواحدة منهم مع كلمة الإخلاص رجل ؛ إلا أدخله الله تعالى الجنة ، ولو تعلمون كل رحمة . . لأبطأتم في العمل ، والله ؛ لو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت من السماء في ليلة ظلماء . . لأضاءت لها الأرض ، ووالله ؛ لو أن ثوباً من ثياب أهل الجنة نشر اليوم في الدنيا . . لصعق مَن ينظر إليه وما حملته أبصارهم .

وقال عمر رضي الله عنه لكعب : خوِّفنا ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ اعمل عمل رجل لو وافيت يوم القيامة بعمل سبعين نبياً . . لازدريت عملك مما ترىٰ ، فأطرق عمر ملياً ، ثم أفاق ، فقال : زدنا ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ لو فتح من جهنم قدر منخر ثور بالمشرق ورجلٌ بالمغرب . . لغلىٰ دماغه حتىٰ يسيل من حرها .

وقال كعب رحمه الله : إن الخازن من خزان جهنم مسيرة ما بين منكبيه سنة ، وإن مع كل واحد منهم لعموداً له شعبتان من حديد ، يدفع به الدفعة ، فيكب في النار سبع مئة ألف .

وقال كعب : يحشر الجبارون يوم القيامة مثل الذر في صور الرجال ، يغشاهم الذل ـ أو قال : يأتيهم ـ من كل مكان ، يسلكون في سقر ، ويسقون من طينة الخبال ، [وهي] : عصارة أهل النار .

وقال كعب : إذا كان يوم القيامة . . جمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد ، فنزلت الملائكة ، فصاروا صفوفاً ، فيقول الله عز وجل : يا جبريل ؛ ائت بجهنم ، فيأتي بها جبريل تقاد بسبعين ألف زمام ، حتىٰ إذا كانت من الخلائق علىٰ قدر مئة عام . . زفرت زفرة طارت لها أفئدة الخلائق ، ثم زفرت ثانية ، فلا يبقىٰ ملَك مقرَّب ، ولا نبي مرسل . . إلا جثا لركبتيه ، ثم تزفر الثالثة ، فتبلغ القلوب الحناجر ، وتذهل العقول ، فيفزع كل امرىء إلىٰ

---

(١) **الغِسلين** : ما انغسل من لحوم أهل النار ودمائهم ، وهو شر طعام أهل النار .

عمله ، حتىٰ إن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام يقول : بِخلَّتي لا أسألك إلا نفسي ، ويقول موسىٰ : بمناجاتي لا أسألك إلا نفسي ، وإن عيسىٰ ليقول : بما أكرمتني لا أسألك إلا نفسي ، لا أسألك مريم التي ولدتني ، ومحمد صلى الله عليه وعلىٰ سائر النبيين وسلم يقول : أمتي ، أمتي لا أسألك نفسي اليوم ، إنما أسألك أمتي ، قال : فيُجيبه الجليل جل جلاله : ألا إن أوليائي لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فوعزتي وجلالي . . لأقِرَّنَّ عينيك في أمتك ، ثم تقف الملائكة بين يدي الله عز وجل ينتظرون ما يؤمرون ، فيقول الله تبارك وتعالىٰ : معاشر الزبانية . . انطلقوا بالمُصِرِّين من أهل الكبائر من أمة محمد إلى النار ، فقد اشتد غضبي عليهم بتهاونهم بأمري في دار الدنيا ، واستخفافهم بحقي ، وانتهاكهم حرمتي ، يستخفون من الناس لا يستخفون مني ، ويبارزونني بالمعاصي مع كرامتي لهم ، وتفضيلي إياهم على الأمم ، ولم يعرفوا فضلي وعظيم نعمتي ، فعندها تأخذ الزبانية بلِحى الرجال وذوائب النساء ، فتنطلق بهم إلى النار .

وما من عبد يساق إلى النار من غير هـٰذه الأمة . . إلا وهو مُسْوَدٌّ وجهه ، قد وضعت الأنكال في قدمه ، والأغلال في عنقه . . إلا من كان من هـٰذه الأمة ، فإنهم يساقون بألوانهم ، فإذا وردوا علىٰ مالك عليه السلام . . قال لهم : معاشر الأشقياء ؛ من أي أمة أنتم ، فما ورد عليَّ أحسنُ وجوهاً منكم ؟ فيقولون : يا مالك ؛ نحن أمة القرآن ، فيقول لهم مالك : أَوَليس القرآن أنزل علىٰ محمد صلى الله عليه وسلم ؟ قال : فيرفعون أصواتهم بالنحيب والبكاء ، فيقولون : وا محمداه ، يا محمد ؛ اشفع لمن أُمر به إلى النار من أمتك ، قال : فيُنادىٰ مالك بتهدد وانتهار : يا مالك ؛ من أمرك بمعاتبة أهل الشقاء ومحادثتهم والتوقف عن إدخالهم العذاب ؟! يا مالك ؛ لا تسود وجوههم ، فقد كانوا يسجدون لي في دار الدنيا ، يا مالك ؛ لا تغلهم بالأغلال ، فقد كانوا يغتسلون من الجنابة ، يا مالك ؛ لا تقيدهم بالأنكال ، فقد طافوا حول بيتي الحرام ، يا مالك ؛ لا تلبسهم القطران ، فقد خلعوا ثيابهم للإحرام ، يا مالك ؛ مُرِ النار لا تحرق ألسنتهم ، فقد كانوا يقرؤون القرآن ، يا مالك ؛ قل للنار تأخذهم علىٰ قدر أعمالهم ، والنار أعرف بهم وبمقادير استحقاقهم من الوالدة بولدها ، فمنهم من تأخذه النار إلىٰ كعبيه ، ومنهم من تأخذه النار إلىٰ ركبتيه ، ومنهم من تأخذه النار إلىٰ سرته ، ومنهم من تأخذه النار إلىٰ صدره .

فإذا انتقم الله عز وجل منهم علىٰ قدر كبائرهم وعتوهم وإصرارهم . . فتح بينهم وبين المشركين باباً ، فرأوهم في الطبق الأعلىٰ من النار ، لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً ،

يبكون ، ويقولون : يا محمداه ؛ ارحم من أمتك الأشقياء ، واشفع لهم ، فقد أكلت النار لحومهم ودماءهم وعظامهم ، ثم ينادون : يا رباه ، يا سيداه ؛ ارحم من لم يشرك بك في دار الدنيا ، وإن كان قد أساء وأخطأ وتعدىٰ ، فعندها يقول المشركون لهم : ما أغنىٰ عنكم إيمانكم بالله ومحمد ، فيغضب الله سبحانه وتعالىٰ لذلك ، فيقول : يا جبريل ؛ انطلق ، فأخرج مَن في النار من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فيخرجهم ضبائر قد امتحشوا[1] ، فيلقيهم علىٰ نهر علىٰ باب الجنة يقال له : نهر الحياة ، فيمكثون حتىٰ يعودوا أنضر ما كانوا ، ثم يأمر بإدخالهم الجنة ، مكتوب علىٰ جباههم هـٰؤلاء الجهنميون ، عتقاء الرحمـٰن من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فيُعرفون من بين أهل الجنة بذلك ، فيتضرعون إلى الله عز وجل أن يمحو عنهم تلك السِّمَةَ ، فيمحوها الله تعالىٰ عنهم ، فلا يُعرفون بها بعد ذلك من بين أهل الجنة .

وقال كعب : إن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان إذا ذكر النار . . قال : أواه من النار ، أواه من النار ، فقال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ ﴾ .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ : في الساعة الواحدة عشرين ومئة مرة .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا ﴾ : لو أن حلقة منها وزن بجميع حديد الدنيا . . ما وزنها .

وعن كعب قال : يؤمر بالرجل إلى النار ، فيبتدره مئة ألف ملَك ، أو أكثر من مئة ألف ملك .

وقال : من أراد أن يبلغ شرف الآخرة : فليكثر التفكر . . يكن عالماً ، وليرض بقوت يومه . . يكن غنياً ، وليكثر البكاء عند ذكر خطاياه . . يطفىء الله عز وجل [عنه] بُحور جهنم .

وقال : طلب العلم مع السمت الحسن ، والعمل الصالح . . جزء من النبوة .

وقال : يوشك أن تروا جُهَّال الناس يتباهَون بالعلم ، ويتغايرون عليه كما تتغاير النساء على الرجال ، فذلك حظهم من العلم .

---

(١) **الضبائر** : جماعات الناس ، **وامتحشوا** : احترقوا .

وكان يقول : أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر ، الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه . . من شر ما خلق وذرأ وبرأ ، ومن شر الشيطان وحزبه .

وقال : لو حَبس الله الريح عن الناس ثلاثة أيام . . لأنتن ما بين السماء والأرض .

وقال : ما نظر الله عز وجل قط إلى الجنة . . إلا قال : طيبي لأهلك ، فزادت طيباً علىٰ ما كانت عليه حتىٰ يدخلها أهلها .

وقال : إن لله تعالىٰ لداراً ، درة فوق درة ، أو لؤلؤة فوق لؤلؤة ، فيها سبعون ألف قصر ، في كل قصر سبعون ألف دار ، في كل دار سبعون ألف بيت ، لا يسكنها إلا نبي أو صديق أو شهيد أو إمام عادل ، وقال : يطاف عليهم بسبعين ألف صحفة من ذهب ، في كل صحفة لون وطعم ليس في الأخرىٰ ، وقال قتادة : ألف غلام ، كل غلام علىٰ عمل ليس عليه صاحبه .

وقال كعب : في الجنة عمود من ياقوتة حمراء ، في أعلاه سبعون ألف غرفة ، هي منازل المتحابين في الله تعالىٰ ، مكتوب علىٰ جباههم : المتحابون في الله ، إذا أشرف الرجل منهم علىٰ أهل الجنة . . أضاء لأهل الجنة كما تضيء الشمس لأهل الدنيا ، فيقولون : هـٰذا رجل من المتحابين في الله عز وجل .

زاد في رواية : إذا اطلع . . ينظرون في وجهه مثل القمر ليلة البدر .

وقال : إن أدنىٰ أهل الجنة منزلة يوم القيامة ليؤتىٰ بغدائه في سبعين ألف صحفة ، في كل صحفة لون ليس في الآخر ، فيجد لذة آخره كأوله .

وقال : جنة المأوىٰ فيها طير خضر ، يرفع فيها أرواح الشهداء .

وقال : إذا كان يوم القيامة . . ينادي مناد : ليقم أهل الظمإ والذين جوعوا أنفسهم لله عز وجل ، فيقومون من بين الصفوف ، فيؤتىٰ بهم إلىٰ مائدة منصوبة ، لم تر العيون ، ولم تسمع الآذان بمثلها ، فيجلسون عليها والناس في الحساب .

وقال : إن جبريل عليه الصلاة والسلام علَّمَ آدم عليه الصلاة والسلام أن يقول : اللهم ؛ اكفني مؤونة الدنيا ، وأهوال يوم القيامة ، وأدخلني الجنة التي قدَّرْتَ عليَّ الخروج منها .

وقال : صلاة بعد صلاة لا يحدث بينهما لغو . . كتاب في عليين .

وقال : كان داوود عليه الصلاة والسلام يستقبل الليل والنهار ، ويقول : اللهم ؛ خلصني اليوم من كل مصيبة نزلت من السماء إلى الأرض ، اللهم ؛ اجعل لي سهماً في كل حسنة نزلت من السماء إلى الأرض (ثلاث) مرات .

وعن عطية العوفي قال : قام كعب الأحبار ، فأخذ بيد العباس رضي الله عنهما فقال : ادخرها لي عندك تشفع لي يوم القيامة ، فقال العباس : وهل لي شفاعة ؟ فقال كعب : نعم ؛ إنه ليس أحد من أهل بيت نبي يُسلِمُ . . إلا كانت له شفاعة يوم القيامة .

وقال : لا يذهب ألم الموت عن الميت ما دام في قبره ، وإنه لأشد ما يمر على المؤمن ، وأهون ما يصيب الكافر .

أسند عن أكابر الصحابة ، رضوان الله عليهم أجمعين .

وتوفي قبل مقتل عثمان رضي الله عنه بسَنَة . انتهىٰ [« الحلية » ٥/ ٣٦٤ـ٣٨٤ و ٦/ ٢٦ـ٤٥] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

عبد الرحمـٰن بن عمرو الأوزاعي
رضي الله عنه

قال شيخ الإسلام محيي الدين النووي ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ : كنيته أبو عمرو الشامي الدمشقي ، كان إمام أهل الشام في عصره بلا مدافعة ولا مخالفة .

وكان أهل الشام والمغرب علىٰ مذهبه قبل انتقالهم إلىٰ مذهب مالك رحمه الله تعالىٰ .

وكان يسكن دمشق خارج باب الفراديس ، ثم تحول إلىٰ بيروت ، فسكنها مرابطاً إلىٰ أن مات بها .

وهو من تابعي التابعين .

سمع جماعات من التابعين ؛ كعطاء ابن أبي رباح ، وقتادة ، ونافع مولى ابن عمر ، والزهري ، ومحمد بن المنكدر ، وغيرهم .

وروىٰ عنه جماعة من التابعين وشيوخه : كقتادة ، والزهري ، ويحيى ابن أبي كثير ، وجماعات من أقرانه وكبار العلماء : كسفيان ، ومالك ، وشعبة ، وابن المبارك ، وخلائق لا يحصون .

واختلفوا في الأوزاع التي نسب إليها ، فقيل : بطن من حمير ، وقيل : من همْدان ـ بإسكان الميم ـ وقيل : إن الأوزاع قرية كانت عند باب الفراديس من دمشق ، وهو نسبة إلىٰ أوزاع القبائل ؛ أي : فرقها وبقايا مجتمعة من قبائل شتىٰ .

ولد سنة ثمان وثمانين ، ومات سنة سبع وخمسين ومئة .

قال أبو زرعة الدمشقي : كان اسم الأوزاعي عبد العزيز ، فسمىٰ نفسه : عبد الرحمـٰن

قلت : وقد أجمع العلماء علىٰ إمامة الأوزاعي ، وجلالته ، وعلو مرتبته ، وكمال فضيلته ، وأقوال السلف فيه كثيرة مشهورة ، مصرِّحة بورعه ، وعبادته ، وقيامه بالحق ، وكثرة أحاديثه ، وغزارة فقهه ، وشدة تمسكه بالسُّنَّة ، وبراعته في الفصاحة ، وإجلال أعيان

الأئمة في عصره ـ من الأقطار ـ له ، واعترافهم بمرتبته ومنزلته .

رُوِّينا عن هِقْل ـ بكسر الهاء وإسكان القاف ، وهو أثبت الناس في الرواية عن الأوزاعي ـ قال : أجاب الأوزاعي في سبعين ألف مسألة أو نحوها .

وعن غيره : أنه أفتىٰ في ثمانين ألف مسألة .

وقال عبد الحميد بن حبيب ابن أبي العشرين : سمعت أميراً كان بالساحل وقد دفنَّا الأوزاعي ، ونحن عند القبر يقول : رحمك الله يا أبا عمرو ، فقد كنت أخافك أكثر ممن ولاَّني .

وعن عبد الرحمٰن بن مهدي قال : ما كان بالشام أحد أعلم بالسُّنَّة من الأوزاعي .

وعن محمد بن شعيب قال : قلت لأمية بن يزيد : أين الأوزاعي من مكحول ؟ فقال : هو عندنا أرفع من مكحول ، قلت له : إن مكحولاً قد رأىٰ أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قال : وإن كان قد رآهم ؛ فأين فضل الأوزاعي في نفسه ؛ فَقَدْ جمع العبادة والورع والقول بالحق .

وعن عبد الرحمٰن بن مهدي قال : الأئمة في الحديث أربعة : الأوزاعي ، ومالك ، وسفيان الثوري ، وحماد بن زيد .

وقال أبو حاتم : الأوزاعي إمام متبع لما سمع .

وعن سفيان الثوري : أنه بلغه مَقْدَمُ الأوزاعي ، فخرج حتىٰ لقيه بذي طوىٰ ، فحل سفيان رأس البعير عن القطار[1] ووضعه علىٰ رقبته ، وكان إذا مر بجماعة . . قال : الطريق للشيخ .

وذَكر الشيخ أبو إسحاق الشيرازي رحمه الله في « الطبقات » : أن الأوزاعي سئل عن الفقه ـ يعني : استُفْتِيَ ـ وله ثلاثَ عشرة سنة .

وأقوال السلف في أحواله ومناقبه كثيرة .

وكان مولده ببعلبك ، ومات في حمَّام بيروت ، دخل الحمام ، فذهب الحمَّامي في حاجة ، وأغلق عليه الباب ، ثم جاء ، ففتح الباب ، فوجده ميتاً ، متوسداً يمينه ، مستقبل القبلة ، رحمه الله تعالىٰ . انتهىٰ [« التهذيب » ١/٢٩٨ـ٣٠٠] .

---

(١) **القطار من الإبل** : عدد منها بعضه خلف بعض علىٰ نسق واحد .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : قال الأوزاعي : ليس ساعة من ساعات الدنيا . . إلا وهي معروضة على العبد يوم القيامة ، يوماً يوماً وساعة ساعة ، فالساعة التي لا يذكر الله عز وجل فيها إذا مرت به . . تقطعت نفسه عليها حسرات ، فكيف إذا مرت ساعة مع ساعة ويوم مع يوم ؟!

وقال موسى بن أعين : قال لي الأوزاعي : يا أبا سعيد ؛ كنا نمزح ونضحك ، فلما صرنا يقتدىٰ بنا ما أرىٰ يسعنا التبسُّم .

وكان لا يكلم أحداً بعد صلاة الفجر ، فإن كلمه أحد . . أجابه ، وقال : من أطال قيام الليل . . هون عليه موقفه يوم القيامة .

وقال : رأيت رب العزة جل جلاله في المنام ، فقال لي : يا عبد الرحمٰن ؛ أنت الذي تأمر بالمعروف وتنهىٰ عن المنكر ؟ قلت : بفضلك يا رب ، ثم قلت : يا رب ؛ أمِتْني على الإسلام ، فقال جل جلاله : وعلى السُّنَّة .

وقال المعافى بن عمران[1] : قال الأوزاعي : كان السلف إذا طلع الفجر أو قبله بشيء كأنما علىٰ رؤوسهم الطير ، مقبلين علىٰ أنفسهم ، حتىٰ لو أن أحدهم كان غائباً وقدم إذ ذاك . . ما التُفت إليه ، ولا يزالون كذلك حتىٰ يكون قريباً من طلوع الشمس ، ثم يقوم بعضهم إلىٰ بعض ، فيتحلقون ، وأول ما يفيضون فيه أمر معادهم وما هم صائرون إليه ، ثم يفيضون في الفقه والقرآن .

وقال يزيد بن مذكور : رأيت الأوزاعي في منامي ، فقلت : يا أبا عمرو ؛ دُلَّني علىٰ أمر أتقرب به إلى الله عز وجل ، فقال لي : ما رأيت هناك درجة أرفع من درجة العلم لله عز وجل ، قلت : ثم ما بعدها ؟ قال : درجة المحزونين . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/١٧٩ـ١٨١] .

وقال الأوزاعي للمنصور : يا أمير المؤمنين ؛ قد كنتَ في شغل شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس ، الذين أصبحت تُسأل عن كل واحد منهم ، وعن نصيبه من العدل منك ، فكيف بك إذا قاموا وهم متعلقون بك كل واحد منهم يشتكي ظلامته منك إلى الله سبحانه وتعالىٰ ؟! انتهىٰ [« الحلية » ٦/١٣٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) في « الصفوة » : (عن مسلمة بن علي) . وذكر المعافىٰ في خبر قبله .

ومنهم الإمام :

أبو بكر حسان بن عطية
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : عن الأوزاعي قال : كان حسان بن عطية يتنحىٰ إذا صلى العصر في ناحية المسجد ، فيذكر الله عز وجل حتىٰ تغيب الشمس .

وقال حسان : من أطال قيام الليل . . يهُون عليه طول القيام يوم القيامة .

وقال الأوزاعي : كان لحسان غنم ، فلما سمع ما جاء في المنائح[1] . . تركها ، قيل للأوزاعي : وما جاء فيها ؟ قال : يوم له ويوم لجاره .

وعن الأوزاعي ، عن حسان قال : لقد غرب الخير اليوم فيمن يرىٰ أنه من أهل الخير .

وقال حسان : صلاة الرجل عند أهله من عمل السر .

وعن الأوزاعي ، عن حسان رحمه الله قال : ثلاثة ليس عليهم حساب في مطعمهم : الصائم حين يفطر ، و[الصائم] حين يتسحر ، وطعام الضيف .

وعن الأوزاعي قال : قدم غيلان القدري في خلافة هشام بن عبد الملك ، فتكلم وكان رجلاً مفوهاً ، فلما فرغ من كلامه . . قال لحسان : ما تقول فيما سمعت ؟ فقال حسان : يا غيلان ؛ إن كان لساني يَكِلُّ عن جوابك . . فإن قلبي ينكر ما تقول .

وفي رواية أخرىٰ : إنا لنعرف باطل ما تأتي به .

وقال حسان : ما ابتُدِعت بدعة . . إلا ازدادت مضياً ، ولا تُرِكت سُنَّة . . إلا ازدادت هرباً .

وقال : يفضل دعاء السر على العلانية سبعين ضعفاً .

وكان إذا أمسىٰ . . قال : الحمد لله الذي ذهب بالنهار ، وجاء بالليل سكناً نعمة منه

---

(١) **المنائح** : مفردها منحة ، وهي : الشاة أو الناقة المعارة للبن خاصة .

وفضلاً ، اللهم ؛ اجعلنا لك من الشاكرين ، الحمد لله الذي عافاني في يومي هـٰذا ، فرُبَّ مبتلىً قد ابتلي فيما مضىٰ من عمره ، اللهم ؛ عافني فيما مضىٰ من عمري في الدنيا والآخرة ، وقني عذاب النار ، وإذا أصبح . . قال ذلك ، إلا أنه يقول : وجاء بالنهار مبصراً .

وقال : ما جلس قوم مجلس لغو فختموه بالاستغفار . . إلا كتب مجلسهم ذلك استغفاراً كله .

وكان يقول : اللهم ؛ إني أعوذ بك من الشيطان ، ومن شر ما تجري به الأقلام ، وأعوذ بك أن تجعلني عبرة لغيري ، وأعوذ بك أن تجعل غيري أسعد بما آتيتني مني ، وأعوذ بك أن أستعين بشيء من نعمك علىٰ معاصيك ، وأعوذ بك أن أتزين للناس بشيء يشينني عندك ، وأعوذ بك أن أقول قولاً أبتغي به غير وجهك ، اللهم ؛ اغفر لي ؛ فإنك بسِرِّي عالم ، ولا تعذبني ؛ فإنك علىٰ كل شيء قدير .

وقال : ما سلك عبد وادياً فرفع يديه فرغب إلى الله عز وجل حيث لا يراه أحد . . إلا ملأ الله ذلك الوادي حسنات ، كبيراً كان ذلك الوادي أو صغيراً .

وقال حسان : خمس من كن فيه . . فقد جمع الله له الإيمان : النصيحة لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، وحب الله ورسوله ، وأن يبذل للناس من نفسه الرضا ويكف عنهم السخط ، وأن يصل ذا رحمه ، ومَن كان ذِكره في السر كذِكرِه في العلانية .

وقال : إن حملة العرش ثمانية يتجاوبون بصوت حسن رخيم ، قال : فيقول أربعة منهم : سبحانك وبحمدك علىٰ حلمك بعد علمك ، ويقول الأربعة الآخرون : سبحانك وبحمدك علىٰ عفوك بعد قدرتك .

وقال : ما ازداد عبد علماً . . إلا ازداد الناس منه قرباً ورحمة من الله عز وجل .

وقال حسان : إن العبد إذا قال عند طعامه : اللهم ؛ اجعله رزقاً طيباً لا تبعة فيه ولا حساب . . فقد أدىٰ شكره .

وقال : يعذب الله الظالم بالظالم ، ثم يدخلهم النار جميعاً .

وقال حسان : قيل لعثمان بن عفان رضي الله عنه : ما يمنعك أن تكون مثل عمر رضي الله عنه ؟ فقال : وأنىٰ لي ذلك ، وكان قد أوثقت الشياطين في مدة خلافته حتى انقرضت ؟!

وقال : بكىٰ آدم على الجنة سبعين عاماً ، وبكىٰ علىٰ خطيئته سبعين عاماً ، وبكىٰ على ابنه حين قتل أربعين عاماً ، وأقام بمكة مئة عام .

أسند حسان عن أنس بن مالك ، وجماعة من الصحابة ، رضوان الله عليهم .

وروىٰ عن جماعة من التابعين ، منهم : سعيد بن المسيب ، في آخرين . انتهىٰ [« الحلية » ٧/ ٧٠ـ٧٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو عروة القاسم بن مُخَيْمِرة
رضي الله عنه

كوفي الأصل ، نزيل الشام .

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال القاسم : ما اجتمع علىٰ مائدتي لونان من طعام واحد ، ولا أغلقت بابي ولي خلفه هَمٌّ .

وكان إذا دعي إلى الولائم . . يجيب ، ولا يأكل إلا من لون واحد .

وكان يرابط متطوعاً ، فإذا أراد أن ينصرف . . استأذن ، وكان يستأنس بهـٰذه الآية : ﴿ لَمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ﴾ .

وقال : لأَن أطأ علىٰ سنان مُحمىً حتىٰ ينفذ من قدمي . . أحب إليَّ من أن أطأ علىٰ قبر مؤمن متعمداً .

وقال لأم ولد له : يا فلانة ؛ ما لي كنت أتمنى الموت ، فلما نزل بي . . كرهته .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ : أي : لا تتركوا النفقة في سبيل الله عز وجل[1] . أو كما قال .

وعن القاسم : أنه كره صيد الطير أيام فراخه .

وقال : دخلت علىٰ عمر بن عبد العزيز وفي صدري حديث يتجلجل[2] أريد أن أقذفه إليه ، فقلت : بلغنا أنه من ولي على الناس سلطاناً فاحتجب عن حاجتهم وفاقتهم . . احتجب الله عز وجل عن حاجته يوم يلقاه ، فقال : ما تقول ؟ فأطرق طويلاً ، ثم عرفتها فيه ؛ فإنه برز للناس ، وأجازه عمر بن عبد العزيز بجائزة ، ثم سأله أن يحدثه حديثاً ، فكره

---

(١) كذا في النسخ ، وجاء في نسخة : (التفقه في دين الله) ولعل الصواب ما أثبت ؛ لأنه المعنى المناسب للآية الكريمة : ﴿ وَأَنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ .

(٢) يتجلجل : يتردد في نفسي .

القاسم ذلك ، ثم قال لعمر : هنئني عطيتك ، وكره أن يحدثه علىٰ هـٰذا الوجه .

روىٰ عن عبد الله بن عمرو بن العاصي الصحابي ، وأسند عن شريح ، وجماعة من التابعين .

فمن أحاديثه عن عبد الله بن عمرو بن العاصي : قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أحد من المسلمين يصاب ببلاء في جسده . . إلا أمر الله تعالى الحفظة الذين يحفظونه فيقول : (اكتبوا لعبدي كل يوم وليلة مثلما كان يعمل من الخيرات ما دام محبوساً في وثاقي)[1] .

ثم قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : قد تقدم ذِكر طبقاتٍ من الصحابة والتابعين وتابعيهم حسب ما أذن الله سبحانه وتعالىٰ .

وقد عزمنا علىٰ ذِكْر طوائفَ من جماهير النُّساك والعلماء والعباد ، وعدَلْنا عن ترتيب أيامهم وبلادهم علىٰ حسب ما يقدره الله عز وجل . [انتهىٰ « الحلية » ٦/١٤٨ـ١٤٩] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) الحلية (٦/ ٧٩ـ٨٣) ، والحديث أخرجه الحاكم (١/ ٤٩٩) .

ومنهم الإمام :

أبو محمد حبيب الفارسي [العجمي]
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : كان حبيب من ساكني البصرة ، وكان صاحب كرامات ، مجاب الدعوة .

وكان سبب إقباله على الآجلة ، وانتقاله عن العاجلة : أنه حضر مجلس الحسن ، فوقعت موعظته من قلبه ، فخرج عما كان يتصرف فيه ؛ ثقة بالله تعالىٰ ، ومكتفياً بضمانه سبحانه وتعالىٰ ، واشترىٰ نفسه من الله عز وجل بأربعين ألف دينار في أربع دفعات ، تصدق بعشرة آلاف في أول النهار فقال : يا رب ؛ قد اشتريت نفسي منك بهـٰذا ، ثم أتبعتها بعشرة آلاف أخرىٰ وقال : هـٰذا شكر لما وفقتني له ، ثم أخرج عشرة آلاف أخرىٰ فقال : يا رب ؛ إن لم تقبل مني الأولىٰ والثانية . . فاقبل هـٰذه ، ثم تصدق بعشرة آلاف أخرىٰ فقال : يا رب ؛ إن قبلت الثالثة . . فهـٰذه شكر لها .

وفي رواية يونس بن محمد : قال : سمعت مشيخة يقولون : كان الحسن في مجلس وعظه يأتيه فيه أهل الدنيا والتجار ، وكان حبيب غافلاً عما فيه الحسن ، لا يلتفت إلىٰ شيء من مقالته ، فقال له أصحابه يوماً : إن الحسن يذكِّر بالجنة والنار ، ويرغب في الآخرة ، ويزهد في الدنيا ، فوقر ذلك في قلبه ، وقال بالفارسية : امضوا بنا إليه ، فأتاه ، فقال جلساء الحسن : يا أبا سعيد ؛ هـٰذا أبو محمد حبيب قد أقبل إليك ، فعظه ، وأقبل عليه ، فوقف عليه ، وتكلم بالفارسية ، فقال الحسن : أيش[1] تقول ؟ قالوا : إنه يقول : عظني موعظة بليغة ، قال : فوعظه الحسن ، ثم ذكَّره بالجنة وخوفه النار ، ورغبه في الخير ، وزهده في الدنيا ، فقال أبو محمد بالفارسية : كيف أَصِل إلىٰ ذلك ؟ فقال الحسن : أنا ضامن لك على الله سبحانه وتعالىٰ ذلك إن أَنَبْت إلى الله عز وجل ، واتبعت رضوانه ، واجتهدت في

---

(١) أيش : منحوت من (أيِّ شيء) بمعناه .

عبادته ولزوم طاعته سبحانه وتعالىٰ ، قال : فلما سمع ذلك . . انصرف من عنده وقد وقر ذلك في قلبه ، فلم يزل في تفريق ماله في سبيل الله تعالىٰ حتىٰ لم يبق له شيء ، ثم بعد ذلك جعل يستقرض على الله عز وجل حتىٰ كان منه ما كان .

وجاء رجل إلىٰ حبيب ، فشكا إليه ديناً عليه ، فقال له : اذهب واستقرض ، وأنا أضمن ، فأتىٰ رجلاً فأقرضه خمس مئة درهم وضمنها أبو محمد حبيب ، ثم جاء الرجل بعد حين ، فقال : يا أبا محمد ؛ دراهمي ، فقد أضرَّ بي حبسها ، فقال : نعم ، في غد إن شاء الله تصل إليك ، فتوضأ أبو محمد ، ودخل المسجد ، وصلىٰ ، ودعا الله تعالىٰ أن يؤدي عنه ما ضمن ، ثم راح إلىٰ منزله ، وجاء الرجل ، فقال له حبيب : اذهب فإني وجدت في المسجد شيئاً فخذه ، فذهب الرجل ؛ فإذا هي صرة فيها خمس مئة درهم ، فوجدها زائدة ، فقال : يا أبا محمد ؛ تلك الدراهم زائدة علىٰ خمس مئة درهم ، فقال : اذهب فهي لك ، الذي وَزَنَها وَزَنَها راجحة .

وعن السري بن يحيىٰ وغيره ، عن حبيب : أنه أصاب الناس مجاعة ، فاشترىٰ حبيب دقيقاً وسويقاً بنسيئة ، وعمد إلىٰ خرائط[1] ، فخيطها ووضعها تحت فراشه ، ثم دعا الله عز وجل ، فجاء أرباب الديون بعد مدة يطلبون الثمن ، فأخرج تلك الخرائط وقد امتلأت ، فقال لهم : زنوا ، فوزنوا حقوقهم .

وعن السري بن يحيىٰ ـ أيضاً ـ قال : قدم رجل من أهل خراسان ، وكان قد باع ما كان له بها ، وعزم علىٰ سكنى البصرة ، فلما قدم البصرة . . كان معه عشرة آلاف درهم ، فأراد الخروج إلىٰ مكة هو وامرأته ، فسأل الناس لمن يودع العشرة آلاف ؟ فقيل له : لأبي محمد حبيب ، فأتاه ، فقال له : إني قاصد وامرأتي مكة ، وهـٰذه عشرة آلاف أريد أن أشتري بها منزلاً في البصرة ، فإن وجدت منزلاً وَيخِفُّ عليك أن تشتري لنا بها . . فافعل ، ثم سافر الرجل إلىٰ مكة ، فأصابت الناس بالبصرة مجاعة ، فشاور حبيب أصحابه أن يشتري بالعشرة آلاف دقيقاً ويتصدق به عنه ، فقالوا له : إنما وضعها لمشترىٰ منزل ، فقال : أنا أتصدق بها عنه وأشتري له بها من ربي منزلاً في الجنة ، فإن رضي ، وإلا . . دفعت إليه دراهمه ، قال : فاشترىٰ بها دقيقاً وخَبَزَهُ وتصدق به .

فلما قدم الخراساني من مكة . . أتىٰ حبيباً ، فقال : يا أبا محمد ؛ اشتريت لنا منزلاً أو

---

(١) **خرائط** : مفرده خريطة ، وهو : وعاء من جلد أو نحوه يشد علىٰ ما فيه .

تردها عليَّ فأشتري أنا بها ؟ فقال : قد اشتريت لك منزلاً فيه قصور وأشجار وثمار وأنهار ، فانصرف الخراساني إلى امرأته فرحاً مسروراً ، فقال : قد اشترىٰ لنا أبو محمد حبيب منزلاً أراه كان لبعض الملوك ؛ فإنه قد عظم أمره وما فيه من أشجار وثمار وأنهار ، ثم أقام الخراساني يومين أو ثلاثة ، وجاء إلىٰ حبيب ، فقال : يا أبا محمد ؛ أين المنزل الذي اشتريت لي ؟ فقال أبو محمد : اشتريت لك من ربي عز وجل منزلاً في الجنة بقصوره وثماره وأنهاره ووصفائه[1] ، فانصرف الرجل إلى امرأته أشد فرحاً من الأول ، وقال لها : إن حبيباً اشترىٰ لنا المنزل من ربه عز وجل في الجنة ، فقالت امرأته : يا فلان ؛ أرجو أن يكون قد وفق الله سبحانه وتعالىٰ حبيباً ، وما قدر ما يكون لبثنا في الدنيا ؟! فارجع إليه ، فليكتب لنا كتاباً بعهدة المنزل ، فرجع الخراساني إلىٰ حبيب ، فقال : يا أبا محمد ؛ قد قَبِلْنا ما اشتريت لنا ، فاكتب لنا كتاباً بعهدة المنزل ، فقال : نعم ، فدعا من يكتب له الكتاب ، فكتب : بسم الله الرحمٰن الرحيم ، هٰذا ما اشترىٰ أبو محمد حبيب من ربه عز وجل لفلان الخراساني ، اشترىٰ له منزلاً في الجنة بقصوره وأنهاره وأشجاره ووصفائه بعشرة آلاف درهم ، فعلىٰ ربه سبحانه وتعالىٰ أن يدفع هٰذا المنزل إلىٰ فلان الخراساني ، ويبرىء حبيباً من عهدته ، فأخذ الخراساني الكتاب ، وانطلق به إلى امرأته ، فدفعه إليها ، ثم أقام الخراساني نحواً من أربعين يوماً ، ثم حضرته الوفاة ، فأوصى امرأته إذا أنا غسلتموني وكفنتموني . . فاجعلوا هٰذا الكتاب في أكفاني ، ففعلوا ذلك ، فلما دفن الرجل . . وجدوا علىٰ ظهر قبره رقاً مطوياً فيه مكتوب ، ليس يشبهه مكاتيب الدنيا ، فنشروه ؛ فإذا فيه : براءة لحبيب أبي محمد من المنزل الذي اشتراه لفلان الخراساني بعشرة آلاف درهم ، فقد دفع ربه سبحانه وتعالىٰ إلى الخراساني ما شرط له حبيب ، وأبرأه منه ، فأُتي حبيب بالكتاب ، فجعل يقرؤُه ويقبله ويبكي ، ويروح إلىٰ أصحابه ، ويقول : هٰذه براءتي من ربي عز وجل .

وجاء رجل إلىٰ أبي محمد ، فاشتكىٰ وجَعاً في رجله ، وسأله أن يدعو له وكان في مجلسه ، فلما تفرق الناس . . أخذ المصحف ، وعلقه في عنقه ، وقال : يا الله ؛ لا تسود وجه حبيب ، ثم قال : اللهم ؛ عافه حتىٰ ينصرف ولا يدري في أي رجليه كان الوجع ، فوجد الرجل العافية في الحال ، فسألناه في أي رجليك كان الوجع ؟ فقال : لا أدري .

وقال أبو محمد حبيب : أتانا سائل ، وكان قد عجنت امرأتي عمرة وذهبت تجيء بنار

---

(١) **الوصيف** : الخادم غلاماً كان أو جارية .

لتخبزه ، فقلت للسائل : خذ العجين ، فأخذه ، فجاءت عمرة ، فقالت : أين العجين ؟ فقلت : ذهبوا يخبزونه ، فلما أكثرت عليَّ . . أخبرتها ، فقالت : سبحان الله! لا بد من شيء نأكله ؛ فإذا برجل قد جاءنا ومعه جفنة عظيمة مملوءة خبزاً ولحماً ، فقالت عمرة : ما أسرع ما ردوه عليك وقد خبزوه وجعلوا معه لحماً .

وقال حبيب : إن من سعادة المرء إذا مات . . ماتت معه ذنوبه .

وكان حبيب يأخذ متاعاً من التجار يتصدق به ، فأخذ مرة ، فلم يجد شيئاً يعطيهم ، فقال : يا رب ؛ إن الناس يحسنون ظنهم بي ، وأنت فعلت بي ذلك من سترك عليَّ ، فلا تخلف ظنهم بي ، فينكسر وجهي عندهم ، ثم دخل داره ، فإذا هو بجوالق[1] من شعر ، كأنه نُصِبَ من أرض البيت إلىٰ قريب من السقف وقد ملىء دراهم ، فقال : يا رب . . ليس أريد هـٰذا كله ، ثم أخذ حاجته ، وترك الباقي .

وكان يقول : سبحانك اللهم وبحمدك ، خلقت فسويت ، وقدرت فهديت ، وأعطيت فأغنيت ، وعفوت وعافيت ، فلك الحمد علىٰ ما أعطيت ، حمداً كثيراً طيباً مباركاً ، حمداً لا ينقطع أولاه ، ولا ينفد أخراه ، حمداً أنت منتهاه ، فتكون الجنة عقباه ، أنت الكريم الأعلىٰ ، وأنت جَزْلُ العطاء ، وأنت أهل النعماء ، وولي الحسنات ، لا يبلغ مدحَك قولُ قائل ، سجد وجهي لوجهك الكريم الباقي ، ثم يخر ساجداً ، ثم يقوم ، فيفرق الصدقة على المساكين .

وكان يُرىٰ بالبصرة يوم التروية ، ويُرىٰ بعرفات عشية عرفة .

وعن عباد قال : ذهبت مع سليمان التيمي إلىٰ حبيب ، فقال له : يا أبا محمد ؛ ادع الله تعالىٰ لنا ، فقال : يا أبا المعتمر ؛ البشكار[2] لا يتقدم ، البشكار يتأخر .

وقال حبيب : لا قرة عين لمن لم تقر عينه بك ، ولا فرح لمن لا يفرح بك ، وعزتك وجلالك ؛ إنك لتعلم أني أحبك ، وأنت فعلت ذلك بي .

وكان رقيقاً ، من أكثر الناس بكاء ، فبكىٰ ذات ليلة بكاء كثيراً ، فقالت له عمرة

---

(١) **الجوالق** : وعاء من صوف أو شعر .

(٢) **البشكار** : كلمة فارسية ، وهي ما يكون من مقدمات العمل ، والمقصود هنا : أنه تواضعاً منه جعل نفسه متأخراً لا يتقدم .

بالفارسية : لِمَ تبكي يا أبا محمد ؟ فقال لها بالفارسية : دعيني ؛ فإني أريد أن أسلك طريقاً ما سلكته قبل ذلك . [انتهىٰ « الحلية » ٦/١٤٩ـ١٥٤] .

وقال الخطيب : عن المعتمر بن سليمان ، عن أبيه : ما رأيت أحداً قط أعبد من الحسن البصري ، وما رأيت أحداً أورع من ابن سيرين ، [وما رأيت أحداً] أزهد من مالك بن دينار ، ولا أخشع من محمد بن واسع ، ولا أصدق يقيناً من حبيب العجمي رحمهم الله تعالىٰ .

وقال المعلى الوراق : كنا إذا دخلنا علىٰ حبيب . . قال : افتح جونة المسك ، وهات الترياق المجرَّب ـ جونة المسك : المصحف ، والترياق المجرب : الدعاء ـ ولما احتضر . . جزع ، فقيل له : ما هـٰذا ؟ فقال : أريد أن أسافر سفراً ما سافرته قط ، وأسلك طريقاً ما سلكته قط ، وأوقف بين يدي الله عز وجل ، فأخاف أن يقول لي : يا حبيب ؛ هات تسبيحة واحدة سبحتني في ستين سنة لم يظفر بك الشيطان فيها بشيء ، فماذا أقول وليس لي حيلة ؟ أقول : يا رب ؛ هو ذا قد أتيتك مقبوض اليدين إلىٰ عنقي يا أرحم الراحمين .

توفي أبو محمد حبيب سنة خمس وأربعين ومئة ، رحمه الله .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

عبد الواحد بن زيد
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : قال أبو سليمان الداراني رحمه الله : أصاب عبد الواحد بن زيد الفالج ، فسأل الله تعالىٰ أن يطلقه في وقت الوضوء ، فكان إذا أراد أن يتوضأ . . أُطلق ، وإذا رجع إلىٰ سريره . . عاد إليه الفالج .

وقال عبد الواحد : عليكم بالخبز والملح ؛ فإنه يذيب شحم الكِلىٰ ، ويزيد في اليقين .

وقيل لعبد الواحد بن زيد : يا أبا عبيدة ؛ ما تقول في رجلين ، أحدهما أحب البقاء ليطيع ، والآخر أحب الخروج شوقاً إلى الله عز وجل ؟ أيهما أفضل ؟ قال : الذي أحب الخروج أفضل ، فقيل : هل ثَمَّ منزلة ثالثة ؟ فقال : ما أعرفها ، فقيل له : بلىٰ ، لا يحب البقاء ليطيع ، ولا يحب الخروج شوقاً ، أحب ذلك إليه أحبه إلى الله عز وجل ، إن أبقاه . . أحب ذاك ، وإن أماته . . أحب ذاك .

وقال عبد الواحد : الرضا باب الله تعالى الأعظم ، وجنة الدنيا ، ومستراح العابدين .

وقال : خرجت أنا وفرقد السبخي ومحمد بن واسع ومالك بن دينار نزور أخاً لنا بأرض فارس ، فرأينا في الطريق في سفح جبل رجلاً مجذوماً ، يقطر قيحاً ودماً ، فقال له بعضنا : يا هـٰذا ؛ لو دخلت المدينة فتداويت وتعالجت مما أنت فيه ، فرفع طَرْفه إلى السماء ، ثم قال : إلـٰهي ؛ أتيت بهـٰؤلاء يسخطوني عليك ؟ لك الكرامة والعتبىٰ بألاَّ أخالفك أبداً ، فوفِّقْني لما تحب .

وقال : خرجت أنا ومحمد بن واسع ومالك بن دينار نؤم بيت المقدس ، فلما كنا بين الرصافة وحمص . . سمعنا منادياً ينادي من بين تلك الرمال : يا محفوظ ، يا مستور ؛ اعقل في ستر من أنت ، فإن كنت لا تعقل . . فاحذر الدنيا ، وإن كنت لا تحسن أن تحذرها . . فاجعلها شوكة وانظر أين تضع رجلك .

وكان عبد الواحد يدعو ، ويقول : وعزتك وجلالك ؛ ما أعلم لمحبتك فرحاً دون

لقائك والاشتفاء من النظر إلىٰ جلال وجهك في دار كرامتك . اللهم ؛ يا من أحل الصادقين محل الكرامة ، وأورث البطالين منازل الندامة ؛ اجعلني ومن حضرني من أفضل أوليائك زلفىٰ ، وأعظمهم منزلة وقربىٰ ، تفضلاً منك علىٰ عبدك وعلىٰ إخواني من عبيدك ، يوم تجزي الصادقين بصدقهم يا أرحم الراحمين .

وقال عبد الواحد : مَن قوي علىٰ بطنه . . قوي علىٰ دِينه ، ومن قوي علىٰ دِينه . . قوي على الأخلاق الصالحة ، ومن لم يعرف مضرته في دِينه من قبل بطنه . . فذلك رجل في العالمين أعمىٰ .

وعاد عبد الواحد مريضاً ، فقال له : ما تشتهي ؟ قال : الجنة ، قال : فعلام تأسىٰ من الدنيا ؟ قال : آسىٰ ـ والله ـ علىٰ مجالس الذكر ، ومذاكرة الرجال بتعدادهم نعم الله عز وجل ، فقال عبد الواحد : هـٰذا ـ والله ـ خير الدنيا ، وبه يدرك خير الآخرة .

وقال : نمت ليلة عن وردي ؛ فإذا بجارية لم أر أحسن منها ، عليها ثياب من حرير أخضر ، وفي رجليها نعلان تقدس بأطراف أزمتها[1] ، فالنعلان يسبحان ، والزمامان يقدسان ، وهي تقول : يا بن زيد ؛ جُدَّ في طلبي ؛ فإني في طلبك ، ثم جعلَتْ تقول بصوت رخيم :

من يشتريني ومن يكن سكني ... يأمن في ربحه من الغَبَنِ

فقلت : يا جارية . . ما ثمنك ؟ فأنشأت تقول :

تودُّد الله مَعْ محبته ... وطول شكر يشاب بالحَزَنِ[2]

فقلت : لمن أنت يا جارية ؟ قالت :

لمالك لا يرد لي ثمناً ... من خاطب قد أتاه بالثَّمَنِ

قال : فانتبهت ، وآليت علىٰ نفسي ألاَّ أنام بالليل .

وقال عبد الواحد : سألت الله عز وجل ثلاث ليال أن يريني رفيقي في الجنة ، فرأيت كأن قائلاً يقول : يا عبد الواحد ؛ رفيقك في الجنة ميمونة السوداء ، فقلت : وأين هي ؟ فقال :

---

(١) زمام النَّعل : ما يشد به الشسع .

(٢) كذا في « الحلية » ، وفي النسخ :

دوام طاعة الله مع محبته ... وطول فكر يشاب بالحزن

في آل بني فلان بالكوفة ، قال : فخرجت إلى الكوفة ، فسألت عنها ، فقيل : هي مجنونة بين ظهرانينا ترعىٰ غنيمات لنا ، فقلت : أريد أن أراها ، قالوا : اخرج إلى الجبَّان ، فخرجت ، فإذا بها قائمة تصلي ، وإذا بين يديها عكازة لها ، وعليها جبة صوف ، مكتوب عليها : لا تباع ولا تشترىٰ ، وإذا الغنم مع الذئاب ، لا تضرها ولا تفزع منها ، فلما رأتني . . أوجزت في صلاتها ، ثم قالت : ارجع يا بن زيد ، ليس الموعد هٰهنا ، إنما الموعد ثَمَّ ، فقلت لها : رحمك الله تعالىٰ ، وما يعلمك أني ابن زيد ؟ فقالت : أما علمت أن الأرواح جنود مجندة ، ما تعارف منها . . ائتلف وما تناكر منها . . اختلف ؟! فقلت لها : عظيني ، فقالت : وا عجباه لواعظ يُوعَظ! ثم قالت : يا بن زيد ؛ إنك لو وضعت معايير القسط علىٰ جوارحك . . لخبرتك بمكتوم مكنون ما فيها ، يا بن زيد ؛ إنه بلغني أنه ما من عبد أُعطي من الدنيا شيئاً فابتغىٰ إليه ثانياً . . إلا سلبه الله تعالىٰ حب الخلوة معه ، وبدله بَعد القرب البعد ، وبَعد الأنس الوحشة ، ثم أنشأت تقول :

يـــا واعظـــاً قـــام لاحتســـابٍ ... يـــزجـــر قـــومـــاً عـــن الـــذنـــوبِ
تنهـــىٰ وأنـــت السقيـــم حقـــاً ... هٰـــذا مـــن المنكـــر العجيـــبِ
لـــو كنـــت أصلحـــتَ قبـــل هٰـــذا ... غيـــك أو تبـــتَ مـــن قـــريـــبِ
كـــان لمـــا قلـــت يـــا حبيبـــي ... مـــوقـــع صـــدق مـــن القلـــوبِ
تنهـــىٰ عـــن الغـــي والتمـــادي ... وأنـــت فـــي النهـــي كـــالمـــريـــبِ

فقلت لها : إني أرى الذئاب مع الغنم ، لا الغنم تفزع من الذئاب ولا الذئاب تأكل الغنم ، فأَيش هٰذا ؟ فقالت : إليك عني ؛ فإني أصلحت ما بيني وبين سيدي سبحانه وتعالىٰ فأصلح ما بين الذئاب والغنم .

وقال الحارث بن عبيد : كان عبد الواحد يجلس إلىٰ جنبي عند مالك بن دينار ، وكنت لا أفهم كثيراً من موعظة مالك بن دينار ؛ لكثرة بكاء عبد الواحد .

وشهد عبد الواحد جنازة حوشب ، فلما دفن . . قال : رحمك الله يا أبا بشر ؛ فلقد كنت حذراً من مثل هٰذا اليوم ، رحمك الله يا أبا بشر ؛ فلقد كنت من الموت جزعاً ، أما والله ؛ لئن استطعتُ ووفقني ربي عز وجل . . لأعملن علىٰ رحيلي بعد مصرعك هٰذا ، ثم اجتهد وشمَّرَ .

وعن حصين بن القاسم الورَّاق قال : كنا في مجلس عبد الواحد وهو يعظ ، فناداه رجل

من ناحية المسجد : كُفَّ عنا يا أبا عبيدة ؛ فقد كشفت قناع قلبي ، قال : فلم يلتفت عبد الواحد إلىٰ ذلك ، ومَرَّ في الموعظة ، فلم يزل الرجل يقول : كف عنا يا أبا عبيدة ؛ فقد كشفت قناع قلبي ، وعبد الواحد لا يقلع عن موعظته . . حتىٰ ـ والله ـ حشرج[1] الرجل حشرجة الموت ، ثم خرجت نفسه ، قال : فإنا ـ والله ـ ممن شهد جنازته يومئذ ، فما رأيت بالبصرة أكثر باكياً من يومئذ .

وقال عبد الواحد : جالِسوا أهل الدِّين ، فإن لم تجدوهم . . فجالِسوا أهل المروءات ؛ فإنهم لا يرفثون في مجالسهم .

وقال عبد الواحد : سألت زياداً النميري فقلت : ما منتهى الخوف ؟ قال : الإجلال لله عز وجل عن مقام السَّوْءَات والمخالفات ، قلت : فما منتهى الرجاء ؟ قال : تأميل الله عز وجل علىٰ كل الحالات .

وقال مسلم بن العباداني : قدم علينا صالح المري وعبد الواحد بن زيد وعتبة الغلام وسلمة الأسواري ، فنزلوا على الساحل ، فهيأت لهم ذات ليلة طعاماً ، فدعوتهم ، فجاؤوا ، فلما وضعت الطعام بين أيديهم . . إذا قائل يقول مِن عُرْض الناس وهو على الساحل ماراً رافعاً صوته :

ويلهيك عن دار الخلود مطاعم ولذة نفس غيُّها غير نافع

قال : فصاح عتبة صيحة ، فسقط مغشياً عليه ، وبكى القوم ، ورفعنا الطعام ، وما ذاقوا والله منه لقمة .

وقال عبد الواحد : يا إخوتاه ؛ ألا تبكون شوقاً إلى الله عز وجل ؟ ألا وإنه من بكىٰ شوقاً إلىٰ سيده ومولاه سبحانه وتعالىٰ . . لم يحرمه النظر إليه ، يا إخوتاه ؛ ألا تبكون خوفاً من النيران ؟ ألا وإنه من بكىٰ خوفاً من النار . . أعاذه الله سبحانه وتعالىٰ منها ، يا إخوتاه ؛ ألا تبكون خوفاً من شدة العطش يوم القيامة ؟ يا إخوتاه ؛ ألا تبكون ؟ بلىٰ ، فابكوا على الماء البارد أيام الدنيا ؛ لعله أن يسقيكموه في حظائر القدس مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، ثم جعل يبكي حتىٰ غُشي عليه .

وقال حصين بن القاسم الورَّاق : لو قُسِّم بَثُّ[2] عبد الواحد علىٰ أهل البصرة . .

---

(١) حشرج : ردَّد نَفَسَه في حلقه وأوشك أن يموت .

(٢) البثُّ : أشد الحزن .

لوسعهم ، كان إذا أقبل سواد الليل . . نظرت إليه كأنه فرس رهان[1] مضمر محتزم ، ثم يقوم إلىٰ محرابه ، فكأنه رجل مخاطب .

وقال عبد الواحد : أصابتني علة في ساقي ، فكنت أتحامل عليها للصلاة ، قال : فقمت عليها من الليل ، فأجهدت وجعاً عظيماً ، فجلست وعليَّ إزاري في محرابي ، ووضعت رأسي عليه ، فنمت ، فبينا أنا كذلك ؛ وإذا بجارية تفوق الدمىٰ حسناً[2] ، تخطِر[3] بين جوارٍ مزينات ، حتىٰ وقفت عليَّ ، وهُنَّ خلفها ، فقالت لبعضهن : ارفعنه ولا تُهِجْنَهُ ، قال : فأقبلْنَ نحوي ، فاحتملنني عن الأرض ، وأنا أنظر إليهن في منامي ، ثم قالت لجَوارٍ أُخر من الجواري اللاتي معها : افرشنه ، ومهدنه ، ووطئن له ، ووسدنه ، قال : ففرشن تحتي سبع حشايا لم أر لهن في الدنيا مثلاً ، ووضعن تحت رأسي مَرافق خضراً حساناً ، ثم قالت : اجعلنه على الفرش رويداً لا تُهِجْنَهُ ، فجُعِلْتُ علىٰ تلك الفرش ، وأنا أنظر إليها ، وما تأمر به من شأني ، ثم قالت : احففنه بالياسمين والريحان ، قال : فأُتي بالياسمين والريحان ، فحُفَّت به الفرش ، ثم قامت إليَّ ، فوضعت يدها علىٰ موضع علتي التي كنت أجد في ساقي ، فمسحَتْ ذلك المكان بيدها ، ثم قالت : قم شفاك الله تعالىٰ إلىٰ صلاتك غير مضرور ، فاستيقظت وكأني ـ والله ـ قد أُنشطت من عقالٍ فما اشتكيت تلك العلة بعد ليلتي تلك ، ولا ذهبت حلاوة منطقها من قلبي : قم شفاك الله تعالىٰ إلىٰ صلاتك غير مضرور .

وقال عبد الواحد : كنا في غزاة لنا ونحن في العسكر الأعظم ، فنزلنا منزلاً ، فنام أصحابي وقمت أقرأ جزئي ، فجعل النوم يغالبني وأغالبه حتى استتممت جزئي ، فلما فرغت . . قلت : لو نمت كما نام أصحابي . . كان أروح لبدني ، قلت ذلك في نفسي ، ثم نمت ، فرأيت في منامي شاباً جميلاً ، بيده ورقة ، وقف عليَّ والورقة في يده بيضاء كأنها الفضة ، فقلت : يا فتىٰ ؛ ما هٰذه الورقة ؟ فدفعها إلي ، فنظرت ، فإذا فيها مكتوب :

ينـــام مـــن شـــاء علـــىٰ غفلـــة ... والنـــوم كـــالمـــوت فـــلا تَتَّكـــلْ

تنقطـــع الأعمـــال فيـــه كمـــا ... تنقطـــع الـــدنيـــا عـــن المنتقـــلْ

---

(١) **فرسُ رِهان** : الخيل التي يُراهن علىٰ سباقها بمال أو غيره .

(٢) **الدمىٰ** : جمع دمية ، وهي : الصورة الممثلة من العاج وغيره ، يضرب بها المثل في الحسن .

(٣) **تخطِر** : تتبختر .

قال : وتغيَّب الفتىٰ عني ، فلم أره ، قال : فكان عبد الواحد يردد هـٰذا الكلام كثيراً ويبكي ، ويقول : فرق الموت بين المصلين وبين لذتهم في الصلاة ، وبين الصائمين وبين لذتهم في الصيام . . . ويذكر أصنافاً من الخير .

وقال عبد الواحد : الإجابة مقرونة بالإخلاص لا فرقة بينهما .

وقال : ما أعلم درجة أرفع ولا أشرف من الرضا ، وهي رأس المحبة .

وقال : كان يقال : مَن عمل بما علم . . أورثه الله تعالىٰ علم ما لم يعلم . أو كما قال .

وصلىٰ عبد الواحد الغداة بوضوء العتمة أربعين سنة .

وقال : من نوى الصبر علىٰ طاعة الله تعالىٰ . . صبَّره الله تعالىٰ عليها وقواه لها ، ومن عزم على الصبر عن معاصي الله تعالىٰ . . أعانه الله تعالىٰ علىٰ ذلك وعصمه منها ؛ نعمة منه غادية ورائحة علىٰ أهل معصيته ، فكيف ييأس من رحمته أهل محبته ؟!

وقال عبد الواحد : قال الحسن البصري رحمه الله : السهو والأمل نعمتان عظيمتان علىٰ بني آدم .

أسند عبد الواحد رحمه الله عن الحسن البصري ، وغيره ، رضي الله عنه . انتهىٰ [« الحلية » ٦/١٥٥ـ١٦٤] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو بشر صالح المُرِّي
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال صالح المري رحمه الله : يا عجباً لقوم أُمِرُوا بالزاد وأُذِّنوا بالرحيل ، وحبس أوائلهم عن أواخرهم ، وهم مع ذلك يلعبون!

وعن الحسن بن حسان قال : كنا يوماً عند صالح المري وهو يعظ ، فقال لرجل بين يديه : اقرأ يا بني ، فقرأ : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ فقطع عليه صالح القراءة فقال : وكيف يكون لظالم حميم أو شفيع والمُطالِب له رب العالمين جل جلاله ؟! إنك والله ؛ لو رأيت الظالمين وأهل المعاصي يساقون في السلاسل والأغلال إلى الجحيم ، حفاة عراة ، مسودة وجوههم ، مزرقَّة عيونهم ، ذاهبة أجسامهم ، ينادون : يا ويلاه! يا ثبوراه! ماذا نزل بنا ؟ وماذا حل بنا ؟ أين يُذهَب بنا ؟ ماذا يُراد منا ؟ والملائكة عليهم الصلاة والسلام تسوقهم بمقامع من النيران ، فمرة يجرون علىٰ وجوههم فيُسحبون علىٰ وجوههم ، ومرة يقادون إليها مقرنين من بين باك دماً بعد انقطاع الدموع ، ومن بين صارخ طائر القلب مبهوت ؛ إنك والله لو رأيتهم علىٰ ذلك . . لرأيت منظراً لا يقوم له بصرك ، ولا يثبت له قلبك ، ولا يستقر لفظاعة هوله علىٰ قرارٍ قدمُك ، ثم نَحَبَ ، وصاح : يا سوء منظراه ، ويا سوء منقلباه ، وبكىٰ وبكى الناس .

فقام شاب به تأنيث ، فقال : كل هـٰذا في القيامة يا أبا بشر ؟ فقال : نعم ، والله يابن أخي ؛ وما هو أكثر من ذلك ، لقد بلغني أنهم يصرخون في النار حتىٰ تنقطع أصواتهم ، فلا يبقىٰ منها إلا كهيئة الأنين من المدنف ، فصاح الفتىٰ : إنا لله ، واغفلتاه عن نفسي أيام الحياة! ويا أسفىٰ علىٰ ما فرطت من طاعتك يا سيداه! ويا أسفىٰ علىٰ تضييع عمري في دار الدنيا! ثم بكىٰ واستقبل القبلة ، فقال : اللهم ؛ إني أستقبلك في يومي هـٰذا بتوبة لك لا يخالطها رياء لغيرك ، اللهم ؛ فاقبلني علىٰ ما كان مني ، واعف عني عما تقدم من فعلي وجرمي ، وأقلني عثرتي ، وارحمني ومن حضرني ، وتفضل علينا أجمعين بجودك وكرمك

يا أرحم الراحمين ، لك ألقيت معاقد الآثام من عنقي ، وإليك أنبت بجميع جوارحي ، صادقاً لك بذلك من قلبي ، فالويل لي إن أنت لم تقبلني ، ثم غُلب ، فسقط مغشياً عليه ، فمات ، فحمل بين القوم صريعاً والناس يبكون عليه ، ويدعون له .

وكان صالح كثيراً ما يَذْكُره في مجلسه ويدعو الله تعالىٰ له ، ويقول : بأبي قتيل القرآن ، بأبي قتيل المواعظ والأحزان ، فرآه رجل في منامه ، فقال له : ما صنعت ؟ قال : عمَّتْني بركة مجلس صالح ، فدخلت في سعة رحمة الله تعالى التي وسعت كل شيء .

وقال الحسن بن حسان : كنا في مجلس صالح المري ، فأخذ في الدعاء ، فمر رجل مخنَّثٌ ، فوقف يسمع الدعاء ، ووافق صالحاً يقول : اللهم ؛ اغفر لأقسانا قلباً ، وأَجْمَدِنا عيناً ، وأحدثنا بالذنوب عهداً ، فصاح المخنَّثُ صيحة ، وما زال مغمىً عليه حتىٰ مات ، فرئي في المنام ، فقيل له : ما فعل الله تعالىٰ بك ؟ قال : غفر لي ، قيل : بماذا ؟ قال : بدعاء صالح المري ، لم يكن في القوم أحدث عهداً بالمعصية مني ، فوافقت دعوته الإجابة ، فغُفر لي .

وقال عبد الرحمٰن بن مهدي : جلست مع سفيان الثوري في مجلس صالح المري ، فتكلم صالح ، فرأيت سفيان الثوري يبكي ، وقال : هٰذا ليس بقاص ، هٰذا نذير قوم .

وكان صالح المري إذا قص . . قال : هات جونة[1] المسك والترياق المجرَّب ـ يعني : القرآن ـ فلا يزال يقرأ ويدعو ويبكي حتىٰ ينصرف ، فكان إذا أخذ في قصصه . . كأنه مذعور يفزَعك أمره ؛ من حزنه وكثرة بكائه ، كأنه ثكلىٰ .

وكان شديد الخوف من الله عز وجل ، كثير البكاء .

وقال : للبكاء دواع ، منها : الفِكْرة في الذنوب ، فإن أجابت القلوب إلىٰ ذلك ، وإلا . . فانقلها إلى الموقف ، وذكِّرها الشدائد والأهوال ، فإن أجابت إلىٰ ذلك ، وإلا . . فاعرض عليها التقلب بين أطباق النيران ، ثم بكىٰ ، وغشي عليه ، وتصايح الناس .

وقال صالح المري رحمه الله : دُفِعَتْ إليَّ صحيفة في المنام فيها : ما تخوَّفْتَ عواقبه . . فوطن نفسك علىٰ أن تجتنبه في الدنيا ، فتأمن . أو كما قال .

وقال : قال لي قائل في منامي : إذا أحببت أن يستجاب لك . . فقل : اللهم ؛ إني

---

(١) الجُونةَ : سُليلة مستديرة مغشاة أَدَماً ، تكون مع العطارين .

أسألك باسمك المخزون المكنون المبارك الطهر الطاهر المقدس ، قال : فما دعوت به في شيء . . إلا تعرفت الإجابة .

وكان يقول : اللهم ؛ إنا نسألك صبراً علىٰ طاعتك ، وصبراً عن معصيتك .

وقال عباد بن جرير وغيره من المشايخ : كنا نجلس إلىٰ صالح المري ، فكان أول ما يبتدىء به فيقول : الحمد لله ؛ فإذا أَعْيُنُ الناس قد سالت بالدموع .

وقال صالح المري : وقفت في دار المرزباني حين خربت ، فعرَضَتْ لي فيها بضع عشرة آية : ﴿ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ ، و﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ ، وما أشبه ذلك ، قال : فبينا أنا أقرأ ؛ إذ خرج عليَّ أسوَد من ناحيتها ، فقال : يا عبد الله ؛ هـٰذه سخطة مخلوق علىٰ مخلوق ، فكيف بسخط الخالق جل جلاله على المخلوق ؟! قال : ثم ذهب ، فاتبعته ، فلم أر أحداً .

وقال سعيد بن سليمان : رأيت صالحاً ـ وكان رجلاً محزوناً ـ وما سمعت كلام رجل قط أحسن منه .

وقال صالح المري : قدم علينا ابن السماك مرة ، فقال : أرني بعض عجائب عُبَّادكم ، فذهبت به إلىٰ رجل في بعض الأحياء في خُصٍّ له ، فاستأذنَّا عليه ، فدخلنا ؛ فإذا رجل يعمل خوصاً[1] ، فقرأت : ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ۝ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ ، فشهق الرجل شهقة ، فخرَّ مغشياً عليه ، فخرجنا من عنده ، وتركناه علىٰ حاله ، وذهبنا إلىٰ آخَر ، فاستأذنَّا عليه ، فقال : ادخلوا إن لم تشغلونا عن ربنا سبحانه وتعالىٰ ، فدخلنا ؛ فإذا رجل جالس في مصلىٰ له ، فقرأت : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ فشهق شهقة بَدَرَ الدم من منخريه ، ثم جعل يتشحط في دمه حتىٰ يبس ، فخرجنا من عنده ، وتركناه علىٰ حاله ، حتىٰ أَدَرْتُه علىٰ ستة أنفس كل يخرج من عنده وهو علىٰ هـٰذه الحال ، ثم أتيت به السابع ، فاستأذنت ؛ فإذا امرأة في خُصٍّ ، تقول : ادخلوا ادخلوا ، فدخلنا ، فإذا شيخ فانٍ جالس في مصلاه ، فسلَّمْنا عليه ، فلم يعقل سلامنا ، فقلت بصوت عال : إن للخلق غداً مقاماً ، فقال الشيخ : بين يدي مَن ويحك ؟ ثم بقي مبهوتاً ، فاتحاً فاه ، شاخصاً بصره ، يصيح بصوت له ضعيف حتى انقطع ، فقالت امرأته : اخرجوا عنه ؛ فإنكم ليس تنتفعون به الساعة ، فلما كان بعد ذلك . . سألت عن القوم ، فإذا ثلاثة منهم قد

---

(١) **الخُصُّ** : بيت من قصب ، **والخوص** : ورق النخل ؛ أي : يعمل منه أشياء يتقوت من بيعها ، ويسمى العامل بها : الخوَّاص .

أفاقوا وثلاثة لحقوا بالله عز وجل ، وأما الشيخ . . فإنه مكث ثلاثة أيام علىٰ حالته مبهوتاً متحيراً لا يؤدي فرضاً ، فلما كان بعد ثلاثة . . عقل .

وقال صالح المري رحمه الله : دخلت المقابر يوماً في شدة الحر ، فنظرت إلى القبور جامدة كأنهم قوم صموت ، فقلت : سبحان الله! مَن يجمع بين أرواحكم وأجسامكم بعد افتراقها ، ثم يحييكم وينشركم من بعد طول البلىٰ ؟ قال : فنادىٰ منادٍ من بين تلك الحفر : يا صالح ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ فسقطت ـ والله ـ لوجهي جزعاً من ذلك الصوت .

وقال صالح : أصاب أهلي ريح الفالج ، فقرأت عليها القرآن ، فأفاقت ، فحدثتُ به غالباً القطان ، فقال : وما تعجب من ذلك ؟ والله ؛ لو أنك حدثتني أن ميتاً قرىء عليه القرآن بالصدق والإخلاص فأُحْيِيَ . . لما كان ذلك عندي عجباً .

وعن السائب العبدي قال : أتانا صالح ، فدخل علينا ، فقلت : مِن أين أقبلْتَ يا أبا بشر ؟ قال : أقبلت من منزلي أخوض المواعظ حتىٰ صرت إليكم ، مررت بدار فلان ، فنادتني : يا صالح ؛ خذ موعظتك مني ، فقد نزلني فلان ، فارتحل وتركني ، ونزلني فلان ، فارتحل وتركني ، ومررت بدار فلان ، فنادتني : يا صالح ؛ خذ موعظتك مني ، فقد نزلني فلان ، فارتحل وتركني ، ونزلني فلان ، فارتحل ، فجعل يعد الدور داراً داراً حتىٰ وصل إلينا .

وقال صالح : عن حوشب ، عن الحسن قال : تفقدوا الحلاوة في ثلاث : في الصلاة ، وفي القرآن ، وفي الذِّكر ، فإن وجدتموها . . فامضوا وأبشروا ، وإن لم تجدوها . . فاعلم : أن بابك مغلق[1] .

وقال صالح : ما بينك وبين أن ترىٰ أثر الله عليك فيما تحب . . إلا أن تعمل فيما بينك وبين خلقه فيما يحب سبحانه وتعالىٰ ، فحينئذ لا تفقد بِرَّهُ ولا تعدم في كل أمر خيره سبحانه وتعالىٰ .

وقال صالح : لو كان الصبر حلواً . . لما قال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿وَٱصْبِرْ﴾ ، ولـٰكن قال له : اصبر ، فإن الصبر مُرٌّ .

وقال صالح : إن قوماً أرادوا سفراً فاستصحبهم فتىً وكان شاباً ، فمات الشاب في طريقهم ، فلما شرعوا في تغسيله . . وجدوا علىٰ قدميه مكتوباً : أحسنوا غسله ؛ فإنه صلىٰ علىٰ جنازة فغُفِر له .

---

(١) وفي رواية أخرىٰ : (فاعلموا أن الباب مغلق) .

وقال : عَزَّىٰ رجلٌ رجلاً في ابنه ، فقال له : لئن كانت مصيبتك في ابنك لم تحدث لك موعظة في نفسك . . فمصيبتك في ابنك جلل[1] في مصيبتك في نفسك ، فإياها فابك ، فهي أولىٰ بالبكاء . أو كما قال .

وقال صالح المري : لما مات عطاء السليمي . . حزنت عليه حزناً شديداً ، فرأيته في منامي ، فقلت : يا أبا محمد ؛ أَلَستَ في زمرة الموتىٰ ؟ قال : بلىٰ ، قلت : فإلىٰ ماذا صرت ؟ فقال : صرت ـ والله ـ إلىٰ خير كثير ورب غفور شكور ، قال : أمَا والله ؛ لقد كنتَ طويل الحزن في دار الدنيا ، قال : فتبسم وقال : أمَا والله يا أبا بشر ؛ لقد أعقبني ذلك راحة طويلة ، وفرحاً دائماً ، قلت : ففي أي الدرجات أنت ؟ قال : مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولـٰئك رفيقاً .

أسند صالح عن الحسن البصري ، وجماعة من التابعين .

فمن أحاديثه عن جعفر بن زيد : عن أنس بن مالك ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يؤتىٰ بابن آدم يوم القيامة ، فيوقف بين كفتي الميزان ، ويوكل به ملك ، فإن ثقل ميزانه . . نادى الملك بصوت يسمع الخلائق : سَعِدَ فلان سعادة لا يشقىٰ بعدها أبداً ، وإن خَفَّ ميزانه . . نادى الملك بصوت يسمع الخلائق : شَقِيَ فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبداً »[2] .

وقال صالح المري : كان عطاء السليمي لا يسأل الله تعالى الجنة ، قال : فقلت له : إن أبَاناً حدثني عن أنس : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله تبارك وتعالىٰ : انظروا في ديوان عبدي ، فمن رأيتموه سألني الجنة . . أدخلوه إليها ، ومن استعاذني من النار . . فاصرفوه عنها »[3] ، فقال لي عطاء : كفاني أن يجيرني من النار . غريب من حديث صالح ، لم نكتبه إلا من حديث إسماعيل بن نصر . انتهىٰ [« الحلية » ٦/ ١٦٥ـ١٧٦] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) جلل : صغيرة ، وهو من الأضداد .

(٢) أخرجه بنحوه الديلمي (٥/ ٤٦٢) .

(٣) ذكره بنحوه ابن رجب في « التخويف من النار » (٤٤) .

ومنهم الإمام :

أبو المهاجر رياح بن عمرو القيسي
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال مالك بن ضيغم : جاءنا رياح القيسي يسأل عن أبي بعد العصر ، فقلنا : هو نائم ؟ فقال : أنوم هـٰذه الساعة ؟ أهـٰذا وقت نوم ؟ ثم ولىٰ ، فأتبعناه رجلاً ، فقلنا : الحقه ، فقل : نوقظه لك ، قال : فجاءنا بعد المغرب ، فقلنا له : أَبْلَغَتَهُ ؟ قال : هو أشغل من أن يفهم عني ، أدركته وهو يدخل المقابر ، وهو يوبخ نفسه ، ويقول لها : تقولين : أنوم هـٰذه الساعة ؟ وما يدريك أنها ليست وقت نوم ؟ تتكلمين فيما لا تعلمين ؟ وتسألين عما لا يعنيك ؟ لينم الرجل متىٰ شاء ، تسألين عما لا يعنيك ؟ أمَا إن لله عز وجل عليَّ عهداً لا أنقضه إن شاء الله تعالىٰ فيما بيني وبينه أبداً ، لا أُوَسِّدك لنوم حولاً ، قال : فلما سمعتُ هـٰذا . . تركته وانصرفْتُ .

وكان رياح القيسي ليلة خلف المقام يصلي ، فسمع شخصاً يقول بصوت حزين : سبقني العابدون وبقيت وحدي ، وَا لَهْفَ نفساه ، فشهق شهقة ، وخر علىٰ وجهه مغشياً عليه إلى الصباح ، ثم أفاق .

وقال الحارث بن سعد : أخذ بيدي رياح القيسي يوماً ، فقال : هلم يا أبا محمد ؛ حتىٰ نبكي علىٰ ممر الساعات ونحن علىٰ هـٰذه الحال ، قال : فخرجت معه إلى المقابر ، فلما نظر إلى القبور . . صرخ ، ثم خرَّ مغشياً عليه ، قال : فجلست ـ والله ـ عند رأسه أبكي ، فقال : ما يبكيك ؟ قلت : لما أرىٰ بك ، قال : لنفسك فابك ، ثم قال : وا نفساه وا نفساه ، ثم غشي عليه ، قال : فرحمته ـ والله ـ مما نزل به ، فلم أزل عند رأسه حتىٰ أفاق ، قال : فوثب ، وهو يقول : ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ ، ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ ، ومضىٰ وأنا أتبعه ، لا يكلمني حتىٰ دخل منزله وأغلق بابه ، فرجعت إلىٰ أهلي ، ولم يلبث بعد ذلك إلا يسيراً حتىٰ مات .

وقال رياح القيسي : أتيت الأبرد بن ضرار في بني سعد ، فقال لي : يا رياح ؛ هل طالت

بك الأيام والليالي ؟ فقلت له : بِمَ ؟ قال : بالشوق إلىٰ لقاء الله عز وجل ، قال : فسكتُّ ولم أقل شيئاً ، حتىٰ أتيت رابعة فقلت لها من وراء حجاب : قد سألني الأبرد بن ضرار مسألة لم أقل فيها شيئاً ، فقالت : ما سألك ؟ فقلت : قال لي : هل طالت بك الأيام والليالي بالشوق إلىٰ لقاء الله عز وجل ، فقالت لي رابعة : ماذا قلتَ ؟ قلت : سكتُّ ، فلم أقل شيئاً ، قال : فسمعت تخريقَ قميصها من وراء الحجاب ، وهي تقول : لٰكني ـ والله ـ نعم قد طالت قد طالت .

وقال أبو عون الضرير : كنت قريباً من الجبَّان ، فكان يمر بي رياح القيسي بعد المغرب إذا خلت الطريق ، وكنت أسمع نشيج بكائه وهو يقول : إلىٰ كَمْ يا ليل ويا نهار تحطان من أجلي وأنا غافل عما تريدان بي ؟! إنا لله وإنا إليه راجعون ، ولا يزال كذلك حتىٰ يغيب عني .

وقال رياح القيسي : لي نيِّف وأربعون ذنباً قد استغفرت الله عز وجل لكل ذنب مئة ألف مرة ، وما ثَمَّ إلا عفوه ومغفرته سبحانه وتعالىٰ .

وقال : لا تجعل لبطنك علىٰ عقلك سبيلاً ، إنما الدنيا أيام قلائل ، فكان لا يشبع ، إنما يأكل قَدْرَ ما يمسك الرمق .

وقال عبد المؤمن الصائغ : دعوت رياحاً ذات ليلة إلىٰ منزلي ونحن بعبادان ، فجاء في السَّحَر ، فقرَّبْتُ إليه طعاماً ، فأصاب منه شيئاً ، فقلت له : ازدد ، فما أظنك شبعت ، قال : فصاح صيحة أفزعتني ، وقال : كيف أشبع في أيام الدنيا وشجرة الزقوم طعام الأثيم بين يَدَيَّ ؟! قال : فرفعت الطعام من بين يديه ، وقلت : أنت في شيء ونحن في شيء آخر .

وقال رياح القيسي : كما لا تنظر الأبصار إلىٰ شعاع الشمس . . كذلك لا تنظر قلوب محبي الدنيا إلىٰ نور الحكمة أبداً .

وقال رياح القيسي : سمعت مالك بن دينار يقول : لا يبلغ الرجل منزلة الصديقين حتىٰ يترك زوجته كأنها أرملة ، وأولاده كأنهم يتامىٰ ، ويأوي إلىٰ مزابل الكلاب .

وروىٰ رياح عن الحسن قال : كانت الدودة تقع من جسد أيوب ، فيأخذها ويعيدها إلىٰ مكانها ، ويقول : كلي من رزق الله تعالىٰ[1] .

---

(١) مما يجدر بالذكر وينبغي الإشارة إليه : أنه مما يستحيل في حق الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم الأمراض المنفرة ، والأمراض التي تعيقهم عن الدعوة إليه ، وما ورد هنا مخالف لما قرر في كتب العقيدة ، فليتنبه .

وقال أبو معمر عبد الله بن عمرو : نظرَتْ رابعة إلىٰ رياح وهو يقبِّل صغيراً من أهله ويضمه إليه ، فقالت له : أتحبه ؟ قال : نعم ، قالت : ما كنت أحسب أن في قلبك موضعاً فارغاً لمحبة غير الله سبحانه وتعالىٰ ، فصرخ رياح وسقط مغشياً عليه ، ثم أفاق وهو يمسح العرق عن وجهه ، ويقول : رحمة منه سبحانه وتعالىٰ ألقاها في قلوب العباد لمحبة الأطفال .

وقال مسعر رحمه الله : كان لرياح غِلٌّ من حديد ، فكان إذا جنه الليل . . وضعه في عنقه ، ويبكي ويتضرع حتىٰ يصبح .

وقال رياح : والله ؛ ما سمعت الحسن ذاكراً الدنيا في مجلسه قط ، وسمعته يقول : أدركت سبعين بدرياً وصليت خلفهم .

وكان رياح يأكل خبزاً وملحاً ، ويقول : نأكل الخبز والملح في هـٰذه الدار حتىٰ ندرك الشواء والعرس في الدار الأخرىٰ .

وخرج رياح غازياً ، فاستشهد ، رضي الله عنه .

أسند عن حسان ابن أبي سنان ، وغيره . انتهىٰ [« الحلية » ٦/ ١٩٢ـ١٩٦] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو بشر حوشب بن مسلم
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : عن جعفر بن سليمان قال : كنا جلوساً إلىٰ مالك بن دينار في عشية ، فجاء رجل ، فقال : رأيت في المنام كأن منادياً ينادي : يا أيها الناس ؛ الرحيل إلى الله عز وجل ، فرأيت حوشباً أول من شد رحله ، فلما سمع مالك هـٰذه الرؤيا . . استقبل القبلة ولم يزل باكياً ، ثم قال : ذهب حوشب بالدست[1] ، ذهب حوشب بالدست . أو كما قال .

وقال أبو بشر : عن الحسن قال : إن هـٰذا الحق أجهد الناس ، وحال بينهم وبين شهواتهم ، فوالله ؛ ما صبر عليه إلا من عرف فضله ، ورجا عاقبته بتوفيق الله سبحانه وتعالىٰ . أو كما قال .

وعن أبي بشر قال : سألت الحسن ، فقلت : يا أبا سعيد ؛ رجل آتاه الله مالاً يحج منه ، ويصل رحمه ، ويتصدق منه ، أَلَهُ أن يتنعم فيه ؟ فقال الحسن : لا ، لو كانت الدنيا كلها له . . ما كان له منها إلا الكفاف ، ويقدِّم فضل ذلك ليوم فقره وفاقته ، ولقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أخذ عنهم من التابعين يكرهون أن يتخذوا العُقدَ والأموال في الدنيا ؛ لئلا يركنوا إليها ، فكان ما آتاهم الله من رزق . . أخذوا منه الكفاف ، وقدموا فضل ذلك ليوم فقرهم وفاقتهم .

وقال أبو بشر : سمعت الحسن يقول : والله ؛ لقد عبدَتْ بنو إسرائيل الأصنام بعد عبادتهم الرحمـٰن جل جلاله ؛ بحبهم الدنيا .

وقال : سمعت الحسن يقول : دخل أهل النار النار ، وإن الله عز وجل لمحمود في صدورهم ، ما وجدوا على الله سبحانه وتعالىٰ من حجة ولا سبيل .

---

(١) **الدِّست** : معربة عن الفارسية ، وهي : المحل المخصص للسيد الكبير في صدر المجلس .

قال : سمعت الحسن يقول : ابن آدم ؛ إن قرأت هٰذا القرآن ثم آمنت به . . ليطولن في الدنيا حزنك ، وليشتدن في الدنيا خوفك[1] ، وليكثرن في الدنيا بكاؤك .

وعنه عن الحسن قال : مخالطة الأغنياء . . مسخطة للرزق .

وقال عبد الواحد بن زيد لحوشب رحمهما الله : يا أبا بشر ؛ إن قدمت علىٰ ربك عز وجل قَبْلَنا فقدرت علىٰ أن تخبرنا بالذي صرت إليه . . فافعل ، قال : فمات حوشب رحمه الله في الطاعون قبل عبد الواحد بزمان ، قال عبد الواحد : فرأيته في منامي ، فقلت : أبا بشر ؛ ألم تَعِدْنا أن تأتيَنا ؟ قال : بلىٰ ، إنما استرحت الآن ، فقلت : كيف حالكم ؟ فقال : نجونا بعفو الله سبحانه وتعالىٰ ، قال : قلت : فالحسن ؟ قال : ذاك في عليين ، لا نراه ولا يرانا ، قلت : فما الذي تأمرنا به ؟ قال : عليك بمجالس الذِّكر ، وحُسن الظن بمولاك سبحانه وتعالىٰ ، وكفاك بهما خيراً .

وروىٰ عن الحسن ، وغيره .

فمن أحاديثه عن الحسن : قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ستفتح مشارق الأرض ومغاربها علىٰ أمتي ، وعمالها في النار ، إلا من اتقى الله عز وجل وأدى الأمانة »[2] انتهىٰ [« الحلية » ٦/١٩٧ـ١٩٩] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) فيها إشارة إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ أي : أن الخوف في الدنيا من الله سبب للنجاة يوم القيامة والمغفرة ، والقرآن يزيد هٰذا الخوف ؛ لكثرة ما فيه من آيات الوعيد وأهوال القيامة ، وإهلاك الأمم السابقة ، ومواقف الحساب ، وما سيصير إليه الكفار والمنافقون من العذاب مما يورث من آمن به وصدق بما فيه حق الإيمان والتصديق الخوف والحزن والبكاء خشية المصير إلىٰ شيءٍ من ذلك .

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في « الزهد » (٢٧٧) .

ومنهم الإمام :

أبو مسعود سعيد بن إياس الجُرَيْريّ
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : عن سلام ابن أبي مطيع قال : أتينا الجُرَيري وكان من مشايخ أهل البصرة ، وكان قدم من الحج ، فجعل يقول : أبلانا الله سبحانه في سفرنا بكذا ، وأبلانا الله في سفرنا بكذا ، ثم قال : كان يقال : إن تعداد النعم من الشكر .

وعن الجريري قال : قلت للحسن : يا أبا سعيد ؛ الرجل يذنب ثم يتوب ، ثم يذنب ثم يتوب ، ثم يذنب ثم يتوب ، حتىٰ متىٰ ؟ قال : ما أعلم هـٰذا إلا أخلاق المؤمنين .

وقال سعيد : بلغني أن أبا الدرداء حُبس عاماً عن الغزو ، فدفع دراهم إلىٰ رجل ، وأمره أن يقسمها في الناس ، ودفع إليه صرة ، وقال له : انظر رجلاً يسير حجزة[1] من الناس في هيئَته بذاذة ، فادفع إليه هـٰذه الصرة ، وانظر ما يقول ، فمضى الرجل ، فصنع ما أمره ، ونظر ؛ فإذا هو برجل يسير حجزة من الناس وفي هيئته بذاذة ، فوضع الصرة في يده ، قال : فما نظر إليه ، ورفع بصره إلى السماء ، فقال : إلـٰهي ؛ أراك لا تنسىٰ جُريرك ، فاجعل جُريراً لا ينساك ، قال : فرجع إلىٰ أبي الدرداء ، فأخبره ، فقال : وليُّ النعمة ربُّها .

وقال الجريري : بلغني أن ملَك الموت عليه الصلاة والسلام جاء إلىٰ عبدٍ مؤمن ، فسلم عليه ، فرد عليه السلام ، ثم قال له : لي إليك حاجة ، فقال : اذكر حاجتك ، قال : إنها سِرٌّ فيما بيني وبينك ، فأدنى المؤمن رأسه إليه ، فسارَّهُ ، وقال : أنا ملَك الموت ، فقال : مرحباً بك وأهلاً ، مرحباً بمن طالت غيبته عليَّ ، فوالله ؛ ما كان في الأرض غائب أحب إلي أن ألقاه منك ، فقال له ملَك الموت : اقض حاجتك التي خرجت لها ، قال : ما لي حاجة أكبر عندي ولا أحب إليَّ من لقاء ربي عز وجل ، قال : فاختر علىٰ أي شيء أقبض روحك فيه ، قال : وتقدر علىٰ ذلك ؟ قال : نعم ، أُمرت بذلك ، قال : فدعني أتوضأ ثم أصلي

---

(١) **حِجْزَة من الناس** : أي : في ناحية منهم .

لربي عز وجل ، فإذا ركعت ثم سجدت . . فاقبض روحي علىٰ تلك الحال ، قال : نعم ، فقام ، فتوضأ ، ثم ركع وسجد ، فلما رآه ساجداً . . قبض روحه .

وعن الجُرَيري قال : بلغنا أن داوود عليه الصلاة والسلام سأل جبريل عليه الصلاة والسلام : أيُّ الليل أفضل ؟ فقال : ما أدري ، إلا أن العرش يهتز من السَّحَر .

أسند الجريري عن الجماهير من التابعين ، وأدرك من الصحابة أبا الطفيل ، وسمع منه .

وقال الجريري : حدثني أبو الطفيل رضي الله عنه وهو آخذ بيدي ، ونحن نطوف بالكعبة فقال : لا ، والله ؛ لا يحدثك اليوم رجل علىٰ وجه الأرض أنه رأىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم غيري[1] .

وعن الجريري : عن معاوية بن قرة ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لعلكم تظنون أن أنهار الجنة أخدود في الأرض ، لا ، والله ؛ إنها لسائحة علىٰ وجه الأرض ، حافتاها خيام اللؤلؤ ، وطينها المسك الأَذْفَر » ، قلت : يا رسول الله ؛ وما الأذفر ؟ قال : « الذي لا خلط معه »[2] .

وعن الجريري : عن عبد الله بن شقيق ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُحْرَسُ حتىٰ نزلت هـٰذه الآية : ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ ، فأخرج صلى الله عليه وسلم رأسه من القُبَّة ، وقال : « انصرفوا ، فقد عصمني الله عز وجل من الناس »[3] انتهىٰ [« الحلية » ٦/ ٢٠٠ـ٢٠٦] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) **أبو الطُّفيل** : عامر بن واثلة الليثي ، آخر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم موتاً ، مات سنة مئةٍ من الهجرة .

(٢) أخرجه الديلمي (٣/ ٤٥٦) ، **مسك أذفر** : أي جيد إلى الغاية .

(٣) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٤٢) .

ومنهم الإمام :

عطاء السَّلِيمي
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال بشر بن منصور : قلت لعطاء السليمي : أرأيت لو أن ناراً أوقدت فقيل : من دخل هـٰذه النار.. دخل الجنة ، ترىٰ أحداً من الناس يدخل عليها ؟ قال : إني أظن لو قيل لي ذلك.. لخرجَتْ نفسي فرحاً قبل أن أصل إليها .

وفي رواية : عن بشر بن منصور ـ أيضاً ـ قال : كنت أوقد ناراً بين يدي عطاء في غداة باردة ، فقلت : يا عطاء ؛ أَيَسُرُّكَ الساعة أنك أُمرت أن تلقي نفسك في هـٰذه النار ولا تُبعث إلى الحساب ، فقال : إي ، ورب هـٰذه الكعبة .

وكان قد أقعد من الخوف لله عز وجل .

وكان يقول في دعائه : اللهم ؛ ارحم غربتي في الدنيا ، وارحم مصرعي عند الموت ، وارحم وحدتي في قبري ، وارحم قيامي بين يديك .

ومكث عطاء السليمي أربعين سنة علىٰ فراشه لا يقوم من الحزن ، ولا يخرج ، وكان يُوَضَّأُ علىٰ فراشه ، ثم قال عليُّ بن بكار : وأي شيء أربعين سنة ؟ لقد أطاع الله عز وجل عدد شعر رأسه .

وكان لا يسأل الله عز وجل الجنة ؛ لشدة خوفه ، فإذا ذكرت عنده الجنة.. قال : نسأل الله العفو .

وكان يقول : التمسوا لي هـٰذه الأحاديث التي في الرخص ؛ عسى الله تعالىٰ أن يروِّح عني بعض ما أنا فيه من الغم .

وكان إذا فرغ من وضوئِه.. انتفض وارتعد ، وبكىٰ بكاء شديداً ، فيقال له في ذلك ، فيقول : إني أريد أن أَقْدُمَ علىٰ أمر عظيم ، أريد أن أقوم بين يدي الله عز وجل .

وقال العلاء بن محمد : دخلت علىٰ عطاء السليمي وقد غُشي عليه ، فقلت لامرأته :

ما شأن عطاء ؟ فقالت : سجرنا التنور[1] ، فنظره ، فخر مغشياً عليه .

وكان إذا بكىٰ . . يبكي ثلاثة أيام وثلاث ليالي ، وكان إذا بكىٰ . . رأيت حوله بللاً ، تظن أنه أثر وضوء ، فقالت عجوز معه في الدار : هـٰذا أثر دموعه .

وعن صالح المري قال : كان عطاء قد أضر بنفسه حتىٰ ضعف ، فقلت له : إنك قد أضررت بنفسك ، وأنا أصنع لك شيئاً ، فلا ترد عليَّ كرامتي ، قال : أَفعلُ ، قال : فاشتريت سويقاً وسمناً ، وجعلت له شريبة ، فلتَتُّها وحلَّيْتُها ، وأرسلت بها مع ابني وكوزاً من ماء ، فقلت لابني : لا تبرح حتىٰ يشربها ، قال : فرجع وقال : قد شربها ، فلما كان من الغد . . جَعلْتُ له نحوَها ، ثم سرَّحت بها مع ابني ، فرجع بها ولم يشربها ، قال : فأتيته ، فلُمْتُه ، وقلت له : سبحان الله! رددتَ عليَّ كرامتي ، إن هـٰذا مما يُعينك ويقويك على الصلاة وعلىٰ ذكر الله تعالىٰ ، فلما رآني قد وَجِدْتُ من ذلك . . قال : يا أبا بشر ؛ لا يسوؤك الله ، قد شربتها أول ما بعثت بها ، فلما كان من الغد . . زاولت نفسي علىٰ أن أسيغها ، فما قدرت علىٰ ذلك ، كلما أردت أن أشرب . . ذكرت قوله تعالىٰ : ﴿ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ ، فبكىٰ صالح عند هـٰذا ، وقال في نفسه : أنت في واد ونحن في واد آخر . أو كما قال .

وقال أبو يزيد الهدادي : انصرفت في يوم جمعة ؛ فإذا عطاء السليمي وعمر بن درهم يمشيان ، وكان عطاء قد بكىٰ حتىٰ عمش ، وكان عمر قد صلىٰ حتىٰ دَبَر[2] ، فقال عمر لعطاء : حتىٰ متىٰ نسهو ونلعب وملك الموت في طلبنا لا يكف ؟ قال : فصاح عطاء صيحة خر مغشياً عليه ، فانشجَّ مُوْضِحَةً[3] ، واجتمع الناس ، وقعد عمر عند رأسه ، فلم يفق إلى المغرب ، فحُمل .

وعن بكار بن شقير[4] قال : مررت بعطاء السليمي ، فقال : مِن أين جئت ؟ فقلت : من عند أخيك الحسن ، قال : فما قال لك ؟ قلت : قال : الدنيا مطية المؤمن إلىٰ ربه عز وجل ، عليها يرتحل المؤمن إلىٰ ربه تعالىٰ ، فأصلِحوا مطاياكم . . تبلغكم إلىٰ ربكم عز وجل ، قال : فخر عطاء مغشياً عليه .

---

(١) سَجَرْنا التنور : أحميناه .

(٢) دَبَر الرجل : ولَّىٰ وشيَّخَ .

(٣) أي : الشجة التي تبدي وَضَحَ العظم .

(٤) في « الحلية » : (عن الصلت بن حكيم عن بكار عن سعير) والله أعلم بالصواب .

وقال العلاء بن محمد البصري : شهدت عطاء السليمي وقد خرج في جنازة ، فغشي عليه أربع مرات ، حتىٰ صلىٰ عليها ، كل ذلك يغشىٰ عليه ، ثم يفيق ، فإذا نظر إلى الجبان . . خر مغشياً عليه .

قال أبو عبيدة : انقطع عطاء قبل موته بثلاثين سنة .

قال : وما رأيت عطاءً . . إلا وعيناه تفيضان ، وما كنت أشبِّه عطاء إذا رأيته إلا بالمرأة الثكلىٰ ، قال : وكأن عطاء لم يكن من أهل الدنيا .

وعن بشر بن منصور قال : كنت أسمع عطاء كل عشية بعد العصر يقول : غداً عطاءٌ في القبر .

وعن حماد بن زيد قال : كان عطاء لا يتكلم ، فإذا تكلم . . قال : غداً عطاءٌ في القبر ، ولم يرفع رأسه إلى السماء ، ولم يضحك أربعين سنة ، ورفع رأسه مرة ففزع ، فسقط ، ففتق فتقاً في بطنه .

وعن العلاء بن محمد قال : رأيت عطاء السليمي كالشن[1] البالي .

وكنت إذا رأيت عطاء . . كأنه ليس من أهل الدنيا .

ودخلت عليه مرة ، فقالت لي امرأته : أمَا ترىٰ عطاء يبكي الليل والنهار لا يفيق ؟

وكان عطاء إذا هبت ريح وبرق ورعد . . يقول : هـٰذا من أجلي يصيبكم ، لو مات عطاء . . استراح الناس .

قال : وكنا ندخل إليه ، فنقول : زاد سعر الطعام ، فيقول : هـٰذا من أجلي غلا الطعامُ ، لو مت أنا . . لاستراح الناس .

وقال عطاء لمالك بن دينار : يا أبا يحيىٰ ؛ شوِّقْنا ، فقال : إن في الجنة حوراء يتباهىٰ أهل الجنة من حسنها ، لولا أن الله تعالىٰ كتب علىٰ أهل الجنة ألاَّ يموتوا . . لماتوا عن آخرهم من حسنها ، قال : فلم يزل عطاء كمداً من قول مالك .

وكان عطاء يقول : مات حبيب ، مات مالك ، مات فلان ، ليتني مِتُّ فكان أهون لعذابي .

ودخل يوماً في الماء وكان صائماً في حر شديد ، فسكن عنه العطش ، فقال : يا نفس ؛

---

(١) الشَّنُّ : القِربة الخَلَق الصغيرة .

إنما طلبت لك الراحة ، لا دخلتِ بعد هـٰذا اليوم الماء أبداً إن شاء الله تعالىٰ .

وكان يمس جسده بالليل خوفاً من ذنوبه ؛ مخافة أن يكون قد مسخ ، فكان إذا انتبه . . يقول : يا ويحك يا عطاء ، ويحك يا عطاء!

وقال بشر بن منصور رحمه الله : كان عطاء يرىٰ أو يقول إنه شر من أَبِي مُسْلم[1] بستين مرة .

وعن معتمر بن سليمان قال : قلت لجار عطاء : مَن كان يستقي لعطاء وضوءه ؟ قال : كان في داره مخنَّثون ، وكانوا يستقون له ، فقلت : أما كان يقذرهم ؟ قال : كانوا عنده خيراً من نفسه بكثير .

وقال عبد الخالق : قال رجل لعطاء يوماً : ما هـٰذا الذي تصنع بنفسك ؟ أقتلت نفساً ؟ أو أي شيء صنعت ؟ قال : إني اصطدت حمَاماً لجار لي منذ أربعين سنة ، قال : ثم قال : إني قد تصدقت بثمنه ؛ كأنه لم يعرف صاحبه .

وقال مُرجَّى بن وداع : قال عطاء : كنت أشتهي الموت وأتمناه ، فأتاني آت في منامي ، فقال : يا عطاء ؛ أتتمنى الموت ؟ فقلت : أنىٰ لي ذلك ، قال : فقطَّب في وجهي ، ثم قال : لو عرفت شدة الموت وكَرْبَهُ حتىٰ يخالط قلبك معرفته . . لطار نومك أيام حياتك ، ولذهل عقلك ، حتىٰ تمشي في الناس والهاً ، فكان عطاء يقول بعد ذلك : طوبىٰ لمن استغنم حياته ، فكان طول عمره في طاعة الله عز وجل ، ووالله ؛ ما أرىٰ عطاء كذلك ، ثم بكىٰ .

وقال مخلد : ما رأيت أحداً كان أفضل من عطاء ، ولقد كانت الفاكهة تمر بما فيها لا يعرف بسعرها ولا بمجيئها .

وقال صالح المُري : قال لي عطاء : يا أبا بشر ؛ أشتهي الموت ولا أراني أرىٰ لي فيه راحة ، غير أني قد علمت أن الميت قد حيل بينه وبين الأعمال ، فاستراح من أعمال المعاصي ، فتخف حملته ، والحي كل يوم هو من نفسه علىٰ وَجَلٍ ، وآخر ذلك الموت .

وقال صالح المري : قلت لعطاء : ما تشتهي ؟ فبكىٰ ، فقال : أشتهي والله يا أبا بشر أن

---

(١) واسمه عبد الرحمٰن الخراساني الأمير ، صاحب الدعوة ، وهازم الجيوش الأموية ، والقائم بإنشاء الدولة العباسية توفي سنة (١٣٧ هـ) .

أكون رماداً لا يجتمع منه سفة أبداً ، لا في الدنيا ولا في الآخرة ، قال صالح : فأبكاني والله ، وعلمت أنه إنما أراد النجاة من عسر يوم الحساب .

وقال عبد الواحد بن زيد : دخلنا علىٰ عطاء وهو في الموت ، فنظر إلي أتنفَّسُ ، فقال : ما لك ؟ قلت : من أجلك ، قال : والله ؛ لوددت أن نفسي بقيت بين لهاتي وحنجرتي تتردد إلىٰ يوم القيامة ، مخافة أن تخرج إلى النار .

وكان إذا قيل له ادع لنا . . قال : اللهم ؛ لا تَمْقُتنا ، فإن كنت مَقَتَّنَا . . فاغفر لنا .

وقال عطاء : مرَّ رجل بمجلس ، فأثنوا عليه خيراً ، فلما جاوزهم . . قام ، وقال : اللهم ؛ إن كان هـٰؤلاء لا يعرفونني . . فأنت تعرفني .

وقال حماد بن زيد : قلت لعطاء السَّليمي : أعندك عن أنس شيء ؟ فقال : اذهب إلىٰ فلان ، اذهب إلىٰ فلان ، قال : وأرشدني إلىٰ شيخ ، وأبىٰ أن يعترف إليَّ بشيء يرويه عن أنس .

أدرك عطاء السليمي أنس بن مالك ، ولم يسند عنه شيئاً ، ولقي جماعة من التابعين ، منهم : الحسن البصري ، رضوان الله عليهم أجمعين . انتهىٰ [« الحلية » ٦/ ٢١٥ـ٢٢٥] .

قال في « لوامع أنوار القلوب » : روي عن الأصمعي قال : اعتل عطاء السليمي رحمه الله ، فدخل عليه طبيب ، فاتصل ذلك بسعدون[1] ، فأتاه ، فقال : يا عطاء ؛ هل رأيت حبيباً يكره لقاء حبيبه ، يدخل عليك طبيب ؟! فقال له عطاء : إنما أُدخِل عليَّ علىٰ كُرْهٍ مني ، فقال له سعدون : أمَا أصف لك شربة إن استعملتها . . برئت في الدنيا والآخرة إن شاء الله عز وجل ؟ فقال عطاء : صف ، قال سعدون : خذ بزرة الفقر ، وأصل الصبر ، واهليلَج[2] الخلوة ، وبلبلج الكتمان ، وغار معول الفكر ، وأبارح الأحزان ، وامزجه بماء الأسف والندم ، واغلِهِ في طنجير القلق ، وأوقد تحته نار الشوق ، واشربها على الريق . . تبرأ بُرْءَ الدنيا والآخرة إن شاء الله عز وجل ، وتمتلىء جوارحك من محبة الله سبحانه وتعالىٰ ، فلا تُؤْثِرُ علىٰ لقائه شيئاً ، ثم انصرف .

وقال عطاء السليمي لعمر بن ذر رحمهما الله تعالىٰ : أوصني ، فقال : يا أبا محمد ؛

---

(١) هو من عقلاء المجانين ، وسيأتي بعض أخباره في تراجم العباد المجهولين آخر هـٰذا الكتاب .

(٢) **الإهليلَج** : اسم دواء ، وهو معرَّب .

الدنيا بلاء في بلاء ، مع هوى النفس ومقارنة الشيطان ، والآخرة نعيم في نعيم ، لٰكن بعد الموقف والحساب ، فيا لها من نفس مضمحلة فيما بينهما ، يا أبا محمد ؛ فحتىٰ متىٰ نسهو ونلعب وملَك الموت عليه الصلاة والسلام في طلبنا لا يغفل ، والملائكة عليهم الصلاة والسلام يكتبون أنفاسنا ؟ قال : فخر عطاء مغشياً عليه ، رضي الله عنهما .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

عُتبة بن أَبان الغلام
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : سأل رجلٌ رياحاً القيسي ، فقال له : يا أبا المهاجر ؛ لأي شيء سمي عتبةُ : الغلامَ ؟ فقال : ما كان نصفاً من الرجال ، ولـٰكنا كنا نسميه الغلام ؛ لأنه كان في العبادة كأنه غلام رِهان .

وقال عبيد الله بن محمد : هو عتبة بن أبان بن صَمْعَة ، مات قبل أبيه رحمه الله .

وعن شعيب بن محرز قال : حدثنا حسين قال : قال لي عبد الواحد بن زيد : بمن تشبِّه حزن هـٰذا الغلام ؟ يعني : عتبة ، قلت : بحُزن الحسن ، قال : والله ؛ ما أبعدْتَ .

وقال رياح القيسي : بات عندي عتبة ، فسمعته يقول في سجوده : اللهم ، احشر عتبة من حواصل الطير وبطون السباع .

وقال مخلد بن الحسين : خرجت أنا وعتبة الغلام ويحيى الواسطي ورياح القيسي ، فنزلنا المَصِّيْصة[1] في الحصن ، فرأيت ليلة في المنام كأن ملكاً نزل من السماء ، ومعه ثلاثة أكفان من أكفان الجنة ، فألبس عتبة كفناً ، ويحيىٰ كفناً ، ورجلاً آخر كفناً ، قال : فلما أصبحت . . دعوتهم لأحدثهم بالرؤيا ، فقال لي عتبة : يا أبا محمد ؛ لا تذكر الرؤيا ، قال : فمكثت أشهراً ، فإني لنائم علىٰ سريري ليلة ؛ فإذا إنسان يحركني ، فرفعت رأسي ؛ فإذا عتبة ، فقلت : ما حاجتك ؟ فقال : اجلس قص عليَّ الرؤيا ، قال : فجلست ، فحدثته ، فرفع يده ، وقال شيئاً لا أدري ما هو ، ثم قام ، ووضعت رأسي ، فلما انتبهت . . إذا صاحب التنور قد نور ، قال : فأسرجت دابتي ، وخرجت ؛ فإذا بعتبة جالس على الباب بيده عنان فرسه .

وكان لما ورد إلىٰ حلب . . قال : اشتروا لي فرساً يغيظ المشركين ، فاشتروا له فرساً ،

---

(١) المصِّيصة : ثغر من ثغور بلاد الشام ، بين أنطاكية وبلاد الروم تقارب طرطوس .

فركبه ومضينا معه ، حتى انتهينا إلىٰ أذنة[1] ؛ فإذا آثار عدو ، فقال لي الوالي : مَن يجيئنا بخبر هـٰؤلاء ؟ فقال عتبة : أنا ، فخرج في أناس من أصحابه يتبع الأثر ، فخرج عليهم العدو ، فقتلوا جميعاً ، إلا رجلاً أفلت رجع إلينا ، قال : ومضينا ، فأول ما رأيت بياض جسد عتبة رحمه الله ، وقد قتل وسلب ، وفي صدره ست طعنات أو سبع ، وإذا يده علىٰ فَرْجِه ، قال : فدفنته .

قال مخلد : وكنت أعرف شاباً قتل في معركة المشركين ، فرأيته في منامي بعد سنة ، فقلت له : ما صنع الله بك ؟ قال : ألحقني بالشهداء المرزوقين ، قلت : فأخبرني عن عتبة وأصحابه ، ألك بهم علم ؟ قال : نعم ، قتلىٰ قرية الحُباب ؟ قال : قلت : نعم ، قال : إنهم معروفون في ملكوت السماوات .

وفي رواية أخرىٰ : عن مخلد بن الحسين ـ أيضاً ـ قال : جاء عتبة الغلام ، فقلت له : ما حاجتك ؟ قال : جئت أغزو ، قال : قلت : أمثلك يغزو ؟ قال : إني رأيت في المنام أن آتيَ المصيصة وأغزوَ فأُستَشْهَد ، فنودي يوماً في الخيل ، فنفر الناس ، وجاء عتبة راجعاً من حاجته ، فلما دخل من باب الجهاد . استقبله رجل ، فقال : هل لك في فرسي وسلاحي ؛ فإني قد اعتللت ؟ قال : نعم ، فنزل الرجل عن فرسه ، ودفعه إليه ، قال : فمضىٰ عتبة مع القوم ، فلَقُوا الروم ، فكان أولَ رجل استشهد رحمه الله .

وقال عبد الواحد بن زيد : رأيت عتبة في يوم شديد البرد وهو يرفَضُّ عرقاً ، فقلت له : كيف هـٰذا ؟ في مثل هـٰذا اليوم تَعْرَقُ ؟! قال : خير ، فأقسمت عليه لَتُخبِرَنِّي ، فقال : إني ذكرت ذنباً أصبته في هـٰذا المكان ، فهـٰذا الذي رأيت من أجل ذلك .

وكان عتبة يعجن دقيقه ويجففه في الشمس ، ثم يأكله ، ويقول : كسرة وملح حتىٰ يتهيأ في الدار الآخرة الشواء والطعام الطيب .

وفي رواية أخرىٰ : إذا قيل له في ذلك ، يقول : يا فلان ؛ قد سددت عني كلب الجوع .

وكان يصوم الدهر ، وقد قوَّت نفسه علىٰ ستين فلقة ، يتعشىٰ كل ليلة فلقة ، ويتسحر بأخرىٰ .

وقال أبو عمر البصري : كان رأس مال عتبة فلساً ، يشتري بالفلس خوصاً ويَسَفُّهُ[2] ،

---

(١) أَذَنَة : بلد قرب المصيصة ، وهو ثغر من الثغور ، خرج منها جماعة من أهل العلم .

(٢) يَسَفُّهُ : ينسجه .

فإذا عمله . . باعه بثلاثة أفلس ، ففلس يتصدق به ، وفلس يتخذه رأس ماله ، وفلس يشتري به شيئاً يفطر عليه .

وقال أبو يوسف : أظن أن الدانق كان يومئذ ثلاثةَ أفلس كباراً .

وعن محمد بن مستور ـ وكان رجلاً عابداً ـ قال : جاءنا عتبة ، فلما أمسينا . . قلت لأصحابه : اشتروا لحماً واطبخوه سكباجاً[1] حتىٰ يتعشىٰ به عتبة ، قال : فلما صلى العشاء . . فقدناه ، قلت : اطلبوه ، فطُلب ، فوُجد في بيت قد أخذ سويق دقيق كان معه ، فجعله في خرقة ، فصب عليه ماء ، وهو يأكل منه وعيناه تذرفان ، فقلت له : سبحان الله! إخوانك قد عملوا لك شيئاً ، قال : هـٰذا يكفيني .

وقال أبو عبد الله اليربوعي : نازعَتْ عتبةَ الغلامَ نفسُهُ لحماً ، فقال لها : اندفعي عني إلىٰ قابل ، فما زال يدافعها سبع سنين ، حتىٰ إذا كان في السابعة . . أخذ دانقاً ونصفاً ، فأتىٰ به صديقاً له من أصحاب عبد الواحد بن زيد خبازاً ، فقال : يا أخي ؛ نفسي تنازعني لحماً منذ سبع سنين ، وقد استحييت منها كم أعدها وأخلفها ، فخذ لي رغيفين وقطعة من لحم بهـٰذا الدانق والنصف ، فلما أتاه به ؛ إذا هو بصبي ، فقال : يا فلان ؛ ألست ابن فلان ، وقد مات أبوك ؟ قال : بلىٰ ، قال : فجعل عتبة يبكي ويمسح رأس اليتيم ، وقال : قرة عيني من الدنيا أن تصير شهوتي من الدنيا في بطن هـٰذا اليتيم ، فناوله ما كان معه ، ثم قرأ : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ .

وخرج عتبة إلىٰ صديق له بواسط ، قال : فتزود كُسَيباً[2] بدرهم ، فكان زادَه من البصرة إلىٰ واسط .

وصنع عبد الواحد بن زيد طعاماً وجمع عليه نفراً من إخوانه ، وكان فيهم عتبة ، قال : فأكل القوم غير عتبة ، فإنه كان قائماً علىٰ رؤوسهم يخدمهم ، قال : فالتفت بعضهم إلىٰ عتبة ، فنظر إلىٰ عينيه والدموع تنحدر منها ، فسكت ، وأقبل على الطعام ، فلما فرغ القوم من طعامهم . . تفرقوا ، وأخبر الرجلُ عبدَ الواحد بنَ زيد بما رأىٰ من عتبة ، فقال له عبد الواحد : بأبي لم بكيت والقوم يطعمون ؟ قال : ذكرت موائد أهل الجنة والخدم قيام علىٰ رؤوسهم ، فشهق عبد الواحد شهقة خرَّ مغشياً عليه .

---

(١) **السِّكْباج** : طعام يُعمل من اللحم والخل مع التوابل ، معرَّب .
(٢) **الكُسَيب** : مصغر كُسْب وزان قُفْل ، عصارة الدُّهن .

وحدثني حصين بن القاسم ، قال : ما رأيت عبد الواحد بعد ذلك دعا إنساناً إلىٰ منزله قط ، ولا أكل طعاماً إلا دون شبعه ، ولا افترَّ ضاحكاً حتىٰ مضىٰ لوجهه ، وأما عتبة . . فإنه جعل لله عز وجل علىٰ نفسه ألاَّ يأكل إلا أقل من شبعه ، ولا يشرب إلا أقل من رِيِّه ، ولا ينام من الليل والنهار إلا يسيراً مغلوباً ، فكنتَ إذا رأيتَه . . رأيته شبه الواله ، فما ظنك برجل لا ينام إلا مغلوباً ؟!

قال : وكان يلبس الشعر تحت ثيابه ، فإذا كان يوم الجمعة . . ألقاه عنه ، ولبس من صالح ثيابه .

وقال إبراهيم بن عبد الرحمٰن بن مهدي : سألت يوسف بن عطية ، فقلت له : ما كان لباس عتبة ؟ قال : كان يلبس كساءين أغبرين ، يتزر بواحد ، ويرتدي بالآخر ، إذا رأيتَه . . قلتَ : بعض الأَكَرَة[1] ، قال إبراهيم : وكان عتبة عربياً شريفاً من عَوْد .

وقال عتبة لبعض أصحابه : يا فلان ، كدت ألاَّ تراني ، كدت ألاَّ تراني ، قلت : ولِمَ ذاك ؟ قال : كادت الأرض تأخذني ، قلت : فأي شيء صنعت ؟ قال : رأيت أخاً لي ، فقال لي : يا عتبة ؛ أنت في كساءين وأنا في هٰذا ، فلولا أني أعطيته ـ أظنه قال : أحدهما ـ ظننت أن الأرض تأخذني .

وقال رياح القيسي : قال لي عتبة : يا رياح ؛ إن كنتُ كلما دعتني نفسي إلى الكلام تكلمت . . فبئس الناظر أنا لها ، يا رياح . . إن لها موقفاً تَغتبط فيه بطول الصمت عن الفضول .

وقال أحمد بن زهير المروزي : ركب عتبة في زورق مع قوم ، قال : فأراد الملاح أن يعدل ببعضهم السفينة ، قال : فلم يجد أحداً أحقر في عينه من عتبة ، قال : فضرب جنبه ، وقال : استوِ ، فقال عتبة : الحمد لله الذي لم ير فيهم أحقر مني .

وقال سليمان بن علي لبعض أصحابه : أرِني عتبة الذي قد افتتن به أهل البصرة ، قال : فخرج به في الجيش حتىٰ أتىٰ به الجبَّان ، فوقف به علىٰ عتبة ، وعتبة لا يعلم ، منكِّسٌ رأسَهُ ، بيده عود ينكت به الأرض ، فوقف عليه ، وسلم ، فرفع رأسه ، ونظر إليه ، وقال : وعليكم السلام ورحمة الله ، قال : كيف أنت يا عتبة ؟ قال : بحال بين حالين ، قال : ما هُما ؟ قال : قدوم على الله عز وجل بخير ، أم بشر ، ثم نكَّسَ رأسَهُ ، وجعل ينكت

---

(١) الأَكَرَة جمع أكَّار ، وهو الحراث .

الأرض ، فقال سليمان : أرىٰ عتبة قد أحرز نفسه ، فلا يبالي فيما أصبحنا فيه وأمسينا ، ثم قال : يا عتبة ؛ قد أمرتُ لك بألفي درهم ، قال : أَقبلُها منك أيها الأمير علىٰ أن تقضي لي معها حاجة ، قال : نعم ـ وسُرَّ سليمان بذلك ـ فقال : وما حاجتك ؟ قال : تعفيني منها ، قال : قد فعلت ، ثم ولىٰ عنه منصرفاً وهو يبكي ، ويقول : قصَّر إلينا عتبة ما نحن فيه .

وقال رجل لعبد الواحد بن زيد : أتعلم أحداً يمشي في الطريق مشغولاً بنفسه ، لا يعرف أحداً ممن يراه من اشتغاله بنفسه ؟ قال : ما أعرف إلا رجلاً واحداً ، الساعة يدخل عليكم ، فبينا هو كذلك ؛ إذ دخل عتبة ـ وطريقه على السوق ـ فقال له عبد الواحد : يا عتبة ؛ من رأيت ؟ ومَن تلقاك في الطريق ؟ قال : ما رأيت أحداً .

وقال عبد الواحد : كان عتبة يجيء يوم الجمعة ، وقد أخذ الناسُ الظل ، فيقوم على الحصا ، ويسجد السجدة الطويلة ، قال عبد الواحد : ما أراه يعقل بِحَرِّهِ .

وقال رياح القيسي : قال لي عتبة : لولا ما قد نهينا عنه من تمني الموت . . لتمنيته ، قلت : ولِمَ تتمنى الموت ؟ قال : فيه خلتان حسنتان ، قلت : وما هُما ؟ قال : الراحة من معاشرة الفجار ، ورجاء لمجاورة الأبرار ، قال : ثم بكىٰ ، وقال : أستغفر الله ، وما يؤمنني أن يُقرَن بيني وبين الشيطان في سلسلة من حديد ، ثم يقذف بي في النار ، ثم غشي عليه .

وعن جعفر بن محمد قال : كان عتبة يقطع الليل بثلاث صيحات ، يصلي العتمة ، ثم يضع رأسه بين ركبتيه يفكر ، فإذا مضىٰ من الليل ثلثه . . صاح صيحة ، ثم يضع رأسه بين ركبتيه يفكر ، فإذا مضىٰ ثلثا الليل . . صاح صيحة ، ثم يضع رأسه بين ركبتيه يفكر ، فإذا كان السَّحَر . . صاح صيحة ، قال أحمد ابن أبي الحواري : فحدَّثْتُ به عبد العزيز ، فقال لي : حدثْتُ به بعض البصريين ، فقال : لا تنظر إلىٰ صيحته ولٰكن انظر إلى الأمر الذي كان منه بين الصيحتين .

وقال سليم النحيف : رمقت عتبة ذات ليلة ، فما زاد ليلته تلك حتىٰ أصبح علىٰ هٰذه الكلمات : إن تعذبني . . فإني لك محب ، وإن ترحمني . . فإني لك محب ، قال : فلم يزل يرددها ويبكي حتىٰ طلع الفجر .

وعن عنبسة الخواص قال : كان عتبة يزورني ، فربما بات عندي ، فبات ليلة ، فبكىٰ من السَّحَر بكاء شديداً ، فلما أصبح . . قلت له : قد فزَّعْتَ قلبي الليلة ببكائك ، ففيمَ ذاك

يا أخي ؟ قال : يا عنبسة ؛ ذكرت ـ والله ـ يوم العرض على الله عز وجل ، ثم مال ليسقط ، فاحتضنته ، وجعلت أنظر إلىٰ عينيه تتقلبان ، قد اشتدت حمرتهما ، وجعل يخور ، فناديته : عتبة ، عتبة ، فأجابني بصوت خفي : ذِكْرُ يوم العرض على الله عز وجل قطع أوصال المحبين ، ثم جعل يبكي بكاء شديداً ، ويقول : تراك يا مولاي تعذب محبيك ، وأنت الحي الكريم ؟! فلم يزل يرددها حتىٰ ـ والله ـ أبكاني .

وفي رواية أخرىٰ : عن عتبة قال : ربما جاءني ممسياً ، فيقول لي : أخرج إليَّ شربة من ماء أو تمرات أُفطِر عليهن ، فيكون لك مثل أجري .

وقال عتبة : من سكن حبُّ الله عز وجل قلَبه . . لم يجد حراً ولا برداً .

وقال : مَن عرف الله سبحانه وتعالىٰ . . أحبه ، ومَن أحبه . . أطاعه ، ومَن أطاع الله تعالىٰ . . أكرمه ، ومَن أكرمه . . أسكنه في جواره ، ومَن أسكنه في جواره . . فطوباه وطوباه أربعاً ، ولم يزل يقول : طوباه حتىٰ خر مغشياً عليه .

وقال عبد الواحد بن زيد : ربما سهرت مفكراً في طول حزنه ـ يعني عتبةَ ـ ولقد كلمته ليرفق بنفسه ، فبكىٰ وقال : إنما أبكي علىٰ تقصيري .

وقال إسماعيل القاري : سمعتهم يذكرون بعَبادان أنه قيل لعتبة في مرضة مرضها : ألا تتداوىٰ ؟ فقال عتبة : دائي هو دوائي .

قال : وسمعتهم أيضاً يذكرون عن عتبة أنه قال : كيف يصلح إنسان يسره ما يضره ؟! يعني : أن الدنيا تَسر قليلاً وتُحزن طويلاً ، فهي تسر وتضر .

وكان جار لعتبة ، فقال ليلة : سبحان الله جبار السماء ، إن المحب لفي عناء ، فسمعه عتبة ، فقال : صدقت والله ، ثم غشي عليه .

ودعا عتبة ربه عز وجل أن يمن عليه بصوت حزين ، ودمع غزير ، وغذاء من غير تكلف ، قال : فكان إذا قرأ . . بكىٰ وأبكىٰ ، وكانت دموعه جارية دهره ، وإذا أوىٰ إلىٰ منزله . . يصيب قوْتَهُ ولا يدري من أين يأتيه .

وقيل لمخلد بن الحسين : قد صحبت إبراهيم بن أدهم وعتبة الغلام ، فأيهما كان أفضل : عتبة ، أم إبراهيم ؟ فقال : ما رأت عيناي رجلاً كان أفضل من عتبة .

وقال مسلم بن إبراهيم : رأيت عتبة ، وكان يقال : إن الطير تجيبه ، وبلغني عن بعض

أصحابنا أنه قال : دعا عتبة هـٰذا الطيرَ الأقمر ، فقال : تعال وأنت آمن ، فجاء حتىٰ وقع في يده ، ثم خلَّىٰ سبيله ، وقال لصاحبه الذي رآه : لا تحدث بهـٰذا أحداً .

وقال مهدي بن ميمون : خرجت في بعض الليل إلى الجبَّان ؛ فإذا عتبة ، فقال لي : قد دعوت الله تعالىٰ أن يجيء بك ، قال : فقلت : ادع الله أن يطعمنا رطباً ، قال : فدعا الله سبحانه وتعالىٰ ؛ فإذا دوخلة[1] رطب بين يديه ، فأكلنا منه .

وقال عبد الخالق العبدي : كان لعتبة بيت يتعبد فيه ، فلما خرج إلى الشام . . أقفله ، وقال : لا تفتحوه إلىٰ أن يبلغكم موتي ، فلما بلغهم موته . . فتحوه ، فوجدوا فيه قبراً محفوراً ، وغِلاً من حديد .

وسئل يوسف بن عطية ، هل كان عطاء السَّلِيْمِي يَقبَلُ من أحد هدية ؟ قال : نعم ؛ هدية عتبة ، قيل : فأي شيء كان يهدي له ؟ قال : هـٰذه الجرار التي فيها الزيتون والكامَخ[2] يجيء بها تحت كسائه .

وكان قدامة بن أيوب العتكي من أصحاب عتبة ، قال : فرأيت عتبة في المنام ، فقلت : يا أبا عبد الله ؛ ما صنع الله بك ؟ قال : يا قدامة ؛ دخلت الجنة بتلك الدعوات المكتوبة في بيتك ، قال : فلما أصبحت . . جئت إلىٰ بيتي ؛ فإذا خط عتبة في حائط البيت مكتوب : اللهم ، يا هادي المضلين ، وراحم المذنبين ، ومقيل عثرات العاثرين ؛ ارحم عبدك ذا الخطر العظيم ، والمسلمين كلهم أجمعين ، واجعلنا من الأحياء المرزوقين ، مع الذين أنعمت عليهم من النبيين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين ، آمين يا رب العالمين . انتهىٰ [« الحلية » ٦/٢٢٦ـ٢٣٨] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : إنما سمي عتبة الغلام ؛ لجِدِّه واجتهاده في العبادة ، لا لصغر سنه ، وكان يفتل الشريط[3] .

وقال سوار أبو عبيدة : بكىٰ عتبة في مجلس عبد الواحد بن زيد تسع سنين ، لا يفتر من البكاء ، من حين يبدأ عبد الواحد الموعظة إلىٰ أن يقوم ، لا يكاد يفتر عنه ، فقيل

---

(١) **الدوخلَّة** : ما ينسج من الخوص ، ويجعل فيه الرطب .
(٢) **الكامَخ** : نوع من الإدام .
(٣) **الشريط** : الحبل المفتول .

لعبد الواحد : إنا لا نفهم كلامك من بكاء عتبة ، فقال : فما أصنع أنا ؟ ما أعمل ؟ أيبكي عتبة علىٰ نفسه وأنهاه أنا ؟ لبئس واعظ القوم أنا .

وقال عتبة : كابدت الصلاة عشرين سنة ، وتنعمت بها عشرين سنة .

اشتغل عتبة بالعبادة عن الرواية ، وقد ذكرنا أنه قتل شهيداً في بعض الغزوات ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/٢١٩ـ٢٢٢] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام أمير المؤمنين في الحديث :

أبو عبد الله سفيان بن سعيد الثوري
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : عن عبيد الله بن سعيد قال : سمعت عبد الرحمٰن بن مهدي يقول : أدركت من الأئمة أربعة : مالك بن أنس ، وحماد بن زيد ، وسفيان بن سعيد ، وذكر الرابع ونسيته ، إن لم يكن ابن المبارك . . فلا أدري .

وقال يعقوب بن إسحاق الحضرمي : قال : سمعت شعبة يقول : سفيان الثوري أمير المؤمنين في الحديث .

قال أبو أسامة : كنت بالبصرة حين مات سفيان الثوري ، فلقيت يزيد بن إبراهيم صبيحة الليلة التي مات فيها سفيان ، فقال : قيل لي الليلة في منامي : مات أمير المؤمنين ، فقلت للذي يقول في المنام : مات سفيان الثوري ؟ فقال : قد مات الليلة ، وكان قد مات تلك الليلة .

وقال سفيان بن عيينة : أئمة الناس ثلاثة : ابن عباس في زمانه ، والشعبي في زمانه ، والثوري في زمانه .

وعن المثنى بن صباح وذكر سفيانَ الثوري فقال : عالم الأمة وعابدها .

وقال محمد بن عبيد الطنافسي : لا أذكر سفيان الثوري إلا وهو يفتي منذ ستين سنة ، ونحن في الكُتَّاب تمر بنا المرأة والرجل ، فيسترشدونا إلىٰ سفيان ليستفتوه فيفتيهم .

وقال بشر بن الحارث : كان سفيان الثوري رحمه الله إمام الناس .

وعن مبارك بن سعيد قال : رأيت عاصم ابن أبي النجود يجيء إلىٰ سفيان يستفتيه ، ويقول : أتيتنا يا سفيان صغيراً ، وأتيناك كبيراً .

وعن سهل قال : سمعت يوسف بن أسباط رحمه الله يقول : إني لأرىٰ أهل زمان سفيان سيُعاتَبون بسفيان ، فيقال : ألم يكن فيكم مِثل سفيان ؟!

وقال الحسن بن شقيق : سمعت عبد الله بن المبارك يقول : ما أعلم على الأرض أعلم من سفيان .

وقال الأوزاعي : لو قيل لي : اختر للأمة رجلاً يقوم بكتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم . . لاخترت لهم الثوري .

وقيل لابن المبارك : أرأيت مثل سفيان الثوري ؟ فقال : وهل رأى الثوري مثل نفسه ؟

وقال أبو بكر بن عياش : إني لأرى الرجل يحدث عن سفيان فينبل في عيني .

وعن عبد الرحمٰن بن مهدي ، عن يحيى القطان قال : قال لي ابن المبارك : إذا لقيت سفيان . . فلا تسأله عن شيء إلا عن رأيه .

وقال ابن المبارك : تعجبني مجالس سفيان ، كنت إذا شئت . . رأيته في الورع ، وإذا شئت . . رأيته مصلياً ، وإذا شئت . . رأيته غائصاً في الفقه .

وقال مؤَمِّل : ما رأيت عالماً يعمل بعلمه إلا سفيان .

وعن أيوب بن سويد قال : ما سألنا سفيان الثوري عن شيء . . إلا وجدْنا عنده أثراً ماضياً ، أو أثراً من عالم قبله .

وعن عبد الرزاق قال : كنت جالساً عند الكعبة مع أبي حنيفة ، فجاء رجل ، فقال : يا أبا حنيفة ؛ ألا أعجبك من الثوري ؟! رأيته يلبي على الصفا ، قال : اذهب ويحك فالزمه ؛ فإنه لا يلبي على الصفا إلا بعلم ؟!

وقال عبد الرزاق : فتعجب منه ، فقلت : ألم تسمع حديث مسروق عن عبد الله أنه لبىٰ على الصفا[1] ؟

وقال أبو أسامة : سفيان الثوري حجة .

وقال أحمد بن يونس : ما رأيت أحداً أعلم من سفيان ، ولا أورع من سفيان ، ولا أفقه من سفيان ، ولا أزهد من سفيان .

وقال يحيى بن سعيد : ما كتبت عن سفيان عن الأعمش . . أحب إلي مما سمعت من الأعمش .

---

(١) أخرج الشافعي في « المسند » (١/ ٣٩٠) عن عبد الله بن مسعود : أنه لبىٰ على الصفا في عمرة بعد ما طاف بالبيت ، والله أعلم .

وقال أبو أسامة : من أخبرك أنه نظر بعينيه إلىٰ مثل سفيان الثوري . . فلا تصدقه .

وعن عبد الرحمـٰن بن مهدي قال : ما رأيت أعقل من مالك ، ولا رأيت أعلم من سفيان .

وعن سهل بن عاصم قال : سمعت ثابتاً أو إسماعيل الزاهد يقول ، وذكر سفيان الثوري فقال : رحم الله أبا عبد الله ، يا زين الفقهاء ، يا سيد العلماء ، يا قرير العيون ؛ تبكي العيون لفقده علىٰ واصل الأرحام ، ثم قال : أصيب المسلمون بعمر بن الخطاب رضي الله عنه في زمانه ، وأصبنا بأبي عبد الله في زماننا .

وعن سهل بن عاصم ، عن عبد الكبير بن معافى بن عمران ، سمعت أبي يقول : لقد مَنَّ الله علىٰ أهل الإسلام بسفيان الثوري .

وقال يحيى بن سعيد وسئل عن سفيان وشعبة فقال : ليس الأمر بالمحاباة ؛ إذ لو كان الأمر بالمحاباة . . لقدَّمْنا شعبة علىٰ سفيان ، سفيان يرجع إلىٰ كتاب ، وشعبة لا يرجع إلىٰ كتاب ، وسفيان أحفظهما ، قد رأيناهما يختلفان ، فوجدنا الأمر علىٰ ما قال سفيان .

وكان يحيى بن سعيد لا يعدل بسفيان الثوري أحداً .

وعن الهيثم بن جميل قال : سمعت شريكاً يقول : إن الله لا يدع الأرض من حُجة تكون لله علىٰ عباده ، يقول : ما منعكم أن تكونوا مثل فلان ؟ قال شريك : ونرىٰ أن سفيان منهم .

وعن أبي المثنىٰ قال : سمعت الناس بمرو وهم يقولون : قد جاء الثوري ، قد جاء الثوري ، فخرجت أنظر إليه ؛ فإذ هو غلام قد بقل وجهه[1] .

وقال أيوب السختياني : ما قدم علينا من الكوفة أفضل من سفيان الثوري .

وقال عبد الرحمـٰن بن مهدي وذكر سفيان وشعبة ومالكاً وابن المبارك فقال : أعلمهم بالعلم سفيان .

وقال إسحاق بن راهويه : قال يحيى بن سعيد : كان الثوري أبصرَ بالرجال من شعبة .

وقال : سمعت سفيان الثوري يقول : كان الرجل لا يطلب الحديث حتىٰ يتعبد قبل ذلك عشرين سنة .

---

(١) أي : نبت شعره .

وقال سفيان الثوري : زينوا العلم بأنفسكم ، ولا تتزينوا بالعلم .

وقال سفيان : الأعمال السيئة داء ، والعلماء دواء ، فإذا فسد العلماء . . فمن يَشفي الداء .

وقال : العالم طبيب الدِّين ، والدرهم داء الدِّين ، فإذا اجتر الطبيب الداء إلىٰ نفسه . . فمتىٰ يداوي غيره .

وقال ابن المبارك : سمعت سفيان الثوري يقول : ما أطاق أحد العبادة ولا قوي عليها . . إلا بشدة الخوف .

وقال سفيان : إنما يُطلب العلم ليُتَّقَى الله تعالىٰ به ، فمن ثَمَّ فضل ، ولولا ذلك . . لكان كسائر الأشياء .

وقال سفيان الثوري : كان يقال : حسن الأدب يطفىء غضب الرب عز وجل .

وقال : تعلموا العلم ، واكظموا عليه ، ولا تخلطوه بضحك ؛ فتمجه القلوب .

وقال : إنما هو طلبه ، ثم حفظه ، ثم العمل به ، ثم نشره وتعليمه .

وقال : مَن حدث قبل أن يُحتاج إليه . . ذلَّ .

وقال سفيان الثوري : ليس عمل بعد الفرائض أفضل من طلب العلم .

وقال : لا نزال نتعلم ما وجدنا من يعلمنا .

وقال : الحديث أكثر من الذهب والفضة وليس يُدرَك ، وفتنة الحديث أشد من فتنة الذهب والفضة .

وقال : من ازداد علماً . . ازداد وجعاً .

وقال : لو لم أَعْلَم . . لكان أقلَّ لحزني .

وقال : وددت أني أنجو من هـٰذا الأمر كفافاً لا علي ولا لي .

وقال عبد الرحمـٰن بن مهدي : كنا نكون عند سفيان وهو يحدثنا ، ثم يثب ، ويقول : إن النهار يعمل عمله .

وقال يحيى بن يمان : ما سمعت سفيان يعيب العلم قط ، ولا من يطلبه ، قالوا : أليست لهم نية ؟ قال : طلبهم العلم نية .

وعن عيسى بن يونس قال : مات سفيان مختفياً ، وقد جعل قميصه خريطة قد ملأها كتباً .

وعن حماد بن دليل قال : ما كنا نأتي سفيان إلا في خُلْقان ثيابنا .

وقال قبيصة : ما رأيت الأغنياء أذل في مجلس من مجلس سفيان الثوري ، ولا الفقراء أعز منهم في مجلس سفيان .

وفي رواية : كان يقول لأصحاب الحديث : تقدموا يا معشر الضعفاء .

وقال خلف بن تميم : سمعت سفيان الثوري بمكة وقد كثر الناس عليه فسمعته يقول : ضاعت الأمة حين احتيج إليَّ .

وكان سفيان الثوري إذا لقي شيخاً . . سأله : هل سمعت من العلم شيئاً ؟ فإن قال : لا . . قال : لا جزاك الله عن الإسلام خيراً .

وقال الثوري : ينبغي للرجل أن يُكرِهَ ولده علىٰ طلب العلم والحديث ؛ فإنه مسؤول عنه .

وقال : إن هـٰذا الحديث عِزٌّ ، من أراد به الدنيا . . فدنيا ، ومن أراد به الآخرة . . فآخرة .

وقال سفيان : ليس شيء أنفع للناس من الحديث .

وقال سفيان : لو لم يأتني أصحاب الحديث . . لأتيتهم في بيوتهم .

وقال : لو أني أعلم أن أحداً يطلب الحديث بِنية . . لأتيته في منزله حتىٰ أحدثه .

وقال عبد الرحمـٰن بن مهدي : رأيت سفيان الثوري في المنام ، فقلت له : أي شيء وجدت أفضل ؟ قال : الحديث .

وقال سفيان : ما من عمل أفضل من طلب الحديث إذا صحت النية فيه ، قال أحمد ابن أبي الحواري : قلت للفريابي : وأي شيء النية فيه ؟ قال : تريد به وجه الله عز وجل والدار الآخرة .

وقال سليمان بن حيان : كنا نصحب سفيان الثوري ، وقد سمعنا ممن سمع منه إنما نريد منه تفسير الحديث .

وقال عبد الرزاق : سألت الثوري في الموسم عن شيء ، فقال : هيهات! أنت من أصحاب السلاح ، أراه يعني : الإسناد .

وقال سفيان الثوري : **إنما العلم عندنا الرخصة عن الثقات ، فأما التشديد . . فكل إنسان يحسنه .**

وقدم سفيان الثوري الرملة أو بيت المقدس ، فأرسل إليه إبراهيم بن أدهم ؛ تعال حدِّثْنا ، فقيل له : يا أبا إسحاق ؛ تبعث إليه بمِثل هـٰذا ؟! قال : إنما أردت أن أعلم كيف تواضعه ، قال : فجاء ، فحدثهم .

وقال الثوري : طلبت العلم ولم يكن لي نية ، ثم رزقني الله تعالى النية .

وقال يحيى بن يمان : سمعت الثوري يقول : ما أُحدِّث من كل عشرة أحاديث إلا بواحد ، وقد كتبنا عنه عشرين ألفاً ، وأخبرني الأشجعي أنه كتب عنه ثلاثين ألفاً .

وقال حفص بن غياث : سمعت الثوري يقول : إذا رأيت الرجل يعمل العمل الذي قد اختُلف فيه وأنت ترىٰ غيره . . فلا تنهه .

وقال سفيان : ما استودعت أذني شيئاً قط . . إلا حفظته ، حتىٰ أني أمر بكذا كلمة قالها قائل ، فأسد أذني خشية أن أحفظ ما يقول .

وقال سفيان لرجل من العرب : اطلبوا العلم ويحكم! فإني أخاف أن يخرج منكم ، فيصير في غيركم ، اطلبوه ويحكم! فإنه عز وشرف في الدنيا والآخرة .

وقال سفيان : يعجبني أن يكون صاحب الحديث مكفياً ؛ فإن الآفات إليهم أسرع ، وألسنة الناس إليهم أسرع .

وقال محمد بن يوسف الفريابي : كان سفيان الثوري لا يحدث النبط[1] وسَفِلَ الناسِ ، وكان إذا رآه . . ساءه ، وقيل له في ذلك ، فقال : إنما العلم أخذ عن العرب ، فإذا صار إلى النبط وسَفِلَ الناسِ . . قلَبوا العلم .

وقال رجل لسفيان الثوري : لو أنك نشرت ما عندك من العلم . . رجوت أن ينفع الله به بعض عباده ، وتؤجَر علىٰ ذلك ؟ فقال سفيان : والله ؛ لو أعلم بالذي يطلب هـٰذا العلم

---

(١) هم أخلاط الناس وعوامهم من غير العرب .

لا يريد به إلا ما عند الله عز وجل.. لكنت أنا الذي آتيه في منزله ، فأحدثه بما عندي مما أرجو أن ينفعه الله تعالىٰ به .

وقال سفيان : ليس طلب العلم فلان عن فلان ، إنما طلب العلم الخشية لله عز وجل .

وقال الثوري : كان يقال : لا تكونن حريصاً على الدنيا.. تكن حافظاً .

وقال عبد الرزاق : قال صاحب لنا لسفيان : يا أبا عبد الله.. حدثنا كما سمعت ، فقال : لا والله ما إليه سبيل ، وما هو إلا المعاني .

وقال : لو قلت لكم : إني أحدثكم كما سمعت.. فلا تصدقوني .

وقال : إني لأظن أن رجلاً لو هَمَّ بالكذب.. عُرِفَ ذلك في وجهه .

وقال سفيان الثوري : لما أردت طلب العلم.. قلت : يا رب ؛ إنه لا بد لي من معيشة ، وأحب درس العلم ، فقلت : أُفرِّغ نفسي لطلبه ، وسألت ربي عز وجل الكفاية والتشاغل بطلب العلم ، فما رأيت إلا ما أحب إلىٰ يومي هـٰذا .

وقال سفيان : طلبت هـٰذا الأمر لغير الله ، فأعقبني ما أرىٰ .

وقال عبد الرحمـٰن بن مهدي : كنا نكون عند سفيان الثوري وكأنه قد أوقف للحساب ، فلا نجترىء أن نكلمه ، فنعرض بذكر الحديث ، فيذهب ذاك الخشوع ، فإنما هو حدثنا وحدثنا .

وعن ضمرة بن ربيعة قال : كان سفيان ربما حدَّث بعسقلان يبتدئهم يقول : انفجرت العين ، انفجرت العين ، يعجب من نفسه ، وربما حدَّث الرجل بحديث ، فيقول له : هـٰذا خير لك من ولايتك عسقلان وصُور .

ونظر حماد بن زيد إلىٰ سفيان الثوري مسجَّىً على السرير ، فقال : يا سفيان.. لست أغبطك اليوم بكثرة الحديث ، إنما أغبطك بعمل صالح قَدَّمْتَ .

وقال عبد الرحمـٰن بن مهدي : لما مات سفيان.. أخرجناه بالليل من أجل السلطان ، فحملناه بالليل ، فما أنكرنا الليل من النهار ، قال : وسمعته يقول في علته ـ وكان به البَطَن[1] ـ : ذهب الستر ، ذهب الستر .

وقال يحيى بن سعيد : رأيت الثوري فيما يرى النائم ، فنظرت إلىٰ صدره ، فإذا في صدره مكتوب في موضعين : ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ .

---

(١) أي : داء البطن .

وقال عبد الرحمٰن بن مهدي : لما أن غسلت سفيان الثوري . . وجدت في جسمه مكتوباً : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ .

وقال عبد الرحمٰن بن مهدي : جاءني جرير بن حازم وحماد بن زيد من الغد يوم دفنا سفيان ، فقالا : اخرج بنا ، فخرجت معهما ، فبينما نحن نمشي . . قال جرير بن حازم :

من كان يبكي علىٰ حي لمنزلة ... بكى الغداةَ على الثوريِّ سفيانا

قال : ثم سكتَ ، فظننت أنه كان هيأ أبياتاً يقولها ، فسكت ، فقال عبد الله بن الصباح :

أبكي عليه وقد ولىٰ وسؤدده ... وفضله ناضر كالغصن رَيَّانا

وعن أحمد بن سعيد الرباطي ، قال أبو داوود : مات سفيان رحمه الله بالبصرة ، فدفن ليلاً ، ولم نشهد الصلاة عليه ، فغدونا علىٰ قبره ومعنا جرير بن حازم وسلام بن مسكين ، فتقدم جرير ، وصلىٰ علىٰ قبره ، ثم بكىٰ ، وقال :

إذا بكيتَ علىٰ مَيْتٍ لمكرمة ... فابك الغداةَ على الثوريِّ سفيانا

وقال خلف بن تميم : كان سفيان الثوري رحمه الله يتمثل بهٰذه الأبيات :

أطريفُ إن العيش كَدَّرَ صَفْوَه ... ذكرُ المنية والقبورِ الهُوَّلِ
دنيا تَداولها العباد ذميمة ... شيبت بأكره من نقيع الحنظل
وبنات دهر لا تزال ملمَّةً ... ولها فجائع مثلُ وقع الجندل

وقال محمد بن بشر : سمعت سفيان الثوري يقول :

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقىٰ ... ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت علىٰ ألاَّ تكون كمثله ... وأنك لم ترصد كما كان أرصدا

وقال سفيان بن عيينة : جاع سفيان الثوري جوعاً شديداً مكث ثلاثة أيام لا يأكل شيئاً ، فمر بدار فيها عرس ، فدعته نفسه إلىٰ أن يدخل ، فعصمه الله تعالىٰ بالورع ، ومضىٰ إلىٰ منزل ابنته ، فأتته بقرص ، فأكله وشرب ماء ، فتجشأ ، ثم قال :

سيكفيك مما أُغلق البابُ دونه ... وضن به الأقوام ملح وجردق[1]
تَجَشَّأْ إذا ما هُمْ تَجَشَّوْا كأنما ... ظللت بألوان الخبيص تفتَّق

---

(١) **الجردق** : الرغيف .

وكان سفيان يقول :

إن كنت ترجو الله فاقنع به ... فعنده الفضل الكبير الغزيرْ
من ذا الذي تلزمه فاقة ... وذخره الله العلي الكبيرْ

وقال سفيان الثوري : حدثنا المغيرة بن مقسم ، عن إبراهيم النخعي ، عن علقمة ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اقتحم علىٰ أهل الجنة نور في قبابهم كاد أن يخطف نور أبصارهم ، فنظروا ؛ فإذا نور سن حوراء ضحكت في وجه وليها »[1] ، وفي رواية : « في وجه زوجها » .

وقال محمد بن غالب : بَرقت برقة في الجنة ، فقالوا : ما هـٰذا ؟ فقالوا : حوراء ضحكت في وجه زوجها .

وطاف سفيان الثوري ذات ليلة ، فأكثر الطواف ، ثم صلىٰ ، فأطال الصلاة ، ثم اضطجع ، قال الراوي : فقلت هـٰذه ضجعته حتىٰ يصبح ، فما كان إلا قليلاً حتىٰ هبَّ من نومه ، ثم أخذ نحو الجبل الذي كان يأوي إليه ، فأصاب إبهام قدمه حجر ، فدَمِيَتْ ، فاضطجع ، ثم قال : أف لها ما أكثر كدرها ، عجباً لمن يحبها!

وكان الثوري يتمثل :

أرىٰ رجالاً بدون الدِّين قد قَنِعوا ... وليس في عيشهم يَرْضون بالدونِ
فاستغن بالدِّين عن دنيا الملوك كما ... اسْتغنى الملوك بدنياهم عن الدِّين

وعن محمد بن إسحاق الباهلي ، عن أبيه قال : سمعت سفيان الثوري يتمثل :

إني وجدت فلا بِظَنِّي غيره ... أنَّ التنسك عند هـٰذا الدرهم

وقال يحيى بن آدم : كان سفيان الثوري رحمه الله يتمثل :

أُبْلُ الرجال إذا أردت إخاءهمْ ... وتوسَّمَنَّ أمورهمْ وتفقَّدِ
وإذا وجدت أخا الأمانة والتقىٰ ... فبه اليدين قريرَ عين فاشدُدِ
ودع التخشع والتذلل تبتغي ... قرب امرىءٍ إن تدن منه يَبعُدِ

---

(١) أخرج الديلمي (٢/ ٣٣٨) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « سطع نور في الجنة ، فرفعوا رؤوسهم ؛ فإذا هو من ثغر حوراء ضحكت في وجه زوجها » .

وعن حفص بن عمرو ـ وهو ابن أخي سفيان الثوري رحمهما الله ـ قال : كتب سفيان الثوري إلىٰ عباد بن عباد :

أما بعد : فإنك في زمان كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يتعوذون أن يدركوه ، ولهم من العلم ما ليس لنا ، ولهم من القَدَم ما ليس لنا ، فكيف بنا حين أدركناه علىٰ قلة العلم ، وقلة صبر ، وقلة أعوان على الخير ، وفساد من الناس ، وكدَر من الدنيا ؟! فعليك بالأمر الأول ، والتمسك به ، وعليك بالخمول ؛ فإن هـٰذا زمان خمول ، وعليك بالعزلة ، وقلة مخالطة الناس ، فقد كان الناس إذا التقوا . . ينتفع بعضهم ببعض ، فأما اليوم . . فقد ذهب ذاك ، فالنجاةُ في تركهم فيما نرىٰ ، وإياك والأمراء أن تدنُوَ منهم أو تخالطهم في شيء من الأشياء ، ويقال لك : تشفع وتدرأ عن مظلوم ، أو ترد مظلمة ؛ فإن ذلك خديعة إبليس ، وإنما اتخذها فُجَّار القراء سُلَّماً .

وكان يقال : اتقوا فتنة العابد الجاهل والعالم الفاجر ؛ فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون ، وما كُفِيتَ من المسألة والفتيا . . فاغتنم ذلك ، ولا تنافسهم فيه ، وإياك أن تكون ممن يحب أن يُعمَل بقوله ، أو يُنشر قولُه ، أو يُسمَع من قوله ، وإياك وحب الرئاسة ؛ فإن الرجل تكون الرئاسة أحب إليه من الذهب والفضة ، وهو باب غامض ، لا يبصره إلا البصير من العلماء السماسرة ، فتفقد نفسك ، واعمل بنية ، واعلم أنه قد دنا من الناس أمور يشتهي الرجل أن يموت قبلها . والسلام .

وقدم المهدي مكة وسفيان الثوري بها ، فدعاه ، فلما جاءه . . قال له سفيان : احذر هـٰذا ـ كاتباً لشخص كان إلىٰ جنبه ـ ثم قال له : اتق الله ، واعلم : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حج ، فأنفق ستة عشر ديناراً ، ثم حدثه بحديث أيمن فقال : حدثني أبو عمران ولم يقل أيمن ، فقيل له : لِمَ لم تقل أيمن ؟ قال : لعله يدعوه فيفزع الرجل .

وعن سفيان بن عيينة قال : قال سفيان الثوري : دخلت على المهدي ، فرأيت ما قد هيأه للحج ، فقلت : ما هـٰذا ؟ حَجَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأنفق ستة عشر ديناراً .

وفي رواية أخرىٰ : وأنت فيما أنت فيه!! فغضب ، وقال : تريد أن أكون في مثل الذي أنت فيه ؟! قال : قلت : فإن لم تكن في مثل الذي أنا فيه . . ففي دون ما أنت فيه ، فقال لي أبو عبيد الله وزيره : يا أبا عبد الله . . قد جاءتنا كتبك ، فأنفذناها ، قال : فقلت له : ما كتبت إليك شيئاً قط .

وقال داوود بن يحيى بن يمان : سمعت أبي يقول : سمعت سفيان الثوري يقول : قال لي المهدي : يا أبا عبد الله ؛ اصحبني حتىٰ أسير فيكم سيرة العُمَرين رضي الله عنهما ، قال : قلت : أمَا وهـٰؤلاء جلساؤك . . فلا ، قال : فإنك تكتب إلينا في حوائجك فنقضيها ، قال سفيان : والله ؛ ما كتبت إليك كتاباً قطُّ ، قال : فأي شيء دخله ؟!

وقال سفيان لبعض الأمراء : إن اقتصرت علىٰ خبزك وبقلك . . لم يستعبدْك هـٰؤلاء .

وقال عباد بن السماك : قال سمعت سفيان الثوري يقول : أئمة العدل خمسة : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وعمر بن عبد العزيز ، مَن قال غير هـٰذا . . فقد اعتدىٰ .

وقال علي بن ثابت : رأيت الثوري في طريق مكة ، فقومت كل شيء عليه حتىٰ نعليه درهماً وأربعة دوانق .

زاد محمد بن علي في حديثه : وما رأيت الثوري في صدر مجلس قط ، إنما كان يقعد إلىٰ جنب الحائط ، ويجمع بين ركبتيه .

وقال الثوري : لا يأمر السلطانَ بالمعروف . . إلا رجلٌ عالم بما يأمر ، عالم بما ينهىٰ ، رفيق فيما يأمر ، رفيق فيما ينهىٰ ، عدل فيما يأمر ، عدل فيما ينهىٰ .

وقال خلف بن تميم : قال رجل لسفيان الثوري : ذهب الناس يا أبا عبد الله ، وبقينا علىٰ حُمُرٍ دَبِرَة[1] ، فقال الثوري رحمه الله : ما أحسن حالها لو كانت على الطريق .

وعن عبد الله بن المبارك قال : قلت لسفيان الثوري : أيؤاخذ العبد بالهمة ؟ قال : إذا كانت عزماً . . أخذ بها .

وقال يحيى بن المتوكل : مررت مع سفيان برجل يبني بناء قد شيده وزوَّقه ، فقال لي : لا تنظر إليه ، قلت : لِمَ يا أبا عبد الله ؟ قال : **هـٰذا إنما بناه ليُنظَرَ إليه ، ولو كان كل من مَرَّ لا ينظر إليه . . لم يكن هـٰذا البناء** . انتهىٰ [« الحلية » ٦/٣٥٦ـ٣٨٠] .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : اعلم : أن هـٰذا المعنىٰ صحيح يمكن إحالة الحكم عليه ، وهو معنىً غامض دقيق يُستأنَس به ؛ لما رتب عليه بعض الأصحاب رضي الله عنهم من الحكم حين سئل ـ وهو شيخ عصره ـ نجم الدين بن الرفعة رحمه الله ؛

---

(١) **الدَّبَر** : القرح الذي يكون في ظهر البعير .

فإنه لما استفتي في جواز النظر إلىٰ تلك الزينة التي كانت في القاهرة وكانت قد زينت إذ ذاك . . أفتىٰ بتحريم النظر إليها ، وعلل بهـٰذا المعنىٰ ؛ فإنه قال : لو أن كل من يمر لم ينظر إليها . . لم تكن هـٰذه الزينة . انتهىٰ .

وقال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : قال سفيان الثوري رحمه الله : بلغني أن الإنسان خلق أحمق ، ولولا ذلك . . لم يهنِهِ العيش[1] .

وكان الثوري إذا بلغه عن قرية فيها رُخْصٌ . . انتقل إليها ليقيم فيها ، فقيل له في ذلك ، فقال : إذا بلغك عن قرية فيها رخص . . فأقم بها ؛ فإنه أسلم لقلبك ودِينك ، وأقل لهمك[2] .

وروي أن سفيان الثوري قدم عسقلان ، فمكث أياماً لا يسأله إنسان ، فقال : اكتروا لي لأخرج من هـٰذا البلد ، هـٰذا بلد يموت فيه العلم[3] .

قال الغزالي : وإنما قال ذلك حرصاً علىٰ فضيلة التعليم ، واستيفاء العلم . انتهىٰ [« الإحياء » ١/ ١١] .

قال في « بهجة الأسرار » : قال بشر : كتب سفيان الثوري رحمه الله إلىٰ أخ له بأربعة أشياء : استغفر عند المعصية ، وذل عند الطاعة ، وجالس الناس علىٰ قدر تقواهم ، وملاك ذلك كله . . الزهد .

وسئل سفيان الثوري عن المواساة ، فقال : هـٰذا طريق قد نبت عليه العوسج[4] .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : قال وكيع : سمعت سفيان الثوري يقول : لا تجيبوا إلا دعوة من ترون أن قلوبكم تصلح علىٰ طعامه .

وقال أحمد ابن أبي الحواري : حدثني محمد قال : مَرَّ شيخ من الكوفيين ، فقال له سفيان : يا شيخ ؛ وَلِيَ فلان ، فكتبتَ له ، ثم عزل ، وولي فلان ، فكتبتَ له ، ثم عزل ، وولي فلان ، فكتبتَ له ، ثم عزل ، وولي فلان ، فكتبتَ له ، وأنت يوم القيامة أسوَؤُهم حالاً ، يدعىٰ بالأول فيسأل ، ويدعىٰ بك معه ، فتُسأل عما جرىٰ علىٰ يديك ، ثم يذهب ،

---

(١) الإحياء (٤/ ٤٥٤) .
(٢) الإحياء (١/ ٢٤٤) .
(٣) الإحياء (١/ ١١) .
(٤) **العوسج** : نبات شائك .

وتُوقَف أنت حتىٰ يُدعىٰ بالآخر ، فيُسأل وتُسأل أنت عما جرىٰ علىٰ يديك ، ثم يذهب ، وتُوقَف أنت حتىٰ يُدعىٰ بالآخر ، فأنت يوم القيامة أسوَؤُهم حالاً ، قال : فقال الشيخ : كيف أصنع يا أبا عبد الله بعِيالي ؟ فقال سفيان رحمه الله : اسمعوا ، هـٰذا يقول : إذا عصى الله تعالىٰ . . رَزَق عياله ، وإذا أطاع الله تعالىٰ . . ضيع عياله ، قال : ثم قال : لا تقتدوا بصاحب عيال ، فما كان عذرُ مَن عوتب . . إلا أن قال : عيالي .

وقال أحمد ابن أبي الحواري أيضاً : سمعت بشر بن السري رحمه الله يقول : اجتمعتُ أنا وسفيان ويحيى بن سليم في الحِجر ـ أو قال : في الحطيم ـ فحدث سفيان عن ابن المنكدر يرويه قال : « لو أن عبداً جاء يوم القيامة قد أدىٰ إلى الله عز وجل جميع ما افترض عليه ، إلا أنه محب للدنيا . . إلا[1] أمر الله تعالىٰ منادياً ينادي به علىٰ رؤوس أهل الجمع : ألا إن هـٰذا فلان بن فلان قد أحب ما أبغض الله عز وجل »[2] .

وعن عيسى بن يونس قال : لقيت سفيان الثوري ، فقال لي : لا تغتر بصاحب عيال ، فقلَّ صاحب عيال . . إلا خلط ، فقلت له : يا أبا عبد الله ؛ بلغني أن لك بضاعة نحو مئتي دينار يُعمل لك بها ، قال : فخرجت إلى الثغر ، ثم قدمت ، فأتيته ، فقال : أشعرت أن قرة عيني مات ، فاسترحت ، قال : وكان له ابن يقال له : سعيد ، مات .

وقال حذيفة بن قتادة المرعشي : قال لي سفيان الثوري : لأَن أُخلِّفَ عشرة آلاف درهم أحاسب عليها . . أحب إلي مِن أن أحتاج إلى الناس .

وقال روَّاد بن الجراح : سمعت سفيان الثوري يقول : كان المال فيما مضىٰ يكره ، فأما اليوم . . فهو ترس المؤمن .

وقال عبد الله بن محمد الباهلي : جاء رجل إلى الثوري ، فقال : يا أبا عبد الله ؛ تمسك هـٰذه الدنانير ؟ فقال : اسكت ، فلولا هـٰذه الدنانير . . لتمندل[3] بنا هـٰؤلاء الملوك ، قال : وقال سفيان : من كان في يده من هـٰذه شيء . . فليصلحه ؛ فإنه زمان إن احتاج فيه . . كان أول ما يبذل فيه دِينه .

وجاءه رجل ، فقال : يا أبا عبد الله . . إني أريد الحج ، فقال : لا تصحب من يَكْرُمُ

---

(١) من أحوال (إلا) : أن تكون زائدة لفظاً كما في هـٰذا الحديث الشريف .

(٢) أخرجه بنحوه الديلمي (٣/ ٣٦٣) ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

(٣) تمندل : تمسح به من أثر الوضوء أو الطهور .

عليك ؛ فإنك إن ساويته في النفقة . . أضر بك ، وإن تفضل عليك . . استذلَّك .

وقال أبو الأحوص سلام بن سليم : قال لي سفيان الثوري : عليك بعمل الأبطال : الكسب من الحلال ، والإنفاق على العيال .

وقال شعيب بن حرب : قال لي الثوري : يا صالح ؛ احفظ عني ثلاثاً : إن احتجت إلىٰ شسع . . فلا تسأل ، وإن احتجت إلىٰ ملح . . فلا تسأل ، واعلم : أن الخبز الذي تأكله . . بملح عُجن ، وإن احتجت إلىٰ ماء . . فاستعمل كفك ؛ فإنه يجري مجرى الإناء .

وكان الثوري يقول : الحلال لا يحتمل السرف . انتهىٰ [« الحلية » ٦/ ٣٨٠ـ٣٨٢] .

وقال الإمام أبو حامد الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : كان سفيان الثوري رحمه الله يَرُدُّ ما يُعطىٰ ، ويقول : لو علمت أنهم لا يذكرون ذلك افتخاراً به . . لأخذت .

[قلت][1] : وهـٰذا معنىً غامض دقيق ، يدل علىٰ شدة ورعه ، قد فَعله غير واحد من العارفين .

وكان بعضهم يَرُدُّ ما يأتيه من صلة ، فعوتب في ذلك ، فقال : إنما أرده عليهم إشفاقاً ونصحاً ؛ لأنهم يذكرون ذلك ، ويفتخرون به ، ويحبون أن يُعلَمَ به ، فتذهب أموالهم ، وتَحبَط أجورهم .

[قلت] : ولعل لهـٰذا المعنىٰ قال سفيان الثوري رحمه الله : لا أجد أحداً أفزع إليه في قرض عشرة دراهم فيكتم عليَّ ، بل يروح إلى الناس ، ويقول : جاءني سفيان ، واقترض مني ، فنترك الاقتراض لذلك ، كل ذلك من باب الشفقة والنصيحة للمؤمنين ؛ والله سبحانه وتعالىٰ أعلم[2] .

وقال موسى بن مسعود رحمه الله : كنا إذا جلسنا إلى الثوري . . كأن النار قد أحاطت بنا ؛ لما نرىٰ من خوفه وجزعه[3] .

وجاء قوم إلىٰ منزل سفيان الثوري رحمه الله ، فلم يجدوه ، ففتحوا الباب ، وأنزلوا السفرة ، وجعلوا يأكلون ، فدخل الثوري ، فجعل يقول : ذكَّرْتموني أخلاق السلف ، هـٰكذا كانوا رضي الله عنهم . انتهىٰ [« الإحياء » ٢/ ١٠] .

---

(١) أي المؤلف رحمه الله تعالىٰ .
(٢) الإحياء (٤/ ٢٠٨) .
(٣) الأحياء (٤/ ١٨٤) .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : قال علي بن بشر : أتاني إبراهيم بن عيسى الزاهد الأصبهاني ، فقال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرى النائم ، فقال : « عليكم بجامع سفيان » .

وقال يزيد ابن أبي حكيم : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام ، فقلت : يا رسول الله ؛ رجل من أمتك ، يقال له : سفيان الثوري لا بأس به ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « نعم ، لا بأس به » ، فقلت : إنه حدثنا عنك أنك رأيت يوسف النبي عليه الصلاة والسلام في السماء حين أسري بك ، فقال : « صدق » .

وفي رواية أخرىٰ عنه : قلت : حدثنا عن أبي هارون ، عن أبي سعيد حديث المعراج ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « صدق الثوري ، وصدق أبو هارون ، وصدق أبو سعيد » .

وقال ابن عيينة رحمه الله : رأيت سفيان الثوري في المنام ، فقلت : أوصني ، فقال : أقلل من معرفة الناس . أو كما قال .

وقال إبراهيم بن أعين البجلي : رأيت سفيان الثوري في المنام ، ولحيته حمراء صفراء ، فقلت له : ما صنعتَ فديتُك ؟ فقال : أنا مع السَّفَرة ، قلت : وما السَّفَرة ؟ قال : الكرام البررة .

وعن زائدة ابن أبي الرُّقاد قال : رأيت الثوري في المنام ، فقلت : ما فعل بك ربُّك ؟ قال : أدخلني الجنة ، ووسَّع عليَّ ، وجعل يومىء بيده إلىٰ كُمِّهِ ، فجعل يقول : ما نلت من دنياهم إلا هـٰذه الخرقة ، وإن ما نلنا لمردود عليهم .

وقال مؤمل بن إسماعيل : رأيت سفيان الثوري في المنام ، فقلت : يا أبا عبد الله ؛ ما صنع بك ربُّك ؟ فقال : غفر لي ، فقلت : يا أبا عبد الله ؛ لقيتَ محمداً صلى الله عليه وسلم وحزبه ؟ قال : نعم .

وقال عبد الله بن المبارك : رأيت سفيان الثوري في المنام ، فقلت : ما فعل بك ربُّك ؟ قال : لقيت محمداً صلى الله عليه وسلم وحزبه .

وعن عثمان بن زائدة قال : رأيت في النوم كأني أدخلت الجنة ؛ فإذا سفيان يطير من شجرة إلىٰ شجرة ، وهو يقول : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

وعن حفص بن نفيل المرهبي قال : رأيت داوود الطائي في منامي ، فقلت : هل لك علمٌ بسفيان بن سعيد ، فقد كان يحب الخير وأهله ؟ قال : فتبسم ، ثم قال : رقّاه الخير إلىٰ درجة أهل الخير .

وقال صخر بن راشد : رأيت عبد الله بن المبارك في منامي بعد موته ، فقلت له : أليس قد مِتَّ ؟ قال : بلىٰ ، قلت : فما صنع بك ربُّك ؟ قال : غفر لي مغفرة أحاطت بكل ذنب ، قال : قلت : فسفيان الثوري ؟ قال : بخ بخ! ذاك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولـٰئك رفيقاً .

وقال سيف بن هارون البُرْجُمي : رأيت في المنام كأني في موضع علمت أنها ليست الدنيا ؛ فإذا أنا برجل لم أر قط أجمل منه ، فقلت : مَن أنت يرحمك الله ؟ قال : أنا يوسف بن يعقوب ، فقلت : قد كنت أحب أن ألقىٰ مثلك ، فأسأله ، قال : فسل ، فقلت : ما الرافضة[1] ؟ فقال : يهود ، قلت : فالإباضية[2] ؟ قال : يهود ، قلت : فإن قوماً عندنا نصحبهم ، قال : من هم ؟ قلت : سفيان الثوري وأصحابه ، فقال : أولـٰئك يُبعثون علىٰ ما بعثنا عليه معاشر المرسلين .

وقال مصعب بن المقدام : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم آخذاً بيد سفيان الثوري ، وهو يجزيه خيراً ، ويقول : « حَسَنُ الطريقة » .

وقال الحسن بن السماك : رأيت سفيان الثوري فيما يرى النائم كأنه علىٰ عرش يُهادىٰ بين السماء والأرض ، فقلت : يا أبا عبد الله ؛ ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي ، قلت : فهل كان ثَمَّ شيء تكرهه ؟ قال : نعم ، الإشارة بالأصابع ، قال أبو العباس : أي : هـٰذا سفيان الثوري .

وقال سفيان الثوري : الزهد في الدنيا قصر الأمل ، ليس بأكل الجشب[3] ، ولا لبس الغليظ والعباء .

---

(١) **الرافضة** : سمّوا بهـٰذا الاسم ؛ لأنهم جاؤوا إلىٰ زيد بن علي بن الحسين حين خرج ، فقالوا : تبرأ من أبي بكر وعمر حتىٰ نكون معك ، فقال : بل أتولاهما وأبرأ ممن تبرأ منهما ، قالوا : إذاً نرفضك ، فسميت الرافضة . انظر « تهذيب الكمال » (١٠/ ٩٧) .

(٢) **الإباضية** : تنسب إلىٰ عبد الله بن إباض الذي أعلن دولته في عهد آخر خلفاء بني أمية مروان بن محمد ، لهم مبادئهم الخاصة ، وأماكنهم حالياً في الجزائر وعُمان .

(٣) أي : الغليظ الخشن من الطعام .

وقال : ازهد في الدنيا وَنَمْ .

وكتب سفيان إلىٰ أخ له : احذر حب المنزلة ؛ فإن الزهادة فيها أشد من الزهادة في الدنيا .

وكان سفيان الثوري إذا ذكر الموت . . لا يُنتَفَعُ به أياماً ، فإذا سئل عن الشيء . . قال : لا أدري ، لا أدري .

وقال : إذا رأيت القارىء يلوذ بباب السلطان . . فاعلم أنه لص ، وإذا رأيته يلوذ بالأغنياء . . فاعلم أنه مُرائي .

وقال أحمد بن يونس : سمعت الثوري يقول : إذا لم يكن لله في العبد حاجة . . نبذه إليهم ، يعني : السلطان .

وقال سفيان : لو خيرت بين ذهاب بصري وبين أن أملأ بصري منهم . . لاخترت ذهاب بصري .

وعن وهب بن إسماعيل قال : كنا يوماً عند سفيان ، فمر رجل مِن هـٰؤلاء الجند ، فجعل سفيان ينظر إليه ، وينظر إلينا ، ثم قال : يمرُّ بكم المُبتلىٰ والمكفوف والزَّمْنى الذين يؤجرون علىٰ بلائهم ، فتسألون الله تعالى العافية ، ويمرُّ بكم هـٰؤلاء فلا تسألون الله تعالى العافية ؟!

وعن بشر بن الحارث رحمه الله قال : قيل لسفيان الثوري : أيكون الرجل زاهداً ويكون له المال ؟ قال : نعم ، إن كان إذا ابتلي . . صبر ، وإذا أعطي . . شكر .

وقال سفيان : ما أَحسنَ تذلل الأغنياء عند الفقراء ، وما أقبح تذلل الفقراء عند الأغنياء .

وقال سفيان الثوري رحمه الله : قال عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام : حب الدنيا رأس كل خطيئة ، والمال فيه داء كبير ، قيل : يا روح الله ؛ ما داؤه ؟ قال : لا يؤدىٰ حقه ، قيل : فإن أُدِّي حقه ؟ قال : لا يسلم صاحبه من الخيلاء والفخر ، قيل : فإن سلم صاحبه من الفخر والخيلاء ؟ قال : يشغله استصلاحه عن ذِكر الله عز وجل .

وقال عيسى بن حازم : خرج إبراهيم بن أدهم وإبراهيم بن طهمان وسفيان الثوري إلى الطائف ، ومعه سُفْرَةٌ فيها طعام ، فوضعوها ليأكلوا ، وإذا أعراب قريب منهم ، فناداهم إبراهيم بن طهمان : يا إخوتاه ؛ هلموا ، فقال لهم سفيان : يا إخوتاه ؛ مكانكم ، ثم قال سفيان لإبراهيم : خذ من هـٰذا الطعام ما طابت به أنفسنا ، فاذهب به إليهم ، فإن شبعوا . . فالله أشبعَهم ، وإن لم يشبعوا . . فهم أعلم ، أخاف أن يجيئوا ويأكلوا طعامنا ، فتتغير نياتنا ، ويذهبَ أَجْرُنا .

وقال يوسف بن أسباط : كنت مع سفيان الثوري في المسجد الحرام ، فقال : والله الذي لا إلٰه إلا هو ، وربِّ هٰذه الكعبة ؛ لقد حلت العزلة .

وقال سفيان الثوري : أُحب أن أكون في موضع لا أُعرف ولا أستذل .

وقال سفيان : وددت أني أخذت نعلي هٰذه ثم جلست حيث شئت لا يعرفني أحد ، ثم رفع رأسه ، فقال : بعد ألاَّ أستذل .

وقال : أقلل من معرفة الناس . . يَقِلُّ عيبك .

وقال يوسف بن أسباط : سمعت الثوري يقول : ثلاثة من الصبر : لا تحدث بمصيبتك ، ولا بوجعك ، ولا تُزَكِّ نفسك .

وقال أحمد ابن أبي الحواري : حدثنا يحيى ابن أبي ثابت قال : أُتي سفيان الثوري رحمه الله وهو في المسجد الحرام بسويق في قدح فيه سكَّر كثيرٌ ، قال : فشربه حتىٰ حل إزاره ، قال : ثم شد إزاره ، وقال : أشبعِ الزنجيَّ وكُدَّهُ[1] ، ثم قام من أول الليل إلىٰ آخره . أو كما قال .

وقال عبد الرزاق : دعا سفيان بطعام ، فأكله ، وبتمر وزبد ، فأكله ، ثم قام يصلي من حين زالت الشمس إلى العصر ، ثم قال : أحسنوا إلى الزنجي وكُدُّوْهُ .

وقال أبو منصور الواسطي : زارني سفيان إلىٰ واسط ، فأتيته بثريد ، فأكل ، وأتيته بطباهج[2] ، فأكل ، وأتيته برطب ، فأكل ، وأتيته بعنب ، فأكل ، وأتيته برمان ، فأكل ، فلما رآني أنظر إليه . . قال : يا أبا منصور ؛ إنما هي أكلة ؛ فإذا أكلت . . فاشبَعْ .

وقال سفيان : إذا زهد العبد في الدنيا . . أنبت الله الحكمة في قلبه ، وأطلق بها لسانه ، وبصَّرَه بعيوب الدنيا ودائها ودوائها .

وقال سفيان رحمه الله : إني لأفرح إذا جاء الليل ، وما ذاك إلا أني أستريح من رؤية الناس .

وكان سفيان يقول : إذا عرفت نفسك . . لا يضرك ما قيل فيك .

وقال سفيان : **وجدنا أصل كل عداوة . . اصطناع المعروف إلى اللئام** .

---

(١) كدَّه : أتعبه .

(٢) طباهج : لحم مشرَّح ، معرَّب .

وقال سفيان : إذا رأيت الرجل حريصاً علىٰ أن يؤم . . فأخِّرْهُ .

وقال سفيان : من جاع فلم يَسأل ، فمات . . دخل النار .

وقال أبو شهاب : كنت مع سفيان في المسجد الحرام ، فقمت ، فصليت ركعتين ، فالتفتَ إلي سفيان ، فقال : يا أبا شهاب ؛ ما أجرأك! تصلي والناس ينظرون إليك .

وعن محمد بن مزاحم قال : جعل سفيان الثوري علىٰ نفسه ثلاثة أشياء : ألاَّ يخدمه أحد ، وألاَّ يطوىٰ له ثوب ، وألاَّ يضع لبنة علىٰ لبنة .

وقال سفيان الثوري : هـٰذا زمان خاصة ليس زمان عامة ، أقبل الرجل علىٰ خاصة نفسه وترك عوامهم .

وقال سفيان الثوري : ما من نفس تخرج أحب إلي من نفسي ، ولو كانت في يدي . . لأرسلتها .

وقال سفيان الثوري لأخ له : عافانا الله وإياك من الدنيا برحمته ، ارتحِل إلى الآخرة قبل أن يُرحَلَ بك ، وسل ربك ، فنسأل الله عز وجل الذي مَنَّ علينا بمعرفته . . ألاَّ يكلنا وإياك إلىٰ أنفسنا ، وأن يتولىٰ منا ومنك ما يتولىٰ من أوليائه وأحبائه ، ثم قال : إياك وما يفسد عليك عملك ؛ فإنما يفسد عليك عملك . . الرياء ، فإن لم يكن رياء . . فإعجابك بنفسك حتىٰ يخيل إليك أنك أفضل من أخ لك ، وعسىٰ ألاَّ تصيب من العمل مثل الذي يصيب ، ولعله أن يكون أورع منك عما حرم الله عز وجل ، وأزكىٰ منك عملاً ، وإن لم تكن معجباً . . فإياك أن تحب محمدة الناس ، ومحمدتهم : أن تحب أن يكرموك بعملك ، ويروا لك به شرفاً ومنزلة في صدورهم ، أو حاجة تطلبها إليهم في أمور كثيرة ، واجتهد ألاَّ تريد بعملك إلا وجه الله عز وجل ، وكفىٰ بذِكر الموت مزهِّداً في الدنيا ، ومرغِّباً في الآخرة ، وكفىٰ بِطول الأمل قلة خوف وجرأة على المعاصي ، وكفىٰ حسرة وندامة يوم القيامة لمن كان يعلم ولا يعمل .

وقال أبو أسامة : ما رأيت أحداً أخوف لله عز وجل من سفيان .

وقال سفيان : ما أنفقت قط درهماً في بناء .

وقال سفيان : كان يقال : يا حملة القرآن ؛ لا تتعجلوا منفعة القرآن ، وإذا مشيتم إلى الطمع . . فامشوا رويداً .

وقال أحمد بن عبد الله بن يونس : سمعت سفيان الثوري رحمه الله ما لا أحصي يقول :

اللهم ؛ سلِّم سَلِّم ، اللهم ؛ سلمنا منها إلىٰ خير ، اللهم ؛ ارزقنا العافية في الدنيا والآخرة .

وقال سفيان : لو أن البهائم تعقل من الموت ما تعقلون . . ما أكلتم منها سميناً .

وكان سفيان يأخذ في التفكر ، فينظر إليه الناظر فيقول : إنه مجنون .

وقال سفيان : ترك الذنوب هو الدعاء .

وقال : لا يحرز المؤمن إلا قبره .

وقال : من دعاك وأنت تخاف أن يفسد عليك قلبك ودينك . . فلا تجبه .

وكان إذا أكل . . قال : الحمد لله الذي كفانا المؤونة ، وأوسع علينا في الرزق .

وقال سفيان : إني لأريد شرب الماء ، فيسبقني الرجل إلى الشربة ، فيَسقينيها ، فكأنما حَمَّىٰ ضلعاً من أضلاعي لا أقدر له علىٰ مكافأة ما فعله .

وقال أبو السري : قيل لفضيل بن عياض في بعض ما كان يذهب إليه من الورع : مَن إمامُك في هـٰذا ؟ فيقول : سفيان الثوري .

وقال ابن يمان : ما رأينا مثل سفيان ، ولا أبصر سفيان مثل نفسه ، أقبلَتِ الدنيا عليه . . فصرف وجهه عنها .

وأُهدي لسفيان ثوب . . فرده .

وقال للمَهدي : قد علمت أنك لست ممن يسمع الحديث ، ولـٰكن أخوك يسمع مني الحديث ، فأخاف أن يلين قلبي لأخيك أكثر مما يلين لغيره .

وجاء رجل إلىٰ سفيان ببَدْرة[1] أو بَدْرتين ، وكان أبو الرجل صديقاً لسفيان ، وكان سفيان يأتيه كثيراً ، فقال : يا أبا عبد الله ؛ أَفِي نفسك من مال أبي شيء ؟ فقال سفيان : رحم الله أباك ، كان وكان . . . وأثنىٰ عليه ، فقال : يا أبا عبد الله ؛ قد عرفت كيف صار هـٰذا المال إلي ، فأنا أحب أن تأخذ هـٰذه تستعين بها علىٰ عيالك ، فقبل سفيان ، وقام الرجل ، فلما كاد أن يخرج . . قال : يا مبارك ؛ الحقه فرُدَّهُ عليَّ ، فلما رجع . . قال : يا بن أخي ؛ أحب أن تأخذ هـٰذا المال ، فقال : يا أبا عبد الله ؛ أَفي نفسك منه شيء ؟ قال : لا ، ولـٰكن أحب أن تأخذه ، فما زال به حتىٰ أخذه ، فذهب ، فلما خرج . . قلت له : قَلْبُكَ هـٰذا

---

(١) البَدرة : كيس فيه عشرة آلاف درهم .

من حجارة ، أما ترحم عيالك ؟ أما ترحم إخوتك ؟ فلما أكثرتُ عليه . . قال : يا مبارك ؛ تأكلها أنت هنيئاً مريئاً ، وأنا أُسأَلُ عنها ؟!

وقال أبو أحمد الزبيري : كنت في مسجد الخَيْف[1] مع سفيان الثوري ، والمنادي ينادي : مَن جاء بسفيان . . فله عشرة آلاف .

وقال عبد الرحمٰن بن مهدي : سمعت سفيان الثوري يقول : طُلِبْتُ في أيام المهدي ، فهربت ، فأتيت اليمن ، فكنت أنزل في حي حي ، وآوي إلىٰ مسجدهم ، فسُرِقَ في ذلك الحي ، فاتهموني ، فأتوا بي معن بن زائدة ، وكان قد كُتب إليه في طلبي ، فقيل : إن هٰذا قد سَرق متاعَنا ، فقال : لِمَ سرقت متاعهم ؟ فقلت له : ما سرقت شيئاً ، فقال لهم : تنحوا لأسأله ، ثم أقبل عليَّ ، فقال : ما اسمك ؟ قلت : عبد الله بن عبد الرحمن ، قال : يا عبد الله بن عبد الرحمن ؛ نشدتك بالله لما نسبت لي نسبتك ، قلت : أنا سفيان بن سعيد بن مسروق ، قال : الثوري ؟ قلت : الثوري ، قال : أنت بغية أمير المؤمنين ؟ قلت : أجل ، فأطرق ساعة ، ثم قال : ما شئت فأقم ، أوِ ٱرحل متىٰ شئت ، فوالله ؛ لو كنت تحت قدمي . . ما رفعتها .

وقال يحيى بن يمان : سمعت الثوري وهو يقول : سِترك الجميل الذي لم يزل ، سِترك الجميل الذي لم يزل .

وكان سفيان أبداً يُخرجُ رقعة ينظر فيها ؛ فإذا فيها مكتوب : سفيان ؛ أُذكُر وقوفَك بين يدي الله عز وجل . انتهىٰ [« الحلية » ٦/ ٣٨٣ـ٣٩٣ و٧/ ٣ـ٥] .

وقال شيخ الإسلام الإمام محيي الدين النووي ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ : سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب بن رافع بن عبد الله بن موهبة ابن أبي عبد الله بن منقذ بن نصر بن الحارث بن ثعلبة بن ملكان بن ثور بن عبد مناة بن أُدّ بن طابخة بن إلياس بن مضر الثوري ، الكوفي ، الجامع لأنواع المحاسن ، وهو من تابعي التابعين ، ولد سنة سبع وتسعين .

سمع الثوري أبا إسحاق السَّبيعي ، وعبد الملك بن عمير ، وعمرو بن مرة ، وخلائق من كبار التابعين ، وغيرهم .

وروىٰ عنه محمد بن عجلان ، والأعمش ـ وهما تابعيان ـ ومعمر ، والأوزاعي ، وابن

---

(١) **الخَيْف** : ما ارتفع من الوادي قليلاً من مسيل الماء ، ومنه مسجد الخَيْف بمنًىٰ ؛ لأنه بني في خيف الجبل .

أبي إسحاق ، ومالك ، وابن عيينة ، وشعبة ، والفضيل بن عياض ، وأبو الأحوص ، وأبو إسحاق الفزاري ، وابن المبارك ، وزائدة ، وابن مهدي ، ووكيع ، وأبو نعيم ، ويحيى القطان ، ومحمد بن يوسف ، وخلائق .

واتفق العلماء علىٰ وصفه بالبراعة في العلم بالحديث والفقه ، والورع ، والزهد ، وخشونة العيش ، والقول بالحق ، وغير ذلك من المحاسن .

قال أحمد بن عبد الله : أحسن إسناد الكوفة : سفيان ، عن منصور ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن ابن مسعود .

وقال أبو عاصم : سفيان الثوري . . أمير المؤمنين في الحديث .

وقال ابن المبارك : كتبت عن ألف ومئة شيخ ، ما كتبت عن أفضل من الثوري .

وقال يونس بن عبيد الله : ما رأيت أفضل من الثوري ، فقيل له : قد رأيت عطاء وسعيد بن جبير ومجاهداً وتقول هـٰذا ؟! فقال : هو ـ والله ـ ما أقول ، ما رأيت أفضل من الثوري .

وقال يحيى بن معين : كل من خالف الثوري . . فالقول قول الثوري .

وقال ابن مهدي : ما رأيت أحفظ للحديث من الثوري .

وقال ابن عيينة : كان ابن عباس في زمانه ، والشعبي في زمانه ، والثوري في زمانه .

وقال عباس الدوري : رأيت ابن معين لا يقدم على الثوري في زمانه أحداً في كل شيء .

وقال القطان : ما رأيت أحفظ من الثوري .

وقال ابن عيينة : أنا من غلمان الثوري ، وما رأيت أعلم بالحلال والحرام منه .

وقال الأوزاعي وقد ذكر ذهاب العلماء : لم يبق منهم من يجتمع عليه العامة بالرضا والصحة إلا الثوري .

وقال الوليد بن مسلم : رأيت الثوري يستفتىٰ بمكة ولم يختط وجهه[1] .

رُوِّينا عن عبد الرزاق قال : بعث أبو جعفر أمير المؤمنين الخشابين قُدَّامه حين خرج إلىٰ مكة ، وقال : إذا رأيتم سفيان . . فاصلبوه ، فوصلوا مكة ونصبوا الخشب ، فنودي سفيان ، فإذا رأسه في حِجْرِ الفضيل بن عياض ، ورجله في حِجْرِ سفيان بن عيينة ، فقالوا : يا أبا

---

(١) أي : لم ينبت عذاره .

عبد الله ؛ اتق الله ، ولا تُشْمِتْ بنا الأعداء ، فتقدم إلىٰ أستار الكعبة ، فأخذها ، وقال : برئت منه إن دخلها أبو جعفر ، فمات أبو جعفر قبل أن يدخل مكة .

وأحوال الثوري والثناء عليه أكثر من أن تحصر ، وأوضح من أن تشهر ، وهو أحد أصحاب المذاهب المتبوعة .

وقال أبو نعيم الفضل بن دكين : خرج الثوري من الكوفة إلى البصرة سنة خمس وخمسين ومئة فما رجع إليها .

وقال محمد بن سعد : أجمعوا علىٰ أنه توفي بالبصرة سنة إحدىٰ وستين ومئة رحمه الله . انتهىٰ [« التهذيب » ١/ ٢٢٢ـ٢٢٣] .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال سفيان الثوري : ما عالجت شيئاً قط أشد عليَّ من نفسي ، مرة عليَّ ، ومرة لي .

وكتب إلىٰ أخ له : عافانا الله وإياك من السوء كله ، يا أخي ؛ إن الدنيا غمها لا يفنىٰ ، وفرحها لا يدوم ، وفِكرُها لا ينقضي ، فاعمل لنفسك حتىٰ تنجو ، ولا تتوان فتعطب . والسلام .

وقال الثوري : لقيت أبا حبيب البدوي ، فقال : يا سفيان ؛ مَنْعُ الله لك عطاء ، وذلك أنه لا يمنعك من بخل ولا عدم ، ولـٰكن نظراً لك واختياراً ، ثم قال : يا سفيان ؛ إن فيك لأُنساً ، وإن عنك لشُغلاً .

وقال القاسم بن عثمان الدمشقي : قلت ليمان أبي معاوية الأسود العابد : رأيت إبراهيم بن أدهم ؟ فضحك ، فقال : وأكبر من إبراهيم ، قلت : مَنْ ؟ قال : سفيان الثوري ، ثم قال : سمعت أخي سفيان الثوري يقول : ما كان الله لينعم علىٰ عبد في الدنيا . . فيفضحه في الآخرة ، ويحق على المنعِم أن يتم علىٰ من أنعم عليه نعمته .

وقال سفيان : لقد أنعم الله علىٰ عبد في حاجة أكثر تضرعه إليه فيها .

وقال سفيان الثوري رحمه الله : الستر من العافية .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، قال : يسبغ عليهم من النعم ، ويمنعهم من الشكر .

وقال عثمان بن زائدة : كتب إليَّ سفيان : إن أردتَ أن يصح جسمك ، ويقل نومك . . فأقلل من الأكل .

وقال الأصمعي : بلغني أن سفيان الثوري كان يضع غداءه وعشاءه رغيفين ، فإذا جاءه سائل . . أعطاه نصف رغيف .

وقال : صابروا الأغنياء في الطعام ما بين الشفة واللهاة ؛ فإنه إذا جاوز ذلك . . لم يعرف لَيِّنه من خشنه .

وقال سعيد بن صدقة أبو مهلهل : أخذ بيدي سفيان الثوري ، فأخرجني إلى الجبَّان ، فاعتزلنا ناحية عن طريق الناس ، فبكىٰ ، ثم قال : يا أبا مهلهل ؛ إن استطعت ألاَّ تخالط في زمانك هـٰذا أحداً . . فافعل ، وليكن همُّك مَرَمَّةَ جهازك ، واحذر إتيان هـٰؤلاء الأمراء ، وارغب إلى الله عز وجل في حوائجك ، وافزع إليه فيما ينوبك ، وعليك بالاستغناء عن جميع الناس ، وارفع حوائجك إلىٰ من لا تعظم الحوائج عنده ، فوالله ؛ ما أعلم اليوم بالكوفة أحداً لو فزعت إليه في قرض عشرة دراهم أقرضني ، ثم كتمها عليَّ . . حتىٰ يذهب ويجيء ، ويقول : جاءني سفيان ، واستقرض مني ، فأقرضته .

وقال : اصحب من شئتَ ، ثم أغضبه ، ثم دُس إليه من يسأله عنك .

وقال سفيان للحسن بن رشيد : يا حسن ؛ لا تتعرفَنَّ إلىٰ من لا يعرفك ، وأنكر معرفة من يعرفك .

وقال سفيان لرجل : أخبرني ، أيأتيك ما تكره ممن تعرف منهم أو ممن لا تعرف ؟ قال : بل ممن أعرف ، قال : فما قَلَّ مِن هـٰؤلاء . . فهو خير .

وقال سفيان : دخلت علىٰ بنت أم حسان الأسدية وفي جبهتها مثل ركبة العنز من أثر السجود ، فقلت : يا بنت أم حسان ؛ ألا تأتين عبد الله بن شهاب يعطيك من زكاة ماله ما تغيرين به بعض هـٰذه الحالة التي أراها بك ؟ فقالت : يا سفيان ؛ قد كان لك في قلبي رُجحان كثير ـ أو كبير ـ فقد أذهب الله تعالىٰ رُجحانَك من قلبي ، أتأمرني أن أسأل الدنيا ممن لا يملكها ؟! وعزته وجلاله ؛ إني أستحيي أن أسأله الدنيا وهو يملكها سبحانه وتعالىٰ .

قال سفيان : وكانت إذا جن عليها الليل . . دخلت محراباً لها ، وأغلقت عليها ، ثم نادت : إلـٰهي ؛ خلا كل حبيب بحبيبه ، وأنا خالية بك يا مولاي ، سبحانك لا إلـٰه إلا أنت إني كنت من الظالمين .

وقال سفيان رحمه الله : دخلت عليها بعد ثلاث ؛ فإذا الجوع قد أثَّر في وجهها ، فقلت لها : يا بنت أم حسان ؛ إنك لم تؤتي أكثر مما أوتي موسىٰ والخضر عليهما الصلاة

والسلام ، إذ أتيا أهل قرية استطعما أهلها ، فقالت : يا سفيان ؛ قُلْ : الحمد لله ، فقلت : الحمد لله ، قالت : اعترفت له بالشكر ؟ قلت : نعم ، قالت : وجب عليك من معرفة الشكر شكرٌ ، وبمعرفة الشكرين شكر لا ينقضي أبداً .

قال سفيان : فقصر ـ والله ـ علمي ، وفَهَّ[1] لساني ، وما أقوم بشكر ، كلما اعترفت له سبحانه وتعالىٰ بنعمة ، وجب عليَّ بمعرفة النعمة شكر ، وبمعرفة الشكر شكر ، فوليت وأنا أريد الخروج ، فقالت : يا سفيان ؛ كفىٰ بالمرء جهلاً أن يُعجَب بعمله ، وكفىٰ بالمرء علماً أن يخشى الله عز وجل ، اعلم : أنه لن تنقى القلوب من الردىٰ . . حتىٰ تكون الهموم كلها لله عز وجل هَمّاً واحداً ، قال سفيان : فقصُرَتْ ـ والله ـ إليَّ نفسي .

وعن سفيان الثوري قال : أتدرون ما تفسير : لا حول ولا قوة إلا بالله ؟ يقول : لا يُعطي أحد إلا ما أُعطيت ، ولا يَقي أحد إلا ما وَقيت .

ودخل إياس بن عمر[2] مسجد سفيان الثوري ، فقال : أبلغك يا أبا عبد الله أن قول : لا إلـه إلا الله عشر حسنات ، والحمد لله والله أكبر عشر حسنات ؟ فقال : نعم ، فقال : ما تقول فيمن كسب ثلاثين ألف درهم من غير حقها ؟ وقال : أسبح وأكبر حتىٰ أعمل من الحسنات بقدر هـٰذه ، فقال سفيان : فليردها قبل ذلك ؛ فإنه لا يُقبل له ذِكر إلا بعد ردِّها .

وقال سفيان : إنما سميت الدنيا دنيا ؛ لأنها دنية ، وسمي المال مالاً ؛ لأنه يميل بأهله .

وقال سفيان : كان أقوام يُدعون إلى الحلال فلا يقبلونه ، ويقولون : نخاف منه علىٰ أنفسنا .

وقال أبو حماد : سمعت سفيان الثوري يقرأ علىٰ [علي] بن الحسن : يا أخي ؛ اطلب العلم لتعمل به ، ولا تطلبه لتباهي به العلماء ، وتماري به السفهاء ، وتأكل به الأغنياء ، وتستخدم به الفقراء ؛ فإن لك مِن علمك ما عملت به ، وعليك ما ضيعت منه ، فقد بلغنا ـ والله أعلم ـ : أنه من طلب الخير . . صار غريباً في زمانه ، فلا تستوحش لقلة السالكين ، واستقم علىٰ سبيل ربك ؛ فإنك إن فعلت ذلك . . كان مولاك الله وجبريل وصالح المؤمنين ، واشتغل بذِكر عيوب نفسك عن ذكر عيوب غيرك ، واحزن علىٰ ما قد مضىٰ من عمرك في غير

---

(١) فَهَّ : عيي .

(٢) في « الحلية » : (ابن عمرو) .

طلب آخرتك ، وأكثر من البكاء علىٰ ما أوقرت[1] به ظهرك ؛ لعلك تخلص منها ، ولا تَمَلَّ من الخير وأهله ، ولا تَباعَد عنهم ، واحذر كل من سواهم ؛ فإنه لن ينجوَ من جاوزهم إلا من عصمه الله سبحانه وتعالىٰ ، وإن أردت اللحاق بالصالحين . . فاعمل بأعمال الصالحين ، واكتف بما أصبت من الدنيا ، ولا تنس من لا ينساك ، ولا تغفل عمن قد وَكَّل بك مَن يحصي عليك أثرك ، ويكتب عملك ، وراقب الله تعالىٰ في سريرتك وعلانيتك ، وهو رقيب عليك ، واستح ممن هو معك ، وهو أقرب إليك من حبل الوريد سبحانه وتعالىٰ ، اعرف فاقة نفسك ، وحقارة منزلتها ؛ فإنك حقير فقير إلىٰ ربك ، وآبك علىٰ نفسك وارحمها ؛ فإنك إن لم ترحمها . . لم تُرْحَم ، ولا تغُشَّها ولا توردها موارد الردىٰ ، وخذ منها لك قَبْلَ أن يفجأك أمر الله تعالىٰ ، فكأن الموت قد نزل بك ، فلا تغفل غفلة الغافلين والجاهلين ، وأكثر من البكاء علىٰ نفسك ، فلست من الضحك بسبيلٍ إن عَقَلْت ؛ فقد بلغنا ـ والله أعلم ـ أن الله سبحانه وتعالىٰ عزَّىٰ أقواماً في كتابه بالضحك وتَرْكِ البكاء ، فقال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴾ ، ومدح أقواماً في كتابه العزيز ، فقال تعالىٰ : ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ ، وقد بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا أحب الله أقواماً . . ابتلاهم ، فمن رضي . . فله الرضا ، ومن سخط . . فله السخط »[2] ، وقد بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كم من نعمة لله تعالىٰ في عِرْقٍ ساكن وغير ساكن » .

وقال أبو إسحاق الفزاري رحمه الله : سمعت سفيان الثوري يقول : البكاء عشرة أجزاء ، تسعة لغير الله تعالىٰ ، وواحد لله عز وجل ، فإذا جاء الذي لله سبحانه وتعالىٰ في السَّنَة مرة . . فهو كثير .

وقال يوسف بن أسباط : عن سفيان قال : يأتي على الناس زمان لا تَقَرُّ فيه عين حكيم .

وقال سفيان : **من أحب أفخاذ النساء . . لم يفلح** .

وقال عبد الله بن المبارك : سئل سفيان : أيما أحب إليك ؛ طلب العلم ، أو العمل به ؟ فقال : إنما يراد العلم للعمل ، لا تدع طلب العلم للعمل ، ولا تدع العمل لطلب العلم .

---

(١) **أَوْقَرت** : الأصل فيها تُستعمل في حمل بعض الدواب ، واسْتُعيرت لبيان ثقل ما يحمله الإنسان في الحياة الدنيا من التَّبعات إلىٰ يوم القيامة .

(٢) أخرجه بنحوه الترمذي (٢٣٩٦) ، وابن ماجه (٤٠٣١) .

وقال ابن مهدي رحمه الله : بات سفيان رحمه الله عندي ، فلما اشتد به الأمر . . جعل يبكي ، فقال له رجل : يا أبا عبد الله ؛ أراك كثير الذنوب ، فرفع رأسه ، وأخذ تبنة من الأرض ، وقال : والله ؛ لذنوبي عندي في جنب عفو الله عز وجل أهون من هـٰذه ، وإنما أخاف أن أُسلَب الإيمانَ قبل أن أموت .

وقال ابن مهدي : سمعت سفيان الثوري يقول : لو كانت نفسي في يدي . . لأرسلتها .

قال : وسمعته مرة أخرىٰ يقول : ما علىٰ وجه الأرض نفس تخرج أحب إلي من نفسي .

وقال سفيان : عليك بالقصد في معيشتك ، وإيَّاك أن تتشبه بالجبابرة ، وعليك بما يُعرف من الطعام واللِّباس والمركب ، وليكن أهل مشورتك أهل التقوىٰ وأهل الأمانة ومن يخشى الله عز وجل .

وعن عمار ، عن سفيان قال : من أخذ من ظالم كراعاً أو مالاً أو سلاحاً فغزا به في سبيل الله تعالىٰ . . لُعِنَ بكل قدم يرفعه ويضعه حتىٰ يرجع .

وعن المفضَّل بن مهلهل قال : قال سفيان : فيمَ السلامة ؟ قلت : ألاَّ تُعرَف ، قال : هـٰذا ما لا يكون ، ولـٰكن السلامة في ألاَّ تحب أن تُعرَف .

وقال ابن مهدي : قدم سفيان البصرة والسلطان يطلبه ، فآجر نفسه في بعض البساتين علىٰ أن يحفظ ثمارها ، فمرَّ به بعض العشَّارين[1] ، فقال له : مِن أين أنت يا شيخ ؟ فقال : من أهل الكوفة ، فقال : أخبرني أرطب البصرة أحلىٰ ، أم رطب الكوفة ؟ فقال : أما رطب البصرة . . فلم أذقه ، فقال له : ما أكذبك من شيخ! البرُّ والفاجرُّ يأكلون الرطب بالبصرة ، وإنك تزعم أنك لم تذقه ؟ فرجع إلى العامل ، فأخبره بما قال ؛ ليعجبه ، فقال : ثكلتك أمك أدركه ، فإن كنت صادقاً . . فإنه سفيان الثوري ، فخذه لتتقرب به إلى المهدي أمير المؤمنين ، فرجع في طلبه ، فما قدر عليه .

وعن الوليد بن شجاع قال : كنت أخرج مع سفيان الثوري ، فما يكاد لسانه يفتر عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ذاهباً وراجعاً .

وقال يحيى بن عبد الملك ابن أبي غَنِيَّة : ما رأيت أحداً أصفق[2] وجهاً في ذات الله عز وجل من سفيان الثوري .

---

(١) أي : قابض العشر من أموال الزكاة .

(٢) أصفق وجهاً : أي أوقع وجهاً في ذات الله .

وعن نصر بن قديد بن نصر بن سيار قال : حدثني أبي قال : قدمت المدينة ؛ فإذا حلقة سفيان الثوري ، فجئت فجلست إليه ، فقال له بعض أهل الحلقة : يا أبا عبد الله ؛ هـٰذا ابن نصر بن سيار ، فقال لي : قد رأيت أباك نصراً ، فقلت : يا أبا عبد الله . . أين ؟ قال : بخراسان ، كان لي حق فآجرت نفسي من قوم حمَّالين حتىٰ توصلت إلىٰ حقي ، ثم قال لي سفيان : لو لم ينبغي للأشراف أن يزهدوا في الدنيا إلا لأنها تضعهم وترفع السِّفْلة عليهم . . كان يحق لهم أن يزهدوا فيها .

وقال رجل لسفيان : كيف أصبحت يا أبا عبد الله ؟ فقال : تسألني كيف أصبحت وقد ـ والله ـ تحيرت ، اللهم ؛ أبرم لهـٰذه الأمة أمراً رشيداً ، يُعَز فيه وليك ، ويُذَل فيه عدوك ، ويؤمر فيه بالمعروف ، ويُنهىٰ فيه عن المنكر ، ثم تنفس سفيان ، فقال : كم من مؤمن قد رأيناه مات غيظاً .

وقال إبراهيم بن أَعْيَن : كنت مع سفيان وإسحاق بن القاسم والأوزاعي ، فدخل علينا عبد الصمد بعد المغرب ـ وهو أمير مكة ـ وسفيان يتوضأ ، وأنا أصب عليه ، وهو يقول : لا تنظر إلي أنا مبتلىٰ[1] ، فجاء عبد الصمد ، فسلم علىٰ سفيان ، فقال له سفيان : مَن أنت ؟ قال : أنا عبد الصمد بن علي ، فقال : كيف أنت ؟ اتق الله ، اتق الله ، وإذا كبَّرتَ . . فأَسمِع .

ومرض سفيان بالكوفة ، فبعث بمائه إلىٰ متطبب ، فلما نظر إليه . . قال : بَول مَن هـٰذا ؟ فقالوا : ما تسأل انظر ما ترىٰ فيه ، قال : أرىٰ بول رجل قد أحرق الحزنُ والخوفُ جوفَهُ .

وقال يحيى بن يمان : لقيني سفيان الثوري عند جبل بني فزارة ، فقال : أتدري مِن أين جئت ؟ قلت : لا ، قال : جئت من دار الصيادلة[2] ، نهيتهم عن كذا إثم ، قال : إني لأرى الشيء يجب عليَّ أن آمر فيه وأنهىٰ عنه . . فلا أُمَكَّن ، فأبولُ دماً .

وكان سفيان يقول للغلام إذا رآه في الصف الأول : أحتلمت ؟ فإذا قال : لا ، قال : تأخر .

وقال سفيان : الملكان يجِدان ريح الحسنات والسيئات إذا عقد القلب علىٰ ذلك .

---

(١) أي : موسوس في الوضوء .

(٢) **دار الصيادلة** : الدار التي كان يُصنع فيها الدواء المتعارف عليه قديماً كالأشربة والأدهان والكحل وما شابهها .

وقال سفيان : إذا طلعت الشمس من مغربها . . طوت الملائكة صحفها ، ووضعت أقلامها .

وسئل سفيان عن رجل إذا كسب درهماً كان فيه قُوتُه وقوت عياله ولا يدرك صلاة الجماعة ، وإن كسب أربعة دوانيق . . أدرك الصلاة في الجماعة وليس فيه ما يقوته ويقوت عياله ، أيهما أفضل ؟ قال : يكسب الدرهم الحلال ، ويصلي وحده .

وقال سفيان : إني لألقى الرجل أُبغضه ، فيقول لي : كيف أصبحت ؟ فيلين له قلبي ، فكيف بمن أكَلَ ثريدهم ووطِىء بساطهم ؟!

وقال سفيان : حُرِمتُ قيام الليل خمسة أشهر بذنب أحدثته ، وذلك إنِّي لم أُصَلِّ العشاء الآخرة في المسجد الحرام .

وصلَّىٰ سفيان المغرب بقوم ، فلما بلغ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ . . بكىٰ حتى انقطعت قراءته ، ثم عاد ، فقرأ ، حتىٰ إذا بلغ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ . . بكىٰ حتى انقطعت قراءته ، ثم عاد ، فقرأ (الفاتحة) كلها .

وقال سفيان : لو أن اليقين استقر في القلب كما ينبغي . . لطار فرحاً وحزناً شوقاً إلى الجنة ، أو خوفاً من النار .

وقال سفيان : إذا أردت أن تتعبد . . فأحرز الحنطة[1] .

وفي رواية : حتىٰ لا تمتد عينه إلىٰ أحد .

وقال سفيان : كُلْ ما شئت ، ولا تشرب ماء ؛ فإنك إذا لم تشرب . . لم يجئك النوم .

وعن عبد الرزاق قال : كان سفيان إذا اغتم . . رمىٰ بنفسه عند وهيب بن الورد ، فقال له : يا أبا أمية . . أترىٰ أحداً يتمنَّى الموت ؟ فقال وهيب : أما أنا . . فلا ، قال سفيان : أما أنا . . فوددت أني مِتُّ .

وقال سفيان : ما خالفتُ رجلاً في هواه . . إلا وجدته يغلي عليَّ .

وكان سفيان يديم النظر في المصحف ، فيوم لا ينظر فيه . . يأخذه فيضعه علىٰ صدره .

---

(١) **أحرز الحنطة** : ادخرها لوقت الحاجة إليها ، ويقصد بذلك : أن يعفه عما في أيدي الناس ، وأن يبعد همَّ طلب الرزق عن فكره حتىٰ لا ينشغل به عن العبادة .

وسئل الثوري : مَن آل محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال سفيان : لو حدثت عن صاحب العيال أنه كَفَرَ . . ما أبعدت .

وقال سفيان : ما أعطي رجل شيئاً من الدنيا . . إلا قيل له : خذه ومثله حرصاً[1] .

وقال سفيان لرجل : أتحب أن تخشى الله عز وجل حق خشيته ؟ قال : نعم ، قال : أنت أحمق ، ولو خفته حق خوفه . . ما أديت الفرائض .

وقال سفيان : إني لأسأل الله عز وجل أن يُذهِب عني من خوفه .

وقال قتيبة بن سعيد : لولا سفيان الثوري . . لمات الورع .

وقال سفيان : خذ لبدنك من الدنيا ما لا بد لك منه ، ومن الآخرة لقلبك ما لا بد لك منه .

وقال سفيان : عليك بالزهد . . يبصرك الله تعالىٰ عورات الدنيا ، وعليك بالورع . . يخففِ الله حسابك ، ودع ما يَريبك إلىٰ ما لا يَريبك ، وادفع الشك باليقين . . يَسلَمْ لك دينك .

وقال سفيان : إذا أردت أن تعرف قدر الدنيا . . فانظر عند مَن هي .

وقال سفيان : خير الدنيا لكم . . ما لم تبتلوا بها ، فإذا ابتليتم بها . . فخيرها لكم ما خرج من أيديكم منها .

وقال أبو أسامة : كان مَن يرىٰ سفيان الثوري يحسب أنه في سفينة يخاف الغرق ؛ لأنه أكثر ما تسمعه يقول : يا رب ؛ سَلِّمْ سَلِّمْ . انتهىٰ [« الحلية » ٧/ ٥ـ٢١] .

وقد روي : أن بعض الخلفاء كان مؤاخياً لسفيان الثوري رحمه الله قبل الخلافة ، فلما ولي الخلافة . . زاره العلماء وهنوه بما صار إليه وفيه ، وفَتح بيوت الأموال ، وأقبل يجيزهم بالجوائز السنية ، وكان قبل ذلك يجالس العلماء والزهاد ، ويظهر النسك والتقشف ، فلما صار خليفة . . هجره سفيان الثوري ولم يزره ، وطال ذلك على الخليفة ، فاشتاق إليه وإلىٰ رؤياه وإلى الحديث معه والأنس به ، فلم يزره ، ولم يعبأ بموضعه ، ولا بما صار إليه ،

---

(١) في « الحلية » : (حزناً) .

فاشتد ذلك على الخليفة ، فكتب إليه كتاباً أوله :

بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، من أمير المؤمنين فلان إلىٰ أخيه سفيان :

أما بعد : يا أخي ؛ فقد علمت أن الله تبارك وتعالىٰ آخىٰ بين المؤمنين ، وجعل ذلك فيه وله ، واعلم : أني قد واخيتك مؤاخاة لم أصرم منها حبلك ، ولم أقطع منها وُدَّكَ ، وإني منطوٍ لك علىٰ أفضل المحبة والإرادة في الأخوة ، ولولا هـٰذه القلادة التي قلدنيها الله عز وجل . . لأتيتك ولو حبواً ؛ لما أجد لك في قلبي من المحبة والإرادة ، واعلم يا أبا عبد الله : أنه ما بقي من إخواني وإخوانك أحد . . إلا وقد زارني وهنأني بما صرت إليه ، وقد فتحت بيوت الأموال ، وأعطيتهم من الجوائز السنية ما فرحت به نفسي ، وقرَّتْ به عيني ، وإني استبطأتك ، فلم تأتني ، وقد كتبت إليك كتاباً شوقاً مني شديداً ، وقد علمتَ ـ يا أبا عبد الله ـ ما جاء في فضل المؤمن وزيارته ومواصلته ، فإذا ورد عليك كتابي هـٰذا . . فالعجل العجل . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

قال : فلما كتب الكتاب . . التفت إلىٰ من عنده ؛ فإذا كلهم يعرفون سفيان وخشونته ، فقال : عليَّ برجل من الباب ، فأُدخل عليه رجل يقال له : عبَّاد الطالقاني ، فقال : يا عبَّاد ؛ خذ كتابي هـٰذا ، فانطلق به إلى الكوفة ، فإذا دخلتها . . فسل عن قبيلة بني ثور ، ثم سل عن سفيان الثوري ، فإذا رأيته . . فادفع كتابي هـٰذا إليه ، وَعِ بسمعك وقلبك جميع ما يكون منه ، فأحْصِ عليه دقيق أمره وجليله ؛ لتخبرني به ، فأخذ عَبَّاد الكتاب ، وانطلق به حتىٰ ورد الكوفة ، فسأل عن القبيلة ، فأُرشد إليها ، ثم سأل عن سفيان ، فقيل له : هو في المسجد .

قال عبَّاد : فأقبلت إلى المسجد ، فلما رآني . . قام قائماً ، وقال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، وأعوذ بك اللهم من طارق يطرقنا إلا بخير ، قال عبَّاد : فوقَعتِ الكلمة في قلبي ، فلما رآني نزلت بباب المسجد . . قام يصلي ولم يكن وقت الصلاة ، فربطت فرسي عند باب المسجد ودخلت ، فإذا جلساؤه قعود قد نكسوا رؤوسهم كأن علىٰ رؤوسهم الطير ، فسلمت ، فما رفع أحد منهم رأسه ، ولـٰكن ردوا السلام عليَّ [برؤوسهم] ، قال عبَّاد : فبقيت واقفاً ما منهم من أحد يعرض عليَّ الجلوس ولا يكلمني ، وقد علاني من هيبتهم الرعدة ، ومددت عيني إليهم ، فقلت في نفسي : إن المصلي هو سفيان ، وألقيت الكتاب إليه ، فلما رآه . . ارتعد وتباعد منه كأنه حية عرضت له في

محرابه ، فركع وسجد ، ثم سلَّم ، وأدخل يده في كمه ، ثم دحاه[1] إلىٰ من كان خلفه ، وقال : يأخذه أحدكم يقرؤه ؛ فإني أستغفر الله أن أمس شيئاً مسه ظالم بيده .

قال عبَّاد : فمدَّ بعضهم يده إليه ، وفتحه ، وهو كالخائف الوجل ، ثم قرأ ما فيه ، وأقبل سفيان يسمع ويتبسم تبسم المتعجب ، فلما فرغ من قراءته . . قال سفيان : اقلبوه ، واكتبوا إلى الظالم في ظهر كتابه ، فقيل له : يا أبا عبد الله ؛ إنه خليفة ، فلو كتبت إليه في قرطاس نقيٍّ ، قال : اكتبوا له في ظهر كتابه ؛ فإنه إن كان اكتسبه من حلال . . فسوف يُجزىٰ به ، وإن كان اكتسبه من حرام . . فسوف يَصلىٰ به ، ولا يبقىٰ عندنا شيء مسه ظالم بيده ، فيفسد علينا حالنا ، فقيل له : ما نكتب ؟ قال : اكتبوا :

بسم الله الرحمٰن الرحيم ، من العبد المذنب سفيان بن سعيد الثوري إلى العبد المغرور بالآمال ، الرافل[2] في أثواب النعم وهو من الشكر عريان ، فلان :

أما بعد : فإني قد كتبت إليك أُعلمك بأني قد صرمت حبلك[3] ، وقطعت وُدَّك ، وقليت[4] موضعك ، وإنك قد جعلتني شاهداً عليك بإقرارك علىٰ نفسك بما هجمتَ به علىٰ بيت مال المسلمين فأنفذته في غير حقه ، وأنفقته بغير حكمة ، ثم لم ترضَ بما فعلته ، وأنت ناء عني ، حتىٰ كتبت إلي تشهدني علىٰ نفسك ؟! أمَّا أنا . . فقد شهدت عليك مع إخواني الذين شهدوا قراءة كتابك ، وسنؤدي الشهادة عليك غداً بين يدي الله سبحانه وتعالىٰ ، بأنك هجمت علىٰ بيت مال المسلمين عن غير مشورة منهم ولا رضاهم ، هل رضي بذلك الفقراء والمساكين وأبناء السبيل ؟ أم هل رضي بذلك المؤلفة قلوبهم والعاملون عليها في أرض الله ؟ أم رضي بذلك المجاهدون في سبيل الله وأبناء المهاجرين والأنصار الذين بهم جلست هٰذا المجلس ؟ أم رضي بذلك أهل العلم وحملة القرآن والأرامل والأيتام ؟ هل رضي بذلك خلق من رعيتك ؟ فشُدَّ مئزرك للحساب ، وأعِدَّ للمسألة جواباً .

واعلم بأنك موقوف ومسؤول بين يدي الله الحكم العدل سبحانه وتعالىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ ، وقبل هٰذا فقد سُلِبْتَ حلاوةَ العلم والزهد ،

---

(١) **دحاه** : رماه .

(٢) **الرافل** : المتبختر الذي يجر ثوبه من العجب .

(٣) **صرم الحبل** : قطعه ، والمعنىٰ : قاطعتك وهجرتك .

(٤) **القلىٰ** : البغض .

ولذيذ مناجاة القرآن ، والتفكر في معانيه ، والجلوس مع الأخيار ، ورضيت لنفسك أن تكون ظالماً ، وللظالمين إماماً ، ما أرىٰ غرك إلا عاجل زينة الدنيا من الجلوس على الأسرة ، والأمر والنهي ، ولبس الحلل الفاخرة ، ولو لم يكن في ذلك إلا أنك قد تعجلت حظك من الآخرة . . لكان خسرانك في ذلك أكبر من الربح ، هـٰذا إن نجوت ، وكيف ينجو من كثر خصماؤه عند الله عز وجل ؟!

أمَا والله ؛ ما من أحد زِيْدَ في دنياه شيء . . إلا نقص من درجاته في الآخرة وإن كان عند الله كريماً ، كأني بك وقد أسبلت علىٰ أبوابك الستور ، وأجلست الأجناد الظلمة علىٰ تلك الأبواب ، وقلت : لا يدخل إلي إلا فلان وفلان ، واحتجبت عن ذوي الحاجات وأرباب الظُّلامات ، فلا يصل المظلوم إليك ، ولا مَن له حاجة يمكنه أن يتوصل إليك ، فإن جاء مظلوم . . طرده الأجناد الذين أقمتهم ببابك وأنت محجوب .

ثم إن هـٰؤلاء ـ مع ما فيهم من الظلم لأنفسهم ولك ـ قد أساؤوا التدبير ، وزادوا في العدوان ؛ فإنهم يَضرِبون الناس ولا يُضرَبون ، ويَشتِمون الناس ولا يُشتَمون ، ويَظلِمون الناس ولا يُظلَمون ، ويَشرَبون الخمر ويَضرِبون مَن شربها ، ويَزْنون ويحدون الزاني ، ويسرقون ويقطعون السارق ، أمَا علمت أن هـٰذه الأحكام عليك وعليهم سواء قبل أن تحكم [بها] على الناس ؟! وأنت المسؤول عن جميع ذلك ؛ فإنهم بك قاموا هـٰذا المقام ، فاستيقظ من غفلتك ، وتفقد أمور رعيتك ، وعُمَّهُم بالنصيحة ، ولا تحتجب عنهم ، وَبِعْ دنياك بآخرتك . . تَربحْهما جميعاً ، ولا تَبِعْ آخرتك بدنياك . . فتخسرهما جميعاً .

فكيف بك إذا نادى المنادي[1] من قبل الله تعالىٰ : ﴿ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾ ، أين الظلمة وأعوان الظلمة ؟ فجيء بك ويداك مغلولتان إلىٰ عنقك ، لا يطلقهما إلا عدلك هـٰذا ، والظالمون حولك ، والمظلومون متعلقون بك ، وكل واحد من رعيتك يسألك حظه من العدل منك ، وأنت تُساق إلى الحساب ، وقد أخذت بضيق الخناق ، فعند ذلك تعلم يقيناً أن الهول الأعظم ومفظعات الأمور أمامك ، فتدارك فوات حظك من الله عز وجل ، قبل ألاَّ يمكن التدارك ، ولا تُقال العثرات .

واعلم : أن حياتك أمامك ، فلا تتوانَ . . فتعطب ، وأنت ترىٰ حسناتك في ميزان

---

(١) في بعض النسخ : (إذا نادى المنادي : ليقم الظلمة وأعوان الظلمة ؛ قال تعالىٰ : ﴿ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ . . . ﴾) .

غيرك ، وسيئات . . غيرك في ميزانك علىٰ سيئاتك . . بلاء علىٰ بلاء ، وظلمة فوق ظلمة ، فاحتفظ بوصيتي ، واتعظ بموعظتي التي وعظتك بها ، فاتق الله فيما استرعاك ، واحفظ محمداً سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم في أمته ، وأحسن خلافتك عليهم ، واحذر أن تكون له بالرسالة شاهداً ، ويكون صلى الله عليه وسلم عليك بسوء الخلافة شهيداً .

واعلم : أن هـٰذا الأمر لو دام لغيرك . . ما وصل إليك ، وهو صائر إلىٰ غيرك ، وكذا الدنيا تنتقل بأهلها من شخص إلىٰ آخر ، فمنهم من يتزود زاداً ينفعه ، ومنهم من يخسر دنياه وآخرته ، وإني أخاف عليك أشد الخوف ، أعاذنا الله وإياك من السوء كله ، ووفقنا وإياك لما يرضيه عنا ، واحذر أن يراك الله عز وجل حيث نهاك ، ويفقدك حيث أمرك ، وقد نصحتك ، وما أبقيت لك في النصح غاية ، وإياك إياك أن تكتب إليَّ كتاباً بعد هـٰذا ، فلا أجيبك عنه . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

قال عبَّاد : ثم ألقى الكتاب إليَّ منشوراً غير مطوي ولا مختوم ، ولم يتكلم معي بشيء .

قال عبَّاد : فأخذت الكتاب ، وجئت إلىٰ سوق الكوفة وقد وقعت الموعظة من قلبي ، فناديت : يا أهل الكوفة ؛ فأجابوني ، فقلت لهم : يا قوم ؛ من يشتري رجلاً هرب من الله إلى الله ؟ فأقبَلوا إليَّ بالدنانير والدراهم ، فقلت : لا حاجة لي في المال ، ولـٰكن جبة صوف خشنة وعباءة قطوانية .

قال : فأُتيتُ بهما ، فلبستهما بعد أن نزعت ما كان عليَّ من اللباس الذي كنت ألبسه عند أمير المؤمنين ، ثم أقبلت أقود البرذون ، وعليه السلاح الذي كنت أحمله ، حتىٰ أتيت باب أمير المؤمنين حافياً راجلاً ، فلما رآني مَن بالباب . . هزأ بي ، ثم استؤذن لي ، فدخلت ، فلما نظر الخليفة إليَّ علىٰ تلك الهيئة . . قام قائماً ، ثم قعد ، ثم قام ثانياً ، وجعل يضرب بيديه ، ويقول : انتفع الرسول وخاب المرسِل ، ما لي وللدنيا ، ما لي ولمُلْك يزول عني سريعاً ؟!

قال عبَّاد : فألقيت الكتاب إليه كما دفعه إلي منشوراً ، فأقبل الخليفة يقرؤه ، وأنفاسه تتصعَّد ، ودموعه تنحدر من عينيه علىٰ خديه ، وهو يقرؤه ، ويشهق ، فقال بعض الحاضرين : يا أمير المؤمنين ؛ لقد اجترأ عليك سفيان ، فلو وجهت إليه فأثقلته بالحديد ، وضيقت عليه السجن . . كنت تجعله عبرة لغيره .

فقال الخليفة : اتركونا يا عبيد الدنيا ، المغرور من غررتموه ، والشقي من أهلكتموه ، إن سفيان أمة وحده ، فاتركوا سفيان وشأنه .

ثم إنه سألني عمَّا جرىٰ لي معه ، فحكيت له جميع ذلك ، ولم يزل كتاب سفيان إلىٰ جانب الخليفة يقرؤه في غالب الأوقات إلىٰ أن توفي رحمه الله تعالىٰ ، فرحم الله عبداً نظر لنفسه قبل حلول رمسه . أو كما قال . انتهىٰ .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : وقد حكى الغزالي وغيره : أن هـٰذه الحكاية جرت لهارون الرشيد مع سفيان رحمه الله ، وهو وَهَمٌ من ناسخ أو سبق قلم ؛ فإن سفيان الثوري لم يدرك خلافة الرشيد ، فإنه توفي سنة إحدىٰ وستين ومئة باتفاق المؤرخين في خلافة المهدي ، والصواب المقطوع به : هو ما ذكرناه ، فاعتمده ، وكذلك جميع ما تراه في كتابنا هـٰذا مما فيه مخالفة لما هو موجود في الكتب ؛ فإني حررت ذلك ، وفحصت عنه أشد الفحص ، فعليك به ، والله أعلم[1] .

وقال حجة الإسلام الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : يروىٰ عن سفيان الثوري أنه قال : لما حج المهدي . . رأيته في جمرة العقبة والناس يُخبَطون يميناً وشمالاً بالسياط ، فوقفت ، وقلت : يا حسن الوجه ؛ حدَّثَنا أيمن بن نائل ، عن قدامة بن عبد الله قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرمي الجمرة يوم النحر علىٰ جمل ، لا ضَرْبَ ، ولا طَرْدَ ، ولا إليك إليك[2] ، وها أنت تخبط الناس بين يديك يميناً وشمالاً ، فقال لرجل : مَن هـٰذا ؟ قال : سفيان الثوري ، فقال : يا سفيان ؛ لو كان المنصور . . ما احتملك علىٰ هـٰذا ، فقلت له : لو أخبرك المنصور بما لقي . . لأقصرتَ عما أنت فيه ، قال : فقيل له : إنه قال لك : يا حسن الوجه ، ولم يقل لك يا أمير المؤمنين ، فقال : اطلبوه ، فطلب سفيان ، فاختفىٰ رحمه الله[3] .

وعن سفيان قال : أُدخِلت علىٰ أبي جعفر المنصور بمنىٰ ، فقال : ارفع إلينا حاجتك ، فقلت له : اتق الله ، قد ملأت الأرض ظلماً وجوراً ، قال : فطأطأ رأسه ، ثم رفعه ، وقال : ارفع إلينا حاجتك ، قال : فقلت له : إنما أُنزِلْتَ هـٰذه المنزلة بسيوف المهاجرين والأنصار ، وأبناؤهم يموتون جوعاً ، فاتق الله ، وأوصل إليهم حقوقهم ، قال : فطأطأ رأسه ، ثم رفعه ، وقال : ارفع إلينا حاجتك ، فقلت : حَجَّ عمر بن الخطاب رضي الله

---

(١) الإحياء (٢/ ٣٥٣) .

(٢) أخرجه النسائي في « الكبرىٰ » (٢/ ٤٣٦) ، وابن ماجه (٣٠٣٥) .

(٣) الإحياء (٢/ ٣١٧) .

عنه ، فقال لخازنه : كم أنفقت ؟ قال : بضعة عشر ديناراً[1] ، وأرىٰ هـٰهنا أموراً لا تطيقها الجبال . ثم خرج .

قال الغزالي : فهـٰكذا كانوا يدخلون على السلاطين إذا أُكرِهوا ، فكانوا يخاطرون بأرواحهم في الانتصار لدِين الله عز وجل ، ويعلمون أنهم يُسألون عن هـٰذا الدخول ، وعما قالوا ، وأنه يجب عليهم النصح من حين يدخلون إليه إلىٰ حين يخرجون ، والله تعالىٰ أعلم . انتهىٰ [« الإحياء » ٢/١٤٦] .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : وعن محمد بن رافع قال : سئل عبد الرزاق يوماً : هل كان في سفيان الثوري شيء من العصبية ؟ قال : لا أدري ، إلا أنه قال يوماً : حدَّثَنا منصور ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله ، هات هـٰهنا مولىٰ .

وقال عبد الرزاق : اجتمع سفيان وأصحابه ، فقال سفيان : حدَّثَنا منصور ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله ، ثم قال : هـٰذا الشرف على الكراسي .

وقال سعد بن إبراهيم بن سعد عن أبيه قال : كنت مع سفيان الثوري في المسجد الحرام ، وكوَّم كومة من الحصباء ، فاتكأ عليه ، ثم قال : يا إبراهيم . . هـٰذا خير من أرمنيهم[2] .

وقال سفيان : وقع عندنا من هـٰذا الأمر شيء ، فوددنا أنا وجدنا من يرضىٰ حتىٰ نرمي به إليه .

وقال سفيان : لأن تدخل يدك في فم التنين . . خير لك من أن ترفعها إلىٰ ذي نعمة قد عالج الفقر .

وقال ابن المبارك : نظر سفيان الثوري بمكة إلى السودان[3] ، فقال : إن ذُنوباً سُلِّط علينا بها هـٰؤلاء . . لَذُنوب عظام .

وقال سفيان : الكتاب صلة الغياب ، وسمعت من يقول : صلة العتاب .

وعن وكيع قال : خرجنا مع الثوري في يوم عيد ، فقال : إن أول ما يُبدأ به في يومنا هـٰذا غض البصر .

---

(١) في « الإحياء » : (درهماً) .

(٢) في « الحلية » : (أسرَّتهم) . والأرمنية : نوع من الوسائد .

(٣) لعله قصد بالسودان : العباسيين ؛ لأن شعارهم كان الرايات السوداء .

وقال سفيان : ما شبهت خروج المؤمن من الدنيا إلى الآخرة . . إلا مثل خروج الصبي من بطن أمه من ذلك الغم إلىٰ روح الدنيا .

وقال ابن المبارك : قال لي سفيان : إياك والشهرة ، فما أتيت أحداً . . إلا وقد نهاني عن الشهرة .

وقال علي بن حمزة ابن أخت سفيان : ذهبت بِبَوْلِ سفيان إلى الديراني ، وكان لا يخرج من باب الدير ، فأريته ، فقال : ليس هـٰذا بول حنيفي ، قلت : بلىٰ والله من أفضلهم ، قال : فأنا أجيء معك إليه ، فقلت لسفيان : قد جاء ، قال : أدخله ، فأدخلته ، فمس نبضه ، وجس عرقه ، ثم خرج ، فقلت : أَيش رأيت ؟ فقال : ما ظننت أن في الحنيفية مثل هـٰذا ، هـٰذا رجل قد قطع الحزن كبده .

وقال يوسف بن أسباط : كان سفيان من شدة تفكره يبول الدم .

وعن إبراهيم بن بسام قال : سمعت سفيان يقرأ علىٰ علي بن الحسن : يا أخي ؛ لا تغبط أهل الشهوات بشهواتهم ، ولا ما يتقلبون فيه من النعمة ؛ فإن أمامهم يوماً تُزَلزَل فيه الأقدام ، وترعد فيه الأجساد ، وتتغير فيه الألوان ، ويطول فيه القيام ، ويشتد فيه الحساب ، وتتطاير فيه القلوب ، حتىٰ تبلغ الحناجر ، فيا لها من ندامة علىٰ ما أصابوا من هـٰذه الشهوات ، واجعل كسبك فيما يكون لك ، ولا تجعل كسبك فيما يكون عليك ؛ فإن الذي يقدم ماله ويعطي حق الله تعالىٰ منه . . فمالُه له وأفضل منه ، والذي يخلف ماله ويضيع حق الله تعالىٰ فيه . . فمالُه وبالٌ عليه يوم القيامة ، اكسب حلالاً ، واجلس مع مَنْ كسبُه حلال ، وكُلْ طعامَ مَنْ كسبُه حلال ، وليكن أهل مشورتك مَنْ كسبُه حلال ؛ فإن الورع ملاك الدين واستكمال أمر الآخرة .

واعلم يا أخي : أنه لا يمتنع أحد عن الحرام . . إلا مَن هو مشفقٌ علىٰ لحمهِ ودمه ، فإنما دِينك لحمك ودمك ، واجتنب الحرام ، ولا تجلس مع من يكسب الحرام ، ولا تأكل مع مَن كسبُه حرام ، ولا تَدُلَّ أحداً على الحرام ، وانصح لكل بر وفاجر أَلاَّ يأخذه ، فإن فعلت من ذلك شيئاً . . فأنت عون له ، والعون شريك ، وإياك والظلم ، وأن تكون عوناً للظالم ، أو أن تصحبه ، أو تؤاكله ، أو تبتسم في وجهه ، أو تنال منه شيئاً ، فتكون عوناً له ، والعون شريك ، ولا تخالفن أهل التقوىٰ ، وإياك والأهواء ؛ فإن أولها وآخرها باطل ، ولكل ذنب توبة ، وترك الذنب أيسر من طلب التوبة ، وإن الله سبحانه غفور لأهل المعاصي ، رحيم

للتوابين ، حليم ودود ، فإياك أن تزداد بحلمه عنك سبحانه وتعالىٰ جرأة علىٰ معصيته ؛ فإن الله عز وجل لم يرض لأحد من رسله ، ولا من أنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين شيئاً من النقائص ، ولا لأحد من خلقه وعباده شيئاً من المعصية والحرام والظلم ، فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾ ، ثم قال للمؤمنين : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ ﴾ ، ثم أجملها فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴾ .

وإياك أن تتهاون بالذنب الصغير ، فتقدم عليه ولا تتداركه ، فلا تنظر إلىٰ صغره ، ولٰكن انظر إلىٰ عظمة من عصيت ، إنما الذي عصيتَه رَبّاً عظيماً سبحانه وتعالىٰ ، يعاقب على الصغير ، ويتجاوز عن الكبير[1] ، وإن أكيس الكَيْس من يدخل الجنة بذنب قد عمله فنصبه بين عينيه ، ثم لم يزل حذراً علىٰ نفسه من تلك الخطيئة ، حتىٰ فارق الدنيا ، فدخل الجنة ، وإن أحمق الحمق من دخل النار بحسنة واحدة ، نصبها بين عينيه ، ولم يزل يذكرها ، ويرجو ثوابها ، ويتهاون بالذنوب ، حتىٰ فارق الدنيا ، ودخل النار .

فكن ـ يا أخي ـ كيِّساً حذِراً علىٰ ما قد زل منك ومضىٰ ، لا تدري ماذا يفعل بك ربك سبحانه وتعالىٰ فيه ، وما بقي من عمرك لا تدري ماذا يحدث لك فيه ؛ فإن إبراهيم خليل الرحمٰن عليه الصلاة والسلام حذر علىٰ نفسه ، فسأل ربه سبحانه وتعالىٰ فقال : ﴿ وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴾ ، وقال يوسف عليه الصلاة والسلام : ﴿ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ ، وقال موسىٰ عليه الصلاة والسلام : ﴿ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ ، وقال شعيب عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ﴾ .

فهٰؤلاء أنبياؤه ورسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، خافوا علىٰ أنفسهم ، وإنما المسلم مَن سَلِمَ المسلمون من يده ولسانه .

وعن الفريابي قال : قدم سفيان الثوري بيت المقدس ، فأقام ثلاثة أيام ، وصلىٰ عند باب الرحمة ، وعند محراب داوود عليه الصلاة والسلام ، ورابط بعسقلان أربعين يوماً .

قال : وصحبت سفيان الثوري من عسقلان إلى المدينة ، فكان يخرج النفقة ، ونخرج

---

(١) جاء في هامش نسخة : (قال صاحب « الحكم » رحمه الله : لا صغيرة إذا قابلت عدله ، ولا كبيرة إذا واجهت فضله) .

معه نفقتنا ، فندفعها إلىٰ رجل ، فينفق علينا ، فكنا إذا وضعنا سفرتنا . . لم يَرُدَّ أحداً من السُّؤَّال إلا أعطاه ، حتىٰ لا يبقىٰ شيء ، فكان بعضنا إذا رآه يصنع ذلك . . يأخذ خبزه ، ويتنحىٰ فيأكل .

وقال سفيان : ما رأينا للإنسان شيئاً خيراً له من أن يدخل جحراً .

وقال سفيان : الناس عندنا مسلمون مؤمنون ، ولـٰكن ما ندري ما هم عند الله سبحانه وتعالىٰ .

وقال وكيع : سمعت سفيان الثوري يقول : الناس عندنا مؤمنون في المناكحة والأحكام والطلاق ، وأما عند الله عز وجل . . فلا ندري ، نحن أهل ذنوب .

وعن عبد الله بن يونس : سمعت رجلاً يقول لسفيان : رجل يكذِّب بالقَدَرِ ، أصلي وراءه ؟ قال : لا تقدِّموه ، قال : هو إمام القرية ، ليس لهم إمام غيره ، قال : لا تقدموه ، لا تقدموه ، وجعل يصيح .

وفي رواية أخرىٰ : قال : البدعة لا يُتاب منها ، وهي أحب إلىٰ إبليس من المعصية ؛ لأن المعصية يتاب منها ، والبدعة لا يتاب منها .

وقال يحيى بن يمان : من أصغىٰ بسمعه إلىٰ صاحب بدعة . . فقد خرج من عصمة الله عز وجل .

وقال سفيان : إذا ذُكر الرجل الذي مات . . فلا تنظر إلىٰ قول العامة فيه ، ولـٰكن انظر إلىٰ قول أهل العلم والعقل .

وعن عطاء بن مسلم قال : قال لي سفيان : إذا كنت بالشام . . فاذكر مناقب علي رضي الله عنه ، وإذا كنت بالكوفة فاذكر مناقب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما .

وقال عمرو بن حسان : كان سفيان الثوري رحمه الله نِعم المداوي ، إذا دخل البصرة . . حدث بفضائل علي رضي الله عنه ، وإذا دخل الكوفة . . حدث بفضائل عثمان رضي الله عنه .

وعن محمد بن الصباح قال : سمعت شعيب بن حرب يقول : ذكروا سفيان الثوري عند عاصم بن محمد ، فذكروا مناقبه ، حتىٰ عدوا خمس عشرة منقبة ، فقال لهم : فرغتم ؟ إني لأعرف فيه فضيلة أفضل من هـٰذه كلها ؛ سلامة صدره لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال سفيان الثوري : منعَتْنا الشيعة أن نذكر فضائل علي رضي الله عنه .

وقال سفيان : مَن قدَّم علياً رضي الله عنه علىٰ أبي بكر وعمر رضي الله عنهما . . فقد أزرىٰ على المهاجرين والأنصار ، وأخشىٰ ألاَّ ينفعه مع ذلك عمل .

وقال سفيان رحمه الله تعالىٰ : ما أحب الله عز وجل عبداً فأبغضه أحد ، ولا أبغضه فأحبه أحد ، وإن الرجل ليعبد الأوثان وهو عند الله سبحانه وتعالىٰ محبوب سعيد .

وكان الثوري حَسَنَ المطعم ، وقال : إن الدابة إذا لم تحسِنْ إليها في علْفِها . . لم تعمل .

وقال سفيان : خالفَتْنا المرجئة[1] في ثلاث : نحن نقول : الإيمان قول وعمل ، وهم يقولون : الإيمان قول بلا عمل ، ونحن نقول : يزيد وينقص ، وهم يقولون : لا يزيد ولا ينقص ، ونحن نقول : نحن مؤمنون بالإقرار ، وهم يقولون : نحن مؤمنون عند الله عز وجل .

وقال سفيان : ليس أحد أبعد عن كتاب الله عز وجل من المرجئة .

وقال سفيان الثوري : عليكم بما عليه الحمالون والنساء في البيوت والصبيان في الكتَّاب من الإقرار والعمل .

وعن يحيى بن المتوكل قال : سمعت سفيان الثوري يقول : إذا أثنىٰ على الرجل جيرانه أجمعون . . فهو رجل سوء ، قالوا لسفيان : كيف ذاك ؟ قال : يراهم يعملون بالمعاصي ، فلا ينكر عليهم ، ويلقاهم بوجه طلق .

وقال سفيان : كان يقال : من كانت سريرته أفضل من علانيته . . فذلك الفضل ، ومن كانت سريرته شراً من علانيته . . فذلك الجور .

وقال سفيان : بلغني أن العبد يعمل العمل سراً ، فلا يزال به الشيطان حتىٰ يغلبه ،

---

(١) **المُرْجِئَة** : مِن الإرجاء وهو التأخير ، وسميت هٰذه الفرقة بالمرجئة ؛ لأنهم يعتقدون أن الله أرجأ تعذيبهم على المعاصي ، وقيل أيضاً في سبب تسميتهم بهٰذا الاسم : إنهم قالوا : الإيمان قول بلا عمل ، فكأنهم قدموا القول وأرجؤوا العمل ؛ أي : أخَّروه ، فلا يضر مع الإيمان معصية ، وهٰذا يتنافىٰ مع ما ورد في كتاب الله عز وجل من اقتران الإيمان مع العمل الصالح كوحدة أساسية للنجاة يوم القيامة ، والشواهد كثيرة ، منها : قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ .
ويقال : إن أول من وضع أسس الإرجاء : غيلان الدمشقي .

فيكتب فيه العلانية ، ثم لا يزال الشيطان به حتىٰ يحب أن يحمد عليه ، وينسخ من العلانية ، ويثبت في الرياء .

وجاء زائدة بن قدامة إلىٰ سفيان الثوري ، فلما رآه . . انتهره وصاح به ، فقيل له : ما شأنه ؟ فقال : إن شريكاً أُمر بمال يقسمه ، فولاَّه هـٰذا ، ثم قال له سفيان : إن شريكاً لم يُصِبْ لدنسه أحداً غيرك .

وقال سفيان : ما قاتل علي رضي الله عنه أحداً . . إلا كانوا هم الفئة الباغية .

وقال سفيان : لا يجتمع حُبُّ علي وعثمان . . إلا في قلوب نبلاء الرجال .

وقال سفيان : لا يستقيم قول . . إلا بعمل ، ولا يستقيم قول وعمل . . إلا بِنيَّة ، ولا يستقيم قول وعمل ونية . . إلا بموافقة السُّنَّة . انتهىٰ [« الحلية » ٧/ ٢١ـ٣٢] .

وقال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : كان سفيان الثوري رحمه الله يقول : من دعا رجلاً إلىٰ طعامه وليس له رغبة في أن يأكل ، إن أجابه . . فعليه وزران ، وإن لم يأكل . . فعليه وزر واحد ، أراد بأحد الوزرين النفاق ، والوزر الثاني تعريضه أخاه لما يكره لو علمه[١] .

وقال سفيان : كثرة النساء ليس من الدنيا ؛ لأن علياً رضي الله عنه كان أزهد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان له أربع نسوة وسبع عشرة سرِّية[٢] ، فالنكاح سنة ماضية ، وخلق من أخلاق الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين[٣] .

وقال سفيان : من أنفق من الحرام في طاعة الله عز وجل . . كان كمن طهَّر الثوب بالبَول[٤] .

ولقد سئل سفيان رحمه الله عن ظالم أشرف على الهلاك في برِّيَّة : هل يسقىٰ شربة ماء ؟ فقال : لا ، دعه يموت ؛ فإن ذلك إعانة له[٥] .

وكان سفيان رحمه الله يبكي ، فقيل له : علىٰ ماذا تبكي ؟ فقال : بكينا على الذنوب زماناً ، فالآن نبكي على الإسلام[٦] .

---

(١) الإحياء (٤/ ٣٧٣) .
(٢) السُّرِّيَّة : الجارية المملوكة .
(٣) الإحياء (٢/ ٢٣) .
(٤) الإحياء (٢/ ٩١) .
(٥) الإحياء (٢/ ٤٤) .
(٦) الإحياء (٤/ ١٧٨) .

وقال سفيان : هـٰذا زمان سوء ، لا يأمن فيه الخامل ، فكيف على المشهورين ؟! هـٰذا زمان ينتقل فيه الرجل من بلد إلىٰ بلد ، كلما عُرِف في موضع . . تَحوَّل إلىٰ غيره . انتهىٰ [« الإحياء » ٢/٤٨] .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال سفيان الثوري : من سمع ببدعة . . فلا يحكها لجلسائه ، ولا لغيرهم ، ولا يُلقِها في قلوبهم . أو كما قال .

وقال سفيان ليوسف بن أسباط : يا يوسف ؛ إذا بلغك عن رجل بالمشرق أنه صاحب سُنَّة . . فابعث إليه بالسلام ، وإذا بلغك عن آخر بالمغرب أنه صاحب سُنَّة . . فابعث إليه بالسلام ؛ فقد قَلَّ أهل السُّنَّة والجماعة .

وقال سفيان : إذا أحببت رجلاً في الله سبحانه وتعالىٰ ثم أحدث حدثاً في الإسلام ، فلم تُبغِضه عليه . . لم تكن محبتك لله عز وجل .

وعن عبد الواحد ، عن سفيان قال : إنما هو اختيار ، أو اختبار ، أو عقوبة ، قال : فحدثت به محموداً وناظرته فيه ، فقلت له : الاختيار ينبغي أن يرضىٰ به ، والاختبار ينبغي أن يصبر عليه ، والعقوبة ينبغي أن يتوب منها .

وقال سفيان : كان بعض الفقهاء يتوضأ من الغِيبة كما يتوضأ من الحدث .

ثم قال : أحسِن سريرتك . . يُحْسِنِ الله علانيتك ، وأحسن فيما بينك وبين الله . . يُصلِحِ الله فيما بينك وبين الناس ، واعمل لآخرتك . . يَكْفِك الله أمر دنياك ، بِعْ دنياك بآخرتك . . تربحهما جميعاً ، ولا تبع آخرتك بدنياك . . فتخسرهما جميعاً .

وقال بشر بن الحارث رحمه الله : الذي أنا عليه ، بل كل الذي أنا عليه « جامع سفيان » رحمه الله .

وقال سفيان الثوري : ما سألت أبا حنيفة عن شيء قط ، وربما لقيني سألني .

وعن أبي إسحاق الفزاري قال : سمعت الأوزاعي يقول : إذا مات ابن عون وسفيان الثوري . . استوى الناس .

وقال سفيان : كان يقال : تعوذوا بالله عز وجل من فتنة العابد الجاهل والعالم الفاجر ؛ فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون .

وقال سفيان الثوري : إني لأعرف حب الرجل للدنيا بتسليمه علىٰ أهل الدنيا .

وعن عيسى بن يونس قال : كان سفيان إذا رأىٰ رجلاً عليه قلنسوة شاشية . . لم يحدثه .

وقال سفيان : جالَست يوماً سعيد بن السائب الطائفي ، فجعل سعيد يبكي حتىٰ رحمته ، فقلت له : يا سعيد ؛ ما الذي يبكيك إذا سمعتني أذكر أهل الجنة ؟ فقال : يا سفيان ؛ وما يمنعني أن أبكي وإذا ذُكِرَتْ مناقب أهل الخير . . رأيتُني منها بمعزِل ؟!

وقال سفيان : بلغني أنه يأتي على الناس زمان تمتلىء قلوبهم في ذلك الزمان من حب الدنيا ، فلا تدخله الخشية .

وقال محمد بن النعمان : كان سفيان بمكة فمرض ، ومعه الأوزاعي ، فدخل عليه عبد الصمد بن عليٍّ ، فحول وجهه إلى الحائط ، فقال الأوزاعي لعبد الصمد : إن أبا عبد الله سهر البارحة ، فلعله أن يكون نائماً ، فقال سفيان : لست بنائم ، لست بنائم ، فقام عبد الصمد ، فقال الأوزاعي لسفيان : أنت رجل مستقتل ، لا ينبغي لأحد أن يصحبك .

وعن مفضل بن مهلهِل قال : خرجت حاجّاً مع سفيان ، فلما صرنا إلىٰ مكة . . وافينا الأوزاعي بها ، فاجتمعنا في دار ، وكان على الموسم عبد الصمد بن عليٍّ الهاشمي ، فدق الباب ، قلنا : مَنْ ؟ قال : الأمير ، فقام الثوري ، فدخل المخرج[1] ، وقام الأوزاعي فتلقاه ، فقال له عبد الصمد : مَن أنت أيها الشيخ ؟ قال : الأوزاعي ، قال : حياك الله بالسلام ، أمَا إنَّ كتبك كانت تأتينا ، فنقضي حوائجك ، ما فعل سفيان الثوري ؟ قال : قلت : دخل المخرج ، قال الأوزاعي : ثم دخلت في إثره ، وقلت له : إن هـٰذا الرجل ما قصد إلا قَصْدَك ، فخرج سفيان مقطِّباً[2] ، فقال : السلام عليكم ، كيف أنتم ؟ فقال له عبد الصمد : أتيتك أكتب هـٰذه المناسك عنك ، فقال له سفيان : أَوَلا أدلك علىٰ ما هو أنفع لك منها ؟ قال : وما هو ؟ قال : تدع ما أنت فيه ، قال : كيف أصنع بأمير المؤمنين أبي جعفر ؟ فقال : إن أردت الله عز وجل . . كفاك أبا جعفر ، فقام عبد الصمد وخرج ، فقال الأوزاعي لسفيان : يا أبا عبد الله ؛ إن هـٰؤلاء لا يَرضَون منك إلا بالإعظام لهم ، فقال له : يا أبا عمرو ؛ إنا لسنا نقدر علىٰ أن نضربهم ، وإنما نؤذيهم بمثل هـٰذا الذي ترىٰ ، قال مفضل : فالتفتَ إلي الأوزاعي ، وقال : قُمْ بنا مِن هـٰهنا ؛ فإني لا آمن أن يبعث عبد الصمد من يضع في رقابنا حبالاً ، وإن هـٰذا ما يبالي .

---

(١) **المخرج** : موضع قضاء الحاجة .
(٢) **مُقَطِّباً** : عابساً .

وقال سفيان : ما رأينا الزهد في شيء أقل منه في الرئاسة ، نرى الرجل يزهد في المطعم والمشرب والمال والثياب ، فإذا نوزع الرئاسة . . حامىٰ عليها وعادىٰ .

وقال : النظر إلىٰ وجه الظالم خطيئة ، ولا تنظروا إلى الأئمة المضلين إلا بالإنكار من قلوبكم عليهم ؛ لئلا تحبط أعمالكم .

وقال : لا تنظروا إلىٰ دورهم ولا إليهم إذا مروا على المراكب .

وبعث محمد بن إبراهيم الهاشمي إلىٰ سفيان الثوري بمئتي دينار ، فأبىٰ أن يقبلها ، فقيل له : يا أبا عبد الله ؛ كأنك لا تراها حلالاً ، فقال : بلىٰ ، ما كان آبائي وأجدادي . . إلا في العطية ، ولٰكن أكره أن أذل لهم .

وقال أبو شهاب : كنت ليلة مع سفيان الثوري ، فرأىٰ ناراً من بعيد ، فقال : ما هٰذا ؟ فقلت : نار صاحب الشرطة ، فقال : اذهب بنا في طريق آخر حتىٰ لا نستضيءَ بنارهم .

وعن عطاء بن مسلم قال : لما استُخلف المهدي . . بعث إلىٰ سفيان ، فلما دخل . . خلع خاتمه ، فرمىٰ به إليه ، وقال : يا أبا عبد الله ؛ هٰذا خاتمي ، فاعمل في هٰذه الأمة بالكتاب والسُّنَّة ، فأخذ الخاتم بيده ، وقال : أتأذن في الكلام يا أمير المؤمنين ؟ قال عبيد : قلت لعطاء : يا أبا مخلد ، قال له : يا أمير المؤمنين ، قال : نعم ، قال : أتكلم علىٰ أني آمن ؟ قال : نعم ، قال : لا تبعث إلي حتىٰ آتيك ، ولا تعطني شيئاً حتىٰ أسألك ، قال : فغضب مِن ذلك وَهَمَّ به ، قال له كاتبه : أليس قد أمَّنته يا أمير المؤمنين ؟ قال : بلىٰ ، ثم قام ، فخرج ، فلما خرج . . حف به أصحابه ، فقالوا : ما منعك يا أبا عبد الله وقد أمرك أن تعمل في هٰذه الأمة بالكتاب والسُّنَّة ، قال : فاستصغر عقولهم ، ثم خرج هارباً إلى البصرة .

وقال داوود ، عن أبيه قال : كنت مع سفيان الثوري رحمه الله ، فمررنا بشرطي نائم ، وقد حان وقت الصلاة ، فذهبت أحركه ، فصاح سفيان : مَهْ ، قلت : يا أبا عبد الله ؛ يصلي ، قال : دعه لا صلى الله عليه ، فما استراح الناس حتىٰ نام هٰذا .

وقال سفيان : إن استرشدك أحد من هٰؤلاء الطريق . . فلا تُرشده .

وقال ابن مهدي : سمعت سفيان الثوري يقول : لما أُخِذت فأُدخلت على المهدي . . قلت : قد وقعتِ يا نفس فاستمسكي ، فلما دخلت . . فإذا إلىٰ جنبي وزيره أبو عبيد الله ، فقال لي أبو عبيد الله : ألست سفيان الثوري ؟ قلت : بلىٰ ، فقال : إن كتبك لتأتينا أحياناً ، فنقضيها ، قلت : ما كتبت إليك كتاباً قط ، قال : فأي شيء دخله ؟!

وقال سفيان : ما يريد مني أبو جعفر ؟ فوالله ؛ لئن قمت عنده . . لأقولن له : قم من مقامك ، فغيرُك أولىٰ به منك .

وقال ابن المبارك : قيل لسفيان : لو دخلت عليهم ؟ فقال : إني أخشىٰ أن يسألني الله عز وجل عن مقامي : ما قلت فيه ؟ فقيل له : تقول وتتحفظ ، قال : أفتأمروننني أن أسبَح في البحر ولا تبتل ثيابي ، والله ؛ ليس أخاف ضربهم ، وإنما أخاف أن يَميلوا عليَّ بدُنياهم ، ثم لا أرىٰ سيئتهم سيئة ، أو قال : سيئهم سيئاً .

وقال سفيان : أدخلت علىٰ أبي جعفر المنصور ، فقلت له : اتق الله ؛ فإنما أُنزِلْتَ هـٰذه المنزلة وصرت في هـٰذا الموضع بسيوف المهاجرين والأنصار ، وأبناؤهم يموتون جوعاً ، حج عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فما أنفق إلا خمسة عشر ديناراً ، وكان ينزل تحت الشجر ، فقال لي : أتريد أن أكون مثلك ؟ قلت : لا تكن مثلي ، ولـٰكن كن دون ما أنت فيه ، وفوق ما أنا فيه ، فقال لي : اخرج .

وعن محمد بن عاصم بن يزيد قال : سمعت أَبي يقول : كتب سفيان معي كتاباً إلى المهدي وإلىٰ وزيره أبي عبيد الله يعقوب بن داوود ، فلما دخلت عليه . . جرى الكلام بيني وبينه ، فقال المهدي : لو جاءنا أبو عبد الله . . لوضعنا أيدينا في يده ، وارتدينا برداء ، واتزرنا بآخر ، وخرجنا إلى السوق ، فأمرنا بالمعروف ، ونهينا عن المنكر ، فإذا توارىٰ عنا مثل أبي عبد الله . . كيف أصنع ؟ لقد جاءني قُرَّاؤكم الذين هُمْ قراؤكم ، فأمروني ونهوني ، ووعظوني ، وبكوا ـ والله ـ لي ، وتباكيت لهم ، ثم لم يَفْجَأْني من أحدهم أن أَخرَجَ من كمه رقعة ، افعل لي كذا ، وافعل لي كذا ، ففعلت ذلك لهم ، ومقتُّهُم عليه ، وإنما كتب سفيان إليه أن يعطيه الأمان ؛ لأنه طال مهربه ، فكتب إليه بالأمان ، فمات قبل وصول الأمان .

وفي رواية أخرىٰ عنه قال : قلت : يا أبا عبد الله ؛ إنك توجهني إلى المهدي ، وأنا غلام غر لَعَلِّي أسقط بشيء ، فلا يكون مرضياً عندك ، فقال لي : قل ما تعلم ، ولا تقل ما لا تعلم .

قال محمد : قال أبي : فلما رجعت إلىٰ سفيان . . قلت له : لأي شيء تهرب من هـٰذا الرجل ؟ والرجل يقول : لو جاءنا . . لخرجت معه إلى السوق ، فأمرْنا ونهَيْنا ، فقال : يا ناعس ؛ حتىٰ يتقي الله عز وجل ، ويدفع الحق إلىٰ أربابه ، فإذا فعل ذلك . . اجتمعت به .

وقال يحيى بن سعيد : أملىٰ عليَّ سفيان الثوري كتاباً كتبه إلى المهدي ، فقال : اكتب :

من سفيان بن سعيد إلىٰ محمد بن عبد الله ، فقلت : إذا كتبت هـٰذا . . لم يقرأه ، فقال : اكتب كما تريد ، فكتبت ، ثم قال : اكتب : بأني أحمد الله إليك الذي لا إلـٰه إلا هو تبارك وتعالىٰ :

أما بعد : فإنك طردتني وشردتني وخوفتني ، واللهُ بيني وبينك ، وأرجو أن يخِير الله عز وجل لي قبل مرجوع الكتاب ، قال : فرجع الكتاب وقد مات رحمه الله .

وقال سفيان : أُدخِلت على المهدي فقال : ارفع إلينا حاجتك ، فقلت : قد ملأتَ ظهر الأرض ظلماً وجَوراً ، فاتق الله ، وأزل هـٰذه المظالم ، فطأطأ رأسه ، ثم رفعه ، وقال : أرأيت إن لم أستطع رفعه ؟ قال : قلت : تخليه لغيرك ، قال : فطأطأ رأسه ، ثم قال : ارفع إلينا حاجتك ، قال : قلت : أبناء المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بإحسان بالباب ، فاتق الله ، وأوصل إليهم حقوقهم ، قال : فطأطأ رأسه ، فقال أبو عبيد الله وزيره : أيها الرجل ؛ ارفع إلينا حاجتك ، فقلت : وما أرفع ؟ حدثني إسماعيل بن خالد قال : حَجَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال لخادمه : كَمْ أنفقتَ ؟ قال : بضعة عشر ديناراً ، وأرىٰ هـٰهنا أموراً لا تطيقها الجبال .

وقال يوسف بن أسباط : قال سفيان : من دعا لظالم بالبقاء . . فقد أحب أن يُعصى الله عز وجل .

وقال : قال عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام : تقرَّبوا إلى الله سبحانه وتعالىٰ ببغض أهل المعاصي ، والتمسوا رضوانه بالتباعد منهم ، قالوا : فمَن نجالِس ؟ قال : مَن يذكِّركم الله تعالىٰ رؤيتُه ، ويرغبكم في الآخرة عملُه ، ويزيد في فهمكم منطقُه .

وقال عبد الله بن الفرج ـ مولىٰ معن بن زائدة ـ قال : طُلِبَ الثوري ، فصار إلى اليمن ، فأخبرت معن بن زائدة بقدومه ، فأمَّنَه ، وأمر له بألف دينار ، فأبىٰ أن يقبلها ، فلما كان أوان الحج . . ترك عندي عباءة له ، كان يتمسح فيها للصلاة ، فلم ألقه إلا بالموقف ، فقال لي : ما فعلت العباءة ؟ قلت : حاضرة ، قال : هاتها ، فأعطيته إياها ، فلما قضىٰ حجه . . سار إلى البصرة ، فنزل علىٰ بَقَّالٍ في جوار يحيى بن سعيد ، وعبد الرحمـٰن بن مهدي ، قال عبد الله : فقال لي البَقَّال : ما زال ليلة مات يقوم ويتمسح للصلاة حتىٰ عددت له خمسين مرة ، ثم مات من آخر الليل رحمه الله .

ولقي سفيان الثوري شُريكاً بعدما ولي قضاء الكوفة ، فقال : يا أبا عبد الله ؛ بعد الفقه

والخير تلي القضاء وصرت قاضياً ؟! فقال له شريك : يا أبا عبد الله ؛ لا بد للناس من قاض ، فقال له سفيان : لا بد للناس من شرطي!

وعن محمد بن سابق قال : كنت جالساً عند سفيان حين استُقضِي شريك ، فقال : أيما رجل أفسد ، لـٰكن منصور بن المعتمر أخذه داوود بن علي ، فأقامه حتىٰ ورمت قدماه ، فدفع إليه العهد ، فوضعه في كوة بيته ، فلم يخرجه حتىٰ مات رحمه الله .

وقال بشر بن الحارث رحمه الله : سمعت يحيى بن يمان يقول : تقاوم سفيان وإبراهيم بن أدهم ليلة إلى الصبح ، وكانا يتذاكران ، فقيل : يا أبا نصر ؛ في أي شيء ؟ قال : في أمور المسلمين .

وقال سفيان : ينبغي لأهل الميت أن يلقنوه الشهادة ؛ فإنه إذا سقي شربة الموت لو وجد بيده سيفاً وقدر أن يضرب أباه . . لفعل .

وقال عطاءٌ الخفاف : ما لقيت سفيان الثوري إلا باكياً ، فقلت : ما شأنك ؟ فقال : أخاف أن أكون في أم الكتاب شقياً .

وعن عبد العزيز ابن أبي خالد قال : مر سفيان بالغاضري وهو يتكلم ببعض ما يُضحك الناسَ ، فقال له : يا شيخ ؛ أما علمت أن لله يوماً يخسر فيه المبطلون ؟ قال : فما زالت تُعرف في وجه الغاضري حتىٰ لقي الله عز وجل .

وعن أبي بكر بن محمد العابد قال : قلت لسفيان : دلني علىٰ رجل أجلس إليه ، فقال : تلك ضالة لا توجَد .

وسئل سفيان : بمَ عرفت ربك سبحانه وتعالىٰ ؟ فقال : بفسخ العزم ، وترك الهمة .

وجاء سفيان إلىٰ صيرفي بمكة ، اشترىٰ منه دراهم بدينار ، فأعطاه الدينار ، وكان معه دينار آخر ، فسقط من سفيان ، فطلبه ؛ فإذا دينار إلىٰ جانبه ، فقال له الصيرفي : خذ دينارك ، قال : ما أعرفه ، قال : الناقص ، قال : فلعله الزائد ، فتركه ومضىٰ .

وقال يوسف بن أسباط : قال لي سفيان ونحن في المسجد الحرام : يا يوسف ؛ ناولني المطهرة أتوضأ ، فناولته ، فأخذها بيمينه ووضع يساره علىٰ خده ، ونمت ، فاستيقظت وقد طلع الفجر ، فنظرت إليه ، فإذا المطهرة في يده علىٰ حالها ، فقلت : يا أبا عبد الله ؛ قد طلع الفجر ، قال : لم أزل منذ ناولتني المطهرة أتفكر في الآخرة إلىٰ هـٰذه الساعة .

وقال سفيان : بصر العينين من الدنيا ، وبصر القلب من الآخرة ، وإن الرجل ليبصر

بعينيه فلا ينتفع ببصره ، وإذا أبصر بالقلب . . انتفع .

وقال سفيان : إن أقبح الرغبة أن تطلب الدنيا بعمل الآخرة .

وقال سفيان : يقال للميت وهو علىٰ سريره : اسمع ثناء الناس عليك .

وقال يوسف بن أسباط : كنت بالكوفة أطبع اللَّبِن ، فقال لي سفيان : يا يوسف ؛ لا تشكر من الناس إلا مِن رجل عرف موضع الشكر ، فقلت : وما موضع الشكر ؟ قال : إذا أوليتك معروفاً ، فكنت أنا أسَرُّ به منك ، وأشد استحياء منك . . فاشكر .

وقال رجل لسفيان : أوصني ، قال : اعمل للدنيا بقدر مقامك فيها ، واعمل للآخرة بقدر بقائك فيها . والسلام .

وقال الثوري : ما وجدنا شيئاً أنفع في دين ولا دنيا من أخ موافق .

وعن علي بن الفضيل قال : رأيت سفيان الثوري ساجداً حول البيت ، فطفت سبعة أسابيع[1] قبل أن يرفع رأسه .

وقال سفيان : إنما العلم بالآثار .

وقال حفص بن غياث وذكر الثوري فقال : كنا نتعزىٰ بسفيان وبمجلس سفيان عن الدنيا .

وقال سفيان : سلوني عن التفسير والمناسك ؛ فإني بهما عالم .

وعن عبد الرزاق قال : كنت إذا لقيت سفيان الثوري . . لم أستوحش إلىٰ أحد .

وقال سفيان : خذ من الناس اليوم هٰذه الصفحة الظاهرة ، ولا تفتش عما وراء ذلك .

وقال عارم أبو النعمان : أتيت أبا منصور أعوده ، فقال لي : بات سفيان في هٰذا البيت ، وكان هٰهنا بلبل لابني ، فقال : ما بال هٰذا الطير محبوساً ؟ لو خُلِّيَ عنه ؟ فقلت : هو لابني وهو يهبه لك ، فقال : لا ، ولٰكني أعطيه ديناراً ، قال : فأخذه ، فخلىٰ عنه ، وكان يذهب فيرعىٰ ثم يجيء بالعشي ، فيكون في ناحية البيت ، فلما مات سفيان رحمه الله . . تبع جنازته ، فكان يضطرب علىٰ قبره ، ثم اختلف بعد ذلك ليال إلىٰ قبره ، فكان ربما بات عليه ، وربما رجع إلى البيت ، ثم وجدوه ميتاً عند قبره ، فدفن إلىٰ جنب قبره .

---

(١) طاف أسبوعاً : أي طاف حول الكعبة سبعة أشواط .

وقال ابن مهدي : ما عاشرت في الناس رجلاً هو أرق من سفيان ، وكنت أرمقه الليلة بعد الليلة ، فما كان ينام إلا أول الليل ، ثم ينتفض فزعاً مرعوباً ، ينادي : النارَ النارَ ، شغلني ذِكر النار عن النوم والشهوات ، كأنه يخاطب رجلاً في البيت ، ثم يتوضأ ، ويقول علىٰ إثر وضوئِه : اللهم ؛ إنك عالم بحاجتي غير مُعْلَم بما أطلب ، وما أطلب إلا فكاك رقبتي من النار .

إلـٰهي ؛ إن الجزع قد أرقني ، والخوف لم يُؤَمِّنِّي ، وكل هـٰذا من نعمك السابغة عليَّ ، وكذلك فعلتَ بأوليائك وأهل طاعتك ، إلـٰهي ؛ قد علمتَ أنه لو كان لي عذر في التخلِّي . . لما أقمت مع الناس طرفة عين . ثم يقبل علىٰ صلاته ، وكان البكاء يمنعه من القراءة حتىٰ إني لا أستطيع أن أسمع قراءته من كثرة بكائِه ، وما كنت أقدر أن أنظر إليه استحياء وهيبة منه .

وقال ابن المبارك : سألت سفيان الثوري : الرجل يقوم من الليل ، أي شيء ينوي بصلاته ؟ قال : ينوي أنه يناجي ربه عز وجل .

وقال بشر بن الحارث : قال قاسم الجوعي : سمعت سفيان الثوري يقول : يُكتب للرجل من صلاته ما عقل منها .

وكان سفيان يقول : سترك الجميل الذي لم يزل ، سترك الجميل الذي لم يزل .

وقال : ما عالجت شيئاً أشد عليَّ من نفسي .

وقال القاسم بن الحكم : لما مات سفيان . . جاء شيخ أبيض الرأس واللحية ، حتىٰ قام علىٰ قبره وهو يُدفن ، فقال : يا سفيان ؛ أمنت مما كنت تخاف ، وقدمت على الله عز وجل الذي كنت تعبده سبحانه وتعالىٰ ، ووالله ؛ ما يسُرُّنا أن يَلِيَ حسابَنا غداً أحد غير الله عز وجل ، ثم لم يُرَ ، فكانوا يرونه الخضر عليه الصلاة والسلام .

ونفدت نفقة سفيان الثوري بمكة ، فقدم عليه رجل من قومه ، فقال لسفيان : إن لك معي عشرة دراهم ، قال : من أين ؟ قال : من غزل فلانة ـ يعني : ابنته ـ قال : ائتني بها ؛ فإني منذ ثلاث أَسْتَفُّ الرمل .

وقيل لسفيان : إنك إذا أخذت في الحديث . . نشطت وأنكرناك ، وإذا كنت في غير الحديث . . كأنك ميت ، فقال سفيان : أما علمتَ أن الكلام فتنة ؟

وقال بشر بن الحارث : قال سفيان : وددت أني إذا جلست إليكم . . أقوم كما جلست ، لا عليَّ ولا لي .

وقال أحمد بن عاصم : اِلتقىٰ سفيان الثوري والفضيل بن عياض ، فتذاكرا ، فبكيا ، فقال سفيان : إني لأرجو أن يكون مجلسنا هـٰذا أعظم مجلس جلسناه بركة ، فقال له الفضيل : نرجو ، لـكني أخاف أن يكون أعظم مجلس جلسناه علينا شؤماً ، أليس نظرت إلىٰ أحسن ما عندك فتزينت لي به وتزينت لك بمثله ، وتَصنَّعَ كل منا لصاحبه ؟ فبكىٰ سفيان حتىٰ علا نحيبه ، ثم قال : أحييتني أحياك الله .

وقال سفيان الثوري : الرجل إلى العلم أحوج منه إلى الخبز واللحم .

وقال : أَوْحَشَتْ هـٰذه البلاد ، واستوحشت ، ولا أراها تزداد إلا وحشة .

وجاء رجل إلىٰ سفيان فقال : السلام عليك يا أبا عبد الله ورحمة الله وبركاته ، كيف أنت ؟ وكيف حالك ؟ فقال سفيان : عافانا الله وإياك ، لسنا أصحابَ تطويل .

وقال سفيان : أفضل الذكر . . تلاوة القرآن في الصلاة ، ثم تلاوة القرآن في غير الصلاة ، ثم الصوم ، ثم الذِّكر .

وقال سفيان : **يأتي على الناس زمان لا ينجو فيه إلا من تحامَق** .

وقال : لما جاء البشير إلىٰ يعقوب عليه الصلاة والسلام . . قال له : علىٰ أي دين تركت يوسف ؟ قال : على الإسلام ، قال : الآن تمت النعمة .

وقال : ما بُسطت الدنيا علىٰ أحد . . إلا اغتراراً ، ولا زُويت عن أحد . . إلا اختباراً .

وقال سفيان : انظر درهمك من أين هو وصَلِّ في الصف الأخير .

وقال بشر بن الحارث : كلمتان لم يكن يتركهما سفيان : سلِّمْ سلِّمْ ، عفوَكِ عفوَك .

وقال : الزهد في الدنيا هو الزهد في الناس ، وأول الزهد في الناس زهدك في نفسك .

وقيل لسفيان : لو أتيت الخليفة فأمرته ونهيته ، فقال : بلغني أنه يَسخط الله عز وجل علىٰ عبده بالمقام الواحد والكلمة الواحدة ، فأكره أن أقوم مقاماً أو أتكلم بكلام أُسخط الله عز وجل فيه .

وقال : لو كان معكم مَن يرفع الحديث إلى السلطان ، أكنتم تتكلمون بشيء تخشون منه فيه ؟ قلنا : لا ، قال : فإنَّ معكم مَن يرفع الحديث إلى الله عز وجل ، وهو أعلم به قبل رفعه سبحانه وتعالىٰ .

وكتب سفيان إلى ابن المبارك : بث علمك ، واحذر الشهرة .

وقال وكيع : رئِي سفيان وهو يأكل الطباهج[1] ، فكأنه قيل له في ذلك ، فقال : إني لم أنهكم عن الأكل ، ولـٰكن انظر من أين تأكل ، وادخل وانظر علىٰ من تدخل ، وتكلم وانظر كيف تتكلم ، كيف أنهاكم عن الأكل والله سبحانه وتعالىٰ يقول : ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾ ؟!

وقال سفيان لرجل رآه قريباً من المنبر : شغلتَني يا فلان بقربك من المنبر ، أما خفت أن يقولوا قولاً فيجبَ عليك ردُّه ؟ فقال له الرجل : أليس يقال : ادن واستمع ؟ قال : ذاك لأبي بكر وعمر والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ، وأما هـٰؤلاء . . فتباعد عنهم حتىٰ لا تسمع كلامهم ولا ترىٰ وجوههم .

وقال أبو عصمة : شهدت فضيلاً وسفيان الثوري يلتقيان في المسجد الحرام بعد المغرب ، فما يتذاكرانِ إلا النعم حتىٰ يفترقا ، يقول الفضيل لسفيان : إنه أَنعم علينا بكذا ، إنه أَنعم علينا بكذا سبحانه وتعالىٰ .

وقال سفيان : إني لأكتب الحديث من سبعة أوجه والمعنىٰ واحد .

وقال سفيان : من بلغ سن النبي صلى الله عليه وسلم . . فليَرْتَدِ لنفسه كفناً .

وعن عبد الرزاق قال : قال ابن المبارك : إني لما أقعد إلىٰ سفيان فيحدث ، فأقول : ما بقي من علمه شيء إلا كتبته وسمعته ، ثم أقعد عنده مجلساً آخر فيحدث ، فأقول : ما سمعت من علمه شيئاً .

وقال سفيان : كان علىٰ طريقي إلى المسجد كلب يعقر الناس ، فأردت الصلاة يوماً والكلب على الطريق ، فتنحَّيتُ عنه ، فقال : يا أبا عبد الله ؛ جُزْ فإنما سلطني الله عز وجل علىٰ من يشتم أبا بكر وعمر . أو كما قال .

وقال أبو حاتم الرازي : سمعت قبيصة يقول : رأيت سفيان الثوري في النوم ، فقلت : ما فعل بك ربك ؟ فقال :

نظرت إلىٰ ربي كفاحاً وقال لي ... هنيئاً رضائي عنك يابن سعيدِ
فقد كنتَ قوَّاماً إذا أقبل الدجىٰ ... بعبرة مشتاق وقلب عميدِ
فدونك فاختر أي قصر أردته ... وزرني فإني منك غير بعيدِ

---

(١) **الطباهج** : اللحم المُشرَّح .

وسئل سفيان عن معنى الحديث : « إن الله يُبغِض أهل البيت اللحميين »[1] قال : هم الذين يأكلون لحوم الناس .

وقال سفيان : قال الله عز وجل لجبريل عليه الصلاة والسلام في مقامه الذي يقوم بين يديه : أُدْنُ ، فدنا ثم انتفض ، فقال له : أُدْنُ ، فدنا ثم انتفض ، فقال له : أُدْنُ ، فدنا ثم انتفض (ثلاثاً) ، فقال له الجليل جل جلاله : ألم أكرمك ؟ ألم أأتمنك ؟ ألم أرسلك ؟ قال : بلىٰ ؛ ولـٰكن ـ وعزتك وجلالك ـ لا آمن مكرَك ، فقال له الحق جل جلاله ولا إلـٰه غيره : كذلك فكن .

وقال سفيان الثوري في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ : معناه : أنه لا يقدر أن يوقعهم في ذنب لا يغفره الله عز وجل .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ قال : معناه : أيكم أزهد في الدنيا .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ قال : القوة : العشير ، والناصر : الحليف .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾ قال : هُمْ أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ قال : الخوف الدائم في القلب .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۞ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ قال : من ثواب الفرائض ، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ قال : كانوا متطوعين .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ قال : استئذان الملائكة عليهم .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ ﴾ : إذا أراد الرجل من أهل الجنة يدعو بالشيء . . قال : سبحانك اللهم ، فيأتيه الذي دعا به .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ ﴾ قال : تطبق النار علىٰ أهلها .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ قال : يغفر لمن يشاء بالذنب العظيم ، ويعذب من يشاء بالذنب اليسير .

---

(١) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٥/ ٣٣) .

وقال سفيان : ما أضرهم ما أصابهم في الدنيا ، جبر الله عز وجل لهم كل مصيبة بالجنة .

وقال سفيان : من أحب الدنيا وسُرَّ بها . . نزع الله حب الآخرة من قلبه .

وقال سفيان : إني أحب للرجل إذا وسع الله عز وجل عليه . . أن يوسع علىٰ نفسه .

وقال عبد الرزاق : لما قدمنا مع سفيان من اليمن ـ وكان قد أقام عندهم أربعين يوماً ـ جاء سفيان بن عيينة ، فسلم عليه ، فرد عليه السلام وهو متكىء علىٰ عصاه ، فقال : يا أبا عبد الله ؛ عاب الناس عليك خروجك إلى اليمن ، فقال : عابوا غير معيب ، طلب الحلال شديد ، خرجت أريده .

وكان سفيان كثيراً ما يدعو بهـٰذه ، فيقول : اللهم ؛ أبرم لهـٰذه الأمة أمراً رشيداً ، يعز فيه وليك ، ويذل فيه عدوك ، ويُعمل فيه بطاعتك ورضاك ، ثم يتنفس ، ويقول : كم من مؤمن قد مات بغيظه .

وكان لسفيان درس من الحديث .

وقال سفيان : إذا ترأَّس الرجل سريعاً . . أضر بكثير من العلم ، وإذا طَلَبَ وطَلَبَ . . بلغ .

وقال سفيان : كان يقال : يأتي على الناس زمان تموت فيه القلوب وتحيا فيه الأبدان .

وقال : لَنعمةُ الله عز وجل عليَّ فيما زوىٰ عني من الدنيا . . أعظم من نعمه عليَّ فيما أعطاني منها .

وقال سفيان من جملة وصية أوصىٰ بها بعض إخوانه : إياك أن تفارق الدسم ؛ فإنه أتم لعقلك ، ولا تمنعن نفسك من الحلاوة ؛ فإنه يزيد في الحلم ، وعليك باللحم ، ولا تدم عليه ولا تدعه أربعين يوماً ؛ فإنه يسيء خلقك ، ولا ترد الطيب ؛ فإنه يزيد في الدماغ ، وعليك بالعدس ؛ فإنه يغزر الدموع ويرق القلب ، وعليك باللباس الخشن . . تجد حلاوة الإيمان ، وعليك بقِلَّةِ الأكل . . تملك سهر الليل ، وعليك بالصوم . . يسد عنك باب الفجور ، ويفتح عليك باب العبادة ، وعليك بقِلَّةِ الكلام . . يلين قلبك ، وعليك بطول الصمت . . تملك الورع ، ولا تكونن حريصاً على الدنيا ، وارض بما قسم الله عز وجل لك . . تكن غنياً ، وتوكل على الله سبحانه وتعالىٰ ، ولا تنازع أهل الدنيا في دنياهم . . يحبك الله ، ويحبك أهل الأرض ، ولا تدع أيامك ولياليك وساعاتك تمر عليك باطلاً ،

وقدم من نفسك لنفسك ليوم العطش ؛ فإنه لا يَروىٰ يوم القيامة . . إلا من رضي الله عز وجل عنه ، ولا يحصُل رضوانُه . . إلا بطاعته ، وأكثر من النوافل ؛ فإنها تقربك إلى الله سبحانه وتعالىٰ ، وشاور في أمر دينك الذين يخشون الله عز وجل ، وأكثر من ذِكر الله عز وجل . . يزهدْك في الدنيا ، واذكر الموت . . يهن عليك أمر الدنيا ، واشتقْ إلى الجنة . . يوفقك الله سبحانه وتعالىٰ لطاعته ، وأشفق من النار . . يهون الله عليك المصائب ، وأَحِبَّ أهل الجنة . . تكن معهم يوم القيامة ، وأَبغِض أهل المعاصي . . يحبك الله عز وجل ، وأَوْلِ أمرك تقوى الله عز وجل في السر والعلانية ، واخش الله عز وجل خشية من قد عَلِمَ أنه ميت ومبعوث ، ثم الحشر ، ثم الوقوف بين يدي الجبار جل جلاله ، وأنك محاسَب بأعمالك ، ثم المصير إما إلىٰ جنة ، وإما إلىٰ نار ، وارجُ رجاء من قد علم أنه يعفىٰ عنه أو يعاقبه الله سبحانه وتعالىٰ[1] .

ثم قال الحافظ أبو نعيم ـ قدس الله روحه ـ : وكلام سفيان الثوري وأحواله وألفاظه ومواعظه تكثر وتتسع ، وفي دون ما ذكرناه فوائد لمن رُزق العمل ووفق له ، وللإمام أبي عبد الله سفيان من مسانيد الحديث ما لا يُضبَط كثرة ، سبق إلىٰ جمع حديثه الأئمة الماضون من أسلافنا وعلمائهم .

فمن مسانيد حديثه رحمه الله : ما رواه عن محمد بن المنكدر ، عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من موجبات المغفرة . . إدخالك السرور علىٰ أخيك المسلم ، وإشباع جوعته ، وتنفيس كربته »[2] .

وعنه عن إبراهيم بن مسلم البَطين ، عن أبي عبد الرحمـٰن السلمي ، عن عبد الله بن مسعود أنه قال يوماً : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فتغير وجهه ، ثم قال : قريباً من ذا أو نحو ذا[3] .

ومن روايته عن إسماعيل بن خالد : عن قيس ابن أبي حازم ، عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الشرك أخفىٰ في أمتي من دبيب النمل على الصفا » ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ؛ وكيف النجاة والمخرج ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ألا أعلمك شيئاً إذا قلتَه . . برئتَ من الشرك ؟ قل : اللهم ؛ إني

---

(١) الحلية (٧/ ٣٤ـ٨٥) .

(٢) أخرجه الهيثمي في « زوائد الحارث » (٢/ ٨٥٧) .

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٧) .

أعوذ بك أن أُشرك بك وأنا أعلم ، وأعوذ بك أن أشرك بك وأنا لا أعلم ، وأستغفرك لما تعلم ولا أعلم »[1] حديث غريب .

وعنه عن أفلح بن حميد ، عن القاسم قال : **كان اختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة لهـٰؤلاء الناس . حديث غريب .**

وعنه عن إسرائيل ، عن شبيب ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عينان لا يريان النار : عين بكت في خلاء من خشية الله عز وجل ، وعين باتت تكلأ في سبيل الله سبحانه وتعالىٰ »[2] حديث غريب .

وعنه عن منصور ، عن عبد الله ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الجنة أقرب إلىٰ أحدكم من شراك نعله ، والنار مثل ذلك »[3] حديث غريب .

وعنه عن منصور ، عن ربعي ، عن حذيفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سيأتي علىٰ أمتي زمان لا يكون فيه شيء أعز من ثلاثة : أخ يستأنس به ، أو درهم من حلال ، أو سنة يُعمل بها »[4] حديث غريب . انتهىٰ [« الحلية » ٧/ ٨٥ـ١٢٧] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال ابن مهدي : بات سفيان عندي ، فلما اشتد به الأمر . . جعل يبكي ، فقال له رجل : يا أبا عبد الله ؛ أراك كثير الذنوب ، فرفع شيئاً من الأرض ، وقال : والله ؛ لَذنوبي أهون عليَّ من ذا ، إني أخاف أن أُسلب الإيمان قبل أن أموت .

وقال عبد الرحمـٰن بن مهدي : إن ليلة مات سفيان توضأ تلك الليلة للصلاة ستين مرة ، فلما كان وجه السحر . . قال لي : يابن مهدي ؛ ما أشد الموت! ما أشد كرب الموت! فخرجت لأُعلم حماد بن سلمة وأصحابه ، فإذا هُمْ قد استقبلوني ، فقالوا : آجرك الله ، فقلت : من أين علمتم ذلك ؟ فقالوا : ما منا من أحد إلا أُتي البارحة في منامه ، فقيل له : ألا إن سفيان قد مات رحمه الله تعالىٰ .

وقال ابن أبجر : لما حضرت سفيان الوفاة . . قال : يابن أبجر ؛ قد نزل بي ما نزل بي

---

(١) أخرجه بنحوه المقدسي في « المختارة » (١/ ١٥٠) .
(٢) أخرجه بنحوه الحاكم (٢/ ٩٢) ، والترمذي (١٦٣٩) .
(٣) أخرجه البخاري (٦١٢٣) .
(٤) أخرجه بنحوه الديلمي (٢/ ٣٢٠) .

وما ترىٰ ، فانظر من يحضرني ، فأتيته بقوم فيهم حماد بن سلمة ، وكان حماد من أقربهم إلىٰ رأسه ، قال : فتنفس سفيان ، فقال له حماد : أبشر ، فقد نجوت مما كنت تخاف ، وتقدم علىٰ رب غفور ، فقال : يا أبا سلمة ؛ أترىٰ أن الله عز وجل يغفر لمثلي ؟ قال : إي والله الذي لا إلـه إلا هو ، قال : فكأنما سُرِّيَ عنه .

وقال عبد الرحمـٰن بن مهدي : رأيت سفيان الثوري في المنام ، فقلت : ما فعل الله عز وجل بك ؟ قال : لم يكن إلا أن وُضعت في اللحد حتىٰ وقفت بين يدي الله عز وجل ، قال : فحاسبني حساباً يسيراً ، ثم أمر بي إلى الجنة ، فبينا أنا أدور بين أشجارها وأنهارها لا أسمع حساً ولا حركة ؛ إذ سمعت قائلاً يقول : سفيان بن سعيد ؟ فقلت : سفيان بن سعيد ، فقال : أتحفظ أنك آثرت الله عز وجل علىٰ هواك يوماً ؟ قلت : إي والله ، قال : فأخذتني صواني النثار[1] من جميع نواحي الجنة . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/ ٧٣ـ٧٤] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : وفي حفظي من رواية أخرىٰ : أن سفيان رحمه الله لما رئي في المنام ، وقيل له : ما فعل الله عز وجل بك . . قال : أول قدم وضعته على الصراط ، والثاني في الجنة .

هنيئاً له رضي الله عنه ، وأرضاه ، وأكرم نزله ومثواه .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) **صواني النَّثَّار** : الصواني : هي الأواني ، والنَّثَّار : ما نثر في حفلات السرور من حلوىٰ أو نقود ، والمعنىٰ : أنه استُقبل بكل فرح وسرور ، والله أعلم .

ومنهم إمامنا :

الإمام محمد بن إدريس الشافعي
رضي الله عنه وأرضاه

قال شيخ الإسلام في عصره الإمام محيي الدين النووي ـ قدس الله روحه ـ : هو أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف بن قصي القرشي ، المطلبي ، الشافعي ، الحجازي المكي .

ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يلتقي معه في عبد مناف . انتهىٰ [« التهذيب » ٤٤/١] .

قال مؤلفة محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : ابن عبد مناف اجتمع في الآباء ثمّ افترق في الأولاد ؛ فإنَّ القاضي أبا الطيب قدس الله روحه قال : الشافعي ابن عمٍّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، افترق من عبد مناف فزوّج المطلب ابنه هاشماً للشفاء بنت هاشم بن عبد مناف وولدت له عبد يزيد جدّ الشافعي .

وقد وَلَدَ الشافعيَّ هاشمان : هاشم بن المطلب وهاشم بن عبد مناف ، فهو ابن عمٍّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته ؛ لأنَّ المطلب عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والشفاء بنت هاشم بن عبد مناف أخت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أسلم السائب مِنْ أَجداد الشافعي يوم بدر ، وكان صاحب راية بني هاشم . انتهىٰ .

وقال الشيخ محيي الدين النووي ـ قدس الله روحه ـ : وقد أكثر العلماء رحمهم الله تعالىٰ من المصنفات في مناقب الشافعي وأحواله من المتقدمين والمتأخرين ؛ كداوود الظاهري والساجي وخلائق من المتقدمين ، وأما المتأخرون.. فكالدارقطني والآجري والرازي والصاحب ابن عباد والبيهقي ونصر المقدسي وخلائق لا يحصون ، وكتبهم في مناقبه مشهورة ، ومن أحسنها وأنفسها : كتاب البيهقي ، وهو مجلدان ضخمان ، اشتملا علىٰ

نفائس من كل فن ، استوعب فيه معظم أحواله ومناقبه بالأسانيد الصحيحة والدلائل الصريحة ، وكتابنا هـٰذا مبني على الاختصار ، فلا يليق به البسط بالتطويل والإكثار ، فأقتصر فيه ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ على الإشارة إلىٰ نبذ من تلك المقاصد ، والرمز إلىٰ جمل من تلك الكليات والمعاقد ، فأقول مستعيناً بالله تعالىٰ ، متوكلاً عليه ، مفوضاً أمري إليه :

الشافعي رحمه الله قرشي مطلبي بإجماع أهل النقل من جميع الطوائف ، وأمه أزدية ، وقد تظاهرت الأحاديث الصحيحة في فضل قريش ، وانعقد الإجماع علىٰ تفضيلهم علىٰ جميع قبائل العرب وغيرهم .

وفي « الصحيحين » : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الأئمة من قريش »[1] .

وفي « صحيح مسلم » [١٨١٩] : عن جابر رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الناس تبع لقريش في الخير والشر » ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الناس معادن ، خيارهم في الجاهلية . . خيارهم في الإسلام إذا فَقُهوا »[2] .

وفي « صحيح مسلم » [٢٢٧٦] أيضاً : عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله اصطفىٰ كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفىٰ قريشاً من كنانة ، واصطفىٰ من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم » .

وفي « صحيح البخاري » [٢٩٧١] : عن جبير بن مطعم رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما بنو المطلب وبنو هاشم شيء واحد » .

وفي « الترمذي » [٣٩٣٧] : عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الأزد أُسْد الله تعالىٰ في الأرض ، يريد الناس أن يضعوهم ، ويأبى الله إلا أن يرفعهم ، وليأتين على الناس زمان يقول الرجل : يا ليتني كنت أزدياً ، يا ليت أمي كانت أزدية » ، قال الترمذي : وروي موقوفاً عن أنس ، وهو عندنا أصح .

---

(١) أخرجه الطيالسي (١/ ١٢٥) ، والحاكم (٤/ ٨٥) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٣/ ٤٦٧) ، والطبراني في « الأوسط » (٤/ ٢٦) ، والبيهقي في « الكبرىٰ » (٣/ ١٢١) ، وقال المناوي في « تلخيص الحبير » (٣/ ٤٩) : قد جمعت طرقه في « جزء » مفرد عن نحو أربعين صحابياً ، وفي الباب : رواه البخاري عن أبي هريرة (٣٤٩٥) ، ومسلم (١٨١٨) ، بلفظ : « الناس تبع لقريش في هـٰذا الشأن ، مسلمهم لمسلمهم ، وكافرهم لكافرهم » .

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٣٨) .

وفي « الترمذي » أيضاً [٣٩٣٦] : عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الملك في قريش ، والقضاء في الأنصار ، والأذان في الحبشة ، والأمانة في الأزد » يعني : اليمن ، قال الترمذي : وروي موقوفاً علىٰ أبي هريرة رضي الله عنه ، وهو أصح .

فصل

في مولد الشافعي رحمه الله ووفاته وذكر نبذة من أموره وحالاته

أجمعوا [علىٰ] أنه ولد في سنة خمسين ومئة ، وهي السنة التي توفي فيها أبو حنيفة رحمه الله ، وقيل : إنه اليوم الذي توفي فيه أبو حنيفة .

قال البيهقي : ولم يثبت اليوم .

ثم المشهور الذي عليه الجمهور : أن الشافعي ولد بغزة ، وقيل : بعسقلان ، وهُما من الأرض المقدسة التي بارك الله تعالىٰ فيها ؛ فإنهما علىٰ نحو ميلين من بيت المقدس ، ثم حُمل إلىٰ مكة وهو ابن سنتين ، وتوفي بمصر ، سنة أربع ومئتين ، وهو ابن أربع وخمسين سنة .

قال الربيع : توفي الشافعي ليلة الجمعة بعد المغرب وأنا عنده ، ودفن بعد العصر يوم الجمعة آخر يوم من رجب ، سنة أربع ومئتين ، وقبره رحمه الله بمصر ، عليه من الجلالة وله من الاحترام ما هو لائق بمنصب ذلك الإمام .

وقال الربيع : رأيت في النوم أن آدم عليه الصلاة والسلام قد مات ، فسألت عن ذلك ، فقيل : هـٰذا موت أعلم أهل الأرض ؛ لأن الله تعالىٰ قال ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ ، فما كان إلا يسيراً ، فمات الشافعي رحمة الله عليه .

ورأىٰ غيره ليلة موت الشافعي رحمه الله قائلاً يقول : الليلة مات النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما أصبح . . وجد الشافعي رحمه الله تعالىٰ قد مات ، وحزن الناس لموته الحزن الذي يوازي رَزِيَّتَهم[1] به .

ونشأ يتيماً في حجر أمه في قلة عيش وضيق حال .

---

(١) رَزِيَّتهم : أي علىٰ قدر مصيبتهم التي استشعروها بموته .

وكان في صباه يجالس العلماء ، ويكتب ما يستفيده في العظام ونحوها ؛ لعجزه عن الورق ، حتىٰ ملأ منها حِباباً[1] .

وقال مصعب بن عبد الله الزبيري : كان الشافعي في ابتداء أمره يطلب الشعر وأيام العرب والأدب ، ثم أخذ في الفقه ، وكان سبب أخذه فيه : أنه كان يوماً يسير علىٰ دابة له ، وخلفه كاتب لأُبي ، فتمثل الشافعي رحمه الله بيت شعر ، فقرعه كاتب أُبي بسوط ، ثم قال له : مِثْلُك يَذهب بمروءته في مثل هـٰذا ؟! أين أنت من الفقه ؟! فهزه ذلك ، فقصد مجالسة مسلم بن خالد الزنجي مفتي مكة ، ثم قدم علينا ـ يعني المدينةَ ـ فلزم مالكاً رحمه الله تعالىٰ .

وعن الشافعي رحمه الله قال : كنت أنظر في الشعر ، فارتقيت عَقَبة[2] بمنىٰ ؛ فإذا بصوت من خلفي : عليك بالفقه .

وعن الحميدي قال : قال الشافعي رحمه الله : خرجت أطلب النحو والأدب ، فلقيني مسلم بن خالد الزنجي ، فقال : يا فتىٰ ؛ مِن أين أنت ؟ قلت : من أهل مكة ، قال : أين منزلك ؟ قلت : شعب الخيف ، قال : من أي قبيلة ؟ قلت : من عبد مناف ، قال : بخ بخ! لقد شرفك الله تعالىٰ في الدنيا والآخرة إن شاء الله تعالىٰ ، ألا جعلت فهمك هـٰذا في الفقه فكان أحسنَ بك ؟!

فلما أخذ الشافعي رحمه الله في الفقه وحصَّل منه علىٰ مسلم بن خالد الزنجي وغيره من أئمة مكة ما حصَّل . . رحل إلى المدينة قاصداً الأخذ عن الإمام مالك ، ورحلته مشهورة فيها تصنيف معروف مسموع .

وأكرمه الإمام مالك رحمه الله تعالىٰ ؛ لنسبه ، وعلمه ، وفهمه ، وعقله ، وأدبه ، بما هو لائق بهما .

وقرأ « الموطأ » علىٰ مالك حفظاً ، فأعجبته قراءته ، وكان مالك رحمه الله يستزيده من القراءة ؛ لإعجابه بقراءته .

ولازم مالكاً رحمه الله ، فقال له : اتق الله تعالىٰ ؛ فإنه سيكون لك شأن .

---

(١) **الحِباب** ـ جمع حُبٍّ ـ : الجرار الكبيرة .

(٢) **عَقَبة** : جبل .

وفي رواية أنه قال له : إن الله سبحانه وتعالىٰ قد ألقىٰ علىٰ قلبك نوراً ، فلا تطفئه بالمعصية .

وكان سن الشافعي حين أتىٰ إلىٰ مالك ثلاث عشرة سنة .

ثم ولي باليمن ، واشتُهر من حسن سيرته وحَمْلِه الناس على السُّنة والطرائق الجميلة بأشياء كثيرة معروفة .

ثم رحل إلى العراق ، وجَدَّ في الاشتغال بالعلم ، وناظر محمد بن الحسن وغيره ، ونشر علم الحديث ، وأقام مذهب أهله ونصر السُّنة .

وشاع ذِكره وفضله وتزايد تزايداً ملأ البقاع .

وطلب منه عبد الرحمٰن بن مهدي إمام أهل الحديث في عصره أن يصنف كتاباً في أصول الفقه ، فصنف « الرسالة » ، فهي أول مصنف في أصول الفقه .

وكان عبد الرحمٰن ويحيى بن سعيد القطان يعجبان بكتاب « الرسالة » ، وكذلك أهل عصرهما ومَن بعدهما .

وكان القطان وأحمد ابن حنبل يدعوان للشافعي في صلاتهما ؛ لِمَا رأَيا من اهتمامه بإقامة الدين ، ونصر السنة ، وفَهْمِها ، وإخراج الأحكام منها ، وأجمع الناس على استحسان « رسالته » ، وأقوالُ السلف رحمهم الله في ذلك مشهورة .

قال المزني : قرأت « الرسالة » خمس مئة مرة ، ما من مرة إلا واستفدت منها فائدة جديدة .

وقال المزني : أنا أنظر في « الرسالة » من خمسين سنة ، ما أعلم أني نظرت فيها مرة إلا استفدت منها شيئاً لم أكن أعرفه .

ولما اشتُهرت جلالة الشافعي رحمه الله بالعراق ، وسار ذِكره بالآفاق ، وأذعن لفضله الموافقون والمخالفون ، واعترف به العلماء أجمعون ، وعظمت عند الخلائق وولاة الأمور مرتبته ، واستقرت عندهم جلالته وإمامته ، وظهر من فضله ـ في مناظراته أهلَ العراق وغيرَهم ـ ما لم يظهر لسواه ، وأظهر من بيان القواعد ومهمات الأصول ما لا يعرف لمن عداه ، وامتُحن في مواطن كثيرة مما لا يحصىٰ من المسائل فكان جوابه فيها من الصواب والسداد بالمحل الأعلىٰ والمقام الأسنىٰ . . عكف عليه للاستفادة منه الأصاغر والأكابر والأئمة والأخيار من أهل الحديث والفقه وغيرهم ، ورجع كثير منهم عن مذاهب كانوا عليها

إلىٰ مذهبه ، وتمسكوا بطريقته ؛ كأبي ثور ، وخلائق من الأئمة ، وترك كثير منهم الأخذ عن شيوخه وكبار الأئمة ؛ لانقطاعهم إلى الشافعي حين رأوا عنده ما لا يجدونه عند غيره .

وبارك الله الكريم له ولهم في تلك العلوم الباهرة ، والمحاسن المتظاهرة ، والخيرات المتكاثرة ، فلله الحمد والمِنة علىٰ ذلك ، وعلىٰ سائر نعمه التي لا تحصىٰ .

وصنف في العراق كتابه القديم ، ويسمىٰ : « كتاب الحجة » ، ويرويه عنه أربعة من كبار أصحابه العراقيين ، وهم : أحمد ابن حنبل ، وأبو ثور ، والزعفراني ، والكرابيسي ، وأَتقَنُهم له روايةً : الزعفراني .

ثم خرج الشافعي رحمه الله إلىٰ مصر ، سنة تسع وتسعين ومئة .

قال أبو عبد الله حرملة بن يحيىٰ : قدم الشافعي مصر سنة تسع وتسعين ومئة ، وقال الربيع : سنة مئتين ، ولعله قدم آخر سنة تسع جمعاً بين الروايتين .

وصنف كتبه الجديدة كلها بمصر وسار ذِكره في البلدان ، وقصده الناس من الشام واليمن والعراق وسائر النواحي والأقطار ؛ للتفقه عليه ، والرواية عنه ، وسماع كتبه منه ، وأخذها عنه ، وساد أهل مصر وغيرهم ، وابتكر كتباً لم يسبق إليها ، منها : أصول الفقه ، وكتاب القسامة ، وكتاب الجزية ، وكتاب قتال أهل البغي ، وغيرها .

قال الإمام أبو الحسين محمد بن عبد الله بن جعفرٍ الرازي في كتابه « مناقب الشافعي » : سمعت أبا عمرو أحمد بن علي بن الحسن البصري قال : سمعت محمد بن حمدان بن سفيان الطرائفي البغدادي يقول : سمعت الربيع بن سليمان يوماً وقد حط علىٰ باب داره سبع مئة راحلة في سماع كتب الشافعي رحمه الله .

فصل

في تلخيص جملة من أحوال الشافعي رحمه الله

اعلم : أنه رحمه الله كان من أنواع المحاسن بالمحل الأعلىٰ والمقام الأسنىٰ ؛ لما جمعه الله الكريم له من الخيرات ، ووفقه له من جميل الصفات ، وسهله عليه من أنواع الكرامات .

فمن ذلك : شرف النسب الطاهر والعنصر الباهر ، واجتماعه هو ورسول الله صلى الله عليه وسلم في النسب ، وذلك غاية الأمل والشرف ونهاية الحسب .

ومن ذلك : شرف المولد والمنشأ ؛ فإنه ولد بالأرض المقدسة ، ونشأ بمكة .

ومن ذلك : أنه جاء بعد أن مُهدت الكتب وصنفت ، وقُررت الأحكام ونُقحت ، فنظر في مذاهب المتقدمين ، وأخذ عن الأئمة المبرزين ، وناظر الحذاق والمتقنين ، فبحث في مذاهبهم ، وسَبَرَها ، وتحققها ، وخَبَرَها[1] ، فلخص منها طريقة جامعة للكتاب والسنة والإجماع والقياس ، ولم يقتصر علىٰ بعض ذلك كما وقع لغيره ، وتفرغ للاختيار والتكميل والتنقيح ، مع كمال قوته ، وعلو همته ، وبراعته في جميع أنواع الفنون ، واضطلاعه منها أشد اضطلاع ، وهو المبرز في الاستنباط من الكتاب والسنة ، البارع في معرفة الناسخ والمنسوخ والمجمل والمبين والخاص والعام ، وغيرها من تقاسيم الخطاب ، فلم يسبقه أحد إلىٰ فتح هـٰذا الباب ؛ لأنه **أول من صنف أصول الفقه** بلا خلاف ولا ارتياب .

وهو الذي لا يساوىٰ بل لا يدانىٰ في معرفة كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ورَدِّ بعضها إلىٰ بعض .

وهو الإمام الحجة في لغة العرب ، فقد اشتغل في العربية عشرين سنة ، مع بلاغته وفصاحته ، ومع أنه عربي اللسان والدار والعنصر ، وبها يُعرف الكتاب والسنة .

وقد قال عبد الملك بن هشام صاحب « المغازي » إمام أهل مصر في عصره في اللغة والنحو : الشافعي رحمه الله تعالىٰ حجة في اللغة .

وكان إذا شك في شيء من اللغة . . بعث إلى الشافعي فسأله عنه .

وقال أبو عبيد رحمه الله : كان الشافعي ممن يؤخذ عنه اللغة .

وقال أيوب بن سويد : خذوا عن الشافعي اللغة .

وقال أبو عثمان المازني : الشافعي عندنا حجة في النحو .

وقال الأصمعي : صححت أشعار الهذليين علىٰ شاب من قريش ، يقال له : محمد بن إدريس .

وقال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم : سمعت الشافعي يقول : أروي لثلاث مئة شاعر مجنون .

---

(١) خبرها : امتحنها .

وقال الزبير بن بكار : أخذتُ شعر هذيل ووقائعها وأيامها من عمي مصعب ، وقال : أخذتها من الشافعي حفظاً .

وأقاويل العلماء في هـٰذا كثير .

وهو الذي قلد المنن الجسيمة لأهل الآثار وحملة الأحاديث ونقلة الأخبار بتوقيفه إياهم علىٰ معاني السنن وتبيينها .

وقد قال محمد بن الحسن : إن تكلم أصحاب الحديث يوماً . . فبلسان الشافعي رحمه الله ؛ يعني : لِمَا وضع من كتبه .

وقال الحسن بن محمد الزعفراني : كان أصحاب الحديث رقوداً ، فأيقظهم الشافعي ، فتيقظوا .

وقال أحمد ابن حنبل رحمه الله : ما أحد مس محبرة ولا قلماً إلا وللشافعي في رقبته منَّة .

فهـٰذا قول إمام أصحاب الحديث وأهله ومن لا يختلف الناس في ورعه وفضله .

ومن ذلك : أن الشافعي رحمه الله مكنه الله سبحانه وتعالىٰ من أنواع العلوم حتىٰ عجز لديه المناظرون من الطوائف وأصحاب الفنون ، وأذعن الموافقون والمخالفون في المحافل الكثيرة المشهورة بتقدمه علىٰ أئمة عصره في البلدان ، وهـٰذه المناظرات موجودة في كتب العلماء ، وفي كتاب « الأم » للشافعي رحمه الله تعالىٰ من هـٰذه المناظرات جمل من العجائب والنفائس الجليلات والقواعد المستفادات ، وكم من مناظرة واقعة فيه يقطع كل من وقف عليها وأنصف أنه لم يُسبق إليها .

ومن ذلك : أنه تصدر في عصر الأئمة المبرزين للإفتاء والتدريس والتصنيف ، وقد أمره بذلك شيخه مسلم بن خالد الزَّنْجي إمام أهل مكة ومفتيها ، وقال له : أفتِ يا أبا عبد الله ؛ فقد ـ والله ـ آن لك أن تفتي ، وكان سنه إذ ذاك خمس عشرة سنة ، وأقاويل أهل عصره في هـٰذا كثيرة مشهورة .

وأُخِذ عن الشافعي العلم في سن الحداثة مع توفر العلماء في ذلك العصر ، وهـٰذا من الدلائل الصريحة لعُظم جلالته وعلو مرتبته ، وهـٰذا كله مشهور في مناقبه وغيرها .

ومن ذلك : شدة اجتهاده في نصرة الحديث واتِّباع السنة ، وجمعه في مذهبه بين أطراف الأدلة مع الإتقان والتحقيق ، والغوص التام على المعاني والتدقيق ، حتىٰ لقب حين قدم العراق بناصر الحديث .

وغَلب في عُرف العلماء المتقدمين والفقهاء الخراسانيين علىٰ متبعي مذهبه لقب أصحاب الحديث في القديم والحديث .

وقد رُوِّينا عن إمام الأئمة أبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة ـ وكان من حِفْظ الحديث ومعرفة السنة بالدرجة العالية ـ أنه سئل : هل تَعرف سُنةً صحيحة لم يودِعْها الشافعي كتبه ؟ قال : لا ، ومع هـٰذا فاحتاط الشافعي رحمه الله ؛ لكون الإحاطة ممتنعة على البشر ، فقال ما هو ثابت عنه من أوجه من وصيته بالعمل بالحديث الصحيح وترك قوله المخالف للنص الثابت الصريح .

وقد امتثل أصحابنا رحمهم الله تعالىٰ وصيته ، وعملوا بها في مسائل كثيرة ، وقد أوضحت ذلك في مقدمة « شرح المهَذب » .

ومن ذلك : تمسكه بالأحاديث الصحيحة ، وإعراضه عن الأخبار الواهية والضعيفة ، ولا أعلم أحداً من الفقهاء اعتنىٰ في الاحتجاج بالتمييز بين الصحيح والضعيف كاعتنائه ، ولا قريباً منه ، وهـٰذا واضح جلي في كتبه ، وإن كان أكثر أصحابه لم يسلكوا طريقته في هـٰذا .

ومن ذلك : أخذه بالاحتياط في مسائل العبادات ، وسلوك طرائق الورع والسخاء والزهادة ، وهـٰذا من خُلُقه وسيرته مشهور .

وكان رحمه الله بالمحل الأعلىٰ من متانة الدين ، وهـٰذا مقطوع لمعرفته عند الموافقين والمخالفين .

وليس يصح في الأذهان شيءٌ إذا احتاج النهارُ إلىٰ دليلِ

وأما سخاؤه وشجاعته وكمال عقله مع براعته : فإنه مما اشترك في معرفته الخاص والعام ، فلا أستدل عليه لشهرته .

ومن ذلك : ما جاء في الحديث المشهور : أن عالم قريش يملأ طباق الأرض علماً[1] ،

---

(١) أخرج الطيالسي (١/ ٣٩) : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تسبوا قريشاً ؛ فإن عالم قريش يملأ الأرض علماً ، اللهم ؛ إنك أذقت أولها عذاباً ، فأذق آخرها نوالاً » .

وحمله العلماء المتقدمون والمتأخرون على الشافعي ، واستدلوا له بأنه لم يُنقل عن الصحابة رضي الله عنهم إلا مسائل معدودة ؛ إذ كانت فتاويهم مقصورة على الوقائع ، بل كانوا ينهون عن السؤال عما لم يقع ، وكانت هممهم مصروفة إلىٰ جهاد الكفار لإعلاء كلمة الإسلام وإلىٰ مجاهدة النفوس بالعبادة ، فلم يتفرغوا للتصنيف ، وكذلك التابعون لم يصنفوا ، وأما من جاء بعدهم وصنف الكتب . . فلم يكن فيهم قرشي يتصف بهـٰذه الصفة قبل الشافعي ولا بعدَه إلا هو .

وقد قال الساجي في كتابه المشهور في « اختلاف العلماء » : إنما بدأت بالشافعي رحمه الله قبل جميع الفقهاء وقدمته عليهم ـ وإن كان فيهم من هو أقدم منه ـ اتباعاً للسنة ؛ فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قدموا قريشاً ، وتعلموا من قريش »[1] .

وقال الإمام أبو نعيم عبد الملك محمد بن عدي الاستراباذي صاحب الربيع بن سليمان المرادي : في هـٰذا الحديث علامة بينة ، إذا تأمله الناظر المميز . . علم أن المراد به رجل من علماء هـٰذه الأمة من قريش ، ظهر علمه ، وانتشر في البلاد ذِكره ، وكتب كما تكتب المصاحف ، ودرسه المشايخ والشبان في مجالسهم ، وأجروا أقواله في مجالس الحكام والأمراء والقراء وأهل الآثار وغيرهم ، قال : وهـٰذه صفة لا نعلمها في أحد غير الشافعي ، قال : فهو عالم قريش الذي دوَّن العلم ، وشرح الأصول والفروع ، ومهد القواعد .

وقال البيهقي بعد روايته كلام أبي نعيم : وإلىٰ هـٰذا ذهب أحمد ابن حنبل في تأويل الخبر .

ومن ذلك : مصنفات الشافعي رحمه الله في الأصول والفروع التي لم يُسبق إليها كثرة وحسناً ، وهي كثيرة مشهورة كـ « الأم » في نحو خمسة عشر مجلداً[2] ، وجامعَي المزني « الكبير » و« الصغير » ، و« مختصريه » ، و« مختصر الربيع » و« البويطي » ، وكتاب « حرملة » ، وكتاب « الحجة » وهو القديم ، و« الرسالة الجديدة » ، و« القديمة » ، و« الأمالي » ، و« الإملاء » ، وغير ذلك مما هو معروف ، وقد جمعها البيهقي في « مناقب الشافعي » .

قال القاضي الإمام أبو محمد الحسين بن محمد المروزي في خطبة تعليقه : قيل : إن الشافعي رحمه الله صنف مئة وثلاثة عشر كتاباً في التفسير والفقه والأدب وغير ذلك .

وأما حُسنها : فأمر مدرك بمطالعتها ، فلا يتمارىٰ فيه موافق ولا مخالف .

---

(١) أخرجه بنحوه الديلمي (٣/ ٢٠٤) .

(٢) في نسخة : (خمسة مجلدات) .

وأما كتب أصحابه التي هي شروح لنصوصه ومخرجة علىٰ أصوله مفهومة من قواعده . . فلا يحصرها إلا الله تعالىٰ ، مع عُظْم فوائدها ، وكثرة عوائدها ، وكبر حجمها ، وحسن تدوينها ونظمها ؛ كتعليق الشيخ أبي حامد الاسفراييني وصاحبيه القاضي أبي الطيب الطبري ، والماوردي صاحب « الحاوي » ، و« نهاية المطلب » لإمام الحرمين ، وغيره مما هو معروف ، وكل هـٰذا مصرِّح بغزارة علمه ، وجزالة كلامه ، وبلاغته ، وبراعة فهمه ، وصحة نيته ، وحسن طويته .

وقد نقل عنه في صحة نيته نقول كثيرة مشهورة ، وكفىٰ بالاستقراء في ذلك دليلاً قاطعاً وبرهاناً ساطعاً .

قال الساجي في كتابه « الاختلاف » : سمعت الربيع يقول : سمعت الشافعي يقول : وددت أن الخلق تعلموا هـٰذا العلم علىٰ ألاَّ يُنسب إليَّ منه حرف . وهـٰذا إسناد لا نماري في صحته .

وقال الشافعي رحمه الله : وددت أني إذا ناظرت أحداً أن يُظهر الله تعالى الحق علىٰ يديه . ونظائر هـٰذا كثير مشهور .

ومن ذلك : مبالغته في الشفقة على المتعلمين ، ونصيحته لله تعالىٰ وكتابه ورسوله صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، وذلك هو الدِّين كما صح عن سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم .

وهـٰذا الذي ذكرته من أحواله وإن كان كله مشهوراً فلا بأس بالإشارة إليه ؛ ليعرفه من لم يقف عليه .

فصل

في نوادر من حكم الشافعي رحمه الله

قال : طلب العلم أفضل من صلاة النافلة .

وقال : من أراد الدنيا . . فعليه بالعلم ، ومن أراد الآخرة . . فعليه بالعلم .

وقال : ما تُقُرِّب إلى الله تعالىٰ بشيء بعد الفرائض أفضل من طلب العلم .

وقال : ما أفلح في العلم . . إلا من طلبه في القلة ، ولقد كنت أطلب القرطاس فيعسر عليَّ .

وقال : لا يطلب أحد هـٰذا العلم بالملك وعز النفس فيفلح ، ولـٰكن من طلبه بذلة النفس وضيق العيش وخدمة العلم وتواضع النفس . . أفلح .

وقال : تفقه قبل أن تَرْأَس ، فإذا رَأَسْتَ . . فلا سبيل إلى التفقه .

وقال : من طلب علماً . . فليدقق ؛ لئلا يضيع دقيق العلم .

وقال الشافعي رحمه الله : من لا يحب العلم . . لا خير فيه ، ولا يكن بينك وبينه صداقة ولا معرفة .

وقال : زينة العلماء التوفيق للعمل ، وحليتهم حسن الخلق ، وجمالهم كرم النفس .

وقال : زينة المعلم الورع والحلم .

وقال : لا عيب بالعلماء أقبحُ مِن رغبتهم فيما زهدهم الله تعالىٰ فيه ، ومِن زهدهم فيما رغبهم الله تعالىٰ فيه .

وقال : ليس العلم ما حُفظ ؛ العلم ما نفع .

وقال : فقر العلماء اختيار ، وفقر الجهال اضطرار .

وقال : المِراء في العلم يقسي القلب ويورث الضغائن .

وقال : الناس في غفلة عن هـٰذه السورة : ﴿وَٱلْعَصْرِ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ .

وكان قد جزَّأ الليل ثلاثة أجزاء ، الثلث الأول يكتب ، والثاني يصلي ، والثالث ينام .

وقال الربيع : نمت في منزل الشافعي رحمه الله ليالي ، فلم يكن ينام من الليل إلا يسيراً .

وقال بحر بن نصر : ما رأيت ولا سمعت كان في عصر الشافعي أتقىٰ لله عز وجل ولا أورع ولا أحسن صوتاً بالقرآن منه .

وقال الحميدي : كان الشافعي رحمه الله يختم في كل يوم ختمة .

وقال حرملة : سمعت الشافعي رحمه الله يقول : وددت أن كل علم أعلمه أؤجر عليه ولا يحمدوني .

وقال أحمد ابن حنبل رحمه الله تعالىٰ : كان الشافعي رحمه الله قد جمع الله تعالىٰ فيه كل خير .

وقال : ما كذبت قط ، ولا حلفت بالله تعالىٰ صادقاً ولا كاذباً ، وما تركت غُسل الجمعة في برد ولا سفر ولا غيره .

وقال : ما شبعت منذ ستة عشر سنة إلا شبعة واحدة طرحتها من ساعتي ، وفي رواية : من عشرين سنة .

وقال : من لم تُعِزَّه التقوىٰ . . فلا عِزَّ له .

وقال : ما فزعت من الفقر قط .

وقال : طلب فضول الدنيا عقوبة عاقب الله تعالىٰ بها أهل التوحيد .

وقيل للشافعي : ما لَكَ تدمن إمساك العصا ولست بضعيف ؟ فقال : لأذكر أني مسافر من الدنيا .

وقال : من شهد الضعف من نفسه . . نال الاستقامة .

وقال : من غلبته شدة الشهوة للدنيا . . لزمته العبودية لأهلها ، ومن رضي بالقنوع . . زال عنه الخضوع .

وقال : خير الدنيا والآخرة في خمس خصال : غنى النفس ، وكف الأذىٰ ، وكسب الحلال ، ولباس التقوىٰ ، والثقة بالله تعالىٰ علىٰ كل حال .

وقال للربيع : عليك بالزهد .

وقال : أنفع الذخائر التقوىٰ ، وأضرها العدوان .

وقال : من أحب أن يفتح الله قلبه وينوره . . فعليه بترك الكلام فيما لا يعنيه ، ويجتنب المعاصي ، ويكون له ورد من الأعمال فيما بينه وبين الله تعالىٰ .

وفي رواية : فعليه بالخلوة ، وقلة الأكل ، وترك مخالطة السفهاء ، وبغض أهل العلم الذين لا يريدون بعلمهم إلا الدنيا ، وليس معهم إنصاف ولا أدب .

وقال : يا ربيع ؛ لا تتكلم فيما لا يعنيك ؛ فإنك إذا تكلمت بالكلمة . . ملَكَتْك ولم تملكها .

وقال ليونس بن عبد الأعلىٰ : لو اجتهدت كل الجهد علىٰ أن ترضي الناس كلهم . . فلا سبيل إليه ، فأخلص عملك ونيتك لله عز وجل .

وقال : لا يعرف الرياء إلا المخلصون .

وقال : **لو أُوصي بشيء لأعقلِ الناس . . صرف إلى الزهاد .**

وقال : سياسة الناس أشد من سياسة الدواب .

وقال : العاقل : مَن عَقَلَه عَقْلُه عن كل مذموم .

وقال : لو علمت أن شرب الماء البارد ينقص من مروءتي . . ما شربته ، ولو كنت اليوم ممن يقول الشعر . . لرثيت المروءة .

وقال : للمروءة أربعة أركان : حسن الخلق ، والسخاء ، والتواضع ، والنسك .

وقال : المروءة : عفة الجوارح عما لا يعنيها .

وقال : أصحاب المروءات في جهد .

وقال : من أحب أن يختم الله تعالىٰ له بالخير . . فليحسن الظن بالناس .

وقال : لا يكمل الرجل في الدنيا إلا بأربع خصال : الديانة ، والأمانة ، والصيانة ، والرزانة .

وقال : أقمت أربعين سنة أسأل إخواني الذين تزوجوا عن أحوالهم في تزوجهم ، فما منهم من أحد قال إنه رأىٰ خيراً .

وقال : ليس بأخيك مَن احتجْتَ إلىٰ مداراته .

وقال : مَن صدق في أُخوَّة أخيه . . قَبِل علله ، وسد خلله ، وغفر زلله .

وقال : مِن علامة الصديق : أن يكون لصديق صديقه صديقاً .

وقال : ليس سرور يعدل صحبة الإخوان ، ولا غم يعدل فراقهم .

وقال : لا تقصِّر في حق أخيك اعتماداً علىٰ مودته .

وقال : لا تبذل وجهك إلىٰ من يهون عليه ردك .

وقال : مَن بَرَّك . . فقد أوثقك ، ومن جفاك . . فقد أطلقك .

وقال : من نَمَّ لك . . نَمَّ عليك ، و[دع] من إذا أرضيته . . قال فيك ما ليس فيك ، وإذا أغضبته . . قال فيك ما ليس فيك .

وقال : الكيِّس العاقل : هو الفطن المتغافل .

وقال : من وعظ أخاه سراً . . فقد نصحه وزانه ، ومن وعظه علانية . . فقد فضحه وشانه .

وقال : من سام بنفسه فوق ما يساوي . . رده الله تعالىٰ إلىٰ قيمته .

وقال : الفتوة حلية الأحرار .

وقال : من تزين بباطل . . هتك ستره .

وقال : التواضع من أخلاق الكرام ، والتكبر من شيم اللئام .

وقال : التواضع يورث المحبة ، والقناعة تورث الراحة .

وقال : أرفع الناس قدراً : من لا يرىٰ قدره ، وأكثرهم فضلاً : من لا يرىٰ فضله .

وقال : إذا كثرت الحوائج . . فابدأ بأهمها .

وقال : من كتم سره . . كانت الخِيَرة في يده .

وقال : الشفاعات زكاة المروءات .

وقال : ما ضُحِك من خطأِ رجلٍ . . إلا ثبَّت [الله] صوابه في قلبه .

وقال : أَبْيَنُ ما في الإنسان ضعفه ، فمن شهد الضعف من نفسه . . نال الاستقامة مع الله تعالىٰ .

وقال : قال رجل لأُبي بن كعب رضي الله عنه : عظني ، فقال : وَاخِ الإخوان علىٰ قدر تقواهم ، ولا تبذل علمك لمن لا يرغب فيه ، ولا تغبط الحي إلا بما تغبط به الميت .

وقال : من صدق الله تعالىٰ . . نجا ، ومن أشفق علىٰ دينه . . سلم من الردىٰ ، ومن زهد في الدنيا . . قرت عيناه بما يرىٰ من ثواب الله تعالىٰ غداً .

وقال : كن في الدنيا زاهداً ، وفي الآخرة راغباً ، وٱصدُقِ الله تعالىٰ في جميع أمورك . . تنج غداً مع الناجين .

وقال : من كان فيه ثلاث خصال . . فقد أكمل الإيمان : يأمر بالمعروف ويأتمر به ، وينهىٰ عن المنكر وينتهي عنه ، ويحافظ علىٰ حدود الله تعالىٰ .

وقال لأخ له في الله تعالىٰ يعظه ويخوفه : يا أخي ؛ إن الدنيا دَحَضٌ[1] مزلة ، ودارٌ مُذِلَّة ، عُمرانها إلى الخراب صائر ، وساكنها إلى القبور زائر ، شملُها على الفرقة موقوف ،

---

(١) الدَّحَضُ : الزَّلِقُ .

وغناها إلى الفقر مصروف ، الإكثار منها إعسار ، والإعسار فيها يسار ، فافزع إلى الله تعالىٰ ، وارض برزق الله عز وجل ، ولا تستلف من دار بقائك في دار فنائك ؛ فإن حياتك فيها فيء زائل ، وجدار مائل ، أكثر من عملك ، وقصِّر من أملك .

وقال : أرجىٰ حديث للمسلمين . . حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا كان يوم القيامة . . دفع [الله] إلىٰ كل مسلم يهودياً أو نصرانياً ، وقيل : يا مسلم ؛ هـٰذا فداؤك من النار » رواه مسلم في « صحيحه » [٢٧٦٧] .

وقال الشافعي رحمه الله : الانبساط إلى الناس . . مجلبة لقرناء السوء ، والانقباض عنهم . . مكسبة للعداوة ، فكن بين المنقبض والمنبسط .

وقال : ما أكرمتُ أحداً فوق قدره . . إلا نقص من مقداري عنده بقدر ما زدت في إكرامه .

وقال : لا وفاء لعبد ، ولا شكر للئيم ، ولا صنيعة عند نذل .

وقال : صحبة من لا يخاف العار . . عار يوم القيامة .

وقال : عاشر كرام الناس . . تَعش كريماً ، ولا تعاشر اللئام . . فتنسب إلى اللؤم .

وقال له رجل : أوصني ، فقال : إن الله تعالىٰ خلقك حراً ، فكن كما خلقك .

وقال : من تسمَّع بأذنه . . صار حاكياً ، ومن أصغىٰ بقلبه . . صار واعياً ، ومن وَعَظ بفِعله . . كان هادياً .

وقال : من الذل حضور مجلس العلم بلا نسخة ، وعبور الجسر بلا قطعة ، ودخول الحمام بلا سطل ، وتذلل الشريف للدني لينال منه شيئاً ، وتذلل الرجل للمرأة لينال من مالها شيئاً ، ومداراة الأحمق ؛ فإن مداراتَه غاية لا تدرك .

وقال : من ولي القضاء فلم يفتقر . . فهو لص .

وقال : لا بأس على الفقيه أن يكون معه سفيه يسافه به .

وقال : إذا أخطأتك الصنيعة إلىٰ من يتقي الله عز وجل . . فاصطنعها إلىٰ من يتقي العار .

* * *

فصل

في أحرف من المنقولات في سخائه رحمه الله

اعلم : أن سخاء الشافعي مما اشتُهر حتىٰ لا يتشكك فيه من له أدنىٰ أُنس بعلم أو مخالطة الناس ، ولٰكني أنثر منه أحرفاً .

قال الحميدي رحمه الله : قدم الشافعي رحمه الله من صنعاء إلىٰ مكة بعشرة آلاف دينار ، فضرب خباء خارجاً من مكة ، فكان الناس يأتونه ، فما برح حتىٰ فرقها كلها .

وقال عمرو بن سواد : كان الشافعي رحمه الله أسخى الناس بالدينار والدرهم والطعام .

وقال البويطي : قدم الشافعي مصر وكانت زُبيدة ترسل إليه برزم الثياب والوشي[1] ، فيقسمها بين الناس .

وقال الربيع : كان الشافعي راكباً علىٰ حمار ، فمر علىٰ سوق الحدادين ، فسقط سوطه من يده ، فوثب إنسان ، فمسحه بكفيه ، وناوله إياه ، فقال لغلامه : ادفع إليه الدنانير التي معك ، فما أدري كانت سبعة أو تسعة .

وقال : كنا يوماً مع الشافعي رحمه الله ، فانقطع شسع نعله ، فأصلحه له رجل ، فقال : يا ربيع ؛ أمعك من نفقتنا شيء ؟ قلت : نعم ، قال : كم ؟ قلت : سبعة دنانير ، قال : ادفعها إليه .

وقال أبو سعيد : كان الشافعي رحمه الله من أجود الناس وأسخاهم كفّاً ، كان يشتري الجارية الصَّنَاعَ التي تطبخ وتعمل الحلوىٰ ، ويقول لنا : تَشَهَّوْا ما أحببتم ، فقد اشتريت جارية تحسن أن تعمل ما تريدون ، فيقول بعض أصحابنا : اعملي اليوم كذا ، وكنا نحن الذين نأمرها .

وقال الربيع : كان الشافعي رحمه الله إن سأله إنسان شيئاً . يَحْمارُّ وجهه حياء من السائل ، ويبادر بإعطائه رحمه الله تعالىٰ ورضي عنه .

* * *

---

(١) أي : كانت ترسل إليه بأنواع الثياب ، الموشية وغيرها .

فصل

في شهادة أئمة الإسلام المتقدمين فمَن بعدهم للشافعي رحمه الله بالتقدم في العلم ، واعترافهم له به ، وحسن ثنائهم عليه ، وجميل دعائهم له ، ووصفهم له بالصفات الجميلة والخلال الحميدة

وهـٰذا الباب ربما يتسع جداً ، لـٰكنا نرمز إلىٰ أحرف منه ؛ تنبيهاً بها علىٰ ما سواها .

فمِن ذلك : ما قال له شيخه الإمام مالك بن أنس رحمه الله : إن الله عز وجل قد ألقىٰ علىٰ قلبك نوراً ، فلا تطفئه بالمعصية .

وقال الشافعي رحمه الله : لما رحلت إلىٰ مالك فسمع كلامي . . نظر إلي ساعة ـ وكانت لمالك رحمه الله فراسة ـ قال : ما اسمك ؟ قلت : محمد ، قال : يا محمد ؛ اتق الله ، واجتنب المعاصي ؛ فإنه سيكون لك شأن عظيم ، فقلت له : نَعم ، وكرامة ، ثم قال : إذا كان تجيء . . فجيء بمن يقرأ لك « الموطأ » فقلت : إني أَقرؤُهُ ظاهراً ، فغدوت إليه وابتدأت ، فكلما تهيبت مالكاً وأردت أن أقطع . . أعجبته قراءتي وإعرابي ، فيقول : يا فتىٰ ؛ زد ، حتىٰ قرأته عليه في أيام يسيرة . . . ثم ذكر خروجه إلى اليمن .

وفي رواية : فقرأت عليه ، وربما قال لي في شيء قد مر : أعد حديث كذا ، فأعيده حفظاً ، فكان يعجبه ذلك ، فقال : أنت تحب[1] أن تكون قاضياً ، وفي هـٰذه الرواية : أتيته وأنا ابن ثلاث عشرة سنة .

وقال شيخه سفيان بن عيينة : وقد قرىء عليه حديثٌ في الرقائق ، فغشي على الشافعي ، فقيل : قد مات الشافعي ، فقال سفيان رحمه الله : إن كان قد مات . . فقد مات أفضل أهل زمانه .

وقال ابن بنت الشافعي : سمعت أبي وعمي يقولان : كان ابن عيينة إذا جاءه شيء من التفسير والفتيا . . التفت إلى الشافعي ، وقال : سلوا هـٰذا .

وقال علي بن المَديني : عرفت الشافعي عند ابن عيينة ، وكان ابن عيينة يعظمه ويبجله ، وفسر الشافعي بحضرة سفيان بن عيينة حديثاً أشكل علىٰ سفيان ، فقال له سفيان : جزاك الله خيراً ، ما يجيئُنا منك . . إلا ما نحب .

وقال الحميدي صاحب سفيان : وكان سفيان بن عيينة ومسلم بن خالد وسعيد بن سالم

---

(١) كذا في النسخ ، وفي « تهذيب الأسماء واللغات » : (يجب) .

وعبد الحميد بن عبد العزيز وشيوخ مكة يصفون الشافعي ، ويعرفونه من صغره مقدَّماً عندهم بالذكاء والعقل والصيانة ، ويقولون : لم نعرف له صبوة .

وقال الحميدي : سمعت مسلم بن خالد يقول للشافعي : أَفْتِ ؛ فقد ـ والله ـ آن لك أن تفتي ، والشافعي ابن خمس عشرة سنة .

وقال يحيى بن سعيد القطان إمام المحدثين في زمانه : أنا أدعو الله تعالىٰ للشافعي في صلاتي من أربع سنين .

وقال القطان حين عُرض عليه كتاب « الرسالة » للشافعي : ما رأيت أعقل وأفقه منه .

وقال ابن مهدي المقدم في عصره في علمي الحديث والفقه حين جاءته « رسالة الشافعي » رحمه الله ـ وكان قد طلب من الشافعي أن يصنف كتاب « الرسالة » ـ فلما وقف عليها . . أثنىٰ عليه ثناء جميلاً ، وأُعجب بـ « الرسالة » إعجاباً شديداً ، وقال : ماأصلي صلاة إلا وأنا أدعو للشافعي .

وقال أبو حسان الرازي : ما رأيت محمد بن الحسن يعظم أحداً من أهل العلم تعظيمه للشافعي .

وقال أيوب بن سويد الرملي ـ وهو أحد شيوخ الشافعي رحمه الله ، ومات قبل الشافعي بإحدىٰ عشرة سنة ـ : ما ظننت أني أعيش حتىٰ أرىٰ مثل الشافعي .

وقال البويطي : قال يحيى بن حسان : ما رأيت مثل الشافعي . وكان شديد المحبة للشافعي ، قدم مصر ، وقال : إنما جئت للسلام على الشافعي .

وقال محمد بن علي المديني : قال لي أبي : لا تترك للشافعي حرفاً . . إلا تكتبه .

وقال يحيى بن مَعين ـ وقد سئل : عمن تُكتَبُ كتب الشافعي ؟ فقال : عن الربيع .

وقال قتيبة بن سعيد : مات الثوري ومات الورع ، ومات الشافعي وماتت السنن ، وبموت أحمد ابن حنبل تظهر البدع .

وقال قتيبة : لو وصلتني كتب الشافعي . . لكتبتها ، ما رأت عيناي أكيس منه .

وقال مصعب بن عبد الله الزبيري : ما رأيت أحداً أعلم بأيام الناس من الشافعي .

وقال أحمد ابن حنبل : إذا جاءتني المسألة وليس فيها أثر . . فإنما أُفتي فيها بقول الشافعي رحمه الله .

وقال أحمد أيضاً : ما تكلم أحد في العلم أقل خطأً ولا أشد أخذاً بسُنَّة النبي صلى الله عليه وسلم من الشافعي .

وقال أحمد ابن حنبل رحمه الله وقد سئل عن الشافعي رحمه الله : لقد مَنَّ الله به علينا ، لقد كنا تعلمنا كلام القوم ، وكتبنا كتبهم ، حتىٰ قدم علينا الشافعي ، فلما سمعنا كلامه . . علمنا أنه أعلم من غيره ، وقد جالسناه الأيام والليالي ، فما رأينا منه إلا كل خير رحمه الله تعالىٰ .

وقال الزعفراني : ما حضرت للشافعي مجلساً قط . . إلا وجدت أحمد ابن حنبل فيه .

وقال صالح بن أحمد ابن حنبل : ركب الشافعي رحمه الله حماره ، فسار أبي يمشي إلىٰ جانبه وهو يذاكره ، فبلغ ذلك يحيى بن معين ، فبعث إلىٰ أبي في ذلك ، فبعث إليه أبي : إنك لو كنت في الجانب الآخر من الحمار . . لكان أنفعَ لك .

وقال الفضل بن زياد : قال أحمد ابن حنبل : هٰذا الذي ترون كله أو عامته من الشافعي ، ما بِتُّ منذ أربعين سنة ـ أو قال : ثلاثين سنة ـ إلا وأنا أدعو الله تعالىٰ للشافعي وأستغفر له .

وفي رواية غير الفضل : إني لأدعو للشافعي في صلاتي من أربعين سنة ، أقول : اللهم ؛ اغفر لي ، ولوالدي ، ولمحمد بن إدريس الشافعي ، فما كان فيهم أتبعَ لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم منه .

وفي رواية : ما أعلم أحداً أعظمَ مِنَّةً على الإسلام في زمن الشافعي من الشافعي .

وقال أحمد : ما أحد مس بيده محبرة ولا قلماً . . إلا وللشافعي في عنقه مِنَّة .

وقال محفوظ ابن أبي توبة : كنا بمكة وأحمد ابن حنبل جالس عند الشافعي ، فقيل له : إن سفيان بن عيينة يحدِّث ، فقم بنا إليه ، فقال : إن هٰذا يفوت وذاك لا يفوت وجلس عند الشافعي .

وقال أحمد لإسحاق بن راهويه : تعال حتىٰ أريك رجلاً لم تر عيناك مثله .

وقال أحمد ابن حنبل : كان الفقه قفلاً علىٰ أهله حتىٰ فتحه الله تعالىٰ بالشافعي .

وقال أحمد لمحمد بن مسلم ابن وارة حين قدم من مصر : أكتبتَ كتب الشافعي ؟ قال : لا ، قال : فرَّطْتَ .

وقال أحمد : لما قدم علينا الشافعي من صنعاء . . صيَّرَنا على المحجة البيضاء ، وكانت أقفيتنا لأصحاب أبي حنيفة حتىٰ رأينا الشافعي ، وكان أفقه الناس في كتاب الله تعالىٰ وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وقال : لا يستغني ـ أو لا يشبع ـ صاحبُ حديث عن كتب الشافعي .

وقال : ما كان أصحاب الحديث يعرفون معاني أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبيَّنها لهم الشافعي .

وقال إسحاق بن راهويه : الشافعي إمام العلماء ، وما تكلم أحد بالرأي . . إلا والشافعي أقل خطأً منه .

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام : ما رأيت رجلاً أعقل ولا أورع ولا أفصح ولا أنبل رأياً من الشافعي .

وقال الربيع : جاءني أبو عبيد ، فأخذ كتب الشافعي ؛ يعني : ليكتبها .

وقال يحيى بن أكثم : ما رأيت أحداً أعقل من الشافعي ، وما رأيت رجلاً أحسن استنباطاً منه .

وقال أبو ثور : كنت أنا وإسحاق بن راهويه والحسين الكرابيسي وجماعة من العراقيين علىٰ بدعة ، فما تركنا بدعتنا حتىٰ جاء الشافعي ، وما رأينا مثل الشافعي ، ولا رأى الشافعي مثل نفسه .

وقال الزعفراني : أنا راوية كتب الشافعي القديمة ، وما رأيت مثل الشافعي أفضل ولا أكرم ولا أتقىٰ ولا أعلم منه ، وما رأيته لَحَن قط ، وكان يقرأ عليه من كل شعر[1] ، فيعرفه ، وما حمل أحد محبرة . . إلا وللشافعي عليه مِنَّة ، ما كان الشافعي إلا بحراً .

وقال الكرابيسي : ما فهمنا استنباط أكثر السنن . . إلا بتعليم الشافعي إيانا .

وقال الكرابيسي أيضاً : ما كنا ندري ما الكتاب والسنة والإجماع حتىٰ سمعناه من الشافعي ، وما رأيت مثل الشافعي ، وما رأى الشافعي مثل نفسه ، وما رأيت أفصح منه ، ولا أَعْرَفَ ، ولا رأيت مجلساً قط أنبل من مجلس الشافعي ، كان يحضره أهل الحديث وأهل الفقه وأهل الشعر ، وكان يأتيه كبراء أهل الفقه والشعر ، فكل يتعلم منه .

---

(١) في نسخة : (شيء) .

وقال أبو بكر الحميدي المكي : قال أحمد ابن حنبل ونحن بمكة : الزم الشافعي ، فلزمته حتىٰ خرجت معه إلىٰ مصر .

وقال الحميدي : كنا نريد أن نَرُدَّ علىٰ أهل الرأي ، فلا نحسن ، حتىٰ جاءنا الشافعي رحمه الله ، ففتح لنا الأقفال .

وقال الحميدي : سيد علماء زمانه الشافعيُّ .

وكان الحميدي إذا جرىٰ عنده ذِكر الشافعي . . يقول : حدثنا سيد الفقهاء الشافعي .

وقال الحميدي : كان الشافعي ربما ألقىٰ عليَّ وعلىٰ غيري المسألة ، ويقول : أيكما أصاب . . فله دينار .

وقال هارون بن سعيد الأيْلي أحد شيوخ مسلم في « صحيحه » : ما رأيت مثل الشافعي .

وقيل لأحمد بن صالح : أجالست الشافعي ؟ فقال : سبحان الله! أكنت أقصِّر في مجالسته ؟!

وقال علي بن معبد المصري : ما عرفنا الحديث حتىٰ جالسنا الشافعي .

وقال المزني : قدم الشافعي مصر وبها عبد الملك بن هشام النحوي صاحب « المغازي » ، وكان علامة أهل مصر في العربية والشعر ، فذهب إلى الشافعي ، ثم قال : ما ظننت أن الله تعالىٰ خلق مثل الشافعي ، ثم اتخذ قول الشافعي حجة في اللغة .

وقال الربيع : قال البويطي : ما عرفنا قدر الشافعي حتىٰ رأيت أهل العراق يذكرونه ويصفونه بوصف ما نحسن نصفه ، فقد كان حذاق العراق بالفقه والنظر ، وكل صنف من أهل الحديث وأهل العربية والنظار يقولون : إنهم لم يروا مثل الشافعي رحمه الله .

قال الربيع : وكان البويطي يقول : قد رأيت الناس ، فو الله ؛ ما رأيت مثل الشافعي ، ولا رأيت أحداً يشبهه ولا يقاربه في صنف من العلوم ، والله ؛ إن الشافعي كان عندي أورع من كل من رأيته ينسب إلى الورع ، ومِن كثرة ما كنت أرى البويطي يتأسف على الشافعي وما فاته ، قلت له : يا أبا يعقوب ؛ قد كان الشافعي محباً لك ، يقدمك علىٰ أصحابه ، وكنت أراك شديد الهيبة له ، فما منعك أن تسأله عن كل ما تريد ؟ فقال لي : قد رأيت الشافعي ولينه وتواضعه ، والله ؛ ما كلمته في شيء قط . . إلا وأنا كالمقْشَعِرِّ من هيبته ، وقد رأيت ابن هرمز وكل من كان في زمن الشافعي كيف كانوا يهابونه ، وقد رأيت هيبة السلاطين له .

وقال محمد بن عبد الحكم : ما رأيت مثل الشافعي ، ولا هو رأىٰ مثله .

وقال محمد بن عبد الحكم : ليس فلان عندنا بفقيه ؛ لأنه يجمع أقوال الناس ، ويختار بعضها ، قيل : مَنِ الفقيه ؟ قال : الذي يستنبط أصلاً من كتاب أو سنة لم يُسبق إليه ، ثم يشعب من الأصل مئة شعب ، قيل له : فمن يقوَىٰ علىٰ ذلك ؟ قال : محمد بن إدريس .

وقال علي الرازي : حج بشر المريسي ، فلما قدم . . قيل له : من لقيت بمكة ؟ قال : رأيت رجلاً إن كان منكم . . لن تُغلَبوا ، وإن كان عليكم . . فتأهبوا وخذوا حذركم ، وهو محمد بن إدريس الشافعي .

وقال بشر المريسي : مع الشافعي رحمه الله نصف عقل أهل الدنيا .

وقال : ما رأيت أعقل من الشافعي ولا أمهر منه .

وقال : رأيت بمكة فتىً ، لئن بقي . . ليكونن رجلَ الدنيا .

وقال المزني : لو كنا نفهم عن الشافعي كل ما قاله . . لأتيناكم بصنوف العلم ، أي علم كان يذهب على الشافعي ؟! ولـٰكن لم نكن نفهم ، فقصرنا وعاجله الموت .

وقال الربيع : لو رأيتم الشافعي . . لقلتم : ما هـٰذه كتبه ، كان ـ والله ـ لسانه أكبر من كتبه .

وقال حرملة : كان أبي قد رتب معي كاتباً ، وقال للكاتب : اكتب كل ما تكلم به الشافعي .

وقال داوود بن علي الظاهري : كان الشافعي سراجاً لحملة الآثار ونقلة الأخبار ، من تعلق بشيء من بيانه . . صار محجاجاً ، ومن فضائل الشافعي رحمه الله : حفظه لكتاب الله عز وجل ، وجمعه للسنن ، وآثار الصحابة رضوان الله تعالىٰ عليهم أجمعين ، ومعرفته بأقسام الخطاب ، وتقديمه ذلك على الرأي ، وكشفه عن تمويه المخالفين ، وما أبطله من زيوفهم ، وقذف به علىٰ باطلهم فدمغه ، ثم ما بَيَّن من الحق الذي سهل له بتوفيق الله سبحانه وتعالىٰ معرفته حتى استطال ، ثم ما مَنَّ الله تعالىٰ به عليه من منطقه الذي لا يدانىٰ فيه ، وما وقاه من شح نفسه ، قال تعالىٰ : ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ ، وسماحته ، وجوده ، وجميل سيرته ، وورعه ، ونسبه . . . ثم ساق الكلام إلىٰ أن قال : وما علمت أحداً كان في عصره أَمَنَّ على الإسلام منه ؛ لما نشر من الحق ، ودفع من الباطل ، وأظهر من الحجج ، وعَلَّم من الخير رحمة الله تعالىٰ عليه ورضوانه ، وشكر له

جميع ذلك ، وجمع بيننا وبينه في جنته مع جميع الأحبة ، إنه لطيف خبير .

وقال إبراهيم الحربي : قدم الشافعي بغداد وفي الجامع الغربي عشرون حلقة لأصحاب الرأي ، فلما كانت الجمعة . . لم يثبت منها إلا ثلاث حلق أو أربع .

وقال هلال بن العلاء : أصحاب الحديث عيال على الشافعي ؛ فتح لهم الأقفال .

وأقوال السلف في مدحه غير منحصرة .

فصل

فيمن روىٰ عنهم الشافعي من علماء الحجاز واليمن ومصر والعراق

وهم جمع غفير :

الأول : الإمام أبو عبد الله مالك بن أنس إمام المدينة ، ومالك بن أنس عن ربيعة عن أنس ، ونافع عن ابن عمر رضي الله عنهم ، كلاهما عن النبي صلى الله عليه وسلم .

والثاني : سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم .

والثالث : أبو خالد مسلم بن خالد الزنجي مفتي مكة وإمام العلماء ، ومسلم عن أبي الوليد عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج ، وابن جريج عن عطاء ابن أبي رباح ، وعطاء عن عبد الله بن العباس .

وقد جمعهم البيهقي في كتاب « المناقب » .

وأما الذين سمعوا منه وتفقهوا عليه . . فمنهم خلائق لا يحصون من أعلام الأئمة وغيرهم ؛ كأحمد ابن حنبل ، وأبي ثور ، والحميدي ، والبويطي ، والمزني ، وغيرهم .

ولما حضرت الشافعيَّ الوفاة . . أوصىٰ أن يكون القاعد في حلقته والخليفة بعده البويطي وهو أبو يعقوب يوسف بن يحيىٰ .

فصل

كان الشافعي رحمه الله يخضب لحيته بالحناء حمراء قانئة ، وتارة بصفرة ؛ اتباعاً للسنة ، وكان طويلاً ، سائل الخدين ، قليل لحم الوجه ، خفيف شعر العارضين ، طويل العنق ، طويل القصب ، آدم ، حسن الصوت ، حسن السمت ، عظيم العقل ، حسن الوجه ، حسن الخلق ، مهيباً ، فصيحاً ، إذا أخرج لسانه . . بلغ أنفه ، وكان كثير الأسقام .

وقولهم : (طويل القصب) : قال الأصمعي : هو عظم العضد والفخذ والساق ، وكل عظم فيه قصبة ، وقولهم : (سائل الخدين) أي : رقيقهما ، مستطيلهما ، والقانئة ـ بالهمز ـ : هي شدة الحمرة .

وقال يونس بن عبد الأعلىٰ : ما رأيت أحداً لقي من السقم ما لقي الشافعي رحمه الله ، وسبب هـٰذا ـ والله أعلم ـ : لُطف الله تعالىٰ به ومعاملتُه بمعاملة الأولياء ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : « نحن معاشرَ الأنبياء أشد بلاء ثم الأمثل فالأمثل »[1] .

وقال الربيع : كان الشافعي رحمه الله حسن الوجه ، حسن الخلق ، مهيباً ، محبباً لكل من كان بمصر في وقته من الفقهاء والنبلاء والأمراء ، كلهم يجل الشافعي ويعظمه ، وكان مقتصداً في لباسه ، ويتختم في يساره ، نقش خاتمه : كفىٰ بالله ثقة لمحمد بن إدريس .

وكان مجلسه مصوناً ، وإذا خيض في مجلسه في الكلام . . نهىٰ عنه .

وكان ذا معرفة تامة بالطب والرمي ، حتىٰ كان يصيب عشرة من عشرة .

وقال الربيع : كان الشافعي أشجع الناس ، وأفرسَهم ، وكان يأخذ بأذنه وأذن الفرس والفرس تعدو ، وكان ذا معرفة بالفراسة ، وكان مع حسن خلقه مهيباً .

وقال الربيع ـ وهو صاحبه ـ : والله ؛ ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعي ينظر إلي ؛ هيبة له .

وقال : سمعت الشافعي رحمه الله يقول : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام قبل حُلمي ، فقال لي : « يا غلام » فقلت : لبيك يارسول الله ، فقال : « ممن أنت ؟ » فقلت : من رهطك ، قال : « ادن مني » ، فدنوت منه ، ففتح فمي ، فأمرَّ من ريقه المبارك صلى الله عليه وسلم علىٰ لساني وفمي وشفتي ، وقال : « امض بارك الله تعالىٰ فيك » ، فما أذكر أني لحنت في حديث بعد ذلك ولا شِعر .

وعن أبي الحسن علي بن أحمد الدينوري الزاهد قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام ، فقلت : يا رسول الله ؛ بقول مَن آخذ ؟ فأشار إلىٰ علي بن أبي طالب ، قال : « خذ بيد هـٰذا فأت به ابن عمنا الشافعي ؛ ليعمل بمذهبه ، فيُرشَد ويبلغ الجنة » .

وكان يقول بعد ذلك : الشافعي بين العلماء كالبدر بين الكواكب .

---

(١) أخرجه بنحوه الحاكم (١/ ٩٩) ، وابن حبان (٢٩٠٠) .

وقال الشافعي رحمه الله : ما ناظرت أحداً قط على الغلبة .

وفي رواية : ما ناظرت أحداً قط إلا على النصيحة .

وقال الربيع : رأيت الشافعي رحمه الله ما لا أحصي ، وكان إذا انصرف . . اتشح برداء ، ووضعت له منارة قصيرة ، وأتكأ علىٰ وسادة وتحته مُضَرِيَّتان ، ويأخذ القلم ، فلا يزال يكتب .

وقال الربيع : سمعت الشافعي رحمه الله يقول : رأيت في المنام كأن آتياً أتاني ، فحمل كتبي ، فبثها في الهواء ، فسألت بعض العابرين ، فقال : إن صدقت رؤياك . . لم يبق بلد من بلاد الإسلام . . إلا ودخل علمك فيه .

وقال حرملة : رأيت الشافعي يقرىء الناس في المسجد الحرام وهو ابن ثلاث عشرة سنة .

وقال بحر بن نصر : كنا إذا أردنا أن نبكي . . قمنا إلى الشافعي ، فإذا أتيناه . . استفتح القراءة حتىٰ يتساقطوا ويكثر عجيجهم بالبكاء ، فإذا رأىٰ ذلك . . أمسك عن القراءة ؛ لحسن صوته .

وقال الربيع : سمعت الشافعي يقول : الإيمان قول وعمل يزيد وينقص .

وقال : أحب أن تكثر الصلاة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال الإمام الحافظ محمد بن مسلم ابن وارة ـ بالراء المهملة ـ : لما مات أبو زرعة الرازي . . رأيته في المنام ، فقلت له : ما فعل الله تعالىٰ بك ؟ فقال : قال لي الجبار سبحانه وتعالىٰ : ألحقوه بأبي عبد الله وأبي عبد الله وأبي عبد الله ، الأول : مالك ، والثاني : الشافعي ، والثالث : أحمد ابن حنبل .

وقال أبو عبد الله محمد بن يعقوب الهاشمي : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام ، فقال : « الشافعي في الجنة ، أو من أهل الجنة » .

وقال أبو العباس : رأيت عبد الله بن صالح في المنام وذكرت الشافعي ، فأشار عبد الله بيده نحو السماء ، وقال : ليس ثَمَّ أكبر منه .

ثم قال الشيخ محيي الدين النووي ـ قدس الله روحه ـ : هـٰذا آخر ما يتعلق بترجمة الإمام الشافعي رحمه الله ، وهي وإن كان فيها طول بالنسبة إلىٰ هـٰذا الكتاب . . فهي مختصرة جداً

بالنسبة إلىٰ ما ذكره البيهقي وغيره من المتقدمين والمتأخرين في مناقبه ، وبالنسبة إلىٰ ما أحفظه من أحواله التي ٱطلعت عليها في غير كتب المناقب مفرقة في كتب العلماء ، ولٰكن نبهت بما ذكرته علىٰ ما حذفته ، رضي الله عنه ، وأرضاه ، وأكرم نزله ومثواه ، وجمع بيننا وبينه مع أحبابنا في دار كرامته ، ونفعني بانتسابي إليه وانتمائي إلىٰ صحبته ، وحشرنا في زمرته ، والمرء مع من أحب ، وأنا من أهل محبته . انتهىٰ [من أول الترجمة إلىٰ هنا من « التهذيب » ١/ ٤٤ـ٦٧] .

وروى الحافظ أبو نعيم ـ قدس الله روحه ـ بإسناده : عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « للقرشي مِثْلا قوة الرجلين من غيرهم » ، فسأل ابنَ شهاب سائلٌ : ما معنىٰ ذلك ؟ قال : نُبْلُ الرأي[1] .

وعن علي رضي الله عنه قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجحفة ، فقال : « أيها الناس ؛ ألست أولىٰ بكم من أنفسكم ؟ » قالوا : بلىٰ ، قال : « فإني كائن لكم على الحوض فرطاً ، وسائلكم عن اثنتين : عن القرآن ، وعن عترتي ، لا تَقَدَّموا قريشاً فتهلكوا ، ولا تَخَلَّفوا عنها فتضلوا ، قوة الرجل من قريش قوة الرجلين ، لاتفاقهوا قريشاً ؛ فَهُمْ أفقه منكم ، لولا أن تبطر قريش . . لأخبرتها بما لها عند الله ، خيار قريش . . خيار الناس ، وشرار قريش . . خير شرار الناس »[2] .

وعن عطاء ، عن ابن عباس رضي الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم ؛ ٱهد قريشاً ؛ فإن علم العالم منهم يسع طباق الأرض ، اللهم ؛ أذقت أولها نكالاً ، فأذق آخرها نوالاً » .

وعن مجاهد في قوله عز وجل : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ قال : يُقال : ممن هٰذا الرجل ؟ فيقال : من العرب ، فيقال : من أيهم ؟ فيقال : من قريش .

وعن سعيد بن المسيِّب ، عن جبير بن مطعم قال : لما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم سهم ذوي القربىٰ بين بني هاشم وبني المطلب . . أتيت أنا وعثمان بن عفان ، فقلنا : يا رسول الله ؛ هٰؤلاء بنو هاشم لا ننكر فضلهم لمكانك الذي جعلك الله تعالىٰ منهم ، أرأيت إخواننا من بني المطلب أعطيتهم ومنعتنا ، وإنما نحن وهم منك بمنزلة واحدة ؟ فقال

---

(١) أخرجه بنحوه ابن حبان (٦٢٦٥) ، والبيهقي في « الكبرىٰ » (١/ ٣٨٦) .
(٢) أخرجه بنحوه ابن أبي شيبة (٣٢٣٨١) .

صلى الله عليه وسلم : « إنهم لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام ، وإنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد » ثم شبك بين أصابعه[1] .

وقال الشافعي : ما نظرت في « موطأ مالك » . . إلا ازددت فَهْماً .

وقال : ما كتاب بعد كتاب الله عز وجل أنفع من « الموطأ » .

وقال : لولا مالك وابن عيينة . . لذهب علم الحجاز .

وقال : إذا جاء الأثر . . فمالك النجم .

وقال الشافعي رحمه الله : جئت إلىٰ مصعب بن عبد الله ، فكلمته أن يكلم بعض أهلنا ، فيعطيَني شيئاً من الدنيا ؛ فإنه كان بي من الفقر والفاقة ما الله به عليم ، فقال لي مصعب : أتيتُ فلاناً ، فكلمته ، فقال لي : كيف تكلمني في رجل كان منا فخالفنا ؟ يعني : لأجل قراءتي علىٰ مالك ، ثم أعطاني مصعب مئة دينار ، وقال لي : إن هارون الرشيد قد كتب إلي أن أصير إلى اليمن قاضياً ، فاخرج معنا لعل الله تعالىٰ يعوضك ، فخرج قاضياً على اليمن وخرجت معه ، فلما صرنا باليمن وجالسنا الناس . . كتب مطرف بن مازن إلىٰ هارون الرشيد : إن أردت اليمن لا يَفسُد عليك ولا يخرج من يديك . . فأخرج عنه محمد بن إدريس ، وذكر أقواماً من الطالبيين ، قال : فبعث إلىٰ حماد البربري ، فأُوثقت بالحديد حتىٰ قدمنا علىٰ هارون بالرقة ، قال الشافعي : وقدمت ومعي خمسون ديناراً ، فأنفقتها علىٰ كتب محمد بن الحسن .

وسمعته غير مرة يقول : إنْ تابعكم الشافعي . . فما عليكم من حجازي كلفة ، فجلست إليه وأنا من أشد الناس همّاً وغمّاً ، فلما جلست إليه . . أقبل محمد بن الحسن يطعن على الحُكْم بالشاهد واليمين ، فسألته عن ذلك ، قال : لأنه مخالف لكتاب الله تعالىٰ ، فقلت له : فكل خبر يأتيك مخالف لكتاب الله عز وجل أتسقطه ؟ فقال : كذا يجب ، فقلت له : ما تقول في الوصية للوالدين ؟ فتفكر ساعة ، فقال : لا تجوز ، قال : فقلت له : هـٰذا مخالف لكتاب الله تعالىٰ ، لِمَ قلت : إنه لا يجوز ؟ قال : لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا وصية لوارث »[2] .

قال : فقلت له : أخبرني عن الشاهدين حتم من الله عز وجل ، فإن قلت : إنه حتم

---

(١) أخرجه النسائي في « الكبرىٰ » (٣/ ٤٥) .

(٢) أخرجه بنحوه الترمذي (٢١٢٠) ، والبيهقي في « الكبرىٰ » (٦/ ٢١٢) .

من الله عز وجل.. فكان ينبغي لك أن تقول : إذا زنىٰ فشهد عليه شاهدان : إن كان محصَناً.. رجمته ، وإن كان غير محصَن.. جلدته ، وإن قلت : إنه ليس حتماً من الله عز وجل.. فنزِّل الأحكام منازلها ؛ في الزنا أربعة ، وفي غيره شاهدان ، وفي غيره رجل وامرأتان .

ثم قلت له : ما تقول في الرجل والمرأة إذا اختلفا في متاع البيت ؟ فقال : أصحابي يقولون فيه : ما كان للرجال.. فهو للرجال ، وما كان للنساء.. فهو للنساء ، فقلت : أبكتاب الله تعالىٰ هـٰذا ، أم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟!

وما تقول في الرجلين إذا اختلفا في الحائط ؟ فقال : في قول أصحابنا : إذا لم يكن له بينة.. ننظر إلى العقد من أين هو البناء ؟ فأَحْكُم لصاحبه ، فقلت : أبكتاب الله تعالىٰ هـٰذا ، أم بسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ؟!

وما تقول في رجلين بينهما خص ، فيختلفان ؟ لمن نحكم إذا لم يكن لهما بينة ؟ قال : أنظر إلىٰ معاقده من أي وجه هو فأَحْكُم له ، قلت : أبكتاب الله تعالىٰ هـٰذا ، أم بسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ؟!

وما تقول في ولادة المرأة إذا لم يكن بحضرتها إلا امرأة واحدة وهي القابلة ، فقال : الشهادة جائزة بشهادة القابلة وحدها ، فقلت : أبكتاب الله تعالىٰ ، أم بسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ؟!

ثم قلت : من كانت هـٰذه أحكامه.. فلا يطعن علىٰ غيره ، ثم قلت : أتعجب من حُكمٍ حَكَمَ به رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم وقضىٰ به شريح ؟!

قال الشافعي : وكان خلفي رجل يكتب ألفاظي وأنا لا أعلم ، فأدخل إلىٰ هارون وقرأ عليه ، قال : فقال هرثمة بن أعين : كان الخليفة متكئاً فاستوىٰ جالساً ، فقال : اقرأ عليَّ ثانياً ، فلما قرأ.. قال هارون : صدق الله تعالىٰ ورسوله صلى الله عليه وسلم ، صدق الله تعالىٰ ورسوله صلى الله عليه وسلم ، صدق الله تعالىٰ ورسوله صلى الله عليه وسلم ، « تَعَلَّمُوا من قريش ولا تُعَلِّمُوها ، قدموا قريشاً ولا تقدموها » ، أَما عَلم محمد بن الحسن أنه إذا ناظر رجلاً من قريش.. أنه يقطعه ، سائلاً كان أو مجيباً ؟! وما أنكر أن محمد بن إدريس أعلم من محمد بن الحسن ، قال الشافعي : وأمر لي بخمس مئة دينار ، فخرج بها هرثمة ،

وأشار إلي ، فتبعته ، فحدثني بالقصة ، فقال : قد أمر لك بخمس مئة دينار ، وقد أضفنا إليها مثلها ، قال الشافعي رحمه الله : فما كنت ملكت قبلها ألف دينار .

وقال الحميدي : عن الشافعي قال : كنت يتيماً في حجر أمي ، ولم يكن معها ما تعطي المعلم ، وكان المعلم قد رضي مني أن أخلفه إذا قام ، فلما ختمت القرآن . . دخلت المسجد ، فكنت أجالس العلماء ، فأحفظ الحديث أو المسألة ، وكان منزلنا بمكة في شعب الخَيف ، فكنت أنظر إلى العظم يلوح ، فأكتب فيه الحديث والمسألة ، وكانت لنا جرة قديمة ، فإذا امتلأ العظم . . تركته في الجرة .

وقال محمد بن عبد الله بن عبد الحكيم : سمعت الشافعي يقول : قال لي محمد بن الحسن : صاحبنا أعلم ، أم صاحبكم ؟ يعني مالكاً ، قلت : تريد المكابرة أو الإنصاف ؟ قال : بلِ الإنصاف ، قال : قلت : فما الحجة عندكم ؟ قال : الكتاب والسنة والإجماع والقياس ، فقلت : أنشدك الله ؛ أصاحبنا أعلم بكتاب الله عز وجل ، أم صاحبكم ؟ قال : إذ أنشدتني بالله ، فصاحبكم ، قلت : فصاحبنا أعلم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أم صاحبكم ؟ قال : صاحبكم ، قلت : فصاحبنا أعلم بأقاويل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أم صاحبكم ؟ قال : صاحبكم ، قلت : فهل بقي شيء غير القياس ؟ قال : لا ، قلت : فنحن نراعي القياس أكثر مما تراعونه ، وإنما يقاس على الأصول ، فيُعرف القياس منها .

وقال الشافعي : قال لي محمد بن الحسن : أقمت علىٰ مالك بن أنس ثلاث سنين وكسوراً .

وكان يقول : إنه سمع منه لفظاً أكثر من سبع مئة حديث .

قال : وكان إذا حدثهم عن مالك . . امتلأ منزله وكثر الناس عليه ، حتىٰ يضيق عليهم الموضع ، وإذا حدث عن غير مالك . . لم يجئه إلا اليسير .

وكان يقول : ما أعلم أحداً أسوَأَ ثناءً علىٰ أصحابكم منكم ، إذا حدثتكم عن مالك . . ملأتم عليَّ الموضع ، وإذا حدثتكم عن أصحابكم . . إنما تأتون متكارهين .

وقال الشافعي : كنت أكتب العلم في العظام وعلى الخرق ، وأطرحه في الزير حتى امتلأ[1] .

---

(١) الزِّير : الخابية والحُب ـ الذي يجعل فيه الماء ـ من الفخار .

وكنت يتيماً ولم يكن لأمي شيء ، فولي عم لي ناحية اليمن على القضاء ، فخرجت معه ، فلما قدمت من اليمن . . أتيت مسلم بن خالد الزنجي ، فسلمت عليه ، فلم يرد عليَّ السلام ، وقال : أحدهم يجيئنا حتىٰ إذا ظننا أنه يصلح . . أفسد نفسه ، قال : فسرت إلىٰ سفيان بن عيينة ، فسلمت عليه ، فرد عليَّ السلام ، وقال : قد بلغني يا أبا عبد الله ما كنت فيه ، وما بلغني إلا خيراً ، فلا تَعُدْ .

وقال الشافعي : قال لي محمد بن الحسن : ما تقول في رجل غصب من رجل عموداً وبنىٰ عليه قصراً ، فجاء المستحِق ، فأقام شاهدين ، واستحقه ؟ قلت : يخير بين العمود وبين قيمته ، فإن اختار العمود . . هُدم القصر ، وأُخرج العمود ، ورُدَّ إلىٰ صاحبه .

قال : فما تقول فيمن غصب خشبة وأدرجها في سفينة ، ثم لجَّجَ بها في البحر ، فجاء صاحبها ، فاستحقها ؟ قلت : يقدم إلىٰ أقرب المراسي ، فيخير بين القيمة والخشبة ، فإن أخذ قيمتها ، وإلا . . أخرجت من السفينة ، وردت علىٰ صاحبها .

قال : فما تقول فيمن غصب خيط إبريسم[1] فخاط به جرحه ، واستحقه صاحبه ؟ قلت : له قيمته .

فقال : الله أكبر ، نقضت قولك ، وقال أصحابه : الله أكبر ، نقضت قولك يا حجازي .

فقلت : علىٰ رِسْلك لا تعجل ، أرأيت لو أن صاحب القصر أراد أن يهدم قصره ويرد العمود إلىٰ صاحبه ولا يعطيه قيمته ، أكان للسلطان أن يمنعه من ذلك ؟ قال : لا .

فقلت : أرأيت لو أن صاحب السفينة أراد أن ينقض سفينته ويرد الخشبة إلىٰ صاحبها ، أكان للسلطان أن يمنعه ؟ قال : لا .

قلت : أرأيت الخيط الذي خاط به جرح نفسه لو أراد أن يخرج الخيط ويرده علىٰ صاحبه ، أكان للسلطان أن يمنعه ؟ قال : نعم .

قلت : فكيف تقيس ما هو محظور بما ليس بمحظور ؟

وفي رواية : هـٰذا مباح له ، وهـٰذا محظور عليه ، فأنىٰ يقاس هـٰذا بهـٰذا ؟

قال : فكيف تصنع بمن في السفينة ؟ قال : آمره أن يقرب إلىٰ أقرب المراسي السليمة

---

(١) الإبريسم : حرير .

إلىٰ موضع لا يهلك فيه ولا أصحابه ، فأنزع اللوح ، وأدفعه إلىٰ أصحابه ، وأقول له : أصلح سفينتك واذهب .

قال : أليس قد قال صلى الله عليه وسلم : « لا ضرر ولا ضرار »[1] ؟ ، فقلت : مَنْ ضارَّه ؟ هو ضر نفسه .

ثم قلت له : فما تقول في رجل غصب من رجل جارية ، فأولدها عشرة من الولد ، كلهم قد قرأ القرآن ، وخطب على المنابر ، وقضىٰ بين المسلمين ، فأثبت صاحب الجارية شاهدين عدلين أن هـٰذا غصب هـٰذه الجارية وأولدها هـٰؤلاء الأولاد ، بِمَ كنت تحكم ؟ قال : أحكم بأولاده أرقاء لصاحب الجارية ، وأرد الجارية عليه .

فقلت له : نشدتك بالله ؛ أيهما أعظم ضرراً ؛ إن رددت أولاده أرقاء ، أو إن قلعت الساجة ؟[2]

وقال هارون الرشيد يوماً للفضل بن الربيع وهو واقف علىٰ رأسه : يا فضل ؛ عليَّ بهـٰذا الحجازي وهو كالمغضب ، فخرجت[3] وبي من الغم والحزن لمحبتي للشافعي لفصاحته وبراعته وبلاغته وعقله ، فجئت إلىٰ بابه ، فأمرت من دق عليه وكان يصلي ، فتنحنح ، فوقفت حتىٰ فرغ من صلاته وفتح الباب ، فقلت : أجب أمير المؤمنين ، فقال : سمعاً وطاعة ، وجدد الوضوء ، وارتدىٰ ، وخرج يمشي ، حتى انتهينا إلى الدار ، فمن شفقتي عليه قلت له : يا أبا عبد الله ؛ قف حتىٰ أستأذن لك ، فدخلت علىٰ أمير المؤمنين ، فإذا هو علىٰ حالته كالمغضب ، فقال : أين الحجازي ؟ قلت : عند الستر ، فجئت إليه ، فقام يمشي رويداً وهو يحرك شفتيه ، فلما أبصر به أمير المؤمنين . . قام إليه ، واستقبله ، وقبل بين عينيه ، وهش ، وقال : لِمَ لا تزورنا وتكون عندنا ؟ ثم أجلسه وتحادثا ساعة ، ثم أمر له ببدرة[4] دنانير ، فقال : لا أَرَب لي فيه ، قال : فأومأت إليه ، فسكت ، وأمرني أمير المؤمنين أن أرده إلىٰ منزله ، فخرجت والبدرة تُحمل معه ، فجعل يعطي يمنة ويسرة ، حتىٰ رجع إلىٰ منزله وما معه دينار ، فلما دخل منزله . . قلت له : قد عرفت محبتي لك ، فبالذي سكَّنَ غضبَ أمير المؤمنين إلاَّ عَلَّمتني ما كنت تقول في دخولك معي عليه ، فقال : حدثني

---

(١) أخرجه بنحوه مالك (١٤٢٩) ، والحاكم (٢/٦٦) .

(٢) **الساج** : خشب تصنع منه السفن يجلب من الهند ، واحدُه : ساجة .

(٣) أي : الفضل بن الربيع .

(٤) **البدرة** : كيس فيه دنانير .

مالك ، عن نافع ، عن ابن عمر رضي الله عنهم : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ يوم الأحزاب : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ ، ثم قال : « وأنا أشهد بما شهد به الله ، وأستودع الله هـٰذه الشهادة ، وهـٰذه الشهادة وديعة لي عند الله عز وجل يؤديها إليَّ يوم القيامة »[1] .

اللهم ؛ إني أعوذ بنور قدسك ، وعظيم ركنك ، وعظمة طهارتك ، وبركة جلالك ، من كل آفة وعاهة ، ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرق بخير . اللهم ؛ أنت عياذي فبك أعوذ ، وأنت غياثي فبك أستغيث ، وأنت ملاذي فبك ألوذ ، يا من ذلَّت له رقاب الجبابرة ، وخضعت له أعناق الفراعنة ؛ أعوذ بك من خزيك ، ومن كشف سترك ، ونسيان ذكرك ، والانصراف عن شكرك ، أنا في حرزك وكنفك ليلي ونهاري ، ونومي وقراري ، وظعني وأسفاري ، وحياتي ومماتي ، ذكرك شعاري ، وثناؤك دثاري ، لا إلـٰه إلا أنت سبحانك وبحمدك ، تشريفاً لعظمتك ، وتنزيهاً لسبحات وجهك ، أجرني من خزيك ، ومن شر عبادك ، وقني سيئات عذابك ، وجللني بسترك ، واضرب علي سرادقات حفظك ، وأدخلني في حفظك وعنايتك يا أرحم الراحمين .

قال الفضل : فحفظت هـٰذا الدعاء ، فلم يجرؤ عليَّ الرشيد بعد ذلك ، فهـٰذا أول بركة الشافعي رحمه الله .

وفي رواية أخرىٰ : فكتبته ، وجعلته في قبائي ، وكان الرشيد كثير الغضب عليَّ ، فكان كلما همَّ أن يغضب . . أحركها في وجهه ، فيرضىٰ . انتهىٰ [« الحلية » ٩/ ٦٤ـ٨٠] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : إن الحافظ أبا نعيم ـ قدس الله روحه ـ روىٰ بإسناده من طرق كثيرة : أن الشافعي رحمه الله لما حُمل من اليمن إلى العراق ، وأدخل إلىٰ هارون الرشيد . . وقعت له في مجلسه مناظرة عظيمة مع محمد بن الحسن وأبي يوسف القاضي ، وتلك المناظرة مشهورة ، مشتملة علىٰ نفائس وفوائد جليلة بعد ظهوره علىٰ خصمه ، غير أن هـٰذه الرواية التي رواها الحافظ أبو نعيم هنا وقع فيها تحريف كثير ، وكأنه ـ والله أعلم ـ من الناسخين ، أو سبق قلم ؛ فإن الحافظ أبا نعيم ـ قدس الله روحه ـ أملى الكتاب إملاء ، فهو معذور ، فما وقع في روايته تحريف كونه ذكر أن أبا يوسف القاضي ناظر

---

(١) أخرجه بنحوه الطبراني في « الكبير » (١٠/ ١٩٩) .

الشافعي في مجلس هارون الرشيد ببغداد وهـٰذا وَهَمٌ ظاهر[1] ؛ فإن أبا يوسف توفي إلىٰ رحمة الله تعالىٰ سنة اثنتين وثمانين ومئة ، وقدوم الشافعي بغداد أول مرة سنة ثلاث وثمانين ومئة باتفاق المؤرخين .

وأما المرة الثانية . . فكانت في خلافة المأمون ، فلم يلق الشافعي أبا يوسف رحمهما الله في بغداد ، وإنما كانت مناظرة الشافعي في مجلس الخليفة هارون الرشيد مع محمد بن الحسن رحمهما الله تعالىٰ ، وها أنا أذكر منها ما عساه يصح إن شاء الله تعالىٰ .

فمن ذلك : أن الشافعي رحمه الله لما دخل إلى الرشيد وكان محمد بن الحسن حاضراً . . أمرهما ـ مع لَبَقه[2] ـ بالمناظرة ، فتناظرا طويلاً ، وفي كل ذلك المجلس يظهر الشافعي عليه ، فالتفت بعد ذلك الخليفة إلى الشافعي وقد أعجبه إعجاباً شديداً ، وأقبل [عليه] إقبالاً كثيراً ، وقال له : يابن إدريس ؛ كيف بصرك بكتاب الله تعالىٰ ؟ فقال له الشافعي : عن أي كتاب الله تسألني ، فإن الله تبارك وتعالىٰ أنزل ثلاثة وسبعين كتاباً علىٰ خمسة أنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وأنزل كتاب موعظة لنبي وحده ، فكان سادساً ، أولهم : آدم عليه الصلاة والسلام ، وعليه أنزل ثلاثين صحيفة كلها أمثال ، وأنزل علىٰ أخنوخ ـ وهو إدريس ـ عليه الصلاة والسلام ست عَشْرة صحيفة كلها حكم وعلم الملكوت الأعلىٰ ، وأنزل علىٰ إبراهيم عليه الصلاة والسلام ثمانيَ صحف كلها حِكَم مفصلة فيها فرائض ونذر ، وأنزل علىٰ موسىٰ عليه الصلاة والسلام التوراة كلها تخويف وموعظة ، وأنزل علىٰ عيسىٰ عليه الصلاة والسلام الإنجيل ليبين لبني إسرائيل ما اختلفوا فيه من التوراة ، وأنزل علىٰ داوود عليه الصلاة والسلام كتاباً كله دعاء وموعظة لنفسه ، وأنزل علىٰ سيد البشر محمد صلى الله عليه وسلم الفرقان ، وجمع فيه سائر الكتب ، فقال تعالىٰ : ﴿ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ ﴿ كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ .

فقال له الرشيد : قد أحسنت في تفصيلك ، لـٰكن قصدي كتاب الله المنزل علىٰ سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ، الذي دعانا إلىٰ قبوله ، وأمرنا بالعمل بمحكمه ، والإيمان بمتشابهه ، فقال الشافعي : عن أيِّ آية تسألني ، عن محكمه ، أم عن متشابهه ؟ أم تقديمه ، أم تأخيره ؟ أم ناسخه ، أم منسوخه ؟ أم عن ما ثبت حكمه وارتفعت تلاوته ، أم عن ما ثبتت تلاوته وارتفع حكمه ؟ أم عن ما ضُرب به مثلاً ، أم عن ما ضرب الله به اعتباراً ؟

---

(١) في نسخة : (وهـٰذا ليس بصحيح باتفاق المؤرخين) .

(٢) رجل لَبِق : أي حاذق رفيق بكل عمل .

أم عن ما أحصىٰ فيه من أفعال الأمم السالفة ، أم عن ما قصَدَنا الله تعالىٰ به من فعلهم تحذيراً ؟ فما زال يَعُدُّ حتىٰ عد له الشافعي ثلاثةً وسبعين حكماً في القرآن .

فقال له الرشيد : ويحك يا شافعي! أفكل هـٰذا يحيط به علمك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ؛ المحنة على القائل كالنار على الفضة ، تُخرج جودتها من رداءتها .

فقال الرشيد : ما أحسن أن أعيد ما قلت ، فأسألك عنه بعد هـٰذا المجلس إن شاء الله تعالىٰ ، فكيف بصرك بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال الشافعي : إني لأعرف منها ما خرج علىٰ وجه الإيجاب ، لا يجوز تركه كما لا يجوز ترك ما أوجبه الله تعالىٰ في القرآن ، وما خرج علىٰ وجه التأديب ، وما خرج علىٰ وجه الندب ، وما خرج علىٰ وجه الخاص لا يشترك فيه العام ، وما خرج علىٰ وجه العموم يدخل فيه الخصوص ، وما خرج جواباً عن سؤال سائل ليس لغيره استعماله ، وما خرج منه ابتداء لازدحام العلوم في صدره الجليل صلى الله عليه وسلم ، وما فعله في خاصة نفسه صلى الله عليه وسلم واقتدىٰ به الخاصة والعامة ، وما خص به نفسه صلى الله عليه وسلم دون الناس .

قال الرشيد : أجدت الترتيب يا شافعي لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بارك الله فيك ، فأحسنت موضعها .

ثم قال : كيف بصرك بالعربية ؟ قال : هي ميداننا ، وطباعنا بها تقدمت ، وألسنتنا بها جَرَت ، فصارت كالحياة لا تتم إلا بالسلامة ، لقد ولدت ولا أعرف اللحن .

فقال له الرشيد : أكثر الله تعالىٰ في أهلي مثلك ، ثم أمرهما بالمناظرة ، فتناظرا كما هو مشهور معروف ، فلما انفصل المجلس . أمر له بجائزة ، فلم يقبلها ، ثم إنه عاد إليه في مجلس آخر ، فأمر له بألف دينار ، فقبلها ، فضحك الرشيد ، وقال : لله درك ما أفطنك وأعلمك ، قاتل الله عدوك ؛ لقد أصبح لك ولياً ، وأمر خادمه أن يتبعه لينظر ما يصنع بالمال ، فما زال يفرقه قبضة قبضة حتىٰ وصل إلى الباب وما معه إلا قبضة دفعها إلى الخادم ، فعرَّف الخادمُ الرشيدَ بذلك ، فقال الرشيد : لهـٰذا فرغ همُّه وقويت مِنَّته . انتهىٰ [« الحلية » ٩/ ٨٧ـ٩١] .

ثم روى الحافظ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ بإسناده : عن إبراهيم بن محمد الشافعي قال : كنا في مجلس سفيان بن عيينة والشافعي حاضر ، فحدث ابن عيينة عن الزهري ، عن علي بن الحسين رضي الله عنهم : أن النبي صلى الله عليه وسلم مر به رجل في بعض الليل وهو مع

امرأته صفية ، فقال صلى الله عليه وسلم : « هـٰذه صفية » ، فقال الرجل : سبحان الله يا رسول الله! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم »[1] .

فقال سفيان بن عيينة للشافعي : ما فقه هـٰذا الحديث يا أبا عبد الله ؟

فقال الشافعي : إنما هـٰذا من النبي صلى الله عليه وسلم علىٰ وجه التعليم والتأديب لنا ولمن بعدنا ، فكأنه صلى الله عليه وسلم قال : إذا كنتم هـٰكذا . . فافعلوا هـٰكذا ، حتىٰ لا يُظَنَّ بكم ظن السوء ، فهو علىٰ وجه التأديب ، فكأنه صلى الله عليه وسلم يقول : إذا مر أحدكم علىٰ رجل يكلم امرأة وهي منه بسبب . . فليقل : إنها فلانة ، ومعاذ الله أن يُتَّهَمَ النبي صلى الله عليه وسلم وهو أمين الله في أرضه ؛ فإن القوم لم يتهموه ، إذ لو اتهموه . . لصاروا كفاراً بتهمتهم إياه صلى الله عليه وسلم[2] .

فقال ابن عيينة : جزاك الله عنا خيراً يا أبا عبد الله ، ما يجيئنا منك إلا كل خير وكل ما نحب .

وقال يحيى بن سعيد : أنا أدعو الله تعالىٰ للشافعي في صلاتي منذ أربع سنين .

وقال أحمد بن محمد الشافعي : كانت الحلقة في الفتيا بمكة في المسجد الحرام لابن عباس رضي الله عنهما ، وبعد ابن عباس لعطاء ابن أبي رباح ، وبعد عطاء لعبد الملك [بن عبد العزيز] بن جريج ، وبعد ابن جريج لمسلم بن خالد الزنجي ، وبعد مسلم لسعيد بن سالم القداح ، وبعد سعيد لمحمد بن إدريس الشافعي وهو شاب .

وقال الشافعي : حدثنا سفيان بن عيينة ، عن عبيد الله ابن أبي يزيد ، عن أبيه ، عن سباع بن ثابت ، عن أم كُرز رضي الله عنهم قالت : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (١٩٣٣) ، ومسلم (٢١٧٤) .
ومعنىٰ « يجري من الإنسان مجرى الدم » : قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » (٤/ ٢٨٠) : قيل : هو علىٰ ظاهره وإن الله تعالىٰ أقدره علىٰ ذلك ، وقيل هو علىٰ سبيل الاستعارة من كثرة إغوائه ، وكأنه لا يُفارَق كالدم ، فاشتركا في شدة الاتصال وعدم المفارقة .

(٢) قال الحافظ في « الفتح » (٤/ ٢٨٠) : إن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينسبهما إلىٰ أنهما يظنان به سوءاً ؛ لما تقرر عنده من صدق إيمانهما ، ولـٰكن خشي عليهما أن يوسوس لهما الشيطان ذلك ؛ لأنهما غير معصومين ، فقد يفضي بهما ذلك إلى الهلاك ، فبادر إلىٰ إعلامهما حسماً للمادة ، وتعليماً لمن بعدهما إذا وقع له مثل ذلك .

فسمعته يقول : « أَقِرُّوا الطير علىٰ مكناتها »[1] ، فقال الشافعي رحمه الله : إن العرب كان أحدهم إذا غدا من منزله يريد أمراً . . نظر أول طائر يراه ، فإن سنح عن يساره ، فاجتاز عن يمينه . . قال : هـٰذا طير الأيامن ، فمضىٰ لحاجته ، ورأىٰ أنها ستنجح ، وإن سنح عن يمينه ، فمر علىٰ يساره . . قال : هـٰذا طير الأشائم ، فيرجع ، ويقول : هـٰذه حاجة مشؤومة ، وكان العربي في الجاهلية إذا لم ير طائراً سانحاً ، ورأىٰ طيراً في وكره . . حركه من وكره ؛ ليطير فينظر أيسلك طريق الأيامن أم طريق الأشائم ، فيشبه أن يكون ذلك معنىٰ قول النبي صلى الله عليه وسلم : « أقروا الطير علىٰ مَكِناتها » أي : لا تحركوها ؛ فإن تحريكها وما تعملون به من الطِّيَرة لا يصنع شيئاً ، وإنما يقع لكم فيما توجهون له ما قضاه الله عز وجل .

وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الطيرة ، فقال : « إنما ذلك شيء يجده أحدكم في نفسه ، فلا يصدنكم »[2] .

وكان ابن عيينة رحمه الله بعد ذلك إذا سئل عن تفسير هـٰذا الحديث . . يفسره علىٰ نحو ما فسره الشافعي .

قال ابن مهاجر : سألت الأصمعي عن تفسير هـٰذا الحديث ، فقال مثل ما قال الشافعي رحمه الله ، قال : وسألت وكيعاً ، فقال : إنما هي عندنا علىٰ صيد الليل ، فذكرت له قول الشافعي ، فاستحسنه ، وقال : ما ظننته إلا علىٰ صيد الليل .

وقال أبو عثمان الخوارزمي : حدثنا أبو عبد الله التُّستَري ، عن أبي ثور قال : لما ورد الشافعي العراق . . جاءني حسين الكرابيسي ـ وكان يختلف معي إلىٰ أصحاب الرأي ـ فقال : قد ورد رجل من أصحاب الحديث يتفقه ، فقم بنا إليه ، فذهبنا حتىٰ دخلنا عليه ، فسأله الحسين عن مسألة ، فلم يجبه عنها إذ ذاك ، واندفع يتكلم في العلم ، فلم يزل الشافعي

---

(١) أخرجه بنحوه أبو داوود (٢٨٣٥) ، والحاكم (٤/ ٢٦٥) عن أم كرز رضي الله عنها ، وجاء من غير وجه : « أَقِرُّوا الطَّير علىٰ وُكْناتِها » .
والمَكِنات في الأصل : بيض الضب ، ويجوز أن يستعار مَكْنُ الضِّباب فيجعل للطير ، وقيل : المَكِنات : بمعنى الأمكنة ، ويروىٰ « مُكُناتِها » بنفس المعنىٰ ؛ أي : مكان ، وقيل المَكِنة : من التمكن ، كالطلبة والتَّبعة ، من التطلب والتتبع ، فكأن من ينفِّر الطير يطلب ويتتبع ما ستفعله الطير .
وأما الوُكْن : فهو عش الطائر ووكره ، وقيل : الوُكنات : مواقع الطير حيثما وقعت .
وحاصل الكلام : أنه يجوز فيها الوجهان ، والله أعلم .

(٢) أخرجه بنحوه مسلم (٥٣٧) .

يقول : قال الله عز وجل ، وقال رسوله صلى الله عليه وسلم ، حتىٰ أظلم علينا البيت ، فتركنا بدعتنا واتبعناه .

وقال أبو زكريا : أخبرنا محمد قال : ما رأيت أحداً يناظر الشافعي . . إلا رحمته .

قال : وقال هارون بن سعيد : لو أن الشافعي ناظر علىٰ هـٰذا العمود الذي من حجارة أنه من خشب . . لغَلَب ؛ مِنِ اقتداره على المناظرة .

وقال الشافعي : ناظرت رجلاً بالعراق ، فجعل كلما جاء بمعنىٰ . . أدخلت عليه معنىٰ آخر ، فيبقىٰ ، فتناظرنا في شيء ، فقلت له : مَن قال بهـٰذا ؟ فقال : أمسك ؛ أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، فلم يزل يعد حتىٰ عد العشرة رضي الله عنهم ، فبلغ مني كل مبلغ ، وكان حولنا قوم لا معرفة لهم بالرواية ، فاجتمعنا بعد ذلك المجلس ، فقلت له : الذي رويت لي عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي . . . رضي الله عنهم من حدَّثك به ؟ قال : لم أروِ لك شيئاً ، ولم يحدثني أحد ، إنما قلت لك : أمسك ؛ أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم .

وقال الشافعي : ناظرت يوماً محمد بن الحسن ، فاشتدت مناظرتي إياه ، فجعلت أوداجه تنتفخ وأزراره تنقطع زراً زراً .

وقال أبو محمد ابن أخت الشافعي : قالت لي أمي : ربما قدَّمنا في ليلة واحدة ثلاثين مرة أو أكثر أو أقل المصباحَ إلىٰ بين يدي الشافعي ، وكان يستلقي ويتفكر ، ثم ينادي : يا جارية ؛ هلمي المصباح ، فتقدمه ، فيكتب ما يكتب ، ثم يقول : ارفعيه ، فقلت لأبي محمد : ما أراد بِرَدِّ المصباح ، فقال : الظلمة أجلىٰ للقلب .

وقال الشافعي في تفسير قوله صلى الله عليه وسلم : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن »[1] قال : يتحزن به ، يترنم به .

وقال الربيع : سمعت الشافعي يقول : إذا رأيتُ رجلاً من أصحاب الحديث . . كأني رأيت رجلاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم . انتهىٰ [« الحلية » ٩/ ٩٢ـ١٠٩] .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : روي عن محمد بن يزيد بن حكيم قال : رأيت الشافعي في المسجد الحرام وقد جُعلت له طنافس ، فجلس عليها وهو يقول : سلوني

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٨٩) .

عما شئتم . . أخبركم من كتاب الله تعالىٰ ، فأتاه رجل من أهل خراسان ، فقال : يا أبا عبد الله ؛ من أين تأخذ من كتاب الله تعالىٰ أن المحرم له أن يقتل الزنبور ؟ فقال : نعمْ ؛ من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ ، هـٰذا من كتاب الله تعالىٰ ، وحدثنا سفيان ، عن زائدة ، عن عبد الملك بن عمير ، عن مولى الربعي ، عن حذيفة رضي الله عنهم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اقتدوا باللَّذَين من بعدي أبي بكر وعمر »[1] رضي الله عنهما ، هـٰذه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحدثونا عن إسرائيل ، قال أبو بكر المستملي : حدثنا أبو أحمد ، عن إسرائيل ، عن إبراهيم بن عبد الأعلىٰ ، عن سويد بن غفلة : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر المُحْرِم بقتل الزنبور .

هـٰذا هو المروي عن الشافعي رحمه الله ولا ينبغي أن تعتبر بما رواه الحافظ أبو نعيم في كتابه « الحلية » في هـٰذه الواقعة ؛ فإنه غلط صريح[2] . انتهىٰ .

وروى الحافظ الخطيب البغدادي ـ قدس الله روحه ـ بسنده عن سفيان بن وكيع قال : رأيت فيما يرى النائم كأن القيامة قد قامت ، والناس في أمر عظيم ؛ إذ بدر إليَّ أخي ، فقلت : ما حالكم ؟ فقال : عُرضنا علىٰ ربنا تبارك وتعالىٰ ، فقلت : فما حال أبي ؟ قال : غفر له ، وأمر به إلى الجنة ، قلت : فمحمد بن إدريس ؟ قال : حُشر إلى الرحمـٰن وفداً ، وأُلبس حلل الكرامة ، وتُوِّجَ بتاج البهاء . انتهىٰ .

ثم روى الحافظ بإسناده : عن يونس بن عبد الأعلىٰ قال : سمعت الشافعي يقول : لئن يبتلى المرء بكل ما نهى الله عز وجل عنه ما عدا الشرك . . خير له من النظر في الكلام[3] ؛

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٧٩) .

(٢) وما رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ١٠٩) : فأتاه رجل من أهل خراسان فقال : يا أبا عبد الله ؛ ما تقول في أكل فرخ الزنبور ؟ قال : حرام .
فما رواه أبو نعيم في هـٰذه المسألة أكل فرخ الزنبور ، والصواب : هو حكم قتل الزنبور علىٰ ما قاله الواسطي رحمه الله ، والله أعلم .

(٣) قصد الشافعي رحمه الله علم الكلام المذموم ، الذي انتحله حفص الفرد الذي يقول بخلق القرآن وأمثاله من أهل البدع الذين كان لهم مع الإمام الشافعي مناظرات مشهورة ، ولم يقصد علم الكلام عند أهل السنة والجماعة ؛ لأنه من أوائل من تكلم فيه ، وناظر أهل البدع به ، وكشف شبهاتهم وأباطيلهم به ، والله أعلم بالصواب .

فإني والله ؛ اطلعت من أهل الكلام علىٰ شيء ما ظننته قط .

وفي رواية : ما ارتدىٰ أحد بالكلام فأفلح .

وفي رواية : لو علم الناس ما في الكلام والأهواء . . لفروا منه كما يفرون من الأسد .

وكان مالك رحمه الله إذا جاءه بعض أهل الأهواء . . قال : أما أنا : فعلىٰ بينة من ربي ومن ديني ، وأما أنت : فشاكٌّ ، اذهب إلىٰ شاكٍّ مثلِك فخاصمْهُ .

وعن حرملة بن يحيىٰ قال : سمعت الشافعي يقول : البدعة بدعتان : بدعة محمودة ، وبدعة مذمومة ، فما وافق السنة . . فهو محمود ، وما خالف السنة . . فهو مذموم ، واحتج بقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قيام رمضان : نِعمتِ البدعة هي[1] .

وقال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم : سمعت الشافعي رحمه الله يقول في قول الله عز وجل : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ قال : في العبرة عندكم إنما يقول لشيء لم يكن : كن ، فيخرج مفصلاً بعينيه ، وأذنيه ، وأنفه ، وسمعه ، ومفاصله ، وما خلق الله فيه من العروق والعظام ، فهـٰذا في العبرة أشد من أن تقول لشي قد كان : عد إلىٰ ما كنت ، فهـٰذا إنما هو أهون عليه في العبرة عندكم ، ليس أن شيئاً يعظم على الله عز وجل .

---

(١) وزاد الإمام النووي ـ رحمه الله ـ هـٰذا الكلام تحريراً فقال في « التهذيب » (٣/ ٢٢) : البدعة ـ بكسر الباء ـ في الشرع : هي إحداث ما لم يكن في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي منقسمة إلىٰ حسنة وقبيحة ، ثم نقل عن الشيخ العز بن عبد السلام ـ رحمه الله ـ قوله : البدعة منقسمة إلىٰ واجبة ومحرمة ومندوبة ومكروهة ومباحة .

قال : والطريق في ذلك . . أن تعرض البدعة علىٰ قواعد الشريعة : فإن دخلت في قواعد الإيجاب . . فهي واجبة ، أو في قواعد التحريم . . فمحرمة ، أو الندب . . فمندوبة ، أو المكروه . . فمكروهة ، أو المباح . . فمباحة .

وللبدع الواجبة أمثلة ، منها : الاشتغال بعلم النحو الذي يفهم به كلام الله تعالىٰ وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وللبدع المحرمة أمثلة ، منها : مذاهب القدرية والجبرية والمجسمة ، والرد علىٰ هـٰؤلاء من البدع الواجبة .

وللبدع المندوبة أمثلة ، منها : إحداث الرُّبط والمدارس وكل إحسان لم يعهد في العصر الأول ، ومنها : التراويح والكلام في دقائق التصوف .

وللبدع المباحة أمثلة ، منها : المصافحة عقب الصبح والعصر ، وقد يختلف في بعض ذلك فيجعله بعض العلماء من البدع المكروهة ويجعله آخرون من السنن المفعولة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فما بعده .

وقال الشافعي رحمه الله : ما ساق الله هـٰؤلاء الذين يتكلمون في علي وأبي بكر وعمر وغيرهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . . إلا ليجري لهم الحسنات وهم أموات .

وحضر الشافعي رحمه الله ميتاً ، فلما نظر إليه . . قال : اللهم ؛ بغناك عنه وفقره إليك . . اغفر له .

وقال يونس بن عبد الأعلىٰ : قال الليث بن سعد : لو رأيتُ صاحب هوىً يمشي على الماء . . ما قَبِلتُه ، فقال الشافعي : أما إنه قصَّر ، لو رأيته يمشي في الهواء . . ما قَبِلتُه .

وقال الشافعي : طلب العلم يحتاج إلىٰ ثلاث خصال : حسن ذات اليد ، وطول العمر ، وأن يكون ذكياً .

وقال يونس بن عبد الأعلىٰ : قال لي الشافعي : يا يونس ؛ إذا بلغك عن صديق لك ما تكرهه . . فإياك أن تبادر بالعداوة وقطع الولاية ، فتكون ممن أزال يقينه بشك ، ولـٰكن . . ٱلقَهُ ، وقل له : بلغني عنك كذا وكذا ، واحذر أن تسمي له المبلِّغ ، فإن أنكر ذلك . . فقل له : أنت أصدق وأبر ، ولا تزيدن علىٰ ذلك شيئاً ، وإن اعترف بذلك ، فرأيت له في ذلك وجهاً يعذر فيه . . فاقبل منه ، وإن لم تر ذلك . . فقل له : ماذا أردت بما بلغني عنك ؟ فإن ذكر ماله وجه من العذر . . فاقبله ، وإن لم تر له وجهاً لعذر وضاق عليك المسلك . . فحينئذ أثبتها عليه سيئة أتاها ، ثم أنت في ذلك بالخيار : إن شئت . . كافأته بمثلها من غير زيادة ، وإن شئت . . عفوت عنه ، والعفو أقرب للتقوىٰ ، وأبلغ في الكرم ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ، فإن نازعتك نفسك بالمكافأة . . فأَفكِرْ بما سبق له لديك من الإحسان فعُدَّها ، ثم ٱبدر له حسنة بهـٰذه السيئة ، ولا تبخس باقي إحسانه السالف لهـٰذه السيئة ؛ فإن ذلك الظلم بعينه ، وقد كان الرجل الصالح يقول : رحم الله من كافأني علىٰ إساءتي من غير أن يزيد ولا يبخس حقاً لي .

يا يونس ؛ إذا كان لك صديق . . فشُدَّ يديك به ؛ فإن اتخاذ الصديق صعب ، ومفارقته سهل ، وقد كان الرجل الصالح يشبه سهولة مفارقة الصديق بصبي يطرح في البئر حجراً عظيماً ، فيسهل طرحه عليه ، ويصعب إخراجه على الرجال البُزَّل[1] ، فهـٰذه وصيتي لك . والسلام .

---

(١) أي : ذوو الشدة .

وقال الشافعي : قبول السعاية . . شر من السعاية ؛ لأن السعاية دلالة ، والقبول إجازة ، وليس من دل علىٰ شيء كمن قبل وأجاز ، والساعي ممقوت إذا كان صادقاً ؛ لهتكه العورة وإضاعته الحرمة ، ومعاقب إن كان كاذباً بالمبارزة لله عز وجل بقول البهتان وشهادة الزور .

وقال الشافعي : يا ربيع ؛ رضا الناس غاية لا تدرك ، فعليك بما يصلحك فألزمه ؛ فإنه لا سبيل إلىٰ رضاهم ، واعلم : أن من تعلم القرآن . . جَلَّ في أعين الناس ، ومن تعلم الحديث . . قويت حجته ، ومن تعلم النحو . . هِيْبَ ، ومن تعلم العربية . . رق طبعه ، ومن تعلم الحساب . . جَزُلَ رأيه ، ومن تعلم الفقه . . نَبُل مقداره ، ومن لم يصن نفسه . . لم ينفعه علمه ، وملاك ذلك كله . . التقوىٰ .

وقال الربيع : سمعت الشافعي يقول : لا يحل لأحد أن يكتني بأبي القاسم ، سواء كان اسمه محمداً أم غيره[1] .

وكان الشافعي من أجود الناس وأسمحهم كفّاً ، كان يشتري الجارية الصَّنَاع التي تطبخ وتعمل الحلوىٰ ، ويشرط عليها أنه لا يقربها ؛ لأنه كان عليلاً لا يمكنه أن يقرب النساء في وقته ذلك لِنَاسورٍ[2] به ، ويقول لأصحابه : تَشَهَّوا ما أحببتم ؛ فقد اشتريت جارية تحسن أن تعمل ما تريدون ، فيقول لها بعض أصحابنا : اعملي لنا كذا وكذا ، فكنا نأمرها بما نريد وهو مسرور بذلك .

---

(١) قال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ في « الأذكار » في (باب النهي عن التكني بأبي القاسم) : اختلف العلماء في التكني بأبي القاسم علىٰ ثلاثة مذاهب :
ـ ذهب الشافعي ـ رحمه الله ـ ومَنْ وافقه إلىٰ أنه لا يحل لأحد أن يتكنىٰ أبا القاسم ، سواء كان اسمه محمد أو غيره .
ـ مذهب مالك ـ رحمه الله ـ : أنه يجوز التكني بأبي القاسم لمن اسمه محمد ولغيره ، ويجعل النهي خاصاً بحياة رسول الله صلى الله عليه وسلم .
ـ المذهب الثالث : لا يجوز لمن اسمه محمد ويجوز لغيره ، قال الإمام أبو القاسم الرافعي من أصحابنا : يشبه أن يكون هٰذا الثالث أصح ؛ لأن الناس لم يزالوا يكتنون به في جميع الأعصار من غير إنكار ، وهٰذا الذي قاله صاحب هٰذا المذهب فيه مخالفة ظاهرة للحديث .
وإما إطباق الناس علىٰ فعله ـ مع أن في المتكنين به والمكنين الأئمة الأعلام ، وأهل الحل والعقد ، والذين يقتدىٰ بهم في مهمات الدين ـ ففيه تقوية لمذهب مالك في جوازه مطلقاً ، ويكونون قد فهموا من النهي الاختصاص بحياته صلى الله عليه وسلم كما هو مشهور من سبب النهي في تكني اليهود بأبي القاسم ، ومناداتهم يا أبا القاسم ؛ للإيذاء ، و هٰذا المعنىٰ قد زال ، والله أعلم .

(٢) النَّاسور : قرحة تمتد في أنسجة الجسم ، وكثيراً ما تكون حول المقعدة .

وقال الشافعي : السخاء والكرم يغطيان عيوب الدنيا والآخرة بعد ألاَّ يلحقهما بدعة .

وكان الشافعي رحمه الله يختم في شهر رمضان ستين ختمة ، ما منها شيء إلا في صلاة .

وعن إبراهيم بن محمد قال : ما رأيت أحداً أحسن صلاة من الشافعي ، وذلك أنه أخذ من مسلم بن خالد الزنجي ، وأخذ مسلم من ابن جريج ، وأخذ ابن جريج من عطاء ، وأخذ عطاء من عبد الله بن الزبير ، وأخذ ابن الزبير من أبي بكر الصديق رضي الله عنهم ، وأخذ أبو بكر الصديق من النبي صلى الله عليه وسلم ، وأخذ النبي صلى الله عليه وسلم من جبريل عليه الصلاة والسلام .

وقال الربيع : كان الشافعي إذا حدث . . فكأنما يقرأ سورة من القرآن ، وكان فصيحاً ، فمرض مرضة شديدة ، فقال : اللهم ؛ إن كان هـٰذا لك رضاً . . فزد ، فبلغ ذلك إدريس بن يحيى الخولاني ، فبعث إليه : يا أبا عبد الله ؛ لست أنا ولا أنت من رجال البلاء ، اِسألِ الله تعالى العافية ، فبعث إليه : يا أبا عمرو ؛ ادع الله تعالىٰ لي بالعافية .

وقال يونس بن عبد الأعلىٰ : كان الشافعي يكلمنا بقدر ما نفهم عنه ، ولو كلمنا بقدر فهمه . . ما عقلنا عنه .

وقال الشافعي رحمه الله : لم أر أنفع للوباء من التسبيح .

وقال الشافعي رحمه الله : نزل قوم بٱمرأة من أهل اليمن ، فأخرجت لهم شيئاً ، فقالوا لها : إن معنا ما يكفينا ، قالت : فما تريدون ؟ أتنزلون عندي وتأكلون طعامكم ؟ والله ؛ لا كان هـٰذا أبداً ، والله ؛ لو فعلتم . . لرأيتم متاعكم في الصحراء .

وقال الشافعي رحمه الله : سمعت رجلاً يمدح أخاً له فقال : إن كان ليملأ العين جمالاً والأذن بياناً .

وقال الشافعي : من استغضب فلم يغضب . . فهو حمار ، ومن استرضي فلم يرض . . فهو شيطان .

وقال حرملة : سمعت الشافعي رحمه الله يقول : احذروا الأعور ، والأحول ، والأعرج ، والأقرع ، والأحدب ، والأشقر ، والكوسج[1] ، وكل من به عاهة في بدنه ؛ فإن فيه التواء ، ومعاملته عسرة .

---

(١) الكَوْسَج : الذي لا شعر علىٰ عارضيه .

وقال الشافعي رحمه الله : كتب حكيم إلىٰ حكيم : يا أخي ؛ قد أوتيت علماً ، فلا تدنس علمك بظلمة الذنوب ، فتبقىٰ في الظلمة يوم يسعىٰ أهل العلم بنور علمهم .

وقال الربيع : كنت عند الشافعي ؛ إذ جاءه رجل برقعة ، فقرأها ، ووقَّعَ فيها ، فمضى الرجل ، فتبعته إلىٰ باب المسجد ، فقلت : والله ؛ لا تفوتني فتوى الشافعي ، فأخذت الرقعة من يده ، فوجدت فيها :

سَلِ العالمَ المكيَّ هل في تَزاورٍ ... وضمَّـةِ مشتـاقِ الفـؤاد جُنـاحُ

فإذا الشافعي رحمه الله قد وقع فيها :

فقلـت معـاذَ الله أن يُـذهِـبَ التقـىٰ ... تـلاصـقُ أكبـاد بهـن جـراحُ

قال الربيع : فرجعت إلى الشافعي رحمه الله وسألته ، كيف أفتىٰ لحَدَثٍ بمثل هـٰذا ؟ فقال : يا أبا محمد ؛ هـٰذا رجل هاشمي قد أعرس في هـٰذا الشهر شهر رمضان ، وهو حدث السن ، فسأل هل عليه من جناح أن يقبل أو يضم من غير وطء ، فأفتيته بهـٰذه الفتوىٰ ، قال الربيع : فسألت الشاب بعد ذلك ، فذكر لي مثل ما قال الشافعي رحمه الله ، فما رأيت أصدق من فراسته .

وعن المزني قال : دخلت على الشافعي رحمه الله في علته التي مات فيها ، فقلت له : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت من الدنيا راحلاً ، ولإخواني مفارقاً ، ولكأس المنية شارباً ، ولسوء أعمالي ملاقياً ، وعلى الله الكريم سبحانه وتعالىٰ وارداً ، فلا أدري أروحي تصير إلى الجنة فأهنئها ؟ أو إلى النار فأعزيها ؟ ثم بكىٰ ، وأنشأ يقول :

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي ... جعلـتُ الـرجـا منـي لعفـوك سُلَّمـا
تعـاظَمَنـي ذنبـي فلمـا قـرنتُـهُ ... بعفـوك ربـي كـان عفـوك أعظمَـا
وما زلتَ ذا عفو عن الذنب لم تزل ... تجـود وتعفـو مِنَّـةً وتكـرُّمَـا
فإن تعف عني تعف عن ذي إساءة ... ظلـوم غشـوم لا يـزايـل مـأثمَـا
وإن تنتقـم منـي فلسـتُ بـآيـسٍ ... ولو دخلَتْ روحي بجُرمِيْ جَهَنَّمَا[1]

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال الشافعي رحمه الله : حُملت إلىٰ مكة وأنا ابن سنتين ، ولم يكن لي مال ، وكنت أطلب العلم في الحداثة ، أذهب إلى الديوان فأستوهب

---

(١) الحلية (٩/ ١١١ـ١٥٠) .

الظهور أكتب فيها ، قال : كنت أطلب الشعر وآتي البوادي فأسمع منهم ، فخرجت من مكة وأنا أتمثل شعر لبيد وأضرب قدمي بالسوط ، فضربني رجل من ورائي من الحَجَبة ، وقال لي : رجل من قريش ثم من بني المطلب رضي من دينه ودنياه أن يكون شاعراً!! ما الشعر ؟ الشعر إذا استحكَمْت فيه . . قصاراه أن تكون معلِّماً ، تَفَقَّهْ . . تَعْلُ ، قال : فنفعني الله عز وجل بكلام ذلك الحجبي ، فرجعت إلىٰ مكة ، ولزمت سفيان بن عيينة ، وكتبت عنه ما شاء الله ، ثم كنت أجالس مسلم بن خالد الزنجي ، ثم قدمت علىٰ مالك ، فكتبت « موطأه » ، فقلت له : يا أبا عبد الله ؛ أَقْرَؤُهُ عليك ؟ قال : يابن أخي ؛ ائت برجل يقرؤُهُ ، فقلت : يا أبا عبد الله ؛ أقرأ عليك ، فتَسْمَع إلىٰ قراءتي ، قال : اقرأ ، فلما سمع قراءتي . . قال : اقرأ ، حتىٰ بلغت كتاب السِّيَر ، فقال : أطوِ يابن أخي ، تفقَّهْ . . تَعْلُ .

وفي رواية أخرىٰ : كان كثيراً ما يخرج إلى البدو ، فيحمل ما فيه من الأدب ، فبينا هو في حي من أحياء العرب ؛ إذ جاءه بدوي ، فقال له : ما تقول في امرأة تحيض يوماً وتطهر يوماً ؟ فقال : لا أدري ، فقال : يابن أخي ؛ الفريضة أولىٰ بك من النافلة ، فقال : إنما أُرِيدَ هـٰذا لذاك ، وعليه قد عزمت ، وبالله التوفيق .

وقال الشافعي رحمه الله : حفظت القرآن وأنا ابن سبع سنين ، و« الموطأ » وأنا ابن عشر .

وقال عبد الله بن أحمد : قلت لأبي : يا أبت ؛ أي رجل كان الشافعي ؛ فإني رأيتك تكثر من الدعاء له ؟ فقال : يا بني ؛ كان الشافعي كالشمس للدنيا ، وكالعافية للناس ، فانظر ، هل لهـٰذين من خَلَف ، أو لهما من عِوَض ؟!

وقال الشافعي رحمه الله : ما ناظرت أحداً . . إلا وأحببت أن يكون الحق علىٰ لسانه .

وفي رواية : إلا وأحببت ألاَّ يخطىء .

وفي رواية : إلا وأحببت أن يوفَّق ، ويسدَّد ، ويعان ، ويكون عليه رعاية من الله عز وجل ، وحفظ ، وما ناظرت أحداً . . إلا ولم أبال تَبيَّن الحق علىٰ لسانه أو علىٰ لساني .

وقال الربيع : سمعت الشافعي رحمه الله يقول : أشد الأعمال ثلاثة : الجود من قلة ، والورع في خلوة ، وكلمة حق عند من يرجىٰ ويُخاف .

وقال الشافعي رحمه الله : وددت أن هـٰذا الخلق تعلموا مني هـٰذا العلم ، ولا يُنسَبُ إلي منه شيء .

وقال الشافعي رحمه الله : من طلب الرئاسة . . فرَّت منه ، وإذا تصدَّىٰ يحدِّث قبل وقته . . فاته علم كثير .

وقال الربيع : سئل الشافعي عن سنه ، فقال : ليس من المروءة أن يُخبِر الرجل بسنه ، سأل رجل مالكاً عن سنه ، فقال له : أقبل علىٰ شأنك .

وفي رواية أخرىٰ : ليس من المروءة أن يخبر الرجل بسنه ؛ لأنه إن كان صغيراً . . استحقروه ، وإن كان كبيراً . . استهرموه .

ودخل الشافعي يوماً علىٰ بعض حُجَر هارون الرشيد ليستأذن له ، ومعه سراجٌ الخادم ، فأقعده عند أبي عبد الصمد مؤدب أولاد الرشيد ، فقال سراج للشافعي : يا أبا عبد الله ؛ هـٰؤلاء أولاد أمير المؤمنين ، وهـٰذا مؤدبهم ، فلو أوصيتَه بهم ، فأقبل عليه ، وقال : ليكن أول ما تبدأ به من إصلاح أولاد أمير المؤمنين إصلاحك نفسك ؛ فإن أعينهم معقودة بعينك ، فالحَسَن عندهم ما استحسنتَه ، والقبيح عندهم ما تكرهه ، علِّمهم كتاب الله عز وجل ، ولا تكرههم عليه فيملوه ، ولا تتركهم منه فيهجروه ، ثم رَوِّهم من الشعر أعقَلَه ، ومن الحديث أشرفه ، ولا تخرجهم مِن علم إلىٰ غيره -حتىٰ يُحكموه ؛ فإن ازدحام الكلام في السمع مضلة للفهم .

وقال الشافعي : من نظف ثوبه . . قل همه ، ومن طاب ريحه . . زاد عقله .

وقال : لِنْ لِمَنْ يجفو ؛ فقلَّ من يصفو .

وقال ابن بيان الأصفهاني : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام ، فقلت له : يا رسول الله ؛ محمد بن إدريس ابن عمك هل خصصته بشيء ؟ قال : « نعم ، سألت ربي عز وجل ألاَّ يحاسبه » ، فقلت له : بماذا يا رسول الله ؟ فقال : « إنه كان يصلي عليَّ صلاة لم يُصَلِّ عليَّ بمثلها » ، فقلت : وما تلك الصلاة يا رسول الله ؟ قال : « كان يقول : اللهم ؛ صل علىٰ محمد وعلىٰ آل محمد ، كلما ذكره الذاكرون ، وصل علىٰ محمد وعلىٰ آل محمد ، كلما غفل عن ذكره الغافلون » انتهىٰ [« الصفوة » ٢/١٤٧-١٥٣] .

وقال الربيع : رأيت الشافعي رحمه الله في المنام بعد موته ، فقلت له : يا أبا عبد الله ؛ ما صنع الله عز وجل بك ؟ فقال : أجلسني علىٰ كرسي من ذهب ، ونثر عليَّ اللؤلؤ الرطب .

وقال حجة الإسلام الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : قال الشافعي رحمه الله : العلم بين أهل العلم والعقل . . رحم متصل .

وقال : لا يعرف الرياء إلا المخلصون .

وقال : إذا خفت علىٰ عملك من العجب . . فاذكر رضا من تطلب ، وفي أي نعيم ترغب ، وأي عافية تشكر ، وأي بلاء تذكر ؛ فإنك إذا فكرت في إحدىٰ هـٰذه الخصال . . صغر عملك عندك .

قال الغزالي : انظر كيف ذكر الشافعي رحمه الله حقيقة الرياء وعلاج العجب ، وهما من كبائر آفات القلوب .

قال : وكان الشافعي رحمه الله يُسأل عن مسائل كثيرة في الورع ، فكان يقبل على السائل ويجيبه بأحسن جواب ، وقيل له : أيَّما أفضل : الصبر مع المحنة ، أو التمكين ؟ فقال الشافعي رحمه الله : التمكين درجة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، والتمكين لا يكون إلا بعد المحنة ، ألا ترىٰ أن الله عز وجل امتحن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ثم مكنه ، وموسىٰ عليه الصلاة والسلام ثم مكنه ، وأيوب عليه الصلاة والسلام ثم مكنه ، وهـٰكذا سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ؟ فالتمكين أفضل الدرجات .

قال الغزالي : فهـٰذا الكلام يدل علىٰ تبحر علم الشافعي في أسرار القرآن ، واطلاعه علىٰ مقامات السائرين إلى الله عز وجل .

وأما قوله : (وددت أن الناس أخذوا هـٰذا العلم ولا ينسب إلي منه حرف) فانظر كيف اطلع الشافعي علىٰ آفة العلم وطلب الاسم به ، وكيف كان منزَّه القلب عن الالتفات إليه ، متجرد النية فيه لله عز وجل .

وقال الشافعي رحمه الله : ما أوردت علىٰ أحد الحجة فقبلها مني . . إلا هبته واعتقدت مودته ، ولا كابرني أحد على الحق . . إلا سقط من عيني ورفضته .

وقال : من شرف العلم أن كل من نُسِب إليه ولو في شيء يسير . . فرح ، ومن دُفِع عنه . . حزن . انتهىٰ [« الإحياء » ١/٢٦ و٤٧] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : رُوِّينا عن الحافظ الخطيب البغدادي ـ قدس الله روحه ـ بإسناده إلى الربيع بن سليمان قال : كنا جلوساً في حلقة الشافعي رحمه الله بعد موته ، فجاء أعرابي ، فوقف علينا وسلم ، ثم قال : أين قمر هـٰذه الحلقة وشمسها ؟ فقلنا له : مات رحمه الله تعالىٰ ورضي عنه ، قال : فبكىٰ بكاء شديداً ، ثم قال : رحمه الله وغفر له ، فلقد كان يفتح ببيانه منغلِق الحجة ، ويسد علىٰ خصمه واضح المحجة ، ويغسل

من العار وجوهاً مسودة ، ويوسع بالرأي أبواباً منسدة . ثم انصرف .

ورُوِّينا عن الحافظ العلامة أبي عمرو بن الصلاح ـ قدس الله روحه ـ قال : سأل بعض ملوك الشام عن حلية الإمام الشافعي ، فلم يكن ببلده من يقوم بها ، فورد حلب وأَنَا بِها ، فسألني ، فأجبته عن ذلك بعون الله تعالىٰ : حليته مع ما كان فيه من الفضائل : كان طويلاً ، سائل الخدين ، قليلَ لحم الوجه ، طويل العنق ، طويل القصب ، أسمرَ ، خفيف العارضين ، يخضب لحيته بالحناء حمراء قانئة ، حسن الصوت ، حسن السمت ، عظيم العقل ، حسن الوجه ، حسن الخلق ، مهيباً ، فصيحاً ، من أذرب الناس لساناً ، إذا أخرج لسانه . . بلغ أنفه ، وكان وارد الأرنبة ؛ أي : طويلها ـ والأرنبة : مقدم الأنف ـ علىٰ أنفه أثر جدري ، بادي العنفقة[1] ، أبلج ، مفلج الأسنان ، أما الأبلج : فهو المقرون الحاجبين علىٰ ما جاء في صفة سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم أنه كان أبلج ؛ أي : مقرون الحاجبين ، لـٰكن الشافعي لم يكن مقرون الحاجبين ، فالمراد بالأبلج في صفة الشافعي : أنه أبلج الوجه ؛ أي : مضيئه ، لا أبلج الحاجبين ، وأما مفلج الأسنان : فالمراد به منفرج الأسنان . والله أعلم . انتهىٰ .

وعن قتيبة بن سعيد قال : مات الشافعي وماتت السنن ، ومات الثوري ومات الورع ، ويموت أحمد ابن حنبل وتظهر البدع .

وحكي عن الشافعي أنه قال : ما رأيت كأهل مصر ، اتخذوا الجهل علماً ؛ فإنهم سألوا مالكاً عن مسائل ، فقال : لا أعلمها ، فهم يقبلونها ممن يعلمها ؛ لأن مالكاً قال : لا أعلمها .

وقال الربيع بن سليمان : ناظر الشافعي محمد بن الحسن بالرقة ، فقطعه ، فبلغ هارون الرشيد ، فقال : أمَا علم محمد بن الحسن أنه إذا ناظر رجلاً من قريش أنه يقطعه ، سائلاً كان أو مجيباً ، والنبي صلى الله عليه وسلم قال : « قدِّموا قريشاً ولا تَقَدَّموها ، وتعلموا منها ولا تعلموها ؛ فإن عِلْمَ العالم منهم يسع طباق الأرض » .

وقال شيخنا شيخ الإسلام برهان الدين الفزاري ـ قدس الله روحه ـ : قال في كتاب الساجي : قال أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم : سمعت الربيع بن سليمان يقول : كان

---

(١) **رجل بادي العنفقة** : إذا عري موضعها من الشعر ، **والعنفقة** : شعيرات بين الشفة السفلىٰ والذقن .

الشافعي رحمه الله إذا قال : أخبرنا الثقة . . يريد به يحيى بن حسان ، وإذا قال : أخبرنا من لا أتَّهم . . يريد به إبراهيم ابن أبي يحيىٰ ، وإذا قال : أخبرنا بعض الناس . . يريد به أهل العراق ، وإذا قال : أخبرنا بعض أصحابنا . . يريد به أهل الحجاز .

قال الحافظ الحاكم أبو عبد الله : قد أخبر الربيع عن غالب هـٰذه الروايات بأن أكثر ما رواه الشافعي عن الثقة هو يحيى بن حسان ، وقد قال في كتبه : أخبرنا الثقة ، والمراد به : غير يحيىٰ ، وقد فصل لذلك تفصيلاً علىٰ غالب الظن ، فذكر في بعض ما قال أخبرنا الثقة : أنه أراد به إسماعيل ابن عُلَيَّة ، وفي بعضه : أخبرنا أسامة ، وفي بعضه : عبد العزيز بن محمد ، وفي بعضه : هشام بن يوسف الصنعاني ، وفي بعضه : أحمد ابن حنبل أو غيره من أصحابه ، ولا يكاد يُعرف ذلك باليقين إلا أن يكون قد أطلقه في موضع وسماه في آخر .

قال شيخنا ـ قدس الله روحه ـ : نقلت ذلك من كتاب « الشافي في مناقب الإمام الشافعي » قال : قال الربيع بن سليمان رحمه الله : إذا قال الشافعي : أخبرنا الثقة عن حميد عن أنس بن مالك رضي الله عنه . . قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرون العِشاء ، فينامون ـ أحسبه قال : قعوداً ـ حتىٰ تخفِقَ رؤوسهم ، ثم قال : الثقة في هـٰذا الحديث هو إسماعيل ابن عُلية .

وقال الحاكم رحمه الله : إذا قال الشافعي : أخبرنا الثقة عن حميدٍ الطويل . . فإنما يريد بالثقة إسماعيل ابن عُلية .

وقال القاضي الماوردي في « الحاوي » : كل موضع يقول فيه الشافعي : قال بعض الناس . . يريد به أبا حنيفة ، وكل موضع يقول فيه قال بعض أصحابنا . . يريد به مالكاً ، وإذا أراد غيره . . ذكره باسمه . انتهىٰ ما قاله شيخنا قدس الله روحه .

وقال أبو القاسم محمد عبد المحسن بن عثمان في كتابه المسمىٰ بـ« الواضح النفيس في فضائل الإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس » : قال الربيع : إذا قال الشافعي : أخبرنا الثقة عن ابن أبي ذئب . . فهو يريد مسلم بن خالد الزنجي ، وإذا قال : أخبرنا الثقة عن الأوزاعي . . فهو عمرو ابن أبي سلمة ، وربما كان أيوب بن سويد ، وإذا قال : أخبرنا الثقة عن أيوب . . فهو ابن علية ، وإذا قال : أخبرنا الثقة عن معمر . . فهو هشام بن يوسف ، وإذا قال : أخبرنا الثقة عن يحيى بن سعيد . . فهو الدراوردي ، وإذا قال : أخبرنا الثقة عن ابن

شهاب . . فهو مالك بن أنس ، وربما كان إبراهيم بن سعد ، وإذا قال : أخبرنا الثقة عن الوليد ابن أبي كثير أو هشام بن عروة أو عبد الله بن عمر . . فإنه حماد بن أسامة ، وإذا قال : حدثنا الثقة عن سفيان الثوري أو يوسف بن يزيد أو أسامة بن زيد[1] . . فإنه أيوب بن سويد .

قال الربيع : إذا قال الشافعي في حديث : أخبرني من لا أتهم . . فهو يريد به إبراهيم ابن أبي يحيىٰ ، وإذا قال : بعض الناس . . فهو يريد أهل العراق ، وإذا قال : بعض أصحابنا . . فهو يريد أهل الحجاز ، وفي رواية أخرىٰ : فهو يريد أصحاب مالك . انتهىٰ .

ورُوِّينا عن الحافظ أبي القاسم بن عساكر ـ قدس الله روحه ـ بسنده إلى الربيع قال : كنت عند الشافعي أنا والمزني وأبو يعقوب البويطي ، فنظر إلينا ، فقال لي : أنت تموت في هـٰذا الحديث ، وقال للمزني : هـٰذا لو ناظر الشيطان . . قطعه ، أو جدله ، وقال للبويطي : أنت تموت في الحديد ، قال الربيع : فدخلت على البويطي أيام المحنة ، فرأيته مقيداً إلىٰ أنصاف ساقيه مغلولةً يده إلىٰ عنقه . قال الحافظ البيهقي ـ قدس الله روحه ـ : فكان كما تفرس رحمه الله . انتهىٰ [« تاريخ دمشق » ٥١/٤٠٧] .

وقال الربيع : حججنا مع الشافعي رحمه الله ، فما ارتقىٰ ربوة ، ولا هبط وادياً . . إلا وهو يبكي وينشد :

آل النبـــــي ذريعتـــــي ... وهُـــمُ إليـــه وسيلتـــي
أرجـــو بـــأن أُعطـــىٰ غـــداً ... بيـــدي اليميـــنِ صحيفتـــي

وكان من دعائه رحمه الله : اللهم ؛ إني أعوذ بك من مقال الكذابين ، وإعراض الغافلين ، إلـٰهي ؛ لك خضعت قلوب العارفين ، وولهت بك فهوم المشتاقين ، إلـٰهي ؛ هب لي جودك ، واسترني بسترك ، واعف عني بكرمك يا أرحم الراحمين .

وسأل بعض العلماء رُوَيماً رحمه الله فقال له : بِمَ ظهر الشافعي رحمه الله ؟ فقال : بثلاث :

الأولىٰ : أنه جهر ببسم الله الرحمـٰن الرحيم ، فجهر الله عز وجل باسمه .

والثانية : أنه ما أحب أن يكون له مذهباً ، بل جعل مذهبه الحديث حيث صح .

---

(١) في نسخة : (بن يزيد) .

والثالثة : محا نفسه ، فأثبته الله عز وجل .

وقد حكي : أنه وجد تحت فراش الشافعي رحمه الله لما مات التفويض إليه بقضاء مصر من الخليفة المأمون ، وأنه لم يقبل الولاية ، ولا أظهر الرد ، وأخفى التفويض .

فانظر إلىٰ هـٰذا المقصود العظيم الذي فعله من الرد وإخفاء الرد ، وما فيه من تقوى الله عز وجل ، والإخلاص بأعماله كلها لله سبحانه وتعالىٰ ، والله أعلم .

واعلم : أن هـٰذا العلم الذي يؤخذ عنه ـ وقد ملأ الدنيا شرقاً وغرباً ـ صنفه في أربع سنين أو نحوها ؛ لأن كتبه القديمة رجع عنها ، وكتبه الجديدة هي التي صنفها بمصر ، ومقامه بمصر إنما كان هـٰذه المدة .

وقد قيل : إن الحكمة من قصر عمر الشافعي رحمه الله ـ والله أعلم ـ : أنه لو طال عمره . . لارتفع الخلاف ؛ إذ كان يرجع خلائق عن مذاهبهم إلىٰ مذهبه ، وهـٰكذا هـٰكذا فيرتفع الخلاف ، لـٰكن ما شاء الله . . كان ، وما لم يشأ . . لم يكن ، وللإمام الشافعي رحمه الله في هـٰذا المعنىٰ أبيات ، فمنها قوله :

فمـا شئـتَ كـان وإن لـم أشَـأْ ... ومـا شئـتُ إن لـم تشَـأْ لـم يكـنْ
خلقـتَ العبـاد علـىٰ مـا أردت ... فمنهـم شقـي ومنهـم حَسَـنْ
علـىٰ ذا مننـتَ وهـٰـذا خـذلـت ... وهـٰـذا أعنـتَ وذا لـم تُعِـنْ

وجملة ما أقول : إنه كان في عصره إمامَ الأنام ، ونظام الإسلام ، أحدَ الأئمة الأربعة الأطواد ، أفضل العلماء ، وأعلم الفضلاء ، وصدر البدور ، وبدر الصدور ، وهاديَ الدعاة ، وداعيَ الهداة ، عقائد الأصول منقدِحة من زناد كلماته ، وقواعد الفروع مقترَحة من عداد نغماته[1] ، فاز بطهارة الأعراق ، ودماثة الأخلاق ، درة الأصداف ، وغرة الألطاف ، من صميم آل عبد مناف ، كشف الغمة عن الأمة ، وصرف عنهم الملمة المدلهمة[2] ، بعلم كالبحر اللجي ، ورأي كالبدر في الليل الدجوجي[3] ، مذهبه مؤيَّد بنصوص القرآن وسنة سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ، قد أسس بنيانه علىٰ تقوىٰ من الله عز وجل

---

(١) في نسخة : (منتخبة من عداد نعمائه) .
(٢) **المُدْلَهِمَّة** : المظلمة .
(٣) **الدَّجوجي** : من الدُّجَّة ، وهي شدة الظلمة في الليل .

ورضوان ، واتفق كل مَن قَرُب من الإنصاف ، وبعد عن الاعتساف من الأئمة العالِمين العاملين ، والعلماء الراسخين الربانيين ، أنه المعني في الحديث الثابت من غير ما طريق ، منها : ما رواه وهب بن كيسان ، عن أبي هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اللهم ؛ اهد قريشاً ، فإن عالمها يملأ طباق الأرض علماً » إنما هو الشافعي رحمه الله ، المطلبي ، سيد فقهاء عصره ، وما راموا شططاً ، ولا حاولوا فرطاً ، بل قالوا حقاً ، وفاهوا صدقاً ، وتَبيَّن ذلك لمن نظر بالاستدلال ، وبصر بالاستقلال ، وتيقن أن العلماء القرشيين من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين ، كانت هممهم مقصورة في الاجتهاد علىٰ إعلاء كلمة الله العليا في الغزو والجهاد ، ولم يُرزَقوا خُلُوَّ بال ، ولا نُمُوَّ حال ، ولا فراغاً للتصدي للتصنيف والتدريس ، ولا للتحري لنشر ما عندهم من فنون العلم وتشييد قواعده والتأسيس ، وإنما يُذكر عنهم مسائلُ معدودة من قضايا مقصودة وحوادث مشهودة ، وهي غيض من فيض ، وهلم جراً إلىٰ زمان الشافعي رحمه الله ، فلما آن أوانه ، وبرق للشائمين[1] بروقه ، وشرق للناظرين شروقه ، وهدرت شقاشق فصاحته[2] ، وزهرت شقائق صباحته ، وكشفت أستارَ الأسرار علومُه ، وعُرفت في دقائق الحقائق رسومه . . فاق العالمين فطنة وذكاء ، وصارت المشكلات بإيضاحه منحلَّة العُقَد منقلة العدد ، وعادَ ليل المعضلات المسدف[3] المُغدِر[4] بأنوار أدلته كالنهار المشرق المسفر ، رموزه مفاتيح الكنوز ، وكنوزه مصابيح الرموز ، دلائله نفائس الأدلة ، وفضائله عرائس الأكِلَّة[5] ، نشر العلوم الشرعية ، وطوى الرسوم البدعية ، وانتشر مذهبه في الآفاق ، فصار كالنور في الأحداق ، بلغ في غُلَواءِ[6] الشباب رتبة الاجتهاد ، بملابسة الجد والاجتهاد ، مصنفاته في علوم التوحيد ، ومؤلفاته في قواعد الفقه والتمهيد ، وأماليه في الأصول والفروع ، وأحكام

---

(١) **الشائم** : الذي ينظر البرق من بعيد ، ويرىٰ أين يقصد ، وأين يمطر .

(٢) **الهدير** : ترداد الصوت ، **الشقاشق** : جمع شَقْشِقَة ، وهي : شيء كالرئة يخرجه البعير إذا هاج ، ثم بعد ذلك شبهوا الخطيب المكثار البليغ به فقالوا : الخطباء الشقاشق .

(٣) **المسدف** : المظلم .

(٤) **المغدر** : المظلم .

(٥) أي : كالعرائس المخبَّأة تحت الأكلة ، **والأكِلَّة** : جمع إكليل ، وهو : ما يوضع علىٰ رأس العروس ليلة عرسها ، وهو هنا كناية عن المسائل التي أتىٰ بها الإمام الشافعي .

(٦) **غُلَواءُ الشباب** : أوله وسرعته .

العبادات والجراح والبيوع ، وتوضيح الأسانيد ، وتوشيح المسانيد[1] ، وتعديل الرجال النَّقَلة ، وتضعيف الرواة الحَمَلة ، كل ذلك بالنظر والاستدلال ، ومناقشة الكماة الأبطال ، والمحاورات في العلوم ، والمناظرات مع الخصوم ، فاستحق بهـٰذه الفواضل والفضائل ، أن يكون هو المراد ـ والله أعلم ـ بهـٰذا الحديث ، كما أولته الأفاضل ، دون غيره من سائر العلماء الأماثل ، ممن رزق علماً غزيراً ، ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) **توشيح المسانيد** : تزيينها ؛ لأن الأصل في الوشاح أنه من حلي المرأة .

ومنهم الإمام :

مالك بن أنس
رضي الله عنه

قال شيخ الإسلام في عصره محيي الدين النووي ـ قدس الله روحه ـ :

هو أبو عبد الله ، مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث بن غيمان ـ بالغين المعجمة ، والياء المثناة تحت ـ بن خُثَيل ـ بالخاء المعجمة المضمومة ، وفتح الثاء المثلثة ـ بن عمرو بن الحارث[1] ، الأصبحي ، المدني ، إمام دار الهجرة ، وأحد أئمة المذاهب المتبوعة ، وهو من تابعي التابعين .

سمع نافعاً مولى ابن عمر رضي الله عنهما ، ومحمد بن المنكدر ، وأبا الزبير ، والزهري ، وعبد الله بن دينار ، وأبا حازم ، وخلائق آخرين .

روىٰ عنه يحيى الأنصاري ، والزهري ، وهما من شيوخه ، وابن جريج ، ويزيد بن عبد الله بن الهاد ، والأوزاعي ، والثوري ، وابن عيينة ، وشعبة ، والليث بن سعد ، وابن المبارك ، وابن علية ، والشافعي ، وابن وهب ، وإبراهيم بن طهمان[2] ، والقعنبي ، وعبد الله بن يوسف ، وعبد الله بن نافع ، ويحيى القطان ، وابن مهدي ، ومعن بن عيسىٰ ، وعبد الرحمٰن بن القاسم المصري ، وأبو عاصم النبيل ، وروح بن عبادة ، والوليد بن مسلم ، ويحيى بن يحيى النيسابوري ، ويحيى بن عبد الله بن بكير ، وعبد العزيز الأويسي ، وقتيبة ، وسعيد ابن أبي مريم ، وسعيد بن كثير ، ومطرف بن عبد الله اليساري ، وورقاء بن عمر ، وخلائق آخرون .

وأجمعت العلماء علىٰ إمامته ، وجلالته ، وعظيم سيادته ، وتبجيله ، وتوقيره ، والإذعان له في الحفظ والتثبت ، وتعظيم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) وهو ذو أصبح الأصبحي ، والأصبحيين من حمير ، وحمير من قحطان ، فهو عربي أصبحي بالاتفاق .

(٢) في « التهذيب » : (ابن همیان) .

وقد قال البخاري : أصح الأسانيد : مالك عن نافع عن ابن عمر .

وفي هـٰذه المسألة خلاف ، قال الإمام أبو منصور التميمي : فعلىٰ هـٰذا : أصحها : الشافعي عن مالك عن نافع عن ابن عمر ؛ لأنه أجلُّ من روىٰ عن مالك .

وقال سفيان : ما كان أشد انتقاد مالك للرجال .

وقال ابن المديني : لا أعلم مالكاً ترك إنساناً إلا مَنْ في حديثه شيء .

وقال أحمد ابن حنبل وابن معين وابن المديني : أثبت أصحاب الزهري مالك .

وقال أبو حاتم : مالك ثقة ، وهو إمام أهل الحجاز ، وهو أثبت أصحاب الزهري .

وقال الشافعي : إذا جاء الأثر . . فمالك النجم ، ومالك وابن عيينة القرينان .

وقال الشافعي : لولا مالك وسفيان بن عيينة . . لذهب علم الحجاز .

وكان مالك إذا شك في شيء من الحديث . . تركه كله .

وقال أيضاً : مالك معلمي ، وعنه أخذنا العلم .

وقال حرملة : لم يكن الشافعي يُقدِّم علىٰ مالك أحداً في الحديث .

وقال وهب بن خالد : ما بين المشرق والمغرب رجل آمَنُ علىٰ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من مالك .

ورُوِّينا بالإسناد الصحيح في « الترمذي » [٢٦٨٠] وغيره ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يوشك أن يضرب الناس آباط المُطِيِّ في طلب العلم ، فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة » قال الترمذي : حديث حسن ، قال : وقد روي عن سفيان بن عيينة أنه قال : هو مالك بن أنس .

ورُوِّينا عن أبي سلمة الخزاعي قال : كان مالك إذا أراد أن يخرج يُحدِّثَ . . توضأ وضوءه للصلاة ، ولبس أحسن ثيابه ، ومشط لحيته ، فقيل له في ذلك ، فقال : أُوَقِّرُ به حديثَ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ورُوِّينا عن معن بن عيسىٰ قال : كان مالك إذا أراد أن يجلس للحديث . . اغتسل ، وتبخر ، وتطيب ، وإن رفع أحدٌ صوته في مجلسه . . قال : قال الله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ فمن رفع صوته عند حديث النبي صلى الله عليه وسلم . . فكأنما رفع صوته فوق صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ورُوِّينا عن حبيب الوراق قال : دخلت علىٰ مالك ، فسألته عن ثلاثة رجال ، لِمَ لم تروِ عنهم ؟ فأطرق ، ثم رفع رأسه ، وقال : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ـ وكان كثيراً ما يقولها ـ فقال : يا حبيب ؛ أدركتُ هـٰذا المسجد وفيه سبعون شيخاً ممن أدرك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورووا عن التابعين ، ولم نحمل الحديث إلا عن أهله .

وقال بشر بن عمر : سألت مالكاً عن رجل ، فقال : أرأيتَه في كتبي ؟ قلت : لا ، قال : لو كان ثقة . . لرأيته في كتبي .

ورُوِّينا عن عبد الله بن يوسف ، عن خلف بن عمر قال : كنت عند مالك ، فأتاه ابن كثير قارىء الحديث[1] ، فناوله رقعة ، فنظر فيها مالك ، ثم جعلها تحت مصلاه ، فلما قام مَن عندَه . . ذهبتُ أقوم ، فقال : اجلس يا خلف ، وناولني الرقعة ، فإذا فيها : رأيت الليلة في منامي كأنه يقال لي : هـٰذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس والناس حوله يقولون له : يا رسول الله ؛ أعطنا ، يا رسول الله ؛ مر لنا ، فقال لهم : « إني قد تركت تحت المنبر كنزاً ، وقد أمرت مالكاً أن يقسمه فيكم ، فاذهبوا إلىٰ مالك » ، فانصرف الناس ، وبعضهم يقول لبعض : ما ترون مالكاً فاعلاً ، فقال بعضهم : يعمل ما أمره به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فَرَقَّ مالك وبكىٰ ، ثم خرجت من عنده وتركته علىٰ تلك الحال .

وروى ابن أبي حاتم ، عن عبد الرحمـٰن بن مهدي قال : أئمة الناس في زمانهم أربعة : سفيان الثوري بالكوفة ، ومالك بالحجاز ، والأوزاعي بالشام ، وحماد بن زيد بالبصرة .

وبإسناده الصحيح عن الشافعي رحمه الله قال : ما في الأرض كتاب من العلم أكثرُ صواباً من « موطأ مالك » ، قال العلماء : إنما قال الشافعي هـٰذا قبل وجود صحيحي « البخاري » و« مسلم » فهُما أصح من الموطأ باتفاق العلماء .

وعن أيوب بن سويد الرملي قال : ما رأيت أحداً قط أجود حديثاً من مالك بن أنس .

وعن القعنبي قال : كنا عند حماد بن زيد ، فجاءه نعي مالك بن أنس ، فقال : رحم الله أبا عبد الله ما خلَّف بعده مثلَه .

وعن عبد الرحمـٰن بن مهدي قال : ما أُقدِّم علىٰ مالك في صحة الحديث أحداً .

وعن يحيى بن سعيد القطان قال : ما في القوم أصح حديثاً من مالك .

---

(١) في « التهذيب » و« تهذيب الكمال » : (قارىء المدينة) .

وعن أحمد ابن حنبل قال : مالك أثبت أصحاب الزهري في كل شيء .

وكذا قال يحيى بن معين وعمرو بن علي ، قالوا : أثبت أصحاب الزهري مالك .

وقيل لأحمد ابن حنبل : الرجل يحب أن يحفظ حديث رجل بعينه ؟ قال : يحفظ حديث مالك ، قيل : فالرأي ؟ قال : رأي مالك .

وقال أبو حاتم الرازي : مالك ثقة ، إمام أهل الحجاز ، وهو أثبت أصحاب الزهري ، وإذا اختلفوا . . حُكِمَ لمالك ، ومالك نَقَّى الرجال ، نَقَّى الحديث ، وهو أتقن حديثاً من الأوزاعي والثوري .

قال : وحدثنا أحمد بن سنان قال : سمعت عبد الرحمٰن بن مهدي يقول : كنا عند مالك ، فجاءه رجل ، فقال : يا أبا عبد الله ؛ جئتك من مسيرة ستة أشهر ، حمَّلني أهل بلدي مسألة أسألك عنها ، قال : اسأل ، فسأله ، فقال : لا أحسن ، فقُطِع[1] بالرجل كأنه قد جاء إلىٰ من يعلم كل شيء ، قال : فأي شيء أقول لأهل بلدي إذا رجعت إليهم ؟ قال : قل : قال لي مالك بن أنس : لا أحسن .

وعن خالد بن نزار الأيلي قال : ما رأيت أحداً أقرأ لكتاب الله عز وجل من مالك رحمه الله .

وعن ابن وهب قال : قيل لأخت مالك : ما كان شغله في بيته ؟ قالت : المصحف والتلاوة .

وعن علي بن المديني قال : لم يكن بالمدينة أعلم بمذهب تابعيهم من مالك بن أنس .

وعن شعبة قال : دخلت المدينة ونافع حي ، ولمالك حلقة .

وعن أبي مصعب قال : رأيت معن بن يحيىٰ جالساً على العتبة ، وما ينطق مالك بشيء . . إلا كتبه .

وعن أبي مصعب أيضاً قال : كانوا يزدحمون علىٰ باب مالك ، فيقتتلون على الباب من الزحام ، وكنا نكون عند مالك فلا يكلم هٰذا هٰذا ، ولا يلتفت ذا إلىٰ ذا ، والناس مائلون برؤوسهم هٰكذا ، وكانت السلاطين تهابه وهم قائلون ومستمعون .

وكان يقول في المسألة : لا ، أو نعم ، فلا يقال له : مِن أين قلت هٰذا ؟

---

(١) قُطِعَ به : انقطع رجاؤه .

وعن محمد بن رمح قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم من أربعين سنة في المنام ، فقلت : يا رسول الله ؛ مالك والليث يختلفان في مسألة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « مالك ، مالك ، مالك ورث جَدي » يعني : إبراهيم صلى الله علىٰ نبينا وعليه وسلم .

وعن بكر قال : رأيت في النوم أني دخلت الجنة ، فرأيت الأوزاعي وسفيان الثوري ، ولم أر مالكاً ، فقلت : وأين مالك ؟ قالوا : وأين مالك ؟ وأين مالك ؟ رُفِع مالك ، فما زال يقول : وأين مالك ؟ رفع مالك ، حتىٰ سقطت قلنسوته .

وقال الإمام أبو القاسم عبد الملك بن زيد بن ياسين الدولعي في كتابه « الرسالة المصنفة في بيان سبيل السنة المشرفة » : أخذ مالك عن تسع مئة شيخ ، فيهم ثلاث مئة من التابعين ، وست مئة من تابعيهم ، ممن اختاره وارتضىٰ دينه وفِقْهَهُ وقيامه بحق الرواية وشروطها ، وحصلت الثقة به ، وتَرَك الروايةَ عن أهل دين وصلاح لـٰكن لا يعرفون بالرواية .

وأحوال مالك ومناقبه كثيرة مشهورة .

توفي بالمدينة في صفر ، سنة تسع وسبعين ومئة . قاله محمد بن سعد .

وقال إسماعيل بن عبد الله بن أبي أويس : مرض مالك أياماً يسيرة ، وتوفي صبيحة أربع عشرة من شهر ربيع الأول ، سنة تسع وسبعين ومئة ، وصلىٰ عليه عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهم ، وهو يومئذ والٍ على المدينة .

ودفن بالبقيع ، وقبره بباب البقيع عليه قبة .

وولد مالك سنة ثلاث وتسعين من الهجرة ، وقيل : سنة إحدىٰ وتسعين ، وقيل : سنة أربع وتسعين ، قالوا : وحُمل به في البطن ثلاث سنين .

وقال عند وفاته رحمه الله : ﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ﴾ . انتهىٰ[1] [« التهذيب » ٢/ ٧٥ـ٧٩] .

---

(١) هـٰذا هـٰذا : الأول : فاعل ، والثاني مفعول .
يقال في الليلة التي مات فيها : إن رجلاً من الأنصار رأىٰ قائلاً ينشد :

لقد أصبح الإسلام زُعزع رُكْنُه ... غداةَ ثوى الهادي لدىٰ مَلْحدِ القبرِ
إمامُ الهُدىٰ ما زال للعلم صائناً ... عليهِ سلامُ الله في آخرِ الدَّهر

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال مالك رحمه الله : قد يكون الحمل ثلاث سنين ، وقد حُمل ببعض الناس ـ يعني : نفسه ـ ثلاث سنين .

وقال مطرف بن عبد الله : كان مالك طويلاً ، عظيم الهامة ، أصلع ، أبيض الرأس واللحية ، شديد البياض ، ولباسه الثياب العَدَنِيَّة الجياد .

وكان يكره حلق الشارب ، ويعيبه ، ويراه من المُثْلة .

وقال [أبو] مصعب : سمعته يقول : ما أفتيت حتىٰ شهد لي سبعون أني أهل لذلك .

وقال خَلَف بن عمر : سمعت مالكاً يقول : ما أجبت في الفتيا حتىٰ سألت من هو أعلم مني ، هل يراني موضعاً لذلك ؟ لقد سألت ربيعة ، وسألت يحيى بن سعيد ، فأمراني بذلك ، فقلت له : يا أبا عبد الله ؛ لو نهوك ؟ قال : كنت أنتهي ، لا ينبغي للرجل أن يرىٰ نفسه أهلاً لشيء حتىٰ يسأل من هو أعلم منه .

وكان يكره أن يحدِّث في الطريق وهو قائم أو مستعجل ، وقال : أحب أن أتفهم ما أحدث به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال عبد الله بن وهب : سمعت مالكاً يقول : ليس العلم بكثرة الرواية ، إنما هو نور يضعه الله عز وجل في القلب .

وقيل له : ما تقول في طلب العلم ؟ فقال : حسن جميل ، ولـٰكن انظر إلىٰ ما يلزمك من حين تصبح إلىٰ حين تمسي . . فالزمه .

وسئل مالك عن مسألة ، فقال : لا أحسنها ، فقال الرجل : إني ضربت إليك من كذا وكذا لأسألك عنها ، فقال له : فإذا رجعت إلىٰ مكانك . . فأخبرهم أني قلت : لا أحسنها .

وقال حنبل بن إسحاق : سألت أبا عبد الله عن مالك ، فقال : مالك سيد من سادات أهل العلم ، وهو إمام في العلم والفقه ، ثم قال : ومَن مثل مالك ؟! متبع لآثار من تقدم مع أدب وعقل ، ومسانيده أشهر من أن تذكر ، وهو النجم الثاقب عند أهل النقل .

وقال ابن أبي أويس : اشتكىٰ مالك أياماً يسيرة ، فسألت بعض أهلنا عما قال عند الموت ؟ فقال : تشهَّدَ ، ثم قال : ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ ، وبلغني أنه قرأ هـٰذه الآية تفاؤلاً بما بعدها ، وهو قوله تعالىٰ : ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/١٠٣ـ١٠٥] .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال محمد[1] بن أحمد بن راشد : سمعت أبا داوود يقول : ضرب جعفر بن سليمان مالك بن أنس في طلاق المكره[2] .

وحكىٰ لي بعض أصحاب ابن وهب عن وهب : أن مالكاً لما ضُرِب . . حمل علىٰ بعير ، فقيل له : ناد علىٰ نفسك ، قال : فقال : ألا مَن عرفني . . فقد عرفني ، ومن لم يعرفني . . فأنا مالك بن أنس بن أبي عامر الأصبحي ، وأنا أقول : إن طلاق المُكْرَه ليس بشيء ، قال : فبلغ جعفر بن سليمان أنه ينادي علىٰ نفسه بذلك ، فقال : أدركوه ، أنزلوه .

وقال سهل[3] بن مزاحم المروزي ـ وكان من أصحاب ابن المبارك من العُبَّاد ـ قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام ، فقلت : يا رسول الله ؛ من نسأل بعدك ؟ قال : « مالك بن أنس » .

وقال أبو عبد الله مولى الليث : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد قاعداً والناس حوله ، ومالك قائم بين يديه صلى الله عليه وسلم ، وبين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم مسك ، وهو يأخذ منه قبضة قبضة ، فيدفعه إلىٰ مالك ، ومالك رحمه الله ينثرها على الناس ، قال مطرف : فأوَّلْتُ ذلك العلم واتباع السنة .

ومر مالك بن أنس علىٰ أبي حازم وهو يحدث ، فجازه ، فقيل له في ذلك ، فقال : إني لم أجد موضعاً أجلس فيه ، وكرهت أن آخذ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا قائم .

وقال معن بن عيسىٰ : كان مالك بن أنس رحمه الله يتقي في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الياء والتاء ونحوها[4] .

وقال أبو يونس المدني : أنشدني بعض أصحابنا المدنيين في مالك بن أنس رحمه الله :

يَـدَعُ الجـوابَ فـلا يُـراجَـعُ هيبـةً والسـائلـونَ نـواكـسُ الأذقـانِ

---

(١) في « الحلية » : (قال أبو بكر ابن محمد بن أحمد بن راشد) .

(٢) وكانت هـٰذه محنة الإمام مالك ـ رحمه الله ـ وسببها الحسد ؛ لشهرته بين الناس بعلمه ورأيه ، فسعىٰ به الحاسدون إلىٰ والي المدينة ـ جعفر بن سليمان ـ ونقلوا إليه أنه لا يرىٰ أيمان بيعتكم بشيء ، فهو يقول بعدم وقوع طلاق المُكْرَه والمضطهد ، فغضب جعفر ، ودعا مالكاً ، واحتج عليه بما رُفع إليه ، فأمر بتجريده ، وضربه بالسياط ، قال راوي الخبر : فوالله ؛ ما زال مالك بعدُ في رِفعة وعلو . انظر « السير » (٨/ ٨٠) .

(٣) في « الحلية » : إسماعيل بن مزاحم المروزي .

(٤) **الياء والتاء** : أي مثل : يعملون ، وتعملون .

أدب الـوقـار وعـز سلطـان التقـىٰ فهـو المطـاع وليـس ذا سلطـان[1]

وقال شعبة : أتيت المدينة بعد موت نافع بسَنة ، فإذا الحلقة لمالك بن أنس .

وقال قتيبة بن سعيد : قدمت المدينة ومالك حي ، فتقدمت إلىٰ فامي[2] ، فقلت له : عندكم خَلٌّ خمرٍ ؟ فقال : يا سبحان الله! في حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟! قال : ثم قدمت المدينة مرة ثانية بعد موت مالك بن أنس ، فذكرت لهم ذلك ، فلم ينكروا عليَّ .

وقال خالد بن خداش : ودعت مالك بن أنس ، فقلت له : يا أبا عبد الله ؛ أوصني ، قال : تقوى الله ، وطلب الحديث من عند أهله .

وقال ابن مهدي : عن رجل ، عن مالك بن أنس ، قال مالك : بلغني أن العلماء يُسألون يوم القيامة عما يُسأل عنه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

وسئل مالك بن أنس رحمه الله عن الرجل يدعو فيقول : يا سيدي ، فقال : يعجبني أن يدعو بدعاء الأنبياء : ربنا ، ربنا .

وقال مصعب بن وهب : سمعت مالكاً يقول : قال عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام : تأتي أمة محمد صلى الله عليه وسلم علماءَ حكماء ، كأنهم من الفقه أنبياءُ ، قال مالك : أراهم صدر هـٰذه الأمة ، قال : وحق علىٰ من طلب العلم أن يكون له وقار وسكينة وخشية ، والعلم حَسَن لمن رُزق خيرَه ، وهو قَسْم من الله تعالىٰ ، فلا تمكِّن الناس من نفسك .

وقال : من سعادة المرء أن يوفَّق للخير ، وإن من سعادة المرء ألاَّ يخطىء[3] ، ولا ينبغي للعالم أن يتكلم بالعلم عند من لا يطيعه ؛ فإنه ذل وإهانة للعلم .

وقال مالك رحمه الله : بلغني أن لقمان قال لابنه : يا بني ؛ ليس غنىً كصحة ، ولا نعيم كطيب نفس ، يا بني ؛ إن الناس قد تطاول عليهم ما يوعدون ، وهُمْ إلى الآخرة سراع

---

(١) ذكر في « السير » (٨/ ١١٣) برواية أخرىٰ :

عـزُّ الـوقـارِ ونـورُ سلطـانِ التُّقـىٰ فهـو المهيـبُ وليـس ذا سلطـانِ

(٢) **الفامي** : البقال .

(٣) في « الحلية » : (وإن من شقوة المرء ألاَّ يزال يخطىء) ، وفي نسخة : (وإن من شقاوة المرء ألاَّ يخطىء) .

يذهبون ، وإنك قد استدبرت الدنيا منذ كنت وصرت إليها ، واستقبلت الآخرة ، وإن داراً تسير إليها . . أقربُ من دار تخرج منها .

وقال القعنبي : سمعت مالكاً رحمه الله يقول : كان الرجل يختلف إلى الرجل ثلاثين سنة يتعلم منه .

وقال عبد الله بن نافع : جالستُ مالكاً أربعين سنة أو خمساً وثلاثين سنة ، كل يوم أبكِّر وأهجِّر وأروح ، ما سمعته يقرأ علىٰ إنسان قط . [« الحلية » ٦/٣١٦ـ٣٢١] .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : روى ابن الأثير في « جامع الأصول » : عن الشافعي أنه يقول : رأيت علىٰ باب مالك كراعاً[1] من أفراس خراسان وبغال مضر ، ما رأيت أحسن منه ، فقلت له : ما أحسنه!! فقال : هو هدية مني إليك يا أبا عبد الله ، فقلت : دع لنفسك منها دابة تركبها ، فقال : أنا أستحي من الله عز وجل أن أطأ تربة فيها قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحافر دابة . انتهىٰ [١/ ١٨٤] .

وقال أرباب السير : وقع في زمان الإمام مالك واقعة غريبة ، وهي أن امرأة غسلت امرأة ، ثم ضربت بيدها علىٰ فرجها ، وقالت لها : قاتلك الله ما كان أزناك ، فلصقت يد الغاسلة علىٰ فرج الميتة ، وتحير الناس في خلاصها ، فسألوا مالكاً ، فقال : هـٰذه الغاسلة قذفت الميتة ، فخذوا منها حد القذف ، فأخذ منها حد القذف فخلصت يدها .

وكم مثل هـٰذه المناقب لهـٰذا الطود الأشم ، والبحر الزاخر الخِضَم .

قال أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : [قال عبد الله بن نافع] : وسمعت معن بن عيسىٰ يقول : ما من حديث أحدثُ به عن مالك . . إلا وقد سمعته منه نحواً أو أكثر من ثلاثين مرة .

وقال مالك : إذا لم يكن للإنسان في نفسه خير . . لم يكن للناس فيه خير .

وعن مطرِّف قال : قال لي مالك : ما يقول الناس فيَّ ؟ قال : قلت : أما الصديق فيثني ، وأما العدو فيقع ، فقال : ما زال الناس هـٰكذا لهم صديق وعدو ، ولـٰكن نعوذ بالله من تتابع الألسنة كلها .

وقال عبد الرحمـٰن بن القاسم : إنما أقتدي في دِيني برجلين : مالك بن أنس في علمه ، وسليمان بن القاسم في ورعه .

---

(١) **الكُراع** : اسم لجميع الخيل .

وقال القعنبي : أتينا سفيان بن عيينة ، فرأيته حزيناً ، فسألت عن ذلك ، فقيل : بلغه موت مالك ، ثم قال سفيان : ما تَرك على الأرض مثلَه .

وقال مالك : لو كان لي سلطان علىٰ من يفسر القرآن برأيه . . لضربت رأسه[1] .

وسئل أحمد ابن حنبل عن كتاب مالك ، فقال : ما أحسنه لمن تدبر به!

وقال الشافعي : إذا جاء الحديث عن مالك . . فاشدد يديك به .

وكان مالك ينتقي الرجال ، ولا يحدث عن كل أحد .

وكان يقول : لا يؤخذ العلم إلا عمن يعرف ما يقول .

وقال مطرف المديني : قال مالك : أَوَيُكتب عن مثل عطَّاف بن خالد ؟ لقد أدركت في هـٰذا المسجد سبعين شيخاً أو نحوه ، ما كتبت عنهم حديثاً ، إنما يُكتب الحديث عن أهله ، قوم جرىٰ فيهم الحديث ، مثل عبيدِ الله بن عمر ، وأشباهه .

وفي راوية : ما أخذت العلم . . إلا عن الثقات المأمونين .

وكان كثيراً ما يقول : لا أدري ؛ لشدة ورعه ، وتحفظه فيما يقول .

وقال عبد الرحمـٰن بن مهدي رحمه الله : رأيت رجلاً جاء إلىٰ مالك يسأله عن شيء أياماً ما يجيبه ، فقال : يا أبا عبد الله ؛ إني أريد الخروج ، قال : فأطرق طويلاً ثم رفع رأسه ، وقال : ما شاء الله يا هـٰذا ، إني إنما أتكلم فيما أحتسب فيه الخير ، وليس أُحسن مسألتك هـٰذه .

وقال سعيد بن سليمان : ما سمعت مالكاً يُفتي في شيء . . إلا تلا هـٰذه الآية : ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ .

وقيل له : يا أبا عبد الله ؛ يأتيك ناس من بلدان شتىٰ قد أَنَضُّوا مطاياهم[2] ، وأنفقوا نفقاتهم ، يسألونك عما جعل الله عز وجل لهم عندك من العلم ، تقول : لا أدري! فقال مالك : يأتيني الشامي من شامه ، والعراقي من عراقه ، والمصري من مصره ، فيسألوني عن الشيء لعلي أن يبدو لي فيه غير ما أجيب فيه ، فأُخبر الليث بن سعد بذلك ، فبكىٰ ، وقال : مالك أقوىٰ عليه من الليث ، واللهِ ؛ إن الليث أضعف .

---

(١) لعل هـٰذا الكلام يُحمل على التفسير بالرأي الذي لا دليل عليه ، والله أعلم .

(٢) **أَنَضُّوا مطاياهم** : أي أتعبوها في السَّير حتىٰ هزلت .

قال مالك : لو أن رجلاً ركب الكبائر كلها بعد ألاَّ يشرك بالله شيئاً ، ثم تخلىٰ من هـٰذه الأهواء والبدع . . لرجوت أن ينجو إن شاء الله تعالىٰ[1] .

وقال جعفر بن عبد الله : كنا عند مالك رحمه الله ، فجاءه رجل ، فقال : يا أبا عبد الله ؛ ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ كيف استوىٰ ؟ قال : فما وَجَدَ مالك من شيء ما وَجَدَ من مسألته ، فنظر إلى الأرض ، وجعل ينكت بعود في يده حتىٰ علاه الرُّحَضاء ـ يعني : العرَق ـ ثم رفع رأسه ، ورمىٰ بالعود ، وقال : الكيف منه غير معقول ، والاستواء منه غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وأظنك صاحبَ بدعة ، وأَمر به فأُخرج .

وقال محمد بن عبد العزيز بن أبي رزمة[2] : قال : سمعت وكيعاً يقول : سمعت مالكاً يقول : واعجباه ، يسأل جعفر وأبو جعفر عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما .

وعن عبد الله بن وهب قال : حدثني مالك بن أنس رحمه الله قال : بلغه أن راهباً كان بالشام ، فلما رأىٰ أوائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قدموا إلى الشام رضي الله عنهم منهم معاذ بن جبل ونظراؤه . . قال : والذي نفسي بيده ؛ ما بلغ حواريو عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام الذين صلبوا على الخشب ونشروا بالمناشير من الاجتهاد . . ما بلغ أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .

قال عبد الله بن وهب : فقلت لمالك : تسميهم لي ؟ فسمىٰ أبا عبيدة ، ومعاذاً ، وبلالاً ، وسعد بن عبادة ، رضي الله عنهم .

وقال مالك : قدم صالح بن عليٍّ الشام ، فسأل عن قبر عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، فلم يجد أحداً يخبره حتىٰ دُلَّ علىٰ راهب ، فأتىٰ إليه ، فسأله عنه ، فقال : أقبر الصدِّيق تريدون ؟ هو في تلك المزرعة .

وقال مالك رحمه الله : بلغني أن عيسىٰ عليه الصلاة والسلام كان يقول : لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله تعالىٰ . . فتقسو قلوبكم ؛ فإن القلب القاسي بعيد من الله عز وجل ، ولـٰكن لا تعلمون ، إنما الناس رجلان : مبتلىٰ ومعافىٰ ، فارحموا أهل البلاء ، واحمدوا الله تعالىٰ على العافية .

---

(١) وفي هـٰذا القول إشارة إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ .

(٢) في نسخة : (أبي زرعة) .

وقيل للقمان الحكيم : ما الذي بلغ بك ما نرى ؟ قال : صدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وتَرْكِيْ ما لا يعنيني .

وقال مالك : عن هشام ، عن عروة ، عن أبيه ، قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنهم : أيها الناس ؛ اليأس هو الغنىٰ ؛ فإنه من يئس من شيء . . فقد استغنىٰ عنه .

وكان نقش خاتم مالك بن أنس رحمه الله : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فقيل له في ذلك ، فقال : ﴿ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ۞ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴾ .

وقال الشافعي رحمه الله : قالت لي عمتي ونحن بمكة : رأيتُ في هـٰذه الليلة عجباً ، فقلت لها : وما هو ؟ قالت : رأيت كأن قائلاً يقول : مات الليلةَ أعلمُ أهل الأرض ، قال الشافعي : فحسَبْنا ذلك ؛ فإذا هو يومَ مات مالك بن أنس رحمه الله .

وقال مالك لفتىٰ من قريش : يا بن أخي ؛ تعلَّم الأدب قبل أن تتعلم العلم .

وقال نعيم بن حماد : سمعت ابن المبارك يقول : ما رأيت رجلاً ارتفع مثل مالك بن أنس ، ليس له كثير صلاة ولا صيام ، إلا أن يكون له سريرة .

وقال عبد الرحمـٰن بن مهدي : قلت لمالك يوماً ـ وأردت أن أرققه علىٰ نفسي في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ : يا أبا عبد الله ؛ قد غبت عن أهلي وما أدري ما حدث عليهم بعدي ، قال : فتبسم ، ثم قال : وأنا قد غبت عن أهلي هاهُمْ في الدار الأخرىٰ ، لا أدري ما حدث عليهم .

وقال : ليس شيء أشبه بثمار الجنة من الموز ؛ لأنك لا تطلبه في شتاء ولا صيف . . إلا وجدته ، وقال تعالىٰ : ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٞ ﴾ .

وقال مالك : لا يبلغ أحد ما يريد من العلم حتىٰ يُضِرَّ به الفقر ، ويؤثره علىٰ كل حاجة .

وقال أبو زرعة : سمعت أبا مسهر يقول : سأل هارونُ الرشيد مالكَ بن أنس : هل لك من دار ؟ فقال : لا ، فأعطاه ثلاثة آلاف دينار ، وقال : اشتر بها داراً ، ثم أراد الرشيد الرجوع إلىٰ بغداد ، فقال لمالك : تعال معنا ؛ فإني قد عزمت أن أحمل الناس علىٰ « الموطأ » ، فقال له مالك : ليس إلىٰ هـٰذا سبيل ؛ وذلك لأن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم تفرقوا بعده في الأمصار ، وحدثوا ، وعند كل أهل مِصر علم ، ولا سبيل إلى الخروج

معك ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون »[1] ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن المدينة تنفي خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد »[2] ، وهـٰذه دنانيركم ، إن شئتم . . فخذوها ، وإن شئتم . . فدعوا .

وقال أبو حاتم الرازي : سمعت أحمد بن سنان الواسطي يقول : سمعت عبد الرحمٰن بن مهدي يقول : سفيان الثوري إمام في الحديث وليس بإمام في السُّنَّة ، والأوزاعي إمام في السُّنَّة وليس بإمام في الحديث ، ومالك بن أنس إمام فيهما جميعاً .

وقال عبد الله بن عبد الحكم : سمعت مالكاً يقول : شاورني هارون الرشيد في ثلاثة : في أن يعلق « الموطأ » في الكعبة ويَحمِل الناسَ علىٰ ما فيه ، وفي أن ينقض منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ويجعله من جوهر وذهب وفضة ، وفي أن يقدم نافع ابن أبي نعيم إماماً يصلي بالناس في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ أما تعليق « الموطأ » في الكعبة . . فإن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلفوا في الفروع ، وتفرقوا في الآفاق ، وكل مجتهد مصيب ، وأما نقض منبر النبي صلى الله عليه وسلم واتخاذك إياه من جوهر وذهب وفضة . . فإني لا أرىٰ أن يُحْرَم الناس أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأما تقديمك نافعاً . . فإن نافعاً إمام في القراءة ، ولا يؤمَن أن يبدر منه بادرة في المحراب ، فتُحفَظَ عليه ، فقال : وفقك الله يا أبا عبد الله . انتهىٰ [« الحلية » ٦/ ٣٢١ـ٣٣٢] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : في حفظي : أن هارون الرشيد استفتىٰ مالكاً : أيما المصيب في بناء الكعبة : عبد الله بن الزبير ، أو الحجاج ؟ فقال : عبد الله بن الزبير ، فقال : أنا أبني البيت علىٰ ما كان عليه في زمن عبد الله بن الزبير ، فقال : لا أرىٰ ذلك ؛ لئلا يصير بيت الله عز وجل عرضة للخراب ، فتركه ، والله أعلم . انتهىٰ .

وقال أبو القاسم القشيري : لما توفي الإمام مالك رحمه الله تعالىٰ . . رآه بعض أصحابه في المنام ، فقال له : ما فعل الله عز وجل بك ؟ فقال : غفر لي بكلمة كان يقولها عثمان بن عفان رضي الله عنه عند رؤية الجنازة : سبحان الحي الذي لا يموت .

وعن بكر بن سليم الصواف قال : دخلنا علىٰ مالك بن أنس في العشية التي قبض فيها ،

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (١٧٧٦) ، ومسلم (١٣٨١) .

(٢) أخرجه بنحوه البخاري (١٧٨٤) ، ومسلم (١٣٨٣) .

فقلنا : يا أبا عبد الله ؛ كيف تجدك ؟ فقال : ما أدري ما أقول لكم ، إلا أنكم ستُعاينون من لطف الله عز وجل ما لم يكن لكم في حساب ، ثم ما برحنا حتىٰ أغمضناه ، رحمه الله تعالىٰ . [انتهىٰ « الرسالة » ٣٠٨] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو حنيفة
رضي الله عنه

قال شيخ الإسلام النووي ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ : هو الإمام البارع ، أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطىٰ ، بضم الزاي وفتح الطاء .

قال الشيخ أبو إسحاق في « الطبقات » : هو النعمان بن ثابت بن زوطى بن ماه ، مولىٰ تيم الله بن ثعلبة .

ولد سنة ثمانين من الهجرة ، وتوفي ببغداد سنة خمسين ومئة ، وهو ابن سبعين سنة .

أخذ الفقه عن حماد ابن أبي سليمان ، قال : وكان في زمنه أربعة من الصحابة : أنس بن مالك ، وعبد الله ابن أبي أوفىٰ ، وسهل بن سعد ، وأبو الطفيل رضي الله عنهم ، ولم يأخذ عن أحد منهم : [انتهىٰ « التهذيب » ٢/٢١٦ـ٢١٨] .

قال الخطيب البغدادي في « التاريخ » : هو أبو حنيفة التيمي ، إمام أصحاب الرأي ، وفقيه أهل العراق .

رأىٰ أنس بن مالك ، وسمع : عطاء ابن أبي رباح ، وأبا إسحاق السبيعي ، ومحارب بن دثار ، والهيثم بن حبيب الصواف ، وقيس بن مسلم ، ومحمد بن المنكدر ، ونافعاً مولى ابن عمر ، وهشام بن عروة ، ويزيد الفقير ، وسماك بن حرب ، وعلقمة بن مرثد ، وعطية العوفي ، وعبد العزيز بن رفيع ، وعبد الكريم أبا أمية ، وغيرهم .

وروىٰ عنه : أبو يحيى الحِمَّانيُّ ، وهشيم بن بشير ، وعباد بن العوام ، وعبد الله بن المبارك ، ووكيع بن الجراح ، ويزيد بن هارون ، وعلي بن عاصم ، ويحيى بن نصر ، وأبو يوسف القاضي ، ومحمد بن الحسن ، وعمرو بن محمد العَنْقَزي ، وهوذة بن خليفة ، وأبو عبد الرحمٰن المقرىء ، وعبد الرزاق بن همام ، وآخرون .

قال الخطيب : هو من أهل الكوفة ، نقله أبو جعفر المنصور إلىٰ بغداد ، فأقام بها حتىٰ

مات ، ودفن بالجانب الشرقي منها في مقبرة الخيزران ، وقبره هناك ظاهر معروف .

ثم روى الخطيب البغدادي رحمه الله بإسناده عن أحمد بن عبد الله بن صالح العجلي الإمام الحافظ رحمه الله قال : كان أبو حنيفة رحمه الله خزازاً يبيع الخز .

وعن إسماعيل بن حماد ابن أبي حنيفة قال : لما ولد ثابت والد جدي أبي حنيفة . . ذهب به أبوه إلىٰ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو صغير ، فدعا له بالبركة ولذريته ، ونحن نرجو من الله تعالىٰ أن يكون الله عز وجل قد استجاب ذلك من علي بن أبي طالب فينا .

وبإسناده عن عبد الله بن عمرو الرَّقِّي قال : كلم ابن هبيرة أبا حنيفة أن يلي قضاء الكوفة ، فأبىٰ عليه ، فضربه مئة سوط وعشرة أسواط ، في كل يوم عشرة أسواط ، وهو على الامتناع ، فلما رأىٰ ذلك . . خلىٰ سبيله .

وكان زيد بن عمر بن هبيرة عاملاً على العراقين : البصرة والكوفة في أيام مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية .

وعن أبي بكر بن عياش رحمه الله قال : ضُرِب أبو حنيفة رحمه الله على القضاء .

وعن الربيع بن عاصم قال : أرسلني يزيد بن عمر بن هبيرة ، فقدمت بأبي حنيفة ، فأراده علىٰ بيت المال . . فأبىٰ ، فضربه أسواطاً .

وعن يحيى بن عبد الحميد ، عن أبيه قال : كان أبو حنيفة رحمه الله كل يوم أو يومين من الأيام يُضرَب ليدخل في القضاء ويأبىٰ ، ولقد بكىٰ في بعض الأيام ، فلما أطلق . . **قال : كان غم والدتي أشد علي من الضرب** .

وعن إسماعيل بن سالم البغدادي قال : أُكره أبو حنيفة رحمه الله على الدخول في القضاء . . فلم يقبل .

وكان أحمد ابن حنبل رحمه الله إذا ذكر ذلك . . بكىٰ وترحم عليه .

وبإسناده عن بشر بن الوليد الكندي قال : أشخص[1] المنصور أبو جعفر أمير المؤمنين أبا حنيفة ؛ يعني : من الكوفة إلىٰ بغداد ، فأراده علىٰ أن يوليه القضاء فأبىٰ ، فحلف عليه ليفعلن ، فحلف أبو حنيفة رحمه الله ألاَّ يفعل ، فحلف المنصور ليفعلن ، فحلف أبو حنيفة

---

(١) **أشخص** : سار به من بلدٍ إلىٰ بلدٍ .

ألاَّ يفعل ، فقال الربيع الحاجب : ألا ترىٰ أمير المؤمنين يحلف ؟ فقال أبو حنيفة رحمه الله : أمير المؤمنين علىٰ كفارته أقدَرُ مني علىٰ كفارة أيماني ، فأمر به إلى الحبس في الوقت ، والصحيح : أنه توفي وهو في السجن .

وبإسناده عن مغيث قال : قال خارجة بن يزيد : دعا أبو جعفر أبا حنيفة إلى القضاء ، فأبىٰ عليه ، فحبسه ، ثم دعا به ، فقال : أترغب عما نحن فيه ؟ فقال : أصلح الله أمير المؤمنين ، لا أصلُحُ للقضاء ، فقال له : كذبت ، ثم عرض عليه الثانية ، فقال أبو حنيفة : قد حكم علي أمير المؤمنين أني لا أصلح للقضاء ؛ لأنه نسبني إلى الكذب ، فإن كنت كاذباً . . فلا أصلح ، وإن كنت صادقاً . . فقد أخبرت أمير المؤمنين بأني لا أصلح ، فرده إلى الحبس .

وبإسناده عن الربيع بن يونس قال : رأيت أمير المؤمنين المنصور ينازل أبا حنيفة في أمر القضاء وهو يقول له : اتق الله ولا تترك في أمانتك إلا من يخاف الله ، والله ؛ ما أنا مأمون الرضىٰ ، فكيف أكون مأمون الغضب ؟ فلا أصلح لذلك ، فقال له : كذبت ، أنت تصلح ، فقال : قد حكمت علىٰ نفسك ، كيف يحل لك أن تولي قاضياً علىٰ أمانتك وهو كذاب ؟!

وقيل : إنه قعد في القضاء يومين وبعض الثالث ، فلما كان بعد يومين . . اشتكىٰ ، فمرض ستة أيام ، ثم توفي رحمه الله .

زاد في رواية صاحب « المختصر » : قال له أبو حنيفة : ولو اتجه الحكم عليك ثم تهددني أن تغرقني في الفرات أو تلي الحكم . . لاخترت أن أغرق ، ولك حاشية يحتاجون إلىٰ من يكرمهم لك ولا أصلح لذلك . انتهىٰ [« تاريخ بغداد » ١٣/ ٣٢٣ـ٣٢٩] .

وقال النووي ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ : قال أبو نعيم : كان أبو حنيفة حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح ، حسن المجلس ، كثير الكرم ، حسن المواساة لإخوانه .

وقال أبو يوسف : كان أبو حنيفة ربعة من الرجال ، ليس بالقصير ، ولا بالطويل ، وكان أحسن الناس منطقاً ، وأحلاه نغمة ، وأنبهه علىٰ ما يريد .

وقال محمد بن جعفر بن إسحاق بن عمر بن حماد ابن أبي حنيفة : كان أبو حنيفة طَوالاً ، تعلوه سمرة ، وكان لبَّاساً ، حسن الهيئة ، كثير التعطر ، يعرف بريح الطيب إذا أقبل وإذا خرج من منزله .

وقال أبو حنيفة رحمه الله : قدمت البصرة وظننت أني لا أُسأل عن شي. . إلا أَجبت فيه ، فسألوني عن أشياء لم يكن عندي فيها جواب ، فجعلت علىٰ نفسي ألاَّ أفارق حماداً حتىٰ يموت ، فصحبته ثماني عشرة سنة .

وقال أبو حنيفة : ما صليت صلاة منذ مات حماد. . إلا استغفرت له مع والديَّ ، وإني لأستغفر لمن تعلمت منه علماً أو علمته علماً .

وقال أبو حنيفة : دخلت علىٰ أبي جعفر أمير المؤمنين ، فقال لي : يا أبا حنيفة ؛ عمن أخذت العلم ؟ فقلت : عن حماد ؛ يعني : ابن أبي سليمان ، عن إبراهيم النخعي ، عن عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم ، فقال أبو جعفر : بخ بخ! استوفيت يا أبا حنيفة . انتهىٰ [« التهذيب » ٢/٢١٨ـ٢١٩] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ في كتاب « عقلاء المجانين » : دعا المنصور أبا حنيفة والثوري ومسعراً وشريكاً ليولِّيَهم القضاء ، فقال أبو حنيفة : أنا أخمن فيكم تخميناً ، أما أنا. . فأحتال وأتخلص ، وأما مسعر. . فيتحامق فيتخلص ، وأما سفيان. . فيهرب ، وأما شريك. . فيقع ، فلما أُدخلوا عليه. . قال أبو حنيفة : أنا رجل مولىٰ ولست من العرب ، ولا تكاد العرب ترضىٰ بأن يكون عليهم مولىٰ ، ومع ذلك فإني لا أصلح لهـٰذا ، فإن كنت صادقاً في قولي. . فلست أصلح لهـٰذا ، وإن كنت كاذباً. . فلا يجوز لك أن تولي كاذباً دماء المسلمين وفروجهم ، وأما سفيان : فأدركه الشخص في طريق ، فذهب لحاجته وانصرف ، والشخص ينتظر فراغه ، فبصر سفيان بسفينة ، فقال للملاح : إن مكنتني من سفينتك وإلا أذبح ، تأول قول النبي صلى الله عليه وسلم : « من ولي القضاء. . ذبح بغير سكين »[1] ، فأخفاه الملاح تحت الساري ، وأما مسعر : فدخل على المنصور ، فقال : هات يدك ، كيف أنت ؟ وكيف أولادك ودوابك ؟ فقال : أخرجوه ؛ فإنه مجنون ، وأما شريك : فقال له المنصور : تقلد القضاء ، فقال : أنا رجل خفيف الدماغ ، فقال : تقلد القضاء وعليك بالعصيد والأطعمة الدسمة حتىٰ يرجح عقلك ، فتقلد ، فهجره الثوري ، وقال : أمكنك الهرب ، فلم تهرب . انتهىٰ [٣٧ـ٣٨] .

وقال النووي ـ قدس الله روحه ، ونوَّر ضريحه ـ : ودخل أبو حنيفة يوماً على المنصور ، فقال المنصور : هـٰذا عالم الدنيا اليوم .

---

(١) أخرجه أبو داوود (٣٥٧١) ، والترمذي (١٣٢٥) .

وعن هشام بن مهران قال : رأىٰ أبو حنيفة في النوم كأنه نبش قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فبعث من يسأل له محمد بن سيرين ، فقال محمد بن سيرين : مَن صاحب هـٰذه الرؤيا ؟ ولم يجبه عنها ، ثم سأله الثانية ، فقال مثل ذلك ، ثم سأله الثالثة ، فقال : صاحب هـٰذه الرؤيا يثور علماً لم يسبقه إليه أحد قبله .

وعن ابن عيينة قال : ما مَقَلَت عيناي مثل أبي حنيفة .

وعن ابن المبارك قال : كان أبو حنيفة آية في الخير ؛ فإنه يقال : آية في الخير وغاية في الشر ، ثم تلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً ﴾ .

وعن ابن المبارك قال : ما كان أوقرَ من مجلس أبي حنيفة رحمه الله تعالىٰ .

وعن سهل بن مزاحم قال : بُذِلت الدنيا لأبي حنيفة ، فلم يُرِدْها ، وضُرِب عليها بالسياط ، فلم يقبلها .

وعن روح بن عبادة قال : كنت عند ابن جريج سنة خمسين ومئة ، فأتاه موت أبي حنيفة ، فاسترجع وتوجع ، وقال : أيُّ علم ذهب ؟!

وعن مسعر بن كِدَام قال : ما أحسد أحداً بالكوفة إلا رجلين : أبا حنيفة في فقهه ، والحسن بن صالح في زهده .

وعن الفضيل بن عياض قال : كان أبو حنيفة فقيهاً ، معروفاً بالفقه ، مشهوراً بالورع ، واسع المال ، معروفاً بالإفضال علىٰ من يطيف به ، صبوراً علىٰ تعليم العلم بالليل والنهار ، كثير الصمت ، قليل الكلام ، حتىٰ تَرِدَ مسألة في حلال أو حرام ، وكان يحسن أن يدل على الحق ، هارباً من السلطان .

وعن أبي يوسف قال : إني لأدعو لأبي حنيفة قبل أبوَيَّ ، ولقد سمعت أبا حنيفة يقول : إني لأدعو لحماد مع والدي .

وعن أبي بكر ابن عياش قال : مات أخو سفيان الثوري ، فاجتمع الناس إليه لعزائه ، فجاء أبو حنيفة ، فقام إليه سفيان ، وأكرمه ، وأقعده مكانه وقعد بين يديه ، فلما تفرق الناس . . قال أصحاب سفيان : رأيناك فعلت شيئاً عجباً ، قال : هـٰذا رجل من العلم بمكان ؛ فإن لم أقم لعلمه . . قمت لسنه ، وإن لم أقم لسنه . . قمت لفقهه ، وإن لم أقم لفقهه . . قمت لورعه .

وعن ابن المبارك قال : ما رأيت في الفقه مثل أبي حنيفة .

وقال ابن المبارك أيضاً : قد رأيت مسعراً في حلقة أبي حنيفة جالساً بين يديه يسأله ويستفيد منه ، وما رأيت أحداً قط تكلم في الفقه أحسن من أبي حنيفة .

وعن أبي نعيم قال : كان أبو حنيفة صاحب غوص في المسائل .

وعن وكيع قال : ما لقيت أفقه من أبي حنيفة ، ولا أحسن صلاة منه .

وعن النضر بن شميل قال : كان الناس نياماً عن الفقه حتىٰ أيقظهم أبو حنيفة بما فَتَقَهُ وبيَّنه ولخصه .

وعن الشافعي قال : الناس عيال علىٰ أبي حنيفة في الفقه .

وعن جعفر بن الربيع قال : أقمت علىٰ أبي حنيفة خمس سنين ، فما رأيت أطول صمتاً منه ، فإذا سئل عن الشيء من الفقه . . تفتَّح وسال كالوادي .

وعن إبراهيم بن عكرمة قال : ما رأيت أورع ولا أفقه من أبي حنيفة .

وعن سفيان بن عيينة قال : ما قدم مكة في وقتنا رجل أكثرُ صلاة من أبي حنيفة .

وعن يحيى بن أيوب الزاهد قال : كان أبو حنيفة لا ينام الليل .

وعن أبي عاصم النبيل قال : كان أبو حنيفة يسمى الوَتِد ؛ لكثرة صلاته .

وعن زافر بن سليمان قال : كان أبو حنيفة يحيي الليل بركعة يقرأ فيها القرآن .

وعن أسد بن عمرو قال : صلىٰ أبو حنيفة صلاة الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة ، وكان عامة الليل يقرأ القرآن في ركعة ، وكان يُسمَعُ بكاؤه حتىٰ ترحمه جيرانه ، وحُفِظ عليه أنه ختم القرآن في الموضع الذي توفي فيه سبعة آلاف مرة .

وعن الحسن بن عمارة : أنه غسَّل أبا حنيفة حين توفي ، وقال : غفر الله لك ، لم تفطر منذ ثلاثين سنة ، ولم تتوسد يمينك بالليل منذ أربعين سنةً ، وقد أتعبت مَن بعدك .

وعن ابن المبارك : أن أبا حنيفة صلىٰ خمساً وأربعين سنة الصلوات الخمس بوضوء واحد ، وكان يجمع القرآن في ركعتين .

وعن أبي يوسف قال : بينما أنا أمشي مع أبي حنيفة ؛ إذ سمع رجلاً يقول لرجل : هـٰذا أبو حنيفة لا ينام الليل ، فقال أبو حنيفة : والله ؛ لا يتحدث عني بما لا أفعله ، فكان يحيي الليل صلاة ودعاء وتضرعاً .

وعن مسعر بن كدام قال : دخلت ليلةً المسجدَ ، فرأيت رجلاً يصلي ، فاستحليت

قراءته ، فقرأ سُبْعاً ، فقلت : يركع ، ثم قرأ الثلث ، ثم النصف ، فلم يزل يقرأ القرآن حتىٰ ختمه كله في ركعة ، فنظرت ؛ فإذا هو أبو حنيفة .

وعن زائدة قال : صليت مع أبي حنيفة في مسجده العشاء وخرج الناس ولم يعلم أني في المسجد ، فأردت أن أسأله مسألة ، فقام ، فافتتح الصلاة ، قرأ حتىٰ بلغ هـٰذه الآية : ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ ، فلم يزل يرددها حتىٰ أذن المؤذن للصبح وأنا أنتظره .

وعن القاسم بن معن : أن أبا حنيفة قام ليلة بهـٰذه الآية : ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ ، يرددها ويبكي ويتضرع .

وعن مكي بن إبراهيم قال : جالست الكوفيين ، فما رأيت فيهم أورع من أبي حنيفة .

وعن وكيع قال : كان أبو حنيفة قد جعل علىٰ نفسه ألاَّ يحلف بالله تعالىٰ في عرض كلامه . . إلا تصدق بدرهم ، فحلف ، فتصدق به ، ثم جعل علىٰ نفسه إن حلف . . أن يتصدق ديناراً ، فكان إذا حلف صادقاً في عرض كلامه ، تصدق بدينار ، وكان إذا أنفق علىٰ عياله نفقة . . تصدق بمثلها ، وكان إذا اكتسىٰ ثوباً جديداً . . كسا بقدر ثمنه للشيوخ من العلماء ، وكان إذا وُضع بين يديه الطعام . . أخذ منه ضعف ما يأكل ، فجعله على الخبز ، ثم يعطيه الفقير .

وعن وكيع أيضاً قال : كان أبو حنيفة عظيم الأمانة ، وكان يؤثر رضى الله تعالىٰ علىٰ كل شيء ، ولو أخذته السيوف في الله تعالىٰ . . لاحتملها .

وعن ابن المبارك قال : ما رأيت أورع من أبي حنيفة ، قد جرب السياط والأموال .

وعن قيس بن الربيع رحمه الله قال : كان أبو حنيفة رحمه الله ورعاً ، فقيهاً ، كثير البر والصدقة لكل من لجأ إليه ، كثير الإفضال علىٰ إخوانه ، وكان يبعث البضائع إلىٰ بغداد ، فيشتري بها الأمتعة وتجلب إلى الكوفة ، ويجمع الأرباح من سنة إلىٰ سنة ، ثم يشتري بها حوائج الأشياخ من المحدِّثين لإقواتهم وكسوتهم وما يحتاجون إليه ، ثم يعطيهم باقي الدنانير من الأرباح ، فيقول : أنفقوها في حوائجكم ، ولا تحمدوا إلا الله عز وجل ؛ فإني ما أعطيتكم من مالي شيئاً ، ولـٰكن من فضل الله تعالىٰ عليَّ فيكم ، وهـٰذه أرباح بضائعكم ؛ فإنه والله مما يجريهِ الله لكم علىٰ يدي .

وعن حفص بن حمزة القرشي قال : كان أبو حنيفة ربما مر به الرجل ، فيجلس إليه لغير

قصد ولا مجالسة ، فإذا قام . . سأل عنه ، فإن كان به حاجة . . وَصَلَهُ ، وإن مرض . . عاده حتىٰ يجره ذلك إلىٰ مواصلته ، وكان أكرم الناس مجالسة .

وعن أبي يوسف قال : **كان أبو حنيفة رحمه الله لا يكاد يُسأل حاجة . . إلا قضاها .**

وعن إسماعيل بن حماد : أن أبا حنيفة رحمه الله وهب لمُعلِّمِ ابنهِ حماد خمس مئة درهم حين حذِق حماد .

وعن جعفر بن عون قال : أتت امرأةٌ أبا حنيفة تشتري منه ثوب خز ، فأخرج لها ثوباً ، فقالت : أنا ضعيفة ، وإنها أمانة ، فبعني هـٰذا الثوب بما يقوم عليك ، فقال : خذيه بأربعة دراهم ، فقالت : لا تسخر بي وأنا عجوز كبيرة ، فقال لها : إني اشتريت ثوبين ، فبعت أحدهما برأس المال إلا أربعة دراهم ، فبقي هـٰذا بأربعة دراهم .

وعن ابن المبارك قال : قلت لسفيان الثوري : ما أبعد أبا حنيفة من الغِيبة ، ما سمعته يغتاب عدواً له قط ، فقال : هو والله أعقل من أن يسلِّط علىٰ حسناته ما يَذْهَب بها .

وعن علي بن عاصم قال : لو وزن عقل أبي حنيفة بعقل نصف أهل الأرض . . لرجح بهم .

وعن عبد الواحد بن غياث قال : كان أبو العباس الطوسي يسيء الرأي في أبي حنيفة ، وكان أبو حنيفة يعرف ذلك ، فدخل أبو حنيفة علىٰ أمير المؤمنين المنصور حين كان مجلسه حافلاً ، فقال الطوسي : اليوم أقتل أبا حنيفة ، فقال لأبي حنيفة بحضرة الناس : إن أمير المؤمنين يأمر بضرب عنق الرجل ما ندري ما هو ، فهل لنا قتله ؟ فقال أبو حنيفة : يا أبا العباس ؛ إن أمير المؤمنين يأمر بالحق أو بالباطل ؟ قال : بالحق ، قال : فاتبع الحق حيث كان ولا تسأل عنه ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم . انتهىٰ [« التهذيب » ٢/٢١٩ـ٢٢٢] .

قال في « مختصر كتاب الإيمان » : قال أبو يوسف : دعا أبو جعفر المنصور أبا حنيفة ، فقال الربيع حاجب المنصور ـ وكان يعادي أبا حنيفة ـ : يا أمير المؤمنين ؛ هـٰذا أبو حنيفة يخالف جدك عبد الله بن عباس ؛ لأنه كان يقول : إذا حلفت يميناً ثم استثنيت بعد ذلك بيوم أو يومين . . جاز الاستثناء ، وقال أبو حنيفة : لا يجوز الاستثناء إلا متصلاً باليمين ، فقال أبو حنيفة : يا أمير المؤمنين ؛ هـٰذا الربيع يزعم أنه ليس لك في رقاب جندك بيعة ، قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأنهم يحلفون عندك ، ثم يرجعون إلىٰ منازلهم فيستثنون ، فتحل أيمانهم ، فضحك المنصور وقال : ألم أقل لك ـ يا ربيع ـ لا تتعرض لأبي حنيفة ؟!

وقال الشافعي لمالك رحمهما الله : رأيتَ أبا حنيفة ؟ قال : نعم ، رأيتُ رجلاً لو كلمته في هـٰذه السارية أن يجعلها ذهباً . . لقام بحجته .

وقال يحيى بن معين : القراءة قراءة حمزة ، والفقه فقه أبي حنيفة ، علىٰ هـٰذا أدركت الناس .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : وقفت علىٰ تأليف في مناقب الإمام أبي حنيفة رحمه الله ، تأليف أبي القاسم عبد الله بن محمد بن يحيى بن الحارث السعدي[1] ، المعروف بابن أبي العوام ، قاضي مصر رحمه الله تعالىٰ ، فأحببت أن أذكر أحسن ما فيه إن شاء الله تعالىٰ .

قال المؤلف رحمه الله تعالىٰ : سمعت أبا جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة الأزدي يقول : سمعت أبا حازم عبد الحميد بن عبد العزيز القاضي يقول : سألت ابن إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة ، فقلت : لمن ولاؤكم ؟ فقال : سُبِيَ ثابت أبو أبي حنيفة من كابل شاه ، فاشترته امرأة من بني تيم الله بن ثعلبة ، فمنت عليه بالعتق ، فولاؤنا لها .

وعن خارجة بن مصعب قال : خرجت إلى الحج وخلفت جارية لي عند أبي حنيفة ، فمكثت أربعة أشهر ، ثم رجعت إلى الكوفة ، فقلت لأبي حنيفة : كيف وجدت الجارية في خدمتها ؟ فقال : سبحان الله! أتوهمت أني أستحل خدمتها ؟ والله ؛ ما رأيتها ولا أخَذَتْها عيني منذ خرجت إلىٰ أن رجعت ، قال خارجة : واستخبرت الجارية عنه وعن أخلاقه في منزله ، فقالت : والله ؛ ما رأيت في الدنيا ولا سمعت بمثله ، والله ؛ لقد رصدته ، فما اطلعت علىٰ أنه اغتسل من جنابة طول ما كنت في منزله ، ولقد قالت لي حرته ـ أي : زوجه ـ : إنه لا يستحل أن يقرب النساء من أجلِكِ خشية أن تميلي إلىٰ مثل ذلك من الرجال .

وقال محمد بن جابر : كان أبو حنيفة قليل الكلام إلا عما يُسأل عنه ، قليل الضحك ، كثير الفكر ، دائم القطوب ، كأنه حديث عهد بمصيبة ، وكان يتفقد أحوال إخوانه في منازلهم ، فكان يقرض الرجل الخمسين ديناراً أو الأقل والأكثر علىٰ قدر مؤونته ، وهو لا يعلم ، فيشتري له بها الخز الخام ، ويقصره ، ويجعلها كالبضاعة ، فيديرها ، ثم يشتري له بها الكسوة ولعياله ، ثم يقول : أي أخي ؛ هـٰذا ربحك ، فاحمد الله سبحانه وتعالىٰ ؛

---

(١) في نسخة : (البغدادي) .

فإني لم أعطك من مالي شيئاً ، وإنما هو رزق مولاك سبحانه وتعالىٰ علىٰ يدي ، فاحمده جل جلاله وتباركت أسماؤه ولا إلـه غيره .

وأودع دهقانٌ أبا حنيفة مئة ألف درهمَ وسبعين ألف درهم ومات من غير وصية ، ولا أَعلَمَ بها أحداً من أهله ، وترك صبية صغاراً ، فلما كبروا وآنس منهم الرشد . . دفع إليهم المال ، ولم يُشهِد عليهم ، وقال : لا أحب أن يعلم بهـٰذا أحد .

وقال المثنى بن رجاء : عن أم حميد حاضنة ولد أبي حنيفة قالت : قالت لي أم ولد أبي حنيفة : ما توسد أبو حنيفة فراشاً بليل منذ عرفته ، وإنما كان نومه بين الظهر والعصر في الصيف ، وفي الشتاء في مسجده أول الليل .

وقال علي بن الحسن المؤذن : رأيت أبا حنيفة من وراء باب المسجد بعد عشاء الآخرة قد قام وأخذ بلحيته ، وهو يقول : يا من يجزي بمثقال ذرة خيرٍ خيراً ، ويا من يجزي بمثقال ذرة شرٍّ شراً ؛ تغمد النعمان بعفوك ، واجعل زلله في سعة رحمتك يا أرحم الراحمين ، قال : فلم يزل يرددها حتىٰ طلع الفجر وهو علىٰ تلك الحالة يبكي .

وقال حسين : أخبرني من شهده في مسجده وهو يردد هـٰذه الآية : ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ وهو يبكي ، ويقول : اللهم ؛ مُنَّ علينا وقنا عذاب السموم يا رحمـٰن يا رحيم .

وكان لو قيل له : إنك تموت إلىٰ خمسة أيام . . لم يكن عنده ما يزيد في عمله ، وما سمعت سفيان الثوري ذكره . . إلا وترحم عليه .

وقال رجل لأبي حنيفة رحمه الله : اتق الله ، فانتفض أبو حنيفة انتفاض رجل كأنه قد صرع ، واصفر لونه ، وطأطأ رأسه ، وقال : يا أخي ؛ نعم ، جزاك الله خيراً ، فهـٰكذا قل لي ، ما أحوج الناس إلىٰ من يقول لهم في كل وقت مثل هـٰذا .

وفتح غلام لأبي حنيفة يوماً رزمة الخز ، فإذا الأحمر والأصفر والأخضر ، فقال الغلام : نسأل الله تعالى الجنة ، فبكىٰ أبو حنيفة حتى اختلج صدغاه ، وأمر بغلق الدكان ، وقام مغطى الرأس مسرعاً في مشيه ، فلما كان الغد . . جلست إليه وقد اصفر ، فأطرق طويلاً وكان قليل الكلام ، ثم التفت إلي ، وقال : يابن أخي ؛ ما أجرأنا! يقول أحدنا : نسأل الله تعالى الجنة ، إنما يسأل الله تعالى الجنة مَن رضي نفسه ؛ يعني : لها ، إنما يريد مثلنا أن يسأل الله تعالى العفو .

وكان إذا سئل عن مسألة . . يقول : ربِّ ؛ سلِّم ، ربِّ ؛ سلِّم .

وكان يقول : لولا الفَرَق من الله عز وجل . . ما أفتيت ، وأخْوَف ما أخاف من الفتوىٰ .

وكان كثيراً ما يتمثل بهـٰذا البيت :

كفـىٰ حَـزَنـاً أن لا حيـاةَ هنيئـةٌ ولا عمـلٌ يـرضـىٰ بـه الله صـالـحُ

ونال منه رجل وسَفُه عليه ، فقال له أبو حنيفة رحمه الله : غفر الله لك ، هو سبحانه وتعالىٰ يعلم مني خلاف ما تقول ، والله ما عبدتُ غيره ، ولا رجوت قط سواه .

وفي رواية : ولا رجوت قط إلا عفوه ، ولا خشيت قط إلا عقابه ، ثم بكىٰ عند ذكر العقاب حتى اختلج صدغاه وتحرك منكباه ، فقام إليه ذلك الرجل ، فقال : اجعلني في حل رحمك الله ، فقال : نعم ، أنت في حل وسعة ، وكل من نسبني إلىٰ ما تقول ، يا أخي ؛ ما أضر الشهرة ، يا أخي ؛ ما أضر الشهرة .

وأخذ ابن هبيرة أبا حنيفة ، فأراده علىٰ ولاية القضاء ، فأبىٰ ، فحبسه ، فقيل لأبي حنيفة : إنه قد حلف ألاَّ يخرجك حتىٰ تلي له ، وإنه يريد بناء ، فتول له عدد اللَّبِن ، فقال : لو سألني أن أعد له أبواب المسجدَ . . لم أفعل .

ولقد ابتلي أبو حنيفة رحمه الله بالضرب علىٰ رأسه بالسياط لأجل القضاء ، فما أجاب ، واحتمل ذلك في الله عز وجل ، وصبر عليه ، وعُرضت عليه الدنيا والأموال العظيمة ، فنبذها ، وكان شديداً في دين الله عز وجل .

وقال أبو يوسف : اجتمعنا عند أبي حنيفة رحمه الله في يوم مطير في نفر من أصحابه ، منهم : داوود الطائي ، والقاسم بن معن المسعودي ، وعافية بن زيد الأودي ، وحفص بن غياث النخعي ، ووكيع بن الجراح ، ومالك بن مغول البجلي ، وزفر بن هذيل التميمي ، قال : فأقبل علينا بوجهه وقال لنا : أنتم مسار قلبي ، وجلاء حزني ، وقد أسرجت لكم الفقه ، وألجمت ، فإذا شئتم . . فاركبوا ، فقد تركت الناس يطَؤُون أعقابكم ، ويلتمسون ألفاظكم ، ما منكم من أحد . . إلا وهو يصلح للقضاء ، ومنكم عشرة يصلح أن يكونوا مؤدبي القضاة ، فسألتكم بالله تعالىٰ وبقدر ما وهب الله عز وجل لكم من جلالة العلم . . لَمَا صنتموه عن ذل الاستئجار ، وإن بُلي أحدكم بالدخول في القضاء ، فعلم من نفسه شيئاً يحب أن سترهُ لله تعالىٰ عليه من العباد . . لم يجز قضاؤه ، ولم يطب له رزقه ؛ فإنه لايحل له أخذ الرزق علىٰ ذلك ، وإن كانت سريرته مثل علانيته . . جاز قضاؤه ، وطاب له رزقه ، فإن

دفعته ضرورة إلى الدخول فيه . . فلا يجعلن بينه وبين الناس حجاباً ، وليصل الصلوات الخمس في مسجده ، وينادي عند كل صلاة : من له حاجة ؟ فإذا صلىٰ صلاة العشاء الآخرة . . نادىٰ ثلاثة أصوات : من له حاجة ؟ ثم يدخل إلىٰ منزله ، فإن مرض مرضاً لا يستطيع الجلوس[1] معه . . أسقط مِن رزقه بقدر مرضه ، وأيما إمام غل فيئاً أو جار في حكمه . . بطلت إمامته ولم يجز حكمه ، وإن أذنب ذنباً بينه وبين ربه عز وجل يستوجب به الحد . . درىء الحد عنه ؛ لأنه ولي إقامته ، وإن كان شيء بينه وبين الناس . . أقامه عليه أقرب القضاة إليه ، وإذا ارتشى القاضي . . فهو معزول وإن لم يعزل .

وقال أحمد بن علي بن الحسن بن شعيب المدائني : سمعت إسماعيل بن يحيى المزني يقول : سمعت الشافعي يقول : الناس عيال علىٰ أبي حنيفة في الفقه .

وعن معبد بن شداد قال : حدثنا عبد الله بن عمر قال : كنا عند الأعمش ، فسئِل الأعمش عن مسألة ، فقال لأبي حنيفة : أفته يا نعمان ، فأفتاه أبو حنيفة ، فقال له الأعمش : من أين قلت هـٰذا ؟ فقال : لحديث أنت حدثتناه ، ثم ذكر له الحديث ، فقال له الأعمش : أنتم الأطباء ونحن الصيادلة .

وعن عبد العزيز الدراوردي ابن أبي سلمة قال : رأيت أبا حنيفة ومالكاً بعد صلاة العشاء الآخرة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهما يتذاكران ويتدارسان ، حتىٰ إذا وقف أحدهما على القول الذي قال به . . أمسك الآخر من غير تعنيف ولا تخطئة حتىٰ يصليا الغداة في مجلسهما ذلك .

وقال عبد الواحد بن زياد : قدمت الكوفة فرأيت أبا حنيفة يناظر حماد ابن أبي سليمان ، وعلىٰ حماد طويلة[2] سوداء ، فجعل أبو حنيفة يحتج عليه حتىٰ تقطعت أزرار حماد ، وأخذ الطويلة ، فضرب بها الأرض ، وحماد ابن أبي سليمان أحد من روىٰ عن أبي حنيفة[3] .

وقيل لأبي حنيفة : أيما أفضل : علقمة ، أو الأسود ؟ فقال : والله ؛ ما نحن بأهل أن نذكرهم ، فكيف نفاضل بينهم ؟!

---

(١) أي : للقضاء .

(٢) **طويلة** : ثوب مفتوح من الأمام ، ويسمى الجبَّة .

(٣) كذا في النسخ ، ولعله وَهَم من النساخ ، والصحيح : أن حماد ابن أبي سليمان أحد من روىٰ عنه أبو حنيفة . انظر « سير أعلام النبلاء » (٥/ ٢٣١) .

وسئل أبو حنيفة عند مرجعه من الحج : كيف رأيت أهل المدينة ؟ قال : رأيت بها علماً مبثوثاً ، فإن يكن أحد يجمعه . . فالفتى الأبيض ؛ يعني : مالكاً .

وكان أبو حنيفة لا يرىٰ أن يروي من الحديث إلا ما حفظه عن الذي سمعه منه .

وقال أبو قَطَن عمرو بن الهيثم : قال لي أبو حنيفة : اقرأ علي ، وقل حدثني ، وقال لي مالك بن أنس مثل ذلك .

وقال إسحاق بن الحسن الكوفي : كنت قاعداً عند أبي حنيفة ، فأورد عليه رجل كتاباً بشفاعة ليحدثه ، فقال : ما هـٰكذا يُتعلم العلم ، ولا ينبغي للعالم أن يكون ذلك حظه منه .

وقال أبو عاصم : أخبرني ابن جريج وابن أبي ذئب والأوزاعي والثوري ومالك وأبو حنيفة أنهم كانوا : يقولون : لا بأس إذا قرأت على العالِم . . أن تقول أخبرنا .

وأتت امرأة إلىٰ أبي حنيفة رحمه الله بثوب ، فعرضته عليه في السوق ، فقال لها : بكم ؟ قالت : بمئة درهم ، فقال لها : هو خير من ذلك ، فقولي غير هـٰذا القول ، فقالت : مئتين ، فقال : هو خير من ذلك ، فقالت : بثلاث مئة ، قال : هو خير من ذلك ، فقالت : أربع مئة ، قال : هو خير من ذلكَ ، وأنا آخذه بأربع مئة درهم .

وجاءه رجل فقال له : أبا حنيفة ؛ أُرشِدت إليك تبيعني ثوبين أريدهما لأمي وزوجتي ، فأحسن بيعي ، فقال له : أي لون تريد ؟ قال : فوصفه له ، فقال له : أنظِرني جمعتين ، قال : نعم ، فذهب ، ثم جاء بعد ذلك ، فدفع إليه ثوبين وديناراً واحداً ، وقال : إني لم أخسر عليك ، إني جعلت لك بضاعة ، فرزقت من عند الله عز وجل ، فاحمده سبحانه وتعالىٰ ، فقلت له : هل كان بينكما معرفة قديمة ؟ فقال : لا ، ألم تسمع إلىٰ قول الرجل : أحسِن بيعي ؟ وقد حدثنا ابن السائب عن سعيد بن جبير قال : إذا قال الرجل للرجل : أحسن بيعي . . فقد ائتمنه ، فلم أكن أبقي من الإحسان شيئاً . . إلا أتيته ؛ لتسلم لي أمانتي .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : هـٰذا هو الفقه في الدين ، الذي يدخل تحت قوله صلى الله عليه وسلم : « من يرد الله به خيراً . . يفقهه في الدين »[1] .

وقال الحسن بن زياد : دخلت أنا وحماد ابن أبي حنيفة علىٰ داوود الطائي ، فأخرج من كمه صرة فيها أربع مئة درهم ، فقال : يا أبا سليمان ؛ خذ هـٰذه فانتفع بها ، فقد بلغني

---

(١) أخرجه البخاري (٧١) ، ومسلم (١٠٣٧) .

ما أنت فيه من الضيق ، وقد عرفت ما بيني وبينك من الصداقة ، فقال له داوود : ما لي إليها حاجة ، فقال له حماد : إنها من ميراثي عن أبي ، أبي حنيفة ، فقال له داوود : هـٰذه من ميراثك عن أبيك أبي حنيفة! وجعل يردد الكلام كالمتعجب من طيبها ، ثم قال : لو قبلت شيئاً . . لقبلتها ، وجعل ينظر إليها وإليه بالتعظيم ، ولم يقبل منها شيئاً ، رضي الله عنهم أجمعين .

وقال أبو حنيفة : دخلت أنا وعلقمة بن مرثد علىٰ عطاء ابن أبي رباح ، فقلنا له : يا أبا محمد ؛ إن ببلادنا قوماً يكرهون أن يقولوا نحن مؤمنون ، فقال عطاء : ولِمَ ذاك ؟ قال : لأنهم يقولون : إن قلنا : نحن مؤمنون . . قلنا : نحن من أهل الجنة ، فقال عطاء : فليقولوا : نحن مؤمنون ولا يقولوا : نحن من أهل الجنة ؛ فإنه ليس من ملك مقرب ولا نبي مرسل . . إلا ولله عز وجل عليه الحجة ، إن شاء . . عذبه ، وإن شاء . . غفر له ، ثم قال عطاء : يا علقمة ؛ إن أصحابك كانوا يُسمَّون أهل الجماعة ، حتىٰ كان نافع بن الأزرق ، فهو الذي سماهم المرجئة ، قال القاسم : قال أبي : وإنما سماهم المرجئة فيما بلغنا أنه كلم رجلاً من أهل السنة ، فقال له : وأين ينزل الكفار في الآخرة ؟ قال : النار ، قال : فأين ينزل المؤمنون ؟ قال : المؤمنون علىٰ ضربين : مؤمن برٌّ تقي . . ففي الجنة ، ومؤمن فاجر ردي . . فأمره إلى الله عز وجل ؛ إن شاء . . عذبه بذنوبه ، وإن شاء . . غفر له بإيمانه ، قال : فأين منزله ؟ قال : لا أنزله ، ولـٰكني أرجىءُ أمره إلى الله عز وجل ، قال : فأنت مرجىء .

وكان لأبي حنيفة جار سوء يكنىٰ أبا حماد ، طول ليله يغني ويقول :

أضاعوني وأي فتىً أضاعوا[1]

وكان أبو حنيفة يسمع حسه ، ففقده ذات ليلة ، فسأل عنه ، فقالوا : حبس ، فقال : ما علمت ، فلما أصبح . . أرسل إلى الوالي ، فخلصه ، ثم قال له : يا أبا حماد ؛ ما أضعناك ، ووهب له مئة درهم .

وقال أبو نعيم الفضل بن دكين : دخلت على الحسن بن صالح فرأيته يستعظم حديثاً من رجل ويضحك ، فقلت له : سبحان الله يا أبا محمد! تدفن أخاك علياً غدوة وتضحك آخر النهار ، فقال : إنه ليس علىٰ أخي من بأس ، قلت : وكيف ذاك ؟ فقال : دخلت عليه صدر

---

(١) صدر بيت ، وعجزه : ليوم كريهة وسداد ثغر .

نهاره ، فقلت له : يا أخي ؛ كيف تجدك ؟ قال : مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولـئك رفيقاً ، فتوهمت أنه قرأ آية من القرآن ، فتركته ساعة ، ثم قلت : يا أخي ؛ كيف تجدك ؟ قال : مع الذين أنعم الله عليهم . . . وأعاد الآية إلىٰ آخرها ، قال : فقلت له : يا أخي ؛ تقرأ القرآن ، أم ترىٰ شيئاً ؟ قال : أو ما ترىٰ ما أرى ؟ قلت : لا ، فما ترىٰ يا أخي ؟ قال ـ وقد رفع يده يشير بها ـ : هـٰذا نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم يضحك إلي ويبشرني بالجنة ، وهـٰؤلاء الملائكة عليهم السلام معه كذلك ، بأيديهم حلل السندس والاستبرق وأطباق الطيب ، وهـٰؤلاء الحور العين متحليات متزينات ينتظرن متىٰ أصير إليهن . فقال هـٰذا وقضىٰ إلىٰ رحمة الله تعالىٰ ، فلماذا أحزن عليه وقد صار إلىٰ هـٰذا النعيم ؟!

قال القاسم : فحدثني أبي قال : حدثني أبو نعيم قال : فلما كان بعد أيام . . صرت إلى الحسن بن صالح ، فقال لي حين رآني : يا أبا نعيم ؛ أعلمت أني البارحة رأيت أخي في المنام كأنه قد صار إلي وعليه ثياب خضر ؟ فقلت له : يا أخي ؛ أليس قد مِتَّ ؟ قال : بلىٰ ، قلت : فما هـٰذه الثياب التي عليك ؟ قال : السندس والاستبرق ، ولك عندي يا أخي مثلها ، قلت : فماذا فعل بك ربك ؟ قال : غفر لي وباهىٰ بي وبأبي حنيفة الملائكةَ ، قلت : أبو حنيفة النعمان بن ثابت ؟ قال : نعم ، قلت : وأين منزله ؟ قال : نحن وهو في أعلىٰ عليين .

قال القاسم : وكان أبو نعيم إذا ذكر أبا حنيفة رحمه الله أو ذُكر بين يديه . . يقول : بخ بخ! ذلك في أعلىٰ عليين ، ثم يذكر هـٰذا الحديث .

وقال محمد ابن أبي رجاء : سمعت أبي يقول : رأيت محمد بن الحسن في المنام ، فقلت له : ماذا فعل بك ربك ؟ فقال : غفر الله عز وجل لي ، قلت : بماذا ؟ قال : قال لي الحق جل جلاله : لم أجعل هـٰذا العلم فيك وأريد أن أعاقبك ـ وفي رواية : إلا وأريد أن أغفر لك ـ قال : قلت : فما فعل بأبي يوسف ؟ قال : فوقنا بدرجة ، قال : قلت : وأبو حنيفة ، ماذا فعل الله به ؟ قال : في أعلىٰ عليين .

وقال جعفر بن الحسن : رأيت أبا حنيفة في المنام ، فقلت له : ما فعل الله بك يا أبا حنيفة ؟ قال : غفر لي ، قلت له : أَبِالعلم ؟ فقال : ما أضر الفتوىٰ علىٰ صاحبها ، قلت له : فَبِمَ ؟ قال : بقول الناس فيَّ ما لم يعلموه مني وما لَيس فيَّ .

وقال عباد الثمَّار : رأيت أبا حنيفة في المنام ، فقلت له : يا أبا حنيفة ؛ إلىٰ ماذا صرت ؟ قال : إلىٰ سعة رحمة الله عز وجل ، قلت : أبالعلم ؟ قال : هيهات! للعلم شروط وآفات ، قَلَّ من ينجو منها ، قلت : فبِمَ ذاك ؟ قال : بقول الناس عني ما لم أكن عليه .

وقال محمد بن الحسن ـ رحمه الله ـ : قال أبو حنيفة رحمه الله : اسم الله الأعظم هو (الله) ، ألا ترىٰ إلى الرحيم اشتق من الرحمة ، والرب من الربوبية ، والله عز وجل غير مشتق من شيء .

وقال : قال أبو حنيفة رحمه الله : لا ينبغي للقاضي أن يترك على القضاء أكثر من سنة ؛ لأنه إذا ترك أكثر من سنة . . ذهب فقهه .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : رأيت في بعض الكتب : أن الإمام أبا حنيفة رحمه الله قال : رأيت رب العزة جل جلاله في المنام تسعاً وتسعين مرة ، قال : فقلت في نفسي : إن رأيته سبحانه وتعالىٰ تمام المئة . . لأقول : يا رب ؛ بعزتك وجلالك بِمَ ينجو الخلائق يوم القيامة ؟ قال : فرأيته سبحانه وتعالىٰ ، فقلت : يا رب ؛ عز جارك ، وجل ثناؤك ، وتقدست أسماؤك ، ولا إلـه غيرك ، بم ينجو الخلائق يوم القيامة ؟ فقال سبحانه وتعالىٰ : من قال بالغداة والعشي : سبحان الأبدي الأبد ، سبحان الواحد الأحد ، سبحان الفرد الصمد ، سبحان رافع السماء بغير عمد ، سبحان من بسط الأرض على الماء فجمد ، سبحان من خلق الخلق فأحصاهم عدداً ، سبحان من قسم الرزق ولم ينس أحداً ، سبحان الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، سبحان الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد . . نجا من عذابي .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام المبجل :

أحمد ابن حنبل
رضي الله عنه

قال الشيخ العالم الرباني محيي الدين النووي ـ قدس الله روحه ـ : أحمد ابن حنبل ، هو الإمام ، البارع ، المجمَع علىٰ جلالته ، وإمامته ، وورعه ، وزهادته ، وحفظه ، ووفور علمه ، وسيادته ، أبو عبد الله أحمد ابن حنبل الشيباني المروزي ، ثم البغدادي ، جيء به من مرو حَمْلاً إلىٰ بغداد بعد وفاة أبيه بمرو ، فولد ببغداد في ربيع الأول ، سنة أربع وستين ومئة ، ودخل مكة ، والمدينة ، والشام ، واليمن ، والكوفة ، والبصرة ، والجزيرة[1] .

رُوِّينا من طرق عن إبراهيم الحربي قال : رأيت ثلاثة لم يُرَ مثلُهم أبداً : أبا عبيد القاسم ، ما مثلته إلا بجبل يُنفخ فيه الروح .

وبشر بن الحارث ، ما شبهته إلا برجل عُجن من قرنه إلىٰ قدمه عقلاً .

وأحمد ابن حنبل ، كأن الله عز وجل جمع له علم الأولين والآخرين من كل صنف .

ورُوِّينا عن أبي مسهر رحمه الله أنه قال : ما أعلم أحداً يحفظ علىٰ هٰذه الأمة أمر دينها . . إلا شاباً بالمشرق ؛ يعني : أحمد ابن حنبل .

ورُوِّينا عن علي بن المديني رحمه الله قال : قال لي سيدي أحمد ابن حنبل : لا تحدِّث إلا من كتاب .

ورُوِّينا عن إبراهيم بن جابر رحمه الله قال : كنا نجلس إلىٰ أحمد ابن حنبل ، فيذكر لنا الحديث ويحفظه ويتقنه ، فإذا أردنا أن نكتبه . . قال : الكتاب أحفظ ، فيثب ويجيء بالكتاب .

---

(١) **الجزيرة** : هي التي بين دجلة والفرات ، تشتمل علىٰ ديار مضر وديار بكر ، سميت بذلك لوقوعها بين هٰذين النهرين .

ورُوِّينا عن الهيثم بن جميل أنه قال : وددت أن يُنقَص من عمري ويزاد في عمر أحمد ابن حنبل .

وذكر ابن أبي حاتم في كتابه « الجرح والتعديل » أبواباً في مناقب أحمد ابن حنبل ، منها :

ـ عن أبي عبيد قال : انتهى العلم إلىٰ أربعة : أحمد ابن حنبل وهو أفقههم فيه ، وعلي بن المديني وهو أعلمهم به ، ويحيى بن مَعين وهو أكتبهم له ، وأبي بكر ابن أبي شيبة وهو أحفظهم .

ـ وسئل أبو حاتم عن أحمد وعلي بن المديني فقال : كانا في الحفظ متقاربين ، وكان أحمد أفقه .

ـ وقال أبو زرعة : ما رأيت أحداً أجمع من أحمد ابن حنبل ، وما رأيت أحداً أكمل منه ، اجتمع فيه زهد وفقه وفضل ومحاسن كثيرة مثله .

ـ وقال قتيبة : أحمد إمام الدنيا .

ـ وعن الهيثم بن جميل قال : إن عاش هـٰذا الفتىٰ . . فسيكون حجة علىٰ أهل زمانه .

ـ وقال عمرو بن محمد الناقد : إذا وافقني أحمد علىٰ حديث . . فلا أبالي من خالفني .

ـ وقال الشافعي : ما رأيت أعقل من أحمد ابن حنبل وسليمان بن داوود الهاشمي .

ـ وقال أبو حاتم : كان أحمد بارع الفهم بمعرفة صحيح الحديث وسقيمه .

ـ وقيل : إنه أمسك عن مكاتبة إسحاق بن راهويه ؛ لكونه أدخل كتابه إلىٰ عند ابن طاهر وقرأه .

ـ وقال قتيبة وأبو حاتم : إذا رأيت الرجل يحب أحمد . . فاعلم أنه صاحب سنة .

ـ وقال الميموني : ما رأيت مصلياً قط أحسن صلاة من أحمد ابن حنبل ، ولا أشد اتباعاً للسنن منه .

وعن الحسين بن الحسن الرازي قال : حضرت بمصر عند بقَّال ، فسألني عن أحمد ، فقلت : كتبت عنه ، فلم يأخذ مني ثمن المتاع ، وقال : أنا لا آخذ ثمناً ممن يعرف أحمد . انتهىٰ [« التهذيب » ١/ ١١٠ـ١١٢] .

وقال أبو الفرج : قال خلف : جاءني أحمد ابن حنبل يسمع حديث أبي عوانة ،

فاجتهدت أن أرفعه ، فأبىٰ ، وقال : لا أجلس إلا بين يديك ، أُمرنا أن نتواضع لمن نتعلم منه .

وقال عبد الله بن أحمد : سمعت أبا زرعة يقول : كان أحمد ابن حنبل رحمه الله يحفظ ألف ألف حديث ، فقيل له : وما يدريك ؟ فقال : ذاكرته وأخذت عليه الأبواب .

وقال أبو جعفر التُّستَري : قيل لأبي زرعة : من رأيت من المشايخ المحدِّثين أحفظ ؟ فقال : أحمد ابن حنبل ، حزرت كتبه في اليوم الذي مات فيه ، فبلغت اثني عشر حملاً وعدلاً ، ما كان علىٰ ظهر كتاب منها حديث فلان ، ولا في بطنه حديث فلان ، كل ذلك كان يحفظه عن ظهر قلب .

وقال إبراهيم الحربي : رأيت أحمد ابن حنبل كأن الله عز وجل قد جمع له علم الأولين والآخِرين من كل صنف ، يقول ما شاء ، ويمسك ما شاء .

وقال أحمد بن سنان : ما رأيت يزيد بن هارون أشد تعظيماً منه لأحمد ابن حنبل ، وما رأيته أكرم أحداً إكرامه له ، كان يقعده إلىٰ جنبه إذا حدثنا ، وكان يوقره ، ولا يمازحه ، ومرض أحمد ، فركب إليه وعاده .

وقال عبد الرزاق : ما رأيت أفقه ولا أورع من أحمد ابن حنبل .

وقال وكيع وحفص بن غياث : ما قدم الكوفة مثل أحمد ابن حنبل .

وكان ابن مهدي يقول : ما نظرت إليه . . إلا تذكرت به سفيان الثوري ، ولقد كاد هـٰذا الغلام أن يكون إماماً في بطن أمه .

وقال يحيى بن سعيد : ما قدم علينا مثل أحمد ابن حنبل .

وقال أبو عاصم ـ وقد ذكر طلب العلم ـ : ما رأينا في القوم مثل أحمد ابن حنبل .

وقال أبو بكر : كنت مع الإمام أحمد ابن حنبل نحواً من أربعة أشهر بالعسكر ، وكان لا يدع قيام الليل ، وفي كل يوم وليلة ختمة ، وكان يُسِرُّ ذلك .

وقال أبو عصمة : بت ليلة عند أحمد ، فجاءني بماء ، فوضعه ، فلما أصبح . . نظر إلى الماء كما كان ، فقال : سبحان الله! رجل يطلب العلم لا يكون له من الليل ورد .

وقال أبو داوود : لم يكن أحمد يخوض في شيء مما الناس فيه من أمر الدنيا ، فإذا ذُكر العلم . . تكلم .

وقال أبو عبيد القاسم : جالست أبا يوسف ومحمد بن الحسن ويحيى بن سعيد وعبد الرحمٰن بن مهدي ، فما هِبْتُ أحداً منهم ما هبت أحمد ابن حنبل ، ولقد دخلت عليه في السجن لأُسلم عليه ، فسألني رجل كان عنده عن مسألة ، فلم أجبه ؛ هيبة له .

وقال عبد الملك الميموني : **ما أعلم أني رأيت أحداً أنظف ثوباً ولا أنقىٰ بياضاً ولا أشد تعاهداً لنفسه في شاربه وشعر رأسه وبدنه من أحمد** .

وقال علي بن المديني : قال لي أحمد : إني أحب أن أصحبك إلىٰ مكة ، وما يمنعني من ذلك . . إلا أني أخاف أن تملَّني أو أمَلَّكَ ، قال : فلما ودعته . . قلت له : يا أبا عبد الله ؛ أَتوصيني بشيء ؟ قال : نعم ، أَلْزِمِ التقوىٰ قلبَك ، وانصِب الآخرة أمامك .

وقال أبو داوود : كانت مجالسة أحمد رحمه الله مجالسة الآخرة ، لا يُذكَر فيها شيء من أمر الدنيا ، وما رأيته ذاكراً للدنيا قط .

وكان أحمد يأتي العرس والإملاك والختان ؛ يجيب ويأكل[1] .

وقال إسحاق : لما خرج أحمد إلىٰ عبد الرزاق . . انقطعت به النفقة ، فأكرىٰ نفسه من بعض الجمالين إلىٰ أن وافىٰ صنعاء ، وكان أصحابه قد عرضوا عليه المواساة ، فلم يقبل من أحد شيئاً .

وقال الزيادي : سمعت عبد الرزاق وقد ذكر أحمد فدمعت عيناه ، وقال : قدم علينا وبلغني أن نفقته قد نفدت ، فأخذت عشرة دنانير وأقمته خلف الباب وما عندنا أحد ، وقلت له : إنه لا تجتمع عندنا الدنانير كل وقت ، وقد وجدت الساعة عشرة دنانير ، فخذها ؛ فإني أرجو أنك لا تنفقها حتىٰ يتهيأ عندنا غيرها ، فتبسم ، وقال : يا أبا بكر ؛ لو قبلت من الناس شيئاً . . لقبلت منك ، ولم يأخذها .

وقال صالح بن أحمد : جاءتني أم حسن ، فقالت : يا مولاي ؛ قد جاء رجل ومعه سلة فيها فاكهة يابسة وهٰذا الكتاب ، قال : فقرأت الكتاب ؛ فإذا فيه : يا أبا عبد الله ؛ أبضعت لك بضاعة إلىٰ سمرقند ، فربحت كذا وكذا ورددتها ، فربحت كذا وكذا ، وقد بعثتها إليك أربعة آلاف درهم ، والفاكهة أنا لقطتها من بستان ورثته عن أبي ، وأبي عن أبيه ، قال صالح : وجمعت الصبيان وجئت إليه ، فلما علم بما في الكتاب . . أبىٰ قَبول ذلك ، قلت

---

(١) **الإملاك** : التزويج .

له : يا أبت ؛ أما ترق لي من أكل الزكاة ، ثم أريته حال الصبيان وما هم فيه من العري ، فقال لي : من أين علمت حال هـٰذا المال ؟ دعني حتىٰ أستخير الله تعالى الليلة ، فلما كان من الغد . . قال : يا صالح ؛ صُنِّي ؛ فإني قد استخرت الله عز وجل الليلة ، فكان ألاَّ آخذها ، ثم فتح السلة ، وفرق ما فيها على الصبيان ، وكان عندي ثوب عشاري[1] ، أخذه مني ، وبعث به إلىٰ صاحب السلة ، وردَّ المال ، قال صالح : فبلغني أن الرجل اتخذ ذلك الثوب كفناً .

وقال علي بن الجهم : كان لنا جار ، فأخرج إلينا كتباً ، وقال : أتعرفون هـٰذا الخط ؟ قلنا : نعم ، هـٰذا خط أحمد ابن حنبل ، كيف كتب لك ؟ فقال : كنا بمكة مقيمين عند سفيان بن عيينة ، ففقدنا أحمد أياماً ، فجئنا لنسأل عنه ، فقال لنا أهل الدار التي هو فيها : هو في ذلك البيت ، فجئنا إليه والباب مردود ، وإذا عليه خلقان ، فقلنا : يا أبا عبد الله ؛ ما خبرك ؟ لنا أيام لم نرك ، فقال : سُرِقت ثيابي ، فقلت له : معي دنانير ، فإن شئت . . فخذها قرضاً ، وإن شئت . . فهبة ، فأبىٰ أن يفعل ، ثم قلت له : أتكتب لي بأجرة ؟ قال : نعم ، فأخرجت ديناراً ، فلم يأخذه ، وقال : اشتر لي ثوباً ، واقطعه نصفين ، وأشار إلىٰ أنه يرتدي بنصفه ويأتزر بالآخر ، وجئني ببقيته ، ففعلت ما أمرني ، وجئته بورق ، فكتب لي ، فهـٰذا خطه رحمة الله تعالىٰ عليه .

وقال صالح : دخلت علىٰ أبي في أيام الواثق بالله[2] ، ونحن في حالةٍ اللهُ بها عليمٌ ، وقد خرج لصلاة العصر ، وكان له لِبْد يجلس عليه قد أتت عليه سنون كثيرة حتىٰ لقد بلي ؛ فإذا تحته كتاب فيه : يا أبا عبد الله ؛ قد بلغني ما أنت فيه من الضيق ، وما عليك من الدَّين ، وقد بعثت إليك بأربعة آلاف درهم لوفاء الدين والسعة على العيال ، وما هي من صدقة ، ولا زكاة ، وإنما هي شيء ورثته عن أبي ، فقرأت الكتاب ، ووضعته ، فلما دخل . . قلت : يا أبت ؛ ما هـٰذا الكتاب ؟ فاحمر وجهه ، وقال : لِمَ رفعته ؟ ثم قال : تذهب بجوابه ، فكتب إلى الرجل : وصل كتابك إلي ، ونحن في عافية والحمد لله تعالىٰ ، وأما الدَّين فهو لرجل لا يرهقنا ، وأما عيالنا فهم في نعمة والحمد لله رب العالمين ، فذهبت بالجواب إلى الرجل الذي جاء بالكتاب ، فقال لي : ويحك! لو أن أبا عبد الله قَبِلَ هـٰذا المال ورمىٰ به مثلاً

---

(١) **عشاري** : طوله عشرة أذرع .

(٢) **أيام الواثق** : أيام محنته ، لِمَا أظهره الواثق من الميل إلىٰ أحمد ابن أبي دؤاد وأصحابه القائلين بخلق القرآن .

في دجلة . . كان مأجوراً ؛ لأن صاحب هـٰذا المال لا يُعرف له معروف قط ، فلما كان بعد حين . . ورد كتاب الرجل بمثل ذلك ، فرد عليه الجواب بمثل ذلك ، فلما مضت سنة أو أكثر . . ذكرناها ، فقال أبي : لو كنا قبلناها . . كانت قد ذهبت وبقي علينا سؤالها .

وقال محمد بن موسىٰ : حُمل إلى الحسن بن عبد العزيز ميراثه من مصر مئة ألف دينار ، فحَمَل إلىٰ أحمد ثلاثة أكياس في كل كيس ألف دينار ، وقال : يا أبا عبد الله ؛ هـٰذا ميراث حلال فخذه واستنفق به علىٰ عيالك ، قال : لا حاجة لي فيه ، أنا في كفاية . ولم يقبل منها شيئاً .

وقال السري بن محمد : جاء أحمد بن صالح يوضىء أبا عبد الله وقد بل خرقة وألقاها علىٰ رأسه ، فقال له : يا جدي ؛ أنت محموم ، فقال له : وأنىٰ لي بالحُمىٰ .

وقال ابن جبلة : كنت واقفاً علىٰ باب أحمد والباب مجاف ، وأم ولده تكلمه ، وتقول : أنا معك في ضيق عيش ومنزل ، وصالحٌ وأولاده يأكلون ويفعلون ، وهو يقول لها : قولي خيراً ، ثم خرج والصبي معه ، فبكىٰ ، فقال له : أي شيء تريد ؟ قال : زبيباً ، قال : اذهب فخذ من البقَّال حبة .

وقال أبو بكر : سمعت أبا عبد الله أحمد يقول : إنما هو طعام دون طعام ، ولباس دون لباس ، وإنها أيام قلائل .

وسمعته أيضاً يقول : أَسَرُّ أيامي إليَّ يومٌ أصبح وليس عندي شيء .

وقال صالح : ربما رأيت أبي يأخذ الكسرة ، فينفض عنها الغبار ، ثم ينثرها في قصعة ويصب عليها الماء حتىٰ تبتل ، ثم يأكلها بالملح ، قال صالح : وما رأيته قط اشترىٰ رماناً ولا سفرجلاً ولا شيئاً من الفاكهة ، اللهم إلا أن يشتري بطيخة ، فنأكلها بخبز ، أو عنباً ، أو تمراً ، فأما غير ذلك . . فما رأيته اشتراه ، وربما خبزوا في البيت ، فيجعل له في فخارة عدساً وشحماً ، وكان كثير الائتدام بالخل ، وكان يُشترىٰ له شحم بدرهم يأكل منه شهراً ، ولما قدم من عند المتوكل . . أدمن على الصوم ، وجعل لا يأكل الدسم ، فتوهمت أنه جعل علىٰ نفسه إن سلم أن يفعل ذلك .

وقال أبو بكر : قال لي النيسابوري صاحب إسحاق بن إبراهيم : قال لي الأمير : إذا جاء وقت إفطاره . . فأرنيه ، قال : فجاؤوا برغيفين وخيارة ، فأريته الأمير ، فقال : هـٰذا لا يخافنا إذا كانت هـٰذه نفقته .

وقال الحسن بن خلف : جاءني المروزي في علة أبي عبد الله أحمد ، فقال : إن أبا عبد الله عليل ، فذهبنا إليه ومعي المتطبب ، فلما دخلنا . . قال له : ما حالك ؟ أي شيء صنعت ؟ قال : احتجمت أمس ، قال : وأي شيء أكلت ؟ قال : خبزاً وكامخاً ، قال : يا أبا عبد الله ؛ أتحتجم وتأكل خبزاً وكامَخاً ؟ قال : فما آكل ؟!

وقال محمد بن هارون : رأيت أبا عبد الله إذا مشىٰ في الطريق . . يكره أن يتبعه أحد .

وقال أبو بكر : سمعت أبا عبد الله يقول : الخوف يمنعني من أكل الطعام ، فما أشتهيه .

وكان قد قاء أبو عبد الله في مرضه دماً ، فأريته المتطبب ، فقال : هـٰذا رجل قد فتت الغم والخوف كبده .

وكان أحمد وهو غلام يحيي الليل كله .

وكان يقول : إني أجد البَرد في أطرافي ، وما أرىٰ ذلك إلا من إدامة أكل الخل والملح .

وقال فُوْران : كنا عنده قبل موته بليلتين ، وثَمَّ غلام أسود ، فأخذ المروحة يروِّح أحمد ، فنهاه ولم يَدَعْه .

وقال سليمان بن داوود : رهن أحمد سطلاً عند فامي ، وأخذ منه شيئاً يتقوت به ، ثم جاء ليفكه ، فأعطاه ما كان له ، فأخرج الفامي سطلين ، وقال : انظر أيهما سطلك فخذه ، فقال : لا أدري ، أنت في حل منه ومما أعطيتك ، ولم يأخذه ، قال الفامي : والله ؛ إني أعرف سطله ، وما أردت إلا أن أمتحنه فيه .

وقال أحمد بن محمد : ذكروا أن أبا عبد الله أحمد أتىٰ عليه ثلاثة أيام ما طعم فيها ، فبعث إلىٰ صديق له ، فاستقرض شيئاً من الدقيق ، فعرفوا في البيت شدة حاجته إلى الطعام ، فخبزوا سريعاً ، فلما وضع بين يديه . . تعجب من سرعة ذلك ، وقال : كيف وقع هـٰذا ؟ فقيل له : كان التنور في دار ابنك صالح مسجوراً ، فقال : ارفعوا ، ولم يأكل ، وأمر بسد بابه الذي إلىٰ دار صالح[1] .

وقال عبد الله بن أحمد : كان أبي رحمه الله أصبر الناس على الوحدة ، لم يره أحد إلا في مسجد أو جنازة أو عيادة مريض ، وكان يكره المشي في الأسواق .

وكان يصلي في كل يوم وليلة ثلاث مئة ركعة ، فلما ضُرب تلك الأسواط . . أضعفته ،

---

(١) وما ذاك إلا لأن ابنه صالحاً قبل جائزة المتوكل .

فكان يصلي بعد ذلك في كل يوم وليلة مئة وخمسين ركعة ، وكان قد قرب من الثمانين .

وكان يقرأ في كل يوم سُبْعاً ، يختم في كل سبعة أيام ، وكانت له ختمة في كل سبع ليال سوىٰ صلاة النهار .

وكان ساعةَ يصلي عشاء الآخرة . . ينام نومة خفيفة ، ثم يقوم إلى الصباح يصلي ويدعو .

وحج خمس حجات ، ثلاثاً منها ماشياً ، وأنفق في بعض حجاته عشرين درهماً ، أو قال : ثلاثين درهماً .

وكان من دعاء أحمد رحمه الله : اللهم ؛ من كان علىٰ هوىٰ أو رأي وهو يظن أنه الحق وليس هو على الحق . . أسألك أن ترده إلى الحق ، حتىٰ لا يضل من هـٰذه الأمة أحد .

اللهم ؛ لا تشغل قلوبنا بما تكفلت لنا به ، ولا تجعلنا في رزقك خَوَلاً[1] لغيرك ، ولا تمنعنا خير ما عندك لشر ما عندنا ، ولا تَرَنا حيث نهيتنا ، ولا تفقدنا من حيث أمرتنا ، وأعزنا ولا تذلنا ، أعزنا بالطاعة ، ولا تذلنا بالمعصية .

ويروىٰ : أن شخصاً كانت أمه مقعدة منذ عشرين سنة ، فقالت له ذات يوم : يا ولدي ؛ اذهب إلىٰ أحمد ، فاسأله أن يدعو الله عز وجل لي بالعافية ، قال : فمضيت ، ووقفت علىٰ باب أحمد ، ثم دققته ، فقال : مَن هـٰذا ؟ قلت : رجل من أهل ذلك الجانب ، سألتني أمي وهي زمنة مقعدة أن تدعو الله عز وجل لها بالعافية ، قال : فسمعت كلام رجل مغضَب ، وهو يقول : نحن أحوج إلى الدعاء وإلىٰ من يدعو لنا ، قال : فوليت منصرفاً ، فخرجت عجوز من داره ، وقالت : أنت الذي سألت أبا عبد الله الدعاء لأمك ؟ قلت : نعم ، قالت : قد تركته يدعو لها ، قال : فرجعت من فوري إلى البيت ، فدققت الباب ، فخرجت أمي علىٰ رجليها تمشي ، وفتحت الباب ، وقالت : يا ولدي ؛ قد وهب الله تعالىٰ لي العافية بدعاء أحمد .

وقال ميمون بن الأصبغ : كنت ببغداد فسمعت صيحة ، فقلت : ما هـٰذا ؟ فقالوا : أحمد ابن حنبل يمتحن ، فدخلت ، فلما ضُرب سوطاً . . قال : بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، فلما ضرب الثاني . . قال : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، فلما ضرب الثالث . . قال : القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ، فلما ضرب الرابع . . قال : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا

---

(١) خَوَلاً : خدماً وعبيداً .

﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ ، فضُرب تسعة وعشرين سوطاً ، وكانت تكَّتُه[1] حاشية ثوب ، فانقطعت ، فنزل السراويل إلىٰ عانته ، فرمىٰ بطرْفه إلى السماء وحرك شفتيه ، فما كان بأسرع من أن بقي السراويل متماسكاً علىٰ حاله لم ينزل ، فدخلت إليه بعد سبعة أيام ، فقلت : يا أبا عبد الله ؛ رأيتك وأنت تحرك شفتيك ، فأي شيء قلت ؟ قال : قلت : اللهم ؛ إني أسألك باسمك الذي ملأت به أركان عرشك ، إن كنتُ على الحق . . فلا تهتك ستري .

وقال عبد الله : كنت أسمع أبي كثيراً ما يقول : رحم الله أبا الهيثم ، فقلت له : هـٰذا الذي تكثر من ذِكره من هو ؟ فقال : يا بني ؛ لما جُرِّدت للسياط ومُدَّت يداي للعقاب . . إذا أنا بشاب يجذب ثوبي من ورائي ، وهو يقول لي : أتعرفني ؟ قلت : لا ، قال : أنا أبو الهيثم العَيَّار ، اللص الطرار ، مكتوب في ديوان أمير المؤمنين أني ضربت ثمانية عشر ألف سوط بالتفاريق ، وكان ذلك الضرب كله في طاعة الشيطان لأجل الدنيا ، فاصبر أنت في طاعة الرحمـٰن جل جلاله لأجل الدين ، قال أبي : فلما مسني حر السوط . . ذكرت كلامه ، قال أبي : فضُربت ثمانية عشر سوطاً بدل ما ضُرب ثمانية عشر ألف سوط ، وخرج الخادم ، وقال : قد عفا عنه أمير المؤمنين ، والله ـ يا بني ـ لقد أعطيت المجهودَ من نفسي .

قال عبد الله : وكتب أهل المطامير إلىٰ أبي : يا أبا عبد الله ؛ إن رجعت عن مقالتك . . ارتددنا عن الإسلام .

وقال أحمد بن سنان : بلغني أن أحمد ابن حنبل جعل المعتصم في حلٍّ يوم فتح بابك أو فتح عمورية ، وقال : هو في حل من ضربي .

وقال إبراهيم الحربي : جعل أحمد ابن حنبل رحمه الله جميع من ضربه أو حضره أو ساعد عليه في حلٍّ ، إلا ابن أبي دؤاد ، فقال : لولا أنه ذو بدعة داعية . . لأحللته ، ولو تاب عن بدعته . . لأحللته .

وقال صالح : ورد كتاب علي بن الجهم علىٰ أبي ، فيه أن أمير المؤمنين المتوكل قد وجه إليك يعقوب المعروف بقوصرة ، ومعه جائزة ، ويأمرك بالخروج ، فالله الله أن تستعفي ، أو ترد المال ، فيشيع القول لمن يُبغِضك ، فلما كان الغد . . ورد يعقوب ، فدخل علىٰ أبي ، وقال له : يا أبا عبد الله ؛ أمير المؤمنين يُقرِئُكَ السلام ، ويقول لك : قد أحببت أن آنس بقربك ، وأن أتبرك بك وبدعائك ، وقد وجه إليك معي عشرة آلاف درهم معونة لك علىٰ

---

(١) **التِّكَّةُ** : رباط السراويل .

سفرك ، وأخرج بَدْرَةً فيها صرة نحو مئتي دينار ، والباقي دراهم صحاح ، فلم ينظر أبي إليها ، ثم شدها يعقوب ، وقال : أعود إليك غداً حتىٰ أنظر ما تعزم عليه ، ثم انصرف ، قال : فجئت بإِجَّانة[1] خضراء ، فكببتها على البدرة ، فلما كان عند المغرب . . قال : يا صالح ؛ خذ هـٰذا المال اجعله عندك الليلة ، فصيرته عند رأسي فوق السطح ، فلما كان سَحَراً . . ناداني : ياصالح ، ياصالح ، فقمت وجئت إليه ، فقال : ما نمت ليلتي هـٰذه ، فقلت : لِمَ يا أبي ؟ وجعل يبكي ، وهو يقول : سلِمت من هـٰؤلاء ، حتىٰ إذا كان آخر عمري . . بُليت بهم ، قد عزمت علىٰ أن أفرق المال إذا أصبحت ، فقلت : ذاك إليك ، فلما أصبح . . قال : يا صالح ، جئني بميزان ، ثم قال : وجهوا إلىٰ أبناء المهاجرين والأنصار ، ثم إلىٰ فلان ، ثم إلىٰ فلان ، فلم يزل حتىٰ فرق الجميع ، ونفض الكيس ، ونحن في حالةٍ اللهُ بها عليم ، فجاء ابن لي صغير ، فقال : يا أبي ؛ أعطني درهماً ، فنظر إلي ، فأخرجت قطعة ، فأعطيته .

وكتب صاحب البريد إلى المتوكل : أن أحمد تصدق بجميع المال من يومه حتىٰ تصدق بالكيس ، فلما بلغه الخبر . . قال له علي بن الجهم : يا أمير المؤمنين ؛ حيث تصدق أحمد بالمال ، فقد قبله منك ، وما يصنع أحمد بالمال وإنما قوته رغيف ؟ فقال : صدقت يا علي ، قال صالح : فخرجنا ليلاً ومعنا حرس معهم النَّفَّاطات[2] ، فلما أضاء الفجر . . قال : يا صالح ؛ أمعك دراهم ؟ قلت : نعم ، قال : أعطهم درهماً درهماً ، فأعطيتهم ودخلنا العسكر وأبي منكس الرأس ، فلما وصلنا . . وجدنا داراً قد هُيِّئَت لنا ، فنزلنا فيها ، وجاء علي بن الجهم ، وقال : قد أمر لك أمير المؤمنين بعشرة آلاف مكان التي فرقها والدك ، وأمر ألاَّ يعلم بذلك شيخهم ـ يعني : والدك ـ فيغتم .

ثم جاءه أحمد بن معاوية ، وقال له : إن أمير المؤمنين يُكثر ذِكرك ، ويشتهي قربك ، ويقول : يقيم هـٰهنا يحدِّث ، فقال أبي : أنا ضعيف ، ثم حُمل إلىٰ دار الخليفة ، فأخبرني بعض الخدم : أن المتوكل كان قاعداً وراء ستر ، فلما دخل إلى الدار . . قال الخليفة لأمه : يا أماه ؛ قد أنارت الدار ، ثم جاء خادم بمنديل فيه ثياب ، فألبسه إياها وهو لا يحرك يده ، فلما صار إلى الدار . . نزع الثياب عنه ، ثم جعل يبكي ، ويقول : سلِمتُ من هـٰؤلاء منذ

---

(١) **الإِجَّانة** : إناء تغسل فيه الثياب .

(٢) **النَّفَّاطات** : نوع من السرج يرمىٰ بها النفط والنار .

ستين سنة ، حتىٰ إذا كان في آخر عمري . . بُليت بهم ، ثم قال : يا صالح ، وجِّه هـٰذه الثياب إلىٰ بغداد ؛ لتباع ويُتصدق بثمنها ، ولا يشتر أحد منكم منها شيئاً ، وأُجرِيَت لنا مائدة وثلج وضُرِبَ الخيش ، فلما رأىٰ ذلك . . شق عليه ، وتنحىٰ ، ورمىٰ نفسه علىٰ مضربة له ، وجعل يواصل ويفطر في كل ثلاثة أيام علىٰ تمر وسويق ، ومكث علىٰ ذلك خمسة عشر يوماً ، ثم جعل يفطر ليلة ، وليلة لا يفطر إلا علىٰ رغيف واحد ، وكان إذا جيء بالمائدة . . توضع في الدِّهليز[1] ؛ لئلا يراها ، فيأكل منها كل من حضره ، وكان المتوكل أمر أن تشترىٰ له دارٌ ، فقال أبي : يا صالح ؛ لئن أقررت لهم بشراء دار . . لتكونن القطيعة بيني وبينك ، ولم يزل أبي يدفع شراء الدار حتى اندفع ، ثم إني انحدرت إلىٰ بغداد ، وأقام أخي عبد الله عنده ، فلم أشعر إلا وعبد الله قد قدم ومعه ثيابي التي كانت عنده ، فقلت له : ما الخبر ؟ فقال : أمرني والدي بالانحدار إليك ، وهو يقول لك : لا تسافر إليه ؛ فإنكم أنتم كنتم آفتي ، والله ؛ لولا أني أخذتكم معي . . لما كانت توضع هـٰذه المائدة ، ولو لم أخرجكم معي . . لكان خيراً لي .

وفي رواية أخرىٰ : أن أبا عبد الله أحمد مرض ، فاستأذن المتوكل في العود إلىٰ بغداد ، فأذن له ، ثم إنه توفي رحمه الله سنة إحدىٰ وأربعين ومئتين ، وقد استكمل سبعاً وسبعين سنة .

وقال أبو بكر : مرض أحمد ليلة الأربعاء ، وأقام مريضاً تسعة أيام ، وتسامع الناس به ، فأقبلوا لعيادته ، ولزموا بابه ليلاً ونهاراً يبيتون ، وربما أذن للناس ، فيدخلون أفواجاً يسلمون عليه ، فيرد بيده .

ولقد وضأته يوماً فقال : خلل الأصابع ، فلما كان يوم الجمعة . . اجتمع الناس حتى امتلأت الشوارع والدروب ، فلما كان صدر النهار . . قبض ، فصاح الناس ، وعلت الأصوات بالبكاء ، وارتجت الدنيا لموته .

وقال إسحاق : مات أبو عبد الله أحمد ولم يخلف إلا ست قطع أو سبعاً ، كانت في خرقة له يمسح بها وجهه قدر دانقين .

وقال : كان عنده ثلاث شعرات من شعر النبي صلى الله عليه وسلم ، فأوصىٰ عند موته أن يجعل علىٰ كل عين شعرة ، وشعرة علىٰ لسانه ، ففعل به ذلك .

---

(١) **الدِّهليز** : ما بين الباب والدار ، فارسي معرب .

وقال صالح : قال لي أبي : جئني بالكتاب الذي فيه حديث أبي إدريس عن ليث ، عن طاووس أنه كان يكره الأنين ، فجئت به ، وقرأته عليه ، فلم يئن إلا في الليلة التي توفي فيها .

قال : ولما حضرت أبي الوفاة . . جلست عند رأسه وبيدي الخرقة لأشد بها لحييه ، فجعل يعرق ، ثم يفيق ، ثم يفتح عينيه ، ويقول بيده هـٰكذا : لا بعدُ لا بعدُ ، فعل ذلك ثلاثاً ، فقلت له : يا أبت ؛ ما هـٰذا الذي قد لهجت به في هـٰذا الوقت ؟ تعرق حتىٰ نقول قد قبضت ، ثم تعود ، فتقول : لا بعدُ لا بعدُ ، فقال له : يا بني ؛ ما تدري إبليس قائم حذائي ، عاضٌّ علىٰ أنامله ، وهو يقول : يا أحمد ؛ فُتَّني ، فأقول : لا بعدُ لا بعدُ حتىٰ أموت .

وقال بنان بن أحمد : حضرت جنازة أحمد ، فكانت الصفوف من الميدان إلى القنطرة التي بباب القطيعة ، وحُزر من حضر من الرجال ثمان مئة ألف ، ومن النساء ستون ألف امرأة .

وقال موسى بن هارون : لما مات أحمد . . مسحت الأمكنة المبسوطة التي وقف الناس فيها للصلاة عليه ، فجاء مقادير الناس بالمساحة ست مئة ألف وأكثر ، سوىٰ من كان في الأطراف والأسطحة والمواضع المتفرقة تبلغ أكثر من ألف ألف .

زاد في رواية أخرىٰ : عن أبي زرعة قال : بلغني أن المتوكل أمر أن يمسح الموضع الذي وقف الناس فيه للصلاة علىٰ أحمد ابن حنبل ، فبلغ ألفي ألف وخمس مئة ألف .

وقال الوركاني : أسلم يوم وفاة أحمد عشرون ألفاً من اليهود والنصارىٰ والمجوس ، ووقع المأتم في أربعة أصناف : المسلمين ، واليهود ، والنصارىٰ ، والمجوس .

وقال أبو بكر المروزي : رأيت أحمد في المنام كأنه في روضة ، وعليه حلتان من السندس الأخضر ، وعلىٰ رأسه تاج من النور ، وهو يمشي مِشية لم أكن أعرفها له ، فقلت له : يا أحمد ؛ ما هـٰذه المِشية التي لا أعرفها لك ؟ فقال : هـٰذه مشية الخدام في دار السلام ، فقلت : ما هـٰذا التاج الذي أراه علىٰ رأسك ؟ فقال : إن ربي عز وجل أوقفني وحاسبني حساباً يسيراً ، وحباني ، وقربني ، وأباحني النظر إليه ، وتوجني بهـٰذا التاج وقال لي : يا أحمد ؛ هـٰذا تاج الوقار ، توجتك به كما قلت إن القرآن كلامي غير مخلوق .

وقال أبو يوسف بن بختان : لما مات أحمد . . رأىٰ رجل في منامه كأن علىٰ كل قبر

قنديلاً ، فقال : ما هـٰذا ؟ فقيل له : أما علمت أنه نُوِّر لأهل القبور قبورهم بنزول هـٰذا الرجل بين أظهرهم ؟ وقد كان فيهم من يعذب فرُحم .

وقال أبو علي بن البنا : لما ماتت أم ولدي . . دفنتها في جوار أحمد ، فرآها ولدها بعد ليال ، فقال : يا أماه ؛ ما فعل الله عز وجل بك ؟ فقالت : يا بني ؛ رضي الله عنك ، فلقد دفنتموني في جوار رجل ينزل علىٰ قبره كل ليلة ـ أو قالت : كل ليلة جمعة ـ رحمة تعم جميع أهل المقبرة . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٢٠٤ـ٢١٦] .

قال في « بهجة الأسرار » : قال عبد الله بن أحمد : قلت لأبي يوماً : أوصني ، فقال : يا بني ؛ اِنوِ الخير ما عشت ؛ فإنك لا تزال بخير ما نويت الخير .

وقال محمد بن يوسف الجوهر : كنت مع أصحابنا عند الإمام أحمد ابن حنبل يوم مات بشر [الحافي] رحمه الله ، فسأله رجل عن مسألة ، فقال : ليس هـٰذا يوم مسائل ، هـٰذا يوم حزن .

وقيل لأحمد ابن حنبل : إن الناس يقولون إنك قد زهدت في الناس ، فقال : ومَن أنا حتىٰ أزهد في الناس ؟ ينبغي للناس أن يزهدوا فيَّ .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : اعلم : أن الإمام أحمد ابن حنبل ـ رحمه الله ـ لما امتُحن . . كان من ملخص أمره أن هارون الرشيد لم يقل بخلق القرآن مدة خلافته ، ولهـٰذا السبب كان الفضيل بن عياض رحمه الله يتمنىٰ طول عمر الرشيد ؛ لأنه ـ والله أعلم ـ كان قد كشف له بأن فتنة تحدث بعد موت الرشيد ، ولم يحدث في مدة خلافته فتنة ، ولـٰكن كان الأمر في زمن ولايته بين أخذ وترك إلىٰ أن ولي ابنه المأمون ، فقال بخلق القرآن ، وبقي يقدم رِجْلاً ويؤخر أخرىٰ في دعواه الناس إلىٰ ذلك ، إلىٰ أن قوي عزمه في السَّنة التي مات فيها ، فطلب الإمامَ أحمد وجماعته ، وحُمل إليه ، فلما كان في بعض الطريق . . توفي المأمون وعَهِد إلىٰ أخيه المعتصم ، وأن يَحمِل الناس علىٰ ذلك ، وأُخذ أحمد ، وحبس ، واستمر محبوساً ، إلىٰ أن بويع المعتصم ، فأحضر أحمد إلىٰ بغداد ، وعُقد له مجلس مناظرة ، وفيه عبد الرحمـٰن بن إسحاق والقاضي أحمد ابن أبي دؤاد وغيرهما ، فناظروه ثلاثة أيام ، فلم يزل معهم في جدال إلىٰ بعد ثلاثة أيام ، أُمر به ، فضُرب بالسياط ، ولم يزِلَّ عن الصراط إلىٰ أن أغمي عليه ، ونخسه[1] عجيف بالسيف ،

---

(١) **النخس** : الطعن .

ورمي علىٰ بارية[1] ، وديس عليه ، ثم حُمل وصار إلىٰ منزله .

وكان مدة مكثه في السجن ثمانية وعشرين شهراً ولم يزل بعد ذلك يحضر الصلوات والجمعات ويفتي ويحدث إلىٰ أن مات المعتصم ، وولي الواثق ، فأظهر ما أظهر من المحنة ، وقال لأحمد ابن حنبل : لا تجمعن إليك أحداً ، ولا تساكِنِّي في بلد أنا فيه ، فأقام الإمام أحمد مختفياً لا يخرج إلىٰ صلاة ولا [إلىٰ] غيرها حتىٰ مات الواثق ، وولي المتوكل ، فرفع المحنة ، وأمر بإحضار أحمد وإكرامه وإعزازه ، وأطلق له مالاً كثيراً ، فلم يقبله ، لـٰكن فرقه على الفقراء والمساكين ، وأجرى المتوكل علىٰ أهله وولده في كل شهر أربعة آلاف درهم ، فلم يرض الإمام أحمد بذلك ، وأُظهرت السُّنَّة ، وكتب إلى الآفاق برفع المحنة وإظهار السُّنة ، وبسط أهلها ، ونصرهم ، وتكلموا في مجلسه بالسُّنة ، وخمدت المعتزلة ، ولم تزل المعتزلة في قوة ونماء إلىٰ أيام المتوكل ، فخمدوا ، ولم يكن في هـٰذه الملة الإسلامية أهل بدعة شر منهم ، نعوذ بالله تعالىٰ من شر مقالتهم ، ونسأله الإماتة على الكتاب والسنة ، إنه علىٰ كل شيء قدير .

وأما مبسوط القول في ما جرىٰ له من المحنة : فقد روى الحافظ أبو نعيم بإسناده : عن أبي معمر القطيعي قال : لما حضرنا في دار السلطان أيام المحنة ، وكان الإمام أحمد ابن حنبل قد أُحضر ، فلما رأى الناس يجيئون إليه . . انتفخت أوداجه ، واحمرت عيناه ، وذهب ذلك اللِّين الذي كان فيه ، فقلت في نفسي : إنه قد غضب لله عز وجل ، قال أبو معمر : فلما رأيت ما به . . قلت له : يا أبا عبد الله ؛ أبشر .

وبإسناده قال : حدثنا محمد بن فضيل بن غزوان ، عن الوليد بن عبد الله بن جميع ، عن أبي سلمة ابن عبد الرحمـٰن بن عوف قال : كان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مَن إذا أريد علىٰ شيء من دينه . . رأيت حماليق[2] عينيه في رأسه تدور كأنه مجنون .

وقال أبو عبد الله محمد بن نوح : قلت لأبي عبد الله أحمد ابن حنبل في الطريق ـ ونحن موكَّل بنا في محمل علىٰ جمل إلى المأمون ـ : إن رأيتني ضعفت أو خذلت . . فلا تضعف أنت ، فلست أنا مثلك ، فقال أحمد : أبشر ؛ فإنك علىٰ إحدىٰ ثلاث : إما ألاَّ تراه

---

(١) **البارِيَّة** : الحصير من القصب .

(٢) **الحماليق** : جمع حملاق ، وهو : ما غطت الجفونُ من بياض المقلة .

ولا يراك ، وإما تراه فتصدعه بالحق فيقتلك فتكون من أفضل الشهداء ، وإما أنك إذا صدعته بالحق . . يحُول الله تعالىٰ بينك وبينه .

وقال أحمد بن غسان : حُملت أنا وأحمد ابن حنبل رحمه الله في محمل علىٰ جمل يراد بنا المأمون ، فلما صرنا قرب حانة . . قال لي أحمد : قلبي يُحِس بأن رجاء الحِضاري[1] يأتي في هـٰذه الليلة ، فإن أتىٰ وأنا نائم . . فأيقظني ، وإن أتىٰ وأنت نائم . . أيقظتك ، فبينا نحن نسير ؛ إذ قرع قارع المحمل ، فأشرف أحمد ، فإذا رجل يعرفه أحمد بالوصف ، وذلك الرجل لا يأوي المدائن والقرىٰ ، وعليه عباءة قد شدها علىٰ عنقه ، فقال له : يا أبا عبد الله ؛ إن الله عز وجل قد رضيك له وافداً ، فانظر ألاَّ يكون وفودك على المسلمين وفوداً مشؤوماً ، واعلم : أن الناس إنما ينتظرون ما تقول فيقولون به ، واعلم : أنما هو الموت والجنة ، ثم مضىٰ .

فلما أشرفنا علىٰ البَذَنْدون[2] . . قال لي : يا أحمد بن غسان ؛ إني موصيك بوصية فاحفظها عني ، راقب الله تعالىٰ في السراء والضراء ، واشكره على الشدة والرخاء ، وإن دعانا هـٰذا الرجل إلىٰ أن نقول : القرآن مخلوق . . فلا تقل ، وإن أنا قلت ـ والعياذ بالله تعالىٰ ـ فلا تركن إليَّ ، وتأوَّلْ قول الله عز وجل : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ .

ثم لم يكن بأسرع من أن جاء إلينا رجاء الحضاري ، فقال : هـٰؤلاء الأشقياء ؟ فقال له أحمد ابن حنبل : يا عدو الله ؛ أنت تقول القرآن مخلوق ونكون نحن الأشقياء ؟! ثم أُنزلنا من المحامل وصرنا في خيمة ، فلم يكن بأسرع من أن جاءنا خادم وهو يمسح الدموع عن وجهه وعينيه ، ويقول : عز عليَّ يا أبا عبد الله ، قد جرد أمير المؤمنين سيفاً لم يجرده قط ، وبسط نطعاً لم يبسطه قط ، ثم قال : وقرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا رفعتُ السيف عن أحمد وصاحبه حتىٰ يقولا القرآن مخلوق ، قال : فنظرت إلىٰ أحمد وقد جثا علىٰ ركبتيه ولحظ السماء بعينيه ، ثم قال : إلـٰهي وسيدي ؛ علا عن هـٰذا الفاجر حلمك حتىٰ يتجرأ علىٰ أوليائك بالقتل ؟! اللهم ؛ فإن يكن القرآن كلامك منزل غير مخلوق . . فاكفنا أمره ، قال : فوالله ؛ ما مضى الثلث الأول . . إلا ونحن بصيحة وضجة ، وإذا رجاء الحضاري قد أقبل علينا ، وقال : صدقت يا أبا عبد الله ، القرآن كلام الله غير مخلوق ، قد مات ـ والله ـ أمير المؤمنين .

---

(١) **رجاء بن أيوب الحِضاري** : أحد قوَّاد الدولة العباسية في زمن المأمون وخلفائه .

(٢) **البذندون** : قرية بينها وبين طرسوس يوم ، مات بها المأمون ، فنقل إلىٰ طرسوس .

وقال يوسف بن يعقوب بن الفرج : سمعت علي بن محمد القرشي قال : لما قدم أحمد ابن حنبل ليُضرب بالسياط ، وجُرِّد فلم يبق عليه سوى السراويل ، فبينا هو يضرب . . إذ انحل السراويل ، فجعل يحرك شفتيه ، فرأيت يدين خرجتا من تحته وهو يُضرب ، فشدتا السراويل ، قال : فلما كان بعد ذلك . . سألته ما الذي كان يحرك به شفتيه حين انحل السراويل ، فقال : قلت : يا من لا يعلم العرش منه أين هو إلا هو ؛ إن كنت أنا على الحق . . فلا تُبْدِ عورتي .

وقال صالح : لما جاء نعي المأمون . . رُدَّ أبي ومحمد بن نوح إلى الرَّقَّة ، وأخرجنا من الرَّقَّة في سفينة ، فلما كان [في] بعض الطريق . . توفي محمد بن نوح ، فتقدم أبي وصلىٰ عليه ، ثم حُمل أبي إلىٰ بغداد وهو مقيد ، فمكث أياماً في دار ، ثم صير إلى الحبس في دار ، ثم حمل إلىٰ حبس العامة في درب الموصلية ، فمكث في السجن ـ من حين أخذ وحمل إلىٰ أن ضُرب ، وخلي عنه ـ ثمانية وعشرين شهراً ، قال أبي : وكنت أصلي بهم وأنا مقيد ، وكنت أرىٰ بوران يحمل إليه الماء البارد في دورق[1] ، ويجيء به إليه في السجن ، قال صالح : قال أبي : فلما كان شهر رمضان لسبع عشرة خلت منه . . حُوِّلْتُ من السجن إلىٰ دار إسحاق بن إبراهيم وأنا مقيد بقيد واحد ، يُبعث إليَّ في كل يوم رجلان سماهما أبي ، وهما : أحمد بن رباح ، وأبو شعيب الحجام ، فيكلماني ويناظراني ، فإذا أرادا الانصراف . . دعي بقيد آخر قيدت به ، فمكثت علىٰ هٰذه الحال ثلاثة أيام ، وصار في رجلي أربعة أقياد .

فقال لي أحدهما في بعض الأيام في كلام دار بيننا ، وسألته عن علم الله تعالىٰ ، فقال : علم الله تعالىٰ مخلوق ، فقلت له : يا كافر ؛ كفرت ، فقال لي الرسول الذي كان يحضر معهم من قبل إسحاق : هٰذا رسول أمير المؤمنين ، فقلت له : هٰذا قد كفر ، وكان صاحبه الذي يجيء معه خارجاً ، فلما دخل . . قلت له : إن هٰذا زعم أن علم الله تعالىٰ مخلوق ، فنظر إليه كالمنكِر عليه ، ثم قاما وانصرفا .

قال أبي : فلما كانت الليلة الرابعة بعد العشاء الآخرة . . بعث المعتصم مملوكاً له اسمه بغا إلىٰ إسحاق بن إبراهيم يأمره بحملي ، فأُدخلت إلىٰ إسحاق ، فقال : يا أحمد ؛ إنها والله نفسك ، فانظر لها ، إنه قد حلف أنه لا يقتلك بالسيف بل يضربك ضرباً بعد ضرب ،

---

(١) **الدورق** : إناء للشراب ، فارسي معرَّب .

ويلقيك في موضع لا ترىٰ فيه الشمس ، أليس قد قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ ؟ أفيكون مجعولاً إلا مخلوقاً ؟ فقال له أبي : قد قال الله عز وجل : ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ أفخلقهم ؟ قال إسحاق : اذهبوا به .

قال أبي : فأُنزلت إلىٰ شاطىء دجلة ، وأُخذت إلى الموضع المعروف بباب البستان ومعي بغا الكبير ورسول من قبل إسحاق ، قال : فقال بغا لمحمد المحاربي بالفارسية : ما تريدون من هـٰذا الرجل ؟ فقال : يريدون منه أن يقول القرآن مخلوق ، فقال : أنا ما أعرف شيئاً من هـٰذا ، ما أعرف إلا قول : لا إلـٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وقرابة أمير المؤمنين من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما وصلنا أُخرجت من السفينة ، وجُعلت علىٰ دابة والأقياد في رجلي ، وما معي أحد يمسكني ، فبقيت كأني أُجرُّ علىٰ وجهي حتى انتهينا إلى الدار ، فأُدخلت ، ثم عُرج بي إلىٰ حجرة ، فصُيِّرت في بيت منها ، وأُغلق الباب ، وأُقعد عليه رجل ، وكان ذلك في جوف الليل ، وليس عندي سراج ، فاحتجت إلى الوضوء ، فمددت يدي أطلب شيئاً ، فإذا أنا بإناء فيه ماء وطست ، فتوضأت وقمت أصلي .

فلما أصبحت . . جاءني الرسول ، فأخذ بيدي وأدخلني الدار ، وإذا الخليفة جالس وابن أبي دؤاد حاضر ، وقد جمع أصحابه والدار غاصة بأهلها ، فلما دنوت منه . . سلمت ، فقال لي : ادنه ادنه ، فلم يزل يدنيني حتىٰ قربت منه ، ثم قال لي : اجلس ، فجلست ، وقد أثقلتني الأقياد ، فلما مكثت ساعة . . قلت : أتأذن لي في الكلام ؟ قال : تكلم ، فقلت : إلىٰ أي شيء دعا الله عز وجل رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : إلىٰ شهادة أن لا إلـٰه إلا الله ، فقلت : أنا أشهد أن لا إلـٰه إلا الله ، ثم قلت له : إن جدك عبد الله بن عباس رضي الله عنهما روىٰ : أن وفد عبد القيس لما قدموا علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم . . أمرهم بالإيمان بالله وحده ، قال : « أتدرون ما الإيمان بالله وحده ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « شهادة أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وأن تعطوا الخمس من المغنم »[1] ، فقال المعتصم : لولا أني وجدتك في يد من كان قبلي . . ما تعرضت لك ، ثم التفت إلىٰ عبد الرحمـٰن بن إسحاق ، فقال له : يا عبد الرحمـٰن ؛ ألم آمرك برفع المحنة ؟ قال أبي : فقلت في نفسي : الله أكبر ، إن في هـٰذا لفرجاً على المسلمين ، ثم قال المعتصم : ناظروه ، كلموه ، ثم قال :

---

(١) أخرجه بنحوه ابن حبان (١٧٢) .

يا عبد الرحمٰن ؛ كلمه ، فقال لي عبد الرحمٰن : ما تقول في القرآن ؟ فقلت : ما تقول في علم الله تعالى ؟ قال : فسكت ، قال أبي : وجعل يكلمني هٰذا وهٰذا ، فأرد علىٰ ذا وأكلم ذا ، ثم أقول : يا أمير المؤمنين ؛ أعطوني شيئاً من كتاب الله عز وجل أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم أقول به ، قال : فيقول ابن أبي دؤاد : وأنت لا تقول إلا ما في كتاب الله تعالىٰ أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ؟!

ثم قال ابن أبي دؤاد : هٰذا ـ والله ـ يا أمير المؤمنين ضال مضل مبتدع ، وهٰؤلاء قضاتك والفقهاء ، فسلهم ، فيقول لهم : ما تقولون ؟ فيقولون : يا أمير المؤمنين ؛ هو ضال مضل مبتدع ، ثم إنهم لم يزالوا معي في جدال ، وجعل صوتي يعلو علىٰ أصواتهم ، فقال لي إنسان منهم : قال الله سبحانه وتعالىٰ : ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ ، أفيكون محدثاً إلا مخلوقاً ؟ فقال : فقلت له : ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ ، فالذِّكر هنا هو القرآن ، وهناك ليس فيه ألف ولام ، فليس هو القرآن ، قال : فجعل ابن سماعة لا يفهم ما أقول ، فجعل يقول : ما الذي تقولون ؟ فقالوا : إنا نقول كذا وكذا ، فقال لي إنسان : ما تقول في حديث خباب : « تقرب إلى الله تعالىٰ ما استطعت ؛ فإنك لن تتقرب إليه بشيء هو أحب إليه من كلامه »[1] ؟ فقال لهم أبي : وما الذي يلزم من هٰذا ؟ وجعل ابن أبي دؤاد ينظر إلىٰ أبي نظر الغيظ والغضب .

فقال بعضهم : أليس قد قال تعالىٰ : ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ ؟ فقلت : وقد قال الله تعالىٰ : ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ﴾ ، فدمرت كل شيء إلا ما أراد الله سبحانه وتعالىٰ .

وقال بعضهم : ما تقول في حديث عمران بن الحصين : « أن الله تعالىٰ خلق الذكر » ؟ قلت : هٰذا خطأ ، حدثنا غير واحد : « أن الله تعالىٰ كتب الذكر »[2] .

وكان إذا انقطع الرجل منهم ؛ اعترض ابن أبي دؤاد ، فتكلم ، فلما قارب الزوال ؛ قال لهم : قوموا ، ثم احتبس عبد الرحمٰن بن إسحاق ، وخلا بي وبعبد الرحمٰن ، وجعل يقول لي : أما تعرف صالحاً الرَّشِيدي ؟ وكان مؤدبي ، وكان في هٰذا الموضع جالساً ، وأشار إلىٰ ناحية من الدار ، وذكر القرآن ، فخالفني ، فأمرت به ، فسُحب ووُطىء إلىٰ أن مات ، ثم إن عبد الرحمٰن جعل يقول : يا أمير المؤمنين ؛ إني أعرفه منذ ثلاثين سنة ، وهو يرىٰ طاعتك وطاعة مَن قبلك والحج والجهاد معك ، وهو لازم لمنزله ، فقال المعتصم :

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٧٩) .

(٢) أخرجه البخاري في « التاريخ الكبير » (٤/ ٣٠٥) .

والله ؛ إنه لفقيه ، وإنه لعالم ، ويسرني أن يكون مثله معي يرد علىٰ أهل الملل ، ولئن أجابني إلىٰ شيء له فيه أدنىٰ فرج ؛ لأطلقن عنه بيدي ، ولأطأن عقبه ، ولأركبن إليه بجندي ، ثم يلتفت إلي ويقول : ويحك يا أحمد! ما تقول ؟ فأقول : يا أمير المؤمنين ؛ أعطوني شيئاً من كتاب الله تعالىٰ أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

فلما طال بنا المجلس ؛ ضجر وقام ، ورددت إلى الموضع الذي كنت فيه ، ثم وجه إلي برجلين من أصحاب ابن أبي دؤاد يناظراني إلىٰ وقت الفطر ، فإذا حان وقت الفطر ؛ بعث إلينا مائدة ، فأكلا منها ، وأنا أتعلل حتىٰ ترفع المائدة ، ثم يقيمان عندي طول الليل ، وفي خلال ذلك يجيء ابن أبي دؤاد ، فيقول : يا أحمد ؛ أمير المؤمنين يقول لك : ما تقول في القرآن ؟ فأقول : أعطوني شيئاً من كتاب الله تعالىٰ أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم حتىٰ أقول به ، فقال لي : والله ؛ لقد كتب اسمك في السبعة فمحوته ، ولقد ساءني أخذهم إياك ، إنه ـ والله ـ ليس يقتلك بالسيف ، وإنما هو ضرب بعد ضرب ، ثم يقول : ما تقول ؟ فأرد عليه كما رددت أولاً ، فيمضي من عندي ، ثم يأتيني رسوله ، فيقول : إن أمير المؤمنين يقول لك : ما تقول ؟ فأرد عليه كالأول ، ولا تزال رسله تختلف فيما بيني وبينه ، وهم يقولون : أمير المؤمنين يقول : أجبني حتىٰ أطلق عنك بيدي .

فلما كان في اليوم الثاني ؛ أُدخلت عليه ، فقال : ناظروه وكلموه ، قال : فشرعوا في الكلام من كل ناحية ، يتكلم هـٰذا من هنا وهـٰذا من هنا ، فأرد عليهم ، فإذا شرعوا في شيء مما ليس من الأدلة الشرعية ؛ أقول لهم : ما أدري ما تقولون ، فيقولون : يا أمير المؤمنين ؛ إذا توجه له الحجة علينا ؛ وثب ، وإذا كلمناه بشيء من الكلام ؛ يقول : لا أدري ، ما هـٰذا ؟ فيقول الخليفة : ناظروه ، ثم يلتفت الخليفة إلي ويقول : يا أحمد ؛ إني عليك شفيق ، ويقول ابن أبي دؤاد : والله يا أمير المؤمنين ؛ لئن أجابك إلىٰ ما تقول ؛ لهو أحب إلي من مئة ألف دينار ومئتي ألف دينار ، ويعد ما شاء الله .

ثم من بعد ذلك أمرهم الخليفة بالانصراف ، وخلا بي وبعبد الرحمن ، فدار بيننا كلام كثير وفي خلال ذلك يقول : أندعو ابن أبي دؤاد ، فأقول : ذاك إليكم ، فيطلبه ، فيجيء ويدور بيننا كلام كثير ، إلىٰ أن طال المجلس وضجر الخليفة ، فقام ، ورُددت أنا إلى الموضع الذي كنت فيه ، وجاءني الرجلان اللذان كانا عندي بالأمس ، وجعلا يتكلمان وأنا أرد عليهما إلىٰ وقت الإفطار ، فلما جيء بالطعام ؛ أفطرا ، وأنا أتعلل ، ورسل الخليفة تأتيني كالليلة الماضية .

ثم جاء ابن أبي دؤاد فقال : إن الخليفة قد حلف أنه لا يزال يضربك ضرباً بعد ضرب ويحبسك في موضع لا ترىٰ فيه الشمس ، ولم يزل يكلمني وأنا أرد عليه إلىٰ قريب الفجر ، ثم مضىٰ ، فقلت : إن يحدث في هـٰذا اليوم من أمري شيء ، وكنت قبل ذلك قد أخرجت تكتي من سراويلي شددت بها الأقياد أحملها بها إذا توجهت إليه ، فقلت لبعض الموكَّلين بي : أريد خيطاً ، فجاءني بخيط فشددت به الأقياد ، وأعدت التكة إلىٰ سراويلي ؛ خيفة أن يحدث شيء فتبدو عورتي ، فلما أصبحنا في اليوم الثالث ؛ أُدخلت عليه والمجلس غاص محفل ، وجعلوا يدخلوني من دار إلىٰ دار ، وقوم معهم السيوف ، وقوم معهم السياط إلىٰ غير ذلك من الأسلحة ، وقد امتلأت الدار بالجند بخلاف اليومين الماضيين ، فلما وصلت إليه ؛ قال : ناظروه ، كلموه ، فشرعوا في المناظرة ، ولم نزل في حِجَاج وجدال إلىٰ أن ارتفع النهار ، وجاء الوقت الذي يخلو معي ، نحاني ، وجمعهم ، وشاورهم ، ثم نحاهم ، ودعاني ، فلما جئت ؛ خلا بي وبعبد الرحمـٰن ، وقال لي : ويحك يا أحمد! أنا ـ والله ـ عليك شفيق ، وإني لأشفق عليك مثل شفقتي على ابني هارون ، فأجبني ، فأرد عليه كما رددت أولاً .

وفي رواية أخرىٰ : قال لي : من أين قلت هـٰذا ؟ قلت : من كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فقال : استدِلَّ علىٰ ذلك ، فقلت : حدثني عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزهري ، عن سالم ، عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله سبحانه وتعالىٰ كلم موسىٰ عليه الصلاة والسلام بمئة ألف كلمة وعشرين ألف كلمة وثلاث مئة كلمة وثلاث عشرة كلمة ، وكان الكلام من الله عز وجل والاستماع من موسىٰ عليه الصلاة والسلام » ، فقال الخليفة : كذبت علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أحمد : قال الله عز وجل في محكم كتابه العزيز : ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ ، قال : فالتفت الخليفة إلى ابن أبي دؤاد وابن الزيات ، وقال : ناظروه ، كلموه ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ؛ اقتله ، ودمُه في أعناقنا ، قال : فرفع الخليفة يده ولطم بها وجه أحمد ابن حنبل رحمه الله ، فخر مغشياً عليه ، قال : فتعرق وتمعر وجوه قواد خراسان ، وكان عمه فيهم ، فخاف الخليفة علىٰ نفسه ، ودعا بماء فرش منه علىٰ وجهه ، فلما أفاق ؛ رفع رأسه إلىٰ عمه وهو واقف بين يدي الخليفة ، فقال له : يا عم ؛ لعل هـٰذا الماء الذي رُش منه علىٰ وجهي غصب عليه صاحبه ، فقال الخليفة عند ذلك : ويحكم! أما ترون ما يهجم عليَّ من هـٰذا ؟ وقرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لا رفعت السوط

عنه حتىٰ يقول : القرآن مخلوق ، ثم التفت إلىٰ أحمد ، وأعاد عليه القول ، فرد أحمد كالأول ، ولا زال كذلك حتىٰ ضجر وطال المجلس ، فعند ذلك قال : عليك لعنة الله ، لقد كنت طمعت فيك ، خذوه ، خَلِّعوه ، اسحبوه[1] .

قال أحمد : فأخذت وسجنت ، ثم خُلِّعت ، ثم قال الخليفة : عليَّ بالعُقَابَيْن[2] والسِّياط ، فجيء بالعقابين والسياط ، قال أحمد : وكان عندي شعرات من شعر النبي صلى الله عليه وسلم ، فصررتها في كم قميصي ، فنظر إسحاق بن إبراهيم إلى الصرة ، فقال : ما هـٰذا ؟ فقلت : شعر من شعر النبي صلى الله عليه وسلم ، وجاء بعض القوم إلىٰ قميصي ليحرقه ، فقال لهم الخليفة : لا تحرقوه ، انزعوه عنه ، وإنما درىء عن القميص الحَرْق ببركة شعر النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لكونه فيه ، ثم صيرت بين العقابين ، وشدت يداي ، وجيء بكرسي ، فجلس عليه المعتصم ، وابن أبي دؤاد قائم ، والناس أجمعون قيام ، ثم قال لي إنسان : أمسك رأس الخشبتين بيديك ، وشد عليهما ، فلم أفهم مقاله ، فلم أفعل ، فتخلعت يداي لما شُدَّت ، ولم أكن أحسن أن أمسك الخشبتين كما قيل لي ، فلم يزل أحمد رحمه الله يتوجع منهما إلىٰ أن مات .

ثم قال الخليفة للجلادين : تقدموا ، ونظر إلى السياط ، فقال : ائتوني بغيرها ، ثم قال لهم : تقدموا ، وقال لأحدهم : ادنه ، أوجع قطع الله يدك ، فتقدم ، فضربني سوطين ، ثم تنحىٰ ، ثم قال لآخر : ادنه ، وشد قطع الله يدك ، فتقدم ، فضربني سوطين ، ثم تنحىٰ ، ولم يزل يستدعي جلاداً بعد جلاد ، فيضربني كل واحد سوطين ويتنحىٰ ، ثم قام المعتصم ، وجاءني ، وهم محدقون بي ، فقال لي : ويحك يا أحمد! تقتل نفسك ، أجبني حتىٰ أطلق عنك بيدي .

قال : وجعل بعضهم يقول لي : إمامك علىٰ رأسك قائم ، وعجيف ينخسني بقائم سيفه ، ويقول : أتريد أن تغلب هـٰؤلاء كلهم ، وإسحاق بن إبراهيم يقول : ويلك! الخليفة قائم علىٰ رأسك ، وبعضهم يقول : يا أمير المؤمنين ؛ دمه في عنقي ، قال : فرجع المعتصم إلى الكرسي ، ثم قال للجلادين : ادنه قطع الله يدك ، شد قطع الله يدك ، ثم لم يزل يدعو بجلاد بعد جلاد ، فيضربني كل واحد سوطين ويتنحىٰ ، وهو يقول له : شد قطع الله يدك ، ثم جاء إلي ثانياً ، وقال لي : يا أحمد ؛ أجبني ، وعبد الرحمـٰن بن إسحاق

---

(١) في نسخة : (اسجنوه) .

(٢) **العقابان** : خشبتان تغزران بالأرض بينهما جِلْد ، يلقىٰ عليه الرجل المضروب ممدوداً .

يقول : مَن صنع بنفسه من أصحابك مثل ما صنعت أنت بنفسك ؟ هـٰذا فلان ، وهـٰذا فلان ، يعد عليَّ مَن أجاب ، والمعتصم يقول : ويحك! أجبني حتىٰ أطلق عنك بيدي ، فأرد كالأول ، فرجع وجلس على الكرسي ، ثم قال للجلادين : شد قطع الله يدك .

قال أحمد : فذهب عقلي ، وما عقلت إلا وأنا في حجرة مطلق عني الأقياد ، فقال لي إنسان ممن حضر : إنا كببناك علىٰ وجهك ، وطرحنا علىٰ ظهرك بارية ، ودسناك ، فقلت : والله ؛ ما شعرت بذلك ، ثم جاؤوني بسويق ، وقيل لي : اشرب وتقيَّأ ، فقلت : لا أفطر .

ثم جيء بي إلىٰ دار إسحاق بن إبراهيم ، ونودي لصلاة الظهر ، فصلينا الظهر ، فقال لي ابن سماعة : أصليت والدم يسيل من ضربك ؟ فقلت له : قد صلىٰ عمر بن الخطاب رضي الله عنه وجرحه يثعب[1] دماً ، فسكت .

ثم خُلِّيَ عني ، فجئت إلى المنزل ، ثم وجَّه إلي المعتصم رجلاً ينظر الضرب والجراحات ، ويعالج ، فنظر ، وقال : والله ؛ لقد رأيت مَن ضُرب ألف سوط ، وما رأيت ضرباً أشد من هـٰذا ، ثم أدخل مِيلاً في بعض تلك الجراحات ، ومكث زمانا يتردد إليه ويعالجه ، وكان قد أصاب وجهه غيرما ضربة ، واستمر ما شاء الله يعالج فيه ، ثم قال : إن هـٰهنا شيئاً لا بد من قطعه ، فجاء بحديدة ، وجعل يعلق اللحم بها ، ويقطع مواضع ، وبقي أثرُ الضرب بيِّناً في ظهره إلىٰ أن مات رحمه الله .

قال صالح : سمعت أبي يقول : والله يا بني ؛ لقد أعطيت المجهود من نفسي ، ولوددت أني أنجو من هـٰذا الأمر كفافاً لا علي ولا لي .

قال صالح : وأخبرني أحد الرجلين اللذين كانا معه قال : والله ؛ ما رأيت أحداً بعيني كان يشبهه ، ولقد كنت أقول له لما يجيء الطعام : يا أبا عبد الله ؛ أنت صائم وعطشان ، وهـٰذا الماء والثلج ، فينظر إليه ولا يشرب منه ، وكنت أعجب من صبره على الجوع والعطش ، وما هو فيه من الهول .

قال صالح : وكنت أحتال أن أوصل إليه طعاماً أو رغيفاً ، فلم أقدر علىٰ ذلك ، وأخبرني رجل ممن حضره ، قال : لقد ترصدته في أيام المناظرة وهو في تلك المحنة ، فما لحن في كلمة ما ، وما ظننت أن أحداً يكون في شجاعة هـٰذا وشدة قلبه .

وقال صالح : دخلت علىٰ أبي يوماً ، فقلت له : بلغني أن رجلاً جاء إلىٰ فضل

---

(١) يثعب : يسيل .

الأنماطي ، فقال له : اجعلني في حل إذ لم أقم بنصرك ، فقال فضل : لا جعلت أحداً في حل ممن قدر علىٰ نصرتي وتأخر ، فتبسم أبي وسكت ، فلما كان بعد ثلاثة أيام ؛ قال لي أبي : قد مررت بهـٰذه الآية الكريمة : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ فنظرت في تفسيرها ؛ فإذا هو ما حدثني به هاشم بن القاسم بن المبارك ، حدثني من سمع الحسن قال : (إذا جثت الأمم بين يدي رب العالمين يوم القيامة ؛ نودوا : ليقم من أجره على الله ، فلا يقوم إلا من عفا في الدنيا)[1] ، قال أبي : فجعلت الميت في حلٍّ من ضَرْبِه إياي ، ثم جعل أبي يقول : وما علىٰ رجل ألا يعذِّب اللهُ عز وجل بسببه أحداً ؟

قال : ثم إن إسحاق بن إبراهيم وجه إلىٰ أحمد ، وقال له : الزم بيتك ، ولا تخرج إلىٰ جمعة ولا جماعة ، وإلا . . نزل بك ما نزل في أيام المعتصم ، ثم إن أحمد أقام مختفياً لا يخرج إلىٰ صلاة ولا إلىٰ غيرها إلىٰ أن مات الواثق ، وولي المتوكل ، ورفع المحنة ، وأظهر العدل والسنة .

وقال عبد الله بن أحمد : قال أبي : أول سماعي من هُشيم سنة تسع وسبعين ومئة ، وكان ابن المبارك قد قدم في هـٰذه السَّنة ، وهي آخر قَدْمةٍ قَدِمَها ، فذهبت إلىٰ مجلسه ، فقالوا : قد خرج إلىٰ طرسوس ، فتوفي سنة إحدىٰ وثمانين ومئة .

قال عبد الله : وخضب أبي رأسه ولحيته ، وهو ابن ثلاث وستين سنة ، وطلب الحديث وهو ابن ست عشرة سنة ، ومات هشيم وقد بلغ أبي من العمر عشرين سنة .

وقال محمد بن عبد الملك : رأيت يزيد بن هارون يصلي ، فجاء إليه أحمد ابن حنبل ، فلما فرغ من الصلاة ؛ التفت إلىٰ أحمد ، وقال له : يا أبا عبد الله ؛ ما تقول في العارية ؟ قال : مؤداة ، فقال يزيد بن هارون : أخبرنا حجاج بن الحكم أنه قال : ليست بمضمونة ، فقال له أحمد : قد استعار النبي صلى الله عليه وسلم من صفوان بن أمية أدراعاً ، فقال له : عارية مؤداة ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « عارية مؤداة »[2] ، فسكت يزيد بن هارون ، وصار إلىٰ قول أحمد .

وقال قتيبة بن سعيد : لولا سفيان الثوري ؛ لمات الورع ، ولولا أحمد ابن حنبل ؛ لأُدخِل في الدِّين .

---

(١) أخرجه بنحوه الطبراني في « الأوسط » (٢/ ٢٨٥) .

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٥٤) .

وقال نوح بن حبيب : رأيت أبا عبد الله أحمد ابن حنبل في مسجد الخَيف في سنة ثمان وتسعين ومئة ، وهو مستند إلى المنارة ، وقد جاءه أصحاب الحديث ، فجعل يعلمهم الفقه والحديث ، ويفتي الناس في المناسك وقد ازدحموا عليه .

وقال عبد الرحمٰن بن مهدي : أحمد ابن حنبل أعلم الناس بحديث سفيان الثوري .

وقال صالح : قال أبي : جاء رجل إلىٰ باب ابن علية ومعه كتب هُشَيم ، فجعل يلقيها عليَّ وأنا أقول : هٰذا إسناده كذا ، وهٰذا إسناده كذا ، فجاء المعيطي ـ وكان يحفظ ـ فقلت له : أجبه ، فبقي[1] ، قال أبي : وأعرف من حديثه ما لم أسمع ، وكتبت عنه في سنة تسع وسبعين ومئة ، غير أني لا أعتقد بعض سماعي ، ولزمناه من حين سمعنا عليه إلىٰ سنة ثلاث وثمانين ، وفيها مات ، وكتبنا عنه كتاب الحج نحواً من ألف حديث ، وبعض التفسير والقضاء ، وكتباً صغاراً ، قال : قلت : يا أبت ؛ أيكون نحواً من ثلاثة آلاف حديث ؟ قال : أكثر .

وقال أبو زرعة : ما رأيت مثل أحمد في فنون العلم ، وما قام أحد مثل ما قام أحمد به .

وقال أحمد : كل شيء سمعته من هشيم . . حفظته وهشيم حي .

وقال علي بن المديني : ليس في أصحابنا أحفظ من أحمد ابن حنبل ، وبلغني أنه لا يحدث إلا من كتابه ، ولنا فيه أسوة .

وقال يحيى بن سعيد القطان : ما قدم عليَّ مثل هٰذين الرجلين : أحمد ابن حنبل ، ويحيى بن مَعين .

وقال إبراهيم بن إسحاق الحربي : أئمة الناس : سعيد بن المسيب في زمانه ، وسفيان الثوري في زمانه ، وأحمد ابن حنبل في زمانه .

وقال الهيثم بن جميل : إن لكل زمن رجلاً يكون حجة على الخلق ، وإن الفضيل بن عياض حجة علىٰ أهل زمانه ، وأظن إن عاش هٰذا الفتىٰ ـ أعني أحمد ابن حنبل ـ سيكون حجة علىٰ أهل زمانه .

وقال أبو زرعة : سمعت قتيبة بن سعيد يقول : يموت أحمد ابن حنبل وتظهر البدع ، ومات الشافعي وماتت السنن ، ومات الثوري ومات الورع .

---

(١) أي : أسقط في يده ولم يجب .

وقال يحيى بن معين : أراد الناس منا أن نكون مثل أحمد ابن حنبل ، لا والله ؛ ما نقوىٰ علىٰ ما يقوىٰ عليه ، ولا علىٰ طريقه .

وقال أبو زرعة : لم أزل أرى الناس يذكرون أحمد ويقدمونه علىٰ يحيى بن معين وأبي خيثمة .

وقال أبو يحيى الناقد : قد كنا عند إبراهيم بن عرعرة ، فذكروا عَلِيَّ بن عاصم ، فقال رجل : أحمد ابن حنبل يضعفه ، فقال رجل آخر : وما يضره من ذاك إذا كان ثقة ، فقال إبراهيم بن عرعرة : والله ؛ لو تكلم أحمد ابن حنبل في من هو أكبر منه ؛ لضره . أو كما قال .

وقال أحمد ابن حنبل : كنت مقيماً علىٰ يحيى بن سعيد القطان ، ثم خرجت إلىٰ واسط ، فسأل يحيى بن سعيد عني ، فقالوا : خرج إلىٰ واسط إلىٰ يزيد بن هارون ، قال : وأي شيء يصنع عند يزيد بن هارون ؛ يعني : هو أعلم منه .

وقال خلف بن سالم : كنا في مجلس يزيد بن هارون ، فمزح يزيد مع مستمليه ، فتنحنح أحمد ، فقال يزيد : مَنِ المتنحنح ؟ قالوا : أحمد ابن حنبل ، فضرب بيده وقال : ألا أعلمتموني أن أحمد هـٰهنا ؛ لئلا أمزح ؟

وقال محمد بن الحسين الأنماطي : كنا في مجلس فيه يحيى بن معين وأبو خيثمة وزهير بن حرب وجمع آخرون ، فشرعوا في الثناء علىٰ أحمد وذِكر فضائله ، فقال رجل : لا تكثروا ، فقال يحيى بن معين : أتحسب أن كثرة الثناء علىٰ أحمد تُستَكْثَر ؟ لو جلسنا مجالسنا بالثناء عليه ؛ ما ذكرنا فضائله جميعها .

وقال عبد الله بن أحمد : سمعت أبي يقول : قال لي محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله : يا أبا عبد الله ؛ إذا صح عندكم الحديث ؛ فأخبرونا به حتىٰ نرجع إليه .

وفي رواية أخرىٰ : قال الشافعي لأحمد : أنت أعلم بالأخبار الصحاح منا ، فإذا كان خبر صحيح ؛ فأعلمني به حتىٰ أذهب إليه ، كوفياً كان أو بصرياً أو شامياً .

وقال عبد الله : جميع ما قال الشافعي في كتابه : حدثني الثقة أو أخبرني الثقة ؛ فهو أبي .

وقيل لبشر بن الحارث رحمه الله : لو قمت وتكلمت أيام محنة أحمد ، فقال بشر :

أتأمروني أن أقوم مقام الأنبياء ، إن أحمد قام مقام الأنبياء ، ثم قال : إن أحمد أُدخِلَ الكير[1] ، فخرج ذهبة حمراء .

وقال زهير بن حرب : ما رأيت مثل أحمد ، ولا أشد قلباً منه حين قام ذلك المقام ، ورأىٰ ما يمر به من الأهوال والقتل والضرب ، وثبت علىٰ ذلك ، وما رأيت أحداً صبر علىٰ ما صبر عليه ، أو كما قال .

وقال إسحاق بن راهويه : لولا أحمد وبَذْل نفسه لَمَّا بذلها ؛ لذهب الإسلام .

وقال شجاع بن مخلد : كنت عند أبي الوليد الطيالسي ، فورد عليه كتاب أحمد ، فسمعته يقول : ما بالبصرتين ـ يعني : البصرة والكوفة ـ أحب إلي من أحمد ، ولا أرفع قدراً منه .

وقال مهنا بن يحيىٰ : رأيت يعقوب بن إبراهيم بن سعد الزهري حين أخرج أحمد ابن حنبل من الحبس وهو يقبل جبهته ووجهه ، وكذلك سليمان بن داوود الهاشمي .

وقال أحمد بن منصور : قال لي أبو عاصم حين أردت أن أودعه : أقرىء الرجل الصالح أحمد السلام .

وقال يحيى بن الجلا ـ وكان من أفاضل الناس ـ : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم واقفاً في صينية الكرخ ، وأحمد ابن حنبل جالس عن يمينه ، وابن أبي دؤاد عن يساره ، فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم وأشار إلى ابن أبي دؤاد ، فقال : « ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ » ، وأشار إلىٰ أحمد ابن حنبل [انتهىٰ « الحلية » ٩/ ١٦٢ـ١٧٢ و ١٩٤ـ٢٠٧] .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : قد حكي أن الشافعي رحمه الله لما كان بمصر ؛ رأىٰ في المنام سيد المرسلين محمداً صلى الله عليه وسلم وهو يقول له : « بشر أحمد ابن حنبل بالجنة علىٰ بلوىٰ تصيبه ؛ فإنه يُدْعىٰ إلى القول بخلق القرآن فلا يجيب إلىٰ ذلك ، بل يقول : هو منزل غير مخلوق » ، فلما أصبح الشافعي ؛ كتب صورة ما رآه في منامه ، وأرسله مع الربيع إلىٰ بغداد إلىٰ أحمد ، فلما وصل الربيع إلىٰ بغداد ؛ قصد منزل أحمد ، واستأذن ، فلما دخل عليه ؛ قال : هـٰذا كتاب أخيك الشافعي ، فقال له : هل تعلم ما فيه ؟ قال : لا ، قال : ففتحه وقرأه وبكىٰ ، وقال : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، ثم أخبرني بما فيه ، فقلت له : الجائزة ، وكان عليه قميصان ، أحدهما : علىٰ جسده ،

---

(١) **الكِير** : آلة يستخدمها الحديد في النفخ لإذكاء النار .

والآخر : فوقه ، فنزع الذي علىٰ جسده ودفعه إلي ، قال : فأخذته ورجعت إلى الشافعي ، فقال لي : بما أجازك ؟ فقلت : أعطاني القميص الذي علىٰ جسده ، فقال : أمَا إني لا أفجعك فيه ، ولٰكن اغسله وَأْتِني بمائِه ، فغسلته وأتيته بالماء ، فأفاضه علىٰ سائر جسده . انتهىٰ .

وقال الحافظ أبو نعيم : عن محمد بن زياد قال : أخبرنا ابن هانىء قال : كنت عند أحمد ، فقال له رجل : يا أبا عبد الله ؛ إني قد اغتبتك ، فاجعلني في حل ، فقال : أنت في حل إن لم تَعُدْ ، فقلت له : لِمَ جعلته في حل وقد اغتابك ؟ فقال : ألم ترني كيف اشترطت عليه ؟!

وقال علي بن المديني : دخلت منزل أحمد ، فما شبهت بيته إلا بما وصف من بيت سويد بن غفلة من زهده وتواضعه .

وقال إسماعيل ابن أبي الحارث : مر بنا أحمد ابن حنبل في قطيعة الربيع ، فقلنا لشخص عندنا : اتبعه وانظر أين يذهب ، فتبعه ، ثم جاء ، فقال : إنه راح إلى المروزي ـ شيخ كان عندنا ـ فلم يكن إلا ساعة ، ثم رجع أحمد ، فقلت للمروزي : في أي شيء جاء أبو عبد الله ؟ فقال : هو صديقي وبيني وبينه أُنس ، فألححنا عليه ، فقال : إنه كان قد استقرض مني مئتي درهم ، فجاء بها ، فقلت له : يا أبا عبد الله ؛ ما دفعتها إليك وأنا أريد أن آخذها منك ، فقال : وأنا ما أخذتها إلا وأنا قد نويت ردها عليك .

وكان رجل صيرفي يتردد إلىٰ أحمد ابن حنبل ، فأعطاه أحمد درهمين ، وقال : اشتر لي بها كاغداً ، فاشترىٰ له الكاغد ، وجعل في جوف الكاغد خمس مئة دينار ، وشده وأوصله إلىٰ بيت أحمد ، ولم يكن أحمد حاضراً ، فلما جاء ؛ قال لأهله : هل حُمل إليكم شيء من البياض ؟ قالوا : نعم ، فلما وضعوه بين يديه وفتحه ؛ تناثرت الدنانير ، فردها إلىٰ مكانها ، وسأل عن منزل الرجل حتىٰ دُلَّ عليه ، فقصده أحمد ، ووضع الكاغد بما فيه بين يديه ، فتبعه الرجل وهو يقول : يا سيدي ؛ الكاغد اشتريته بدراهمك ، خذه ، فلم يلتفت إليه ولم يأخذ الكاغد أيضاً .

وقال أبو جعفر بن دريج العكبري : قصدت أحمد لمسألة عرضت لي في سنة ست وثلاثين ومئتين ، فقالوا لي : إنه خرج إلى الصلاة ، فجلست علىٰ باب الدرب حتىٰ جاء ، فسلمت عليه ، فرد السلام ، وكان شيخاً مخضوباً طَويلاً أسمر شديد الأدمة ، فدخل الزقاق

وأنا معه ، فلما بلغنا آخر الدرب ؛ دفع باباً وصار خلفه ، وقال : اذهب عافاك الله ، فكلمته ، فقال : اذهب عافاك الله ، فالتفتُّ ، فإذا مسجد علىٰ باب داره وفيه شيخ مخضوب يصلي بالناس ، فجلست حتىٰ فرغ ، فسألت بعض من خرج من المسجد عن أحمد ، وعن السبب في أنه لم يحدثني ، فقال لي : إن أحمد قيل عنه عند السلطان : إن علوياً اختفىٰ عنده ، وجاء محمد بن نصر وأحاط بالمحلة وفتش ، فلم يجد شيئاً مما ذُكر ، فأحجم أحمد عن كلام العامة لذلك ، فقلت له : فهـٰذا الشيخ الذي يصلي بالناس مَن هو ؟ قال : إسحاق عم أحمد ، قلت : فلِمَ لا يصلي خلفه ؟ قال : إنه لا يكلمه ولا يكلم ولديه ؛ لأنهم قبلوا جائزة السلطان وأخذوها .

وقال أحمد ابن حنبل : عرض علي يزيد بن هارون خمس مئة درهم أو أكثر ، فلم أقبل منه ، وكان قد أعطىٰ يحيى بن معين وأبا مسلم المستملي ، فأخذا منه .

وقال أحمد بن سنان الواسطي : قدم علينا أحمد ومعه جماعة ، فنفدت نفقاتهم ، فبررتهم ، فأخذوا ، قال : جاءني أحمد بفروة ، وقال : قل لمن يبيع لي هـٰذه ، قال : فأخذت صرة دراهم وجئت بها إليه ، فلم يقبلها ، فقالت امرأتي : هـٰذا رجل صالح ، لعله لم يرضها ، فأضعِفْها له ، فأضعفتُها ، فلم يقبل ، وأخذ الفروة من يدي وخرج .

وقال صالح : بعث رجل من الصين جائزة إلى المحدثين منهم يحيىٰ وغيره ، ووجه إلىٰ أبي بِقِمَطْرٍ[1] ، فرده ، وجاء يحيى بن يحيى النيسابوري ـ وما خرج من خراسان بعد ابن المبارك مثل يحيى بن يحيىٰ ـ وقال : إن أبي أوصىٰ لك بهـٰذه المبطنة التي له ، وقال : تذكرني بها ، فقال له أحمد : نعم ، فأخرج رزمة ثياب معها ، فقال : اذهب رحمك الله ، ولم يقبل شيئاً .

وقال الحافظ أبو نعيم رحمه الله تعالىٰ : قال صالح : قلت لأبي : بلغني أن أحمد الدورقي أُعطي ألف دينار ، فقال : يا بني ؛ ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ ، وذكر رجل عنده بمال ، فقال : يا بني ؛ الفائز من فاز غداً ، ولم يكن لأحد عليه تبعة .

وقال : إنما هـٰذه أيام قلائل ، فاجتهد فيها بما ينجيك .

وكان قد مكث عند الخليفة ستة عشر يوماً بالعسكر ، ولم يذق في تلك الأيام إلا شيئاً يسيراً من السويق ، كل ليلة يستفُّ حفنة من السويق ، فلما رجع إلىٰ بغداد ؛ لم ترجع إليه

---

(١) **القمطر** : الوعاء الذي يحفظ فيه الكتب .

نفسه إلىٰ ستة أشهر ، ورأيت مُوقَيه[1] قد دخلا في حدقتيه .

وقال عمر بن صالح : وقع من يد أحمد مقراض في البئر ، فجاء شخص ، فأخرجه ، فناوله أحمد نصف درهم ، فقال ذلك الرجل : يا أبا عبد الله ؛ المقراض يساوي قيراطاً ، لا آخذ عليه أجرة ، ثم خرج ، فلما كان بعد أيام ؛ لقيه ، فقال له : كم اجتمع عليك من أجرة الحانوت ؟ فقال : ثلاثة أشهر تسعة دراهم ، فضرب علىٰ حسابه ، وقال : أنت في حل .

وقال عبد الله : نزلنا بمكة في دار فيها شيخ من أهل مكة ، فقالت له أمه : الزم هـٰذا الرجل واخدمه ؛ فإنه رجل صالح ، فكان ذلك الشيخ يخدم أبي ، فخرج يطلب الحديث ، فسُرق متاعه وقماشه ، فلما جاء أبي ؛ قالت له أم ذلك الشيخ : قد دخل السُّرَّاق وسرقوا قماشك ، فقال لها : فما فعلت الألواح ؟ قالت له : في الطاق ، وما سأل عن شيء غيرها ، ولقد أتته الدنيا بحذافيرها ، فدفعها عنه ، وصبر على الفقر سبعين سنة .

وقال إبراهيم بن هانىء : اختفىٰ عندي أحمد ثلاثة أيام ، ثم قال : اطلب لي موضعاً غير هـٰذا أنتقل إليه ، فقلت : لا آمَنُ عليك يا أبا عبد الله ، قال : افعل ، فإذا فعلتَ ؛ أفدتُك ، فطلبتُ له موضعاً ، فلما انتقل إليه ؛ قال لي : قد اختفىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار ثلاثة أيام ، ثم تحول وليس ينبغي أن يتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الرخاء فقط ، بل يتبع صلى الله عليه وسلم في جميع حالاته من الرخاء والشدة .

وقال هلال بن العلاء : شيئان لو لم يكونا في الدنيا ؛ لاحتاج الناس إليهما : محنة أحمد ابن حنبل ، لولاها ؛ لصار الناس جهمية ، ووجود الشافعي ؛ فإنه فتح للناس الأقفال .

وقال يحيى بن معين : ما رأيت مثل أحمد ، لقد صحبناه خمسين سنة ، فما افتخر علينا يوماً بشيء مما كان فيه من الصلاح والزهد والخير .

وقال إسحاق بن موسىٰ : دفع المأمون مالاً ، وقال : اقسموه علىٰ أصحاب الحديث ، فكل أخذ منه إلا أحمد ؛ فإنه لم يأخذ منه شيئاً .

وكان أحمد شديد الورع ، اشتهىٰ يوماً بعضُ أهله زبداً ، فأعطىٰ أحمد لرجل قطعة ، وقال : اشتر بها زبداً ، فاشترىٰ وجاء به علىٰ ورق سلق ، فلما نظر إليه ؛ قال له : من أين

---

(١) **الموق** : طرف العين مما يلي الأنف .

هـٰذا الورق ؟ فقال : أخذته من البقال ، قال : فهل استأذنته في ذلك ؟ قال : لا ، قال : رده .

وكان كثيراً ما يقول : اللهم ؛ سلِّم سلِّم .

وكان سعيد بن المسيب يقول : اللهم ؛ سلِّم سلِّم .

وكان عمر بن عبد العزيز يقول : اللهم ؛ سلِّم سلِّم .

وكان سفيان الثوري يقول : اللهم ؛ سلِّم سلِّم .

وقال أبو حفص عمر بن صالح الطرسوسي : ذهبت أنا ويحيى بن الجلاء ـ وكان يقال : إنه من الأبدال ـ إلىٰ أبي عبد الله أحمد ، فسألناه : بِمَ تلين القلوب ؟ فقال : بأكل الحلال ، فمررنا من عنده إلىٰ أبي نصر بشر بن الحارث ، فسألناه : بِمَ تلين القلوب ؟ فقال : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ ، فقلت له : إن أحمد سألته ، فقال : هيه! أيش قال لك أبو عبد الله ؟ فقلت : قال : بأكل الحلال ، فقال بشر : جاء بالأصل ، جاء بالأصل ، فمررت إلىٰ أبي الحسن عبد الوهاب ، فقلت له : يا أبا الحسن ؛ بِمَ تلين القلوب ؟ قال : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ ، قلت له : فإني جئت من عند أحمد ، فاحمرَّت وجنتاه من الفرح ، وقال لي : أيش قال لك أبو عبد الله ؟ فقلت : قال : بأكل الحلال ، فقال : جاء بالجوهر ، الأصل ما قال ، الأصل ما قال .

وسئل عبد الله بن أحمد فقيل : هل عقل أبوك عند المعاينة ؟ فقال : نعم ، كنا نوضئه ، فجعل يشير بيده ، فقال لي أخي صالح : أيش يقول ؟ قلت : إنه يقول : خللوا أصابعي ، فخللنا أصابعه ، فترك الإشارة ومات من ساعته ، ضحوة يوم الجمعة الثاني عشر من شهر ربيع الأول ، سنة إحدىٰ وأربعين ومئتين ، ودفن ببغداد ، وقبره بها مشهور ظاهر يُتبرك به ، رحمه الله تعالىٰ .

ولما طلبه الخليفة المتوكل وأمر بإكرامه وإعزازه والقرب منه والتبرك بدعائه ؛ قال عبد الله ابنه : لقد سمعته يقول : لقد تمنيت الموت في أيام المحنة وهـٰذا أشد علي من ذاك ؛ لأن ذاك فتنة الدنيا الضرب والحبس ، كان الله عز وجل يحمله عني ، وهـٰذا فتنة الدِّين ، نسأل الله تعالى العافية والسلامة .

وقال عبد الله : نظر أبي إلىٰ رِجْلَيَّ وهما لينتان ليس فيهما شقاق ، فقال : يا بني ؛ لِمَ لا تمشي حافياً حتىٰ تصير رجلاك خشنتين ؟

وكان أبي قد خرج إلىٰ طرسوس ماشياً ، ولما قدم من رحلته إلىٰ عبد الرزاق ؛ وجدت به تغيراً وضعفاً ، وقد تبين عليه أثر التعب والمشقة ، فقيل له : يا أبا عبد الله ؛ لقد شققت علىٰ نفسك في خروجك إلىٰ عبد الرزاق ، فقال : ما أهون هـٰذه المشقة في جنب ما استفدنا من عبد الرزاق ، لقد كتبنا عنه حديث الزهري عن سالم عن أبيه رضي الله عنهم ، وحديث الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنهم ، ثم قال : وما كتبنا عن عبد الرزاق من حفظه شيئاً ؛ إلا المجلس الأول ، وذلك أنا دخلنا عليه ليلاً ، فرأيناه جالساً ، فأملىٰ علينا سبعين حديثاً ، ثم التفتَ إلى القوم ، وقال : لولا هـٰذا ؛ ما حدثتكم .

وكان عبد الرزاق قد جالس مَعْمَراً تسع سنين ، وكتب عنه جميع ما قال ، ولما أُدخل أحمد على الخليفة المعتصم ـ وكان عنده ابن أبي دؤاد وخلائق ، منهم : أبو عبد الرحمـٰن ابن بنت الشافعي ، وكانوا قد هولوا عليه وأرجفوه ، فإنهم ضربوا عنق رجلين قدامه ـ فنظر أحمد إلىٰ أبي عبد الرحمـٰن وقال له : أي شيء تحفظ عن الشافعي في المسح ؟ فقال ابن أبي دؤاد : انظروا رجلاً يُقدَّم لضرب العنق وهو يناظر في الفقه .

وقال صدقة : رأيت في النوم كأنَّا بعرفة ، وكأن الناس ينتظرون الصلاة ، فقلت : لِمَ لا تصلون ؟ فقال لي قائل منهم : إنهم ينتظرون الإمام ، فجاء أحمد وصلىٰ بالناس ، فكان صدقة بعد ذلك إذا سئل عن شيء ؛ يقول : سلوا الإمام .

وقال محمد بن عمار : رأيت الخضر عليه الصلاة والسلام ، فسألته ، فقلت له : أخبرني عن أحمد ، فقال : صِدِّيق .

وفي رواية أخرىٰ : عن بلالٍ الخواص ، قلت له : ما تقول في بشر بن الحارث ؟ قال : لم يخلق[1] بعده مثله ، قلت : فما تقول في أحمد ؟ قال : صِدِّيق ، قلت : فما تقول في أبي ثور ؟ قال : رجل طالب حق ، قلت : فأنا بأي وسيلة رأيتك ؟ قال : ببِرِّك لأمك .

وقال إسحاق بن حكيم : رأيت أحمد في المنام ؛ فإذا بين كتفيه سطران مكتوبان كأنهما من نور : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ .

وقال عبد الله بن إسحاق المدائني : سمعت أبي يقول : رأيت في النوم كأن الحجر قد انصدع وخرج منه لواء ، فقلت : ما هـٰذا ؟ فقيل : أحمد ابن حنبل ، بايع الله عز وجل ، وكان ذلك في صبيحة اليوم الذي ضُرب فيه .

---

(١) في بعض النسخ : (نخلف) .

وقال علي بن سهل السجستاني : رأيت أحمد في النوم ، وكأن القيامة قد قامت ، وكأن الناس جاؤوا إلىٰ موضع فيه قنطرة لا يُتْرَكُ أحدٌ ، ولا يُمكَّن من العبور ، حتىٰ يجيء بخاتم ، ورجل ناحية يعطي الناس الخواتيم ، فمن جاء بخاتم ؛ جاز ، فقلت : مَن هـٰذا الذي يعطي الناس الخواتيم ؟ فقالوا : أحمد ابن حنبل .

وعن سلمة بن شبيب قال : كنا في أيام المعتصم عند أحمد ابن حنبل ، فدخل رجل ، فقال : مَن منكم أحمد ابن حنبل ؟ فسكتنا ، فأعاد ثانياً وثالثاً ، فقال أحمد : ما حاجتك ؟ قال : أنت هو ؟ قال : نعم ، قال : جئتك من مسيرة أربع مئة فرسخ براً وبحراً لرؤيا رأيتها ، كنت في ليلة جمعة نائماً ، وأتاني آت ، فقال لي : أتعرف أحمد ابن حنبل ؟ قلت : لا ، قال : فأت بغداد واسأل عنه ؛ فإذا رأيته ؛ فقل له : إن الخضر يقرئك السلام ، ويقول لك : إن الله عز وجل راض عنك ، والملائكة راضون عنك ؛ بما صبَّرت به نفسك لله سبحانه وتعالىٰ ، فقال أحمد : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، ثم قال له أحمد : هل من حاجة ؟ فقال : ما جئتك إلا لهـٰذه الرؤيا ، ثم انصرف .

وقال أحمد بن المخلد[1] : لما كان اليوم الذي مات فيه أحمد كان يوم جمعة ، فلما أردت أن أنام ؛ قلت : اللهم ؛ أرنيه هـٰذه الليلة في منامي ، فرأيته كأنه بين السماء والأرض علىٰ نجيب من نور ، وبيده خطام من نور ، فضربت بيدي في الخطام ، فقال لي : قِر[2] ، ليس الخبر كالمعاينة ، ليس الخبر كالمعاينة ، فتركته ، وانتبهت .

وقال عبد الله بن الورد[3] : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في منامي ، فقلت : يا رسول الله ؛ ما شأن أحمد ابن حنبل ؟ فقال : « سيأتيك موسىٰ عليه الصلاة والسلام ، فسله » فإذا أنا بموسىٰ عليه الصلاة والسلام ، فقلت : يا نبي الله ؛ ما بال أحمد ابن حنبل ؟ فقال : أحمد ابن حنبل بُلي في السراء والضراء ، فوُجِد صادقاً ، فأُلحق بالصديقين .

[« الحلية » ٩/ ١٧٤ـ١٨٩] .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : الحكمة في ذلك ـ والله أعلم ـ أمور :

منها : بيان فضيلة أمة محمد صلى الله عليه وسلم على الأمم ، حتىٰ إن موسىٰ عليه الصلاة والسلام هو الذي يبين ذلك ويقرره .

---

(١) في « الحلية » : (أحمد بن الجلد) .

(٢) قِرْ : اسكن .

(٣) في « الحلية » : (حبيش بن الورد) ، وفي « السير » : (حبيش بن أبي الورد) .

ومنها : أنه يعرف بذلك قدر محنة أحمد ، وما جرىٰ عليه حتىٰ يشهد بعظيم فضله نبيان عليهما الصلاة والسلام .

ومنها : أن محنة أحمد إنما هي في كون القرآن مخلوقاً ، وكلم الله عز وجل موسىٰ تكليماً ، وهو يعرف أن القرآن ليس بمخلوق ، فيعرف الناس ذلك ؛ ليزداد يقينهم بأنه منزل غير مخلوق . انتهىٰ .

وقال الغزالي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : كان بين أحمد ابن حنبل ويحيى بن معين صحبة طويلة ، فهجره أحمد ؛ إذ سمعه يقول : إني لا أسأل أحداً شيئاً ، ولو أعطاني السلطان شيئاً ؛ لأكلته ، حتى اعتذر يحيىٰ ، وقال : كنت أمزح ، فقال : تمزح بالدِّين ؟ أما علمت أن الأكل من الدين قدمه الله تعالىٰ على العمل الصالح فقال تعالىٰ : ﴿ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا ﴾ ؟ . [انتهىٰ « الإحياء » ٣/ ٩١] .

وقال الحافظ : قال [إبراهيم بن] جعفر المروزي : رأيت أحمد ابن حنبل في النوم يمشي مشية يختال فيها ، فقلت له : يا أبا عبد الله ؛ ما هـٰذه المشية ؟! قال : هـٰذه مشية الخدام في دار السلام .

وقال عبد الله بن القاسم القرشي : سمعت المروزي يقول : رأيت أحمد في المنام وعليه حلتان خضراوان ، وفي رجليه نعلان من الذهب الأحمر ، شراكهما من الزمرد الأخضر ، وعلىٰ رأسه تاج من النور مرصع بالجوهر ، وإذا هو يخطر في مشيته ، فقلت له : حبيبي يا أبا عبد الله ؛ ما هـٰذه المشية التي لا أعرفها لك في دار الدنيا ؟! قال : هـٰذه مشية الخدام في دار السلام ، فقلت : ما هـٰذا التاج الذي أراه علىٰ رأسك ؟ فقال : إن الله عز وجل غفر لي ، وأدخلني الجنة ، وحباني ، وكساني ، وتوجني بيده ، وأباحني النظر إليه ، وقال لي : يا أحمد ؛ فعلتُ بك هـٰذا لقولك القرآن كلامي غير مخلوق .

وقال أبو عبد الله محمد بن خزيمة بالإسكندرية : لما مات أحمد ؛ اغتممت غماً شديداً ، فبتُّ من ليلتي ، فرأيته في المنام وهو يتبختر في مشيته ، فقلت له : يا أبا عبد الله ؛ ما هـٰذه المشية ؟! قال : مشية الخدام في دار السلام ، قال : فقلت : ما فعل الله تعالىٰ بك ؟ قال : غفر لي ، وتوجني ، وألبسني نعلين من ذهب ، وقال لي : يا أحمد ؛ هـٰذا بقولك القرآن كلامي ، ثم قال : يا أحمد ؛ ادعني بتلك الدعوات التي بلغتك عن سفيان الثوري التي كنت تدعو بهن في دار الدنيا ، قال : فقلت : يا ربَّ كل شيء ؛ أسألك بقدرتك

علىٰ كل شيء ، لا تسألني عن شيء ، واغفر لي كل شيء ، فقال لي : يا أحمد ؛ هـٰذه الجنة ، قم فادخل إليها ، فدخلت ؛ فإذا أنا بسفيان الثوري ، وله جناحان أخضران يطير بهما من نخلة إلىٰ نخلة ، وهو يقول : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴾ .

قال : فقلت : فما فعل بعبد الوهاب الورَّاق ؟ قال : تركته في بحر من نور في زلالة من نور يزور ربه الملك الغفور ، فقلت له : فما فعل بشر بن الحارث ؟ فقال لي : بخ بخ! ومن مثل بشر ؟ تركته بين يدي الجليل جل جلاله ، وبين يديه مائدة من الطعام ، والجليل جل جلاله مقبل عليه ، وهو يقول له : كل يا من لم يأكل ، واشرب يا من لم يشرب ، وانعم يا من لم ينعم . أو كما قال .

وقال [ابن] مُجَمِّع بن مُسْلِمٍ : كان لنا جار قُتِل بقزوين ، فلما كانت الليلة التي مات فيها أحمد ؛ خرج إلينا أخوه ، فقال : إني رأيت رؤيا عجيبة ، رأيت أخي البارحة ، فقلت : يا أخي ؛ أليس قد قتلت ؟ فما جاء بك ؟ فقال لي : إن الله عز وجل أمر الشهداء وأهل السماوات أن يحضروا أحمد ابن حنبل ، وكنت ممن أُمر بالحضور ، فأرَّخنا تلك الليلة ، فإذا أحمد ابن حنبل كان قد مات إذ ذاك .

وعن حجاج بن يوسف قال : رأيت عمي في النوم ، وكان قد كتب عن هشيم ، فسألته عن أحمد ابن حنبل ، فقال : ذاك من أصحاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وقال يعقوب بن عبد الله : رأيت سرياً السقطي في النوم ، فقلت له : ما فعل الله تعالىٰ بك ؟ فقال : أباحني النظر إلىٰ وجهه الكريم ، فقلت : فما فعل أحمد ابن حنبل وأحمد بن نصر ؟ فقال : شُغِلا بأكل الثمار في الجنة .

وقال [أبو] عبد الرحمـٰن بن الصباح : رأيت في المنام كأني علىٰ شيء مرتفع ، وكأن بين يدي رجلان وهما يتكلمان ، قال أحدهما لصاحبه : قد أُخذ صاحب ابن عمر يُمتَحَن ، فقال له الآخر : لا تحزن عليه ، وإذا قد أقبل رجل من بعيد مخضوب الرأس واللحية ، فقال أحدهما لصاحبه : هـٰذا جليس ابن عمر رضي الله عنهما حتىٰ نسأله ، فلما قرب الرجل ؛ إذا هو أحمد ابن حنبل ، قال : فالتفتُّ إلىٰ يساري في الموضع المرتفع ؛ فإذا ابن عمر واقف وهو ينفض لحيته وهو مصفر ، فسمعته يقول : أبناء الأنجاس ـ أو أبناء الأرجاس ـ ما لهم ولهـٰذا ؟ وما كلامهم في هـٰذا ؟ لا يقوون عليه . ثم انتبهت ، وكنت قد رأيت هـٰذه الرؤيا

قبل أن أرىٰ أحمد في اليقظة ، ثم رأيت أحمد ابن حنبل بعد ذلك ، فكان كما رأيته في المنام .

ولما قدم حمدون البردعي علىٰ أبي زرعة لكتابة الحديث : فلما دخل داره ؛ رأىٰ فيها أواني وفرشاً كثيرة ـ وكان ذلك لأخيه ـ فهَمَّ أن يرجع ولا يكتب عنه ، فلما كان من الليل ؛ رأىٰ كأنه علىٰ شاطىء دجلة ، وكأن ظِلَّ شخص في الماء ، فقال له : أأنت الذي زهدت في أبي زرعة ؟ ما علمت أن أحمد ابن حنبل كان من الأبدال ، فلما أن مات أحمد ابن حنبل ؛ أبدل الله عز وجل مكانه أبا زرعة .

وقال عمار ـ وكان رجلاً ورعاً ـ : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم ، فقلت : يا رسول الله ؛ ادع الله تعالىٰ لي بالمغفرة ، فدعا لي ، فلما كان بعد ذلك ؛ رأيت الخضر عليه السلام في النوم ، فقلت له : أخبرني عن بشر بن الحارث ، فقال : لقد مات يوم مات وما علىٰ وجه الأرض أتقىٰ لله تعالىٰ منه ، قلت : فأحمد ابن حنبل ، قال : ذاك صدِّيق ، قلت : فحسين الكرابيسي ، فغلظ فيه حتىٰ كاد يخرجه من الإسلام ، قلت : أخبرني عن القرآن ، قال : كلام الله عز وجل ، وليس بمخلوق .

وعن أبي بكر بن حماد المقري قال : كنت نائماً في مسجد الخَيف ، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله ؛ ما فعل بشر بن الحارث ؟ فقال لي : « أُنزل وسط الجنة » ، قلت : يا رسول الله ؛ فأحمد ابن حنبل ؟ قال : « أما سمعت حديث عبد الله بن عمر : أن الله عز وجل إذا أدخل أهل الذكر الجنة ؛ ضحك إليهم » .

وقال عبد الله : رأيت كأن ملكاً نزل من السماء ومعه سبع تيجان ، فأول من توج أحمد ابن حنبل ، ثم بدأ بصدقة فتوَّجَهُ ، قال لي : فحدثت بالرؤيا صدقة بن إبراهيم ، فقص عليَّ رؤيا [فقال : رأىٰ صاحب الرؤية] كأن النبي صلى الله عليه وسلم واقف عند الجسر الثاني ، وأول من صافحه وعانقه أحمد ابن حنبل .

وقال يحيى بن أيوب المقدسي : رأيت كأن النبي صلى الله عليه وسلم نائم وهو مغطىٰ بثوب ، وأحمد ويحيىٰ يذبان عنه .

ولما حُبس أحمد ابن حنبل في المحنة قبل أن يُضرب وكان معه بعض أصحابه ؛ قال أحمد : فلما كان الليل ؛ تفكرت في أمري ، وإذا أنا برجل طويل يتخطى الناس ، حتىٰ دنا مني ، فقال : أنت أحمد ابن حنبل ؟ قال : فسكتُّ ، فأعاد ثانياً وثالثاً ، فقلت : نعم ، قال

لي : اصبر ولك الجنة ، قال أحمد : فلما مسني حر السوط ؛ ذكرت قول الرجل .

وقال أبو يوسف يعقوب ابن أخي معروف : بينا أنا نائم في أيام المحنة ؛ إذ دخل عليَّ رجل عليه جبة صوف بلا كُمين ، فقلت : من أنت ؟ قال : أنا موسى بن عمران ، فقلت : أنت موسى بن عمران الذي كلمك الله عز وجل وما بينك وبينه ترجمان ؟ فبينا أنا كذلك ؛ إذ هبط علينا رجل من السقف ، عليه حلتان ، جعد الشعر ، فقلت : من هـٰذا ؟ فقال : عيسى ابن مريم ، ثم قال لي : أنا موسى بن عمران الذي كلمني الله عز وجل ما بيني وبينه ترجمان ، وهـٰذا عيسى ابن مريم ونبيكم محمد صلى الله عليه وسلم وأحمد ابن حنبل وحملة العرش وجميع الملائكة يشهدون أن القرآن كلام الله عز وجل غيرُ مخلوق[1] .

ثم قال الحافظ : وقد جرىٰ علىٰ أحمد محنة أخرىٰ ، وذلك : أنه لما خَلَص من المحنة ومات الواثق وولي المتوكل ؛ قام جمع من أهل البدع وجاؤوا إلى المتوكل وقالوا له : إن علوياً عنده مختفياً ، فهجموا علىٰ منزله ومنزل أولاده ، وفتشوا فلم يروا شيئاً ، حتىٰ إنهم جاؤوا بنساء معهم ، ففتشن النساء ، وكان الخليفة قد أرسل مظفر حاجبه وابن الكلبي ، وحضر معهم صاحب البريد ، وقال له ابن الكلبي : أمرني أمير المؤمنين أن أحلفك أن ما عندك طلبته علوياً ، فأحلفه بالله عز وجل وبالطلاق أن ما عنده طلبة أمير المؤمنين علوياً ، ثم إنهم اجتهدوا في التفتيش والفحص عن ذلك ، حتىٰ إنهم أدلوا شمعة في البئر فلم يجدوا شيئاً ، فخرجوا ، فلما كان بعد يومين ؛ ورد كتاب علي بن الجهم فيه : قد صح عند أمير المؤمنين براءتك عما قيل عنك ، وقد كان أهل البدع مدوا أعناقهم قِبَلك ، فالحمد لله الذي لم يشمتهم بك ، وقد وجه إليك أميرُ المؤمنين يعقوبَ ـ المعروف بقوصرة ـ ومعه جائزة يأمرك بالخروج إليه ، فالله الله أن تستعفي أو ترد الجائزة .

قال صالح : ثم ورد من الغد يعقوب ، فدخل إلىٰ أبي ، وقال له : يا أبا عبد الله ؛ أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : قد صح عندي براءة ساحتك ، وقد أحببت أن آنس بقربك وأتبرك بدعائك ، وقد وجه إليك عشرة آلاف درهم معونة لك علىٰ سفرك ، وأخرج الدنانير والدراهم وذكر الحكاية كما تقدم ، وفيها : أن يعقوب قال لأحمد وهو سائر معه في الطريق : يا أبا عبد الله ؛ بلغني أن ابن البلخي كان ممن وَشىٰ بك إلىٰ أمير المؤمنين ، فقال له أحمد : يا أبا يوسف ؛ سل الله تعالى العافية ، فقال يعقوب : يا أبا

---

(١) الحلية (٩/ ١٨٩ـ ١٩٣) .

عبد الله ؛ أريد أن أؤدي عنك رسالة إلىٰ أمير المؤمنين ، فسكت أحمد ، قال صالح : فالتفت يعقوب إلي وقال : ما رأيت أعجب من حال أبي عبد الله ، أسأله أن يطلق لي كلمة أخبر بها أمير المؤمنين فلا يفعل ، قال صالح : فلما وصلنا إلىٰ قريب من العسكر ؛ قال لنا يعقوب : أقيموا هنا ، ثم بعث إلى الخليفة يعلمه ، فمررنا بالعسكر وأبي منكس الرأس ورأسه مغطىٰ ، فقال له يعقوب : يا أبا عبد الله ؛ اكشف الغطاء عن رأسك ، ثم جاء وصيف في حاجة ، فرأى الناس وجمعهم ، فقال : ما هـٰؤلاء ؟ قالوا : أحمد ابن حنبل ، فدخل الوصيف دار الوزير وأخبره بقدوم أحمد ، فأرسل الوزير إلىٰ أحمد يحيى بن هرثمة ، فقال له : الأمير يقرئك السلام ويقول لك : الحمد لله الذي لم يشمت بك أهل البدع ، وقد علمت ما كان من فعل ابن أبي دؤاد ، وها هو اليوم تحت العقوبة والمصادرة ينبغي أن تتكلم فيه بما ينبغي لله عز وجل ، فسكت أبي ، ومضىٰ يحيىٰ ، ثم أُنزل أبي في دار إيتاخ[1] ، فجاء علي بن الجهم ، فقال : قد أمر لكم أمير المؤمنين بعشرة آلاف مكان التي فرقها أبوك ، وقد أمرنا ألاَّ نُعْلِم الشيخ بها ؛ لئلا يغتم بذلك ، ثم جاء محمد بن معاوية ، وقال لأبي : أمير المؤمنين يكثر ذكرك ، ويقول لك : تقيم عندنا تحدِّث ، فقال أبي : أنا ضعيف ، ووضع أبي يده علىٰ أسنانه ، وقال : إن بعض أسناني يتحرك ، وما أخبرت بذلك ولدي ، ثم جاء يحيى بن خاقان ، وقال : يا أبا عبد الله ؛ قد أمرني أمير المؤمنين بالمجيء إليك لتركب معي ، وقال [أمير المؤمنين] : أريد أن يصير [ابني] المعتز في حجره ، وقد أمرني أن أقطع لك سواداً وطيلساناً وقلنسوة ، وقد أمرني أن أجري علىٰ أولادك وأقاربك أربعة آلاف درهم في كل شهر ، ثم خرج ، وقال : أعود إليك في الغد .

فلما كان من الغد ؛ عاد ، وقال : يا أبا عبد الله ؛ متىٰ تركب معي إلىٰ أبي عبد الله المعتز ليصير في حجرك ؟ قال : ذاك إليكم ، فقال : اركب معي الآن ، فقال : أستخير الله تعالىٰ ، ثم لبس إزاره وخفيه ، وكان له خف قد مضىٰ عليه خمس عشرة سنة مرقوع بعدة رقاع ، وأشار يحيىٰ بأن يلبس قلنسوة ، فقال له صالح : ما له قلنسوة ، فقال : كيف يدخل علىٰ أبي عبد الله حاسراً ؟! ثم جيء بدابة يركبها ، فركب ونحن معه ، فأُدخل دار المعتز ، وأجلس في بيت منها ، ثم جاء يحيىٰ ، وأخذ بيد أبي ، ورفع الستر ونحن ننظر ، والمعتز جالس في الدار ، وكان يحيىٰ قد قال لأبي : لا تمد يدك إلى المعتز ، فلما دخل الدار ؛

---

(١) إيتاخ : تركي مملوك اشتراه المعتصم شفقةً لما رأىٰ من حاله الفقر ثم رفعه ، وبع ذلك ولاه الواثق الأعمالَ الجليلة .

جلس ، فقال له يحيىٰ : يا أبا عبد الله ؛ إن أمير المؤمنين إنما جاء بك ليُسَرَّ بقربك ، ويكون ابنه المعتز في حجرك .

وأخبرني بعض الخدام : أن الخليفة المتوكل كان جالساً من وراء الستر ، فلما دخل إلى الدار ؛ قال المتوكل لأمه : يا أماه ؛ قد أنارت الدار ، ثم جاء خادم بمنديل ، فأخذ يحيى المنديل ، وأخرج منه مبطنة فيها قميص ، فأدخل يده في جيب القميص والمبطنة ، ثم أخذ بيد أبي وأقامه ، ثم أدخل جيب القميص والمبطنة في رأسه ، ثم أدخل يده ، فأخرج يده اليمنىٰ ثم اليسرىٰ وأبي لا يحرك يده ، ثم أخذ قلنسوة ، فوضعها علىٰ رأسه وألبسه طيلساناً وألحفه به ، ثم قام أبي وخرج ، فلما وصل إلىٰ منزله ؛ نزع الثياب وجعل يبكي ، ويقول : قد سلِمْتُ من هـٰؤلاء منذ ستين سنة ، حتىٰ إذا كان آخر عمري ؛ بُليت بهم ، ما أحسبني سلِمْتُ من دخولي علىٰ هـٰذا الغلام ، فكيف بمن يجب علي نصحه من حين تقع عيني عليه إلىٰ أن أخرج من عنده ؟! ثم إن أبي أرسل الثياب إلىٰ بغداد لتباع ويتصدق بثمنها ، وقال : لا تشتروا منها شيئاً ، ثم إنه علم أن الدار التي هو نازل فيها لإيتاخ ، فقال لي : اكتب إلىٰ محمد بن الجراح ليستعفي لي من هـٰذه الدار ، فكتب رقعة ، فلما بلغ الخليفة ؛ أعفاه منها ، ثم اكتُريت لنا دار غيرها ، وأجري لنا مائدة وبلح ، وضرب الخيش ، وفُرِش الطبري[1] ، فلما رأىٰ أبي ذلك ؛ نَحَّىٰ نفسه عن ذلك الموضع ، ثم اشتكت عيناه ، ثم برئت سريعاً ، فقال : ألا تعجب ؟ كانت عيني إذا اشتكت ؛ تمكث مدة حتىٰ تطيب ، والآن قد برئت سريعاً .

وكان إذا جيء بالمائدة ؛ توضع في الدهليز ؛ لئلا يراها ، فيأكل من حضر .

وكان إذا جَهِدَهُ الحر يَبُلُّ خرقة ويضعها علىٰ صدره ، وفي كل يوم يوجه الخليفة ابن ماسويه الطبيب ، فينظر إليه ، ويقول له : يا أبا عبد الله ؛ إني أميل إليك وإلىٰ أصحابك وما بك علة ، والضعف الذي بك من قلة الدَّرِّ[2] ، وكانوا يجيئون إليه بالشراب الذي يوصف له فلا يشربه ، وبقي يعقوب وغياث يترددان إليه ويقولان له : إن أمير المؤمنين يقول لك : ما تقول في ابن أبي دؤاد ؟ وما تقول في ماله ؟ فلا يجيب علىٰ ذلك بشيء ، وجعلا يخبرانه بما يحدث في أمر ابن أبي دؤاد كل يوم ، ثم إن ابن أبي دؤاد أُخذ إلىٰ بغداد بعد أن أُشهد عليه ببيع ضِياعه وسائر أملاكه .

---

(١) **الفرش الطبري** : نوع من البسط والفرش الثمينة ، نسبة إلىٰ طبرستان .

(٢) **الدَّرُّ** : اللبن ، ولعل المراد والله أعلم : أنه مرض من قلة السوائل .

وكان يحيىٰ إذا جاء إلىٰ أبي وهو يصلي ؛ جلس في الدهليز حتىٰ يتم الصلاة .

وكان علي بن الجهم إذا جاء إلىٰ أبي ؛ ينزع عنه سيفه وقلنسوته ، ثم يدخل عليه ، ثم إن رسل المتوكل تأتي إلىٰ أبي يسألونه عن خبره وهو ضعيف ، وفي خلال ذلك يقولون : يا أبا عبد الله ؛ لا بد للخليفة من أن يراك ، فيسكت أبي ، فإذا خرجوا ؛ يقول لي : ألا تعجب من قولهم : لا بد له من أن يراك ؟! وما يعلمهم من أنه لا بد له من أن يراني ؟!

وكان في داره حجرة صغيرة ، فقال لنا : أدخلوني فيها ولا توقدوا فيها سراجاً ، فأدخلناه فيها ، فجاء يعقوب ، فقال : يا أبا عبد الله ؛ أمير المؤمنين مشتاق إليك ، ويقول لك : انظر اليوم الذي تجيء إلي فيه أي يوم هو ؟ فقال : ذاك إليكم ، فقال : يوم الأربعاء يوم خال ، ثم خرج يعقوب ، فلما كان من الغد ؛ جاء ، وقال : البشرىٰ لك يا أبا عبد الله ، أمير المؤمنين يقرئك السلام ، ويقول لك : قد أعفيتك عن لبس السواد وعن الركوب إلىٰ ولاة العهود وإلى الدار ، فإن شئت ؛ فالبس القطن ، وإن شئت ؛ فالبس الصوف ، فجعل يحمد الله تعالىٰ علىٰ ذلك .

وكان يختم في كل جمعة ، فإذا ختم ؛ دعانا ، فيدعو ونُؤَمِّنُ علىٰ دعائه ، فلما كان في جمعة ؛ دعانا ودعا ، فلما فرغ ؛ جعل يقول : أستخير الله تعالىٰ ـ مراراً ـ قال صالح : فجعلت أقول : ما تريد ؟ ثم قال : إني أعطي الله تعالىٰ عهداً ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ وقد قال عز وجل : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ إني لا أحدث حديثاً تاماً أبداً حتىٰ ألقى الله عز وجل ، ولا أستثني منكم أحداً ، فخرجنا ، وجاء علي بن الجهم ، فأخبرناه بذلك ، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، وأخبر المتوكل بذلك أيضاً ، فعَظُم ذلك عليه .

وكان أبي يقول إنما يريدون أن أحدث فيصير هـٰذا البلد حبسي ، وسبب الذين أقاموا بهـٰذا البلد إنما كان لأنهم أُعطوا ؛ فقبلوا ، وأُمروا ؛ فحدثوا .

وكانوا يدخلون عليه ، فيتكلمون وهو مغمض العينين يتعلل ، وضعف ضعفاً شديداً ، فكانوا يخبرون المتوكل بذلك ، فيتوجع .

وقال أبي : والله ؛ لقد تمنيت الموت في الأمر الذي كان ، وإني لأتمنى الموت في هـٰذا وذلك ، لأن هـٰذا فتنة الدنيا وذلك فتنة الدين ، ثم جعل يضم أصابعه ويقول : لو كانت نفسي في يدي ؛ لأرسلتها ، ثم يفتح أصابعه ، والمتوكل يوجه إليه في كل وقت يسأله عن حاله ويأمر لنا بالمال ، ويقول : يوصل إليهم ولا يُعلَم شيخهم .

وقيل للمتوكل : إنه لا يأكل من طعامك ، ولا يجلس علىٰ فرشك ، فقال لهم : لو نشر لي المعتصم ؛ لم أقبل منه فيه .

وكان يُصدِّرُ كتبه بعد البسملة : أحسن الله تعالىٰ عاقبتك ، ودفع عنك كل مكروه ومحذور ، الذي حملني على الكتاب إليك كذا وكذا .

وقال صالح : أوصىٰ أبي وصية ، فيها : بسم الله الرحمٰن الرحيم ، هٰذا ما أوصىٰ به أحمد بن محمد بن حنبل ، أوصىٰ أنه يشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدىٰ ودين الحق ؛ ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، وأوصىٰ من أطاعه من أهله وقرابته أن يعبدوا الله في العابدين ، ويحمدوه في الحامدين ، وينصحوا لجماعة المسلمين ، وأوصىٰ : إني قد رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً ، وأوصىٰ : إن لعبد الله فلاناً عليَّ نحواً من خمسين ديناراً ، وهو مصدق فيما قال ، فيقضىٰ ما له عليَّ من غلة الدار إن شاء الله تعالىٰ ، فإذا استوفىٰ ؛ أعطي أولاد صالح وعبد الله كل ذكر وأنثىٰ عشرة دراهم بعد وفاء مال أبي محمد .

وقال صالح : ثم سأل أبي أن يحول من الدار التي اكتُرِيت له ، فأجيب إلىٰ ذلك ، فاكترينا له داراً ، فسأل المتوكل عنه ، فقيل له : إنه ضعيف ، فقال : كنت أحب أن يكون في قربي ، ولٰكن نحن نؤثر مراده ، وقد أذنت له في السفر إلىٰ بغداد ، يا عبيد الله ؛ احمل إليه ألف دينار ، وقل لسعيد يهيىء له حرَّاقة[1] ينحدر فيها ، فجاءه علي بن الجهم بالليل ، وأخبره ، ثم جاء عبد الله ومعه ألف دينار ، فقال : إن أمير المؤمنين قد أذن لك ، وقد أمر لك بهٰذه الألف دينار ، فقال : قد أعفاني أمير المؤمنين عن كل ما أكره ، وهٰذا مما أكره ، فردها ، وأما الحراقة ؛ فأنا رقيق على البرد ، والظهر أرفق بي ، فكتب له جواباً ، وكتب إلىٰ محمد بن عبد الله في بِرِّه وتعاهُدِهِ ، فقدم بغداد فيما بين الظهر والعصر ، ثم مكث قليلاً ، وقال : يا صالح ؛ قلت : لبيك ، قال : أحب أن تدع هٰذا الرزق ولا تأخذه ولا توكل فيه أحداً ، فقد علمت أنكم إنما تأخذونه بسببي ، فسكت ، فقال : ما لك ؟ فقلت : أكره أن أعطيك شيئاً بلساني وأخالف إلىٰ غيره ، فأكون قد كذبتك ونافقتك ، وليس في القوم أكثر عيالاً مني ، ولا أعذر ، وقد كنت أشكو إليك ، فتقول لي : أمرك منعقد بأمري ، ولعل الله تعالىٰ أن يحل عني هٰذه العقدة ، وقد كنت تدعو لي ، فأرجو أن يكون الله عز وجل قد

---

(١) **الحرَّاقة** : ضرب من السفن ، والمقصود هنا : سفينة خفيفة المر ، والله أعلم .

استجاب لك ، قال : أو لا تقبل ؟ قلت : لا ، قال : قم ، فعل الله بك وفعل ، وأمر بسد الباب بيني وبينه ، فلقيني أخي عبد الله ، فسألني ، فأخبرته ، فقال : ما أقول ؟ قلت : ذاك إليك ، فقال له مثل مقالته لي ، فقال : لا أفعل ، فكان منه إليه مثل ما فعل بي ، فلقينا عمه ، فقال : كنتم تقولون له : نعم ، في الظاهر ، وما يُعلمه إذا أخذتم شيئاً ؟ فدخل عليه عمه ، فقال له مثل ما قال لنا ، فقال عمه : يا أبا عبد الله ؛ لست آخذ شيئاً من هـٰذا ، فقال : الحمد لله ، وهجرنا وسد الأبواب بيننا وبينه ، وتحامىٰ منزلنا أن يدخل منه شيء إلىٰ منزله .

وكان قد حدثني أبي أن يحيى ابن أبي وائل لما استُعمل علىٰ قضاء الكناسة ؛ قال أبو وائل لجاريته : يا بركة ؛ لا تأخذي شيئاً مما يجيء به يحيىٰ من الكناسة .

قال صالح : فلما مضىٰ نحو شهرين ؛ كُتب لنا بشيء ، فأول من أخذ عمه ، فأُخبر أبي ، فجاء إلى الباب الذي كان سده بيني وبينه وقد فتح الصبيان فيه كوة ، فقال : ادعوا لي صالحاً ، فجاء الرسول ، فقلت له : لست أجيء ، فوجه إليَّ لِمَ لا تجيء ؟ فقلت له : هـٰذا الرزق يرتزقه جماعة كثيرة ، وأنا واحد منهم ، وليس فيهم أعذر مني ، وإذا كان توبيخ ؛ خصصت به وحدي ؟ ولما نادىٰ عمه بالأذان ؛ خرج أبي إلى المسجد ، فلما فرغ من الصلاة ؛ قال لعمه : نافقتني وكذبتني ، وكان غيرُك أعذرَ منك ، وزعمت أنك لا تأخذ من هـٰذا شيئاً ، ثم أخذته وأنت تستغل مئتي درهم ، وعمدت إلىٰ طريق المسلمين تستغله ، وإنما أنا أشفق عليك أن تطوق يوم القيامة بسبع أرضين[1] ، فقال له : قد تصدقت ، فقال : تصدقت بنصف درهم ، ثم هجره وترك الصلاة خلفه في المسجد ، وخرج إلىٰ مسجد آخر .

قال صالح : وكان أبي قد حدثني أن بعض أمراء البصرة استعمل عبد الله بن محمد بن واسع على القضاء ، فأخبر محمد بن واسع ، فجاء إلى الأمير ، فقال قائل لي : جاء يتشكر ، وقال قائل : جاء يستعفي لابنه ، فلما دخل على الأمير ؛ قال له : بلغني أنك استعملت ولدي ، وإني أحب أن تعفيه ، استرنا سترك الله تعالىٰ ، فقال : قد أعفيناه .

وكان أبي إذا بلغه أنا قبضنا شيئاً ؛ طوىٰ تلك الليلة ، فلم يفطر ، ثم مكث أشهراً لا أدخل إليه ، ثم فتح الصبيان الباب ودخلوا ، ثم توجهت إليه ، يا أبت ؛ قد طال هـٰذا

---

(١) روى البخاري (٢٣٢٠) عن سعيد بن زيد رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من ظلم من الأرض شيئاً . . طوَّقه من سبع أرضين » .

الأمر ، وقد اشتقت إليك ، فسكت ، فدخلت إليه ، فأكببت عليه ، وقلت : يا أبت ؛ تدخل علىٰ نفسك هـٰذا الغم ؟! فقال : يا بني ؛ يأتيني ما لا أملكه ، ثم مكثنا مدة لا نأخذ شيئاً ، ثم كُتب لنا بشيء ، فقبضناه ، فلما بلغه ؛ هجرنا أشهراً ، فتشفعت إليه ، فقيل له : صالح وحبك له ، فقال : والله ؛ لقد كان أعز الخلق عليَّ ، وأي شيء أردتُ له ؟! ما أردتُ له إلا ما أردتُ لنفسي ، فقلت : يا أبت ؛ هل رأيت أحداً قوي علىٰ ما قويتَ أنت عليه ؟ قال : وتحتجُّ عليَّ ؟ ثم كتب أبي إلىٰ يحيى بن خاقان يسأله ويعزم عليه ألاَّ يعيننا علىٰ شيء من أمر أرزاقنا ولا يتكلم فيها ، فلما وصل رسوله بالكتاب إلىٰ يحيىٰ ؛ أخذه صاحب الخبر ، وكتب نسخته ، وأوصلت إلى المتوكل ، فقال المتوكل لعبد الله : كم لولد أحمد من شهر ؟ فقال : عشرة أشهر ، فقال : تُحمل إليهم الساعة أربعون ألف درهم من بيت المال صحاحاً ، ولا يُعلَم بها شيخهم ، فوصل الخبر إلىٰ أبي ، فسكت قليلاً ، ووضع يده علىٰ لحيته ساعة ، ثم رفع رأسه ، وقال : ما حيلتي إذا أردت أمراً وأراد الله عز وجل غيره ؟!

وجاء رسول المتوكل إلىٰ أبي ، وقال : أمير المؤمنين يسلم عليك ، ويقول لك : لو سَلِمَ أحد من الناس ؛ سلِمْتَ أنت ، وقد رفع إلي في وقت كذا وكذا أن علوياً قدم من خراسان ، وأنك وجهت إليه من تلَقَّاه ، وقد حبست الذي قال ، وأردتُ ضربه ، فكرهت أن يبلغك ، فتغتم لأجله ، فما الذي تأمر فيه ؟ فقال : هـٰذا باطل ، تخلي سبيله .

قال صالح : وكان إذا جاء رسول المتوكل بالسلام والسؤال عن حاله ؛ نفرح نحن ، وأما هو ؛ فتأخذه رعدة حتىٰ ندثره[1] ، ثم يقول : والله ؛ لو أن نفسي في يدي ؛ لأرسلتها ، ويضم أصابعه ثم يفتحها .

قال صالح : وقدم المتوكل بغداد ، فقال لي أبي : يا صالح ؛ أحب ألاَّ تذهب إليهم ولا تنبِّهْ عليَّ ، فلما كان بعد يوم إذا يحيى بن خاقان قد جاء في يوم مطير ، وقد بلله المطر ، وهو في موكب عظيم ، فقال لي : يا سبحان الله! لِمَ لم تجيء إلينا حتىٰ تبلغ أمير المؤمنين السلام عن شيخك حتىٰ وَجَّهَ بي الساعة ؟ ثم نزل خارج الدرب ، فجهدت أن يدخل راكباً ، فلم يفعل ، وجعل يخوض الماء ، فلما صار إلى الباب ؛ نزع جرموقهُ[2] ودخل ، وكان أبي في زاوية البيت ، فسلم عليه ، وقبَّل جبهته ، وسأله عن حاله ، وقال : أمير المؤمنين

---

(١) **ندثره** : نغطيه ونلفه .

(٢) **الجُرموق** : ما يلبس فوق الخف .

يقرئك السلام ، ويقول لك : كيف أنت في نفسك ؟ وكيف حالك وقد أنست بقربك ؟ ويسألك أن تدعو له ، فقال : ما يأتي علي يوم ؛ إلا وأنا أدعو الله تعالىٰ له ، ثم قال له : قد وجه معي ألف دينار تفرقها علىٰ أهل الحاجة ، فقال : يا أبا زكريا ؛ أنا في البيت منقطع عن الناس ، وقد أعفاني أمير المؤمنين عن كل ما أكره ، وهـٰذا مما أكره ، فقال له : يا أبا عبد الله ؛ الخلفاء لا يحتملون ذلك ، فقال : تلطَّفْ أنت في الرد ، ثم قام ، فلما صار في الدهليز . . قال : قد أمرني الخليفة أن أدفعها إليك تفرقها أنت ، فقلت له : اتركها عندك إلىٰ أن تمضي هـٰذه الأيام .

وقال محمد بن مسلم ابن وارة : رأيت أبا زرعة في المنام ، فقلت له : ما فعل الله عز وجل بك ؟ فقال : أحمدُ الله سبحانه وتعالىٰ على الأحوال كلها ، إني أُوقفت بين يدي ربي عز وجل ، فقال لي : يا عبيد الله ؛ لم تذرعت القول في عبادي ؟ فقلت : يا رب ؛ إنهم حاولوا دِينك ، فقال : صدقت ، ثم أُتي بطاهر الخُلْقاني ، فاستعديت عليه إلىٰ ربي ، فضُرب الحدَّ مئة ، ثم أُمر به إلى الحبس ، ثم قال سبحانه وتعالىٰ : أَلْحقوا عبيدَ الله بأصحابه ، بأبي عبد الله وأبي عبد الله وأبي عبد الله ، سفيان الثوري ومالك بن أنس وأحمد ابن حنبل .

وسمع أحمد : سفيان بن عيينة ، وإبراهيم بن سعد ، ويحيى القطان ، وهُشَيماً ، ووكيعاً ، وابن علية ، وابن مهدي ، وعبد الرزاق ، وخلائق .

وروىٰ عنه : شيخه عبد الرزاق ، ويحيى بن آدم ، وابن مهدي ، ويزيد بن هارون ، وعلي بن المديني ، والبخاري ، ومسلم ، وأبو داوود ، وأبو زرعة الرازي ، وأبو زرعة الدمشقي ، وإبراهيم الحربي ، وخلائق لا يُحصَون .

ثم قال الحافظ أبو نعيم : حدثنا أبو علي عيسى بن محمد الجريجي قال : سمعت عبد الله بن أحمد يقول : كنت أسمع أبي كثيراً ما يقول في سجوده : اللهم ؛ كما صنت وجهي عن السجود لغيرك ؛ فصن وجهي عن المسألة لغيرك ، فقلت له : أسمعك تكثر من هـٰذا في سجودك ، أفعندك فيه أثر ؟ قال لي : نعم ؛ كنت أسمع وكيع بن الجراح يكثر من ذلك ، فسألته كما سألتني ، فقال : كنت أسمع سفيان الثوري يكثر من هـٰذا في سجوده ، فسألته كما سألتني ، فقال : نعم ؛ كنت أسمع منصور بن المعتمر يكثر من ذلك . انتهىٰ [« الحلية » ٩/ ٢٠٧ـ ٢٢١ و٢٣٣] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو محمد سفيان بن عيينة
رضي الله عنه

روىٰ عنه الحافظ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ بإسناده : عن سفيان بن عيينة أنه قال : إذا جمعتُ هاتين ؛ كمل أمري : إذا صبرت على البلاء ، ورضيت بالقضاء ، ثم قال : وبلغني عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : ما أبالي علىٰ ما أصبحت ، علىٰ ما أحب أو علىٰ ما أكره ؛ لأني لا أدري الخير فيما أحب أو فيما أكره .

وقال ابن عيينة : كان رجل يقول : علمي بصلاح نفسي : علمي بفسادها ، وبحسب امرىء من الشر أن يرىٰ من نفسه فساداً لا يصلحها .

وقال : قال رجل من العلماء : ثنتان أنا أعالجهما منذ ثلاثين سنة ، ترك الطمع فيما بيني وبين الناس ، وإخلاص العمل لله عز وجل .

وقال : من تزين للناس بشيء يعلم الله عز وجل منه غيرَه ؛ شانَهُ الله سبحانه وتعالىٰ .

وكان يقول : إذا كان نهاري نهار سفيه وليلي ليل جاهل ؛ فما أصنع بالعلم الذي كتبت ؟!

وقال : إنما أرباب العلم الذين هم أهله الذين يعملون به .

وقال : من زِيدَ في عقله ؛ نقص من رزقه .

وقال : من كانت معصيته في الشهوة ؛ فأرْجُ له التوبة ؛ فإن آدم عليه الصلاة والسلام عصىٰ مشتهياً ، فغفر له ، وإذا كانت معصيته في كِبْر ؛ فأخش علىٰ صاحبه اللعنة ؛ فإن إبليس عصىٰ مستكبراً ، فلعن .

وقال : يقال : لا إلـه إلا الله في الآخرة بمنزلة الماء في الدنيا لا يحيىٰ شيء في الدنيا إلا على الماء ؛ قال الله سبحانه وتعالىٰ : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ ، لا إلـه إلا الله بمنزلة الماء في الدنيا ، من لم تكن معه لا إلـه إلا الله ؛ فهو ميت ، ومن كانت معه ؛ فهو حي .

وقال : ما أنعم الله على العباد نعمة . . أفضل من أن عرَّفهم لا إلٰه إلا الله .

ثم قال : لا إلٰه إلا الله في الآخرة كالماء في الدنيا .

وقال ابن عيينة : قال عثمان : لو أن قلوبنا طهرت ؛ ما شبعت من كلام الله عز وجل .

وقال عثمان : ما أحب أن يأتي عليَّ يوم ولا ليلة إلا وأنا أنظر في كتاب الله سبحانه وتعالىٰ ؛ يعني : المصحف .

وقال ابن عيينة : الزهد في الدنيا : الصبر وارتقاب الموت .

وقال حرملة بن يحيىٰ : أخذ سفيان بن عيينة بيدي ، فأقامني في ناحية ، وأخرج من كمه رغيف شعير ، وقال : دع يا حرملة ما يقول الناس ، هٰذا طعامي منذ ستين سنة .

وقيل لابن عيينة : يا أبا محمد ؛ من هو الزاهد في الدنيا ؟ قال : من إذا أنعم الله تعالىٰ عليه نعمة ؛ شكر ، وإذا ابتلي ببلية ؛ صبر ، فذلك الزاهد ، قلت له : يا أبا محمد ؛ فرجل أُنعم عليه فسلَّم فشكر ، وابتلي ببلية فصبر وهو ممسك للنعمة ، كيف يكون زاهداً ؟ قال : اسكت ، فمن لم تمنعه البلية من الصبر والنعمة من الشكر ؛ فذلك الزاهد .

وقال ابن عيينة : ليس من حب الدنيا طلبك ما لا بد منه .

وقال ابن عيينة : كأنك بالدنيا ولم تكن ، وبالآخرة ولم تَزَل ، وكأنك بآخر من يموت وقد مات .

وقال : إن للدنيا أجلاً كأجل ابن آدم ، إذا جاء أجلها ؛ ماتت .

وقال : أول العلم الاستماع ، ثم الإنصات ، ثم الحفظ ، ثم العمل ، ثم النشر .

وقال : كنت أخرج إلى المسجد ، فأتصفح الخلق ، فإذا رأيت كهولاً ومشيخة ؛ جلست ، فأنا اليوم قد اكتنفني هٰؤلاء الصبيان ، ثم ينشد :

خلت الديار فَسُدْتُ غير مسوَّد ومن الشقاءِ تفرُّدي بالسؤددِ

وقال : إذا ترك العالم (لا أدري) ؛ أصيبت مقاتله .

وكان إذا سئل عن شيء ؛ يقول : لا أحسن ، فيقول السائل : لمن أسأل ؟ فيقول : سل العلماء ، واسأل الله تعالى التوفيق .

وأتي بماء زمزم ، فشرب وسقى الذي عن يمينه ، وقال : ماء زمزم بمنزلة الطيب لا يرد .

وقال : الغِيبة أشد من الدَّين ، الدَّين يُقضىٰ ، والغِيبة لا تقضىٰ .

وقال : خلقت النار رحمة يخوف الله عز وجل بها عباده ؛ لينتهوا .

وقال : رأيت أعرابياً يطوف بالبيت ، فتبعته ، فقلت : لعله لا يحسن فأعلمه ما يقول ، فجاء ، فتعلق بأستار الكعبة ، وقال : اللهم ؛ إليك خرجت وأنت أخرجتني ، وإليك جئت وأنت جئت بي ، وبفنائك أنخت وأنت حملتني ، اللهم ؛ فقد عجَّتْ إليك الأصوات بصنوف اللغات يسألونك الحاجات ، وحاجتي إليك أن تذكرني علىٰ طول البِلىٰ إذا نسيني أهل الدنيا .

وكان سفيان بن عيينة ينشد :

كم من قويٍّ قويٌّ في تقلُّبه ... مهذَّب الرأي عنه الرزقُ منحرفُ
وكم ضعيفٍ ضعيفُ العقل مختلطٌ ... كأنه من خليج البحر يغترفُ

وقال : العلم إن لم ينفعك . . ضرك .

وقال رجل : يا أبا محمد ؛ أحدث الناس أموراً في أمر الدين والدنيا ، قال سفيان : أحدثوا ولا مرتع ولا مفزع[1] .

وقال : كان يقال : إن العاقل إذا لم ينتفع بقليل الموعظة ؛ لم يزدد على الكثرة منها إلا شراً .

وقال : إنكم لن تبلغوا ذروة هٰذا الأمر حتىٰ لا يكون شيء أحبَّ إليكم من الله عز وجل ، ومن أحب القرآن ؛ فقد أحب الله عز وجل .

وقال : كان رجل يقول : اللهم ؛ إني أسألك حسن الظن وشكر العافية .

وقال لرجل : عليك بالنصح لله عز وجل في خلقه ؛ فإنك لن تلقاه بعمل أفضل منه ، ولو نادىٰ مناد من السماء : إن الناس كلهم يدخلون الجنة ، وأنا وحدي في النار ؛ لكنت بذلك راضياً .

وقال : إن من شكرِ اللهِ تعالىٰ على النعمة أن يحمده عليها ويستعين بها على الطاعة ، وما شكر اللهَ عز وجل عبدٌ استعان بنعمته علىٰ معصيته .

وقال : لو أن رجلاً أصاب من مال رجل شيئاً ثم تورع عنه بعد موته فجاء به إلىٰ ورثته ؛

---

(١) **المرتع** : موضع اللهو واللعب والنعيم ، **المفزع** : الملجأ .

لَكُنَّا نرىٰ أن ذلك كفارةٌ له ، ولو أنه اغتابه ثم تورع وجاء بعد موته إلىٰ ورثته وإلىٰ جميع أهل الأرض ، فجعلوه في حل ؛ ما كان في حل ، فعِرض المؤمن أشد من ماله .

وقال : الأواب الحفيظ : الذي لا يقوم من مجلسه حتىٰ يستغفر الله سبحانه وتعالىٰ .

وقال ابن عيينة لرجل : أبشر ؛ فإنك إلىٰ خير ، أتدري من دعا لك ؟ قال : لا ، قال : حملة العرش ، ونوح ، وإبراهيم ، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، قال الله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ ، وقال تعالىٰ عن نوح عليه الصلاة والسلام : ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، وقال تعالىٰ عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ ، وقال تعالىٰ لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ ، فكان أطوع لله سبحانه وتعالىٰ وأرأف بنا وأرحم أن يأمره الله عز وجل بشيء ثم لا يفعله .

وقال : ليس في الأرض صاحب بدعة إلا وهو يجد ذلة تغشاه ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾ ، فهي لكل مفتر ومبتدع إلىٰ يوم القيامة .

وقال ابن عيينة : مَثَلُ العلم مَثَلُ دار الكفر ودار الإسلام ، فإن ترك أهل الإسلام الجهاد ؛ جاء أهل الكفر فأخذوا الإسلام ، وإن ترك الناس العلم ؛ صار الناس جهالاً .

وقال : كان بعض العلماء إذا فرغ من صلاته ؛ يقول : اللهم ؛ اغفر لي ما كان منها .

وقال : عن بعض العلماء قال : لم يُعبَدِ اللهُ سبحانه وتعالىٰ بمثل العقل ، ولا يكون عاقلاً حتىٰ يكون فيه عشر خصال ، فعَدَّ منها تسعة : أن يكون الكِبْر منه مأموناً ، والرشد منه مأمولاً ، والذل أحب إليه من العز ، والفقر أحب إليه من الغنىٰ ، ويستكثر قليل المعروف من غيره ، ويستقل كثير المعروف من نفسه ، ويرضىٰ من الدنيا بالقوت ، ويكون طالباً للعلم طول عمره ، ولا يرىٰ أحداً من المسلمين . . إلا رأىٰ نفسه دونه .

وقال سفيان بن عيينة : العمل الصالح هو الذي لا تحب أن يحمدك عليه إلا الله عز وجل .

وقال : إذا أظهر العبد لباس سريرته بمثل علانيته ؛ كتب من أهل العدل ، فإن زل فيما بينه وبين ربه عز وجل بذنب لم يطلع الناس عليه ؛ كتب من الجائرين ، وإذا أظهر العبد لباساً

وسريرته أحسن من علانيته ؛ كتب من أهل الفضل ، فإن زل فيما بينه وبين ربه عز وجل بذنب لم يطلع الناس عليه ؛ رد عن الفضل إلى العدل ، ولم يكتب من الجائرين ؛ لأن ذنبه مخالف للباسه ، فكم من شخصين متجاورين ، هـٰذا يظهر للناس التجارة ويطلع الله عز وجل علىٰ قلبه أنه زاهد في الدنيا ، وهـٰذا يظهر للناس الزهد ويطلع الله عز وجل علىٰ قلبه أنه محب للدنيا .

وسئل ابن عيينة فقيل : يا أبا محمد ؛ أخبرني عن قول مطرِّف : لئن أُعافىٰ فأَشكُر ؛ أحب إلي من أن أُبتلىٰ فأصبر ، أهو أحب إليك ، أم قول أخيه أبي العلاء : اللهم ؛ رضيت لنفسي ما رضيتَ لي ؟ قال : فسكت سكتة ، ثم قال : قول مطرف أحب إلي ، فقال الرجل : كيف وقد رضي هـٰذا لنفسه ما رضيه الله تعالىٰ له ؟ فقال سفيان : إني قرأت القرآن ، فوجدت صفة سليمان عليه الصلاة والسلام مع العافية التي كان فيها ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ ، ووجدت صفة أيوب عليه الصلاة والسلام مع البلاء الذي كان فيه ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ ، فاستوت الصفتان ، وهـٰذا مبتلىٰ وهـٰذا معافىٰ ، فوجدت الشكر قد قام مقام الصبر ، فلما اعتدلا ؛ كانت العافية مع الشكر أحبَّ إليَّ من البلاء مع الصبر .

وكان يقول : دع الكبر والفخر ، واذكر طول الثواء في القبر .

وقال سفيان بن عيينة : قال أبو الدرداء : إنكم لن تزالوا بخير ما أحببتم خياركم ، وقيل فيكم بالحق فعُرف .

وكان يقول : اللهم ؛ متعنا بخيارنا ، وأعنا علىٰ شرارنا ، واجعلنا خياراً كلنا ، واجعل أمرنا عند خيارنا ، وإذا ذهبتَ بالصالحين ؛ فلا تُبْقِنا بعدهم .

وقال سفيان : كان يقال : الجهاد عشرة ، فجهادك العدو واحد ، وجهادك نفسك تسعة .

وسئل عن قوله تعالىٰ : ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ ، فقال : هو أن تعمل به ، وتدعو إليه ، وتعين فيه ، وتدل عليه .

وقال بشر بن الحارث : قال ابن عيينة : إنما سموا المتقين ؛ لأنهم اتقَوا ما [لا] يُتَّقَىٰ .

وقال : إنما عُرفوا ؛ لأنهم أحبوا ألاَّ يُعرفوا .

وقال : إني لأغضب علىٰ نفسي إذا رأيتكم تأتوني ، أقول : إنما يأتيني هـٰؤلاء ؛ لأنهم يظنون بي خيراً .

وقال : عند ذكر الصالحين . . تنزل الرحمة .

وقال : إن من أبر البر . . كتمان المصائب .

وقال : لا تكن مثل العبد السوء ، لا يأتي حتىٰ يُدعىٰ ، أئت الصلاة قبل النداء .

وقال : من توقير الصلاة . . أن تأتي إليها قبل الإقامة .

وقال : ليس أحد إلا ولله عليه الحجة البالغة ، إما في ذنب ، وإما في نعمة هو مقصر عن شكرها .

وسئل ابن عيينة عن فضل العلم ، فقال : ألم تسمع قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ؟ فبدأ بالعلم ، ثم أمره بعد ذلك بالعمل فقال تعالىٰ : ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ ، وهي شهادة أن لا إلـه إلا الله ، لا يغفر إلا بها .

وقال سفيان بن عيينة : عن فضيل بن عياض قال : يُغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يُغفر للعالِم ذنب .

وقال ابن عيينة : قال أيوب عليه الصلاة والسلام : اللهم ؛ إنك تعلم أنه لم يعرض لي أمران قط ، أحدهما لك فيه رضىً ، والآخر لي فيه هوىً ؛ إلا آثرت الذي فيه رضاك على الذي لي فيه هوىً ، قال : فنودي من غمامة من عشرة آلاف صوت : يا أيوب ؛ من فعل ذلك بك ؟ قال : فوضع التراب علىٰ رأسه ، ثم قال : أنت يا رب .

وقال سفيان بن عيينة : ما أخلص عبد لله عز وجل أربعين يوماً ؛ إلا أنبت الله تعالى الحكمة في قلبه نباتاً ، وأطلق لسانه بها ، وبصَّره بعيوب الدنيا دائها ودوائها .

وقال : ما عليك من شيء أضر من علم لا تعمل به .

وقال ابن عيينة : لَشِرارُ مَن مضىٰ عامَ أول . . خيرٌ من خياركم اليوم .

وقال : قال هارون الرشيد لأبي إسحاق الفزاري : أيها الشيخ ؛ إنك في موضع من العرب ، قال : إن ذلك لا يغني عني من الله سبحانه وتعالىٰ يوم القيامة شيئاً .

وقال : أشد الناس حسرة يوم القيامة ثلاثة :

ـ رجل له عبد ، جاء العبد يوم القيامة أفضلَ عملاً من مولاه .

ـ ورجل له مال فلم يتصدق منه ، فورثه غيره فتصدق منه .

ـ ورجل عالم لا ينتفِع بعلمه ، فعلَّم غيره فانتفع به .

وروىٰ سفيان بن عيينة عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه قال : بر الإخوان . . حصن من عداوتهم .

وقال ابن عيينة : لا يصيب عبد حقيقة التقوىٰ ؛ حتىٰ يجعل بينه وبين الحرام حاجزاً من الحلال ، وحتىٰ يدع الإثم وما تشابه منه .

وقال ابن عيينة : كان مالك بن مِغْوَل يقول لي : يا سفيان ؛ إن الزمان الذي يُحتاج إليك فيه لَزَمانُ سوء .

وقال سفيان : شهدت ثمانين موقفاً .

وقال : قال لي بشر بن منصور الزاهد : يا سفيان ؛ أقلل من معرفة الناس ؛ لعله أن يكون غداً في القيامة أقلَّ لفضيحتك إذا نودي عليك بسوء عملك .

وقال ابن عيينة : سمعت مساوراً الوراق يقول : ما كنت أقول لرجل إني أحبك في الله عز وجل ثم أمنعه شيئاً من الدنيا .

وكان ابن عيينة يقول : أُحِب للرجل أن يعيش عيش الأغنياء ويموت موت الفقراء ، وقَلَّ ما يكون هـٰذا .

وقال : أوحى الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ موسىٰ عليه الصلاة والسلام : إن أول من مات إبليس ، وذلك أنه أول من عصاني ، وإنما أَعُدُّ من عصاني من الموتىٰ .

وقال ابن عيينة : رأيت في الطواف أعرابياً يطوف ، فلما فرغ من ركعتي الطواف ؛ قام بحذاء البيت وقال : إلـٰهي ؛ من أولىٰ بالزلل والتقصير مني وقد خلقتني ضعيفاً ، ومَن أولىٰ بالعفو منك وأنت القادر علىٰ كل شيء ، وعلمك محيط وسابق بكل الأشياء ، أطعتك إذ أطعتك بإذنك ولك المنة عليَّ ، وعصيتك إذ عصيتك بعلمك والحجة لك ، فأسألك بوجوب حجتك علىٰ خلقك أجمعين ، وانقطاع حجتهم ، وفقرِهم إليك ، وغناك عنهم ؛ إلاَّ ما غفرت لي .

قال سفيان : ففرحت بهـٰذه الكلمات فرحاً عظيماً .

وكان ابن عيينة يتمثل :

إذا المـــرء كـــانـــت لـــه فكـــرةٌ ففـــي كـــل شـــيء لـــه عبـــرةٌ

أسند ابن عيينة عن جماهير التابعين ، أدرك ستة وثمانين نفساً من أعلام التابعين

وأركانهم ، وحدث عنه الأئمة سفيان الثوري ، وشعبة ، والأعمش ، والأوزاعي .

فمن أحاديثه : عن الزهري ، عن سالم ، عن أبيه : (أن النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر كانوا يمشون أمام الجنازة)[1] .

وعنه : عن علي بن زيد بن جدعان ، قال : سمعت أنس بن مالك رضي الله عنه يقول : كان أبو طلحة ينثل[2] كنانته بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ، ويجثو علىٰ ركبتيه ، ويقول : وجهي لوجهك يا رسول الله الوقاء ، ونفسي لنفسك يا رسول الله الفداء ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَصوت أبي طلحة في الجيش خير من فئة »[3] انتهىٰ [« الحلية » ٧/ ٢٧١ـ٣٠٩] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : سفيان بن عيينة ولد بالكوفة ، وسكن مكة ، ولد سنة سبع ومئة .

وقال ابن عيينة : لما بلغت خمس عشرة سنة ؛ دعاني أبي ، فقال : يا سفيان ؛ قد انقطعت عنك شرائع الصبا ، فاحفظ الخير ؛ تكن من أهله ، ولا يغرنك من اغتر بالله عز وجل ، فيمدحك بما تعلم أنت من نفسك خلافه ؛ فإنه ما من أحد يقول في شخص شيئاً من الخير إذا رضي ؛ إلا قال مثله من الشر إذا سخط ، فاستأنس بالوحشة عن جلساء السوء ، ولا تنقل حسن ظني بك إلىٰ غير ذلك ، ولن يسعد بالعلماء إلا من أطاعهم ، قال سفيان : فجعلت وصية أبي قِبلةً أميل إليها ولا أميل عنها .

وقال سفيان : أرفع الناس منزلة مَن كان بين الله سبحانه وتعالىٰ وبين عباده ، وهم الأنبياء والعلماء .

وقال بكر العابد : قلت لسفيان : يا أبا محمد ؛ أَبَلغك أن الناس يزدحمون يوم القيامة ؟ فقال : الأقدام يوم القيامة هـٰكذا ـ ووضع يده فوق الأخرىٰ ـ ثم قال : يا بكر ؛ بلغَني أن الناس يخرجون من قبورهم يقولون : الماء الماء ، العطش العطش .

وقال سفيان بن عيينة : أصابتني ذات يوم رقة ، فبكيت ، فقلت في نفسي : لو كان بعض

---

(١) أخرجه ابن حبان في « الإحسان » (٣٠٤٧) .

(٢) أي : يستخرج نبلها وينثرها .

(٣) أخرجه بنحوه أحمد (٣/ ٢٦١) ، والحميدي (٢/ ٥٠٦) .

أصحابنا حاضراً ؛ لرق معي ، ثم غفوت ، فأتاني آت في منامي ، فرفسني ، وقال : يا سفيان ؛ خذ أجرك ممن أحببت أن يراك .

وقال ابن عيينة : إنما منزلة الذي يطلب العلم لينتفع ؛ بمنزلة العبد يطلب كل شيء لرضىٰ سيده ، ويطلب التحبب والتقرب إليه والمنزلة عنده ؛ لئلا يجد عنده شيئاً يكرهه ، أو يطرده عنه . أو كما قال .

وقال : ليس يضر المدحُ من عرف نفسه .

وقال : اسلكوا سبل الحق ، ولا تستوحشوا من قلة أهلها .

وسئل ابن عيينة عن حد الرضا عن الله سبحانه وتعالىٰ ، فقال : الراضي عن الله عز وجل لا يتمنىٰ سوى المنزلة التي هو فيها .

وقال عبد الله بن ثعلبة لسفيان : يا أبا محمد ؛ واحزناه على الحزن ، فقال : يا عبد الله ؛ هل حزنت قط علىٰ سابق علم الله تعالىٰ فيك ؟ فقال عبد الله : آه تركتَني الدهرَ لا أفرح أبداً .

وقال الحسن بن عمران : حججت مع عمي سفيان آخر حجة حجها سنة سبع وتسعين ومئة ، فلما كنا بجَمْع وصلىٰ ؛ استلقىٰ علىٰ فراشه ، ثم قال : وافيت هـٰذا الموضع سبعين[1] عاماً ، أقول في نفسي كل سنة : اللهم ؛ لا تجعله آخر العهد بهـٰذا المكان ، وإني قد استحييت من الله عز وجل من كثرة ما أسأله ذلك ، فرجع ، فتوفي في السنة الداخلة يوم السبت أول يوم من رجب ، سنة ثمان وتسعين ومئة ، ودفن بالحجون ، وهو ابن إحدىٰ وتسعين سنة ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ١٣٧ـ١٤١] .

وقال في « بهجة الأسرار » : كان رجل من السلف يلقى الأخ من إخوانه ، فيقول له : يا هـٰذا ؛ اتق الله ، وإن استطعت ألاَّ تسيء إلىٰ من تحب ؛ فافعل ، فقال له رجل يوماً : وهل يسيء الإنسان إلىٰ من يحب ؟! قال : نعم ؛ نفسك التي هي أعز الأنفس عليك ، فإذا عصيت الله تعالىٰ ؛ فقد أسأت إليها .

قال : وكتب رجل إلىٰ أخ له : **أما بعد** : فإن استطعت أن تدع ما أحل الله عز وجل لك

---

(١) في النسخ : (ثمانين عاماً) ، والمثبت من كتب التراجم كما في « الطبقات » (٥/ ٤٩٨) ، و« تهذيب الكمال » (١١/ ١٩٥) ، و« الصفوة » (٢/ ١٤١) ، والله أعلم بالصواب .

ما يكون حاجزاً بينك وبين ما حرم الله عز وجل عليك ؛[فافعل] ؛ فإن من استوعب الحلال كله ؛ تاقت نفسه إلى الحرام .

وقال سفيان بن عيينة رحمه الله : كنت أتفكر في معنىٰ قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إن فقراء أمتي يدخلون الجنة قبل أغنيائهم ؛ . »[1] الحديث ، فلم أقف عليه حتىٰ رأيت في منامي كأن قائلاً يقول لي : إن الغني إذا نابته نائبة ؛ التجأ إلىٰ ماله وجاهه وقدرته وإخوانه ، والفقير إذا نابته نائبة لم يلتجىء إلا إلى الله عز وجل ، فيبقىٰ كل واحد مع من التجأ إليه ، الغني مع ماله ، والفقير مع الله عز وجل ، ثم إن الفقير مع هـٰذا يستر حاله ويخفي أمره ؛ غَيرة منه على المحبة ، والمحبوب جل جلاله يفعل ما يشاء . انتهىٰ .

وقال شيخ الإسلام النووي ـ قدس الله تعالىٰ روحه ، ونور ضريحه ـ : سفيان بن عيينة بضم العين والسين على المشهور ، وكان بنو عيينة عشرة خزازين ، حدَّث منهم خمسة : محمد ، وإبراهيم ، وسفيان ، وآدم ، وعمران ، وأشهرهم وأجلهم : سفيان ، سكن مكة ، وبها توفي ، وهو من تابعي التابعين .

روىٰ عنه : الأعمش ، والثوري ، ومسعر ، وابن جريج ، وشعبة ، وهمام ، ووكيع ، وابن المبارك ، وابن مهدي ، والقطان ، وحماد بن زيد ، وقيس بن الربيع ، والحسن بن صالح ، والشافعي ، وابن وهب ، وأحمد ابن حنبل ، وابن المديني ، وابن معين ، وابن راهويه ، والحميدي ، وخلائق لا يحصون من الأئمة .

وروى الثوري عن : القطان عن ابن عيينة ، واتفقوا علىٰ جلالته وإمامته وعظيم مرتبته .

ورُوِّينا عن ابن وهب قال : ما رأيت أعلم بكتاب الله تعالىٰ من ابن عيينة .

وقال الثوري : ابن عيينة أحد الأحدين[2] .

وقال أبو حاتم : أَثبَتُ أصحاب الزهري مالك وابن عيينة ، وكان أعلم بحديث عمرو بن دينار من شعبة .

وقال يحيى القطان : سفيان إمام من أربعين سنة ، وذلك في حياة سفيان الثوري .

---

(١) أخرج أحمد (٢/ ٥١٩) ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم » قال : وتلا : ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ .

(٢) أي : ليس له نظير .

وقال يحيىٰ : أَثبَتُ الناس في عمرو بن دينار ؛ ابن عيينة .

وقال القطان : ما رأيت أحسن حديثاً من ابن عيينة .

وقال الشافعي : ما رأيت أحداً جمع الله فيه من آلة العلم ما في سفيان ، وما رأيت أحداً أَكَفَّ عن الفتيا منه ، وما رأيت أحداً أَنصَّ لتفسير الحديث منه .

وقال أحمد بن عبد الله : كان ابن عيينة حسن الحديث ، وكان يُعَدُّ من حكماء أصحاب الحديث ، وكان حديثه نحو سبعة آلاف حديث ، ولم يكن له كتب .

ورُوِّينا عن سعدان بن نصر قال : قال سفيان بن عيينة : قرأت القرآن وأنا ابن أربع سنين ، وكتبت الحديث وأنا ابن سبع سنين .

ومناقبه كثيرة مشهورة ، وهو أحد أجداد الشافعية في طريق الفقه .

وكان يقول في تفسير هٰذا الحديث « من غشنا ؛ ليس منا ، ومن حمل علينا السلاح ؛ فليس منا »[1] : مَن تأوله علىٰ أن المراد ليس علىٰ هدينا وحسن طريقتنا ؛ فقد أساء ، ومراده أن يبقىٰ تفسيره مسكوتاً عنه ؛ ليكون أبلغ في الزجر عن هٰذه المعاصي . انتهىٰ [« التهذيب » ١/ ٢٢٤ـ٢٢٥] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٦٨٧٤) ، ومسلم (١٠١/ ١٦٤) .

ومنهم الإمام أمير المؤمنين في الرواية والحديث :

شُعبة بن الحجَّاج
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : هو أبو بسطام ، شعبة بن الحجاج رحمه الله .

قال بعض العلماء : ما رأيت أعبَدَ لله عز وجل من شعبة ، لقد عَبَدَ اللهَ سبحانه وتعالىٰ حتىٰ جف جلده علىٰ عظمه ليس بينهما لحم .

وقال عمر بن هارون : كان شعبة يصوم الدهر كله لا يُرىٰ عليه ، وكان سفيان الثوري يصوم ثلاثة أيام في الشهر يُرىٰ عليه .

وكان شعبة يقول : إذا كان عندي دقيق وقصب ؛ فلا أبالي ما فاتني من الدنيا .

وقال أبو نوح : رأىٰ عليَّ شعبةُ قميصاً ، فقال : بِكَم اشتريت هـٰذا ؟ فقلت : بثمانية دراهم ، فقال : ويحك! أمَا تتقي الله عز وجل ؟! تلبس قميصاً بثمانية دراهم ؟ ألا اشتريت قميصاً بأربعة دراهم . . وتصدقت بأربعة دراهم . . كان خيراً لك ؟! قلت : يا أبا بسطام ؛ إنا مع قوم نتجمل لهم ، قال شعبة : أيش نتجمل لهم ؟!

وكان شعبة من أرق الناس قلباً ، يمر به السائل ، فيدخل بيته ، ويعطيه ما أمكنه .

وكان يقول غير مرة : لولا حوائج لي إليكم ؛ ما جلست معكم ، وكانت حوائجه أن يسأل لجيرانه الفقراء .

وقال أبو قَطَن : كان ثياب شعبة لونها لون التراب .

وكان كثير الصلاة والصيام ، سخيَّ النفس .

وكان إذا حك جلده ؛ انتثر منه التراب .

وركب شعبة حماراً له ، فلقيه سليمان بن المغيرة ، فشكا إليه حاجة ، فقال له شعبة : والله ؛ ما أملك إلا هـٰذا الحمار ، ثم نزل عنه ، ودفعه إليه .

وقال أبو داوود الطيالسي : كنا عند شعبة ، فجاء سليمان بن المغيرة يبكي ، فقال له

شعبة : ما يبكيك ؟ فقال : مات حماري ، وذهبت مني الجمعة ، وذهبت حوائجي ، قال : بِكَمْ أخذتَهُ ؟ قال : بثلاثة دنانير ، قال : فعندي ثلاثة دنانير ، والله ؛ ما أملك غيرها ، يا غلام ؛ هات تلك الصرة ، فإذا فيها ثلاثة دنانير ، فدفعها إليه ، وقال : اشتر بها حماراً ولا تبك .

وكان إذا قعد في زورق ؛ أعطى الأجرة عن جميع من فيه .

وكان إذا وقف في مجلسه سائل ؛ يترك الحديث ولا يحدث حتىٰ يُعطىٰ ، فقام يوماً سائل ، ثم جلس ، فقال شعبة : ما شأنه ؟ قالوا : ضمن عبد الرحمٰن بن مهدي أن يعطيه درهماً .

وقال عبدان بن عثمان عن أبيه : قوَّمْنا حمار شعبة وسرجه ولجامه بسبعة عشر درهماً .

وقال محمد بن عمرو : سمعت أصحابنا يقولون : وهب الخليفة المهدي لشعبة ثلاثين ألف درهم ، فقسمها وفرقها ، وأقطعه ألف جريب[1] بالبصرة ، فقدم البصرة ، فلما فحص عنها ؛ لم يجد فيها شيئاً يطيب له ، فتركها .

وقال شعبة : اختلفت إلىٰ عمرو بن دينار خمس مئة مرة ، وما سمعت منه إلا مئة حديث ، في كل خمسة مجالس حديثاً .

وقال أبو الوليد : سألت شعبة عن حديث ، فقال : والله ؛ لا أحدثك به ، فإني لم أسمعه إلا مرة .

وقال سفيان بن عيينة : لقيت شعبة في طريق مكة ، فقلت : أين تريد ؟ فقال : أريد الأسود بن قيس ، أستفيد منه حديثاً .

وقال ابن عيينة : لقيت شعبة في يوم مَطير علىٰ حمار أبتر[2] ، فقلت له : إلىٰ أين ؟ قال : أذهب إلى الأسود بن قيس ، فقد حدَّثَنا في العام الماضي بأحاديث أَبْصُرُ أنحفظها في هٰذا العام ؟

وقال أبو داوود الطيالسي : قال شعبة : كل حديث ليس فيه حدَّثَنا وأخبرَنا ؛ فهو خلٌّ وبقل[3] .

---

(١) **الجريب** : المساحة من الأرض ، والمراد هنا : المزرعة .
(٢) أي : مقطوع الذنب .
(٣) **خلٌّ وبقل** : أي غير معتبر عند أهل الفن .

وقال يحيى بن سعيد القطان : لزمت شعبة عشرين سنة ، فأكثر ما كنت أسمع منه في كل يوم ثلاثة أحاديث إلىٰ عشرة .

وعن حماد بن زيد قال : لقيني شعبة ، فقلت : يا أبا بسطام ؛ أين تريد ؟ قال : إلىٰ أبان بن عياش أدعوه إلى القاضي ؛ فإنه يكذب علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت له : إني أخاف عليك عبد القيس ، وكلمته في ذلك ، فانصرف ، قال : ثم لقيني شعبة بعد ذلك ، فقال لي : إني نظرت في ذلك ، فلا يسعني السكوت .

وفي رواية حماد بن زيد أيضاً : قال : كلَّمْنا شعبةَ في أبان بن عياش ، وسألناه الكف عنه ، فقال : إنه وإنه ، فقلنا : نحب أن تمسك عنه ، فقال : نعم ، قال حماد : فبينا أنا في المنزل في يوم مَطير ؛ إذا شعبة يخوض الماء ، ثم نادىٰ : يا أبا إسماعيل ؛ مرتين ، فأجبته ، فقال : إني أمضي الآن أستعدي علىٰ أبان ، فقلت : ألم تضمن لنا أنك تمسك عنه ؟ فقال : لا أصبر ، لا أصبر ، ثم مضىٰ .

وقال شعبة : لا يزال المرء في فسحةٍ من دِينه . . ما لم يطلب الإسناد .

وكان شعبة يأتي عمران بن حدير فيقول له : تعال يا عمران نغتاب في الله عز وجل ساعة ؛ نذكر مساوىء أصحاب الحديث[1] .

وقيل لشعبة : لِمَ تركت حديث أبي الزبير ؟ قال : رأيته يزن بميزان ، فاسترجح في الميزان ، فتركته .

وسأل رجل شعبة عن حرف ، فقال : لأَن أَخِرَّ من السماء إلى الأرض ؛ أحب إلي من أن أدلس[2] .

وكان شعبة معتنياً بالحديث ، يأتي الشيخَ يكرر عليه .

وكان سليمان بن المغيرة إذا ذكر شعبة ؛ قال : سيد المحدثين ، وكان شعبة إذا ذكر سليمان ؛ قال : سيد القراء .

---

(١) أراد شعبة ـ رحمه الله ـ أن يتذاكرا في حال الرواة حرصاً علىٰ سلامة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس المقصود هو الغيبة المحرمة ، ولا سيما هو أول من تكلم في الجرح والتعديل ، كما سيأتي في آخر الترجمة .

(٢) ومن المعروف عن شعبة ـ رحمه الله ـ أنه أشد الناس ذماً للتدليس .
والتدليس : هو رواية المحدث عمن لقيه ما لم يسمعه منه موهماً أنه سمعه منه ، أو عمن عاصره ولم يلقه موهماً أنه قد لقيه وسمعه منه .

قال يحيى بن سعيد القطان : كنت عند شعبة ، فسأله رجل عن حديث ، فامتنع ، فقلت : لِمَ لا تحدثه ؟ فقال : هـٰؤلاء قُصَّاص يزيدون في الحديث .

وقال : لولا الحياء من الناس ؛ ما صليت علىٰ أبان بن عياش .

وصلىٰ شعبة الغداة يوماً ، ثم سكت حتىٰ أطال السكوت ، ثم أقبل علينا ، وقال : أتحسبون أني كنت أسبِّح ؟ إنما كان اليومَ درسي في حديث قتادة ؛ فإنه تفلَّتَ عليَّ حديثان ، فجعلت أستذكرهما حتىٰ ذكرتهما .

وقال شعبة : كنت أجيء إلىٰ قتادة ، فأسأله عن حديثين ، ثم يقول لي : أزيدك ؟ فأقول : لا ، حتىٰ أحفظهما وأتقنهما .

وعن حماد بن زيد قال : قال لنا أيوب : الآن يقدم عليكم رجل من أهل واسط ، يقال له : شعبة ، هو فارس الحديث ، فإذا قدم ؛ فخذوا عنه ، قال حماد : فلما قدم شعبة ؛ أخذنا عنه .

وقال شعبة : كل من سمعت منه حديثاً . . فأنا له عبد[1] .

وقال عبد الوارث : حدثنا شعبة قال : أخبرنا محمد بن سالم ، عن الشعبي : أن علياً وزيداً رضي الله عنهما كانا لا يُوَرِّثان الجَدَّة وابنُها حي ، وأن ابن مسعود رضي الله عنه كان يُوَرِّثها ، ويقول : (إن أول جدة أطعمت في الإسلام . . أطعمت وابنها حي) انتهىٰ [« الحلية » ٧/ ١٤٤ـ١٦٣] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ :

قال مسلم بن إبراهيم : ما دخلت علىٰ شعبة قط في وقت صلاة ؛ إلا رأيته قائماً يصلي .

وقال سليمان بن حرب : لو نظرتَ إلىٰ ثياب شعبة ؛ لم تكن تساوي عشرة دراهم إزاره وقميصه ورداؤه ، وكان كثير الصدقة .

أدرك شعبة الحسن ، وابن سيرين ، زماناً لا سماعاً ، وسمع من قتادة ، ويونس ، وأيوب ، وخالدِ الحذَّاءِ ، وخلق كثير من التابعين .

توفي بالبصرة ، سنة ستين ومئة ، وهو ابن سبع وسبعين سنة . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/ ٢٠٦ـ٢٠٧] .

---

(١) أي : خادم .

وقال الشيخ محيي الدين النووي ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ : شعبة بن الحجاج بن الورد العَتَكي الأزدي مولاهم ، الواسطي ، ثم البصري ، مولىٰ عبدة بن الأعز ، وعبدة مولىٰ يزيد بن المهلب الأزدي .

كان شعبة من واسط ، ثم انتقل إلى البصرة ، فاستوطنها ، وهو من تابعي التابعين ، وأعلام المحدثين ، وكبار المحققين .

رأى الحسن وابن سيرين ، وسمع من أنس بن سيرين ، وعمرو بن دينار ، والسَّبيعي ، وخلائق لا يحصون من التابعين وتابعي التابعين .

روىٰ عنه : الأعمش ، وأيوب السَّختياني ، ومحمد بن إسحاق التابعيون ، والثوري ، وابن مهدي ، ووكيع ، وابن المبارك ، ويحيى القطان ، وخلائق لا يُحصَون من كبار الأئمة .

وأجمعوا علىٰ إمامته في الحديث ، وجلالته ، وتحريه ، واحتياطه ، وإتقانه .

قال أحمد ابن حنبل : لم يكن في زمن شعبة مثله في الحديث ، ولا أحسن حديثاً منه ، قُسِم له منه حظ .

وروىٰ عن ثلاثين رجلاً من الكوفة لم يروِ عنهم سفيان الثوري .

وقال الشافعي : لولا شعبة ؛ ما عُرف الحديث بالعراق .

وقال : وكان يجيء إلى الرجل ؛ يعني : الذي ليس أهلاً للحديث ، فيقول له : لا تحدث ، وإلا . . اشتكيت عليك إلى السلطان .

وقال أبو الوليد الطيالسي : اختلفت إلىٰ حماد بن سلمة ، فقال : إذا أردت الحديث ؛ فالزم شعبة .

وقال حماد بن زيد : ما أبالي من خالفني إذا وافقني شعبة ؛ لأن شعبة لا يرضىٰ أن يسمع الحديث مرة ، وإذا خالفني شعبة في شيء ؛ تركته .

وقال يحيى القطان : شعبة أسن من الثوري بعشر سنين ، والثوري أسن من ابن عيينة بعشر سنين .

وقال أحمد ابن حنبل : كان شعبة أمة واحدة في هـٰذا الشأن ؛ يعني : علم الحديث وأحوال الرواة .

ورُوِّينا عن ابن مهدي قال : كان سفيان الثوري يقول : شعبة أمير المؤمنين في الحديث .

ورُوِّينا عن الثوري ـ أيضاً ـ : أنه قال لمسلم بن قتيبة حين قدم من البصرة : ما فعل أستاذنا شعبة ؟

ورُوِّينا عن صالح بن محمد أنه قال : أول من تكلم في الرجال شعبة ، ثم تبعه يحيى القطان ، ثم أحمد ابن حنبل وابن معين .

وقال عبد الصمد : أدرك شعبة من أصحاب ابن عمر رضي الله عنهما نيفاً وخمسين رجلاً .

توفي شعبة بالبصرة في أول سنة ستين ومئة ، وهو ابن سبع وسبعين سنة ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« التهذيب » ١/٢٤٥ـ٢٤٦] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

مسعر بن كِدام
رضي الله عنه

قال شيخ الإسلام النووي ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ : هو بكسر الكاف ، وكنيته : أبو سلمة العامري الهلالي الكوفي .

روىٰ عن : عمير بن سعيد النخعي ، وأبي إسحاق السبيعي ، وعبد الملك بن عمير ، والأعمش ، وخلائق غيرهم من التابعين .

روىٰ عنه : سليمان التيمي ، ومحمد بن إسحاق ، والثوري ، وشعبة ، ومالك بن مِغْوَل ، وابن عيينة ، وابن المبارك ، ويحيى القطان ، ووكيع ، ويزيد بن هارون ، وخلائق غيرهم ، واتفقوا علىٰ جلالته .

قال هشام بن عروة : ما قدم علينا من العراق أفضل من أيوب السختياني ومسعر .

وقال يحيى بن سعيد : ما رأيت مثل مسعر ، كان من أثبت الناس .

وقال سفيان الثوري : كنا إذا شككنا في شيء ؛ سألنا مسعراً عنه .

وقال شعبة : كنا نسمي مسعراً : المُصْحَف[1] .

وقال أبو حاتم : مسعر أتقَنُ وأجود حديثاً ، وأعلىٰ إسناداً من سفيان ، وأتقن من حماد بن زيد .

وقال إبراهيم بن سعد : كان شعبة وسفيان إذا اختلفا في شيء ؛ قال : اذهب بنا إلى الميزان ؛ يعني : مسعراً .

توفي سنة خمس وخمسين ومئة رحمه الله . انتهىٰ [« التهذيب » ٢/٨٩] .

---

(١) **المُصْحَف** : لفظ من ألفاظ التعديل عند أهل الفن ، وتدل علىٰ توثيق الرجل ، وقيل : كان مسعر يسمىٰ : المصحف ؛ لحفظه وقلة خطئه .

وقال مسعر بن كدام : سألت سعد بن إبراهيم : مَن أفقه أهل المدينة ؟ قال : أفقههم أتقاهم .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : قال سفيان بن عيينة : ما رأيت أحداً أُفضِّلُه علىٰ مسعر .

وقال سفيان الثوري : لم يكن في زماننا مثله .

وقال أبو خالد الأحمر : لم يكن في أقرانه أكثرُ صمتاً منه .

وقال ابنه : كان أبي لا ينام حتىٰ يقرأ نصف القرآن ، فإذا فرغ من ورده ؛ لف رداءه ، ثم هجع عليه هجعة خفيفة ، ثم يثب كالرجل ضل منه شيء فهو يطلبه ، وإنما هو السواك والطهور ، ثم يستقبل المحراب . . كذلك إلى الفجر ، وكان يجتهد علىٰ إخفاء ذلك .

وقال أبو أسامة : سمعته يقول : أشتهي أن أسمع صوت باكية حزينة .

وقال محمد بن كناسة : سمعته يقول : من أهمته نفسه ؛ تبيَّن ذلك عليه .

وقال سفيان : قال رجل لمسعر : أتحب أن يخبرك الرجل بعيوبك ؟ قال : إن كان ناصحاً ؛ فنعم ، وإن كان يريد أن يؤنبني ؛ فلا .

وقال الفيض : حدثني جار لمسعر قال : بكىٰ مسعر ، فبكت أمه ، فقال لها : ما يبكيك ؟ قالت : يا بني ؛ رأيتك تبكي فبكيت ، فقال : يا أماه ؛ لمثل ما يهجم علينا غداً ، فَلْيَطُلِ البكاء ، قالت : وما ذاك ؟ فانتحب ، وقال : القيامة وما فيها ، ثم قام .

وكان يقول : لولا أمي ؛ ما فارقت المسجد إلا لما لا بد منه .

وكان إذا دخل ؛ بكىٰ ، وإن خرج ؛ بكىٰ ، وإن صلىٰ ؛ بكىٰ ، وإن جلس ؛ بكىٰ .

وقال يحيى بن آدم : لما حضرت مسعر الوفاة ؛ دخل عليه سفيان الثوري ، فوجده جزعاً ، فقال له : لِمَ تجزع ؟ فوالله ؛ لوددت أني مِتُّ الساعة ، فقال مسعر : أقعدوني ، كيف قلت ؟ فأعاد عليه سفيان الكلام ، فقال : إنك إذاً لواثق بعملك يا سفيان ، لٰكني والله ؛ لكأني علىٰ شاهقة جبل ، لا أدري أين أهبط ، فبكىٰ سفيان ، وقال : أنت أخوف لله عز وجل مني .

وقال مصعب بن المقدام : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وسفيان الثوري آخذ بيده ، وهو يطوف مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال سفيان : يا رسول الله ؛ مات

مسعر ابن كدام ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نعم ، واستبشر به أهل السماء » .

أسند عن أعلام التابعين ، وتوفي بالكوفة ، سنة خمس وخمسين ومئة ، وقيل : سنة اثنتين وخمسين ومئة . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/٦٣ـ٦٤] .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : قال سفيان بن عيينة : كان مسعر من معادن الصدق .

وقيل له : مَن أفضلُ مَن رأيت ؟ قال : مسعر بن كدام ، وقيل لمسعر : مَن أفضلُ مَن رأيت ؟ قال : عمرو بن مرة .

وقال ابن عيينة ـ وذكر مسعراً ـ فقال : أخبَروني عن سفيان الثوري أنه حيث كان يقول : (حدثنا أبو سلمة) يعني به : مسعراً ، كان يستحي أن يقول : حدثنا مسعر . ما رأىٰ مثل مسعر قط .

وقال إسحاق بن الضيف : سألت يعلى بن عبيد ، قلت له : يا أبا يوسف ؛ مَن أدركت من أهل زمانك ، فقد أدركت الناس ؟ قال : سفيان الثوري . قلت : سبحان الله! فقد أدركت محمد بن سوقة ، وموسى الجهني ، وعبد الملك ابن أبي سليمان ، وقد حَمَل عنهم سفيان الثوري ، فجلس ـ وكان قائماً ـ فقال : يا بني ؛ إن سفيان الثوري كان قد جمع ورعاً وعلماً . [قلت] : ثم مَن ؟ فناولني يده وقام ، وقال : مسعر .

وقال معن بن عبد الرحمن : ما رأيت مسعراً في يوم ؛ إلا قلت : هو أفضل منه قبل ذلك .

وقال ابن عيينة : رأيت كأن قناديل المسجد الأعظم ـ يعني : مسجد الكوفة ـ قد طفئت ، فمات مسعر .

وعن أبي وكيع الجراح قال : قال لي ليث ابن أبي سليم : أفضل شبابنا أربعة ، قال : قلت : أمسِك حتىٰ أعدهم : عمرو بن قيس الملائي ، والمغيرة بن أيوب ، وخلف بن حوشب ، ومسعر بن كدام .

وقال أبو عبيدة الحداد : سألت شعبة عن مسعر ، فقال : ذاك عند الكوفيين مثل ابن عون عند البصريين .

وقيل للأعمش : إن مسعراً يشك في حديثه ، قال : شكٌّ مسعر كيقين غيره .

وقال شعبة : شكٌّ مسعر أحب إليَّ من يقين غيره .

وقال يزيد بن هارون : قدمت الكوفة ، فما رأيت بها أحداً ؛ إلا يدلِّس ، ما خلا مسعراً وشريكاً .

وقال ابن عيينة : قال مسعر : التدليس دناءة .

وقال ابن عيينة : قلت لمسعر : إن إنساناً كلمني أن أكلمك أن تحدثه ، قال : قل له يجيء ، قلت : أفأجيء أنا معه ؟ قال : أما أنت ؛ فبِتْ عندنا .

وكان مسعر يقول : والله ؛ ما أدري كيف أصنع بالرجلين يأتياني ، يخف عليَّ أن أحدث أحدهما ، ويثقل عليَّ الآخر .

قال سفيان : يخاف أن يكون جوراً حتىٰ يعدل بينهما .

وقال خالد بن عمرو : رأيت مسعراً كأن في وجهه ركبة عنز من أثر السجود .

وأثنىٰ رجل علىٰ مسعر ، فقال له مسعر : تثني عليَّ وأنا أبني بالأجر وأقبض جوائز السلطان ؟!

وقال ابن عيينة : قال مسعر : دخلت علىٰ أبي جعفر المنصور أمير المؤمنين ، فقال لي بعد كلام كثير دار بيني وبينه : لو كان الناس كلهم مثلك ؛ لخرجت فمشيت معهم في الطريق ، أو بين أظهرهم ، ثم إنه بعد ذلك دعاني ، وأراد أن يوليني القضاء ، فقلت : أَصلحَ الله أمير المؤمنين ، إن أهلي يريدون شراء شيء بدرهمين ، فأقول : أعطوني أشتري لكم ، فيقولون : لا ، والله ؛ لا نرضىٰ بشرائك ، فأهلي لا يرضون بشرائي الشيء بدرهمين ، وأمير المؤمنين يوليني القضاء ؟! أصلحك الله ؛ إن لنا قرابة وحقاً ، فقال المنصور : أما والله ؛ ما لنا في العرب قرابة أحب إلينا منك ، ثم أعفاه .

وطلبت أم مسعر من ابنها ماء في بعض الليل لتشرب ، فذهب وجاء بقربة من ماء ، فوجدها نائمة ، فثبت بالشربة علىٰ يده حتىٰ طلع الفجر .

وقال مسعر : قدمت مكة وبها الزهري ، فمثلت بين لقائه والطواف ، فاخترت الطواف علىٰ لقائه .

وعن ابن عيينة ، عن مسعر قال : إن الجنة والنار لُقِّنَتا السمع من بني آدم ، فإذا قال العبد : اللهم ؛ إني أسألك الجنة ؛ قالت الجنة : اللهم ؛ بلغه ، وإذا قال : اللهم ؛ إني أعوذ بك من النار ؛ قالت النار : اللهم ؛ أعذه ، فإذا لم يذكرهما ؛ قالت الملائكة عليهم السلام : المساكين أغفلوا العظيمتين .

وعن أبي أسامة قال : قال لي مسعر : من رضي بالخل والبقل ؛ لم تستعبده الناس .

ومما رواه مسعر عن عطية : عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا كان يوم القيامة ؛ وُضِعت منابر من ذهب ، عليها قِباب من فضة ، مفصصة بالدر والياقوت والزمرد ، خلالها السندس والإستبرق ، ثم ينادي منادي الرحمٰن عز وجل : أين من حَمل إلىٰ أمة محمد صلى الله عليه وسلم علماً يريد به وجه الله سبحانه وتعالىٰ ؟ فيُجاء بالعلماء الذين أرادوا بعلمهم وجه الله تعالىٰ ـ وهو سبحانه أعلم بهم ـ فيقال لهم : اجلسوا علىٰ هٰذه المنابر ، فلا خوف عليكم اليوم حتىٰ تدخلوا الجنة » .

وعنه عن عطية قال : كنت مع ابن عمر رضي الله عنهما جالساً ، فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن ؛ لوددت أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له ابن عمر : فكنت تصنعُ ماذا ؟ قال : كنت ـ والله ـ أؤمن به وأقبِّل قدميه وأطيعه صلى الله عليه وسلم في جميع ما يأمر ، فقال له ابن عمر : ألا أبشرك ؟ قال : بلىٰ ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما اختلط حبي بقلب عبد فأحبني ؛ إلا حرم الله تعالىٰ جسده على النار » ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : « ليتني أرىٰ إخواني وردوا عليَّ الحوض ، فأسقيهم من حوضي قبل أن يدخلوا الجنة » ، فقيل له : يا رسول الله ؛ أَوَلسنا إخوانك ؟ قال : « أنتم أصحابي ، إخواني من آمن بي ولم يرني ، إني سألت ربي عز وجل أن يقر عيني بِكُمْ وبمن آمن بي ولم يرني » غريب من حديث مسعر .

وعن مسعر قال : حدثني فراس عن الشعبي ، عن كعب بن عجرة قال : أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « يكون بعدي أمراء ، فمن دخل عليهم وصدقهم بكذبهم وأعانهم علىٰ ظلمهم ؛ فليس مني ولست منه ، ولن يرد عليَّ الحوض »[1] . غريب من حديث مسعر .

وعنه عن قتادة ، عن أنس : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن عند كل ختمة دعوة تستجاب »[2] .

وعنه عن أبي يحيىٰ ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : لو أن رجلين جلس أحدهما بالمشرق والآخر بالمغرب ، ومع أحدهما الذهب يضعه في سبيل الله سبحانه

---

(١) أخرجه بنحوه ابن حبان في « الإحسان » (٢٧٩) .

(٢) أخرجه بنحوه البيهقي في « الشعب » (٢/ ٣٧٤) .

وتعالىٰ ، والآخر يذكر الله عز وجل حتىٰ يلتقيا ؛ كان الذي يذكر الله سبحانه وتعالىٰ أفضلهما ، أو قال : أعظمهما أجراً .

وعنه عن القاسم بن عبد الرحمـٰن عن سعيد بن المسيب ، عن زيد بن ثابت قال : نام رسول الله صلى الله عليه وسلم علىٰ حصير ، فأثر في جنبه ، فقالت له عائشة رضي الله عنها : يا رسول الله ؛ هـٰذا كسرىٰ وقيصرُ في ملك عظيم ، وأنت رسول الله لا شيء لك ، تنام على الحصير ، وتلبس الثوب الضعيف! فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا عائشة ؛ لو شئتُ أن تسير معي الجبال ؛ لسارت ذهباً وفضة ، ولقد أتاني جبريل عليه السلام بمفاتيح خزائن الأرض ، فلم أُرِدْها » انتهىٰ [« الحلية » ٧/٢٠٩ـ٢٦٢] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الامام :

أبو سليمان داوود بن نُصَير الطَّائي

رضي الله عنه

روى الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : عن سلمة بن سعيد قال : لقي داوود الطائي رجل ، فسأله عن حديث ، فقال له : دعني ، فإني أبادر خروج نفسي .

وكان سفيان الثوري ـ رحمه الله ـ إذا ذكر داوود الطائي ؛ قال : أبصَرَ الطائي أمره .

وقال عبد الله بن المبارك ـ رحمه الله ـ : وهل الأمر إلا ما كان عليه داوود الطائي .

وكان داوود يقول : سبقني العابدون وقُطِع بي ، وا لهفاه .

وسأله رجل عن الرمي فقال : إني أحب أن أتعلم الرمي ، فقال : إنه لحَسن ، ولـٰكن هي أيامك ، فانظر بم تقطعها .

ومن كلام ابن السماك رحمه الله في زهد الطائي ـ بعد موته وقبل أن يُدفن عند قبره ـ : يا داوود ؛ ما أعجبَ شأنَك ؛ فإنك كنت قد ألزمت نفسك الصمت حتىٰ قومتها على العدل ، وأهنتها وإنما تريد كرامتها ، وأذللتها وإنما تريد عزها ، ووضعتها وإنما تريد تشريفها ، وأتعبتها وإنما تريد راحتها ، وأجعتها وإنما تريد شبعها ، وأظمأتها وإنما تريد ريها ، وخشَّنت الملبس وإنما تريد لينه ، وأَمتَّ نفسك قبل أن تموت ، وقبرتها قبل أن تقبر ، وعذبتها قبلِ أن تعذب ، وغيبتها عن الناس لكي لا تُذكَر ، ورغبت بنفسك عن الدنيا ، فلم تر لها قدراً ولا خطراً ، فَقُهت في دينك ، ثم تركت الناس ، آنس ما تكون إذا كنت بالله عز وجل خالياً ، وأوحش ما تكون إذا كنت مع الناس جالساً ، ما أحسبك إلا قد أتعبت العابدين ، فما أصغر ما بذلت ، وما أحقر ما تركت في جنب ما أمَّلت أو طلبت ، أما أنت ؛ فقد ظفرت بروح العاجل ، وسعدت بعبادة الله عز وجل في الآجل ، فلما مُتَّ ؛ شهرك ربك وألبسك رداء عملك ؛ لأنك لم تنشر ما عملت في سرك ، فأظهر الله اليوم ذلك ، فلو رأيت اليوم كثرة من تبعك ؛ عرفت أن ربك سبحانه وتعالىٰ قد أكرمك وشرفك ، فقل لعشيرتك

اليوم تتكلم بألسنتها ، فقد أظهر الله عز وجل اليوم فضلها ، إن ربك سبحانه وتعالىٰ لا يضيع مطيعها ، ولا ينسىٰ صنيعاً شكراً لخلقه ، ما صنع هو بهم فيما أنعم عليهم أكثر من شكرهم إياه ، فسبحانه شاكراً مجازياً مثيباً .

ولما فرغ ابن السماك ؛ قام أبو بكر النهشلي ، فحمد الله تعالىٰ وأثنىٰ عليه ، ثم قال : يا رب ؛ إن الناس قد قالوا مبلغ ما عندهم مما علموا ، اللهم ؛ فاغفر له برحمتك ، ولا تكله إلىٰ عمله .

وفي رواية أخرىٰ : قال أبو بكر بن عياش أيضاً علىٰ شفير القبر : اللهم ؛ لا تكل داوود إلىٰ عمله ، فأعجَبَ الناسَ ما قال أبو بكر .

وقال حفص بن عمر : اشتكىٰ داوود الطائي ـ رحمه الله ـ أياماً ، وكان سبب علته أنه مر بآية فيها ذِكر النار ، فكررها مراراً في ليلته ، فأصبح مريضاً ، فلما مات ؛ وجدوا رأسه علىٰ لبنة وهو على التراب ، قال ابن السماك : فبكيت لما رأيت من حاله ، ثم ذكرت ما أعد الله سبحانه وتعالىٰ لأوليائه ، فقلت : يا داوود ؛ سجنت نفسك قبل أن تسجن ، وعذبت نفسك قبل أن تعذب ، فاليوم ترىٰ ثواب ما كنت تعمل له .

وقال محمد بن عيسى الوابشي : رأيت الناس هـٰهنا باتوا ثلاث ليال ؛ مخافة أن تفوتهم جنازة داوود ، ورأيت الناس كلهم يبكون عليه ، ما شبهته إلا يوم الخروج .

وقال أبو داوود الطيالسي : شهدت جنازة داوود ، وحضرته عند الموت ، فما رأيت أشد نزعاً منه ، أتيناه من العشاء ونحن نسمع نزعه قبل أن ندخل ، ثم غدونا عليه وهو في النزع ، فلم نبرح حتىٰ مات .

وقال الحسن بن بشر : حضرت جنازة داوود ، كان ينعىٰ ساعة بعد ساعة ثم يكذب ، وحمل علىٰ سريرين أو ثلاثة تكسرت من زحام الناس عليه ، فيغير السرير ، وصلي عليه كذا وكذا مرة ، ولقد رأيته يوضع على القبر ، فيجيء قوم ، فيحملونه ، فيذهبون به ، ثم يعيدونه إلىٰ موضع قبره .

وقيل : كان سبب تعبد داوود الطائي رحمه الله : أنه كان يجالس أبا حنيفة رحمه الله ، فقال له أبو حنيفة : يا أبا سليمان ؛ أما الأداة : فقد أحكمناها ، قال داوود : فأي شيء بقي ؟ قال : العمل بما علمناه لله عز وجل ، قال داوود رحمه الله : فنازعتني نفسي إلى العزلة ، فقلت : حتىٰ تجلسي معهم سنة ولا تجيبي في شيء ، فكنت أجالسهم وتجيء

المسألة فأجد شهوة الجواب فيها أكثر مما يجد العطشان إلى الماء ، فلا أجيب ، فلما مضت سَنة ؛ اعتزلتهم .

وكان إذا خرج ؛ مشىٰ في طريق خالية بعيدة فيقال له : الطريق من هنا أقرب ، فيقول : فِرَّ من الناس فرارَك من الأسد ، إنه ما خالط أحد الناس إلا نسي العهد .

وقال أبو أسامة رحمه الله : جئت أنا وابن عيينة إلىٰ داوود الطائي رحمه الله ، فقال : قد جئتماني مرة فلا تعودا إلي .

وكان لايخرج من منزله حتىٰ يقول المؤذن : قد قامت الصلاة ، فيخرج ، فيصلي ، فإذا سلم الإمام ؛ أخذ نعله ودخل منزله .

قال أبو الربيع رحمه الله تعالىٰ : كنت أحب أن أجتمع معه ، وكان ذلك دأبه ، فلما طال ذلك علي ؛ أدركته يوماً ، فقلت : أبا سليمان ؛ علىٰ رِسْلك ، فوقف لي ، فقلت : أبا سليمان ؛ أوصني ، قال : اتق الله ، وإن كان لك والدان ؛ فبرهما (ثلاث مرات) ثم قال في الرابعة : ويحك! صم الدنيا ، واجعل الفطرَ موتَك ، واجتنب الناس غير تارك لجماعتهم . [انتهىٰ « الحلية » ٧/ ٣٣٥ـ٣٤٣] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : قال داوود الطائي رحمه الله : رأيت ولياً من أولياء الله سبحانه وتعالىٰ ، فقلت له : ما غاية بلوغ محبة الله عز وجل من قلبك ؟ فقال : لو جعل حساب الخلق كلهم معي ؛ لسرني ذلك ، ورغبت فيه ، فقلت : ولِمَ ذلك ؟ قال : يا داوود ؛ وهل للعبد مقام أشرف من وقوفه بين يدي رب العالمين جل جلاله وهو يشاهده ويخاطبه ؟! واللهِ العظيم ؛ إن ذلك عندي أشرف من الدرجات ، فإن في وقوفه بين يديه سبحانه وتعالىٰ لغيب عن نفسه وحسه ، فيبقىٰ بلا نفْس ولا هوىً ولا أغراض[1] ، بل متفكراً في ميدان العظمة والجلال ، والجليل جل جلاله يفعل ما يشاء سبحانه وتعالىٰ .

وقد ذكرت في ترجمة الشبلي رحمه الله مثل هـٰذا ، فإنه كان يقول : كل الناس يفرون من الحساب وأنا أتمناه ، فقيل له في ذلك ، فقال : أليس حبيبي ومالكي وربي رب العالمين جل جلاله مخاطبي ؟! ما ألذ كلام الحبيب الرحيم ، ولو بالأمر إلىٰ نار الجحيم ، جل الله العظيم الديان ، سبحانه وتعالىٰ ، لا إلـٰه إلا هو له الملك وهو رب العرش العظيم . انتهىٰ .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : قال عبد الله بن إدريس : قلت لداوود : أوصني ،

---

(١) في بعض النسخ : (إعراض) .

قال : أقلل من معرفة الناس ، قلت : زدني ، قال : ارض باليسير من الدنيا مع سلامة الدين كما رضي أهل الدنيا بالدنيا مع فساد الدين ، قلت : زدني ، قال : اجعل الدنيا كيوم صُمْتَه ، ثم أفطر على الموت .

وقال أحمد بن ضرار العجلي : أتيت داوود ، فوجدته في دار واسعة خربة ليس فيها إلا بيت ، وليس علىٰ بيته باب ، فقلت له : يا أبا سليمان ؛ أنت في دار وحشة ، فلو اتخذت لبيتك هـٰذا باباً ، أما تستوحش ؟ فقال : حالت وحشة القبر بيني وبين وحشة الدنيا .

وكان يقول : كفىٰ باليقين زهداً ، وكفىٰ بالعلم عبادة ، وكفىٰ بالعبادة شغلاً .

وقال عمير بن صدقة : كان داوود الطائي صديقاً لي ، وكنا نجلس جميعاً في حلقة أبي حنيفة حتى اعتزل وتعبد ، فأتيته ، فقلت : يا أبا سليمان ؛ جفوتنا ، فقال : يا أبا محمد ؛ ليس مجلسكم ذاك من أمر الآخرة في شيء ، ثم قال : أستغفر الله ، أستغفر الله ، ثم قام وتركني .

وقيل له : لو جالست الناس ؟ فقال : إنما أنت بين اثنين : صغير لا يوقرك ، أو كبير يحصي عليك عيوبك .

وقال : من علامة المريدين الزاهدين في الدنيا . . ترك كل جليس لا يريد ما يريدون .

وجاء رجل يريد لقاء داوود ، فلم يمكنه ؛ لأنه كان يخرج متقنعاً بثوبه كأنه خائف ، فإذا سلم الإمام ؛ خرج مسرعاً كأنه رجل هارب حتىٰ يدخل بيته .

وقال منصور السلولي : دخلت أنا وصاحب لي علىٰ داوود الطائي وهو على التراب ، فقلت لصاحبي : هـٰذا رجل زاهد ، فقال داوود : إنما الزاهد من قدر فترك .

وجاء رجل يسأل عن مسألة ، فتوسل برجل من الطائيين ، فدخل علىٰ داوود وهو معه ، فسأله عن المسألة ، وداوود ساكت لا يرد عليه شيئاً ، فأعاد السؤال مراراً ، فلم يرد ، فقام وخرج ، فقيل له : يجيئك ابن عم لك يسألك عن مسألة لا تجيبه ؟! فلما أكثر عليه من ذلك ؛ قال : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ .

وقال رجل من أهل داوود : يا أبا سليمان ؛ قد عرفت الرحم بيننا ، فأوصني ، فدمعت عيناه ، ثم قال : يا أخي ؛ إنما الليل والنهار مراحل ينزل الناس مرحلة مرحلة حتىٰ ينتهي بهم ذلك إلىٰ آخر سفرهم ، فإن استطعت أن تقدم في كل مرحلة زاداً لما بين يديها ؛ فافعل ؛ فإن انقطاع السفر عن قريب ، والأمر أعجل من ذلك ، فتزود لسفرك ، واقض ما أنت قاض من

أمرك ، فكأنك بالأمر قد بغتك ، وإني لأقول لك هـٰذا وما أعلم أحداً أشد تضييعاً مني لذلك .

وقال له رجل : أوصني ، فقال : اصحب أهل التقوىٰ ؛ فإنهم أيسر أهل الدنيا مؤونة عليك ، وأكثرهم معونة لك .

وقال داوود لسفيان الثوري : إذا كنت تشرب الماء المبرد ، وتأكل اللذيذ المطيب ، وتمشي في الظل ؛ فمتىٰ تحب الموت والقدوم على الله عز وجل ؟! فبكىٰ سفيان .

وعن حفص بن عمر الجعفي قال : كان داوود قد ورث عن أمه أربع مئة درهم ، فمكث يتقوتها ثلاثين عاماً ، فلما نفدت ؛ جعل ينقض سقوف الدويرة فيبيعها ، حتىٰ باع الخشب والبواري واللبن ، حتىٰ بقي نصف سقف ، وكان حائط داره من هـٰذا اللبِن العرزمي[1] الذي يُجعل منه الكناسات ، وباب خلاف[2] مرقوع قصير ، لو أن غلاماً وثب ؛ سقط إلى الدار .

وجاءه صديق له ، فقال له : يا أبا سليمان ؛ لو أعطيتني هـٰذه الدنانير فأبضعتها[3] لك لعلها تربح ، فما زال به حتىٰ دفعها إليه ، ثم فكر فيها ، فلقيه بعد العشاء الآخرة ، فقال : اردها عليَّ ، فقال : ولِمَ يا أخي ؟ قال : أخاف أن يدخل فيها شيء غير طيب ، فأخذها .

وقال عطاء بن مسلم : عاش داوود الطائي عشرين سنة بثلاث مئة درهم ينفقها علىٰ نفسه ، فأتاه ابن أخيه ، فقال : يا عم ؛ هل تكره التجارة ؟ قال : لا ، قال : فأعطني شيئاً أتَّجِرُ به ، قال : فأعطاه ستين درهماً ، قال : فمكث شهراً ، ثم جاءه بعشرين ومئة درهم ، فقال : هـٰذه ربحها ، فقال : أنت كل شهر تربح للدرهم درهماً ؟ ينبغي أن يكون عندك بيت مال ، أردت أن تخدعني ؟ ثم رمىٰ بها إليه ، وقال : رد علي رأس مالي .

وقال عبد الرحمـٰن بن عمرو : استشارني محمد بن عامر في ترك التجارة ، فأشرت عليه أنا ومحمد بن النعمان ألاَّ يترك ، قال : فكتب إلىٰ أخ له ببغداد ما أشرنا عليه ، فكتب له أن أخويك لم ينصحاك ، إن داوود الطائي باع عقدةً له ، فقيل له : لو جعلتها في التجارة يدخل عليك منها شيء ، قال : فقال : لا ، إما أن تسبقني ، وإما أن أسبقها ، فجعل ينفق منها

---

(١) **العرزمي** : منسوب إلىٰ موضع في الكوفة ، يعرف بجبّانة عرزم ، وعرزم اسم رجل كان يصنع اللَّبِن ، ولبنه رديء .

(٢) **خلاف** : مصنوع من شجر الخلاف ، وهو الصفصاف .

(٣) **أبضعتها** : اشتريت بها وجعلتها بضاعة .

ديناراً ديناراً ، قال : فمات وقد بقي منها دينار ، فكفن به .

وعن صالح بن مسلم العجلي قال : دخلت علىٰ داوود الطائي في مرضه الذي مات فيه ، وليس في بيته إلا دنٌّ مقيَّرٌ[1] يكون فيه خبز يابس ، ومطهرة ، ولبنة كبيرة على التراب يجعلها وسادة ، وليس في بيته بارية[2] ولا قليل ولا كثير .

وكان من جيران داوود امرأة كبيرة بينها وبينه رضاع ، فصنعت المرأة يوماً ثريدة بسمن ، ثم بعثت بها إلىٰ داوود حين إفطاره مع جارية لها ، قالت الجارية : فأتيته بالقصعة ، فوضعتها بين يديه ، قالت : فسعىٰ ليأكل منها ، فجاء سائل على الباب ، فقام إليه ، ودفعها إليه ، وجلس معه على الباب حتىٰ أكلها ، ثم دخل ، فغسل القصعة ، ثم عمد إلىٰ تمر كان بين يديه ، قالت الجارية : ظننت أنه كان أعده لعشائه ، فوضعه في القصعة ، ودفعه إلي ، وقال : أقرئيها السلام ، قالت الجارية : فدفع للسائل ما جئناه به ، ودفع إلينا ما أراد أن يفطر عليه ، قالت : وأظنه ما بات إلا طاوياً ، وكان قد نحل جداً .

وقال أبو سليمان الداراني : أقام داوود رحمه الله أربعاً وستين سنة عزباً ، فقيل له : كيف صبرت عن النساء ؟ قال : قاسيت شهوتهن عند إدراكي سنة ، ثم ذهبت شهوتهن من قلبي ، قال أبو سليمان : فمن صبر عنهن عند إدراكه سنة ؛ لم يعرفهن حلالاً ولا حراماً . فإنه يُكفىٰ مؤونتهن بعد ذلك .

وقال الوليد بن عقبة : كان يُخبز لداوود ستون رغيفاً يعلقها بشريط ، يفطر كل ليلة علىٰ رغيفين بملح وماء ، فجاءته ليلة من الليالي مولاة له بتمر علىٰ طبق ، فأفطر ، ثم قام ، فأحيا ليلته ، فلما جاء وقت الإفطار ؛ قال جار له : جعلت أسمعه يحدث نفسه يقول : اشتهيتِ البارحة تمراً ، فأطعمتك ، واشتهيتِ الليلة تمراً ؟ لا ذاق داوود تمرة ما دام في دار الدنيا ، فما ذاق تمراً حتىٰ مات .

وقال عامر بن إسماعيل : قلت لداوود : بلغني أنك تأكل الخبز اليابس تطلب به الخشونة ، فقال : سبحان الله! كيف وقد ميزت بين أكل الخبز اليابس وبين الليِّن ؛ فإذا هو قراءة مئتي آية ، ولكن ليس لي من يخبز لي ، فربما يبس عليَّ . [انتهىٰ « الحلية » ٧/ ٣٤٣ـ٣٥١] .

---

(١) **مقيَّرٌ** : مرفت .

(٢) **البارية** : الحصير المنسوج من القصب .

وقال حجة الإسلام أبو حامد الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : دخل رجل علىٰ داوود الطائي ، فقال له : ما حاجتك ؟ قال : زيارتك ، فقال : أما أنت ؛ فقد عملت خيراً حين زرت ، ولـٰكن انظر ماذا ينزل بي أنا إذا قيل لي : من أنت فتُزارَ ؟ أمِنَ الزهاد أنت ؟ لا والله ، أمِنَ العباد أنت ؟ لا والله ، أمِنَ الصالحين أنت ؟ لا والله ، ثم أقبل يوبخ نفسه ، ويقول : كنت في الشبيبة فاسقاً ، فلما كبرت ؛ صرت مرائياً ، واللهِ لَلمرائي شر من الفاسق . [انتهىٰ « الإحياء » ٢/ ١٦١] .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قالت مولاة لداوود : لو طبخت لك دسماً ، قال : فافعلي ، فطبخت له شحماً ، ثم جاءته به ، فقال لها : ما فعل أيتام بني فلان ؟ قالت : علىٰ حالهم ، قال : اذهبي به إليهم ، فقالت له : فديتك إنما تأكل هـٰذا الخبز بالماء! فقال : إني إذا أكلته ؛ كان في الحش ، وإذا أكله هـٰؤلاء الأيتام ؛ كان عند الله عز وجل مذخوراً .

وكان يقول : إنما سجنت نفسي حتىٰ يخرجني مولاي سبحانه وتعالىٰ من سجن الدنيا إلىٰ رَوح الآخرة ، وإني لأستحيي من الله عز وجل أن يراني أخطو خطوة ألتمس فيها راحة لنفسي في الدنيا حتىٰ يكون مولاي عز وجل هو الذي يريحني من الدنيا وأهلها .

وقال حفص بن عمر : كان داوود الطائي ومحمد بن النضر الحارثي من العمال لله عز وجل بالطاعة ، المجدين في العبادة ، فلما ماتا ؛ رأىٰ رجل من عُبَّاد أهل الكوفة منادياً ينادي : ألا إن داوود الطائي ومحمد بن النضر الحارثي طلبا أمراً فأدركاه .

وقيل له : لو أصلحت سقف هـٰذا البيت ؟ فقال : أمَا علمت أنهم كانوا يكرهون فضول النظر ؟ ثم قال : نبئت أن مجاهداً رحمه الله تعالىٰ كان في سقف داره خشبة مكسورة لم يشعر بها مدة سنين .

وقال حماد لداوود : يا أبا سليمان ؛ لقد رضيتَ من الدنيا باليسير ، قال : أفلا أدلك علىٰ من رضي بأقل مما رضيتُ ؟ مَن رضي بالدنيا كلها عوضاً عن الآخرة ؛ فقد رضي بأقل مما رضيت به .

وجاءه الفضيل بن عياض يوماً ، فلم يفتح له ، وجلس الفضيل خارج الباب يبكي ، وداوود داخل الباب يبكي ، فقيل لمحمد بن بشر : كيف لم يفتح له الباب ؟ فقال : قد كان يفتح لهم ، فكثروا عليه ، فغموه ، فحجبهم كلهم ، فمن جاء ؛ كلمه من وراء الباب .

وجاءه بعض أصحابه بألفي درهم ، فقال : يا أبا سليمان ؛ هـٰذا شيء جاءك الله تعالىٰ به لمْ تطلبه ، وهو ـ كما علمت ـ حلال ، قال : إنه لَمِنْ أَمثلِ ما تأخذون ، قال : فما يمنعك منه ؟ قال : لعل تركه أن يكون أنجىٰ .

ودخل مسعر علىٰ داوود الطائي ومعه رجل ، فشكا إليهما شأنه ، فقالا له : لو احتجمت ؟ فقال : ابعثوا لي الحجام ، فخرجا ، فقالا لحجام : ائت داوود ، فأتاه ، فحجمه ، ثم رجع ، فسألاه ، فقال : حجمته ، فأعطاني هـٰذا الدينار ، فقال أحدهما : أما إنه لم يكن عنده شيء غير هـٰذا ، كان فَضُلَ عنده من ثمن جارية باعها .

وفي رواية : قال له الحجام : يا أبا سليمان ؛ أجرة هـٰذا دانق ، فقال : إن لم تقبل ؛ لا أحتجم .

وفي رواية : قال الحجام : هـٰذا إسراف ، فقال : لا عبادة لمن لا مروءة له .

وقيل له : لو خرجت إلى الشمس وكان يوماً بارداً ، فقال : إني لأَشْتَهيه ، ولـٰكنها خطىً لا أحتسبها ، ولم يخرج .

قال عبد الله بن الفرج رحمه الله تعالىٰ : رُئِي داوود الطائي يعدو في صحراء الحِيرة ، فقيل له : ما هـٰذا ؟ فقال : الساعة خرجت من السجن ، فنظروا ؛ فإذا هو قد مات في ذلك الوقت .

وقال داوود : ما أخرج الله عز وجل عبداً من ذل المعاصي إلىٰ عز التقوىٰ ؛ إلا أغناه بلا مال ، وأعزه بلا عشيرة ، وآنسه بلا أنيس .

وقال له رجل : دلني علىٰ رجل أجلس إليه ، قال : تلك ضالة لا توجد .

وسأله رجل فقال : أوصني ، فقال : عسكر الموتىٰ ينتظرونك .

وقال : كل نفس تُرَدُّ إلىٰ همها ، فمهموم بخير ، ومهموم بِشر .

وعوتب داوود في التزويج ، قال : كيف بقلب ضعيف ليس يقوم بهمه يجتمع عليه همان ؟!

وقال داوود لعقبة بن موسىٰ ـ وكان صديقاً له ـ : يا عقبة ؛ كيف يتسلىٰ من الحزن من تتجدد عليه المصائب في كل وقت ؟ فخرَّ عقبة مغشياً عليه . انتهىٰ [« الحلية » ٧/ ٣٥١ـ٣٥٦] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : رأيت في مناقب الإمام أبي حنيفة ومناقب أصحابه رحمهم الله : عن محمد بن الحسن قدس الله روحه قال : كنت إذا جئت إلىٰ داوود الطائي في بيته أسأله عن المسألة ، فإن وقع في قلبه أنها مما أحتاج إليه في أمر ديني ؛ أجابني عنها ، وإن وقع في قلبه أنها من مسائلنا هـٰذه ؛ تبسم في وجهي ، وقال : إن لنا شغلاً .

وعن بشر بن الحارث رضي الله عنه قال : قيل لداوود الطائي بعدما انقطع واعتزل الناس ولزم بيته : كنت تلازم أبا حنيفة وأصحابه ، ثم اعتزلت ، فقال : إذا كنا دهرَنا في جمع الآلة ؛ فمتىٰ يكون البناء .

وقال داوود : إنما بغية الأكياس . . ملك لا زوال له ، وعيش لا موت فيه .

وقال أبو أسامة : ذهبت أنا وسفيان بن عيينة إلىٰ داوود ، فلما دخلنا عليه ؛ جلسنا عنده ، فلما أردنا الانصراف ؛ قال : ما أحب أن تأتوني ، وما أحب أن تجيئوني ، قال أبو أسامة : وإنما أعطي غباراً من الخوف ، فكيف لو أعطي من الخوف أكثر من ذلك ؟!

وقيل لداوود رحمه الله : لِمَ لا تسرح لحيتك ؟ قال : الدنيا دار مأتم .

وقيل لداوود : ما تشتهي الخبز ؟ فقال : بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية .

وقال حماد ابن أبي حنيفة : جئت أنا والحسن بن زياد إلىٰ داوود ، فقرعت الباب ، فخرجت عجوز ، ثم ردت الباب ورجعت تستأذن ، فسمعتُه يقول من داخل الدار : ما أنا والناس ؟ ومن أنا حتىٰ يأتيني الناس ؟ ثم أذن لنا ، فلما دخلنا عليه ؛ قلت له : بلغني يا أبا سليمان أنك تقول : إذا صلىٰ وهو جنب بقوم ؛ أعاد ولم يعيدوا ، قال : كذا أقول ، قال : قلت : إن أبي وأصحابنا يقولون : عليه وعليهم الإعادة ، فقال داوود : إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : يعيد ولا يعيدون ، وما أبالي إذا وافقت عمر بن الخطاب رضي الله عنه بمن خالفت من أهل الأرض بعده .

وكان داوود رحمه الله يقول : إني لأستحيي من ربي عز وجل أن يراني أخطو خطوة ألتمس بها راحة نفسي في الدنيا ، حتىٰ يكون الله عز وجل هو الذي يريحني من الدنيا وأهلها ، ويخرجني من سجن الدنيا إلىٰ رَوح الآخرة .

وقال له رجل أوصني : فقال له : صم الدنيا وأفطر على الموت ، حتىٰ إذا كان عند

المعاينة ؛ أتاك رضوان خازن الجنان بشربة من ماء الجنة ، تشربها علىٰ فراشك ، فتخرج من الدنيا وأنت ريان ، وتمكث في القبر وأنت ريان ، وينفخ إسرافيل في الصور فتخرج من القبر وأنت ريان ، ويمكث الناس يترددون في ظلمة القيامة أربعين يوماً ، اليوم منها ألف سنة جياعاً عطاشاً وأنت ريان ، حتىٰ تدخل الجنة وأنت ريان .

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : عزيت داوود الطائي في أخ له ، فقلت له : ألهمك الله الصبر والاحتساب ، ووهب له ولك المغفرة والرحمة والهدىٰ ، وإنا لله وإنا إليه راجعون ، فقال : سبيل الناس كلهم إلى الموت ، فمن أبغض الدنيا ؛ تبعته ، ومن أحبها ؛ أخلفته وقتلته ، ومن وثق بها ؛ خذلته ، فأتق الدنيا ؛ فإنها أسحر من هاروت وماروت .

وعن شعيب بن طلحة قال : قلت لداوود : أريد أن أشتري داراً بقربك ؛ ليكثر لقائي لك ، فقال داوود : إن مودة يغيرها قلة اللقاء . . إنها لمودة مدخولة .

ومر داوود يوماً بموضع ، فلما وقع نظره عليه ؛ خر مغشياً عليه ، فحمل إلىٰ منزله ، فلما أفاق ؛ سئل عن ذلك ، فقال : ذكرت أني في هـٰذا الموضع كنت قد اغتبت رجلاً ، فذكرت مطالبته إياي بين يدي الله رب العالمين جل جلاله ، فلم أملك نفسي لأجل ذلك ، والله أعلم . انتهىٰ .

روى الحافظ أبو نعيم ـ قدس الله روحه ـ : رُئِي داوود الطائي رحمه الله يوماً علىٰ شاطىء الفرات واقفاً مبهوتاً ، فقيل له : ما يوقفك هـٰهنا ؟ قال : أنظر إلى الفلك كيف تجري في البحر مسخرات بأمر الله سبحانه وتعالىٰ .

وكان عامة ليله لا يهدأ ، يقول في جوف الليل : اللهم ؛ همُّك عَطَّل علي الهموم ، وخالف بيني وبين السُّهَاد ، وشوقني إلى النظر إليك ، ومنع مني اللذات والشهوات ، فأنا في سجنك أيها الكريم .

وربما ترنم بشيء من القرآن في السحر ، فيرىٰ أن جميع نعيم الدنيا جمع في ترنمه تلك الساعة .

وكان لا يسرج سراجاً .

وكان يقول : ما نُعوِّلُ إلا علىٰ حسن الظن بالله عز وجل ، فأما التفريط ؛ فهو المستولي على الأبدان .

ومر داوود علىٰ رجل عنده رطب دعته نفسه إليه ، فقال له : أعطني بدرهم ، فقال :

وأين الدرهم ؟ قال : غداً أعطيك ، فقال له : انصرف ؛ فإني لا أسلف شيئاً ، فرآه بعض من يعرف داوود ، فجاء إلى البائع ، فسأله عنه ، فأخبره ، فأخرج له صرة فيها مئة درهم ، وقال : الحقه ، فإن أخذ منك بدرهم ؛ فهـٰذه الدراهم لك ، فلحقه ، فسمعه وهو يقول : أنتِ لا يسلفونك درهماً في دار الدنيا ، وأنت تريدين الجنة ؟ فجهد به أن يرجع ويأخذ فأبىٰ ، وقال : إنما أردت أن أجرب هـٰذه النفس .

وقال أبو محمد صدقة الزاهد : خرجنا مع داوود الطائي في جنازة بالكوفة ، فقعد ناحية وهي تدفن ، فجاء الناس ، فقعدوا قريباً منه ، فقال : من خاف الوعيد ؛ قصر عليه البعيد ، ومن طال أمله ؛ ضعف عمله ، وكل ما هو آت ؛ قريب ، واعلم يا أخي : أن كل شيء يشغلك عن ربك ؛ فهو عليك مشؤوم ، واعلم : أن أهل الدنيا جميعاً من أهل القبور ، وإنما يفرحون بما يقدِّمون ، ويندمون علىٰ ما يخلِّفون ، ما عليه أهل القبور ندموا ؛ عليه أهل الدنيا يقتتلون ، وفيه يتنافسون .

وقال إسحاق بن خلف : كان داوود الطائي في ليلة مقمرة ، فتفكر ، فقام يمشي على السطح وهو شاخص حتىٰ وقع في دار جار له ، قال : فوثب صاحب الدار عرياناً من الفراش ، وأخذ السيف ، وظن أنه لص ، فلما رأىٰ داوود ؛ رجع ، ولبس ثيابه ، ووضع السيف ، وأخذ بيد داوود حتىٰ رده إلىٰ داره ، فقيل لداوود ذلك ، فقال : ما دريت ، أو ما شعرت .

وقال ابن السماك : أوصاني أخي داوود الطائي فقال : انظر ألاَّ يراك الله عز وجل حيث نهاك ، وألاَّ يفقدك من حيث أمرك ، واستَحْيِهِ في قربه منك وقدرته عليك .

وقيل له : ما تقول في رجل دخل علىٰ هـٰؤلاء الأمراء فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر ؟ فقال : أخاف عليه السوط ، قال : إنه يقوىٰ ، قال : أخاف عليه السيف ، قال : إنه يقوىٰ ، قال : أخاف عليه الداء الدفين : العجب .

وقال أحمد بن شراعة : كنت أُسبِّلُ الماء بالليل ، فرأيت عند قبر داوود سراجاً ، قال : فذهبت أنظر إليه ، فإذا هو قد ذهب ، ثم عدت إلىٰ تسبيل الماء ، فإذا بالسراج ، فذهبت ، فغاب ، حتىٰ فعلت ذلك ثلاثاً ، قال : ثم نمت ، فرأيت في المنام كأن إنساناً يقول : لا تُسبِّلِ الماء عند القبر ، ولا تدن منه ، قال : فلم أقبل . قال : فابتُلِيَ بالسُّل إلىٰ أن مات .

وبلغ داوود رحمه الله تعالىٰ أنه ذُكر عند بعض الأمراء ، فأُثني عليه ، فقال : إنما فُعل

هـٰذا بستر الله تعالىٰ بين خلقه ، ولو يعلم الناس بعض ما نحن فيه ؛ ما ذَلَّ لنا لسان بذِكر خيرٍ أبداً .

وقال : اليأس سبيل أعمالنا هـٰذه ، ولـٰكن القلوب تحن إلى الرجاء .

وقال محمد بن بشر : قدم علينا داوود الطائي من السواد ، فكنا نضحك منه ، فما مات حتىٰ سادنا .

وقال عبد العزيز بن محمد : رأيت في المنام كأن قائلاً يقول : من يحضر ؟ من يحضر ؟ فأتيته ، فقال : ما تريد ؟ قلت : سمعتك تقول : من يحضر ؟ من يحضر ؟ فأتيتك أسألك عن معنىٰ كلامك ، فقال لي : أوما ترى القائم الذي يخطب على الناس ويخبرهم عن أعلىٰ مراتب الأولياء فأَدرِكْه ؛ فلعلك تلحقه وتسمع كلامه قبل انصرافه ؟ فأتيته ؛ فإذا الناس حوله وهو يقول :

ما نال عبدٌ من الرحمـٰن منزلةً أعلىٰ من الشوق إن الشوق محمودُ

قال : ثم سلم ونزل ، فقلت لرجل إلىٰ جنبي : مَن هـٰذا ؟ قال : أمَا تعرفه ؟! قلت : لا ، قال : هـٰذا داوود الطائي ، فعجبت في منامي مما رأيت منه ، فقال لي : أتعجب مما رأيت ؟ والله ؛ إن الذي لِداوود عند الله عز وجل من الزلفىٰ أكثر من هـٰذا وأكبر .

وقال علي الطنافسي : سمعت أخي الحسن يقول : عن أبي نعيم قال : رأيت داوود الطائي تدور في وجهه نملة عرضاً وطولا لا يَفطن لها ؛ يعني : من الهم .

أسند داوود الطائي رحمه الله عن جماعة من التابعين ، وتوفي سنة ست ـ وقيل : خمس ـ وستين ومئة .

فمن أحاديثه : عن الأعمش ، عن يحيى بن وثاب ، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر علىٰ أذاهم ؛ أفضل من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر علىٰ أذاهم »[1] .

وعنه عن الأعمش ، عن أبي سفيان ، عن جابر ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : (دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم ، فرأيته يصلي في ثوب واحد متوشحاً به)[2]

---

(١) أخرجه بنحوه الترمذي (٢٥٠٧) .

(٢) أخرجه بنحوه البخاري (٣٤٧) ، ومسلم (٥١٧) .

انتهىٰ [« الحلية » ٧/ ٣٥٦ـ٣٦٥ و٨/ ١٢٢] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : صام داوود أربعين سنة لا يعلم به أهله ، وكان خزازاً ، وكان يحمل غَداءَه معه ، ويتصدق به في الطريق ، ويرجع إلىٰ أهله ، فيفطر عشياً ، فكان أهله لا يعلمون أنه صائم .

وقالت له أمه : لو اشتهيت شيئاً ؛ اتخذته لك ؟ فقال : أجيدي يا أماه ، فإني أريد أن أدعو إخواناً لي ، وقال : فاتخذَتْ أمه طعاماً ، وأجادت ، قال : فقعد داوود على الباب ، لا يمر به سائل ؛ إلا أدخله وقدمه إليهم ، فقالت له أمه : لو أكلت منه ، قال : فمَن أكله غيري ؟!

قال : وإنما جد واجتهد من حين ماتت أمه ، فقسَّم كل شيء تركت له حتىٰ لصق بالأرض ، وكانت أمه موسرة .

وقال محمد بن بشر : قال داوود لمولاة له : أشتهي لبناً ، فخذي رغيفاً ، فأْتي به البقال فاشتري به لبناً ، ولا تُعلمي البقال لمن هو ، فذهبت ، فجاءت به ، فأكل ، وفطن البقال بعد ذلك أنها تريد اللبن لداوود ، فطيَّبَهُ له ، فقال لها : علم البقال لمن هو ؟ قالت : نعم ، قال : ارفعيه ، فما عاد فيه .

وقال أبو خالد : مررت أنا وسفيان الثوري بمنزل داوود ، فقال لي سفيان : ادخل بنا إليه نسلم عليه ، فدخلنا عليه ، فما احتفل بسفيان ولا انبسط إليه ، فلما خرجنا ؛ قلت : يا أبا عبد الله ؛ غاظني ما صنع بك ، قال : أي شيء صنع بي ؟ قلت : لَمْ يحتفل بك ولم ينبسط إليك ، فقال : إن أبا سليمان لا يُتَّهم في مودته ، أما رأيت غيبته عن نفسه ؟! هـٰذا في شيء غير ما نحن فيه .

وقال خزيمة : دخل أبو يوسف القاضي علىٰ داوود الطائي فقال : ما رأيت أحداً رضي من الدنيا بمثل ما رضيت به ، فقال : يا يعقوب ؛ من رضي بالدنيا كلها عوضاً عن الآخرة ؛ فذاك الذي رضي بأقل مما رضيت . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/ ٦٦ـ٦٨] .

وقال أبو القاسم القشيري : قال أبو علي الدقاق : كان سبب زهد داوود الطائي أنه كان ماراً يوماً ببغداد فنحاه المطرقون من بين يدي حميد الطوسي ، فالتفت داوود ، فرأىٰ حميداً الطوسي ، فقال داوود : أف لدنيا سبقك إليها حميد ، ثم أخذ في الزهادة والعبادة . انتهىٰ [« الرسالة » ٢١] .

وقال أرباب السير : قال بعض أصحاب داوود : رأيت في ليلة موت داوود الطائي رحمه الله نوراً كثيراً في السماء ، وملائكة صاعدين وملائكة نازلين ، فقلت : ما هـٰذا ؟ فقيل لي : قد مات داوود الطائي ، وقد زخرفت الجنة لقدوم روحه ، قال : ثم استيقظت ؛ فإذا به قد مات في تلك الليلة .

ويقال : إن الأرض التي كان يمشي عليها داوود تفتخر علىٰ بعض البقاع .

وقال داوود : لو أملت أن أعيش شهراً ؛ لرأيتني قد أتيت عظيماً ، وكيف أؤمل ذلك وأرى الفجائع تغشى الخلائق في ساعات الليل والنهار ؟ انتهىٰ .

وقال في « لوامع أنوار القلوب » : قال داوود الطائي : ماتت امرأة في جواري ، ولم يكن لها كثير طاعة في الظاهر ، فرأيت في النوم كأن قائلاً يقول لي : يا داوود ؛ اطلع في قبرها ، فاطلعت ، فرأيت في قبرها ضوءاً عظيماً ، وفرشاً وطيئة ، وسرراً عالية ، فقلت : يا رب ؛ بماذا استوجبت هـٰذه المنزلة ؟ فنوديْتُ : يا داوود ؛ استأنست بنا في سجدتها ، فآنسناها في وحدتها .

وقال في « بهجة الأسرار » : قال محمد بن حسان رحمه الله : قال لي عمي : قدم محمد بن قحطبة الكوفة ، فقال : أحتاج إلىٰ مؤدب يؤدب أولادي ، حافظٍ للقرآن ، وعارف بالسنن والآثار ، والفقه ، والنحو ، والتفسير ، والأصول ، والشعر ، وأيام الناس ، فقيل له : ما يجمع هـٰذه العلوم كلها ؛ إلا داوود الطائي ، وكان محمد بن قحطبة ابن عم داوود ، فأرسل إليه يعرض عليه ذلك ويسنيْ[1] له الأرزاق ، فلم يقبل ، فأرسل إليه بَدْرة ـ عشرة آلاف درهم ـ صلة ، فلم يقبلها ، فأرسل إليه بَدْرَتين مع مملوكين له ، وقال لهما : إن قبل البدرتين فأنتما حُرَّان ، فلم يقبلهما ، فقالا له : إن في قبولهما عتقنا ، فقال : لـٰكن في قبولهما رقِّي ورهن رقبتي في النار ، ارجعا بهما إليه ، وقولا له أن يردهما إلىٰ من أخذهما منه .

توفي في خلافة المهدي رحمه الله في سنة ست وخمسين ومئة[2] . انتهىٰ .

---

(١) يسني : يرفع .

(٢) الصحيح : أنه توفي سنة خمس وستين ومئة كما في « السير » ، و« الصفوة » ، و« الطبقات » وغيرهما ، ولعله وهم من الناسخ فقلبه وقال : ست وخمسين ومئة .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ رضي الله عنهما ـ : قد ذكرت بعض مناقبه في ترجمة الإمام أبي حنيفة رحمهما الله ، ومناقبه كثيرة مشهورة ، وإنما ذكرت منها أحرفاً ؛ تبركاً ، رضي الله عنه وأرضاه ، ونفع به ديناً ودُنيا .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم
رضي الله عنه

قال الحافظ أبو نعيم ـ قدس الله روحه ـ : قال إبراهيم بن بشار ـ وكان خادم إبراهيم بن أدهم ـ : قلت لإبراهيم : يا أبا إسحاق ؛ كيف كان بدء أمرك ؟ فقال لي : غير ذا أولىٰ بك ، فقلت له : هو كما تقول رحمك الله ، ولـٰكن أخبِرني لعل الله تعالىٰ أن ينفعنا به يوماً ، ثم سألته الثانية ، فقال : ويحك! اشتغل بالله تعالىٰ ، فسألته الثالثة ، فقال : كان أبي من أهل بَلْخ ، وكان من ملوك خراسان ، وكان من المياسير ، وحبب إلينا الصيد ، فخرجت راكباً فرسي وكلبي معي ، فبينا أنا كذلك ؛ فثار أرنب أو ثعلب ، فحركت فرسي ، فسمعت نداء من ورائي : ليس لذا خُلقتَ ، ولا بذا أُمرت ، فوقفت أنظر يمنة ويسرة ، فلم أر أحداً ، فقلت : لعن الله إبليس ، ثم حركت فرسي ، فسمعت نداء أجْهَر من ذلك : يا إبراهيم ؛ ليس لذا خلقت ولا بذا أمرت ، فوقفت أنظر يمنة ويسرة ، فلم أر أحداً ، فقلت : لعن الله إبليس ، ثم حركت فرسي ، فأسمع نداء من قَرَبوس[1] : يا إبراهيم ؛ ما لذا خلقت ، ولا بذا أمرت ، فوقفت وقلت : انتهيت انتهيت ، جاءني نذير من رب العالمين ، والله ؛ لا عصيت الله تعالىٰ بعد يومي هـٰذا ما عصمني ربي عز وجل ، فرجعت إلىٰ أهلي ، فخليت عن فرسي ، ثم جئت إلىٰ أحد رعاة أبي ، فأخذت منه جبة وكساء ، وألقيت ثيابي إليه ، ثم أقبلت إلى العراق ترفعني أرض ، وأرض تضعني ، حتىٰ وصلت إلى العراق ، فعملت بها أياماً ، فلم يصفُ لي فيها شيء من الحلال ، فسألت بعض المشايخ عن الحلال ، فقال : إن أردت الحلال ؛ فعليك ببلاد الشام ، فسرت إلىٰ بلاد الشام ، إلىٰ مدينة يقال لها : المنصورة ، وهي المصيصة ، فعملت بها أياماً ، فلم يصفُ لي الحلال ، فسألت بعض المشايخ ، فقال : إن أردت الحلال الصافي ؛ فعليك بطرسوس ؛ فإن فيها المباحات والعمل الكثير .

---

(١) **القَرَبوس** : ما اعوَجّ من السرج ، والمراد : ظهر السرج .

فتوجهت إلىٰ طرسوس ، فعملت بها أياماً أنطر البساتين وأحصد الحصاد ، فبينا أنا قاعد علىٰ باب البحر ؛ جاءني رجل ، فاكتراني أنطر له بستاناً ، فكنت في البستان أياماً كثيرة ؛ فإذا أنا بخادم قد أقبل ومعه أصحابه ، فقعد في مجلسه ، ثم صاح : يا ناطور ؛ فقلت : نعم ، قال : اذهب فأتنا بأكبر رمان تقدر عليه ، وأطيبِهِ ، فذهبت ، فأتيته بأكبر رمان ، فأخذ رمانة ، فكسرها ، فوجدها حامضة ، فقال : يا ناطور ؛ أنت في بستاننا منذ كذا وكذا تأكل فاكهتنا وتأكل رماننا لا تعرف الحلو من الحامض ؟ قال إبراهيم رحمه الله : فقلت له : والله ؛ ما أكلت من فاكهتك شيئاً ، ولا أعرف الحلو من الحامض ، فأشار الخادم إلىٰ أصحابه ، فقال : ألا تسمعون إلىٰ كلام هـٰذا ؟! ثم قال لي : أتراك لو أنك إبراهيم بن أدهم ما زاد علىٰ هـٰذا ؟ ثم انصرف ، فلما كان من الغد ؛ ذكر صفتي في المسجد ، فعرفني بعض الناس ، فجاء الخادم ومعه جمع من الناس ، فلما رأيته قد أقبل مع أصحابه ؛ اختفيت خلف الشجر والناس داخلون ، فاختلطت معهم ، وهم داخلون وأنا هارب .

وفي رواية أخرىٰ : زاد في القصة : بينما أنا علىٰ فرسي أركضه ؛ إذ سمعت صوتاً من فوقي : يا إبراهيم ؛ ما هـٰذا العبث ؟! ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ ، اتق الله ، وعليك بالزاد ليوم الفاقة ، فنزل عن دابته ، ورفض الدنيا ، وأخذ في عمل الآخرة . انتهىٰ [« الحلية » ٧/٣٦٨-٣٦٩] .

زاد في « لوامع أنوار القلوب » : قال إبراهيم : فنزلت عن فرسي ، وصادفت راعياً لأبي ، فأخذت جبته الصوف ، فلبستها ، ثم دفعت إليه الفرس وما كان معي ، وتوجهت إلىٰ مكة ، فبينا أنا في البادية وإذا برجل يسير وليس معه إناء ولا زاد ، فلما أمسىٰ وصلى المغرب ؛ حرك شفتيه بكلام لم أفهمه ، وإذا أنا بإناء فيه ماء وآخر فيه طعام ، فأكلت معه وشربت ، وكنت معه علىٰ هـٰذه الحالة أياماً ، وعلمني اسم الله الأعظم ، ثم غاب عني ، وبقيت وحدي .

فبينا أنا ذات يوم مستوحش من الوحدة ؛ دعوت الله عز وجل به ؛ فإذا أنا بشخص أخذ بحجزتي يقول لي : سل تعط ، فراعني قوله ، فقال لي : لا تُرَع ، فلا خوف عليك ولا بأس ، أنا أخوك الخضر ، وإن أخي داوود عليه السلام علمك اسم الله الأعظم ، فلا تدعو به علىٰ أحد بينك وبينه شحناء ؛ فتهلكه هلاك الدنيا والآخرة ، ولـٰكن ادع بأن يكثِّر خيرك ، ويقوِّي ضعفك ، ويؤنس وحشتك ، ويجدد به في كل ساعة رغبتك ، ثم قال لي : يا إبراهيم ؛ اعبد ربك سبحانه وتعالىٰ علىٰ تحقيق المشاهدة والمراقبة ، واعلم : أنه أقرب إليك من حبل الوريد ، ثم انصرف . انتهىٰ .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : قال عبد الله بن الفرج : حدثني إبراهيم بن أدهم رحمه الله بابتداء أمره كيف كان ، قال : كنت يوماً في مجلس له منظرة إلى الطريق ، وإذا بشيخ عليه أطمار رثة ، وكان يوماً حاراً ، فجلس في فيء القصر ليستريح ، فقلت للخادم : اخرج إلىٰ هـٰذا الشيخ فأقرئه مني السلام ، واسأله أن يدخل إلينا ، فقد أخذ بمجامع قلبي ، فخرج إليه ، فقام معه ودخل إلي وسلم ، فرددت عليه السلام ، واستبشرت بدخوله ، وأجلسته إلىٰ جانبي ، وعرضت عليه الطعام ، فأبىٰ أن يأكل ، فقلت له : مِن أين أقبلت ؟ قال : من وراء النهر ، قلت : أين تريد ؟ قال : الحج إن شاء الله تعالىٰ ، وكان ذلك في أول يوم من العشر أو الثاني منه ، فقلت : في هـٰذا الوقت ؟ فقال : يفعل الله سبحانه وتعالىٰ ما يشاء ، قلت : فالصحبةَ ، قال : إن أحببت ذلك ، حتىٰ إذا كان الليل ؛ قال لي : قم ، فقمت ، وأخذ بيدي ، وخرجنا من بلخ ، فمررنا بقرية لنا ، فلقيني فلاح من القرية ، فأوصيته ببعض ما أحتاج إليه ، ثم قدَّم إلينا خبزاً وبيضاً ، وسألنا أن نأكل ، فأكلنا وشربنا ، فقال الشيخ بسم الله ، قم ، فأخذ بيدي ، فجعلنا نسير ، وأنا أنظر إلى الأرض تُجذَب من تحتنا كأنها الموج ، فمررنا بمدينة بعد مدينة ، وهو يقول : هـٰذه مدينة كذا ، هـٰذه مدينة كذا ، هـٰذه مدينة الكوفة ، ثم قال لي : الموعد هـٰهنا في مكانك هـٰذا في الوقت ؛ يعني : من الليل .

فلما جاء الوقت ؛ جاء ، فأخذ بيدي ، وقال : بسم الله ، وجعل يقول : هـٰذا منزل كذا ، هـٰذا منزل كذا ، هـٰذه قباء ، هـٰذه المدينة المشرفة ، وأنا أنظر إلى الأرض تجذب من تحتنا كأنها الموج ، فدخلنا ، فزرنا قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم فارقني ، وقال : الموعد هـٰهنا .

فلما جاء الوقت ؛ جاء ، فأخذ بيدي ، وفعل كفعله ، حتىٰ أتينا مكة ، ففارقني ، فقلت : الصحبة ، فقال : إني أريد الشام ، فقلت : وأنا معك ، فقال : إذا انقضى الحج ؛ فالموعد هـٰهنا عند زمزم .

فلما انقضى الحج ؛ إذا به عند زمزم ، فأخذ بيدي ، فطفنا بالبيت ، ثم خرجنا ، ففعل كفعله ، وإذا نحن ببيت المقدس ، فلما دخل المسجد ؛ قال : السلام عليك ، أنا علىٰ عزم المقام هـٰهنا إن شاء الله عز وجل ، ثم فارقني ، فما رأيته بعد ذلك ولا عرَّفَني اسمه .

قال إبراهيم : فرجعت إلىٰ بلدي أسير سير الضعفاء ، منزلاً بعد منزل ، حتىٰ قدمت بَلْخ ، فكان هـٰذا أولَ أمري . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/١١٩ـ١٢٠] .

وروىٰ أبو القاسم القشيري ـ رحمه الله ـ بسنده عن أحمد بن خضرويه قال : قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله لرجل في الطواف : **اعلم** : أنك لا تنال درجة الصالحين حتىٰ تجوز ست عقبات :

أولها : تغلق باب النعمة ، وتفتح باب الشدة .

والثانية : تغلق باب العز ، وتفتح باب الذل .

والثالثة : تغلق باب الراحة ، وتفتح باب الجهد .

والرابعة : تغلق باب النوم ، وتفتح باب السهر .

والخامسة : تغلق باب الغنىٰ ، وتفتح باب الفقر .

والسادسة : تغلق باب الأمل ، وتفتح باب الاستعداد للموت .

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالىٰ : إن الحر الكريم مَن يَخرُج من الدنيا قبل أن يُخرَج منها[1] .

وقال : لا تصحب إلا حراً كريماً ، يسمع ولا يتكلم .

وكان إبراهيم رحمه الله إذا صحبه أحد ؛ شارطه علىٰ ثلاثة أشياء :

أن تكون الخدمة والأذان له ، وأن تكون يده في جميع ما يفتح الله عز وجل عليه من الدنيا كَيَدِهم .

فقال له يوماً رجل من أصحابه : أنا لا أقدر علىٰ هـٰذا ، فقال : أعجبني صدقك[2] .

ثم قال الحافظ أبو نعيم ـ قدس الله روحه ـ : قال شقيق البلخي : لقيت إبراهيم بن أدهم رحمه الله في بلاد الشام ، فقلت : يا إبراهيم ؛ تركت خراسان! فقال : ما تهنيت بالعيش إلا في بلاد الشام ، أفر بديني من شاهق إلىٰ شاهق ، ومن جبل إلىٰ جبل ، فمن يراني يقول : مُوَسْوَس ، ومن يراني يقول : هـٰذا جمَّال .

ثم قال : يا شقيق ؛ لم ينبل عندنا من نبل بالحج ولا بالجهاد ، إنما نبل من كان يعقل ما يدخل جوفه ـ يعني : الرغيفين ـ من حله .

ثم قال : يا شقيق ؛ انظر ماذا أنعم الله عز وجل على الفقراء ، لا يسألهم يوم القيامة

---

(١) الرسالة القشيرية (١٧٢) .

(٢) الرسالة القشيرية (٢٢٩) .

لا عن زكاة ، ولا عن حج ، ولا عن جهاد ، ولا عن صلة رحم ، إنما يسأل هـٰؤلاء المساكين ؛ يعني : الأغنياء .

وفي رواية إبراهيم بن بشار خادم إبراهيم : قال : أمسينا مع إبراهيم ذات ليلة وليس عندنا ما نفطر عليه ، فرآني مغتماً ، فقال : يا إبراهيم بن بشار ؛ انظر ماذا أنعم الله تعالىٰ على الفقراء والمساكين من النعيم والراحة في الدنيا والآخرة ، لا يسألهم يوم القيامة عن زكاة ، ولا عن حج ، ولا عن صدقة ، ولا عن صلة رحم ، ولا عن مواساة ، وإنما يسأل ويحاسب عن هـٰذا هـٰؤلاء المساكين ، أغنياء في الدنيا فقراء في الآخرة ، أعزة في الدنيا أذلة يوم القيامة ، لا تغتم ولا تحزن ، فرِزْقُ الله سبحانه وتعالىٰ مضمون سيأتيك ، نحن ـ والله ـ الملوك الأغنياء ، نحن الذين تعجلنا الراحة في الدنيا ، لا نبالي علىٰ أي حال أصبحنا وأمسينا إذا أطعنا الله عز وجل ، ثم قام إلىٰ صلاته وقمت إلىٰ صلاتي ، فما لبثنا إلا ساعة وإذا نحن برجل قد جاء بثمانية أرغفة وتمر كثير ، فوضعه بين أيدينا ، وقال : كلوا رحمكم الله تعالىٰ ، قال : فسلم ، وقال : كل يا مغموم ، فجاء سائل ، فقال : أطعموني شيئاً ، فأخذ ثلاثة أرغفة مع تمر ، فدفعه إليه ، وأعطاني ثلاثة أرغفة ، وأكل رغيفين ، وقال : المواساة من أخلاق المؤمنين .

وقرب أبو يوسف الغسولي كُسَيرات يابسة ، وكان هو وإبراهيم بن أدهم وغيره ، فأكلوا وحمدوا الله عز وجل ، ثم قام أبو يوسف وقام بعضنا يجيء بالماء لإبراهيم حتىٰ يشرب ، فسبق إبراهيم ودخل النهر حتىٰ بلغ الماء ركبتيه ، ثم قال : بسم الله ، ثم شرب ، ثم قال : الحمد لله ـ فعل ذلك ثلاثاً ـ ثم خرج ، فمد رجليه ، وقال : يا أبا يوسف ؛ لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من النعيم والسرور ؛ إذاً لجالَدونا علىٰ ما نحن فيه بأسيافهم أيام الحياة علىٰ ما نحن فيه من لذة العيش وقلة التعب ، فقلت : يا أبا إسحاق ؛ طلب القوم الراحة والنعيم فأخطؤوا الطريق المستقيم ، فتبسم ، وقال : من أين لك هـٰذا الكلام ؟!

وقال عباس أبو الفضل[1] المرعشي : لقيت عبد العزيز ابن أبي رَوَّاد ، فتذاكرنا أمر إبراهيم بن أدهم ، فقال عبد العزيز : رحم الله تعالىٰ إبراهيم بن أدهم ، لقد رأيته بخراسان إذا ركب ؛ حضر بين يديه نحواً من عشرين شاكرياً[2] ، ولـٰكنه ـ رحمه الله ـ طلب بحبحة الجنة .

---

(١) في « الحلية » : (ابن الفضل) .

(٢) **الشاكري** : الأجير والمستخدم ، معرَّب .

وكان والد إبراهيم بن أدهم رجلاً صالحاً ، فولد إبراهيم بمكة ، فأخذه ورفعه في خرقة ، وجعل يتتبع به أولئك العباد والزهاد ، ويقول : ادعوا الله تعالىٰ له ، فيُرىٰ أنه قد استجيب لبعضهم فيه .

وقال سهل بن بشر : مر بي إبراهيم بن أدهم وأنا أكسر عوداً من حطب قد أعياني ، فقال لي : يا أبا محمد ؛ قد أعياك ؟ قلت : نعم ، قال : تأمر لنا به ؟ قلت : نعم ، قال : وتعيرنا الفأس ؟ قلت : نعم ، قال : فأخذ العود ووضعه علىٰ رقبته ، وأخذ الفأس ومضىٰ ، فبينما أنا علىٰ ذلك ؛ فإذا بالباب قد فتح والحطب يطرح في دهليز الدار مكسراً ، وألقى الفأس وأغلق الباب ومضىٰ .

وكان إبراهيم رحمه الله إذا صلى العشاء الآخرة ؛ وقف بين الدور ، فينادي بأعلىٰ صوته : من يريد يطحن ؟ فكانت المرأة تخرج القفة فيها القمح ، وكذلك الشيخ الكبير ، فينصب الرحىٰ بين رجليه ، فلا ينام حتىٰ يطحن جميع ذلك وبِلا أجرة ، ثم يأتي أصحابه .

وقال علي بن بكار : كان الحصاد أحب إلىٰ إبراهيم من اللقاط[1] ، وكان سليمان الخواص لا يرىٰ باللقاط بأساً ويلقط ، وكانت أسنانهما[2] قريبة ، وكان إبراهيم أفقه ، وكان من العرب ، من بني عجل ، كريم الحسب ، وكان إذا عمل ؛ ارتجز ، قال : وكان يلبس في الشتاء فروا وليس تحته قميص ، ولم يكن يلبس خفين ولا عمامة ، وفي الصيف شقتين بأربعة دراهم ، يتزر بواحدة ويرتدي بأخرىٰ ، ويصوم سفراً وحضراً ، ولا ينام الليل ، وكان كثيراً ما يتفكر ، فإذا فرغ من الحصاد ؛ أرسل بعض أصحابه ، فيحاسب صاحب الزرع ، ويجيء بالدراهم لا يمسها بيده ، ويقول لأصحابه : اذهبوا كلوا بها شهواتكم ، فإن لم يكن حصاد ؛ أجَّر نفسه في حفظ البساتين والمزارع ، وكان يجلس فيطحن بيد واحدة مُدَّي قمح ؛ يعني : قفيزين .

وقال خلف بن تميم : قلت لإبراهيم : منذ كم نزلْتَ الشام ؟ قال : منذ أربع وعشرين سنة ما نزلتها لجهاد ولا لرباط ، فقلت : لأي شيء نزلتها ؟ قال : لأشبع من خبز حلال .

وقال علي بن بكار : حدثني رفيق إبراهيم بن أدهم قال : خرجت معه من بيت

---

(١) أي : جمع السنابل التي اخطأها المنجل .
(٢) أعمارها .

المقدس ، فنفد زادنا في الطريق ، فجعلنا نأكل الخُرنوب[1] وقلوب الشجر ، حتىٰ خشنت حلوقنا ، وبلغ منا الجهد ، فقلت : ندخل القرية عسىٰ نطلب عملاً ؛ فإذا في القرية نهر ، فتوضأ ، ثم صلىٰ ، فدخلت القرية ألتمس عملاً ، فتقبَّلت من قوم حائطاً قد سقط بأربعة دراهم ، فجئت وأخبرته ، فقام يعمل عمل الرجال ، وأنا أعمل عملاً ضعيفاً ، فجاؤونا بغداء ، فغسلت يدي أبادر إلى الطعام ، فقال لي : أهـٰذا في شرطك ؟ قلت : لا ، قال : فاصبر حتىٰ تأخذ أجرتك ، فلما فرغنا ؛ أخذنا الأجرة واشترينا وأكلنا ، ثم خرجنا ، فأصابنا في الطريق جوع ، فأتينا قرية من قرىٰ حمص ؛ فإذا ساقية ماء ، فتوضأنا وصلينا ، وإلىٰ جانبنا دار فيها غرفة ، فأرسل إلينا صاحب الغرفة جفنة فيها ثريد وخبز وعُراقٌ[2] ، فوضعت بين أيدينا ، فانفتل من الصلاة ، وقال : من بعث هـٰذه ؟ قلت : صاحب هـٰذه الغرفة ، قال : ما اسمه ؟ قلت : فلان بن فلان ، فأكل وأكلت .

ثم أتينا أنطاكية وقد حضر الحصاد ، فحصدنا بنحو ثمانين درهماً ، فقلت في نفسي : آخذ نصف هـٰذه وأرجع ؛ ما لي قوة علىٰ صحبته ، فقلت : إني أريد الرجوع إلىٰ بيت المقدس ، فقال : [ما أنت] لي مصاحباً ؟ ثم دخل أنطاكية ، واشترىٰ ملاءتين من تلك الدراهم ، وقال لي : إذا أتيت قرية كذا وكذا التي أُطعمنا فيها كذا ؛ فسل عن فلان بن فلان ، وادفع إليه الملاءتين ، ودفع إلي بقية الدراهم ، ولم يبق معه شيء ، فسافرت حتىٰ أتيت القرية ودفعت الملاءتين إلى الرجل ، فقال : من بعث بها ؟ قلت : إبراهيم بن أدهم ، وأخبرته أنه كان أحد الرجلين الذين بعثتَ إليهما بالطعام ، فأخذها ، ومضيت إلىٰ بيت المقدس ، وأقمت حيناً ، ثم رجعت ، فسألت عنه ، فقيل لي : إنه مات وكفن في الملاءتين .

وقال علي بن محمد المعلم : خرج إبراهيم بن أدهم إلى السوق ، فلقيه شخص يعرفه من أهل خراسان كان يكنىٰ بأبي سليمان ، فقال له : أين تريد ؟ قال : بيت المقدس ، قال إبراهيم : وأنا ، قال أبو سليمان : فالصحابةَ يا أبا إسحاق ، قال : نعم ، قال أبو سليمان : فمضيت معه إلىٰ بيته ، فأخرج دورقاً[3] مشدود الرأس فيه كِسَرُ خبز ، فأخرج الكسر ووضعها في مخلاته ، ورد الدورق ، وأغلق الباب ، وقال : امض بنا ، فمضينا ، حتىٰ إذا كنا قريباً

---

(١) **الخُرنُوبُ** : شجر مثمر ، ثماره قرون ، تؤكل وتعلفها الماشية .

(٢) **العُراق** : العظم الذي ليس عليه لحم .

(٣) **الدَّورق** : وعاء يكال به ، فارسي معرَّب .

من خارج السوق ؛ قال إبراهيم : إني أريد أن أحتجم ، قال : فاحتجم علىٰ بركة الله تعالىٰ ، فلما فرغ ؛ قال : يا أبا سليمان ؛ هل معك شيء ؟ قلت : نعم ، وأخرجت صرة فيها ثمانية عشر درهماً ، قال : ادفعها إلى الحجام ، قلت : يا أبا إسحق ؛ كلها ؟! قال : نعم ؛ ادفعها كلها ـ وكان إبراهيم لا يُرَاجَع في شيء ـ فدفعتها وخرجنا .

فلما سرنا قدر ميلين ؛ قلت : يا أبا إسحاق ؛ تلك الدراهم كنا حملناها لنشتري بها من بيت المقدس بعض ما ندخل به على الصبيان ، فقلتَ : أعطها كلها للحجام ، فأعطيتها وخفت منك ، والله ؛ ما معي شيء غيرها ، قال : فسكت ، فما أجابني ، قال : فأعدت عليه القول مرة أخرىٰ ، فسكت ، ولم يجبني .

ثم لاحت لنا قرية ناحية عن الطريق ، فقال : يا أبا سليمان ؛ إن من رأيي أن أبيت في هـٰذه القرية ، فأعجبني ذلك ، فجئنا القرية وقد غربت الشمس ، فدخلنا المسجد ، فقال إبراهيم للمؤذن : أنت من هـٰهنا ؟ قال : نعم ، قال : هل تعلم بهـٰذه القرية من يريد الحصاد ؟ فقال المؤذن : قد حصد أهل القرية ولم يبق إلا حقلين كبيرين لنصراني ، قال إبراهيم : إذا صلينا إن شاء الله تعالى امض بنا إليه ، فلما فرغوا من الصلاة ؛ قال إبراهيم للمؤذن ولأبي سليمان : امض بنا إليه ، فلما رأياه ؛ ذكرا له أمر الحصاد ، وقال له المؤذن : قد تأَبَّىٰ عليك أهل القرية ، وإني لأرجو أن يحصدا لك كما تحب ، فأرِهما الموضع واشترط ما شئت ، فدخل النصراني ، فأراهما الحقلين ، وكانت ليلة مقمرة ، فقال النصراني : إني أعطيكم ديناراً ، فقال إبراهيم : قد رضينا ، فرجع إبراهيم إلى المسجد ، فلما صلى العشاء الآخرة ؛ قال إبراهيم لأبي سليمان : امض بنا إلى الحقل ، فلما دخلنا فيه ؛ ركع إبراهيم أربع ركعات ، ثم قال : يا أبا سليمان ؛ أما يقبح بنا شيخين من أهل الإسلام نذهب ليلتنا في عمل نصراني ولا نصلي لله عز وجل في هـٰذا الموضع ؟ فإني لا أحسب أنه صلي في هـٰذا الموضع قط ، أيما أحب إليك أن تصلي أنت هـٰهنا وأحصد أنا ؟ أو تذهب أنت فتحصد وأصلي أنا ؟ فقلت : أصلي أنا واذهب أنت فاحصد ، قال : فشمر .

قال أبو سليمان : وركعت ركعتين ، ثم وضعت رأسي ونمت ، قال : فجاءني في آخر الليل ، فقال : أراك نائماً ، هـٰذا الصبح قد قارب ، وقد فرغت من الحقلين ، قلت : فرغت منهما ؟! قال : قد أعاننا الله سبحانه وتعالىٰ ، ثم جلسنا ساعة حتىٰ طلع الفجر ، فصلينا في المسجد ، فلما فرغنا ؛ أخبر إبراهيم المؤذن بفراغه من حصاد الحقلين ، فأطرق المؤذن ، وقال : ما أحسب إلا أن تكون قد أهلكت النصراني ؛ فإن هـٰذا عمل لا يفرغ منه في خمسة

أيام ولياليها ، فقال إبراهيم : امض بنا إليه وانظر ، فقال المؤذن : أشهد أن الله عز وجل فعَّال لما يريد ، وهو علىٰ كل شيء قدير ، ثم جاؤوا إلى النصراني وأخبروه ، فجعل النصراني يبكي ، وأخذ التراب ، ووضعه علىٰ رأسه ، وجعل ينتف لحية نفسه ، ويقول للمؤذن : غررتني ، فقال إبراهيم : يا نصراني ؛ لا تعجل ، امض إليه ، فإن رأيت ما تحب ، وإلا ؛ فافعل ما تريد ، قال : امضوا ، فدخل الحقل الأول ، فإذا هو قد حُصِد حصاداً جيداً ، وإذا جرز مربوطة مكومة جيدة ، ثم الحقل الآخر كذلك ، فتعجب المؤذن والنصراني ، ثم دفع إليهما الأجرة ، وقال : أريد أن أزيدكما ديناراً آخر ، قال إبراهيم : لا حاجة لنا بالزيادة ، ثم قال إبراهيم لأبي سليمان : خذ هـٰذا الدينار ، واعلم أنه لا يمكنني أن تصحبني إلىٰ بيت المقدس ، إما أن أرجع إلىٰ عسقلان وتمضي أنت إلىٰ بيت المقدس ، وإما أن أمضي وترجع أنت إلىٰ عسقلان ، قال أبو سليمان : فبكيت ، وقلت : يا أبا إسحاق ؛ الصحبة ، قال : لا ، كَرَّرتَ عليَّ : الدراهم الدراهم ، انصرف إلىٰ أهلك بارك الله لك ، فرجعت إلىٰ عسقلان ومضىٰ هو إلىٰ بيت المقدس .

وعن أبي إسحاق الفزاري قال : كان إبراهيم في شهر رمضان يحصد الزرع بالنهار ويصلي بالليل ، فمكث ثلاثين يوماً لا ينام بالليل ولا بالنهار .

وقال أبو يوسف الغَسولي : كنا مع إبراهيم في الحصاد في رمضان ، فقيل : يا أبا إسحاق ؛ لو دخلت بنا إلى المدينة ، فنصوم العشر الأواخر بالمدينة ؛ لعلنا ندرك ليلة القدر ، فقال : أقيموا هـٰهنا وأجيدوا العمل ، ولكم بكل ليلة ليلة القدر .

وعن خلف بن تميم قال : سألت إبراهيم بن أدهم : منذ كم أنت هـٰهنا بأرض الشام ؟ فقال : منذ أربع وعشرين سنة ، وقال : دُفِعت إلىٰ شباب من العرب يحصدون وقد ضربوا خباء لهم ، فقالوا : يا فتىٰ ؛ ادن فاحصد معنا ، قال : فحصدت معهم وكانوا يعطونني من الأجرة ما يعطون واحداً منهم من الأستاذين[1] ، فقلت ـ بيني وبين نفسي ـ : ما أرىٰ هـٰذا يسعني ، هـٰؤلاء الأستاذون ، وأنا لا أحسن أحصد ، قال : فكنت أدعهم ، حتىٰ إذا أخذوا مضاجعهم وناموا ؛ أخذت المنجل ، فحصدت ، قال : فأُصبح وقد حصدت شيئاً صالحاً ، فسمعتهم يتوَشْوَشون فيما بينهم ، يقولون : أليس هـٰذا الزرع كان البارحة قائماً ؟ فمن حصده ؟ فيقول بعضهم لبعض : هـٰذا نراه بالليل يقوم فيحصد ، فأسمعهم يقولون :

---

(١) الأستاذون : لقب فرقة من الخدم مهمتهما الخدمة في جيش الخليفة .

ما يسعنا ذا ، يعمل بالليل والنهار ، وإنما يأخذ أجر رجل واحد[1] .

وعنه قال : الزهد ثلاثة أصناف : زهد فرض ، وزهد فضل ، وزهد سلامة ، فالفرض : الزهد في الحرام ، والفضل : الزهد في الحلال ، والسلامة : الزهد في الشبهات[2] .

وعن عيسى بن حازم قال : قال إبراهيم : ما يمنعني من طلب العلم أني لا أعلم ما فيه من الفضل ، ولـٰكن أكره أن أطلبه مع من لا يعرف حقه .

وروى الأصفهاني عن أشعث قال : ذكر هارون رفيق إبراهيم بن أدهم قال : كنا مع إبراهيم بغزة نحصد ، فقال : يا هارون ؛ تنح بنا عن هـٰذا الموسم ، فقلت : لِمَ ؟ قال : بلغني أن بعثاً بعثوا إلىٰ إفريقية ، قال : فقلت : وما عليك من البعث ؟ قال : إن الطريق الذي يأخذون فيه قريب منا ، وأنا لا آمَن أن يأتينا بعضهم فيقول : نأخذ إلىٰ موضع كذا وكذا فندله ، ليس لنا خير من أن نتباعد فلا نراهم ولا يرونا .

وقال علي بن بكار : كان إبراهيم بن أدهم يعمل بفلسطين بأجرة ، فإذا مر به الجيش إلىٰ مصر وهو يستقي الماء ؛ قطع الدلو وألقاه في البئر ؛ لئلا يسقيهم ، وكان يضربون رأسه يسألونه عن الطريق ، وهو يتخارس عليهم ؛ لئلا يدلهم ، قال علي بن بكار : هـٰذا هو الورع ، ليس ما أنا وأنت عليه .

وقال أحمد بن داوود : مر جندي بإبراهيم بن أدهم وهو ينطر كرماً ، فقال : ناولني من هـٰذا العنب ، فقال : ما أذن لي صاحبه ، قال : فقلب السوط وأمسك بموضع الشيب ، فجعل يقنع رأسه بالسوط ، فطأطأ إبراهيم رأسه ، وقال : اضرب رأساً طالما عصى الله عز وجل ، قال : فأعجز الرجل عنه .

وعن بعض رفقاء إبراهيم : إن إبراهيم حين عاين العدو ـ وكانوا من وراء البحر ـ رمىٰ نفسه في البحر يسبح نحوهم ومعه رجل آخر ، فلما رأى العدو ذلك ؛ انهزموا .

وعن بقية قال : قلت لبعض أصحاب إبراهيم : أخبرني عن أشد شيء مر بكم منذ صحبته ، قال : نعم ؛ كنا صياماً ، فلما كان عند الإفطار ؛ لم يكن عندنا شيء نفطر عليه ، فقلت له : يا أبا إسحاق ؛ هل لك في خصلة أن نأتي باب الرستن[3] فنكري أنفسنا مع هـٰؤلاء

---

(١) الحلية (٧/ ٣٦٩ـ ٣٧٨) .

(٢) الحلية (٨/ ٢٦ـ ٢٧) .

(٣) **الرستن** : بلدة علىٰ نهر العاصي ، بين حمص وحماة .

الحصادين ؟ قال : أنت وذاك ، فأتينا باب الرستن ، فجاء رجل ، فاكتراني بدرهم ، قال : فقلت له : ألا تكتري صاحبي ؟ قال : إنه ضعيف لا أريده ، فما زلت به حتى اكتراه بأربعة دوانق ، ونحن صيام ، فلما كان عند المساء ؛ أخذت الأجرة منه ، وأتيت السوق ، واشتريت شيئاً نفطر عليه ، وتصدقت بالباقي ، فلما جئته ؛ قال إبراهيم : أمَّا نحن : فقد استوفينا أجرنا ، فليت شعري أَوَفيناه حقه أم لا ؟ فلما رأيت ذلك ؛ غضبت ، فلما رأىٰ غضبي ؛ قال : لا بأس ، تضمن لي أنَّا وفَّيناه عمله ؟ قلت : لا ، قال : فاذهب فتصدق بهـٰذا الطعام ، فهـٰذا أشد شيء رأيته منذ صحبته .

وعن ضمرة قال : كنا مع إبراهيم بصور في بيته ، قال : وكان يحصد ، وكان سليمان أبو إلياس جالساً على الباب عليه جبة صوف ، فقال له إبراهيم : يا سليمان ؛ ادخل ادخل لا يمر بك إنسان ، فيظن أنك سائل ، فيعطيك شيئاً .

وعن بقية قال : سمعت إبراهيم بن أدهم يقول : عالجت العبادة ، فما وجدت شيئاً أشد علي من نزاع النفس إلى الوطن .

وعن مضاء بن عيسىٰ قال : قال إبراهيم بن أدهم : ما قاسيت فيما تركت من الدنيا أشد علي من إلقاء الكتب .

وقال غير مضاء : قال إبراهيم : ما قاسيت شيئاً فيما تركت أشد عليَّ من مفارقة الأوطان .

وفي رواية أخرىٰ : عن إبراهيم بن بشار قال : ما قاسيت شيئاً أمَرَّ علي من نفسي ، مرة عليَّ ومرة لي ، وأما هواي : فقد ـ والله ـ استعنت بالله تعالىٰ عليه ، فأعانني ، واستكفيته سوء مغالبته ، فكفاني ، فوالله ؛ ما آسىٰ علىٰ ما أقبل من الدنيا ولا ما أدبر منها .

وقال إبراهيم : ما كانت لي مؤونة قط علىٰ أصحابي ولا علىٰ غيرهم إلا في شيء واحد ، فقيل : يا أبا إسحاق ؛ ما هو ؟ قال : ما كنت أحسن أكري نفسي في الحصاد ، فيحتاج أصحابي أن يكروني ويأخذون لي الأجرة ، فهـٰذه كانت مؤونتي عليهم .

وعن سعيد بن حرب قال : قدم إبراهيم مكة ، فنزل علىٰ عبد العزيز ابن أبي روَّاد ، ومعه جراب من جلد ظبية ، فعلقه علىٰ وتد ، ثم خرج إلى الطواف ، فدخل سفيان الثوري دار عبد العزيز ، فقال : لمن هـٰذا الجراب ؟ قالوا : لأخيك إبراهيم بن أدهم ، فقال سفيان : لعل فيه شيئاً من فاكهة الشام ، قال : فأنزله ، فحلَّه ، فإذا هو محشو بالطين ، فشدَّه ورده

إلىٰ موضعه ، وخرج سفيان ، فرجع إبراهيم ، فأخبره عبد العزيز بفعل سفيان ، فقال : أمَا إنه طعامي منذ شهر .

وعن عطاء بن مسلم قال : ضاعت لإبراهيم بن أدهم نفقة بمكة ، فمكث خمسة عشر يوماً يستفُّ الرمل .

وعن أبي معاوية الأسود قال : رأيت إبراهيم بن أدهم يأكل الطين عشرين يوماً ، ثم قال : يا أبا معاوية ؛ لولا أن أتخوف أن أعين علىٰ نفسي ؛ ما كان لي طعام إلا الطين حتىٰ ألقى الله عز وجل ؛ حتىٰ يصفو لي الحلال من أين هو .

وعن أبي إسحاق الفزاري قال : أخبرني إبراهيم بن أدهم أنه أصابته مجاعة ، فمكث أياماً يبل الرمل بالماء ، فيأكله .

وعن سهل بن إبراهيم قال : صحبت إبراهيم بن أدهم في سفر ، فأنفق عليَّ نفقته كلها ، قال : ثم مرضت ، فاشتهيت شهوة ، فباع حماره واشترىٰ شهوتي وجاءني بها ، فقلت له : يا إبراهيم ؛ أين الحمار ؟ فقال : يا أخي ؛ بعناه ، قال : قلت : يا أخي ؛ فعلىٰ أي شيء أركب ؟ قال : يا أخي ؛ اركب علىٰ عنقي ، فحملني علىٰ عنقه ثلاثة منازل .

وعن أحمد بن الفضل العكي قال : سمعت أبي يقول : مر إبراهيم بن أدهم بقيسارية[1] وقد تعجل[2] ديناراً من الكرم ، فسمع صوت امرأة تصيح ، فقال : ما لهـٰذه ؟ قالوا : تلد ، قال : وأي شيء يعمل للمرأة ؟ قالوا : يشترىٰ لها طحين وزيت ولحم وعسل وسمن ، فصرف دينارَه واشترىٰ زنبيلاً[3] ، وملأه طحيناً ، واشترىٰ زيتاً وسمناً وعسلاً ولحماً ، وحمله علىٰ رقبته إلىٰ بابهم ، وقال : خذوا ، فنظر فيهم ، فإذا هم أفقر أهل بيت في قيسارية وأعبدهم .

وفي رواية أخرىٰ : قالت المرأة : علىٰ يد مَن جاء هـٰذا ؟ قيل لها : علىٰ يد إبراهيم بن أدهم ، فقالت : اللهم ؛ لا تضيع هـٰذا اليوم لإبراهيم بن أدهم .

وقال علي بن بكار : كنا جلوساً عند الجامع بالمصيصة وفينا إبراهيم بن أدهم ، فقدم رجل من خراسان ، فقال : أيكم إبراهيم بن أدهم ؟ فقال القوم : هـٰذا ، فقال : إن إخوتك

---

(١) قيسارية : بلد علىٰ ساحل بحر الشام ، كانت تعد في أعمال فلسطين .

(٢) أي : أخذ من أجرته ديناراً من صاحب البستان .

(٣) الزنبيل : القفة .

بعثوني إليك ، فلما سمع ذِكر إخوته ؛ قام فأخذ بيده ونحاه عن القوم ، وقال : ما جاء بك ؟ قال : أنا مملوكك معي فرس وبغلة وعشرة آلاف دينار ، بعثني بها إليك إخوتك ، فقال : إن كنت صادقاً ؛ فأنت حر ، وما معك فلك ، اذهب فلا تخبر أحداً .

وكان إبراهيم يطحن وإحدىٰ رجليه مبسوطة والأخرىٰ قد كفها ، فلا يكف تلك المبسوطة ولا يبسط تلك المكفوفة حتىٰ يفرُغ من مُدٍّ ، فإذا فرغ من مُدٍّ ؛ بسط تلك وكف هـٰذه ، فيطحن مُدّاً آخر .

وعن عيسى بن حازم قال : بينا إبراهيم يحصد حقلاً مزروعاً أخذه جزافاً ؛ إذ وقف عليه رجلان معهما ثقل ووطاء[1] مع كل واحد منهما نفقة ، فقالا له : أنت إبراهيم ؟ قال : نعم ، قالا : إنا مملوكان لأبيك ، ومعنا مال ووطاء ، فقال : ما أدري ما تقولان ، إن كنتما صادقين ؛ فأنتما حُرَّان ، وما معكما لكما ، لا تشغلاني عن عملي .

وعن عيسى بن حازم قال : كان لإبراهيم أخ في الله عز وجل من عسقلان ، اسمه : أزهر ، فسأل عن إبراهيم ، فأُخبر أنه ضعيف في حصن على الساحل ، فأخذ أزهر كساء من صوف ، وجاء به إليه ، وإذا هو علىٰ بارية ليس تحته شيء ، فقال له : يا أبا إسحاق ؛ أحب أن تأخذ هـٰذا الكساء ، فقال : ما تخف علي ، فقال أزهر : لو فعلتَ ذلك ؛ سررتَني ، قال : ضعه ، قال : فوضعته ومضيت سريعاً ؛ مخافة أن يبدو له ، قال عيسىٰ : فجاء إبراهيم إلىٰ أزهر بعد أيام ، ورفع رداءه ، ودس تحته شيئاً ومضىٰ ، قال أزهر : فرفعت ردائي ، فإذا عمامة جديدة ونعل جديد ، فمضيت وهُما معي حتىٰ لحقته ، فقلت : يا أبا إسحق ؛ ما هـٰذا ؟ فقال لي : هـٰكذا أدركت الناس يأخذون ويعطون ، انصرِف بما معك ، فانصرفت .

وعن أحمد ابن أبي الحواري ، حدثني أخي محمد قال : دخل داوود الرملة علىٰ برذونٍ بلا سرج ، فقيل له : أين السرج ؟ فقال : ذهب به سخاء إبراهيم بن أدهم ، كان أهدي إليه طبق تين وعنب ، فأخذ السرج ووضعه على الطبق ، ومرة أخرىٰ أهدي له سلة ، فنزع فروته ، فوضعها على الطبق .

قال روَّاد بن الجراح : رأيت في المنام كأني وإبراهيم بن أدهم اجتمعنا في لحاف ،

---

(١) **الوِطاء** : ما يقعد عليه .

فغمني ذلك ، فلما كان بعد ذلك ؛ أتاني رجل ، فقال : إبراهيم يقرئك السلام ، ويقول لك : هـٰذا الإزار فالبسه ، فأخذته وذكرت رؤياي .

وقال أحمد ابن أبي الحواري : قلت لمراون : بِمَ فاق عليكم إبراهيم ؟ قال : بالصدق والسخاء .

وقال أحمد أيضاً : سمعت أبا الوليد صاحب إبراهيم قال : كان إبراهيم إذا بقي في الغرارة[1] من الدقيق شيء قليل ؛ تركه ويعمل بالأجرة .

وقال أبو الوليد : قال رفقاء إبراهيم : تعالَوا نأكل كل الخبز الذي في الجونة ، حتىٰ إذا لم يجد إبراهيم شيئاً ؛ عجل إلينا ليلة أخرىٰ[2] ـ يعني : قبل أن يفنى الخبز ـ وكان عادته يبطىء بعد العشاء الآخرة ، فأكلوا كل شيء في الجونة ، وأطفؤوا السراج ، ورقدوا ، فجاء إبراهيم ، فنظر في الجونة ، فلم يجد فيها خبزاً ، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، رقدوا بلا عَشاء ، قال : فقدح وأسرج ، وعجن وخبز لهم سلة ، ثم نبههم ، وقال : اجلسوا اجلسوا ، ما كنتم تعملون لكم عشاء قبل أن ترقدوا ؟! فنظر بعضهم إلىٰ بعض ، فقالوا : انظروا أي شيء أردنا به ، وأي شيء عمل هو .

وعن أبي الوليد قال : ربما جلس إبراهيم بن أدهم من أول الليل إلىٰ آخره يكسر الصنوبر يطعمنا .

وقال أبو الوليد رحمه الله : كان إبراهيم بن أدهم وصاحب له رحمهما الله يطحنان ، وكان في العود الذي يطحن به عقدة ، فوضع يده على العقدة ، وترك الموضع الأملس لصاحبه ، ومد رجله حين طحن ، قال : فما قبضها حتىٰ فرغ من الطحن . [انتهىٰ « الحلية » ٧/ ٣٧٩ـ ٣٨٥] .

وقال في « بهجة الأسرار » : قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله لبعض إخوانه بطرسوس : تحب أن تكون لله عز وجل ولياً ويكون لك محباً ؟ قال : نعم ، قال : دع الدنيا والآخرة لله عز وجل ، قال : فماذا أصنع ؟ قال له : أقبل علىٰ ربك عز وجل بقلبك ، واعبده حتىٰ يأتيك اليقين امتثالاً لأمره ونهيه ، وابتغاء مرضاته ؛ يقبل عليك سبحانه وتعالىٰ بوجهه ؛ فإنه بلغني أن الله تبارك وتعالىٰ أوحىٰ إلىٰ يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام : (يا يحيىٰ ؛ إني

---

(١) **الغرارة** : وعاء من خيش يوضع فيه القمح ونحوه .

(٢) أي : جاء مبكراً حتىٰ يأكل معنا .

قضيت علىٰ نفسي ألاَّ يحبني أحد من خلقي أعلمُ ذلك من نفسه ؛ إلا كنت سمعَه الذي يسمع به ، وبصرَه الذي يبصر به ، وفؤادَه الذي يعقل به ، فإذا كنت له كذلك ؛ بغَّضت عليه الاشتغال بأحد غيري ، وأدَمْتُ فكرته ، وأسهرت ليله ، وأظمأت نهاره ، أَطَّلِعُ عليه كل يوم سبعين نظرة ، فأرىٰ قلبه مشتغلاً بي ، فيزداد من حبي في قلبه ، ولا يزال كذلك في زيادة حتىٰ أملأ قلبه نوراً وأقربه مني .

يا يحيىٰ ؛ امسح رأسه ، وضع يده علىٰ ألمه ، فإنه لا يشكو إلي ألمه ؛ لأنه مشغول بحبي عن ألمه وأوجاعه ، وإنما يعرف الألم إذا فقدني من قلبه ، فعندها يطلبني كما تطلب الوالدة المشفقة ولدها إذا غاب عنها ، أسمع خفقان فؤاده ، فأقول : ما بال قلبك خافقاً ـ وأنا أعلم به منه ـ فيقول : وعزتك وجلالك حقيق علىٰ قلبي ألاَّ يسكن إذ مننتَ عليه بحبك ، فكيف يسكن قلبه ـ يا يحيىٰ ـ وأنا جليسه وغاية أمنيته ؟ وعزتي وجلالي لأنعتَنَّهُ مَنعتاً تغبطه فيه الخلائق ، ثم آمر منادياً ينادي : هـٰذا حبيب الله عز وجل وصفيُّه ، دعاه الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ زيارته ، فإذا جاءني ؛ رفعت عنه الحجاب ، فنظر إلىٰ وجهي الكريم) قال : فلما ذكر الحجاب ؛ صاح يحيىٰ صيحة عظيمة ، وخر مغشياً عليه ، فلم يفق ثلاثة أيام ، والله أعلم . انتهىٰ .

قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : وأُخبِرت عن عبد الله بن أحمد بن سوادة ، أخبرنا أبو سعيد البكَّاءُ أحمد بن محمد ، حدثني جامع بن أعين الفراء قال : وجهني أخي إلىٰ إبراهيم بن أدهم وهو يرعى الخيل في الملون[1] ، وملأ جراباً من السويق والتمر ، وأعطاني لحماً مشوياً ، وقال : امض إلىٰ إبراهيم بن أدهم ، وأقرئه مني السلام ، قال : فجئته بعد العصر ؛ وإذا هو في الغابة ، فنظرت إلىٰ فرسنا وقعدتُ ، حتىٰ خرج إبراهيم عند اصفرار الشمس وعليه عباءة علىٰ كتفيه وجبة صوف ، وهو يُسبِّح ، فقالوا : قد أقبل إبراهيم ، وقد رضضوا له[2] كفاً من شعير وعجنوه بقشوره ، وهيؤوا له منها ثلاثة أقراص ، فقمت ، وسلمت عليه ، وأقرأته سلام أخي ، فقال لهم : أروه فرس أخيه ؛ يفرح ، فقلت : قد رأيته ، ووضعت الجراب بين يديه ، وقلت : فيه هدية أخي لك ، فقال لأصحابه : متىٰ جاء هـٰذا ؟ قالوا : بعد العصر ، قال : فهلا أكلتموه ؟ ثم قال : ابسطوا العباءة ، ونفض الجراب

---

(١) اسم موضع .

(٢) أي : طحنوا له .

عليها ، ثم جعل يقول : ادعوا فلاناً ، ادعوا فلاناً ، ثم قال لهم : كلوا ، وهو قائم يقول لهم : كلوا كلوا ، فقلت لأصحابه : إن أخي يحب أن يأكل إبراهيم من هـٰذا ، فقالوا : إنه ليس يأكل إلا ثلاثة أقراص من شعير بملح جريش ، ثم صلىٰ بنا العتمة ، ثم ما زال راكعاً وساجداً حتى الصبحِ ، ثم صلى الصبح علىٰ وضوء العشاء .

وعن خلف بن تميم : حدثني رفيق لإبراهيم قال : غزا إبراهيم في البحر ، فأتي بثلاثة دنانير سهمه ، فقال للرسول : ضعها علىٰ هـٰذه الحصير ، فوضعها ، ثم قال لبعض أصحابه : خذ هـٰذه الدنانير واذهب بها إلىٰ أبي محمد الخياط ، فقل له يقضي بها دينه ، فأتيته بها ، فأبىٰ أن يقبلها ، وقال : إني قد رحمته من كثرة القمل الذي أكله في ثيابه ، فجئت بها إليه وأخبرته بأنه قد أبىٰ أن يقبلها ، قال : ضعها على الحصير ، وكان هناك شيخ من أصحابه ، فقال : يا أبا إسحاق ؛ لي عيال ، وقال : أنا أحتاج إليها ، قال : خذها ، فأخذها الشيخ .

وقال الفزاري : شيعت إبراهيم وهو متوجه إلىٰ مرعش ، فعرضت عليه نفقة كانت معي ، فقال : ما كنت أحسبك تفعل معي هـٰذا ، ولو فعل هـٰذا غيرك بي ؛ لكان ينبغي لك أن تنهاني عنه ، ثم خلع جبة ، وخلع قميصاً ، ولبس الجبة علىٰ جلده ، وناولني القميص ، وقال : بلِّغ هـٰذا فلاناً ؛ فإنه كان أولانا معروفاً .

وعن عطاء بن مسلم قال : سمعت رجلاً صحب إبراهيم قال : خرجنا إلى الجبل ، فاكترانا قوم يقطعون الخشب يعملون منه القصاع والأقداح ، قال : فحملنا المتاع إلىٰ سوق سلمية ، فنزل إبراهيم القرية ، وحملت أنا المتاع وبعته بثلاثين ديناراً ، فبينا هي في كمي ؛ إذ ذهبَتْ ، فلقيني خصي لأسماء امرأة عبيد الله بن صالح ، فعرفني ، وقال لي : ما تصنع هـٰهنا ؟ فأخبرته ، فقام مسرعاً ، ثم جاءني بمئتي دينار ، وقال : أين إبراهيم ؟ فقلت : في القرية ، قال : انطلق بنا إليه ، فأتيناه ؛ فإذا رأسه في الظل ورجلاه في الشمس ، فجئته فقلت له : إن الدنانير قد ذهبت ، قال : الحمد لله الذي عافانا منها ، فقال الخصي : هـٰذه مئتا دينار بعثت بها إليك أسماء ، فزبره[1] ، ثم رفع رأسه ، وقال : والله ؛ إن لله عز وجل علي نعمة في ذهابها .

وقال أحمد ابن أبي الحواري حدثني بعض أصحابنا قال : أصاب إبراهيمَ بنَ أدهم

---

(١) زبرَه : زجره .

وأصحابه رحمهم الله الثلج بأرض الروم ، فدخل أصحابه الخباء ، وبقي هو خارج الخباء[1] ، فسألوه أن يدخل ، فأبىٰ ، ثم أدخل رأسه في فروة له ، فلما كثر الثلج ؛ نفضه ، فلما أصبحوا وطلعت الشمس ؛ خرجوا من الخباء ، وقالوا له : يا أبا إسحاق ؛ أي ليلة مرت بنا ؟ نسأل الله عز وجل ألاَّ يبتلينا بليلة أخرىٰ مثلها ، فقال إبراهيم : وكيف لنا بليلة أخرىٰ مثلها ؟

وقال أبو قتادة : قدم عليَّ إبراهيم بن أدهم وأبو عثمان المرجي ـ مرج حماد ـ ويوسف بن أسباط وحذيفة المرعشي ، وأقاموا عندي أياماً ، ثم قالوا : اطلب لنا قَراحاً[2] نحصده ، فأتيت دهقاناً ، فتقبلت منه قراحاً خمسين جريباً[3] بخمسين درهماً ، فدخلوا إليه يحصدون ، وقعدت عندهم إلى الغروب ، ثم أردت أن أبيت عندهم ، فمنعوني ، فرجعت ، وتركتهم عند القراح ، فلما كان الغد . . غدوت إليهم ؛ وإذا القراح قد حصد ، فجاء الدهقان ، وقال : جودتم العمل جزاكم الله خيراً ، أتتقبلون قراحاً آخر ؟ قالوا : لا ، فدفعوا إلي أربعين درهماً ، وأخذوا عشرة ، والله ؛ أعلم إن كانوا حصدوا بأيديهم سنبلة .

وأُخبِرت عن أبي طالب قال : أخبرنا عبد الله بن محمد بن بكر ، أخبرنا الحسن بن محمد ، عن سالم الخواص قال : مررت علىٰ رصيف أنطاكية في يوم مطير ، فنظرت إنساناً نائماً ، فلما قربت منه . . كشف رأسه ؛ فإذا هو إبراهيم بن أدهم في عباءة ، قال : يا أبا محمد ؛ طلب الملوك شيئاً ففاتهم ، وطلبناه فوجدناه ، ما تجاوز همي كسائي ، رضي الله عنه وأرضاه .

وقال أبو الوليد : غزوت أنا وإبراهيم ومعي فرس وهو علىٰ رجليه ، فأردته أن يركب ، فأبىٰ ، فحلفت ، فركب ، فلما استوىٰ على السرج ؛ قال : قد أبررتُ يمينك ، ثم نزل ، فسرنا في تلك السرية ستة وثلاثين ميلاً وهو علىٰ رجليه ، فلما نزلنا ؛ أتى البحر ، فأنقع رجليه ، ثم استلقىٰ ورفع رجليه على الحائط .

وقال إبراهيم : لقد أدركت أقواماً ما كانوا يحمدون علىٰ ترك هـٰذا الفضول ، وصار اليوم عند أهل هـٰذا الزمان مَن ترك شيئاً من الدنيا ؛ كأنه ترك شيئاً .

وقال علي بن بكار : غزا معنا إبراهيم في غزاتين عظيمتين ، إحداهما غزاة عياش

---

(١) **الخباء** : ما يعمل من وبر أو صوفو وقد يكون من شَعَر ، والجمع : أخبية .

(٢) **القَراح** : المزرعة .

(٣) **الجريب** : مساحة من الأرض تعادل عشرة آلاف متر مربع .

الأنطاكي ، وغزاة أخرىٰ ، فلم يأخذ سهماً ولا نفلاً[1] ، وكان لا يأكل من متاع الروم ، ويقول : إني لأعلم أنه مِن أحل شيء يكون ، ولـٰكن الزهد إنما يكون في الحلال ؛ فإن الحرام واجب الترك .

ومات إبراهيم بن أدهم رحمه الله في صائفة السفر بالبطن .

وعن إبراهيم بن بشار : سمعت إبراهيم بن أدهم يقول : ذهب السخاء والكرم والجود والمواساة ، فمَن لم يواس الناس بماله وطعامه وشرابه ؛ فليواسهم ببسط الوجه وحسن الخلق ، ولا تكونوا بكثرة أموالكم تتكبرون علىٰ فقرائكم ، وتميلون عن ضعفائكم ، ولا تنبسطوا إلىٰ مساكينكم .

وقال إبراهيم : قال لقمان لابنه : ثلاثة لا يعرفون إلا في ثلاثة مواطن :

لا يعرف الحليم ؛ إلا عند الغضب ، ولا يعرف الشجاع ؛ إلا في الحرب عند ملاقاة الأقران ، ولا يعرف الإخوان ؛ إلا عند الحاجة إليهم .

وقال خلف بن تميم : كنت أجيء إلىٰ إبراهيم ، فأسلم وأجلس ، فلا يكلمني ، فمللت ، فقلت لأبي إسحاق الفزاري : يا أبا إسحاق ؛ إني أجيء إلىٰ إبراهيم فلا يكلمني ، وقد بلغني أنك تجالسه ، فأوصه أن يكلمني ، فقال أبو إسحاق : وإنك لتأتيه ؟ قال : قلت : نعم ، فقال : إني أنا ومخلد نأتيه فنتعلم من آدابه وأخلاقه ، فامض إليه ، قال : فمضيت إليه وقلت له : إني أحب أن تفطر عندي أنت وأبو إسحاق الفزاري الليلة ، فلما ذكرت أبا إسحاق ؛ أنِس بي ، وقال : نعم ، فانطلقت إلىٰ أبي إسحاق ، وأعلمته ، وقلت له : أحب أنك إذا صليت المغرب أن تأخذ بيد إبراهيم وتجيء به إلى المنزل ، قال : نعم ، ثم انطلقت ودعوت إخواناً لي نحو عشرة ، فجاء إبراهيم وأبو إسحاق الفزاري ، ووضعت جفنة فيها ثريد وعَراق ، فجعل إبراهيم يتعلل ولا يأكل ، فساءني ذلك ، فلما رفعت الجفنة ؛ قلت : يا غلام ؛ هات ذلك الطبق ، فيه زبيب وتين وقَسْب[2] ، فلم يأكل أيضاً ، ثم قاموا ، فأُخبِرت أن إبراهيم لما أتىٰ رفقاءه ؛ وجدهم قد تعشوا وفضل في الجفنة قليل من خل وزيت ، فجعل يأكل ويشرب من الجفنة .

قال خلف : فلما كان بعد مدة طويلة ؛ انبسط معي ، فقلت له : أخبرني ، انطلقتَ من

---

(١) **النَّفْل** : الغنيمة .

(٢) أي : التمر اليابس .

عندي تلك الليلة ولم تأكل شيئاً ، وأتيت رفقاءك بعد ما تعشوا ، وأخذت الجفنة وفيها بقية من خل وزيت ، فكرعت فيها ، فقال لي : وأنت فأخبرني عنك ، لما دعوتَ أصحابك هلا اشتريت لحماً بدرهمين ؟ وكان اللحم يومئذ خمسة عشر رطلاً أو عشرون رطلاً بدرهم ، فعرفت عذره ، وأن قصده كان إيثار أصحابه ، ثم حكيت هـٰذه الحكاية لجماعة من أصحابي ، ثم قدر أني دعوتهم وأتيتهم بلحم كثير وثريد ، فأكلوا ، ثم قالوا : هـٰذا أدب إبراهيم بن أدهم ؛ فإنه هو الذي أدبك .

وقال إبراهيم بن أدهم : بلغني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : (لؤم بالرجل أن يرفع يديه من الطعام قبل أصحابه) .

وفي رواية : صنع إبراهيم طعاماً ودعا إخوانه ، وكان فيهم رجل ، فلما أكل ؛ قال : الحمد لله رب العالمين ، ثم قام ، فقال إبراهيم : لقد أساء في خصلتين ، لقد قام بغير إذن ، ولقد حشم[1] أصحابه[2] .

وعن إبراهيم بن بشار قال : سمعت ابن أدهم يقول : خالفتم الله فيما أنذر وحذر ، وعصيتموه فيما نهىٰ وأمر ، وكذبتموه فيما وعد وبشر ، وكفرتموه فيما أنعم وقدر ، وإنما تحصدون ما تزرعون ، وتجنون ما تغرسون ، وتكافَؤون بما تفعلون ، وتُجزَون بما تعملون ، فاعملوا إن كنتم تعقلون ، وانتبهوا من وسن[3] رقدتكم لعلكم تفلحون[4] .

وقال مضاء بن عيسىٰ : ما فاق إبراهيم أصحابه بكثرة صوم ولا صلاة ، ولـٰكن بالصدق والسخاء .

وقال إبراهيم بن قديد : بينا أنا جالس عند إبراهيم بن أدهم ؛ إذ دخل عليه رجل ، فقال : أستودعك الله يا إبراهيم ، فقال : أين تريد ؟ فقال : أريد ساحل كذا وكذا ، قال : خذ جرابَ ابنِ قديدٍ اجعل فيه زادك ، قال إبراهيم بن قديد : فقلت له : يا أبا إسحاق ؛ ليس هـٰذا جرابي ، هـٰذا جراب رفيقي ، قال : فأنت تريد أن تصحب من يكون بشيئه أولىٰ منك به ؟!

---

(١) حشم : جعلهم يستحون .
(٢) الحلية : (٧/ ٣٨٥ـ ٣٩١) .
(٣) الوَسَن : النعاس .
(٤) الحلية : (٨/ ٣٥) .

قال ابن قديد : وكنت عنده يوماً جالساً ، فأهديت إليه فاكهة ونحن جماعة في البيت ، فقال : يابن قديد ؛ دعه ، لا آكل أنا ولا أنت شيئاً ، وإنما يأكله أصحابنا ، فأكله أصحابنا ولم نذقه .

وعن أبي يحيىٰ رفيق إبراهيم بن أدهم قال : سألت إبراهيم عن سقف المنزل الذي كنا فيه ، أهو بحجارة ، أم بخشب ؟ فقال : ما أدري ، وسألته عن الجارية التي كانت تخدمنا ، أسوداء هي ، أم بيضاء ؟ فقال : ما أدري .

وعن أبي محمد قال : ورد إبراهيم بن أدهم رحمه الله المصيصة ، فأتىٰ منزل أبي إسحاق الفزاري ، فطلبه ، فلم يجده ، فقال : أعلموه أن أخاه إبراهيم طلبه ، ثم ذهب إلىٰ مرج كذا وكذا يرعىٰ فرسه ، ثم مضىٰ إلىٰ ذلك المرج ، فوجد فيه أناساً يرعَون دوابهم ، فرعىٰ عندهم حتىٰ أمسىٰ ، فلما أمسىٰ ؛ قال له أولـٰئك : ضم فرسك إلىٰ دوابنا ؛ فإن السباع تأتي هـٰهنا ، فأبىٰ وتنحىٰ عنهم ، فأوقدوا النيران حولهم ، ثم عمدوا إلىٰ فرس لهم صَؤُولٍ[1] ، فأتوه به ، وفيه شكالان[2] ، يقودونه بينهم ، فقالوا له : إن في دوابنا رماكاً[3] أو حجوراً ، فاجعل هـٰذا عندك وديعة ، فقال لهم : وما نصنع بهـٰذه الحبال ؟ ثم مسح وجهه وأدخل يده بين فخذيه ، فوقف لا يتحرك ، فعجبوا من ذلك ، ثم قال لهم : اذهبوا ، فجلسوا يرمقون ما يكون منه ومن السباع ، فقام إبراهيم يصلي وهم ينظرون ، فلما كان في بعض الليل ؛ أتته أُسد ثلاثة ، يتلو بعضها بعضاً ، فتقدم الأول ، فشمه ودار به ، ثم تنحىٰ ناحية فربض ، وفعل الثاني والثالث كذلك ، ولم يزل إبراهيم يصلي ليلته تلك ، فلما كان من السحر ؛ قال للأُسدِ : ما جاء بكم ؟ أتريدون أن تأكلوني ؟ امضوا ، فقامت الأُسدُ فذهبت ، فلما كان الغد ؛ جاء الفزاري إلىٰ أولـٰئك ، فسألهم ، فقال : هل جاءكم رجل ؟ قالوا : نعم ، وأخبروه بالقصة ، فقال لهم : هـٰذا إبراهيم بن أدهم ، ثم جاء الفزاري إليه ، فمرَّ برجل عنده مقود[4] ، فقال إبراهيم للفزاري : تريد هـٰذا المقود ؟ فاشتراه الفزاري بأربعة دوانق ، فقال إبراهيم : أنا كنت دفعت إليه درهماً ودانقين ، فهـٰذه الأربعة دوانق في دِين من هو ؟!

وعن أبي خالد يزيد بن سفيان : أن إبراهيم بن أدهم كان قاعداً في مشرفة بدمشق ؛ إذ مر

---

(١) **الصؤول** : الهائج ، يصول على الناس .
(٢) **الشِّكال** : العقال .
(٣) **رماكاً** : جمع رمكة ، وهي : الفرس والبرذونة التي تُتَخَذُ للنسل .
(٤) **المِقوَدُ** : الحبل الذي يشد في اللجام ليقاد به البعير .

به رجل علىٰ بغلة ، فنزل ، وقال : يا أبا إسحاق ؛ إن لي إليك حاجةً أحب أن تقضيها ، فقال إبراهيم : إن أمكنني ؛ قضيتها ، وإلا ؛ أخبرتك بعذري ، فقال له : إن برد الشام شديد ، وإني أريد أن أبدل ثوبين جديدين ، فقال : إن كنت علىٰ شرطي ؛ قبلت منك ، قال : وما شرطك ؟ قال : إني لا أقبل إلا من غني ، فقال الرجل : أنا ـ والله ـ كثير المال كثير الضِّياع ، فقال : إبراهيم : فما بالك تغدو وتروح علىٰ بغلتك ؟ فقال : أعطي هـٰذا ، وآخذ من هـٰذا ، وأستوفي من هـٰذا ، قال : تبغي الزيادة ؟ قال : نعم ، قال : قم عني ؛ فإنك فقير ، فلست علىٰ شرطي ، ولم يقبل منه شيئاً .

وعن إبراهيم : أنه مر بغلام معه تين في سلة ، فقال : أعطنا بدانق من هـٰذا التين ، فأبىٰ عليه ، فمضىٰ إبراهيم ، ونظر رجل إلىٰ صاحب التين ، فقال له : أيش قال لك هـٰذا الرجل ؟ فقال : قال لي : أعطني من هـٰذا التين بدانق ، فقال : الحقه ، فادفع إليه ما يريد ، وخذ مني الثمن ، فلحقه ، فقال : يا عم ؛ خذ من هـٰذا التين ما تريد ، قال إبراهيم : لا يبتاع التين بالدِّين .

وعن أبي الوليد صاحب إبراهيم قال : كان إبراهيم وأصحابه يمنعون أنفسهم أربعاً : لذة الماء ، والحمامات ، والحذاء ، ولا يجعلون في الملح أبزاراً[1] .

وعن خلف بن تميم قال : كان إبراهيم بن أدهم في البحر ، فعصفت الريح واشتدت ، وإبراهيم ملفوف في كسائه ، فجعل أهل السفينة ينظرون إليه ، فقال له رجل منهم : يا هـٰذا ؛ ما ترىٰ ما نحن فيه من هـٰذا الهول وأنت نائم في كسائك ؟! قال : فكشف إبراهيم رأسه ، فأخرجه من الكساء ، ثم رفع رأسه إلى السماء ، فقال : اللهم ؛ قد أريتنا قدرتك ، فأرنا عفوك ، قال : فسكن البحر حتىٰ صار كالدهن .

وقال عدي الصياد من [أهل] جبلة : سمعت يزيد بن قيس يحلف بالله أنه كان ينظر إلىٰ إبراهيم وهو علىٰ شط البحر وقت الإفطار ، فيرىٰ مائدة توضع بين يديه لا يدري مَن وضعها ، ثم يراه يقوم وينصرف حتىٰ يدخل جبلة وما معه شيء .

وقال عبد الصمد بن الفضل : سمعت مكي بن إبراهيم يقول : كان إبراهيم بن أدهم بمكة ، فَسُئِل عن ما يبلغ المؤمن من كرامة الله عز وجل ، فقال : يبلغ من كرامته على الله

---

(١) الحلية (٧/ ٣٩١ـ ٣٩٤) ، **والأبزار** : التوابل .

سبحانه وتعالىٰ أن لو قال للجبل تحرك ؛ لتحرك ، فتحرك الجبل ، فقال : ما إياك عنيت ، وضربه برجله ، وقال له : اسكن ؛ إنما ضربتك مثلاً لأصحابي .

وعن خلف بن تميم قال : كنا مع إبراهيم بن أدهم في سفر ، فأتاه الناس ، وقالوا : إن الأسد قد وقف علىٰ طريقنا ، قال : فأتاه ، وقال له : يا أبا الحارث ؛ إن كنت أُمرت فينا بشيء ؛ فامض لما أمرت به ، وإلا ؛ فتنح عن طريقنا ، قال : فمضى الأسد وهو يهمهم[1] ، فقال لنا إبراهيم : وما علىٰ أحدكم إذا أصبح وإذا أمسىٰ أن يقول : **اللهم ؛ احرسنا بعينك التي لا تنام ، واحفظنا بركنك الذي لا يرام ، وارحمنا بقدرتك علينا ، ولا نهلك وأنت الرجاء** ، قال إبراهيم : إني لأقولها علىٰ ثيابي ونفقتي ، فما فقدت منها شيئاً قط .

زاد في رواية أخرىٰ : ولا نهلك وأنت ثقتنا ورجاؤنا .

وقال أبو زكرياء[2] : كنا مع إبراهيم بن أدهم في سفينة في غزاة في البحر ، فعصفت الريح ، وأشرف القوم على الغرق ، فخافوا ، ثم سمعوا هاتفاً يهتف في البحر بأعلىٰ صوته : **أتخافون وفيكم إبراهيم ؟!**

وقال عيسى بن حازم : كان إبراهيم بن أدهم إذا غزا ؛ اشترط علىٰ أصحابه الخدمة والأذان ، فحضرت غزاة ، فقال في نفسه : أستقرض من فلان ، قد لا يخف عليه ، حتىٰ عد جماعة ، ثم خر ساجداً ، وصبت دموعه علىٰ خديه ، وقال : واسوأتاه منك يا مولاي ، طلبت من العبيد ، وتركت الطلب من مولى العبيد سبحانه وتعالىٰ ، ثم تقدم وصلىٰ ركعتين ، وقال : اللهم ؛ إنك تعلم ما كان وقع في نفسي وكان ذلك من خطئي وجهلي ، فإن عاقبتني ؛ فبعض ما أستحق ، وإن عفوت ؛ فأنت أهل التقوىٰ ، وأهل المغفرة ، وولي الخيرات في الدنيا والآخرة ، ثم نظر عن يمينه ، فإذا دنانير نحو أربع مئة دينار ، فأخذ منها ديناراً ، ثم راح إلى الغزاة مع أصحابه .

وقال أبو مهلهل سعيد بن صدقة ـ وكان يقال : إنه من الأبدال ـ : جاء إبراهيم بن أدهم إلىٰ قوم قد ركبوا سفينة للغَزاة ، فأراد الغَزاةَ معهم ، فقال له صاحب السفينة : هات دينارين ، قال : أعطيك إن شاء الله تعالىٰ ، فركب ، فلما وصلوا إلىٰ جزيرة ؛ طالبه ،

---

(١) **يهمهم** : يردد الزئير في صدره .

(٢) في نسخة : (رجاء) .

فقال : نعم ، ثم قام ، فخرج إلى الجزيرة ، وصلىٰ ركعتين والرجل ينظر إليه من حيث لا يشعر ، ثم قال : يا رب ؛ إن هـٰذا قد طلب حقه ، وأنت أعلم ، فأسألك أن تعطيه عني ، ثم رفع رأسه ؛ فإذا جميع ما حوله دنانير ، وإذا الرجل واقف ، فقال : جئتَ إلىٰ هُنا ؟ خذ حقك ولا تزد عليه ، ولا تذكر هـٰذا لأحد ، فلما مضوا ؛ أصابتهم عَجَاجة[1] ، فقال الملاح : يا سيدي إبراهيم ؛ ما ترىٰ ما نحن فيه ؟ ادع الله عز وجل لنا ، فأرخىٰ عينيه ودعا ، فسكن وزال ، ثم ساروا .

وقال الحسن بن عبد العزيز الفزاري : قدم علينا ابن أدهم من مرعش ، فقرع الباب ، فقال أبي : انظر مَن هـٰذا ، فخرجت ؛ فإذا رجلٌ آدم[2] ، عليه عباءة ، ففزعت منه ، ثم دخلت ، وقلت : يا أبتاه ؛ رجل لا أعرفه ، فخرج أبي واعتنقه ، ثم دخلا ، ووقفت بين أيديهما ، فقال له أبي : يا أبا إسحاق ؛ إن ابني هـٰذا بليد في حفظ القرآن ، فادع الله تعالىٰ له أن يرزقه حفظه ، وأن يرزقه رزقاً حلالاً ، فأخذني وأقعدني في حجره ومسح علىٰ رأسي ، ثم قال : اللهم ؛ علمه كتابك ، وارزقه رزقاً حلالاً ، فعلَّمني الله عز وجل القرآن ، ورُزقت رزقاً حلالاً كثيراً طيباً .

ورأىٰ إبراهيم بن أدهم بصور سنة ست وثمانين ومئة[3] كأن الجنة فتحت ؛ فإذا فيها مدينتان ، إحداهما : من ياقوتة بيضاء ، والأخرىٰ : من ياقوتة حمراء ، فقيل له : اسكن أَيَّتما شئت ؛ فإنك تراهما في الدنيا كما رأيتهما في الجنة ، فلما أصبح ؛ ركب في طلبهما ، فرأىٰ رباطات خراسان ، فقال : ما أراهما ، ثم جاء إلىٰ قزوين ، ثم ذهب إلى المصيصة والثغور ، حتىٰ أتى الساحل في ناحية صور ، فلما صار بالنواقير ـ وهي نواقير نقرها سليمان عليه الصلاة والسلام علىٰ جبل على البحر ـ فلما صعد عليها ؛ رأىٰ صور ، فقال : هـٰذه إحدى المدينتين ، فأقام بها ، وكان يغزو ، فإذا رجع ؛ نزل يَمنة المسجد ، ثم غزا غزوة ، فمات في الجزيرة ، فحمل إلىٰ صور ، ودفن في موضع يقال له : مدفلة ، وكان إذا دعي إلىٰ طعام ؛ أكل ولم يقل إني صائم .

---

(١) **العَجَاج** : الدخان ، والمراد : أنه أصابتهم عاصفة في البحر .

(٢) **آدم** : شديد السُّمْرة .

(٣) هـٰذه العبارة مضطربة في النسخ بذكر التاريخ وذلك لأن إبراهيم بن أدهم توفي سنة إحدىٰ وستين مئة هجرية ، والتاريخ المذكور بعده ، وصواب العبارة من الحلية (٨/ ٩) : (. . . حدثنا فرج مولىٰ إبراهيم بن أدهم بصور سنة ست وثمانين ومئة ، وكان أسود ، قال : كان إبراهيم بن أدهم رأىٰ في المنام . . . .)

وكان يقول :

نـرقِّـع دنيـانـا بتمـزيـق ديننـا فـلا ديـنُنـا يبقـىٰ ولا مـا نـرقِّـعُ

وكان إبراهيم بن أدهم إذا رأيته كأنه أعرابي لا يشبع من الخبز اليابس والماء ، إنما هو جلد علىٰ عظم ، لا تراه مجالساً أحداً ولا محدثه ، حتىٰ يأتي منزله ، فيجلس إليه إخوانه ، فيضاحكهم ويباسطهم .

وكان يقول : يا نفس ؛ إياك والغرة بالله عز وجل ، فقد قال تعالىٰ : ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ ، وكان كثيراً ما يتمثل بهـٰذه الأبيات :

لَمَا تُوعِد الدنيا به من شرورها يكون بكاء الطفل ساعةَ يوضَعُ
وإلا فمـا يبكيـه منهـا وإنهـا لأَرْوَحُ ممـا كـان فيـه وأوسـعُ
إذا أبصـر الـدنيـا استهـل كـأنمـا يرىٰ ما سيَلقىٰ من أذاها ويسمعُ

وعن إبراهيم بن بشار قال : وقف رجل صوفي علىٰ إبراهيم بن أدهم رحمه الله ، فقال : يا أبا إسحاق ؛ لِمَ حُجبتِ القلوب عن الله سبحانه وتعالىٰ ؟ فقال : لأنها أحبت ما أبغض الله سبحانه وتعالىٰ ، أحبت الدنيا ومالت إليها ، وتركت العمل لدار فيها حياة الأبد ، لا يزول نعيمها ولا ينفد .

وعن أحمد بن يحيىٰ : أن إبراهيم بن أدهم قال : إن الصائم القائم المصلي الحاج المعتمر الغازي ؛ مَن أغنىٰ نفسه عن الناس .

وقال : المسألة مسألتان : مسألة علىٰ أبواب الناس ، ومسألة يقول [الرجل] : ألزم المسجد ، وأصلي وأصوم وأعبد الله عز وجل ، فمن جاءني بشيء ؛ قبلته ، فهـٰذه شر المسألتين ، وهـٰذا قد ألحف[1] في المسألة .

وقال إبراهيم بن أدهم : نظرت إلىٰ قاتل خالي بمكة ، قتله وهو ساجد ، قال : فوجس في قلبي عليه شيء ، فلم أزل أدافع قلبي إلىٰ أن أجاب أني إن لقيته ؛ سلمت عليه ، فوجدته ، فسلمت عليه ، وأهديت له شيئاً ، فسلَّىٰ ذلك عن قلبي .

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : من أراد الآخرة ؛ كان الناس منه في راحة ؛ فإنه لا يجزع من ذلها ، ولا ينافسهم في عزها ، هو في نفسه في شغل شاغل عما الناس فيه ،

---

(١) **ألحف السائل** : ألحَّ في المسألة وهو مستغنٍ عنها .

والناس منه في راحة ، فاتق الله عز وجل وعليك بالسداد ؛ فإن من مضىٰ إنما قدِموا علىٰ أعمالهم ولم يقدموا على الشرف والرئاسة ، نسأل الله تعالى العافية .

وقال شريك : سألت إبراهيم بن أدهم عما كان بين أمير المؤمنين علي وبين معاوية ، فبكىٰ ، فندمت علىٰ سؤالي إياه ، ثم رفع رأسه إلي ، وقال : إنه من عرف نفسه ؛ اشتغل بنفسه عن غيره ، ومن عرف ربه ؛ شغل بربه عز وجل عن غيره .

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : الفقر مخزون عند الله عز وجل في السماء بعدل الشهادة ، لا يعطيه الله عز وجل إلا لمن أحب .

وعن شقيق بن إبراهيم : مر إبراهيم بن أدهم في أسواق البصرة ، فاجتمع إليه الناس ، فقالوا له : يا أبا إسحاق ؛ إن الله تعالىٰ يقول في كتابه : ﴿ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ ، ونحن ندعوه منذ دهر فلا يستجيب لنا ، قال : فقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : يا أهل البصرة ؛ قد ماتت القلوب في عشرة أشياء :

ـ عرفتم الله عز وجل ؛ ولم تؤدوا حقه سبحانه وتعالىٰ .

ـ وقرأتم كتاب الله عز وجل ؛ ولم تعملوا به .

ـ وادعيتم حب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وتركتم سنته .

ـ وادعيتم عداوة الشيطان ؛ ووافقتموه .

ـ وقلتم : نحب الجنة ؛ ولم تعملوا لها .

ـ وقلتم : نخاف النار ؛ وأنتم قد رهنتم أنفسكم بها .

ـ وقلتم : إن الموت حق ؛ ولم تستعدوا له .

ـ واشتغلتم بعيوب الناس ؛ وتركتم عيوبكم .

ـ وأكلتم نعمة ربكم عز وجل ؛ ولم تشكروها .

ـ ودفنتم موتاكم ؛ ولم تعتبروا بهم .

وسئل : بم يتم الورع ؟ قال : بتسوية جميع الناس في قلبك ، واشتغالك عن عيوبهم بذنبك ، وعليك باللفظ الجميل ، من قلب ذليل ، للرب الجليل سبحانه وتعالىٰ ، وفكر في ذنبك ، وتب إلى الله عز وجل منه ، يَنبُتِ الورع في قلبك ، واحسم الطمع من كل أحد إلا من ربك سبحانه وتعالىٰ .

وقيل له : إن فلاناً يتعلم النحو ، فقال : هو إلىٰ تعلم الصمت أحوج .

وقال : يا ابن بشار ؛ مثِّل لقلبك حضور ملك الموت عليه الصلاة والسلام وأعوانه لقبض روحك ، فانظر كيف تكون ، ومثِّل له هول المطلع ومساءلة منكر ونكير عليهما الصلاة والسلام ، فانظر كيف تكون ، ومثِّل له القيامة وأهوالها وأفزاعها والعرض والحساب والوقوف ، فانظر كيف تكون ، ثم صرخ صرخة ، ووقع مغشياً عليه .

وقال : حبُّ لقاء الناس من حب الدنيا ، وتركهم ترك للدنيا ، ولم يصدق الله تعالىٰ في أعماله من أحبَّ الشهرة .

وقال بقية بن الوليد : قال لي إبراهيم : يا بقية ؛ كن ذنَباً ولا تكن رأساً ؛ فإن الذنَب ينجو والرأس يهلك ، فقلت له : لِمَ لا تتزوج ؟ فقال : ما تقول في رجل عرَّى امرأة وجوَّعها ؟ قلت : ما ينبغي هـٰذا ، قال : فأتزوج امرأة تطلب ما يطلب النساء ، ولا حاجة لي في النساء ؟! قال : فجعلت أثني عليه ، فقال : مه ، ألك عيال ؟ قلت : نعم ، قال : لعل روعة تروعك عيالُك بها أفضل مما أنا فيه .

وقال بقية بن الوليد : مررت مع إبراهيم ، فانتهىٰ إلىٰ موضع فيه ماء وحشيش ، فقال لرفيقه : أمعك في المِخْلاة[1] شيء ؟ قال : نعم ، فنثرها عن كسر يابسة ، فجعل إبراهيم رحمه الله يأكل ، ثم شرب ماء ، ثم تمدد في كسائه ، وقال : ما أغفلَ أهلَ الدنيا عنا ، ما في الدنيا أنعمَ عيشاً منا ، لا أهتم لشيء من أمر الدنيا إلا لأمر المسلمين .

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : إذا بات الملوك على اختيارهم ؛ فبِتْ على اختيار الله عز وجل لك وارض به .

وقال : كثرة النظر إلى الباطل . . تَذهَب بمعرفة الحق من القلب .

وعن مخلد بن الحسين رحمه الله قال : ما انتبهت من الليل قط ؛ إلا وجدت إبراهيم بن أدهم رحمه الله يذكر الله عز وجل ، فأَغتمُّ ، ثم أتعزىٰ بهـٰذه الآية : ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ .

وصلىٰ إبراهيم بن أدهم رحمه الله خمس عشرة صلاة بوضوء واحد .

وقال خلف بن تميم : رأىٰ محمد بن عجلان إبراهيم بن أدهم ، فحين رآه ؛ استقبل

---

(١) المِخْلاة : شبه كيس يجعل فيه الطعام ونحوه .

القبلة وسجد ، وقال : أتدري لم سجدت ؟ إنما سجدت شكراً لله عز وجل علىٰ رؤية إبراهيم بن أدهم .

وقال محمد بن عجلان : المؤمن يحب المؤمن حيث كان .

وقال إبراهيم بن أدهم : وجدت في بعض الكتب : من أصبح حزيناً على الدنيا ؛ فقد أصبح ساخطاً على الله سبحانه وتعالىٰ ، ومن أصبح يشكو مصيبة نزلت به ؛ فإنما يشكو ربه عز وجل ، وأيُّما فقير جلس إلىٰ غني فتضعضع له لدنياه ؛ ذهب ثلثا دِينه .

وقال : لولا ثلاث ؛ ما باليت أن أكون يعسوباً[1] : ظمأ الهواجر ، وطول ليل الشتاء ، والتهجد بكتاب الله عز وجل .

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : كنت ماراً في بعض المدن ، فرأيت نفسين من الزهاد السائحين في الأرض ، فقال أحدهما للآخر : يا أخي ؛ ما ورث أهل المحبة من محبوبهم ؟ قال : ورثوا النظر بنور الله سبحانه وتعالىٰ ، والتعطف علىٰ أهل معاصي الله تعالىٰ ، قال : فقال له الآخر : كيف تَعطِف علىٰ قوم قد خالفوا أمر مالكهم سبحانه وتعالىٰ ؟ فنظر إليه الآخر ، ثم قال له : مَقَتَ أعمالهم وعطَّف عليهم القلوب ؛ ليربيهم بالمواعظ عن أفعالهم ، وأشفق علىٰ أبدانهم من النار ؛ فإن المؤمن لا يكمل إيمانه حتىٰ يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ثم غابوا ، فلم أرهم .

وقال رجل لبشر بن الحارث رحمه الله تعالىٰ : إني أحب أن أسلك طريق إبراهيم بن أدهم ، فقال له بشر : إنك لا تقوىٰ علىٰ ذلك ، فقال : ولِمَ ؟ قال له : لأن إبراهيم عمل ولم يقل ، وأنت قلت ولم تعمل .

وقال رجل لإبراهيم بن أدهم : قصدتك يا أبا إسحاق من خراسان لأصحبك ، فقال له إبراهيم رحمه الله : علىٰ أن أكون بمالِكَ أحق به منك ، قال : لا ، قال إبراهيم : قد صدقتني ، فنعم الصاحب أنت .

وقال ابن مهدي : لقي سفيان الثوري إبراهيم بن أدهم ، فتسامرا ليلتهما حتىٰ أصبحا .

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : أطب مطعمك ولا عليك ألاَّ تقوم بالليل ولا تصوم بالنهار .

---

(١) **اليعسوب** : السيد والرئيس ، يقال : هو يعسوب قومه وكبيرهم ومقدَّمُهم .

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : **نعم القوم السُّؤَّال ؛ يحملون زادنا إلى الآخرة** .

زاد في رواية : يجيء أحدهم إلىٰ بابك ، فيقول لك : هل توجهون بشيء إلى الآخرة .

وكان عامة دعائه : اللهم ؛ انقلني من ذل معصيتك إلىٰ عز طاعتك .

وقيل له : إن اللحم قد غلا ، فقال : أرخصوه بالترك .

وقال : ما بالُنا نشكو فقرنا إلىٰ مثلنا ، ولا نطلب كشفه من ربنا سبحانه وتعالىٰ ، ثكلته أمه عبد أحب عبداً لدنياه ، ونسي ما في خزائن مولاه .

وقال إبراهيم بن بشار رحمه الله : كنت ماراً مع إبراهيم بن أدهم في صحراء ، فأتينا علىٰ قبر مُسَنَّمٍ ، فترحم عليه ، وبكىٰ ، فقلت له : قبر مَن هـٰذا ؟ فقال : هـٰذا قبر حميد بن جابر أمير هـٰذه المدن كلها ، كان غارقاً في بحار الدنيا ، ثم أخرجه الله تعالىٰ منها واستنقذه ، ولقد بلغني أنه سُرَّ ذات يوم بشيء من ملاهي ملكه ودنياه ، ثم نام في مجلسه ذلك مع من يخصه من أهله ، فرأىٰ رجلاً واقفاً علىٰ رأسه ، بيده كتاب ، فناوله ، ففتحه ؛ فإذا هو مكتوب بالذهب : لا تؤثرَنَّ فانياً علىٰ باقٍ ، ولا تغترَّنَّ بملكك وقدرتك وسلطانك وخدمك وعبيدك ولذاتك وشهواتك ؛ فإن الذي أنت فيه جسيم لولا أنه عديم ، وهو مُلْك لولا أن بعده هُلْك ، وهو فرح وسرور لولا أنه لهو وغرور ، فسارع إلىٰ أمر الله تعالىٰ ؛ فإن الله تبارك وتعالىٰ يقول : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ ، قال : فانتبه فزعاً مرعوباً ، وقال : هـٰذا تنبيه من الله عز وجل وموعظة ، فخرج من ملكه لا يُعلم به ، وقصد هـٰذا الجبل ، وتعبَّد فيه ، فلما بلغني أمره ؛ قصدته وسألته عن أمره ، فحدثني ببدء أمره ، وحدثته ببدء أمري ، ثم ما زلت أقصده حتىٰ مات ودفن هـٰهنا ، فهـٰذا قبره رحمه الله تعالىٰ .

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : أقلوا معرفتكم من الناس ، ولا تعرَّفوا إلىٰ من لم تعرفوا ، وأنكروا من عرفتم .

وكان يقول : اهربوا من الناس هَرَبَكم من السبع الضاري ، ولا تخلفوا عن الجمعة والجماعة .

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : لا تجعل بينك وبين الله عز وجل عليك منعماً ، وعُدَّ نعمةً مِن غيره مغرماً .

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله لرجل : ما ترىٰ غاية العابدين من الله عز وجل في

أنفسهم ؟ فقال : أظن سكنى الجنة ، فقال إبراهيم : لقد ظننت ظناً والله إني لأرىٰ أن أكبر الأمر عندهم ألاَّ يعرض بوجهه الكريم سبحانه وتعالىٰ عنهم .

وقال لرجل : تريد تدعو ؟ كُلِ الحلالَ وادع ؛ يُستَجَبْ لك .

ورأىٰ إبراهيم بن أدهم رحمه الله في منامه كأن ملكاً نزل من السماء ، فقال له : لِمَ نزلت ؟ فقال : لأكتب أسماء المحبين ؛ مثل : مالك بن دينار ، وثابت البناني ، وأيوب السختياني ، وعَدَّ جماعة ، فقال له إبراهيم : هل أنا منهم ؟ قال : لا ، فقلت له : إذا كتبتهم ؛ فاكتب تحتهم محب المحبين ، قال : فقال لي الملَك : إن الله عز وجل قد أمرني في هـٰذه الساعة أن أكتبك في أولهم ، ثم انتبهت .

وقال إبراهيم بن أدهم : قلة الحرص والطمع ؛ تورث الصدق والورع ، وكثرة الحرص والطمع ؛ تُكثِر الغم والجزع .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ ، قال : السابق مضروب بسوط المحبة ، مقتول بسيف الشوق ، مضطجع علىٰ باب الكرامة ، والمقتصد مضروب بسوط الندامة ، مقتول بسيف الحسرة ، مضطجع علىٰ باب العفو ، والظالم لنفسه مضروب بسوط الغفلة ، مقتول بسيف الأمل ، مضطجع علىٰ باب العقوبة .

وقال إبراهيم لشقيق البَلخي حين اجتمعا في الطواف : كيف حال أصحابك ؟ قال : إن رُزقوا ؛ أكلوا ، وإن مُنعوا ؛ صبروا ، فقال إبراهيم له : هـٰكذا عندنا كلاب بلخ ، إن رزقوا ؛ أكلوا ، وإن منعوا ؛ صبزوا ، فقال له شقيق : يا أبا إسحاق ؛ فكيف حال أصحابكم ؟ قال : إن رزقوا ؛ آثروا ، وإن منعوا ؛ حمدوا وشكروا ، فقام شقيق ، وجلس بين يديه ، وقال : يا أستاذ الأستاذين .

وقال حذيفة المرعشي رحمه الله تعالىٰ : صحبت إبراهيم في طريق الكوفة ، فكان يمشي ويدرس ويصلي عند كل ميل ركعتين ، فبقينا بالبادية حتىٰ بليت ثيابنا ، فدخلنا الكوفة وأوينا إلىٰ مسجد خراب ، فنظر إليَّ إبراهيم ، وقال : يا حذيفة ؛ أرىٰ بك الجوع ، فقلت : هو ما رأى الشيخ ، فقال : عليَّ بدواة وقرطاس ، فجئته بهما ، فكتب : بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، أنت المقصود بكل حالٍ ، والمشار إليه بكل معنىٰ ، ثم كتب أبياتاً منها :

[أنا حاضر أنا ذاكر أنا شاكر ... أنا جائع أنا حاسر أنا عاري
هي ستة وأنا الضمين بنصفها ... فكن الضمين لنصفها يا باري

مـدحـي لغيـرك لفـح نـار خضتهـا فـأجـر فـديتـك مـن دخـول النـار]

ودفع إلي الرقعة ، وقال : اخرج ولا تعلِّق سرَّك بغير الله تعالىٰ ، وأعطها أول من تلقىٰ ، فخرجت ، فاستقبلني رجل علىٰ بغلة ، فأعطيته الرقعة ، فقرأها وبكىٰ ، فقال : أين صاحب هـٰذه الرقعة ؟ فقلت : في المسجد الفلاني ، فأخرج من كمه صرة فيها دنانير وأعطاني ، فسألت عنه ، فقيل : إنه نصراني ، فرجعت إلىٰ إبراهيم وأخبرته ، فقال : الساعة يجيء ، فما كان بأسرع من أن وافى النصراني ، فأكب علىٰ يد إبراهيم ، وأسلم ، وحسن إسلامه .

وقال إبراهيم بن بشار : ما رأيت أحداً يُبغِض الدنيا والنظر إليها مثل إبراهيم بن أدهم رحمه الله ، ربما مررنا علىٰ قوم قد هدموا حائطاً ، فيحول وجهه ولا يملأ عينيه من النظر إليه ، ويقول : يابن بشار ؛ لا تنظر إليه ، ألم تسمع قول الله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ؟ ولم يقل : لنبلوكم أيكم أحسن عمارة للدنيا وأكثر مالاً وذخراً وجمعاً لها ، ثم يبكي .

وكان يقول : قد رضينا من أعمالنا بالمعاني ، ومِن طلبِ التوبة بالتواني ، ومِن العيش الباقي بالعيش الفاني .

وكان يقول : ينبغي للعبد أن يزن نفسه قبل أن يوزن ، ويحاسب نفسه قبل أن يحاسب ، ويتزين ويتهيأ للعرض الأكبر على الله سبحانه وتعالىٰ .

وقيل لإبراهيم بن أدهم رحمه الله : لِمَ لا تكتب العلم ؟ فقال : قد شغلني ثلاث : شكر النعمة ، وخوف العاقبة ، والعمل لما بعد الموت .

روىٰ إبراهيم بن أدهم عن جماعة من التابعين وتابعي التابعين مسنِداً ومرسِلاً .

فمما رواه بإسناده إلىٰ أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الفتنة تجيء فتنسف العباد نسفاً ، وينجو العالم منها بعلمه »[1] .

وبإسناده قال : جاء رجل إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ؛ ما تفسير حسن الخلق ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حسن الخلق : أن تكون راضياً إن أَصبت من الدنيا وإن لم تُصِب »[2] حديث غريب .

---

(١) أخرجه بنحوه القضاعي (٢/ ١٣٩) .

(٢) أخرجه بنحوه الديلمي (١/ ٣٤٣) .

وعن إبراهيم بن أدهم ، عن أيوب ، عن حميد بن هلال ، عن أبي بردة قال : أخرجت إلينا عائشة رضي الله عنها كساءً ملبداً وإزاراً غليظاً ، وقالت : في هـٰذين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] .

وعنه عن إبراهيم الصائغ ، عن عكرمة ، عن ابن عباس رضي الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ترك زينة الدنيا ، ووضع ثياباً خشنة تواضعاً لله عز وجل ، وابتغاء وجهه ؛ كان حقاً على الله تعالىٰ أن يكسُوَه من عبقري الجنة في تخات الياقوت »[2] .

وعنه عن مقاتل بن حيان ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه : قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الصلاة في المسجد الحرام بمئة ألف صلاة ، والصلاة في مسجدي هـٰذا بعشرة آلاف صلاة ، والصلاة في مسجد الرباطات بألف صلاة »[3] غريب لم نكتبه إلا من حديث عبد الرحيم عن داوود .

وبإسناده إلىٰ أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن يسير المؤونة »[4] غريب .

وعنه عن محمد بن عجلان ، عن علي بن الحسين ، عن أبيه ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من صلىٰ عليَّ يوم الجمعة مئة مرة ؛ جاء يوم القيامة ومعه نور ، لو قسم ذلك النور بين الخلق كلهم ؛ لوسعهم »[5] غريب من حديث إبراهيم وابن عجلان .

وبإسناده إلىٰ أنس بن مالك رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من ترك اللباس وهو قادر عليه تواضعاً لله عز وجل ؛ دعاه الله عز وجل علىٰ رؤوس الخلائق يوم القيامة ، حتىٰ يخيره من حلل الإيمان يلبس من أيها شاء »[6] .

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٢٩٤١) .

(٢) **العبقري** : نسبة إلىٰ عَبْقر ، وهو صيغة لكل ما بولغ في وصفه ، والمراد هنا : الدِّيباج ، **التخات** : أمكنة مرتفعة للنوم أو الجلوس .

(٣) أخرجه بنحوه البخاري (١١٣٣) ، ومسلم (١٣٩٤) .

(٤) أخرجه بنحوه القضاعي (١/ ١٠٧) ، والديلمي (٤/ ١٧٩) ، **والمؤونة** : القوت .

(٥) أخرجه بنحوه مسلم (٣٨٤) .

(٦) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٢٠/ ١٨٠) .

وبإسناده إلىٰ عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « غشيتكم السكرتان : سكرة حب العيش ، وحب الجهل ، فعند ذلك لا تأمرون بالمعروف ولا تنهَون عن المنكر ، والقائمون بالكتاب والسنة كالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار »[1] غريب .

زاد في رواية أخرىٰ : « القائمون بالكتاب والسنة لهم أجر خمسين صدِّيقاً » قالوا : يا رسول الله ؛ منا ، أو منهم ؟ قال : « بل منكم »[2] .

وبإسناده إلىٰ أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا استقر أهل الجنة في الجنة ؛ اشتاق الإخوان إلى الإخوان ، فيسير سرير ذا إلىٰ سرير ذا ، فيلتقيان يتحدثان ما كان بينهما في دار الدنيا ، ويقول : يا أخي ؛ تذكر يوم كذا في دار الدنيا ، كنا في مجلس كذا ، فدعونا الله تعالىٰ فغفر لنا »[3] .

وبإسناده إلىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : (لا يزال الناس بخير ما أتاهم العلم من علمائهم وكبرائهم وذوي أسنانهم ، فإذا أتاهم العلم من صغارهم وسفهائهم ؛ فقد هلكوا) .

وقال عيسى بن حازم : دخل إبراهيم بن أدهم وسفيان الثوري بيت المقدس ، فلما صلوا في المسجد وصاروا في الصحن[4] ؛ انحرف سفيان يريد الصخرة ، فقال إبراهيم : يا أبا عبد الله ؛ ارجع ؛ فإنك قد ابتليت وصرت لنا إماماً ، فيراك الناس تفعل هـٰذا ، فيقتدون بك ويرونه حتماً ، فانصرف سفيان ، وقال : صدقت ، ثم خرجا .

وروىٰ إبراهيم بن أدهم عن بحر السقَّا البصري قال : حدثني بعض الفقهاء قال : الحياء خليل المؤمن ، والحلم وزيره ، والعلم دليله ، والعمل فقهه ، والصبر أمير جنوده ، والرفق والده ، والبر أخوه ، والعقل قيِّمه .

وعن إبراهيم بن أدهم ، عن عمران بن مسلم قال : إن الحكمة لتكون في المنافق

---

(١) أخرجه بنحوه البزار (٧/ ٨٠) .

(٢) أخرج الطبراني في « الأوسط » (٣/ ٢٧٢) عن عتبة بن غزوان رضي الله عنه : (أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن وراءكم أيام الصبر ، المتمسك فيهم يومئذ بمثل ماأنتم عليه . . له كأجر خمسين منكم » ، قالوا : يا نبي الله ؛ أو منهم ؟ قال : « لا ، بل منكم » قالوا : يا نبي الله ؛ أو منهم ؟ قال : « لا ، بل منكم » ثلاث مرات أو أربع) .

(٣) ذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » (١٠/ ٤٢١) وعزاه للبزار .

(٤) **الصحن** : ساحة المسجد .

تتلجلج ، فلا يصبر عليها حتىٰ يلقيها ، فيتلقاها المؤمن ، فينفعه الله تعالىٰ بها .

وقال إبراهيم بن أدهم : كان قتادة يقول : أفضل الناس أعظمهم عن الناس عفواً ، وأسلمهم لهم صدراً .

وقال : قال أبو حاتم المديني : مِن أعظم خصلةٍ للمؤمن . . أن يكون أشدَّ الناس خوفاً علىٰ نفسه ، وأرجاهم لكل مسلم . انتهىٰ [« الحلية » ٨/٣ـ٥٤] .

وقال في « المختار » : وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : أنا منذ عشرين سنة في طلب أخ ، إذا غضب عليَّ ؛ لم يقل إلا الحق ، فلم أجده .

ودخل إبراهيم إلىٰ طرسوس ، ثم قال لصاحبه : خذ هـٰذه الكتيبات ارهنها وجئنا بشيء نأكله ، فخرج صاحبه لِمَا أمره ، فرأىٰ في طريقه خادماً وبين يديه حماران وحبل وبغال عليها صناديق ، والخادم يقول : الذي أنعته صفته كذا وكذا ، ويعرف بإبراهيم بن أدهم ، فقال له صاحب إبراهيم : الرجل الذي تطلبه ما يحب هـٰذه الشهرة ، أنا أدلك عليه ، فقال للغلام : كن معه ، فلما ضرب خيمته ؛ أخذ بيده ، فجاء به إلىٰ إبراهيم ، فلما رآه الخادم في زي الحصادين ؛ بكىٰ بكاء شديداً ، ثم قال : يا مولاي ؛ بعد ملك خراسان صرت في هـٰذه الحال ، فقال له إبراهيم : اسكت ، أيش وراءك ؟ فقال له الخادم : مات الشيخ ، فقال إبراهيم : رحمه الله ، فأيش الذي تريد ؟ قال : أنا غلامك ، ولما مات الشيخ ؛ ركب كل وحش هواه ، وأخذوا من المملكة ما استوىٰ لهم ، وأخذت أنا ما ترىٰ معي ، وأنا عبد لك ، جئت أطلب الثغر أقيم فيه ، فقال لي العلماء : ما يقبل الله منك صرفاً ولا عدلاً حتىٰ ترجع إلىٰ مواليك فيحكموا فيك وفيما معك ، فمُرْني بما أحببت ، فقال له إبراهيم : إن كنت صادقاً فيما تقول ؛ فأنت حر لوجه الله تعالىٰ ، وكل ما معك فهو لك ؛ أي : حيث تنفقه في هـٰذا الوجه ، ثم التفت إلىٰ صاحبه بعد أن قال للخادم قم فاخرج عني : ويحك يا أخي! خذ هـٰذه الكتيبات ارهنها وجئنا بشيء نأكله!!

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : بلغني أنه كان لبني إسرائيل رجل ذبح عجلاً بين يدي أمه ، فأيبس الله تعالىٰ يده ، فبينا هو ذات يوم جالس ؛ إذا هو بفرخ قد سقط من وكره وهو يبصبص[1] إلىٰ أبويه ، وأبواه يبصبصان إليه ، فأخذه ، فرده إلىٰ وكره رحمة له ، فرحمه الله تعالىٰ لرحمته لهم ، ورد عليه يده لما صنع .

---

(١) بَصْبَص : يتحرك باضطراب متملقاً ويريد العودة للعش .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال إبراهيم بن بشار : قال إبراهيم بن أدهم : ما كانت لي مؤونة قط علىٰ أصحابي ولا علىٰ غيرهم إلا في شيء واحد ، فقلت : أي شيء هو يا أبا إسحاق ؟ فقال : ما كنت أحسن أكري نفسي في الحصادين ، فيحتاجون أن يكروني ويأخذون لي الأجرة ، هـٰذه كانت مؤونتي عليهم .

قال : ومضيت معه إلىٰ طرابلس ، ومعي رغيفان ما لنا شيء غيرهما ؛ فإذا سائل يسأل ، فقال لي : ادفع إليه ما معك ، فتوقفت ، ثم دفعت ، فقال لي : إنك تلقىٰ غداً ما لم يلقه أحد ، واعلم : أنك تلقىٰ ما أسلفت ، ولا تلقىٰ ما خلفت ، فمهد لنفسك ؛ فإنك لا تدري متىٰ يفجؤك أمر ربك ، قال : فأبكاني كلامه ، فلما رآني أبكي ؛ قال : هـٰكذا فكن .

وقال شقيق : بينا نحن ذات يوم عند إبراهيم ؛ إذ مر به رجل ، فقال إبراهيم : أليس هـٰذا فلان ؟ فقيل : نعم ، فقال لرجل : أدرِكه ، وقل له : يقول لك إبراهيم : لِمَ لم تسلم ؟ فقال : قل له : إن امرأتي وضعت وليس عندي شيء ، فخرجت شبه المجنون ، قال : فرجعت إلىٰ إبراهيم وأخبرته ، فقال : إنا لله ، كيف غفلنا عن صاحبنا حتىٰ نزل به هـٰذا الأمر ، ثم قال : يا فلان ؛ ائت صاحب البستان ، فاستسلف منه دينارين ، ثم ادخل السوق ، فاشتر له ما يصلحه بدينار ، وادفع إليه الدينار الآخر ، فدخلت السوق ، فأوفرت بدينار كل شيء يحتاج إليه ، وتوجهت إليه ، فدفعت الباب ، فقالت امرأته : مَن هـٰذا ؟ فقلت : أنا أردت فلاناً ، قالت : ليس هو هـٰهنا ، قلت : فمُري بفتح الباب وتنحي ، ففتحت الباب ، فأدخلت ما على البعير ، وألقيته في صحن الدار ، وناولتها الدينار ، فقالت : علىٰ يد مَن جاء هـٰذا ؟ قلت : قولي له : علىٰ يد أخيك إبراهيم بن أدهم ، فقالت : اللهم ؛ لا تنس هـٰذا لإبراهيم بن أدهم .

قال أبو الفرج : وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : أعربنا الكلام فلا نلحن ، ولَحَنَّا في الأعمال فلا نُعرِب .

وقال عبد الله بن الفرج : اطلعت علىٰ إبراهيم بن أدهم بالشام في بستان وهو نائم ، وعند رأسه أفعىٰ في فيها طاقة[1] نرجس تذب عنه .

وقال إبراهيم بن أدهم : وجدت يوماً راحة ، فطاب قلبي لصنع الله عز وجل بي ، فقلت : اللهم ؛ إن كنت أعطيت أحداً من المحبين لك ما تسكن به قلوبهم قبل لقائك ؛

---

(١) **الطاقة** : الشعبة أو الحزمة .

فأعطني ذلك ؛ فقد أضرَّ بي القلق ، قال إبراهيم : فرأيت في المنام كأن الحق جل جلاله أوقفني بين يديه ، وقال : يا إبراهيم ؛ أما استحييت مني أن تسألني أن أعطيك ما يسكن به قلبك قبل لقائي ؟! وهل يسكن قلب المشتاق إلىٰ غير حبيبه ، أم هل يستريح المحب إلىٰ غير من اشتاق إليه ؟! فقلت : يا رب ؛ تهت في الحب ، فلم أدر ما أقول ، قال : قل : اللهم ؛ رضني بقضائك ، وصبرني علىٰ بلائك ، وأوزعني شكر نعمائك .

توفي بالجزيرة ، وحمل إلىٰ صور ودفن هنالك ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/١٠٢ـ١٠٥] .

وقال ابن الأشتر : توفي إبراهيم بن أدهم في إحدىٰ وستين ومئة ، رحمه الله .

ومناقبه ومآثره كثيرة ومشهورة .

وقال القشيري : قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : بت ليلة تحت صخرة بيت المقدس ، فرأيت في الليل كأنه نزل ملكان ، فقال أحدهما لصاحبه : مَن هـٰذا ؟ قال : إبراهيم بن أدهم ، فقال : ذلك الذي حط الله عز وجل درجة من درجاته ، فقال : لِمَ ؟ فقال : لأنه اشترىٰ بالبصرة تمراً ، فوقعت تمرة من تمر البقال علىٰ تمرِهِ ، قال إبراهيم : فمضيت واشتريت تمراً من ذلك البقال ، وطرحت تمرة علىٰ تمره ، واستحللت منه ، ثم رجعت إلىٰ بيت المقدس ، فبت في الصخرة ، فإذا أنا بالملكين قد نزلا ، فقال أحدهما لصاحبه : مَن هـٰهنا ؟ فقال الآخر : هـٰذا إبراهيم بن أدهم ، الذي رد الله عز وجل عليه مكانه ورفع درجته . انتهىٰ [« الرسالة » ٨٩] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : حكي أن إبراهيم بن أدهم رحمه الله أمسىٰ ذات ليلة في مسجد ، فقصد المبيت فيه ، فمنعه قيم المسجد ، وأخرجه منه قهراً ، حتىٰ يقال : إنه أخذ برجله وإبراهيم رحمه الله ساكت صابر ، فلما صار خارج المسجد ؛ قال لنفسه : يا إبراهيم ؛ هـٰذا عقوبة بعض الذي فعلت في الدنيا من المعاصي ، ثم بكىٰ وراح إلىٰ أَتُّونِ الحمام[1] ، وقال : أنت ما تستحق إلا أتون الحمام ، فلما دخله ؛ وجد فيه وقاداً ، وهو يلتفت يمنة ويسرة ، فقال له : سلام عليكم ، فلم يردَّ السلام على الفور ، ثم رد السلام بعد لحظة ، فقال له إبراهيم : لِمَ لم ترد أولاً جواب السلام ثم بعد ذلك رددت ؟ فقال : إني كنت في إجارة عمل لقوم ، فخشيت إن رددت السلام ؛ أن أشتغل بذلك عن

---

(١) **الأتون** : الموقد .

عملهم ، فلا أكون قد وفيتهم حقهم ، فلما فرغت من إجارتهم ؛ رددت السلام ، فقال له : وما لي أراك تلتفت يمنة ويسرة ؟ قال : أنظر ملك الموت عليه الصلاة والسلام من أين يأتي إلي ؟ فقال له : أرىٰ لك حالاً مع الله عز وجل ، فادع لي ، قال : دعني ؛ فإني منذ أربعين سنة أدعو الله عز وجل أن يجمع بيني وبين إبراهيم بن أدهم ، وإلى الآن ما رأيته ، فبكىٰ إبراهيم ، وقال له : ما جاءك إبراهيم إلا مسحوباً . [انتهىٰ] .

وعن إبراهيم قال : كان يقول هـٰذا الكلام في كل جمعة إذا أصبح عشر مرات ، وإذا أمسىٰ ؛ يقول مثل ذلك : مرحباً بيوم المزيد ، والصبح الجديد ، والكاتب والشهيد ، يومنا هـٰذا يوم عيد ، اكتبا لنا ما نقول فيه ، باسم الله الحميد المجيد ، الرفيع الودود ، الفعال في خلقه ما يريد ، أصبحت بالله مؤمناً ، وبلقاء الله مصدقاً ، وبحجته معترفاً ، ومن ذنبي مستغفراً ، ولربوبية الله خاضعاً ، ولسوى الله من الآلهة جاحداً ، وإلى الله تعالىٰ فقيراً ، وعلى الله متوكلاً ، وإلى الله منيباً ، أُشهد الله وملائكته وأنبياءه ورسله وحملة عرشه ومن خلق ومن هو خالقه بأنه هو الله ، لا إلـٰه إلا هو وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وأن الجنة حق ، والنار حق ، والحوض حق ، والشفاعة حق ، ومنكراً ونكيراً حق ، ولقاءك حق ، ووعدك حق ، والساعةَ آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ، علىٰ ذلك أَحْيَا وعليه أموت ، وعليه أبعث إن شاء الله .

اللهم ؛ أنت ربي لا رب لي إلا أنت ، خلقتني وأنا عبدك ، وأنا علىٰ عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك ـ اللهم ـ من شر كل ذي شر .

اللهم ؛ إني ظلمت نفسي ، فاغفر لي ذنوبي ؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، واهدني لأحسن الأخلاق ؛ فإنه لا يهدي لأحسنها إلا أنت ، واصرف عني سيئها ؛ فإنه لا يصرف عني سيئها إلا أنت ، لبيك وسعديك ، والخير كله بيديك ، أنا لك وإليك ، أستغفرك وأتوب إليك ، آمنت ـ اللهم ـ بما أنزلت من كتاب ، وصلى الله علىٰ محمد النبي ، وعلىٰ آله وسلَّم كثيراً ، وخاتم كلامي ومفتاحه ، وعلىٰ أنبيائه ورسله أجمعين ؛ آمين يا رب العالمين .

اللهم ؛ أوردنا حوضه ، واسقنا بكأسه مشرباً روياً سائغاً هنيئاً لا نظمأ بعده أبداً ، واحشرنا في زمرته غير خزايا ، ولا ناكثين ، ولا مرتابين ، ولا مقبوحين ، ولا مفتونين ، ولا مغضوبٍ عليهم ، ولا ضالين .

اللهم ؛ اعصمني من فتن الدنيا ، ووفقني لما تحب من العمل وترضىٰ ، وأصلح لي

شأني كله ، وثبتني بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ولا تضلني وإن كنتُ ظالماً ، سبحانك سبحانك ، يا علي ، يا عظيم ، يا باريء ، يا رحيم ، يا عزيز ، يا جبار .

سبحان من سبحت له السماوات بأكنافها[1] ، وسبحان من سبحت له الجبال بأصواتها ، وسبحان من سبحت له البحار بأمواجها ، وسبحان من سبحت له الحيتان بلغاتها ، وسبحان من سبحت له النجوم في السماء بإبراقها ، وسبحان من سبحت له الشجر بأصولها ونضارتها .

سبحان من سبحت له السماوات السبع والأرضون السبع ، ومن فيهن ، ومن عليهن ، سبحانك سبحانك يا حي يا حليم ، سبحانك لا إلـه إلا أنت وحدك لا شريك لك ، تحيي وتميت ، وأنت حي لا تموت ، بيدك الخير ، وأنت علىٰ كل شيء قدير .

روى ابن أدهم عن جماعة من التابعين وتابعي التابعين مسنِداً مرسِلاً ، ولقي من الكوفيين والبصريين وغيرهم عدةً ، ولم تكن الرواية من شأنه ، فلذلك يقل حديثه [انتهىٰ « الحلية » ٨/٣٨ـ٤١] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) **الأكناف** : الجوانب والنواحي .

ومنهم الإمام :

الليث بن سعد
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال عمرو بن سلمة : تكلم الليث بن سعد في مسألة ، فقال له رجل : يا أبا الحارث ؛ في كتابك غير هـٰذا ، قال : في كتابي ـ أو في كتبنا ـ ما إذا مر بنا ؛ هذبناه بألسنتنا وعقولنا .

وقال حرملة بن يحيىٰ : سمعت الشافعي يقول : الليث بن سعد أَتبعُ للأثر من مالك بن أنس .

وقال أبو صالح : كنا علىٰ باب مالك بن أنس ، فامتنع علينا ، فقلنا : ليس يشبه صاحبنا ، فسمع مالك كلامنا ، فأدخَلَنا عليه ، فقال : مَن صاحبكم ؟ قلنا : الليث بن سعد ، فقال : أتشبهوني برجل كتبنا إليه في قليل عُصفر نصبغ به ثياب صبياننا ، فأنفذ إلينا ما صبغنا به ثيابنا وثياب صبياننا وثياب جيراننا ، وبعنا الفضلة بألف دينار ؟!

وقال قتيبة بن سعيد : قفلنا مع الليث بن سعد من الإسكندرية ، وكان معه ثلاث سفائن ، سفينة فيها مطبخه ، وسفينة فيها عياله ، وسفينة فيها أضيافه .

وقال [سليم بن] منصور بن عمار : سمعت أبي يقول : جاءت امرأة إلى الليث ومعها قدح ، فقالت : يا أبا الحارث ؛ إن زوجي يشتكي ، وقد وُصِف له العسل . فقال : اذهبي إلىٰ وكيلي فلان ، فقولي له يعطيك مطراً من عسل ـ والمطر مئة وعشرون رطلاً ـ فذهبت إليه ، فجاء الوكيل فسارَّهُ بشيء ، فقال له : اذهب فأعطها مطراً ، إنها سألت بقَدْرها ، فأعطيناها بقَدْرنا ، وحق ذلك لي ، إني امرؤ من أهل أصبهان .

وقال منصور بن عمار : كان الليث إذا تكلم بمصر أحدٌ . . نفاه ، فتكلمت في المسجد الجامع يوماً ؛ فإذا رجُلان قد دخلا من باب المسجد ، فوقفا على الحلقة ، ثم قالا : مَن المتكلم ؟ فأشاروا إلي ، فقالا : أجب أبا الحارث الليث ، فقمت وأنا أقول : واسوأتاه أنفىٰ من بلد هـٰكذا ، فلما دخلت على الليث . . قال لي : أنت المتكلم في المسجد ؟ قلت :

نعم ، رحمك الله ، فقال لي : اجلس رد عليَّ الكلام الذي تكلمتَ به ، فأخذت في ذلك المجلس بعينه ، فرقَّ الشيخ وبكىٰ وسُرِّي عني ، وأخذت في صفة الجنة والنار ، فبكى الشيخ حتىٰ رحمته ، ثم قال لي بيده اسكت ، ما اسمك ؟ قلت : منصور بن عمار ، قال : أنت أبو السري ، قلت : نعم ؛ قال : الحمد لله الذي لم يمتني حتىٰ رأيتك ، ثم قال : يا جارية ؛ علي بكيس كذا وكذا ، فجاءت بكيس فيه ألف دينار ، فقال : يا أبا السري ؛ خذ هـٰذا وصن هـٰذا الكلام أن تقف به علىٰ أبواب السلاطين ، ولا تمدحَنَّ أحداً من المخلوقين بعد مدحك لرب العالمين جل جلاله ، ولك علي في كل سنة مثلُها ، قلت : رحمك الله ، إن الله سبحانه وتعالىٰ قد أحسن إلي وأنعم عليَّ ، فقال : لا تردَّنَّ عليَّ شيئاً أصلك به ، فقبضتها وخرجت ، فقال : لا تبطىء عليَّ .

فلما كان في الجمعة الثانية ؛ أتيته ، فقال لي : اذكر شيئاً ، فأخذت في مجلس لي وتكلمت ، فبكى الشيخ وكثر بكاؤه ، فلما أردت أن أقوم ؛ قال لي : انظر ما في ثَنْي الوسادة ؛ فإذا خمس مئة دينار ، فقلت : رحمك الله ، عهدي بصلتك بالأمس ، قال : لا تردن عليَّ شيئاً أصلك به ، متىٰ رأيك في السفر ؟ قلت : الجمعة الداخلة ، قال : كأنك فتَّتَّ عضواً من أعضائي .

فلما كانت الجمعة الداخلة ؛ أتيته مودعاً ، فقال لي : خذ في شيء أذكرك به ، فتكلمت ، فبكى الشيخ وكثر بكاؤه ، وقال لي : يا منصور ؛ انظر ما في ثَنْي الوسادة ، فإذا ثلاث مئة دينار قد أعدها للحج ، ثم قال : يا جارية ؛ هاتي ثياب إحرام منصور ، فجاءت بإزار فيه أربعون ثوباً ، فقلت : رحمك الله ، أنا أكتفي بثوبين ، فقال لي : أنت رجل كريم ، فيصحبك قوم ، فأعطهم ، وقال للجارية التي جاءت بالثياب : وهـٰذه الجارية تحمل معك الثياب ، وهي لك ، ودفع إلي ألف دينار ، ثم قال لي : لا تُعلِم بهـٰذا ابني فتهونَ عليه .

وقال عبد الله بن صالح : صحبت الليث عشرين سنة ، فكان لا يتغدىٰ ولا يتعشىٰ وحده ، وكان لا يأكل اللحم إلا أن يمرض ، وكان دَخْلُ الليث بن سعد في كل سنة ثمانين ألف دينار ، وما أوجب الله تعالىٰ عليه الزكاة قط .

وفي رواية أخرىٰ : يحول عليه الحول وعليه دَين .

وقال الليث : قال لي هارون الرشيد : يا ليث ؛ ما صلاح بلدكم ؟ قلت : يا أمير

المؤمنين ؛ صلاح بلدنا بإجراء النِّيل وصلاح أميرها ، ومِن رأس العين يأتي الكدر ، فإذا صفا رأس العين ؛ صفت السواقي ، فقال : صدقت يا أبا الحارث .

وقال يحيى بن بكير : سمعت أبي يقول : وصل الليث بن سعد ثلاثة أنفس بثلاثة آلاف دينار : أحرقت دار ابن لهيعة فبعث إليه بألف دينار ، ولما حج أهدىٰ إليه مالك بن أنس رطباً علىٰ طبق فرد إليه الطبق وعليه ألف دينار ، ووصل منصور بن عمار بألف دينار ، وقال : لا تُسمِع بهـٰذا ابني ، فتهون عليه ، فبلغ ذلك شعيب بن الليث ، فوصله بألف دينار إلا ديناراً ، وقال : إنما نقصتك هـٰذا الدينار ؛ لئلا أساوي الشيخ في عطيته .

وقال الحسن بن مليح الطرائفي بمصر : أخبرنا لؤلؤ خادم الرشيد قال : جرىٰ بين هارون الرشيد وبين ابنة عمه زبيدة مناظرة وملاحاة في شيء ، فقال هارون في عرض كلامه : أنت طالق ثلاثاً إن لم أكن من أهل الجنة ، ثم ندم ، واغتمَّا جميعاً بهـٰذه اليمين ، ونزلت بهما مصيبة لموضع ابنة عمه منه ، فجمع الفقهاء وسألهم عن هـٰذه اليمين ، فلم يُفْتِهِ أحد بما له فيه مخرج أو مخلص ، قال : فأرسل إلى البلاد تحمل إليه بالفقهاء ، فلما أحضروا بين يديه ؛ سألهم عن اليمين وكيف المخرج منها ، فاختلفت الأجوبة منهم ، وليس فيها ما يشفي الغليل ، وكان الليث بن سعد ساكتاً لا يتكلم ، فقال له الخليفة : ما تقول أنت ؟ فقال : أنشدك بالله الذي لا إلـٰه إلا هو أتخاف مقام الله تعالىٰ ؟ فقال : إي والله ، فقال : قال الله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ فقال هارون الرشيد : بارك الله تعالىٰ فيك ، ثم أمر له بصلة ، فلم يقبل . انتهىٰ [« الحلية » ٧/٣١٩ـ٣٢٤] .

وقال أبو الفرج : ولد الليث سنة ثلاث وتسعين ، واستقل بالفتوىٰ والعلوم[1] بمصر .

وقال الحارث بن مسكين : اشترىٰ قوم من الليث ثمرة ، ثم سألوه الإقالة فيها ، فأقالهم ، ثم أعطاهم خمسين ديناراً ، فقال له ابنه : ما هـٰذا ؟ فقال : اللهم ؛ غفراً ، إن هـٰؤلاء لما اشتروا هـٰذه الثمرة . . أَمِلُوا فيها أملاً ، فأحببت أن أعوضهم عن أملهم بهـٰذه الدنانير .

ودفع الليث رحمه الله إلىٰ بعض أصحابه[2] دفتراً وقال له : اكتب فيه أسماء الملازمين للمسجد الذين لا معلوم لهم ، قال الراوي : فأخذت الدفتر وقلت له : جزاك الله خيراً ، ثم

---

(١) في « الصفوة » : (واستقل بالفتوىٰ والكرم) .

(٢) وهو سعيد الآدم .

خرجت إلىٰ منزلي لأكتب ، فلما كتبت بسم الله الرحمٰن الرحيم ، وأنا أقول في نفسي فلان بن فلان وفلان بن فلان ؛ هجم علي النوم ، فنمت ، فأتاني آت في منامي ، فقال لي : يا سعيد ؛ أتأتي إلىٰ قوم عاملوا الله عز وجل سراً تكشفهم لآدمي ؟ مات الليث ومات ابن الليث ، أليس مرجعهم إلى الله سبحانه وتعالى الذي عاملوه ؟! فاستيقظت ولم أكتب بعد ذلك شيئاً ، ثم أتيته ، فلما رآني ؛ تهلل وجهه فرحاً ، فناولته الدفتر ، ففتحه ، فلم ير فيه غير البسملة ، فقال : ما الخبر يا سعيد ؟ فأخبرته ، فصاح صيحة عظيمة وغُشي عليه ، فلما أفاق ؛ قال : صدقت يا سعيد ، مات الليث ، ومن هو الليث ؟ أليس مرجعهم وإيانا إلى الله سبحانه وتعالىٰ ؟ قال علي بن محمد : وكان سعيد هٰذا يُقال : إنه من الأبدال .

أسند الليث عن خلائق من التابعين ؛ كعطاء ابن أبي رباح ، ونافع ، والزهري ، ويُقال : إنه أدرك نيفاً وخمسين تابعياً .

وروىٰ عن الليث جمع من الأئمة الأعلام ؛ كعبد الله بن المبارك ، وغيره .

وتوفي يوم الجمعة لأربع عشرة ليلة بقيت من شعبان ، سنة خمس وسبعين ومئة . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/٢١٨ـ٢٢١] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمامان :

علي والحسن ابنا صالح بن حي
رضي الله عنهما

قال الحافظ أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال وكيع بن الجراح : كان علي والحسن وأمهما قد جزَّؤوا الليل ثلاثة أجزاء ، فكان علي يقوم الثلث ثم ينام ، ويقوم الحسن الثلث ثم ينام ، وتقوم أمهما الثلث ، فماتت ، فجزَّءا الليل بينهما ، وكانا يقومان حتى الصباح ، ثم مات علي ، فقام الحسن الليلَ كلَّه .

وقال صالح العجلي : كانوا يختمون القرآن في كل ليلة ، أمهما ثلث ، وعلي ثلث ، والحسن ثلث ، فماتت أمهما ، فكانا يختمان به ، ثم مات علي ، فكان الحسن يختم كل ليلة .

وقال يحيى بن آدم : قال لي الحسن بن صالح بن حي : قال لي علي في الليلة التي توفي فيها : يا أخي ؛ اسقني ماء ـ وكنت قائماً أصلي ـ فلما قضيت صلاتي ؛ أتيته بماء ، فقلت : يا أخي ؛ فقال : لبيك ، فقلت : هـٰذا ماء ، فقال : قد شربت الساعة ، فقلت له : مَن سقاك وليس في الغرفة غيري وغيرك ؟ فقال : أتاني مَلَكٌ الساعة بماء فسقاني ، وقال لي : أنت وأبوك وأخوك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وخرجَت روحه .

وقال عبد الرحمـٰن بن مطرف : كان الحسن بن صالح إذا أراد أن يعظ أحداً ؛ كتب له في لوح وناوله إياه .

وقال عبد القدوس بن بكر : كان الحسن وأخوه علي ، وكان علي يفضل عليه ، وكانا وأمهما يتعاونون على العبادة ، بالليل لا ينامون ، وبالنهار لا يفطرون ، فلما ماتت أمهما ؛ تعاونا على العبادة والصيام والقيام عن أمهما ، فلما مات عليٌّ ؛ قام الحسن عن أمه وأخيه .

وكان يُقال للحسن : حية الوادي ؛ يعني : أنه لا ينام بالليل .

وكان يقول : إني لأستحيي من الله عز وجل أن أنام تكلفاً حتىٰ يكون النوم هو الذي يصرعني ، فإذا أنا نمت ثم استيقظت ثم عدت نائماً ؛ فلا أرقَدَ الله عيني .

وكان لا يقبل من أحد شيئاً ، فيجيء إليه ولده المسجد ، فيقول له : أنا جائع ، فيعلله حتىٰ يروح .

وكان يأكل مما تغزله جارية له ، فيباع الغزل ويشترىٰ به من الشعير ومن القطن ، ثم يُخبَز له من الشعير ، فيأكل الأولاد ويؤخَّر له ما يفطر عليه ، فلم يزل علىٰ ذلك حتىٰ مات رحمه الله تعالىٰ .

وقال أبو سليمان الداراني : ما رأيت أحداً الخوف أظهرُ علىٰ وجهه والخشوع من الحسن بن صالح ، قام ليلة حتى الصباح بـ ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ بآية فيها ، ثم غشي عليه ، ثم عاد إليها ، فغشي عليه ولم يختمها حتىٰ طلع الفجر .

وقال عباد : بِعنا جارية للحسن بن صالح ، فقال : أخبروهم أنها تنخمت[1] عندنا مرة دماً .

وقال الحسن : فتشنا عن الورع . . فلم نجده في شيء أقل منه في اللسان .

وأُتي الحسن بسمكة ، فلما وضع يده في سرة السمكة ؛ اضطربت يده ، فأمر برفعها ، ولم يأكل منها شيئاً ، فقيل له في ذلك ، فقال : إني لما وضعت يدي في سرتها ؛ ذكرت أن أول ما ينتن من الإنسان بطنه ، فلم أقدر أن أذوقها .

وقال خلف بن تميم : كان الحسن بن صالح يصلي إلى السحر ، ثم يجلس يبكي في مصلاه ، ويجلس عليٌّ يبكي في حجرته ، وكانت أمهما تبكي الليل والنهار ، قال : فماتت ، ثم مات عليٌّ ، ثم مات الحسن ، فرأيت حسناً في منامي ، فقلت : ما فعل الله عز وجل بالوالدة ؟ قال : بدلت بذلك البكاء سرور الأبد ، قلت : وعلي ؟ قال : وعلي نقل إلىٰ خير ، قلت : فأين تمضي أنت ؟ قال : فولىٰ وهو يقول : وهل نتّكل إلا علىٰ عفوه سبحانه وتعالىٰ ؟!

وقال عبيد الله بن موسىٰ : كان الحسن إذا صعد المنارة ؛ أشرف على المقابر ، فإذا نظر إلى الشمس تحوم على القبور ؛ صرخ حتىٰ يحمل مغشياً عليه ، فيُنزَل به .

---

(١) نَخَم : دفع بشيء من صدره أو أنفه .

قال : ورأيته ذات يوم قد شهد جنازة ، فلما قُرِّب الميت ليدفن ؛ نظر إلى اللحد ، فارفضَّ عرقاً ، ثم صاح ، فغشي عليه ، فحمل على السرير الذي كان عليه الميت إلىٰ منزله .

وقال إسحاق بن منصور : نظر الحسن إلى المقابر وهو قائم يؤذن ، فصرخ وقطع أذانه ، وسقط مغشياً عليه .

قال : وحدثني رجل من جيرانه قال : كنا نسمع صراخه ونحيبه إذا سمع الأذان كما نسمع صراخ أهل المصيبة ، قال : وكثيراً ما كان يغشىٰ عليه وهو في الأذان حتىٰ يؤذِّن عنه غيره .

أسند الحسن وعلي عن جماعة من التابعين ، ولـٰكن حديث الحسن أكثر .

ومات علي سنة أربع وخمسين ومئة ، ومات أخوه الحسن بعده بثلاث عشرة سنة ، رضي الله عنهم أجمعين ونفع بهم . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/ ٢٧٤ـ٢٧٧] .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال إسحاق بن خلف : دخل الحسن بن صالح السوق وأنا معه ، فرأىٰ هـٰذا يخيط وهـٰذا يصبغ ، فبكىٰ ، ثم قال : انظر إليهم يُعَلَّلون حتىٰ يأتيهم الموت .

وكان الحسن بن صالح يقول : ربما أصبحت وليس عندي درهم ، وكأن الدنيا حيزت لي وهي في كفي .

وعن الحسن بن صالح رحمه الله قال : بلغني أنه لما قيل لعيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام : ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أنه تزايلت[1] مفاصله .

وقال الحسن بن صالح رحمه الله : العمل بالحسنة . . قوة في البدن ، ونور في القلب ، وضوء في البصر ، والعمل بالسيئة . . وَهْنٌ في البدن ، وظلمة في القلب ، وعمًىٰ في البصر .

وقال الحسن بن صالح رحمه الله : إنك لا تفقه حتىٰ لا تبالي في يد مَن كانت الدنيا . انتهىٰ [« الحلية » ٧/ ٣٢٩ـ٣٣١] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) تزايلت : تحركت بشدة .

ومنهم الإمام :

أبو علي شقيقٌ البَلْخيُّ
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال علي بن محمد بن شقيق : كان لجدي ثلاث مئة قرية يوم قتل بواشكرد[1] ولم يكن له كفن يكفن فيه ، قدَّمه كله بين يديه ، وثيابه وسيفه إلى الساعة يُتبرك بهما .

وكان قد خرج إلىٰ بلاد الترك لتجارة ـ وهو حدث ـ إلىٰ قوم يقال لهم : الخصوصية ، وهم يعبدون الأصنام ، فدخل إلىٰ بيت أصنامهم ، فوجد كبيرهم وعالمهم قد حلق رأسه ولحيته ، ولبس ثياباً حمراء أرجوانية ، فقال له شقيق : إن هـٰذا الذي أنت فيه باطل ، وللخلق جميعهم إلـٰه واحد سبحانه وتعالىٰ خالق ورازق ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ ، له الدنيا والآخرة وما فيهما ، قادر علىٰ كل شيء ، رازق كل شيء ، فقال له كبيرهم : ليس يوافق قولك فعلك ، فقال له شقيق : وكيف ذاك ؟ قال : لأنك زعمت أن لك خالقاً ورازقاً قادراً علىٰ كل شيء ، وقد تعنَّيتَ إلىٰ هـٰهنا لطلب الرزق ، ولو كان كما تقول ؛ كنت تعلم أن الذي يرزقك هـٰهنا هو الذي يرزقك في بلادك فتربح التعب والعناء ، قال شقيق : فكان سبب تركي للدنيا كلام ذلك التركي . فرجع وتصدق بجميع ما ملك ، وطلب العلم[2] .

قال الأستاذ أبو القاسم القشيري : كان شقيق من مشايخ خراسان ، وله لسان في التوكل ، وكان أستاذ حاتم الأصمِّ .

قال حاتمٌ الأصمُّ : كان شقيق بن إبراهيم موسراً ، وكان يتفتىٰ ويعاشر الفتيان ، وكان علي بن عيسى بن ماهان أمير بَلْخ ، وكان يحب كلاب الصيد ، ففقد كلباً من كلابه ، فسُعيَ

---

(١) اسم موضع في بلاد الترك .
(٢) الحلية (٨/ ٥٩) .

برجلٍ أنه عنده ، وكان الرجل في جوار شقيق ، فطُلب الرجل فهرب[1] ، فدخل دار شقيق مستجيراً ، فمضىٰ شقيق إلى الأمير ، وقال : خلوا عنه ؛ فإن الكلب عندي أرده إليكم إلىٰ ثلاثة أيام ، فخلَّوا سبيله وانصرف شقيق مهتماً لما صنع ، فلما كان اليوم الثالث ؛ كان رجلاً[2] غائباً من بلخ رجع ، فوجد في الطريق كلباً عليه قلادة ، فأخذه ، وقال : أهديه إلىٰ شقيق ؛ فإنه يشتغل بالتفتي ، فحمله إليه ، فنظر شقيق ؛ فإذا هو كلب الأمير ، فسُرَّ به ، وحمله إلى الأمير ، وتخلص من الضمان ، ورزقه الله الانتباه ، وتاب مما كان فيه ، وسلك طريق الزهد .

وقال شقيق : تُعرف تقوى الرجل في ثلاثة أشياء : في أخذه ، ومنعه ، وكلامه . [انتهىٰ « الرسالة » ٢٢ـ٢٣] .

وقال أبو عبد الله : سمعت شقيقاً يقول : كنت شاعراً ، فرزقني الله عز وجل التوبة ، وإني خرجت من ثلاث مئة ألف درهم لله عز وجل ، وكنت مرابياً ، فتاب الله عليَّ ، ثم لبست الصوف عشرين سنة وأنا لا أعلم ، حتىٰ لقيت عبد العزيز ابن أبي روَّاد ، فقال لي : يا شقيق ؛ ليس الشأن في أكل الشعير ولا في لباس الصوف والشعر ، الشأن في أمور :

منها : معرفة الله عز وجل ، وهو أن تعبده لا تشرك به شيئاً .

والثانية : الرضا عن الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ كل حال .

والثالثة : أن تكون بما في يد الله عز وجل أوثق منك بما في أيدي المخلوقين .

قال شقيق : فقلت له : فسِّرْ لي هـٰذا ، قال : أما قولي : تعبد الله تعالىٰ لا تشرك به شيئاً : فأن يكون جميع ما تعمله خالصاً لله عز وجل من صوم ، وصلاة ، وحج ، وغزو ، وعيادة مريض ، وغير ذلك من جميع أعمال البر ، ثم تلا هـٰذه الآية : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾[3] .

وعنه : قال : سبعة أبواب يسلك فيها طريق الزهاد :

ـ الصبر على الجوع بالسرور لا بالفتور ، بالرضا لا بالجزع .

---

(١) كذا في « الرسالة » ، وفي النسخ : (وضُرب) .

(٢) العبارة في « الرسالة » : (كان رجل من أصدقاء شقيق غائباً من بلخ ، رجع إليها فوجد . . .) .

(٣) اقتصر المؤلف رحمه الله علىٰ إيراد شرح واحدة من الثلاثة ، تبعاً للأصل الذي ينقل منه ـ أي : « الحلية » ـ والمعنىٰ ظاهر ، والله أعلم .

ـ والصبر على العري بالفرح لا بالحزن .

ـ والصبر علىٰ طول الصيام بالتفضل[1] لا بالتقشف كأنه طاعم ناعم .

ـ والصبر على الذُّل بطيبة النفس لا بالتكره .

ـ والصبر على البؤس بالرضا لا بالسخط .

ـ وطول الفكرة فيما يودع بطنه من المطعم والمشرب .

ـ و[طول الفكرة فيما] يكسو به ظهره من أين وكيف ولعل وعسىٰ .

فإذا كان في هـٰذه الأبواب السبعة ؛ فقد سلك طريقاً من طريق الزهاد ، وذلك الفضل العظيم .

وقال حاتم الأصم : سمعت شقيقاً يقول : عملت في القرآن عشرين سنة حتىٰ ميزت الدنيا من الآخرة ، فأصبته في حرفين ، وهو قوله تعالىٰ : ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ ، وقوله تعالىٰ : ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ .

وقال شقيق : لو أن رجلاً عاش مئتي سنة لا يعرف هـٰذه الأربعة ؛ لم ينج من النار :

إحداها : معرفة الله سبحانه وتعالىٰ .

والثاني : معرفة نفسه .

والثالث : معرفة أمر الله سبحانه وتعالىٰ ونهيه .

والرابع : معرفة عدو الله عز وجل وعدو نفسه .

وتفسير معرفة الله تعالىٰ : أن تعرف بقلبك أنه لا معطي غيره ، ولا مانع غيره ، ولا ضار غيره ، ولا نافع غيره .

وأما معرفة النفس : فأن تعرف نفسك أنك لا تنفع ولا تضر ولا تستطيع شيئاً .

وأما معرفة أمر الله سبحانه وتعالىٰ ونهيه : فهو أن تعلم أن أمر الله تعالىٰ عليك واجب ، وأن رزقك على الله عز وجل ، وتكون واثقاً بالرزق مخلصاً في العمل ، وعلامة الإخلاص : ألاَّ يكون فيك خصلتان : الطمع والثناء .

ومعرفة عدو الله عز وجل : أن تعلم أن لك عدواً لا يقبل الله تعالىٰ منك شيئاً إلا بمحاربته

---

(١) المثبت من « الحلية » وفي النسخ : (بالتصقل) .

وعداوته ومحاربته بالقلب ؛ بأن تكون مجاهداً متعِباً لعدوك مهما أمكن .

وقال شقيق : من المعرفة بالله تعالىٰ : أن يعلم العبد أن أعماله كلها إنما كانت بإقدار الله عز وجل عليها ، ويتيقن أن الله سبحانه وتعالىٰ مطلع عليه في حركاته وسكناته ، وأن الحجة عليه قائمة لله عز وجل في جميع أفعاله ، وأن يثق بالله تعالىٰ في جميع أموره ، ولا يرجو غيره ، ولا يخاف سواه سبحانه وتعالىٰ ، وأن يرضىٰ بجميع ما يقدره الله له وعليه ، وأن يكون متوكلاً في المال والنفس والناس .

أما في المال : فلا يقول : ما دام هـٰذا المال في يدي ؛ فلا أحتاج إلىٰ أحد ، بل يعلم يقيناً أن الذي رزقه هـٰذا المال يرزقه غيره ، فلا يتعلق قلبه بسواه سبحانه وتعالىٰ .

وأما في النفس : فلا يقول : ما دمت صحيحاً ؛ فإني لا أحتاج ، فقد توكل علىٰ نفسه ، بل يعلم يقيناً أن الذي وهب له الصحة هو الذي يرزقه سبحانه وتعالىٰ .

وأما التوكل على الناس : فهو أن يقول : ما دام فلان حياً ؛ فإني لا أحتاج إلىٰ أحد ، فذلك توكل على الناس ، ومن كان علىٰ هـٰذا ؛ فهو جاهل ، بل تعلم يقيناً أن الله تعالىٰ هو الذي خلقك ، وهو يرزقك ، ولا ينبغي أن تقول بلسانك هو الذي يطعمني ويسقيني ، ويكون في ضميرك غير ذلك ؛ فإنه سبحانه وتعالىٰ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، وإذا علم منك الصدق ؛ كفاك كل الكفاية ، فنسأله سبحانه وتعالى الكفاية عن الناس ، وأن يوفقنا لما يحب ويرضىٰ ، إنه علىٰ كل شيء قدير[1] .

قال في « المناقب » : قال شقيق : العامل لا بد له من هـٰذه الثلاثة :

الأولىٰ : أن يكون خائفاً لما سلف له من الذنوب .

الثانية : أن يكون دائم الخوف لا يدري ما ينزل به ساعة بعد ساعة .

الثالثة : يخاف من العاقبة لا يدري بما يختم له .

والفقير : هو الذي يخشى الغنىٰ ويغتنم الفقر .

والزاهد : هو الذي يقيم زهده بفعله .

والمتزهد : هو الذي يقيم زهده بلسانه .

---

(١) الحلية (٨/ ٥٩ـ٦١) بتصرف .

وإذا كان العبد يريد الراحة ؛ فيأكل مما أصاب ، ويلبس مما وجد ، ويرضىٰ بما قضى الله تعالىٰ عليه .

وقال : جعل الله تعالىٰ أهل طاعته أحياءً في مماتهم ، وأهل المعاصي أمواتاً في حياتهم .

وقال : إنما دخلت الآفة على العامة من الخاصة : من العلماء والزهاد والسلاطين .

أما العلماء : فهم ورثة الأنبياء ، فإذا كان العالم طامعاً وجامعاً ؛ فالجاهل بمن يقتدي ؟!

وأما الزهاد : فهم ملوك الأرض ، فإذا كان الزاهد يرغب فيما في أيدي الناس ؛ فالراغب بمن يقتدي ؟!

وأما السلاطين : فهم الرعاة ، فإذا كان الراعي هو الذئب ؛ فالذئب كل ما يجده يأكله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وقال شقيق : لما دخلت الري ؛ أتاني قاضيها محمد بن مقاتل وقال : أحب أن تجعل طعامك عندي طول مقامك أنت وأصحابك ، فقلت : لا أفعل ؛ لأني أخاف أن تشرف مني علىٰ عيب ، فتبعدني ، ثم أرجع إليك فلا تقبلني ، وأنا عبده سبحانه وتعالىٰ يرزقني ويستر علي عيوبي كلها بلطفه وكرمه سبحانه وتعالىٰ .

وقال حاتم الأصم : سمعت شقيقاً البلخي يقول : ميز بين من تعطيه وبين من يعطيك ؛ إن كان من يعطيك أحب إليك ؛ فأنت محب للدنيا ، وإن كان من تعطيه أحب إليك ؛ فأنت محب للآخرة .

وقال الحافظ أبو الفرج : قال حاتم الأصم : كنا مع شقيق البلخي ونحن مصافُّو الترك ، في يوم لا ترىٰ فيه إلا رؤوساً تَندُر[1] وسيوفاً تقطع ورماحاً تُقَصَّد[2] ، ونحن بين الصفين ، فقال لي : يا حاتم ؛ كيف ترىٰ نفسك في هـٰذا اليوم ؟ أتراه مثله في اليوم الذي زفت إليك امرأتك ؟ قلت : لا ، قال : لـٰكني والله ؛ أرىٰ نفسي في هـٰذا اليوم مثله في الليلة التي زفت إلي امرأتي فيها ، قال : ثم نام بين الصفين ودرقته[3] تحت رأسه حتىٰ سمعت غطيطه .

---

(١) **تندر** : تسقط .

(٢) **تقصَّدت الرماح** : تكسرت .

(٣) **الدرقة** : هي الترس المصنوع من الجلد بلا خشب .

قال حاتم : فقلت : إن قلبه ساكن مع الحق جل جلاله ، خال من الأسباب والأكوان . [انتهىٰ « الصفوة » ٤/١٠٧] .

قال حاتم : ورأيت رجلاً من أصحابنا في ذلك اليوم يبكي ، فقلت : ما لك ؟ قال : قتل أخي ، قال : قلت : لا تجزع ، صار إلى الله عز وجل وإلىٰ رضوانه ، فقال : والله ؛ ما أبكي أسفاً عليه ولا علىٰ قتله ، وإنما أبكي له ؛ فإني ما دريت كيف كان صبره لله عز وجل عند وقوع السيف به ، وأرجو أن يكون من الصابرين إن شاء الله تعالىٰ .

قال حاتم : وأخذني في ذلك اليوم تُركي ، فأضجعني للذبح ، فلم يكن قلبي به مشغولاً ، إنما كان قلبي مشغولاً بالله عز وجل ، أنظر ماذا يأذن الله تعالىٰ له فيَّ ، فبينا هو يطلب السكين من حُقِّه[1] ، وكنت أنا ـ والله ـ قلبي عند خالقي ومالكي سبحانه وتعالىٰ ، أنظر ماذا يأمره فيَّ ، وقلت في نفسي : إلـٰهي وسيدي ومولاي ؛ إن قضيت علي أن يذبحني هـٰذا ؛ فعلى الرأس والعين ، ولك الرضا والغنىٰ حتىٰ ترضىٰ ، إنما أنا عبد من عبيدك ، فبينا أنا أخاطب نفسي وهو قاعد علىٰ صدري آخذ بلحيتي ليذبحني ؛ إذ جاءه سهم عائر[2] فذبحه ، فألقاه عني ، فقمت أنا ، فما هو إلا أن تجعلوا قلوبكم عند الله عز وجل حتىٰ تروا من عجائب لطفه ما لم تروه من الآباء والأمهات .

وقال شقيق : من أراد أن يعرف قَدْر معرفته بالله عز وجل ؛ فلينظر إلىٰ ما وعده الله سبحانه وتعالىٰ وإلىٰ ما وعده الناس ، فإلىٰ أيهما كان قلبه أوثق ؛ فذلك قدر معرفته .

وقال شقيق : ستر خوفَ جهنم على الناس . . خوفُهم من الفقر ، وستر عنهم خوفَ سؤال رب العالمين والتفكر فيه ؛ اشتغالُهم بما يقول الناس فيهم ؛ فإنهم إذا فعلوا شيئاً ؛ نظروا وقالوا : أيش يقول الناس عنا في هـٰذا ؟ ويا ليت الناس لم يعلموا بهـٰذا ، ولم ينظروا فيما يقول بهم رب العالمين جل جلاله ؛ قال تعالىٰ : ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴾ ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . [انتهىٰ « الحلية » ٨/٦٤] .

وقال في « اللوامع » : قال شقيق : قال بعض العارفين : **اعلم** : أن صفاء الحلال لا يُنال إلا بصفاء معرفة أربعة أشياء : معرفة الرب جل جلاله ، ومعرفة النفس ، ومعرفة الموت ، ومعرفة ما بعد الموت من وعد ووعيد ؛ فإن من عرف الله عز وجل ؛ قام بحقه ، ومن عرف

---

(١) **الحُقُّ** : وعاء صغير ذو غطاء يتخذ من عاج أو زجاج أو غيره .

(٢) **السهم العائر** : الذي لا يعرف راميه .

نفسه ؛ قام علىٰ مخالفتها ، ومن عرف الموت ؛ استعد لوروده ، ومن شهد وعد الله سبحانه وتعالىٰ ؛ امتثل أمره ، ومن شهد وعيده ؛ انزجر عن نهيه ، **وقانون الجميع** : الوفاء والأدب والمروءة .

فأما الوفاء : فهو انفراد القلب بفردانيته ، والثبات علىٰ مشاهدة وحدانيته ، والمؤانسة بنور أولويته .

وأما الأدب : فمراعاة الخطوات والخطرات ، وحفظ الأوقات ، والانقطاع عن المخالفات .

وأما المروءة : فالمقام على الذكر بالصفاء قولاً وفعلاً ونية ، مع صيانة النفس عن المحرمات والشبهات ظاهراً وباطناً ، وحفظ الأدب ؛ لمراعاة ما هو آت ، واستدراك ما فات ، قل ذلك أم كثر ، فإذا اجتمعت هـٰذه الخصال ؛ وجد لذة الوصال ، وحذر حرقة البين ، وهيج قلبه نار الاشتياق . انتهىٰ .

وقال السلمي في « الطبقات » : قال شقيق البلخي رحمه الله تعالىٰ : احذر أن تهلكك الدنيا ، ولا تهتم أن يعطي رزقك أحداً سواك ، أو أن ينقص منه شيئاً[1] .

وقال : احذر إذا جاءك الموت أن تسأل الرجعة .

وسئل : بأي شيء يعرف الفقير أنه أصاب من الله عز وجل حفظ الفقر ؟ فقال : إذا خشي الغنىٰ وعدَّه بلاء ، وعد الفقر نعمة وغنيمة .

وقال : طهر قلبك من عروض الدنيا حتىٰ تُدخل فيه الآخرة . انتهىٰ [« الطبقات » ٦٣ـ٦٦] .

وقال الحافظ أبو نعيم : وقال شقيق رحمه الله : إذا أصبحت ؛ فلا يكن همك إلا في طلب رضوان الله سبحانه وتعالىٰ ؛ فإنه تبارك وتعالىٰ إذا علم من عبده ذلك وهو سبحانه وتعالىٰ هو الذي يعطيه ذلك ؛ فيهون عليك رضا الخلق وسخطهم ، ولا يكونن خوفك إلا علىٰ ما قدَّمت من الذنوب ، حتىٰ لا تجترىء أن تزيد عليها ، ولا يكن استعدادك إلا للموت ، فإذا كنت كذلك ؛ لو جُعلت لك الدنيا بحذافيرها ؛ لم ترغب فيها .

وقال شقيق : مَثَل المؤمن كمَثَل رجل غرس نخلة وهو يخاف أن تحمل شوكاً ، ومَثَلُ المنافق كمَثَل رجل زرع شوكاً وهو يطمع أن يحصد رطباً ، هيهات! هيهات! كل من عمل

---

(١) كذا في النسخ ، وفي « الطبقات » : (احذر ألا تهلك بالدنيا ، ولا تهتم ؛ فإن رزقك لا يعطىٰ لأحدٍ سواك) .

حسناً . فإن الله سبحانه وتعالىٰ لا يجزيه إلا حسناً ، ولا ينزل الأبرار منازل الفجار أبداً .

وقال : ينبغي للعبد أن يكون قلبه أبداً مع الله سبحانه وتعالىٰ ، فيقول : يا رب ؛ أعطني الإيمان ، وتوفني عليه ، واحفظه علي ، وعافني من البلاء ، واستر عيوبي ، وارزقني ، واجعل نعمك علي متوالية ، واجعلني لأنعمك من الشاكرين ، ويكون أبداً متفكراً في نعم الله عز وجل عليه ؛ فإن التفكر في نعم الله سبحانه وتعالىٰ شكر ، والغفلة عنها شهوة وشقاوة ، نسأل الله العظيم أن يجعلنا لأنعمه من الشاكرين .

وقال شقيق رحمه الله : مَن دار حول العُلُوِّ في الدنيا ؛ فإنما يدور حول النار في الآخرة ، ومن دار حول الشهوات في الدنيا ؛ فإنما يدور حول درجاته في الآخرة ، حتىٰ لا تبقىٰ له درجة .

وقال : ليس شيء أحب إليَّ من الضيف ؛ لأن رزقه على الله سبحانه وتعالىٰ ، وأجره لي بفضل الله تعالىٰ وكرمه .

وقال : اتق الأغنياء والقرب منهم ؛ فإنك متىٰ ما عقدت قلبك معهم وطمعت فيهم ؛ فقد اتخذتهم رباً من دون الله عز وجل . انتهىٰ [« الحلية » ٨/٦٩ـ٧١] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال حاتم الأصم رحمه الله : قال لي شقيق : اصحَبِ الناس كما تَصحَب النار ، خذ منها منفعتها ، واحذر أن تحرقك .

أسند شقيق البلخي عن عباد بن كثير ، وغيره ، وصحب إبراهيم بن أدهم . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/١٠٧] .

وقال القشيري ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : كان سبب زهد شقيق بن إبراهيم : أنه رأىٰ مملوكاً يلعب ويمزح في زمان قحط ، وكان الناس في شدة مهتمين ، فقال شقيق رحمه الله لذلك الغلام : ما هـٰذا النشاط الذي فيك ؟ أما ترىٰ ما الناس فيه من الحزن والقحط ؟ فقال الغلام : وما علي من ذلك ولمولاي قرية خالصة يدخل إليه منها ما نحتاج إليه ، فلِمَ أهتم أو أحزن ؟ فانتبه عند ذلك شقيق ، وقال لنفسه : إذا كان لمولاه قرية ومولاه مخلوق فقير ، وثق به ولم يهتم لرزقه ؛ فكيف يهتم المسلم لرزقه ومولاه الله تبارك وتعالىٰ خالق الخلائق ورازقهم أجمعين سبحانه وتعالىٰ . انتهىٰ [« الرسالة » ٢٢] .

وقال الغزالي ـ رحمه الله ـ : حكي أنه جاء شقيق البلخي إلىٰ أستاذ له يقال له : أبو هاشم الرماني ، وفي طرف كسائه شيء مصرور ، فقال له أستاذه : أيش هـٰذا معك ؟ فقال له :

هـٰذا شيء أعطانيه أخ لي لأفطر عليه ، فقال له : يا شقيق ؛ وأنت تحدث نفسك أنك تبقىٰ إلى الليل ؟!! لا كلمتك مدة كذا[1] ، ثم أغلق الباب في وجهي ودخل . [انتهىٰ « الإحياء » ٤/٤٥٤] .

وقال في « المناقب » : [قال شقيق] : من خرج من النعمة ووقع في القلة : فإن لم تكن القلة عنده نعمة ؛ فهو في غمين : غم في الدنيا ، وغم في الآخرة ، وإن كانت القلة عنده أعظم من النعمة ؛ فهو في فرحين : فرح في الدنيا ، وفرح في الآخرة ، وهو أعظم .

وقيل له : بأي شيء يُعرف أن العبد واثق بالله تعالىٰ ؟ فقال : إذا فاته شيء من الدنيا ؛ يكون عنده أحب إليه مما لو أتته .

وقال : حفظ الفقير : أن يرىٰ منة الله عز وجل عليه في الفقر .

وقال : بينا أنا نائم حيال الكعبة في المسجد الحرام ؛ إذ رأيت ملكين أتياني ، فوقفا عند رأسي ، فقال أحدهما لصاحبه : كم حج العام ؟ فقال له صاحبه : ثلاثة : فلان وفلان وفلان ، فقال له : شقيق منهم ؟ فقال : لا ، شقيق عليه فضل ثوب ، قال : فلما كان العام الآتي ؛ حججت في عباء ، فبينا أنا راقد في المسجد الحرام رأيتهما في منامي ، فقال أحدهما لصاحبه : كم حج العام ؟ قال : ثلاثة : فلان وفلان وشقيق ، إلا أن الله عز وجل شفعهم في كل من حج .

وقال : العبادة عشرة أجزاء ، تسعة منها في الهرب من الناس ، وواحد في قلة الشيء . [انتهىٰ] .

وقال السلمي : قال شقيق : إذا أردت أن تكون في راحة ؛ فكُلْ ما أصبت ، والبس ما وجدت ، وارض بما قضى الله عز وجل . [انتهىٰ « الطبقات » ٦٦] .

وعنه قال : من عمل بثلاث خصال ؛ أعطاه الله الجنة :

أولها : معرفة الله عز وجل بقلبه ولسانه وسمعه وجميع جوارحه .

والثاني : أن يكون بما في يد الله أوثق بما في يديه .

والثالث : يرضىٰ بما قسم الله له .

قال : وتفسير المعرفة بالله عز وجل : ألاَّ يعمل عملاً سراً ولا علانية إلا وهو مستيقن

---

(١) في « الإحياء » : (لا كلمتك أبداً) .

أن الله عز وجل مطلع عليه ، ولا يحرك من جوارحه شيئاً إلا بإقامة الحجة عند الله ، فذلك حق المعرفة .

وتفسير الثقة بالله : ألاَّ يسمع في طمع ، ولا يتكلم في طمع ، ولا يرجو دون الله سواه ، ولا يخاف دون الله سواه ، ولا يحرك من جوارحه شيئاً دون الله ؛ يعني : في طاعته واجتناب معصيته .

قال : وتفسير الرضا علىٰ أربع خصال[1] :

أولها : أمن من الفقر .

والثاني : حب القلة .

والثالث : خوف الضمان .

قال : وتفسير الضمان : ألاَّ يخاف إذا وقع في يده شيء من أمر الدنيا ؛ أن يقيم حجته بين يدي الله تعالىٰ في أخذه وإعطائه علىٰ أي الوجوه كان .

وعن شقيق قال : ثلاث خصال هن تاج الزاهد :

الأولىٰ : أن يميل على الهوىٰ ولا يميل مع الهوىٰ .

والثانية : ينقطع إلى الزهد بقلبه .

والثالثة : أن يذكر كلما خلا بنفسه كيف مدخله في قبره ، وكيف مخرجه ، ويذكر الجوع ، والعطش ، والعري ، وطول القيامة ، والحساب ، والصراط ، وطول الحساب ، والفضيحة البادية ، فإذا ذكر ذلك ؛ شغله عن ذكر دار الغرور ، فإذا كان كذلك ؛ كان من محبي الزهاد ، ومَن أحبهم كان معهم .

وعنه : قال شقيق : ما من يوم . . إلا ويستخبر إبليس خبر كل آدمي سبع مرات ، فإذا سمع خبر عبد تاب إلى الله عز وجل من ذنوبه ؛ صاح صيحة تجتمع إليه ذريته كلهم من المشرق والمغرب ، فيقولون له : ما لك يا سيدنا ؟ فيقول : قد تاب فلان بن فلان ، فما الحيلة في فساده ؟ ويقول لهم : هل من قرابته أو أصدقائه أو من جيرانه معكم أحد ؟ فيقول بعضهم لبعض : نعم ، وهو من شياطين الإنس ، فيقول لأحدهم : اذهب إلىٰ قرابته ، وقل له : ما أشد ما أخذ فيه ، قال : فإن لإبليس خمسة أبواب ، فيقول له قرابته : إنك أخذت

---

(١) ذكر المؤلف رحمه الله ثلاث خصال وسكت عن الرابعة ، وكذا في « الحلية » .

بالشدة ، فإن أخذ بقوله ؛ رجع وهلك ، ويقول له الآخر من قرابته : هـٰذا الذي أخذت فيه لا يتم ، فإن أخذ بقوله ؛ رجع وهلك ، وإلا ؛ هلك الآخر ، ويقول له الثالث : كما أنت حتىٰ تُفنِي ما في يديك من الحطام ، فإن أخذ بقوله ؛ رجع وهلك ، وإلا ؛ هلك الآخر ، ويقول الرابع : تركت العمل فلا تعمل ، وأنت ليلك ونهارك في راحة لا تعمل ، فيقول له الخامس : جزاك الله خيراً حين تبت وأخذت في عمل الآخرة ، ومن مثلك والحق في يديك ، فإذا أجابهم فقال : إنك أخذت بالشدة ؛ يرد عليه ، ويقول : إني كنت قبل اليوم في شدة ، فأما أنا اليوم . . ففي راحة ، كنت في الشدة حين أردت أن أرضي ربي وأرضي الناس ، فمتىٰ ما أرضيت ربي ؛ أسخطت الناس ، ومتىٰ ما أرضيت الناس ؛ أسخطت ربي ، فأخذت اليوم في رضا ربي الواحد القهار ، وتركت الناس ، فصرت اليوم حراً ، وهوَّنتُ عليَّ أمري حيث أعبد ربي وحده لا شريك له .

فإذا قال : إنك لا تتمه ؛ فقل : إنما الإتمام على الله عز وجل ، وعليَّ أن أدخل في العمل ، وتمامه على الله تعالىٰ .

فإذا قال : كما أنت حتىٰ تفني ما في يديك من الحطام ؛ فقل له : ففيم تخوفني ؟ وقد استيقنت أن كل شيء ليس هو لي ، فإني لا أقدر عليه ، وما كان لي : فلو دخلت في الأرضين السبع ؛ لدخل علي إذ فرَّغت نفسي واشتغلت بعبادة ربي ، ففيم تخوفني ؟

فإذا قال : إنك لا تعمل وصرت بلا عمل ؛ فقل : إني في عمل شديد قد استبان لي عدو في قلبي ، ولن يرضىٰ عني ربي إلا بكسر هـٰذا العدو الذي في قلبي ، فأكون ناصراً عليه في كل ما ألقىٰ في قلبي ، فأي عمل أشد من هـٰذا ؟

فإذا أجبته بهـٰذا ، واستقمت علىٰ طاعة الله ؛ يجيء إليك من قبل العُجب بنفسك ، فيقول : مَن مثلك جزاك الله خيراً وعافاك ، فيريد أن يوقع في قلبك العجب ، فقل له : إذا استبان لك أن الحق هـٰذا والصواب في هـٰذا العمل ؛ فمن يمنعك أن تأخذ فيه قبل أن يأتيك الموت .

فإذا أجبتهم بهـٰذا ؛ تفرقوا عنك ، ولا يكون لهم عليك سبيل ، فيأتون إبليس ، فيخبرونه ، فيقول لهم : إنه قد أصاب الطريق والهدىٰ ؛ فليس لكم عليه سبيل ، ولـٰكن لا يرضىٰ بهـٰذا حتىٰ يدعو الناسَ إلىٰ عبادة الله عز وجل ، فامنعوا الناس عنه ، وقولوا لهم : إنه لا يحسن شيئاً ، فلا تختلفوا إليه .

عن حاتم قال : سمعت شقيقاً يقول : من لم يعرف الله بالقدرة ؛ فإنه لا يعرفه ، فقيل : وكيف يعرفه بالقدرة ؟ قال : يعرف أن الله قادر إذا كان معه شيء . . أن يأخذه منه فيعطيه غيره ، وإذا لم يكن معه شيء . . أن يعطيه .

وعنه : سمعت شقيقاً يقول : المؤمن مشغول بخصلتين ، والمنافق مشغول بخصلتين ، المؤمن : بالعبر والتفكر ، والمنافق : مشغول بالحرص والأمل . [انتهىٰ « الحلية » ٨/ ٦١-٦٨] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو علي الفضيل بن عياض
رضي الله عنه

روى الحافظ ـ رحمه الله ـ : عن إبراهيم بن الأشعث قال : ما رأيت أحداً كان الله عز وجل في صدره أعظمَ من الفضيل ، كان إذا ذكر الله سبحانه وتعالىٰ ، أو ذُكِرَ عنده ، أو سمع القرآن . . ظهر به الخوف والحزن ، وفاضت عيناه ، ولا يزال يبكي حتىٰ يرحمه من بحضرته .

وكان دائم الخوف ، شديد الفكرة ، ما رأيت رجلاً يريد الله عز وجل بعلمه ، وعمله ، وأخذه ، وعطائه ، ومنعه ، وبذله ، وبغضه ، وحبه ، وخصاله كلها . . غير الفضيل بن عياض .

وقال : كنا إذا خرجنا مع الفضيل في جنازة . . فلا يزال يعظ ويذكِّر ويبكي حتىٰ كأنه يودع أصحابه ، وهو ذاهب إلى الآخرة ، حتىٰ يصل إلى المقبرة ، فيجلس حتىٰ كأنه بين الموتىٰ من زمان ، فما نجد فيه من الحزن والكآبة والبكاء حتىٰ يقوم ، فيرجع كأنه رجع من الآخرة يخبر عنها .

قال محمد بن حاتم : قال الفضيل : لو خُيِّرت بين أن أُبعث فأدخل الجنة وبين ألاَّ أُبعث . . لاخترت ألاَّ أُبعث ، فقيل لمحمد بن حاتم : هـٰذا من الحياء ؟ قال : نعم ، هـٰذا من طريق الحياء من الله عز وجل .

وفي رواية أخرىٰ : لو خيرت بين أن أعيش كلباً وأموت كلباً ولا أَرىٰ يوم القيامة . . لاخترت أن أعيش كلباً وأموت كلباً ولا أَرىٰ يوم القيامة .

عن سفيان بن عيينة قال : ما رأيت أحداً أخوف من الفضيل وابنه[1] .

وقال الفيض بن إسحاق : سمعت فضيلاً يقول : والله ؛ لأن أكون هـٰذا التراب ، أو هـٰذا

---

(١) علي بن الفضيل ، ستأتي ترجمته إن شاء الله تعالىٰ .

الحائط . . أحب إلي من أن أكون مثل أفضل أهل الأرض اليوم ، وما يسرني أن أعرف الأمر حق معرفته ، إذ لو عرفت ذلك . . لطاش عقلي ، ولو أن أهل السماء والأرض طلبوا أن يكونوا تراباً فشُفِّعوا وأُعطوا ذلك . . لكانوا قد أُعطوا عظيماً ، ولو أن جميع أهل الأرض من جن وإنس ، والطير الذي في الهواء ، والوحش الذي في البر ، والحيتان التي في البحر علموا الذي يصيرون إليه ، ثم حزنوا لذلك ، وبكوا طول عمرهم . . كانوا موضع ذلك .

ابن آدم ؛ أنت تخاف الموت أو تعرف الموت ؟! لو أخبرتني أنك تخاف الموت . . ما قبلتُ منك ، لو خفتَ الموت . . ما نفعك طعام ولا شراب ولا شيء من الدنيا .

وقد سأل داوود عليه الصلاة والسلام ربه أن يلقي الخوف في قلبه ، ففعل ، فلم يحتمله قلبه وطاش عقله ، حتىٰ ما كان يعقل صلاة ولا ينتفع بشيء ، ثم قيل له : أتحب أن تترك علىٰ ما أنت عليه الآن أو نردك إلىٰ ما كنت عليه ؟ قال : ردوني ، فرُدَّ ، فرجع إلىٰ عقله .

عن أبي جعفر محمد بن عبد الله الحذَّاء يقول : وقفنا للفضيل علىٰ باب المسجد الحرام ونحن شباب علينا الصوف ، فخرج علينا ، فرآنا ، فقال : وددت أني لم أركم ولم تروني ، أتروني سلمت منكم أن أكون مرائياً لكم حين رأيتكم وتراءيتم لي ؟ لأن أحلف عشراً أني مراءٍ وأني مخادعٌ . . أحب إلي من أن أحلِف واحدة أني لست كذلك .

عن علي بن يحيىٰ : سمعت الفضيل بن عياض يقول لأصحاب الحديث : إني لأذكركم بالليل ـ أو جوف الليل ـ فيقع عليَّ التقطير[1] .

عن إسحاق بن إبراهيم الطبري قال : سمعت الفضيل بن عياض يقول : أنت تخاف الموت ؟ لو قلت : إنك تخاف الموت . . ما قبلت منك ، ولو خفت الموت . . ما نفعك طعام ولا شراب ولا شيء من الدنيا ، ولو عرفت الموت حق معرفته . . ما تزوجت ولا طلبت الولد .

وقال الفضيل : ما يسرني أن أعرف هـٰذا الأمر حق معرفته ، إذاً لطاش عقلي ولم أنتفع بشيء .

وقال إسحاق بن إبراهيم : قال رجل للفضيل : كيف أصبحت يا أبا علي ؟ وكان يثقل عليه كيف أصبحت وكيف أمسيت ، فقال : في عافية ، فقال : كيف حالك ؟ فقال : عن أي

---

(١) لعل المراد بالتقطير : قوله في رواية أخرىٰ ستأتي : (وإني لأسمع صوت أصحاب الحديث ، فيأخذني البول فَرَقاً منهم) .

حال تسأل ؛ عن حال الدنيا أو حال الآخرة ؟ إن كنتَ تسأل عن حال الدنيا . . فإنها قد مالت بنا وذهبت بنا كل مذهب ، وإن كنت تسأل عن حال الآخرة . . فكيف ترىٰ حال من كثرت ذنوبه ، وضعف عمله ، وفني عمره ، ولم يتزود لمعاده ، ولم يتأهب للموت ، ولم يتضع للموت ، ولم يتسم للموت ، ولم يتزين للموت ، وتزين للدنيا هيبة ، وقعد يحدث نفسه : واجتمعوا حولك يكتبون عنك الحديث ؟! فقال : بخ بخ! قد تفرغتَ للحديث ، ثم قال : هاه! وتنفس طويلاً ، وقال : ويحك! أَوَأنت تحسن تحدث أو تتكلم ؟! أَوَأنت أهل أن تتحدث أو تتكلم ؟! أَوَأنت أهل أن يُحمَل عنك ؟! استحيي يا أحمق بين الحمقىٰ ، لولا قلة حيائك وصفاقة[1] وجهك . . ما جلستَ تحدث وأنت أنت ، أما تعرف نفسك ؟! أما تذكر ما كنت وكيف كنت ؟! أمَا لو عرفوك . . ما جلسوا إليك ، ولا سمعوا منك شيئاً أبداً .

ثم يأخذ في مثل هـٰذا ويقول : ويحك! أما تذكر الموت ؟! أما للموت في قلبك موضع ؟! أما تدري متىٰ تؤخذ فيرمىٰ بك في القبر وضيقه ووحشته ، وما ينبغي لك أن تتكلم بفمك كله ـ يعني نفسه ـ تدري من يتكلم بفمه كله ؟ عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يطعمهم الطيِّب ويأكل الخبيث ، ويكسوهم الليِّن ويلبس الغليظ الخشن ، وكان يعطيهم حقوقهم ويزيدهم ، أعطىٰ رجلاً أربعة آلاف درهم وزاده ألفاً ، فقيل له : ألا تزيد ابنك كما زدت هـٰذا ؟ فقال : إن أبا هـٰذا ثبت يوم أحد ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحبه أكثر من ابني هـٰذا ، فقدمت حُبَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم علىٰ حُبِّي .

وقال إسحاق بن إبراهيم : ما رأيت أحداً كان أخوف علىٰ نفسه ولا أرجىٰ للناس . . من الفضيل ، كانت قراءته حزينة شهية مرتلة ، كأنه يخاطب إنساناً ، وإذا مر بآية فيها ذكر الجنة . . تردد فيها وسأل ، وكان ينام من أول الليل ساعة ، ثم يقوم ، فإذا غلبه النوم . . نام ساعة أخرىٰ ، ثم يقوم إلى الصباح ، وكان صحيح الحديث ، صدوق اللسان ، شديد الهيبة للحديث إذا حدَّث .

وكان يثقل عليه الحديث جداً ، وربما قال لي : لو أنك طلبت مني الدراهم أو الدنانير . . كان أيسر علي من أن تطلب مني الحديث ، ثم يقول : أمَا والله ؛ لو عملت بما سمعت . . لكان لك في ذلك شغل عما لم تسمع ، ثم قال : إذا كان بين يديك طعام تأكله ، فتأخذ اللقمة وترمي بها خلف ظهرك ، وكلما أخذت لقمة رميت بها خلف ظهرك . . متىٰ تشبع ؟

---

(١) صفاقة : وقاحة .

وقال الفضيل : لا تجعل الرجال أوصياءك ، فإن ضيعوا ما أوصيتهم به . . لمتهم ، وكيف تلومهم إذا ضيعوا وصيتك وأنت قد ضيعتها قبلهم في حياتك ؟! ثم تعلم أنك تصير إلىٰ بيت الوحشة وبيت الظلمة وبيت الدود ، ويكون زائرك منكر ونكير ، وقبرك إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار ، ثم بكىٰ ، وقال : أعاذنا الله وإياكم من النار ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وقال : لم نر أقر عيناً ممن خرج من شدة إلىٰ رخاء ، يقدم علىٰ خيرِ مَقْدَم ، وينزل علىٰ خير منزل ، إذا شاهد ما له من الكرامة . . يقول : لو علمت . . ما سألتك إلا الموت ، ولم يُر يوم القيامة أقرَّ عيناً ممن خرج من الضيق والشدة والجوع والعطش ، ثم نزل على الجنة ، يقال لهم : ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ ، ولم يُر يومئذ أسخن عيناً ممن خرج من الروح والسعة والرخاء والنعمة ، ثم نزل على النار ، ويقال لهم : ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ .

وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله : إذا مات الفضيل . . ارتفع الحزن .

وقال الفضيل رحمه الله : إن قدرت ألاَّ تُعرَف . . فافعل ، وما عليك إن لم يُثنَ عليك ، وما عليك أن تكون مذموماً عند الناس إذا كنت عند الله تبارك وتعالىٰ محموداً .

وقال : مَن أحب أن يُذكَر . . لم يُذكر ، ومن كره أن يُذكر . . ذُكر .

وقال : إذا أحب الله عبداً . . أكثر غمه ، وإذا أبغض الله تعالىٰ عبداً . . وسَّع عليه دنياه .

وقال : ليس من عبد أعطي شيئاً من الدنيا . . إلا كان نقصاناً له من الدرجات في الجنة ، وإن كان على الله سبحانه وتعالىٰ كريماً .

وقال : عاملوا الله عز وجل بالصدق في السر ؛ فإن الرفيع . . من رفعه الله تعالىٰ ، وإذا أحب الله تعالىٰ عبداً . . أسكن محبته في قلوب العباد .

وقال : من خاف الله سبحانه وتعالىٰ . . لم يضرَّه شيء ، ومن خاف غير الله تعالىٰ . . لم ينفعه أحد .

وقيل له : يا أبا علي ؛ كيف الخلاص مما نحن فيه ؟ فقال له : أخبرني ؛ من أطاع الله عز وجل . . هل تضره معصية أحد ؟ قال : لا ، قال : فمن عصى الله تعالىٰ . . هل تنفعه طاعة أحد ؟ قال : لا ، قال : فهو الخلاص إن أردت الخلاص .

وقال : وعزته وجلاله ؛ لو أدخلني النار فصرت فيها . . ما آيسته .

وقال إسحاق بن إبراهيم : وقفت مع الفضيل بعرفات ، فلم أسمع من دعائه شيئاً إلا أنه واضعاً يده اليمنىٰ علىٰ خده ، وواضعاً رأسه يبكي بكاء خفياً ، فلم يزل كذلك حتىٰ أفاض الإمام ، فرفع رأسه إلى السماء ، وقال : واسوأتاه والله منك وإن عفوت (ثلاث مرات) .

وقال : إن رهبة العبد من الله عز وجل علىٰ قدر علمه بالله سبحانه وتعالىٰ ، وإن زهادته في الدنيا علىٰ قدر رغبته في الآخرة .

وقال : لو أن الدنيا بحذافيرها عرضت علي حلالاً لا أحاسب بها في الآخرة . . لكنت أتقذرها كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا مر بها أن تصيب ثوبه . انتهىٰ [« الحلية » ٨/ ٨٤ـ٨٩] .

وقال في « مناقب الأبرار » : قال الفضيل بن عياض رحمه الله : لو كانت الدنيا ذهباً يفنىٰ ، والآخرة خزفاً يبقىٰ . . لاخترنا خزفاً يبقىٰ علىٰ ذهب يفنىٰ ، فكيف إذا كان بالعكس ؟ . انتهىٰ .

وقال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : كان بعضهم إذا مرض . . أغلق بابه ، فلم يدخل عليه أحد حتىٰ يطيب[1] ، فيخرج إليهم ، منهم الفضيل بن عياض ووهيب وبشر رحمهم الله .

وقال الفضيل رحمه الله : إنما تقاطَع الناس بالتكلف ، يزور أحدهم أخاه . . فيتكلف له ، فيقطعه ذلك عنه . [انتهىٰ « الإحياء » ٢/ ١٠ وَ٤/ ٢٩٣] .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال علي بن الحسن : بلغ فضيلاً : أن جريراً يريد أن يأتيه ، فأقفل الباب من خارج ، فجاء جرير ، فرأى الباب مقفلاً ، فرجع ، فلما قيل له[2] . . قال : ما يصنع بي ؟! يظهر لي محاسن كلامه ، وأظهر له محاسن كلامي ، فإذا لم نجتمع . . لا يتزين لي ولا أتزين له .

قال علي : وما رأيت أخوف منه ، ولا أنصح منه للمسلمين ، ولقد رأيته في المنام قائماً علىٰ صندوق وهو يعطي المصاحف ، والناس حوله ، فيهم سفيان بن عيينة وهارون الرشيد .

قال : وما رأيته يودع أحداً فيقدر أن يتم وداعه ، ولقد ودع جريراً فقال له : أوصيك بتقوى الله ، فلما أراد أن يقول : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ خنقته العبرة ،

---

(١) **يطيب** : أي يبرأ من المرض .

(٢) أي : للفضيل .

فترك يده ومضىٰ ، فما زال ينشج من موضعه إلى المسجد .

وعن شعيب بن حرب قال : بينا أنا أطوف بالبيت ؛ إذا برجل يشد ثوبي من خلفي ، فالتفت ؛ فإذا فضيل يقول : لو شَفَع فيَّ وفيك أهل السماء . . ما كنا أهلاً أن يُشْفَع فينا ، قال شعيب : ولم أكن رأيته قبل ذلك بسَنة ، قال : فكسرني ، وتمنيت أني لم أكن رأيته .

وقال : ليست الدنيا دار إقامة ، وإنما أهبط آدم إليها عقوبة ، ألا ترىٰ كيف يزويها عنه ؟! يمررها عليه مرة بالجوع ، ومرة بالعري ، ومرة بالحاجة ؛ كما تصنع الوالدة الشفيقة بولدها ، تسقيه مرة حُضَضاً[1] ، ومرة صَبِراً ، وإنما تريد بذلك ما هو خير له .

وقال الفيض بن إسحاق : قال لي الفضيل : تريد الجنة مع النبيين والصديقين ، وتريد أن تقف الموقف مع نوح وإبراهيم ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، بأي عمل عملته ؟ وبأي شهوة تركتها لله عز وجل ؟ وأي قريب باعدته في الله عز وجل ؟ وأي عدو قربته في الله تعالىٰ ؟!

وقال الفضيل : لا يَسْلم لك قلبك حتىٰ لا تبالي من أكل الدنيا .

وقال : جُعل الخير كله في بيت ، وجُعل مفتاحه الزهد في الدنيا .

وقال الفضيل : قال الله عز وجل : (إذا عصاني من يعرفني . . سلطت عليه من لا يعرفني) .

وقال : لو أن لي دعوةً تستجاب . . ما صيرتها إلا في الإمام العادل ؛ لأني إن صيرتها في نفسي . . لم تتعدَّني ، وإن صيرتها في الإمام . . فصلاح الإمام صلاح البلاد والعباد ، فقام ابن المبارك ، وقبَّل جبهته ، وقال : يا معلم الخير ؛ من يحسن هـٰذا غيرك .

وقال الفضيل : إن كثيراً من علمائكم زيُّه أشبه بزي كسرىٰ وقيصر ، ومَن أعظم خسارة ممن لم يتابع سُنَّةَ سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ؟! إن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يضع لبنة علىٰ لبنة ، ولا قصبة علىٰ قصبة ، ولـٰكن رُفع له عَلَم ، فشمر إليه .

وقال الفضيل : ما من ليلة . . إلا والجليل جل جلاله يقول : (مَن أعظم مني جوداً ، والخلائق لي عاصون ، وأنا لهم مراقب ، وأَكْلَؤُهم في مضاجعهم كأنهم لم يعصوني ، وأتولىٰ حفظهم كأنهم لم يذنبوا فيما بيني وبينهم ، أَجُود على العاصي ، وأتفضل على

---

(١) **الحُضَض** : دواء من عصارة الشجر .

المسيء ، من ذا الذي دعاني فلم أجبه ؟! أو من ذا الذي سألني فلم أعطه ؟! أم من ذا الذي أناخ ببابي فنحيته ؟! أنا الفضل ومني الفضل ، أنا الجواد ومني الجود ، أنا الكريم ومني الكرم ، ومن كرمي أن أغفر للعاصين بعد المعاصي ، ومن كرمي أن أعطي العبد ما سألني ، وأعطيه ما لم يسألني ، ومن كرمي أني أجعل التائب كأنه لم يعصني ، فأين عني تهرب الخلائق ؟! وأين عن بابي يتنحى العاصون ؟!) .

وصنع ابن أخي الفضيل لعمه خبيصاً[1] ، وقدمه إليه ، وقال : يا عمي ؛ كُلْ معي ، قال له : يابن أخي ؛ إن الثكلىٰ لا تجد طعم ما تأكل .

وقال الفضيل : لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتىٰ يَعُدَّ البلاء نعمة ، والرخاء مصيبة ، وحتىٰ لا يبالي مَن أَكَل الدنيا ، وحتىٰ لا يحبَّ أن يُحمَد علىٰ عبادة الله عز وجل .

وكان يقول : حرام علىٰ قلوبكم أن تصيبوا حلاوة الإيمان حتىٰ تزهدوا في الدنيا .

وقال الفضيل : لو قيل لك : يا مرائي . . غضبت وشق عليك ، وأنت تعلم في نفسك أنك مراءٍ ؛ لأن من ريائك أنك تزينت للدنيا وتصنعت لها ، ولٰكن أنت لا تشعر بريائك ، بل تهيأت وتصنعت حتىٰ عرفك الناس ، فقالوا : هٰذا رجل صالح ، فأكرموك ، وقضوا لك الحوائج ، ووسعوا لك في المجلس ، وإنما عرفوك بالله تعالىٰ ، ولولا ذلك . . لهنت عليهم كما هان عليهم الفاسق .

وقال : لو حلفت أني مراءٍ . . كان أحبَّ إلي من أن أحلف أني لست بمراءٍ .

وقال : لو رأيت رجلاً اجتمع الناس حوله . . لقلت : هٰذا مجنون ، ومن ذا الذي إذا اجتمع الناس حوله لا يحب أن يجوِّد لهم كلامه ؟!

وكان كثيراً ما يقول : احفظ لسانك ، وأَقبِل علىٰ شأنك ، واعرف زمانك ، وأَخفِ مكانك .

وقال الحسين بن زياد : دخلت على الفضيل يوماً فقال لي : عساك ترىٰ أن في المسجد الحرام رجلاً شراً مني ومنك ، إن كنت ترىٰ أن فيه شراً مني ومنك . . فقد ابتُليت بعظيم .

وقال الفيض بن إسحاق : سمعت الفضيل يقول : إني لأسمع صوت حلقة الباب ، فأكره ذلك ، قريباً كان أم بعيداً ، لوددت أنه طار في الناس إني قَدْ مِتُّ حتىٰ لا يُسمع لي بذِكر ،

---

(١) **الخبيص** : نوع من الحلوىٰ مصنوع من تمر وسمن .

وإني لأسمع أصحاب الحديث ، فيأخذني البول فَرَقاً منهم .

وكان يقول لأصحاب الحديث : لِمَ تُكرِهوني علىٰ أمر[1] تعلمون أني كاره له ؟! لو كنت عبداً لكم وكرهتكم . . كان ينبغي لكم أن تبيعوني ، ولو أعلم أني إذا دفعت ردائي هـٰذا لكم ذهبتم عني . . لدفعته إليكم .

وكان يقول : ما أرىٰ إخراجك[2] من الحل إلى الحرم إلا ليُضْعف عليك الذنب ، أمَا تستحي كيف تذكر الدينار والدرهم وأنت حول البيت ؟! إنما كان يأتيه التائب والمستجير .

وقال : المؤمن يستر ويعظ وينصح ، والفاجر يهتك ويعيِّر ويُفشي .

وقال : ترك العمل من أجل الناس رياء ، والعمل من أجل الناس شرك ، والإخلاص أن يعافيك الله عز وجل منهما .

وكان يقول : إذا لم تقدر علىٰ قيام الليل وصيام النهار . . فاعلم أنك محروم مكبل ، كبلتك خطيئتك .

وقال الفضيل : حدثني منصور ، عن مجاهد قال : إن المؤمن إذا مات . . بكت عليه الأرض أربعين صباحاً .

وقال : إذا خالطت . . فخالط حَسَنَ الخُلُق ؛ فإنه لا يدعو إلا إلىٰ خير ، وصاحبُه منه في راحة ، ولا تخالط سيء الخلق ؛ فإنه لا يدعو إلا إلىٰ شر ، وصاحبه منه في عناء .

وقال : أنا لا أعتقد أخا الرجل في الرضا ، ولـٰكن أعتقد أخاه في الغضب .

وقال : إذا نظرت إلىٰ رجل من أهل البيت . . كأني نظرت إلىٰ رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال بشر بن الحارث رحمه الله : قال الفضيل : أشتهي إذا مرضت . . لا أُعاد .

وقال الفضيل : إذا ظهرت الغِيبة . . ارتفعت الأخوة في الله سبحانه وتعالىٰ ، ويكون مَثَلُكم في ذلك الزمان . . مَثَلَ شيء مطلي بالذهب والفضة ، داخله خبيث وخارجه حسن .

وقال : درجة الرضا عن الله عز وجل درجة المقربين ، ليس بينهم وبين الله عز وجل إلا روح وريحان .

---

(١) يقصد الرواية للحديث .

(٢) يخاطب نفسه .

وقال : الرضا : هو ألاَّ تحب أن تكون علىٰ غير المنزلة التي أقامك الله عز وجل فيها .

وكان يقول : إذا قيل لك : أتحب الله سبحانه وتعالىٰ ؟ أو تخاف الله عز وجل ؟ فاسكت ؛ فإنك إن قلت : لا . . كفرت ، وإن قلت : نعم وليس وصفك وصف المحبين والخائفين . . فاحذر المقت . انتهىٰ [« الحلية » ٨/ ٩٠ـ٩٧] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : قال الفضيل ـ وقد رأى الناس بعرفات وكثرتَهم وما هم عليه من التضرع ـ : أرأيتم لو أن هـٰؤلاء جاؤوا إلىٰ رجل وسألوه دانقاً أكان يردهم ؟ قالوا : لا ، قال : فلرحمة الله عز وجل لهـٰؤلاء أقل من ذلك الدانق .

وقال الفضيل : نظرُ الرجل إلىٰ وجه أخيه على المودة والرحمة عبادة .

وقال الفضيل في بعض كلامه : هاه ، هاه! تريد أن تسكن الفردوس ، وتجاور الرحمـٰن في داره مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، بأي عمل عملته ؟! بأي شهوة تركتها ؟! بأي غيظٍ كظمته ؟! بأي رحم وصلتها ؟! بأي زلة لأخيك غفرتها ؟! بأي قريب باعدته في الله ؟! بأي بعيد قاربته في الله ؟! .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال الفضيل : قال داوود : المؤمن قليل الكلام كثير العمل ، والمنافق كثير الكلام قليل العمل .

وقال : رجل لا يخالط السلطان ولا يزيد على المكتوبة . . أفضل عندنا ممن قام الليل وصام النهار وحج واعتمر وجاهد في سبيل الله عز وجل وهو يخالطهم .

وكان يقول : أسألك الحياةَ الطيبة ؛ الإسلامَ والسُّنة .

وقال : ما بكت عين عبد قط حتىٰ يضع الرب جل جلاله يده علىٰ قلب عبده ، ولا بكت عين إلا من فضل رحمة الله سبحانه وتعالىٰ .

وقال : حُزن الدنيا للدنيا يُذهب همَّ الآخرة ، وفرح الدنيا للدنيا يذهب حلاوة العبادة .

وقال إسحاق بن عباد : صحبت الفضيل ثلاثين سنة ، فما رأيته ضاحكاً ولا متبسماً إلا يوم مات ابنه علي ، فقلت له في ذلك ، فقال : إن الله عز وجل أحب أمراً ، فأحببت ما أحب الله سبحانه وتعالىٰ .

وقال الفضيل : كل حزن يَبلىٰ إلا حزن التائب .

وقال الفضيل : أخذت بيد سفيان بن عيينة في هـٰذا الوادي[1] ، فقلت له : إن كنت تظن أنه بقي علىٰ وجه الأرض شر مني ومنك . . فبئس ما تظن .

وقال الفيض بن إسحاق : اشتريت داراً وكتبت كتاباً وأشهدت عدولاً ، فبلغ الفضيل ذلك ، فأرسل يدعوني ، فجئته ، فقال : يا أبا يزيد ؛ بلغني أنك اشتريت داراً وكتبت كتاباً وأشهدت عدولاً ، قلت : قد كان ذلك ، قال : فإنه يأتيك من لا ينظر في كتابك ، ولا يسأل عن بينتك حتىٰ يخرجك منها شاخصاً ، ويسلمك إلىٰ قبرك خالصاً ، فانظر ألاَّ تكون اشتريت هـٰذه الدار من غير مالك ، أو ورثت مالاً من غير حله ، فتكون قد خسرت الدنيا والآخرة ، ولو كنت حين اشتريت كتبت علىٰ هـٰذا الوصف : هـٰذا ما اشترىٰ عبد ذليل ميت من ميت قد أزعج بالرحيل ، اشترىٰ منه داراً تعرف بدار الغرور ، حُدَّ منها في زقاق الفناء إلىٰ عسكر الهالكين ، ويجمع هـٰذه الدار حدود أربعة :

الأول : ينتهي منها إلىٰ دواعي العاهات .

والثاني : ينتهي إلىٰ دواعي المصيبات .

والثالث : ينتهي إلىٰ دواعي الآفات .

والرابع : ينتهي إلى الهوى المُردي والشيطان المغوي ، وفيه يُشرَع باب هـٰذه الدار على الخروج من عز الطاعة إلى الدخول في ذل الطلب .

وقال الفضيل رحمه الله : ليكن شغلك في نفسك ، ولا يكن شغلك في غيرك ، فمن كان شغله في غيره . . فقد مُكِر به .

وقال : من أحب صاحب بدعة . . فقد أحبط الله تعالىٰ عمله ، وأخرج نور الإسلام من قلبه .

وقال : لا يرتفع لصاحب بدعة إلى الله عز وجل عمل ، وإذا رأيت مبتدعاً في طريق . . فخُذ في طريق آخر .

وقال : من أعان صاحب بدعة . . فقد أعان علىٰ هدم الإسلام .

وقال : من زوج كريمته من مبتدع . . فقد قطع رحمها .

وقال : النظر إلىٰ صاحب البدعة يورث العمىٰ .

---

(١) أي : عرفات .

وقال : لأن آكل عند اليهودي والنصراني . . أحب إلي من أن آكل عند صاحب بدعة ، إني أحب أن يكون بيني وبين صاحب البدعة حصن من حديد ، وما قل عمل في سُنَّة ، ولا ارتفع عمل في بدعة ، ومن جلس إلىٰ صاحب بدعة . . فاحذره ، وإذا علم الله عز وجل من عبد أنه يُبغِض صاحب بدعة . . رجوت أن يغفر الله له وإن قل عمله .

قال : وأدركت خيار الناس كلَّهم أصحاب سُنَّة ، وهم ينهون عن أصحاب البدعة .

وقال : أحق الناس بالرضا عن الله عز وجل . . أهل المعرفة بالله سبحانه وتعالىٰ .

وقال : مَن مقت نفسه . . أمَّنه الله عز وجل من مقته .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴾ قال : أخلصوا الهَمَّ للآخرة .

وقال : إذا أراد الله عز وجل أن يتحف العبد . . سلط عليه من يظلمه .

وقال الفضيل رحمه الله : ما علىٰ ظهر الأرض أحد أبغضَ إلي من هارون الرشيد ، ولا أحد أحبَّ إلي بقاءً منه ، لو قيل لي : أينقص من عمرك ويزيد في عمره . . لاخترت ذلك ، ولو خيرت بين موته أو موت ابني ـ يعني أبا عبيدة ، قال : وأحبه ؛ لأنه جاءني على الكبر ـ لاخترت موت ابني هـٰذا ، فسبحان الله العظيم الذي جمع هاتين الخصلتين في قلبي ، وما ذاك إلا لما يحدث بعد هارون من البلاء .

وقال الفضل بن الربيع : حج أمير المؤمنين هارون الرشيد رحمه الله ، فأتاني مسرعاً ، فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ لو أرسلت إلي . . أتيتك ، فقال : ويحك! قد حاك في نفسي شيء ، فانظر لي رجلاً أسأله ، فقلت : هـٰهنا سفيان بن عيينة ، فقال : امض بنا إليه ، فأتيناه ، فقرعت الباب ، فقال : مَن ذا ؟ قلت : أجب أمير المؤمنين ، فخرج مسرعاً ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ لو أرسلت إلي . . أتيتك ، فقال له : خذ لما جئناك له رحمك الله ، فحدثه ساعة ، ثم قال له : عليك دَين ؟ قال : نعم ، قال : أبا عباس ؛ اقض دَينه .

فلما خرجنا . . قال لي : ما أغنىٰ عني صاحبك شيئاً ، انظر لي رجلاً أسأله ، فقلت : هـٰهنا عبد الرزاق بن همام ، قال : امض بنا إليه ، فأتيناه ، فقرعت الباب ، فقال : من هـٰذا ؟ قلت : أجب أمير المؤمنين ، فخرج مسرعاً ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ لو أرسلت إلي . . أتيتك ، فقال : خذ لما جئناك له رحمك الله ، فحادثه ساعة ، ثم قال له : عليك دَين ؟ قال : نعم ، قال : أبا عباس ؛ اقض دَينه .

فلما خرجنا . . قال : ما أغنىٰ عني صاحبك شيئاً ، انظر لي رجلاً أسأله ، قلت : هـٰهنا الفضيل بن عياض ، قال : امض بنا إليه ، فأتيناه ؛ فإذا هو قائم يصلي ، يتلو آية من القرآن يرددها ، فقال : اقرع الباب ، فقرعت الباب ، فقال : من هـٰذا ؟ قلت : أجب أمير المؤمنين ، فقال : ما لي ولأمير المؤمنين ؟ فقلت : سبحان الله! أما عليك طاعة ؟ فنزل ، ففتح الباب ، ثم ارتقىٰ إلى الغرفة ، فأطفأ السراج ، ثم التجأ إلىٰ زاوية من زوايا البيت ، فدخلنا ، فجعلنا نجول عليه بأيدينا ، فسبقت كف هارون قبلي إليه ، فقال : يا لها من كف ما ألينها إن نجت غداً من عذاب الله عز وجل!! فقلت في نفسي : ليُكلِّمنَّه الليلة بكلام نقي من قلب تقي ، فقال له : خذ لما جئناك له رحمك الله تعالىٰ ، فقال له : إن عمر بن عبد العزيز رحمه الله لما ولي الخلافة . . دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظي ورجاء بن حيوة ، فقال لهم : إني قد ابتُليت بهـٰذا البلاء ، فأشيروا علي ، فعَدَّ الخلافة بلاء ، وعددتها أنت وأصحابك نعمة .

فقال له سالم بن عبد الله رحمه الله : إن أردت النجاة من عذاب الله سبحانه وتعالىٰ . . فصم عن الدنيا ، وليكن إفطارك منها الموت .

وقال له محمد بن كعب رحمه الله : إن أردت النجاة . . فليكن كبير المسلمين عندك أباً ، وأوسطهم عندك أخاً ، وأصغرهم عندك ولداً ، فوقِّر أباك ، وأكرِم أخاك ، وتحنَّنْ علىٰ ولدك .

وقال له رجاء بن حيوة : إن أردت النجاة . . فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك ، واكره لهم ما تكره لنفسك ، ثم مت إذا شئت .

وإني أقول لك هـٰذا وأنا خائف عليك أشد الخوف يوماً تزل فيه الأقدام ، فهل معك ـ رحمك الله ـ مثل هـٰؤلاء أو ممن يشير عليك بما أشاروا به ؟ فبكىٰ هارون بكاء شديداً حتىٰ غُشي عليه ، فقلت له : ارفق بأمير المؤمنين ، فقال : يابن أم الربيع ؛ تقتله أنت وأصحابك وأرفق به أنا ؟! ثم أفاق هارون ، فقال له : زدني رحمك الله ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ بلغني أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز شُكِيَ إليه منه ، فكتب إليه عمر : يا أخي ؛ اذكر طول سهر أهل النار في النار مع خلود الأبد ، وإياك أن يُنصرَف بك من عند الله عز وجل ، فيكون ذلك آخر العهد وانقطاع الرجاء ، قال : فلما قرأ الكتاب . . طوى البلاد حتىٰ قدم علىٰ عمر ، فقال له عمر : ما أقدمك ؟ قال : خلعت قلبي بكتابك ، لا أعود إلىٰ ولاية أبداً حتىٰ ألقى الله

عز وجل ، قال : فبكىٰ هارون بكاء شديداً ، ثم قال له : زدني رحمك الله ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إن العباس رضي الله عنه عم المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم قال : يا رسول الله ؛ أمِّرني إمارة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة ، فإن استطعت ألاَّ تكون أميراً . . فافعل »[1] ، فبكىٰ هارون بكاء شديداً ، ثم قال له : زدني رحمك الله ، فقال : يا حَسَنَ الوجه ؛ أنت الذي يسألك الله عز وجل عن هـٰذا الخَلْق يوم القيامة ، فإن استطعت أن تقي هـٰذا الوجه من النار . . [فافعل] ، وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لأحد من رعيتك ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من أصبح لهم غاشاً . . لم يَرَحْ رائحة الجنة »[2] ، فبكىٰ هارون الرشيد .

زاد في رواية : قال له : زدني ، قال : هـٰذا كتاب الله تعالىٰ ، انظر ماذا أعد لمن أطاعه ، وماذا أوعد لمن عصاه ، وإني رأيت الناس يُعرَضون على النار عرضاً شديداً ، ويطلبونها طلباً حثيثاً ، أما والله ؛ لو طلبوا الجنة مثلها أو أيسر . . لنالوها ، فبكىٰ هارون ، ثم قال له : هل عليك دَين ؟ قال : نعم ، دَين لربي عز وجل لم يحاسبني عليه ، فالويل لي إن سألني ، والويل لي إن ناقشني ، والويل لي إن لم يلهمني حجتي ، قال : إنما أعْنِي من دَين العِباد ، قال : إن ربي عز وجل لم يأمرني بهـٰذا ، إنما أمرني أن أعبده ، وعليه أن يرزقني ، فقال تبارك وتعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ ، فقال له : هـٰذه ألف دينار ، خذها انتفع بها وتقوَّ بها علىٰ عبادتك ، فقال له : سبحان الله! أنا أدلك علىٰ طريق النجاة ، وأنت تكافئني بمثل هـٰذا ، سلمك الله تعالىٰ ووفقك ، ثم صمت ، فلم يكلمنا ، فخرجنا من عنده ، فلما صرنا على الباب . . قال هارون : يا أبا عباس ؛ إذا دللتني علىٰ رجل . . فدلني علىٰ مثل هـٰذا ، هـٰذا سيد المسلمين اليوم .

فدخلت عليه امرأة من نسائه ، وقالت : يا هـٰذا ؛ أما ترىٰ ما نحن فيه من ضيق الحال ؟! فلو قبلت هـٰذا المال فانفرجنا به ؟ فقال لها : مَثَلي ومَثَلُكم . . كمَثَل قوم كان لهم بعير يأكلون من كسبه ، فلما كبر . . نحروه ، فأكلوا لحمه ، فلما سمع هارون هـٰذا الكلام . . قال : ندخل عسىٰ أن يقبل المال ، فلما علم الفضيل . . صعد السطح ، وجلس علىٰ باب

---

(١) تقدم في ترجمة سيدنا عمر بن عبد العزيز رحمه الله .

(٢) تقدم أيضاً في نفس الترجمة المشار إليها .

الغرفة ، فجاء هارون ، فجلس إلىٰ جنبه ، وجعل يكلمه ، فلا يجيبه ، فبينا نحن علىٰ ذلك . . إذ خرجت جارية سوداء ، فقالت : يا هـٰذا ؛ قد آذيت الشيخ منذ الليلة ، فانصرِف رحمك الله ، قال : فانصرفنا .

وفي رواية أخرىٰ ، قال أبو عبد الله الحسين بن نصر بن خميس الموصلي الشافعي ـ قدس الله روحه ـ في كتابه « المختار من مناقب الأبرار » : قال سفيان بن عيينة : قال لي الرشيد : أريد أن ألقى الفضيل بن عياض ؛ لعل الله تعالىٰ أن يحدث لي عظة أنتفع بها ، فقلت له : والله ؛ إن ذلك لحَبيب إلىٰ قلبي ، ولـٰكنه رجل قد أخذ نفسه لخدمة الله تعالىٰ ، فما لأحد فيه حظ ، وأكره أن تراه منصرفاً في بعض حالاته من عبادة الله تعالىٰ ، فيُتَوهم عليه حقاً ، وإن كنت والله أعرفه الرجل الكريم العشرة الحسن الخلق ، توهم مَن شاهده ـ من لينه ودماثة أخلاقه ـ أنه داخل في حكم العامة ، فقال لي : ما عزمت علىٰ لقائه حتىٰ وطَّنت نفسي على احتمال مشاهدتي أخلاقه ، ثم قال : ويحك يا سفيان! إن شرف التقوىٰ شرف لا يزاحم عليه بإمرة ولا خلافة ، فأديت ذلك إلى الفضيل ، فقال : إنه لحسن العقل ، لولا ما ضُرب به من فتنة هـٰذه العاجلة ، ويسرني أن يلقاني ويسوؤني أيضاً ، فأما ما يسرني من لقائه . . فأرجو أن يكون له فيه بعض رجوع عن غيِّه ، وأما الذي يسوؤني منه . . فلم أر مثله يرفل في سوابغ النعم ، وهو غرقان من السكر ، ثم قطب بين عينيه ، وقال : ما قدَّر الله ، من كان عاصياً لا حاجة لي في لقائه ، فلم أزل أرفق حتىٰ أذِن له ، فرجعت إلى الرشيد وأعلمته .

وكان انتظاره كاختطاف الطائر هبة ، فركب الرشيد ، ولبس مبطنة وطيلساناً ، وغطىٰ رأسه ، ومعه مسرور الخادم وأنا ، فدفعت عليه الباب ، فنزلت ، وفتح ، ودخل الرشيد ودخلت معه ، فسلم على الرشيد قائماً ، فشم منه رائحة المسك ، وقال الفضيل : اللهم ؛ إني أسألك رائحة الخلد التي أعددتها لأوليائك المتقين في جنات النعيم ، ثم تنادت دموعه علىٰ لحيته ، فقلت : يا أبا علي ؛ هـٰذا أمير المؤمنين واقف ليسلم عليك ، فرفع رأسه ، وقال : وإنك هو يا حسن الوجه ؟ فنظرت إلى الرشيد ؛ فإذا هو يبكي ، والفضيل يعظه بموعظة بعد موعظة ، وهارون الرشيد في البكاء ، ثم نهض وقام ، وقال : الله أكبر ، فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ أما إذا افتتح الصلاة . . فليس فيه حيلة ، فانصرفنا ، فقال لي الرشيد وهو خارج : لولا خجلي منك . . لقبَّلت بين عينيه ، فقلت له : والله ؛ لوددت أَن فعلت . أو كما قال . انتهىٰ [« الحلية » ٨/٩٨ـ١٠٨] .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال الفضيل : إني لأستحي من الله عز وجل أن أشبع حتىٰ

أرى العدل قد بُسط ، وأرى الحق قد قام ، ومن علامة البلاء : أن يصاحب الرجل صاحب بدعة .

وقال بشر بن الحارث : قال الفضيل لابنه علي عندما كان يصيبه من الجوع : لعلك ترىٰ أنك في شيء ، الجُعَل[1] أطوع لله عز وجل منك .

ورأى الفضيل رجلاً يضحك فقال له : لا تفرح ؛ إن الله لا يحب الفرحين .

وقال : ما تزيَّن العباد بشيء . . أفضل من الصدق ، واللهُ عز وجل يسأل الصادقين عن صدقهم ، منهم عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام ، فكيف بالكاذبين المفترين ؟ ثم بكىٰ .

وقال : أتدرون في أي يوم يسأل الله عز وجل عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام ؟ يوم يجمع فيه الأولين والآخرين ، آدم فمَن دونَه ، ثم قال : أوه! كم من قبيح تكشفه القيامة غداً ؟!

وقال : إنما جُعلت العلل ليُؤدَّب بها العباد ، ليس كل من مرض مات .

وقال له رجل : إن فلاناً يغتابني ، قال : لقد جلب لك الخير جلْباً .

وقال : أدركت أقواماً يستحيون من الله تعالىٰ في سواد الليل من طول الهجعة ، إنما هو على الجنب ، فإذا تحرك . . قال : قومي خذي حظك من الآخرة ، ليس لكِ أن تنامي .

وقال : قيل لإبراهيم بن أدهم رحمه الله : إنك تطيل الفكرة ، فقال : الفكرة مخ العمل .

وقال الفضيل : قال الحسن : الفكرة مرآة تريك حسناتك وسيئاتك .

وقال الفضيل رحمه الله : أصلح ما أكون أفقر ما أكون ، وإني لأعصي الله عز وجل فأعرف ذلك في خلق حماري وخادمي .

وقال محمد الهباري : اعتل الفضيل بن عياض ، فاحتبس عليه البول ، فقال : بحبي إياك إلا ما أطلقته ، قال : فشفي في الحال

وقال إبراهيم بن الأشعث : سمعت الفضيل رحمه الله يقول في مرضه الذي مات فيه : ارحمني بحبي إياك ، فليس شيء أحب إلي منك .

---

(١) **الجُعَل** : دويبة صغيرة كالخنفساء .

وقال : سمعته وهو يقول : مسني الضر وأنت أرحم الراحمين .

وقال : وسمعته كثيراً ما يقول : ارحمني ؛ فإنك بي عالم ، ولا تعذبني ؛ فإنك عليَّ قادر .

وكان يقول : اللهم ؛ زهدنا في الدنيا ؛ فإنه صلاح قلوبنا وأعمالنا ، وجماع طلباتنا ، ونجاح حاجاتنا .

وقال : أي حسرة على امرىء أكبر من أن يؤتيه الله علماً ، فلم يعمل به ، فسمعه منه غيره فعمل به ، فيرىٰ منفعته يوم القيامة لغيره ؟!

وقال : لا حج ولا جهاد ولا رباط أشد من حبس اللسان .

وقال رحمه الله : مكتوب في التوراة : (ابن آدم ؛ أطعني فيما أمرتك به ، ولا تُعلِمني بما يصلحك) .

وكان الرجل من بني إسرائيل لا يُفتي ولا يحدِّث حتىٰ يتعبد قبل ذلك أربعين[1] سنة .

وقال الفضيل : ما رأيت أحسن من ثكلىٰ مع ثكلىٰ .

وقال : إنما يهابك الخلق علىٰ قدر هيبتك لله عز وجل .

وقال لشخص : أنت لا تُرىٰ خائفاً ، فكيف تُخاف ؟!

وقيل له : يا أبا علي ؛ ما بال الميت تنزع نفسه وهو ساكت ، وابن آدم يضطرب من القرصة ، قال : لأن الملائكة عليهم الصلاة والسلام توثقه ، ثم تلا : ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ قال : معناه : ولا تغفلوا عن أنفسكم ؛ فإن من غفل عن نفسه . . فقد قتلها .

وكان يقرأ ذات ليلة ، فمر بهـٰذه الآية : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴾ ، فجعل يقول : ﴿ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴾ ، ويردد : ﴿ وَنَبْلُوَاْ ﴾ ، ويقول : إن بلوت أخبارنا . . فضحتنا وهتكت أستارنا ، إنك إن بلوت أخبارنا . . هتكتنا وعذبتنا ، ويبكي .

وقال : العلم دواء الدِّين ، والمال داء الدِّين ، فإذا جرَّ العالم الداء إلىٰ نفسه . . كيف يصلح غيره ؟! .

---

(١) في « نسخة » : (سبعين) .

وقال : إذا أتاك رجل يشكو إليك رجلاً . . فقل له : يا أخي ؛ اعف عنه ، فإن العفو أقرب للتقوىٰ ، فإن قال : لا يحتمل قلبي العفو ، ولـٰكن أريد أن أنتصر . . فقل : انتصر كما أمرك الله عز وجل ، فإن كنت تحسن تنتصر مِثْلاً بمِثْل ، وإلا . . فارجع إلىٰ باب العفو ؛ فإنه باب واسع ، فإنه من عفا وأصلح . . فأجره على الله تعالىٰ ، وصاحب العفو ينام بالليل علىٰ فراشه ، وصاحب الانتصار يقلب الأمور .

وقال : صبر قليل ، ونعيم طويل ، وعجلة قليلة ، وندامة طويلة ، رحم الله تعالىٰ عبداً أخمل ذِكره ، وبكىٰ علىٰ خطيئته قبل أن يُرتَهن بعمله .

وقال مليح بن وكيع : سمعتهم يقولون : خرجنا من مكة في طلب الفضيل إلىٰ رأس الجبل ، فقرأنا القرآن ؛ فإذا هو قد خرج علينا من شعب لم نره ، فقال لنا : أخرجتموني من منزلي ومنعتموني الصلاة والطواف ، ففررت منكم إلىٰ هـٰهنا ، فجئتم تقصدوني ، أما إنكم لو أطعتم الله عز وجل ، ثم شئتم أن تزول الجبال معكم . . زالت ، ثم دق الجبل بيده ، فرأينا الجبال ـ أو الجبل ـ قد اهتزت وتحركت .

وسئل : متىٰ يبلغ الرجل غايته من حب الله سبحانه تعالىٰ ؟ فقال : إذا كان عطاؤه ومنعه عنده سواء . . فقد بلغ الغاية من حبه عز وجل .

وقال الفضيل لرجل : كم أتت عليك سنون ؟ قال : ستون سَنة ، قال : فأنت منذ ستين سنة تسير إلىٰ ربك توشك أن تبلغ ، فقال الرجل : يا أبا علي ؛ إنا لله وإنا إليه راجعون ، فقال له الفضيل : تعلم ما تفسيرها ؟ قال : لا ، قال : قولك : (إنا لله) معناه : أنا عبد لله ، وأنا إلى الله عز وجل راجع ، فمن علم أنه عبده وأنه إليه راجع . . فليعلم أنه موقوف ومسؤول ، فليُعِدَّ للسؤال جواباً ، فقال الرجل : فما الحيلة ؟ قال : يسيرة ، تحسن فيما بقي يغفر الله عز وجل لك ما مضىٰ وما بقي ، وإن أسأت فيما بقي . . أُخذت بما مضىٰ وما بقي .

قال بشر بن الحارث : قال الفضيل : قَدِمت شعوانة رحمها الله ، فأتيتها وشكوت إليها وسألتها أن تدعو لي بدعاء ، فقالت شعوانة : يا فضيل ؛ أمَا بينك وبين الله سبحانه وتعالىٰ ما إن دعوته استجاب لك ؟ قال : فشهق الفضيل شهقة خر مغشياً عليه .

وقال الفضيل : ما حليتِ الجنة لأمة من الأمم ما حليت لهـٰذه الأمة ، ثم ما نرىٰ لها عاشقاً .

أسند الفضيل عن أعلام التابعين وعلمائهم .

فمن غريب أحاديثه : بإسناده عن جابر رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا ينام حتىٰ يقرأ : (الم تنزيل الكتاب) ، و(تبارك الذي بيده الملك)[1] .

وبإسناده إلىٰ أبي الدحداح قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يا أيها الناس ؛ من ولي منكم عملاً فحجب بابه عن ذي حاجة المسلمين . . حجبه الله عز وجل أن يلج باب الجنة ، ومن كانت الدنيا أكبر همه . . حرم الله تعالىٰ عليه جِواري ؛ فإني بعثت بخراب الدنيا ، ولم أبعث بعمارتها »[2] غريب من حديث الفضيل والثوري .

وبإسناده إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا توضع النواصي إلا لله عز وجل في حج أو عمرة ، وما سوىٰ ذلك . . فمُثلة »[3] غريب من حديث الفضيل . انتهىٰ [« الحلية » ٨/١٠٨-١٣٩] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : قال منصور بن عمار : تكلمت يوماً في المسجد الحرام ، فذكرت شيئاً من صفة النار ، فرأيت الفضيل صاح حتىٰ غشي عليه وطرح نفسه .

وقال يونس بن محمد : قالَ الفضيل لرجل : ألا أعلمك كلمة هي خير لك من الدنيا وما فيها ؟ فقال : أن تخرج الآدميين من قلبك حتىٰ لا يكون في قلبك مكان لغير الله عز وجل ، فإذا علم الله تعالىٰ منك ذلك وهو الذي يعطيك ذلك . . لا تسأله شيئاً إلا أعطاك .

وقال الفضيل رحمه الله : لأَنْ أطلب الدنيا بطبل ومزمار . . أحب إلي من أن أطلبها بالعبادة .

توفي بمكة سنة سبع وثمانين ومئة . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/١٤٢-١٤٦] .

وقال القشيري : قال الفضيل بن موسىٰ : كان الفضيل بن عياض رحمه الله شاطراً يقطع الطريق ، وكان سبب توبته : أنه عشق جارية ، فبينما هو يرتقي الجدران إليها . . سمع تالياً يتلو : ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ ؟ فقال : يا رب ؛ قد آن ، قد آن ، فرجع ، فآواه الليل إلىٰ خربة ، فوجد فيها قافلة ، وبعضهم يقول : نرحل ، وبعضهم يقول : لا ، حتىٰ نصبح ؛ فإن فضيلاً على الطريق يقطع علينا ، فتاب الفضيل ، وجاء

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٤٠) ، والحاكم (٢/ ٤٤٦) .

(٢) أخرجه بنحوه الطبراني في « الكبير » (٢٢/ ٣٠١) .

(٣) ذكره بنحوه الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٣/ ٢٦١) .

إليهم ، وأمَّنهم ، ثم راح إلىٰ مكة وجاور بها إلىٰ أن مات رحمه الله تعالىٰ . انتهىٰ [« الرسالة » ١٥] .

وقال في « المناقب » : قال الفضيل بن عياض : من أظهر لأخيه الود والصفاء بلسانه وأضمر له البغض والعداوة بقلبه . . لعنه الله ، وأصمه ، وأعمىٰ بصر قلبه .

وقال لبعض إخوانه : ليتني أموت وأنا مُخَلِّطٌ ، وأخاف أني أموت وأنا مراءٍ يُدعىٰ بي علىٰ رؤوس الخلائق : يا فضيل ؛ خذ ثواب عملك ممن عملت له ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، وعسىٰ من الله واجب .

وقال : إن الله يحب العالم المتواضع ، ويبغض العالم الجبار ، ومن تواضع لله عز وجل . . أورثه الله الحكمة .

وقال : من استحوذت عليه الشهوات . . انقطعت عنه مواد التوفيق .

وقال : كفىٰ بالله محباً ، وبالقرآن مؤنساً ، وبالموت واعظاً ، اتخِذِ اللهَ صاحباً ، ودعِ الناس جانباً ، إنما أمسِ مَثَلٌ ، واليوم عمل ، وغداً أمل .

وسأله رجل فقال له : يا أبا علي ؛ ادع لي ، فقال : متعك الله بقربه ، ونعَّمك بحبه ، وجعلك في ستره ، ولا شغلك بغيره .

وقال : إذا أحب الله عبداً . . أكثر غمه في الدنيا ، وإذا أبغض عبداً . . وسع عليه في دنياه ، وقال : إنما أرزاق المتقين من حيث لا يَحسبون . أو كما قال . انتهىٰ .

وقال في « بهجة الأسرار » : قال الفضيل بن عياض : أتىٰ عليَّ وقت لم أطعم فيه ثلاثة أيام شيئاً ، فبينا أنا قاعد في المسجد ؛ إذا بمجنون قد أقبل وفي عنقه غل ، وبيده حجر ، فجعل يلايمني حتىٰ خشيت علىٰ نفسي منه ، فأنشأ يقول :

محـلُّ بيـان الصبـر منـك غـريـزةٌ ... فيا ليت شعري هل لصبرك من أجر

قال الفضيل : فغيب عني جنونَه ما سمعت من كلامه ، وقلت له : يا فتىٰ ؛ لولا الرجاء . . لم أصبر ، فقال : وأين موضع الرجاء منك ؟ فقلت : بموضع مستقَر هموم العارفين ، فقال : أحسنت والله ، إنما هي قلوبٌ . . الهمومُ عمرانُها والأحزانُ أوطانُها ، عرفته فاستأنست به ، وأحببته فارتحلت إليه ، قال : فسمعت من كلامه ما قطعني عنْ جوابه ، فقلت له : رحمك الله ، عظني وأوجز ، فقال لي : يا فضيل ؛ مثلك يقول هـٰذا ؟!

أما علمت أن لله عز وجل عباداً قطعهم الجزع عن كلف الألسن ، فكَلَّت ألسنتهم من غير عِيٍّ عن محاسن الوصف لخوف العقاب ، واغتبطوا عند الله عز وجل ، وإن حاجة أحدهم لتتردد في صدره ، ولا يأذن لنفسه في إطلاقها ؛ خوفاً من شر نفسه ، فأصبحوا ـ مع حسن هـٰذه الصفة ـ في الدنيا محزونين مغمومين ، عقول صحيحة ، ويقين ثابت ، وألسنٌ ذاكرة ، وأرواح في الملكوت سارحة ، ثم ولىٰ ، وهو يقول :

أَحسنتَ ظنك بالأيام إذ حَسُنت ... ولم تَخَف سوءَ ما يأتي به القدَرُ
وسالمتك الليالي فاغتررتَ بها ... وعند صفو الليالي يحدث الكدرُ

وقال في « لوامع أنوار القلوب » : روي عن الفضيل بن عياض قال : كنت في بعض أسفاري ومعي جماعة ، فمُطرنا أياماً ، فآوينا إلىٰ غار من المطر ، فأظهر بعض من كان معي ضجراً بالحال ، وإذا بصوت من داخل الغار يقول : استحِ يا بطال ، واجمع قلبك بالرضا ، ولا تقسمه على الاعتراضات ؛ فإنها فضول ، وهو فعال لما يريد سبحانه وتعالىٰ ، فتأملته ؛ فإذا هو شيخ عليه خلع الرضا والقبول ، فاستحييت وتأدبت ، وانصرفت .

وقال الفضيل : حقيقة المحبة . . إيثار المحبوب على الكونين في القرب والبعد ، ولهـٰذا سئل بعضهم عن معنى التقوىٰ فقال : هو إيثار الحق في جميع الأحوال ، فتراعي الحق علىٰ جلاله في غير القبلة كما تراعيه في حال الخدمة في القبلة ؛ فإنه سبحانه وتعالىٰ بالمرصاد في القرب والبعد ، ولهـٰذا قال أبو عبد الله المغربي : من ادعى العبودية وله مراد باق . . فقد كذب في دعواه ، وإنما تصح العبودية لمن أفنىٰ مراداته وهواه ، وقام بمراد مالكه وسيده ومولاه ـ أعني : أوامره ونواهيه جل جلاله ـ سواء أبعده أو أدناه ، أو طرده أو آواه .

وقال الفضيل : من شرط المحبة . . إخفاء المحبة والمحبوب في ابتدائها ، ثم اشتهار المحبة والمحبوب في انتهائها[1] ، ألا ترىٰ إلىٰ زليخا ؟ قالت في الابتداء : ﴿ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ، فلما تناهت المحبة . . كشفت قناع أستارها ، فنادت علىٰ نفسها بنفسها ، قالت : ﴿ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ .

وقال أيضاً : المحبة : الرضا على الأحوال جميعها ، وألاَّ يبقىٰ للمحب مراد ولا تصرف .

---

(١) في النسخ : (أثنائها) .

قال القاضي أبو المعالي مؤلف كتاب « لوامع أنوار القلوب » : ويدلك علىٰ هـٰذا ما قال الشبلي رحمه الله : آفة الخلق في شيئين : الخروج من حد العبودية ، وعدم معرفة كمال الربوبية ، وإن حد العبودية . . ضرورة البشرية ، ومعرفة كمال الربوبية . . نفاذ المشيئة .

وقال الفضيل أيضاً : المحبة : الاستئناس بالمحبوب والاستيحاش ممن سواه ؛ يعني : الاستئناس بذِكره والاستيحاش من ذِكر غيره .

وقال : قال العارفون : الأنس بالمحبوب : هو انبساط المحب إلى المحبوب برفع الحشمة ، ووجود الهيبة ، ورعاية الحرمة علىٰ بساط المحبة ، ألا ترىٰ أن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام لما قال علىٰ بساط الأنس : ﴿ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ . . وقع في سره : يا خليلي ؛ هـٰذا ترك للخدمة ، ثم نزل قوله تعالىٰ في الظاهر : ﴿ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ .

ولما قال موسىٰ عليه الصلاة والسلام علىٰ بساط الأنس : ﴿ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ . . وقع في سره : يا كليمي ؛ هـٰذا ترك للحرمة ، ثم نزل قوله تعالىٰ في الظاهر : ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾ .

ولما قال عيسىٰ عليه الصلاة والسلام علىٰ لسان قومه : ﴿ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ . . وقع في سره : يا عيسىٰ ؛ هـٰذا ترك للمحبة ، ثم نزل في حق قومه في الظاهر : ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ .

ولما وقف الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم علىٰ بساط الأنس . . حفظ الحرمة ، فكان كما قال تعالىٰ : ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ ، فنودي في الباطن : ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ ، وجازاه بأن ناداه في الظاهر : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ ، ﴿ مَن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ فإن قال . . فعن حبيبه سبحانه وتعالىٰ ، وإن أمر . . فعن حبيبه يأمر ، وإن نهىٰ . . فعن حبيبه ينهىٰ ، فطاعته طاعة حبيبه ، ومحبته محبة حبيبه بلا أين ولا كيف ، ولا ثَمَّ ولا حيث . [انتهىٰ] .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : وما أحسن ما قال الشيخ زكي الدين عبد العظيم بن عبد الواحد ابن أبي ظافر[1] ابن عبد الله ابن أبي الأصبع رحمه الله تعالىٰ :

لقد منَّ الإلٰه علىٰ البرايا ... بِبَعْث محمدٍ رَبِّ الشفاعهْ

---

(١) في نسخة : (بن غافر) .

وإنـــا عـــاجـــزون وإن بـــذلنـــا ... لـه فـي الأمـر جهـد الاستطـاعـه
فـــأرســـلَ أحمـــداً فينـــا رســـولاً ... وأَلْهَمَنـا ـ لـه الحمـدُ ـ اتبـاعـه
وقـــال لنـــا أطيعـــوه جميعـــاً ... فطـاعـة أحمـدٍ لـي أيُّ طـاعـه
ألـــم تسمـــع كتـــاب الله يتـــلا ... ومـن يطـع الـرسـول فقـد أطـاعـه

وإنما قال في حق الخليل عليه الصلاة والسلام : هـٰذا تَرْكٌ للخدمة ؛ لأن من شرط الخليل ألاَّ يشتغل عن خدمة خليله بشيء ، فنظره إلىٰ كيفية إحياء الموتى اشتغال عن الخدمة .

وقال في سؤال موسىٰ عليه الصلاة والسلام : هـٰذا تَرْكٌ للحرمة ، ومعناه ظاهر .

وفي عيسىٰ عليه الصلاة والسلام : تَرْكٌ للمحبة ؛ لأن العمل إذا كان بعوض . . كان تركاً للمحبة ، والله أعلم . انتهىٰ .

وكان الفضيل يقول : مشىٰ عيسىٰ عليه الصلاة والسلام على الماء ، فقيل له : يا رُوح الله ؛ إنك تمشي على الماء ؟ فقال : نعم ، باليقين بالله تعالىٰ ، قالوا : فنحن أيضاً موقنون ، قال : فامشوا ، فمشوا ، فغرقوا وطلبوا الساحل ، فقال : ما لكم ؟ قالوا : خفنا الموت ، قال : فما معكم اليقين ، لو كنتم في طريق فرأيتم الدُّرَّ والحجر . . أيما كنتم تأخذون ؟ قالوا : الدُّرَّ ، فقال : لا ، حتىٰ تكون الحجارة والدُّرُّ عندكم سواء ، فعند هـٰذا يحصل لكم اليقين . انتهىٰ .

وقال في « بهجة الأسرار » : قال الفضيل لرجل رآه مغموماً : يا أخي ؛ أتخشىٰ أن يكون لك رزق لا تستوفيه ؟ قال : لا ، قال أفتخشىٰ أن يكون غير ما شاء الله ؟ قال : لا ، قال : فلأي شيء غَمُّك ؟!

وقال الفضيل : قال ابني عليٌّ : علمت أن الدنيا ستفارقني اضطراراً ، ففارقتها اختياراً . انتهىٰ .

وقال السلمي رحمة الله عليه : قال الفضيل : أحق الناس بالرضا عن الله عز وجل . . أهل المعرفة بالله تعالىٰ .

وقال : إن مِن شكر النعمة أن تحدِّثَ بها .

وقال : إن الله عز وجل جعل أرزاق المتقين من حيث لا يحتسبون .

وقال : من أقام نفسه في موقف ذل في طلب الحلال . . حشره الله تعالىٰ مع الصديقين ، ورفعه إلى الشهداء يوم القيامة . انتهىٰ [« الطبقات » ١٠ـ١٤] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

وُهَيْب بن الورد المكي

رضي الله عنه

قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : عن وهيب بن الورد قال : بينا أنا واقف في بطن الوادي ؛ إذ أنا برجل قد أخذ بمنكبي ، فقال : يا وهيب ؛ خَفِ الله تعالىٰ لقدرته عليك ، واستحيي منه لقربه منك ، قال : فالتفتُّ ، فما رأيت أحداً .

وعن بشر بن الحارث رحمه الله قال : أربعة رفعهم الله تعالىٰ بطيب المطعم : وهيب بن الورد ، وإبراهيم بن أدهم ، ويوسف بن أسباط ، وسالم الخواص .

وكان سفيان الثوري رحمه الله إذا حدث الناس في المسجد الحرام وفرغ من الحديث . . قال : قوموا بنا إلى الطبيب ؛ يعني : وهيباً .

وقال وهيب رحمه الله : الزهد في الدنيا : ألاَّ تأسى علىٰ ما فاتك منها ، ولا تفرح بما أتاك منها .

وقال وهيب : لو أن علماءنا ـ عفا الله عنا وعنهم ـ نصحوا لله عز وجل في عباده ، فقالوا : يا عباد الله ؛ اسمعوا ما نخبركم به عن نبيكم سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم وصالح سلفكم من الزهد في الدنيا ، فاعملوا به ، ولا تنظروا إلىٰ أعمالنا هـٰذه الفشلة . . كانوا قد نصحوا لله تعالىٰ في عباده ، ولـٰكنهم يأبون إلا أن يجرُّوا عباد الله تعالىٰ إلىٰ فتنتهم وما هم فيه .

وعن محمد بن يزيد رحمه الله قال : حلف وهيب ألاَّ يراه الله تعالىٰ ولا أحد من خلقه ضاحكاً حتىٰ تأتيه الرسل من قِبَل الله عز وجل عند الموت ، فيخبرونه بمنزلته عند الله تعالىٰ .

قالوا : وكانوا يرون له الرؤيا أنه من أهل الجنة ، فإذا أخبر بها . . اشتد بكاؤه ، وقال : قد خشيت أن يكون هـٰذا من الشيطان .

زاد في رواية : فلما حضرته الوفاة . . سمعوه يقول : عز علي يا صادق الوعد ، ويا وفي العهد ؛ وفيتَ لي وما وفيتُ لك .

وقال وهيب : عجباً للعالم كيف تجيبه دواعي قلبه إلى ارتياح الضحك واللعب ، وقد علم أن له في القيامة روعات ووقفات وفزعات ، ثم غشي عليه .

وقال وهيب رحمه الله : قال حكيم من الحكماء : العبادة عشرة أجزاء ، تسعة منها في الصمت ، وواحدة في العزلة ، فأردت نفسي على الصمت ، فلم أقدر عليه ، فصرت إلى العزلة ، فحصلت لي التسعة .

وعن زهير بن عباد رحمه الله قال : كان الفضيل بن عياض ووهيب بن الورد وعبد الله بن المبارك رحمهم الله جلوساً ، فذكروا الرطب ، فقال وهيب : أوَ قد جاء الرطب ؟ فقال ابن المبارك : يرحمك الله ، هـٰذا آخره ، أوَلمْ تأكله ؟ قال : لا ، قال : ولِمَ ؟ قال وهيب : بلغني أن عامة جني مكة من الصوافي[1] والقطائع[2] ، فكرهتها ، فقال ابن المبارك : يرحمك الله ، أوَ ليس قد رخص في الشراء من السوق إذا لم يعرف الصوافي والقطائع منه ؟ وإلا ضاق على الناس خبزهم ، أوَ ليس عامة ما يأتي من قمح مصر إنما هو من الصوافي والقطائع ، ولا أحسبك تستغني عن القمح ؟ فسهِّل عليك ، قال : فصعق وهيب ، فقال الفضيل لابن المبارك : ما صنعت بالرجل ؟ فقال ابن المبارك : ما علمت أن هـٰذا الخوف كله قد أعطيه ، فلما أفاق وهيب . . قال : يابن المبارك ؛ دعني من ترخيصك ، لا جرم أني لا آكل من القمح إلا كما يأكل المضطر من الميتة ، فزعموا أنه نحل جسمه حتىٰ مات هزالاً ، رحمه الله تعالىٰ .

وقال وهيب : لما عاتب الله سبحانه وتعالىٰ نوحاً عليه الصلاة والسلام بقوله تعالىٰ : ﴿ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ . . بكىٰ ثلاث مئة عام ، حتىٰ صار تحت عينيه مثل الجدول من البكاء .

وقال وهيب رحمه الله : بلغني أنه في التوراة ـ أو في بعض الكتب ـ : ابن آدم ؛ اذكرني

---

(١) **الصوافي** : الأملاك والأراضي التي جلا عنها أهلها ، أو ماتوا ولا وارث لها ، ويقال للضيع التي يستخلصها السلطان لخاصته : الصوافي .

(٢) **القطائع** : الأراضي التي يعطيها لبعض خاصته لينتفع بها .

إذا غضبتَ . . أذكرك إذا غضبتُ ؛ فلا أمحقك فيما أمحق ، وإذا ظُلمتَ . . فارض بنصرتي لك ؛ فإن نصرتي لك خير من نصرتك لنفسك .

وقيل لوهيب : أيجد طعم العبادة من يعصي الله تعالىٰ ؟ قال : لا ، ولا مَن هَمَّ بالمعصية .

وقال وهيب رحمه الله : بنىٰ نوح عليه الصلاة والسلام بيتاً من قصب ، فقيل له : لو بنيت غير هـٰذا ؟ فقال : هـٰذا كثير علىٰ من يموت .

وعن وهيب رحمه الله تعالىٰ قال : بلغني أن موسىٰ عليه الصلاة والسلام قال : يا رب ؛ أخبرني عن آية رضاك عن عبدك ، فأوحى الله تعالىٰ إليه : يا موسىٰ ؛ إذا رأيتني أهيىء له طاعتي وأصرفه عن معصيتي . . فذلك آية رضاي عنه .

وعن محمد بن يزيد قال : سمعت وهيباً يقول : ضُرب لعلماء السوء مَثَلٌ فقيل : إنما مَثَلُ عالم سوء . . كمَثَل الحجر في الساقية ، لا هو يشرب الماء ، ولا هو يخلي الماء يصل إلى الشجر فيحيا به .

وقال وهيب : بينا أنا نائم خلف المقام ؛ إذ رأيت فيما يرى النائم كأن داخلاً دخل من باب بني شيبة ، وهو يقول : يا أيها الناس ؛ وُلِّيَ عليكم كتاب الله تعالىٰ ، فقلت : مَن ؟ فأشار إلىٰ ظفره ؛ فإذا مكتوب (ع م ر) فجاءت بيعة عمر بن عبد العزيز رحمه الله .

وقال وهيب : خالطت الناس خمسين سنة ، فما وجدت رجلاً غفر لي ذنباً فيما بيني وبينه ، ولا وصلني إذا قطعته ، ولا ستر عليَّ عورة ، ولا ائتمنته إذا غضب ، فالاشتغال بهـٰؤلاء حمق كبير .

وقال وهيب : يقول الله تعالىٰ : (وعزتي وجلالي ؛ ما من عبد آثر رضاي علىٰ هواه . . إلا أقللت همومه ، ونزعت الفقر من قلبه ، وما من عبد آثر هواه علىٰ رضاي . . إلا أكثرت همومه ، ونزعت الغنىٰ من قلبه ، وجعلت الفقر بين عينيه ، ثم لا أبالي في أي واد من أوديتها هلك) .

ودخل وهيب علىٰ محمد بن المنكدر بذي طوىً يعوده ، قال : فمسح يده عليه وقال : بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، فشفي ، وقال : لو قرأها صادق علىٰ جبل . . لزال .

وقال وهيب : كان يحيى بن زكريا في وجهه خطان من البكاء ، فقال له أبوه : يا بني ؛ إني سألت الله عز وجل ولداً تقر به عيني ، فقال : يا أبت ؛ إن جبريل عليه الصلاة والسلام

أخبرني : أن بين الجنة والنار مفازة[1] لا يقطعها إلا كل بكَّاء .

وقال سفيان الثوري : رأىٰ وهيب قوماً يضحكون يوم الفطر ، فقال : إن كان هـٰؤلاء يُقبَل منهم صيامهم . . فما هـٰذا فعل الشاكرين ، وإن كان لم يقبل . . فما هـٰذا فعل الخائفين . انتهىٰ [« الحلية » ٨/ ١٤٠ـ١٤٩] .

وقال الغزالي ـ قدس الله روحه ونور ضريحه ـ : اجتمع ذات يوم وهيب بن الورد وسفيان الثوري ويوسف بن أسباط ، فقال الثوري : كنت أكره موت الفجاءة قبل اليوم ، وأما اليوم . . فوددت أني مِتُّ ، فقال له يوسف : لِمَ ؟ قال : لما أتخوف من الفتنة ، فقال يوسف : لـٰكني ما أكره طول البقاء ، فقال سفيان : لِمَ ؟ قال : لعلِّي أصادف يوماً أتوب فيه وأعمل صالحاً ، فقيل لوهيب : أيش تقول أنت ؟ فقال : أنا لا أختار شيئاً ، أَحَبُّ ذلك إلي . . أَحَبُّه إلى الله عز وجل ، فقبَّل الثوري بين عينيه وقال : روحانية ورب الكعبة .

وقد اختلف العلماء في الأفضل من أهل مقامات ثلاثة : رجل يحب الموت شوقاً إلىٰ لقاء الله عز وجل ، ورجل يحب البقاء لعبادة الله عز وجل ، ورجل قال : لا أختار شيئاً ، أرضىٰ بما اختاره الله عز وجل ، رفعت هـٰذه المسألة إلىٰ بعض العارفين ، فقال : صاحب الرضا أفضلهم . انتهىٰ [« الإحياء » ٤/ ٣٥٥] .

وقال وهيب : بلغنا أنه ما من ميت يموت حتىٰ يتراءىٰ له ملكاه اللذان كانا يحفظان عليه عمله في الدنيا ، فإن كان صحبهما بطاعة الله تعالىٰ . . قالا له : جزاك الله عنا من جليسٍ خيراً ، فرب مجلسٍ صدقٍ قد أجلستناه ، وعمل صالح قد أحضرتناه ، وكلام حسن قد أسمعتناه ، فجزاك الله عنا من جليس خيراً ، وإن كان صحبهما بغير ذلك . . قلبا الثناء عليه ، فقالا : لا جزاك الله عنا من جليس خيراً ، فرب مجلس سوء قد أجلستناه ، وعمل غير صالح قد أحضرتناه ، وكلام قبيح قد أسمعتناه ، فلا جزاك الله عنا من جليس خيراً ، قال : فذلك شخوص بصر الميت إليهما ، ولا يرجع إلى الدنيا أبداً .

وقال : لا يكن هَمُّ أحدكم في كثرة العمل ، ولـٰكن ليكن هَمُّه في إحكامه وتحسينه ؛ فإن العبد قد يصلي وهو يعصي الله تعالىٰ في صلاته ، وقد يصوم وهو يعصي الله تعالىٰ في صيامه .

---

(١) **المفازة** : المَهْلكة ، وفي نسخة : (عقبة) .

وقال : لو أن المؤمن لا يُبغِض الدنيا إلا لأن الله تعالىٰ يُعصىٰ بها . . لكان حقاً عليه أن يبغضها .

وقال : احذر أن تكون صديق إبليس في السر وتظهر عداوته في العلانية .

وصلىٰ وهيب العصر ، فلما فرغ . . جعل يقول : اللهم ؛ إن كنت نقَّصتُ منها شيئاً أو قصَّرتُ فيها . . فاغفر لي ، كأنه قد أذنب ذنباً عظيماً وهو وجل منه مستغفر .

وكان وهيب يشتهي الشيء ، فيجده في بيته في إناء قد كفىء عليه ، وكان له سويق في جراب ، فأتت فأرة ، فخرقت الجراب ، فقال : اللهم ؛ اخزها ، فقد أفسدت علينا ، فخرجت ، فاضطربت بين يديه حتىٰ ماتت .

وقال وهيب : إذا أَردتَ الدِّين . . فأبنِ علىٰ ثلاث : الزهد ، والورع ، والفقه ، ثم أقلَّ العمل ؛ فإنك إذا بنيت علىٰ غير هـٰؤلاء . . انهدم البناء ، فقيل له : أيما أفضل الورع ، أو النية ؟ قال : النية .

وقال : لو قمتَ مقام هـٰذه السارية . . ما نفعك حتىٰ تنظر ما يدخل بطنك حلال أو حرام .

وسجد وهيب علىٰ جبل أبي قبيس ، فنودي من الشجر : يا وهيب ؛ ارفع رأسك ، فقد غفر لك .

هنيئاً له ، اللهم ؛ ارزقنا ما رزقته .

وقال وهيب : رُبَّ عالم يقال له فقيه ، وهو مكتوب عند الله تعالىٰ من الجاهلين .

وقال : من الدعاء المستجاب إن شاء الله تعالىٰ : أن تصلي اثنتي عشرة ركعة بأم القرآن وآية الكرسي و(قل هو الله أحد) ، فإذا فرغ . . خر ساجداً ، ثم يقول : سبحان الذي لبس العز[1] وقال به ، سبحان الذي تعطف بالمجد وتكرم به ، سبحان الذي أحصىٰ كل شيء علمه ، سبحان الذي لا ينبغي التسبيح إلا له ، سبحان ذي الفضل والمن ، سبحان ذي العز والتكرم ، سبحان ذي الطول[2] والجلال والإكرام ، اللهم ؛ إني أسألك بمعاقد العز من عرشك ، وبمنتهى الرحمة من كتابك ، وباسمك الأعظم ، وجَدِّك[3] الأعلىٰ ، وكلماتك

---

(١) في نسخة : (سبحان الذي له العز والكبرياء) .

(٢) **الطَّول** : الفضل والغنىٰ واليسر .

(٣) **الجَدُّ** : المكانة والمنزلة عند الناس .

التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر . . أن تصلي علىٰ محمد وعلىٰ آل محمد ، كما صليت علىٰ إبراهيم وعلىٰ آل إبراهيم ، في العالمين إنك حميد مجيد ، ثم يسأل الله تعالىٰ حاجته .

أدرك وهيب بن الورد جماعة من التابعين زماناً ، وروىٰ عن بعضهم .

فمما رواه : عن عطاء ابن أبي رباح ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالىٰ أيدني بأربعة وزراء » ، قلنا : يا رسول الله ؛ من هـٰؤلاء ؟ قال : « اثنان من أهل السماء ، واثنان من أهل الأرض ، جبريل وميكائيل من أهل السماء ، وأبو بكر وعمر من أهل الأرض »[1] .

وبإسناده إلى ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالىٰ عند لسان كل قائل ، فليتق الله عبد ولينظر ما يقول »[2] انتهىٰ [« الحلية » ٨/ ١٥١ـ١٦٠] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : وهيب بن الورد ، كنيته : أبو أمية ، واسمه : عبد الوهاب ، فصُغِّر .

قال ابن المبارك رحمه الله : ما جالست أحداً كان أنفع لي من مجالسة وهيب .

وكان لا يأكل من الفواكه ، فإذا انقضت السَّنة وذهبت الفواكه . . يكشف عن بطنه ، وينظر إلىٰ جسده ، ويقول : يا وهيب ؛ ما أرىٰ بك بأساً ، ما أرىٰ تركك الفواكه ضرك شيئاً .

وقال ابن أبي روَّاد : انتهيت إلىٰ رجل ساجد خلف المقام في ليلة باردة مطيرة يدعو ويبكي ، فطفت أسبوعاً ، ثم عدت ، فوجدته علىٰ حاله ، فقعدت قريباً منه الليل كله ، فلما كان في جوف الليل . . سمعت هاتفاً يقول : يا وهيب بن الورد ؛ ارفع رأسك فقد غفر لك ، قال : فالتفتُّ فلم أر شيئاً ، فلما طلع الفجر . . رفع رأسه ، ومضىٰ ، فاتبعته ، وقلت له : أما سمعت الصوت ؟ قال : وأي صوت ؟ فأخبرته ، فقال : لا تخبر أحداً ، فما حدثت أحداً حتىٰ مات رحمه الله .

---

(١) أخرجه بنحوه الطبراني في « الكبير » (١١/ ١٧٩) .

(٢) أخرجه بنحوه البيهقي في « الشعب » (٤/ ٢٦٥) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٢/ ١٦٩) .

وقال بشر بن الحارث رحمه الله : كان وهيب تبين خضرة البقل من بطنه من الهزال .
وكان مشغولاً بالتعبد عن الرواية ؛ لذلك قلَّتْ أحاديثه .
ومات في سنة ثلاث وخمسين ومئة . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ١٣٠ـ١٣٥] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

عبد الله بن المبارك
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : روىٰ عبد الله بن المبارك بإسناده عن محمد ابن الحنفية رحمه الله قال : ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد بُداً من معاشرته ، حتىٰ يجعل الله تعالىٰ له فرجاً ، أو قال : ومخرجاً ، وقال عبد الله بن المبارك : هـٰذا مثَلي ومثَلكم .

وقال عطاء بن مسلم لعبيد بن جناد : يا عبيد ؛ رأيت عبد الله بن المبارك ؟ قال : نعم ، قال : ما رأيت مثله ، ولا يُرىٰ مثله .

وعن عبيد بن جناد قال : قال العُمَري : ابن المبارك يصلح لهـٰذا الأمر ، فقال له رجل : أي شيء ؟ قال : الإمامة .

وفي رواية أخرىٰ عنه أيضاً قال : ما رأيت في دهرنا هـٰذا أحداً يصلح لهـٰذا الأمر إلا رجلاً أتاني إلىٰ منزلي ، أقام عندي ثلاثاً يسألني عن غير ما يسألني عنه أهل هـٰذا الزمان ، فصيح اللسان ، يكنىٰ بأبي عبد الرحمن ، فقلنا له : هـٰذا عبد الله بن المبارك ، قال : هـٰكذا ينبغي إن كان بقي أحد يصلح لهـٰذا الأمر ، فقال عبيد : يعني : الاقتداء بالعلم .

وقال أبو إسحاق الفزاري : ابن المبارك إمام المسلمين ، قال : ورأيته قاعداً بين يديه يسائله .

وقال عبد الرحمـٰن بن مهدي : ما رأت عيناي مثل سفيان الثوري ، ولا أُقدِّم علىٰ عبد الله بن المبارك أحداً .

وقال ابن مهدي أيضاً : ابن المبارك آدبُ عندنا من سفيان .

وقال المعتمر بن سليمان : ما رأيت مثل ابن المبارك ؛ تجد عنده الشيء الذي لا تجده عند غيره .

وقال سفيان الثوري رحمه الله : لو جهدت جهدي أن أكون في السَّنة ثلاثة أيام علىٰ ما عليه ابن المبارك . . لم أقدر .

وعن محمد بن المعتمر بن سليمان قال : قلت لأبي : يا أبت ؛ مَن فقيه العرب ؟ قال : سفيان الثوري ، فلما مات سفيان . . قلت لأبي : مَن فقيه العرب ؟ قال : عبد الله بن المبارك .

وورد على الرشيد كتاب صاحب الحيرة في شهر رمضان ، سَنة إحدىٰ وثمانين ومئة مِن هيت[1] ، أنه مات بها رجل غريب ، فاجتمع الناس علىٰ جنازته ، فسألت عنه ، فقالوا : عبد الله بن المبارك الخراساني ، فقال الرشيد : إنا لله وإنا إليه راجعون ، يا فضل ـ للفضل بن الربيع وكان وزيره ـ ائذن للناس يعزُّونا في عبد الله بن المبارك ، فأظهر الفضل تعجباً ، فقال له : ويحك! إن عبد الله هو الذي يقول :

الله يدفع بالسلطان معضلة ... عن ديننا رحمة منه ورضوانا
لولا الأئمة لم تأمن لنا سبلٌ ... وكان أضعفنا نهباً لأقوانا

فمن سمع هٰذا القول من مثل ابن المبارك ـ مع فضله وزهده وعظمته في صدور العامة ـ ولا يعرف حقنا ؟!

وفي رواية أخرىٰ : قال الرشيد بعد ذلك : أمَا إنه ما خلف بعده مثله .

وقال شقيق البلخي رحمه الله : قلت لابن المبارك : إذا صليت معنا . . لِمَ لم تجلس معنا ؟ قال : أذهب أجلس مع الصحابة والتابعين رضي الله عنهم ، أنظر في أعمالهم وآثارهم ، ما أصنع معكم ؟ ثم قال : إذا كان سَنة مئتين . . فالبعد عن كثير من الناس أقرب إلى الله تعالىٰ ، وفِرَّ من الناس فرارَك من الأسد ، وتمسك بدينك . . يسلم لك .

وسأله رجل فقال : يا أبا عبد الرحمن ؛ في أي شيء أجعل فضل قوَّتي ؟ في تعلم القرآن أو في طلب العلم ؟ فقال : هل تقرأ من القرآن ما تقيم به صلاتك ؟ قال : نعم ، قال : فاجعله في طلب العلم الذي تعرف به القرآن .

وقال أبو أسامة : مررت بعبد الله بن المبارك بطرسوس وهو يحدث ، فقلت : يا أبا عبد الرحمن ؛ إني لأنكر هٰذه الأبواب والتصنيف الذي وضعتموه ، ما هٰكذا أدركنا

---

(١) هِيت : بلدة على الفرات من نواحي بغداد ، فوق الأنبار ، ذات نخل كثير وخيرات واسعة .

المشيخة ، قال : فأضرَبَ عن الحديث نحواً من عشرين يوماً ، ثم مررت به وقد احتوشوه[1] وهو يحدث ، فسلمت عليه ، فقال : يا أبا أسامة ؛ شهوة الحديث .

وقال ابن المبارك : مَن بَخِل بالعلم . . ابتلي بواحدة من ثلاث : إما موت فيذهبَ علمه ، وإما نسيان ، وإما يلزم السلطان فيذهب علمه .

وقال بشر بن الحارث : سأل رجل ابن المبارك عن حديث وهو يمشي ، فقال : ليس هـٰذا من توقير العلم ، قال بشر : فاستحسنته جداً .

وقيل لابن المبارك : الرجل يطلب الحديث لله ، أيشتد في سنده ؟ قال : إذا كان لله . . فهو أولىٰ أن يشتد في سنده .

قيل لابن المبارك : هل بقي مَن ينصح ؟ قال : وهل بقي من يقبل ؟ [انتهىٰ « الحلية » ٨/١٦٢ـ١٦٦] .

وقال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : قال ابن المبارك رحمه الله : قد طفت الشرق والغرب ، فما رأيت بلداً شراً من بغداد ، قيل له : وكيف هو ؟ قال : هو بلد تزدرىٰ فيه نعمة الله ، وتستصغر فيه معصية الله .

ولما رجع إلىٰ خراسان . . قيل له : كيف رأيت بغداد ؟ فقال : لا ينبغي أن تُسكن ـ أو ما هـٰذا معناه ـ كان قصده بذلك تحذير الناس عن المقام بها .

وكان يخرج إلىٰ مكة ويقيم ببغداد مدة استعداد القافلة عشرة أيام يتصدق منه بعشرة دنانير ، لكل يوم دينار ؛ كفارة لمقامه .

قال الغزالي : وقد ذم العراقَ جماعةٌ ، منهم : عمر بن عبد العزيز ، وكعب الأحبار ، وأما بشر بن الحارث . . فإنه كان يقول : لا تقتدوا بي في المقام بها ، وكان أحمد ابن حنبل يقول : لولا تعلق هـٰؤلاء الصبيان بنا . . كان الخروج من هـٰذا البلد أبر في نفسي ، قيل : وأين تختار السكنىٰ ؟ فقال : الثغور ، فهـٰذا يدل علىٰ أن من يكون ببلدة تكثر فيها المعاصي ويقل فيها الخير . . فلا عذر له في المقام فيها ، بل ينبغي أن يهاجر ، قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ ، فإن منعه عن ذلك عيال أو علاقة[2] . . فلا ينبغي أن يكون راضياً بحاله ، مطمئن النفس بالمقام فيها ، بل ينبغي أن يكون

---

(١) **احتوشوه** : اجتمعوا حوله .

(٢) **العَلاقَة** : ما تعلق به الإنسان من صناعة وغيرها .

منزعج القلب منها قائلاً على الدوام : ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ ، وذلك لأن الظلم إذا عم . . نزل البلاء ، ومر على الجميع ، وشمل المطيعين ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ .

فإذاً : ليس في شيء من أسباب نقصان الدين ألبتة رضاً مطلقاً إلا من حيث إضافتها إلىٰ فعل الله ، فأما هي في نفسها . . فلا وجه للرضا بها بحال . انتهىٰ [الإحياء » ٤/٣٥٣ـ ٣٥٥] .

وقال الحافظ : قال ابن المبارك : ينبغي للعالم أن يرفع نفسه عن الدنيا ، فلا تكون منه علىٰ بال .

وقال : أهل الدنيا خرجوا من الدنيا قبل أن يطعموا أطيب ما فيها ، قيل له : وما أطيب ما فيها ؟ قال : معرفة الله عز وجل .

وقيل له : مَن الناس ؟ قال : العلماء العاملون ، قيل : فمَن الملوك ؟ قال : الزهاد ، قيل : فمَن الغوغاء ؟ قال : خزيمة وأصحابه[1] ، قيل : فمَن السَّفِلة ؟ قال : الذين يعيشون بدِينهم .

قال عبد الله بن عمر السرخسي : أكلت عند صاحب بدعة أكلة ، فبلغ ابن المبارك ، فقال : لا كلمتك ثلاثين يوماً .

وقال الفضيل : قال لي ابن المبارك : أكثركم علماً . . ينبغي أن يكون أشدَّكم خوفاً .

وقال ابن المبارك : قد جمعت علم العلماء ، فليس فيما جمعت أحب إلي من علم الفضيل بن عياض ، وما أعياني شيء كما أعياني أني لا أجد أخاً في الله عز وجل .

وقال : إذا عرف الإنسان قدر نفسه . . يصير عند نفسه أذل من الكلب .

وقال عبيد بن جناد : ما رأيت مثل ابن المبارك ، إذا ذكر أصحابه . . فخَّمهم ، يقول : وأين مثل فلان ؟ وأين مثل فلان ؟ ثم يقول : الرفيع : من رفعه الله عز وجل بطاعته ، والوضيع : من وضعه الله عز وجل لمعصيته .

ورأىٰ رجل سهل بن علي في المنام ، فقال له : ما فعل الله تعالىٰ بك ؟ فقال : نجوت بكلمة علمنيها ابن المبارك ، فقال له : وما تلك الكلمة ؟ قال : قول الرجل : يا رب ؛ عفوك عفوك .

---

(١) يعني : من أمراء الظلمة .

وسئل ابن المبارك عن الرباط فقال : رابط نفسك على الحق حتىٰ تقيمها على الحق ، فذلك أفضل الرباط .

وقال ابن المبارك : لا يقعُ موقعَ الكسب على العيال شيء ولا الجهادُ في سبيل الله .

ولما حضر ابن المبارك الموت في سفره . . قال : أشتهي سويقاً ، فطلبناه له ، فلم نجده إلا عند رجل كان يعمل عمل السلطان ، فقلنا له : لم نجد إلا عند هـٰذا الرجل ، فقال : دعوه ، ثم قال بعد ساعة : ويحكم! أشتهي سويقاً ، فطلبناه ، فلم نجده إلا عند ذلك الرجل ، فقلنا له ، فقال : دعوه ، فمات ولم يشربه .

وبعث رجل من سَرْخَسَ إلىٰ منزل ابن المبارك شيئاً ، وكان عليه خيط قدر شبر ، فلما لقيه السرخسي . . أخرج الخيط من تكته ، ورده إليه ، وقال له : إنك لم تكتب إلي في أمر الخيط ، وأنا أقبل ما هو أكثر من هـٰذا ، ثم رده عليه .

وقال : من ختم نهاره بذِكر . . كُتب نهارَه ذاكراً ، وكان يتحرىٰ ذلك .

وكان يقول : رُبَّ عمل صغير تعظِّمه النية ، ورب عمل كبير تصغِّره النية .

وقال ابن المبارك : قال داوود لابنه سليمان عليهما الصلاة والسلام : يا بني ؛ إنما يُستدَل علىٰ تقوى الرجل بثلاثة أشياء : بحسن توكله على الله عز وجل فيما يأتيه ، وبحسن رضاه فيما أتاه ، وبحسن صبره فيما فاته .

وقال نوفل : رأيت ابن المبارك في النوم ، فقلت له : ما فعل الله تعالىٰ بك ؟ قال : غفر لي برحلتي في الحديث ، وعليك بالقرآن (مرتين) فقلت له : ما فعل سفيان الثوري ؟ قال : ذاك عندهم في مكان رفيع ، قلت : فأين أنت اليوم ؟ قال : أنا في روضة دهناء[1] .

وقال الفضيل بن عياض : رأيت ابن المبارك في النوم ، فقلت : ما فَعل بك ربك ؟ فقال : غفر لي مغفرة ما بعدها مغفرة ، وكلمتني امرأة من الحور العين وامرأة من أهل الجنة .

وقال الحافظ : قال ابن المبارك : مررت في مسيري بالشام بطبيب ؛ فإذا بين يديه جمع كثير ، وإذا هو يصِفُ لكل واحد منهم ما يجب ، فدنوت منه ، فقلت له : يا طبيب ؛ عندك دواء للذنوب ؟ فقال لي : نعم ؛ اجلس ، فجلست إلىٰ أن تفرق الناس ، ثم قال لي : قم ،

---

(١) أي : واسعة .

فقمت إليه ، فقال لي : يا هـٰذا ؛ عليك بورق الفقر ، وعروق الصبر ، وإهليلج الصفاء ، وبليلج الرضا ، وغاريقون الكتمان ، وسقمونيا[1] الأحزان ، فامرسه بماء الأجفان ، ودعه في طنجير القلق ، واجعل تحته نار الفَرَق ، وصَفِّه بمنخل الأرق ، واشربه على الحَرَق ؛ فإن فيه شفاءك يا مريض ، قال : ثم أنشأ يقول :

يـــا طبيبـــاً بـــذكـــره نتـــداوىٰ وصفـــوه لكـــل داء غـــريـــب
ليـس حـزنـي عليـك شيئـاً عجيبـاً إنما الصبر عنك شيء عجيب[2]

قال مؤلفه : ونظير هـٰذه الحكاية : أن بعض الأطباء وصف لذي النون فقال : خذ عروق الفقر ، مع ورق الصبر ، مع إهليلَج التواضع ، مع بليلج الخضوع ، وألقه في هاون التوبة ، واسحقه بيد التوفيق ، ثم ألقه في طنجير النقاء ، ثم صبَّ عليه ماء الخوف ، ثم أوقد تحته نار المحبة ، ثم حركه بمحراك المعرفة ، حتىٰ ترغي زبد الحكمة ثم صفِّه بمنخل التفكر ثم هَدِّئْهُ في جام[3] الرجا ، ثم روِّحه بمروحة الخير ، وصفه في قدح المناجاة ، ثم امزجه بماء التوكل ، وذقه بملعقة الاستغفار ثم اشربه وتمضمضْ بعده بالورع ، والزم بعده حِمية الموافقة ؛ فإنك لا تعود بعد استعماله إلىٰ معصية أبداً إن شاء الله تعالىٰ .

وقيل لابن المبارك : الرجل يسمع الحديث فيه اللحن ، أيقومه ؟ قال : نعم ؛ كان القوم لا يلحنون .

وسئل عن كتابة العلم فقال : لولا الكتابة . . ما حفظنا .

وقال : الحبر في الثوب خلوق[4] العلماء .

أنشد ابن المبارك رحمه الله من جملة أبيات :

وهـــل بـــدَّل الـــديـــن إلا الملـــوك وأحبـــار ســـوء ورهبـــانُهـــا
لقـــد رتـــع القـــوم فـــي جيفـــة يبيـــن لـــذي العلـــم إنتـــانُهـــا

وقال ابن المبارك : مروءة القناعة بالصبر أفضل من مروءة السخاء بالبذل .

وقال ابن المبارك : عن ابن جريج قال : الملكان الحافظان أحدهما عن يمينه والآخر عن

---

(١) **السقمونيا** : نبات يستخرج من جذوره راتينج مُسْهِل .
(٢) الحلية (٨/ ١٦٧ـ ١٧١) .
(٣) **الجام** : إناء للطعام والشراب من فضة أو نحوها .
(٤) **الخلوق** : الطيب .

يساره ، والذي عن يمينه يكتب الحسنات ، والذي عن يساره يكتب السيئات ، والذي عن يمينه يكتب من غير شهادة من صاحبه ، والذي عن يساره لا يكتب إلا بشهادة من صاحبه ، فإذا قعد . . فأحدهما عن يمينه والآخر عن يساره ، وإذا مشىٰ . . فأحدهما أمامه والآخر خلفه ، وإن رقد . . فأحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه .

قال عبد الله بن المبارك : قد وكل به خمسة أملاك : ملكان بالليل ، وملكان بالنهار يجيئان ويذهبان ، والخامس لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً .

وقال ابن المبارك : مر رجل براهب عنده مقبرة ومزبلة ، فناداه وقال : يا راهب ؛ إن عندك كنزين هما كنوز الدنيا ، فيهما معتبر : كنز الأموال وكنز الرجال .

ودعا ابن المبارك أصحابه ، فقدم إليهم اثني عشر لوناً ، وكان إذا اشتهىٰ شيئاً . . لم يأكله حتىٰ يشتهيه بعض أصحابه ، فيأكله معهم .

وفي رواية أخرىٰ : كان إذا اشتهىٰ شيئاً . . دعا ضيفاً له ليأكل معه ؛ من أجل حديث حدثناه عن الأوزاعي قال : ثلاثة لا حساب عليهم في مطعمهم : المتسحر ، والصائم حين يفطر ، وطعام الضيف .

وكانت سفرة عبد الله بن المبارك تحمل علىٰ عجلة أو عجلتين ، العجلة تحمل خمسة جوالق[1] .

وفي رواية أبي إسحاق الطالقاني : رأيت بعيرين مملوءين دجاجاً مشوياً لسفرة ابن المبارك .

وعن محمد بن سهم الأنطاكي قال : كنت مع ابن المبارك ، وكان كل يوم يشوىٰ له جدي غير الدجاج ، ويتخذ له فالوذج ، فقلت : يا أبا عبد الرحمن ؛ كل يوم ؟! قال لي : إني دفعت إلىٰ وكيلي ألف دينار ، وأمرته أن يوسع علينا النفقة .

ودخل أبو أسامة على ابن المبارك ، فرأى ابن المبارك علىٰ وجه أبي أسامة أثر الضيق ، فلما خرج من عنده . . وجه إليه ابن مبارك أربعة آلاف فضة درهم ورزمة ثياب .

وكان يصل العلماء ويعطيهم .

وكان له غلام مفرغ لضرب الفالوذج ، يتخذه ويطعمه لأصحاب الحديث .

---

(١) **الجوالق** : وعاء من صوف أو شعر .

و[قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ] : قال المسيب بن واضح : كنت عند ابن المبارك ، فكلموه في رجل يقضي عنه سبع مئة درهم دَيناً ، فكتب إلىٰ وكيله : إذا جاءك كتابي هـٰذا وقرأته وفهمته . . فادفع إلىٰ صاحب الكتاب سبعة آلاف درهم ، فلما ورد الكتاب على الوكيل . . قرأه والتفت إلى الرجل ، فقال له : أي شيء قصتك ؟ فأخبره ، فقال الوكيل : قد وجدت في الكتاب غلطاً ، ولـٰكن اقعد موضعك حتىٰ أجري عليك من مالي وأبعث إلىٰ صاحبي ، فأؤامره فيك ، فكتب إلىٰ عبد الله بن المبارك : أتاني كتابك وفهمت ما ذكرت فيه ، وسألت صاحب الكتاب ، فذكر أنه كلمك في سبع مئة درهم ، وهـٰهنا في الكتاب سبعة آلاف درهم ، فإن يكن منك غلط . . فاكتب إلي حتىٰ أعمل علىٰ حَسَب ذلك ، فكتب إليه : إذا أتاك كتابي هـٰذا وقرأته وفهمت ما فيه . . فادفع إلىٰ صاحب الكتاب أربعة عشر ألف درهم ، فكتب إليه : إن كان علىٰ هـٰذا الفعال . . ما أسرع ما تبيع الضيعة .

وفي رواية أخرىٰ : كتب الوكيل إليه : أن الغلات قد فنيت ، فكتب إليه ابن المبارك : إن كانت الغلات قد فنيت . . فإن العمر أيضاً قد فني ، فأجرِ له ما سبق قلمي به .

وفي رواية : فكتب إليه عبد الله : إن كنت وكيلي . . فأنفِذْ ما آمرك به ، وإن كنت أنا وكيلك . . فتعال إلىٰ موضعي حتىٰ أصير أنا إلىٰ موضعك ، فأُنفِذُ ما تأمرني به ، فإني سمعت سفيان الثوري يقول : سمعت ليثاً يقول : سمعت مجاهداً يقول : سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من فاجأ من أخيه المسلم فرحة علىٰ فرحه . . غفر له » ، فأحببت أن أفاجئه فرحة علىٰ فرحه .

وقال مخلد بن الحسين : ما أرىٰ خلة من خلال الخير إلا وقد جعلها الله سبحانه وتعالىٰ في ابن المبارك ، لقد بلغني أنه كان يطعم أصحابه في السفر الخبيص ، وهوالدهرَ صائم .

وقال زكريا بن عدي : سمعت أبا خالد الأحمر يقول : ما هُدَّت الأرض بعد موت سفيان الثوري بموت أحدٍ كما هُدَّت بموت ابن المبارك رحمه الله .

أدرك جماعة من التابعين ، وأكثر روايته عن الأئمة والأعلام .

فمن أحاديثه : عن عاصم ، عن أنس رضي الله عنه أنه قال : (من لم يؤمن بالشفاعة . . لم تنله شفاعة سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم) .

وعنه عن موسى بن عقبة ، عن سالم ، عن أبيه قال : أكثر ما رأيت النبي صلى الله عليه

وسلم يحلف بهـٰذه اليمين : « لا ومقلب القلوب »[1] .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزل بأهله الضيق . . أمرهم بالصلاة ، ثم قرأ : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ ﴾ الآية[2] .

وبإسناده إلىٰ معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أول ما يقول الله عز وجل للمؤمنين يوم القيامة : هل أحببتم لقائي ؟ فيقولون : نعم يا ربنا ، وأنت أعلم ، فيقول : لِمَ ؟ فيقولون : رجونا عفوك ورحمتك ، وأنت أعلم ، فيقول الله جل جلاله : إني قد أوجبت لكم رحمتي »[3] أو كما قال . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ٩٥] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : ولد عبد الله بن المبارك سنة ثمان عشرة ومئة .

قال الحسن : أخبرني غير واحد من أهله أنه ما دخل الحمَّام[4] قط .

وكانت داره بمرو كبيرة ، صحن الدار منها نحو خمسين ذراعاً ، وكانت داره لا تخلو من صاحب علم ، أو صاحب عبادة ، أو رجل له مروءة وقدر .

وكانوا يجتمعون في كل يوم حلقاً يتذاكرون حتىٰ يخرج إليهم ابن المبارك ، فينضمون إليه ، فلما صار ابن المبارك بالكوفة . . نزل في دار صغيرة ، فكان يخرج إلى الصلاة ثم يرجع إلىٰ منزله لا يكاد يخرج منه ، ولا يأتيه أحد ، فقلت له : يا أبا عبد الرحمن ؛ ألا تستوحش هـٰهنا مع الذي كنت فيه بمرو ؟ فقال : إنما فررت من مرو من الذي أراك تحبه لي ، وأحببت هـٰهنا الذي أراك تكرهه لي ، كنت في مرو ولا يكون أمر من الأمور إلا أتاني فيه الناس ، ولا مسألة إلا قالوا : اسألوا ابن المبارك عنها ، وأنا هـٰهنا في عافية من ذلك .

قال : وكنت مع ابن المبارك يوماً ، فأتينا علىٰ سقاية والناس يشربون منها ، فدنا منها ليشرب ، ولم يعرفه الناس ، فزحموه ، ودفعوه ، فلما خرج . . قال : ما العيش إلا هـٰكذا ، يعني : حيث لم تُعرَف ولم تُوقَّر .

قال : وبينا هو بالكوفة يُقرأ عليه كتاب المناسك . . انتهىٰ إلىٰ حديث ، وفيه : قال عبد الله : وبه نأخذ ، فقال : مَن كتب هـٰذا من قولي ؟ فقلت : أنا الذي كتبته ، فأخذ

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٦٩٥٦) .
(٢) أخرجه المقدسي في « المختارة » (٩/ ٤٦٠) .
(٣) أخرجه بنحوه الطبراني في « الكبير » (٢٠/ ١٢٥) .
(٤) أي : حمَّام السوق .

السكين ، وكشطه حتىٰ لم يبق له أثر ، وقال : مَن أنا حتىٰ يُكتب قولي ؟!

وقال الحسن : وصحبته من خراسان إلىٰ بغداد ، فما رأيته أكل وحده .

قال : وزوَّج النضر بن محمد ولده ، فدعا ابن المبارك ، فلما جاء . . قام ليخدم الناس ، فأبى النضر أن يدعه ، وحلَّفه حتىٰ جلس .

وقال ابن المبارك : كن محباً للخمول ، كارهاً للشهرة ، ولا تظهرن من نفسك أنك تحب الخمول ، فترفع نفسك ؛ فإن دعواك الزهد من نفسك يخرجك من الزهد ؛ لأنك تجر إلىٰ نفسك الثناء والمدح .

وقال أشعث بن شعبة : قدم هارون الرشيد الرقة ، فانجفل[1] الناس خلف عبد الله بن المبارك ، وتقطعت النعال ، وارتفعت الغبرة ، فأشرفت أم ولد أمير المؤمنين من برج من قصر الخشب ، فلما رأت الناس وكثرتهم . . قالت : ما هـٰذا ؟ قالوا : عالم من أهل خراسان يقال له : عبد الله بن المبارك ، فقالت : هـٰذا والله المُلك ، لا مُلك هارون الرشيد ، الذي يجمع الناس بالسوط والعصا وشرط وأعوان .

وقال سويد بن سعيد : رأيت ابن المبارك بمكة أتىٰ إلىٰ زمزم ، فاستقىٰ منها ، ثم استقبل الكعبة وقال : اللهم ؛ إن ابن أبي المَوالي حدثنا عن محمد بن المنكدر ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ماء زمزم لما شرب له »[2] ، وهـٰذا أشربه لعطش القيامة ، ثم شربه .

وقال نعيم بن حماد : كان ابن المبارك إذا قرأ كتاب الرقائق . . كأنه بقرة منحورة من البكاء ، لا يجترىء أحد منا أن يدنو منه ولا يسأله عن شيء .

وقال عمران بن موسىٰ : جاء رجل فسأل سفيان الثوري عن مسألة ، فقال له : مِن أين أنت ؟ فقال : من أهل المشرق ، قال : أوَ ليس عندكم أعلم أهل المشرق ؟ قال : ومَن هو ؟ قال : عبد الله بن المبارك ، قال الرجل : أهو أعلم أهل المشرق ؟ قال : نعم ؛ وأهل المغرب .

وعوتب عبد الله بن المبارك فيما يفرق من المال في أهل البلدان ، ولا يقعد في بلد ،

---

(١) **انجفل الناس** : ذهبوا مسرعين .

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٥٧) ، والحاكم (١/ ٦٤٦) ، وابن ماجه (٣٠٦٢) ، ولابن حجر العسقلاني كتاب فيه .

فقال : إني أعرف مكان قوم لهم فضل وصدق ، طلبوا الحديث فأحسنوا الطلب ، فاحتاجوا ، فإن تركناهم . . ضاع علمهم ، وإن أَعَنَّاهم . . بثوا العلم لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا أعلم بعد النبوة أفضل من بث العلم .

وقيل له : إلىٰ متىٰ تكتب الحديث ؟! فقال : لعل الكلمة التي أنتفع بها ما كتبتها بعد .

وقال علي بن الحسن بن شقيق[1] : سمعته يقول : لأَن أرد درهماً من شبهة . . أحب إلي من أن أتصدق بمئة ألف ومئة ألف ، حتىٰ بلغ ست مئة ألف .

وقال ابن الحسين : قيل لابن المبارك : ما التواضع ؟ قال : التكبر على الأغنياء .

وقال ابن المبارك : لو أن رجلاً اتقى الله تعالىٰ مئة سنة ، ولم يتق شيئاً واحداً . . لم يكن من المتقين ، ولو تورع عن مئة شيء ولم يتورع عن شيء واحد . . لم يكن ورعاً ، ومن كانت فيه خلة من الجهل . . كان من الجاهلين .

وقال أحمد بن جميل المروزي : قيل لابن المبارك : إن إسماعيل بن علية قد ولي الصدقات ، فكتب إليه ابن المبارك :

يا جاعلَ العلم له بازياً ... يصطاد أموال المساكينِ
احتَلْتَ للدنيا ولذاتها ... بحيلة تَذهَب بالدِّينِ
فصرت مجنوناً بها بعد ما ... كنت دواء للمجانينِ
أين رواياتك [في سردها] ... عن ابن عونٍ وابن سيرينِ
أين رواياتك فيما مضىٰ ... في ترك أبواب السلاطينِ
إن قلتَ أُكرِهْتُ فما ذا كذا ... زل حمار العلم في الطينِ[2]

فلما قرأ الكتاب . . بكىٰ واستعفىٰ .

وقال علي بن الحسن بن شقيق : كان ابن المبارك إذا كان وقت الحج . . اجتمع إليه إخوانه من أهل مرو ، فيقولون : نصحبك يا أبا عبد الرحمن ؟ فيقول لهم : هاتوا نفقاتكم ، فيأتون بها ، فيجعلها في صندوق ، ويقفل عليها ، ويكتب أسماء أصحابها علىٰ كل صرة ،

---

(١) في النسخ : (علي بن الحسين) ، ولعل الصحيح ما أثبت .

(٢) جاء في نسخة :

(إن قلت أكرهت فذا باطل ... زل حمار العلم في الطين)

وفي أخرىٰ : (حمار الشيخ) .

ثم يكتري لهم ، ويخرجهم من مرو إلىٰ بغداد ، ولا يزال ينفق عليهم ويطعمهم أطيب الطعام وأطيب الحلواء ، ثم يخرجهم من بغداد بأحسن زي وأجمل مروءة ، حتىٰ يصلوا إلىٰ مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا صاروا إليها . . قال لكل واحد منهم : ما أَمَرَكَ عيالك أن تشتري لهم من المدينة من طُرَفها ؟ فيقول : كذا وكذا ، فيشتريَه لهم ، ثم يخرجهم إلىٰ مكة ، فإذا قضوا مناسكهم . . قال لكل واحد منهم : ما أمرك عيالك أن تشتري من متاع مكة ؟ فيقول : كذا وكذا ، فيشتريه لهم ، ويخرجهم من مكة ، فلا يزال ينفق عليهم حتىٰ يرجعوا إلىٰ مرو ، فإذا وصلوا إليها . . جصص دورهم ، فإذا كان بعد ثلاثة أيام . . صنع لهم وليمة وكساهم ، فإذا أكلوا وشربوا . . دعانا بالصندوق ، ففتحه ، ودفع إلىٰ كل واحد منهم صرته ، واسمه مكتوب عليها .

وقال خادمه : آخر سفرة سافر بها عمل دعوة ، فقدَّم إلى الناس خمسة وعشرين خواناً[1] فالوذجاً .

وقال ابن المبارك للفضيل بن عياض : لولاك وأصحابك . . ما اتَّجرتُ .

وكان ينفق على الفقراء في كل سنة مئة ألف درهم .

وقال محمد بن عيسىٰ : كان عبد الله بن المبارك كثير الاختلاف إلىٰ طرسوس ، وكان ينزل الرقة في خان ، وكان هناك شاب يختلف إليه ، ويقوم بحوائجه ، ويسمع منه الحديث ، قال : فقدم ابن المبارك مرة ، فلم ير ذلك الشاب ، وكان مستعجلاً ، فخرج في النفير إلى الغزو ، فلما قدم من غزوته . . رجع إلى الرقة ، فسأل عن ذلك الشاب ، فقالوا : إنه محبوس لدَين ركبه ، فقال : وكم مبلغه ؟ قالوا : عشرة آلاف درهم ، فلم يزل يستقصي حتىٰ دُلَّ علىٰ صاحب المال ، فدعا به ليلاً ، ووزن له عشرة آلاف درهم عن ذلك الشاب ، وأحلفه : أنه لا يخبر أحداً ما دام عبد الله بن المبارك حياً ، وقال : إذا أصبحت . . فأخرج الرجل من الحبس ، فلما أصبح . . أخرجه من الحبس ، قيل له : إن عبد الله بن المبارك كان هٰهنا وهو يذكرك ، وقد خرج ، فخرج الفتىٰ علىٰ أثره ، فلحقه علىٰ مرحلة أو مرحلتين من الرقة ، فقال له عبد الله : يا فتىٰ ؛ إني لما كنت في الرقة . . لم أرك في الخان ، فقال الفتىٰ : يا أبا عبد الرحمن ؛ كنت محبوساً بدَين ، قال : وكيف كان سبب خلاصك ؟ قال : جاء رجل فقضىٰ عني دَيني ، ولم أعلم به ، فأُخرجت من الحبس ، فقال له عبد الله : احمدِ الله

---

(١) الخوان : ما يؤكل عليه .

عز وجل علىٰ ما وفق لك من قضاء دَينك . ولم يخبر ذلك الرجل أحداً بأمر عبد الله بن المبارك إلا بعد موته رضي الله عنه وأرضاه .

هنيئاً له ، اللهم ؛ ارزقنا رؤياه في الآخرة ، واجمع بيننا وبينه في دار كرامتك يا أرحم الراحمين .

وقال ابن وهب : مر ابن المبارك برجل أعمىٰ ، فقال له : أسألك أن تدعو الله عز وجل أن يرد علي بصري ، قال : فدعا الله عز وجل ، فرد عليه بصره وأنا أنظر .

وقال الحسن بن عرفة : قال ابن المبارك : استعرت قلماً بأرض الشام ، فذَهَبَ عَلَيَّ أن أرده إلىٰ صاحبه ، فلما قدمت مرو . . نظرت ؛ فإذا هو معي في متاعي فرجعت ـ يا أبا علي ـ إلىٰ أرض الشام حتىٰ رددته علىٰ صاحبه .

وقال ابن المبارك : كاد الأدب أن يكون ثلثي الدِّين .

وقال : طلبنا العلم للدنيا ، فدلنا العلم علىٰ ترك الدنيا .

وقال : إن الصالحين فيما مضىٰ كانت أنفسهم تواتيهم على الخير ، فعفوا وعَفُّوا ، وإن أنفسنا لا تكاد تواتينا إلا علىٰ كُره ، فينبغي أن نُكرِهَها . انتهىٰ .

وقال الحسن بن الربيع : ذكرت لعبد الله بن المبارك يوسفَ بن أسباط وما كان عليه من العبادة ، فقال : لقد ذكرت قوماً يستسقىٰ بذِكرهم ، ولٰكن إن فعل الناس جميعهم ذلك . . فمَن لسُنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟! ومَن لعيادة المرضىٰ وشهود الجنائز ؟! وعد أنواعاً من القرب .

وقيل لعبد الله بن المبارك رحمه الله : كيف تعلم الملائكة عليهم السلام أن الإنسان قد هَمَّ بحسنة ؟ قال : يجدون ريحها .

وقال أحمد ابن حنبل : كان عبد الله بن المبارك يطوف بالبيت وهو يقول : فلان قوي وفلان ضعيف .

وقال أبو معاذ القاري : رأيت في المنام كأني أخرج إلىٰ جبانة ، ورأيت جمعاً عظيماً ، فقلت : ما هٰذا ؟ فقالوا : رسول الله صلى الله عليه وسلم يفرض للناس ، فدنوت منه ، فقلت : يا رسول الله ؛ افرض لي ، فقال : « اذهب إلىٰ كاتبي عبد الله بن المبارك » ، فأتيته ، فقلت له : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرك أن تفرض لي ، قال : فكتب اسمي ، قال : فانتبهت وبي من السرور ما الله به عليم . أو كما قال .

وقال ابن المبارك : سمعت محمد بن النصر الحارثي وهو يقول : ثلاث كلمات نفعني الله عز وجل بهن ، إذا ذُكر الصالحون . . كنت عنهم بمعزل ، ولا يستقيم طلب الآخرة إلا بالمبادرة إليها ، وإنما تنتظرون ثلاثاً فما تخلفكم عن العمل ؟! إما نعمة تزول ، وإما مصيبة تنزل ، وإما منية تقضىٰ ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله : عجبت لمن يطلب العلم كيف تدعوه نفسه إلىٰ مكرمة دنيوية ؟!

وكان يقول : إن الرحمة تنزل عند ذكر الصالحين . [انتهىٰ « الصفوة » ٤/٨٩-٩٧] .

وقال شيخ الإسلام النووي ـ رحمه الله ـ : عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي مولاهم ، المَرْوزي ، أبو عبد الرحمن ، الإمام المجمَع علىٰ إمامته وجلالته في كل شيء ، الذي تستنزل الرحمة بذِكره ، وترجى المغفرة بحبه ، وهو من تابعي التابعين .

سمع من هشام بن عروة ، ويحيى الأنصاري ، وسليمان التيمي ، وخلائقَ غيرهم من التابعين ، وخلائقَ من أتباع التابعين ، منهم السفيانان ، ومالك ، وشعبة ، والحمَّادان ، ومسعر ، وآخرون لا ينحصرون .

روىٰ عنه الثوري ، وداوود العطار ، وجعفر بن سليمان ، والفضيل بن عياض ، وأبو إسحاق الفزاري ، وأبو داوود الطيالسي ، ومحمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة ، ويحيى القطان ، وابن مهدي ، وابن وهب ، وعبد الرزاق ، وخلائقُ غيرهم .

وكان أبوه تركياً مملوكاً لرجل من همذان ، وأمه خوارزمية .

وقال أبو أسامة : ما رأيتُ أَطْلَبَ للعلم من ابن المبارك .

رُوِّينا عن الحسن بن عيسىٰ قال : اجتمع جماعة فقالوا : تعالوا نعد خصال ابن المبارك من أبواب الخير ، فقالوا : جمع العلم ، والفقه ، والأدب ، والنحو ، واللغة ، والزهد ، والشعر ، والفصاحة ، والورع ، والإنصاف ، وقيام الليل ، والعبادة ، والسخاء ، والسداد في الرواية ، وقلة الكلام فيما لا يعنيه ، وقلة الخلاف علىٰ أصحابه .

وكان كثيراً ما يتمثل :

وإذا صاحبتَ فاصْحَب ماجداً ذا عفاف وحياء وكرمْ
قائلاً للشيء لا ، إن قلتَ لا وإذا قلتَ نعم قال نعم

وقال العباس بن مصعب : جمع ابن المبارك الحديث ، والفقه ، والعربية ، وأيام الناس ، والشجاعة ، والتجارة ، والسخاء ، والمحبة عند الفرق .

وقال سفيان بن عيينة حين توفي ابن المبارك رحمه الله : لقد كان فقيهاً ، عالماً ، عابداً ، زاهداً ، سخياً ، شجاعاً .

وقال عمار بن الحسن يمدحه :

إذا سار عبد الله من مَرْوَ ليلةً فقد سار منها نورها وجمالُها
إذا ذكر الأخيار من كل بلدة فهم أنجمٌ فيها وأنت هلالُها

وقال عبد الرحمٰن بن مهدي : كان ابن المبارك نسيج وحده .

وقال أيضاً : الأئمة في زمانهم أربعة : الثوري بالكوفة ، ومالك بالحجاز ، وحماد بن زيد بالبصرة ، وابن المبارك بخراسان .

وقال الأوزاعي لأبي عثمان الكلابي : لو رأيتَ ابن المبارك . . لقرَّتْ عينك .

وقال أبو أسامة : ابن المبارك في أصحاب الحديث كأمير المؤمنين في الناس .

وقال أحمد ابن حنبل : لم يكن في زمن ابن المبارك أَطْلَب للعلم منه ، رحل إلى اليمن ، ومصر ، والشام ، والبصرة ، والكوفة .

وكان من رواة العلم ، وأهل لذلك ، كتب عن الصغار والكبار ، وجمع أمراً عظيماً ، وكان صاحب حديث حافظاً .

وقال عبد الرحمٰن ابن أبي جميل : قلنا لابن المبارك : يا عالم المشرق ؛ حدثنا ، فسمعنا سفيانُ الثوري فقال : ويحكم! عالم المشرق والمغرب وما بينهما .

وقال شعيب بن حرب : كنا نأتي ابن المبارك نحفظ عنه ، فما نستطيع أن نتعلق عليه بشيء .

وقال أسود بن سالم : كان ابن المبارك إماماً يقتدىٰ به ، وهو مِن أثبت الناس في السُّنَّة .

وقال محمد بن سعد : طلب ابن المبارك العلم ، وروىٰ روايات كثيرة ، وصنف كتباً كثيرة في أبواب العلم وصنوفه ، وقال الشعر في الزهد والحث على الجهاد ، وسمع علماً كثيراً ، وكان ثقة ، مأموناً ، حجة ، كثير الحديث .

توفي بهِيت لما قفل من الغزو ، سَنة إحدىٰ وثمانين ومئة ، وهو ابن ثلاث وستين سنة .

وقال البخاري رحمه الله : توفي في رمضان من السَّنة المذكورة .

قلت : (هِيت) : مدينة معروفة على الفرات فوق الأنبار .

قال الخطيب : حدث عن ابن المبارك معمر والحسين بن داوود ، وبين وفاتِهما مئة واثنتان وثلاثون سَنة ، وقيل : مئة وثلاثون . انتهىٰ [« التهذيب » ١/ ٢٨٥ـ٢٨٧] .

وقال أبو الفرج في كتابه « مناسك الحج » : كان عبد الله بن المبارك في بعض الثغور ، فكتب إلى الفضيل بن عياض وهو مجاور بمكة :

يا عابدَ الحرمين لو أبصرتنا ... لعَلِمتَ أَنَّك في العبادة تَلعبُ
من كان يخضب خده بدموعه ... فنحورنا بدمائنا تَتخضَّبُ
أو كان يُتعب خيله في باطل ... فخيولنا يوم الصبيحة تتعبُ
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا ... رَهَجُ السنابك والغبارُ الأطيبُ[1]
ولقد أتانا من مقال نبينا ... قول صحيح صادق لا يُكْذَبُ
لا يستوي غبار خيل الله في ... أنف امرىءٍ ودخان نار تَلْهَبُ
هٰذا كتاب الله ينطق بيننا ... ليس الشهيد بميت لا يكذب

فلما قرأ الفضيل كتابه . . ذرفت عيناه ، ثم قال : صدق أبو عبد الرحمٰن ونصحني . انتهىٰ .

وسئل عبد الله بن المبارك عن مسألة بحضرة الإمام سفيان الثوري رحمه الله فقال : أنا لا أجيب بحضرة الأستاذِين .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) **رهج السنابك** : الغبار الذي تثيره أطراف حوافز الخيل وجوانبها .

ومنهم الإمام :

عبد العزيز ابن أبي رَوَّاد
رضي الله عنه

قال النووي ـ رحمه الله ـ : اسم أبي رواد : ميمون ، وعبد العزيز ، يكنىٰ : أبا عبد الرحمن ، وهو خراساني ، ثم مكي أزدي ، مولى المغيرة بن المهلب ابن أبي صفرة .

سمع نافعاً ، وسالماً ، وعكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهما ، ومحمد بن زياد ، وغيرهم .

روىٰ عنه ابنه ، وسفيان الثوري ، وحسين الجعفي ، وأبو عاصم النبيل ، وآخرون .

قال ابن عدي : في بعض حديثه ما لا يتابع عليه ، روىٰ له البخاري حديثاً واحداً .

وقال ابن أبي حاتم : قال يحيى القطان : هو ثقة في الحديث ، لا ينبغي أن يترك حديثه لرأي أخطأ فيه .

وقال أحمد ابن حنبل : هو رجل صالح ، وكان مرجئاً[1] ، وليس هو في التثبت كغيره .

---

(١) قد يطلق الإرجاء علىٰ مذاهبَ :

أ ـ مذهب أبي حنيفة وأصحابه ـ سماهم بذلك المحدثون ـ : عدم دخول الأعمال في الإيمان ، وأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص .

ب ـ مذهب أهل السنة والجماعة ـ سماهم بذلك المعتزلة ـ : تفويض الأمر إلى الله عز وجل في شأن مرتكب الكبيرة إن شاء عذبه ، وإن شاء غفر له .

ج ـ مذهب المرجئة المذمومة : وهو لا تضر المعصية مع الإيمان ، ولا تنفع الطاعة مع الكفر .

ويقول الإمام الذهبي في « لسان الميزان » (٦/ ٤٠٩) : الإرجاء مذهب لعدة من جلة العلماء لا ينبغي التحامل علىٰ قائله . اهـ

ولعل عبد العزيز ابن رواد من هـٰؤلاء الذين قيل فيهم الإرجاء وهو بمعنىٰ ما قاله أبو حنيفة وأصحابه ، ولا أدل علىٰ ذلك مما أورده الذهبي في « السير » (٧/ ١٨٦) قال : سمعت ابن أبي رواد يسأل هشام بن حسان في الطواف : ما كان الحسن يقول في الإيمان ؟ قال : كان يقول : قول وعمل ، قال : فما كان ابن سيرين يقول ؟ قال : كان يقول مفوضاً : آمنا بالله وملائكته ، فقال عبد العزيز مستنكراً : كان ابن سيرين ، وكان ابن سيرين . فقال هشام : بيَّن أبو عبد الرحمـٰن ـ عبد العزيز ـ الإرجاء ، بيَّن أبو عبد الرحمـٰن الإرجاء .

وقال ابن معين : هو ثقة .

وقال أبو حاتم : هو صدوق ، ثقة ، متعبد . انتهىٰ [« التهذيب » ١/٣٠٧] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : قال شقيق : ذهب بصر عبد العزيز ابن أبي رواد عشرين سنة ، فلم يعلم به أهله ولا ولده ، فتأمل ابنه ذات يوم إحدىٰ عينيه ، فقال : يا أبت ؛ ذهبت عينك ؟ فقال : نعم يا بني ، الرضىٰ عن الله عز وجل أذهب عين أبيك منذ عشرين سنة .

وقال شعيب بن حرب : جلست إلىٰ عبد العزيز خمس مئة مجلس ، ما أحسب أن صاحب الشمال كتب عليه شيئاً .

وقال يوسف بن أسباط : مكث عبد العزيز أربعين سنة لم يرفع طَرْفه إلى السماء ، فبينا هو يطوف حول الكعبة ؛ إذ طعنه المنصور بإصبعه في خاصرته ، فالتفت إليه ، وقال : قد علمت أنها طعنة جبار .

وقال عبد العزيز : كان يقال : مِن رأس التواضع الرضىٰ بالدون من شرف المجالس .

وكان يقول : في رأس كل إنسان حكمة آخذ بها مَلَك ، فإن تواضع لربه عز وجل . . رفعه ، وإن تكبر . . وضعه .

وقال رجل لعبد العزيز : كيف أصبحت ؟ فبكىٰ ، فقال : أصبحت ـ والله ـ في غفلة عظيمة عن الموت مع ذنوب كثيرة قد أحاطت بي ، وأجَلُ كل يوم يُسرع في عمري ، ومنقلب لست أدري علىٰ ما يكون من جنة أو نار ، ثم بكىٰ . أو كما قال .

وقال سعيد بن سالم : سمعته قال لرجل : من لم يتعظ بثلاث . . لم يتعظ بشيء : الإسلام ، والقرآن ، والمشيب .

أسند عبد العزيز عن جماعات من كبار التابعين .

وتوفي بمكة سنة تسع وخمسين ومئة . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/١٣٥ـ١٣٦] .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : استقرض عبد العزيز من رجل خمسة آلاف درهم ، فقال له بعد الإقراض : يا أبا عبد الرحمن ؛ جئت أشاورك في أن تقبل مني هـٰذا المال ولا يكون في ذمتك ؛ فإني أحب أن تمُنَّ علي بقَبولك هـٰذا المال ، قال له : جزاك الله خيراً ، هـٰذا المال استقرضناه على الله عز وجل ، فكلما اغتممنا به . . كفَّر الله به عنا ، فإذا جعلتنا في حل . .

كأنه سقط ، ولا أحب أن يسقط من أجرنا شيء ، فذهب ، ثم بعد مدة توفي رَبُّ المال إلىٰ رحمة الله تعالىٰ ، فجاء أولاده يطلبون المال ، فقال لهم : إلى الموسم إن شاء الله تعالىٰ ، ثم سأل ربه عز وجل أن يقضيه عنه ، فما كان بأسرع من أن قَدِم غلام له كان غائباً ، ومعه عشرة آلاف درهم ، فدفعها إلىٰ أولاد رَبِّ المال ، فقالوا : نحن ما لنا إلا خمسة ، فقال : صدقتم ، خمسة دَين أبيكم ، وخمسة لإخائه لي ، وألزمَهم بقَبولها ، فقبلوها ، وقال للغلام : اذهب ، فأنت حر لوجه الله سبحانه وتعالىٰ ، وما معك . . لك .

وقال عبد العزيز : دخلت على المغيرة بن حكيم في مرض موته ، فقلت له : أوصني ، فقال : اعمل لهـٰذا المضجع .

ومن أحاديثه : عن نافع ، عن ابن عمر رضي الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أعرض عن صاحب بدعة بوجهه بغضاً له لله سبحانه وتعالىٰ . . ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً ، ومن أشهر صاحب بدعة . . أمَّنه الله يوم القيامة الفزع الأكبر ، ومن سلم علىٰ صاحب بدعة ولقيه بالبشرىٰ واستقبله بما يسر . . فقد استخفَّ بما أنزل علىٰ محمد صلى الله عليه وسلم »[1] زاد في رواية أخرىٰ : « من أهان صاحب بدعة . . رفعه الله تعالىٰ درجة في الجنة » .

وعنه عن عطاء ، عن أبي هريرة رضي الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المتمسك بسُنتي عند فساد أمتي . . له أجر شهيد »[2] حديث غريب . انتهىٰ [« الحلية » ٨/ ١٩١ـ٢٠٠] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرجه بنحوه الديلمي (٣/ ٥٦٧) .

(٢) أخرجه بنحوه البيهقي في « الزهد » (٢/ ١١٨) .

ومنهم الإمام :

محمد بن صبيح بن السماك
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : قال ابن السماك ليحيى بن خالد : إن الله عز وجل ملأ الدنيا من اللذات ، وحشاها بالآفات ، ومزج حلالها بالمؤونات ، وحرامها بالتبعات .

وقال ابن السماك : الناس ثلاثة : زاهد ، وصابر ، وراغب .

فأما الزاهد : فإنه لا يفرح بما أوتي فيها ، ولا يحزن علىٰ ما فاته منها .

وأما الصابر : فهو في الظاهر زاهد ، وفي الباطن ليس بصابر ولا زاهد .

وأما الراغب : فأولـٰئك في خوض يلعبون ، مفتضحون لا يشعرون .

وقال : همة العاقل في النجاة والهرب ، وهمة الأحمق في اللهو والطرب .

وقال محمد بن سعيد الأصبهاني : سمعت ابن السماك يقول في مجلسه : حتىٰ متىٰ يبلغنا الواعظون أعلام الآخرة ؟ حتىٰ والله لكأن الأنفس منا عليها واقفة ، وكأن العيون إليها ناظرة ، أفما منتبه من نومته ؟ ولا مستيقظ من غفلته ؟ ولا مفيق من سكرته ؟ ولا خائف من صرعته ؟ الوحا الوحا[1] ، أما تجعل للآخرة منك حظاً ، أقسم بالله ؛ لو رأيت القيامة تخفق بزلازل أهوالها ، وقد علت النار مشرفة علىٰ أهلها ، وقد وضع الكتاب ، ونصب الميزان ، وجيء بالنَّبِيِّين والشهداء . . لسرَّك أن يكون لك في ذلك الجمع يومئذ منزلة وزلفىٰ ، أَبَعْدَ الدنيا دار معتمل أم إلىٰ غير الآخرة منتقل ؟ هيهات هيهات! كلا والله ، ولـٰكن صمَّت الآذان عن المواعظ ، وذهلت القلوب عن المنافع ، فلا الواعظ يُتَّبع ، ولا الموعوظ ينتفع بما يسمع .

وكتب ابن السماك إلىٰ أخ له في الله عز وجل : كتبت إليك وأنا مسرور مستور ، وأنا بهما مغرور ، ذنب قد ستره الله سبحانه وتعالىٰ عليَّ فقد طابت النفس به كأنه مغفور ، ونِعَمٌ أبلاها

---

(١) الوحا : الإسراع .

فأنا بها مسرور، كأني فيها علىٰ تأدية الحقوق مشكور ، فليت شعري ما عواقب هـٰذه الأمور ؟

وقال ابن السماك : يابن آدم ؛ ألم يأن لك أن تطيع الله سبحانه وتعالى الذي من كرمه لم يُبلِّغ الحاسدين لك آمالهم فيك ؟ أمَا وعزته وجلاله ؛ لو بَلَّغ الحاسدين لك آمالهم فيك . . لجعلك نكالاً وعبرة . أو كما قال .

وقال : هب أن الدنيا كلها في يديك ، ودنيا أخرىٰ مثلها ضمت إليك ، هب أن المشرق والمغرب يجيء إليك ، فإذا جاءك الموت . . فماذا في يديك ؟!

وقال : كم من مذكِّر لله عز وجل ناسٍ له! وكم من مخوِّف من الله عز وجل جريء على الله سبحانه وتعالىٰ! وكم من داعٍ إلى الله عز وجل فارٍّ من الله عز وجل! وكم من تالٍ لكتاب الله تعالىٰ وهو منسلخ من آيات الله تعالىٰ! والسلام .

وقال : استر أعمالك عن نفسك ، ثم قبحها جهدك بعقلك ، لعلك تدعوك بقبيحها إلىٰ ترك معاودتها ، **واعلم** : أنك لو قبحتها جهدك . . فليس تبلغ غاية قبحها عند ربك سبحانه وتعالىٰ ، فسله أن يمُنَّ عليك بعفوه وتمام ستره .

وكان يقول : تغدو وتروح في كسب الأرباح ، فاجعل نفسك مما تكسبه ؛ فإنك ـ والله ـ لن تكسب مثلها .

وقال : لا يغرنك سكون هـٰذه القبور ، فما أكثر المغمومين فيها! ولا يغرنكم استواؤها ، فما أشد تفاوتهم فيها!

وقال ابن السماك : خرجت من العراق إلىٰ بعض الثغور ، فرأيت في جبل لكام عابداً ، فسلمت عليه ، فرد عليَّ السلام ، ثم تأوَّه ، فقلت : ممَّ تأوُّهك ؟ فقال : ذكرت عيش المستريحين ، وفرحة قلوب الواصلين ، فقلت له : ما دليل الخوف ؟ قال : الحزن ، قلت : فما دليل الشوق ؟ قال : الطلب ، قلت : فما دليل الرجاء ؟ قال : العمل ، قلت : فمِن أين ضعُفْنا ؟ قال : لأنكم وثقتم بعفو الله عز وجل عنكم ، ولو عاجلكم بالعقوبة . . لهربتم من معصيته إلىٰ طاعته ، ولـٰكن حلمه وستره سبحانه وتعالىٰ حملكم علىٰ معصيته ، ثم أنشأ يقول :

إن كنت تفهم ما أقول وتعقلُ ... فارحل بنفسك قبل أن بك يُرحَلُ
وذر التشاغل بالذنوب وخَلِّها ... حتىٰ متىٰ وإلىٰ متىٰ تتعللُ

وقال ابن السماك : أصبحت الخليقة علىٰ ثلاثة أصناف :

ـ تائب من الذنب موطِّن نفسه علىٰ هجران ذنبه ، لا يريد أن يرجع إلىٰ شيء من سيئه ، فذلك المبرز[1] .

ـ وصنف يُذنِب ، ثم يندم ويحزن ، ويذنب فيبكي ، فهـٰذا يرجىٰ له ، ويُخاف عليه .

ـ وصنف يذنب ، ولا يندم ولا يحزن ، ويذنب فلا يبكي ، فهـٰذا الخائن الجائز عن طر يق الجنة إلى النار .

وقال ابن السماك : دخلت البصرة ، فقلت لرجل : دُلَّني علىٰ رجل ، فقال : هـٰهنا ابن عجوز ، فدخلت علىٰ شاب منكِّس الرأس ، طويل الصمت ، فقالت لنا عجوز : لا تذكروا لابني شيئاً من جنة ولا نار ، فتقتلوه ، فرفع الشاب رأسه إلينا ، ونظر ، ثم قال : إن للناس موقفاً لا بد أن يقفوه ، قال : قلت : بين يدي مَن رحمك الله تعالىٰ ؟ قال : فشهق شهقة ، فمات ، قال ابن السماك : فقالت العجوز : قتلتم ولدي ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، فجهزناه ، وصلينا عليه رحمه الله تعالىٰ .

وعزَّى ابن السماك رجلاً فقال له : إن المصيبة واحدة ، إن جزع أهلها وإن صبروا ، ولـٰكن المصيبة بذهاب الأجر أعظِم من المصيبة بالميت .

وبعث هارون الرشيد إلى ابن السماك ، فدخل عليه وعنده يحيى بن خالد البرمكي ، فقال يحيىٰ : إن أمير المؤمنين أرسل إليك لِمَا بلغه من صلاح عنك في نفسك ، وكثرة ذِكر منك لربك عز وجل ، ودعائك للعامة ، فقال ابن السماك : أمَّا ما بلغ أمير المؤمنين من صلاح عنا في أنفسنا . . فذلك بستر الله عز وجل علينا ، فلو اطلع الناس علىٰ ذنب من ذنوبنا . . لما أَقدَم قلب لنا علىٰ مودة ، ولا جرىٰ فينا لسان بمدح ، وإني لأخاف أن أكون بالستر مغروراً ، وبمدح الناس لي مفتوناً ، وإني لأخاف أن أهلك بهما وبقلة الشكر عليهما ، فدعا الرشيد بدواة ، وكتب هـٰذا الكلام .

وقال ابن السماك : من أذاقته الدنيا حلاوتها لميله إليها . . جرَّعته الآخرة مرارتها ؛ لتجافيه عنها .

ولما حضرت ابن السماك الوفاة . . قال : اللهم ؛ إني وإن كنت أعصيك . . لقد كنت أحب فيك من يطيعك ، وأنت أعلم . أو كما قال .

أسند ابن السماك عن عدة من التابعين . انتهىٰ [« الحلية » ٨/٢٠٣ـ٢١١] .

---

(١) المبرز : الفائق علىٰ أقرانه ، وفي نسخة : (الفائز) .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : قال يحيى بن خالد البرمكي لابن السماك : إذا دخلت علىٰ أمير المؤمنين هارون الرشيد . . فأوجز ، ولا تكثر عليه ، فلما دخل . . قال : يا أمير المؤمنين ؛ إن لك بين يدي الله عز وجل مقاماً ، وإن لك من مقامك منصرفاً ، إما إلىٰ جنة ، وإما إلىٰ نار ، فانظر كيف يكون منصرفك ، فبكىٰ هارون بكاء شديداً .

وقال : من امتطى الصبر . . قوي على العبادة ، ومن أجمع اليأس . . استغنىٰ عن الناس ، ومن أهمَّتْه نفسه . . لم يُوَلَّ مَرَمَّتَهَا[1] غيره ، ومن أَحب الخير . . وُفِّق له ، ومن كره الشر . . جُنِّبَهُ ، ومن رضي بالدنيا من الآخرة حظاً . . فقد أخطأ حظ نفسه .

وكتب إلىٰ أخ له في الله عز وجَلَّ :

أما بعد : فإني أوصيك بتقوى الله عز وجل الذي هو نجيك في سريرتك ، ورقيبك في علانيتك ، فاحذره كل الحذر ، وخَفْ منه سبحانه وتعالىٰ بقدر قربه منك وقدرته عليك سبحانه وتعالىٰ .

وقال ابن السماك : إن استطعت أن تكون كرجل قد ذاق الموت ، وعاين ما بعده ، ثم سأل الرجعة ، فأُسعف بطلبته ، فهو متأهب مبادر . . فافعل ؛ فإن المغبون : من لم يقدم عملاً صالحاً وماله بين يديه .

توفي بالكوفة سَنة ثلاث وثمانين ومئة . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/٨٩ـ٩٠] .

وقال ابن السماك : بلغنا أن الميت إذا عُذب أو أصابه بعض ما يكره . . ناداه جيرانه من الموتىٰ : أيها المخلَّف بعدنا في الدنيا وبعد جيرانه وإخوانه وأهله ؛ أمَا كان لك فينا معتَبَراً ؟! أمَا كان لك في تقدمنا إياك فكرة ؟! أما رأيت انقطاع أعمالنا وأنت في مهلة ؟! قال : وتناديه بقاع القبور : أيها المغتر بظاهر الدنيا ؛ هلا اعتبرت بمن غُيِّبَ من أهلك في بطن الأرض ممن غرته الدنيا قبلك ، ثم سبق به أجله إلى القبور ، وأنت تراه محمولاً يهادىٰ بين أحبته إلى المنزل الذي لا بد له منه .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) **مَرَمَّتها** : إصلاحها .

ومنهم الإمام :

أبو عبد الرحمٰن محمد بن النَّضر الحارثي
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال أبو أسامة : كان محمد بن النضر من أعبَدِ أهل الكوفة .

وقال محمد بن النضر : قرأت في بعض الكتب : أيها الصديقون ؛ بي فافرحوا ، وبذِكري فتنعموا .

وقال : أول العلم الإنصات له ، ثم الاستماع له ، ثم حفظه ، ثم العمل به ، ثم بثه .

وقال عبد الله بن المبارك : كنت مع محمد بن النضر في سفينة ، فقلت : بأي شيء أستخرج منه الكلام ؟ فقلت : ما تقول في الصوم في السفينة ؟ فقال : إنما هو المبادرة[1] ، قال : فجاء بفتوىٰ غير فتوى النخعي والشعبي .

قال شهاب بن عباد : صحبت محمد بن النضر إلىٰ عبادان ، فلم يتكلم إلا بثلاث : إحداهن : قال لرجل : أحسن صلاتك .

وقال : شغل الموت قلوب المتقين عن الدنيا ، فو الله ؛ ما رجعوا إليها في سرور بعد معرفتهم بكربه وغصصه .

وكان إذا ذكر الموت . . اضطربت مفاصله حتىٰ تتبين الرعدة فيه .

وكان كثير العبادة والصلاة سفراً وحضراً ، لا يكاد يفتر عنها ، راقبه شخص أربعين يوماً وليلة ، فما رآه نائماً ليلاً ولا نهاراً ، وكان قد جعل علىٰ نفسه ألاَّ ينام قبل موته بثلاث سنين ، إلا ما غلبته عيناه .

وقال يوسف بن أسباط : شهدت غسله حين مات ، فلو كُشط كل لحم عليه . . ما بلغ رطلاً بالعراقي .

---

(١) أي : أن يصوم ولو كان في السفينة مسافراً .

وكان محمد بن النضر إذا أصبح . . يقول : غدا كل امرىء إلىٰ سوقه ، والتمس المتقون فضل الربح لديك يا أكرم الأكرمين .

وكان لا يخرج من مسجده حتىٰ يتعالى النهار ، فيقال له : إن للناس إليك حوائج ، فيقول : وأنا لي إلى الله سبحانه وتعالىٰ حوائج .

وقال : ما من عامل يعمل لله عز وجل في دار الدنيا . . إلا وله عامل يعمل في الدرجات في الآخرة ، فإذا أمسك . . أمسكوا ، فيقال لهم : مالكم قصرتم ؟ فيقولون : صاحبنا لاهٍ .

وقال في قوله عز وجل : ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ قال : يقول الله سبحانه وتعالىٰ : أنا أهل أن يتقيني عبدي ، فإن لم يفعل . . كنت أهلاً أن أغفر له .

وقال المعافى بن عمران رحمه الله : قال رجل لمحمد بن النضر : أين أعبُدُ الله عز وجل ؟ قال : أصلِح سريرتك ، واعبده حيث شئت .

وكان يقول في الركوع : سبحان ربي العظيم وبحمده ، حمداً خالداً مع خلودك ، حمداً لا انتهاء له دون علمك ، حمداً لا ابتداء له دون مشيئتك ، حمداً لا جزاء لقائله دون رضاك .

وكان من المجدين في العبادة ، فقلَّتْ روايته ، وحُفظ عنه أحاديث لم يَذكُر لها إسناداً ، وإنما ذكرها إرسالاً .

فمما رواه : عن الأوزاعي قال : كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم : « اللهم ؛ إني أسألك التوفيق لمحابِّك من الأعمال ، وصدق التوكل عليك ، وحسن الظن بك »[1] . انتهىٰ [« الحلية » ٨/٢١٧ـ٢٢٤] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : قال أبو أسامة : قلت لمحمد بن النضر : كأنك تكره أن نراك ، قال : أجل ، قلت : أما تستوحش ؟ قال : كيف أستوحش وهو سبحانه وتعالىٰ يقول : أنا جليس من ذكرني ؟!!

وقال محمد بن النضر : الجوع يبعث على البر كما تبعث البطنة على الأشر . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/٧٩ـ٨٠] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرجه المقريزي في « مختصر كتاب الوتر » (١/١٤٦) .

ومنهم الإمام :

محمد بن يوسف الأصبهاني
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال يحيى بن سعيد القطان : ما رأيت رجلاً أفضل من محمد بن يوسف الأصبهاني .

وعن عطاء بن مسلم قال : كان محمد بن يوسف يختلف إلي عشرين سَنة لم أعرفه ، يجيء إلى الباب فيقول : رجل غريب يسأل عن شيء ، ثم يخرج ، حتىٰ رأيته يوماً في المسجد ، فقيل لي : هـٰذا محمد بن يوسف ، فقلت : هـٰذا يختلف إلي منذ عشرين سَنة لم أعرفه .

وقال ابن المبارك لابن إدريس : إني أريد الثغر ، فدلني علىٰ أفضل رجل بها ، فقال : عليك بمحمد بن يوسف ، قلت : فأين يسكن ؟ قال : المصيصة ، ويأتي السواحل ، فقدم ابن المبارك المصيصة ، فسأل عنه ، فلم يُعرف ، فقال ابن المبارك : من فضله أنه لا يُعرف ، قال : ثم طلبه في المسجد ، فوجده .

وقال أحمد بن عصام : بلغني أن ابن المبارك كان يسمي محمد بن يوسف : عروس الزهاد والعباد .

وقال عبد الرحمـٰن بن مهدي : سمعت محمد بن يوسف يقول : ما يسرني أن أراضيكم هـٰذه كلها لي بفلسين .

قال : وخرج إلىٰ مكة ومعه مئة دينار ، وما كان معه في محمله إلا كساء[1] .

وقال محمد بن يوسف : كنت بقزوين أو بالري ، فلما أردت الخروج منها . . جاءني رجل وقال : لي إليك حاجة ، قلت : ما حاجتك ؟ قال : إن لي بنتاً ومالي من ولد غيرها ، ولي هـٰذه الضياع ، وقد أردت أن أزوجك ابنتي وأُشهِد لك بجميع ضِياعي ، ثم أخرج أنا

---

(١) في نسخة : (كتباً) .

وأنت إلىٰ أي بلد شئت ، إن شئت مكة ، وإن شئت المدينة ، حتىٰ تقيم بها ، قلت : عافاك الله ، لو أردتُ هـٰذا الأمر . . لفعلته منذ زمان ، فقيل لمحمد بن يوسف : وما الذي منعك من ذلك ؟ قال : كرهت أن يشغلني عما هو أنفع منه ، قال : وما كنت أصنع بضِياعه وأنا قد تركت ما ورثت عن أبي من ضياعه ؟!

وقال ابن مهدي : انحدر محمد بن يوسف إلىٰ عبادان في غير شهر رمضان ، فوجدها خالية ، فجعل يقول :

خلا لك الجو فبيضي واصفري

وكان يقول لنفسه : هب أنك قاض ، فكان ماذا ؟ هب أنك مُفتٍ ، فكان ماذا ؟ هب أنك محدِّث ، فكان ماذا ؟

وقال محمد بن يوسف : ما واردٌ يرد علي أحب إلي من الموت .

وقال عبد الرحمـٰن بن مهدي : كان محمد بن يوسف لا يضع جنبه بالليل .

وقال صالح بن مهران : كنت مع محمد بن يوسف ، فلقيه نصراني ، فسلم عليه وأكرمه ، فأنكرت عليه ، فلما ذهب . . قلت له : أتصنع مثل هـٰذا الصنيع بنصراني ؟! فقال : إنك لا تدري ما صنع هـٰذا بأخي ، قلت : وما الذي صنع ؟ قال : هـٰذا رجل من أهل الرقة ، نزل أخي ومعه تسعة من العُبَّاد قرية لهم ، فقال لغلامه : انظر من في القرية ، فنظر ، ثم رجع إليه ، وقال : في القرية قوم في وجوههم سيما الخير ، قال : فجاء ، فنظر إليهم ، فتوسم فيهم الخير ، فراح إلىٰ منزله ، وحمل إليهم مئة ألف درهم ، فوصلهم بها ، وقال : استعينوا بها علىٰ ما أنتم فيه ، قال : فأبىٰ كل واحد منهم أن يقبل منه شيئاً ، فلعل الله عز وجل أن يهديه للإسلام بهـٰذه النية .

وكان محمد بن يوسف مجاب الدعوة ، يأتيه من عند أهله كل سَنة سبعون ديناراً أو نحوها ، فيأخذ علىٰ طريق الساحل ، ويأتي مكة ، ثم يرجع إلى الثغر فينفقها .

وسأل محمد بن يوسف عن جماعة منهم محمد بن النضر وابن المبارك ، فقيل له : ماتوا ، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، مضىٰ هـٰؤلاء لسبيلهم إلىٰ رحمة الله عز وجل ، وبقينا نحن في حشوش هـٰذه الدنيا .

وقدم محمد بن يوسف المصيصة ، وكان قد مات أبو إسحاق الفزاري رحمه الله ، فسأل عن قبره ، فدلوه عليه ، فوقف علىٰ قبره ورأىٰ فرجة بين قبره وقبر مخلد بن الحسين ،

فقال : ما أحسن موضع هـٰذا القبر لمؤمن أو مسلم ، إن مِتُّ . . فادفنوني إلىٰ جنبه ، قال : فما بات ليلته تلك إلا محموماً ، فما أتت عليه عشرة أيام أو نحوها ، حتىٰ دفن في ذلك الموضع الذي أشار إليه .

وكان محمد بن يوسف كثيراً ما يقول :

ومُـرَّ بـدار المُتـرَفيـن وقـل لهـم ألا أيـن أربـاب المـدائـن والقـرىٰ
ومُـرَّ بـدار العـابـديـن وقـل لهـم أَلاَ قَطَع الموتُ التنصُّبَ والأذىٰ[1]

وقال الحسن بن عمرو مولىٰ عبد الله بن المبارك : ما رأيت ابن المبارك أعجبه إنسان قط ممن كان يأتيه مثل إعجابه بمحمد بن يوسف ، كان كالعاشق له .

وقال أحمد بن عصام : بلغني أن ابن المبارك أتاه قوم بمكة ، فسألوه عن حديث ، فامتنع ، وقال : نهاني عنه محمد بن يوسف .

وكان محمد بن يوسف في سفر ، فلدغت العقرب بعض أصحابه ، فجعل يصيح ويتمرغ ، فوضع محمد يده علىٰ ذلك الموضع ، وقرأ عليه شيئاً ، فسكن في الحال ، فسئل : ما الذي قرأ عليه ؟ فقال : (فاتحة الكتاب) .

وكان لا يشتري زاده من خباز واحد ، ولا بقال واحد ، وقال : لعلهم يعرفوني ، فيحابوني ، فأكون ممن يعيش بدِينه .

وقال : الدنيا عصمة الله أو الهلكة ، والآخرة عفو الله أو النار .

وذكروا الإخوان عند محمد بن يوسف فقال : وأين مِثْلُ الأخ الصالح ؟! أهلك يقتسمون ميراثك ، وهو قد تفرد بحزنك يدعو لك وأنت بين أطباق الثرىٰ .

وقال له شخص : أوصني ، فقال : إن استطعت ألاَّ يكون شيء أهم إليك من ساعتك . . فاغتنمها ولا تغفل عنها ، إنك إن اغتنمتها . . اشتغلت عن غيرها .

وقال : لقد خاب من كان حظه من الله عز وجل الدنيا .

وأوصىٰ بعضَ أصحابه فقال : إن استطعت أن تختم عمرك بحجة . . فافعل ؛ فإن أدنىٰ ما يروىٰ في الحج أنه يرجع كيوم ولدته أمه .

---

(١) جاء في رواية أخرىٰ (العنىٰ) بدل (الأذىٰ) .

وفي رواية أخرىٰ : أنه قال : لم يبق علىٰ وجه الأرض عمل أفضل من الطواف بهـٰذا البيت .

وكان محمد بن يوسف لا يُوقَد في بيته سراج ، وكان جيرانه يرون من خارج البيت الضوء عنده ، وهو لا يعلم أنهم رأوه ، فلما علم أنهم قد عرفوا . . انتقل من تلك الدار .

وكان الفضيل يشتهي لقاء محمد بن يوسف ، ومحمد بن يوسف يشتهي لقاء الفضيل بن عياض ، فالتقيا في بعض أزقة البصرة ، فقال الفضيل : محمد بن يوسف ؟ وقال محمد بن يوسف : الفضيل بن عياض ؟ فشهق ذا شهقة ، وشهق ذا شهقة ، فخرَّا مغشيّاً عليهما ، فعُرف الفضيل فحمل ، ومحمد بن يوسف لم يُعرف ، فما زال مغشياً عليه حتىٰ حميت عليه الشمس ، فأفاق .

وكتب إلىٰ أخ له : **أما بعد** : فإني أوصيك بتقوى الله عز وجل ، جعلنا الله تعالىٰ ـ يا أخي ـ وإياك من المتقين ، خذ من دنياك القوت الذي لا بد منه ، وبادر الفوت ، وقصِّر الأمل ، وبالغ في العمل ؛ فإن بين أيدينا أهوالاً أفزعت الأنبياء والرسل . والسلام .

وقال : إذا كان يحزنك ما ترىٰ من نفسك . . فقلبك حي بعد .

وقال : ليس هـٰذا زمان ينبغي فيه الفضل ، هـٰذا زمان ينبغي فيه السلامة .

زاد في راوية : أنهم بعثوا إليه بمال ليفرقه في المجاهدين ، فلم يفعل ، ثم قال هـٰذا الكلام .

وقال : لو أن رجلاً سمع برجل أطوع لله عز وجل منه أو عرفه . . لكان ينبغي أن يحزنه ذلك .

وفي رواية : فانصدع قلبه . . لم يكن ذلك بعجب .

وكتب محمد بن العلاء بن المسيب من البصرة إلىٰ محمد بن يوسف كتاباً أعجبه كثيراً ، وإذا فيه : يا أخي ؛ من أحب الله عز وجل . . أحب ألاَّ يعرفه أحد .

وكان لا ينام شتاء ولا صيفاً بالليل ، لـٰكن في ليالي الشتاء حين يطلع الفجر يتمدد من جلوس ، ثم يقوم ويتوضأ ، وكنت تنظر في وجهه بعدما يصبح كأنه وجه عروس .

وكان يقول : الحقد والدِّين لا يجتمعان .

وقال لرجل ـ وقد رآه في الحرم ـ : احذر أن يراك الله عز وجل وأنت تخدع الناس في حرمه ، فيمقتك .

وقال يوسف بن محمد لمحمد بن يوسف : لِمَ لا تقيم بمكة ؟ فقال محمد بن يوسف : لأَن تشتاق إليها . . أحب إلي من أن تشتاق منها .

وقال عبد الرحمٰن بن مهدي : حج ابني إبراهيم ، فلقي محمد بن يوسف ، فقال له : أقرىء أباك السلام ، وقل له : هُنْ ، قال : فلما رجع ابني . . أخبرني بقوله ، فصرت كذا وكذا شهراً شبه المريض من مقالة محمد ، أقول في نفسي : رجل مثل هٰذا عسىٰ أن يكون بلغه عني شيئاً ، أو رأىٰ رؤيا ، ولا زلت كذا حتىٰ قدم علينا ، فقلت له : يا أبا عبد الله ؛ أخبرني ابني بكذا ، فقال محمد : بلغني أنك جلست تحدث الناس ، قال : فقلت له : إن أحببتَ . . حلفتُ لك ألاّ أحدث بحديث أبداً ، فقال : حدث الناس وعلمهم ، ولٰكن انظر إذا اجتمع الناس حولك . . كيف يكون قلبك .

وقال : قال عبد الله بن مسعود : عنوان صحيفة المؤمن يوم القيامة . . هو الثناء الحسن .

ووقف محمد بن يوسف علىٰ قاض يَحِيد[1] ، فجعل يتغير وينقطع لونه ، وهو يردد دموعه بجهده ، فدنوت منه ، فقلت : يا أبا عبد الله ؛ لو أرسلت ؟ فقال : هو للحزن أكمَدُ ، وكان يتمثل بهٰذا البيت :

إذا كنت في دار الهوان فإنما ... يُنَجِّيك من دار الهوان اجتنابها

وكتب إلىٰ أخ له : سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو .

أما بعد : فإني محذرك متحوَّلك من دار مهلتك إلىٰ دار إقامتك وجزاء أعمالك ، فتصير في قرار باطن الأرض بعد ظاهرها ، فيأتيك منكر ونكير عليهما الصلاة والسلام من الله عز وجل ، فيقعدانك وينهرانك ، فإن يكن الله معك . . فلا بأس ولا وحشة ولا فاقة ، وإن يكن غير ذلك . . فأعاذني الله تعالىٰ وإياك من سوء مصرع ، وضيق مضجع ، ثم تتبعك صيحة الحشر والنفخ في الصور ، وبروز الجبار جل جلاله لفصل القضاء بين الخلائق ، فخلت الأرض من أهلها ، والسماوات من سكانها ، وسعرت النيران ، ووضع الميزان ، وجيء بالنبيين والشهداء ، وقضي بينهم بالحق ، وقيل : الحمد لله رب العالمين ، فكم من مفتضح

---

(١) في نسخة : (قاصّ يعظ الناس) .

ومستور ؟! وكم من هالك وناج ؟! وكم من معذَّب ومرحوم ؟! فيا ليت شعري ما حالي وحالك يومئذ ، ففي هـٰذا ما هدم اللذات ، وسَلَّىٰ عن الشهوات ، وقصر الأمل ، وأيقظ النائم ، وحذر الغافل ، أعاننا الله تعالىٰ وإياك علىٰ هـٰذا الخطر العظيم ، وأوقع الدنيا والآخرة من قلبي وقلبك موقعها من قلوب المتقين ، فإنما نحن به وله السلام .

وكان محمد بن يوسف ممن عظمت عنايته ، فقلَّتْ روايته .

وروىٰ عن يونس بن عبيد ، والأعمش ـ وهما من التابعين ـ والحمَّادَين ، والثوري ، ولم يسند عن أحد منهم بل أرسل عنهم إرسالاً . انتهىٰ [« الحلية » ٨/ ٢٢٥ـ٢٣٧] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : توفي محمد يوسف سنة أربع وثمانين ومئة ، ولم يبلغ أربعين سنة . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ٥٥] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

يوسف بن أَسباط

رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : دخل طبيب علىٰ يوسف بن أسباط وهو ضعيف ، فقال : ليس عليك بأس ، فقال له : وددت أن الذي تخافه كان الساعة .

وقيل ليوسف بن أسباط : ما غاية الزهد ؟ فقال : ألاَّ تفرح بما أقبل ، ولا تأسف علىٰ ما أدبر ، قلت : فما غاية التواضع ؟ قال : أن تخرج من بيتك ، فلا تلقىٰ أحداً . . إلا رأيت أنه خير منك .

وقال يوسف : لو أن رجلاً في ترك الدنيا مثل أبي ذر وسلمان وأبي الدرداء . . ما قلتُ : إنه زاهد ؛ لأن الزهد لا يكون إلا في الحلال المحض ، والحلال المحض لا يُعرف اليوم .

وقال : إن طلب الحلال فريضة ، والصلاة في الجماعة سُنة .

وقال : الزهد في الرياسة أشد من الزهد في الدنيا .

وقال : يُرزق الصادق ثلاث خصال : الحلاوة ، والملاحة ، والمهابة .

وأقام أربعين سنة لم يملك سوىٰ قميصين .

وقال يوسف بن أسباط : مكث الحسن ثلاثين سَنة لم يضحك ، وأربعين سَنة لم يمزح .

قال : وكان الحسن يقول : لقد أدركت أقواماً ما أنا عندهم إلا لص .

وقال : من دعا لظالم بالبقاء . . فقد أحب أن يُعصى الله تعالىٰ .

وقال : إن الدنيا لم تخلق ليُنظَر إليها ، إنما خلقت ليُنظَر بها إلى الآخرة .

وقال أحمد بن يوسف : قلت لأبي : يا أبت ؛ أكان مع حذيفة المرعشي علم ؟ قال : يا بني ؛ كان معه العلم الأكبر ، خشية الله عز وجل .

وقال : لا يقبل الله عز وجل عملاً فيه مثقال حبة من رياء .

وقال : كانوا يستحيون أن يسألوا الله عز وجل الرضا عنهم ، إنما يسألون الله عز وجل العفو .

وكان يقول : اللهم ؛ عرفني نفسي ، ولا تقطع رجاءك من قلبي .

وقال : العارف بنفسه : الذي يخاف من حسناته ألاَّ تقبل منه ، قال الله عز وجل : ﴿ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ قال : يعطون ما أعطوا وهم يخافون ألاَّ تقبل منهم . انتهىٰ [« الحلية » ٨/ ٢٣٧ـ٢٤١] .

وقال في كتاب « التوابين » : قال يوسف بن أسباط : ورثت عن أبي ضِياعاً بخمس مئة ألف بالكوفة ، فجرىٰ بيني وبين عمومتي كلام ، فشاورت الحسن بن صالح ، فقال لي : ما أرىٰ لك أن تحاكمهم ، إنها من أرض الخراج . فتركتها لله عز وجل ، وأنا محتاج إلىٰ فلس . أو كما قال .

قال : وحصل له ضعف ، فدعَا الطبيب ـ وكان يعالج الملوك ـ فعالجه حتىٰ صح في مدة يسيرة ، فقال يوسف لأصحابه وأهله : أي شيء تعطونه ؟ قالوا : قد قال إنه لا يأخذ منك شيئاً ، فقال : سبحان الله! جئتم بطبيب الملوك ، ولا أعطيه شيئاً ؟! فقالوا : نعطيه ديناراً ، فقال : لا ، ولـٰكن خذ هـٰذا ، فادفعه إليه ، وأعلمه : أني لا أملك غيره ، إذ لو كان عندي غيره . . لأعطيته ؛ لئلا يتوهم أني أقل مروءة من الملوك ، فدفع إليَّ صرة فيها خمسة عشر ديناراً ، قال : فأخذتها ، فدفعتها إليه ، قال : وجعل يعمل الخوص بيده حتىٰ مات .

وكتب محمد بن سمرة السائح إلىٰ يوسف بن أسباط : يا أخي ؛ لا تؤمِّنَّ التسويف علىٰ نفسك ، ولا تمكنه من قلبك ؛ فإنه محل الضلال ، وبه تنقطع الآمال ، وفيه تنقطع الآجال ، فبادر ـ يا أخي ـ فإنك مبادَر بك ، وأسرِع فإنك مسرَع بك ، وجِدَّ فإن الأمر جِدٌّ ، وتيقظ من رقدتك ، وانتبه من غفلتك ، وتذكر ما أسلفت وقصرت وفرطت ؛ فإنه مثبت عليك ، فكأنك بالأمر وقد بغتك فاغتبطت بما قدمت ، وندمت علىٰ مافرطت ، وعليك بالحياء والمراقبة والعزلة وقلة الملاقاة ؛ فإن السلامة في ذلك موجودة ، وفقنا الله وإياك لأرشد الأمور ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . [انتهىٰ « التوابين » ٢٨٢ـ٢٨٣] .

وقال الحافظ ـ [رحمه الله ـ : قال أبو جعفر الحذاء : كتبت إلىٰ يوسف بن أسباط أُشاوره في المُقام بالحجاز ، فكتب إلي : ليكن همُّك خيرك ، وما أرىٰ موضعك إلا أضبط للخير ، وما أحسب أحداً يفر من الشر إلا وقع في أشد منه ، وإنما يطيب الموضع بأهله ، فقد ذهب

من يؤنس به ويستراح إليه ، وإذا علم الله عز وجل منك الصدق . . رجوتُ أن ينفعك الله تعالىٰ بذلك ، ولٰكن الصدق قد رفع من الأرض .

وقال شعيب بن حرب : البر عشرة أجزاء ، تسعة منها في طلب الحلال ، وباقي البر جزء واحد ، وقد أخذ يوسف بن أسباط التسعة ، وأشرك الناس في العاشر .

وقال يوسف : من قرأ القرآن ، ثم آثر الدنيا . . فهو ممن اتخذ آيات الله تعالىٰ هزواً ، ومن كان طلبُ الفضائل أهَمَّ إليه من ترك الذنوب . . فهو مخدوع ، وقد خشيت أن يكون خير أعمالنا أضر علينا من ذنوبنا .

وجاء بعض الأمراء إلىٰ يوسف بن أسباط يسأله عن مسألة ، وكان علىٰ رأس الأمير قلنسوة ، فقال يوسف : إن أستاذي سفيان كان لا يفتي مَن علىٰ رأسه قلنسوة مثل هٰذه ، قال : فوضعها على الأرض ، فأفتاه .

وقال موسى بن طريف : كنت بمكة مع شعيب بن حرب ، فنعي إليه يوسف بن أسباط فقال : يا موسىٰ ؛ قل لمن أراد أن يكذب فليكذب فقد مات يوسف ، ما بقي أحد يُستَحَىٰ منه بعد يوسف .

وقال يوسف : لي أربعين سَنة ما حاك في صدري شيء . . إلا تركته .

وقال : تعلموا صحة العمل من سقمه ؛ فإني تعلمته في اثنتين وعشرين سَنة .

وقال يوسف : خرجت من بلدي راجلاً حتىٰ أتيت المصيصة وجرابي علىٰ عنقي ، فقام ذا من حانوته يسلم عليَّ ، وذا يسلم عليَّ ، فطرحت جرابي ، ودخلت المسجد أصلي ركعتين ، فأحدقوا بي ، فنظر رجل في وجهي ، فقلت في نفسي : كيف بقاء قلبي علىٰ هٰذا ؟! فقمت ورجعت من ساعتي إلىٰ بلدي ، فما رجع إليَّ قلبي إلىٰ سنتين .

أدرك يوسف بن أسباط من الأئمة الأعلام جماعةً ، منهم : سفيان الثوري . انتهىٰ [« الحلية » ٨/ ٢٤٣ـ٢٤٤] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : قالت زوجة يوسف بن أسباط : قال لي يوسف : أشتهي من ربي ثلاث خصال : أن أكون حين أموت لا أملك ديناراً ولا درهماً ، ولا يكون علي درهم ، ولا علىٰ عظمي لحمة ، قال : فأُعطي ذلك كلَّه .

ولقد قال لي في مرضه : أبَقي عندكِ نفقة ؟ قلت : لا ، فقال : ماذا تريدين أن تصنعي ؟ قلت : أخرج هٰذه الخابية للبيع ، قال : يعلم الناس بحالنا ، ويقولون : ما باعوها إلا من

الحاجة ، ثم أخرج شيئاً كان أهداه إليه بعض إخوانه ، فباعوه بعشرة دراهم ، وقال : اتركي درهماً منها لحنوطي[1] ، وأنفقي الباقي ، قالت : فمات يوم مات ، وما كان بقي غير ذلك الدرهم .

وتوفي قبل المئتين ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/١٨٦] .

وقال أبو القاسم القشيري ـ رحمه الله ـ : قال أبو علي الروذباري رحمه الله : كان أربعة في زمانهم :

واحد : كان لا يقبل من الإخوان ، ولا من السلطان ، وهو : يوسف بن أسباط رحمه الله ، وورث سبعين ألف درهم غير الضياع لم يأخذ منها شيئاً ، وكان يعمل الخوص بيده .

وآخرَ : كان يقبل من الإخوان والسلطان جميعاً ، وهو : أبو إسحاق الفزاري رحمه الله ، فكان ما يأخذه من الإخوان ينفقه في المستورين الذين لا يتحركون ، والذي يأخذه من السلطان كان يخرجه إلىٰ أهل طرسوس[2] .

والثالث : كان يأخذ من الإخوان ، ولا يأخذ من السلطان ، وهو : عبد الله بن المبارك رحمه الله ، يأخذ من الإخوان ويكافىء عليه .

والرابع : يأخذ من السلطان ، ولا يأخذ من الإخوان ، وهو : مخلد بن الحسين رحمه الله ، كان يقول : السلطان لا يَمُنُّ ، ولنا في المال حق ، والإخوان يمنون . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) **الحنوط** : كل ما يُطَيِّبُ به الميت .

(٢) في نسخة : (إلىٰ طرسوس للمرابطين) .

ومنهم الإمام :

أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفزاري
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال سفيان بن عيينة : قال هارون الرشيد أمير المؤمنين لأبي إسحاق الفزاري : أيها الشيخ ؛ إنك في موضع من العرب ، قال : إن ذلك لا يغني عني يوم القيامة من الله عز وجل شيئاً .

وقال أبو أسامة : سمعت الفضيل بن عياض يقول : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام ، وإلىٰ جنبه فرجة ، فذهبت لأجلس ، فقال صلى الله عليه وسلم : « هـٰذا مجلس أبي إسحاق الفزاري » ، فقيل لأبي أسامة : أيهما أفضل ؟ فقال : كان الفضيل رجل نفسه ، وكان أبو إسحاق رجل عامة .

وقال أبو يحيىٰ : سمعت عبيداً يقول : لما مات أبو إسحاق الفزاري . . بكىٰ عطاء ، ثم قال : ما دخل علىٰ أهل الإسلام من موت أحد في هـٰذا الزمان ما دخل عليهم من موت أبي إسحاق .

وحدث الأوزاعي بحديث ، فقال رجل : يا أبا عمرو ؛ مَن حدثك ؟ قال : حدثني الصادق المصدوق أبو إسحاق الفزاري .

وقال عبد الرحمـٰن بن مهدي : كان الأوزاعي والفزاري إمامين في السُّنة ، إذا رأيت الشامي يذكر الأوزاعي والفزاري . . فاطمئن إليه ، وكان هـٰؤلاء أئمة في السُّنة .

وقال الفزاري : إن من الناس من يَحسُن الثناء عليه وما يساوي[1] عند الله عز وجل جناح بعوضة .

وقال : من قال : الحمد لله علىٰ كل حال . . فقد أحسن في الثناء . أو كما قال .

---

(١) المثبت من الحلية وفي النسخ : (يسوىٰ) .

أسند الفزاري عن جماعة من التابعين ، رضوان الله تعالىٰ عليهم أجمعين . انتهىٰ [« الحلية » ٨/ ٢٥٣ـ٢٥٦] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال أبو صالح : لقيت الفضيل بن عياض ، فعزاني بأبي إسحاق وقال : ربما اشتقت إلى المصيصة ، لا لأجل الرباط إلا أن أرىٰ أبا إسحاق .

وحدث عنه الثوري ، والأوزاعي .

توفي في المصيصة ، سَنة ثمان وثمانين ومئة . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ١٨٢] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

مخلد بن الحسين
رضي الله عنه وأرضاه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال الوليد بن مسلم : أفضل من بقي من علماء أهل المغرب : أبو إسحاق الفزاري ، ومخلد بن الحسين ، وعيسى بن يونس .

وذُكر عند مخلد بن الحسين أخلاقٌ من أخلاق الصالحين فقال :

لا تَعرِضَنَّ لذِكرنا في ذِكرهم ليس الصحيح إذا مشىٰ كالمُقعَد

وشكىٰ رجل إلىٰ مخلد بن الحسين رجلاً من الكوفة ، فقال له مخلد : أين أنت من المداراة ؟ إني أُداري حتىٰ أداري هٰذه ـ جارية حبشية تغربل شعير الفرس له ـ ثم قال : ما تكلمت بكلمة أريد أن أعتذر منها منذ خمسين سنة .

أسند مخلد عن هشام بن حسان ، فأكثر عنه . انتهىٰ [« الحلية » ٨/٢٦٦] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان مخلد بن الحسين كنيته : أبو محمد ، وهو من أهل البصرة فتحول فنزل المصيصة ، ومات بها سنة إحدىٰ وتسعين ومئة رحمة الله عليه . [انتهىٰ « الصفوة » ٤/١٨٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

حذيفة بن قتادة المرعشي

رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال حذيفة المرعشي : لو جاءني رجل فقال لي : والله الذي لا إلـه إلا هو يا حذيفة ؛ ما عملُك عملَ من يؤمن بيوم الحساب . . لقلت له : يا هـذا ؛ لا تكفِّرنَّ عن يمينِك ؛ فإنك لا تحنث .

وقال يوسف بن أسباط : سمعت حذيفة يقول : لو وجدت من يُبغِضني علىٰ حقيقة في الله عز وجل . . لأوجبت علىٰ نفسي حبه .

وقال حذيفة : إن لم تخش أن يعذبك الله عز وجل علىٰ أفضل عملك . . فأنت هالك .

وقال : لو خُيرت بين أن أرى النار بعيني ، وبين أن أصيرَ إلى الجنة إلا أني أوقف بين يدي الله عز وجل يسألني ، ثم أصير إلى الجنة . . لاخترت ألاَّ أقف ذلك الموقف ؛ حياء من الله عز وجل .

ثم قال : إن عبداً يعمل لطلب النجاة لعبدُ سوء ، وإن عبداً يعمل للجنة لعبد سوء ، كلاهما عندي سواء ، إنما يُعبَد لذاته جل جلاله وابتغاء رضوانه سبحانه وتعالىٰ .

وقال حذيفة : ما أصيب أحد بمصيبة . . أعظم من قساوة قلبه .

وقال حذيفة : إياكم وهدايا الفجار والسفهاء ؛ فإنكم إذا قبلتموها . . ظنوا أنكم قد رضيتم فعلهم .

وقال : الخير كله في حرفين : مداراة الخبز من حِلِّه ، وإخلاص العمل لله عز وجل .

زاد في رواية أخرىٰ خصلة ثالثة : وتحب للناس ما تحب لنفسك .

وقال رجل : أتينا علي بن بكار فقلنا له : حذيفة المرعشي يقرأ عليك السلام ، فقال : وعليكم وعليه السلام ، إني لأعرفه يأكل الحلال منذ ثلاثين سنة ، ولولا خشيتي أن أتصنع له ويتصنع لي فأتزين لغير الله عز وجل ، وأسقط من عين الله عز وجل . . لأحببت لقاءه ،

ولـٰكن منعني من ذلك خشية التزين لغير الله عز وجل . أو كما قال .

وقال حذيفة : بلغنا أن مطرف بن الشخير سمع رجلاً بعرفة وهو يدعو ويقول : اللهم ؛ لا ترد القوم من أجلي ، فقال : هـٰذا هو العارف بنفسه .

وعن بشر بن الحارث رحمه الله قال : سمعت المعافى بن عمران يقول : كان عشرة من أهل العلم ينظرون في الحلال النظر الشديد ، ولا يُدخلون في بطونهم إلا ما يعرفون ولو استفوا التراب ، منهم : إبراهيم بن أدهم ، وسليمان الخواص ، وعلي بن الفضيل ، ويمان أبو معاوية الأسود ، ويوسف بن أسباط ، ووهيب بن الورد ، وداوود الطائي ، وحذيفة المرعشي .

وقال حذيفة : قال لي سفيان الثوري : لأَن أخلِّف عشرة آلاف درهم يحاسبني الله تعالىٰ عليها . . أحب إلي من أن أحتاج إلى الناس . انتهىٰ [« الحلية » ٨/٢٦٨ـ٢٧١] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال حذيفة : إنما هي أربعة أشياء : عيناك ، ولسانك ، وهواك ، وقلبك ، فلا تنظر بعينيك إلىٰ ما لا يحل لك ، ولا تقل بلسانك شيئاً يعلم الله عز وجل خلافه من قلبك ، ولا يكن في قلبك غل ولا دغل[1] علىٰ أحد من المسلمين ، ولا تهوَ شيئاً غير مراد الله عز وجل ، فما لم تكن فيك هـٰذه الأربع خصال . . فالرماد علىٰ رأسك .

وقال : كان يقال : إذا رأيتم الرجل قد جلس وحده . . فانظروا إلىٰ أي شيء جلس ، فإن كان جلس ليُجلَس إليه . . فلا تجلسوا إليه .

وقال الفيض بن إسحاق : ذكر عند حذيفة الوحدة وما يكره منها ، فقال : إنما تكره للجاهل ، فأما عالم يعلم ما يأتي وما يذر . . فلا .

وقال : لا أعلم من أعمال البر أفضل من لزومك بيتك ، ولو كانت لك حيلة لهـٰذه الفرائض . . لكان ينبغي لك أن تحتال لها .

وقال بشر بن الحارث : كتب حذيفة إلىٰ يوسف بن أسباط[2] : يا أخي ؛ أخاف أن يكون بعض محاسننا[3] أضر علينا في القيامة من مساوئنا ، فكتب إليه[4] أيضاً : لا ، حتىٰ

---

(١) **الدَّغَل** : الفساد .
(٢) في نسخة : (إلىٰ سفيان) .
(٣) في نسخة : (مجالسنا) .
(٤) في بعض النسخ : (قال : وكتب إليه أيضاً : لا . . .) .

تكون في موضع إذا جئت إلى البقال فقلت له : أعطني مطهرتك . . قال : هات كساءك .

وقال ابن أبي الدرداء : قلت لحذيفة : أوصني ، فقال : انظر خبزك من أين تأكله ، ولا تجالس من يرخص لك ويطغيك ، ثم قال : إن أطعت الله تعالىٰ في السر . . أصلح قلبك ، شئت أو أبيت .

وقال نبهان بن المغلس : قال حذيفة : كنت في مركب ، فانكسر بنا ، فوقعتُ أنا وامرأة علىٰ لوح من ألواح المركب ، فمكثنا سبعة أيام ، فقالت المرأة : قد عطشت ، فسألت الله عز وجل أن يسقينا ، فنزلت علينا سلسلة معلق بها كوز فيه ماء ، فشربت منه ، ثم رفعت رأسي أنظر إلى السلسلة ، فرأيت رجلاً جالساً في الهواء متربعاً ، فقلت له : مَن أنت ؟ قال : من الإنس ، قلت : فما الذي بلَّغك هـٰذه المنزلة ؟ قال : آثرت مراد الله عز وجل علىٰ هواي ، فأجلسني كما تراني .

توفي حذيفة سنة سبع ومئتين . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/١٨٩-١٩٠] .

وقال في « اللوامع » : وعن حذيفة المرعشي رحمه الله قال : نظر رجل إلىٰ رجل يبكي بكاء شديداً ، فقال له : يا أخي ؛ ما يبكيك ؟ فقال : ذكرت ما أسلفت من الذنوب ، وأياماً تأتي علي لا أعلم ما حكم لي في الغيوب ، فمَن أولىٰ بالبكاء مني علىٰ ما فات وعلىٰ ما هو آت ، وفي أفراحي وأتراحي ؟! فبكىٰ حذيفة معه ، وتعانقا ، ولم يزالا يبكيان حتى ارتفع ضجيجهما ، وأنشدوا في معناه :

وردَ الكتاب من الحبيب بأنه ... سيزورني فاستعبَرَتْ أجفاني
هجم السرور عليَّ حتىٰ إنه ... من عُظم ما قد سرني أبكاني
يا عين صار الدمع عندك عادة ... تبكين في فرحي وفي أحزاني

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

اليمان أبو معاوية الأسود
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ :

غزا أبو معاوية حصناً فيه عِلْج[1] لا يرمي بحجر ولا نشاب إلا أصاب ، فشكوا إليه ، وسألوه أن يدعو الله سبحانه وتعالىٰ عليه ، فقال لهم : أين تريدون أن يقع السهم فيه ؟ قالوا : مذاكيره ، قال : يا رب ؛ أعطني ما سألوني ، ثم قال : باسم الله ، ثم رمىٰ ، وقال : المذاكير بإذن الله تعالىٰ ، فمر السهم إلىٰ مذاكيره ، فوقع العلج ميتاً ، فقال أبو معاوية : شأنكم به .

ووجد اليمان في طريق خمسة عشر حبة باقلاء مسلوقة ، فلقطها ، ثم ولىٰ وجهه إلى القبلة ، فحمد الله تعالىٰ ، وأثنىٰ عليه ، ثم قال : يا رب ؛ ارزقني شكر ما أنعمت عليَّ ؛ فإني لو حمدتك من يوم خلقتني إلىٰ قيام الساعة . . ما أديتُ شكر هـٰذا اليوم .

وقال أحمد ابن أبي الحواري : قلت لأبي معاوية : ما أعظم النعمةَ علينا في التوحيد ، نسأل الله عز وجل ألاَّ يسلبناه ، فقال : يحق على المنعم أن يتم نعمته علىٰ من أنعم عليه .

وقال أبو معاوية يوماً لأصحابه : إخواني ؛ كلكم خير مني ، فقيل له في ذلك ، فقال : كلهم يرى الفضل لي علىٰ نفسه ، ومن فضَّلني علىٰ نفسه . . فهو خير مني .

وخرج أبو معاوية من طرسوس إلىٰ مكة يعزي الفضيل بن عياض في ابنه علي ، ولم يحج في تلك السَّنة ، فقال الفضيل : ما وافىٰ مكة رجل أغبَطُ عندي من أبي معاوية ، وكلب ميت يُجَر برجله أغبط عندي منه ؛ يعني : أنه يحاسَبُ ، والكلب لا يحاسب .

وكان أبو معاوية إذا قام من الليل يستقي الماء . . يقول : ما ضرهم ما أصابهم في الدنيا ؛ جبر الله لهم كل مصيبة بالجنة .

---

(١) **العِلْج** : الرجل من كفار العجم .

وقال أبو معاوية : كل من سعىٰ للدنيا . . فإنه يسعىٰ في أقل من جناح بعوضة ؛ لأنها لا تَسْوىٰ عند الله عز وجل جناح بعوضة . أو كما قال . انتهىٰ [« الحلية » ٨/ ٢٧١ـ٢٧٣] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال أبو حمزة : كان أبو معاوية قد ذهب بصره ، فكان إذا أراد أن يقرأ في المصحف وفتحه . . رَدَّ الله عز وجل عليه بصره ، فإذا أطبق المصحف . . ذهب بصره .

واستطال رجل علىٰ أبي معاوية ، فقال له رجل : مه ، فقال أبو معاوية : دعه يشتفي ، ثم قال : اللهم ؛ اغفر لي الذنب الذي سلطت عليَّ به هـٰذا .

وقال يحيى بن معين : رأيت أبا معاوية وهو يلتقط الخرق من المزابل ، فيغسلها ، ثم يخيطها ، فقيل له في ذلك ، فقال : ما ضرهم ما أصابهم في الدنيا ؛ جبر الله تعالىٰ لهم كل مصيبة بالجنة . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ١٩٢] .

زاد في رواية الحافظ ابن عساكر ـ رحمه الله ـ : رأيت أبا معاوية الأسود يلتقط الخرق من المزابل ، [يغسلها] ويلفقها[1] ، ويلبسها ، فقيل له : يا أبا معاوية ؛ إنك تُكسىٰ خيراً من هـٰذه ، فقال : ما ضرهم ما أصابهم في الدنيا ، جبر الله لهم كل مصيبة بالجنة ، فجعل يحيى بن معين يحدث بهـٰذا ويبكي .

وكان يقول : بادر قبل نزول ما تحاذر ، وقدِّم صالح الأعمال ، ودَعْ كثرة الاشتغال ، ولا تهتم برزق ؛ فإن الله هو الرزاق .

وكان يقول : من كانت الدنيا أكبر همه . . طال غداً في القيامة غمه ، ومن خاف الوعيد . . لهىٰ في الدنيا عما يريد، ومن خاف ما بين يديه . . ضاق ذرعه بما في يديه ، إن كنت ـ يا أبا معاوية ـ تريد لنفسك الجزيل . . فلا تنم الليل ولا تَقِل ، ثم جعل يبكي ، ويقول : حتىٰ إذا بلغت الحلقوم، وأنت في سكرات الموت مغموم ، وقد انقطع منك إلىٰ أهلك حاجتك ، وأملك فيما سوىٰ ذلك ، ثم قال : أواه! من يوم يتغير فيه لوني ، ويتلجلج فيه لساني ، ويقل فيه زادي.

وعن أحمد ابن أبي الحواري رحمه الله قال : جاء قوم إلىٰ أبي معاوية ، فقالوا : ادع الله لنا ، فقال : اللهم ؛ ارحمني بهم ، ولا تحرمهم بي . انتهىٰ [« التاريخ » ٦٧/ ٢٤٢] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) **يُلَفِّقُها** : يضم إحداها إلى الأخرىٰ .

ومنهم الإمام :

سليمان الخواص
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال مضاء بن عيسىٰ : مر سليمان الخواص بإبراهيم بن أدهم وهو عند قوم قد أضافوه وأكرموه ، فقال : نِعْمَ الشيء هـٰذا يا إبراهيم ، إن لم يكن تكرمة علىٰ دِين .

ودخل سعيد بن عبد العزيز علىٰ سليمان الخواص ، فقال له : أراك في ظلمة ، فقال : ظلمة القبر أشد ، قال : أراك وحدك ، فقال : إن للصاحب على الصاحب حقاً ، فخشيت ألاَّ أقوم بحقه ، فأخرج سعيد صرة فيها شيء ، فقال : أنفق هـٰذا ، وأنا أحلف لك بين يدي الله عز وجل أنها حلال ، قال : لا حاجة لي فيها ، فقال له : رحمك الله ، ما ترىٰ ما الناس فيه ؟ لعل أن تدعو لهم دعوة ، قال : فصرخ سليمان وقال : يا سعيد ؛ فتنتني بالدنيا وتَفتِنِّي بالدِّين ؟ ما لي وللدعاء ؟ ومن أنا ؟ [انتهىٰ « الصفوة » ٤/ ١٩٢ـ١٩٣] .

وفي رواية الحافظ : أبىٰ أن يأخذها ، وقال : يا سعيد ؛ إن نفسي لم تجبني إلىٰ هـٰذا الذي أجابتني إلا بعد كَدٍّ ، فأنا أكره أن أُعوِّدها مثل دراهمك ، لا حاجة لي فيها ، فخرج سعيد ، فأخبر بما كان للأوزاعي ، فقال : دعوا سليمان ، فلو كان سليمان من السلف . . لكان علاَّمة . انتهىٰ [« الحلية » ٨/ ٢٧٧] .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال الفريابي : كنت في مجلس فيه الأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز وسليمان الخواص ، فذَكَر الأوزاعي الزهاد ، فقال الأوزاعي : كنا نريد أن نرىٰ في زماننا مثل هـٰؤلاء ، فقال سعيد بن عبد العزيز : سليمان الخواص ما رأيت أزهد منه ، وكان سليمان في المجلس ، وسعيد لا يعلم ، فقنَّع سليمان رأسه ، وقام ، فخرج ، فأقبل الأوزاعي علىٰ سعيد وقال : ويحك! لا تعقل ما يخرج من رأسك ، تؤذي جليسنا ، تزكيه في وجهه ؟!

وقيل لسليمان : إن الناس قد شكوك أنك تمر فلا تسلم عليهم ولا تجلس معهم ، فقال :

والله ؛ ما ذاك لفضل أراه عندي عليهم ، ولـٰكني شِبْهُ الحُشِّ ، إن ثوَّرته . . ثار ، وإن قعدت مع الناس . . جاء مني ما أريد وما لا أريد .

ومات لرجل ابن ، فحضر عمر بن عبد العزيز ليعزيه ، وكان هناك جماعة ، وكان الرجل حسن العزاء ، فقال رجل من القوم : هـٰذا ـ والله ـ الرضا ، فقال عمر بن عبد العزيز : أو الصبر ، فقال سليمان : الصبر دون الرضا ، الرضا : أن يكون الرجل قبل نزول المصيبة راضياً بأي ذلك كان ، والصبر : أن يكون بعد نزول المصيبة صابراً . انتهىٰ [في « الحلية » ٨/٢٧٦ـ٢٧٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

سَلْم بن ميمون الخواص
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : هو من أهل طبرية ، وبها مات .

قال إسماعيل بن مسلمة : رأيت كأن القيامة قد قامت ، وكأن منادياً ينادي : ليقم السابقون ، فقام سفيان الثوري ، ثم نادى الثانية : ليقم السابقون ، فقام سَلْم[1] الخواص ، ثم نادى الثالثة : ألا ليقم السابقون ، فقام إبراهيم بن أدهم . [انتهىٰ « الصفوة » ٤/١٩٣] .

زاد في رواية الحافظ أبي نعيم : فأوَّلت ذلك ما حدثنا حماد بن سلمة ، عن حميد ، عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لكل قرنٍ سابقٌ » .

وقال أحمد بن ثعلبة رحمه الله : سمعته يقول : كنت أقرأ القرآن ، فلا أجد له حلاوة ، فقلت لنفسي : اقرئيه كأنكِ تسمعيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاءت حلاوته ، ثم أردت زيادة ، فقلت : اقرئيه كأنكِ تسمعيه من جبريل عليه الصلاة والسلام ينزل به على النبي صلى الله عليه وسلم ، فازدادت الحلاوة ، ثم قلت : اقرئيه كأنك تسمعيه من رب العالمين سبحانه وتعالىٰ ، فجاءت الحلاوة كلها .

وقال قاسم الجوعي : قصدت زيارة سَلْم الخواص ، فلما دخلت عليه . . قدَّم إلي نصف بطيخة ونصف رغيف ، وقال لي : كُلْ يا قاسم ، نزلتُ علىٰ أخ لي ، فقدَّم إلي نصف خيارة ونصف رغيف ، وقال لي : كُلْ يا سَلْم ؛ فإن الحلال لا يحتمل السرف ، ومَن درىٰ من أين يكتسب . . درىٰ كيف ينفق .

أسند سَلْم عن مالك بن أنس ، وابن عيينة ، وأقرانهما . انتهىٰ [« الحلية » ٨/٢٧٨] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) ورد اسمه في « الحلية » : (سالم) وفي نسخة : (مسلم) وفي نسخة : (مسلم) وما أثبت من « السير » و« الجرح والتعديل » و« الصفوة » ولعله الصواب ، والله أعلم .

ومنهم الإمام :

أبو عبيدة الخواص
رضي الله عنه

قال أبو الفرج : اسمه : عباد بن عباد ، وكنيته : أبو عبيدة .

وكان قد كتب عباد بن عباد إلىٰ إخوانه : إنكم في زمان قد رق فيه الورع ، وقلَّ فيه الخشوع ، وحَمَل العلمَ مفسدوه ، فأحبوا أن يُعرفوا بحمله ، وكرهوا أن يعرفوا بإضاعة العمل به ، فنطقوا فيه بالهوىٰ ؛ ليزينوا ما دخَّلوا فيه من الخطأ ، فذنوبهم ذنوب لا يُستغفر منها ، وتقصيرهم تقصير لا يعفىٰ عنه .

وقال عبد الأعلى بن سليمان : رأيت أبا عبيدة الخواص وعلىٰ سوءته خرقة ، وعلىٰ رقبته خرقة ، وهو يمشي في البصرة ، وهو يقول : واشوقاه لمن يراني ولا أراه!

وقال أحمد ابن أبي الحواري : دخل عباد الخواص علىٰ إبراهيم بن صالح ، وهو أمير فلسطين ، فقال له : يا شيخ ؛ عظني ، قال : بِمَ أعظك أصلحك الله ؟! بلغني : أن أعمال الأحياء تعرض علىٰ أقاربهم من الموتىٰ ، فانظر ماذا يعرض علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم من عملك ، قال : فبكىٰ إبراهيم حتىٰ سالت الدموع علىٰ لحيته .

أقام أبو عبيدة الساحلي لم يضحك أربعين سنة ، فقيل : لِمَ لا تضحك ؟ فقال : كيف أضحك وفي أيدي المشركين من المسلمين أحَد ؟! انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ١٩٤] .

قال الحافظ أبو نعيم : وكان يدعو بهـٰذا الدعاء ـ وهو دعاء شريف ، يُروىٰ أنه من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ : اللهم ؛ اجعل حبك أحب الأشياء إلي ، واجعل خشيتك أخوف الأشياء عندي ، واقطع عني حاجات الدنيا بالشوق إلىٰ لقائك ، وإذا أقررت أعين أهل الدنيا بدنياهم . . فأَقِرَّ عيني بعبادتك يا أرحم الراحمين . انتهىٰ [« الحلية » ٨/ ٢٨٢] .

ثم قال أبو الفرج : وقال بشر بن الحارث : رأيت علىٰ جبال عرفة رجلاً قد ولع به الوله ، وهو يقول :

سبحان من لو سجدنا بالعيون لَهُ ... علىٰ شبا الشوك والمُحمىٰ من الإبَر[1]
لم نبلغ العُشْرَ من معشار نعمته ... ولا العشيرَ ولا جزءاً من العُشُرِ
هو الرفيع فلا الأبصار تدركه ... سبحانه من مليك نافذ القَدَرِ
سبحان من هو أُنسي إن خلوتُ به ... في جوف ليلي وفي الظلماء والسَّحَرِ
أنت الحبيب وأنت الحِبُّ يا أملي ... من لي سواك ومَن أرجوه يا ذخري

ثم أنشأ يقول :

كم قد زللتُ فلم أذكرك في زللي ... وأنت يا سيدي في الغيب تذكرني
كم أكشف الستر جهلاً عند معصيتي ... وأنت تلطف بي حقاً وتسترني
لأبكيَنَّ بدمع العين من أسف ... لأبكين بكاء الواله الحَزِنِ

قال : ثم غاص في الناس فلم أره ، فسألت عنه ، فقيل لي : هٰذا أبو عبيدة الخواص ، منذ سبعين سنة لم يرفع رأسه إلى السماء ؛ حياء من الله عز وجل .

وقال عقبة بن فضالة : سمعت أبا عبيدة بعد ما كبر وهو آخذ بلحيته وهو يبكي ويقول : قد كبرت سني ، فأعتقني . رضي الله عنه .

أسند أبو عبيدة عن الأوزاعي ، وابن أبي مريم ، وغيرهما . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ١٩٤ـ١٩٥] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) **شبا الشوك** : حده من الأعلىٰ .

ومنهم الإمام :

المُعَافى بن عِمْران
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال أبو مسعود الأزدي : المعافى بن عمران[1] جمع العلم ، والتقوىٰ ، والورع .

وقال علي بن خشرم : سمعت بشر بن الحارث وقد قال له رجل : ما أراك إلا عاشقاً للمعافى بن عمران ؟! فقال : وما لي لا أعشقه ؟ وكان سفيان الثوري يسميه : الياقوتة .

قال : وحَضَرْتُه يوماً ، وقد نعي إليه ابناه ، فما حل حبوته حتىٰ قال : مظلومَين ، أو ظالمَين ؟ قيل : مظلومين ، فحل حبوته وخر لله عز وجل ساجداً ، ثم رفع رأسه وقال : كيف كانت قصتهما .

وفي رواية أخرىٰ : قتل للمعافى ابنان في وقعة الموصل ، فجاء إخوانه يعزونه من الغد ، فقال لهم : إن كنتم جئتم لتعزوني . . فلا تعزوني ، ولـٰكن هنئوني ، قال : فهنؤوه ، ثم ما تركهم حتىٰ غدَّاهم وغلفهم بالغالية[2] .

وقال بشر : سمعته يقول : عِز المؤمن . . استغناؤه عن الناس ، وشرفه . . قيامه بالليل .

وسئل المعافى بن عمران : أيما أحب إليك : أن أسهر في قيام الليل صلاة ، أو أسهر في كتابة الحديث ؟ فقال : كتابة حديث واحد أحب إلي من صلاة ليلة .

نظير هـٰذا : ما قاله عبد الله بن أحمد ابن حنبل رحمه الله : قلت لأبي : أجلس بالليل أنسخ ، أو أصلي ؟ قال : إذا نسخت . . عرفتَ به أمر دِينِكَ ، فهو أحب إلي .

---

(١) هو المعافى بن عمران الأزدي الموصلي الحافظ ، وكنيته أبو مسعود ، تمييزاً له عن المعافى بن عمران الحمصي الحميري ، فهو غير المترجم له ، وكنيته أبو عمران .

(٢) **غَلَّفَهم** : طيَّبهم ، **الغالية** : أخلاط من الطيب كالمسك والعنبر .

وكان بشر بن الحارث يقول : إني لأنظر إلى المعافى بن عمران نظرة . . فأَتقَوَّىٰ على العبادة أسبوعاً .

أسند المعافىٰ عن المغيرة بن زياد ، وأسامة بن زيد [اللَّيثي] ، والثوري ، وابن أبي ذئب ، ومالك ، وابن جريج ، ومسعر ، والليث ، وغيرهم .

وأكثر ملازمته للثوري ، وتأدب بآدابه ، وصنف كتباً[1] في السنن ، والزهد ، والأدب .

وتوفي سنة أربع وثمانين ومئة . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ١٢١ـ١٢٢] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) في نسخة : (كتاباً) .

ومنهم الإمام :

فتح بن سعيد الموصلي
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان فتح بن سعيد إذا كانت ليالي الشتاء . . جمع عياله ، وقال بكسائه عليهم : اللهم ؛ أفقرتني وأفقرت عيالي ، وجوعتني وجوعت عيالي ، وأعريتني وأعريت عيالي ، بأي وسيلة توسلتها إليك ؟ وإنما تفعل هـٰذا بأوليائك وأحبائك ، فهل أنا منهم حتىٰ أفرح ؟

وقال إبراهيم بن نوح : رجع فتح الموصلي إلىٰ أهله بعد العتمة ، وكان صائماً ، فقال : عشوني ، فقالوا له : ما عندنا شيء نعشيك به ، قال : فما لكم جلوساً في الظلمة ؟ قالوا : ما عندنا شيء نسرج به ، فجلس يبكي من الفرح ، ويقول : إلـٰهي ؛ مثلي يترك بلا عشاء ولا سراج ، بأي يد كانت مني ؟ فما زال يبكي حتى الصباح ؛ شكراً لله تعالىٰ علىٰ ما أولاه من هـٰذه النعم .

وقال بشر بن الحارث : بلغني عن فتح أنه كان يتجزىٰ بفلس في اليوم ، يشتري به نخالة . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/١٢٣ـ١٢٤] .

وقال في « بهجة الأسرار » :

جاء فتحٌ الموصلي إلىٰ سالم الحداد بمسحاة[1] ، فقال له : بعها ؛ فإن الصبيان ما عندهم شيء ، فنظر إليه سالم نظرة منكرة ، ثم قال : يا فتح ؛ تدري مَن شكوتَ ؟ قال : فترك فتحٌ المسحاة بين يدي سالم ، ومر باكياً ، ولم يعد إليه ، ولا سأله عنها ، فباعها سالم بعد ذلك ، وبعث ثمنها إلىٰ عياله .

وكان سالم رحمه الله يقال : إنه من الأبدال .

كان إذا سمع الأذان . . اضطرب واصفر ، ثم وثب ، وترك الحانوت مفتوحاً ، فيأتي

---

(١) **المِسحاة** : أداة من حديد كالمجرفة ، وفي نسخة : (بفأس) .

المسجد ، فإذا صلىٰ ورجع . . يجد قد سرق له سكة أو فأس أو مسحاة ، هـٰكذا دائماً ، فعاتبه بعض إخوانه ، فقال له : لو اتخذت أجيراً يحفظ عليك الحانوت عند الصلاة ؟ فقال : ليس علىٰ ما حفظه الله عز وجل ضيعة .

وكان كثيراً ما يقول سالم لحشيش : ما تشتهي ؟ فيقول حشيش : أشتهي ألاّ يكون بأرض الموصل أهل بيت أفقر منا ، ونُرزق الصبر علىٰ ذلك ، فنموت كراماً ، ونحن عن الله عز وجل راضون ، فقال له سالم : تدري أي شيء تشتهي ؟ أنت تشتهي أن تكون من أولياء الواحد القهار ، ومرافقة الأبرار ، ومن لا يشتهي الفقر ـ يا حشيش ـ والصبر عليه ؟! فقال : ويحك يا سالم! ربما أصاب أهلي من خفض العيش شيء فتبكي عيالنا ويقولون : يا أبت ؛ ما هـٰذا الطرد ؟ ما نرىٰ هـٰذا الخير يراد بك ولا يراد بنا .

وكان حشيش رحمه الله صياداً ، وربما مكث الأيام لا يصطاد شيئاً ، فيروح من العشي وبه من السرور الظاهر ، حتىٰ كأنه قد حمل إليه خراج الجزيرة .

وكانوا يظلون الليالي الكثيرة بلا عشاء ، فاجتمعت أنا وسالم وهو مرة ، فقلت : يا أبا محمد ؛ بلغني أنكم ربما طويتم الليالي بغير عشاء ، فسكت حشيش ولم يرد علينا ، وغضب سالم ، فقال : مه مه ، وما عسىٰ أن يكونوا فيبيتوا جياعاً بلا عشاء طاوين ، إن باتوا طاوين . . فقد بات من هو خير منهم الليالي الكثيرة طاوياً هو وأزواجه صلى الله عليه وسلم ، وهو خير الخلق صلى الله عليه وسلم ، وذلك مدخور لهم في الآخرة ، ثم قال : يابن أخي ؛ أفيريد حشيش أن يكون هو وأهله وعياله مثل البهائم ، همتهم بطونهم وفروجهم ؟!

وقال فتح : إني لأفرح بما منعني الله عز وجل من الدنيا أعظم مما آتاني منها ، وينبغي للعبد أن يشهد عظيم منة الله عز وجل عليه في المنع من عروض الدنيا والحماية عنها ، وما الدنيا ؟! وهل في الدنيا من خير إلا ما اتصل العبد به إلى الآخرة ؟! وإن الفقر ليغشى المؤمن فيستبشر لذلك قلبه ويفرح به فؤاده ، ولهو أشد فرحاً منه بكل ما رُزق من غرور الدنيا ومتاعها ؛ لأن الله عز وجل قال : ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴾ . وقال تعالىٰ : ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ ، فأي نفس تطمئن إليها بعد أن أخبر الله عز وجل عنها بهـٰذا ؟! والله أعلم . انتهىٰ .

وقال أبو الفرج : قال بشر : قال فتح : من أدام النظر بقلبه . . أورثه ذلك الفرح بالمحبوب ، ومن آثره علىٰ هواه . . أورثه ذلك حبه إياه ، ومن اشتاق إليه وزهد فيما سواه

ورعىٰ حقه وخافه بالغيب . . أورثه ذلك النظرَ إلىٰ وجهه الكريم .

وقال أبو جعفر ابن أخت بشر : كنت يوماً واقفاً ببابنا ؛ إذ أقبل شيخ ثائر الشعر ، ملتف بعباءة ، فقال لي : أبِشْرٌ بالبيت ؟ قلت : نعم ، فقال : ادخلْ وقل : فَتْحٌ بالباب ، فدخلت ، فقلت : يا خالي ؛ شيخ بالباب ، قال لي : قل لبشر : فتح بالباب ، قال : فخرج خالي مسرعاً ، وصافحه ، واعتنقه ، فقال له الشيخ : يا أبا نصر ؛ إني ذكرتك البارحة ، فاشتقت إلىٰ لقائك ، قال : فدفع إلي خالي درهماً ، وقال : خذ بأربعة دوانق خبزاً ـ ويكون جيداً ـ وبدانقين تمراً ، فقال له الشيخ : قل له : يكون كذا وكذا ، فجئت به كما وصف ، فقال : كُلْ معنا ، فأكلت معهم ، فلما أكلنا . . أخذ ما فضل في طرف العباءة ومضىٰ ، فخرج خالي معه ليشيعه إلىٰ باب حرب[1] ، فلما رجع . . قال : يا بني ؛ أتدري من هو ؟ قلت : لا ، قال : هـٰذا فتحٌ الموصلي .

وقال محمد بن الصلت : كنت عند بشر ، فجاء رجل فسلم عليه ، فقام بشر إليه ، فقمت لقيامه ، فمنعني ، فلما جلس الرجل . . أخرج بشر درهماً صحيحاً ، وقال : اخرج فاشتر خبزاً وزبداً وتمراً برنياً ، قال : فاشتريت ووضعته بين يديه ، فأكل الرجل ، وحمل الباقي ، وخرج ، فلما خرج . . قال لي بشر : يا بني . . أتدري لِمَ منعتك من القيام له ؟ قلت : لا ، قال : لأنه لم يكن بينك وبينه معرفة ، فكان قيامك لقيامي ، فأردت أن يكون قيامك لله عز وجل خالصاً ، وتدري لِمَ دفعت إليك الدرهم ، وقلت : اشتر كذا وكذا ، قلت : لا ، قال : لأن طيب الطعام يُستخرَج به خالصُ الشكر لله عز وجل ، وتدري لِمَ حمل الباقي ؟ قلت : لا ، قال : ليعرفنا أنه إذا صح التوكل . . لا يضر الادخار ، وهـٰذا فتح الموصلي جاء زائراً .

وقال أحمد ابن أبي الحواري : سمعت شيخاً من أصحاب فتح يقول : كانت لفتح بضاعة عند أخ له يعمل بها في البر والبحر ، فبعث فتح ، فاستردها وأنفقها ، وقال : رأيت قلبي يميل إليها ، فكرهت أن تكون ثقتي بغير الله عز وجل .

وقال إبراهيم بن موسىٰ : رأيت فتحاً الموصلي يوم عيد وقد رأىٰ ما على الناس من الطيالس والعمائم ، قال : فقال لي : يا إبراهيم ؛ إنما ترىٰ ثوباً يبلىٰ وجسداً يأكله الدود

---

(١) باب حرب : أحد أبواب بغداد ، وعنده مقبرة مشهورة .

غداً ، هـٰؤلاء أنفقوا خزائنهم علىٰ بطونهم وظهورهم ، ويقدمون علىٰ ربهم مفاليس .

وقال عبد الله بن الفرج : قال فتح : قد كثرت خطاياي حتىٰ قد كدت أن أهلك ، ولـٰكن الرجاء لعفوه عز وجل قائم ؛ فإنه ولي كل نعمة ، ومؤَمَّلٌ لكل فضل ومعروف .

وقال عمران بن موسىٰ : رأىٰ فتح صبيين مع أحدهما كسرة عليها عسل نحل ، ومع الآخر كسرة عليها كامخ[1] ، فقال الذي معه الكامخ للذي معه العسل : أطعمني من خبزك ، قال : إن كنت كلباً لي . . أطعمتك ، قال : نعم ، فأطعمه من خبزه ، وجعل في فمه خيطاً ، وجعل يقوده ، ويقول له : أنت كلبي ، فقال فتح : لو رضيتَ بخبزك . . ما صرت كلباً لهـٰذا ، قال أبو موسىٰ : فهـٰكذا الدنيا .

وقال عثمان بن عمارة : غبت غَيبة ، فلما قدمت . . لقيت فتحاً في حانوت سالم الدورقي ، فقال لي : يا بَصْري ؛ أيَّ شيء رأيت في سفرتك هـٰذه ؟ فقلت : رأيت عجائب كثيرة وأخباراً مختلفة ، فصاح صيحة ، فقلت : أنت تصيح من الخبر ، فكيف لو شاهدت القيامة أو شاهدت صاحب القيامة سبحانه وتعالىٰ وهو يحكم بين الخلق ؟! فشهق شهقة ، ووثب من الحانوت ، فخر مغشياً عليه ، فحملناه ، فأدخلناه الحانوت ، فما زال مغشياً عليه إلى العصر ، فلما صليت العصر . . تنفس ، ثم فتح عينيه .

وجاء فتح الموصلي إلىٰ منزل صديق له يُقال له : عيسى التمار ، فلم يجده في المنزل ، فقال للخادم : أخرج إليَّ كيس أخي ، فأخرجه ، فأخذ منه درهمين ، فلما جاء عيسىٰ . . أخبره الخادم بالحال ، فقال : إن كنت صادقاً . . فأنت حر لوجه الله عز وجل ، ثم نظر في الكيس ، فوجده صادقاً ، فقال : قد عَتَقت .

وقال عبد الرحمـٰن بن حبيب : دخلت علىٰ فتح وهو يوقد الآجُرَّ ، وكان فتح رجلاً من العرب ، وكان شريفاً زاهداً .

وقال عبد الله بن الفرج العابد : كان بالموصل رجل نصراني يكنىٰ : أبا إسماعيل ، قال : فمر ذات ليلة برجل وهو يتهجد علىٰ سطحه ، وهو يقرأ : ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ ، فصرخ أبو إسماعيل صرخة خر مغشياً عليه ، فلم يزل علىٰ حاله تلك حتىٰ أصبح ، فلما أصبح . . أسلم ، ثم أتىٰ فتحاً ، فاستأذنه في

---

(١) الكامخ : نوع من الإدام .

صحبته ، فكان يصحبه ويخدمه كثيراً ، واجتهد في العبادة ، ولقد بكىٰ حتىٰ ذهبت إحدىٰ عينيه ، وعَشيت الأخرىٰ ، فقلت له ذات يوم : حدثني ببعض أمر فتح ، قال : فبكىٰ ، ثم قال : أخبرك عنه ، كان ـ والله ـ كهيئة الروحانيين ، معلق القلب بما هنالك ، ليست له في الدنيا راحة قلب .

قال : وشهد العيد ذات يوم بالموصل ، ورجع بعدما تفرق الناس ، ورجعت معه ، فنظر إلى الدخان يفور من نواحي المدينة ، فبكىٰ ، ثم قال : قد قرَّب الناس قربانَهم ، فليت شعري ما فعلت في قربان عبدك جل جلالك أيها المحبوب ، ثم سقط مغشياً عليه ، فجئت بماء ، فمسحت به وجهه ، فأفاق ، ثم مضىٰ حتىٰ دخل بعض أزقة المدينة ، ورفع رأسه إلى السماء ، ثم قال : قد علم الله سبحانه وتعالىٰ طول غمي وحزني وترددي في أزقة الدنيا ، فحتىٰ متىٰ تحبسني أيها المحبوب جل جلالك ؟ ثم سقط مغشياً عليه ، فجئت بماء ، فمسحت علىٰ وجهه ، فأفاق ، فما عاش بعد ذلك إلا أياماً حتىٰ مات رحمة الله تعالىٰ عليه .

وقال بعض أصحابه : دخلت عليه يوماً وقد مد كفيه وهو يبكي ، حتىٰ رأيت الدموع بين أصابعه تنحدر ، فوقفت ، ثم دنوت منه لأنظر إليه ؛ فإذا دموعه قد خالطها صفرة ، فقلت له : بالله يا فتح بكيت الدم ؟ فقال : لولا أنك أحلفتني بالله . . ما أخبرتك ، نعم ؛ بكيت دماً ، فقلت له : علىٰ ماذا بكيت الدمع ؟ وعلىٰ ماذا بكيت الدم ؟ فقال : بكيت الدموع علىٰ تخلفي عن واجب حق الله عز وجل ، وبكيت الدم عن الدموع ؛ خوفاً ألاَّ تكون صحَّت ليَ الدموع ، يعني : ما قُبلت مني .

وقال : فرأيت فتحاً بعد موته في المنام ، فقلت له : ما صنع الله تعالىٰ بك ؟ فقال : غفر لي ، قلت : فما صنع في دموعك ؟ قال : قربني ربي عز وجل ، وقال : يا فتح ؛ بكيت الدمع علىٰ ماذا ؟ قلت : يا رب ؛ علىٰ تخلفي عن واجب حقك وأنت أعلم ، قال : فالدم لماذا ؟ قلت : يا رب ؛ خوفاً ألاَّ تصحَّ لي الدموع وأنت أعلم ، فقال لي : يا فتح ؛ ما أردت بهـٰذا كله ؟ وعزتي وجلالي ؛ لقد صعد إلي حافظاك أربعين سنة بصحيفتك وليس فيها خطيئة . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ١٢٤ـ١٢٧] .

وقال أبو حامد الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : جاءت صرة إلىٰ فتح الموصلي فيها خمسون درهماً فقال : قد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أتاه رزق من غير

مسألة ولا استشراف نفس . . فلا يرده »[1] . ثم فتح الصرة ، فأخذ منها درهماً ورد الباقي[2] .

وقال عبد الله بن الجلاء : كنت عند السَّري ببغداد ، فبينما نحن جلوس بعد عشاء الآخرة في غرفته ؛ وإذا به قد قام وأخذ ثوبه ونعليه ، وخرج من باب الغرفة ، فقلت : إلىٰ أين في هـٰذا الليل ؟ فقال : إلى الموصل أزور فتحاً ، وأرجع في هـٰذه الليلة إن شاء الله .

فبينما هو يمشي في بعض الأزقة ؛ وإذا بالعسس قد مسكه ومضىٰ به إلى الحبس ، فلما أصبح الصبح وطلعت الشمس . . ذهبوا به إلى الأمير ، وقالوا : قد وجدنا هـٰذا الرجل يمشي في الليل فمسكناه ، فقال : جردوه من ثيابه ، ثم قال : اضربوه ، فرفع السَّيَّاط يده ليضربه فوقفت يده ، ولم يستطع الضرب ، فقال له الأمير : ما يمنعك عن الضرب ؟ فقال : إن بجانبي شيخاً يقول لي : لا تضربه ، فلم أستجر أن أضربه ، فنظروا ؛ فإذا هو فتح الموصلي ، فأخذ بيده ورجع به إلى البيت . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرج أحمد (٤/ ٢٢٠) عن خالد الجهني رضي الله عنه : « من بلغه معروف من أخيه من غير مسألة ولا إشراف نفس . . فليقبله ولا يرده ؛ فإنما هو رزق ساقه الله عز وجل » .
وفي « البخاري » (١٤٠٤) ، و« مسلم » (١٠٤٥) في حديث سيدنا عمر رضي الله عنه : « ما أتاك من هـٰذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل . . فخذه » .

(٢) الإحياء (٤/ ٢٠٧) .

ومنهم الإمام :

فتح بن محمد الأزدي الموصلي

رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان فتح يكنىٰ : أبا محمد .

قال محمد بن الوليد : سمعت فتحاً يقول في جوف الليل : رب ؛ أجعتني وأعريتني ، وفي ظلمة الليل أجلستني ، فبأي وسيلة أكرمتني هـٰذه الكرامة ؟

وكان يبكي ساعة ، ويفرح ساعة .

وقال المعافى بن عمران : دخلت علىٰ فتح بن محمد الموصلي ، فرأيته جالساً في الشمس ، وبنية له عريانة ، وابن له مريض ، فقلت له : ائذن لي حتىٰ أكسو هـٰذه البنية ، قال : لا ، قلت : ولِمَ ؟ قال : دعها حتىٰ يرى الله عريها وصبرها وصبري عليها ، فيرحمنا ، قال : فتجاوزت إلى الصبي ، فقعدت عند رأسه ، فقلت له : حبيبي ؛ ما تشتهي حتىٰ أحمله إليك ؟ قال : ومن أنت رحمك الله ؟ قلت : المعافى بن عمران ، فرفع رأسه إلى السماء ، وقال : إلـٰهي وسيدي ؛ مني الصبر ومنك البلاء ، فأغنني عمن سواك يا أرحم الراحمين .

وقال أبو غسان المؤذن : خرجنا حُجاجاً ، فأردنا غسل ثيابنا بمكة ، فأرشدونا إلىٰ رجل له صلاح ودِين من أهل فارس يغسل للناس ثيابهم ، ويقصد الضعفاء فيغسل ثيابهم بغير أجرة ، فأتيناه ، فقال : مِن أين أنتم ؟ قلنا : من أهل الموصل ، قال : أتعرفون فتحاً ؟ قلنا : نعم ، فقال : ما فعل ؟ قلنا له : مات رحمه الله تعالىٰ ، قال : فتوجع عليه ، وأظهر حزناً عظيماً ، فقلنا له : كيف تعرفه وأنت رجل من أهل فارس وهو بالموصل ؟ فقال : رأيت في منامي عدة ليالٍ أن ائت فتحاً الموصلي ؛ فإنه من أهل الجنة ، قال : فخرجت من فارس حتىٰ أتيت الموصل ، فسألت عنه ، فقيل لي : هو على الشط ، فأتيته ؛ فإذا رجل ملتف بكسائه ، وقد ألقىٰ شِصاً[1] له في ماء ، فسلمت عليه ، فرد عليَّ السلام ، فقلت له :

---

(١) **الشص** : حديدة عَقْفاء يصاد بها السمك .

أتيتك زائراً ، فلف الشص ، وقام ، فدخلنا المسجد ، وغربت الشمس ، وصلينا ، وتفرق الناس ، فأُتي بطعام ، فأكلنا ، ثم نودي بالعِشاء الآخرة ، فصلينا ، وتفرق الناس ، ثم قام فتح في مصلاه ، ورميت بنفسي ، وإذا رجل قد دخل علينا المسجد ، فسلم عليَّ ، وصلىٰ إلىٰ جنب فتح ركعتين ، وقعد ، فسلم عليه فتح ، وسأله عن حال أبي السري ومتىٰ عهده به ، فقال : ما لي به عهد منذ أيام ، فقال : قم بنا إليه ؛ فإنه عليل ، قال : فخرجا من المسجد وأنا أنظر إليهما حتىٰ مضيا إلىٰ دجلة ، فرأيتهما يمشيان على الماء ، فقعدت أنتظر رجوعهما ، فجاء أحدهما في آخر الليل ؛ فإذا هو فتح ، فقمت ودخلت المسجد ، فرميت بنفسي كأني كنت نائماً ، فلما أسفر الصبح وصلينا وتفرق الناس . . قمت إليه ، وقلت : أبا محمد ؛ قد قضيتُ من زيارتك وطري ، وقد رأيت الرجل الذي أتاك البارحة ، فجعل يعارضني ، فلما علم أني قد علمت الخبر . . أخذ عليَّ العهد ألا أحدث بذلك أحداً ما دام حياً ، ثم قال لي : ذاك الخضر عليه السلام ، وأبو السري : حمزة الخولاني ، وهو رجل صالح في هٰذه القرية ، وأشار بيده إليها ، وقال : اجعل طريقك عليه ، فمضيت إليه وسلمت عليه .

وقال أبو نصر التمار : توفي فتح الموصلي سَنة سبعين ومئة رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ١٢٢ـ١٢٣] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

علي بن الفضيل بن عياض
رضي الله عنهما

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال عبد العزيز بن يزيد : قال الفضيل بن عياض : بكىٰ عليٌّ ابني يوماً ، فقلت له : ما لَك يا بني ؟ فقال : أخاف ألاَّ تجمعنا القيامة .

وقال الفضيل : أشرفت ليلة على ابني علي وهو في صحن الدار ، وهو يقول : النار ، النار ، ومتى الخلاص من النار .

وقال إسماعيل الطوسي : بينا نحن ذات يوم عند الفضيل ، فقرأ رجل : ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ، فسقط علي بن الفضيل مغشياً عليه ، فقال الفضيل رحمه الله : شكر الله تعالىٰ لك ما قد علمه منك .

وكان علي بن الفضيل يصلي حتىٰ يزحف إلىٰ فراشه ، ثم يلتفت إلىٰ أبيه ، ويقول : يا أبت ؛ سبقني المتعبدون .

وقال سفيان بن عيينة : ما رأيت أحداً أخوف من الفضيل وابنه .

وقال الفضيل : قلت لابني علي : لو أعنتنا علىٰ دهرنا ؟ قال : فأخذ قفة ومضىٰ إلى السوق ليحمل ، فأتاني رجل ، فأعلمني ، فمضيت إليه ، فرددته ، وقلت له : يا بني ؛ لست أريد هـٰذا ، أو لمْ أرد هـٰذا كله .

وعن الفضيل أن علياً ابنه كان يحمل علىٰ أباعر كانت لفضيل ، فنقص الطعام الذي حمله ، فحبسوا عليه الكراء ، فجاء الفضيل إليهم وقال : أتفعلون هـٰذا بعَليٍّ ، ولقد كانت لنا شاة بالكوفة أكلت شيئاً يسيراً من علف لبعض الأمراء أو الملوك ، فما شرب لها لبناً بعد ذلك ؟! قالوا : يا أبا علي ؛ لمْ نعلم أنه ابنك .

وعن الفضيل قال : اشترينا شعيراً بدينار ، وكان ذلك في غلاء السعر ، فقالت أم علي

للفضيل : قوّته لكل إنسان قرصين في اليوم والليلة ، فكان علي يأخذ واحداً ويتصدق بالآخر ، حتىٰ كاد يصيبه الخواء[1] ، أو أصابه بعض ذلك .

وقال الفضيل : قال لي ابني علي : يا أبت ؛ سل الذي وهبني لك في الدنيا أن يهبني لك في الآخرة ، ثم بكىٰ ولم يزل منكسر القلب حزيناً ، فبكى الفضيل بعد موته ، وقال : حبيبي ؛ من كان يساعدني على الحزن والبكاء غيرك يا ثمرة قلبي ؟! شكر الله تعالىٰ لك ما علمه منك .

وقال ابن عباد : كانوا يعودون علي بن الفضيل وهو بمنىٰ ، فقال لهم : لو ظننت أني أبقىٰ إلى الظهر . . لشقَّ علي .

وقال الفضيل لعَلِيٍّ ابنه : يا بني ؛ أمير المؤمنين قد أخلي له البيت للطواف ، فقم نغتنم الطواف خلوة ، فقال : يا أبت ؛ نغتنم خلوة الجور .

وقال الفضيل : اللهم ؛ إني اجتهدت أن أؤدب علياً ، فلم أقدر ، فأدبتَه أنت لي تباركت وتعاليت .

وقال عمران بن موسىٰ : قال علي بن الفضيل : ويحي من يوم ليس كالأيام! ثم قال : أوَّه! كم من قبيحة تكشفها القيامة غداً ؟!

وقال أحمد ابن أبي الحواري : سمعت أبا سليمان يقول : كان علي بن الفضيل لا يستطيع أن يقرأ (القارعة) ولا أن تقرأ عليه .

أسند عن : عبد العزيز ابن أبي رواد ، وعن سفيان بن عيينة ، وغيرهما . انتهىٰ [« الحلية » ٨/ ٢٩٧ـ٢٩٩] .

وقال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : سُرق من علي بن الفضيل دينار وهو يطوف بالبيت ، فرآه أبوه وهو يبكي ويحزن ، فقال : أعلى الدينار تبكي ؟ فقال : لا والله ؛ ولٰكن على المسكين الذي أخذه ؛ فإنه يسأل يوم القيامة ولا تكون له حجة .

وهٰذا كما قيل لبعضهم : ادع علىٰ مَن ظلمك ، فقال : إني مشغول بالحزن عليه عن الدعاء عليه .

---

(١) **الخواء** : خلو الجوف من الطعام ، ولعل المراد هنا : أنه يصيبه مرض من كثرة ما تكون معدته فارغة ، والله أعلم .

وشكا بعض الناس إلىٰ عالم أنه قد قُطِعَ عليه الطريق وأُخِذَ مالُه ، فقال : إن لم يكن غَمُّك أنه قد صار في المسلمين من يفعل هـٰذا أكثر من غمك بما سُرق لك . . فما نصحت المسلمين . [انتهىٰ « الإحياء » ٤/٢٨٣] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو بكر بن عياش
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال بشر بن الوليد : سمعت أبا بكر بن عياش يقول : جئت ليلة إلىٰ زمزم ، فاستقيت منه دلواً ، فشربت منه لبناً وعسلاً .

وقال الهيثم بن خارجة : رأيت أبا بكر بن عياش في المنام وقدامه طبق فيه رطب[1] وسكر ، فقلت له : يا أبا بكر ؛ ألا تدعونا إليه وقد كنت سخياً على الطعام ؟ فقال لي : يا هيثم ؛ هـٰذا طعام أهل الجنة ، لا يأكله أهل الدنيا ، قال : قلت : وبِمَ نلت هـٰذا ؟ قال : تسألني عن هـٰذا وقد مضت عليَّ ست وثمانون سنة أختم القرآن في كل ليلة[2] .

وقال بشر بن الحارث رحمه الله : سمعت أبا بكر بن عياش يقول وهو يدعو : أيا مَلَكيَّ ؛ ادعُوَا الله سبحانه وتعالىٰ لي ولكما ؛ فإنكما أطوع لله عز وجل مني[3] .

وقال أبو بكر بن عياش : لو سقط من أحدهم درهم . . لظل يومه يقول : إنا لله ، ذهب درهمي ، وهو يذهب يومه ولا يقول : ذهب يومي ما عملت فيه .

وقال أبو بكر بن عياش : الخلق أربعة : معذور ، ومخبور ، ومجبور ، ومثبور ، فأما المعذور : فالبهائم ، وأما المخبور[4] : فابن آدم ، وأما المجبور : فالملائكة ؛

---

(١) في نسخة : (لبن) .

(٢) قال الإمام النووي في كتابه « التبيان » (٨٠) : والاختيار ـ [أي في مدة ختم القرآن] ـ أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص ، فمن كان يظهر له بدقيق الفكر لطائف ومعارف . . فليقتصر علىٰ قدر يحصل له به كمال فهم ما يقرؤه ، وإن لم يكن . . فليستكثر ما أمكنه من غير خروج إلىٰ حد الملل والهذرمة . انتهىٰ باختصار .
وكذلك قال في موضع آخر (٧٧) : فمن الذين يختمون الختمة في اليوم والليلة : عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وتميم الداري ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، والشافعي ، وآخرون ، ولعل الأمر في ذلك راجع إلى البركة في الزمان والمكان ، والله أعلم .

(٣) لعله يقصد الملكين الحافظين ، وهـٰذا من نتائج المراقبة الصادقة .

(٤) **المخبور** : المختبر والمسؤول .

جبرت على الطاعة ، وأما المثبور[1] : فإبليس .

وقال : أدنىٰ نفع السكوت . . السلامة ، وكفىٰ بالسلامة عافية ، وأدنىٰ ضرر المنطق . . الشهرة ، وكفىٰ بالشهرة بلية .

وقال أبو بكر بن عياش أيضاً : رأيت في النوم عجوزاً حدباء مشوهة تصفق بيديها ، وخلفها خلق يتبعونها يصفقون ويرقصون ، فلما كانت بحذائي . . أقبلَت عليَّ ، وقالت : آه! لو ظفرتُ بك . . لصنعت بك ما صنعت بهـٰؤلاء ، قال : ثم بكىٰ ، وقال : رأيت هـٰذه الرؤيا قبل أن أقدم بغداد .

وقال : قال لي رجل مرة وأنا شاب : خلِّص رقبتك ما استطعت في الدنيا من رق الآخرة ؛ فإن أسير الآخرة غير مفكوك أبداً ، قال أبو بكر : فما نسيتها أبداً .

وقال : وددت أنه صُفح لي عما كان مني في الشباب ، وأن يديَّ قطعتا .

ولما حضرت أبا بكر بن عياش الوفاة . . بكت أخته ، فقال لها : لا تبكي ، وأشار إلىٰ زاوية في البيت ؛ فقد ختم أخوك القرآن في تلك الزاوية ثمانية عشر ألف ختمة ، واعتماده ليس إلا علىٰ فضل الله الكريم سبحانه وتعالىٰ ورحمته .

أسند كثيراً عن الأئمة ، منهم : عاصم ، والأعمش .

فمن أحاديثه : عن عاصم ، عن زر بن حبيش ، عن عبد الله قال : سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الغنىٰ ما هو ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « اليأس مما في أيدي الناس »[2] . غريب من حديث عاصم ، تفرد به أبو بكر بن عياش فيما أرىٰ ، والله أعلم .

وعنه عن عاصم ، عن زر بن حبيش ، عن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لعلكم ستُدركون أقواماً يؤخرون الصلاة عن وقتها ، فصلوا في بيوتكم ، واجعلوا الصلاة معهم سبحة »[3] غريب من حديث عاصم ، لم يَرْوِهِ عنه إلا أبو بكر .

وبه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تَلِجوا على المغيَّبات ؛ فإن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم »[4] .

---

(١) **المثبور** : الخاسر .

(٢) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١٠/ ١٣٩) .

(٣) أخرجه بنحوه ابن خزيمة في « الصحيح » (٣/ ٦٨) .

(٤) أخرجه بنحوه الترمذي (١١٧٢) ، **والمغيبات** : النساء اللاتي غاب عنهن أزواجهن .

وبه قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي والحسن والحسين يلعبان ويقعدان علىٰ ظهره ، فأخذ المسلمون يميطونهما ، فلما انصرف . . قال : « ذروهما بأبي وأمي ، ومن أحبني . . فليحب هـٰذين »[1] غريب من حديث عاصم ، لم يروِهِ إلا أبو بكر .

وعنه عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة رضي الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل أهل الجنة يرىٰ مقعده من النار ، فيقول : لولا أن الله عز وجل هداني . . لكنت فيها ، فيزداد لله سبحانه وتعالىٰ شكراً ، وكل أهل النار يرىٰ مقعده من الجنة ، فيقول : لو أن الله تعالىٰ هداني ، فتكون عليه حسرة »[2] غريب .

وعنه عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عمرو ابن أبي سلمة : أنه رأىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي في ثوب واحد مشتملاً به[3] . صحيح ثابت . انتهىٰ [« الحلية » ٨/٣٠٣ـ٣١٣] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : توفي أبو بكر بن عياش رحمه الله سَنة ثلاث وتسعين ومئة ، وله ثلاث وتسعون سَنة . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/٨٣] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أخرجه بنحوه ابن حبان في « الإحسان » (٦٩٧٠) .

(٢) أخرجه بنحوه الحاكم (٢/ ٤٧٣) .

(٣) أخرجه بنحوه البخاري (٣٤٨) ، ومسلم (٥١٧) .

ومنهم الإمام :

أبو الحكم سَيَّار
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : عن هشيم قال : دخلنا علىٰ سيار وهو يبكي ، فقلنا له : ما يبكيك ؟ قال : ما أبكى العابدين من قبلي .

وقال : الدنيا والآخرة يجتمعان في قلب العبد ، فأيهما غلب . . كان الآخر تبعاً له .

وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله : كان سيار يحب أن يأتينا ، فقدم سيار البصرة ، وكان له ثياب حسان يلبسها أحياناً ، فدخل يوماً علىٰ مالك بن دينار وعليه وعلىٰ أصحابه الصوف ، فحدث مالك بن دينار ، ووعظ أصحابه ، وتفرقوا ، وبقي هو ومالك ، وهو لا يعرفه ، فقال له مالك : أيها الشيخ ؛ إني لأرغب بك عن هـٰذا اللباس ، فقال له سيار : أيضعني هـٰذا عندك ؟ قال : نعم ، **فقال سيار : نِعْمَ الثوب ثوب يضع صاحبه عند الناس** ، ولـٰكن أخاف أن يكون ثوباك هـٰذان اللَّذان عليك قد بلغا بك من الناس ما لم يبلغك من الله عز وجل ، فقام مالك من مجلسه حتىٰ جاء فجلس بين يديه ، وقال : مَن أنت يرحمك الله تعالىٰ ؟ فقال : سيار .

ثم قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : كان سيار هـٰذا من التابعين ، واسطي الأصل ، تأخر ذِكره عن طبقته .

روىٰ عن طارق بن شهاب ، وقيل : إن طارقاً من الصحابة رضي الله عنهم ، وأكثرَ الرواية عن الشعبي .

فمن أحاديثه : عن طارق ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنهم ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من نزلت به حاجة فأنزلها بالناس . . لم تُسَدَّ فاقته ، وإن أنزلها بالله عز وجل . . أوشك الله له بالغنىٰ ، إما أجر آجل ، أو غنىٰ عاجل »[1] انتهىٰ [« الحلية » ٨/ ٣١٣ـ٣١٤] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

---

(١) أخرجه بنحوه الترمذي (٢٣٢٦) .

ومنهم الإمام :

شيبان الراعي
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : كان شيبان الراعي إذا أجنب وليس عنده ماء . . دعا ربه عز وجل ، فجاءت سحابة ، فأظلته ، فاغتسل منها .

وكان يذهب إلى الجمعة ، فيخط علىٰ غنمه بعصاه خطاً ، فإذا جاء . . وجدها علىٰ حالها لم تتحرك . انتهىٰ [« الحلية » ٨/ ٣١٧] .

وقال أبو القاسم القشيري ـ قدس الله روحه ـ : حكي أن أحمد ابن حنبل كان عند الشافعي رحمه الله ، فجاء شيبان الراعي ، فقال أحمد : أريد ـ يا أبا عبد الله ـ أن أنبه هـٰذا علىٰ نقصان علمه ؛ ليشتغل بتحصيل العلم ، فقال له الشافعي : لا تفعل ، فلم يقنع ، ثم قال لشيبان : ما تقول في مَن نسي صلاة من الخمس صلوات في اليوم والليلة لا يدري أي صلاة نسيها ؛ ما الواجب عليه يا شيبان ؟ فقال شيبان : يا أحمد ؛ هـٰذا قلب غفل عن الله سبحانه وتعالىٰ ، فالواجب أن يؤدب حتىٰ لا يغفل عن مولاه جل جلاله بعد ذلك ، فغشي علىٰ أحمد ، فلما أفاق . . قال له الشافعي : ألم أقل لك لا تحرك هـٰذا .

وكان شيبان أمياً ، فإذا كان هـٰذا حال الأمي . . فما ظنك بالأئمة منهم ؟!

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : رأيت في بعض المجاميع : أن الشافعي رحمه الله كان يجلس إلىٰ شيبان الراعي ، ويسأله عن مسائل ، فيقال له : مثلك يسأل هـٰذا البدوي ؟! فيقول لهم : إن هـٰذا وفق للعمل لما[1] عَلمَنَاه .

وقد كان الأئمة المجتهدون رحمهم الله يعترفون بوفور فضل علماء الباطن .

وقد قال الإمامان الشافعي وأبو حنيفة رحمهما الله : إذا لم يكن العلماء أولياءَ الله تعالىٰ . . فليس لله عز وجل ولي .

---

(١) في نسخة : (بما) .

وقد حكىٰ غير واحد من الحفاظ : أن أبا العباس بن سريج رحمه الله كان إذا عجب الحاضرون مما يبديه لهم من العلوم . . يقول لهم : تدرون مِن أين لي هـٰذا ؟ هـٰذا إنما حصل لي من بركة مجالستي أبا القاسم الجنيد .

وكان من دعائه رحمه الله : يا ودود ، يا ودود ، يا ذا العرش المجيد ؛ أسألك بعزك الذي لا يرام ، وبملكك الذي لا يضام[1] ، وبنور وجهك الذي ملأ أركان عرشك . . أن تكفيني شر الظالمين أجمعين .

ونظم بعضهم قصيدة ذكر فيها أسماء جماعة من الأولياء رضوان الله عليهم ، فمنها :

شيبـــان قـــد كـــان راعـــي ... وســـر ســـره مـــا اختفـــىٰ
فـــاجْهَـــدْ وخـــل الـــدعـــاوي ... إن كـــان لـــك شـــيء ثـــانـــي

وقال في « لوامع أنوار القلوب » : قال أبو عبد الله محمد بن عبد الخالق الدينوري رحمه الله : حقيقة المحبة . . أرقٌّ بلا رقاد ، وجسم بلا فؤاد ، وتهتك في العباد ، وتشرد في البلاد ، كما روي أنه حج سفيان الثوري وشيبان الراعي رحمهما الله ، فعرض لهما سبع في الطريق ، فقال سفيان : أما ترى السبع ؟ فقال شيبان : لا تخف يا أبا عبد الله ، فلما سمع الأسد كلام شيبان . . بصبص[2] له ، فأخذ شيبان أذنيه ، فعركهما فحرك السبع ذنبه ومضىٰ ، فقال سفيان : ما هـٰذه الشهرة ؟! فقال : يا أبا عبد الله ؛ لولا الشهرة . . لوضعت زادي علىٰ ظهره إلىٰ مكة ؛ ليُعلَم التهتك في العباد والتشتت في البلاد كيف يكون . انتهىٰ .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : ورأيت في المجلد الخامس من « بهجة الأسرار » : عن أبي سعيد الخراز رحمه الله قال : حدثني محمد بن منصور قال : أراد شيبان الحج في أيام العشر ، فقال لخاله خلف : لك حاجة إلىٰ مكة ؟ فربط في طرف كسائه خمسة درا-هم ، وقال : استعن بهـٰذه ، فحج شيبان ورجع ولم يمسها ، فقال له خاله خلف : لِمَ لا أنفقتها ؟ فقال : لم يكن الله عز وجل يدعني أكثر من ثلاثة أيام ، ويطعمني في اليوم الرابع ، فقال له : فلَمْ تجد أحداً تعطيه هـٰذه الدراهم ؟ فقال : يتولىٰ إنفاقها من تولىٰ كسبها . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) في بعض النسخ : (يزول) .

(٢) **بصبص** : حرك ذنبه ، وذلك إما من خوف أو طمع والتبصبص : التملق .

ومنهم الإمام :

أبو علي الحسن بن يحيى الخشني
رضي الله عنه

قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : سئل الخشني رحمه الله : ما علامة أولياء الله ؟ فقال : هم الذين يوَفِّقهم في دار الدنيا للأعمال الصالحة التي يرضىٰ بها عنهم .

وقال في قوله عز وجل : ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ قال : لنرزقنه طاعة يجد لذتها في قلبه .

وقال : ما في جهنم من دار ولا مغار[1] ولا قيد ولا غل ولا سلسلة . . إلا واسم صاحبها عليه مكتوب ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، قال أحمد ابن أبي الحواري رحمه الله : فحدثت به أبا سليمان ، فقال : فكيف به إذا جمع هـٰذا كله عليه ، فجعل القيد في رجله ، والغل في يده ، والسلسلة في عنقه ، ثم أدخل النار ، ثم أدخل المغار ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . [انتهىٰ « الحلية » ٨/٣١٨] .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : ورأيت في بعض المجاميع : قال الحسن الخشني وقد سئل عن آداب الصحبة : حدثت أن لقمان قال لابنه : يا بني ؛ عليك بخلال ، إن تمسكت بهن . . لم تزلْ سيداً : ابسط حلمك للبعيد والقريب ، وامسك جهلك عن الكريم واللئيم ، واحفظ إخوانك ، وصِلْ أقاربك ، وليكن إخوانك من إذا فارقتهم وفارقوك . . لم تعبهم ولم يعيبوك .

وخصلتان يزِينانك : **اعلم** : أنه لا يطأ بساطك إلا راغب فيك أو راهب منك :

فأما الراهب منك : فأدنِ مجلسه ، وتهلل في وجهه ، وإياك والغمز من ورائه .

وأما الراغب فيك : فأظهر له البشاشة مع صفاء الباطن له أيضاً ، وابدأه بالنوال قبل السؤال ؛ فإنك متىٰ تلجئه إلى السؤال منك . . تأخذ من حر وجهه ضِعفَي ما أعطيته .

---

(١) **المغار** : الكهف في الجبل .

وأنشدوا علىٰ هـٰذا المعنىٰ :

إذا أعطيتنـــي وأخـــذت مِنِّـــي فمِـــن مَنِّـــك أيضـــاً ثـــم مَنِّـــي[1]

إذا أعطيتنـــي بســـؤال وجـــهٍ فقـــد أعطيتنـــي وأخـــذت منـــي

وقال : قال بعض العارفين رحمهم الله : تذاكرنا في هـٰذا العلم الدقيق يوماً مع بعض أصحابنا ، فرأيت في النوم كأنا نتذاكر ما كنا فيه من العلم يقظة ، وكأن قائلاً يقول : يا إبراهيم ؛ قد سمعت كلامكم بالأمس ، وخوضكم في تلك المعاني الدقيقة ، وإدخالكم أمثال الجبال من الكلام في مثل سم الخياط من المعاني ، وتخلفكم عن أمثال الجبال من الأعمال ، مهلاً مهلاً أيها القوم ، فالطريق ما هو هـٰهنا ، إنما يراد من العلم العمل ، وكلما ازددتم علماً . . كانت الحجة عليكم أقوم وأقوىٰ .

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، نسأل الله تعالى العافية بمنه وكرمه . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) **المَنُّ** : العطاء .

ومنهم الإمام :

أبو نصر بشر بن الحارث
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال محمد بن الصلت : سمعت بشر بن الحارث وسئل ما كان بدء أمرك ؟ فإن اسمك بين الناس كأنه اسم نبي ، قال : هـٰذا من فضل الله سبحانه وتعالىٰ ، وما أقول لكم كنت رجلاً عياراً[1] صاحب عصبة ، فخرجت يوماً ؛ فإذا أنا بقرطاس في الطريق ، فرفعته ؛ فإذا فيه : بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، فمسحته وجعلته في جيبي ، وكان عندي درهمان وما كنت أملك غيرهما ، فذهبت إلى العطارين ، فاشتريت بهما غالية ، ومسحته في القرطاس ، فنمت تلك الليلة ، فرأيت في المنام كأن قائلاً يقول لي : يا بشر بن الحارث ؛ رفعت اسمنا عن الطريق وطيبته . . لأطيبن اسمك في الدنيا والآخرة ، ثم كان ما كان .

وقال سفيان بن محمد المصيصي : رأيت بشر بن الحارث في النوم ، فقلت : ما فعل الله تعالىٰ بك ؟ قال : غفر لي ، وأباحني نصف الجنة ، وقال لي : يا بشر ؛ لو سجدت لي على الجمر . . ما أديت شكر ما جعلت لك في قلوب عبادي .

وقال بشر بن الحارث رحمه الله : ليس أحد يحب الدنيا . . إلا لم يحب الموت ، وليس أحد يزهد في الدنيا . . إلا أحب الموت ، حتىٰ يلقىٰ مولاه سبحانه وتعالىٰ .

وقال بشر : العجب أن تستكثر عملك وتستقل عمل الناس أو عمل غيرك .

وكان بشر بباب حرب ، فأراد الدخول إلى المقبرة ، فقال : الموتىٰ داخل السور أكثر منهم خارج السور .

وقال : من أراد أن يُلَقَّن الحكمة . . فلا يعص الله عز وجل .

وقال في جنازة أخته : إن العبد إذا قصر في طاعة الله عز وجل . . سلبه من يؤنسه .

---

(١) **العيَّار من الرجال** : الذي يخلّي نفسَه وهواها لا يردعُها ولا يزجرُها .

وقال الحسين بن محمد البغدادي : سمعت أبي يقول : زرت بشر بن الحارث ، فقعدت معه ملياً ، فما زادني علىٰ كلمة ؛ قال : ما اتقى الله عز وجل من أحب الشهرة .

وقال : لا تعمل لتُذْكر ، وَرِدِ الله تعالىٰ بما يريد .

وقال : إذا أعجبك الكلام . . فاصمت ، وإذا أعجبك الصمت . . فتكلم .

وقال : إذا ذكرت الموت . . ذهبت عنك صفوة الدنيا وشهواتها ، وذهبت عنك شهوة الجماع .

وكان أسفل قدمي بشر قد اسود من التراب من المشي حافياً .

وقال : إنما أنت متلذذ تسمع وتحكي ، إنما يراد من العلم العمل ، اسمع ، وتعلَّم ، واعمل ، وعلِّم ، واهرب ، ألم تر إلىٰ سفيان الثوري كيف طلب العلم فعلم وعمل وعلَّم وهرب ؟! وطلبُ العلم إنما يدل على الهرب من الدنيا ، ليس يدل علىٰ حبها .

وقال : إن لم تعمل . . فلا تعص .

وقال : من عامل الله عز وجل بالصدق . . استوحش من الناس .

وقال : اكتم حسناتك كما تكتم سيئاتك . انتهىٰ [« الحلية » ٨/٣٣٦-٣٤٨] .

وقال القشيري ـ رحمه الله ـ : قال الفتح بن شخرف : تعلق شخص بامرأة في الطريق وبيده سكين ، لا يدنو منه أحد إلا عقره ، والمرأة تصيح ، فمر بشر بن الحارث ، ودنا منه ، وحك كتفه ، فوقع الرجل على الأرض ، ومضت المرأة ، ومضىٰ بشر ، وأقام الناس ينظرون متىٰ يفيق ، فوجدوه وهو يرشح عرقاً ، فلما أفاق . . سألوه ، فقال : ما أدري إلا أن شخصاً حك كتفه كتفي ، وقال لي : إن الله عز وجل ناظر إليك وإلىٰ عملك ، فضعفَت لقوله قدماي ، وسقطتُ ، وهبتُه هيبة شديدة ، فلا أدري من هو ، قالوا : هو بشر بن الحارث ، فقال : واسوأتاه! كيف ينظر إلي بعد ذلك ، ثم إنه راح إلىٰ منزله ، فحُمَّ ومات بعد سبعة أيام .

وقال بشر : مَثل الذي يأكل الدنيا بالدِّين . . مثَل الذي يغسل يديه من الزهومة[1] بالسمك . انتهىٰ .

ثم قال الحافظ : قال إبراهيم الحربي : حملني أبي إلىٰ بشر بن الحارث ، فقال : يا أبا

---

(١) **الزهومة** : الدسم .

نصر ؛ ابني هـٰذا يحب كتابة الحديث والعلم ، فقال له بشر : يا بني ؛ هـٰذا العلم ينبغي أن تعمل به ، فإن لم تعمل به كلِّه . . فمِن كل مئتي حديث بخمسة أحاديث مثل [زكاة] الدراهم ، فقال له أبي : يا أبا نصر ؛ تدعو له ؟ فقال : دعاؤك له أبلغ ؛ فإن دعاء الوالد لولده . . كدعاء النبي لأمته ، قال إبراهيم : فاستحليت كلامه واستحسنته .

فلما كان يوم الجمعة وقد دخلت الجامع ؛ فإذا ببشر يصلي في قبة الشعراء ، فقمت وراءه أركع إلىٰ أن نودي بالأذان ، فقام رجل رث الحال والهيئة ، فقال : يا قوم ؛ احذروا أن أكون صادقاً ، وليس مع الاضطرار اختيار ، ولا يسع السكوت عند العدم ، ولا السؤال مع الوجود ، وثَمَّ فاقة رحمكم الله تعالىٰ ، قال : فرأيت بشراً أعطاه قطعةً قدر دانق ، قال إبراهيم : فقمت إليه ، فأعطيته درهماً ، وقلت : أعطني القطعة ، قال : لا أفعل ، قلت : هـٰذان درهمان ، قال : لا أفعل ، قال إبراهيم : وكان معي عشرة دراهم صحاحاً ، فقلت : هـٰذه عشرة دراهم ، فقال لي : يا هـٰذا ؛ وأي شيء رغبتك في دانق تبذل فيه عشرة صحاحاً ؟ قال : قلت : هـٰذا رجل صالح ، فقال لي : فأنا في معروف هـٰذا أرغب ، ولست أستبدل بالنعم نقماً ، وإلىٰ أن آكل هـٰذه فرج عاجل ، أو منية قاضية ، قال إبراهيم : فقلت : أنظر معروف مَنْ بيد مَنْ ، فقلت : يا شيخ ؛ دعوة ، فقال لي : أحيا الله قلبك ، ولا أماته حتىٰ يميت جسمك ، وجعلك ممن يشتري نفسه بكل شيء ولا يبيعها بشيء .

وقال بشر بن الحارث : لا ينبغي لأحد أن يذكر شيئاً من الحديث في موضع حاجة يكون له من حوائج الدنيا يريد أن يتقرب به ، ولا يذكر العلم في موضع الدنيا ، وقد رأيت مشايخ طلبوا العلم للدنيا ، فافتضحوا ، وأُخَرَ طلبوه فوضعوه مواضعه ، وعلموه وقاموا به ، فأولـٰئك سلموا ونفعهم الله تعالىٰ به .

وقال حفص بن غياث : كنا نستغني بمجلس سفيان عن الدنيا ، وكان الفقراء في مجلس سفيان الثوري هم الأمراء .

قال بشر : وكان سفيان يقول : من كان عنده شيء من معاش . . فليتمسك به ؛ فإنه سيأتي على الناس زمان أول ما يلقى الرجل الرجل . . يلقاه بدينه .

وقال بشر بن الحارث رحمه الله : لو تفكر الناس في عظمة الله عز وجل . . لما عصوا الله سبحانه وتعالىٰ .

وقال بشر : مَن يسأل الله تعالى الدنيا . . فإنما يسأله طول الوقوف يوم القيامة .

قيل لبشر : إن فلاناً جمع الدنيا وذهب إلى الآخرة ، لـٰكنه كان يصنع ويصنع ، وذكروا أبواباً من البر ، فقال بشر : ما ينفع هـٰذا وهو يجمع الدنيا ؟!

وقال الحسن بن سعد[1] : كنا عند بشر رحمه الله ، فجاءه رجل خراساني ، فجلس بين يديه ، وقال : يا أبا نصر ؛ أنا من خراسان ، حدثني بخمسة أحاديث أذكرك بها بخراسان ، فقال له بشر : المحدثون كثير ، فلم يزل الخراساني يتذلل له ، وبشر يقول : المحدثون كثير ، فلما أكثر عليه وهو لا يقبل . . قال : يا أبا نصر ؛ أليس تروي عن عيسىٰ عليه الصلاة والسلام أنه قال : من عَلِم وعمل وعلَّم . . فذلك الذي يدعىٰ عظيماً في ملكوت السماء ؟ قال له بشر : كيف قلت ؟ أعد عليَّ ، فأعاد عليه القول ، فقال له : صدقت ، قد علمنا حتىٰ نعملَ ثم نُعلِّمَ . انتهىٰ [« الحلية » ٨/ ٣٣٧ـ٣٤٩] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : وفي حفظي : أن جماعة من أهل بغداد كانوا في مجلس لهو وشرب ، فأرسلوا غلاماً يشتري لهم خضرة وما يتم به مجلسهم بعشرين درهماً ، فغاب عنهم زماناً طويلاً ، ثم رجع إليهم وهو يضحك وما معه شيء ، لـٰكن بيده بطيخة ، فقالوا له : ما كفىٰ أنك أبطأت ، ومع ذلك فقد جئتَ بغير شيء[2] ، فقال : جئتكم بأعجوبة ، هـٰذه البطيخة وضع بشر بن الحارث يده عليها ، فتزايد الناس فيها إلىٰ عشرين درهماً ، وقد اشتريتها بعشرين درهماً ، فجعل كل واحد منهم يقبّلها ، وقال بعضهم لبعض : بأي شيء بلغ بشر إلىٰ هـٰذه المنزلة ؟ فقالوا : بالتقوىٰ ، فتابوا من وقتهم ، وصاروا ناسكين ، كل ذلك ببركة بشر رحمه الله .

وقد أحببت أن أذكر في ترجمته رحمه الله قاعدة عامة النفع إن شاء الله عز وجل ، وهي في إبراز بعض الأسرار والحكم المودعة في أقوال العارفين رحمهم الله وأفعالهم ، لا سيما بشر ، بحسب ما أفاضه الله عز وجل علينا من عرفانهم ، ورزقنا من بركاتهم ، فأقول وبالله التوفيق :

اعلم : أنه قد مر في ترجمة بشر عدم إجابته إلىٰ إسماع الحديث ، وكذا امتناعه عن كثير من تناول الشهوات ، ومنع نفسه عنها كل المنع ، وقد وقع ذلك أيضاً لجماعة من العارفين ؛ كداوود الطائي ، وسري السقطي ، رحمهما الله تعالىٰ ، وغيرِهما .

---

(١) في نسخة : (سعيد) .

(٢) في نسخة : (ببطيخة) .

فإذا وقف العامي علىٰ ظاهر هـٰذا . . ظنه خلاف الأولىٰ ، وربما يزيد في الغباوة ، فيظنه غير مباح ، والبصير يعرف أن ذلك من محض التقوىٰ وشدة الورع ، **بيان ذلك في مقامين ، أحدهما : في جانب التعليم ، وثانيهما : في عدم تناول بعض الشهوات .**

أما الأول : فلهم في ذلك أعذار :

منها : خشية العجب وغير ذلك ، ويرون أن غيرهم يقوم بذلك فلا يتعين عليهم ، ولهـٰذا قال بشر رحمه الله : المحدثون كثير ، فعلَّل بأن هـٰذا لا يتعين عليَّ ، وخشي علىٰ نفسه العجب أو غيرَه ، فأحجم عن إسماع الحديث لذلك ، ولا شك أن للنفس دفينة في نشر العلم ، فلهـٰذا ينبغي للعالم أن يجاهد نفسه ويدفع عنها الأسباب المؤدية إلى العجب وغيره ؛ لئلا يلحقه الإثم الكبير ، والعارف ـ لشدة خوفه وورعه ـ يمتنع عن كثير من أعمال البر ؛ خشية أن يدخل عليه ما يفسد عمله ، فلا يفي الربح[1] بالخسران ، فلا يأتي إلا عن بصيرة ، ولا يذر إلا عن بصيرة ، هـٰكذا شأن العارفين ؛ ليحصل لهم الإخلاص الذي هو سر العبادة وروحها ، فتصفو لهم المعاملة مع الله عز وجل ، وتصلح لهم قلوبهم ؛ لأن بصلاحها صلاح الجسد كله ؛ كما جاء في الحديث الثابت في الصحيح[2] : وتَخَلُّص الأعمال على العمال أشد عليهم من العمل ، ومن تتبع أحوال العارفين وأقوالهم سلفاً وخلفاً . . وجدها علىٰ ذلك ، وهـٰذا باب غامض لا يدركه إلا البصير الناقد من سماسرة[3] العلماء .

ومما يدل علىٰ أنه قصد هـٰذا المعنىٰ : ما رواه الخطيب عن أيوب العطار قال : سمعت بشراً يقول : حدثنا حماد بن زيد ، ثم قال : **أستغفر الله ، إن لذِكر الإسناد في القلب خيلاء .**

ومنها ـ وقد علل به بشر ـ : أنه ينبغي أن يَعمَل بما عَلِم أولاً ، ثم بعد ذلك يعلِّم ثانياً ، وإلا . . يكون حجة عليه ، والعارف كلما ازداد علماً . . ازداد وجعاً[4] .

ولهـٰذا قال سفيان الثوري رحمه الله : لو لم أتعلم هـٰذا العلم كله . . لكان أقل لحزني ، وكلما ازددت علماً . . ازددت وجعاً ، ولا شك أن حجة الله عز وجل على العالم أقوىٰ منها علىٰ غيره .

---

(١) في نسخة : (الورع) .
(٢) البخاري (٥٢) .
(٣) **السمسار** : القيم بالأمر ، الحافظ له .
(٤) في نسخة : (ورعاً) .

ومعلوم أن العلم إنما يراد للعمل ، فإذا لم يُعمل به . . فترْكه أفضل ، هـٰذا مع كونه كما تقدم أنه ليس مما قد تعين عليه فيه التعليم حتىٰ يخرج بتركه ، ولهـٰذا ذكروا عند بشر طلب العلم وتعلمه وتعليمه ونشره ، فقال : إذا لم نعمل به . . فتركه أفضل ، والعلم هو العمل ، فإذا أطعت الله تعالىٰ . . علَّمك ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ ، وإذا عصيته . . لم يعلمك .

وهكذا قال سفيان الثوري وغيره من الأئمة سلفاً وخلفاً رضوان الله عليهم ، ومن تتبع أقوالهم وأفعالهم . . وجد من ذلك شيئاً كثيراً .

ومما يدل علىٰ أنه قصد هـٰذا : ما قاله أبو بكر ابن أبي داوود ، قال : قلت لعلي بن خشرم لما أخبرني أن سماعه وسماع بشر بن الحارث من عيسىٰ واحد ، قلت له : فأين حديث أم زرع[1] ؟ فقال : سماعي معه ، وكتبت إليه أن يوجه به إلي ، فكتب إلي : هل عملت بما عندك حتىٰ تطلب ما ليس عندك ؟ ثم قال بشر : لا أعلم أفضل من طلب الحديث والعلم لمن اتقى الله عز وجل وحسنت نيته فيه ، وأما أنا . . فأستغفر الله عز وجل من كل خطوة خطوت فيه .

ومنها : أن المعلم شريك المتعلم في الأجر والوزر ، يقال له : ومعلمك شريكك ؛ يعني : في الخير والشر ، والعلم لا يراد به الدنيا ، ولهـٰذا قال بشر رحمه الله : العلم أداة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم إلىٰ أممهم ، فتمسكوا به وَحَفِظوه وَعَمِلوا به ، ثم أَدَّوه إلىٰ قوم ، فعَمِلوا به . . . وهـٰكذا ، وقد صار العلم اليوم إلىٰ قوم يأكلون به الدنيا ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وهـٰذا مشرب جميع العارفين سلفاً وخلفاً ؛ فإنهم اجتهدوا في صيانة علمهم عن أن يريدوا به الدنيا ، ألا ترىٰ إلىٰ ما روي عن داوود الطائي رحمه الله ، لما كان يجيء إليه محمد بن الحسن صاحب الإمام أبي حنيفة رحمه الله ، قال : كنت إذا جئت إلىٰ داوود . . أسأله عن المسألة ، قال : فإن وقع في نفسه أنها مما أحتاج إليه في أمر ديني . . أجابني ، وإلا . . تبسم في وجهي ، وقال : إن لنا شغلاً .

---

(١) جاء في الحديث كما رواه البخاري (٤٨٩٣) : أن السيدة عائشة رضي الله عنها روت أن إحدىٰ عشرة امرأة تكلمن عن أزواجهن ، وكانت من بينهن امرأة اسمها أم زرع ، وكان زوجها حسن المعاشرة معها فقال النبي صلى الله عليه وسلم للسيدة عائشة : « كنت لك كأبي زرع لأم زرع » ومن أراد التعرف إلىٰ ما تكلمت كل زوجة في زوجها . . فلينظر الحديث بطوله ؛ ففيه فوائد كثيرة ، والله أعلم .

فتورُّع بشر عن إسماع الحديث قد يكون لذلك ، ولهـٰذا قال : لا تطلب علماً تهينه للناس ؛ أي : تريد به الناس[1] ، هـٰذا هو الداء الأكبر ، ويمتزج هـٰذا بعذر آخر ، وهو قصد المباهاة والمماراة مع قصد الدنيا ، وكل ذلك بمفرده من السموم القاتلة ، ففرار العارف منها أشد من فراره من الأسد .

ومنها : أن هَمَّ العارف ومقصوده كلَّه إنما هو الله سبحانه وتعالىٰ ، فكل ما يقطعه عن ذلك . . يجتهد في إزالته ودفعه عنه بكل طريق ، وأقوال العارفين وأحوالهم دلت علىٰ ذلك دلالة واضحة .

ألا ترىٰ إلىٰ قول غير واحد من العارفين ، منهم : أبو الحسين النوري رحمه الله قال : أعلىٰ مقامات الحقائق . . الانقطاع عن العلائق .

وقال قبله أبو سليمان الداراني رحمه الله : كل ما شغلك عن الله عز وجل من أهل ومال وولد . . فهو عليك مشؤوم .

والله عز وجل يختص برحمته من يشاء ، فوهب لبعض عباده ، وأفاض عليهم من العرفان بحسب ما شاء وأراد ، فربَّ شخص لا يقطعه الاشتغال بالتعليم عن الله تعالىٰ ـ وهـٰذا حال الأكثرين ـ ورب شخص يقطعه الاشتغال بالتعليم عن الله تعالىٰ ؛ فإن مواهب الله سبحانه وتعالىٰ لأوليائه وتمكينهم لا تنحصر ، ودرجاتهم متفاوتة ، فلذلك اختلفت مشاربهم ، ومعلوم أن أعمالهم غامضة لطيفة ، يحاسبون أنفسهم على الحركات والسكنات والخطوات والخطرات ، حتىٰ أن يحيى بن يحيى النيسابوري رحمه الله شرب دواء لضعف أصابه ، فلم يجبه[2] ، فقالت له امرأته : لو ترددتَ في الدار خطوات ؟ فقال : لي أربعين سنة ما أمشي إلا فيما أحتسبه ، وهـٰذه المشية لا أدري ما هي .

فلا يأتون عملاً إلا بنية ، والنية ليست مما يحصل وجودها في كل وقت ، فقد تصح وقد لا تصح ، ومعرفة ذلك والوقوف علىٰ تحصيل النية وعزة تحصيلها وأسرارها . . قد استوفيته في ترجمة الإمام حاتم الأصم رحمه الله ، فلتطلب منه ويعمل بمقتضاها ، فيتضح المقصود إن شاء الله تعالىٰ .

ومنها : عذر آخر خاص ، وهو مشرب جميع الصحابة وكثير من الأئمة التابعين لهم

---

(١) أي : بذل العلم طلباً لأمور دنيوية .
(٢) أي : لم ينفعه .

بإحسان رضي الله عنهم ، وهو أنه إذا لم تقع تلك المسألة . . لا يجيبون عنها ، ألا ترىٰ أن الصحابة رضوان الله عليهم كانو إذا سئلوا عن مسألة . . يقولون للسائل : هل كان هـٰذا ؟ فإن قال : نعم . . أجابوا ، وإن قال : لا . . يقولون : حتىٰ تقع ، إذا وقعت . . تجشمناها[1] لكم ، كل ذلك محافظة على التقوىٰ ، وشدة الورع ولزومه ، رضي الله عنهم ، ونظراً إلىٰ أن العلم إنما المراد منه العمل به ، ومن ثَمَّ فُضِّل ، لـٰكن هـٰذا إنما هو عذر بالنسبة إلىٰ سائل مستفت لا إلىٰ طالب العلم القاصد تحصيله ؛ فإن ذاك لا يكون عذراً في عدم التعليم ، فإذاً العذر بالنسبة إلىٰ من يقصد الاشتغال بالعلم ووفور تحصيله : إنما هو عدم التعين على المطلوب منه مع حصول بعض تلك الأعذار السالفة أو جميعها ، والله أعلم .

وأما المقام الثاني : وهو عدم تناول بعض الشهوات .

فاعلم أولاً : أن المباح لا إنكار في تناوله ولا استعماله قال الله تعالىٰ : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ ، ومعلوم أن المباح ليس بمذموم ، والله سبحانه وتعالىٰ لا يبيح ما يُذَم فاعلُه ، ألا ترىٰ إلىٰ قول غير واحد من العارفين رحمهم الله ، منهم الإمام أبو القاسم النصر آباذي ، حيث قال : **مَدُّ اليد إلى المباح حسن ، والإمساك عنه أحسن** .

وكل هـٰذا واضح غني عن البيان ؛ إذ هو مجمَع عليه ، وإنما الشأن في كونه مباحاً وفي حصوله ، فمتىٰ صح كونه مباحاً وحصل . . جاز استعماله ما لم يكن سرفاً ، هـٰذا باعتبار أصل الجواز .

وأما باعتبار الورع وخشونة العيش والاقتداء بالسلف الصالحين من الصحابة والتابعين ومَن بعدهم رضوان الله عليهم أجمعين . . فالأولىٰ عدم تناوله واستعماله إلا في مقدار الضرورة ، وهو ما لا بد منه ، ومَنِ استَقرَأَ سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرة أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين ، وما كانوا عليه من خشونة العيش مع قدرتهم علىٰ خلاف ذلك . . علم يقيناً صحة ما قلناه .

ثم إن خشونة عيشهم وزهدهم وعزوفهم عن الدنيا هو بحسب قربهم من الله سبحانه وتعالىٰ ، وما أفاضه عليهم من العرفان ، واستقراء صنيعهم دل علىٰ ذلك دلالة واضحة ،

---

(١) **تجشم** : الأمر تكلفه علىٰ مشقة .

لا يتمارىٰ فيه مَن له أدنىٰ أنس بمعرفة أحوالهم رضوان الله عليهم .

ثم إن الأئمة من التابعين لهم بإحسان وتابعيهم ومَن بعدهم . . سلكوا منهاجهم ، واقتفوا آثارهم ، واتبعوا طريقتهم أشد المتابعة ، حتىٰ إن أحدهم إذا قيل له في ذلك . . يقول : أخشىٰ إن عدلت عن طريقهم في الدنيا . . أن يعدل بي عن طريقهم في الآخرة ، ألا ترىٰ إلىٰ قول سيدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما قالت له ابنته حفصة زوج النبي صلى الله عليه وسلم : لو لبستَ ثوباً ألين من هـٰذا ، وصنعت طعاماً غير هـٰذا ، فقد وسع الله عليك من الرزق ، فقال لها الحديث السابق في ترجمته ، ثم قال في آخره : أخاف أني إن لم أشاركهما في عيشهما الشديد في الدنيا . . ألاَّ أدرك معهما العيش الرخي في الآخرة ، وما زال يذكِّرها حتىٰ أبكاها .

وأصل ذلك مأخوذ من قول سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم لما قالت له عائشة رضي الله عنها في ذلك فكان جوابه صلى الله عليه وسلم أن قال : « يا عائشة ؛ إن إخواني أولي العزم من الرسل صبروا علىٰ ما هو أشد من هـٰذا ، فقدموا علىٰ ربهم ، فأجزل ثوابهم ، وأكرم مآبهم . . . » ثم ذكر باقيه .

فالعارفون علموا أن متابعة السلف من أقرب الطرق إلى الله زلفىٰ ، والحلال المحض لا يكاد يحصل إلا بجهد شديد ، وإذا حصل . . فلا يحتمل السرف ؛ لأنه يكون قليلاً ، فكيف يحتمل السرف ؟! فلذلك كانوا يمتنعون عن كثير من الشهوات ؛ لأنه لم يَصْفُ لهمُ الحلال المحض ، ومعلوم أن أصل كلِّ خير هو من أكل الحلال ، ألا ترىٰ إلىٰ قول سيدي خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم الإمام أبي بكر الصديق رضي الله عنه لما استفرغ[1] ذلك اللبن ، حيث قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كل جسد نبت علىٰ الحرام . . فالنار أولىٰ به »[2] ، فخشيت أن ينبت شيء من جسدي علىٰ ذلك ، وقد ذكرنا سر ذلك في ترجمته رضي الله عنه .

والحاصل : أن الأصل المعتبر عند جميع العارفين سلفاً وخلفاً استعمال الحلال .

واتفق العارفون وسائر الأئمة رضوان الله عليهم علىٰ أن أصل العبادات كلها أكل الحلال ، قال الله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ﴾ ، فالأكل من

---

(١) استفرغ : أخرج ما في جوفه .

(٢) أخرجه بنحوه الحاكم (٤/ ١٤١) .

الحلال . . من الدِّين ، قدمه الله عز وجل على العمل الصالح .

والتوحيد : له ظاهر وباطن وحقيقة ، فظاهر التوحيد : الإسلام ، وباطنه : الإيمان ، وحقيقته : التقوىٰ والعمل الصالح ، ولا يتم جميعُ ذلك ولا يحصل إلا بأكل الحلال ، فصحة الإسلام بالإيمان ، وصحة الإيمان بالتقوىٰ والعمل الصالح ، فالتقوىٰ هي لباس المؤمن ، وحصولها وكثرة الازدياد منها بحسب التورع في المأكل والاجتهاد في طيبه ، كما كان حال سيدنا السري رحمه الله وغيرِه من الأئمة سلفاً وخلفاً يبالغون في ذلك ، حتىٰ إن السري لشدة ورعه واجتهاده في أكل الحلال وطلبه . . صار يُعرف بطيِّب الغذاء ، كما عرَّفه الإمام أحمد ابن حنبل بذلك لما سئل عنه ، فقال : تسألني عن الشيخ المعروف بطيب الغذاء .

وقد كان الأئمة الأعلام من العارفين يجتهدون في تحصيل الحلال كلَّ الاجتهاد ، ويبالغون فيه كل المبالغة ، حتىٰ إن سفيان الثوري رحمه الله خرج إلى اليمن بسبب طلب الحلال ، فلما قيل له في ذلك . . فقال : طلب الحلال شديد ، خرجت أريده ، ولهـٰذا إنه إذا لم يحصل لهم الحلال . . يطوي أحدهم ولو بقي أياماً .

قالوا : بقي سفيان الثوري ثلاثة أيام لم يطعمْ شيئاً ، فدعته نفسه إلىٰ دخول دار فيها عرس ، ثم عصمه الله تعالىٰ بالورع ، فدخل إلىٰ دار ابنته ، فقدمت له كسرة يابسة ، فأكلها وشرب عليها الماء ، فتجشأ[1] ، وفي وقت آخر بقي أياماً يستفُّ الرمل ؛ لأنه لم يَصْفُ له الحلال ، وكل ذلك قد استوفيناه في ترجمته ، وحكايَتُه مع إبراهيم بن أدهم رحمه الله لما قدم إبراهيم مكة ، وعلق جرابه في بيت بعض أصحابه ، وخرج إلى الطواف ، فدخل سفيان ، فقال : ما هـٰذا الجراب ؟ فقالوا : لإبراهيم ، فقال : لعل أن يكون فيه شيئاً من فاكهة الشام ، ففتحه ، فوجد فيه طيناً ، فشده وأعاده ، فلما جاء إبراهيم . . قيل له : إن سفيان فتح هـٰذا الجراب ، فوجد فيه طيناً ، فقال : أما إنه طعامي منذ شهر ، ولذلك تغيَّر عليَّ باطني[2] .

وبشر رحمه الله كان ممن لا تمتد يده إلى الحرام أصلاً ، وبعضهم كان في يده عِرق إذا مد

---

(١) **تجشأ الرجل** : أخرج صوتاً ، هو تنفس المعدة من الامتلاء .

(٢) **باطني** : داخلي ، وليس المراد هنا السر الباطن ، بل المقصود : الجسد الباطن .

يده إلى الحرام . . ضرب ذلك العرق عليه ، فلا تمتد يده إليه[1] ، واستيفاء ما ورد عنهم من ذلك قولاً وفعلاً يطول ، وقد تقدم بعضه في تراجمهم .

ومع ذلك فقد كان بشر من المبالغين في الورع ، حتىٰ إن الإمام أحمد ابن حنبل استفتي في مسألة في الورع ، فبكىٰ ، وقال : لو كان بشر حياً . . لصلح أن يجيبك عنها ؛ فإنه كان لا يأكل من غلة بغداد ، ولا من طعام السواد ، وأنا أستغفر الله ، لا يحل لي أن أتكلم في الورع وأنا آكل من غلة بغداد ومن طعام السواد .

وكان يقال لبشر : مِن أين تأكل ؟ فيقول : آكل من حيث تأكلون ، ولٰكن ليس من يأكل وهو يبكي كمن يأكل وهو يضحك ، ثم قال : يد أقصر من يد ، ولقمة أصغر من لقمة .

ومن المشهور عن الإمام أحمد ابن حنبل أنه كان يقول : إن بشر بن الحارث جلس علىٰ مثل حد السِّنان ، فلم يترك لأحد معه فضلٌ رحمهما الله ونفعني بهما .

وقد أقام بشر نحواً من أربعين يوماً يأكل الطين ، حتىٰ تغير تغيراً كثيراً ، فسئل عن ذلك ، فقال : لأنه لم يَصْفُ لي الحلال ببغداد ، فأنا منذ أربعين يوماً آكل الطين ، فلذلك تغير عليَّ باطني ، وقد ذكرنا ذلك في ترجمته ، وأنه قال لأخته يوماً : جوفي وَجِعٌ وخواصري تضرب عليَّ ، فقالت له أخته : لو صنعت لك قليل حسو بكف دقيق ـ يعني : حريرة ـ ليَرُمَّ جوفك ؟ فقال : ويحك! أخاف أن يسألني الله عز وجل عن ذلك ، فيقول لي : مِن أين لك هٰذا الدقيق ؟ فلا أدري ما أقول له سبحانه وتعالىٰ .

وقد كان حماد بن سلمة رحمه الله يفتح حانوته ، فإذا ربح حبة أو حبتين . . رفع سفطه[2] ، وانصرف ، قال الراوي : أحسب أن ذلك يقوته .

وملخص ما يقال : أن أصل كل خير ـ كما تقدم ـ هو أكل الحلال ، وأن من أكل الحرام . . عصت جوارحه ، شاء أم أبىٰ .

فلما رأى الأئمة كبشر بن الحارث وسري السقطي وغيرهما أنهم لا يصلون إلى الحلال الخالص . . أخذوا من الدنيا قدر ما يسد الرمق وتقوم به البنية لا غير ؛ لأن المأخوذ إن كان

---

(١) منهم : الحارث المحاسبي رحمه الله كما ذكره الإمام القشيري في « الرسالة » (٢٠) قال : سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول : كان الحارث المحاسبي إذا مد يده إلىٰ طعام فيه شبهة . . تحرك أعلىٰ أصبعه عرق ، فكان يمتنع منه .

(٢) **السفط** : وعاء يحفظ به المتاع .

حراماً . . ساغ لهم أخذ قدر الضرورة لا غير ، وإن كان فيه شبهة . . فالتبعة فيه أخف ، وإن كان حلالاً . . فالورع والزهد إنما يصح في الحلال ، ولن يصل العبد إلى الحلال حتىٰ يترك بعض الحلال ؛ ليكون بينه وبين الحرام حاجزاً ، ألا ترىٰ إلىٰ قول الإمام سفيان بن عيينة رحمه الله حيث قال : لا يصيب عبد حقيقة التقوىٰ حتىٰ يجعل بينه وبين الحرام حاجزاً من الحلال ، وحتىٰ يدع الإثم وما تشابه منه .

وقال سهل بن عبد الله التستري رحمه الله : لا تصح التوبة لأهل التوبة حتىٰ يتركوا كثيراً من الحلال الذي أحله الله تعالىٰ لهم ، ويمنعوا نفوسهم مهناها من الحلال ؛ مخافة أن تخرجهم إلىٰ غيره ، والتائب الذي يتوب من عمله في الطاعات في كل ساعة ولمحة وطرفة .

فالعارفون لما فتح الله عز وجل عليهم بخروج الدنيا من قلوبهم وعزوفهم عنها . . أخرج عنهم أيضاً جميع الشهوات ، حتىٰ إن أحدهم يود أن لو كفي مؤونة الطعام .

ولقد هَمَّ أبو يزيد البسطامي رحمه الله أن يسأل الله تعالىٰ كفاية ذلك ، ثم قال في سره : كيف يجوز لي أن أسأل ما لم يسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟!

وكان أحدهم إذا أكل . . يقول : وددت أن هـٰذه الأكلة تبقىٰ في جوفي كالآجُرَّة[1] في الماء ، وبلغنا أن الآجُرَّة تبقىٰ في الماء ثلاث مئة سنة ، هـٰذا إلىٰ ما ينضم إلىٰ ذلك من الأسرار الشريفة ، والفوائد اللطيفة الحاصلة بالجوع من الحكمة ، والعِبرة ، وتصفية القلب ، وحصول العلم الدقيق ، إلىٰ غير ذلك ، وكيف لا ، وقد قال الله تعالىٰ : ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ ، وقال صلى الله عليه وسلم : « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه »[2] ؟ .

فالبطنة تُعمي عن الفطنة ، والجوع يورث النور والحكمة والعِبرة وصفاء الباطن كما مر .

لـٰكن هـٰذا يختلف باختلاف المشارب ، فمِن العارفين مَن الجوع يضره ويظهر أثره عليه ، ومنهم من لا يضره ولا يظهر أثره عليه .

كان شعبة رحمه الله يصوم ثلاثة أيام فأكثر ، فلا يُرىٰ عليه أثر ذلك .

وكان سفيان الثوري رحمه الله يصوم ثلاثة أيام فما دونها فيُرىٰ عليه أثر ذلك .

وكان أبو سليمان الداراني رحمه الله يقول : لأن أترك لقمة من عشائي . . أحب إلي من

---

(١) **الآجُرَّةُ** : واحدة الآجُرِّ ، وهو الطوب الذي يبنىٰ به ، فارسي معرب .

(٢) أخرجه الحاكم (٤/ ١٣٥) .

قيام ليلة ، وغيره يقوم إلى الصباح ولا يقدر أن يترك لقمة من عشائه .

وهـٰذا كما قلنا : إن مواهب الله عز وجل لأوليائه لا تنحصر .

وقد قال الإمام أبو بكر الشبلي رحمه الله : ما جعت لله يوماً . . إلا رأيت في باطني من الحكمة والعِبرة ما لم أره قبل ذلك .

وقال بشر رحمه الله : إن الجوع يصفي الفؤاد ، ويورث العلم الدقيق ، وقال : طوبىٰ لمن ترك شهوة حاضرة لموعد غَيْبٍ لم يره .

ومعلوم أن القلوب المعلقة بالشهوات محجوبة عن الله سبحانه وتعالىٰ ، ويأبى الله سبحانه وتعالىٰ إلا أن يطهر بواطن أوليائه وقلوبهم عن جميع الشهوات ، فمَنْعُ من منع نفسه عن تناول شيء من الشهوات إنما كان لشيء من هـٰذه الأمور :

إما باعتبار الجواز من جهة الحلال وعدم حصوله له .

وإما باعتبار التقوىٰ وشدة الورع اقتداء بالسلف الصالحين رضوان الله عليهم أجمعين .

أو بالاعتبارين جميعاً .

أو لأنه رأىٰ أن قلبه لا يصلح إلا بترك تلك الشهوة ، وصلاح قلبه عنده وعند كل ذي بصيرة . . متعين ، فهو أهم إليه من تناول تلك الشهوة ، والله عز وجل عند قصد عبده لا عند حاصله .

واستعمال من استعمل بعض الشهوات إنما كان لزوال تلك الأعذار ، بأن وجد الحلال ، ورأىٰ أن قلبه يصلح علىٰ ذلك ، ومع ذلك فإنه لا يسرف فيه ، بل يكون مقتصداً ؛ محافَظة علىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ وقوله صلى الله عليه وسلم : « البذاذة من الإيمان »[1] ، مع قوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله جميل يحب الجمال »[2] .

ومن استَقْرَأَ صنيع العارفين سلفاً وخلفاً وأحوالهم وأقوالهم . . علم ذلك يقيناً .

ألا ترىٰ أن الحسن البصري ومَن هو علىٰ مشربه من القوة والتمكين ؛ كسفيان الثوري وغيره يأكل كل واحد منهم ما وجد من قليل وكثير ، ولا يرون الامتناع من ذلك ؛ لأن

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٥١) ، والبَذاذَةُ : رثاثة الهيئة .

(٢) أخرجه مسلم (٩١) .

مقامهم مقام التمكين ، فلا يؤثر عندهم الإكثار والإقتار ، ولا اليسار والإعسار ، بل محافظتهم إنما هي علىٰ تحصيل الحلال المحض ، وإنه متىٰ حصل لهم . . استعملوه ، وإن تعذر . . صبروا ، ولهم في ذلك مقاصد صالحة غامضة شريفة ، وتعاليل مختلفة .

منهم مَن تعلل بأنه إذا شبع . . تفرغت نفسه لعبادة الله تعالىٰ واطمأنت ، فيقوم إلى الصباح ، كسفيان الثوري ، يقول : أَشْبِعِ الزنجيَّ وكُدَّهُ ، ثم يقوم إلى الصباح .

والحسن البصري رحمه الله كان يرىٰ أن الدسم أتم للعقل ، وأن القلب لا يصلح إلا بذلك ، فيستعمل ثوباً يستر زهده به ، وقوتاً يصلح به قلبه ، ثم يقول لفرقد السبخي : أما علمت أن أصحاب الأكسية من أهل النار ؟! ويشير بذلك إلى الرهبان ، ويقول مرة أخرىٰ : لا رغيفَيْ مالك ، ولا صِحناة[1] فرقد ، إشارة إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ .

وكان معروف الكرخي تهدىٰ إليه طيبات الطعام ، فيأكل ، فيقال له : إن أخاك بِشراً لا يأكل من هـٰذا ، فيقول : إن أخي بِشراً قبضه الورع ، وأنا بسطتني المعرفة ، ثم قال : إنما أنا ضيف في دار مولاي سبحانه وتعالىٰ ، إذا أطعمني . . أكلت ، وإذا جوعني . . صبرت ، مالي وللاعتراض والتمييز ؟!

قال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : والبصير بأسرار العلم يعلم أن كل ذلك حق ، ولـٰكن بالإضافة إلى اختلاف الأحوال .

وهـٰذا كله بعد محافظتهم علىٰ تحصيل الحلال المحض ورعاية ما فيه صلاح قلوبهم ، وبعضهم كان يشتهي الشيء سنين ، فلا يصل إليه ؛ لعدم حصول الحلال المحض له ، كما قال بشر في شهوة الباذنجان ، لما اشتهاه زماناً طويلاً ، وقيل له في ذلك ، قال : حتىٰ تصفو لي حبة الباذنجان .

وبعضهم كان يجد ما يشتهيه ، فيدافع نفسه عنه زماناً طويلاً ، فإذا غلبته نفسه . . اشترىٰ تلك الشهوة ، وآثر بها ، ولم يذقها ليدخل تحت قوله تعالىٰ : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ ، فإذا قيل له في ذلك . . يقول : لو أكلته . . كان في الحش ، وأما الآن : فهو باق عند الله عز وجل .

فعل ذلك غير واحد من العارفين سلفاً وخلفاً ؛ كسيدي وابن سيدي عبد الله بن عمر بن

---

(١) إدام يتخذ من السمك .

الخطاب رضي الله عنهما ، والربيع بن خُثَيم ، ومالك بن دينار ، وداوود الطائي ، وعتبة الغلام ، وسري السقطي ، رضي الله عنهم ، وغيرهم .

ولكل قوم مشرب وقصد صالح جليل جميل بحسَب قُوَّته وتمكنه في مقامه وصبره ، وذلك بحسب ما أفاضه الله تعالىٰ عليه من العرفان ، وقسم له من الأزل .

وقد استوفيت الكلام علىٰ بعض مقامات العارفين رحمهم الله ومشاربهم في ترجمة الإمام أبي حفص النيسابوري رحمه الله .

وملاك ما أقول في ذلك راجع إلىٰ أصلين لا بد من اعتبارهما ، وهما : حصول الحلال ، وصلاح القلب ، فأكل الحلال عنه ينشأ صلاح القلب ، وبصلاح القلب صلاح الجسد كله ، فهو قانون الصلاح والفساد ، ولهـٰذا قال غير واحد من العارفين ـ منهم : الحسن البصري ، وابن سمعون رحمهما الله ـ : كُلُّ ما يَصلُح قلبك عليه . . فاستعمله .

وسئل بشر بن الحارث : بِمَ تلين القلوب ؟ فقال : بأكل الحلال ، فلما بلغ الأئمة ـ كأحمد وغيره ـ مقالته هـٰذه قالوا : جاء بالأصل ، جاء بالأصل ، فاعتبار هـٰذين الأصلين أمر مجمع عليه .

ولتحصيل المال وإمساكه أسباب أخر عندهم كلها راجعة إلىٰ محض التقوىٰ وشدة الورع ، ولهـٰذا قال سفيان الثوري ، وقبله سعيد بن المسيب ، وغيرهما : من كان معه شيء من المعاش . . فليتمسك به ؛ لأنه إن احتاج إلىٰ شيء . . أول ما يبذل فيه دِينه ، فصح في الحقيقة أن ذلك الإمساك إنما كان للتقوىٰ وشدة الورع ؛ لأنه علل أنه عند الحاجة إلىٰ شيء من الدنيا قد يبذل دِينه فكان ذلك الإمساك مانعاً لذلك البذل ، فبقي الدِّين سالماً ولم يُبذل ، وحُفظ علىٰ صاحبه .

وسعيد بن المسيب رحمه الله علل إمساك المال بمعنىٰ آخر راجع أيضاً إلى التقوىٰ وشدة الورع ، فقال : لولا هـٰذه الدنانير . . لتمندل[1] بنا هـٰؤلاء الملوك .

وعبد الله بن المبارك رحمه الله يبقى الدهر صائماً ، وينفق على الأئمة في كل عام مئة ألف درهم ، ويطعمهم الخبيص والفالوذج وأنواع الأطعمة ، ويقول : لولا هـٰؤلاء الأئمة الذين انقطعوا إلى العلم والعمل . . لما اتَّجرْتُ .

---

(١) تمندل : أراد ابن المسيب ـ رحمه الله ـ أن يكون مستغنياً بدينه ودنياه عن دنيا الملوك وأموالهم ، وإلا . . تسلط الملوك بأموالهم على العلماء .

فقد اتفق الجميع ـ كما رأيت ـ علىٰ أن مراعاة دِينهم أَهَمُّ إليهم من كل شيء ، فإن أخذوا . . عرفوا كيف يأخذون ، وإن أمسكوا . . عرفوا كيف يُمسِكون ، وإن امتنعوا . . عرفوا كيف يمتنعون ، وإن أَعْطَوا . . عرفوا كيف يعطون ، كل ذلك فضل من الله ونعمة ، ﴿ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ ونسأله من فضله العظيم أن يرزقنا ما رزقهم ، إنه قريب مجيب .

وبالجملة : فأعمالهم سديدة ، والوقوف علىٰ أسرار أعمالهم عزيز جداً ، فلا يُظَن أن الوقوف عليها يدرك بالهوينىٰ ، هيهات هيهات! إن ذلك لا مطمع لنا فيه ، وما فهمناه فهو من بركاتهم ، وهو كالقطرة من بحار أقوالهم وأفعالهم ، رضوان الله عليهم أجمعين .

وجملة ما أقول ـ مما يشترك فيه الجواب عن المقامين ، وهما : نشر العلم وتعليمه ، والامتناع عن تناول الشهوات ـ : أن الأَولىٰ بالعالِم رفض الدنيا ورفض كل ما يستغنىٰ عنه من المباحات ؛ لئلا يستكثر منها ، فيجره ذلك إلى الحرام ، ولئلا يقتدي به من ليس عالماً ، فيستكثر منها ، ولا يعرف كيفية استعمال العالِم لها .

وهـٰذا كالطبيب الحاذق ؛ فإنه قد يستعمل شيئاً لا يضره ؛ لمعرفته بكيفية استعماله ، وفي وقت استعماله وقَدْره ، ويستعمل الجاهل ذلك الشيء بعينه ، فيضره ؛ لعدم معرفته بكيفية استعماله وقَدْره .

علىٰ أن الاستكثار من المباحات يوجب الأنس بها والألفة لها ، ولا تكاد تنال إلا بشبهات ، وعند ذلك قد يورثه ذلك حب البقاء في الدنيا ، ولهـٰذا قالت رابعة العدوية رَحِمها الله لبعض العارفين : إذا كنت تشرب الماء المبرَّد وتأكل اللذيذ المطيَّب . . فمتىٰ تحب القدوم على الله عز وجل .

وهـٰذا إنما قالته لشدة شوقها إلىٰ لقاء الله عز وجل ، فكلُّ ما يقطع عن ذلك الشوق . . يجتهد العارف في إزالته ، ولأجل هـٰذا قلنا : إن مقاصدهم كالبحر ، وهي ـ علىٰ كثرتها ـ غامضة لطيفة ، وتحتها حِكَمٌ شريفة ، وإذا عُلم ذلك كله . . فقد عُلم أن شأن العارفين العزوف عن الدنيا وكل ما يقطع عن الله سبحانه وتعالىٰ بكل طريق .

ومِن هنا تعلم أن المباح لا يذم لعينه مطلقاً ، وإنما بتناول الشهوات والإكثار منها نُحجَب ، فلذلك امتنع عنها العارفون ، والله أعلم . [انتهىٰ « الإحياء » ٣/٩٧] .

خَاتِمَة

قال حجة الإسلام الغزالي ـ قدس الله روحه ـ في « جواهر القرآن »[1] :

الأصل السابع في طلب الحلال : قال الله تعالىٰ : ﴿ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ﴾ ، والحرام خبيث ليس بطيب ، فقد قَرَنَ أكل الطيبات بالعبادات ، والأكل من الدِّين ، قدمه الله على العمل الصالح .

وقال صلى الله عليه وسلم : « طلب الحلال فريضة بعد الفريضة »[2] أي : بعد فريضة الإيمان والصلاة .

وقال الأئمة : من أكل من الحلال أربعين يوماً . . نور الله قلبه ، وأجرىٰ ينابيع الحكمة علىٰ قلبه ولسانه ، وفي رواية : وزهده الله في الدنيا .

وقالوا : إن لله تعالىٰ ملَكاً علىٰ بيت المقدس ، ينادي كل ليلة : من أكل حراماً . . لم يقبلِ الله منه صرفاً ولا عدلاً .

(الصرف) : النافلة ، و(العدل) : الفريضة .

وقالوا : من اشترىٰ ثوباً بعشرة دراهم وفي ثمنه درهم حرام . . لم يقبل الله عز وجل منه صلاته ما دام عليه منه شيء .

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : لو صليتم حتىٰ تكونوا كالحنايا ، وصمتم حتىٰ تكونوا كالأوتار . . ما تُقُبِّلَ منكم إلا بورع حاجز .

وقيل : العبادة مع أكل الحرام . . كالبناء على السِّرجِين[3] .

واعلم : أن لِطيب المطعم خاصية عظيمة في تصفية القلب وتنويره ، وتأكيد استعداده لقبول أنوار المعرفة ، وفيه سر لا يحتمل في هـٰذا الكتاب ذِكره .

ولكن ينبغي أن تفهم أن درجات الورع أربع :

---

(١) والمراد هنا هو كتاب « الأربعين في أصول الدين » وهو الجزء الثالث من « جواهر القرآن » ، غير أن المؤلف أوصى بأن يكون مستقلاً برأسه عن « الجواهر » ، وقد صدر كتاب « الأربعين » عن دار المنهاج بعناية الأستاذ بوجمعة مكري .

(٢) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١٠/ ٧٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٦/ ٤٢٠) .

(٣) **السرجين** : الزبل .

الأولىٰ : هي التي يصير فاسقاً باقتحامها ، وتزول العدالة بزوالها ؛ يعني : بزوال الدرجة ، وهو[1] الذي تحرِّمه فتوى الفقهاء . انتهىٰ .

الثانية : ورع الصالحين ، وهو الحذر عما يتطرق إليه احتمال التحريم ، وإن أفتى المفتي بحله بناء على الظاهر ، وهو الذي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دع ما يَريبك إلىٰ ما لا يَريبك »[2] .

الثالثة : ورع المتقين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يبلغ العبد درجة المتقين حتىٰ يترك ما لا بأس به ؛ مخافة ما به بأس » .

وقال عمر رضي الله عنه : كنا ندع تسعة أعشار الحلال ؛ مخافة الوقوع في الحرام .

ولهـٰذا كان بعضهم إذا استحق مئة درهم . . اقتصر علىٰ تسعة وتسعين ، وترك الواحد حاجزاً بينه وبين النار ؛ لخوف الزيادة .

وكان بعضهم يأخذ ما يأخذ بنقصان حبة ، ويعطي ما يعطي بزيادة حبة ، وسيأتي في ترجمة أحمد ابن أبي الحواري أنه كان لا يأخذ كَسْراً ولا يعطي كَسْراً ، مثاله : إذا كان له درهم ونصف . . أخذ درهماً وترك النصف ، وإذا كان عليه درهم ونصف أعطىٰ درهمين .

وكذلك إن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أمسك أنفه من ريح المسك الذي لبيت المال حين كان يوزن بين يديه ، وقال : هل يُنتفع إلا بريحه ؟!

ومن ذلك : أن يتورع عن الريبة[3] وأكل الشهوات المباحة ؛ خيفة من أن تجمح نفسه ، فتدعوه إلى الشهوات المحظورة .

ومن ذلك : ترك النظر إلىٰ تجمُّل أهل الدنيا ؛ فإنه يحرك دواعي الرغبة في الدنيا ، ولذلك قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ .

ولذلك قال عيسىٰ عليه الصلاة والسلام : لا تنظروا إلىٰ أموال أهل الدنيا ؛ فإن بريق أموالهم يَذْهَب بحلاوة إيمانكم .

ولذلك قال السلف رضي الله عنهم : من رق ثوبه . . رق دِينه ، فالحلال المطلق

---

(١) أي : الورع .

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٥٣) ، والبيهقي في « الكبرىٰ » (٥/ ٣٣٥) .

(٣) في نسخة : (الدَّنِيَّة) .

الطيب . . كل حلال آتيك[1] عن مثل هـٰذه المخافة ، ولم تحذر فيه آفة .

الرابعة : ورع الصديقين ، وهو الحذر عن كلِّ ما لا يراد بتناوله القوة علىٰ طاعة الله عز وجل ، أو كان قد تطرق إلىٰ بعض أسبابها معصية .

فمن ذلك : ما حكي أن ذا النون كان محبوساً جائعاً ، فبعثت إليه امرأة صالحة من طيب مالها طعاماً علىٰ يد السجَّان ، فلم يأكل ، واعتذر بأنه قد جاءني علىٰ يد ظالم ؛ أي : السجَّان .

وطاووس منع بغلته أن تشرب من نهرٍ أَكراهُ السلطان ، وكان لا يشرب في السفر إلا من تلك المياه القديمة الجاهلية .

وكذلك بشر بن الحارث كان لا يشرب من الأنهار التي حفرها الملوك .

وأطفأ بعضهم سراجاً أشعله غلامه من بيت ظالم .

وسفيان الثوري كان إذا رأىٰ نيران صاحب الشرطة . . ذهب في طريق آخر .

ويحيى بن يحيى النيسابوري شرب دواء لضعف ، فلم يجبه ، فأشارت عليه امرأته بالتردد والمشي خطوات في داره ، فقال : هـٰذه مشية لا أعرف لها وجهاً ، وأنا أحاسِب نفسي علىٰ جميع حركاتي .

وفي رواية : لي أربعين سنة لا أمشي إلا فيما أحتسبه .

ثم قال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ :

وهـٰذه رتبة قوم أوفوا بقوله تعالىٰ : ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ فرأوا كل ما لم يكن لله عز وجل حراماً ، وليس هـٰذا من عشك[2] وعش صاحبك ، فادرج واجتهد أن تفي بورع العدول الذي يُفتي به الفقهاء ، لـٰكن بشرطين ، وهما : عدم الرُّخَص ، وعدم استعمال الحيل ، وأصله : ألاَّ تستحل مال غيرك إلا برضىً مطلق صاف .

وينبغي ألاَّ تأكل من السؤال ، وإن سألت . . فاحذر أن تسأل على الملأ ، فربما تُعطىٰ على الحياء ، وذلك ليس مقروناً بالرضىٰ ، وإن المعطي بالحياء يتألم بإزالة ملكه عن ماله أكثر ممن يُضرَب ويؤخذ ماله قهراً ؛ إذ لا فرق بين أن يأخذ ماله بضرب ظاهره بالسوط ،

---

(١) في نسخة : (انفك) .

(٢) **العش** : الطلب ، وفي نسخة : (عيشك وعيش صاحبك) .

وبين أن يضرب باطنه بسوط الحياء ، فالكل مصادرة ، واحذر أيضاً أن يعطيك لأجل الدِّين ؛ بأن يعطيك لظنه أنك ورع تقي فتأكل بالدِّين .

ومن شرط حله أيضاً[1] : ألاَّ يكون في باطنك ما لو اطلع عليه المعطي . . لامتنع من العطاء ، فلا فرق بين من يأخذ بالتصوف والتقوىٰ وليس متصفاً به باطناً ، وبين من يزعم أنه عَلَوي وهو كاذب ، فكل ذلك حرام عند ذوي البصائر ، وإن أفتى الفقيه بالحل بناء على الظاهر .

الثاني : أن تراجع قلبك ، وإن أفتوك ؛ فإن الإثم ما حاك في القلوب ، قال صلى الله عليه وسلم : « استفت قلبك ، وإن أفتوك وأفتوك »[2] ، ولهـٰذا سرٌّ يطول ذِكره .

واعلم على الجملة : أن المحذور من الحرام . . إظلام القلب ، والمطلوب من الحلال . . تنويره ، وذلك ينشأ من اعتقادك لا من نفس المعتَقَد ؛ فإن من وطىء امرأة علىٰ ظن أنها أجنبية ، فإذا هي زوجته . . حصل إظلام القلب ، ولو وطىء أجنبية علىٰ ظن أنها زوجته . . لم يحصل ذلك ، وكذلك في النجاسة والطهارة المؤثرة في تنوير القلب ، وهمك واعتقادك ، فإنك ما أُمرت أن تصلي وثوبك طاهر ، بل أمرت أن تصلي وأنت تعتقد أنه طاهر ، فاستشعار الطهارة يؤثر في إشراق القلب وتنويره ، وإن لم يكن علىٰ وفق ذلك الحال .

وكذلك نقول : إن من صلىٰ ثم تذكر أنه كان معه نجاسة . . فليس عليه الإعادة على الأصح ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم خلع نعليه في أثناء صلاته لمَّا أخبره جبريل أن فيهما قذراً ، واستمر في صلاته ، ولذلك يتشدد الأمر على الموسوس ؛ فإنه لا يطمئن قلبه إلا باعتقاد الطهارة ، فيستقصي ويعاود ، أولـٰئك قوم شددوا علىٰ أنفسهم ، فشدد الله عليهم ، وهلكوا باستقصائهم ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « هلك المتنطعون »[3] ، فكذلك في الحلال ، أنت متعبد بما يطمئن إليه قلبك ، لابما يفتي المفتي[4] ، فاستفت قلبك ، والله أعلم . [انتهىٰ « جواهر القرآن » ٣٩ـ٤٣] .

---

(١) أي : السؤال .

(٢) أخرجه بنحوه أحمد (٤/٢٢٨) .

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٧٠) .

(٤) ومعناه : أن يحتاط المرء لدينه ولو أفتاه المفتي ، وفي نسخة : (إلا ما يفتي المفتي) والمعنىٰ : أنه ليس كل ما يطمئن إليه القلب صواب ، بل الصواب : تتبع الفقهاء ، والله أعلم .

وأما نشر العلم وتعليمه : فهو من أفضل الأعمال إذا صحت فيه النية ، ولهـٰذا قال غير واحد من العارفين ـ منهم : سفيان الثوري رحمه الله ـ : لو علمت الذي يَطلب العلم بنية . . لأتيته ولو في بيته ، قيل : يا أبا عبد الله ؛ ما النية ؟ قال : أن يكون لله عز وجل خالصاً .

وأيضاً : فإن العلم من عمل القلب بخلاف غيره من الأعمال ؛ فإنه من عمل الجوارح .

ومعلوم أن ما كان من عمل القلب . . فهو أفضل من عمل الجوارح ، وحينئذ فتعلُّم العلم وتعليمه ونشره إذا صحت النية فيه . . أفضل من جميع النوافل ، وهـٰذا يكاد أن يكون مجمَعاً عليه ؛ إذ لا أعلم في ذلك خلافاً .

وقد نص علىٰ ذلك الأئمة المجتهدون أرباب المذاهب المتبوعة رضوان الله عليهم ، وهم : سفيان الثوري ، والشافعي ، ومالك ، وأبو حنيفة ، وأحمد ابن حنبل ، رضوان الله عليهم ، كل واحد منهم قال : إن طلب العلم أفضل من صلاة النافلة إذا صحت فيه النية ، وهـٰذا معروف مشهور[1] .

ومما ينبغي أن يتنبه إليه : أن النية إذا صحت في طلب العلم . . فليست شهوة النفس لنشر العلم وتعليمه مانعة من ذلك ؛ إذ النفس لها دسائس ، وهي أمارة بالسوء ، والشيطان مسلَّط على الإنسان ، فإذا أيس منه من باب المعاصي . . أتاه من باب الخيرات في معرض التلبيس

---

(١) ورأيت في هـٰذه المسألة فتوىٰ لصاحب كتاب (فيض الغفار) العلامة الإمام محمد بن أحمد الشنقيطي وهي عبارة عن سؤال من النظم وجوابه كذلك أما السؤال فهو :

يـا خـائضيـن بحـور العلـم مسـألـةً ... عنهـا أجيبـوا بـأفهـامٍ ذكيَّـاتِ
عـن اشتغـال شبـاب العصـر كلِّهـمِ ... عـن العلـوم بـأورادٍ سنيَّـاتِ
هـل هـٰذه نعمـةٌ فـي الـديـن نحمـدهـا ... أم هـي فـي ديننـا إحـدى المصيبـاتِ

وأما الجواب فهو :

هـٰـذا وأوراد أهـل الـديـن قـاطبـةً ... لنعمـةٌ والعلـومُ نعمـةٌ تـاتـي
ليسـا بـأختيـن كـان الجمـع قـد حـرمـا ... إن اجتمـاعهمـا أسنـى العطيـاتِ
لكنهـم فـرَّقـوا فـي البـدء بينهمـا ... فـي ثـالـثٍ بعـد بعـثٍ واختـلافـات
فـالبـدء بـالعلـمِ لِلَّـذْ نفسـه طَهُـرتْ ... أولـىٰ وذاك كـأدراعٍ حصينـاتِ
ومـن تكـن نفسـه بـالانهمـاك عصـت ... فـالبـدء أولـىٰ بـأوْرادٍ سنيَّـاتِ
وبعـد ذا فـالـرجـوع الحـق مكـرمـةٌ ... للعلـم إذ علمنـا أسنـى العطيَّـات

وهـٰذه المسألة فيها اختلاف كثير كما تقدم ومال كثيرون إلىٰ قول الإمام الزهري : وخلاصته أن تعلّم العلم أولىٰ للجاهل والعمل به أولىٰ للعالم اهـ وانظر « أدب الدنيا والدين » للماوردي .

والنصيحة له ، فيقول له : امنع نفسك عن هـٰذا الأمر ؛ لأنك تشتهيه ، وهـٰذا ـ كما قلنا ـ بمجرده تعليل عليل ؛ لأن فرح النفس بالإمرة أمر جِبِلِّي لا يمكن دفعه ، فالإمرة فضيلة ، وكذلك الإمامة في العلم ، وميل النفس إلىٰ هـٰذه الأشياء معين علىٰ تحصيلها ، لا سيما في الابتداء ؛ إذ لولا ذلك . . لما حصلت ، ولا يمكن محو أثر هـٰذه الأشياء من النفس ، فإن من تخيل أنه يمكن أن يجامع ولا يلتذ أو يُحدِّث ولا يفرح بالرئاسة . . فقد تخيل الممتنع ، وليس في وجود ذلك ما يضر بالدِّين أصلاً ، وإنما الذي ينبغي أن تكون المجاهدة فيه ـ كما تقدم ـ قَصْدَ دفع الرئاسة ؛ كالعُجب والكبر وغيرهما من الآفات المانعة السالف ذِكرها .

وأما أن العلم يترك تعليمه ونشره لمجرد شهوة النفس . . فلا ، فاعتمد ذلك واعرفه .

واعلم : أن جميع ما يشكل ظاهره عليك من قول أو فعل صدر عنهم . . فابحث عن صحته أولاً ، فإذا صح . . فاعلم يقيناً من حيث الجملة : أن ذلك إنما صدر عن محض التقوىٰ وشدة الورع ثانياً ، فإن هـٰؤلاء أئمة مجمَع علىٰ ولايتهم ، فدقائق العلوم والورع يستنبطها العارف من أقوالهم وأفعالهم ، لـٰكن إنما يقع له ذلك الاستنباط ومعرفة تلك الدقائق بعد الجهد الشديد والغوص التام ، وبعد أن يكون ممن أيده الله تعالىٰ بتوفيق إلـٰهي ومع ذلك فلا يُدرك جميع ما أرادوه من فعل أو قول ؛ لما قلناه من غموض أفعالهم وأقوالهم ودقتها .

ألا ترىٰ أن بشر بن الحارث لما زاره فتح الموصلي . . قام له ، وقام ابن أخت بشر فأمسكه بشر بيده ، ومنعه من إتمام القيام له ، فلما انصرف فتح . . قال بشر لابن أخته : تدري لِمَ منعتك من القيام له ؟ قال : لا ، قال : لأنه لم يكن بينك وبينه معرفة ، فكان قيامك له لقيامي ، فأردت أن يكون قيامك لله عز وجل خالصاً .

وكذلك سفيان الثوري رحمه الله لبس ثوبه مقلوباً ، فلما قيل له في ذلك . . مد يده ليصلحه ، ثم أمسك ، وقال : إني لبسته لله ، فلا أصلحه لغير الله ؛ يعني : للزينة .

وسهل التستري رحمه الله جاءه شخص في عشية عرفة وهو يحرث أرضاً له ، فسارَّه بشيء ، فقال : لا ، فقيل له في ذلك ، فقال : إنه عرض عليَّ الحج في هـٰذا العام ، فقلت : لا أفعل ، فقيل له : ما منعك ؟ قال : إني نويت أن أزرع هـٰذه الأرض لله عز وجل ، فأخاف إن حججت معه لأجله . . أن يكون عملي لغير الله خالصاً ، فمقامي علىٰ هـٰذه النية أفضل من كذا وكذا حجة .

وأبو القاسم الجنيد رحمه الله وردٍ عليه في وقت السماع وارد ، فغيَّبه ، فسقط طرف

ردائه ، فوطئه ، ثم مد يده ، فرفعه ، فقيل له في ذلك ، فقال : غبت ، ثم حضرت ، فاستحييت من الله تعالىٰ أن أدَّعي الغَيبة في حال الحضور .

ومِثل هـٰذا كثير يدق نظر العارف عنه ، ولولا تصريح الأئمة بمرادهم في ذلك . . لما عرف .

ألا ترىٰ أن بشر بن الحارث قال : ما سألت أحداً شيئاً إلا سرياً السقطي ، وعلل ذلك بأنه قد صح عندي زهده ، فهو يحب إخراج ما عنده ، ويتبرم ببقائه عنده ، فأحب أن أكون عوناً له علىٰ ما يحب ، إلىٰ غير ذلك مما يطول تتبعه من أفعالهم ، رضوان الله عليهم أجمعين .

هـٰذا ما ينبغي أن تعتمده أولاً وثانياً .

وأما ثالثاً : فاسأل العلماء العاملين ، واعتمد خمسة أصول ، وهي : الحلال ، والإخلاص ، والنية ، والصدق ، وما فيه صلاح القلوب ؛ فإن أعمالهم راجعة إليها ، ومِن هنا يُعلَم عذرُ من امتنع عن نشر العلم وتعليمه ، وحُسْنُ قصد من فعل ذلك .

وكيف لا ؟! ودرجة العالم العامل لا درجة فوقها إلا النبوة ، لا سيما إذا عمل به ونشره ، وقصد بذلك وجه الله تعالىٰ ، ودعه يفرح ألف ألف فرح إذا كان الأمر علىٰ ما ذكرناه ؛ فإن ذلك الفرح لا يضره في دِينه أصلاً ؛ لأنه علىٰ هـٰذا الوجه ليس بمذموم ، بل قد صرح غير واحد من الأئمة المتقدمين والمتأخرين بكون ذلك الفرح مطلوباً ، وأنه إحدىٰ شعب الإيمان ، هـٰذا مما لا يُتمارىٰ فيه .

ألا ترىٰ إلىٰ أئمة الدين من الصحابة ، والتابعين ، وتابعيهم ، ومَن بعدهم من سائر فقهاء الأمصار رضوان الله عليهم أجمعين ، هل فيهم من امتنع عن نشر العلم وتعليمه لأجل هـٰذا الخاطر ؟

فقد كان الإمام مالك وغيره من الأئمة قبله وبعده يجلسون للحديث ، ولا يلتفت أحد منهم إلىٰ ما يقال : إنَّ (حدثنا) باب من أبواب الدنيا ، ولو اعتبروا ذلك . . لاندرس العلم وانطوىٰ ، وبقي الناس في عماءٍ يتهالكون ، ونحن لا ننكر أن للنفس دسيسة في نشر العلم ، ولـٰكن هو كما قلنا : ينبغي أن يجاهد نفسه ، ويدفع عنها الأسباب المؤدية إلى العجب والمماراة ، وغير ذلك كما تقدم .

ومن الدليل علىٰ كون هـٰذا الفرح مطلوباً للشارع ، وأنه إحدىٰ شعب الإيمان : ما رواه غير واحد من الأئمة الحفاظ ، ومنهم : البخاري ومسلم ، وغيرهما ، أما البخاري : فقد

روينا عنه [٩] عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « الإيمان بضع وسبعون شعبة . . . » الحديث .

وإن إحدىٰ شعب الإيمان سرور المؤمن بالحسنة واغتمامه بالسيئة

وبوَّبوا علىٰ ذلك باباً ، وممن بوَّب لذلك : الحافظ أبو عبد الله الحليمي أحد أئمة أصحابنا[١] ، وشيخنا شيخ الإسلام قاضي القضاة علاء الدين القونوي قدس الله روحه ؛ فقال في كتاب « مختصر شعب الإيمان » للحليمي قدس الله روحه : الباب السادس والأربعون في السرور بالحسنة والاغتمام بالسيئة .

فجعلها الشعبة السادسة والأربعين ، وقد صرح بهـٰذا جماعات من الأئمة المتقدمين والمتأخرين .

ثم روىٰ بسنده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من سرته حسنته وساءته سيئته . . فهو مؤمن »[٢] .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم ؛ اجعلني من الذين إذا أحسنوا . . استبشروا ، وإذا أساؤوا . . استغفروا »[٣] أي : مَن عمل حسنة فسره أن وفقه الله سبحانه وتعالىٰ لها فجلس كما يجلس المهنأ مسروراً بما يرجوه من فضل الله تعالىٰ ورحمته ، ومن عمل سيئة فساءه أن خلاه الله سبحانه وتعالىٰ ونفسه حتىٰ عمل ما سول له الشيطان فجلس كما يجلس المصاب مهموماً بما يخافه من عقوبة الله تعالىٰ . . فذاك دليل علىٰ صدق إيمانهِ ؛ فإن الثقة بالوعد والوعيد لا تكون إلا من قوة التصديق بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

وقد جاء هـٰذا المعنىٰ عنه صلى الله عليه وسلم بلفظ آخر موجز ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « إن المؤمن إذا عمل حسنة . . رجا ثوابها ، وإن عمل سيئة . . خاف عقابها » .

وأما من سرته حسنته من حيث يُثنىٰ عليه بها وتذكر عنه . . فقد جاء فيه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أن رجلاً قال : يا رسول الله ؛ إني أعمل العمل أُسِرُّه لله ، فإذا ٱطُّلِع عليه . . سرني ، فقال : « لك أجران : أجر السر ، وأجر العلانية »[٤] .

---

(١) في « شعب الإيمان » ٣/ ١١٧ .
(٢) أخرجه الحاكم (١/ ٥٩) .
(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٨٢٠) .
(٤) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٥/ ٣٧٦) .

وفي حديث آخر : قيل له صلى الله عليه وسلم : إن أحدنا يعمل العمل ، فإذا اطُّلِع عليه . . سره ، فقال : « ذاك عاجل بشرى المؤمن »[1] .

وقد روي عن الإمام الحافظ عبد الرحمٰن بن مهدي ـ قدس الله روحه ـ أحدِ الأحدين[2] ، أنه قال : معناه : إذا اطلع عليه . . سره ؛ ليُقتدىٰ ويُعمل مثل عمله ، لا لأنه يُزكَّىٰ ويُثنىٰ عليه ، وهو كقوله صلى الله عليه وسلم : « من سن سنة حسنة . . فله أجرُها وأجر من عمل بها »[3] ، كما روي : أن رجلاً قام من الليل يصلي ، فرآه جار له ، فقام يصلي ، فغفر للأول ؛ يعني : لاقتداء الثاني به ، وهٰذا محتمَل ، ويُحتَمل أيضاً : أنه إذا عمل خيراً . . سره أن يُذكَر به ، فيكون محموداً في الناس لا مذموماً ، ولا حمدَ أبلغ من أن يقال : إنه قوَّام بحق ربه عز وجل ، فإن مدحوه . . مدحوه بعبادته لله تعالىٰ لا بغير ذلك مما يمدح به أبناء الدنيا ، فليس ذلك برياء ، يدل عليه : أن الله سبحانه وتعالىٰ ذم قوماً يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فدل ذلك علىٰ أن من أحب أن يمدح بما فعل . . لا ذمَّ عليه ، وكيف يُذَم من أراد أن يكون نسبته إلى الله تعالىٰ لا إلىٰ غيره لَمَّا جعل همه مقصوراً علىٰ عبادته عز وجل دون غيرها .

فإن قلت : قد جاء في الحديث ما يقتضي كراهة أن يُزكَّى الرجل في وجهه ؛ روي أنه صلى الله عليه وسلم سمع رجلاً يثني علىٰ آخر فقال : « قطعت ظهره ، لو سمعها . . ما أفلح »[4] .

قلت : **اعلم** : أن هٰذا فيمن يورثه الثناء عجباً وبذخاً واستهانة بغيره ، وهٰذا غير ما نحن فيه من سرور الرجل بما يسمع من إضافته إلى الله تعالىٰ ، وبأن الله سبحانه وتعالىٰ قد أنزله منزل الكرامة من نفسه ، وجمع له بين الحسنيين بتوفيقه لعبادته ، وجعله ممن إذا مُدح . . مُدح بنسبته إلىٰ ما يرجعه إليه من عبادته ، ولم يجعله يُمدح بما يُمدح به أبناء الدنيا ، وبين هٰذا وبين ما تقدم فرق عظيم بعيد ، ولولا أن الأمر كذا . . لما كان ذلك عاجل بشرى المؤمن كما قال صلى الله عليه وسلم . انتهىٰ ما لخصه شيخنا شيخ الإسلام قاضي القضاة علاء الدين القونوي قدس الله روحه في كتابه « مختصر شعب الإيمان » للحليمي رحمهما الله تعالىٰ .

---

(١) أخرجه بنحوه مسلم (٢٦٤٢) .
(٢) أي : ليس له نظير .
(٣) أخرجه مسلم (١٠١٧) .
(٤) أخرجه بنحوه أحمد (٥/٤٦) .

واعلم : أنه لا حسنة أعظم من نشر العلم وتعلمه وتعليمه وتدوينه ؛ فإنه مما يدوم نفعه ، ويبقىٰ علىٰ ممر السنين ، ويتعدىٰ إلىٰ خلائق ، فلا شيء يعدل ذلك إذا صحت النية فيه كما تقدم .

وظهر أيضاً بأن السرور بالحسنة والاغتمام بالسيئة . . إحدىٰ خصال الإيمان بنص رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأما ما يروىٰ عن الإمام سفيان الثوري رحمه الله وأحمد ابن أبي الحواري من غسل كتبهم أو دفنها . . فأقول :

أولاً : أما سفيان : فإنه لا يصح ذلك عنه بطريق صحيح معتبر ، وقد تتبعت سيرته أشد التتبع ، فلم أجد في ذلك طريقاً صحيحاً أنه فعل ذلك .

وأَمَّا علىٰ تقدير الصحة . . فله أعذار ، منها : أنه حدث عن قوم ضعفاء ومدلسين ، ولم يتبين له أمرهم إلا بعد ذلك ، فاختلط بعض حديثه بشيء من ذلك ، فدفن تلك الكتب المختلطة كلها لا غير ، وهـٰذا عذر مسوِّغ ، بل يجب عليه ذلك ، وهو ـ رحمه الله ـ كان بالمحل العالي من العلم والورع ، عارفاً بما يأتي وبما يذر ، وناهيك به جلالة وعلماً وورعاً واضطلاعاً[1] ؛ فإنه عالم الأمة وعابدها ، وسنذكر في ترجمة أحمد ابن أبي الحواري إن شاء الله تعالى الجواب عن غسل كتبه في الفرات ، ونستدل لما فعله بأدلة كثيرة ، ويتبعها أيضاً أدلة لما فعله سفيان بتقدير صحة النقل عنه ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم . انتهىٰ .

وعن المازني رحمه الله قال : فقدت بشر بن الحارث ، فسألت عنه ، فقيل : إنه عليل ، فدخلت عليه ، فوجدت عنده جماعة وهو في حالة شديدة من الفاقة ، فقلت له : يا أبا نصر ؛ أنت لا تسأل الناس من دنياهم ، وإن أعطوك . . لم تأخذ منهم ، فهمَّ بي أصحابه يزجروني ، فكفهم عني وقال : يا هـٰذا ؛ الفقراء ثلاثة :

ـ فقير لا يسأل الناس شيئاً من دنياهم ، وإن أعطي . . لم يأخذ ، فذاك في حضرة القدس يوم القيامة .

ـ وفقير لا يسأل ، وإن أعطي . . يأخذ ، فذاك تحت ظل عرش الرحمـٰن جل جلاله يوم لا ظل إلا ظله .

---

(١) **اضطلع** : من الضلاعة ، وهي القوة .

ـ وفقير يسأل عند الفاقة ، فإن أعطي . . أخذ قدر الكفاية ، وكفارة مسألته صدقه .

قال المازني رحمه الله : فالتفت إلىٰ أصحابه وقلت لهم : لو لم أمخض هـٰذا السقاء . . لم يخرج هـٰذا الزُّبد .

ويروىٰ : أنه كان من دعائه في كل يوم : اللهم ؛ لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن ، اللهم ؛ لك الحمد أنت قيوم السماوات والأرض ومن فيهن ، اللهم ؛ لك الحمد أنت ملك السماوات والأرض ومن فيهن ، لك الحمد أنت الحق ، وقولك الحق ، ولقاؤك الحق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة حق ، والنشور[1] حق .

ثم يقول : يا حي ، يا قيوم ، يا بديع السماوات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ؛ لا إلـٰه إلا أنت ، برحمتك أستغيث ، ثم يقرأ : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[2] ثم يقول : وأنا أشهد بما شهد الله به لنفسه وشهدت به ملائكته وأولو العلم من عباده ، وأستودع الله هـٰذه الشهادة عنده حتىٰ ألقاه غير مبدِّل تبديلاً ، اللهم ؛ إني أستودعك هـٰذه الشهادة ، اللهم ؛ فتوفني عليها ، واحفظها لي عندك يا أرحم الراحمين ، ثم يقول : قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن لله تسعة وتسعين اسماً ؛ مئة إلا واحداً ، مَن أحصاها . . دخل الجنة ، إنه وتر يحب الوتر ، هو الله الذي لا إلـٰه إلا هو ، الرحمـٰن ، الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارىء ، المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، السميع ، البصير ، الحكم ، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلي ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوي ، المتين ، الولي ، الحميد ، المحصي ، المبدىء ، المعيد ، المحيي ، المميت ، الحي ، القيوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الأحد ، الصمد ، القادر ،

---

(١) في بعض النسخ : (والنبيون حق) .

(٢) والآية هي : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ .

المقتدر ، المقدم ، المؤخر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، الوالي ، المتعالي ، البر ، التواب ، المنتقم ، العفو ، الرؤوف ، مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام ، المقسط ، الجامع ، الغني ، المغني ، المانع ، الضار ، النافع ، النور ، الهادي ، البديع ، الباقي ، الوارث ، الرشيد ، الصبور ، الذي ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير ، نِعم المولىٰ ونِعم النصير »[1] .

ثم يقول : السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليك يا نبي الله ، السلام عليك يا حبيب الله ، السلام عليك يا خليل الله ، السلام عليك يا خير خلق الله ، السلام عليك يا سيد المرسلين ، وخاتِمَ النبيين ، وإمام المتقين ، السلام عليك يا قائد الغر المحجلين ، السلام عليك وعلىٰ سائر الأنبياء والمرسلين ، السلام عليك وعلىٰ آلك وأصحابك وأزواجك أجمعين ، جزاك الله يا رسول الله عنا أفضل ما جزىٰ نبياً ورسولاً عن أمته ، وصلى الله عليك كلما ذكرك الذاكرون وغفل عن ذكرك الغافلون ، أفضل وأكمل ما صُلِّي علىٰ أحد من الخلق أجمعين .

أشهد أن لا إلـه إلا الله وأشهد أنك عبده ورسوله وخيرته من خلقه وعباده ، وأشهد أنك قد بلَّغت الرسالة ، وأدَّيت الأمانة ، ونصحت الأمة ، وجاهدت في الله حق جهاده ، وعبدت ربك حتىٰ أتاك اليقين .

اللهم ؛ آته الوسيلة والفضيلة ، والدرجة العالية الرفيعة ، اللهم ؛ وابعثه المقام المحمود الذي وعدته ، وآته نهايةَ ما ينبغي أن يسأله السائلون يا أرحم الراحمين .

والله سبحانه أعلم . انتهىٰ .

وقال في « بهجة الأسرار » : قال الفتح بن شخرف : قال لي بشر : يا فتح[2] ؛ إن قوماً غرهم ستر الله عز وجل ، وفتنهم حسن ثناء الناس عليهم ، فلا يغلبن جهل غيرك بك[3] عن علمك بنفسك ، أعاذنا الله وإياك من الاغترار بالستر ، والاتكال علىٰ حسن الذِّكر .

وقال داوود بن رشيد رحمه الله : قلت لبشر : أيش خبرك يا أبا نصر ؟ وأيش خبر

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٢٥٨٥) ، ومسلم (٢٦٧٧) ، وأخرج الحديث وذكر الأسماء ابن حبان في « الإحسان » (٨٠٨) ، وقد وقع بعض الخلاف في ذكر الأسماء ، انظر « فتح الباري » (١١/٢١٦) .

(٢) في النسخ : (يا أحمد) ولعل الصواب ما أثبت .

(٣) في نسخة : (فلا يغرنك جهل غيرك بنفسه عن علمك بنفسك) .

أهلك ؟ فقال : أما خبري.. فهـٰذا الليل والنهار ينهبان عمري ، وأما خبر أهلي.. فالماضي منهم لا يرجع إلى الدنيا ، والباقي لاحق بهم ، قال : فقلت له : عظني ، فقال : يا هـٰذا ؛ إن الليل والنهار حثيثان يعملان فيك ، فاعمل فيهما .

وسأل رجل بشر بن الحارث عن التوكل ، فقال : إن المتوكل لن يتوكل على الله عز وجل ليُكفىٰ ، ولو حلَّت هـٰذه الصفة لقلوب المتوكلين.. لضجوا إلى الله سبحانه وتعالىٰ بالندم والتوبة منها ، ولـٰكن المتوكل تحل بقلبه الكفاية من الله عز وجل ، فيصدِّق اللهَ فيما ضمن .

وقال بشر بن الحارث رحمه الله : أفضل ما يُتَعبَّد به إلى الله عز وجل سكون القلب إلىٰ روح ترك الرزق ، وأفضل أعمال البر الصبر على الفقر .

وحكي في « بهجة الأسرار » أيضاً : عن خيرٍ النساج ، عن أبي العباس المؤدِّب[1] رحمهما الله قال : ضقت يوماً ، وركبني هَمٌّ في أمر العيال ، فقمت أنقض ما أنا فيه ، فلم أقدر علىٰ ذلك من ثقله ، فوقع في نفسي بشر بن الحارث ، فتوضأت وصليت ركعتين ومضيت نحو بشر ؛ فإذا هو نحو الباب ينتظرني ، فلما قربت منه.. قام إلي ومَدَّ يده وقال : يعين الله ما أنت فيه ، أَفْكَرْتُ في الخلق فأثقلني ذلك ، والتجأت إلى الله عز وجل ، فنسيتُ ذلك كلَّه ، وبقيتَ أنت علىٰ قلبي ، فنفيتك ، فلم تنتف ، فعلمت أن الهم بك وقع لي ، وسنجتمع بالأجساد كما اجتمعنا بالقلوب إن شاء الله عز وجل ، وقد خرجت إليك ثلاث مرات ، وهـٰذه الرابعة ، ولولا مجيئك.. لأتيتك ، فأيش تجد ؟ وما حالك ؟ وما طَرَقك ؟ وفي أي شيء كنت في يومك وليلتك ؟ فقلت : يا أبا نصر ؛ قد تقدمت إليك بذلك ، ولو تكلمتُ.. لما تكلمتُ إلاَّ بما قد قلتَ ، فقال لي عن حالٍ ، فأخبرته ، فقال لي : سألتك بالله ، إن أبديت هـٰذا الحديث.. فوالله إن شاء الله ؛ لأسألنك في الجنة عن حديث قبل هـٰذا ، وعليك بالسكون تحت أثقال أحكامه سبحانه وتعالىٰ ، واعلم : أن مَن قبلك حمل أثقل منك بأضعاف هـٰذا ، ولو عُرض بلاؤك علىٰ بلاء مَن قبلك.. لكان نعيماً في ذلك ، فاحمَدِ الله عز وجل ، وعليك بتقوى الله سبحانه وتعالىٰ ، فكأنك بالروح[2] قد أسفر[3] ، وكأنك في الجنة برحمة الله عز وجل إن شاء الله تعالىٰ . انتهىٰ .

---

(١) في نسخة : (عن أبي العباس ابن المؤذن) .
(٢) **الرَّوح** : الرزق .
(٣) **أسفر** : أشرق وسطع .

وقال في « لوامع أنوار القلوب » : قال بشر الحافي رحمه الله : حقيقة المحبة : ترك مخالفة المحبوب بكل حال ، والتسليم إليه في الحال والمآل .

وروىٰ عبد الصمد قال : جمعتني وبشر الحافي طريق العمرة ، ومعنا شاب تائب ، سريع الدمعة ، قليل الكلام ، كثير التفكر ، فقلت له : هـٰذا بشر الحافي ، فتبرَّكْ به ، فقال : يا أبا نصر ؛ ما جزاء من خالف محبوبه ؟ فقال : يقتل بسيف العتاب ، ثم يحرق بنار المحبة ، ثم يُذَرُّ في هواء الذل ، فإن شاء . . جمعه ، وإن شاء . . تركه ، قال : فشهق الشاب لما سمع ذلك ، ووقع ، ولم يزل يئن ويرتعد إلىٰ أن مات ، فندمت علىٰ ذلك ، وواريناه في مكانه في ثوبَي إحرامه .

وقال أيضاً : المحبة ذل في عز المحبوب ، ومشاهدة للحتف المجلوب مع امتناع المطلوب .

وقال بشر : لقيت علياً الجرجاني علىٰ عين ماء ، فلما نظر إليَّ . . عدا وقال : القرب من الأغيار بُعْدٌ من الحبيب ، والأنس بهم وحشة منه ، وأنشد :

يا واديَ القصرِ نعم القصرُ والوادي ... من منزل حاضر إن شئت أو بادي
تـروا قـراقيـره[1] والعيـس واقفـة ... والبيت والنوق والمَلاَّح والحادي

قال بشر : فعدوت خلفه وقلت له : أوصني ، فقال : عانق الفقر ، وتوسد الصبر ، وعادِ الهوىٰ ، وخالف الشهوات ، وضيِّق الدنيا عليك كحلقة خاتم ، واجعل بيتك أخلىٰ من لحدك يوم تنقل إليه ، فعلىٰ هـٰذا طاب المسير إلى الله تعالىٰ ، ثم أنشأ يقول :

كـأن فـؤاديْ فـي مخـاليـب طـائـرٍ ... إذا ذُكِـرت ليلـىٰ يشـد بهـا قبضـا
كَـأَنَّ فجـاجَ الأرض حلقـةُ خـاتَـمٍ ... عليَّ فما تزداد طولاً ولا عرضا

وقال في « كتاب التوابين » : حكي أن بشراً كان في زمن لهوه في داره وعنده رفقاؤه يشربون ويطيبون[2] ، فاجتاز بهم رجل من الصالحين ، فدق الباب ، فخرجت إليه جارية ، فقال : صاحب هـٰذه الدار حر ، أو عبد ؟ فقالت : حاشا أن يكون عبداً ، بل هو حر ، فقال : صدقتِ ، لو كان عبداً . . لاستعمل أدب العبودية وترك اللهو والطرب ، فسمع بشر

---

(١) **القراقير** : السفن الكبيرة .
(٢) **يطيبون** : يتمازحون .

محاورتهما ، فسارع إلى الباب حافياً حاسراً ، وقد ولى الرجل ، فقال للجارية : ويحك! مَن كلمك على الباب ؟ فأخبرته بما جرىٰ ، فقال : أي ناحية أخذ الرجل ؟ فقالت : كذا ، فتبعه بشر حتىٰ لحقه ، فقال له : يا سيدي ؛ أنت الذي وقفت بالباب وخاطبت الجارية ؟ قال : نعم ، قال : أعد عليَّ الكلام ، فأعاده عليه ، فمرَّغ بشر خديه على الأرض ، وقال : بل عبد ، عبد ، عبد ، ثم هام علىٰ وجهه حافياً حاسراً حتىٰ عُرف بالحفاء ، فقيل له : لم لا تلبس نعلاً ؟ فقال : لأني ما صالحني مولاي جل جلاله إلا وأنا حافٍ ، فلا أزول عن هـٰذه الحالة حتى الممات .

وقال بشر رحمه الله : اعترضتُ عكبر الكردي ، فقلت له : أيش كان أصل رجوعك إلى الله عز وجل ؟ فقال : كنت في البرية أقطع الطريق ، فرأيت ثلاث نخلات ، نخلة منهن لا تحمل ، وإذا بعصفور يأخذ من حمل النخلة التي تحمل رطبة ، فيدعها في التي لا تحمل ، فلم أزل أعد عليه عشر مرات ، فخطر بقلبي : قم وانظر ، فقمت ، وإذا في رأس النخلة حية عمياء ، وهو يضع الرطبات في فيها ، فبكيت ، وقلت : سيدي ومولاي ؛ عز جارك ، وجل ثناؤك ، هـٰذه حية قد أمر رسولك صلى الله عليه وسلم بقتلها ، أعميتَها وأقمتَ لها عصفوراً يقوم لها بالكفاية ، وأنا عبدك أقرُّ بأنك واحدٌ أحدٌ ، أقمتني لقطع الطريق وإخافة السبيل ، فوقع في قلبي : يا عكبر ؛ بابي مفتوح ، فكسرت سيفي ، ووضعت التراب علىٰ رأسي ، وصِحْتُ : الإقالةَ ؛ الإقالةَ ؛ فإذا بهاتف يقول : قد أقلناك ، فانتبه رفقائي ، فقالوا : ما لك أزعجتنا ؟ فقلت : قد كنت مهجوراً ، وقد صولحت ، فقالوا : ونحن أيضاً قد كنا مهجورين وقد صولحنا ، فرمينا ثيابنا ، وأحرمنا كلنا ، فما زلنا كذلك ثلاثة أيام نصيح ونبكي ، ونحن سكارىٰ حيارىٰ ، فوردنا في اليوم الثالث علىٰ قرية ؛ وإذا بامرأة عمياء جالسة علىٰ باب القرية ، فقالت : أيكم عكبر الكردي ؟ فقال أحدنا : ألك حاجة ؟ قالت : نعم ، لي ثلاث ليال أرى النبي صلى الله عليه وسلم في النوم ، وهو يقول : « أعط عكبر الكردي ما خلفه ولدك » ، فأخرجت لنا ستين شُقَّة ، فاتزرنا ببعضها ، ودخلنا البادية إلىٰ أن أتينا البيت الحرام . انتهىٰ [« التوابين » ٢١١ و٢٢٢ـ٢٢٣] .

وقال في « بهجة الأسرار » : قيل لأحمد ابن حنبل : مات بشر ، فقال : مات رحمه الله وما له نظير ، وكان بشر من أولاد الرؤساء والكتبة .

وسئل الدارقطني عنه ، فقال : زاهد ، ثقة ، ليس يروي إلا حديثاً صحيحاً ، وقد روىٰ له أبو داوود في كتاب « المسائل » ، والنسائي في « مسند علي رضي الله عنه » .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ قدس الله روحه ـ : قال بشر بن الحارث : عِز المؤمن . . استغناؤه عن الناس ، وشرفه . . قيامه بالليل .

وقال بشر : ما أنا بشيء من عملي أوثق مني بحب أصحاب سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم .

وقيل لبشر رحمه الله وكان في الشمس : لو استظليت عن هـٰذه الشمس بفيء هـٰذه الدار ـ دار ربيعة ، رجل من أعوان السلطان ـ فقال : هـٰذا فيء سوء ، أو فيء رديء . أو كما قال .

وقال بشر : الصدقة أفضل من الحج والعمرة والجهاد ، ثم قال : ذاك يركب ويرجع ويراه الناس ، وهـٰذا يعطي سراً لا يراه إلا الله عز وجل .

وقال رجل لبشرٍ : عظني ، فقال : انظر خبزك من أين هو ، ولا تعرض لحمك[1] للنار .

وقال محمد بن غزوان : قال لي بشر بن الحارث : عليكم بالرفق والاقتصاد في النفقة ، فلأَن تبيتوا جياعاً ولكم مال . . أحب إلي من أن تبيتوا شباعاً وليس لكم مال ، وكان ذلك القول في سنة خمس وعشرين ومئتين .

وقال محمد بن غزوان : بَكَّرت أنا وأخي في غداة باردة إلىٰ بشر ، فألفيناه علىٰ بابه ومعه خليل الخياط ، فسلمنا عليه ، ثم قام يمشي أمامنا ، وعليه فرو خَلَقٌ ، وفي رجليه خف قصير فوق عقبه ، وعليه إزار لطيف ، فكان كلما مرَّ بواحد أو أكثر . . رفع صوته بالسلام عليه ، فلما خرج إلى السوق . . وقف علىٰ رجل دقاق ، فسأله عن سعر الدقيق بالأمس ، فقال : ناقص ، فأبشر يا أبا نصر[2] .

قال : وآخر ما سمعت من كلام بشر ، وكان قد أرجف الناس بموته بباب الطاق في يوم مطير ، فجئت في المطر والطين حتىٰ بلغت بابه ، وإذا علىٰ بابه ؛ نحو من ثلاث مئة فتىٰ وشيخ ، منهم من يقول : يا أبا نصر ؛ إنما جئناك نعودك ، فقال لهم بشر وهو يبكي : لا حاجة لي في عيادتكم ، اذهبوا عني ، فقد آذيتموني ، وهو يبكي ، ثم قال : قال الفضيل : أشتهي إذا مرضت ألاَّ أعاد .

---

(١) في نسخة : (ولا تتعرَّض لحمِّ النار) .

(٢) في هـٰذا إشارة إلىٰ أن السعر اليوم أرخص عنه بالأمس ، والصالحين من اهتمامهم بأمور المسلمين يسألون الله للمسلمين أن يرخصَ أسعارهم ، وأن يغزر أمطارهم ، فلهـٰذا استبشر بشر بن الحارث ، والله أعلم .

وقال بشر : من أكل كل شيء . . ذهب دِينه .

وقال بشر : أتىٰ جبريل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له : يا محمد ؛ سل ربك سبحانه وتعالىٰ تهنئة العيش ، فقال صلى الله عليه وسلم : « اللهم ؛ إني أسألك تهنئة العيش » .

وكان قد ذُكر العلم وفضيلة طلبه عند بشر ، فقال : إذا لم تعمل به . . فتركه أفضل ، والعلم هو العمل ، فإذا أطعت الله سبحانه وتعالىٰ . . علَّمك ، وإذا عصيته . . لم يُعلِّمك ، والعلم أداة الأنبياء صلوات الله تعالىٰ عليهم وسلامه إلىٰ أممهم فتمسكوا به وحَفِظوه وعملوا به ، ثم أدوه إلىٰ قوم ، فعملوا به . . . وهٰكذا حتىٰ صار العلم اليوم إلىٰ قوم يأكلون به ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وقال بشر : لا تطلب علماً تهينه للناس ، هٰذا هو الداء الأكبر .

قال بشر : قال الفضيل بن عياض : لا تكمل مروءة الرجل حتىٰ يسلم منه عدوه ، كيف والآن لا يسلم منه صديقه ؟!

وقال بشر : الصبر هو الصمت ، والصمت من الصبر ، ولا يكون المتكلم أورع من الصامت ، إلا رجل عالم يتكلم في موضعه ، ويسكت في موضعه .

وقال بشر : حب لقاء الناس . . حب الدنيا ، وترك لقاء الناس . . ترك الدنيا .

وقال بشر : لا يجد رجل حلاوة العبادة وهو يحب أن يعرفه الناس .

وقال بشر : سكون النفس إلىٰ قَبول المدح لها . . أشد عليها من المعاصي .

وقال : إذا قلَّ عمل العبد . . ابتلي بالهمِّ .

وقال بشر : من حُرِم معرفة الله عز وجل . . لم يجد للطاعة حلاوة ، ومن لا يعرف ثواب الأعمال . . ثقلت عليه في جميع الأحوال ، ومن زهد في الدنيا علىٰ حقيقة . . كانت مؤونته خفيفة ، ومن وُهِب له الرضا . . فقد بلغ أفضل الدرجات ، والمؤمن إذا عاش . . عاش حزيناً ، ولن يرِدَ القيامةَ أفضلُ من الراضين عن الله عز وجل .

وقال بشر : النظر إلىٰ من تكره حمّىٰ باطنة .

وقال بشر : ما أعلم أحداً من الناس إلا مبتلىً ، رجل بسط الله سبحانه وتعالىٰ له في رزقه . . فلينظر كيف شكرُه ، ورجل قبض الله عز وجل عنه رزقه . . فلينظر كيف صبره .

وقال بشر : قال موسىٰ عليه الصلاة والسلام : يا رب ؛ إني جائع ، وأنت أعلم ، فأطعمني ، فقال عز وجل له : (حتىٰ أشاء) .

وسأل المازني بشر بن الحارث عن التوكل ، فقال بشر : اضطراب بلا سكون ، وسكون بلا اضطراب ، فقال المازني : ليس نفقه هـٰذا ، ففسِّرْهُ لنا يا أبا نصر ، فقال : اضطراب بلا سكون : رجل يضطرب بجوارحه وقلبه ساكن إلى الله عز وجل لا إلىٰ عمله ، وسكون بلا اضطراب : فرجل ساكن إلى الله عز وجل بلا حركة ، وهـٰذا عزيز ، وهو من صفات الأبدال .

وقال عمار : رأيت الخضر عليه السلام ، فسألته عن بشر بن الحارث ، فقال : لقد مات يوم مات وما على الأرض أتقىٰ لله عز وجل منه .

وقال بشر : قل لمن يطلب الدنيا : تهيأ للذل .

وكان ببغداد رجل له مال كثير من التجار ، يقع في الصوفية كثيراً ، قال أبو عبد الله القاضي : فرأيته بعد ذلك يصحبهم ، وأنفق عليهم جميع ماله ، فسألته عن ذلك ، فقال : ليس الأمر علىٰ ما توهمت ، وذلك أني صليت جمعة وخرجت ، فرأيت بشر بن الحارث قد خرج من المسجد مسرعاً ، فقلت في نفسي : أنظر إلىٰ هـٰذا الرجل الموصوف بالزهد ليس يستقر في المسجد ، وقلت في نفسي : أتبعه حتىٰ أنظر إلىٰ أين يذهب ، قال : فتبعته ، فجاء إلى الخبَّاز ، فاشترىٰ بدرهم خبزاً ، قال : قلت : انظر إلى الرجل يشتري خبزاً! وتقدم إلى الشَّوَّاء ، وأعطاه درهماً وأخذ الشِّوَاء ، قال : فزادني عليه غيظاً ، وقال : وتقدم إلى الحلاوي ، فاشترىٰ فالوذجاً بدرهم ، فقلت في نفسي : والله ؛ لأنغصن عليه حين يجلس ويأكل ، قال : فخرج إلى الصحراء ، وأنا أقول : يريد الخضرة والماء ، قال : فما زال يمشي إلى العصر وأنا خلفه ، فدخل قرية ، وفي القرية مسجد ، وفيه رجل مريض ، قال : فجلس عند رأسه ، وجعل يلقمه ، قال : فقمت لأنظر إلى القرية ، قال : فبقيت ساعة ، ثم رجعت ، فقلت للعليل : أين بشر ؟ قال : ذهب إلىٰ بغداد ؟ قال : فقلت : وكم بيني وبين بغداد ؟ فقال : أربعون فرسخاً ، فقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، أيش عملت بنفسي ، وليس معي ما أكتري ، ولا أقدر على المشي ، ولا أعرف الطريق ؟ قال : اجلس حتىٰ يرجع ، قال : فجلست إلى الجمعة القابلة ، قال : فجاء بشر في ذلك الوقت ومعه شيء يأكله المريض ، فلما فرغ . . قال له العليل : يا أبا نصر ؛ هـٰذا رجل صحبك من بغداد ،

وبقي عندي منذ الجمعة ، فرُدَّه إلىٰ موضعه ، قال : فنظر إلي كالمُغضَب وقال : لِمَ صحبتني ؟ قال : فقلت : أخطأت ، قال : قم فامش ، قال : فمشيت إلىٰ قرب المغرب ، فلما قربنا . . قال لي : أين محلتك في بغداد ؟ قلت : في موضع كذا ، فقال : اذهب ولا تعد ، ولا تقل رأيت شيئاً ، قال : فتبت إلى الله عز وجل ، وصحبتهم وأنا علىٰ ذلك .

وقال محمد بن الهيثم : كنت أدخل علىٰ أخت بشر في صغري ، فأعطتني يوماً كبة غزل ، وقالت : بع هـٰذه الكبة ، واشتر خبزاً وسمكاً ، ففعلت ، فلما دخل بشر . . رأى الخبز والسمك ، فقال : ما هـٰذا الطعام ؟ قالت أخته : رأيت أمي وأمك في المنام وهي تقول لي : إن أردتِ فرحي وإدخالكِ السرور عليَّ . . فبيعي غزلكِ واشتري خبزاً وسمكاً ، فإن أخاك بشر يشتهيهما ، قالت : فلما ذكرت أمي وأمه . . بكىٰ ، وقال : رحمهما الله تعالىٰ ، تغتم لي حية وميتة ، وإني لأشتهيه منذ خمس وعشرين سنة ، وما كان الله عز وجل يراني أن أرجع في شيء تركته لله سبحانه وتعالىٰ .

ثم قال : رأيت بشراً متغير اللون ، فقلت : نشدتك الله إلا ما أخبرتني ، فقال : أنا منذ أربعين يوماً آكل الطين في الصحراء ، ليس يصفو لي الأكل ببغداد ، فتغير عليَّ بطني ، ولهـٰذا تغيرت .

وقال محمد بن خفيف : وكان ذلك الغزل الذي تغزله أخته فيما ذكر أنها قصدت أحمد ابن حنبل ، قالت : يا أبا عبد الله ؛ إنا قوم نغزل بالليل ومعاشنا منه ، فربما مر بنا مشاعل بني طاهر ولاة بغداد ، ونحن على السطح نغزل ، فنغزل في ضوئها الطاقة والطاقتين[1] ، أفيحل لنا ، أم يحرم ؟ قال لها : مَن أنت عافاكِ الله تعالىٰ ؟ فقالت : أخت بشر ، فقال : آه . . يا آل بشر ما عدمتكم ، لا أزال أسمع الورع الصافي من قِبَلكم .

وقال بشر : لا يجد العبد حلاوة العبادة حتىٰ يجعل بينه وبين الشهوات حائطاً من حديد .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ : الدعاء . . ترك الذنوب .

وقال بشر : لو سقطت قلنسوة من السماء . . لما سقطت إلا علىٰ رأس من لا يريدها .

وجاء رجل يسأل أبا نصر أن يحدثه ، فأبىٰ ، فألحَّ عليه ، فأبىٰ ، فلما أيس منه . . قال له : يا أبا نصر ؛ ما تقول غداً لله عز وجل إذا لقيته وسألك لِمَ لمْ تحدث ؟ قال : فقال له بشر

---

(١) **الطاقة** : الحزمة من الخيوط أو الحبال .

ـ وهو يبكي ـ : أقول له : يا رب ؛ كانت نفسي تشتهي أن تحدِّث ، فامتنعت من أن أحدث ، ولم أعطها شهوتها ، وأنت أعلم .

وقال بشر بن الحارث : سمعت المعافى بن عمران عن الأوزاعي قال : كان يُقال : يأتي على الناس زمان أقل شيء في ذلك الزمان أخ مؤنس ، أو درهم من حلال ، أو عمل في سُنَّة .

وقال بكر بن عبد الله المزني : لا يكون العبد تقياً حتىٰ يكون تقي الطمع تقي الغضب .

وعن بشر قال : حدثنا يحيى بن اليمان ، عن سفيان ، عن حبيب ابن أبي عمرة قال : إذا ختم الرجل القرآن . . قَبَّل المَلَكُ بين عينيه .

أسند بشر عن أعلام الرواة مع كراهيته للرواية ورغبته عنها .

فمن أحاديثه : قال : رحلت إلىٰ عيسى بن يونس ماشياً ، فأكرمني وأدناني ، وقال : ما الذي أقدمك ؟ قلت : أحببت لقاءك والنظر إليك ، فقال : يا أخي ؛ ومن أنا ؟ وأي شيء عندي ؟ وما أُحسِن ؟ ثم قال : أمعك شيء تسأل عنه ؟ قلت : نعم ، حديث عبد الله بن عراك بن مالك ، فقال عيسىٰ : نعم ، حدَّثَنا عبد الله بن عراك بن مالك ، عن أبيه ، عن أبي هريرة رضي الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس على المسلم في عبده ولا فرسه صدقة »[1] انتهىٰ [« الحلية » ٨/٣٣٨ـ٣٥٦] .

وقال أبو الفرج : ولد بشر بن الحارث سنة خمسين ومئة ، وتوفي سنة سبع وعشرين ومئتين .

وقال محمد بن بشار : سمعت بشراً يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، عشت إلىٰ زمان إن لم أعمل فيه بالخفاء . . لم يسلم لي دِيني .

وقال محمد بن بشار : زرت بشراً ، فجلست معه ملياً ، فما زادني علىٰ كلمة ، قال : ما اتقى اللهَ عَبدٌ أَحبَّ الشهرة .

وقال أحمد بن نصر : كنا قعوداً مع بشر بن الحارث ، فجاءه رجل ثالث ، فقام وفارقنا .

وقال أحمد بن الفتح : سمعته يقول : بعث إليَّ عاصم بن علي ، فقال : يا أبا نصر ؛ إن أبا الحسن يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : قد اشتد شوقي إليك ، حتىٰ لقد كدت أن آتيك

---

(١) أخرجه مسلم (٩٨٢) .

من غير إذن ، فعلمت كراهيتك لمجيء الرجال ، فإن رأيت أن تأذن لي لأُسلم عليك . . فلعل الله تعالىٰ أن ينفعني برؤيتك ، قال : فقلت للرسول : أبلِغْه السلام ، وقل له : لا تأتني ؛ فإن مجيئك إلي شهرة عليَّ وعليك .

وقال عمر بن موسىٰ : سمعت بشراً يقول : لقد شهرني ربي عز وجل في الدنيا ، فليته لا يفضحني في القيامة ، ما أقبح بمثلي ، يُظن به ظن وأنا علىٰ خلافه! إنما ينبغي أن أكون أكثر مما يُظن بي ، إني أكره الموت ، وما يكره الموت إلا مريب ، وإلا . . فلأي شيء أكره الموت .

وقال أحمد بن الصلت : سمعت بشراً يقول : غنيمة المؤمن غفلة الناس عنه ، وإخفاء مكانه عنهم .

وكان يقول في دعائه : اللهم ؛ استر ، واجعل تحت الستر ما تحب ، فربما سترت عليَّ ما تكره ، ثم التفت إلىٰ شخص يقال له : زريق الدلال ، وقال : يا أخي ؛ بادر بادر ؛ فإن ساعات الليل والنهار تنهب الأعمار .

وقال محمد بن قدامة : كان بشر يوماً عابراً في طريق ، فرآه رجل سكران ، فأقبل السكران إلىٰ بشر وجعل يقبِّله ، ويقول : يا سيدي يا أبا نصر ، ولا يدفعه بشر عن نفسه ، فلما ولى السكران . . تغرغرت عينا بشر بالدموع ، وقال : رُبَّ رجل أحب رجلاً علىٰ خير توهمه فيه ، ولعل المحبَّ نجا والمحبوب لا يدري ما حاله .

وقال رجل : رأيت بشراً واقفاً علىٰ صاحب الفاكهة ، فجعل ينظر ، فقلت : يا أبا نصر ؛ لعلك تشتهي مِن هـٰذا شيئاً ؟ قال : لا ، ولـٰكن نظرت في هـٰذا ، إذا كان سبحانه وتعالىٰ يطعم هـٰذا من يعصيه . . فكيف من يطيعه ؟!

وقال أبو بكر : أُهدي إلىٰ أستاذي رطباً ، وكان بشر يقيل في دكاننا في الصيف ، فقال له أستاذي : يا أبا نصر ؛ هـٰذا من وجه طيب ، فإن رأيت أن تأكل منه ، قال : فجعل يمسه بيده ، ثم ضرب بيده إلىٰ لحيته ، وقال : ينبغي لي أن أستحيي من الله تعالىٰ ، إني عند الناس تارك لهـٰذا ، وآكله في السر!

وقال ابن أخت بشر : سمعت خالي يقول : ما شبعت منذ خمسين سنة .

وقال : قدم بشر من عبادان ـ أو من سفر ـ وهو متزر بحصير .

وقال يحيى بن عثمان : كان لبشر في كل يوم رغيف .

وقال أبو بكر بن عثمان : قال بشر : إني لأشتهي شواء ، منذ أربعين سنة ما صفا لي درهم .

وقال أبو عمران : تخرَّق إزار بشر ، فقالت له أخته : يا أخي ؛ قد تخرق إزارك ، وهـٰذا البرد ، فلو جئت بقطن حتىٰ أغزل لك ؟ قال : فكان يجيء بالإستارَين[1] والثلاثة ، فقالت له : إن الغزل قد اجتمع ، أفلا تسلم إزارك ؟ قال لها : هاتيه ، قال : فأخرجته إليه ، فوزنه ، وأخرج ألواحه[2] ، وجعل يحسب الأساتير ، فلما رآها قد زادت فيه . . قال لها : كما أفسدتيه فخذيه .

وقال الحسن بن عمرو : سمعت أبا نصر التمار يقول يوم مات بشر : لولا أن بشراً قد مات . . ما حدثتكم بهـٰذا ، أتاني ليلة ، فقلت : الحمد لله الذي جاء بك ، جاءنا قطن من خراسان ، وغزلته ابنتي وباعته لفلان ، واشتريت لحماً وشيئاً نفطر عليه ، فالحمد لله الذي جاء بك ، فقال لي : لا تكثر عليَّ ، فلو أكلتُ عند أحد من أهل الدنيا . . لأكلت عندك ، ثم قال : إني لأشتهي الباذنجان منذ ثلاثين سنة ، قلت : فإن فيها باذنجاناً ، فقال : حتىٰ تصفوَ لي حبة الباذنجان من أين هي .

وقال عمر ابن أخت بشر : سمعت خالي يقول لأمي : جوفي وجع وخواصري تضرب عليَّ ، فقالت له أمي : ائذن لي حتىٰ أصنع لك قليل حساء بكف دقيق من عندي ؛ لتتحساه يَرُمُّ جوفك ، فقال لها : ويحك! إني أخاف أن يقول الله عز وجل لي : مِن أين لك هـٰذا الدقيق ؟ فلا أدري أي شيء أقول له ، فبكت أمي وبكىٰ معها وبكيت معهما .

قال : ورأته أمي ليلة وما به من الجوع ، وجعل يتنفس نفساً ضعيفاً ، فقالت له أمي : يا أخي ؛ ليت أمك لم تلدني ، فقد ـ والله ـ تقطع كبدي مما أرىٰ بك ، فسمعته يقول : وأنا فليت أمي لم تلدني ، وإذ ولدتني . . لم يَدِرَّ لها ثدي عليَّ ، قال : وكانت أمي تبكي عليه الليل والنهار .

وقال رجل لبشر : ما لي أراك مغموماً ؟ فقال : وما لي لا أكون مغموماً وأنا رجل مطلوب .

---

(١) **الإستار** : وزن أربعة مثاقيل ونصف .

(٢) **ألواحه** : هي التي كتب عليها ما كان يعطيه لأخته من الأساتير .

وقال محمد الزعفراني : قال بشر : ربما رفعت يدي في الدعاء ، فأردهما ـ أو قال : فأرسلهما ـ وأقول : إنما يفعل هـٰذا من له وجه .

وقال الفتح بن شخرف : كنت جالساً عند بشر ، فجاءه رجل ، فسأله عن مسألة ، فأطرق ملياً ، ثم رفع رأسه ، ثم قال : اللهم ؛ إنك تعلم أني أخاف أن أتكلم ، اللهم ؛ إنك تعلم أني أخاف أن أسكت ، اللهم ؛ إنك تعلم أني أخاف أن تأخذني فيما بين السكوت والكلام .

وقالت أخت بشر : دخل عليَّ ليلة من الليالي ، فوضع إحدىٰ رجليه داخل الدار والأخرىٰ خارج الدار ، وبقي كذلك متفكراً حتىٰ أصبح ، فلما أصبح . . قلت له : فيم تفكرت طول الليل ؟ قال : تفكرت في بشر النصراني ، وبشر اليهودي ، وبشر المجوسي ، وفي نفسي واسمي بشر ، فقلت لها : ما الذي سبق منك حتىٰ خصك الله سبحانه وتعالىٰ بالإسلام ، فتفكرت في فضل الله سبحانه وتعالىٰ عليَّ وحِمدته وشكرته إذ جعلني من خاصته ، وألبسني لباس أحبابه وأهل طاعته .

وقال أبو نصر التمار : سمعته يقول : ربِّ ؛ أحمَدك حمداً تاماً ، ربِّ ؛ لا تجعل حظي منك هـٰذا الذي يقول الناس : بشر بشر ، قال : وقد رأيت أشفار عينيه وقد ذهبت من البكاء .

وقال الحسن بن عمرو : سمعته يقول : لو علمت أن رضاه سبحانه وتعالىٰ في أن أشد في رجلي حجراً ، ثم ألقي نفسي في البحر . . لفعلت .

وقال عباس بن دهقان : قلت لبشر : أحب أن أخلو بك ، فقال : إذا شئت ، فبكرتُ يوماً ، فرأيته قد دخل قبة ، فصلىٰ فيها أربع ركعات لا أحسن أن أصلي مثلها ، فسمعته يقول في سجوده : اللهم ؛ إنك تعلم أن الذل أحب إلي من الشرف ، اللهم ؛ إنك تعلم أن الفقر أحب إلي من الغنىٰ ، اللهم ؛ إنك تعلم أني لا أؤثر علىٰ حبك شيئاً ، قال : فلما سمعته يقول ذلك . . أخذني الشهيق والبكاء ، فلما سمعني . . قال : اللهم ؛ إنك تعلم أني لو أعلم أن هـٰذا هـٰهنا . . لم أتكلم .

وقال أحمد ابن حنبل : والله ؛ إن بين أظهركم رجلاً ما هو عندي بدون عامر بن عبد الله[1] ؛ يعني : بشر بن الحارث .

---

(١) وهو عامر بن عبد الله بن عبد قيس ، وقد مرت ترجمته .

وقال أحمد بن عبد الله : سئل أحمد ابن حنبل عن مسألة في الورع ، فقال : أستغفر الله تعالىٰ ، لا يحل لي أن أتكلم في الورع وأنا آكل من غلة بغداد ، ولو كان بشر بن الحارث حياً . لصلح أن يجيبك عنها ؛ لأنه كان لا يأكل من غلة بغداد ولا من طعام السواد ، فيصلح أن يتكلم في الورع .

وقال أحمد بن عبد الرحمن : سمعت بشراً يقول : إن الجوع يصفِّي الفؤاد ويورث العلم الدقيق .

وسمعته يقول : طوبىٰ لمن ترك شهوة حاضرة لموعد غائب لم يره .

وقال أحمد بن الصلت : سمعت بشراً يقول : حاربوا الآمال بفوت الآجال .

وقال : سمعته يقول : ليس من المروءة أن تحب ما يُبغِض حبيبُك .

وقال عمر بن موسىٰ : رأيت بشراً ومعه رجل ، فتقدم إلىٰ بئر ليشرب منها ، فجذبه بشر ، وقال : نشرب من البئر الأخرىٰ ، حتىٰ جاوز ثلاثة آبار ، فقال له الرجل : يا أبا نصر ؛ أنا عطشان ، فقال له بشر : اسكت ، فهـٰكذا تدفع الدنيا .

وقال إبراهيم الحربي : سمعته يقول : بحسبك أن أقواماً موتىٰ تَحْيَا القلوب بذِكرهم ، وأن أقواماً أحياء تعمى الأبصار بالنظر إليهم .

وقال عمر بن موسىٰ سمعته يقول : يكون الرجل مرائياً في حياته ، مرائياً بعد موته ، قلت : كيف ذاك ؟ قال : يحب أن يكثر الناس علىٰ جنازته .

وقال : ما أقبح أن يُطلَب العالِم . فيقال : هو بباب الأمير .

وقال يحيى بن عبد الحميد : رأيت أبا نصر التمار وعلي بن المديني في جنازة بشر بن الحارث يصيحان : هـٰذا والله شرف الدنيا قبل شرف الآخرة ، وذلك أن بشراً أُخرجت جنازته بعد صلاة الصبح ، ولم يصِلْ إلى المقبرة إلا في الليل ، وكان نهاراً صائفاً ، ولم يستقر في القبر إلى العتمة .

وقال الكندي : رأيت بشر بن الحارث في النوم ، فقلت له : ما فعل الله تعالىٰ بك ؟ فقال : غفر لي ، وأقعدني في طيارة من لؤلؤة بيضاء ، وقال لي : سِرْ في ملكي .

وقال الحسن بن مروان : رأيت بشراً في النوم ، فقلت له : يا أبا نصر ؛ ما فعل الله تعالىٰ بك ؟ فقال : غفر لي ولكل من تبع جنازتي ـ زاد في رواية الخطيب : ولكل من أحبني إلىٰ

يوم القيامة ـ قال : قلت : ففيمَ العمل ؟ قال : افتقد الكسرة . [انتهىٰ « الصفوة » ٢/١٩٧ـ٢٠٣] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : رأيت في بعض المجاميع : أن بشراً رحمه الله صنف كتاباً سماه « الزهد » ، وهو كتاب نفيس ، اشتمل علىٰ دقائق كثيرة ومعارف غزيرة .

وقال أبو القاسم القشيري ـ رحمه الله ـ : قيل : إن بعض أصحاب بشر بن الحارث رآه في النوم بعد موته ، فقال له : ما فعل الله عز وجل بك ؟ فقال : لما رأيت ربي سبحانه وتعالىٰ . . قال لي : مرحباً بك يا بشر ، لقد توفيتك يوم توفيتك وما علىٰ ظهر الأرض أحبَّ إلي منك[1] .

وقال بشر بن الحارث رحمه الله : رأيت أمير المؤمنين علياً كرم الله وجهه في منامي ، فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ عظني ، فقال : ما أَحسَنَ عطفَ الأغنياء على الفقراء رجاءً لثواب الله عز وجل ، وأحسنُ من ذلك : تيه الفقراء على الأغنياء ثقة بالله تعالىٰ ، فقلت : زدني ، فقال :

قد كنتَ مَيْتاً فصرتَ حيّاً ... وعن قريب تصير مَيْتا
عَزَّ بدارِ الفَناءِ بيتٌ ... فابْنِ بدار البقاءِ بيتا[2]

وقال بشر بن الحارث : نحن لأهل البدع . . خير لهم من أنفسهم ؛ لأنا نحذر الناس عنهم ؛ لئلا تكثر آثامهم .

وقال في « المناقب » : قال بشر بن الحارث رحمه الله : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقال لي : « يا بشر ؛ تدري لم رفعك الله من بين أقرانك ؟ » فقلت : لا يا رسول الله ، قال : « باتباعك لسنتي ، واحترامك الصالحين ، ونصيحتك لإخوانك ، ومحبتك لأصحابي وأهل بيتي ، هو الذي بلغك منازل الأبرار » .

وروي أن رجلاً جاءه في يوم عيد فقال : رأيت البارحة كأن القيامة قد قامت ، والناس في كرب وشدة ، حتىٰ رأيت دموع الناس تجري دماً ؛ إذ خرج مناد ينادي : أين بشر ؟ وأين أحمد ابن حنبل ؟ فأخذوكما ، فأدخلوكما على الله عز وجل ، فقال بعض أهل الموقف : إن حوسب هـٰؤلاء . . هلكنا ، وإذا قد خرج ملك ، فقيل له : ما فُعل ببشر وأحمد ؟ فقال :

---

(١) الرسالة القشيرية (٣١٣) .
(٢) الرسالة القشيرية (٣٠٧) .

يحاسبان علىٰ قيام الشكر بما مَنَّ الله عليهما مِن ستره[1] ، فقال بشر : أمَّا أحد الاثنين : فالتقصير قرينه ، وأما الآخر : فتشهد له الحقائق والخلائق بقيام الشكر ، ثم بكىٰ بشر وقال : ويحك يا بشر! شد حيازيمك[2] ؛ فإنك مطلوب .

وقيل : أتىٰ بشر بن الحارث باب المعافى بن عمران بالموصل ، فدق عليه الباب ، فقيل : مَن بالباب ؟ فقال : بشر الحافي ، فقالت ابنته من داخل الدار : لو اشتريت نعلاً بدانقين . . لذهب عنك هـٰذا الاسم .

وقال بشر بن الحارث : يأتي على الناس زمان تكون الدولة فيه للحمقىٰ على الأكياس .

وقال : النظر إلى الأحمق سخنة[3] عين ، والنظر إلى البخيل يقسي القلب .

وقال : هب أنك ما تخاف ، أما تشتاق ؟! ثم قال : المتقلب في جوعه كالمتشحط في دمه في سبيل الله ، وثوابه رفع الدرجات في الجنة .

وقال بشر : إني لأُجِلُّ الله عز وجل أن أذكره عند من لا يعرفه .

وقال بشر : قال موسىٰ عليه الصلاة والسلام : أرني ـ يا ربِّ ـ ولياً من أوليائك ، فأوحى الله إليه : أُطلبه في خربة كذا وكذا ، فلما طلبه . . رأىٰ عظام رجل قد أكله السبع ، فقال : يا رب ؛ ما أرىٰ غير العظام ، قال : هي عظام ولي ، قال : يا رب ؛ فأرسلت عليه السباع ، قال : نعم ، وعزتي وجلالي ؛ ما أخرجته من الدنيا بعد ذلك إلا جائعاً ظمآناً ، قال : يا رب ؛ كيف هـٰذا ؟! قال : لمنزلته عندي ، ولو رأيتَ منزلته . . هفَتْ[4] نفسك شوقاً إليها ، إني لا أرضى الدنيا لولي من أوليائي .

وكان بشر عديم النظير زهداً وورعاً وصلاحاً ، كثير الحديث ، إلا أنه كان من شغله بالآخرة يكره الرواية ، ويخاف من شهوة النفس في ذلك حتىٰ قيل له : ألا تحدث ؟ فقال : أنا أشتهي أن أحدث ، وإذا اشتهيت شيئاً . . تركته .

وقال إبراهيم الحربي : سمعت بشر بن الحارث يقول : ليس طلب الحديث من عدة

---

(١) في نسخة : (من سيرهما) .

(٢) شدّ حيازيمك : هـٰذه كناية عن التشمير للأمر ، والاستعداد له .

(٣) **السُّخنة** : الحر أو الحمَّىٰ ، وأسخن الله عينه : أبكاه ؛ لأن دموع الحزن تكون ساخنة ، ودموع الفرح تكون باردة ، وسُخْنَةُ العين ضد قرة العين .

(٤) في نسخة : (زهت) .

الموت ، فقلت له : قد ذهبت إلىٰ أبي نعيم ؟ فقال : أتوب إلى الله تعالىٰ من ذهابي إليه .

وقال أحمد بن خزيمة : لما مات أحمد ابن حنبل . . بت من ليلتي تلك ، فرأيته في النوم ، فقلت له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي ، وتوَّجَني ، وألبسني نعلين من ذهب ، وقال لي : يا أحمد ؛ هـٰذا بقَولك القرآن كلامي غير مخلوق ، فقلت : ما فعل ببشر الحافي ؟ فقال : بخ بخ! ومَن مِثل بشر ، تركته بين يدي الحق جل جلاله ، وبين يديه مائدة من الطعام ، والجليل جل جلاله مقبل عليه ، وهو يقول له : كُلْ يا من لم يأكل ، واشرب يا من لم يشرب ، وأنعم يا من لم يتنعم . انتهىٰ .

وقال القشيري ـ رحمه الله ـ : قال بشر بن الحارث رحمه الله : أشد الأعمال ثلاثة : الجود من قلة ، والورع في خلوة ، وكلمة حق عند من يُخاف ويُرجىٰ .

وقال بشر : الزهد مَلَك لا يسكن إلا في قلبٍ مخلىٰ . انتهىٰ [« الرسالة » ٩١ و٩٦] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : حكىٰ لي من أثق به من الصالحين البكريين : أنه وقف علىٰ ترجمة بشر بن الحارث في بعض المصنفات ، فرأىٰ ما صورته أن ابتداء أمر بشر أنه كان مشغولاً باللذات واللهو ، وله جار رجل صالح ، فرأىٰ جاره في بعض الليالي في المنام النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو يقول له : « أقرىء بشر بن الحارث السلام مني ، وعرفه أن الله تبارك وتعالىٰ عنه راض » ، قال : فلما استيقظت . . تفكرت في هـٰذه الرؤيا ، وتعجبت ، ولم أذكر لبشر شيئاً ، فلما كان في الليلة الثانية . . رأىٰ في منامه قائلاً يقول له : لِمَ لا أبلغت رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فلما أصبح . . لم يذكر لبشر شيئاً ، فلما كان في الليلة الثالثة . . رأىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يقول له : « أقرىء بشراً مني السلام ، وقل له : إن الحق جل جلاله قال : رفعتَ اسمي عن الطريق وطيَّبتَهُ ، لأرفعن ذِكرك في الدنيا والآخرة » ، قال : فلما أصبح . . جاء إلىٰ بشر ، فلما رآه بشر . . فرح به فرحاً عظيماً ، حيث إن هـٰذا الرجل الصالح جاء إليه ، ثم قص عليه رؤياه في الليالي الثلاث ، فصاح بشر صيحة عظيمة ، وخر مغشياً عليه ، فلما أفاق . . قال له : يا بشر ؛ أي شيء صنعت حتىٰ قيل لك : لأرفعن ذِكرك في الدنيا والآخرة ؟ فحكىٰ له أنه كان ماراً في الطريق ، ووجد ورقة فيها اسم الله عز وجل ، فأخذها ، ومسحها ، وطيَّبَها ، ووضعها علىٰ رأسه ، ثم إنه في تلك الساعة خرج عن جميع ما كان له ، وأعتق كل رقيق كان له ، ثم أقبل علىٰ عبادة الله سبحانه وتعالىٰ ، وكان من أمره ما كان ، ولقد بلغ من رفيع قدره أن الخليفة المأمون تشفع بأحمد ابن حنبل أن يأذن له بشر في زيارته ، فلم يأذن له .

زاد في رواية : قال القاضي أحمد بن أكثم : قال لي المأمون : لم يبق في هـٰذه الكورة[1] أحد يستجاب منه غير هـٰذا الشيخ ، يعني : بشر بن الحارث ، وأراد المأمون زيارته فلم يبلغه ذلك ، وقال : لئن ذكرني بعد هـٰذا بزيارة . . لأخرجن من جواره ببغداد .

ولقد حكى البغداديون إلىٰ زماننا هـٰذا أن الدواب إذا مشت في الطريق . . تمشي سرايا سرايا[2] على العادة ، فإذا عرض لها البول . . خرجت عن الطريق وبالت في غيرها ، فيقول الناس : هـٰذه طريق بشر التي مشىٰ فيها حافياً ، الدواب لا تروث فيها ، بل تعدل عنها ثم تروث ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

وقال في « المناقب » : دعي بشر إلىٰ دعوة ، فوضِع بين يديه طعام ، فجهد أن تمتد يده إليه ، فلم تمتد ، فعل ذلك ثلاث مرات ، فقال رجل يعرف ذلك منه : إن يده لا تمتد إلىٰ طعام فيه شبهة .

وقال أحمد بن الهيثم : قال لي بشر : قل لأخي معروف : إذا صليتُ . . جئتُك ، فأديتُ رسالته ، وانتظرته إلىٰ بعد عشاء الآخرة ، فما جاء ، فلما كان الهوي من الليل ؛ إذا به قد جاء وعلىٰ رأسه سجادة ، فتقدم إلىٰ دجلة ، ومشىٰ على الماء ، وعبر ، وجاء إلىٰ معروف ، وعاد إليَّ وقت السحر وعبر على الماء ، فرميت بنفسي في سطح قريب ، وجئت إليه ، وقبَّلت يديه ورجليه ، وقلت له : ادع لي ، فدعا لي ، وقال لي : لا تقل شيئاً ، فلم أذكر ذلك إلا بعد موته .

وقال بشر : تُدعى الأمم يوم القيامة بأنبيائها عليهم الصلاة والسلام ، فيقال : يا أمة موسىٰ ، يا أمة عيسىٰ ، يا أمة محمد ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ويقال للمحبين : يا أولياء الله ؛ هلموا إلى الله عز وجل ، فتكاد قلوبهم تنخلع فرحاً .

هنيئاً لهم ، رضي الله عنهم وأرضاهم ، وأعاد علينا من بركاتهم ، ونفعنا بمحبتهم ، إنه قريب مجيب . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) **الكورة** : مجموعة من القرىٰ .

(٢) **سرايا** : جماعات .

ومنهم الإمام :

أبو محفوظٍ معروفٌ الكرخي

رضي الله عنه

قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : قال معروف الكرخي لرجل : توكل على الله عز وجل حتىٰ يكون هو معلمك وأنيسك وموضع شكواك ، وليكن ذكر الموت جليسك لا يفارقك ، واعلم : أن شفاء كل بلاء نزل بك . . كتمانه ؛ فإن الناس لا ينفعونك ، ولا يضرونك ، ولا يمنعونك ، ولا يُعطونك .

وقال أبو بكر الخياط : رأيت في النوم كأني دخلت المقابر ؛ وإذا أهل القبور جلوس علىٰ قبورهم ، بين أيديهم الريحان ، وإذا أنا بمعروف قائماً بينهم يذهب ويجيء ، فقلت له : أبا محفوظ ؛ ما صنع بك ربك عز وجل ؟ أوليس قد مِتَّ ؟ قال : بلىٰ ، ثم أنشأ يقول :

مــوتُ التقــيِّ حيــاةٌ لا نفــاد لهــا قد مات قوم وهُمْ في الناس أحياءُ

وقال أبو بكر ابن أبي طالب : دخلت مسجد معروف وكان في منزله ، فخرج إلينا ونحن جماعة ، فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فرددنا عليه السلام ، فقال : حياكم الله بالسلام ، ونعَّمَنا الله وإياكم في الدنيا بالأحزان ، ثم أَذَّن ، فلما أخذ في الأذان . . اضطرب وارتعد حين قال : أشهد أن لا إلـه إلا الله ، فقام شعر حاجبيه ولحيته ، واضطرب ، حتىٰ خفت ألاَّ يتم أذانه ، وانحنىٰ حتىٰ كاد أن يسقط .

وقال أبو بكر : سمعت معروفاً وهو يدعو ويقول : يا من بلَّغ أهل الخير الخيرَ ، وأعانهم عليه . . بلِّغْنا منازلَهم ، وأصلحنا ، وأعنَّا عليه .

وقال علي بن الموفق : سمعت معروفاً الكرخي يدعو ويقول : يا ملك ، يا قدير ، يا من ليس له شبيه ؛ لا إله إلا أنت ، أصلحنا بما أصلحت به عبادك الصالحين .

وكان من دعائه : اللهم ؛ لا تجعلنا بثناء الناس مغرورين ، ولا بالستر مفتونين ،

اللهم ؛ اجعلنا ممن يؤمن بلقائك ، ويرضىٰ بقضائك ، ويقنع بعطائك ، ويخشاك حق خشيتك .

قال : وحضرت الصلاة ، فقال معروف لأبي توبة : صلِّ بنا ، فقال : إن صليت بكم هـٰذه الصلاة . . لا أصلي بكم الصلاة الثانية ، فقال له معروف : وأنت تطمع أن تعيش إلى الصلاة الثانية ؟ نعوذ بالله تعالىٰ من طول الأمل ؛ فإنه يمنع من خير العمل .

وقال في « المناقب » : قال رحمه الله : ليست المحبة من تعليم الخلق ، إنما هي من مواهب الحق وفضله سبحانه وتعالىٰ .

ودخل معروف مرة إلى الشط ليتوضأ ، ووضع مصحفه وملحفته ، فجاءت امرأة ، فأخذتهما ، فتبعها معروف ، وقال : يا أختي ؛ أنا معروف ، ولا بأس عليك ، ألك ابن يقرأ القرآن ؟ قالت : لا ، قال : فزوج يقرأ القرآن ؟ قالت : لا ، قال : فهاتي المصحف ، وخذي الملحفة . انتهىٰ [« الحلية » ٨/ ٣٦٠ـ٣٦١] .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال معروف : إنما الدنيا قِدر يُغلىٰ ، وكنيف يُملأ .

وقال معروف : إذا أراد الله بعبد خيراً . . فتح عليه باب العمل ، وأغلق عنه باب الجدل .

وقال : كلام العبد فيما لا يعنيه خذلان من الله عز وجل .

وجاء حجَّام يأخذ من شارب معروف ، وكان معروف يسبِّح ، فقال الحجام : لا يمكن أخذ الشارب وأنت تسبِّحُ ، فقال معروف : أنت تعمل وأنا لا أعمل ؟!

وقال خلف بن المرزبان : سمعت أبي يقول : كنا عند معروف ، فجاءه رجل ومعه بعير ، فقال : يا أبا محفوظ ؛ هـٰذا بعيري ، ولي جماعة من العيال أعمل عليه ، وأعود به عليهم ، وليس لي غيره ، وقد مُنِع البولَ من ثلاثة أيام ، فلم يَبُلْ ، ادع الله تعالىٰ أن يطلقه ، قال : فالتفت إلينا ، فقال لنا : ادعوا الله سبحانه وتعالىٰ لأخيكم لعله عز وجل أن يفرج عنه ، قال : فرفع يديه ودعا ودعونا ، قال : فتفاج[1] الجمل ، فبال في الحال .

وقال أبو بكر الزجاج : قيل لمعروف في مرض موته : أوصِ ، فقال : إذا مِتُّ . . فتصدقوا بقميصي هـٰذا ؛ فإني أحب أن أخرج من الدنيا عرياناً كما دخلت إليها عرياناً حافي القدم .

---

(١) **تفاج الجمل** : بالغ في الفتح ما بين رجليه .

وقال أبو سليمان الرومي : سمعت خليلاً الصياد ـ وكفاك به ـ يقول : غاب ابني محمد ، فجزعت أمه عليه جزعاً شديداً ، فأتيت معروفاً ، فقلت : أبا محفوظ ، قال : ما تشاء ؟ قلت : ابني محمد قد غاب ، وقد جزعت عليه أمه جزعاً شديداً ، فادع الله تعالىٰ أن يرده عليها ، فقال : **اللهم ؛ إن السماء سماؤك ، والأرض أرضك ، وما بينهما لك ، فاجمعه علىٰ أهله** ، قال خليل : فأتيت باب الشام ؛ فإذا ابني محمد قائماً منبهراً ، قلت : محمد! قال : يا أبت ؛ كنت الساعة بالأنبار ، فلم أشعر إلا وأنا قد صرت هـٰهنا .

وقال أبو محمد الضرير جار مردويه : أرسل إليَّ مردويه الصائغ ، فلما جئته . . قال لي : غاب ابني منذ أيام ، وضيقَتْ عليَّ النساء من كثرة بكائهن ، فجئت أنا وهو مع جماعة إلىٰ معروف ، فوجدناه في المسجد ، فقال : ما الذي جاء بك يا أبا بكر ؟ قال : فقلت : يا أبا محفوظ ؛ قد غاب عنا ابني ، وقد ضيقَتْ عليَّ النساء من البكاء ، فقال معروف : اللهم ، يا من هو عالم بكل شيء ، ويا من لا يخفىٰ عليه شيء ، ويا من علمه محيط بكل شيء ؛ أوضح لنا أمر ذا الغلام (ثلاث مرات) وقال : ثم انصرفنا من عنده ، فلما أن أصبحت قبل صلاة الفجر ؛ إذا رسول مردويه قد جاءني يدعوني ، فقلت : أيش الخبر ؟ فقال : قد جاء فلان ، فقمت معه وجئت ، فإذا الغلام قاعد بين يدي مردويه ، فقال لي : اسمع العجب ، فقال الغلام : كنت أمشي بالكوفة ، فجاءني رجلان ، فأخذا بيدي ، وأخرجاني من الكوفة ، وقالا : امض إلىٰ بيتكم ، فلم أقعد ، ولم آكل ، ولم أشرب ، وبينا أنا في الطريق . . رأيت أسدين ، فلم يتحركا حتىٰ أتيتكم ، فأطعِموني ؛ فإني ما أكلت شيئاً حتىٰ جئتكم .

وقال القاسم بن نوح[1] : سمعت عيسىٰ أخا معروف يقول : قلت لأخي : لو قعدت على الدقيق لأمضي في حاجة ؟ فقال لي : بشرط ألاَّ أمنع سائلاً ، قلت : نعم ؛ وأنا أظن أنه يعطي الكف والأكثر والأقل ، قال : فرجعت ؛ وإذا هو قد تصدق بشيء كثير ما بين المكوك[2] وزيادة ، قال : فاحمرت وجنتاي ، فلما نظر إلي . . قال : يا أخي ؛ لست عائداً إلىٰ هـٰذا الموضع ، فلما تقدمت إلى الصندوق ؛ فإذا المجرىٰ[3] قد امتلأت دراهم .

وقال أبو الحجاج المقري : ولد لي مولود وليس عندي شيء ، فأتيت معروفاً ، فقلت

---

(١) في « الحلية » : (القاسم بن روح) .

(٢) **المكوك** : مكيال معين .

(٣) **المجرىٰ** المراد هنا : المكان الذي يضع فيه المال .

له : يا أبا محفوظ ؛ ولد لي مولود وليس عندي شيء ، فقال : يا أخي ؛ ادع الله عز وجل ، قال : فجعلت أدعو ويؤمن ، ويدعو وأنا أؤمن ، فلما طال علي . . قمت ، وانسللت ؛ فإذا راكب ينادي من خلفي : يا فلان ؛ فالتفت ، فإذا معه صرة ، فقال لي : يقول لك أبو محفوظ : أنفق هـٰذه الصرة في الأمر الذي ذكرت لي ؛ فإذا فيها مئة دينار ، أو نحوها ، وصنع الرجل وليمة ، وسأل معروفاً أن يحضرها ، فحضرها ومعه صاحب له ، فلما رأىٰ صاحبه تلك الألوان من الأطعمة . . أنكرها ، وقال : يا أبا محفوظ ؛ أما ترىٰ ما هـٰهنا ؟ قال : ما أمرتهم بشرائه ، فلما رأىٰ تلك الحلوىٰ . . قال : سبحان الله يا أبا محفوظ ؛ أما ترىٰ ما هـٰهنا ؟ فقال : ما أمرتهم بصنيعه ، فلما رأىٰ كثرة الأطعمة وغيرها . . قال : أما ترىٰ ما هـٰهنا ؟ فقال له معروف : قد أكثرت عليَّ ، أنا عبد مدبَّر ، آكل ما يطعمني ، وأنزل حيث ينزلني .

وقال ابن أخت معروف : يا خالي ؛ ما لي أراك تجيب كل من دعاك ؟ فقال : يا بني ؛ خالك ضيف ينزِل حيث يُنزَل . انتهىٰ [« الحلية » ٨/ ٣٦١ـ٣٦٤] .

وقال حجة الإسلام الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : قد كان معروف الكرخي رحمه الله يُهدىٰ إليه طيبات الطعام ، فيأكل ، فيقال له : إن أخاك بشراً لا يأكل من هـٰذا ، فيقول : **أخي بشر قبضه الورع ، وأنا بسطتني المعرفة** ، قال : إنما أنا ضيف في دار مولاي سبحانه وتعالىٰ ، إذا أطعمني . . أكلت ، وإذا جوعني . . صبرت ، ما لي وللاعتراض والتمييز .

ثم قال الغزالي : والبصير بأسرار العلم يعلم أن كل ذلك حق ولـٰكن بالإضافة إلى اختلاف الأحوال . انتهىٰ [« الإحياء » ٣/ ٩٧] .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : وقال [محمد بن] منصور الطوسي : رآني معروف ومعي ثوب ، فقال لي : يا محمد ؛ ما تصنع بهـٰذا الثوب ؟ قلت : أقطعه قميصاً ، فقال : اقطعه قصيراً تربح فيه ثلاث خصال : اللحوق بالسنة ، ويكون ثوبك نظيفاً ، وتربح فضله .

وقال لبعض إخوانه : اشتر وبع ولو برأس المال ؛ فإنه ينمو كما ينمو الزرع .

وكان يقول عند ذِكر السلطان : اللهم ؛ لا ترنا وجوه من لا تحب النظر إليهم .

وقال موسى بن إبراهيم : حضرت معروفاً وعنده رجل يغتاب رجلاً ، فجعل معروف يقول له : اذكر القطن إذا وضعوه علىٰ عينيك ، اذكر القطن إذا وضعوه علىٰ عينيك . انتهىٰ [« الحلية » ٨/ ٣٦٤] .

وقال أبو القاسم القشيري : قال يعقوب ابن أخي معروف اللهم ؛ : جاء صدقة بن إبراهيم والأسود بن سالم إلىٰ عمي معروف ، وكان عمي مؤاخياً لهما ، فقالا له : إن بشر بن الحارث يحب أن يؤاخيك في الله تعالىٰ ، وهو يكره كثرة اللقاء ؛ خوفاً من ألاَّ يقدر أن يقوم بما يجب عليه من حقوق الأخوة ، فإن أنت قبلتَه علىٰ ألاَّ تلتقيا . . فاعقد له ذلك ، فقال معروف : أما أنا : فإني إذا واخيت رجلاً . . أحببت ألاَّ أفارقه ، وأشركه في أعمالي كلها ، ولو أدخلت الجنة . . لأحببت أن يدخلها قبلي ؛ لأني إنما أحبه لله عز وجل ، وقد عقدت له الأخوة برسالتكما ، وإني أوصيه بالله تعالىٰ ومراقبته له ، واعلما : أن العالم إذا عمل بعلمه . . استوت له قلوب المؤمنين ، وما أَحبَّ رجل رجلاً لله تعالىٰ . . إلا وجب دعاء بعضهم لبعض ، وإذا صدق في سره لمن أحبه لله تعالىٰ . . أصلح الله له سره وعلانيته ، وشفع بعضهم في بعض ، وقد ورد : « أن من أحب لله تعالىٰ وأبغض لله تعالىٰ . . فقد استكمل أوثق عرى الإيمان »[1] انتهىٰ .

ثم قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال عبيد : جاء رجل من الشام إلىٰ معروف ، فسلم عليه ، وقال : إني رأيت في المنام قائلاً يقول لي : اذهب إلىٰ معروف ، فسلم عليه ؛ فإنه معروف في أهل الأرض معروف في أهل السماء .

وقال عبيد بن محمد الوراق : كنا مع أبي محفوظ في المجلس[2] وهو قاعد يتفكر ، ثم يفزع ، ويقول : واغوثاه! ياالله! قال : وكنا نجالسه وليس فيه فضل من التفكر .

قال : وما رأيته متنفلاً قط إلا يوم الجمعة ركعتين خفيفتين ، كان يصون أعماله أن يراها أحد من الناس .

ومر بسَقَّاء وهو يقول : رحم الله من دنا وشرب ، فتقدم وشرب ، فقيل له : أما كنت صائماً ؟ فقال : بلىٰ ، ولٰكني رجوت دعاءه .

وقال معروف : كيف يكون تقياً من لا يدري ما يتقي ؟! ثم قال : إذا كنت لا تحسن تتقي . . أكلت الربا ، ولقيتك امرأة لم تغض بصرك ، إلىٰ غير ذلك من المسائل ، ثم قال : ينبغي لنا أن نتقي مجلسنا هٰذا ، ومجيئكم معي إلى البيت من المسجد ينبغي لنا أن نتقيه ،

---

(١) أخرجه بنحوه الحاكم (٢/ ١٧٨) .

(٢) في نسخة : (المسجد) .

أليس قد جاء في الحديث : « فتنة للمتبوع وذلة للتابع »[1] ؟!

وقدِم جمع إلىٰ مكة ، فقال لهم ابن عيينة : مِن أين أنتم ؟ فقالوا : من بغداد ، فقال : فما فعل ذلك الحبر ؟ قالوا : مَن هو ؟ قال : معروف ؛ فإنكم لا تزالون بخير ما دام فيكم .

وقال الأنصاري : رأيت معروفاً الكرخي في النوم كأنه تحت العرش ، والله تعالىٰ يقول لملائكته : مَن هـٰذا ؟ فقالت الملائكة عليهم السلام : ربنا ؛ أنت أعلم ، فقال : هـٰذا معروف ، قد سكر من حبي ، فلا يفيق إلا بلقائي .

وفي رواية : قالت الملائكة : أنت أعلم ، هـٰذا معروف ، قد سكر من حبك ، فلا يفيق إلا بلقائك .

وقال معروف : من قال في كل يوم عشر مرات : اللهم ؛ أصلح أمة محمد ، اللهم ؛ فرج عن أمة محمد ، اللهم ؛ ارحم أمة[2] محمد صلى الله عليه وسلم . . كتب من الأبدال .

وقال معروف : ودَّع رجل البيت فقال : اللهم ؛ لك الحمد عدد عفوك عن خلقك ، ثم رجع من قابل ، فقالها ، فسمع صوتاً : يا هـٰذا ؛ ما أحصيناه منذ قلتها عام أول .

وقال : مَن قال حين يتعار[3] من الليل من فراشه : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إلـه إلا الله ، والله أكبر ، وأستغفر الله ، اللهم ؛ إني أسألك من فضلك ورحمتك ، فإنهما بيدك لا يملكهما أحد سواك . . إلا قال الله عز وجل لجبريل عليه السلام ـ وهو موكل بقضاء حوائج العباد ـ : يا جبريل ؛ اقض حاجة عبدي .

وسئل معروف عن حقيقة الوفاء فقال : إفاقة السر عن رقدة الغفلات ، وفراغ الهَمِّ عن فضول الآفات .

وقال معروف : طلب الجنة بلا عمل . . ذنْب من الذنوب ، وانتظار الشفاعة بلا سبب . . نوع من الغرور ، وارتجاء رحمة من لا يطاع . . جهل وحمق .

وسئل : بمَ تخرج الدنيا من القلب ؟ قال : بصفاء الود ، وحسن المعاملة .

وللفتيان علامات ثلاث : وفاء بلا خلف ، وعطاء بلا سؤال ، ومدح بلا جود .

---

(١) أخرجه الدارمي (١/ ١٤٤) .
(٢) في نسخة : (اغفر لأمة) .
(٣) يتعارّ : يستيقظ .

وعلامة الأولياء ثلاثة : همومهم بالله عز وجل ، وشغلهم فيه سبحانه وتعالىٰ ، وفرارهم إليه تبارك وتعالىٰ .

وقال : ليس للعارف نعمة ، وهو في كل نعمة .

وكان كثيراً ما يعاتب نفسه ويقول : يا مسكين ؛ كم تبكي وتندب ؟ أخلص وتخلَّص[1] .

وقال : السخاء إيثار ما تحتاج إليه عند الإعسار .

وكان معروف رحمه الله قد وعى العلم الكثير ، فشغلته الرعاية عن الرواية ، ومما وقع لنا من مسانيد حديثه : قال خلف المقري : كنت أسمع معروفاً يقول في دعائه كثيراً : اللهم ؛ إن قلوبنا وجوارحنا بيدك ، لم تملِّكنا منهما شيئاً ، فإذا فعلت ذلك بهما . . فكن أنت وليهما ، فقلت : يا أبا محفوظ ؛ أسمعك تدعو بهـٰذا الدعاء كثيراً ، هل سمعت فيه حديثاً ؟ قال : نعم ؛ حدثني بكر بن خنيس ، عن سفيان الثوري ، عن أبي الزبير ، عن جابر رضي الله عنهم : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو بهـٰذا الدعاء .

وروىٰ معروف عن بكر بن خنيس ، عن ضرار بن عمرو ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه : أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : دلني علىٰ عمل يدخلني الجنة ، قال : « لا تغضب » ، قال : فإن لم أطق ذاك يا رسول الله ؟ قال : « تستغفر الله عز وجل كل يوم بعد صلاة الصبح سبعين مرة . . يغفر لك ذنوب سبعين عاماً » ، قال : فإن لم يأت عليَّ ذنوب سبعين عاماً ؟ قال : « يُغفر لأمك » ، قال : فإن ماتت أمي ولم يأت عليَّ ذنوب سبعين عاماً ؟ قال : « يُغفر لأقاربك » هـٰذا حديث غريب .

وروىٰ معروف عن عبد الله بن موسىٰ ، عن عبد الأعلى بن أَعيَنَ ، عن يحيى ابن أبي كثير ، عن عروة ، عن عائشة رضي الله عنهما قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الشرك في أمتي أخفىٰ من دبيب النمل على الصفا في الليلة الظلماء ، وأدناه أن تحب علىٰ شيء من الجور ، أو تُبغِض علىٰ شيء من العدل ، وهل الدين إلا الحب في الله والبغض في الله عز وجل ؛ قال الله تبارك وتعالىٰ : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾[2] هـٰذا أيضاً غريب . انتهىٰ [« الحلية » ٨/ ٣٦٥ـ٣٦٨] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : معروف الكرخي منسوب إلىٰ كرخ بغداد .

---

(١) في نسخة : (أَخْلِصْ تَخْلُصْ) .

(٢) أخرجه بنحوه الحاكم (٢/ ٣١٩) .

قال عبد الله بن صالح : كان معروف قد ناداه الله بالاجتباء في الصِّبا ، فذُكِر لي أن أخاه عيسىٰ قال : كنت أنا وأخي معروف في كُتَّاب النصارىٰ ، وكنا نصارىٰ ، وكان المعلم يعلم الصبيان أب وابن ، فيصيح أخي معروف ، ويقول : أحدٌ أحدٌ ، فضربه المعلم يوماً علىٰ ذلك ضرباً شديداً ، فهرب علىٰ وجهه ، فكانت أمي تبكي ، وتقول : لئن رد الله تعالىٰ عليَّ ابني . . لاتَّبعنَّه علىٰ أي دِين كان ، فقدم عليها بعد سنين ، فقالت له : أي بُني ؛ علىٰ أي دِين أنت ؟ فقال : علىٰ دين الإسلام ، فقالت : أشهد أن لا إلـٰه إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، قال : فأسلمَتْ وأسلمنا كلنا .

وقال عيسىٰ أخو معروف : دخل رجل علىٰ أخي معروف في مرضه الذي مات فيه ، فقال : يا أبا محفوظ ؛ أخبِرني كيف كان صومك ؟ فقال له : دع عنك هـٰذا ، فقال له : سألتك بالله ، فقال معروف : كنت أصبح دهري صائماً ، فإن دعيت إلىٰ طعام . . أكلت ولم أَقُل : إني صائم .

وقال سري السَّقَطي : سألت معروفاً رحمه الله عن الطائعين لله عز وجل ، بأي شيء قدروا على الطاعة ؟ فقال : بخروج الدنيا من قلوبهم ، فلو كانت الدنيا في قلوبهم . . لما صحت لهم سجدة .

وقال إبراهيم الأطروش : كان معروف ماراً علىٰ دجلة بغداد ؛ إذ مر بنا أحداث في زورق يضربون الملاهي ، وهم يشربون ، فقال له أصحابه : ألا ترىٰ إلىٰ هـٰؤلاء يجاهرون في المعاصي ، ادع الله تعالىٰ عليهم ، فرفع يديه ، وقال : إلـٰهي وسيدي ؛ كما فرحتهم في الدنيا . . ففرحهم في الآخرة ، فقال له أصحابه : قلنا : ادع الله تعالىٰ عليهم ، ولم نقل ادع لهم ، فقال : إذا فرحهم في الآخرة . . تاب عليهم في الدنيا ، ولم يضرهم شيء ، فعلم القوم بدعاء معروف لهم ، فألقوا ما معهم في دجلة ، وجاؤوا تائبين في الحال .

وقال ابن شيرويه : كنت أجالس معروفاً كثيراً ، فلما كان ذات يوم . . رأيت وجهه قد خلا ، فقلت له : يا أبا محفوظ ؛ بلغني أنك تمشي على الماء ، فقال : ما مشيت قط على الماء ، ولـٰكن إذا هممت بالعبور يجمع إلي طرفاها فأتخطاها .

وقال محمد بن منصور : مضيت يوماً إلىٰ معروف ، ثم عدت إليه من غد ، فرأيت في وجهه أثر شجة ، فهبت أن أسأله عنها ، وكان عنده رجل أجرؤ عليه مني ، فقال له : كنا عندك البارحة ولم نر في وجهك هـٰذا الأثر ، فقال له معروف : خذ ما تنتفع به ، فقال له :

أسألك بحق الله تعالىٰ ، قال : فانتفض معروف ، وقال له : ويحك! ما حاجتك إلىٰ هـٰذا ؟ مضيت البارحة إلىٰ بيت الله الحرام ، ثم صرت إلىٰ زمزم ، فشربت منها ، فزلَّت رجلي ، فبطح الباب وجهي ، فهـٰذا الذي ترىٰ من ذلك .

وقال سري السقطي رحمه الله : هـٰذا الذي أنا فيه من بركات معروف ، انصرفت من صلاة العيد ، فرأيت مع معروف صبياً شعثاً ، فقلت له : مَن هـٰذا ؟ فقال : رأيت الصبيان يلعبون ، وهـٰذا واقف منكسر القلب حزيناً ، فسألته عن حاله ، فقال : أنا يتيم ، قال السري : فقلت له : ماذا ترىٰ أنك تعمل معه ؟ قال : لعلِّيْ أخلو فأجمع له نوىٰ يشتري به جوزاً يفرح به ، فقلت له : أعطِنيه أُغيِّرُ من حاله ، فقال : أوَ تفعل ؟ قلت : نعم ، فقال : خذه ، أغنى الله قلبك ، فسُوِّيَت الدنيا عندي أقل من كذا .

وفي رواية : قال له : بغَّض الله إليك الدنيا ، وأراحك مما أنت فيه ، قال : فقمت ولا شيء أبغض إلي من الدنيا .

زاد في رواية : قال : فكسوت ذلك الصبي واشتريت له جوزاً ودفعته إليه ، وقلت : اذهب فافرح مع الصبيان فرفع وجهه إلي وقال : يا عم ؛ جبر الله كسرك بين يديه .

وقال أحمد بن الفتح : رأيت بشر بن الحارث في المنام ، وهو قاعد في بستان ، وبين يديه مائدة ، وهو يأكل منها ، فقلت له : يا أبا نصر ؛ ما فعل الله تعالىٰ بك ؟ قال : رحمني ، وغفر لي ، وأباحني الجنة ، وقال لي : كُلْ من جميع ثمارها ، واشرب من جميع أنهارها ، وتمتَّعْ بما فيها كما كنت تمنع نفسك الشهوات في دار الدنيا ، فأين أخوك أحمد ابن حنبل ؟ فقال : هو قائم علىٰ باب الجنة يشفع لأهل السُّنة ممن يقول القرآن كلام الله تعالىٰ غير مخلوق ، فقلت له : فما فعل معروف الكرخي ؟ فحرك رأسه ، ثم قال : هيهات! حالت ما بيننا وبينه الحجب ، إن معروفاً لم يعبد الله تعالىٰ شوقاً إلى الجنة ، ولا خوفاً من النار ، وإنما عبده ـ تبارك وتعالىٰ ـ شوقاً إليه ، فرفعه الله تعالىٰ إلى الرفيع الأعلا ، ورفع الحجب بينه وبينه . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/١٩٢ـ١٩٦] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : رأيت في بعض التصانيف في ترجمة معروف الكرخي رحمه الله : أن الإمام أحمد ابن حنبل ويحيى بن معين كانا يختلفان إليه ويسألانه ، وكانا أعلم منه في علم الظاهر .

وعن محمد بن حسان قال : قال لي معروف : ألا أعلمك عشر كلمات ؛ خمس كلمات

للدنيا وخمس كلمات للآخرة ، من دعا بهن . . وجد الله تعالىٰ عندهن ؟ فقلت : بلىٰ ، قال : قل : حسبي الله لديني ، حسبي الله لدنياي ، حسبي الله الكريم لما أهمني ، حسبي الله الحليم القوي لمن بغىٰ عليَّ ، حسبي الله الشديد لمن كادني بسوء ، حسبي الله الرحيم عند الموت ، حسبي الله الرؤوف عند المساءلة في القبر ، حسبي الله العظيم الخبير عند الحساب ، حسبي الله اللطيف عند الميزان ، حسبي الله القوي عند الصراط ، حسبي الله لا إلٰه إلا هو ، عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم ، من قال ذلك صباحاً ومساء . . كفاه الله عز وجل ما أهمه من أمر دنياه وأخراه .

ثم قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال محمد بن منصور الطوسي : جئت مرة إلىٰ معروف الكرخي ببغداد ، فعض علىٰ أنامله ، وقال : هاه! لو لحقت عندنا الآن أبا إسحاق الدولابي كان عندنا الساعة ، فذهبت لأقوم فألحقه ، فقال : اجلس ؛ فإنك لا تدركه لعله قد بلغ منزله بالرَّي .

توفي معروف الكرخي رحمه الله ببغداد ، سنة مئتين ، ودفن بها ، وقبره ظاهر مشهور .

وقال إبراهيم الحربي : قبر معروف هو الترياق المجرَّب[1] ، رحمه الله .

وقال علي بن الموفق : رأيت في النوم كأني دخلت الجنة ، فرأيت رجلاً قائماً علىٰ مائدة ، وملَكان عن يمينه وشماله يلقمانه من جميع الطيبات ، وهو يأكل ، ورأيت رجلاً قائماً علىٰ باب الجنة يتصفح وجوه قوم ، فيُدخِل بعضاً ، ويرد بعضاً ، قال : ثم جاوزتهما إلىٰ حضرة القدس ، فرأيت في سرادق العرش رجلاً وقد شخَصَ بصره ينظر إلى الله عز وجل لا يَطرِف ، قال : فقلت لرضوان : مَن هـٰذا ؟ قال : معروف الكرخي ، عَبَدَ اللهَ لا خوفاً من ناره ، ولا شوقاً إلىٰ جنته ، بل حباً له ، فأباحه الله عز وجل النظر إليه ، وذكر أن الآخَرَين بشر بن الحارث وأحمد ابن حنبل ؛ ولذلك قال أبو سليمان الداراني : من كان اليوم مشغولاً بنفسه . . فهو غداً مشغولٌ بنفسه ، ومن كان اليوم مشغولاً بربه . . فهو غداً مشغولٌ بربه . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) قال الذهبي في « السير » (٩/ ٣٤٣ـ٣٤٤) يفسر كلام إبراهيم الحربي : يريد إجابة دعاء المضطر عنده ؛ لأن البقاع المباركة يستجاب عندها الدعاء ، كما أن الدعاء في السحر مرجو ، ودبر المكتوبات ، وفي المساجد ، بل دعاء المضطر مجاب في أي مكان اتفق . انتهىٰ .

ومنهم الإمام :

أبو سفيان وكيع بن الجراح
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال جرير : جاءني ابن المبارك ، فقلت له : يا أبا عبد الرحمن ؛ مَن رجل الكوفة ؟ فسكت عني ، ثم قال لي : رجل المِصرَين وكيع بن الجراح .

وقال أحمد ابن حنبل : حدثنا وكيع ، ولو رأيتَ وكيعاً . . رأيتَ عجباً ، رجل لم تر عيناك مثله قط .

وقال يحيى بن معين : سمعت وكيعاً يقول : ذهبت إلىٰ أبي بكر ابن عياش ، ومعي ابني أحمد ، وكنت أنتخب لابني أحاديث ، فلما حدَّثَنا وقمنا . . قال أبو بكر لإنسان : أتدري من انتخب هـٰذه الأحاديث ؟ انتخبها رجل ، أيُّ رجل .

ونظر سفيان الثوري إلىٰ وكيع فقال : إن هـٰذا الرؤاسي[1] لا يموت حتىٰ يكون له شأن ، قال يحيىٰ : وذهب سفيان وقعد وكيع مكانه .

وقال أبو السائب : جالست وكيعاً سبع سنين ، فما رأيته بصق ، ولا رأيته مس ـ والله ـ حصاة بيده ، وما رأيته جلس مجلساً وتحول عنه ، وما رأيته إلا مستقبل القبلة ، وما رأيته يحلف بالله سبحانه وتعالىٰ .

وقال الحسين ابن أبي زيد : صاحبت وكيعاً إلىٰ سكة ، فما رأيته متكئاً ، ولا رأيته نائماً في محمله .

وقال الحسن بن محمد : كان وكيع بن الجراح إذا أراد أن يحدث . . احتبىٰ ، ثم يسأله أصحاب الحديث ، فإذا نزع الحبوة[2] . . لم يسألوه .

---

(١) أي : من بني رؤاس ، وفي نسخة : (الرباني) .

(٢) **الحبوة** في الأصل : الثوب الذي يحتبىٰ به ، ثم استخدم في الجلسة التي يكون محتبياً فيها ، والاحتباء : أن=

وكان إذا حدث . . استقبل القبلة ، وقال : مَن تهاون بالتكبيرة الأولىٰ . . فاغسل يديك منه .

وجاء رجل إلىٰ وكيع فسأله عن شيء من الورع ، فقال وكيع : مِن أين تأكل ؟ فقال : من ميراث ورثته عن أبي ، فقال له : لو نذر رجل ألاَّ يأكل إلا حلالاً ، ولا يلبس إلا حلالاً ، ولا يمشي إلا في حلال . . لقلنا له : اخلع ثيابك ، وارم نفسك في التراب ، ولـٰكن لا نجد إلا السعة ، ثم قال : لو أن رجلاً بلغ في ترك الدنيا مثل سلمان وأبي ذر وأبي الدرداء رضي الله عنهم . . ما قلنا له زاهد ؛ لأن الزهد لا يكون إلا في ترك الحلال المحض ، والحلال المحض لا نعرفه اليوم ، فالدنيا عندنا حلال وحرام وشبهات ، فالحلال حساب ، والحرام عذاب ، والشبهات عتاب ، فأنزل الدنيا منزلة الميتة ، خذ منها ما يقيمك ، فإن كانت حلالاً . . كنت قد زهدت فيها ، وإن كانت حراماً . . كنت قد أخذت منها ما يقيمك ؛ لأنه لا يحل لك من الميتة إلا قدر ما يقيمك ، وإن كانت شبهات . . كان فيها عتاب يسير .

وقال وكيع : إنما العاقل من عقل عن الله سبحانه وتعالىٰ أمر دينه ، ليس من عقل أمر دنياه .

وسئل عن الحديث ، فقال : هـٰذه بضاعة لا يرتفع فيها إلا صادق .

وقال يحيى بن معين : والله ؛ ما رأينا أحداً يحدث لله عز وجل غير وكيع ، وما رأيت أحفظ منه ، ووكيع في زمانه كالأوزاعي في زمانه .

أسند عن الأئمة الأعلام ما لا يُحَد ، وله من المصنفات الحميدة ما لا يُعَد . انتهىٰ [« الحلية » ٨/٣٦٨ـ٣٧١] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال أحمد ابن حنبل : لو رأيت وكيعاً . . لعلمت أنك ما رأيت مثله ، يحفظ الحديث جيداً ، ويذاكر بالفقه فيحسن ، مع ورع واجتهاد ، ولا يتكلم في أحد ، ومَن مثل وكيع في العلم والحفظ والحلم مع خشوع وورع ؟!

وقال يحيى بن أكثم : صحبته سفراً وحضراً ، فكان يصوم الدهر ، ويختم القرآن في كل ليلة .

= يرفع الرجل رجليه ، ويجلس علىٰ أليتيه ، يضمهما معاً في ثوب واحد إلىٰ ظهره ، وفي نسخة : (إذا أراد أن يحدث . . جثَا علىٰ ركبتيه ، ثم يسأله أصحابه الحديث ، فإذا غيَّر قعدته . . لم يسألوه) .

وقال يحيى بن أيوب : حدثني بعض أصحاب وكيع الذين كانوا يلزمونه : أنه كان لا ينام حتىٰ يقرأ ثلث القرآن ، ثم يقوم في آخر الليل ، فيقرأ المفصل ، ثم يجلس ، فيأخذ في الاستغفار حتىٰ يطلع الفجر ، فيصلي ركعتين .

وقال ابنه : كان أبي يصلي الليل ، فلا يبقىٰ في دارنا أحد إلا صلىٰ ، حتىٰ جارية لنا لَتُصَلِّي .

وقال محمد بن أحمد : أغلظ رجل علىٰ وكيع القول ، فدخل وكيع بيتاً ، وعفَّر وجهه في التراب ، ثم خرج إلى الرجل ، وقال : زد وكيعاً بذنبه ، فلولاه . . ما سُلِّطتَ عليه .

وقال وكيع : زكاة الفطر لشهر رمضان . . كسجدتي السهو في الصلاة ، تجبر نقصان الصوم كما يجبر السجود نقصان الصلاة .

وحدَّث وكيع وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وجلس بعد موت الثوري في مكانه .

وكان مولده سنة تسع وعشرين ومئة ، وحج سنة ست وتسعين ، ولما رجع . . توفي في طريق العراق في محرم سنة سبع وتسعين ومئة ، وهو ابن ست وستين سنة ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/ ٨٦ـ٨٧] .

وقال شيخ الإسلام النووي ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ : وكيع بن الجراح هو الكوفي الإمام في الحديث وغيره ، وهو من تابعي التابعين ، سمع خلائق من التابعين ، وروىٰ عنه خلائق ، وأجمعوا علىٰ جلالته ، ووفور علمه ، وحفظه ، وإتقانه ، وورعه ، وصلاحه ، وعبادته ، وتوثيقه ، واعتماده .

قال أحمد ابن حنبل : ما رأيت أوعىٰ للعلم ولا أحفظ من وكيع ، ما رأيته شك في حديث إلا يوماً واحداً ، ولا رأيت معه كتاباً ولا رقعة قط .

وقال : هو أحب إلي من يحيى بن سعيد ، فقيل له : كيف فضلت وكيعاً ؟ فقال : كان وكيع صديقاً لحفص بن غياث ، فلما ولي القضاء . . هجره وكيع ، وكان يحيى بن سعيد صديقاً لمعاذ بن معاذ ، فلما ولي معاذ القضاء . . لم يهجره يحيى بن سعيد .

وقال أحمد : ما رأيت رجلاً قط مثل وكيع في الحفظ والعلم والإسناد والأبواب ، ويحفظ الحديث جيداً ، ويذاكر بالفقه ، مع ورع واجتهاد ، ولا يتكلم في أحد .

وقال ابن معين : ما رأيت أحداً يحدث لله عز وجل غير وكيع ، وهو أحب إلىٰ سفيان من

ابن مهدي ، وأحب إلي من أبي نعيم ، وما رأيت رجلاً قط أحفظ من وكيع ، ووكيع في زمانه كالأوزاعي في زمانه .

وقال أحمد بن عبد الله : وكيع كوفي ، ثقة ، عابد ، صالح ، من حفاظ الحديث[1] ، وكان يفتي .

وقال ابن عمار : ما رأيت بالكوفة في زمن وكيع أفقه ولا أعلم بالحديث من وكيع ، وكان جهبذاً[2] رضي الله عنه . انتهىٰ [« التهذيب » ٢/ ١٤٤ـ١٤٥] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) روي : أنه ما رئي كتاب بيد وكيع قط ، إنما هو الحفظ ، فسأله رجل عن أدوية الحفظ ، فقال : ترك المعاصي ، ما جربت مثله للحفظ .

(٢) **الجِهبذ** : النَّقَّاد الخبير بغوامض الأشياء .

ومنهم الإمام :

يحيى بن سعيد القطان
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال يحيى بن سعيد : ما كتبت عن سفيان الثوري عن الأعمش أحب إلي مما سمعت من الأعمش .

وقيل ليحيى بن سعيد : رأيتَ أحداً أحسن حديثاً من شعبة ؟ قال : لا ، وقد صحبته عشرين سنة .

وقال يحيىٰ : أخاف أن يضيق على الناس تتبع الألفاظ ؛ لأن القرآن أعظم حرمة ، ووسع أن يُقرأ علىٰ وجوه إذا كان المعنىٰ واحداً[1] .

وذُكر التيمي ـ يعني : سليمان ـ عند يحيى بن سعيد فقال : ما جلست إلىٰ رجل أَخْوَفَ لله عز وجل منه .

وقال يحيىٰ : مات موسى الصغير خلف المقام وهو ساجد .

وقال أحمد ابن حنبل : الثبت عندنا بالعراق ثلاثة : يحيى بن سعيد القطان ، وعبد الرحمٰن بن مهدي ، ووكيع بن الجراح .

وقيل ليحيى بن سعيد في مرض موته : يعافيك الله ، فقال : أَحَبُّه إلي أحبه إلى الله سبحانه وتعالىٰ .

وسمع قارئاً يقرأ قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ، فصعق ، وخر مغشياً عليه ، وارتفع صدره من الأرض ، وما أفاق إلا بعد حين ، فلما أفاق . . جعل يقول : ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ، وما زالت به تلك القرحة حتىٰ مات رحمه الله تعالىٰ .

أسند يحيى بن سعيد عن الأئمة الأعلام . انتهىٰ [« الحلية » ٨/ ٣٨٠ـ٣٨٢] .

---

(١) المراد منه ـ والله أعلم ـ علم القراءات ، وليس المراد منه قراءة القرآن بالمعنىٰ ، فهٰذا مما لا يجيزه أحد من علماء الأمة .

وقال شيخ الإسلام النووي ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ : يحيى بن سعيد البصري القطان الإمام ، من تابعي التابعين ، سمع خلائق ، وروىٰ عنه خلائق ، واتفقوا علىٰ إمامته ، وجلالته ، ووفور عقله وحفظه ، وعلمه ، وصلاحه .

وقال أحمد ابن حنبل : ما رأيت مثل يحيى بن سعيد القطان في كل أحواله .

وقال يحيى بن معين : أقام يحيى ابن القطان عشرين سنة يختم القرآن في كل يوم وليلة ، ولم يفته الزوال في المسجد أربعين سنة ، وما رُئِيَ يطلب جماعة قط ـ يعني : ما فاتته ـ فيحتاج إلىٰ طلبها .

وقال أحمد ابن حنبل : يحيى ابن القطان إليه المنتهىٰ في التثبت بالبصرة ، وهو أثبت من وكيع ، وابن مهدي ، وأبي نعيم ، ويزيد بن هارون .

وقد روىٰ عن خمسين شيخاً ، ممن روىٰ عنهم سفيان ، قال : ولم يكن في زمان يحيىٰ مثله .

وقال أبو زرعة : هو من الثقات الحفاظ .

وقال يحيى بن معين : قال لي ابن مهدي : لا ترىٰ بعينيك مثل يحيى ابن القطان .

وقال ابن منجويه : كان يحيى ابن القطان من سادات أهل زمانه حفظاً ، وورعاً ، وفهماً ، وفضلاً ، ودِيناً ، وعلماً ، وهو الذي مهد لأهل العراق رسم الحديث ، واجتهد في البحث عن الثقات وترك الضعفاء .

وقال بندار : كتب عبد الرحمـٰن بن مهدي عن يحيى ابن القطان ثلاثين ألف حديث وحفظها .

وقال زهير : رأيت يحيى القطان بعد وفاته في النوم ، وعليه قميص مكتوب بين كتفيه : بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، براءة ليحيى بن سعيد من النار .

وقال ابن سعد : توفي يحيى ابن القطان في صفر ، سنة ثمان وتسعين ومئة ، وكان مولده سنة عشرين ومئة ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« التهذيب » ٢/ ١٥٤ـ١٥٥] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

عبد الرحمـٰن بن مهدي
رضي الله عنه

قال الشيخ محي الدين النووي ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ :

عبد الرحمـٰن بن مهدي إمامُ أهل الحديث في عصره ، والمعوَّل عليه في علوم الحديث ومعارفه ، سمع خلائق من الأعلام ، وروىٰ عنه خلائق من الأعلام .

ورُوِّينا عن علي بن المديني أنه قال غير مرة : والله ؛ لو أخذت فحلفت بين الركن والمقام . . لحلفت بالله تعالىٰ أني لم أر قط أعلم بالحديث من عبد الرحمـٰن بن مهدي .

ثم قال ابن المديني : كان ابن مهدي يختم القرآن في كل ليلتين ، فكان ورده في كل ليلة نصف القرآن .

وقال ابن معين : ما رأيت رجلاً في الحديث أثبت من ابن مهدي .

ورُوِّينا عن محمد ابن أبي صفوان قال : سمعت عبد الرحمـٰن بن مهدي يقول : كُتب عني الحديث وأنا في حلقة مالك بن أنس .

ورُوِّينا عن البخاري قال : سمعت علي بن المديني يقول : جاء رجل إلى ابن مهدي ، فقال له : يا أبا سعيد ؛ إنك تقول هـٰذا ضعيف وهـٰذا قوي ، فمن أين لك هـٰذا ؟ وما دليلك عليه ؟ فقال له ابن مهدي : لو أتيت الناقد فأريته دراهم ، فقال : هـٰذا جيد وهـٰذا بهرج[1] . . أكنت تسأله عن دليله في ذلك ، أم كنت تسلم الأمر إليه ؟ قال : بل كنت أسلم الأمر إليه ، فقال ابن مهدي : فهـٰذا كذلك ، هـٰذا بطول المجالسة والمناظرة والمذاكرة والعلم به[2] .

ورُوِّينا عن يحيى بن عبد الرحمـٰن بن مهدي ، قال : كان أبي يحيي الليل كله .

---

(١) بَهْرَج : رديء .

(٢) فهي مَلَكَة أو سر الصنعة كما يقال حالياً عند أرباب المهن المختلفة .

ومناقبه كثيرة مشهورة ، ولد سنة خمس وثلاثين ومئة ، وتوفي سنة ثمان وتسعين ومئة . انتهىٰ [« التهذيب » ١/ ٣٠٤ـ٣٠٥] .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال عبيد الله بن عمر القواريري : أملىٰ عليَّ عبد الرحمٰن بن مهدي عشرين ألف حديث حفظاً .

وقال أحمد ابن حنبل : كأن عبد الرحمٰن بن مهدي خلق للحديث .

وسئل أحمد ابن حنبل عن عبد الرحمٰن بن مهدي وعن يحيى بن سعيد القطان ، أيهما أفقه ؟ فقال : عبد الرحمٰن بن مهدي .

وقال ابن مهدي : ربما كنت أماشي عبد الله بن المبارك ، فأذاكره بالحديث ، فيقول : لا برحت حتىٰ أكتبه .

وقال ابن مهدي : لا يجوز أن يكون الرجل إماماً حتىٰ يعلم ما يصح مما لا يصح ، وحتىٰ لا يحتجَّ بكل شيء ، وحتىٰ يعلم مخارج العلم .

وقال : يحرم على الرجل أن يقول في أمر الدِّين إلا شيئاً سمعه من ثقة .

وقال : كان يقال : إذا لقي الرجل الرجل فوقه في العلم . . كان يوم غنيمته ، وإذا لقي من هو مثله . . دارسه وتعلم منه ، وإذا لقي من هو دونه . . تواضع له وعلَّمه ، ولا يكون إماماً في العلم من يحدث بكل ما سمع ، ولا من يحدث عن كل أحد ، ولا من يحدث بالشاذ من العلم ، والحفظ : الإتقان .

وقال : يحرم على الرجل أن يروي حديثاً في أمر الدِّين حتىٰ يتقنه ويحفظه كالآية من القرآن .

وسئل عن رجل محدِّث ، أثقة هو ؟ فقال : دعه ، لا نريده ، ولا تحدثني عنه ، قيل له : لِمه ؟ قال : تولدت أحاديثه ؛ يعني : زادت .

وذُكر عنده المحدِّثون ، فقال : لهٰذا الأمر قوم .

وقال : العلم كثير ، والعلماء قليل[1] .

وقال : الرجل إلى العلم أحوج منه إلى الأكل والشرب .

---

(١) في نسخة : (كثير) .

وقال : معرفة الحديث إلهام ، قال ابن نمير : صدق ، لو قلت : مِن أين ؟ لم يكن له جواب .

وكان علم عبد الرحمـٰن بن مهدي في الحديث كالسِّحْر .

وقال نعيم بن حماد : قلت لابن مهدي : كيف تعرف صحيح الحديث من سقيمه ؟ قال : كما يعرف الطبيب المجنون .

وقال ابن مهدي : لأن أعرف علة حديث . . أحب إلي من أن أستفيد عشرة أحاديث .

وقال : ما تركت حديث رجل . . إلا دعوت الله عز وجل له ، وأسميه .

وقال زياد بن أيوب : كنا في مجلس هشيم ، فلما قام . . أخذ أحمد ابن حنبل ويحيى بن معين وخلف بن سالم بيد فتىً منا ، فأدخلوه مسجداً وكتبنا عنه ؛ فإذا هو عبد الرحمـٰن بن مهدي .

وقال خالد بن خداش : كنت عند حماد ، فجاء عبد الرحمـٰن بن مهدي ، فقال حماد : هـٰذا من الذين لو أدركهم أيوب . . لأكرمهم .

وقال الحسن بن محمد : أخبرني غير واحد : أنهم كانوا عند حماد بن زيد ، فسئل عن مسألة ، فقال : أين ابن مهدي ؟ مَن لهـٰذا إلا ابن مهدي ؟ فأقبل ابن مهدي ، فسألوه ، فأجاب ، فلما قام . . قال : هـٰذا سيد ـ أو فتىٰ ـ البصرة منذ ثلاثين سنة ، أو نحو هـٰذا .

وقال ابن مهدي : كنا في جنازة فيها عبيد الله بن الحسن العنبري ، وهو يومئذ قاضي البصرة ، وموضعه في قومه وقَدْرُه عند الناس ، فتكلم في شيء ، فأخطأ ، فقلت يومئذ ـ وأنا حدث السن ـ : ليس هـٰكذا يأتي ، عليك بالأثر ، فزبرني[1] الناس ، فقال عبيد الله : دعوه ، كيف هو ؟ فأخبرته ، فقال : صدقت يا غلام ، إذاً أرجع إلىٰ قولك وأنا صاغر .

وضحك رجل في مجلس عبد الرحمـٰن بن مهدي ، فسمعه ، فقال : مَن هـٰذا الذي يضحك ؟ فأعاد مراراً ، فأشاروا إلىٰ رجل ، فأقبل عليه ، وهو يقول له : تطلب العلم وأنت تضحك!! (مرتين) لا حدثتكم شهرين ، فقام الناس وانصرفوا ، قال عبد الرحمـٰن بن عمر : لا أعلم أني رأيت ابن مهدي ضاحكاً شديداً بقهقهة إلا التبسم ، فإن خشي أن يغلبه . . أمسك علىٰ فيه .

---

(١) زبرني الناس : زجروني .

وسأله رجل عن شيء ، فقال : لا أفعل ، فأعاد عليه السؤال ، فقال : قد قلت : لا أفعل ، فقال الرجل : إنك لم تحلف ، فقال : هـٰذا أشد ، لو حلفت . . لكفَّرت .

وقال : فتنة الحديث أشد من فتنة المال والولد ، كم من رجل يُظَن به الخير قد حملته فتنة الحديث على الكذب ؟!

وقال محمد بن المثنىٰ : رأيت في حجر عبد الرحمـٰن بن مهدي كتاباً فيه حديث رجل قد ضَرَب عليه ، فقلت له : يا أبا سعيد ؛ لم ضربت علىٰ حديثه ؟ قال : أخبرني يحيىٰ أنه يرىٰ رأي جهم[1] ، فضربت علىٰ حديثه .

وقال عبد الرحمـٰن بن مهدي : لولا أني أكره أن يعصى الله عز وجل . . لتمنيت ألاَّ يبقىٰ في هـٰذا المصر أحد إلا وقع فيَّ واغتابني ، وأي شيء أهنأ من حسنة يجدها الرجل في صحيفته يوم القيامة لم يعملها ولم يعلم بها ؟!

وقال عبد الرحمـٰن بن عمر : أراد ابن مهدي أن يبيع أرضاً له ، فقال الدلاَّل : قد أُعطِيتُ بالجريب[2] خمسين ومئتي دينار ، ولـٰكن الأرض خراب ، والنخل بادية العروق ، فلو كانت مسمدة . . رجوت أن أبيع الجريب بفضل خمسين ديناراً ، وهـٰذا كثير ، أربعة آلاف دينار تكون مئة ألف درهم ، أذهب أنا وغلامك حتىٰ نسمدها ونبيعها ، ولعلك لا تنظر إليها ولا تراها ، قال : فغضب ، وقال : أربعة آلاف دينار! أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، قال الله تعالىٰ : ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ، لا ، ولا كذا ، أظنه قال : ولا مئة ألف دينار .

وقال ابن مهدي : كنت أجلس يوم الجمعة في الجامع ، فيجلس إلي الناس ، فإذا كانوا كثيراً . . فرحت ، وإذا كانوا قليلاً . . حزنت ، فسألت بشر بن منصور ، فقال : هـٰذا مجلس سوء ، لا تعد إليه ، قال : فما عدت إليه .

وقام يوماً من المجلس وتبعه الناس ، فقال : يا قوم ؛ لا تطؤوا عقبي ، ولا تمشوا خلفي ، ووقف فقال : حدثنا أبو الأشهب عن الحسن قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (إن خفق النعال خلف الأحمق قَلَّ ما يبقي من دِينه) .

وقام ليلة ـ وكان يحيي الليل كله ـ فلما طلع الفجر . . رمىٰ بنفسه على الفراش ، فنام عن

---

(١) **جهم بن صفوان** : مبتدع ، علىٰ رأس الجهمية ، وهي مرجئة الخوارج ، قال أتباعها بالجبر والإرجاء .

(٢) **الجريب** المراد هنا : المزرعة .

صلاة الصبح حتىٰ طلعت الشمس ، فقال : هـٰذا مما جناه عليَّ الفراش ، فجعل علىٰ نفسه ألاَّ ينام علىٰ فراش شهرين .

ولما كانت صبيحة ابنة عبد الرحمـٰن علىٰ زوجها . . خرج عبد الرحمـٰن فأذَّن ، ثم مشىٰ إلىٰ بابهما ، فقال للجارية : قولي لهما يخرجان إلى الصلاة ، فخرجت النساء والجواري ، فقلن : سبحان الله! أي شيء هـٰذا ؟ فقال : لا أبرح حتىٰ يخرجا ، فخرجا بعد ما صلىٰ عبد الرحمن ، فبعث بهما إلىٰ مسجد خارج من الدرب .

وقال : ما خصلة تكون في المؤمن بعد الكفر بالله عز وجل أشد من الكذب ، وهو أصل النفاق الذي بني عليه النفاق .

وسئل : الرجل يتمنى الموت ؟ فقال : ما أرىٰ بذلك بأساً أن يتمنى الرجل ؛ مخافة الفتنة علىٰ دينه ، ولـٰكن لا يتمناه من ضر أو فاقة أو شيء مثل هـٰذا ، قد تمنىٰ أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ومَن دونهما الموت خوف الفتنة .

وكان يقول : وهو مقبل من جنازة عبد الوهاب : إني لأشم ريح فتنة ، وإني لأَدعو الله تعالىٰ أن يسبقني بها .

وكان يقول : كان لي إخوان ، فماتوا ودُفع عنهم شرُّ ما نرىٰ ، وبقينا بعدهم ، وما بقي لي أخ إلا هـٰذا الرجل يحيى بن سعيد ، وما يُغبَط اليوم إلا مؤمن في قبره .

وكان يحج في كل سنة ، فمات أخوه وأوصىٰ إليه ، فقَبِل وصيته ، وأقام علىٰ أيتامه ، وترك الحج .

وقال ابن مهدي : كنت ربما أمرت صاحب الكُربُج[1] أن يعطي السائل درهماً ، فأنسىٰ أن أرده إليه ، فأسهر لذلك .

وقد ابتُليت بهـٰؤلاء الأيتام ، واستقرضت من يحيى بن سعيد أربع مئة دينار ، احتجت إليها في مصلحة أراضيهم وغيرها ، وما أحب أن يخلو مني الموسم ، فكان يجهِّز ويعطي في الحج . انتهىٰ .

أدرك جماعة من التابعين .

فمن روايته عن يحيى بن سعيد : عن سفيان ، عن الأعمش ، عن أبي وائل ، عن

---

(١) الكُرْبُج : الحانوت .

عمرو بن شرحبيل قال : رأيت في المنام قِباباً في رياضٍ ، فقلت : لمَن هـٰذا ؟ فقالوا : لعمارٍ وأصحابه ، ورأيت قباباً في رياض ، فقلت : لمَن هـٰذا ؟ فقالوا : لذي الكلاع وأصحابه ، فقلت : هـٰذا وقد قَتَل بعضهم بعضاً ؟! فقال : إنهم وجدوا الله تعالىٰ واسع المغفرة سبحانه وتعالىٰ . انتهىٰ [« الحلية » ٩/٣ـ٦٢] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو الحسن محمد بن أسلم الطوسي
رضي الله عنه

روى الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : عن إسحاق بن راهويه في حديث يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **إن الله عز وجل لم يكن ليجمع أمة محمد صلى الله عليه وسلم علىٰ ضلالة ، فإذا رأيتم الاختلاف . . فعليكم بالسواد الأعظم** »[1] ، قال رجل : يا أبا يعقوب ؛ مَن السواد الأعظم ؟ قال : محمد بن أسلم وأصحابه ومن تبعه .

ثم قال : سأل رجل عبد الله بن المبارك فقال : يا أبا عبد الرحمٰن ؛ من السواد الأعظم ؟ قال : أبو حمزة السكري .

ثم قال إسحاق في ذلك الزمان : وفي زماننا محمد بن أسلم ومن تبعه .

ثم قال : لو سألتَ الجهال مَن السواد الأعظم . . لقالوا : جماعة المسلمين ، ولا يعلمون أن الجماعة هو عالم مستمسك بأثر النبي صلى الله عليه وسلم وسنته وطريقته ، فمَن كان معه وتبعه . . فهو الجماعة ، ومَن خالفه فيه . . ترَكَ الجماعة .

ثم قال إسحاق : لم أسمع عالماً منذ خمسين سنة كان أشد تمسكاً بسنة النبي صلى الله عليه وسلم وأثره من محمد بن أسلم .

وقال أبو عبد الله[2] : سمعت أبا يعقوب المروزي ببغداد ، وقلت له : قد صحبتَ محمد بن أسلم وأحمد ابن حنبل ، أي الرجلين عندك أرجح وأبصر بالدِّين ؟ فقال : يا أبا عبد الله ؛ لِمَ تقول هـٰذا ؟ إذا ذكرتَ محمد بن أسلم في أربعة أشياء . . فلا تقرن معه أحداً : البصر بالدِّين ، واتباع أثر النبي صلى الله عليه وسلم ، والزهد في الدنيا ، وفصاحة لسانه بالقرآن والنحو ، ثم قال لي : نظر أحمد ابن حنبل في كتاب « الرد على الجهمية » الذي وضعه محمد بن أسلم ، فتعجب منه .

---

(١) أخرجه بنحوه الحاكم (١/ ١٩٩) ، وابن ماجه (٣٩٥٠) .

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن القاسم الطوسي خادم ابن أسلم .

ثم قال : يا أبا يعقوب ؛ رأت عيناك مثل محمد بن أسلم ؟ فقلت : يا أبا عبد الله ؛ رأىٰ محمد في أستاذيه ورجاله مثله ؟ فتفكر ساعة ، ثم قال : لا ، قد رأيتُهم وعرفتهم ، فلم أر فيهم علىٰ صفة محمد بن أسلم .

وقال أبو عبد الله : وسألت يحيى بن يحيىٰ ، وكان يُعَد بعد ابن المبارك بخراسان عن ست مسائل ، فأفتىٰ فيها ، وكنت سمعت أن محمد بن أسلم أفتىٰ فيها بغير ما أفتىٰ به يحيى بن يحيىٰ ، واحتج للمسائل بحديث النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخبرت يحيى بن يحيىٰ ، فقال : يا بني ؛ أطيعوا أمره ، وخذوا بقوله ؛ فإنه أبصر منا ، ألا ترىٰ أنه يَحتج بحديث النبي صلى الله عليه وسلم في كل مسألة ، وليس ذاك عندنا .

قال : وسمعت شيخاً من أهل مرو يكنىٰ بأبي عبد الله قال : صحبت سفيان بن عيينة ووكيعاً ، وكان صديقاً ليحيى بن يحيىٰ وإسحاق بن راهويه ، قال : كنت عند يحيى بن يحيىٰ ، فقال لي : يا أبا عبد الله ؛ قد رأيتَ محمد بن أسلم وصحبت إسحاق بن راهويه ، فأي الرجلين أبصر عندك أو أرجح ؟ فقلت : يا أبا زكرياء ؛ ما لَك إذا ذكرت محمد بن أسلم . . تذكر معه غيره ؟!

وفيه : إنما يَعرِف محمد بن أسلم رجل بصير بالعلم ، قد عرف الحديث ، ينظر في شمائل هـٰذا الرجل فيعلم بأي حديث يعمل ، هـٰذا الرجل اليوم غريب في هـٰذا الخلق ؛ لأنه يعمل بما عمل به النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله تعالىٰ عليهم أجمعين ، وهو عند الناس مُنكَر ؛ لأنهم لم يروا أحداً يعمل به ، فلا يعرفه إلا بصير بالسُّنة ، فقال يحيى بن يحيىٰ : صدقت ، هو كما تقول .

وقال إسحاق بن راهويه : **أما أمر محمد بن أسلم : فأمر سماوي ؛ لأنه كلما أخذ في شيء . . تم له** ، ونحن عبيد بطوننا لا يتم لنا أمر نأخذ فيه ، ونحن عند محمد بن أسلم مثل السُّرَّاق .

وقال أبو عبد الله : كتب إليَّ أحمد بن نصر أن اكتب إلي بحال محمد بن أسلم ؛ فإنه ركن من أركان الإسلام .

وقال : وأخبرني محمد بن مطرف ـ وكان قد رحل إلىٰ صدقة الماوردي[1] ـ قال : قلت

---

(١) في بعض النسخ : (الباوردي) .

لصدقة : ما تقول في رجل يقول : القرآن مخلوق ؟ فقال : لا أدري ، فقلت له : إن محمد بن أسلم قد وضع فيه كتاباً ، فقال : أهو معكم ؟ قلت : نعم ، فقال : عليَّ به ، فأتيته به ، فلما كان من الغد . . قال : ويحكم! كنا نظن أن صاحبكم لم يصل إلىٰ هـٰذه المنزلة والمعرفة بالعلم ، فلما نظرت كتابه . . فإذا هو قد فاق أصحابنا ، قد كنت قبل اليوم لو ضُرِبتُ سوطين . . لقلت القرآن مخلوق ، وأما اليوم : فلو ضربت عنقي . . لم أقل ذلك .

وقال : كنت جالساً عند أحمد بن نصر بنيسابور بعد موت محمد بن أسلم بيوم ، فدخل عليه جماعة من العلماء فيهم أصحاب الحديث وغيرهم من مشايخ وشبان ، فقالوا له : جئناك من عند أبي النضر[1] وهو يقرئك السلام ، ويقول لك : ينبغي لنا أن نجتمع في موضع ، فيعزي بعضنا بعضاً بموت هـٰذا الرجل الذي لم نعرف من عهد عمر بن عبد العزيز رحمه الله رجلاً مثله .

وقيل لأحمد بن نصر : يا أبا عبد الله ؛ صلَّىٰ عليه ألفُ ألفٍ ، وقال بعضهم : ألف ألف ومئة ألف ، يقول صالحهم وطالحهم : لم نر لهـٰذا الرجل نظيراً ، فقال أحمد بن نصر : يا قوم ؛ أصلحوا سرائركم فيما بينكم وبين الله عز وجل ، ألا ترون رجلاً دخل بيته بطوس فأصلح سريرته لله عز وجل ، ثم نقله الله تعالىٰ إلينا ، فصلح علىٰ يديه ألف ألف ومئة ألف .

وقال أبو عبد الله : دخلت علىٰ محمد بن أسلم منزله بنيسابور قبل وفاته بأربعة أيام ، فقال : يا أبا عبد الله ؛ تعال أُبشِّرك بما صنع الله تعالىٰ بأخيك من الخير ، قد نزل بي الموت ، وقد مَنَّ الله تعالىٰ وأنعم عليَّ أنه ليس عندي درهم يحاسبني الله عليه ؛ فإنه سبحانه وتعالىٰ قد علم ضعفي ، وأني لا أطيق الحساب ، فلم يدع عز وجل لي شيئاً يحاسبني عليه ، ثم قال لي : أغلق الباب ، ولا تأذن لأحد عليَّ حتىٰ أموت ، واعلم : أني أخرج من الدنيا وليس أدع سوىٰ كسائي ، ولبدي ، والإناء الذي أتوضأ منه ، وكتبي هـٰذه ، وهـٰذه صرة فيها نحو ثلاثين درهماً لابني ، أهداها إليه قريب له ، ولا أعلم شيئاً أحل منها ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أنت ومالُك لأبيك »[2] ، وقال صلى الله عليه وسلم : « أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وولدُهُ من كسبه »[3] ، فكفنوني منها ، فإن أصبتم بعشرة دراهم

---

(١) في نسخة : أبي نصر .

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٩٩٢) ، وابن حبان في « الإحسان » (٤١٠) .

(٣) أخرجه أبو داوود (٣٥٢٨) ، والنسائي (٤٤٤٩) .

كفناً . . فلا تشتروا بخمسة عشر ، وابسطوا علىٰ جنازتي لبدي وكسائي ، ولا تؤذنوا أحداً بموتي ، وتصدقوا بإنائي ؛ أعطوه مسكيناً .

ثم مات في اليوم الرابع ، فلما أخرجت جنازته . . جعل النساء يقلن مِن فوق السطوح : **يا أيها الناس ؛ هـٰذا هو العالم الذي خرج من الدنيا ، وهـٰذا ميراثه ، ليس مثل علمائنا هـٰؤلاء الذين هم عبيد بطونهم ، يجلس أحدهم للعلم ، فيشتري الضياع ويحصِّل الأموال** ، فتعجبت من ذلك ؛ فإنه قال ذلك بيني وبينه ، ولم يكن عندنا أحد ، فمِن أين عرف الناس أن هـٰذا ميراثه فقط ؟ لـٰكن عالم الخفيات سبحانه وتعالىٰ يظهر أسرار أوليائه .

وقال محمد بن أسلم : كيف ينبغي للعبد أن يكتسب الذنوب وهو يعلم أن الله كان علىٰ كل شيء رقيباً .

وقال أبو عبد الله : صحبت محمد بن أسلم نيفاً وعشرين سَنة ، فلم أره يصلي شيئاً من النوافل بحيث يراه أحد إلا يوم الجمعة ، ولا يسبح ولا يقرأ حيث يراه أحد ، وسمعته يحلف غير مرة : لو قدرت أن أتطوع حيث لا يراني الملكان . . لفعلت .

وكان يدخل بيته وعنده كوز فيه ماء ، فلا أدري ما يصنع ، إلا أني سمعت ابناً له صغيراً يحكي بكاءه ، فنهرته أمه ، فسألت : ما هـٰذا البكاء ؟ فقالت : إن أبا الحسن يدخل هـٰذا البيت يقرأ القرآن ويبكي ، فيسمعه الصغير ، فيحكيه ، وكان إذا خرج . . غسل وجهه واكتحل ، فلا يرىٰ عليه أثر البكاء .

وكان يَصِل قوماً ويعطيهم ويكسوهم ، ويقول للرسول : لا تُعلِمْهم مَن بعث هـٰذا إليهم ، ويأتيهم بالليل أحياناً ويعطيهم ويخفي نفسه غاية الإخفاء ، حتىٰ أن ثيابهم تبلىٰ ، ويفرغ ما عندهم ولا يدرون مَن الذي أعطاهم .

ولا أعلم منذ صحبته أنه وصل أحداً بأقل من مئة درهم ، إلا ألاَّ يمكنه ذلك ، ولقد أكلت عنده ثريداً بارداً ، فقلت له : يا أبا الحسن ؛ ما بال هـٰذا الثريد بارداً ؟ فقال : يا أبا عبد الله ؛ إني إنما طلبت العلم لأعمل به ، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ليس في الحار بركة »[1] ، وكنت أخبز له دقيقاً ، فما نخلت له دقيقاً قط .

وقال : كان يقول لي : اشتر لي شعيراً أسود قد تركه الناس ؛ فإنه يصير إلى الكنيف[2] ،

---

(١) أخرجه بنحوه الحاكم (٤/ ١٣٢) .

(٢) **الكنيف** : أي الحمام .

ولا تشتر إلا قدر كفاية يوم ، وأردت أن أخرج إلىٰ بعض القرىٰ ولا أرجع إلىٰ أربعة أشهر ، فاشتريت له عدل شعير أبيض ونقيته وطحنته ، ثم أتيته به ، فقلت له : إني أريد الخروج إلىٰ بعض القرىٰ ، فاشتريت هـٰذا لتأكل منه حتىٰ أرجع ، فقال لي : نقَّيتَه لي وجَوَّدته ؟ فقلت له : نعم ، قال : فتغير لونه ، وقال : إن كنت نقَّيتَه . . فأطعمه نفسك ، فلعل لك عند الله عز وجل من الأعمال ما يحتمل أن تطعم نفسك النقي ، أما أنا : فقد سرت في الأرض شرقاً وغرباً ، فوالله الذي لا إلـٰه إلا هو ؛ ما رأيت نفساً تصلي إلى القبلة شراً عندي من نفسي ، فبمَ أحتج عند الله عز وجل إن أطعمتها النقي ؟ خذ هـٰذا الطعام ، لا حاجة لي فيه .

وكان يشتري في كل يوم شعيراً أسود رديئاً ، ويقول : إنه إنما يصير إلى الكنيف ، ثم يقول : ويحكم! أنتم لا تعرفون الكنيف ؛ لأنكم لو أبصرتم بقلوبكم . . لعرفتم الكنيف ، لو أن إنساناً يبيع شيئاً فجاءه آخر بدراهم ، وقال : أحب أن تعطيني من جيد ما عندك ؛ لأني أريد أن أضعه في الكنيف . . لكُنْتُم تضحكون منه ، وتقولون : هـٰذا مجنون ، فكيف لا تضحكون من أنفسكم ؟! بطونكم هي الكنيف ، وإلا . . فاحفروا حفرة ، وضعوا فيها طعاماً مدة أيام ، وانظروا هل ينتن في شهر ، وأنتم تضعون الطعام في بطونكم فينتن في يوم وليلة ، فالكنيف هو البطن .

وقال محمد بن أسلم لأبي عبد الله : يا أبا عبد الله ؛ اشتر لي رحىً وشعيراً أسود حتىٰ أطحنه بيدي ؛ لعلِّيْ أبلغ ما كان فيه علي وفاطمة رضوان الله تعالىٰ عليهم أجمعين .

وقال أبو عبد الله : ووُلِد لمحمد بن أسلم ابن ، فدفع إلي دراهم وقال : اشتر كبشين عظيمين ، وغال بهما ؛ فإنه كلما كان أعظم . . كان أفضل ، فاشتريت ، وأعطاني عشرة دراهم وقال : اشتر دقيقاً واخبزه ، فاشتريت ونخلت الدقيق وخبزته ، ثم أتيته به ، فقال لي : أنخلت الدقيق ؟ قلت : نعم ، فقال : خذه لنفسك ، ثم أعطاني عشرة دراهم أخرىٰ ، وقال : اشتر دقيقاً ولا تنخله واخبزه ، ففعلت ذلك ، ولما أتيته به . . قال : يا أبا عبد الله ؛ العقيقة سُنَّة ، ونخل الدقيق بدعة ، ولا ينبغي أن يكون في السُّنَّة بدعة ، فلم أُحبَّ أن يكون ذلك الخبز في بيتي .

ثم قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : كتاب محمد بن أسلم المترجم بـ« الرد على الجهمية » قد اشتمل علىٰ أكثر من جزأين مشحوناً[1] بالآثار المسندة ، وأقوال الصحابة

---

(١) في النسخ : (خزائن مشحونة) والمثبت من « الحلية » (٩/٢٤٨) .

والتابعين ، رضوان الله تعالىٰ عليهم أجمعين .

أدرك محمد بن أسلم من التابعين : الأعمش ، وإسماعيل ابن أبي خالد ، لـٰكنه لم يسمع منهما ، وسمع جمعاً من الأئمة الأعلام من تابعي التابعين ، رضوان الله تعالىٰ عليهم أجمعين . انتهىٰ [« الحلية » ٩/٢٣٨ـ٢٤٨] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

يحيى بن يحيى النيسابوري

رضي الله عنه

قال الشيخ محيي الدين النووي ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه : قال الحسن بن سفيان : كنا إذا رأينا رواية ليحيى بن يحيىٰ[1] عن يزيد بن زريع . . قلنا : ريحانة خراسان عن ريحانة العراق .

وقال إسحاق بن راهويه : مات يحيى بن يحيىٰ وهو إمام أهل الدنيا .

وقال محمد بن أسلم : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام ، فقلت : يا رسول الله ؛ عن مَن أكتب ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « عن يحيى بن يحيىٰ » .

ووصفوه بأنه كان زاهداً ، صالحاً ، خيِّراً ، فاضلاً ، صائناً لنفسه ، حسن الوجه ، طويل اللحية .

روىٰ عنه : إسحاق بن راهويه ، ويحيى بن معين ، ومحمد بن رافع ، ومحمد بن أسلم الطوسي ، ومحمد بن عبد الوهاب ، والبخاري ومسلم في « صحيحيهما » ، وخلائق ، واتفقوا علىٰ توثيقه وجلالته .

وقال ابن راهويه : هو أثبت من عبد الرحمـٰن بن مهدي ، وقال : ما رأيت مثله ، ولا هو رأىٰ مثل نفسه . انتهىٰ [« التهذيب » ٢/١٥٩ـ١٦٠] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : يحيى بن يحيىٰ أحد شيوخ مسلم رحمه الله ، وكان يكنىٰ : أبا زكريا .

---

(١) وجد في هامش نسخة : (انظر ترجمة يحيى بن يحيىٰ صاحب الإمام مالك رحمهما الله ، و هو شيخ البخاري) اهـ

لعل الناسخ أراد ـ والله أعلم ـ أن يبين أن يحيى بن يحيى النيسابوري هو غير يحيى بن يحيى بن كثير ، فالثاني صاحب الإمام مالك ، وهو غير المترجَم له .

وذكر الإمام أحمد ابن حنبل عبد الله بن المبارك ، فأثنىٰ عليه ، ثم قال : ما أخرجت خراسان مثل عبد الله بن المبارك ، ولا بعد ابن المبارك مثل يحيى بن يحيىٰ ، شرب مرَّة دواء فلم يجبه ، فقالت له امرأته : لو قمت وترددت في الدار خطوات لعله يجيب ، فقال لها يحيىٰ : ما أدري ما هـٰذه المشية ، وأنا أحاسب نفسي منذ أربعين سنة ما أمشي إلا علىٰ ما أحتسبه .

وقال الحسن بن علي : كان يحيى بن يحيىٰ يحضر مجلس الإمام مالك رحمه الله ، فانكسر يوماً قلمه ، فناوله المأمون قلماً من ذهب ومقلمة ذهب ، فامتنع من قَبوله لهما ، فقال له المأمون : ما اسمك ؟ فقال : يحيى بن يحيىٰ ، فقال : أتعرفني ؟ قال : نعم ، أنت المأمون بن الرشيد أمير المؤمنين ، قال : فكتب المأمون علىٰ ظهر جزء ، ناولت يحيىٰ قلماً في مجلس مالك فلم يقبله ، ثم إنه لما أَفْضَتِ الخلافة إليه . . بعث إلىٰ عامله بنيسابور أن يفوض القضاء إلىٰ يحيى بن يحيىٰ ، قال : فبعث العامل يستدعيه ، فقال له بعض الحاضرين : إن يحيى بن يحيىٰ يمتنع من الحضور إليك ، وليته يأذن للرسول في الدخول إليه ، ولـٰكن أرسل إليه كتاب أمير المؤمنين ، فأرسل إليه الكتاب ، فلما قرىء عليه . . امتنع وأبىٰ قَبول ذلك ، فلما بلغ العامل . . حضر إليه بنفسه وراجعه ، وهو لا يقبل ، فقال له : إن أمير المؤمنين قد أمرك بشيء ، وأنت من رعيته ، فكيف تأبىٰ عليه ولا تقبل ولايته ؟! فقال يحيى بن يحيىٰ : قل لأمير المؤمنين : ناولتني قلماً وأنا شاب فلم أقبله ، أفتكرهني الآن على القضاء وأنا شيخ ؟ فرفع العامل الخبر إلىٰ المأمون ، فقال : صدق ، قد علمت أنه لا يقبل ، ولـٰكن قل له يختار شخصاً نولِّيه القضاء ، فبعث إليه العامل يخبره بما قال أمير المؤمنين ، فاختار لهم رجلاً وعيَّنه ، فلما ولوه القضاء . . جاء إلىٰ يحيى بن يحيىٰ ليسلم عليه وعليه سواد ، فلما دخل علىٰ يحيى بن يحيىٰ وكان جالساً علىٰ فراش ، فنحىٰ ذلك الفراش ؛ كراهية أن يجمعه وإياه فراش واحد ، فقال له القاضي : أيها الشيخ ؛ ألم تخترني ؟ قال : نعم ، إنما قلت لهم اختاروه ، وما قلت لك تتقلد القضاء .

روىٰ يحيى بن يحيىٰ عن مالك ، والليث ، وغيرهما .

وتوفي يوم الأربعاء ، سلخ صفر ، سنة ست وعشرين ومئتين ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/٧٨ـ٧٩] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

محمد بن إسماعيل البخاري

رضي الله عنه

هو الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَرْدِزْبَةَ[1] الجُعْفيُّ مولاهم ، البخاريُّ ، صاحب « الصحيح » والتصانيف ، جبلٌ في هـٰذا العلم شامخ ، وعالم بالصناعة راسخ ، إمام هـٰذا الشأن ، والمعوَّل عليه وعلىٰ كتابه في سائر الأزمان ، تُستنزَل الرحمة عند ذِكره ، ويستسقى الغيث بقراءة كتابه ، طاف وجال ، ووسع في الطلب المجال .

وقال شيخ شيخنا شيخ الإسلام محيي الدين النووي ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ : رُوِّينا عن الخطيب الحافظ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي قال : بَرْدِزْبَةُ : مجوسي مات عليها ، وابنه أسلم علىٰ يد اليمان البخاري الجعفي والي بخارىٰ ، ويمانٌ هـٰذا : هو أبو عبد الله محمد بن جعفر بن يمان المُسْنَدي ـ بفتح النون ـ شيخ البخاري ، وإنما قيل للبخاري جعفي ؛ لأنه مولىٰ يمانٍ الجعفي وَلاء إسلام .

واتفقوا علىٰ أن البخاري ولد ببخارىٰ بعد صلاة الجمعة لثلاث عشرة خلت من شوال ، سنة أربع وتسعين ومئة ، وتوفي ليلة السبت عند صلاة العشاء ليلة عيد الفطر ، سنة ست وخمسين ومئتين ، ودفن بخرتنك قرية علىٰ فرسخين من سمرقند .

ورُوِّينا من أوجه : عن الحسن بن الحسين البزاز ـ بزايين ـ قال : رأيت محمد بن إسماعيل البخاري نحيف الجسم ، ليس بالطويل ولا بالقصير .

ورُوِّينا عن أبي عبد الله محمد بن يوسف الفِرَبْرِي ـ راوية « صحيح البخاري » ـ قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم ، فقال : « أين تريد ؟ » قلت : أريد محمد بن إسماعيل البخاري ، فقال : « أقرئه مني السلام » .

---

(١) بردزبة بالبخارية ، وبالعربية : الزَّرَّاع .

ورُوِّينا عن الفربري أيضاً قال : رأيت أبا عبد الله البخاري في النوم خلف النبي صلى الله عليه وسلم يمشي ، كلَّما رفع قدمه . . وضع البخاري قدمه في ذلك الموضع .

ورُوِّينا عن أبي عبد الله البخاري أنه قال : المادح والذام عندي سواء .

وقال : أرجو أن ألقى الله تعالىٰ ولا يطالبني أني اغتبت أحداً .

وقال : ما توليت شراء شيء ولا بيعه قط ، قيل له : فمَن كان يشتري لك في الأسفار ؟ قال : كنت أُكفىٰ ذلك .

وعن محمد بن حمدويه قال : سمعت محمد بن إسماعيل البخاري يقول : أحفظ مئة ألف حديث صحيح ، ومئتي ألف حديث غير صحيح .

ورُوِّينا عن أحمد ابن حنبل قال : ما أخرجَت خراسان مثل محمد بن إسماعيل .

وعنه قال : انتهى الحفظ إلىٰ أربعة من أهل خراسان : أبو زرعة الرازي ، ومحمد بن إسماعيل البخاري ، وعبد الله بن عبد الرحمـٰن السمرقندي الدارمي ، والحسن بن شجاع البلخي .

وعن الحافظ أبي علي صالح بن محمد جزرة قال : ما رأيت خراسانياً أفهم من البخاري .

وعنه قال : أعلمهم بالحديث البخاري ، وأحفظهم أبو زرعة ، وهو أكثرهم حديثاً .

وعن محمد بن بشار ـ شيخ البخاري ـ قال : حفاظ الدنيا أربعة : أبو زرعة بالرَّي ، ومسلم بن الحجاج بنَيسابور ، وعبد الله بن عبد الرحمـٰن الدارمي بسمرقند ، ومحمد بن إسماعيل ببخارىٰ .

وعنه قال : ما قدم علينا البصرة مثل البخاري .

وعنه أنه قال حين دخل البخاري البصرة : دخل اليوم سيد الفقهاء .

وفي رواية أخرىٰ عنه : أنه قام إليه وأخذ بيده وعانقه ، وقال : مرحباً بمن أفتخرُ به منذ سنين .

ورُوِّينا عن إسحاق بن أحمد بن خلف قال : سمعت البخاري غير مرة يقول : ما تصاغَرَتْ نفسي عند أحد إلا عند علي بن المديني ، فذُكر لعليٍّ بن المديني قول البخاري هـٰذا ، فقال : ذروا قوله ، هو ما رأىٰ مثل نفسه .

ورُوِّينا عن محمد بن عبد الله بن نمير وأبي بكر ابن أبي شيبة قالا : ما رأينا مثل البخاري .

رُوِّينا عن عمرو بن علي الفلاس قال : حديث لا يعرفه البخاري . . ليس بحديث .

ورُوِّينا عن عَبْدان شيخ البخاري قال : ما رأيت شاباً أبصر من هـٰذا ، وأشار إلى البخاري .

ورُوِّينا عن عبد الله بن محمد المُسْنَدي شيخ البخاري أنه قال : البخاري إمام ، فمَن لم يجعله إماماً . . فاتهمه .

ورُوِّينا عن الإمام أبي محمد عبد الله الدارمي قال : رأيت العلماء بالحرمين والحجاز والشام والعراق ، فما رأيت فيهم أجمع من البخاري .

ورُوِّينا عن أبي سهل محمود بن النضر قال : دخلت البصرة والشام والحجاز والكوفة ، ورأيت العلماء بها ، كلما جرىٰ ذكر البخاري . . فضلوه علىٰ أنفسهم .

ورُوِّينا عن علي بن حُجْر قال : أخرَجَت خراسان ثلاثة : أبا زرعة بالرَّي ، والبخاري ببخارىٰ ، والدارمي بسمرقند ، قال : والبخاري عندهم أعلمهم وأبصرهم وأفهمهم .

ورُوِّينا عن أبي حامد الأعمشي قال : رأيت البخاري في جنازة ، ومحمد بن يحيى الذُّهلي شيخ البخاري وإمام نيسابور يسأله عن الأسماء والكنىٰ وعلل الحديث ، والبخاري يمر فيها مثل السهم ، كأنه يقرأ : (قل هو ٱلله أحد) .

ورُوِّينا عن حاشد ـ بالحاء المهملة ، وكسر الشين المعجمة ـ ابن إسماعيل قال : رأيت إسحاق بن راهويه جالساً على السرير ، ومحمد بن إسماعيل البخاري معه ، فأنكر عليه البخاري شيئاً ، فرجع إسحاق إلىٰ قول محمد بن إسماعيل البخاري .

وقال إسحاق : يا قوم ، يا معشر أصحاب الحديث ؛ اكتبوا عن هـٰذا الشاب ؛ فإنه لو كان في زمن الحسن البصري . . لاحتاج الناس إليه ؛ لمعرفته بالحديث وفهمه .

ورُوِّينا عن أبي عمرو أحمد بن نصر الخفاف قال : حدثني محمد بن إسماعيل البخاري التقي النقي العالم ، الذي لم أر مثله .

ورُوِّينا عن أبي عيسى الترمذي قال : لم أر بالعراق ولا بخراسان في معنى العلل والتاريخ ومعرفة الأسانيد أعلم من البخاري .

ورُوِّينا عن عبد الله بن حماد الآملي[1] ـ وهو شيخ البخاري ـ قال : وددت أني شعرة في صدر محمد بن إسماعيل .

ورُوِّينا عن محمد بن يعقوب الحافظ ، عن أبيه قال : رأيت مسلم بن الحجاج بين يدي البخاري يسأله سؤال الصبي المتعلم .

ورُوِّينا عن مسلم أيضاً أنه قال للبخاري : لا يُبغِضك إلا حاسد ، وأشهد أنه ليس في الدنيا مثلك .

وروى الحاكم أبو عبد الله في « تاريخ نيسابور » بإسناده عن أحمد بن حمدون قال : جاء مسلم بن الحجاج إلى البخاري ، فقبَّل ما بين عينيه ، وقال : دعني أقبِّل رجليك يا أستاذَ الأستاذِين ، وسيِّدَ المحدثين ، ويا طبيب الحديث في عِلَله .

ورُوِّينا عن حاشد بن إسماعيل قال : كان أهل البصرة يَعْدُون خلف البخاري في طلب الحديث وهو شاب فتىٰ ، يغلبوه علىٰ نفسه ، ويجلسوه في بعض الطريق ، ويجتمع عليه ألوف ، أكثرهم ممن يكتب عنه ، وكان البخاري إذ ذاك لم يخرج وجهه .

ورُوِّينا عن أبي بكر الأغر قال : كتبنا عن البخاري علىٰ باب محمد بن يوسف الفريابي وما في وجهه شعرة .

ورُوِّينا عن الحافظ صالح بن محمد جَزَرَة قال : كان البخاري يجلس ببغداد ، وكنت أستملي منه ، ويجتمع في مجلسه أكثر من عشرين ألفاً .

ورُوِّينا عن محمد بن يوسف بن عاصم قال : كان للبخاري ثلاثة مستملين ، واجتمع في مجلسه أكثر من عشرين ألفاً .

ورُوِّينا عن إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة قال : ما رأيت تحت أديم السماء أعلم بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من البخاري .

قال الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسي : وحسبك بإمام الأئمة ابن خزيمة يقول فيه هـٰذا القول مع لُقِيِّه المشايخ والأئمة شرقاً وغرباً .

قال أبو الفضل : ولا عجب فيه ؛ فإن المشايخ قاطبة أجمعوا علىٰ تقدمته ، وقدموه علىٰ أنفسهم في عنفوان شبابه ، وابن خزيمة إنما رآه عند كبره وتفرده في هـٰذا الشأن .

---

(١) في نسخة : (عبد الله بن حماد الآيلي) ولعل الصواب ما أثبت .

ورُوِّينا عن إبراهيم بن محمد بن سلام ـ بتخفيف اللام على الأصح ، وقيل : بتشديدها ـ قال : إن الرُّتُوت من أصحاب الحديث مثل : سعيد ابن أبي مريم المصري ، ونعيم بن حماد ، والحُميدي ، والحجاج بن منهال ، وإسماعيل ابن أبي أويس ، والعدني[1] ، والحسن الخلال ، ومحمد بن ميمون صاحب ابن عيينة ، ومحمد بن العلاء ، وإبراهيم بن المنذر الحزامي ، وإبراهيم بن موسى الفراء ، كلهم كانوا يهابون البخاري ، ويقضون له علىٰ أنفسهم في النظر والمعرفة .

قلت : الرتوت : الرؤساء ، قاله ابن الأعرابي ، وغيره .

وقال الحاكم أبو عبد الله الحافظ في « تاريخ نيسابور » : محمد بن إسماعيل البخاري إمام أهل الحديث بلا خلاف ، أعرفه بين أئمة أهل النقل .

واعلم : أن وصف البخاري بارتفاع المحل والتقدم في هـٰذا العلم على الأماثل والأقران . . متفَق عليه فيما تقدم وتأخر من الأزمان ، ويكفي في فضله أن معظم من أثنىٰ عليه ونشر مناقبه شيوخه الأعلام المبرزون والحذاق المتقنون .

فصل

في الإشارة إلىٰ بعض شيوخه ، والآخذين عنه ، والمنتمين إليه ، والمستفيدين منه

هـٰذا الباب واسع جداً لا يمكن استقصاؤه .

رُوِّينا عن الخطيب البغدادي أنه قال : رحل البخاري إلىٰ سائر محدثي الأمصار ، وكتب بخراسان ، والجبال ، ومدن العراق كلها ، والحجاز ، والشام ، ومصر ، وورد بغداد دفعات ، وروىٰ عن جماعات من الأئمة لا يحصون كثرة .

ورُوِّينا من جهات عن جعفر بن محمد القطان قال : سمعت البخاري يقول : كتبت عن ألف شيخ من العلماء وزيادة ، وليس عندي حديث إلا وأذكر إسناده .

وأما الآخذون عنه : فأكثر من أن يحصروا ، وأشهر من أن يذكروا .

وقد رُوِّينا عن الفربري أنه قال : سمع « الصحيحَ » من البخاري تسعون ألف رجل ، فما بقي منهم أحد يرويه غيري ، وقد روىٰ عنه خلائق غيْر ذلك .

وقد قدَّمنا أنه كان يحضر مجلسه أكثر من عشرين ألفاً يأخذون عنه .

---

(١) **العدني** : محمد بن يحيى بن أبي عمر العدني .

وممن روىٰ عنه من الأئمة الأعلام : الإمام مسلم بن الحجاج صاحب « الصحيح » ، وأبو عيسى الترمذي ، وأبو عبد الرحمٰن النسائي ، وأبو حاتم وأبو زرعة الرازيان ، وأبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق الحربي الإمام ، والحافظ صالح بن محمد جزرة ، وأبو بكر بن خزيمة ، ويحيى بن محمد بن صاعد ، وآخرون من الأئمة الحفاظ .

وقال الخطيب : آخر من حدث ببغداد عن البخاري : الحسين بن إسماعيل المحاملي .

فصل

في اسم « صحيح البخاري » ، وتعريف محله ، وسبب تصنيفه ، وكيفية جمعه ، وتأليفه

أما اسمه : فسماه مؤلفه البخاري : « الجامع المسنَد الصحيح المختصر من أمور سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسننِهِ ، وأيامِهِ » .

وأما محله : فقد قال العلماء : هو أول مصنف صنف في الصحيح المجرد .

واتفق العلماء علىٰ أن أصح الكتب المصنفة « صحيحا البخاري ومسلم » .

واتفق الجمهور علىٰ أن « صحيح البخاري » أصحُّهما صحيحاً ، وأكثرهما فوائد .

وقال الحافظ أبو علي النيسابوري وبعض علماء المغرب : إن « صحيح مسلم » أصح ، وأنكر العلماء ذلك عليهم ، والصواب ترجيح « صحيح البخاري » .

وقد قرر الحافظ الإمام أبو بكر الإسماعيلي في كتابه « المدخل » ترجيح « صحيح البخاري » علىٰ مسلم وذكر دلائله .

وقال النسائي : أجوَد هٰذه الكتب « كتاب البخاري » ، وأجمعت الأمة علىٰ صحة هٰذين الكتابين ، ووجوب العمل بأحاديثهما .

وأما سبب تصنيفه وكيفية تأليفه : فرُوِّينا عن إبراهيم بن معقل النسفي ، قال : قال البخاري : كنت عند إسحاق بن راهويه ، فقال لنا بعض أصحابنا : لو جمعتم كتاباً مختصراً في الصحيح لسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فوقع ذلك في قلبي ، وأخذت في جمع هٰذا الكتاب .

ورُوِّينا من جهات عن البخاري قال : صنفت « كتاب الصحيح » لست عشرة سنة ، خرجته من ست مئة ألف حديث ، وجعلته حجة فيما بيني وبين الله عز وجل .

ورُوِّينا عنه قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام ، فكأني واقف بين يديه

وبيدي مروحة أذب عنه ، فسألت بعض المعبرين ، فقالوا : أنت تذب عنه الكذب ، فهو الذي حملني علىٰ إخراج « الصحيح » .

ورُوِّينا عنه قال : ما أدخلت في « كتاب الجامع » إلا ما صح ، وتركت من الصحاح لحال الطول .

ورُوِّينا عن الفربري قال : قال البخاري : ما وضعت في « كتاب الصحيح » حديثاً . . إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين .

ورُوِّينا عن عبد القدوس بن همام قال : سمعت عدة من المشايخ يقولون : حوَّل[1] البخاري تراجم « جامعه » بين قبر النبي صلى الله عليه وسلم ومنبره ، وكان يصلي لكل ترجمة ركعتين .

وقال آخرون ـ منهم أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسي ـ : صنفه ببخارىٰ ، وقيل : بمكة ، وقيل : بالبصرة ، وكل هـٰذا صحيح ، ومعناه : أنه كان يصنف في كل بلد من هـٰذه البلدان ؛ فإنه بقي في تصنيفه ست عشرة سنة كما سبق .

قال الحاكم : حدثنا أبو عمرو إسماعيل ، حدثنا أبو عبد الله محمد بن علي قال : سمعت البخاري يقول : أقمت بالبصرة خمس سنين ، ومعي كتبي أصنف ، وأحج في كل سنة ، وأرجع من مكة إلى البصرة ، قال البخاري : وأنا أرجو أن يبارك الله تعالىٰ للمسلمين في هـٰذه المصنفات .

وبلغني عن الشيخ أبي زيد المروزي من أصحابنا ـ وهو أجلُّ من روىٰ « صحيح البخاري » ـ عن الفربري قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام ، فقال : « إلىٰ متىٰ تدرس الفقه ولا تدرس كتابي ؟ » ، قلت : وما كتابك يا رسول الله ؟ قال : « جامع محمد بن إسماعيل البخاري » أو كما قال .

فصل

جملة ما في « صحيح البخاري » من الأحاديث المسندة : سبعة آلاف ومئتان وخمسة وسبعون حديثاً بالأحاديث المكررة ، وبحذف المكرر : نحو أربعة آلاف ، وقد ذكرتها مفصلة مختصرة في أول شرح « صحيح البخاري » ، وذكرت فيه جملة من أحوال البخاري

---

(١) حوَّل : أبقاها حولاً .

وورعه وتعظيمه للعلم ، وما يتعلق بـ« صحيحه » من كونه يذكر الحديث الواحد في أبواب ويعيده ، وذكرت فائدة ذلك ، وذكرت فائدة تحديثه عن واحد في موضع ، ثم يروي في موضع آخر عن رجل أو رجلين عنه ، وذكرت فائدة بيان التعليق الذي فيه ، وغير ذلك .

فصل

رُوِّينا عن محمد ابن أبي حاتم ـ وراق البخاري ـ قال : كان البخاري إذا كنت معه . . أراه يقوم في كل ليلة خمس عشرة مرة إلىٰ عشرين مرة ، في كل مرة يأخذ القداحة ، فيوري ناراً بيد ويسرج ، ثم يخرج أحاديث يعلمها ، ثم يضع رأسه ، وكان يصلي في وقت السحر ثلاث عشرة ركعة ، ثم يوتر منها بواحدة ، ورأيته استلقىٰ علىٰ قفاه يوماً ونحن بفِرَبْر في تصنيف كتاب التفسير ، وكان قد أتعب نفسه في ذلك اليوم في كثرة إخراج الحديث ، فقلت له : يا أبا عبد الله ؛ سمعتك تقول : ما أتيت شيئاً بغير علم قط منذ عقلت ، فأي علم في هـٰذا الاستلقاء ؟ فقال : أتعبنا أنفسنا في هـٰذا اليوم ، وهـٰذا ثغر قد خشيت أن يحدث حدث من أمر العدو ، فأحببت أن أستريح وآخذ أهبة ذلك ، فإن غافَصَنا[1] عدوٌّ . . كان بنا حراك ، فهـٰذه الحكاية وإن اشتملت علىٰ نفائس فمقصودي منها التنبيه علىٰ قوله : ما أتيت شيئاً بغير علم ، والله تعالىٰ أعلم . انتهىٰ [« التهذيب » ١/٦٧ـ٧٦] .

وقال شيخ الإسلام تقي الدين بن محمد بن علي القشيري المعروف بابن دقيق العيد في كتابه « شرح الإلمام » : قال الحاكم : سمعت يحيى بن عمرو بن صالح يقول : سمعت أبا العباس محمد بن إبراهيم الفقيه يقول : كتب إليَّ محمد بن إسماعيل البخاري من بغداد :

المسلمـون بخيـر مـا بقيـتَ لهـم ... وليـس بعـدك خيـرٌ حيـن تُفْتَقَـدُ

وقال الحافظ أبو أحمد في كتابه « الأسماء والكنىٰ » : كان البخاري أحد الأئمة في معرفة الحديث وجمعه ، ولو قلت : إني لم أر تصنيفاً يفوق تصنيفه في المبالغة والحسن ، أو لم أسمع بأذني في باب الحديث مثله . . رجوت أن أكون صادقاً في قولي .

ثم قال الشيخ تقي الدين : قلت : روايةُ « صحيح البخاري » من جهة الفربري هي المشهورة شرقاً وغرباً ، وللمَغاربة رواية أخرىٰ من جهة إبراهيم بن معقل النسفي عن البخاري موجودة في فهارسهم ، وغيرها لا أعلمها اليوم في جهة أهل المشرق . انتهىٰ .

---

(١) أي : فاجأنا وأخذنا علىٰ غرة .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال محمد ابن أبي حاتم الوراق ، قلت لأبي عبد الله البخاري : كيف كان بدء أمرك في طلب الحديث ؟ فقال : أُلهِمْتُ حفظ الحديث وأنا في الكُتَّاب ، قلت : وكم كان سِنُّك إذ ذاك ؟ قال : عشر سنين أو أقل ، ثم خرجت من الكُتَّاب ، فكنت أختلف إلى الداخلي وغيره ، فقال يوماً ـ فيما كان يقرأ للناس ـ : سفيان عن أبي الزبير ، عن إبراهيم ، قلت : إن أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم ، فانتهرني ، فقلت له : ارجع إلى الأصل إن كان عندك ، فدخل ، فنظر فيه ، ثم خرج ، فقال : كيف هو يا غلام ؟ قلت : هو الزبير بن عدي ، عن إبراهيم ، فأخذ القلم مني ، وأحكم كتابه ، وقال : صدقت ، فقال له بعض أصحابه : كم كان سِنُّك إذ رددت عليه ؟ فقال : إحدىٰ عشرة سَنة .

وقال البخاري : لما طَعَنتُ في ست عشرة سنة[1] حفظت كتب ابن المبارك ، ووكيع ، ثم خرجت مع أخي وأمي إلىٰ مكة ، فلما حججت . . رجع أخي ، وأقمت بمكة ؛ لطلب الحديث ، فلما بلغت ثمان عشرة سَنة . . جعلت أصنف قضايا الصحابة والتابعين وأقاويلهم ، وصنفت « كتاب التاريخ » عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم في الليالي المقمرة .

وقال محمد بن عبد الرحمن : سمعت أبا عبد الله يقول : كتبت عن أكثر من ألف رجل من أهل العلم .

وحُمل إلى البخاري بضاعة أنفذها إليه ابنه ، فاجتمع إليه بعض التجار ، فطلبوها منه بربح خمسة آلاف درهم ، فقال لهم : انصرفوا الليلة ، فجاءه من الغد تجار آخرون ، فطلبوا منه البضاعة بربح عشرة آلاف درهم ، فقال : إني نويت بيعها للذين أتوا البارحة ، ولا أحب أن أنقض نيتي .

وكان إذا جاء شهر رمضان . . يجتمع إليه أصحابه ، فيصلي بهم ، ويقرأ في كل ركعة عشرين آية ، ويقرأ في السحر ما بين النصف إلى الثلث ، ويختم عند السحر في كل ثلاث ليال ، ويقول : إن عند كل ختمة دعوة مستجابة . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ١١٣ـ١١٤] .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : وفي حفظي أن أبا عبد الله البخاري جاءت جاريته يوماً لتدخل إليه في منزله ، فعثرت علىٰ محبرة بين يديه ، فقال لها : كيف تمشين ؟! فقالت : إذا لم يكن طريق كيف أمشي ؟! فقال لها : اذهبي فقد أعتقتك ، فقيل

---

(١) في النسخ : (لما طعنت في العاشرة) ، وما أثبت من « الصفوة » وكذا في « تهذيب الكمال » (٢٤/ ٤٣٩) .

له : يا أبا عبد الله ؛ قد أغضبتك الجارية ، فقال : إن كانت أغضبتني . . فإني قد أرضيت نفسي بما فعلت .

وكان يقول : خرجت إلىٰ آدم ابن أبي إياس ، فتخلَّفَت عني نفقتي حتىٰ جعلت أتناول الحشيش ولا أخبر بذلك أحداً ، فلما كان ثالث يوم . . أتاني آت لم أعرفه ، فدفع إلي صرة فيها دنانير وقال : أنفق هـٰذه علىٰ نفسك .

وكان البخاري في سَعة من الدنيا ؛ فإنه ورث من أبيه مالاً ، وكان يعطيه لمن يتجر له فيه مقارضة ، وكان أبوه يقول : ما أعلم من مالي درهماً حراماً ، ولا من شبهة . انتهىٰ .

ثم قال النووي ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ : اعلم : أني قد ذكرت أحرفاً من عيون مناقبه وصفاته ودرر شمائله وحالاته ، أشرت إليها إشارات ؛ لكونها من المعروفات الواضحات ، ومناقبه ـ رحمه الله تعالىٰ ـ لا تستقصىٰ ؛ لخروجها عن أن تحصىٰ ، وهي منقسمة إلىٰ حفظ ، ودراية ، واجتهاد في التحصيل ، ورواية ، ونسك ، وعرفان ، وإفادة ، وورع ، وزهادة ، وتحقيق ، وإتقان ، وأحوال ، وكرامات ، وغيرها من أنواع المكرمات ، ويوضح ذلك ما أشرت إليه من أقوال الأئمة الأعلام أولي الفضل والورع والدِّين ، والحفاظ النقاد المتقنين ، الذين لا يجازفون في العبارات ، بل يتأملونها ويحررونها ، ويحافظون علىٰ صيانتها أشد المحافظات ، وأقاويلهم ـ بنحو ما ذكرته ـ غير منحصرة ، وفيما أشرت إليه أبلغ كفاية للتبصرة ، رضي الله عنه وأرضاه ، وجمع بيننا وبينه وبين جميع أحبابنا في دار كرامته مع من اصطفاه ، وجزاه الله تعالىٰ عنا وعن سائر المسلمين أكمل الجزاء ، وحباه الله تعالىٰ من فضله أبلغ الحِباء . انتهىٰ [« التهذيب » ١/٧٦] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو الحسين مسلم بن الحجاج

رضي الله عنه

قال الشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ : أما مسلم رحمه الله : فهو أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري ، أحد الأئمة في هـٰذه الصناعة ، والفائزين بالربح في هـٰذه البضاعة ، قد أعظم الله سبحانه وتعالىٰ به النفع للمسلمين ، ورفع له وللبخاري ذِكراً صالحاً في الغابرين ، وجعل أفئدة في المسلمين بعدهما تهوي إليهما ، وربط علىٰ قلوبهم الوثوق بهما ، والاعتماد عليهما ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

قال أبو علي الحسين بن علي النيسابوري : ما تحت أديم السماء كتاب أصح من كتاب مسلم بن الحجاج .

وقال الحاكم : سمعت أبا عبد الله محمد بن يعقوب غير مرة يقول : إنما أخرجت نيسابور هـٰذه من رجال الحديث ثلاثة : محمد بن يحيىٰ ، ومسلم بن الحجاج ، وإبراهيم ابن أبي طالب[1] .

وقال : حدثنا أبو الفضل محمد بن إبراهيم ، قال : سمعت أحمد بن مسلمة يقول : رأيت أبا زرعة وأبا حاتم يقدمان مسلم بن الحجاج في معرفة الصحيح علىٰ مشايخ عصرهما .

وقال : قرأت بخط أبي عمرو المستملي : أملىٰ علينا إسحاق بن منصور سَنة إحدىٰ وخمسين ومئتين ، ومسلم بن الحجاج يُنتخب عليه ، وأنا المستملي ، فنظر إسحاق بن

---

(١) في نسخة : (يحيى بن يحيىٰ ، ومسلم بن الحجاج ، وإبراهيم ابن أبي طاهر) ، وفي بعض النسخ : (محمد بن يحيىٰ ، ومسلم بن الحجاج ، وإبراهيم بن طاهر) ، وفي « السير » : (١٢/ ٥٦٥ وَ ١٣/ ٥٤٨) ، و« تذكرة الحفاظ » (٢/ ٦٣٨) ، و« تهذيب التهذيب » (١٠/ ١١٤) : (محمد بن يحيىٰ ، ومسلم بن الحجاج ، وإبراهيم ابن أبي طالب) ، ولعل الصواب ما أثبت ، والله أعلم .

منصور إلىٰ مسلم فقال : لن يَعدَم الخيرُ ما أبقاك الله تعالىٰ للمسلمين .

وقال الحاكم : الإمام مسلم حجة في التمييز بين الصحيح والسقيم .

وذكر الحاكم مصنفاته :

ـ كتاب « المسند الكبير على الرجال » ، قال : وما أرىٰ أنه سمعه منه أحد .

ـ كتاب « الجامع الكبير » على الأبواب .

ـ كتاب « الأسامي والكنىٰ »[1] .

ـ كتاب « المسند الصحيح » .

ـ كتاب « التمييز » .

ـ كتاب « العلل » .

ـ كتاب « الوحدان » .

ـ كتاب « الأقران » .

ـ كتاب « سؤالات أحمد ابن حنبل »[2] .

ـ كتاب « الانتفاع بأهب السباع »[3] .

ـ كتاب « عمرو بن شعيب »[4] ، يذكر فيه كل من يحتج بحديثه ، وما الخطأ فيه .

ـ كتاب « مشايخ مالك بن أنس » .

ـ كتاب « مشايخ الثوري » .

ـ كتاب « مشايخ شعبة » .

ـ كتاب « من ليس له إلا راوٍ واحد من رواة الحديث » .

ـ كتاب « المخضرمين » .

ـ كتاب « تفصيل[5] الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

---

(١) ورد اسمه في تذكرة الحفاظ (٢/ ٥٩٠) : « الأسماء والكنىٰ » .

(٢) ورد اسمه في المرجع السابق و« سير أعلام النبلاء » (١٢/ ٥٧٩) : « سؤالاته أحمد ابن حنبل » .

(٣) اسمه في « كشف الظنون » (٢/ ١٣٩٩) : « الانتفاع بجلود السباع » .

(٤) ورد اسمه في « تذكرة الحفاظ » : « حديث عمرو بن شعيب » .

(٥) في بعض النسخ : (تفضيل) .

ـ كتاب « طبقات التابعين » .

ـ كتاب « إفراد السامعين من الرواة لأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم »[1] .

ـ كتاب « المعرفة » .

ـ كتاب « ما أخطأ فيه مَعْمر » انتهىٰ .

وقال الشيخ محيي الدين النووي ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ : هو الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري ـ من بني قشير ، قبيلة من العرب معروفة ـ النيسابوري ، إمام أصحاب الحديث .

سمع : قتيبة بن سعيد ، والقعنبي ، وأحمد ابن حنبل ، ويحيى بن يحيىٰ ، وخلائق من الأئمة وغيرهم .

وروىٰ عنه : الترمذي ، ويحيى بن صاعد ، ومحمد بن مخلد ، وإبراهيم بن محمد بن سفيان الفقيه الزاهد ـ وهو راوية « صحيح مسلم » ـ ومحمد بن إسحاق بن خزيمة ، وخلائق آخرون .

وأجمعوا علىٰ جلالته ، وإمامته ، وعلو مرتبته ، وحذقه في هـٰذا الشأن ، وتقدمه فيه ، وتضلعه منه .

ومن أكبر الدلائل علىٰ جلالته وورعه وحذقه في علوم الحديث : كتابه « الصحيح » ، الذي لم يوجد في كتابٍ قبله ولا بعده مثله ، من حسن الترتيب ، وتلخيص طرق الحديث بغير زيادة ولا نقصان ، والاحتراز في التحويل في الأسانيد عند اتفاقها من غير زيادة ، وتنبيهه علىٰ ما في ألفاظ الرواة من الاختلاف في متن أو إسناد ولو في حرف ، واعتنائه بالتنبيه على الروايات المصرحة بسماع المدلِّسين ، وغير ذلك مما هو معروف في كتابه .

وقد ذكرت في مقدمة شرحي لـ « صحيح مسلم » جُملاً من التنبيه علىٰ هـٰذه الأشياء مبسوطة واضحة ، ثم نبهت علىٰ تلك الدقائق والمحاسن .

وعلى الجملة : فلا نظير لكتابه في هـٰذه الدقائق وصنعة الإسناد ، وهـٰذا عندنا من

---

(١) جاء اسمه في بعض النسخ : (إفراد السامعين من الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم) ، كما جاء اسمه في « تذكرة الحفاظ » (٢/ ٥٩٠) ، و« سير أعلام النبلاء » (١٢/ ٥٧٩) : « أفراد الشاميين » .

المحققات التي لا شك فيها للدلائل الواضحة ، ومع هـٰذا فـ « صحيح البخاري » رحمه الله تعالىٰ أصح وأكثر فوائد ، هـٰذا مذهب جمهور العلماء ، وهو الصحيح المختار ، لـٰكن « كتاب مسلم » في دقائق الأسانيد ونحوها أجود .

وينبغي لكل راغب في علم الحديث أن يعتني به ، ويتفطن إلىٰ تلك الدقائق ، فيرىٰ فيها العجائب من المحاسن ، وإن ضعف عن الاستقلال باستخراجها . . استعان بالشرح المذكور .

وقد ذكرت في مقدمة « شرح مسلم » جُملاً من المهمات التي لا بد للراغب فيه من معرفتها ، مع بيان جملة من أحوال مسلم ، وأحوال رواة الكتاب عنه .

واعلم : أن مسلماً أحد أعلام أئمة هـٰذا الشأن ، وكبار المبرزين فيه ، وأهل الحفظ والإتقان ، والرحالين في طلبه إلىٰ أئمة الأقطار والبلدان ، والمعترف له بالتقدم فيه بلا خلاف عند أهل الحذق والعرفان ، والمرجوع إلىٰ كتابه والمعتمد عليه في كل الأزمان .

روىٰ عنه جماعات في درجته ، منهم : أبو حاتم الرازي ، وموسى بن هارون ، وأحمد بن سلمة ، والترمذي ، وغيرهم .

ومن حقق نظره في « صحيح مسلم » واطلع علىٰ ما أودعه في أسانيده ، وترتيبه ، وحسن سياقه ، وبديع طريقه من نفائس التحقيق ، وجواهر التدقيق ، وأنواع الورع ، والاحتياط ، والتحري في الروايات ، وتلخيص الطرق ، واختصارها ، وضبط متفرقها ، وانتشارها ، وكثرة ٱطلاعه ، واتساع روايته ، وغير ذلك من المحاسن واللطائف الظاهرات والخفيات . . علم أنه إمام لا يلحقه من بعد عصره ، وقَلَّ من يساويه ـ بل يدانيه ـ من أهل دهره .

وقد مَنَّ الله الكريم وله الحمد أجمع بـ « صحيح مسلم » على المسلمين ، وأبقىٰ لمصنفه به ذِكراً جميلاً وثناءً حسناً إلىٰ يوم الدِّين ، مع ما أعد له من الأجر الجزيل في دار القرار .

وقد اقتصرت من أحواله علىٰ هـٰذا القدر ؛ فإن أحواله ومناقبه ومناقب كتابه لا تستقصىٰ ؛ لبعدها عن أن تحصىٰ ، وقد دللت بما ذكرت علىٰ بعض مناقبه وجميل طريقته .

واللهَ الكريمَ أسأل أن يجزل في مثوبته ، ويجمع بيننا وبينه مع أحبابنا في دار كرامته بفضله وجوده ورحمته .

قال الحاكم أبو عبد الله في كتاب « المزكين » : سمعت أبا عبد الله بن الأخرم الحافظ يقول : توفي مسلم بنيسابور عشية الأحد ، ودفن يوم الإثنين لخمس بقين من رجب ، سنة إحدىٰ وستين ومئتين ، وهو ابن خمس وخمسين سنة ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« التهذيب » ٢/ ٨٩ـ٩٢] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو داوود السِّجِسْتاني
رضي الله عنه

قال الشيخ محيي الدين النووي ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ : أبو داوود السِّجِستاني : بكسر السين وفتحها ، والكسر أشهر ، والجيم مكسورة فيهما ، سمع : عبد الله بن سلمة القعنبي ، وأبا الوليد الطيالسي ، وخلائقَ كثيرين .

وروىٰ عنه : الترمذي ، والنسائي ، وأبو عوانة في آخرين ، منهم : أبو علي محمد بن أحمد بن عمرو اللؤلؤي ، ومحمد بن بكر بن عبد الرزاق بن داسة التمار ، وهما اللذان يرويان عنه كتاب « السنن » ، وخلائق غيرهما .

ويقال لأبي داوود : السجستاني ، والسجزي ، وسجز هي سجستان .

واتفق العلماء على الثناء عليه ، ووصفه بالحفظ التام ، والعلم الوافر ، والإتقان ، والورع ، والفهم الثاقب في الحديث وغيره .

ورُوِّينا عن الحافظ أحمد بن محمد بن ياسين الهروي قال : كان أبو داوود أحد حفاظ الإسلام لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلمِهِ وعلله وسنده ، وكان في أعلىٰ درجة من العفاف ، والنسك ، والورع ، وكان من فرسان الحديث .

وقال الحاكم أبو عبد الله : كان أبو داوود إمامَ أهل الحديث في عصره بلا مدافعة ، سمع بمصر ، والحجاز ، والشام ، والعراقين ، وخراسان .

وكتب بخراسان قبل خروجه إلى العراق في هراة ، وكتب ببغداد عن قتيبة ، وبالري عن إبراهيم بن موسىٰ ، إلا أن أعلا إسناده موسى بن إسماعيل ، والقعنبي ، ومسلم بن إبراهيم .

قال علان بن عبد الصمد : كان أبو داوود من فرسان هـٰذا الشأن .

ورُوِّينا عن موسى بن هارون قال : خُلِقَ أبو داوود في الدنيا للحديث ، وفي الآخرة للجنة .

وقال أبو حاتم بن حبان : أبو داوود أحد أئمة الدنيا فقهاً ، وعلماً ، وحفظاً ، ونسكاً ، وورعاً ، وإتقاناً ، جمع وصنف وذبَّ عن السنن .

ورُوِّينا عن أبي عبد الله محمد بن مخلد قال : كان أبو داوود يفي بمذاكرة ألف حديث ، فلما صنف كتاب « السنن » وقرأه على الناس . . صار كتابه لأصحاب الحديث كالمصحف يتبعونه ولا يخالفونه ، وأقر له أهل زمانه بالحفظ والتقدم فيه .

وقال محمد بن صالح الهاشمي : قال لنا أبو داوود : أقمت بطرسوس عشرين سنة ، فكتبت أربعة آلاف حديث ، ثم نظرت ؛ فإذا مدار الأربعة آلاف علىٰ أربعة أحاديث لمن وفقه الله تعالىٰ :

فأولها : « الحلال بيِّن والحرام بيِّن »[1] .

وثانيها : « إنما الأعمال بالنيات »[2] .

وثالثها : « إن الله تعالىٰ طيب لا يقبل إلا طيباً »[3] .

ورابعها : « من حُسنِ إسلام المرء تركه ما لا يعنيه »[4] .

ثم قال النووي ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ : قلت : وقد قيل : مدار الإسلام علىٰ حديث « الدين النصيحة » ، وقيل غير ذلك ، وقد ذكرت ذلك في كتاب « الأربعين » ، والله أعلم . انتهىٰ [« التهذيب » ٢/ ٢٢٤ـ٢٢٦] .

وقال الشيخ تقي الدين ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ : أما أبو داوود : فهو سليمان بن الأشعث بن بشر بن شداد بن عمرو بن عِمْران ، الأزدي ، السجستاني ، الحافظ ، أحد أئمة أهل الشأن ، والعلماء المرجوع إليهم ، المسؤولين عن أحوال الرجال .

ولأبي عبيد الآجري « سؤالات » مفيدة سأله عنها في هـٰذا الفن ، وكان له حظ من علو الإسناد بعد أبي عبد الله البخاري ، وقد شاركه في جماعة لم يشاركه في الرواية عنهم غيره من

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٤٦) ، ومسلم (١٥٩٩) .
(٢) أخرجه البخاري (١) ، ومسلم (١٩٠٧) .
(٣) أخرجه مسلم (١٠١٥) .
(٤) أخرجه ابن حبان في « الإحسان » (٢٢٩) .

أصحاب الكتب الستة ؛ أعني : في الرواية عنهم بدون واسطة ؛ كأبي أيوب سليمان بن حرب الواشحي[1] القاضي ، وأبي عمر حفص بن عمر بن الحارث بن سَخْبَرة النَّمَري البصري المعروف بالحَوْضي ، وأبي العباس حيوة بن شريح بن يزيد الحضرمي الحمصي ، وأبي عثمان سعيد بن سليمان بن نشيط الواسطي سعدويه ، وأبي سلمة موسى بن إسماعيل المنقري ، ونحوهم ممن مات بعد العشرين ومئتين ، وما يقرب من ذلك . انتهىٰ .

وقال النووي ـ قدس الله روحه ـ : قال إبراهيم الحربي : لما صنف أبو داوود هـٰذا الكتاب . . أُلين لأبي داوود الحديث كما أُلين الحديد لداوود عليه الصلاة والسلام ، ونحوه عن محمد بن إسحاق الصغاني .

وروى الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن الدمشقي بإسناده إلى الصولي قال : سمعت أبا يحيىٰ زكريا بن يحيى الساجي يقول : كتاب الله عز وجل أصل الإسلام ، وكتاب « السنن » لأبي داوود عهد الإسلام .

وروي أيضاً من حديث أبي بكر بن داسة قال : سمعنا أبا داوود يقول : كتبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس مئة ألف حديث ، انتخبت منها هـٰذا الكتاب ـ يعني : كتاب « السنن » ـ جمعت فيه أربعة آلاف وثمان مئة حديث ، ذكرت الصحيح وما يشبهه ويقاربه ، ويكفي الإنسان لدِينه من ذلك أربعة أحاديث :

أحدها : قوله صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات » .

والثاني : قوله صلى الله عليه وسلم : « من حُسن إسلام المرء . . تركه ما لا يعنيه » .

والثالث : قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يكون المرء مؤمناً حتىٰ يرضىٰ لأخيه ما يرضىٰ لنفسه » .

والرابع : قوله صلى الله عليه وسلم : « الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبين ذلك أمور مشتبهات . . . » الحديث .

وقال الخطابي : اعلموا رحمكم الله تعالىٰ : أن كتاب « السنن » لأبي داوود كتاب مرتب ، لم يصنَّف في حكم الدين كتاب مثله ، وقد رُزق القَبول من كافة الناس ، فصار حَكَماً بين فرق العلماء وطبقات الفقهاء على اختلاف مذاهبهم ، ولكلٍّ فيه وِرْدٌ ومنه مشرب ،

---

(١) **الواشحي** : نسبة إلىٰ واشح من الأزد .

وعليه معوَّل أهل العراق ، وأهل مصر ، وبلاد المغرب ، وكثير من مدن أقطار الأرض ، فأما أهل خراسان : فقد أُولِع أكثرهم بكتاب محمد بن إسماعيل البخاري ومسلم بن الحجاج ، ومن يجري نحوهما ممن جمع الصحيح علىٰ شرطهما في السبك[1] والانتقاد ، إلا أن كتاب أبي داوود أحسن وضعاً وأكثر فقهاً ، وكتاب أبي عيسىٰ أيضاً كتاب حسن .

وقال الخطابي : سمعت ابن الأعرابي يقول ونحن نسمع منه هـٰذا الكتاب ـ يعني : كتاب « السنن » ، فأشار إلى النسخة وهي بين يديه ـ : لو أن رجلاً لم يكن عنده من العلم إلا المصحف الذي فيه كتاب الله عز وجل ، ثم هـٰذا الكتاب . . لم يحتج معهما إلىٰ شيء .

وقال الخطابي : وهـٰذا كما قال ؛ لأن الله تبارك وتعالىٰ أنزل كتابه تبياناً لكل شيء ، وقال تعالىٰ : ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ ، إلا أن البيان ضربان :

بيان جلي : تناوله القرآن نصاً .

وبيان خفي : تناوله القرآن ضمناً ، وكان تفصيل بيانه موكولاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو معنىٰ قوله تعالىٰ : ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ ، فمَن جمع الكتاب والسنة . . فقد استوفىٰ نوعي البيان .

وقد جمع أبو داوود في كتابه من الحديث في أصول العلم ، وأمهات السنن ، وأحكام الفقه ما لا نعلم متقدماً سبقه إليه ولا متأخراً لحقه فيه .

ثم قال الخطابي : إن المصنفين من علماء الحديث قبل أبي داوود كانوا يذكرون في تصانيفهم قصصاً ومواعظ وآداباً ، وأما السنن المحضة في الأحكام . . فلم يقصد أحد منهم جمعها واستيفاءها ، ولم يقدر علىٰ تلخيصها واختصار مواضعها من أثناء تلك الأحاديث الطويلة كما حصل لأبي داوود ، فلهـٰذا حل كتابه عند أهل الحديث وعلماء الأثر محل العجب ، وضُربت فيه أكباد الإبل ، ودانت إليه الرِّحَل . انتهىٰ [« التهذيب » ٢/٢٢٦ـ٢٢٧] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال محمد بن بكر بن عبد الرزاق : كان لأبي داوود كُمٌّ واسع وكُمٌّ ضيق ، فقيل له في ذلك ، فقال : الواسع للكتب ، والآخر لا نحتاج إليه .

وقال جرير بن عبد الحميد : كان إبراهيم يشبَّه بعلقمة ، وكان منصور يشبَّه بإبراهيم .

وقال غير جرير : كان سفيان يشبَّه بمنصور ، وكان وكيع يشبَّه بسفيان ، وكان أحمد ابن

---

(١) في نسخة : (علىٰ شرطيهما في الشك) .

حنبل يشبَّه بوكيع ، وكان أبو داوود يشبَّه بأحمد ابن حنبل .

وقال أبو داوود : الشهوة الخفية حب الرياسة . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ٤٥] .

ثم قال النووي ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ : رُوِّينا عن الحسن بن محمد بن إبراهيم الرازي[١] قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام ، فقال صلى الله عليه وسلم : « من أراد أن يتمسك بالسنن . . فليقرأ كتاب أبي داوود » .

ومناقب أبي داوود وكتابه مشهورة ، وفيما أشرت إليه كفاية .

ولد أبو داوود سنة اثنتين ومئتين ، وتوفي بالبصرة لأربعَ عشرة بقيت من شوال ، سنة خمس وسبعين ومئتين ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« التهذيب » ٢/ ٢٢٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

وقال الخطابي : حدثني عبد الله بن محمد[٢] المسكي قال : حدثني أبو بكر بن جابر ـ خادم أبي داوود ـ قال : كنت معه ببغداد ، فصلينا المغرب ؛ إذ قُرع الباب ، ففتحته ؛ فإذا خادم يقول : هـٰذا الأمير أبو أحمد الموفق يستأذن ، فدخلت إلىٰ أبي داوود فأخبرته بمكانه ، فأذن له ، فدخل وقعد ، فأقبل عليه أبو داوود وقال له : ما جاء بالأمير في مثل هـٰذا الوقت ؟ فقال : خلال ثلاث ، فقال : وما هي ؟ قال : تنتقل إلى البصرة ، فتتخذها وطناً ؛ لترحل إليك طلبة العلم من أقطار الأرض ، فتُعمَر بك ؛ فإنها قد خربت ، وانقطع عنها الناس ؛ لما جرىٰ عليها من محن الزنج ، فقال : هـٰذه واحدة ، هات الثانية ، قال : وتروي لأولادي كتاب « السنن » ، قال : نعم ؛ هات الثالثة ، قال : وتفرد لهم مجلساً للرواية ؛ فإن أولاد الخلفاء لا يقعدون مع العامة ، قال : أما هـٰذه : فلا سبيل إليها ؛ لأن الناس شريفهم ووضيعهم في العلم سواء ، قال ابن جابر : فكانوا يحضرون بعد ذلك ويقعدون في كُمِّ بيت[٣] ويضرب بينهم وبين الناس ستر ، فيسمعون مع العامة . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) كذا في النسخ ، وفي « التهذيب » : (المحسن بن محمد إبراهيم الواذاري) .

(٢) في بعض النسخ : (عبد الله بن أحمد) .

(٣) **الكم** : مدخل ومخرج اليد من القميص ، ولعل المراد هنا : مدخل الدار والبيت الذي يجعل فيه سماع الحديث .

ومنهم الإمام :

أبو زُرْعَة الرازي
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : أبو زرعة ، اسمه : عبيد الله بن عبد الكريم بن يزيد الرازي ، كان من كبار الأئمة الحفاظ ، وسادات أهل التقوىٰ .

وقال أحمد ابن حنبل : ما جاوز الجسر أحد أحفظ من أبي زرعة .

وعنه أيضاً أنه كان يقول : صح من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع مئة ألف حديث وكسر ، وهـٰذا الفتىٰ ـ يعني : أبا زرعة ـ قد حفظ منها ست مئة ألف حديث .

وقال أبو العباس محمد بن جعفر : سئل أبو زرعة عن رجل حلف بالطلاق أن أبا زرعة يحفظ مئتي ألف حديث ، هل عليه حنث ؟ قال : لا ، ثم قال أبو زرعة : أحفظ مئتي ألف حديث كما يحفظ الإنسان (قل هو ٱلله أحد) وفي المذاكرة ثلاث مئة ألف حديث .

وقال أحمد بن سعيد الدارمي : صلىٰ أبو زرعة في مسجده عشرين سنة بعد قدومه من السفر ، فلما كان في بعض الأيام . . قدم عليه قوم من أصحاب الحديث ، فنظروا ؛ فإذا في المحراب الذي يصلي فيه كتابة ، فسألوه وقالوا : ما تقول في الكتابة في المحاريب ؟ فقال : قد كرهه قوم ممن مضىٰ ، فقالوا : هـٰذا في محرابك كتابة ، أمَا علمت بها ؟ فقال : سبحان الله! رجل يدخل على الله عز وجل ويقف بين يديه جل جلاله ، هل يدري ما قُدَّامَه ؟!

وقال أبو جعفر التُّستَري : حضرنا أبا زرعة عند وفاته ، وكان عنده أبو حاتم ومحمد بن مسلم والمنذر بن شاذان وجماعة من العلماء ، فذكروا حديث التلقين ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « لقنوا موتاكم لا إلـٰه إلا الله »[1] ، فاستحيوا من أبي زرعة ، وهابوا أن يلقنوه ، فقالوا : تعالوا نذكر الحديث .

---

(١) أخرجه مسلم (٩١٦) .

فقال محمد بن مسلم : حدثنا الضحاك بن مخلد عن عبد الحميد بن جعفر ، عن صالح ، ووقف ولم يجاوز .

وقال أبو حاتم : حدثنا بندار ، أخبرنا أبو عاصم ، قال : حدثنا عبد الحميد بن جعفر ، ولم يجاوز .

والباقون سكتوا ، فقال أبو زرعة ـ وهو في النزع ـ : حدثنا بندار ، أخبرنا أبو عاصم ، قال : حدثنا عبد الحميد بن جعفر ، عن صالح بن أبي عَرِيب ، عن كثير بن مرة الحضرمي ، عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله . . دخل الجنة »[1] فتوفي عند قوله : الله .

أسند أبو زرعة عن خلائق كثيرين ، وكان يجالس أحمد ابن حنبل ويذاكره ، وكان أحمد يترك النوافل يوم حضور أبي زرعة عنده ؛ فإنه كان يغتنم وقته معه ويشتغل بمذاكرته كأنه ـ والله أعلم ـ يرىٰ أن الاشتغال بالعلم أفضل من صلاة النافلة .

توفي بالرَّي في آخر يوم من ذي الحجة ، سنة أربع وستين ومئتين .

وقال أبو العباس : رأيت أبا زرعة في المنام ، فقلت له : يا أبا زرعة ؛ ما فعل الله عز وجل بك ؟ فقال : لقيت ربي عز وجل فقال لي : (يا أبا زرعة ؛ إني أوتىٰ بالطفل فآمر به إلى الجنة ، فكيف بمن حفظ السنن علىٰ عبادي ؟ تبوأ من الجنة حيث شئت) . [انتهىٰ « الصفوة » ٤/٥٩ـ٦٠] .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : وفي حفظي من رواية أخرىٰ : أن الله عز وجل قال لأبي زرعة : (يا عبد الله ؛ لِمَ تذرَّعْت القول في عبادي ؟) فقال : يا رب ؛ لأنهم حاولوا[2] دِينك وأنت أعلم ، فقال : (صدقت) ، ثم قال جل جلاله : (ألحقوه بأضرابه ؛ بأبي عبد الله ، وأبي عبد الله ، وأبي عبد الله) ، الأول : سفيان ، والثاني : مالك ، والثالث : أحمد ابن حنبل ، رضي الله عنهم أجمعين .

ولما قدم حمدون البردعي علىٰ أبي زرعة لأجل كتابة الحديث ، فلما دخل داره . . رأىٰ فيها أواني وفرشاً كثيرة ، وكان ذلك لأخيه ، فهَمَّ أن يرجع ولا يكتب عنه ، فلما كان من

---

(١) أخرجه الحاكم (١/٥٠٣) .

(٢) أي : أرادوا التغيير في الدين .

الليل . . رأىٰ كأنه علىٰ شاطىء دجلة ، وكأن ظل شخص في الماء ، فقال له : أأنت الذي زهدت في أبي زرعة ؟ أما علمت أن أحمد ابن حنبل كان من الأبدال ، فلما أن مات أحمد ابن حنبل أبدل الله عز وجل مكانه أبا زرعة رضي الله عنه وأرضاه ؟!

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

إسحاق بن راهويه
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : هو إسحاق[1] بن إبراهيم بن مخلد بن إبراهيم أبو يعقوب الحنظلي ، ويقال له : ابن راهويه[2] ، أحد أئمة الإسلام ، رحل إلى العراق ، والحجاز ، واليمن ، والشام ، وعاد فاستوطن نيسابور .

وقال محمد بن أسلم الطوسي لما مات إسحاق بن راهويه : ما أعلم أحداً كان أخشىٰ لله عز وجل من إسحاق بن راهويه ، وكان من أعلم الناس ، ولو كان الثوري حياً . . لاحتاج إليه في أشياء كثيرة .

وقال الحسن بن عبد الصمد : سمعت إسحاق يقول : أحفظ سبعين ألف حديث ، كلها نصب عيني .

وقال أحمد ابن حنبل وذَكَر إسحاق فقال : لا أعرف لإسحاق في العراق نظيراً .

وقال مرة أخرىٰ : أما إسحاق : فلم يُرَ مثله .

---

(١) جاء في هامش نسخة : (إسحاق بن راهويه ، أبو يعقوب ، المروزي ، الإمام ، الزاهد ، الثقة ، المجتهد ، أمير المؤمنين في الحديث كما قال ابن حنبل رحمه [الله] ، فهو الذي أَحْيا السُّنة بالمشرق ، وما سمع شيئاً . . إلا حفظه ، وما حفظ شيئاً فنسيه ، قال : كأني أنظر إلىٰ مئة ألف حديث في كتبي ، وثلاثين ألف حديث أسوِّدها . « الشهاب على الشفا ») .

(٢) جاء في هامش نسخة : (وراهَوَيْه : لقب أبيه إبراهيم ، لقِّب به لأنه ولد بطريق مكة ، وراه بالفارسية : الطريق ، وهو بالهاء والواو المفتوحتين ، والمثناة التحتية الساكنة ، والهاء المكسورة في المشهور . ويقال [رَاهُوَيَهْ] : بضم الهاء ، وسكون الواو ، وتحتانية مفتوحة ؛ كنَفْطُويَه ، وهو أحب عند المحدثين ، وآخره هاء ، والتاء خطأ ، فما في بعض النسخ من التاء المفتوحة علىٰ أنه ممنوع من الصرف . . خطأ . « نسيم الرياض لشهاب أفندي علىٰ شفاء القاضي عياض » . راهُويَه : بضم هاء ثم فتح ياء وتاء على الصحيح ، وهو مروزي ، عالم خراسان ، روىٰ عنه الجماعة إلا ابن ماجه ، « علي قاري على الشفا » ، وبينهما خلاف في التاء في آخره ، فتنبه) .

وقال مرة ثالثة : لم يعبر الجسر مثل إسحاق .

وقال أبو يحيىٰ : ما رأيت بيد إسحاق كتاباً قط ، ما كان يحدث إلا حفظاً ، وكنت إذا ذاكرته العلم . . وجدته فيه فرداً ، فإذا جئت إلىٰ أمر الدنيا . . وجدته لا رأيَ له فيه .

أسند إسحاق عن جرير بن عبد الحميد ، وإسماعيل ابن عُلَيَّة ، وسفيان بن عيينة ، ووكيع ، في خلائقَ لا يحصون .

توفي بنيسابور ليلة النصف من شعبان ، سنة ثمان وثلاثين ومئتين ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/٧٩] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

يزيد بن هارون الواسطي
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : يزيد بن هارون ، كنيته : أبو خالد ، وهو مولىٰ لبني سليم ، وقيل : أصله من بخارىٰ .

قال علي بن المديني : ما رأيت رجلاً قط أحفظَ من يزيد بن هارون .

وقال أحمد بن سنان : ما رأيت عالماً قط أحسنَ صلاة منه ، يقوم كأنه أسطوانة .

وقال عاصم بن علي : كان يزيد بن هارون إذا صلى العشاء . . لا يزال قائماً يصلي حتى الغداة بوضوء عشاء الآخرة نيفاً وأربعين سنة .

وقال الحسن بن عرفة : رأيته بواسط ، وكان من أحسن الناس عيناً ، ثم رأيته وقد ذهبت عيناه ، فقلت له : يا أبا خالد ؛ ما فعلت العينان الجميلتان ؟ فقال : ذهب بهما بكاء الأسحار .

وقال حويرثة بن محمد : رأيت يزيد بن هارون في المنام بعد موته بأربع ليال ، فقلت له : ما فعل الله تعالىٰ بك ؟ فقال : تقبل مني الحسنات ، وعفا عن السيئات ، ووهب لي التبعات .

فقلت له : وما كان بعد ذلك ؟ فقال : وما ترىٰ يكون من الكريم سبحانه وتعالىٰ ؟ هل يكون منه إلا الكرم ؟ غفر لي ذنوبي ، وأدخلني الجنة .

فقلت : بمَ ذاك ؟ فقال : بمجالس الذِّكر ، وقول الحق ، وصدق الحديث ، وطول قيامي في الصلاة ، وصبري على الحق[1] .

فقلت له : منكر ونكير حق ؟ فقال : إي والله الذي لا إلـه إلا هو ؛ لقد أقعداني وسألاني : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ فجعلت أنفض لحيتي البيضاء من التراب ، وقلت : مِثْلي يُسأل عن هـٰذا وأنا يزيد بن هارون الواسطي ، وكنت في دار الدنيا ستين سنة أُعلِّم الناس ؟! فقال أحدهما للآخر : صدق ، هو يزيد بن هارون ، نم نومة العروس ، فلا

---

(١) في « الصفوة » : (وصبري على الفقر) .

روعة عليك بعد اليوم ، ثم قال لي أحدهما : أكتبت عن حريز بن عثمان[1] ؟ فقلت : نعم ، كان ثقة ، فقال : كان ثقة في الحديث ، ولـٰكنه كان يبغض علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فأبغضه الله عز وجل لذلك .

أسند يزيد بن هارون عن خلائق ، منهم : يحيى بن سعيد ، وغيره .

وكان مولده سنة ثمان عشرة ومئة ، وتوفي سنة ست ومئتين ، رحمه الله . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/ ١٠ـ١١] .

وحكى الحافظ الخطيب البغدادي في « تاريخه » : عن أبي نافع ابن بنت يزيد بن هارون قال : كنت عند أحمد ابن حنبل وعنده رجلان ـ أحسبه قال : شيخان ـ قال : فقال أحدهما : يا أبا عبد الله ؛ رأيت يزيد بن هارون في المنام ، فقلت له : يا أبا خالد ؛ ما فعل الله عز وجل بك ؟ قال : غفر لي ، وشفعني ، وعاتبني .

قال : قلت : غفر لك ، وشفعك ، قد عرفت ، ففيم عاتبك ؟ قال : قال لي : يا يزيد ؛ أتحدِّث عن حريز بن عثمان ؟ قال : قلت : يا رب ؛ ما علمت إلا خيراً .

قال : يا يزيد ؛ إنه كان يبغض أبا حسن علي بن أبي طالب .

قال : وقال الآخر : وأنا رأيت يزيد بن هارون في المنام ، فقلت له : هل أتاك منكر ونكير ؟ قال : إي والله ، وسألاني : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟

قال : فقلت : ألمثلي يُقال هـٰذا وأنا كنت أعلِّم الناس بهـٰذا في دار الدنيا ؟ فقالا لي : صدقت ، فنم نومة العروس لا بؤس عليك .

وفي رواية أخرىٰ قال : قلت : يا أبا خالد ؛ أليس قد مِتَّ ؟ قال : أنا في قبري ، وقبري روضة من رياض الجنة . انتهىٰ [١٤/ ٣٤٧ـ٣٤٨] .

هنيئاً له رضي الله عنه .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) حَريز بن عثمان الحمصي ، حدَّث بالشام وبالعراق ، ويرمىٰ بالنصب ، وقد قال أبو حاتِم : لا يصح عندي ما يقال في رأيه ، ولا أعلم بالشام أحداً أثبت منه ، وقال علي بن عياش : سمعت حريز بن عثمان يقول : والله ؛ ما سببت علياً قط ، والله أعلم . انظر « سير أعلام النبلاء » (٧/ ٨٠ـ٨١) .

ومنهم الإمام :

يونس بن عبيد
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : يونس بن عبيد ، كنيته : أبو عبد الله .

قال زهير : وكان خزازاً ، فجاءه يوماً رجل طلب منه حريراً ، فقال لغلامه : انشر الرزمة ، فنشر الغلام الرزمة وضرب بيده عليها ، وقال : صلى الله علىٰ محمد ، فقال يونس بن عبيد للغلام : ارفع الرزمة وأبىٰ أن يبيع ؛ مخافة أن يكون قد مدح السلعة .

وقال مؤمل بن إسماعيل : قدم رجل من الشام إلىٰ سوق الخزازين ، فقال : أريد مُطْرَفاً[1] بأربع مئة ، فقال يونس بن عبيد : عندنا مُطْرَف ثمنه مئتين ، ثم نادى المؤذن بالصلاة ، فقام يونس وانطلق إلى الصلاة في المسجد ، فلما رجع من الصلاة . . وجد ابن أخيه قد باع ذلك المطرف للشامي بأربع مئة ، فقال له يونس : ما هـٰذه الدراهم ؟ فأخبره أنه قد باع المطرف ، فالتفت يونس إلى المشتري وكان واقفاً لم يذهب بعد ، فقال له : يا عبد الله ؛ هـٰذا المطرف هو المطرف الذي قلت لك إن ثمنه مئتي درهم ، فإن شئت . . خذه وخذ من دراهمك مئتي درهم ، وإن شئت . . فدعه وخذ دراهمك ، فقال له الرجل : بالله مَن أنت ؟ فقال : رجل من المسلمين ، فقال : سألتك بالله ما اسمك ؟ فقال : يونس بن عبيد ، قال : والله ؛ إنا لنكون في نحر العدو[2] وقد اشتد علينا الأمر ، فنقول : **اللهم ؛ رب يونس بن عبيد ؛ فرِّج عنا ، فيفرج عنا ، فقال له يونس : سبحان الله! سبحان الله!**

وقال بشر بن المفضل : جاءت امرأة إلىٰ يونس بن عبيد ومعها مُطْرَف خز ، فدفعته إليه وقصدت بيعه ، فلما نظر إليه . . قال لها : بكم ؟ فقالت : بستين درهماً ، قال : فألقاه إلىٰ جار له ، وقال له : تراه بعشرين ومئة ؟ فقال : أرىٰ ذلك ثمنه أو نحواً من ثمنه ، قال : فقال

---

(١) رداء من خز .

(٢) في نسخة : (والله إنا لنكون في البحر . . .) .

لها : اذهبي فاستأمري أهلك في بيعه بمئة وخمسة وعشرين درهماً ، فقالت : قد أمروني أن أبيعه بستين درهماً ، فقال : ارجعي إليهم ، وأخبريهم الخبر ، ثم استأمريهم في بيعه بمئة وخمسة وعشرين درهماً .

وقال إسماعيل بن عبيد : سمعت يونس بن عبيد يقول : إنهما درهمان ؛ درهم أمسكتَ عنه حتىٰ طاب فأخذتَه ، ودرهم وجب لله عز وجل عليك فيه حق فأديته .

وقال جعفر بن برقان : بلغني عن يونس بن عبيد فضل وصلاح ، فكتبت إليه : يا أخي ؛ بلغني عنك فضل وصلاح ، فأحببت أن أكتب إليك لتكتب إلي ببعض ما أنت عليه ، فكتب إلي : أتاني كتابك تسألني فيه أن أكتب إليك بما أنا عليه ، وأخبرُك أني عرضت علىٰ نفسي أن تحب للناس ما تحب لها ، وأن تكره لهم ما تكره لها ؛ فإذا هي بعيدة من ذلك ، ثم عرضت عليها ترك ذِكرهم إلا من خير ، فوجدت الصوم في الحر الشديد بالبصرة . . أيسر عليها من ترك ذِكرهم ، هـٰذا أمري يا أخي . والسلام .

وقال سلام أو غيره : ما كان يونس بن عبيد بأكثرهم صلاة ولا صياماً ، ولـٰكن ـ والله ـ ما حضر حق من حقوق الله تعالىٰ . . إلا وهو متهيء للقيام به .

وقال إسحاق بن إبراهيم : نظر يونس بن عبيد إلىٰ قدميه عند موته ، فبكىٰ ، فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : قدماي لم يغبرا في سبيل الله عز وجل .

وقال يونس بن عبيد : إنك لتكاد تعرف ورع الرجل في كلامه إذا تكلم .

وقال : البر كله قد يشوبه شيء ، إلا ما كان من حفظ اللسان ؛ فإنه من البر ولا يشوبه شيء ، وذلك لأن الرجل قد يكثر الصلاة والصيام ويفطر على الحرام ، ويقوم الليل وقد يقع له لغو أو شهادة زور ، وإذا حفظ لسانه . . أرجو أن يبر عمله كله .

وقال حماد بن زيد : شكا رجل إلىٰ يونس بن عبيد وجعاً في بطنه ، فقال له : يا عبد الله ؛ إن هـٰذه الدار لا توافقك ، فالتمس داراً توافقك ؛ يعني : الآخرة .

وقال أمية[1] بن بسطام : جاءت امرأة إلىٰ يونس بن عبيد ومعها جبة من خز ، فقالت له : اشتر هـٰذه مني ، فقال : بكم ؟ فقالت : بخمس مئة درهم ، فقال يونس : هي خير من ذلك ، فقالت : بست مئة ، فقال : هي خير من ذلك ، فلم يزل يقول هي خير من ذلك حتىٰ

---

(١) في « النسخ » : (يونس) ، ولعل الصواب ما أثبت ، وهو كذلك في « الصفوة » .

بلغ ألفاً ، فقالت المرأة : أنا كنت قد رضيت بخمس مئة ، فاشتراها منها بألف درهم .

قالوا : وكان يونس بن عبيد يشتري الحرير من البصرة ، ثم يرسل إلىٰ وكيله بالسوس يسأله عن سعر الحرير ، وكان وكيله يكتب إليه بالأخبار من جهة السعر في الحرير ، فإذا كتب إليه وكيله أن المتاع عندهم زائد . . لا يبيع من ذلك الحرير لأحد حتىٰ يخبره أن وكيله كتب إليه أن المتاع بالسوس نقص[1] .

وقال أمية : كان يونس بن عبيد إذا طُلب منه المتاع . . أرسل إلىٰ وكيله بالسوس أن أخبر الناس وأعلمهم أن المتاع قد طُلب .

وقال النضر بن شميل وسعيد بن عامر : ارتفع سعر الحرير في موضع ، وكان من عادة ذلك الموضع إذا غلا فيه الحرير . . غلا بالبصرة ، وكان يونس بن عبيد قد علم ذلك ، فاشترىٰ من رجل حريراً بثلاثين ألفاً ، فلما كان بعد عقد البيع وتسلم المبيع . . قال يونس للبائع : هل كنت قد علمت أن الحرير قد غلا بأرض كذا وكذا ؟ فقال : لا ، ولو علمت . . لم أبع ، فقال : ادفع إلي مالي وخذ مالك ، فردَّ إليه الحرير وأخذ منه ماله .

وقال يونس بن عبيد : لو أصبت درهماً حلالاً من تجارة . . لاشتريت به بُرّاً ، ثم صيرته سويقاً ، ثم سقيته للمرضىٰ .

وقال ابن شوذب : اجتمع يونس بن عبيد وعبد الله بن عون ، فكلاهما قال : ما أرىٰ في شيء درهماً حلالاً .

وقال سليمان بن المغيرة : سمعت يونس بن عبيد يقول : ما أعلم شيئاً أعز من درهم طيِّب ينفقه صاحبه في حق ، أو أخ يُسكن إليه في الإسلام ، وما يزدادان إلا قلة .

وقال هشام بن حسان : ما رأيت أحداً يطلب بالعلم وجه الله عز وجل إلا يونس بن عبيد .

وقال يونس بن عبيد : خصلتان إذا صلحتا من العبد . . صلح ما سواهما : أمر صلاته ، ولسانه .

وقال حماد بن زيد : مرض يونس بن عبيد ، فقال أيوب السختياني : ما في العيش بعدك خير .

---

(١) في نسخة : (زائد) .

ودفع يونس بن عبيد إلىٰ رجل شاة وأمره ببيعها ، وقال له : بعها وبيِّن ما فيها من العيوب ، إنها تبدد العلف ، وتقلع الوتد ، وليكن بيانك قبل البيع .

وقال حماد بن سلمة : سمعت يونس بن عبيد يقول : ما أهَمَّ رجلاً كسبُه . . إلا أهَمَّه أين يضعه .

وقال سعيد بن عامر : قال يونس بن عبيد : مالي إذا ضاعت لي دجاجة أجد لها همّاً ، وتفوتني الصلاة فلا أجد لها همّاً .

وقال يونس : لا يزال العبد بخير ما دام يبصر ما يفسد عليه عمله .

وقال : ما أحد من الناس يكون لسانه منه علىٰ بال . . إلا أورثه ذلك صلاحاً في سائر عمله .

وقال يونس : إني لأعرف مئة خصلة من البر ما فيَّ واحدة منها .

أسند يونس بن عبيد عن أنس .

وروىٰ كثيراً عن الحسن البصري ، وابن سيرين ، وعطاء ، ونظرائهم ، رضوان الله عليهم أجمعين .

وتوفي يونس بن عبيد سنة تسع وثلاثين ومئة ، وقيل غير ذلك . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/١٧٦-١٨٠] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

عبد الله بن عَوْن بن أَرْطَبان
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : قال بكار : ما رأيت ابن عون يمازح أحداً ، وكان مشغولاً بنفسه ، فإذا صلى الغداة . . مكث في مجلسه مستقبل القبلة يذكر الله عز وجل إلىٰ طلوع الشمس ، ثم يقبل علىٰ أصحابه .

وما رأيته شاتماً أحداً ، لا خادماً ولا شاة ولا دجاجة ولا شيئاً .

وما رأيت أحداً أملك للسانه منه ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، وكان طيِّب الريح ، ليِّن الكسوة ، وكان إذا خلا في منزله . . إنما هو التفكر والصمت ، ولا يزيد علىٰ قول : الحمد لله ربنا .

وما رأيته دخل حماماً قط ، وكان يَصِلُ الناس ويعطيهم سراً ، وكان يكره أن يطَّلع أحد علىٰ أعماله من الطاعات .

وقال غير واحد من أصحاب يونس بن عبيد : إن يونس بن عبيد كان يقول : إني لأعرِف رجلاً منذ عشرين سنة يتمنىٰ أن يسلم له يوم من أيام ابن عون . . فلا يقدر علىٰ ذلك .

وقال عبد الرحمـٰن بن مهدي : ما كان بالعراق أحد أعلَمَ بالسُّنة من ابن عون .

وقال خارجة بن مصعب : صحبت ابن عون أربعاً وعشرين سَنة ، فما أعلم أن الملائكة كتبت عليه خطيئة واحدة .

وقال روح بن عبادة : ما رأيت أحداً أعبد من ابن عون .

وقال بكار بن محمد : كان ابن عون لا يغضب ، فإذا أغضبه رجل . . قال له : بارك الله فيك .

وقال ابن عون : لو أن رجلاً انقطع إلىٰ هـٰؤلاء ـ ملوك الدنيا ـ في الدنيا . . لانتفع ، فما

ظنك بمن ينقطع إلىٰ مالك الملوك الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرىٰ سبحانه وتعالىٰ ؟!

ويقال : إن أم ابن عون نادته يوماً ، فأجابها ، فعلا صوتُهُ صوتَها ، فأعتق من أجل ذلك رقبتين .

وقال قرة بن خالد : كنا نتعجب من ورع ابن سيرين ، فأنساناه ورع ابن عون .

وقال أبو عاصم : سألت ابن عون يوماً فقلت له : حدثني بهـٰذا الحديث إن خف عليك ، فقال : لا تقل إن خف عليك ، فقلت له : لِمَ ؟ فقال : قد أُحدثك ولا يخفُّ عليَّ[1] ، فأكره ذلك ؛ لأنه يكون علىٰ خلاف ما سألت .

وكان ابن عون لا يكري دُورَهُ من المسلمين ؛ خشية أن يروعهم عند طلب الأجرة .

وقال ابن عون : لا يصيب العبد حقيقة الرضا حتىٰ يكون رضاه عند الفقر كرضاه عند الغنىٰ ، وإلا . . كيف ترضىٰ قضاءه إذا وافق هواك ، ولا ترضىٰ إذا خالف هواك ، ولا تدري الخير في ماذا ؟! لعله لو وافق هواك . . كان فيه هلاكك ، ما أنصفتَ من نفسك ، ولا أصبت باب الرضا!

وكان لابن عون غلام يعمل له علىٰ جمل يستقي عليه الماء ، فضرب غلامه الجمل يوماً [فذهب بعينه] ، وبلغ ابن عون ذلك ، فطلب الغلام ، فخشي الغلام من سيده وأُرعب ، فلما دخل عليه ورأىٰ ما به من الرعب . . قال له : اذهب فأنت حر لله عز وجل .

وقال محمد بن عيسىٰ : قدم ابن المبارك قَدْمة ، فقيل له : أين تريد ؟ قال : البصرة ، قيل له : فمَن بقي فيها ؟ قال : ابن عون ، نأخذ من أخلاقه ونتأدب بآدابه .

أدرك ابن عون أنساً وصَحِبه ، ويقال : إنه أسند عنه .

وروىٰ عن : الحسن ، وابن سيرين في جماعة آخرين .

وقال بكار : كان ابن عون في مرضه كل من رآه . . يخبر عنه أنه ما رآه يشكو شيئاً من علته حتىٰ مات في رجب سَنة إحدىٰ وخمسين ومئة ، رحمه الله تعالىٰ . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/ ١٨٠ـ١٨٣] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) في نسخة : (ولا يخف عليك) .

ومنهم الإمام :

أبو سليمان عبد الرحمـٰن بن أحمد بن عطية العنبسي الداراني

رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال أحمد ابن أبي الحواري : قال أبو سليمان : مَن أحسن في نهاره . . كُفي في ليله ، ومَن أحسن في ليله . . كُفي في نهاره ، والله عز وجل أكرم من أن يعذب قلباً بشهوة تُركت له .

وقال : لا يصف أحد درجة هو فيها حتىٰ يدعها ويجوزها .

وقال : إذا بلغ العبد غاية الزهد . . أخرجه ذلك إلى التوكل .

وسأله رجل عن أقرب ما يتقرب به العبد إلىٰ ربه سبحانه وتعالىٰ ، فبكىٰ وقال : مِثْلي يُسأل عن هـٰذا ؟! أفضل ما يتقرب به العبد إلىٰ ربه عز وجل : أن يطلع الله تعالىٰ علىٰ قلبك وأنت لا تريد من الدنيا والآخرة شيئاً غيره سبحانه وتعالىٰ .

وقال : كلما ارتفعت منزلة القلب . . كانت العقوبة إليه أسرع ، وإذا أصاب شهوة[1] فندم . . ارتفعت عنه العقوبة ، وإن اغتبط وحدث نفسه بالمعاودة . . دامت عليه العقوبة .

وكان يقول : قد أسكنهم الغرف قبل أن يطيعوه ، وأدخلهم النار قبل أن يَعصوه ، سبحانه وتعالىٰ ، لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون ، قد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحمل الطعام إلى الأصنام ، والله عز وجل يحبه ، وما ضره ذلك عند الله عز وجل ولا طرفة عين .

وقال : القناعة أول الرضا ، والورع أول الزهد .

و[قال] : **لا ينبغي للعاقل أن يعاتب أحداً في زماننا هـٰذا ؛ فإنه إن عاتبه . . أعقبه بأشد مما عاتبه عليه ، بل يدعه بالأمر الأول فهو خير له .**

---

(١) في نسخة : (ذنباً) .

وقال : قد اختلف في الزهد مشايخ العراق ، فقائل : إن الزهد في ترك اللباس ، وقائل : الزهد في ترك الشهوات ، وقائل : في ترك الشبع ، وكلامهم في ذلك قريب ، وأنا أقول : إن الزهد هو أن تترك جميع ما يشغلك عن الله عز وجل .

وقال : ما للرضا حد ، ولا للورع حد ، ولا للزهد حد ، وما أعرف من كل شيء إلا طرفاً .

وقال أحمد : قلت لأبي سليمان : إن ابن داوود قال : ليت الليل أطول مما هو ، فقال : قد أحسن وأساء ، أحسن حيث أنه تمنىٰ طول الليل للطاعة ، وأساء حيث تمنىٰ طول ما قصره الله عز وجل ؛ فإنه إن مضت عنه هـٰذه الليلة . . فله في التي تأتي عوض .

وسئل : من أي وجه أزال العاقل اللائمة عمن أساء إليه ؟ فقال : من جهة كونه علم أن الله عز وجل هو الذي ابتلاه به وسلطه عليه .

وقال أحمد ابن أبي الحواري : قلت لأبي سليمان : لَمْ أوتر البارحة ولَمْ أصلِّ الصبح في جماعة ، فقال : ذلك بما كسبت يداك ، وما ربك بظلام للعبيد ، بشهوة أصبتَها .

وقال أبو سليمان : الدنيا تطلب الهارب منها ، وتهرب من الطالب لها ، فإن أدركت الهارب منها . . جرحته ، وإن أدركها الطالب لها . . قتلته .

وكان يقول : واحزناه على الحزن في دار الدنيا!

وقال : مفتاح الآخرة . . الجوع ، ومفتاح الدنيا الشبع ، وأصل كل خير في الدنيا والآخرة . . الخوف من الله عز وجل .

وقال : كنت أدعو في ليلة باردة ، وخبأت إحدىٰ يدي من البرد ، وبقيت الأخرىٰ ممدودة ، فغلبتني عيناي ، فنمت ، فهتف بي هاتف : يا أبا سليمان ؛ قد وضعنا في هـٰذه ما أصابها ، ولو كانت الأخرىٰ ممدودة . . لوضعنا فيها ما أصابها ، قال : فآليت علىٰ نفسي ألاَّ أدعو إلا ويدي خارجتان[1] حراً وبرداً .

وقال أحمد : قال لي أبو سليمان : يا أحمد ؛ إني محدثك بحديث ، فلا تحدث به حتىٰ أموت ، نمت ليلة عن وردي ؛ فإذا بحوراء تنبهني وتقول : يا أبا سليمان ؛ تنام عني وأنا أربَّىٰ لك في الخدور منذ خمس مئة عام ؟!

---

(١) في نسخة : (ممددتان) .

وكان يقول : إن العيال يضعفون يقين الرجل ؛ لأنه إذا كان وحده فجاع . . صبر ، وإذا كان له عيال . . طلب لهم ، وإذا جاع الطالب . . فقد ضعف اليقين .

وقال : لا ينبغي أن تلبس عباءة بثلاثة دراهم ويكون في قلبك شهوة بخمسة دراهم ، أما يستحيي أحدكم أن تجاوز شهوته لباسه ؟!

قال : وإذا لم يبق في القلب من الشهوات شيء . . جاز له أن يتدرع عباءة بشرط لزوم الطريق ؛ لأن العباءة عَلَمٌ من أعلام الزهد ، ولو أنه ستر زهده بثوبين أبيضين يخلطه بالناس . . لكان أسلم له .

وكان يقول : إذا جاءت الدنيا إلى القلب . . ترحلت الآخرة منه ، وإذا كانت الدنيا في القلب . . لم تجىء الآخرة إليه تزاحمها ؛ لأن الدنيا لئيمة ، والآخرة كريمة .

وقال : شهدت مع أبي الأشهب جنازة بعبادان فسمعته يقول : أوحى الله عز وجل إلىٰ داوود عليه الصلاة والسلام : (يا داوود ؛ حذر أصحابك الدنيا وأنذرهم وازجرهم عن كل الشهوات ؛ فإن القلوب المتعلقة بشهوات الدنيا . . عقولها محجوبة عني) قال أبو سليمان : فجعلت هـٰذا فائدتي ، وكتبته وارتحلت .

وقال : سمعت صالح بن عبد الجليل يقول : **ينظر أهل البصائر إلىٰ ملوك الدنيا بالتصغير لهم والرحمة والشفقة ، وينظر إليهم أهل الدنيا بالتعظيم لهم والغبطة .**

وقال أحمد : قال لي أبو سليمان : كن كوكباً ، فإن لم تكن كوكباً . . فكن قمراً ، فإن لم تكن قمراً . . فشمساً ، فقلت : يا أبا سليمان ؛ القمر أضوأ من الكوكب ، والشمس أضوأ من القمر ، قال : يا أحمد ؛ الكوكب يطلُع من أول الليل إلى انفجار الصبح ، فقم الليل كله ، فإن لم تقدر . . فكن مثل القمر ؛ يطلع بعضاً ويغيب بعضاً ، فإن لم تقدر . . فكن مثل الشمس ؛ إذا لم تقدر علىٰ قيام بعض الليل . . فلا تعصِ ولا تَنَمْ بالنهار .

وكان يقول : إذا فاتك شيء من التطوع . . فاقضه ؛ فإنه أجدر ألاَّ تعود إلىٰ تركه .

وكان يقول : ربما مَثَّلت نفسي وأنا بين جبلين من نار ، وربما رأيتني وأنا أهوي فيها حتىٰ أبلغ قرارها ، فكيف يهنأ بالدنيا من كانت هـٰذه صفته ؟!

وقال : إنما ارتفعوا بالخوف ، وينبغي للعبد ـ وإن بلغ في ظنه أعلىٰ درجة ـ أن يفزع قلبه بأسفل درجة من ذِكر الموت والقبر والبعث وما بعده من الأهوال .

وكان يقول : هانوا عليه فعصوه ، ولو كَرُموا عليه . . لمنعهم منها .

وكان يقول : إذا وصلوا إليه . . لم يرجعوا أبداً ، وإنما رجع من رجع من الطريق .

وكان يقول : احذر صغير الذنوب ؛ فإن صغيرها يجر إلى الكبير منها .

وكان يقول : ربما بقيت متفكراً في آية واحدة خمس ليال ، ثم أرحل إلىٰ غيرها ولم ينقض فكري منها بعدُ ، ولَربما جاءت الآية تطيِّر العقول ، فسبحان من يثبت قلوب عباده وعقولهم عندها ، ويردها[1] إليهم بعد سماعها .

وقال : الرضا عن الله عز وجل والرحمة للخلق . . من درجات المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وقال : ليس العجب ممن لم يجد لذة الطاعة ثم تركها فصبر ، إنما العجب ممن وجد لذتها ثم تركها ، كيف يصبر عنها ؟!

وقال : مَن عرف الدنيا . . عرف الآخرة ، ومن لم يعرف الدنيا . . لم يعرف الآخرة ، قال أحمد ابن أبي الحواري : يعني بذلك الزهد .

وقال أحمد : قلت لأبي سليمان : إن فلاناً وفلاناً لا يقعان في قلبي ، فقال : ولا علىٰ قلبي ، ولـٰكن ـ يا أحمد ـ لعلنا إنما أُتينا من قِبَل قلبي وقلبك ؛ لأنه ليس فينا خير ، ولا نحب الصالحين .

وقال أحمد : قلت له : تبيت الليلة عندنا ، قال : ما أجيبكم ، تشغلوني بالنهار ، وتريدون أن تشغلوني بالليل ، فقلت له : إني أغبط بني إسرائيل ، فقال : ويحك! بأي شيء ؟ قلت : بثمان مئة سَنة ، بأربع مئة سنة ، حتىٰ يصيروا كالشنان البالية ، فقال : ظننت أنك جئت بشيء ، لا والله ؛ ما يريد الله سبحانه وتعالىٰ منا أن تجف جلودنا علىٰ عظامنا ، ولا يريد منا إلا صدق النية فيما عنده ، هـٰذا إذا صدق في عشرة أيام . . نال ما نال ذلك في عمره كله .

وكان يقول : كيف يعجب العاقل بعمله ، وإنما عمله عطية من الله عز وجل ونعمة منه عليه ، يجب عليه الشكر فيها ولا يقدر أن يقوم به أبداً ؛ لأن في التوفيق للشكر نعمة يجب لها الشكر ، وهـٰكذا أبداً ، ويؤدي هـٰذا إلىٰ ما لا نهاية له ، فسبحان من نعمه لا تعد ولا تحصىٰ!

---

(١) في النسخ : (يرده) ، ولعل الصواب ما أثبت .

وقال : أرجو أن أكون قد رزقت من الرضا طريقاً ؛ فإنه تعالىٰ لو أدخلني النار . . لكنت بذلك راضياً .

قال أحمد ابن أبي الحواري : رأيت أبا سليمان وهو محرم ، فلما أراد أن يلبي . . غشي عليه ، فلما أفاق . . قال : يا أحمد ؛ بلغني أن الرجل إذا حج من غير حله فقال : لبيك اللهم لبيك . . قال له الرب تبارك وتعالىٰ : لا لبيك ولا سعديك حتىٰ ترُدَّ ما في يديك ، فما يؤَمِّنُني أن يقال لي هـٰذا ؟ ثم لبىٰ .

وقال : **كيف تأمرون الناس بترك الدينار والدرهم وأنتم إن قدرتم عليها . . أخذتموها ؟ فلذلك لا تنجع[1] موعظتكم** .

وقال : لو لم يكن لأهل المعرفة إلا هـٰذه الآية الكريمة . . لاكتفوا بها وافتخروا بها كل الفخار ؛ قوله تعالىٰ : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ ، وأي شيء أراد أهل المعرفة ؟ واللهِ ؛ ما أرادوا إلا رؤياه سبحانه وتعالىٰ .

وكان يقول : كل ما شغلك عن الله عز وجل من أهل أو مال أو ولد . . فهو عليك مشؤوم ، قال أحمد ابن أبي الحواري : فحدثت به مروان بن محمد ، فقال : والله الذي لا إلـٰه إلا هو ؛ لقد صدق .

وقال أبو سليمان : قال لقمان لابنه : يا بني ؛ لا تدخل في الدنيا دخولاً يضر بآخرتك ، ولا تتركها تركاً يضر بك ؛ لأنك تصير كَلاًّ[2] على الناس .

وكان يقول : ليس العبادة أن تَصُفَّ قدميك وغيرك يفتُّ لك ، ولـٰكن العبادة أن تبدأ برغيفيك ، فتحرزهما ، ثم تتعبد .

وقال : لا خير في قلب يتوقع قرع الباب ؛ يعني : يتوقع عطية الناس .

وكان يقول : إذا ذكرت الخطيئة . . لم أختر أن أموت ، أقول : لعلِّي أبقىٰ فأتوب .

وقال أحمد : قلت لأبي سليمان : أيجوز للرجل أن يقول : اللهم ؛ اجعلني صدِّيقاً ؟ فقال : إن عرف من نفسه أن فيه من خصالهم شيئاً ، وإلا . . فلا يتعدَّ ؛ فإن من الدعاء ما يكون تعدياً .

---

(١) **لا تنجع** : لا تنفع ولا تؤثر .
(٢) **كلاًّ** : عالةً .

وقال أبو سليمان : ما رأيت صوفياً فيه خير قط إلا رجلاً واحداً ، هو : عبد الله بن مرزوق ، قال : وأنا أرق لهم .

وقيل لأبي سليمان : طوبىٰ للزاهدين ، فقال أبو سليمان : طوبىٰ للعارفين .

وسئل عن رجل يتعبد ، ثم يترك العبادة ، ثم يرجع إليها ، فقال : ليس يبلغ ما كان فيه أبداً إلا أن يشاء الله تعالىٰ ؛ لأنه لما دخلها أولاً . . كان معه آلة من الخوف ، فلما تركها . . زال ، فلما عاد إليها . . لم يرجع إليه ذلك الخوف .

وقيل له : ما تقول في رجل يصيب من الشهوات ؛ هل يجد لذة العبادة أو حلاوة العبادة ؟ فقال : ما أعرفه بوجه ، ولٰكن الله عز وجل يفعل ما يشاء .

وقال : **من أكل من طعام ليَسُرَّ أخاه . . لم يضرَّه أكله** .

وقال : إن استطعت ألاَّ تُعرف بشيء ولا يشار إليك بشيء . . فافعل .

وقال : إذا فُتح لك باب من الطاعة . . فالزمه .

وقال : الزاهد حقاً لا يذم الدنيا ، ولا يمدحها ، ولا ينظر إليها ، ولا يفرح بها إذا أقبلت ، ولا يحزن عليها إذا أدبرت .

وقال : إن جلساء الرحمٰن سبحانه وتعالىٰ من كان فيه هٰذه الخصال : الكرم ، والحلم ، والعلم ، والحكمة ، والرحمة ، والرأفة ، والفضل ، والصفح ، والإحسان ، والعطف ، والبر ، واللطف .

وقال : دواء العجب بالأعمال . . قلة الخلطاء ، ودواء رقة القلب . . مجالسة أهل الخوف ، ودواء نور القلب . . مداومة الحزن ، واستجلابُ الحزن بدوام الفكرة في الخلوات .

وقال : أقمت عشرين سَنة لم أحتلم ، فدخلت مكة ، فأحدثت بها حدثاً ، فاحتلمت ، قيل : فأي شيء كان ذلك الحدث ؟ قال : لم أُصل عشاء الآخرة في المسجد الحرام مع الجماعة .

وقال أحمد : كان الذِّكر يغلب علىٰ أبي سليمان ، فإذا قام . . غشي عليه .

وقال أبو سليمان : إني لأمرض ، فأعرف سبب ذلك ، وأصابني مرة مرض لم أعرف له سبباً ، قال : فجئت إلىٰ أختي ، فقلت لها : هل دعوت الله عز وجل عليَّ أن أمرض حتىٰ

لا أحج ؟ فقالت : نعم ، فقلت لها : لو لم أقدر إلا أني أعترض على الحمار . . لا أترك الحج .

قال أحمد : وخرج إلى الحج في ذلك العام .

وكان يقول : ضِحْكُ العارف التبسم .

وقال : الدنيا بغيضة الله عز وجل من خلقه ، لم ينظر إليها من يوم خلقها ، ولا ينظر إليها إلىٰ يوم القيامة ، فإذا كان يوم القيامة . . قال الله عز وجل : (خذوا منها ما كان لي ، وألقوا ما سوىٰ ذلك في النار) ، قال أحمد : فقلت له : لا ينظر إليها بعين الرحمة ، قال : فسكت .

وقال : ليس يفلح قلب يهتم بجمع القراريط[1] .

وقال : إذا وجد العبد طعم الدنيا ثم تركها . . فإنه لا يغتر بها ولا يرجع إليها ، وإن تركها قبل أن يجد طعمها . . لا آمن عليه إذا وجد طعمها أن يرجع إليها .

وكان يقول : ربما وُصِف لي الرجلان ولم أرهما ، يقع علىٰ قلبي أحدهما ولا يقع الآخر .

وكان يقول : لو عمل الرجل إذا عرف كما كان يعمل قبل أن يعرف . . لمشىٰ في الهواء ، والعارف إذا صلىٰ ركعتين . . لا ينصرف عنهما حتىٰ يجد طعمهما .

وقال أحمد : سمعت أبا سليمان يقول : ما أحسب عملاً لا يوجد له لذة في الدنيا يكون له في الآخرة ثواب .

وقال أحمد : خرجت مع أبي سليمان ، فمررنا علىٰ زرع ، وإذا طائران يلتقطان الحب ، فلما شبعا . . أراد الذَّكَرُ الأنثىٰ ، فقال لي : يا أحمد ؛ انظر فيما كانا ، فلما شبعا . . دعته بطنه إلىٰ ما ترىٰ .

وقال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قوله تعالىٰ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ قال : أذهب عنها الشهوات .

وقال أبو سليمان : خرج عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام يمشيان ، فصدم يحيى امرأة ، فقال له عيسىٰ : يابن الخالة ؛ لقد أصبت اليوم خطيئة ،

---

(١) **القراريط** : أجزاء الدنانير .

فقال : وما هي ؟ قال : إنك صدمت امرأة ، فقال : والله ؛ ما شعرت بها ، فقال : سبحان الله! فأين قلبك ؟ فقال : معلق بالعرش ، ولو أن قلبي أطمأن إلىٰ جبريل عليه السلام . . لظننت أني ما عرفت الله عز وجل طرفة عين .

وقال أبو سليمان : لو مر المطيعون في الطرقات ووجدوا المعاصي مطروحة على الطرقات . . ما التفتوا ولا نظروا إليها . انتهىٰ [« الحلية » ٩/ ٢٥٥ـ٢٦٩] .

وقال الأستاذ أبو القاسم النيسابوري القشيري في « رسالته » : قال أبو سليمان الداراني : اختلفت إلىٰ مجلس قاصٍّ ، فلما سمعت كلامه . . أثر في قلبي ، فلما قمت من مجلسه . . لم يبق في قلبي منه شيء ، فعدت ثانياً إلىٰ مجلسه ، فأثر كلامه في قلبي إلىٰ أن صرت في بعض الطريق ، ثم زال ، فعدت بالثالثة ، فبقي أثر كلامه في قلبي إلىٰ أن وصلت إلىٰ منزلي ، فكسرت آلات المخالفة ولزمت الطريق ، قيل : فبلغت هـٰذه الحكاية يحيى بن معاذ فقال : عصفور اصطاد كركياً ، يعني بالعصفور القاص والكركي أبا سليمان . انتهىٰ [« الرسالة » ٧٨] .

ثم قال الحافظ : قال أبو سليمان : إن الله سبحانه وتعالىٰ يعرض يوم القيامة على ابن آدم عمره كله ساعة ساعة ، يقول : يابن آدم ؛ أتت عليك ساعة كذا كنتَ تطيعني فيها ، وساعة كذا كنتَ تعصيني فيها ، وساعة كذا كنت تذكرني فيها ، وساعة كذا كنت غافلاً فيها .

وقال أحمد : قلت لأبي سليمان : أيكون في القلوب من يثاب على الطاعة قبل أن يدخل فيها ؟ قال : ويحك يا أحمد! وأين القلب الذي يثاب قبل أن يطيع ؟! ذاك يعاقب قبل أن يعصي ؟

وقال : ما في الأرض أحب إليَّ من أن أُكفَى المؤونة ؛ لكي لا أحتاج إلىٰ أحد .

وكان يقول : ربما حدثني الرجل حديثاً وأنا أعلم به منه ، فأُنصت له كأني ما سمعته ، وربما مشيت إلى الرجل وهو أولىٰ بالمشي مني إليه ، ولقد كنت أنظر إلى الأخ من إخواني ، فما يفارق كفي كفه حتىٰ أجد طعم ذاك في قلبي .

وقال : **من عمل شيئاً من أنواع الخير بلا نية . . أجزأته النية الأولىٰ حين اختار الإسلام ؛ لأن هـٰذا العمل من سنن الإسلام** .

وقال لأحمد : لِترك الشهوات ثواب ، وللمداومة ثواب ، وإنما أنا وأنت ممن يقوم ليلة وينام ليلتين ، ويصوم يوماً ويفطر يومين ، وليس تستنير القلوب علىٰ هـٰذا .

وقال : كم بين من هو في صلاته لا يحس أو لا يشعر مَن مر به وبين آخر يتوقع خفق النعال متىٰ تجيء ؟! مَن ينظر إليه ؟!

وقيل له : بأي شيء تُنال معرفته عز وجل ؟ قال : بطاعته تبارك وتعالىٰ ، قيل : فبأي شيء تُنال طاعته ؟ قال : به سبحانه وتعالىٰ .

وقال : مَن حَسُن ظنه بالله عز وجل . . فقد فُتح عليه باب الرحمة .

وقال : سمعت أبا جعفر المنصور يبكي في خطبته ، قال : فأشغلني الغضب ، وحضرتني نية في أن أقوم إليه فأكلمه بما سمعت من كلامه وبما أعرف من فعله إذا نزل ، قال : ثم تفكرت في أني أريد أن أقوم إلىٰ خليفة ، فأعظه والناس جلوس ، فيرمقوني بأبصارهم ، فيتداخلني التزين ، فيأمر بي فيقتلني ، فأُقتل علىٰ غير تصحيح ، قال : فجلست وسكتُّ .

وقال : إنما يُغضب علىٰ أهل المعاصي عندما يُنظر إليهم وهم يعصون ، أما لو تفكرت فيما يصيرون إليه من عقوبة الله عز وجل . . لدخلت الرحمة لهم في قلبك .

وقال : إن في خلق الله سبحانه وتعالىٰ من لو ذَمَّ لهم الجِنان . . ما اشتاقوا إليها ، فكيف يحبون الدنيا وهو سبحانه وتعالىٰ قد زهَّدهم فيها ؟ قال أحمد : فحدثت به ابنه سليمان ، فقال : قال لك : لو ذمها ؟ قلت : كذا قال أبوك ، قال : والله ؛ لقد شوقهم إليها فما اشتاقوا ، فكيف لو ذمها ؟

وقال : ليس الزاهد من ألقىٰ غم الدنيا واستراح فيها ، إنما الزاهد من ألقىٰ غمها وتعب فيها للآخرة .

وقال : لو اجتمع الناس كلهم علىٰ أن يضعوني كاتِّضاعي عند نفسي . . لَما قدروا علىٰ ذلك .

وقال : من صارع الدنيا . . صرعته .

وكان يقول : اللهم ؛ كُلُّ ما يبعدني عنك . . فأذهبه عني يا أرحم الراحمين .

وقيل لأبي سليمان : يكون الرجل بإفريقية والآخر بسمرقند ، وهما أَخوان ؟ فقال : نعم ، فقلت : كيف ؟ فقال : تكون نيته متىٰ لقيه . . واساه ، فإذا كانت نيته كذلك . . فهو أخوه .

وقال : الورع من الزهد بمنزلة القناعة من الرضا ، هٰذا أوله وهٰذا أوله .

وقال : أهل الزهد علىٰ طبقتين : منهم من يزهد في الدنيا ، فلا يفتح له فيها روح الآخرة ، ومنهم من إذا زهد فيها . . فتح له فيها روح الآخرة ، فليس شيء أحب إليه من البقاء ليطيع .

وقال : لو لم يكن في قلة ترك الأكل شيء إلا قلة دخول الخلاء . . لكفىٰ .

وقال لي : لأَن أترك لقمة واحدة من عشائي . . أحب إلي من أن آكلها وأقوم من أول الليل إلىٰ آخره .

وقال : ما علىٰ ظهر الأرض شيء أشتهيه .

وقال : الثياب ثلاثة : ثوب لله عز وجل ، وثوب لنفسك ، وثوب للناس ، وهو شر الثلاثة .

فما كان لله سبحانه وتعالىٰ . . فهو أن تجد بثلاثين فتتركه وتشتري بعشرين وتقدم عشرة .

وما كان لنفسك . . فهو أن تريد لِينه علىٰ جسدك .

وما كان للناس . . فهو أن تريد حسنه ، وقد يجتمع في الثوب الواحد لله ولنفسك .

وقال : أهل الطاعة في ليلهم . . أشد لذة من أهل اللهو في لهوهم ، ولولا الليل . . ما أحببت البقاء في الدنيا .

وقال : لو لم يبك العاقل فيما بقي من عمره إلا علىٰ لذة ما فاته من الطاعة فيما مضىٰ . . لكان ينبغي له أن يبكي حتىٰ يموت .

وقال : ليس العَجَب ممن لم يجد لذة الطاعة كيف تركها ، إنما العجب ممن وجد لذة الطاعة ثم تركها ، كيف صبر عنها ؟!

وقال : يجوز لباس الصوف لمن يريد بلبسه بقاءه ، ويجوز لباسه في السفر ، ومَن لبسه في الدِّين . . فلا يلبسه .

وقال : إن استطعت ألاَّ تلبس لباساً إلا وتريد دونه ويطلع الله عز وجل علىٰ قلبك أن مرادك دونه . . فافعل .

وقال : مَن سالت مِن عينيه قطرة ـ دمعة ـ يوم جمعة قبل الرواح . . أوحى الله تعالىٰ إلىٰ ملك الشمال : (اطو صحيفة عبدي ، فلا تكتب عليه خطيئة إلىٰ مثلها من الجمعة

الأخرىٰ) ، قال أبو سليمان : فلقيت أبا سهل الصَّفَّار بالبصرة ، فحدثته بهـٰذا الحديث ، فقال لي : يا أبا سليمان ؛ إن لم يكن له من بكائه شيء إلا طي الصحيفة من الجمعة إلى الجمعة . . لكفاه[1] .

قال أحمد : قلت لأبي سليمان : إنه بلغني أن مالك بن دينار أهدي له ركوة ، فلما كان في المسجد . . حدثَتْه نفسه بها ـ أي : مخافة أن تُسرق الركوة ـ قال : فجاء ، فأخرجها ، فقال أبو سليمان : هـٰذا من ضعف الصوفيين ، قد زهد في الدنيا فما عليه لو ذهبت الركوة ؟!

وقال : الجنة قيعان[2] ، فإذا أخذ ابن آدم في ذكر الله عز وجل . . أخذت الملائكة في غرس الأشجار ، فربما غرس بعضُهم وأمسك بعضُهم ، فيقول الذي يغرس للذي لا يغرس : ما لَكَ يا فلان ؟ قال : فتر صاحبي .

وقال : ما خلق الله عز وجل خلقاً أهون عليَّ من إبليس ، ولولا أن الله عز وجل أمرني أن أتعوذ منه . . ما تعوذت منه أبداً .

قال أحمد [ابن أبي الحواري] : قلت لأبي سليمان : سمعت سلمة العَوْصِي[3] يقول : إني لمشتاق إلى الموت منذ أربعين سنة ، منذ فارقت الحسن بن حيٍّ ، قال : لأنه لو لم يشتق العاقل إلا إلىٰ لقاء ربه عز وجل . . لكان ينبغي أن يشتاق إلى الموت ، [وما كراهية رجل للموت ينزل به فيقذفه إلىٰ من لم ير خيراً قط إلا من عنده] ، فقال أبو سليمان : ويحك! لو أعلم أن الأمر كما تقول . . لأحببت أن تخرج نفسي الساعة ، ولـٰكن كيف بانقطاع الطاعة والحبس في البرزخ ، وإنما يلقاه بعد البعث ؟ قال أحمد : فهو في الدنيا أحرىٰ أن تلقاه بالذِّكر له سبحانه وتعالىٰ .

وقال : إن لإبليس شيطاناً يقال له : المتقاضي ، يتقاضى ابن آدم بعد عشرين سنة ليخبر بعمل قد عمله سراً ؛ ليُظهِره ، فيربح عليه ما بين أجر السر والعلانية .

وقال أحمد : سمعت أبا سليمان يقول : دخلنا علىٰ سفيان الثوري في بيت بمكة وهو

---

(١) في نسخة : (فما له شيء) .

(٢) **قيعان** : أرض مستوية مطمئنة لا حزونة ولا ارتفاع فيها .

(٣) سلمة بن عبد الملك العَوْصِي الحمصي ، وهو شيخ أحمد ابن أبي الحواري . انظر « تهذيب الكمال » (١١/ ٢٩٧) ، وفي النسخ : (القرظي ، الغوطي) ولعل الصواب ما أثبت ، والله أعلم .

جالس في الزاوية علىٰ جلد ، فقال : ما جاء بكم ؟ فوالله ؛ لأنا إذا لم أركم . . خير مني إذا رأيتكم ، قال أبو سليمان : ثم لم نبرح حتىٰ تبسم ، قال أحمد : لما جاءه الناس . . جاءته الغفلة .

وقال أحمد : سمعت أبا سليمان يقول : ليست أعمال الخلق بالتي ترضيه أو تغضبه سبحانه وتعالىٰ ، وإنما رضي عن قوم فاستعملهم بأعمال أهل الرضا ، وسخط علىٰ قوم فاستعملهم بأعمال أهل السخط .

وقال أبو سليمان : ما تغرغرت عين مسلم . . إلا لم يرهق وجه صاحبها قَتَر ولا ذلة يوم القيامة ، فإن سالت دموعه . . أُطفىء بأول قطرة منها بحار نيران ، ولو أن رجلاً بكىٰ في أمة . . ما عذبت تلك الأمة .

والبكاء من أربعة : من الخوف ، والرجاء ، والكرب ، والشوق .

وقال أبو سليمان : من شغل بنفسه . . شغل عن الناس ، وهـٰذا مقام العاملين ، ومن شغل بربه . . شغل عن نفسه ، وهـٰذا مقام العارفين ، والزاهد لا بد وأن يكون في أحد هـٰذين المقامين ، ومقامه الأول أن يشغل نفسه بنفسه ، وعند ذلك يستوي عنده المدح والذم ، والوجود والعدم ، ولو كان متمسكاً بقليلٍ من المال . . لما أخرجه ذلك عن الزهد .

وقال أبو سليمان : أكل الطيبات . . يورث الرضا عن الله عز وجل .

وقال أبو سليمان : من سره أن يشهد يوم القيامة . . فليقرأ آخر (الزمر) .

وقال : القلب بمنزلة المرآة ، إذا جليت لا يمر بها شيء . . إلا مُثِّل فيها .

وقال أحمد : قلت لأبي سليمان : صليت صلاة فوجدت لها لذة ، فقال : أي شيء لذَّ لَكَ منها ؟ قلت : لم يرني أحد ، قال : أنت ضعيف حين خطر الناس علىٰ قلبك في الخلاء .

وقال أحمد : قلت لأبي سليمان : إني أريد من الدنيا أكثر مما أُعطىٰ منها ، قال : لـٰكني أعطىٰ منها أكثر مما أريد .

وقال أبو سليمان : مَن ترك الدنيا للآخرة . . ربحهما ، ومن ترك الآخرة للدنيا . . خسرهما ، وكل أم يتبعها بنوها ، بنو الدنيا تُسْلِمهم إلىٰ حر شديد ، ومقامع من حديد ، وشراب الصديد ، وبنو الآخرة تسلمهم إلىٰ عيش رغيد ، ونعيم لا يبيد ، في ظل ممدود ، وماء مسكوب ، والفكر في الدنيا . . حجاب عن الآخرة ، وعقوبة لأهل الولاية .

أسند أبو سليمان القليل ، فمن مفاريده : قال : حدثني شيخ بساحل دمشق ، يُقال له : علقمة بن يزيد بن سويد الأزدي ، حدثني أبي ، عن جدي سويد بن الحارث قال : وفدت علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم سابعَ سبعة من قومي ، فلما دخلنا عليه وكلمناه صلى الله عليه وسلم . . أعجبه ما رأىٰ من سَمْتنا وزَيِّنا ، فقال : « ما أنتم ؟ » فقلنا : مؤمنون ، فتبسم صلى الله عليه وسلم وقال : « إن لكل قول حقيقة ، فما حقيقة قولكم وإيمانكم ؟ » فقال سويد : قلنا : خمس عشرة خصلة ، خمس منها أمَرَتْنا بها رسلك أن نؤمن بها ، وخمس منها أمَرَتْنا رسلك أن نعمل بها ، وخمس منها تخلقنا بها في الجاهلية ، فنحن عليها إلا أن تكره منها شيئاً .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وما الخمس التي أمرتكم رسلي أن تؤمنوا بها ؟ » قلنا : أمرتْنا رسلك أن نؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، والبعث بعد الموت .

قال : « وما الخمس التي أمَرَتْكم أن تعملوا بها ؟ » قلنا : أمرَتْنا رسلك أن نقول : لا إلـه إلا الله وأنك رسول الله ، ونقيم الصلاة ، ونؤتي الزكاة ، ونصوم رمضان ، ونحج البيت من استطاع إليه سبيلاً .

قال : « وما الخمس التي تخلقتم بها في الجاهلية ؟ » قلنا : الشكر عند الرخاء ، والصبر عند البلاء ، والصدق في مواطن اللقاء ، والرضا بمُرِّ القضاء ، والصبر عند شماتة العداء .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « علماء حكماء ، كادوا من صدقهم أن يكونوا أنبياء » ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : « وأنا أزيدكم خمساً ، فتتم لكم عشرون خصلة ، إن كنتم كما تقولون . . فلا تجمعوا ما لا تأكلون ، ولا تبنوا ما لا تسكنون ، ولا تنافسوا في شيء أنتم عنه غداً تزولون ، واتقوا الله الذي إليه ترجعون وعليه تعرضون ، وارغبوا فيما عليه تقدمون وفيه تخلدون » .

قال أبو سليمان : قال لي علقمة بن يزيد : فانصرف القوم من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحفظوا وصيته ، وعملوا بها ، ولا والله يا أبا سليمان ؛ ما بقي من أولـٰئك ولا من أولادهم أحد غيري ، وما بقي إلا أياماً قلائل ، ثم مات رحمه الله تعالىٰ[1] . هـٰذا حديث غريب ، تفرد به أبو سليمان ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم . انتهىٰ [« الحلية » ٩/٢٦٩ـ٢٨٠] .

---

(١) انظر كتاب « الروضة الريا فيمن دفن بداريا » (٩٧) .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : قال أبو سليمان : كنت بالعراق أَعْمَلُ ، وأنا بالشام أَعْرَفُ ، قال أحمد : فحدثت ابنه سليمان بذلك ، فقال : أما معرفة أبي [بالله تعالىٰ] بالشام لطاعته لله عز وجل بالعراق ، ولو ازداد لله تعالىٰ طاعة . . لازداد لله عز وجل معرفة .

وقال لي : ما يسرني أن لي من الله عز وجل أجر ما أنفقته في وجوه البر وأني أغفل عن الله عز وجل طرفة عين .

وقال : لو أن الدنيا كلها في لقمة ثم جاءني أخ لي . . لأحببت أن أضعها في فيه .

وقال : كنت أنظر إلى الأخ من إخواني بالعراق ، فأعمل علىٰ رؤيته شهراً .

وقال : إن الأخ هو الذي يعظك برؤيته قبل أن يعظك بكلامه .

وقال أحمد : بات أبو سليمان ذات ليلة ، فلما انتصف الليل . . قام ليتهجد ، فلما أدخل يده في الإناء . . بقي علىٰ حالته حتى انفجر الفجر ، فخشيت أن تفوته الصلاة ، فقلت : الصلاة يرحمك الله ، فقال : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، ثم قال : يا أحمد ؛ أدخلت يدي في الإناء ، فعارضني معارض في سري : هب أنك غسلت بالماء ما ظهر منك ، فبماذا تغسل قلبك ؟ فبقيت متفكراً وأنا في غموم وأحزان مما يفوتني من الأنس بالله عز وجل .

وقال : ما يسر العاقل أن الدنيا منذ خلقت إلىٰ أن تفنىٰ يتنعم بها حلالاً لا يُسأل عنها يوم القيامة وأنه حجب عن الله عز وجل ساعة واحدة ، فكيف بمن حجب أيام الدنيا والآخرة ؟!

توفي أبو سليمان سَنة خمس ومئتين ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ١٥٥ـ١٦٢] .

قال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : سئل أبو سليمان الداراني عن النكاح ، فقال : الصبر عنهن . . خير من الصبر عليهن ، والصبر عليهن خير من الصبر على النار .

وقال أيضاً : الوحيد يجد من حلاوة العمل وفراغ القلب ما لا يجد المتأهل .

وقال مرة : ما رأيت أحداً من أصحابنا تزوج فثبت علىٰ مرتبته الأولىٰ .

وقال أيضاً : ثلاث من طلبهن . . فقد ركن إلى الدنيا : من طلب معاشاً ، أو تزوج امرأة ، أو كتب الحديث .

وقال الحسن : إذا أراد الله بعبد خيراً . . لم يَشغَله بأهل ولا مال .

وكان أحمد ابن أبي الحواري يناظر جماعة في هـٰذا الأثر ، فاستقر رأيهم علىٰ أنه ليس معناه ألاَّ يكونا له ، بل معناه أن يكونا له ، لـٰكن لا يشغلانه ، وهو إشارة إلىٰ قول أبي سليمان الداراني : كل ما شغلك عن الله من أهل أو مال أو ولد . . فهو عليك مشؤوم . انتهىٰ [« الإحياء » ٢/ ٢٤] .

وفي « **تاريخ الخطيب البغدادي** »[1] ـ **رحمه الله** ـ : قال أحمد ابن أبي الحواري : تمنيت أن أرىٰ أبا سليمان الداراني في المنام ، فرأيته بعد سَنة ، فقلت : يا معلم الخير ؛ ما فعل الله عز وجل بك ؟ قال : يا أحمد ؛ دخلت من باب الصغير ، فرأيت حمل شيح[2] ، فأخذت منه عوداً ، فلا أدري تخللت به ، أم رميته ؟ فأنا في حسابه منذ سنة . انتهىٰ .

وقال أبو سليمان : رأيت في المنام حوراء كثيرة الجمال ، قد أضاء نورها حتىٰ ملأ المحراب ، فقلت : من أنت ؟ قالت : أنا حوراء ، قلت : لمن أنت ؟ قالت : لك ، قلت : وبأي شيء نلتِ هـٰذا النور العظيم ؟ فقالت : أتذكر الليلة الشديدة البرد ، التي قمتَ فيها وتوضأتَ بماء بارد ، فلما وضعتَ الماء علىٰ وجهك . . قطرت من وجهك قطرة ماء فوقعت علىٰ وجهي ، فهـٰذا النور من تلك القطرة .

توفي أبو سليمان الداراني سنة خمس ومئتين رضي الله عنه ونفعنا به آمين .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) الخبر في « سير أعلام النبلاء » (١٠/ ١٨٥) ، ولم نجدها في « تاريخ البغدادي » .

(٢) **الشِّيحُ** : نبت ينبت في السهول يتخذ من بعضه المكانس .

ومنهم الإمام :

أحمد بن عاصم الأنطاكي
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : قال أحمد بن عاصم : إذا صارت المعاملة إلى القلب . . استراحت الجوارح .

وقال : هاه! غنيمة باردة ، أَصْلِحْ فيما بقي . . يَغفِرْ لك فيما مضىٰ .

وقال : ما أغبِط أحداً إلا من عرف مولاه سبحانه وتعالىٰ ، وأشتهي ألاَّ أموت حتىٰ أعرفه معرفة العارفين الذين يستحيونه ، لا معرفة التصديق .

وقال : الخير كله في حرفين ، قيل : وما هما ؟ قال : يزوي عنك الدنيا ؛ ويمُنُّ عليك بالقنوع ، ويصرف عنك وجوه الناس ؛ ويمُنُّ عليك بالرضا .

وقال : ليس شيء خيراً من ألاَّ تمتحن بالدنيا ؛ أي : لا تتعرض لها .

وقال : أنفع الغنىٰ . . ما نفىٰ عنك الفقر ، وأنفع الفقر . . ما كنت فيه متجملاً وبه راضياً ، وأنفع العلم . . ما ضرك جهله ، وازددت بمعرفته وجعاً ، وكنت به عاملاً .

وقال أحمد بن عاصم : أدركت زماناً عاد فيه الإسلام غريباً كما بدأ ، وعاد وصف الحق غريباً كما بدأ ، إن ترغبْ إلىٰ عالم . . وجدتَه مفتوناً بالدنيا يحب التعظيم والرياسة ، وإن ترغبْ إلىٰ عابد . . وجدتَه جاهلاً في عبادته مخدوعاً ، صريع عدوه إبليس ، قد صعد به إلىٰ أعلا درجة العبادة وهو جاهل بأدناها ، فكيف له بأعلاها ؟!

والتزين اسم لثلاث معاني : متزين بعلم ، ومتزين بجهل ، ومتزين بترك التزين ، وهو أغمضها وأحبها إلىٰ إبليس ، وقد عرض للخلائق عارض من الهوىٰ أقعد المريد وألهى العاقل ، فلا العاقل عرف داءه ، ولا المريد طلب دواءه ، ومن استعصم بالله عز وجل . . عصم ، ومن عُصم . . حُجب عن المعاصي ، ومن توقىٰ . . وُقِي ، ومن الْتمس العافية . . عوفي .

وقال أحمد : كتب رجل إلىٰ أخيه : **أما بعد** : فالله الله ، اسمعْ . . أحدِّثْك عنه سبحانه وتعالىٰ ، إنه جل جلاله لم يرفع المتواضعين بقدر تواضعهم ، ولـٰكن بقدر كرمه وجوده ، ولم يفرِّحِ المحزونين بقدر حزنهم ، ولـٰكن بقدر رأفته ورحمته ، فما ظنك بالرحمـٰن الرحيم الذي يتودد إلىٰ من يؤذيه ، فكيف بمن يؤذىٰ فيه ؟! وما ظنك بالتواب الرحيم الكريم الذي يتوب علىٰ من يعاديه ، فكيف بمن يُعادىٰ فيه ؟! والذي يتفضل علىٰ من يسخطه ويؤذيه فكيف بمن يترضاه ويختار سخط العباد فيه سبحانه وتعالىٰ ؟!

وقال أحمد بن عاصم : شَرُّ مكسَبَةِ الرجلِ . . البُذاءُ ، وهو : الغِيبة ، وذلك أنه يبغضه عليها المتقون ، ويهجره العاقلون ، وتجتنبه الملائكة ، ويقال : إنها تفطِّر الصائم ، وهو عند العقلاء منقوص ، وعند العامة سفيه ، وعند الأمناء خائن ، وعند الجهال مذموم ، ولا يحتملها إلا من كان فيه نقص أكثر من نقص قائلها ، وما وجدت في الشر نوعاً أكثر ضرراً منها في العاجل والآجل ، ومخرج الغيبة من تزكية النفس ، ومن شدة رضا صاحبها عن نفسه ؛ لأن الرجل إنما ينتقص غيره لفضيلة وجدها لنفسه في نفسه ، وإنما اغتبتَه بما لم تر فيك مثله ، ولو علمتَ أن فيك من العيب أكثر منه . . لحجزك ذلك عن غِيبة غيرك ، ولاستحييت أن تغتاب غيرك بما فيك من العيوب أكثر منه وأنت مصر عليها ، وما يساعدك على القبول إلا من هو أعمىٰ قلباً منك بمعرفة عيوب نفسه ، ولولاه . . لما اجترأت علىٰ ذِكر عيب غيرك عنده ، فاحذر الغيبة كما تحذر عظيم البلاء ؛ فإن الغيبة إذا ثبتت في القلب . . جاءت إليها أخواتها من النميمة ، والبغي ، وسوء الظن ، والبهتان العظيم ، والكذب ، ومن وقع منه الغيبة . . فقد وقع منه الكذب والبهتان ، وهما مجانبان للإيمان ؛ لأن الله عز وجل حرم من المؤمن ماله ودمه وأن يُظَن به ظنُّ السوء ، والظن في القلب ، فكيف بمن يظهر ما في قلبه باللسان ؟! فإن همَّت النفس بشيء من ذلك . . فرُدها عن ذلك بذِكر عيوبها ؛ فإنك لو لقيت عالماً عاملاً ناصحاً واستشرته في ذلك . . فما يزيدك علىٰ أكثر مما أبديناه لك من النصح في تجنب الغيبة ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

وقال : ما من عافية . . إلا وقد تقدمها عفو ، لولا العفو . . لجاءت البلية . انتهىٰ [« الحلية » ٩/ ٢٨١ـ٢٩٣] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو عبد الله محمد بن المبارك الصُّورِي
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : قال محمد بن المبارك : أعمال الصادقين لله عز وجل بالقلوب ، وأعمال المرائين بالجوارح للناس ، فمن صدق . . فليقف موقف العمل لله عز وجل ؛ لعلم الله عز وجل به ، لا ليعلم الناس بعمله .

وقال : مهلاً رحمك الله ؛ فإن في قلبك وجعاً لا يبرئه إلا حُبُّه ، وحزناً لا يزيله إلا الأنس به سبحانه وتعالىٰ .

وقال : ليس من المعرفة بالله عز وجل أن تجعل نفسك مطية لهوىٰ غيرك ، أو طريقاً إلىٰ طلب دنيا مخلوق مثلك .

وقال : رأيت في جبال بيت المقدس امرأة عليها مدرعة[1] من صوف وخمار من صوف ، فسلمت عليها ، فقالت : مِن أين أنت ؟ فقلت : رجل غريب ، فقالت : سبحان الله! وهل تجد مع سيدك سبحانه وتعالىٰ وحشة الغربة وهو مؤنس الغرباء ؟ فبكيتُ ، فقالت : مم بكاؤك ؟ ما أسرع ما وجدت طعم الدواء ، ثم قالت : ما خدم القلبَ خادمٌ هو أحب إليه من البكاءِ ، ولا خدم البكاء خادم هو أحب إليه من الشهيق والزفير في البكاء ، فقلت لها : علميني شيئاً ، فقالت : حِبَّ اللهَ عز وجل شوقاً إلىٰ لقائه ؛ فإن له سبحانه وتعالىٰ يوماً يتجلىٰ فيه لأوليائه ، ثم أخذت في البكاء ، ومضت وهي تقول : سيدي ومولاي ؛ اغفر زللي ، واقبضني إليك يا أرحم الراحمين .

وقال محمد بن المبارك : دخلت مسجداً ، فرأيت فيه فتىً قد اكتنفه الناس قياماً وقعوداً يسألونه عن علم طريق الآخرة ، وعن معرفة الآفات الواردة ، فيجيبهم جواب من هو متسع

---

(١) المِدْرعة : الجبة .

في الحكمة والمعرفة ، فبقيت إلىٰ أن خلا ، فقال لي : حياك الله بالسلام ، ونعمنا وإياك بثوب الأحزان ، فقلت له : رحمك الله ، ما هـٰذا السبيل الذي أمر الله عز وجل محمداً صلى الله عليه وسلم بسلوكه واتباعه ؟ فقال : أما السبيل . . فهو الإيمان بالله عز وجل ، طريق ممدود لأهل الإيمان من الدنيا إلى الآخرة ، فمن سلكه . . أوصله إلىٰ رضوانه تبارك وتعالىٰ ، ومن لم يسلكه وعدل عنه . . فهو الذي نهىٰ عنه بقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ ، قلت : فما الإيمان الموصل إلىٰ رضوانه سبحانه وتعالىٰ ؟ فقال : الإيمان بالله عز وجل : إيمان ظاهر . . وقع به الستر الظاهر ، وإيمان باطن . . وقعت به الخشية الباطنة لله عز وجل . انتهىٰ [« الحلية » ٩/٢٩٨ـ٣٠٠] .

وقال في « المناقب » : قال أبو عبد الله محمد بن المبارك : من ألزم نفسه شيئاً لا يحتاج إليه . . ضيع من أحواله ما يحتاج إليه .

وقال : إذا لم تنتفع بكلامك . . كيف ينتفع به غيرك .

وقال : لم يضيع أحد فريضة من الفرائض . . إلا ابتلاه الله عز وجل بتضييع السنن ، وإلا أوشك أن يبتلىٰ بالبدع .

وروي أن حامداً الأسودَ جاءه فقال : إني رأيت في المنام أنك تموت إلىٰ سَنة ، فاستعدَّ للخروج ، فقال له : لقد أحلتنا علىٰ أمل بعيد ، أعيش إلىٰ سَنة ؟! لقد كان أنسي بهـٰذا البيت :

يا من شَكا شوقه من طول فرقته ... اصبر لعلك تلقىٰ مَن تحب غدا

وسأله رجل عن مسألة ، فأجاب عنها ، فقال له : أعِد عليَّ ، فقال : أنا في ندامة ما جرىٰ .

وقال : مَن دخل في هـٰذا الأمر بضعف . . قوي فيه ، ومن دخله بقوة . . ضعف فيه وافتضح .

وقال : مَن عظم قدره عند الناس . . يجب أن يحتقر قدره عند نفسه .

وقال : لو صح لعبد في عمره نَفَس بغير رياء ولا شرك . . لأَثَّرَ بركات ذلك عليه إلىٰ آخر الدهر .

وقال : **أنت تضمر دعوى العبودية وتظهر أوصاف الربوبية** .

وقال : أفضل أوقاتك وقتٌ تسلم فيه من هواجس نفسك ، ووقت يسلم الناس فيه من ظنونك . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو عبد الله سعيد بن بُريد النَّباجي
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : قال سعيد بن بُريد[1] : خمس خصال ينبغي للمؤمن أن يعرفها :

إحداهن : معرفة الله عز وجل .

والثانية : معرفة الحق .

والثالثة : إخلاص العمل لله عز وجل .

والرابعة : العمل على السُّنة .

والخامسة : أكل الحلال .

فإن عرف الله تعالىٰ ولم يعرف الحق . . لم ينتفع بالمعرفة ، وإن عرف الحق ولم يخلص العمل لله عز وجل . . لم ينتفع بمعرفة الله تعالىٰ ، وإن عرف ولم يكن علىٰ سنّة . . لم ينفعه ، وإن عرف ولم يكن المأْكَلُ من حلال . . لم ينتفع بالخمس[2] ، فإذا كان من حلال . . صفا له القلب فأبصر به أمر الدنيا والآخرة ، وإن كان من شبهة . . اشتبهت عليه الأمور بقدر المأكل ، وإن كان من حرام . . أظلم عليه أمر الدنيا والآخرة ، وإن وصفه الناس بالبصر ؛ فهو أعمى القلب حتىٰ يتوب .

وقال سعيد لأحمد ابن أبي الحواري : أتدري ما قلتُ البارحة والبارحة الأولىٰ ؟ قلتُ : اللهم ؛ إنك تعلم أنك لو خيرتني بين أن تكون لي الدنيا من يوم خُلِقَتْ إلىٰ قيام الساعة أتنعم فيها حلالاً لا أحاسب عليها يوم القيامة ، وبين أن تخرج نفسي الساعة . . لاخترت أن تخرج

---

(١) في نسخة : (عبد الله بن سعيد) وفي « الحلية » والنسخ : (سعيد بن يزيد) والمثبت من « الإكمال » لابن ماكولا (١/ ٢٣١) ، وَ (٧/ ٢٨٥) ، و« سير أعلام النبلاء » (٩/ ٥٨٦) ، والله أعلم .

(٢) في نسخة : (فإن عرف الله ولم يعرف الحق . . لم ينتفع بالمعرفة ، وإن عرف الحق ولم يخلص . . لم ينفعه ، وإن أخلص ولم يكن علىٰ سنة . . لم ينفعه ، وإن عمل بالسنة ولم يأكل الحلال . . لم ينتفع بالخمس) .

نفسي الساعة شوقاً إليك ، ثم قال : ألا تحب أن تلقىٰ من تطيع ؟!

وقال سعيد : سمعت أبا خزيمة يقول : القصد إلى الله عز وجل بترك الذنوب[1] . . أبلغ من حركات نوافل الأعمال كالصلاة والصيام ونحوهما .

وقال : احذروا لا يغضب الله عز وجل عليكم ، فيعطيكم الدنيا .

وقال : قال موسىٰ عليه الصلاة والسلام : يا رب ؛ أين أجدك حتىٰ أصل إليك ؟ فأوحى الله عز وجل إليه : يا موسىٰ ؛ إذا انقطعت إليَّ . . فقد وصلت .

وقال : قال إسحاق بن خلف : ليس شيء أقطع لظهر إبليس من قول ابن آدم : ليت شعري بماذا يختم لي ؟ قال : فعندها ييأس منه ويقول : متىٰ يُعجب هـٰذا بعمله ؟ قال أحمد ابن أبي الحواري : فحدثت به مضاء بن عيسىٰ ، فقال : يا أحمد ؛ عند الخاتمة فظع بالقوم ، فحدثت به أبا عبد الله النباجي ، فقال : واخطَراه!

وقال النباجي : إن أحببتم أن تكونوا أبدالاً . . فأحبوا ما شاء الله ؛ فإن من أحب ما شاءه . . لم ينزل به شيء من مقادير الله تعالىٰ وأحكامِهِ إلا أحبه ، وأوحى الله عز وجل إلىٰ موسىٰ عليه الصلاة والسلام : يا موسىٰ ؛ **ما شيء أسرع لقضاء حاجة عبدي مثل قوله : ما شاء الله ، وحسبي الله ؛ فإنك تعلم أني أحب ما شئت** . انتهىٰ [« الحلية » ٩/ ٣١٠ـ ٣١٢] .

وقال أبو الفرج : قال أبو عبد الله النباجي : قال لي قائل في منامي : أوَ يَحْسُن بالحُر المريد أن يتذلل للعبيد ، وهو واجد عند مولاه جل جلاله كل ما يريد ؟!

وقال : اطلبوا النظر في الرضا عن الله عز وجل وتساءلوا عنه بينكم ؛ فإنكم إن ظفرتم به . . يَسَّر عليكم الأعمال كلها .

وقال : لا تستكثروا الجنة للمؤمن ؛ فإنه قد وافىٰ بأعظمَ منها [وهو] معرفة الله تعالىٰ والإيمان به جل جلاله . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ١٩٧] .

ثم قال الحافظ : قال سعيد النَّباجي : ينبغي لنا أن نكون بدعاء إخواننا أوثق منا بأعمالنا ، نخاف أن نكون في أعمالنا مقصرين ، ونرجو أن يكونوا في دعائهم لنا مخلصين .

وقال : إن مِن خلق الله عز وجل خلائق يستحْلُون الصبر ، ولو علموا مواقع أقداره . . لبادروا إليها .

---

(١) في « الحلية » : (القصد إلى الله بالقلوب . . أبلغ) .

وفي رواية أخرىٰ : قال : إن في خلق الله تعالىٰ خلقاً يستحيون من الصبر ، ولو يعلمون مواقع أقداره جل جلاله . . لتلقوها تلقياً .

وقال : ما بقاء عُمُرٍ تقطعه الساعات وسلامة بدن معرض للآفات ؟! ولقد عجبت للمؤمن كيف يكره الموت وهو سبيله إلى الثواب ؟! وما أرانا إلا سيدركنا الموت ونحن أُبَّق[1] .

وقال : لما توالىٰ علىٰ يعقوب عليه السلام ذَهاب ابنه [بنيامين] بعد يوسف ، واطلع الله عز وجل علىٰ ما في قلبه من الحزن . . بعث الله عز وجل إليه جبريل عليه الصلاة والسلام يقول له : قل : **يا كثير الخير ، يا دائم المعروف الذي لا ينقطع أبداً ولا يحصيه غيره ؛ رُدَّ علي ابنيَّ ، فأوحى الله عز وجل إليه : (وعزتي وجلالي لو كانا ميتين . . لنشرتهما لك)** .

وفي رواية أخرىٰ : فما طلع الفجر حتىٰ أتي بقميص يوسف .

وقال : من خطرت الدنيا بباله لغير القيام بأمر الله عز وجل . . حُجب عن الله تعالىٰ .

وقال : إذا ذكرت قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلْوَهَّابُ ﴾ . . فرحت بذلك .

وقال : يؤتىٰ بالعبد يوم القيامة ، فيغيب في النور ، فيعطىٰ كتاباً ، فيقرأ فيه صغار ذنوبه ولا يرىٰ فيه كبائر كان يعرفها ، قال : ثم يُدعىٰ ملك ، فيُعطىٰ كتاباً مختوماً ، فيقول : انطلِق بعبدي إلى الجنة ، فإذا كان عند آخر قنطرة من قناطر جهنم . . فادفع إليه هٰذا الكتاب ، وقل له : ربك يقول لك : ما منعني أن أوقفك عليها إلا حياء منك ، فإذا كان عند آخر قنطرة . . دفع إليه الملك الكتاب ، ففض الخاتم وقرأ الكتاب ؛ فإذا فيه الكبائر التي كان يعرفها ، فيقول للملك : هل عرفت ما فيه ؟ فيقول : لا ، إنما دُفع إلي كتاباً مختوماً ، والله عز وجل يقول : ما منعني أن أوقفك عليها إلا الحياءُ منك ، سبحانه وتعالىٰ .

وقال : مَن رزقه الله عز وجل معرفته . . فهو يتنعم في كل أحواله .

وقال : إنما ذكر الله عز وجل درجة الخائفين وأمسك عن درجة المحبين ؛ لأن القلوب لا تحتمل ذلك ، كما أمسك عن درجة النبيين وأظهر ثواب المتقين ، قال في النبيين : ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا ﴾ ، و﴿ عِبَادِنَا ﴾ ، وأثنىٰ عليهم : ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ ، وقال تعالىٰ :

---

(١) **الآبق** : العبد الهارب من سيده .

﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ۞ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴾ أي : ذِكري وثنائي عليهم . . أشرف من ثواب المتقين ، وإنما ذَكر ثواب صغار الأمور ولم يذكر ثواب العظيم منها ، فإنه لا تحتمله القلوب ، هل ذَكر في الزكاة والصوم شيئاً ؟!

ويقول سبحانه وتعالىٰ في كتابه العزيز : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ .

وقال : قال لي رجل : لو جُعِلَتْ لي دعوة مستجابة . . ما سألت الفردوس ، ولٰكن كنت أسأله الرضا ، فهو تعجيل الفردوس ، والرضا إنما هو في الدنيا ؛ لقوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ ، وأعد لهم في الآخرة ما لا عين رأت ، والرضا مُلك يفضي إلىٰ مُلك ، وهُمْ أوجَهُ الخلق عنده بما أعطاهم ، وسبق لهم عنده سبحانه وتعالىٰ في الأزل ، وقد فرغ الله سبحانه وتعالىٰ مما أراد ، وأسعد من أسعد ، فسبحانه وتعالىٰ .

وقال : رأيت في النوم أربعة نفر أتوني ومعهم رجل ، فسألني كتابة دعاء ، فقلت له : اكتب : بسم الله الرحمٰن الرحيم ، اللهم ؛ إني أسألك يا الله ، اللهم ؛ إني أسألك يا الله ، اللهم ؛ إني أسألك يا الله ، اللهم ؛ إني أسألك يا رباه ، اللهم ؛ إني أسألك يا ذا الجلال والإكرام . . لا تجعل لي هوىً في شيء يخالف أمرك سراً ولا علانية ، اللهم ؛ إني أسألك ألا تراني أخطو خطوة في طلب دنيا تضرُّ بي عندك ، وأسألك أن تكرمني من أن أطمع إلىٰ أحد من المخلوقين أبداً ما أحييتني ، قال : فقال لي النفر الأربعة : كُتب لك خير الدنيا والآخرة .

وقال : رأيت في المنام كأن قائلاً يقول لي : اِعلم : أن من علامات حب الله عز وجل . . أن تكون بزيادة دِين[1] غيرك أسرَّ منك بزيادة دنياك .

وقال : كيف يتقي من لا يدري ما يُتَّقىٰ[2] ؟!

وقال : من لم يكن عالماً بما يَرِدُ عليه من الله عز وجل ولم يعلم ما يريد الله تعالىٰ منه . . فهو ممن وقع الحجاب بينه وبين الله عز وجل .

---

(١) في نسخة : (أن تكون بزيادة آخرتك أسر عندك من زيادة دنياك) .

(٢) في نسخة : (كيف يتقي من لا يدري كيف يتقي ؟) .

وكان يقول : ما أحسب أن أحداً يكون في الصلاة فيقع في سمعه غير ما يخاطبه الله عز وجل به .

وقال : الغفلة عن الله عز وجل أشد من دخول النار .

وقال : إذا دخل الغضب على العقل . . ارتحل الورع ، فكيف بمن لا عقل له ولا ورع إذا دخل عليه الغضب ؟! انتهىٰ [« الحلية » ٩/ ٣١٢ـ٣١٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

منصور بن عمار
رضي الله عنه

قال في « المختار » : كان سبب توبة منصور بن عمار : أنه وجد في الطريق رقعة فيها : بسم الله الرحمٰن الرحيم ، فلم يجد لها موضعاً ، فأكلها ، فرأىٰ في المنام كأن قائلاً يقول له : قد فتح الله عليك باب الحكمة ؛ لاحترامك تلك الرقعة . انتهىٰ .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : رُئِيَ منصور بن عمار بعد موته في المنام ، فقيل له : يا منصور ؛ ما فعل بك ربك ؟ فقال : غفر لي ، وقال لي : يا منصور ؛ قد غفرت لك علىٰ تخليط كثير فيك ، إلا أنك كنت تحوش الناس إلىٰ ذِكري .

وقال سليم بن منصور : كنت في مجلس أبي ، فوقعت رقعة في المجلس ؛ فإذا فيها : بسم الله الرحمٰن الرحيم ، يا أبا السري[1] ؛ أنا رجل من إخوانك ، تبت علىٰ يديك ، وإني اشتريت من الله عز وجل حوراء علىٰ صداق ثلاثين ختمة ، ختمت منها تسعاً وعشرين ، فبينا أنا في الثلاثين ؛ إذ غلبتني عيناي ، فرأيت كأن حوراء قد خرجت علي من المحراب ، فلما رأتني أنظر إليها . . أنشأت تقول بصوت رخيم :

أتخطب مثلي وعني تنامْ ... ونوم المحبين عندي حرامْ
لأَنَّا خُلِقنا لكل امرىءٍ ... كثير الصلاة براه الصيامْ

فانتبهت وأنا مذعور .

وقال رجل عابد لمنصور : يا أبا السري ؛ تتكلم بهٰذا الكلام ونرىٰ منك أفعالاً لا توافق ما تقول ؟ فقال له منصور : احسبوني درة وجدتموها علىٰ كناسة ، انتفعوا بالدرة ودعوا الكناسة مكانها .

وقال منصور : خرجت ليلة من الليالي ، فظننت أن النهار قد أضاء ، وإذا الليل بعد ،

---

(١) أبو السري : هو منصور بن عمار .

فقعدت إلىٰ دهليز مشرف ؛ وإذا بصوت شاب يدعو ويبكي ويقول : وعزتك وجلالك ؛ ما أردت بمعصيتي مخالفتك ، ولقد عصيتك إذ عصيتك بجهلي ، وما أنا بنكالك جاهل ، ولا لعقوبتك متعرض ، ولـٰكن سولت لي نفسي ، وأعانني عليها شقوتي ، وغرني سترك المُرْخىٰ عليَّ ، فعصيتك إذ عصيتك بجهلي ، فمِن عذابك مَن ينقذني ؟! ومن زبانيتك من يخلصني ؟! وبحبل مَن أعتصم إن أنت قطعت حبلك عني ؟! فواسوأتاه إذا قيل للمخفِّين جوزوا ، وللمخطئين حطوا ، ويحي! كلما طال عمري . . كثرت ذنوبي ، ويحي! كلما كبرت سني . . كثرت خطاياي ، فيا ويلي كم أتوب وكم أعود ولا أستحي من ربي ، قال منصور : فلما سمعت كلامه . . قرأت قوله تعالىٰ : ﴿ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ ، قال : فسمعت اضطراباً شديداً ، ثم سكن الصوت ، فقلت : إن هـٰهنا لسراً وعلَّمت الباب ، فلما رجعت من الغد ؛ إذا بجنازة وعجوز تدخل الدار وتخرج باكية ، فقلت لها : يا أمة الله ؛ مَا هـٰذا الميت منك ؟ قالت : إليك عني ، لا تجدد علي أحزاني ، هـٰذا ولدي ، كان إذا جن عليه الليل . . قام في محرابه يبكي ، وكان يعمل الخوص يقسم كسبه أثلاثاً ، ثلث يطعمني به ، وثلث للمساكين ، وثلث يفطر عليه ، فمر علينا البارحة رجل لا جزاه الله عنا خيراً ، فقرأ آيات فيها ذِكر النار ، فلم يزل يضطرب ويبكي حتىٰ مات رحمه الله تعالىٰ .

وقال منصور بن عمار : دخلت علىٰ سفيان بن عيينة ، فحدثني ووعظته ، فلما أثارت الأحزان دموعه . . رفع رأسه إلى السماء يرددها في عينيه ، فقلت له : هلا أسبلتها إسبالاً وتركتها تجري ؟ فقال : يا منصور ؛ هـٰذا أَكمَدُ للحزن ، إن الدمعة إذا بقيت في الجفون . . كان الحزن أبقىٰ في الفؤاد .

وقال منصور بن عمار : من جزع من مصائب الدنيا . . تحولت مصيبته في دِينه .

ومما رواه منصور بن عمار بإسناده : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « تقول جهنم للمؤمن : يا مؤمن ؛ جز ، فقد أطفأ نورك لهبي »[1] انتهىٰ [« الحلية » ٩/ ٣٢٥ـ٣٢٩] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان منصور بن عمار يقول في قصصه ومواعظه شيئاً عجيباً ، لم يُقص على الناس في زمنه مثلُه .

---

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٢٢/ ٢٥٨) .

وقال سليم ابنه : رأيت أبي في المنام فقلت : ما فعل بك ربك ؟ فقال : إن الرب عز وجل قربني وأدناني ، وقال لي : (يا شيخ السوء ؛ أتدري لِمَ غفرتُ لك ؟) فقلت : لا يا إلـهي وسيدي ، قال : (لأنك جلست للناس يوماً ، فبكَّيتهم ، فبكىٰ فيهم عبد من عبادي لم يبك من خشيتي قط ، فغفرت له ، ووهبت أهل المجلس كلهم له ، ووهبتك فيمن وهبت) .

وقال أبو الحسين : رأيت منصور بن عمار في المنام ، فقلت له : ما فعل الله عز وجل بك ؟ فقال : أُوقِفت بين يديه سبحانه وتعالىٰ ، فقال لي : (أنت الذي كنت تزهد الناس في الدنيا وترغبهم في الآخرة ؟) فقلت : قد كان ذلك ، وأنت يا رب أعلم ، ولـٰكن ـ وعزتك وجلالك ـ ما جلست مجلساً . . إلا بدأت بالثناء عليك بتوفيقك إياي ، وثنيت بالصلاة علىٰ رسولك صلى الله عليه وسلم ، وثلثت بالنصيحة لعبادك ، فقال تعالىٰ : (صدقت ، ضعوا له كرسياً في سمائي يمجدني بين ملائكتي كما كان يمجدني في أرضي بين عبادي) .

أسند منصور بن عمار عن [معروف] أبي الخطاب ، والليث ، وابن لهيعة في آخرين ، رضي الله عنهم أجمعين . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/١٨٦ـ١٨٧] .

وقال أبو القاسم القشيري : كان رجل شرِّيب قد جمع قوماً من ندمائه ، ودفع إلىٰ غلام له أربعة دراهم ، وأمره أن يشتري بها شيئاً من الفواكه للمجلس ، فمر الغلام ومنصور بن عمار قائم في مجلسه يعظ الناس ، فأحب الغلام أن يسمع ، فوقف ، فقام سائل يسأل من منصور أربعة دراهم ، فقال منصور : مَن يعطي هـٰذا الفقير أربعة دراهم أدعو له أربع دعوات ؟ قال : فألقى الله عز وجل علىٰ قلب الغلام أن يدفع الدراهم إلىٰ ذلك الفقير ، فدفعها إليه ، فقال له منصور : ما الذي تريد من الدعاء ؟ فقال : أنا رقيق أريد أن أتخلص من الرق ، فدعا له منصور ، ثم قال : وأريد أن يخلف الله عز وجل عليَّ نفقتي ، فدعا له ، ثم قال : وأريد أن يتوب الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ سيدي ، فدعا له ، ثم قال : وأريد أن يغفر الله عز وجل لسيدي ولك ولي وللقوم أجمعين ، فدعا له منصور ، ثم رجع الغلام إلىٰ سيده ، فقال له : لِمَ أبطأت ؟ فقص عليه القصة ، فقال له سيده : بِمَ دعا لك ؟ فقال : سألت لنفسي العتق ، فقال : اذهب فأنت حر لوجه الله تعالىٰ ، وأيش الثانية ؟ فقال : أن يخلف الله عز وجل عليَّ دراهمي ، فقال : لك أربعة آلاف[1] درهم ، وأيش الثالثة ؟ فقال : أن يتوب الله عز وجل

---

(١) في نسخة (أربع مئة) .

عليك ، فقال : قد تبت إلى الله سبحانه وتعالىٰ ، وأمر بإراقة جميع ما عنده ، وقال : أيش الرابعة ؟ فقال : أن يغفر الله عز وجل لي ولك وللشيخ وللقوم أجمعين أهل المجلس ، فقال : هـٰذه الرابعة ليست إلي ، فلما كان بعد ذلك . . رأىٰ في تلك الليلة في المنام كأن قائلاً يقول له : أنت فعلت ما كان إليك ، أتراني لا أفعل ما هو إلي ؟! قد غفرت لك وللغلام ولمنصور بن عمار وللقوم الحاضرين أجمعين . انتهىٰ [« الرسالة » ١٠٨ـ١٠٩] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

عبد الله بن عبد العزيز العُمَري
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كنيته : أبو عبد الرحمن .

قال عبد الله بن الحسن[1] : تعبد عبد الله العُمَري[2] وسكن المقابر ، وكان لا يُرىٰ إلا وفي يده كتاب يقرأ فيه ، وترك مجالسة الناس ، فقيل له في ذلك ، فقال : لم أر أَوعَظَ من قبر ، ولا آنَسَ من كتاب ، ولا أسلَمَ من الوحدة ، فقيل له : قد جاء في الوحدة ما جاء ، فقال : لا تُفسدُ إلا جاهلاً .

ورأى العُمَري رجلاً من آل علي رضي الله عنه يمشي وهو يخطر[3] ، فأسرع إليه ، وأخذ بيده ، وقال له : **يا أخي ؛ إن هـٰذا الذي أكرمك الله تعالىٰ به لم تكن هـٰذه مشيته ، فتركها الرجل بعد ذلك واعتذر** .

وقال العُمَري : إن من غفلتك عن نفسك . . إعراضك عن الله عز وجل بأن ترىٰ ما يسخطه فتتجاوزه ولا تأمر فيه ولا تنهىٰ ؛ خوفاً ممن لا يملك لك ضراً ولا نفعاً .

وكان يقول : **مَن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من مخافة المخلوقين . . نزعت منه هيبة الله عز وجل عليه ، حتىٰ لو أمر بعض أهله أو مواليه . . لاستخفوا به** .

وقال أبو قدامة : كان العمري ماراً في طريق ، فوجد أمير المؤمنين هارون الرشيد ، فقال له : اعمل كذا ، واعمل كذا ، فقال له : نعم يا عم .

وقال سعيد بن سليمان : كنت بمكة وإلىٰ جانبي عبد الله العمري ، وقد حج هارون الرشيد ، فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن ؛ هـٰذا أمير المؤمنين في المسعىٰ يسعىٰ ، وقد

---

(١) في « الصفوة » : (عبد الله بن خبيق) .

(٢) **العمري** : هي نسبة إلىٰ سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فهو : عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عمر رضي الله عنهم أجمعين .

(٣) **خطر في مشيه** : اهتز وتبختر .

أخلي له ، فقال له : لا جزاك الله خيراً ، كلفتني أمراً كنت عنه غنياً ، ثم علق نعليه وقام ، فتبعته ، فأقبل هارون الرشيد من المروة يريد الصفا ، فصاح به : يا هارون ؛ فلما نظر إليه . . قال : لبيك يا عم ، فقال : اِرْقَ على الصفا ، فلما رقىٰ . . قال : ارم بطرْفِكَ إلى البيت ، ففعل ، فقال : كم هُمْ ؟ قال : ومن يحصيهم إلا الله سبحانه وتعالىٰ ؟ قال : فكم في الناس مثلهم ؟ فقال : خلق كثير لا يحصيهم إلا الله تبارك وتعالىٰ ، فقال : اعلم ؛ أيها الرجل : أن كل واحد منهم يُسأل عن خاصة نفسه ، وأنت وحدك تُسأل عنهم كلهم ، فانظر كيف تكون ، قال : فبكىٰ هارون ، وجعلوا يعطونه منديلاً منديلاً للدموع ، فقال العمري : وأخرىٰ أقولها لك ، قال : قل يا عم ، فقال : والله ؛ إن الرجل لَيُسرفُ في ماله ، فيستحق عليه الحَجْر ، فكيف بمن يسرف في مال المسلمين ؟! ثم مضىٰ وهارون يبكي .

وقال محمد بن عبد الرحمن : بلغني أن هارون الرشيد قال : إني لأحب أن أحج كل عام ما يمنعني إلا رجل من ولد عمر ثَمَّ ، يُسمعني ما أكره .

وخرج العُمَري مرة إلى الرشيد ليعظه ، فلما نزل الكوفة . . رجف جميع العسكر ، حتىٰ لو نزل بهم مئة ألف . . ما رجفوا ذلك الرجفان ، ثم رجع ولم يَصِلْ إليه .

وجاءه رجل فقال له : عظني ، فأخذ حصاة من الأرض ، وقال : زنة هٰذه من الورع يدخل قلبك . . خير لك من صلاة أهل الأرض ، فقال : زدني ، فقال : كما تحب أن يكون الله عز وجل لك غداً . . فكن له اليوم .

وقال عند موته : بنعمة ربي أحدث ، إني لم أصبح أملك سوىٰ سبعة دراهم من لحاء شجر فتلته بيدي . وبنعمة ربي أحدث ، لو أن الدنيا كلها لي وأصبحت تحت قدمي ، لا يمنعني من أخذها إلا أن أزيل قدمي عنها . . ما أزلتها .

أسند العمري الحديث ، وأدرك من التابعين أبا طُوَالة .

وتوفي بالمدينة سنة أربع وثمانين ومئة ، وهو ابن ست وستين سنة ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ١٠٥ـ١٠٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو غياث المكي
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : قال محمد بن جرير : كنت بمكة سنة أربعين ومئتين ، فرأيت خراسانياً ينادي : معاشر الحاج ؛ من وجد هِمياناً[1] فيه ألف دينار فرده . . أضعف الله تعالىٰ له الثواب ، قال : فقام إليه شيخ من أهل مكة من موالي جعفر ، فقال له : يا خراساني ؛ بلدنا فقراء أهله ، شديد حاله ، أيامه معدودة ، ومواسمه منتظرة ، لعله يقع بيد رجل موقن يرغب فيما تبذله حلالاً يأخذه منك ويرده عليك ، فقال الخراساني : فكم يريد ؟ فقال : العشر ؛ مئة دينار ، فقال : لا أفعل ذلك ، ولـٰكنا نحيله على الله تعالىٰ ، قال : فافترقا .

قال ابن جرير : فوقع لي أن الشيخ صاحب القريحة والواجد للهميان ، فتبعته ، فكان كما ظننت ؛ فإنه لما أتىٰ إلىٰ منزله . . نزل إلىٰ دار مستقلة خلقة الباب والمدخل ، فسمعته يقول لامرأته : يا لبابة ؛ قالت : لبيك يا أبا غياث ، قال : وجدت صاحب الهميان ينادي عليه مطلقاً ، فقلت له : قيده بأن تجعل لواجده شيئاً ، فقال : كم ؟ قلت : عُشرَهُ ، فقال : لا ، ولـٰكنا نحيله على الله عز وجل ، فأيش نعمل ولا بد لي ـ والله ـ من رده ؟ فقالت له : نحن نقاسي معك الفقر منذ خمسين سنة ، ولك أربع بنات وأختان وأنا وأمي وأنت تاسع القوم ، أشبعنا واكسنا ، واجعل هـٰذا قرضاً لعل الله عز وجل يغنيك ، فتعطيه ، أو يؤدي الله عز وجل عنك ، فقال لها : لست أفعل ، ولا أحرق حشاشتي بالنار بعد ست وثمانين سنة ، قال : ثم سكت القوم ، فانصرفت .

فلما كان من الغد علىٰ ساعات من النهار . . سمعت الخراساني يقول : يا معاشر الحاج ، وفد الله من الحاضر والباد ، من وجد هميناً فيه ألف دينار فرده . . أضعف الله تعالىٰ له الثواب ، قال : فقام إليه الشيخ ، فقال : يا خراساني ؛ قد قلت لك بالأمس ونصحتك ،

---

(١) **الهِميان** : كيس للنفقة يشدُّ في الوسط ، مثل الحزام الذي يستخدمه مريد الحج والعمرة .

وبلدنا قليل الزرع والضرع ، وقد قلت لك تدفع إلى الذي وجده مئة دينار ، لعله أن يقع بيد رجل موقن يخاف الله تعالىٰ فامتنعت وقلت : لا نعطيه شيئاً ، فهل تعطيه عشرة دنانير منها ، هي عشر العشر ويرده عليك ، ويكون له في العشرة ستر وصيانة ؟ فقال الخراساني : لا أفعل ، ولـٰكن نحيله على الله عز وجل ، ثم افترقا ، وجلست أكتب كتاب « النسب » للزبير بن بكار ، فلما كان من الغد . . سمعت الخراساني ينادي ذلك النداء بعينه ، فقام إليه ذلك الشيخ ، وقال : يا خراساني ؛ قلت لك العشر فلم تفعل ، وعشر العشر فلم تفعل ، أعطه ديناراً واحداً عشر عشر العشر يشتري بنصف دينار قِربة يستقي عليها الماء بالأجرة وبالنصف الآخر شاة يحلبها ويجعل ذلك لعياله غداء ، فقال : لا أفعل ، ولـٰكنا نحيله على الله سبحانه وتعالىٰ .

قال : فجذبه الشيخ وقال : تعالَ خذ همیانك ، ودعني أنام الليل ، وأرحنا من مشاحَّتك[1] ، فقال له : امضِ ، فمضى الشيخ ، وتبعه الخراساني ، وتبعتهما ، فدخل الشيخ ، فنبش ـ تحت درجة له ـ مزبلةً ، فأخرج منها الهميان وهو أسود من خرق غلاظ ، وقال له : هـٰذا همیانك ؟ فنظر إليه ، وقال : هـٰذا همياني ، قال : ثم حل رأسه من شد وثيق ، ثم صب المال في حِجْر نفسه ، وعدَّه وقلبَه مراراً ، وقال : هـٰذه دنانيري ، ثم أمسك فم الهميان ، ورد المال بيمينه إلى الهميان ، ثم شده شداً سهلاً ، ووضعه علىٰ كتفه ، ثم أراد الخروج ، فلما وصل إلىٰ باب الدار . . قال : يا شيخ ، يا شيخ ؛ مات أبي رحمه الله تعالىٰ وترك ثلاثة آلاف دينار ، وقال لي : أخرج ثلثها علىٰ أحق الناس عندك وأحوجهم ، وبع رحلي واجعله في نفقة حجك ، ففعلت ذلك ، وأخرجت الثلث وهو هـٰذه الألف دينار ، وشددتها في هـٰذا الهميان ، وما رأيت منذ خرجت من خراسان إلىٰ هـٰهنا أحق منك ، خذها بارك الله تعالىٰ لك فيها .

قال : ثم ولَّىٰ وتركه .

قال : فوليت خلف الخراساني ، فعدا أبو غياث ، فلحقني وردني ، وكان شيخاً مشدود الوسط بشريط ، فقال لي : اجلس ، فقد رأيتك تتبعني في أول يوم ، وعرفت خبرنا بالأمس واليوم ، وقد سمعت أحمد بن يونس اليربوعي يقول : سمعت مالكاً يقول : سمعت نافعاً يقول : عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعمر وعلي

---

(١) **المشاحة** : المخاصمة والمجادلة .

رضي الله عنهما : « إذا أتاكما الله عز وجل بهدية بلا مسألة ولا استشراف نفس . . فاقبلاها ولا ترداها على الله عز وجل »[1] ، وهـٰذه هدية من الله عز وجل ، والهدية لمن حضر .

ثم قال : يا لبابة ، وفلانة ، وفلانة ؛ فصاح ببناته وأخواته وزوجته وأمها ، وقعدن وأقعدني معهم ، فصرنا عشرة ، فحل الهميان ، وقال : ابسطوا حجوركم ، فبسطت حجري ، وما كان لهن قميص له حِجْر يبسطنه ، فمددن أيديهن ، وأقبل يعد ديناراً ديناراً ، حتىٰ إذا بلغ العاشر إليَّ . . قال : ولك دينار ، حتىٰ فرغ الهميان ، فكانت ألفاً ، فأصابني منه مئة دينار ، فداخلَني من سرور غناهم أكثر مما داخلني في نفسي ، فلما أردت الخروج . . قال لي : يا فتىٰ ؛ إنك لَمُبارَك إن شاء الله تعالىٰ ، وما رأيت هـٰذا المال قط ولا أمَّلْتُه وإني لأنصحك إنه حلال ، فاحتفظ به ، واعلم أني كنت أقوم فأصلي الغداة في هـٰذا القميص الخَلَق ، ثم أنزَعه ، فيصلِّين فيه واحدة واحدة ، ثم أكتسب إلىٰ ما بين الظهر والعصر ، ثم أعود في آخر النهار بما فتح الله عز وجل لي من أَقِطٍ وتمر وكُسيرات ومِن بقول نُبِذت ، ثم أنزعه ، فيتداولنه ، فيصلين فيه المغرب وعشاء الآخرة .

فنفعهن الله تعالىٰ بما أخذن ، ونفعني وإياك بما أخذنا ، ورحم الله تبارك وتعالىٰ صاحب المال في قبره ، وأضعف الله عز وجل ثواب الحامل للمال ، وشكر الله تعالىٰ له .

قال ابن جرير : فودعته ، وكتبت بها كتب العلم ، وبقيت سنين أتقوت منها وأشتري الورق وأسافر وأعطي الأجرة ، فلما كان بعد سَنة ست وخمسين . . سألت عن الشيخ بمكة ، فقيل لي : إنه قد مات بعد ذلك بشهر ، وتزوجت لبابة مملوكته بمملوك ، وماتت الأُختان وأمهم رحمة الله تعالىٰ عليهم أجمعين ، وكنت أنزل علىٰ أزواجهم وأولادهم ، فأخبرتهم بالحديث الذي جرىٰ لأبيهم مع الخراساني ، فيأنَسُون إلي ويكرموني . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ١٥٤ـ١٥٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) أخرجه بنحوه الطبراني في « الأوسط » (٤٨٢٠) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : « إذا ساق الله إليك رزقاً عن غير مسألة ولا استشراف نفس . . فخذه ؛ فإن الله أعطاكه » .

ومنهم الإمام :

أبو الفيض ذو النون بن إبراهيم المصري
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال ذو النون : إلـٰهي ؛ وسيلتي إليك . . نعمُك عليَّ ، وشفيعي إليك . . إحسانك عليَّ ، أشهد لك بالربوبية والوحدانية ، ابتدأتني برحمتك من قبل أن أكون شيئاً ، فلك الحمد علىٰ جميع إحسانك ، حمداً يوافي نعمك ، ويكافىء مزيدك بعدد عفوك عن خلقك ياذا الجلال والإكرام . [انتهىٰ « الحلية » ٩/ ٣٣٢ـ٣٣٣] .

وقال في « بهجة الأسرار » : قال ذو النون رحمه الله : التوكل بالقلب ، والاكتساب بالبدن ، فإذا اكتسبت ببدنك ، واتكلت على الله عز وجل بقلبك . . فأنت متوكل ، وإذا أردت العمل ببدنك ، وشغلت قلبك بالخلق[1] . . فلست بمتوكل ، ولا سلكت طريق المتوكلين قط .

وقال : حقيقة الرضا . . سرور القلب بمُر القضاء .

وكان ذو النون يقول : أنا علىٰ يقين من ربنا عز وجل ، وعلىٰ ثقة منه سبحانه وتعالىٰ ، كَشَف الأغطية عن قلوبنا ، فانجلت عنا الظُّلَم ، وألبسنا حلل النعم ، فارتحلت عنا النقم ، فبأي لسان نشكره واللسان بنعمته نطق ؟! وبأي عمل نتقرب إليه والعمل لا يكون إلا من عطائه وفضله ؟! فلئن قصُرت ألسنتنا عن شكره . . فقد أقررنا به ، ولئن ضعفنا عن القيام بأوامره سبحانه وتعالىٰ . . فإليه نشكو العجز .

اللهم ؛ إن مننك السالفة علينا بل الدائمة علي وعلىٰ سائر خلقك . . هي الباعثة علىٰ حسن الظن بك في مستقبل أحوالنا ، فحقق اللهم آمالنا ، واجعلنا لك من الشاكرين ، وبما مننت به علينا معترفين ، وكمِّل لنا الموهبة بالنظر إلىٰ وجهك الكريم يا أرحم الراحمين ؛ آمين .

---

(١) في نسخة : (بالخوف) .

وقال أبو طاهر القاسم بن عبد الله : سمعت ذا النون يقول : تضاحَكَتِ الأشياء إلىٰ أولياء الله العارفين بأفواه القدرة عن مليكها جل جلاله ؛ لما يرون من آثار صنعته فيها ، ويعاينون من بدائع خلقه معها ، فلهم في كل شيء معتبَرٌ ، وعند كل شيء مُدَّكَر .

وسئل أبو يعقوب يوسف بن الحسين : إلامَ كان يشير إليه ذو النون ؟ فقال : إلىٰ أدنىٰ درجات الطالبين للتوبة .

وسأله رجل فقال له : ما أعون ما يجده العبد في تسكين الشهوة ؟ فقال : صيام النهار ، وقيام الليل ، ووضع الشهوات والإغفال عنها ، وترك محادثة النفس بذِكرها ، فقال له الرجل : يرحمك الله ، فإن الرجلَ يصوم بالنهار ، ويقوم بالليل ، ولا يأكل الشهوات ، ويجد في نفسه حركة واضطراباً ، فقال : إن ذلك من فضل شهوة مقيمة فيه من الأول ، فليقطع أسباب المادة منها جهده ، ويسكنها عن نفسه بالهموم والأحزان ، ويسكن شيطانها بذِكر الموت ؛ فإن القوم ما وجدوا شيئاً أعون لهم على الزهد فيها والانقطاع عنها والتخلي منها من ذِكر الموت ، وتقريبِ الأجل ، وقصر الأمل وما يشغل القلوب .

ثم قال : اقطع عن نفسك الشهوات ، واشتغل بمراقبة من هو عليك رقيب سبحانه وتعالىٰ ، والمحافظة علىٰ من هو عليك حسيب ، واسأَلِ الله سبحانه وتعالى التوفيق علىٰ إبلاغ الطريق ، والخروج من كل ضيق بمنه وكرمه ، إنه علىٰ كل شيء قدير .

وعن أبي يوسف الحيري رحمه الله قال : بات عندي ذو النون ليلة ، فلما أصبح . . رأيته هائماً علىٰ وجهه ، فقلت له : إلىٰ أين يرحمك الله تعالى ؟ قال : دعني ؛ فإن لي آمالاً قد تقدمت مني إلى المحبوب جل جلاله ، قلت : وما هـٰذه الآمال ؟ قال : قد علمها الله ، وهو المأمول سبحانه وتعالىٰ ، وحسبي من سؤالي علمه بحالي ، وكفىٰ بالعبد أدباً ألاَّ يكون له هَم ولا إرادة غير الله عز وجل ، فقلت : ألا تزودني كلمات أنتفع بها ؟ فقال : اِرمِ بآمالك كلها عند الدائم الكريم سبحانه وتعالىٰ . . تجده بآمالك قائماً ، وسارِع إلىٰ مرضاته عز وجل بجهدك وقدر استطاعتك ، واعلم : أن لله عز وجل عباداً أحبوه فاستأنسوا به ، وعرفوه فسَمَتْ قلوبهم إليه ، فليس لهم هَمٌّ ولا مأمول غيره سبحانه وتعالىٰ .

وقال ذو النون : لا يزال العباد على الطريق ما لم يزل عنهم الخوف ، حتىٰ إذا زال عنهم الخوف . . فقد تركوا الطريق وأُخذ بالقوم ذات الشمال .

وسئل ذو النون رحمه الله فقيل له : متىٰ يصح للعالِم حقيقة اسم العلم ؟ فقال : إذا فقه

قلبه ، واعتادت جوارحه العمل وألفته ، ووافق ظاهره باطنه ، مراقباً لله عز وجل في أحواله كلها ، لا يريد بعلمه إلا الله سبحانه وتعالىٰ . . فعند ذلك يستحق اسم العالم .

وسئل أيضاً فقيل له : ما أساس قسوة القلب من المريد ؟ فقال : انتخابه لعلوم قد رضي من نفسه بتعلمها ، دون استعمالها والوصول إلىٰ حقائقها .

وقال ذو النون : أنشدني أبو الحسن علي بن عبد الله الحراني لنفسه :

وأعظم ما فينا من العيب أننا ... نعيب سوانا والمعائب عندنا
فماذا العمىٰ عن عيبنا وكأننا ... بكأس حمام الموت فينا وقد دنا ؟
فيا ذا العلىٰ غيّر قبيح فعالنا ... وهيء لنا فيما نؤمل رشدنا

وقال ذو النون رحمه الله : حقيقة المحبة : أن تحب ما أحبه الله عز وجل ، وتبغض ما أبغضه الله ، وتطلب رضاه ، وترفض جميع ما يشغلك عنه جل جلاله ، وألاَّ تخاف فيه لومة لائم ، وألاَّ تغرك نفسك عن رؤيتها وتدبيرها ؛ فإن أشد الحجاب . . رؤية النفس وتدبيرها .

وقال : من علامة المحب . . متابعة المحبوب في جميع أوامره ونواهيه ، لا فزعاً من العقاب ، ولا طمعاً في الثواب ، وإيثار الأنس بالوحدة عن الناس ؛ فإن الأنس بالله عز وجل نور ساطع ، والأنس بغيره هَمٌّ واقع .

وقال : إنما دخل الفساد على الخلق من سبعة أوجه ، منها : أنهم لم يُحكموا أداء الفرائض ، ونبذوا السنن وراء ظهورهم ، ورهنوا أنفسهم بالشهوات ، وغلب عليهم طول الأمل ، واتبعوا أهواءهم .

وقال : احتقار الذنوب عنوان المتكبرين .

وقال لبعض أصحابه وقد مرض : إن العلة يأنس بها أهل الصفاء ، ويأنسون أيضاً بالهَمِّ والضنا ، ومن لم يَعُدَّ البلاء نعمة . . فليس بعارف ، وليكن معك مِن الله عز وجل حياء يمنعك من الشكوىٰ .

وقال : كل ذاكر لله عز وجل . . فالله الذاكر له ، وكل محب لله سبحانه وتعالىٰ . . فالله هو الذي أحبه ، وكل راض عن الله عز وجل . . فالله الراضي عنه .

وقال : لا يزال العارف بالله تعالىٰ ما دام في دار الدنيا بين الفقر والفخر ، فإذا ذَكر الله عز وجل . . افتخر ، وإذا ذَكر نفسه . . افتقر .

وقال يوسف بن الحسين رحمه الله : قال لي ذو النون ذات عشية : يا خراساني ؛ من عرف الله عز وجل.. أحبه ، ومن أحبه.. أطاعه ، ومن أطاعه.. أكرمه ، وكل من أكرمه الله عز وجل.. كان له جليساً وأنيساً ، قال يوسف : فقلت له : يرحمك الله ، من لي بمعرفة الله ؟ ومن لي بحب الله جل جلاله ؟ فقال لي : أهل لا إلـه إلا الله كلهم عرفوا الله عز وجل معرفة الثبات علىٰ أن الله تعالىٰ واحد لا شريك له ، ولـٰكن التفاوت في التفصيل : فقوم علىٰ مشاهدة اليقين ومواجيد خواطر القلوب ، وقوم دون أولـٰئك ، وقوم فوقهم علىٰ حسب ما أعطاهم الله سبحانه وتعالىٰ .

وأما الحب.. فعلامته : ألاَّ يكون عندك شيء آثرَ مِن رضا الله عز وجل ، فإذا كنت كذلك.. صرت أميراً مؤمَّراً ؛ فإن كل محب لله عز وجل.. أمير مؤمَّر على الأمراء ، زمرته من أول زمرة يوم القيامة ، ومجلسه من أول مجلس يوم القيامة .

واعلم : أن المحبة منتهى القربة والاجتهاد ، والمحب لا يمل من طول الاجتهاد ، ومِن شأن المحب أن يُحَبِّبَ الله عز وجل إلىٰ خلقه بذِكر الآلاء والنعماء ، ويمشي بين عباده بالنصيحة ، ويخاف علىٰ نفسه وعِليهم كلَّ الخوف ، ويرجو لنفسه ولهم كلَّ الرجاء ، أولـٰئك أحِباء الله وأهل صفوته ، لا راحة لهم دون لقائه سبحانه وتعالىٰ .

وقال يوسف بن الحسين : قلت لذي النون : أوصني ، فقال : لا تخاصم لنفسك ؛ فإنها ليست لك ، دعها لمالكها جل جلاله ، **ولا تُؤْثِرْ ضرر أحد من الناس وإن كان مشركاً ، واحذر عاقبته وعاقبتك ؛ فلعلك ـ والعياذ بالله ـ تُسلب المعرفة ويُرْزَقها** .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : ولهـٰذا قال غير واحد من العارفين ـ منهم سيدي السري رحمه الله ـ : ما أعلم أحداً أقول إني أحسن عاقبة منه .

وقد قال علماء السلف رحمهم الله : والله ؛ ما أمن أحد علىٰ إيمانه أن يُسلَب.. إلا سُلِبَه .

ولأجل هـٰذا اشتد خوف الأئمة سلفاً وخلفاً على الإيمان ، ولجؤوا إلى الله سبحانه وتعالىٰ في أن يحفظه عليهم ، ويتوفاهم عليه .

ونحن نتضرع إلى الله سبحانه وتعالىٰ ، ونسأله أن يحفظ علينا الإيمان ، وأن يتوفانا عليه ، وألاَّ ينزعه منا ، ولا ينزعنا منه ، وهو وديعة لنا عنده سبحانه وتعالىٰ ؛ فإنه ما استُودع شيئاً إلا حفظه ؛ فالله خير حافظاً ، وهو أرحم الراحمين . انتهىٰ .

وقال في « بهجة الأسرار » : قال ذو النون رحمه الله : الجوع جلاء القلوب ، والجوع نور القلوب ، ثم أنشأ يقول :

تَجَوَّعْ فإن الجوع من عَلَم التقىٰ وإن طويل الجوع يوماً سيشبعُ

فإذا جاع القلب . . أَمطر نورَ الحكمة .

وقال ذو النون : لو علم الناس أن الحياة إنما هي بعد الموت . . لتمنوا الموت ، وما أحد عاش بهوىً . . إلا مات موتاً لا حياة فيه ، وما أحد مات من هواه . . إلا أُحيِيَ بالله عز وجل ، وهي الحياة الكبرى التي وعدها الخلق ، والعلم بالله حياة ، ولا يسمى الإنسان عالماً بالله عز وجل حتىٰ يكون حياً ، ومن ارتفع عنه الهوىٰ . . فهو حي .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : هـٰذا نظير ما سبق من كلام الشبلي رحمه الله المذكور في ترجمته .

وقال يوسف بن الحسين : سمعت ذا النون يقول : ليس بذي لُبٍّ مَن جد في أمر دنياه وتهاون في أمر آخرته ، ولا مَن سَفِهَ في مواطن حلمه ، ولا مَن تكبر في مواطن تواضعه ، ولا من فُقدت منه التقوىٰ في مواطن طمعه ، ولا من غضب من حق إن قيل له ، ولا مَنْ زهد فيما يرغب العاقل فيه ، ولا من رغب فيما يزهد العاقل فيه ، ولا من طلب الإنصاف من غيره لنفسه ، ولا من نسي الله عز وجل في مواطن طاعته وذَكَر الله في مواطن الحاجة إليه ، ولا من جمع العلم ليُعرف به ثم آثر عليه هواه عند تعلمه ، ولا مَن قَلَّ منه الحياء من الله عز وجل علىٰ جميل ستره ، ولا مَن أغفل الشكر علىٰ إظهار نعمه ، ولا من عجز عن مجاهدة عدوه لنجاته ، إذا صبر عدوه علىٰ مجاهدته لهلكته ، ولا مَن جعل مروءته لباسه ، ولم يجعل لنجاته وورعه وتقواه كياسة[1] ، ولا من جعل علمه ومعرفته تطرفاً وتزيناً في مجلسه ، ثم قال : أستغفر الله العظيم ؛ إن الكلام كثير ، وإن لم نقطعه . . لم ينقطع .

وسأل محمد بن سالم ذا النون المصري عند الفراق أن يوصيه ، فقال : **لا يشغلنك عيوب الناس عن عيوب نفسك ؛ فلست عليهم برقيب ، ثم قال : إنَّ أحب عباد الله إلى الله . . أعقلهم عنه ، وإنما يُستدَل علىٰ تمام عقل المرء وتواضعه في عقله : بحسن استماعه بالحديث وإن كان به عالماً ، وسرعة قبوله للحق وإن كان ممن دونه ، وإقراره علىٰ نفسه بالخطأ إذا وقع منه .**

---

(١) في نسخة : (لم يجعل أدبه وورعه وتقواه لباسه) .

وقال ذو النون : مَن قطع آماله مِن الخلق ثقة بالله سبحانه وتعالىٰ . . وصل إلى الخالق جل جلاله ، ولن يصل عبد إلى الله عز وجل دون قطع الآمال ممن سواه سبحانه وتعالىٰ ، وأنشد ذو النون رحمه الله :

يجول الغِنىٰ والعز في كل موطن ... ليستوطنا قلب امرىءٍ إن توكَّلا
ومَن يتوكَّلْ كان مولاه حسبه ... وكان له فيما يحاول مَعقِلا
إذا رضيَتْ نفسي بمقدار حظها ... تعالت وكانت أكبرَ الناس مَنزلا

وقال أبو الحارث الأولاشي رحمه الله : سمعت بذي النون ، فرحلت إلىٰ لقائه لأجل مسائل أريد أن أسأله عنها ، فلما وصلت إليه . . وجدته قد مات رحمه الله ، فجئت إلىٰ قبره ، وصليت عليه ، وقعدت متفكراً ، ثم نمت عند قبره ، فرأيته في المنام ، فسألته عن تلك المسائل ، فأجابني عنها .

وقال ذو النون : إن الشوق لا يسكن جارحة . . إلا تركها زَمِنةً[1] .

وقال : من أحب الله عز وجل . . فبنفسه بدا ، ومَن خافه . . فعلىٰ نفسه توقَّىٰ .

وسئل ذو النون عن صفة المهمومين ، فقال : لو رأيتَهم . . رأيتَ أناساً لهم هموم مكنونة ، خلقت من لباب المعرفة ، فوصلت المعرفة إلىٰ قلوبهم ، فشربوا بكأس المحبة شربة هاموا بالشوق علىٰ وجوههم ، قد نبتت الأحزان في ضمائرهم ، وسكنت الهموم في بواطنهم ، فَهِمَمُهم إليه سائرة ، وقلوبهم إليه ناظرة ، قد ذبحهم الرجاء في محل آمالهم ، وطرحهم الشوق علىٰ فرش أسقامهم ، أزعجهم الوعد والوعيد والشوق الشديد ، يتلذذون بكلام الرحمٰن جل جلاله ، ليس لهم راحة إلا عند لقائه سبحانه وتعالىٰ .

وسئل ذو النون : متىٰ يكون العبد مفوِّضاً ؟ قال : إذا أيس من نفسه وفِعله والتجأ إلى الله سبحانه وتعالىٰ في جميع أموره ، ولم يكن له هَمٌّ ولا مقصود إلا الله سبحانه وتعالىٰ .

وقال ذو النون : قلت لبعض الرهبان : ما معنى المحبة ؟ فقال : لا يطيق العبد حمل محبتين ، من أحب الله سبحانه . . لا يحب الأغيار ، ومن أحب الأغيار . . لا يحب الله تعالىٰ خالصاً ، فتفكر في حالك من أي القبيلين أنت ، فقلت : صف لي المحبة ، فقال : المحبة عقل ذاهب ، ودمع ساكب ، ونوم طريد ، وشوق شديد ، والحبيب يفعل ما يشاء ، ويحكم

---

(١) زَمِنة : مريضة مرضاً لا دواء له .

ما يريد ، قال ذو النون : فعمل هـٰذا الكلام معي ، فعلمت أنه خرج من المعدن ، وأن الراهب يُسْلِم إن شاء الله عز وجل ، ثم فارقته ، قال : فبينا أنا أطوف بالكعبة . . فإذا بالراهب يطوف وقد نحل ، فقال لي : يا أبا الفيض ؛ تم الصلح ، وانفتح باب المؤانسة ، ومَنَّ عليَّ بالإسلام سبحانه وتعالىٰ ، وحمَّلني ما عجزَتْ عنه السماوات والأرض .

قال ذو النون : حمَّل نفسه محبة الله عز وجل التي عجزت عنها صُم الجبال ، وحملها أجلاد الرجال بلطائف الأحوال ، وأنشد :

حبُّك يا سؤلي ويامنيتي ... قد أنحل الجسم وقد كدَّهُ
لو أن ما بالقلب من حبكمْ ... بالجبل الصلد لقد هدَّهُ

ثم قال : المحبون لا أحياء ولا أموات ، ولا صحاة ولا سكارىٰ ، ولا مقيمون ولا ظاعنون ، ولا مفيقون ولا صرعىٰ ، ولا أصحَّاء ولا مرضىٰ ، ولا منتبهون ولا نيام ، فهم كأصحاب الكهف في فجوة الكهف لا يدرون ما يفعل بهم ، ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال .

وقال يوسف بن الحسين : سمعت ذا النون يقول : من اتخذ الدنيا طريقاً ولم يتخذها مسكناً . . أبصر الأعلام المنصوبة ، وشاهد الأنوار النيرة ، فيتنوَّر قلبه ، ويعطىٰ من أعلىٰ درجات في الجنة إن شاء الله عز وجل بفضله وكرمه .

وقال أبو القاسم عبد الله بن محمد التميمي[1] رحمه الله : سمعت أبا الفيض ذا النون يقول : من أراد أن يتعلم المروءة والظُّرْف[2] . . فعليه بسقاة الماء ببغداد ، ومن أراد أن يسمع تجريد التوحيد وخالص التوكيل . . فعليه بالنساء الزمنىٰ بها ، فقيل له : وكيف ذاك ؟ فقال : نعم ، لما حُملت إلىٰ بغداد . . رمي بي علىٰ باب دار السلطان مقيداً ، فمر بي رجل متزر بمنديل مصري ، معتم بمنديل دبيقي[3] ، بيده كيزان خزف رقاق ، وزجاج مخروط ، فسألت : هـٰذا ساقي السلطان ؟ فقيل : لا ، هـٰذا ساقي العامة ، فأومأت إليه أن اسقني ، فتقدم إلي وسقاني ، فشممت من الكوز رائحة مسك ، فقلت لمن معي : ادفع إليه ديناراً ، فأعطاه الدينار ، فأبىٰ أن يأخذه ، وقال : لست آخذ شيئاً ، فقلت : ولِمَ لا تأخذه ؟ فقال :

---

(١) في نسخة : (عبيد الله بن محمد النهيمي) .
(٢) **الظُّرْف** : الكياسة ، والمراد هنا : مكارم الأخلاق .
(٣) **دبيقي** نسبة إلىٰ دبيق بلد في مصر ، تنسب إليه الثياب ، راجع « معجم البلدان » (٢/ ٤٣٧) .

أنت أسير ، وليس من المروءة أن آخذ منك شيئاً ، فقلت : كمل الظرف في هـٰذا ، قال : ثم التفت ؛ فإذا إنسان من ورائي يكلمني أن امض إلىٰ هـٰذه المرأة ، فمضيت إليها ؛ فإذا امرأة زَمِنة في كوخ تتصدق علىٰ مسكين ، فعظمت في نفسي ، فقالت : يا شيخ ؛ فلِمَ لا تظرف[1] على الحال التي أوجبَتْ فيك ما أرىٰ ؟! فقلت : أنا مظلوم ، فقالت : وإنما يعرف من الأحوال سلامتك منها ، والذي بسببها صرت ـ كما يقال ـ مظلوماً ، قلت : كذاك هو ، فقالت : فاقبل مني ، إذا دخلت علىٰ هـٰذا الرجل . . فلا تهابه ، ولا تريه أنه فوقك ؛ فإنكما مخلوقان من نطفة واحدة ، ومن طينة واحدة ، وهو فقير إلىٰ مَن أنت إليه مفتقر ، ولا تحتج عن نفسك ، محقاً كنت أو غير ذلك ، قلت : ولِمَ ؟ فقالت : إن هبته . . سلط عليك ، وإن احتججت عن نفسك ببُطْل . . لم يزدك ذلك إلا وبالاً ؛ لأنك تباهت[2] الله عز وجل فيما علم منك خلافه ، وإن كنت محقاً . . فاكتف بنصرة الله عز وجل لك ، وادع الله أن ينتصر لك ولا تنتصر أنت لنفسك ، فيَكِلَك الله عز وجل إليها .

قال ذو النون : فلما دخلت عليه . . قال لي : ما تقول فيما قيل عنك ؟ فسكت ، فقال وزيره : هو عندي حقيق بما قيل فيه ، ثم قال الخليفة[3] : ما تقول ؟ فقلت : إن قلتُ : لا . . أكذبت المسلمين ، وأنا لا أُكذِب المسلمين ، وإن قلت : نعم . . كذبت علىٰ نفسي بشيء يعلم الله عز وجل مني خلافه ، فافعل ما بدا لك ؛ فإني غير منتصر لنفسي ، فقال لي الخليفة : أنت بريء مما قيل فيك ، ثم قال : عظنا ، ثم خلىٰ عني ، فجئت إلىٰ تلك العجوز ، فقلت لها : جزاك الله خيراً ، فعلتُ ما أمرتِ . . فنجاني الله تعالىٰ ، ثم سألتها الدعاء ، فقالت : مر ، جعلك الله مسلماً .

وعن يوسف بن الحسين وإسحاق بن إبراهيم قالا : رأينا ذا النون وفي يده الغل وفي رجله القيد ، وهو يساق إلى المُطْبَق[4] ، والناس يبكون حوله ، وهو يقول : هـٰذا من مواهب الله عز وجل ، وهـٰذا من عطاياه ، وكل فعاله حسن جميل ؛ فإن مولاي وسيدي سبحانه وتعالىٰ يسوق الأجر والخير إلىٰ من يحب من عباده وخلقه كما يسوق الماء إلى

---

(١) **لا تظرف** : أي لم لا تتحاذق وتخرج مما أنت فيه .

(٢) **تباهت** : تئول على الله تعالىٰ ما لم يعلمه منك .

(٣) لعله المتوكل كما سيأتي في سبب محنته .

(٤) **المُطْبَق** : السجن تحت الأرض .

الأرض الجُرُز[1] ، ثم قال : سبحانك! تباركت وتعاليت ، كل شيء لك ذاكر ، وكل شيء لك شاكر .

وقال سالم : كنت معه ، فبكيت لَمَّا رأيت القيد والغل ، فقال لي : لِمَ تبكي ؟ فقلت : لما أرىٰ في يديك ورجليك ، فقال : يا سالم ؛ إن لله عز وجل عباداً لو أرادوا . . لارتفع عنهم الغل والقيد ، فقلت : لِمَ لا تفعل ؟ فقال : هـٰذا القيد والغل قد سقطا ، قال : فرأيتهما وقد سقطا عنه ، فقلت : لِمَ لا تذهب حيث شئت ؟ فقال : الاستكانة تحت الأوامر أولىٰ بنا . أو كما قال[2] .

وكان يقول : اللهم ؛ إني أعوذ بك من أن تقطعني بك عنك يا أرحم الراحمين .

وكان يقول : من عرف ربه سبحانه . . أحبه ، ومن أحبه . . احتمل في ذاته البلوىٰ .

وروى الحافظ البيهقي ـ رحمه الله ـ بسنده : عن ذي النون قال : ثلاثة من أعلام اليقين : النظر إلى الله عز وجل في كل شيء ، والرجوع إليه في كل شيء ، والاستعانة به في كل حال .

وقال يوسف بن الحسين الرازي رحمه الله : رأيت ذا النون قبل أن أصحبه بعرفات واقفاً شاخصاً ببصره نحو السماء يدعو ، فسمعته يقول : إلـٰهي ؛ لك بهاء الجلال في انفراد وحدانيتك ، والكبرياء والعظمة والكمال في إتقان حكمتك ، ولك سلطان العز في دوام هيبتك ، بَعُدْتَ علىٰ قربك من أوهام الباحثين عن بلوغك ، وقَرُبتَ علىٰ بعدك من أوهام القلوب ، فلم يفت ذلك علمك ، فوعزتك وجلالك ؛ لولا أن ذكرك فَرْضٌ عليَّ . . لما تفوهت به ؛ إجلالاً لك وإعظاماً يا أرحم الراحمين .

وقال يوسف بن الحسين رحمه الله : سمعت ذا النون وهو يوصي أخاه ذا الكفل ، فقال له : يا أخي ؛ كن بالخير موصوفاً ، ولا تكن للخير وصَّافاً .

وقال ذو النون : أدنىٰ منازل المحبة : أنه لو ألقاه محبوبه في النار . . لم يتغير عما هو عليه من المحبة ، ولا يغيب محبوبه عن سره .

---

(١) **الأرض الجُرُز** : التي لا نبات فيها .

(٢) وكان سبب الحبس : أنه امتحن في أمره ؛ فهو أول من تكلم ببلدته في ترتيب الأحوال ، ومقامات الأولياء ، وقيل : إنه أحدث علماً لم يتكلم فيه السلف ، وهجروه ورموه بالزندقة ، ولـٰكن ظهرت براءته ، وطلبه المتوكل فولع به وأحبه وكان يقول : إذا ذكر الصالحون . . فحي هلا بذي النون . اهـ بتصرف من « سير أعلام النبلاء » (١١/ ٥٣٤) .

وقال : التوبة سبب الرضا ، والموافقة سبب العصمة ، والخوف سبب الأمن ، والرجوع إليه سبب الإنابة ، والاعتذار سبب العفو ، والإخلاص مع الصدق سبب القبول . انتهىٰ [« السنن الصغرىٰ » ١/٢٦] .

وفي « بهجة الأسرار » : قال يوسف بن الحسين : كتب رجل إلىٰ ذي النون كتاباً يقول فيه : إن رأيت أن تكتب لي كتاباً تفرِّج به كربتي ؛ فإني كرجل مجرد ، وجلاد واقف ، وسياط قد أُحضرت ، فلا أُضرَب فأموت ، ولا أُترك فأستريح ، فأَعِنِّي قبل خروج التوقيع ، فبكىٰ ذو النون لما قرأ الكتاب ، ثم كتب إليه : قوى الله ضعفك بحقيقة معرفته ، وسقاك من كأس الرضا شربة فيها مزاج محبته ، حتىٰ تدور في جوارحك فتخالط اللحم والدم ، فلا تجد لوقْع السياط ألماً ، ولا في شدة التربط لمباشرة الضرب سقماً ، فتروىٰ بلا عطش بعده ، وتجعل في قلبك وجوارحك نوراً يتلألأ ، حتىٰ تسمع ضجيجَ قلبك وأعضائك بالحنين إلى الله تعالىٰ والشوق إليه ، وجعل قلبك قلباً لا تفزعه الغفلات ؛ استئناساً بالله عز وجل وتوكلاً عليه ، فكأني بك وقد أُوقفت مسؤولاً ، وجُردت ذليلاً ، فألفزع إلى الله سبحانه وتعالىٰ من المعضلات اعتصاماً به . . يَكْفِك المحذورات إن شاء الله . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

وقال ذو النون : وكيف لا أبتهج يا رب بك سروراً ولم أزل ألوذ ببابك حتىٰ جعلتني من أهل توحيدك ؟! فقال له رجل : يا أبا الفيض ؛ يمر بأهل الجنة وقت يكونون في نقص ؟ قال : لا ، فقال : أيش أفضلُ نعيمهم ؟ قال : زيارتهم لله تبارك وتعالىٰ ، ونظرهم إليه جل جلاله ، فقال : أليس إذا انصرفوا من عنده ينصرفون إلىٰ نقص ؟ قال ذو النون : لا ؛ لأنهم ينصرفون ومعهم آمال المعاودة .

وقال السلمي في « الطبقات » : سئل ذو النون : ما أشد الحجاب وأخفاه ؟ [قال] : رؤية النفس وتدبيرها .

وقال : الأنس بالله عز وجل . . من صفاء القلب مع الله سبحانه وتعالىٰ ، والتفرد بالله والانقطاع إليه من كل شيء سواه .

وقال : لئن مددتُ يدي إليك داعياً . . لطالما كفيتني ساهياً ، وحسبي من سؤالي علمك بحالي يا ذا الجلال والإكرام .

وقال : مَن أَنِس بالخلق . . فقد استمكن من بساط الفراعنة ، اللهم إلا أن يكونوا من

العارفين ، ومَن غُيِّب عن ملاحظة أفعال نفسه . . فقد استمكن من الإخلاص .

وقال : الصدق سيف الله في أرضه ، ما وقع علىٰ شيء . . إلا قطعه . [انتهىٰ « الطبقات » ١٨ـ٢٣] .

وفي « بهجة الأسرار » : عن محمد بن الحسن الجوهري قال : سمعت ذا النون يقول : أيها الناس ؛ هـٰذا أوان يُنصح فيه الأحياء ؛ إذ الأموات في غمرتهم يعمهون ، حتىٰ غدا الدين غريباً منبوذاً ، وغدا أهله غرباء مَهينين ، قد أقبلوا علىٰ أكل الحرام ، وتركوا طلب الحلال ، ورفضوا المعروف ، وأقبلوا على المنكر ، وتركوا الجهاد ، فأظلمت الأرض بعد نورها ، ورضيت العلماء من العلم بعلمهم ، فانتبهوا أيها الأموات أبناء الأموات وجيران الأموات ، قد أخليتم القبور وعمرتم الدُّور ، ألا فقد غاب العلماء ، وقَلَّ الخطباء ، وكثرت الدواهي ، وقَلَّ الناهي ، وكثرت الأشرار ، وقَلَّ الأخيار ، وانتهكوا الآثام ، وقطعوا الأرحام ، وجلس بعضهم مجالس العلماء ، يقولون ما لا يفعلون ، عبيد الدنيا ، فهم لها متضعون[1] ، ولها متخشعون ، غنيهم فقير ، وجارهم ذليل ، لا يبالي غنيهم ما طوىٰ عليه جاره من جوع أو عري .

وقال أبو بكر الجوهري : قلت لذي النون : أكرمك الله ، حدثني بحديث لعلِّيْ أنتفع به وأذكرك ، فرفع رأسه ونظر إليَّ ساعة ، ثم قال : رأيتك تكتب الحديث ؟ فقلت : نعم ؛ وأرجو أن تحدثني حديثاً في الرقائق يكون عوناً لي علىٰ هـٰذا المذهب ، فقال : إن للحديث رجالاً ، ولي شغل بنفسي عن الحديث ، ولولا نقص دخل علىٰ أهل الحديث والفقه . . لكانوا أفضل الناس في زمانهم ، ولـٰكنهم طلبوا الدنيا ، فبذلوا علمهم لأهل الدنيا ، فحجبوهم وتكبروا عليهم ، وجعلوهم خولاً[2] ، وافتتنوا بالدنيا ؛ لِمَا رأوا من حرص أهل العلم عليها ، وتنافسهم في طلبها ، فهـٰؤلاء طلبوا الدنيا بعلمهم ، وموَّهوا على الناس ليظنوا أنهم يطلبون بعلمهم ما عند الله عز وجل ، فجعلوا العلم فخاً للدنيا ، فما أقبح هـٰذا العلم ؛ لما طلبوا به الفاني وأعرضوا عن الباقي ، ـ اللهم ؛ فلا تجعلنا منهم ـ ولو أنهم طلبوا به ٱبتغاء رضوان الله وما عنده ولزموا بابه سبحانه وتعالىٰ . . لكفاهم كلَّ الكفاية وأعزهم ، ولـٰكنهم انقطعوا إلى المخلوقين ، فوكَلَهم الله عز وجل إليهم ، فأذلهم ، ولو رَجَوُا الله . . لما رَجَوا أحداً سواه ، ولو خافوا الله . . خافهم كل شيء من الناس ، لقد جهلوا بعد علمهم ، وافتقروا

---

(١) **اتضع فلان** : صار وضيعاً ؛ أي : دنيئاً محطوط القدر .

(٢) **الخَوَل** : العبيد والإماء .

بعد غناهم ، وذلوا بعد عزهم ، وصاروا عبيداً لأهل الدنيا بعدما جعلهم الله عز وجل أحراراً ، شربوا بكأس المغرورين شربة فذهبت بعقولهم ، إن العلم سلاح الدِّين ، فإذا طلبت به الدنيا . . صيرته سلاحاً للدنيا .

ثم قال لي : لقيت المسيب بن واضح ؟ فقلت : أريد أن ألقاه إن شاء الله ، فقال : إذا لقيتَه . . فاسأله أن يحدثك عن يوسف بن أسباط عن سفيان الثوري عن الحسن ؛ فإني أكره أن أكون محدثاً ، فقلت له : أريد إن حدثنا . . أسمعه منك ، فهو أَوجَهُ إلي[1] ، ولعلي لا ألقاه ، فقال : انظروا إلى الشاب ما أحرصه علىٰ طلب هـٰذا الشأن ، وإني أجد له موجعاً ورقة ، اللهم ؛ اغفر له وبلغه أمله ، قد طال مجلسنا ونعود إن شاء الله عز وجل ، ثم سكت ، والله أعلم .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال ذو النون : خرجت في طلب المناجاة ، فسمعت صوتاً يقول : اللهم ؛ أنت تعلم أني لأعلم أن الإصرار مع الاستغفار لؤم ، وأن تَركي الاستغفار مع معرفتي بسعة رحمتك لعجز ، إلـٰهي وسيدي ؛ أنت الذي خصصت من شئت بخالص الإخلاص ، وأنت الذي أعطيتهم رعاية المتوكلين ، وأنت تعلم أن سري عندك مكشوف ، وأنا إليك فقير ملهوف ، قال : ثم سكن صوته .

وقال : رأيت مكتوباً في حَجر : يقدِّر المقدرون والقضاء يضحك .

وقال : رأيت في جبال أنطاكية جارية كأنها مجنونة ، فسلمت عليها ، فقالت : وعليك السلام يا ذا النون ، فقلت : عافاكِ الله ، كيف عرفتيني ؟ فقالت : عرفني بك رب العالمين سبحانه وتعالىٰ ، ثم قالت : أسألك مسألة ؟ قلت : نعم ، قالت : أي شيء هو السخاء ؟ قلت : البذل والعطاء ، قالت : هـٰذا السخاء في الدنيا ، فما السخاء في الدِّين ؟ قلت : المسارعة إلىٰ طاعة الله تعالىٰ رب العالمين ، قالت : أفتريد منه أجراً ؟ قلت : نعم ، بالواحدة عشراً ، قالت : مُرَّ يَا بَطَّال ، هـٰذا متاجرة ومرابحة ، إنما السخاء أن يطلع الجليل جل جلاله علىٰ أعمالك وأنت لا تريد منه شيئاً بشيء ، ويحك يا ذا النون! إني أريد أن أسأله في طلب شهوة منذ عشرين سنة وأنا أستحيي منه مخافة أن أكون مثل أجير السوء ، إذا عمل . . طلب الأجرة ، ويحك يا ذا النون! اعمل تعظيماً لربوبيته وهيبته وعز جلاله . ثم تركتْني ومضت . [انتهىٰ « الحلية » ٩/ ٣٣٥ـ٣٤٠] .

---

(١) في نسخة : (أحب إلي) .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : اعلم : أن ما ذكرته الجارية من كونه سخاءً . . فليس ذاك من السخاء في شيء ، لا علىٰ سبيل الحقيقة ، ولا علىٰ سبيل المجاز ، وما ذاك إلا لأنه قد علم كل أحد ممن عقل أمرَ الله سبحانه وتعالىٰ أن السخاء إنما هو بما لا يجب على الإنسان بذله وفعله ، ومعلوم أن عبادة الله سبحانه وتعالىٰ لذاته جل جلاله واجبة علىٰ جميع خلقه المكلفين منهم ، وإن أحدهم لو عُمِّر عُمُرَ الدنيا وقام علىٰ جفون عينيه . . ما قضىٰ بعض ما يجب عليه لله عز وجل ، ثم إن تلك الأعمال في الحقيقة من الفرائض أو النوافل ، فإنما هي من فعله وعطائه سبحانه وتعالىٰ ، فللّٰه تعالىٰ عليهم فيها أعظم المنن ، حتىٰ تغرق عبادتهم في المنة ، فكيف يوصف مثل هـٰذا الفعل بسخاء ؟! وهـٰذا محال في القياس بديع .

ألا ترىٰ إلىٰ ما قال بعض العارفين رحمهم الله أجمعين ـ وهو أبو حفص الحداد ـ قال : ما استحق اسم السخاء مَن ذَكَر العطاء ولا لَمَحَهُ بقلبه ، وإنما يستحقه من نسيه حتىٰ كأنه لم يُعطِ .

قلت : وهـٰذا فيما يصح إطلاق السخاء فيه كغير العبادات ، أما ما لا يصح إطلاق السخاء فيه كالعبادات التي يأتي بها العباد . . فهي ليست من هـٰذا الباب بالكلية ، وهـٰذا أمر واضح غني عن البيان ، والله أعلم .

وقال أبو الفيض في قوله تعالىٰ : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ : إن شهادتَه لنفسه : إيجادُه الأشياء دالةً علىٰ وحدانيته ، ناطقة بالشهادة له ؛ فإنه تعالىٰ لما شهد لنفسه . . أنطق كل شيء بشهادته :

ففي كل شيء له شاهد ... يدل علىٰ أنه واحد

وقال أبو القاسم القشيري في « رسالته » : كان ذو النون قد فاق أهل هـٰذا الشأن ، وصار واحداً في وقته ، عِلماً وورعاً وحالاً وأدباً ، سعوا به إلى المتوكل ، فاستحضره من مصر ، فلما دخل عليه . . وعظه ، فبكى المتوكل ، ورده مكرماً ، وكان المتوكل إذا ذُكر عنده أهل الورع . . يبكي ويقول : إذا ذكر أهل الورع . . فحيَّهلاً بذي النون[1] .

زاد في رواية صاحب « المختصر » : قال إسحاق السَّرَخْسي : سمعت ذا النون يقول وهو

---

(١) الرسالة القشيرية (١٤) .

يساق إلى الحبس وفي يده الغل وفي رجليه القيد والناس حوله يبكون وهو يقول : هـٰذا من مواهب الله ، هـٰذا من عطاء الله ، وكل فعاله سبحانه وتعالىٰ عَذْبٌ حسن طيِّب ، ثم أنشد :

لـك مـن قلبـيَ المكـان المصـونُ ... كـل صعـب علـيَّ فيـك يهـون
إن رضيـتَ بـأن أكـون قتيـلاً ... فلـك الحمـد مـا تشـاءُ يكـون

وقال القشيري ـ رحمه الله ـ : وكان رجلاً نحيفاً ، تعلوه حمرة ، ليس بأبيض اللحية .

وقال ذو النون : مدار الكلام علىٰ أربع : حب الجليل جل جلاله ، وبغض الفاني القليل ـ يعني : الدنيا ـ واتباع التنزيل ، وخوف التحويل .

وكان يقول : من علامة الحب لله تعالىٰ . . متابعة حبيب الله سبحانه وتعالىٰ محمدٍ صلى الله عليه وسلم في أخلاقه ، وأفعاله ، وأوامره ، وسننه صلى الله عليه وسلم .

وقال يوسف بن الحسين : حضرت مجلس ذي النون يوماً ، فجاءه سالم المغربي ، فقال : يا أبا الفيض ؛ ما كان سبب توبتك ؟ فقال ذو النون : أردت الخروج من مصر إلىٰ بعض القرىٰ ، فنمت في الطريق في بعض الصحارىٰ ، ففتحت عيني ؛ فإذا بقُنْبُرة[1] عمياء قد سقطت من وكرها إلى الأرض ، فرأيت الأرض قد انشقت وخرج منها سُكُرُّجَتان[2] ، إحداهما ذهب ، والأخرىٰ فضة ، في إحداهما سمسم ، وفي الأخرىٰ ماء ، فجعلت تأكل من هـٰذه وتشرب من هـٰذه ، فقلت : حسبي ، فتبت ولزمت الباب .

وكان يقول : لا تسكن الحكمة جوفاً ملئت من الطعام .

وسئل عن التوبة فقال : توبة العوام من الذنوب ، وتوبة الخواص من الغفلة . انتهىٰ [« الرسالة » ١٤ـ١٥] .

وقال في « المناقب » : قال ذو النون : لم أر شيئاً أبعث لطلب الإخلاص من الوحدة ؛ لأنه إذا خلا . . لم ير غير الله تعالىٰ ، فإذا لم ير غيره . . لم يجد له إلا حكم الله تعالىٰ ، ومن أحب الخلوة . . فقد تعلق بعمود الإخلاص ، واستمسك بركن وثيق من أركان الصدق .

وقال : إن لله عز وجل عباداً تركوا الذنب استحياء من كرمه بعد ما تركوه خوفاً من عقوبته ، ولو قال لك الباري جل جلاله : اعمل ما شئت فلست أؤاخذك بذنبك . . لكان

---

(١) **القُنْبُرة** : ضرب من الطيور .
(٢) **السُّكُرُّجة** : إناء صغير ، يؤكل فيه الشيء القليل من الأدم .

ينبغي أن يزدك كرمه استحياءً منه إن كنت حراً كريماً ، فكيف وقد حذرك ؟!

وقال له رجل : كيف أصبحت ؟ فقال : أصبحت وبنا من النعم ما لا يُحصىٰ مع كثير ما نعصي ، فلا ندري علىٰ ما نشكر ؛ علىٰ جميل ما نَشَر ، أو علىٰ قبيح ما ستر .

وقال : الشوق أعلى الدرجات ، إذا بُلِّغها العبد . . استبطأ الموت شوقاً إلىٰ ربه عز وجل ، وحباً للقائه سبحانه وتعالىٰ .

وقال ابن الجلاء : سألت ذا النون ؛ متىٰ يكون العبد مفوِّضاً ؟ قال : إذا أيس من نفسه وفعله ، والتجأ إلى الله في جميع أحواله ، ولم يكن له علاقة سوىٰ ربه سبحانه وتعالىٰ .

وقال : كان الرجل من أهل العلم يزداد بعلمه بغضاً للدنيا وتركاً لها ، واليوم يزداد بعلمه حباً للدنيا وطلباً لها .

وكان الرجل ينفق ماله كلَّه علىٰ علمه ، واليوم يكتسب الرجل بعلمه مالاً .

وكان يُرىٰ علىٰ صاحب العلم زيادةٌ في باطنه وظاهره ، واليوم يرىٰ علىٰ كثير من أهل العلم الفساد في الباطن والظاهر .

وقال : دخلت إلىٰ سوادٍ بنيل مصر ، فجَنَّني الليل ، فقمت بين زروعها ؛ فإذا أنا بامرأة سوداء قد أقبلت إلىٰ سنبلة ، ففركتها ، ثم تركتها وبكت ، وقالت : يا من بذره حباً يابساً في أرضه ولم يك شيئاً ؛ أنت الذي صيرته حشيشاً ثم جعلته عوداً قائماً ، وجعلت فيه حباً متراكباً ، وكونته بتكوينك ، وأنت علىٰ كل شيء قدير ، ثم قالت : عجبت لمن هـٰذه قدرته كيف يُعصىٰ ؟! وعجبت لمن هـٰذه مشيئته كيف لا يطاع ؟! وعجبت لمن هـٰذا صنعه كيف يُشكىٰ ؟! فدنوت منها ، فقلت لها : مَن يشكو ؟ قالت : أنت يا ذا النون ، إذا اعتللت . . فلا تشكُ علتك إلىٰ مخلوق مثلك ، واطلب دواءك ممن ابتلاك ، وعليك السلام ، فلا حاجة لي في مناظرة البطالين ، ثم أنشأت تقول :

وكيف تنام العين وهي قريرة ... ولم تدر في أي المحَلَّينِ تنزلُ

ثم قال الحافظ ـ [رحمه الله] ـ : قال ذو النون : كل مطيع مستأنس ، وكل عاص مستوحش ، وكل محب ذليل ، وكل خائف هارب ، وكل راج طالب[1] .

وسئل ذو النون : ما علامة إقبال الله عز وجل علىٰ عبده ؟ قال : إذا رأيته صابراً شاكراً

---

(١) الحلية (٩/ ٣٧٦) .

ذاكراً . . فذلك علامة إقباله تعالىٰ عليه ، وإن رأيته ساهياً لاهياً معرضاً عن ذِكر الله عز وجل . . فذاك حين يعرض الله سبحانه وتعالىٰ عنه ، فقيل له : ما علامة الأنس بالله سبحانه تعالىٰ ؟ قال : إذا رأيته عز وجل يؤنسك بخلقه . . فإنه تعالىٰ يوحشك منه عز وجل ، وإذا رأيته يوحشك من خلقه . . فإنه يؤنسك بقربه سبحانه وتعالىٰ .

وسئل : ما الذي أنصب العباد وأضناهم ؟ فقال : ذِكر المقام ، وقلة الزاد ، وطول الحساب ، ثم قال : ولِمَ لا تذوب أكباد العباد وتذهل عقولهم ، والعرض على الله سبحانه وتعالىٰ أمامهم ، وقراءة كتبهم بين أيديهم ، والملائكة وقوف بين يدي الجبار ينتظرون أمره سبحانه وتعالىٰ في الأخيار والأشرار ؟!

وسأل رجل ذا النون عن مسألة ، فقال له ذو النون : إن قلبي لك مقفل ، فإن فتح لك . . أجبتك ، وإن لم يفتح لك . . فاعذرني ، واتهم نفسك[1] .

وقال أحمد بن سلمة النيسابوري : سمعت ذا النون يقول : يا خراساني ؛ احذر أن تنقطع عن الله عز وجل فتكون مخدوعاً ، فقيل له في ذلك ، فقال : كل من نظر إلىٰ عطاياه دون أن ينظر إليه سبحانه وتعالىٰ . . فهو مخدوع ، ثم قال : تَعلَّقَ الناس بالأسباب ، وتَعلَّقَ الصديقون بمسبب الأسباب ، فينبغي أن يكون القلب متعلقاً بولي العطاء سبحانه وتعالىٰ لا بنفس العطاء[2] .

وقال ذو النون : ركبنا مرة في البحر ، ومعنا فتىً من أبناء نيف وعشرين سنة قد ألبس ثوباً من المهابة ، وكنت أحب أن أكلمه فلم أستطع ، لا أراه إلا مصلياً أو قارئاً أو ذاكراً ، إلىٰ أن رقد ذات يوم في المركب ، ووقعت في المركب تهمة ، فجعل الناس يفتش بعضهم بعضاً إلىٰ أن بلغوا إلى الفتى النائم ، فقال صاحب الصرة : لم يكن أحد أقرب إلي من هٰذا الفتى النائم ، فلما سمعت ذلك . . قلت لهم : أنا أقوم إليه وأتلطف معه في الكلام في ذلك ، فقمت إليه فأيقظته ، فما كلمني حتىٰ توضأ للصلاة وصلىٰ أربع ركعات ، ثم قال لي : هل من حاجة ؟ فقلت له : إن تهمة وقعت في المركب ، وإن الناس لم يزل يفتش بعضهم بعضاً حتىٰ بلغوا إليك ، فالتفت إلىٰ صاحب الصرة فقال : هو كما يقول ؟ فقال : نعم ؛ لمْ يكن أحد أقرب إلي منك ، فرفع الفتىٰ يده يدعو ، وخفت علىٰ أهل المركب من دعائه ، وخيل

---

(١) الحلية (٩/ ٣٤٣ـ ٣٤٧) .

(٢) الحلية (٩/ ٣٥١) .

إلينا أن كل حوت في البحر قد خرج ، وفي فم كل حوت درة ، فقام الفتىٰ إلىٰ جوهرة في فم حوت ، فأخذها وألقاها إلىٰ صاحب الصرة ، وقال له : في هـٰذه عوض مما ذهب منك ، وأنت في حِلٍّ ، ثم وثب من السفينة ، وألقىٰ نفسه في البحر ، وجعل يتبختر ويسبح في البحر ، وأنا أراه وهو يقول : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ حتىٰ غاب عن بصري .

ولما مات ذو النون . . رئي علىٰ جنازته طيور خضر ، ولم يكن بمصر طيور خضر ، وكان موته بمصر رحمه الله تعالىٰ . [انتهىٰ « الحلية » ٩/٣٥٧ـ٣٦٤] .

زاد في رواية صاحب « المناقب » : عن محمد بن ريان قال : لما مات ذو النون ووضع على الجنازة . . رأيت طيوراً خضراً ترفرف على الجنازة ، حتىٰ عطف به إلىٰ عند حمام الغار وغاب عني ، فذكرت ذلك لخالي الحسن بن يحيى بن هلال[1] ، فقال لي : لقد رأيت مثل هـٰذه الطيور علىٰ جنازة أبي إبراهيم المزني رحمه الله ، وذكر أبياتاً كان قد رثىٰ بها أبا إبراهيم المزني رحمه الله ، وهي :

ورأيتُ أعظمَ ما رأيت ولم أكن ... من قبل ذاك رأيتُه لمشيَّعِ
طيراً ترفرف فوقه وتحفُّه ... حتىٰ يوارىٰ في حجاب البلقع[2]
ثم احتجبن عن العيون ولم أُحِطْ ... علماً بكُنْهِ مصيره في المرجِعِ[3]
وأظنها رُسُلَ الإلٰه تنزلت ... ـ والله أعلم ـ فوق ذاك الشرجع[4]

وقال يوسف بن الحسين[5] : سألت ذا النون عن كمال العقل ، وعن كمال المعرفة ، فقال : إذا كنت قائماً بما أُمرت تاركاً لتكلف ما كُفيت . . فأنت كامل العقل ، وإذا كنت بالله عز وجل متعلقاً في أحوالك لا بأعمالك غير ناظر إلىٰ سواه . . فأنت عارف .

وقال أبو عبد الله بن الجلاء : خرجت إلىٰ شط نيل مصر ، فرأيت امرأة تبكي وتصرخ ، فأدركها ذو النون ، فقال لها : ما لَكِ ؟ قالت : ولدي وقرة عيني كان معي فخرج تمساح فاستلبه مني ، فأقبل ذو النون علىٰ صلاته وصلىٰ ركعتين ودعا ؛ فإذا التمساح قد خرج من

---

(١) في نسخة : (هانىء) .
(٢) في نسخة : (المصنع) ، **والبلقع** : المكان الخالي .
(٣) في بعض النسخ : (المضجع) .
(٤) **الشرجع** : السرير الذي يحمل عليه الميت .
(٥) في « الحلية » : (عبد الله بن ميمون) .

النيل والولد معه ، فدفعه إلىٰ أمه[1] ، قال ابن الجلاء : فأخذتْه أمه ، وأنا أنظره .

وقال ذو النون : قال بعض الحكماء : ما أخلص العبد لله عز وجل إلا أحب أن يكون في جُبٍّ لا يُعرف .

وقال ذو النون : ما خلع الله عز وجل علىٰ عبد من عبيده خلعة أحسن من العقل ، ولا قلده قلادة أجمل من العلم ، ولا زينه زينة أفضل من الحلم ، وكمال ذلك التقوىٰ .

وقال : كن بالخير موصوفاً ، ولا تكن للخير وصَّافاً .

وقال الفتح بن شخرف : دخلت علىٰ ذي النون عند موته ، فقلت له : كيف تجدك ؟ فقال :

أموت وما ماتت إليك صبابتي ... ولا رَوِيَتْ من صدق حبك أوطاري
أموت وشيكاً فيك يا غاية المنىٰ ... ولم أقض يا ذا الكبريا منك أفكاري
مناي المنىٰ كل المنىٰ أنت لي المنىٰ ... وأنت الغنىٰ كل الغنىٰ عند إقتاري

وسئل : متىٰ تصح عزلة الخلق ؟ فقال : إذا قويت علىٰ عزلة النفس .

وسئل : كيف السبيل إلى التواضع ؟ فقال : افهم ما أُلقي إليك ، من أراد التواضع . . فلينظر إلىٰ فاقة نفسه وحقارتها ، ثم ينظر إلىٰ عظمة الله سبحانه وتعالىٰ ؛ فإن النفوس تذوب وتضمحل عند ذلك ، ومن نظر إلىٰ سلطان الله عز وجل . . ذهب سلطان نفسه ؛ لأن النفوس كلها حقيرة عند هيبته سبحانه وتعالىٰ ، ومِن أشرف التواضع ألاَّ ينظر إلىٰ نفسه إلا بالذلة .

ومعنىٰ قول النبي صلى الله عليه وسلم : « من تواضع لله . . رفعه الله »[2] يقول : مَن تذلل لله سبحانه وتعالىٰ بالمسكنة والفقر إليه . . رفعه الله سبحانه وتعالىٰ بعز الانقطاع إليه .

وقيل لذي النون : لِمَ صار الموقف[3] بالجبل ولم يصر بالكعبة ؟ قال : لأن الكعبة بيت الله الحرام والجبل[4] بابه ، فلما قصدوه وافدين . . أوقفهم بالباب يتضرعون ، فقيل له : فالوقوف بالمشعر الحرام كيف صار بالحرم ؟ فقال : لمَّا أذن لهم بالدخول إليه . .

---

(١) في نسخة : (فألقاه على البر) .

(٢) أخرج أحمد (٣/ ٧٦) : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من تواضع لله درجة . . رفعه الله درجة حتىٰ يجعله في عليين ، ومن تكبر على الله درجة . . وضعه الله درجة حتىٰ يجعله في أسفل السافلين » .

(٣) أي : الوقوف علىٰ جبل عرفات .

(٤) كذا في « الحلية » ، وفي النسخ : (والحرم بابه) ، ولعل الصواب ما أثبت .

أوقفهم بالباب الثاني ، وهي المزدلفة ، فلما طال تضرعهم . . أمرهم بتقريب قربانهم ، فتطهروا بها من الذنوب التي كانت عليهم حجاباً دونه سبحانه وتعالىٰ ، وأذِن بالدخول إليه علىٰ طهارة ، فقيل له : فلِمَ حرم صوم أيام التشريق ؟ قال : لأن القوم زوَّار الله وهم في ضيافته ، ولا ينبغي للضيف أن يصوم عند من أضافه ، قيل : فَتَعَلُّقُ الرجل بأستار الكعبة ؟ قال : هو مثل الرجل يكون بينه وبين أخيه جناية ، فيتعلق بثوبه ويتضرع إليه ؛ لِيَهَبَ له جرمه وجنايته .

وقال ذو النون : ما طابت الدنيا إلا بذِكره سبحانه وتعالىٰ ، ولا طابت الآخرة إلا بعفوه جل جلاله ، ولا طابت الجِنان إلا برؤيته سبحانه وتعالىٰ .

وقال ذو النون : بينا أنا أسير في بعض بلاد الشام ؛ إذا أنا بعابد قد خرج من بعض الكهوف ، فلما نظر إلي . . استتر عني بين تلك الأشجار ، ثم قال : أعوذ بك يا سيدي ممن يشغلني عنك ، يا مأوى العارفين ، وحبيب التوابين ، ومعين الصادقين ، وغاية أمل المحبين ، ثم صاح : واغماه من طول البكاء! واغماه من طول المكث في الدنيا! سبحان من أذاق قلوب العارفين حلاوة الانقطاع إليه ، فلا شيء عندهم ألذ من ذِكره والخلوة بمناجاته ، ثم مضىٰ وهو يقول : قدوس ، قدوس ، فناديته : أيها العابد ؛ قف لي ، فوقف ، وهو يقول : اللهم ؛ اقطع عن قلبي كل علاقة ، واجعل شغله بك دون خلقك ، فسلمت عليه ، وسألته أن يدعو لي ، فقال لي : خفف الله عنك مؤنة السير إليه ، وأدناك إلىٰ رضاه حتىٰ لا يكون بينك وبينه علاقة ، ثم سعىٰ بين يدي كالهارب من السبع .

وقال يوسف بن الحسين ـ قدس الله روحه ـ : جاء رجل إلىٰ ذي النون ، فشكا إليه دَيناً عليه نحو سبع مئة دينار ، فأخذ ذو النون حصاة من الأرض وقال للرجل : خذ هـٰذه ، فأنا أرجو أن يكون فيها قضاء دَينك ، فأخذ الرجل تلك الحصاة ، وجاء بها إلىٰ صديق له جوهري ، فدفعها إليه ، فقال له : ليس هـٰذا وقت بيعها ، إن صبرت عليها . . رجوت أن أبيعها بالضعف من الساعة ، فغاب عنه نحو شهر ، ثم جاء إليه ؛ فإذا هو قد باعها بألف وأربع مئة دينار .

وقال يوسف بن الحسين : سأل رجل ذا النون عن التوحيد ، فقال : هو أن تعلم أن قدرة الله في الأشياء بلا مزاج ، وصُنْعه الأشياء بلا علاج ، وعلة كل شيء صُنْعُهُ ، ولا علة لصنعه ، ومهما تُصُوِّر في نفسك أو جال في فكرك . . فالله عز وجل بخلافه .

وقال : إن الله يريد من خلقه قرب القلوب لا عمل الجوارح .

وقال ذو النون : إن الله عز وجل لم يمنع الجنة أعداءه بخلاً ـ حاشا كرمه سبحانه وتعالىٰ ـ وإنما منعهم ليصون أولياءه الذين أطاعوه عن أن يجمع بينهم وبين أعدائه الذين عصوه في دار واحدة .

وسئل عن السفلة ، فقال : مَن لا يعرف الطريق إلى الله سبحانه وتعالىٰ ولا يتعرفه .

وقال : قل لمن أظهر حب الله عز وجل : احذر أن تذل لغير الله سبحانه وتعالىٰ .

ومِن علامة المحب لله عز وجل : ألاَّ يكون له حاجة إلىٰ غير الله عز وجل .

وقال : البلاء ملح المؤمن ، إذا عدم البلاء . . فسد حاله ، نسأل الله تعالى العفوَ والعافية .

وقال : إذا اطلع الخبير على الضمير ، فلم ير في الضمير غير الخبير سبحانه وتعالىٰ . . جعل فيه سراجاً منيراً .

وقال : أقوىٰ أسباب الإخلاص الوحدة .

وقال في « المناقب » : قال ذو النون ركضَتْ أرواح الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين في ميدان المعرفة ، فسبقت روحُ نبينا سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم إلىٰ روضة الوصال .

وقال : عليك بمعاشرة العارف ؛ فإنه قد تخلق بخلق من أخلاق سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وهو الاحتمال والحلم .

وقال ذو النون : أعرَف الناس بالله تعالىٰ . . أشدهم تحيراً فيه ، فقيل له : بمَ عرفت ربك ؟ فقال : عرفت ربي بربي ، ولولا ربي . . ما عرفت ربي .

ولكل شيء عقوبة ، وعقوبة العارف . . انقطاعه عن ذِكر الله عز وجل .

وتذاكروا يوماً عند ذي النون المحبة ، فقال : كفوا عن هـٰذه المسألة ؛ كيلا تسمعها النفس ، فتدَّعيها ، وأنشأ يقول :

الخـــوف أولـــىٰ بـــالمســـي ـءِ إذا تنـــاولـــه الحـــزَنْ
والحـــب يجمـــل بـــالتقـــيِّ وبـــالنقـــيِّ مـــن الـــدَّرَنْ

وقال أحمد : لما دخل ذو النون بغداد . . اجتمع إليه المشايخ ، ومعهم قوال ، فاستأذنوه أن يقول بين يديه شيئاً ، فأذن ، فابتدأ ينشد :

صغيـــرُ هـــواك عَـــذَّبنـــي ... فكيـــف بـــه إذا احتنكـــا[1]

وأنـــت جمعـــت فـــي قلبـــي ... هـــوىً قـــد كـــان مشتـــركـــا

أمـــا تـــرثـــي لمكتئـــب ... إذا ضحـــك الخلـــيُّ بكـــىٰ

قال : فقام إليه ذو النون ، وتواجد ، وسقط علىٰ وجهه والدم يقطر عن جبينه ، ولا يسقط على الأرض ، ثم قام رجل من القوم يتواجد ، فقال له ذو النون : ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ ، فجلس الرجل في الحال .

وقال يوسف بن الحسين : سألت ذا النون : ما علامة الأخوة في الله تعالى ؟ قال : ثلاث خصال : الصفاء ، والتعاون ، والوفاء ، فالصفاء في الدِّين ، والتعاون في المواساة ، والوفاء عند البلاء . انتهىٰ .

وقال : ليكن آثَر الأشياء عندك وأحبها إليك . . إحكام ما افترض الله تعالىٰ عليك ، واتقاء ما نهاك عنه ؛ فإن ما تعبَّدَك الله به خير لك وأفضل مما تختاره لنفسك من أعمال البر التي لم تجب عليك ، وأنت ترىٰ أنها أبلغ لك فيما تريد ، كالذي يؤدب نفسه بالفقر والتذلل وما أشبه ذلك .

وإنما ينبغي للعبد أن يراعي أبداً ما وجب عليه من فرض ، فيحكمه علىٰ تمام حدوده ، وينظر إلىٰ ما نهي عنه ، فيجتنبه علىٰ إحكام ما ينبغي ، فإن الذي قطع العباد عن ربهم عز وجل ومنعهم أن يذوقوا حلاوة الإيمان وعن أن يبلغوا حقائق الصدق . . تهاونهم عن إحكام ما فرض الله عليهم في قلوبهم ، وأسماعهم ، وأبصارهم ، وبطونهم ، وفروجهم ، ولو أحكموا هـٰذه الأشياء . . لدخل عليهم البر دخولاً تعجز أبدانهم وقلوبهم عن حمل ما أكرمهم الله عز وجل به .

وقال يوسف بن الحسين : بلغني أن ذا النون يعلم اسم الله الأعظم ، فخرجت من مكة قاصداً إليه ، فلما وافيته في جيزة مصر . . سلمت عليه ، فرد السلام ، ولم أر منه تلك البشاشة ، فجلست ، فلما كان بعد يومين أو ثلاثة . . جاءه رجل من المتكلمين ، فناظره في

---

(١) احتنك : استحكم .

شيء من الكلام ، فاستظهر علىٰ ذي النون ، فاغتنمت ذلك ، وبركت بين أيديهما ، واستملت المتكلم إلي وناظرته حتىٰ قطعته ، ثم ناظرته بشيء لم يفهم فيه كلامي ، فتعجب ذو النون من ذلك ، وكان ذلك الرجل شيخاً وأنا شاب ، فقام من مكانه ، وجلس بين يدي ، وأخذ في الاعتذار : بأني لم أعرف محلك من العلم ، وما زال ذو النون بعد ذلك يجلني ويكرمني ويرفعني علىٰ أصحابه ، فبقيت علىٰ ذلك سَنة ، فقلت له بعد ذلك : يا أستاذ ؛ أنا رجل غريب ، وقد اشتقت إلىٰ أهلي ، وقد خدمتك سَنة ، وقد وجب حقي ، وقد قيل لي : إنك تعرف اسم الله الأعظم ، وقد جربتني وعرفت أني أهل لذلك ، فإن كنتَ تعرفه . . فعلمني إياه ، قال : فسكت عني ولم يجبني إلىٰ ستة أشهر ، ثم قال لي : يا أبا يعقوب ؛ أليس تعرف فلاناً صديقنا بالفسطاط ؟ فقلت : بلىٰ ، قال : فأَخْرَجَ لي من بيته طبقاً فوقه مكبَّة مشدودة بمنديل ، وقال لي : أوصل هـٰذا إلىٰ صديقنا فلان ، قال : فأخذت الطبق لأؤديه ؛ فإذا الطبق خفيف يدل علىٰ أنه ليس فيه شيء ، فلما بلغت الجسر الذي بين الفسطاط والجيزة . . قلت في نفسي : ذو النون يرسل هدية في طبق خفيف ، لأبصرن أيش فيه ، فكشفت الغطاء ، فإذا فأرة قفزت من الطبق وهربت وذهبت ، قال : فاغتظت ، وقلت : سخر بي ، ولم يذهب وهمي إلىٰ ما أراد ، قال : فجئت إليه وأنا مغضب ، فلما رآني . . تبسم وعرف القصة ، وقال : يا مجنون ؛ ائتمنتك علىٰ فأرة . . فخنتني ، فكيف أأتمنك على اسم الله الأعظم ؟! قم فارتحل عني . انتهىٰ .

وقال في « المناقب » : قال العباس بن حمزة : دخلت علىٰ ذي النون وعنده جماعة من المريدين ، وهو يقول : توسدوا الموت إذا نمتم ، واجعلوه نصب أعينكم إذا قمتم ، وكونوا كأنكم لا حاجة بكم إلى الدنيا ، ولا بد لكم من الآخرة .

وقال : إن قوماً عبدوا الله سبحانه وتعالىٰ بالخالص من الصدق فأوصل إليهم الخالص من البر .

وقال : متىٰ أردت الخدمة لله عز وجل . . فاعقل لمن تخدُم ثم اخدم .

وقال : الناس كلهم موتىٰ[1] إلا العلماء ، والعلماء كلهم نيام إلا العاملون ، والعاملون كلهم مغترون إلا المخلصون ، والمخلصون علىٰ خطر عظيم ؛ قال الله عز وجل : ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ . انتهىٰ .

---

(١) في بعض النسخ : (عيال) .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ قدس الله روحه ـ : قال ذو النون : حقيقة السخاء : ألاَّ تلوم من منعك علىٰ ذلك الشيء ؛ لأن لومك إياه يدل علىٰ أن لذلك الشيء حقيقة وقدراً عندك ، ولو كان هيناً عليك . . لَما اشتغلت بلومه علىٰ منعك إياه ، ثم أنشأ يقول :

كريم كصفو الماء ليس بباخلٍ بشيءٍ ولا مُهدي ملاماً لباخلِ[1]

وقال في « المناقب » : رأىٰ ذو النون داراً تبنىٰ شاهقة في الهواء ، وإذا شاب فيها يأمر وينهىٰ ، فقال له ذو النون : أيها المغرور بدار الغرور ، اللاهي عن دار البقاء والسرور . . كيف لا تشتري من مولاك جل جلاله داراً في دار الأمان ، داراً لا ينزعج فيها السكان ، ولا يضيق فيها المكان ، ولا تشعثها حوادث الزمان ، ولا تحتاج إلىٰ بنَّاء وطيَّان ، وتجمع هـٰذه الدار حدود أربع :

فالحد الأول : ينتهي إلىٰ منازل الراجين المحزونين .

والحد الثاني : ينتهي إلىٰ منازل الخائفين .

والحد الثالث : ينتهي إلىٰ منازل المحبين .

والحد الرابع : ينتهي إلىٰ منازل الفائزين .

وشرع لهـٰذه الدار شارع إلىٰ خيام مضروبة ، وقباب منصوبة علىٰ شاطىء أنهار الجنان ، في ميادين قد أشرقت ، وغرف قد رفعت ، فيها فرش علىٰ سرر قد نضدت ، قد جرت فيها أنهار من عسل ، وقد علاها كتائب مسك وزعفران ، قد عانقوا خيرات حسان ، هـٰذا ما اشترى العبد المجبور من الملك العزيز الغفور ، اشترىٰ منه سبحانه وتعالىٰ جميع الدار بالتنقل من ذل المعصية إلىٰ عز الطاعة ، فما أدرك هـٰذا المشتري من نقص فبنقض العهود وحل العقود ، وشهد علىٰ ذلك محكم القرآن : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

وقال ذو النون : أدنىٰ منازل الأنس بالله عز وجل أنه لو ألقىٰ عبده في النار . . لا يغيب همه عن الله سبحانه وتعالىٰ .

---

(١) الحلية (٩/ ٣٩١) ، وفي النسخ : (سلاماً) بدل (ملاماً) .

وقال : الخوف رقيب العمل ، والرجاء شفيع المحن .

وقال : العارف لا يلزم حالة واحدة ، وإنما يلزم ما فيه رضا ربه سبحانه وتعالىٰ في الحالات كلها .

وقال : العارف في كل يوم أخشع ؛ لأنه في كل ساعة أقرب .

أسند ذو النون عن مالك ، والليث بن سعد ، وسفيان بن عيينة ، وغيرهم ، وشغلته الرعاية عن الرواية . انتهىٰ .

وقال القشيري : كلموا ذا النون وهو في النزع ، فقال لهم : لا تشغلوني ؛ فإني متعجب من كثرة لطف الله سبحانه وتعالىٰ بي . انتهىٰ [« الرسالة » ٢٤١] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : ذو النون ابن إبراهيم أبو الفيض ، أصله من النوبة ، وكان من إخميم ، فنزل مصر ، ويقال : اسمه الفيض ، وذو النون لقب ، وكان أبوه إبراهيم مولىٰ لإسحاق بن محمد الأنصاري رحمهم الله ، وكان له أربعة بَنين : ذو النون ، وذو الكفل ، وعبد الباري ، والهميسع .

قال ابن الجلاء : لقيت مئة[1] شيخ ، ما لقيت مثل أربعة ، منهم : ذو النون .

وسأله رجل أن يوصيه ، فقال له : لا تشغلك عيوب الناس عن عيوب نفسك ، لست عليهم برقيب ، ثم قال : إن أحب عباد الله إلى الله عز وجل . . أعقلهم عنه .

توفي بالجيزة ، وحُمل في مركب إلى الفسطاط ؛ خوفاً عليه من زحمة الناس على الجسر ، وذلك في يوم الاثنين لليلتين خلتا من ذي القعدة الحرام ، سَنة ست وأربعين ومئتين رحمه الله . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ٢٢٢ـ٢٢٧] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : رأيت في بعض المجاميع : أن ذا النون قال : دخلت المدينة ، فرأيت شيخاً قد اجتمع الناس إليه ، وهو يتكلم عليهم ، فقلت له : عظني ، فقال : الأمر مبني علىٰ أسباب : حفظ اللسان مع الورع ، والخوف والرجاء مع المراقبة ، والرضا والتسليم مع المشاهدة ، وترك الاعتراض ظاهراً وباطناً ، ثم معرفة عظمة الربوبية ، ومعرفة حقارة العبودية ، مع دوام المجاهدة[2] ، ثم الوقوف علىٰ قدم الفقر والذلة

---

(١) في « الحلية » ، و« الصفوة » : (لقيت ست مئة شيخ) .

(٢) في نسخة : (المشاهدة) .

والفاقة في الدياجي[1] ، ثم حفظ الأدب في مناجاة الخلوة ، ثم البكاء دمعاً ودماً علىٰ فوات الحظ من الله سبحانه وتعالىٰ ، ثم التأسف والحسرة علىٰ زمان البطالة .

وكان ذو النون يقول : ثلاثة موجودة ، وثلاثة فيها مفقودة :

ـ العلم موجود ، والعمل بالعلم مفقود .

ـ والعمل موجود ، والإخلاص [فيه] مفقود .

ـ والحب موجود ، والصدق فيه مفقود .

وقال محمد بن الحسن الجوهري رحمه الله : سمعت ذا النون يقول : ينبغي لمن علم أن له مقاماً بين يدي الله عز وجل وأنه يُسأل عما أسلف في هـٰذه الدار . . ألاَّ يؤثر الحقير على الجزيل ، ولا التأني والتقصير على الجد والتشمير ، لا سيما إذا كان ممن أيده الله عز وجل بإتقان العلم ، ولقح عقله بدلالات الفهم ، حتىٰ لا يتحير في ظلمة الغفلة التي يتحير فيها الجاهلون ، والعَجَب كل العجب لأهل هـٰذه الصفة كيف استوحشوا من طاعة الله عز وجل ، وأنسوا بغيره ، وركنوا إلى الدنيا مع تقلب حالاتها وكثرة آفاتها ، وما زادتهم الدنيا إلا هواناً ، ولا ازدادوا لها إلا إكراماً ، فما من مستيقظ من وسنته يقلع ويخلع الغل من عنقه والرين[2] من قلبه ، فما أضر التسويف بعسىٰ ولعل وأرجو ، فكابدوا التسويف بالعزم ، وبادروا التفريط بالحزم ؛ فقد وضح لكم الطريق ، والله المستعان .

وسئل عن أعوَن الأشياء علىٰ تسكين الشهوة ، فقال : قيام الليل ، وصيام النهار ، وصرف الشهوات ، والإعراض عنها ، وقطع مادة الأسباب منها جهده ، وتسليتها بالهموم والأحزان ، وتسكين سلطانها بذِكر الموت ؛ فإن القوم ما وجدوا شيئاً هو أعوَن لهم على الزهد فيها والانقطاع عنها من ذِكر الموت ، وتقريب الأجل ، وقصر الأمل ، وكل ما شغل القلوب ، فاقطع الشهوات ، واستقبل المراقبة لمن هو عليك رقيب ، والمحافظة علىٰ طاعة من هو عليك حسيب ، واسألِ الله التوفيق .

وسئل : أي الأحوال أغلب علىٰ قلب العارف السرور أو الحزن ؟ فقال : ليس هناك حالة يشار إليها دون حالة ، ولا سبب دون سبب .

---

(١) **الدياجي** : الظلمات .

(٢) **الرَّين** : الدنس .

ومثال ذلك : أن العارف في هـٰذه الدار كمثل رجل قد تُوِّج بتاج الكرامة ، وأجلس علىٰ سرير في بيت ، وعُلِّق علىٰ رأسه سيف معلق بشعرة ، وجُعل على الباب سَبُعانِ ضارِيانِ يشرفانه ساعة بعد ساعة ، فأنَّىٰ له السرور أو الحزن ؟!

قال بعض المشايخ قدس الله روحه : السيف المعلق علىٰ رأسه هو سلوك الاستقامة ، والأسَدان على الباب هما الأمر والنهي . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو الحسن أحمد ابن أبي الحواري
رضي الله عنه

قال في « بهجة الأسرار » : قال أحمد : أفضل البكاء . . بكاء العبد علىٰ ما فاته علىٰ غير الموافقة ، أو علىٰ ما سبق له من المخالفة .

وقال : من عمل بلا سُنة . . فباطلٌ عمله .

وقال : من عرف الدنيا . . زهد فيها ، ومن عرف الآخرة . . رغب فيها ، ومن عرف الله عز وجل . . آثر رضاه علىٰ كل شيء سواه .

وقال : من لم يعرف نفسه . . فهو من دِينه في غرور .

وقال : ما ابتلي عبد بشيءٍ أشد من الغفلة والقسوة .

وقال : إذا مرض قلبك بحب الدنيا وكثرة الذنوب . . فداوه بالزهد والتوبة النصوح .

وقال : إذا رأيت من نفسك قسوة . . فجالس الذاكرين ، وأقلل مطعمك ، واجتنب مرادك ، ورُض نفسك على المكاره .

وجاءه رجل فقال : يا أبا الحسن ؛ ولد لي البارحة مولود وما عندي شيء ، فقال له أحمد : ما أصبحتُ أملِكُ من الدنيا غير هـٰذين القميصين ، فانظر أيُّهما أصلح . . فخذه ، وأظن أن التحتاني أَجَدُّ وأَجْوَدُ فخذه ، قال : فاعتزلنا إلىٰ حائط المسجد ، ونزع قميصه ، وأعطاه الرجل .

قال : وخرج أحمد من باب جيرون[1] ، فلما صار على الدرج . . لقيه رجل ، فسلم عليه ، وقال له : عمير بن جوصا[2] يسلم عليك ، ويقول لك : هـٰذه ثلاثون ديناراً انتفع بها ، فقال أحمد : انظر إلىٰ هـٰذا الكرَم العظيم ، أَعطَيتُ قميصاً وَجَّهَ إلي ثلاثين ديناراً ،

---

(١) **باب جيرون** : باب دمشق ، « معجم البلدان » (٢/ ١٩٩) .

(٢) وهو أحد المحدثين الحفاظ الدمشقيين .

ما هـٰذه الغفلة ؟! ثم صرخ صرخة عظيمة ، وخر مغشياً عليه ، فلو لم نمسكه . . لتهشَّم وجهه .

وقال سعيد بن عبد العزيز الحلبي : كان أحمد ابن أبي الحواري كريم النفس ، حسن الأخلاق ، ليس للدنيا عنده قدر ولا قيمة ، وكان يعطي كثيراً ، ولا يأخذ كثيراً ، مثاله : له علىٰ شخص درهم ونصف يأخذ درهماً ولا يأخذ النصف ، وإن كان عليه درهم ونصف . . يعطي درهمين .

وجاءه مولود وليس عنده شيء ، فقال لبعض أصحابه : اذهب إلىٰ فلان ، فاشتر لنا دقيقاً بنسيئة ، فلما قام ليخرج . . دخل عليه غلام بعض التجار ومعه مئتا درهم ، وقال له : إن أستاذي يسلم عليك ، ويقول : إني نذرت إن سلَّم الله عز وجل بضاعتي . . دفعت إليك مئتي درهم ، وقد سلَّم الله عز وجل بضاعتي ، وهـٰذه مئتا درهم ، فلم يتم الغلام كلامه حتىٰ دخل شخص من أصحاب أحمد ، فقال : يا سيدي ؛ ولد لي مولود وما عندي شيء ، فقال له أحمد : خذ هـٰذه الدراهم كلها ، وقال لتلميذه : امض فاشتر لنا دقيقاً بنسيئة . انتهىٰ .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : قال أحمد ابن أبي الحواري : قال لي أبو سليمان الداراني : هل يكون فوق الصبر منزلة ؟ فقلت : نعم ، قال : فانتفض ، ثم قال : إذا كان الصابرون يُعطَون أجرهم بغير حساب . . فكيف يكون أجر الآخرين ؟!

وقال أحمد : مَن نظر إلى الدنيا نظرَ إرادةٍ وحبٍّ لها . . أخرج الله عز وجل نور اليقين والزهد من قلبه .

وقال : لا دليل على الله عز وجل سواه ، وإنما العلم يُطلَب لآداب الخدمة .

وقال أحمد : سمعت بشر بن السري يقول : ليس من أعلام الحب أن تحب ما يبغضه حبيبك .

قال أحمد : وعلامة حب الله عز وجل . . حب طاعته ، وقيل : حب ذِكر الله سبحانه وتعالىٰ ، وإذا أحب الله تعالىٰ عبداً . . أحب ذكر الله عز وجل ، ولا يستطيع عبد أن يحب الله سبحانه وتعالىٰ حتىٰ يكون الابتداء منه بالحب ، وذلك حين يعلم سبحانه وتعالىٰ من عبده الاجتهاد في مرضاته عز وجل .

وقال أحمد : مَن عرف الدنيا . . زهد فيها ، ومن عرف الآخرة . . رغب فيها ، ومن عرف الله عز وجل . . آثر رضاه ، ومن لم يعرف نفسه . . فهو من دِينه في غرور .

وقال أحمد : إذا حدثتْك نفسك بترك الدنيا عند إدبارها . . فهو خدعة ، وإذا حدثتك بتركها عند إقبالها . . فذاك .

وقال أحمد : ما ثَمَّ رتبة أعلىٰ من أن يجعل العبد حَيْلَه وقوَّته واجتهاده في محبة الله عز وجل وابتغاء رضوانه .

وقال : نعيم أهل الجنة برضوان الله سبحانه وتعالىٰ أفضل من نعيمهم بما في الجنان ، يدل لذلك الحديث الثابت في الصحيح[1] . أو كما قال .

وقال أحمد : ناظرت أبا سليمان في الحديث الذي جاء : « أول زمرة تُحشَر إلى الجنة . . الحمادون لله علىٰ كل حال »[2] ، فقال : ويحك! ليس هو أن تحمده على المصيبة وقلبك معتصر عليها ، فإذا كنت كذلك . . فأرجُ أن تكون من الصابرين ، ولٰكن أن تحمده وقلبك مسلِّم راض .

وقال أحمد : سمعت محموداً يقول : سبحان من لا يمنعه عظيم سلطانه عن أن ينظر في صغير سلطانه .

وقال أحمد : حدثني عبد الخالق بن جبير قال : سمعت أبا موسى الطرسوسي يقول : ما تفرغ عبد من عبيده لله عز وجل ساعة . . إلا نظر الله تعالىٰ إليه بالرحمة .

وقال يوسف بن الحسين : طلب أحمد ابن أبي الحواري العلم ثلاثين سنة ، فلما بلغ منه الغاية . . جلس للناس ، فخطر بقلبه ذات يوم خاطر من قِبَل الحق جل جلاله ، فحمل كتبه إلىٰ شط الفرات ، وجلس يبكي ساعة طويلة ، ثم قال : نِعم الدليل كنتِ لي علىٰ ربي سبحانه وتعالىٰ ، ولٰكن لَمَّا ظفرت بالمقصود . . فالاشتغال بعد ذلك بالدليل مَحال ، ثم غسل كتبه في الفرات . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/٦] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : فإن قلتَ : أنا أعلم أن إقدامه علىٰ هٰذا الفعل ـ وهو غسل كتبه ـ إنما هُو لمحض التقوىٰ والمحافظة على الورع ، ولٰكن كنتُ أودُّ أن

---

(١) أخرج البخاري (١٦٨٣) ، ومسلم (٢٨٢٩) : عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تبارك وتعالىٰ يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا نرضىٰ وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ؟! فيقول : أنا أعطيكم أفضل من ذلك ، قالوا : وأي شيء أفضل من ذلك ؟! فيقول : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً » .

(٢) أخرجه بنحوه الطبراني في « الأوسط » (٣/ ٢٤٠) .

أعرف الدليل المسوِّغ له الإقدام علىٰ هـٰذا الفعل أولاً ، وعلىٰ كونه لمحض التقوىٰ والورع ثانياً . . **قلتُ** : هـٰذان مقامان : **أحدهما** : صعب المرام عزيز المسلك ، **وثانيهما** : سهل المأخذ والمدرك .

وسنتكلم عليهما إن شاء الله عز وجل بحسب ما أفاضه الله عز وجل علينا من عِرفانهم ، وقبل الشروع في بيانهما لا بد من قاعدة يتمهد بها المقصود ويتضح في هـٰذا وأمثاله ، وهي : أن كلَّ ما وجدته من قول أو فعل في كلام الأئمة المجمع علىٰ ولايتهم . . فابحث عن طريقه أولاً حتىٰ يصح عنهم ، ولا تغترَّ بما تراه مسطوراً في كتب القوم ؛ لاشتمالها علىٰ ما لا يصح عنهم بطريق .

ثم بعد ذلك ابحث عن الباعث لهم علىٰ ذلك ثانياً[1] .

واعلم على الجملة : أنه متىٰ صح عنهم شيء من هـٰذه الأفعال . . فإن الباعث لهم علىٰ ذلك إنما هو محض التقوىٰ لا غير ، وقصور فهمي وفهمك عن دَرَك ذلك لا يضرهم ولا يؤثر في صحة مقصودهم ؛ فإن عدم العلم بالشيء لا يدل على العدم ولا على الوجود ، وكوني أنا مثلاً عجزت عن إقامة الدليل علىٰ مذهب الشافعي رحمه الله في مسألة . . لا يدل علىٰ بطلان ذلك الحكم فيها ، ولا علىٰ كون إمامي الشافعي رحمه الله لا يقدر علىٰ إقامته فيها ، وهـٰذا كله واضح غني عن البيان ، إذا عرفت هـٰذا . . فاعلم أن الدليل المسوِّغ له ذلك من وجوه :

أولها وأعظمها : ما رُوِّيناه عن البخاري في « صحيحه » [٢١٦٩] في باب الكفالة في القرض والديون بالأبدان وغيرها : (وقال الليث : حدثني جعفر بن ربيعة ، عن عبد الرحمـٰن ابن أبي هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ذَكر رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار ، فقال : ائتني بالشهداء أُشهِدْهم ، فقال : كفىٰ بالله شهيداً ، قال : فأتني بالكفيل ، قال : كفىٰ بالله كفيلاً ، قال : صدقتَ ، فدفعها إليه إلىٰ أجل مسمىٰ ، فخرج في البحر ، فقضىٰ حاجته ، ثم التمس مركباً يقدم عليه

---

(١) وقد نقل عن غيره من الأئمة دفن كتبهم فصار في ذلك التأويل لازماً ، ومما يذكر في هـٰذا :
ـ أن من الأئمة الذين دفنوا كتبهم . . كانوا لا يرون نقل العلم وجادة ، والوجادة : وهي أن يجد الراوي أحاديثاً في كتب أصحابها ومن ثم يرويها .
ـ خشية هـٰؤلاء الأئمة من أن تقع كتبهم في يد إنسان واهٍ ، فيزيد فيها أو يغيرها .
انظر « سير أعلام النبلاء » (١١/ ٣٧٧) وللاستزاده في ذلك تابع ما قاله المؤلف رحمه الله في هـٰذا الشأن ، ففيه مزيد تفصيل ، والله أعلم .

للأجل الذي أَجَّله ، فلم يجد مركباً ، فأخذ خشبة ، فنقرها ، فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلىٰ صاحبه ، ثم زجج[1] موضعها ، ثم أتىٰ بها إلى البحر ، فقال : اللهم ؛ إنك تعلم أني كنت تسلفت من فلان ألف دينار ، فسألني كفيلاً ، فقلت : كفىٰ بالله كفيلاً ، فرضي بك ، وسألني شهيداً ، فقلت : كفىٰ بالله شهيداً ، فرضي بك ، وأني جهدت أن أجد مركباً أبعث إليه الذي له فلم أقدر ، وإني استودعتكها ، فرمىٰ بها في البحر حتىٰ ولجت فيه ، ثم انصرف وهو في ذلك يلتمس مركباً يخرج إلىٰ بلده ، فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركباً قد جاء بماله ؛ فإذا بالخشبة التي فيها المال ، فأخذها لأهله حطباً ، فلما نشرها . . وجد المال والصحيفة ، ثم قدم الذي كان أسلفه ، فأتىٰ بالألف دينار ، فقال : والله ؛ ما زلت جاهداً في طلب مركب لآتيك بمالك . . فما وجدت مركباً قبل الذي أتيت فيه ، [قال : هل كنت بعثت إليَّ بشيء ؟ قال : أخبرك أني لم أجد مركباً قبل الذي جئت فيه] ، قال : فإن الله قد أدىٰ عنك الذي بعثت في الخشبة ، فانصرِفْ بالألف دينار راشداً) انتهىٰ .

وفي رواية غير البخاري : (فقال : انطلق حتىٰ أدفعها إليك ، فلما جاء بالدنانير ليدفعها . . قال : أمَا إنّ الكفيل سبحانه وتعالىٰ قد أداها إلي) .

قال أبو هريرة : (فكنا نتعجب أي الرجلين أوفىٰ) .

ولا يخفىٰ وجه الدلالة من هـٰذا الحديث الصحيح الصريح ، لـٰكن بشرط الصدق وصحة القصد والاجتهاد في مرضاة الله سبحانه وتعالىٰ ، وهـٰذا مقام عزيز لا يصح إلا لمن اختصه الله عز وجل وأكرمه بولايته ، كصاحب هـٰذه الترجمة وأمثاله من الأئمة المجمع علىٰ ولايتهم ، سواء كانوا في كتابي هـٰذا أو لم يكونوا فيه ؛ فإني لم أستوعب جميع الأولياء فيه ، وقد تقدم بيان العذر عن ذلك في ديباجة الكتاب ، وهو عدم إمكان الإحاطة بهم رضوان الله عليهم أجمعين .

وفي هـٰذا الحديث أيضاً دليل لما فعله خيرٌ النَّسَّاج وإبراهيم الخواص من إلقاء الدرهمين في دجلة ، وإلقاء القفاف في النهر ، لـٰكن علىٰ نهج آخَر أذكره في تراجمهما إن شاء الله عز وجل .

والمعنى الجامع في الكل : حصول الصدق مع الله عز وجل ، وصحة القصد له سبحانه وتعالىٰ ، وهـٰذا كافٍ في مقام التسويغ .

---

(١) زجج : سوىٰ موضع النقر ، وأصلحه .

وأما المقام الثاني ـ وهو معرفة الوقوف علىٰ مدارك الأئمة رحمهم الله فيما صدر عنهم من ذلك من قول أو فعل ـ : فهيهات هيهات! فإنه صعب المرام ، عزيز المدرك ، وَعِرُ المسلك ، والوصولُ إليه ليس بالهين علىٰ مثلي وأمثالي ، ولٰكن مجمل ما أقول فيه ـ بحسب فهمي القاصر ، وعقلي الضعيف ـ : أن القوم رضوان الله عليهم لما عزفت نفوسهم عن الدنيا ، وَصَفَّوا سرائرهم ، وقطعوا النظر عما سوى الله سبحانه وتعالىٰ ، بحيث إنهم لم يبق لهم هَمٌّ ولا مقصود إلا الله تعالىٰ ؛ قطعوا كل قاطع يَشغَلهم عن الله سبحانه وتعالىٰ ، وألزموا أنفسهم الاجتهاد في طاعته ولزوم عبادته ـ مع قطعهم النظر عنها ـ ويرون النعمة العظمىٰ عليهم فيها ، والمنة الكبرىٰ لله عز وجل عليهم في تلك العبادة . . أعظم من العبادة ، حتىٰ تغرق عبادتهم في المِنَّة . . لا جرم حفظ الله عز وجل عليهم سرائرهم وجوارحهم وسائر أفعالهم ، حتىٰ إن أحدهم ليصير كما جاء في الحديث الصحيح : « من عادىٰ لي ولياً . . فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحبَّ إلي مما افترضت عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل . . حتىٰ أحبه ، فإذا أحببته . . كنت سمعَه الذي يسمع به ، وبصرَه الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني . . لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن ؛ يكره الموت ، وأنا أكره مساءته »[1] .

وفي الحقيقة : أنه سبحانه وتعالىٰ هو الذي أنعم عليهم ووفقهم لأعمال الطاعات ، وأقدَرَهم علىٰ فعلها ، وأسبغ عليهم نعمَه ظاهراً وباطناً ، أولاً وآخراً ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ ، فله الحمد عدد عفوه عن خلقه ، وعدد ما أحصىٰ علمُه ، ونسأله من فضله العميم ـ والله ذو الفضل العظيم ـ أن يفيض علينا مِن عرفانهم وبركتهم ، ويرزقنا ما رزقهم ، إنه قريب مجيب .

ومما يدل علىٰ صحة هٰذا المعنىٰ وأنه هو المراد والله أعلم : ما رأيته في كتاب « بهجة الأسرار » : عن أبي يعلى الموصلي رحمه الله أنه قال : ما أعلم أحداً من أصحاب الحديث انتفع بكتابة الحديث غير صاحب لي ، قيل له : كيف كان ذلك ؟ قال : كان لي رفيق رحلنا جميعاً في طلب العلم ، فدخلنا البصرة وكتبنا كثيراً ، فلما كان في بعض الأيام . . قال لي : يا أخي ؛ هل لك في هٰذه الكتب التي عندي حاجة ؟ قلت : أيش الخبر ؟ قال : كان يبعثني

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٣٧) .

علىٰ طلب العلم شيء ، وقد وجدته ، فاشتغلَ بالعبادة ، وتركها عندي ، وفارقني . انتهىٰ .

وثانيها ـ مما يشترك فيه الجواز والورع ـ : يحتمل أن يكون أحمد ابن أبي الحواري رحمه الله إنما غسل تلك الكتب ؛ لأنها كانت مسودات ، ولم يتفرغ لتهذيبها وتحريرها ، وهـٰذا عذر آخر أيضاً لسفيان رحمه الله في غسل بعض كتبه إن صح عنه ، لـٰكن لم أجد ذلك عنه بسند صحيح .

والمقصود الآن إنما هو بيان عذر أحمد ابن أبي الحواري رحمه الله في غَسل كتبه ، ولا شك أن مثل هـٰذا مما يسوِّغ الإقدام على الغسل ، ومنشؤه الورع علىٰ ما لا يخفىٰ ، فإنَّ غسل ما لم يتهذب ويتحرر . . أولىٰ مِن إبقائه ، وهو صنيع جميع الأئمة ، وعليه عملهم .

وثالثها : يحتمل ـ والله أعلم ـ أن يكون ذلك الغَسل إنما وقع ؛ لأنه كتب تلك الكتب في الابتداء قبل إحكام باب التقوىٰ ، ويدل علىٰ ذلك قوله : فخطر علىٰ قلبه خاطر من قِبَل الحق سبحانه وتعالىٰ ، كأنه ـ والله أعلم ـ حصول شيء من الرياء أو الإعجاب بها ، أو غير ذلك مما يقدح في الإخلاص ، فرأىٰ تعفية ما هـٰذا سبيله أولىٰ وأحرىٰ .

ورابعها : أن حركات الولي كلها بالله سبحانه ولله ، وهو محفوظ في حركاته وسائر أفعاله كما تقدم ، وهـٰذه الواقعة لم تعرف الحال فيها كيف هو ؟ والظاهر ـ والله أعلم ـ أنه إنما أقدم على الغَسل ؛ لابتغاء مرضاة الله سبحانه وتعالىٰ .

هـٰذا مما أقطَعُ به وأَدِين الله عز وجل به ، ويدل عليه وقوفه عند الشط ساعة طويلة ، وكثرة بكائه ، وقوله : نِعم الدليل كنتِ لي علىٰ ربي عز وجل ، فوقوفه تلك الساعة الطويلة إنما كان للتفكر[1] فيما يسوِّغ له الإقدام علىٰ ما أراد فعله من غسل الكتب ، فلما صح له الدليل علىٰ ذلك . . أقدم عليه .

وخامسها ـ وهو مشرب جميع العارفين ـ : إنما هو عزوفهم عن الدنيا ، وقطع كلِّ قاطع يقطعهم عن الله سبحانه وتعالىٰ ؛ لتصفو لهم المعاملة مع الله سبحانه وتعالىٰ ، كما قال حارثة رضي الله عنه : (عزفت نفسي عن الدنيا . . .) الحديث ، فشأن العارفين العزوف عن الدنيا بكل طريق ، وقطع كل ما يقطعهم عن الله عز وجل حتىٰ مِن أهل ومال وولد ، ويدل علىٰ أن هـٰذا كان مقصود أحمد ابن أبي الحواري رحمه الله . . قولُهُ عند غسل الكتب : نِعم الدليل كنتِ لي علىٰ ربي ، ولـٰكن لما ظفرت بالمقصود . . الاشتغال بعد ذلك بالدليل مَحال ؛

---

(١) في النسخ : (للفكر) ولعل الصواب ما أثبت ، والله أعلم .

أي : فلا أشتغل بالدليل عن المدلول ؛ لأن المدلول مقصود لذاته والدليل وسيلة إليه ، ولا حاجة إلى الوسائل بعد حصول المقاصد ، وهـٰذا ـ كما قلنا ـ هو مشرب جميع العارفين رحمهم الله أجمعين .

وسادسها : يحتمل ـ والله أعلم ـ أن يكون ذلك لمعنىً آخر غامض لطيف ، صرح به الإمام أبو القاسم الجنيد رحمه الله ، وفعله في آخر عمره فيما حكاه عنه في كتاب « بهجة الأسرار » ، فإنه روىٰ عن أبي الحسن علي بن محمد بن حاتم قال : لما حضر الجنيدَ الوفاة . . أوصىٰ أن يدفن جميع ما هو منسوب إليه من علمه ، فقيل له : ولِمَ ذاك ؟ فقال : أحببت ألاَّ يراني الله عز وجل وقد تركت شيئاً منسوباً إلي ، وعِلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ظهرانيهم .

ويحتمل معنىٰ آخر ، وهو : أن يكون الباعث لأحمد ابن أبي الحواري رحمه الله علىٰ غسل تلك الكتب ما حكاه لي بعض الصالحين عن والده ـ وكان من علماء خراسان وصلحائها ـ فاتفق أن كتبه غرقت ، فجاء الناس إليه يأخذون بخاطره ويسلونه ، وهو ساكت مطرق الرأس ، لا يرفع رأسه إليهم ، ولا يتكلم ، وكانت له هيبة ، فلم يجسر أحد علىٰ مخاطبته ، ولا الكلام معه ، وكان قاضي قضاة خراسان إذ ذاك من الحاضرين ، فأقدم على الشيخ ، وأخذ في تسليته والكلام معه في ذلك ، فرفع الشيخ رأسه وهو باكٍ وقال : يا قاضي ؛ والله ما ذهبت إلىٰ حيث ذهبتم ، ولا عندي ألم من أجل ذهابها ، وإنما الذي أهمني كأن لسان الحال يقول لي : أنت لا تعمل بما في هـٰذه الكتب فاغسلها ، وإلا . . فهي حجة عليك ، وحيث إنك لم تغسلها ، ولم تعمل بها ، وقد أمهلناك مدة طويلة . . فقد غِرْنا عليها وغسلناها بالغرق .

فيجوز أن يكون أحمد ابن أبي الحواري رحمه الله لمح هـٰذا المعنىٰ ، وحاله ـ والله أعلم ـ إنما كان العلم والعمل بما في تلك الكتب ، لـٰكن العارف يبلغ في الدرجات إلىٰ أقصاها ، ولا ينزل نفسه تلك المنزلة ، وإنما يرىٰ نفسه في التقصير منغمساً ، هـٰذا شأن العارفين ، ومَن تتبع أحوالهم . . وجد من ذلك شيئاً كثيراً ، ألا ترىٰ إلىٰ سيدنا الصديق الأكبر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي بكر الصديق رضي الله عنه حيث قال : (قد وليت أمركم ولست بأخيركم ؟) قال الحسن البصري : بلىٰ ، والله هو خيرهم غير مدافَع ، ولـٰكن المؤمن يهضم نفسه .

وسابعها ـ وهو مسلك غير معتبر في مسألتنا هـٰذه على الخصوص ، وإنما هو معتبر من حيث الجملة ـ : وهو أن الصحابة وغالب التابعين رضوان الله عليهم لم يدونوا شيئاً ، وإنما كان العلم محفوظاً في صدورهم ، تتلقاه الرجال عنهم كابراً عن كابر ؛ لشغلهم عن ذلك بالجهاد في إقامة الدِّين ، إلىٰ غير ذلك مما هو أهَمُّ بهم ، ولهـٰذا قال الأوزاعي رحمه الله : كان العلم كريماً محفوظاً في صدور الرجال ، تتلقاه عنهم كابراً عن كابر ، فلما دخل العلم في الكتب وبطون الأوراق . . دخل فيه غير أهله .

ومما تمسك به الصحابة وغيرهم رضوان الله عليهم في عدم التدوين . . قوله صلى الله عليه وسلم : « لا تكتبوا عني شيئاً غير القرآن ، ومَن كتب عني شيئاً غير القرآن . . فليَمْحه »[1] .

وتمسك الذين دَوَّنوا بقوله صلى الله عليه وسلم : « اكتبوا لأبي شاه »[2] ، وبقوله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمرو بن العاصي : « اكتب ـ وأشار إلىٰ لسانه صلى الله عليه وسلم ـ فوالذي بعثني بالحق ؛ إنه لا يخرج منه إلا حق »[3] .

وأجمع المسلمون علىٰ كتابة العلم وإباحته وتدوينه ، وارتفع ذلك الخلاف ، ولولا ذلك . . لاندرس في الأعصر الآخرة .

وبالجملة : فالخوض في مشارب العارفين وبيان مدارك أفعالهم وأقوالهم عزيز جداً ، فلذلك كان الأولىٰ بنا ألاَّ نخوض في بحر لا طاقة لنا بساحله ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم . انتهىٰ .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ قدس الله روحه ـ : وقال أحمد : حدثنا أبو الموفق الأزدي قال : قال الله عز وجل : لو أن ابن آدم لم يرج غيري . . لَمَا وكلته إلىٰ غيري ، ولو أن ابن آدم لم يخف غيري . . لَمَا أخفته من غيري .

وقال أحمد : بينا أنا ذات يوم في بلاد الشام في قبة من قِباب المقابر ، ليس لها باب ، بل

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٢) .

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٠٢) ، ومسلم (١٣٥٥) .

(٣) أخرجه بنحوه أبو داوود (٣٦٤٦) ، والحاكم (١/ ١٨٧) .

قال ابن الصلاح ـ رحمه الله ـ في « مقدمته » (ص٣٦٧) : ولعله صلى الله عليه وسلم أذن في الكتابة عنه لمن خشي عليه النسيان ، ونهىٰ عن الكتابة عنه مَنْ وثق بحفظه مخافة الاتكال على الكتاب ، أو نهىٰ عن كتابة ذلك عنه حين خاف عليهم اختلاط ذلك بصحف القرآن العظيم ، وأذن في كتابته ين أمن من ذلك .

عليها كساء قد أسبَلْتُه ؛ فإذا أنا بامرأة تدق على الحائط ، فقلت : مَن هـٰذا ؟ فقالت : امرأة ضالة ، دُلَّني على الطريق رحمك الله تعالىٰ ، فقلت لها : رحمك الله سبحانه وتعالىٰ ، عن أي الطريق تسألين ؟ فبكت ، ثم قالت : يا أحمد ؛ عن طريق النجاة ، فقلت لها : هيهات! إن بيننا وبين النجاة عُقاباً[1] ، وتلك العُقاب لا تُقطع إلا بالسير الحثيث ، وتصحيح المعاملة ، وحذف العلائق الشاغلة من أمر الدنيا والآخرة ، قال : فبكت بكاء شديداً ، ثم قالت : يا أحمد ؛ سبحان من أمسَك عليك جوارحك فلم تتقطع ، وحفظ عليك فؤادك فلم يتصدع ، ثم خرت مغشياً عليها ، فقلت لبعض النساء : انظرن أي شيء حال هـٰذه الجارية .

قال أحمد : فقمن إليها ، ففتشنها ؛ فإذا وصيتها في جيبها : كفنوني في أثوابي هـٰذه ، فإن كان لي عند الله عز وجل خير . . فهو أسعد لي ، وإن كان غير ذلك . . فبعداً لنفسي ، ثم حرَّكوها ؛ فإذا هي ميتة ، فسألتُ عنها ، فقيل لي : هـٰذه جارية قرشية مصابة ، وكان الذي معها يمنعها من الطعام ، وكانت تشكو إلينا وجعها ، فكنا نقول لها عن متطببي الشام ، فتقول : خلوا بيني وبين الطبيب الراهب ـ تعني : أحمد ابن أبي الحواري ـ أشكو إليه بعض ما أجد من البلاء لعله أن يكون عنده شفائي .

وقال أحمد : كنت أسمع وكيع بن الجراح رحمه الله يبتدىء قبل أن يحدث فيقول : ما هنالك إلا عفوه ، ولا نعيش إلا في ستره سبحانه وتعالىٰ ، ولو كشف الغطاء . . لكشف عن أمر عظيم .

وقال أحمد : قال شعيب بن حرب لرجل : إن دخلت القبر ومعك الإسلام . . فأبشر .

وقال أحمد : حدثنا أبو علي الرحبي قال : فَقَدَ الحسن بن حي شاباً كان ينقطع إليه ، فخرج الحسن حتىٰ أتىٰ منزله ، فدق عليه الباب ، فخرج إليه الشاب ، فقال له : يا أخي ؛ ما لي لم أرك منذ أيام ؟ فقال له : يا أخي ؛ إن هـٰذه الدار ليست بدار لقاء ، إنما هي دار عمل ، واللقاء غداً ، ثم أغلق الباب في وجهه ، قال : فما رآه الحسن بعد ذلك اليوم حتىٰ أخرجت جنازته .

وقال أحمد ابن أبي الحواري : إن الله عز وجل لِعبدِهِ في أوان معاصيه وإعراضه . . أشدُّ نظراً له وشفقة عليه من العبد الذي يتابع نعمه عليه ، من كمال كرامته ، وعظيم ستره ، وإحسانه سبحانه وتعالىٰ ، ثم قال : وهل يكون من أكرم الأكرمين إلاَّ مثلُ ذلك سبحانه وتعالىٰ ؟!

---

(١) العُقاب : الطريق الوعرة في الجبل .

وقال أحمد : سمعت عبد العزيز بن عمير يقول : إن الرجل لينقطع إلىٰ ملوك الدنيا فيرىٰ أثرهم عليه ، فكيف بمن ينقطع إلى الله رب العالمين سبحانه وتعالىٰ كيف لا يرىٰ أثر نعمه عليه ؟!

وقال أحمد : قال أبو جعفر الحَذَّاء : سمعت فضيلاً يقول : ما اشتد عجبي قط من عبادة مَلَك مقرب ، ولا نبي مرسل ، ولا ولي من أوليائه ، وما ذاك إلا لأن الله عز وجل هو الذي أعطاهم وألهمهم ، ولو أراد أن يعطيهم أكثر من ذلك . . لَفعَل سبحانه وتعالىٰ .

وقال أحمد : سمعت أبا يوسف يقول : يا أخي ؛ وما عليك أن تنقطع إليه تبارك وتعالىٰ في آخر عمرك فتخدمه سبحانه وتعالىٰ ؟!

وقال أحمد : سمعت إبراهيم بن أيوب الحوراني قال : سمعت الوليد بن مسلم يقول : إذا أفنى الله عز وجل الخلق . . أقام يمجد نفسه سبحانه وتعالىٰ قبل أن يبعثهم مثلَ عمر الدنيا أربع مرات ، قال أحمد : وكان يقال : عمر الدنيا سبعة آلاف سَنة .

وقال أحمد : قلت لأبي طلحة : أي شيء الزهد في الدنيا ؟ قال : بذل المجهود ، وخلع الراحة ، وقطع الآمال .

وقال أحمد : من أيقن بما بعد الموت . . شد مئزر الحذر ، ولم يكن للدنيا عنده خطر ، ولم يقضِ منها وطراً .

وقال أحمد : سمعت أبا سليمان يقول : إن العذاب على العارفين بالله عز وجل أهون عليهم من أن يعصى الله عز وجل .

وقال أحمد : سمعت أبا سليمان يقول : بينا العبد يوم القيامة وهو يرىٰ أنه قد هلك ؛ فإذا بصحف مختومة ، فيقال له : فُضَّ الخاتَم واقرأ ما فيها ، فيقول : يا رب ؛ هـٰذه أعمال لم أعملها ولا أعرفها ، فيقول الله تبارك وتعالىٰ : (هـٰذه نيتك التي كنت تنوي في الدنيا حفظتها لك) ، ثم يؤمر به إلى الجنة ، فسبحان الكريم الحليم ، سبحانه وتعالىٰ .

وقال يحيى بن معين ـ وذكر أحمد ابن أبي الحواري فقال ـ : أظنُّ أنَّ أهل الشام يسقيهم الله تعالى الغيث بأحمد ابن أبي الحواري .

وقال محمود بن خالد : ما أظن بقي علىٰ وجه الأرض مثل أحمد ابن أبي الحواري .

وقال أحمد : الدنيا مزبلة ومجمع الكلاب ، وأقل من الكلاب من عكف عليها ؛ فإن الكلب يأخذ منها حاجته وينصرف ، والمحب لها لا يفارقها بحال .

وقال أحمد : من أحب أن يُعرف بشيء من الخير أو يُذْكر به . . فقد أشرك في عبادته ؛ لأن من عَبَدَ على المحبة . . لا يحب أن يرىٰ خِدْمَتَه إلا مولاه سبحانه وتعالىٰ .

وقال أحمد : إني لأقرأ القرآن ، فأنظر في أيَّة آية ، فيَحَارُ عقلي فيها ، وأعجب من حفاظ القرآن كيف يهنئهم النوم ويسعهم أن يشتغلوا بشيء من الدنيا وهم يتلون كلامَ الرحمٰن جل جلاله ؟! أمَا لو فهموا ما يتلون وعرفوا حقه وتلذذوا به واستحْلَوُا المناجاة به . . لذهب عنهم النوم ؛ فرحاً بما رزقوا ووفقوا .

وقال أحمد : حدثني أخي محمد قال : قال علي بن الفضيل لأبيه : يا أبت ؛ ما أحلىٰ كلامَ أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم! فقال : يا بني ؛ أتدري لِمَ حلا ؟ قال : قلت : لا يا أبت ، قال : لأنهم أرادوا به الله عز وجل ، فتكلموا لعز الإسلام ، وإصلاح النفوس ، والنصيحة للمؤمنين .

وقال أحمد : حدثنا سفيان بن عيينة قال : يهون الموقف يوم القيامة على المؤمن كصلاة فريضة صلاها في الدنيا أتم ركوعها وسجودها .

وقال أحمد : سمعت أبا الخضر الوصاف يقول في قوله تعالىٰ : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال : تفسيره : أن لو وُلِّيَ حسابَ الخلق يوم القيامة غيرُ الله عز وجل . . لم يفصل بينهم في خمسين ألف سَنة ، وهو سبحانه يفصل بينهم في مقدار نصف يوم من أيام الآخرة .

أسند أحمد عن الأعلام والمشاهير ما لا يُعَدُّ كثرةً . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ١٠ـ٢٤] .

وقال أبو الفرج رحمه الله : أحمد ابن أبي الحواري ، كنيته : أبو الحسن ، واسم أبي الحواري : ميمون ، سكن دمشق ، وكان له ابن يقال له : عبد الله ، من الزهاد ، وأخ يقال له : محمد ، يشابهه في الورع والزهد ، وأبوه أبو الحواري من أهل الورع أيضاً ، فهُم من بيت الورع والزهد .

وكان الجنيد يقول : أحمد ابن أبي الحواري ريحانة الشام .

توفي أحمد ابن أبي الحواري سنة ثلاثين ومئتين . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ١٦٥ـ١٦٦] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو يَزيد البِسْطَامي
رضي الله عنه

قال أبو القاسم القشيري ـ رحمه الله ـ : قال أبو يزيد البسطامي : حركات الظواهر توجب بركات السرائر .

وقال محمد بن الحسين رحمه الله تعالىٰ : سمعت محمد بن علي بن جعفر يقول : سمعت الحسن بن عَلُّويَه يقول : قال أبو يزيد : كنت اثنتي عشرة سَنة حداد نفسي ، وكنت خمس سنين مرآة قلبي ، وكنت سنة أنظر إليها ؛ فإذا في وسطي زنار ظاهر ، فعملت في قطعه اثنتي عشرة سنة ، ثم نظرت ؛ فإذا في باطني زنار باطن ، فعملت في قطعه خمس سنين ، ثم بقيت سَنة أنظر كيف أقطع ، فكشف لي بعد ذلك ، فنظرت إلى الخلق ، فرأيتهم موتىٰ ، فكبَّرْتُ عليهم أربع تكبيرات . انتهىٰ [« الرسالة القشيرية » ٨٢] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : قوله : (حداد نفسي) يعني : أن القلب كالحديد ، فكان كالحداد يسنه بنار الخوف عشر سنين ، ثم شرع في غسله عن الأوضار[1] عشر سنين ، ثم بعد هـٰذه الأحوال سقطَتْ من بحار عالَم الجلال قطرة من نور ، فغرق قلبه في تلك القطرة ، ثم بعد ذلك كُشف له ، فنظر إلى الخلق ، فرآهم موتىٰ ؛ أي : غافلين عما يجب عليهم من القيام لله عز وجل . انتهىٰ .

وقال الحافظ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : قال أبو يزيد البسطامي : ليس العجب من حبي لك وأنا عبد فقير ذليل ، وإنما العجب من حبك لي وأنت ملك قدير .

وقال : غلطت في ابتدائي في أربعة أشياء : توهمت أني أذكره ، وأعرفه ، وأحبه ، وأطلبه سبحانه وتعالىٰ ، فلما انتبهت[2] . . رأيت أن ذِكره سبحانه وتعالىٰ سبق ذِكري ،

---

(١) **الأوضار** : الأدران والأوساخ .

(٢) في بعض النسخ : (انتهيت) .

ومعرفته عز وجل تقدمت معرفتي ، ومحبته تقدمت محبتي ، وطلبه جل جلاله تقدم طلبي ، قال تعالىٰ : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ .

وقال : إن لله عز وجل خواصّاً من عباده ، لو حجبهم في الجنة عن رؤيته . . لاستغاثوا بالخروج من الجنة كما يستغيث أهل النار بالخروج من النار .

وقال : غبت في ذِكر الله عز وجل ثلاثين سنة ، فكان غيبتي لغفلتي عن ذِكري إياه جل جلاله علىٰ حقيقة التعظيم والحرمة ، فبقيت مستغرقاً غائباً لذلك . أو كما قال .

وقال : لم أزل منذ ثلاثين سَنة كلما أردت أن أذكر الله عز وجل . . أتمضمض وأغسل فمي ولساني ؛ إجلالاً لله سبحانه وتعالىٰ .

وجاء رجل إلىٰ أبي يزيد البسطامي فقال له : بلغني أنك تمرُّ في الهواء ، فقال : وأي أعجوبة في هـٰذا ؟ طير يأكل الميتة يمر في الهواء ، والمؤمن أشرف من الطير .

وقال أبو يزيد : طلَّقت الدنيا ثلاثاً بتاتاً لا رجعة لي فيها ، وصرت إلىٰ ربي وحدي ، فناديته بالاستغاثة : إلـٰهي ؛ أدعوك دعاء من لم يبق له غيرك ، فلما علم صدق الدعاء من قلبي ، واليأس من نفسي . . كان أول ما ورد علي من إجابة هـٰذا الدعاء أن أنساني نفسي بالكلية ، ونَصَب الخلائقَ بين يدي مع إعراضي عنهم .

وقال أبو يزيد : إن في الطاعات من الآفات ما لا يحتاجون إلىٰ أن يطلبوا المعاصي .

وقال : ما دام العبد يظن أن في المسلمين من هو شر منه . . فهو متكبر .

وقال : عملت في المجاهدة ثلاثين سَنة ، فما وجدت شيئاً أشد علي من العلم ومتابعته ، ولولا اختلاف العلماء . . لبقيت ، واختلاف العلماء رحمة من الله سبحانه وتعالىٰ .

وقال : لا يعرف نفسه من صحبته شهوته .

وقال : الجنة لا خطر لها عند المحبين ، وأهل الجنة محجوبون بمحبتهم .

وقال : عالجت كل شيء ، فما عالجت أصعب من معالجة نفسي ، وما شيء أهون عليَّ منها .

وقال : دعوت نفسي إلى الله عز وجل ، فأبت عليَّ واستعصت ، فتركتها ومضيت إلى الله سبحانه وتعالىٰ .

وقال : أشد المحجوبين عن الله سبحانه وتعالىٰ ثلاثة بثلاثة : الزاهد بزهده ، والعابد

بعبادته ، والعالم بعلمه ، ثم قال : مسكينٌ الزاهد ، قد لبس زهده وجرىٰ به في ميدان الزهاد ، ولو علم المسكين أن الدنيا كلها سمَّاها الله قليلاً . . فكم مَلَكَ من القليل ؟! وفي كم زهد مما مَلَكَ ؟!

ثم قال : إن الزاهد هو الذي يلحظ إليه بلحظه ، فيبقىٰ عنده ، ثم لا يرجع نظره إلىٰ غيره ولا إلىٰ نفسه .

وأما العابد : فهو الذي يرىٰ منة الله عليه في العبادة أكبر من العبادة حتىٰ تغرق عبادته في المنة .

وأما العالم : فلو علم أن جميع ما أبدى الله عز وجل من العلم سطر واحد من اللوح المحفوظ . . فكم عِلمُ هـٰذا العالم من ذلك السطر ؟ وكم عمل مما علم ؟!

وقال : طوبىٰ لمن كان همُّه هَمّاً واحداً ، ولم يشغل قلبه بما رأت عيناه ، وسمعت أذناه ، مَن عرف الله عز وجل . . فإنه يزهد في كل شيء يَشغَله عنه .

وسئل : متىٰ يبلغ الرجل حد الرجال ؟ فقال : إذا عرف عيوب نفسه ، واشتغل بإصلاحها . . فحينئذ يبلغ مبلغ الرجال .

وسئل : بماذا يستعان على العبادة ؟ فقال : بالله تعالىٰ إن كنت تعرفه .

وقال : ما وجد الواجدون شيئاً من الحضور في هـٰذا الوقت . . إلا كانوا غائبين في حضورهم ، وكنت أنا المخبر عنهم في حضورهم .

وقال : ما ذكروه إلا بالغفلة ، ولا خدموه إلا بالفترة[1] .

وكان يقول : لا تقطعني بك عنك يا ذا الجلال والإكرام .

وقال : أكثر الناس إشارة إليه سبحانه وتعالىٰ . . أبعدهم منه جل جلاله .

وسأله رجل : مَن أصحَبُ ؟ فقال : مَن لا يحتاج إلىٰ أَنْ تكتمه شيئاً مما يعلمه الله عز وجل منك .

وقال : أقربهم من الله عز وجل . . أوسعهم شفقة علىٰ خلقه .

وكان يقول : لا يحمل عطاياه إلا مطاياه المذلَّلة المروَّضة .

---

(١) الفترة : الانكسار والضعف .

وسأله رجل : مَن أُصاحب ؟ فقال : مَن إذا مرضت . . عادك ، وإذا أذنبت . . تاب عليك .

وقال : مَن سمع الكلام ليتكلم مع الناس . . رزقه الله تعالىٰ فهماً يكلم به الناس ، ومن سمعه ليعامل الله عز وجل به . . رزقه الله تعالىٰ فهماً يناجي به ربه تبارك وتعالىٰ .

وكان يقول : هٰذا فرحي بك وأنا أخافك ، فكيف فرحي بك إذا أمنتُك ؟!

وكان يقول : رب أفهمني عنك ؛ فإني لا أفهم عنك إلا بك .

وسئل : بِمَ نالوا معرفته سبحانه وتعالىٰ ؟ فقال : بالوقوف مع أوامره عز وجل .

وقال : اطلع الله عز وجل علىٰ قلوب أوليائه ، فمنهم من لم يكن يصلح لحمل المعرفة صِرْفاً ، فشغلهم بالعبادة .

وسئل : ما علامة العارف ؟ فقال : ألاَّ يفتُر مِن ذِكره ، ولا يمل مِن حقه[1] ، ولا يستأنس بغيره عز وجل .

وقال : إن الله عز وجل أمر العباد ونهاهم فأطاعوه ، فأنعم عليهم نعمة من نعمه سبحانه وتعالىٰ ، فاشتغلوا بالنعمة عنه ، وإني لا أريد من الله إلا الله سبحانه وتعالىٰ .

وقال : العارف فوق ما يقول ، والعالم دون ما يقول ، والعارف ما فرح بشيء قط ولا خاف مِن شيء قط ، والعارف يلاحظ ربه سبحانه وتعالىٰ ، والعالم قد يلاحظ نفسه بعلمه .

وقال رجل لأبي يزيد : علمني اسم الله الأعظم ، فقال : ليس له حد محدود ، إنما هو فراغ قلبك لوحدانيته عز وجل ، فإذا كنت كذلك . . فارجع إلىٰ أي اسم شئت ؛ فإنك تصير به إلى المشرق والمغرب ، ثم تجيء وتصف .

وقال : إن الصادق من الزاهدين إذا رأيته . . هِبته ، وإذا فارقته . . هان عليك أمره ، والعارف إذا رأيته . . هِبته ، وإذا فارقته . . هِبته .

وقال : لأَن يقال لي : لِمَ لم تفعل . . أحب إلي من أن يقال لي : لِمَ فعلت .

وقال : الجوع سحاب ، فإذا جاع العبد . . مُطر القلب الحكمة .

وقال : لو صفت لي تهليلة . . ما باليت بعدها بشيء .

---

(١) في بعض النسخ : (ولا يمل من خلقه) ، وفي نسخة : (من خِلَعِهِ)

وقال : إذا وقفتَ بين يدي الله عز وجل . . فاجعل نفسك كأنك مجوسي تريد أن تقطع الزنار بين يديه سبحانه وتعالىٰ .

واجتمع الناس عليه يوماً ، فقال : يا رب ؛ أسألك بعزتك وجلالك ألاَّ تحجبهم وإياي بك عنك . أو كما قال .

وحكي عنه أنه قال : نوديت في سري ، فقيل لي : خزائنُنا مملوءة من الخدمة ، فإن أردتنا . . فعليك بالذِّلة والافتقار .

وقال أبو يزيد قدس الله روحه : أولياء الله عز وجل مُخَدَّرون[1] معه في حجال[2] الأُنس ، لا يراهم أحد في الدنيا ولا في الآخرة إلا من كان مَحْرَماً لهم ، وأما غيرهم : فلا يراهم إلا منتقبين من وراء حجبهم .

وقرىء عند أبي يزيد : ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ ، قال : فصاح ، ثم أغمي عليه ، ولم يزل مغمىٰ عليه زماناً ، فلما أفاق . . جعل يكرر : ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا * وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ٣٤ـ٤٠] .

وقال أبو القاسم القشيري ـ رحمه الله ـ : قال أبو يزيد : لقد هممت أن أسأل الله عز وجل أن يكفيني مؤنة الأكل ومؤنة النساء ، ثم قلت : كيف يجوز لي أن أسأل الله سبحانه وتعالىٰ هـٰذا وهـٰذا شيء لم يسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟! فلا يجوز لي أن أسأله ، فلَمْ أسأله ، ثم إن الله عز وجل كفاني مؤنة النساء ، حتىٰ إني ما أبالي أَستقبلني امرأة أو حائط .

وقال أبو يزيد : لو نظرتم إلىٰ رجل أعطي من الكرامات حتىٰ يُرفع في الهواء . . فلا تغتروا به حتىٰ تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي ، وحفظ الحدود ، وأداء الشريعة .

وحكي عن أبي يزيد : أنه ذهب ليلة إلى الرباط ليذكر الله تعالىٰ علىٰ سور الرباط ، فبقي إلى الصباح لَمْ يذكر ، فقيل له في ذلك ، فقال : تذكرت كلمة جرت علىٰ لساني في حال صِباي ، فاحتشمت أن أذكره سبحانه وتعالىٰ . انتهىٰ [« الرسالة القشيرية » ٢٣ـ٢٤] .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : قال أبو يزيد البسطامي : ما حصل للأولياء بالنسبة إلىٰ ما حصل للأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . . إلا كمثل زِقٍّ فيه عسل ، يترشح

---

(١) **مخدَّرون** : محبوسون .

(٢) **الحِجال** : الغرف المستورة .

من ذلك الزق قطرة ، فتلك القطرة حصلت للأولياء ، وما في الظرف للأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ثم قال الحافظ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : اقتصرنا علىٰ هـٰذا القدر من كلامه ؛ لِمَا فيه من الإشارة العميقة التي لا يصل إلىٰ معرفتها إلا من غاص في بحره وشرب من سره .

وأما رواية الحديث عنه . . فغير محفوظة ، غير أني رأيت من رواية شيخ واعظ لقيته ببغداد وبالبصرة ، يُعرَف بأبي الفتح الحمصي أحمد بن الحسن بن محمد بن سهل ، فذكر أن علي بن جعفر البغدادي حدثهم قال : قال أبو موسى الديبلي : حدثنا أبو يزيد ، حدثنا أبو عبد الرحمـٰن السدي ، عن عمرو بن قيس الملائي ، عن عطية ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من ضعف اليقين أن ترضيَ الناس بسخط الله عز وجل ، وأن تحمَدهم علىٰ رزق الله سبحانه وتعالىٰ ، وأن تذمهم علىٰ ما لم يؤتك الله تعالىٰ ، إن رزق الله تعالىٰ لا يجره إليك حرص حريص ، ولا يرده كراهة كاره ، وإن الله تعالىٰ بحكمه وجلاله جعل الفرح والرَّوح في الرضا واليقين ، وجعل الهَمَّ والحزن في الشك والسخط »[1] .

قال الحافظ : هـٰذا الحديث مما ركِّب علىٰ أبي يزيد ، والحَمْل فيه علىٰ شيخنا أبي الفتح ، والله أعلم . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ٤١] .

وقال أبو حامد الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : قال يحيى بن معاذ الرازي : قال أبو يزيد : رأيت في منامي الحق جل جلاله ، فقال : (سلني) ، قال : قلت : وعزتك وجلالك ؛ إنك لتعلم أنه ليس لي لسان يقدر على النطق الآن ، قال يحيى بن معاذ : فقلت له : لِمَ لا سألته المعرفة ؟ قال : فصاح بي ، وقال : اسكت ، المعرفة معرفتان : معرفة حقيقة ، ومعرفة حق ، أما معرفة الحق . . فقد عرفه المؤمنون بنور الإيقان والإيمان ، وأما معرفة الحقيقة . . فلا سبيل إليها لامتناع الصمدية وتحقيق الربوبية ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ انتهىٰ .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : أبو يزيد ، اسمه : طيفور بن عيسى بن سروشان ، وكان سروشان مجوسياً فأسلم ، وكان لعيسىٰ ثلاثة أولاد : أبو يزيد أوسطهم ، وآدم أكبرهم ، وعلي أصغرهم ، وكانوا كلهم عباداً زهاداً .

---

(١) أخرجه البيهقي في « الشعب » (١/ ٢٢١) .

وقال العباس بن حمزة : صليت خلف أبي يزيد الظهر ، فلما أراد أن يرفع يديه ليكبر . . لم يقدر أن يقول : الله أكبر ؛ إجلالاً لاسم الله عز وجل ، وارتعدت فرائصه[1] حتىٰ سمعت قعقعة عظامه ، فهالني ذلك . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ٧٣ـ٧٤] .

وقال القشيري : قيل : إن ذا النون أرسل إلىٰ أبي يزيد يقول له : إلىٰ متى النوم والراحة وقد جازت القافلة ؟ فقال أبو يزيد : قل لأخي : الرجل من نام الليل كلَّه ، ثم أصبح في المنزل قبل وصول القافلة ، فقال ذو النون : هنيئاً له ، هـٰذا كلام لا تبلغه أحوالنا .

ويروىٰ : أن أبا يزيد قال : دعوت الناس إلى الله عز وجل أربعين سنة فما أجابوني ، فلما تركتهم . . وجدتهم قد سبقوني لمعرفته .

والمعنىٰ فيه ـ والله أعلم ـ : أنه كان محجوباً برؤية نفسه ، فلما زالت عنه رؤية نفسه . . عرف أنه قد تأخر ، وأن الناس قد سبقوه . [انتهىٰ] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال عبد الصمد بن محمد : صعد أبو يزيد ليلة سور بسطام ، فلم يزل يدور على السور إلىٰ وقت طلوع الفجر ، وهو يريد أن يقول : لا إلـٰه إلا الله ، فيغلبه ما يرد عليه من هيبة الاسم الأعظم ، فلا يستطيع أن ينطق بها لسانه ، فلما كان وقت طلوع الفجر . . نزل فبال دماً . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ٧٥] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : اعلم : أني وقفت علىٰ تأليف في ترجمة الإمام أبي يزيد البسطامي رحمه الله ، فأحببت أن ألخص أحسن ما فيه ، وأذكر من كلامه ما عساه أن يصح عنه إن شاء الله تعالىٰ ، وبه التوفيق .

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ : قال أبو موسى الديبلي : سمعت أبا يزيد البسطامي قدس الله روحه يقول : رأيت رب العزة جل جلاله في المنام ، فقلت : يا رب ؛ كيف الوصول إليك ؟ فقال : (اترك نفسك وتعال)[2] .

وقال خلف : قصد أبا يزيد رجلٌ من أصحاب ذي النون ، فقال له : مَن تطلب ؟ قال : أبا يزيد ، فقال : يا بني ؛ أبو يزيد يطلب أبا يزيد منذ أربعين سَنة ، فرجع إلىٰ ذي النون وأخبره ، فغشي عليه .

---

(١) **الفرائص** : جمع فريصة ، وهي : لحمة بين الجنب والكتف ، لا تزال ترعد من الدابة ويكنىٰ به عن الخوف .
(٢) الصفوة : (٤/ ٧٦) .

وفي رواية أخرىٰ : قال ذو النون : إن أخي أبا يزيد فَقَدَ نفسه في حب الله تعالىٰ ، فصار يطلبها مع الطالبين . انتهىٰ .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : الذي فهمته من قول أبي يزيد ـ والعلم عند الله سبحانه وتعالىٰ ـ في قوله : (يا بني ؛ أبو يزيد يطلب أبا يزيد منذ أربعين سَنة) معناه : أنه يطلب الزيادة في عبادة الله عز وجل ومعرفته ، وألاَّ يكون له هَمٌّ سواه منذ أربعين سَنة ، وإلى الآن لم يظفر بذلك ، ولم يحصل له زيادة ، بل يرىٰ نفسه في التقصير منغمساً ، وهـٰذا حال العارفين ؛ يشهدون من أنفسهم التقصير ، ولا يرضون عن أنفسهم ولا طرفة عين ، والله سبحانه أعلم .

وقال موسى بن عيسى البسطامي : سمعت أبي يقول : قال لنا يوماً أبو يزيد : قوموا بنا ننظر إلىٰ هـٰذا الرجل الذي قد شَهَرَ نفسه بالولاية ، وكان بقُومِس[1] رجل مشهور بالزهد والورع ، قال : فمضينا معه ، فلما خرج من منزله ودخل مسجده . . رمىٰ ببزاقه نحو القبلة ، فقال أبو يزيد : قوموا بنا ننصرف من غير أن نسلم عليه ؛ فإن هـٰذا رجل ليس بمأمون علىٰ أدب من آداب الشريعة التي أدب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكيف يكون مأموناً علىٰ ما يدعيه من مقامات الأولياء والصديقين ؟!

ويقال : إن أبا يزيد سئل عن ابتداء أمره ، فقال : إن الله تعالىٰ هداني للزراعة ، فزرعت في نفسي أنواع العبادة ، ثم أرشدني للقصارة[2] ، فلم أزل أغسل بأنواع الطهارات والمياه ، فلم أرها طهرت من الكدورات .

ثم قال : إن النساء أحسن حالة منا ، إن المرأة تصير كل شهر طاهرة ، ونحن لا نكاد نطهر في عمرنا مرة واحدة .

وقيل لأبي يزيد : بماذا نلت هـٰذه الدرجة ؟ فقال : جمعت أسباب الدنيا كلها ، فربطتها بحبل القُنوع ، ووضعتها في منجنيق الصدق ، ورميت بها في بحر الإياس ، فاسترحت .

وقيل له يوماً : بماذا نالوا ما نالوا ؟ فقال : بتضييع ما لَهُم وشهود ما لَهُ عز وجل .

وقال أبو يزيد قدس الله روحه : إن لله عز وجل عليَّ نِعماً :

---

(١) **قُومِس** : كورة كبيرة واسعة ، تشتمل علىٰ قرىٰ ومزارع ، وهي في ذيل جبال طبرستان .

(٢) **القِصارة** : حرفة القصَّار ، وهو الذي يبيض الثياب .

منها : أني رأيت نفسي متأخراً ورأيت الخلق قد سبقوني .

ومنها : أني رضيت بأن أُحرق بالنار بدل خلقه شفقة عليهم .

ومنها : أني لم أُمسِك شيئاً قط .

ومنها : أردت رحمة الله عز وجل بالناس أكثر مما أردتها بنفسي ، وبذلت جهدي في إدخال السرور على المؤمنين وإخراج الغم من قلوبهم ، وبدأت بالسلام من لقيني ، **ولو غفر الله عز وجل لي بفضله وكرمه يوم القيامة وأذن لي بالشفاعة . . لشفعت أولاً فيمن آذاني وجفاني ، ثم ثانياً فيمن برني وأكرمني** .

وأسرجوا السراج عنده في ليلة من الليالي ، فوجد ظلمة ووحشة من ضوء ذلك السراج ، فقال للقوم : فتشوا عن سبب ذلك ، فقالوا له : كنا استعرنا قارورة لنأتي بها الدهن مرة ، فأتينا بها مرتين .

وقالت أم أبي يزيد لابنها ليلة : اسقني ، فخرج في طلب الماء ، فلما رجع . . وجدها نائمة ، فأمسك الكوز في يده حتى استيقظت ، فقالت : أين الماء ؟ فقال لها : ها هو ، فأخذت الكوز من يده وقد جمد الماء الذي فيه ، وتعلق بعض الجمد بأصبعه التي علىٰ عروة الكوز ، فلما رأت ذلك . . قالت : ما هـٰذا ؟ قال لها : هـٰذا جلد أصبعي ، قلت في نفسي : إن وضعتُ الكوز ونمتُ . . فلعلكِ تريدين الماء فلا ترينه ، فأمسكته ابتغاء مرضاتِك ، فقالت له : رضي الله عنك .

وكان يقول : إنما بلغت ما بلغت برضى الأم .

وقال بعض المشايخ : قصد أبو يزيد الجامع يوم الجمعة ، وكان في الطريق وَحْلٌ ، فزلقت رجله ، فوضع أصبعه علىٰ جدار في الطريق ، فأمسك نفسه بسببه ، فلما ثبت . . تفكر في وضع أصبعه على الجدار ، وقال : إن الوقت متَّسِع ، وتفحُّصي عن صاحب الجدار ليجعلني في حِل مما تعاطيت أولىٰ ؛ فإن الصلاة لا تفوتني وفي الوقت سَعة ، فانصرف وتعرف عن صاحب الجدار ، فقيل : إنه مجوسي ، فتقدمَ إلىٰ باب داره وناداه ، فخرج إليه ، فأخبره بالقصة ، وطالبه أن يجعله في حِل من ذلك ، فقال المجوسي : وفي دِينكم هـٰذه الدِّقة ، وكل هـٰذا الاحتياط ؟! آمنت بالله وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وآمَنَ كل من في داره ببركة ذلك الفعل .

وسئل عن الاسم الأعظم ، فقال : في قولك : (لا إلـٰه إلا هو) وأنت لا تكون هناك ،

وقال مرة أخرىٰ : (لا إلـه إلا الله) وكن أنت ثَمَّ[1] .

وسئل عن قوله تعالىٰ : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ فقال : هو الأول بكشف أحوال الدنيا حتىٰ لا يرغبون فيها ، والآخر بكشف أحوال الآخرة حتىٰ لا يشكون فيها ، والظاهر علىٰ قلوب أوليائه حتىٰ يعرفوه ، والباطن علىٰ قلوب أعدائه حتىٰ ينكروه .

وقيل له : إن الناس يقولون : إن شهادة أن لا إلـه إلا الله مفتاح الجنة ، فقال : صدقوا ، ولـٰكن لا يفتح المفتاح إلا مغلاق ، ومغلاق لا إلـه إلا الله أربعة أشياء : لسان بغير كذب ولا غيبة ، وقلب بغير مكر ولا خيانة ، وبطن بغير حرام ولا شبهة ، وعمل بغير هوىً ولا بدعة .

وقال أبو يزيد : إن الله عز وجل أمر العباد ونهاهم فأطاعوه ، فخلع عليهم خلعاً من رضوانه ، فاشتغلوا بالخلع عنه ، وإني لا أريد من الله سبحانه وتعالىٰ إلا الله .

وسمع أبو يزيد رجلاً يقول : الله أكبر ، فقال له : ما معنى الله أكبر ؟ فقال الرجل : أكبر من كل شيء سواه سبحانه وتعالىٰ ، فقال له أبو يزيد : إنه عز وجل ليس معه شيء فيكون أكبر منه ، فقال له الرجل : فما معنى الله أكبر ؟ فقال أبو يزيد : أكبر من أن يقاس بالناس ، أو يدخل تحت القياس ، أو تدركه الحواس .

واجتاز شقيق البلخي ببسطام حاجّاً ، فعقد المجلس في مسجد من مساجدها ، وكان الصبيان يلعبون علىٰ بابه وأبو يزيد فيهم ، فكان يجيء إلىٰ باب المسجد ويسمع كلام شقيق ثم ينصرف ، فوقع عليه بصر شقيق ، فقال : سيكون هـٰذا الصبي رجلاً من الرجال ، فصار كما قال ، رحمهما الله .

وسئل عن السُّنة والفريضة ، فقال : السُّنة ترك الدنيا ، والفريضة : عبادة المولىٰ جل جلاله ، فمن يعمل السُّنة والفريضة . . فقد كمل عمله ومعرفته ؛ لأن الكتاب كله يدل علىٰ

---

(١) جاء في هامش إحدى النسخ تعليقاً علىٰ هـٰذا الخبر : (قوله : لا تكون هناك ، يعني به ـ والله أعلم ـ : [زوال كل شيء] من نفسه فلا يرىٰ غير الله عز وجل .
وقوله : (كن أنت ثم) أي : كن عند قولك هـٰذه الكلمة حاضراً غير غافل ، وليكن ذلك من صميم قلبك باليقين الجازم مع صفاء النفس من الكدورات وزوال سوى الله تعالىٰ عن سرك .
وأما قوله : (هو) ، وفي الثاني : (الله) ، فيحتمل ـ والله أعلم ـ أنه أراد بالأول قول أرباب القلوب الواصلين الذين لا يسع في قلوبهم إلا هو سبحانه وتعالىٰ ، وأراد بالثاني : قول الخواص وهما يشتركان في الثاني .

عبادة رب العالمين جلت عظمته ، والسُّنة تدل علىٰ ترك الدنيا .

وقال أبو يزيد قدس الله روحه : إن الله عز وجل قال للكافر : آمِنْ ، وللمنافق : أخلِص ، وللعاصي : ارجع ، وللمحب : ارض ، وللعارف : أبصر .

وقال أبو يزيد : لم أزل أسوق نفسي إلى الله عز وجل وهي تبكي حتىٰ ساقتني إليه وهي تضحك .

وقال أبو يزيد : خصصتَ رجالاً وأكرمتهم فأطاعوك فيما أمرتهم ، ولم يبلغوا ذلك إلا بك ، وكأن رحمتك إياهم قبل طاعتهم لك ، جل جلالك ما أعلىٰ شأنَك وأعظمَ سلطانَك!

وقال : لا يكون العبد محباً لخالقه سبحانه وتعالىٰ حتىٰ يبذل نفسه لله عز وجل في طلب مرضاته سراً وعلانية ، يعلم الله من قلبه أنه لا يريد إلا هو .

وقال : لا يشكو قلبُ العارف ولو قطع بالمقراض ، ولا ييأس منه ألبتة ، ولا يأمن من مكرِه وإن نودي بالغفران ، ولا يدل عليه إلا به ولو مشىٰ على الماء والهواء .

وكان أبو يزيد يقول : هلاك الخلق في شيئين : في ترك الخدمة ونسيان المنة .

وصلىٰ أبو يزيد ليلة ، فأضاء البيت كأنه نهار ، فقال أبو يزيد : إن كنت شيطاناً . . فأنا أعز وأمنع جانباً من أن تطمع فيَّ ، وإن كان من عند الله عز وجل . . فإني أسأله أن يؤخره من دار الخدمة إلىٰ محل الكرامة .

وقال أبو يزيد : حَسْبُ المؤمنِ من عقله أن يعلم أن الله تعالىٰ غني عن عمله .

وقال أبو يزيد : ظاهر الصِّدِّيق وباطنه سواء ، قد اشترك الإيمان والحب في قلب الصِّدِّيق ، فكلما ازداد الإيمان . . ازداد الحب لله ، قال الله تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ فإذا قال ذلك . . رمىٰ قوس الدنيا بالفرقة ، وقطع حلقوم الطمع بسكين الإياس ، وألجم نفسه بلجام الخوف ، وساقها بسوط الرجاء ، ولبس قميص الصبر ، وتردىٰ برداء التصابر ، واستوىٰ عنده المنع والعطاء ، والشدة والرخاء ، والذم والثناء ، فسقط من ظاهره وباطنه التصنع ، فليس عنده بين الدانق والدينار فرق ؛ لِعلمه أنه لو بورك له في الدانق . . كان أعظم بركة من الدينار ، ويعلم أنه لو سلط عليه السِّنَّور[1] . . كان أضر عليه من الأسد ، فإذا كانت هـٰذه حالته . . قالت الجنة : اللهم ؛ اجعل هـٰذا العبد ساكني ، فكانت الجنة طالبة له

---

(١) السِّنَّور : الهر .

دونه ، وإذا رأته النار علىٰ هـٰذه الحالة . . علمت أن نوره يطفىء شررها ، فتعوذت النار منه ، فلو عُرج بذلك العبد أعلىٰ عليين . . لكان شكره ذلك الشكر الذي كان في أعظم البلاء ، ولو أنزله الله من أعلىٰ عليين فأسكنه الدرك الأسفل من النار . . لكان شكره ذلك الشكر الذي كان في أعلىٰ عليين .

وكان يقول : يا من باع كل شيء بلا شيء ، ويا من اشترىٰ لا شيء بكل شيء ، إن في طاعاتك من الآفات ما يشغلك عن السيئات .

ورأىٰ رجل أبا يزيد في منامه ، فقال له : عظني ، فقال له :

النـــــاس بحـــــر عميـــــق والبعـــــد منهـــــم سفينـــــة
وقـــد نصحتـــك فـــاحفـــظ لنفســـــــك المسكينـــــــة

وقال أبو يزيد لأمه ؛ يا أماه ؛ هل تناولتِ شيئاً من الحرام بسببي في وقت رضاعي ؟ فإني لا آمن أن يكون قد وصل إلي شيء وأنا لا أعلم ، فحجبني ذلك عن ربي عز وجل ، فقالت له أمه : لا أذكر إلا أني دخلت يوماً إلىٰ بعض جيراننا وأنت في حجري ، فأخذتُ قارورة دُهنهم ، فدهنت رأسك ولم أُعلمهم ، ويوماً آخر كحلتك بكحلهم ولم أستأذنهم ، فقال أبو يزيد : إن الله تعالىٰ يحاسب عباده علىٰ مثقال ذرة ، ثم قال : ألا تري إلىٰ قوله عز وجل : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ ؟! وهـٰذا أعظم من ذرة ، فأخشىٰ أن يقطعني عن ربي عز وجل ، ثم قام وسأل عن القوم وطلب ورثتهم ، فاستحل منهم لنفسه ولأمه .

وقال أبو يزيد : ليس للعبد خير من أن يكون أبداً فقيراً ليس معه شيء ، لا التزهد ، ولا التعبد ، ولا العلم ، ولا يجيء إلا بالذلة والافتقار إليه سبحانه وتعالىٰ .

وقال أبو يزيد : بلغني أن الله عز وجل يقول : (مَن أتاني منقطعاً إلي . . جعلت له حياة لا موت فيها ، ومَن أتاني منقطعاً إلي . . جعلت له مُلكاً لا يزول ، ومَن أتاني منقطعاً إلي . . جعلت إرادتي في إرادته) .

وقال أبو يزيد : يقول الله تبارك وتعالىٰ : (إذا كان الغالب علىٰ عبدي الاشتغال بعبادتي وليس له هَمٌّ سواي . . جعلت لذَّتَهُ ونهمته في ذِكري ، ورفعت الحجاب فيما بيني وبينه) .

وكان أبو يزيد يوم الجمعة بحِذاء المنبر ، فصعد الخطيب وخطب ، فلما بلغ هـٰذه الآية : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ وسمع أبو يزيد . . طار الدم من عينيه حتىٰ ضرب المنبر .

وسئل أبو يزيد : متىٰ يبلغ الرجل حد الرجال ؟ فقال : إذا عرف عيوب نفسه . . فحينئذ يبلغ ، ثم يقربه الحق جل جلاله علىٰ قدر همته وإشرافه علىٰ عيوب نفسه الأمارة .

وجلس أبو يزيد في المسجد أربعين سَنة .

قيل : وكانت ثياب أبي يزيد للمسجد علىٰ حده ، وللبيت علىٰ حده ، وللخلاء علىٰ حده ، وكذلك نعلاه .

وقال أبو يزيد : الدنيا للعامة ، والآخرة للخاصة ، فمَن أراد أن يكون من الخاصة . . فحكمه ألاَّ يشارك العامة في دنياهم ، وإنما جعلت الدنيا مرآة للآخرة ، فمَن نظر منها إلى الآخرة . . نجا ، ومن شغل بها عن الآخرة . . هلك وأظلمت مرآته .

وصلىٰ أبو يزيد خلف إمام في بعض المساجد ، فلما كان بعد ساعة . . أخذ الإمام يسائله : من أين تأكل ؟ فقال له أبو يزيد : اصبر حتىٰ أعيد الصلاة التي صليت خلفك ؛ فإنه لا تجوز الصلاة خلف من لا يعرف الرزاق سبحانه وتعالىٰ .

وقال أبو يزيد : ربما أُجيلُ فكري في أشد العقوبات ، فلا أجد شيئاً أشد من الغفلة ؛ لأن الغفلة عن الله عز وجل ـ ولو طرفة عين ـ أشد من النار .

وقال أبو يزيد : منذ أربعين سَنة لم أستند إلىٰ حائط إلا حائط مسجد أو رباط ، فقيل له : لِمَ لا تستند وفي ذلك رخصة ؟ فقال : قال الله عز وجل : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ* وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ ، فهل ترىٰ من رخصة ؟!

وقال أبو يزيد : لم أزل أبكي حتىٰ ضحكت ، ولم أزل أضحك حتىٰ صرت لا أضحك ولا أبكي .

وقال أبو يزيد رحمه الله لرجل صلىٰ في مسجده : إن زعمت أن صلاتك مواصلة . . فهي مفاصلة ، إن تركتها . . كفرتَ ، وإن شاهدتها . . أشركتَ .

وهـٰذا نظير ما قاله الشبلي رحمه الله حين قام يصلي ، فوقف طويلاً ثم صلىٰ ، فلما فرغ . . قال : يا ويلاه! إن صليت . . جحدت ، وإن لم أُصلِّ . . كفرت . وسيأتي معنىٰ هـٰذا إن شاء الله عز وجل[1] .

وسئل أبو يزيد : متىٰ يكون الرجل عاملاً علىٰ معنى العبودية ؟ فقال : إذا لم تكن له

---

(١) وذلك في ترجمة حاتم الأصم ، عند كلامه على النية والإخلاص .

إرادة ، فقيل له : فكيف يكون ذلك ؟ فقال : تكون إرادته وتمنيه وشهوته تابعة لمحبة الله عز وجل ، ولا تتقدم له إرادة في شيء أبداً حتىٰ يعلم إرادة الله عز وجل ومحبته فيه .

وذُكر عند أبي يزيد الجاه والنفس والمال ، فقال : يا موسىٰ[1] ؛ إن المؤمن بلا نفس ولا مال ، ثم قرأ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ ، فمن باع نفسه وماله . . فكيف يكون له نفس أو مال ؟!

وقال أبو يزيد : **مَن نظر إلى الناس بالعلم . . مَقَتَهم ، ومَن نظر إلى الناس بالحقيقة . . عذرهم .**

وقال : **مَن نظر إلى الخلق بالخلق . . أبغضهم ، ومَن نظر إلى الخلق بالخالق جل جلاله . . رحمهم .**

وهـٰذا نظير قول العارفين : مَن نظر إلى الخلق بعينه . . طالت خصومته معهم ، ومَن نظر إليهم بعين الحق . . عذرهم فيما هُمْ فيه .

وقال السلمي : قال أحمد بن خضرويه : قلت لأبي يزيد : إني لا أصل إلى التوبة ، فقال أبو يزيد : العزة لله عز وجل ، وأنت تطلب العزة .

وكان يقول : ما شيء أعونُ علىٰ دينكم من تعظيم أخيك المسلم وحفظ حرمته ، ولا شيء أضرُّ بكم في دِينكم من تهاونِكم بإخوانكم من تضييع حرمتهم .

وقال : الدنيا لأهل الدنيا غرور في غرور ، والآخرة لأهل الآخرة سرور في سرور ، ومحبة الله عز وجل لأهل محبته نور علىٰ نور ، فالسرور في الدنيا سرور من غرور ، والسرور في الآخرة سرور من سرور ، والسرور من محبة الله عز وجل سرور من نور .

وقال : من اختار الدنيا على الآخرة . . غلب جهلُه علمَه ، وفضوله ذِكره ، ومعصيته طاعته ، ومن اختار الآخرة على الدنيا . . غلب علمه جهله ، وسكوته كلامه ، وفقرُه غِناه ، وهمه سروره ، ومن اختار رضا الله عز وجل على الدارين . . غلبت نفسه روحه ، وقلبه محبته ، وسرُّه قربَه ، فتصير نفسه مقيدة بقيد الخدمة ، وقلبه أسيراً بتخوُّفِ الفرقة ، وسره مستأنساً بأنس المعرفة .

---

(١) كذا في المخطوط ، ولعل السائل موسى بن عيسى البسطامي .

وسئل عن طلب العلم فقال : إنما حَسَّنَ طلبَ العلم أخبارُ رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن يطلب به الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فأما من طلبه ليزين نفسه عند الخلق . . فإنه لا يزداد إلا بعداً من الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم . انتهىٰ .

وقال في « لوامع أنوار القلوب » : سئل أبو يزيد رحمه الله عن مقام التحير في المحبة ، فقال : إنَّ المحب روَّح نفسه بمراوح الصفاء ، وجلَّل نفسه بأردية الوفاء ، وتميز بمنازل التفكر في ميدان التذكر ، قائماً بين الدهشة والتحير ، إنْ شاهد الملكوت . . قصرت نفسه عليه ، وإنْ شاهد مالك الملكوت جل جلاله . . افتخرت نفسه عليه .

وقال الديبلي رحمه الله : كنا مع أبي يزيد في بعض أسفاره ، فعطفنا إلىٰ مصر في يوم جمعة ، فلما دخلنا الجامع . . وقفنا علىٰ حلقة فقيه وقد سئل عن رجل مات وخلف كذا وكذا من الورثة ، فأخذ الفقيه يصحح المسألة ، ويضرب أعداد الورثة في أصل الفريضة ، ويطلب الموافقات ، فصاح أبو يزيد : يا فقيه ؛ مسألة ، قال : سل ، قال : ما تقول في رجل مات وما لَهُ إلا الله عز وجل ؟ فنظر القوم إليه وبكوا ، فقال أبو يزيد : العبد لا يملك شيئاً ، فإذا مات . . فليس له إلا مولاه كما كان أولاً ؛ فإن آخر العبد يرجع إلىٰ أوله ؛ لأن أوله فرد ومعه شهادة أن لا إلـه إلا الله ، فإذا كان آخره مثل أوله . . لم ير مع الله سوى الله ، ولم يساكن شيئاً دون الله عز وجل ، شاهده قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ثم بكىٰ ساعة ، وقال : يا قوم ؛ إن لله عز وجل عباداً لو بدت لهم الجنة بزينتها مع احتجابهم عن رؤية الله عز وجل . . لضجوا منها ؛ لأنهم ما خدموه لجنَّة ولا نار ، وإنما خدموه محبة وإرادة ، وهو سبحانه أهَّلَهُم لها ، وبدأهم بالمحبة فقال تعالىٰ : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ .

وقال الديبلي : قلت لأبي يزيد رحمه الله : بِمَ أستعين علىٰ عبادة الله عز وجل ؟ فقال : بالله ، قلت : فما علامة الصدق ؟ قال : طاعة الله عز وجل ، واعلم : أنه لا خسران أعظم ممن خسر لقاء الله سبحانه وتعالىٰ .

وقال أبو يزيد : بقيت عشرين سَنة أكابد المجاهدات وأكافح المراقبات ، ولا أجسر أن ألبس المرقعة ، ولا أن أتظاهر بالطريقة ، ثم بعد ذلك تواقحت ولبست .

وقال أبو نوح رحمه الله : قصدت بسطام لأسلم علىٰ أبي يزيد وأسأله عن المحبة ، فلقيني بدامغان رجل صوفي ، فقال : أنت أبو نوح ؟ قلت : نعم ، قال : الشيخ أبو يزيد يقول لك : متىٰ ما وجدت قلبك مستريحاً ودمعك جامداً وعقلك حاضراً . . فاعلم أنك بعيد

من المحبة ، فعلمت أني بعيد من المحبة ورجعت .

وقال أبو العباس : إن أبا يزيد أقام أياماً لم يتكلم مع مخلوق ، فلما خرج إلىٰ حال بسطه . . سئل عن ذلك ، فقال : تذكرت ابتداء حالي وتقلبي في أنواع المراقبات والمجاهدات ، وتفكرت اليوم في انتهاء حالي وتقلبي في أنواع البطالات والغفلات ، فعلمت أني كنت مراداً فصرت مريداً ؛ فإن من أراده . . وَفَّقه ، ومن أحبه . . قرَّبه ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أراد الله بعبد خيراً . . حبب إليه طاعته ، وبغض إليه معاصيه »[1] .

قال : وصحبته سنين ، فما رأيته نام مضطجعاً إلا يسيراً ، وطالما صلى الصبح بوضوء عشاء الآخرة ، غير أنه يتحسر علىٰ ما مضىٰ من اجتهاده رحمه الله .

وسئل أبو يزيد عن أسباب الوصول فقال : امتثال حقائق المأمورات ، وحفظ الصدق مع الإخلاص في جميع الحالات ؛ فإن الفائز في محشر الساعة من قام بأوامره سبحانه وتعالىٰ ، وتلقاها بالسمع والطاعة :

يـــا لله يـــا سطـــوات هجـــرهْ ... لا تعجلـــي بحلـــول ضُـــرِّهْ
لـــو قـــال لـــي مُـــتْ طـــاعـــة ... مـــا عشـــت بعـــد سمـــاع أمـــرهْ

وقال أبو يزيد : المعارف ثلاث : معرفة العوام ، ومعرفة الخواص ، ومعرفة خواص الخواص .

فمعرفة العوام : معرفة العبودية ، ومعرفة الربوبية ، ومعرفة الطاعة ، ومعرفة المعصية ، ومعرفة العدو والنفس .

ومعرفة الخواص : معرفة الإجلال والعظمة ، ومعرفة الإحسان والمنة ، ومعرفة التوفيق .

وأما معرفة خواص الخواص : فمعرفة الأُنس والمناجاة ، ومعرفة اللطف والتلطف ، ثم معرفة القلب ، ثم معرفة السر .

وقال أبو يزيد : خلق الله عز وجل الخلق لإظهار قدرته ، ورزقهم لإظهار جوده ،

---

(١) أخرج الحاكم (١/ ٤٩٠) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أراد الله بعبده خيراً . . استعمله » قيل : كيف يستعمله ؟ قال : « يوفقه لعمل صالح قبل الموت » .

وأماتهم لإظهار قهره ، ويحييهم لإظهار قدرته وعظمته ، ويحاسبهم لإظهار عدله ، ويدخل المؤمنين الجنة لإظهار رحمته .

وقال أبو يزيد : مُحالٌ أن تعرفه ثم لا تحبه .

وقال : مَن لزم العبودية . . لزمه اثنان : يأخذه الخوف من ذنبه ، ويفارقه العُجب من عمله .

وقال : حاصلهم بعد الغاية . . رجوعهم إلىٰ شيء واحد ، وهو طلب العفو .

وقال أبو موسىٰ : أهدىٰ ذو النون المصري إلىٰ أبي يزيد مصلىٰ ، فلم يقبله ، وقال : إنما أريد وسادة .

وكان أبو يزيد إذا ذكر الله عز وجل . . يبول دماً .

وسأل رجل أبا يزيد عن التوحيد فقال : هو اليقين ، فقال له : فما اليقين ؟ قال : معرفتك أن حركات الخلق وسكونهم فعل الله عز وجل لا شريك له في شيء ، فإذا عرفت ذلك وتيقنته . . فقد وحَّدته ؛ ومعناه : أنك ترىٰ أن الله سبحانه وتعالىٰ واحد لا شريك له .

وسئل أبو يزيد : ما علامة العارف ؟ فقال : ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ .

وقال أبو يزيد قدس الله روحه : الزاهد يقول : كيف أصنع ؟ والعارف يقول : كيف يُصنَع [بي] ؟ وأمل الزاهد في الدنيا الكرامات ، وفي الآخرة المقامات ، وأمل العارف في الدنيا بقاء الإيمان معه ، وفي الآخرة العفو وما تأمَّله .

وقال : عملت في المجاهدة ثلاثين سَنة ، فما وجدت شيئاً أشد عليَّ من العلم ، ولولا اختلاف العلماء . . لتعبت ، واختلاف العلماء رحمة إلا في تجريد التوحيد .

وقال : لا يعرف نفسه من صحبته شهوته .

وقال : إن لله عز وجل عباداً لو حجبوا عنه طرفة عين ثم أعطوا الجنان . . ما كان لهم إليها حاجة ، فكيف يركنون إلى الدنيا وزينتها ؟!

وقال : عرفت الله عز وجل بالله سبحانه وتعالىٰ ، وعرفت ما دون الله بنور الله .

وقال : حدثتني أمي أنها لما كانت حاملة بي إذا قدم إليها الطعام : فإن كان من حلال . . امتدت يدها إليه ، وإن كان من حرام . . لم تمتد يدها إليه .

وقال محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما وتوفاه على الإيمان ـ : كانت العناية من الأزل .

وقال علي بن محمد : رأىٰ أبو يزيد تفاحاً أحمر مليحاً ، فقال : هـٰذا تفاح لطيف ، قال : فقيل له في منامه : يا أبا يزيد ؛ أما استحييت أن تضع اسمي علىٰ ثمرة ، قال : فنسي اسم الله الأعظم أربعين يوماً ، ثم قال : إلـٰهي ؛ نذرت ألاَّ آكل من ثمار بسطام ما عشت .

وقال أبو يزيد قدس الله روحه لأصحابه : قمت البارحة وأنا أريد أن أذكر الله تعالىٰ ، فلم أقدر علىٰ ذلك ؛ لأني ذكرت وحشة كلمة جرت علىٰ لساني في صباي ، فقلت : كيف أذكره بلسان جرىٰ عليه ما جرىٰ ، ونطق بما نطق ؟!

وقال أبو يزيد : حسبك من التوكل ألاَّ ترىٰ لنفسك ناصراً غيره ، ولا لرزقك رازقاً غيره ، ولا لعملك شاهداً غيره .

وقال أبو يزيد : الخلق يظنون أن الطريق أشهر من الشمس ، وأبْيَنُ منها ، وإنما سؤالي منه سبحانه وتعالىٰ أن يفتح عليَّ من الطريق إليه جل جلاله ولو بمقدار رأس إبرة .

وقيل لأبي يزيد : ما أعظمُ آيات العارف ؟ قال : أن تراه يؤاكلك ، ويشاربك ، ويمازحك ، ويبايعك ، ويشاريك ، وقلبه معلق بالله سبحانه وتعالىٰ ليس له هَمٌّ سواه .

وقال أبو يزيد : النفس تنظر إلى الدنيا ، والروح تنظر إلى العقبىٰ ، والمعرفة تنظر إلى الله عز وجل ، فمَن غلبت نفسه عليه . . فهو من الهالكين ، ومن غلبت روحه عليه . . فهو من المجتهدين ، ومن غلبت معرفته عليه . . فهو من المتقين . انتهىٰ ، والله سبحانه أعلم .

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان أبو يزيد رحمه الله يقول : كل الناس يفِرون من الحساب وأنا أتمناه ؛ لعله سبحانه وتعالىٰ يقول لي فيما بين ذلك : يا عبدي ، فأقول : لبيك ، فقوله لي : (عبدي) أحب إلي من الدنيا وما فيها ، ثم بعد ذلك يفعل بي ما شاء .

وسأل رجل أبا يزيد أن يدله علىٰ عمل يتقرب به إلى الله عز وجل ، فقال : أحبِبْ أولياءه ليحبوك ؛ فإن الله سبحانه وتعالىٰ ينظر في قلوب أوليائه ، فلعله عز وجل ينظر إلى اسمك في قلب وليِّه فيغفر لك .

وكان يعظ نفسه ويقول لنفسه : يا أمارةً بالسوء ؛ إن المرأة إذا حاضت طَهُرت بعد ثلاثة أيام وأكثره عشرة ، وأنت ـ يا نفس ـ قاعدة منذ ثلاثين سَنة بعدُ ما طهُرْتِ ، فمتىٰ تطهرين ؟! إن وقوفك بين يدي الجبار جل جلاله لا بد منه ، فاجتهدي أن تكوني طاهرة .

وقال : عرج قلبي إلى السماء ، فطاف ودار ورجع ، فقلت : بأي شيء جئتَ معك ؟ فقال : بالمحبة والرضا .

وقال أحمد بن خضرويه : رأيت رب العزة سبحانه وتعالىٰ في المنام ، فقال لي : (يا أحمد ؛ كل الناس يطلبون مني إلا أبا يزيد ؛ فإنه يطلبني) .

توفي أبو يزيد سَنة إحدىٰ وستين ومئتين ، وله ثلاث وسبعون سنة رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/٧٦ـ٧٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أحمد بن الخضر
رضي الله عنه

قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : أحمد بن الخضر[1] شيخ خراسان في وقته ، له الفتوَّة المشهورة ، والتجريد الكبير ، كانت زوجته ـ المكتنية بأم علي ـ من بنات الأكابر ، حلَّلَتْ زوجها أحمد من صداقها علىٰ أن يزور بها أبا يزيد البسطامي ، فحملها إلىٰ أبي يزيد ، فدخلت إليه ، وقعدت بين يديه مسفرة عن وجهها ، فقال لها زوجها أحمد بعد خروجها من عند أبي يزيد : رأيت منك عجباً ، أسفرتِ عن وجهك بين يدي أبي يزيد! فقالت : لأني لما نظرت إليه . . فقدتُ حظوظ نفسي ، وكلما نظرت إليك . . رجعَتْ إلي حظوظ نفسي ، فلما خرج . . قال أحمد لأبي يزيد : أوصني ، قال له : تعلم الفتوَّة من زوجتك[2] .

وقال أحمد : مَن أحب أن يكون مع الله عز وجل في جميع الأحوال . . فليلزم الصدق ؛ فإن الله سبحانه وتعالىٰ مع الصادقين .

وقال محمد بن حامد : كنت جالساً عند أحمد بن خضرويه وهو في النزع ، وكان قد أتىٰ عليه خمس وتسعون سَنة ، فسئل عن مسألة ، فدمعت عيناه ، وقال : يا بني ؛ باب كنت أدقُّه خمساً وتسعين سَنة ، هو ذا يُفتح لي الساعة ، لا أدري أيفتح لي بالسعادة أم بالشقاوة ؟ أنَّىٰ لي أوان الجواب ؟

وكان قد ركبه من الدَّين سبع مئة دينار ، وحضر غرماؤه ، فنظر إليهم ، فقال : اللهم ؛ إنك جعلت الرهون وثيقة لأرباب الأموال ، وأنت تأخذ عنهم وثيقتهم ، فأدِّ عنِّي بكرمك يا أرحم الراحمين ، فدق دافٌّ الباب ، وقال : هـٰذه دار أحمد بن خضرويه ؟ فقالوا : نعم ،

---

(١) المعروف بابن خضرويه .

(٢) جاء في هامش نسخة : (وقع مثل هـٰذا لما دخل الشبلي على الجنيد وامرأته مكشوفة الرأس ، فأرادت أن تغطي رأسها ، فقال لها الجنيد : لا عليك ؛ فإنه ليس هو هناك) .

فقال : أين غرماؤه ؟ قال : فخرجوا ، فقضىٰ عنه دَينه ، ثم بعد قضاء الدَّين خرجت روحه رحمه الله . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ٤٢] .

وقال أبو الفرج : توفي أحمد سنة أربعين ومئتين رحمه الله . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ١١٠] .

وقال في « بهجة الأسرار » : قال أحمد بن خضرويه : في الحرية . . تمام العبودية ، وفي تحقيق العبودية . . تمام الحرية .

وقال : مَن خدم الفقراء . . أُكرم بثلاثة أشياء : بالتواضع ، وحُسن الأدب ، وسخاء النفس .

وقال : القلوب أوعية ، فإذا امتلأت من الحق . . ظهرت زيادة أنوارها على الجوارح ، وإذا امتلأت من الباطل . . ظهرت زيادة ظلمتها على الجوارح . [انتهىٰ] .

وقال في « المختار » : استقرض أبو حامد أحمد بن الخضر رحمه الله من رجل مئة ألف درهم ، فقال له المقرض : أليس أنتم الزهاد في الدنيا ؟! فما تصنع بهـٰذه الدراهم ؟! فقال : أشتري بها لقمة وأضعها في فم مؤمن ، ولا أجسر أن أسأل لذلك ثواباً ، فقال له : ولِمَ ؟ قال : لأن الدنيا كلها لا تزن عند الله جناح بعوضة ، وما مئة ألف درهم من الدنيا في جناح بعوضة وما قدرها ؟!

وقال أبو حامد أحمد : الصبر زاد المضطرين ، والرضا درجة العارفين ، فمن صبر علىٰ صبره . . فهو من الصابرين ، لا من صبر وشكا .

وقال : بلغني أنه استأذن بعض الأغنياء علىٰ بعض الزهاد ، فأذن له ، فرآه يفطر في رمضان على الخبز اليابس والملح ، فعاد إلىٰ منزله ، وبعث إليه ألف دينار ، فردها إليه وقال : هـٰذا جزاء مَن أفشىٰ سره إلىٰ مثلك . انتهىٰ .

وقال في « لوامع أنوار القلوب » : قال أبو حامد أحمد بن خضرويه البلخي رحمه الله : حقيقة المحبة المعرفة له سبحانه وتعالىٰ بالقلب ، والذكر له باللسان مع الحضور والاحترام ورفع الهمة عن كل شيء سواه ؛ فإن المَغْبُون من رضي بسواه سبحانه وتعالىٰ .

وكان يقول : لا نوم أثقَل من نوم الغفلة ، ولا رِقَّ أملَك من رِقِّ الشهوة ، ولا غبن أشد من رضى العبد بغير مولاه سبحانه وتعالىٰ .

وقال له رجل : أوصني ، فقال : أمِتْ نفسك بالمجاهدة حتىٰ تحييها بالمشاهدة ، والله أعلم . [انتهىٰ] .

وقال القشيري : أبو حامد أحمد بن خضرويه البلخي من كبار مشايخ خراسان ، صحب أبا تراب النخشبي ، وزار أبا حفص ، وخرج إلىٰ بسطام في زيارة أبي يزيد البسطامي ، وكان كبيراً في الفتوَّة .

وقال أبو حفص : ما رأيت أحداً أكبر همةً ولا أصدق حالاً من أحمد بن خضرويه .

وكان أبو يزيد يقول : أحمد أستاذنا . [انتهىٰ « الرسالة القشيرية » ٢٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو إسحاق إبراهيم الهروي
المعروف ببَسْتَنْبه
رضي الله عنه

قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : إبراهيم بن بستنبه صحب إبراهيم بن أدهم ، وهو من أقران أبي يزيد ، وهو مِن المذكورين بالتوكل والتجريد ، توفي بقزوين ، وهو من أهل هراة ، وكانوا يعظمونه ، فحج متجرداً ، فقيل : إنه كان من دعائه في تلك الحجة أن قال : اللهم ؛ اقطع رزقي عن أموال أهل هراة ، وزهِّدهم فِيَّ ، فكان بعد ذلك تأتي عليه الأيام الكثيرة لا يَطعَم فيها شيئاً ، فإذا مر بسوق هراة . . قالوا : الفاعل ينفق في كل يوم وليلة كذا وكذا درهماً .

وقال إبراهيم بن شيبان : بقي إبراهيم بن بستنبه في البادية ما أكل ولا شرب ، وما اشتهىٰ شيئاً أياماً ، قال : فعارضتني نفسي أن لي عند الله عز وجل حالاً ، فلم أشعر [إلا] أن كلمني رجل عن يميني ، فقال : يا إبراهيم ؛ ترائي الله عز وجل في سركَ ؟! فنظرتُ إليه فقلت له : قد كان ذلك ، فقال : أتدري كم لي هـٰهنا لم آكل ولم أشرب ولم أشته شيئاً وأنا زَمِن مطروح ؟ فقلت : الله تعالىٰ أعلم ، فقال : ثمانين يوماً ، وإنما أستحيي من الله عز وجل أن يقع لي خاطرك ، ولو أقسمت على الله عز وجل أن يجعل هـٰذا الشجر ذهباً . . لجعله ، فكانت بركة رؤيته تنبيهاً لي ورجوعاً إلىٰ حالي الأول .

وقال إبراهيم : مَن أراد ألاَّ يحجب دعاؤه . . فليتعاهد من نفسه خمسة أشياء :

[الأول] : أن يكون أكله غلبة ؛ فلا يأكل إلا ما لا بد له منه .

و[الثاني] : أن يكون لباسه غلبة ؛ فلا يلبس إلا ما لا بد منه .

و[الثالث] : نومه غلبة ؛ فلا ينام إلا ما لا بد منه .

و[الرابع] : كلامه غلبة ؛ فلا يتكلم إلا ما لا بد منه .

والخامس : أن يكون متضرعاً حافظاً لأوامره سبحانه وتعالىٰ ، دائم المحافظة لأعضائه كلها .

قال : وطريق الجنة ثلاثة أشياء :

[الأول] : أن يُسكِّن النفس بموعود الله سبحانه وتعالىٰ .

و[الثاني] : أن يرضىٰ بقضاء الله عز وجل .

والثالث : إخلاص العمل في أعماله كلها لله عز وجل .

ومَن أراد أن يبلغ الشرف كل الشرف . . فليختر سبعاً علىٰ سبع : يختار الفقر على الغنىٰ ، والجوع على الشبع ، والدون على المرتفع ، والذل على العز ، والتواضع على الكبر ، والحزن على الفرح ، والموت على الحياة .

وقال : كل من أصاب هـٰذه الثلاث . . فقد أصاب الشرف في الدنيا والآخرة :

أولها : فتح القلب ـ يعني : يفتح الله عز وجل قلبَه ـ فيجعله مأوى الذِّكر والمناجاة .

والثاني : غنيمة البر ، فيغتنم كل بر يرزقه الله عز وجل ويرىٰ أنه غنيمة له ، فيقبله بالمنة ، ويحفظه بالخوف ، ويتممه بالخشية ، ويسلمه بالإخلاص ، ويحفظه بالصبر .

والثالث : يستقيم علىٰ طاعة الله عز وجل حتىٰ يرزقه الله عز وجل الظفر بكل عدو له . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ٤٣ـ٤٤] . رضي الله عنه وأرضاه .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

داوود البَلْخي
رضي الله عنه

قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : صحبت رجلاً فيما بين الكوفة ومكة ، فإذا صلى العشاء . . صلىٰ ركعتين تجوَّز فيهما ، ثم يتكلم فيما بينه وبين نفسه بشيء ؛ فإذا علىٰ يمينه جفنة ثريد وكوز ماء ، فيأكل ويطعمني ، فذكرت ذلك لبعض المشايخ رحمهم الله ممن له كرامات ، فقال لي : يا بني ؛ ذاك أخي داوود البلخي ، ووصف من حاله ما أبكىٰ مَن حوله .

ومسكنه من وراء نهر بَلْخ ، بقرية يقال لها : الصادر ، تفتخر علىٰ تلك البقاع بسَكَن داوود فيها ، ثم قال لي : يا بني ؛ ماذا علَّمك وقال لك ؟ قلت : علمني اسم الله الأعظم ، فقال الشيخ : وما هو ؟ فقلت له : إنه لَكبير في قلبي أن ينطق به لساني ؛ فإني سألت الله عز وجل به مرة ، وإذا رجل آخذ بحجزتي ، فقال لي : سل تعطه ، فراعني ذلك ، وفزعت منه فزعاً شديداً ، فقال : لا بأس عليك ولا روع ، أنا أخوك الخضر ، ثم قال : إن أخي داوود علمك اسم الله الأعظم ، والله تعالىٰ يثبت به قلبك ، ويقوي به ضعفك ، ويؤنس به وحشتك ، ويؤمن به روعتك ، ويجدد به رغبتك ويقينك[1] .

إن الزاهدين في الدنيا اتخذوا الرضا عن الله عز وجل لباساً ، وحبه دثاراً ، وإيثار مرضاته وابتغاء وجهه الكريم شعاراً ، فأعطاهم سبحانه وتعالىٰ من فضله ، والله ذو الفضل العظيم .
انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ٤٤ـ٤٥] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) في نسخة : (ويعينك) .

ومنهم الإمام :

أبو تراب النخشبي
رضي الله عنه

قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : قال أبو عبد الله محمد بن أحمد الكسائي المقري : كنت جالساً عند أبي بكر ابن أبي عاصم وعنده قوم ، فقال رجل : أيها القاضي ؛ بلغنا أن ثلاثة نفر كانوا بالبادية يقلِّبون الرمل ، فقال أحدهم : اللهم ؛ إنك قادر علىٰ أن تطعمنا خبيصاً علىٰ لون هـٰذا الرمل ، قال : فجاءهم في الوقت أعرابي بيده طبق ، فسلم عليهم ، ووضع بين أيديهم طبقاً عليه خبيص حار علىٰ لون ذلك الرمل ، فقال ابن أبي عاصم : قد كان ذاك ، قال أبو عبد الله : وكان الثلاثة : عثمان بن صخر الزاهد أستاذ أبي تراب ، وأبو تراب[1] ، وأحمد بن عمرو ابن أبي عاصم ، وكان هو الذي دعا .

وكان أبو تراب رحمه الله إذا رأىٰ ما يكره من أصحابه من فترتهم في الاجتهاد . . يجدد فيما بينه وبين الله عز وجل توبة ، ويقول : بشؤمي دُفعوا إلىٰ ما دفعوا ؛ لأن الله تعالىٰ قال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ .

وكان يقول لأصحابه : من لبس منكم مرقعة . . فقد سأل ، ومن قعد في خانقاه[2] أو مسجد . . فقد سأل ، ومن قرأ القرآن في مصحف ؛ كيما يُسمِع الناس . . فقد سأل .

وروىٰ أبو تراب بإسناده عن وهب بن منبه قال : ثلاث مِن العلم : ورع يحجز عن معاصي الله عز وجل ، وخلق يداريٰ به الناس ، وحلم يرد به جهل الجاهل .

وثلاث من البر : سخاوة النفس ، والصبر على الأذىٰ ، وطيب الكلام .

وثلاث من مناقب الإيمان : الاستعداد للموت ، والرضا بالكفاف ، والتفويض إلى الله عز وجل في جميع الحالات .

---

(١) أبو تراب النخشبي : عسكر بن الحُصَيْن ، والنخْشبي : نسبة إلىٰ نخشب من نواحي بلخ .
(٢) **الخانقاه** : رباط الصوفية .

وقال أبو عبد الله ابن الجلاء : لقيت ست مئة شيخ ما رأيت فيهم مثل أربعة ، أولهم : أبو تراب النخشبي .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : قال أبو تراب رحمه الله : ما تمنت عليَّ نفسي قط إلا مرة ، تمنت علي خبزاً وبيضاً وأنا في سفر ، فعدلت عن الطريق إلىٰ قرية ، فلما دخلتها . . وثب إلي رجل وتعلق بي ، وقال : إن هـٰذا كان مع اللصوص ، فبطحوني وضربوني سبعين جلدة ، فوقف علينا رجل ، فصرخ ، وقال : هـٰذا أبو تراب ، فأقاموني واعتذروا إلي ، وأدخلني الرجل منزله ، وقدَّم إلي خبزاً وبيضاً ، فقلت : كُلْ بعد سبعين جلدة .

وكان أبو تراب يقول : بيني وبين الله عز وجل عهد ألاَّ أمد يدي إلىٰ حرام إلا قصرت يدي عنه .

وقال : لا أعلم شيئاً أضر بالمريدين من أسفارهم الباطلة ؛ لأنهم يسافرون علىٰ متابعة قلوبهم ، وما فسد من فسد إلا بمتابعة هواه .

وقال ابن الفرحي[1] : رأيت حول أبي تراب من أصحابه مئة وعشرين ركوة[2] قعوداً حول الأساطين[3] ، ما مات أحد منهم على الفقر إلا ابن الجلاء وأبو عبيد البسري . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ٤٥ـ٤٨] .

وقال في « المختار » : قال أبو تراب : إن الله تعالىٰ يُنطِق العلماء في كل زمان بما يشاكل أعمال أهل ذلك الزمان .

وقال محمد بن يوسف البنا : كان أبو تراب صاحب كرامات ، سافرت معه سَنة ، وكان في صحبته أربعون نفساً ، فأصابتنا فاقة في بعض الأيام ، فعدل أبو تراب عن الطريق ، وجاء بعذق موز ، فناولَنا ، فأكلناه .

وكان أبو تراب رحمه الله يقول : إذا تواترت علىٰ أحدكم النعم . . فليبكِ علىٰ نفسه ؛ فإنه قد سُلك به غير سبيل الصالحين ؛ لأن سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم قال :

---

(١) في نسخة : (ابن الفرجي) .

(٢) **الركوة** : إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء ، والمقصود هنا : أصحاب الرُّكىٰ ، والله أعلم .

(٣) **الأساطين** : جمع أسطوانة ، وهي : السارية .

« إنَّ أشد الناس بلاء . . النبيون ، ثم الأمثل فالأمثل »[1] ، يُبتلى المرء علىٰ حَسَب دِينه ، فإن كان في دِينه صلابة . . شُدد عليه .

وقال أبو تراب : عرض عليَّ طعام ، فامتنعت من أكله ، فابتُليت بالجوع أربعة عشر يوماً ، فعلمت أني عوقبت ، فتبت .

وقال أبو تراب : دخلت البادية ومعي ثلاث مئة تلميذ على التوكل ، فلما صرت في بعض الطريق . . أقام الله عز وجل لنا بالكفاية حتى انتهيت إلىٰ فيد[2] ، فعرفت نفسي بحسن الكلاءة ، فبمجرد وقوع هٰذا الخاطر وقع المنع ، وضعف أصحابي عن المشي ، فالتجأت إلى الله عز وجل ، فهتف بي هاتف : يا أبا تراب ؛ المنع إنما وقع بسبب ورود الخاطر الذي خطر لك ، ألم تر إلىٰ موسىٰ عليه الصلاة والسلام حيث قال : ﴿هِيَ عَصَايَ﴾ ، فلما ادَّعىٰ مُلْكاً ورأىٰ نفسه . . قال له الحق جل جلاله : ﴿أَلْقِ عَصَاكَ﴾ ، فلما ألقاها . . قلب الله العصا حية ، فلجأ موسىٰ عليه الصلاة والسلام إلى الله عز وجل وهرب ، فقيل له : ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ ، فقال له أبو تراب : جزاك الله خيراً ، لقد بيَّنت لي ، أنشدك الله ، مَن أنت ؟ قال : أنا الخضر الموكل بأولياء الله عز وجل ، أرُدُّ قلوبهم إذا شردت عنه سبحانه وتعالىٰ ، يا أبا تراب ؛ التلف في أول قدم ، والنجاة في آخر قدم ، قال أبو تراب : فأخذني الاستقلال من وقتي ، وحمل أصحابي ، فلا أدري أكنت سائراً ، أم طائراً ؟ انتهىٰ .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال أبو عبد الله ابن الجلاء : دخل أبو تراب مكة ، فرأيته طيب النفس ، فقلت : أين أكلت أيها الأستاذ ؟ فقال : جئتَ بفضولك ، أكلت أكلة بالبصرة ، وأكلة بالنباج[3] ، وأكلة هٰهنا .

وقال أبو عمرو الإصطخري : رأيت أبا تراب ميتاً بالبادية منتصباً لا يمسكه شيء ، فلما رأيت ذلك . . قلت : أشهد أن الله علىٰ كل شيء قدير .

زاد في رواية : عن إبراهيم الخواص قال : مات أبو تراب بين مكة والمدينة ، فنهشَته السباع .

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ١٠٠) ، وأخرجه بنحوه الإمام أحمد (٦/ ٣٦٩) .

(٢) فيد : جاء شرحها في هامش نسخة : (وفَيد : منزلة من منازل العراق) .

(٣) النِّباج : منزلة لحجاج البصرة بين مكة والبصرة ، بينه وبين البصرة عشرة مراحل ، والمرحلة : مسيرة يوم .

وقال رجل لأبي تراب : ألك حاجة ؟ فقال : يوم يكون لي إليك حاجة وإلىٰ أمثالك . . لا يكون لي إلى الله عز وجل حاجة .

وقال أبو تراب : حقيقة الغنىٰ أن تستغني عمن هو مثلك ، وحقيقة الفقر أن تفتقر إلىٰ من هو مثلك ، وإذا صدق العبد في العمل . . وجد حلاوته قبل أن يعمله ، وإذا أخلص فيه . . وجد حلاوته قبل مباشرة العمل .

وقال : مَن شغل مشغولاً بالله عز وجل . . أدركه المقت من ساعته . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/٤٩ـ٥٠] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال أبو علي ابن خيران : مَرَّ أبو تراب بمُزيِّن ، فقال له : احلق رأسي لله عز وجل ، فقال : نعم ، فقال له : اجلس ، فبينما هو يحلق رأسه ؛ إذ مر به أمير من أهل بلده ، فقال لبعض حاشيته : أليس هـٰذا أبو تراب ؟ فقالوا : بلىٰ ، فقال لهم : أي شيء معكم من الدنانير ؟ فقال رجل من حاشيته : معي خريطة فيها ألف دينار ، فقال : إذا قام . . فأعطه إياها ، واعتذر إليه ، وقل له : لم يكن معنا غير هـٰذا ، فجاء الغلام إليه وقال له : إن الأمير يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : ما حضر معنا غير هـٰذه الدنانير ، فقال : ادفعها إلى المُزيِّن ، فقال المُزيِّن : يا شيخ ؛ أما تستحي ، تقول : احلق رأسي لله تعالىٰ ، ثم تقول لي : خذ هـٰذه ، أيش أعمل بها ؟! فقال : خذها ، فقال : لا والله ؛ ولو أنها ألف دينار . . ما أخذتها ، فقال الغلام : إنها ألف دينار ، فقال : لا حاجة لي بها ؛ فإني إنما حلقت رأسه لوجه الله عز وجل ، فقال أبو تراب للغلام : امض إلىٰ مولاك ، وقل له : إن المُزيِّن ما أخذها ، وقال : إنه لا يقبلها ، ونحن لا حاجة لنا بها . رحمهم الله .

أسند أبو تراب عن جماعة ، منهم : نعيم بن حماد ، وغيره .

وتوفي سنة خمس وأربعين ومئتين . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/١١٦ـ١١٧] .

وقال حجة الإسلام الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : حكي أن أبا تراب النخشبي كان معجباً ببعض المريدين ، فكان يداريه ويقوم بمصالحه ، والمريد مشغول بعبادته ومواجدته ، وكان من أرباب البصائر العارفين ، فقال له أبو تراب يوماً : لو رأيت أبا يزيد ؟ فقال له المريد : إني عنه مشغول ، فلما أكثر عليه أبو تراب من قوله : لو رأيت أبا يزيد . . هاج وَجْدُ المريد ، وقال له : ما أصنع بأبي يزيد وإني لا أزال مشاهداً لله عز وجل ؟! قال أبو تراب : فهاج طبعي ، ولم أملك نفسي ، فقلت : إنك لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة . . ازدادت بصيرتك في

مشاهدة الحق جل جلاله ؛ لأن مشاهدتك إنما تظهر لك علىٰ مقدارك ، وأما إذا رأيت أبا يزيد . . فمشاهدتك للحق جل جلاله تظهر لك علىٰ مقداره ، فعرف حقيقة ما قلت ، فقال : احملني إليه .

قال : فذكر قصة قال في آخرها : فوقفنا علىٰ تل ننتظره ليخرج علينا من الغيضة[1] ، وكان يأوي غيضة فيها سباع ، قال : فمر بنا وقد قلب فروة علىٰ ظهره ، فقلت للفتىٰ : هـٰذا أبو يزيد ، فانظر إليه ، فلما نظر إليه الفتىٰ . . صعق ، فحرَّكته ، فإذا هو ميت ، فتعاونَّا علىٰ تجهيزه ودفنه ، ثم قلت لأبي يزيد : يا سيدي ؛ نظرة إليك قتلته ، قال : لا ، ولـٰكن صاحبَك كان صادقاً ، واستكن في قلبه سر لم ينكشف له بالوصف ، فلما رآنا . . انكشف له سر قلبه ، فضاق عن حمله ؛ لأنه في مقام الضعفاء المريدين ، فلم يحتمل ذلك ، فقتله ذلك . أو كما قال . انتهىٰ [« الإحياء » ٤/٣٥٦] .

وقال الإمام محمد ابن الإمام أبي بكر الرازي ـ قدس الله روحه ـ : الشاهد في اصطلاح القوم ما كان حاضراً في قلب الإنسان وتغلب عليه ذِكره ، حتىٰ كأنه يراه ويبصره ، فإن كان الغالب علىٰ قلبه العلم . . فهو شاهد العلم ، وإن كان الغالب علىٰ قلبه الوجْد . . فهو شاهد الوجْد ، وإن كان الغالب علىٰ قلبه الحق . . فهو شاهد الحق سبحانه وتعالىٰ ، وكل ما غلب عليك ذِكره . . فهو شاهدك .

وسئل الشبلي رضي الله عنه عن المشاهدة فقال : مِن أين لنا مشاهدة الحق جل جلاله ؟ إنما لنا شاهدُ الحقِّ سبحانه وتعالىٰ ، أراد بذلك ذِكر الحق جل جلاله المستولي علىٰ قلبه ، الغالب عليه .

وكان أبو تراب يقول : ليس شيء أضرَّ على المريدين من أسفارهم علىٰ متابعة هواهم ، وما فسد مَن فسد مِن المريدين إلا بالأسفار الباطلة ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الأنفال : ٤٧] .

وقيل لأبي تراب ـ وقد أخذ في طريق البادية ـ : لا بد من قوت ، فقال : لا بد ممن لا بد منه .

وكان يقول : أشرف القلوب . . قلب حَيِيَ بنور الفهم عن الله عز وجل .

وقال : الفقير قوته ما وجد ، ولباسه ما ستر ، ومسكنه حيث نزل .

---

(١) **الغيضة** : الموضع الذي يكثر فيه الشجر ويلتف .

وهـٰذا نظير قول الإمام أبي سليمان الداراني رحمه الله حيث قال : ليكن أكلك ما حضر ، ولبسك ما ستر ، ولن تنال المراد إلا بالانفراد ، والخلق أكثرهم حجاب .

وقال أبو تراب : إذا صدق العبد في العمل . . وجد حلاوته قبل أن يعمله .

وقال : احفظ همَّكَ ؛ فإنه مقدمة الأشياء ، فمَن صح له همُّهُ . . صح له ما بعد ذلك من أفعاله وأحواله إن شاء الله تعالىٰ . [انتهىٰ] والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : في حفظي : أن أبا تراب قصد زيارة الأستاذ أبي حفص النيسابوري الحداد رحمه الله ، فلما وقف علىٰ بابه . . استأذن ليدخل ، فلم يأذن له ، قال أبو تراب : فهممت أن أحفر حفيرة عند بابه وأجلس هناك ، قال : فما استتم هـٰذا الخاطر في ضميري إلا وقد خرج أبو حفص ، وفتح لي الباب ، وقال : ادخل . [انتهىٰ] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

مُحتَوى الكِتَابِ

أبو عبد الرحمن طاووس بن كيسان رضي الله عنه ٥
من مناقبه وثناء الناس عليه ٥
من كلامه رضي الله عنه وأخباره ٥
فائدة جليلة ٦
التوراة والإنجيل والفرقان في كلمة واحدة ٧
يعظ سليمان بن عبد الملك فيبكي ٧
يحدث سليمان بن عبد الملك ٨
من أحاديثه المسندة ٩
كيف كان دخول العلماء على السلاطين وحكاية لطاووس رضي الله عنه ١٠
كلام للإمام الغزالي في سيرة العلماء في الأمر بالمعروف ١١
محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة بن الحارث بن أبي ذئب رضي الله عنه ١٢
من مناقبه وثناء العلماء عليه ١٢
لا يخاف في الله لومة لائم ١٣
أبو بكر أيوب السختياني رضي الله عنه ١٤
من مناقبه وثناء العلماء عليه ١٤
ذكر جماعة ممن روى عنهم أيوب ورووا عنه ١٧
أثبتُ أصحاب نافع ١٨
أبو عبد الله وهب بن منبِّه رضي الله عنه ٢٠
كلامه رضي الله عنه ومعرفته بالكتب المنزلة ٢٠
خلاصة نيفٍ وتسعين من كتب الله عز وجل ٢٠
كلام نفيس في الرزق ٢٠
كونه ﷺ أرجح الناس عقلاً ٢١

موعظة بليغة ٢١
لا يتم عقل امرىء حتى يستكمل عشر خصال ٢٢
رجل من بني إسرائيل غفر له بمحبته لمحمد ﷺ ٢٣
دعاء سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام لما دخل على الملك ٢٣
ثلاثون سطراً وجدها وهب آخر زبور داوود عليه السلام ٢٤
قصة رجل من أفضل أهل زمانه ٢٥
أزهد الناس في الدنيا وأرغبهم فيها وأجودهم ٢٦
ثلاثة أخلاق يضل بها الشيطان بني آدم ٢٦
قصة سليمان عليه السلام مع الحرّاث ٢٨
الدار البيضاء في السماء السابعة ٢٨
عيسى عليه السلام يخاطب أهل قرية نزل بهم العذاب ٢٩
موعظة بليغة لوهب ٣٠
سطور مشرقة وجدها على حاشية التوراة ٣١
أبو أيوب ميمون بن مهران رضي الله عنه ٣٢
ميمون يزور الحسن البصري رضي الله عنهما ٣٢
من كلامه رضي الله عنه ٣٣
من أحاديثه المسندة ٣٥
أخلاق عالية ٣٦
أبو وائل شقيق بن سلمة رضي الله عنه ٣٧
من مناقبه وثناء العلماء عليه ٣٧
من دعائه رحمه الله ٣٨
من أحاديثه المسندة ٣٨
خيثمة بن عبد الرحمن رضي الله عنه ٣٩
من مناقبه وثناء العلماء عليه ٣٩
من كلامه رضي الله عنه وأقواله ٤٠

أبو أمية شريح القاضي رضي الله عنه ٤٢
من أحاديثه المسندة ٤٢
يقضي بين سيدنا علي كرم الله وجهه ويهودي ٤٢
أبو ميسرة عمرو بن شرحبيل رضي الله عنه ٤٤
عمرو بن عتبة بن فرقد رضي الله عنه ٤٦
من مناقبه وأحواله رضي الله عنه ٤٦
أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما ٤٨
من كلامه رضي الله عنه ٤٨
من أحاديثه المسندة ٤٩
يزيد بن شريك التيمي وابنه إبراهيم رضي الله عنهما ٥٠
من كلام يزيد رضي الله عنه ٥٠
من كلامه ابنه إبراهيم ٥٠
سبب حبس إبراهيم ووفاته رحمه الله ٥١
مكثه الشهر والشهرين لا يأكل شيئاً ٥٢
من كلامه رضي الله عنه ٥٢
كلام للإمام الغزالي حول قبول الهدية مع المنة وما يتبع ذلك ٥٣
كلام دقيق في علم المعاملة القلبية ٥٣
أبو عمران إبراهيم بن يزيد النخعي رضي الله عنه ٥٤
مناقبه وثناء العلماء عليه ٥٤
من كلامه وأقواله رضي الله عنه ٥٥
كراهية أن يقال: (حانت الصلاة) ٥٦
متى كانوا يختمون القرآن ٥٦
فائدة مهمة ٥٦
من أحاديثه المسندة ٥٨
عون بن عبد الله بن عتبة رضي الله عنه ٦٠
من كلامه رضي الله عنه ٦٠

ذكر الخروج من المنزل ٦٢
من أحاديثه التي رواها ٦٤
أبو عبد الله سعيد بن جبير رضي الله عنه ٦٥
مناقبه وثناء العلماء عليه ٦٥
من كلامه رضي الله عنه ٦٦
أولاد المؤمنين يوم القيامة ٦٧
من أقواله في التفسير ٦٧
قصة القبض على سعيد بن جبير وقتله وما حصل له في ذلك من كرامات ٦٨
من أحاديثه رضي الله عنه ٧١
أبو عمرو عامر بن شراحيل الشعبي رضي الله عنه ٧٣
من كلامه رضي الله عنه ٧٣
مراتب الرجال ٧٤
قول للشعبيِّ ونظْم لآخرَ بمعناه ٧٥
مسألة فَرَضية اختلف فيها خمسة من الصحابة رضي الله عنهم ٧٥
من أحاديثه رضي الله عنه ٧٦
الشعبي والحسن البصري رضي عنهما يجيبان على ابن هبيرة ٧٦
أبو إسحاق عمرو بن عبد الله السبيعي رضي الله عنه ٧٩
مناقبه وثناء العلماء عليه وبعض أقواله ٧٩
من أحاديثه رضي الله عنه ٨٠
أبو عيسى عبد الرحمن بن أبي ليلى رضي الله عنه ٨١
من مناقبه رضي الله عنه ٨١
من أحاديثه المسندة ٨١
ثلاثة من فقهاء العراق اختلفوا في حكم بيع وشرط ٨٢
أبو صالح الحنفي ماهان رضي الله عنه ٨٥
من أحاديثه المسندة ٨٦

ربعي بن حراش رضي الله عنه ٨٧
كرامة عجيبة: عيش بعد الموت ٨٧
من أحاديثه رضي الله عنه ٨٨
أبو عبد الله محمد بن سوقة رضي الله عنه ٨٩
من مناقبه وكلامه رضي الله عنه ٨٩
من أحاديثه التي رواها ٩١
أبو محمد طلحة بن مصرِّف رضي الله عنه ٩٢
من مناقبه وأخباره رضي الله عنه ٩٢
أبو عبد الرحمن زُبيد اليامي رضي الله عنه ٩٤
من مناقبه وثناء العلماء عليه ٩٤
من مروياته رضي الله عنه ٩٥
أبو غياث منصور بن المعتمر رضي الله عنه ٩٧
ثناء العلماء عليه ٩٧
سليمان بن مِهران الأعمش ٩٩
مناقبه وثناء العلماء عليه ٩٩
يضرب الجمّال وهو محرم ١٠٠
كلام المؤلف رحمه الله في تأويل صنيع الأعمش ١٠٠
من دعائه إذا قام الليل ١٠١
مجمع بن صمغان التيمي رضي الله عنه ١٠٢
مناقبه وأخباره وثناء العلماء عليه ١٠٢
عمرو بن قيس الملائي رضي الله عنه ١٠٤
كلام الثوري عن شيخه عمرو رضي الله عنهما ١٠٤
ثلاث من رؤوس التواضع ١٠٥
من مناقبه وثناء العلماء عليه ١٠٥
أبو ذر عمر بن ذر رضي الله عنه ١٠٧
ما قاله رحمه الله في وفاة ابنه ذرٍّ ١٠٧

من كلامه رضي الله عنه ١٠٧
من دعائه رضي الله عنه ١٠٨
من أحاديثه المسندة ١٠٩
أبو إدريس الخولاني رضي الله عنه ١١٠
من كلامه رضي الله عنه ١١٠
عبد الله بن محيريز رضي الله عنه ١١١
شواهد على ورعه وخوفه من الرياء ١١١
من مناقبه وكلامه رضي الله عنه ١١١
خصلتان جليلتان كانتا في ابن محيريز ١١٢
عبد الله بن أبي زكريا رضي الله عنه ١١٣
من كلامه رضي الله عنه ١١٣
أبو عبد رب عبيدة بن المهاجر رضي الله عنه ١١٥
حكاية توبته وتصدقه بصامت ماله ١١٥
يزيد بن مرثد رضي الله عنه ١١٨
خوفه من الله عز وجل ١١٨
يتهرب من ولاية القضاء ١١٨
من أحاديثه المسندة ١١٨
رجاء بن حيوة رضي الله عنه ١٢٠
ثناء العلماء عليه ١٢٠
ينصحه رجل لعله الخضر ١٢٠
من بديع حكمه ١٢١
فقيه الشام أبو عبد الله مكحول رضي الله عنه ١٢٢
من كلامه رضي الله عنه ١٢٢
قصة سليمان عليه السلام والحراث ١٢٣
تعليق المؤلف رحمه الله حول القصة ١٢٤
من دعاء داوود عليه السلام ١٢٤

من أحاديثه رضي الله عنه ١٢٥
أبو عثمان عطاء بن ميسرة الخراساني رضي الله عنه ١٢٧
من كلامه ومواعظه رضي الله عنه ١٢٧
طلب الحوائج من الشباب أسهل من الشيوخ ١٢٨
من أحاديثه المسندة ١٢٨
خالد بن معدان رضي الله عنه ١٣٠
من مناقبه رضي الله عنه ١٣٠
من كلامه رضي الله عنه ١٣٠
من أحاديثه رضي الله عنه ١٣١
بلال بن سعد رضي الله عنه ١٣٣
من كلامه ومواعظه رضي الله عنه ١٣٤
من أحاديثه المسندة ١٣٦
أبو يوسف يزيد بن ميسرة رضي الله عنه ١٣٧
من كلامه ومواعظه رضي الله عنه ١٣٧
البكاء من خمسة أشياء ١٣٧
من أحاديثه عن أم الدرداء رضي الله عنها ١٣٨
إبراهيم بن أبي عبلة رضي الله عنه ١٣٩
رفضه ولاية خراج مصر ١٣٩
أبو إسحاق كعب الأحبار رضي الله عنه ١٤١
جملة صالحة من كلامه ومواعظه رضي الله عنه ١٤١
تخويف وتبشير ١٤٢
عصاة هذه الأمة وحالهم يوم القيامة ١٤٣
دعاء داوود عليه السلام إذا أقبل الليل أو النهار ١٤٧
عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي رضي الله عنه ١٤٨
خلافهم في الأوزاع التي نسب إليها ١٤٨
مناقبه وثناء العلماء عليه ١٤٨

من كلامه رضي الله عنه ١٥٠
أبو بكر حسان بن عطية رضي الله عنه ١٥١
من كلامه رضي الله عنه ١٥١
ما يقوله إذا أمسى أو أصبح ١٥١
من دعائه رضي الله عنه ١٥٢
جَمَعَ الإيمان من كان فيه خمس خصال ١٥٢
من أذكار الطعام ١٥٢
أبو عروة القاسم بن مخيمرة رضي الله عنه ١٥٤
من كلامه رضي الله عنه ١٥٤
من أحاديثه التي رواها عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ١٥٥
أبو محمد حبيب العجمي رضي الله عنه ١٥٦
سبب إقباله على الله عز وجل ١٥٦
يضمن لرجل على ربه عز وجل بيتاً في الجنة ١٥٧
من كراماته وأحواله رضي الله عنه ١٥٨
عبد الواحد بن زيد رضي الله عنه ١٦١
من كلامه وأخباره رضي الله عنه ١٦١
رؤيا له رضي الله عنه ١٦٢
حكايته مع ميمونة السوداء ١٦٢
حثه على البكاء ١٦٤
رؤيا عجيبة ١٦٥
رؤيا أخرى فيها موعظة ١٦٥
أبو بشر صالح المرِّي رضي الله عنه ١٦٧
موعظة بليغة وتوبة نصوح ١٦٧
دواعي البكاء ١٦٨
فائدة لاستجابة الدعاء ١٦٨
من عجائب العبَّاد ١٦٩

تفقد الحلاوة في ثلاث ١٧٠
من كلامه رضي الله عنه ١٧٠
من أحاديثه رضي الله عنه ١٧١
أبو المهاجر رياح بن عمرو القيسي رضي الله عنه ١٧٢
يعاتب نفسه ويوبخها ١٧٢
من أحواله وأخباره رضي الله عنه ١٧٢
أبو بشر حوشب بن مسلم رضي الله عنه ١٧٥
من كلامه عن الحسن البصري رضي الله عنهما ١٧٥
من أحاديثه عن الحسن ١٧٦
أبو مسعود سعيد بن إياس الجريري رضي الله عنه ١٧٧
ملك الموت يقبض روح عبد مؤمن ١٧٧
من أحاديثه رضي الله عنه ١٧٨
عطاء السليمي رضي الله عنه ١٧٩
من مناقبه وأحواله رضي الله عنه ١٧٩
هو في وادٍ والناس في وادٍ آخر ١٨٠
شواهد على شدة خوفه من الله عز وجل ١٨٠
يصف له سعدون دواء عجيباً ١٨٣
عتبة بن أبان الغلامُ رضي الله عنه ١٨٥
سبب تسميته بالغلام ١٨٥
قصة استشهاده والبشارة بذلك ١٨٥
من مجاهداته لنفسه ١٨٦
لباسه رضي الله عنه ١٨٨
سليمان بن علي يزور عتبة ١٨٨
يقطع الليل بثلاث صيحات ١٨٩
من مناقبه وأخباره رضي الله عنه ١٩٠
يدعو الطير فتجيبه ١٩٠

أبو عبد الله سفيان بن سعيد الثوري رضي الله عنه ١٩٣
من مناقبه وثناء العلماء عليه ١٩٣
طرف واسع من كلامه وأخباره رضي الله عنه ١٩٥
بيتان في رثائه ٢٠٠
أبيات كان يتمثل بها ٢٠٠
من شِعره رضي الله عنه ٢٠٠
كتابه إلى عباد بن عباد ٢٠٢
لقاؤه بالخليفة المهدي ٢٠٢
كراهته النظر إلى البناء المزوَّق ٢٠٣
كلام المؤلف رحمه الله حول هذا المعنى ٢٠٣
لا يقتدى بصاحب عيال ٢٠٤
المال ترس المؤمن ٢٠٥
عمل الأبطال ٢٠٦
كان يرد ما يُعطى ٢٠٦
بعض المرائي والمبشرات التي رؤيت له ٢٠٧
من أقواله وحكمه رضي الله عنه ٢٠٨
داء المال كبير ٢٠٩
ثلاثة من الصبر ٢١٠
ثلاثة أشياء جعلها على نفسه ٢١١
وصية جليلة ٢١١
من أذكاره عند الأكل ٢١٢
هروبه من المهدي إلى اليمن ٢١٣
اسمه ونسبه رضي الله عنه ٢١٣
من محاسنه وثناء أهل العلم عليه ٢١٤
يزور بنت أم حسان الأسدية رضي الله عنهما ٢١٦
تفسير (لا حول ولا قوة إلا بالله) ٢١٧

موعظة ووصية ٢١٧
مسألة فقهية ٢٢١
حكاية الثوري رحمه الله مع بعض الخلفاء وما كان بينهما ٢٢٢
تعليق المؤلف على هذه الحكاية وأمثالها ٢٢٧
دخوله على أبي جعفر المنصور ٢٢٧
وصية تخشع لها القلوب ٢٢٩
البدعة أحب إلى إبليس من المعصية ٢٣١
خالفتنا المرجئة في ثلاث ٢٣٢
لا يخاف في الحق لومة لائم ٢٣٥
في روايات وأخبار مختلفة فيما جرى بينه وبين المهدي ٢٣٧
يتعبد ويقوم الليل في ليلة موته ٢٣٨
موضع الشكر ٢٤٠
بلبل يتبع جنازته ويموت على قبره رحمه الله ٢٤٠
ابن مهدي يصف تهجده بالليل ٢٤١
الخضر عليه السلام يحضر دفنه ٢٤١
أفضل الذكر ٢٤٢
كلب سلطه الله على سابِّ الشيخين ٢٤٣
رؤيا مبشرة ومقام عظيم ٢٤٣
من هم اللحميُّون؟ ٢٤٤
من أقواله في التفسير ٢٤٤
وصية جامعة ٢٤٥
من مسانيد حديثه رضي الله عنه ٢٤٦
الإمام محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه ٢٤٩
اسمه ونسبه رضي الله عنه ٢٤٩
في من صنفوا في مناقبه رضي الله عنه ٢٤٩
من الأحاديث الواردة في فضل قريش ٢٥٠

فصل: في مولد الشافعي رحمه الله وذكر نبذة من أموره وحالاته ٢٥١
سبب طلبه الفقه ٢٥٢
تصنيفه «الرسالة» وثناء العلماء عليها ٢٥٣
فصل: في تلخيص جملة من أحوال الشافعي رحمه الله ٢٥٤
فصل: في نوادر من حِكم الشافعي رحمه الله ٢٥٩
أرجى حديث للمسلمين ٢٦٤
فصل: في أحرف من المنقولات في سخائه رحمه الله ٢٦٥
فصل: في شهادة أئمة الإسلام المتقدمين فمن بعدهم للشافعي رحمه الله بالتقدم في العلم واعترافهم له به وحسن ثنائهم عليه وجميل دعائهم له ووصفهم له بالصفات الجميلة والخلال الحميدة ٢٦٦
من فضائله رضي الله عنه ٢٧١
فصل: فيمن روى عنهم الشافعي من علماء الحجاز واليمن ومصر والعراق ٢٧٢
فصل: في صفته وحليته رحمه الله ٢٧٢
مناظرة بينه وبين محمد بن الحسن ٢٧٦
أبو حنيفة أعلم أم مالك رضي الله عنهما ٢٧٨
مناظرة أخرى بين الشافعي ومحمد بن الحسن ٢٧٩
دعاء للدخول على السلطان والعصمة منه ٢٨٠
مناظرة عظيمة مشتملة على فوائد نفيسة ٢٨٢
فائدة في فقه حديث عن النبي ﷺ ٢٨٣
تفسير حديث: «أقروا الطير على مكناتها» ٢٨٤
قدرته الفائقة على المناظرة ٢٨٦
حكم قتل الزنبور للمحرم ٢٨٦
كلامه في التحذير من أهل الأهواء والبدع ٢٨٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ ٢٨٨
طلب العلم يحتاج إلى ثلاث ٢٨٩
وصيته ليونس بن عبد الأعلى في معاملة الصديق ٢٨٩

أثر كل علم على النفس ٢٩٠
حكم التكنِّي بأبي القاسم ٢٩٠
إسناده في الصلاة ٢٩١
تحذيره ممن به عاهة في بدنه ٢٩١
فراسة صادقة ٢٩٢
من كلامه في مرض موته ٢٩٢
أحمد ابن حنبل يصف الشافعي رضي الله عنهما ٢٩٣
لا يخبر الرجل عن سنِّه ٢٩٤
وصيته لمؤدب أولاد الرشيد ٢٩٤
صيغة عظيمة في الصلاة على النبي ﷺ ٢٩٤
دواء العُجب والرياء ٢٩٥
الصبر مع المحنة أفضل أم التمكين ٢٩٥
ثناء عاطر ونعت بليغ ٢٩٥
ذكر جملة من اصطلاح الإمام الشافعي في كتبه ٢٩٦
من فراسته رضي الله عنه ٢٩٨
من دعائه رحمه الله ٢٩٨
ظهَر الشافعي بثلاث خصال ٢٩٨
مدة تصنيف مذهبه الجديد ٢٩٩
الحكمة في قصر عمره ٢٩٩
كلام المؤلف رحمه الله في مدح الشافعي والثناء عليه ٢٩٩
الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه ٣٠٢
نسبه وذكر من روى عنهم ٣٠٢
مناقبه وثناء العلماء عليه ٣٠٢
رؤيا مبشرة ٣٠٤
صفته رضي الله عنه ٣٠٧
ضربه لقوله في طلاق المكره ٣٠٨

تعظيمه لرسول الله ﷺ ٣١٠
واقعة غريبة ٣١٠
سؤال بدعة وإجابة جليلة ٣١٢
أشبه الثمار بثمار الجنة ٣١٣
لقاؤه بهارون الرشيد ٣١٣
يشاوره الرشيد في ثلاثة ٣١٤
استفتاؤه في بناء الكعبة ٣١٤
ما يقال عند رؤية الجنازة ٣١٤
الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه ٣١٦
من سمع منهم ورووا عنه ٣١٦
محنة توليته القضاء وضربه على ذلك ٣١٧
نعته وحليته رضي الله عنه ٣١٨
حيلة وحُسن تخلُّص ٣١٩
مناقبه وثناؤهم عليه ٣١٩
ما نقله المؤلف رحمه الله عن تأليفٍ لابن أبي العوام ٣٢٤
أخلاق رفيعة ٣٢٤
وصيته لنفر من أصحابه ٣٢٦
أمانته في البيع والمعاملة ٣٢٨
سبب تسمية المرجئة بذلك ٣٢٩
بعض المبشرات والمرائي التي رؤيت له ٣٢٩
رأيه في الاسم الأعظم ٣٣١
فائدة نفيسة فيما ينجي الخلق من عذاب الله تعالى ٣٣١
الإمام أحمد ابن حنبل رضي الله عنه ٣٣٢
مناقبه وثناء أهل العلم عليه وذكر شيء من أحواله رحمه الله ٣٣٢
شواهد على زهده وتقشفه رضي الله عنه ٣٣٥
من دعائه رضي الله عنه ٣٣٩

مستجاب الدعوة ٣٣٩
يترحم على أبي الهيثم ٣٤٠
يجعل من ضربه في حِل ٣٤٠
وروده على المتوكل وإكرامه له ٣٤٠
في مرض موته ووفاته رضي الله عنه ٣٤٢
محنة خلق القرآن ٣٤٤
رؤيا للإمام الشافعي وتبركه بالإمام أحمد رضي الله عنهما ٣٥٧
بم تلين القلوب ٣٦١
حرص على الطلب ٣٦٢
جملة من المرائي والمبشرات التي رؤيت له ٣٦٢
محنة أخرى للإمام أحمد رضي الله عنه ٣٦٧
إقامته بقرب المتوكل وما جرى في ذلك من الأخبار ٣٦٧
كان كثيراً ما يدعو بهذا الدعاء ٣٧٤
أبو محمد سفيان بن عيينة رضي الله عنه ٣٧٥
من كلامه وأقواله رضي الله عنه ٣٧٥
الزاهد في الدنيا ٣٧٦
فائدة: ماء زمزم لا يرد ٣٧٦
تسع خصال من العقل ٣٧٨
مفاضلة بين قولين لمطرف وأخيه ٣٧٩
أشد الناس حسرة يوم القيامة ٣٨٠
أول من مات ٣٨١
دعاء ومناجاة بليغة ٣٨١
من أحاديثه رضي الله عنه ٣٨٢
وصية أبيه له ٣٨٢
حد الرضا عن الله عز وجل ٣٨٣
معنى حديث للنبي ﷺ ٣٨٤

ذكر من روى عنه ٣٨٤
من ثناء العلماء عليه ٣٨٤
قوله في تفسير حديث: «من غشنا فليس منا» ٣٨٥
شعبة بن الحجاج رضي الله عنه ٣٨٦
مناقبه وأحواله وثناء العلماء عليه ٣٨٦
فائدة أول من تكلم في الرجال ٣٩١
مسعر بن كدام رضي الله عنه ٣٩٢
مناقبه وأحواله وثناء أهل العلم عليه ٣٩٢
يستعفي من ولاية القضاء ٣٩٥
الجنة والنار يسمعان بني آدم ٣٩٥
من أحاديثه رضي الله عنه ٣٩٦
أبو سليمان داوود بن نصير الطائي رضي الله عنه ٣٩٨
سبب علته التي مات بها ٣٩٩
سبب تعبده وعزلته رضي الله عنه ٣٩٩
من مناقبه وكلامه وأحواله رضي الله عنه ٤٠٠
منزع شريف ومطلب منيف ٤٠٠
من أخبار زهده وورعه وتقشفه رحمه الله ٤٠٢
موعظة وتخويف ٤٠٨
رأيه في الدخول على الأمراء للنصيحة ٤٠٨
من أحاديثه رضي الله عنه ٤٠٩
سبب زهده رحمه الله ٤١٠
أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه ٤١٣
قصة ابتداء أمره ورجوعه إلى الله عز وجل ٤١٣
يلتقي بداوود والخضر عليهما السلام ٤١٤
رواية أخرى في ابتداء أمره رضي الله عنه ٤١٥
لا تنال درجة الصالحين إلا بعد ست عقبات ٤١٦

شروط الصحبة ٤١٦
لو علم الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف ٤١٧
شواهد على زهده وورعه وطلبه الحلال ٤١٨
لقد أتعب من صحبه رضي الله عنه ٤١٨
قصة صحبته لأبي سليمان وما جرى له من الكرامة في الحصاد ٤١٩
الزهد ثلاثة أصناف ٤٢٢
غاية الورع ٤٢٢
بعض أصحابه يخبر عن أشد شيء مر في صحبته ٤٢٢
يأكل الطين ويسف الرمل ٤٢٣
كرمه وإنفاقه على قلة ذات يده ٤٢٤
حُسن ظنه ومحبته لرفقائه ٤٢٦
مما أوحى الله عز وجل ليحيى عليه السلام ٤٢٦
يعد فقد المال نعمة ٤٢٨
ثلاثة لا يعرفون إلا في ثلاثة ٤٣٠
من أدبه في إطعام الطعام ٤٣٠
لا يبتاع التين بالدِّين ٤٣٣
يدعو الله فيسكن البحر ٤٣٣
ذكر شيء من كراماته وأحواله رضي الله عنه ٤٣٣
دعاء للحفظ ٤٣٤
سبب الحجاب عن الله عز وجل ٤٣٦
ذكر شيء من كلامه وحِكمه رضي الله عنه ٤٣٦
المسألة مسألتان ٤٣٦
ماتت القلوب في عشرة أشياء ٤٣٧
بم يتم الورع ٤٣٧
قصة حميد بن جابر وتوبته ٤٤٠
رؤيا عجيبة ٤٤١

السابق والمقتصد والظالم لنفسه ٤٤١
أستاذ الأستاذين ٤٤١
هي الستة وأنا الضمين بنصفها ٤٤١
من أحاديثه رضي الله عنه ٤٤٢
لا يسكن قلب المشتاق لغير حبيبه ٤٤٦
رؤيا عجيبة ٤٤٧
قصة عجيبة ٤٤٧
دعاء عظيم كان يقرؤه كل جمعة ٤٤٨
الليث بن سعد رضي الله عنه ٤٥٠
كرم وعطاء وفير ٤٥٠
من كرمه وسخائه ٤٥٠
صلاح البلد ٤٥١
مسألة عويصة وجواب حسن ٤٥٢
عليّ والحسن ابنا صالح بن حي رضي الله عنهما ٤٥٤
من مناقبهما وأمهما رضي الله عنهم ٤٥٤
أبو علي شقيق البلخي رضي الله عنه ٤٥٧
سبب تركه للدنيا وطلبه العلم ٤٥٧
رواية أخرى في سبب توبته وزهده ٤٥٧
طريق الزهاد في سبعة أبواب ٤٥٨
من كلامه رضي الله عنه ٤٥٩
لم ينج من النار من لم يعرف هذه الأربعة ٤٥٩
لا بد للعامل من هذه الثلاثة ٤٦٠
التميز بين من تعطيه ومن يعطيك ٤٦١
من عجائب لطف الله عز وجل ٤٦٢
صفاء الحلال لا ينال إلا بأربعة ٤٦٢
سبب زهده رضي الله عنه ٤٦٤

العبادة عشرة أجزاء ٤٦٥
من عمل بثلاث خصال أعطي الجنة ٤٦٥
تاج الزهد في ثلاث خصال ٤٦٦
لإبليس على بني آدم خمسة أبواب ٤٦٦
المؤمن والمنافق كلاهما مشغول بخصلتين ٤٦٨
أبو علي الفضيل بن عياض رضي الله عنه ٤٦٩
من مناقبه رضي الله عنه وثناء أهل العلم عليه ٤٦٩
من كلامه رضي الله عليه ٤٦٩
من حِكمه رضي الله عنه ٤٧٦
وثيقة دار صاغها الفضيل رضي الله عنه ٤٧٨
بغضه للرشيد ومحبته لبقائه ٤٧٩
يزوره الرشيد فيعظه وعظاً بليغاً ٤٧٩
من غريب أحاديثه رضي الله عنه ٤٨٦
سبب توبته ٤٨٦
من عقلاء المجانين ٤٨٧
حقيقة المحبة ٤٨٨
من شروط المحبة ٤٨٨
تعريف المحبة ٤٨٨
حقيقة الأنس بالمحبوب ٤٨٩
تعليق المؤلف على كلام الفضيل رحمهما الله ٤٨٩
حكاية جليلة حول حقيقة اليقين ٤٩٠
وُهَيْب بن الورد المكي رضي الله عنه ٤٩٢
من مناقبه وثناء العلماء عليه ٤٩٢
من كلامه وأخباره رضي الله عنه ٤٩٣
شدة ورعه رضي الله عنه ٤٩٣
مَثل علماء السوء ٤٩٤

من فضائل البسملة ٤٩٤
روحانية ورب الكعبة ٤٩٥
صاحب الرضا أفضل ٤٩٥
دعاء مستجاب ٤٩٦
من الأحاديث التي رواها ٤٩٧
عبد الله بن المبارك رضي الله عنه ٤٩٩
من مناقبه وثناء العلماء عليه ٤٩٩
بيتان له في فضل الأئمة والسلاطين ٥٠٠
من كلامه رضي الله عنه ٥٠١
ذم المقام بالعراق ٥٠١
ورعه حتى عند الموت ٥٠٣
دواء عجيب للذنوب ٥٠٣
تركيبة للعلاج من المعاصي ٥٠٤
ثلاثة لا يحاسبون في مطعمهم ٥٠٥
من كرمه وسخائه رضي الله عنه ٥٠٦
من أحاديثه رضي الله عنه ٥٠٦
هذا هو الملك لا ملك هارون ٥٠٨
شربه ماء زمزم لعطش القيامة ٥٠٨
زلّ حمار العلم في الطين ٥٠٩
كرمه وإحسانه لإخوانه وأصحابه ٥٠٩
من سمع منهم ومن رووا عنه ٥١٢
بيتان كان يتمثل بهما ٥١٢
بيتان في مدحه ٥١٣
أبيات كتبها للفضيل بن عياض ينصحه ٥١٤
عبد العزيز بن أبي روّاد رضي الله عنه ٥١٥
مناقبه وما قاله أهل العلم فيه ٥١٥

من كلامه رضي الله عنه ٥١٦
من أحاديثه رحمه الله ٥١٧
محمد بن صبيح بن السماك رضي الله عنه ٥١٨
طرف من كلامه ومواعظه رضي الله عنه ٥١٨
أقسام الناس ٥١٨
الخليقة على ثلاثة أصناف ٥١٩
من جميل الدعاء ٥٢٠
أبو عبد الرحمن محمد بن النضر الحارثي رضي الله عنه ٥٢٢
من كلامه وثناء أهل العلم عليه ٥٢٢
مما رواه مرسلاً ٥٢٣
محمد بن يوسف الأصبهاني رضي الله عنه ٥٢٤
من مناقبه رضي الله عنه ٥٢٤
كتابه إلى أخ له يعظه ٥٢٨
يوسف بن أسباط رضي الله عنه ٥٣٠
من كلامه وأحواله رضي الله عنه ٥٣٠
غاية التواضع والزهد ٥٣٠
كتاب من بعض إخوانه يعظه ٥٣١
أربعة من الفضلاء في زمانهم ٥٣٣
أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفزاري رضي الله عنه ٥٣٤
مخلد بن الحسين رضي الله عنه ٥٣٦
من أبيات الحكمة ٥٣٦
حذيفة بن قتادة المرعشي رضي الله عنه ٥٣٧
من كلامه رضي الله عنه ٥٣٧
يا عين صار الدمع عندك عادة ٥٣٩
اليمان أبو معاوية الأسود رضي الله عنه ٥٤٠
من مناقبه وأحواله رضي الله عنه ٥٤٠

يعظ نفسه بكلام بليغ ٥٤١
سليمان الخواص رضي الله عنه ٥٤٢
الفرق بين الصبر والرضا ٥٤٣
سَلْم بن ميمون الخواص رضي الله عنه ٥٤٤
حلاوة قراءة القرآن ٥٤٤
أبو عبيدة الخواص رضي الله عنه ٥٤٥
دعاء شريف ٥٤٥
أبيات عظيمة في المحبة والوله ٥٤٦
المعافى بن عمران رضي الله عنه ٥٤٧
فتح بن سعيد الموصلي رضي الله عنه ٥٤٩
من أحواله وأخباره رضي الله عنه ٥٤٩
من مناقب سالم الحداد رضي الله عنه ٥٤٩
بين سالم وحشيش رضي الله عنهما ٥٥٠
يزور بشر بن الحارث رضي الله عنهما ٥٥١
دروس وفوائد في زيارته لِبشر ٥٥١
يبكي الدموع والدم رضي الله عنه ٥٥٣
فتح بن محمد الأزدي الموصلي رضي الله عنه ٥٥٥
يلتقي بالخضر عليه السلام ٥٥٥
علي بن الفضيل بن عياض رضي الله عنهما ٥٥٧
يبكي على السارق لا على المسروق ٥٥٨
أبو بكر بن عياش رضي الله عنه ٥٦٠
يختم القرآن كل ليلة ٥٦٠
الخلق أربعة أقسام ٥٦٠
من كلامه رضي الله عنه ٥٦١
رؤيا عجيبة ٥٦١
من أحاديثه رضي الله عنه ٥٦١

أبو الحكم سيار رضي الله عنه ٥٦٣
من أحاديثه رضي الله عنه ٥٦٣
شيبان الراعي رضي الله عنه ٥٦٤
من مناقبه وكراماته رضي الله عنه ٥٦٤
من دعائه رضي الله عنه ٥٦٥
حكاية تدل على حقيقة المحبة ٥٦٥
أبو علي الحسن بن يحيى الخشني رضي الله عنه ٥٦٦
من كلامه رضي الله عنه ٥٦٦
من تمسك بهذه الخلال لم يزل سيداً ٥٦٦
أبو نصر بشر بن الحارث الحافي رضي الله عنه ٥٦٨
قصة بدء أمره وسلوكه الطريق ٥٦٨
من كلامه رضي الله عنه ٥٦٨
يخلص امرأة من رجل بكلمة عظيمة ٥٦٩
إبراهيم الحربي يروي زيارته لبشر وما حصل فيها ٥٦٩
جماعة من أهل اللهو يتوبون ببركته رضي الله عنه ٥٧١
قاعدة عامة النفع إن شاء الله ٥٧١
أعذارهم في عدم إجابتهم إلى إسماع الحديث والإجابة عن المسائل ٥٧٢
أعذارهم في عدم تناول بعض الشهوات من المباحات ٥٧٥
الأصل المعتبر عند العارفين استعمال الحلال ٥٧٦
كلام نفيس للإمام الغزالي في طلب الحلال ٥٨٤
درجات الورع أربع ٥٨٤
الكلام على نشر العلم وتعليمه والنية فيه وعذر بعضهم في ترك ذلك ٥٨٨
فوائد نفيسة فيما يشكل ظاهره من أقوال وأفعال العارفين رضي الله عنهم ٥٨٩
الدليل على كون الفرح بنشر العلم مطلوباً لا مذموماً ٥٩٠
معنى قوله ﷺ: «ذاك عاجل بشرى المؤمن» ٥٩٢
تأويل ما ورد من كراهة تزكية الرجل في وجهه ٥٩٢

ما يروى عن بعض الأئمة من غسل كتبهم أو دفنها ٥٩٣
الفقراء ثلاثة ٥٩٣
من دعائه في كل يوم ٥٩٤
الهم في أمر العيال ثقيل ٥٩٦
جزاء من خالف محبوبه ٥٩٧
يوصيه علي الجرجاني ٥٩٧
قصة بدء أمره وسبب تسميته (الحافي) ٥٩٧
توبة عكبر الكردي رضي الله عنه ٥٩٨
من أقواله وحكمه رضي الله عنه ٥٩٩
حقيقة التوكل ٦٠١
تغتم له أمه حية وميتة ٦٠٢
من الورع الصافي ٦٠٢
من أحاديثه رضي الله عنه ٦٠٣
شرف الدنيا قبل شرف الآخرة ٦٠٧
موعظة بليغة ٦٠٨
منزلة الجوع عند الله عز وجل ٦٠٩
أشد الأعمال ٦١٠
حكاية يرويها المؤلف في توبة بشر رضي الله عنهما ٦١٠
منقبة جليلة لبشر رضي الله عنه ٦١١
يمشي على الماء ٦١١
أبو محفوظ معروف الكرخي رضي الله عنه ٦١٢
من كلامه رضي الله عنه ٦١٢
من دعائه رحمه الله ٦١٢
من كراماته ودعائه المستجاب رضي الله عنه ٦١٤
مذهبه في أكل الطعام ومذهب بشر رضي الله عنهما ٦١٥
ثلاث خصال مربحة في تقصير الثياب ٦١٥

يعقد الأخوة في الله بينه وبين بشر رضي الله عنهما ٦١٦
دعوات من دعا بهن كتب من الأبدال ٦١٧
فائدة لقضاء الحاجة ٦١٧
حقيقة الوفاء ٦١٧
علامات الفتيان ٦١٧
علامات الأولياء ٦١٨
من مسانيد حديثه رضي الله عنه ٦١٨
عناية الله به في صباه ٦١٩
منقبة رفيعة ٦١٩
منقبة وكرامة أخرى ٦١٩
بدء أمر السريِّ على يد معروف رضي الله عنهما ٦٢٠
رؤيا مبشرة ٦٢٠
خمس كلمات للدنيا وخمس للآخرة ٦٢٠
أبو سفيان وكيع بن الجراح رضي الله عنه ٦٢٢
من مناقبه وأحواله وثناء العلماء عليه ٦٢٢
يحيى بن سعيد القطان رضي الله عنه ٦٢٦
عبد الرحمن بن مهدي رضي الله عنه ٦٢٨
مناقبه وثناء أهل العلم عليه ٦٢٨
من كلامه رضي الله عنه ٦٢٩
من روايته عن يحيى بن سعيد ٦٣٢
أبو الحسن محمد بن أسلم الطوسي رضي الله عنه ٦٣٤
معنى قول النبي ﷺ: «عليكم بالسواد الأعظم» ٦٣٤
مناقبه وأخباره وثناؤهم عليه ٦٣٤
لا يُقرن به أحد في أربعة ٦٣٤
يحدث بنعمة الله عليه قبل وفاته ٦٣٦
الكنيف هو البطن ٦٣٨

يرى أن نخل الدقيق بدعة ٦٣٨
يحيى بن يحيى النيسابوري رضي الله عنه ٦٤٠
قصة عجيبة جرت بينه وبين المأمون ٦٤١
محمد بن إسماعيل البخاري رضي الله عنه ٦٤٢
مناقبه وثناء العلماء عليه رضي الله عنه ٦٤٢
أخرجت خراسان ثلاثة ٦٤٤
فصل: في الإشارة إلى بعض شيوخه والآخذين عنه، والمنتمين إليه والمستفيدين منه ٦٤٦
فصل: في اسم «صحيح البخاري» وتعريف محله وسبب تصنيفه وكيفية جمعه وتأليفه ٦٤٧
ترجيح «صحيح البخاري» على «مسلم» ٦٤٧
سبب تصنيف «الصحيح» وكيفية تأليفه ٦٤٧
فصل: في جملة ما في «الصحيح» من الأحاديث المسندة ٦٤٨
فصل: في جوانب متفرقة من حياته وأحواله رضي الله عنه ٦٤٩
لم يأت شيئاً بغير علم ٦٤٩
رواية «الصحيح» المشهورة ٦٤٩
قصة بدء أمره في طلب الحديث ٦٥٠
أبو الحسين مسلم بن الحجاج رضي الله عنه ٦٥٢
مصنفاته رضي الله عنه ٦٥٣
من مميزات «صحيح مسلم» ومحاسنه ٦٥٤
أبو داوود السجستاني رضي الله عنه ٦٥٧
مناقبه وثناء العلماء عليه ٦٥٧
أربعة آلاف حديث مدارها على أربعة أحاديث ٦٥٨
فائدة: البيان ضربان ٦٦٠
الناس شريفهم ووضيعهم في العلم سواء ٦٦١

أبو زرعة الرازي رضي الله عنه ٦٦٢
يروي حديث التلقين وهو في النزع ٦٦٢
مرائي مبشرة رؤيت له رضي الله عنه ٦٦٣
إسحاق بن راهويه رضي الله عنه ٦٦٥
يزيد بن هارون الواسطي رضي الله عنه ٦٦٧
رؤيا مبشرة ٦٦٧
رؤيا أخرى وفيها حال حريز بن عثمان رحمه الله ٦٦٨
يونس بن عبيد رضي الله عنه ٦٦٩
شواهد على ورعه وأمانته في التجارة ٦٦٩
من كلامه وأخباره رضي الله عنه ٦٧٠
عبد الله بن عون بن أرطبان رضي الله عنه ٦٧٣
مناقبه وثناؤهم عليه ٦٧٣
حقيقة الرضا ٦٧٤
أبو سليمان الداراني عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العنسي رضي الله عنه ٦٧٥
طرف من كلامه وحكمه رضي الله عنه ٦٧٥
أفضل ما يتقرب به العبد إلى ربه ٦٧٥
اختلاف مشايخ العراق في الزهد ٦٧٦
خصال جلساء الرحمن جل جلاله ٦٨٠
عصفور اصطاد كركياً ٦٨٢
أهل الزهد على طبقتين ٦٨٤
الثياب ثلاثة ٦٨٤
لإبليس شيطان اسمه المتقاضي ٦٨٥
مقامات الزهد ٦٨٦
من مفاريد حديثه رضي الله عنه ٦٨٧
عشرون خصلة من خصال الإيمان ٦٨٧
رأيه في النكاح ٦٨٨

رؤيا عجيبة ٦٨٩
أحمد بن عاصم الأنطاكي رضي الله عنه ٦٩٠
الخير كله في حرفين ٦٩٠
كلام نفيس في ذم الغيبة واجتنابها ٦٩١
أبو عبد الله محمد بن المبارك الصوري رضي الله عنه ٦٩٢
من كلامه وحكمه رضي الله عنه ٦٩٢
أبو عبد الله سعيد بن بريد النباجي رضي الله عنه ٦٩٥
طرف من كلامه رضي الله عنه ٦٩٥
دعاء يعقوب عليه السلام لرد ابنيه ٦٩٧
كلام نفيس في الرضا ٦٩٨
دعاء عظيم ٦٩٨
منصور بن عمار رضي الله عنه ٧٠٠
سبب توبته رضي الله عنه ٧٠٠
مما رواه بإسناده ٧٠١
حكاية عجيبة وأربع دعوات ٧٠٢
عبد الله بن عبد العزيز العمري رضي الله عنه ٧٠٤
من أحواله ومواعظه رضي الله عنه ٧٠٤
يعظ الرشيد موعظة بليغة ٧٠٤
أبو غياث المكي رضي الله عنه ٧٠٦
قصته مع الخراساني والهميان الضائع ٧٠٦
أبو الفيض ذو النون بن إبراهيم المصري رضي الله عنه ٧٠٩
جملة صالحة من نفيس كلامه وحكمه رضي الله عنه ٧٠٩
أعون الأشياء على تسكين الشهوة ٧١٠
متى يستحق العالم اسم العلم ٧١٠
حقيقة المحبة ٧١١
من علامات المحبة ٧١١

كلام نفيس في المحبة ٧١٢
ليس بذي لب من وجدت فيه هذه الخصال ٧١٣
صفة المهمومين ٧١٤
متى يكون العبد مفوِّضاً ٧١٤
قصته مع الساقي والمرأة العجوز لما حمل إلى بغداد ٧١٥
الاستكانة تحت الأوامر أولى بنا ٧١٧
رسالة بليغة وكلام رائق ٧١٨
أشد الحجاب وأخفاه ٧١٨
كلام نفيس حول طلب العلم لله عز وجل ٧١٩
من بليغ المناجاة ٧٢٠
قصته مع جارية وسؤالها عن حقيقة السخاء ٧٢٠
تعليق المؤلف رحمه الله على كلام الجارية ٧٢١
مدار الكلام على أربع ٧٢٢
سبب توبته رضي الله عنه ٧٢٢
أنجع الأشياء في طلب الإخلاص ٧٢٢
متى يكون العبد مفوِّضاً ٧٢٣
قصته مع المرأة السوداء ٧٢٣
علامة إقبال الله عز وجل على عبده وعلامة الأنس به تعالى ٧٢٣
قصة عجيبة ٧٢٤
طيور خضر ترفرف على جنازته ٧٢٥
كمال العقل وكمال المعرفة ٧٢٥
السبيل إلى التواضع ٧٢٦
من حكم وأسرار الحج ٧٢٦
حقيقة التوحيد ٧٢٧
علامة الأخوة في الله تعالى ٧٢٩
حكاية طريفة جرت ليوسف بن الحسن مع ذي النون حول اسم الله الأعظم ٧٢٩

حقيقة السخاء ٧٣١
صفة دارٍ من دور الجنة ٧٣١
ثلاثة موجودة فيها ثلاثة مفقودة ٧٣٣
أغلب الأحوال على قلب العارف ٧٣٣
أبو الحسن أحمد بن أبي الحواري رضي الله عنه ٧٣٥
من كلامه رضي الله عنه ٧٣٥
من علامة حب الله عز وجل ٧٣٦
يغسل كتبه في نهر الفرات ٧٣٧
كلام نفيس للمؤلف تعليقاً على غسله الكتب والمسوغ لذلك ٧٣٧
قصته مع المرأة القرشية ٧٤٣
تفسير قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ٧٤٦
أبو يزيد البسطامي رضي الله عنه ٧٤٧
جملة من نفيس كلامه وبديع حكمه رضي الله عنه ٧٤٧
أشد المحجوبين عن الله تعالى ٧٤٨
متى يبلغ الرجل مبلغ الرجال ٧٤٩
علامة العارف ٧٥٠
الفرق بين العارف والعالم ٧٥٠
من الأحاديث التي رواها رضي الله عنه ٧٥٢
المعرفة معرفتان ٧٥٢
كلام له يدل على علوِّ مقامه ٧٥٣
معنى قوله: (أبو يزيد يطلب أبا يزيد). ٧٥٤
يذكر بعضاً من نعم الله عليه ٧٥٤
من بره بأمه وطلبه لرضاها ٧٥٥
ورعه رضي الله عنه سبب إسلام أهلِ بيت من المجوس ٧٥٥
الاسم الأعظم ٧٥٥
تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ ٧٥٦

معنى (الله أكبر) ٧٥٦
معنى السنة والفريضة ٧٥٦
كلام رائق في مرتبة الصدِّيق ٧٥٧
متى يكون الرجل عاملاً على معنى العبودية ٧٥٩
مقام التحير في المحبة ٧٦١
رجل مات وما له إلا الله عز وجل ٧٦١
أسباب الوصول ٧٦٢
المعارف ثلاثة ٧٦٢
الفرق بين الزاهد والعارف ٧٦٣
عناية الله به من الأزل ٧٦٣
أعظم آيات العارف ٧٦٤
أحمد بن الخضر رضي الله عنه ٧٦٦
مناقبه وبعض كلامه رضي الله عنه ٧٦٦
أبو إسحاق إبراهيم الهروي المعروف ببستنبه رضي الله عنه ٧٦٩
من أراد ألا يحجب دعاؤه فليتعاهد خمسة أشياء ٧٦٩
طريق الجنة ثلاثة أشياء ٧٧٠
أصاب الشرف في الدنيا من أصاب ثلاثاً ٧٧٠
داوود البلخي رضي الله عنه ٧٧١
أبو تراب النخشبي رضي الله عنه ٧٧٢
ثلاث من العلم وثلاث من البر وثلاث من مناقب الإيمان ٧٧٢
من كلامه رضي الله عنه ٧٧٣
هاتف من الخضر عليه السلام ٧٧٤
نظرة إلى أبي يزيد تقتل مريد أبي تراب ٧٧٥
معنى (الشاهد) في اصطلاح القوم ٧٧٦
محتوى الكتاب ٧٧٨

مجمع الأحباب

وتذكرة أولي الألباب

تأليف

الشيخ الإمام العالم الورع

الشريف محمد بن الحسن بن عبد الله الحسيني الواسطي

رحمه الله تعالى

(٧١٧ - ٧٧٦ هـ)

عُني به

محمد ابراهيم الخضر — محمد زكريا قاسم المقداد

محمد مصطفى الخطيب — عبد الله عبد السلام حميدان

الجزء الثالث

دار المنهاج

الطّبعة الثّانية
١٤٢٨هـ-٢٠٠٨م
جميع الحقوق محفوظة للناشر

دار المنهاج للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - جدة - حي الكندرة - شارع أبها تقاطع شارع ابن زيدون
هاتف رئيسي 6326666 - الإدارة 6300655 - المكتبة 6322471 - فاكس 6320392
ص. ب 22943 - جدة 21416

مجمع الأحباب

وتذكرة أولي الألباب

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب

يحوي هذا السِّفر الأثريّ .. سِيَرَ الصَّفوة من الجيل المثاليّ ، ومَن ترسَّم خطاهم .

فهو دستورٌ وضّاءٌ ، تجلّت فيه حقائقُ التّنزيل ، وازدانت بحقائق المعرفة ومحاسنِ أولئك العظام الذين هُدُوا إلى الكَلِم الطّيّب ، ونَسَجوا رَوائع الحِكَم .. ممّا يَهدي إلى النّهج القويم .

وما من مُخلصٍ نَهَلَ من مَعينه .. إلّا وبرقتْ أساريرُ الإيمان في أعماقه ، وسرتْ روحُ التّوفيق في أوصاله .. وكأنّما خُلِق خَلْقاً جديداً .

ومنهم الإمام :

يحيى بن معاذ الواعظُ الذكَّار الرَّازي
رضي الله عنه

قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : قال يحيى بن معاذ : إلـهي ؛ وعزتك وجلالك ؛ إن حبي لك ـ وأنت تعلم ـ إنما جاء طائعاً راغباً ، ومعصيتي لك ـ جل جلالك ـ إنما وقعت منِّي كرهاً ، فهب لي كراهية ذنبي لطواعية محبتك يا أرحم الراحمين .

وكان يقول : إلـهي ؛ إن لم ترحمني رحمة الكرامة عليك . . فارحمني رحمة الذلة والفقر والانقطاع إليك ، إلـهي ؛ بكرمك وفضلك أصِلُ غداً إليك كما بنعمتك دُللت اليوم عليك .

وقال : إنْ وَضَع الله عز وجل علىٰ عباده عدله . . لم يُبق لهم حسنة ، وإنْ أنالهم فضله . . لم يُبق عليهم سيئة .

وقال : مفاوز الدنيا تُقطع بالأقدام ، ومفاوز الآخرة تُقطع بالقلوب .

وقال : ابنَ آدم ؛ لا يزال دِينك متمزقاً ما دام قلبك بحب الدنيا متعلقاً .

ورأىٰ رجلاً يقلع الحجر في يوم حار وهو يغني ، فقال : مسكين ابن آدم ، قلع الأحجار أهون عليه من ترك الأوزار .

وسئل : متىٰ يعلم الرجل أنه قد أصاب الطريق وأمِن هـٰذا الخلق ؟ فقال : إذا استَحْلَوه واستمَرَّهم ، وأحبوا لقاءه وكره لقاءهم .

وقال : خرج الزاهدون من الدنيا بِداءٍ لا يشفيهم إلا دخول الجنة ، وخرج العارفون من الدنيا بِداءٍ لا يشفيهم إلا رؤيته سبحانه وتعالىٰ .

وقال : لا يفلح من شممتَ منه رائحة الرياسة .

وقال : جِماع الأمر في شيئين : سكون القلب مع الله عز وجل علىٰ حصول ما قسم من رزقه ، والاجتهاد في مرضاة الله عز وجل .

وقال : **إن لَقِيَني القضاء بكيد من البلاء . . لقيت القضاء بالالتجاء والدعاء .**

وكان يقول : لا تستبطىء الإجابة إذا دعوت وأنت سددت طرقها بالذنوب وأكل الحرام .

وقال : اترك الدنيا قبل أن تتركك ، واجتهد في مرضاة ربك سبحانه وتعالىٰ قبل لقائه عز وجل ، واعمر بيتك الذي تسكنه قبل انتقالك إليه ؛ يعني : القبر .

وقال : مَن كان قلبه مع الحسنات . . رجوت أن تغفر له السيئات إن شاء الله تعالىٰ ، ومَن كان قلبه مع السيئات . . فليخش علىٰ حسناته ألاَّ تقبل . [انتهىٰ « الحلية » ١٠/ ٥١ـ٥٣] .

وقال أبو الفرج : قال محمد بن محمود السمرقندي : سمعت يحيى بن معاذ يقول : الذي حجب الناس عن التوبة طول الأمل ، وعلامة التائب : إسبال الدمعة ، وحب الخلوة ، والمحاسبة للنفس عند كل هِمَّة .

وكان يحيى بن معاذ يدعو : اللهم ؛ لا تجعلنا ممن يدعو إليك بالأبدان ويهرب منك بالقلوب يا أكرم الأكرمين . أو كما قال .

وقال يحيىٰ : يابن آدم ؛ ما أكملك لو بادرت أَمَلك ، وما أجلَّكَ لو بادرت أجلك ، وما أقواك لو خالفت هواك .

وكان ليحيى بن معاذ أخ أكبر منه اسمه إسماعيل ، فلما هجر يحيى الخلق . . قيل لأخيه إسماعيل : مع مَن تريد أن يعيش أخوك وقد هجر الخلق ؟ قال : فذَكَرَ ذلك ليحيىٰ ، فقال له : ألا قلت مع مَن هجرهم فيه ؟

وقال يحيىٰ : ذنب أفتَقِرُ به إليه أحب إليَّ من طاعة أُعجب بها[1] .

وقال : **ليكن حظ المؤمن منك ثلاث خصال : إن لم تنفعه . . فلا تضره ، وإن لم تفرحه . . فلا تغمه ، وإن لم تمدحه . . فلا تذمه .**

وقال : ليكن بيتُك الخلوةَ ، وطعامك الجوع ، وحديثك المناجاة ، فإما أن تموت بدائك ، وإما أن تصل إلىٰ دوائك .

وقال : كيف أفرح وقد عصيتُكَ ؟! وكيف لا أفرح وقد عرفتك ؟! وكيف أدعوك وأنا خاطىء ؟! وكيف لا أدعوك وأنت أكرم الأكرمين ؟!

---

(١) هـٰذا كقول ابن عطاء الله السكندري رحمه الله : معصية أورثت ذلاً وافتقاراً . . خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً .

وقال : مصيبتان تقع للعبد لم يسمع الأولون والآخرون بمثلهما في ماله عند موته ، قيل : وما هما ؟ قال : يؤخذ ماله كله ، ويسأل عنه كله .

وقال : إن المتقين يجتهدون في المبادرة إلى الفرائض وحسن أدائها ، وإن المغرورين يطلبون فضائل الأعمال ، وما يعلمون أن تقويم الأعمال في تصحيح العزائم .

وقال : هلم إلىٰ جوار الله عز وجل بغير عمل من الجوارح ، ولا نصب ولا تعب ؛ فإنك بين ما مضىٰ من عمرك وبين ما قد بقي ، أما الماضي : فتصلحه بالتوبة والندم ، وهُما ليسا من أعمال الجوارح ، إنما هما من أعمال القلوب ، وامتناعك عن المحظورات ليس عملاً بالجوارح ، إنما هو شيء نويته ، فحينئذ قد نجوت بغير عمل بالجوارح ، ولذلك كانت أعمال القلوب من أرفع الأعمال وأعزها . أو كما قال .

وقال : دواء القلب خمسة أشياء : قراءة القرآن بالتفكر ، وخلو الباطن عن الحرام وما فيه شبهة ، وقيام الليل ، والتضرع إلى الله تعالىٰ في الأسحار ، ومجالسة الصالحين .

وقال يحيىٰ : حقيقة المحبة لا تزيد بالبر ولا تنقص بالجفاء .

وقال : يابن آدم ؛ طلبت الدنيا طلب من لا بد له منها ، وأنت راحل عنها مع أنك قد كُفِيتَها ؛ فإن الله عز وجل قد تكفَّل برزقك وإن لم تطلبها ، وطلبت الآخرة طلب من لاحاجة له بها مع أنها دار إقامتك ، وإنك لا تنالها إلا بالجد والاجتهاد ، فما أعجب أمرَك وأقلَّ فهمَك!

وكان يحيىٰ يقول : الليل طويل ، فلا تقصره بمنامك ، والنهار نقي ، فلا تدنسه بآثامك .

وكان يقول : إن العاقل المصيب من عمل ثلاثاً : ترك الدنيا قبل أن تتركه ، وبنىٰ قبره قبل أن يدخله ، وأرضىٰ ربه عز وجل قبل أن يلقاه جل جلاله .

وكان يقول : الدنيا خراب ، وأخرب منها قلب من يعمرها ، والآخرة دار عمران ، وأعمر منها قلب من يطلبها .

وكان يقول : أخوك مَن عرَّفك العيوب ، وصديقك مَن حذَّرك الذنوب ، ولقد عجبت ممن يحزن علىٰ نقصان مالِهِ كيف لا يحزن علىٰ نقصان عمره ؟!

وكان يقول : لو قال لي ربي عز وجل : يا عبدي ؛ ما غرك بي ؟ لقلت : إلـهي وسيدي وعزتك وجلالك . . بِرُّك بي .

وكان يقول : استسلم القوم عندما فهموا ، ومِن قوة اليقين . . ترك ما ترىٰ لما لا ترىٰ ، وإن اضطُرِرتم إلىٰ طلب الدنيا . . فاطلبوها بقدر حاجتكم إليها ، ومع ذلك لا تحبوها ، واشغلوا بها أبدانكم ، وعلقوا بغيرها قلوبكم ؛ فإنها دار مَمَرٍّ وليست بدار مقر ، الزاد منها ، والمقيل في غيرها .

يابن آدم ؛ لا تتأسف علىٰ مفقود لا يرده عليك التأسف ، ولا تفرح بموجود لا يتركه في يديك الموت ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ .

وكان يقول : إلـٰهي وسيدي ؛ ضيعت بالذنب نفسي ، فارددها بالعفو عليَّ .

واعلم : أنه لا يقع للمؤمن سيئة . . إلا وهو يخاف أن يؤخذ بها ، والخوف حسنة ، ثم يرجو أن يعفو عز وجل عنه ، والرجاء حسنة .

وكان يقول : هـٰذا سروري بك وأنا خائف ، فكيف سروري بك إذا أَمِنْتُ ؟! وهـٰذا سروري بك في دار الفناء ، فكيف سروري بك في دار البقاء ؟

وكان يقول : مَن أحب زينة الدنيا والآخرة . . فلينظر في العلم ، ومَن أحب أن يعرف الزهد . . فلينظر في الحكمة ، ومَن أحب أن يعرف مكارم الأخلاق . . فلينظر في فنون الآداب ، ومَن أحب أن يستوثق من أسباب المعاش . . فليستكثر من الإخوان ، ومَن أحب ألاَّ يؤذىٰ . . فلا يؤذي ، ومَن أحب رفعة الدنيا والآخرة . . فعليه بالتقوىٰ .

وكان يقول : لست آمركم بترك الدنيا ، إنما آمركم بترك الذنوب ، ترك الدنيا فضيلة ، وترك الذنوب فريضة ، ولا حكم للفضائل مع وجود الفرائض ، فإنك إلىٰ إقامة الفرائض أحوج منك إلى الإتيان بالفضائل .

وكان يقول : الدنيا خمر الشيطان ، مَن سكر منها . . فلا يفيق إلا في عسكر الموتىٰ نادماً مع النادمين .

وقال يحيى بن معاذ رحمه الله : إن مِن سعادة المرء أن يكون خصمه فَهِماً ، وخصمي لا فهم له ؛ يعني : نفسه . [انتهىٰ « الصفوة » ٤/ ٦١ـ٦٧] .

وقال يحيى بن معاذ : ما من مؤمن يعمل سيئة . . إلا وتلحقه حسنات ، منها : خوف العقاب ، ورجاء الثواب . أو كما قال .

وسئل : مَن آمِنٌ من الخوف غداً ؟ قال : أشدهم خوفاً اليوم .

وقال حجة الإسلام الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : قال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله : الزاهد الصادق : قُوته ما وجد ، ولباسه ما ستر ، ومسكنه حيث أدرك ، الدنيا سجنه ، والقبر مضجعه ، والخلوة مجلسه ، والاعتبار فكرته ، والقرآن لا يفارق تلاوته ، فهو ذِكره ، والرب سبحانه وتعالىٰ أنيسه ، والذِّكر حديثه ، والزهد قرينه ، والحزن شأنه ، والحياء شعاره ، والجوع إدامه ، والحكمة كلامه ، والتراب فراشه ، والصمت غنيمته ، والصبر معتمَده ، والتوكل حسبه ، والعقل دليله ، والعبادة حرفته ، والجنة مبلغه[1] .

وقال : علامة الزهد السخاء بالموجود .

وقال : علامة الزهد ثلاثة : عمل بلا علاقة ، وقول بلا طمع ، وعز بلا رياسة[2] .

وقال : وجدان العبد للرزق من غير طلب . . دليلٌ علىٰ أن الرزق مأمور بطلب العبد[3] .

وقال : الطاعة خزانة من خزائن الله عز وجل ، ومفتاحها : الدعاء ، وأسنانه : لقمة الحلال[4] .

وقال يحيى بن معاذ : التواضع حسن في كل أحد ، ولٰكنه في الأغنياء أحسن ، والتكبر قبيح في كل أحد ، ولٰكنه في الفقراء أقبح .

وقال : يخرج العارف من الدنيا وما قضىٰ وطره من شيئين : بكاؤه علىٰ نفسه ، وثناؤه علىٰ ربه سبحانه وتعالىٰ .

وقال : أحلى العطايا في قلبي رجاؤك ، وأعذب الكلام علىٰ قلبي ثناؤك ، وأحب الساعات إليَّ ساعة يكون فيها لقاؤك يا ذا الجلال والإكرام ، لا إلٰه إلا أنت .

وقال : الجوع نور ، والشبع نار ، والشهوة مثل الحطب يتولد منه الإحراق ، ولا تنطفىء ناره حتىٰ يحرق صاحبه .

وقال : علامة الشوق . . فطام الجوارح عن الشهوات .

وقال : الورع علىٰ وجهين : ورع في الظاهر ، وهو : ألاَّ تتحرك إلا لله سبحانه وتعالىٰ ، وورع في الباطن ، وهو : ألاَّ تُدخل قلبك سوى الله عز وجل .

---

(١) الإحياء (٤/ ٢٣١) .
(٢) الإحياء (٤/ ٢٤٢) .
(٣) الإحياء (٤/ ٢٤٥) .
(٤) الإحياء (٢/ ٩١) .

وقال : مَن لم ينظر في الدقيق من الورع . . لم يصل إلى الجليل من العطاء .

وقال : لو رأت العقول بعيون الإيمان نزهة الجنة . . لذابت النفوس شوقاً إليها ، ولو أدركت القلوب كُنْهَ ما يجب من المحبة لخالقها جل جلاله . . لانخلعت مفاصلها إليه سبحانه وتعالىٰ ولَهاً عليه عز وجل ، ولطارت الأرواح إليه من أبدانها دهشاً وشوقاً ، فسبحان من أغفل الخليقة عن كُنْهِ هٰذه الأشياء ، وألهاهم بالوصف عن حقائق هٰذه الأشياء .

وقال : أعظَم المصيبة على الحكيم في اليوم . . أن يمضي عنه ولا يأتيه فيه هدية من ربه سبحانه وتعالىٰ ؛ يعني : حكمة جديدة .

وقال : الدنيا أمير مَن طلبها ، وخادم من تركها ، الدنيا طالبة ومطلوبة ، فمَن طلبها . . رفضته ، ومَن رفضها . . طلبته .

الدنيا قنطرة الآخرة ، فاعبروها ولا تعمروها ، وليس من العقل بنيان القصور على الجسور .

وقال : الدنيا عروس ، وطالبها ماشطتها ، والزاهد ينتف شعرها ، ويسود وجهها ، ويمزق ثيابها ، ومَن طلق الدنيا . . فالآخرة زوجته ، فالدنيا مطلقة الأكياس ، لا تنقضي عدتها أبداً ، فخل الدنيا ولا تذكرها ، واذكر الآخرة ولا تَنْسَها ، وخذ من الدنيا مايبلغك الآخرة ، ولا تأخذ من الدنيا ما يمنعك عن الآخرة .

وقال : مَن فاتته ثلاث خصال . . فقد عدم التواضع :

ـ علمه بما خُلق له ، وهو : عبادة الله عز وجل ، ومعرفته سبحانه وتعالىٰ .

ـ وما خلق منه ، وهو : ظاهر .

ـ وما يعود إليه ، وهو : أظهر .

وقال : التائب يبكي ذنبه ، والزاهد يبكي غربته ، والصدِّيق يبكي خوف زوال الإيمان .

وقال : فكرتك في الدنيا فقط تلهيك عن ربك عز وجل وعن دِينك ، فكيف إذا باشرْتَها بجميع جوارحك ؟!

وقال : الدنيا لا تعدل عند الله تعالىٰ جناح بعوضة ، وهو سبحانه وتعالىٰ يسألك منها عن جناح بعوضة .

وقال : إن الله عز وجل رضي عن قوم فغفر لهم السيئات ، وسخط علىٰ قوم فلم يقبل منهم الحسنات .

وقال : إن الدنيا بحر التلف ، والنجاة منه الزهد فيها .

وكان يقول : يا غفول ، يا جهول ؛ لو سمعت صرير القلم حين يجري بذِكرك في اللوح المحفوظ . . لَمِتَّ طرباً .

وقال : أنت لا تثق بضمان الله عز وجل لرزقك وتخاف الفقر ، وتثق بضمان عبد حقير فقير مثلك لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، ثم صرخ ، وقال : واسوءتاه منك إذا شاهَدْتني وهمتي تتعلق بغيرك! ويا خجلتاه ويا فضيحتاه كيف لا أقوم عمري علىٰ جفون عيني في طلب رضاك ؟! أو كما قال .

وكان يقول : إلـٰهي وسيدي ؛ إن كانت ذنوبي قد عظمت في جنب نهيك . . فإنها ـ وعزتك وجلالك ـ قد تلاشت وصغرت في جنب عفوك .

إلـٰهي وسيدي ؛ لا أقول لا أعود ؛ لما أعرف من ضعفي وتنفيذ قضائك وقدرك ، ولـٰكن أسألك ألاَّ أعود .

إلـٰهي ؛ إن أحببتني . . غفرتَ سيئاتي ، وإن مقتني ـ والعياذ بك ـ لم تقبل حسناتي ، ثم قال : أوَّه! قبل استحقاق قول أوَّه .

وكان يقول : لو سمع الخلائق صوت النياحة على الدنيا في الغيب من أَلْسِنة الفناء . . لتساقطت القلوب منهم حُزناً ، ولو سمع الخلائق دمدمة النار على الخلق . . لتصدعت القلوب فرقاً .

وقال : لا تجعل الزهد حرفتك لتكتسب به الدنيا ، ولـٰكن ابتغ به رضوان الله تعالىٰ عليه لتنال به الآخرة . أو كما قال .

وقال : تعلق الناس بالأسباب ، وتعلق الصديقون بمسبب الأسباب سبحانه وتعالىٰ .

وقال : مَن كانت الحياة في الدنيا قيده . . كان إطلاقه منها موته .

وقال : لو لم يكن للعارفين إلا إقدارُهم علىٰ هاتين النعمتين : متىٰ ما شاؤوا ذكروه ، ومهما رجعوا إليه قبلهم ووجدوه . . لكان يحق عليهم ألاَّ يخالفوه سبحانه وتعالىٰ .

وقال : إن العارف عبادته في ثلاثة أشياء :

ـ المعاشرة بالخُلق الجميل .

ـ وإدامة الذِّكر للجليل سبحانه وتعالىٰ .

ـ ومراقبته علىٰ جميع الأحوال .

وقال : المَغْبون يوم القيامة : من انقرضت أيامه بالبطالات ، وبسط آماله وجوارحه علىٰ ما منه الندامات والحسرات ، ثم مات قبل الإفاقة من السكرات .

وقال : مَن أصبح بالدنيا مشغوفاً . . أصبح الخير عنه مصروفاً .

وقال : إن العبد علىٰ قَدْر حبه لله عز وجل . . يحبِّبْه إلىٰ خلقه ، وعلىٰ قَدْر توقيره لأمره . . يوقره خلقه ، وعلىٰ قَدْر التشاغل بعبادته . . يعظِّمه في صدور عباده ، وعلىٰ قدر سكون قلبه علىٰ ما وعده الله تعالىٰ به . . يطيب له عيشه ، وعلىٰ قدر حلاوته لعبادة ربه واستلذاذه بها . . يجد ما كان يأمل منه ، وعلىٰ قدر ذِكره . . يديم عليه ألطافَ بره ، وعلىٰ قدر استيحاشه من خلقه . . يكون أنسه به ، واللهِ ؛ لو لم يحصل للعبد من الثواب علىٰ أعماله إلا ما عجل له في دنياه . . لكان كثيراً ، فكيف بما يصير إليه من جزيل ثواب وعظيم عطاء إلىٰ ما لا يحيط به الوصف مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر علىٰ قلب بشر ؟!

وقال : لا تجد أجهل ممن يبيع الجنة بما فيها من النعيم المقيم والخلود الدائم بشهوة ساعة في الدنيا .

وقال : إن للتائب فخراً لا يعادله فخر في جميع فخاره ، فرَح الحق جل جلاله بتوبة عبده .

وقال : إن أهل المعرفة كالوحوش في الأرض ؛ لا يأنسون إلى الخلق ، والزاهدين غرباء في الدنيا ، والعارفين غرباء في الآخرة .

وقال : لا تكن ممن يفضحه يوم موته ميراثه ، ويوم حشره ميزانه .

وقال : الدرجات التي يسعىٰ إليها من يريد الآخرة سبع : التوبة ، ثم الزهد ، ثم الرضا ، ثم الخوف ، ثم الشوق ، ثم المحبة ، ثم المعرفة .

فبالتوبة تطهروا من الذنوب ، وبالزهد خرجوا من الدنيا ، وبالرضا لبسوا قراطق[1]

---

(١) القراطق : جمع قرطق ، وهو نوع من الألبسة .

العبودية ، وبالخوف جازوا قناطر النار ، وبالشوق أُدخِلوا إلى الجنة ، وبالمحبة وصلوا إلى النعيم ، وبالمعرفة وصلوا إلى الله عز وجل .

وقال : علىٰ حسَب تعلق قلبك بالدنيا . . يكون بُعدك عن الله عز وجل ، وكما أنه لا يمكن أن يكون وجودك في موضعين . . فكذلك قَلْبُك لا يمكن أن يكون في مكانين ، فإن كنت ذا قلبين . . فاجعل أحدهما للدنيا والآخر للآخرة ، ولـٰكن إنما أنت صاحب قلب واحد ، فاجهد أن يكون متعلقاً بالآخرة .

وقال : إن العبد إذا لاحظ أن الأشياء كلها من الله عز وجل . . وجد لها طعماً آخر لا يُعبِّر عن لذته . انتهىٰ .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : إن يحيى بن معاذ الرازي انتقل من الري إلىٰ نيسابور وبها مات ، وكانوا ثلاثة : إسماعيل ، ويحيىٰ ، وإبراهيم ، كلهم زُهَّاد عُبَّاد ، إسماعيل أكبرهم ، ويحيىٰ أوسطهم .

وقال محمد بن محمود السمرقندي : سمعت يحيى بن معاذ يقول : الكلام الحسن حسن ، وأحسن منه معناه ، وأحسن من معناه استعماله ، وأحسن من استعماله ثوابه ، وأحسن من ثوابه ابتغاء رضوان الله عز وجل .

وكان يقول : أعمال كالسراب ، وقلوب من التقوىٰ خراب ، وذنوب بعدد الرمل والتراب ، وتطمع مع هـٰذا في الكواعب الأتراب ، هيهات هيهات! أنت سكران بغير شراب .

وقال : إن العارفين غاية آمالهم عفوه ورضاه سبحانه وتعالىٰ عنهم . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ٦٠ـ٦٧] .

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري ـ رحمه الله ـ : قال يحيى بن معاذ رحمه الله : الفوت أشد من الموت ؛ لأن الفوت انقطاع عن الحق جل جلاله ، والموت انقطاع عن الخلق .

ويقال : إن يحيى بن معاذ تكلم يوماً في مجلسه ببلخ إلىٰ أن وصل في الكلام إلى الغني الشاكر والفقير الصابر ، وفضل الغني على الفقير ، وأقام الدليل علىٰ ذلك ، فدفع إليه بعض الأغنياء ثلاثين ألف درهم ، فوصل الخبر إلىٰ بعض المشايخ ، فقال : لا بارك الله له في هـٰذا المال ، فاتفق أنه خرج إلىٰ نيسابور ، فوقع عليه اللصوص ، فأخذوا ذلك المال منه ، فعرف من أين دخل عليه الداخل .

وكان يحيى بن معاذ يقول : إذا زكَّاك الأشرار . . فهو هُجْنَةٌ بك[1] ، وإذا أحبوك . . فهو عيب عليك ، ولقد هان عليك من احتاج إليك . انتهىٰ [« الرسالة القشيرية » ٢٧] .

وقال يحيى بن معاذ : الأيام خمسة : يوم مفقود ، ويوم مشهود ، ويوم مورود ، ويوم موعود ، ويوم ممدود .

المفقود : أمس ؛ فابكِ علىٰ ما فرطت فيه .

والمشهود : اليوم ؛ فتزود فيه مهما استطعت .

والمورود : غداً ، لا تدري أتُدرِكه ، أم لا ؟ فلا تشتغل به ولا تهتمَّ له .

والموعود : اجعله من بالِكَ ، واذكره في جميع أحوالك ، واعمل له ولا تنسه ؛ فإنه آخر أيامك .

والممدود : يوم يقوم فيه الناس لرب العالمين ، فانظر لنفسك كيف يكون وقوفك ذلك اليوم ؟ وما جوابُ سؤالك فيه ؟ والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

ويقال : إن جمعاً تذاكروا يوماً عند يحيى بن معاذ في الفقر والغنىٰ ، فقال : إن الفقر والغنىٰ لا يوزنان يوم القيامة ، وإنما يوزن الصبر والشكر ، تعالَوا نصبر ونشكر .

وكان ليحيى بن معاذ ابنة صغيرة طلبت من أبيها يحيىٰ شيئاً ، فقال لها : يا بنية ؛ اطلبي ذلك من الله عز وجل ، فقالت : يا أبت ؛ أوَما يستحيي العبد من الله عز وجل أن يسأله في شيء من الأكل ؟!

وقال في « بهجة الأسرار » : قال يحيىٰ : إذا أحب القلب الخلوة . . فقد يوصله حب الخلوة إلى الله عز وجل والأنس به ، ومن أَنِس بالله . . استوحش من غيره .

وقال : أيها المريدون ؛ إن اضطررتم إلىٰ طلب الدنيا . . فاطلبوها ولا تحبوها ، وطلبكم بقدر حاجتكم لا غير ، أشغلوا بها أبدانكم ، وعلقوا قلوبكم بغيرها ، إنها دار ممر وليست بدار مقر ، الزاد منها والمقيل في غيرها .

وقال يحيىٰ : لو لزمت باب ربك سبحانه وتعالىٰ . . لَمَا هربت منه ، ولو أَنِست به جل جلاله . . لَمَا فتر لسانك عن ذِكره ، ولا قلبك عن النظر إليه تبارك وتعالىٰ ، ولٰكن عينك بدنياك مسحورة ، ونفسك في سجون الآمال مأسورة ، فلو أطلقت نفسك من أسرها

---

(١) **هُجْنَة** : نقص وعيب .

وأخرجتها من حصارها . . لخرجت من ضيق محابس الدنيا إلىٰ سَعة بساتين التقوىٰ .

فقيل له : كيف الطريق إلىٰ هـٰذا ؟ فقال : اجعل الخلوةَ بيتَك ، والحكمة دليلك ، والتوكل معاشك ، والذِّكرَ حرفَتك ، واجتنب أكثر الخلق تجنباً ، وتقرب إلىٰ مولاك جل جلاله بأداء الفرائض وإكثار النوافل وسائر الطاعات تقرباً ، فإن فعلت ذلك . . قرَّت عينك ، وأمنت مما يهجم عليك غداً ، ولـٰكنك مغرور ، والمغرور مردود .

وقال يحيىٰ : كنت بمكة ـ شرفها الله تعالىٰ ـ أتكلم علىٰ جماعة من أهل التجريد ؛ فإذا أنا بإبراهيم الهروي رحمه الله قد جاءني من ورائي من حيث لا أعلم ، فدق علىٰ ظهري ، وقال لي : يا يحيىٰ ؛ أسترحت ؟ أنت ألست بعرفة ، وأنشد يحيىٰ لنفسه :

طلِّقِ الدنيا ثلاثاً ... واتخذ زوجاً سواها
إنها زوجةُ سوءٍ ... لا تبالي مَن أتاها
أنت تعطيها مُناها ... وهي تعطيك قفاها
فإذا نالت مناها ... منك وَلَّتْكَ وراها

وقال يحيىٰ : مَن ظن أنه ينال ما نال القوم بغير مقاساة الجهد والصدق والإيثار ودوام المراقبة . . فهو متمنٍّ ، ومن لم يكن معه ثلاث خلال . . فليس بعارف :

الأولىٰ : النظر إلى الخلق بعين الحقيقة مع محافظته على الشريعة ، فما كان مِن المعاصي وسائر المنكرات . . يكرهه ويسعىٰ في إزالته بقدر استطاعته ، مع الإيمان بكونه مقدوراً .

الثانية : ليعلم أن لله عز وجل علىٰ عباده في طاعاتهم أعظمَ المنن حتىٰ تغرق عبادتهم في المنة ، وحينئذ فلا يتعلق بقلبه مجازاة ، وإنما يفعل ما فعل من الطاعات امتثالاً لأمره سبحانه وتعالىٰ وابتغاء رضوانه ، ولقد رَضُوا به ، وأنه لو قام عمر الدنيا علىٰ جفون عينيه . . لَمَا قام بما يجب عليه ، ويخاف كل الخوف ألاَّ يقبل منه ؛ قال تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ .

الثالثة : ليكن نظره في جميع النعم الظاهرة والباطنة إلى الله عز وجل لا إلى النعم ؛ ولهـٰذا قال العارفون : تعلَّق الناس بالأسباب ، وتعلَّق الصديقون بمسبب الأسباب سبحانه وتعالىٰ .

وعلامة الصدق في ذلك : ألا يكون طلبهم إلا مِن الله عز وجل ، ولا نظرهم إلا إليه سبحانه وتعالىٰ ، ولا اعتمادهم إلا عليه تبارك وتعالىٰ . انتهىٰ .

وقال في « لوامع أنوار القلوب » : سمع يحيى بن معاذ رجلاً يقول : لو متنا . . لاسترحنا ، فقال له : يا بطال ؛ ضجرت فطلبت الراحة ، استطلت العذاب ونسيت الثواب ، إنما ترفع الدرجات بقدر العقوبات ، ما قدر مَوْتَةٍ واحدة في محبته ؟! والله ؛ لو مت في كل لحظة ألف ألف موتة . . لكان ذلك قليلاً في جنب دعوى المحبة ، وإنما صعبت هـٰكذا ؛ لئلا يدعيها كل بطال .

وكان يقول : علىٰ قدر حبك لله عز وجل . . يحبك الخلق ، وعلىٰ قدر خوفك من الله سبحانه وتعالىٰ . . يخافك الخلق ، وعلىٰ قدر طاعتك لله . . يطيعك الخلق ، وعلىٰ قدر شغلك بالله . . يشتغل الخلق في أمرك ، والصبر على الخلق مع رعاية الحق من علامات الإخلاص ، واستدراك الوقت من علامات الرضا ، ودوام البكاء من علامات توقير المحبوب جل جلاله .

وقال يحيىٰ : حقيقة المحبة ما لا ينقص بالجفاء ، ولا يزيد بالبر .

وقال رجل ليحيىٰ : أوصني ، فقال : أوصيك بالحق فكن معه ، وأوصيك بعملك فطيبه ، وأوصيك بنفسك فارحمها ، وأوصيك أن تتقي السيئات كما تتقي النار ، وأوصيك بقيام الليل والالتجاء إلى الله عز وجل في كل وقت ، لا سيما في الأسحار ، وكثرة الاستغفار ، وأوصيك بالصدق في كل ما تأتي وتذر ، واسأَلِ الله سبحانه الفردوس الأعلىٰ ، والنظر إلىٰ وجهه الكريم سبحانه وتعالىٰ .

وقال يحيىٰ : كل موجود من الدنيا لا يكون لك عوناً علىٰ تركها . . فهو عليك لا لك .

وكان يحيىٰ يقول : ما أَوحَشَ مَنِ الدنيا أُنسَه ، وأَضْيَعَ مَنِ الذنوبُ غَرْسَه ، ولو عقل ما يفعله . . لترك ما يجهله .

وقال يحيىٰ رحمه الله : ثمرة البكاء ضحك في الجِنان ، ومجالس الذِّكر معادن الثواب ، ومجالسة الفقراء علامة الإرادة ، وإظهار التوكل بغير صدق عناء ، ولبس الصوف قبل إماتة شهوة النفس جهالة ، وترك المكاسب مع الحاجة إليها والتكسب علىٰ وجود الاستغناء عنه كلفة ، والصبر على العزلة علامة وجود الطريق ، والتعبد علىٰ تضييع العيال جهل ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

وسئل يحيى بن معاذ الرازي عن ترك الجِد في الكسب فقال : وكيف لا يُترك وفي ملازمة الكسب والجِدِّ فيه انصراف قلبه عن حب الموت ؟! وفي كراهية الموت حب البقاء ، وفي

حب البقاء امتداد الأمل ، وفي امتداد الأمل وقوع الحرص ، وفي وقوع الحرص حب الجمع ، وفي حب الجمع كراهية الموت ، وفي كراهية الموت الفرار من الله تعالىٰ ؛ لأن الله تعالىٰ يقول : ﴿ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ ، والجمَّاع المكب على الدنيا لا يحب الموت أبداً .

توفي يحيى بن معاذ سَنة ثمان وخمسين ومئتين . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء
رضي الله عنه

روى الحافظ أبو نعيم رحمه الله بإسناده : عن أبي القاسم الجنيد رحمه الله قال : صحبت أبا العباس بن عطاء عدة سنين متأدباً بآدابه ، وكان له في كل يوم وليلة ختمة ، وفي رمضان كلَّ يوم وليلة ثلاث ختمات ، وأقام في ختمة واحدة يستنبط منها مُوْدَعَ القرآن بضع عشرة سنة ، ويَستَرْوِح إلى المعاني المودعة فيها ، ثم مات قبل أن يختمها .

وقال الجنيد : سمعته يقول في قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ فقال : في البيت مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وفي القلب الاستغراق بحب رب إبراهيم ، وللبيت أركان ، وللقلب أركان ، فأركان البيت الصخور ، وأركان القلب معادن النور .

وكان أبو العباس بن عطاء يقول : مَن ألزم نفسه بمتابعة السُّنة . . عمَّر الله تعالىٰ قلبه بنور المعرفة ؛ فإنه لا مقام أشرف من متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع أوامره ونواهيه ، وفي جميع أخلاقه الجميلة ، وآدابه الشريفة الجليلة ، قولاً وفعلاً ونية ؛ قال الله عز وجل : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ ، فجعل تعالىٰ طاعَته طاعَته صلى الله عليه وسلم ، ومحبته محبته ، وأمرَه أمرَه فقال : ﴿ مَن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ ، وقال : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ .

وسئل ابن عطاء ، فقيل له : ما علامة أولياء الله عز وجل ؟ فقال : أربعة أشياء :

ـ صيانة سره فيما بينه وبين الله عز وجل .

ـ وحفظ جميع جوارحه فيما أمر الله تعالىٰ ونهىٰ عنه ، فلا يفقده حيث أمره ولا يراه حيث نهاه .

ـ واحتمال الأذىٰ فيما بينه وبين الخلق .

ـ ويداري الخلق علىٰ قدر عقولهم .

وقال الحافظ : قال ابن عطاء : كل من شاهد الحق بالحق . . انقطعت عنه الأسباب ، وما دام مشاهداً لغير الحق جل جلاله . . فهو في الحجب يرتع . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ٣٠٢ـ٣٠٤] .

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري : قال ابن عطاء رحمهما الله : التقوىٰ لها ظاهر وباطن ، الظاهر : محافظة الحدود ، والباطن : النية والإخلاص . [انتهىٰ « الرسالة القشيرية » ٨٨] .

وقال في « بهجة الأسرار » : قال ابن عطاء في قوله عز وجل : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ : إن الدود كان قد سلطه الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ جسده ، خلا قلبه ولسانه ، فكان القلب غنياً بالله ، واللسان رطباً بذِكر الله ، فأَكَل الدود جميع جسمه[1] ، حتىٰ بقيت أضلاعه مشتبكة والعروق ممدودة ، حتىٰ ما بقي للدود شيء يأكله ، فسلط الله تعالى الدود بعضه علىٰ بعض ، فأكل بعضه بعضاً حتىٰ لم يبق غير دودتين ، فجاعتا ، فشدت إحداهما على الأخرىٰ ، فأكلتها ، وبقيت واحدة ، فجاعت ودنت إلى القلب ، فعند ذلك قال : ﴿ مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ ﴾ أنْ فقدت حلاوة ذِكرك من قلبي ؛ لأنه لو جُمِّع عليَّ البلاءُ كله بعد ألاَّ أفقدك من قلبي . . لم أجد للبلاء ألماً ، ثم قال : ﴿ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ ولم يقل : ارفع البلاء عني ؛ أدباً للخطاب ، إذ المعنىٰ : أنا عبدك والأمر لك ، ثم إن الحق جل جلاله قال : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ﴾ ، يا عجباً ، هو أعطىٰ وهو أثنىٰ سبحانه وتعالىٰ!!

وسئل عن الفرق بين التسليم والتفويض ، فقال : المعرفة تشير إلى التسليم ، والعلم يشير إلى التفويض ، فالتسليم هو التبري من الحول والقوة تصديقاً ومعرفة ، والتفويض معاينة الاضطرار ، وليس مَن أسقط عن نفسه حالاً كمن لم يشهد لنفسه حالاً .

وسئل عن تواجد بعض المشايخ عند السماع ، فقال : هو صحيح ، فقيل له : إن الصحابة والتابعين لم يبلغنا عن أحد منهم تواجُدٌ ، فقال : أما الصحابة رضوان الله عليهم : فكانوا قد كوشفوا بالشريعة في سرهم ، فكانوا في الظاهر بحال الوصول إلى الله سبحانه

---

(١) هٰذا مما يستحيل في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولقد سبقت الإشارة إلىٰ ذلك (٢/ ٣٤١) .

وتعالىٰ ، ومن جاء بعدهم في حال السَّيْر إلى الله ، ومعلوم أن كل من كوشف بشيء لم يعرفه قبل ذلك . . وقع به الانزعاج ، ومن كان عارفاً به . . لا يقع به انزعاج .

ألا ترىٰ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عُرج به إلى السماء . . كشف له عن الملكوت معاينة ، فرآها مشاهدة بالعين ، وكشف لأبي بكر الصديق رضي الله عنه في سرِّه ، فلما رجع النبي صلى الله عليه وسلم وأخبرهم بما رأىٰ وعاين . . قال له أبو بكر الصديق رضي الله عنه : صدقت يا رسول الله ، فوافق ما شهد أبو بكر في سِرِّه ما شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم عِياناً فلم يقع به في ذلك انزعاج ؛ لتقدم عِلم ذلك له في سِرِّه .

وقد روىٰ جماعة من الحفاظ : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه الصلاة والسلام ليلة المعراج : « يا جبريل ؛ إن قومي لا يصدقوني بهـٰذا » ، قال : يصدقك أبو بكر[1] ؛ إذ قد كشف له علم ذلك في سره رضي الله عنه .

وأنشد ابن عطاء لأبي الحسين النوري رحمهما الله :

الوجد يُطرِب من بالوجد راحته ... والوجد عند حضور الحق مفقودُ
فكـان يُطـربني وجـدي فـأفقـدني ... عن رؤية الوجد مَن بالوجد موجودُ

وقال ابن عطاء : مَن عرف الله عز وجل بالربوبية . . اعتقد الثقة به ، ومَن عرف الله بالبر . . اعتقد المحبة له ، ومن عرف الله بالوفاء . . اعتقد التوكل عليه ، ومَن عرف الله بالغِنىٰ . . اعتقد الافتقار إليه ، ومَن عرف الله بالعظمة . . اعتقد الهيبة له ، ومَن عرف الله بالعدل . . اعتقد الخوف منه ، ومَن عرف الله بالإحسان . . اعتقد القصد إليه ، ومَن عرف الله بالرحمة . . اعتقد الرجاء له ، ومَن عرف الله بالاطلاع . . اعتقد الحياء منه ، ومَن عرف الله تعالىٰ بالمعروف . . اعتقد الرغبة إليه سبحانه وتعالىٰ ، والمؤمنون جميعهم يعتقدون أنه سبحانه وتعالىٰ هو الموصوف بجميع هـٰذه الصفات ، وسائر نعوت الجلال والجمال سبحانه وتعالىٰ .

وقال ابن عطاء رحمه الله : للأبرار مراكب ، ولكل مركب غاية إليها يصيرون ، فمَن ركب مركب الخوف . . نجا ، ومن ركب مركب الرجاء . . وجد ، ومَن ركب مركب التوكل . . كُفي ، ومَن ركب مركب التفويض . . وصل ، ومَن ركب مركب الشوق . . أدرك ، ومَن ركب مركب الإنابة . . وجِل ، ومَن ركب مركب حسن الظن . . أصاب ،

---

(١) أخرجه بنحوه الطبراني في « الأوسط » (٧/ ١٦٦) .

فمركب الخوف للهرب ، ومركب الرجاء للطلب ، ومركب التوكل للراحة ، ومركب التفويض للسرعة ، ومركب الشوق للنظر ، ومركب الإنابة للدخول ، ومركب حسن الظن للظفر .

وسئل عن الفرق بين الخشية والخوف ، فقال : الخشية من السقوط عن درجات الزُّلَف[1] ، والخوف من اللحوق في درجات المقت . انتهىٰ .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : قد ذكرت عن بعض العارفين الفرق بينهما ، وهو : أن الخشية من شرط العلم ، والخوف من شرط الإيمان ، وهو قريب مما قاله ابن عطاء ، أو هو هو لرجوعه إليه بطريق الملازمة ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

وقال في « المناقب » : سئل ابن عطاء : إلىٰ ماذا تسكن قلوب العارفين ؟ فقال : إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ .

وسئل عن معنىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ﴾ فقال : ما لم يعطف الرب جل جلاله علىٰ عبده بالرحمة . . لم ينعطف العبد إلى الله عز وجل بالطاعة .

وقال ابن عطاء : روي أن آدم عليه الصلاة والسلام كان يدعو بهـٰذا الدعاء : اللهم ؛ لا تجعل حظنا منك الحرمان ، ولا نصيبنا مما نؤمِّلُ منك الخذلان .

اللهم ؛ لا سهل إلا ما جعلته سهلاً ، سهِّل علينا طاعتك ، والتلذذ بذكرك ، والتنعم بقربك ، والاجتناب لسخطك ، والإنابة إلىٰ موافقتك .

وقال : مَن استصغر عطاءه . . استعظم بلاءه ، ومَن كان الغالب عليه أمر معاده . . بان له ذلك في توحده وانفراده ، ولقد عظمت مصيبة مَن جهل ربه سبحانه وتعالىٰ واتهمه في قضائه واختياره ، فذلك العبد الخائن الخاسر في أحواله كلها وهو لا يشعر .

وكان يقول : مكتوب في التوراة : (يابن آدم ؛ إن أعطيتك الدنيا . . اشتغلت بحفظها ، وإن منعتكها . . اشتغلت بطلبها ، فمتىٰ تتفرغ لعبادتي ؟!) .

وقال : لا يصح الإيمان إلا بمراعاة الأدب ، فمَن ترك الأدب . . فقد ترك المروءة ، والمروءة مروءتان : مروءة الدِّين ، ومروءة اليقين ، فمروءة الدِّين إصلاح السريرة فيما بينه وبين الله تعالىٰ ، ومروءة اليقين إصلاح الإرادة فيما بينه وبين الإخوان وسائر المسلمين .

---

(١) **الزلف** : جمع زلفىٰ ، وهي : القربىٰ والمنزلة .

وقال : الاختيار في دفع البلاء زيادة في البلاء .

وقال : مَن غلب هواه وجزعه علىٰ صبره . . افتضح .

وقال : قرت عيون السحرة[1] بسجدة واحدة ، فما بال عين من سجد خمسين سنة ؟!

وقال في كلامه على الناس : أين المحبة والرضا ؟ فإن لم يكن . . فأين الصدق والصفاء ؟ فإن لم يكن . . فأين الانتباه والحياء ؟ فإن لم يكن . . فأين التوبة والوفاء ؟ فإن لم يكن . . فأين التضرع والبكاء ؟ فمن عَدَّىٰ ذلك كلَّه . . فليَبْكِ علىٰ نفسه أيام حياته .

وقال : **القرآن الكريم كله يرجع معناه إلىٰ شيئين : مراعاة العبودية ، وتعظيم حق الربوبية . [انتهىٰ] .**

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) أي : السحرة الذين كانوا عند فرعون ، عندما بان لهم الحق سجدوا لله سجدة أنارت قلوبهم ، فثبتوا في وجه فرعون ، ولم يثنهم عن إيمانهم ما هددهم به من العذاب .

ومنهم الإمام :

حاتِمٌ الأصمُّ
رضي الله عنه

قال الأستاذ أبو القاسم القشيري رحمه الله : كان حاتم الأصم رحمه الله من أكابر مشايخ خراسان ، وهو تلميذ شقيق البلخي ، وأستاذ أحمد بن خضرويه ، قيل : ولم يكن أصمَّ ، وإنما تصامم مرة فسمي بذلك .

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول : جاءت امرأة إلىٰ حاتم ، فسألته عن مسألة ، فخرج منها صوت ريح في تلك الساعة ، فكأنها خجلت واستحيت ، فقال لها حاتم : ارفعي صوتك ـ يُري من نفسه أنه أصم ـ فسُرَّت المرأة بذلك ، وقالت : إنه لم يسمع الصوت ، فغلب عليه اسم الصمم . انتهىٰ [« الرسالة القشيرية » ٢٦] .

وقال الإمام أبو حامد الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : قال حاتم الأصم : لا تغتر بموضع صالح ؛ فلا مكان أصلح من الجنة ، ولقي آدم عليه الصلاة والسلام ما لقي ، ولا تغتر بكثرة العبادة ؛ فإن إبليس بعد طول تعبده لقي فيها ما لقي ، ولا تغتر بكثرة العلم ؛ فإن بلعام[1] كان يحسن اسم الله الأعظم ، فانظر ماذا لقي ، ولا تغتر برؤية الصالحين ؛ فلا مخلوق أعظم من المصطفىٰ محمد صلى الله عليه وسلم ، ولم ينتفع بلقائه ناس كثير من أقاربه وأعدائِه . انتهىٰ [« الإحياء » ٤/ ١٨٥] .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : سئل حاتم الأصم فقيل له : علىٰ ماذا بنيت أمرك في التوكل ؟ فقال : علىٰ أربع خصال :

---

(١) بلعام من باعور ، وقيل : بلعم بن باعوراء ، وهو الذي قال الله تعالىٰ فيه : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .
انظر « البداية والنهاية » (١/ ٣٥٩) ، و« تفسير الرازي » (١٥/ ٥٤) .

ـ علمت أن رزقي لا يأكله غيري ، فاطمأنت به نفسي .

ـ وعلمت أن عملي لا يعمله غيري ، فأنا به مشغول .

ـ وعلمت أن الموت يأتيني بغتة ، فأنا أبادره .

ـ وعلمت أني لا أخلو من عين الله عز وجل ، فعملت على المراقبة له في جميع الأحوال .

وقال حاتِم : ينبغي للعبد مراقبة الله عز وجل في كل أقواله وأفعاله ، خصوصاً في ثلاثة مواضع :

ـ إذا عمل عملاً . . ينبغي أن ينظر نظر الله عز وجل إليه فيستحيي منه .

ـ وإذا تكلم . . فيذكر سمع الله سبحانه وتعالىٰ له ، فينظر كيف يتكلم .

ـ وإذا سكت . . فينظر إلىٰ ما سبق له في علم الله عز وجل .

وقال حاتم : مَن ادعىٰ محبة الله تعالىٰ مِن غير ورع عن محارمه . . فهو كذاب ، ومَن ادعىٰ حب الجنة مِن غير إنفاق ماله في سبيل الله تعالىٰ . . فهو كذاب ، ومن ادعىٰ حب النبي صلى الله عليه وسلم من غير طاعته واتباع سنته . . فهو كذاب .

وقال حاتم : شيئان لا أدري أيهما أشد على العبد : اتقاء العجب ، أو الرياء . العجب داخل فيك ، والرياء خارج عنك ، لكن قد يكون دخول العجب عليك أشد من الرياء ، ومثال ذلك : أن يكون مَعك كلب في البيت وهو عقور ، وكلب آخر خارج البيت ، أيهما أشد عليك ؟! لا شك أن الداخل معك أشد عليك ، فالداخل هو العجب ، والخارج هو الرياء .

وقال حاتم قدس الله روحه : الحزن حزنان : حزن لك ، وحزن عليك ، فأما الحزن الذي عليك : فهو أن تحزن علىٰ ما فاتك من الدنيا قليلاً كان أو كثيراً ، وأما الحزن الذي هو لك : فهو أن تحزن علىٰ فوات حظك من الله عز وجل ، وما فاتك من أمر الآخرة .

وقال حاتم : لي أربع نسوة وتسعة من الأولاد ، ما طمع الشيطان ـ والحمد لله ـ في أن يوسوس إلي في شيء من أرزاقهم .

وقال رجل لحاتم : ما تشتهي ؟ فقال : عافية يوم إلى الليل ، فقال له : ألستَ الأيام في عافية ؟ فقال : إن العافية في يوم لا أعصي الله تعالىٰ فيه . انتهىٰ [« الحلية » ٨/ ٧٣ـ٨٣] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال الحسن بن علي : سمعت حاتماً يقول : لو أن صاحب خبر جلس إليك ليكتب جميع كلامك . . لتحرزت منه وتحفظت مما يكتب عليك ، وكلامك كله يعرض على الله عز وجل رب العالمين ، وهو به أعلم ، وأنت لا تحترز .

وقال حامد : سمعت حاتِماً يقول : ما من صباح إلا والشيطان يقول لي : ما تأكل ؟ وما تشرب ؟ وأين تسكن ؟ وما تلبس ؟ فأقول له : آكل الموت ، وألبس الكفن ، وأسكن القبر .

وقال حاتم : اختلفت إلىٰ أستاذي شقيق ثلاثين سنة ، فقال لي يوماً : يا حاتم ؛ أي شيء تعلمت مني ؟ فقلت : تعلمت منك أربع مسائل : فقال : أبالله في هـٰذه المدة كلها أربع مسائل ؟ قلت : يا أستاذ ، لم أتعلم غيرها ، فقال : وما هي ؟ قلت :

ـ علمت أن رزقي قد تكفل الله عز وجل به ؛ فلم أشتغل إلا بعبادته سبحانه وتعالىٰ .

ـ وعلمت أن الله سبحانه وتعالىٰ وَكَّل بي ملكين يكتبان ما أتلفظ به ؛ فأنا أحترز منهما ما استطعت .

ـ وعلمت أن الخلائق ينظرون إلىٰ ظاهري والله عز وجل ينظر إلىٰ باطني ؛ فرأيت مراقبته سبحانه وتعالىٰ في جميع الأحوال .

ـ وعلمت أن المنية تدعىٰ إليها الخلائق ؛ فاستعددت لها متىٰ جاءت .

فقال شقيق : يا حاتم ؛ أرجو ألاَّ يخيِّب سعيَك ؛ فإنه أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين . أو كما قال . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/١٠٨] .

وقال الحافظ أبو بكر الخطيب في « تاريخ بغداد » : قصد حاتم الأصم الحج ، فلما دخل بغداد . . قال لبعض أصحاب أحمد ابن حنبل : أحب أن أزور أحمد ابن حنبل ، فقال له : امض بنا إليه ، فلما دخلا عليه في منزله . . قال له صاحبه : هـٰذا حاتم قصد زيارتك والسلام عليك ، فأقبل عليه أحمد وتحادثا ساعة طويلة ، ثم قال له أحمد بعد بشاشة : يا حاتم ؛ فيم التخلص من الناس ؟ فقال : يا أحمد ؛ في ثلاث ، قال : وما هي ؟ قال :

ـ أن تعطيهم مالك ولا تأخذ من مالهم شيئاً .

ـ وتقضي حقوقهم ولا تستقضي من أحد منهم حقاً .

ـ وتحتمل مكروههم ولا تُكرِه أحداً منهم علىٰ شيء .

قال : فجعل أحمد ينكت بإصبعه على الأرض ويقول : إنها لشديدة ، إنها لشديدة ، إنها لشديدة (ثلاثاً) فقال له حاتم : وليتك تسلم ، وليتك تسلم ، وليتك تسلم . انتهىٰ [٨/ ٢٣٧] .

وروى الحافظ أبو نعيم ـ قدس الله روحه ـ : عن رباح بن أحمد الهروي رحمه الله تعالىٰ قال : مر عصام بن يوسف بحاتم الأصم وهو يتكلم في مجلسه ، فقال له : يا حاتم ؛ تحسن تصلي ؟ قال : نعم ، فقال له : كيف تصلي ؟ قال : أقوم بالأمر ، وأمشي بالخشية ، وأدخل بالنية ، وأكبر بالعظَمة ، وأقرأ بالترتيل والتفكر ، وأركع بالخشوع ، وأسجد بالتواضع ، وأجلس للتشهد بالتمام ، وأسلم بالسبيل والسنة ، وأسلمها بالإخلاص إلى الله عز وجل ، وأرجع علىٰ نفسي بالخوف ، أخاف ألاَّ يقبل مني ، وأحفظه بالجهد إلى الموت ، فقال : تكلم ، فأنت تحسن تصلي . انتهىٰ [« الحلية » ٨/ ٧٤ـ٧٥] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : اعلم : أن هـٰذا الكلام الذي أجاب به الإمام حاتم قدس الله روحه لم أر فيما وقفت عليه من أسرار الصلاة وإبراز حكمها أبلغ منه ، ولا أحسن ، ولا أوجز ؛ لاشتماله علىٰ خفايا العبادة ودقائقها ، وأركان الصلاة وحقائقها ، مع ما فيه من جزالة الألفاظ وعذوبتها ، والإتيان بالمعاني اللطيفة مع غزارة فائدتها ، وأعظم ما فيه وأحسنه . . كونه جاء حاوياً للإخلاص والنية والصدق ، ومعلوم أن مدار العبادات بل مدار الدين إنما هو عليها ، إما باعتبار الثواب اتفاقاً ، أو باعتبار الصحة اختلافاً[1] ، وكيفما كان . . فهي من أعظم قواعد الدين ، التي من تلبس بها . . فقد سلك سبيل العارفين ، ولما كانت من الدين بهـٰذه المثابة . . تعيَّن صرف الاهتمام إليها ، وحق لمن أراد الآخرة المبادرةُ إلىٰ معرفتها والاجتهاد في أن تقع أعماله عليها ، ويلمح ببصيرته ما حوته من المعارف اللطيفة ، ويشاهد ببصره تلك الجواهر النفيسة ، عساه أن يعرف كيف كانت أعمال المخلصين ، وإلىٰ أين انتهت في التفقه مراتب المتقين ، الذين قال فيهم سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه وأزواجه وذريته أجمعين ، وسلم تسليماً كثيراً إلىٰ يوم الدين : « من يرد الله به خيراً . . يفقهه في الدين »[2] .

ثم من بعد ذلك يسأل الله عز وجل أن يوفقه لما وفقهم ، ويعطيه كما منحهم ، إنه ذو

---

(١) على اعتبار الخلاف بين المذاهب في شروط وأركان الصلاة .

(٢) أخرجه البخاري (٧١) .

الفضل العظيم ، ألا ترىٰ إلىٰ قول العارفين : كيف يتقي من لا يعرف ما يتقي ؟!

وها أنا أشرع في تحقيق ذلك إن شاء الله تعالىٰ بأوضح طريق وأحسن بيان ، وأجعل ما أذكره كالشرح لكلام حاتم ، تغمده الله تعالىٰ بالرحمة والغفران ، وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب .

قوله : (**أقوم بالأمر**) : هـٰذا يؤخذ منه مسائل :

منها : الإشارة إلىٰ تعريف الإخلاص ، وسنذكر وجه الاستنباط منه ، والإخلاص في العبادات هو روحها وسرها ؛ إذ هو الركن الأعظم فيها ، والمطلوب منها ، والمقصود بها ؛ فإن العلم بذر ، والعمل زرع ، وماؤه الإخلاص .

ومن المعلوم أن العبادات إنما شرعت بالإخلاص ، فحيث لا إخلاص . . لا مشروعية ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ ، وقال الله تعالىٰ : ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴾ قيل : إنها نزلت فيمن كان يعمل لله عز وجل ويحب أن يحمد عليه .

ولَمَّا أن كان الإخلاص هو عماد العبادات وبه اعتدادها . . ناسب أن نتكلم علىٰ حقائقه ، وبيان أقسامه ، ومراتب المخلصين ، وتفاوت درجاتهم بحسب إخلاصهم ، لـٰكن الكلام على استيفاء حقائقه وبيان أقسامه يطول ، وإنما نشير إلىٰ مرامز لطيفة ورسوم شريفة يحصل بها المقصود إن شاء الله تعالىٰ ، والكلام عليه في فصول :

الفصل الأول
في بيان حقيقته

والبيان الشافي فيه : بيان سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم لما سئل عن الإخلاص ، فقال : « أن تقول ربي الله ، ثم تستقيم »[1] ، وهـٰذا الكلام تتفجر منه عيون كالبحار ، وتحته أغوار جليلة حازت كل الفخار ، منها : الإشارة إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ

---

(١) أخرج ابن ماجه (٣٩٧٢) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٦/ ٤٥٨) ، والإمام أحمد (٣/ ٤١٣) : أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : يا رسول الله ؛ أخبرني أمراً في الإسلام لا أسأل عنه أحداً بعدك ، قال : « قل : آمنت بالله ، ثم استقم » .

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ ، ومنها : قوله تعالىٰ : ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ إذ قد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « شيبتني هود » ، قيل : يا رسول الله ؛ ما الذي شيبك منها ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « قوله تعالىٰ : ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ »[1] .

فقول حاتم رحمه الله : (أقوم بالأمر) : إشارة إلىٰ ذلك ؛ فإن حقيقة القيام بالأمر هو الاستقامة كما أمر الله عز وجل ، ولا شك أن الاستقامة كما أمر الله سبحانه وتعالىٰ عزيزة ، وهي : ألاَّ تعبد هواك ولا نفسك ، ولا تعبد إلا الله تعالىٰ ، وهو إشارة إلىٰ قطع النظر عن كل ما سوى الله عز وجل ، وهـٰذا هو الإخلاص حقاً ، وهو أقسام :

الأول : إخلاص الخواص ، وهم الذين لا يريدون عوضاً في الدارين ، وهو الإخلاص المطلق .

والثاني : إخلاص العوام ، وهم الذين يريدون عوضاً ، وسنذكر مراتبهم في الفصل الثالث إن شاء الله تعالىٰ .

واعلم : أن الخالص هو الصافي عن كل ما يُتصور أن يكدره ، فإذا صفا عن ذلك . . سمي خالصاً ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ ، فإنما خلوص اللبن ألاَّ يكون فيه شيء من الدم والفرث ، ومِن كل ما يمكن أن يمتزج به ، والإخلاص يضاده الإشراك ، فمَن ليس مخلصاً . . فهو مشرك ، إلا أن الشرك درجات ، فالإخلاص في التوحيد يضاده الإشراك في الألوهية ، والشرك منه خفي ومنه جلي ، وكذا الإخلاص .

والإخلاص وضده يتواردان على القلب ، فمحله القلب ، فالإخلاص إنما هو تخليص العمل عن جميع الشوائب ، حتىٰ يتجرد فيه قصد التقرب ، بحيث لا يكون فيه باعث سواه ، وهـٰذا لا يُتصور إلا من محب لله عز وجل مستغرق الهَمِّ بالآخرة ، بحيث لم يبق لحب الدنيا في قلبه مطمع ولا قرار ، حتىٰ لا يحب الأكل والشراب أيضاً ، بل تكون رغبته فيهما كرغبته في قضاء الحاجة من حيث إنه ضرورة الجِبلَّة ، فلا يشتهي الطعام لكونه طعاماً ، بل لأنه يقوىٰ به على العبادة ، ويتمنىٰ أن لو كفي شر الجوع حتىٰ لا يحتاج إلى الأكل ، فلا يبقىٰ في قلبه حظ من الفضول الزائد على الضرورة ، لـٰكن قدر الضرروة يكون مطلوباً عنده ، لا لذاته بل لكونه من ضرورة دِينه وقوام بدنه ، كما قال سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وعلىٰ آله

---

(١) أخرجه بنحوه الترمذي (٣٢٩٧) ، والحاكم (٢/ ٣٧٤) .

وصحبه أجمعين : « حسب المؤمن لقيمات يقمن صلبه »[1] ، وهو جمع قلة .

ولذلك ـ والله أعلم ـ جاء أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يأكل سبع لقم أو تسع لقم ، ولا يكون له هَمٌّ ولا مقصود إلا الله سبحانه وتعالىٰ ، فمثل هـٰذا لو أكل وشرب ونام وقضىٰ حاجته . . كان خالصَ العمل صحيحَ النية في جميع حركاته وسكناته ، فلو نام مثلاً ليريح نفسه ويتقوىٰ على العبادة بعده . . كان نومه عبادة ، وكان له درجة المخلصين ، وهـٰكذا في سائر أعماله .

وأما مَن ليس كذلك . . فباب الإخلاص في الأعمال كالمسدود عليه إلا على الندور ؛ فإن من كان الغالب عليه حب الله عز وجل والعمل لما يقربه إليه سبحانه وتعالىٰ . . اكتسبت حركاته الاعتيادية صفة همه ، وصارت إخلاصاً ، ومَن غلب علىٰ نفسه حب الدنيا والعلو فيها والرياسة وبالجملة غير الله تعالىٰ . . اكتسبت جميع حركاته تلك الصفة ، فلا يحصل له إخلاص في عبادة ما ، من صوم أو صلاة أو غير ذلك إلا نادراً ، فإذاً لا طريق إلى الإخلاص إلا بكسر حظوظ النفس ، والعزوف عن الدنيا ، وقطع الأطماع منها .

وقد قال سيدي سري السَّقَطي رحمه الله : سألت معروفاً عن الطائعين لله رب العالمين ، بأي شيء قدروا على الطاعة ؟ فقال : بخروج الدنيا من قلوبهم ، ولو كانت في قلوبهم . . لما صحت لهم سجدة واحدة ، وكم من أعمال يتعب الشخص فيها ويظن أنها خالصة لوجه الله تعالىٰ ، ويكون فيها مغروراً ؛ لأنه لا يدري وجه الآفة فيها .

كما حكي عن بعض العارفين أنه قال : قضيت صلاة ثلاثين سَنة كنت أصليها في الصف الأول في المسجد ؛ لأني تأخرت يوماً بعذر ، فصليت في الصف الثاني ، فاعترتني خجلة من الناس من حيث رأوني في الصف الثاني ، فعرفت أن نظر الناس إلي في الصف الأول كان مسرتي وسبب استراحة قلبي من حيث لا أشعر ، وهـٰذا دقيق غامض ، وقلَّما تسلم الأعمال من أمثاله ، وقَلَّ مَن تنبه له إلا مَن وفقه الله تعالىٰ .

وقد قال سيدنا السري رحمه الله : لو أحسست بإنسان يريد الدخول إلي ، ففعلت بلحيتي كذا أريد تسويتها من أجل دخول ذلك الداخل إلي . . لخفت أن يعذبني الله علىٰ ذلك بالنار[2] .

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٨٠) ، وابن ماجه (٣٣٤٩) .

(٢) لعل مراد الإمام السري رحمه الله فيما إذا تمحض القصد في مثل هـٰذا التصرف للمخلوقين فقط ؛ فإن هـٰؤلاء القوم ومن في رتبتهم يراقبون الله في جميع تصرفاتهم ويشهدونه في سائر أفعالهم ، فإن تجرد شيء منها لغيره=

واعلم : أن الغافلين عن الإخلاص يجدون حسناتهم في القيامة كلها سيئات ، ويحتمل أن يكونوا من جملة المرادين بقوله تعالىٰ : ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ ﴾ ، وبقوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا * ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ وأشد الخلق تعريضاً لهـٰذه الفتنة . . العلماء الذين لا يريدون بعلمهم وجه الله تعالىٰ ، وإنما مرادهم حب الدنيا ، وهو الباعث لهم علىٰ نشر العلم للذة الاستيلاء ، والفرح بالأَتْباع ، والاستبشار بالحمد والثناء ، والشيطان يُلبِّسُ عليهم ذلك ، ويقول : أنتم غرضكم نشر دِين الله تعالىٰ ، والنضال عن الشرع الذي شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وترى الواعظ يمُنُّ بنصحه للخلق ووعظه للسلاطين ، ويفرح بقَبول الناس عنه قوله ، وإقبالهم عليه ، ولا ينتبه لذلك بل يدعي أنه إنما يفرح بذلك لِمَا يَسَّره الله تعالىٰ علىٰ يديه من نصرة الدِّين ، وهو في جميع ذلك مغرور ، ألا ترىٰ أنه لو ظهر إنسان من أقرانه وهو أكثر منه علماً وأحسن وعظاً ، وانصرف الناس عنه ، وأقبلوا عليه . . لساءه ذلك وغمه ؟! **فلو كان باعثه الدِّين ـ كما ادعىٰ ـ لحَمِد الله تعالىٰ وشكره ، حيث إنه كفاه ذلك الهَمَّ بغيره** ، وكان له أجر نيته ، ولكان يفرح بذلك ، ولـٰكنه بمعزل عن ملاحظة هـٰذه الأشياء ، حتىٰ إن الشيطان يُلبِّسُ عليه ، ويقول له : أنت مُثاب علىٰ هـٰذا الحزن والغم ؛ لأن حزنك وغمك إنما هو لانقطاع الثواب عنك لا لانصراف الناس عنك ؛ فإنهم لو اتعظوا بقولك . . كنت أنت المثاب ، فاغتمامك لفوت الثواب محمود ، ولا يدري المسكين المغرور أن انقياده للحق وتسليمه الأمر إلىٰ من هو أولىٰ منه أفضل وأجزل ثواباً وأنفع له في الآخرة .

أوَلا ينظر إلىٰ ما كان عليه الصحابة والتابعون رضوان الله عليهم أجمعين ؟!

أوَلا ينظر إلىٰ قول الشافعي رحمه الله : **وددت أن الخلق تعلموا هـٰذا العلم ولا ينسب إلي منه شيء** ؟! فما بال العلماء لا يقصدون ما قصده السلف الصالح ، وقد ينخدع بعض أهل العلم بغرور الشيطان ، فيحدث نفسه بأنه لو ظهر مَن هو أولىٰ بالأمر منه . . لفرح .

وإخباره بذلك عن نفسه قبل التجربة والامتحان . . محض الجهل والغرور ؛ فإن النفس سهلة الانقياد للوعود بأمثال ذلك قبل نزول الأمر ، ثم إذا وقعت تلك الأمور . . تغير ورجع

= أو شابته شائبة الإشراك معه . . رأوا فيه خللاً كبيراً ، وداخلهم من الخوف ما داخلهم ، وهـٰذا من باب : (حسنات الأبرار . . سيئات المقربين) والله أعلم .

ولم يف بالوعد ، وذلك لا يعرفه إلا مَن عرف غوائل النفس ومكائدها ، وهو الفذ الفرد النادر الذي يمكن أن يكون من جملة المراد في قوله تعالىٰ : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ فليكن العبد شديد التفقد والمراقبة لهـٰذه الدقائق ، وإلا . . فلا يلج ساحة المخلصين .

* * *

الفصل الثاني
في بيان أقاويل الأئمة ـ رضوان الله تعالىٰ عليهم ـ فيه[1]

قال حجة الإسلام أبو حامد الغزالي ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ : قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : لا تهتموا لقلة العمل ، واهتموا للقَبول ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ رضي الله عنه : « أخلص العمل . . يجزئك منه القليل »[2] .

وعن الحسن رحمه الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تبارك وتعالىٰ : الإخلاص سر من أسراري ، استودعته قلب من أحببته من عبادي »[3] .

وكان معروف الكرخي رحمه الله يضرب نفسه ويقول : يا نفس ؛ أَخلِصي . . تتخلصي .

وقال يعقوب : المكفوف المخلص . . مَن يكتم حسناته كما يكتم سيئاته .

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله : طوبىٰ لمن صحت له خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله تعالىٰ .

وقال السري السقطي رحمه الله : صلاة ركعتين بإخلاص . . خير لك من أن تكتب سبعين حديثاً . أو كما قال .

ويروىٰ عن بعضهم أنه قال : غزوت في البحر ، فاشتريت مخلاة[4] ، وقلت : أنتفع بها ، ثم إذا دخلت مدينة كذا . . بعتها فربحت فيها ، فرأيت في المنام كأن شخصين نزلا من السماء ، فقال أحدهما : اكتب الغزاة ، فأملىٰ عليه اكتب : خرج فلان متنزهاً ، وفلان مرائياً ، وفلان تاجراً ، وفلان في سبيل الله تعالىٰ ، ثم نظر إلي ، وقال : اكتب : خرج فلان

---

(١) أي : في الإخلاص .
(٢) أخرجه بنحوه الديلمي (١/ ٤٣٥) .
(٣) أخرجه الديلمي (٣/ ١٨٧) .
(٤) **المِخلاة** : كيس يوضع فيه الطعام ونحوه .

تاجراً ، فقلت : الله الله في أمري ، فما خرجت أتَّجر ولا معي تجارة ، ما خرجت إلا للغزاة ، فقال : اشتريت أمس مخلاة تريد أن تربح فيها ، فبكيت ، وقلت : لا تكتبوني تاجراً ، فنظر إلىٰ صاحبه ، وقال : أما ترىٰ أن الله لا يخفىٰ عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، فقال : اكتب : خرج فلان غازياً ، إلا أنه اشترىٰ مخلاة في الطريق ليربح فيها ، حتىٰ يحكم الله فيه ما يرىٰ .

ورأىٰ رجل بعضَ العارفين في منامه ، فقال له : كيف وجدت أعمالك ؟ فقال : كل شيء عملته لله عز وجل وجدته ، حتىٰ حبة رمان التقطتها من طريق ، وكنت قد تصدقت بين الناس ، فأعجبني نظرهم إلي ، فوجدت ذلك لا عليَّ ولا لي .

قال سفيان الثوري رحمه الله لما سمع هـٰذه الحكاية : ما أحسن حاله! إذا لم يكن عليه . . فقد أحسن الله إليه .

وقال بعضهم : في إخلاص ساعة نجاة الأبد ، ولـٰكن الإخلاص عزيز .

وقال الجنيد رحمه الله : إن لله عباداً عقلوا ، فلما عقلوا . . عملوا ، فلما عملوا . . أخلصوا ، فاستدعاهم الإخلاص إلىٰ أبواب البر أجمع .

وقال محمد بن سعيد المروزي رحمه الله تعالىٰ : الأمر كله يرجع إلىٰ أصلين : فِعلٌ منه لك ، وفِعلٌ منك له ، فترضىٰ بما يفعل سبحانه وتعالىٰ ، وتُخلص فيما تفعل ، فإذاً أنت قد سعدت بهـٰذين وفزت بالدارين .

وقال السوسي رحمه الله تعالىٰ : مراد الله عز وجل من عمل الخلق الإخلاص فقط ، والإخلاص فَقْدُ رؤية الإخلاص ؛ فإن من شاهد في إخلاصه الإخلاص . . احتاج إخلاصه إلىٰ إخلاص ، وهـٰذا إشارة إلىٰ تصفية العمل عن العجب ؛ فإن الانبعاث إلى الإخلاص والنظر إليه عُجب ، وهو من جملة الآفات ، والخالص : ما صفا عن جميع الآفات ، وكلامه إنما يعرض لآفة واحدة .

وقال سهل رحمه الله : الإخلاص : أن يكون سكونُ العبد وحركاتُهُ لله تعالىٰ خالصة . وهـٰذه كلمة جامعة محيطة بالغرض .

وفي معناه قول إبراهيم بن أدهم رحمه الله : الإخلاص صدق النية مع الله تعالىٰ .

وقيل لسهل التُّستَري : **أي شيء أشد على النفس ؟ فقال : الإخلاص ؛ إذ ليس لها فيه نصيب** . انتهىٰ [« الإحياء » ٤/٣٧٦ـ٣٨١] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : هـٰذا الجواب الذي أجاب به سهل التستري رحمه الله فيه سر خفي شريف ، ومعنىً غامض لطيف ، سأذكره قريباً إن شاء الله تعالىٰ .

وقال رويم : الإخلاص : هو ألا يريد صاحبه عليه عوضاً في الدارين ، وهـٰذا قريب مما أجاب به سهل ، أو هو هو ؛ فإن حظوظ النفس من الآفات ، سواء أكانت عاجلة أم آجلة ، إذ العامل لأجل الشهوات في الجنة لاحظ الحظوظ الآجلة ، كما سنبين ذلك إن شاء الله تعالىٰ .

وقال أبو عثمان المغربي قدس الله روحه : الإخلاص : ما ليس للنفس فيه حظ بحال ، وهـٰذا إخلاص العوام ، أما إخلاص الخواص : فهو ما يجري عليهم لا بهم ، فتبدو منهم الطاعات من غير رؤية منهم لها ، كأنهم عنها بمعزل ، ولا يقع لهم عليها رؤية ولا بها اعتداد .

وقال يحيى بن معاذ الرازي : الإخلاص : تمييز العمل من العيوب كتمييز اللبن من بين الفرث والدم .

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله : ترك العمل لأجل الناس رياء ، والعمل لأجل الناس شرك ، والإخلاص : أن يعافيك الله منهما .

وقال بعضهم : هو دوام المراقبة ، ونسيان الحظوظ كلها .

وقال الإمام أبو حامد الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : وهـٰذا أجمع الأقوال وأقربها إلى التحقيق ، والأقوال في هـٰذا كثيرة ولا فائدة في تكثير النقل بعد انكشاف الحقيقة[1] .

وقالت فاطمة النيسابورية رحمها الله : مَن عمل علىٰ رؤية المشاهدة له جل جلاله . . فهو عارف ، ومَن عمل علىٰ مشاهدة الحق عز وجل إياه . . فهو مخلص .

وقال بعضهم : المخلص : هو الذي يرىٰ عظيم منة الله عز وجل عليه في الإخلاص أكبر من الإخلاص حتىٰ يغرق إخلاصه في المنة .

والله سبحانه أعلم

* * *

---

(١) الإحياء (٤/ ٣٨٢) .

الفصل الثالث
في مراتب المخلصين

ومراتبهم مختلفة بحسب إخلاصهم .

المرتبة الأولىٰ ـ وهي أعلاها ـ : إخلاص الخواص : وهم الذين يأتون بالعبادات على الوجه المأمور به ، وقد علم الله سبحانه وتعالىٰ منهم أنهم ليس لهم مقصود ولا هَمٌّ في الدارين إلا هو سبحانه وتعالىٰ ، من ابتغاء رضوانه ، والنظر إلىٰ وجهه الكريم عز وجل ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ .

ومن تتبع أحوال الصحابة والتابعين وتابعيهم رضوان الله عليهم أجمعين . . وجدها علىٰ ذلك ، وأنهم قد اكتالوا من ذلك بالمكيال الأوفىٰ ، وحازوا منه النصيب الأوفر ، ألا ترىٰ إلىٰ قول أبي سليمان الداراني رحمه الله حين سئل عن أقرب ما يتقرب به العبد إلىٰ ربه عز وجل ، فبكىٰ وقال : مثلي يُسأل عن هـٰذا ؟! أفضل ما يتقرب به العبد إلىٰ ربه عز وجل : أن يطلع علىٰ قلبك وأنت لا تريد من الدنيا والآخرة شيئاً غيره سبحانه وتعالىٰ .

وقال أبو سليمان أيضاً : لو لم يكن لأهل المعرفة إلا هـٰذه الآية الكريمة . . لاكتفوا بها وافتخروا بها كل الفخار : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ ، وأي شيء أراد أهل المعرفة ؟ واللهِ ؛ ما أرادوا إلا ما أراده النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، وهو رؤية الله عز وجل .

وقال يحيى بن معاذ : خرج الزاهدون من الدنيا بِداء لا يشفيهم إلا دخول الجنة ، وخرج العارفون من الدنيا بِداء لا يَشفيهم إلا رؤيته سبحانه وتعالىٰ .

وقد قال إبراهيم بن أدهم لرجل : ما ترىٰ غاية العابدين من الله عز وجل في أنفسهم ؟ فقال : أظن سكنى الجنة ، فقال إبراهيم : لقد ظننتَ ظناً ، واللهِ ؛ إني لأرىٰ أكبر الأمر عندهم ألاَّ يعرض بوجهه الكريم عنهم سبحانه وتعالىٰ .

وقد قال أبو سليمان الداراني : أرجو أن أكون قد رزقت من الرضا طرفاً ؛ فإنه لو أدخلني النار . . لكنت بذلك راضياً .

وقد قال غير واحد من العارفين : لو أدخلني الله عز وجل النار . . لكنت أشدَّ رضاً مِن بعض مَن هو في الجِنان .

وقد سئل أبو الحسين النوري عن الرضا ، فقال : عن وجْدي تسألوني ، أو عن وجْد الخلائق ؟ فقيل له : عن وجدك ، فقال : لو كنت في الدرك الأسفل من النار . . لكنت أرضىٰ ممن هو في الفردوس .

وقال سهل التستري : قال العارفون : ليس خوفنا من نار جهنم ولا رجاؤنا للحور العين ، إنما خوفنا من الحِجاب ، ومطلبنا لقاء الله عز وجل .

وقد جاء أن بعض أهل الجنة لو حجب عن رؤيته عز وجل . . لاستغاث من الجنة كما يستغيث أهل النار من النار .

وقد حكىٰ غير واحد عن أحمد بن خضرويه أنه قال : رأيت رب العزة جل جلاله في النوم ، فقال : (يا أحمد ؛ كل الناس يطلبون مني إلا أبو يزيد ؛ فإنه يطلبني) .

وقد قال بعض أصحاب معروف : رأيت معروفاً الكرخي في المنام بعد موته كأنه واقف تحت العرش يهتز ، والله عز وجل يقول لملائكته : (مَن هـٰذا ؟) فقالت الملائكة عليهم السلام : تباركْتَ ربنا وتعاليت ، أنت أعلم ، هـٰذا معروف ، سكر من حبك فلا يفيق إلا بلقائك ؛ فإنه لم يعبدك شوقاً إلى الجنة ولا خوفاً من النار ، وإنما عبدك لذاتك وابتغاء مرضاتك جل جلالك .

وقال بعضهم : رأيت الشبلي رحمه الله في المنام بعد موته ، فقلت له : ما فعل الله عز وجل بك ؟ قال : غفر لي ، فقلت له : هل عوتبت علىٰ شيء ؟ قال : نعم ؛ عوتبت علىٰ قولي : أي خسارة أعظم ممن خسر دخول الجنة ؟ قال : فقال لي الحق جل جلاله : (لا خسران أعظم ممن خسر لقائي) .

وقد حكىٰ غير واحد عن أبي القاسم الجنيد أنه قال : كنت نائماً عند السري ، قال : فأنبهني ، وقال لي : يا جنيد ؛ الساعة رأيت كأني واقف بين يدي الله عز وجل ، فقال لي : (يا سري) فقلت : لبيك ربنا وسعديك ، فقال لي : (خلقت الخلق ، فكلهم ادعوا محبتي ، فخلقت الدنيا ، فهرب مني تسعة أعشارهم وبقي معي العشر ، فخلقت الجنة ، فهرب مني تسعة أعشار العشر وبقي معي عشر العشر ، فسلطت عليهم ذرة من البلاء ، فهرب تسعة أعشار ذلك العشر ، فقلت للباقين معي : لا للدنيا أردتم ، ولا للجنة أخذتم ، ولا من البلاء هربتم ، فماذا تريدون ؟ فقالوا : وعزتك وجلالك ؛ إنك لتعلم ما نريد ، فقلت لهم : فإني مسلط عليكم من البلاء بعدد أنفاسكم ما لا تقوم له الجبال الرواسي ، فقالوا : إذا كنت

أنت المبتلي لنا . . فافعل ما شئت[1] ، فهـٰؤلاء عبادي حقاً) . انتهىٰ .

كل ذلك محافظة على ابتغاء رضوان الله والنظر إلىٰ وجهه الكريم ، وأنهم لا يريدون عوضاً ، وليس مقصودهم ولا همُّهُم إلا الله رب العالمين .

ثم قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : هـٰذه الرؤيا مما أكرم الله عز وجل بها وليه سريّاً السقطي رحمه الله ، وقد دل الكتاب والسنة علىٰ صحتها مِن حيث الإجمال ، ويمكن أن تدخل تحت قوله صلى الله عليه وسلم من حيث التفصيل .

بيان ذلك : أنه قد رُوِّينا في « صحيح البخاري » [٤٤٦٤] عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن أول من يدعا يوم القيامة . . آدم ، فيقول الله عز وجل : يا آدم ؛ أخرج بعث جهنم من ذريتك ، فيقول : يا رب ؛ وما بعث النار ؟ فيقول : أخرج من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعين إلى النار وواحداً إلى الجنة »[2] .

وجه دخول رؤيا السري تحت هـٰذا الحديث يظهر بالمثال ؛ فإنه لما خلق الله عز وجل الخلق كلهم . . ادعوا المحبة ، فخلق الدنيا ، فهرب تسعة أعشارهم ، مثاله : هرب من كل ألف تسع مئة ، فبقي مئة ، فخلق الجنة ، فطلبها تسعة أعشارهم وهم تسعون ، بقي عشرة ، فسلط عليهم ذرة من البلاء ، فهرب تسعة أعشارهم وهم تسعة ، فلم يبق سوىٰ واحد .

فإن قلت : الحديث دل علىٰ بعث أهل النار وبعث أهل الجنة ، وكلامُنا إنما هو فيمن عمل لا خوفاً من النار ولا شوقاً إلى الجنة .

قلت : هـٰذا صحيح ولا منافاة فيه ؛ فإن مَن حصل له المقام الأعظم وعمل لأجله . . لا يمتنع عليه حصول ما هو دونه ؛ لكونه لم يعمل له ، فإن العامل لابتغاء الرضوان ورؤية الرحمـٰن جل جلاله يدخل الجنة برحمة الله وإن لم يعمل لأجلها ؛ فإن مقصوده كان أعظم المقاصد ، ولا أكبر منه مقصوداً .

---

(١) إن لله عز وجل عباداً عبدوه لا خوفاً من ناره ، ولا طمعاً في جنته سبحانه وتعالىٰ ، عبدوه فقط لأنه إلـٰه يستحق العبادة ، ولما كان سبحانه وتعالىٰ هم المقصود عندهم ولا شيء غيره . . هان وطاب ولذ كل ما يأتي من قِبَلِهِ سبحانه وتعالىٰ ، ولأولياء الله رضي الله عنهم كلام في هـٰذا الموضوع يَعذُب ، وإشارات عجيبة ، وأحوال غريبة ، وحسبنا في هـٰذا المقام قول الإمام ابن عطاء الله رحمه الله : ليخفف ألم البلاء عنك . . علمك بأنه سبحانه وتعالىٰ هو المبلي لك ؛ فالذي واجهتك منه الأقدار . . هو الذي عودك حسن الاختيار .

(٢) أخرجه البخاري في عدة مواضع مع اختلاف بسيط في الألفاظ عما ذكره المؤلف رحمه الله .

وسنذكر تحقيق ذلك إن شاء الله تعالىٰ .

وقد قال الحارث بن أسد المحاسبي : بلغني أن الحسن رحمه الله قال : أوحى الله عز وجل إلىٰ إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام : (يا إبراهيم ؛ إنك خليلي ، فاحذر أن أطلع عليك فأجد قلبك مشغولاً بغيري ، فإنما أختار لخِلَّتي من لو ألقي في النار وهو في ذِكري . . لم يجد لمسِّ النار ألماً ، ومن لو أدخل الجنة ورآها قد زخرفت وزينت بِحورِها وما فيها من النعيم . . لم يرها بغيته ، ولا اشتغل بها عن ذِكري ، فإذا كان كذلك . . تواترت عليه ألطافي ، وقربته مني ، ووهبت له محبتي ، ومَن وهبت له محبتي . . فقد استمسك بحبلي ، فأي نعمة تعدل ذلك ؟ وأي شرف أشرف منه ؟ فوعزتي وجلالي ؛ لأُرينه وجهي ، ولأشفين صدره من النظر إلي) .

وقال بعض العارفين : إذا اطَّلع الخبير سبحانه وتعالىٰ على الضمير ، فلم ير فيه غير الخبير . . جعل فيه سراجاً منيراً .

ومَن تأمل أحوال العارفين وسِيَرهم رضوان الله عليهم أجمعين . . علم يقيناً أنه ليس شيء أحب إليهم ولا أعظم في صدورهم من لقاء الله عز وجل ، ألا ترىٰ إلىٰ ما حكي عن غير واحد ، منهم أبو سعيد الخراز قدس الله روحه ، قيل للجنيد : إن أبا سعيد الخراز كان كثير التواجد عند الموت ، فقال الجنيد : ليس ذاك بعجب أن تطير روحه اشتياقاً إلىٰ لقاء الله عز وجل .

وقد قيل للنوري وهو محتضر : هل تشتهي شيئاً ؟ فرفع رأسه وقد انكسر لسانه ، وقال : إي والله ؛ شهوة كبيرة ، رؤيةَ الله عز وجل ، ثم تنفس نفساً عالياً كالمتواجد ، وفارق الدنيا .

وسئل بعضهم ، فقيل له : هل طالت بك الأيام والليالي بالشوق إلىٰ لقاء الله ؟ فسكت ، ثم جاء إلىٰ رابعة العدوية رحمها الله ، فقال لها : إني سُئلت عن شيء ، فسكتُّ ولم أدر ما أقول ، سُئلت : هل طالت بك الأيام والليالي بالشوق إلىٰ لقاء الله عز وجل ؟ قال : فسمعت تخريق قميصها من وراء الحجاب ، وهي تقول : إي والله ، إي والله ، قد طالت ، قد طالت .

ولهٰذا قالوا : دخل رجل على الشبلي ، فقال له : أي الصبر أشد على الصابرين ؟ فقال : الصبر في الله ؟ قال : لا ، قال : فالصبر لله ؟ قال : لا ، قال : فالصبر مع الله ؟

قال : لا ، قال الشبلي : فأيش ؟ قال : الصبر عن الله ، قال : فصرخ الشبلي صرخة كادت روحه تتلف ، فلما أفاق . . أنشد :

الصبر يجملُ في المواطن كلِّها إلا عليك فإنه لا يجملُ

وقال بعضهم : حِبَّ الله سبحانه وتعالىٰ شوقاً إلىٰ لقائه ؛ فإن له يوماً يتجلىٰ فيه لأحبابه .

وبالجملة : مَن تأمل الكتاب والسنة وأحوال الصحابة والتابعين وتابعيهم رضوان الله عليهم . . وجدها علىٰ ما ذكرناه .

ومقصود العارفين في الدنيا ـ معرفتُه جل جلاله وعبادته ، ومقصودهم في الآخرة ـ ابتغاءُ رضوانه والنظر إلىٰ وجهه الكريم .

ولمَّا علم الله عز وجل من عباده ما أرادوا بعبادته ، وهو الذي وفقهم وأعطاهم . . أنعم عليهم بنعم لا تتناهىٰ ، ولا يطلع غالب الخلق علىٰ أُولاها فضلاً عن منتهاها ، ثم إن تلك النعم منها ما هو عاجل ومنها ما هو آجل .

أما النعم العاجلة :

فمنها : استغراقهم بالمشاهدة عما قطعهم عن طبعهم وعادتهم ، فلم يشعروا بما يجري علىٰ أبدانهم ولا بما حواليهم ، وحتىٰ إنهم من شدة استغراقهم لعظيم المشاهدة لا يشعرون أيضاً بما في محاريبهم ، ويكون أحدهم قد صلىٰ فيه عشرين سنة وأكثر ، وكل ذلك لاستيلاء سلطان الهيبة والعظمة والاحترام علىٰ قلوبهم ، وما هم فيه مستغرقون من لذة المشاهدة وعظيم المراقبة .

وأرباب المراقبة في ذلك علىٰ حالين :

أعظمهما : مَن كان الغالب عليه مشاهدة الحق جل جلاله ، فكأنه يراه ، ولعل النبي صلى الله عليه وسلم أشار إلىٰ هـٰذه الحالة بقوله صلى الله عليه وسلم : « وجعلت قرة عيني في الصلاة »[1] ؛ لأنه مُشاهد للحق جل جلاله ، ولا شيء أقر لعينه صلى الله عليه وسلم من ذلك ، وأنه هو المراد أيضاً بقوله صلى الله عليه وسلم : « أن تعبد الله كأنك تراه »[2] .

وثانيهما : لا ينتهي إلىٰ هـٰذه المرتبة ، لـٰكن يغلب علىٰ حاله أن الحق جل جلاله مطلع

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ١٧٤) .

(٢) أخرجه البخاري (٥٠) ، ومسلم (٨) .

عليه ، ومشاهد له ، وأنه يراه ، وإليه الإشارة بقوله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ وبقوله تعالىٰ : ﴿ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ وبقوله صلى الله عليه وسلم : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه . . فإنه يراك » ، فأشار صلى الله عليه وسلم إلى الحالين ، ورغَّب أمته في الاجتهاد علىٰ أن تقع عبادتهم على المرتبة الأولىٰ ، فإن لم يقدروا . . فيجتهدوا علىٰ أن تقع على المرتبة الثانية .

وهٰكذا كان الصحابة والتابعون ومن بعدهم رضوان الله عليهم أجمعين ، ألا ترىٰ إلىٰ ما روي عن سعد بن معاذ رضي الله عنه أنه قال : ثلاث أنا فيهن قوي وما سواهن ضعيف :

ـ ما صليت صلاة منذ أسلمت فحدثت نفسي [بغيرها] حتىٰ أفرغ منها .

ـ ولا تبعت جنازة فحدثت نفسي بغير ما هي قائلة وما هو مقول لها حتىٰ يفرغ من دفنها .

ـ وما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول قولاً . . إلا علمت أنه حق .

فقال ابن المسيب رحمه الله : ما ظننت أن هٰذه الخصال تجتمع إلا في النبي صلى الله عليه وسلم .

وقد روي عن زين العابدين رحمه الله أنه كان في صلاة ، وأن النار وقعت قريباً منه ، فجعلوا يصيحون : يابن رسول الله ؛ النار ، يابن رسول الله ؛ النار ، وهو لا يلتفت ، بل ولا يشعر ، فلما فرغ من الصلاة . . سألوه عن ذلك ، وأخبروه بوقوع النار ، فقال : ما شعرت ، فقيل له : ما الذي ألهاك عنها ؟ قال : النار الأخرىٰ .

وكان بعض العارفين يقول : ما أحسب أن أحداً يكون في الصلاة فيقع في سمعه غير ما يخاطبه الله عز وجل به .

وقد قال أحمد بن سعيد الدارمي : صلىٰ أبو زرعة في مسجده عشرين سَنة ، فلما كان في بعض الأيام . . قدِم عليه قوم من أصحاب الحديث ، فنظروا ، فوجدوا في المحراب الذي كان يصلي فيه كتابة ، فقالوا : ما تقول في الكتابة في المحاريب ؟ فقال : قد كرهه قوم ممن مضىٰ ، فقالوا له : هٰذا في محرابك كتابة ، أما علمت بها ؟ فقال : سبحان الله! رجل يدخل على الله عز وجل ويقف بين يديه جل جلاله ، فهل يدري ما قدَّامَه ؟!

وكان أبو عثمان الحِيري إذا دخل في الصلاة . . لا يشعر ولا يحس بشيء من كلام أو صياح أو غيره .

ومنها : التلذذ بمجرد المعرفة لله عز وجل ، والتلذذ بمناجاته ، لا سيما حال الوقوف بين يدي الله سبحانه وتعالىٰ .

وقد قال أبو سليمان الداراني رحمه الله : لو لم يبك العاقل فيما بقي من عمره إلا علىٰ لذة ما فاته مِن الطاعة فيما مضىٰ . . لكان ينبغي له أن يبكي حتىٰ يموت .

وقد قال يحيى بن معاذ الرازي : إن العبد علىٰ قدر حبه لله عز وجل يحببه إلىٰ خلقه ، وعلىٰ قدر توقيره لأمره يوقره خلقه ، وعلىٰ قدر التشاغل بعبادته يعظمه في صدور عباده ، وعلىٰ قدر سكون قلبه علىٰ ما وعده الله سبحانه وتعالىٰ به يطيب له عيشه ، وعلىٰ قدر حلاوته لعبادته واستلذاذه بها يجد ما كان يأمل منه ، وعلىٰ قدر ذِكره يديم عليه ألطاف بره ، وعلىٰ قدر استيحاشه من خلقه يكون أنسه به ، واللهِ ؛ لو لم يحصل للعبد من الثواب علىٰ أعماله إلا ما عجل له في دنياه . . لكان كثيراً ، فكيف بما يصير إليه من جزيل ثواب وعظيم عطاء إلىٰ ما لا يحيط به الوصف مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر علىٰ قلب بشر ؟!

وقال أبو القاسم الجنيد : إن الله عز وجل يعطي القلوب من بره بحسَب ما أخلصت له القلوب في ذِكره سبحانه وتعالىٰ .

ومنها : ما يشاهدونه من رَوح النعيم عند الأسحار في تهجدهم ، وهـٰذا أخص من الأول ، وهو سر لطيف لا يمكن التعبير عنه ، ولهـٰذا قال العارفون : ليس في الدنيا نعيم يشبه نعيم أهل الجنة إلا ما يحل على الأولياء في الأسحار .

وقد قال بعضهم : كابدت الصلاة عشرين سنة ، وتنعمت بها عشرين سنة ، فعبادته عز وجل في الدنيا هي قرة أعين المخلصين ، ومنتهىٰ بغية المتقين ، ولولاها . . لَمَا اختاروا المقام في الدنيا ولا طرفة عين ، لا سيما الصحابة والتابعون وتابعوهم رضوان الله عليهم .

ألا ترىٰ إلىٰ ما روي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه كان يقول عند الاحتضار : (اللهم ؛ إنك تعلم أني لم أكن أحب البقاء في الدنيا لكَرْيِ[1] الأنهار ، ولا لغرس الأشجار ، ولـٰكن لظمأ الهواجر ، ومكابدة الساعات ، ومزاحمة العلماء بالرُّكَب عند حِلَق الذِّكر) .

وكان أبو الدرداء رضي الله عنه يقول : (لولا ثلاث ما أحببت البقاء : وضع جبهتي في

---

(١) **كري الأنهار** : حفرها .

السجود في الليل والنهار ، وظمأ الهواجر ، ومجالَسة أقوام يبتغون العلم لله عز وجل) .

وقد قال أبو سليمان الداراني ومَن قبله : إن أهل الطاعة في ليلهم أشد لذة من أهل اللهو في لهوهم ، ولولا الليل . . لَمَا أحببت البقاء في الدنيا .

وكان بعض العارفين يقول : إذا دخل وقت الإفطار . . أحسست بأن روحي تخرج أسفاً علىٰ ما يفوتني من لذة الذِّكر وحلاوة العبادة لله عز وجل .

وقد قالوا : لمَّا احتضرت معاذة العدوية . . بكت ، ثم ضحكت ، فقيل لها : مم بكيت ؟ ومم ضحكت ؟ فقالت : أما البكاء : فإني والله ذكرت مفارقة الصلاة والصيام والذِّكر ، فكان البكاء لذلك[1] .

ومنها : ما يشاهدونه من عظيم المنة لله عز وجل عليهم في العبادة حتىٰ تغرق عبادتهم في المنة ؛ لأنهم قد عرفوا أن الطاعات إن كانت من الفرائض . . فلله عز وجل عليهم فيها أعظم المنن ، وإن كانت من النوافل . . فالمنة فيها عظيمة أيضاً ؛ إذ أعطاهم ما يقربهم إليه ، ووفقهم لأعمال يحببهم بها إليه .

ألا ترىٰ إلىٰ قول بعض العارفين ، وهو أبو الحسين محمد بن سمعون قدس الله روحه ، قال : بلغني أن الله عز وجل يقول : (يا عبدي ؛ أكرمتك لَمَّا أمرتك ، وصنتك لما نهيتك ، فأمري لك كرامة ، ونهيي لك صيانة ، كلفتك الصلاة ، ولعلمي بتوانيك لم أجعل لها وقتاً واحداً ، جعلت لها أولاً وآخراً ، وأنت تقول : الوقت واسع ، متى اتسع الوقت علىٰ عاقل ؟ أما علمت أن الوقت على العقلاء أضيق من خرم الإبرة ؟! تهتم لنفسك حتىٰ كأني لست مولاك ، وتدع الاهتمام بأمري حتىٰ كأني لست مطالبك ، أما علمت أني أعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ؟!) .

وقال يحيى بن معاذ : لو لم يكن للعارفين إلا إقدارهم علىٰ هاتين النعمتين : متىٰ ما شاؤوا ذكروه ، ومهما رجعوا إليه قبلهم ووجدوه . . لكان يحق عليهم ألاَّ يخالفوه سبحانه وتعالىٰ .

وكان بعض العارفين يقول : مَن مثلك يا بن آدم وقد خلي بينك وبين المحراب ، تقف بين يدي الله عز وجل متىٰ شئت ، ثم يبكي ، ويقول : فرَّق الموت بين المصلين وبين

---

(١) وتتمة الخبر من « الصفوة » (٤/ ١٤) : (. . . وأما الذي رأيتم من تبسمي وضحكي . . فإني نظرت إلىٰ أبي الصهباء قد أقبل في صحن الدار وعليه حلتان خضراوان ، فضحكت إليه) .

الصلاة ، وبين الصائمين وبين الصيام ، ويذكر أنواعاً من العبادة .

ومنها : أمر آخر لطيف ، وتحته سر شريف ، وهو شهودهم العبودية ، واستغراقهم ببعض ما يجب للربوبية ، ويرون أن نسبتهم إلى العبودية هي أعظم مما يفتخرون به وينتمون إليه ، حتىٰ إن بعض العارفين قال : كل الناس يفرون من الحساب وأنا أتمناه ، فقيل له : ولِمَ ذاك ؟ قال : لعله سبحانه وتعالىٰ أن يقول لي في خلال خطابه : يا عبدي ؛ فقوله سبحانه وتعالىٰ : (يا عبدي) . . أحب إلي من الدنيا وما فيها .

وقد روي أن داوود الطائي قال : رأيت ولياً من أولياء الله سبحانه وتعالىٰ ، فقلت له : ما غاية بلوغ محبة الله عز وجل من قلبك ؟ فقال : لو جعل حساب الخلق كلهم معي . . لسرني ذلك ورغبت فيه ، فقلت : ولِمَ ذاك ؟ فقال : يا داوود ؛ وهل للعبد مقام أشرف من العبودية ، وهو واقف بين يدي مولاه ومالكه ـ رب العالمين جل جلاله ـ وهو يشاهده ويخاطبه ؟ والله ؛ إن ذلك عندي من أشرف الدرجات ؛ فإن في وقوفه بين يديه عز وجل تغيُّباً عن نفسه وحسه ، ويبقىٰ بلا نفس ولا هوىٰ ولا أعراض ، بل متفكراً في ميدان العظمة والجلال ، والجليل جل جلاله يفعل ما يشاء .

وقد قال الشبلي : كل الناس يفرُّون من الحساب وأنا أتمناه ، فقيل له في ذلك ، فقال : أليس حبيبي ومالكي رب العالمين جلت عظمته مخاطبي ؟ فقد يقول لي : (يا عبدي) ما ألذ كلام الحبيب الرحيم ، ولو بالأمر إلىٰ نار الجحيم ، وكفىٰ بالعبودية شرفاً وفخراً أنَّ الله عز وجل قال لسيد المرسلين وحبيب رب العالمين محمد صلى الله عليه وسلم في أفخر مقاماته : ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ .

ولهـٰذا قال العارفون : لا مقام أعلىٰ من العبودية .

ومنها : أنهم في حال إتيانهم بالعبادة يعلمون أن قيامهم وإتيانهم بالعبادة إنما كان بالله عز وجل بحسب ما وفقهم وأعطاهم ؛ فإن العباد ليس لهم أعمال في الحقيقة ؛ إذ الأفعال لله خلقاً وللعبد كسباً ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ ، فلو عاش العبد عمر الدنيا وقام علىٰ جفون عينيه في عبادة ربه عز وجل . . لَمَا قضىٰ ما يجب عليه ، ولكان في التقصير منغمساً .

ومنها : ما اقتضاه الكرَم العظيم والفضل العميم ، وهو سر لطيف ، ومعنىً غامض

شريف ، ينبغي أن تلمحه ببصيرتك ، وهو : أنهم يعلمون أن الله عز وجل بلطفه وكرمه أنعم علىٰ عباده ـ بعد الإيمان الذي هو أعظم النعم ـ بأن شرع لهم أنواع العبادات ، وأهَّلَهُم لفعلها ، ولولا ذلك . . لكان قَدْرُ العبد أقل وأحقر من أن يقف بين يديه عز وجل ويناجيه ، فكان ذلك من أجَلِّ النعم وأكبر السعادات .

ثم بعد أن شرع لهم ذلك . . وفق من شاء لفعلها ، والتوفيق عزيز ، ولعزته لم يرد في القرآن العظيم إلا في موضع واحد ؛ قال تعالىٰ : ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ ، ثم حببها إليهم وأقدرهم علىٰ فعلها ، ولولا إقداره وعطاؤه عز وجل . . لَمَا قدر عبد أن يتحرك بذرة ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ ، ثم يثيبهم علىٰ ما هو من فعله وعطائه ، فانظر إلىٰ هـٰذا الكرَم العظيم والفضل العميم ، فسبحان خالق الحياء والكرم .

وقد روي أن أيوب عليه الصلاة والسلام قال : يا رب ؛ وعزتك وجلالك إنك لتعلم أني منذ ثمانين سَنة ما حضرني شيء فيه رضاك وهواي . . إلا آثرت رضاك علىٰ هواي ، قال : فنودي من غمامة من عشرة آلاف صوت : يا أيوب ؛ مَن فعل ذلك بك ؟ قال : فوضع التراب علىٰ رأسه ، ثم قال : أنت يا رب .

وقال الحارث بن أسد المحاسبي : بلغني أن الله عز وجل قال لداوود عليه الصلاة والسلام : (يا داوود ؛ إذا رأيت لي طالباً . . فكن له محباً ، يا داوود ؛ لأن يخرج عبد من عبيدي علىٰ يديك من سكرة الدنيا حتىٰ تستنقذه من سكر ما هو فيه ، فإن فعلت ذلك . . سميتك عندي جهبذاً ، ومن كان جهبذاً . . لم تكن به فاقة ولا وحشة إلىٰ أحد) فقال داوود عليه الصلاة والسلام : يا رب ؛ أعطني ذلك وارزقنيه ؛ فإنه لا وصول إلىٰ شيء إلا بعطائك جل جلالك .

وقد قال أبو سليمان الداراني ومَن قبله : كيف يعجب العاقل بعمله وإنما عمله عطية من الله عز وجل ونعمة منه على العبد يجب عليه الشكر فيها ؟! ولا يقدر أن يقوم به أبداً ؛ لأن التوفيق للشكر نعمة يجب عليها شكر ، وهـٰكذا أبداً ويؤدي ذلك إلىٰ ما لا يتناهىٰ ، فسبحان مَن نعمه لا تحد ولا تحصىٰ .

وقد قال أبو سليمان الداراني رحمه الله وقد سئل : بمَ تُنال معرفته سبحانه وتعالىٰ ؟ فقال : بطاعته ، فقيل له : وبمَ تُنال طاعته ؟ فقال : به سبحانه وتعالىٰ .

وقد قال أبو عثمان الحِيري رحمه الله : الذِّكر الكبير أن تذكر الله في سرك ، وتعلم يقيناً أنك لا تصل إلىٰ ذِكره ولا إلىٰ شيء من الطاعات إلا بعطائه سبحانه وتعالىٰ .

وقال أبو يزيد البسطامي رحمه الله : خصصتَ رجالاً وأكرمتهم ، فأطاعوك فيما أمرتهم ، ولم يبلغوا ذلك إلا بك ، فكأن رحمتك إياهم قبل طاعتهم لك ، جل جلالك ما أعلىٰ شأنك وأعظم سلطانك .

وقال أحمد ابن أبي الحواري : سمعت جعفراً الحَذَّاء يقول : سمعت فضيلاً يقول : ما اشتد عجبي قط من عبادة ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، ولا ولي من الأولياء ؛ لأن الله عز وجل هو الذي أعطاهم ووفقهم وألهمهم وأقدرهم ، ولو أراد أن يعطيهم أكثر من ذلك . . لفعل ، سبحانه وتعالىٰ ، وقد قامت الأدلة والبراهين علىٰ أن الذين أطاعوه . . به أطاعوه ، ولله عز وجل عليهم في تلك الطاعات أعظم المنن ، وأن الذين عصوه . . به عصوه ، ولله عليهم في ذلك الحجة البالغة .

هـٰذا ما تيسر في الإشارة إلىٰ بعض النعم العاجلة .

وأما النعم الآجلة : فهي مما لا يحيط بها وصف الواصفين ولا ينتهي إلىٰ معرفتها العارفون ، وفيما عرف منها يتنافس المتنافسون ، ولـٰكن لا بد من الإشارة إلىٰ ما هو أعظمها وأرفعها ، وهو ما لأجْله عمل المتقون ، وبه يتنعم المخلصون ، وهو ما رُوِّيناه في « صحيح البخاري » [٧٠٨٠] في باب كلام الرب سبحانه وتعالىٰ مع أهل الجنة ، قال : وحدثنا يحيى بن سليمان ، حدثني ابن وهب قال : حدثني مالك ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله يقول لأهل الجنة : (يا أهل الجنة) فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، والخير في يديك ، فيقول : (هل رضيتم ؟) فيقولون : وما لنا لا نرضىٰ وقد أعطيتنا ما لم تُعطِ أحداً من خلقك ، فيقول : (ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟) فيقولون : يا رب ؛ وأي شيء أفضلُ من ذلك ؟ فيقول : (أُحِل عليكم رضواني ، فلا أسخط عليكم [بعده] أبداً . . . » الحديث .

فقد صرح فيه وفي غيره من الأحاديث بأنهم ما أُعطُوا شيئاً أحب إليهم من حلول الرضوان والنظر إلىٰ وجهه الكريم سبحانه وتعالىٰ .

وهـٰذا هو الذي كان مقصودهم ، ولا أكبر منه مقصود ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ ، فلا سعادة أعظم من سعادة مَن حل عليه ذلك ، ولا خسران أعظم من فواته ،

أسأل الله العظيم رب العرش العظيم ، وأتوسل إليه بمحمد سيد المرسلين صلى الله عليه ، وعلىٰ سائر النبيين ، وآل كل وسائر الصالحين ، وسلم تسليماً كثيراً . . أن يرزقنا ذلك بفضله وكرمه ، وأن يوفقنا لطاعته ، ويجعلنا من أحبابه وأهل خاصته ، وأن يتوفانا علىٰ محبتهم ، ويجمع بيننا وبينهم في دار كرامته بمَنِّه وكرمه ، إنه ذو الفضل العظيم .

ومنها : ما قد دل عليه الكرم العظيم والأدلة والبراهين ، وهو رفع الدرجات ، والتمتع في الجنة بالشهوات ، وهـٰذا وإن لم يكن مقصودهم بالعبادة . . فكرم الله عز وجل أعظم من ألا يعطيهم ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر علىٰ قلب بشر ؛ فإنه سبحانه وتعالىٰ يعطيهم ما هو أعظم من ذلك وأكبر ، وهو حلول الرضوان والنظر إلىٰ وجهه الكريم كما مر بيانه ، فمُحال أن يمنعهم ما دون ذلك ، وهم في دخولهم الجنة وتمتعهم بالشهوات ممتثلون مؤتمِرون أمره سبحانه وتعالىٰ ؛ فإن أمره عز وجل واحد في المنشط والمكره ، والامتثال فيهما واحد ، فقد كانوا في الدنيا وليس لهم هَمٌّ ولا مقصود إلا الله سبحانه وتعالىٰ ، والمسارعة إلى امتثال أوامره .

وهـٰكذا في الجنة ، ليس مقصودهم إلا هو يرون امتثال أمر المنعم جل جلاله أكبر من التنعم بالنعمة وأعظم ، وغاية ما فيها من الفرق ارتفاع التكليف فقط ، وإشارات العارفين كلهم إلىٰ ذلك .

ألا ترىٰ إلىٰ قول أحمد ابن أبي الحواري حيث قال : إن نعيم أهل الجنة برضوان الله سبحانه وتعالىٰ أكبر وأفضل من نعيمهم بما في الجنان ؟!

وهـٰذا أمر واضح غني عن البيان ؛ إذ قد تقدَّم ما ثبت في « الصحيح » ، من أن أهل الجنة لم يُعطَوا شيئاً أحب إليهم من حلول رضوانه عليهم ونظرهم إلىٰ وجهه الكريم ، وكفىٰ بذلك دليلاً قاطعاً وبرهاناً ساطعاً ، ولا شك أن مقصودهم وهِمَّتَهم في الدنيا إنما كان هو الله رب العالمين جل جلاله وابتغاء رضوانه .

ألا ترىٰ إلىٰ قول بعض العارفين : تعلق الناس بالأسباب ، وتعلق الصديقون بمسبب الأسباب سبحانه وتعالىٰ ؟! وحتىٰ إنهم لو أدخلهم النار . . لا يغيب همهم عنه سبحانه وتعالىٰ .

وأبلغ من ذلك قول بعضهم حيث قال : إن أدنىٰ مراتب الأنس بالله عز وجل : أن لو ألقاه في النار . . لا يغيب هَمُّه ولا مأموله منه سبحانه وتعالىٰ .

وإذا كان هـٰذا حالهم في الدنيا . . أفتُراهم يخطر ببالهم غير الله عز وجل في الآخرة ، أو يتغير حالهم عند مشاهدة ما كانوا يأملونه في العقبىٰ ؟ هيهات هيهات! هـٰذا مُحالٌ في القياس بديع .

وقد آن إنجاز ما كنت وعدت به من إبراز ما في جواب سهل التُّستَري رحمه الله من الحُسن واللطافة ، حيث قال : الإخلاص : ما ليس للنفس فيه حظ .

فاعلم : أن الحظوظ ثلاثة : عاجل ، وآجل ، والآجل : متعارف ، وغير متعارف .

أما العاجل : فهو الدنيوي ، ومِن حقه ألاَّ يُذكر ؛ لأنه ليس مما نحن فيه في شيء ، وإنما ذكرناه لضرورة التقسيم .

وأماالآجل : فهو الأخروي ، وهو قسمان : متعارف ، وغير متعارف .

فأما المتعارف : فهو الذي يَعُدُّه أكثر الناس ويسمونه حظاً ، وعمل غالب الخلق عليه ، وهو رفع الدرجات ، والتمتع بالشهوات في الجنة ، والنجاة من النار ، والعامل لذلك قاصد للعِوَض ، وهو قصد صحيح ؛ إذ هو عمل علىٰ ما وعد الله تعالىٰ عباده الأبرار في الآخرة ، وصاحبه مخلص بالإضافة إلىٰ طلب الحظوظ العاجلة ، ولا يقدح ذلك في إخلاصه بالاتفاق ، وإن كان نازلاً عن درجة صاحب الإخلاص المطلق ، فلما كان هـٰذا هو الحظ المطلوب المتعارَف عندهم . . أطلقوا الحظ عليه وسلبوه عما سواه .

وقد ورد : « أكثر أهل الجنة البُلْه ، وعلِّيُّون : لذوي الألباب »[1] ، حيث رضوا من الحق بدون الحق جل جلاله .

وأما غير المتعارف : وهو حلول الرضوان والنظر إلىٰ وجهه الكريم ، فهـٰذا لا يسمونه حظاً ؛ لعزة العمل عليه ، ولعدم تعارفه بينهم ، وإن كان في الحقيقة هو الحظ الأعظم والنصيب الأوفر الأجزل ، والعاملون لأجل هـٰذا هم الذين يعبَّر عنهم بأنهم هم الذين لا يريدون عوضاً في الدارين ، وهم صفوة الخلق ، وإخلاصهم يسمىٰ : الإخلاص المطلق .

إذا عرفت ذلك . . فحيث وجدت في كلام الأئمة بأن المخلص هو الذي لا يريد عوضاً في الدارين . . فمعناه هـٰذا ، وهو أنه لا يريد عوضاً متعارفاً يعده أكثر الناس عوضاً ، وليس

---

(١) أخرج الشطر الأول منه البيهقي في « الشعب » ، والمراد من البله في الحديث : الذين سلمت صدورهم من الناس ، وغلبت عليهم الغفلة من الشر ، وطبعوا على الخير .

المراد نفي العوض بالكلية ، إنما المراد نفي العوض المتعارَف ، علىٰ ما صرح به غير واحد مِن العارفين ، منهم : أبو حامد الغزالي ـ قَدَّس الله روحه ـ حيث قال :

القوم إنما أرادوا البراءة مما يسميه الناس حظوظاً ، وهو الشهوات الموصوفة في الجنة فقط ، وأما التلذذ بمجرد المعرفة والمناجاة والنظر إلىٰ وجهه الكريم . . فهو أعظم الحظوظ وأوفر الأنصباء ، ولـٰكن غالب الناس لا يسمونه حظاً . [انتهىٰ « الإحياء » ٤/ ٣٨١] .

فقولُ سهل التُّستريّ : (ليس للنفس فيه حظٌّ) أي : حظٌّ متعارَف يعدُّه أكثر الناس حظّاً .

وينشأ من هـٰذا الجواب تعريف آخر للإخلاص ، فيقال : الإخلاص : ما ليس للنفس فيه حظ متعارَف يَعُدُّه أكثر الناس حظاً ، والله أعلم .

المرتبة الثانية والثالثة : العاملون للرغبة والرهبة : وهما يجتمعان في شيء ويفترقان في شيء .

فاجتماعهما : أن كلاً منهما عَمِل لله عز وجل ، لـٰكن إجابةً لباعث الرجاء والخوف ؛ ليحصل له الحظ الآجل الموعود في الآخرة من الفوز بالجنة ، والتمتع بالشهوات ، والنجاةِ من النار ، وهـٰذا قصد صحيح ، والعامل لأجله مخلص بالاتفاق كما تقدم ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ .

وافتراقهما : من حيث إن أحدهما عَمِلَ إجابة لباعث الرجاء من الرغبة في الدرجات والتمتع بالشهوات ، وهو عمل على الموعود في الآخرة ، وهو من جنس المألوفات في الدنيا ، وأغلب البواعث باعث البطن والفرج ، وموضع قضاء وطَرِهما في الجنة ، لـٰكن قال العارفون : إن العامل لأجل ذلك كالأَجير السوء ، ولهـٰذا ورد : أن أكثر أهل الجنة البُلْه ، حيث رضوا من الحق بدون الحق جل جلاله .

وأما الآخَر : فإنه عَمِل إجابةً لباعث الخوف ، وهو قصد النجاة من النار ، وهو قصد صحيح كما تقدم ، والعامل عليه مخلص بالاتفاق ، بالإضافة إلىٰ صاحب الغرض العاجل ، لـٰكنه ـ مع ذلك ـ نازل عن درجة صاحب الإخلاص المطلق .

ولهـٰذا قال العارفون : إن الله عز وجل وصف عباده فقال : ﴿ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ .

ثم قالوا : إن العباد في عباداتهم محتاجون إلىٰ طلب العفو عما وقع لهم من التقصير اللازم ، والغفلة الغالبة ، والإخلال بما يجب عليهم من تعظيم حرمات الله في الوقوف بين

يديه جل جلاله ، فكيف يعلق بقلوبهم مع ذلك تطلُّب مجازاة من دخول جنة أو نجاة من نار ؟! تالله ؛ إن ذلك لا يمر بقلوبهم ، وإنما قصدهم التجاوز والعفو عن تقصيرهم فيها .

ألا ترىٰ إلىٰ قول بعض العارفين : إن لم تخش أن يعذبك الله علىٰ أحسن أعمالك . . فأنت هالك .

وقول بعضهم : ربما أصلي ركعتين فأنصرف منهما بمنزلة المنصرف من السرقة ؛ حياء من الله عز وجل من التقصير والغفلة ، وكان إذا فرغ يقول : اللهم ؛ اغفر لي ما وقع فيها من التقصير والغفلة والإخلال ، كأنه قد جنىٰ جناية أو ذنباً ، ومشارب القوم مختلفة ، والله تعالىٰ عند قصدهم لا عند حاصلهم .

وما أحسن ما قال معروف الكرخي رحمه الله : إن قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار ، وإن قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد ، وإن قوماً عبدوه لا رغبة ولا رهبة فتلك عبادة الأحرار ، فأشار إلى المراتب الثلاثة في هـٰذه الكلمات الوجيزة .

* * *

الفصل الرابع
في بيان درجات الشوائب والآفات المكدرة للإخلاص

والآفات المشوِّشة بعضها جلي وبعضها خفي ، ومراتبها تتفاوت ، ويظهر ذلك بالمثال .

وأكثر مشوشات الإخلاص إنما هو الرياء ، مثاله : أن يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب إلى الله عز وجل ، أو يعتق رقبة ليتخلص من مؤنته وسوء خلقه ، أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر ، أو ليخلص من شيء يعرض له في بلده ، أو ليهرب من أعدائه ، أو تبرم بأهله وولده فأراد أن يستريح أياماً ، أو يغزو ليمارس الحروب ، أو يصلي بالليل وله غرض في دفع النعاس عنه ليراقب رَحلَهُ أو أهله ، أو يتعلم العلم ليحصل له ما يكفيه من المال ، أو ليكون عزيزاً بين العشيرة ، أو ليكون عقاره وأمواله محروسة بعز العلم ، أو اشتغل بالدرس والوعظ عن كرب الصمت[1] ويتلذذ بالعلم ، أو تكفل بخدمة العلماء والفقراء لتكون حرمته وافرة عندهم ، أو لينال به رفقاً في الدنيا ، أو كتب مصحفاً ليجوِّدَ خطه بالمواظبة على الكتابة ، أو حج ماشياً ليُخفِّف عن نفسه الأجرة ، أو توضأ لينظف

---

(١) كرب الصمت : ثقله وشدته .

ويتبرد ، أو اغتسل ليطيب رائحته ، أو روى الأحاديث ليعرف بعُلُوِّ الإسناد ، أو اعتكف لتَخِفَّ عليه أجرة المسكن ، أو صام ليُخفِّف عن نفسه الاشتغال بالطبخ ، أو ليتفرغ لأشغاله ، أو تصدق على السائل ليدفع إبرامه في السؤال عن نفسه ، أو عاد مريضاً ليعاد إذا مرض ، أو فعل شيئاً من أبواب الخير ليُعرف به ويذكر ويُنظَر إليه بعين الصلاح والوقار .

فمهما كان باعثه هو التقرب إلى الله تعالىٰ ، ولٰكن انضاف إليه خطرة من هٰذه الخطرات ، وصار العمل عليه ـ بسبب هٰذه الأمور ـ أخف وأيسر . . فقد خرج عمله عن حد الإخلاص ، وخرج عن أن يسمىٰ مخلصاً ، وتطرق إليه نوع من الشرك ، وقد وردَ أنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول : (أَنا أغنى الشُّركاءِ عن الشِّرك) .

وبالجملة : فكل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس ويميل إليه القلب ، قليلاً كان أو كثيراً ، إذا تطرق إلى العمل . . تكدر به صفوه ، وزال به إخلاصه .

وهٰذه الحظوظ إن كانت هي الباعثة وحدها . . فلا يخفىٰ شدة الأمر علىٰ صاحبها ، وهو معرَّض للهلاك ، وليس لنا الآن غرض في الكلام فيه ؛ إذ ليس هٰذا موضع ذِكره .

وأقل أموره : ما ورد : أن المرائي يدعىٰ يوم القيامة بأربعة أسماء : يا مرائي ، يا مخادع ، يا مشرك ، يا كافر ، وإنما نتكلم الآن فيما إذا كان القصد الأصلي التقرب إلى الله تعالىٰ ، وانضافت إليه هٰذه الأمور ، وهي إما أن تكون في رتبة الموافقة ، أو في رتبة المشاركة ، أو في رتبة المعاونة ، وذلك لأَنَّ الباعث النفسي إما أن يكون مثل الباعث الديني ، أو أقوىٰ منه ، أو أضعف ، ولكل واحد حكم سنذكره إن شاء الله تعالىٰ .

فالإخلاص : تخليص العمل عن هٰذه الشوائب حتىٰ يتجرد فيه قصد القربة ، فلا يكون فيه باعث سواه ، مثاله : أجر المصلي ، مهما كان مخلصاً في صلاته . . فقد يدخل علىٰ إخلاصه الآفة وهو لا يشعر ، وذلك من وجوه :

الأول : إذا دخل في الصلاة ، ثم نظر إليه جماعة ، أو دخل إليه إنسان ، فيقول له الشيطان : حَسِّن صلاتك حتىٰ ينظر إليك هٰذا الحاضر بعين الوقار والصلاح ولا يزدريك ولا يغتابك ، فتخشع جوارحه ، وتسكن أطرافه ، وتحسن صلاته ، وهٰذا هو الرياء الظاهر ، ولا يخفىٰ ذلك على المبتدئين .

الوجه الثاني : أن يكون الإنسان قد فهم هٰذه الآفة وأخذ حذره منها ، فصار لا يطيع الشيطان فيها ولا يلتفت إليه ، ويستمر في صلاته كما كان ، فيأتيه في معرض الخير ، ويقول

له : أنت متبوع ومقتدىً بك ومنظور إليك ، وما تفعله يؤثَرُ عنك ، ويقتدي بك غيرك ، فيكون لك ثواب أعمالهم إن أحسنت ، وعليك الوزر إن أسأت ، فأحسن صلاتك ، فعسىٰ أن يُقتدىٰ بك في الخشوع وفي تحسين العبادة ، وهـٰذا أغمَض من الأول ، وقد ينخدع به مَن لا ينخدع بالأول ، وهو أيضاً عين الرياء ومبطل للإخلاص ؛ فإن الخشوع وحسن العبادة ينبغي أن يكون لازماً له في الخلوة ، لا أنه يوجد عند وجود مَن يراه ، والمقتدىٰ به هو الذي استقام في نفسه ، واستنار قلبه ، فانتشر نوره إلىٰ غيره .

فأما هـٰذا : فهو محض النفاق والتلبيس ، فمَن اقتدىٰ به . . أثيب عليه ، وأما هو : فيطالَب بتلبيسه ، ويعاقَب علىٰ إظهاره من نفسه ما ليس متصفاً به .

الوجه الثالث : وهو أدق مما قبله ، وهو أن يحدث العبد نفسه في ذلك ، ويتنبه لكيد الشيطان ، ويعلم أن الإخلاص في أن تكون صلاته في الخلوة مثل صلاته في الملأ ، ويستحيي من الله تعالىٰ أن يحسن صلاته لأجل مخلوق ، فيُقبل علىٰ نفسه في الخلوة ، ويحسن صلاته على الوجه الذي يرتضيه في الملأ ، ويصلي في الملأ كذلك ، فهـٰذا أيضاً من الرياء الغامض ؛ لأنه حسَّن صلاته في الخلوة لتحسن في الملأ ، فكان التحسين لأجل المخلوق ، وهو مبطل للإخلاص أيضاً ، والإخلاص أن تكون مشاهدة البهائم لصلاته ومشاهدة الخلق علىٰ وتيرة واحدة .

فكأن هـٰذا لا تسمح نفسه بإساءة الصلاة في الملأ ثم يستحيي من نفسه أن يكون في صورة المرائين ، ويظن أن ذلك يزول بأن تستوي صلاته في الخلاء والملأ .

وهيهات! إن ذلك لا يزول بهـٰذا ، وإنما طريق الزوال أن يقطع نظره عن الخلق ولا يلتفت إليهم ، كما لا يلتفت إلى الجمادات في الخلاء والملأ جميعاً ، وإلا . . فهـٰذا شخص مشغول الهَمِّ في الخلاء والملأ جميعاً ، وهـٰذا من المكائد الخفية للشيطان .

الوجه الرابع : أدق وأخفىٰ ، وهو : أن يكون قد تنبه لهـٰذه الدقائق وأخذ حذره منها ، فيقول له : تفكَّرْ في عظمة الله وجلاله ومن أنت واقف بين يديه ، واستحيي من أن ينظر الله عز وجل إلىٰ قلبك وأنت غافل عنه ، فيحضر العبد قلبه ، ويجمع جوارحه ، ويظن أن ذلك عين الإخلاص ، وهو عين المكر والخداع ؛ فإن خشوعه لو كان لله عز وجل . . لكانت هـٰذه الخطرة تلازمه في الخلاء والملأ مهما كان في الصلاة .

وعلامة الأمن من هـٰذه الآفة : أن يكون هـٰذا الخاطر مما يألفه في الخلوة كما يألفه في

الملأ ، ولا يكون حضور الغير هو السبب في حضور هـٰذا الخاطر ، كما لا يكون حضور البهيمة سبباً ، فما دام يفرق في أحواله بين مشاهدة إنسان ومشاهدة بهيمة . . فهو بعدُ ما وصل إلىٰ صفو الإخلاص ، وباطنُه مدنس بالشرك الخفي من الرياء ، والشرك أخفىٰ في قلب ابن آدم من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء كما ورد به الخبر .

ولا يسلَمُ من الشيطان إلا من دق نظره ، وسعد بعصمة الله سبحانه وتعالىٰ وتوفيقه وهدايته ، وإلا . . فالشيطان ملازم للمتشمرين في العبادة لا يغفل عنهم لحظة حتىٰ يحملهم على الرياء في كل حركة من الحركات ، حتىٰ في كحل العين ، وقص الشارب ، وطيب يوم الجمعة ، ولبس الثياب ؛ فإن هـٰذه سنن في أوقات مخصوصة ، وللنفس فيها حظ خفي ؛ لارتباط نظر الخلق بها ، ولاستئناس الطبع بها ، فيدعوه الشيطان إلىٰ فعل ذلك ، ويقول : هـٰذه سُنة لا ينبغي أن تتركها ، ويكون انبعاث القلب لها في الباطن لأجل تلك الشهوات الخفية ، أو مشوبة بها شوباً يخرج عن حد الإخلاص بسببها .

وكل ما لم يسلَمْ من هـٰذه الآفات كلها لا يكون خالصاً ، فإن مَن يعتكف في مسجد معمور نظيف يأنس الطبع به . . فالشيطان يرغبه فيه ويكثر عليه من فضائل الاعتكاف ، ويكون الباعث الخفي في سره هو الأنس بحسن صورة المسجد واستراحة الطبع ، ويتبين ذلك بميله إلىٰ أحد المسجدين إذا كان أحدهما أحسن من الآخر .

وكل ذلك امتزاج بشوائب الطبع وكدورات النفس ، ومبطل لحقيقة الإخلاص ، ولا شك أن الغش الذي يمتزج بالذهب درجاته متفاوتة ، **فمنها** : ما يغلب ، **ومنها** : ما يقل ولـٰكن يسهل دركه ، **ومنها** : ما يدق عن معرفته بحيث لا يدركه إلا الناقد البصير ، ودغل[1] الشيطان وخبث النفس أغمض من ذلك وأدق كثيراً .

ولهـٰذا قيل : ركعتان من رجل عالم . . أفضل من عبادة سَنة من جاهل ، وأريد بالعالم : العالم البصير بدِينه وبدقائق آفات الأعمال حتىٰ يخلص عنها ؛ فإن الجاهل نظره إلىٰ ظاهر العبادة والاغترار بها كنظر السوادي[2] إلىٰ حمرة الدينار المموَّه واستدارته ، وهو مغشوش زائف في نفسه ، وقيراط من الخالص الذي يرتضيه الناقد البصير خير من دينار يرتضيه الغِر الغبي .

---

(١) **الدَّغَلُ** : الفساد .

(٢) **السوادي** : القوري .

فهـٰكذا يتفاوت أمر العبادة بل أشد وأعظم .

ومداخل الآفات المتطرقة إلىٰ فنون الأعمال لا يمكن حصرها وإحصاؤها ، فلنقنع بما ذكرناه مثالاً ، والفَطِن يغنيه القليل عن الكثير ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

* * *

الفصل الخامس

في بيان حكم العمل المشوب بالرياء

اعلم : أن العمل إذا لم يكن خالصاً . . فقد اختلف العلماء رضي الله عنهم فيه ، هل هو صحيح ، أو لا ؟

وإذا قيل به . . فهل يقتضي ثواباً ، أو لا يقتضي ثواباً ولا عقاباً ، أو يقتضي عقاباً ؟

والكلام إنما هو في المشوب بالرياء ، والذي أَدِينُ الله عز وجل به عدم الصحة فيه ، وقد ذهب إلىٰ ذلك بعض الأئمة من أصحاب الشافعي رحمه الله ، حكاه عنه الشيخ العالم الرباني محيي الدين النووي قدس الله روحه في « شرحه لمسلم » ، وهو الذي تقتضيه الأدلة الشرعية علىٰ ما سيأتي بيانه ، ويُدانُ اللهُ عز وجل به ، ولـٰكن الراجح عند الأكثرين : الصحة ؛ لأنهم يرون أنه ليس بين التحريم والصحة ملازَمةٌ ، وقد أشبعت القول في هـٰذه المسألة في تصنيف آخر قبل هـٰذا .

ملخص ما أذكره هـٰهنا هو أن يقال : إن العمل المشوب بالرياء هل يقتضي ثواباً ، أو لا ؟

اعلم : أنه قد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الثلاثة الذين يكون أول قضاء الله عز وجل عليهم يوم القيامة أن الله تعالىٰ يقول لكل واحد منهم : (كذبت ، إنما أردت أن يقال : فلان كذا ، وقد قيل ، اذهبوا به إلى النار)[1] .

وقد ثبت بالكتاب والسُّنة : أن كل عمل يمكن أن يراد به وجه الله عز وجل . . فإنه إذا لم يُعمل لمجرد التقرب إليه سبحانه وتعالىٰ وابتغاء رضوانه . . لا يستحق ثواباً .

ثم فيه تفصيل ، وهو : أنه إن كان فرضاً ، وأراد به فاعله الفرض فأداه بنية الفرض ، ليقول الناس : إنه فعل كذا لا لطلب رضوان الله واتقاء سخطه . . سقط عنه الفرض ، ولم

---

(١) أخرجه بنحوه مسلم (١٩٠٥) .

يعاقب في الآخرة عقوبة التارك له ، ولـٰكنه لا يستوجب ثواباً ، إنما ثوابه ثناء الناس عليه في الدنيا بما فعل .

وإن كان تطوعاً ، وفعلَه لوجوه الناس لا لوجه الله سبحانه وحده . . حبط أجره ، ولم يحصل من عمله علىٰ شيء ، بخلاف الأول ، حيث حصل منه علىٰ سقوط الفرض عنه ، ثم إن حالهما يحتمل أمرين :

أحدهما : أنه مع كونه لا يثاب . . يعاقب علىٰ ذلك ، يدل عليه ظاهر قوله صلى الله عليه وسلم [عن رب العزة جل جلاله] : « اذهبوا به إلى النار » ، فهو إخبار بأن المرائي يعاقَب علىٰ عُدولِهِ عن قصدِهِ وجهَ الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ قصده وجوه الناس ؛ لأنه كالبائع لثواب الله بمحمدتهم ، فلا يتقاصر ذلك عن بعض الذنوب الموجبة للعقاب .

وثانيهما : أنه لا يعاقب ولا يثاب ، ويكون ـ علىٰ هـٰذا ـ معنى الحديث : أن العمل الذي أتىٰ به علىٰ وجه الرياء لا ينفعه ، ولا يثقل به ميزانه ، وقوله : (اذهبوا به إلى النار) ؛ أي : بمعاصيه ، لا أنه يعاقب على الرياء بالنار ، إنما عقوبة الرياء إحباط العمل فقط ؛ لأن المرائي أراد بعمله حمد الناس ، فإذا أُحيل عليهم . . فقد جوزي بصنيعه ؛ فإن جميع ما صدر عنه سِيَّانِ ، فعلُه الذي لم يخل عن كونه عبادة لله ـ إذ لو أراد به عبادة غير الله . . لكفر ـ وقصدُه لمدح الناس لا لثواب الله ، والأول ليس بذنب ، والثاني قصاراه ألاَّ يثاب ، ويكون جزاؤه علىٰ هـٰذا مدح الناس ، وهـٰذا احتمال ضعيف .

فإن قيل : لو لم يشتغل الناس به ولامدحوه بل ولا علموا به أنه فعل خيراً أو شراً . . **فالجواب** : أنه لا يؤجر بشيء لا عاجل ولا آجل ، وإنما هـٰذا رجل خسر الدنيا والآخرة ، نسأل الله العافية .

ويشبه أن يكون من عذاب الآخرة أبعد ؛ لأن الله تعالىٰ لما صرف هَمَّ الناس عنه حتىٰ لم يحصل له منهم ما أراد . . كان من جملة العقوبة ، إذا كان ثناؤُهُم ـ إذا أثنوا عليه ـ هو جميع جزائه . . جاز أن يكون فوتُ ثنائهم عليه جميعَ عقوبته .

وجميع ما ذكرناه من الثواب والعقاب داخل تحت قوله صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات » والله أعلم .

وأما الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي ـ قدس الله روحه ـ فإنه قال : ظاهر الأخبار يدل علىٰ أنه لا ثواب فيه ، وليس تخلو الأخبار عن تعارض فيه ، والذي ينقدح لنا فيه ـ

والعلم عند الله ـ أن ننظر إلىٰ قدر قوة الباعث : فإن كان الباعث الديني مساوياً للباعث النفسي . . تقاوما وتساقطا ، وصار العمل لا له ولا عليه ، وإن كان باعث الرياء أغلب وأقوىٰ . . فهو ليس بنافع ، بل هو ـ مع ذلك ـ مضر ومفضٍ للعقاب ، نعم ، العقاب الذي فيه أخف من عقاب العمل الذي لمجرد الرياء .

وإن كان قَصْد التقرب أغلب بالإضافة إلى الباعث الآخر . . فله ثواب بقدر ما فضل من قوة الباعث الديني ، وهـٰذا لقوله تعالىٰ : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ .

فلا ينبغي أن يضيع قصد الخير ، بل إن كان غالباً علىٰ قصد الرياء . . حبط منه القدر الذي يساويه وبقيت زيادة ، وإن كان مغلوباً . . سقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسد ، وكشفُ الغطاء عن هـٰذا أن الأعمال تأثيرها في القلوب بتأكيد صفاتها ، فداعية الرياء من المهلكات ، وداعية الخير من المنجيات ، وإنما قوتها بالعمل علىٰ وفقها ، فإذا اجتمعت الصفتان في القلب . . فهما متضادتان .

فإذا عمل علىٰ وفق مقتضى الرياء . . فقد قوىٰ تلك الصفة .

وإذا عمل علىٰ وفق [مقتضىٰ] التقرب . . فقد قوىٰ أيضاً تلك الصفة .

فأحدهما مهلك والآخر منج ، فإن كان تقوية هـٰذا بقدر تقوية الآخر . . فقد تقاوما وتساقطا .

وإن كان أحدهما غالباً . . لم يخل الغالب عن أثر ، فكما لا يضيع مثقال ذرة من الطعام والشراب في الجسد ولا ينفك عن أثر بحكم سُنة الله تعالىٰ ، فكذلك لا يضيع مثقال ذرة من الخير والشر ، ولا ينفك عن تأثير في إنارة القلب وتسويده وتقريبه من الله وإبعاده .

فإذا جاء بما يقربه شبراً مع ما يبعده شبراً . . فقد عاد إلىٰ ما كان ، فلم يكن له ولا عليه ، وإن أتىٰ بما يقربه شبرين والآخر يبعده شبراً . . فضل له شبر .

وقال صلى الله عليه وسلم : « أتبع السيئة الحسنة تمحها »[1] ، فإذا كان الرياء المحض يمحوه الإخلاص المحض عقيبه : فإذا اجتمعا جميعاً . . فلا بد أن يتدافعا بالضرورة .

ويشهد لهـٰذا إجماع الأمة أَنَّ من خرج حاجاً ومعه تجارة . . صح حجه وأثيب عليه ، وقد امتزج بحجه حظ من حظوظ النفس .

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٨٧) .

نعم ؛ يمكن أن يقال : إنما يثاب علىٰ أعمال الحج عند انتهائه إلىٰ مكة ، وتجارته غير موقوفة عليه فهو خالص ، وإنما المشترك طول المسافة ، ولا ثواب فيه مهما قصد التجارة .

ولكن الصواب أن يقال : مهما كان الحج هو المحرك الأصلي وكان غرض التجارة كالمُعين والتابع . . فلا ينفك نفس السفر عن ثواب .

وأما الغزاة : فإن كان الباعث الأصلي والمزعج القوي هو إعلاء كلمة الله تعالىٰ والرغبة في الغنيمة علىٰ سبيل التبعية . . فلا يحبط بذلك الثواب .

نعم ؛ لا يساوي ثوابه ثواب من لا تلتفت نفسه إلى الغنيمة أصلاً ؛ فإن الالتفات نقصان لا محالة ، والله سبحانه أعلم . [انتهىٰ « الإحياء » ٤/ ٣٨٤ـ٣٨٥] .

وقوله : (**أقوم بالأمر**[1]) أي : أتوجه إليها بالإخلاص .

وقوله : بالأمر : كأنه أراد ـ والله أعلم ـ ما اشتمل عليه قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ ، وفيه إشارة إلىٰ أن العبد ينبغي أن يعرف أنه إنما قام بالله عز وجل ، فلا ينظر إلىٰ عمله ، إنما ينظر إلى الذي أقامه فيه ، وهو الله رب العالمين ، فينتفي من هـٰهنا العجب ورؤية النفس ، وقد دخل في قوله : أقوم بالأمر مجمل جميع ما يأتي تفصيله ، والله أعلم .

قوله : (**وأمشي بالخشية**[2]) فيه لطائف :

منها : أنه عدل عن قوله : أدخل فيها بالخشية إلىٰ قوله : وأمشي بالخشية ، إشارة منه إلىٰ أن خشية الله عز وجل ينبغي التلبس بها في جميع الأحوال ، وأنها لا تتقيد بحالة الصلاة فقط ، ولا شك أن الخشية رأس كل حكمة وخير ؛ فإنه ينشأ عنها أمور جليلة ومراتب رفيعة لا تكاد تنحصر ، فمنها : المراقبة ، ومنها : المحاسبة ، ومنها : الصبر ، ومنها : الرضا ، ومنها : التفكر في آلائه ونعمه والاستغراق فيما يجب من العظمة والكبرياء ، إلىٰ ما لا يتناهىٰ .

ومنها : أنه كلما ازدادت خشيته لله عز وجل . . عرف فاقة نفسه وحقارتها وذلتها ، حتىٰ ينزلها منزلتها من الذلة والافتقار ، فلا يرفع رأسه أبداً ، بل لا يزال كالعبد الآبق بين يدي

---

(١) بدأ بقوله : (أقوم بالأمر) بمعنىٰ أكون مخلصاً ؛ لأن الإخلاص مطلوب في كل عمل من الأعمال .

(٢) وثنّىٰ بـ(الخشية) لأنها مبدأ كثير من الفضائل .

مولاه ، لا سيما إذا دخل في عبادة كالصلاة مثلاً ؛ فإنه يدخلها بالذلة والانكسار مع دوام الخشية ، وكلما كانت خشيته أكبر . . كانت ذلته وفاقته أكثر .

وقد كان جَمْع من السلف رضوان الله عليهم إذا تطهروا للصلاة . . تغيرت ألوانهم ، وما ذاك إلا لاستيلاء سلطان الهيبة والعظمة في قلوبهم ، وشدة الخشية ، قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ ، فقد وصف الله عز وجل عباده المؤمنين بأنهم إذا ذكروا الله سبحانه وتعالىٰ . . وجلت قلوبهم .

وعَجَب لمَن ذَكر الله عز وجل علىٰ حد الحضور والاحترام ، كيف لا يتمزق قلبه ؟!!

ولهـٰذا قال الأستاذ أبو حفص النيسابوري رحمه الله : ما أظن أن مَن ذكر الله عز وجل علىٰ حد الحضور والاحترام يبقىٰ بعد ذِكره حياً إلا الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ؛ فإنهم مؤيدون بقوة النبوة ، والأولياء مؤيدون بقوة الولاية .

ومنها ـ وهو أعظم ما يثمر عن الخشية ـ : رضوان الله عز وجل عَنْهم ، وهو أعظم الأشياء على الإطلاق ، ولا شيء أكبر منه ؛ قال تعالىٰ : ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴾ .

قوله : (**وأَدخُل بالنية**) هـٰذا مع ما فيه من الإشارة إلىٰ أن صحة الأعمال موقوفة على النية ، فيه الإشارة إلىٰ أن معرفة الإخلاص مما يتوقف علىٰ معرفة النية ، فعلىٰ كل عبد أراد طاعة الله عز وجل أن يتعلم النية ؛ لتحصل له المعرفة ، ثم يصححها بالعمل بعد فهم الصدق والإخلاص اللذين هما وسيلتا العبد إلى النجاة والخلاص .

والكلام في النية في فصول[1] :

الفصل الأول
في بيان فضلها

قال الله تعالىٰ : ﴿ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾ ، فإرادة الإصلاح سبب في حصول التوفيق ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ ، إلىٰ غير ذلك من الآيات .

وأما الأحاديث : فأشهر من أن تذكر ، وأكثر من أن تحصر .

---

(١) انظر « الإحياء » (٤/ ٣٦٢) .

منها : « الأعمال بالنيات » .

ومنها : قوله صلى الله عليه وسلم : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا . . فهو في سبيل الله »[١] .

ومنها : « من هم بحسنة فلم يعملها . . كتبت له حسنة »[٢] .

ومنها : « إن الله لا ينظر إلىٰ صوركم ، وإنما ينظر إلىٰ قلوبكم وأعمالكم »[٣] ، وإنما نظر إلى القلوب ؛ لأنها محل النية .

ومنها : « إنما يقتتل المقتتلون علىٰ نياتهم ، فإذا التقى الصفَّان . . نزلت الملائكة ، فكتبوا الخلق علىٰ نياتهم » .

ومنها : « إن الملائكة تصعد بما عمل العبد من الحسنات في صحف مختمة ، فيقول الله عز وجل : ألقوا هـٰذه الصحيفة ؛ فإنه لم يُرِد بها وجهي ، ثم يقول تعالىٰ : اكتبوا كذا وكذا ، فتقول الملائكة : إنه لم يعمل ذلك ، فيقال لهم : إنه نواهُ »[٤] .

ومنها : « إن بـالمدينة أقواماً ماشهدنا مشهداً ، ولا قطعنا وادياً ، ولا أصابتنا مخمصة ، ولا أنفقنا نفقة . . إلا شاركونا في ذلك ، حبسهم العذر ، فشاركونا بالنية »[٥] .

ومنها : « نية المؤمن . . خير من عمله »[٦] .

ومنها : « من كانت الدنيا أكبرَ همِّه . . جعل الله فقره بين عينيه ، وفارقها أرغب ما يكون فيها ، ومَن كانت الآخرة نيته . . جعل الله غناه في قلبه ، وجمع عليه ضيعته ، وفارقها أزهد ما يكون فيها »[٧] .

وفي حديث : « يحشر الناس علىٰ نياتهم »[٨] .

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥٥) ، ومسلم (١٩٠٤) .
(٢) أخرجه البخاري (٦١٢٦) ، ومسلم (١٣٠) .
(٣) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) .
(٤) أخرج الجزء الأخير منه ابن رجب الحنبلي في « جامع العلوم والحكم » (٣٥٣) .
(٥) أخرجه بنحوه البخاري (٢٦٨٤) .
(٦) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٦/ ١٨٥) .
(٧) أخرجه بنحوه الترمذي (٢٤٦٥) ، وابن حبان (٦٨٠) .
(٨) أخرجه ابن ماجه (٤٢٣٠) .

وفي رواية أخرىٰ : « يبعث كل عبد علىٰ ما مات عليه »[1] .

وأما الآثار :

فمنها : ما كتب عمر بن الخطاب إلىٰ أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما : مَن خلصت نيته . . كفاه الله ما بينه وبين الناس .

وكتب سالم بن عبد الله بن عمر إلىٰ عمر بن عبد العزيز رحمهما الله : اعلم : أن عون الله عز وجل للعبد علىٰ قدر النية ، فمَن تمت نيته . . تم عون الله له ، وإن نقصت . . نقص بقَدْره .

وقال الحسن البصري رحمه الله : إنما خلد أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار بالنيات .

وقال بلال بن سعد رحمه الله : عماد الأعمال النيات ، فالعمل يفتقر إلى النية ؛ ليصير بها خيراً ، والنية لا تفتقر إلى العمل ؛ لأنها في نفسها خير .

وقال داوود الطائي رحمه الله : مَن كان أكبر هَمِّه التقوىٰ ؛ فلو تعلقت جميع جوارحه بالدنيا . . لردته نيته يوماً إلىٰ عمل صالح .

وقال سفيان الثوري رحمه الله : كانوا يتعلمون النية للعمل كما يتعلمون العمل .

وقال أيوب السختياني رحمه الله : تَخَلُّص النيات على العمال . . أشد عليهم من جميع الأعمال .

وقال بعض العلماء : اطلب النية للعمل قبل العمل ، وما دمت تنوي الخير . . فأنت بخير .

وقال بعض السلف رضوان الله عليهم : رُبَّ عمل صغير تعظمه النية ، ورب عمل كبير تصغره النية .

وكان الفضيل رحمه الله إذا قرأ قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ . . يبكي ، ويرددها ، ويقول : إنك إن بلوتنا . . فضحتنا وهتكت أستارنا .

* * *

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٧٨) .

الفصل الثاني

في بيان حقيقة النية

اعلم : أن النية والإرادة والقصد متواردة علىٰ معنىٰ واحد ، وهو حالة وَصِفَةٌ للقلب ، يكتنفها أمران : علم ، وعمل ، العلم يقدمه ؛ لأنه أصله وشرطه ، والعمل يتبعه ؛ لأنه ثمرته وفرعه ، وذلك لأن كل عمل ـ أعني : كل حركة وسكون ـ اختياري ؛ فإنه لا يتم إلا بثلاثة أمور : علم ، وإرادة ، وقدرة ؛ فإن الإنسان لا يريد ما لم يعلمه ؛ إذ قد علم أنه حيث لا شعور . . لا طلب ، فلا بد وأن يعلم ، ولا يعمل ما لم يرد ، فلا بد من إرادة .

ومعنى الإرادة : انبعاث القلب إلىٰ ما يراه موافقاً للغرض ، إما في الحال ، أو في المآل .

وإذا جزمت المعرفة بأن الشيء موافق ، ولا بد من فعله ، وسلمت عن معارضة باعث آخر صارف عنه . . انبعثت الإرادة ، وتحقق الميل ، فإذا انبعثت . . انتهضت القدرة لتحريك الأعضاء ، فالقدرة خادمة الإرادة ، والإرادة تابعة لحكم الاعتقاد والمعرفة .

فالنية عبارة عن الصفة المتوسطة ، وهي الإرادة ، وانبعاث النفس لحكم الرغبة هو الغرض المطلوب ، وهو الباعث ، والغرض الباعث هو المقصد المنْوِيُّ ، والانبعاث هو القصد والنية .

وانتهاض القدرة لخدمة الإرادة بتحريك الأعضاء هو العمل ، لٰكن انتهاض القدرة للعمل قد يكون بباعث واحد ، وقد يكون بباعثين اجتمعا في فعل واحد ، فإذا كان بباعثين . . فقد يكون كل واحد مستقلاً بإنهاض القدرة ، وقد يكون جزءاً للإنهاض ، وقد يكون أحدهما كافياً لولا الآخر ؛ لٰكن الغرض الآخر انتهض عاضداً له ومعاوناً ، فيخرج من هٰذا التقسيم أربعة أقسام ، فلنذكر لكل واحد مثالاً وَٱسْماً :

الأول : إذا كان الباعث وحده مستقلاً ؛ كما إذا هجم على الإنسان سبع فبمجرد ما رآه . . قام من موضعه ؛ فلا مزعج له إلا غرض الهرب من السبع ؛ لأنه لما رآه وعرفه ضارياً . . انبعثت نفسه إلى الهرب ورُكِّبت فيه القدرة ، فانتهضت القدرة عاملة بمقتضى الانبعاث ، فيقال : طالب الفرار من الأسد لم يقصد إلا ذلك ، وهٰذه النية تسمىٰ خالصة ، ويسمى

العمل بموجبها إخلاصاً ، بالإضافة إلى الغرض الباعث ، ومعناه : أنه قد خلص عن مشاركة باعث آخر ومماز جته .

الثاني : إذا اجتمع باعثان كل واحد مستقل بالإنهاض لو انفرد ، وهو أن يتعاون رجلان علىٰ حمل شيء بمقدار من القوة ، تلك القوة كافية في الحمل وموجودة في كل منهما ، لو انفرد . . لاستقل بالحمل ؛ لوجود تلك القوة فيه .

مثاله في غرضنا : من له قريب فقير ، فدفع إليه شيئاً لقرابته وفقره ، وهو يعلم أنه لو لم يكن فقيراً . . لكان يدفع إليه لمجرد القرابة ، ولو لم يكن قريباً . . لكان يدفع إليه لمجرد الفقر ، وعلم ذلك من نفسه بأن يحضره قريب غني فيدفع إليه ، وفقير أجنبي فيدفع إليه .

وهٰكذا مَن قال له الطبيب : اترك الطعام ، فصام يوم عرفة ، فهو يعلم أنه لولا يوم عرفة . . لكان تاركاً للطعام حمية ، ولولا الحمية . . لكان تاركاً لأجل الصوم .

وقد اجتمعا جميعاً ، فأقدم على الفعل ، فكان الباعث الثاني رفيق الأول ، فلنسم هٰذا : **مرافقة البواعث** .

الثالث : أن يكون كل منهما جزءاً فمجموعهما هو الباعث علىٰ إنهاض القدرة .

مثاله : أن يتعاون ضعيفان علىٰ حمل ما لا ينفرد به أحدهما .

ومثاله من غرضنا : أن يقصده قريبه الغني فلا يعطيه ، ويقصده الأجنبي الفقير فلا يعطيه ، ثم يقصده القريب الفقير فيعطيه ، فيكون انبعاث داعيته لمجموع الأمرين ، وهما القرابة والفقر .

وكذلك لو تصدق بين يدي الناس لغرض الثواب والثناء ، ويكون بحيث لو كان منفرداً . . لكان لا يبعث مجرد قصد الثواب على العطاء ، ولَمَّا اجتمعا . . أذنا بمجموعهما بتحريك القلب ، ولْنُسَمِّ هٰذا الجنس : **مشاركة** .

الرابع : أن يكون أحد الباعثين مستقلاً لو انفرد بنفسه ، والآخر لا يستقل ، ولٰكن لَمَّا انضاف إليه . . لم ينفك عن تأثيرٍ ما من الإعانة والتسهيل .

ومثاله : أن يتعاون قوي وضعيف علىٰ حمل شيء ، ولو انفرد القوي . . لاستقل ، ولو انفرد الضعيف . . لم يستقل ، لٰكن ذلك يسهل العمل ويؤثر في تحقيقه .

ومثاله في غرضنا : أن يكون له ورد من الصلاة ، وعادة في الصدقات ، فاتفق أن حضر

في وقتها جمع من الناس ، فصار الفعل أخف عليه بسبب مشاهدتهم ، وعلم من نفسه أنه لو كان منفرداً خالياً . . لَمَا تأخر عن أوراده وعادته .

وعلم أيضاً : أن عمله لو لم يكن طاعة . . لَمَا أتىٰ به لمجرد الرياء ، فهـٰذا شوب تطرق إلى النية ، ولْنُسَمِّ هـٰذا الجنس : **المعاونة** .

فالباعث الثاني إما أن يكون رفيقاً ، أو شريكاً ، أو معيناً ، وقد ذكرنا حكم ذلك في الإخلاص ، والغرض الآن بيان انقسام النيات .

فإن العمل تابع للباعث ، فلننسب الحكم إليه ، فلذلك قال صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات » لأنها تابعة لا حكم لها في نفسها ، وإنما الحكم للمتبوع .

وأما قوله صلى الله عليه وسلم : « نية المؤمن . . خير من عمله » . . فيحتمل وجوهاً :

أحدها : أن يقال : إن النية سر لا يطلع عليه إلا الله تعالىٰ ، والعمل ظاهر ، وفعل السر أفضل ، وهـٰذا صحيح ، وليس هو المراد ؛ لأنه لو نوىٰ أن يذكر الله عز وجل بقلبه ويتفكر في مصالح المسلمين ، فيقتضي عموم الحديث أن تكون نيته للتفكر ، خيراً من التفكر ، وليس كذلك .

وثانيها : أن يقال : إن النية تدوم إلىٰ آخر العمل ، والأعمال لا تدوم ، وهـٰذا ضعيف ؛ فإن ذلك ـ بعد تسليم صحته ـ يرجع معناه إلىٰ أن العمل الكثير خير من القليل ، وليس هو كذلك على الإطلاق ، فإن نية أعمال الصلاة قد لا تدوم إلا في لحظات معدودة ، والأعمال تدوم ، والعموم يقتضي أن تكون نيته خيراً من عمله .

وثالثها : أن يقال : إن النية بمجردها خير من العمل بمجرده بغير نية ، وهـٰذا صحيح ، ولـٰكن لا يجوز أن يكون هو المراد ؛ فإن العمل بلا نية على الغفلة لا خير فيه أصلاً ، والنية بمجردها خير ، وظاهر الترجيح يقتضي وجود الاشتراك في أصل الخير .

ورابعها : ما قاله سيدي الحسن البصري رحمه الله : إنما خُلِّد أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار بالنيات .

وبيان ذلك : أن نية المؤمن ما دام في الحياة . . لا يترك إيمانه ولا الأعمال الصالحة ، فإذا جاء الموت . . قطع عليه تلك الأعمال ، فجازاه الله عزَّ وجلَّ بتلك النية ، وأوجب له الخلود في الجنة ، وكذلك الكافر نيته ما دام حياً . . لا يرجع عن كفره ، فإذا مات . . قطع الموت عليه نيته ، فجوزي بالخلود في النار علىٰ تلك النية .

وخامسها ـ وهو الذي يقتضي كلام حجة الإسلام أبي حامد الغزالي قدس الله روحه ـ : ترجيحه ، وهو : أن نية الطاعة في نفسها خير ، وإن لم يقترن بها عمل الجوارح .

وأما الطاعات التي لا تتم إلا بنية وعمل . . فالخير مشترك بينهما ، وهو في جانب النية أرجح ؛ لأنه يتوقف صحةُ العمل أو كمالُه علىٰ وجودها فيه ، فهما عملان ، كل واحد منهما له أثر في المقصود ، ولٰكن أثر النية أكثر من أثر العمل ، فهي خير من العمل بهٰذا الاعتبار .

وأما سبب كونه خيراً ومرجحاً على العمل . . فلا يفهمه إلا من فهم مقصد الدِّين وطريقه ، فمَن قال : الخبز خير من الفالوذج . . فإنما يعني به : أنه خير بالإضافة إلىٰ مقصود القوت والاغتذاء ، ولا يفهم ذلك إلا من فهم أن للغذاء مقصداً ، وهو الصحة والبقاء ، وأن الأغذية مختلفة الآثار فيها ، وفهم أثر كل واحد منهما وقاس بعضها بالبعض ، فالطاعات غذاء القلوب ، والمقصود بقاؤها وشفاؤها وسلامتها في الآخرة ، وسعادتها وتنعمها بلقاء الله .

فالمقصد لذة السعادة بلقاء الله عز وجل فقط ، ولن يتنعم بلقاء الله إلا من مات محباً لله عارفاً بالله ، ولن يحبه إلا من عرفه ، ولن يأنس به إلا من طال فكره له .

والأنس[1] يحصل بدوام الذِّكر ، والمعرفة بدوام الفكر ، والمحبة تتبع المعرفة بالضرورة ، ولن يتفرغ القلب لدوام الذِّكر والفكر إلا إذا فرغ من شواغل الدنيا ، ولن يتفرغ من شواغلها إلا إذا قطع عنها شهواتها ، حتىٰ تصير مائلة إلى الخير مريدة له ، نافرة عن الشر مبغضة له ، وإنما يميل إلى الخيرات والطاعات إذا علم أن سعادته منوطة بها ، وإذا حصل الميل بالمعرفة . . فإنما يقوىٰ بالعمل بمقتضى الميل والمواظبة عليها .

ولن يتأكد ذلك إلا بالمواظبة علىٰ أعمال الطاعات وترك المعاصي بالجوارح ؛ لأن بين الجوارح وبين القلب علاقة أَنه يتأثر كل واحد منهما بالآخر ، فترى العضو إذا أصابته جراحة . . تألم بها القلب ، وترى القلب إذا تألم بعلمه بموت عزيز أو بهجوم أمر مخوف . . تأثرت به الأعضاء ، وارتعدت الفرائص ، وتغير اللون ؛ لأن القلب هو الأصل المتبوع ، وكأنه الأمير والراعي ، والجوارح كالخدم والرعايا والأتباع ، فالجوارح خادمة للقلب بتأكيد صفاتها فيه ، فالقلب هو المقصود ، والأعضاء آلات موصلة إلى المقصود ، ولذلك قال

---

(١) في نسخة : (والأمن) .

صلى الله عليه وسلم : « ألا وإن في الجسد مضغة ، إذا صلحت . . صلح الجسد كله ، وإذا فسدت . . فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب » .

وقال الله تعالىٰ : ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ .

وهو صفة القلب ، فمِن هـٰذا الوجه يجب لا محالة أن تكون أعمال القلب على الجملة أفضل من حركات الجوارح .

ثم يجب أن تكون النية من جملتها أفضل ؛ لأنها عبارة عن ميل القلب إلى الخير وإرادتِهِ له ، والغرض من الأعمال بالجوارح أن يتعود القلب إرادة الخير ، ويتأكد فيه الميل إلىٰ ذلك ؛ ليتفرغ من شهوات الدنيا ويُكِبَّ على الذِّكر والفكر ، فبالضرورة يكون خيراً بالإضافة إلى الغرض المطلوب .

فهـٰكذا ينبغي أن يُفهم تأثير الطاعات كلها ؛ إذ المطلوب منها تغيير القلوب وتبديل صفاتها فقط دون الجوارح ، فلا يُظَن أن في وضع الجبهة على الأرض غرضاً من حيث إنه جمع بين الجبهة والأرض ، بل من حيث إنه بحكم العادة يؤكد صفة التواضع في القلب ؛ فإن مَن وجد في نفسه تواضعاً فاستعان بأعضائه وصورها بصورة التواضع . . تأكد التواضع في قلبه ، ومَن وجد في قلبه رقة علىٰ يتيم : فإذا مسح رأسه وقَبَّله . . تأكدت الرقة في قلبه ، ولهـٰذا لم يكن العمل بغير نية مفيداً أصلاً ؛ لأن مَن يمسح رأس يتيم وهو غافل بقلبه ، أو ظان أنه يمسح ثوباً . . لم ينتشر من أعضائه أثر إلىٰ قلبه حتىٰ تتأكد الرقة فيه ، وكذلك من يسجد غافلاً وهو مشغول الهَمِّ بأغراض الدنيا . . لم ينتشر من جبهته ووضعها على الأرض أثر إلى القلب ليتأكد تواضعه ، فكان وجوده وعدمه سواء من حيث إنه لم يحصل له الغرض المطلوب ، وما ساوىٰ وجوده عدمه بالإضافة إلى الغرض المطلوب منه يسمىٰ باطلاً ، فيقال : العبادة بغير نية باطلة ، هـٰذا إذا فعل عن غفلة ، فإن قصد به رياء أو تعظيم شخص . . لم يكن وجوده كعدمه ، بل زاده شراً ؛ لأنه ما كفىٰ أنه لم يأت بالغرض المطلوب حتىٰ أتىٰ بما يفسد العمل أو يكدره ، وليس المقصود من إراقة دم القربان الدم واللحم ، إنما المقصود ميل القلب عن حب الدنيا وبذلها إيثاراً لوجه الله تعالىٰ ، وهـٰذه الصفة قد حصلت عند جزم النية والهِمَّة ، ولو عاق عن العمل عائق . . فـ ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ .

* * *

الفصل الثالث
في الأعمال المتعلقة بالنية

اعلم : أن الأعمال وإن انقسمت أقساماً كثيرة . . فهي ثلاثة أقسام : طاعات ، ومعاصي ، ومباحات .

القسم الأول : المعاصي : وهي لا تتغير عن موضوعاتها بالنية ، فلا ينبغي أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات » ، فيظن أن المعصية تنقلب طاعة بقصد الخير ، فهـٰذا غير صحيح ، بل قصدُ الخير بالشر علىٰ خلاف مقتضى الشرع . . شر آخر ، والخيرات إنما عرفت بالشرع ، فكيف يمكن أن يكون الشر خيراً ؟! ثم إنه إن قصد ذلك وهو عارف به . . فهو معاند ، نسأل الله العافية ، وإن جهله . . فهو عاص بجهله ؛ إذ طلب العلم فريضة علىٰ كل مسلم .

وقد قال سهل التستري رحمه الله : ما عصي الله عز وجل بمعصية أعظم من الجهل ، فقيل له : يا أبا محمد ؛ هل تعرف شيئاً أشد من الجهل ؟ قال : نعم ؛ الجهل بالجهل .

وهو كما قال ؛ لأن هـٰذا يسد باب التعلم بالكلية ، ولذلك قالوا : أفضل ما أطيع الله عز وجل به . . العلم ، ورأس العلم : العلم بالعلم ، كما أن رأس الجهل : الجهل بالجهل ، فإذاً : قوله صلى الله عليه وسلم : « الأعمال بالنيات » يختص من الأقسام الثلاثة بالطاعات والمباحات دون المعاصي[1] .

فإن الطاعة تنقلب معصية بالقصد ، والمباح ينقلب طاعة ومعصية بالقصد ، فأما المعصية : فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلاً .

---

(١) جاء في « أسرع الوسائل » : (أقول ـ أي الحبيب العلامة طاهر بن محمد بن هاشم ـ والله أعلم : إن النية تتعلق بما طلب الشارع فعله أو تركه من الأفعال والإرادات الاختيارية ، وسيأتي : أن النية لا تدخل تحت الاختيار ، فالذي طلبه الشارع في المعصية هو الترك ، فمَن دعته امرأة ذات حسن وجمال فتركها خشية لله عز وجل . . كان له من الثواب الجزيل ما وعد الله تعالىٰ علىٰ لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الترك هنا أمر اختياري متوفر حظ النفس فيه بخلاف ترك أكل نحو العذرة ، مما لا حظ للنفس فيه بحال لا تكاد تتحصل له في تركه نية ، والأمور التي أباحها الشرع سوَّىٰ فيها بين الإقدام والإحجام ، فمَن كان الباعث له على الإقدام عليها أو الإحجام عنها أمر طلبه الشارع . . أثيب عليه بحسب نيته ، ومتىٰ كان الإقدام أو الإحجام بمقتضى الطبع . . فلا له ولا عليه) انتهىٰ .

نعم ؛ للنية مدخل فيها ، وهو أنه إذا انضاف إليها قصود خبيثة . . تضاعف وزرها وعظُم وبالها ، وقد ذكرنا ذلك في باب التوبة .

القسم الثاني : الطاعات : وهي مرتبطة بالنيات في أصل صحتها وفي تضاعف فضلها .

أما الأصل . . فهو أن ينوي بها عبادة الله عز وجل لا غير ، فإن نوى الرياء . . صارت معصية .

وأما تضاعف الفضل[1] . . فبكثرة النيات [الحسنة] ؛ فإن الطاعة الواحدة يمكن أن ينوي بها خيرات كثيرة ، فيكون له بكل نية ثواب ؛ إذ كل واحد منها حسنة ، ثم تضاعف كل حسنة عشرَ أمثالها ، كما ورد في الخبر[2] .

ومثاله : القعود في المسجد ؛ فإنه طاعة ويمكن أن ينوي فيه نيات كثيرة ، حتىٰ يصير به من فضائل أعمال المتقين ، ويبلغ به درجة المقربين .

فمنها : أن يعتقد أنه بيت الله عز وجل ، وأن داخله زائر لله تعالىٰ ، فيقصد به زيارة الله عز وجل رجاء لما وعد به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث قال : « من قعد في المسجد . . فقد زار الله تعالىٰ ، وحق على المزور أن يكرم زائره »[3] .

ومنها : أن ينتظر الصلاة بعد الصلاة ، فيدخل في معنىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ وَرَابِطُواْ ﴾ .

ومنها : الاعتكاف ؛ فإن الاعتكاف كَفٌّ ، وهو في معنى الصوم .

ومنها : أن يقصد إفادة علم ؛ فإن المسجد لا يخلو عمن يسيء صلاته ، أو يتعاطىٰ ما لا يحل له ، فيأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر ويرشده إلى الدِّين ، فيكون شريكاً معه في الخير .

ومنها : عكوف الهَمِّ على الله تعالىٰ ، ولزوم السر ، والتفكر في الآخرة ، ودفع الشواغل الصارفة عن الآخرة .

---

(١) في النسخ : (العمل) ولعل الصواب ما أثبت .

(٢) روىٰ مسلم (٢٦٨٧) عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله عز وجل : من جاء بالحسنة . . فله عشر أمثالها وأَزْيَد ، ومن جاء بالسيئة . . فجزاؤه سيئة مثلها أو أغفر ، ومن تقرب مني شبراً . . تقربت منه ذراعاً ، ومن تقرب مني ذراعاً . . تقربت منه باعاً ، ومن أتاني يمشي . . أتيته هرولةً ، ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئاً . . لقيته بمثله مغفرة » .

(٣) أخرجه بنحوه الطبراني في « الكبير » (٦/ ٢٥٣) .

ومنها : التجرد لقراءة القرآن وذِكر الله سبحانه وتعالىٰ ، وكفُّ سمعِهِ وبصره وسائر جوارحه .

ومنها : أن يستفيد أخاً في الله تعالىٰ ؛ فإن ذلك غنيمة وذخيرة للدار الآخرة .

ومنها : أن يترك الذنوب حياء من الله تعالىٰ من أن يتعاطىٰ ذلك في بيت الله عز وجل .

وقس علىٰ ذلك سائر الطاعات ، وإنما تحضر النيات في قلب العبد بقدر جده في طلب الخير ، وتشمره له ، وتفكره فيه ، فبهـٰذا تزكو الأعمال وتتضاعف الحسنات .

وأما [القسم الثالث] المباحات : فكلها تحتمل نية ، أو نيات تصير بها من محاسن القربات ، وينال بها أعلى الدرجات ، فما أعظم خسران من يغفل عنها ويتعاطاها تعاطي البهائم عن سهو وغفلة .

ولا ينبغي للعبد أن يستحقر الخطوات والخطرات واللحظات ، فكل ذلك يسأل عنه في القيامة لِمَ فعله ، وما الذي قصد به ؟

هـٰذا في مباح محض لا يشوبه كراهة ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « حلالها حساب ، وحرامها عقاب »[1] .

وفي حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن العبد ليسأل يوم القيامة عن كل شيء حتىٰ عن كحل عينيه ، وعن فتات الطينة بأصبعيه ، وعن لمسه ثوب أخيه[2] .

وفي الخبر : « مَن تطيب لله . . جاء يوم القيامة وريحه أطيب من ريح المسك ، ومَن تطيب لغير الله . . جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة »[3] ، ومَن أوتي شيئاً من مباح الدنيا . . لم يعذَّبْ عليه في الآخرة ، ولـٰكن ينقص من نعيم الآخرة بقَدْره ، وكفىٰ بهـٰذا خسراناً أن يتعجل ما يفنىٰ ويخسر ما يبقىٰ ، فينوي بالطِّيب مثلاً اتباع سُنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتعظيم المسجد واحترامه ، بأن يرىٰ أنه لا يدخله إلا طيب الرائحة ، ويقصد

---

(١) أخرجه بنحوه الديلمي (٣/ ٥٨٥) .

(٢) ورد في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا معاذ ؛ إن المؤمن يسئل يوم القيامة عن جميع سعيه ، حتىٰ عن كحل عينيه ، وعن فتات الطينة بأصبعيه . . . » . انظر تفسير « ابن كثير » (٢/ ٥٦٠) .

(٣) أخرجه عبد الرزاق (٤/ ٣١٩) .

دفع الروائح الكريهة عن نفسه وعمن يخالطه أو يجاوره ، ويقصد حسم باب الغِيبة عنه ؛ فإنه إذا كانت له رائحة كريهة . . اغتابوه ، فيعصون الله تعالىٰ بسببه ، فيكون قد تعرض للغيبة وهو قادر على التحرز منها ، فهو شريك في تلك المعصية ، كما قيل :

إذا ترحَّلتَ عن قوم وقد قدروا ألاَّ تفارقهمْ فالراحلون هُمُ

وأن يقصد معالجة دماغه لتزيد فطنته ، فيسهل عليه درك مهمات الدِّين بالفكر ؛ فقد قال الشافعي رحمه الله : مَن طاب ريحه . . زاد عقله .

فهـٰذا وأمثاله من النيات لا يعجز الفقيه عنها إذا كان من تجار الآخرة ، وطلب الخير غالب علىٰ قلبه ، وإذا لم يغلب علىٰ قلبه إلا نعيم الدنيا . . لم تحضره هـٰذه النيات ، وإن ذُكرت . . لم ينبعث لها قلبه ، فلا يكون معه إلا حديث النفس ، وليس ذلك من النيات في شيء .

وأما المباحات . . فكثيرة لا يمكن إحصاء النيات فيها ، فقس علىٰ هـٰذا .

ولذلك قال بعض السلف : إني لأستحب أن يكون لي في كل شيء نية ؛ في أكلي ، وشربي ، ونومي ، ودخولي الخلاء ، وجِماعي .

وما أحسن ما حكي عن الإمام يحيى بن يحيى النيسابوري أحد شيوخ مسلم رحمهما الله تعالىٰ : أنه شرب دواء لضعف ، فلم يجبه ، فقالت له امرأته : لو ترددت في الدار خطوات عسىٰ أن يحرك الدواء ؟ فقال لها : لي أربعين سَنة ما أمشي إلا فيما أحتسبه ـ يعني : في قربة ـ وما أدري هـٰذه الخطوات ما هي .

وفي رواية أخرىٰ : قال : هـٰذه مشية لا أعرفها ، وأنا أحاسب نفسي منذ ثلاثين سَنة ، فكأنه ـ والله أعلم ـ لم تحضره في هـٰذه المشية نية تتعلق بالدِّين ، فلم يجوِّز الإقدام عليها ، ويحتمل على الرواية الأولىٰ : أحتسبه ؛ أي : أتقرب به .

فما رأىٰ أن يمشي في مباح محض ، إنما أراد أن يمشي فيما هو قربة ، رحمه الله .

وإياك ثم إياك أن تستحقر شيئاً من حركاتك ، ولا تحترز من غرورها وشرورها ، ولا تعد جوابها يوم الحساب والسؤال ؛ فإن الله تعالىٰ مطلع عليك وشهيد ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ ، ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ ، ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ .

صلىٰ رجل مع سفيان الثوري رحمه الله ، فرآه مقلوب الثوب ، فعرفه ، فمد يده

ليصلحه ، ثم قبضها ولم يُصلحه ، فسأله عن ذلك ، فقال : إني لبسته لله تعالىٰ ، فلا أريد أن أسوِّيَه لغير الله عز وجل .

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله : سمعت أبا جعفر المنصور يبكي في خطبته ، قال : فأشغلني الغضب ، وحضرتني نية في أن أقوم إليه فأكلمه بما سمعت من كلامه ، وبما أعرف من فعله إذا نزل ، قال : ثم تفكرت في أني أريد أن أقوم إلىٰ خليفة فأعظه بحضرة الناس ، فيرمقوني بأبصارهم ، فيتداخلني التزين ، فيأمر بي فيقتلني ، فأقتل علىٰ غير تصحيح ، قال : فجلست وسكتُّ .

وقد قال الحسن البصري رحمه الله : إن الرجل ليتعلق بالرجل يوم القيامة فيقول : بيني وبينك الله رب العالمين ، فيقول له : والله ما أعرفك ، فيقول : بلىٰ ، أنت الذي أخذت لبنة من حائطي ، وأخذت خيطاً من ثوبي . فهٰذا وأمثاله قطَّع قلوب الخائفين .

وقد قال أحمد ابن أبي الحواري رحمه الله : رأيت أبا سليمان الداراني رحمه الله في المنام بعد موته بسَنة ، فقلت له : يا معلم الخير ؛ ما صنع بك ربك سبحانه وتعالىٰ ؟ فقال : يا أحمد ؛ دخلت من باب الصغير ، فرأيت حمل شيخ ، فأخذت منه عود خلال ، ما أدري تخللت به ، أم رميته ؟ فأنا في حسابه منذ سنة .

فانظر لنفسك الآن إن كنت من أولي الحزم والنُّهىٰ ، ودقق الحساب علىٰ نفسك قبل أن يدقَّقَ عليك ، وراقب جميع أحوالك من أفعالك وأقوالك وخطراتك وخطواتك ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ .

وقد روي أن بعض السلف كان أجيراً لقوم في عمل حائط ، فقدَّموا له رغيفاً ، وكان لا يأكل إلا من كسب يده ، فدخل عليه قوم ، فلم يدعُهُم ، فتعجبوا لما علموا من سخائه وزهده ، فقال لهم : إني أَجير لقوم ، وقدموا إلي رغيفاً أتقوىٰ به على العمل ، فلو أكلتم معي . . فلم يكفني ولم يكفكم ، وضعفت عن عملهم .

فالبصير هٰكذا ينظر إلى البواطن بنور الله تعالىٰ ، وذلك لأن ضعفه عن العمل نقص في فرض ، وترك الدعوة إلى الطعام نقص في فضل ، ولا حكم للفضائل مع الفرائض .

ولأجل ما ذكرناه كان السلف يمتنعون عن فعل كثير من القربات .

فمن ذلك : ما حكاه عيسى بن حازم ، عن سفيان الثوري رحمه الله قال : خرج إبراهيم بن أدهم وإبراهيم بن طهمان وسفيان الثوري رحمهم الله إلى الطائف ، ومعهم سفرة

فيها طعام ، فلما وضعوها ليأكلوا . . وإذا أعراب قريب منهم ، فناداهم إبراهيم بن طهمان : يا إخوتاه ؛ هلموا ، فقال لهم سفيان : يا إخوتاه ؛ مكانكم ، ثم قال سفيان لإبراهيم : خذ من هـٰذا الطعام ما طابت به أنفسنا ، فاذهب به إليهم ، فإن شبعوا . . فالله أشبعهم ، وإن لم يشبعوا . . فهم أعراب ، أخاف أن يجيئوا فيأكلوا طعامنا ، فتتغير نياتنا ويذهب أجرنا .

وقال بعضهم : دخلت علىٰ سفيان الثوري وهو يأكل ، فما كلمني حتىٰ لعق أصابعه ، ثم قال : لولا أني أخذته بالدَّين . . لأحببت أن تأكل منه .

وكان يقول : مَن دعا رجلاً إلىٰ طعامه وليس له رغبة في أن يأكل . . فإن أجابه . . فعليه وزران ، وإن لم يأكل . . فعليه وزر واحد ، أراد بأحد الوزرين : النفاق ، والوزر الثاني : تعريضه أخاه لما يكرهه لو علمه .

فهـٰكذا ينبغي أن يتفقد العبد نيته في سائر الأعمال ، فلا يقدم ولا يحجم إلا بنية ، فإن لم تحضره النية . . توقف ؛ فإن النية لا تدخل تحت الاختيار ، وسنذكر إن شاء الله تعالىٰ معنىٰ ذلك .

* * *

الفصل الرابع
في بيان أن النية لا تدخل تحت الاختيار

قال حجة الإسلام أبو حامد الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : أعلم : أن الجاهل يسمع ما ذكرناه من الوصية بتحسين النية وتكثيرها مع قوله صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات » ، فيقول في نفسه عند تدريسه أو تجارته أو أكله : نويت أن أدرس لله تعالىٰ ، أو أتجر ، أو آكل ، ويظن أن ذلك نية ، وهيهات! فذلك حديث نفس ، أو حديث لسان ، أو فكر ، أو انتقال من خاطر إلىٰ خاطر ، والنية بمعزل عن جميع ذلك ، وإنما النية انبعاث النفس وتوجهها وميلها إلىٰ ما ظهر لها أن فيه غرضاً ، إما عاجلاً أو آجلاً ، والمَيل إذا لم يكن . . لم يمكن اختراعه واكتسابه بمجرد الإرادة ، بل ذلك كقول الشبعان : نويت أن أشتهي الطعام أو أميل إليه ، وذلك مُحال ؛ فإنه لا طريق إلى اكتساب صرف القلب إلى الشيء وميله إليه وتوجهه نحوه إلا باكتساب أسبابه ، وذلك مما قد يقدر عليه ، وقد لا يقدر عليه ، وإنما تنبعث النفس إلى الفعل إجابة للغرض من الباعث الموافق للنفس الملائم لها .

وما لم يعتقد الإنسان أن غرضه منوط بفعل من الأفعال . . فلا يتوجه نحوه قصده ، وذلك

مما لا يقدر على اعتقاده في كل حين ، وإذا اعتقد . . فإنما يتوجه القلب بحيث لا مانع بأن يكون فارغاً غير مصروف عنه لغرض شاغل أقوىٰ منه ، وذلك لا يمكن في كل وقت ، والدواعي والصوارف لها أسباب كثيرة ، وتختلف بالأشخاص والأحوال والأعمال .

مثاله : غلبت شهوة النكاح علىٰ شخص ، ولم يعتقد غرضاً صحيحاً في الولد ، فهـٰذا لا يمكنه أن يواقع علىٰ نية الولد ، بل علىٰ نية قضاء الشهوة ؛ إذ النية إجابة الباعث ، ولا باعث إلا الشهوة ، فكيف ينوي الولد ؟! فإنه إذا لم يغلب علىٰ قلبه اتباع سُنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . لم يتأتىٰ منه سوى القول باللسان والقلب ، وهو حديث محض ، وليس بنية .

نعم ؛ طريق اكتساب هـٰذه النية أن يقوي إيمانه بالشرع ، ويقوي إيمانه بعُظم ثواب مَن سعىٰ في تكثير أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ويدفع عن نفسه جميع المنفرات عن الولد من ثقل المؤونة وطول التعب وغيره ، فإذا فعل ذلك . . ربما انبعث من قلبه رغبة إلىٰ تحصيل الولد للثواب ، فتحركه تلك الرغبة ، وتحرك أعضاءه لمباشرة العقد ، فإذا انتهضت القدرة المحركة للسان بقَبول العقد طاعة لهـٰذا الباعث الغالب على القلب . . حصلت النية ، وما لم يكن كذلك . . فما يقدره في نفسه ويردده في قلبه من قصد الولد . . وسواس وهذيان .

ولهـٰذا ورد : أنه قد امتنع جماعة من السلف عن فعل بعض الطاعات ؛ إذ لم تحضرهم النية ، فكانوا يقولون : ليس تحضرنا فيه نية .

كان أحدهم إذا سئل عن عمل من أعمال البر . . يقول : إن رزقني الله تعالىٰ نية . . فعلت .

وكان طاووس لا يحدث إلا بنية ، وكان يُسأل أن يحدِّث فلا يحدث ، ولا يسأل فيحدث ابتداء من غير سؤال ، فيقال له في ذلك ، فيقول : أتحبون أن أحدث بلا نية ؟! إذا حضرت لي نية . . فعلت[1] .

وقيل لطاووس : ادع لنا ، فقال : حتىٰ أجد له نية .

وقال بعضهم : أنا في طلب نية لعيادة رجل منذ شهر ، فلم يصح لي بعد .

وقال بعض العارفين : كنت في يوم عرفة عند سهل التستري[2] رحمه الله وهو يحرث

---

(١) تقدم مثل هـٰذا في ترجمة بشر بن الحارث رحمه الله .

(٢) في « الإحياء » : (أبي عبيد التستري) .

أرضاً ، فمر به بعض الأبدال ، فسارَّه بشيء ، فقال : لا ، فمر كالسحاب يمسح على الأرض ، فقلت لسهل : ما قال لك ؟ فقال : قال لي : هل لك في الحج ؟ فقلت : لا ، فقلت له : هلا فعلت ؟ فقال : ليس لي الآن في الحج نية ، وقد نويت أن أتمم حرث هـٰذه الأرض عشية هـٰذا اليوم ، فأخاف إن حججت معه لأجله . . أن أتعرض لمقت الله ؛ لأني أُدخل في عمل الله شيئاً غيره ، فمقامي علىٰ ما أنا فيه أعظم عندي من سبعين حجة . [انتهىٰ « الإحياء : » ٤/ ٣٧٣ـ٣٧٨] .

وقال الحافظ أبو نعيم : خرج اليمان أبو معاوية الأسود من طرسوس إلىٰ مكة يعزي الفضيل بن عياض في ابنه علي ، ولم يحج في تلك السَّنة . [انتهىٰ « الحلية » ٨/ ٢٧٢] .

وقال عيسى بن كثير : مشيت مع ميمون بن مهران ، فلما انتهىٰ إلىٰ منزله . . انصرفت ، فقال له ابنه : ألا تعرض عليه العَشاء ؟ فقال : ليس من نيتي .

فكانوا لا يرون أن يعملوا عملاً إلا بالنية ؛ لعلمهم بأن النية روح العمل ، وأن العمل بغير نية صادقة رياء وتكلف ، وهو سبب مقت لا سبب قرب ، وعلموا أيضاً : أن النية ليست هي قول القائل بلسانه[1] : نويت ، بل هي انبعاثٌ للقلب يجري مجرى الفتوح من الله عز وجل ، فقد يتيسر في بعض الأوقات ، وقد يتعذر .

نَعم ؛ مَن كان الغالب علىٰ قلبه أمر الدِّين . . تيسر عليه في أكثر الأحوال إحضار النية للخيرات ؛ فإن قلبه مائل بالجملة إلىٰ أصل الخير ، فينبعث إلى الفضائل غالباً ، ومَن مال قلبه إلى الدنيا وغلبت عليه . . لم يتيسر له ذلك ـ حتىٰ ولا في الفرائض ـ إلا بجهد جهيد .

وغايته : أن يتذكر النار ويحذر نفسه عقابها ، أو نعيم الجنة ويرغب نفسه فيها ، فربما تنبعث له داعية ضعيفة فيكون ثوابه بقدر نيته .

وأما الإتيان بالطاعة علىٰ نية إجلال الله سبحانه وتعالىٰ لاستحقاقه الطاعة وتنزيلاً للعبودية منزلتها . . فهـٰذه أعز النيات وأعلاها ، ويعز من يفهمها ، فضلاً عمن يتعاطاها ، ولا تتيسر هـٰذه النية لمن غلب علىٰ قلبه حب الدنيا .

ونيات الناس في الطاعات أقسام كما قلنا في الإخلاص :

منهم : مَن يكون عمله إجابة لباعث الخوف ؛ فإنه يتقي النار .

---

(١) في النسخ : (بقلبه) والمثبت من (الأحياء) ، ولعله الصواب .

ومنهم : من يعمل إجابة لباعث الرجاء ، وهو الرغبة في الدرجات في الجنة ، وهـٰذا ـ وإن كان نازلاً بالإضافة إلىٰ قصد طاعة الله تعالىٰ وتعظيمه لذاته وجلاله لا لأمر سواه ـ فهو من جملة النيات الصحيحة ؛ لأنه ميل إلى الموعود في الآخرة وإن كان من جنس المألوفات في الدنيا .

وأغلب البواعث باعث البطن والفرج وموضع قضاء وطرهما في الجنة ، فالعامل لأجل الجنة عامل لبطنه وفرجه كالأجير السوء ، ودرجته درجة البُلْه .

وأما عبادة ذوي الألباب . . فلا تجاوز ذِكر الله تعالىٰ حباً لجلاله ، وتعظيماً لهيبته ، وتنزيلاً للعبودية منزلتها .

والغرض أن هـٰذه النيات متفاوتة الدرجات ، فمَن غلب علىٰ قلبه حب واحدة منها . . ربما يتيسر له العدول إلىٰ غيرها ، ومعرفة هـٰذه الحقائق تورث أعمالاً جليلة وأفعالاً دقيقة لا يطلع عليها إلا الذين وفقهم الله سبحانه وتعالىٰ ، وخاضوا بحار العلوم ، فأما الذين لم يمارسوا حقائق العلوم ولم يجروا من الفقه إلا علىٰ رسومه . . فينكرونها ، ولم تخطر لهم علىٰ بال .

ولذلك نقول : من حضرت له نية في مباح ولم تحضر في فضيلة . . فالمباح هنا أولىٰ ، وانتقلت الفضيلة إليه ، وصارت الفضيلة في حقه نقيصة ؛ لأن الأعمال بالنيات .

مثال ذلك : العفو أفضل من الانتصار ، فربما تحضره نية في الانتصار دون العفو . . فيكون الانتصار أفضل ، ومثل أن يكون له نية في الأكل والشرب والنوم ليريح نفسه ويتقوىٰ على العبادة في المستقبل ، وليس تنبعث له نيته في الحال للصوم وصلاة التطوع . . فالأكل والنوم هو الأفضل له ، بل لو مل العبادة لمواظبته عليها وسكن نشاطه وضعفت رغبته وعلم أنه لو ترفه ساعة بلهو وحديث عاد نشاطه . . فإجمام نفسه وإعطاؤها ما فيه راحتها أفضل ، وقد جاء : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إني لأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي »[1] .

وكان صلى الله عليه وسلم يتبدىٰ ؛ أي : يخرج إلى البادية صلى الله عليه وسلم[2] .

---

(١) ورد هـٰذا الحديث في « جامع العلوم والحكم » (٢٩٥) موقوفاً علىٰ سيدنا معاذ رضي الله عنه .

(٢) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٦/ ١٣١) ، وأخرجه بلفظ آخر أبو داوود (٢٤٧٨) ، وابن حبان (٥٥٠) .

وقال علي رضي الله عنه : روِّحوا القلوب ؛ فإنها إذا عَيَت . . كرهت .

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : إني لأستجم نفسي بشيء من اللهو ، فيكون ذلك عوناً على الدِّين ، أو قال : على الحق .

فهٰذه دقائق لا يدركها إلا سماسرة العلماء ؛ فإن الحاذق بالطب قد يعالج المحرور[1] باللحم مع حرارته ، ويستبعده القاصر في الطب ، وإنما قصده أن يعيد أولاً قوته ليتحمل المعالجة بالضد فيما بعد ذلك ، وكذلك الخبير بالقتال ، قد يفر بين يدي قرينه ويوليه دبره حيلة منه ؛ ليستجره إلىٰ مضيق فيكر عليه ويقهره ، وكذلك سلوك طريق الله سبحانه وتعالىٰ ، كله قتال مع الشيطان ومعالجة النفس .

فالبصير الموفق يقف فيها علىٰ لطائف الحيل ؛ ليسلم من تلك الغوائل . والله سبحانه وتعالىٰ أعلم[2] .

فإذا عرفت ذلك . . فاعلم أن النية تستلزم الصدق ، فاستدعىٰ ذلك بيان فضيلة الصدق وحقيقته ومراتبه ، وفيه فصلان[3] :

* * *

الفصل الأول

في فضيلته

قال الله تعالىٰ : ﴿ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الصدق يهدي إلى البر ، والبر يهدي إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق حتىٰ يكتب عند الله صديقاً ، وإن الكذب يهدي إلى الفجور ، والفجور يهدي إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتىٰ يكتب عند الله كذاباً »[4] .

ويكفي في فضيلة الصدق : أن الصِّدِّيق مشتق منه ، وأن الله عز وجل وصف به أنبياءه ورسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين في معرِض المدح والثناء ، فقال تعالىٰ : ﴿ وَٱذْكُرْ

---

(١) **المحرور** : الذي تداخلته حرارة الغيظ أو غيره .

(٢) في « الإحياء » (٤/ ٣٧٤ـ ٣٧٦) .

(٣) انظر « الإحياء » باب في الصدق وفضيلته وحقيقته (٤/ ٣٨٦) وما بعدها .

(٤) أخرجه البخاري (٥٧٤٣) .

فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ ، إلىٰ غير ذلك من الآيات .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : (أربع مَن كن فيه . . فقد ربح : الصدق ، والحياء ، وحسن الخلق ، والشكر) .

وقال بشر بن الحارث رحمه الله : مَن عامل الله تعالىٰ بالصدق . . استوحش مِن الناس .

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله : اجعل الصدق مطيتك ، والحق سيفك ، والله عز وجل غاية طلبتك .

وقال رجل لحكيم : ما رأيتُ صادقاً ، فقال له : لو كنت صادقاً . . لرأيت الصادقين .

وقال الثوري رحمه الله في قوله تعالىٰ : ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ قال : هم الذين ادعوا محبة الله عز وجل ، ولم يكونوا فيها صادقين .

وأوحى الله عز وجل إلىٰ داوود عليه الصلاة والسلام : (من صدقني في سريرته . . صدقته عند المخلوقين في علانيته) .

وقال بعضهم : أجمع العلماء علىٰ ثلاث خصال أنها إذا صحت . . ففيها النجاة ، ولا يتم بعضها إلا ببعض :

ـ الإسلام الخالص عن البدعة .

ـ والصدق لله سبحانه وتعالىٰ في الأعمال .

ـ وطيب المطعم .

وقيل لسهل التستري : ما أصل هـٰذا الأمر الذي نحن عليه ؟ فقال : الصدق ، والسخاء ، والشجاعة ، فقيل له : زدنا ، فقال : التقىٰ ، والحياء ، وطيب الغذاء .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : أنه سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الكمال ، فقال : « قول الحق ، والعمل على الصدق » .

وعن الجنيد في قوله تعالىٰ : ﴿لِيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ قال : يسأل الصادقين عند أنفسهم عن صدقهم عند ربهم ، وهـٰذا أمر علىٰ خطر ، والله أعلم .

* * *

الفصل الثاني
في بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه

اعلم : أن لفظ الصدق مستعمل في ستة معان :

ـ صدق في القول .

ـ وصدق في النية والإرادة .

ـ وصدق في العزم .

ـ وصدق في الوفاء بالعزم .

ـ وصدق في العمل .

ـ وصدق في تحقيق مقامات الدِّين كلها .

فمن اتصف بالصدق في جميع ذلك . . فهو صِدِّيق ؛ لأنه مبالغة في الصدق .

ثم هم أيضاً علىٰ درجات ، ومَن كان له حظ مِن الصدق في شيء . . فهو صادق بالإضافة إلىٰ ما فيه صِدقُه .

الصدق الأول : صدق اللسان :

وذلك لا يكون إلا في الإخبار ، أو ما يتضمَّن الإخبار ، والخبر إما أن يكون ماضياً ، أو مستقبلاً ، وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخلف فيه ، وحق علىٰ كل عبد أن يحفظ ألفاظه ، فلا يتكلم إلا بالصدق .

وهـٰذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها ، فمَن حفظ لسانه عن قول الأشياء علىٰ خلاف ما هي عليه . . فهو صادق ، ولكن لهـٰذا الصدق كمالان :

أحدهما : الاحتراز عن المعاريض ؛ فقد قيل : في المعاريض مندوحة عن الكذب ، وذلك لأنها تقوم مقام الكذب ؛ إذ المحذور من الكذب تفهيم الشيء علىٰ خلاف ما هو عليه في نفسه ، إلا أن ذلك مما قد تمس الحاجة إليه ، وتقتضيه المصلحة في بعض الأحوال ؛ كتأديب الصبيان والنسوان ومَن يجري مجراهم ، وفي الحذر عن الظَّلَمة ، وفي قتال الأعداء ، وفي الاحتراز عن اطلاعهم علىٰ أسرار الملك ، فمَن اضطر إلىٰ شيء من ذلك . .

فصدقُه فيه أن يكون نطقه فيه لله عز وجل مما يأمره الحق به ، ويقتضيه الدِّين ، فإذا نطق به . . فهو صادق وإن كان كلامه مفهماً غير ما هو عليه ؛ لأن الصدق لم يُرَد لذاته ، بل للدلالة على الحق والدعاء إليه ، فلا ينظر إلىٰ صورته ، بل إلىٰ معناه .

نعم ؛ في مثل هـٰذا الموضع ينبغي أن يعدل إلى المعاريض ما وجد إليه سبيلاً .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفراً . . ورَّىٰ بغيره ؛ لئلا ينتهي الخبر إلى الأعداء فيقصد ، وهـٰذا ليس من الكذب في شيء ، فقد روي : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ليس بكاذب من أصلح بين اثنين ، فقال خيراً أو نمىٰ خيراً »[1] .

ورخص في النطق علىٰ وجه المصلحة في مواضع : من أصلح بين اثنين ، ومن كان له زوجتان ، ومن كان في مصالح الحرب .

والصدق هنا يتحوَّل إلى النيَّة ، فلا يراعىٰ فيه إلا صدق النية وإرادة الخير ، فمهما صح قصده وصدقت نيته وتجردت للخير إرادته . . كان صادقاً وصدِّيقاً كيف ما كان لفظه ، ثم التعريض فيه أولىٰ .

وطريقه : ما حكي عن بعضهم أنه كان يطلبه بعض الظلمة وهو في داره ، فقال لزوجته : خطي بإصبعك دائرة ، وضعي الإصبع على الدائرة ، وقولي : ليس هو هـٰهنا ، فاحترز بذلك عن الكذب ، ودفع الظالمَ عن نفسه ، وكان قوله صدقاً .

فالكمال الأول في اللفظ : أن يحترز عن صريح اللفظ ، وعن المعاريض أيضاً ، إلا عند الضرورة .

والكمال الثاني : أن يراعي معنى الصدق في ألفاظه التي يناجي بها ربه عز وجل ، كقوله : وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض ؛ فإن قلبه إن كان منصرفاً عن الله تعالىٰ ، مشغولاً بأماني الدنيا وشهواتها . . فهو كاذب ؛ وكقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

وقد كان بعض العارفين يتغير ويصفر عند الدخول في الصلاة ، فقيل له في ذلك ، فقال : كيف لا أكون كذلك وأنا أريد أن أستفتح الصلاة بغير صدق مني ؟! فإني أقول : (الله أكبر) ولست عاملاً علىٰ حقيقة ذلك .

---

(١) أخرجه بنحوه الترمذي (١٩٣٨) وقال : حسن صحيح .

وهـٰكذا قوله : أنا عبد الله ؛ فإنه إنْ لم يتصف بتحقيق العبودية ، وكان له مطلب سوى الله تعالىٰ . . لم يكن كلامه صدقاً ، فلو طولب يوم القيامة بالصدق في قوله أنا عبد الله عز وجل . . لعجز عن تحقيقه ؛ فإنه إن كان عبداً للدنيا أو لنفسه أو عبداً لشهواته . . لم يكن صادقاً في قوله ، وكل ما تعبد العبد به . . فهو عبد له ؛ كما قال سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم : « تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، وعبد الحلة ، وعبد الخميصة »[1] ، سمىٰ كل من تقيد قلبه بشيء عبداً له .

وإنما يكون عبداً علىٰ حقيقة العبودية إذا كان قلبه فارغاً عن حب الدنيا وشهواتها ، فيشتغل بعبادة ربه عز وجل ، ولزوم طاعته ومحبته ، وليس له مراد إلا الله سبحانه وتعالىٰ .

ثم قد يتجاوز هـٰذا إلىٰ مقام أسنىٰ منه ، يسمىٰ : الحرية ، وهو أن يعتق نفسه من إراداته ، ويرضىٰ بما أراد الله عز وجل من تقريب أو إبعاد ، فتفنىٰ إرادته في إرادة الله سبحانه وتعالىٰ ، فعند ذلك يصير حراً ؛ فإنه قد صار مفقوداً لنفسه ، موجوداً لسيده ومالكه سبحانه وتعالىٰ ، إن حركه . . تحرك ، وإن سكَّنه . . سكن ، وإن ابتلاه . . رضي .

فلم يبق فيه متسع لطلب شيء ولا لالتماسه ، ولا يجد عنده اعتراضاً ، فهو بين يدي الله عز وجل كالميت بين يدي الغاسل ، وهـٰذا منتهى الصدق في العبودية .

فالعبد في الحقيقة هو الذي وجوده لمولاه عز وجل لا لنفسه ، وهـٰذه درجات الصديقين .

وأما الحرية عن غير الله سبحانه وتعالىٰ . . فتلك درجات الصادقين ، وبعده تتحقق العبودية لله سبحانه وتعالىٰ ، وما قبل هـٰذا فلا يستحق صاحبه أن يسمىٰ صادقاً ولا صِدِّيقاً ، فهـٰذا معنى الصدق في القول .

الصدق الثاني : في النية والإرادة :

ويرجع ذلك إلى الإخلاص ، وهو ألاَّ يكون له باعث في الحركات والسكنات إلا الله سبحانه وتعالىٰ ، فإن مازجه شوب من حظوظ النفس . . بطل صدق النية .

وصاحبه يجوز أن يسمىٰ كاذباً كما قد ثبت في « الصحيح »[2] عن رسول الله صلى الله

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٢٧٢٩) ، **والحلة** : بُرْدٌ يماني ، ولا تسمىٰ حلة إلا أن تكون ثوبين من جنس واحد ، **والخميصة** : ثوب من خز أو صوف معلم .

(٢) أي : في « صحيح مسلم » (١٩٠٥) .

عليه وسلم من حديث الثلاثة حين يُسأل العالِم : (ماذا عملت فيما علمت ؟) فقال : فعلت كذا وكذا ، فيقول الله تبارك وتعالىٰ له : (كذبت ، بل أردت أن يقال فلان عالم ، وقد قيل) ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم به ؛ فإنه لم يكذبه في أنه ما فعل ؛ فإنه لم يقل له لم تعمل ، ولـٰكن كذبه في إرادته ونيته .

وأصل ذلك قوله تعالىٰ : ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ ، وقد قالوا : إنك لرسول الله ، فهم صادقون في قولهم ، وإنما كذبهم من حيث ضمير القلب لا من حيث نطق اللسان ، فالتكذيب إنما تطرق إلىٰ ما في ضمائرهم وما أسرَّته قلوبهم ، فأحد معاني الصدق راجع إلىٰ خلوص النية وهو الإخلاص ، فكل صادق فلا بد أن يكون مخلصاً .

الصدق الثالث : **[صدق] العزم** : فإن الإنسان قد يقدم العزم على العمل ، فيقول في نفسه : إن رزقني الله تعالىٰ مالاً . . تصدقت بجميعه أو بشطره ، وإن لقيت عدواً في سبيل الله تعالىٰ . . قاتلت ولم أُبالِ وإن قتلت ، وإن أعطاني الله تعالىٰ ولاية . . عدلت فيها ولم أعص الله تعالىٰ بظلم ومَيل ، فهـٰذه العزيمة قد توجد وهو جازم بها ، وهي عزيمة صادقة ، وقد يكون في عزمه نوع ميل وتردد وضعف يضاد الصدق في العزم ، فكان الصدق هـٰهنا عبارة عن التمام والقوة ، كما يقال : لفلان شهوة صادقة ، ويقال : لهـٰذا المريض شهوة كاذبة ، مهما لم تكن شهوته عن سبب ثابت ، فقد يطلق الصدق ويراد به هـٰذا المعنىٰ .

فالصادق والصدِّيق هو الذي تُصادف عزيمته في الخيرات كلها قوية تامة ، ليس فيها ميل ، ولا ضعف ، ولا تردد ، بل تسخو نفسه بالعزم المصمم الجازم على الخيرات ، وهو كما قال عمر رضي الله عنه : لأَن أُقدَّم فتضرب عنقي . . أحب إلي من أن أتأمر علىٰ قوم فيهم أبو بكر رضي الله عنه ، اللهم إلا أن تُسوِّل لي نفسي عند القتل شيئاً لا أجده الآن ؛ لأني لا آمن أن يثقل عليها ذلك ، فيتغيَّر عن عزمها ؛ فإنه قد وجد من نفسه العزم الجازم والمحبة الصادقة بأنه لا يتأمر مع وجود أبي بكر رضي الله عنه ، وأيد ذلك بما ذكره من القتل .

ومراتب الصديقين في العزائم تختلف ، فقد يصادف العزم ولا ينتهي به إلىٰ أن يرضىٰ بالقتل فيه ، ولـٰكن إذا خُلي ورأيه . . لم يقدم ، ولو ذكر له حديث القتل . . لانتقض عزمُه .

وقد قال بعضهم : الصدق صحة التوجه في القصد .

الصدق الرابع : **في الوفاء بالعزم** : فإن النفس قد تسخو بالعزم في الحال ؛ إذ لا مشقة في الوعد والعزم ، والمؤونة فيه خفيفة ، فإذا حقت الحقائق وحصل التمكن وهاجت

الشهوات . . انحلت العزيمة ، وغلبت الشهوة ، ولم يتفق الوفاء بالعزم ، وهـٰذا يضاد الصدق فيه .

ولذلك قال تعالىٰ : ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ .

فقد روىٰ أنس : أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدراً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فشق ذلك عليه ، وقال : أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه ، أمَا والله ؛ لئن أراني الله تعالىٰ مشهداً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ليرى الله ما أصنع ، فشهد أُحُداً من العام القابل ، فاستقبله سعد بن معاذ ، فقال : يا أبا عمرو ؛ إلىٰ أين ؟ فقال : واهاً[1] لريح الجنة! إني أجده دون أُحد ، فقاتل حتىٰ قتل ، فوُجد في جسده بضع وثمانون من بين رمية وضربة وطعنة ، فقالت أخته بنت النضر : ما عرفت أخي إلا ببنانه ، ونزلت هـٰذه الآية : ﴿ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾[2] .

ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم علىٰ مصعب بن عمير وقد سقط علىٰ وجهه يوم أحد شهيداً ، وكان صاحب لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ﴾ »[3] .

وعن فضالة بن عبيد : سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الشهداء أربعة : رجل مؤمن جيد الإيمان ، لقي العدو ، فصَدَق الله تعالىٰ حتىٰ قتل ، فذلك الذي يرفع الناس إليه أعينهم يوم القيامة هـٰكذا ـ ورفع رأسه حتىٰ وقعت قلنسوته ، قال الراوي : فلا أدري قلنسوة عمر أو قلنسوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ ورجل [مؤمن] جيد الإيمان إذا لقي العدو . . فكأنما يضرب وجهه بشوك الطلح [من الجبن] أتاه سهم عائر[4] فقتله ، فهو في الدرجة الثانية ، ورجل مؤمن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً لقي العدو فصدق الله تعالىٰ حتىٰ قتل ، فذلك في الدرجة الثالثة [ورجل مؤمن أسرف علىٰ نفسه ، لقي العدو ، فصدق الله حتىٰ قتل فذاك في الدرجة الرابعة] »[5] .

---

(١) **واهاً** : قال العلماء : هي كلمة تحنن وتلهف .

(٢) أخرجه بنحوه البخاري (٢٦٥١) ، ومسلم (١٩٠٣) بلفظه .

(٣) أخرجه الحاكم (٢/ ٢٧١) .

(٤) **السهم العائر** : الذي لا يعرف راميه .

(٥) أخرجه الترمذي (١٦٤٤) .

وقال تعالىٰ : ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ قالوا : إنما هو شيء نَوَوْه في أنفسهم لم يتكلموا به ، فجعل العزم عهداً ، وجعل الخلف فيه كذباً ، والوفاء به صدقاً ، وهٰذا الصدق أشد من الصدق الثالث ؛ فإن النفس قد تسخو بالعزم ، ثم عند تحقيق الحقائق لا تفي كما قلنا ، ولذلك استثنىٰ عمر رضي الله عنه فقال : (اللهم إلا أن تسول لي نفسي عند القتل شيئاً لا أجده الآن) .

وقال أبو سعيد الخراز رحمه الله : رأيت في المنام كأن ملكين نزلا من السماء فقالا لي : ما الصدق ؟ قلت : الوفاء بالعهد ، فقالا لي : صدقت ، وعرجا إلى السماء .

الصدق الخامس : في الأعمال : وهو أن يجتهد أن تكون أعماله ظاهراً وباطناً سواء ، وذلك بأن يستجر الباطن إلىٰ تصديق الظاهر ؛ فإن الرجل قد يمشي علىٰ هيئة السكون والوقار وليس باطنه موصوفاً بذلك الوقار ، فهٰذا غير صادق في عمله وإن لم يكن ملتفتاً إلى الخلق ، ولا ينجو من هٰذا إلا باستواء السريرة والعلانية ، بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيراً من ظاهره .

والحاصل : أن مخالفة الظاهر للباطن إن كان عن قصد . . سمي رياء ويفوت به الإخلاص ، وإن كان عن غير قصد . . فيفوت به الصدق .

وقد ورد : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في دعائه : « اللهم ؛ اجعل سريرتي خيراً من علانيتي ، واجعل علانيتي صالحة » .

وقال زيد بن الحارث : إذا استوت سريرة العبد وعلانيته . . فذلك النصف ، وإن كانت سريرته أفضل من علانيته . . فذلك الفضل ، وإن كانت علانيته أفضل من سريرته . . فذلك الجور .

وأنشدوا :

إذا السرُّ والإعلان في المؤمن استوىٰ ... فقد عز في الدارين واستوجب الثنا

فإن خالف الإعلانُ سِرّاً فما له ... علىٰ سعيه فضلٌ سوى الكد والعنا

كما خالصُ الدينار في السوق نافقٌ ... ومغشوشُه المردود لا يقتضي المُنىٰ

وقال عطية بن عبد الغفار : إذا وافقت سريرة المؤمن علانيته . . باهى الله سبحانه وتعالىٰ به ملائكته ، يقول : هـٰذا عبدي حقاً .

وقال معاوية بن قرة : من يدلني علىٰ بكَّاء بالليل بسَّام بالنهار .

وقال عبد الواحد : كان الحسن إذا أَمَرَ بشيء . . كان من أعمَل الناس به ، وإذا نهىٰ عن شيء . . كان من أترَك الناس له ، ولم أر أحداً قط أشبه سريرة بعلانية منه .

وكان أبو عبد الرحمـٰن الزاهد يقول : إلـٰهي ؛ عاملت الناس فيما بيني وبينهم بالأمانة ، وعاملت نفسي فيما بيني وبينك بالخيانة ، ويبكي .

وقال أبو يعقوب النهرجوري : الصدق : موافقة الحق في السر والعلاينة ، فإذاً مساواة السريرة والعلانية أحد أنواع الصدق .

الصدق السادس : وهو أعلى الدرجات وأعزها : الصدق في مقامات الدين ، كالصدق في الخوف ، والرجاء ، والتعظيم ، والزهد ، والرضا ، والحب ، والتوكل ، وسائر هـٰذه الأمور ؛ فإن هـٰذه الأمور لها مبادىء ينطلق الاسم بظهورها ، ثم لها علامات وحقائق .

فالصادق المحب : مَن نال حقيقتها ، وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته . . سمي صاحبه صادقاً فيه كما يقال : فلان صَدَق القتال ، ويقال : هـٰذا على الخوف الصادق ، وهـٰذه هي الشهوة الصادقة .

وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ .

وسئل أبو ذر رضي الله عنه عن الإيمان ، فقرأ هـٰذه الآية ، فقيل له : سألناك عن الإيمان ، فقال : (سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان ، فقرأ هـٰذه الآية) .

فما من عبد يؤمن بالله . . إلا وهو خائف من الله عز وجل خوفاً ينطلق عليه الاسم ، ولـٰكنه ليس خوفاً صادقاً ؛ أي : غير بالغ درجة الحقيقة .

أما تراه إذا خاف سلطاناً أو قاطع طريق في سفره . . كيف يصفر لونه ، وترتعد فرائصه ،

ويتنغص عليه عيشه ، ويتعذر عليه أكله ونومه ، وينقسم عليه فِكره ، حتىٰ لا ينتفع به أهله وولده ، وقد ينزعج عن الوطن ، فيستبدل بالأنس الوحشة ، وبالراحة التعب والمشقة والتعرض للأخطار ، كل ذلك خوفاً من درك المحذور ، ثم إنه يخاف النار ولا يظهر عليه شيء من ذلك عند جريان المعصية عليه .

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « لم أر مثل النار نام هاربها ، ولا مثل الجنة نام طالبها »[1] .

والتحقيق في هـٰذه الأمور عزيز جداً ، ولا غاية لهـٰذه المقامات حتىٰ ينال تمامها ، ولـٰكن لكل عبد منه حظ بحسب حاله ، إما ضعيف وإما قوي ، فإذا قوي . . سمي صادقاً فيه ؛ فإن معرفة الله عز وجل وتعظيمه والخوف منه لا نهاية لها .

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام : « أحب أن أراك في صورتك التي هي صورتك » ، فقال : لا تطيق ذلك ، فقال : « بلىٰ أرني » ، فواعده البقيع في ليلة مقمرة ، فأتاه ، فنظر النبي صلى الله عليه وسلم إليه ؛ فإذا هو قد سد الأفق ـ يعني : جوانب السماء ـ فوقع النبي صلى الله عليه وسلم مغشياً عليه ، فأفاق صلى الله عليه وسلم وقد عاد جبريل إلىٰ صورته الأولىٰ ، فقال صلى الله عليه وسلم : « ما ظننت أن أحداً من خلق الله تعالىٰ هـٰكذا » ، فقال : كيف لو رأيت إسرافيل ؟! إن العرش لعلىٰ كاهله ، وإن رجليه قد مرقتا[2] من تُخوم[3] الأرض ، وإنه ليتضاءل من عظمة الله سبحانه وتعالىٰ حتىٰ يصير كالوَصَع ؛ يعني : كالعصفور الصغير[4] .

فانظر ما الذي يغشاه من العظمة والهيبة حتىٰ يرجع إلىٰ ذلك ، وسائر الملائكة ليسوا كذلك ؛ لتفاوتهم في المعرفة ، فهـٰذا هو الصدق في التعظيم .

وقال جابر رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مررت ليلة أسري بي وجبريل بالملأ الأعلىٰ كالحلس البالي من خشية الله تعالىٰ »[5] يعني : الكساء الذي يلقىٰ علىٰ ظهر البعير .

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٠١) .
(٢) **مرق** : خرج من الجانب الآخر .
(٣) **تخوم** : حدود .
(٤) أخرج الحديث ابن المبارك في « الزهد » (٢٢١) .
(٥) أخرجه بنحوه الطبراني في « الأوسط » (٥/ ٦٤) .

وكذلك الصحابة رضوان الله تعالىٰ عليهم أجمعين كانوا خائفين ، لا سيما الصِّدِّيق رضي الله عنه ، ومن ثَمَّ شم الناس رائحة الكبد المشوية من فم الصديق رضي الله عنه .

ومع ذلك ما بلغ أحد خوف رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولذلك قال ابن عمر رضي الله عنهما : لن يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتىٰ ينظر النَّاسَ كلهم حمقىٰ في دِين الله تعالىٰ .

وقال مطرف : ما من الناس من أحد إلا وهو أحمق فيما بينه وبين ربه عز وجل ، إلا أن بعض الخلق أهون من بعض .

وقد روي : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتىٰ ينظر الناس كالأباعر في جنب الله تعالىٰ ، ثم يرجع إلىٰ نفسه فيراها أحقر » .

فالصادق في جميع هـٰذه المقامات عزيز ، ثم درجات الصدق لا نهاية لها ، وقد يصدق العبد في بعض الأمور دون بعض ، فإن كان صادقاً في الجميع . . فهو الصدِّيق حقاً .

قال سعد بن معاذ رضي الله عنه : ثلاثة أنا فيهن قوي ، وما سواهن ضعيف :

ـ ما صليت صلاة منذ أسلمت فحدثت نفسي حتىٰ أفرغ منها .

ـ ولا شيعت جنازة فحدثت نفسي بغير ما هي قائلة وما هو مقول لها حتىٰ يفرغ من دفنها .

ـ وما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول قولاً . . إلا علمت أنه حق .

فقال ابن المسيب رحمه الله : ما ظننت أن هـٰذه الخصال تجتمع إلا في النبي صلى الله عليه وسلم .

فهـٰذا صدق في هـٰذه الأمور ، وكم من جلة الصحابة رضوان الله عليهم وأكابرهم قد أدوا الصلاة وتبعوا الجنائز ولم يبلغوا هـٰذا المبلغ ؟!

فهـٰذه درجات الصدق ومعانيه ، والكلمات المأثورة عن المشايخ في حقيقة الصدق في الغالب لا تتعرض إلا لآحاد هـٰذه المعاني .

نعم ؛ قد قال أبو بكر الوراق : الصدق ثلاثة : صدق التوحيد ، وصدق الطاعة ، وصدق المعرفة .

فصدق التوحيد : لعامة المؤمنين ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ .

وصدق الطاعة : لأهل العلم والورع .

وصدق المعرفة : لأهل الولاية الذين هم أوتاد الأرض .

وكل هـٰذا يدور علىٰ ما ذكرناه في الصدق السادس ، ولـٰكنه ذكر أقسام ما فيه الصدق ، وهو أيضاً غير محيط بجميع الأقسام .

وقال جعفر الصادق رحمه الله : الصدق هو المجاهدة ، وألاَّ تختار على الله تعالىٰ غير الله عز وجل كما لم يختر عليك غيرك ؛ قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ ﴾ .

وقيل : أوحى الله تعالىٰ إلىٰ موسىٰ عليه الصلاة والسلام : (إني إذا أحببت عبداً . . ابتليته ببلايا لا تقوم لها الجبال ؛ لأنظر كيف صدقه ، فإن وجدته صابراً . . جعلته ولياً وحبيباً ، وإن وجدته جزوعاً يشكوني إلىٰ عبادي . . خذلته ولم أبال) .

فإذاً : من علامات الصدق كتمان المصائب والطاعات ، وكراهية اطلاع الخلق عليه ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم . انتهىٰ .

تنبيه مهم

اِعلم : أنه قد تلخص أن مراتب العارفين ثلاث ، كل رتبة منها لا تنحصر درجاتها بحسب ما قسمه الله عز وجل لعبده ، ووفقه له ، وما أفاضه عليه من العرفان ، وأن أعلى المراتب هو ألاَّ يكون له مقصود ولا هَمٌّ إلا الله سبحانه وتعالىٰ ، والنظر إلىٰ وجهه الكريم ، وابتغاء رضوانه سبحانه وتعالىٰ .

وكذلك مراتب النيات ثلاث : أعظمها وأعزها : من يأتي بالطاعة علىٰ نية إجلال الله سبحانه وتعالىٰ ؛ لاستحقاق الطاعة ، وتنزيلاً للعبودية منزلتها ، وهـٰذه أعز النيات وأعلاها ، ويَعِز من يفهمها فضلاً عمن يتعاطاها .

ولا تحصل هـٰذه النية إلا بعد العزوف عن الدنيا كما قلنا في الإخلاص ، وكذلك الصدق ، وهو ستة أقسام : قول ، ونية ، وعزم ، ووفاء بالعزم ، وصدق في العمل ، وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها ، وقد قدمناه .

وهو أيضاً علىٰ درجات : أعلاها : أن يكون عَبَدَ الله تعالىٰ علىٰ حقيقة العبودية ، فيشتغل بطاعته والاستغراق في محبته ، ولا يكون له هَمٌّ ولا مقصود إلا هو .

ثم يتجاوز إلىٰ مقام هو أعلىٰ منه ، يسمىٰ : الحرية ، وهو أن يعتق نفسه من إراداته ،

ويرضىٰ بما أراد الله سبحانه وتعالىٰ من تقريب وإبعاد ، فتفنىٰ إرادته في إرادة الله عز وجل ، إن حرَّكَه . . تحرك ، وإن سكَّنَه . . سكن ، وإن ابتلاه . . رضي ، فلم يبق فيه متسَع لطلب شيء ولا لالتماسه ، ولا يجد عنده اعتراضاً ، بل هو بين يدي الله عز وجل كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف شاء .

فعند ذلك يصير حراً ؛ لأنه قد صار مفقوداً لنفسه ، موجوداً لسيده ومالكه سبحانه وتعالىٰ ، وهـٰذا هو منتهى الصدق في العبودية .

فالعبد في الحقيقة هو الذي وجوده لمولاه سبحانه وتعالىٰ لا لنفسه ، وهـٰذه درجات الصديقين .

وأما الحرية عن غير الله عز وجل . . فتلك درجات الصادقين ، وقد بسطنا ذلك فيما تقدم والله سبحانه أعلم .

قوله : (**وأُكبِّر بالعظمة**)[1] فيه إشارة إلى الجمع بين أعمال الظاهر والباطن ؛ فإن الخشية بالقلب ، والتكبير باللسان مع ما فيه من رعاية المأمور به ، والألف واللام للاستغراق ؛ فإنه سبحانه وتعالىٰ هو المستحق لجميع أنواع التعظيم على الحقيقة ، وفيه إشارة إلىٰ دوام الخشية ؛ فإن لزوم الخشية تثمر عنها أمور مطلوبة :

منها : أن مَن دخل في عبادة وكان حاله الخشية . . فإنما يدخلها بالتعظيم والاحترام ، وينشأ عن ذلك المراقبة وغيرها أيضاً .

فانظر ما أحسن هـٰذا وما أبلغه ، وما أشد ائتلافه والتفافه ؛ فإن أوائله مقتضية لأواخره اقتضاء لفظياً ومعنوياً ، لمجاورة الملائِم بالملائَم ، والمناسِب بالمناسَب .

قوله : (**وأَقرأُ بالترتيل والتفكر**) هـٰذا ـ مع ما فيه من رعاية المأمور ـ فيه إشارة إلىٰ سر القراءة والمقصود منها ؛ فإن القراءة إنما أمر بها علىٰ سبيل الترتيل ؛ قال تعالىٰ : ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ ليحصل منها التفكر والتدبر للقارىء والمستمع ، فإذا لم يوجد الترتيل . . فات هـٰذا المقصود ، وبفواته يفوت خير كثير بحسَب حال القارىء والمستمع .

---

(١) ولما اجتمع الإخلاص والخشية ومعهما النية ـ وهي من أعمال القلوب لا تقوم إلا بسر الإنسان ـ صار لا بد من عمل ظاهر يكون ثمرةً لهـٰذه الأعمال ، ولهـٰذا أشار إلى التكبير ، وهو كناية عن كل عمل فيه تعظيم لله عز وجل ، ومن ثم عدد بعض أعمال التعظيم ، ومنها : الترتيل ، والركوع ، والسجود ، والتشهد ، كما سيأتي ، والله أعلم .

قوله : (**وأركعُ بالخشوع**) فيه ـ مع رعاية الأركان الظاهرة ـ رعاية الأعمال الباطنة ؛ فإن الخشوع اتفق العلماء علىٰ أنه مطلوب في الصلاة ، يفوت الكمال بدونه .

وهل تفوت به الصحة ؟ أكثر العلماء علىٰ أنه لا تفوت بعدمه الصحة ، وما ذاك إلا لعزته في نفسه ، وقلة الاتصاف والمتصفين به ، ولو قيل باشتراطه في الصحة . . لأدىٰ إلىٰ حرج عظيم ، وقد قال الله تعالىٰ : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ .

لكن القاضي حسين من أئمة أصحابنا رحمهم الله تعالىٰ ذهب إلىٰ أن الخشوع ركن ، وبفواته تفوت الصحة .

قوله : (**وأسجدُ بالتواضع**) أعطىٰ كل ركن ما ينبغي أن يعمل فيه اتباعاً لما جاء في الأحاديث الصحيحة ؛ قال صلى الله عليه وسلم : « أما السجود . . فعظموا فيه الرب عز وجل »[1] .

فإن العبد إذا استحضر في نفسه عظمة البارىء جل جلاله وعظيم كبريائِه . . تضاءل عنده كل شيء دونه سبحانه وتعالىٰ ، فما ظنك بنفسه ؟! فإنه يصير في غاية الحقارة ، وتضاؤله وحقارته عند نفسه بقدر ما يدخل في قلبه من التعظيم والاحترام لله عز وجل ، كما قلنا في الملائكة عليهم الصلاة والسلام ؛ فإن تضاؤلهم وحقارتهم بحسَب ما يغشاهم من الهيبة والعظمة والاحترام .

وقد نبه حاتم رحمه الله بقوله : (وأسجدُ بالتواضع) علىٰ أصلين عظيمين :

أحدهما : رعاية التعظيم والإجلال والاحترام لجانب الربوبية .

والثاني : لزوم الذلة والافتقار لجانب العبودية .

ومدار الإيمان علىٰ هـٰذين الأصلين ، وهما معرفة حقيقة الربوبية وعظمتها ، ومعرفة حقيقة العبودية وحقارتها وذلتها ، ألا ترىٰ إلىٰ ما حكي عن أبي يزيد البسطامي رحمه الله أنه قال : نوديت في سِرِّي ، فقيل لي : خزائننا مملوءة من الخدمة ، فإن أردتَنا . . فعليك بالذلة والافتقار .

وفي كلام حاتم أيضاً إشارة إلىٰ أن العبادة إنما المقصود منها ذلك ، وهو صحيح .

---

(١) أخرج مسلم (٤٧٩) : عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ألا وإني نهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً ؛ فأما الركوع : فعظموا فيه الرب عز وجل ، وأما السجود : فاجتهدوا في الدعاء ؛ فقَمِنٌ أن يستجاب لكم » .

وقد ورد : أن بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أوحي إليه : (إني إنما اخترتك للنبوة ؛ لذل وقوفك بين يدي في الصلاة) .

ثم إذا استحضر العبد ذلته وفاقته وحقارة نفسه في وقوفه في الصلاة بين يدي الله عز وجل . . فليستحضر حقارة نفسه وفاقته وذلته في الموقف الأعظم ، وأنه أين يقع وقوفه وما قدره في كل وقت ، لا سيما في ذلك الموقف العظيم الذي فيه ترى الناس سكارىٰ وما هم بسكارىٰ ، ولـٰكن عذاب الله شديد ، وقد بسطت سر ذلك في أثناء النية .

ثم إن العبد أقرب ما يكون من ربه عز وجل في الصلاة وهو ساجد ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ .

والأحاديث الدالة علىٰ ذلك كثيرة .

فينبغي للعبد أنه كلما ازداد قرباً . . ازداد تواضعاً لله عز وجل اقتداءً بسيِّد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه في أعظم أحواله في الدنيا كان يوم فتح مكة ، ودخل صلى الله عليه وسلم مكة وهو مطرِق الرأس تواضعاً لله عز وجل ، وقال : « إن العيش عيش الآخرة »[1] إشارة منه صلى الله عليه وسلم إلى العزوف عن الدنيا ، وعن كلِّ ما يقطع عن الله تعالىٰ ، وأَنه لا ينبغي أن يُنظَر إليها أقبلت أو أدبرت مطلقاً ، لا في الرخاء ، ولا في الشدة .

ولهـٰذا إنه صلى الله عليه وسلم قال في أشد حالاته في الدنيا : « إن العيش عيش الآخرة » إشارة إلىٰ ما ذكرناه من قطع النظر عن الدنيا والعزوف عنها ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

قوله : (**وأجلس للتشهد بالتمام وأسلم بالسبيل والسُّنة**) مع ما فيه من رعاية الترتيب على الوجه المأمور فيه الوفاء بحقيقة قوله : (أقوم بالأمر) فإن جميع ما يأتي به العبد من العبادة على الوجه المأمور به . . هو من تفاصيل ما أُجمِل في قوله : (أقوم بالأمر) .

وفي قوله : (أسلم بالسبيل) معانٍ :

منها : السبيل المأمور به .

ومنها : قطع النظر عن ذلك العمل ، كأنه يقول : إني ما قمت بما يجب عليَّ علىٰ حقيقته ، فلا يراها ولا يرضاها ، وإنما يرى المنة عليه لله عز وجل في أن وفقه للعمل وسائر أنواع الطاعات ، وهـٰكذا شأن العارفين .

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٧٩) .

ألا ترىٰ إلىٰ ما حكاه الأستاذ أبو القاسم القشيري عن الإمام أبي بكر الواسطي قدس الله روحه قال : لما دخل الواسطي رحمه الله نيسابور . . سأل أصحاب أبي عثمان الحِيري ، فقال : بماذا كان يأمركم شيخكم ؟ قالوا : كان يأمرنا بلزوم الطاعات ، ورؤية التقصير فيها ، فقال : أمركم بالمجوسية المحضة ، هلا أمركم بلزوم الطاعات والغَيبة عنها برؤية مُنْشئها ومجريها سبحانه وتعالىٰ ؟!

وأيضاً : فقد علم أن من شأن العارفين أنهم لا يرون أعمالهم ؛ لما فيها من تقصير غلب ، أو غفلة وقعت .

ولهـٰذا : إنَّ بعض العارفين كان إذا فرغ من الصلاة . . يقول : اللهم ؛ اغفر لي تقصيري وغفلتي فيها وكأنه قد جنىٰ جناية ، وهو يستغفر الله تعالىٰ ، ويسأله المغفرة عن تلك الجناية .

والحال في ذلك يختلف ، أما باعتبار الخواص : فلِمَا يغلب عليهم من شدة المهابة والاحترام والتعظيم ، ولا يقدرون على الإتيان بما يجب من ذلك .

وأما في غيرهم : فلِمَا ذكرناه من التقصير الغالب والغفلة اللازمة .

ولهـٰذا : إن بعضهم كان يقول : إني لأصلي ركعتين ، فأنصرف عنهما بمنزلة المنصرف عن السرقة ؛ حياء من الله عز وجل .

وقوله : (**والسنة**) إشارة إلىٰ أن العمل له شرطان :

أحدهما : أن يكون خالصاً ، وقد تقدم بيان ذلك في قوله : (أقوم بالأمر) .

والثاني : أن يكون صواباً ، فالخالص : ما كان لله عز وجل ، والصواب : ما كان على السُّنة ، وقد اتفق العلماء علىٰ أن العمل القليل في سُنة خير من عبادة المغيِّرين ألف سَنة ، قالوا : ولن يَقِلَّ عمل في سُنة ، وكيف يَقِلُّ عمل متقبل ؟!

وأتىٰ بالألف واللام في (السُّنة) إشارة إلىٰ رعاية السُّنة في جميع العبادات ، وسائر أنواع الطاعات ، فهي للاستغراق أيضاً ، والعمل ـ والعياذ بالله ـ علىٰ غير السُّنة يدخل في قوله عز وجل : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ .

وقد قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : ما عمِل عامل علىٰ جهل . . إلا كان ما يفسد أكثر مما يصلح .

وقد قال العارفون : إعمالك الطاعات بالجهل . . أضر عليك من إعمالك المعاصي ؛ إذ الطاعات التي قد أتيت بها ترجو بها ثواباً ، وهي تستحق عقاباً ، وإعمالك المعاصي تخشىٰ عقابها ، وتلك الخشية قربة .

وهـٰذا باب متسِع واضح غني عن البيان .

قوله : (**وأسلِّمها بالإخلاص إلى الله عز وجل**) إشارة منه إلى الإخلاص الذي دخل فيه في قوله : (أقوم بالأمر) ، فالألف واللام هنا للعهد ، كأنه يقول : أسلمها بالإخلاص الذي دخلت إليها به .

وقوله : (**وأرجع علىٰ نفسي بالخوف أخاف ألاَّ يقبل مني ، وأحفظه بالجهد إلى الموت**) ينبغي لكل مؤمن أن يكون هـٰذا سبيله ؛ فإن الأئمة الأعلام من الصحابة والتابعين وتابعيهم هـٰكذا كان سبيلهم ، يأتون بالطاعات علىٰ أكمل الوجوه المأمور بها ، ويخافون كل الخوف ألاَّ يقبل منهم ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ .

وقد سألت عائشة رضي الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنىٰ هـٰذه الآية ، فبيَّنَ لها علىٰ نحو ما تقدم ، والحديث مشهور[1] .

وهكذا كان شأن جميع العارفين .

ألا ترىٰ إلىٰ أبي عثمان الحِيري رحمه الله حين سئل : ما علامة السعادة ؟ فقال : أن تطيع الله عز وجل ، وتخاف أن تكون مردوداً .

وكان بعضهم يقول : إن لم تخش أن يعذبك الله علىٰ أحسَنِ أعمالك . . فأنت هالك .

وقال بعضهم وقد سئل : ما علامة السعادة ؟ فقال : خوف الشقاوة ؛ لأن الخوف زمام بين الله عز وجل وبين عبده ، فإذا انقطع زمامه . . هلك مع الهالكين .

وقيل ليحيى بن معاذ الرازي رحمه الله : مَن آمن مِن الخوف غداً ؟ قال : أشدهم خوفاً اليوم .

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله : ما فارق الخوف قلباً . . إلا خرب .

وقوله : (**وأحفظه بالجهد إلى الموت**) إشارة إلى الدَّوام في العبادات ، ورعاية

---

(١) روى الإمام أحمد (٦/ ١٥٩) عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : يا رسول الله ؛ في هـٰذه الآية ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ يا رسول الله هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله ؟ قال : « لا يا بنت أبي بكر ، يا بنت الصديق ؛ ولـٰكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق ، وهو يخاف الله عز وجل » .

الخاتمة ، مع ما فيه من المحافظة على التنبيه علىٰ أن أحب الأعمال إلى الله عز وجل أدومه وإن قَلَّ ، وكل هـٰذا مستقىً من بحر السُّنة[1] .

وفيه الإشارة إلىٰ رعاية حسن الخاتمة كما مر ؛ فإن الأعمال بالخواتيم .

وقد قال غير واحد من العارفين ـ منهم : سيدي السري السقطي رحمه الله ـ : إن قلوب المقربين معلقة بالسوابق ، وقلوب الأبرار معلقة بالخواتيم ، هـٰؤلاء يقولون : بماذا يختم لنا ؟ وأولـٰئك يقولون : ماذا سبق لنا من الله عز وجل ؟

والأصل في جميع ذلك : ما قد عُرف من حال النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه كان صلى الله عليه وسلم متواصل الأحزان ، دائم البشر ، هـٰكذا كان حاله صلى الله عليه وسلم ، وقد قال تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ ، فحُزنه صلى الله عليه وسلم إنما كان لأجل لقاء الله عز وجل ؛ لأن قلبه الشريف متعلق بالله سبحانه وتعالىٰ ، فلا شيء أشوق إليه ولا أحب من لقاء الله سبحانه وتعالىٰ .

ولهـٰذا قال أبو الحسين النوري رحمه الله : اطلع الله عز وجل على القلوب ، فلم ير قلباً أشوق إلىٰ لقائه من قلب محمد صلى الله عليه وسلم ، فأكرمه بالمعراج تعجيلاً للرؤية والمكالمة .

وأما دوام البِشر : فهو من أجل الرأفة والرحمة بالأمة ، فأعطىٰ كل مقام حقه صلى الله عليه وسلم .

ولم يزل الصحابة رضوان الله عليهم مجتهدين في اقتفاء آثاره ولزوم متابعته في أقواله وأفعاله وسائر أحواله ، داعين الناس إلى الأخذ بالسُّنة ، وإلى التخلق بآدابه وأخلاقه وسائر شمائله صلى الله عليه وسلم ، وعلىٰ هـٰذا مضى التابعون ومن بعدهم من الأئمة رضوان الله تعالىٰ عليهم ؛ فإنَّ الغالب علىٰ أحوالهم الحزن والخوف ، ومراتبهم في ذلك متفاوتة بحسَب مشاربهم ، وما هم فيه من التمكن في مقامهم ، أقام الحسن البصري أربعين سَنة لم يضحك ، وثلاثين سنة لم يمزح ، وكان من يراه يقول : كأنه حديث عهد بمصيبة .

وكان سفيان الثوري لا يزال حزيناً ، فيقال له في ذلك ، فيقول : أخاف أن أكون في أم

---

(١) روىٰ مسلم (٢٨١٨) عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سددوا وقاربوا وأبشروا ؛ فإنه لن يُدخل الجنةَ أحداً عملُه » ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله منه برحمة ، واعلموا : أن أحب العمل إلى الله . . أدومه وإن قل » .

الكتاب شقياً ، وقد قال عند موته لحماد بن سلمة : يا أبا سلمة ؛ أترىٰ أن الله تعالىٰ يغفر لمثلي ؟ فقال له حماد : إي والله الذي لا إلٰه إلا هو ، قال : فكأنما سُرِّيَ عنه ، وكان يقول عند موته : ذهب الستر ، ذهب الستر .

وقال عبد الله بن ثعلبة لسفيان بن عيينة : يا أبا محمد ؛ واحزناه على الحزن! فقال له سفيان : يا عبد الله ؛ هل حزنت قط علىٰ سابق علم الله تعالىٰ فيك ؟ فقال له عبد الله : آه! تركتني الدهرَ لا أفرح أبداً[1] .

نسأل الله العظيم رب العرش العظيم بحق[2] محمد سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وبجاهه عنده . . أن يحسن عاقبتنا وخاتمتنا ، وأن يجعلنا من الذين سبقت لهم منه الحسنىٰ وزيادة ، وإن كنا في أم الكتاب أشقياء . . فأن يمحونا ويثبتنا سعداء ؛ فإنه تعالىٰ قال وهو أصدق القائلين : ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ، وألاَّ ينزع منا ما وهبه لنا من الإيمان ، وأن يحفظه علينا ، ويتوفانا عليه ، وهو وديعة لنا عنده سبحانه وتعالىٰ ؛ فإنه ما استُودع شيئاً . . إلا حفظه ، فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين ، وألاَّ يفقدنا حيث أمرنا ، ولا يرانا حيث نهانا ، وأن يغفر لنا ولوالدينا ومشايخنا وسائر المؤمنين والمؤمنات ، وأن يجود علينا برضاه ومحبته ودوام طاعته ، وأن يرزقنا شهادة في سبيله ، وموتة في بلد نبيه محمد صلى الله عليه وسلم سيد المرسلين وخاتم النبيين ، وعلىٰ آله ، وأصحابه ، وأزواجه ، وذريته ، كلما ذكره الذاكرون ، وكلما سَها عن ذكره الغافلون ، وأن يجعل ذلك خالصاً لوجهه الكريم ، موجباً للفوز لديه ، وأن يتقبله وينفع به ، إنه قريب مجيب ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) بعد ذكر الإخلاص والنية وأعمال التعظيم من الترتيل والركوع والسجود وبقية أعمال الصلاة تبين مِنْ شرح المؤلف رحمه الله أنه من راعىٰ هٰذه الأمور . . كان لا بد وأن يختم له ـ بفضل الله ـ بحسن الخاتمة بعد الموت ، فالمناسبة ظاهرة بهٰذه الخاتمة .

وفي نهاية المطاف : تبين أن كلامه رحمه الله كان بأسلوب ومعان مصوغة من كتاب الله عز وجل ، وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، فهي جديرة بأن تكون منهجاً يتبعه المسلم في صلاته من أولها إلىٰ آخرها ، وهٰذا شأنه وشأن جميع العارفين بالله سبحانه وتعالىٰ من السلف رضوان الله عليهم أجمعين .

(٢) في نسخة : (بحرمة) .

ومنهم الإمام :

أبو عبد الله الحارث بن أسد المُحَاسِبي

رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال الجنيد رحمه الله : كان الحارث المحاسبي يجيء إلىٰ منزلي ، فيقول لي : اخرج معي إلى الصحراء ، فأقول له : تخرجني من عزلتي وأنسي إلى الطرقات والآفات ورؤية الشهوات ، فيقول اخرج معي لا خوف عليك ، فأخرج معه ، فكان الطريق فارغاً من كل شيء ، لا نرىٰ شيئاً نكرهه ، فإذا وصلنا إلى الموضع الذي يريد أن نجلس فيه . . يقول لي : سلني ، فأقول له : ما عندي سؤال أسأله ، فيقول لي : سلني عما يقع في نفسك ، فتنثال[1] عليَّ السؤالات ، فأسأله عنها ، فيجيبني عنها للوقت ، ثم يمضي إلىٰ منزله ، فيعملها كتباً .

وقال الجنيد : كنت كثيراً أقول للحارث : عزلتي أنسي ، وتخرجني إلىٰ وحشة رؤية الناس والطرقات ؟! فيقول لي : كم تقول أنسي وعزلتي ؟! لو أن نصف الخلق تقربوا مني . . ما وجدت بهم أنساً ، ولو أن النصف الآخر نأىٰ عني . . ما استوحشت لبعدهم .

وقال الجنيد : كان الحارث كثير الفاقة ، فاجتاز بي يوماً وأنا جالس علىٰ بابنا ، فرأيت في وجهه أثر الجوع ، فقلت له : يا عم ؛ لو دخلت إلينا أكلت شيئاً ، فتسرني بذلك وتبرني ، فقال : نعم ، فدخلت بين يديه ، فلما دخل . . عمدت إلىٰ بيت عمي ـ وكان أوسع من بيتنا لا يخلو من أطعمة ـ فجئت بشيء من الطعام ، فوضعته بين يديه ، فمد يده وأخذ لقمة ، فرفعها إلىٰ فيه ، فرأيته يلوكها ولا يزدردها[2] ، ثم وثب وخرج وما كلمني ، فلما كان من الغد . . لقيته ، فقلت : يا عم ؛ سررتني ، ثم نغَّصت عليَّ ، فقال : يا بني ؛ أما الفاقة : فكانت شديدة ، وقد اجتهدت في أن أنال من الطعام الذي قدمته إلي شيئاً فلم أقدر ؛ فإنه بيني وبين الله عز وجل علامة إذا لم يكن الطعام عند الله سبحانه وتعالىٰ مرضياً . . ارتفع

---

(١) تنثال : تتابع وتنصَبُّ .

(٢) يزدردها : يبلعها .

إلىٰ أنفي منه زفرة ، فلم تقبله نفسي ، وقد رميت بتلك اللقمة في دهليزِكُم لمَّا خَرَجْتُ .

وقال الجنيد : مات أبو الحارث المحاسبي رحمه الله يوم مات وإن الحارث لمحتاج إلىٰ دانق فضة ، وخلَّف أبوه مالاً كثيراً ما أخذ منه حبة واحدة ، وقال : إن أهل ملتين لا يتوارثان ، وكان أبوه واقفياً[1] .

وقال أبو علي بن خيران الفقيه : رأيت أبا عبد الله الحارث بن أسد بباب الطاق[2] في وسط الطريق متعلقاً بأبيه ، والناس قد اجتمعوا عليه ، وهو يقول له : طلق أمي ؛ فإنك علىٰ دِين وهي علىٰ غيره .

وسئل الحارث ما تفسير : خير الرزق ما يكفي ؟ قال : هو قوت يوم بيوم ، ولا تهتم لرزق غد .

وقال الحارث : فقدنا ثلاثة أشياء لا نجدها : حسن الوجه مع الصيانة ، وحسن القول مع الديانة ، وحسن الإخاء مع الأمانة .

وقال : العلم يورث المخافة ، والزهد يورث الراحة ، والمعرفة تورث الإنابة .

وقال : مَن صلح باطنه بالمراقبة والإخلاص . . زين الله تعالىٰ ظاهره بالمجاهدة واتباع السنة ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ .

وقال : لا ينبغي للعبد أن يطلب الورع بتضييع الواجب .

وقال : إذا أنت لم تسمع نداء الله عز وجل . . كيف تجيب داعي الله تعالىٰ ؟!

وقال : أصل الطاعة الورع ، وأصل الورع التقوىٰ ، وأصل التقوىٰ محاسبة النفس ، وأصل محاسبة النفس الخوف والرجاء ، وأصل الخوف والرجاء معرفة الوعد والوعيد ، وأصل معرفة الوعد والوعيد ذِكر عُظم الجزاء ، وأصل ذلك الفكرة والعبرة ، وأصدق بيت قالته العرب . . قول حسان بن ثابت :

وما حَمَلَتْ من ناقةٍ فوق رَحْلِها أَعَفَّ وأوفىٰ ذمةً من محمَّدِ

صلى الله عليه وسلم

---

(١) **الواقفي** : من توقف في مسألة خلق القرآن ، فلا يقول : مخلوق ، ولا غير مخلوق ، ونسب ذلك إلى الجهمية .

(٢) **باب الطاق** : محلة كبيرة ببغداد بالجانب الشرقي ، تعرف بطاق أسماء .

وقال : قيل لبعض العارفين : الخوف أولىٰ بالمحب ، أم الشوق ؟ فقال : هـٰذه مسألة لا أجيب فيها ؛ لأنه ما اطلعت النفس علىٰ شيء . . إلا أفسدته ، وأنشدني عبد العزيز بن عبد الله في ذلك :

الخـــوف أولـــىٰ بـــالمســـي ... ء إذا تَنـــاوَلَـــه الحَـــزَنْ
والحـــب يَحسُـــنُ بـــالمطيـ ... ـــعِ وبـــالنقـــيِّ مـــن الـــدرنْ
والشـــوق للنجبـــاءِ والـ ... أبـــدالِ عنـــد ذوي الفِطَـــنْ

ولذلك قيل : الحب هو الشوق ؛ لأنك لا تشتاق إلا إلىٰ حبيب ، ولا فرق علىٰ هـٰذا بين الشوق والحب ؛ لأن الشوق فرع من فروع الحب الأصلي .

وقال : قال الله تعالىٰ لداوود عليه الصلاة والسلام : (يا داوود ؛ إذا رأيت لي طالباً . . فكن له خادماً ، يا داوود ؛ لأَنْ يخرج عبد من عبيدي علىٰ يديك من سَكرة الدنيا حتىٰ تستنقذه من سُكْر ما هو فيه ، فإن فعلت ذلك . . سميتك عندي جهبذاً ، ومَن كان جهبذاً . . لم يكن به فاقة ولا وحشة إلىٰ أحد) ، فقال داوود عليه الصلاة والسلام : يا رب ؛ أعطني ذلك وارزقنيه ؛ فإنه لا وصول لي إلىٰ شيء إلا بعطائك جل جلالك[1] .

وقال : قال الله عز وجل : (يا داوود ؛ مَن لقيني وهو يحبني . . أدخلته جنتي) .

وقال : حدثني بعض العلماء قال : أوحى الله عز وجل إلىٰ نبي من الأنبياء : (إني وعزتي وجلالي ما غضبت علىٰ شيء كغضبي علىٰ من أخطأ خطيئة ثم استعظمها في جنب عفوي ، ولو عاجلت أحداً بالعقوبة . . لعاجلت القانطين من رحمتي ، ولو يراني عبادي كيف أستوهبهم ممن اعتدوا عليهم بالظلم في الدنيا ثم أوجب لهم مع بغيهم في الدنيا النعيم المقيم . . لعرفوا فضلي وكرمي ، ولو لم أشكر عبادي إلا علىٰ خوفهم من الوقوف بين يدي . . لشكرتهم علىٰ ذلك ، ولو يراني عبادي كيف أرفع قصوراً تَحار فيها الأبصار ، فيقولون : لمَن هـٰذه ؟ فأقول : لمَن عصاني ولم يقطع رجاءه مني ، فأنا الديان الذي لا تحل معصيتي ، ولا حاجة بي إلىٰ هوان من خاف مقامي)[2] .

وقال : بلغني أن الحسن رحمه الله قال : أوحى الله عز وجل إلىٰ إبراهيم عليه الصلاة

---

(١) أخرج البيهقي في « الشعب » (٧/ ١٩٠) : أوحى الله إلىٰ داوود : (إذا رأيت لي طالباً . . فكن له خادماً ، يا داوود ؛ اصبر على المؤونة . . تأتيك المعونة) .

(٢) أخرجه بنحوه الديلمي (٥/ ٢٤٣) .

والسلام : (يا إبراهيم ؛ إنك خليلي ، فاحذر أن أطلع عليك فأجد قلبك مشغولاً بغيري ؛ فإنما أختار لخلتي من لو ألقي في النار وهو في ذِكري . . لم يجد لِمَسِّ النار ألماً ، ومن لو أدخل الجنة ورآها قد زخرفت وزينت بِحُورها وما فيها من النعيم . . لم يرها بُغيتَه ، ولا اشتغل بها عن ذِكري ، فإذا كان كذلك . . تواترت عليه ألطافي ، وقربته مني ، ووهبت له محبتي ، ومَن وهبت له محبتي . . فقد استمسك بحبلي ، فأي نعمة تعدل ذلك ؟! وأي شرف أشرف منه ؟! فوعزتي وجلالي ؛ لأرينه وجهي ، ولأشفينّ صدره من النظر إلي) .

وقال : قال إبراهيم بن أدهم : لو علم الناس قدر لذة حب الله عز وجل . . لقَلَّتْ مطاعمهم ومشاربهم وحرصهم ؛ وذلك أن الملائكة عليهم الصلاة والسلام أحبوا الله تعالىٰ ، فامتنعوا بذِكره عن غيره سبحانه وتعالىٰ .

وقال : بلغني أن الله عز وجل أوحىٰ إلىٰ يحيى بن زكريا : (يا يحيىٰ ؛ إني قضيت علىٰ نفسي أنه لا يحبني عبد من عبيدي أعلم ذلك من نيته . . إلا كنت سمعَه الذي يسمع به ، وبصرَه الذي يبصر به ، ولسانَه الذي يتكلم به ، وقلبَه الذي يفهم به ، فإذا كان كذلك . . صرفت عنه الاشتغال بغيري ، وأدمت فكرته ، وأسهرت ليله ، وأظمأت نهاره) .

وقال : بلغني أن الله عز وجل يقول لولي من أوليائه : (يا عبدي ؛ أمَّا زهدك في الدنيا . . فطلبتَ به الراحة ، وأما انقطاعك إلي . . فتعززتَ بي ، فهل عاديت لي عدواً أو واليت لي ولياً ؟)[1] .

وهـٰذا دليل علىٰ أن الحب في الله تعالىٰ والبغض في الله عز وجل من أوثق عرى الإيمان[2] ، وأولىٰ ما يُتقرب به إلى الرحيم الرحمـٰن .

وقال الحارث : الزاهدون أربعة : المحبون ، والخائفون ، والورعون ، والمتوكلون .

فأما الخائفون : فزهدوا في حلال الدنيا ؛ خوفاً من الحساب إذا سئلوا عن أداء شكر هـٰذه النعم ؛ فإنهم لم يؤدوا الشكر علىٰ قدر النعم حتىٰ ولا في نعمة ، فإنه سبحانه وتعالىٰ

---

(١) أخرج الديلمي (١/ ١٤٥) : أوحى الله إلىٰ نبي من الأنبياء : أن قل لفلان العابد : أما زهدك في الدنيا . . فتعجلت به راحة نفسك ، وأما انقطاعك إلي . . فتعززت بي ، فماذا عملت فيما لي عليك ؟) قال : يا رب ؛ وماذا لك علي ؟ قال : (هل واليت فيَّ ولياً ، أو عاديت فيَّ عدواً ؟) .

(٢) أخرج ابن أبي شيبة (٧/ ٨٠) : عن البراء بن عازب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أوثق عرى الإيمان . . الحب في الله والبغض في الله » .

لا يستطيع عبد أن يشكره علىٰ نعمه إلا بنعمة منه ، ويؤدي ذلك إلىٰ ما لا يتناهىٰ ، فسبحان صاحب النعم .

وفرقة من الخائفين أيضاً زهدوا في الحرام ؛ خوفاً من حلول النقمة ، وهـٰذا لا يسمىٰ زاهداً ، فإن فِعْل الواجبات لا يوصف فاعله بالزهد .

ومنهم[1] : مَن زهد في كل شبهة ، وهـٰذا أقرب إلى الزهد بالنسبة إلىٰ ما قبله .

وأما المتوكلون : فتركوا الاضطراب فيما قد تكفل لهم به رب الأرباب سبحانه وتعالىٰ من المعاش ؛ لقوة تصديقهم بوفاء الضامن سبحانه وتعالىٰ .

وأما المحبون : فللعلماء فيهم ثلاثة أقوال :

منهم من قال : زهد المحب في الدنيا كلها ؛ لِقِلَّتها وحقارتها في نفسه ، ولأنها بغيضة الله من خلقه .

ومنهم من قال : زهد المحب في الجنة دون الدنيا خوفاً من أن يقول له الله عز وجل : يا عبدي ؛ أي شيء تركت لي ؟ فيقول : تركت لك الدنيا ، فيقول تبارك وتعالىٰ : وما قدر الدنيا ؟ وهل كنت تملك منها شيئاً ؟ فيقول العبد : يا رب ؛ قدرها جناح بعوضة ، فعند ذلك يلحقه من الحياء الشديد من الله عز وجل ما يمنعه أن يقول : تركت ما قدره جناح بعوضة ، ولـٰكن يا رب ؛ أنت تعلم أني لم أعبدك شوقاً إلى الجنة ولا خوفاً من النار ، إنما عبدتك لابتغاء مرضاتك جل جلالك ، فلك المنة أولاً وآخراً ، وأنت تعلم أني لا أريد إلا ابتغاء رضوانك ، فهـٰذا زُهْد محب صادق زَهِد في الدنيا والآخرة .

ومنهم من قال ـ وهو أضعفها ـ : المحب الصادق : هو الذي يزهد في ابتداء أمره في الإخوان الذين يشغلونه عن الله عز وجل ، فقد زهد فيهم ؛ لعلمه بما يلحقه من الآفات عند مشاهدتهم .

وسئل الحارث رحمه الله : لِمَ كان الزهد مطلوباً ؟ فقال لخمسة أمور :

الأول : أن الدنيا مفتنة مشغلة للقلوب عن الله عز وجل .

والثاني : تُنقص غداً من درجات من ركن إليها ، فلا يحصل له من الدرجات كمن زهد فيها .

---

(١) وهم الورعون .

والثالث : الحبس في القيامة وطول الوقوف والسؤال عن شكر التنعم بها ، وفي واحدة من هـٰذه ما يبعث العبد على الزهد فيها .

والرابع : انقطاعها عن قريب مع ما يحصل فيها من الشوائب لمن وُصِف بالقدرة عليها .

والخامس ـ وهو أعظم ما تركت الدنيا لأجله ـ : موافقةُ ما فيه رضا الله جل جلاله ، وهو أن يصغِّروا ما صغر الله سبحانه وتعالىٰ ، ويقللوا ما قلل الله عز وجل ، ويبغضوا ما أبغض الله تعالىٰ ، ويرفضوا ما أحب الله سبحانه وتعالىٰ رفضه ، ولو لم ينقصهم من ذلك ، ولم يشغلهم في دنياهم عن طاعته ، ولم يسألوا عن شكره ، وكان ثواب الرافض لها والراكن إليها في الآخرة واحداً . . لكان ينبغي ـ علىٰ طريق الوجوب وشدة الحياء من الله سبحانه وتعالىٰ لجميع العباد ـ أن يبغضوا ما أبغض مالكهم سبحانه وتعالىٰ ، ويهينوا ما أهان ربهم عز وجل ، وذلك زهد المحبين المعظِّمين لله رب العالمين سبحانه وتعالىٰ .

وهـٰذه الخمس خصال دل عليها الكتاب والسُّنة ، فلله الحمد والمنة . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ٧٤ـ٨٨] .

وقال في « المناقب » : قال محمد بن خفيف رحمه الله : دخلت يوماً على القاضي علي بن أحمد ، فقال لي : يا أبا عبد الله ؛ هـٰهنا لكم حكاية تحتاج [لأَن] نكتبها بماء الذهب ، فقلت له : أيها القاضي ؛ ماء الذهب لا أجده ، ولـٰكني أكتبها بالحبر الجيد .

فقال : بلغني أنه قيل لأبي عبد الله أحمد ابن حنبل : إن الحارث بن أسد يتكلم في علم القوم ، ويحتج عليه بالآيات والسنن ، فقال أحمد : أحب أن أسمع كلامه من حيث لا يعلم بموضعي ، فقال له الرجل : أنا أعمل هـٰذا فاتخذ دعوة ودعا الحارث وأصحابه ، ودعا أحمد ، وجلس أحمد حيث لا يراه الحارث ، فلما جاء الحارث وأصحابه ، وحضرت الصلاة . . تقدم وصلىٰ بهم المغرب ، وأحضروا الطعام ، فجعل يأكل ويتحدث معهم ، فقال أحمد : هـٰذا من السُّنة ، فلما فرغوا . . غسلوا أيديهم ، فقال أحمد : وهـٰذا أيضاً من السُّنة ، ثم جلس الحارث وجلس أصحابه ، فقال : مَن أراد منكم أن يسأل عن شيء . . فليسأل ، فسُئل عن الإخلاص وعن مسائل كثيرة ، فأجاب عنها بأحسن جواب ، واستشهد عليها بالآيات والسنن ، وأحمد يسمع ، فلما مر هَوِيٌّ[1] من الليل . . أمر الحارث قارئاً يقرأ شيئاً من القرآن ، فبكىٰ بعضهم وانتحب آخرون ، ثم سكت الحارث ودعا بدعوات خفاف ،

---

(١) **الهَوِيُّ** : الساعة الممتدة والحين الطويل من الليل .

ثم قام إلى الصلاة ، فقال أحمد : قد كان يبلغني غير هـٰذا ، أما هـٰذا . . فلا أنكر منه شيئاً ، والله سبحانه أعلم . انتهىٰ .

زاد في رواية أخرىٰ : أن الحارث لما أخذ في الكلام . . بقي أصحابه يسمعون كأن علىٰ رؤوسهم الطير ، فمنهم مَن يبكي ، ومنهم مَن ينتحب ، قال : فجئت إلىٰ أحمد ـ وكان في غرفة ـ فوجدته باكياً وقد غشي عليه ، فتركته ، ثم عدت إليهم ، ولم يزل هـٰذا حالهم في القراءة والذِّكر إلىٰ آخر الليل ، فلما صَلَّوا وذهبوا . . جئت إلىٰ أحمد ابن حنبل ، فقال : ما أعلم أني رأيت مثل هـٰؤلاء القوم ، ولا سمعت في علم الحقائق مثل كلام هـٰذا الرجل . أو كما قال . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ٧٤ـ٨٨] .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ قدس الله روحه ـ : سئل الحارث : بماذا يتولد الصدق ؟ فقال : مِن المعرفة بالله عز وجل بأنه يسمع ويرىٰ ، وخوف السؤال عن مثاقيل الذر من إرسال اللفظ ، وخلف الوعد ، وتأخير الضمان ، وعلىٰ قدر قوة الصدق يزداد العبد في أعمال البر .

وسئل عن الشكر فقال : علم العبد بأن جميع النعم من الله عز وجل وحده ، وألاّ نعمة علىٰ خلق مِن أهل السماوات والأرض . . إلا مِن الله سبحانه وتعالىٰ .

وقال : كن لكل من رأيت من المؤمنين معظماً له بالقلب والضمير ، مفضلاً له علىٰ نفسك ، وكل من رأيته من أهل الإسلام رجوتَ بركته ، والتمستَ دعوته ، وظننت أنه إنما يدفع عنك به .

وقال : لا طاقة لأحد من العباد بغضب رب الأرباب جل جلاله ، ولا وضع عدله علىٰ أحد منهم . . إلا هلك ، جل الله العظيم الحليم .

وهـٰذا نظير قول بعض العارفين : إن وضع عليهم عدله . . لم يبق لهم حسنة ، وإن وضع عليهم فضله . . لم يبق لهم سيئة ، وبقيت أعمالهم فضلاً لهم .

وسئل الحارث عن قول أبي سليمان الداراني : ما رجع مَن وصل ، ولو وصلوا . . ما رجعوا ، فقال الحارث : هـٰذا فيه أجوبة :

منها : أن يكون علىٰ طريق التحريض للمريدين ؛ لئلا يميلوا إلى الفتور ، ويحترزوا من الانقطاع ، ويجدُّوا في طلب الاتصال والقرب إلى الله عز وجل .

ومنها : ما هو أعلىٰ من ذلك ، وهو : أن يكون مراده : ما رجع إلى الزلل مَن وصل إلىٰ

صافي العمل ، ويحتمل : ما رجع إلىٰ وحشة الفتور مَن وصل إلى المقامات السنية من الأمور ، ويحتمل : ما رجع إلىٰ ذل العبودية للمخلوقين مَن وصل إلىٰ طيب روح اليقين واستند إلىٰ كفاية رب العالمين .

وبات السائل تلك الليلة عند الحارث ، فلما أصبح . . قال الحارث : رأيت فيما يرى النائم كأن راكباً واقف وأنا أتكلم في هـٰذه المسألة ، فقال ـ وهو يشير بيده ـ : ما رجع إلى الانتقاص مَن وصل إلى الإخلاص .

وسئل عن العبد يفوته شيء من العلم فيغتم ، ويفوته شيء من العمل فلا يغتم ، فقال : هـٰذا من عدم خوفه لعظيم حجة الله عز وجل عليه فيما علم ولم يعمل ، ومِن كونه لم تكن نيته أن يعمل بما يحصل له من العلم ، وكان يحق عليه أن يكون بما علم ولزمته الحجة فيه أشد اجتهاداً في العمل به مما لم يعلمه ؛ لأنه إن ضيَّع وهو لا يعلم . . خير مِن أن يضيع حق الله عز وجل وهو يعلم ؛ لأن الجاهل لا يأتي بتعمد قلبه ولا بالجرأة والاستيقان بأن الله عز وجل مطلع عليه . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ٨٨ـ٩٦] .

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري : سئل أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي عن المحبة فقال : المحبة : ميلك إلى الشيء بكليتك ، ثم إيثارك له علىٰ نفسك وروحك ومالك ، ثم موافقتك له سراً وجهراً ، ثم اعترافك بتقصيرك في حبه . انتهىٰ [« الرسالة القشيرية » ٢٥١] .

وقال الحافظ الخطيب البغدادي ـ رحمه الله ـ : إن الحارث بن أسد المحاسبي لما حضرته الوفاة . . قال لأصحابه الذين عنده : إن رأيتُ ما أحبُّ . . تبسمت إليكم ، وإن رأيت غير ذلك . . تبينتم في وجهي ، قال : فتبسم ، ثم مات رحمه الله تعالىٰ . انتهىٰ [« تاريخ بغداد » ٨/ ٢١١] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو الحسن السري بن مغلس السَّقَطي
رضي الله عنه

خال أبي القاسم الجنيد رحمه الله .

قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : قال السري : لو أحسست بإنسان يريد أن يدخل عليَّ ، فقلت بلحيتي كذا ـ وأَمَرَّ يده علىٰ لحيته كأنه يريد تسويتها ـ من أجل دخول ذلك الداخل . . لخفت أن يعذبني الله عز وجل علىٰ ذلك بالنار[1] .

وكان يقول : إني لأنظر إلىٰ أنفي كل يوم مراراً ؛ مخافة أن يكون وجهي قد اسودَّ .

وقال : ما أحب أن أموت حيث أُعرف ، فقيل له : ولِمَ ذلك ؟ فقال : أخاف ألاّ يقبلني قبري ، فأفتضح .

وقال : إن نفسي نازعتني أن أغمس جزرة في دبس منذ ثلاثين سنة ، فما يمكنني .

وقال : أحب أن آكل أكلة ليس لله عز وجل عليَّ فيها تبعة ، ولا لمخلوق عليَّ فيها مِنَّة ، فما أجد إلىٰ ذلك سبيلاً .

وقال : خرجنا يوماً من مكة نريد بعض المواطن ، فلما أصحرنا . . رأيت في مجرى السيل طاقة بَقْلٍ ، فمددت يدي ، فأخذتها ، وقلت : الحمد لله رب العالمين ، ورجوت أن يكون حلالاً ليس لمخلوق فيها مِنة ، فقال لي بعض من رآني : يا أبا الحسن ؛ التفِتْ ، فالتفتُّ ؛ فإذا مثل تلك الطاقة كثير ، فقال لي : خذ هـٰذا ، فقلت له : الطاقة الأولىٰ ليس لأحد فيها مِنة ، وهـٰذا بدلالتك فيه مِنة ، وإنَّما أريد ما لا منة فيه لمخلوق ، ولا تبعة فيه لله عز وجل .

وقال : كنت بطرسوس ، وكان معي في الدار فتيان متعبدون ، وكان في الدار تنُّور يخبزون فيه ، فانكسر التنور ، فعملت لهم بَدَلَه من مالي ، فتورعوا أن يخبزوا فيه .

---

(١) انظر ترجمة حاتم الأصم ففيها التعليق علىٰ هـٰذا الخبر .

وقال : مِن النذالة أن يأكل العبد بدِينه .

وقال علي بن الحسين بن حرب : بعث أبي معي إلى السري بشيء من حَبِّ السُّعال ، فقال لي : كم ثمنه ؟ قلت له : لم يخبرني أبي بشيء ، قال : اقرأ عليه السلام ، وقل له : نحن نُعلِّم الناس منذ خمسين سَنة ألاّ يأكلوا بأديانهم ، ترانا اليوم نأكل بأديانا ؟!

وقال علي بن عبد الحميد الغضائري : دققت الباب على السري ، فسمعت من وراء الباب ـ وقد قام إلىٰ عضادتي الباب ـ وهو يقول : اللهم ؛ اشغل من شغلني عنك بك ، فكان من بركة دعائه أني حججت أربعين حجة من حلب علىٰ رِجلَيَّ ماشياً ذهاباً وإياباً . [انتهىٰ « الحلية » ١٠/١١٦ـ١١٧] .

زاد في « **لوامع أنوار القلوب** » : قال أبو إسحاق الجيلي : قدمت علىٰ علي بن عبد الحميد الغضائري ، فوجدته من أفضل خَلْق الله عبادة ، ومن أكثرهم مجاهدة ، وكان لا يتفرغ من صلاته آناء ليله ونهاره ، فانتظرت فراغه ، فلم أُصِبه ، فقلت : إنا تركنا الآباء والأمهات والأهلين والأوطان بالرحلة إليك ، فلو تفرغت لنا ساعة فحدثتنا بما آتاك الله من العلم ، فقال : أدركَني دعاء الشيخ الصالح السري السقطي رحمه الله ، جئت يوماً إليه ، فقرعت بابه وهو في مناجاته ، فقال : مَن ؟ قلت : فلان ، فسمعته يقول قبل أن يخرج إلي : اللهم ؛ مَن جاءني يشغلني عن مناجاتك . . فاشغله بك عني ، فما رجعت عنه حتىٰ حُبِّب إليَّ الصلاة والشغلُ بذِكره سبحانه وتعالىٰ ، فلا أتفرغ لشيء سواه ببركة الشيخ ، قال أبو إسحاق : فرأيت كلامه يخرج عن قلب حزين ، وهَمٍّ كمين ، والدمع يسبقه .

وقال السري : خمس مَن كُنَّ فيه . . فهو شجاع :

ـ الاستقامة علىٰ أوامر الله عز وجل .

ـ واجتهاد ليس معه سهو .

ـ وتيقظ ليس معه غفلة .

ـ ومراقبة لله عز وجل في السر والجهر ليس معه رياء .

ـ ومراقبة الموت بالتأهب . انتهىٰ .

وقال في « المناقب » : قال السري رحمه الله : خير الرزق . . ما سلم من الآثام في الاكتساب ، ومن المذلة والخضوع في السؤال ، ويكون سليماً من الغش في الصناعة ومعاملة الظلمة .

وقال السري : أقوى الناس . . مَن ملك غضبه ، ومَن تزين للناس بما ليس فيه . . سقط من عين الله عز وجل .

وقال : لن يكمل الرجل حتىٰ يؤثر دِينه علىٰ شهوته ، ولن يهلك حتىٰ يؤثر شهوته علىٰ دِينه .

وروي أن السري رحمه الله أنشد يوماً :

لا في النهار ولا في الليل لي فَرَجٌ ... فلا أبالي أطال الليل أم قَصُرا

لأنني طول ليلي هائم دَنِفٌ ... وبالنهار أقاسي الهمَّ والفِكَرا[1]

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : قال السري رحمه الله : للمريد عشرة[2] مقامات : التحبب إلى الله عز وجل ، والتزين عنده بنصيحة الأمة ، والأنس بكلام الله عز وجل ، والصبر علىٰ أحكام ، والأثرة لأمره جل جلاله ، والحياء من نظره سبحانه وتعالىٰ ، وبذل المجهود في مرضاته ، والرضا بالقلة ، والقناعة بالخمول .

وقال : للخائف عشر مقامات[3] : الحزن اللازم ، والهَمُّ الغالب ، والخشية المقلقة ، وكثرة البكاء ، ووجل القلب ، وتنغص العيش ، ومرافقة الكمد ، [وكثرة الوله ، والهرب من مواطن الراحة ، والتضرع في الليل والنهار][4] .

وقال الجنيد : قال رجل للسري : كيف أنت ؟ فأنشأ يقول :

مَن لم يَبِتْ والحب حَشْوَ فؤاده ... لم يدر كيف تَفَتُّتُ الأكبادِ

وقال الجنيد : دفع السري إلي يوماً رقعة ، وقال : انظر ما فيها ، فقرأتها ؛ فإذا فيها :

ولما ادعيت الحب قالت كذبتني ... فما لي أرى الأعضاء منك كواسيا

فما الحب حتىٰ يلصق الظهرُ بالحشا ... وتَذْبُلَ حتىٰ لا تجيبَ المناديا

وتنحلَ حتىٰ لا يُبَقِّي لك الهوىٰ ... سوىٰ مقلةٍ تبكي بها وتُناجِيا[5]

---

(١) دَنِفٌ : مصاب بمرض ملازم .

(٢) لم يذكر الحافظ أبو نعيم في « الحلية » غير تسعةٍ .

(٣) (في بعض النسخ : (عشر مقامات منها) .

(٤) لم يذكر المؤلف غير سبعة والثلاثة الأخيرة ذكرها الحافظ أبو نعيم في « الحلية » .

(٥) انظر « شذرات الذهب » (١/ ١٢٧) .

وقال السري رحمه الله : لا يطيب عيش الزاهد إذا اشتغل بنفسه ، ولا يطيب عيش العارف إذا اشتغل عن نفسه[1] . [انتهىٰ « الحلية » ١٠/١١٧-١١٩] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : هـٰذا موافق لما نقلناه عن أبي سليمان الداراني حيث قال : الاشتغال بالنفس من مقامات العاملين ، والاشتغال عن النفس من مقامات العارفين .

وقال السري : مارست كل شيء من أمر الزهد فنلت منه ما أريد ، إلا الزهد في الناس ؛ فإني لم أبلغه ولم أطقه .

وقال السري : كل الدنيا فضول ، إلا خمس خصال : خبز يشبعه ، وماء يرويه ، وثوب يستره ، وبيت يسكنه ، وعِلم يستعمله .

وقال : أربع خصال ترفع العبد : العلم ، والأدب ، والفقه ، والأمانة .

وكان يقول : اللهم ؛ ما عذبتني بشيء ، فلا تعذبني بذُلِّ الحجاب .

وقال : انقطع مَن انقطع عن الله عز وجل بخصلتين ، واتصل مَن اتصل بالله تعالىٰ بأربع خصال :

فأما المنقطع بخصلتين :

[الأولىٰ] : فيتخطىٰ إلىٰ نافلة بتضييع فريضة .

والثانية : عمل بظاهر الجوارح ولم يواطىء عليه صدق القلوب .

وأما المتصلون : فبلزوم الباب ، والتشمير في الخدمة ، والصبر على المكاره ، وصيانات الكرامات .

وقال : معنى الصبر : أن يكون مثل الأرض ؛ تحمل الجبال وبني آدم وكل ما عليها لا تأبىٰ ذلك ، وكذلك الصابر يحتمل كل ما كرهته النفوس بسخاء نفسه لا يأبىٰ ذلك ولا يسميه بلاء ، بل يسميه نعمة وموهبة من الله عز وجل .

وقال : صليت وِرْدي ليلة ومددت رجلي في المحراب ، فنوديت : يا سري ؛ كذا

---

(١) في نسخة : (لا يطيب عيش الزاهد إذا اشتغل عن نفسه ، ولا يطيب عيش العارف إذا اشتغل بنفسه) ولعل الصواب ما أثبت ، والله أعلم .

تجالس الملوك ؟! قال : فضممت رجلي ، ثم قلت : وعزتك وجلالك ؛ لا مددت رجلي أبداً .

وقال أحمد بن خلف : دخلت يوماً على السري ، فرأيت في غرفته كوزاً جديداً مكسوراً ، فقال : أردت ماءاً مبرداً في كوز جديد ، فوضعته علىٰ هـٰذا الرواق [ليبرد] ونمت ، فرأيت في منامي جارية متزيِّنة فقالت لي : يا سَري ؛ مَن يخطب مثلي يبرد الماء ؟! ثم رفسته برجلها ، فاستيقظت من نومي ؛ فإذا هو مطروح مكسور .

زاد في رواية صاحب « المناقب » : قال أبو القاسم الجنيد : فرأيت الخزف المكسور لم يمسه ولم يرفعه حتىٰ عفا عليه التراب .

وزاد في « لوامع أنوار القلوب » : فقال الجنيد : ترك الهوىٰ ، ومخالفة النفس ، وقمع الشهوات واللذات . . من دواعي الوصول وشواهد المشاهدة . انتهىٰ .

وقال الحافظ : قال السري : مَن ادعىٰ باطن علم ينقض ظاهر حكم . . فهو غالط . [انتهىٰ « الحلية » ١٠/ ١٢١] .

وقال في « المناقب » : قال السري : العارف هو الذي لا يطفىءُ نورُ معرفته نورَ ورعه ، ولا يتكلم في علم باطن ينقضه عليه ظاهر الكتاب والسُّنة ، ولا تحمله الكرامات علىٰ هتك أستار محارم الله تعالىٰ .

وقال السري : التوكل : الانخلاع عن الحول والقوة .

وأربع من أخلاق الأبدال : استقصاء الورع ، وتصحيح الإرادة ، وسلامة الصدر للخَلْق ، والنصيحة لهم .

وأربع يرفع الله بها العبد : العلم ، والأدب ، والدِّين ، والأمانة .

وثلاث من أخلاق المؤمنين : القيام بالفرائض ، واجتناب المحارم ، وترك الغفلة .

وثلاث من أخلاق الأبرار ، يُبلِّغن العبد رضوان الله : كثرة الاستغفار ، وخفض الجناح ، ومداومة الصدقات .

وثلاث من أبواب سخط الله : اللعب ، والاستهزاء ، والغِيبة .

وأما عمود الدين وذروة سنامه : فحسن الظن بالله عز وجل .

وسئل السري عن الصبر ؛ فجعل يتكلم فيه ، فدبَّت علىٰ رجله عقرب ، وهي تضربه

بإبرتها وهو ساكن ، فقيل له : لِمَ لمْ تُنحِّها عنك ؟ فقال : إني استحييت من الله تعالىٰ أن أتكلم في الصبر ولا أصبر .

وقال السري : كنت أطلب رجلاً صِدِّيقاً مدة من الزمان ، فمررت ببعض الجبال ، فرأيت جماعة زمنىٰ وعميان ومرضىٰ ، فسألت عن حالهم ، فقالوا : هٰهنا رجل صِدِّيق يخرج في السَّنة مرة واحدة يدعو لهم ، فيجدون الشفاء ، فصبرت حتىٰ خرج فدعا لهم ، فوجدوا الشفاء في الوقت ، فقفوت أثره ، وتعلقت به ، وقلت له : بي علة باطنة ، فما دواؤها ؟ فقال : خل عني يا سري ؛ فإنه سبحانه وتعالىٰ غيور لا يحب أن يراك تسأل غيره ، فتسقط من عينه جل جلاله .

وفي رواية أخرىٰ : احذره سبحانه وتعالىٰ ؛ فإنه غيور ، لا يحب أن تسأل غيره . وتركني ومضىٰ .

[قال الحافظ ـ رحمه الله ـ] : قال : ينبغي للعبد أن يكون أخوف ما يكون من الله عز وجل . . آمن ما يكون من ربه جل جلاله .

وقال : لا تركن إلى الدنيا ؛ فينقطع من الله تعالىٰ حبلك ، ولا تمش في الأرض مرحاً ؛ فإنها عن قليل قبرك .

وقال : قال بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لقومه : ألا تستحيون من كثرة ما لا تستحيون منه سبحانه وتعالىٰ ؟

وقال السري : أصفىٰ ما يكون ذِكري إذا كنت مشغول القلب به سبحانه وتعالىٰ .

وقال : قلوب المقربين معلقة بالسوابق ، وقلوب الأبرار معلقة بالخواتيم ، هٰؤلاء يقولون : بماذا يختم لنا ؟ وأولٰئك يقولون : ماذا سبق من الله لنا ؟

قال : رأيت الفوائد ترد في ظلم الليل .

وقال : تخليص العمل حتىٰ يخلُص . . أشد من العمل ، والإبقاء على العمل بعدما يخلص . . أشد من العمل .

وقال : مَن اشتغل بمناجاة الله سبحانه وتعالىٰ . . أورثه حلاوةُ ذِكر الله عز وجل مرارةَ ما يلقي إليه الشيطان .

وقال : توثق الإخوان ولا تأمنهم علىٰ سرك ، واحذر إخوان السوء ، واتهم صديقك كما تتهم عدوك .

وكان يقول : لو علمت أن جلوسي في البيت أفضل من خروجي إلى المجلس . . ما خرجت ، ولو علمت أن جلوسي معكم أفضل من جلوسي في البيت . . ما جلست ، ولـٰكني إن دخلت . . اقتضاني العلم لكم ، وإن خرجت نافرتني الحقيقة ، فأنا عند منافرتي مستحيي ، وأنا عند اقتضاء العلم محجوج .

وقال : مَن استعمل التسويف . . طالت حسرته يوم القيامة .

وقال السري : قال ابن المبارك للفضيل بن عياض رحمه الله : يا أبا علي ؛ خَزَّنَ الناس علينا العلمَ ، وخَزَّنْتَ علينا الحكمة .

وقال السري رحمه الله : كنت مريضاً بطرسوس ، فدخل عليَّ ثقلاء يعودونني وأطالوا ، ثم قالوا : إن رأيت أن تدعو ، فقلت : اللهم ؛ علمنا أدب العيادة .

وقال أحمد بن خلف : دخلت يوماً على السري فقال لي : ألا تعجب من عصفور يجيء ، فيسقط علىٰ هـٰذا الرواق ، فأكون قد أعددت له لقمة ، فأفتها في كفي ، فيسقط علىٰ أطراف أناملي ، فيأكل ، فلما كان في وقت من الأوقات . . سقط على الرواق ، ففتت الخبز في يدي ، فلم يسقط علىٰ يدي كما كان ، فذكرت في سري العلة في وحشته مني ، فوجدتني قد أكلت ملحاً مطيباً ، فقلت في سري : أنا تائب من الملح المطيب ، فسقط علىٰ يدي ، فأكل وانصرف . [انتهىٰ « الحلية » ١٠/ ١٢١ـ١٢٣] .

زاد في « لوامع أنوار القلوب » : أن السري اغتم علىٰ أيام الوصال ، وجعل علىٰ نفسه الوفاء بالعهد ، فعلم الله سبحانه وتعالىٰ صدق نيته ، فجاء العصفور وأكل علىٰ عادته ، فقال السري رحمه الله : رعاية الوصال أضعف من بداية الحال ، والحسرة علىٰ فواتها أكبر من التعقب في تحصيل ابتدائها .

وقال الجنيد : دخلت على السري يوماً وهو يبكي ، فسألته عن حاله ، فقال : أنا أتعجب من نفسي ، كأنها ليست هي التي كانت معي في ابتداء إرادتي ، وأنا أكدها في السهر والأسفار ، واليوم تطالبني نفسي بالدعة وتحسن لي تأويلات البطالة .

قال الجنيد : وكان ورد السري في هـٰذه الحالة وِرْداً يعجز عنه الشباب ، مِن حفظ الأدب في خلواته ، وتأديب النفس في مجاهداته ، وأنشأ يقول :

مضىٰ لي زمان لو أُخَيَّرُ بينه ... وبين حياتي خالداً آخرَ الدهرِ
لقلت دعوني ساعة وحديثَها ... علىٰ غفلة الواشين ثم اقطعوا عمري

وقال في « المناقب » : قال السري : رأس الأعمال كلها الرضا عن الله ، والورع عمود الدين ، والجوع مخ العبادة ، والحصن الحصين ضبط اللسان ، ومَن شكر الله تعالىٰ . . جرىٰ في ميدان الزيادة .

وقال السري : صحبت رجلاً يقال له : الواله ، صحبته سَنة لم أسأله عن مسألة ، فقلت له يوماً : أيش المعرفة التي ما فوقها معرفة ؟ فقال : أن تجد الله أقرب إليك من كل شيء ، وأن ينمحي من سرائرك وظواهرك كلُّ شيء غيرُ الله ، فقلت له : بأي شيء يُوصَلُ إلىٰ هـٰذا ؟ فقال : بزهدك فيك ، ورغبتك فيه سبحانه وتعالىٰ .

قال السري : فكان كلامه سبب انتفاعي بهـٰذا الأمر .

وقال السري : التوكل والتعفف يمنعان من الذلة ، والإحسان والكرم يمنعان من دناءة الأخلاق ، والزهد يمنع من التعب .

وقال الجنيد : دخلت يوماً على السري ، فقال لي : ما أوائل أحوال الصدِّيقين ؟ قلت : لا أدري ، فقال : ثلاثة :

ـ أن يكونوا بما في أيديهم مع إخوانهم سواء .

ـ ويطالبوا نفوسهم بما للناس عليهم .

ـ وإذا عرض أمران لله عز وجل فيهما رضا . . حملوا أنفسهم علىٰ أصعبهما وأشدهما ، وإن كان فيه تلف نفوسهم .

وقال السري : اطلب حياة قلبك بمجالسة أهل الذِّكر[1] ، واستجلب نور القلب بدوام الحزن ، والتمس وجود الذِّكر في مواطن الخوف ، وألِحَّ في المسألة عند وَجَل القلب ، وتزين لله تعالىٰ بالصدق ، وتحبب إليه بمحبة تعجيل الانتقال ، وإياك والتسويف ، ونافس الأبرار في إقامة الفرض ، ونافس المقربين في إخلاص النوافل وترك فضول الحلال ، واطلب حلاوة المناجاة بفراغ القلب وجمع الهَمِّ ، واستجلب زيادة النعم بكثرة الشكر . انتهىٰ .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ قدس الله روحه ـ : قال السري : هـٰذا الذي أنا فيه من بركات معروف الكرخي ، انصرفت من صلاة العيد ، فرأيت مع معروف الكرخي صبياً رَثَّ الحال

---

(١) في نسخة : (الفكر) .

شَعْثَ الهيئة ، فقلت له : مَن هـٰذا ؟ فقال : رأيت الصبيان يلعبون وهـٰذا واقف منكسر القلب حزيناً ، فسألته عن حاله ، فقال : أنا يتيم ، قال السري : فقلت له : ماذا تريد أن تصنع معه ؟ فقال : لَعلِّي أخلو فأجمع له نوىٰ يشتري به جوزاً يفرح به ، قلت له : أعطنيه أُغيِّر من حاله ، فقال لي : وتفعل ؟ قلت : نعم ، فقال : خذه بغَّضَ الله تعالىٰ إليك الدنيا ، وأراحك مما أنت فيه ، قال السري : فانصرفت ولا شيء أبغض إلي من الدنيا .

وقال أحمد بن عمرو الخلقاني : خرجت مع السري يوم العيد من المسجد ، فلقي رجلاً جليلاً ، فسلم عليه سلاماً ناقصاً ، فقلت : إن هـٰذا فلان ، قال : قد عرفته ، قلت : فلِمَ نقصته في السلام ؟ قال : لأنه يُروىٰ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا التقى المسلمان . . قسمت بينهما مئة رحمة ، تسعون لأَبَشِّهما بصاحبه »[1] ، فأردت أن يكون معه الأكثر . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ١٢٣ـ١٢٤] .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : اعلم : أن هـٰذا الخبر لم يثبت ، ولو ثبت . . ففي صحة هـٰذه الرواية عن السري نظر ، فلا يثبت عنه أنه قال ذلك ؛ لأن الخبر إن صح . . فلا يخفىٰ على السري رحمه الله ـ مع جلالة قدره ـ أن الإيثار بالقُرَب غير جائز[2] .

قال أبو بكر الكتاني : دخلت على السري ، فجاء بفتيت وأخذ يجعل نصفه في القدح ، فقلت : أيش هو ذا تعمل ؟ أنا أشربه كله في مرة ، فضحك ، وقال : هـٰذا أفضل لك من حجة .

ثم قال الحافظ : قال السري : إذا فاتني جزء من وردي . . لا يمكنني أن أقضيه أبداً .

قال الجنيد : لأن السري كان متصل التنفل[3] .

وقال : مَن لم يعرف قدر النعم . . سُلِبَها من حيث لا يعلم ، ومَن هانت عليه المصائب . . أحرز ثوابها .

وقال : الأدب تَرجُمان العقل ، واللسان ترجمان القلب ؛ والوجه مرآة القلب ؛ تبين على الوجوه ما تضمر القلوب .

وقال : القلوب ثلاثة :

---

(١) أخرجه بنحوه الطبراني في « الأوسط » (٧/ ٣٤٢) .

(٢) وسيأتي بيانٌ وافٍ علىٰ ذلك في هـٰذه الترجمة إن شاء الله تعالىٰ .

(٣) في نسخة : (الشغل) .

ـ قلب مثل الجبل ؛ لا يزيله شيء .

ـ وقلب مثل النخلة ؛ أصلها ثابت والريح تميلها .

ـ وقلب كالريشة ؛ تميل مع الريح يميناً وشمالاً .

وقال : أقوى القوة . . غَلَبَتُكَ نَفْسَك ؛ ومَن عجز عن أدب نفسه . . كان عن أدب غيره أعجز ، ومَن أطاع من فوقه . . أطاعه مَن دونه .

وقال : لا تصرم[1] أخاك على ارتياب ، ولا تدعه دون استعتاب ، ومِن علامة المعرفة بالله عز وجل . . القيام بحقوق الله تعالىٰ ، وإيثاره على النفس فيما أمكنت فيه القدرة ، ومِن علامة الاستدراج . . العمىٰ عن عيوب النفس ، ومن قلة الصدق . . كثرة الخلطاء .

وقال : خمسة أشياء لا يسكن معها في القلب غيرها :

ـ الخوف من الله تعالىٰ وحده .

ـ والرجاء من الله تعالىٰ وحده .

ـ والحب لله وحده .

ـ والأنس بالله تعالىٰ وحده .

ـ والحياء من الله تعالىٰ وحده .

وقال الجنيد : كنت أعود السري في كل ثلاثة أيام مرة عيادة السُّنة ، فدخلت عليه وهو يجود بنفسه ، فجلست عند رأسه ، فبكيت وسقط من دموعي علىٰ خده ، ففتح عينيه ونظر إلي ، فقلت له : أوصني ، فقال : لا تصحب الأشرار ، ولا تشتغل عن الله عز وجل بمجالسة الأخيار .

وسئل السري عن أهل الحقائق فقال : الذين أكلهم أكل المرضىٰ ، ونومهم نوم الغرقىٰ .

وقال السري : لو أن رجلاً دخل إلىٰ بستان فيه من جميع ما خلق الله عز وجل من الأشجار وعليها جميع ما خلق الله تعالىٰ من الأطيار ، فخاطبه كل طائر منها بلُغتهِ ، وقال : السلام عليك يا ولي الله ، فسكنت نفسه إلىٰ ذلك . . كان في يدها أسيراً .

وقال السري : عجبت لمن غدا وراح في طلب الأرباح وهو مثل نفسه لا يربح أبداً .

---

(١) أي : لا تهجر .

وقال : لو أشفَقت هـٰذه النفوس علىٰ أبدانها شفقتها علىٰ أولادها . . للاقت غداً السرور في معادها . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/١١٨ـ١٢٥] .

وقال في « التوابين » : قال السري : كنت يوماً أتكلم بجامع بغداد ، فوقف عليَّ شاب حسن الشباب فاخر الثياب ومعه أصحابه ، فسمعني أقول في وعظي : عجباً لضعيف يعصي قوياً ، فتغير لونه وانصرف ، فلما كان من الغد . . جلست في مجلسي ، وإذا بالفتىٰ قد أقبل ، فسلم وصلىٰ ركعتين ، وقال : يا سري ؛ سمعتك بالأمس تقول : عجباً لضعيف يعصي قوياً ، فما معناه ؟ فقلت : لا أقوىٰ مِن الله عز وجل ، ولا أضعف من العبد وهو يعصيه ، فنهض وخرج ، ثم أقبل عليَّ من الغد وعليه ثوبان أبيضان وليس معه أحد ، فقال : يا سري ؛ كيف الطريق إلى الله سبحانه وتعالىٰ ؟ فقلت : إن أردت العبادة . . فعليك بصيام النهار وقيام الليل ، وإن أردت الله عز وجل . . فاترك كل ما سواه تصل إليه سبحانه ، وليس إلا المسجد والمحراب ، فقام وهو يقول : واللهِ ؛ لا سلكت إلا أصعب الطرق ، وولىٰ خارجاً .

فلما كان بعد أيام . . جاءني غلمان جماعة ، فقالوا : ما فعل أحمد بن يزيد الكاتب ؟ فقلت : لا أعرفه إلا أن رجلاً جاءني صفته كذا وكذا ، وأخبرتهم بما جرىٰ لي معه ولا أعلم حاله ، فقالوا : نقسم عليك بالله متىٰ عرفت خبره عَرِّفنا ، ودَلوني علىٰ داره ، فبقيت سَنة لا أعرف خبره .

فبينا أنا ذات ليلة بعد عشاء الآخرة في بيتي ؛ إذا بطارق يطرق الباب ، فأذِنت له بالدخول ، فإذا بالفتىٰ عليه قطعة من كساء في وسطه وأخرىٰ علىٰ عاتقه ، ومعه زنبيل فيه نوىٰ ، فقبَّلَني بين عيني ، وقال : يا سري ؛ أعتقك الله عز وجل من النار كما أعتقتني من رق الدنيا ، فأومأت إلىٰ صاحبي أن امض إلىٰ أهله فأخبرهم ، فمضىٰ ؛ فإذا بزوجته قد جاءت ومعها ولده وغلمانه ، فدخلت وألقت ولده في حجره وعليه حِلي وحُلَلٌ ، وقالت له : يا سيدي ؛ أرملتَني وأنت حي ، وأيتمت ولدك وأنت حي ، قال السري : فنظر إلي وقال : يا سري ؛ ما هـٰذا وفاء ، ثم أقبل عليها ، فقال : والله ؛ إنك لثمرة فؤادي وحبيبة قلبي ، وإن هـٰذا ولدي لأعز الخلق عليَّ ، غير أن هـٰذا السري أخبرني أن مَن أراد الله سبحانه وتعالىٰ . . قطع كل ما سواه ، ثم نزع ما على الصبي ، فقال : ينبغي أن يكون هـٰذا في الأكباد الجائعة والأجساد العارية ، وخرق قطعة من كسائه ، فلف فيها الصبي ، فقالت المرأة : لا أرىٰ ولدي في هـٰذه الحالة ، وانتزعته منه ، فحين رآها قد اشتغلت به . . نهض ، وقال :

ضيعتم عليَّ ليلتي ، بيني وبينكم الله ، وولىٰ خارجاً ، فضجت الدار بالبكاء ، فلما سكتوا . . قالت المرأة : بالله إن عدت سمعت له خبراً . . فأعلمني ، فقلت : نعم .

فلما كان بعد مدة . . أتت عجوز ، فقالت : يا سري ؛ بالشُّونيزيَّة[1] غلام يسألك الحضور ، فقمت معها إليه ؛ فإذا به مطروح في تربة[2] تحت رأسه لبنة ، فسلمت عليه ، ففتح عينيه ، فقال : يا سري ؛ وعليك السلام ، أتُرىٰ يغفر الله عز وجل لي تلك الجنايات ؟ فقلت : نعم ، قال : يغفر لمثلي ؟! قلت : نعم ، قال : أنا غريق ، قلت : هو سبحانه وتعالىٰ منجي الغرقىٰ ، فقال : عليَّ مظالم ، فقلت : في الخبر : « إنه يؤتىٰ بالتائب يوم القيامة ومعه خصومه ، فيقال لهم : خلوا عنه ؛ فإن الله سبحانه وتعالىٰ يعوضكم » ، فقال : يا سري ؛ معي دراهم من لقط النوىٰ ، إذا أنا مِتُّ . . فجهِّزني بها ، ولا تُعلم أهلي ؛ لئلا يغيروا كفني بغيره من مالهم .

قال السري : فجلست قليلاً عنده ، ففتح عينيه ، وقال : لمثل هـٰذا فليعمل العاملون ، ثم مات رحمه الله ، فجهزته بتلك الدراهم ، فرأيت الناس يُهرَعون ، فقلت : ما الخبر ؟ فقالوا : مات ولي من أولياء الله سبحانه وتعالىٰ نريد أن نصلي عليه ، فصلينا عليه ودفناه .

فلما كان بعد مدة . . أرسل أهله يستعلمون خبره ، فأخبرتهم بموته ، فأقبلت امرأته باكية ، فأخبرتها بحاله ، فسألتني أن أريها قبره ، فقلت : أخاف أن تغيروا أكفانه ، قالت : لا والله ، فأريتها القبر ، فبكت وأمرت بإحضار شاهدين ، وأعتقت جميع الرقيق من النساء والرجال ، ووقفت جميع عقارها ، وتصدقت بمال كثير ، ولزمت عبادة الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ أن ماتت رحمها الله تعالىٰ . انتهىٰ [٢٦٠ـ٢٦٢] .

وقال الراغب وغيره : إن سرياً رحمه الله لما ترك التجارة . . كانت أخته تنفق عليه من غزلها ، فأبطأت عليه ، فسألها عن ذلك ، فقالت : إن غزلي لم يُشتَرَ ؛ لأنه مختلف ، بعضه أرفع من بعض ، فامتنع السري من طعامها لذلك ، وعزم علىٰ ألاّ يأكل مما عندها بعد ذلك ، ثم إن أخته دخلت عليه بعد ذلك ، فرأت عنده عجوزاً تكنس بيته ، وكانت تلك العجوز تأتيه كل يوم برغيفين ، قال : فاغتمت أخته ، وراحت إلى الإمام أحمد ابن حنبل ، فذكرت له

---

(١) **الشونيزية** : مقبرة ببغداد بالجانب الغربي ، دفن فيها جماعة من الصالحين ، منهم : الجنيد وجعفر الخلدي ورويم وسمنون المحب ، ووردت كذلك باسم : الشونيزي ، وقال في « تاريخ بغداد » (١/ ١٢٢) : إن هـٰذا اسمٌ لمقبرتين في بغداد ، والله أعلم .

(٢) **التربة** : القبر .

ذلك ، فلما كلمه أحمد ابن حنبل في ذلك . . قال له السري : هـٰذه الدنيا ، أمرها الله عز وجل أن تخدمني وتأتي إلي بقُوتي . أو كما قال .

وروى الحافظ أبو نعيم ـ قدس الله روحه ـ : عن أحمد بن عمرو قال : خرجت مع السري يوم العيد من المسجد ، فلقي رجلاً جليلاً ، فسلم عليه سلاماً ناقصاً ، فقلت له : إن هـٰذا فلان ، قال : قد عرفته ، قلت : فلِمَ نقصته في السلام ؟ قال : لأنه يروىٰ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا التقى المسلمان . . قسمت بينهما مئة رحمة ، تسعون لأَبَشِّهما بصاحبه » ، فأردت أن يكون معه الأكثر . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ١٢٣ـ١٢٤] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : اعلم : أن هـٰذا قصد جليل جميل منشؤه الورع ، وقد تضمن القربة ومطلق الإيثار بهـٰؤلاء ، ولا بأس ببيانهما .

أما القربة : فهي كل عبادة لا يراد بها إلا الله سبحانه وابتغاء رضوانه جل جلاله .

وأما مطلق الإيثار بالقُرَب : فتارة يكون للنفس ، وتارة يكون للغير ، وكل منهما يقع علىٰ أنواع :

الأول : الإيثار بالأنفس والأرواح والأموال : كما فعل الصحابة من المهاجرين والأنصار في بذلهم أنفسهم وأرواحهم في الجهاد في سبيل الله عز وجل ؛ لتكون كلمة الله هي العليا ، فأقام الله بهم هـٰذا الدِّين ، واختارهم لصحبة سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وقد تضمنت أفعالهم ـ مع قصدهم له كل القصد أيضاً ـ فداء النبي صلى الله عليه وسلم ونصره .

فيا حبذا الفداء! فما أعظم هـٰذه السعادة ، وما أكبر هـٰذه السيادة التي امتازوا بها عن سائر الأمة ؛ فإنها سعادة ليس فوقها سعادة بالنسبة إلى المؤمنين ؛ فإن كل مَن جاء بعدهم مِن المؤمنين في ميزانهم ؛ فالسعادة التي حصلت لهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ما نالها غيرهم .

فهنيئاً لهم رضي الله عنهم ، وكانوا أحق بها وأهلها ، وجميع ما فعلوا هو نية كل مؤمن وسبيله لو وجد إلىٰ ذلك سبيلاً ، قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ

وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

ومَن نظر إلى الآيات الكريمة وفي سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم . . علم أنهم قد أخذوا من ذلك بالحظ الأوفر الأوفىٰ ، وأن استيفاء ذلك يستدعي مجلدات كثيرة .

فمن ذلك :

ـ خبر الغار ، وهو مشهور .

ـ ومبيت علي رضي الله عنه علىٰ فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم حين هاجر إلى المدينة .

ـ وما صنعه طلحة بن عبيد الله أحد العشرة رضوان الله عليهم يوم أحد ، حتىٰ أن خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان إذا ذُكر عنده يوم أحد . . قال : ذاك يوم كان كلُّه لطلحة .

ـ وما كان يفعله أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه حين كان ينثل كنانته ويقول : وجهي لوجهك يا رسول الله الوقاء ، ونفسي لنفسك يا رسول الله الفداء .

ـ وما قاله خُبَيْب بن عدي رضي الله عنه لما أخذه المشركون ، وهم يبضعون لحمه ، ويقولون له : أتحب أنك في أهلك ومالك وأن محمداً مكانك ؟ فقال : والله ؛ ما أحب أني في أهلي ومالي وأن محمداً صلى الله عليه وسلم شيك بشوكة .

ـ وما قاله عبد الله بن جحش رضي الله عنه علىٰ ما رواه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : قال لي عبد الله بن جحش يوم أحد : ألا ندعو الله ؟ فخلَوَا في ناحية ، فدعا عبد الله بن جحش فقال : يا رب ؛ إذا لقيتُ العدو . . فلقني رجلاً شديداً بأسه ، شديداً

حَرَدُهُ[1] ، أقاتله فيك ويقاتلني ، ثم يأخذني ، فيجدع أنفي وأذني ، فإذا لقيتك غداً . . قلتَ : يا عبد الله ؛ مَن جدع أنفك وأذنك ؟ فأقول : فيك وفي رسولك ، فتقول : صدقت ، قال سعد : فلقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنه معلقتان في خيط .

ـ والنفر الذين قتلوا في أحد واحداً بعد واحد وكان آخرهم يزيد أو عمارة ، وقد أثخن بالجراح ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أدنوه مني » ، فأدنوه حتىٰ وضع خده علىٰ قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومات كذلك[2] .

ـ والمرأة التي مرت على القتلىٰ بأُحد لما نعوا أهلها : هـٰذا أبوك وأخوك وزوجك ، وهي تقول : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالوا : خيراً يا أم فلان ، هو بحمد الله كما تحبين ، قالت : أرونيه حتىٰ أنظر إليه ، فأُشيرَ إليه ، حتىٰ إذا رأته . . أسرعت إليه وأخذت بناحية ثوبه وهي تقول : بأبي وأمي يا رسول الله ، لا أبالي إذا سلمت بمن عَطِب .

زاد في رواية أخرىٰ : وكل مصيبة بعدك جلل ؛ أي : قليل .

وأما الذين قتلوا وعذبوا في الغزوات وغيرها . . فخلائق كثيرون .

وما سار صلى الله عليه وسلم في غزاة ولا غيرها . . إلا وكانوا عن يمينه ويساره ، من بين يديه ومن خلفه ، يفدُونه بآبائهم وأمهاتهم وأنفسهم وأموالهم ، إلىٰ غير ذلك مما هو معروف مشهور ، والإيثار في هـٰذا النوع واجب علىٰ كل مؤمن بالإجماع ؛ لوقوعه فرض عين بالنسبة إلى الجهاد ، وفرض كفاية بالنسبة إلىٰ فداء النبي صلى الله عليه وسلم .

الثاني ـ من الإيثار أيضاً بالأنفس والأموال ـ : **الجهاد في سبيل الله مِن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم** : كما فعل الصحابة والتابعون ومَن بعدهم من المؤمنين ، مِن إدامة الجهاد ، وفتح البلاد ، وحالُهم في ذلك ينقسم إلىٰ فرض عين وفرض كفاية ؛ لأن الكفار إن دخلوا بلاد الإسلام لأخْذِها . . كان الجهاد فرض عين ، وإلا . . فهو فرض كفاية .

وقد قام المؤمنون ـ والحمد لله ـ بالقسمين جميعاً أتم القيام ، ولن يزالوا علىٰ ذلك إلىٰ أن تقوم الساعة ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ .

الثالث ـ من الإيثار أيضاً بالأنفس والأموال علىٰ سبيل المخاطرة مع ظن السلامة ـ : **القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر** : للخلفاء ، والأمراء ، والسلاطين ، وغيرهم ،

---

(١) حَرَدُهُ : غضبُهُ .

(٢) ذكر هـٰذه القصة الطبري في « تاريخه » (٢/ ٦٦) .

وهـٰذا فرض كفاية ، ولم تزل الأئمة سلفاً وخلفاً قائمين بذلك مهما وجدوا إليه سبيلاً ؛ كسعيد بن المسيب ، وعطاء ابن أبي رباح ، وطاووس بن كيسان ، وسفيان الثوري ، وعبد الرحمـٰن ابن أبي ذئب ، وغيرهم ، وقد سبق بعض ذلك في تراجمهم .

الرابع ـ من الإيثار أيضاً بالأنفس ـ : **القيام لنصرة الدِّين** : وقد فعل ذلك جماعات من الأئمة ، امتحنوا في الدِّين ، فآثروا بأنفسهم حفظاً له ؛ كالإمام أحمد ابن حنبل ، وأحمد بن نصر الخزاعي ، وأبي يعقوب البويطي ، وغيرهم ، فبعضهم ضُرب ، وبعضهم قُتل ، وبعضهم سَلِم .

قال أحمد ابن حنبل عن أحمد بن نصر الخزاعي رحمه الله : ما كان أسخاه! لقد جاد بنفسه .

وقال أبو يعقوب البويطي ـ لما حمل من مصر إلىٰ بغداد مقيداً بِقَيد فيه سلسلة من رجله إلىٰ عنقه نحو أربعين رطلاً ـ : واللهِ ؛ لئن دخلت عليه مجلسه . . لأصدقنه وأموت في حديدي هـٰذا حتىٰ يأتي بعدي قوم فيعلمون أنه قد مات في هـٰذا الشأن قوم في حديدهم .

وهـٰكذا وقع ؛ فإنه رحمه الله لما دخل على الواثق . . صدقه ، ولم تأخذه في الله لومة لائم ، فأمر بحبسه ، إلىٰ أن مات محبوساً في حديده ، وهـٰذا من كرامات الشافعي ومناقب البويطي رحمهما الله[1] .

الخامس : **الإيثار الواقع بين المؤمنين بعضهم لبعض بالأنفس والأموال** ، وهو كثير :

من ذلك : النفر الثلاثة الذين ماتوا عطشاً في واقعة اليرموك في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه سَنة خمس عشرة ، وهي أن بعض الصحابة رضي الله عنهم قال : انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي ، ومعي شربة ماء ، وأنا أقول : إن كان فيه

---

(١) وهو يوسف بن يحيىٰ ، أبو يعقوب البويطي المصري الفقيه ، صاحب الإمام الشافعي ، وهو العالم الناصح الذي لا يخشىٰ في الله لومة لائم ، لم ينج من فتنة خلق القرآن ، وهـٰذا هو سبب محنته ، فحبس ومات في الحبس ؛ لأنه امتنع عن الإجابة . أما كون هـٰذه الواقعة من كرامات الشافعي . . فقد روى الخطيب البغدادي عن الربيع بن سليمان يقول : كنا جلوساً بين يدي الشافعي أنا والبويطي والمزني ، فنظر إلى البويطي فقال : ترون هـٰذا ؟! إنه لن يموت إلا في حديده ، ثم نظر إلى المزني فقال : ترون هـٰذا ؟! أما إنه سيأتي عليه زمان لا يفسر شيئاً فيخطئه ، ثم نظر إلي فقال : أما إنه ما في القوم أحد أنفع لي منه ، ولوددت أني حشوته العلم حشواً . انظر « تاريخ بغداد » (١٤/ ٣٠٤) . وهـٰكذا تحققت فراسة الإمام الشافعي رحمه الله في صاحبه البويطي ، فهي كرامة له ، والله أعلم .

رمق . . سقيته ومسحت به وجهه ؛ فإذا أنا به ، فقلت له : أتشرب ؟ فأشار إلي أن نَعم ، فإذا رجل يقول : آه! العطش ، آه! العطش ، فأشار إليَّ ابن عمي أن اسقه ؛ فإذا هو هشام بن العاصي ، فمضيت إليه ، وقلت له : أتشرب ؟ فأشار إلي أن نَعم ، فسمع هشام شخصاً آخر يقول : آه! العطش ، فأشار إلي به ، فانتهيت إليه لأسقيه فإذا هو قد مات ، ثم رجعت إلىٰ هشام فإذا به قد مات ، ثم رجعت إلى ابن عمي ؛ فإذا به قد مات ، فتعجبت من هـٰذا الإيثار مع شدة الاضطرار .

ومن ذلك : ما حكاه الإمام أبو القاسم الكلاباذي قدس الله روحه قال : سمعت بعض الفقراء يقول : كنت سَنة الهبير[1] مع الناس ، فانفلتُّ ، ثم رجعت ، وكنت أطوف بين الجرحىٰ ، فرأيت أبا محمد الجريري رحمه الله ـ وكان قد نِيْفَ على المئة ـ فقلت : يا شيخ ؛ ألا تدعو فيُكشَف ما ترىٰ ؟ فقال : قد دعوت ، فقال الله سبحانه وتعالىٰ : إني فعَّال لِمَا أُريد ، فأعدت عليه فقال : يا أخي ؛ ليس هـٰذا وقت الدعاء ، هـٰذا وقت الرضا والتسليم ، فقلت : هل لكَ من حاجة ؟ فقال : أنا عطشان ، قال : فجئته بماء ، فأخذه وأراد أن يشرب ، فنظر إلىٰ قوم ينظرون إلى الماء ، فقال : هـٰؤلاء عطاش وأنا أشرب ؟! لا ، هـٰذا شَرَهٌ ، فرده عليَّ ومات من ساعته رحمه الله .

ومن ذلك : واقعة إبراهيم التيمي رحمه الله مع الحجاج ؛ فإنَّ الحجَّاج لما طلب إبراهيم النخعي . . غلط رسوله ، فظن أن المطلوب إبراهيم التيمي ، فجاء وأخذه إلى الحجاج ، فأمر بحبسه ، فمات في الحبس ، وكان قد علم إبراهيم التيمي أن المطلوب إنما هو إبراهيم النخعي ، فلم يستجِز أن يدل عليه ، وفداه بنفسه رحمهما الله .

ومن ذلك : ما حكاه في « بهجة الأسرار » قال : حدثنا أبو بكر محمد بن داوود قال : سمعت أبا بكر البويطي وأبا عمرو ابن الآدمي يقولان ـ وكانا يتواخيان في الله عز وجل ـ : خرجنا من بغداد نريد الكوفة ، فلما صرنا في بعض الطريق ؛ إذا نحن بسَبُعَيْنِ رابضين في الطريق ، فقال أبو بكر لأبي عمرٍو : أنا أكبر سِناً منك ، دعني حتىٰ أتقدمك ، فإن كانت حادثة . . اشتغلوا بي عنك ونجوت أنت ، فقال له أبو عمرٍو : إن نفسي ما تسامحني هـٰذا ،

---

(١) **الهبير** : اسم موضع عارض فيه أبو سعيد الجنابي القرمطي الحاج فأصاب منهم جماعة . . فتفرقوا ، فعاد وعارضهم في محرم سنة اثنتي عشرة وثلاث مئة وفتك بهم الفتك القبيح ، فجائز أن يكون الجريري قد هلك في المعارضة الأولىٰ . ومنه عرفت تلك السنة بسنة الهبير .

ولـٰكن نكون جميعاً في مكان واحد ، فإن كانت حادثة . . كنا جميعاً ، فجازا جميعاً في وسط السبعين فلم يتحركا ، ومَرَّا سالمَين .

قال الشيخ أبو بكر : هـٰذا ميزان[1] الموافِقة في المحبة لله عز وجل .

ومن ذلك : واقعة أبي الحسين النوري رحمه الله لمَّا سُعي به إلى الخليفة في جماعة ، وأمر بضرب أعناقهم ، فسبق النوري إلى السَّيَّاف ، فقال له : أتدري إلىٰ ماذا تسارع ؟ قال : نعم ، إلى القتل ، فقال له : وماذا دعاك إلىٰ هـٰذا ؟ قال : أوثر أصحابي بحياة لحظة ، فتحير السَّيَّاف من هـٰذا الكلام ، وأوصل الخبر إلى الخليفة ، فكان ذلك سبَبَ نجاته ونجاة أصحابه .

ومن ذلك : ما حكاه ابن سعد في « الطبقات » : عن محمد بن عمر بن واقد الأسلمي الواقدي قال : تضيقت مرة في يوم عيد بحيث إن الجارية قالت : ليس في البيت ما نفطر عليه ، فقصدت بعض أصحابي من التجار في الاستقراض منه ، فقال لي : والله ؛ ما عندي غير هـٰذا الكيس فيه ألف دينار ومئتا درهم فخذه ، قال : فلما جئت إلىٰ منزلي . . جاءني صديق لي هاشمي ، وذكر حاجة ، وسألني القرض ، فدخلت إلى الزوجة ، وأخبرتها خبر الهاشمي ، فقالت لي : علىٰ أي شيء عزمت ؟ قلت لها : أدفع إليه البعض وأترك البعض لحاجتنا ، فقالت : لا والله ؛ ما هـٰذا إنصاف ، أنت جئت إلىٰ سوقة[2] فأعطاك جميع ما عنده ، وقد أتاك هاشمي ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم تدفع إليه بعض ما عندك ؟! ادفع إليه الكيس علىٰ حاله .

قال : فدفعت إليه الكيس ، فلما ذهب به الهاشمي إلىٰ منزله . . وجد ذلك التاجر الذي أقرضني جالساً علىٰ باب داره ، فقام إليه وسأله القرض ، فأخرج له الهاشمي ذلك الكيس بعينه ، فعرفه ، فوصل الخبر إليَّ ، فمضيت إلىٰ دار يحيى بن خالد البرمكي ، وأخبرته الخبر[3] ، فقال : يا غلام ؛ هات ذلك الكيس ، فأخرج كيساً فيه عشرة آلاف دينار ، فقال : ألفا دينار لك ، وألفا دينار للهاشمي ، وألفا دينار للتاجر ، وأربعة آلاف دينار لزوجتك ؛ لأنها أكرمكم . [انتهىٰ (٥/ ٤٣١ـ٤٣٣)] .

---

(١) في نسخة : (ميراث) .

(٢) **السُّوقَةُ** : الرعية ، وأوساط الناس .

(٣) ورود الخبر في « الطبقات » في سياق المدح ليحيى بن خالد البرمكي ، حيث كان الواقدي يكثر الترحم عليه ، ولما سئل عن ذلك . . ساق هـٰذه القصة .

ومن ذلك : ما حكاه الإمام أبو الفرج ابن الجوزي قال : قال عبد الله ابن أخت مسلم : أردت الحج ، فدفع إلي خالي مسلم عشرة آلاف درهم وقال : إذا قدمت المدينة . . فانظر أفقر أهل بيت بها ، فادفعها إليهم ، قال : فلما دخلت المدينة . . سألت عن أفقر أهل بيت بها ، فدللت علىٰ أهل بيت ، فطرقت الباب ، فأجابتني امرأة : مَن أنت ؟ فقلت : رجل من بغداد أُودعت عشرة آلاف درهم ، وأُمرت أن أسلمها إلىٰ أفقر أهل بيت في المدينة ، وقد دُللت إليكم ، فخذوا هـٰذا المال ، فقالت : يا عبد الله ؛ إن صاحبك اشترط عليك أن تدفعها إلىٰ أفقر أهل بيت بالمدينة ، وهـٰؤلاء الذين هم جيراننا بإزائنا أفقر منا ، قال : فتركتها وأتيت أولـٰئك ، فطرقت الباب ، فأجابتني امرأة ، فقلت لها مثلما قلت لتلك ، فقالت : يا عبد الله ؛ نحن وجيراننا في الفقر سواء ، فاقسمها بيننا وبينهم سواء ، فقسمتها . [انتهىٰ « الصفوة » ٢/ ١٢١] .

ومن ذلك : أن الأستاذ أبا حفص النيسابوري رحمه الله جاء إلىٰ منزل الجنيد ، فقام إليه وعانقه ، فقال له أبو حفص : دعنا مِن هـٰذا ، عندك شيء تطعمنا ؟ قال : أي شيء يشاء الشيخ ؟ قال : أريد بطيخاً ، فأمر الجنيد بعض أصحابه بإحضار ما قال ، فلما حضر البطيخ . . قال : يا أخي ؛ قد أحببت أن أوثر به لله عز وجل ، فقال : إني أحب ما تحب ، ثم قال الجنيد لبعض أصحابه : احمل هـٰذا مع الشيخ إلىٰ أين عزم ، فقام معه إلىٰ أن وصل إلىٰ دار ، فدق الباب ؛ فإذا بشخص من داخل الباب يقول : ادخل إن كان معك بطيخاً ، فدخلنا ، فإذا شيخ قاعد وخيش مرسل علىٰ باب ، قال أبو حفص : فوضعت البطيخ وصرفت الذي حمله ، ثم قلت للشيخ : أخبرني عن أمر هـٰذا البطيخ ، فقال : وراء هـٰذه الخيشة صبيان وبنات ، سألوني البطيخ منذ مدة ، ولم تسامحني نفسي أن أسأل الله عز وجل لهم في ذلك ، ثم وجدت البارحة مسامحة أن أسأل الله تعالىٰ فسألته وعلمت إجابة الدعاء بوجود المسامحة للسؤال ، فلما وقفتَ على الباب . . علمتُ ما معك .

السادس : **الإيثار بالحقوق** : إذا تضمن ذلك الإيثار مصلحة راجحة لا مانع فيها ، خاصة كانت أو عامة .

فمما تضمن مصلحة راجحة عامة : ما فعله سيدي وابن سيدي أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، حيث ترك الخلافة لمعاوية حقْناً لدماء المسلمين ؛ فقد تضمن هـٰذا الإيثار حفظ مهج وأرواح لا يحصيهم إلا الله تعالىٰ ، وقد صرح بذلك الحسن رضي الله عنه ؛ فإنه لما سأله معاوية أن يعلم الناس بتسليم الأمر إليه . . قام على المنبر ،

وقال ـ بعد أن خطب ـ : إن الله هداكم بأوَّلنا ، وحقَن دماءكم بآخرنا .

وظهرت المعجزة النبوية ، حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن ابني هـٰذا سيد ، [ولعل الله أن] يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين »[1] .

فانظر إلىٰ هـٰذا الإيثار ما أعظمه! وإلىٰ نفسه الكريمة ما أسخاها وأخشاها وأكثر تقواها! فسبحان من أعطاها ، قال تعالىٰ : ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ .

وأفراد هـٰذا النوع كثيرة ، وضابطه : حصول المصلحة الراجحة حيث لا مانع فيها ، خاصة كانت أو عامة .

السابع : الإيثار بالقُرَب البدنية : كمن مات وعليه صوم ؛ فإن وليه يصوم عنه على القديم الصحيح[2] الذي يفتىٰ به هـٰهنا ؛ للأحاديث الصحيحة فيه[3] .

والإيثار بهـٰذا النوع وأمثاله من أعظم القرب وأحسنها ؛ لِمَا فيه من تأدية الفرض عن الغير ، مع تضمنه للبر وصلة الرحم ، وأفراد هـٰذا النوع كثيرة :

منها : الدعاء للوالدين ، والأقربين ، والمشايخ ، وسائر السلف الصالح من الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم من الأئمة ، والترضي عنهم ، والترحم عليهم ، والاستغفار لهم .

ومنها أيضاً : قراءة القرآن ، وإهداء الثواب إليهم عند مَن يرىٰ وصوله ؛ وقد اختاره وأفتىٰ به جماعة من الأئمة ، من أصحابنا وغير أصحابنا ، وقد تضمن هـٰذا : البر وصلة الرحم والمعروف .

الثامن : الإيثار بالقُرَب البدنية الجامعة بين المال والبدن : كالحج مثلاً ، وقد قال الأئمة رحمهم الله تعالىٰ : إذا حج عن أحد أبويه أو قريبه أو أجنبي تبرعاً . . إنه أفضل مما إذا حج عن نفسه تطوعاً ، اتفق الأصحاب علىٰ ذلك ؛ لما فيه من تأدية الفرض عن الغير ، مع تضمنه البر ، أو صلة الرحم ، أو المعروف بسبب المحجوج عنه ، والإيثار بهـٰذا النوع وأمثاله مستحب استحباباً مؤكداً .

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٥٧) .

(٢) أي : في مذهب الشافعي رضي الله عنه ، الذي هو مذهب المؤلف رحمه الله .

(٣) ومن هـٰذه الأحاديث ما أخرجه مسلم في « صحيحه » (١١٤٧) : عن عائشة رضي الله عنها ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من مات وعليه صيام . . صام عنه وليه » ، وفي حديث آخر (١١٤٨) عن ابن عباس رضي الله عنه : أن امرأة أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إن أمي ماتت وعليها صوم شهر ، فقال : « أرأيت لو كان عليها دين . . أكنت تقضينه ؟ » قالت : نعم ، قال : « فدَين الله أحق بالقضاء » .

التاسع : الإيثار بالقُرَب المالية : وأفراد هـٰذا النوع كثيرة ؛ كالصدقة عن الأموات من الوالدين والأقارب والأجانب بالطعام ، والشراب ، والفاكهة ، والثياب ، والخبز ، وغير ذلك ، ولم يزل المؤمنون يعتادون ذلك .

وهو أيضاً من أفضل أنواع القُرَب وأعظمها ؛ لما فيه من البر ، وصلة الرحم ، والمعروف ، وسد الخلة بحسب المتصدَّق عنه ، ولا يخفى استحباب ذلك ، والله أعلم .

العاشر : من الإيثار ـ أيضاً بالقرب المالية ـ صدقة التطوع على الفقراء والمساكين من الأقارب والأجانب : وأقسام هـٰذا النوع وتفصيل مسائله وتحريرها قد سبق في ترجمة الأستاذ أبي حفص قدس الله روحه ، وأفراد هـٰذا النوع كثيرة : **منها** ـ وهو أعمها نفعاً ـ : الوقف ، والعتق ، والتدبير ، والكتابة ، وفك الأسارىٰ ، وإقراض المحتاجين ، وإنظار المعسرين ، والوضع عنهم ، وإعانة المكاتبين ، ووفاء دَين الغارمين ، وتجهيز جيش المعسرين للجهاد في سبيل الله تعالىٰ ، إلىٰ غير ذلك .

والإيثار بهـٰذا وأمثاله من أعظم القُرَب وأحسنها وأعمها نفعاً ؛ لما فيه من الصدقة الجارية الدائمة ، وتفريج الكربات ، والبر ، وصلة الرحم ، وحفظ دار الإسلام ، وإسداء المعروف ، وسد خلة المسلمين ، وتحرير الرقاب ، لا سيما إن كان والداً أو قريباً ، مع أن الوالد يعتق عليه بمجرد الشراء ، ولهـٰذا قال صلى الله عليه وسلم : « لن يجزي ولد والده ، إلا أن يجده مملوكاً ، فيشتريه ، فيعتق عليه »[1] ، إلىٰ غير ذلك ؛ والله أعلم .

الحادي عشر : الإيثار بالسبق في القربة ؛ ليحوز السابق بها فضيلة السبق : قال الله تعالىٰ : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ [آل عمران : ١٣٣] ، وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ ﴾ [الأنبياء : ٩٠] ، فالمسارعة إلى القربات مطلوبة ، فلو أراد الإيثار بالسبق إلى القربة ؛ ليحوز السابق بها فضيلة السبق . . كان ذلك قصداً صالحاً ؛ لرجوعه عن النصيحة للمؤمنين والشفقة عليهم ، كما حكاه الإمام أبو القاسم الكلاباذي قدس الله روحه عن أبي عثمان الحِيري رحمه الله : أنه استأذن شيخه الأستاذ أبا حفص النيسابوري رحمه الله في الكلام على الناس ، فقال له : وما يدعوك إلىٰ هـٰذا ؟ قال : النصيحة لهم ، والشفقة عليهم ، فقال : وما بلغ مِن شفقتك ؟ قال : لو علمت أن الله تعالىٰ يعذبني بدل جميع من آمن به ويدخلهم الجنة . . لوجدت من قلبي رضىً بذلك ، فأذن له .

---

(١) أخرجه بنحوه مسلم (١٥١٠) ، وابن حبان (٤٢٤) .

ثم إن الأستاذ أبا حفص شهد مجلسه من حيث لا يشعر ، فلما قضىٰ أبو عثمان كلامه . . قام سائل ، فسبق أبو عثمان ، فأعطاه ثوباً كان عليه ، فقال الأستاذ أبو حفص : ما وفيتَ بقولك ، فإياك أن تتكلم على الناس وفيك هـٰذا الشَّرَه ، قال أبو عثمان : وما ذاك يا أستاذ ؟ فقال : أمَا كان فيك من النصيحة لهم والشفقة عليهم أن تؤثرهم علىٰ نفسك بثواب السبق ثم تتلوهم ؟! فطالبه بتحقيق الصدق واستواء السريرة والعلانية ؛ لتحقيق قوله بفعله ، فلما لم ير منه الوفاء بذلك . . نهاه عن الكلام على الناس .

وهـٰذا الذي قاله الأستاذ أبو حفص رحمه الله يرجع في الحقيقة إلىٰ ما قصده الإمام أبو الحسن السري رحمه الله حيث أراد أن يكون حظ ذلك الرجل من الأجر أكثر ، فقد اتفقا علىٰ مشرب واحد من النصيحة للمسلمين ، والشفقة عليهم ؛ إذ كل واحد منهما أراد أن يكون حظ أخيه المسلم من الأجر أكثر وأوفر .

وهـٰذا بمجرده قصد جليل جميل ، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالىٰ .

واعلم : أن مطلق السبق بالقربة لا يقتضي الرجحان على المسبوق ؛ لاحتمال أن يأتي المسبوق بمرجح آخر ينغمر فيه ذلك السبق ، اللهم إلا إذا تساوى الفعلان من كل وجه ، وكان أحدهما أسبق . . فهـٰهنا يحصل الرجحان للسابق ؛ لخيارية فضيلة السبق ، والله سبحانه أعلم .

الثاني عشر : الإيثار بالصف الأول في الصلاة . . خلاف الأولىٰ : أطلق الأصحاب ذلك ، ويحتمل أن يقال : إن كان المؤثِر هو الفاضل . . فإيثاره خلاف الأولىٰ ، وقد ينتهي إلى الكراهة ، وإن كان المؤثِر هو المفضول . . فلا يكون إيثاره خلاف الأولىٰ .

ويستدل علىٰ ذلك بما فعله الإمام أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه مع ابن أبي مليكة ، قال ابن أبي مليكة : كنت في الصلاة في الصف الأول ، فلم أشعر إلا وشخص من ورائي قد اقتلعني من مكاني وأخرجني منه وثبت فيه ، فلما فرغت من الصلاة . . نظرت ؛ فإذا هو أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه ، قال لي : لا يسوؤك الله يا هـٰذا ؛ إن هـٰذا عهد النبي صلى الله عليه وسلم إلينا ، قال صلى الله عليه وسلم : « ليليني منكم أولو الأحلام والنهىٰ »[1] .

---

(١) أخرجه مسلم (٤٣٢) .

ومِن هـٰذا النوع : الإيثار بالإمامة في الصلاة حيث صح الاقتداء بهما ، وكان المؤثِر أفضل ؛ فإن إيثاره بها . . خلاف الأولىٰ .

ومسائل هـٰذا النوع كثيرة مشهورة ، والتقدم فيها إنما هو بالفضائل .

ومنه : ما إذا وقع تهاجر بين اثنين ، وكان أحدهما أفضل . . فإن الأولىٰ أن الفاضل هو الذي يَبتدىء بالسلام وإزالة الوحشة ، فلو أراد الفاضل إيثار المفضول بذلك . . كان ذلك خلاف الأولىٰ .

ألا ترىٰ إلىٰ ما روي عن محمد بن الحنفية رحمه الله لما كان بينه وبين أخيه الحسين بن علي رضي الله عنهما نوع تهاجر كيف أرسل إليه محمد بن الحنفية يقول له : يا أخي ؛ لولا أنك أحق بالفضل مني . . لأتيتك وبدأتك بالسلام ، فعرف الحسين رضي الله عنه ذلك ، فجاء إليه ، وبدأه بالسلام .

وقد قال أرباب السير : إن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه لما كان بالبصرة . . جلس علىٰ سرير ، وأجلس الحسن عن يمينه ، والحسين عن يساره ، وجلس محمد بن الحنفية دون السرير ، فخاف علي رضي الله عنه أن يجد[1] من ذلك ، فقال : يا بني ؛ أنت ابني ، وهـٰذان ابنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الثالث عشر : طلاقة الوجه : فالبشر في وجه أخيك المسلم ، وزيادة الاستبشار به ، والابتهاج له ، والزيادة في حسن التحية . . مطلوب ، فكلما كان أكثر طلاقة وأحسن تحية واستبشاراً وابتهاجاً بأخيه المسلم . . كان أفضل ، وأجره أكثر .

فلو أراد الإيثار ببعض ذلك ليكون أجر أخيه المسلم أكثر ، كما قصد سيدي أبو الحسن السري رحمه الله . . كان ذلك قصداً صالحاً ، وإيثاراً جميلاً ، حيث أراد لأخيه المسلم أكثر مما أراد لنفسه ، وآثره بزيادة الأجر ، فهو إيثار بمجرد حظ نفسه ، لا تعلق للغير فيه مع مشاركته له في الأجر وحصول الفضيلة ، وإنما اختص ذلك بزيادة الأجر .

وإذا علم الله عز وجل من عبده الصدق في حسن قصده . . فإنه يثيبه ثواباً آخر ، ويضاعف أجره ، بحيث إنه قد يربو علىٰ ذلك الأجر الذي آثر به ، فيثابان جميعاً ثواباً وافياً ؛ ذاك لزيادة الاستبشار وطلاقة الوجه ، وهـٰذا لحسن قصده الصالح الجميل لأخيه المسلم ، حيث أراد أن

---

(١) يجد : يحزن .

يكون أجره أكثر ونصيبه أوفر ، والله سبحانه وتعالىٰ عند قصد عبده لا عند حاصله ، والأجر فضل من الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

ومِن هـٰهنا يظهر لك حسن قصد سيدي السري رحمه الله ، وأنه جليل جميل منشؤه الورع ؛ لرجوعه إلى الشفقة والنصيحة للمؤمنين .

فهو موافق لما قاله الأستاذ أبو حفص رحمه الله كما سبق ، حيث قال لأبي عثمان : أمَا كان فيك من النصيحة لهم والشفقة عليهم أن تؤثرهم علىٰ نفسك بثواب السبق ثم تتلوهم ؟! فالنصح للمسلمين والشفقة عليهم من شأن عباد الله العارفين ، والعلماء العاملين .

وتضمن قصد سيدي السري رحمه الله أيضاً أموراً أُخرَ يقصر فهمي عنها .

وغاية ما أقول : إن قصده غامض دقيق ، ظاهره عند العامة فيه ما فيه ، وباطنه قد أخذ بمحاسن الأمور ومَجامعها ، مع اشتماله على الكمال والتكميل بحصول الأجر الوافر لها ، مع المحافظة على العمل بقوله صلى الله عليه وسلم : « الدين النصيحة ، لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم »[1] ، إلىٰ غير ذلك .

رحمه الله تعالىٰ ، فما أكثر عرفانه ، وأغمض أفعاله ، وأحسن مقاصده ، وأظهر برهانه!

وهـٰذه الأسرار التي ذكرناها كلها من بركة قصده الصالح أيضاً ؛ لأن النظر فيه أوجب ذلك .

فاللهَ تعالىٰ أسأل أن يفيض عليَّ من عرفانه وبركته ، وأن يجمع بيني وبينه مع سائر الأحبة في الفردوس الأعلىٰ من دار كرامته ؛ إنه الجواد الكريم ذو الفضل العظيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

هـٰذه مجامع أنواع القربات وضوابطها ، ومعظم مسائلها ـ مع انتشارها وكثرتها ـ راجعة إليها ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

تنبيه مهم

اِعلم : أن ما فعل سيدي السري رحمه الله كونه نقَّصه في السلام ؛ إيثاراً له بزيادة الأجر ، إنما يكون حسناً ومطلوباً بالنسبة إلىٰ مَن كان عارفاً عالماً ، أمَّا مَن ليس كذلك . . فلا ، لا سيما في زماننا هـٰذا ؛ فإنه قد يؤدي ذلك إلىٰ عكس المقصود من وقوع تباغض أو

---

(١) أخرجه بنحوه مسلم (٥٥) .

شحناء ، وموضوع السلام للألفة والمحبة ، فالصواب عدم استعمال ذلك إلا لعارف أو لعالم ، والله أعلم . انتهىٰ .

وقال في « بهجة الأسرار » : قال الجنيد : قال السري : استوصيت بشرَ بن الحارث بوصية فقال : أخاف أن أوصيك بوصية يكون وبالُها عليَّ وعليك ، فقلت : عليَّ ذلك ، فقال : انظر بأي بدن توافي القيامة ، وانظر مَن يحاسبك ، وبين يدي مَن تقف سبحانه وتعالىٰ ، واعلم أنك مسؤول لا محالة ، فأَعِدَّ للسؤال جواباً ، وللجواب صواباً ، والزم بيتك ، وحاسب نفسك ، فإذا قدمت القيامة . . تقول : يا رب ؛ ما زلت ملازماً لبيتي ، محاسباً لنفسي ، فيقول الله عز وجل : صدقت ، ثم قال : هيهات! وأنىٰ يقول : (صدقت) إلا للصديقين ؟!

وانظر كل خطرة تخطر ببالك تستحيي منها أن تُعلم بها جليسك ، فالله أحق وأحرىٰ أن يُستحيا منه سبحانه وتعالىٰ . انتهىٰ .

وقال الإمام محمد ابن الإمام أبي بكر الرازي في كتاب « التوحيد » : قال الجنيد : كنت أسمع السري يقول : يبلغ العبد من الهيبة والأنس إلىٰ حدٍّ لو ضُرب وجهه بالسيف . . لم يشعر .

وكان في قلبي منه شيء حتىٰ بان لي الأمر كذلك[1] ، وذلك لأن الهيبة والأنس حالتان فوق القبض والبسط ، والقبض والبسط فوق الخوف والرجاء[2] .

فالهيبة مقتضاها الغيبة والدهش ، فكل هائب غائب ، حتىٰ لو قطع قطعاً . . لم يحضر من غيبته إلا بزوال الهيبة عنه .

والأنس مقتضاه الصحو والإفاقة ، ثم إنهم يتفاوتون في الهيبة والأنس ، وقيل : أدنىٰ

---

(١) أكد هـٰذا الشيخ زكريا الأنصاري فقال في « شرح الرسالة » (٥٦) : (حيث ذاق وعلم أن كمال الاستغراق يزيل الإحساس بالنفس بالكلية ، وشاهده : خبر [الترمذي بنحوه (١٦٦٨) وقال : حديث حسن صحيح غريب] « إن الشهيد إنما يجد من الموت كما نجده من القرصة » لخفة ذلك عليه بكمال شغله بجهاده ، فيأتيه الموت بالسيف ولا يحس به إلا كما يحس بالقرصة) .

(٢) بيَّن معنىٰ هـٰذا الكلام شيخ الإسلام زكريا الأنصاري « في شرحه على الرسالة القشيرية » (٥٦) فقال : (« الأنس أتم من البسط » أي : فوقه ، فالهيبة ناشئة من القبض الناشيء من الخوف ، والأنس ناشيء من البسط الناشيء من الرجاء ؛ لأن من خاف الله عز وجل ، وعرف تقصيره في حقه تعالىٰ . . انقبض قلبه ، وبقي مشغولاً بالله ، فيحصل له الهيبة منه ، ومن أمل وصوله إلىٰ خير . . انبسط قلبه وبقي مشغولاً بالله ، فيحصل له الأنس به) .

مرتبة في الأنس : أنه لو ألقي في النار . . ما تكدر أُنسه .

ألا ترىٰ إلىٰ قول السري : يبلغ العبد من الهيبة والأنس إلىٰ حدٍّ لو ضرب وجهه بالسيف . . لم يشعر ، وذلك لأن الأنس يتولد من السرور بالله ، ومَن صح له الأنس بالله . . استوحش مما سواه .

وقيل لبعضهم : هل يذوق العبد حلاوة الأنس ؟ فقال : نعم ، إذا قطع العلائق ، ورفض الخلائق ، وغاص في الحقائق ، مطلعاً على الدقائق .

وقال الشبلي : مَن استأنس بالله عز وجل . . استوحش من خلقه ، ومَن استوحش من خلقه . . صار فرداً بين يديه جل جلاله .

وحالتا الهيبة والأنس ـ وإن جلَّتا ـ فأهل الحقيقة يعدونهما نقصاً ؛ لتضمنهما تغير العبد ؛ فإن أهل التمكين سَمَت أحوالهم عن التغير ، فلهم كمال في المحو ووجود في العين ، فلا هيبة لهم ، ولا أنس ، ولا علم ، ولا حس ، وارتقاؤهم عن هـٰذا المقام بالجود والفيض الإلـٰهي تبارك وتعالىٰ . [انتهىٰ] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : رأيت في بعض تعاليق والدي قدس الله روحه : أن سرياً السَّقَطي رحمه الله قال : أرِقت ذات ليلة ، فلم أطق الغمض مع ما حُرِمته من التهجد وكثرة التفكر ، فلما صليت الفجر . . خرجت لا يقر لي قرار ، فقلت : أمضي إلىٰ بعض الوُعَّاظ لَعلِّي أجد لقلبي راحة ، فلما وقفت عليه . . وجدت قلبي لا يزداد إلا قساوة ، فقلت : أمضي إلى الشرطة لَعلِّي أعتبر بمن يعاقَب في الدنيا ، فلما مضيت . . وجدت قلبي علىٰ حاله ، فقلت : أمضي إلى المارستان[1] لَعلِّي أعتبر بمن قد ابتلي ، فلما دخلت المارستان . . وجدت قلبي قد انفسح وارتاح ، فرأيت جارية جالسة علىٰ سرير من أحسن الناس وجهاً ، وعليها أطمار حسنة ، وشممت منها رائحة طيبة ، وهي عفيفة المنظر ، مقيَّدة الرجلين ، مغلولة اليدين ، فلما رأتني . . تغرغرت عيناها بالدموع ، وأنشدت :

أعنـــدك أن تُغَـــل يَـــديْ ... بغيـــر جـــريمـــة سبقـــتْ
تُغَـــلُّ يـــدي إلـــىٰ عنقـــي ... ومـــا خـــانـــت ومـــا ســـرقـــتْ
وبيـــن جـــوانحـــي كبـــد ... أُحِـــسُّ بهـــا قـــد احتـــرقـــتْ

---

(١) **المارستان** : كلمة فارسية تعني : المكان المعد للمرضىٰ ، وهو كالمشفىٰ في زماننا .

وحقِّــك يــا منــىٰ أملــي يمينــاً بــرَّةً صــدقــتْ
فلــو قَطَّعْتَهــا قِطَعــاً وحَقِّــك عنــك مــا بــرحــتْ

قال السري : فلما سمعت كلامها . . قلت للقيِّم : ما هـٰذه الجارية ؟ قال : جارية مجنونة ، حبسها مولاها لكي تصحو ، قال : فأردت الدنو منها ، فقال لي القيِّم : لا تقرب منها ؛ فإن الذي بها عظيم ، فلما سمعت كلام القيِّم . . تغرغرت عيناها بالدموع ، وأنشدت :

معشرَ النـاس مـا جُنِنـت ولـٰكـنْ أنــا سكــرانــة وقلبِــيَ صــاحِ
أنــا مجنــونــة بحــب حبيــب لسـت أبغـي عـن بـابـه مـن بَـراحِ
وصـلاحـيْ الـذي رأيتـم فسـاديْ وفسـادي الـذي رأيتـم صـلاحـي
ما علىٰ من أحب مولى الموالي وارتضــاه لنفســه مــن جُنــاحِ

قال السري : فلما سمعت ذلك منها . . أقلقني وأبكاني ، فلما رأتني علىٰ تلك الحال . . قالت : يا سري ؛ هـٰذا بكاؤك علىٰ ذِكر صفته ، فكيف لو عرفته حق معرفته ؟! ثم بكت ، وأنشدت :

أَلبَسْتَني ثوب وصل طاب ملبسه فأنت مولى الورىٰ حقاً ومولائي
كــانــت بقلبــيَ أهــواءٌ مفــرقــة فاستجمَعَتْ مذ رأتك العين أهوائي
فصار يحسُدني من كنت أحسُده فصرتُ مولى الورىٰ مذ صرتَ مولائي
تـركـتُ للنـاس دنيـاهـم ودينَهُـمُ شغـلاً بحبـك يـا دِينـي ودنيـائـي
من غَصَّ داوىٰ بشرب الماء غُصَّتَه فكيف يصنع من قد غَصَّ بالماء
فالشوق في خاطري مني وفي كبدي والحب مني مقيم بين أحشائي

قال : فقلت لها : يا جارية ؛ قالت : لبيك يا سري ، قلت : ومِن أين عرفتِ اسمي وما رأيتُك قبل هـٰذا ؟ فقالت : عرَّف بيني وبينك علام الغيوب سبحانه وتعالىٰ .

فقلت لها : سمعتك تذكرين المحبة ، فمن أحببت ؟ قالت : يا سري ؛ أحببت علام الغيوب ، وكاشف الكروب سبحانه وتعالىٰ .

فقلت لها : ومَن حبسك ؟ وما سبب حبسك وأنتِ علىٰ هـٰذه المعرفة والإخلاص في الحب ؟ قالت : يا سري ؛ زعموا أني مجنونة ، وهم أولىٰ باسم الجنون مني ، ثم بكت طويلاً .

فقلت : يا جارية ؛ قالت : لبيك يا سري ، قلت : ما اسمك ؟ قالت : دع الاسم ، اسمي : تحفة .

قال سري : فقلت لقيِّم المارستان : حُلَّ عنها قيدها ، وانزع الغل من عنقها ، ففعل ، ثم تحادثنا ساعة ، وإذا مولاها قد أقبل ، فقال للقيِّم : مَن عند تحفة ؟ قال القيِّم : سري السقطي وحاجبها ، فدخل مولاها ، فلما رآني . . سلم عليَّ وأعظمني ، فقلت له : يا فتىٰ ؛ إنها بالإعظام أولىٰ مني .

ثم قلت : يا فتىٰ ؛ ما الذي تنكر مِن هٰذه الجارية ؟ قال : يا سري ؛ كثرة بكائها وأنينها ، وهي ذاهلة العقل ، طول ليلها قائمة لا تنام ولا تدعنا ننام ، وهي ـ والله ـ بضاعتي شريتها بخمس مئة دينار ؛ لحسن صنعتها ، قلت : وما صنعتُها ؟ قال : عوادة تضرب بالعود ، قلت : ومنذ كم لحقها هٰذا ؟ قال : منذ ثلاث سنين ، قلت : وما كان سبب ذلك ؟ قال : بينا هي تغني وعودها في حجرها ، وهي تقول :

مـلأتَ جـوانحـي والقلـب وجـداً ... فكيـف أقـر أو أسـلا وأهـدا
وحقـك لا نقضـتُ الـدهـر عهـداً ... ولا كـدَّرتُ بعـد الصفـو وِردا
فيـا مـن ليـس لـي مـولـىً سـواه ... تـراك رضيتنـي فـي النـاس عبـدا

قال : ثم رمت العود من يدها ، فكسرته ، فهٰذا كان سبب جنونها ، قال : فلما سمعت الجارية ذلك . . أنشدت :

خـاطبنـي الحـق مـن جَنـانـي ... فكـان وعظـي علـىٰ لسـانـي
قَـرَّبنـي منـه بَعْـدَ بُعْـدٍ ... وخصنـي منـه واصطفـانـي
أجبـت لمـا دُعِيـتُ طـوعـاً ... ملبِّيـاً للـذي دعـانـي

قال السري رحمه الله : فقلت لمولاها : أطلق سبيلها وعليَّ خمس مئة دينار أدفعها إليك في غد إن شاء الله عز وجل ، فقال : تكون مقيمة في موضعها هٰذا إلىٰ أن تحضر المال أو تفيق من الجنون إن شاء الله .

قال السري : فانصرفت وأنا باكي العين حزين القلب على الجارية ، فلما كان في جوف الليل ؛ وإذا أنا بالباب يُطرَق ، فخرجت ، فوجدت خمسة من الرجال ، فقلت : ما حاجتكم ؟ فقال أحدهم : أخ في الله تعالىٰ جاء لسبب من الأسباب بإذن الملك الوهاب سبحانه وتعالىٰ ، قال السري : ففتحت الباب ، فقال : أتأذن في الدخول ؟ فقلت : نعم ،

فدخل ومن معه ، وعلىٰ أكتافهم أربع بِدَرِ دنانير ، وبيد الغلام شمعة ، فقال : أتعرفني ؟ قلت : لا ، قال : أنا أحمد بن المثنىٰ ، بينا أنا نائم الليلة ؛ وإذا هاتف يقول : يابن المثنىٰ ؛ هل لك في معاملة المولىٰ جل جلاله ؟ فقلت : يا فرحي إن كنت للرِّق أَصلُح! فقال : احمل مِن مالك أربع بدر إلىٰ سري السقطي يشتري بها تحفة ؛ فإن لنا بها عناية ، وقد جعلناها من أهل الولاية ، وأَعلِمْ مولاها بأن الله عز وجل سيفتح عليه من حيث لا يحتسب .

قال : فقمت وسارعت إلىٰ ما أُمرت ، وهـٰذا المال قد جئت به ، قال السري : فسجدت شكراً لله عز وجل علىٰ هـٰذه النعمة الجديدة ، ولم نزل إلىٰ أن طلع الفجر ، فلما أن صلينا الصبح . . أتينا المارستان ، وإذا قيِّم المارستان على الباب ، فلما رآني . . قال : يا سري ؛ جئتَ من أجل تحفة ؟ قلت : نعم ؛ وحكيت له ما قال ابن المثنىٰ من كلام الهاتف ، قال السري : ثم دخلنا المارستان ومعنا القيِّم ، فلما رأتنا . . تغرغرت عيناها بالدموع ، وأنشأت تقول :

قـــد تصبـــرت لحتـــىٰ ... عِيْـــلَ فـــي حبـــك صبـــري
ليـــس يخفـــىٰ عنـــك أمـــري ... يـــا منـــىٰ قصـــدي وذخـــري
أَتُـــرىٰ تعتـــق رقـــي ... أو تفـــك اليـــومَ أســـري

قال السري رحمه الله : فبينا نحن جلوس وأنا أقول لها : قد أجيبت الدعوة ؛ إذ دخل مولاها حزيناً متغير اللون باكياً ، فقلت له : لا تبك ، قد فرج الله عز وجل ، وقد حصل المال مثل ما أردت ، وإن طلبت ربحاً . . أعطيناك ، ولو أنه خمسة آلاف دينار ، فقال : والله يا سيدي السري ؛ لا أبيعها أبداً ، ولا بربح عشرة آلاف دينار .

فقلت : فهـٰذه أربع بدر دنانير ، فقال : والله ؛ لا فعلت ولو كان ملء الأرض ذهباً وفضة .

فقلت : يا فتىٰ ؛ ما هـٰكذا كان كلامك بالأمس ، فقال : هيهات يا سري! ما تعلم ما جرىٰ عليَّ من التوبيخ في البارحة وما هتف بي الهاتف ؟ اعلموا أن هـٰذه الجارية حرة لوجه الله تعالىٰ ، وجميع ما أملكه صدقة لله سبحانه وتعالىٰ .

قال السري : فالتفت ؛ فإذا ابن المثنىٰ يبكي بكاء شديداً ، فقلت له : ما يبكيك ؟ فقال : إن الله عز وجل لم يرضَني ، فقلت له : قد وقع الأجر ، وحصلت النية ، ونية المؤمن خير من عمله ، ولم أزل أُسكِّنه حتىٰ سكن ما به ، ثم قال لي : يا سري ؛ هـٰذا المال قد

خرجت عنه لله عز وجل ولا سبيل إلى الرجوع فيه ، وإنما هو وباقي مالي صدقة ، وكل ريع[1] لي . . فهو حبيس في سبيل الله تعالىٰ ، وكل مملوك لي . . فهو حر لله تعالىٰ ، وأنا هارب إلى الله عز وجل ، تائب إليه من جميع ذنوبي ، فقال الفتىٰ مولى الجارية : وأنا أيضاً أشهدكم أن جميع ما أملكه في سبيل الله ، وأنا هارب إلى الله ، وتائب إليه سبحانه وتعالىٰ .

فما أعظم بركة هـٰذه الجارية تحفة على الجميع!

قال السري رحمه الله : فقامت الجارية ، فنزعت ما كان عليها ، ولبست مدرعة من الشعر ، وخماراً من الصوف ، وقامت تمشي معنا ، وهي تبكي وتقول :

يـا سـروراً للقلـبِ أنـت سـروري ... وحيـاتـي وأنـت نـور النـورِ
كم ترىٰ يصبر المحب عن الحِـ ... ـبِّ وكم يلبث الهوىٰ في الصدورِ

ثم قالت : وا طول حزناه! وا شوقاه! ثم فارقتنا ومضت وهي تقول :

هـربـت منـه إليـهِ ... بكيـت منـه عليـهِ
وحَقِّـه هـو سـؤلـي ... لا زلـت بيـن يـديـه
حتـىٰ أنـالَ وأَحظـىٰ ... بمـا أتَّكلـت عليـه

قال السري : ثم غابت عنا ، فلما كان في بعض السنين . . حججت أنا ومولاها ، فبينا نحن في الطواف مع جماعة ؛ إذ سمعت صوتاً حزيناً ، وهي تنادي بالبكاء : يا سري ؛ فلما رأتنا . . أنشأت تقول :

محـب الله فـي الـدنيـا سقيـمُ ... تطـاوَلَ سقمـه فـدَواه دَاهُ
يهيـم بحِبِّـه شـوقـاً إليـه ... فليـس يـريـد محبـوبـاً سـواهُ
كـذلـك كـل مـن يُـدعـىٰ محباً ... يَهيـم بحِبِّـه حتـىٰ يـراهُ

قال السري : ثم سقطَتْ مغشياً عليها ، فلما أفاقت . . أنشدت :

أموت وما ماتت لديك صبابتي ... ولا رَوِيَتْ من فَرْط حبك أوطاري
منايَ المُنىٰ كل المنىٰ أنت لِيْ المنىٰ ... وموضعُ أشواقي ومكنون أسراري
أَلَسْتَ دليلَ القوم إن هُمْ تحيروا ... ومنقِذَ مَن أمسىٰ علىٰ جُرُفٍ هاري

---

(١) **الرَّيع** : المرجوع والغلة .

قال السري : فتقدَّمتُ إليها ؛ فإذا هي تحفة ، فقلت لها : ما وهبك الله عز وجل بانقطاعك عن الخلق ؟ قالت : آنسني بقربه ، وأوحشني من خلقه ، فقلت : يا تحفة ؛ إن ابن المثنىٰ قد مات ، فقالت : رحمه الله وغفر له ، إني لأرجو له من الله سبحانه وتعالىٰ كل خير ونعيم وزلفىٰ ، وسيجزيه الله عز وجل بكل درهم أنفقه في سبيل الله سبع مئة ضعف إلىٰ أضعاف مضاعفة ، ثم قالت : إلـٰهي وسيدي ومولاي ؛ أسألك بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة . . أن تقبضني إليك ، إلىٰ كَمْ أبقىٰ في دار الدنيا محزوناً ؟! إلـٰهي ؛ قد طال شوقي إليك ، فعجل ربي قبض روحي إليك ، يا أرحم الراحمين ، ومجيب دعوة المضطرين .

ثم استقبلت القبلة وتشهدت ، فماتت رحمها الله تعالىٰ . أو كما قال . انتهىٰ .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : وقال السري رحمه الله : وددت أن حُزن الخلق كلهم عليَّ .

وقال : إن في النفس لشُغلاً عن الناس .

وقال : المغبُون . . مَن فنيت أيامه بالتسويف ، والمغبوط . . مَن تمنى الصالحون مقامه .

وقال السري : سئل حكيم من الحكماء : متىٰ يكون العالِم مسيئاً ؟ قال : إذا كثر بقباقه[1] ، وانتشرت كتبه ، وغضب أن يرد عليه في شيء من قوله . أو ما هـٰذا معناه .

وقال الجنيد : بعثني السري يوماً في حاجة ، فأبطأت عليه ، فقال لي : إذا بعث بك رجل يتكلم في موارد القلوب في حاجة . . فلا تبطىء عليه ؛ فإنك تشغل قلبه .

وقال السري : احذر أن تكون ثناءً منشوراً وعيباً مستوراً .

وقال السري : جاءني أبو جعفر السماك ـ وكان شيخاً شديد الوله ـ ورأىٰ عندي جماعة قد اجتمعوا حولي ، فوقف ولم يقعد ، ثم نظر إلي فقال : يا أبا الحسن ؛ صرتَ مُناخاً[2] للبطالين ، [فرجع] ولم يقعد ، وكره لي اجتماعهم حولي .

---

(١) **رجل بقباق** : أي كثير الكلام ، أخطأ أو أصاب .

(٢) **المُناخ** : الأصل : مبرك الإبل ومحل الإقامة ، ولـٰكنه يقال : هـٰذا مناخ سَوء ؛ أي : مكان غير مرضيٍّ .

وقال السري : إني أعرف طريقاً يؤدي إلى الجنة قصداً ، فقيل : وما هو ؟ فقال : أن تشتغل بالعبادة ، وتقبل عليها وحدها ، حتىٰ لا يكون فيك فضل .

وقال الجنيد : كان السري إذا أراد أن يفيدني . . سألني ، فقال لي يوماً : ما الشكر ؟ فقلت : ألاّ يُعصى الله في نعمه سبحانه وتعالىٰ ، فقال لي : ما أحسن ما أجبت! ما أحسن ما تقول!

قال الجنيد : وهـٰذا هو فرض الشكر ؛ ألاّ تعصي في نعمه .

وقال السري : أعرف طريقاً مختصراً يؤدي إليه سبحانه وتعالىٰ ، فقيل له : وما هو ؟ قال : لا تأخذ من أحد شيئاً ، ولا تسأل أحداً شيئاً ، ولا يكن معك ما تعطي منه أحداً شيئاً .

وقال : لا يقوىٰ علىٰ ترك الشهوات إلا من ترك الشبهات .

وقال السري وقد ذكر الناس فقال : لا تعمل لهم شيئاً ، ولا تعط لهم شيئاً ، ولا تكشف لهم عن شيء ، اعمل لله عز وجل خالصاً .

وقال : مَن ذكرني بسوء . . فهو في حل ، إلا رجل تعمدني بشيء هو يعلم مني خلافه .

وقال الجنيد : سمعت الحسن البزار يقول : كان أحمد ابن حنبل هـٰهنا ، وكان بشر بن الحارث هـٰهنا ، وكنا نرجو أن يحفظنا الله تعالىٰ بهما ، ثم إنهما ماتا وبقي السَّريُّ ، وإني أرجو أن يحفظنا الله تعالىٰ بالسَّريِّ .

وقال أبو عليٍّ الحسن البزار : سألت أحمد ابن حنبل عن السري بعد قدومه من الثغر ، فقال : عن الشيخ الذي يُعرف بطيِّب الغذاء ؟ قلت : بلىٰ ، قال : وكان السري يكثر من طيِّب الغذاء ـ يعني : الحلال ـ وتصفية القوت ، وشدة الورع ، حتى انتشر ذلك عنه .

وقال الجنيد : كان السري يقول لنا ونحن حوله : أنا لكم عبرة ، يا معشر الشباب ؛ اعملوا ؛ فإنما العمل في الشبيبة .

وكان إذا جن عليه الليل . . دافع أوله ، ثم دافع ، ثم دافع ، فإذا غلبه الأمر . . أخذ في النحيب والبكاء .

وقال : سمعت السري يقول : مِن الناس مَن لو مات نصف أحدهم . . ما انزجر النصف الآخر ، ولا أحسبني إلا منهم .

أسند وسمع من الأئمة الأعلام ، وامتنع من التحديث ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ١١٨ـ١٢٧] .

وقال في « المناقب » : قال الجنيد : سمعت سرياً يقول : كنت ماراً في البَرِّية ، فآواني الليل إلىٰ جبل لا أنيس فيه ، فبينا أنا في جوف الليل ؛ ناداني مناد فقال : لا تدور القلوب في الغيوب حتىٰ تذوب النفوس من مخافة فوت المحبوب ، قال : فتعجبت ، وقلت : أجِنِّيٌّ يناديني أو إنسي ؟ فقال : بل جني مؤمن بالله سبحانه وتعالىٰ ومعي إخواني ، فقلت : وهل عندهم ما عندك ؟ فقال : نعم ؛ وزيادة .

قال : فناداني الثاني منهم : لا تذهب مِن البدن الفتوَّة إلا بدوام الغربة ، فقلت في نفسي : ما أبلغ كلامهم .

فناداني الثالث : مَن أنس به في الظلام . . نشر له غداً الأعلام ، قال : فصعقت ، فما أفقت إلا برائحة الطيب ، وإذا نرجسة علىٰ صدري ، فشممتها فأفقت ، فقلت : وصية رحمكم الله ، فقالوا جميعاً : أبى الله أن تحيا به إلا قلوب المتقين ، فمن طمع في غير ذلك . . فقد طمع في غير مطمع ، وفقنا الله وإياك ، ودعوني ومضوا ، وقد أتىٰ عليَّ حينٌ ولا أزال أرىٰ بركة كلامهم موجودة في خاطري .

وروي أنه أنشد يوماً :

لا في النهار ولا في الليل لي فَرَجٌ ... فلا أبالي أطال الليل أم قَصُرا
لأنني طول ليلي هائم دنف ... وبالنهار أقاسي الهم والفِكَرا

وقال أبو الفرج : قال سليمان بن محمد : حدثني بعض إخواني : أن سرياً رحمه الله مرت به جارية ومعها إناء فيه شيء ، فسقط من يدها فانكسر ، فأخرج سري شيئاً من دكانه وأعطاها بدل ذلك ، فنظر إليه معروف الكرخي ، فأعجبه ما صنع ، فقال له : بغَّض الله إليك الدنيا ، وأراحك مما أنت فيه . [انتهىٰ « الصفوة » ٢/ ٢٢٤] .

وقال القشيري : قال الجنيد : كنت أسمع السري رحمه الله يقول : يبلغ العبد إلىٰ حد لو ضرب وجهه بالسيف . . لم يشعر ، وكان في قلبي منه شيء ، ثم بان لي أن الأمور كذلك . انتهىٰ [« الرسالة القشيرية » ٥٦] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال مظفر بن سهل : سمعت علان الخياط وكان قد جرىٰ بيني وبينه ذكر مناقب السَّريِّ ، فقال لي : كنت يوماً جالساً مع السَّريِّ ، فجاءته امرأة

فقالت : يا أبا الحسن ؛ أنا من جيرانك ، وقد أخذ ابني الطائف[1] ، وأخشىٰ أن يؤذيه ، فإن رأيت أن تجيء معي أو تبعث إليه ، قال علان : فتوقعت أن يبعث إليه ، فقام وكبَّر وطوَّل صلاته ، فقالت له المرأة : يا أبا الحسن ؛ اللهَ اللهَ فيَّ ، أخشىٰ أن يؤذىٰ ولدي ، قال : فسلَّم وقال لها : أنا في حاجتك[2] .

قال علان : فلم يكن إلا أن جاءت امرأة أخرىٰ ، فقالت لها : قد أُفرج عن ابنك ، اذهبي إليه .

قال : فتعجب الرجل من سرعة إجابة دعائه ، فقال له علان : و[من] أي شيء تتعجب ؟ اشترىٰ كُرَّ[3] لوزٍ بستين ديناراً ، وكتب على العِدْل الذي هو فيه : ربحه ثلاثة دنانير ، فارتفع السعر حتىٰ صار الكر بتسعين ديناراً ، فأتاه الدَّلاَّل ، وقال له : أريد ذلك اللوز ، فقال : خذه ، فقال : بكم ؟ قال : بثلاثة وستين ديناراً ، فقال له الدَّلاَّل : إن اللوز قد صار بتسعين ديناراً ، فقال : قد عقدت بيني وبين الله تعالىٰ عقداً لا أحله ، وليس أبيعه إلا بثلاثة وستين ديناراً ، فقال له الدَّلاَّل : إني قد عقدت بيني وبين الله عز وجل عقداً ألاَّ أغش مسلماً ، لست آخذه منك إلا بتسعين ديناراً ، فلا الدَّلاَّل اشترىٰ منه ، ولا هو باعه ، فكيف لا يستجاب دعاء مَن هـٰذا فعله ؟!

وقال ابن أبي الورد : دخلت يوماً على السَّريِّ وهو يبكي ، ودورقه[4] مكسور ، فقلت له : ما لَك ؟ فقال : انكسر الدورق ، فقلت : أنا أشتري لك بدله ، فقال : من أين تشتري بدله وأنا أعرف الدانق الذي اشتُري به الدورق ، ومَن عمله ، ومِن أين أخذ طينته ، وأي شيء أكل عامله حتىٰ فرغ من عمله ؟!

وقال سعيد بن عثمان : سمعت سرياً يقول : غزونا أرض الروم ، فمررت بروضة خضراء فيها الخُبَّيْز[5] وحجر منقور فيه ماء المطر ، فقلت في نفسي : لئن أكلت يوماً حلالاً . . فاليوم ، فنزلت عن دابتي وجعلت آكل من ذلك الخبيز ، وشربت من ذلك الماء ؛

---

(١) **الطَّائف** : العَسَس ـ رجال الشرطة ـ الذين يطوفون بالليل يحرسون الناس ويكشفون أهل الريبة .

(٢) هـٰذا الفعل هو عين سنة الحبيب صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر . . فزع إلى الصلاة ، وهو باب عظيم من أبواب الفرج ، نسأل الله التوفيق .

(٣) **الكُرُّ** : مكيال لأهل العراق .

(٤) **الدورقُ** : إناء من زجاج يوضع فيه الشراب .

(٥) **الخُبَّيز** : جنس نبات له أوراق مستديرة ، يطهىٰ ورقه فيؤكل .

وإذا هاتف يهتف بي : يا سري ؛ فالنفقة التي بلغت بك إلىٰ هـٰذا مِن أين ؟

وقال حسن المسوحي : دفع إليَّ السَّريُّ قطعة وقال : اشترِ لي بها باقِلاًّء من رجل قِدْرُه داخل الحانوت ، فطفت الكرخ كله ، فلم أجد إلا مَن قدره خارج الحانوت ، فرجعت إليه ، وقلت له : هـٰذه قطعتك ، فإني لم أجد إلا من قدره خارج الحانوت[1] .

وقال أبو عبيد القاضي : سمعت سرياً يقول : إني لأكره مجيء الناس إلي ، فأقول : اللهم ؛ هب لهم ما يشغلهم عني ؛ فإني لا أريد مجيئَهم إلي ، ولا أن يدخلوا عليَّ ، وأنت أعلم .

وقال الجنيد : قال لي السَّريُّ : إن أمكنك ألاّ تكون آنية بيتك إلا خزفاً[2] . . فافعل ، قال الجنيد : وهـٰكذا كانت آنية بيته .

قال : وسمعت سرياً يقول : ما أرىٰ لي علىٰ أحد فضلاً ، قيل : ولا على المخنَّثين ؟ قال : ولا على المخنثين .

وقال : مَن أراد أن يَسلمَ له دِينه ، و[يستريح] قلبه وبدنه ، ويَقِلَّ غمه . . فليعتزل الناس ؛ لأن هـٰذا زمان عزلة ووحدة .

وقال : عمل قليل في سُنَّة . . خير من عمل كثير في بدعة ، كيف بعمل مع هوىٰ ؟!

وكان يقول : مَن خاف الله تعالىٰ . . خافه كل شيء .

وقال : إن اغتممت بما ينقص من مالِك . . فابك علىٰ ما ينقص من عمرك .

وكان يقول : اللهم ؛ ما عذبتني بشيء . . فلا تعذبني بذل الحجاب .

وقال : مَن حاسب نفسه . . استَحيا الله عز وجل أن يحاسبه يوم القيامة .

وقال : مَن عرف ما يطلب . . هان عليه ما يبذل .

وقال علي بن الحسين[3] : سمعت سرياً يقول : إن الله عز وجل سلب الدنيا عن

---

(١) ولعل المراد : أنه لم يرد أن يأكل طعاماً من عند إنسان لا يعرف التوكُّلَ على الله ؛ لأن الذي يضع قِدره خارج الدكان يظن بذلك أن هـٰذا القِدر سيدل الذين يشترون عليه ، أما المتوكل على الله . . فيعلم علم اليقين أن رزقه سيدركه كما يدركه أَجَلُهُ ، سواء كان القدر داخل الدكان ، أو خارجه ، والله أعلم ، أو المراد : أن الذي يضع قدره خارج الحانوت يأخذ موضعاً خارج حانوته قد لا يملكه ، فيكون فيما يبيعه شبهة .

(٢) **الخزف** : ما عمل من الطين وشوي بالنار فصار فخاراً .

(٣) وهو أبو عبيد بن حربويَه .

أوليائِه ، وحماها عن أصفيائه ، وأخرجها من قلوب أوِدَّائه ؛ لأنه سبحانه وتعالىٰ لم يرضها لهم .

وقال محمد بن علي : سمعت سرياً يقول : حمدت الله عز وجل مرة ، وأنا أستغفر الله تعالىٰ من ذلك منذ ثلاثين سَنة ، فقيل له في ذلك فقال : كان لي دكان في سوق وفيه متاع ، فاحترق ذلك السوق ، فأخبرت بذلك ، فخرجت أتعرف الخبر ، فلقيت رجلاً فقال : أبشِرْ ؛ فإن دكانك قد سلم ، فقلت : الحمد لله ، ثم فكرت ، فرأيتها نقصاً ؛ فإني أحببت الخير لنفسي دون المسلمين ، وفرحت لنفسي ولم أحزن للمسلمين .

وقال الجنيد : دخلت على السَّريِّ يوماً ، فسلمت وجلست ، فقال لي : أُقرب مني ، فقربت منه ، فأخذ بيدي فقال : اعلم أن الشوق والأنس يرفرفان على القلب ، فإن وجدا هناك الهيبة والإجلال . . [حَلاَّ] ، وإلا . . ارتحلا .

وقال : ثلاث مَن كن فيه . . فقد استكمل الإيمان :

ـ من إذا غضب . . لم يخرجه غضبه عن الحق .

ـ ومن إذا رضي . . لم يخرجه رضاه إلى الباطل .

ـ ومَن إذا قدر . . لم يتناول ما ليس له .

وقال : كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يكن له وقت ينام فيه ، فكان ينعس وهو قاعد ، فقيل له : يا أمير المؤمنين ؛ ألا تنام ؟ فقال : كيف أنام ؟! إن نمت بالنهار . . ضيعت أمور المسلمين ، وإن نمت بالليل . . ضيعت حظي من الله عز وجل .

وقال الجنيد : ما رأيت أعبَدَ من السَّريِّ ، أتت عليه ثمان وتسعون[1] سَنة ما رئي مضطجعاً إلا في علة الموت .

وقال السري : لولا الجمعة والجماعة . . لسددت علىٰ نفسي الباب ولم أخرج .

وقال الجنيد : كنت نائماً عند السَّريِّ ، فأنبهني وقال لي : يا جنيد ؛ الساعة رأيت كأني أوقفت بين يدي الله عز وجل فقال لي : يا سري ؛ فقلت : لبيك ربَّنا وسعديك ، فقال لي : خلقت الخلق ، فكلهم ادَّعَوا محبتي ، فخلقت الدنيا ، فهرب مني تسعة أعشارهم وبقي معي العشر ، فخلقت الجنة ، فهرب مني تسعة أعشار العشر وبقي معي عشر العشر ، فسلطت

---

(١) وفي « الصفوة » : (ثمان وسبعون) وفي نسخة : (ثمان وثلاثون) .

عليهم ذرة من البلاء ، فهرب مني تسعة أعشار عشر العشر ، فقلت للباقين معي : لا للدنيا أردتم ، ولا للجنة أخذتم ، ولا من البلاء هربتم ، فماذا تريدون ؟ فقالوا : إنك لتعلم ما نريد ، فقلت لهم : فإني مسلِّط عليكم من البلاء بعدد أنفاسكم ما لا تقوم له الجبال الرواسي ، أتصبرون ؟ فقالوا : إذا كنت أنت المبتلي لنا . . فافعل ما شئت ، فهـٰؤلاء عبادي حقاً . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٢٢٤ـ٢٣١] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : قد تقدم في شرح كلام الإمام حاتم الأصم رحمه الله : أن هـٰذه الرؤيا داخلة تحت قوله صلى الله عليه وسلم : « أول من يُدعىٰ يوم القيامة آدم . . . »[1] الحديث .

ووجه ذلك : أن الله تبارك وتعالىٰ لما خلق الخلق والدنيا . . طلبها مِن كل ألف مثلاً تسع مئة ، بقي مئة ، فخلق الجنة ، فطلبها تسعون ، وبقي عشرة ، فسلط عليهم ذرة من البلاء ، فهرب تسعة ، فلم يبق سوىٰ واحد . انتهىٰ .

وقال أبو الفرج : أسند السَّريُّ عن هشيم ، وأبي بكر ابن عياش ، ويزيد بن هارون ، وغيرهم .

وصحب معروفاً الكرخي .

وتوفي يوم الثلاثاء لسِتٍّ خلون من رمضان ، سَنة ثلاث وخمسين ومئتين .

وقال الأئمة ـ منهم أبو الفرج رحمه الله وغيره ـ : قال أبو عبيد بن حربويه : حضرت جنازته ، فلما كان في بعض الليالي . . رأيته في النوم ، فقلت له : ما فعل الله تعالىٰ بك ؟ فقال : غفر لي ولمن حضر جنازتي وصلىٰ عليَّ ، فقلت : فإني ممن حضر جنازتك وصلىٰ عليك ، قال : فأخرجَ درجاً ، فنظر فيه ؛ فلم ير فيه اسمي ، فقلت : بلىٰ . . قد حضرت ، قال : فنظر ؛ فإذا اسمي في الحاشية . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٢٣٢] .

---

(١) روى البخاري (٦١٦٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أول من يدعىٰ يوم القيامة آدم ، فتراءىٰ ذريته ، فيقال : هـٰذا أبوكم آدم ، فيقول : لبيك وسعديك ، فيقول : أخرج بعث جهنم من ذريتك ، فيقول : يا رب كم أخرج ؟ فيقول : أخرج من كل مئة تسعة وتسعين » ، فقالوا : يا رسول الله ؛ إذا أخذ منا من كل مئة تسعة وتسعون ، فماذا يبقىٰ منا ؟ قال : « إن أمتي في الأمم كالشعرة البيضاء في الثور الأسود » .
ولبيان المناسبة بين ذكر الحديث وتوجيه كلام السري رحمه الله تعالىٰ راجع شرح المؤلف رحمه الله لكلام حاتم الأصم ؛ فقد أجاد وأفاد .

زاد في رواية : غفر لي ولمن حضر جنازتي وصلىٰ عليَّ وأحبني إلىٰ يوم القيامة .

وقال الجنيد : مرض أستاذنا السَّريُّ من غير تغير يرىٰ عليه ، فأخذت قارورة مائه ، وجئت بها إلىٰ طبيب نصراني ، فلما نظر إليها . . قال : هـٰذا بول عاشق ، فصعق الجنيد ، وخر مغشياً عليه ، وانكسرت القارورة ، فلما جئت إليه . . أخبرته ، فقال لي : قاتله الله تعالىٰ ما أخبرَه! ما كنت أظن أن الحب يظهر في هـٰذا ، وكان السَّريُّ يكتم الحب .

ولقد حكي عنه : أنه مد يده إلىٰ جلدة ذراعه فلم تمتد ، وقال : لو قلت لكم : إن هـٰذا من الحب . . لكنت صادقاً .

وقال الإمام أبو حامد الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : وقد كان السَّريُّ رحمه الله يوصل إلىٰ أحمد ابن حنبل شيئاً فيرده ، فقال له السَّريُّ : يا أحمد ؛ احذر آفة الرد ؛ فإنها أشد من آفة الأخذ ، فقال له أحمد : أعد عليَّ ما قلت ، فأعاد ، فقال أحمد : ما رددت عليك إلا لأن عندي قُوتَ شهر ، فاحبسه لي عندك ، فإذا كان بعد شهر . . فأنفذه إلي .

فقد صرح الإمام أحمد رحمه الله بعِلة الامتناع عن القَبول ، وهو الاستغناء عنه إذ كان عنده قوت شهر ، ولم ير لنفسه أن يشتغل بأخذه ، وصرفه إلى الفقراء ؛ لِمَا في ذلك من آفات وأخطار ، والورع أن يكون حذراً من مظان الآفات ؛ إذ لا يأمن مكيدة الشيطان علىٰ نفسه . انتهىٰ [« الإحياء » ٤/٢٠٨ـ٢٠٩] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو القاسم الجنيد بن محمد
رضي الله عنه

قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : حدثنا علي بن هارون ومحمد بن أحمد بن يعقوب قالا : سمعنا أبا القاسم بنَ محمد الجنيد ـ نضَّر الله وجهه ـ يقول غير مرة : عِلمُنا هـٰذا مضبوط بالكتاب والسُّنة ، مَن لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولم يتفقه . . لا يُقتدىٰ به .

وقال أحمد بن جعفر وغيره : هو الإمام العلم الفرد في طريقه ، وإليه يرجع أصحاب علم السلوك في زمانه وبعده ، ورزق من الذكاء وصواب الجواب في فنون العلم ما لم يُرَ في زمانه مثله عند أحد من أقرانه ، ولا ممن هو أرفع شأناً منه .

سمع الحديث من الحسن بن عرفة ، وغيره ، وروىٰ عنه خلائق من الأئمة ، منهم : الإمام أبو بكر الشبلي ، والإمام أبو محمد الجريري ، وجعفر الخلدي ، وغيرهم .

وقال الحافظ : كان الجنيد في أول أمره يتفقه علىٰ مذهب أصحاب الحديث ؛ مثل أبي عبيد ، وأبي ثور رحمهما الله .

وكان يفتي بحلقة أبي ثور وله من العمر عشرون سَنة ، وكان ممن برز في العلم والعمل ، وجمع بينهما ، فلما أحكم الأصول . . صحب الحارث بن أسد المحاسبي ، وخاله السري السقطي ، فسلك مسلكهما في التحقيق للعلم واستعماله له .

وقال جعفر بن محمد : رأيت الجنيد في النوم فقلت له : ما فعل الله تعالىٰ بك ؟ فقال : طاحت تلك الإشارات ، وغابت تلك العبارات ، وفنيت تلك العلوم ، ونفدت تلك الرسوم ، وما نفعنا إلا ركيعات كنا نركعها في الأسحار .

وقال الجنيد : العبادة على العارفين أحسن من التيجان علىٰ رؤوس الملوك .

وقال : لولا يروىٰ أنه يكون في آخر الزمان زعيم القوم أرذلهم . . ما تكلمت عليكم .

وقال الجنيد : إن بدت ذرة من عين الكرم والجود . . ألحقت المسيء بالمحسن ، وبقيت أعمالهم فضلاً لهم ، فقال أبو العباس ابن عطاء : متىٰ تبدو ؟ فقال الجنيد : هي بادية ، قال الله تعالىٰ فيما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم : (سبقت رحمتي غضبي)[1] .

وكان الجنيد يقول : لو أن العلم الذي أتكلم به من عندي . . لفني ، ولـٰكنه من حق بدأ ، وإلىٰ حق يعود . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ٢٥٥ـ٢٦٣] .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : في حفظي : أن بعض العلماء أراد أن يعرف رتبة الجنيد في العلم ، فسأله عن الدليل علىٰ وحدانية الله عز وجل ، فأخذ الجنيد في الاستدلال بدليل تحير ذلك العالم من حسنه ودلالته على الوحدانية علىٰ أقصىٰ وجوه الإمكان ، فقال للجنيد : أعده علي لأحفظه ، فأعاد الجنيد الدليل بعبارة أخرىٰ أحسن وأعجب من العبارة الأولىٰ ، فازداد ذلك السائل تحيراً وتعجباً ، وقال له : يا سيدي ؛ بالله أعده عليَّ ، فأعاده بعبارة ثالثة أحسن من العبارتين الأولتين ، فقال السائل : أمله عليَّ حتىٰ أكتبه ، فقال الجنيد : إن كنت أجريه . . فأنا أمليه ، فترامىٰ ذلك السائل علىٰ يديه ورجليه ، واعترف بوفور فضله وسعة علمه رحمه الله .

زاد في « لوامع أنوار القلوب » : أن الجنيد لما ذكر للسائل أدلة التوحيد . . قال له السائل : يا شيخ ؛ إن هـٰذا كلام يخرج عن صدق عزيمة ، وعلو همة ، وأسرار تظهر علىٰ طول مجاهدة ، ودوام مراقبة ، وقوة نفس تنبىء عن قلة مبالاة بالخصوم ، واستحقار معاداتهم .

وقال في « مختصر وفيات الأعيان » : إن الجنيد رحمه الله قال : ما انتفعت في بدايتي بشيء كانتفاعي بأبيات سمعتها لما كنت ماراً في درب القراطيس . . سمعت جارية تقول :

إذا قلتُ أهدى الهجرُ لي حُلَلَ الضنا ... تقولين لولا الهجرُ لم يَطِبِ الحبُّ
فإن قلتُ هـٰذا القلب أحرقه الهوىٰ ... فقولي بنيران الهوىٰ يُشرِق القلبُ
وإن قلتُ ما أذنبتُ قلتِ مُجيبةً ... حياتك ذنب لا يقاس به ذنبُ

قال : فصعقتُ وصحتُ ، فلم أُفِق إلا وصاحب الدار قد خرج ، فقال : مم ذا

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٨٦) بلفظ : « إن الله لما قضى الخلق . . كتب عنده فوق عرشه : إن رحمتي سبقت غضبي » .

يا سيدي ؟ فقلت : مما سمعته من جاريتك ، فقال : أشهدك أنها هبة مني لك ، قال : فقلت : قد قبلتها ، وهي حرة ، ثم زوجتها لبعض أصحابنا ، فولدت له ابناً نبيلاً ، نشأ وحج علىٰ قدميه نحو ثلاثين حجة . [انتهىٰ « وفيات الأعيان » ١/ ٣٧٤] .

وقال في « المختار » : وقد سئل الجنيد عن العارف فقال : العارف : مَن نطق عن سرك وأنت ساكت .

وقال : الغفلة عن الله سبحانه وتعالىٰ . . أشد من دخول النار .

وقال الجنيد : بلغني أن يونس عليه الصلاة والسلام بكىٰ حتىٰ عمي ، وقام حتى انحنىٰ ، وصلىٰ حتىٰ أُقعِد ، ثم قال : وعزتك وجلالك لو كان بيني وبينك بحر من نار . . لخضته شوقاً إليك .

وقال الجنيد : إذا رأيت الفقير . . فابدأه بالرفق ولا تبتدِئْه بالعلم ، فإن العلم يوحشه ، والرفق يؤنسه .

وقال الجنيد : لا تقوم بما عليك حتىٰ تترك جميع ما لَكَ ، وليس شيء أعز من الوقت .

وسئل عن الخضوع ، فقال : خَفْض الجناح ، ولين الجانب .

وقال : الشكر : هو ألاَّ ترىٰ نفسك أهلاً للنعمة ، وأما الشكر لطلب المزيد . . فهـٰذا في شكره واقف مع حظ نفسه ، فليس يبلغ درجة الأول .

وقال : اليقين هو استقرار العلم الذي لا ينقلب ولا يحول ولا يتغير في القلب .

وسأله أبو محمد الجريري فقال : ما بال الإنسان تخف عليه بعض الأعمال ، ويثقل عليه بعضها ؟ فقال : ربما كان ذلك اختباراً من الحق جل جلاله ، يهب لعبده شيئاً من الأحوال العالية ؛ لينظر كيف حفظه لها ، وكيف تمسكه بها ، فإن رآه مراعياً لها مستمسكاً بها دائم أوقاته . . زاده منها ، وفتح له في غيرها ، ونقله إلىٰ ما هو أعلىٰ منها ، وإن رآه مضيعاً لها . . سلبه إياها ؛ إذ لا يعرف قدر الموهبة .

وقال الجنيد لبعض أصحابه : إذا صدقت الله تعالىٰ . . فاصدقه في سرك ؛ فإن الله عز وجل جعل لإبليس علىٰ كل شيء طريقاً إلا علىٰ صدق الأسرار .

وقال : ما رأيت أحداً عظَّم الدنيا . . فقَرَّتْ عينه فيها ، وما حقَّرها أحد . . إلا انتفع بها ، وأتته وهي راغمة .

وروي : أن الشبلي سأل الجنيد رحمهما الله فقال له : يا أبا القاسم ؛ ما حسنات الأبرار ؟ فقال : سيئات المقربين ، ثم أنشأ يقول :

طــوارق أنــوارٍ تلــوح إذا بــدت فتُظهِـر كتمـانـاً وتخبـر عـن جَمْـعِ

ورأيت في الكتاب المسمىٰ بـ : « صيد الخاطر » لابن الجوزي رحمه الله تعالىٰ : أن امرأة جاءت إلى الجنيد ومعها زوجها ، فوقفت بباب المسجد ، وسألت الوقوف بين يدي الجنيد ؛ لتسأله عن مسألة ، فلما علم بذلك . . خرج إليها ، فقالت له : يا سيدي ؛ إن زوجي هـٰذا يريد أن يتزوج عليَّ ، فقال الجنيد : إن لم يكن له أربع زوجات . . يجوز له أن يتزوج عليك ، فقالت : يا سيدي ؛ لو كان يجوز النظر إلى الأجانب . . لكشفت لك عن وجهي ؛ لتنظر إلىٰ حسني وجمالي ، فتعلم أن من كان عنده مثلي لا ينبغي أن يتزوج عليها ، فلما سمع الجنيد هـٰذا الكلام . . صعق وصاح وخر مغشياً عليه ، فلما أفاق . . سئل عن ذلك ، فقال : نظرت كأن الجبَّار جل جلاله يقول : لو كان يجوز لأحد أن يراني في الدنيا بعين بصره . . لكشفت له عن حجابه حتىٰ يراني ؛ ليعلم أن مَن كان له ربٌّ مثلي . . لا ينبغي له أن يحل في قلبه سواي .

وفيه : أن الجنيد كان إذا مر في طرق بغداد . . قام الناس له صفَّين . انتهىٰ .

زاد غيره : قال رجل للجنيد ـ وكان به حمىٰ ـ : كيف أصبحت ؟ فقال : بخير والحمد لله ، فقال : هل حميت البارحة ؟ فقال له : إذا قلت لك أصبحت بخير . . فلا تُعد عليَّ السؤال .

وقال أبو عمرو الزجاجي : دخلت على الجنيد رحمه الله وكنت أريد الحج ، فلما ودعته . . أعطاني درهماً صحيحاً ، فشددته في مئزري ، فلم أدخل منزلاً إلا وجدت رفقاً ولم أحتج إليه ، فلما قضيت الحج ورجعت إلىٰ بغداد . . دخلت إليه ، فمد يده إلي ، وقال : هات الدرهم ، فناولته ، ثم قال : كيف كان الختم ؟ فقلت : كان نافذاً .

وقال الجنيد : صحبت أربع طبقات من هـٰذه الطائفة ، كل طبقة ثلاثون رجلاً : الحارث المحاسبي وطبقته ، والسري السقطي وطبقته ، وحسن المسوحي وطبقته ، وابن الكريني وطبقته ، فما تواخى اثنان في الله عز وجل واحتشم أحدهما من صاحبه أو استوحش . . إلا لعلة في أحدهما .

وقال رجل للجنيد : قد عزَّ في هـٰذا الزمان أخ لله تعالىٰ[1] ، فأعرض الجنيد عنه ، حتىٰ أعاد ثلاثاً ، فلما أكثر . . قال له الجنيد : إن أردت أخاً يكفيك مؤونتك ويتحمل أذاك . . فهـٰذا ـ لَعَمري ـ قليل ، وإن أردت أخاً في الله تعالىٰ تحمل أنت مؤونته وتصبر علىٰ أذاه . . فعندي جماعة أعرفهم لك ، فسكت الرجل .

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ :

قال أبو بكر العطوي : كنت عند الجنيد حين مات ، فختم القرآن ، ثم ابتدأ من (البقرة) ، فقرأ سبعين آية ، ثم مات رحمه الله تعالىٰ .

وقال الجنيد : إن من الأعمال ما لا يطلع عليه الحفظة عليهم السلام ، وهو ذِكر الله عز وجل بالقلوب ، وما طويت عليه الضمائر من الهيبة والتعظيم لله عز وجل ، واعتقاد الخوف من الله سبحانه وتعالىٰ ، والتعظيم لحرمات الله تعالىٰ ، والإجلال لأوامره ونواهيه سبحانه وتعالىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ ، فإذا علم العبد هـٰذا ، وعقد قلبه عليه . . جعل الله تعالىٰ له ثواب ذلك سبعين ضعفاً ؛ لأن العبد إذا أخلص في عمله وأحب ألاَّ يطلع عليه إلا الله سبحانه وتعالىٰ . . ضاعف له ثوابه ، وجعله سبعين ضعفاً إلىٰ ما يشاء الله سبحانه وتعالىٰ من الزيادة .

وقال في قوله صلى الله عليه وسلم : « اعبدِ الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه . . فإنه يراك »[2] قال : جعل له حالتين ، إحداهما أقوىٰ من الأخرىٰ ؛ لأن من رأى الشيء بقوة العلم وحقيقة التصديق له . . كان أقوىٰ من أن يعلم أن ذلك يراني وإن كان عِلمي بأنه يراني حقيقةً علماً موجبه التصديق ، والمعنى الأول أقوىٰ وأولىٰ ، والفضل بجمعهما علىٰ تقديم إحداهما على الأخرىٰ . [انتهىٰ « الحلية » ١٠/ ٢٦٤ـ٢٦٦] .

وقال القشيري : سئل الجنيد عن الخشوع ، فقال : تذلُّل القلوب لعلام الغيوب ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ .

---

(١) قال الإمام أبو إسحاق الشيرازي رحمه الله في هـٰذا المعنىٰ :

سألت الناس عن خلٍّ وفيٍّ ... فقالوا ما إلىٰ هـٰذا سبيل
تمسك إن ظفرت بذيل حرٍّ ... فإن الحر في الدنيا قليل

انظر « البداية والنهاية » (١٢/ ١٢٥) .

(٢) أخرجه بنحوه البخاري (٥٠) ، ومسلم (٨) .

وقال أبو علي الدقاق : معناه : متواضعين متخاشعين ، واتفقوا علىٰ أن الخشوع محله القلب .

وسئل عن التواضع فقال : خَفْض الجناح ولين الجانب . انتهىٰ [« الرسالة » ١١٦ـ١١٧] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : رأيت في مجموع وفي « بهجة الأسرار » أيضاً : كان الجنيد رحمه الله يقول : أشرف المجالس وأعلاها . . الجلوس مع الله عز وجل في ميدان فكر التوحيد .

وقال لأصحابه : أتدرون أين يُذهَب بكم ؟ وتدرون لماذا خلقتم ؟ وإلىٰ ماذا تصيرون ؟ فاتقوا الله ، واحفظوا ساعاتكم وأوقاتكم ؛ فإنها زائلة عنكم غير راجعة إليكم ، والحسرة على الغفلة في فوتها واقعة ، فلو بذل أحدكم ما بذل . . لم يَرُدَّ وقتاً من أوقاته ، فأوصلوا أورادكم وإخوانكم . . تجدوا منفعتها في دار الإقامة ، ولا يشغلنكم عن الله عز وجل قليل الدنيا ؛ فإن قليل الدنيا يشغل عن كثير الآخرة .

وسئل الجنيد عن الرجل يكون له عند السلطان جاه ، ويقصده الضعيف المظلوم في أمر قد يجري عليه فيه الظلم ، فقال : لا أحب أن أتكلم فيه بشيء ، وذلك أن أقواماً من السلف رضي الله عنهم كانوا يسارعون إلىٰ مثل هـٰذه الحالة ، وآخرون من السلف كانوا يتثاقلون عنها مخافة ألاَّ يسلموا ، والذي عندي : أن الرجل إذا قصدهم . . يرىٰ عندهم من المنكرات أعظم مما قصد له ، وربما لا يبلغ وسعه أن ينكر ، فهـٰذا يقع فيه ما يقع ، وأنا لا أحب أن أتكلم في الجهات كلها ؛ لأن الرجل ربما رغب في الأجر أو حملته نية على السعي فيه ، فإن تكلمتُ . . لا أدري كيف أسلَم منه .

وقال أبو الحسن بن هارون : قرأ علينا الجنيد قيام الليل ، فقال فيه : لله عز وجل عباد أقلقهم شدة المحبة له ، وصفاء المودة ، وقوة المصافاة ، فتعطلت عند ذلك فرشهم ، وتباعد عنهم إخوانهم ، وفارقوا الأولاد والأزواج ، ولم يكن فيهم فضل لشيء من الأسباب ؛ لشدة وقوع الوجد بالمحبوب فيما بينهم وبين السكون والهدوء والقرار ، فلو أرادوا نوماً أو رقاداً . . لَمَا وجدوا إلىٰ ذلك سبيلاً .

وفي « بهجة الأسرار » قال : حدثني بكران صاحب الشبلي ، عن علي بن منصور الدينوري قال : خرجت إلىٰ بغداد ومعي شيء من الدنيا أريد تفرقته علىٰ أصحاب الجنيد وسائر الفقراء ، فوافينا بغداد ونزلنا في مكان ، وقصدت الجنيد لأقضي من حقه ، فدخلت

عليه في منزله ، فَسُرَّ بي ، وقربني بكلامه وحسن لُقيه ، وكنت أختلف إليه دائماً وأذاكره ، فلما كان ذات ليلة . . رأيت في منامي كأن الخليفة قد جاء يدعوني إلىٰ ضيافته ، فانتبهت وحدثت صاحبي بما رأيت ، فقال : ننظر ما يكون من تأويل رؤياك هـٰذه ، فلما كان بعد الفجر ؛ إذا بالباب يطرق ، ففتحنا الباب ؛ فإذا الجنيد ، فقمنا إليه وفرحنا بقدومه ، فسلم علينا وجلس ساعة يحادثنا ويذاكرنا في العلم ، ثم دعانا إلىٰ دعوته في منزله .

قال : فتبسمت إلىٰ صاحبي ، فقال لي الجنيد : مم تبسمك ؟ فقلت له : صورة المنام الذي رأيته ، وإني جلست أنتظر ما يكون من تأويل رؤياي حتىٰ دق الشيخ الباب ، فلما دعوتنا إلىٰ منزلك . . تبسمت .

فقال الجنيد : إني رأيت البارحة رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام وأبو بكر عن يمينه وعمر عن يساره وعليٌّ بين يديه رضي الله عنهم ، فجلست بين يديه صلى الله عليه وسلم ؛ فإذا برجلين قد جلسا بين يديه ، وادعىٰ أحدهما على الآخر دعوىٰ في مطالبة بحق ، فالتفتَ إليَّ النبي صلى الله عليه وسلم وقال لي : « يا أبا القاسم ؛ احكم بينهما » ، فسكتُّ ؛ إعظاماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، واحتشاماً منه ومن أصحابه رضي الله عنهم ، فأعاد القول ثانياً وثالثاً وأنا أسكت هيبة وإعظاماً وإجلالاً له ، فقال في الرابعة : « احكم بينهما ؛ فقد وليتك الحكم بين الخلق » ، فانتبهت وأنا مذعور ، فجئت إليكم أتسلىٰ .

وقال الجنيد : البلاء سراج العارفين ، ويقظة المريدين ، وهلاك الغافلين .

وسئل : ما فائدة المريدين في الحكايات ؟ فقال : لتقوىٰ بها قلوبهم ، ويثبت فؤادهم ، فقيل له : هل في ذلك من حجة من كتاب الله عز وجل ؟ فقال : نعم ؛ ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ .

زاد في « **لوامع أنوار القلوب** » : قال الجنيد رحمه الله : الحكايات جند من جنود الله سبحانه وتعالىٰ ، يُقوِّم بها أحوال المريدين ، ويُحيي بها معالم أسرار العارفين ، ويُهيِّجُ بها خواطر المحبين ، ويُجري لها دموع المشتاقين ، ويُظهر بها صدق إشارات العاملين .

وقال الجنيد : كن متعبداً في باطنك مع الله عز وجل ، وكن متعبداً في ظاهرك مع الخلق جسمانياً ؛ لأن مَن فارق الخلق بجسمه . . فارق الجماعة ، ومَن فارق الجماعة . . وقع في الضلالة ، ومَن خالط الناس بسِرِّه . . افتتن بهم ، ومَن افتتن . . حُجِب عن الحق للطمع في الخلق ، فإذا تخلى العبد بسِرِّه عن الدنيا وأطلق النفس . . كشف له أبواب المشاهدة .

ـ فأول ما يُكشف له التقوىٰ ، فيظفر العبد بالصدق والإخلاص ، ويستريح من غموم الدنيا وبلائها ، ويسير بضياء عقله بين عباد الله ، فلا يتأذىٰ به أحد من خلق الله .

ـ ثم يكشف له باب الورع ، فيتمكن من الصمت ، ويموت فيه الطمع ، ويحظىٰ بالعلم .

ـ ثم يكشف له باب الزهد ، فلا يبالي مَن أكل الدنيا ، ولا ينازع فيها أهلها ، ويترك ما فيها علىٰ مَن فيها .

ـ ثم يكشف له باب القناعة ، فيطيب عيشه بغَناء قلبه .

ـ ثم يكشف له باب الصبر ، فتخمد نيران الشهوات ، فيستريح ويزول عنه الهوىٰ .

ـ ثم يكشف له باب التوكل ، فيكتفي بمولاه جل جلاله عمن سواه ، ويطمئن قلبه عن ذِكر الكفاية ، وينقطع سره عن التقاضي .

وقال الجنيد رحمه الله : اشتد البلاء برجل من العارفين حتىٰ جر برجله إلى المزبلة ، فرفع طَرْفه إلى السماء ، فقال : أنا بعينك كما ترىٰ ، فافعل ما شئت ، وحسبي ما تشاء ، ثم قال :

إذا المستهام شَكا شَجْوَه ... فقد زال عن سنن المستهامْ
فأين الكلوم التي في الحشا ... وأين تبرمه بالكلامْ[1]

وروى البيهقي عن إبراهيم بن شيبان قال : سمعت الجنيد يقول وسئل عن أول مقام التوحيد فقال : قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أن تعبد الله كأنك تراه »[2] .

ورُئِيَ الجنيد رحمه الله تعالىٰ بعد موته في المنام ، فقيل له : ما فعل الله عز وجل بك ؟ فقال : عاتبني علىٰ كلمة سبقت مني ، وذلك أن سَنة من السنين احتبس عنا فيها المطر ، فقلت مع الناس : ما أحوج الناس إلى المطر ، فقال الحق جل جلاله : ما يدريك أن الناس يحتاجون إلى المطر ؟ تُعلمني وأنا العليم الخبير ؟! اذهب ، فقد غفرت لك .

ومرض الجنيد ، فوَصَف علته للطبيب ، فقيل له : أليس هـٰذا شكوىٰ ؟ فقال : لا ، وإنما هـٰذا إخبار عن قدرة القادر جل جلاله .

وقال الجنيد : مؤاكلة الإخوان رضاع ، فانظروا مَن تؤاكلون .

---

(١) الكُلوم : الجروح .

(٢) أخرجه البيهقي في « الزهد » (٢/ ٣٥٥) .

وقال : تنزل الرحمة على الفقراء عند الطعام ؛ فإنهم لا يأكلون إلا عند الضرورة .

وقال : لا يصلح السؤال لأحد إلا لمَن كان العطاء عنده أحب إليه من الأخذ .

وسئل عن قوله تعالىٰ : ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾[1] ، فقال : يمنعهم علوُّ هممهم عن رفع حوائجهم إلا إلىٰ مولاهم سبحانه وتعالىٰ .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال : إذا نزل بالعبد ضر أو حاجة : فإن أنزلها بالله عز وجل ولجأ إليه في كشف ضره . . قضيت حاجته وارتفع ضره ، والله عز وجل معبوده ، وإن أنزلها ـ والعياذ بالله ـ بغير الله . . فإنه لا يرتفع ضره ولا تقضىٰ حاجته ، وهو معبوده ؛ فإن النظر في الإعطاء والمنع إلىٰ غير الله عز وجل شرك ، وهـٰذا ـ والله أعلم ـ هو معنى النفي والإثبات المذكور في الآية الكريمة[2] .

وقال الجنيد وقد سئل عن الشفقة فقال : هي أن تعطي الناس من نفسك ما يطلبون ، ولا تحملهم ما لا يطيقون ، ولا تخاطبهم بما لا يعلمون .

وقال : قد ينقل العبد من حال إلىٰ حال أرفع منها وقد بقي عليه من التي نقل عنها بقية ، فيشرف عليها من الحالة الثانية ، فيصححها .

وقيل للجنيد : يسألك السائل عن مسألة فتجيبه ، ثم يسألك آخر عن تلك المسألة فتجيبه بجواب آخر ، فقال : علىٰ قدر السائل يكون الجواب .

وهـٰذا مأخوذ من فعل ابن عباس رضي الله عنهما ، ذكره الأئمة في آداب المفتي[3] .

وحكي : أن رويماً قال للجنيد : كم تنادي إلىٰ ذِكر الله عز وجل عند العامة ؟ فقال الجنيد : أنا أنادي على العامة بين يدي الله عز وجل : قوم أفنوا سرائرهم بالمحظوظ ، وأبصارهم باللحوظ ، أنىٰ لهم إلىٰ ذِكر الله عز وجل سبيل ؟!

---

(١) **الإلحاف** : المبالغة في السؤال ؛ أي : لا سؤال لهم يكون فيه الإلحاف .

(٢) النفي في قوله تعالىٰ : ﴿فَلَا كَاشِفَ﴾ ، والإثبات في قوله تعالىٰ : ﴿إِلَّا هُوَ﴾ .

(٣) جاء في « المعيد في أدب المفيد والمستفيد » (١٠٣ـ١٠٤) لعبد الباسط العَلْمَوي : قال الصَّيْمَري : إذا رأى المفتي المصلحة أن يفتي العامي بما فيه تغليظ وتشديد وهو مما لا يعتقد ظاهره وله فيه تأويل . . جاز ذلك ؛ زجراً وتهديداً في مواضع الحاجة حيث لا يترتب عليه مفسدة ، كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما : أنه سأله رجل عن توبة القاتل ، فقال : لا توبة له ، وسأله رجل آخر ، فقال : له توبة ، ثم قال : أما الأول : فرأيت في عينيه إرادة القتل فمنعته ، وأما الثاني : فجاء مستكيناً قد قَتَل فلم أقنطه . اهـ

وقال الجنيد : كل مريد لا يعود نفسه صيام النهار وقيام الليل وخدمة الإخوان . . فكأنه يتمنىٰ ما لا يصلح له .

وقال الجريري رحمه الله : دخلت على الجنيد وهو مهتم ، فقلت : ما لك ؟ فقال : فاتني شيء من أورادي ، فقلت له : أعده ، فقال : كيف وهي أوقات معدودة ؟! وهـٰذا استفاده من أستاذه السري رحمه الله .

وكان الجنيد وأحمد الزيات رحمهما الله يتكلمان في علم السلوك ، والجنيد يستفيد منه ويقدمه علىٰ نفسه ، ولم يتكلم الجنيد على الناس حتىٰ مات أحمد الزيات .

وكان يقول : فقدنا علم الحقائق بموت أحمد الزيات رحمه الله .

وقال الجنيد : إذا صحت المودة . . سقطت شروط الأدب . [انتهىٰ] .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : اعلم : أن هـٰذا يستدعي إشارة لطيفة قالها العارفون رحمهم الله في الصحبة ، وهي :

مع المشايخ : بالاحترام ، والخدمة ، والتوقير ، والقيام بأشغالهم .

ومع الأقران : بالبِشر ، والانبساط ، والموافقة ، والإحسان ، والكون معهم علىٰ حكم الوقت .

ومع الأصاغر : بالشفقة ، والإرشاد ، والتأديب .

ومع الأستاذِين : باتباع أمرهم ونهيهم ، وهي في الحقيقة خدمة لا صحبة .

ومع الجُهال : بجميل الصبر ، وحسن الخُلُق ، والمداراة ، والنظر إليهم بعين الرحمة ، ومَن كان جهله أقوىٰ . . كان العفو والحلم عنه أولىٰ .

ومع الأهل والولد : بالشفقة ، وحسن التأديب ، وحثهم علىٰ أنواع الطاعات .

ومع الإخوة : بكل ما يقدر عليه من الموافقة وترك المخالفة ما لم تكن معصية .

ومع السلطان : بالسمع والطاعة إلا في معصية ، والإمساك عما فيه قدح عليهم ، وأما الدخول عليهم : فمَن كان عادلاً . . فهو من السبعة المذكورين في الحديث المشهور[1] ، والنظر إليه عبادة .

---

(١) روى البخاري (٦٢٩) : عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ في عبادة ربه ، ورجل قلبه معلق في=

وينبغي أن يدعو له ويحث الناس عليه بما قاله سعيد بن المسيب رحمه الله ـ لما ولي عمر بن عبد العزيز رحمه الله ـ للعلماء : اجعلوا نصف دعائكم لأمير المؤمنين . . يَسلَمْ لكم دينكم ودنياكم .

ومَن كان ظالماً . . فالبعد عنه واجب ، إلا إذا تعين ؛ كإرشاد أو اضطرار ، فيدخل بحسب ذلك لا غير ، كما مر بيانه في مواضع ، وإذا دَخل عليهم . . أمرهم ونهاهم ، ودعا لهم بالتوفيق والإعانة إذا علم من حاله أنه يسلم عند القرب منه .

قال بعض المشايخ : مَن شارك السلطان في عز الدنيا . . شاركه في ذل الآخرة .

ومع الكافة كصحبة أبي ضمضم رضي الله عنه ، كان إذا أصبح وأمسىٰ . . يقول : اللهم ؛ إني وهبت نفسي وعرضي لك ، اللهم ؛ إني قد تصدقت بعرضي علىٰ عبادك ، فمَن شتمني . . فلا أشتمه ، ومن ظلمني . . فلا أظلمه .

ثم إنَّ علىٰ كل جارحة أدباً تختص هي به ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ وحقيقة هـٰذه الآداب راجعة إلى المراقبة .

قال بعض المشايخ : الأدب مع الله عز وجل : ألاَّ تتحرك جارحة من جوارحك في غير رضا الله سبحانه وتعالىٰ .

وحكي عن بعضهم أنه قال : نظرت إلىٰ شخص نظر شهوة ، فرأيت في المنام قائلاً يقول لي : إن الله سبحانه وتعالىٰ يقول : (الدنيا داري ، والخلائق فيها عبيدي وإمائي ، فمَن نظر إلىٰ أحد منهم بغير حق . . فقد خانني) ، فانتبهت وآليت علىٰ نفسي ألاَّ أنظر إلىٰ شخص بعد ذلك إلا علىٰ حد الأمانة .

وسئل أبو عثمان الحِيري رحمه الله عن الصحبة فقال : توسع علىٰ إخوانك بمالِكَ ، ولا تطمع في مالهم ، وتنصفهم من نفسك ، ولا تطلب الإنصاف منهم ، وتكون تبعاً لهم ، ولا تطلب أن يكونوا تبعاً لك ، وتستكثر ما إليك منهم وتستقل ما إليهم منك .

وهـٰذا نظير قول حاتم الأصم رحمه الله وقد مر في ترجمته .

= المساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال . . فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق فأخفىٰ حتىٰ لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » .

وقيل للزقاق[1] : مَن أصحب ؟ فقال : مَن يعلم منك جميع أحوالك ظاهراً وباطناً ، ثم تأمنه عليه .

وقال : ليس في اجتماع الإخوان أُنس لوحشة الفراق .

وقيل : الشرف في ثلاثة : إجلال الكبير ، ومداراة النظير ، ورفع النفس عن الحقير .

وتمام الكلام في آداب الصحبة قد تقدم في ترجمة أبي الدرداء رضي الله عنه . انتهىٰ .

وقال في « بهجة الأسرار » : قال الجنيد رحمه الله : إذا أراد الله عز وجل عبداً لحال المحبة . . كشف له عن قديم إنعامه عليه ، وبِره إليه ، وكثرة الأيادي القديمة عنده ، التي كانت له محفوظة قبل كونه موجوداً ، السابقة له فيما سلف من متقادم الأمر وبدء البدء[2] ، والذي لم يكن له في ذلك شافع ، وإنما ذلك فضل محض يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

وسئل الجنيد : إلىٰ أين تنتهي عبادة أهل المعرفة ؟ فقال : إلى الظَّفَرِ بنفوسهم ، نصب لهم الحق أعلام أدلة العمال ، فوقفوا مع ما لَهُ دون التعريج علىٰ ما لَهُم ، فاشتاقت إليهم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، واستغفرت لهم الملائكة ، وأنِست بهم الأولياء ، فتركوا ما لهم ووقفوا مع ما لله عز وجل عليهم ، وسائر الناس وقفوا مع ما لَهُم وتركوا ما لله عز وجل عليهم ، فرَدَّ الله تعالىٰ كُلاًّ إلىٰ قيمته .

وقال : ينبغي للعاقل ألاَّ يفقد نفسه من إحدىٰ ثلاثة مواطن :

ـ موطن يعرف فيه حاله ، أفي زيادة هو ، أم في نقص ؟

ـ وموطن يستحضر فيه عقله لرؤية مجاري التدبير عليه ، وكيف تقلَّب عليه الأحكام في آناء الليل والنهار .

ـ وموطن يخلو فيه بتأديب نفسه وإلزامها جميع ما يلزمها ، ويستقصي فيه عن معرفتها لجميع ذلك .

وقال الجنيد : إن للعلم ثَمَناً ، فلا تعطوه حتىٰ تأخذوا ثَمَنه ، قيل : وما ثمنه ؟ قال : تضعوه عند من يحسن حمله ، ولا تضعوه عند من لا يحسن حمله .

---

(١) واسمه : أبو بكر أحمد بن نصر الزقاق .

(٢) في نسخة : (وبدء اليد) .

وقال : إن الله عز وجل كشف لعباده معايبهم في ذكر الطين لهم ، وعرَّفهم مقاديرهم في ذكر النطفة ، وأشهدهم عجزهم في تقلبهم ؛ ليعرفوا فاقتهم إليه في جميع أحوالهم .

وقال : لا يرتقي في الدرجات من لم يُحكِم فيما بينه وبين الله أوائل البدايات ، وأوائلها الفروض الواجبة ، ثم الأوراد الراتبة[1] ، ومطايا الفضل وعزائم الأمر ، فمَن أحكم ذلك . . فإن الله تعالىٰ يَمُن عليه بما بعده .

وسئل فقيل : يا أبا القاسم ؛ ما الظرف ؟ فقال : هو الاجتناب لكل خُلُق دني ، واستعمال كل خُلُق سني ، وأن تعمل لله عز وجل من العبادات بما لا ترىٰ أنك قد عملت[2] .

وقال : فرض الشكر : الاعتراف لله عز وجل بالنعم بالقلوب ، والثناء عليه بالألسن ، والعمل بالجوارح ، وألاَّ تعصِيَه في نعمة .

وقال : التصوف جامع لعشر خصال :

ـ التقلل من كل شيء في الدنيا مع القدرة عليه .

ـ واعتماد القلب على الله سبحانه في عدم السكون إلى الأسباب .

ـ والرغبة في الطاعة مهما استطاع .

ـ والصبر عند فَقْدِ الدنيا عن المسألة والشكوىٰ .

ـ والتمييز بين الشبهات والحلال .

ـ والشغل بالله سبحانه وتعالىٰ عما سواه .

ـ ودوام الذِّكر له بالقلب واللسان .

ـ وتحقيق الإخلاص مع الصدق .

ـ واستواء السريرة والعلانية .

ـ ودوام المراقبة لله مع السكون إليه في جميع الأحوال .

فإذا اجتمعت هٰذه الخصال . . كان الصوفي في أول مراتب المحبة ، ثم يرقىٰ إلىٰ حالة

---

(١) في نسخة : (الزاكية) .

(٢) في نسخة : (وأن تعمل لله عز وجل من العبادات من غير رؤية لها ، بل تشهد عظيمَ منّة الله عليك فيها . . . حتىٰ تغرق عبادتك في المنة) .

المشاهدة ، فيؤخذ منه إليه ، ويبقىٰ معه وعليه في ميدان المحبة والدهشة ، والله أعلم .

وسئل : متىٰ يُكمِل المحبُ أحوالَ العبودية ؟ فقال : إذا رأىٰ أن الأشياء كلها لله تعالىٰ ، وأنه هو المتفرد بالتدبير والخَلق والملك ، قال الله تعالىٰ : ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيقف ما بين اللجج والحجج من غير اعتراض ولا احتجاج ، كما وصف الله عز وجل عبده ورسوله سيد المرسلين محمداً صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين بقوله : ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ .

وكتب الجنيد إلىٰ بعض إخوانه : مَن سكن أو شَكا إلىٰ غير الله . . ابتلاه الله بحجب سره عنه ، ومنع ذِكره عن قلبه ولسانه ، فإن انتبه وتاب . . كشف ما به من المحن ، وأحله محل القرب والزلفىٰ ، وإن دام علىٰ ذلك ولم يتب ـ والعياذ بالله ـ نزع الله عن قلوب الخلق مودته ، وألبسه لباس الطمع ، فتصير حياته عجزاً ، وموته كمداً ، ومعاده أسفاً ، فهـٰذه مجازاة الغادرين ، ومكافأة الناكثين .

وحكي أن أبا بكر الكتاني رحمه الله قال : جرت مسألة المحبة بمكة في الموسم ، فتكلم فيها المشايخ ، وكان الجنيد أصغرهم سناً ، فتكلم المشايخ ، ثم قالوا : هات ما عندك يا عراقي ، فأطرق رأسه ودمعت عيناه ، ثم قال : عبد ذاهب عن نفسه ، متصل بربه ، قائم بأداء حقوقه ، ناظر إليه بقلبه ، قد أحرق قلبَه أنوارُ الإلـٰهية ، وصفا شربه من كأس وِده ، وانكشف له الحق من أستار غيبه ، فإن تكلم . . فبالله ، وإن نطق . . فمِن الله ، وإن تحرك . . فبأمر الله ، وإن سكن . . فمع الله ، فهو بالله ، ومن الله . وبأمر الله ، ومع الله ، فبكى المشايخ ، وقالوا : ما علىٰ هـٰذا مَزيد ، جبرك الله يا تاج العارفين .

وقال وقد سأله أبو محمد الجريري عن رجل به أمر من الأمور ، فهو يكاتم سره ، ولا يسأل ربه عز وجل كَشْفَه ، وآخر إذا وقع له شيء من ذلك . . يجأر إلى الله عز وجل بالدعاء والتضرع ، أيهما عندك أَعلىٰ ؟ قال : الذي يكتم سره في نفسه ولا يبديه . . يعلم أن علام الغيوب والسرائر عالم بما هو فيه ، لا تخفىٰ عليه خافية ، فيوافق بذلك علمه ، فيكره أن يعترض عليه بشيء لا يأمنه عليه .

وقال : مَن فتح علىٰ نفسه باب نية حسنة . . فتح الله عز وجل عليه سبعين باباً من التوفيق ، ومَن فتح علىٰ نفسه باب نية سيئة . . فتح الله عليه سبعين باباً من الخذلان .

وقال الجنيد : سمعت الزجاج يقول : قال لي إبراهيم الآجرّي رحمه الله : يا غلام ؛ لأن

تَرُدَّ ذرة من همتك[1] إلى الله عز وجل . . خير لك مما تعمله بدون ذلك .

وقال الجنيد : الدنيا لحظة ، إن صدمتها . . ذهبتَ بها ، وإن هي صدمتك . . أعمتك .

وسئل عن الزهد فقال : هو خلوُّ الأيدي من الأملاك ، وخلوُّ القلب مما خلت منه الأيدي .

وقال : مَن عرف الله تعالىٰ . . أطاعه ، ومن عرف نفسه . . ساء بها ظنه ، وخاف علىٰ حسناته ألاَّ تقبل منه . انتهىٰ .

وقال في « لوامع أنوار القلوب » : قال موسى بن علي رحمه الله : مشيت يوماً مع الجنيد ، فلما بلغنا مسجد الشونيزي . . التفت إلينا ووقف ، وقال : يا معشر الشباب ؛ جِدُّوا قبل أن تعجزوا ، واجتهدوا قبل أن تطلبوا أثراً بعد عين ؛ فإني تذكرت مجاهدات كانت لنا في هٰذا المسجد تُقَبِّحُ في عيني بطالتي اليوم .

قال موسى بن علي : وكانت حالته إذ ذاك من أعظم أنواع المجاهدات .

وأنشدوا في المعنىٰ :

أتهجر مَن تحبُّ وأنت جارُ ... وتطلبهم وقد بَعُدَ المزار
وتبكي بعد نأيهمُ اشتياقاً ... وتسأل في المنازل أين ساروا
تركتَ سؤالهمْ وهمُ حضور ... وترجو أن تخبِّرك الديار
فأنت كطالب أثراً لِعَين ... وقلبك بالبطالة مستعارُ
فنفسَك لُمْ ولا تَلُمِ المطايا ... ومت أسفاً فقد حان الحذار
سمعتَ بنأيهمْ فظللتَ حياً ... فديتُك كيف يهنيك القرار

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : وقد وقع مثل هٰذا لجماعة من العارفين رضوان الله عليهم أجمعين ، منهم : أستاذه السري رحمه الله ، وقد سبق في تراجمهم . انتهىٰ .

وقال في « بهجة الأسرار » : قال الجنيد : كنت يوماً عند حسين المصري ، وكان يأنس بي ، فقال لي : تعرف أحداً نسكن إليه ؟ فاعتقدت في نفسي رجلاً كنت أسكن إليه ، ولم أبدِ ذكره ، فقال لي : هو فلان ؟ وسماه باسمه ، فكبُر عليَّ إصابته لما في سِرِّي ، فعدلت عن

---

(١) في نسخة : (همّك) .

ذلك الرجل في نيتي إلىٰ رجل آخر ، فقال لي : هو فلان ؟ فأصاب الثاني ، فكان ذلك عليَّ أشد ، فعدلت في نيتي إلىٰ رجل ثالث ، فقلت له : لا ، فقال لي في الثالث : هو فلان ؟ فأصابه ، فعظم ذلك عندي ، وكل ذا أدافعه عما يقول ، ثم افترقنا عن ذلك المجلس ، وعدت إليه بعد أيام ، فحين لقيني . . قال لي : يا أبا القاسم ؛ أنت عندي صادق ، وقلبي عندي لا يكذبني ، وقد دفعتني عن أشياء كنت قلتها في المجلس الماضي ، فما السبب في ذلك ؟ فرأيته ثابتاً علىٰ ما كان قاله لا يندفع سره عنه ، فأخبرته بما جرىٰ ، وأني كنت أعدل عن رجل ذَكره إلىٰ غيره ، وأنه أصاب في الجميع ، فسرَّه ذلك ، ثم قال : الحمد لله عدد ما أحصىٰ علمه ، وعدد عفوه عن خلقه سبحانه وتعالىٰ . انتهىٰ .

وقال في « لوامع أنوار القلوب » : قال جعفر الخلدي : دفع إليَّ الجنيد درهماً وأمرني أن أشتري له التين الوزيري ، قال : فاشتريته وجئت به إليه ووضعته بين يديه ، فوضع منه تينة في فمه علىٰ أن يفطر عليها ، ثم وقع عليه البكاء ، فأخرجها من فيه ، وأخذ الماء فغسل فمه ، فقلت له : ما هـٰذا يا شيخ ؟! فقال : كنت اشتهيته منذ ثلاثين سَنة فما أكلته ، فلما كان اليوم . . غلبتني نفسي لشهوتها ، فلما وضعته في فمي ؛ فإذا هاتف يهتف بي ويقول : أمَا تستحيي ؟ تركت أكلة لله سبحانه وتعالىٰ ثم تعود إليها ، فأخرجتها من فمي ، ورأيت أن ترك العهد خيانة ، وأن الخؤون لا يكون محبوباً .

وقال أبو محمد الجريري رحمه الله : قصدت الجنيد زائراً ، فوجدته في الصلاة ، فأطال جداً ، فقلت له : قد كبُرتَ ، ووهن عظمك ، ورق جلدك ، وضعفتَ ، فلو اقتصرت علىٰ بعض صلاتك ، فقال : **طريق عرفنا بها ربنا سبحانه وتعالىٰ لا ينبغي لنا أن نقتصر علىٰ بعضها** ، فالنفس ما حمَّلتها تتحمل ، والصلاة صلة ، والسجود قربة ، ولهـٰذا قال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ ، **ومَن ترك طريق القرب . . يوشك أن يُسلَك به سبيل البعد** . انتهىٰ .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : رأيت في « روضة المريدين » بخط والدي قدس الله روحه : حكي أن أبا القاسم الجنيد رحمه الله ورد عليه في وقت السماع وارد ، فغيَّبه ، فسقط طرف ردائه ، فوطِئه ، ثم مد يده ، فرفعه ، فقيل له في ذلك ، فقال : غبت ، ثم حضرت ، فاستحييت من الله عز وجل أن أدَّعي الغيبة في حال الحضور .

ورأيت أيضاً في بعض تصانيف الإمام محمد ابن أبي بكر الرازي رحمهما الله تعالىٰ : عن الجنيد أنه قال : الخوف يقبضني ، والرجاء يبسطني ، والحقيقة تجمعني ، والحق يفرقني .

قال الرازي : القبض والبسط حالتان فوق الخوف والرجاء ؛ فإن القبض للعارف من ثمرات الخوف ، والبسط للعارف من ثمرات الرجاء ، والخوف والرجاء متعلقان بأمر مستقبل مكروه ومحبوب ، والقبض والبسط بأمر حاضر في الوقت يغلب علىٰ قلب العارف من وارد غيبي ، ثم إن كلاً منهما قد يكون كاملاً وقد يكون ناقصاً :

فالقبض الكامل : وارد غيبي ، كأنه يعاتب علىٰ تقصير أو سوء أدب ، فيستغرق العارف في ذلك حتىٰ تنسَدَّ عليه أبواب التنفس .

والقبض الناقص : وارد غيبي ضعيف ، كأنه يخاطب العارف بما تحتمله قوته .

وأما البسط التام : فهو وارد غيبي قوي ، كأنه يخصه بتشريف وإقبال ولطف وسرور ، فيجذبه بالكلية حتىٰ يبقىٰ مدهوشاً في بسطه ، كأنه قد حُلَّ عنه عقال الموانع ، وأطلق في ميادين الاتصال ، وكوشف في رياض الجمال والجلال ؛ لقوة الوارد .

وأما البسط الناقص : فهو وارد غيبي ضعيف ، يؤثر في العارف سروراً ونشاطاً وارتياحاً تأثيراً يبقىٰ معه فيه بقية يتصرف بها في نفسه وغيره ، فلا يؤثر فيه البسط تأثيراً كلياً ؛ لنقصه ، بخلاف الأول ، فإنه يؤثر فيه تأثيراً كلياً ؛ لقوته واستيلاء سلطان العناية الأزلية علىٰ قلبه .

وبَسْطُ كل شخص علىٰ حسب قبضه ، وقبضه علىٰ حسب بسطه ، وقد يحدث قبض لا يعرف سببه ، وعلاجه التسليم حتىٰ يذهب ذلك الوقت ؛ لأن تكلُّف دفعه يخل بالأدب ، ويزيد في ذلك القبض ، وبالتسليم يزول عن قريب ؛ قال تعالىٰ : ﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ﴾ .

وقد يحدث بسط بغتة لا يُعرف سببه ، فيهز صاحبه ويستفزه ، وسبيل صاحبه السكون والمراقبة وحفظ الأدب ؛ فإن حالة البسط لها خطر عظيم ، فليحذر صاحبها مكراً خفياً يحجبه عن مقامه ، كما قال بعض العارفين : فُتح عليَّ بابٌ من البسط ، فزللت زلة ، فحجبت عن مقامي ، ولهـٰذا قالوا : قف على البساط ، وإياك والانبساط .

وقد استعاذ أهل التحقيق من حالتي القبض والبسط ؛ لأنهما بالنسبة إلىٰ ما فوقهما من الأحوال . . فقر وضر ، ألا ترىٰ إلىٰ قول الجنيد رحمه الله : الخوف يقبضني ، والرجاء يبسطني ، والحقيقة تجمعني ، والحق يفرقني .

وقال الجنيد : حقيقة المشاهدة . . وجود الحق مع فقدانك ، فصاحب المحاضرة يهديه قلبه ، وصاحب المكاشفة يدنيه علمه ، وصاحب المشاهدة تدنيه معرفته .

وقيل : إن المشاهدة إدراك الغيوب بأنوار الأسرار عند صفاء القلوب من الأدناس

وخلوصها من الأضداد والأغيار في مراقبة الجبار جل جلاله ولا إلـه غيره ، فيصير كأنه ينظر إلى الغيب من وراء ستر رقيق من صفاء المعرفة وبرد اليقين .

ولهـٰذا قالوا : إن المشاهدة تتولد من المراقبة .

ولم يزد أحد في بيان حقيقة المشاهدة علىٰ ما قاله عمرو بن عثمان المكي رحمه الله .

ومعنىٰ ما قاله : إنه تتوالىٰ أنوار التجلي علىٰ قلب العارف من غير أن يتخللها ستر وانقطاع ، كما لو فرض اتصال البروق في الليلة المظلمة حتىٰ تصير كالنهار ؛ لاتصال البروق بها ، فكذلك قلب العارف باتصال أنوار التجلي حتىٰ يصير دائم النهار غائب الليل . وأنشدوا :

ليلـــي بـــوجهـــك مشـــرق وظـــلامـــه فـــي النـــاس ســـاري
والنـــاس فـــي ســـدف الظـــلا م ونحـــن فـــي ضـــوء النهـــار[1]

ثم قال الرازي قدس الله روحه : وأما معنىٰ قول أبي الحسين النوري رحمه الله : (أنا منذ عشرين سَنة بين الوجد والفقد ؛ أي : إذا وجدت ربي جل جلاله . . فقدت قلبي ، وإذا وجدت قلبي . . فقدت ربي) **فهو معنىٰ** قول الجنيد : عِلمُ التوحيد مباين لوجوده ، ووجود التوحيد مباين لعلمه ، وأنشد :

وجـودي أن أغيـب عـن الـوجـود بمـا يبـدو علـيَّ مـن الشهـود

فالتواجد بداية ، والوجود نهاية ، والوجد واسطة بينهما .

وقال أبو علي الدقاق رحمه الله : التواجد يوجب استيعاب المريد ، والوجد يوجب استغراقه ، والوجود يوجب استهلاكه ، **وهو كمن شهد البحر ، ثم ركبه ، ثم غرق فيه وهلك** .

وترتيب هـٰذا الأمر قصود ، ثم ورود ، ثم شهود ، ثم وجود ، ثم خمود ، وبمقدار الوجود يكون الخمود ، ولصاحب الوجود صحو ومحو ، فحال صحوه بقاؤه بالحق ، وحال محوه فناؤه بالحق ، وهاتان الحالتان أبداً متعاقبتان عليه ، فإذا غلب عليه الصحو بالحق . . فبه يصول وبه يقول ، كما جاء في الحديث الثابت في غير « الصحيح » : (فبي يسمع ، وبي يبصر)[2] .

---

(١) السُّدَفُ : الظُّلَمُ .

(٢) أخرجه بنحوه الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (٢/ ١٩٥) .

قال رجل للشبلي رحمه الله : هل تظهر آثار صحة الوجود على الواجدين ؟ فقال : نعم ، هو نور يزهر مقارناً لنيران الاشتياق ، فتلوح على العبد آثاره ، وإذا غلب عليه المحو . . فلا علم ، ولا عقل ، ولا فهم ، ولا حس .

كما جرىٰ لأبي عقال المغربي رحمه الله ؛ أقام بمكة أربع سنين غَرِقاً في بحر المعرفة إلىٰ أن مات ، وكان يسلِّم عليه خواص أصحابه فلا يعرفه حتىٰ يُعرِّفه بنفسه ، فيعرفه بعد جهدٍ لحظةً ، ثم يغيب عنه الشيخ ، حتىٰ لو عاوده الفتىٰ بالكلام . . لم يعرفه ، ولـٰكنه مع ذلك يعود إلى الصحو حال أداء الفرائض فقط ؛ لأنهم محفوظون بالله تعالىٰ ، وهـٰكذا عند تلاوة القرآن والاشتغال بالأوراد حفظاً من الله عز وجل ونعمة منه وفضلاً ، والله يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم . انتهىٰ .

وقال في « اللوامع » : قيل للجنيد رحمه الله : قد كثرت المرقعات والرُّكَّىٰ[1] ، وقد أخسُّوا هـٰذا المذهب ، فقال : الآن طاب السلوك ، يرونكم بأبصارهم ، وأنتم في السر مع الله سبحانه وتعالىٰ .

وكان أبو حاتم العطار قدس الله روحه إذا رأىٰ أصحاب المرقعات . . يقول : يا سادتي ؛ نشرتم أعلامكم ، وضربتم طبولكم ، فليت شعري ، في اللقاء أيَّ رجال تكونون ؟! انتهىٰ .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : قال الجنيد : أعلم الناس بالآفات . . أكثرهم آفة .

وكان يقول : لا تيأس من نفسك ما دمت تخاف من ذنبك وتندم عليه بعد فعلك .

وقال الجنيد : الورع في الكلام أشد من الاكتساب .

وقال : متىٰ أردت أن تشرف بالعلم وتَنسَب إليه وتكون من أهله قبل أن تعطي العلم ما له عليك . . احتجب عنك نوره ، وبقي عليك رسمه وظهوره ، ويكون ذلك العلم وبالاً عليك لا لك ؛ وذلك أن العلم يوجب لك استعماله ، فإذا لم تستعمل العلم في مراتبه . . كان عليك لا لك .

وقال : الإنسان لا يعاب بما في طبعه ، إنما يعاب إذا فعل بما في طبعه .

وسئل : العناية قبل ، أم البداية ؟ فقال : العناية قبل الطين والماء .

---

(١) أي : أهل المرقعات وأهل الركىٰ .

وكان يقول : اللهم ؛ يا من هو كل يوم في شأن ؛ اجعلني من بعض شأنك يا أرحم الراحمين .

وقال الجنيد : اعتللت بمكة مرة ، فقوي عليَّ فيها الوجع ، حتىٰ إني لم أكن أقدر أن أقول سبحان الله والحمد لله ، ثم مَنَّ الله سبحانه بالعافية ، قال : ومكثت مدة طويلة لا يقدم البلد أحد من الفقراء إلا سُلِبت حالي ، ودُفِعت إلىٰ حاله ، فأطلبه ، حتىٰ إذا وجدته . . تكلمت بحاله ورجعَتْ إلي حالي ، وكنت لا أرىٰ في النوم شيئاً إلا رأيته في اليقظة .

وقال : جئت إلىٰ أبي الحسن السَّريِّ يوماً ، فدققت الباب ، فقال : مَن هـٰذا ؟ فقلت : جنيد ، فقال : ادخل ، فدخلت ؛ فإذا هو قاعد مستوفز ، وكان معي أربعة دراهم ، فدفعتها إليه ، فقال : أبشِر ؛ فإنك تفلح إن شاء الله تعالىٰ ، إني احتجت إلىٰ أربعة دراهم ، فقلت : اللهم ؛ ابعث بها إلي علىٰ يدي عبد يفلح عندك .

وقال الجنيد : كنت يوماً عند السَّريِّ ، فنظرت إلىٰ جسده كأنه جسد سقيم دنف[1] مضنىً ، فقال : انظر إلىٰ جسدي هـٰذا ، لو شئت أن أقول : إن ما بي من هـٰذا الضنىٰ هو من المحبة . . كان كما أقول .

وكان وجهه يصفر ، ثم أُشْرِب حُمْرةً حتىٰ تورَّد ، ثم اعتل ، فدخلت عليه أعوده ، فقلت له : كيف تجدك ؟ فقال :

كيف أشكو إلىٰ طبيبِيَ ما بيْ ... والذي بي أصابني من طبيبي

قال : فأخذت المروحة أروحه ، فقال : كيف يجد روح المروحة مَن قلبه وجوفه يحترق من داخل ؟! ثم أنشأ يقول :

القلب محترِقٌ والدمع مستبقُ ... والكرب مجتمع والصبر مفترِقُ
كيف القرار علىٰ مَن لا قرار له ... مما جناه الهوىٰ والشوق والقلق
يا ربِّ إن كان شيٌّ فيه لي فرج ... فامنن عليَّ به ما دام بي رمقُ

وقال الجنيد : أعلىٰ درجة الكِبر وأشرُّها : أن ترىٰ نفسك ، وأدنىٰ درجة الكِبر في الشر : أن تخطر نفسك ببالك .

---

(١) الدنف : مصاب بمرض ملازم .

وقال الجنيد : دخلت يوماً على السَّريِّ ، فرأيت عليه هَمّاً ، فسألته ، فقال لي : الساعة استأذن عليَّ شاب ، ودخل وسألني عن التوبة وشروطها ، فأنبأته ، ثم قال لي : ما حقيقة التوبة ؟ قلت : هو ألاَّ تنسىٰ ما من أجله كانت التوبة ، فقال : ليس كذلك عندنا ، فقلت : فكيف هي عندكم ؟ قال : ألاَّ تذكر ما من أجله كانت التوبة ، ففي هـٰذا أنا مفكر ، قال الجنيد : فقلت : ما أحسن ما قال! ثم قلت : يا أستاذ ؛ إذا كنت معك في حال الجفاء ونقلتني إلىٰ حال الصفاء . . فذِكري للجفاء في حال الصفاء غفلة .

وقال الجنيد : دخلت على السَّريِّ يوماً ، فقال لي : كنت أمس في الجامع ، فقال لي شاب : هل يعلم العبد أن الله عز وجل قد قَبِله ؟ قلت له : لا ، فقال : بلىٰ ، إذا رأىٰ أن الله سبحانه وتعالىٰ قد عصمه من المعاصي ووفقه لطاعته . . علم أن الله تعالىٰ قد قبله .

وقال الجنيد : صليت ليلةً وِردي ، فرأيت ـ أو سمعت ـ كأن قائلاً يقول لي : اخرج إلى المسجد ؛ فإن فيه شخصاً ينتظرك ، فخرجت مسرعاً ؛ فإذا شخص جالس ، فلما رآني . . قال لي : يا أبا القاسم ؛ كم أنتظرك ؟ فقلت : يا سيدي ؛ من غير موعد ؟ فقال : بلىٰ ، سألت محرِّك القلوب سبحانه وتعالىٰ أن يحرك قلبك بالخروج إلي ، ثم قال : يا أبا القاسم ؛ متىٰ يصير داء النفس دواءها ؟ فقلت له : إذا خالفَتِ النفس هواها . . صار داؤها دواءها ، فقال : قد أجبتها بهـٰذا الجواب سبع مرات ، فقالت : لا أقبل حتىٰ تسأل عنه الجنيد . [انتهىٰ « الحلية » ١٠/ ٢٦٧ـ٢٧٥] .

وقال في « أنس المنقطعين » : حكي أن الجنيد رحمه الله قال : كنت مرة بمسجد السومري[1] ؛ وإذا قد دخل علينا رجل ، فصلىٰ ركعتين ، ثم امتد في ناحية من المسجد وأشار إلي ، فلما جئته . . قال : يا أبا القاسم ؛ قد حان لقاء الله عز وجل ولقاء الأحباب ، فإذا أخذت في أمري وفرغت مني . . فسيدخل عليك شاب مُغَنٍّ ، فادفع إليه مرقعتي وسجادتي وعصاي وركوتي ، فقلت : لأي مُغَنٍّ ؟ وكيف يكون ذلك ؟ فقال : إنه قد بلغ رتبة القيام لخدمة الله عز وجل في مقامي ، قال الجنيد : فلما قضي أمره وفرغنا من مواراته ؛ إذا نحن بشاب مصري قد دخل وسلم علينا ، وقال : أين الأمانة يا أبا القاسم ؟ فقلت : وكيف ذلك ؟ أخبِرنا بحالك ، فقال : كنت في مشرفة بني فلان ، فهتف بي هاتف ، أن قم

---

(١) كذا في النسخ ، ولعله : مسجد الشونيزي .

إلى الجنيد وتسلَّم ما عنده ، وهو كيت وكيت ؛ فإنك قد جُعلت موضع فلان الفلاني من الأبدال .

قال الجنيد : فدفعت إليه ذلك ، فنزع عنه ثيابه ، واغتسل ، ولبس المرقعة ، وخرج علىٰ وجهه نحو بلاد الشام .

وقال جعفر بن محمد : رأيت الجنيد في المنام ، فقلت له : أليس كلام الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين إشارات عن مشاهدات ؟ فتبسم ، وقال : كلام الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم نبأ عن حضور ، وكلام الصديقين إشارات عن مشاهدات .

وكتب الجنيد إلىٰ بعض إخوانه : مَن أشار إلى الله عز وجل وسكن إلىٰ غيره . . ابتلاه الله سبحانه وتعالىٰ بأن يحجب ذِكره عن قلبه ، ويجريه علىٰ لسانه ، فإن انتبه وانقطع عمن سكن إليه ورجع إلىٰ مَن أشار إليه وهو الله عز وجل . . كشف ما به من المحن والبلوىٰ ، وإن دام علىٰ سكرته . . نزع الله عز وجل من قلوب الخلق الرحمة عليه ، وأُلبس لباس الطمع ؛ لتزداد مطالبته لهم ، مع فقدان الرحمة من قلوبهم له ، فتصير حياته عجزاً ، وموته كمداً ، ومعاده أسفاً ، ونحن نعوذ بالله عز وجل من السكون إلىٰ غيره سبحانه وتعالىٰ .

وحكي : أن الجنيد رحمه الله قيل له : إن فلاناً مد يده وسأل ، فقال : مه ، إنما سأل ليعطيهم لا ليأخذ منهم ، ثم قال : هات الميزان ، فوزن مئة ، ثم قبض قبضة وطرحها على المئة من غير وزن ، وقال : امض بهـٰذا إليه ، فتعجب الرسول من ذلك ، وقال : إن الشيء إنما يوزن ليعرف ، وهـٰذا قد جهل مقداره . ولم يخطر له ما أراد الجنيد .

فلما وصل بها إليه . . قال له : إن الجنيد قد أرسل هـٰذه الدراهم إليك لتخرجها في حاجتك ، فقال : هات الميزان ، ثم وزن مئة ودفعها إلي ، وقال لي : ادفعها إلى الجنيد وقل له : أنا لا أقبل منك شيئاً . وأخذ ما زاد على المئة ، فزاد تعجبي ، فسألته ، فقال : إن الجنيد رجلٌ حكيم يريد أن يأخذ الحبل بطرفيه وزن المئة لنفسه ؛ طلباً للثواب ، وطرح عليها قبضة بلا وزن ؛ لله عز وجل ، فأخذت ما كان لله ورددت ما فعله لنفسه ، قال : فرددتها على الجنيد ، وأخبرته بما جرىٰ ، فبكىٰ ، وقال لي : إن أبا محمد حكيم أخذ ما كان لله تعالىٰ ، وترك ما كان لنا .

وقال في « المختار » : قال الجنيد : كان للسَّريِّ تلميذة ، وكان لها ولد عند المؤدب ، فبعث به المؤدب إلى الشط ، فغرق ، فجاء المعلم إلى السَّريِّ ، وأخبره بذلك ، فقال

لنا السَّريُّ : قوموا بنا إلىٰ أمه نعزيها ونسليها ، فذهبنا إلىٰ أمه ، فلما جلسنا عندها . . أخذ السَّريُّ يتكلم في الصبر ، ثم تكلم في الرضا ، فقالت له : يا أستاذ ؛ أيش تريد ؟ فقال لها : إن ابنك غرق ، فقالت : ابني ؟ قال : نعم ، فقالت : إن ربي عز وجل ما فعل هـٰذا إلى الآن ، فأعاد السَّريُّ الكلام في الصبر والرضا .

فقالت أمه : قوموا بنا إلى الشط ، قال : فقمنا معها ، فلما انتهينا إلى الشط . . قالت لنا : أين غرق ابني ؟ قلنا : هـٰهنا ، فقالت : يا ابني محمد ، فأجابها : لبيك يا أماه ، فنزلت ، وأخذت بيده ، ومضت إلىٰ منزلها .

قال الجنيد : فالتفت السَّريُّ إليَّ وقال : كيف هـٰذا ؟ فقلت : أقول ؟ قال : قل ، فقلت : إن المرأة مراعية لِمَا لله عز وجل عليها من الحقوق ، وحُكم مَن كان مراعياً لأوامر الله عز وجل ونواهيه في الاجتناب والامتثال ألاَّ تحدث حادثة تتعلق به . . إلا وأعلمه بها ، فلما لم تكن حادثة . . لم يعلمها ، فلما قيل لها : إن ابنك غرق . . أنكرت ذلك وقالت : إن ربي عز وجل ما فعل هـٰذا إلى الآن ، وما ذاك إلا لأنها لما كان حالها المراقبةُ . . عاملَها الله عز وجل بلطفه ، وأعلمها بما سيقع قبل وقوعه في ما يتعلق بها خاصة .

وقال في « المختار » : قال الجريري : كان في جوار الجنيد رحمه الله رجل مصاب في خرِبَةٍ ، فلما مات الجنيد ودفنَّاه ورجعنا من جنازته . . تقدم ذلك المصاب ، وصعد موضعاً عالياً ، وقال : يا أبا محمد ؛ تراني أرجع إلىٰ تلك الخربة وقد فقدت ذلك السيد العارف ؟ ثم أنشأ يقول :

وا أسفي من فراق قومٍ ... هم المصابيح والعيونُ
لم تتغير لنا الليالي ... حتىٰ توفتهم المنون
وكل جمر لنا قلوبٌ ... وكل ماء لنا عيون

ثم غاب عنا ، فكان ذلك آخر العهد به .

وقال أبو العباس بن مسروق : مررت مع الجنيد في بعض دروب بغداد ؛ فإذا مغنٍّ يغني :

منازلاً كنت تهواها وتألفها ... أيامَ كنت على الأيام منصورا

فبكى الجنيد ، ثم قال لي : يا أبا العباس ؛ ما أطيب منازل الألفة والأنس ، وأوحش

مقامات المخالفة! لا أزال أحن إلىٰ بدايتي وجدة سعيي وركوبي الأهوال طمعاً في الوصول ، وها أنذا في أيام الفترة أتأسف علىٰ أوقاتي الماضية .

وقال : مَن لم يَصِل علمه باليقين ، ويقينه بالخوف ، وخوفه بالعمل ، وعمله بالإخلاص ، وإخلاصه بالمشاهدة . . فهو من الهالكين .

وسئل عن معنىٰ قول النبي صلى الله عليه وسلم : « حبك للشيء يعمي ويصم »[1] فقال : حبك للدنيا يعمي ويصم عن الآخرة .

وقال : اليقين : **هو ألاَّ تهتم لرزقك ؛ فقد كُفِيتَه ، وتقبل علىٰ عملك الذي قد كُلِّفتَه ؛ فإن اليقين يسوق إليك الرزق سوقاً** .

وسئل الجنيد : متىٰ يصل العبد إلى الكل ؟ فقال : إذا ترك الكل ويخافه كأنه أجنبي ، ويرجوه كأنه ولي .

وقال الجنيد : لو أقبل صادق على الله عز وجل ألف ألف سنة ثم أعرض عنه لحظة . . كان ما فاته أكثر مما ناله .

وقال رجل للجنيد : علىٰ ماذا يتأسف المحب ؟ فقال : علىٰ زمان بسط أورث قبضاً ، أو زمان أُنس أورث وحشة . وأنشأ يقول :

قد كان لي مشرب يصفو برؤيتكم فكـدرتـه يـد الأيـام حيـن صفـا

وقال : إن الله عز وجل يعطي القلوب من بِره بحسَب ما أخلصت له القلوب في ذِكره سبحانه وتعالىٰ ، فانظر ما خالط قلبك .

وكان يقول : يا ذاكر الذاكرين بما به ذكروه ، ويا بادىء العارفين بما به عرفوه ، ويا موفق العابدين بصالح ما عملوه ؛ مَن ذا الذي يشفع عندك إلا بإذنك ؟ ومن ذا الذي يَذْكُرك إلا بفضلك ؟

وقال أبو بكر العطار : حضرت الجنيد عند موته مع جماعة من أصحابنا ، قال : وكان قاعداً يصلي ، ويَثني رِجله إذا أراد أن يسجد ، فلم يزل كذلك حتىٰ خرجت الروح من رِجله ، فثقل عليه حركتها ، فمد رجليه ، فرآه بعض أصدقائه وقد تورمت قدماه ، فقال : ما هـٰذا يا أبا القاسم ؟ فقال : هـٰذه نِعم الله عز وجل ، الله أكبر ، فلما فرغ من صلاته . . قال

---

(١) أخرجه أبو داوود (٥١٣٠) .

له أبو محمد الجريري : لو اضطجعت يا أبا القاسم ، فقال : يا أبا محمد ؛ هـٰذا وقت نؤخذ منه ، الله أكبر ، ولم يزل ذلك حاله حتىٰ مات رحمه الله تعالىٰ . [انتهىٰ] .

ثم قال الحافظ ـ قدس الله روحه ـ : وكان من دعاء الجنيد : اللهم ؛ إني أسألك أن تعطيني عملاً يكون لك خالصاً ، وأعوذ بك من كل أمر يسخطك .

اللهم ؛ اجعلني ممن يذكرك ذِكراً لا يريد بذِكره إلا ابتغاء مرضاتك وما هو لك .

اللهم ؛ اجعلني ممن يعطي لك ، ويمنع لك ، وبك يستعين ، وإليك يلجأ ، والحمد لله حمداً كثيراً ، طيباً مباركاً ، دائماً لا انقطاع له ولا زوال ، كما ينبغي لكرم وجهك وعز جلالك .

اللهم ؛ واجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك علىٰ سيد المرسلين وإمام المتقين محمد صلى الله عليه وسلم ، كلما ذكره الذاكرون ، وكلما سَهَا عن ذِكره الغافلون ، وعلىٰ جميع الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين إلىٰ يوم الدين ، وصَلِّ علىٰ جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، ورضوان ، وعزرائيل ، وسلم اللهم وصَلِّ على الكروبيين[1] ، والروحانيين ، وسائر الملائكة المقربين ، والحفظة ، والسفرة ، وجميع الملائكة ، والمؤمنين ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، صلاة ترضاها ، وتزكيها ، وتحبها ، وكما هم أهل لذلك كله .

اللهم ؛ وأسألك مغفرة كل ما أحاط به علمك من ذنوبنا ، والتجاوزَ عن كل ما كان منا ، وأدِّ اللهم مظالمنا عنا في تبعاتنا جوداً وفضلاً وكرماً يا أرحم الراحمين .

اللهم ؛ وبارك لنا في الموت ، وما بعد الموت ، إذا نزل بنا . . اجعله يوم حِباء[2] ، وكرامة ، وزلفىٰ ، وسرور ، واغتباط ، وأوردنا من قبورنا علىٰ سرور وفرح وقرة أعين ، واجعلها رياضاً من رياض جنتك ، ولَقِّنَّا فيها الحجج ، وآمِنَّا فيها من الروعات ، آمنين مطمئنين إلىٰ يوم تبعثنا .

يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه ؛ آمنا من روعات ذلك اليوم ، وخلصنا من شدائده ، واكشف عنا عظيم كربه ، واسقنا من ظمأته ، واحشرنا في زمرة سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم الشافع المشفع لأوليائك ، المقدم علىٰ جميع أصفيائك .

---

(١) **الكَرُوبيُّون** : هم سادة الملائكة والمقربون إلى الله تعالىٰ منهم .

(٢) **يوم حِباءٍ** : يوم عطاءٍ وتكريم .

ونسألك ألاَّ تحاسبنا ، فإن حاسبتنا . . فحاسبنا حساباً يسيراً بلا مناقشة ، وعاملنا بجودك وكرمك ، واجعلنا من السَّرعان[1] المغبوطين ، وأعطنا كتبنا بالأيمان ، وأجِزْنا الصراط مع السرعان ، وثقل موازيننا ، ولا تُسْمِعنا لنار جهنم حسيساً ولا زفيراً ، وأجرنا منها ومن كل ما قرَّب منها ، ومن كل ما قرَّب إليها من قول وعمل ونية ، واجعلنا ـ بجودك ومجدك وكرمك ـ في دار كرامتك ، مع الذين أنعمت عليهم من النبيين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين ، وحسن أولـٰئك رفيقاً .

واجمع بيننا وبين آبائنا وأمهاتنا وقرابتنا وذرياتنا في دار قدسك علىٰ أفضل حال وأسَرِّها ، وضُمَّ إلينا إخواننا الذين هم علىٰ ألفتنا ، والذين كانوا علىٰ ذلك من كل ذَكر وأنثىٰ ، وبلغهم ما أملوه ، واجمع بيننا وبينهم في دار كرامتك علىٰ أفضل حال وأسَرِّها .

وعُمَّ المؤمنين والمؤمنات جميعاً برأفتك ورحمتك ، الذين فارقوا الدنيا علىٰ توحيدك ، كن لنا ولهم ولياً وكالِئاً يا أرحم الراحمين ، تقبل من محسنهم ، وتب علىٰ مسيئهم ، واغفر لهم ، واقبل توبتهم ، وتجاوز عن المسرف منهم ، وانصر مظلومهم ، واشف مريضهم ، وتب علينا وعليهم توبةً نصوحاً ترضاها ؛ فإنك الجواد الكريم ، القادر علىٰ كل شيء .

وكن اللهم للمجاهدين منهم ولياً وكالئاً وكافياً وناصراً ، وانصرهم علىٰ عدوهم نصراً عزيزاً ، واجعل لهم من لدنك سلطاناً نصيراً ، واجعل اللهم دائرة السَّوء علىٰ أعدائك وأعدائنا ، اسفك اللهم دماءهم ، واجعلهم فيئاً لإخواننا المؤمنين .

وأصلح اللهم الراعي والرعية وكل من وليته شيئاً من أمور المسلمين صلاحاً باقياً دائماً ، اللهم ؛ أصلحهم في أنفسهم ، وأصلحهم لمن وليته عليهم ، وهب لهم العطف والرأفة والرحمة بهم ، وأدم ذلك لنا فيهم ولهم في أنفسهم .

اللهم ؛ اجمع لنا الكلمة ، واحقن الدماء ، وأزل عنا الفتنة ، وأعذنا من البلاء كله ، تول لنا ذلك بفضلك من حيث أنت أعلم به ، ولا تُرِنا في أهل الإسلام سيفين مختلفين ، ولا تُرِنا بينهم خلافاً ، واجمعنا علىٰ طاعتك وعلىٰ ما يقرب إليك ؛ فإنك أهل التقوىٰ وأهل المغفرة ، ولي الخيرات في الدنيا والآخرة .

اللهم ؛ إنا نسألك أن تُعِزَّنا ولا تُذِلَّنا ، وترفعنا ولا تضعنا ، وتكون لنا ولا تكون علينا ،

---

(١) **السَّرعان** : أوائل الناس الذين يجوزون على الصراط بسرعة .

وتجمع لنا سبل الأمور كلها ، أمور الدنيا التي هي بلاغ لنا إلىٰ طاعتك ، ومعونة لنا علىٰ موافقتك ، وأمور الآخرة التي فيها أعظم رغبتنا وعليها معولنا وإليها منقلبنا ؛ فإن ذلك لا يتم إلا بك ، ولا يصح لنا إلا بتوفيقك .

اللهم ؛ وهبْ لنا هيبتك وإجلالك وتعظيمك ، وما وهبت لخاصتك من صفوة خلقك من حقيقة العلم والمعرفة بك ، ومُنَّ علينا بما مننت به عليهم من آياتك وكراماتك ، واجعل ذلك دائماً لنا يا من له ملكوت كل شيء ، وهو علىٰ كل شيء قدير .

اللهم ؛ وهَبْ لنا العافية الكاملة في الأبشار[1] ، وجميع الأحوال ، وفي جميع الإخوان ، والذريات ، والقرابات ، وعُمَّ بذلك جميع المؤمنين والمؤمنات .

وأجْرِ اللهم علينا من أحكامك أرضاها وأحبها [إليك] وأعونها علىٰ كل مقرِّب من قول وعمل ونية .

يا سامع الأصوات ، ويا عالم الخفيات ، وياجبار الأرض والسماوات ؛ صل علىٰ محمد سيد المرسلين ، وعلىٰ آل محمد أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً ، وسلم تسليماً كثيراً .

وأجبنا اللهم كما وعدتنا ؛ فقد دعوناك كما أمرتنا ، وافعل بنا ما أنت أهله يا أكرم الأكرمين ، ويا أرحم الراحمين ، ويا رب العالمين .

قال الحافظ : كان الجنيد ـ رحمه الله ـ يدعو بهـٰذا الدعاء علىٰ ممر الأيام ، رحمه الله تعالىٰ . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ٢٧٨ـ٢٨٧] .

وقال أبو القاسم القشيري ـ قدس الله روحه ـ : كان الجنيد جالساً مع رويم والجريري وابن عطاء ، فقال الجنيد : ما نجا من نجا إلا بصدق الالتجا ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

وقال رويم : ما نجا من نجا إلا بصدق التقىٰ ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ بِمَفَازَتِهِمۡ ﴾ .

وقال الجريري : ما نجا من نجا إلا بمراعاة الوفا ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ﴾ .

---

(١) **الأبشار** : جمع بَشَرة والمراد هنا : الأبدان ، ومنه الحديث : « لم أبعث عمالي ليضربوا أبشاركم » .

وقال ابن عطاء : ما نجا من نجا إلا بتحقيق الحيا ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴾ .

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري : ما نجا من نجا إلا بمعرفة الحكم والقضا[1] ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ ﴾ .

وقال أبو القاسم الجنيد : رأيت في المنام كأني أتكلم على الناس ، فوقف عندي ملك ، فقال لي : أقرَبُ ما يتقرب به المتقربون إلى الله عز وجل ماذا ؟ قال : فقلت : عمل خفي بميزان وَفِيٍّ ، قال : فولى الملك عني وهو يقول : كلام موفق والله . انتهىٰ [« الرسالة القشيرية » ٨٩ و٣١١] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ وغيره : كان والد الجنيد يبيع الزجاج ، وكان الجنيد خزازاً ، وأصله من نهاوند ، إلا أن مولده ومنشَأَه ببغداد .

وقال جعفر الخلدي : قال الجنيد يوماً : ما أخرج الله عز وجل إلى الأرض علماً وجعل للخلق إليه سبيلاً . . إلا وقد جعل لي فيه حظاً ونصيباً .

وبلغني عنه أنه كان في سوقه ، **وكان وِرده في كل يوم ثلاث مئة ركعة وثلاثين ألف تسبيحة** .

وقال : ما نمت في فراش منذ أربعين سنة .

وقال جعفر الخلدي : أقام الجنيد عشرين سَنة لا يأكل إلا من الأسبوع إلى الأسبوع ، ويصلي كل يوم أربع مئة ركعة .

وقال : لم نر في شيوخنا مَن جُمع له علم وحال غير أبي القاسم الجنيد ، وإلا . . أكثرهم كان يكون له علم كثير ولا يكون له حال ، وآخر يكون له حال كثير وعلم يسير ، والجنيد كان له حال خطير وعلم غزير ، فإذا رأيت حاله . . رَجَّحته علىٰ علمه ، وإذا رأيت علمه . . رَجَّحته علىٰ حاله .

وقال أبو محمد المرتعش : قال الجنيد : كنت بين يدي السَّريِّ ألعب وأنا ابن سبع سنين ، وبين يديه جماعة من المشايخ يتكلمون في الشكر ، فقال لي : يا غلام ؛ ما الشكر ؟ فقلت : ألاَّ يعصى الله بنعمه ، فقال لي : ما أحسن ما قلت! أخشىٰ أن يكون حظك من الله عز وجل لسانك ، قال الجنيد : فلا أزال أبكي علىٰ هـٰذه الكلمة التي قالها لي السَّريُّ ، ثم قال الجنيد : وهـٰذا هو فرض الشكر .

---

(١) في نسخة : (الرضا) .

وقال أبو الحسن : قيل للجنيد : مِن أين استفدت هـٰذا العلم ؟ فقال : استفدته من جلوسي بين يدي الله عز وجل ثلاثين سنة تحت تلك الدرجة ، وأومأ إلىٰ درجة في داره .

وقال الجنيد : **الطريق مسدود علىٰ جميع الخلق إلا على المقتفين لآثار رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين لسُنته ، كما قال الله عز وجل** : ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ .

وقال خيرٌ النساج : كنت جالساً في بيتي ، فخطر لي خاطر أن أبا القاسم الجنيد بالباب ، اخرج إليه ، فنفيت ذلك عن قلبي ، وقلت : وسوسة ، فوقع خاطر ثان يقتضي مني الخروج إليه ، وأن الجنيد على الباب ، فاخرج إليه ، فنفيت ذلك عن سِرِّي ، فوقع خاطر ثالث ، فقلت : إنه حق وليس بوسوسة ، ففتحت الباب ؛ فإذا الجنيد قائم ، فسلم عليَّ وقال : يا خير ؛ لِمَ لا خرجت مع الخاطر الأول .

وقال الجريري : سمعت الجنيد يقول : لقد مشىٰ رجال باليقين على الماء ، ومات بالعطش أفضل منهم يقيناً .

وقال ابن علوان : خرجت يوماً إلىٰ سوق الرحبة في حاجة ، فرأيت جنازة ، فتبعتها لأصلي عليها ، ووقفت حتىٰ يدفن الميت ، فوقعت عيني على امرأة مسفرة من غير تعمد ، فألححت بالنظر إليها ، واسترجعت ، واستغفرت الله تعالىٰ ، وعُدت إلىٰ منزلي ، فقالت لي عجوز : يا سيدي ؛ ما لي أرىٰ وجهك قد اسود ؟ فأخذتُ المرآة ، فنظرت ، فإذا وجهي أسود ، فرجعت إلىٰ سِرِّي أنظر من أين دُهِيت[1] ، فقلت : مِن النظرة ، فانفردت في موضع أستغفر الله عز وجل وأسأله الإقالة أربعين يوماً ، فخطر في قلبي أن أزور شيخي الجنيد ، فانحدرت إلىٰ بغداد ، فلما جئت إلىٰ منزله . . طرقت الباب ، فقال لي : ادخل يا أبا عمرو ، تُذنب بالرحبة ونستغفر لك ببغداد ؟!

زاد فيما حكاه الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : قال ابن علوان : ٱسودَّ جسدي كله ، واستترت في البيت ، فلم أخرج ثلاثة أيام ، وكنت أعاهد جسدي بالغسل بالصابون ، فلم يزدد إلا سواداً ، فلما كان بعد ثلاث . . انكشف ، فلقيت الجنيد وكان قد وجه إليَّ من الرَّقة ، فلما أتيته . . قال لي : أما استحييت من الله سبحانه وتعالىٰ أن تكون في عبادة وتخامر نفسك شهوة حتى استولت عليك ؟ فلولا أني دعوت الله سبحانه وتعالىٰ لك وتبت إليه عنك

---

(١) دُهيت : أُصبت بهـٰذه النائبة ، **والداهية** : الأمر العظيم .

وشفعت إلى الله عز وجل فيك . . للقيت الله وأنت بهـٰذا اللون الأسود ، واشكر الله سبحانه وتعالىٰ حيث سود ظاهرك ولم يسود باطنك ـ أو كما قال ـ أمَا استحييت من الله سبحانه وتعالىٰ فيما صنعت[1] ؟!

وقال الجنيد : دخلت على السَّريِّ السقطي رحمه الله ، فرأيت بين يديه رجلاً قد غُشي عليه ، فقال لي : هـٰذا رجل قد سمع آية من كتاب الله فغشي عليه ، فقلت : اقرؤوا عليه تلك الآية ، فقرؤوا ، فأفاق ، فقال : مِن أين قلتَ هـٰذا ؟ فقلت له : إن نبي الله يعقوب عليه الصلاة والسلام كان عَمَاه في قميص يوسف ، وكان رجوع بصره في قميص يوسف ، فاستحسن السَّريُّ مني ذلك[2] .

وقال جعفر الخلدي : دخل رجل من أهل خراسان على الجنيد وعنده جماعة ، فقال : متىٰ يستوي عند العبد حامده وذامُّه ؟ قال الجنيد : إذا تحقق أنه عبد مخلوق ، فشهق الرجل شهقة ، ثم خرج[3] .

وقال الجنيد : يعارضني سِرِّي في بعض الأوقات أن أجعل نفسي كيوسف ، وأكون أنا كيعقوب عليهما السلام ، فأحزن علىٰ ما فقدت من نفسي كما حزن يعقوب علىٰ فَقْدِ يوسف ، فمكثت مدةً أعمل علىٰ حسب ذلك .

ودخل ابن عطاء على الجنيد وهو في النزع ، فسلم عليه ، فلم يرد عليه ، ثم بعد ساعة رد عليه وقال له : اعذرني ؛ فإني كنت في وِردي السابع ، ثم حول وجهه إلى القبلة وكبر ومات .

وقال أبو محمد الجريري : كنت واقفاً عند رأس الجنيد رحمه الله عند وفاته ، وكان يوم جمعة ، وهو يقرأ القرآن ، فقلت : يا أبا القاسم ؛ ارفق بنفسك ، فقال : يا أبا محمد ؛ ما كنت أحوج إليه مني في هـٰذا الوقت ، وقد قرب أن تُطوىٰ صحيفتي .

وفي رواية أخرىٰ : حضرت عنده قبل وفاته بساعتين ، فلم يزل تالياً وراكعاً وساجداً ، فقلت له : يا أبا القاسم ؛ قد بلغ بك ما أرىٰ من الجَهد ، فقال : يا أبا محمد ؛ أحوج ما كنت إليه هـٰذه الساعة ، فلم يزل تالياً راكعاً وساجداً حتىٰ فارق الدنيا .

---

(١) الإحياء (٤/ ٥٤) .
(٢) الإحياء (٢/ ٢٩٧) .
(٣) الإحياء (٢/ ٢٩٨) وعبارته : (فشهق الرجل شهقة ومات) .

أسند الجنيد الحديث عن الحسن بن عرفة وخلق ، ولقي جماعة من العلماء ، ودرس الفقه علىٰ أبي ثور ، وكان يفتي في حلقته بحضرته وهو ابن عشرين سنة ، وصحب جماعة من العُبَّاد والزهاد ، واشتهر بصحبة خاله السَّريِّ ، والحارث بن أسد المحاسبي .

وتوفي يوم السبت سَنة ثمان وتسعين ومئتين ، وصلىٰ عليه ولده ، وحُزِر الذين صَلَّوا عليه ، فكانوا نحواً من ستين ألفاً . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٢٥١ـ٢٥٦] .

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري ـ قدس الله روحه ـ : أخبرنا محمد بن الحسين قال : سمعت أبا الحسين بن فارس يقول : سمعت أبا الحسن علي بن إبراهيم الحداد يقول : حضرت مجلس أبي العباس بن سريج ، فتكلم في الفروع والأصول بكلام حسن عجبت منه ، فلما رأىٰ إعجابي . . قال : تدري مِن أين هـٰذا ؟ قلت : يقول القاضي ، قال : هـٰذا من بركة مجالستي أبا القاسم الجنيد [الرسالة القشيرية ٣٢] .

وقال الجنيد : كنت أسمع السَّريَّ رحمه الله يقول : يبلغ العبد إلىٰ حد لو ضُرب وجهه بالسيف . . لم يشعر ، وكان في قلبي منه شيء حتىٰ بان لي أن الأمر كذلك [الرسالة القشيرية ٥٦] .

وقد سئل سهل بن عبد الله عن التوبة ، فقال : ألاَّ تنسىٰ ذنْبك ، وسئل الجنيد عنها فقال : أن تنسىٰ ذنبك .

وقال أبو نصر السراج : أشار سهل رحمه الله إلىٰ أحوال المريدين والمعترضين ، تارة لهم وتارة عليهم ، وأما الجنيد رحمه الله . . فإنه أشار إلىٰ توبة المتحققين الذين لا يذكرون ذنوبهم ؛ مما غلب علىٰ قلوبهم من عظمة الله عز وجل ، ودوام ذِكره سبحانه وتعالىٰ .

وقال : هـٰذا مثل ما سئل رويم رحمه الله عن التوبة ، فقال : التوبة من التوبة ، ومثل ما سئل ذو النون المصري رحمه الله عن التوبة ، فقال : توبة العوام من الذنوب ، وتوبة الخواص من الغفلة [الرسالة القشيرية ٧٩ـ٨٠] .

وقال الجنيد : المسير من الدنيا إلى الآخرة سهل هيِّن على المؤمن ، وهجران الخلق في جنب الحق شديد ، والمسير من النفس إلى الله صعب شديد ، والصبر مع الله عز وجل أشد .

وسئل عن الصبر فقال : تجرُّع المرارة من غير تعبيس [الرسالة القشيرية ١٤٤] .

وقال : الرضا . . دفع الاختيار [الرسالة القشيرية ١٥٣] .

وسئل عن الحياء فقال : رؤية الآلاء ورؤية التقصير ، فيتولد من بينهما حالة تسمىٰ : الحياء [الرسالة القشيرية ١٧٠] .

وسئل عمَّن لم يبق عليه من الدنيا إلا مقدار مص نواة فقال : المكاتَب عبدٌ ما بقي عليه [درهم] .

وقال أيضاً : إنك لا تصل إلىٰ صريح الحرية وعليك من حقيقة عبوديته بقية [الرسالة القشيرية ١٧١] .

وقال : الفتوة بالشام ، واللسان بالعراق ، والصدق بخراسان .

وقال أيضاً : الفتوة . . كف الأذىٰ وبذل الندىٰ [الرسالة القشيرية ١٧٦-١٧٧] .

وقال الجنيد : الزهد . . استصغار الدنيا ومحو آثارها من القلب [الرسالة القشيرية ٩٥] .

وقال في « المختار » : قال الجريري للجنيد رحمهما الله وكان مشغولاً بدرس القرآن والركوع والسجود : لو رفقت بنفسك ، فقال : يا أبا محمد ؛ إذا مِتُّ . . فغسلني أنت وكفني وصلِّ عليَّ ، فبكى الجريري وبكى الحاضرون ، ثم قال : وحاجة أخرىٰ ؛ أن تتخذ لأصحابنا طعام الوليمة ، فإذا انصرفوا من الجنازة . . رجعوا إلىٰ ذلك حتىٰ لا يقع بهم التشتت ، قال : فبكى الجريري بكاءً شديداً ، ثم قال : والله ؛ لئن فقدنا هاتين العينين . . لا يجتمع منا اثنان أبداً ، وكان والله كذلك ، وإنما كان ذاك الاجتماع ببركة الشيخ ورؤيته . انتهىٰ .

وقال القشيري ـ رحمه الله ـ : قال أبو عبد الله محمد بن خفيف : اقتدوا بخمسة من شيوخنا ، والباقون سلموا لهم حالهم : الحارث بن أسد المحاسبي ، والجنيد بن محمد ، وأبو محمد رويم ، وأبو العباس بن عطاء ، وعمرو بن عثمان المكي ؛ لأنهم جمعوا بين العلم والحقائق [الرسالة القشيرية ٢٠] .

وقال الجنيد : كنت جالساً في مسجد الشُّونيزية[1] أنتظر جنازة أصلي عليها ، وهناك جمع كثير ينتظرون الجنازة ، فرأيت فقيراً عليه أثر النسك يسأل الناس شيئاً ، فقلت في نفسي : لو عمل هـٰذا عملاً يصون به نفسه . . كان أجمل [به] ، فلما انصرفت إلىٰ منزلي وكان لي أوراد من الليل . . فلم أقدر علىٰ شيء منها ، فسهرت قاعداً أتفكر في سبب ذلك ، فغلبتني عيناي ، فنمت ، فرأيت ذلك الفقير كأنه علىٰ خوان ممدود ، وقالوا لي : كل لحمه ؛ فإنك قد اغتبته ، فكشف لي عن الحال ، فقلت : إني ما اغتبته ، وإنما قلت في

---

(١) الشونيزية : مقبرة ببغداد بالجانب الغربي ، دفن فيها كثير من الصالحين ، وبالقرب منها يوجد خانقاه (مسجد) للصوفية .

نفسي شيئاً ، فقالوا : إن هـٰذه غيبة ، وإنك ممن لا يُرضىٰ منك بهـٰذا ، اذهب فاستحل منه .

فلما أصبحت . . قصدت ذلك الموضع مراراً حتىٰ رأيته يلتقط من جانب النهر أوراقاً من البقل الذي يسقط ، فسلمت عليه ، فرد عليَّ السلام ، وقال لي : يا أبا القاسم ؛ تعود ؟ فقلت : لا أعود ، فقال : غفر الله لنا ولك [الرسالة القشيرية ١٢٦] .

وقال القشيري : قال الجنيد : كان السري يقول لي : تكلم على الناس ، وكنتُ أجد في قلبي حشمة من الكلام على الناس ؛ لأني كنت أتهم نفسي في استحقاقي لذلك ، فرأيت ليلة جمعة في منامي النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فقال لي : « تكلم على الناس » ، فانتبهت وأتيت السَّريَّ قبل أن أصبح ، فدققت عليه الباب ، فقال لي : أنت لم تُصدِّقنا حتىٰ رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمرك بالكلام .

فلما كان النهار . . قعدت في الجامع ، وانتشر في الناس أن الجنيد جلس يتكلم ، فكان أول مجلسي أن وقف عليَّ غلام نصراني متنكراً ، وقال : أيها الشيخ ؛ ما معنىٰ قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا فراسة المؤمن ؛ فإنه ينظر بنور الله »[1] ؟ قال : فأطرقت رأسي ، ثم رفعته إليه ، وقلت له : معناه أنك تسلم ، فقد حان وقت إسلامك ، فأسلم الغلام [الرسالة القشيرية ١٨٨] .

وقال الجريري : قدمت من مكة ، فبدأت بالجنيد ؛ لئلا يتعنىٰ إلي ، فسلمت عليه ، ثم أتيت إلى المنزل ، فلما صليت الصبح في المسجد ؛ إذا به خلفي في الصف ، فقلت : إنما جئتك بالأمس ؛ لئلا تتعنىٰ ، فقال : يا أبا محمد ؛ ذاك فضلك ، وهـٰذا حقك [الرسالة القشيرية ١٩٠] .

وقال الجنيد : ما أخذنا التصوف عن القيل والقال ، ولـٰكن أخذناه عن ترك الدنيا وقطع المألوفات [الرسالة القشيرية ٣١] ؛ لأن التصوف والجوع هو صفاء المعاملة مع الله عز وجل ، وأصله العزوف عن الدنيا ، كما قال حارثة رضي الله عنه : (عزفَت نفسي عن الدنيا ، فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري . . .) الحديث[2] .

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٢٧) وقال : حديث غريب .

(٢) الحديث الذي أشار إليه الشيخ كما عند الطبراني في « الكبير » (٣/٢٦٦) : (عن الحارث بن مالك الأنصاري : أنه مَرَّ برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كيف أصبحت يا حارث ؟ » قال : أصبحت مؤمناً حقاً ، فقال : « انظر ما تقول ؛ فإن لكل شيء حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ » فقال : عزفت نفسي عن الدنيا ، وكأني أنظر إلىٰ عرش ربي بارزاً ، وكأني أنظر إلىٰ أهل الجنة=

وقال أبو القاسم الجنيد : رأيت في المنام إبليس عرياناً ، فقلت له : يا ملعون ؛ ألا تستحي من الناس ؟ فقال : يا أبا القاسم ؛ هـٰؤلاء ناس ؟ ما بقي في الناس من يستحيا منه ، الناس الذين يستحيىٰ منهم قوم في مسجد الشونيزي ، قوم قد أضنوا جسدي ، وأحرقوا كبدي ، قال : فلما انتبهت.. جئت إلى المسجد ؛ فإذا فيه جماعة ، منهم : الزقاق ، والنوري ، والجريري ، وقد وضعوا رؤوسهم علىٰ ركبهم يتفكرون ، فلما رأوني قد أقبلت إليهم.. رفعوا رؤوسهم وقالوا : يا أبا القاسم ؛ لا يغرنك حديث الخبيث [الرسالة القشيرية ٣٠٨] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

= يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلىٰ أهل النار يتضاغَون فيها ، فقال : « يا حارث ؛ عرفت فالزم » ثلاثاً) هـٰذا الحديث مختلف في روايته ، فمرّة يروىٰ عن : حارثة بن النعمان ، وأخرىٰ : عن الحارث بن مالك ؛ لذلك ستجد أحياناً يقول : « يا حارث » ، وأخرىٰ : « يا حارثة » لمزيد بيان انظر : « الشعب » للبيهقي (١٠١٠٦) .

ومنهم الإمام :

أبو بكر الشبلي
رضي الله عنه

قال أبو الفرج :

أبو بكر الشبلي أصله من خراسان ، وكان حاجب الموفق ، وكان أبوه حاجب الحجاب ، فحضر الشبلي مجلس خير النساج ، فتاب فيه .

وكان أبوه قد خلَّف ستين ألف دينار سوى الضياع ، فتصدق الشبلي بالجميع وآثر الفقر .

[انتهىٰ « الصفوة » ٢/٢٧٦] .

وقال أبو القاسم القشيري ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : كان الشبلي نسيجَ وحده حالاً وظرفاً وعلماً ، مالكي المذهب .

ولما تاب في مجلس خيرٍ النساج.. راح إلىٰ نهاوند ، وقال لهم : إني كنت والي بلدكم ، فاجعلوني في حل ، ومجاهداته فوق الحد . انتهىٰ [« الرسالة القشيرية » ٤٣] .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : قال محمد بن علي رحمه الله تعالىٰ : أُدخل الشبلي دار المرضىٰ ليعالَج ، فدخل عليه علي بن عيسى الوزير عائداً ، فأقبل إليه الشبلي ، فقال الوزير لبعض الحاضرين : ناظِرْه ، فقال له رجل : يا أبا بكر ؛ سمعتك تقول في حال صحتك : كل صدِّيقٍ لا يكون له كرامة.. فهو كذاب ، فما كرامتك ؟ فقال : كرامتي أن يعرض خاطري في حال صحوي علىٰ خاطري في حال سكري ، فلا يخرجان عن موافقة الحق سبحانه وتعالىٰ .

وقال خيرٌ النساج : كنا في المسجد ، فجاءنا الشبلي وهو سكران[1] ، فنظر إلينا ولم يكلمنا ، ثم هجم على الجنيد في بيته ، وهو جالس مع امرأته مكشوفة الرأس ، فهَمَّتْ أن

---

(١) أي من المحبة والوجد ، لا من مسكر محرم .

تغطي رأسها ، فقال لها الجنيد : لا عليك ، ليس هو هناك ، قال : ثم جعل يصفق علىٰ رأس الجنيد ، وأنشأ يقول :

عَوَّدوني الوصالَ والوصل عذبُ ورموني بالصد والصَّدُّ صعبُ
زعموا حين أعتبوا أن جرمي فَرْط حبي لهم وما ذاك عيب[1]
لا وحق الخضوع عند التلاقي ما جزا مَن يُحِبُّ إلاَّ يُحَبُّ

ثم ولى الشبلي ، فضرب الجنيد برجليه ، وقال : هو ذاك ، وخر مغشياً عليه . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ٣٦٧] .

وزاد في رواية أخرىٰ : أن الشبلي ما زال يتكلم والجنيد باكياً والشبلي في سكره وغيبته حتىٰ بكىٰ ، فلما بكى الشبلي . . قال الجنيد لامرأته إذ ذاك : غطِّي رأسك ؛ فإنه رجع إلىٰ نفسه .

وقال الأئمة ـ رحمهم الله تعالىٰ ـ منهم الحافظ أبو نعيم رحمه الله تعالىٰ بإسناده إلىٰ أبي محمد عبد الله بن محمد الحربي رحمهم الله قال : كان الشبلي كثيراً ما يتمثل بهـٰذين البيتين :

والهجرُ لو سَكَنَ الجِنانَ تحوَّلتْ نِعَمُ الجِنانِ على العبيد جحيما
والوصلُ لو سكن الجحيمَ تحولت حَرُّ السعير على العباد نعيما

وقال الشبلي : وقفت مرة بعرفة ، فطالبت الناس بما يجب من الإجلال والاحترام والحضور ، فما رأيت أحداً إلا وهو في التقصير منغمس ، فرحمتهم ، وقلت : إلـٰهي وسيدي ؛ إن منعتهم إرادتك فيهم . . فلا تمنعهم مناهم منك يا أرحم الراحمين .

وكان يقول : ليس للمريد فترة ، ولا للعارف عَلاقة[2] ، ولا للمحب شكوىٰ ، ولا للصادق دعوىٰ ، ولا للخائف قرار ، ولا للخلق من الله عز وجل فرار .

وقال في قوله عز وجل : ﴿ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ قال : ادعوني بلا غفلة . . أستجب لكم بلا مهلة .

وسئل عن الزهد فقال : هو تحويل القلب من الأشياء إلىٰ رب الأشياء سبحانه وتعالىٰ .

---

(١) في نسخة : (عتب) ، وفي « الحلية » : (ذنب) .
(٢) أي : ليس له ما يتعلق به من دون الله .

وقال له رجل : ادع لي ، فأنشأ يقول :

مضىٰ زمن والناس يستشفعون بي فهل لي إلىٰ ليلى الغداةَ شفيعُ

وأقبل الجنيد يوماً على الشبلي وقال له : حرام عليك يا أبا بكر إن كلمت أحداً ؛ فإن الخلق غرقىٰ عن الله عز وجل ، وأنت غَرِق في الله سبحانه وتعالىٰ .

وكان الشبلي يقول للحصري[1] وكان يجتمع معه في كل جمعة مرة : لئن خطر ببالك من الجمعة إلى الجمعة التي تأتيني فيها شيء غير الله عز وجل . . فحرام عليك أن تأتيني .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ قال : يمحو الله ما يشاء من شهود العبودية وأوصافها ، ويثبت ما يشاء من شهود الربوبية ودلائلها .

وكان يقول : الغَيرة غَيرتان : أدناهما : أن تخشىٰ على الوقت أن يضيع فيما سوىٰ عبادة الله عز وجل ، وأعظمهما : أن تخشىٰ أن يكون في قلبك غير الله تعالىٰ .

وقال محمد بن إبراهيم : حضرت وفاة الشبلي ، فلما أُمسك لسانه وعرق جبينه . . أشار بأن أوضئه للصلاة ، فوضأته ونسيت تخليل لحيته ، فقبض علىٰ يدي وأدخل أصابعه في لحيته يخللها ، فبكيت ، وقلت : أي شيء يتهيأ أن يقال لرجل لم يذهب عليه تخليل لحيته في الوضوء عند نزع روحه وإمساك لسانه وعرق جبينه ، ومع ذلك لم يُخِلَّ بأدب من آداب الشريعة ؟

وكان يقول : ما أحوج الناس إلىٰ سكرة ، فقيل له : يا سيدي ؛ أي سكرة ؟ فقال : سكرة تفنيهم[2] عن ملاحظة أنفسهم وأفعالهم وأحوالهم ، وأنشأ يقول :

وتحسبني حيّاً وإني لَميِّتٌ وبعضي من الهجران يبكي علىٰ بعضي

وقال أبو القاسم عبد الله بن محمد الدمشقي : وقفت يوماً علىٰ حلقة الشبلي ، فوقف سائل علىٰ حلقته وجعل يقول : بالله يا أجواد تصدقوا عليَّ ، فتأوه الشبلي وصاح ، وقال : كيف يمكنني أن أصف الحق سبحانه وتعالىٰ بالجواد ومخلوق يقال فيه :

تعوَّد بسطَ الكف حتىٰ لَوَ ٱنَّهُ ثَناها لقبضٍ لم تجبه أناملُهْ

---

(١) في نسخة : (الخضري) ، ولعل الصواب ما أثبت ؛ لأن الحصري علي بن إبراهيم أبا الحسن هو من صحب الشبلي ، والله أعلم .

(٢) في « طبقات الصوفية » (٣٤٥) : (تغنيهم) .

تـــراه إذا مـــا جئتَـــهُ متهلـــلاً كـأنـك تعطيـه الـذي أنـت آملـه
ولـو لـم يكـن فـي كفـه غيـرُ نفسِـهِ لَجَـادَ بهـا فليتـق الله سـائلـه
هـو البحـر مـن أي النـواحـي أتيتَـهُ فلُجَّتُـه المعـروف والجـود سـاحلُـهْ

قال : ثم بكىٰ بكاء كثيراً ، وقال : بلىٰ أقول : يا جواد ؛ فإنه سبحانه وتعالىٰ هو الجواد على الحقيقة ، لأنه تعالىٰ هو الذي أوجد لهم تلك الجوارح ، وبسط لهم تلك الهمم ، ثم مَنَّ بعد ذلك علىٰ أقوام بالاستغناء عنهم وعما في أيديهم ، فهو الجواد على الحقيقة ، وكل الجود منه سبحانه وتعالىٰ ؛ فإنهم يُعطُون عن محدود ، وعطاؤه لا حد له ولا صفة ، فيا جواداً يعلو كلَّ جواد وبه جاد من جاد . انتهىٰ [« الحلية » ٩/ ٣٦٧ـ٣٧٣] .

وزاد في رواية صاحب « المناقب » : استوت الألفاظ واختلفت المعاني ، بل أقول : يا جواد . . . ثم ذكر باقيه .

وسئل الشبلي : أي شيء أعجب ؟ فقال : قلب عرف الله عز وجل ثم عصاه .

وقال أبو الحسن علي التميمي : دخلت على الشبلي في داره وهو يقول :

علـــــىٰ بُعـــــدك لا يصبـ ـــرُ مَـــن عـــادتـــه القـــربُ
ولا يقْـــوىٰ علـــىٰ هجـــر ك مـــن تَيَّمـــه الحـــب
فـــإن لـــم تَـــرَكَ العيـــنُ فقـــد يَشهَـــدك القلـــبُ
فيـــا ســـاقـــي الهـــوىٰ رفقـــاً فقـــد أسكـــرنـــي الشـــربُ

وكان يقول : **ليس مَن استأنس بالذِّكر كمن استأنس بالمذكور سبحانه وتعالىٰ** .

وسئل : ما الزهد ؟ فقال : نسيان الزهد .

وكان يقول : ليت شعري ما اسمي عندك غداً يا علام الغيوب وستار العيوب ؟ وما أنت صانع بي في عيوبي وذنوبي يا غفار الذنوب ؟ وبم تختم عملي يا مقلب القلوب ؟ وما الذي سبق لي منك يا أرحم الراحمين ؟[1] .

وحكى الشيخ محيي الدين النووي ـ قدس الله روحه ـ : إن الإمام أبا بكر الشبلي ـ رحمه الله ـ غُشي عليه عند رؤية الكعبة ، ثم أفاق ، فأنشد :

هـٰـذه دارُهُـمْ وأنـت محـبٌّ مـا بقـاء الـدمـوع فـي الآمـاقِ

(١) الصفوة (٢/ ٢٧٦ـ٢٧٧) .

وقال في « المناقب » : قال الشبلي : إذا أردت أن أغفل عنه لحظة . . صاح عليَّ وقال لي : إلىٰ أين يا شبلي ؟

ويؤيد هـٰذا ما تقدم ذِكره من قول سيدنا الجنيد رحمه الله : حرام عليك يا أبا بكر إن كلمت أحداً ؛ فإن الخلق غرقىٰ عن الله وأنت غرق في الله سبحانه وتعالىٰ .

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري ـ رحمه الله ـ : سمعت أبا حاتم السجستاني يقول : سمعت أبا نصرٍ السراج يقول : بلغني عن أبي محمد الهروي أنه قال : كنت عند الشبلي في الليلة التي مات فيها ، فكان يقول طول ليلته هـٰذين البيتين :

كُـلُّ بيـتٍ أنـت سـاكنـه ... غيـرُ محتـاج إلـى السـرُجِ
وجهُـك المـأمـول حجتنـا ... يـوم يـأتـي النـاس بـالحُجَـجِ

ودخل الشبلي على الجنيد رحمهما الله ، فقال الجنيد : مَن كان الله سبحانه وتعالىٰ هَمَّه . . طال حزنه ، قال الشبلي : لا ، بل مَن كان الله هَمَّه . . زال حزنه .

وقال الشبلي : الفقر : هو الجلوس مع الله سبحانه وتعالىٰ بلا هَمٍّ .

وسئل : لِمَ سُمُّوا بهـٰذه التسمية ؟ فقال : لبقية بقيت عليهم من نفوسهم ، ولولا ذلك . . لما تعلقت بهم سِمَة .

وسئل : لِمَ تصفَرُّ الشمس عند الغروب ؟ فقال : لأنها عُزِلت عن مكان التمام ، فاصفرت لخوف المقام ، وكذا المؤمن إذا قارب خروج روحه من الدنيا . . اصفر لونه ؛ لأنه يخاف المقام ، فإذا طلعت الشمس . . طلعت مضيئة ، وكذا المؤمن إذا بعث من قبره . . خرج ووجهه مشرق .

وقال : كنت قد عقدت علىٰ نفسي ألاَّ آكل إلا من الحلال المحض الصافي ، فكنت أدور في البراري ، فرأيت شجرة تين ، فمددت يدي إليها لآكل منها ، فنادتني الشجرة : احفظ عليك عقدك ، لا تأكل مني ؛ فإني ليهودي . انتهىٰ [« الرسالة القشيرية » ٢٣٥] .

وقال في « المختار » : روي أن بعض الأئمة الأكابر سأل الشبلي عن مسألة في الحيض ، وكان قصده أن يعرف مرتبة الشبلي من العلم ، فأجاب الشبلي عنها بأحسن جواب ، وذكر مقالات الناس فيها اختلافاً واتفاقاً ، فقام ذلك العالم وقبَّل رأس الشبلي ، وجلس بين يديه ، وقال له : يا أبا بكر ؛ قد استفدت منك اليوم في هـٰذه المسألة عشر مقالاتٍ لم أكن أعرفها .

وقال : حكي عنه أنه أتىٰ عليه عيد ، فأنشد يقول :

الناس كلهُمُ بالعيد قد فرحوا ... وما فرحتُ به والواحدِ الصمدِ

لما تيقنت أني لا أعاينكُمْ ... غضضت طرفي فلم أنظر إلىٰ أحد

وقال الشبلي : طموح الآمال قد خابت إلا إليك ، وعكوف الهمم قد تعطلت إلا عليك ، ومذاهب المعارف قد انسدت إلا إليك .

وحكي : أن بعض الأئمة سأل الشبلي رحمه الله ، فقيل له : كم في خمس من الإبل ؟ فقال له الشبلي : في واجب الشرع . . شاة ، وعند إرادة الإيثار والعزوف عن الدنيا . . كلُّها ، فقال له : هل لك في هـٰذا القول إمام ؟ قال : نعم ، وكيف أقول قولاً من عندي ؟ إمامي في هـٰذا القول أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، حيث أخرج ماله كله ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « ما أبقيت لأهلك ؟ » قال : أبقيت لهم اللهَ ورسولَه[1] .

وقال الشبلي في قوله تعالىٰ : ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ فقال : أبصار الرؤوس عما حرم الله عز وجل ، وأبصار القلوب عما سوى الله تعالىٰ .

وقال : رأيت في بعض السواحل شيخاً عليه عباءة قد عقدها في عنقه ، فدار بيننا كلام لطيف ، ثم سألته عن كنيته ، فقال : أبو مدافع الأوقات .

وسمع قارئاً يقرأ قوله تعالىٰ : ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ، فبكىٰ وأطال البكاء ، وقال : إلـٰهي وسيدي ؛ املأها من الشبلي واعف عن عبادك .

وسمع قارئاً يقرأ : ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ ، فصاح وقال : هـٰذا هو الكرم العظيم ، أطلق للكافر دخول الجنة بكلمة .

وكان يقول : ليس في الوقت مزح ، الوقت كله جد .

وقال : كنت أسير بالبادية ؛ فإذا رجل جالس في الهواء ، فقلت له : بالذي أعطاك ما أرىٰ ؛ بماذا وصلت إلىٰ هـٰذا الموضع ؟ فقال : إنك أحلفتني بالله ، أنا رجل انتهيت عن الهوىٰ ، فأجلسني كما ترىٰ في الهواء .

وقال أبو الفرج : وكان يقول : لا تأمن علىٰ نفسك وإن مشيت على الماء . . حتىٰ تخرج من دار الدنيا ـ دار الغرور ـ إلىٰ دار الأمن .

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٥٧٤) .

وقال : مَن عرف الله عز وجل . . لا يكون له غم .

وكان يقول : أحبَّك الخلقُ لنعمائك ، وأنا أحبك لبلائك ، وأنت فعلت ذلك بي ووفقتني له .

وكان يقول : إن أردت أن تنظر إلى الدنيا وما فيها بحذافيرها . . فانظر إلىٰ مزبلة ، فهي الدنيا ، وإن أردت أن تنظر إلىٰ نفسك . . فخذ كفاً من تراب ؛ فإنك منه خلقت وفيه تعود ومنه تخرج ، ومتىٰ أردت أن تنظر إلىٰ قدرك . . فانظر إلىٰ ما يخرج منك في دخول الخلاء ، فمَن كان هـٰذا حاله . . كيف يجوز له أن يتطاول أو يتكبر علىٰ من هو مثله ؟!

وقال : ليس للأعمىٰ من رؤية الجوهرة إلا لمسها ، وليس للجاهل من الله عز وجل إلا ذِكره باللسان .

وسأل جعفرُ بن نصير بكرانَ الدينوري ـ وكان يخدم الشبلي ـ : ما الذي رأيت منه عند وفاته ؟ فقال : قال لي : عليَّ درهم مظلمة ، قد تصدقت عنه بألوف ، وما عليَّ شغل أعظم منه .

وقال بكران : مرض الشبلي أياماً ، ثم إنه وجد في يوم جمعة خفة من الوجع الذي به ، فقال : نمضي إلى الجامع ؟ قلت : نعم ، فاتَّكأَ علىٰ يدي حتى انتهينا إلى الوراقين من الجانب الشرقي ، قال : فرأينا رجلاً جاء من الرصافة ، فقال لي الشبلي : يكون لي غداً مع هـٰذا الشيخ شأن ، ثم مضينا وصلينا ثم عدنا ، فتناول شيئاً من الغداء ، فلما كان آخر الليل . . توفي إلىٰ رحمة الله ، فطلبت من يغسله ، فقيل لي : في درب السقائين رجل صالح يغسل الموتىٰ ، فدَلُّوني عليه في سحر ذلك اليوم ، فجئت إليه مُغَلِّساً[1] ، فدققت الباب دقاً خفيفاً ، وقلت له : سلام عليكم ، فخرج إلي ، وقال : عليكم السلام ، مات الشبلي ـ رحمه الله ـ ؟ قلت : نعم ، وإذا هو الشيخ الذي ذكره الشبلي بالأمس ، فقلت له : لا إلـٰه إلا الله ـ تعجُّباً مما وقع ـ فقال : لا إلـٰه إلا الله ـ تعجباً مما قلتُ ـ فقلت له : بالله مِن أين لك أن الشبلي مات ؟ فقال : يا فلان ؛ أمَا قال لك الشبلي بالأمس : إنه يكون لي غداً معه شأن ؟ هو ذاك .

صحب الشبلي الجنيد وطبقته ، وتفقه علىٰ مذهب الإمام مالك رحمه الله ، وسمع الحديث الكثير علىٰ جماعة ، وشغلته الرعاية عن الرواية .

---

(١) أي : أتاه في ظلمة آخر الليل .

فمما رواه : عن أبي سعيد ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لبلال : « اِلقَ الله فقيراً ، ولا تَلقَهُ غنياً » ، قال : يارسول الله ؛ كيف لي بذاك ؟ قال : « ما سئلت فلا تمنع ، وما رزقت فلا تخبىء » ، قال : يا رسول الله ؛ كيف لي بذاك ؟ فقال : « هو ذاك أو النار »[1] .

توفي الشبلي ـ رحمه الله ـ في ذي الحجة سنة أربع وثلاثين وثلاث مئة ، وهو ابن سبع وثمانين سَنة رحمه الله . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٢٧٧ـ٢٧٩] .

قال الغزالي : قال الشبلي : السماع ظاهرهُ فتنة وباطنه عبرة ، فمن عرف الإشارة . . حل له استماع العبارة ، وإلا . . فقد استدعى الفتنة وتعرض للبلية[2] .

وسمع الشبلي قارئاً يقرأ قوله عز وجل : ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ فزعق الشبلي زعقة وخر مغشياً عليه ، فلما أفاق . . جعل يقول : بمثل هٰذا يخاطب الأحباب[3] ؟!

وقال رجل للشبلي : ربما يطرق سمعي آية من كتاب الله ، فيكون ذلك سبباً للإعراض عن الدنيا ، ثم أرجع إلىٰ أحوالي وإلى الناس ، فلا أبقىٰ علىٰ ذلك ؟ فقال : ما طرق سمعك من القرآن فاجتذبك به إليه . . فذلك فضل منه ولطف بك ، فإذا ردك إلىٰ نفسك . . فهو رحمة منه عليك لعلمه بعجزك وضعفك ، فلا يصلح للخلق إلا التبري من الحول والقوة مع التوجه إلى الله تعالىٰ في جميع أمورهم[4] .

وقال الشبلي : ما جعت يوماً إلا رأيت في قلبي باباً من الحكمة والعبرة لم أره قبل ذلك[5] .

وقال : الشكر رؤية المنعم عز وجل لا رؤية النعمة[6] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : يروىٰ أن الشبلي قال : لو كان لي في القيامة أمر يطاع . .

---

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١/ ٣٤١) .
(٢) الإحياء (٢/ ٢٩٢) .
(٣) الإحياء (٢/ ٢٩٧) .
(٤) الإحياء (٢/ ٢٩٨) .
(٥) الإحياء (٢/ ٨٤) .
(٦) الإحياء (٢/ ٨٤) .

لسألت الله عز وجل أن يملأ جهنم مني وحدي ؛ حتىٰ لا يبقىٰ فيها متسع لغيري ، وما ذاك إلا لأفدي بعض أمة محمد صلى الله عليه وسلم وأتحمل عنهم العذاب ، ثم أنشد :

تشكّـى المحبُّـون الصبـابـةَ ليتنـي تحملت ما يَلْقَون من بينهم وحدي
فكـانـت لقلبـي لـذةُ الحـب كلُّهـا فلـم يَلقَهـا قبلـي محـب ولا بعـدي

ويقال : إن الشبلي لما انبسط بهـٰذه الكلمة . . رأىٰ في نومه الحق جل جلاله وهو يقول : يا أبا بكر ؛ أمَا استحييت مني أن تقول ما قلت ؟ إن كنت تتكرم علىٰ خلقي وعبادي بما يضرك . . فأنا خالق الحياء والكرم ، وأولىٰ أن أتكرم علىٰ عبيدي بما لا يضرني ، فقام ، وقال : يا رب ؛ وعزتك وجلالك لقد تهت فلم أدر ما أقول ، وأنت أعلم .

ويروىٰ : أن الجنيد قال مرة : لا ينبغي للشبلي أن يقول مثل هـٰذه المقالة ؛ لأن الشخص قد يقول ذلك ولا يدري كيف حاله عند الامتحان ؛ فقد لا يقوىٰ ولا يصبر .

وقال مرة أخرىٰ : قد يصح لمثل الشبلي دعوىٰ ذلك وليس لأحد منا اليوم دعوىٰ مثل ذلك .

وقال القاضي أبو المعالي : وقريب من هـٰذه الحكاية ما روي عن أبي سعيد الخراز رحمه الله أنه وقف بعرفات ، فلما حان وقت الإفاضة . . قال : إلـٰهي ؛ إن كنتَ حرمت أحداً من خلقك الوافدين إلىٰ بيتك القبول . . فاجعل ثواب حجتي له حتىٰ لا يرجع أحد من بابك منكسر القلب مخيب الرجاء غيري ، فسمع هاتفاً يقول : يا أبا سعيد ؛ أتتكرم علىٰ أضيافي ؟ قد غفرت لهم أجمعين ووهبتك لهم .

وقد حكي عن الشبلي : أنه رآه بعض أصحابه في المنام بعد موته ، فسأله : ما فعل الله عز وجل بك ؟ فقال : غفر لي ، فقيل له : هل عوتبت علىٰ شيء ؟ فقال : نعم ، عوتبت علىٰ قولي : أي خسارة أعظم ممن خسر دخول الجنة ؟ قال : فقال لي الباري جل جلاله : لا خسران أعظم ممن خسر لقائي . [انتهىٰ] .

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري : دخل رجل على الشبلي ، فسأله فقال له : أي الصبر أشد على الصابرين ؟ فقال : الصبر في الله تعالىٰ ؟ قال : لا ، قال : فالصبر لله تعالىٰ ؟ قال : لا ، قال : فالصبر مع الله عز وجل ؟ قال : لا ، قال الشبلي : فأيش ؟ قال : الصبر عن الله تعالىٰ ، قال : فصرخ الشبلي صرخة كادت روحه تتلف ، فلما أفاق . . أنشد يقول :

الصبر يَجمُل في المواطن كلِّها إلا عليك فإنه لا يجملُ[1]

وقال السلمي في « الحقائق » :

إن شخصاً جاء إلى الشبلي رحمه الله ، فقال له الشبلي : أكنت حاجاً ؟ قال : نعم ، فقال له : أيش عملت ؟ فقال : اغتسلت ، وأحرمت ، ولبيت ، وطفت ، وأتيت بباقي المناسك .

فقال له الشبلي : لَمَّا عقدت الحج . . هل فسخت بعقدك كل عقد يخالف ذلك العقد منذ خُلِقت وإلىٰ ذلك اليوم ؟ قال : لا ، قال : ما عقدت .

ثم قال له : فلَمَّا نزعت ثيابك . . هل تجردت عن كل فعل فعلته لغير الله عز وجل ولجأت إليه بالبراءة منه والتوبة عن جميع المخالفات ؟ قال : لا ، قال : ما نزعت .

ثم قال له : لَمَّا تطهرت . . أزلت عنك بطهرك كل علة من علل الدنيا ؟ قال : لا ، قال : ما تطهرت .

ثم قال : لَمَّا لبيت . . وجدت جواب التلبية مِثلاً بمِثل ؟ قال : لا ، قال : ما لبيت .

ثم قال : لَمَّا دخلت الحرم . . عاهدت الله عز وجل علىٰ ترك كل مكروه ومأثم والتورع عن الشبهات ؟ قال : لا ، قال : ما دخلت .

ثم قال : لَمَّا أشرفت علىٰ مكة . . أشرف عليك حال من الحق جل جلاله لإشرافك علىٰ مكة ؟ قال : لا ، قال : ما أشرفت .

ثم قال : لَمَّا دخلت المسجد الحرام . . دخلت في قربه من حيث علمته ؟ قال : لا ، قال : ما دخلت .

ثم قال : لَمَّا طفت ثلاثاً ومشيت أربعاً . . هربت من الدنيا هرباً علمت أنك قد فاصلتها وانقطعت عنها ، ووجدت بمشيك الأربع أمناً مما هربت منه ، فازددت شكراً لله عز وجل عند ذلك ؟ قال : لا ، قال : ما طفت .

ثم قال : لما صافحت الحجر . . ظهر عليك أثر الأمن ؟ قال : لا ، قال : ما صافحت ،

---

(١) الرسالة القشيرية (١٤٥) .

ويلك! الحجر الأسود يمين الله في الأرض ، فمن صافح الحجر الأسود . . فقد صافح الحق جل جلاله ، ومَن صافحه . . فهو في محل الأمن[1] .

ثم قال : لَمَّا صليت ركعتين . . استحضرت في نفسك كيفية العرض على الله عز وجل كيف يكون ، وحقيقة العبودية من الذلة والانكسار والافتقار ، وحقيقة عظمة الربوبية ، وما يجب له من نعوت الجمال والعظمة والكبرياء والجلال ، ونعوت العز والبقاء ، وعرفت عظيم مِنَّتِهِ سبحانه وتعالىٰ عليك ونعمه في أن شرع لك عبادته وأهَّلك لها ، ووفقك لفعلها ، وأقدرك علىٰ ذلك ، وعلمت أنك لو قمت عمر الدنيا علىٰ جفون عينيك . . ما قضيت ما يجب لله عز وجل عليك ؟ فقال : لم أشعر بذلك ، فقال : ما صليت .

ثم قال : لَمَّا خرجت إلى الصفا وكبرت عليها . . هل صفا سرك بصعودك إلى الصفا وصغرت في عينيك الأكوان كلها بتكبيرك ربك عز وجل على الصفا ؟ فقال : لم أعرف ذلك ، قال : ما صعدت ولا كبرت .

ثم قال : لَمَّا هرولت في سعيك . . هربت منه إليه سبحانه وتعالىٰ ؟ قال : لا ، قال : ما سعيت ولا هرولت .

ثم قال : لَمَّا وقفت على المروة . . رأيتَ نزولَ السكينة عليك[2] وأنت على المروة ؟ قال : لا ، قال : لم تقف على المروة .

ثم قال : لَمَّا وصلت إلىٰ مِنىٰ . . أُعطيت ما تمنيت ؟ قال : لا ، قال : ما وصلت إلىٰ منىٰ .

ثم قال : لَمَّا دخلت إلىٰ مسجد الخَيف . . هل تجدد عليك خوف بدخولك مسجد الخَيف ؟ قال : لا ، قال : ما دخلت .

ثم قال : لَمَّا مضيت إلىٰ عرفات ووقفت بها . . هل عرفت الحال الذي خُلِقتَ له من معرفة الله عز وجل وتوحيده وطاعته ، ولزوم عبادته جل جلاله ، والحذر من أن يراك حيث نهاك أو يفقدك حيث أمرك ، وشاهدت ببصيرتك الحال الذي تصير إليه في الآخرة من حلول الرضوان والخلود الدائم في النعيم المقيم ، والنظر إلىٰ وجهه الكريم سبحانه وتعالىٰ ؟ وهل عرفت من ربك ما كنت منكراً له ؟ وهل تعرَّف إليك الحق جل جلاله بشيء مما تعرَّف به إلىٰ

---

(١) في بعض النسخ : (القرب) .

(٢) في بعض النسخ : (عظيم منة الله عز وجل عليك) .

خواصه وأوليائه وأهل محبته ؟ قال : لا ، قال : ما وقفت بعرفات .

ثم قال : لَمَّا نفرت إلى المشعر الحرام . . ذكرت ربك سبحانه وتعالىٰ ذِكراً أنساك فيه ذِكْرَ كلِّ شيء مما سواه ؟ وهل شعرت بماذا أُجبت أو بماذا خوطبت ؟ قال : لا ، قال : ما نفرت .

ثم قال : لَمَّا ذبحت . . أفنيت شهواتك وإراداتك في مرضاة الحق سبحانه وتعالىٰ ؟ قال : لا ، قال : ما ذبحت .

ثم قال : لَمَّا رميت . . ألقيت عنك جهلك بزيادة علم ظهر عليك أثره ؟ قال : لا ، قال : ما رميت .

ثم قال : لَمَّا زرت . . هل كوشفت بشيء من الحقائق أو رأيت شيئاً من الكرامات لأجل الزيارة ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الحُجاج والعُمار زوار بيت الله سبحانه وتعالىٰ ، وحق على المزور أن يكرم زواره » ؟ قال : ما كُوشفتُ بشيء ، قال : ما زرت .

ثم قال : لما تحللت . . زهدت في كل شيء من حلال الدنيا إلا قدر الضرورة ؟ قال : لا ، قال : ما تحللت .

ثم قال : لما ودعت البيت . . خرجت من نفسك وروحك بالكلية من حيث إنك فارقت بيت ربك سبحانه وتعالىٰ ؟ قال : ما شعرت بذلك ، فقال : ما ودعت ، ولا حججت حجاً تاماً ، وعليك العود إن أحببت ، واجتهد أن يكون كما وصفت لك .

ثم ذكر في « الحقائق » أيضاً : أن رجلاً جاء إلى الشيخ الحُصَري ببغداد ، فقال له : أحاجٌّ أنت ؟ فقال : أتابع القوم إن شاء الله تعالىٰ .

فقال له : اجتهد وانظر كيف تكون في الوقوف ؛ فإنه على المباهاة ـ يعني : أن الحق جل جلاله يباهي الملائكة بعباده ـ فانظر كيف تكون فيه .

والطواف ؛ فإنه في محل الأمن والقرب من الحق عز وجل ، فانظر كيف يكون قربك بحسن الأدب .

وأما السعي : فهو الفرار منه إليه والتبري من كل ما سواه سبحانه وتعالىٰ مما يخالفه عز وجل ، وإياك أن يتعلق قلبك بعد سعيك بعلاقة من الدارين . انتهىٰ .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : ذكر شيخنا قاضي القضاة شيخ الشيوخ

علاء الدين القونوي الشافعي رحمه الله تعالىٰ في كتابه « مختصر شُعَب الإيمان »[1] كلاماً حسناً نفيساً ، يناسب ما ذكره الشبلي رحمه الله ، فأحببت ذِكره ؛ لينتفع به مَن وفقه الله تعالىٰ إن شاء الله عز وجل .

قال : في الحج جعل الله عز وجل البيت الحرام قبلة للمصلين وما حوله للطائفين ، فيؤمُّون البيت الحرام متصورين بصور العبيد الأُبَّاق العاصين ، يريدون الرجوع إلىٰ مولاهم سبحانه وتعالىٰ ، حتىٰ إذا بلغوا الميقات . . رفضوا ملابسهم المعتادة ، واغتسلوا ، ولبسوا الرباط كما يُفعل بالميت ، فيغسَّل ويكفن في الرباط ، كأنهم هجروا الدنيا وزينتها وخلفوها وراء ظهورهم ، فأحرموا عاقدين علىٰ أنفسهم أن يدوموا علىٰ تلك الحالة ، وعلىٰ ألا يتلذذوا بطِيب ، ولا مباشرة ، ولا يلهوا باصطياد ، ولا يتنعموا بأخْذ شعر ، ولا تقليم ظفر . . إلىٰ أن يأذن الله لهم فيه .

فإذا وصلوا إلىٰ مكة شرفها الله تعالىٰ . . لم يُعرِّجوا علىٰ شيء دون الطواف ، كما أن العبد الآبق إذا رجع إلىٰ سيده بعد طول العصيان ووصل إلىٰ فِناء داره . . لم يُعرِّج علىٰ شيء دون الالتجاء إليه ، وإظهار الانقياد والطاعة والتذلل له ، والعكوف علىٰ بابه ، فطافوا حول البيت متصورين بصورة عبد قد لاذ بسيده ، فهو يقول له : أنا لك وإليك ، لا مذهبَ لي عنك ، ولا منقلَبَ لي إلا إليك ، ولا التجاءَ إلا بك ؛ لأن الطائف حول البيت لازم له ، فكلما ذهب عن وجه البيت إذا افتتح طوافاً . . عاد إليه إذا ختمه .

فكأنه يقول : أينما ذهبت فلست بذاهب عنك ، وحيثما مضيت فإني راجع إليك ، والإشارة في ذلك إلىٰ أني تبت وأنبت ، فلست بمحدث بعد ذلك ما يبعدني عنك ، ولا أعود إلىٰ ما يسخطك علي بتوفيقك ، كما أني في ذهابي عن باب بيتك طائفاً لست بذاهب عنه ولا بمفارق له ، لـٰكني متمسك بجواره عائداً إذا استدرت إلىٰ فنائه .

ويجوز أن يقال : كأن الطائف يتصور بصورة مَن أتى البيت مِن أحد وجوهه . . فخاف صداً ، فتجاوزه إلىٰ وجه آخر . . فخاف صداً ، فتجاوزه إلىٰ وجه آخر . . فخاف منه صداً ، فتجاوزه إلىٰ وجه ثالث . . . وهـٰكذا إلىٰ أن عاد إلى الأول ، ثم لم يزل يستدير ويتحول من صفحة إلىٰ صفحة حتىٰ يستكمل سبعاً ، فيُبَشَّر بالقَبول ، ويبقىٰ كأنه قد قيل له : قد وقع ما فعلت موقعه ، فانصرف الآن إلى الزيارة وتهيأ لذلك ، فيخرج إلىٰ عرفة كأن مناخ الزوار

---

(١) انظر « شعب الإيمان » للحليمي (٢/ ٤١٣) وما بعدها .

قد جُعل فيها ؛ لأنها من الحل ، فلا ينبغي لمَن لم يؤذن له في الزيارة ـ وهي من همِّه ـ أن يكون مقامه في الحرم ، ثم يزور منه ؛ لأن الزائر في العادة لا بد وأن يكون خارجاً عن الموضع الذي يزوره ؛ ليصدق أن يقال إنه زائر موضع كذا من كذا ، فلو كان في الحرم . . لَمَا سمي زائراً ؛ لأن حرم البيت كالحرم ، والمقيم بالحرم كالمقيم بالبيت ، فلذلك جعل مجمع الزوار والحِلَّ ، فاعرفه .

وإذا صاروا في عرفة ، ووقفوا طويلاً وتضرعوا ، حتىٰ إذا جن عليهم الليل . . أُذن لهم في نزول الحرم والدنو قليلاً ، فيأتون المزدلفة ، ويبيتون فيها ليلتهم داعين ضارعين[1] ، حتىٰ إذا طلع الفجر . . قدموا منها إلىٰ منىٰ ، وأُمِروا أن يرموا بها جمرة العقبة بسبع حصيات ، كأنهم يخاطبون الشيطان ويقولون : لا مطمع لك فينا بعد اليوم .

فإن المناسك موروثة عن إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم ؛ لما روي : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أيها الناس ؛ أقيموا علىٰ مشاعركم ؛ فإنكم علىٰ إرثٍ من إرث أبيكم إبراهيم عليه الصلاة والسلام »[2] ، وقد روي : أن إبليس لعنه الله اعترض لإبراهيم صلى الله عليه وسلم بمنىٰ ، فزجره إبراهيم عليه الصلاة والسلام بحصيات رماه بها ، فأوجب حق الاقتداء به أن نرمي مثل رميه ، وإذا وجب الاقتداء بأمَته هاجر في السعي ، فالاقتداء به أولىٰ أن يَجِب .

ثم بعد الرمي أُذن لهم في حلق رؤوسهم ومعاودة العادة في اللبس والتطيب ؛ بشارة لهم بالقبول وترفيهاً مما كانوا فيه بإزالة الشعث والتفث .

ومنهم من قال : ينبغي للحاج أن يعتقد في الحلق أنه يفارق الزينة تقشفاً وتعبداً ؛ فإن الشعر من الزينة .

ثم قيل لهم : قد جاء وقت الزيارة فاحضروا ، فيدفعون من منىٰ إلىٰ مكة ، ويأتون المسجد الحرام متوجهين نحو البيت ، حتىٰ إذا دنوا منه . . بدأوا بتقبيل الحجر الأسود ، كأنما قصدوا معظَّماً ، فكشف لهم عن يمينه ؛ لأن الحجر الأسود للبيت بمنزلة اليد اليمنىٰ ، فإنه منصوب في وجه البيت من قِبَل اليمين ، ثم طافوا سبعاً علىٰ ما مر ، فإذا فرغوا . . خرجوا إلى السعي ، فسعوا بين الصفا والمروة متفائلين به لدرك المراد ؛ إذ كانت هاجر لما

---

(١) في نسخة : (ذاعنين صاغرين) .

(٢) رواه بنحوه أبو داوود (١٩١٩) .

سعت بينهما ورجعت إلىٰ إسماعيل عليه الصلاة والسلام. . وجدته قد كفاها الله تعالىٰ فيه ما كانت تحذره ، وأنبط[1] له من الماء ما كانت تطلبه ، فلذلك يرجو كل حاج أن يرجع من السعي إلىٰ ما جاء يطلبه ، وهو المغفرة والرضوان .

ويحلُّون بعد ذلك الحِل الكامل ، ثم يرجعون إلىٰ منىٰ ، ويبيتون بها ثلاثاً يرمون كل يوم إذا زالت الشمس بإحدىٰ وعشرين حصاة ، كل جمرة بسبع حصيات ، وإذا كان المعنىٰ في الرمي طرد الشيطان. . فالإقامة كذلك بمنىٰ بمنزلة المرابطة في سبيل الله سبحانه وتعالىٰ ، والرمي كل يوم بمنزلة ركضة تقع من العدو ، فيرمىٰ ليُدحىٰ ويُزجر ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

ولاشتمال الحج علىٰ هـٰذه المعاني كلها. . كان فرضاً كاملاً ، ولكماله لم يفرض في العمر إلا مرة واحدة ، ولم يجب إلا علىٰ كامل الحال .

ومِن كماله : اشتماله علىٰ مضاهاة غيره من سائر العبادات :

فإن الإحرام به يضاهي الإحرام بالصلاة في تحريم ما لم يكن محرماً قبله ، وكذلك الصوم ، وأما التلبية وأذكار الوقوف والطواف والسعي. . فتشبه أذكار الصلاة ، وما فيه من الطواف والسعي. . يشبه ركعات الصلاة ، وما فيه من الإقامة بمنىٰ والرمي. . يشبه المرابطة والجهاد في سبيل الله تعالىٰ ، وأما الوقوف بعرفة والمشعر الحرام. . فشبيه بالاعتكاف ، وما يلزم الحاج من المؤن المالية يشبه الزكاة .

فمَن حج. . فكأنما صام ، وصلىٰ ، واعتكف ، وزكَّىٰ ، ورابط في سبيل الله عز وجل وغزا .

قال أبو الشعثاء رحمه الله : الصوم والصلاة يجهدان البدن ولا يجهدان المال ، والصدقة تجهد المال ولا تجهد البدن ، وإني لا أعلم شيئاً أجهد للمال والبدن من هـٰذا الوجه ؛ يعني : الحج .

وفي ذلك ما يبين قدر عُظم الحج ، وجلالة موقعه من العبادات ، وعُظم البيت المحجوج أيضاً ، ولعُظمه جُعل له المسجد الحرام حريماً ، وجُعل الحرم حريماً للمسجد .

وحَدُّ الحرم من طريق المدينة : دون التنعيم ثلاثة أميال ، ومن طريق الطائف : علىٰ

---

(١) نبط : نبع .

طريق عرفة ، ومن بطن نمرة : أحد عشر ميلاً ، ومن طريق اليمن : سبعة أميال ، ومن طريق الجعرانة : تسعة أميال .

كما جاء في الآثار : أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أول من نصب أعلام الحرم ، وأن جبريل عليه الصلاة والسلام دله علىٰ مواضعها[1] ، وأن غنم إسماعيل عليه الصلاة والسلام كانت ترعىٰ في الحرم ولا تجاوزه ، فإذا بلغت منتهاه من ناحية من نواحي الحرم . . رجعت إليه ، والله سبحانه أعلم . انتهىٰ .

وقال في « لوامع أنوار القلوب » وغيره : كان الشبلي رحمه الله يقول : ذلي عطَّلَ ذل اليهود .

ورُئِيَ في يوم عيد خارجاً من المسجد وهو يقول :

إذا مـــا كنـــتَ لـــي عيـــداً فمـــا أصنـــع بـــالعيـــدِ
جـــرىٰ حبـــك فـــي قلبـــي كجـــري المـــاء فـــي العـــودِ

وقال الشبلي رحمه الله : طَرْحُ العادات . . وصول إلى الكرامات ، ومَن حقق رقه لمولاه جل جلاله . . استوحش مما سواه ، و وددت أن فاقات الخلق كلها لقمة واحدة آكلها ، فيبقى الخلق مع الله عز وجل بلا علاقة .

وقال عمر بن يحيىٰ رحمه الله : ضجر الشبلي يوماً في مجلسه ، وتكلم ، ثم قال : واللهِ ؛ ما أريدكم إلا لله عز وجل خالصاً ؛ لأنكم إذا كنتم لله تعالىٰ . . كانت الدنيا تبعاً لكم ، والآخرة مذخورة ، واللهُ عز وجل كالئُكم وراعيكم ، وإذا كنتم للدنيا وأعراضها وبلائها . . أسلمكم إلىٰ مَن واليتموه دونه وآثرتموه عليه ، ثم قرأ : ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ .

زاد في « لوامع أنوار القلوب » : روي أن حلقة أبي عمران كانت إلىٰ حلقة الشبلي رحمه الله في جامع المنصور ، وكان كلام الشبلي يعطل علىٰ أبي عمران حلقته ، فأمر أبو عمران بعض أصحابه أن يسأل الشبلي مسألة في الحيض وغيره ، فأجاب الشبلي عنها ، وذكر معها من الفروع والاستشهادات ثلاث عشرة مسألة ، فقام أبو عمران ، وقبَّل رأسه ويديه ، وقال له : يا سيدي ؛ استفدت اليوم منك عشرة مسائل ، وكنت أحفظ ثلاثة .

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٥/ ٢٥) ، والفاكهي في « أخبار مكة » (٢/ ٢٧٥) .

وهٰذا يدل علىٰ أن لسان العمل أفصح من لسان العلم ، خصوصاً إذا أمليَ على العمل ، فكتبه بقلم الإخلاص ، علىٰ بياض المراقبة ، بمداد المشاهدة .

وأنشدوا في المعنىٰ :

الوجد يُملي والفؤاد صحيفة ... والعين تُعرِب والمدامع تكتبُ
جُدْ بالرضا يوم الرضا نلت الرضا ... واغفر بفضلك لِي فإني مذنبُ

وروي : أنه كان يتكلم في جامع المنصور ، فطاب قلبه ووقته ، ووَجِدَ قلبُه ، فصاح رجل وقال : يا سيدي يا أبا بكر ؛ إنا نسمع كما تسمع ، ثم لا يطيب وقتنا كما يطيب وقتك ، ولا تَجِدُ قلوبُنا كما يَجِدُ[1] قلبُك ، فقام صائحاً ، وأنشد :

لو يسمعون كما سمعت حديثها ... كانوا علىٰ طول الزمان هجودا

فبكىٰ ذلك الرجل بكاء شديداً ، ثم قال : يا أبا بكر ؛ زدني ، فأنشد :

لي سكرتان وللندمان واحدة ... شيء خصصت به من بينهم وحدي

وروىٰ محمد بن العباس العصمي قال : كنت واقفاً علىٰ حلقة الشبلي ، فقال له رجل : يا أبا بكر ؛ الرجل يسمع الشيء وربما لا يفهم معناه ، فيتواجد عليه ، فلِمَ هٰذا ؟ قال :

رُبَّ ورقاءَ هَتوفٍ بالضحىٰ ... ذاتِ شَجْوٍ صدحت في فَنَنِ
ذَكَرت إِلْفاً ودهراً صالحاً ... فبكت حزناً أهاجت حَزَني
فبكائي ربما أَرَّقها ... وبكاها ربما أَرَّقني
وإذا تبدؤني أُسعِدُها ... وإذا أبدؤها تُسعِدُني
ولقد تشكو فما أفهمها ... ولقد أشكو فما تفهمني
غير أني بالجوىٰ أعرفها ... وهْي أيضاً بالجوىٰ تعرفني

وسئل الشبلي رحمه الله : هل يبلغ الإنسان بجهده إلىٰ شيء من طرق الحقيقة أو الحق ؟ فقال : لا بد من الاجتهاد والمجاهدة ، ولٰكنهما لا يوصلان إلىٰ شيء من الحقيقة ؛ لأن الحقيقة ممتنعة عن أن تُدرَك بجهد واجتهاد ، وإنما هي مواهب يصل العبد إليها بإفضال الحق جل جلاله لا غير ، ولولا أنه سبحانه وتعالىٰ بدأهم بالمحبة وهداهم وأحبهم ، وإلا . .

---

(١) في نسخة : (ولا نجد قلوبَنا كما تجد قلبَك) .

فهيهات أن يهتدي العبد أو يجسر علىٰ دعوى المحبة فضلاً عن المحبة! وأنشد :

أسائلكمْ عنها فهل من مُخَبِّرٍ ... فما لي بنُعْمٍ بعد غيبتها عِلْمُ
ولو كنت أدري أين خَيَّم أهلها ... وأيَّ بلاد الله إذ ظعنوا أَمُّوا
إذاً لسلكنا مَسلكَ الريح خلفها ... ولو أصبحت نُعْمٌ ومِن دونها النجمُ

قال الشبلي رحمه الله : المحبة كأس لها وهج ، إن استقرت في الحواس . . قتلت ، وإن سكنت في النفوس . . أسكرت ، فهي سكر في الظاهر وصحو في الباطن ، فأرواح المحبين تلطَّفت بعضها ببعض ، وتعطفت بعضها علىٰ بعض ، فليس يخطر الكون في بالهم ، وكيف يخطر الكون ببال مَن عرف مكوِّنَ الكون سبحانه وتعالىٰ ؟! ثم ساح في كلامه وغاص في نحيبه .

وقال : ألا شَجِيٌّ بحَنِين ؟ ألا رنة بأنين من قلب حزين ؟ ألا شارب بكأس العارفين ؟ ألا عائم في أبحر المحبين ؟ ألا هائم في ميدان الطالبين ؟ ألا مستيقظ من رقدة الغافلين ؟ يا مسكين ؛ ستقدم فتعلم ، سيكشف لك الغطاء فتندم ، كيف بك وقد كشف الغطاء وتجلى الجليل لفصل القضاء ؟!

فصاح صائح وبكى الحاضرون ، فقال : يا مسكين ؛ كم تبكي وتصيح ، دع المعاصي فتستريح ، كم هٰذا البكاء والانتحاب ، قف في الدياجي على الباب ؛ لتلِجَ مع الأحباب ، فأعجَبُ شيءٍ عبدٌ عرف ربه سبحانه وتعالىٰ فعصاه ، وعلم أنه عبد مملوك فخالف مالكه ومولاه جل جلاله ، وادعىٰ محبته ثم اتبع هواه ، ثم صاح : وا سكراه! وا سكراه! ثم انصرف من حلقته رحمه الله .

وقال : المحبة اتباع أوامر المحبوب واجتناب نواهيه ، ومع ذلك فيجب عليه الصدق والإخلاص وكتمان الحال ، مع بذل الروح في المجاهدة ، ثم بعد ذلك لا يصل إلى المحبوب جل جلاله إلا بفضله ، ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ .

وروي : أن الشبلي كان يوماً في ولهه وهو في مجلس الجنيد ، فتواجَد ، وقال : الله ، الله ، الله ، فقال الجنيد : يا أبا بكر ؛ إن كنت تذكره سبحانه وتعالىٰ وأنت ترىٰ نفسك . . فأنت غائب عنه ، فهٰذه غيبة ، والغيبة حرام ، وإن كنت تذكره وأنت علىٰ بساط المشاهدة واللقاء والتواجد . . فهو ترك للحرمة ، وترك الحرمة حرام .

وقال في « بهجة الأسرار » : حدثني عبد الله بن إبراهيم قال : حضرت يوماً عند الشبلي

رحمه الله ، فوقف عليه رجل لا أعرفه ، وتكلم وطوَّل ، وادعىٰ دعاوي عظيمة ، والشيخ ينظر إليه ولا يكلمه حتىٰ فرغ من كلامه ، فأنشا الشيخ يقول :

أمـا الخيـام فـإنهـا كخيـامهـم وأرىٰ نسـاءَ الحـي غيـرَ نسـائهـا

وحدثني أبو القاسم عمر بن يحيىٰ قال : رأيت كأني في مسجد الرصافة ، وإذا الشبلي قد أقبل ، فقمت إليه ، وقضيت من حقه حتىٰ جلس ، فقلت له : يا سيدي ؛ مَن أقرَبُ أصحابك إليك ؟ فقال لي مسرعاً : ألهجُهم بذِكر الله عز وجل ، وأسرعهم مبادرة في مرضاته سبحانه وتعالىٰ .

وسمع الشبلي رحمه الله قائلاً يقول : في فقدان القلب وجدان الكرب ، فقال : ما أصبت ، بل في فقدان القلب وجدان الرب سبحانه وتعالىٰ .

وسئل الشبلي رحمه الله عن نظر العين ونظر القلب ، فقال : العين تنظر إلى الملكوت ، والقلب ينظر إلىٰ مالك الملكوت جل جلاله ، وشهق شهقة عظيمة وغاص في وجده ، فلما أفاق . . قال : مساكين هـٰؤلاء المماليك الذين نظروا بعيونهم إلى الملكوت المخلوق ، ورَضُوا بالجِنان المخلوقة ، فبقوا معها خالدين فيها ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ ، وأما الملوك . . فهم الذين عرضت عليهم هـٰذه كلها فلم ينظروا إليها ولم يرضوا بها ، ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۞ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ ، فنظروا بقلوبهم إلىٰ مالك الملكوت سبحانه وتعالىٰ ، فبَقُوا معه في مقعد صدق عند مليك مقتدر . [انتهىٰ] .

وفي « لوامع أنوار القلوب » : أن الشبلي رحمه الله كان يختم القرآن في كل يوم مرة ، فلما جنه الليل . . قام علىٰ قدميه وختم ختمة أخرىٰ وهو قائم ، فعذلوه في ذلك ، فقال : يا عُذالي ؛ إني إنما أطلب تقريبها من محبوبها سبحانه وتعالىٰ علىٰ بساط الأنس والقدس ، وأنتم تطلبون بُعدها إلىٰ بساط الوحشة والغفلة ، فهيهات هيهات! ثم أنشد :

كـم أغطِّـي الضنـا عـن العُـوَّادِ وأواريـه عنهـم وهـو بـادي
قـد تمكـنْ مـن الحشـا وفـؤادي مثـلُ جمـر الغضـا وشـوك القتـادِ
بيـن نـار مقـدوحـة مـن زنـاد ودمـوع مسفـوحـة مـن فـؤادي
كيـف ينقـاد لـي التصبُّـرُ عمـن نـار شـوقـي إليـه تُفنـي رقـادي

وقال في « بهجة الأسرار » : كان ابن بشار يوماً في مجلس الشبلي رحمهما الله ، فقال له الشبلي : يابن بشار ؛ اطلب مِن أصحابك كذا وكذا ـ يعني : شيئاً من حوائج الدنيا ـ فقال ابن

بشار : يا أبا بكر ؛ اطلب من ربك سبحانه وتعالىٰ ، فقال الشبلي : إني لأستحي من ربي عز وجل أن أطلب منه سواه ، قال : فغشي على ابن بشار ، فلما أفاق . . جعل يقول : أترىٰ نفهم نحن ما يقول ؟ لا والله ؛ ما نفهم ما يقول .

حكي : أن جماعة من المريدين حضروا عند الشبلي ، فوجدهم غَفَلة لا يذكرون مسألة ، فأنشد :

كفىٰ حزناً بالواله الصَبِّ أن يرىٰ منـازلَ مـن يهـوىٰ معطلـةً قفـرا

وسئل الشبلي عن الأنس بالله عز وجل فقال : وحشتك عن جميع ما يقطعك عنه جل جلاله ، واستغراقك فيه .

وقال الشبلي : سهو طرفة عين عن الله عز وجل لأهل المعرفة . . شرك .

وهـٰذا قريب من قول الجنيد رحمه الله : لو أقبل صادق على الله ألف ألف سنة ثم غفل عنه لحظة . . كان ما فاته أكثر . [انتهىٰ] .

وفي كتاب « بهجة الأسرار » : قال أبو منصور بن العبابدي رحمه الله : حضرت عند الشبلي يوم جمعة ، فخدرت رجلي ، فمددتها ، فنظر إلي الشبلي وزعق ، وقال : تدرون علىٰ بساط مَن أنتم ؟ إنما أنتم علىٰ بساط الرحمـٰن جل جلاله وهو مطلع عليكم ، قال الشيخ أبو منصور : فلم يعلم أحد في المجلس مرماه في ذلك غيري ، وقد أتىٰ عليَّ منذ ذلك نحو خمسين سنة ما جسرت أن أمد رجلي إلى الساعة . أو كما قال . [انتهىٰ] .

ونظير هـٰذه وقع لسيدي السَّريِّ السقطي رحمه الله ، وقد ذكرته في ترجمته[1] .

وقال في « لوامع أنوار القلوب » : قال أبو القاسم الدمشقي رحمه الله : كنت واقفاً علىٰ حلقة الشبلي رحمه الله ، فجعل يبكي ولا يتكلم ، فقال له رجل : يا أبا بكر ؛ ما هـٰذا البكاء كله ؟ فأنشأ يقول :

إذا عـاتبتُـه أو عـاتبـوه شكـا فِعلـي وعـدَّد سيئـاتـي
أيـا مَـن دهـرُه غضـب وسُخْـط أمـا أحسنـتُ يـومـاً فـي حيـاتـي

فقال له : فما حد الوفاء ؟ فقال : هو الإخلاص بالنطق ، واستغراق السرائر بالصدق ، ثم قال السائل : يا أبا بكر ؛ ادع لي ، فأنشأ يقول :

---

(١) تقدم (ص ٢٠٩٥) .

مضىٰ زمن والناس يستشفعون بي فهل لي إلىٰ ليلى الغداةَ شفيعُ

وسئل عن المحبة ، فقال : المحبة نتيجة الهِمَّة ، وكل مَن علت هِمَّته . . صفت محبته ، ومَن كانت هِمَّته أعلىٰ . . كانت محبته أصفىٰ وأوفىٰ .

فسئل عن الهِمَّة فقال : قد رفع الله عز وجل هٰذه الوسائط بعلوِّ هِممهم ، فلو أجرىٰ على الأولياء ذرة مما كشفه للأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم . . لبطلوا وانقطعوا ، ثم قال : يا سبحان الله! أنوار الشمس والقمر والنار . . أنوار مخلوقة لا تطيقها الأنفس المخلوقة مع التجانس بينهما ، فكيف تطيق أنوار المكاشفة والمشاهدة والتجلي ولا مشابهة بينهما ؟ وقد عجز عن ذرة منها الجبل ، فجعله دكاً ، وخر موسىٰ صعقاً ، قال : فطال مجلسه وهو في الكلام حتىٰ تأخرت العصر ، فقيل له في ذلك ، فأنشأ يقول :

نسيت اليوم مِن حِبي صلاتي فلا أدري غدائي مِن عشائي
فذِكرك سيدي أكلي وشربي ووجهك إن رأيتُ شفاء دائي

ثم قال : المحبة بحار بلا شاطىٰء ، وليل بلا آخر ، وهَمٌّ بلا فرج ، وعلة بلا طبيب ، وبلاء بلا صبر ، وإياس بلا رجاء ، وأنشد :

ولما رأيت الحب قد شد جسره ونوديَ بالأحباب قوموا بنا وٱسْروا
خرجت مع الأحباب كيما أجوزه فبادرني الحرمان وانقطع الجسر
وهاجت بي الأمواج من كل جانب وناديٰ منادي الحب قد غرق الصبر

وقال أيضاً : حقيقة المحبة بمتابعة الإسلام ، وهي أن تموت نفسك عنك ، فتبقىٰ مسلوب الحركة شرعاً بلا هوىٰ ، فيحكم عليك الإسلام بما يريد ، ثم تلا : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ . [انتهىٰ] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : كلام الشبلي رحمه الله هنا مأخوذ من قول سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم : « مَنْ ولي القضاء . . فقد ذُبح بغير سكين »[1] .

ووجه الشبه : أن المذبوح بالسكين لا حركة له ولا اختيار حسّاً ، ومَن تولى القضاء . .

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/١٠٣) .

فإنه لا حركة له ولا اختيار شرعاً ؛ لأن الشرع سلبه حركته واختياره ، فبقي تبعاً للشرع .

وهـٰذا معنىٰ قول الشبلي رحمه الله : أن تموت نفسك عنك .

ويحتاج هـٰذا إلىٰ زيادة وبسط أذكره في موضعه إن شاء الله عز وجل ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم . انتهىٰ .

وقال في « المختار » : سئل الشبلي رحمه الله عن الوفاء فقال : الإخلاص بالنطق ، واستغراق السرائر بالصدق .

وقال الجنيد للشبلي رحمهما الله : لو رددتَ أمرك إلى الله تعالىٰ . . لاسترحت ، فقال : لا يا أبا القاسم ؛ لو رد الله عز وجل أمري إليه . . لاسترحت ، فقال الجنيد رحمه الله : سُيوف الشبلي تقطر دماً .

وقال الشبلي رحمه الله : كيف يصح لك التوحيد وكلما ملكت شيئاً من الدنيا مَلكَك ، وكلما أبصرت شيئاً صرت أسيره ؟!

وكان إذا سئل عن التوحيد . . يقول : اعلموا أن كل ما ميزتموه بأوهامكم وأدركتموه بعقولكم في أتم معانيكم . . فهو مردود إليكم محدث مصنوع .

وكان يقول : **من علامة الإفلاس . . الأنس بالناس** .

وقال الشبلي رحمه الله : أحوال الأولياء ثلاثة : ترك الاختيار ، وترك الشكوىٰ عند الاضطرار ، والافتقار إلى الملك الجبار دائماً في كل أحواله .

وسئل الشبلي عن حقيقة الفقر فقال : هو ألا تستغني بشيء دون الله سبحانه وتعالىٰ .

وفي رواية أخرىٰ : قال : حقيقة الفقر : أن تستغني عن كل ما سوى الله عز وجل .

وكان يقول : الفقير مع الله عز وجل بلا هَمٍّ . انتهىٰ ما ذكره في « المختار » .

وقال أرباب السير : قال الشبلي رحمه الله : رأيت رب العزة جل جلاله في المنام ، فأوقفني بين يديه وناقشني حتىٰ أيست ، فلما رأىٰ إياسي . . تغمدني برحمة منه سبحانه وتعالىٰ .

وقد حكي : أن الشبلي كان في مرض موته يقول : يجوز يجوز ، فسئل عن ذلك ، فقال : شارك الله عز وجل بين الجسد والروح ليتَّجرا مدة هـٰذا الزمان ، فاتَّجرا وجلسا اليوم يتحاسبان ، فإذا هُما خاسران ، وهما يقولان : ما تقول في شريكين اتفقا على التجارة ،

فمضت مدتهما في خسارة ؟ فهل يجوز أن يفترقا من بعد ما اتفقا ؟ وأنا أقول : يجوز يجوز

صحبنـاكـمُ حينـاً ومَعْكـمْ تـآلفنـا إلـىٰ أن تجمَّلنـا بكـم وتشـرفنـا
وكنـا جميعـاً بـالحمـىٰ وأهيلـه ولم نك ندري أن وقت الحمىٰ يَفنىٰ
ومنـذ تعـرَّفنـا تفـرَّق بيننـا فيـا ليـت أَنَّـا عمـرَنـا مـا تعـرَّفنـا

وقال الأستاذ أبو سهل الصعلوكي : دخل الشبلي على الإمام أبي إسحاق المروزي ، فرآني عنده ، فقال : ذا المجنون من أصحابك ؟ لا بل من أصحابنا ، والله أعلم .

وقد حكىٰ غير واحد : أن الإمام الجليل الأستاذ أبا سهل الصعلوكي ـ أحد أئمة الشافعية من أصحاب الوجوه رحمه الله ـ كان يقول : ما مضىٰ لي يوم أو جمعة . . إلا وسألت الشبلي عن مسألة ، واستفدت منه فائدة جديدة .

وهـٰذا كله مما يدل علىٰ غزارة علمه ، ووفور تبحُّره في سائر العلوم ، وسعة روايته ، مع ما رزق من العِرفان ، فهنيئاً له رضي الله عنه وأرضاه ، وهو حسبي وكفىٰ . [انتهىٰ] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو عبد الرحمـٰن زهير بن نعيم البابي
رضي الله عنه

قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : قال زهير بن نعيم : إن هـٰذا الأمر لا يتم إلا بشيئين : الصبر ، واليقين ، فإن كان يقين ولم يكن معه صبر . . لم يتم ، وإن كان صبر ولم يكن معه يقين . . لم يتم أيضاً .

وقد ضرب أبو الدرداء رضي الله عنه لهـٰذا مثلاً فقال : مَثَلُ اليقين والصبر . . مَثَلُ فدادين[1] يحفران الأرض ، فإذا جلس واحد . . جلس الآخر .

وقال عبد العزيز بن يوسف : أردت الخروج من البصرة ، فبدأت بيحيى بن سعيد فودعته ، ثم ودعت عبد الرحمـٰن بن مهدي ، ثم ودعت زهير بن نعيم ، فقلت له : هل مِن حاجة ؟ فقال : نعم ؛ إلا أنها مهمة ، قال : ففرحت وقلت : يكلفني حاجة ، فقلت : ما الحاجة ؟ قال : اتق الله عز وجل ، فوالله ؛ لأَن يتقيه رجل ـ أو قال : عبد ـ أحب إلي من أن تتحول لي هـٰذه السواري كلها ذهباً وفضة .

قال : فلما وليت . . ردني ، وقال : وحاجة أخرىٰ ، فقال : لا تدخل علىٰ قاض ولا علىٰ من يدخل علىٰ قاض ؛ فإني في هـٰذا المصر منذ خمسين سنة ما نظرت وجه قاض .

وقال أحمد بن عصام : كانت يدي في يد زهير أمشي معه ، فانتهينا إلىٰ رجل مكفوف البصر يقرأ شيئاً من القرآن ، فلما سمع قراءته . . وقف ونظر إلي ، وقال : لا يغرنك حُسْنُ قراءته ، بل ولا تنظر إليه ، فوالله والله ؛ إنَّ أَخْذَ الدنيا بالطبل والمزمار هو اللائق بها ، وأما القرآن الكريم : فلا ينبغي أن يطلب به شيء من عَرَض الدنيا .

قال : وكان زهير بن نعيم رجلاً مَهيباً ، فلم أجسر أن أراجعه في ذلك الوقت ، فلما كان بعد أيام . . وجدته منبسطاً ، فقلت له : يا أبا عبد الرحمن ؛ قلتَ لي يوم كذا وكذا : كذا ، قال : فكأنه نصب عينيه ، وقال : نعم يا أخي ، لا ينبغي أن تطلب الدنيا بشيء من الدِّين ،

---

(١) الفَدَادين : واحده فدَّان ، وهي : البقر التي يحرث بها .

والقرآن إنما يُطلَب به رضوانُ الله عز وجل والتقرب إليه سبحانه وتعالىٰ . أو كما قال .

وكان زهير بن نعيم يقول : لا أعلم أني توكلت على الله عز وجل ساعة واحدة قط علىٰ حقيقة وصدق .

وكان يقول : إن قدرتَ ألاَّ يفارق ذِكرُ الموت قلبَكَ ولا طرفة عين . . فافعل .

وكان يقول : إذا رأيت الرجل لا ينصف من نفسه : فإن قدرتَ ألاَّ تراه . . فلا تراه .

قال أحمد بن عصام : وكان زهير بن نعيم قد أصيب ببصره في آخر عمره ، فسلم عليه بعض إخوانه بعد ذهاب بصره . . فسلم عليه ، فقال زهير : مَن الرجل ؟ قال : فاسترجع ذلك الرجل وجزع جزعاً شديداً لذهاب بصره ، فقال له زهير : واللهِ ؛ إن قضاء الله عز وجل أحب إلي من بصري .

زاد في رواية أخرىٰ : يا أخي ؛ كانت معي خرقة فيها دانق من حلال ، فسقطت ، فكان سقوطها عليَّ أشد من ذهاب بصري ؛ لكونه حلالاً صافياً ، ثم قال : أمَا علمت أن من أكل الحرام ـ أو قال : غير الطيب ـ عصت جوارحه شاء أو أبىٰ ؟ أو كما قال .

وقال : بلغني أن زهيراً مرض ، فذهب يحيى بن أكثم القاضي يعوده ، فقيل له في ذلك ، فلم يأذن له ، وقال : ما أصنع به ؟ لو كان علىٰ حشٍّ من حشوش البصرة . . لكان خيراً له من ولاية القضاء .

وقال أحمد بن عاصم : دخلت عليه يوماً، فقال لي : لك أب ؟ قلت : لا ، قال : لك أم ؟ قلت : لا ، قال : الله أكبر ، كم ترىٰ يبقىٰ فرع بعد أصلين ؟ يا أخي ؛ عليك بالدعاء والابتهال لهما ؛ فإنه بلغني : أن الله عز وجل يرفع الوالدين بدعاء الولد لهما هٰكذا . ورفع يديه .

وقال زهير : لأَن يتوب رجل . . أحب إلي من أن يرد الله عز وجل عليَّ بصري ، ولأَن يتوب رجل . . أحب إلي من أن تتحول سواري المسجد ذهباً لي .

وقال : جالست الناس خمسين سَنة ، فما رأيت أحداً إلا وهو يتبع هواه ، حتىٰ أنه ليخطىء فيحب أن الناس قد أخطؤوا ، ولأَن أسمع في جلدي صوت ضرب . . أحب إلي من أن يقال لي : قد أخطأ فلان .

وقال سهل : سمعت مَن سمع زهيراً يحلف بالله الذي لا إلٰه إلا هو ؛ أن أعمالي ليست كأعمال من يؤمن بالله واليوم الآخر ، قال : فذكرت هٰذا القول لغيره ، فمنهم مَن بكىٰ ،

ومنهم مَن صاح ، ومنهم مَن انتفض ، ومنهم من بُهت .

وقال سهل : سمعت زهيراً يقول : وددت أن جسدي قُرِّض بالمقاريض وأن هـٰذا الخلق أطاعوا الله عز وجل .

وفي رواية أخرىٰ : وددت أن جسدي قرض بالمقاريض وأن هـٰذا الخلق ما عصوا الله عز وجل .

وقال الحافظ : عن عبد الله بن عبد الغفار الكرماني قال : صعدت إلىٰ زهير بن نعيم بعدما ذهب بصره ، وهو متهشم الوجه بحال شديد ، فقلت : يا أبا عبد الرحمن ؛ كيف حالك ؟ قال : حال نعمة يجب عليَّ شكر الله عز وجل فيها ، الحمد لله علىٰ نعمه كلها ، ما علمت منها وما لم أعلم ، والحمد لله علىٰ كل حال . أو كما قال . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/١٤٧ـ١٥٠] .

واعلم يا أخي : أن نعم الله عز وجل في بلائه أعظم من عطائه ، وأنه ما من بلية . . إلا ولله عز وجل علىٰ عبده فيها نِعم كثيرة ، فله الحمد في الأولىٰ والآخرة ، وله الحكم ، وإليه ترجعون . أو كما قال فيها .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : قول زهير رحمه الله : (إن أعمالي ليست كأعمال . . .) إلىٰ آخره : هو نظير قول غير واحد من العارفين رحمهم الله ، منهم : حذيفة المرعشي حيث قال : لو حلف إنسان أن أعمالي أعمال من لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر . . لقلت له : يا هـٰذا ؛ لا تُكفِّر عن يمينك ، فلستَ بحانث .

وقول زهير : (وددت أن لحمي . . .) إلىٰ آخره : هو نظير قول أحمد ابن أبي الحواري رحمه الله : إن العذاب على العارفين أهون عليهم من أن يعصى الله عز وجل .

وقد سئل أبو عبد الله ابن الجلاء عن معنىٰ هـٰذا الكلام ـ أعني قول زهير ـ فقال : إن كان مراده ما يظهر للعامة من الشفقة علىٰ خلق الله بألاَّ يعصوا الله تعالىٰ ، فيدخلهم النار . . فهـٰذا ظاهر ، وإن كان مراده تعظيم جانب الربوبية عن أن يعصىٰ وغَيرة له عز وجل ألاَّ يطاع . . فهـٰذا مَشرب عال رفيع ، وليس من مشربي ، وإنما هو من مشربه رضي الله عنهم أجمعين . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو محمد سهل بن عبد الله التُّسْتَري
رضي الله عنه

قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : تخرَّج أبو محمد سهل بن عبد الله بخاله محمد بن سوار ، ولقي أبا الفيض ذا النون المصري بالحرم .

قال سهل : لا تفتش عن مساوىء الناس ومعرفة أخلاقهم ، ولـٰكن فتش واجتهد وابحث عن أخلاق الإسلام وما حالك فيه ، حتىٰ يعظم قدره في نفسك ، وتجتهد في التلبس بتلك الأخلاق .

وقال سهل : إن الله عز وجل قال لآدم عليه الصلاة والسلام : يا آدم ؛ أنا الله لا إلـٰه إلا أنا ، فمَن رجا غير فضلي ، وخاف غير عدلي . . لم يعرفني .

وقال سهل : ما أعطى الله لعبد شيئاً أفضلَ من علم يزداد به يقيناً وافتقاراً إلى الله سبحانه وتعالىٰ .

وقال : مَن طعن في التوكل . . فقد طعن في الإيمان ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ ، ومَن طعن في التكسب . . فقد طعن في السُّنة .

وقال : البلوىٰ مِن الله عز وجل علىٰ وجهين : بلوىٰ رحمة ، وبلوىٰ عقوبة .

فبلوى الرحمة : تبعث صاحبها علىٰ إظهار فقره وفاقته إلى الله سبحانه وتعالىٰ ، ويترك تدبير نفسه واختيارها .

وبلوى العقوبة : تبعث صاحبها على اختيارات نفسه وتدبيرها .

وقال : مَثَلُ الابتلاء . . مَثَلُ المرض والسقم ، يمرض الواحد مئة سَنة فلا يموت ، ويمرض الآخر ساعة واحدة فيموت فيه ، وكذلك الإنسان يعصي الله عز وجل مئة سَنة ، ثم يطيعه ، فيختم الله تعالىٰ له بخير وينجو ، وآخر يتكلم بكلمة معصية في ساعة ، فتجره إلى الكفر ، فيهلك ، فمِن ذلك عَظُم الخطر ، ودام الحذر ، واشتد البلاء ، ولا حول ولا قوة

إلا بالله العلي العظيم ، وأصل ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة . . . »[1] الحديث .

وقال سهل رحمه الله : الغضب أشد على البدن من المرض ؛ لأنه إذا غضب . . دخل عليه من الألم أكثر مما يدخل عليه في المرض ، ولهٰذا قال صلى الله عليه وسلم : « لا تغضب » ، وكرر مراراً[2] .

وقال سهل : يقول الله عز وجل لعباده : (كل نعمة مني عليكم إذا عرفتموها . . صيرتها لكم شكراً ، وكل ذنب كان منكم إذا عرفتموه في أنفسكم . . صيرته لكم غفراناً إن ندمتم عليه) .

وقال : لا يطَّلعُ علىٰ عثرات الخلق إلا جاهل ، ولا يهتك ستر ما اطلع عليه إلا ملعون .

وقال : الفرج كله في تدبير الله عز وجل لعباده برضاهم ؛ يعني : يكونوا راضين بتدبيره سبحانه وتعالىٰ لهم ، والشقاء كله في تدبيرهم لأنفسهم ، وإنك لا تجد السلامة حتىٰ تكون في التدبير كأهل القبور . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ١٩٠ـ١٩٦] .

وقال في « المختار » : سئل سهل التستري رحمه الله عن الولي فقال : الولي الذي توالت أفعاله على الموافقة[3] .

وسئل عن الفتوَّة فقال : اتباع السُّنة .

وقال : أقرب الدعاء إلى الإجابة . . دعاء الحال ، ودعاء الحال : هو الذي يكون صاحبه مضطراً إليه لا بد له أن يدعو لأجله .

وكان قد أصابته زَمانة[4] في آخر عمره ، فإذا حضرت الصلاة . . زالت عنه ، فإذا فرغ منها . . عاد حاله إلى الزَّمَانة .

وكان سهل رحمه الله يقول : أكبر الكرامات : أن تبدل خُلُقاً مذموماً من أخلاقك بخلق محمود .

وقال : أجمع العلماء علىٰ أن تفسير العافية : هو ألاَّ يكل الله عز وجل العبد إلىٰ نفسه ،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٢١) ، ومسلم (٢٦٤٣) .
(٢) أخرجه البخاري (٥٧٦٥) .
(٣) في بعض النسخ : (على الكتاب والسنة) .
(٤) **الزَّمانة** : المرض الدائم .

وأن يتولاه ، وهو معنىٰ قول النبي صلى الله عليه وسلم : « اللهم ؛ لا تكلني إلىٰ نفسي »[1] .

وكان سهل يقول : صلاح الخلق في ثلاثة أشياء : رفض الدنيا ، ثم الرضا بما قسم الله عز وجل من الرزق وغيره ، ثم الاشتغال بطلب الآخرة .

وقال : تعلَّموا النية الصالحة عند الشروع في أفعال الخير ـ وأصل كل ذلك : أكل الحلال ، وترك أذى الخلق ـ كما تتعلمون (فاتحة الكتاب) ليصفُوَ لكم إيمانكم وقلوبكم وجوارحكم ، فتزكُوَ أعمالكم .

وقال : الأنفاس معدودة ، فكل نفس يخرج بغير ذِكر الله عز وجل . . فهو ميت . [انتهىٰ] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال سهل بن عبد الله : الفقير مَن أنصف من نفسه ، واتصف بحفظ سره ، وأداء فرضه ، وصيانة فقره .

وقال : استجلبْ حلاوةَ الزهد بقصر الأمل ، واقطع أسباب الأطماع بصحة اليأس ، وتعرض لرقة القلب بمجالسة أهل الذِّكر ، وتزيَّن لله عز وجل بالصدق في الأحوال كلها ، وإياك والتسويف ؛ فإن التسويف يغرق الهلكىٰ ، وإياك والغفلة ؛ فإن فيها سواد القلب ، واستجلب زيادة النعم بعظيم الشكر ، ولستَ بالغاً منه شيئاً .

وقال : [أول] الحجاب الدعوىٰ ، وليس بين العبد وبين الله عز وجل حجاب أغلظ من الدعوىٰ ، ولا طريق أقرب إلى الله عز وجل من الافتقار والذلة ، ولا شيء أشد على النفس من الإخلاص ؛ فإنه ليس لها فيه نصيب ولا حظ . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ٤١ـ٤٢] .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : قول سهل رحمه الله : (لا طريق أقرب إلى الله عز وجل من الذلة والافتقار) نظير ما قاله أبو يزيد البسطامي حيث قال : نوديت في سري : خزائننا مملوءة من الخَدَمة ، فإن أردتنا . . فعليك بالذلة والافتقار .

وقوله بعد ذلك رحمه الله : (ولا شيء أشد على النفس) إلىٰ قوله : (ولا حَظٌّ) قد بينت سر هـٰذا الكلام وما فيه من الغموض في باب الإخلاص في ترجمة الإمام حاتم الأصم رحمه الله ، وذكرت أن لها في الحقيقة أكمل الحظوظ وأوفر الأنصباء ، ويا سعادة من وُفق

---

(١) أخرجه الديلمي (١/ ٤٩٢) .

لذلك! قال تعالىٰ : ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ﴾ ، فأي سعادة أعظم من أن يوفق العبد في الاجتهاد في عبادة الله سبحانه وتعالىٰ لا يريد بها إلا الله تعالىٰ ؟! انتهىٰ .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : رأيت في بعض المجاميع[1] ، قال : صنف سهل رضي الله عنه كتباً :

منها : كتاب سماه : « رقائق المحبين » ، **ومنها** : كتاب سماه : « مواعظ العارفين » ، **ومنها** : كتاب سماه : « جوابات أهل اليقين »[2] ، وكلها نفائس ، والله أعلم .

ورأيت في « المختصر » : أن أبا محمد سهلاً التستري قال في آخر كتاب كتبه في شفاعة : بلغني أن الرجل يُسأل عن فضل جاهه يوم القيامة كما يُسأل عن فضل ماله .

وقال أبو الفرج : قال سهل : أمس . . قد مات ، واليوم . . في النزع ، وغداً . . لم يولد .

وقال : مَن أراد أن ينظر إلىٰ مجالس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . . فلينظر إلىٰ مجالس العلماء ، يجيء الرجل يقول : ما تقول في كذا وكذا ؟ فيقول : طلقت امرأته ، أو ما طلقت ، أو حنث ، أو ما حنث ، وليس هـٰذا إلا لنبي أو عالم ، فاعرفوا لهم ذلك .

أسند سهل عن خاله محمد بن سوار ، ولقي ذا النون ، ومات سنة ثلاث وثمانين ومئتين . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ٤٢] .

وقال أبو حامد الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : قال سهل التُّسْتَري رحمه الله : لا بد للعبد في كل حال من مولاه جل جلاله ، وأحسن أحواله : أن يرجع إليه سبحانه وتعالىٰ في كل شيء ، فإن عصىٰ . . قال : يا رب ؛ استر عليَّ ، فإذا فرغ من المعصية . . قال : يا رب ؛ تب عليَّ ، فإذا تاب . . قال : يا رب ؛ تقبل توبتي .

وسئل سهل عن الاستغفار الذي يُكفِّر الذنوب مع التوبة فقال : إنه علىٰ أقسام : **الأول** : الاستغفار[3] ، **الثاني** : الاستجابة ، **الثالث** : الإنابة ، **الرابع** : التوبة .

فالاستجابة أعمال الجوارح ، والإنابة أعمال القلوب ، والتوبة إقباله علىٰ مولاه جل جلاله بأن يترك الخلق كلهم ، ثم يستغفر [الله] من التقصير الذي هو فيه ، ودمِن الجهل

---

(١) انظر « الفهرست » لابن النديم : (٢٦٣) .

(٢) جاء في نسخة : (التبيين) .

(٣) وعبارة « الإحياء » : (أول الاستغفار : الاستجابة ، ثم الإنابة ثم التوبة . . .) .

بالنعمة وترك الشكر ، فعند ذلك يرجىٰ له حصول المغفرة ، ثم المناجاة ، ثم المصافاة ، ثم الموالاة ، ولا يستقر هـٰذا في قلب عبد حتىٰ يكون العلمُ غذاءَه ، والذِّكر قوامه ، والرضا زادَهُ ، والتوكل صاحبه . انتهىٰ [« الإحياء » ٤/٤٨] .

وقال في « لوامع أنوار القلوب » : قال سهل : تربة المحبة : المعرفة ، وبذرها : اليقين ، وماؤها : العلم ، ومزارعها : التوكل ، وتعهدها : الذِّكر ، ودليلها : النبي صلى الله عليه وسلم ، ومالكها : الله عز وجل ، وميدانها : المحبة[1] ، وثمرتها : المشاهدة .

وسئل سهل رحمه الله عن معنىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ قال : علامة المودة : ترك التدبير والاختيار إلى الربوبية ، والوقوف علىٰ مقام العبودية ، ويلجأ في كل أموره إلىٰ مولاه جل جلاله ، ويكون صابراً علىٰ بلواه ، ولا يزال ذاكراً شاكراً حتَّىٰ يتوفاه الله سبحانه وتعالىٰ .

وأنشد :

يَـوَدُّك قلبـي مـا حَييـتُ وإن أَمُـتْ ... يـودك قلـب فـي التـراب تـريـبُ
وأَلقـىٰ مـن الشـوق المبرِّح لـوعـةً ... لهـا بيـن جلـدي والعظـامِ دبيـبُ

وقال سهل : رأيت في البادية شيخاً قد خانته قدماه ، وهو يصلي عند كل ميل ركعتين حتىٰ يتأخر عن الصحبة ، ثم أراه مع الصحبة ، فقلت له : مَن معينك فيما أنت فيه ؟ فقال : الله ، فقلت : فإذا تأخرت . . فمَن دليلك إلى الله ؟ فقال : سيد الخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت له : وما زادُك ؟ فقال : التقوىٰ ، قلت : فما عملك ؟ قال : الصبر علىٰ ما أنا عليه ، ثم قال : والله يا سهل ؛ لو قطَّعت نفسي قطعاً . . لما قمت بواجب حقه سبحانه وتعالىٰ حين قال مِن غير طاعة بدرت مني : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ ، ولا بلغتُ جزءاً من أجزاء المفروضات .

وقال سهل : أول ما يؤمر المبتدىء به . . ذِكر الله تعالىٰ ، ثم التبري من الحركات المذمومة والتنقل إلى الحركات المحمودة ، ثم التفرد لأمر الله عز وجل والوقوف عند أوامره ونواهيه جل جلاله ، ثم إرشاد الخلق إلىٰ مصالح الآخرة ، ثم التقرب في السجود

---

(١) في نسخة : (المحنة) .

والمناجاة ، ثم الثبات علىٰ طريق الاستقامة ، ثم المصافاة على المحبة والموالاة لأولياء الله سبحانه وتعالىٰ .

ولا يتم جزء من هـٰذه الجملة إلا بدوام الذِّكر ؛ فإن أدَلَّ دلائل المحبة دوامُ ذِكر المحبوب جل جلاله ، ولا يستقر ذلك في صميم القلب إلا بعد أن يكون التصديق والتحقيق زادَهُ ، والتسليم والرضا مرادَهُ ، والتوكل مع تعاطي السبب امتثالاً حالَه ، والذِّكرُ والفكرُ غِذاءَهُ ، والمجاهدة والمراقبة والمشاهدة شرابَه ودأبه ، فعندها يدخل في بحار المعرفة .

وأنشد سهل رحمه الله :

ذكـرتـكَ لا أنـي نسيتـك لمحـة ... وأيسر ما في الذِّكر ذِكر لساني
وكـدت بـلا وجـد أمـوت صبـابـة ... وهـام علـيَّ القلـب بـالخفقـان
فلمـا أراني الـوجـدُ أنـك حـاضـر ... شَهِـدتـك مـوجـوداً بكـل مكـان
فخـاطبـت مـوجـوداً بغيـر تكلـم ... ولاحظـت معلـومـاً بغيـر عِيـان

وقال سهل : مَن عرف الله عز وجل . . عَبَده ، ومَن عبده . . أحبه ، ومن أحبه . . فهو في العيش الهني .

وقال سهل : مَن كان له في الدنيا سبب غير الله عز وجل ، أو مأوىٰ يأوي إليه غير الله سبحانه وتعالىٰ . . فقلبه محجوب عن الله عز وجل ، ومَن ثقلت عليه الوحدة . . فهو مباعد عن باب الله عز وجل ، ومَن أحب أن يطلع عليه الخلق فيما بينه وبين الله . . فهو غافل عن الله تبارك وتعالىٰ .

وقال سهل : أحبوا أوامر الله عز وجل ، وسارعوا إليها ، واجتنبوا نواهيه سبحانه وتعالىٰ ؛ فإن محبوب المحبوب محبوب ، ورضا الحبيب من محبوبه مطلوب :

ألا أيهـا الـوادي الـذي فـاح طيبـه ... عسىٰ لك عهد من سعاد قريبُ
فحُيِّيـتَ مـن واد بكـل تحيـة ... لأنـك مـن أجـل الحبيـب حبيـبُ

وقال سهل : أهل خاصة الله الذين أدخلهم في ديوان الخواص . . لم يدخلهم إلا بإظهار فقرهم وفاقتهم وذلتهم إليه سبحانه وتعالىٰ على الدوام لا يَفتُرون .

وقال : يظهر في آخر الزمان جيل قَلَّ ما يعرفون الأمر والنهي ، ومَن عرفه منهم . . لم يعمل به ولم يصبر عليه ، يصيرون كأمثال الكلاب على الدنيا ، ولا ينال أحد النجاح إلا مَن ذبح نفسه وقتلها بالحق والصبر والجهد .

ولد سهل رحمه الله سنة مئتين ، يوم مات معروف الكرخي رحمهما الله .

وكان سهل يقول : كل فعل لا يكون معه (لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) . . لا يتولى الله ذلك الفعل ، وكل قول لا يكون فيه استثناء . . لا ينجح في الدنيا ، وربما عوقب عليه صاحبه أو يعفىٰ عنه علىٰ ما شاء وأراد سبحانه وتعالىٰ ، وكل مصيبة لا يكون معها استرجاع . . فإنه لا يثاب عليها يوم القيامة .

وقال : رجعت أصول المريدين إلىٰ سبعة :

الرضا بالقضاء ، والثقة بالوعد ، والإخلاص في العمل ، والشكر على النعم ، والصبر على البلايا ، والتوبة من كل ذنب ، وترك ما يَريبك إلىٰ ما لا يَريبك .

وحكىٰ سهل رحمه الله قال : تراءىٰ ملك الموت ـ علىٰ نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ـ لبعض الأولياء ، فلما نظر إليه . . قال : السلام عليك يا ولي الله ، فقال : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته يا ملك الموت ، قال : فعجب ملك الموت عليه الصلاة والسلام منه ، فقال له : مِن أين عرفتني ؟ فقال له الولي : عرَّفَني بك الذي أمرك وأرسلك لقبض روحي في هـٰذا اليوم ، وهو الله رب العالمين جل جلاله ولا إلـٰه غيره ، فمات في يومه ذلك .

قال سهل : حضرت هـٰذا الرجل وشهدت جنازته ، وحدثني بصفة ملك الموت ، فقلت له : هل تغير من حالك شيء حين رأيته ؟ فقال : لا ، غير أن شعري كأنه انتشر كله ، وصار كأنه مثل السُّلاَّءِ ؛ يعني : الشوك الكبار .

وقال سهل : ما أظهر عبد فقره وفاقته وحاجته إلى الله عز وجل في وقت الدعاء في شيء يحل به . . إلا قال الله عز وجل : (لولا أنه لا يحتمل سماع كلامي . . لأجبته : لبيك) .

وقال سهل : مَن خان الله في السر . . هتك ستره في العلانية .

وشكا رجل إلىٰ سهل الفقر وجفوة الناس له ، فقال له سهل : إن الله عز وجل يلقي علىٰ عبده المؤمن الفقر حتىٰ يخرج إلى الناس بالمسألة ، ويلقي في قلوب الناس له الجفوة ، فإذا رأىٰ منهم الجفوة . . رجع إلى الله سبحانه وتعالىٰ ، فإذا رجع إليه . . قبله ورزقه من حيث لا يحتسب .

وقال سهل : خلق الله عز وجل الدنيا لهـٰذه النفس ، وخلق النفس للطاعة ، فمَن كان في دنياه مطيعاً لربه عز وجل . . فله الدنيا والآخرة ، ومَن كان علىٰ غير ذلك . . فلا دنيا له ولا آخرة .

وقال سهل : البلاء مُنصَبٌّ من السماء على العباد صَبّاً ، وهو في الحقيقة نِعَمٌ إذا شكروا الله تعالىٰ عليه ، فإذا لم يشكروا . . صار بلاء ، نسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يجعلنا لأنعمه من الشاكرين ، وعلىٰ بلائه من الصابرين .

وقال سهل : لما دخلت البصرة بسبب المسألة التي خطرت لي ، وأردت أن أعرف الجواب فيها . . فوجدت بالبصرة أربعة آلاف يتكلمون في علم المعرفة ، رضي الله عنهم ، وعن سائر العارفين ، وأفاض علينا من عرفانهم بمنه وكرمه ، إنه قريب مجيب .

وقال سهل : إذا استَحْكَمَت أسباب المحبة . . مَنعت المحب عن الشكاية ، بل يتلذذ بالبلوىٰ ؛ فإن الشكاية من الحبيب شرك عند المحبين ، وخيانة عند الصادقين ، ونقض عهد عند المخلصين ، وعدم وفاء عند العارفين ، ومن تمام المحبة : أن تحب ما يحبه حبيبك ، وتُبغِضَ ما يبغضه حبيبك .

وقال : يكفيني من الحب أنني لمن يحب محب .

وقال : كل من أحب الدينار والدرهم . . لم يُحِبَّ الله ، ومَن أحب نفسه . . فقد أشرك في محبة الله ، فقيل له : توجد المحبة بين الأبوين والزوجين وغيرهم ، فقال : حب الوالد لولده حب الشفقة ، وحب الولد لوالده حب الإلفة ، وحب الزوجين حب الشهوة ، وحب الجار حب الرِّفق ، وحب الأطفال حب الرحمة ، وحب البلغة من مصالح الدنيا حب مصلحة الأجسام والقلوب ، وكل هـٰذه من الدِّين ، ومحبة الله عز وجل أعظم أركان الدِّين ، ولا يشبه شيئاً من المحاب المذكورة ؛ فإن محبة الله سبحانه وتعالى اطلاع أنوار الدِّين علىٰ أسرار الصفاء واليقين ، فينكشف لأصحاب السرائر والضمائر ما يتستر عن أصحاب النواظر والظواهر .

وكان إبراهيم الخواص وأبو الحسين النوري وسمنون المحب رحمهم الله يخالفون سهلاً في ذلك ، ويقولون : إن القلب الواحد لا يسع محبَّتين .

وتحقيق هـٰذا المقام يأتي ـ إن مهَّل الله سبحانه وتعالىٰ ـ في باب المحبة إن شاء الله تعالىٰ .

وقال سهل : إن الله عز وجل خلق الخلق ولم يحجبهم ، وحجابهم تدبيرهم لأنفسهم ، ثم قال : دعِ التدبير والاختيار لله عز وجل الواحد القهار ؛ فإن تدبير الخلق لأنفسهم واختيارهم هو الذي كدَّر عليهم عيشهم .

وقال : في المجاهدة فقدوا أنفسهم ، وفي المكابدة فقدوا أهواءهم ، فصارت شهواتهم في الطاعة ، وكل مَن أقام علىٰ أدنىٰ معصية وهو يطلب مع ذلك طاعة . . فقد مُنع المعونة[1] مِن الله سبحانه وتعالىٰ ، ومَن حُرِم المزيد من الله . . يُخافُ عليه في العواقب .

وقال سهل : الحافظ علىٰ همِّه من بين العباد كالقمر ليلة البدر بين الكواكب .

وقال سهل في قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴾ قال : لساناً ينطق عنك ولا ينطق عن سواك .

وقال : حظ الخلق من اليقين علىٰ قدر حظهم من الرضا ، وحظهم من الرضا علىٰ قدر عيشهم فيه ، وعلىٰ قدر قربهم[2] من التقوىٰ . . أدركوا اليقين .

وقال : مَن علم أن الله عز وجل قريب منه . . بَعُدَ عن كل ما سوى الله سبحانه وتعالىٰ ، ومَن طلب مرضاة الله سبحانه وتعالىٰ . . أرضاه .

وقال : مَن أسلم قلبه إلى الله تبارك وتعالىٰ . . تولى الله عز وجل جوارحه . انتهىٰ .

وقال في « بهجة الأسرار » : قال سهل رحمه الله : إن الله عز وجل حجب عقول الخلق عنه بِحُجبٍ لطيفة ، فحجب العلماء عنه بالعلم ، والزهاد بالعمل ، والحكماء عنه بلطائف الحكمة ، فأما العارفون . . فإنه أسكن قلوبهم من نور معرفته سبحانه وتعالىٰ ، فلم يحجبهم بشيء ، والله أعلم .

وكان سهل يقول : مَن كان اقتداؤه بالنبي صلى الله عليه وسلم في جميع أحواله وأفعاله . . لم يكن في قلبه اختيار لشيء من الأشياء غير ما أُمر به ، ولا يجول في قلبه سوىٰ ما أحب الله سبحانه وتعالىٰ ورسوله صلى الله عليه وسلم .

وقال : صلاح الخلق في ثلاثة أشياء : رفض الدنيا ، ثم الرضا بما قسم الله عز وجل ، ثم الاشتغال بطلب الآخرة ، وما أخذ عبدٌ شهوةً من الدنيا . . إلا بعيوبه .

وقال سهل رحمه الله : أول النصيحة : أن ينصح العبد لله عز وجل في نفسه ، ويسلمها لله سبحانه وتعالىٰ ، ويقول : يا رب ؛ وعزتك وجلالك أنت أحق بها ؛ لأنك خالقها ومالكها ، ومعطيها ومانعها ، ومحييها ومميتها ، وشافيها وممرضها ، وهو قوله عز

---

(١) في نسخة : (المعرفة) .

(٢) في نسخة : (قُوتهم) .

وجل : ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ .

وسئل سهل رحمه الله عن معنىٰ قوله صلى الله عليه وسلم : « التائب حبيب الله »[1] فقال : إنما يكون حبيباً إذا كان فيه جميع ما ذُكر في قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّآئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، ثم قال : الحبيب هو الذي لا يدخل فيما يكرهه حبيبه . أو كما قال .

وكان سهل رحمه الله يقول : خوف الصديقين من خوف الخاتمة عند كل خطرة وكل حركة ، وهُم الذين وصفهم الله تعالىٰ في قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ .

وقال سهل : لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتىٰ يكون فيه أربع خصال : أداء الفرائض بالسُّنة ، وأكل الحلال بالورع ، واجتناب النهي في الظاهر والباطن ، والصبر علىٰ ذلك إلى الموت . [انتهىٰ] .

وقال الغزالي : قال أبو الحسن محمد بن أحمد : صحبت سهل بن عبد الله التُّستَري ستين سَنة ، فما رأيته تغير عند شيء يسمعه من الذِّكر والقرآن ، فلما كان في آخر عمره . . قرأ رجل بين يديه : ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ ، فرأيته قد ارتعد وكاد أن يسقط ، فلما عاد إلىٰ حالته . . سألته عن ذلك ، فقال : نَعم يا حبيبي ؛ قد ضعفنا .

وكذلك سمع مرة من يقرأ : ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ ، فاضطرب ، فسأله ابن سالم ، فقال : قد ضعفت ، فقيل له : إن كان هٰذا مِن الضعف . . فما معنىٰ قوة الحال ؟ فقال : هو ألاَّ يرِدَ عليه وارد . . إلا وهو يدفعه بقوة حاله ، فلا تغيره الواردات .

ثم قال : حالي قبل الصلاة وبعدها واحد ؛ قال الغزالي : وذاك لأنه كان مراعياً لقلبه ، حاضراً للذِّكر مع الله عز وجل في كل حال[2] .

وقال سهل : رأيت في المنام كأني دخلت الجنة ، فرأيت ثلاث مئة [نبي] ، فسألتهم :

---

(١) أخرجه الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (٢/ ٣٤٩) .
(٢) الإحياء (٢/ ٣٠٣) .

ما أخوف ما كنتم تخافون في الدنيا ؟ فقالوا : سوء الخاتمة[1] .

وكان سهل رحمه الله يقول : يا مسكين ؛ كان الله عز وجل ولم تكن ، ويكون الله سبحانه وتعالىٰ ولا تكون ، فلما كوَّنك اليوم صرت تقول : أنا وأنا ، كن الآن كما كنت قبل تكوينك ، [فإنه اليوم كما كان] واعرف فاقة نفسك ومقدار حقارتها ، ونَزِّلْها منزلتها من الذلة والافتقار . انتهىٰ[2] .

وقال الحافظ : قال سهل : الهجرة فرض إلىٰ يوم القيامة ؛ من الجهل إلى العلم ، ومن النسيان إلى الذِّكر ، ومن المعصية إلى الطاعة ، ومن الإصرار إلى التوبة .

وقال : دع دنياك عند أعدائك ، وضع سرك عند أحبابك ، وقد جاء في الحديث : « من نازعك الدنيا . . فارم بها وجهه » .

وقال : ليس كل مَن عمل بطاعة الله عز وجل صار حبيب الله سبحانه وتعالىٰ ، ولٰكن مَن عمل بطاعة الله تعالىٰ واجتنب ما نهى الله تعالىٰ عنه . . صار حبيب الله تعالىٰ ، ولا يجتمعان إلا في صدِّيق مقرب ، وأما أعمال البِر فقط . . فيعملها البَر والفاجر .

وكان يعقوب بن الليث قد اعتقل بطنه في كور الأهواز ، فجمع الأطباء ، فلم يُغنوا عنه شيئاً ، فذُكر له سهل بن عبد الله التُّستَري ، فقيل له : في ولايتك رجل ولي وهو سهل بن عبد الله ، لو دعا لك لعل الله أن يستجيب منه فيك ، فاستحضر سهلاً ، وقال له : ادع لي ، فقال : كيف يستجاب دعائي فيك وفي حبسك مظلومون ؟ فأطلق كل من كان في حبسه ، فقال سهل رحمه الله : اللهم ؛ إنك أريته ذل المعصية . . فأَرِهِ عز الطاعة يا أرحم الراحمين ، قال : ففرج عنه من ساعته ، فأخرج إليه مالاً كثيراً وثياباً ، فردها ولم يقبل منه شيئاً ، فلما رجع إلىٰ تُسْتَر . . قال له بعض إخوانه : لو قبلت ذلك المال وفرقته على الفقراء ، فقال له : انظر إلى الأرض ، قال : فنظر ، فإذا الأرض كلها بين يديه ذهباً ، فقال له : مَن كان هٰذا حاله مع الله عز وجل . . لا يستكثر مال يعقوب بن الليث .

وقال بعض أصحاب أبي العباس الخواص : كنت أحب أن أقف علىٰ شيء من أسرار سهل بن عبد الله ، فسألت بعض أصحابه : مِن أين يتقوَّت ؟ فلم يخبرني أحد منهم بشيء ،

---

(١) الإحياء (٤/ ١٧٩) .
(٢) الإحياء (٤/ ٣٥٨) .

فقصدت مسجده ليلة ؛ وإذا هو يصلي ، فأطلت[1] القيام وهو واقف لا يركع ، وإذا شاة قد جاءت إلىٰ باب المسجد ، وزحمت الباب ، وأنا أراها ، فلما سمع حركة الباب . . ركع وسجد وسلم ، وخرج ففتح الباب ، فدنت الشاة منه ، [ووقفت بين يديه] ، فمسح ضرعها ، ثم أخذ قدحاً من الطاق[2] الذي في المسجد ، فحلبها فيه ، وجلس فشرب ، ثم مسح ضرعها ، وكلَّمها بالفارسية ، فذهبت في الصحراء ، ورجع هو إلىٰ محرابه .

وقال سهل : لا بد للعبد من ربه عز وجل في جميع أحواله ؛ فإنه إن عصىٰ . . قال : يا رب ؛ استر عليَّ ، وإن تاب . . قال : يا رب ؛ تقبل توبتي واغفر لي .

وقال سهل : قال العارفون : ليس خوفنا من نار جهنم ، ولا رجاؤنا للحور العين ، إنما خوفنا من الحجاب ، ومطلبنا لقاء الله عز وجل .

وقال : طوبىٰ لمَن عرف الحق وعرف أهله ؛ فإنه إذا عرفه وعرف أهله . . تدارك ما فرط منه ، وإن لم يتدارك . . كانوا له شفعاء .

وقال : الدنيا حرام علىٰ صفوة الله تعالىٰ من خلقه أن ينالوا منها شيئاً ، كما أن صيد الحرم حرام على المحرم أن ينال منه شيئاً ، ومَن أخذ منه شيئاً . . وجبت عليه الفدية ، كذلك الدنيا حرَّمها الله تعالىٰ علىٰ صفوة خلقه لا ينالون منها شيئاً إلا بقدر الضرورة التي لا بد منها ، فمن نال منها شيئاً غير ذلك . . وجبت عليه الفدية بتركه ، والعمل الصالح لجبران ما نال ، أو كما قال .

وقال سهل : استعبد الله عز وجل عباده بثلاثٍ : بالحياة ، والعقل ، والقوة ، فإن خاف العبد على اثنتين منها وهي العقل والحياة . . أكل ، وإن كان صائماً . . أفطر ، ويتكلف الطلب ـ أي : السؤال ـ إن كان فقيراً ، وإن لم يخف عليهما ، بل إنما خوفه على القوة فقط ، فقال : ينبغي ألا يبالي وإن ضعفت القوة .

ورأىٰ سهل أن صلاته قاعداً مَعَ ضَعَفِ الجوع أفضل من صلاته قائماً مع قوة الأكل .

وسئل سهل عن بدايته ، فقيل له : ما كنت تتقوَّت ؟ فقال : كان قوتي في كل سنة ثلاثة دراهم ، آخذ بدرهم سمناً ، وبدرهم دبساً ، وبدرهم دقيق الأرز ، وأخلطه وأسويه ثلاث مئة

---

(١) في نسخة : (فأطال القيام) .

(٢) **الطاق** : ما انحنىٰ وجعل كالقوس من الأبنية ، والمراد هنا : الكوة في الجدار .

وستين كرة أفطر عليها ، قيل له : فالساعة كيف أمرك ؟ قال : آكل بلا حد ولا توقيت . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ١٩٧ـ٢١٠] .

وقال أبو القاسم القشيري ـ رحمه الله ـ : سهل بن عبد الله التستري أحد أئمة القوم ، ومَن لم يكن له نظير في وقته في المعاملات والورع ، وكان صاحب كرامات .

قال سهل : كنت ابن ثلاث سنين ، وكنت أقوم بالليل أنظر إلىٰ صلاة خالي محمد بن سوار ، وكان يقوم بالليل ، فربما كان يقول لي : يا سهل ؛ اذهب فنم ، فقد شغلتَ قلبي .

وقال : قال لي يوماً : ألا تذكر الله الذي خلقك ؟ فقلت له : كيف أذكره ؟ فقال : قل بقلبك عند تقلبك في ثيابك ثلاث مرات من غير أن تحرك به لسانك : الله معي ، الله ناظر إلي ، الله شاهد عليَّ ، فقلت ذلك ليالي ثم أعلمته ، فقال : قل ذلك في كل ليلة سبع مرات ، فقلت ثم أعلمته ، فقال : قل في كل ليلة إحدىٰ عشر مرة ، فقلت ثم أعلمته ، وقلت له : إنه قد وقع في قلبي له حلاوة ، فلما كان بعد سَنة . . قال لي خالي : احفظ ما علَّمتك ودم عليه إلىٰ أن تدخل القبر ؛ فإنها تنفعك في الدنيا والآخرة إن شاء الله تعالىٰ ، فلم أزل علىٰ ذلك سنين ، فوجدت لها حلاوة في سِرِّي .

ثم قال لي خالي يوماً : يا سهل ؛ من كان الله معه وناظر إليه وشاهده . . فلا يعصيه ، فإياك والمعصية ، فكنتُ بعد ذلك إذا بعثوني إلى الكُتَّاب . . أخشىٰ أن يتفرق عليَّ همِّي ويضيع زماني ، فقلت لهم : شارطوا المعلم أني أذهب إليه ساعة فأتعلم ثم أرجع .

فحفظت القرآن وأنا ابن ست سنين أو سبع ، وكنت أصوم الدهر وقُوْتي خبز الشعير [إلىٰ أن بلغت] اثنتي عشرة سنة ، فوقع لي مسألة ، فسألتهم أن يبعثوا بي إلى البصرة لأسأل عنها ، فجئت البصرة وسألت علماءها ، فلم يشف أحد عني شيئاً ، فخرجت إلىٰ عَبادان إلىٰ رجل يُعرف بأبي حبيب حمزة بن عبد الله العباداني ، فسألته عنها ، فأجابني ، فأقمت عنده مدة أنتفع بكلامه وأتأدب بآدابه ، ثم رجعت إلىٰ تستر ، فجعلت قُوْتي أن أشتري بدرهم شعيراً فيطحن ويخبز لي ، وأفطر عند السحر كل ليلة علىٰ أوقية واحدة بحتاً بغير ملح ولا إدام ، فكان يكفيني ذلك الدرهم سَنة ، ثم عزمت علىٰ أن أطوي ثلاثة أيام ثم أفطر ليلة ، ثم خمسة ، ثم سبعة ، ثم خمسة وعشرين ، وكنت عليها عشرين سَنة ، ثم خرجت أسيح في الأرض سنين ، ثم رجعت إلىٰ تستر ، وكنت أقوم الليل كله .

ولما مات سهل بن عبد الله رحمه الله . . أكب الناس علىٰ جنازته ، وكان في البلد يهودي

قد أناف علىٰ سبعين سَنة ، فسمع الضجة ، فخرج ينظر ما كان ، فلما نظر إلى الجنازة . . صاح وقال : أترون ما أرىٰ ؟ فقالوا : [لا] ، أي شيء ترىٰ ؟ فقال : أرىٰ أقواماً ينزلون من السماء يتمسحون بالجنازة ، ثم إنه أسلم في الحال وصار من الصالحين . انتهىٰ [« الرسالة القشيرية » ٢٤ـ٢٥ و٢٤١] .

وقال في « المختار » : قال سهل ـ رحمه الله ـ : يتفاضل الناس يوم القيامة علىٰ قدر يقينهم ، فمَن كان أوزن يقيناً . . كان مَن دونه في ميزانه ، وأدنىٰ مراتب اليقين : ثقة العبد بالله عز وجل ، وأدنىٰ مراتب التوكل : ترك الاختيار ، وأعلاه ليس له غاية .

وقال : إنما منع الله الغافلين لذاذة مناجاته ؛ لأنه سبحانه وتعالىٰ لم يرض عقولهم لمعرفته ، ولا أبدانهم لخدمته ، فأذلهم وجعلهم عبيد الدنيا ، نسأل الله العافية والتوفيق والعصمة . [انتهىٰ] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو إسحاق إبراهيم الحربي

رضي الله عنه

هو الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن بشير بن عبد الله الحربي المروزي من أهل مرو .

[والحربي] نسبة إلىٰ قرية من قرىٰ بغداد اسمها : الحربية بالحاء والراء المهملتين .

ولد سنة ثمان وتسعين ومئة .

[**قال الخطيب البغدادي ـ رحمه الله ـ**] : كان إماماً في العلم ، رأساً في الزهد ، عارفاً بالفقه ، بصيراً بالأحكام ، حافظاً للحديث ، عارفاً بعلله ، قيماً بالأدب ، جامعاً للغة وفنون الأدب ، له التصانيف الحسان في علوم كثيرة .

قال أحمد بن عبد الله بن خالد بن ماهان ـ ويعرف بابن أسد ـ : سمعت إبراهيم الحربي يقول : أجمع عقلاء كل أمة علىٰ أنه مَن لم يَجْرِ مع القدر . . لم يتهنأ عيشه . أو كما قال .

وقال : ما أنشدت بيتاً من الشعر . . إلا قرأت بعده : (قل هو الله أحد) ثلاث مرات .

وسأله أحمد بن يحيىٰ فقال : متىٰ يستغني الرجل عن ملاقاة العلماء ؟ فقال : إذا علم ما قالوا ، وإلىٰ أي شيء ذهبوا إجماعاً واختلافاً ، وبماذا كانوا يعملون ، والأعمار تفنىٰ دون هـٰذا . أو كما قال .

وقال أبو الحسين العَتَكي : سمعت إبراهيم الحربي يقول لجماعة عنده : مَن تَعُدُّون الغريب في زمانكم هـٰذا ؟ فقال واحد منهم : الغريب : مَن نأىٰ عن وطنه ، وقال آخر : الغريب : مَن فارق أحبابه ، وذكر كل واحد منهم شيئاً ، فقال إبراهيم الحربي : الغريب في زماننا هـٰذا : رجل صالح عاش بين قوم صالحين ، إن أَمَر بالمعروف . . آزروه ، وإن نهىٰ عن المنكر . . أعانوه ، وإن احتاج إلىٰ سبب من الدنيا . . مانوه[1] ، ثم ماتوا وتركوه .

---

(١) **مانوه** : تحملوا مؤنته ، وقاموا بكفايته .

وعن أبي عثمان الرازي قال : جاء رجل من أصحاب المعتضد إلىٰ إبراهيم الحربي بعشرة آلاف درهم من عند المعتضد ، فردها عليه ولم يقبلها ، فانصرف الرسول ، ثم عاد ، فقال : إن أمير المؤمنين يسألك أن تفرقها في جيرانك ، فقال : قل له : عافاك الله ، هـٰذا مال لم نشغل أنفسنا بجمعه ، فلا نشغلها بتفريقه ، قل لأمير المؤمنين : إن تركتنا ، وإلا . . تحولنا عن جوارك . رحمه الله . انتهىٰ [« تاريخ بغداد » ٦/٢٨ـ٣١] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : إبراهيم الحربي أصله من مرو ، وسكن بغداد ، وكان إماماً في علوم كثيرة ، وله التصانيف الحسان ، وكان زاهداً في الدنيا .

وكان يقول : صحبت قوماً من الكرخ في طلب الحديث ، فسموني الحربي ؛ لأن عندهم أن كل مَا[1] جاوز قنطرة العتيقة[2] . . فهو مِن الحربية .

وقال إبراهيم الحربي : ربما كان قميصي نظيفاً وإزاري وسخاً ، فلا تحدثني نفسي بتسويتهما قط ، قال : وربما كان أحد النعلين اللذين في رجلي مقطوعاً والآخر صحيحاً ، وأنا أمشي بهما في بغداد من الجانبين ، فلا تحدثني نفسي بتسويتهما .

قالوا : وكان به شقيقة[3] نحواً من خمس وأربعين سَنة لم يخبر بها أحداً ، وعَشِيَت إحدىٰ عينيه ، فلم يبصر بها نحواً من عشرين سَنة ، ولم يَعلم بذلك أحدٌ ، وأقام نحو ثلاثين سَنة يتقوَّت كل يوم وليلة برغيف ، ثم صار بعد ذلك يتقوَّت كل يوم وليلة بنصف رغيف وأربع عشرة تمرة .

ومرضت ابنته ، فأرسل امرأته إليها لتعالجها ، فأقامت عندها شهراً ، فكانت نفقته في ذلك الشهر درهمين لا غير .

وقال أبو القاسم : مرض إبراهيم الحربي ، فدخلت إليه أعوده ، فقالت لي ابنته : يا عم ؛ نحن في أمر عظيم لا في الدنيا ولا في الآخرة ، الشهر والدهر ما لنا طعام إلا كِسَر يابسة وملح ، وربما عدمنا الملح ، وبالأمس قد وجه المعتضد إليه بعشرة آلاف درهم . . فلم يأخذها ، ووجه إليه فلان وفلان ، قال : فرفع إبراهيم رأسه وهو يبتسم ، وقال لها :

---

(١) في بعض النسخ : (من) .

(٢) **العتيقة** : محلة ببغداد في الجانب الغربي ممتدة حتىٰ شاطىء دجلة ، وسميت العتيقة لأنها كانت قبل عمارة بغداد .

(٣) **الشقيقة** : ألم ينتشر في نصف الرأس والوجه .

يا بنية ؛ أتخافين الفقر ؟ وأين الفقر ؟ انظري إلىٰ تلك الزاوية فيها اثنا عشر ألف جزء من الحديث والفقه واللغة والعربية[1] ، كلها بخطي ، فإذا أنا مِتُّ إلىٰ رحمة الله . . بيعي كل جزء بدرهم ، فمَن كان عنده اثنا عشر ألف درهم . . كيف يُعَد فقيراً ؟!

وقال أحمد بن سليمان القطيعي : أضقت[2] مرة إضاقة شديدة ، فجئت إلىٰ إبراهيم الحربي ليدعوَ لي ، فقال لي قبل أن أذكر له الحال : لا يضيق صدرك ؛ فإن الله عز وجل سيأتيك برزق من عنده ، قال تعالىٰ : ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ ثم حكىٰ لي أنه حصلت له مرة إضاقة شديدة ، قال : إلىٰ أن عدم عيالي القوت ، فقالت لي المرأة : هب أني أنا وأنت نقدر على الصبر ، كيف تصنع بهـٰؤلاء الصبيان الصغار ؟ فإنهم لا يصبرون ، فقلت لها : ما تأمرين ؟ قالت : بع من هـٰذه الكتب شيئاً ، أو ارهن منها شيئاً ، فقلت لها : اصبري عليَّ اليوم والليلة .

فلما كان الليل . . سمعت طارقاً يطرق بابي ، فقلت : مَن ؟ فقال : رجل من جيرانك ، قلت له : ادخل ، فقال : أطفىء السراج حتىٰ أدخل ، فأطفأته ، ثم قلت : ادخل ، فدخل وترك إلىٰ جنبي شيئاً وانصرف ، فأوقدت السراج ونظرت ، فإذا منديل نفيس ، وفيه من أنواع الأطعمة ، وكاغد[3] فيه خمس مئة درهم ، فدعوت الزوجة وأيقظت الصغار فأكلوا .

فلما كان من الغد . . قضينا من تلك الدراهم دَيناً كان علينا ، وكان وقت مجيء الحاج من خراسان ، فجلست علىٰ باب بيتي صبيحة تلك الليلة ؛ وإذا جَمَّال يقود جملين عليهما حملان ، وهو يسأل عن إبراهيم الحربي ، فقلت له : أنا إبراهيم الحربي ، فقال : هـٰذان الجملان وما عليهما لك ، أنفذَهما لك رجل من خراسان ، فقلت : مَن هو ؟ فقال : قد أحلفني ألاَّ أقول مَن هو .

وقال ثعلب : ما فقدت إبراهيم الحربي من مجلس نحو أو لغة أو حديث أو فقه نحو خمسين سَنة .

وقال محمد بن صالح الأنماطي : ما نعلم أن بغداد أخرجت مثل إبراهيم الحربي في الأدب ، والحديث ، والفقه ، والزهد .

---

(١) في « الصفوة » : (واللغة والغريب) .
(٢) أضاق الرجل : ذهب ماله .
(٣) الكاغد : القرطاس ، فارسي معرَّب .

وقال [مقاتل بن] محمد بن بنان : حضرت مع أبي وأخي عند إبراهيم الحربي ، فقال إبراهيم لأبي : هـٰؤلاء أولادك ؟ قال : نعم ، قال : احذر . . لا يرونك حيث نهاك الله عز وجل فتسقط من أعينهم .

وكان له ابن قد أنجب وقرأ القرآن وطرفاً صالحاً من الفقه والحديث ، فتوفي ، فلما جاء الناس لتعزيته . . قال : إني كنت أشتهي موته ؛ لأحتسبه ، ولرؤيا رأيتها ، وهي كأن القيامة قد قامت ، وأولاد المؤمنين معهم أباريق فيها ماءٌ ، وهم يسقون الناس ، فقلت لواحد منهم : اسقني ، قال : إنك لست أبي ، نحن إنما نسقي آباءنا ، فقلت : مَن أنتم ؟ قالوا : نحن الصغار الذين ماتوا وخلفوا آباءهم ، نستقبلهم ونسقيهم الماء ، والله أعلم .

توفي سنة خمس وثمانين ومئتين ، رحمه الله . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٢٤٤ـ٢٤٨] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو عبد الله أحمدُ بن يحيى الجَلاَّء
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : كان أبو عبد الله أحمد بن يحيى الجلاء من بغداد ، وسكن الرملة ، وصحب ذا النون ، وأبا تراب النخشبي .

وكان أبوه يسمىٰ يحيى الجلاء ، وسنذكر سبب تسميته بذلك ، وكان ابنه قد أقام بالشام ، ولم يكن أحد في حاله ، وعلىٰ أبيه تخرَّج المشايخ المذكورون .

ومن كلام أبي عبد الله أحمد : مَن استوىٰ عنده المدح والذم . . فهو زاهد ، ومَن حافظ على الفرائض لأول وقتها . . فهو عابد ، ومَن رأى الأفعال كلها من الله عز وجل . . فهو موحِّد .

وقال : سَمَتْ هِمم المريدين إلىٰ طلب الطريق إليه . . فأفنوا نفوسهم في الطلب ، وسمت هِمم العارفين إلىٰ مولاهم عز وجل . . فلم تلتفت إلىٰ سواه سبحانه وتعالىٰ .

وقال : إن الله عز وجل خص بعض أنبيائه عليهم الصلاة والسلام بالكلام ، وبعضهم بالخُلَّة ، ثم ابتلاهم بما شاء من المحن ، فليحذر أحدكم طلب رتبة الأكابر .

وكان إذا سئل عن المحبة . . يقول : ما لي وللمحبة ؟ أنا أريد أن أتعلم التوبة .

وسئل عن ليالي الأحباب وطيبها ، فأنشأ يقول :

من لم يَبِتْ والحب حَشْوَ فؤاده ... لم يدرِ كيف تفتتُ الأكبادِ

وقال : قلت لأبي وأمي : هِباني لله عز وجل ، فقالا : قد وهبناك ، قال : فغبت عنهما مدة ، فلما رجعت من غيبتي وكانت ليلة مطيرة . . دققت عليهما الباب ، فقالا : مَن ؟ فقلت : أحمد ولدكما ، فقالا : كان لنا ولد ، فوهبناه لله عز وجل ، ونحن من العرب لا نرجع فيما وهبنا ، ولم يفتحا لي الباب . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ٣١٤ـ٣١٥] .

وقال الأستاذ القشيري : وقال ابن الجلاء : الزهد هو النظر إلى الدنيا بعين الزوال ؛

لتصغر في عينك ، فيسهل عليك الإعراض عنها . [انتهىٰ « الرسالة القشيرية » ٩٤] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان يحيى الجلاء والد أبي عبد الله ممن صحب بشر بن الحارث .

وقال محمد بن الحسين : سمعت أبا عبد الله ٱبن يحيى الجلاء يقول : قلت لذي النون المصري : لِمَ سمي أبي : الجَلاَّء ؟ هل كان يصنع صنعة ؟ فقال : لا ، ولٰكن نحن سميناه الجلاء ؛ فإنه كان إذا تكلم علينا . . جَلاَّ قلوبنا ، فسميناه الجلاء لذلك .

وقال أبو عبد الله أحمد بن يحيى الجلاء : لما مات أبي ووضع على المغتسل . . رأيناه مسفر الوجه ضاحكاً ، فلما رآه الناس ضاحكاً . . قالوا : إنه ليس بميت ، ثم جاؤوا بطبيب وغطوا وجهه ، فأخذ الطبيب مجسه ، فقال : هٰذا ميت ، فكشفوا له عن وجهه ، فرآه ضاحكاً ، فقال : ما أدري حال هٰذا ، أحي هو ، أم ميت ؟!

وكان إذا جاء إنسان ليغسله . . أخذته منه هيبة ولا يقدر علىٰ غسله ، حتىٰ جاء رجل من إخوانه ، فغسله ، ثم كفن وصلي عليه ودفن رحمه الله تعالىٰ[1] . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/٢٤٨] .

وقال في « المناقب » : قال محمد بن ياسين : سألت أبا عبد الله ابن الجلاء عن الفقر ، فسكت ، ثم ذهب ورجع قريباً ، فتكلم في الفقر ، فقلت له : يا أستاذ ؛ لِمَ لا تكلمت قبل رواحك ؟ فقال : كان عندي أربعة دوانيق ، فاستحييت من الله سبحانه وتعالىٰ أن أتكلم في الفقر ومعي شيء من الدنيا ، فذهبت ، فأخرجتها ، ثم جئت بعد ذلك ، فتكلمت فيه ، والله أعلم .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : هٰذا كله من المحافظة على الصدق مع الله عز وجل ، واستواء السريرة والعلانية ، وهو من شأن العارفين ، ومَن تتبع أفعالهم . . وجد من ذلك شيئاً كثيراً قد مر بعضه في تراجمهم ، وسيأتي باقيه إن شاء الله عز وجل .

وفي « بهجة الأسرار » : قال أبو عبد الله وقد سئل : متىٰ يكون التائب صادقاً ؟ فقال : إذا لم يكتب عليه صاحب الشمال عشرين سنة ذنباً .

وقال ابن الجلاء : كنت مجاوراً بمكة مع ذي النون ، فجعنا أياماً كثيرة لم يُفتَح لنا بشيء ، فلما كان ذات يوم . . قام ذو النون قبل صلاة الظهر ليصعد إلى الجبل يتوضأ للصلاة

---

(١) وقد توفي لاثنتي عشرة خلت من رجب سنة ست وثلاث مئة . انظر « تاريخ بغداد » (٥/ ٤٢٤) .

وأنا خلفه ، فرأيت قشور الموز مطروحة في الوادي وهو طري ، فقلت في نفسي : آخذ منه كفاً أو كفين أتركه في كمي ، فلا يراني الشيخ ، حتىٰ إذا صرنا في الجبل ومضى الشيخ يتمسح[1] . . أكلته ، قال : فأخذته ، فتركته في كمي ، وعيني إلى الشيخ ؛ لئلا يراني ، فلما صرنا في الجبل وانقطعنا عن الناس . . التفت إلي ذو النون وقال : اطرح ما في كمك يا شره[2] ، فطرحته وأنا خجل ، وتمسحنا للصلاة ، ورجعنا إلى المسجد ، وصلينا الظهر والعصر والمغرب وعشاء الآخرة .

فلما كان بعد ساعة . . إذا إنسان قد جاء ومعه طعام عليه مكبة ، فوقف ينظر إلى الشيخ ذي النون ، فقال له ذو النون : مُرَّ فدعه قدام ذاك ـ وأومأ إلي بيده ـ فتركه بين يدي ، فانتظرت الشيخ ليأكل ، فلم أره يقوم من مكانه ، ثم نظر إلي ، وقال : كُلْ ، فقلت : آكل وحدي ؟! فقال : نعم ، أنت طلبت ، نحن ما طلبنا شيئاً ، يأكل الطعام من طلبه ، فأقبلت آكل وحدي وأنا مستحي خجل مما جرىٰ . أو كما قال . انتهىٰ .

وقال في « لوامع أنوار القلوب » : قال ابن الجلاء : حقيقة المحبة : أن تسمو همة المحب إلىٰ مولاه ، فلا يكون له همٌّ ولا مقصود إلا هو تبارك وتعالىٰ ؛ لأن مَن علت هِمَّته عن الأكوان . . وصل إلىٰ مكوِّنها جل جلاله .

ولهٰذا سمع بعضهم شاهقاً يشهق عند قراءة القارىء : ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ فقال : مَن شغل هِمته بسواه . . لا يصل إلىٰ مولاه جل جلاله ، ومَن أحبه للجِنان . . بقي مع الحور والولدان ، ومَن أحبه له . . بقي معه سبحانه لا شريك له ، فيكون هو معه أينما كان ظاهراً وباطناً ، يكون موجودَ قلبِهِ ، ومنظورَ عينِهِ ، ومُشاهِدَهُ ، ومناجِيَ فكرِهِ وسرِّهِ ، لا يذكره ساعة فساعة ؛ لأنه مشاهده مع النَّفَس والساعة .

أحـب الله قـومـاً فـاستقـامـوا ... علـىٰ طـرق الـوداد فلـم ينـامـوا

زاد في « بهجة الأسرار » : سئل ابن الجلاء عن المحبة ، فقال : ما لي وللمحبة ؟ أنا أريد أن أتعلم التوبة .

وقال أبو الخير التيناتي : كنت جالساً ذات يوم في موضعي هٰذا علىٰ باب المسجد ،

---

(١) **يتمسَّحُ** : يتوضأ .

(٢) **الشَّرِهُ** : الشديد الحرص ، وفي بعض النسخ : (بأسره) .

فرفعت رأسي ، فرأيت رجلاً في الهواء وبيده ركوة ، فأومأ إلي ، فقلت له : انزل ، فأبىٰ ومر في الهواء ، فسئل الشيخ أبو الخير : عرفت الرجل ؟ قال : نعم ، قيل له : مَن كان ؟ قال : أبو عبد الله بن الجَلاَّء رضي الله عنه . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو جعفر أحمدُ بن مهدي بن رستم البغدادي

رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : كان أحمد بن مهدي يحب الإيثار والستر .

أما إيثاره : فإنه ورث نحو ثلاث مئة ألف درهم أنفقها علىٰ أهل العلم وطلب العلم ، وذُكر أنه لم يعرف له فراش منذ أربعين سنة .

وأما محبته للستر : فقد روي عنه أنه كان ذات ليلة في منزله ، وإذا بامرأة قد قصدته في بيته ، واستأذنت في الدخول إليه ، فلما دخلت . . ذكرت أنها من بنات الناس ، وأنها قد امتحنت بمحنة ، ثم قالت له : أسألك بالله عز وجل أن تسترني ، فقال لها : وما محنتك ؟ فقالت : أُكرهت علىٰ نفسي ، وأنا حبلىٰ ، وأهلي لا يصدقون أني مكرهة ، والله يعلم أني كنت مكرهة ، وقد قلت للناس : إنك زوجي ، وإن الحمل منك ، فبالله ؛ لا تفضحني واسترني سترك الله تعالىٰ .

قال : فسكت عنها ، ثم مضت ، فلم أشعر بعد مدة إلا وقد وضعت ابناً ، وجاء إمام المحلة ، وجَمْعٌ من الجيران يهنئوني بالولد ، فأظهرت البِشر والتهلل ، ثم وزنت في اليوم التالي دينارين ، وطلبت إمام المحلة ودفعتهما إليه ، وقلت له : أوصل هـٰذا إلىٰ تلك المرأة لأجل نفقة المولود ، وأعلمها أنه قد وقع مني طلاق لها ، فمضىٰ .

وكنت بعد ذلك في كل شهر أزن دينارين وأوصلهما إليها علىٰ يد ذلك الإمام ، وأقول : هـٰذه نفقة المولود ، إلىٰ أن مضىٰ علىٰ ذلك سنتان ، فتوفي المولود ، فجاء الناس يعزونني ، وأنا أظهر لهم التسليم والرضا .

فلما كان بعد ذلك بنحو شهرٍ جاءتني تلك المرأة في ليلة ، ومعها تلك الدنانير التي وصلت إليها مني ، فوضعتها بين يدي ، ثم قالت : سترك الله تعالىٰ كما سترتني ، خذ هـٰذه

الدنانير التي أرسلتَها ، فقلت لها : إنَّ الدنانير كانت صلة مني للمولود ، وهي الآن مِلْكُكِ ؛ لأنك ترثينه ، فخذيها ، فأبت ، فقلت : لا بد من أخذها ، فأخذتها ، ثم انصرفت . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ٣٩٦ـ ٣٩٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو عبد الرحمـٰن عبدُ الله بن داوود الخُرَيبي
رضي الله عنه

ابن عامر بن الربيع ، الهمذاني ، ثم الشعبي ، الكوفي ، المعروف بالخريبي ، سكن الخريبة ، وهي محلة بالبصرة .

وكان من كبار أئمة الحديث والفقه والعربية .

سمع هشام بن عروة ، والأعمش ، وابن جريج ، والأوزاعي ، وابن أبي ليلىٰ ، وخَلْقاً .

وروىٰ عنه الحسن بن صالح بن حيّ ، وسفيان بن عيينة ـ وهما من شيوخه ـ ومسدد ، ونصر بن علي ، وبندار ، وعمرٌو الفلاس ، ومحمد بن يحيى الذهلي ، وخَلْق .

قال ابن سعد : كان ثقة عابداً ناسكاً .

وقال ابن معين : ثقة مأمون .

وقال : قال عبد الله الخريبي : كان سبب دخولي البصرة أن ألقى ابن عون ، فلما كان يوم دخولي البصرة . . تلقاني نعيه ، فدخلني ما الله به عليم .

وقال الخريبي : ينبغي للرجل أن يُكرِه ولده علىٰ تعلم الحديث ، ليس الدِّين بالكلام ، إنما الدِّين بالآثار .

وقال : ما كذبت إلا مرة واحدة ؛ قال لي أبي : قرأتَ على المعلم ؟ قلت : نعم ، وما كنتُ قرأت عليه .

قال : وكانوا يستحبون أن يكون الرجل معاملتُه مع الله عز وجل سراً لا تعلم بها زوجته ولا غيرها .

وكان يقول : مَن أمكن الناس مِن كل ما يريدون منه . . أضرَّ بدنياه ودِينه .

قال إسماعيل الخُطَبي : سمعت أبا مسلم الكَجِّي يقول : كتبت الحديث عن الخريبي وهو

حي ، ولم آته ، وذلك لأني كنت في بيت عمتي ، فسألت عن أولادها ، فقالت : قد مضوا إلى الخريبي ، فلما جاؤوا . . سألتهم عنه ، فقالوا : طلبناه في منزله ـ وكان ذلك في آخر عمره بعدما انقطع ـ فقالوا : هو في بُسَيْتِينَةٍ له بالقرب ، فقصدناه ، وسألناه أن يحدثنا ، فقال : مُتِّعت بكم ، أنا في شغل عن هـٰذا ، هـٰذه البُسَيتينة لي فيها معاش ، وتحتاج إلىٰ سقي ، وليس لي مَن يسقيها ، فقلنا : نحن ندير الدولاب ونسقيها ، فقال : إن حَضرَتْكم نية . . فافعلوا ، فرمينا عنَّا ثيابنا ، وأدرنا الدولاب حتىٰ سقينا البستان ، ثم قلنا : تحدثنا ؟ قال : مُتعت بكم ، ليس لي نية ، وأنتم كانت لكم نية تؤجرون عليها .

وقال أحمد بن كامل : حدثنا أبو العيناء قال : أتيت الخريبي فقال : ما جاء بك ؟ قلت : الحديث ، قال : اذهب فاحفظ القرآن ، قلت : قد حفظته ، قال : اقرأ ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ ، قال : فقرأت حتىٰ ختمت السورة ، قال : اذهب الآن فتعلم الفرائض ، قلت : قد تعلمت الفرائض الصُّلْب والجدَّ والكُبَر[1] ، فقال : أيما أقرب إليك ابن أخيك أو ابن عمك ؟ قلت : ابن أخي ، قال : ولِمَ ؟ قلت : لأن أخي من أبي ، وعمي من جدي ، قال : اذهب الآن فتعلم العربية ، قلت : قد علمتها قبل هـٰذين ، قال : فلِمَ قال أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه حين طعن : يا لَلَّه يا لِلمسلمينَ ؟ قلت : فَتَحَ تلك على الدعاء ، وكسر هـٰذه على الاستغاثة والاستنصار فقال : لو حدثتُ أحداً . . لحدثتك[2] .

وقال بشرٌ الحافي رحمه الله : دخلت على الخريبي في مرضه الذي مات فيه ، فجعل يقول ـ ويمر يده على الحائط ـ : لو خيرت بين دخول الجنة وبين أن أكون لبنة من هـٰذا الحائط . . لاخترت أن أكون لبنة حتىٰ أدخل الجنة .

ولد الخريبي سنة ست وعشرين ومئة ، وتوفي في النصف من شوال سنة ثلاث عشرة ومئتين رضي الله عنه وأرضاه .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) أي : مسائل الفرائض الكبرىٰ .

(٢) انظر « تهذيب الكمال » (١٤/٤٥٨ـ٤٦٧) ، و« سير أعلام النبلاء » (٩/٣٤٦ـ٣٥٢) .

ومنهم الإمام :

أبو سعيدٍ الخراز
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : أبو سعيد الخراز اسمه : أحمد بن عيسىٰ . قال أبو بكر الزقاق : كان أبو سعيد يوماً نائماً ، فلما استيقظ . . قال : اكتبوا ما وقع لي في هـٰذه الغفوة : إن الله عز وجل جعل العلم دليلاً عليه ليُعرف ، وجعل الحكمة[1] رحمة منه علىٰ عباده ليُؤْلَف ، فالعلم دليل عليه والمعرفة دالة عليه .

وقال أبو سعيد الخراز : المعرفة تأتي إلى القلب مِن عين الجود ومِن بذل المجهود ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ .

وقال : ينبغي أن يكون فرحك عند العطاء بالمعطي سبحانه وتعالىٰ لا بنفس العطاء ، وتنعمك بالمنعم عز وجل دون نظرك إلى النعمة . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/٢٤٦ـ٢٤٩] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : قال أبو القاسم الجنيد : لو طالبنا الله عز وجل بحقيقة ما عليه أبو سعيد الخراز . . لهلكنا .

قال علي : قلت لإبراهيم : وأي شيء كان حاله ؟ فقال : أقام كذا وكذا سَنة ما فاته ذِكر الحق جل جلاله بين الخرزتين .

وقال أبو جعفر الصيدلاني : سمعته يقول : مَن ظن أنه ببذل الجهد يصل . . فهو متمنٍّ ، ومن ظن أنه بغير بذل الجهد يصل . . فهو متعنٍّ .

وقالت تلميذة له : كنت أسأله عن مسألة وبيني وبينه إزار مسبل مشدود ، قالت : فلما أجابني . . استفزتني حلاوة كلامه ، فنظرت إليه من ثقب في الإزار ، فرأيت شفتيه تتحركان ، قالت : فلما نظرت إليه . . سكت ، ثم قال لي : جرىٰ هـٰهنا حدث ، فأخبريني

---

(١) في نسخة : (الحلم) .

ما هو ، فقلت له : نظرت إليك ، فقال : أمَا علمتِ أن نظركِ إلي اشتغال عما أنتِ فيه وهٰذا العلم لا يحتمل التخليط ؟! انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٢٦٢] .

وقال الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : رأىٰ أبو سعيد الخراز ابناً له في المنام بعد موته ، فقال له : يا بني ؛ عظني ، فقال : لا تخالف الله عز وجل فيما يريد ، فقال : يا بني ؛ زدني ، قال : يا أبت ؛ لا تطيق ذلك ، قال : يا بني ؛ قل ، قال : يا أبت ؛ لا تجعل بينك وبين الله قميصاً ، فما لبس قميصاً ثلاثين سَنة . انتهىٰ [« الإحياء » ٤/ ٥٠٢] .

قال صاحب « المختار » ـ رحمه الله ـ : قال أبو سعيد : كنت في بعض أسفاري ، وكان يظهر لي كل ثلاثة أيام شيء آكله ، وأستقل به ، فمضىٰ عليَّ ثلاثة أيام ولم يظهر لي شيء ، فضعفت وجلست ، وهتف بي هاتف : أيما أحب إليك أن تعطىٰ قوة أو سبباً ؟ فقلت : قوة ، فقمت من وقتي ومشيت نحو اثني عشر يوماً لم أذق شيئاً ولم أضعف .

وقال : كنت بالبادية مرة ، فنالني جوع شديد ، فغلبتني نفسي علىٰ أن أسأل الله تعالىٰ صبراً ، فلما هممت بذلك . . سمعت هاتفاً يقول :

ويـــزعُـــم أنـــه مِنَّـــا قـــريـــبٌ وأَنَّـــا لا نضيِّـــع مَـــن أتـــانـــا
ويســـألنـــا القـــوىٰ جهـــداً وصبـــراً كـــأَنَّـــا لا نـــراه ولا يـــرانـــا

قال : فأخذني الاستقلال من ساعتي ، فقمت ومشيت .

وقال لي أبو سعيد : شهدت إبراهيم الهروي وكان شيخاً كبيراً ، رأيته بمكة شرفها الله تعالىٰ ، فقال لنا يوماً : خرجت من خراسان وكنت راكباً ؛ لضعفي عن المشي ، فبينا أنا في أرض فلاة ، وقد بقيت أياماً كثيرة لم أر أحداً من الناس ، ولا طائراً ، ولا ذا روح ، وكنت في ذلك مستقلاً بلا طعام ولا شراب ؛ فوقع في نفسي شيء من العُجب ، فخرج عليَّ شخص لا أدري من أين جاء ولا أعرفه ، فقال لي : يا إبراهيم ؛ ذاك المرائي تعرفه ؟ فقلت : أنا هو ، وكان إلىٰ جنبي شجرة ، فقال : قل لهٰذه الشجرة تحمل دنانير ، فقلت لها : احملي دنانير ، فلم تحمل شيئاً ، فقال لها ذلك الرجل : احملي دنانير ، فنظرت ؛ فإذا شماريخ[1] دنانير معلقة ، فاشتغلت بالنظر إليها ، ثم التفتُّ ، فلم أر ذلك الشخص ، وذهبت الدنانير من الشجرة . انتهىٰ .

---

(١) **الشماريخ** : الأغصان الدقيقة التي تنبت في أعالي الغصون الغليظة .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال أبو القاسم بن مردان : كان عندنا بنهاوند فتىً يصحبني ، وكنت أنا أصحب أبا سعيد ، فكنت إذا رجعت . . حدثت الفتىٰ بما أسمع من أبي سعيد ، فقال لي ذات يوم : إن سهل الله لك الخروج إلىٰ أبي سعيد . . خرجت معك لزيارته ورؤياه ، فاتَّفَق أني سافرت إلىٰ مكة وسافر ذلك الفتىٰ معي ، فلما وصلنا مكة شرفها الله تعالىٰ . . قال الفتىٰ : أُحب أن ألقىٰ أبا سعيد ، فلما جئنا إليه وسلمنا عليه . . قال ذلك الفتىٰ لأبي سعيد : مسألةٌ ـ ولم يحدثني أنه يريد أن يسأل ـ فقال له الشيخ : سل ، فقال : ما حقيقة التوكل ؟ فقال له الشيخ أبو سعيد : ألاَّ تأخذ الحجة من حمولا ، وكان ذلك الفتىٰ قد أخذ حجة من رجل اسمه حمولا رئيس نهاوند ، ولم أكن أشعر بذلك ، قال : فورد على الفتىٰ أمر عظيم وخجل ، فلما رأىٰ أبو سعيد ما حل به . . عطف عليه ، وقال له : ارجع إلىٰ مسألتك .

وكان أبو سعيد من المراقبين لله عز وجل ، كان يوماً في بادية الموصل ، فجاءه أسدان من ورائه ، فسمع حسهما ، فلم يلتفت إليهما ، فقربا منه ، وتعلقا به ، ولحسا خديه ، ونزلا عنه ، وهو لا ينظر إليهما ولا يلتفت .

وقال أبو سعيد رحمه الله : **حسنات الأبرار . . سيئات المقربين** .

وقال : إذا بكت أعين الخائفين . . فقد كاتبوا الله عز وجل بدموعهم .

وقال : العافية سترت البر والفاجر ، وإذا جاءت البلوىٰ . . تبين عندها الرجال .

وكان يقول : كان لي معلم يعلمني الخوف ثم ينصرف ، فقال لي يوماً : إني معلمك خوفاً يجمع لك كل شيء ، قلت : وما هو ؟ قال : مراقبة الله عز وجل في جميع الأحوال .

أسند أبو سعيد عن عبد الله بن إبراهيم ، وإبراهيم بن بشار ، وصحب بشر بن الحارث ، وسرياً السقطي ، وذا النون المصري ، وتوفي سنة سبع وتسعين ومئتين . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/٢٦٣ـ٢٦٤] .

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري : قال أبو سعيد الخراز : رأيت إبليس في منامي وهو يمرُّ عني ويذهب ناحية ، فقلت له : تعال ، فقال : أيش أعمل بكم ؟ أنتم طرحتم عن أنفسكم ما أخادع به الناس ، فقلت له : وما هو ؟ فقال : الدنيا وعزها وجاهها ، فلما ولىٰ عني . . قال : غيرَ أن لي فيكم لطيفة ، قلت : ما هي ؟ قال : صحبة الأحداث .

وقيل لأبي القاسم الجنيد : إن أبا سعيد الخراز كان كثير التواجد عند الموت ، فقال :

ليس ذلك بعجب أن تطير روحه اشتياقاً إلى الله عز وجل [انتهىٰ « الرسالة القشيرية » ٣٨ و٢٣٦] .

قال صاحب « المناقب » : قال أبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز : إن الله تعالىٰ عجل لأرواح أوليائه التلذذ بذِكره ، والوصول إلىٰ قربه ، وعجل لأبدانهم عظيم النعمة بما نالوه من عبادته سبحانه وتعالىٰ .

وسئل عن الأُنس : ما هو ؟ فقال : استبشار القلوب بذِكر مولاها ، وسرورها به ، وسيرُها إليه ، وأمنُها معه .

وسئل عن معنىٰ قول النبي صلى الله عليه وسلم : « جبلت القلوب علىٰ حب من أحسن إليها »[1] فقال : واعجباً لمَن لم ير محسناً غير الله عز وجل كيف لا يميل بكليته إليه ؟!

وقال : لولا أن الله عز وجل لطف بموسىٰ عليه الصلاة والسلام . . لأصابه ما أصاب الجبل .

وقال : كل باطن يخالفه ظاهر العلم . . فهو باطل ؛ لأن الله عز وجل جعل العلم طريقاً إليه ليُعرف .

وقال : إن المحب يتعلل إلىٰ محبوبه بكل شيء ، ولا يتسلىٰ عنه بشيء ، ويتبع آثاره ، ولا يدع استخباره .

وقال : إذا أراد الله أن يوالي عبداً من عبيده . . فتح عليه باب ذِكره ، فإذا استلذ بالذِّكر . . فتح عليه باب القرب ، ثم رفعه إلىٰ مجالس الأنس ، ثم رفع عنه الحجب . [انتهىٰ] .

وقال أبو القاسم القشيري ـ رحمه الله ـ : قال رويم ـ رحمه الله ـ : حضرتُ وفاة أبي سعيد الخراز رحمه الله وهو يقول :

حنين قلوب العارفين إلى الذِّكر ... وتذكارهم وقت المناجاة للسِّرِّ
أُديرت كؤوسٌ للمنايا عليهمُ ... فأَغْفَوا عن الدنيا كإغفاءِ ذي السُّكْرِ
همومهمُ جوالة بمعسكر ... به أهل وُدِّ الله كالأنجم الزُّهْرِ
فأجسامهم في الأرض قتلىٰ بحبه ... وأرواحهم في قصد مطلوبهم تَسْري
فما غرسوا إلا بقرب حبيبهمْ ... وما عرجوا من مَسِّ بؤس ولا ضُرِّ[2]

---

(١) أخرجه البيهقي في « الشعب » (١/ ٣٨١) .
(٢) الرسالة القشيرية (٢٣٦) .

وقال السلمي : قال أبو سعيد : إن الله عز وجل جعل العلم دليلاً عليه ليُعرف ، وجعل الحكمة رحمة منه سبحانه وتعالىٰ [لِيُؤْلَف] ، فالعلم دليل إلى الله ، والمعرفة دالة على الله ، فبالعلم تُنال المعلومات ، وبالمعرفة تنال المعروفات ، والمعرفة تقع بتعريف الحق جل جلاله ، والعلم يُدرَك بتعريف الخلق ، ثم تجري الفوائد بعد ذلك .

وقال : مَثَلُ النفس . . مَثَلُ ماء واقف طاهر صاف ، فإنْ حرَّكته . . ظهر ما تحته من الحمْأة[1] والتغير ، وكذا النفْس تظهر عند المحن والفاقة والمخالفة ، ثم قال : ومَن لم يعرف ما في نفسه ـ أو قال : يعرف نفسه ـ كيف يعرف ربه سبحانه وتعالىٰ ؟! انتهىٰ [« الطبقات » ٢٣٠ـ٢٣١] .

وقال في « بهجة الأسرار » : قال أبو سعيد : دخلت البصرة وجئت إلى الجامع ، فرأيت أبا حاتم العطار وهو يتكلم على الناس ، فسمعته يقول : إنما جلست لواحد ، وكيف لي بواحد ؟ ومِن أين لي بواحد ؟ ثم أومأ إلي فقال : اسمع أبا سعيد حتىٰ أقول ، وما كان عرفني قبل ذلك ، ولا رأيته .

وقال أبو سعيد : قرأت على الطوسي رحمه الله من كتاب لي ، فيه ظرائف ، كتبته بمكة ، ووجدته في كَنَفِ بعض أصحابنا ، فكان فيما عرضته على الطوسي : أن الله عز وجل ناجىٰ يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام ، فوصف له عبداً من عباده عز وجل ، فكان فيما وصف له أن قال له : (يا يحيىٰ ؛ امسح برأسه ، وضع يدك علىٰ ألمه ، فإنه لا يشكو إليَّ ألمه ؛ لأنه مشغول بذِكري ، وإنما يشكو إلي الألم إذا خرج من حقائق الذِّكر وإذا فقدني من قلبه ، فهناك يلتمس الغفلة بذِكري كما يتعلق الطير بوالديه ، فأنا عند ذلك جليسُ لُبِّهِ ، وقعيد عقله ، أطلع عليه في كل يوم ، فأجد قلبه يخفق من ذِكري ، فأقول له : ما بال قلبك يخفق ؟ ـ وأنا أعلم ـ فيقول : يا رب ؛ وعزتك وجلالك ؛ أنت أعلم ، يحقُّ لمَن عرفك أن لا يهدأ) .

قال أبو سعيد : فلما قرأت على الطوسي هـٰذا . . قلت : أبا جعفر ؛ ما تقول في هـٰذا ؟ فتبسم وقال : كأنك جئتني بشيء غريب ، قد أنعم الله عز وجل علىٰ عباده برَّه ، وأنزل عليهم كلامه ، فهـٰذا كله وأضعافه داخل فيما قلت في آية واحدة منه ، قلت : وما هي ؟ قال : قوله عز وجل : ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ ، فتبارك اسمه ، وتعالىٰ في عظيم قدره ، أنعم على العباد

---

(١) **الحمْأة** : الطين الأَسود .

من نفسه أن يسموه الودود سبحانه وتعالىٰ ، فمتىٰ يدرك أهل السماوات والأرض معرفة معنى الودود ؟! فإن الأعمار تنقضي فيما دون ذلك ، والله أعلم .

وقال أبو القاسم بن مردان النهاوندي : كنت أنا وأبو بكر الوراق نمشي مع أبي سعيد الخراز علىٰ شاطىء البحر نحو صيدا ، فرأىٰ إنساناً من بعيد ، فقال : امكثوا عليَّ ؛ فإنه لا يخلو هـٰذا الإنسان من كونه ولياً لله عز وجل ، فما لبثنا أن جاء ؛ فإذا بفتىً شاب حسن الوجه ، عليه مرقعة ومعه ركوة ومحبرة ، فالتفت أبو سعيد منكراً عليه حمل المحبرة مع الركوة ، فقال له : يا بني ؛ كيف الطريق إلى الله سبحانه وتعالىٰ ؟ فقال له : يا أبا سعيد ؛ أنا أعرف إلى الله عز وجل طريقين : أحدهما خاص ، والآخر عام .

فأما العام : فالذي أنت عليه ، **وأما الخاص** : فهلم إلي ، ثم مشىٰ على الماء حتىٰ غاب عن أعيننا ، فبقي أبو سعيد متحيراً متفكراً باكياً حزيناً مما رأىٰ ، ناظراً في إثره ، متبعاً له بالدموع والأنين ، والحزن والحنين ، متعجباً من طِيب قلبه ، وصفاء لُبِّه ، ونحن كذلك معه ، فالتفت إلينا ، وقال : يا إخواني ؛ لا تنكروا المشي على الماء علىٰ ذي همة ؛ فإن الله تعالىٰ يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

قال أبو بكر الزقاق رحمه الله : سمعت أبا سعيد الخراز يقول : سمعت هاشماً المغازلي يقول : مَن عرف الله سبحانه وتعالىٰ حق معرفته . . عَبَده بكل جهده وطاقته ، وبذل المجهود من قلبه ؛ لعله يدرك بقلبه حق عبادته وإن لم يبلغها بقوة بدنه .

وقال : أسمع الناس يقولون في يوم العيد وغيره : تقبَّل الله منا ومنكم ، فقال : إن أكثر الناس يقولون هـٰذا بالغفلة وقلة الرعاية والمحاسبة ، وإلا . . فكيف يُمَكَّن العالمُ العارف العاقل بحدود الله عز وجل ، وعظيم خطرها ، والشروط فيها ، وما أمر الله سبحانه وتعالىٰ عباده من الصدق ، والإخلاص ، وتصفية الأعمال ، والعبد علىٰ يقين أنه عاجز عن القيام بذلك . . [أن] يقول : تقبل الله منا ومنك وهو لا يدري أعمله مرضي ، أم لا ؟!

وإنما ينبغي أن يسأل الله عز وجل العفو والتجاوز من التقصير اللازم ، والغفلة الغالبة ، وليس شيء أبلغ في طَرَف العفو من الاعتراف والإقرار بالعجز والذلة والافتقار ، مع بذل المجهود في الصدق والإخلاص ، بل يضع نفسه في أقل المواضع التي هو فيها ، حتىٰ يراه الله عز وجل عالماً متواضعاً ذليلاً فقيراً حقيراً ، فيرحمه بفضله وجوده ، إنه أرحم الراحمين .

وقال : مَن شهد صُنع الربوبية في إقامة العبودية . . فقد انقطع إلىٰ ربه عز وجل ، فحينئذٍ يسلم من الاستدراج .

وقال : الزهد ألاَّ يرغب قلبك في مفقود الدنيا ، ولا يسكن إلىٰ موجودها . انتهىٰ .

وقال في « لوامع أنوار القلوب » : قال أبو سعيد الخراز رحمه الله : إذا أراد الله سبحانه وتعالىٰ أن يوالي عبداً من عبيده . . فتح عليه باب ذِكره ، فإذا استلذ الذِّكرَ . . فتح له باب القرب ، ثم رفعه إلىٰ مجلس الأنس ، ثم أجلسه علىٰ كرسي التوحيد ، ثم سوَّاه علىٰ عرش الصفا ، ثم رفع عنه حجب الهوىٰ والنفس ، ثم أدخله دار الفردانية ، وكشف له عن الجلال والعظمة ، فإذا شاهد الجلال والعظمة . . فني عن نفسه ، وبقي بلا نفس ، ولا هوىٰ ، ولا إعراض ، زَمِناً فانياً ، فحينئذ يرتع في حفظ الله عز وجل وكلاءته ، فعلى اللهِ الكريم ـ تفضلاً وامتناناً ـ نصرته وصيانته وولايته ورعايته ، حضر أو غاب ، وهو يتولى الصالحين .

ألا ترىٰ أن الله سبحانه وتعالىٰ قال لعبده ورسوله محمد سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وهو بعدُ في الغيب : ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ ، والمعنىٰ : أنتْ يا محمد لم تحضر في ذلك الوقت ، ولٰكن لحرمة المحبة ورفيع منزلتك عندنا . . ذكرناك وبصَّرناك في الغيب ، كما ذكرناك وبصرناك في المشهد .

وأنشدوا في المعنىٰ :

عليَّ لإخواني رقيب من الصفا ... تبيد الليالي وهو ليس يَبِيدُ
تذكرتهم في مَغْيَبٍ ومشاهَدٍ ... فشتان عندي غُيَّبٌ وشهود
وإني لأستحيي أخي أن أَبَرَّه ... قريباً وأن أجفُوه وهْو بعيد

وقال : حقيقة المحبة تقطيع الفؤاد وتشتيت المراد ، واللهِ ؛ لولا أنه لطف بعبده موسىٰ عليه الصلاة والسلام . . لأصابه أعظم مما أصاب الجبل في حال التجلي .

وقال أيضاً : المحبة ألاَّ ترى الإحسان إلا من محبوبك ، ولا تطيع إلا مطلوبك .

ولهٰذا قال صلى الله عليه وسلم : « جبلت القلوب علىٰ حب من أحسن إليها »[1] ، فواعجباً ممن لا يرىٰ محسناً إلا الله عز وجل! كيف لا يميل بالكلية إليه ، والمحب يجتهد في

---

(١) أخرجه القضاعي (١/ ٣٥٠) .

الوصول إلىٰ محبوبه بكل شيء ولا يتسلىٰ عنه بشيء ، ويتبع آثاره ولا يَدَع استخباره ، فلا يرىٰ كل الخير إلا منه ، ويتوكل في جميع أحواله عليه ؟!

وقال أبو سعيد : إن الله عز وجل عجل لأوليائه النعم بما نالوه ، والرضا بما عندهم من كل كائن ، وعجل لأرواحهم التلذذ بذِكره والوصول إلىٰ قربه سبحانه وتعالىٰ ، فعَيش أبدانهم عيش الروحانيين ، وعيش أرواحهم عَيش الربانيين ، فلهم لسان في الباطن يعرِّفهم صنع الصانع جل جلاله في المصنوع ، ولسان في الظاهر يعلِّمهم علم المخلوقين ، فلسان الظاهر ينبىء عن أجسامهم ، ولسان الباطن ينبىء عن أرواحهم .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو محمد عبدُ الله بن محمد النيسابوري يعرف بالمُرْتَعِش

رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان أبو محمد عبد الله المرتعش النيسابوري قد صحب الجنيد ، وأقام ببغداد في مسجد الشونيزية .

وكانوا يقولون : عجائب بغداد ثلاثة : إشارات الشبلي ، ونكت[1] المرتعش ، وحكايات جعفر الخواص[2] رحمهم الله .

ومن كلام أبي محمد المرتعش : مَن ظن أن أعماله تنجيه من النار أو تبلغه الرضوان . . فقد زَلَّ ، وجعل لنفسه وفعله خطراً ، ومَن اعتمد علىٰ فضل الله عز وجل وكرمه . . بلغه أقصىٰ منازل الرضوان .

وقيل له : إن فلاناً يمشي على الماء ، فقال : مخالفته لهواه أفضل من المشي على الماء .

توفي ببغداد سَنة ثمان وعشرين وثلاث مئة . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/٢٧٩ـ٢٨٠] .

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري : قال بعض العارفين : كنت ببغداد في منزلي يوماً ، فخطر لي أن أبا محمد المرتعش يأتيني بخمسة عشر درهماً حتىٰ أشتري بها ركوة وحبلاً ونعلاً ، قال : فلم يتم هـٰذا الخاطر . . إلا والباب يطرق ، فخرجت ؛ فإذا بأبي محمد المرتعش وبيده خرقة ، فقال : خذها ، فقلت : يا سيدي ؛ لا أريدها ، فقال : خذها ، كم

---

(١) النكتة : المسألة العلمية الدقيقة .

(٢) هو شيخ الصوفية أبو محمد جعفر بن محمد الخُلْدي البغدادي ، صحب أبا الحسين النوري ، والجنيد ، وأبا محمد الجريري ، وكان المرجع إليه في علوم القوم وكتبهم ، وحكاياتهم ، وسيرهم . توفي سنة ثمانٍ وأربعين وثلاث مئة ، وله خمس وتسعون سنة ، وقبره بالشونيزية . انظر « طبقات الصوفية » (٤٣٤) .

تؤذينا! كم كنت طلبت ؟ قلت : خمسة عشر درهماً ، قال : فإن فيها خمسة عشر درهماً .

وقال رجل للمرتعش : أوصني ، فقال : احفظ أوامر الله عز وجل ، واعمل بها ، وانته عما نهاك عنه ، واسأله سبحانه وتعالىٰ من فضله العظيم ، وحسن التوفيق . انتهىٰ [« الرسالة » ١٨٧] .

وقال في « المناقب » : قال أبو محمد المرتعش : سكون القلب إلىٰ غير الله عز وجل . . تعجيل عقوبة منه في الدنيا .

وقال له رجل : طال الليل ، فسكت ساعة ، ثم أنشأ يقول :

لست أدري أطال ليليَ أم لا ... كيف يدري بذاك مَن يتقلّىٰ
إن للمحبين عن قصر الليـ ... ـل وعن طوله من الوجد شغلا
لو تفرغت لاستطالةِ ليلي ... ولرَعْيِ النجوم كنت مُخِلاً

قال : فبكىٰ مَن حضره ، واستدلوا بذلك علىٰ عمارة أوقاته .

وقال : قال أبو صالح : المسلم محبوب إلى الخلق ، والمؤمن غني عن الخلق . [انتهىٰ] .

وقال السلمي رحمه الله : قال أبو محمد المرتعش : سكون القلب إلىٰ غير الله عز وجل . . تعجيل عقوبة من الله عز وجل في الدنيا .

وسئل : بماذا ينال العبد حب الله عز وجل ؟ فقال : بأن يبغض ما أبغض الله عز وجل ، وهي الدنيا .

وقال له رجل : أي الأعمال أفضل ؟ فقال : رؤية فضل الله عز وجل في السراء والضراء ، والشدة والرخاء . [انتهىٰ] [« الطبقات » ٣٤٩ـ٣٥٢] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

الأستاذ أبو حفص الحدادُ النيسابوري

رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : اسم أبي حفص النيسابوري : عمرو بن سلمة ، وهو من أهل قرية علىٰ باب نيسابور .

وقال أبو القاسم الجنيد وقد ذكر عنده أبو حفص : كان أبو حفص من أصحاب الحقائق ، ولو رأيتَه . . لاستغنيتَ ، وكان يتكلم من غور بعيد ، وكان من أهل العلم البالغين . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ٨٠] .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : كان أبو حفص يوماً في حانوته ، وغلامه ينفخ في الكور علىٰ حديدة قد وضعها أبو حفص في النار ، فلما أضرمت تلك النار في الحديدة . . مد الشيخ يده إلى النار ، وأخرج تلك الحديدة ، فبردت في يده ، وهو في الغيبة لا يشعر بذلك ، فلما رأى الغلام ذلك . . صعق وخر مغشياً عليه ، فلما أفاق . . أحلفه الشيخ ألاَّ يذكر ذلك لأحد ما دام حياً ، فأحس الشيخ بالحال ، وترك الحرفة والحانوت . [انتهىٰ « الحلية » ١٠/ ٢٣٠] .

زاد في « لوامع أنوار القلوب » : أن أبا حفص كان يعمل ، فغاب فكره ، وذكر محبوبه جل جلاله في الباطن ، فغاب عن الحس البشري الظاهر ، ونسي أن يخرج الحديد من الكير بالكُلْبَتين[1] ، فأخرجه بيده ، فهَمَّ الغلام أن يطرق بين يديه على الحديد ، وناداه : يا أستاذ ؛ الحديد في يديك بلا كلبتين ، فرمىٰ به في الحال ، وخرج يسيح في البراري ، ويقول : مِن شرط المحبة . . التستر والكتمان ، لا الافتضاح والإعلان . انتهىٰ .

وقال أبو الفرج : قال بعض أصحاب أبي حفص : صحبت أبا حفص اثنتين وعشرين سَنة ، فما رأيته ذكر الله تعالىٰ في حال الغفلة والانبساط ، وإنما كان يذكر في حال الحضور

---

(١) **الكُلْبَتين** : أداة يأخذ بها الحداد الحديد المحمىٰ .

والتعظيم والاحترام ، ثم يقول : ما أبعد ذِكرنا عن ذكر المتحققين! ما أظن أن مَن ذكر الله تعالىٰ في حال الحضور ورعاية الحرمة يبقىٰ بعد ذِكره حياً إلا الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ؛ فإنهم مؤيَّدون بقوة النبوة ، وخواص الأولياء ؛ فإنهم مؤيدون بقوة الولاية .

وقال أبو عبد الرحمٰن السلمي : سمعت جدي يقول : كان أبو حفص إذا غضب . . تكلم في حسن الخلق حتىٰ يسكن غضبه ، ثم يرجع إلىٰ حديثه .

وقال أبو حفص : حرست قلبي عشرين سَنة ، ثم حرسني قلبي عشرين سنة ، ثم وردت حالة صرنا فيها محروسين جميعاً .

وكان يقول : كل مَن لم يزن أقواله وأفعاله في كل وقت بالسُّنة الشريفة ولم يتهم خواطره . . فلا نعده في ديوان الرجال .

وسئل : مَن الرجالُ ؟ فقال : الرجال : هم القائمون بوفاء العهود ، قال الله عز وجل : ﴿ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ .

وسئل عن العبودية فقال : هو ترك ما لَك ، والتزام ما أمرت به .

وقال أبو حفص : ما استحق اسم السخاء مَن ذكر العطاء ولا لمحه بقلبه ، وإنما يستحقه من نسيه حتىٰ كأنه لم يعط ، والله أعلم . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ٨٠ـ٨١] .

وقال في « المختار » : سئل أبو حفص رحمه الله عن حسن الخلق فقال : هو ما اختاره الله عز وجل لنبيه سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم في قوله تعالىٰ : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ .

وقيل : بماذا يقدم الفقير علىٰ ربه عز وجل سوىٰ بفقره ؟ فقال : وهل للعبد شيء يقدم به على الله سبحانه وتعالىٰ أحسن من الفقر وذل العبودية ؟!

وكان يقول : أعظم ما يُتوسل[1] به إلى الله عز وجل . . دوام الفقر في جميع الأحوال ، وملازمة السُّنة في كل الأفعال ، وطلب القوت من وجه حلال .

وقيل : لما دخل أبو حفص بغداد . . لقيه الجنيد ، فرأىٰ أصحابه وما هم عليه من الأدب

---

(١) في نسخة : (أعظم ما يُتوصل به إلى الله عز وجل . . المحافظة على الكتاب والسُّنة ، وملازمة الفقر والذلة ، وطلب القوت من الحلال) .

كأن علىٰ رؤوسهم الطير ، فقال له الجنيد : لقد أدبت أصحابك بآداب السلاطين ، فقال له أبو حفص : حسن أدب الظاهر عنوان الباطن ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لو خشع قلب هـٰذا . . لخشعت جوارحه »[1] . أو كما قال . انتهىٰ .

وقال السلمي ـ رحمه الله ـ : كان الأستاذ أبو حفص رحمه الله إذا ذكر الله عز وجل . . تغير عليه حاله ، حتىٰ كان يرىٰ ذلك جميع من حضره .

وقال أبو حفص : إذا رأيت ضوء الفقير في ثوبه[2] . . فلا تَرْجُ خيره ما دام علىٰ ذلك .

وقال : لما اجتمع المشايخ ببغداد عند أبي حفص . . سألوه عن الفتوَّة ، قال : تكلموا أنتم ؛ فإن لكم العبارة واللسان ، فقال الجنيد : الفتوة : إسقاط الرؤية ، وترك النسبة ، فقال أبو حفص : ما أحسن ما قلت! ثم سألوا أبا حفص فقال ـ بعد جهد ـ : الفتوة : أداء الإنصاف ، وترك مطالبة الإنصاف ، فأعجب جميع الحاضرين .

ولما أراد الخروج من بغداد . . شيعه جميع المشايخ وغيرهم ، فلما أرادوا الرجوع . . قال بعضهم : دلنا على الفتوة ، فقال : الفتوة تؤخذ استعمالاً ومعاملة لا نطقاً ، فاستحسنه الحاضرون .

وقال : الكرم : ترك الدنيا لمن يحتاج إليها ، والإقبال على الله سبحانه وتعالىٰ .

وقيل له : إن فلاناً يدور حول السماع ، فإذا سمع . . بكىٰ وهاج ، فقال : أيش يعمل ؟ إن الغريق يتعلق بكل شيء يظن فيه نجاتَه .

وقال : مَن تجرع كأس الشوق . . فإنه يهيم هياماً لا يفيق إلا عند المشاهدة واللقاء .

وقال : إذا رأيت المحب ساكتاً باهتاً هادئاً . . فاعلم أنه وردت عليه غفلة ؛ فإن المحب لا يهدأ ، بل يجزع في الدنو والبعد واللقاء والحجاب .

وسئل عن البخل فقال : ترك الإيثار عند الحاجة إليه .

وقال : الإيثار : أن تقدم حظوظ الإخوان علىٰ حظك .

ولما ورد أبو حفص على الجنيد رحمهما الله بغداد . . تكلف في خدمته ، فأنكر عليه ،

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٦٧٨٧) .

(٢) أي : إذا رأيت الفقير يتباهىٰ بثوبه الممزق . . فلا ترج فلاحه ؛ لأنه رضي بالأخس والدون ، فهو لا يحث نفسه علىٰ طلب الأفضل .

وقال : لو دخلتَ خراسان وأقمت بها بقية عمرك في داري . . لما تكلفت لك شيئاً ـ أو قال : يوماً ـ فقيل له في ذلك ، فقال : قدَّم إلىٰ أصحابي ألوان الطعام واللباس والطيب في كل يوم ، والتكلف منهي عنه ، فكان ينبغي إحضار ما كان بلا تكلف ، حتىٰ إن أصحابي إذا جعت . . جاعوا ، وإذا شبعت . . شبعوا ؛ حتىٰ يكون مقامهم وخروجهم عنده[1] سواء .

سئل [أبو حفص] عن آداب الفقر وآداب الفقراء في الصحبة فقال : حفظ حرمات المشايخ ، وحسن العشرة مع الإخوان ، والنصيحة والتعليم للأصاغر ، وترك صحبة كل مَن يقطع عن الله عز وجل ، وملازمة الإيثار ، ومجانبة الادخار ما لم يبلغ مبلغاً لا يضره من النظر إليه ، والمعاونة في أمر الدِّين والدنيا فيما لا بد منه .

وقال أبو حفص رحمه الله : لا تكن عبادتك لربك سبحانه وتعالىٰ سبباً لأن تكون معبوداً . [انتهىٰ « الطبقات » ١١٦ـ١٢٢] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال أبو عثمان الحِيري : خرجنا في جماعة إلىٰ أستاذنا أبي حفص خارج نيسابور ، فلما دخلنا عليه وجلسنا عنده . . أخذ الشيخ في الكلام ، فطابت أنفسنا ، فبينما نحن في تلك الحالة . . لم نشعر إلا وقد نزل أَيِّل[2] من الجبل ، فجاء ودخل وبرك بين يدي الشيخ ساعة طويلة ، والشيخ ينظر إليه ويبكي بكاء شديداً .

فلما سكن ما به . . أشار إلى الأيل بيده ، فلم نفهم ما أشار به إليه ، غير أن الأيل قام وذهب من حيث جاء ، فقال بعض الحاضرين للشيخ : يا أستاذ ؛ قد رأينا منك اليوم عجباً ، فبالله عليك إلا ما أخبرتنا به ، تكلمت ، ثم بكيت ، ثم أشرت إلى الأيل فذهب ؟! فقال : إني لما رأيت اجتماعكم حولي وقد تكلمت عليكم وطابت أنفسكم . . سرني ذلك ، ووقع في خاطري أنه لو كان عندي ما أشتري به كبشاً وأذبحه لكم وأطعمكم إياه . . لفعلت ، فلم يستقر هـٰذا الخاطر في ضميري . . إلا وقد نزل عندي هـٰذا الأيل من الجبل وبرك قدامي ، وأشار إلي بلسان الحال : لا تتمنَّ الدنيا لأجل أصحابك ، ها أنا قد جئت فاذبحني وقدمني لأصحابك ، فعند ذلك بكيت ؛ لأني خشيت أن يكون الله عز وجل قد عجل لي حظي في الدنيا ، فأبقىٰ في الآخرة فقيراً لا شيء لي ، فهـٰذا الذي أزعجني وأبكاني .

وسئل أبو حفص ـ قدس الله روحه ـ عن الولي ، فقال : مَن أُيد بالكرامات وغُيِّب عنها .

---

(١) في نسخة : (عندي) .

(٢) **الأَيِّل** : الوعل : وهو ذكر المعز الجبلي .

وقال : ما حصل لأحد حالة عالية . . إلا من ملازمة أصل صحيح . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/٨١] .

وقد حكي أن أبا تراب النخشبي رحمه الله قال : قصدت زيارة الأستاذ أبي حفص ، فلما وافيت منزله . . استأذنت في الدخول ، فلم يأذن لي ، قال : فهممت أن أحفر حُفَيرة عند باب داره وأقعد فيها ، قال : فلم يتم هـٰذا الخاطر . . إلا وقد جاء أبو حفص ، وفتح الباب ، وقال لي : ادخل .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ :

رأيت في المنام يوم الأربعاء الرابع والعشرين من شهر رمضان المعظم سنة خمس وستين وسبع مئة بعد الظهر كأن قائلاً يقول لي : غيبة الأستاذ أبي حفص النيسابوري رحمه الله مع الله عز وجل . . حضور .

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري : حكي أن الأستاذ أبو حفص رحمه الله تعالىٰ أقام عشرين سَنة يعمل كل يوم بدينار ويتصدق به وهو صائم ، فإذا كان بعد المغرب . . سأل ما يفطر عليه .

توفي أبو حفص رحمه الله سَنة سبع وستين ومئتين ، والله أعلم . انتهىٰ [« الرسالة القشيرية » ٢١٥ و٢٨] .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : اعلم : أنه قد يتوجه علىٰ فعل أبي حفص قدس الله روحه سؤال ، فيقال : ما وجه سؤال أبي حفص رحمه الله مع علمه بأن السؤال منهي عنه حيث لا ضرورة إليه ؟ وهلا ادخر شيئاً يفطر عليه وآثر بالباقي ؟ هـٰذا مع ما ينضم إليه من قوله صلى الله عليه وسلم : « أَحَلُّ ما أكل ابن آدم من كسب يده »[1] .

والجواب ـ وبالله التوفيق ـ من وجوه :

الوجه الأول : مَنْع ثبوت أنه كان سأل ، وعلىٰ هـٰذا فيندفع السؤال من أصله .

الوجه الثاني : سلَّمنا أنه سأل ، لـٰكن إنما وقع سؤاله في ابتداء أمره برهة من الدهر ، حيث لم يصل إلىٰ رتبة الكاملين في التوكل ، الذين لا يضرهم الادخار ، علىٰ ما سنذكره قريباً إن شاء الله عز وجل .

---

(١) أخرج الحاكم (٢/٥٣) : « إن من أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وولده من كسبه » .

وكل مَن روىٰ عنه أنه سأل . . فإنه قيد زمن السؤال بعشرين سنة ، ولا يُعرف أنه سأل بعد ذلك ؛ إذ لو وقع . . لنُقِل .

الوجه الثالث : هب أنه سأل في جميع عمره ، فسؤاله إنما وقع حال الضرورة ، حيث لا تحريم ولا كراهة ، وهو إما جائز أو واجب .

ويدل علىٰ ذلك أمور : أعظمها ـ وهو العمدة في ذلك ـ : ما رُوِّيناه في « الصحيحين » [خ ٩ ـ م ٣٥] وغيرهما ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رَسُول الله صلى الله عليه وسلم : « الإيمان بضع وسبعون شعبة ، أعلاها : شهادة أن لا إلـه إلا الله ، وأدناها : إماطة الأذىٰ عن الطريق » ، وقد اتفق العلماء رضي الله عنهم علىٰ أن إحدىٰ شعب الإيمان الزهد وقصر الأمل ، وأن الزهد لا يصح إلا بقصر الأمل .

وقد رُوِّينا عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : أخذ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي فقال : « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » ، وكان ابن عمر يقول : (إذا أصبحت . . فلا تنتظر المساء ، وإذا أمسيت . . فلا تنتظر الصباح ، وخذ من صحتك لسقمك ، ومن حياتك لموتك)[1] .

وعن ابن عمرو رضي الله عنهما قال : مَرَّ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خُصّاً لنا قد وَهىٰ ، فقال : « ما هـٰذا ؟ » فقلنا : خصٌّ لنا قد وَهىٰ نصلحه ، فقال صلى الله عليه وسلم : « الأمر أعجل من ذلك »[2] .

ورُوِّينا عن الحافظ أبي نعيم ـ رحمه الله ـ : بإسناده عن أنس بن مالك ، أن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ دخل علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : « كيف أصبحت يا معاذ ؟ » فقال : أصبحت بالله مؤمناً ، فقال : « إن لكل قول مصداقاً ، ولكل حق حقيقة ، فما مصداق ما تقول ؟ » قال : يا رسول الله ؛ ما أصبحت صباحاً قط . . إلا ظننت أني لا أمسي ، ولا أمسيت مساءً قط . . إلا ظننت أني لا أصبح ، ولا خطوت خطوة . . إلا ظننت أني لا أتبعها أخرىٰ ، وكأني أنظر إلىٰ كل أمة جاثيةً تدعىٰ إلىٰ كتابها ، معها نبيها وأوثانها التي كانت تَعبُد من دون الله ، وكأني أنظر إلىٰ عقوبة أهل النار وثواب أهل الجنة ، فقال صلى الله عليه وسلم : « قد عرفت ، فالزم » .

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٥٣) .

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٣٥) ، وابن حبان في « الإحسان » (٢٩٩٧) ، **والخصُّ** : بيت من شجر أو قصب .

فقد دلت هـٰذه الأحاديث وغيرها علىٰ أن قصر الأمل من الإيمان ، وأنه أصل للتعلق بالخيرات ، وأن إطالته غرور وخداع .

ولهـٰذا كان أبو ذر رضي الله عنه يقول : يا أيها الناس ؛ قتلكم حرص لا تدركونه أبداً ، قيل : وما هو يا أبا ذر ؟ قال : طول الأمل . ولا شك أن طول الأمل يمنع خير العمل ، وهو غرور وخداع ؛ لأنه ما من لحظة . . إلا ويمكن أن يكون فيها انقضاء أجله ، فالأحوط له الاستعداد لذلك ؛ لأنه إن احتُضِر قريباً كما يظن . . كان متأهباً للقدوم على الله سبحانه وتعالىٰ ، مقدماً ما يحتاج إليه في منقلبه ، وإن أمهل : فكلما ازداد مهلة . . ازداد قربة .

بخلاف ما إذا كان طويل الأمل ؛ فإنه إن احتُضِر قريباً لا كما يظن . . كان كمن غافصه[1] سفر لا يجد منه بداً ، وليس له زاد ولا راحلة ، وإن أمهل كما يظن . . فالتسويف قرينه ، فلا يزداد علىٰ طول الأمل[2] إلا حباً للدنيا .

ولهـٰذا إن السلف رضوان الله عليهم اتفقوا علىٰ أن طول الأمل يمنع خير العمل ، وقد دل علىٰ صحة قولهم الكتاب والسُّنة من حيث الإجمال ، ومَن تتبع أقوالهم وأحوالهم . . وجدها علىٰ ذلك ، ألا ترىٰ أنه كان يقال للحسن البصري رحمه الله : ألا تغسل قميصك ؟ فيقول : الأمر أعجل من ذلك . [انتهىٰ « الحلية » ١/٢٤٢] .

وقد قال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : حكي أن شقيقاً البلخي جاء إلىٰ أستاذ له يقال له أبو هاشم الرماني وفي طرف كسائه شيء مصرور ، فقال له أبو هاشم : ما هـٰذا ؟ قال : شيء أعطانيه أخ لي لأفطر عليه ، فقال له : يا شقيق ؛ وأنت تحدث نفسك أنك تبقىٰ إلى الليل ؟ لا كلمتك مدة[3] ، ثم أغلق الباب في وجهي ودخل . [« الإحياء » ٤/٤٥٤] .

وقال معروفٌ الكرخي رحمه الله لأبي توبة وقد حضرت صلاة الظهر : تقدم فصلِّ بنا ، فقال : إن صليت بكم هـٰذه الصلاة . . لا أصلي بكم الأخرىٰ ، فقال له معروف : وأنت تؤمل أن تعيش إلى الصلاة الأخرىٰ ؟ أعوذ بالله من طول الأمل ؛ فإنه يمنع خير العمل .

وقد اعتبر هـٰذا المعنىٰ جماعة من الأئمة ، ألا ترىٰ إلىٰ ما روي عن بعض العارفين أنه حُمل إليه كيس فيه دنانير كثيرة ، فلم يقبلها ، وقال : لا حاجة لي فيها ، فقيل له : تصدق

---

(١) غافصه : فاجأه وأخذه علىٰ غرة ، فتعرض للإساءة .
(٢) في نسخة : (الأيام) .
(٣) في « الإحياء » : (أبداً) .

بها ، فأخذها وتصدق بها في يومه ذلك ، فلما كان بعد المغرب . . وجدوه يسأل ما يفطر عليه ، فقيل له : هلا ادخرت منها شيئاً لأجل الفطر ؟ فقال : لم أعلم أني أعيش إلىٰ هـٰذا الوقت .

وقد قدَّمْنا أن حقيقة الزهد لا تصح إلا مع قصر الأمل ، فالزاهد قد جعل الموت نصب عينيه لا يغفل عنه لحظة ، فهو يبادر إلىٰ أعمال الطاعات ، ويسارع إلىٰ أنواع القربات ، فكأنه يصحب الدنيا بغير أمل ، ينتهب أوقاته نهباً ؛ لئلا تعطب أيام حياته .

إذا عُرف هـٰذا . . ففِعل أبي حفص رحمه الله يحتمل أن يكون من هـٰذا القبيل ؛ فإنه حين يعمل بالدينار لا حاجة له به لكونه صائماً ، ولا يؤمل أن يعيش إلىٰ آخر النهار ، ولا يرىٰ أنه يجوز له حبسه عن مستحقه مع عدم احتياجه إليه حينئذ ، فيتصدق به لهـٰذا المعنىٰ ، وليحصل له مع ذلك الجمع بين العبادة القاصرة والمتعدية ، وهو في باقي نهاره مستغرق القلب بعبادة الله عز وجل ، حتىٰ إنه ينسىٰ نفسه ؛ فإنه ليس له هَمٌّ ولا مقصود إلا ابتغاء رضوان الله عز وجل ، فإذا جاء وقت الفطر . . رجعت إليه نفسه ، فأحس بها ، وطلبت ما به قوامها ؛ لِمَا علم مِن سُنة الله في ذلك : ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ ، فحينئذ يسأل قدر حاجته ، إما علىٰ طريق الإباحة إن لم يخش التلف ، أو علىٰ طريق الوجوب إن خاف التلف حفظاً لبقاء الروح ، ومِثل هـٰذا لا يُتمارىٰ في جوازه أو وجوبه ؛ لقيام الإجماع علىٰ جواز السؤال عند الحاجة وبقدر الحاجة .

هـٰذا مع ما ينضم إليه من الأسرار الشريفة والفوائد اللطيفة التي حصلت بالسؤال ، وسأذكرها قريباً إن شاء الله عز وجل .

وقد قال سفيان الثوري وغيره من الأئمة رحمهم الله : مَن جاع فلم يسأل ، فمات . . دخل النار .

ثم إن ذلك السؤال له ظاهر وباطن ، يُعبَّر عنه بالحقيقة والمجاز ، ويختلف الحال فيه باختلاف أحوال السائلين وباعتبار مراتبهم .

ـ منهم : مَن إذا نزلت به فاقة . . أنزلها بالله عز وجل ظاهراً وباطناً ، ولا يرىٰ أن يسأل أحداً من المخلوقين ، وإنما يوجه سؤاله إلى الله رب العالمين جلت عظمته ، وهـٰؤلاء قسمان :

منهم : مَن لا يسأل لنفسه أيضاً ، وإنما يسأل لغيره من باب الشفقة والعطف عليه ، أو لما يلزمه من أداء واجب قد تعين عليه .

ـ **ومنهم** : مَن يسأل لنفسه ولغيره ، ألا ترىٰ إلىٰ ما حكاه أبو الفيض ذو النون المصري رحمه الله حين قال له بعض من حضر : يا أبا الفيض ؛ أخبرنا عن بعض كرامات الأولياء رضوان الله عليهم ، فقال : كان عندي فتىً في المسجد بقي سبعة أيام في المسجد لم يطعم الطعام ، وكنت أعرض عليه فيأبىٰ ، فدخل ذات يوم سائل ، فطلب شيئاً ، فقال له الخراساني : لو قصدت الله عز وجل دون خلقه . . أغناك عنهم ، فقال له السائل : ما بلغت إلىٰ هـٰذه المرتبة ، فقال له الخراساني : أي شيء تريد ؟ فقال : ما يسد فاقتي ويستر عورتي ، فقام الخراساني إلى المحراب وصلىٰ ركعتين ، ثم أتاه بثوب جديد وطبق فيه طعام وفاكهة ، فدفعه إليه .

قال ذو النون : فقمت إليه ، وقلت له : يا عبد الله ؛ لك هـٰذه المنزلة عند الله عز وجل ، وأنت منذ سبعة أيام لم تطعم شيئاً ؟! فجثا علىٰ ركبتيه ، ثم قال : يا أبا الفيض ؛ كيف تنبسط الألسن بالمسألة والقلوب ممتلئة بأنوار الرضىٰ عنه سبحانه وتعالىٰ ؟!

قال ذو النون : فقلت : يا عبد الله ؛ والراضون لا يسألون شيئاً ؟ فقال : منهم مَن يسأل مِن باب الإدلال ، ومنهم من يملؤه غنىً به ، ومنهم من تُستخرج المسألة منه من عطفه علىٰ غيره .

قال أبو الفيض ذو النون : ثم أقيمت الصلاة ، فصلىٰ معنا العشاء الآخرة ، وأخذ ركوته وخرج من المسجد كأنه يريد الطهارة ، فلم أره بعد ذلك .

ـ **ومنهم** : من يوجه سؤاله في الظاهر إلى المخلوقين ، وسؤاله في الحقيقة إنما هو من الله رب العالمين ، ألا ترىٰ إلىٰ ما حكاه الأئمة عن الإمام أبي بكر الشبلي ، أنه كان يقول : إذا خرجت إلى الناس للسؤال . . فلا تراهم ولا ترىٰ نفسك .

يشير بهـٰذا إلىٰ أنه إنما يأخذ من الحق جل جلاله ، فلا يرى الناس ولا يرىٰ نفسه ؛ إذ سؤاله لله وأخذه من[1] الله .

ولهـٰذا كان الشيخ أبو العباس النهاوندي وممشاذ[2] إذا وفد عليهما الغرباء . . دخلا السوق وجمعا من الأطعمة ما يفتح الله عز وجل وحملاها إليهم .

وكان النهاوندي يقول : منذ عشرين سَنة ما أخذت من الناس شيئاً ، وذلك لأن الفقير

---

(١) في نسخة : (بسنة الله) .

(٢) في نسخة : (ممشاد) .

لا يسأل إلا عند الضرورة من غير عزم تقدم ولا عقد تأخر ، لسانه يشير إلى الخلق ، وقلبه متعلق بالحق سبحانه وتعالىٰ ، فلا يرى الأخذ إلا منه ـ واعتقاد كل المؤمنين ذلك ـ وإنما العارف جعل اعتقاده عملاً ، وهو المطلوب .

ـ **ومنهم** : مَن يعلل الأخذ من الناس بمسلك آخر ، صرح به غير واحد من العارفين ، علىٰ ما حكاه حجة الإسلام أبو حامد الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : عن بعض المجاورين بمكة قال : كان عندي دراهم أعددتها للإنفاق في سبيل الله ، فسمعت فقيراً قد فرغ من طوافه وهو يقول بصوت خفي : جائع كما ترىٰ ، عريان كما ترىٰ ، فما ترىٰ فيما ترىٰ يا من يَرىٰ ولا يُرىٰ ؟ فنظرت ؛ فإذا عليه خلقان لا تكاد تواريه ، فقلت في نفسي : لا أجد لدراهمي موضعاً أحسن من هـٰذا ، فحملتها إليه ، فنظر إليها ، ثم أخذ منها خمسة دراهم ، فقال : أربعة ثمن مئزرين ، ودرهم أنفقه ، ولا حاجة لي في الباقي ، فرده .

قال : فرأيته في الليلة الثانية وعليه مئزران جديدان ، فهجس في نفسي منه شيء ، فالتفت إلي ، وأخذ بيدي ، وأطافني معه أسبوعاً ، كل شوط منها في جوهر من معادن الأرض يتخشخش تحت أقدامنا ، منه ذهب وفضة وياقوت وزبرجد ، وغيرنا من الطائفين معنا لا يشاهد ذلك ، فقال لي : كل هـٰذا قد أعطانيه الله عز وجل ، فزهدنا فيه ، ونأخذ من أيدي الناس ؛ لأن هـٰذه أثقال وفتنة ، وذاك للعباد فيه رحمة ونعمة ، ثم فارقني ، فلم أره بعد ذلك[1] .

ولا شك أن أحوال العارفين ومقاصدهم غامضة لطيفة ، ولهم في جميع ذلك نيات شريفة :

منها : مراعاتهم الأسباب التي شرعها الله عز وجل وأمر بتعاطيها ، فهم يأتون بها امتثالاً للأمر ، مع ما فيه من إظهار الفاقة ، وما في عدم تعاطيها من استشعار الغنية عنها ، ولئلا يعطلوا حكمة الله سبحانه وتعالىٰ في مشروعية الأسباب .

ألا ترىٰ إلىٰ ما روي عن بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن رجلاً من قومه أصابه مرض ، فوصف له دواء ، فقال : لا أتداوىٰ بهـٰذا ، فأوحى الله عز وجل إلىٰ ذلك النبي عليه الصلاة والسلام : (وعزتي وجلالي ؛ لئن لم يَتَداوَ بما وُصِف له . . لا أبرئه من الداء الذي هو فيه ، أيريد أن يعطل حكمتي في منافع الأشياء ؟!) .

---

(١) الإحياء (٤/٢٠٩) .

وهـٰذا معنىً صحيحٌ يشهد لاعتباره الكتاب والسُّنة ؛ فإن تعاطي الأسباب أمر مطلوب ، بل فيها ما هو فرض ، وهو لا ينافي التوكل ، بل هو درجة الكاملين فيه .

والله سبحانه قد تعبد عباده بالتوكل والكسب جميعاً ، فتعاطي الأسباب كما قلنا مأمور به ، إنما المحذور النظر إليها وكونها مؤثرة ، وهـٰذه مسألة غامضة لطيفة سأعود إليها قريباً إن شاء الله عز وجل ؛ فإنها تحتاج إلىٰ مزيد بسط وتحرير .

ومنها : مع كونهم يراعون الأسباب ، فقد يتوجه نظرهم إلىٰ رعاية أمور أخرىٰ هي أغمض وأدق من الأُوَلِ :

ـ **فمنها** : ما حكيناه عن بعض العارفين ، أنه صرح به ؛ فإنه لما أخذ من أيدي الخلق ولم يأخذ مما أكرمه الله سبحانه به . . علل ذلك بأن هـٰذه أثقال وفتنة ، وذاك للعباد فيه رحمة ونعمة .

ـ **ومنها** : ـ وهو مشرب جميع العارفين ـ : أن الدنيا في نفسها حقيرة لا تزن عند الله جناح بعوضة ، وهم قد زهدوا فيها ، فيستحيون من الله عز وجل أن يقع لهم سؤال في شيء منها ؛ إذ كان جميعها لا يساوي جناح بعوضة ، مع كونهم قد زهدوا فيها ، فلذلك كان سؤالهم من المخلوقين ، ولا يتجاسرون أن يسألوا رب العالمين جل جلاله ؛ حياء منه ، ألا ترىٰ إلىٰ ما روي عن يحيى بن معاذ الرازي أن بنتاً له صغيرة قالت له يوماً : يا أبت ؛ إني جائعة ، فقال : يا بنية ؛ سلي اللهَ سبحانه وتعالىٰ . . يُطعِمْكِ ، فقالت : يا أبت ؛ أمَا يستحي العبد من ربه عز وجل أن يسأله في شيء للأكل ؟!

وقد قال العارفون : إن الله سبحانه وتعالىٰ يقول للزاهد في الدنيا : (يا عبدي ؛ أمَّا زهدك في الدنيا : فقد تعجلت به الراحة لنفسك ، وهل كنت تملك منها شيئاً حتىٰ تزهد فيه ؟! وما قدر الدنيا ؟!) فيقول : يا ربي ؛ إنها لا تساوي جناح بعوضة ، فعند ذلك يلحق العبد من الحياء الشديد ما يستحي أن يرفع رأسه ، ويقول : يا رب ؛ زهدت فيما لا يزن جناح بعوضة .

فالعارفون شهدوا حقارتها فأنزلوها منزلتها ، فإذا احتاجوا إلىٰ غرض منها . . وجهوا سؤالهم في الظاهر إلى المخلوقين ، ولهم في ذلك من المقاصد الصالحة ما قد يخفىٰ وما لا يخفىٰ .

الوجه الرابع : **اعلم** : أنه إذا صح التوكل . . لا يضر معه الادخار ، وقبل الوصول إلىٰ هـٰذه المرتبة قد يضر معه الادخار .

وهـٰذا معنىٰ صحيح معتبر ، ومَن تتبع السنة الشريفة وأحوال الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين . . وجدها دالة علىٰ ذلك .

ألا ترىٰ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدخر قوت سَنة ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم سيد المتوكلين ، ورأس الزاهدين ، وإمام المتقين ، وما أُرسِل إلا رحمة للعالمين ، فهو لكمال رتبته ، ورفيع منزلته لا ينقص ادخاره من توكله مثقال ذرة ، ولا أكثر من ذلك ولا أقل ، بخلاف أمته ؛ فإنهم متفاوتون بحسَب مراتبهم ، علىٰ ما سيأتي بيانه إن شاء الله عز وجل .

ولهـٰذا : إنه صلى الله عليه وسلم نهىٰ أم أيمن وغيرها عن الادخار ؛ خشية أن تنظر إليه ، فينقص توكلها ، فتتضرر به .

وقد صرح بهـٰذا المعنىٰ ؛ فإنه قال صلى الله عليه وسلم لبلال : « أنفق بلالاً ولا تخش من ذي العرش إقلالاً »[1] .

و[قال له أيضاً] : « إذا سُئلت . . فلا تمنع ، وإذا أُعطِيت . . فلا تخبأ » ، فقال : كيف لي بذاك يا رسول الله ؟ قال : « هو ذاك أو النار »[2] .

والمعنىٰ فيه ـ والله أعلم ـ : ليكن نظرك واعتمادك إلى الله عز وجل لا إلىٰ ما تدخره ؛ فإنه ليس بمغْنٍ عنك شيئاً .

وحاصل هـٰذا الدليل مع سائر الأدلة ـ لمن يَتَتَبَّعُها ـ راجع إلىٰ جواز الادخار ، والنهي عنه ، والجمع بينهما بطرق :

منها : ما تقدم ، وهو : أن الادخار قد يضر وقد لا يضر .

ومنها ـ مع مراعاة هـٰذا المعنىٰ ـ : فهو أن مقامه الشريف ومنصبَه العليَّ صلى الله عليه وسلم التشريعُ لأمته ، فادَّخَرَ ونهىٰ ؛ لئلا تُحْرَجَ أمته ويأخذَ كل منهم مشربه ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم كما أخبر الله عز وجل عنه في كتابه الكريم فقال : ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ

---

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١/ ٣٤٠) .

(٢) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١/ ٣٤١) .

رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ . . فهو ـ لما فيه من كمال شفقته وعظيم رحمته ورأفته بأمته ـ عرف أن فيهم القوي والضعيف ، ومن يضره الادخار ومن لا يضره ، وأن صواب الضعيف ادخار حاجته ، وأما القوي : فإن وصل إلىٰ رتبة الكاملين في التوكل . . فيدخر ؛ لأنه لا يضره ؛ لعدم نظره إليه ، وإلا . . فلا يدخر ؛ خشية أن تسكن نفسه إليه .

فالمعتبر : رعاية ما فيه صلاح القلوب ، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم : « ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت . . صلح الجسد كله ، وإذا فسدت . . فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب »[1] .

وإنما خَصَّ القلبَ بالذكر ؛ لأنه قانون الصلاح والفساد ، فلذلك اعتبر رعاية ما فيه صلاح قلوبهم ؛ لتتجرد لذِكر الله سبحانه وتعالىٰ ، وتقوم بما يجب عليها من عبادته وحقِّ طاعته .

ومراتب العباد في ذلك متفاوتة ، فرُبَّ شخص يشغله عدمه ، ورُبَّ شخص يشغله وجوده ، ورب شخص لا يشغله الغنىٰ ولا الفقر .

وقد عُلِم أن المحذور كل ما يَشْغَل عن الله عز وجل ، وإلا . . فالدنيا لِعَينها ليست محذورة لا وجوداً ولا عدماً ، إنما المحذور هو ما يشغل عن الله سبحانه وتعالىٰ .

ولهـٰذا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بُعث إلىٰ أصناف الخلق . . كان فيهم التجار والمحترفون وغيرهم ، فلم يأمر التاجر بترك تجارته ، ولا المحترف بترك حرفته ، ولا أمر التارك لهما بالاشتغال بهما ، بل دَعَا الكل إلى الله سبحانه وتعالىٰ ، وأرشدهم إلىٰ ما فيه فوزهم ونجاتهم في انصراف قلوبهم عن الدنيا .

وعمدة الاشتغال بالله سبحانه والتوجه إلىٰ طاعته . . إنما هو القلب ، فلذلك ـ والله أعلم ـ سَنَّ لهم الادخار وعدم الادخار ؛ فإن الجميع شرعٌ واسع .

ولهـٰذا : كان الصحابة والتابعون فمَن بعدَهم الغالب عليهم الادخار ، ومنهم مَن لم يدخر ، ومنهم مَن اختلف حاله في الادخار وعدمه ، مع تمسك جميعهم بالسُّنة الشريفة ، واقتفاء آثارها ، وتتبعها أشد التتبع ، ومَن نظر في سيرهم وأحوالهم . . وجد مِن ذلك شيئاً كثيراً ، ولولا خوف الإطالة . . لذكرت ذلك .

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢) ، ومسلم (١٥٩٩) .

وملخَّص هـٰذا : أن المعتبرَ رعايةُ ما فيه صلاح القلب ، فحيث وجد . . وجب سلوكه إذا عضده الدليل الشرعي .

فإن قلت : هـٰذا المعنى الذي ذكرته مِن أنه إذا صح التوكل لا يضر معه الادخار . . غريب لم نره في كلام أحد من الأئمة .

قلت : إن الشريعة كالبحر ، تعطي كل ساعة جواهر ، وقد دللنا علىٰ صحة هـٰذا المعنىٰ مما تقدم من ادخاره صلى الله عليه وسلم ونهيه عنه ، وذكرنا أن هـٰذا المعنىٰ يحتمل أن يكون أحد طرق الجمع .

وأما الأئمة المصرحون بذلك : فإنه قد رُوِّينا عن الحافظ أبي نعيم ـ قدس الله روحه ـ قال : زار فتحُ بن سعيد الموصلي قدس الله روحه بشرَ بن الحارث رحمه الله ، فأحضر له طعاماً ، فأكل منه وحمل الباقي معه ، فلما خرج فتح . . قال بشر لأصحابه : أتدرون لِمَ حمل فتح الباقي معه ؟ قالوا : لا ، قال : إنما حمله ليعرفنا أنه إذا صح التوكل . . لا يضر معه الادخار .

وكأن السر في ذلك ـ والله أعلم ـ : أن قوة الإيمان وكماله يمنعان من النظر في جميع الأشياء ، إلىٰ غير الله عز وجل .

ألا ترىٰ إلىٰ ما روي عن خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال : ما نظرت إلىٰ شيء . . إلا نظرت إلى الله عز وجل قبله .

وإذا كان العارف إنما نظره في جميع الأشياء إلى الله سبحانه وتعالىٰ . . فهو مشغول بالله سبحانه وتعالىٰ وقلبه ساكن إليه ، فلو كانت الدنيا كلها في يديه . . لما لمحها ولا نظر إليها ، كما كان حال الصحابة رضوان الله عليهم ، الدنيا في أيديهم دون قلوبهم ، فإن قلوبهم إنما كانت مشغولة بالله تعالىٰ ، فهم لا ينظرونها ولا يلمحونها ، بل ولا تمر لهم علىٰ بال ، فلذلك كان الادخار لا يضرهم .

وعلىٰ هـٰذا مضىٰ بعض السلف ؛ فإن الغالب عليهم كان الادخار ؛ لعدم النظر إليه وانتفاء الضرر به ؛ لأن نظرهم إلىٰ ولي النعم لا إلى النعم ، وتعلقهم بمسبب الأسباب لا بالأسباب .

ألا ترىٰ إلىٰ قول غير واحد من العارفين : تعلَّق الناس بالأسباب ، وتعلَّق الصديقون بمسبب الأسباب ؛ لكونهم ينظرون إلىٰ ولي العطاء لا إلى العطاء .

وقد سئل بعضهم فقيل له : أي شيء أصح ما في الصلاة ؟ فقال : صحة القصد ، فقيل له : بل رؤية المقصود بها جل جلاله أتم وأصح .

إذا عرفت ذلك . . فأبو حفص رحمه الله يجوز أن يكون قد لمح هـٰذا المعنىٰ ، وهو أنه لم يكن صح له التوكل في ابتداء أمره ، فلم يدخر ؛ لئلا يتضرر بالادخار ، كأنه خشي أن يَنظُرَ إليه أو تسكن نفسه إليه ، ويدل علىٰ أن مقصوده كان هـٰذا : أن سؤاله إنما وقع برهة من الدهر ، يحتمل أن يكون في ابتداء أمره حيث لم يصل إلىٰ رتبة الكاملين في التوكل ، وهم الذين لا يضرهم الادخار ، فلم ير أنه صح له التوكل بعد ، فلم يدخر لأجل ذلك ، ويحتمل أن يكون وصل إلىٰ هـٰذه المرتبة ، ويكون له في عدم الادخار مشرب آخر ، وهو أنه لا يرىٰ أن ينزل نفسه هـٰذه المنزلة .

وهكذا شأن العارفين ، يبلغون في الدرجات إلىٰ أقصاها ، ومع ذلك فيهضمون أنفسهم ، ويتهمونها في استحقاق ذلك ، ويحتقرونها ، ولا يرضون عنها ولا طرفة عين .

ألا ترىٰ إلىٰ ما رُوِّيناه عن الحافظ البيهقي ـ قدس الله روحه ـ : أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال : قد وُلِّيت أمرَكم ولست بأَخْيَرِكم ، فقال الحسن البصري : هو والله خيرهم غير مدافع ، ولـٰكن المؤمن يهضم نفسه . [انتهىٰ « السنن الكبرىٰ » ٦/٣٥٣] .

وقد حكىٰ غير واحد من الحفاظ : أن سرياً السقطي رحمه الله كان يقول لأبي القاسم الجنيد قدس الله روحه : تكلم على الناس ، قال الجنيد : وكنت أجد في نفسي حشمة عن الكلام على الناس وأتهمها في استحقاق ذلك ، حتىٰ رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام ، وأمرني بالكلام على الناس .

والظاهر ـ والله أعلم ـ أن قصد أبي حفص رحمه الله كان هـٰذا ، يدل علىٰ ذلك ما تقدم في ترجمته في أنه كان لا يذكر الله عز وجل في حال الغفلة والانبساط ، وإنما كان يذكره في حال الحضور والتعظيم والاحترام ، ثم إذا فرغ من الذِّكر علىٰ هـٰذا الوجه . . يقول : ما أبعد ذِكرنا عن ذِكر المتحققين! ما أظن أن مَن ذَكر الله عز وجل في حال الحضور ورعاية الحرمة يبقىٰ بعد ذِكره حياً إلا الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ؛ فإنهم مؤيدون بقوة النبوة ، وخواص الأولياء ؛ فإنهم مؤيدون بقوة الولاية .

ومَن نظر في سير السلف رضوان الله عليهم . . علم صحة ما ذكرناه . والله أعلم .

الوجه الخامس : يحتمل أن أبا حفص رحمه الله فعل ذلك من باب الإيثار علىٰ نفسه ؛

لعلمه بقوة صبره وتمكنه من مقامه ، ولا شك أن الإيثار مقام عالٍ شريفٌ ، وهو مِن المراتب التي يسعىٰ إليها المتقون ، ويجتهد في تحصيلها العارفون ، وكفىٰ بالإيثار لأهله مدحاً وفخاراً أن الله سبحانه وتعالىٰ أثنىٰ عليهم ووصفهم فقال : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ ، وسبب نزولها وفيمن نزلت . . ظاهر لا يخفىٰ .

وقد روي عن الصديقة بنت الصديق عائشة رضي الله عنهما : أنه جاءها في يوم مئة ألف درهم وكانت صائمة ، فتصدقت بها في يومها ذلك ، ولم تدخر درهماً تشتري به لحماً تفطر عليه ، وأفطرت على الخبز والزيت ، فلما قيل لها في ذلك . . اعتذرت بالنسيان .

فانظر إلى استغراق قلبها بالله تعالىٰ وتعظيم الطاعة لابتغاء رضوانه سبحانه حتىٰ نسيت نفسها .

ولقد رقعت درعاً لها في يوم تصدقت فيه بسبعين ألف درهم ، وما ذاك إلا لاستيلاء سلطان الهيبة والعظمة علىٰ قلبها لله عز وجل ، وكيف لا تكون كذلك وهي الصديقة بنت الصديق حبيبة حبيب الله سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم ؟!

ومَن تتبع أحوال السلف رضوان الله عليهم . . وجد مِن ذلك شيئاً كثيراً ، ومشاربهم في ذلك مختلفة بحسب ما وفقهم الله عز وجل وأعطاهم ، فمنهم : مَن كان الغالب عليه الادخار ، وهم الأكثرون كما مر ، ومنهم : مَن لم يدخر .

ومنهم : مَن كان الغالب عليه الإيثار ، ألا ترىٰ إلىٰ ما حكي عن إبراهيم بن أدهم رحمه الله أنه قال لشقيق البلخي رحمه الله حين اجتمعا في الطواف : كيف حال أصحابكم ؟ قال : إن رُزقوا . . أكلوا ، وإن مُنعوا . . صبروا ، فقال له إبراهيم : هٰكذا عندنا كلاب بلخ ، إن رزقوا . . أكلوا ، وإن منعوا . . صبروا ، فقال شقيق : يا أبا إسحاق ؛ فكيف حال أصحابكم ؟ فقال : إن رزقوا . . آثروا ، وإن منعوا . . شكروا وحمدوا ، فقام شقيق ، وجلس بين يديه ، وقال : يا أستاذ الأساتذة .

ومنهم : مَن كان يأخذ حاجته ، ثم يؤثر بما فضل عنه ، ألا ترىٰ إلىٰ ما روي عن أويس القرني رحمه الله أنه كان يأخذ حاجته ويتصدق بما فضل عنه من الطعام والثياب ، ثم يقول : اللهم ؛ مَن بات عرياناً . . فلا تؤاخذني به ، ومَن بات جائعاً . . فلا تؤاخذني به .

وهٰهنا لطيفة ينبغي أن يُتنبه لها ، وهي : أن ما ذكرناه من الإيثار وعدم الإيثار قبل أخذ

قدر الحاجة أولاً . . كل منهما له مقام عال رفيع ، ومع ذلك فلا يصح إطلاق القول بأن أحدهما أولىٰ من الآخر وأرفع منه ، بل في ذلك تفصيل من وجوه عُرفت بالأدلة الشرعية ، فلهـٰذا يجب الوقوف عندها ، وتلك التفاصيل إنما نشأت ؛ لاختلاف أحوال السالكين من القوة والضعف وغير ذلك .

ألا ترىٰ إلىٰ ما رُوِّيناه في « الصحيح » من حال سيدنا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه تصدق بجميع ماله ، فلما سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أبقيت لأهلك ؟ » قال : أبقيت لهم اللهَ ورسولَه[1] .

وقد حكي عن بعض الأئمة الكبار أنه سأل الشبلي رحمه الله قال : ما الواجب في خمس من الإبل ؟ فقال : أما في واجب الشرع . . فشاة ، وأما عند إرادة الإيثار والعزوف عن الدنيا . . فكلُّها ، فقال له : هل لك في هـٰذا القول إمام ؟ قال : نعم ، وكيف أقول قولاً من عندي ؟! إمامي في هـٰذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه حيث تصدق بجميع ماله فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « ما أبقيت لأهلك ؟ » قال : أبقيت لهم الله ورسوله .

وقد قال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : إن الصدِّيق رضي الله عنه كان يطوي ستة أيام ويؤثر . [انتهىٰ « الإحياء » ٣/ ٩٠] .

وما ذاك إلا لعلو مرتبته ، ورفيع منزلته ، وكمال صديقيته ، مع كمال إيمانه وقوة صبره .

وقد قالوا : ينبغي للإنسان أن يتصدق علىٰ نفسه أولاً ، ثم يؤثر بما فضل عنه ، اللهم إلا أن يكون صبره كصبر أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فيؤثر علىٰ نفسه ، ولهـٰذا قالوا فيمن عليه دَين أو له عيال يلزمه نفقتهم : هل يُستَحَبُّ له التصدق بالفاضل عن الحاجة ؟ فيه أوجه ، **أصحها** : أنه إن كان ضعيفاً يشق عليه الصبر . . لم يُستَحَبَّ ، وإلا . . فيستحب .

ووراء ذلك أمر آخر ينبغي اعتباره وأن ينظر إليه : وهو حصول النية والإخلاص والصدق ، وقد استوفيت الكلام علىٰ ذلك فيما تقدم .

فينبغي أن يقال : وما وُجِدَ في ذلك أولىٰ مما لم يوجد فيه ، وما ذاك إلا لعزته في نفسه ، فقد يعز في وقت دون وقت ، وفي شخص دون شخص ، وذلك لأن مواهب الله عز وجل لأوليائه لا تتناهىٰ ، ولذلك اختلفت مراتب العارفين ، منهم مَن يغلب علىٰ قلبه حبُّ الله عز وجل وابتغاءُ رضوانه ، بحيث إنه يبقىٰ مستغرقاً لا يحس بنفسه ولا يشعر بما يبدو منه ، وهو

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٥٧٤) .

بمعزلٍ عن الخلق لا يحس بهم ولا يشعر بما هم فيه ، ويصير غرقاً في الله عز وجل ، كما كان حال غير واحد من العارفين بل أكثرهم .

واعلم : أن الغَيبةَ غَيبةٌ عن علمِ ما يجري من أحوال الخلق بما يرد عليه من الحق جل جلاله ، ثم إنه قد يغيب عن غيره فقط ، وقد يغيب عن نفسه وغيره أيضاً إذا عظم الوارد ، ثم قد تطول الغيبة ، وقد تقصر ، فقد تدوم للعبد أفعال وأخلاق وأحوال ، فالأحوال تصرفاته الاختيارية ، والأخلاق طباعه الفطرية ، ولـٰكنها تتغير بتبديل العادة علىٰ مرور الأيام ، وأما الأحوال . . فإنها ترد على العبد ابتداءً ، وصفاؤها بحسب صلاح أعماله ، ومتىٰ فني العبد عن الأفعال والأخلاق والأحوال بزوال إحساسه عن ذلك . . فقد استولىٰ عليه سلطان الحقيقة ، فهو حاضر بالحق غائب عن نفسه وعن الخلق .

ومما يشهد بصحة دخول الغَيبة : قصة يوسف عليه الصلاة والسلام ؛ فإن النسوة قطعن أيديهن حين شاهدن جمال يوسف عليه الصلاة والسلام ، فإذا كانت مشاهدة جمال يوسف عليه الصلاة والسلام والاشتغال به غَيَّبهن عن الإحساس بألم القطع لفرط الدَّهَش والذهول بجمال مخلوق مثلهن ، مع أنهن أضعف من الرجال خلقاً ، وأقل من الرجال صبراً . . فكيف تكون غيبة من شاهد بقلبه ذا الجلال والإكرام وخالق السماوات والأرض جل جلاله ولا إلـٰه غيره ؟! لا جرم أنه يصير غرقاً بكليته في وجود الحق لغيبته عن كل ما سواه سبحانه وتعالىٰ ، وهـٰذا حال غير واحد من العارفين .

منهم : أبو بكر الشبلي رحمه الله ، فإن أبا القاسم الجنيد قال له يوماً : حرام عليك يا أبا بكر إن كلمت أحداً ؛ فإن الخلق غرقىٰ عن الله ، وأنت غرق في الله عز وجل .

وقد حكى الأستاذ أبو القاسم القشيري : أن شخصاً من أهل نَساء[1] قال : كنت طول مقامي بنساءَ ألازم مجلس الشيخ أبي علي الدقاق رحمه الله ، وكان كثيراً ما يذكر الحج ويحض عليه ، ثم اتفق أن الشيخ أبا علي خرج إلى الحج في تلك السَّنة ، وخرجت أيضاً إلى الحج ، فرأيت الشيخ أبا علي قد توضأ في الطريق يوماً ونسي قمقمة[2] كانت معه ، فحملتها إلىٰ منزله ، فلما رآني . . قال : جزاك الله خيراً حيث حملت هـٰذه إلىٰ هنا ، مَن أنت ؟ أظن أني رأيتك مرة ، قال : قلت : المستغاث بالله ، قد خرجت عن أهلي وبلادي في محبتك ،

---

(١) نَساء : مدينة بخراسان ، بينها وبين سَرْخس يومان ، وبين مرو خمسة أيام ، ويقال في النسبة إليها : نَسَوِيّ .

(٢) القمقمة : ما يسخن فيه الماء من نحاس وغيره .

وما زلت ملازماً مجلسك ، وأنت تقول : رأيتك مرة ؟! [انتهىٰ « الرسالة القشيرية » ٦٣] .

ومنهم أيضاً : الأستاذ أبو حفص رحمه الله كما مر بيان ذلك في أول ترجمته ، وهو أنه كان علىٰ حانوته ، فقرأ قارىء آية من كتاب الله عز وجل ، فورد علىٰ قلبه وارد تغافل عن إحساسه ، فأدخل يده في النار ، وأخرج الحديدة المحماة ، فرأىٰ تلميذ له ذلك ، فقال : يا أستاذ ؛ ما هـٰذا ؟! فنظر أبو حفص إلىٰ ما ظهر عليه ، فترك الحرفة وقام من حانوته .

قال الأئمة رحمهم الله : وما ذاك إلا لاستيلاء سلطان الهيبة والعظمة علىٰ قلبه ، حتىٰ صار غارقاً في الله عز وجل .

ومثل هـٰذا لا فرق عنده بين نفسه ونفس غيره ؛ لكونها صارت عنه أجنبية ، فما يلزمه في حق نفوس العالم . . يلزمه في حق نفسه ، بل الأولىٰ ، وهـٰذا مقام عزيز في الوجود .

ومنهم : مَن لا يغلب علىٰ قلبه ذلك ، وهـٰؤلاء علىٰ أقسام ، **منهم** : مَن يعامل نفسه بالشدة والقهر ؛ لقوتها ، ويعامل غيره بالشفقة والعطف ؛ لأنه يفرق بين نفسه ونفس غيره .

ومن ثَم اختلف الحال في الإيثار وعدمه ، كل ذلك محافظة على النية والإخلاص والصدق ، ويظهر ذلك بالمثال : فنقول : لو دفع رجل دراهم إلىٰ شخص ، وقال له : تصدق بهـٰذه على الفقراء لله عز وجل ، فخرج فوجد فقيراً فلم يعطه ، ثم خرج فوجد آخر فأعطاه ، فهـٰذا قد انتقل من ربه إلىٰ حظ نفسه ، وهـٰكذا العارف ، إذا وهبه الله تعالىٰ رزقاً يصرفه إلى النفوس الحيوانية . . فأول نفس تلقاه نفسه ، فليس له أن يتعداها إلىٰ غيرها ؛ لأن نفسه قد صارت عنه أجنبية ، فما يلزمه في حق نفوس العالم يلزمه في حق نفسه .

وإلىٰ هـٰذا السر اللطيف أشار الشرع بقوله صلى الله عليه وسلم : « ابدأ بنفسك ثم بمن تعول ، والأقربون أولىٰ بالمعروف »[1] .

ففِعلُ الأستاذ أبي حفص رحمه الله قد يكون لشيء مما ذكرناه ، وقد يكون لمعنىً آخر غامض خفي علينا علمه ، وقد عُلم أن : **عدم العلم لا يدل على العدم ولا على الوجود** .

---

(١) أخرج البخاري (١٣٦٠) ، ومسلم (١٠٣٤) : « خير الصدقة . . ما كان عن ظهر غنىً ، وابدأ بمن تعول » . وأما « الأقربون أولىٰ بالمعروف » فقد قال في « كشف الخفاء » (١/١٨٣) : قال السخاوي : ما علمته بهـٰذا ، ولـٰكن قال صلى الله عليه وسلم لأبي طلحة : « أرىٰ أن تجعلها في الأقربين » كما رواه البخاري ، وفي التنزيل : ﴿ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ .

تَنبـيِّه

اعلم : أنه قد تلخص لنا أن العارفين قسمان :

منهم : مَن كان الغالب عليه الإيثار .

ومنهم : من كان الغالب عليه عدم الإيثار .

فأما المُؤْثِرون : فهم أيضاً علىٰ قسمين :

منهم : مَن له قوة وقدرة على الصبر ، فالأولىٰ في مثل مَن كان هـٰذا حاله . . الإيثار ، ويدل لذلك ما رُوِّيناه من حال أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

ومنهم : مَن ليس له قوة ولا قدرة على الصبر ، فالأولىٰ في حق مثل هـٰذا . . عدم الإيثار ، بل يتصدق علىٰ نفسه أولاً ، ثم يؤثر بما فضل عنه .

وأما غير المؤثرين : فهم أيضاً علىٰ قسمين :

منهم : مَن قد تمكن في مقامه إلىٰ أن صارت نفسه عنه أجنبية ، لا يفرق بينها وبين نفوس العالم ، فمثل هـٰذا يتصدق علىٰ نفسه أولاً ، ثم يؤثر بما فضل عنه أولىٰ ؛ لأن ما يلزمه في حق نفوس العالم يلزمه في حق نفسه ، وبل أولىٰ .

ومنهم : مَن لم يصل إلىٰ هـٰذه المرتبة ، وهـٰذا له حالان : تارة يكون قوياً على الصبر ، فالإيثار في حقه أولىٰ ، وتارة : لا يقوىٰ على الصبر ، فعدم الإيثار في حق مثل هـٰذا أولىٰ ، والله عز وجل أعلم .

وأما ما في سؤاله من اللطائف . . فأمور :

منها ـ وهو أهمها ـ : كسر النفس ، والوقوف عند ذلتها وحقارتها ، وتنزيلها منزلتها إعطاءً للعبودية حقها ، وهـٰذا باب واسع ، أَكثرَ الأئمة مِنِ استعمالهم له حالاً ومقالاً ، وهو غامض عزيز قَلَّ مَن يقدر عليه ؛ إذ لا شيء على النفس أصعب من الذلة والانكسار ، لا سيما في السؤال ، والنفس ما لم تنكسر لا تظفر بمراد أصلاً .

ألا ترىٰ إلىٰ ما روي عن أبي يزيد البسطامي رحمه الله أنه قال : نوديت في سِرِّي : خزائننا مملوءة من الخَدَمة ، فإن أردتنا . . فعليك بالذلة والافتقار .

وقد روى الحافظ أبو القاسم ابن عساكر ـ رحمه الله ـ عن الإمام أبي الحسين بندار بن الحسين الشيرازي قدس الله روحه أنه قال : أول ما دخلت على الشبلي كان معي بضاعة بنحو

أربعين ألف دينار ، قال : فنظر الشبلي في المرآة ، وقال : يا أبا الحسين ؛ المرآة تقول : إنَّ ثَمَّ سبب ، فقلت : صدقت المرآة ، وحملت إليه ست بدر ، ولم يزل كذلك ، كلما اجتمع عندي من البضاعة شيء . . يقول : المرآة تقول : إنَّ ثَمَّ سبباً ، وأنا أحمل إليه إلىٰ أن لم يبق معي شيء .

قال : فنظر في المرآة وقال : المرآة تقول : ليس ثَمَّ سبب ، قلت : صدقت المرآة ، وكانت المرآة على الحقيقة قلبَه .

وكان الشبلي يكثر من النظر في المرآة ، فسئل عن ذلك ، فقال : بيني وبين الله سبحانه وتعالىٰ عهدٌ ، إن ملت عنه . . عاقبني ، وأنا أنظر كل ساعة في المرآة هل اسودَّ وجهي .

فلما لم يبق للإمام بندار شيء . . قال له الشبلي : اخرج الآن من الجاه ، فجعل يدور علىٰ معارفه يكدي[1] ، فكان بعضهم يقول : مسكين ، وبعضهم يقول : مجنون .

قال بندار : فما كان شيء أصعب علي من الخروج من الجاه ، والرَّجُل كل الرَّجُل مَن طُهِّر من مراءاة الخلق ، مع كسر النفس ومعرفة ذلتها وحقارتها لتحقيق العبودية .

وقد قدمنا أن العارفين قالوا : لا مقام أعلىٰ من العبودية ، فسؤال أبي حفص قدس الله روحه قد يكون لتحقيق هـٰذا المقام .

ومنها : أنه يحتمل أن يكون قصدُ أبي حفص رحمه الله بالسؤال . . الشفقة علىٰ خلق الله تعالىٰ ؛ لِمَا يحصل لهم في أخذه منهم من جزيل ثواب وعظيم عطاء ؛ لأنه يعطيهم الباقي ويأخذ منهم الفاني .

ألا ترىٰ إلىٰ قول أبي القاسم الجنيد رحمه الله لما قيل له : إن فلاناً يسأل ، فقال : مه ، إنما سأل ليُعطيَهم لا ليأخذ منهم . إشارة إلىٰ ما ذكرناه .

وقد قال العارفون : إن من بعض أرباب الأحوال مَن يغلب عليه حاله فيقتضي [عند ذلك] أن يكون السؤال سبباً في زيادة درجته ، ولـٰكن بالإضافة إلىٰ حاله ؛ فإن الأعمال بالنيات ، ولا شك أن الولي حركاته كلها بالله سبحانه وتعالىٰ ، فأحواله لا يطلع عليها إلا الذي أعطاه إياها ، ووفقه لها ، وهو الله رب العالمين جلت عظمته .

وقد ثبت في « الصحيح » [خ ٦١٣٧] بقول الله تباركَ وتعالىٰ : (لا يزال عبدي يتقرب إلي

---

(١) يكدي : يُلحُّ في المسألة .

بالنوافل . . .) الحديث ، فقد يكون ممن أذن له في السؤال لمرتبة يصل إليها به ، وقد يكون ليُرحم بغيره أو يُرحم به غيره فالشفقة علىٰ خلق الله سبحانه وتعالىٰ من شأن العارفين ، ومَن تتبع أحوالهم وأقوالهم . . وجد من ذلك شيئاً كثيراً .

ألا ترىٰ إلىٰ ما روي عن زهير بن نعيم البابي رحمه الله أنه قال : وددت أن لحمي قرض بالمقاريض ، وأن الخلق ما عصوا الله تعالىٰ .

قال ابن الجلاء وقد سئل عن معنىٰ هـٰذا الكلام فقال : هـٰذا له معنيان :

أحدهما : إرادة الشفقة علىٰ خلق الله سبحانه وتعالىٰ .

والثاني : ـ وهو الأظهر ـ : أن مراده تعظيم جانب الربوبية عن أن يعصىٰ ، ثم قال : وهـٰذا ليس من مشربي .

وقد حكي عن الشبلي رحمه الله أنه قال : لو كان لي في القيامة أمر مطاع . . لسألت الله عز وجل أن يملأ جهنم مني وحدي ، حتىٰ لا يكون فيها متسع لغيري ؛ لأتحمل عذاب الخلق وأفدي بعض أمة محمد صلى الله عليه وسلم ثم أنشد :

تشكَّى المحبون الصبابةَ ليتني ... تحملت ما يَلقَون من بينهم وحدي
فكانت لقلبي لذة الحب كلها ... فلم يلقها قبلي محب ولا بعدي

إلىٰ غير ذلك مما لا ينحصر .

ومنها : الحكمة في كون سؤاله يقع ليلاً له سببان :

أحدهما : أنه وقت الضرورة .

والثاني : النصح والشفقة علىٰ خلق الله .

وقد كان جماعة من الأئمة يراعون هـٰذا المعنىٰ ، ألا ترىٰ إلىٰ ما روي عن سفيان الثوري رحمه الله أنه كان يرد ما يُعطىٰ ، فيقال له في ذلك ، فيقول : إنما أرده شفقة عليهم ونصحاً لهم ؛ لأني لو علمت أنهم لا يذكرون ذلك افتخاراً به . . لأخذت .

وعوتب بعضهم في رد ما كان يأتيه من صلة ، فقال : إنما أرد عليهم إشفاقاً ونصحاً ؛ لأنهم يذكرون ذلك ويفتخرون به ، ويحبون أن يُعلم بهم ، فتذهب أموالهم وتَحبط أجورهم .

ولقد انتهىٰ بهم النصح والشفقة والورع إلىٰ ما هو أعظم من ذلك .

حتىٰ إنَّ سفيان الثوري رحمه الله كان يمتنع من الاستقراض أيضاً لهـٰذا المعنىٰ ؛ فإنه قال : ما أجد أحداً أفزع إليه في قرض عشرة دراهم يكتم علي ، حتىٰ إنه يمشي إلى الناس ويقول : جاءني فلان واقترض مني كذا ، والله أعلم .

ومنها : قد يكون قصد الأستاذ أبي حفص رحمه الله بالإيثار أولاً والسؤال ثانياً ؛ ليصير دائم الفاقة ، فتنقطع نفسه عن جميع ما يقطعه عن الله سبحانه وتعالىٰ ، فلا قاطع أعظم من التعلق بالدنيا ، فشأن العارفين العزوف عنها بكل طريق ؛ لتصفو لهم المعاملة مع الله عز وجل ، كما قال حارثة رضي الله عنه : (عزفت نفسي عن الدنيا ، فأسهرتُ ليلي وأظمأتُ نهاري) .

ومنها : أن الأستاذ أبا حفص رحمه الله يحتمل أن يكون قد قصد بالإيثار إعمال التوكل ، وبالسؤال إعمال السبب ؛ لئلا يعطل حكمة الله عز وجل في مشروعية الأسباب ، وإعمالاً لما تعبد الله عز وجل عباده من التعبد بهما .

وقد قدمنا أن مذهب أهل السُّنة : أن تعاطي الأسباب لا ينافي التوكل ، وهو رتبة الكاملين فيه ، ومَن تتبع السُّنة الشريفة . . وجدها علىٰ ذلك .

ألا ترىٰ إلىٰ قضية الخندق ، لما احتاج الصحابة رضوان الله عليهم إلى الزاد . . أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يبسطوا نطعاً ، ويجمعوا عليه أزوادهم ، فاجتمع شيء يسير ، ثم وضع النبي صلى الله عليه وسلم يده الكريمة فيه ودعا بالبركة .

وما رُوِّيناه عن البخاري بسنده [٢٢٦٥] عن جابر بن عبد الله قال : قتل أبي يوم أحد شهيداً وعليه دَين ، فاشتد الغرماء في حقوقهم ، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فسألهم أن يقبلوا تمر حائطي ويحللوا أبي ، فأبوا ، فلم يعطهم النبي صلى الله عليه وسلم حائطي ، وقال : « سنغدو عليك » ، فغدا علينا حين أصبح ، فطاف في النخل ودعا في ثمرها بالبركة ، فجددتُها[1] وقضيتهم ، وبقي لنا من تمرها .

وهكذا في قصة الماء وفي الطعام القليل وفي اللبن ، إلىٰ غير ذلك مما هو معروف مشهور لا يُتمارىٰ فيه .

واعلم : أن مَن جرَّد التوكل عن السبب الذي جعله الله عز وجل سبباً . . لم يفعل ما أُمر

---

(١) جددتها : قطفتها .

به ؛ فإن كل ما يحدث عند تعاطي الأسباب إنما هو بقدرة الله سبحانه وتعالىٰ وإرادته له .

وكذلك كل حادث عند سببه الجلي والخفي ، وليس شيء من الأسباب موجباً أو مؤثراً ، وإنما هي كالأوقات والأحوال التي أراد الله عز وجل نفوذ قضائه وقدره عندها .

فلذلك كان الأولىٰ هو التسبب وسلوك المناهج التي شرعها الله لعباده إلىٰ قضاء حوائجهم ، مع التوكل على الله سبحانه وتعالىٰ في ذلك ؛ إذ لا منافاة بين التوكل وتعاطي الأسباب ؛ فإن الله سبحانه هو الذي وضع الوسائط ودبر أمور عباده بها ، وأذن لهم فيها بل أمرهم بتعاطيها ، وليس شيء منها مما يصيرون إليه بمجرد آرائهم ، بل إنما يتعاطَونها امتثالاً لأوامره عز وجل واقتداء بسُنة نبيه سيد البشر محمد صلى الله عليه وسلم .

وعلىٰ هـٰذا درج الصحابة والتابعون ومَن بعدهم رضوان الله عليهم .

وأيضاً : فإن العبودية في تعاطي الأسباب أكثر ؛ لأمرين :

أحدهما : ما مر من مجرد امتثال الأمر .

الثاني : لما في عدم تعاطيها من استشعار الغنية عنها ، وهـٰذا هو السر في مشروعية الدعاء وطلبه ؛ فإن الله سبحانه وتعالىٰ جعله سبيلاً للمؤمنين في استنجاح حوائجهم ، وكذلك سائر السبل المجعولة له ، يكون سلوكها أشبه بالعبودية والاستكانة من مجرد التصبر والتظاهر بالغنية عنها .

وأيضاً : فمِن التسبب ما هو فرض ، بخلاف التوكل المجرد فكان أفضل منه ، وهـٰذا هو مذهب الجمهور ، وهو الذي أَدِينُ الله عز وجل به .

ووراءه قول ثالث ضعيف ، وهو : أن الشخص إن كان قوي العزم ، قادراً علىٰ تجريد الصبر ، واثقاً من نفسه أنه إذا صبر مدة ولم ينكشف عنه ضره لم يرجع إلى السبب ، ولم يندم علىٰ تركه ، ولم يشك في أن الصبر الذي آثره أولىٰ . . فهو أفضل ، وإلا . . فالأفضل أن يكون مع المتسببين .

وهـٰذا كالمتطوع بالصيام ؛ فإنه أفضل لمن لا يستثقل جهده ، ولا يتبرم بطول النهار ، بخلاف مَن إذا شرع فيه . . لم تزل عيناه ممتدتين إلى الشمس أين بلغت ، وهل دنت من الغروب أم لا ، محدِّثاً نفسَه في خلال ذلك بالفطر ، وربما ندم على الدخول في الصوم ، فإن الفطر به أولىٰ ، وكذا غيره من التطوعات ، والله أعلم .

ومنها : أن أبا حفص رحمه الله يحتمل أنه قصد بالصدقة أولاً ، والسؤال ثانياً ما أشار إليه الأئمة رحمهم الله تعالىٰ ، من معنى الكمال والتكميل المستفاد من سورة (والعصر) .

بيانه : أن سعادة الإنسان محصورة في نوعين :

أحدهما : كمال قوته النظرية ، وهو أن تحصل له المعارف الحقيقية والعلوم اليقينية .

والثاني : كمال قوته العملية ، وهو أن يكون مواظباً على الأعمال الصالحة . .

ثم إن الكامل في هـٰذين النوعين إنما يصير بالغاً إلى الغاية القصوىٰ أن لو صار مكمِّلاً لغيره في النوعين ، وهما العلم والعمل .

فثبت أن كمال سعادة الإنسان إنما هو في هـٰذه الأقسام الأربعة :

الأول منها : أن يكون كاملاً في قوته النظرية بالمعارف الإلـٰهية ، وإليه الإشارة بقوله تعالىٰ : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ .

والثاني : أن يكون كاملاً في قوته العملية ، وإليه الإشارة بقوله تعالىٰ : ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ .

والثالث : أن يكون مكملاً لعقول الخلق في عقائدهم وسائر معارفهم ، وإليه الإشارة بقوله تعالىٰ : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾ .

والرابع : أن يكون مكملاً للخلق في أقوالهم وأفعالهم وسائر أحوالهم ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ .

فثبت بالبرهان الشرعي والعقلي أن الأصل في الإنسان هو الخسران ، وأنه إنما يرتقي من حضيض الخسران إلىٰ أوج السعادة والكمال بمجموع هـٰذه الأحوال الأربعة .

إذا عُرف هـٰذا . . فأبو حفص رحمه الله يحتمل أن يكون راعىٰ هـٰذا المعنىٰ ؛ ليحصل له الكمال والتكميل ، وذلك لأنه بالأخذ والعطاء قد صار موصوفاً بصفتين عظيمتين محبوبتين للحق جل جلاله ، وهما الصبر والشكر ؛ فإن المال محبوب بالطبع ، فوجدانه يوجب الشكر ، وفقدانه يوجب الصبر ، والله عز وجل طلب من عباده هـٰذين الوصفين ، فشرع لهم الصدقة ليتصفوا بهما ، وإنما يحصل الاتصاف بهـٰذين الوصفين لجميع العباد بالأخذ والعطاء ، لأنهم قسمان : غني ، وفقير .

فكأن المعنىٰ ـ والله أعلم ـ أن يقال : أيها الغني ؛ أعطيتك المال فشكرتني ، فصرت من

الشاكرين ، فأخرج من يديك نصيباً منه حتىٰ تصبر علىٰ فقدان ذلك القدر المُخرَج ، فتصير بسببه من الصابرين ، وأيها الفقير ؛ ما أعطيتك المال فصبرتَ فصرت من الصابرين ، لٰكن أوجبت على الغني أن يصرف إليك طائفة من ذلك المال ، حتىٰ إذا حصل ذلك المقدار في ملكك . . شكرتني فصرت من الشاكرين .

فما كان في حق الغني صفة صبر . . هو في حق الفقير صفة شكر ، وما كان في حق الفقير صفة صبر . . هو في حق الغني صفة شكر .

وتنزيل هٰذا المعنىٰ علىٰ مسألتنا : أن أبا حفص رحمه الله في كل يوم يعمل بدينار ويتصدق به ، قد حصل له بذلك صفتا الصبر والشكر مع الكمال والتكميل أيضاً لفقره ، وهو الفقير المتصدَّق عليه .

بيانه : أنه حين يأخذ الدينار . . يشكر الله عز وجل فيصير بسببه من الشاكرين ، ثم يتصدق به فيصبر علىٰ فقدانه فيصير بسبب ذلك من الصابرين ، والفقير قبل أخذه الدينار مثلاً هو صابر علىٰ فقره فهو من الصابرين ، وبعد أخذه منه يشكر الله عز وجل فيصير بسبب ذلك من الشاكرين ، فحصل لكل واحد منهما صفتا الصبر والشكر ، والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، وأما الشكر . . فهو النصف الآخر من الإيمان ؛ إذ الإيمان نصفان : نصف صبر ، ونصف شكر ، علىٰ ما هو مقرر في موضعه .

هٰذا كله مع ما ينضم إليه من الاتصاف بصفات أخرىٰ جليلة منها الجمع بين الأخذ والعطاء ؛ لأنه بالتصدق صار معطياً ، وبالسؤال صار آخذاً ، فيجتمع له أجران : أجر العطاء ، وأجر الأخذ .

وقد قالوا : إن أجر المعطي والآخذ سواء ، وحصول أجرين حيث لا محذور أولىٰ من أجر واحد .

هٰذا كله مع حصول ما قدمناه من الكمال والتكميل والمحافظة عليه ، وهو مستفاد من قوله عز وجل : ﴿وَٱلْعَصْرِ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ إلىٰ آخرها ؛ لاشتمالها علىٰ معنى الكمال والتكميل ؛ لأن بالإيمان والأعمال الصالحة حصل الكمال ، وبالتواصي بالحق والتواصي بالصبر حصل التكميل ، والتواصي بالحق مقابل الإيمان ، والتواصي بالصبر مقابل الأعمال الصالحة . والله أعلم .

خاتمة حسنة لهـٰذه المسألة

وهي في ذِكر قاعدة عظيمة النفع فيها وفي جميع ما تنظره من العلم ، وهي :

يا أخي ؛ ليكن نظرك في جميع ما تنظره من العلم . . بالله عز وجل ولله وفي الله ؛ لأنه إن لم يكن نظرك به سبحانه وتعالىٰ . . وَكَلَك إلىٰ نفسك وإلىٰ مَن جعلت نظرك به ، وكذلك إن لم يكن نظرك لله عز وجل خالصاً . . فقد صار عملك لغيره .

وإذا عرفت هـٰذا . . فاعلم : أن جميع ما ذكرناه مما يبين لك أن خطر مثل هـٰذا السؤال عظيم ، فيجب التمهل في جوابه ، ولا يُمشىٰ فيه بالخطو الواسع ؛ فإنه مزلةُ قدَمِ الناظر فيه ، وسبيل كلِّ مسؤول عن مثل ذلك أن يعطي العلم حقه من النظر ، فينظر في مأخذ تلك المسألة ونظائرها وجميع ما يشابهها ، أو يشترك معها في شيء ما ، وينظر في كلام العلماء فيها ، وهل هو متفق ، أو مختلف ؟

فإن اتفق الكل في مأخذ . . سلَكَه ، ثم يعرضه على الأدلة الشرعية ، فإن شهدت بصحته . . فذلك هو الغاية ، وحينئذ يعتمد تلك المسائل والمآخذ ، وإلا . . فليرجع ويكرر النظر حتىٰ يتبين له الحق ، ومِن أين جاء الخلل ؟ هل هو من بعض تلك المسائل ، أو من المأخذ المشترك بينها ؟

وهـٰذا أصل كبير ينبغي أن يتنبه الفقيه لأمثاله في نظره في المسائل ، فيعطي كل مسألة حقها ، لا سيما مثل هـٰذه المسألة التي لم نر للأئمة فيها كلاماً فيما علمت .

فينبغي ألاَّ يسارع إلى القول بالإباحة أو الوجوب إلا إذا تمهل في الواقعة ، ونظر في كلام العلماء رحمهم الله وفي الأدلة الشرعية الدالة لها ، ثم ينظر في حال السائل وقصده في أخذه ، وعطائه ، وقوته ، وتمكنه ، وصبره ، ومحله من العلم ، فعند ذلك يجيب بحسب ما رزقه الله من الفهم ، وفتح عليه من نور العلم ، قاصداً بذلك ـ وبجميع ما يجيب به ـ وجه الله سبحانه وتعالىٰ .

ولا شك أن الأستاذ أبا حفص ـ قدس الله روحه ـ كان من العلماء العاملين الربانيين ، ألا ترىٰ إلىٰ قول الإمام أبي القاسم الجنيد ـ قدس الله روحه ـ الذي حكيناه عنه في ترجمته ، قال : كان أبو حفص من أهل العلم البالغين ، فكان يتكلم في غورٍ بعيد . وكفاه فخراً أن مثل الجنيد رحمه الله يقول عنه مثل هـٰذا الكلام .

فإذا كانت أقواله تصدر من غور بعيد ؛ أي : لا تُفهم إلا بجهد ، ويحتاج فيها إلىٰ نظر

دقيق.. فما الظن بأفعاله التي قصد بها وجه الله عز وجل ، لا سيما وحركات الولي كلها بالله ، كما تقدم بيان ذلك في الحديث الصحيح .

وقد قال أبو الحسين النوري رحمه الله : إن لله عباداً يسمعون بالله ، وينطقون بالله ، ويَصْدرون بالله ، ويَرِدُون بالله ، وحركاتهم كلها بالله ، فإن قاموا.. قاموا بالله ، وإن نطقوا.. نطقوا بالله ، كما قد صُرِّحَ به في الحديث .

وأبو حفص رحمه الله كان ـ والله أعلم ـ من أولياء الله العارفين ، وعباده الصالحين ، والعلماء الربانيين ، عرف موضع السؤال وقَدْره ، وكيف يعطي ، وكيف يأخذ .

وهـٰذه اللطائف التي ذكرناها حصلت من بركة فعله أيضاً ؛ لأن النظر في سؤاله أوجب الوقوف علىٰ بعض أسراره ومقاصده الصالحة .

ومَن تأمل أحواله وأقواله.. عرف محله من العلم ، ومكانه من الفضل والحلم ، وأن نفسه قد ارتاضت إلىٰ أن استوىٰ عندها الأخذ والعطاء ؛ لاستغراقها بالحي القيوم ولي العطاء سبحانه وتعالىٰ .

فانظر إلىٰ هـٰذه النفس الشريفة ما أعرفها وأتقاها! وما أكثر سخاءها وأخشاها! فسبحان مَن أعطاها!

قال تعالىٰ : ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو صالح حمدونُ بن أحمد القَصَّار النيسابوري
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قيل لأبي صالح حمدون : ما بال كلام السلف رضي الله عنهم أنفع من كلامنا ؟ فقال : لأنهم تكلموا لعز الإسلام ، ونجاة النفوس ، ورضى الرحمٰن سبحانه وتعالىٰ ، وأما نحن : فنتكلم لعز النفوس ، وطلب الدنيا ، ورضى الخلائق .

وكان أبو صالح رحمه الله يقول : كفايتك تساق إليك من غير تعب ولا نصب ، وإنما التعب في الفُضول .

وتسفه شخص علىٰ أبي صالح حمدون ، فبقي حمدون ساكتاً لا يجيبه ، فلما فرغ من شتمه . . قال له حمدون : يا أخي ؛ لو نقصتني كل نقص . . لما قدرت أن تنقصني كنقصي[1] عند نفسي .

ثم قال لأصحابه : تسفه رجل علىٰ إسحاق الحنظلي ـ يعني : ابن راهويه ـ فاحتمله ، فقيل له في ذلك ، فقال : لأي شيء تعلمنا العلم ؟!

وقال أبو صالح حمدون : إذا رأيت سكراناً . . فاعدل عنه وتمايل ؛ لئلا تبغي عليه ، فتبتلىٰ بمثل ذلك .

وقال السلمي : قال أبو صالح حمدون : **مَن نظر في سِيَر السلف . . عرف تقصيره وتخلفه عن درجات الرجال** .

وقال أبو صالح حمدون : كل ما تحب أن يكون مستوراً منك ولا تحب أن يفشىٰ عليك . . فلا تفشه علىٰ غيرك مع علمك به ؛ لتحب لأخيك ما تحب لنفسك .

وقال أبو صالح حمدون : ما دمت لا تعرف عيب نفسك . . فأنت محجوب ، فاجهد ألاَّ تعمىٰ عن عيوب نفسك ؛ فإن اشتغالك بعيوبها يشغلك عن غيرها .

---

(١) وفي نسخة : (لنقصي) .

صحب حمدون أبا تراب النخشبي ، وغيرَه ، وتوفي سنة إحدىٰ وسبعين ومئتين بنيسابور رحمه الله . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ٨٢] .

وقال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : سئل حمدون عن التوكل ، فقال : هو أن لو كان لك عشرة آلاف درهم وعليك من الدَّين دانق . . لم تأمن أن تموت ويبقىٰ ذلك في عنقك ، ولو كان عليك عشرة آلاف درهم دَين لا تجد لها وفاءً . . لا تيأس من الله عز وجل أن يقضيها عنك . وهـٰذا منه إشارة إلىٰ مجرد الإيمان بسعة القدرة ، وأن ما في المقدور أسباب خفية سوىٰ هـٰذه الأسباب الظاهرة . انتهىٰ [« الإحياء » ٤/ ٢٦٤] .

وقال في « المختار » : كان أبو صالح شيخ الملامتية[1] بنيسابور ، فقيهاً ، عالماً بمذهب سفيان الثوري رحمه الله .

وسئل حمدون : متىٰ يجوز للرجل أن يتكلم على الناس ؟ فقال : إذا تعين عليه أداء فرض من فرائض الله تعالىٰ ، أو خاف هلاك إنسان في بدعة يرجو أن ينجيه الله منها بقوله .

وقال له رجل : أوصني ، فقال : إن استطعتَ ألاَّ تغضب لشيء من الدنيا . . فافعل .

وقال أبو صالح : شُكر النعمة : أن ترىٰ نفسك فيه طفيلياً .

وقال لأصحابه : أوصيكم بشيئين : بصحبة العلماء ، واحتمال الجهال ، ومَن رأيتم فيه خصلة من الخير . . فلا تفارقوه ؛ فإنه يصيبكم من بركاته ؛ والله أعلم . [انتهىٰ] .

وقال القشيري ـ قدس الله روحه ـ : قال أبو صالح رحمه الله : مذ علمت أن للسلطان فراسة في الأشرار . . ما خرج خوف السلطان من قلبي .

وقال أبو صالح : **أصل رفع الألفة من بين الإخوان . . حب الدنيا** .

وقال له رجل : أوصني ، فقال : إن استطعت أن تصبح وتمسي مفوِّضاً لا مدبِّراً . . فافعل .

وقال : مَن شغله طلب الدنيا عن الآخرة . . ذَلَّ إما في الدنيا وإما في الآخرة . انتهىٰ [« الرسالة القشيرية » ٣١] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) **الملامتية** : فرقة من الصوفية أصحاب حمدون بن أحمد القصار ، وهم الذين يكتمون الأعمال ويظهرون خلافها ، فهمهم إعمار الباطن دون النظر إلىٰ خراب الظاهر ، مع التزام الشريعة ، اشتق اسمها من كثرة ملامة أتباعها لأنفسهم .

ومنهم الإمام :

أبو بكر محمدُ بن موسى الواسطي
رضي الله عنه

قال الأستاذ أبو القاسم القشيري ـ قدس الله روحه ـ : أبو بكر الواسطي خراساني الأصل من فَرْغانة ، صحب أبا القاسم الجنيد والنوري ، عالم كبير ، أقام بمرو ، ومات بها بعد العشرين وثلاث مئة .

ثم قال : قال الواسطي رحمه الله : الخوف والرجاء زِمامان يمنعان من سوء الأدب .

وقال : مطالعة الأعواض على الطاعات من نسيان الفضل .

وقال : إذا أراد الله سبحانه وتعالىٰ هوان عبد . . ألقاه إلىٰ هـٰؤلاء الأنتان ؛ يريد : صحبة الأحداث .

وقال القشيري : سمعت ابن الحسين رحمه الله يقول : سمعت أبا بكر محمد بن عبد العزيز المروزي يقول : سمعت الواسطي يقول : جعلوا سوء آدابهم إخلاصاً ، وشره نفوسهم انبساطاً ، ودناءة الهمم جلادة ، فعَمُوا عن الطريق ، وسلكوا فيه المضيق ، فلا حياة تنمو في شواهدهم ، ولا عبادة تزكوا في محاضرتهم ، إن نطقوا . . فبالغضب ، وإن خوطبوا . . فبالكِبر ، تَوَثُّبُ أنفسِهم يُنبىء عن ضمائرهم ، وشرههم في المأكول يُظهِر ما في سويداء أسرارهم ، قاتلهم الله أنَّىٰ يؤفكون .

وسمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول : سمعْتُ بعض المراوزة إنساناً صيدلانياً يقول : اجتاز الواسطي يوم جمعة بباب حانوتي قاصداً إلى الجامع ، فانقطع شِسْعُ نعله ، فقلت : أيها الشيخ ؛ أتأذن لي أن أصلح نعلك ؟ فقال لي : أصلح ، فأصلحت شسعه ، فقال : أتدري لِمَ انقطع شسع نعلي ؟ فقلت : حتىٰ يقول الشيخ ، فقال : لأني ما اغتسلت للجمعة ، فقلت : يا سيدي ؛ هـٰهنا حمَّام ، تدخله ؟ فقال : نعم ، فأدخلته الحمَّام ، فاغتسل [« الرسالة القشيرية » : (٤١ـ٤٢)] .

وسئل الواسطي رحمه الله عن الذِّكر ، فقال : الخروج من ميدان الغفلة إلىٰ فضاء المشاهدة علىٰ غلبة الخوف وشدة الحب [« الرسالة القشيرية » : (١٧٣)] .

وقال الواسطي رحمه الله : التوبة النصوح لا تبقي علىٰ صاحبها أثراً من آثار المعصية سراً ولا جهراً ، ومَن كانت توبته نصوحاً . . لا يبالي كيف أمسىٰ وأصبح [« الرسالة القشيرية » : (٨٠)] .

ولما احتُضِر الواسطي رحمه الله . . قيل له : أوصنا ، فقال : احفظوا مراد الحق جل جلاله فيكم .

وقال الواسطي رحمه الله : التقوىٰ أن يتقي مِن تقواه ؛ يعني : من رؤية تقواه [« الرسالة القشيرية » : (٨٨)] .

وقال : الخوف والرجاء زمامان على النفوس ؛ لئلا تخرج إلىٰ رعوناتها [« الرسالة القشيرية » : (١٠٣)] .

وقال : استعمِلِ الرضىٰ جُهْدَك ، ولا تدع الرضىٰ يستعملك ، فتكون محجوباً بلذته ورؤيته عن حقيقة ما تطالع [« الرسالة القشيرية » : (١٥٢)] .

وقال القشيري ـ رحمه الله ـ : اعلم : أن هٰذا الكلام الذي قاله الواسطي رحمه الله شيء عظيم ، وفيه تنبيه علىٰ مقطعة للقوم خفية ؛ فإن السكون عندهم إلى الأحوال حجاب عن محول الأحوال ـ سبحانه وتعالىٰ ـ إليها .

فإذا استلذ رضاه ووجد بقلبه راحة الرضىٰ . . حُجب بحاله عن شهود حقه سبحانه وتعالىٰ .

ولقد قال الواسطي أيضاً : إياكم واستحلاء الطاعات ؛ فإنها سموم قاتلة [« الرسالة القشيرية » : (١٥٢)] .

وقال الواسطي : الخصلة التي بها كَمُلت المحاسن وبفقدها قبُحت المحاسن . . **الاستقامة** [« الرسالة القشيرية » : (١٦١)] .

وقال الواسطي : الحب يوجب شوقاً ، والشوق يوجب أنساً ، فمَن فقد الشوق والأنس . . فليعلم أنه غير محب ، وأنشد :

ولا عـن قِلـىً كـان القطيعـة بيننـا ولكنـــه دهـــر يُشِـــتُّ ويجمـــع

وقال : كائنات محتومة بأسباب معروفة وأوقات معلومة ، فاعتراض السريرة لها رعونة .

وقال : العبادة أصلها ستة أشياء : التعظيم ، والحياء ، والخوف ، والرجاء ، والمحبة ، والهيبة ، فمن لم تتم له هٰذه المقامات . . لم تتم له العبودية .

وقال الواسطي : ادعىٰ فرعون ـ عليه اللعنة ـ الربوبية على الكشف ، وادعت المعتزلة الربوبية على السر ؛ فإنهم قالوا : ما شئنا فعلنا ؛ أي : نحن خالقون لأفعالنا .

وقال في « لوامع أنوار القلوب » : قال الواسطي : بفضله سبحانه وتعالىٰ أحبهم وأحبوه ، وذَكَرهم وذكروه ؛ قال تعالىٰ : ﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ وبفضله سبحانه وتعالىٰ وَفىٰ لهم ووَفَوا له ؛ قال تعالىٰ : ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ .

وروي : أن الواسطي كانت به أكلة عند كتفه ، فخرجت أخرىٰ في مقابلتها من جانب صدره ، فكان يبين منها الضرر وهو مع ذلك يقول : إلٰهي ؛ زدني من بلائك إن كان لك فيه رضاً ؛ فإن عطاياك في قضائك تباركت وتعاليت ، كما أن رضاك في بلائك ، لا إلٰه إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين .

وقال : الخوف من شرط الإيمان ، والخشية من شرط العلم .

وقيل ـ وهو لغيره ـ :

أنعي إليك قلوباً طالما هطلت سحائبُ الوحي فيها أبحُرَ الحِكَمِ

وقال : الصدق صحة التوحيد مع القصد .

وقال : لم يذق لذعات الحياء من لابَسَ خَرْقَ حَدٍّ أو نَقْضَ عهدٍ .

وقال : المستحيي يسيل منه العرق ، وهو الفضل الذي فيه ، وما دام في النفس شيء . . فهو مصروف عن الحياء .

وقال الواسطي رحمه الله : الفراسة سواطع أنوار لمعت في القلوب ، وتمكين معرفة حملت السرائر في الغيوب من غيب إلىٰ غيب ، حتىٰ يشهد الأشياء من حيث أشهده الحق جل جلاله إياها ، فيتكلم عن ضمير الخلق .

وقال في قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ : وصفه الحق سبحانه وتعالىٰ بالخُلق العظيم ؛ لأنه جاد بالكونين ، واكتفىٰ بالله عز وجل ؛ أي : لم يُرد سواه سبحانه وتعالىٰ .

وقال أيضاً : مِن الخلق العظيم ألاَّ يخاصم من شدة معرفته بالله . أو كما قال .

وقال : علامة الولي أربعة أشياء :

ـ لا يشكو من المصائب .

ـ ويكون مخلصاً في أعماله كلها .

ـ ويحتمل أذى الخلق ولا يكافئهم .

ـ ويداري عباده علىٰ تفاوت أخلاقهم .

وقال في معنىٰ قول معاذ رضي الله عنه : (تعالَوا نؤمن ساعة)[1] أي : نخرج من الإرادات والمنازعات ؛ لأن كل إرادة أرادها الإنسان علىٰ خلاف إرادة الحق جل جلاله . . فهي منازعة مع الربوبية . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) أخرجه البخاري تعليقاً ، وابن أبي شيبة (٣٠٣٦٣) .

ومنهم الإمام :

أبو القاسم إبراهيم بن محمد النصرآباذي
رضي الله عنه

شيخ خراسان في وقته .

قال القشيري ـ قدس الله روحه ـ : وصحب أبا بكر الشبلي ، وأبا علي الروذباري ، والمرتعش ، وجاور بمكة سَنة ست وستين ، ومات بها سنة سبع وستين وثلاث مئة .

وكان عالماً بالحديث كثير الروايات .

ثم قال القشيري ـ قدس الله روحه ـ : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمٰن السلمي رحمه الله يقول : سمعت النصرآباذي يقول : إذا بدا لك شيء من بوادي الحق . . فلا تلتفت معها إلىٰ جنة ولا إلىٰ نار ، فإذا رجعت عن تلك الحال . . فعظِّم ما عظمه الله عز وجل .

وسمعت محمد بن الحسين يقول : قيل للنصرآباذي : إن بعض الناس يجالس النسوان ، ويقول : أنا معصوم في رؤيتهن ، فقال : أمَّا ما دامت الأشباح باقية . . فإن الأمر والنهي باق ، والتحليل والتحريم مخاطب به ، ولن يجترىء على الشبهات إلا من تعرض للمحرمات .

وسمعت محمد بن الحسين يقول : قال النصرآباذي رحمه الله : التصوف : ملازمة الكتاب والسنة ، وترك الأهواء والبدع ، وتعظيم حرمات المشايخ ، ورؤية أعذار الخلق ، والمداومة على الأوراد ، وترك ارتكاب الرخص والتأويلات [« الرسالة القشيرية » (٥٠)] .

وقال النصرآباذي رحمه الله : الزاهد غريب في الدنيا ، والعارف غريب في الآخرة [« الرسالة القشيرية » : (٩٤)] .

وقال : العبادات إلىٰ طلب العفو والصفح عن تقصيرها . . أقرب منها إلىٰ طلب الأعواض والجزاء بها [« الرسالة القشيرية » : (١٥٦)] .

ورُئِيَ النصرآباذي بمكة بعد وفاته رحمه الله تعالىٰ في المنام ، فقيل له : ما فعل الله عز

وجل بك ؟ فقال : عوتبت عتاب الأشراف ، ثم نوديت : يا أبا القاسم ؛ أبَعد الاتصال انفصال ؟! فقلت : لا يا ذا الجلال والإكرام ، فما وُضعت في اللحْد حتىٰ لحقت بالأَحد سبحانه وتعالىٰ [« الرسالة القشيرية » : (٣٠٨)] .

وقال القشيري ـ قدس الله روحه ـ : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمـٰن السلمي يقول : سمعت النصرآباذي يقول : سجنك نفسك ، إذا خرجت منها . . وقعت في راحة الأبد [« الرسالة القشيرية » (٨٤)] .

وقال النصرآباذي رحمه الله : العبودية إسقاط رؤية التعبد في مشاهدة المعبود سبحانه وتعالىٰ [« الرسالة القشيرية » : (١٥٦)] .

وقال : المروءة شعبة من الفتوة ، وهو الإعراض عن الكونين ، وعدم الرؤية لهما ؛ أي برؤية مكونهما سبحانه وتعالىٰ [« الرسالة القشيرية » : (١٧٧)] .

وقال القشيري ـ قدس الله روحه ـ : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمـٰن السلمي قدس الله روحه يقول : كان يُقال للنصرآباذي كثيراً : إن علياً القوال يشرب بالليل ويحضر مجلسك بالنهار ، وكان لا يسمع فيه ما يقال ، فاتفق أنه كان يمشي يوماً ومعه واحد ممن كان يذكر علياً بذلك ، فوجد علياً مطروحاً في موضع وقد ظهر عليه أثر السكر ، وصار بحيث يحتاج إلىٰ غسل فمه ، فقال الرجل : إلىٰ كَمْ تقول للشيخ ولا يسمع ؟! هـٰذا علي على الوصف الذي تقول ، فنظر إليه النصرآباذي وقال للعذول : احمله علىٰ رقبتك وانقله إلىٰ منزله ، فلم يجد بداً من طاعته فيه [« الرسالة القشيرية » (١٨٠)] .

قال : وسمعت الشيخ أبا عبد الرحمـٰن السلمي رحمه الله يقول : قال أبو القاسم النصرآباذي قدس الله روحه : الحق سبحانه وتعالىٰ غيور ، ومِن غَيرته أنه لم يجعل إليه طريقاً سواه ؛ أي : إلىٰ معرفته سبحانه وتعالىٰ [« الرسالة القشيرية » : ١٩٩] .

وهـٰذا إشارة إلىٰ قول خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي بكر الصديق رضي الله عنه : (سبحان مَن لم يجعل للخلق طريقاً إلىٰ معرفته إلا بالعجز عن معرفته) أو كما قال .

وقال القشيري ـ قدس الله روحه ـ : سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول : اجتمع أبو عمرو بن نجيد والنصرآباذي والطبقة في موضع ، فقال النصرآباذي : أنا أقول : إذا اجتمع القوم . . فواحد يقول شيئاً ويسكت الباقون ، خير من أن يغتابوا أحداً ، فقال

أبو عمرو : لأَن تغتاب ثلاثين سنة . . أنجىٰ لك من أن تُظهِر في السماع ما لستَ به [« الرسالة القشيرية » (٢٧٢)] ؛ أي : أن يقع منك الرياء .

وهـٰذا إشارة إلى المحافظة على الصدق والإخلاص ، واستواء السريرة والعلانية ، ونفي الرياء والعجب عن النفس ؛ فإنهما من المهالك ، أو كما قال .

وسئل النصرآباذي عن الأنفس والأموال ، فقيل : الأنفس والأموال لله عز وجل ، فما السر في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ ؟ فقال : اشترىٰ منهم سبحانه وتعالىٰ كرماً عليهم ، ونظراً لهم ، وهـٰذا كما يشتري السيد عبده المكاتب من نفسه ، وكما يشتري الأب للطفل نظراً له ، ثم قال : إن الله سبحانه وتعالىٰ قد ملكك نفسك ، ثم أسقط عنها مِلْكَك ؛ لتعلم عظيم مِنَّة الله ونعمه عليك . أو كما قال .

وقال : إن المخلوقات كلها أدلة ظاهرة منه عليه سبحانه وتعالىٰ ، ولا دليل عليه سواه تبارك وتعالىٰ .

وقال : مَن عمل علىٰ رؤية الجزاء . . كانت أعماله بالعَدِّ والإحصاء ، ومَن عمل علىٰ رؤية المشاهدة . . أذهلته المشاهدة عن التعداد والعدد[1] ، ومَن عمل بالعد . . كان ثوابه بالعدد ، قال تعالىٰ : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ ، ومَن عمل على المشاهدة . . كان أجره بلا عدد ؛ قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) في نسخة : عن التعداد والعدّ .

ومنهم الإمام :

أبو علي الدقاقُ النيسابوري شيخُ أبي القاسم القشيري
رضي الله عنهما

قال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر ـ رحمه الله ـ : كتب إلي الشيخ أبو الحسن عبد الغافر بن إسماعيل بن عبد الغافر الفارسي من نيسابور : قال الحسن بن علي بن محمد بن إسحاق بن عبد الرحيم بن أحمد : أبو علي الدقاق لسان وقته ، وإمام عصره ، نيسابوري الأصل ، تعلم العربية ، وحصَّل علم الأصول ، وخرج إلىٰ مرو وتفقه بها ، ودرس على الخضري ، وأعاد على الشيخ أبي بكر القفال في درس الخضري ، وبرع فيه .

ولما استمع ما كان يحتاج إليه من العلوم . . أخذ في العمل ، وسلك طريق التصوف ، وصحب الأستاذ أبا القاسم النصرآباذي .

وتوفي في ذي الحجة سنة خمس وأربع مئة .

أخبرنا الشيخ أبو المظفر عبد المنعم بن عبد الكريم بن هوازن القشيري بنيسابور قال : أخبرنا والدي الأستاذ أبو القاسم رحمه الله قال : كنت في ابتداء وصلتي بالأستاذ أبي علي عقد لي المجلس في مسجد المطرز ، فاستأذنته وقتاً للخروج إلىٰ نَساء ، فأذن لي ، فكنت أمشي معه يوماً في طريق مجلسه ، فخطر ببالي : ليته ينوب عني في مجالسي أيام غيبتي ، فالتفت إلي وقال : أنوب عنك أيام غيبتك في عقد المجالس ، فمشيت قليلاً ، فخطر ببالي أنه عليل يشق عليه أن ينوب عني في الأسبوع يومين ، فليته يقتصر علىٰ يوم واحد في الأسبوع ، فالتفت إلي وقال : إن لم يمكني في الأسبوع يومين . . أنوب في الأسبوع مرة واحدة ، فمشيت معه قليلاً ، فخطر ببالي شيء ثالث ، فالتفت إليَّ ، وصرح بالإخبار عنه على القطع .

قال : وكان الأستاذ أبو علي رحمه الله لا يستند إلىٰ شيء ، وكان يوماً في مجمع ، فأردت أن أضع وسادة خلف ظهره ؛ لأني رأيته غير مستند ، فتنحىٰ عن الوسادة قليلاً ، فتوهمت أنه توقى الوسادة ؛ لأنه لم يكن عليه خرقة أو سجادة ، فقال : لا أريد الاستناد ،

فتأملت بعده حاله ، فكان لا يستند إلىٰ شيء . انتهىٰ .

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري ـ قدس الله روحه ـ : سمعت أبا نصر المؤذن بنساء[1] ـ وكان رجلاً صالحاً ـ قال : كنت أقرأ القرآن في مجلس الأستاذ أبي علي الدقاق وقت كونه هناك ، وكان يتكلم في الحج كثيراً ، فأثر في قلبي كلامه ، وخرجت إلى الحج في تلك السَّنة ، وتركت الحرفة والحانوت .

وكان الأستاذ أبو علي خرج إلى الحج أيضاً في تلك السَّنة ، وكنت مدة كونه بنساء[2] أخدمه وأواظب على القراءة في مجلسه .

فرأيته يوماً في البادية تطهَّر ونسي قمقمة كانت بيده ، فحملتها ، فلما عاد إلىٰ رحله . . وضعتها عنده ، فقال : جزاك الله خيراً حيث حملت هٰذا ثم نظر إلي طويلاً كأنه لم يرني قط ، وقال : رأيتك مرة ، مَن أنت ؟ فقلت : المستغاث بالله ، صحبتك مدة ، وخرجت عن مسكني ومالي بسببك ، وتقطعت في المفازة بك ، والساعةَ تقول : رأيتك مرة [« الرسالة القشيرية » (٦٣)] .

وقال : كان الأستاذ أبو علي ـ رحمه الله ـ يقول : في قوله تعالىٰ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ حفظ للشريعة ، ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ إقرار بالحقيقة .

واعلم : أن الشريعة والحقيقة واحدة ؛ لأن الشريعة حقيقة من حيث إنها وجبت بأمره سبحانه وتعالىٰ ، والحقيقة أيضاً شريعة من حيث إن المعارف بالله سبحانه وتعالىٰ إنما وجبت أيضاً بأمره سبحانه وتعالىٰ ، **وقد بين الأستاذ أبو القاسم القشيري ـ قدس الله روحه ـ الفرق بينهما ، فقال : الشريعة جاءت بتكليف الخلق ، والحقيقة إنباء عن تصريف الحق سبحانه وتعالىٰ ، فالشريعة أن تعبده ، والحقيقة أن تشهده سبحانه وتعالىٰ ، والشريعة قيام بما أَمَر ، والحقيقة شهود بما قضىٰ وقَدَّر ، وأخفىٰ وأظهر** [« الرسالة القشيرية » (٧٢)] .

وقال أبو علي الدقاق ـ رحمه الله ـ : قيل لبعضهم : لِمَ زهدت في الدنيا ؟ فقال : لما زهدت في أكثرها . . أنفت عن الرغبة في أقلها [« الرسالة القشيرية » (٩٦)] .

وقال : مَن سكت عن الحق . . فهو شيطان أخرس ، وكم بين عبد سكت تصاوناً عن الكذب والغِيبة ، وبين عبد سكت لاستيلاء سلطان الهيبة عليه [« الرسالة القشيرية » (٩٧)] .

---

(١) في الرسالة القشيرية : (نيسابور) بدل (نساء) .

(٢) في الرسالة القشيرية : (نيسابور) بدل (نساء) .

وقال أبو القاسم القشيري ـ قدس الله روحه ـ : والسكوت قسمان : سكوت بالظاهر ، وسكوت بالقلب والضمائر .

فالمتوكل يسكت قلبه عن تقاضي الأرزاق ، والعارف يسكت قلبه عن مقابلة الحكم بنعت الوفاق ، هـٰذا بجميل صنعه واثق ، وهـٰذا بجميع حكمه راض وقانع ، وفي معناه أنشدوا :

تجـــري عليـــك صـــروفُـــهُ وهمـــوم قلبـــك مُطـــرِقَـــهْ

قال : وربما يكون سبب السكوت . . حَيرة البديهة ؛ فإنه إذا ورد كشف عن وصفٍ بغتةً . . خرست العبارات عند ذلك ، فلا بيان ولا نطق ، وطمست الشواهد هنالك ، فلا علم ولا حس ؛ قال تعالىٰ : ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ .

وقال أبو علي الدقاق رحمه الله : لما دخل أبو بكر الواسطي رحمه الله نيسابور . . سأل أصحاب أبي عثمان : بماذا كان يأمركم شيخكم ؟ فقالوا : كان يأمرنا بالتزام الطاعات ورؤية التقصير فيها ، فقال : أمركم بالمجوسية المحضة ، هلا أمركم بالغَيبة عنها برؤية منشئها ومجريها وهو الله الواحد القهار سبحانه وتعالىٰ ؟!

قال أبو علي رحمه الله : وإنما أراد الواسطي بهـٰذا صيانتهم عن محل الإعجاب ، لا تعريجاً في أوطان التقصير ، أو تجويزاً للإخلال بأدب من الآداب [« الرسالة القشيرية » (٩٧)] .

وقال القشيري : سمعت الأستاذ أبا علي يقول : الشجر إذا نبت بنفسه ولم يستنبته أحد . . يورق ولـٰكنه لا يثمر ، كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يتخرج به . . لا يجيء منه شيء .

وكان الأستاذ أبو علي يقول : أخذت هـٰذا الطريق عن النصرآباذي ، والنصرآباذي عن الشبلي ، والشبلي عن الجنيد ، والجنيد عن السَّريِّ ، والسَّريُّ عن معروف الكرخي ، والكرخي عن داوود الطائي ، وداوود الطائي لقي التابعين رضوان الله عليهم أجمعين .

وسمعته يقول : لم أختلف إلىٰ مجلس النصرآباذي قط إلا اغتسلت قبله .

قال القشيري : ولم أدخل أنا على الأستاذ أبي علي وقت بدايتي إلا صائماً ، وكنت أغتسل قبله ، وكنت أحضر باب مدرسته غير مرة ، فأرجع من الباب احتشاماً منه أن أدخل عليه ، فإذا تجاسرت مرة ودخلت . . كنت إذا بلغت وسط المدرسة . . يصحبني شبه خدر ، حتىٰ لو غُرِز فيَّ إبرةٌ مثلاً . . لعلِّي كنت لا أُحِس .

ثم إذا قصدته لواقعة وقعت لي . . لم أحتج أن أسأله بلساني عن تلك المسألة ، فكما[1] كنت أجلس . . يبتدىء بشرح واقعتي ، وغير مرة رأيت هـٰذا منه عياناً ، وكنت أفكر في نفسي كثيراً ، فلم أذكر أني في طول اختلافي إلىٰ مجلسه ثم كوني معه بعد حصول الوصلة أنه جرىٰ في قلبي أو خطر ببالي قط عليه اعتراض إلىٰ أن خرج من الدنيا رحمه الله [« الرسالة القشيرية » (٢٣٠)] .

قال : ومما شاهدناه من أحوال الأستاذ أبي علي الدقاق معاينةً : أنه كان به علة حرقة البول ، وكان يقوم في ساعته غير مرة ، حتىٰ إنه كان يجدد الوضوء غير مرة لركعتي فرض ، وكان يحمل معه قارورة في طريق المجلس ، وربما كان يحتاج إليها في الطريق مرات ذاهباً وجائياً ، وكان إذا قعد علىٰ رأس الكرسي يتكلم . . لا يحتاج إلى الطهارة ولو أمسك المجلس زماناً طويلاً ، وكنا نعاين ذلك منه سنين ، ولم يقع لنا في حياته أن هـٰذا شيء ناقض لعادته ، وإنما وقع لي هـٰذا وفُتح عليَّ علمه بعد وفاته رحمه الله [« الرسالة القشيرية » (٢٩٨)] .

ثم قال أبو القاسم القشيري : رأيت الأستاذ أبا علي الدقاق في المنام بعد موته ، فقلت له : ما فعل الله عز وجل بك ؟ فقال : إن الكرم عظيم ، والرحمة واسعة ، والجود علىٰ أصناف الخلائق فائض ، فلان أعطي كذا وكذا ، ووقع لي في المنام أن ذلك الإنسان الذي عناه كان من المسرفين علىٰ أنفسهم [« الرسالة القشيرية » (٣١٠)] .

وقال : وكان الأستاذ أبو علي يقول : الذِّكر منشور الولاية ، فمَن وُفق للذِّكر . . فقد أعطي المنشور ، ومن سلب الذِّكر . . فقد عزل [« الرسالة القشيرية » (١٧٣)] .

وقال أبو علي : تكلم الناس في الفقر والغنىٰ أيهما أفضل ، وعندي أن الأفضل أن يعطى الرجل كفايته ، ثم يصانَ فيه [« الرسالة القشيرية » (٢١٢)] .

وقال القشيري ـ قدس الله روحه ـ : سمعت الأستاذ أبا علي رحمه الله يقول في قوله تعالىٰ عن موسىٰ عليه الصلاة والسلام : ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ معناه : شوقاً إليك ، فستره بلفظ الرضىٰ .

وسمعته يقول : **مِن علامات الشوق . . تمني الموت علىٰ بساط العوافي ، كيوسف عليه الصلاة والسلام ، لما ألقي في الجب . . لم يقل : توفني ، ولما أدخل السجن . . لم يقل**

---

(١) قال الشيخ زكريا الأنصاري في « شرح الرسالة » : (فكما) أي : فعندما .

توفني ، ولما دخل عليه أبوه وخر الإخوة له سجداً وتم له الملك والنعم . . قال : ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ [« الرسالة القشيرية » (٢٥٦)] .

وقال الأستاذ أبو علي ـ قدس الله روحه ـ : دخلت على الإمام أبي بكر بن فورك عائداً ، فلما رآني . . دمعت عيناه ، فقلت له : أسأل الله تعالىٰ أن يعافيك ويشفيك ، فقال لي : وتراني أخاف الموت ؟! إنما أخاف مما وراء الموت [« الرسالة القشيرية » (١٠٢)] .

وقال القشيري ـ قدس الله روحه ـ : سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله ينشد كثيراً ويقول هـٰذين البيتين :

أحسنتَ ظنَّك بالأيام إذ حَسُنَتْ ... ولم تخف سوء ما يأتي به القدرُ
وسالمتك الليالي فاغتررتَ بها ... وعند صفو الليالي يحدث الكدرُ

[« الرسالة القشيرية » (١٠٣)]

وقال الأستاذ أبو علي الدقاق رحمه الله : صاحب الحزن يقطع من طريق الله عز وجل في شهر ما لا يقطعه من فَقَدَ حزنه سنين [« الرسالة القشيرية » (١١٠)] .

وقال القشيري : وسمعت الأستاذ أبا علي يقول في قول النبي صلى الله عليه وسلم عن عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام : « لو ازداد يقيناً . . لمشىٰ في الهواء »[1] قال : إنما أشار بهـٰذا صلى الله عليه وسلم إلىٰ حال نفسه ليلة المعراج ؛ فإنه قال : « رأيت البراق قد بقي ومَشَيت » [« الرسالة القشيرية » (١٤٢)] .

وسمعته يقول : ليس الرضا ألاَّ تحس بالبلاء ، إنما الرضا أن لا تعترض على الحكم والقضاء ، واعلم : أن الواجب على العبد أن يرضىٰ بالقضاء الذي أُمر بالرضا به ؛ إذ ليس كل ما هو بقضائه يجوز للعبد أو يجب عليه الرضا به ، كالمعاصي وفنون مِحَنِ المسلمين .

قال : وسمعته يقول : قال تلميذ لأستاذه : هل يعرف العبد أن الله سبحانه راض عنه ؟ فقال : لا ، كيف يعلم ذلك ورضاه غَيْب ؟ فقال التلميذ : يعلم ذلك ، قال : كيف ؟ قال : إذا وجدتُ قلبي راضياً عن الله سبحانه . . علمت أنه سبحانه وتعالىٰ راض عني ؛ قال تعالىٰ : ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ ، فقال الأستاذ : أحسنت يا غلام . أو كما قال [« الرسالة القشيرية » (١٥١ـ١٥٢)] .

---

(١) نوادر الأصول للحكيم الترمذي (٣/ ١٧٠) .

وسمعته يقول : ليس شيء أشرف من العبودية ، ولا اسم أتم للمؤمن من الاسم بالعبودية ، ولذلك قال سبحانه وتعالىٰ في وصفه النبي صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج ـ وكان أشرف أوقاته في الدنيا ـ : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ ، فلو كان اسم أجل من العبودية . . لسماه به ، وفي معناه أنشدوا :

لا تَـدْعُـنـي إلا بيـا عبـدهـا ... فـإنـه أشـرفُ أسمـائـي[1]

وسمعته يقول : المريد متحمل ، والمراد محمول .

وسمعته يقول : كان موسىٰ عليه الصلاة والسلام مريداً فقال : ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ ، وكان نبيُّنا سيد المرسلين محمدٌ صلى الله عليه وسلم مراداً ، قال تعالىٰ : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ .

وكذلك قال موسىٰ عليه الصلاة والسلام : ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي﴾ ، وقال تعالىٰ لنبينا صلى الله عليه وسلم : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ ، وكان رضي الله عنه يقول : إن المعنىٰ : ألم تر أني ربك ، وقوله : ﴿كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ ، ستر للقضية وتحصين للحالة [« الرسالة القشيرية » (١٥٩ـ١٦٠)] .

وسمعته يقول : الإخلاص : التوقي عن ملاحظة الخلق ، والصدق التنقي من مطالعة النفس ، فالمخلص لا رياء له ، والصادق لا إعجاب له [« الرسالة القشيرية » (١٢٢)] .

وسمعته يقول : كان أبو علي الثقفي يتكلم يوماً ، فقال له عبد الله بن منازل : يا أبا علي ؛ استعد للموت ؛ فلا بد منه ، فقال أبو علي : وأنت يا عبد الله استعد للموت ؛ فإنَّه لا بد منه ، فتوسد عبد الله ذراعه ، ووضع رأسه ، وقال : قد مِتُّ ، فانقطع أبو علي الثقفي ؛ لأنه لا يمكنه أن يقابله بما فعل ؛ لأنه كان لأبي علي علاقات ، وكان عبد الله مجرداً لا شغل له [« الرسالة القشيرية » (١٦٥)] .

وسمعته يقول : الصدق : أن تكون كما يُرىٰ من نفسك ، أو تري[2] من نفسك كما تكون [« الرسالة القشيرية » (١٦٧)] .

---

(١) الرسالة القشيرية (١٥٦) .

(٢) في نسخة : (ترىٰ) في الموضعين .

وسمعت الشيخ أبا عبد الرحمٰن السلمي رحمه الله يسأل الأستاذ أبا علي ، فقال : الذِّكر أتم ، أم الفكر ؟ فقال الشيخ أبو علي : ما الذي يقع للشيخ فيه ؟ فقال : عندي الذِّكر أتم من الفكر ؛ لأن الحق سبحانه وتعالىٰ يوصف بالذِّكر ولا يوصف بالفكر ، وما وصف به الحق جل جلاله . . أتم مما اختص به الخلق ، فاستحسنه الشيخ أبو علي رحمهما الله [« الرسالة القشيرية » (١٧٤)] .

وكان الأستاذ أبو علي يقول : إن أصحاب الكسل عن عبادة الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ : هم الذين ربط الحق جل جلاله عليهم ، فأقدامهم مثقلة بالخذلان ، فاختار لهم البعد ، فأخرهم عن محل القرب ، فلذلك تأخروا .

وسمعته يقول : مَن صاحَب الملوك بغير أدب . . أسلمه الجهل إلى القتل [« الرسالة القشيرية » (٢٢٠)] .

وسمعته يقول في قوله تعالىٰ : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ قال : ولم يقل : ارحمني ؛ لأنه حفظ آداب الخطاب ، وكذلك عيسىٰ عليه الصلاة والسلام حيث قال : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ وقال : ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ﴾ ، ولم يقل : لم أقل ؛ رعاية لآداب الحضرة [« الرسالة القشيرية » (٢٢٢)] .

وسمعته يقول : جاء رجل إلىٰ سهل بن عبد الله فقال : أريد أن أصحبك يا أبا محمد ، فقال : إذا مات أحدنا . . فمَن يصحب الباقي ؟ قال : الله عز وجل ، قال : فليصحبه الآن [« الرسالة القشيرية » (٢٢٩)] .

وقال في « لوامع أنوار القلوب » : قال أبو علي الدقاق : برهان العابدين . . زكاء أعمالهم ، وبرهان العارفين . . صفاء أحوالهم ، وبرهان المحبين . . نقاء أنفاسهم ، وبرهان العالِمين . . نشر عجائب صنعه سبحانه وتعالىٰ ، وإظهار بدائع فطرته جل جلاله .

وقال الإمام محمد ابن الإمام أبي بكر الرازي : قال الأستاذ أبو علي في التفرقة والجمع[1] : الفرق : ما نسب إليك ، والجمع : ما سلب عنك .

---

(١) يقول شيخ الإسلام زكريا الأنصاري في « شرحه على الرسالة » (٦٠) : (فالحاصل أن من كانت أفعاله لله تعالىٰ وشاهدها طاعةً له تعالىٰ . . فهو في التفرقة ، ومن شاهدها جارية عليه فضلاً من الله فقد شاهدها بالله . . فهو في الجمع ، ومن غفل عنها وعن نفسه شغلاً بالله . . فهو في جمع الجمع) .

ومعناه : أن ما يكون كسباً للعبد من إقامة وظائف العبودية ، وما يليق بأحوال البشرية . . فهو فرق ، وما يكون من قِبَل الحق جل جلاله من إبداء معان وابتداء لطف وإحسان . . فهو جمع ، ولا بد للعبد منهما ؛ فإن مَن لا تفرقة له . . لا عبودية له ، ومَن لا جمع له . . لا معرفة له ، فقول العبد : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ : إثبات للتفرقة بإثبات العبودية ، ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ : طلب للجمع ، فإذا خاطب العبد ربه إما سائلاً ، أو داعياً ، أو مثنياً ، أو شاكراً ، أو مبتهلاً . . قام في مقام التفرقة ، وإذا أصغىٰ بسره إلىٰ ما يناجيه به مولاه جل جلاله ، واستمع بقلبه ما يناديه . . فهو في مقام الجمع .

وأنشد قوَّال بين يدي الأستاذ الإمام أبي سهل الصعلوكي رحمه الله :

جَعَلتُ تنزُّهي نظري إليكَ

وكان الإمام أبو القاسم النصرآباذي حاضراً ، فقال أبو سهل : (جعلتَ) بفتح التاء ، وقال النصرآباذي : بل بضمِّها ، فقال له أبو سهل : أليس عين الجمع أتم ؟! فوافقه النصرآباذي .

وهـٰذا ظاهر ؛ لأن معناه مع الفتح : أن الله سبحانه وتعالىٰ خصص عبده بذلك منحة من فضله وكرمه ، لا صنع للعبد فيه ، ومعناه مع الضم : إثبات فعل العبد ، فكان الأول جمعاً ، والثاني تفرقة .

وأما جمع الجمع : فهو مقام آخَر أتم من الجمع وأعلىٰ ، فالجمع : شهود الأشياء بالله سبحانه عز وجل ، والتبري من الحول والقوة إلا بالله سبحانه وتعالىٰ ، وجمع الجمع : الاستغراق بالكلية ، والفناء عن ما سوى الله عز وجل ، فلا يشاهد شيئاً سواه عند غلبة سلطان الحقيقة .

وبعد ذلك مقام عزيز ، يسمونه : الفرق الثاني ، وهو أن يُرَدَّ إلى الصحو عند أداء الفرائض في أوقاتها ، فيكون رجوعاً لله بالله ، لا للعبد بالعبد .

وقال بعض المحققين رحمه الله : المراد بلفظ الجمع والتفرقة : أن الله عز وجل جمع الخلق كلهم في الأزل ، وخاطبهم بقوله تعالىٰ : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ ، ثم فرقهم بالإسعاد والإشقاء ، والتقريب والإبعاد ، والإكرام والإهانة ، وأشباه ذلك .

وللجنيد رحمه الله في معنى التفرقة والجمع :

وتحققتـــــك فـــــي ســـــرْ ـــــرِي فنـــاجـــاك لســـانـــي
فـــــاجتمعنـــــا لمعـــــانـــــي وافتـــــرقنـــــا لمعـــــانـــــي
إن يكـــــــن غَيَّبَـــــــك التعـ ظيـــم عـــن لحـــظ عِيـــانـــي
فلقـــــد صيَّـــــرك الـــــوَجْـ د مـــن الأحشـــاء دانـــي[1]

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) انظر « الرسالة القشيرية » (٥٩ـ٦٠) .

ومنهم الإمام :

أبو عبد الله كهمسُ بن الحسن القيسي
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان أبو عبد الله كهمس بن الحسن يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة ، فإذا مل . . يقول لنفسه : قومي يا مأوىٰ كل سوء ، فوالله ؛ ما رضيتك لله عز وجل ساعة قط .

وكان قد اشترىٰ دقيقاً ، فاستمر ذلك الدقيق عنده وهو يأكل منه ويتصدق ولا ينقص ، فلما طال عليه ذلك . . كاله ، فوجده كيوم شرائه لم ينقص منه شيء .

وقال ابن هلال : سمعت أبا عبد الله كهمس ـ ونحن بمكة ـ يقول : كان لي جار يشتري لي هـٰذا التمر والرطب ، ويسأل لي عن الحوائط[1] ، فمنذ مات تركت الرطب والتمر .

وقال بشر بن الحارث رحمه الله : كان أبو عبد الله كهمس يوماً ماراً في طريق ، وكان معه دينار ، فسقط منه ، فلما علم . . رجع في طلبه ، فلما وجده . . لم يمسه ، فقيل له في ذلك ، فقال : يحتمل أن يكون غير ديناري ، ثم مضىٰ .

وقال أبو عبد الله كهمس قدس الله روحه : أكلت سمكاً يوماً ، وأخذت تراباً من حائط جاري غسلت به يدي ، فأنا اليوم منذ أربعين سنة أستغفر الله تعالىٰ وأدعو لذلك الرجل ، وأبكي علىٰ نفسي كيف أخذت التراب بغير إذن صاحبه .

وكان إذا قام من الليل . . يقول : إلـٰهي وسيدي ومولاي ؛ أتُراك معذبي وأنت قرة عيني ؟ يا حبيب قلباه ، عز جارك ، وجل ثناؤك ، ولا إلـٰه غيرك يا أرحم الراحمين .

وقال بشر بن الحارث رحمه الله : كان أبو عبد الله يصلي حتىٰ يغشىٰ عليه .

وقال إسحاق بن إبراهيم : دخلنا علىٰ كهمس في منزله ، فقرب إلينا إحدىٰ عشر

---

(١) **الحوائط** : البساتين ، والمقصود : أن جاره يسأل له ؛ حتىٰ يكون ما يأكله في غاية الحل ، وهـٰذا من الورع رضي الله عنهم .

بسرة[1] ، وقال : هـٰذا الجهد من أخيكم ، والحمد لله علىٰ هـٰذه النعمة السابغة .

أسند كهمس عن خلائقَ من التابعين رضوان الله عليهم أجمعين ، وكان مشغولاً ببر أمه ، فلما توفيت . . خرج إلىٰ مكة ، وجاور بها إلىٰ أن مات رحمه الله تعالىٰ . [انتهىٰ « الصفوة » ٣/ ١٨٤ـ١٨٥] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) البُسر : هو التمر الذي لم يتم نضجه .

ومنهم الإمام :

علي الجَرْجَرَائي
رضي الله عنه

قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : قال سري السقطي قدس الله روحه : كان علي الجرجرائي[1] من الزهاد الكبار ، واتفق أني خرجت من بغداد إلىٰ عبادان لأجل الرباط ، وكنت عزمت علىٰ أن أصوم بها رجباً وشعبان ورمضان ، فاتفق في طريقي علي الجرجرائي ، فقصدته وقعدت عنده ، فلما أن كان وقت الإفطار كان معي ملح مدقوق وأقراص ، فقلت له : هلم يرحمك الله ، فقال : ملحُك مدقوق ؟! [لن تفلح] ولن تدخل بستان المحبين ما دام ملحك مدقوقاً ، ثم نظرت إلىٰ مزود معه فيه سويق الشعير ، فسف منه ، فقلت له : ما دعاك إلىٰ هـٰذا ؟ فقال : إني حَسَبت ما بين المضغ إلى الاستفاف قدر سبعين تسبيحة ، فما مضغت الخبز منذ أربعين سَنة ، قال : فلما دخلنا عبادان . . قلت : موعظة أحفظها عنك ؟ فقال : نعم إن شاء الله تعالىٰ :

احفظ عني خمس خصال : عانق الفقر ، وتوسد الصبر ، وعاد الشهوات ، وخالف الهوىٰ ، وافزع إلى الله سبحانه وتعالىٰ في جميع أمورك ، فإذا فعلت ذلك . . وهب الله عز وجل لك خمساً : الزهد ، ومع الزهد القُنوع ، ومع القنوع الرضا ، ومع الرضا المعرفة ، ومع المعرفة الشوق ، ثم يهب لك خمساً : السباق[2] ، والبِدَار[3] ، والتخفف ، وحسن البشارة ، وحسن المنقلب إلى الله سبحانه وتعالىٰ .

أولـٰئك أحباء الله ، قلت : فأين ترىٰ لي أن أسكن ؟ قال : ارحل نحو جبل لكام ،

---

(١) في « الحلية » : (الجرجاني) ، ولعل الصواب ما أثبت ؛ لأنها نسبة إلىٰ جرجرايا ، وهي بلد بين بغداد وواسط ، وقد خرج منها جماعة من العلماء والشعراء والكتاب والوزراء . انظر « معجم البلدان » (٢/ ١٢٣) .

(٢) **السِّباق** : أي أن يعمل الإنسان في الدنيا للاستباق في الجنة ، ومنه ما رواه الطبراني في « الأوسط » (٣/ ٣٠٧) عن عائشة رضي الله عنها ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : « اليوم المضمار ، وغداً السِّباق » .

(٣) **البِدَار** : الاحتساب عند المصائب ؛ وذلك طلباً للأجر وتحصيله بالتسليم والصبر .

قلت : فهل شيء أعيش به ؟ قال : فقطَّبَ في وجهي ، وقال لي : تفر إلى الله لأجل دِينك ، وتستبطئه في رزقك ؟! قال : ثم ذهب ، فلا والله ؛ لا أدري أَدَخل البحر ، أم لا . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ١١٠ـ١١١] .

وقال الإمام أبو حامد الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : انظر إلىٰ قوله : (حَسَبت ما بين المضغ إلى الاستفاف قدر سبعين تسبيحة) .

كيف أشفق علىٰ وقته ، فلم يضيعه في المضغ ؛ فإن كل نَفَسٍ من العمر جوهر نفيس لا قيمة له ، فينبغي أن تغتنمه ، فتستوفي منه خزانةً باقيةً في الآخرة لا آخر لها ، وذلك فيما إذا صرفه إلىٰ عبادة الله سبحانه وتعالىٰ ، وذِكره ، وطاعته . [انتهىٰ « الإحياء » ٣/ ٨٦] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم بالصواب

* * *

ومنهم الإمام :

أبو عبيد البُسري
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان أبو عبيد البسري صاحب كرامات :

منها : أنه كان في غزاة ، فاتفق أن المُهر الذي كان تحته مات وهو في السرية ، فقال أبو عبيد البسري : اللهم ؛ إني أسألك يا رب أن تعيرنا إياه حتىٰ نرجع إلىٰ بُسر[1] قال : فوثب المُهر قائماً ، فلما غزا ورجع من الغزاة إلىٰ بسر . . قال لابنه : يا بني ؛ خذ السرج عن المهر ، قال : يا أبتِ ؛ إنه عَرِقٌ ، فقال : يا بني ؛ إنه عارية ، قال : فلما أخذ السرج عنه . . وقع المهر ميتاً .

ومنها : أن الخادم الذي كان يخدم أبا عبيد قال : ودعته حين أردت الحج ، فقال لي : هل معك شيء ؟ قلت : لا ، ليس معي إلا هـٰذه الركوة ، فقال لي : إذا أردت شيئاً أو جعت أو عطشت . . صل ركعتين ، واجعل الركوة عن يمينك ، فإذا سلمت . . رأيت ما تحب ، قال : فجئت إلىٰ بعض المنازل وليس فيه ماء ، فقلت في نفسي : قد قال أبو عبيد ما قال ، وهو صادق ، فأخذت الركوة ، فوضعتها علىٰ يميني وصليت ركعتين ، فلما سلمت . . جاءت الرياح والمطر بماء كثير ، فقمت ، فأخذت الركوة ، ثم صحت بالناس ، فجاؤوا واستقوا حتىٰ ملؤوا رواياهم[2] .

ومنها : ما حكاه أبو زرعة عنه قال : كان أبو عبيد بعرفات وإلىٰ جانبه ولده ، فالتفت إليه وقال له : ليهنك الفارس ، [فقال له : يا أبت ؛] وأي فارس ؟ [فقال له :] ولد لك الساعةَ غلام ، قال : فلما وصل إلىٰ منزله في بسر . . وجد امرأته قد ولدت غلاماً في تلك الساعة .

ومنها : قال خادمه : كنت جالساً مع أبي عبيد في السوق بدمشق ، وكان معنا جماعة من

---

(١) بُسر : اسم قرية من أعمال حوران من أراضي دمشق ، ولعلها قرب إزرع . انظر « معجم البلدان » (١/ ٤٢٠) .

(٢) مفردها : راوية ، وهي : المزادة يوضع فيها الماء .

إخوانه ؛ إذ مر بنا رجل علىٰ دابة ، وخلفه غلام له بيده غاشية[1] ، فلما حاذىٰ أبا عبيد . . قال : اللهم ؛ أعتقني وأرحني منه ، ثم قال : يا أبا عبيد ؛ ادع الله عز وجل لي ، فقال أبو عبيد : اللهم ؛ أعتقه من النار ومن الرق ، فعثرت الدابة بمولاه في الحال ، فسقط إلى الأرض ، فالتفت إلى الغلام ، وقال : أنت حر لوجه الله عز وجل ، فرمى الغلام الغاشية إليه ، وقال : يا مولاي ؛ أنت لم تعتقني ، إنما أعتقني هـٰذا ، ثم لزم أبا عبيد وصحب أصحابه إلىٰ أن توفي بينهم .

وقال ابن أبي حسان : قال لي أخي أبو عبيد يوماً : يا حسان ؛ ما غَمِّي ولا أسفي إلا علىٰ ما قصرت في واجب حق الله تعالىٰ ، ثم قال : لو قمت على الجمر أبد الآبدين . . لكنت مقصراً ، وما ثَم إلا عفوه ومغفرته سبحانه وتعالىٰ .

وقال أبو عبيد : إن لله عز وجل عباداً يريهم في بدايتهم ما في نهايتهم . [انتهىٰ « الصفوة » ٤/١٦٨ـ١٦٩] .

وقال في « بهجة الأسرار » : قال ابن أبي حسان رحمه الله : جاء ابن أبي عبيد البسري إلىٰ أبيه ، فقال : يا أبت ؛ خرجت بسمنٍ في جرارٍ ، فوقعت الجرار وتكسرت ، فذهب ما فيها من السمن ، فذهب رأس مالي ، فقال له أبوه : يا بني ؛ اجعل رأس مالك رأس مال أبيك ، فوالله ؛ ما لأبيك رأس مال في الدنيا ولا في الآخرة غير الله سبحانه وتعالىٰ . [انتهىٰ] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) **الغاشية** : الغطاء .

ومنهم الإمام :

أبو الفوارس شاهُ بن شجاع الكرماني
رضي الله عنه

قال في « أُنس المنقطعين » : كان سبب زهده وخروجه عن ملك كرمان : أنه خرج يوماً للصيد ، فأمعن في الطلب حتىٰ وقع في برِّية مقفرة وحده ، ليس معه من الجيش أحد ؛ فإذا هو بشاب راكب علىٰ سبع وحوله سباع ، فلما رأته السباع . . ابتدرت إليه ، فزجرهن ذلك الشاب عنه ، فلما قرب منه . . سلم الشاب عليه ، وقال له : يا شاه ؛ ما هـٰذه الغفلة عن الله عز وجل ، واشتغالك بدنياك عن أمر آخرتك ، وبلذتك عن خدمة مولاك رب العالمين جل جلاله ؟! فهو سبحانه إنما أعطاك الدنيا لتستعين بها على الآخرة ، وترتحل بها إلىٰ مولاك ، فجعلتها أنت ذريعة إلى الاشتغال بحظوظ نفسك .

قال : فبينما الشاب يحدث شاه ؛ إذ ظهرت عجوز بيدها شربة فيها ماء ، فناولتها الشاب ، فشرب ، ثم دفع بقيته إلىٰ شاه ، فشرب وقال : والله ؛ ما رأيت شيئاً ألذ منه ، ولا أبرد ، ولا أعذب ، ثم غابت العجوز ، قال : فقلت : مَن هـٰذه ؟ فقال الشاب : هـٰذه الدنيا ، وَكَّلها الله عز وجل بخدمتي ، فما احتجت إلىٰ شيء إلا أحضرته حين يخطر ببالي ، أمَا بلغك أن الله تعالىٰ لما خلق الدنيا . . قال لها : (يا دنيا ؛ مَن خدمني . . فاخدميه ، ومَن خدمك . . فاستخدميه)[1] .

فلما رأىٰ شاه ذلك . . ترك المُلك وتزهد ، وعزفت نفسه عن الدنيا ، إلىٰ أن كان منه ما كان . انتهىٰ .

وقال أبو الفرج : كان أبو الفوارس من أبناء الملوك ، فترك الملك وتزهد ، وكان حاد الفراسة ، قلما أخطأت فراسته .

وكان يقول : **مَن غض بصره عن المحارم ، وأمسك نفسه عن الشهوات ، وعمر باطنه**

---

(١) أخرجه بنحوه الديلمي (٥/ ٢٣٩) .

بدوام المراقبة وظاهره باتباع السُّنة ، وألزم نفسه أكل الحلال . . لم تخطىء له فراسة .

وكان يقول : كل مَن صاحبك ووافقك علىٰ ما يحب وخالفك علىٰ ما يكره . . فإنما يصحب هواه ، ومَن صحب هواه . . فهو يطلب راحة الدنيا ، فاحذر صحبة مثل هـٰذا .

وقال : إن لأهل الفضل فضلاً ما لم يروه ، فإذا رأوه . . فلا فضل لهم ، وإن لأهل الولاية ولاية ما لم يروها ، فإذا رأوها . . فلا ولاية لهم .

صحب أبو الفوارس أبا تراب النخشبي ، وأبا عبيد البسري ، وغيرهما .

قال عبد الله بن محمد الرازي : أظنه توفي بعد المئتين وسبعين رحمه الله . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ٤٣ـ٤٤] .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : قال أبو الفوارس شاه الكرماني رحمه الله : مِن علامة حب الله عز وجل . . حب أوليائه ، **ومَن نظر إلى الخلق بعينه . . طالت خصومته معهم ، ومَن نظر إليهم بعين الحق . . عذرهم فيما هم فيه ، وقَلَّ اشتغاله بهم .**

وكان أبو الفوارس يقول لأصحابه : أخبروني بما يجري علىٰ سركم ، فإذا أخبروه . . داوىٰ كلَّ واحد منهم بما يصلح له ، ويقول : ليس بعاقل مَن كتم داءه عن الطبيب .

وكان يقول : مِن علامة الركون إلى الباطل . . القرب والاجتماع بأهله .

وقال محمد بن أحمد : كنت عند سهلٍ التستري يوماً ، فسقطت حمامة بيننا ، فجعلت أُنحِّيها وهي لا تتحرك ، فقال لي سهل : أطعمها واسقها ، ففعلْتُ ، فأكلَتْ وشربَتْ ، ثم طارت ، فقلت لسهل : ما خبر هـٰذه ؟ فقال لي : يا أبا عبد الله ؛ كان لي أخ بكرمان مات اليوم ، فجاءت هـٰذه تعزيني فيه .

و[قال أبو عبد الله : وأظنه ذكر] شاه بن شجاع الكرماني ، وكان من الأبدال ، فأرَّخْتُ ذلك اليوم ، فقدم قوم من أهل كرمان بعد أيام وأخبرونا بموته ، وعَزَّونا فيه ، وذكروا أنه مات في ذلك اليوم الذي جاءت الحمامة فيه . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ٢٣٧ـ٢٣٨] .

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري ـ رحمه الله ـ : كان بين يحيى بن معاذ الرازي الذَّكَّار وبين أبي الفوارس شاه الكرماني صداقة ومودة أكيدة .

وكان شاه لا يحضر مجلس يحيى بن معاذ ، فتعجب الناس من ذلك ؛ لِمَا بينهما من المودة والأُلفة ، فقال بعض الناس لشاه الكرماني : يا سيدي ؛ لِمَ لا تحضر مجلس يحيىٰ وهو صاحبك ؟ فلم يجبه ، وسكت ، فأعاد القول مراراً وشاه الكرماني ساكت ، ثم إن

الناس ما زالوا به حتىٰ إنه حضر يوماً ، وجلس في مكان لا يشعر به يحيىٰ ، فلما جلس يحيىٰ علىٰ عادته وأراد أن يتكلم . . أرتج عليه[1] ولم يقدر أن يتكلم ، فقال : هٰهنا مَن هو أولىٰ بالكلام مني ، فلا أقدر على الكلام لمكانه ، فعند ذلك عرف الحاضرون عذر شاه في امتناعه من الحضور ، ولٰكنه ما كان يمكنه أن يُظهر لهم عذره في عدم الحضور ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

قال أبو القاسم القشيري ـ قدس الله روحه ـ : قال أبو علي الدقاق رحمه الله : كان أبو الفوارس شاه بن شجاع الكرماني يغلب عليه السهر ، فغلبه النوم مرة ، فرأىٰ في منامه الحق جل جلاله ، فصار بعد ذلك يتكلف النوم طمعاً في رؤية الباري عز وجل ، فلما قيل له في ذلك . . أنشد :

رأيت سرور قلبي في منامي فأحببت التناعس والمَنَاما[2]

وقال في « لوامع أنوار القلوب » : قال أبو الفوارس شاه بن شجاع المروزي ثم الكرماني رحمه الله : حقيقة المحبة : خوف ترك الحرمة مع إقامة الحدود في أوقات الخدمة ، وإسبال الدموع في حال الرضا ؛ حذراً من الانقطاع والهجر ، فيؤدي طاعة المحبوب علىٰ أشرف الأحوال ، وينظر إليها بأصغر العيون ، فيخضع لمحبوبه نظراً إلىٰ كثرة مِننه عليه ، ومعتقداً تقصيره في طاعته له ، فتجري دموعه تحسراً ، ويدوم حزنه تحيراً .

وقال أيضاً : المحبة : إيثار إرادات المحبوب ، ومحبة محبوب المحبوب .

فإن محبة أولياء الله عز وجل دليل علىٰ محبة الله سبحانه وتعالىٰ ، والتورع عن الشبهات دليل علىٰ خشية الله تبارك وتعالىٰ ، والتأول عليها دليل علىٰ سخط الله .

فعلامة التقوىٰ : الورع ، وعلامة الورع : تجنب الشبهات ، وعلامة المشاهدة : دوام الحزن ، وعلامة الخوف : إسبال الدموع ، وعلامة الرجاء : حسن الطاعة ، وعلامة الزهد : قصر الأمل ، والعُجب نفسه دليل على الحجاب ، **وأصل المحبة** : التسليم والرضا لما يفعله المحبوب .

قيل : دخل أبو سليمان علىٰ بعض أصحابه يعوده وقد أشرف على الموت ، فقال له : مم

---

(١) **أُرتج عليه** : أستَغلَق عليه الكلام .

(٢) الرسالة القشيرية (٣٠٦) .

تشكو إلى الله عز وجل ؟ قال : مِن قلة البلاء ، فقال : ما هـٰذا التجلُّد ؟ فقال : طلباً للرضا ، ثم قال : يا شيخ ؛ سله أن يزيدني سبحانه وتعالىٰ من البلاء ، فكل ما عندي عطاء ، ومَنِ العبدُ حتىٰ لا يفتخر بما يرضىٰ له مولاه جل جلاله ؟! ثم ذكر الشهادتين وفارق الدنيا ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو يعقوب الزيات
رضي الله عنه

قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : كان أبو يعقوب الزيات مغتنماً[1] أوقاته ، مشتغلاً بنفسه يراعي خطراته .

وقال أبو القاسم الجنيد : قصدت زيارة أبي يعقوب الزيات ، وكان معي جماعة ، فلما جئت إلىٰ منزله . . طرقت الباب ، فقال لنا مِنْ داخل الباب : أما كان لكم من الشغل بالله سبحانه وتعالىٰ ما يمنعكم عن المجيء إلي ؟ قال : فقلت له : إن مجيئنا إليك هو من شغلنا بالله سبحانه وتعالىٰ ، فلا تقطعنا عنه ، ففتح الباب ، فلما جلسنا . . سألته عن مسألة في التوكل ، فأخرج درهماً كان عنده ، ثم أجابني ، فأعطى التوكل حقه ، ثم قال لي : إني استحييت من الله عز وجل أن أجيبك وعندي شيء .

قال : فقلت له : ما تقول فيمن له في كل علم حظ ، وهو مع ذلك يحسن القيام بصفات الحق جل جلاله وصفات الخلق ، هل له مجالسة الناس ؟ فقال : إن كنت أنت . . هو ، وإلا . . فلا . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ٢٢٣ـ٢٢٤] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : قد وقع مثله لجماعة كثيرة من العارفين رحمهم الله .

منهم : سيدي السري رحمه الله ، وقد مر في ترجمته .

ومنهم : أبو علي الروذباري رحمه الله ؛ فإنه جرت مسألة بين جماعة من الشيوخ ـ وفيهم أبو علي ـ فتكلموا فيها وأبو علي ساكت ، فقالوا : يا أبا علي ؛ لِمَ لا تتكلم ؟ فقال : رأيت طريقها طريق المعاملة ، فاستحييت من الله عز وجل أن أتكلم فيها .

وقال الجنيد : كان أبو بكر بن مسلم رجلاً نبيلاً يظن أن كل متكلم وبائع ومشتر مشغول بذِكر الله عز وجل .

---

(١) في نسخة : (مُقَسِّماً) .

وكان قد تقدم إلىٰ أصحابه ألاَّ يأتوه بين الظهر والعصر ، فجئت يوماً في ذلك الوقت ودققت الباب ، فقال : مَن هـٰذا ؟فقلت : الجنيد ، فقال لي : أمَا كان من الشغل بالله عز وجل ما يمنعك من المجيء إلي ؟ فقلت : إذا كان مجيئُنا إليك . . كان من شغلنا بالله سبحانه وتعالىٰ ، فلا تقطعنا عنه ، ففتح الباب ، فدخلت عليه ، فلم أزل أذاكره حتىٰ أخذ علي وعداً متىٰ أرجع إليه ، فلما خرجت من عنده . . وجدت علىٰ باب داره رجلاً من أصحابه ، فسألني عن التوبة ، فقلت له : منذ كم تصحب هـٰذا الشيخ ؟ فقال : منذ ثلاثين سَنة ، فقلت له : ما أعجب هـٰذا الأمر! تصحب إمامنا ثلاثين سَنة ، وتسألني أنا عن التوبة ؟! فقال : دع عنك هـٰذا ، حكم المسلم أن يعرف التوبة في كل وقت ، وأن يتوب إلى الله عز وجل ، فعلمت أنه أفقه مني . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو الحسين أحمد بن محمد النوري

رضي الله عنه

قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : كان عبد الله بن أحمد بن محمد الباهلي يعرف بغلام الخليل[1] ، قد حصل له محنة ، وكان أبو الحسين النوري رحمه الله تعالىٰ يجتمع عنده غلام الخليل وغيره[2] .

قال عمر البناء البغدادي : فلما كانت محنة غلام الخليل . . امتُحن النوري أيضاً ، وسُعي به وبجماعة إلى الخليفة ، فأمر الخليفة بالقبض عليهم ، وأُخذ النوري مع جماعة ، فأدخلوا على الخليفة ، فأمر بضرب أعناقهم .

فتقدم النوري مسرعاً إلى السَّيَّاف ليضرب عنقه ، فقال له : ما دعاك إلى المسارعة إلى القتل من بين أصحابك ؟ فقال : أؤثر حياتهم علىٰ حياتي هـٰذه الساعة ، فتوقف السَّيَّاف عن قتله ، فتعجب الحاضرون من أمره ، ثم رُفع الأمر إلى الخليفة ، فتعجب ، ورَدَّ أمرهم إلىٰ قاضي القضاة ، وكان القاضي يومئذ إسماعيل بن إسحاق ، فلما حضروا إليه . . تقدم أبو الحسين النوري . . فسأله القاضي عن عدة مسائل في العبادات ، فأجاب بأحسن جواب ، ثم قال له : وبعد هـٰذا ، فلِله عباد يسمعون بالله ، وينطقون بالله ، ويَصْدُرون بالله ، ويَرِدون بالله ، وحركاتهم كلها بالله ، فإن قاموا . . قاموا بالله ، وإن نطقوا . . نطقوا بالله .

فلما سمع القاضي كلامه . . بكىٰ بكاء كثيراً ، ثم قام ودخل إلى الخليفة ، وقال : يا أمير

---

(١) كذا في جميع النسخ ، خلافاً لما ورد في أكثر المراجع من أن غلام الخليل : هو لقب لأحمد بن محمد الباهلي ، ويكنىٰ بأبي عبد الله . انظر « سير أعلام النبلاء » (١٣/ ٢٨٢) و« تاريخ بغداد » (٥/ ٧٥) و« المنتظم » (٥/ ٩٦) .

(٢) أما المحنة : فهي ما جرىٰ علىٰ لسانه من نسبة الصوفية إلى الزندقة عندما حاول الرد عليهم ، فكان ينكر الخطأ بخطأ أغلظ منه ، فأمر الخليفة بالقبض عليه وعلىٰ كل من كان يجالسهم ويجتمع معهم ، ومنهم أبو الحسين النوري . انظر « تاريخ بغداد » (٥/ ١٣٤) و« سير أعلام النبلاء » (١٣/ ٢٨٤) .

المؤمنين ؛ إن كان هـٰؤلاء القوم زنادقة . . فما علىٰ وجه الأرض مسلم ، فأمر الخليفة بإطلاقهم .

وكان القاضي قد سألهم : مِن أين تأكلون ؟ فقالوا : لسنا نعرف الأسباب التي بها يُطلب الرزق ، إنما نعرف مسبب الأسباب الخالق الرازق سبحانه وتعالىٰ .

ولما خلص النوري من المحنة . . أقام بالرقة سنين متخلياً عن الناس ، ثم بعد ذلك عاد إلىٰ بغداد ، وقد فقد أناسه وجُلاَّسه ، فانقبض عن الكلام ؛ لضعف في بصره وانحلال في جسمه وقوته رحمه الله .

وحج أبو الحسين النوري مرة ، ثم قدم مكة في غير أوان الحج ، فخرج أصحابه للقائه ، فرأوه متغيراً ، فقالوا له : يا أبا الحسين ؛ هل تغير الأسرار من تغير الأَبشار ؟ فقال : لا ؛ لأن الحق جل جلاله يدفع عن قلوب أوليائه كل تعب ونصب .

وعن جعفر بن الزبير الهاشمي قال : رأيت أبا الحسين النوري وقد دخل يوماً في الماء ، فجاء لص وأخذ ثيابه ، فلما عرف . . مكث في الماء لحظة ، فلم يكن بأسرع من أن رجع اللص ومعه ثياب النوري علىٰ يده اليسرىٰ ، ويده اليمنىٰ قد جفت ، فقال له النوري : تتوب إلى الله عز وجل ؟ قال : قد تبت ، فقال : يا رب ؛ أنت العالم بكل شيء ، قد رد علي ثيابي فرد عليه يمينه ، قال : فرد الله عز وجل عليه يمينه ، ثم ذهب وصار ناسكاً . [انتهىٰ « الحلية » ١٠/٢٤٩ـ٢٥١] .

زاد في « لوامع أنوار القلوب » : قال جعفر الدبيلي[1] : كنت مع أبي الحسين النوري ، فدخل الماء ، فتأملت جسده كالخلال[2] ، ووجهه كهالة البدر ، فقلت له : قد ضعفتَ لمكان ضعف قوتك ، فقال : بعناه سبحانه الأرواح والأنفس ، واشترىٰ سبحانه وتعالىٰ ، وهو سبحانه أملَكُ بما اشتراه ، إن شاء . . أتلفه ، وإن شاء . . أحياه ، وقد بقي لنا القلب ، فأرجو أن يكون قد صلح لمعرفته ، ثم قال : وأين نحن حتىٰ نقول صلح لمحبته ؟ قال : فبينا أنا في طيب الكلام معه ؛ إذ جاء لص وسرق ثيابه . . . ثم ذكر باقيه . [انتهىٰ] .

وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ : كان النوري قد مرض مرة والجنيد قد مرض أيضاً في ذلك الوقت ، فأما الجنيد . . فإنه أخبر عن علته ، وأما النوري . . فإنه كتم أمره ، فقيل له : لِمَ لَمْ

---

(١) في نسخة : (الديلي) .

(٢) أي : كالعود نحافة .

تخبر كما أخبر صاحبك ؟ فقال : ما كنا نُبتلىٰ ببلوىٰ فتقع عليها الشكوىٰ ، ثم أنشأ يقول :

إن كنـــتُ للسُّقْـــم أهـــلا فـــأنـــت للشكـــر أهـــلا
عَـــذِّبْ فلـــم يبـــق قلـــب يقـــول للسُّقْـــم مهـــلا

فأُخبر الجنيد بأمر النوري من الكتمان ، فقال الجنيد : لم يقع ذلك علىٰ سبيل الشكوىٰ ، ولـٰكن القصد إظهار الفاقة لدفع البلوىٰ .

وكان أبو الحسين النوري يوصي أصحابه بأنهم لا يخالطون من كان فيه أحد هـٰذه الأوصاف :

الأول : قال : كل مَن رأيت حاله يخرجه عن الكتاب والسُّنة . . فلا تقربن منه .

و[**الثاني**] : كل مَن رأيته يركن إلىٰ غير أبناء جنسه أو يخالطهم . . فلا تقربن منه .

و[**الثالث**] : كل مَن رأيته يسكن إلى الرئاسة والتعظيم . . فلا تقربن منه ، ولا ترجو فلاحه .

و[**الرابع**] : كل فقير رجع إلى الدنيا . . فلا تقربن منه .

و[**الخامس**] : كل مَن رأيته مستغنياً بعلمه . . فلا تأمن جهله .

و[**السادس**] : كل مَن رضي عن نفسه وسكن إلىٰ حاله . . فهو مخدوع . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ٢٥١ـ٢٥٢] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : أبو الحسين النوري رحمه الله تعالىٰ ولد ببغداد ، ونشأ بها ، وهو خراساني الأصل ، من قرية بين هراة ومرو الروذ يقال لها : بغو[1] ، ولذلك كان يعرف بابن البغوي .

قال أبو أحمد المغازلي رحمه الله : ما رأيت أعبد من النوري ، قيل له : ولا الجنيد ؟ قال : ما رأيت أعبد من النوري .

قال : وكان عنده كوز يسع خمسة أرطال ماء بالعراقي ، يشربها في خمسة أيام وقت الفطر .

وقال أبو جعفر الفرغاني : مكث أبو الحسين النوري عشرين سَنة يأخذ كل يوم رغيفين ، ويخرج إلى السوق يتصدق بهما ، ثم يدخل المسجد ، فلا يزال يصلي إلىٰ أن يجيء وقت

---

(١) ويقال لها : (بغشور) أيضاً . « معجم البلدان » (١/ ٤٦٨) .

سوقه ، فيقوم ، فيدخل السوق ، فيظن مَن في السوق أنه قد أكل في بيته ، ويظن مَن في بيته أنه قد أكل في السوق ، ولا يشعرون أنه صائم .

وقال أبو عمرو الأنماطي : اعتل النوري ، فبعث إليه الجنيد بصُرَّة فيها دراهم ، فردها ولم يقبلها ، ثم إن الجنيد اعتل ، فدخل عليه النوري عائداً ، وقعد عند رأسه ، ووضع يده الكريمة علىٰ جبهته ، فعوفي من ساعته .

وسئل أبو الحسين النوري عن الرضا فقال : عن وجدي تسألون ، أم عن وجد الخلائق ؟ فقيل له : عن وجدك ، فقال : لو كنت في الدرك الأسفل من النار . . لكنت أرضىٰ مِن بعض مَن هو في الجنان في الفردوس .

صحب النوري سرياً السقطي ، وأسند عنه ، وتوفي قبل الجنيد ، سَنة خمس وتسعين ومئتين . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٢٦٤] .

وقال أبو القاسم القشيري ـ رحمه الله ـ : قال أبو الحسين النوري رحمه الله : إن الحق جل جلاله لما شاهد القلوب . . لم ير قلباً أَشْوَقَ إليه من قلب محمد صلى الله عليه وسلم ، فأكرمه بالمعراج تعجيلاً للرؤية والمكالمة . انتهىٰ .

وقال في « مناقب الأبرار » : كان أبو الحسين النوري مشغولاً بعبادة الله سبحانه وتعالىٰ ، آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، ومتىٰ رأىٰ منكراً . . غيَّره جُهدَه .

فلما كان ذات يوم . . جاء إلى الشط ليتوضأ ، فرأىٰ سفينة فيها نحو من ثلاثين دنّاً مكتوباً عليها بالقار : لطف ، فعجب من ذلك واستغربه ؛ فإنه لم يعرف في أصناف البضائع شيئاً اسمه : لطف ، فقال للملاح : ما في هـٰذه ؟ فقال الملاح : وما عليك من ذلك ؟! امض لسبيلك ، فقال له : أخبرني بما فيها ، فقال : أنت ـ والله ـ فضولي ، هـٰذا خمر للخليفة المعتضد ، فلما قال ذلك . . أخذته الغَيرة لله عز وجل ، فقال : أعطني ذلك المذرىٰ[1] ، فدفع إليه ذلك الملاح المذرىٰ لينظر ما يصنع ، فأخذ أبو الحسين المذرىٰ ، وصعد إلى السفينة ، ولم يزل يكسر دناً دناً حتىٰ إذا لم يبق إلا دنٌّ واحد . . تركه ، والملاح يستغيث ، فركب بعض حاشية المعتضد وقبضوا النوري ، وأحضروه إلى المعتضد ، وكان المعتضد سيفه قبل كلامه .

---

(١) **المذرىٰ** : خشبة ذات أطراف ، وهي الخشبة التي يذرىٰ بها الحَب وينقَّىٰ .

فلما أدخل عليه.. قال له : مَن أنت ؟ قال : محتسب ، فقال : مَن ولاك الحسبة ؟ قال : قلت : الذي ولاك الخلافة ، فقال : وما حملك علىٰ ما صنعت ؟ قال : قلت : شفقة مني عليك ، فبسطت يدي إلىٰ إزالة المكروه عنك ، فأطرق مفكراً في كلامي ، ثم رفع رأسه وقال : كيف تركت هـٰذا الدن من باقي الدنان ؟ قال : فقلت : في تركه سر لطيف ، فقال : وما هو ؟ فقلت له : إني لما أقدمت علىٰ كسر الدنان.. غبت عن نفسي ، وزالت رؤية الخلق عني ، فأقدمت عليها في حال الاستغراق ومطالبة الحق جل جلاله إياي بذلك ، وانغمر قلبي بعظيم الاحترام ، وخوف المطالبة منه سبحانه وتعالىٰ ، فلما بلغت إلىٰ هـٰذا الدن.. عادت إلي نفسي ، وخامر قلبي هوىً ، وقلت : إني قد أقدمت علىٰ هـٰذا الفعل مع الخليفة ، فامتنعت من كسره لذلك ، ولو استمرت الغيبة والخاطر الأول.. لكسرته ، فقال له المعتضد : قد أطلقتُ يدك ووليتك الحسبة ، فغيِّر ما أحببت ، فقال : لا أفعل ؛ لأني كنت أغير المنكر لله عز وجل عن الله ، فلا أستطيع أن أغيره بولاية مخلوق مثلك ، فقال له : وما حاجتك ؟ قال : تأذن لي بالانصراف ، قال : فأذن له .

فلما خرج من عنده.. انحدر إلى البصرة ، وأقام بها إلىٰ أن توفي المعتضد ؛ خوفاً من الشفاعة عنده في حاجة ، ثم عاد إلىٰ بغداد .

زاد في رواية أخرىٰ : أن الدن الذي لم يُكسر لما فتح.. وجدوه خلاً .

وكان أبو الحسين النوري يتمنى الجهاد كثيراً ، وكان يسأل الله تعالىٰ في غالب أوقاته الغزاة مع الكفار ، قال : فرأىٰ في منامه ليلة كأن ملَكاً قد نزل من السماء ، وهو يقول له : إنك لو دخلت الثغر وغزوت.. أُسرت ، ولو أُسرت.. ارتددت ، فإذا سَأَلت.. فاسألِ الله تعالى العافية والإماتة على التوحيد ، قال : فلما استيقظ.. لم يعد يسأل الغزاة .

قالوا : وكان من كراماته رحمه الله : أنه كان إذا دخل مسجد الشونيزية.. ينقطع ضوء السراج ، وإذا نام في موضع.. لا تؤذيهم البراغيث .

ولما احتُضِر.. حضره بعض أصحابه ، فقال له : يا أبا الحسين ؛ هل تشتهي شهوة ؟ قال : فرفع رأسه وقد انكسر لسانه ، وقال : إي والله ؛ أشتهي شهوة كبيرة ، فقيل : وما هي ؟ قال : أشتهي رؤية الله عز وجل ، ثم تنفس نفساً عالياً كالمتواجد ، وفارق الدنيا رحمه الله . انتهىٰ .

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري ـ رحمه الله ـ : لما احتُضِر النوري رحمه الله تعالىٰ..

قيل له : قل : لا إلـه إلا الله ، فقال : أليس إلىٰ ثَمَّ أمرٌ[1] ؟! ثم توفي رحمه الله تعالىٰ . انتهىٰ [« الرسالة القشيرية » ٢٣٨] .

زاد في رواية أخرىٰ : أليس إليه عز وجل أمر ؟!

وقال في « المنتخب » : قال أبو الحسين النوري رحمه الله : لا يصح للعبد مقام المشاهدة وفيه نظر إلىٰ غير الله عز وجل ، ومتىٰ طلع الصباح . . استُغني عن ضوء المصباح ، وأنشد :

فلما استبان الصبح أَدْرَجَ ضوؤُه ... بأنواره أنوارَ ضوء الكواكبِ
يجرِّعهمْ كأساً لو ابتُلِيَتْ لظىً ... بتجريعها طارت كأسرع ذاهبِ

وقال في « المختار »[2] :

قال الجنيد : منذ مات النوري رحمه الله . . لم يخبر عن حقيقة الصدق أحد .

وسئل النوري عن مسألة فأنشد :

وكم رمتُ أمراً خِرْتَ لي بانصرافه ... فما زلتَ بي مني أَبَرَّ وأرحما
عزمتُ علىٰ ألاَّ أُحِسَّ بخاطر ... على القلب إلا كنتَ أنت المقدَّما

وروي أنه كان سبب موته أنه سمع قائلاً ينشد هـٰذا البيت :

ما زلتُ أنزل من ودادك مَنزِلاً ... تتحير الألباب عند نزولِهِ

فهام وتواجد ، ثم مات رحمه الله تعالىٰ . [انتهىٰ] .

وقال في « المختصر » : روي أنه جاع بالبادية أياماً ، فهتف به هاتف : أيما أحب إليك سبب أو كفاية ؟ فقال : الكفاية ليس فوقها نهاية ، فبقي بعد ذلك سبعة عشر يوماً لم يأكل .

وكان النوري والجنيد يسميان ببغداد طاووسا العباد . انتهىٰ .

وقال الإمام محمد ابن الإمام أبي بكر الرازي رحمهما الله :

قال أبو الحسين النوري رحمه الله : الجمع بالحق . . تفرقة عن غيره ، والتفرقة عن غيره . . جمع به .

---

(١) في « الرسالة القشيرية » : (أليس إليه أعود) .
(٢) جاء في نسخة : (قال في « المناقب ») .

وقال : مَن وصل إلىٰ وده . . أنس بقربه ، ومَن توصل بالوداد . . فقد اصطفاه من بين العباد .

وقال : مَن عقل أن الأشياء كلها بالله سبحانه وتعالىٰ . . فرجوعه في كل حالاته إليه .

وسئل النوري عن الفقير الصادق فقال : مَن لا يتهم الله عز وجل في الأسباب ، ويسكن إليه في كل حال .

وقيل له : لِمَ لَمْ تتكلم علىٰ إخوانك ؟ فقال : لأنهم في سفر الوحشة .

وقال أبو حفص عمر النجار : دخل شيخنا أبو بكر الشبلي رحمه الله علىٰ أبي الحسين النوري وهو معتكف ، فوجده ساكناً حَسَنَ الاجتماع لا يتحرك من ظاهره شيء ، فقال : مِن أين أخذت هـٰذه المراقبة والسكون يا أبا الحسين ؟ فقال : من سِنَّور كانت لنا ، إذا أرادت الصيد . . لا تتحرك لها شعرة . [انتهىٰ] .

وقال في « بهجة الأسرار » : سئل النوري رحمه الله عن رتب المعرفة فقال : لا تصل إلىٰ أوائل أول مبتدأ حواشي علم المعرفة حتىٰ تخوض إلى الله عز وجل سبع بحار أشد من النيران ، بحراً بعد بحر ، فعسىٰ بعد ذلك يقع لك أوائل علم المعرفة ، وأنشد :

إلى الله أشكو طول شوقي وحيرتي ... ووجدي بما طالت عليَّ مطالبُهْ[1]
ومن قد برىٰ جسمي وكدَّر عِيشتي ... ويمنعني الماء الذي أنا شاربُهْ
فياليت شعري ما الذي فيه راحتي ... وما آخر الأمر الذي أنا طالبُهْ

وقال أبو الحسين[2] المالكي رحمه الله : كنا جلوساً عند أبي الحسين النوري ، فوقف علىٰ مجلسه رجل ونظر إليه ساعة ، ثم قال : مَن منكم النوري ؟ فأشير إليه ، فقال له : يا أبا الحسين ؛ تعرفني ؟ فقال : أما المعرفة . . فلا ، ولـٰكن أنت رجل ذِمِّي ، قال : فضحك الرجل ، وسُمع منه ، وهو يقول : حَصَّلتُ والذي فلق البحر لموسى بن عمران ـ علىٰ نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ـ ثم قال : أنا أشهد أن لا إلـٰه إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال بعض جلساء النوري : ما قصتك ؟ قال : إني قرأت الكتب الأربعة ، فوجدت

---

(١) في بعض النسخ : (وحسرتي) .
(٢) في بعض النسخ : (أبو الحسن) .

فيها : أن في أمة أحمد صلى الله عليه وسلم قوماً يحكمون بنور سرائرهم على المغيَّبات ، فما زلت أطلب هـٰذا الوصف حتىٰ وجدت هـٰذا الرجل الذي لم يرني قبل يومي هـٰذا قط ، ولا رأيته ، فحكم عليَّ بما هو فيَّ مغيَّب ، فعلمت أنه منهم .

وكان النوري يقول : نعت الفقير : السكون عند العدم ، والبذل والإيثار عند الوجود .

وقال أبو محمد المغازلي رحمه الله : سمعت أبا الحسين النوري يقول : اشتهى الصبيان عَلَيَّ تفاحاً ، فجئت إلىٰ مسجد الشونيزية ، فصليت فيه ركعتين ، ثم نمت ، فلما استيقظت . . وجدت في المسجد تفاحاً كثيراً ، فملأت كمي وخرقة كانت معي من ذلك التفاح ، وشددت تلك الخرقة ، وحملتها علىٰ رأسي إلى البيت .

وقال الحسن بن علي رحمه الله : كنت في مجلس النوري ، فقال لي أبو عبد الله بن المفضل : سل الشيخ النوري : كيفَ الطريق إلى اجتماع القلب ووجود الرب جل جلاله فيه ولو طرفة عين ؟ قال : فسألته ، فتبسم ، ثم قال : هيهات هيهات! أنا أعرف إنساناً منذ عشرين سنة بين الوجد والفقد ، إذا وجد ربه عز وجل . . فقد قلبه ، وإذا وجد قلبه . . فقد ربه سبحانه وتعالىٰ ، ولم يجتمعا له منذ صحَّت المعرفة ، فأنَّىٰ لي بمعرفة الوصول إلىٰ ذلك والاهتداء إلىٰ أن أدل عليه غيري ؟!

وأنشد أبو العباس بن عطاء لأبي الحسين النوري رحمهما الله :

الوجد يُطرِب مَن بالوجد راحته ... والوجد عند حضور الحق مفقودُ
فكـان يُطـرِبني وجـدي فـأفقـدني ... عن رؤية الوجد من بالوجد موجود

وقال أبو الحسن رحمه الله : كان أبو الحسين النوري يقول : اللهم ؛ قوِّنا علىٰ قَبول ما نعقله عنك ، حتىٰ نلقاك به راشدين يا أرحم الراحمين . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

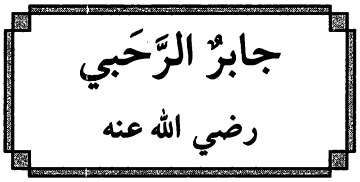

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : كان جابر الرحبي من أصحاب الكرامات ، فاتفق أن أبا جعفر الخصاف كان ماشياً إلىٰ جانب الشط ، فرأىٰ جابراً الرحبي ، فمشيا ساعة ، ثم قال جابر الرحبي لأبي جعفر الخصاف : خذ أنت في هـٰذا الطريق وأنا في هـٰذا الطريق ، قال أبو جعفر : فمررت على الجسر ، ثم نظرت ؛ فإذا جابر الرحبي يمشي على الماء ، ينتضح الماء من تحت قدميه مثل ما يخرج الغبار من تحت قدمَي الماشي ، قال : فلما التقينا . . قلت له ما رأيتُ منه ، فجعل يعارضني ، ثم استحلفني ألاَّ أذكر ذلك ما دام حياً أو كما قال . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ١٦٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو الحسن خيرٌ النسَّاج
رضي الله عنه

قال الحافظ أبو نعيم ـ قدس الله روحه ـ : كان أبو الحسن خير النساج من أهل سامُرَّاء ، سكن بغداد ، وصحب أبا حمزة الزيات ، وسرياً السقطي ، وله الحظ الجسيم في الكرامات .

قال أبو الخير الديلمي : كنت جالساً عند خير النساج ، فأتته امرأة ، وقالت : أريد المنديل الذي أسلمته عندك إن كان قد فرغ ، فقال : قد فرغ ، ثم دفع المنديل إليها ، فقالت : كم أجرته ؟ قال : درهمان ، قالت : ما معي الساعة دراهم ، وأنا كنت قد ترددت إليك مراراً فلم أجدك ، ولـٰكن في غد ـ إن شاء الله عز وجل ـ آتيك بدرهمين ، فقال لها خير النساج : إذا أنت جِئْتِ وما رأيتِني . . فارمي الدرهمين في دجلة ؛ فإني إذا رجعت . . أخذتهما .

فقالت المرأة : كيف تأخذ الدرهمين من دجلة ؟! فقال لها : ما عليك مِن هـٰذا التفتيش ، وما لك به من حاجة ، افعلي ما أمرتك به ، قالت : إن شاء الله عز وجل ، ثم ذهبت .

قال أبو الخير : فلما كان من الغد . . جئت لأنظر ، فإذا المرأة قد جاءت ومعها خرقة فيها درهمان ، فلم تره في الحانوت ، فانتظرته ساعة ، ثم قامت وألقت الخرقة بما فيها في دجلة ؛ فإذا بسرطان قد تعلق بالخرقة وغاص في الماء ، فبعد ساعة جاء خير النساج ، وفتح حانوته ، ثم راح إلىٰ دجلة يتوضأ ؛ فإذا السرطان قد خرج من الماء وهو يسعىٰ نحوه ، والخرقة علىٰ ظهره ، فلما قرب من الشيخ . . وقف ، فمد الشيخ يده وأخذها .

قال أبو الخير : فلما رأيت ذلك . . جئت إليه ، وقلت له : إني رأيت كذا وكذا ، قال : فجعل يعارضني ، فلما تبين له أني قد عرفت . . أحلفني ألاَّ أخبر بذلك ما دام حياً . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ٣٠٧ ـ ٣٠٨] .

وقال أبو القاسم القشيري ـ رحمه الله ـ : كان خير النساج من أقران النوري ، قيل : إنه عاش مئة وعشرين سنة ، وكان له مجلس تجتمع إليه خلائق .

وممن تاب في مجلسه أبو بكر الشبلي ، وإبراهيم الخواص ، رحمهم الله .

وكان أستاذ الجماعة ، قيل : اسمه : محمد بن إسماعيل ، وكان أسود اللون ، فخرج إلى الحج ، فأخذه رجل ، وقال : أنت غلامي ، واستعمله علىٰ نسج الخز ، وسماه خيراً .

وكان سبب ذلك غفلة وفترة وقعت من خير ، فألقى الله عليه شِبْهَ غلامِ ذلك الرجل الذي استعمله علىٰ ظن أنه غلامه .

فلما فكر خير في حاله . . عرف مِن أين دخل عليه ذلك الداخل ، فجدد توبته فيما بينه وبين الله تعالىٰ ، فزال عنه ذلك الشبه ، فقام ذلك الرجل ، واعتذر إليه ، وسأله المحاللة ، فقال : أنت في حل ، أنا عرفت مِن أين أُتِيت ـ رحمه الله ـ واستمر علىٰ تلك التسمية . أو كما قال . انتهىٰ [« الرسالة القشيرية » ٤٢ـ٤٣] .

وقال في « بهجة الأسرار » : كان خير النساج كثير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، ولا يزعجه ما يلقىٰ من الأذىٰ والهوان .

فسئل عن تمكنه في ذلك وإقدامه علىٰ هـٰذا الحال ، فأخبر أنه كان علىٰ هـٰذا الحال قديماً ، وأنه كثر عليه الأذىٰ والهوان في وقت ، قال خير : فقَصَّرْتُ عن ذلك وتجنبته ، وخرجت من المدينة التي كنت فيها كالهارب علىٰ وجهي ، فمررت بقرية فيها دكاكين ، فجلست علىٰ باب دكان لحائك ، فخرج إلي صاحب الدكان ، ولطمني ، وقال لي : يا خير ؛ أين كنت ؟ لك أربعة أشهر قد هربت مني ؟ قال : وألقى الله عز وجل عليَّ شِبْهَ غلامِهِ ، فأخذ بيدي ، وأدخلني الدكان ، واجتمع قومه وأصحابه يهنئونه بقدومي ، فقال : اقعد وانسج .

قال : فأخذت في العمل ، فكنت كأحذق مَن نسج ، فأقمت شهوراً علىٰ ذلك ، ثم استيقظت ، وعرفت مِن أين أُتِيت ، فعقدت التوبة بيني وبين الله عز وجل ، وعاهدت الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ ملازمة ما كنت عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ فإذا أنا مِن وقتي علىٰ حالتي الأولىٰ ، وزال عني شِبْهُ غلامه .

قال : فخرجت من الدكان ، وجلست على الباب أحفظه لصاحبه إلىٰ أن يرجع ، فجاء

وسلم عليَّ وعاتبني[1] ، وقال لي : عافاك الله ، رأيتَ لي غلاماً أسود قد خرج من هـٰذا الدكان ؟ فقلت : لم أره ، قال : فمضىٰ في طلبه ، فانصرفت . انتهىٰ .

وقال أبو الحسين المالكي رحمه الله : كنت أصحبه سنين ، فقال لي يوماً قبل موته بثمانية أيام : أنا أموت يوم الخميس قبل المغرب ، وأدفن يوم الجمعة قبل الصلاة ، وستنسىٰ هـٰذا ، قال : فأنسيته ، فلما كان يوم الجمعة . . لقيني رجل ، فأخبرني بموته ، فخرجت لأحضر جنازته ، فوجدت الناس راجعين ، وهم يقولون : إنه يدفن بعد الصلاة ، فحدثتهم بما قال لي ، وأني أنسىٰ ذلك ، وقد أنسيته ، وأنه يدفن قبل الصلاة ، فاتفق أنه دفن قبل الصلاة كما قال .

قال أبو الحسين : ثم سألت مَن حضر موته ، قلت : أي وقت كان ؟ وكيف كان ؟ فقال لي علي بن هارون صاحب أبي القاسم الجنيد رحمهما الله : حكىٰ لي غير واحد من أصحابه الذين حضروا موته ، قال : غشي عليه عند صلاة المغرب ، ثم أفاق ونظر إلىٰ ناحية البيت ، فقال : قف عافاك الله ، فإنما أنت عبد مأمور وأنا عبد مأمور ، ما أُمِرتَ به لا يفوتك ، وما أمرتُ به يفوتني ، فدعني أمضي فيما أمرتُ ، ثم امض أنت لما أمرتَ ، ثم دعا بماء ، فتوضأ ، ثم صلى المغرب ، ثم تمدد وغمض عينيه وتشهد ، ومات .

قال : ثم رآه بعض أصحابه في منامه بعد موته ، فقال له : ما فعل الله عز وجل بك ؟ فقال : لا تسألني عن هـٰذا ، ولـٰكني استرحت من دنياكم الوضرة[2] . أو كما قال . انتهىٰ .

وقال في « المختار » : جاء رجل إلىٰ خير النساج فقال : أيها الشيخ ؛ رأيتك بالأمس ماشياً وقد بعت الغزل بدرهمين ، فجئت خلفك ، فحللتهما من طرف إزارك ، وقد صارت يدي منقبضة علىٰ كفي لا تنفتح ، فضحك الشيخ ، ثم قال : تتوب إلى الله عز وجل ؟ قال : قد تبت إلى الله سبحانه وتعالىٰ ، قال : فأخذ يده إلىٰ يده وفتحها وفيها الدرهمان ، فقال له : امض واشتر لعيالك بهما شيئاً ، واحفظ التوبة فلا تعد إلىٰ ما لا يحل لك ، ولا تقل رأيت كذا وكذا . أو كما قال . انتهىٰ .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : اعلم : أن المطلوب في الأموال : عدم ضياعها في نفس الأمر ، واعتبار ظاهر الأمر ؛ أعني : ظاهر الحال والظاهر الأول ، وعلىٰ

---

(١) في بعض النسخ : (وعانقني) .
(٢) **الوضرة** : الوسخة .

هـٰذا يخرج فِعل خير النساج والخواص وغيرهما ، من إلقاء الدرهمين والقفاف في البحر ؛ لأن الله عز وجل قد يطلع وليه علىٰ أمر تكون فيه المصلحة الراجحة ، فيقدم الولي علىٰ ذلك الفعل بالإذن الإلـٰهي لإيجاد تلك المصلحة الراجحة ، ولا ينظر إلىٰ ظاهر الحال .

وأصل ذلك : قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ .

فلما كان خَرْق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار المصلحة فيه راجحة ـ وإن خفيت علىٰ موسىٰ عليه الصلاة والسلام ـ أقدم عليها الخضر عليه السلام بالأمر الإلـٰهي .

وهـٰذا ـ وإن لم يدل علىٰ هـٰذه الواقعة بخصوصه ـ فهو يدل عليها بعمومه .

فإن أردت الدلالة علىٰ هـٰذه الواقعة بخصوصه . . فقد روينا عن البخاري في « صحيحه » [٢١٦٩] حديث إلقاء المال في الخشبة المنقورة ، وإلقائه في البحر ، كما سبق ذلك في ترجمة الإمام أحمد ابن أبي الحواري رحمه الله .

فقد يقال : بأن معرفة الولي بأن هـٰذا المال لا يضيع . . تسوغ له الإقدام علىٰ ذلك الفعل ؛ لما أكرمه الله عز وجل به من إطلاعه علىٰ ذلك .

ولا تنظر إلىٰ ظاهر الحال نظر العوام إلىٰ ظاهر الحال ، لـٰكن الإقدام علىٰ مثل هـٰذه الأفعال إنما يكون لمن أُيد بالكرامات وغُيِّب عنها ، فلا يراها ولا ينظر إليها ، بل يقع منه ولا يقع له عليها رؤية ، ولأنها اعتداد فتجري على الولي لا به ، كما ذكرنا في ترجمة سيدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قوله : (يا سارية ؛ الجبل الجبل) ، وهو يخطب على المنبر .

وجميع ما وقع من ذلك . . إنما كان علىٰ هـٰذا الوجه .

أما إلقاء المال في البحر . . فإن الله سبحانه وتعالىٰ علم صدق ذلك الرجل وحرصه علىٰ براءة ذمته ، فحفظ الله عز وجل ذلك المال ، وأوصله إلىٰ مستحقه ، وخير النساج علم الله منه عدم التفاته إلى الدنيا وعزوفه عنها . . فحفظ الله عليه الدرهمين ؛ لقيام البينة كما شاء وأراد سبحانه وتعالىٰ .

وكذلك الخَوَّاصُ علم الله منه صحة قصده . . فحرك خاطره إلىٰ أن يعمل القفاف ويلقيها في النهر .

ألا ترىٰ أنه قال : بقيت كالمُلْجَإِ إلىٰ ذلك ، ثم ظهرت المصلحة الراجحة في إيصال تلك القفاف إلىٰ تلك المرأة وعيالها .

كل ذلك فضل من الله ونعمة ، والله يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

ومعلوم أن الأولياء رضي الله عنهم حركاتهم كلها بالله ، فإن قاموا . . قاموا بالله ، وإن نطقوا . . نطقوا بالله ، وإن سمعوا . . سمعوا بالله ، حتىٰ إن أحدهم ليبقىٰ محفوظاً في حركاته وأفعاله وسائر إرادته ، فلا يسقط له فعل ولا إرادة ؛ لأنه قد أُيد بنور التوفيق .

وهـٰذا بحر واسع لا ساحل له . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو إسحاق إبراهيم الآجُرِّي
رضي الله عنه[1]

قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : كان أبو إسحاق إبراهيم الآجري من أصحاب الكرامات .

فمِن ذلك : أنه جاءه في بعض الأيام رجل يهودي يطلب منه ثمن القصب الذي له عنده ، فدفع إليه أبو إسحاق الثمن ، ثم كلمه بعد ذلك في شرائع الإسلام وعرضه عليه ، فقال له اليهودي : أحب أن أرىٰ شيئاً أعرف به فضل الإسلام وشرفه حتىٰ أسلم ، فقال له : إذا رأيت ذلك تُسلم ؟ قال : نعم ، فقال له أبو إسحاق : هات رداءك ، فدفع إليه رداءه ، فأخذه وجعله في رداء نفسه ، ولف رداء اليهودي علىٰ رداء نفسه ، ورمىٰ بهما في أتون الآجر ، ثم دخل في إثره ، فأخذ الردائين وخرج من الباب الآخر ، ففتح رداء نفسه ، فوجده صحيحاً لم يحترق منه شيء ، وكأن لم تمسه نار ، وأخرج رداء اليهودي حراقاً ، وكان رداء اليهودي داخل في رداء الشيخ ، فصعق اليهودي وخر مغشياً عليه ، فلما أفاق . . أسلم وصار ناسكاً رحمه الله[2] .

وقال أبو القاسم الجنيد رحمه الله : سمعت عبدون الزجاج يقول : قال لي إبراهيم الآجري : اجهد أن يكون همك مردوداً إلى الله عز وجل في جميع ما تأمل ؛ فإنه يكفيك كل الكفاية أو كما قال[3] . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ٢٢٣] .

---

(١) ذكر الواسطي ـ رحمه الله ـ في هٰذه الترجمة ثلاثة من العباد دون أن يفرق بين خبر كلٍّ منهم ، وهم : أبو إسحاق إبراهيم الآجري الكبير ، وإبراهيم الأجري الصغير ، وأبو بكر الآجري محمد بن الحسين ، وقد أشرنا في نهاية كل خبر إلى اسم صاحبه .

(٢) ذكره ابن الجوزي [في « الصفوة » (٢/ ٢٦١)] في ترجمة أبي إسحاق إبراهيم الآجري الصغير .

(٣) ذكره ابن الجوزي [في « الصفوة » (٢/ ٢٣٥)] في ترجمة أبي إسحاق إبراهيم الآجري الكبير .

وقال أبو القاسم القشيري ـ رحمه الله ـ : رأىٰ أبو بكر[1] الآجري رحمه الله الحق جل جلاله في المنام ، قال : فقال له الحق جل جلاله : سل حاجتك[2] ، فقال : اللهم ؛ اغفر لعصاة أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال له الباري جلت عظمته : أنا أرحم بهم منك ؛ سل حاجتك . انتهىٰ [« الرسالة القشيرية » ٣٠٧] .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : لما وصل أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الآجري مكة شرفها الله تعالىٰ . . استحسنها واستطابها ، فقال في سره : اللهم ؛ أحيني في هـٰذه البلدة ولو سَنة ، فسمع هاتفاً يهتف به : لِمَ سنة ؟ بل ثلاثين سنة ، فلما كان في آخر ثلاثين سنة . . سمع هاتفاً يقول : يا إبراهيم : قد وفينا بالوعد ، فمات في تلك السَّنة رضي الله عنه وأرضاه . أو كما قال[3] . [انتهىٰ « الصفوة » ٢/ ٢٨٤] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) وقع في نسخة : (أبو إسحاق) ، ولعل الصواب ما أثبت كما في « الرسالة القشيرية » والله أعلم .

(٢) في بعض النسخ : (يا إبراهيم ؛ سل حاجتك) ، ولعل الصواب ما أثبت كما في « الرسالة القشيرية » والله أعلم .

(٣) ذكر ابن الجوزي هـٰذا الخبر في « الصفوة » (٢/ ٢٨٤) عن أبي بكر الآجري ، لا عن أبي إسحاق كما ذكره الواسطي .

ومنهم الإمام :

أبو عثمان سعيد بن إسماعيل بن سعيد الحِيري
رضي الله عنه

قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : قال أبو عثمان الحيري : مَن أَمَّرَ السُّنة علىٰ نفسه قولاً وفعلاً . . نطق بالحكمة ، ومن أَمَّرَ الهوىٰ علىٰ نفسه . . نطق بالبدعة ، قال الله تعالىٰ في حق نبيه محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾ .

وقال محمد بن الفضل البلخي : إن الله عز وجل زيَّن أبا عثمان بفنون عبوديته ، وأبرزه للناس ؛ ليعلمهم آداب العبودية .

وقال أبو عثمان : منذ أربعين سنة ما أقامني الله عز وجل في حال فكرهته ، ولا نقلني إلىٰ غيره فسخطته .

و[قال] : لا يكمل الرجل حتىٰ يستوي قلبه في أربعة أشياء : في المنع ، والعطاء ، والعز ، والذل .

وقال : ثلاثة أشياء من حب الدنيا : الطمع في المال ، وفي إكرام الناس ، وفي قبول الناس .

والخوف من الله عز وجل يوصلك إليه ، والكبر والعجب في نفسك يقطعك عن الله تعالىٰ ، واحتقارك الناس مرض لا يُداوىٰ .

وقال : حقٌّ علىٰ مَن أعزه الله عز وجل بالمعرفة والطاعة . . ألاَّ يذل نفسه بالمعصية .

وقال : أصل التعلق بالخيرات : قصر الأمل ، وما دمت تتبع شهواتك وإرادتك . . فأنت مسجون .

وأما الرضا . . فإنه باب الله الأعظم ، فإذا فوضت أمرك إلى الله عز وجل وسلَّمت . . استرحت .

وقال عبد الله الرازي : لما تغير الحال علىٰ أبي عثمان وقت وفاته . . مزق ابنه أبو بكر

قميصاً كان عليه ، ففتح أبو عثمان عينيه وقال : يا بني ؛ خلاف السُّنة في الظاهر . . رياءٌ باطنٌ في القلب .

وسئل أبو عثمان عن الصحبة فقال : الصحبة مع الله عز وجل بحسن الأدب ، ودوام المراقبة ، وتعظيم حرماته عز وجل ، وابتغاء مرضاته ، ودوام الهيبة لذاته وعظيم كبريائه جل جلاله .

والصحبة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم باتباع سُنته ، ولزوم آدابه وأخلاقه في جميع حالاته صلى الله عليه وسلم .

والصحبة مع أولياء الله عز وجل بالتوقير ، والاحترام ، ومعرفة واجب حقهم ، والقيام به .

والصحبة مع الأهل والولد بحسن الخلق .

والصحبة مع الإخوان : بدوام البِشر والانبساط .

والصحبة مع الجهال بالدعاء لهم ، والشفقة عليهم ، ورؤية نعم الله تعالىٰ عليك في أن عافاك مما ابتلاهم به .

وكان يقول : الذِّكر الكثير أن تذكر الله تعالىٰ في سرك[1] ، وتعلم يقيناً أنك لا تصل إلىٰ ذِكره سبحانه وتعالىٰ ولا إلىٰ شيء من الطاعات إلا بعطائه وفضله سبحانه وتعالىٰ .

وسئل : ما علامة السعادة ؟ فقال : أن تطيع الله تعالىٰ وتخافَ أن تكون مردوداً ، وعلامة الشقاء أن تعصي الله تعالىٰ وترجو أن تكون مقبولاً . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ٢٤٤ـ٢٤٦] .

قال في « المختار » : وكان يقال : في الدنيا ثلاثة لا رابع لهم : أبو عثمان بنيسابور ، والجنيد بالعراق ، وابن الجَلاَّء بالشام .

وقال أبو عثمان : صلاح القلب في أربعة أشياء : في التواضع لله ، والفقر إلى الله ، والخوف من الله ، والرجاء لله عز وجل .

وقال : العُجب إنما يتولد من رؤية النفس وذِكرها ، ورؤية الخلق وذكرهم .

وقال له رجل : كنت أجد في قلبي حلاوة عند إقبال الليل ، وأنا لا أجدها الآن ، فقال : لعلك سررت بشيء من الدنيا . . فذهب بحلاوة ذلك من قلبك ، وربما يريد الله عز وجل أن

---

(١) في « الحلية » : (في ذكرك له) .

يعرفك ضعفك ويريك قدرك ، فيسلبك حلاوة مناجاة الليل ؛ حتىٰ تتضرع إليه ، وتتوب عن السرور بشيء من الدنيا ، فيرده عليك ؛ لئلا تأمن مكره سبحانه وتعالىٰ .

وقال : اِصحب الأغنياء بالتعزز ، والفقراء بالتذلل ؛ فإن التعزز على الأغنياء تواضع لله عز وجل ، والتذلل للفقراء شرف .

وقال : مَن تفكر في الدنيا وزوالها . . أورثه الفكر الزهد فيها ، ومَن تفكر في الآخرة وبقائها . . أورثه ذلك الرغبة فيها .

وقال : مَن أضر به الرجاء حتىٰ قارب الأمن . . فالخوف له أفضل ، ومَن أضر به الخوف حتىٰ قارب اليأس . . فالرجاء له أفضل ، وأنشد :

أسأتُ فلم أحسن وجئتك هارباً ... وأين لعبدٍ من مَواليه مهربُ
يؤمِّل غفراناً فإن خاب ظنه ... فما أحدٌ منه على الأرض أخيبُ

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : في حفظي : أن أبا عثمان الحيري كان ماراً في طريق ومعه بعض إخوانه ، فوقع عليه رماد من طاقة ، فهَمَّ بعض أصحابه أن يتكلموا مع أصحاب الدار ، فزجره الشيخ ، ثم قال : مَن استحق النار فصولح على الرماد . . لا يجوز أن يغضب . انتهىٰ .

وقال في « الحقائق » : قال أبو عثمان الحيري في بعض كتبه إلىٰ بعض إخوانه : واعلم يا أخي : أن الفواحش : ما أريدَ من الطاعات لغير وجه الله سبحانه وتعالىٰ . انتهىٰ .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : إن أبا عثمان الحيري كان مولده بالري ، وخرج إلىٰ نيسابور مع شيخه شاه بن شجاع الكرماني يزوران أبا حفص النيسابوري ، فزوجه أبو حفص ابنته ، وتوطن بنيسابور ، وبها توفي رحمه الله .

وقالت مريم امرأة أبي عثمان : كان أبو عثمان إذا دخل في الصلاة . . لا يشعر ولا يحس بشيء من كلام أو صياح أو غيره .

وقال أبو عمرو بن مطر : حضرت مجلس أبي عثمان ، فلما خرج وجلس مجلسه . . سكت ساعة طويلة ، فناداه رجل : يا أبا عثمان ؛ أتُرىٰ أي شيء تقول في سكوتك ؟ فأنشأ يقول :

وغيرُ تقيٍّ يأمر الناس بالتقىٰ ... طبيب يداوي والطبيب مريضُ

فارتفعت الأصوات بالبكاء والضجيج .

أسند أبو عثمان عن حمدون النيسابوري القصَّار ، وتوفي يوم الثلاثاء العشرين من ربيع الآخر سَنة ثمان وتسعين ومئتين ، رحمه الله . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ٧١ـ٧٣] .

وقال أبو القاسم القشيري : قيل : إن أبا عمرو بن نجيد كان في ابتداء أمره يختلف إلىٰ مجلس أبي عثمان الحيري ، فأثر كلامه في قلبه ، فتاب في مجلسه ، ثم إنه بعد ذلك وقع منه فترة ، وعلم أبو عثمان الحيري بحاله وما وقع منه ، فصار أبو عمرو إذا رأىٰ أبا عثمان . . يهرب منه حياء ، ولم يعد يحضر مجلسه ، فرآه يوماً أبو عثمان ، فعدل أبو عمرو عن طريقه ، فلم يزل أبو عثمان يتبعه إلىٰ أن أدركه ، ثم قال له : يا بني ؛ لا تصحب مَن لا يحبك إلا معصوماً ، إنما ينفعك أبو عثمان في مثل هـٰذه الحالة ، وباب التوبة مفتوح ، قال : فتاب أبو عمرو ، وعاد إلى الإرادة ولزم العبادة .

وقيل لأبي عثمان : ما الورع ؟ فقال : كان أبو صالح حمدون عند صديق له قد احتُضِر ، فلما مات . . أطفأ أبو صالح السراج ، فقيل له في ذلك ، فقال : صار الدهن للورثة ، اطلبوا دهناً غيره . انتهىٰ .

قال الأئمة رحمهم الله : سئل منصور بن خلف المغربي ، قالوا له : كَمْ سَنة صحبت أبا عثمان الحيري ؟ فنظر إليهم مُغضَباً ، وقال : لا يقال كم صحبته ، وإنما يقال : كم خدمته ، ولقد خدمته مدة كذا وكذا .

واعلموا : أن الصحبة مع مَن هو فوقك في الحقيقة خدمة ، والصحبة مع مَن هو دونك في الحقيقة رحمة وشفقة ، والصحبة إنما هي مع الأمثال والأقران ، ولها شروط ، وأساسها وبناؤها على الإيثار والفتوة ، والله أعلم . انتهىٰ [« الرسالة القشيرية » ٧٨ وَ٩٢] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : قول الإمام أبي عثمان رحمه الله : (منذ أربعين سنة ما أقامني الله . . .) إلىٰ آخره يسمىٰ حالاً ، والحال عندهم معنىً يرد على القلب من غير تصنُّع ، ولا اجتلاب ، ولا اكتساب ، من طرب ، أو حزن ، أو قبض ، أو بسط ، أو شوق ، أو انزعاج ، أو هيبة ، أو اهتياج .

فالأحوال مواهب ، والمقامات مكاسب ، والأحوال تأتي من عين الجود ، والمقامات تحصل ببذل المجهود ، فصاحب المقام متمكن في مقامه ، وصاحب الحال قد ارتقىٰ عن حاله .

وقال العارفون رحمهم الله : الأحوال كالبروق ، وإن بقيت : فحديث نفس .

وقالوا أيضاً : الحال كاسمها يعنون بها أنها تحل في القلب ثم تحول .

وأشار قوم من العارفين ـ منهم : أبو عثمان صاحب الترجمة ـ إلىٰ أن الأحوال تبقىٰ وتدوم ، وقال : هـٰؤلاء إذا لم تبق ولم تدم . . فهي لوائح وبوادٍ ، وإن دامت . . كانت أحوالاً .

ألا ترىٰ إلىٰ قول أبي عثمان : (منذ أربعين . . .) إلىٰ آخره ؛ فإنه أشار بذلك إلىٰ دوام الرضا ، والرضا من جملة الأحوال ، وهـٰؤلاء يقولون : إن الأحوال ـ وإن دامت ـ فإن صاحبها أبداً يكون في الترقي من حالة إلىٰ حالة أعلىٰ منها ، فالدوام باعتبار جنس الأحوال ، والزوال باعتبار عين الحال ، وفي هـٰذا جمع بين القولين ، فيرتفع الخلاف .

وقد فسر الأستاذ أبو علي الدقاق رحمه الله قوله صلى الله عليه وسلم : « إنه لَيُغَانُ علىٰ قلبي . . »[1] الحديث : بأنه أبداً صلى الله عليه وسلم كان في الترقي من أحواله من حالة إلىٰ أعلىٰ منها ، فكان صلى الله عليه وسلم كلما ارتقىٰ من حالة إلىٰ أعلىٰ منها . . رأىٰ في الأُولىٰ نقصاً بالنسبة إلى الثانية ، فاستغفر ، وهلم جراً .

وعلىٰ هـٰذا المعنىٰ قولهم : حسنات الأبرار . . سيئات المقربين . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٢) ، وتتمة الحديث : « . . . وإني لأستغفر الله في اليوم مئة مرة » .

ومنهم الإمام :

بشر بن منصور السَّليمي
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : جاء جماعة إلىٰ بِشر بن منصور بعد العصر ، فخرج إليهم متغير اللون ، فقالوا له : يا أبا محمد ؛ لعلنا أشغلناك ، فرَدَّ رداً ضعيفاً ، ثم قال : ما أكتُمُكُم ـ أو كلمة نحوها ـ كنت أقرأ في المصحف ، فشغلتموني ، ثم قال : ما أكاد ألقىٰ أحداً فأربح عليه شيئاً .

وقال غسان بن الفضل[1] : كان بِشر بن منصور من الذين إذا رُؤوا . . ذُكِر الله عز وجل ، وإذا رأيت وجهه . . ذكرت الآخرة ، رَجُل منبسط ليس بمتماوت[2] ، ذكي فقيه ، وكان من العرب ، وعلم أولاده الذكور عمل الخوص .

وقال غسان : حدثني أسيد بن جعفر ـ ابن أخي بشر بن منصور ـ قال : ما رأيت عمي فاتته التكبيرة الأولىٰ قط ، ولا رأيته قام في مسجدنا سائل . . إلا أعطاه شيئاً .

وقال زهير السجستاني : سمعت بشر بن منصور يقول : ما جلست إلىٰ أحد ولا جلس إلي أحد فقمت من عنده [أو قام من عندي] . . إلا علمت أني لو لم أقعد إليه أو يقعد إلي . . لكان خيراً لي .

وقال أبو همام الزهري رحمه الله : قال لي بشر : أَقِلَّ من معرفة الناس ؛ فإنك لا تدري ما يكون غداً ، فإن كان شيء ـ يعني : فضيحة يوم القيامة ـ كان من يعرفك قليلاً .

وقال عبد الرحمٰن بن مهدي : قال لي بشر : إني لأذكر الشيء من أمر الدنيا أُلهي به نفسي عن الآخرة ، أخاف علىٰ عقلي .

وقال سفيان بن عيينة : قال رجل لبشر : عظني ، فقال : عسكر الموتىٰ ينتظرونك .

---

(١) في نسخة : (المفضل) .

(٢) **تماوت** : أظهر من نفسه التخافت والتضاعف من العبادة والزهد والصوم .

وقالت عبدة بنت أبي شوال[1] : رأيت رابعة العدوية رحمها الله في المنام ، فقلت لها : ما فعل ضيغم ؟ فقالت : يزور الله عز وجل متىٰ شاء ، قلت : فما فعل بشر بن منصور ؟ قالت : بخ بخ! أُعطي ـ والله ـ فوق ما كان يأمل .

أسند بشر عن سفيان الثوري ، وغيره من الأئمة ، وشغلته الرعاية[2] عن الرواية . انتهىٰ [« الصفوة » ٣/ ٢٢٢ـ٢٢٣] .

وقال الحافظ ـ قدس الله روحه ـ : قال عبد الرحمـٰن بن مهدي رحمه الله : واعدت بشر بن منصور أنا وأبو الخصيب عبد الله بن ثعلبة وبشر بن السري في أن نأتيه ، فلما أتيناه . . قال لنا : استخرت الله تعالىٰ في مجيئكم إلي ، فكان الغالب علىٰ قلبي ألاَّ تجيؤوا .

قال عبد الرحمـٰن : وأتاني مرة في حاجة له ، فقلت له : لِمَ تعنَّيت وجئت ؟ أنا كنت أجيء إليك ، قال : لا ، إنما الحاجة لي .

وقال عبد الرحمـٰن : عرضت علىٰ بشر بن منصور رحمه الله دابة ليركبها في رجوعه من طريق بعيد ، فأبىٰ أن يركب ، وقال : إني أكره أن أُعوِّد نفسي هـٰذه العادة .

وقال عبد الرحمـٰن : كان بشر يكره أن يشتري شيئاً من رجل قد بنىٰ كربجاً[3] في غير حقه ؛ يعني : أنه خرج في طريق المسلمين .

وقيل لعبد الرحمـٰن بن مهدي : أيبعث الرجل بالسلام إلىٰ أهل الرجل ؟ فقال : نعم ، قد كان بشر بن منصور ـ لم أر مثله قط ـ إذا أتاني . . بعث إلىٰ أهلنا بالسلام ، وإنَّ حِفظ الإخاء من الدِّين .

وسئل عبد الرحمـٰن بن مهدي عن الرجل يسلم على القوم وهو صاحب هوىً ، أو فاسق ، أو بدعة ، أيدعونه إلىٰ طعامهم ؟ فقال : نعم ، قال لي بشر بن منصور : إني لأدعو إلىٰ طعامي مَن لو نبذته إلى الكلب . . كان أحب إلي من أن يأكله .

وقال ابن مهدي : وليتقِ الرجل دناءة الأخلاق كما يتقي الحرام .

وكان بشر بن منصور إذا زاره أحد من إخوانه . . قام معه حتىٰ يأخذ بركابه .

---

(١) جاء في بعض النسخ : (عبيدة بنت أبي كلاب) ، وفي نسخة : (عبدة بنت أبي شراك) .

(٢) **الرعاية** : المقصود ـ والله أعلم ـ رعاية أمر الصلة مع الخالق سبحانه وتعالىٰ ، ومراقبة النفس والحركات والسكنات وفق منهج السلف ، وهو بهـٰذا في شغل شاغل ، رضي الله عنهم .

(٣) **الكُرْبَجُ أو الكُرْبُجُ** : الحانوت .

وقال بشر بن المفضل : رأيت بشر بن منصور في المنام ، فقلت له : يا أبا محمد ؛ ما صنع الله عز وجل بك ؟ فقال لي : وجدت الأمر أهون مما كنت أحمل علىٰ نفسي .

وقال محمد بن قدامة : لما احتُضِر بشر بن منصور . . قيل له : أوص بقضاء دَينك ، فقال : أنا أرجو الله عز وجل لذنوبي ، أفلا أرجوه لقضاء دَيني ؟! هو سبحانه وتعالىٰ يوفي عني بمَنِّه وفضله وكرمه .

قال : فلما مات . . قضىٰ عنه دَينه بعض إخوانه ، رحمه الله تعالىٰ . انتهىٰ [« الحلية » ٦/٢٣٩ـ٢٤٢] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

إبراهيم الجيلي
رضي الله عنه

كان إبراهيم الجيلي قد تزوج بابنة عمه وشغف بها شغفاً شديداً ، حتىٰ ما كان يقدر أن يفارقها ليلة ، فتذكَّر ليلة كثرة حبه لها وشغفه بها ، فقال في نفسه : ما يَحسن بي أن أرِد القيامة وفي قلبي حب هـٰذه ، فصلىٰ ركعتين ، ثم قال : إلـٰهي وسيدي ومولاي ؛ أسألك بعزتك وعظيم جلالك . . إلا ما رددت قلبي إلىٰ ما هو أولىٰ .

قال : فلما كان من الغد . . أصابها الحمىٰ وتوفيت في اليوم الثالث ، فعزم على الخروج إلىٰ مكة من وقته وساعته ماشياً ، فخرج إلىٰ مكة ، فلما وصلها . . أقام بها إلىٰ أن توفي رحمه الله تعالىٰ ورضي عنه وأرضاه . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

عليُّ بن الموفَّق

رضيَ الله عنه

قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ وغيره : كان علي بن الموفق واقفاً بعرفات ، فرمقوه لم يزد على التهليل والتسبيح والتكبير ، فقيل له : ادع ؛ فإن الوقت يفوت ، فقال : إنه سبحانه وتعالىٰ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، ثم قال : حسبي من سؤالي . . علمه بحالي ، ثم رفع رأسه إلى السماء ، ولم يزل يقلب دمعه في عينيه ساكتاً باهتاً إلىٰ أن أفاض الناس ، وهو يقول : ما أشرف هـٰذا الموضع! وما أقربَ أهلَه إلى ٱلله سبحانه وتعالىٰ! لولا أني فيهم ، ثم أفاض .

وقال : حججت نيفاً وخمسين حجة ، فلما كان في بعض السنين ونحن في عرفات . . نظرت إلى الناس بعرفة وضجيج أصواتهم بالدعوات والتضرع إلىٰ رب العالمين سبحانه وتعالىٰ ، فقلت ـ علىٰ سبيل الغفلة ـ : اللهم ؛ إن كنت لم تتقبل حج واحد منهم . . فهب له ثواب حجتي ، قال : ثم نمت تلك الليلة بالمزدلفة ، فرأيت في منامي الباري سبحانه وتعالىٰ ، وهو يقول : يا علي بن الموفق ؛ أما استحييت مني أن تقول ما قلت وأنا خالق الحياء والكرم ؟! قد غفرت لأهل الموقف وأمثالهم ، وشفعت كل واحد منهم في أهل بيته وجيرانه ، ووهبتك لهم ، وأنا أهل التقوىٰ وأهل المغفرة .

وقال : كنت حاجاً في بعض السنين في مَحمَلٍ[1] ، فرأيت جماعة مشاة ، فنزلت ومشيت معهم ، فلما كان في بعض الطريق . . نام المشاة من التعب ونمت معهم ، فرأيت في منامي جماعة من الحور بأيديهن طسوت من ذهب وأباريق من فضة ، فغسلن أرجل المشاة حتى انتهين إلي ، فقالت إحداهن : ليس هـٰذا منهم ؛ هـٰذا له محمل ، فقالت الأخرىٰ : بل هو منهم ؛ فإنه أحب المشي معهم ومشىٰ معهم ، فتقدمن فغسلن قدمي ، فذهب عني كل تعب كنت أجده .

---

(١) **المَحمَل** : هو المكان الذي يقعد فيه الراكب ، يكون علىٰ ظهر البعير .

وقال علي بن الموفق : اهتممت يوماً بسبب عيالي ، فرأيت في المنام ورقة فيها مكتوب : بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، يابن الموفق ؛ أتخشى الفقر وأنا ربك ؟! فاستيقظت ، فلما كان ثاني ليلة . . أتاني آت ومعه كيس ، فقال : خذ هـٰذه الدنانير يا ضعيف اليقين . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ٣١٢] .

وقال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ في « الإحياء » : قال علي بن الموفق رحمه الله : رأيت في النوم كأني أُدخلت الجنة ، فرأيت رجلاً قائماً علىٰ مائدة ، وملكان عن يمينه وشماله يلقمانه من جميع الطيبات وهو يأكل ، ورأيت رجلاً قائماً علىٰ باب الجنة يتصفح وجوه قوم ، فيُدخِل بعضاً ويرد بعضاً ، قال : ثم جاوزتهما إلىٰ حضرة القدس ، فرأيت في سرادق العرش رجلاً قد شخص ببصره ينظر إلى الله عز وجل لا يَطرِف ، فقلت لرضوان : مَن هـٰذا ؟ فقال : هـٰذا معروف الكرخي ، عَبَدَ الله تعالىٰ لا خوفاً من ناره ولا شوقاً إلىٰ جنته ، بل حباً له ، فأباحه النظر إليه يوم القيامة . وذكر بأن الآخَرَيْنِ بشر بن الحارث وأحمد ابن حنبل ، قال : ثم انتبهت .

وقال : قال أبو سليمان : مَن كان اليوم مشغولاً بنفسه . . فهو غداً مشغول بنفسه ، ومَن كان اليوم مشغولاً بربه . . فهو غداً مشغول بربه سبحانه وتعالىٰ . انتهىٰ [٤/ ٣١٠] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو عبد الله محمدُ بن خفيف
رضي الله عنه

قال في « لوامع أنوار القلوب » : قال أبو عبد الله محمد بن خفيف : خرجت من مصر أطلب أبا علي الروذباري بالرملة ، فقال لي عيسى بن يونس المصري الزاهد : أُبلُغْ صور ؛ فإن بها شاباً وكهلاً قد وقفا علىٰ مقام المراقبة ، لعلك تستفيد منهما .

قال : فقصدت صوراً ، فلما دخلتها . . كنت جائعاً عطشاناً ، وفي وسطي خرقة ، وليس علىٰ كتفي شيء ، فدخلت المسجد ، فرأيت شخصين مستقبلي القبلة ، فسلمت ، فرد أحدهما عليَّ السلام ، ولم يتكلما ، فناشدتهما بالله عز وجل أن يكلماني ، فرفع الشاب رأسه وقال لي : يا أبا عبد الله ابن خفيف ؛ ما أقَلَّ شغلك بآخرتك حتىٰ تتفرغ إلىٰ لقائنا ، فذهب عني جوعي وعطشي ، وبقيت عندهما حتىٰ صلينا الظهر والعصر .

ثم قلت له : عظني ، فرفع رأسه إلي وقال : يابن خفيف ؛ نحن أصحاب المصائب ما لنا لسان الموعظة .

قال : فأقمت عندهما ثلاثة أيام بغير أكل ولا شرب ولا نوم ، وما رأيتهما أكلا ولا شربا ولا ناما .

فلما كان في اليوم الرابع . . قلت في سِرِّي : أقسم عليهما لعلهما يعظاني ، فرفع الشاب رأسه وقال : يابن خفيف ؛ عليك بدوام المراقبة ، والتحسر علىٰ ما فات ، واغتنام الأوقات ، وإن صحبت . . فاصحب مَن يذكِّرك اللهَ رؤيتُه ، وتقع علىٰ قلبك هيبته ، ويعظك بلسان فِعله لا بلسان قوله . ثم سكت . انتهىٰ .

وقال في « المناقب » : قال أبو عبد الله محمد رحمه الله : دخلت بغداد قاصداً الحج ، ولم آكل الخبز أربعين يوماً ، ولم أشرب الماء إلىٰ زبالة[1] ، فرأيت ظبياً علىٰ رأس بئر وهو يشرب ، وكنت عطشاناً ، فلما دنوت من البئر . . ولى الظبي ، وغاض الماء ، فمشيت

---

(١) منزل معروف بطريق مكة من الكوفة .

وقلت : يا إلـٰهي وسيدي ؛ ما لي محل هـٰذا الظبي ؟ فسمعت قائلاً يقول : جربناك فلم تصبر ، ارجع وخذ الماء ، فرجعت ؛ فإذا البئر ملأىٰ ، فمددت ركوتي وملأتها ، وكنت أشرب منها وأتطهر ، والماء بحاله لا ينفد ، ولما استقيت . . سمعت قائلاً يقول : إن الظبي جاء بلا ركوة ولا حبل ، وأنت جئت بركوة وحبل .

فلما رجعت من الحج . . دخلت جامع بغداد ، فرأيت ولياً من أولياء الله تعالىٰ ، فحالما رآني . . قال لي : لو صبرت ساعة . . لنبع الماء من تحت رجلك . انتهىٰ .

وقال أبو القاسم القشيري : قال أبو العباس الكرخي : سمعت أبا عبد الله محمد بن خفيف يقول : ضعفت عن القيام في النوافل ، فجعلت بدل كل ركعة من أورادي ركعتين قاعداً ؛ لخبر : « إن صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم »[1] .

توفي أبو عبد الله ابن خفيف سَنة إحدىٰ وسبعين وثلاث مئة .

وقال القشيري : قال أبو عبد الله محمد بن خفيف : سمعت أبا الحسن المزيِّن[2] يقول : لما حضرت الوفاة أبا يعقوب النهرجوري . . قلت له : وهو في النزع : قل : لا إلـٰه إلا الله ، فتبسم إلي وقال : [إياي تعني ؟!] وعزة مَن لا يذوق الموت سبحانه وتعالىٰ ؛ ما بيني وبينه عز وجل إلا حجاب العزة والجلال ، ثم توفي من ساعته ، فكان بعد ذلك أبو الحسن المزين يأخذ بلحية نفسه ، ويقول : حجَّام مثلي يلقن أولياء الله تعالى الشهادة ؟ واخجلتاه منه ، وكان يبكي إذا ذكر هـٰذه الحكاية [« الرسالة القشيرية » (٢٤٠)] .

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري ـ رحمه الله ـ : قال أبو عبد الله ابن خفيف : اقتدوا بخمسة من شيوخنا ، والباقون سلموا لهم حالهم : الحارث بن أسد المحاسبي ، والجنيد بن محمد ، وأبو محمد رويم ، وأبو العباس بن عطاء ، وعمرو بن عثمان المكي ؛ فإنهم جمعوا بين العلم والحقائق .

وقال أبو عبد الله بن خفيف : منذ أربعين سنة ما وجبت علي زكاة الفطر .

وقال : **علامة الزهد : وجود الراحة في الخروج عما تملك** .

وقال : الزهد هو عزوف النفس عن الدنيا بلا تكلف . انتهىٰ .

---

(١) الرسالة القشيرية (٤٩) ، والحديث أخرجه بنحوه البخاري (١٠٦٥) ، وبلفظه ابن خزيمة (٢/ ٢٣٥) .

(٢) هو أبو الحسن علي بن محمد البغدادي ، الصوفي ، شيخ زمانه ، وكان يقال له : المزين الكبير ، انظر ترجمته في الأنساب للسمعاني (٥/ ٢٨١) وطبقات الصوفية للسلمي (٣٨٢) .

وقال في « المناقب » : قال أبو عبد الله محمد بن خفيف : ربما كنت أقرأ في ابتداء أمري في كل ركعة نحو عشرة آلاف مرة (قل هو الله أحد) ، وربما كنت أقرأ القرآن كله في ركعة ، وربما كنت أصلي من الغداة إلى العصر ألف ركعة .

وسئل عن القرب فقال : قرب العبد من ربه عز وجل بملازمة الموافقات ، وقرب الرب جل جلاله من عبده بدوام التوفيق .

وسئل عن فقير يجوع ثلاثة أيام ، ثم بعد ذلك يخرج يسأل ، أيش يقال له ؟ فقال : يقال له : مكدي[1] ، ثم قال : كلوا واسكتوا ، فلو دخل فقير من هـٰذا الباب . . لافتضحنا .

وقال أبو عبد الله : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام وهو يقول لي : « مَن عرف طريقاً إلى الله تعالىٰ فسلكه ثم رجع عنه . . عُذب عذاباً كبيراً » .

وسئل عن إقبال الحق جل جلاله على العبد فقال : علامته إدبار الدنيا عن العبد ، وتعلق العبد بالرب سبحانه وتعالىٰ في جميع أحواله ، والله أعلم . انتهىٰ .

وقال الحافظ ابن عساكر ـ قدس الله روحه ـ : كان أبو عبد الله بن خفيف شيخ المشايخ والوقت حالاً وعلماً ، لم يبق للقوم أقدم منه سِناً ولا أتم حالاً ووقتاً .

صحب رويماً والجريري وأبا العباس بن عطاء ، وهو من أعلم المشايخ بعلوم الظاهر أيضاً ، عارفاً بالكتاب والسُّنة ، متمسكاً بهما ، وهو أحد الأئمة من أصحاب الشافعي رحمه الله ، عارفاً بالأصول علىٰ مذهب الأشعري رحمه الله ، له التصانيف الحِسان ، منها : « الفصول في الأصول » و« التحقق والتثبت في الوصول » .

روىٰ عنه غير واحد أنه قال : ما سمعت شيئاً من سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم . . إلا استعملته .

وكان إذا أراد أن يخرج إلىٰ صلاة الجمعة . . يقول لخادمه أبي أحمد الكبير : هات ما عندنا ، قال : فأحمل إليه كل ما قد فُتح علينا به من ذهب وفضة وغير ذلك ، فيفرقه كله ، ثم يخرج إلىٰ صلاة الجمعة رحمه الله تعالىٰ . انتهىٰ [« تاريخ دمشق » ٥٢/٤٠٦ـ٤١٦] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : رأيت في مجموع : قال أبو عبد الله بن خفيف : حضرت مع شيخي أحمد بن يحيىٰ رحمه الله تعالىٰ في دعوة بشيراز ، فاتفق فيها سماع ، فطاب وقت الشيخ ، وقام يتواجد ، وفي صَفِّه بحذائنا قوم من أبناء الدنيا ، فتبسم

---

(١) أكدى الرجل : أي ألح في المسألة .

واحد منهم ، فأخذ الشيخ منارة كبيرة[1] كانت هناك ، فرماه بها ، فأصاب الجدار ، فانغرس أرجلها الثلاث في الحائط .

قال : وكان قد صلىٰ ثلاثين سَنة صلاة الصبح بوضوء العشاء .

وسئل أبو عبد الله ابن خفيف : لِمَ صار بلاء المحبين أعظم من سائر الأحوال ؟ فقال : لأنهم آثروه علىٰ أرواحهم ، فابتدأهم الله سبحانه وتعالىٰ بحبه ، فقال : ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ ، قال : ومَن يطيق سماع هـٰذا الكلام إلىٰ أن تبدو فيه الحقائق ؟!

وقال ابن خفيف : دخلت مكة ، فقصدت أبا عمرو الزجاجي رحمه الله ، فسلمت عليه وجلست عنده ، فأخذ في تمزيقي[2] ، فلما أكثر . . قلت له : تعني بهـٰذا الكلام كله ابن خفيف ؟ قال : بلىٰ ، قلت له : تركته بشيراز ، فتبسم .

وحكي : أن علي بن بندار قدس الله روحه ورد على ابن خفيف زائراً له من نيسابور ، فتماشيا ، فقال له ابن خفيف : تقدم ، فقال علي بن بندار : بأي عذر ؟ قال : فإنك لقيتَ الجنيد وما لقيتُهُ .

وقال ابن خفيف : قال لي رويم رحمه الله : يا بني ؛ اجعل علمك مِلْحاً ، وأدبك دقيقاً ؛ يشير بهـٰذا إلىٰ كثرة الأدب ولزومه .

وقال ابن خفيف : لما دخلت بغداد . . قصدت أبا محمد رويماً ، وكان قد تولى القضاء ، فاستأذنت عليه ، فأذن لي ، فلما دخلت عليه . . رحب بي وأدناني ، وقال لي : مِن أين أنت ؟ قلت : مِن فارس ، فقال : فمَن صحبت ؟ فقلت : جعفر الحَذَّاء ، قال : فما تقول المشايخ فيَّ ؟ فقلت : لا شيء ، فقال : أظن أنهم يقولون : إنه رجع إلى الدنيا .

فبينا هو يحدثني ؛ إذ جاء صبي صغير ، فجلس في حجره ، فقال رويم : لو كنت أرىٰ مَن يكفيني مؤونة هـٰذا الصبي . . ما تعلقت بهـٰذا الأمر ولا بشيء من أسباب الدنيا ، ولـٰكنَّ شُغْلَ قلبي بهـٰذا ـ فإنه لا يسعني تضييعه ـ أوقعني فيما أنا فيه ، ودمعت عينه ، فخرجت من عنده ، رحمه الله . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) **المنارة** : ما يوضع عليها السراج .

(٢) **التمزيق** : التخريق والتقطيع ، وكنَّىٰ به عن شدة ما كلمه به .

ومنهم الإمام :

أبو الخير التِّيْنَاتي
رضي الله عنه وأرضاه

قال الأئمة ـ منهم : الأستاذ أبو القاسم القشيري رحمه الله وغيره ـ : كان أبو الخير التيناتي[1] من أصحاب الكرامات[2] ، حكي عنه : أن شخصاً من أصحابه عزم على السفر إلى الموصل ، قال : فجئت إلىٰ أبي الخير أزوره وأودعه ، قال : فلما ودعته . . خرج معي إلىٰ باب المسجد وقال : أنا أعرف أنك لا تحمل معلوماً ، ولـٰكن احمل هاتين التفاحتين .

قال : فأخذتهما ووضعتهما في جيبي ، ثم سافرت وسرت يوماً وليلة ، فلم يفتح لي بشيء ، وبقيت علىٰ ذلك ثلاثة أيام أسير ولا يفتح عليَّ بشيء ، قال : فأخرجت واحدة منها وأكلتها ، ثم أردت أن أُخرج الثانية ؛ فإذا هما جميعاً في جيبي ، فكنت آكل منهما ولا ينقصان ، ولا زلت علىٰ ذلك إلىٰ أن وصلت إلى الموصل .

قال : فقلت في نفسي : هاتان التفاحتان تفسدان عليَّ توكلي ؛ إذ قد صارتا معلوماً لي ، فأخرجتهما من جيبي ، ثم نظرت ؛ فإذا فقير ملفوف في عباءة وهو يقول : أشتهي تفاحة ، فدفعتهما إليه ، ثم مضيت ، فوقع في خاطري أن الشيخ أبا الخير إنما بعث بالتفاحتين إلىٰ هـٰذا الفقير ، فرجعت لأراه وأجلس معه . . فلم أجده ولم أدر أين ذهب .

وقال بعضهم[3] : دخلت علىٰ أبي الخير في منزله زائراً ، وكنت عقدت في نفسي أن أسلِّم عليه وأخرج ، ولا آكل في منزله طعاماً ، فلما سلمت عليه ، وخرجت من منزله ، ومشيت قدراً يسيراً ؛ وإذا هو يمشي خلفي ومعه طبق فيه طعام ، ثم قال لي : اجلس وكُلْ ، فقد خرجت الآن من عقدك ؛ لأنك لست في منزلي الآن . انتهىٰ .

وقال في « المناقب » : قال أبو الخير : دخلت مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبي

---

(١) **التيناتي** : نسبة إلىٰ تِينَات من بلاد الشام من أعمال حلب ، سكن فيها .

(٢) الرسالة القشيرية (٤٥) .

(٣) هو عبد العزيز البحراني كما ذكر في « تاريخ دمشق » (٦٦/ ١٧١) .

فاقة ، فأقمت خمسة أيام ما ذقت شيئاً ، فتقدمت إلى القبر الشريف ، وسلمت علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلىٰ أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وقلت : أنا ضيفك يا رسول الله ، ثم نمت خلف المنبر ، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر وعلياً في المنام ، أبو بكر عن يمينه ، وعمر عن يساره ، وعلي بن أبي طالب بين يديه رضي الله عنهم ، فحركني علي رضي الله عنه وقال لي : قم فقد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقمت وقبَّلت يديه صلى الله عليه وسلم ، فأعطاني رغيفاً ، فأكلت نصفه ، واستيقظت من النوم ، وإذا في يدي النصف الآخر من الرغيف . والله أعلم انتهىٰ .

وقال في « لوامع أنوار القلوب » : روي أن إبراهيم بن المولد زار أبا الخير التيناتي ، فلما قام إلى الصلاة وقرأ (الفاتحة) . . أخل فيها بما لا يبطل الصلاة ، قال إبراهيم : فقلت في نفسي : كيف قصدت رجلاً لا يقيم (فاتحة الكتاب) ؟! فلما فرغ أبو الخير من الصلاة . . أخذ إبراهيم بن المولد الركوة ، وخرج يريد الطهارة ، فحمل عليه الأسد ، فانهزم ، فخرج إليه أبو الخير وصاح على الأسد وقال : أليس قد قلنا لك لا تتعرض لأضيافنا ؟ فرجع الأسد ، فقال أبو الخير : يا إبراهيم ؛ مَن اشتغل بتقويم ظاهره . . خاف من الأسد ، ومَن اشتغل بتقويم باطنه . . خاف منه الأسد ، استغفر الله يا إبراهيم مما مر بخاطرك ؛ فإن تلك القراءة مما تصح بها الصلاة ، غفر الله لنا ولك . والسلام . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو الحسن سمنون بن حمزة الخواص

رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ في كتاب « عقلاء المجانين » : سمنون بصري ، سكن بغداد ، ومات قبل الجنيد رحمهما الله[1] .

قال : ووقف رجل علىٰ سمنون البصري في مجلسه ، فسأله عن المحبة فقال : لا أعرف اليوم مَن أتكلم عليه . . يعلم هـٰذه المسألة ، فسقطت حمامة وقعدت علىٰ ركبته ، فقال : إن كان . . فهـٰذا ، ثم جعل يقول ـ ويشير إلى الطائر ـ : بلغ من أحوال القوم كذا وكذا ، فشاهدوا كذا وكذا ، وكانوا علىٰ كذا وكذا ، ولم يزل يتكلم عليه حتىٰ سقط الطائر عن ركبته ميتاً ، ثم أنشأ يقول :

لـــو صـــاح إنســـان لشـــدة حبِّـــهِ لمـلأتُ بيـن الخـافقيـن صيـاحـا

زاد في « لوامع أنوار القلوب » : أن أبا العباس بن مسروق وأبا الحسن الواسطي رحمهما الله قالا : كنا في جماعة في حلقة سمنون المحب في جامع بغداد ، وهو يتكلم في المحبة ، فكنا نفهم ما يقول ، فدق الكلام حتىٰ خرج عن الأفهام ؛ فإذا القناديل تضرب بعضها بعضاً ، فتكسرت القناديل كلها ، فقال الواسطي : إني لأعجب كيف تستقر السواري علىٰ سماع هـٰذا الكلام! وأي قلب يحتمله ؟! وأي فؤاد يحويه ؟!

وفي رواية أبي القاسم القشيري : عن ابن مسروق قال : رأيت سمنون بن حمزة يتكلم في المحبة ، وكان في المسجد ، قال : فتكسرت قناديل المسجد كلها .

قال : ورأيته قد جلس يوماً آخر ، فتكلم في المحبة ، فجاء طائر صغير ولا زال يدنو منه

---

(١) سُمنون بن حمزة : بضم السين على المشهور ، ويقال : ابن عبد الله ، كما يكنىٰ بأبي القاسم ، وفي « الصفوة » (٢/ ٢٥٧ـ٢٥٨) ، و« تاريخ بغداد » (٩/ ٢٣٤) : (مات بعد الجنيد) ، وفي « الحلية » (١٠/ ٣٠٩) ، و« الرسالة القشيرية » (٣٧) : (قبل) .

حتىٰ جلس علىٰ يده ، ثم ضرب بمنقاره الأرض ، فسال منه دم ، ثم مات .

زاد في « لوامع أنوار القلوب » : فقلنا له : إن الله عز وجل لم يخلق حيواناً . . إلا ويعرف المحبة ، ولٰكن ليس كل حيوان يحملها ؛ فإنها سُمٌّ في البدن ، ودمع في العين ، وقلق في الحشا ، وشجىً في القلب .

وكان سمنون يقول : ما ثَم غير الرضا والتسليم بجميع ما يفعله سبحانه وتعالىٰ ، فضح أم ستر ، أسرَّ أم أعلن .

وقال سمنون : المحبة : فَقْدُ القلب مع معالجة الكرب .

وقال : عبادة ساعة بمثقال ذرة من المحبة . . أحب إلي من عبادة سبعين سنة بلا محبة ؛ فإني أخشىٰ علىٰ عبادتي من الإسماع والاطلاع ، والمحبة تحملني علىٰ كتمان السر والاعتذار[1] ، ودوام الخضوع والافتقار ، ولا يبلغ المحب إلىٰ هٰذا الحد . . إلا بكسر النفس والمنىٰ ، وترك الشهوات والهوىٰ ، وأنشد :

الهَمُّ مجتمعٌ والقلب مفترقُ ... والجسم محترِق والدمع مستبقُ
كيف القرار علىٰ مَن لا قرارَ له ... مما جناه الهوىٰ والشوق والقلقُ
يا رب إن كان شيءٌ فيهِ لي فَرَجٌ ... فامنن عليَّ به ما دام بي رمقُ

وقال : المحبة : استهلاك في لذة ، ومشاهدة في غيبة ، والمعرفة : فناء في هيبة ، ومشاهدة في مشاهدة ، ولم يخلق الله سبحانه حيواناً . . إلا وأودع فيه جزءاً من المحبة ؛ قال تعالىٰ : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ .

ولهٰذا قال بعض العارفين : الله محبوب الأشياء كلها ، ولولا المحبة . . لما واظب المؤمن علىٰ صومه وصلاته وسائر عباداته .

وقال ـ وقد سئل عن المحبة ـ فقال : المحبة : رؤية العز في الذل ، وإن كنت تحت القيد والغل ، ثم أنشد :

أَذِلُّ لمن أهوىٰ لأكسبَ عِزَّةً ... وكم عِزَّةٍ قد نالها المرء بالذُّلِّ
إذا كان مَن تهوىٰ عزيزاً ولم تكن ... ذليلاً له فَأَقْرَ السلام على الوصلِ

وقيل له : صِفْ لنا الحب ، فقال : أول منازل المحبة : فقدان القلب في ميدان الحب ،

---

(١) في نسخة : (والمحبة تحملني علىٰ كتمان السر إلا عند الاعتذار) .

ثم قرأ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ ، فلو كان قلبه معه . . ما اختار لنفسه الشَّجَىٰ والأحزان ، ولَمَا هجر الأخلاء والإخوان ، ولٰكنه استوضح الطريق ، واستصحب التوفيق ، وتزود من المساعدة ، وركب أشواق المشاهدة ، فركض في ميدان الصفاء والوقار ، وخلَّف وراءه النفس والهوىٰ ، فأخذ سره عن نفسه ، وهرب قلبه عن أنسه ، فبقي مع أنيسه بلا قلب ، ومع محبوبه بلا لُبٍّ .

وقال : المحبة : التشرف بالمحبوب .

ولهٰذا قال يحيى بن معاذ الرازي ـ رحمه الله ـ : ذهب المحبون بشرف الدنيا والآخرة ؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المرء مع من أحب »[1] .

ثم قال سمنون : مُحِبُّو الجنة بَقُو مع جنتهم ، ومحبُّو الدنيا بَقُو مع دنياهم ، ومحبُّو الحق جل جلاله بَقُو مع الحق سبحانه وتعالىٰ في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

وقال أبو محمد رحمه الله : دخلت علىٰ سمنون ، فرأيته يبكي ، فجلست ساعة وحضرت صلاة الظهر ، فقلت : قد أَذَّنَ ، فقام للصلاة ، فلما فرغ من صلاة الفرض والسُّنة . . عاد إلى البكاء ، فقلت له : بالله ؛ ما سبب هٰذا البكاء ؟ فقال لي : يا أبا محمد ؛ كيف لا أبكي وأنا رجل مطلوب ، والليل والنهار ينهبان عمري ، وأقدم علىٰ ربي سبحانه وتعالىٰ بذنوب قد سارت بها الركبان ، وكتبها المَلَكان ، واطلع عليها قبل ذلك الملك الديان جل جلاله ؟! قال : ثم غلبه البكاء ، فتركته وانصرفت .

وروي : أنه يوم مات سمنون المحب رحمه الله . . قال أحد الحاضرين : ما أكثر براهين هٰذا الرجل!

وقال آخر : بذل راحته في ابتداء أفعاله ، ثم رُوحَه في انتهاء أحواله .

وكتب سمنون علىٰ مرقعته : لو طولب أصحاب الدعاوي بالمعاني . . لافتضحوا .

وكان ورده في كل يوم وليلة : خمس مئة ركعة .

وقال أبو الفرج وغيره : إن سمنون المحب انتهىٰ خبره إلىٰ بعض الخلفاء ، فأحب لقاءه في خلوة ، فما زال يطلبه حتىٰ ظفر به في الطواف ، فسأله : بمَ تحيا القلوب ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ؛ أما حياة الواصلين إلى الله عز وجل . . ففي خدمته ولزوم طاعته جل جلاله ، فقال له : وكيف وصلتَ إليه ؟ فقال : ما وصلت حتىٰ عملت ستة أشياء :

---

(١) أخرجه البخاري (٥٨١٦) ، ومسلم (٢٦٤٠) .

أَمَتُّ ما كان حَيّاً ، وهو النفس .

وأحييت ما كان ميتاً ، وهو القلب .

وشاهدت ما كان غائباً ، وهو الآخرة .

وغيبت ما كان شاهداً ، وهو الدنيا .

وأبقيت ما كان فانياً ، وهو المراد .

وأفنيت ما كان باقياً ، وهو الهوىٰ ، واستوحشت مما تأنسون ، وأنست بما تستوحشون ، ثم أنشأ يقول :

روحي إليك بكلها قد أجمَعَتْ ... لو أن فيك هلاكَها ما أقلعَتْ

تبكي عليك بكلها في كلها ... حتىٰ يُقالَ من البكاء تقطَّعَتْ

فانظر إليها نظرة بمحبةٍ ... فلطالما متَّعْتَها فتمتَّعَتْ

وقال سمنون : بقيت مطروحاً علىٰ باب بني شيبة سبعة أيام طاوياً ، فهتف بي هاتف في آخر ليلتي : مَن أخذ من الدنيا فوق ما يجزئه . . أعمى الله قلبه .

وقال سمنون : إني أذكر مجيء الناس إلي فأقول : اللهم ؛ هب لهم من العلم ما تشغلهم به عني .

وسئل سمنون : أي الطعام أشهىٰ ؟ فقال : لقمة من ذِكر الله عز وجل ، في فم اليقين ، بتوحيد الله سبحانه ، رفعتَها من مائدة الرضا عن الله عز وجل ، عن حسن الظن بكرامة الله سبحانه وتعالىٰ .

وقال سمنون : مكاشفات الأعيان بالأبصار ، ومكاشفات القلوب بالاتصال .

وروي : أن غلبة الشوق أخرجت سمنون المحب ليلة من مصلاه ، قال : فلما خرجت إلىٰ مقابر الشونيزية . . سمعت في هدوء الليل صوت أنين وحنين ، قال : فقربت منه ، فسمعته يقول : إلـٰهي ؛ الخوف أقصاني ، والرجاء أدناني ، والحب حَيَّرني ، والشوق هَيَّمني ، وأنا فيما بين ذلك أسير ، وخلاصي عليك سهل يسير ، فوجدت قلبي وقصدتُه ، فلم أر أحداً ، فعدت إلىٰ موضعي وأنا أهيم بما كنت فيه .

ووعظ سمنون رجلاً فقال له : اجعل قبرك خزانتك ، واحشُها من كل عمل صالح ، فإذا وردت علىٰ ربك سبحانه وتعالىٰ . . سَرَّك ما ترىٰ .

وسئل عن الصبر لله فقال : حَمْلُ المؤن في الله عز وجل حتىٰ تنقضي أوقات المكروه .

وقال في معنىٰ قوله صلى الله عليه وسلم : « رَوِّحوا القلوب . . تعي الذِّكر »[1] : روحوا القلوب من هموم الدنيا . . تعي أذكار الآخرة .

وقال في معنىٰ قوله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن يأكل في معي واحد ، والكافر يأكل في سبعة أمعاء »[2] : واحد منها طبع ، وستة حرص ، فالمؤمن يأكل بمعاء الطبع ، والكافر يأكل بمعاء الحرص .

وسئل سمنون عن المحبة فقال : ما خلق الله عز وجل شيئاً . . إلا والمحبة ألطف منه ، فكيف أعبر عما لا عبارة عنه ؟!

وقال سمنون : أول وصال العبد للحق جل جلاله . . هجرانُه لنفسه ، وأول هجران العبد للحق . . مواصلته لنفسه .

وكان سمنون رحمه الله يدخل كل يوم السجن والمقابر ودار المرضىٰ ، ويقول لنفسه : لو كنت في السجن ما كنت تصنع ؟ لو كنت مريضاً ما تصنع ؟ لو كنتَ في القبر .ماذا يكون حالك ؟ اللهم ؛ اغفر وارحم وأتم نعمك السابغة عليَّ .

وكان يقول :

يا من تَرَفَّعَ بالإمارة طاغياً ... خَفِّضْ عليك فلِلأُمور زوالُ
فلئن أفادك ذا الزمانُ تصرفاً ... فبصَرْفِهِ تتقلب الأحوالُ

وحكىٰ أبو الفرج ـ رحمه الله ـ وغيره : عن سمنون أنه كان يسمي نفسه سمنون الكذاب ، وسبب ذلك أنه ادعى الصبر والرضا بالبلاء ، فلما امتحن . . لم يصبر ، وكان قد قال :

وليس لي في سواك حظ ... فكيف ما شئتَ فاختبرني

فاحتبس عنه بوله أربعة عشر يوماً ، فكان يلتوي كما تلتوي الحية على الرمل ، ويقول للصبيان : ادعوا لعمكم الكذاب ، فلما تاب . . أُطلِق وقال : يا رب ؛ تبت إليك وأنت أرحم الراحمين .

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٥١١٥) .
(٢) أخرجه البخاري (٥٠٧٨) ، ومسلم (٢٠٦١) .

وقال أبو أحمد القلانسي رحمه الله : فرَّق رجل من الأغنياء على الفقراء أربعين ألف درهم ، فبلغ ذلك سمنون ، فقال لي : يا أبا أحمد ؛ ما ترىٰ ما قد أنفق هـٰذا وما قد فعله ؟ نحن ما نرجع إلىٰ شيء ننفقه ، امض بنا إلى المدائن نصلي أربعين ألف ركعة ، قال : فمضينا إلى المدائن وصلينا أربعين ألف ركعة ، وزرنا قبر سلمان الفارسي رضي الله عنه ، ثم رجعنا . [انتهىٰ « الصفوة » ٢/٢٥٧ـ٢٥٨] .

وقال في « لوامع أنوار القلوب » : قال سمنون المحب : كنت أسمع أن بالبادية امرأةً لها حالٌ صافٍ ، فقصدتها كَرَّاتٍ فلم أرها ، فخرجتُ حاجاً على التفريد والتجريد ، فلما كنت بمكة . . رأيت امرأة شعثاء حيرانة ، فسلمت عليها ، فأحسنت الرد وقالت : وعليك السلام يا سمنون ، بصوت خفي .

فقلت لها : ما الذي أسقمك ؟ قالت : الحب ، فقلت : لمَن ؟ فقالت : لله رب العالمين جلت عظمته ، قلت : فإلىٰ أين انتهت بك المحبة ؟ فقالت : إلى الدهشة والحَيرة ، قصدت هـٰذا البيت المبارك مرات ، فنوديت في سري : إنَّ علم هـٰذا البيت بالله تبارك وتعالىٰ كعلم الحوت من تحت الأرضين به سبحانه ، وعلم الثريا به سبحانه كعلم الثرىٰ به ، فأَجَلْتُ سرَّ محبتي حول العرش ، فناداني العرش : إني طالب لما أنت طالبة ، ومتحير فيما أنت متحيرة فيه ، قال سمنون : فسكرت من سماع هـٰذا الكلام ووجدت قلبي ساعة ، فلما أفقت . . لم أرها .

وقال سمنون المحب : إذا صدقت المحبة . . لا يحس المحب بقطع الأعضاء ، بل يلتذ بأنواع البلاء . انتهىٰ .

وقال مؤلفه[1] **محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ** : قد اشتمل كلام سمنون المحب ـ رحمه لله ـ وحالُه على المحبة ، وقد رأيت أن أختم ترجمته بفصول ثلاثة :

الأول : حقيقة المحبة بعبارات الواجدين .

الثاني : في بيان أكثر الألفاظ الجارية في عرف القوم .

الثالث : في كلمات حُفِظت عن المشايخ علىٰ ترتيب كتاب « بهجة الأسرار » .

---

(١) أشار المؤلف في مقدمة هـٰذا الكتاب أنه كتب مؤلفاً في حقيقة المحبة وسماه : « إشراق الصباح في حياة الأرواح » ، ولعله لخص شيئاً منه في هـٰذا الكتاب ، والله أعلم .

أما الأول

[في حقيقة المحبة بعبارات الواجدين]

فقال الفضيل بن عياض رحمه الله : حقيقة المحبة[1] : إيثار المحبوب على الكونين في القرب والبعد ، ومِن شرطها الاستتار ابتداءً والاشتهار انتهاءً .

وقيل : هي الرضا عن المحبوب في الأحوال كلها ، وألاَّ يبقىٰ للمحب مراد ولا تصرف .

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : هو ألاَّ تبقىٰ له إرادة إلا مع إرادة محبوبه ، فيكون مؤنس خلوته ، وموضع راحته ، ويجعل قلبَه لمعرفته ، وبدنَه لخدمته ، وسمعَه لكلامه .

وقال ذو النون رحمه الله : هو أن يحب ما أحب الله ، ويبغض ما أبغض الله ، ويطلب رضاه ، ويرفض كل ما يشغله عن الله عز وجل .

ومن علامة المحبة : متابعة المحبوب في مراداته وأفعاله وأوامره ونواهيه ، لا فزعاً من العقاب ، ولا طمعاً في الثواب .

وأدنىٰ منازل المحبة : أنه لو ألقاه محبوبه في لظىً . . لَمَا تغير هَمُّه عما هو عليه من المحبة ، ولا يغيب محبوبه عن سره .

وقال بشر بن الحارث رحمه الله : تَرْك مخالفة المحبوب بكل حال ، والتسليم والرضا في الحال والمآل ، ويشهد ذُلَّه في عز محبوبه ، ويستعد للحتف المجلوب مع فوات المطلوب ، ويكون موافقاً لمراد المحبوب في المشهد والمغيب ، فإن تغير عن حال الوفاق . . عاد إلى الرياء والنفاق .

وقال سري السقطي رحمه الله : القيام بحقوق المحبوب ، وإيثاره علىٰ حقوق نفسه مع

---

(١) جاء في هامش إحدى النسخ ما معناه : (أراد المؤلف من هٰذا الفصل بيان حقيقة المحبة بتعريفها بعيداً عن التعريف الفلسفي الذي يبحث في الجوهر والماهية ، وإنما قصد بيان حقيقتها بعلاماتها وآياتها ، كما جاء في الحديث الشريف لما سأل النبي صلى الله عليه وسلم الحارث بن مالك رضي الله عنه فقال : « كيف أصبحت يا حارث ؟ » قال : أصبحت مؤمناً حقاً ، قال : « انظر ما تقول ؛ فإن لكل قول حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ » قال : عزفَتْ نفسي عن الدنيا ، فأسهرتُ ليلي ، وأظمأتُ نهاري ، وكأني أنظر عرش ربي بارزاً ، وكأني أنظر إلىٰ أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلىٰ أهل النار يتضاغَون ـ يتصايحون ويضجون ـ فيها ، قال : « يا حارث ؛ عرفت فالزم » رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٣/ ٢٦٦) .

الاستطاعة في الشرع ، وطلب الوفاء والإنصاف من نفسه لمحبوبه .

وقال الحارث المحاسبي رحمه الله : هي العمل بحركات القلوب والجوارح في مطالعات الغيوب ، ومعناه : أنه يناجي من الغيب في الغيب بالغيب للغيب .

وقال معروف الكرخي رحمه الله : اشتغال العبد بطاعة الله عز وجل ، ورفض كل ما يقطع عن ذلك ، وعلامة مقتِ الله سبحانه للعبد : اشتغالُه بنفسه والدنيا ، ولا تصح طاعة إلا بإخراج الدنيا من القلب .

وقال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله : هي ما لا ينقص بالجفاء ، ولا يزيد بالبر .

وقال أبو تراب رحمه الله : هي أن يستلذ ببلائه كما يستلذ[1] بنعمائه ؛ فإن الجميع يصدر عن محب واحد سبحانه ، ومحبة واحدة ، وإرادة واحدة ، والمحبة لا تتغير ، كما أن المحبوب جل جلاله لا يتغير .

وقال أيضاً : المحبة : ألاَّ ترى الإحسان إلا من محبوبك ، ولا تطيع إلا ما أمر به وأراده ، ولهـٰذا قال صلى الله عليه وسلم : « جبلت القلوب علىٰ حب من أحسن إليها » .

فيا عجباً ممن لا يرىٰ محسناً غير الله عز وجل كيف لا يميل بكليته إليه ؟!

وقال أبو عثمان الحيري رحمه الله : أن يستوي عند المحب المنع والعطاء ، والعز والذل ، ثم لا تصح المحبة إلا بالالتجاء إلى المحبوب ، والفقر الدائم إليه ، والاستكانة والخضوع ، مع الخوف منه ، والرجاء له ، وإيثار كل ما فيه رضاه ، فيتولد منه نحول في الجسم ولوعة في الفؤاد ، وجوىً في الصدر .

وقال أبو محمد رويم رحمه الله : المحب مَن لا يجاوز هَمُّه محبوبَه ، وحيث وقَّفه وقف ، ولو كان فيه حتفه ؛ فإن أقل ما في المحبة بذل الروح ، فإن أمكنك الدخول فيها مع هـٰذا ، وإلا .

وقال يوسف بن الحسين الرازي رحمه الله : مراعاة المحبوب في الغَيبة والمشاهدة ، والقرب والبعد ، والوصل والهجر علىٰ صفة واحدة ، علماً بأن المحبوب يراه فيستحي منه أن ينظر إلىٰ سواه .

---

(١) في نسخة : (تستلذ) في الموضعين .

وقال أبو عبد الله عمو بن عثمان بن غضنفر المكي رحمه الله : حقيقة المحبة لا تقع عليها عبارة ؛ لأنها سر الله عز وجل ، أودعه قلوب المؤمنين المخلصين ، فدوام محبة الله دوام مخافته ، ودوام المراقبة ، ودوام انتصاب القلب لذكره ، ودوام صحة التوكل عليه ، ودوام الصبر مع الرضا والإخلاص في طاعته ، والمحبوب جل جلاله يفعل ما يشاء من خلع العزائم والإرادات ، والمحب لا يقر قراره لا ليلاً ولا نهاراً ، من تكرار البلاء عليه ، وهو غريق في بحر المحبة ، متمسك بعلائق الإخلاص ، والمحبة داخلة في الرضا ، فلا محبة بلا رضا ، ولا رضا بلا محبة ؛ لأنك ما تحب إلا ما ترضىٰ ، ولا ترضىٰ إلا ما تحب ، وسماع كلام المحبوب من أهنأ النِّعم ، وإيثار رضاه شفاء السقم .

وقال أبو بكر محمد بن عمر الوراق الترمذي ـ رحمه الله ـ : هي مشاهدات المحبوب علىٰ كل حال ؛ فإن الاشتغال بغيره حجاب ، وأصله التسليم واليقين ، فهما يبلغان إلىٰ درجة المتقين ، قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ .

وللمحبة علامات ، منها : أن يكون كلامه ذِكراً للمحبوب ، وصمته تفكراً في آلائه ونعمهِ ، وعلمُه وعملُه طاعة له ، ونظره عبرة في صنائعه ؛ قال تعالىٰ : ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ .

وقال علي بن سهل التستري ـ رحمهما الله ـ : هي الأنس بالمحبوب دون من سواه .

وقال أبو عبد الله محمد بن محمد الخراز الرازي ـ رحمه الله ـ : هي ترك الشكوىٰ ، وإخفاء البلوىٰ ، ومداومة الأرق ، ومعالجة الحرق .

وقال أبو الحسن بنان بن أحمد بن سعيد الحمّال : حقيقة المحبة : أن تُسَرَّ بكل ما جاء من جهة المحبوب ، وكلما كانت قدم المحب في المحبة أثبت . . كان فرحه وقيامه بالأوامر واجتناب النواهي أكثر ، وبحسب ذلك يكون قربهم .

وقال أبو بكر محمد بن موسى الفرغاني رحمه الله : إن محبة العبد هي أحواله .

ومن علامة المحبة مشاهدة أفعال المحبوب في موانع أفعاله ، وبذل المهجة في طاعته ، ورؤية الأوقات كلها ساعة ؛ فإن حياة القلوب بمشاهدة المحبوب ، وموتها في الغفلة عن المطلوب ؛ فإنَّ خَطَرَ الذاكرين علىٰ بساط الذِّكر . . أشد من خطر الغافلين في ميدان الغفلة ؛ فإنه إن فاتهم . . خسروا التعب والشقاء ، الأمان . . الأمان .

وقال أيضاً : المحبة : الوطء علىٰ جمر الغضىٰ[1] ، وإتلاف النفس في طلب الرضا ، والانقياد لمحتوم القضا ، والاستدراك لما قد مضىٰ .

وقال أبو إسحاق إبراهيم بن داوود القصار رحمه الله : المحبة لا تطاق ، فإن حُمِلت . . فلا تنكتم ، فإن كُتمت . . قَتلت ، ومَن أحب الله عز وجل . . التجأ إليه في جميع ما يعرض له من البلاء والعطاء ، وإذا علم تعالىٰ صِدْقَه . . كفاه كلَّ مهم ، ونصره عند كل ملم .

وقال علي بن إسماعيل السامري ، ثم البغدادي ، المعروف بالنساج رحمه الله : حقيقة المحبة لا تتغير عند إساءة المحبوب ، كما لا تتغير عند إحسانه إليه ؛ لأن الله سبحانه وتعالىٰ شرح صدور المتقين بنور اليقين ، وكشف عن بصائر العارفين بنور حقائق الإيمان ، فأشرقت أسرار المحبين بنور المكاشفة ، وشَغَلَهم بدوام المذاكرة ، فاستوىٰ عندهم المنع والعطاء ، والنعمة والبلاء ، والفقر والغنىٰ ؛ قال الله تعالىٰ فيهم : ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ .

ومِن علامة المحبة : أن كل ما يتقلب فيه المحب من النعم . . لا يراه إلا من محبوبه ، ولا ينفقه إلا في طاعة محبوبه ، ويستحيي أن ينفق نعمه علىٰ معاصيه .

وفي « الزبور » : (إذا كنتَ تتقلب في نعمتي ، وأنت تستعين بها علىٰ معصيتي . . فاحذر عقوبتي ونقمتي) .

وقال أبو جعفر أحمد بن حمدان بن شيبان النيسابوري رحمهم الله : حقيقة المحبة : تعظيم الحبيب في المشهد والمَغيب ، وعلىٰ قدر معرفة العبد ومحبته لله عز وجل . . يكون تعظيمه لله تعالىٰ ، ومَن عظَّم الله . . عظَّم حرمات المؤمنين .

وقال أبو عبد الرحمٰن محمد بن الحسين بن محمد بن موسى السلمي رحمه الله : المحبة : خلوص المحب لمحبوبه بكل وجه سراً وعلانية ، ولا يقال حضر أم غاب ؛ لأن الغَيبة مع المحبة لا تُتصور .

حكي : أن الشبلي رحمه الله كان في ولهه يوماً في مجلس الجنيد ، فتواجد وقال : الله ، الله ، فقال الجنيد : يا أبا بكر ؛ الغيبة حرام .

معناه : إن كنت تذكره وأنت ترىٰ نفسك . . فأنت عنه غائب ، فهٰذه غيبة ، والغيبة

---

(١) الغضىٰ : نوع من الشجر جمره من أشد الجمر حرارة .

حرام ، وإن كنت تذكره وأنت علىٰ بساط المشاهدة واللقاء والتواجد . . فهو ترك للحرمة ، وترك الحرمة حرام .

وقال القشيري ـ رحمه الله ـ : حقيقة المحبة أن يكون رقيب من المحبوب على المحب ، لا يبرح حتىٰ يستوفي منه دقائق الحقوق علىٰ دوام الأحوال ؛ أي : يعلم أن عليه رقيباً .

وابتداء المحبة : ترك الراحة في طاعة المحبوب ، وانتهاؤها بذل الروح .

وقالت رابعة العدوية رحمها الله : المحبة نار تنضج الأكباد ، وتحرق الفؤاد ، فإن رأيتها لم تنضج . . فهي دعوىٰ لا معنىٰ .

وقيل : هي التلذذ بالعذاب من المحبوب بطلب رضاه بكل حال ، إن صويحبات يوسف عليه الصلاة والسلام لو لسعهن زنبور . . لارتفع صياحهن إلى السماء ، ولٰكن عند المشاهدة . . تضاعفت المحبة وقطعن أيديهن وما شعرن .

ولهٰذا لما قيل لها : ما برهانك في دعواك الحب ؟ قالت : يا يوسف ؛ اخرج عليهن ، فلما رأينه . . أكبرنه وقطعن أيديهن ، فقالت : وجهه حجتي ، وحسنه عذري .

ولهٰذا قيل : مَن ادعى العلم . . فبرهانه بذل الحال ، ومَن ادعى المعرفة . . فبرهانه بذل النفس ، ومَن ادعى المحبة . . فبرهانه بنضج الفؤاد ، وبقطع الأكباد ، وإعدام الأشباح .

وأقوال المشايخ في ذلك كثيرة راجعة إلىٰ معنىٰ واحد ، ولٰكن اختلفت عباراتهم بحسب مشاربهم ، رحمهم الله أجمعين .

* * *

الفصل الثاني
في بيان بعض الألفاظ التي في علم السلوك

قال حجة الإسلام الغزالي ـ قدس الله روحه[1] **ـ : اعلم** : أن لكل علم ألفاظاً فيما بين أهل ذلك العلم . . يتخاطبون بها في قواعده وسائر مسائله ، وأهل علم المعرفة ـ ويسمىٰ : علم السلوك والموهبة و[العلم] اللدني ـ جرىٰ رسمهم بالتخاطب بألفاظ نذكر منها ما يغمض إن شاء الله عز وجل .

---

(١) في « الإملاء » في إشكالات الإحياء للغزالي (ص١٦) ملحق بكتاب « الإحياء » طبعة دار المعرفة .

فمن ذلك :

السفر ، والطريق : والمراد بهما : سفر القلب بآلة الفكر في طريق المعقولات ، وعلىٰ ذلك انبنىٰ لفظ السالك والمسافر في لغتهم ، ولم يريدوا سلوك الأقدام التي يقطع بها مسافات الأجسام ؛ فإن ذلك مما يشارك فيه البهائم والأنعام .

وأول مسالك السُّيَّار إلى الله تعالىٰ : معرفة قواعد الشرع ، وخرق حجب الأمر والنهي ، حتىٰ يعلقوا الغرض فيها ، والمراد بها ومنها ، فإذا دخلوا في نواحيها وقطعوا مفاوزها . . أشرفوا علىٰ مفاوز أوسع ، وبدت لهم مهامِهُ[1] أعرضُ وأطولُ ، فمِن ذلك : معرفة أركان المعارف النبوية ، ومعرفة النفس ، ومعرفة العدو والدنيا .

فإذا تخلصوا منها وخاضوا في معرفتها . . أشرفوا علىٰ غيرها أعظمَ منها في الانتساب ، وأعرضَ منها بغير حساب ، فمِن ذلك : سر القدر ، وكيفية حكم الله عز وجل في عباده وسائر مخلوقاته ، وقادهم بلطف في عنف ، وشدة في لين ، وقوة في ضعف ، واختيار في جبر ، إلىٰ ما هو في مجاريه ، [مما] لا يخرج المخلوقون عنه طرفة عين ، ولا يتقدمون عليه ، ولا يتأخرون عنه ، والإشراف على الملكوت الأعظم ، ورؤية عجائبه ، ومشاهدة غرائبه ؛ مثل : القلم الإلـٰهي ، واللوح المحفوظ ، واليمين الكاتبة ، وملائكة الله عز وجل يطوفون حول العرش وبالبيت المعمور وهم يسبحونه ويقدسونه سبحانه وتعالىٰ ، وفَهْمِ كلام المخلوقات من الحيوانات والجمادات ، ثم الارتقاء منها إلىٰ معرفة الخالق للكل جل جلاله ، والمالك للجميع ، والقادر علىٰ كل شيء ، فتغشاهم الأنوار المحرقة ، وتتجلىٰ لمرآة قلوبهم الحقائق التي كانوا محجوبين عنها ، فيعرفون الصفات ، ويشاهدون الموصوف جل جلاله ، ويحضرون حيث غاب أهل الدعوىٰ ، ويبصرون ما عمي عنه أولو الأبصار الضعيفة بحُجُب الهوىٰ .

ـ **والحال** : منزلة العبد في الحين ، فيصفو له في الوقت حاله ووقته ، وقيل : ما يتحول فيه العبد ويتغير عما يرد علىٰ قلبه ، فإذا صفا تارة وتغير أخرىٰ . . قيل له : حالٌ .

وقال بعضهم : الحال لا يزول ، فإذا زال . . لم يكن حالاً .

وقد سبق الكلام علىٰ هـٰذا في ترجمة الإمام أبي عثمان الحيري رحمه الله .

---

(١) مَهَامِه : جمع مهمه ، وهي : المفازة والبرية القفر .

ـ **والمقام** : هو الذي يقوم به العبد في الأوقات ، من أنواع المعاملات ، وصنوف المجاهدات ، فمتىٰ أقيم العبد منها بشيء على التمام . . فهي مقامه حتىٰ ينتقل منه إلىٰ غيره .

ـ **والمكان** : هو لأهل الكمال والتمكين ، فإذا كمل العبد في معانيه . . فقد تمكن في المكان ، وعَبَرَ المقامات والأحوال ، فيكون صاحب مكان .

ـ **والشطح** : كلام يترجمه اللسان عن وجد يعرض لقائله مقرون بالدعوىٰ [إلا أنه يكون صاحبه محفوظاً] ، وقد ذكرت في المسألة الرابعة في ديباجة الكتاب الكلام علىٰ هـٰذا .

ـ **والطوالع** : أنوار التوحيد تطلع علىٰ قلوب أهل المعرفة ، فيطفىء سلطان نورها سائر الأنوار ، كما أن سلطان نور الشمس يمحو أنوار الكواكب .

ـ **والذهاب** : وهو أن تغيب القلوب عن حس كل محسوس بمشاهدة محبوبها .

ـ **والنفس** : نور[1] يسلطه الله عز وجل علىٰ نار القلب ليطفىء شررها .

ـ **والسر** : ما خفي عن الخلق ، فلا يعلم به إلا الحق سبحانه وتعالىٰ .

والسر ثلاثة : سر العلم ، وسر الحال ، وسر الحقيقة .

فسرُّ العلم : حقيقة العالمين بالله سبحانه وتعالىٰ ، وسرُّ الحال : معرفة مراد الله عز وجل في الحال ، وسرُّ الحقيقة : ما وقعت به الإشارة .

ـ **والفصل ، والوصل** : أما الوصل : فهو إدراك الفائت ، والفصل : فوت ما ترجوه من محبوبك .

ـ **والأدب** : ثلاثة :

[الأول] : أدب الشريعة ، وهو : التعلق بأحكام العلم بصحة عزم الخدمة .

والثاني : أدب الخدمة ، وهو : الفراغ من العلاقات ، والتجرد عن الملاحظات .

والثالث : [أدب الحق ، وهو] : موافقة الحق جل جلاله بالمعرفة : وذلك موهبة ومحض فضل .

ـ **والرياضة** : نوعان :

رياضة الأدب : وهو الخروج عن طبع النفس .

---

(١) في « الإملاء » : (روح) ، وكذا في بعض النسخ .

ورياضة الطلب : وهو صحة المراد به .

ـ **والتحلي** : التشبه بأحوال الصادقين وسائر أوصافهم ، وإظهار أعمالهم .

ـ **والتخلي** : اختيار الخلوة ، والإعراض عن كل ما يشغل عن الله سبحانه وتعالىٰ .

ـ **والتجلي** : ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب .

ـ **والعلة** : تنبيه عن الحق جل جلاله .

ـ **والانزعاج** : انتباه القلب من سِنة الغفلة ، والتحرك للأنس والوجد .

ـ **والمشاهدة** : ثلاثة :

مشاهدة بالحق ، وهي : رؤية الأشياء بدلائل التوحيد .

ومشاهدة للحق جل جلاله ، وهي : رؤية الحق سبحانه وتعالىٰ في كل الأشياء .

ومشاهدة الحق ، وهي : حقيقة اليقين بلا ارتياب .

وقد سبق الكلام علىٰ معنى المشاهدة في ترجمة الإمام أبي يزيد البسطامي رحمه الله .

ـ **والمكاشفة** : أتم من المشاهدة ، وهي ثلاثة :

مكاشفة بالعلم ، وهي : تحقيق الإصابة بالفهم .

ومكاشفة بالحال ، وهي : تحقيق رؤية زيادة الحال .

ومكاشفة بالوجد ، وهي : تحقيق صحة الإشارة .

ـ **واللوائح** : ما يلوح من الأسرار[1] الظاهرة الصافية في ارتقائها من حالة إلىٰ حالة أتم منها ، والارتقاء من درجة إلىٰ درجة أعلىٰ منها .

ـ **والتلوين** : تلون العبد في أحواله .

وقالت طائفة : علامة الحقيقة : رفع التلوين بظهور الاستقامة .

وقال آخرون : علامة الحقيقة : التلوين ؛ لأنه يظهر فيه قدرة القادر جل جلاله ، فتكتسب العباد منه الغَيرة[2] .

وأما الغيرة : فهي ثلاثة : غيرة في الحق ، وغيرة على الحق ، وغيرة من الحق .

---

(١) في النسخ : (للأسرار) .

(٢) جاء في نسخة : (العبرة) .

فالغيرة في الحق : إنكار الفواحش وسائر المناهي ، والغيرة على الحق : هو كتمان السرائر من الأسماء والصفات ، ولا سيما عن الملحدين والجاحدين ؛ خشية أن يعرفه غير أهله ، والغيرة من الحق : تعظيم جانب الربوبية عن أن يعصىٰ[1] .

وإلىٰ هـٰذا المعنىٰ أشار الإمام زهير بن نعيم البابي رحمه الله في قوله : (وددت أن لحمي قرض بالمقاريض وأن الخلق ما عصوا الله تعالىٰ) ، وقد سبق الكلام علىٰ ذلك في ترجمته .

ـ **والحرية** : إقامة حقوق العبودية ، ومعرفة حقوق الربوبية ، والقيام بها علىٰ قدر الطاقة ، فيكون عبداً لله عز وجل وعن ما سواه حراً .

ـ **وأما اللطيفة** : فهي إشارة دقيقة المعنىٰ تلوح في الفهم ولا تسعها العبارة .

ـ **والفتوح** : ثلاثة :

فتوح العبادة في الظاهر ، وذلك سبب إخلاص القصد .

وفتوح الحلاوة في الباطن ، وهو سبب جذب الحق سبحانه وتعالىٰ .

وفتوح المكاشفة ، وهو سبب المعرفة بالحق سبحانه وتعالىٰ .

ـ **والوسم والرسم** : نعتان يجريان في الأبد بما جريا في الأزل .

ـ **والبسط** : عبارة عن حال الرجاء .

ـ **والقبض** : عبارة عن حال الخوف .

ـ **والفناء** : هو أن تفنىٰ رؤية العبد لفعله ، وذلك بأن يعلم أن الله عز وجل هو الذي أقامه وأقدره على الإتيان بذلك الفعل .

ـ **والبقاء** : بقاء الطاعات ، ورؤية مِنة الله عز وجل وفضله علىٰ عباده في الطاعات ، ودوام مراقبته والنظر إليه في جميع الحالات .

ـ **والجمع والتفرقة** : قد تقدم الكلام عليهما في ترجمة الإمام الجنيد رحمه الله .

ـ **وعين التحكيم**[2] : إظهار رعاية الخصوصية بلسان الانبساط في الدعاء .

ـ **والزوائد** : زيادات الإيمان بالغيب ، واليقين ، وهي ثلاثة : علم اليقين ، وعين

---

(١) في « الإملاء » : (والغيرة من الحق : ضنه علىٰ أوليائه) .

(٢) وفي « الإملاء » : (عين التحلم) .

اليقين ، وحق اليقين ، وقد تقدم بيان ذلك في ترجمة الإمام أبي القاسم القشيري رحمه الله .

ـ **والإرادة** : ثلاثة :

إرادة الطلب من الله عز وجل ، وذلك موضع الترجي .

وإرادة الحظ منه ، وذلك موضع الطمع .

وإرادة الله تعالىٰ ، وذلك موضع الإخلاص .

ـ **والمريد** : هو الذي صح له الابتداء[1] ، ودخل في جملة المنقطعين إلى الله سبحانه وتعالىٰ بالاسم .

ـ **والمراد** : هو العارف الذي لم تبق له إرادة ، وقد وصل إلى النهايات ، وعبر الأحوال والمقامات .

ـ **والهمة** : ثلاثة :

همة أمنية ، وهي : تجرد القلب للمنىٰ .

وهمة إرادة ، وهي : أول صدق المريد .

وهمة حقيقة ، وهي : جمع الهمم لصفاء الإلهام .

ـ **والغربة** : ثلاثة :

غربة عن الأوطان : من أهل حقيقة القصد .

وغربة عن الأحوال : من أهل حقيقة التفرد بالأحوال .

وغربة عن الحق : من [أهل] حقيقة الدهش والحيرة عن المعرفة .

ـ **والاصطلام والغَيبة** : أما الغيبة : فقد تقدم الكلام عليها ، وأما الاصطلام : فهو نعت وَلَهٍ يرد على القلوب فيسكنها بقوة سلطانه .

ـ والرغبة : ثلاثة : رغبة النفس في الثواب ، ورغبة القلب في الحقيقة ، ورغبة السر في الحق .

ـ **والرهبة** : نوعان : ظاهر ، وباطن .

فالظاهر : لتحقيق وعيد العلم ، **والباطن** : لتحقيق يغلب على القلب ، **ونوع ثالث أعلىٰ**

---

(١) وفي « الإملاء » : (الابتلاء) .

من ذلك كله ، وهو : النظر إلىٰ ما سبق من الأزل .

ـ **والوجد والوجود** : أما الوجد : فهو أن يجد قلبه بصفاء ذكر كان قد فقده ، وأما الوجود : فهو تمام وجد الواجدين ، وهو أتم من الوجد عندهم ؛ لاستمراره علىٰ حال الصفاء الذي وجده بعد فقده .

وسئل بعض العارفين عن الوجد والوجود فقال : الوجد : ما تطلبه فتجده بكسبك واجتهادك ، والوجود : هو ما تجده من الله سبحانه وتعالىٰ ، والوجد من غير تمكين ، والوجود مع التمكين .

ـ **والتواجد** : استدعاء الوجد والتشبه في تكلفه بالصادقين من أهل الوجد . [انتهىٰ] .

وتمام الكلام علىٰ بقية الألفاظ يأتي إن شاء الله عز وجل في كتاب « إشراق الصباح » والله أعلم .

* * *

وأما الفصل الثالث
فهو كلمات مفرقة عن الأئمة رحمهم الله

قال في « بهجة الأسرار » : قال ذو النون رحمه الله : المعرفة ثلاثة أوجه :

معرفة التوحيد ، وهي لعامة المؤمنين .

ومعرفة الحجة والبيان ، وهي للعلماء .

ومعرفة صفات الوحدانية ، وهي لأهل ولاية الله عز وجل الذين يشاهدونه بقلوبهم ، وأنشد :

أبـــداً يشـــاهـــده بعينَـــيْ قلبِـــهِ والقلـــب يعـــرف ربـــه ويـــراهُ

وقال أبو يزيد رحمه الله : إن في الليل شراباً لقلوب أهل المعرفة ، فإذا شربوا . . طارت قلوبهم في الملكوت حباً لله سبحانه وتعالىٰ وشوقاً إلىٰ لقائه ، فبذلك يقطعون ليلهم .

وقال فتح الموصلي رحمه الله : أهل المعرفة الذين إذا عبدوا . . فله جل جلاله يعبدون ، وإذا نطقوا . . فبه ينطقون ، وإذا طلبوا . . فمنه يطلبون ، وإذا سمعوا . . فبه يسمعون ، أولئك خواص الله السابقون .

وقال بعض العارفين رحمهم الله : من علامة العارف : أن ينظر إلى الدنيا بعين الاعتبار ، وإلى الآخرة بعين الانتظار ، وإلى النفس بعين الاحتقار[1] ، وإلىٰ طاعة الله بعين الاعتذار ، وإلى المعذرة بعين الافتقار ، وإلى المعرفة بعين الاستبشار ، وإلى الله عز وجل بعين العظمة والافتخار .

وسئل بعضهم عن العارف ، والعابد ، والمحب ، والخائف ، فقال : الخائف : ذو هرب ، والعابد : ذو تعب ، والمحب : ذو شغف ، والعارف : ذو طرب .

وقال بعض العارفين : باتباع سُنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تُنال المعرفة ، وبأداء الفرائض تُنال القربة ، وبالمواظبة على النوافل تُنال المحبة .

وقال رجل لعبد الله بن المبارك رحمه الله : يا أبا عبد الرحمٰن ؛ أوصني ، فقال : راقِبِ الله سبحانه وتعالىٰ حتىٰ كأنك أبداً تراه .

وقال أبو محمد الجريري رحمه الله : أمرُنا هٰذا مبني علىٰ فصلين :

أن تلزم نفسك المراقبة لله عز وجل .

ويكون العلم علىٰ ظاهرك قائماً .

وقال أبو عثمان الحيري : قال لي الأستاذ أبو حفص رحمه الله : إذا جلست للناس . . فكن واعظاً لنفسك وقلبك ، ولا يغرنك اجتماعهم عليك ؛ فإنهم يراقبون ظاهرك ، والله عز وجل رقيب علىٰ باطنك سبحانه وتعالىٰ .

وقال الجنيد رحمه الله : مَن راقب الله عز وجل في سره . . حُرِسَتْ جوارحه .

وسئل الشبلي رحمه الله : عن الزهد ما هو ؟ فقال : أما الذي لك . . فلا بد صائر إليك وإن هربت منه ، وأما الذي ليس لك . . فلا تناله وإن جهدت وطلبت ، ففي أي شيء تزهد ؟

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله : والله ؛ ما نصبر علىٰ ما نحب ، فكيف نصبر علىٰ ما نكره ؟!

وقال أبو الفوارس شاه بن شجاع الكرماني رحمه الله : علامة الصبر ثلاثة أشياء :

ترك الشكوىٰ ، وصدق الرضا ، وقبول القضاء بحلاوة القلب .

---

(١) جاء في نسخة : (الاختبار) .

وقال أبو عثمان رحمه الله في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ قال : الصبَّار الشكور : هو الفقير الصابر ؛ لأن ظاهره ظاهر الصبر ، وهو في الباطن مع الحق عز وجل علىٰ مقام الشكر .

وقال إبراهيم الخواص رحمه الله : الصبر : هو الثبات علىٰ أحكام الكتاب والسُّنة .

وقال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله : إن لله عز وجل في السراء نعمةَ الفضل ، وفي الضراء نعمة الفضل مع التطهير ، فكن في السراء عبداً شَكوراً ، وفي الضراء حبراً صبوراً .

وقال في « بهجة الأسرار » : قال محمد بن الحسن : إذا ألف الزاهد أبناء الدنيا . . انقطعت عروته ، فإن نال من دنياهم شيئاً . . انحلت عُقَده ، فإن تمتع بها . . ضل .

وقال يحيى بن معاذ رحمه الله : لو لطمني أحد فلم أقدر على الانتصار منه . . كان أحب إلي من أن يبرَّ بي أحد فلم أقدر علىٰ مكافأته .

وقال يحيىٰ : أشتهي القيامة ؛ لثلاثة أشياء : للقاء الله عز وجل ، ورحمة للخلق ، وقرة عين المؤمن .

وقال أيضاً : صبر المحبين أشد من صبر الزاهدين ، واعجباه! كيف صبروا عن حبيبهم ؟!

وقال : العارف يزهد في الناس ، والزاهد يزهد في الدنيا .

وقال سهل رحمه الله : ما أظهر عبد فقره إلى الله عز وجل في وقت الدعاء في شيء يحل به . . إلا قال الله عز وجل لملائكته : (لولا أنه لا يحتمل سماع كلامي . . لأجبته : لبيك) ، سبحان ذي الفضل والعظمة والجبروت ، سبحان ذي العزة والكبرياء ، سبحان ذي اللطف والكرم ، جل جلاله ولا إلٰه غيره .

وقال الشبلي رحمه الله : كمال المعرفة : سكون الخواطر والجوارح عما سوى الله سبحانه وتعالىٰ .

وقال ذو النون رحمه الله : الذي حجب العارفين عن الله عز وجل . . السكون إلىٰ غير الله . انتهىٰ .

وقال الإمام أبو القاسم إسحاق البخاري الكلاباذي قدس الله روحه : **ومنها** : التجلي ، والاستتار .

أما التجلي : فاعلم أنه إذا تجلىٰ للعبد قدرةُ الله عز وجل علىٰ عباده. . فحينئذ لا يخاف غيره ، وإذا تجلىٰ له كفاية الله سبحانه لعباده. . فحينئذ لا يرجو غيره ، وكذلك سائر الصفات ، كما قال حارثة رضي الله عنه : (كأني أنظر إلىٰ عرش ربي بارزاً ، وكأني أنظر إلىٰ أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلىٰ أهل النار يتضاغون فيها ، قال صلى الله عليه وسلم : « يا حارثة ؛ عرفت فالزم » .

وكان قد تجلىٰ له كلامه في إخباره سبحانه ، فصار الخبر كالعيان .

قال بعض الأئمة : علامة تجلي الحق على الأسرار : هو أن يشهد ما لا تمكنه العبارةُ عنه ؛ لأنه لا يشهد إلا تعظيماً وهيبة ، فيسقط ذلك عن تحصيل ما شاهد من الحال .

وأنشدوا :

إذا مـا بـدَتْ لـي تعـاظَمْتُهـا ... فـأَصـدُرُ فـي حـال مَـن لـم يَـرِدْ
أَجِـدْهُ إذا غبـتُ عنـي بـه ... وأَشَهـد وجـدي لـه قـد فُقِـدْ
فـلا الـوصـل يُشهِـدنـي غيـرَه ... ولا أنـا أَشهَـدُه منفـرِدْ
جُمعـتُ وفُـرِّقـتُ عنـي بـه ... ففـرد التـواصـل يُفنـي العَـدَدْ

معناه : إذا بدت لي الحقيقة. . غلب علي التعظيم ، فأغيب في شاهد التعظيم عن شهود التحصيل ، وإذا غبت. . فقدت وجودي ، وحالة الوصل التي هي فنائي. . لا تشهدني غيره ، وحالة الانفراد [التي هي] قيامي بصفتي. . تفنيني عن شهوده ، فكأن جمعي به فرقني عني ، فيكون حالة الوصل هو أن الله تعالىٰ مُصرِّفي ، فلا يكون لي فعل ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ ، ومِن جهة العلم أن الله تعالىٰ مُصرِّفي ، وأنا به متصرف ، فيجتمع المعبود والعبد .

وقال بعضهم : **التجلي** : رفع حجب البشرية ، **والاستتار** : هو أن تكون البشرية حائلة بينك وبين شهود الغيب .

ومعنىٰ رفع حجب البشرية : أن ترىٰ أن الله عز وجل هو الذي يقيمك تحت موارد ما يبدو لك من الغيب ؛ لأن البشرية لا تقاوم أحوال الغيب .

والاستتار الذي يعقب التجلي : هو أن تستتر الأشياء عنك فلا تشهدها .

ومنها : الفناء ، والبقاء .

فالفناء : هو أن تفنىٰ عنه الحظوظ ، فلا يكون له في شيء حظ ، ويسقط عنه التمييز لفنائه عن الأشياء كلها شغلاً بمن فني به ، كما قال عامر بن عبد الله رضي الله عنه : ما أبالي امرأةً أتيتُ أم حائطاً .

والحق جل جلاله يتولىٰ تصريفه في وظائفه وموافقاته ، فيكون محفوظاً فيما لله عز وجل عليه ، مأخوذاً عَمَّا له وعن جميع المخالفات ، فلا يكون له إليها سبيلاً ، وهو العصمة ، وذلك معنىٰ قوله : (كنت له سمعاً وبصراً) .

والبقاء الذي يعقبه : هو أن يفنىٰ عما له ويبقىٰ بما لله عز وجل عليه .

وقال بعض الأئمة : البقاء : مقام النبيين صلوات الله وسلامه عليهم ؛ فإنهم أُلبسوا السكينة ، فلا يمنعهم ما حل بهم عن فرضه ولا عن فضله ، ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ .

والثاني[1] : هو أن تصير الأشياء كلها له شيئاً واحداً ، فتكون حركاته في موافقات الحق دون مخالفاته ، فيكون فانياً عن المخالفات ، باقياً في الموافقات ، علىٰ معنىٰ أنه لا يجري عليه إلا ما أمر به وما يرضاه الله عز وجل دون ما يكرهه ، ويفعل ما يفعل لله تعالىٰ لا لحظ له فيها ، لا في عاجل ولا في آجل .

وهـٰذا معنىٰ قولهم : يكون فانياً عن أوصافه ، باقياً بأوصاف الحق ؛ لأن الله عز وجل إنما يفعل الأشياء لغيره لا له ؛ لاستحالة عود الضر والنفع إليه ، وإنما يفعل الأشياء لينفع عباده أو يضرهم ، فلا يكون قصد العبد بفعله جر النفع له أو دفع الضر .

فالباقي بالحق الفاني عن نفسه . . يفعل الأشياء علىٰ معنىٰ أنه لا يقصد في فعله جر المنفعة ودفع المضرة عن نفسه ؛ إذ قد سقطت عنه حظوظ نفسه ومطالبة منافعها بمعنى القصد والنية لا غير ، لا بمعنىٰ أنه لا يجد حظاً فيما فعل لله عز وجل ، بل بمعنىٰ أنه إنما فعله لله عز وجل لذاته لا لطمع ثواب ولا لخوف عقاب ، وإن كان الخوف والرجاء لا يفارقانه ، ولـٰكن تكون رغبته في الثواب لموافقة الله عز وجل ؛ حيث رغب فيه ، وأُمِر أن يسأل ذلك ولا يفعله للذة نفسه قصداً وإن كانت اللذة حاصلة ضمناً ، كما يقول الأصحاب فيمن توضأ ولم ينو التبرد ـ فإن التبرد حاصل ضمناً ـ : ولو نوى التبرد . . ضره .

---

(١) الثاني : أي الفناء .

وهكذا في الخوف : يخاف عقاب الله لموافقته له ؛ لأنه سبحانه وتعالىٰ أحب أن يُخاف عقابه ، فهو يخاف العقاب لذلك ، لا من أجل الألم الذي هو حظ نفسه ، ويفعل سائر الحركات لله عز وجل لا لحظ نفسه ، كما قيل : المؤمن يأكل بشهوة عياله ، وأنشدوا :

أفنـاه عـن حظـه فيمـا أَلَـمَّ بـه ... فظـل يُبقيـهِ فـي رسـم ليُبـديـهِ
ليأخذ الرسمَ عن رسم يكاشفه ... والسر يفصح عن حق يراعيهِ[1]

فجملة الفناء والبقاء : أن يفنىٰ عن حظوظه ، ويبقي أعماله كلها ليس مقصوده بها إلا الله سبحانه وتعالىٰ ، فينأىٰ عن شهود المخالفات والحركات بها قصداً وعزماً ، وبقاء في شهود الموافقات والحركات بها قصداً وفعلاً ، وفناء عن تعظيم ما سوى الله سبحانه وتعالىٰ ومن أوجب تعظيمه ، وفني[2] في تعظيم الله تعالىٰ ؛ شغله الحق عن غيره .

ومِن الفناء عن تعظيم ما سوى الله تعالىٰ ـ كما مر ـ : قول أبي حازم رحمه الله حيث قال : ما الدنيا ؟ أما ما مضىٰ . . فأحلام ، وما بقي . . فأماني وغرور ، وما الشيطان حتىٰ يُهابَ منه ؟ ولقد أُطيع فما نفع ، وعُصي فما ضر . فكان كأنه لا دنيا عنده ولا شيطان .

ومِن فناء الحظوظ : حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حيث قال : ما (علمت أن في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مَن يريد الدنيا حتىٰ نزل قوله تعالىٰ : ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ﴾) فكان فانياً عن إرادة الدنيا .

ومن ذلك : حديث حارثة رضي الله عنه حيث قال : عزفت نفسي عن الدنيا ، فكأني أنظر إلىٰ عرش ربي بارزاً ، وكأني أنظر إلىٰ أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلىٰ أهل النار يتضاغون فيها ، قال : « يا حارث ؛ عرفت فالزم » ، عبر بالعاجلة عن الآجلة .

ومنها : حديث عامر بن عبد الله ، رحمه الله حيث قال : لئن تختلف الأسِنة [في جوفي] . . أحب إلي أن أجد ما يذكرون أني في الصلاة ، حتىٰ قال الحسن البصري رحمه الله : ما اصطنع الله ذلك عندنا .

و[من ذلك] : فناء هو الغيبة عن الأشياء رأساً ، كما كان فناء موسى الكليم عليه الصلاة والسلام حين تجلىٰ ربه للجبل ، فخر موسىٰ صعقاً .

---

(١) جاء في نسخة : (يطفح) بدل (يفصح) .
(٢) في نسخة : (وبقاء) .

وقال أبو سعيد الخراز[1] رحمه الله : علامة الفاني ذهاب حظه من الدنيا والآخرة ، إلا مِن الله تعالىٰ ، ثم يبدو له باد من قدرة الله تعالىٰ ، فيريه ذهاب حظه من رؤية ذهاب حظه ، وتبقىٰ رؤية ما كان من الله لله .

ومعنىٰ ذهاب حظه من الدنيا : عدم مطالبة الأعراض ، ومن الآخرة : عدم مطالبة الأعواض ، فيبقىٰ حظه مِن الله سبحانه وتعالىٰ ، وهو : رضاه عنه ، وقربه منه سبحانه وتعالىٰ .

ثم ترد عليه حالة أخرىٰ من إجلال الله تعالىٰ ، أن يقرب مثله ، أو أن يرضىٰ عن مثله ؛ استحقاراً لنفسه وإجلالاً لربه سبحانه وتعالىٰ .

ثم ترد عليه حالة ثالثة تستوفيه حق الله تعالىٰ ، فتغيبه عن رؤية صفته التي هي رؤية حظ نفسه ، فلا يبقىٰ فيه إلا ما مِنَ الله إليه ، ويفنىٰ عنه ما منه إلى الله ، ويكون كما كان ؛ إذ كان في علم الله عز وجل قبل أن يوجده ، سبق له منه تعالىٰ ما سبق من غير فعل كان منه .

ومنهم مَن جعل هٰذه الأحوال كلها حالة واحدة وإن اختلفت عباراتها ، فجعل الفناء بقاء ، والجمع تفرقة ، وكذلك الغيبة والشهود ، والسكر والصحو .

وذلك لأن الفاني عما له . . باق بما للحق ، والباقي بما للحق . . فانٍ عما له ، والفاني مجموع ؛ لأنه لا يشهد إلا الحق ، والمجموع مفارق ؛ لأنه لا يشهد إياه ولا الخلق ، وهو باق لدوامه مع الحق ، وهو مجموع به ، وهو فانٍ عما سواه مفارق لهم ، وهو غائب سكران لزوال التمييز عنه .

ومعنىٰ زوال التمييز عنه : هو ما قلناه من عدم فرقة بين الآلام والملاذ ، وبمعنىٰ : أن الأشياء تتوحد عنده ، فلا يشهد مخالفة ؛ إذ لا يصرِّفه الحق جل جلاله إلا في موافقاته ، فأنَّىٰ يميز بين الشيء وغيره إذا صارت الأشياء عنده شيئاً واحداً ؟! فلذلك سقط التمييز عنه .

واختلفوا في الفاني : هل يُرَدُّ إلىٰ بقاء الأوصاف أم لا ؟

منهم مَن قال : يرد إلىٰ بقاء الأوصاف ، وحالة الفناء لا تكون على الدوام ؛ لأن دوامها يوجب تعطيل الجوارح عن أداء المفترضات ، وعن حركاتها في أمر معاشها ومعادها ،

---

(١) كذا في نسخة ، ولعله الصواب ، وفي بعض النسخ : (الخدري) .

ولأبي العباس بن عطاء في ذلك كتاب سماه « عود الصفات وبدؤها »[1] .

وأما الكبار منهم والمحققون : فلم يروا رَدَّ الفاني إلىٰ بقاء الأوصاف ، منهم : الجنيد ، وأبو سعيد الخراز ، وأبو الحسين النوري رحمهم الله وغيرهم .

والفناء فضل من الله تعالىٰ ، وموهبة للعبد ، وإكرام منه له ، واختصاص له به ، وليس هو شيء من الأفعال المكتسبة ، وإنما هو شيء يختص الله به من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

وسئل الحسن رحمه الله : متىٰ يكون العارف بمشهد الحق ؟ فقال : إذا بدا الشاهد ، وفنيت الشواهد ، وذهبت الحواس ، واضمحل الإخلاص .

معنىٰ بدا الشاهد : يعني : شاهد الحق ، وهو أفعاله بك مما سبق منه إليك جل جلاله ، من بره وإكرامه إياك بمعرفته وتوحيده والإيمان به ، قال تعالىٰ : ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ ، فله المِنة العظمىٰ على المؤمنين بالإيمان .

والمعنىٰ : أنهم ما أرادونا أولاً ، وإنما نحن أردناهم وألزمناهم كلمة التقوىٰ ، فلنا المِنة عليهم ، وإليه الإشارة بقوله تعالىٰ : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ .

والمِنة العظمىٰ أيضاً ما يتلىٰ عليهم : ﴿ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ .

فانظر إلىٰ هٰذا الكرم العظيم والفضل العميم ، أنه سبحانه ألزمهم كلمة التقوىٰ ، ووصفهم بأنهم أحق بها وأهلها .

والمسؤول من كرمه سبحانه وتعالىٰ إتمام النعمة علىٰ عباده المؤمنين بأن لا ينزع عنهم ما وهبه لهم ، ومَنَّ به عليهم سبحانه وتعالىٰ .

وقد استودعته سبحانه وتعالىٰ إيماني ، وأسأله أن يحفظه عليَّ ، وأن يتوفاني عليه ، وكذا سائر المؤمنين الذين سبق لهم منه الإيمان ، استودعته إيمانهم ، وأسأله أن يحفظه عليهم ، ويتوفاهم عليه ، إنه الجواد الكريم ذو الفضل العظيم لا جرم .

قال العارفون رحمهم الله : إن العبد إذا رأىٰ ذلك وشهده . . أفنت رؤية ذلك منه رؤية أفعاله ، ورأىٰ عظيم منة الله عز وجل عليه في العبادة حتىٰ تستغرق العبادة في بعض المِنة .

---

(١) ورد اسمه في بعض النسخ : (دعوى الصفات وبدؤها) .

وأما فناء الشواهد : فهو سقوط رؤية الخلق عنك بمعنى الضر والنفع ، والمدح والذم ، وذهاب الحواس يرجع إلىٰ معنىٰ قوله : (فبي ينطق ، وبي يبصر . . .) الحديث .

وقوله : (واضمحل الإخلاص) هو : ألاَّ يرىٰ أنه مُخْلِص .

قال بعض العارفين : متىٰ شهدوا في إخلاصهم الإخلاص . . احتاج إخلاصهم إلىٰ إخلاص ، وما خلص لك من الأفعال إن خلص لك ، ولن تخلص أبداً إذا رأيت صفتك ؛ فإن أوصافك معلولة مثلك .

وسئل ذو النون رحمه الله عن نهاية العارف فقال : إذا كان كما كان حيث كان قبل أن يكون ، معناه : أن يشاهد الله عز وجل وأفعاله دون شاهده وأفعاله .

قال بعضهم : أعرف الخلق بالله عز وجل . . أشدهم تحيراً فيه .

وقيل لذي النون : ما أول درجة العارف ؟ قال : التحير ، ثم الافتقار ، ثم الاتصال ، ثم التحير .

الحَيرة الأولىٰ : في أفعاله ونعمه عليه ، فلا يرىٰ شكره يوازي نعمه ، وهو يعلم أنه مطالب بشكرها ، وإن شكر . . كان شكره نعمة ثانية يجب عليه شكرها ، ولا يرىٰ أفعاله أهلاً أن يقابله بها ؛ استحقاراً لها ، ويراها واجبة عليه لا يجوز له التخلف عنها ، والشكر عطية من الله ، فهو فعله في الحقيقة لا جرم أنه لا يمكن القيام بشكر النعم ؛ إذ كل نعمة لها شكر ، فالتوفيق للشكر نعمة ثانية يجب لها شكر وهٰكذا ، ويؤدي ذلك إلىٰ ما لا يتناهىٰ .

وقيل : قام الشبلي رحمه الله يصلي ، فبقي طويلاً ، ثم صلىٰ ، فلما انفتل من صلاته . . قال : يا ويلاه! إن صليت . . جحدت ، وإن لم أصل . . كفرت ؛ أي : إن نسبت الفعل إلىٰ نفسي . . فهو نوع جحود ؛ إذ الفعل فعل الله عز وجل ، فهو الفاعل في الحقيقة .

ولهٰذا قال الواسطي رحمه الله : ادَّعىٰ فرعون الربوبية على الكشف ، وادعت المعتزلة الربوبية على السر ، فقالوا : ما شئنا فعلنا .

وقال سهل رحمه الله : أول مقام من المعرفة : أن يُعطى العبد يقيناً في سره يسكِّن به جوارحه ، وتوكلاً في جوارحه يسلم به في دنياه ، وسكوناً[1] في قلبه يفوز به في عقباه .

وأما المريد والمراد : فقال الأئمة رحمهم الله تعالىٰ : إن المريد مراد في الحقيقة ،

---

(١) في نسخة : (وسلوىٰ) .

والمراد مريد ؛ لأن المريد لله لا يريد إلا بإرادة من الله عز وجل تقدمت له ، قال تعالىٰ ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ ، وقال : ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا۟﴾ ، فكانت إرادته سبحانه وتعالىٰ سبب إرادتهم ؛ إذ علة كل شيء صنعه ، ولا علة لصنعه ، وكانت محبته سبحانه وتعالىٰ سبب محبتهم .

ومن هنا نظر حبيب العجمي إذ قرأ : ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ قال : بحقٍ أَحبهم ، فرعه يحبهم ؛ إذ الكل صنعه سبحانه وتعالىٰ ، واعجباه! هو أعطىٰ وهو أثنىٰ سبحانه وتعالىٰ!!

وما أراده الحق جل جلاله . . فمحال ألاَّ يريده العبد ، فيجعل سبحانه إذا شاء المريد مراداً ، والمراد مريداً ، غير أن المريد هو الذي سبق اجتهاده كشوفه ، والمراد هو الذي سبق كشوفه اجتهاده .

فالمريد : هو ما قال تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ، وهو الذي يريده الله تعالىٰ ، فيُقبل بقلبه إليه ، ويحدث فيه لطفاً يثير منه الاجتهاد فيه والإقبال عليه والإرادة له ، ثم يكشف له عن الأحوال ، كما قال حارثة رضي الله عنه : (عزفت نفسي عن الدنيا ، فأظمأت نهاري ، وأسهرت ليلي) ، ثم قال : (فكأني أنظر إلىٰ عرش ربي بارزاً) . فأخبر أن كشوف أحوال الغيب له كان عقيب عزوفه عن الدنيا .

والمراد : هو الذي يجذبه الحق جل جلاله بالقدرة ، ويكاشفه بالأحوال ، فتثير قوة الشهود منه اجتهاداً فيه ، وإقبالاً عليه ، وتحملاً لأثقاله ، كسحرة فرعون لما كوشفوا بالحال في الوقت . . سَهُل عليهم تحمُّل ما توعدهم به فرعون ، فقالوا : ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ .

وكما فعل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما أقبل يريد قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأسره الحق في سبيله .

وكما وقع لإبراهيم بن أدهم رحمه الله وغيره ؛ فإنه خرج يطلب الصيد ملتهياً ، فنودي : ما لهـٰذا خُلِقتَ ، ولا بهـٰذا أمرت ـ مرتين ـ ونودي الثالثة من قربوس سرجه[1] ، فقال : والله ؛ لا عصيت الله تعالىٰ بعد يومي هـٰذا ما عصمني ربي ، فهـٰذه جذبة القدرة ، كوشفوا بالأحوال . . فاصطُفوا عن النفوس والأموال :

---

(١) قرنوس السرج : حِنْو السرج ، أي : قسمه المقوس ، المرتفع من قدَّام المقعد ومن مؤخّره .

مـريـدٌ صفـا منـه سـر الفـؤادْ فهـام بـه السـر فـي كـل وادْ
ففـي أي وادٍ سعـىٰ لـم يجـد لـه ملجَـأً غيـر مـولـى العبـادْ
صفـا بـالـوفـا ووفـىٰ بـالصفـا ونـور الصفـاءِ سـراج الفـؤادْ
أراد بمـا كـان حتـىٰ أُريـد فطـوبـىٰ لـه مـن مـريـد مُـرادْ

وأما المجاهدات والمعاملات : فقال الأئمة رحمهم الله تعالىٰ : شرط الإتيان بالعبادات : عدم النظر إلى العوض وإن شهدته فضلاً ، بل يستوفيك عن رؤية العوض ما لله عز وجل عليك من العمل في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

قيل لأبي بكر الواسطي رحمه الله : بأي شاهد ينبغي أن يكون العبد في حركاته في الطاعة ؟ فقال : يشاهد الفناء عن حركاته التي هي كائنة بغيره .

قال أبو عبد الله النباجي رحمه الله : استحلاء الطاعات ثمرة الوحشة من الحق ؛ إذ لا يواصل الحق بها ، ولا يفاصل ، ولا يعتمد عليها اعتماد معول ، ولا يتركها ترك معاند ، بل يقيم وظائف الحق رقاً وعبودية ، ويكون الاعتماد علىٰ ما في الأزل .

يريد باستحلاء الطاعة : رؤيتها من نفسك دون مشاهدة فضل الله عز وجل عليك في التوفيق في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ مِن أن تبلغه أفهامكم ، وتحويه عقولكم ويجري علىٰ ألسنتكم ، وحقيقة نسيان ما سواه فيه ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ ، وفي قوله تعالىٰ : ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ أي : الخالية عن ذكر الله تعالىٰ ؛ لتعلموا أنكم بفضله ورحمته نلتم ما نلتم ، لا بأعمالكم .

قال أبو بكر القحطبي رحمه الله : نفوس الموحدين سئمت من جميع ما ظهر من نعوتها وصفاتها ، واستحقرت كل باد بدا منها[1] ، وانقطعت عن الشواهد والفوائد والعوائد ، وأُخرست عن إظهار الدعاوي بين يديه جل جلاله لما سمعت قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ .

---

(١) في نسخة : (واستحقرت كل نادٍ يناديها) .

قال أبو بكر الواسطي رحمه الله : معنى التكبير في الصلاة كأنك تقول : جللت عن أن تواصل بهذا وتفاصل بتركه ؛ إذ الفصل والوصل ليس بالحركات ، بل هو بما سبق للعبد في الأزل .

قال الجنيد رحمه الله : لا يكونن همك في صلاتك إقامتها دون الفرح والسرور بالاتصال بمن لا وسيلة إليه إلا به سبحانه وتعالىٰ .

قال ابن عطاء رحمه الله : لا يكونن همك في صلاتك إقامتها دون الهيبة والإجلال لمن أقامك فيها .

وقال غيره : معنى الصلاة : التجريد عن العلائق والتفريد بالحقائق ، العلائق : ما سوى الله تعالىٰ ، والحقائق : ما لله ومن الله تبارك وتعالىٰ .

وقال غيره : الصلاة وصل .

سمعت فارساً يقول : معنى الصوم : الغيبة عن رؤية الخلق برؤية الحق جل جلاله ؛ لقوله تعالىٰ في قصة مريم عليها السلام : ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ لغيبتي عنهم برؤية الحق جل جلاله ، فلا أستخير في صومي أن يشغلني عنه شاغل أو يقطعني عنه قاطع ، ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله عز وجل : الصوم لي وأنا أجزي به »[1] .

قال بعض [الأئمة] : جزاؤه النظر إلى الله سبحانه وتعالىٰ ، وحلول الرضوان منه على الصائم .

وقال أبو الحسن ابن أبي ذر رحمه الله : أي معرفتي هي الجزاء له به ، قال : وحسبه ذلك جزاءً ، فما يبلغها شيء ولا يدانيها .

وقال بعض العارفين : جهد البلاء : النظر إلى النفوس ، والاعتماد على الأفعال ، فإن وكل إليها . . فهو درك الشقاء ، وفي درك الشقاء شماتة الأعداء .

أنشدوا للنوري رحمه الله :

أقول أكاد اليوم أن أبلغ المدىٰ ... فيبعد عني ما أقول أكادُ
فما لِيْ جهاد غير أَني مقصِّر ... وعجزيَ عن طول الجهاد جهادُ
وإنَّ رجائي عودةٌ منك بالرضا ... وإلا فحظي في المَعاد يُعادُ

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٥٤) ، ومسلم (١١٥١) .

يقول : إن طالعت في أفعالي ومجاهداتي الثواب عليها ـ وهو الذي يطلبه أرباب المجاهدات وأصحاب المعاملات ـ فكيف لا أنظر إلىٰ ما يحملني عن خوف العاقبة من تغير الأحوال والأوقات ، وعن النظر إلىٰ حركاتي ومجاهداتي ؛ فإنها هي التي تحجبني عنك ؟!

وأما الكلام على الناس : فقيل للنوري رحمه الله : متىٰ يستحق الكلام على الناس ؟ فقال : إذا فهم عن الله عز وجل . . صلح أن يفهِّم عباد الله ، وإذا لم يفهم عن الله . . كان بلاؤه عامّاً في بلاده علىٰ عباده .

قال سهل رحمه الله : أنا منذ ثلاثين سَنة أكلم الله عز وجل ، والناس يتوهمون أني أكلمهم .

وقيل لأبي القاسم الحكيم : بأي نية أتكلم على الناس ؟ فقال : لا أعلم للمعصية نيّة غير الترك .

وكلامهم في هـٰذا يطول ، وكل واحد منهم يتكلم بحسب مشربه وما أفاضه الله عز وجل عليه من العرفان ، والله أعلم .

وقال في « بهجة الأسرار » : قال يحيى بن معاذ رحمه الله : أوحى الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ نبيه داوود عليه الصلاة والسلام : (مَن رفض الدنيا وجميع ما فيها . . تعجلت له الراحة ، فإن انقطع إلي . . فقد تعزز بي) ، وكفاه ذلك شرفاً وفخراً ، إي والله الذي لا إلـٰه إلا هو .

وقال يحيىٰ : للتوكل ثلاث درجات : **أولها** : ترك الشكاية ، **والثانية** : الرضا ، **والثالثة** : المحبة .

فأما ترك الشكاية . . فلا يذكر حاله للناس ؛ فإنه يكون شكوىٰ ، والرضا : أن يرضىٰ بما قسم الله عز وجل له ، والمحبة : أن تكون محبته في قضاء الله عز وجل .

فأولها : حال الصالحين ، والثانية : حال الأبدال ، والثالثة : حال العارفين .

وسئل أبو حمزة رحمه الله فقيل له : ما غذاء المؤمنين ؟ فقال : الله عز وجل ، فلم يفهم السائل الجواب ، فأعاد السؤال ، فعلم أنه لم يفهم ، فقال : ذِكر الله عز وجل ، خذ يا أبا علي .

وقال قاسم الجوعي رحمه الله : علامة وجل القلب : أداء الأمانة ، والذكر لله عز وجل ، والصدق مع الإخلاص في العمل .

وقال يحيىٰ : لولا أن العفو مِن أحب الأشياء إلى الله عز وجل . . لَمَا ابتلىٰ عباده بالذنوب .

وقال يحيىٰ رحمه الله : حبسي حصين ، وقيدي ثقيل ، وحرَّاسي أيقاظ لا ينامون .

وقال بشر رحمه الله : إياك والإفراط في حمد أو ذم ؛ فإنهما يلحقان بك التهمة ، ويحرمانك التصديق .

وقال ميمون بن مهران : رجلان لا أَعِظُهُما ؛ فإن الموعظة لا تنفعهما : صاحب دنيا قد علا فيها ، وصاحب بدعة قد غلا فيها .

وقال الأوزاعي رحمه الله : مَن أطال قيام الليل . . هوّن عليه موقفه يوم القيامة ؛ قال تعالىٰ : ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ۞ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾ .

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله : المجتهدون بالبصرة ، والفقهاء بالعراق ، والزهاد بخراسان ، والأبدال بالشام .

وقال أبو عثمان رحمه الله : السابق بالود مبتدىء ، والمكافىء له مقتدي ، فأَنَّىٰ يدرك المقتدي المبتدىء ؟ فإن للمبتدىء أجره وأجر من اتبعه .

وقال أيضاً أبو عثمان : مَن لم يكن الله عز وجل في جميع المعاني همه . . كان منقوضاً في جميع المعاني حظه .

وقال محمد بن المثنى البزار[1] : قلت لبشر رحمه الله : تذكر بكورنا إلىٰ فلان المحدث وفلان ، شكره الله لنا ولك ، قال : قل : بل غفره الله لنا ولك .

وقال بشر رحمه الله : تنقوا الإخوان ، فإذا وجدتم من يعينكم علىٰ أمر الآخرة . . فتمسكوا به .

وقال الجنيد رحمه الله : سمعت سرياً يقول : رأس الأعمال كلها : الرضا عن الله عز وجل ، والورع عمود الدين ، والجوع مخ العبادة ، والحصن الحصين ضبط اللسان ، ومَن شكر الله عز وجل . . جرىٰ في ميدان الزيادة .

وقال يحيى بن معاذ رحمه الله : لو رأيت صورة الخوف في منازل الطاعات . . لأحببت

---

(١) في نسخة : (البزاز) .

ألاَّ يفارقك ولا طرفة عين ، ولـٰكن ينادي من مكان بعيد . [انتهىٰ] .

وقال في « لوامع أنوار القلوب » : قال أبو عبد الله المري[1] رحمه الله : مَن ادعى العبودية وله مراد باق . . فقد كذب في دعواه ، وإنما تصح العبودية لمن أفنىٰ مراداته وهواه ، وقام بمراد سيده ومالكه ومولاه ، مع امتثال أوامره واجتناب نواهيه ، سواء أبعَدَهُ أو أدناه ، أو طرده أو آواه .

وسمع بعض العارفين قارئاً يقرأ : ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ فقال : مَن شغل همته بسواه . . لا يصل إلىٰ مولاه سبحانه وتعالىٰ ، ومَن أحبه للجِنان . . بقي مع الحور والولدان ، ومَن أحبه له . . بقي معه سبحانه وتعالىٰ لا شريك له ، فيكون معه أينما كان ظاهراً وباطناً ، فيكون موجودَ قلبهِ ، ومنظور عينه ، ومناجي فِكره وسره ، لا يذكره ساعة فساعة ؛ لأنه مشاهده مع النَّفَس والساعة .

وقد روي : أن عيسىٰ عليه الصلاة والسلام مر بطائفة قد بلغوا من العبادة ، حتىٰ كأنهم الشنان البالية ، فقال لهم : لأي شيء عبدتم هـٰذه العبادة الصعبة ؟ فقالوا : خوفاً من ناره ، فقال : قد خفتم مخلوقاً ، وحقيق على الله عز وجل أن يؤمنكم مما خفتم منه .

ثم مر بآخرين أشد عبادة منهم ، فقال لهم : مَن أنتم ؟ ولأي شيء عبدتم هـٰذه العبادة العظيمة ؟ فقالوا : شوقاً إلى الجنة ، فقال : اشتقتم إلىٰ مخلوق ، وحقيق على الخالق أن يدخلكم فيها .

ثم مر بآخرين أكثر عبادة من الأولين ، فقال لهم : مَن أنتم ؟ ولأي شيء عبدتم هـٰذه العبادة العظيمة الشديدة ؟ قالوا : نحن عباد الله المحبون له سبحانه وتعالىٰ ، المشتاقون إلىٰ لقائه جل جلاله ، نعبده لا خوفاً من ناره ولا شوقاً إلىٰ جنته ، فقال : أنتم أولياء الله المقربون حقاً ، المخلصون له صدقاً ، ومعكم أمرني الله عز وجل أن أقيم .

ومَن نظر في قوله صلى الله عليه وسلم في ليلة المعراج : « أعوذ بمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ برضاك من سخطك . . . » الحديث . . اتضح له هـٰذا المعنىٰ ؛ فإنه صلى الله عليه وسلم قال ذلك في ليلة المعراج بين الجنة والنار ، فقال : لا ألتفت إلى الجنة ؛ لأنه وقع فيها لآدم عليه الصلاة والسلام ما وقع ، ولا ألتفت إلى النار ؛ إذ لو كانت محرقة لذاتها . . لَمَا

---

(١) في بعض النسخ : (المزني) .

كانت برداً وسلاماً علىٰ إبراهيم ، ولـٰكن أترك جنتك وأتمسك بعفوك ، وأترك النار وأخاف عقابك .

فلهـٰذا قال صلى الله عليه وسلم : « أعوذ برضاك من سخطك . . . » الحديث . انتهىٰ .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : قد قدمت بيان مراتب العاملين[1] في ترجمة الإمام حاتم الأصم رحمه الله بما فيه مَقْنَع وفوق مَقْنَع ، فليُنْظَرْ فيه ، والله أعلم . انتهىٰ .

وقال في « بهجة الأسرار » : قال بعض العارفين : إن ولاية الله عز وجل ليس مما يوصَل إليها بالأسامي والحيل ، قيل له : فبماذا يُوصَل إليها ؟ فضرب يده إلى السارية وقال : انظر إلىٰ هـٰذه ، تنفع أوتضر ؟ قلت : لا ، قال : إذا أخرج العبد جميع المخلوقين من قلبه فكانوا عنده مثل هـٰذه السارية لا تضر ولا تنفع كما هو الواقع . . فعند ذلك إذا قال العبد : يا رب . . قال الله عز وجل : لبيك يا عبدي .

وقال محمد بن المثنىٰ : سألت أحمد ابن حنبل عن بشرٍ الحافي رحمهما الله فقال لي : لقد سألتني عن رابع سبعة من الأبدال .

وقال السري رحمه الله : علامة المعرفة بالله عز وجل : القيام بحقوق الله سبحانه وتعالىٰ ؛ إجلالاً له وتعظيماً لما عظمه الله تعالىٰ ، وتصغيراً لما صَغَّره الله تعالىٰ ، وقد خفت علىٰ مَن لا يعرف نفسه ألاَّ يكون له في الحق حظ ، وقد خفت علىٰ مَن صحت معرفته ألاَّ يقوىٰ عليها ، فكيف مَن جهل نفسه ؟!

وقال عبد الله بن أحمد : بلغني أن رجلاً رأىٰ فيما يرى النائم كأن قائلاً يقول له : قل لابن السماك :

يـا أيهـا الـرجـل المعلـم غيـره ... هَـلاَّ لنفسـك كـان ذا التعليـمُ
تصف الدواءَ وأنت أحوج للدوا ... تبغـي شفـاء النـاس وأنـت سقيـمُ
لا زلـت تُلْقِـح للـرشـاد عقـولنـا ... صفـةً وأنـت مـن الـرشـاد عـديـم

فغدا الرجل ، فأخبر ابن السماك بما رأىٰ ، فما انتفع ابن السماك بنفسه حتىٰ مات رحمه الله .

---

(١) في نسخة : (العابدين) .

وسئل الحسن بن علي رضي الله عنهما عن العبد إذا رجع إلى الله عز وجل علىٰ أي أصل يرجع ؟ فقال : علىٰ ألاَّ يعود إلىٰ ما رجع عنه ، ويحفظ سره عن ملاحظة جميع ما رجع عنه إلى الله عز وجل ، قيل له : هـٰذا حكم من رجع عن وجود ، فكيف حكم من رجع عن العدم ؟ فقال : وجود الحلاوة في المستقبل عوضاً عن المرارة في السالف .

وسئل بعض العارفين رحمهم الله عن الشكر فقال : إقرارها بالنعمة وجزاؤها بالحسنىٰ مضمِراً وقائلاً وفاعلاً ، فأما جزاء الضمير . . فالنية والمحبة والطاعة ، وأما جزاء القول . . فالدعاء وإظهار حسن الصبر وكثرة الذِّكر ، وأما جزاء الفعل . . فالصبر على المكاره والرضا ، مع التلذذ بالأحكام الجارية عليه ، والسعي بالجوارح إلىٰ عبادة المنعم جل جلاله .

وأنشد بعضهم :

وكيف أطيق الشكرَ والشكرُ نعمة ... بترداده يزداد في حقي الشكرُ
بذِكرك تحيا مهجتي يا مؤَمَّلي ... وذِكرك لي من قبل ذكريَ أكبرُ
مننتَ بطَول لا أقوم بشكره ... فأيَّ أياديك الجزيلةِ أشكُرُ
أَلُطْفَك بي من قبل كونيَ نطفةً ... أم الحفظَ لي والخَلْقُ مني مصوَّرُ
أم السترَ لي إن كنت أعصيك جاهلاً ... وأنت علىٰ جهلي بحلمك تَستُرُ
سأبذل مجهودي بروحي ومهجتي ... لعليَ يوماً منك بالسؤل أَظفرُ
ويزعجني شوقي إليك فأشتكي ... ويمنعني منك الحياءُ فأحضُرُ[1]
وأُوقِنُ حقاً لا أشك بأنني ... علىٰ كل حال عاجز ومقصِّرُ[2]

وما أحسن ما قال بعضهم :

تأمل صنيعي قبل كونك نطفة ... ولا تنس تصويري لخلقك في الحشا
وسلِّمْ إليَّ الأمرَ واعلم بأنني ... أدبر ملكي ثم أفعل ما أشا

وقال عمرو[3] بن عثمان رحمه الله : سرعة قضاء الحاجة علىٰ قدر الفاقة ، ومَن أسرع

---

(١) جاء في نسخة : (الجفاء) .
(٢) في نسخة : (علىٰ كل حال مذنب ومقصر) .
(٣) جاء في نسخة : (عمر بن عثمان) .

بمسألته قبل فاقته . . كان بمنزلة الشارب للماء قبل عطشه ، وقد قال الله تعالىٰ : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ .

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : مَن حاول أمراً بمعصية الله سبحانه وتعالىٰ . . كان أبعد لما رجا وأقرب لما اتقىٰ ، فاستعينوا علىٰ أموركم بطاعة الله . . ترشدوا وتنجحوا وتفلحوا .

وقال إبراهيم الخوَّاص رحمه الله : ليس من صفة الفقراء مؤالفة الأغنياء ، ولا من صفة أهل المعرفة مؤالفة أهل الغفلة .

وقال محمد بن إدريس : الشهوة عمود كل خطيئة .

وقال يحيىٰ : صبر المحبين أشد من سائر أنواع صبر الصابرين ، واعجباه! كيف صبروا عن حبيبهم سبحانه وتعالىٰ ؟!

وهـٰذا معنىٰ قول بعض العارفين حين سأل الشبلي رحمه الله : أي الصبر على الصابرين أشد ؟ فقال : الصبر عن الله تعالىٰ .

وسئل أبو محمد الجريري رحمه الله : متىٰ يقع التسليم ؟ فقال : إذا استوىٰ عند المستسلم الموت والحياة ، والغيبة والحضور ، والمدح والذم ، لا يرىٰ منها حالاً إلا والتسليم لله عز وجل قبلها ، فمتىٰ ما عارضه الشك في حال منها . . لم يكن مستسلماً .

وقال ابن عطاء رحمه الله في قوله تعالىٰ : ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ فقال : عند المحنة بالصبر ، وعند نزول الحكم بالرضا ، وعند النعمة بالشكر والثناء ، ومع الله عز وجل بقيام الوفاء ، ومع النفس بالمخالفة وترك الهوىٰ ، وعند القلب بالصفاء ، وعند الروح بالمشاهدة ، وعند المعرفة والتوحيد بالفناء .

وقال يحيىٰ رحمه الله : الزهد يورث السخاء بالشيء ، والحب يورث السخاء بالنفس .

وقال أبو الحسين النوري رحمه الله : لن ينال أحد اليقين والمعرفة والتوكل . . إلا بدوام ذِكر الله عز وجل بالقلب واللسان ، وكثرة مناجاته ، وقطع كل ما يَشْغَلُ القلب عن ذلك .

وقال ابن عطاء : مَن استصحب كل نسك في الدنيا ، وتمكن من كل علم ، ونال كل محمود مع مشاهدة النفس وأفعالها . . فالجهل وطنه ، والإعراض غرضه ، والبعد من الله عز وجل سببه ؛ لأن العبادات مع مشاهداتها . . تقطع عن الرعايات ، والعبادات مع نسيان المنة والفضل . . تقطع عن الحراسات .

وسئل أيضاً عن الفرق بين التسليم والتفويض فقال : التسليم : هو التبري من الحول

والقوة تصديقاً ومعرفة ، والتفويض : معاينة الاضطرار ، وليس مَن أسقط عن نفسه حالاً كمن لم يشهد لنفسه حالاً .

وقال : وسئل أبو محمد الجريري عن فضل الفقير على الغني من أي وجه ؟ فقال : نعم ، الفقير نومه مع الأدب أفضل من الغني مع عبادته طول دهره ؛ لأن مَن راعى الحقوق مع ما يسوؤه . . كان أفضل ممن يراعي الحقوق مع ما يسره ، والقوم ما انقطعوا ، وإنما طولبوا برعاية حكم الأوقات فاقتُطِعوا .

واعلم : بأن الله تعالىٰ يطالب العبد بجميع همِّه ، ومَن لم يشرب في فقره كؤوس الاحتقار . . فهو طريح الضر .

وقال ابن عطاء رحمه الله : ليس مهر من مهور الجنة . . أحب إليها من إعراضك عن الدنيا ، وليس وسيلة للعبد إلى الله عز وجل . . أحب إليه من إعراضك عن نفسك .

وقال يحيىٰ : جاءت العلوم صافية لتمام الحجة علينا من ربنا سبحانه وتعالىٰ ، وجاءت الأعمال مِنَّا كَدِرَةً لتمام الفاقة منا إلىٰ ربنا تبارك وتعالىٰ .

وقال إبراهيم بن الجنيد رحمه الله : مجالسة العلماء العاملين . . عمارة القلوب وحياة الأبدان .

وسئل الفضيل بن عياض رحمه الله عن أسمح الناس فقال : مَن جاد بماله تبرعاً ، وتنزه عن مال غيره تورعاً .

وقال أبو محمد الجريري رحمه الله : شَكا بعض المريدين إلىٰ أستاذه فقال : يا أستاذ ؛ قد امتنع مني النوم ليلاً ، فدُلَّني علىٰ شيء إذا عملته . . أنام ؛ فقد أضر بي السهر ، فقال له : يا بني ؛ إن الفوائد تنزل من السماء ، فتصيب القلوب المتيقظة ، وتخطىٰء القلوب النائمة أو الغافلة .

قال الجريري : سأله عن شيء يُنَوِّمُه بالليل ، فتركه لا ينام بالليل ولا بالنهار .

وقال الحسين بن محمد الرازي رحمه الله : أصابني البرد والجوع ، فلما نمت . . هتف بي هاتف : أتظن أن العبادة كلها الصوم والصلاة ؟ الصبر علىٰ أحكام الله عز وجل أفضل من الصوم والصلاة .

وقال في « الإحياء » : لما قدم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه إلىٰ مكة ، وكان قد كف بصره . . جاءه الناس يهرولون إليه ، كل واحد يسأله أن يدعوَ له ، فيدعو لهـٰذا ويدعو

لهـٰذا ، وكان مجاب الدعوة ، فقال له فتىً منهم : يا عم ؛ أنت تدعو للناس ، فلو دعوت لنفسك فرد الله عز وجل عليك بصرك ؟! فقال : (يا بني ؛ قضاء الله عز وجل عندي أحسن من بصري) .

وقال أبو حمزة : يقول الله عز وجل : (ما مِن عبد أصبح في الدنيا وفي قلبه همَّان . . إلا أنا منه بريء ، هَمُّ المال ـ أو قال : الدنيا ـ وهَمُّ المعاصي) .

وقال الدقاق رحمه الله : الفاقة سر الله تعالىٰ في عبده ، مَن أبداها . . فقد أبدىٰ سر الله تعالىٰ ، ومَن كتمها . . فقد كتم سر الله تعالىٰ .

وكان يوسف بن الحسين الرازي رحمه الله يقول : علامة العبد المطرود من باب الله تعالىٰ ، الساقط المحجوب عن فهم أوامره ونواهيه ، ومعرفة وعده ووعيده . . أن يكون في مقام البيان وإقامة البرهان وأنواع من العلوم ينطق بها جهراً ، ويدعو العباد ترغيباً وترهيباً ، مع مخالفته في السر ، وليس عاملاً بما يقول ، فيكون الحق ظاهراً وهو في الباطن مفقود .

فهـٰذا مستدرج أعمىٰ هالك ، لا يفيق إلا في عسكر الموتىٰ ، نادماً مع النادمين ما دام علىٰ ذلك .

والاستدراج قسمان :

عقوبة عن سخط ، فهـٰذا لا إياب منه ولا رجوع أبداً .

وعقوبة للتنبيه : فهـٰذا يكشف له عن استدراجه بالتنبيه ، فيرجع إلى الحق وإلىٰ طريق الرشاد . [انتهىٰ (٤/ ٣٥٠)] .

وقال في « اللوامع » : قال بعض العارفين : رأيت في بعض سواحل الشام شاباً عليه طمران ، فأطلت النظر إليه ، فقال : الشوق والهوىٰ تركاني كما ترىٰ ، فقلت له : زدني ، فقال :

ما قرَّ لي جنب علىٰ مضجع ... كم يلبث الجنب على الجمر
والله لا زلت به والهاً ... وإن أمُتْ أذكُرْه في القبر

وتركني ومضىٰ .

وحكي : أن أبا بكر الدينوري رحمه الله قال : اشتهيت سمكاً عشرين سنة ، واستحييت مِن الله عز وجل أن أطلبه ، فسخر الله عز وجل صياداً ورعاً ، اصطاد سمكة ، وأُحضِرَتْ إليَّ

بعد إصلاحها لأفطر عليها ، وكنت في ركعات بين المغرب والعشاء ، فجاءت هرة فأخذتها ، فتبت إلى الله عز وجل مِن أن أعود إلىٰ نقض العهد أو إلىٰ مخالفته .

وقيل : إن النار وقعت قريباً من الحسن البصري رحمه الله وهو في الصلاة ، فما التفت إليها ولا قطع صلاته ، فلما فرغ من صلاته . . أخذ سجادته ومضىٰ .

وقال : نجا المخفون ، ما رأينا معه غيره حتىٰ نفارق ذلك الغير أو يفارقنا ، قال تعالىٰ : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ .

وسئل بعضهم عن المحبة فقال : لها منازل :

أولها : استعمال عشر خصال : العلم ، والحلم ، والمكارم ، والعفو ، والجود ، وحسن الخلق ، والشكر ، والذكر ، والإيثار ، والورع .

وقانون هـٰذه كلها : الزهد فيما عدا المحبوب ، مع إيثار طاعته ، والمسارعة إليها .

وثانيها : اجتناب عشر خصال : الكبر ، والبخل ، والفضول ، والهوىٰ ، والنفس ، والدنيا ، وأنا ، وأنت ، ولِيْ ولك .

وقانون هـٰذه كلها : رؤية البلاء عطاء من الحبيب جل جلاله .

وثالثها : استعمال الرضا ، والتسليم ، والرعاية ، والمراقبة ، في كل حال ـ لا سيما في حال الخدمة ـ مع الاحترام ، والتعظيم ، والإجلال .

وقال في « الإحياء » : قال الجنيد : الناس في محبة الله عام وخاص .

فالعوام قالوا ذلك لمعرفتهم بدوام إحسانه وكثرة نعمه ، فلم يتمالكوا إلا أن أحبوه ، إلا أنه تقل محبتهم وتكثر علىٰ قدر النعم والإحسان .

والخواص قالوا : المحبة للعظمة والكبرياء والتفرد بالملك والملكوت ، فلما عرفوا صفاته الكاملة . . لم يتمالكوا إلا أن أحبوه ، ولو أزال عنهم جميع النعم ، بل لو أدخلهم النار . . لكانوا راضين ، ولَمَا زالوا عن المحبة[1] .

وقال سفيان الثوري[2] رحمه الله : من يرىٰ ثواب الشدة . . لا يشتهي الخروج منها .

---

(١) الإحياء (٤/ ٣٣٨) .

(٢) في « الإحياء » : (شقيق البلخي) .

وقال الجنيد : سألت سرياً : هل يجد المحب أَلَمَ البلاء ؟ فقال : لا ، قلت : وإن ضُرِب بالسيف ؟ قال : وإن ضُرِب بالسيف سبعين مرة .

وقال بعضهم : أحببت كل شيء أحبه الله عز وجل ، حتىٰ لو أحب النار . . لأحببت دخول النار .

وقال بشر رحمه الله : مررت برجل قد ضُرِب ألف سوط في سويقة[1] بغداد ولم يتكلم ، ثم حمل إلى الحبس ، فتبعته ، فقلت له : لِمَ ضُرِبت ؟ قال : لأني محب ، قلت : فلِمَ سكتَّ ؟ قال : لأن محبوبي كان بحذائي ينظر إلي ، قلت : فلو نظرت إلى المحبوب الأكبر ؟ قال : فصاح صيحة وخر ميتاً .

وقال بشر أيضاً : قصدت عبادان في بدايتي ؛ فإذا أنا برجل أعمىٰ مجنون مجذوم قد صرع ، والنمل يأكل لحمه ، فرفعت رأسه ، فوضعته في حجري وأنا أردد الكلام ، فلما أفاق . . قال : مَن هـٰذا الفضولي الذي يدخل بيني وبين ربي عز وجل ؟ لو قطعني إرباً إرباً . . ما ازددت له إلا حباً .

قال بشر : فما رأيت بعد ذلك نقمة[2] بين عبد وبين رب فأنكرتها .

وقال أبو عمرو بن محمد بن الأشعث[3] رحمه الله : إن أهل مصر مكثوا أربعة أشهر لم يكن لهم غذاء إلا النظر إلىٰ وجه يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام ، كانوا إذا جاعوا . . نظروا إلىٰ وجهه ، فشغلهم جماله عن الإحساس بألم الجوع ، بل في القرآن الكريم [ما هو أبلغ من ذلك ، وهو] قطع النسوة أيديهن [لاستهتارهن] بملاحظة جماله حتىٰ ما أحسسن بذلك[4] .

وقالت رابعة رحمها الله يوماً : مَن يدلنا علىٰ حبيبنا ؟ فقالت خادمة لها : حبيبنا معنا ، ولـٰكن الدنيا قطعتنا عنه[5] .

قال سفيان الثوري لرابعة رحمها الله : ما حقيقة إيمانك ؟ فقالت : ما عبدته خوفاً

---

(١) في « الإحياء » : (شرقية) .
(٢) في بعض النسخ : (نعمة) .
(٣) في « الإحياء » : (أبو عمرو محمد بن الأشعث) .
(٤) الإحياء (٤/ ٣٤٨) .
(٥) الإحياء (٤/ ٣٦٠) .

لناره ، ولا حباً[1] لجنته فأكون كالأجير السوء ، بل عبدته حباً له وشوقاً إليه جل جلاله ولا إلٰه غيره ، وقالت في معنى المحبة :

أُحِبـــك حُبَّيـــن حـــبَّ الهـــوىٰ ... وحبّـــاً لأنـــك أهـــلٌ لـــذاكـــا[2]
فـــأمـــا الـــذي هـــو حـــب الهـــوىٰ ... فشغلـــي بـــذِكـــرك عمـــا ســـواكـــا
وأمـــا الـــذي أنـــت أهـــل لـــه ... فكَشْفُـــك حُجْبِـــيَ حتـــىٰ أراكـــا
فـــلا الحمـــد فـــي ذا ولا ذاك لـــي ... ولٰكن لك الحمد في ذا وذاكا[3]

وقال أبو علي الروذباري رحمه الله : قلت لأبي عبد الله بن الجَلاَّء الدمشقي رحمه الله : قول زهير بن نعيم : (وددت أن جسدي قرض بالمقاريض . . .) إلىٰ آخره ما معناه ؟ قال : يا هٰذا ؛ إن كان هٰذا من طريق الإشفاق والنصح . . فأَعرِفُ ، وإن كان من طريق التعظيم والإجلال . . فلا أعرف ، ثم غُشي عليه[4] . [انتهىٰ] .

وكان بعضهم يقول في دعائه : إلٰهي ؛ الاعتذار من منازل العبودية ، والغفران من صفات الربوبية ، فيامن وصف نفسه بعز الربوبية ؛ ارحم عبدك الحقير الذليل الفقير ، المستجير بعفوك يا أرحم الراحمين .

وكتب عبد الجبار بن وافد إلىٰ بعض إخوانه : كان فيما أوحى الله عز وجل إلىٰ عيسىٰ عليه الصلاة والسلام : (إن الذين يعبدوني علىٰ حب منهم لي . . أجعلهم في أعين أوليائي ملوكاً في الجنة) .

وقال ابن عطاء رحمه الله : جئت يوماً إلىٰ أبي العباس المؤدب رحمه الله أستغيث إليه من الدنيا ، فقال لي : يا أبا العباس ؛ استغاثة ذنبك منك . . أكثر من استغاثتك من الدنيا ، فراعِهِ . . يقع الصلح .

وقال أبو تراب رحمه الله : حكم الفقير ألاَّ يكون له رغبة ، فإن كان ولا بد . . فلا تجاوز رغبته كفايته ، والفقير إذا كان قوي الرغبة في إرفاق نفسه . . لم يتمَّ له صبر ، ولم يخلص له

---

(١) في نسخة : (ولا شوقاً) .
(٢) في النسخ : (حب الرضا) .
(٣) « الإحياء » (٤/ ٣١٠) .
(٤) الإحياء (٤/ ٣٤٩) .

رضا ، ولم يجتمع له هَمٌّ ، ولم يسكن له قلب ، ولا يصفو له سر ، ولم يحصل له فضل ، ولم يكمل له فرض ، ولا يصان له فقر .

وقال سفيان الثوري رحمه الله : بلغنا أن بحراً من البحار قذف حجراً ، عليه مكتوب : إنما يتبين الفقير والغني بعد العرض على الله عز وجل .

وقال أبو عبيد البسري رحمه الله : النعم طرد ، فمن أحب النعم . . فقد رضي بالطرد ، والبلاء قربة ، فمن ساءه البلاء . . فقد أحب ترك القربة والتقرب إلى الله تعالىٰ .

وقال يحيىٰ : التائب يُبكِيه ذنبه ، والزاهد تبكيه غربته ، والمحب يبكيه شوقه[1] ، وأحسن الناس : مَن حِليَته في الظاهر الورع والخوف ، وفي الباطن الحب والمعرفة ولذة المناجاة .

وذكر الجنيد رحمه الله يوماً أهل المعرفة بالله عز وجل ، وما يراعون من الأوراد مع ما أوصله الله عز وجل إليهم فقال : إن العبادة على العارفين . . أحسن من التيجان علىٰ رؤوس الملوك .

وقال بشر رحمه الله : لا تؤثرن علىٰ حذف العلائق شيئاً ؛ فإني لو كلفت أن أعول دجاجة . . لخفت أن أصير شرطياً في الحبس ، ومَن لم يحتج إلى النساء . . فليتق الله عز وجل ولا يألف أفخاذهن ؛ فإن الصبر عنهن أحسن من الصبر عليهن ، ولو أن رجلاً احتاج إليهن فجمع بين أربع نسوة . . لما كان مسرفاً .

ومن شقاوة المرء أربعة أشياء : ـ قسوة القلب ، ـ وجمود العين ، ـ وطول الأمل ، ـ والبخل .

وقال يحيىٰ رحمه الله : الدنيا حانوت الشيطان ، فلا تسرقن من حانوته شيئاً ، فيجيء في طلبك فيأخذك .

وقال أحمد ابن أبي الحواري رحمه الله : قلت لأبي سليمان الداراني رحمه الله : يجوز للرجل أن يخبر عن نفسه بالشيء يكون منه ؟ فقال : إذا كان في موضع الأدب ليقتدىٰ به . . جاز له .

قال أحمد : فحدثت به ابنه سليمان فقال : إنما يصلح الكلام ويفسد للمؤدب والمتأدب علىٰ قدر الإرادة فيه .

---

(١) في نسخة : (التائب سكنه ذنبه ، والزاهد سكنه غربته ، والمحب سكنه شوقه) .

وقال إسماعيل بن يوسف السلمي رحمه الله : كل حال لا يكون عن نتيجة العلم وإن جَلَّ . . فإن ضرره علىٰ صاحبه أكبر من نفعه .

وهـٰذا مأخوذ من قول أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله : ما عمل عامل علىٰ جهل . . إلا كان ما يفسد أكثر مما يصلح .

وقال عمر بن السري رحمه الله : سمعت أبا سعيد الخراز رحمه الله يقول : رأيت شقيقاً البلخي في النوم فقلت : ما فعل الله عز وجل بك ؟ فقال : غفر لي ، غير أنا لا نلحقكم ، فقلت : ولِمَ ذاك ؟ قال : لأنا توكلنا على الله عز وجل بوجود الكفاية ، وتوكلتم على الله عز وجل بعدم الكفاية ، قال : فسمعت الصراخ : صدق ، صدق ، فانتبهت وأنا أسمع الصراخ .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : هـٰذا نظير قول بشر بن الحارث رحمه الله : إن المتوكل لن يتوكل على الله عز وجل ليكفىٰ ، ولو حلت هـٰذه الصفة بقلوب المتوكلين . . لضجوا إلى الله سبحانه وتعالىٰ بالندم والتوبة منها ، ولـٰكن المتوكل تحل بقلبه الكفاية من الله عز وجل ، فيصدق الله فيما ضمن .

وقال بعض العارفين رحمه الله : كان المؤمنون قبلنا يجعلون أمور دنياهم تبعاً لأمور آخرتهم ، ونحن جعلنا أمور آخرتنا تبعاً لأمور دنيانا ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

واعلم : أن مَن كَرُمت عليه نفسه . . عز عليه دِينه ، واتفق كلام العارفين سلفاً وخلفاً علىٰ أن علم السلوك علم عظيم النفع لا بد للسالكين طرق المعرفة من معرفته واستعماله .

وقال أبو القاسم يحيى بن المؤمل العماني رحمه الله تعالىٰ : وقفت علىٰ حلقة الشبلي رحمه الله ببغداد ، فسمعته يقول :

الغيـــــم رطـــــب ينـــــادي ... يـــــا غـــــافليـــــن الصبـــــوح
فقلـــــت أهـــــلاً وسهـــــلاً ... مـــــا دام فـــــي الجســـــم روح

وقال أبو بكر بن طاهر رحمه الله وقد سئل عن السماع فقال : طرب وهو كسائر الشهوات ، وتركه أولىٰ إذا كان نفس المستمع معه في سماعه .

ودخل أبو العباس ابن عطاء مسجد الشونيزي ليسلم علىٰ أبي جعفر الحداد ، وحوله

جماعة فقراء يأكلون ، وقد قدم إليهم أبو يعقوب الأقطع ، فقالوا : يا أبا العباس ؛ تواضع وكُلْ معنا ، فجلس يأكل معهم ، وكان في كمه صرة فيها مئتا درهم ، فأخرجها من كمه من حيث لا يدرون ، فوضعها وخرج من المسجد .

وقال سعد بن عبد الله : لو علمت مَن إذا لقيته انتفعت به . . لقصدته ولو كان بعيداً ، ولو علمت رجلاً إذا أصبحت سَلِمت منه . . لحافظت عليه .

وقال بعض العارفين : إذا أطاع العبد ربه عز وجل . . رزقه معرفة ، فإذا ترك طاعة الله سبحانه وتعالىٰ . . لم يسلبه تلك المعرفة ، أبقاها عليه لتكون حجة عليه يوم القيامة .

وقال بعض العارفين : رأيت عارفاً في النوم بعد موته ، فقلت في نفسي عند رؤيتي له : أريد أن أسأله عن أقرب الأعمال إلى الله عز وجل ، فقال لي : لا تكثر ، الأمر أيسر من ذاك ، وهو مبني علىٰ ثلاثة أشياء : ـ أداء الفرائض ، واجتناب المحارم ، والتقرب بالنوافل .

وقال أبو بكر محمد بن علي الترمذي رحمه الله في مجلسه : إذا أراد الله عز وجل أن ينقذ عبده من الهلكة . . أيقظه من غفلته ، ونبهه للمحاسبة فيما مضىٰ من أيامه ، فيحزن علىٰ ما اجترم ، ويغتم لما اكتسب ، فيعصمه الله تعالىٰ فيما بقي من أَجَله ، ويوفقه للخيرات ، ويبدل سيآته حسنات ، كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه : (بقية عمر المؤمن لا ثمن له ؛ يدرك به ما فات ، ويحيي به ما أمات ، ويبدل الله سيئاته حسنات) .

وقال أبو بكر الزقاق رحمه الله لأبي علي الروذباري رحمه الله : يا أبا علي ؛ لولا أنك تُذاكرني بهـٰذا الأمر . . لظننت أنه قد اندرس ، فأما أهله . . فقد اندرسوا في الحقيقة ، فقلت له : يا سيدي ؛ إنهم يقولون : إن بناحية العجم جماعة محققين ، فقال : أجل ، ألا تسمع قول النبي صلى الله عليه وسلم : « لو كان الدين . . . »[1] ؟ .

وقال حذيفة المرعشي رحمه الله : ليحذر أحدكم أن تبغضه قلوب المؤمنين ، قالوا : وكيف ذاك ؟ قال : يعمل العمل الذي لا يرضاه الله عز وجل في السر ، فيلهم الله المؤمنين بغضه ؛ لأن ذلك يتأدىٰ إلىٰ قلوبهم .

وهـٰذا نظير ما قاله يحيى بن معاذ رحمه الله : مَن دعا إلى الزهد ولم يعمل به . .

---

(١) أخرج مسلم (٢٥٤٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو كان الدين عند الثريا . . لذهب به رجل من فارس ـ أو قال من أبناء فارس ـ حتىٰ يتناوله » .

فضحه الله ، ومَن خان الله في السر . . هتك ستره في العلانية .

وسئل أبو جعفر الحداد عن الفراسة فقال : هو أول خاطر بلا معارض ، فإن عرض فيه عارض . . فليس بفراسة ، وذلك خاطر من الخواطر ومحادثة النفس .

وقال : لست آمركم بترك الدنيا ، إنما آمركم بترك الذنوب ، وترك الدنيا فضيلة ، وترك الذنوب فريضة ، فأنتم إلىٰ إقامة الفرائض . . أحوج منكم إلى اكتساب الفضيلة .

وقال بشر رحمه الله : لا تشتر من البخيل حاجة فتسره ؛ فإن الله تعالىٰ يكره أن يسر البخيل .

وقال أبو العباس ابن عبد الحميد رحمه الله : الحمد لله الذي حرم ما لو شاء لعصم منه ، وأستغفر الله من الذنوب التي علمها في الغيوب قبل خطراتها على القلوب ، إلـهي ؛ أطعتك إذ أطعتك بفضلك ، فلك المنَّة عليَّ ، وعصيتك إذ عصيتك بعلمك ، فلك الحجة عليَّ ، فيا من يعلم ما يكون قبل أن يكون ؛ ما أشد سروري بعلمك ، تعلم ضعفي وقلة حيلتي ، فاغفر لي وتب عليَّ ؛ إنك أنت التواب الرحيم .

وقال أبو بكر الزقاق رحمه الله : **اعلم** : أنه لا يَصلُح هـٰذا الأمر في عصرنا وبعده إلا لأقوام قد كنسوا بأرواحهم المزابل .

وقال أبو الطيب فارس الجمال[1] : مَن تعلق باللذات ، وألف الراحة ، ونسي شكر المنعم . . فقد تعرض للبلاء .

وسأل رجل الفضيل بن عياض فقال : يا أبا علي ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ فأين تكون النار إذاً ؟ فقال له : يا هـٰذا ؛ إن الله تبارك وتعالىٰ أبدىٰ شيئاً وأخفىٰ شيئاً ، فالمحفوظون بولاية الله عز وجل قاموا علىٰ حد الإيمان فيها ، فقبلوا ما أبدىٰ وأمسكوا عما أخفىٰ ، ولزموا مع الله سبحانه وتعالى التسليم فيها .

وسئل الإمام أبو بكر محمد بن علي الكتاني عن الذِّكر فقال : الذِّكر علىٰ وجوه : إن ذكرته سبحانه وتعالىٰ بترك ما نهاك عنه مخافة عقوبته ونقمته . . صرت من الخائفين ، وإن ذكرته تبارك وتعالىٰ بأداء ما أمرت به . . صرت من الراجين ، وإن ذكرته عز وجل بالندامة والتوبة . . صرت من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وإن ذكرته جل ثناؤه لشكر

---

(١) في نسخة : (الحمال) .

الآلاء والنعماء.. صرت من العارفين ، وإن ذكرته سبحانه وتعالىٰ بفراغ القلب عما سواه وقطع العلائق وتلف النفس.. صرت من المحبين .

وقال بعض العارفين رحمهم الله : تقول الملائكة عليهم الصلاة والسلام : مَن أعطي فلم يأخذ.. طَلَب ولم يُعطَ . [انتهىٰ] .

وقال مؤلف « بهجة الأسرار » ـ قدس الله روحه ـ : حدثني أبو الشرواني[1] ـ صاحب الخواص ـ قال : حضرت في منزل أبي محمدٍ رويمٍ ببغداد مع جماعة من المشايخ فجرىٰ ذكر التصوف ، قال أبو سهل ابن المأمون : التصوف ثمانية أصول : ـ الفناء ، ـ والبقاء ، ـ والجمع ، ـ والتفرقة ، ـ والتوحيد ، ـ والتفريد ، ـ وعين اليسار ، ـ والتحكم ، فقال له بعض الحاضرين : ما معنى اليسار والتحكم ؟ فقال : هو أن يخطر له خاطر فيكون ما خطر له .

وسأل رجل الفضيل بن عياض رحمه الله أن يدعو له ، فقال : متعك الله بقربه ، ونعمك بحبه ، وجعلك في ستره ، ولا شغلك بغيره .

وقال أحمد ابن أبي الحواري رحمه الله : كان مِن دعاء بعض التابعين : اللهم ؛ أمت قلبي بخوفك وخشيتك ، وأحيه بحبك وذِكرك يا أرحم الراحمين .

وقال غيره : كان من دعاء مريم ابنة عمران عليها السلام : اللهم ؛ املأ قلبي بك فرحاً ، وغَشِّ وجهي منك بالحياء .

وقال عبد الله بن سهل : عن نصر بن جرير قال : دخلت علىٰ أبي الحجاج الجرجاني رحمه الله يوماً ، فكلمته ، فلم يكلمني ، فقلت له : أنت في حرج إن كان عندك علم إلا ما علمتني ، فقال لي : عصيت الله عز وجل بمعصية قط ؟ قلت : نعم ، قال : كتبت عليك ورفعت إلى الله عز وجل ؟ قلت : نعم ، قال : علمت أنه غفرها ؟ قلت : لا ، قال : فما قعودك وسكوتك[2] ؟! اذهب فابك علىٰ نفسك أيام الحياة حتىٰ تعلم ما حالك عنده في هـٰذه المعصية ، قال : فبكىٰ نصر علىٰ هـٰذه ثلاثين سَنة خوفاً حتىٰ مات .

وقال مؤلف « بهجة الأسرار » ـ قدس الله روحه ـ : سألت أبا علي الحسن بن أحمد بن عبد العزيز عن قوله عز وجل : ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا

---

(١) في بعض النسخ : (السرواني) .

(٢) في نسخة : (سكنك) .

يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ فقال : قد علم الله سبحانه وتعالىٰ أنه لم يقل ، فلما عَرَّض له بالقول . . فزع وخاف أن يكون قاله ، وأن الله تبارك وتعالىٰ يؤاخذه به إذ جعله سبباً له فقال : ﴿إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥ﴾ ، فرد الغيب والسريرة إلىٰ حقيقة سابق علمه فيه .

قال : وسألته عن حقيقة الإنابة فقال : تقبل على الله عز وجل بقلب فارغ له ، وتعكف عليه بقلب مشتغل به ، ثم تلا : ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾ ، ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ ، ﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾ .

وقال : كيف ينيب مَن لا يستجيب ؟! بل كيف يستجيب من لا يسمع ؟! فقد قال الله تعالىٰ ـ وقوله الحق ـ : ﴿إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَ﴾ ، فمَن سمع الذِّكر . . اتبعه ، ومَن خشي الرحمٰن بالغيب . . استجاب ، ومَن خشيه . . حقت له النذارة ، كما قال تعالىٰ : ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ .

وقال الواسطي رحمه الله : كم تصول بترك كنيف ؟ وإلىٰ متىٰ تفتخر بإعراضك عما لا يزن عند الله جناح بعوضة ؟!

وقال : سئل الشبلي رحمه الله : عن الزهد فقال : أي مقدار لأقل من جناح بعوضة حتىٰ يزهد فيها ؟!

وقال فارس رحمه الله : قلت لبعض الفقراء مرة ورأيت عليه أثر الجوع : لِمَ لا تسأل الناس ؟ فقال : أخاف أن أسألهم فلا يعطوني فلا يفلحون .

وقال أبو عثمان الحيري رحمه الله : كنا في دار أبي بكر مع الأستاذ أبي حفص ، فجرىٰ ذِكر صديق غائب عنا ، فقال الأستاذ أبو حفص رحمه الله : لو كان هٰهنا كاغد . . لكتبنا إليه ، فقلت : هٰهنا كاغد ، وكان أبو بكر قد تركنا في بيته وخرج إلى السوق ، فقال الأستاذ أبو حفص : لعل أبا بكر قد مات ، فصار الكاغد للورثة ، فترك الكتاب ، وكان كما قال .

قال أبو بكر ابن مجاهد المقرىء رحمه الله : قدم أبو عمرو ابن العلاء ليصلي بالناس ، وما كان يؤثر الإمامة ، فتقدم اضطراراً ، فلما تقدم . . قال للناس : استووا ، فغشي عليه ، فلم يفق إلا بعد زمان كثير ، فقيل له في ذلك ، قال : لما قلت لكم : استووا . . وقع بقلبي خاطر مِن الله عز وجل كأنه يقول : يا عبدي ؛ هل استويت لي طرفة عين حتىٰ تقول لخلقي استووا ؟!

وقال بعض أصحاب سهل رحمه الله : كان سهل رحمه الله يُغسَّل وسبابته من يده اليمنىٰ منتصبة يشير بها إلى الشهادة .

وقال حاتم الأصم رحمه الله : إن أردت أن تكسر أعناق الشياطين . . فاكسر أربعة بأربعة : الحرص بالثقة ، والحسد بالنصيحة ، والأمل بذِكر الموت ، والإعجاب بخوف الخاتمة .

وقال أبو يزيد البسطامي رحمه الله : التوبة من الذنب واحدة ، والتوبة من الطاعة ألف .

وروي عن جعفر بن محمد رحمهما الله أنه قال : قال الله عز وجل : (وعزتي وجلالي ؛ لأجيبن دعوة المظلوم وإن كان كافراً ، كفره علىٰ نفسه وإزالة الظلم عليَّ) .

وعنه : ما مِن عبد ظُلِم فقال : يا رب ؛ عبدك قد ظلم ، وإني لا أنتصر إلا بك وأنت أعلم . . إلا قال الله عز وجل : (عبدي ؛ حقاً لأنصرنك ولو بعد حين) .

وقال جعفر بن محمد رحمهما الله : المشاهدة : اطلاع القلب بصفاء اليقين إلىٰ ما أخبر الحق سبحانه وتعالىٰ من الغيوب .

وقال أبو علي الروذباري رحمه الله : مَن نظر إلىٰ نفسه مرة . . عمي عن النظر بالاعتبار إلىٰ شيء من الأكوان .

وسئل السَّريُّ رحمه الله عن القرب فقال : هو الطاعة .

وقال الواسطي رحمه الله : علامة القرب إلى الله عز وجل : الانقطاع عن كل شيء سواه سبحانه وتعالىٰ .

وجلس رجل إلى الحسين بن علي رضي الله عنهما ، فقال له الحسين : (إنك جلست إلينا ونحن نريد القيام ، أفتأذن ؟) .

وقال الحسن رضي الله عنه : (إن قوماً جعلوا تواضعهم في ثيابهم ، وكبرهم في صدورهم ، حتىٰ إن صاحب المدرعة[1] بمدرعته أشد فرحاً من صاحب المطرف[2] بمطرفه) .

وقال الأستاذ أبو حفص رحمه الله : كيف يبقى الغل في قلوب ائتلفت بالله ، واتفقت

---

(١) المِدْرَعة : جبةٌ مشقوقة المقدّم .

(٢) المِطْرَفُ : رداء أو ثوب من خزّ مربع ذو أعلام .

علىٰ محبته ، واجتمعت علىٰ مودته ، وأنست بذِكره .

وقال ذو النون رحمه الله : علامة السعادة ثلاثة أشياء :

ـ متىٰ ما زيد في عمره . . نقص من حرصه .

ـ ومتىٰ ما زيد في ماله . . زيد في سخائه .

ـ ومتىٰ ما زيد في قدره . . زيد في تواضعه .

جاء رجل إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ؛ أوصني ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عليك باليأس مما في أيدي الناس ؛ فإنه الغنى الأكبر ، وإياك والطمع ؛ فإنه الفقر الحاضر ، وصلِّ صلاة مودع ، وإياك وما تعتذر منه »[1] .

وقال الحسن بن عبادة : وَجَّه إليَّ الأمير وإلى ابن أبي ليلىٰ وأبي حنيفة ، فسألَنا عن مسألة ، فأجاب هو وابن أبي ليلىٰ بجواب واحد ، وخالفتهما أنا ، فأمر الأمير بإنفاذ قوليهما وترك قولي ، قال : فتفكر أبو حنيفة ساعة ، ثم قال للأمير : جوابي خطأ ، والقول ما قال الحسن ، فقال لابن أبي ليلىٰ : ما تقول ؟ فلم يرجع ، وجعل يناظرني ، فقال أبو حنيفة رحمه الله : إن العلم يُعرَض على الله عز وجل ، فلا يأنف أحد إذا أخطأ أن يرجع إلى الحق .

ومر عامر بن بهدلة برجل قد صلبه الحجاج ، فمر بخاطره أن حلم الله عن الظالمين قد أضر بالمظلومين ، فرأىٰ في منامه أن القيامة قد قامت ، وكأنه قد دخل إلى الجنة ، فرأى المصلوب فيها في أعلىٰ عليين ، وإذا مناد ينادي : حِلْمُ الله عز وجل عن الظالمين أحل المظلومين في أعلىٰ عليين[2] .

وقال أبو ذر رضي الله عنه : أُحِبُّ الموت اشتياقاً إلىٰ ربي سبحانه وتعالىٰ ، وأحب المرض تكفيراً لخطيئتي ، وأحب الفقر تواضعاً لربي عز وجل . [انتهىٰ] .

وقال في « كتاب التوابين » : قال يوسف بن أسباط رحمه الله : ورثت عن أبي ضِياعاً بخمس مئة ألف بالكوفة ، فجرىٰ بيني وبين عمومتي كلام ، فشاورت الحسن بن صالح ،

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ٣٦٢) .

(٢) جاء في هامش نسخة : (العبادة يجب أن تقع علىٰ ثلاثة أوجه : الخوف والرجاء والمحبة ، واعلم : أنك لا تنجو إلا بالله سبحانه وتعالىٰ ، وإن العبادات غير منجية ؛ لأنها أسباب ، وهي لا تؤثر شيئاً ، إنما المؤثر هو الله تبارك وتعالىٰ ؛ فاسأله أن يحفظ عليك ما ابتدأك به بمنه وفضله وإحسانه تفضلاً ، والله أعلم) .

فقال لي : ما أرىٰ لك أن تحاكمهم ، إنها من أرض الخراج ، فتركتها لله عز وجل وأنا محتاج إلىٰ فلس . أو كما قال .

قال : وحصل له ضَعف ، فدعا له الطبيب ، وكان يعالج الملوك ، فعالجه حتىٰ صح في مدة قريبة ، فقال يوسف لأصحابه وأهله : أي شيء تعطونه ؟ قالوا : قد قال : إنه لا يأخذ منك شيئاً ، قال : سبحان الله! جئتم بطبيب الملوك ولا أعطيه شيئاً ؟ فقالوا : نعطيه ديناراً ؟ فقال : لا ، ولٰكن خذ هٰذا ، فادفعه إليه ، وأعلمه أني لا أملك غيره ؛ إذ لو كان عندي غيره . . لأعطيته ؛ لئلا يتوهم أني أقل مروءة من الملوك ، فدفع إلي صرة فيها خمسة عشر ديناراً ، قال : فأخذتها ، فدفعتها إليه .

قال : وجعل يوسف يعمل الخوص بيده حتىٰ مات . [انتهىٰ « التوابين » ٢٨٢ـ٢٨٣] .

وقال أبو الفرج : كتب محمد بن سمرة السائح إلىٰ يوسف بن أسباط : يا أخي ؛ لا تُؤَمِّرَنَّ التسويف علىٰ نفسك ، ولا تمكنه من قلبك ؛ فإنه محل الضلال ، وبه تنقطع الآمال ، وفيه تنقطع الآجال ، فبادر يا أخي فإنك مُبادَرٌ بك ، وأسرع فإنك مُسرَع بك ، وجِدَّ فإن الأمر جِدٌّ ، وتيقظ مِن رقدتك ، وانتبه من غفلتك ، وتذكر ما أسلفت وقصرت وفرطت ؛ فإنه مثبت عليك ، وكأنك بالأمر وقد بغتك فاغتبطت بما قدمت ، وندمت علىٰ ما فرطت ، وعليك بالحياء والمراقبة والعزلة وقلة الملاقاة ؛ فإن السلامة في ذلك موجودة ، وفقنا الله وإياك لأرشد الأمور ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . [انتهىٰ « الصفوة » ١٦٦/٤] .

وقال في « اللوامع » : وعن حذيفة المرعشي رحمه الله قال : نظر رجل إلىٰ رجل يبكي بكاء شديداً ، فقال له : يا أخي ؛ ما يبكيك ؟ فقال : ذكرت ما أسلفت من الذنوب ، وأياماً تأتي عليَّ لا أعلم ما حكم لي في الغيوب ، فمَن أولىٰ بالبكاء مني علىٰ ما فات ، وعلىٰ ما هو آت ، وفي أفراحي وأتراحي ؟!

فبكىٰ حذيفة معه ، وتعانقا ، ولم يزالا يبكيان حتى ارتفع ضجيجهما .

وأنشدوا في المعنىٰ :

ورد الكتاب من الحبيب بأنه ... سيزورني فاستعبرَتْ أجفاني
هجم السرور علي حتىٰ إنه ... من عُظْم ما قد سرني أبكاني
يا عين صار الدمع عندك عادةً ... تبكين في فرحي وفي أحزاني

وقال في « بهجة الأسرار » : قال يحيى بن جعفر : كنت أصحب معروفاً الكرخي رحمه الله ، وكنت أرىٰ أعظم الأمور عنده . . أهونها إذا كان في رضا الله عز وجل ، وأهون الأمور عنده . . أضعفها إذا كان فيها المخالفة، ولم أره قط إلا خائفاً من الله عز وجل مرتعداً .

ورأيته يؤذن يوماً ، فرأيت شعر لحيته وصدره قد قام كأنه ريش ديك ، مِن شدة خشيته من الله عز وجل عند ذِكره .

وعن معروف قال : يقول الله تبارك وتعالىٰ في بعض الكتب : (ابن آدم ؛ ما أجسرك! تسألني فأمنعك ؛ لعلمي بما يصلحك ، ثم تلح عليَّ في المسألة ، فأجود بكرمي عليك ، فأعطيك ما سألتني ، فتستعين بما أعطيك علىٰ معصيتي ، ثم تسألني ألاَّ أهتك سترك ، فأستر عليك ، ثم تعاود المعصية ، فأستر عليك ، فكم من جميل أصنعه معك ، وكم من قبيح تعمله فيوشك أن يحل عليك غضبي ، فلا أرضىٰ عليك أبداً) . [انتهىٰ] .

وقال في « اللوامع » : قال معروف رحمه الله : حقيقة المحبة : إخراج ما سوى المحبوب عن القلب ؛ فإن علامة محبة الله عز وجل : اشتغال العبد بالله سبحانه وتعالىٰ ، وعلامة مقت الله عز وجل : اشتغال العبد بنفسه ؛ فإنه لا تصح طاعة الله عز وجل إلا بإخراج الدنيا من القلب .

ثم قال معروف : قلت للسَّريِّ : يا أبا الحسن ؛ رأيت في طريق الحِيرة شاباً من أحسنهم شباباً في أشد هاجرة يمشي ومعه الركوة ، فقلت له : إلىٰ أين ؟ قال : إلى الله ، فقلت : نِعم المقصود سبحانه وتعالىٰ ؛ ثم قلت له : مع مَن ؟ قال : مع الله ، قلت : نِعم الصاحب جل جلاله ، قلت : فأين القوت ؟ قال : الضامن نفسه سبحانه وتعالىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ ، ثم قال لي : يا معروف ؛ ادع لي بالتوفيق ، فالزمان قصير ، والوقت يفوت ، وأنشد :

تمتع بذا اليوم القصير فإنه رهين بأيام الدهور الأطاوِلِ

وقال في « بهجة الأسرار » : قال أحمد ابن أبي الحواري : رأيت أبا سليمان الداراني رحمه الله يُلْقم عوام الناس الزبد والعسل ، وكنت آتيه بالزبد والعسل في منزله مرتين فلا يذوقه ، فقلت له : تطعمنا ولا تأكل منه ؟! فقال : إني أعرف منكم أنكم تشتهونه ، فأنا أحب أن أطعمكم شهوتكم ، والزبد بالعسل إسراف ، وأنا أخافه ، ولو جاءني مَن يعرف . . لما زدته على الخبز مع الملح .

ثم بِتُّ أنا وهو عند أحمد بن سباع ، فجاءه بسُكْرُجة[1] فيها زبد وعسل ورغيف درمك[2] ، فجعل يأكل ، فقلت : تأكل هـٰذا وفي بيتك مثله لا تأكله ؟! فقال : يا أحمد ؛ مَن أكل ليسر أخاه . . لم يضره أكله ، إنَّ عامِل الله عز وجل لا يخيب علىٰ كل حال ، وإنما يضره إذا أكل بشهوة نفسه . [انتهىٰ] .

وقال أبو عبد الرحمـٰن السلمي في « الطبقات » : قال أبو سليمان : لكل شيء مهر ، ومهر الجنة ترك الدنيا بما فيها .

وكان يقول : إذا ترك العبد الدنيا . . استنار قلبه بنور الحكمة ، ولكل شيء معدن ، ومعدن الصدق[3] قلوب الزاهدين ، ومَن أراد واعظاً بيِّناً . . فلينظر إلى اختلاف الليل والنهار ، وإذا سكن القلبَ الخوفُ . . أحرق الشهوات وطرد الغفلة عن القلب ، ولكل شيء صَدًىٰ ، وصدىٰ نور القلب . . شبع البطن ، ولو أن محزوناً بكىٰ علىٰ أُمَّةٍ لله عز وجل ودعا لهم . . لرحم الله تلك الأمة . [انتهىٰ « الطبقات » ٨١ـ٨٢] .

وفي « تاريخ الخطيب » قدس الله روحه : قال أحمد ابن أبي الحواري رحمه الله : تمنيت أن أرىٰ أبا سليمان الداراني في المنام ، فرأيته بعد سَنة ، فقلت له : يا معلم الناس الخير ؛ ما فعل الله عز وجل بك ؟ فقال : يا أحمد ؛ دخلت من باب الصغير ، فرأيت حِمْلَ شيح ، فأخذت منه عوداً ، فلا أدري تخللت به أم رميته ؟ فأنا في حسابه منذ سَنة .

وقال أبو سليمان : وصفت لأختي عَبْدَةَ قنطرةً من قناطر جهنم ، فصاحت صيحة عظيمة وغُشي عليها زماناً طويلاً ، فلما أفاقت : صارت كلما ذكرتها . . تصيح صيحة واحدة ثم تسكت ، فقلت لها : مِن أي شيء تصيحين ؟ فقالت : مثلت نفسي وأنا على القنطرة وهي تكفؤني ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . [انتهىٰ] .

وقال في « لوامع أنوار القلوب » : قال أبو سليمان رحمه الله **وقد سئل عن حقيقة المحبة قال : آخر أَقدام الزاهدين . . أول أَقدام المتوكلين ، وآخر أَقدام المتوكلين . . أول أَقدام العارفين ، وآخر أَقدام العارفين . . أول أَقدام المحبين ، ولا آخر لأَقدامهم** .

فقيل له : كيف الطريق إليه جل جلاله ؟ فقال : بجهاد النفس ؛ فإن القلب إذا جاع

---

(١) **السكرجة** : إناء صغير يؤكل فيه الشيء القليل من الأدم .

(٢) **رغيف دَرْمَك** : من خبز الدقيق الأبيض .

(٣) في نسخة : (الزهد) .

وعطش . . رق وصفا ، وإذا شبع وروي . . طغىٰ وجفا .

ودخل أبو سليمان علىٰ بعض أصحابه يعوده وقد أشرف على الموت ، فقال : مم شكواك ؟ فقال : مِن قلة البلاء ، فقال : ما هـٰذا التجلُّد ؟ فقال : طلباً للرضا ، ثم قال : يا شيخ ؛ سله سبحانه وتعالىٰ أن يزيدني من البلاء ؛ فإني كل ما عندي عطاء ، ومَن العبد حتىٰ لا يفتخر بما يرضاه له مولاه سبحانه وتعالىٰ ؟! ثم ذكر الشهادتين ، وفارق الدنيا رحمه الله ، آمين .

وكان أبو سليمان يقول : احذر صغير الدنيا ؛ فإن صغير الدنيا يجر إلىٰ كبيرها ، ومن أراد منها شيئاً غير قدر الحاجة . . فهو يريدها كلها .

وقال محمد بن يوسف رحمه الله : كان أبو عبد الله النباجي رحمه الله مجابَ الدعوة ، له كرامات ، فبينما هو في بعض أسفاره علىٰ ناقة له وفي الرفقة رجل عائن[1] ، قلما نظر إلىٰ شيء إلا أتلفه ، فقيل له : احفظ ناقتك من العائن ، فقال : ليس له إليها سبيل ، فأُخبر العائن بقوله : فتحيَّن غيبة النباجي ، فجاء ، فعان الناقة ، فاضطربت وسقطت ، وأتى النباجي فرآها ، فقال : دلوني عليه ، فدلوه ، فأتاه ، فوقف عليه وقال : **بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، حبسٌ حابس ، وشهابٌ قابس ، رددت عين العائن عليه ، وعلىٰ أحب الناس إليه ، في كلوتيه رشيق ، وفي ماله بليق ،** ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ ، **فخرجت حدقتا العائن ، وقامت الناقة لا بأس بها .**

وروي : أن أبا عبد الله النباجي اشترىٰ جارية سوداء للخدمة ، فقال لها : قد اشتريتك ، فضحكت ، فحسِبَها مجنونة ، فقال لها : أمجنونة أنتِ ؟ فقالت : سبحان من يعلم خفيات القلوب! ما أنا بمجنونة ، ثم قالت : هل تقرأ شيئاً من القرآن ؟ فقال : نعم ، فقرأ : بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، فشهقت وقالت : يا مولاي ؛ هـٰذه لذة الخبر ، فكيف لذة النظر ؟ فلما جن الليل . . وطَّأ لها مناماً ، فقالت : أما تستحي من مولاك جل جلاله ؟! فإنه سبحانه وتعالىٰ لا ينام ، وأنت تنام ؟! ثم أنشأت :

عجبـاً للمحـب كيـف ينـامُ ... كـلُّ نـوم علـى المحـب حـرامُ

إن قلبـي وقلـبَ مَـن كـان قبلـي ... لـن يـزالا يَخَفْـنَ رب الأنـامِ

---

(١) **عائن** : الذي يصيب بالعين .

قال النباجي : فقامت تصلي طول ليلتها ، فلما كان في آخر سجدتها . . سمعتها تقول فيها : يا رب ؛ بحبك إياي لا تعذبني .

فقال لها النباجي : غلطتِ ، يجب أن تقولي بحبي إياك لا تعذبني ، فقالت : بلىٰ ـ يا مولاي ـ قد أصبتُ ، لولا حبه إياي سبحانه وتعالىٰ . . لما وجدت محبتي ، ولهـٰذا إنه سبحانه وتعالىٰ قدم محبته علىٰ محبتي ، فقال : ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ ، فمحبة الله عز وجل هي الموجبة لمحبة العبد ، فهي السابقة له من الله في القِدم ، والعبد بعد في العدم ، ولولا ذلك . . لَمَا كان للعبد إطلاق لفظ المحبة على الله سبحانه وتعالىٰ ، ولَمَا كان أيضاً يجسر علىٰ ذلك .

ثم اعلم : أن محبة العبد لله عز وجل حالة لطيفة يجدها العبد في قلبه ، تحمله تلك الحالة علىٰ إيثار حقوق الله تعالىٰ ، والمسارعة إلى امتثال أوامره واجتناب نواهيه .

ثم إنها سجدت وأطالت ، ثم قالت : إلـٰهي ؛ قد طال شوقي إليك ، فعجل ربي قبض روحي إليك ، فتوفيت رحمها الله تعالىٰ .

وقال الجنيد رحمه الله لرجل سأله عن شيء : **تعلم العلم من باب العمل ، ولا تَعَلَّمْه من باب العلم ؛ لأن علم العمل لا يُنسىٰ ، وعلم التعلم ينسىٰ** .

وسئل بعض العارفين فقيل له : ما لنا لا نجد حلاوة الطاعة ؟ فقال : لأنكم تجدون حلاوة الدنيا .

وسئل الجنيد : يكون عطاء من غير عمل ؟ فقال : كل عمل عن عطاء يكون .

وعن أبي بكر الزقاق رحمه الله قال : قال لي أحمد بن عيسىٰ : كنت بمكة إذا جاء الموسم . . تصفحت وجوه الناس ، فرأيت رجلاً عليه خلق ملآن شغل ، فلم أزل أمشي خلفه حتىٰ خرج إلى المَعْلىٰ ، فالتفت إلي ، فرآني خلفه ، فقال : ما لك ؟ فقلت : لعلي أسمع شيئاً منك أنتفع به ، فقال : يا هـٰذا ؛ إن الناس نيام ، فإذا ماتوا . . انتبهوا ، فانظر أي رجل أنت ، ثم ذهب وتركني مفكراً .

وقال إسماعيل بن يوسف السلمي رحمه الله : كل حال لا يكون عن نتيجة العلم وإن جل . . فإن ضرره علىٰ صاحبه أكثر من نفعه .

وقال ذو النون : كَلَّت ألسن المتحققين عن الدعاوي ، ونطقت ألسن المدعين بالدعاوي .

وقال بعض العارفين : اسم الله الأعظم : أن تقول بصدق اللجأ : يا الله ، وصدق اللجأ : أن تكون مثل الغريق في البحر .

وقال السلمي : قال أحمد بن خضرويه : قلت لأبي يزيد : إني لا أصِل إلى التوبة ، فقال أبو يزيد : العزة لله عز وجل ، فأنت تطلب العزة .

وقال أبو يزيد لرجل قد صلىٰ في مسجد : إن زعمت أن صلاتك مواصلة . . فهي مفاصلة ، إن تركتها . . كفرت ، وإن شاهدتها . . أشركت .

قوله : (إن شاهدتها . . أشركت) له معنيان :

أحدهما : يعني إن شاهدت أنها فعلك . . فهو نوع جحود ؛ إذ الفاعل في الحقيقة إنما هو الله عز وجل ، وهـٰذا معنىٰ ما قاله الشبلي رحمه الله وأبو بكر الواسطي رحمه الله .

والثاني : إن دخلك فيها إعجاب أو نوع رياء . . فهو شرك ، وهـٰذا ظاهر . والله أعلم .

وقال أحمد بن عاصم رحمه الله : وافقنا الصالحين في أعمال الجوارح ، وخالفناهم في الهِمم .

وقال : أمام كل عمل علم ، وأمام كل علم العناية الأزلية .

وقال منصور بن عمار رحمه الله : سرورك بالمعصية إذا ظفرت بها . . أضر عليك منها .

وقال : اترك نهمة الدنيا . . تَسْتَرِحْ من الغم ، ولسانك يسترح من المعذرة .

وقال : الناس رجلان : عارف بنفسه ، فشُغلُه في المجاهدة والرياضة ، وعارف بربه عز وجل ، فشغله في عبادته على المراقبة وابتغاء مرضاته .

وقال : سلامة النفس في مخالفتها ، وبلاؤها في متابعتها . [انتهىٰ] .

وقال في « بهجة الأسرار » : قال يوسف بن الحسين الرازي رحمه الله : رأيت ذا النون قبل أن أصحبه بعرفات واقفاً شاخصاً ببصره نحو السماء يدعو ، فسمعته يقول : إلـٰهي ؛ لك بهاء الجلال في انفراد وحدانيتك ، والكبرياء والعظمة في إتقان حكمتك ، ولك سلطان العز في دوام هيبتك ، بعدت ـ علىٰ قربك ـ عن أوهام الباحثين عن بلوغك ، وقربت ـ علىٰ بعدك ـ من أوهام القلوب ، فلم يفت ذلك علمك ، فوعزتك وجلالك ؛ لولا أنَّ ذِكرك فرض عليَّ . . لما تفوهت به ؛ إجلالاً لك وإعظاماً ، يا أرحم الراحمين .

وقال يوسف بن الحسين : سمعت ذا النون رحمه الله وهو يوصي أخاه ذا الكفل فقال

له : يا أخي ؛ كن بالخير موصوفاً ، ولا تكن للخير وصَّافاً .

وقال رجل لحاتم الأصم : كيف تؤدى الصلاة ؟ فقال له : إذا وقفتَ في الصلاة . . فاعلم أن الله سبحانه وتعالىٰ يراك ، فانظر كيف تكون مِن رعاية التعظيم والحرمة ، فإذا ركعت . . فقل : لا أرفع ؛ لاحتمال أن أموت ، وأغلق عنك باب الدنيا ، ولا تأمل الرجعة إليها ، فتكون مشغولاً بالأمل عن تصحيح العمل .

واعلم : أن البواعث على الخيرات الأخروية ثلاثة :

[الأول] : الرغبة في ثواب الله والخوف من عقاب الله ، وذلك منزلة العامة .

والثاني : رجاء حمده وخوف ذمه ، وذلك منزلة الصالحين .

والثالث : طلب مرضات الله عز وجل ، وذلك منزلة النبيين والصديقين والشهداء ، وهي أعزها وجوداً .

ولذلك قال العارفون : أفضل ما يتقرب به العبد إلى الله سبحانه وتعالىٰ . . أن يطلع علىٰ قلبه وهو لا يريد من الدنيا والآخرة غير الله عز وجل .

وتمام الكلام علىٰ هـٰذا يأتي إن شاء الله عز وجل . [انتهىٰ] .

وقال السلمي : قال حاتم : مَن أصبح مستقيماً في أربعة أشياء . . فهو يتقلب في رضا الله سبحانه وتعالىٰ :

المعرفة بالله ، والتوكل عليه ، والإخلاص ، والثقة بالله .

والأشياء كلها لا تتم إلا بالمعرفة .

وقال حاتم رحمه الله : الواثق بربه سبحانه وتعالىٰ لا يفرح بالغنىٰ ، ولا يهتم بالفقر ، ولا يبالي أصبح في عسر أو يسر .

وأصل الطاعة ثلاثة أشياء : الخوف ، والرجاء ، والحب .

وأصل المعصية ثلاثة : الكبر ، والحرص ، والحسد .

وقال : النصيحة للخلق إذا رأيت إنساناً عاملاً في الحسنة . . أن تخشىٰ عليه ، وإذا رأيته عاملاً في المعصية . . أن ترحَمه . [انتهىٰ« الطبقات » ٩٤-٩٥] .

وسئل محمد بن الفضل عن علامة محبة الله عز وجل فقال : أول المحبة أربع خصال :

ـ دوام ذِكر الله عز وجل بالقلب واللسان .

ـ والفرح بالله عز وجل ، والأنس به سبحانه وتعالىٰ .

ـ وترك كل قاطع يقطع عن الله عز وجل .

ـ وإيثار محبته علىٰ كل محبة حتىٰ لا يجد في القلب إلا محبة الله عز وجل ، ولو أن الناس علموا لذة حب الله سبحانه وتعالىٰ . . لقلَّت مطاعمهم وقرارهم وكلامهم ؛ لأن حب الله يعمي ويُصِمُّ .

وقال يوسف بن أسباط رحمه الله في مرضه لأخ له في الله : يا أبا عبد الله ؛ إذا مِتُّ . . فقل لإسماعيل بن دانة يغسلني ، قال : فقلت له : إسماعيل ليس من أصحابك ، أيش تريد بهـٰذا ؟ قال : نعم ، دخلت الحمام ، فخدمني ، فلم أكافئه ، وأنا أعلم أنه يحب أن يكون ممن يغسلني ، فيكون هـٰذا مكافأة لما كان منه .

وقال في « لوامع أنوار القلوب » : روي عن الحارث بن أسد المحاسبي رحمه الله أنه قال : قصدني مريد لي ليتأدب بالطريقة ، فآثر المجاهدة الصادقة طمعاً في نيل المحبة الصافية ، وبقي عليها زماناً ، ثم سمعته يوماً يقول لإخوانه : كل شيء يرجى العمل فيه . . يرجى الفراغ منه ، إلا المحبة ، كلما اجتهد فيها العامل . . تضاعف عليه العمل :

لـــي حبيـــب أُجِلُّـــهُ أتـــرانـــي أُدِلُّـــهُ[1]

لـــك جسمـــي تعلـــه فـــدمـــي لِـــمْ تحلـــه ؟!

قـــال : إن كنـــت مـــالكـــاً فلِـــيَ الأمـــرُ كلُّـــه

وقال الحارث بن أسد المحاسبي رحمه الله : المحبة : مَيلُك إلى الشيء بكليتك ، ثم إيثارك له علىٰ نفسك وروحك ومالك ، ثم مراقبتك له سراً وجهراً ، ثم علمك بعد هـٰذا كله بأنك في التقصير منغمس . [انتهىٰ] .

وقال السلمي في « الطبقات » : قال الحارث بن أسد : خيار هـٰذه الأمة : الذين لا تَشغَلهم دنياهم عن آخرتهم ، ولا آخرتهم عن دنياهم فيما لا بد منه .

---

(١) في بعض النسخ : (أذله) .

وأنشد قوَّالٌ بين يدي الحارث رحمه الله :

أنـــا فـــي الغـــربـــة أبكـــي ... مـــا بكـــت عيـــنُ غـــريـــبِ
لـــم أكـــن يـــوم خـــروجـــي ... مـــن بـــلادي بمصيـــب
عجبـــاً لـــي ولتـــركـــي ... وطنـــاً فيـــه حبيبـــي

فقام يتواجد ويبكي حتىٰ رحمه كل من حضره .

وقال : الذي يبعث العبد على التوبة : ترك الإصرار ، والذي يبعثه علىٰ ترك الإصرار : ملازمة الخوف .

وقال : إذا لم تسمع نداء الله عز وجل . . كيف تجيب داعي الله عز وجل ؟!

وقال : الظالم نادم وإن مدحه الناس ، والمظلوم سالم وإن ذمه الناس ، والقانع غني وإن جاع ، والحريص فقير وإن ملك .

وسئل : مَن أقهرُ الناسِ لنفسه ؟ فقال : الراضي بالمقدور . [انتهىٰ « الطبقات » ٥٨ـ٦٠] .

وقال في « بهجة الأسرار » : ومِن آدابهم ألا يسألوا إلا عند الضرورة الزائدة وبقدرها .

وقد قال العارفون رحمهم الله : الفقير إذا اضطر إلى السؤال . . فكفارته صدقه .

ومنهم مَن كره السؤال لنفسه واستحسنه للإخوان ، كما تقدم في ترجمة أبي حفص الحداد النيسابوري رحمه الله .

وقد حكي عن ممشاذ الدينوري : أنه كان إذا ورد عليه الغرباء . . دخل السوق ، وجمع من الدكاكين شيئاً ، وحمل إليهم ، ولا يعدون ذلك سؤالاً ؛ لأنه من باب التعاون بالبر والتقوىٰ .

ويستحب بذل الجاه للإخوان ، قال بعض المشايخ : لا يصح الفقر حتىٰ يبذل جاهه كما يبذل ماله ، وقد تقدم كلام سهل التستري في ذلك في ترجمته .

وأدب الخادم في السؤال : ألاَّ يرىٰ نفسه في الأخذ ولا في العطاء .

وقال الإمام محمد ابن الإمام أبي بكر الرازي رحمه الله : أما علم اليقين : فهو ما حصل عن نظر واستدلال ، وعين اليقين : ما حصل عن العِيان ، وحق اليقين : ما حصل عن المباشرة مع العِيان .

ألا ترىٰ إلىٰ قول الأستاذ أبي القاسم القشيري ـ رحمه الله ـ : علم اليقين : ما كان بشرط

البرهان ، وعين اليقين : ما كان بحكم البيان ، وحق اليقين : ما كان بنعت العيان ، فعلم اليقين لأرباب العقول ، وعين اليقين لأصحاب العلوم ، وحق اليقين لأصحاب المعارف[1] .

وقال بعض العارفين : مَن شهد البلاء من المبتلي سبحانه وتعالىٰ . . غاب برؤيته عن مرارة وجدان البلاء وصعوبته ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ .

حكي : أن ذا النون رحمه الله عاد مريضاً ، فأنَّ أنَّة ، فقال ذو النون : ليس بصادق في حبه مَن لم يصبر علىٰ بلائه ، فقال المريض : ليس بصادق في حبه مَن لم يتلذذ ببلائه ، ألا ترىٰ أن صويحبات يوسف عليه الصلاة والسلام لما رأينه كيف غبن عن وجدان ألم القطع ، ولم يشعرن بذلك إلىٰ أن غاب عنهن ؛ قال تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ .

وقيل لبعض الشُّطَّار[2] : متىٰ يهون عليكم القطع والضرب ؟ فقال : إذا كنا بعين من نهواه . . فنعد البلاء رجاء ، والجفاء وفاء ، والمحبة نعمة ومنحة .

ألا ترىٰ إلىٰ هـٰؤلاء كيف يهون عليهم تحمل البلاء في رؤية محبوبهم ، وكيف يتلذذون ويفتخرون به ، وهـٰكذا كل من يكون صادقاً في دعواه ومحققاً في بلواه ، لا يؤثر فيه تغير الزمان ، ولا طوارق الحدثان .

حكي : أن جماعة دخلوا على الشبلي وهو في المارستان ، فقال لهم : مَن أنتم ؟ فقالوا : محبوك ، فرماهم بالحجارة ، فهربوا ، فقال : يا كذابين ؛ تدَّعون محبتي ولا تصبرون علىٰ ضري ؟ ابعدوا عني .

وقال أبو محمد الجريري رحمه الله : البلاء علىٰ ثلاثة أوجه : على المخلطين نقم[3] وعقوبات ، وعلى التائبين تمحيص الجنايات ، وعلى الصديقين رفع الدرجات .

وأنشدوا :

ذل الفتىٰ في الحب مَكْرُمةٌ ... وخضوعه لحبيبه شرفُهْ

وقال في « بهجة الأسرار » : قال بعض العارفين رحمه الله : إن هـٰذا الأمر ليس مما

---

(١) الرسالة القشيرية (٧٤) .

(٢) **الشاطر عند أهل التصوف** : المسرع إلى الله .

(٣) في بعض النسخ : (على المخلصين نعم وعقوبات ، وعلى التائبين تمحض الجنايات . . .) .

يوصل إليه بهـٰذه الحيل والأسامي ، فقيل له : بماذا يوصل إليه ؟ فضرب يده علىٰ سارية عنده ثم قال له : هـٰذه السارية تضر أو تنفع ؟ قال : لا ، فقال : إنما يصل العبد إليه إذا خرج الناس من قلبه ، فكانوا عنده مثل هـٰذه السارية لا تضر ولا تنفع ـ كما هو الواقع ـ فإذا قال العبد عند ذلك : يا رب . . قال الله عز وجل : لبيك عبدي .

وقال أبو حمزة رحمه الله : مِن كلام الأبرار : مَن عمل بما يعلم . . وفق لعلم ما لم يعلم ، ومَن ذاق حلاوة عمل . . صبر علىٰ تجرع مرارة طرقه ، ومَن وجد منفعة عمل . . بادر إلى الزيادة منه ، ومَن صفت فكرته واستلذ خلوته . . استوحش مِن كل مَن يشغله ، ومَن يتوكل على الله . . فهو حسبه .

وقال سفيان بن عيينة وعبد الله بن المبارك وجماعة من العارفين رحمهم الله : كان العلماء يكتب بعضهم إلىٰ بعض الوصية بهـٰذه الكلمات : مَن أصلح ما بينه وبين الله . . أصلح الله ما بينه وبين الناس ، ومَن أصلح سريرته . . أصلح الله علانيته ، ومَن عمل لآخرته . . كفاه الله أمر دنياه . [انتهىٰ] .

وقال في « لوامع أنوار القلوب » : قال إبراهيم الخواص : رأيت جارية بالبصرة زادُها التوكل ، فقلت لها : أرشديني ، فقالت : يا أبا إسحاق ؛ أحسن الظن بالمولىٰ سبحانه وتعالىٰ لتفوز بالمنىٰ ، ثم اللقاء ؛ فإن الكريم سبحانه وتعالىٰ يعطي ما لا عين رأت ولا أذن سمعت .

فسألتها الزيادة ، فقالت : ما كل بدن يصلح لخدمته ، ولا كل قلب يصلح لمعرفته ، أتىٰ آدم عليه الصلاة والسلام منهياً ، وترك إبليس ـ عليه اللعنة ـ مأموراً ، ولـٰكن لما كان آدم عليه الصلاة والسلام يصلح للخدمة . . اعتذر عنه مولاه جل جلاله فقال : ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ ، وأما إبليس ـ عليه اللعنة ـ فإنه لما لم يصلح للخدمة . . قال الله تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ وأنشدوا :

حتىٰ متىٰ مقلتي تذوبُ ... وليس لي منكمُ نصيبُ
قد كنت أشكو فما تجيبوا ... ما هـٰكذا يفعل الحبيب
صُدِدتُ لما ضنيت حتىٰ ... أتوبَ عنها ولا أتوبُ
من لم يكن للوصال أهلاً ... فكل إحسانه ذنوب

وقال في « بهجة الأسرار » : قال إبراهيم الخواص : رأيت شاباً في الطواف ، متزراً

بعباءة ، متشحاً بأخرىٰ ، كثير الطواف والصلاة ، فوقع في قلبي محبته ، ففتح عليَّ بأربع مئة درهم ، فجئت بها إليه وهو جالس خلف المقام ، فوضعتها علىٰ طرف عباءته ، وقلت له : يا أخي ؛ اصرف هـٰذه القطيعات في بعض حوائجك ، فقام وبددها في الحصا ، وقال : يا إبراهيم ؛ اشتريت هـٰذه الجلسةَ من الله عز وجل بسبعين ألف دينار سوى الضِّياع ، تريد أن تخدعني بهـٰذا الوسخ ؟! قال إبراهيم : فما رأيت أذل من نفسي وأنا أجمعها من بين الحصا ، وما رأيت أعز منه وهو ينظر إلي ، ثم قام وذهب ، رحمه الله .

وقال إبراهيم رحمه الله : لم يُؤْتَ الناس من قلة الندم والاستغفار ، ولـٰكنهم أُتوا من قلة الوفاء بالعهد ، وتصحيح التوبة بترك الرجوع عما ندموا عليه وتابوا منه ، والصدق : هو القيام بحقوق الله سبحانه وتعالىٰ ، والوفاء بها عند مواقع الأعمال .

وقال أحمد بن فضلان الرازي رحمه الله : ورثت من والدي مئة ألف درهم وزيادة ، ففرقتها في أسبوع ؛ مخافة أن يشتغل قلبي [بها] ، إلا عشرة دراهم كانت قد بقيت من الجملة ، فأفقت مِن وجدي ، وجاءني العلم ، فلقيت إبراهيم الخواص ، فحدثته ، فقبَّل بين عيني وقال : هل وقفت علىٰ فترتك إذ فترت ، ورجعت من الوجد إلى العلم في العشرة دراهم ؟ فقلت : لا يا أستاذ ما علمت ، فقال : لَتناولك ذلك المال أحب ، ثم ضحك وقال : فديت يداً كانت عقوبتها رجوعها من الوجد إلى العلم ، ثم أنشأ يقول :

إذا افتقروا عضوا على الصبر حسبة وإن أيسروا عادوا سراعاً إلى الفقرِ

وقال إبراهيم الخواص رحمه الله : هـٰذا العلم ـ يعني : علم المعرفة ـ لا يصلح إلا لمن يعبر عن وجده ، ويخبر عن نعته ، وينطق عن فعله ، ويتكلم عن صفاء سره ؛ ليكون حكماً لهم ، إلىٰ أسرار المعرفة داعياً ، وإلىٰ سُبل دقائق المحبة حادياً ، يزعجهم لتجديد حوادث الشوق ، ويهيجهم إلىٰ بواعث قواتل المحبة . [انتهىٰ] .

وقال في « اللوامع » : قال أبو جعفر رحمه الله تعالىٰ : رأيت زرقاء المغنية في الطواف تبكي بكاء شديداً ، فقلت لها : اشتغلي بالنسك والتقرب ؛ فإن الله عز وجل يعفو ويغفر ، فقالت : نعم ، إنه سبحانه وتعالىٰ يغفر ويعفو ، ولـٰكن لي ذنوب سارت بها الركبان ، واطلع عليها الملك الديان جل جلاله ، وشهد بها الملكان ، وكنت أشتهي أن أجد للطاعة لذة كما وجدت للمعاصي لذة ، فقلت : أنت في حرم الله سبحانه وبيته ، ومَن دخله كان آمناً ، والمملكة واسعة ، والخلق كلهم عبيده ، وما عسىٰ أن تكون ذنوبك في جنب عفوه

سبحانه ؛ فإنها لا شيء عند ذلك ، فقالت : صدقت ، وعزتِهِ وجلاله ؛ إني لا أملك غير هـٰذه الحِجة ، ولو أمرني أن أهبها لبعض عبيده مع شدة حاجتي إليها . . لوهبتها ، وحاشا كرمه سبحانه عن ألاَّ يهب لي جرمي ويغفر لي ذنبي ، ثم قالت :

أمـــوت إذا بعـــدت دارُهـــا وأحيـــا إذا أنـــا لاقيتُهـــا
وأقســـم لـــو أن مـــا بـــي بهـــا وكنـــت الطبيـــبَ لـــداويتهـــا

فلم يبق طرف إلا بالدموع أقرحته ، ولا قلب إلا بالهموم والأحزان أحرقته .

وقال أبو طاهر : إن لله عز وجل عباداً أحبوه فتكلموا عنه ، واستحيوا منه أن يسألوه شيئاً سواه سبحانه وتعالىٰ .

وقال الجريري : أدنىٰ أوصاف الموقنين . . عيش القلب مع الله عز وجل بلا علاقة .

وقال محمد بن الفضل السمرقندي رحمه الله : ما خطوت أربعين سَنة خطوة لغير الله عز وجل ، وأربعين سنة ما نظرت في شيء لغير الله ؛ حياء من الله سبحانه وتعالىٰ ، وثلاثين سَنة ما أعلم أنه كتب عليَّ خطيئة .

وقال خيرٌ النساجُ رحمه الله : قلت لأبي العباس المؤدب رحمه الله يوماً : لِمَ لا تفرح بالناس ؟ فقال : ما عرفت نفسي ساعة قط فأفرح بها ، فكيف أعرف الناس أو أفرح بهم ؟! ولـٰكنك تجدني أعظِّم مَن كان لأمر الله عز وجل مُجِلاً ، ولحرماته معظماً ، وعليه معتمداً ، فيؤدبني الله عز وجل بذلك ، ويفيض عليَّ من نور بركته وعرفانه .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (دخلت علىٰ عمرو بن العاصي وهو محتضر وعنده ابنه عبد الله ، فقال : يا عبد الله ؛ خذ ذلك الصندوق ، فقال : لا حاجة لي فيه ، فقال : إنه مملوء مالاً ، فقال : لا حاجة لي فيه ، ليته مملوء فقراً ، فقال ابن عباس : فقلت : يا عمرو ؛ كنت تقول : أشتهي أن أرىٰ رجلاً عاقلاً يموت فأسأله كيف تجد ، فكيف تجدك ؟ فقال عمرو : أرى السماء كأنها منطبقة على الأرض وأنا بينهما ، وكأنما أتنفس من خرم إبرة ، ثم قال : اللهم ؛ خذ مني حتىٰ ترضىٰ ، ثم رفع يده فقال : اللهم ؛ إنك أمرتَ فعصيتُ ، ونهيتَ فارتكبتُ ، اللهم ؛ فلا براءة لي فأعتذر ، ولا قوة لي فأنتصر ، ولـٰكن لا إلـٰه إلا الله ـ ثلاثاً ـ ثم مات) .

وقال مسلم بن يسار رحمه الله : مرضت فلم يكن في عملي شيء أوثق في نفسي من قوم كنت أحبهم في الله عز وجل .

وروي : أن إبراهيم بن أدهم رحمه الله قال : دخلنا علىٰ بعض العُبَّاد نعوده ، فجعل يتنفس ويتأسف ، فقلت له : علامَ تأسفك رحمك الله ؟ فقال : ما تأسُّفي على البقاء في دار الأحزان والهموم والخطايا والذنوب ، ولـٰكن تأسفي علىٰ ليلة نمتها ، ويوم أفطرته ، وساعة غفلت فيها عن ذِكر الله سبحانه وتعالىٰ ، ولـٰكن يا أخي ؛ إن وقع في هـٰذا تقصير . . لم يقع في التوحيد ـ والحمد لله ـ تقصير ، ما عبدت غيره ، ولا رجوت سواه ، ولم يسكن في قلبي محبةُ غيره سبحانه وتعالىٰ .

وسئل أبو محمد الجريري رحمه الله عن معنىٰ قوله تعالىٰ : ﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ فقال : إن مَن اختصه الله سبحانه وتعالىٰ . . يجعل له إشرافاً علىٰ ما يحدث من الأمور ، فلما ولد عيسىٰ عليه الصلاة والسلام . . أشرفت أمه الصدِّيقة عليها السلام علىٰ ما يجري عليه من أن يُتَّخَذَ إلـٰهاً يُعبد ، فغمَّها ذلك وأحزنها ؛ إذ يكون منها ما يُتَّخذ إلـٰهاً فقالت : ﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ أي : لم أحمل مَن يُتَّخذ إلـٰهاً ، فأنطق الله عز وجل عيسىٰ عليه الصلاة والسلام بالتوحيد ، فقال : ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ فلا تدَّعوا فيَّ الإلـٰهية .

وقال أبو سعيد الخراز رحمه الله : حدثني بعض العلماء قال : بينما يحيى بن زكريا وعيسى ابن مريم عليهما الصلاة والسلام يسيران ؛ إذ تكلما في العلم ، فصاح يحيىٰ وقال : إن لله عز وجل عباداً إذا ذكروا عظمة الله عز وجل . . طاشت عقولهم ، وكادت أن تنخلع أوصالهم ، فقال عيسىٰ عليه الصلاة والسلام : إن لله عز وجل عباداً ألطف من هـٰؤلاء وأسكن ؛ إذا ذكروا الله سبحانه وتعالىٰ . . لا يصيبهم ما ذكرت ؛ لأنهم يشاهدون ويسمعون منه جل جلاله ، فقال يحيىٰ : لقد شفيتَ حزني .

وقال أبو إسحاق : جئت إلىٰ أبي محمد الجريري رحمه الله وأنا حدث السن ، فسألته عن مسألة ، فعض علىٰ شفته كالناهي لي عن ذلك ، فعدت لمسألتي ، ففعل مثل ذلك مرتين أو ثلاثاً ، ثم قال : يا بني ؛ الجلوس للمذاكرة علىٰ باب الفائدة لله عز وجل ، والجلوس للمناصحة لله عز وجل هو الذي يفتح باب الفائدة ، معك من هـٰذا شيء ، وإلا . . فاسكت .

وسئل بندار بن الحسين رحمه الله عن الفرق بين المحبة والحياء فقال : المحبة : رغبة ، وهي زعجة ، والحياء : خجلة ، والمحب طالب غائب ، والمستحيي حاضر ، وبينهما فرق ؛ لأن المحبة تصح مع الغيبة ، والحياء يصح مع المشاهدة ، فشتان ما بين غائب غريب وحاضر قريب .

وقال في « اللوامع » : سمع الإمام الأستاذ أبو سهل الصعلوكي رحمه الله قارئاً يقرأ : (قل هو الله أحد) ، فقال : هـٰذه بروق لوامع لا تضبطها الأقلام ، ولا تدركها الأفهام ، لمع برق قريب من الأسرار بعيد من النظَّار ، مَن عرف اللهَ عز وجل . . كَلَّ لسانه وقَلَّ بيانه ، مَن عرف الله سبحانه وتعالىٰ . . شغله به ، وقطعه عن الكل ، وأفرده عن الالتفات إلىٰ سواه ، وقطعته هيبته الإلـٰهية عن مطالعات الغيوب ، مَن عرف الله سبحانه وتعالىٰ . . لم يبق له سؤال ولا مقال ، مقالته أقلامه ، ودمعه كلامه .

وقال إبراهيم بن شيبان رحمه الله : سألت أبا عبد الله المغربي رحمه الله عن أهل المحبة فقال : هم علىٰ ثلاثة منازل :

ـ قوم يصرفهم عن البلاء ؛ لئلا يستغرق الجزع صبرهم ، فقد يجدون في صدورهم حرجاً من ذلك البلاء .

ـ وقوم يصرفهم عن مساكنة أهل المعاصي ؛ لئلا تغتم قلوبهم فتسلم صدورهم للمعالِم .

ـ وقوم صب عليهم البلاء صباً وصبَّرهم وارتضاهم ، فما ازدادوا بذلك إلا حباً له جل جلاله ، ورضىً وتسليماً لحكمه وقضائه ، فأوجدهم نعتاً بلا منعوت ، ومعنىً بلا لفظ ، فأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ، وفتح عليهم باطن علمه وظاهره ، وخمل[1] ذِكرهم بين عباده ، فإن وردوا البحار . . أعطاهم نفائسها فضلاً ، وإن سكنوا الجبال . . تطأطأت لهم محلاً سهلاً .

وأنشدوا :

وما كان لي ذنبٌ إليهمْ عهدتُه ... سوىٰ أن لي قلباً يتيه بهم عُجْبا

وقال أبو محمد : كان مِن أصحابنا رجل لا يفتر لسانه أن يقول : الله ، الله ، فوقع يوماً علىٰ رأسه جذع في المسجد شج رأسه ، وسال دمه على الأرض ، فرأيناه وقد كتب على الأرض : الله ، الله .

وقال الإمام أبو بكر الزقاق رحمه الله : لو أن المعاصي شيء أنا اخترتها لنفسي . . لما ساءني ذلك ؛ لأن ذلك يشبهني ، وإنما انقصم ظهري إذا كان هـٰذا حظي منك ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

---

(١) في نسخة : (جَمَّل) .

وقال الزقاق رحمه الله : كنت جالساً في مسجد الشونيزي ، فدخل عليَّ بعض أصحابنا ، فذاكرته شيئاً مِن هـٰذا العلم ، فقال لي : يا أبا بكر ؛ هـٰذا علم النجاة ، كم ممن سمع منا هـٰذا العلم فنجا به وبقينا نحن ؟ أو كما قال .

وسئل السَّريُّ رحمه الله عن معنى الخبر : (تفكر ساعة خير من عبادة سَنة[1]) فقال : تُحل أطناب خيمته في الدنيا بشده في الآخرة .

واتفق العارفون علىٰ أن رؤية النفس وأفعالها من أضر ما عليها ، وأشدُّ من ذلك مطالعة الأعواض عن أفعالها .

وقال ممشاذ الدينوري رحمه الله : اجتمعت بجماعة من المشايخ عند شيخ في ليلة ، فاشتغلت بخدمة ذلك الشيخ عن وِردي في تلك الليلة ، فلما أصبحنا . . جئت مع الجماعة إلىٰ يحيى بن الجَلاَّء ، فبكَّر يحيىٰ بي وبالجماعة إلىٰ شيخ في بعض الضياع لزيارته والتبرك به ، فقال ممشاذ : وما كنت أدخل علىٰ شيخ إلا وأنا خالي عن جميع حالي ومالي ، أنتظر مع ذلك بركات الشيخ ، فلما دخلنا وسلمنا . . قال لي الشيخ : يا ممشاذ ؛ ما أقبح الغفلة بك عن طاعة مَن لا يغفل عن برك ، وما أقبح الغفلة بك عن ذِكر مَن لا يغفل عن ذكرك ، فنوديت في سري : إن هـٰذا تأديب لي علىٰ ترك وِردي البارحة ، فلم أعد إلىٰ مثلها .

وقال في « اللوامع » : كانت رابعة تقول : مقام المحبة أشرف من مقام الخَلة ؛ لأن المحبة تكون من غير مكافأة ، والخَلة لا تكون إلا عن مكافأة وإن كانت الخلة هي انزعاج يتخلل الأنفاس والأرواح والشغاف ، وأنشدت :

قد تخللتَ مسلك الروح مني ... وبذا سمي الخليل خليلا
فإذا ما نطقتُ كنتَ حديثي ... وإذا ما سكتُّ كنتَ الغليلا

وقال في « بهجة الأسرار » : عن أبي خليفة قال : كان جعفر بن سليمان الهاشمي بالبصرة له غلة كل يوم ثمانين ألف درهم ، فبعث إلىٰ علماء أهل البصرة يستشيرهم في امرأة يتزوجها ، فأجمعوا علىٰ رابعة العدوية ، فكتب إليها :

بسم الله الرحمـٰن الرحيم .

أما بعد : فإن الذي هو ملكي من غلة الدنيا ثمانين ألف درهم ، وليس يمضي إلا قليلٌ

---

(١) أخرجه البيهقي في « الشعب » (١/ ١٣٦) موقوفاً علىٰ أبي الدرداء رضي الله عنه .

حتىٰ أتمها مئة ألف إن شاء الله عز وجل ، وأنا أخطبك إلىٰ نفسي ، وقد بذلت لك من الصداق ثلاث مئة ألف ، وأنا أرسل إليك مِن بعدها أمثالها ، فأجيبيني .

فكتبت إليه : بسم الله الرحمٰن الرحيم .

أما بعد : فإن الزهد في الدنيا . . راحة القلب والبدن ، والرغبة فيها تورث الهَمَّ والحزن ، فإذا أتاك كتابي هٰذا . . فهيء زادك ليوم فقرك وحاجتك ، وقدم لمعادك ؛ لتحيا حياة طيبة ، وكن وصي نفسك ولا تجعل وصيَّك غيرَك ، وصم دهرك ، واجعل الموت فطرك ، فما يسرني ـ والله الذي لا إله إلا هو ـ أنَّ الله عز وجل خولني أضعاف ما خولك ، فيشغلني به عنه سبحانه طرفة عين . والسلام . [انتهىٰ] .

وقال في « اللوامع » : قال ذو النون رحمه الله : رأيت بأرض التِّيه غلاماً أسمر ظاهر النور ، مهيب المنظر ، ملازماً للصلاة ، يبكي ليله ونهاره ، فسألته عن حاله فلم يجبني ، فتركته مع وقته وفارقته ، فلما كان بعد ذلك بسنين . . جزت بالموضع ، فرأيته ، فسألته عن حاله فقال : يا ذا النون ؛ هٰذا موضع ابتداء إرادتي ، وأنا أتذكر أيام مجاهدتي وأندبها ، وأتحسر علىٰ مواضع دهري وأحسبها ، فقد ضيعت قلبي وخلطت سري .

قال ذو النون : فاستحييت من تقصيري ، ونويت تجديد توبة واستئناف عهد فيما بيني وبين الله عز وجل ، وسافرت إلىٰ مكة شرفها الله سبحانه وتعالىٰ .

وقال أبو حامد : ما زلت أحب الفقراء وأنفق عليهم ، فتبعتهم يوماً إلىٰ مجلس عالم ، فرأيت في المجلس شخصاً تتمنى النفس دوام النظر إليه وهو يبكي ، وكلما سمع الواعظَ والقارىءَ . . يقول : الله ؛ الله ، فلم تنقطع له دمعة ، فتعجبت من تواكف عبراته ، وترادف زفراته ، فسألت بعض الفقراء عنه فقال : إنه تائب غزير الدموع ، كثير السجود والركوع ، رقيق القلب ، عظيم الحب .

فبينما نحن كذلك ؛ إذ قرأ القارىء قوله تعالىٰ : ﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ ، فقام شاهقاً وهو يقول : سيدي ومولاي ؛ خاب مَن في قلبه غير ذِكرك ، وهل في الأكوان غيرك حتىٰ يُذكر ؟! تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام ، لا إله إلا أنت برحمتك أستغيث .

وقال بعض العارفين ـ وكان قد ابتلي ـ لبعض أصحابه : هل ترىٰ علىٰ ظاهر جسدي موضعاً خالياً من الدود غير اللسان ؟ فقال : لا ، فقال : كذلك ليس في داخل جسدي موضعاً خالياً من الدود غير القلب .

واعتل ممشاذ الدينوري رحمه الله فقيل له : كيف تجد العلة ؟ فقال : سلوا العلة كيف تجدني ؟ فقيل له : فكيف تجد القلب ؟ فقال : فقدت قلبي منذ ثلاثين سنة .

وقال بعض العارفين رحمهم الله : مَن سأل وله ما يغنيه . . خاصمه كل الفقراء يوم القيامة ، قالوا : أخذت ما كان لنا . . فلم تكن منا .

وسئل أبو عثمان المغربي رحمه الله عن الإخلاص فقال : هو ما لا يكون للنفس فيه حظ بحال ، وهـٰذا إخلاص العوام ، وأما إخلاص الخواص : فهو ما يجري عليهم لا بهم ، فتبدوا منهم الطاعات من غير رؤية منهم لها ، وهم عنها بمعزل ، فلا يقع لهم عليها رؤية ولا بها اعتداد .

كما وقع لسيدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو على المنبر : (يا سارية بن حصن ؛ الجبل الجبل) وقد تقدم في ترجمته .

وسئل بعض العارفين عن معنىٰ قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ قال : يملي لهم من النعم ، ويمنعهم من الشكر .

وقال العارفون : الدنيا مزرعة الآخرة وغنيمتها ، ونعم المطية هي للمؤمن ، عليها يرتحل إلىٰ ربه عز وجل .

وقُدِّم بعضهم يوماً ليصلي إماماً ، فامتنع ، فقيل له في ذلك ، فقال : ذكرت عند قولي للمأمومين : (استووا رحمكم الله) : أنه يقال لي : هل استويت لي طرفة عين حتىٰ يستوي غيرك ؟!

ومنهم مَن علل بأنه قال : نظرت كأنه يقال لي : إن لم يعرفك هـٰؤلاء . . أليس أعرفك أنا ؟!

ومنهم مَن علل بأني أفكرت في أن المارين يقول أحدهم : إنما قدموا هـٰذا ؛ لأنه خيرهم ، فخشيت أن يقال ذلك فيكون كذباً .

وقال أبو عبد الله عمر بن عثمان بن غضنفر المكي رحمه الله : المحبة داخلة في الرضا ، ولا محبة بلا رضا ، ولا رضا بلا محبة ؛ لأنك لا تحب إلا ما ترضىٰ ، ولا ترضىٰ إلا ما تحب ، وسماع كلام المحبوب مِن ألذ النعم ، وإيثار رضاه شفاء السقم .

وروي : أن بعض الشباب كان يهوىٰ شخصاً ، فقال ذلك الشخص لجماعة : إن فلاناً إذا قعد معي . . لا يسمع ولا يبصر ، فحضر جماعة وهو فيهم ، فوجدوا صحة القول ، فقيل

للمحب في ذلك فقال : إني أدهش حال نظري إليه من الفرح به ، فكل شيء أراه . . أرىٰ شخصه فيه ، وكل صوت أسمع . . فكأنه منه ، فله أسمع ، وله أبصر ، وأستحي منه أن يراني وقد أبصرت غيره أو سمعت من غيره .

وقال أبو بكر محمد بن عمر الوراق الترمذي رحمه الله : حقيقة المحبة : مشاهدة المحبوب علىٰ كل حال ؛ فإن الاشتغال بالغير حجاب ، وأصله التسليم واليقين ، فإنهما يبلغان به إلىٰ درجة المتقين ، ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴾ .

وقال : للمحبة أربع علامات : أن يكون كلامه ذِكراً للمحبوب ، وصمته تفكراً فيه ، وعمله طاعة له ، ونظره عبرة في صنائعه .

وأصل ذلك : اليقين بما عنده ، والقطع عن الأغيار .

وقال بعض العارفين : مَن احتجت إلىٰ شيء من علومه . . فلا تنظر في عيوبه ، فإن نظرت في عيوبه . . حرمت بركة الانتفاع بعلومه .

واعلم : أن الدنيا دار أسست على البلوىٰ ، فعدم البلوىٰ فيها محال .

وقال بعضهم : الأدب تَرجُمان العقل ، وينبغي للصادق في سلوكه أن يجعل كتابَه قلبَه ، وأنشد :

سقتك بكأسها المملوءِ سلمىٰ ... فما ـ وأبيك ـ بعد اليوم تظما[1]

وأحضَرَك النديمُ علىٰ ندامىٰ ... يريك الِاسم من غير المسمىٰ

وسمع بعضهم منشداً يقول :

أسائل عن ليلىٰ فهل مِن مخبِّرٍ ... يكون له علم بها أين تنزلُ

فصاح وخر مغشياً عليه وقال : لا والله ؛ ما في الدارين عنه مخبِّر .

وقال الحارث بن أسد المحاسبي رحمه الله : أول بلية العبد . . تعطيل القلب من ذِكر الآخرة ، فحينئذ تحدث الغفلة في القلب .

وسئل : ما حقيقة حذر العبد من الله سبحانه وتعالىٰ ؟ فقال : ألاَّ يضيِّع واجب حقه ، وألاَّ يرتكب ما حرمه الله سبحانه وتعالىٰ .

---

(١) في نسخة : (فما رأيتك بعد اليوم تظما) .

وقال أبو سعيد الخراز رحمه الله : إذا خرست الألسن عن الأذكار . . نطقت القلوب بالاستغفار .

وقال في « اللوامع » : روي أن بعض المشايخ غسل ميتاً من المريدين ، فضحك الميت في غسله ، قال : فقلت : سبحان الله! أحياة في الدنيا بعد الموت ؟! فقال : يا شيخ ؛ إني قتيل سيوف الشوق إلى الحبيب سبحانه وتعالىٰ ، ثم قرأ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ ، ثم طُفِىء .

واعلم : أن المحب تارة يفرح بآثار الحبيب تذكُّراً للحبيب ، وتارة يبكي آثار الحبيب تأسفاً على الحبيب .

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله : خصلتان مَن كانتا فيه . . رُجي خيره :

إنصاف الناس من نفسه ، ومواساة الإخوان .

وقال مالك بن دينار رحمه الله : مَن أحب شيئاً . . بقي مع محبوبه ، ومَن أحب الآخرة . . بقي معها ، ومَن أحب الله عز وجل . . بقي معه جل جلاله ولا إلٰه غيره ، وأربحهم : مَن أحب الله سبحانه وتعالىٰ .

وقال أيضاً وقد سئل كيف الطريق إلى المالك الحبيب عز وجل فقال : الطريق صعب ، غير أن أول الأمر مبني على الصبر والبكاء ، وأوسطه على الخوف والرجاء ، وآخره على التسليم والرضا ، ثم المالك الحبيب سبحانه وتعالىٰ يفعل ما يشاء .

وقال الحارث بن أسد المحاسبي رحمه الله : الخلق كلهم معذورون في العقل مأخوذون في الحكم . [انتهىٰ] .

وقال في « بهجة الأسرار » : قال سري السقطي رحمه الله : كان يصحبنا شاب ، وكان يكثر من كتابة الحديث وطلبه ، ففقدناه أياماً ، فسألت عنه ؛ فإذا هو قد لزم بيته ، فأتيناه في منزله ، فقلت له في ذلك ، فقال : كنت أُكثر من كتابة الحديث وطلبه كما رأيتموني ، فرأيت في المنام قائلاً يقول لي : إلىٰ كم تضيع العلم ضيعك الله ؟! فتركت الطلب والكتابة ، فأنا أنظر فيه للعمل .

وقال بعض العارفين : قد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يكن أحدكم كالعبد السوء ؛ إن خاف . . عمل ، ولا كالأجير السوء ؛ إن لم يعط أجره وافياً . . لم يعمل » .

وروي : أن الله عز وجل أوحىٰ إلىٰ داوود عليه الصلاة والسلام : (إن الأحبَّاء إليَّ من عبادي . . من عبدني لغير نوال ، ولٰكن عبدني ليعطي الربوبية حقها ، يا داوود ؛ إنما خلقت النار سياطاً لسوء عبادي ، أسوقهم بها إلىٰ خدمتي ، وخلقت الجنة لمتوسلي عبادي أوصلهم إلىٰ جنتي) .

وقال أبو يعقوب يوسف بن الحسين الرازي رحمه الله : حقيقة المحبة : مراعاة المحبوب في الغيبة والمشاهدة ، والقرب والبعد ، والهجر والوصل علىٰ صفة واحدة ، عالماً بأن المحبوب يراه[1] ، فيستحي المحب منه من أن يراه ينظر إلىٰ شيء سواه .

وقال بعض العارفين : ابتلينا بزمان ليس فيه آداب الإسلام ، ولا أخلاق الجاهلية ، ولا أحلام ذوي المروءة ، والتدبير والاختيار هو الذي كدر على الخلائق عيشهم .

وقال إسماعيل السلمي رحمه الله : منذ ثلاثين سنة لم أعقد بيني وبين الله عز وجل عقداً ؛ خوفاً من أن يبتليني في عقدي فيكذبني علىٰ لساني .

وكان أبو حفص العابد رحمه الله يقول : مَن رضي عن الله عز وجل . . قلَّت همومه ، ومَن استوطن المعرفة . . ذهبت عنه الوحشة ، ومَن مال إلى الآخرة . . صغرت عنده الدنيا ، ومَن أحب نفسه . . لم يؤثر بها غيره .

وكان يقول : نَعَّمك بالأوجاع ؛ ليغسل عنك درن الخطايا والذنوب ، ويداويك بالأمراض ؛ لتبرأ من سقم الذنوب ، ويميتك ليحييك ، ويغنيك ليبقيك ، وإنما يمنعك ليعطيك ، يمنعك القليل الفاني ؛ ليعطيك الجزيل الباقي .

وقال بعض العارفين : العبادات مع مشاهداتها تقطع عن الرعايات ، والعبادات مع نسيان المنة والفضل تقطع عن الحراسات .

وقال أحمد بن عطاء رحمه الله : مطالعة الأعواض على الطاعات من نسيان رؤية الفضل ، ونسيان رؤية الفضل من نسيان الرب جل جلاله ولا إلٰه غيره .

وقال أبو محمد الجريري رحمه الله : ثلاثة أشياء من صفات الأولياء :

الرجوع إلى الله عز وجل في كل شيء ، والفقر إلى الله في كل شيء ، والثقة بالله عز وجل في كل شيء .

---

(١) في بعض النسخ : (بأن المحبوب لا يراه) .

وسئل الدقاق رحمه الله عن حقيقة الفقر فقال : هو ألاَّ ترىٰ لك مِلْكاً ، ولا تستوحش لفقد السبب .

وقال بشر بن الحارث رحمه الله : تنقوا الإخوان ، فإذا وجدتم مَن يعينكم علىٰ أمر الآخرة . . فتمسكوا به .

وقال بشر : لأَن تكون جاهلاً خير لك من أن تكون عالماً ولا تعمل .

وقال أبو محمد الجريري رحمه الله : يجب على الإنسان أن يفكر في صغره وفي كبره ، وفي طاعته وفي معصيته ، وفي جهله وعلمه ، وفي صدقه وكذبه ، وفي أيامه ولياليه ، وأعوامه وسائر ساعاته ، ويقعد بين يدي الله عز وجل ، ويكون قعوده فراراً مِن كل ما تسكن إليه النفوس ، فلا يشتغل بما يسمع ولا بما يعلم ، بل يكون فكره في بذل المجهود إلىٰ كل ما يوصله إلى الله سبحانه وتعالىٰ ، وهـٰذه جلسة الصديقين رضوان الله عليهم أجمعين .

وقال بعض العارفين رحمهم الله : إن الرجل إذا جلس يعظ القوم . . ناداه ملكاه : يا عبد الله ؛ عظ نفسك بما تعظ به أخاك ، واستحْي من سيدك ومولاك جل جلاله ؛ فإنه يراك .

وكان الجريري رحمه الله يقول : لو رأيت مَن يهجرني لله عز وجل . . لوضعت خدي له .

وهـٰذا نظير ما قاله بعض العارفين : لو علمت مَن يبغضني في الله عز وجل علىٰ حقيقة . . لأوجبت علىٰ نفسي حبه .

واعلم : أن التوبة مما لا تعلم . . تبعثك على التوبة مما تعلم ، والشكر علىٰ ما لا تعلم . . يبعثك على الشكر علىٰ ما تعلم ، والتوبة تطفىء النار ، والشكر يزلف الجنة .

وقال أبو بكر ابن طاهر رحمه الله : ما يعالج الخائفون لله عز وجل شيئاً أشد عليهم من تصحيح الإرادة في المخافة من الله عز وجل .

وقال ابن الجَلاَّء رحمه الله : سمعت أبا تراب رحمه الله يقول : إذا تواترت علىٰ أحدكم النِّعم . . فليبك علىٰ نفسه ؛ لأنه قد سُلك به غير طريق الصالحين .

وسئل بعضهم عن حقيقة الفقر فقال : هو انقطاع الحيلة . والله أعلم . [انتهىٰ] .

وقال في « لوامع أنوار القلوب » : روي أن بعضهم أحب شخصاً ، فبقي أكثر من شهر لم

ينعس ليلاً ولا نهاراً ، فقيل لمحبوبه ذلك ، فقال : حُق له ذلك ، لِمَ تعرض له المحبةُ ؟! فإن من شرط المحبة : تفطير الفؤاد ، ومداومة السهاد ، ومهاجرة الرقاد ، والشهرة بين العباد ، فسمع المحب ذلك فقال : كل هـٰذا طيب مع بلوغ المراد ، فقال المحبوب : فيكون ذلك مكافأة مجازاة ، إنما المحبة تقطيع الفؤاد مع دوام العناد ، واليأس من المراد .

ولهـٰذا أوجب الله سبحانه وتعالى الصبر على البلاء والشكر على العطاء على العامة ، وأوجب الشكر على البلاء والحذر على العطاء على الخاصة ، وأوجب استزادة الشكر على البلاء ، ومهاجرة العطاء علىٰ خاص الخاصة . [انتهىٰ] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : اعلم : أن أحوال العارفين عند الاحتضار مختلفة بحسب اختلاف مشاربهم في الحياة ؛ فإن المرء يموت علىٰ ما عاش عليه ، ولذلك اختلفت أحوالهم عند الموت[1] :

منهم : مَن تغلب عليه الهيبة ؛ كبشر بن الحارث رحمه الله ؛ فإنه قال : القدوم على الله شديد .

ومنهم : مَن يغلب عليه التواجد ؛ كأبي سعيد الخراز ، والنوري رحمهما الله .

ومنهم : مَن يغلب عليه الرضا .

ومنهم : مَن يغلب عليه السكون وجميل الثقة بالله ، مع حسن الظن بالله سبحانه وتعالىٰ .

ومنهم : مَن يغلب عليه الشوق ، إلىٰ غير ذلك من المشارب التي وهبها الله عز وجل لهم ، وما اختصهم به من العرفان رحمهم الله تعالىٰ أجمعين .

وينبغي لمن حضر الصف أن يقول : اللهم ؛ إن هـٰذه النفس تزعم في الرخاء أنها تحب لقاءك ، فإن كانت صادقة . . فارزقها الشهادة ، وإن كانت كاذبة . . فاحملها عليه ، وإن كرهت . . فاجعل ذلك قتلاً في سبيلك يا مجيب المضطرين وأرحم الراحمين .

[ومنهم] : أبو بكر الزقاق رحمه الله ، روي أن جماعة من أصحابه قالوا : لما حضرته الوفاة . . خشينا أن يخرج من الدنيا ولا نعلم حال عاقبته ، ولا نسمع شيئاً في خاتمته ، فجلسنا عنده وراعيناه ، فقهقه ، ثم سكت ، ثم قهقه أخرىٰ ، ثم سكت ، ثم قهقه ثالثة ، ثم

---

(١) ختم المؤلف ترجمة الحافظ أبي نعيم صاحب « الحلية » بخاتمة ذكر فيها كلام الذين ترجم لهم عند الاحتضار ، فمن أراد الاستزاده . . فليراجعه .

قال : عز عليَّ يا صادق الوعد يا وفي العهد ، وفَّيْتَ لي وما وفيت لك ، ثم مات رحمه الله تعالىٰ .

وقال بعض العارفين وقد دخل إليه بعض العواد فسألوه عن حاله فقال : إن النفس لله عز وجل اشتراها ؛ قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم ﴾ فهو سبحانه وتعالى المالك يفعل ما يشاء ، فهو بي مني أرحم وأبر وأرأف .

ألا ترىٰ أنه سبحانه وتعالىٰ لما علم تراكم الذنوب علىٰ عباده . . جعل حُمَّىٰ يوم كفارة سَنة ، وأمر الملائكة عليهم الصلاة والسلام أن تكتب له في مرضه ما كان يعمله في الطاعة في حال صحته .

ومنهم مَن قال في مرضه : أحبه إلي أحبه إلى الله سبحانه وتعالىٰ .

ومنهم مَن قيل له : شفاك الله ، فقال : أستخير الله عز وجل .

وقال في « اللوامع » : قال بعض المشايخ : كنت بمكة ، فخطر بقلبي أن أبيت ليلة في بقيع الغرقد مع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقصدت المدينة المشرفة ، وزرت قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، واستخرت الله سبحانه فيما بين الروضة والمنبر ، فقوي الخاطر ، فرحت إلى البقيع ، فلما أظلم الليل . . قمت إلىٰ خلوتي ، فبينما أنا متفكر في منازلهم من الله عز وجل ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونزول القرآن فيهم ، وسعادتهم بالصحبة ؛ وإذا أنا بنور قد خرج من باب المسجد كأنه شعاع الشمس أو ضوء القمر ، يخرج من التربة الكريمة والروضة إلى البقيع ، وكأن قائلاً يقول : هـٰؤلاء وفد الحبيب وأضيافه ، ولا يلقى الحبيب في وفده وأضيافه إلا ما يحبه .

وعن الأصمعي قال : رأيت في الطواف شيخاً بالياً فانياً ، وله خلوات حسنة ، فأعجبني حاله ، فسمعته ليلة بفناء الكعبة ، وهو يقول باكياً بصوت حزين :

إلـٰهي ؛ إن لم تجب دعوتي . . فمَن لي ؟

إلـٰهي ؛ إن لم ترحم عبرتي . . فمن لي ؟

إلـٰهي ؛ إن لم تُقِل عثرتي . . فمَن لي ؟

إلـٰهي ؛ أغنني ، وإن لم تُغنني . . فمن لي ؟

خاب مَن في قلبه سواك ، وهل في الأكوان غيرك حتىٰ يذكر ؟!

فلم يبق في الحرم عيناً إلا أبكاها ، ولا قريحة إلا أدماها :

يـا مـن بهجـري يـريـد قتلـي ... قـد عيـل صبـري ورثَّ حبلـي
قـد كنـتُ قبـل الهـوىٰ عـزيـزاً ... فبعـتُ عـزي بطـول ذُلـي
وصـرت أشكـو فـلا تبـالـي ... إن لـم تجـب دعـوتـي فمـن لـي

وقال أبو محمد الجريري رحمه الله : غَسَّلْنا الفتح بن شخرف رحمه الله ، فرأينا علىٰ فخذه مكتوباً : لا إلٰه إلا الله ، فتوهمناه كتابة ، فنظرنا ؛ فإذا عِرق داخل الجلد .

وقد وُجد علىٰ جماعة من العارفين مثل ذلك ، فإن سفيان الثوري لما مات رحمه الله . . وجدوا علىٰ صدره في موضعين : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ .

وحكىٰ أبو علي الحسين بن عبد الله المغازلي قال : سألت أبا محمد الجريري الصحبة ، فأبىٰ عليَّ وقال : لي شروط : لا أُسأَلْ ، ولا أُمنَعْ ، ولا أعرض ، ولا أطلب ، فإن جلستُ . . فاجلس ، وإن سكتُّ . . فاسكت ، وإن قمت . . فقم .

قال : وجاور بمكة سنة ثلاث وتسعين ، فلم ينم ، ولم يكلم أحداً ، ولم يستند إلىٰ عمود ولا إلىٰ حائط ، ولم يمد رجليه ، فعبر عليه أبو بكر الكتاني فسلم عليه وقال له : يا أبا محمد ؛ بماذا قدِرْت علىٰ هٰذا الأمر كله ؟ فقال : إن الله سبحانه وتعالىٰ علم صدق باطني ، فأعانني علىٰ ظاهري ، فأطرق الكتاني ومشىٰ ساعة مفكراً ، فقال الجريري رحمه الله :

شكـرتُـك لا أنـي أجـازيـك منعِمـاً ... بشكـر ولٰكـن إمتثـالاً لـذي الشكـرِ

قالوا : أدنىٰ مراتب الفقراء الصادقين : التواسي بما في أيديهم ، وقد سبق في ترجمة زيد بن ثابت رضي الله عنه ، عن أبي حازم قال : كنا في مجلس زيد بن ثابت أربعين نفساً ، أدنىٰ خَلَّةٍ فينا التواسي بما في أيدينا . والله أعلم .

ووقف جماعة علىٰ مجلس محمد بن حامد رحمه الله ، فلما تكلم . . قام إليه رجل وقال : يا أبا عبد الله محمد بن حامد ؛ كيف الطريق إليه ؟ فقال : الطريق واضح ، والدليل معلوم ، والزاد راتب ، والمركب قوي ، ولٰكن الذي منع من الوصول الاستدلال بغير دليل ، والركض في الطريق علىٰ حد الشهوة ، وأخذ الزاد من غير وجهه ، وضعف المركب لقلة تعهده ، وتغير الأحوال من وقت العبادة إلىٰ غيره ، واختلاف الظاهر والباطن ، وهٰذه كلها أمارات البين وإصابة بالعين .

وقال رجل لذي النون : أوصني ، فقال : استَلِذَّ ببلائه سبحانه وتعالىٰ ، واجهَدْ أن ترىٰ

بلاءه نعمة ، وأَلْقِ مقاليد أمورك إليه ؛ فإنه سبحانه وتعالىٰ لا يخيب من التجأ إليه .

وقال : المحبة بحار مُغرقة ونيران محرقة ، وأهل المحبة قائمون مع الحق علىٰ قدم واحد ، إن تقدموا . . غرقوا ، وإن تأخروا . . حجبوا .

قلب المحب همومُه ما تنفَدُ ودموعه عن مقلتيه تَرَدَّدُ

وقال ذو النون رحمه الله : المحبة سُكْرٌ لا صحوَ معه ، وذِكر لا محو معه ، وجِدٌّ لا لغو بعده ، وجهد لا لهو بعده ، وبلاء لا يرتجىٰ شفاؤه ، وسقام لا يُعرف دواؤه ، فالمحبون سكارىٰ لا يصحون إلا عند مشاهدة محبوبهم .

وروي : أن غيلان المجنون لقي فارساً العكبري رحمهما الله ، فقال له فارس : يا أخي ؛ مَن كتم الهوىٰ . . بلغ المنىٰ ، فقال له : يا فارس ؛ غلطتَ ، مَن كتم الهوىٰ . . لقي الردىٰ ، وهام وأودىٰ .

عجباً للمحب كيف ينام كل نوم على المحب حرامُ
إنما يألف الرقادَ خليٌّ كاذبُ الحب ما عليه ملام
والحفيظُ الودادِ مَن سهر الليـ ـلَ إذا جن والعيون نيام

وقال أبو يزيد البسطامي رحمه الله : **المعرفة** ثلاثة : معرفة العوام ، ومعرفة الخواص ، ومعرفة خواص الخواص .

فمعرفة العوام : معرفة العبودية والربوبية والطاعة والمعصية .

ومعرفة الخواص : معرفة الإجلال والعظمة والإحسان والمنة ، مع المعرفة السابقة .

ومعرفة خواص الخواص ـ مع ما تقدم ـ : معرفة الأنس والمناجاة واللطف ، ثم معرفة القلب .

والقلوب ثلاثة :

ـ قلب يجول في الدنيا حول الشهوات .

ـ وقلب يجول في العقبىٰ حول الدرجات والكرامات .

ـ وقلب يجول في سدرة المنتهىٰ حول الأنس والرضوان ، ورؤية الباري جل جلاله ولا إلٰه غيره سبحانه وتعالىٰ .

وقالت رابعة العدوية رحمها الله: ما اهتممت لرزقي منذ عرفت غنىٰ مولاي سبحانه وتعالىٰ.

وكتب الشافعي رحمه الله إلىٰ شخص يعزيه: يا أخي؛ عَزِّ نفسك بما تعزي به غيرك، واستقبح مِن فعلك ما تستقبحه من غيرك، واعلم: أن أمرّ المصائب فَقْدُ سرور وحرمان أجر، فكيف إذا اجتمعا مع اكتساب وزر؟! فتناول حظك يا أخي إذا قرب منك قبل أن تطلبه وقد نأىٰ عنك، ألهمك الله عند المصائب صبراً، وأجزل لنا ولك بالصبر أجراً.

إني معزيك لا أني علىٰ ثقة ... من الحياة ولكن سُنة الدِّين
فما المعزَّىٰ بباق بعد ميته ... ولا المعزي وإن عاشا إلىٰ حين

وقال الشافعي: أظلمُ الناس لنفسه اللئيم، إذا ارتفع.. جفا أقاربه، وأنكر معارفه، واستخف بالأشراف، وتكبر علىٰ ذوي الفضل.

وقال أرباب السير: حكي أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه رآه بعض الصالحين في المنام، فشكا إليه ما جرىٰ على ابنه الحسين رضي الله عنه، فقال: عليك بأبيات أبي الشيص، وهي:

مَلَكْنا فكان العفوُ منا سجيَّةً ... فلما مَلَكْتُمْ سال بالدَّمِّ أبطَحُ
وحَلَّلْتُمُ قتلَ الأسارىٰ وطالما ... غدونا عن الأسرىٰ نعفُّ ونصفح
فَحَسْبُكُمُ هٰذا التفاوت بيننا ... وكل إناءٍ بالذي فيه ينضح

وقال بشر رحمه الله: دخلت علىٰ إبراهيم التيمي رحمه الله فقال: ما تقول الناس فيَّ؟ قال: يقولون: مرائي، قال: الآن طاب العمل، قال بشر: كل ذلك لرعاية الصدق، ولتكون سريرته أفضل من علانيته.

وقال سهل رحمه الله: **إذا كان التزويج علىٰ غير السُّنة.. كان الولد عقوبةَ تنفيذِ الشهوة، فكيف تريد مِن ولد الشهوة الصلاح؟!**

ولما ولد ليوسف بن أسباط بنت.. بكىٰ، فقال: يا رب؛ شغلتني بالولد فلم ترني لخدمتك أهلاً.

وقال أبو محمد الجريري رحمه الله: لقيني يوماً الفتح بن شخرف فقال لي: يا أبا محمد؛ أنت أمين الله علىٰ نفسك، لا ترىٰ عليَّ ثوباً وأنت محتاج إليه أو غير ذلك مما تراه عندي فتتخلَّف عن أخذه.

وقال أبو يعقوب النهرجوري رحمه الله : أصل العبادات كلها . . أكل الحلال ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا ﴾ .

والتوحيد له : ظاهر ، وباطن ، وحقيقة .

فظاهر التوحيد : الإسلام ، وباطنه : الإيمان ، وحقيقته : التقوىٰ والعمل الصالح ، قال الله تعالىٰ : ﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ ﴾ ، فصحة الإسلام بالإيمان ، وصحة الإيمان بالتقوىٰ والعمل الصالح .

والتقوىٰ لباس المؤمن ، وهو ستر له من النار ، وبالعمل الصالح يُظهِر الله عز وجل شرفَه عند خلقه ، ويحببه إلىٰ عباده المتقين ؛ قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴾ .

قيل في التفسير : في قلوب المؤمنين .

وقال أبو تراب رحمه الله : ليس ينال الرضا مَن في قلبه من الدنيا ولو قدراً يسيراً . وهٰذا نظير قول الجنيد السالف في ترجمته .

وأصل ذلك : قوله صلى الله عليه وسلم : « المكاتَب عبد ما بقي عليه درهم »[1] .

وقال الفضيل رحمه الله : إنما يطيع العبد ربه سبحانه وتعالىٰ علىٰ قدر منزلته منه .

وقال أبو بكر بن طاهر : ما يعالج الخائفون من الله عز وجل شيئاً أشد عليهم من تصحيح الإرادة في المخافة منه سبحانه وتعالىٰ .

وروىٰ مؤلف « **بهجة الأسرار** » بسنده : أن شخصاً قرأ القرآن وعرف الفقه والحديث ، حتىٰ فاق أهل زمانه ، فلما مات . . رآه بعض أصحابه في النوم كأنه في موضع ليس بذاك ، فقال له : ما فعل الله عز وجل بك ؟ فقال : عاتبني وقال : خرجت من الدنيا وما عرفتني .

وقال إسماعيل السلمي : منذ ثلاثين سَنة لم أعقد بيني وبين الله عز وجل عهداً ـ أو قال : عقداً ـ خوفاً من أن يبتليني في عقدي ، فيكذبني علىٰ لساني .

وكان أبو حفص العابد يقول : مَن رضي عن الله عز وجل . . قَلَّت همومه ، ومن استوطأ

---

(١) أخرجه الترمذي (١٢٥٩) .

المعرفة . . ذهبت عنه الوحشة ، ومَن مال إلى الآخرة . . صغرت عنده الدنيا ، ومن أحب نفسه . . لم يؤثر بها غيرَه .

وقال بعض العارفين : إن الله عز وجل يحمي عبده المؤمن من الدنيا ويمنعه منها ، وإنما يمنعه من القليل الفاني ليعطيه الجزيل الباقي ، ويميته ليحييه ، ويفنيه ليبقيه .

وقال أحمد بن عاصم رحمه الله : فرائض القلب إخراج الدنيا منه ، وطرح جميع ما يكرهه الله عز وجل ، مع طهارة الضمير ، وتصحيح العزم ، وصيانة العقول ، ورعاية النعم في المعاملة ، والفهم عن الله عز وجل فيما يقع به التدبير .

وقال أبو الحارث الأولاشي رحمه الله : رأيت في منامي رب العزة سبحانه وتعالىٰ ، فقال لي : (عبدي ؛ سل حاجتك) ، فقلت : يا رب ؛ أنت تعلم حاجتي ، فقال : (أنا أعلم ، وكيف لا أعلم وأنا كونتها وكمنتها في صدرك وأطلقت بها لسانك ؟! ولـٰكن أحب أن أُسأَل ، واعلم : أن المسارعة إلى اتباع ما فيه محبتي . . أوثقُ عرى الإيمان ، ومتىٰ آثرت هواك علىٰ رضاي . . فأنت منقطع عني ، واحذرِ الدنيا وأخرِجْها من قلبك ؛ فإن متاعها قليل ، والعيش فيها قصير ، وتقرَّبْ إليَّ ببُغضها وبُغض أهلها ، وكن محترزاً من أهلها ، وقف بين يديَّ في مقام من أسقط نفسه وحيلته ، وتعلق بمالكه جل جلاله) أو كما قال .

وقال أبو عمرو الصوري : حب الدنيا من الكبائر ، فما ظنك بعبد مقيم علىٰ أكبر الكبائر . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو يعقوب يوسف بن الحسين الرازي
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان أبو يعقوب ابن الحسين من المشمرين في العبادة المجدين فيها .

وقال أحمد بن موسى الرازي رحمه الله : سمعت يوسف بن الحسين يقول : علم القوم أن الله عز وجل يراهم ، فاستحيوا من نظره إليهم جل جلاله أن يراعوا شيئاً سواه سبحانه وتعالىٰ .

وقال : إنما يتولد الإعجاب بالعمل من نسيان رؤية المنة والفضل لله عز وجل .

وقال فارس البغدادي رحمه الله : سمعته يقول : علىٰ قدر خوفك من الله عز وجل . . يهابك الخلق ، وعلىٰ قدر حبك لله عز وجل . . يحبك الخلق ، وعلىٰ قدر شغلك بأمر الله عز وجل . . يرتفع قدرك عند الخلق .

وقال أبو عبد الله : لما حضرت يوسف بن الحسين الوفاة . . كنت عنده ، فسمعته يقول وهو يجود بنفسه : اللهم ؛ إنك تعلم أني نصحت خلقك ظاهراً ، وغششت نفسي باطناً ، فهب لي غشي لنفسي لنصحي لخلقك . ثم خرجت روحه ، رحمه الله تعالىٰ .

وقال أبو طالب الوراق رحمه الله : رأيت يوسف بن الحسين رحمه الله بعد موته في المنام ، فقلت له : ما فعل الله عز وجل بك ؟ فقال : غفر لي ورحمني ، فقلت له : بماذا ؟ قال : بكلمات قلتها عند الموت : اللهم ؛ إنك تعلم أني نصحت الناس قولاً ، وخنت نفسي فعلاً ، فهب لي خيانة نفسي لنصح قولي .

سمع يوسف بن الحسين أحمد ابن حنبل ، وذا النون المصري ، وغيرهما رحمهم الله .

وتوفي سنة أربع وثلاث مئة . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ٧٠ـ٧١] .

وقال في « المختار » : قال يوسف بن الحسين الرازي : أعز شيء في الدنيا الإخلاص ،

وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي وهو ينبت علىٰ لون آخر . انتهىٰ .

وقال في « بهجة الأسرار » : سئل يوسف بن الحسين : متىٰ يكون الفقير صادقاً محتسباً في فقره ؟ فقال : إذا كان يتلقى الفقر والقلة من ربه عز وجل بصدق الإكرام ، مع حسن الظن بالله عز وجل ، ويُعد ما فاته من الدنيا غنيمة ، وما ناله منها ـ مما زاد علىٰ قدر الحاجة ـ مصيبة ، يخاف أن يسلب الفقر منه ؛ لئلا يطغىٰ ، قال الله تعالىٰ : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ ، ويكون خوفه من زوال الفقر كخوف طالب الدنيا إذا فقدها ، ومع ذلك فيكون شاكراً لله عز وجل ، راضياً محتسباً ، يتلذذ بفقره كما يتلذذ الأغنياء بغناهم ، لا يبيع دِينه بشيء من عرض الدنيا ، ويجعل ما فاته منها وفراغه عنها عوناً له علىٰ عبادة الله سبحانه وتعالىٰ . أو كما قال .

وقال يوسف بن الحسين : التائب إذا خشي الحول عن حاله والنزوع عن منهاجه . . تمنى الموت حتىٰ يَسلم من الدخول تحت قوله : « نعوذ بالله من الحور بعد الكور »[1] ، فأما إذا استقامت طريقته واستحكمت حقائقه . . استغنىٰ عن تمني الموت ، ودخل في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ .

وقال يوسف بن الحسين : حقيقة المحبة : مراعاة المحبة في الغيبة والمشاهدة ، والقرب والبعد علىٰ صفة واحدة ، علماً بأن المحبوب يراه ، فيستحيي المحب منه أن ينظر إلىٰ سواه . [انتهىٰ] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : قول الإمام أبي يعقوب يوسف بن الحسين الرازي رحمه الله : (استغنىٰ عن تمني الموت) موافق لما حكاه القاضي أبو المعالي في « اللُّمَع » عن بشر بن الحارث وأبي الحسين النوري أنهما قالا : لا يبغض الموت إلا كذاب مريب ، بدليل قوله تعالىٰ : ﴿ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ ، فقيل لهما : فقد قال صلى الله عليه وسلم : « لا يتمنين أحدكم الموت . . . »[2] الحديث ، فقالا : تمام الخبر يَرُدُّ عليكم ؛ لأنه قال صلى الله عليه وسلم : « لضر نزل به » ، معناه : أن يفعل ذلك سخطاً لقضاء الله عز وجل ورداً لحكمه وعدولاً عن مقام الرضا ، وقد قال صلى الله عليه وسلم :

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٣٩) ، والمعنىٰ : النقصان بعد الزيادة .

(٢) أخرجه البخاري (٥٣٤٧) ، ومسلم (٢٦٨٠) ، وتتمة الحديث : « من ضر أصابه ، فإن كان لا بد متمنياً . . فليقل : اللهم ؛ أحيني ما كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي » .

« من أحب لقاء الله . . أحب الله لقاءه . . . »[1] الحديث . انتهىٰ .

وسئل يوسف بن الحسين رحمه الله : متىٰ يكون الرجل صائماً علىٰ حقيقته ويستوجب ثواب الصائمين ؟ فقال : إذا كان قوته لصيامه ولغيره من حِلِّهِ وجِهَتِهِ ، وإفطاره علىٰ حِلِّهِ وجهته ، وكان الصوم له جُنة من قرنه إلىٰ قدمه ، ولم يكن صومه عن الطعام والشراب دون حفظ الجوارح . . رجوت أن يكون في صيامه مستوجباً ثواب الصائمين . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) أخرجه البخاري (٦١٤٣) ، ومسلم (٢٦٦٣) .

ومنهم الإمام :

أبو الحسن علي بن سهل التستري
رضي الله عنه

قال الأستاذ أبو القاسم القشيري النيسابوري ـ رحمه الله ـ : كان أبو الحسن بن سهل من أقران الجنيد ، ولقي أبا تراب النخشبي ، وجماعة من المشايخ ، وكان سخياً ، فمِن ذلك : أنه اتفق أن عَمْرَو بن عثمان المكي قصد أبا الحسن في وفاء دَين كان عليه ، فقضاه عنه ، وهو ثلاثون ألف درهم .

ومن كلام أبي الحسن : المبادرة إلى الطاعة من علامات التوفيق ، والتباعد[1] عن المخالفات من علامات حسن الرعاية ، ومراعاة الأسرار من علامات التيقظ ، وإظهار الدعاوي من رعونات البشرية ، ومَن لم يصحح مبادىء إرادته . . لا يسلم في شيء من عواقبه . انتهىٰ [« الرسالة القشيرية » ٣٩] .

وقال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ : قال علي بن سهل التستري : غلب عليَّ الشوق واستولىٰ حتىٰ ألهاني عن الأكل وقطعني عن النوم في ابتداء أمري ، فرأيت في بعض الليالي كأني أدخلت الجنة ، فرأيت قصراً عظيماً رفيعاً ، فقلت : لمَن هـٰذا القصر ؟ فقيل : لمحمد بن يوسف ، ثم أفضيت إلىٰ قصر آخر مثله ، فقلت : لمَن هـٰذا القصر ؟ فقيل : لك يا أبا الحسن ، فاطلعت علىٰ حوراء يغلب ضوء وجهها علىٰ كل ما في الدنيا ، فنظرت إليها ، فولت وهي تقول : أنت لا ترغب فينا ، ثم قالت ـ بصوت رخيم لم أسمع أحسن منه ـ :

مـن يشتـريـني ومـن يكـن سكنـي ... يـأمـن فـي بيعـه مـن الغبـن

قال : ثم استيقظتُ . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ١٠٤] .

وقال في « لوامع أنوار القلوب » : قال علي بن سهل رحمه الله : العقل والهوىٰ

---

(١) في « الرسالة القشيرية » : (التقاعد) .

يتنازعان ، فقَرينُ العقل : التوفيق ، وقرين الهوىٰ : الخذلان ، والنفس واقفة بينهما ، فأيهما ظفر . . كانت من حزبه ، ومخالفة النفس هي الغرض الصريح ، واتباع رضا المحبوب هو المطلوب الصحيح :

لســـانـــي كتـــوم لأســـراركـــم ودمعـي لأسـرار قلبـي مـذيـعْ[1]
فلـولا دمـوعـي كتمـت الهـوىٰ ولـولا الهـوىٰ لـم تكـن لـي دمـوعْ

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) في بعض النسخ : (ودمعي لأسرار قلبي كتوم) ، وفي « تاريخ دمشق » (ودمعي نموم بسري مذيع)

ومنهم الإمام :

أيوب الحمال

رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ : كان أيوب من المجدين في العبادة ، والمؤثرين علىٰ أنفسهم بقدر ما يجد ، وكان صاحب كرامات عجيبة .

فمنها : ما ذكره محمد بن وهب قال : أخبرني بعض أصحاب أيوب قال : حججت معه مرة ، فلما دخلنا البادية ؛ إذا عصفور يحوم حولنا ، فرفع أيوب رأسه إليه وقال له : جئت إلىٰ هنا ؟ ثم أخذ كسرة وفتَّها في كفه ، فانحط العصفور وقعد علىٰ كفه يأكل منها ، ثم صب له ماء ، فشرب ، ثم قال له : اذهب ، فطار .

فلما كان اليوم الثاني . . أقبل العصفور ففعل معه الشيخ كفعله بالأمس ، ولم يزل كذلك إلىٰ آخر السفر ، فسألت أيوب عن خبر هـٰذا العصفور فقال : هـٰذا كان يجيء كل يوم إلىٰ منزلي ، فأفعل معه ما رأيتم ، فلما سافرت . . جاء يتقاضىٰ ما كان قد اعتاده مني .

ومن **كراماته رحمه الله** قال : عقدت علىٰ نفسي ألاَّ أمشي إلا ذاكراً لله عز وجل ، فاتفق أني مشيت مشية غفلت فيها عن ذِكر الله سبحانه وتعالىٰ ، فأصابني عرج في الحال ، فعلمت مِن أين أُصبت ، ثم تبت وبكيت ، ولجأت واستغثت ، فزال العرج ، فرجعت إلى الموضع الذي غفلت فيه وذكرت الله تعالىٰ ، فمشيت صحيحاً . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ٣١٣ـ٣١٤] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

الأستاذ أبو القاسم القشيري النيسابوري
رضي الله عنه

قال الأئمة : هو عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد الأستاذ أبو القاسم القشيري ، صاحب الرسالة المشهورة ، والمناقب المأثورة ، جمع بين العلم والعبادة ، والورع والزهادة .

ولد في ربيع الأول ، سَنة ست وسبعين وثلاث مئة .

توفي أبوه وهو طفل ، فدُفع إلىٰ أبي القاسم اليماني ، فقرأ عليه العربية ، ثم حضر مجلس الأستاذ الشهيد أبي علي الحسن بن علي الدقاق ، وكان لسان وقته ، واستحسن كلامه ، وسلك طريقة الزهد والعبادة ، فقبله الأستاذ ، وأشار عليه بتعلم العلم ، فخرج إلى الشيخ الإمام أبي بكر محمد بن بكر الطوسي ، وشرع في الفقه حتىٰ فرغ من التعليق ، ثم أشار إليه الأستاذ أن يختلف إلىٰ مجلس الأستاذ الإمام أبي بكر ابن فورك وكان مقدَّماً في علم الأصول ، فبرع فيها وصار من أوجَه تلامذته .

ثم من بعد وفاته اختلف إلى الأستاذ الإمام أبي إسحاق الإسفراييني ، وكان يسمع جميع دروسه ، فقال له الأستاذ يوماً : هـٰذا العلم لا يحصل بالسماع ، وما تُوهِّم فيه ضبط ما يسمع .

فأعاد عليه جميع ما سمعه منه بأحسن تقرير من غير إخلال بشيء ، فتعجب وعرف محله ، وقال : ما كنتُ أدري أنك قد بلغت هـٰذا المحل ، فأنت لاتحتاج إلىٰ درسي ، يكفيك أن تطالع مصنفاتي ، فإن أشكل عليك شيء . . راجعتني ، فقعد وجمع بين طريقته وطريقة ابن فورك .

ثم نظر بعد ذلك في كتب القاضي أبي بكر ابن الطيب ، ثم لم يزل علىٰ ذلك حتىٰ توفي الأستاذ أبو علي ، فقصد أبا عبد الرحمـٰن السلمي ، وصنف « التفسير الكبير » قبل العشر والأربع مئة ، ورتب المجالس .

وخرج إلى الحج في رفقة ، منهم : الشيخ ركن الإسلام أبو محمد الجويني ، والشيخ الإمام الحافظ أحمد البيهقي ، وجمعٌ من الأعلام المشاهير ، وسمع منهم الحديث ببغداد والحجاز .

وكان في علم الفروسية واستعمال السلاح من أفراد عصره ، وله في ذلك الفن دقائق انفرد بها .

وأخذ الطريقة عن الأستاذ أبي علي الدقاق ، عن أبي القاسم النصرآباذي ، عن الشبلي ، عن الجنيد ، عن السَّريِّ ، عن معروف الكرخي ، عن داوود الطائي ، عن التابعين ، رضوان الله تعالىٰ عليهم أجمعين .

وكان أكثر ميله في آخر عمره أن يُقرأ عليه تصانيفه والأحاديث المسموعة له ، وبلغ عدد المنتمين إليه آلافاً .

وقد حكى السمعاني عن بشر بن مصعب بمرو أنه قال : حضر الأستاذ أبو القاسم القشيري مجلس أحد الأئمة الأكابر ، وكان قاضياً بمرو ، فلما أُعلم القاضي بحضور الأستاذ . . قام ـ وهو على المنبر ـ وأخذ مخدة كان يستند إليها على المنبر وقال لبعض الحاضرين : احمل هـٰذه المخدة إلى الأستاذ ليجلس عليها ، ثم قال : أيها الناس ؛ إني حججت سَنة من السنين ، وكان قد اتفق في تلك السنة أن حج هـٰذا الإمام الكبير ـ وأشار إلى الأستاذ ـ ويقال لتلك السنة : سنة القضاة ، وكان قد حج تلك السَّنةَ أربع مئة قاضٍ من قضاة المسلمين وأئمتهم من أقطار البلاد وأقاصي الأرض ، فأرادوا أن يتكلم واحد منهم في حرم الله تعالىٰ ، فاتفق رأي الكل علىٰ هـٰذا الأستاذ ، فتكلم هو باتفاق منهم .

توفي الأستاذ رحمه الله يوم الأحد ، السادس عشر من ربيع الآخر ، سَنة خمس وستين وأربع مئة ، ودفن في المدرسة إلىٰ جانب الأستاذ أبي علي الدقاق رحمهما الله تعالىٰ[1] . انتهىٰ ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

وقال الأستاذ أبو القاسم : الحياء علىٰ وجوه :

أحدها : الحياء من التقصير ؛ كالملائكة عليهم الصلاة والسلام ، يسبحون الليل والنهار

---

(١) انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٥/ ١٥٣) .

لا يفترون ، ثم يقولون : سبحانك! سبحانك! ما عبدناك حق عبادتك .

ثانيها : حياء الإجلال ؛ كإسرافيل عليه الصلاة والسلام ، تسربل بجناحه حياء من الله عز وجل .

وثالثها : حياء الكرم ؛ كسيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ، كان يستحيي من أمته أن يقول اخرجوا ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّۚ﴾ .

رابعها : حياء الحشمة ؛ كعلي رضي الله عنه ، لما أراد أن يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حكم المذي . . أرسل المقداد ؛ لمكان فاطمة رضي الله عنهم ؛ حياء من النبي صلى الله عليه وسلم[1] .

خامسها : حياء الاستحقار ؛ كما فعل موسىٰ عليه الصلاة والسلام ، فقال : يا رب ؛ إنه لتعرض لي الحاجة ، فأستحيي أن أسألك ، وأنت أعلم ، فقال الله عز وجل له : (يا موسىٰ . . سلني ملحَ عجينك وعلفَ شاتك) .

سادسها : حياء الجبار جل جلاله ؛ فإنه قد ورد أن الله عز وجل يعطي عبده كتاباً مختوماً بعدما عبر الصراط ، وإذا فيه مكتوب : (يا عبدي ؛ فعلت ما فعلت ، وقد استحييت منك أن أظهره عليك) ، جل الله العظيم الديان ، خالق الخلائق أجمعين ، فسبحان مَن هـٰذه العظمة عظمته ، سبحانه ولا إلـٰه غيره [الرسالة القشيرية ١٦٩] .

وقال القشيري : التوبة أقسام ثلاثة : أولها : توبة ، وأوسطها : إنابة ، وآخرها : أوبة ، فالتوبة بداية ، والأوبة نهاية ، والإنابة واسطتهما .

فالتائب مِن خوف العقاب يسمىٰ : صاحبَ توبة ، والتائب طمعاً في الثواب يسمىٰ : صاحبَ إنابة ، والتائب رعاية للأمر لا رغبة ولا رهبة يسمىٰ : صاحبَ أوبة ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ .

والإنابة : صفة الأولياء والمقربين ، قال تعالىٰ : ﴿ مَنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ .

---

(١) روى البخاري في « صحيحه » (١٣٢) : عن علي قال : كنت رجلاً مذاءً ، فأمرت المقداد أن يسأل النبي صلى الله عليه وسلم . . فسأله ، فقال : « فيه الوضوء » .

والأوبة : صفة الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، قال تعالىٰ : ﴿ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [الرسالة القشيرية ٧٩] .

وقال القشيري : قال محمد بن أحمد : شتان ما بين تائب يتوب من الزلات ، وتائب يتوب من الغفلات ، وتائب يتوب من رؤية الحسنات .

وقال : قال بعض العارفين : توبة الكذابين علىٰ طرف لسانهم ؛ فإنه يقول : أستغفر الله ، مِن غير أن يعمل قلبه في شيء من أسباب التوبة [الرسالة القشيرية ٨٠] .

وقال : قال النصرآباذي : مَن لزم التقوىٰ . . اشتاق إلىٰ مفارقة الدنيا ؛ قال تعالىٰ : ﴿ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ ۖ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الرسالة القشيرية ٨٨] .

وقال : قال النصرآباذي : العباد محتاجون في عباداتهم إلىٰ طلب العفو والصفح عما وقع فيها من التقصير اللازم ، والغفلة الغالبة ، والإخلال بما يجب لله عز وجل من عظيم الجلال والجمال .

ولذلك لا تتعلق قلوبهم بطلب مجازاة مِنْ دخول جنة أو نجاة من نار بالله ، إن ذلك لا يمر بقلوب العارفين ، وإنما قصدهم التجاوز والعفو عن تقصيرهم فيها .

وقال : قال النصرآباذي : قُسِمت الدنيا على البلوىٰ ، وقُسِمت الآخرة على التقوىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أحمد بن نصر الخزاعي
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان أحمد بن نصر يكنىٰ أبا عبد الله ، وكان من كبار العلماء الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر .

سمع مالكاً ، وحماد بن زيد ، وهُشَيماً ، وغيرهم .

وحصلت له محنةٌ قتل فيها رحمه الله ، وذلك أن الواثق امتحنه وقال له : قل : إن القرآن مخلوق ، فقال : مَعاذَ الله ، بل هو منزل غير مخلوق ، واستمر علىٰ ذلك ، واستمر الواثق علىٰ دعواه الناس علىٰ ذلك ، ولزوم أحمد على القول بخلق القرآن ، وهو مُصِرٌّ على الامتناع حتىٰ قتله الواثق يوم السبت مستهل رمضان سنة إحدىٰ وثلاثين ومئتين ، ثم أمر بأن يصلب جسده خاصة ، وأن يحمل رأسه إلىٰ بغداد فينصب ، فحمل رأسه إلىٰ بغداد فنصب ، ولم يزل علىٰ ذلك ست سنين ، ثم حُط رأسه ، وجمع بين رأسه وبدنه ، ودفن في الجانب الشرقي من بغداد ، في المقبرة المعروفة بالمالكية ، يوم الثلاثاء لثلاث خلون من شوال سنة سبع[1] وثلاثين ومئتين رحمه الله ، لقد جاد بنفسه في مرضاة الله سبحانه وتعالىٰ .

وقال سليمان : سمعت أحمد بن نصر يقول : رأيت مصاباً قد وقع ، فقرأت في أذنه شيئاً من القرآن ، فكلمتني الجِنِّية من جوفه وقالت : يا أبا عبد الله ؛ بالله دعني وإياه ؛ فإنه يقول : إن القرآن مخلوق .

وقال أبو بكر : سمعت أحمد ابن حنبل وذكر أحمد بن نصر فقال : رحمه الله تعالىٰ ، ما كان أسخاه ، لقد جاد بنفسه .

وقال إسماعيل بن خلف : كان أحمد بن نصر صاحبي ، فلما قتل في المحنة وصلب

---

(١) كذا في « الصفوة » ، وفي النسخ : (ست وثلاثين ومئتين) ، ولعل الصواب ما أثبت ؛ لأنه بقي مصلوباً ست سنين بعد وفاته ، وكانت وفاته سنة إحدىٰ وثلاثين ومئتين ، والله أعلم .

رأسه . . أُخبرت أن الرأس يقرأ القرآن ، فمضيت ليلة وبِتُّ قريباً من الرأس مشرفاً عليه ، وكان عنده رجال وفرسان يحفظونه ، فلما هدأت العيون . . سمعت الرأس يقرأ : ﴿الٓمٓ * أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ . فاقشعرَّ جسدي وغشي عليَّ[1] .

ثم رأيته بعد ذلك في المنام ، وعليه السندس والإستبرق ، وعلىٰ رأسه تاج ، فقلت له : ما فعل الله عز وجل بك ؟ فقال : يا أخي ؛ غفر لي ، وأدخلني الجنة ، إلا أني بقيت مهموماً ثلاثة أيام ، قلت : ولِمَ ذاك ؟ قال : لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ بي ، فلما بلغ خشبتي . . حوَّل وجهه عني ، فقلت له بعد ذلك : يا رسول الله ؛ قتلتُ على الحق أو على الباطل ؟ فقال : « أنت على الحق ، ولـٰكن قتلك رجل من أهل بيتي ، فإذا بلغت إليك . . أستحيي منك » .

وقال إبراهيم بن الحسن : رأىٰ بعض أصحابنا أحمد بن نصر في المنام بعد ما قتل ، فقال له : ما فعل الله بك ؟ فقال : ما كانت إلا غفوة حتىٰ لقيت الله عز وجل ، فضحك إليَّ سبحانه وتعالىٰ ، وقال : (ادخل الجنة) . أو كما قال . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/٢١٩ـ٢٢٠] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) قال الخطيب البغدادي في « تاريخه » (٥/ ٣٨٦ـ٣٨٧) : عن أحمد بن كامل القاضي [قال] : أخبرني أبي أنه رآه ، قال : وكان شيخاً أبيض الرأس واللحية ، وأخبرني أنه وُكِّل برأسه من يحفظه بعد أن نصب برأس الجسر ، وأن الموكَّل بهِ ذكر أنه يراه بالليل يستدير إلى القبلة بوجهه فيقرأ سورة ﴿يٰسٓ﴾ بلسان طلق ، ومما ورد في ذلك : أن الواثق قتله خوفاً من خروجه عليه . انظر « سير أعلام النبلاء » (١١/ ١٦٨) .

ومنهم الإمام :

أبو الحسين محمد بن أحمد بن سمعون
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان أبو الحسين محمد بن سمعون يلقب : المُنطَق بالحكمة .

قال أبو بكر الأصبهاني ـ وكان خادم الشبلي رحمه الله ـ : كنت بين يدي الشبلي يوم جمعة في الجامع ، فدخل أبو الحسين ٱبن سمعون ، وهو صبي علىٰ رأسه قلنسوة بشفاشك مطيلس بفوطة ، فجاز علينا وما سلم ، فنظر الشبلي إلىٰ ظهره وقال لي : يا أبا بكر ؛ أتدري أيش لله عز وجل في هـٰذا الفتىٰ من الذخائر ؟

وقال الحسن الخَلاَّل : قال لي ابن سمعون : ما اسمك ؟ قلت : حسن ، فقال : قد أعطاك الله عز وجل الاسم ، فسله أن يعطيك المعنىٰ .

وقال عبد الواحد بن عمر : قال ابن سمعون : رأيت المعاصي نذالة ، فتركتها مروءة ، فاستحالت ديانة .

وقال أبو الفتح القواس : لحقتني إضاقة وقتاً من الأوقات ، فنظرت ، فلم أجد في البيت غير قوس لي وخفين كنت ألبسهما ، فأصبحت وقد عزمت علىٰ بيعهما ، وكان يوم مجلس ابن سمعون ، فقلت في نفسي : أحضر المجلس ، ثم أنصرف فأبيع الخفين والقوس ، فحضرته ، فلما أردت الانصراف . . ناداني أبو الحسين ابن سمعون فقال : يا أبا الفتح ؛ لا تبع الخفين ولا القوس ؛ فإن الله عز وجل سيأتيك برزق من عنده .

وكان أبو الحسين يقول : مَن لم ينظر بالعِلم فيما لله عز وجل عليه . . فالعلم عليه وبال .

وقال : الصادقون الحُذَّاق : هم الذين نظروا إلىٰ ما بذلوا في جنب ما وجدوا فاعتذروا .

وقال : كل داء عرف دواؤه . . فهو صغير ، والذي لا يعرف دواؤه . . فهو كبير .

وقال : مِن الوقاحة وقلة الحياء تمنيك مع توانيك .

وقال في قوله تعالىٰ : (لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ أحبه) أي : حتىٰ أظهر له حبي ؛ لأنه سبحانه وتعالىٰ لم يزل له محباً .

وقال : الخير كله في هـٰذا الزمان . . ترك الناس وما هم عليه من الخلاف .

وقال الحسن بن غالب : سمعت أبا الحسين ابن سمعون يقول : يا هـٰذا ؛ إن الله عز وجل يقول : (أكرمتك لَمَّا أمرتك ، وصنتك لما نهيتك ، فأمري لك كرامة ، ونهيي لك صيانة ، كلفتك الصلاة ولعلمي بتوانيك لم أجعل لها وقتاً واحداً ، جعلت لها أولاً وآخراً ، وأنت تقول : الوقت واسع ، متى اتسع الوقت علىٰ عاقل ؟! أمَا علمت أن الوقت على العقلاء أضيق من خرم الإبرة ؟! تهتم لنفسك حتىٰ كأني لست مولاك ، وتدع الاهتمام بأمري حتىٰ كأني لست مطالبك ، أمَا علمت أني أعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ؟!) .

وقال محمد بن أحمد : رأيت في المنام رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلىٰ جانبه رجل مكتهل ، فسألت عنه فقيل : هو عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام ، وهو يقول للنبي صلى الله عليه وسلم : أليس من أمتي الأحبار ؟ أليس من أمتي الرهبان ؟ قال : فدخل أبو الحسين ابن سمعون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعيسىٰ عليه الصلاة والسلام : « أفي أمتك مثل هـٰذا ؟ » فسكتَ ، فاستيقظت .

وقال محمد بن علي العلاف : حضرته يوماً في مجلس الوعظ وهو علىٰ كرسيه يتكلم ، وكان أبو الفتح القواس جالساً إلىٰ جانب الكرسي ، فغشيه النعاس ، فنام ، فأمسك أبو الحسين عن الكلام ساعة حتى استيقظ أبو الفتح ورفع رأسه ، فقال له أبو الحسين : رأيتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم في نومك هـٰذا ؟ فقال : نعم ، فقال : لذلك أمسكت عن الكلام ؛ خوفاً من أن تنزعج أو تنقطع عما كنت فيه .

وقال أبو بكر البرقاني رحمه الله : قلت لأبي الحسين : أيها الشيخ ؛ أنت تدعو الناس إلى الزهد في الدنيا والترك لها ، وتلبس أحسن الثياب وتأكل أطيب الطعام ، فكيف هـٰذا ؟! فقال : كُلُّ ما يصلحك فافعله ، إذا صلح حالك مع الله عز وجل . . البس ألين الثياب ، وكُلْ أطيب الطعام ، ولا يضرك ما دامت الدنيا ليست في قلبك ، ولا لها عندك بال وَجَدتَ أو عَدِمتَ ؛ فإن الصحابة رضي الله عنهم كانت الدنيا في أيديهم وليست في قلوبهم ، حتىٰ إن أحدهم لَيُسلِمُ بُكْرة لأجل الدنيا ، فما تأتي عشية إلا وليس شيء أبغض إليه من الدنيا ، رضوان الله عليهم أجمعين ، ونفعنا بهم . أو كما قال .

أسند ابن سمعون عن خلق يطول ذِكرهم ، منهم : ابن أبي داوود ، وأملى الحديث .

وتوفي في النصف من ذي القعدة سنة سبع وثمانين وثلاث مئة ، وكان مولده سنة ثلاث مئة ، ودفن في داره ، ثم نقل بعد تسع وثلاثين سنة إلىٰ باب حرب ، وكفنُهُ لم يَبْلَ ، بل يتقعقع كما هو ، رحمه الله . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٢٨٥ـ ٢٨٨] .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : يقال : إن أبا الحسين محمد بن سمعون رحمه الله كان في بيت المقدس ، وكان صائماً ، فخطر علىٰ قلبه شهوة الرطب في غير أوانه ، فقال لنفسه : مِن أين يحصل لك رطب في هـٰذا الوقت ؟! وكان إفطاره في كل ليلة علىٰ تمر ، فلما كان وقت الإفطار . . جيء إليه بالتمر علىٰ عادته ، فلما مد يده ليأكل منه . . وجده رُطباً ، فنظر إليه وبكىٰ ، ثم تركه ولم يذقه ؛ خشية أن يكون قد عجل له حظه في الدنيا ، ولئلا يعطي نفسه شهوتها .

قالوا : وهـٰذا من أعظم أبواب الزهد ، وهو زهد الولي في كرامته ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

ورُوِّينا عن الحافظ أبي القاسم ابن عساكر ـ رحمه الله ـ بإسناده [٥١/ ٩] عن الحافظ الخطيب البغدادي قال : كان أبو الحسين الواعظ ـ المعروف بابن سمعون ـ واحد دهره ، وفريد عصره في الكلام علىٰ علم الخواطر والإشارات ، ولسان الوعظ ، دوَّن الناس حِكَمه ، وجمعوا كلامه ، وحدَّث عن عبد الله ابن أبي داوود السجستاني ، وخلائق .

قال : وكان بعض شيوخنا إذا حدث عنه . . قال : حدثنا الشيخ الجليل المنطق بالحكمة أبو الحسين ابن سمعون .

وبإسناده [٥١/ ١٢] : عن عبد الغفار بن عبد الواحد الأرموي قال : كان القاضي ابن الباقلاني أبو بكر الأشعري والشيخ أبو حامد الإسفراييني يُقبِّلان يد ابن سمعون إذا جاءاه ، وكان القاضي يقول : ربما خفي عليَّ من كلامه بعض الشيء ؛ لدقته .

وبإسناده [٥١/ ١٠ـ ١١] : عن أبي محمد السني البغدادي صاحب ابن سمعون قال : كان ابن سمعون في أول عمره ينسخ بأجرة يتقوَّت بها هو وأمه ، وكان كثير البر لها ، فجلس يوماً ينسخ ، فقال لها : أحب أن أحج ، قالت : يا ولدي ؛ كيف يمكنك وما معك نفقة ولا لي ما أنفقه ، وإنما عيشنا من أجرة هـٰذا النسخ ؟! وغلب عليها النوم فنامت ، وانتبهت بعد ذلك ساعة ، وقالت : يا ولدي ؛ حُجَّ ، فسألها عن سبب ذلك ، فقالت له : رأيت رسول الله

صلى الله عليه وسلم الساعة وهو يقول : « دعيه يحج ؛ فإن الخيرة له في ذلك في الآخرة والأولىٰ » ، ففرح وباع من دفاتره ما له قيمة ، ودفع إليها من ثمنها نفقة ، وخرج مع الحُجاج ، فأخذهم العرب وأخذوه من الجملة .

قال ابن سمعون : فبقيت عرياناً ، ووجدت مع رجل عباءة كانت علىٰ عدل ، فقلت : هب لي هـٰذه العباءة أستر نفسي بها ، فقال : خذها ، فجعلت نصفها علىٰ كتفي ونصفها علىٰ وسطي ، وكنت إذا غلب عليَّ الجوع ووجدت قوماً يأكلون . . وقفت أنظر إليهم ، فيدفعون إلي كسرة ، فأتقنَّع بها ذلك اليوم ، ووصلت مكة ، فغسلت العباءة وأحرمت بها ، ودخلت الكعبة المشرفة ، وقلت : اللهم ؛ إنك بعِلمك غني عن إعلامي بحالي ، اللهم ؛ ارزقني معيشة أستغني بها عن سؤال الناس .

قال : فسمعت قائلاً يقول من ورائي : اللهم ؛ إنه ما يحسن أن يدَعوك ، اللهم ؛ ارزقه عيشاً بلا معيشة ، فالتفتُّ ، فلم أر أحداً ، فقلت : هـٰذا الخضر أو أحد الملائكة عليهم السلام ، فأعدت القول ، فأعاد الدعاء ، فأعدت ، فأعاد ـ ثلاث مرات ـ وعدت إلىٰ بغداد ، وكان الخليفة قد حرم جارية من جواريه ، وأراد إخراجها من الدار ، فكره ذلك إشفاقاً عليها ، فقال : اطلبوا رجلاً مستوراً يصلح أن نزوج هـٰذه الجارية به ، فقال مَن حضر : قد وصل ابن سمعون من الحج وهو يصلح لها ، فاستصوب الخليفة قوله ، وتقدم بإحضاري وإحضار الشهود ، وزوجوني بالجارية ، ونقل معها من المال والثياب والجواهر ما يحمل مع الملوك .

قال الراوي : فكان ابن سمعون يجلس على الكرسي للوعظ فيقول : أيها الناس ؛ خرجت حاجاً ، فكان من حالي كذا وكذا . . . ويذكر لهم جميع ما جرىٰ له ، ثم يقول : ها أنا اليوم عليَّ من الثياب ما ترون ، وطِيبي ما تعرفون ، ولو وطئت على العتبة . . تألمت من الدلال ، ونفسي هي تلك لم تتغير ، فلله الحمد في الأولىٰ والآخرة ، حمداً يوافي نعمه ، ويكافىء مزيده . أو كما قال . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

عبد الصمد بن عمر

رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان الإمام عبد الصمد من أهل الزهد والصلاح ، الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، لا تأخذه في الله لومة لائم .

قال الصيمري ـ أحد الأئمة من أصحاب الشافعي ـ : وكان عند عبد الصمد جزء ، قال : فأخذت نسخته ومضيت أنا وأبو يعلى ابن الخليفة المأمون إليه ، فسلمنا عليه ، وسألناه أن يَحضُرَنا في المسجد لنسمع ذلك الجزء منه عليه ، وسبقناه إلى المسجد ، فلما جاء . . سلم وصلىٰ ركعتين ، ثم جاء ، فجلس بين أيدينا ، فقلنا له : نحن إنما حضرنا لنسمع منك بين يديك ، فإن رأيت أن ترتفع إلىٰ صدر المجلس ، فأبىٰ وقال : هـٰذا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وأشار إلى ابن المأمون ـ وأنت رجل من أهل العلم ، وما كنت لأرتفع عليكما في المجلس .

وقال علي بن محمد : جاء رجل إلىٰ عبد الصمد بمئة دينار ليدفعها إليه ، فقال له : أنا في غنىً عنها ، فقال له : فرقها علىٰ أصحابك هـٰؤلاء الحاضرين ، فقال له : ضعها على الأرض ، ففعل ، فقال عبد الصمد للجماعة الحاضرين : مَن احتاج منكم إلىٰ شيء . . فليأخذ علىٰ قدر حاجته ، قال : فتوزعَها الجماعة علىٰ صفات مختلفة من القلة والكثرة ، ولم يمس منها شيئاً بيده ، ثم جاء ابنه بعد ساعة وطلب منه شيئاً ، فقال له : اذهب إلى البقال ، فخذ منه عليَّ ربع رطل تمراً .

وقال التنوخي رحمه الله : كنت يوم الجمعة في جامع المنصور ، والخطيب على المنبر ، وعلىٰ يساري علي بن طلحة البصري ، فنظرت ؛ فإذا عبد الصمد جالسٌ بالقرب مني ، فهممت أن أقوم وأمشي إليه ؛ لأنه كان صديقاً لي ، ثم استحييت من القيام في مثل ذلك الوقت مع قرب قيام الصلاة ، قال : فقام عبد الصمد ومشىٰ نحوي ، فقمت إليه ، فقال

لي : اجلس أيها القاضي ، فليس إليك قصدت ، ولا إياك أردت بمجيئي ، إنما هـٰذا أردت وإليه قصدت ـ يعني : علي بن طلحة ـ وذلك لأن نفسي تأباه وتكرهه ، فأردت أن أذلها بقصده وأخالف إرادتها فقصدته ، فقام ابن طلحة إليه وقبَّل رأسه ، وعاد عبد الصمد إلىٰ موضعه .

وقال عبد الله بن أحمد : اجتاز عبد الصمد يوماً بسوق الطعام ، فرأىٰ غلاماً قد خرج مع العيارين[1] ، والناس مجتمعون عليهم ، وأبواه يبكيان عليه ويعذلانه ، وهو لا يلتفت إليهما ، ويأبىٰ عليهما ، فلما أكثرا عليه من العذل . . قال لهما : مثلي يقول شيئاً ويرجع عنه ؟! قد قلت لأصحابي إني معكم ، امضيا اطلبا ولداً غيري ، أنا شاروفتي[2] في جيبي ، قال عبد الله : فاعتبرت بقول الغلام في متابعة الهوىٰ على الوفاء ؛ لقوله مع علمه بأنه إذا وقع في الشدائد أنهم لا يخلصونه ولا يغنوا عنه شيئاً ، فبايعت أنا على الوفاء لله عز وجل ، مع علمي أني إذا وقعت في الشدائد . . ينجيني ويجيرني سبحانه وتعالىٰ .

وقال أبو الوفاء : هجم عيد علىٰ عبد الصمد وبيته فارغ من القوت ، فجاءه رجل بدراهم ، فقال له : خذ هـٰذه ، فقال له : يا هـٰذا ؛ بالله دعني أتلذذ اليوم بفقري كما يتلذذ الأغنياء بغناهم .

وكان يحرض أصحابه على الجد فيقول : هيه! قد فاتتكم الدنيا ، فلا تفوتكم الآخرة .

وقال التنوخي : أخبرني مَن حضر عبد الصمد وقد احتُضِر ، فدخلت عليه أم الحسين[3] بنت القاضي ، وكانت ممن يقوم بأمره ويراعيه ، فقالت له : أسألك بالله وأقسم عليك ؛ إلا ما سألتني حاجة ، فقال : كوني لفلانة ـ يعني : ابنته ـ بعد موتي كما أنت لها في حياتي ، فقالت : أفعل إن شاء الله تعالىٰ ، ثم أمسك ساعة ، وقال : أستغفر الله ، أستغفر الله ، أستغفر الله عز وجل . وكررها مراراً ، ثم قال : إن الله عز وجل خير لها منك .

وحكى ابن عقيل عمن حضر عبد الصمد عند الاحتضار ، فسمعته وهو يقول : إلـٰهي وسيدي ومولاي ؛ حقق حسن ظني بك ، إلـٰهي وسيدي ومولاي ؛ حقق حسن ظني بك يا أرحم الراحمين .

---

(١) **العيَّار من الرجال** : الذي يخلي نفسه وهواها لا يردعها ولا يزجرها .

(٢) شاروفة : ضرب من العمائم عند أهل العراق .

(٣) هـٰكذا في النسخ ، وفي « الصفوة » : (أم الحسن) .

توفي لسبع بقين من ذي الحجة سنة سبع وتسعين وثلاث مئة ، ودفن في مقبرة الإمام أحمد ، وقبره ظاهر يتبرك به رضي الله عنه وأرضاه . [انتهىٰ « الصفوة » ٢/٢٨٨ـ٢٩٩] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

عثمان بن عيسى بن عمرو الباقلاني
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان يقال له : العابد الصموت ؛ لإمساكه عن الكلام فيما لا يعنيه .

وكان أحد الزهاد العباد ، منقطعاً عن الخلق ، ملازماً للخلوة .

وكان يقول : إذا كان وقت غروب الشمس . . أحسست بنفسي كأنها تخرج ؛ يعني : لاشتغاله تلك الساعة بالإفطار عن الذِّكر .

وقال : أَحبُّ الناس إليَّ مَن ترك السلام عليَّ ؛ لأنه يَشغَلُني بسلامه عن الذِّكر .

وقال محمد بن عبد العزيز العباسي : مضيت يوماً في صحبة خالي إليه ، فلقيناه خارجاً من المسجد إلىٰ منزله وهو يسبح ، فقال له خالي : ادع الله لي ، فقال : يا أبا عبد الله ؛ شغلتَني ، انظر إلى الذي تظنه فيَّ فافعله ، وادع أنت لي ، فقلت له : بالله عليك ادع الله لي ، فقال : رفق الله عز وجل بك ، فاستزدته ، فقال : الزمان يذهب والصحائف تُختم .

وقال محمد بن علي بن المهتدي : هـٰذا الذي أنا فيه من بركة عثمان ، وذلك أني كنت أصلي به ، وكان إذا خلا . . مسح صدري ودعا لي ، فأنا أعتقد أن الذي أنا فيه من بركة دعائه .

وكنت أصلي به في رمضان ، فقرأت (سورة الحاقة) ، فلما بلغت قوله تعالىٰ : ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ . . صاح ووقع مغشياً عليه ، فما بقي في المسجد أحد إلا انتحب .

وكان عثمان يتعمم شاروفة ، وكان يأكل من كسب البواري[1] ، وكان سعيد التركي قد سأله أن يصل إليه منه شيء ، فأبىٰ ، فقال له : إذا أبيت أن تقبل مني شيئاً . . فأذن لي أن أشتري دهناً تشعله في المسجد ، وكان مأواه المسجد ما كان يخرج منه إلا إلى الجمعة ،

---

(١) **كسب البواري** : صناعة الحصير من القصب .

فأجاب إلىٰ ذلك ، فلما جاء الرسول علىٰ أنه يحمل إلى المسجد دهناً . . قال له : لا تجئني بشيء ، فقد أظلم عليَّ البيت .

أسند عثمان عن المطوعي ، وابن أبي النجم ، وغيرهما .

وتوفي لسبع بقين من رمضان سنة اثنتين وأربع مئة .

وقال عرسٌ الخباز : لما دفن عثمان . . رأيت في المنام بعض مَن هو مدفون في جوار قبره ، فقلت له : كيف فرحكم بجوار عثمان ؟ فقال : وأين نحن وعثمان ؟! لما جيء به . . سمعنا قائلاً يقول : الفردوس ، الفردوس . أو كما قال . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٢٩١ـ٢٩٢] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

أبو بكر محمد بن عبد الله الدِّيْنَوري
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان أبو بكر يسكن الرصافة ببغداد وكان زاهداً .

وكان أبو الحسن القزويني يقول : عبَر الدينوري القنطرة وخلَّف مَن يعدو وراءه .

قال أبو الوفاء ابن عقيل : لما كنت شاباً حدث السن . . كنت أتردد إلىٰ مجلس ابن نشوان الواعظ ، وكان يعتاد عيني الرمد كثيراً ، فرآني ذات يوم رجل كان يبسط لابن نشوان بساط المنبر ، يقال له : بكار ، فقال لي : أراك تلازم هـٰذا المجلس ؟ فقلت له : لعلِّيْ أستفيد شيئاً ينفعني في دِيني ، فقال لي : اجلس حتىٰ ينقضي المجلس ؛ فإن لي بك حاجة ، فجلست ، فلما انقضى المجلس . . أخذ بيدي ، وحملني إلى الرصافة ، وجاء بي إلىٰ باب وطرقه ، فقال له قائل مِن داخل الباب : مَن ؟ فقال : بكار ، فقال : يا بكار ؛ ألست كنت اليوم هـٰهنا ؟ فقال له : جئت في حاجة مهمة ، ففتح الباب وهو يقول : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

فدخلنا ؛ وإذا شيخ جالس مستقبل القبلة ، علىٰ رأسه نطع كالطرحة[1] ، فسلمنا عليه ، فرد علينا السلام ، فقال بكار : يا سيدي ؛ هـٰذا الصبي يداوم حضور المجلس ، ويحب الخير ، وقد دام مرض عينيه ، فادع الله عز وجل له ، قال : فدعاني إليه ، فأتيته ، فأدخل خنصره في فيه ، ثم مسح عيني به ، فبقيت بعد ذلك ستين سنة لم ترمد عيني ، فلما خرجت . . سألت عنه ، فقيل : هـٰذا أبو بكر الدينوري .

توفي أبو بكر الدينوري في شعبان سنة ثلاث وأربع مئة . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/٢٩٦ـ٢٩٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) **النطع** : بساط من الجلد ، **والطرحة** : كساء يلقىٰ على الكتف ، ثم استعمل كغطاء يطرح على الرأس والكتفين والصدر .

ومنهم الإمام :

أبو عبد الله الخريبي الزاهد
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال إبراهيم بن شبيب[1] : كنا نتجالس في الجمعة في الجامع ، فأتىٰ رجل عليه ثوب واحد ملتحف به ، فجلس إلينا ، فألقىٰ مسألة ، فما زلنا نتكلم في الفقه حتى انصرفنا ، ثم جاء في الجمعة الثانية ، فأحببناه وسألناه عن منزله ، فقال : في الخريبة ، فسألناه عن كنيته ، فقال : أبو عبد الله ، فرغبنا في مجالسته ، ورأينا مجلسنا مجلس فقه ، ثم مكثنا بعد ذلك زماناً يتردد إلينا في المجلس ، ثم انقطع عنا ، فقال بعضنا لبعض : ما حالنا ؟ قد كان مجلسنا عامراً بأبي عبد الله ، وقد صار موحشاً .

فأتينا الخريبة ـ وكنا جماعة ـ فسألنا عن أبي عبد الله ، وهناك صبيان قد خرجوا من الكُتَّاب ، فقالوا : لعلكم تريدون الصياد ؟ قلنا : نعم ، فقالوا : هـٰذا وقته ، الآن يجيء ، فقعدنا ننتظره ؛ فإذا هو قد أقبل مؤتزراً بخرقة ، وعلىٰ كتفه خرقة ، ومعه أطيار مذبوحة وأطيار بالحياة ، فلما رآنا . . تبسم إلينا وقال : ما جاء بكم ؟ فقلنا : فقدناك ، وقد كنت عمرت مجلسنا ، فما الذي غيبك عنا ؟ فقال : لا بد من عذر ، فقلنا : بالله إلا ما قلت لنا .

فقال : كان لنا جار كنت أستعير منه ذلك الثوب الذي كنت آتيكم فيه ، وكان غريباً ، فسافر إلىٰ وطنه ، فلم يكن لي ثوب آتيكم فيه ، هل لكم أن تدخلوا هـٰذا المنزل فتأكلوا مما رزق الله عز وجل ؟ فقلنا : نعم ، فجاء إلىٰ باب وسلم ، ثم صبر قليلاً ، ثم دخل ، ثم أَذِن لنا ، فدخلنا ؛ فإذا هو قاعد ، وقد أتي بقطع من البواري ، فبسطها لنا ، ثم دخل إلى المرأة ، فسلم إليها الأطيار المذبوحة وأخذ الأطيار الأحياء .

ثم قال : اقعدوا حتىٰ آتيكم إن شاء الله تعالىٰ عن قريب ، فأتى السوق ، فباعها واشترىٰ خبزاً ، ثم جاء وقد صنعت المرأة ذلك وهيأته ، فقدم إلينا خبزاً ولحم طير ، فأكلنا ، وجعل يقوم إلينا بالملح والماء .

---

(١) في نسخة : (شيت) ، وفي أخرىٰ : (شيث) .

فلما فرغنا . . قال بعضنا لبعض : هل رأيتم مثل هـٰذا ؟ ألا تغيرون حاله وأنتم سادات البصرة ؟ فقال بعضهم : عليَّ خمس مئة ، وقال الآخر : عليَّ ثلاث مئة ، وكل واحد قال شيئاً ، وحسبوا الذي جمعوه ، فبلغ خمسة آلاف درهم ، فقالوا : قوموا بنا حتىٰ نأتيه بهـٰذا المال ، ونسأله أن يغير بعض ما هو فيه .

فقمنا وانصرفنا علىٰ حالنا ركباناً ، فمررنا ؛ فإذا محمد بن سليمان أمير البصرة قاعد في منظرة له[1] ، فقال : يا غلام ؛ ائتني بإبراهيم بن شبيب من بين القوم ، فجئت ، فدخلت عليه ، فسألني عن قصتنا ومِن أين أقبلنا ، فحدثته الحديث ، فقال : أنا أسبقكم إلىٰ بره ، يا غلام ؛ ائتني ببدرة دراهم ، فجاء بها ، فقال : ائتني بفرَّاش[2] يحملها ، فجاء ، فقال : احمل هـٰذه البدرة مع هـٰذا الرجل يدفعها إلىٰ مَن أمرناه ، فقمت مسروراً ومضيت أنا والفرَّاش معي ، وهو حامل لتلك البدرة .

فلما أتيت بابه . . سلمت ، فأجابني أبو عبد الله ، ثم خرج إليَّ ، فلما رأى الفرَّاش والبدرة علىٰ عنقه . . تغير لونه حتىٰ كأني سفيت في وجهه الرماد ، وأقبل عليَّ بغير الوجه الأول ، وقال : ما لي ولك يا هـٰذا ؟ أتريد أن تفتنني ؟ فقلت : يا أبا عبد الله ؛ اقعد حتىٰ أخبرك ، فقعد ، فذكرت له الحكاية جميعاً ، وقلت : إن محمد بن سليمان لا يُراجع ، ولا يُرَدُّ عليه ما أخرجه ، فاللهَ اللهَ في نفسك ، فازداد عليَّ غيظاً .

ثم قام ودخل منزله ، وأصفق الباب في وجهي ، فجعلت أقدم رِجلاً وأؤخر أخرىٰ ، ما أدري ما أقول للأمير ، ثم لم أجد بداً من الصدق .

فجئت إليه وأخبرته ، فقال : يا غلام ؛ عليَّ بالسيف ، ثم قال له : خذ بيد هـٰذا حتىٰ يذهب بك إلىٰ هـٰذا الرجل ، فإذا خرج إليك . . فائتني برأسه ، قال إبراهيم : فقلت : أصلح الله الأمير ، الله ، الله ، فوالله ؛ لقد رأينا رجلاً ما هو من الخوارج ، وإنه يرىٰ طاعتك ، ولـٰكن أنا أذهب إليه وآتيك به ، وما أردت بذلك إلا الافتداء منه .

قال : فسكت ، فقمت ومضيت ، فلما أتيت الباب . . سلمت ، وإذا بصوت امرأة تبكي ، ثم فتحت الباب وتوارت وأذنت لي ، فدخلتُ فقالت : ما كان شأنكم وشأن أبي عبد الله ؟ فقلت : وما الخبر ؟ فقالت : انظر هـٰذا حال أبي عبد الله ، فقلت :

---

(١) المَنْظَرة : مكان معد لاستقبال الزائرين .

(٢) الفَرَّاش : الخادم ، مأخوذ ممن يتولىٰ أمر الفراش والخدمة في المنازل .

وما حاله ؟ فقالت : إنه بعد أن فارقك دخل وجاء إلى البئر ، فأخذ منها ماءً وتوضأ وصلىٰ ، ثم سمعته يقول : اللهم ؛ اقبضني إليك ولا تفتنِّي ، ثم تمدد وهو يقول ذلك ، فلحقته وقد قضىٰ ، فها هو ميت ، فقلت : يا هـٰذه ؛ إن لنا قصة عظيمة ، فلا تُحْدِثوا فيه شيئاً حتىٰ آتيكم ، ثم جئت إلىٰ محمد بن سليمان وأخبرته الخبر ، فقال : أنا أركب فأصلي علىٰ هـٰذا ، وشاع خبره بالبصرة ، فشهده الأمير وعامة أهل البصرة ، رحمه الله تعالىٰ . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/٧ـ٨] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل الخواص
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كنيته : أبو إسحاق ، أقام بالري ، ومات بها .

قال أبو جعفر بن محمد الخلدي : سمعت إبراهيم الخواص يقول : سلكت البادية إلىٰ مكة في سبعة عشر طريقاً ، منها طريقا ذهب وفضة .

وحكي عنه أنه قال : كان لي وقت ، فوجدت فترة ، فكنت أخرج كل يوم إلىٰ شط نهر كبير كان حواليه الخوص ، وكنت أقطع شيئاً من ذلك ، وأسفه قفافاً ، وأطرحه في ذلك النهر ، وأتسلىٰ بذلك ، وكنت أجد نفسي كالمطالب بذلك ، فجرىٰ وقتي علىٰ ذلك أياماً .

ففكرت يوماً في نفسي ، وقلت : أمضي خلف ما أطرحه من القفاف في الماء حتىٰ أنظر أين تذهب ، فمشيت علىٰ شاطىء النهر ساعات ، ولم أعمل ذلك اليوم شيئاً ، فرأيت عجوزاً قاعدة علىٰ جنب النهر تبكي ، فقلت لها : ما لك ؟ مم تبكين ؟ فقالت : لي خمسة من الأيتام ، مات أبوهم ، وأصابني الفقر والشدة ، فأتيت يوماً إلىٰ هـٰذا النهر ، فرأيت علىٰ رأس الماء قفافاً من الخوص ، فأخذتها وبعتها ، وأنفقت ثمنها عليهم ، وأتيت اليوم الثاني والثالث والرابع ، والقفاف تجيء علىٰ رأس الماء ، فكنت آخذها وأبيعها ، واليوم ما جاءت .

قال إبراهيم : فرفعت يدي وقلت : إلـٰهي وسيدي ومولاي ؛ لو علمت أن لي خمسة من العيال . . لزدت في العمل ، ثم قلت للعجوز : لا تغتمِّي ؛ فإني أنا الذي كنت أعمل القفاف ، ومضيت معها ، فعلمت موضعها ، وكانت فقيرة ، فقمت بأمرها وأمر عيالها سنين . أو كما قال . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/٦٧ـ٦٨] .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : قد تقدم في ترجمة خيرِ النساج رحمه الله ، أن المطلوب في الأموال عدم ضياعها في نفس الأمر ، أو اعتبار ظاهر الأمر ، وإن لم تضع في الحقيقة ؛ فإن في هـٰذه الواقعة وأمثالها إن نظرنا إلىٰ كون القفاف لم تضع في

الحقيقة بل وصلت إلىٰ مستحقها . . فنقول : لا يحرم ذلك ، وإن نظرنا إلىٰ ظاهر صورة إلقائها في الماء فقط . . فنقول : يحرم ، لٰكن الولي قد يطلعه الله سبحانه علىٰ حقيقة الأمر في ذلك ، فيقدم عليه ، فينظر العوام إلى الظاهر ، وليس لهم اطلاع علىٰ ذلك الأمر الذي قد كُشف للأولياء .

وأيضاً : فإن الأولياء قد منحهم سبحانه بولايته ، واختصهم بمزيد عنايته ، فحفظ عليهم أفعالهم وأوقاتهم وحركاتِهم وأقوالهم ، فضلاً من الله ورحمة ، والله ذو الفضل العظيم . انتهىٰ .

وقال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال حامد الأسود : كنت مع إبراهيم الخواص في سفر ، فدخلنا إلىٰ بعض القفار ، فلما أدركنا الليل . . أحاطت بنا السباع ، فجزعت أنا لرؤيتها ، وصعدت إلىٰ شجرة ، ولم يصعد إبراهيم ، وقعد موضعه ، واستلقىٰ علىٰ قفاه ، فأقبلت السباع تلحسه من فرقه إلىٰ قدمه ، وهو لا يتحرك ، فلما أصبحنا ومضينا إلىٰ منزل آخر . . وجدنا فيه مسجداً ، فبتنا فيه ، فرأيت بقة وقعت علىٰ وجه إبراهيم فتأوه ، فقلت : يا أبا إسحاق ؛ ما هـٰذا التأوه مع فِعل البارحة ؟! فقال : ذاك حال كنت فيه بالله عز وجل ، وهـٰذا حال أنا فيه بنفسي . [انتهىٰ « الصفوة » ٤/٦٨] .

وقال في « المناقب » : قال إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل الخواص رحمه الله : مَن لم يصبر . . لم يظفر ، ومَن لم تبكِ الدنيا عليه . . لم تضحك الآخرة إليه .

وقال : ليس العِلم بكثرة الرواية ، إنما العلم لمَن اتبعه واستعمله ، واقتدىٰ بالسنن .

وسئل عن الورع فقال : ألاَّ يتكلم العبد إلا بالحق ، غضِب مَن غضب ، ورضي مَن رضي ، وأن يكون اهتمامه فيما يرضي الله سبحانه وتعالىٰ .

وقال : العلم كله في حرفين : لا تتكلف ما قد كفيت ، ولا تضيِّع ما قد وُلِّيت ؛ أي : كلفت .

وقال : دواء القلب خمسة أشياء : تلاوة القرآن بالتدبر ، وخلاء البطن ، وقيام الليل ، والتضرع عند السحر ، ومجالسة الصالحين .

وقال : علىٰ قدر إعزاز المرء لأمر الله عز وجل . . يلبسه مِن عزه ، ويقيم له العز في قلوب المؤمنين ، وعقوبة القلوب أشد العقوبات ، ومقامها أعلى المقامات ، وكرامتها

أفضل الكرامات ، وذِكرها أشرف الأذكار ، وتذكّرها يستجلب الأنوار ، وعليها وقع الخطاب ، وهي المخصوصة بالتنبيه والعتاب .

وروي : أن إبراهيم تأوه في وقت من الأوقات ، فقيل له : ما هـٰذا التأوه ؟ فقال : كيف يفلح مَن يسره ما يضره ؟ ثم رفع صوته وأنشد :

تعـودت مـس الضـر حتـىٰ ألفتُـه ... وأسلمني حسن العزاء إلى الصبر
وقطَّعت أطماعي من الناس آيساً ... لعلمي بصنع الله من حيث لا أدري[1]

وقال : مَن ترك شهوة فلم يجد عوضها في قلبه . . فهو كاذب في تركها .

وكان إبراهيم يدقق في التوكل ، ومع ذلك فكان لا يفارقه إبرة وخيوط ومقراض وركوة ، فيقال له في ذلك : أنت تمنع من حمل كل شيء ، فكيف تحمل هـٰذا ؟ فقال : هـٰذا لا ينقض التوكل ؛ لأن لله عز وجل علينا فرائض ، والفقير ليس له إلا ثوب واحد ، فربما تبدو عورته من ثوبه إذا تخرق ، فتفسد عليه صلاته ، وإذا لم يكن معه ركوة . . تفسد عليه الطهارة ، فإذا رأيت الفقير بلا ركوة ولا إبرة ولا خيوط . . فاتهمه في صلاته . [انتهىٰ] .

[ثم قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ] : وقال علي بن محمد الحلواني : كان إبراهيم جالساً في المسجد بالري ، وعنده جماعة ، فسمع صوت المَلاهي من الجيران ، فاضطرب من ذلك ، ثم قام إبراهيم ، فخرج من المسجد نحو الدار التي فيها المنكر ، فلما بلغ طرف الزقاق ؛ إذا كلبٌ رابض ، فلما قرب منه إبراهيم . . نبح عليه وقام في وجهه ، فرجع إبراهيم إلى المسجد ، وفكر ساعة ، ثم قام مبادراً وخرج ، فمر على الكلب ، فبصبص[2] وسكت .

فلما قرب من الدار . . خرج إليه شاب حسن الوجه ، وقال : أيها الشيخ ؛ لِمَ انزعجت ؟ لو أرسلت إليَّ بعضَ مَن عندك . . كنت أفعل كل ما تريد ، وعليَّ عهد الله وميثاقه أني لا شربت أبداً ، وأراق ما عنده من الشراب ، وكسر الأواني ، ونوىٰ صحبة أهل الخير ولزوم العبادة ، فرجع إبراهيم ، فلما جلس . . سئل عن خروجه أول مرة ، ثم رجوعه ، ثم خروجه ثانياً ، فقال : إنما نبح الكلب عليَّ في الأول ؛ لفساد كان قد دخل عليَّ في عقيدتي فيما بيني وبين الله عز وجل ، فلما زال ذلك الفساد . . رجعت ثانياً ، فوقع ما وقع .

وهـٰكذا كل مَن خرج لإزالة منكر ، فتحرك عليه شيء من المخلوقات ، فلفساد عقد نيته

---

(١) في نسخة : (وقطعت أطماعي من الناس آنِساً) .
(٢) بصبص : حرك ذنبه .

فيما بينه وبين الله عز وجل ، وإذا وقع الأمر على الصحة . . لم يتحرك عليه شيء .

وكان يقول : مَن لم يصبر . . لم يظفر ، وذلك لأن لإبليس وِثاقين أوثق بهما بني آدم : خوف الفقر ، والطمع .

وقال إبراهيم : علىٰ قدر إعزاز المؤمن لأمر الله سبحانه وتعالىٰ . . يلبسه الله عز وجل مِن عزه ، ويقيم له العز في قلوب المؤمنين .

وقال : مَن لم تبك الدنيا عليه . . لم تضحك الآخرة إليه .

وقال خيرٌ النساج : سمعته يقول وقد رجع من سفر ، وكان قد غاب عني سنين ، فقلت له : ما الذي أصابك في سفرك هـٰذا ؟ فقال : عطشت مرة عطشاً شديداً حتىٰ سقطت من شدة العطش ، فبينا أنا علىٰ ذلك ؛ إذ مر بي أعرابي متلثم راكباً علىٰ جمل ، ومعه إداوة من ماء ، فوقف عليَّ وسلم ، ثم قال : ما الذي بك ؟ قلت : العطش ، فسقاني حتىٰ رويت ، ثم قال : ارتدف خلفي ، وكنت بالحاجر ، فلما كان بعد ساعة . . قال : أين مقصدك ؟ قلت : المدينة ، قال : انزل واقرأ علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم مني السلام ، وقل له : الخضر يسلم عليك .

وقال إبراهيم الخواص : لقيني الخضر في سفرة ، فسألني الصحبة ، فخشيت أن يفسد عليَّ سرَّ توكلي بسكوني إليه ، ففارقته .

وكان الخواص من أقران الجنيد والنوري .

توفي بجامع الري سنة إحدىٰ وتسعين ومئتين ، وقيل : سنة أربع وثمانين ومئتين ، وتولىٰ أمره في غسله ودفنه يوسف بن الحسين الرازي رضي الله عنهم أجمعين . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/٦٨-٧٠] .

وقال في « المناقب » : قال إبراهيم : المراعاة تورث المراقبة ، والمراقبة خلوص السر والعلانية .

وقال إبراهيم : الصادق لا تراه إلا في فرض يؤديه ، أو فضل يعمل فيه .

وروي أنه كان في سفرة ومعه ثلاثة نفر ، فبلغوا مسجداً في بعض المفاوز وباتوا فيه ، ولم يكن عليه باب ، وكان البرد شديداً ، فناموا ، فلما أصبحوا . . رأوه واقفاً على الباب ، فقالوا له في ذلك ، فقال : خشيت أن تجدوا البرد . وكان قد وقف في الباب طول ليلته .

وقال : مَن شرب بكأس الرئاسة . . فقد خرج من إخلاص العبودية .

وقال الكتاني[1] : رأيت كأن القيامة قد قامت ، فأول مَن خرج من عند الله عز وجل أبو جعفر الدينوري ، وكتابه بيمينه ، وهو يضحك ، ثم خرج إبراهيم الخواص ، وكتابه بيمينه ، وهو يقرأ القرآن .

وقال إبراهيم : إن مِن دواعي المقت : ذم الدنيا في العلانية واتباعها في السر .

وقيل له : ما بال الإنسان يتحرك عند سماع غير القرآن ولا يتحرك عند سماع القرآن ؟ فقال : لأن سماع القرآن صدمة عظيمة لا يتمكن أحد أن يتحرك معها ؛ لشدة غلبتها ، وأما سماع غيره . . فترويح يجد فيه السامع ما يجده .

وقال : أصل الدِّين بعد الإيمان بالله وحده : المحاسبة والصدق .

فالمحاسبة : أن يقف العبد قبل كل حركة وقفة حتىٰ يسكن هيجان تلك الحركة ، ثم بعد ذلك يتدبر عواقبها ، فما كان لله عز وجل . . دَخَل فيه ، وما كان لغير الله . . تركه ، فلا يزال العبد كذلك حتىٰ تصح له المحاسبة وتلزم القلب ، فعند ذلك لم يبق للعبد حركة ظاهرة ولا باطنة . . إلا والله تعالىٰ أقرب إلىٰ قلبه من كل حركة ، فعندها لا يسقط له فِعل ولا إرادة .

وقال : كنت بالبادية مرة ، فسِرت في وسط النهار ، فوصلت إلىٰ شجرة بقرب ماء ؛ فإذا سبع عظيم قد أقبل إلي ، فاستسلمت ؛ فإذا هو يعرج ، فحمحم وبرك بين يدي ، ووضع يده في حجري ، فنظرت ؛ فإذا يده منتفخة فيها قيح ودم ، فأخذت عوداً وشققت الموضع الذي فيه القيح ، وأخرجت ما فيه ، ثم شددت عليه خرقة ، فتركني ومضىٰ ، وإذا به بعد ساعة قد عاد ومعه شبلان يبصبصان إلي ، وحملا لي رغيفاً ، ثم ذهبا . انتهىٰ .

وقال في كتاب « زهر الكمام في قصة يوسف عليه الصلاة والسلام » : قال إبراهيم الخواص رحمه الله : طالبَتْني نفسي في وقت من الأوقات بالخروج إلىٰ بلاد الروم ، فمنعت نفسي من ذلك أشد الامتناع ، فلم تَمتنِع ، وعملتُ علىٰ إزالة هـٰذا الخاطر ، فلم يزل ، فخرجت أخترق ديارها إلىٰ أن أتيت مصراً من أكبر أمصارها ؛ فإذا عند باب البلد رجال وعبيد علىٰ رؤوسهم الأسلحة ، فلما رأوني . . قاموا إلي ، وقالوا لي : أطبيب أنت ؟ قلت : نعم ، فاحتملوني إلىٰ ملكهم ، فلما دخلت عليه . . نظر إلي ، وقال لي : أطبيب أنت ؟ قلت : نعم ، فقال : أدخلوه إليها ، وعرِّفوه بالشرط قبل دخوله إليها .

---

(١) في بعض النسخ : (الكناني) .

قال : فلما خرجت من عنده معهم . . قالوا : إن للمَلك ابنة قد أصابها اعتلال شديد ، وقد أعيى الأطباء علاجُها ، وما مِن طبيب دخل عليها وعالجها فلم ينفع علاجه . . إلا قتله الملك ، فانظر لنفسك إن كنت قادماً علىٰ هـٰذا الشرط ، فقلت لهم : إن المقادير ساقتني إليها ، فأدخلوني عليها ، قال : فاحتملوني إلىٰ بابها ، فلما طرقوا الباب ؛ فإذا هي مِن داخل الدار تقول : أدخلوا الطبيب ، فلي وله سر عجيب :

افتحوا الباب فقد جاء الطبيبْ ... وانظروا نحوي فلي سر عجيبْ
فَلكَمْ مقتربٍ مبتعدٌ ... ولَكَمْ مبتعد وهو قريب
كنت ما بينكمُ في غربة ... فأراد الحق أُنسي بغريب
جمعتنا نسبة بيِّنة ... فتراءينا محب وحبيب
ودعانا للتلاقي مالك ... حجب العاذل عنا والرقيب
فاتركوا عَذْلي وخلوا لومكمْ ... إنني ويحَكمُ لست أجيب
لست ألوي نحوَ فانٍ ذاهبٍ ... إنما قصديَ باقٍ لا يغيب

قال : وإذا شيخ كبير قد فتح الباب مسرعاً وقال : ادخل ، فدخلت ؛ فإذا بيت مبسوط بأنواع الرياحين والفرش ، وإذا بسِتر مضروب في زاويته ، ومن خلفه أنين ضعيف ، قال : فقعدت بإزاء السِّتر ، وأردت أن أسلم ، فتذكرت أنه لا يجوز ابتداء النصارىٰ بالسلام ، فلم أسلم ، فنادت المرأة من داخل الستر ، أين سلام التودد والإخلاص يا إبراهيم الخواص ؟ فعجبت من ذلك ، وقلت لها : مِن أين عرفتيني ؟ فقالت : إذا صفت القلوب والخواطر . . أعربت الألسن عن مخبَّآت الضمائر ، إني سألت الله سبحانه وتعالىٰ أن يقيض لي ولياً من أوليائه يكون لي علىٰ يديه الخلاص . . فنوديت : إنا سنرسل إليك إبراهيم الخواص ، فقلت لها : ما خبرك ؟ قالت : لي أربع سنين قد لاح لي الحق المبين ، وأسلمت لله رب العالمين ، فقلت لها : مَن دلَّك علىٰ ما وصلت إليه ؟ فقالت : براهينه الواضحة ، وآياته اللائحة سبحانه وتعالىٰ .

قال إبراهيم الخواص : فبينا أنا أكلمها ؛ فإذا الشيخ الموكل بها ، وقد دخل علينا ، فقال : ما فعل طبيبك ؟ فقالت له : قد عرف العلة ، وأصاب الدواء ، فظهر عليه السرور ، وشكرني ، وسار مسرعاً إلىٰ ملكهم ، فبشره وأخبره ، فأمر بإعزازي وإكرامي ، فبقيت أختلف إليها سبعة أيام .

فقالت لي : يا أبا إسحاق ؛ الهجرة إلىٰ دار الإسلام ، فقلت لها : كيف يكون الطريق إلىٰ ذلك ، وكيف يكون خروجك ومَن يتجاسر عليه ؟ فقالت : دع عنك هـٰذا الخوف ، وقم بنا حتىٰ نهاجر ، إن الذي أدخلك عليَّ وساقك إلي وهداني للإسلام . . إنما هو الله رب العالمين جل جلاله ، ولا إلـٰه غيره ، ولا رب سواه سبحانه . . هو الذي يخرجنا من بلاد الظالمين ، ويعمي أبصارهم عنا ، فقلت لها : أعلم أنه علىٰ كل شيء قدير .

قال : فلما كان من الغد . . قالت : قم حتىٰ نهاجر ، قال : فخرجنا علىٰ باب البلد ، فحجب الله عز وجل العيون عنا ، فلم يرنا أحد ، وأعمى الله أبصارهم ، فلم نزل سائرين إلىٰ أن دخلنا دار الإسلام .

فقالت : إنما قصدي بيت الله الحرام ، فقلت : أنت وما قصدت ، فقالت : اكتب لي جميع مناسك الحج وعرِّفني بها كما علمتني فرائض الإسلام وسائر أنواع العبادات ، فعلَّمتها ذلك جميعه ، وكتبت لها ذلك ، ثم فارقتني متوجهة إلىٰ مكة زادها الله تعالىٰ شرفاً ، فبلغني أنها أقامت بها سبع سنين ، ثم توفيت إلىٰ رحمة الله تعالىٰ .

فما رأيت أصبر منها على الصيام ، ولا أدوم منها على القيام ، رحمها الله تعالىٰ . انتهىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم الإمام :

الحافظ أبو نعيم الأصبهاني
رضي الله عنه

قال الحافظ ابن عساكر ـ رحمه الله ـ : كتب إلي الشيخ أبو الحسن عبد الغافر بن إسماعيل يذكر قال : أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران سبط محمد بن يوسف البنا الصوفي ، الشيخ الإمام الحافظ ، أبو نعيم ؛ واحد عصره في فضله وجمعه ومعرفته ، صنف التصانيف المشهورة ؛ مثل : « حلية الأولياء وطبقات الأصفياء » ، وغير ذلك من الكتب الكثيرة في أنواع علوم الحديث والحقائق ، وشاع ذِكره في الآفاق ، واستفاد الناس من تصانيفه ؛ لحسنها .

توفي بأصبهان في صفر سنة ثلاثين وأربع مئة .

وبلغني أنه ولد في رجب سنة ست وثلاثين وثلاث مئة ، وأنه توفي يوم الإثنين الحادي والعشرين من المحرم الحرام ، سَنة ثلاثين وأربع مئة ، ودفن من يومه بعد صلاة الظهر ، وبلغ أربعاً وتسعين سَنة رحمه الله تعالىٰ .

وسمعت مَن يحكي عن أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الحافظ الخطيب البغدادي قال : لم ألْقَ من شيوخي أحفظ من الحافظ أبي نعيم ، وأبي حازم العبدوي الأعرج .

وذكر لي الشيخ أبو عبد الله محمد بن محمد الأصبهاني عمَّن أدرك من شيوخ أصبهان : أن السلطان محمود بن سُبُكْتِكِين[1] لما استولىٰ علىٰ أصبهان : ولَّىٰ عليها والياً من قِبله ، ورحل عنها ، فوثب أهل أصبهان به فقتلوه ، فرجع محمود إليها ، وأمنهم حتى اطمأنوا ، ثم قصدهم يوم الجمعة في الجامع ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، وكانوا قبل ذلك قد منعوا أبا نعيم

---

(١) **محمود بن سُبُكْتِكين** (٣٦١ـ٤٢٢ هـ) : مَلَكَ خراسان وسجستان ، ولم يزل يفتح في بلاد الهند حتى انتهىٰ إلىٰ حيث لم تبلغه في الإسلام راية ، ولم تُتْلَ به قط سورة ولا آية ، وكان قد فرض علىٰ نفسه غزو الهند في كل عام ، وكانت مناقبه محمودة كثيرة ، وسيرته من أحسن السير ، توفي بغزنة سنة اثنتين وعشرين وأربع مئة ، رحمه الله تعالىٰ . انظر « وفيات الأعيان » لابن خلكان (٥/ ١٧٥ـ١٨٢) .

الحافظ من الجلوس في الجامع ، فسلِم مما جرىٰ عليهم ، وكان يعد ذلك من كرامة أبي نعيم الحافظ رحمه الله . انتهىٰ .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : اعلم : أن هـٰذا هو الحافظ أبو نعيم صاحب « الحلية » ، الذي من بحره اغترفت ، وبأنواره اقتديت ، وإني لم أسْرِ ذلك المسرىٰ إلا بدلالته ، ولم أغترف إلا من فضالته .

فاللهَ أسأل أن يفيض عليَّ عرفانه وبركته ، وأن يجمع بيني وبينه مع سائر الأحبة في دار كرامته ، وجزاه الله عني أفضل الجزاء .

ولو شرعت في ذِكر مناقبه ومآثره ، وما خصه الله به من الكرامات ، وما آتاه من العلوم وسائر أنواع المعارف . . لأوردت من ذلك شيئاً كثيراً ، ولو لم يكن من جلالة قدره ورفيع محله إلا إملاء كتابه « الحلية » حفظاً من صدره بعد أن نَيَّفَ على الثمانين سَنة . . لكان ذلك كافياً ، فكيف وله من التصانيف الحِسان ما لم يُنسج علىٰ منواله ، ولا سمحت قريحة بمثاله .

وبالجملة : فكان الحافظ أبو نعيم قدس الله روحه لسانَ وقته ، وإمام عصره ، جامعاً بين علم الشريعة والحقيقة ، عارفاً بالأصول والفروع ، إماماً في العلم ، ورأساً في الزهد ، بصيراً بالأحكام ، حافظاً للحديث عارفاً بعلله ، قيماً بالأدب ، جامعاً للغة وفنون الأدب .

له التصانيف الكثيرة في علوم غزيرة ، ورث العلم كابراً عن كابر ، فرغ من إملاء « الحلية » يوم الخميس سلخ [ذي] الحجة سَنة اثنتين وعشرين وأربع مئة .

وأما أحواله وكراماته : فإنه يضيق الوقت عن ذِكر بعضها ، رحمه الله ، وأكرم نزله ومثواه .

* * *

وقد رأيت أن أختم ترجمته رحمه الله بذِكر كلام المحتضِرين من الخلفاء الراشدين ، والأئمة المهديين ، والعلماء الربانيين من الصحابة والتابعين لهم بإحسان وتابعيهم ، رضوان الله عليهم أجمعين .

هـٰذا وإن كنت قد ذكرت في ترجمة كل إمام كلامه عند الاحتضار ، غير أنه يعز على الناظر استحضاره عند احتياجه إليه ، فكان جمعه في موضع واحد أنفع وأنجع لمن أراد الاتعاظ وسلوك سبيل السلف الصالح ، رضوان الله عليهم أجمعين .

فأقول ـ وبالله التوفيق ـ :

أما أولهم : فخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم الإمام أبو بكر الصديق رضي الله عنه : قالوا : لما احتُضِر . . قال : ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ .

قالوا : وقيل له في مرضه : ألا ندعوا لك طبيباً ينظر إليك ؟ فقال : قد نظر إلي ، فقالوا : ما قال لك ؟ قال : إني فعال لما أريد .

وفي رواية قال : ليتني كنت شجرة تعضد وتؤكل .

زاد في رواية : قال له سلمان : يا خليفة رسول الله ؛ أوصنا ، فقال : إن الله فاتح عليكم الدنيا ، فلا تأخذوا منها إلا بلاغاً ، ثم توفي رضي الله عنه .

وثانيهم : الإمام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لما احتضر . . أمر أن يوضع رأسه على الأرض ، وقال : ويلي وويل أمي إن لم يرحمني الله عز وجل! هٰذا أوان لو أن لي طلاع[1] الأرض ذهباً . . لافتديت به من عذاب الله من قبل أن أراه .

وفي رواية : أخذ تبنة من الأرض وقال : ليتني كنت هٰذه التبنة ، ليت أمي لم تلدني ، ليتني كنت نسياً منسياً . رضي الله عنه .

الإمام أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه : حين ضرب والدماء تسيل علىٰ لحيته . . جعل يقول : ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ، اللهم ؛ إني أستعديك عليهم ، وأستعين بك علىٰ جميع أموري ، رضي الله عنه .

وفي رواية : كان يقول : لو أني بين الجنة والنار لا أدري إلىٰ أيتهما يؤمر بي . . لاخترت أن أكون رماداً قبل أن أعلم إلىٰ أين أصير . رضي الله عنه .

الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه : حين طلع لصلاة الفجر يوم قتله . . جَعَلَ يقول :

اشـــدد حيـــازيمـــك للمـــوت ... فـــــإن المـــــوت لاقيكـــــا
ولا تجـــزع مـــن المـــوت ... إذا حـــــل بِـــــواديكـــــا

ولما ضربه ابن ملجم . . قال علي كرم الله وجهه : فزت ورب الكعبة ، ثم قال : لا إلٰه إلا الله ، فتوفي رضي الله عنه

---

(١) طلاع الأرض : ملؤها .

الإمام أمير المؤمنين الحسن بن علي رضي الله عنهما : لما احتضر . . دخل عليه أخوه الحسين رضي الله عنهما ، فوجده جزعاً ، فقال : يا أخي ؛ لأي شيء تجزع من الموت ؟ تقدم علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلي بن أبي طالب وهما أبواك ، وعلىٰ خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهما أماك ، وعلىٰ حمزة وجعفر وهما عماك ، فقال : يا أخي ؛ إني أقدم علىٰ أمر عظيم ، ثم قال : اللهم ؛ إني أحتسب نفسي عندك ، وتوفي رضي الله عنه .

أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : لما احتضرت . . قالت : والذي نفسي بيده ؛ لوددت أني كنت نسياً منسياً .

وفي رواية : لوددت أني كنت حيضة ملقاة .

الإمام معاذ بن جبل رضي الله عنه : حين احتضر . . قال : اللهم ؛ إنك تعلم أني كنت أخافك ، وأنا اليوم أرجوك ، اللهم ؛ إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجري الأنهار ولا لغرس الأشجار ، ولـٰكن لظمأ الهواجر ، ومكابدة الساعات ، ومزاحمة العلماء بالرُّكَب عند حلق الذِّكر .

ولما اشتد به النزع ـ ونزع نزعاً لم ينزعه أحد ـ فكان كلما أفاق من غمرته . . يفتح طرْفه ثم يقول : اخنقني خنقاً ، فوعزتك ؛ إنك لتعلم أن قلبي يحبك ، ثم يقول : أصبحنا ؟ فيقال : لا ، إلىٰ أن قيل له : قد أصبحنا ، فقال : أعوذ بالله من صباح ليلة إلى النار ، مرحباً بالموت زائر مغب[1] ، حبيب جاء علىٰ فاقة .

الإمام طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه : أوصىٰ أن يكفن في جبة صوف كان قد لقي المشركين فيها يوم بدر ، وأوصىٰ أن يجعل علىٰ قبره جريدة رطبة عند رأسه ورجليه .

الإمام أبو الدرداء رضي الله عنه : حين احتضر . . جعل يقول : مَن يعمل لمثل مصرعي هـٰذا ؟ مَن يعمل لمثل ساعتي هـٰذه ؟ مَن يعمل لمثل يومي هـٰذا ؟ ثم يقول : ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ .

الإمام عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : قال له رجل : ما أحب أن أكون من أصحاب اليمين ، أكون من المقربين أحب إلي ، فقال له : لـٰكن هـٰهنا رجل ود أنه إذا مات لا يبعث . يعني : نفسه .

---

(١) مغبٌّ : الذي يزور علىٰ فترات متقطعة .

ولما احتضر . . قال : لو تعلمون ما أعلم من نفسي . . لحثيتم علىٰ رأسي التراب .

وفي رواية : قيل له : ألم تخبرنا أنك تحب الموت ؟ فقال : بلىٰ ، ولـٰكن وعزته وجلاله سبحانه وتعالىٰ ؛ لمَّا تيقنت نفسي الموت . . كرهته ، ثم بكىٰ ، وقال : لقنوني لا إلـٰه إلا الله . ثم لم يزل يرددها حتىٰ مات رضي الله عنه .

الإمام سلمان الفارسي رضي الله عنه : حين احتضر . . بكىٰ ، فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : ما أبكي جزعاً علىٰ الدنيا ولا خوفاً من الموت ، ولـٰكن عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليكن بلغة أحدنا من الدنيا كزاد الراكب ، أو قال : زاد المسافر »[1] ، وحولي هـٰذه الأساود[2] ، ثم مات رضي الله عنه ، وكان جميع ما حوله إجَّانة[3] وجفنة ومطهرة ونحو ذلك ، فبيع ذلك بنحو بضعة عشر درهماً

وقبل وفاته أمر زوجته أن تأتيه بصُرَّة مسك كان قد ادخرها ، فقال لها : امرثيها[4] بالماء وضعيها حول فراشي ؛ فإنه يأتيني الآن زوار . يعني : الملائكة عليهم الصلاة والسلام .

وعن طاووس رحمه الله : أنه ينبغي للمحتضر أن يوصي بأن يُطْعَم عنه بعد موته سبعة .

الإمام بلال بن رباح رضي الله عنه : لما احتضر . . قالت امرأته : واحزناه! فقال : بل قولي : واطرباه ، غداً نلقى الأحبة ؛ محمداً وحزبه . ثم توفي رضي الله عنه .

الإمام خالد بن الوليد رضي الله عنه : حين احتضر . . قال : ما لي من عمل أرجىٰ من شهادة أن لا إلـٰه إلا الله ، وأنا بها متترس ، ثم قال : لا إلـٰه إلا الله ، فتوفي رضي الله عنه .

الإمام أبو هريرة رضي الله عنه : بكىٰ عند موته ، فقيل له : ما هـٰذا البكاء ؟ فقال : ما أبكي علىٰ دنياكم هـٰذه ، وإنما أبكي علىٰ بعد سفري وقلة زادي ، وإني أصبحت في مهبط جنة ونار ، لا أدري إلىٰ أيتهما يؤمر بي .

الإمام حذيفة رضي الله عنه : حين احتضر . . قال : لولا أني أرىٰ أن هـٰذا اليوم آخر أيامي من الدنيا . . لما تكلمت ، اللهم ؛ إنك تعلم أني كنت أحب الفقر على الغنىٰ ، وأحب الذل على العز ، وأحب الموت على الحياة ، حبيب جاء علىٰ فاقة ، لا أفلح مَن ندم .

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ٣٥٣) بلفظ : « لتكن بلغة أحدكم من الدنيا مثل زاد الراكب » .

(٢) **الأساود** : الشخوص من المتاع الذي كان عنده .

(٣) **الإجَّانة** : إناء تغسل فيه الثياب .

(٤) **مرث الشيء في الماء مرثاً** : نقعه فيه .

وفي رواية : دخلنا عليه في جوف الليل فقال : أي ساعة هـٰذه ؟ فأخبرناه ، فقال : أعوذ بالله مِن صباح إلى النار ، ثم قال : أجئتم بأكفاني ؟ قلنا : نعم ، قال : لا تُغالوا بها ؛ فإنه إن يك لصاحبكم عند الله عز وجل خيراً . . يبدل بكسوة خيراً منها ، وإلا . . تسلب سلباً .

وفي رواية أنه قال : ما أدري علىٰ ما أقدم ، علىٰ رضىً أم علىٰ سخط .

الإمام أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله : حين احتضر . . قيل له : أوص ـ أو اعهد ـ يا أمير المؤمنين ، فقال : أحذركم مثل مصرعي هـٰذا ؛ فإنه لا بد لكم منه .

وفي رواية : أنه دعي له طبيب ، فلما نظر إليه . . قال له : أرى الرجل قد سقي السم ، ولا آمن عليه الموت ، فرفع عمر رأسه ، فقال : ولا تأمن الموت أيضاً علىٰ مَن لم يُسْقَ السم ، قال الطبيب : هل أحسست بذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم ، قد عرفت ذلك حين وقع في بطني ، قال : فعالج يا أمير المؤمنين ؛ فإني أخاف أن تذهب نفسك ، فقال : ربي سبحانه وتعالىٰ خير مذهوب إليه ، واللهِ ؛ لو علمت أن شفائي عند شحمة أذني . . لما رفعت يدي إلىٰ أذني فتناولته ، ثم قال : اللهم ؛ خر لعمر في لقائك . فلم يلبث إلا أياماً حتىٰ مات .

زاد في رواية : قالت زوجته فاطمة : كنت أسمع منه في مرضه يقول : اللهم ؛ أخف عليهم موتي ولو ساعة من نهار ، فلما كان اليوم الذي قبض فيه . . خرجت من عنده وجلست في بيت آخر ، وبيني وبينه باب وهو في قبة له ، فسمعته يقول : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ، ثم هدأ ، فدخلت لأنظر إليه ؛ فإذا هو قد مات ، رحمه الله تعالىٰ .

وفي رواية : قيل له : أبشر ؛ فإن الله قد أَحيا بك سُنناً وأظهر بك عدلاً ، فبكىٰ ، ثم قال : أليس أُوقَف وأسأل عن أمر هـٰذا الخلق ؟! فوالله ؛ لو عدلت فيهم . . لخفت علىٰ نفسي ألاَّ تقوم بحجتها بين يدي الله عز وجل إلا أن يلقنها حجتها ، فكيف بكثير مما صنعناه ؟! وفاضت عيناه ، ولم يلبث إلا يسيراً حتىٰ مات رحمه الله .

وفي رواية : قال : أجلسوني ، أجلسوني ، فأجلسوه ، فقال : أنا الذي أَمَرتَني فقصَّرتُ ، ونهيتني فعصيت ـ ثلاث مرات ـ ولـٰكن لا إلـٰه إلا الله . ثم رفع رأسه فأَحَدَّ النظر ، فقيل له في ذلك ، فقال : إني لأرىٰ حضَرةً ، ما هم إنس ولا جن ، ثم قبض رحمه الله .

الإمام جابر بن زيد رحمه الله : قال حجة الإسلام الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : وقيل لجابر بن زيد عند الموت : ما تشتهي ؟ قال : نظرة إلى الحسن ، فلما دخل عليه الحسن . . قيل له : هـٰذا الحسن ، فرفع طرْفه إليه ، فقال : يا إخوتاه ؛ الساعة أفارقكم إما إلى الجنة أو إلى النار .

وفي رواية أخرىٰ : قال : أعوذ بالله من النار ومن سوء الحساب (ثلاث مرات) .

وقال محمد بن واسع رحمه الله عند الموت : يا إخوتاه ؛ عليكم السلام ، إلى النار إلا أن يغفر الله سبحانه وتعالىٰ .

وتمنىٰ بعضهم أن يبقىٰ في النزع أبداً فلا يبعث لثواب ولا عقاب ، فخوف سوء الخاتمة قطع قلوب العارفين ، وهي من الدواهي العظيمة عند الموت نسأل الله السلامة . [انتهىٰ « الإحياء » ٤/٤٦٥] .

الإمام عامر بن عبد الله بن قيس رحمه الله : لما احتضر . . بكىٰ ، فقيل : ما يبكيك ؟ فقال : ما أبكي حزناً من الموت ولا حرصاً على الدنيا ، ولـٰكن أبكي علىٰ ما يفوتني من ظمأ الهواجر ، وعلىٰ قيام الليل بالشتاء .

وفي رواية : قال : لمثل هـٰذا المصرع فليعمل العاملون ، اللهم ؛ إني أستغفرك من تقصيري وتفريطي ، وأتوب إليك من جميع ذنوبي ، لا إلـٰه إلا أنت . ثم لم يزل يرددها حتىٰ مات .

الإمام مسروق رحمه الله : كان يبكي ويجزع وهو محتَضَر ، فقيل له : ما هـٰذا الجزع والبكاء ؟ فقال : وما لي لا أجزع ، وإنما هي ساعة واحدة ولا أدري أين يُسلك بي ، بين يديَّ طريقان : الجنة والنار ، فلا أدري إلىٰ أيتهما يؤمر بي .

الإمام الأسود بن يزيد النخعي رحمه الله : كان يبكي وهو محتَضَر ، فقالوا له : ما هـٰذا الجزع والبكاء ؟ فقال : وما لي لا أبكي وأجزع ، ومَن أحق بذلك مني ؟ والله ؛ لو أُتيت بالمغفرة من الله عز وجل . . لأهمني الحياء مما قد صنعت ، إن الرجل ليكون بينه وبين الرجل الذنب الصغير فيعفو عنه ، فلا يزال مستحياً منه .

الإمام الربيع بن خثيم رحمه الله : لما احتضر . . بكت ابنته ، فقال لها : يا بنية ؛ لِمَ تبكين ؟ قولي : يا بشراي ؛ لقي أبي الخير .

الإمام عروة بن الزبير رحمه الله : قال : كان يقول : أخشاك ربي وأرجوك . . . إلىٰ أن مات

الإمام هرم بن حيان رحمه الله : قيل له : أوصِ ، فقال : لا أدري ما أوصي ، ولـٰكن بيعوا درعي واقضوا دَيني ، فإن لم يف . . فبيعوا غلامي ، وأوصيكم بخواتيم (سورة النحل) : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ إلىٰ آخرها .

ثم قال : وددت أني كنت شجرة أكلتني هـٰذه الراحلة وقذفتني بعراً .

الإمام أبو العالية رحمه الله : قيل له في مرض موته : يعافيك الله ، فقال : أَحَبُّه إليَّ . . أَحَبُّه إلى الله عز وجل .

[الإمام] عبد الله بن المبارك رحمه الله : فتح عينيه عند الوفاة وضحك ، وقال : لمثل هـٰذا فليعمل العاملون .

وفي رواية : أنه قال لمولاه نصر : اجعل رأسي على التراب ، فبكىٰ نصر ، فقال له : ما يبكيك ؟ قال : ذكرت ما كنت فيه من النعيم ، وها أنت تموت فقيراً غريباً ، فقال : اسكت ؛ فإني سألت الله عز وجل أن يحييني حياة الأغنياء ، وأن يميتني موت الفقراء ، ثم قال له : لقِّني لا إلـٰه إلا الله ولا تُعِد عليَّ ما لم أتكلم بكلام ثان .

زاد في رواية : أنه بكىٰ ، فقيل له في ذلك ، فقال : والله ؛ لا أبكي لذنب أعلم أني أتيته ، ولـٰكن أخاف أني أتيت شيئاً حسبته هيناً وهو عند الله عظيم .

الإمام إبراهيم النخعي رحمه الله : لما احتضر . . بكىٰ ، فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : أنتظر مِن ربي رسولاً يبشرني بالجنة أو النار .

الإمام الفضيل بن عياض رحمه الله : لما احتضر . . غشي عليه ، ثم فتح عينيه وقال : وا بعد سَفَراه! وا قلة زاداه .

وفي رواية : لو خيرت بين أن أُبعث ثم أُدخل الجنة وبين ألاَّ أبعث . . لاخترت ألاَّ أبعث ، فقال محمد بن حاتم : إنما هـٰذا مِن الحياء مِن الله عز وجل .

وفي رواية : لو خيرت بين أن أعيش كلباً وأموت كلباً ولا أرىٰ أهوال القيامة . . لاخترت ذلك .

الإمام محمد بن واسع رحمه الله : كان يقول في مرضه : يا إخوتاه ؛ أتدرون أين يُذهَب بي ؟! والله الذي لا إلـٰه إلا هو ؛ إلى النار أو يعفو الله عز وجل عني .

الإمام مالك بن دينار رحمه الله : لما احتضر . . قال : لولا أني أصنع شيئاً لم يصنعه أحد قبلي . . لأوصيت إذا مت أن تقيدوني ، وأن تجمعوا يدي إلىٰ عنقي ، ثم تنطلقوا بي علىٰ ذلك الحال فأدفن ، كما يصنع بالعبد الآبق ، فإذا سألني ربي عز وجل : لِمَ فعلت هـٰذا ؟ فأقول : يا رب ؛ وعزتك وجلالك ؛ لم أرض لك نفسي قط ، وأنت أعلم .

الإمام محمد بن المنكدر رحمه الله : لما احتضر . . جزع جزعاً شديداً ، فقيل له في ذلك ، فقال : أخشىٰ آيةً من كتاب الله : ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ .

وفي رواية : جاء صفوان بن سليم إليه فقال له : يا أبا عبد الله ؛ أراك كأنك قد شق عليك الموت ، قال : فما زال يهوِّن عليه الأمر وينجلي عن ابن المنكدر حتىٰ كأن المصابيح في وجهه ، فقال ابن المنكدر : لو ترىٰ ما أنا فيه . . لقرَّتْ عينك . ثم توفي رحمه الله تعالىٰ .

الإمام عامر بن عبد الله بن الزبير رحمهم الله : سمع الأذان وهو يجود بنفسه ، وكان منزله قريباً من المسجد ، فقال : احملوني إلى المسجد ، فقيل له : وأنت علىٰ هـٰذا الحال ؟ فقال : أسمع داعي الله عز وجل ولا أجيب ؟! فلما أدخل المسجد . . أحرم بالصلاة ، فلما ركع . . توفي رحمه الله .

الإمام أبو حازم رحمه الله : لما احتضر . . قيل له : كيف تجدك ؟ فقال : بخير ، راجياً لله عز وجل حسن الظن به سبحانه وتعالىٰ .

الإمام عمرو بن قيس الملائي رحمه الله : كان يبكي وهو محتضر ، فقيل له : علىٰ أي شيء تبكي ؟ فوالله ؛ لقد كنت منغص العيش في أيام حياتك ، فقال : والله ؛ ما أبكي على الدنيا ، إنما أبكي خشية أن أُحرَم خير الآخرة .

الإمام مكحول رحمه الله : كان الغالب عليه الحزن في الدنيا ، فلما احتضر . . وجدوه ضاحكاً مستبشراً ، فقيل له في ذلك ، فقال : كيف لا أستبشر وقد دنا فراق ما كنت أحذره ، وقرب قدومي علىٰ من كنت أرجوه وأؤمله وهو الله سبحانه وتعالىٰ ؟!

الإمام سفيان الثوري رحمه الله : قال : ما أحب أن يلي حسابي أبواي ؛ فإن الله عز وجل أرحم بي منهما .

ولما احتضر . . بكىٰ وجزع ، فقيل له : يا أبا عبد الله ؛ أراك كثير الذنوب ؟ قال : فرفع رأسه ، وأخذ تبنة من الأرض ، ثم قال : والله ؛ إن ذنوبي في عفو الله عز وجل أهون من هـٰذه ، وإنما أخاف أن أسلب الإيمان قبل أن أموت .

وفي رواية : أنه كان يتنفس ، فقال له حماد بن سلمة : أبشر ؛ فقد نجوت مما كنت تخاف ، وتقدم علىٰ رب غفور ، فقال له سفيان : يا أبا سلمة ؛ أترىٰ أن الله عز وجل يغفر لمثلي ؟ فقال حماد : إي والله الذي لا إلـه إلا هو ، قال : فكأنما سُرِّيَ عنه .

زاد في رواية : أنه كان يقول : ذهب الستر ، ذهب الستر[1] .

الإمام عطاء السليمي رحمه الله : لما احتضر . . دخل إليه عبد الواحد بن زيد ، فجعل ينظر إلىٰ عطاء ويتنفس ، فقال له عطاء : لِمَ تتنفس ؟ فقال : من أجلك ، فقال عطاء : والله ؛ لوددت أن نفسي بقيت بين لهاتي وحنجرتي تتردد إلىٰ يوم القيامة ؛ مخافة أن تخرج إلى النار .

الإمام الشافعي رحمه الله : قيل له في مرض موته : كيف أصبحت ؟ فقال : أصبحت من الدنيا راحلاً ، ولإخواني مفارقاً ، ولكأس المنية شارباً ، ولسوء أعمالي ملاقياً ، وعلى الله الكريم سبحانه وتعالىٰ وارداً ، فلا أدري أروحي تصير إلى الجنة فأهنئها ، أم إلى النار فأعزيها ، ثم بكىٰ ، وأنشد :

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي ... جعلت الرجا مني لعفوك سُلَّما
تَعاظَمَني ذنبي فلما قرنتُه ... بعفوك ربي كان عفوك أعظما
وما زلتَ ذا عفو عن الذنب لم تَزَل ... تجود وتعفو مِنَّةً وتكرُّما
فإن تَعْفُ عني تَعْفُ عن ذي إساءة ... ظلوم غشوم لا يُزَايلُ مأثَمَا
وإن تنتقمْ مني فلست بآيسٍ ... وإن دخلَتْ روحي بجُرمي جهنما

الإمام أحمد ابن حنبل رحمه الله : أمرهم أن يوضِّئوه عند الاحتضار ، ثم جعل يغرق ثم يفيق ، فيقول : لا بعد ، لا بعد ، فقال له ابنه : يا أبت ؛ ما هـٰذا الذي قد لهجت به ؟ فقال : يا بني ؛ إبليس قائم بحذائي عاض علىٰ يديه يقول : يا أحمد ؛ فُتَّني ، فأقول : لا بعد ، لا بعد ، حتىٰ أموت .

الإمام مالك رحمه الله : لما احتضر . . قال : ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ .

قال الأئمة : وإنما قرأ هـٰذه الآية تفاؤلاً بما بعدها ، وهو قوله تعالىٰ : ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ .

---

(١) في نسخة : (ذهب الشر) .

زاد في رواية بكر بن سليم الصواف قال : دخلنا علىٰ مالك بن أنس في العشية التي قبض فيها ، فقلنا : يا أبا عبد الله ؛ كيف تجدك ؟ فقال : ما أدري ما أقول لكم ، إلا أنكم ستعاينون من لطف الله سبحانه وتعالىٰ ما لم يكن لكم في حساب .

الإمام يحيى بن سعيد القطان رحمه الله : قيل له في مرضه : يعافيك الله ، فقال : أَحَبُّه إلي . . أَحَبُّه إلى الله . كما تقدم عن أبي العالية .

بعض أهل البيت رضوان الله عليهم أجمعين : لما احتضر . . قال لولده : يا بني ؛ اقرأ عليَّ الرخص لأموت وأنا شديد حُسْنِ الظن بالله عز وجل .

الإمام زياد النميري رحمه الله : قال : لولا ما حضرني من هـٰذا الأمر . . ما تكلمت بهـٰذا ، والله ؛ لقد صدع ذِكر الموت قلبي ، حتىٰ لقد خشيت أن يقتلني ذاك ، اللهم ؛ فلا تؤيسني مما كنت أؤمل في القدوم عليك يا أرحم الراحمين . ثم توفي رحمه الله .

قيل لرجل من الأنصار : كيف تجدك ؟ فقال : أجدني ـ والله ـ لا أرضىٰ حياتي لموتي . ثم توفي رحمه الله .

قال عبد الأعلى التيمي لرجل قد احتضر : ليكن جزعك لما بعد الموت أكثر من جزعك من الموت ، وأعِدَّ لعظيم الأمور حسن الظن بالله سبحانه وتعالىٰ .

احتضر رجل بالمدينة ، فقال : لا تغرنكم الدنيا كما غرتني .

وفي رواية : إن الدنيا أسحَرُ من هاروت وماروت ، فلا تسخرَنَّ بكم الدنيا كما سخرت بي حتىٰ ذهبت أيامي ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

الإمام ذو النون رحمه الله : لما احتضر . . قال له الفتح بن شخرف : كيف تجدك ؟ فقال ذو النون رحمه الله :

وما لي سوى الإطراق والصمت حيلةٌ ... ووضعي علىٰ خدي يدي عند تذكاري
فـإن طـرقَتْنـي عبـرة بعـد عبـرة ... تجـرعتهـا حتـىٰ إذا عيـل تِصْبـاري
أفضـت دمـوعـاً جَمَّـة مستهلـة ... أُطَفِّـي بهـا حَـرّاً تضمـن أسـراري
وينعش قلبي حسن ظني بواجدي ... فأحيا ولولا ذاك بُحْتُ بأسراري
فيـا منتهـىٰ سـؤلِ المحبيـن كلِّهـم ... أبحني محل الأنس مَعْ كل زواري
ولسـت أبـالـي فـائتـاً بعـد فـائـت ... إذا كنتَ في الدارين يا واجدي جاري

وعن محمد بن يحيىٰ قال : قيل لذي النون عند النزع : أوصنا ، فقال : لا تشغلوني ؛ فإني متعجب من كثرة لطف الله سبحانه وتعالىٰ بي .

الإمام الجنيد رحمه الله : قال الجريري : كنت عنده في حال نزعه ، وكان يوم الجمعة ويوم نيروز ، وهو يقرأ القرآن ، فختم ، فقلت : في هـٰذه الحالة يا أبا القاسم ؟! قال : ومَن أولىٰ بذلك مني وهو ذا يطوي صحيفتي ؟!

وفي رواية : أنه قيل له : قل : لا إلـٰه إلا الله ، فقال : ما نسيته حتىٰ أذكره .

الإمام أبو سعيد الخراز رحمه الله : قال رويم : حضرت وفاته وهو يقول :

حنين قلوب العارفين إلى الذِّكرِ ... وتذكارهم وقت المناجاة للسرِّ
أديرت كؤوس للمنايا عليهِمُ ... فأغفَوْا عن الدنيا كإغفاء ذي السُّكْرِ
همومهُمُ جوالة بمعسكر ... به أهل ود الله كالأنجم الزُّهرِ
فأجسامهم في الأرض قتلىٰ بحبه ... وأرواحهم في الحُجْب نحو العُلا تسري[1]
فما عَرَّسوا إلا بقرب حبيبهم ... وما عرَّجوا عن مس بؤس ولا ضر

وقيل للجنيد : إن أبا سعيدٍ الخراز كان كثير التواجد عند الموت ، فقال : لم يكن بعجب أن تطير روحه اشتياقاً .

الإمام أبو علي الروذباري رحمه الله : قالت أخته فاطمة : لما احتضر أخي وكان رأسه في حجري . . فتح عينيه ، فقال : هـٰذه أبواب السماء قد فتحت ، وهـٰذه الجنان قد زينت ، وهـٰذا قائل يقول : قد بلغناك الرتبة القصوىٰ وإن لم تردها ، ثم أنشأ يقول :

وحقك لا نظرت إلىٰ سواكا ... بعين محبة حتىٰ أراكا

ثم طفىء من ساعته .

الإمام الشبلي رحمه الله : قيل لخادمه[2] : ما الذي رأيت منه عند الاحتضار ؟ فقال : قال لي : عليَّ مظلمة درهم ، وقد تصدقت عن صاحبه بألوف ، فما علىٰ قلبي شغل أعظم منه ، ثم أشار بأن أوضئه للصلاة ، ففعلت ، فنسيت تخليل لحيته ، وقد أمسك علىٰ لسانه وعَرِق جبينه ، فقبض علىٰ يدي وأدخلها في لحيته ، ثم مات ، فبكىٰ جعفر ، ثم قال :

---

(١) في نسخة : (وأرواحهم في الحجب مطلوبهم تسري) .
(٢) أي : جعفر بن نصير بكران الدينوري ، وكان يخدم الشبلي رحمه الله .

ما تقولون في رجل لم يفته في مثل هـٰذا الحال أدب من آداب الشريعة ؟!

الإمام بشر بن الحارث رحمه الله : لما احتضر ـ وكان يشق عليه ـ قيل له : كأنك تحب الحياة ، قال : القدوم على الله عز وجل شديد .

الإمام الواسطي رحمه الله : قيل له لما احتضر : أوصنا ، فقال : احفظوا مراد الحق جل جلاله فيكم ؛ يعني : أوامره ونواهيه سبحانه وتعالىٰ .

احتضر بعضهم ، فبكت امرأته ، فقال لها : ما يبكيك ؟ فقالت : عليك أبكي ، فقال : إن كنتِ باكية . . فابك علىٰ نفسك ؛ فلقد بكيت لهـٰذا اليوم أربعين سَنة .

الإمام السَّريُّ رحمه الله : قال الجنيد : دخلت علىٰ سَريٍّ السقطي أعوده في مرض موته ، فقلت له : كيف تجدك ؟ فأنشأ يقول :

كيف أشكو إلىٰ طبيبِيَ ما بي ... والذي بِي أصابني من طبيبي

فأخذتُ المروحة لأروِّحه ، فقال : كيف يجد روح المروحة مَن روحه من داخل القلب تحترق ؟! ثم أنشأ يقول :

القلب محترقٌ والدمع مستبقُ ... والكرب مجتمعٌ والصبر مفترقُ
كيف القرار علىٰ مَن لا قرار له ... مما جناه الهوىٰ والشوق والقلق
يا رب إن كان شيءٌ فيه لي فرج ... فامنن عليَّ به ما دام بي رمق

وقال بعضهم : اللهم ؛ إنك قلت في كتابك العزيز : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ ، فأسألك أن تجعلني ممن تشاء أن يغفر له ، وليس في صحيفتي الشرك ، وأنت أرحم الراحمين .

حكي : **أن قوماً من أصحاب الشبلي** دخلوا عليه وهو في الموت ، فقالوا له : قل : لا إلـٰه إلا الله ، فأنشأ يقول :

إن بيتاً أنت ساكنه ... غيرُ محتاج إلى السُّرُجِ
وجهك المأمول حُجَّتُنا ... يوم يأتي الناس بالحُجج
لا أباح الله لي فرجاً ... يوم أدعو منك بالفرج

حكي : أن أبا العباس بن عطاء رحمه الله دخل على الجنيد في وقت نزعه ، فسلم ، فلم

يجبه ، ثم أجابه بعد ساعة ، وقال : اعذرني ؛ فإني كنت في وِردي ، ثم ولىٰ وجهه إلى القبلة وكبر ومات رحمه الله .

الإمام الكتاني رحمه الله : قيل له لما احتضر : ما كان عملك ؟ فقال : لو لم يقترب أجلي . . ما أخبرتكم به ، وقفت علىٰ باب قلبي أربعين سَنة ، فكلما مرَّ بي غير الله عز وجل . . حجبته عنه .

وحكي عن المعمر[1] قال : كنت ممن حضر الحكم بن عبد الملك حين جاءه الحق ، فقلت : اللهم ؛ هون عليه سكرات الموت ؛ فإنه كان وكان ، وذكرت من محاسنه ، فأفاق وقال : مَن المتكلم ؟ فقلت : أنا ، فقال : إن ملك الموت يقول لي : إني بكل سخي رفيق . ثم طفىء .

احتضرت امرأة ، فقالت : يا ذخري وذخيرتي ، ويا من عليه اعتمادي وتوكلي ؛ أسألك بعزتك وجلالك ألاَّ تخذُلَني ، ولا توحِشَني في قبري ، وقني سوء الحساب وأهوال يوم القيامة يا أرحم الراحمين .

الإمام يوسف بن أسباط رحمه الله : لما احتضر . . شهده حذيفة ، قال : فوجدته قلِقاً ، فقلت : يا أبا محمد ؛ هـٰذا أوان القلق والجزع ؟! فقال لي : يا أبا عبد الله ؛ وكيف لا أقلَق ولا أجزع وإني لا أعلم ـ والله ـ أني صدقت الله عز وجل في شيء من عملي ؟! فقال حذيفة : واعجباً لهـٰذا الرجل! يحلف عند موته أنه لا يعلم أنه صدق الله في شيء من عمله ؟!

الإمام ممشاذ الدينوري رحمه الله : دخل عليه بعض المشايخ وهو محتَضَر ، فأخذ يدعو له ، فضحك ممشاذ ، ثم قال : منذ ثلاثين سَنة تعرض عليَّ الجنة بما فيها ، فما أعرتها طرْفي .

وقيل له عند النزع : كيف تجد قلبك ؟ فقال : منذ ثلاثين سنة فقدت قلبي .

الإمام رويم رحمه الله : قيل له وهو محتضر : قل : لا إلـٰه إلا الله ، فقال : لا أُحسن غيره

الإمام النوري رحمه الله : لما احتضر . . قيل له : قل : لا إلـٰه إلا الله ، فقال : أليس إلي ثَمَّ أمرٌ ؟

زاد في رواية : قيل له وقد انكسر لسانه وعرق جبينه : هل تشتهي شيئاً ؟ فقال : إي والله شهوة كبيرة ؛ رؤية الله عز وجل . ثم توفي رحمه الله .

---

(١) في نسخة : (المعتمر) .

الإمام أحمد بن خضرويه رحمه الله : لما حضرته الوفاة . . سئل عن مسألة ، فدمعت عيناه ، وقال : يا بني ؛ باب كنت أدقه خمساً وتسعين سَنة ، هوذا يفتح لي الساعة ، لا أدري أيفتح لي بالسعادة أو الشقاوة ، فأنَّىٰ لي أوان الجواب ؟! ثم توفي رحمه الله .

وحكي عن بعضهم : أنه لما قربت وفاته . . قال : يا غلام ؛ اشدد كتافي ، وعفِّر خدي ، ثم قال : دنا الرحيل ، اللهم ؛ إنه لا براءة لي من ذنب ، ولا عذر أعتذر به ، ولا قوة لي فأنتصر ، أنت لي ، أنت لي . ومات ، فسمعوا صوتاً : استكان العبد لمولاه سبحانه وتعالىٰ فَقَبِلَهُ .

وقيل لبعضهم وهو في النزع : قل : لا إلـه إلا الله ، فقال : إلىٰ متىٰ تقولون وأنا محترق بالله سبحانه وتعالىٰ ؟!

وقيل لأبي محمد الدبيلي وقد حضرته الوفاة : قل : لا إلـه إلا الله ، فقال : هـٰذا شيء قد عرفناه ، وبه نفتي[1] .

الإمام أبو تراب رحمه الله : قال أبو عثمان الإصطخري : رأيت أبا تراب في البادية قائماً ميتاً لا يمسكه شيء ، فقلت : أشهد أن الله علىٰ كل شيء قدير .

الإمام أبو يزيد البسطامي رحمه الله : حين احتضر . . قال : ما ذكرتك إلا عن غفلة ، ولا قبضتني إلا علىٰ فترة .

الإمام أبو علي الروذباري رحمه الله : قال : دخلت مصر ، فرأيت الناس مجتمعين ، فسألت عن ذلك ، فقالوا : كنا في جنازة فتىً سمع[2] قائلاً يقول :

كبُـــرت هِمَّـــةُ عبـــدٍ طمعَـــتْ فـــي أن يـــراكـــا

قال : فشهق شهقة ، فمات رحمه الله تعالىٰ .

قال أبو علي الروذباري رحمه الله : قدم علينا شاب ، فكان كالواله ، أقام عندنا أياماً ، فلما حضرته الوفاة . . رأيته مرة يعبس ومرة يستبشر ، فقلت له : كيف تجدك ؟ فقال : يا أبا علي ؛ إذا نظرتُ إلىٰ نفسي وأعمالي . . أَيِسْتُ ، وإذا نظرتُ إلىٰ عفو ربي جل جلاله وسعة رحمته وكرمه . . فرحتُ . ثم توفي ، فأخذت في أمره ، فلما ألحدته . . كشفت الثوب عن

---

(١) في بعض النسخ : (وبه ثقتي) .

(٢) في المخطوط : (فسمع قائلاً) ولعل الصواب ما أثبت .

وجهه لأضعه على التراب ؛ رجاء أن ينظر الله عز وجل إلىٰ ذله ويرحمه ، ففتح عينيه ، وقال : يا أبا علي ؛ أتذللني بين يدي من يدللني ؟! فقلت له : يا سيدي ؛ أحياة بعد الموت ؟ فقال : بل أنا حي ، وكل محب لله عز وجل حي ، ولأنصرنك غداً بجاهي يا روذباري . رحمه الله تعالىٰ .

الإمام أبو يعقوب النهرجوري رحمه الله : قال أبو عبد الله بن خفيف رحمه الله : سمعت أبا الحسن المزين يقول : لما مرض أبو يعقوب النهرجوري . . قلت له وهو في النزع : قل : لا إلٰه إلا الله ، قال : فتبسم إلي وقال : إياي تعني ؟ وعزة من لا يذوق الموت سبحانه وتعالىٰ ؛ ما بيني وبينه إلا حجاب العزة . وانطفأ من ساعته ، فكان المزين يأخذ بلحيته ويقول : حجَّام مثلي يلقن أولياء الله الشهادة ؟! وا خجلتاه منه! وكان يبكي إذا ذكر هٰذه الحكاية .

قال أبو سعيد الخراز رحمه الله : كنت بمكة ، فرأيت شاباً حسن الوجه ميتاً ، فلما نظرت إليه . . تبسم في وجهي وقال لي : يا أبا سعيد ؛ أمَا علمت أن الأحباء أحياء وإن ماتوا ؟! وإنما يُنقلون من دار إلىٰ دار . رحمه الله .

قال أحمد بن منصور : قال لي أستاذي أبو يعقوب السوسي رحمه الله : غسَّلت مريداً ، فأمسك إبهامي وهو على المغتسل ، فقلت : يا بني ؛ خَلِّ يدي ، أنا أدري أنك لست بميت ، وإنما هي نقلة من دار إلىٰ دار ، قال : فخلَّىٰ يدي رحمه الله .

قال : وسمعته أيضاً يقول : سمعت أبا بكر[1] أحمد بن محمد الطرسوسي يقول : سمعت إبراهيم بن شيبان يقول : صحبني شاب حسن الإرادة ، فمات ، فاشتغل قلبي به جداً ، فلما أردت غسله . . بدأت بشماله مِن شُغل قلبي عليه ومِن الدهشة ، فأخذها مني وناولني يمينه ، فقلت : صدقت يا بني ، أنا غلطت ، رحمه الله .

الإمام يوسف بن الحسين الرازي رحمه الله : لما احتضر . . قال : اللهم ؛ إنك تعلم أني نصحت خلقك ظاهراً ، وغششت نفسي باطناً ، فهب لي غشي لنفسي لنصحي لخلقك . ثم قبض رحمه الله .

الإمام ضرغام بن وائل رحمه الله : قال : اللهم ؛ إنك تعلم ـ وعزتك وجلالك ـ أنه

---

(١) في نسخة : (أبا بكر بن أحمد بن محمد الطرسوسي) .

لا براءة لي من ذنب فأنتصر ، ولا عذر لي فأعتذر ، وليس إلا عفوك ومغفرتك يا أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين . ثم توفي رحمه الله .

الإمام مطرف بن الشخير رحمه الله : قال : اللهم ؛ خِرْ لي في الذي قضيته عليَّ يا أرحم الراحمين .

الإمام العلاء بن زياد[1] **رحمه الله** : كان يبكي ، فقيل له في ذلك ، فقال : كنت ـ والله ـ أحب أن أستقبل الموت بتوبة ، ثم دعا بماء فتوضأ ، ولبس ثوباً جديداً ، واستقبل القبلة ، وأومأ برأسه مرتين ، ثم اضطجع ، فمات رحمه الله .

قيل لضيغم بن مالك رحمه الله في مرضه : أقامك الله إلىٰ طاعته ، فقال : قل : أو قبضك الله إلىٰ رحمته ، فلما قال ذلك . . قال : آمين ، فوالله ؛ ما قام من ذلك المرض .

وفي رواية : قالت له أمه : يا ضيغم ؛ كيف فرحك بالقدوم على الله عز وجل ؟ قال : فصاح صيحة وخر مغشياً عليه ، فجلست أمه عند رأسه تبكي وتقول : ما نستطيع أن نذكر عندك شيئاً من أمر الآخرة .

وعن محمد بن ثابت البناني رحمه الله أنه قال : ذهبتُ ألقن أبي عند الموت ، فقال : يا بني ؛ خَلِّ عني ؛ فإني في وِردي السابع .

الإمام يحيى الإصطخري رحمه الله : قال له بعض الحاضرين : اِشهَدْ أن لا إلـه إلا الله ، فجلس مستوياً ، ثم أخذ بيد واحد وقال : قل : أشهد أن لا إلـه إلا الله ، حتىٰ فعل ذلك بجميع الحاضرين ، ثم توفي رحمه الله .

الإمام أبو زرعة الرازي رحمه الله : قال أبو جعفر التستري : حضرنا أبا زرعة عند وفاته وكان عنده أبو حاتم ، ومحمد بن مسلمة ، والمنذر بن شاذان ، وجماعة من العلماء ، فذكروا حديث التلقين ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « لقنوا موتاكم لا إلـه إلا الله » ، واستحيوا من أبي زرعة وهابوا أن يلقنوه ، فقالوا : تعالوا نذكر الحديث ، فقال محمد بن مسلمة : حدثنا الضحاك بن مخلد ، عن عبد الحميد بن جعفر ، عن صالح ، ووقف ولم يجاوز ، وقال أبو حاتم : حدثنا بندار : أخبرنا أبو عاصم ، حدثنا عبد الحميد بن جعفر ، ولم يجاوز ، والباقون سكتوا ، فقال أبو زرعة ـ وهو في النزع ـ : حدثنا بندار ، أخبرنا أبو عاصم قال : حدثنا عبد الحميد بن جعفر ، عن صالح ابن أبي غريب ، عن كثير بن مرة

---

(١) في بعض النسخ : (مطرف بن الشخير) ولم يذكر العلاء بن زياد فيها .

الحضرمي ، عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كان آخر كلامه لا إلـه إلا الله . . دخل الجنة » ، فتوفي عند قوله : (الله) رحمه الله .

بعض الأئمة الأكابر من أصحاب الشافعي رحمه الله : كان في صلاة المغرب ، ففاضت نفسه وهو يقرأ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

وقد تقدم في ترجمة خيرِ النساج كلامه عند موته رحمه الله .

ويستحب أن يقول[1] ـ ما رويناه في « صحيح البخاري » [٧٠٥٠] ـ : « اللهم ؛ أسلمت نفسي إليك ، ووجهت وجهي إليك ، وفوضت أمري إليك ، وألجأت ظهري إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا مَنجَىٰ منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذي أنزلت ، ونبيك الذي أرسلت ، فإنك إن مت في ليلتك . . مت على الفطرة ، وإن أصبحت . . أصبت أجراً » .

وقال الشيخ جمال الدين أبو الفرج ابن الجوزي قدس الله روحه : رأيت بعض العلماء لما احتضر . . لم يوجد منه تغير بحال ولا انزعاج ، بل كان قوي النفس في وصيته ، مثل مَن ينتقل من دار إلىٰ دار ، رحمه الله . انتهىٰ .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : بل أقول : إن مِن العارفين مَن يكون شديد الفرح بذلك ، حتىٰ إن روحه تكاد تطير اشتياقاً ، كما سبق عن بلال ، وأبي سعيدٍ الخراز ، رضي الله عنهما .

ولا شك أن مراتبهم في الفرح بالموت وشدة اشتياقهم إلىٰ لقاء الله عز وجل . . بحسَب ما أعطاهم الله عز وجل وما أفاض عليهم من العرفان ، ومَن نظر في سيرهم وأحوالهم . . علم ذلك يقيناً .

ألا ترىٰ إلىٰ قول غالب السلف رضوان الله عليهم كيف يذكرون شوقهم إلىٰ لقاء الله عز وجل ، وإلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى الصحابة رضي الله عنهم ، ويسموا واحداً واحداً .

وقول رابعة العدوية رحمها الله حين سئلت : هل طالت بكِ الأيام والليالي بالشوق ؟ فقال السائل : سمعت تخريق قميصها من وراء الحجاب وهي تقول : إي والله الذي لا إلـه إلا هو قد طالت ، قد طالت . رحمها الله .

---

(١) أي : كل ليلة .

وأدنىٰ مراتب فرح المؤمن : أنه يخرج من السجن ومن دار الهموم والأحزان إلىٰ دار الفرح والسرور ، ويقدم على الله رب العالمين جلت قدرته وعظمته ، فهو أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين سبحانه وتعالىٰ .

وَهَبْ أن العبد يكون عاصياً ، فمغفرة الله ورحمته وعفوه تَسَعُ كلَّ شيء ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ ، وقال : (سبقت رحمتي غضبي) .

وينبغي للمحتَضَر أن يكون كثير الاستبشار والفرح بقدوم ملك الموت عليه الصلاة والسلام ، ويقول بصدق : ليَجِئْ متىٰ شاء الله عز وجل ، فوالله ؛ ما من غائب كنت أنتظره أحب إلي منه ، أهلاً وسهلاً ومرحباً بمن طالت غيبته عليَّ ، حبيب جاء علىٰ فاقة ، لا أفلح مَن ندم .

ثم يقول : اللهم ؛ إنك تعلم أن قلبي يحبك ، وكنت أخافك ، وأنا اليوم أرجوك .

وليكن حَسن الظن بالله عز وجل شديد الفرح بلقائه ، ثم يقول : اللهم ؛ إني أسألك بنور وجهك الذي ملأ أركان عرشك ، وأسألك بقدرتك علىٰ كل شيء أن تغفر لي كل شيء حتىٰ لا تسألَني عن شيء ، وأسألك بعلمك الغيب أن تتوفاني على الإيمان ، وألاَّ تنزعه مني ، ولا تنزعني منه .

اللهم ؛ فاطرَ السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، إني أعهد إليك في هـٰذه الحياة الدنيا أنك أنت الله الذي لا إلـٰه إلا أنت وحدك لا شريك لك ، وأن محمداً عبدك ورسولك ؛ فإنك إن تكلني إلىٰ نفسي . . تقربني من الشر وتباعدني من الخير ؛ فإني لا أثق إلا برحمتك ، فاجعل لي عندك عهداً توفينيه يوم القيامة ؛ إنك لا تخلف الميعاد ، لا إلـٰه إلا الله عدد ما أحصىٰ علمه ، لا إلـٰه إلا الله عدد عفوه عن خلقه ، وسبحان الله والحمد لله ولا إلـٰه إلا الله والله أكبر مثل ذلك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

ثم يقول : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ ، **ثم يقول : وأنا أشهد بما شهد الله به لنفسه ، وشهدَتْ به ملائكته ، وأولو العلم من عباده ، وأستودع الله هـٰذه الشهادة عنده حتىٰ ألقاه غير مبدل تبديلاً .**

اللهم ؛ أجرني من النار ومن سائر أهوال يوم القيامة .

اللهم ؛ إني أسألك النظر إلىٰ وجهك الكريم يا أرحم الراحمين ، وأسألك الفردوس

الأعلىٰ ، وأن تحشرني مع سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ، كلما ذكره الذاكرون ، وكلما سها عن ذكره الغافلون ، وعدد عفوك عن خلقك ، وعدد ما أحصىٰ علمك ، وعلىٰ سائر الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وآل كل وسائر الصالحين .

وينبغي للمحتضر أن يكون منه الهدوء والسكون ، وألاَّ يفتر لسانه عن الشهادة خالصاً بذلك من قلبه ، وأن يكون حسن الظن بالله تعالىٰ ، وأن يتيقن ويعلم أن ما ينتقل إليه خير مما هو فيه بلا شك ، وأن يحرص علىٰ أن يخرج من الدنيا فقيراً لا يملك شيئاً كما دخل إليها ، ويجتهد في أن يعتق سبع رقاب ، وأن يطعم عنه سبعة أيام من يوم موته ، وأن يكون حول فراشه من الطِّيب ؛ كالمسك وغيره ؛ فقد جاء عن سلمان رضي الله عنه أنه جعل حول فراشه مسكاً عند الموت ؛ لقدوم الملائكة عليهم الصلاة والسلام ، وأن يجعل علىٰ قبره جريدة خضراء عند رأسه ورجليه .

ثم يسأل الله تعالىٰ رضاه والجنة والفردوس الأعلىٰ ، وأن يجعل خير أيامه يوم لقائه .

ثم يقول : واشوقاه إلى الصحابة رضوان الله عليهم! ويسميهم ، لا سيما الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم .

ويكثر في مرضه من قراءة (قل هو الله أحد) إلىٰ آخرها ، ويقول : اللهم ؛ إني أسألك تعجيل عافيتك ، أو صبراً علىٰ بليتك ، أو خروجاً من الدنيا إلىٰ سعة رحمتك .

ويقول : أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر (ثلاثاً) .

ثم يقول ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يا أبا هريرة ؛ ألا أخبرك بأمرٍ مَن تكلم به في أول مضجعه من مرضه.. نجاه الله من النار ؟ » قلت : بلىٰ يا رسول الله ، قال : « يقول : لا إلـه إلا الله يحيي ويميت وهو حي لا يموت ، سبحان الله رب العباد والبلاد ، والحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه علىٰ كل حال ، والله أكبر ، اللهم ؛ إن أنت أمرضتني لتقبض روحي في مرضي هـٰذا.. فاجعل روحي في أرواح من سبقت لهم منك الحسنىٰ ، وباعدني من النار كما باعدت أولياءك الذين سبقت لهم منك الحسنىٰ يا أرحم الراحمين »[1] .

ثم يقول دعاء الكرب : اللهم ؛ إني أشكو إليك ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، اللهم ؛ أنت ربي ورب المستضعفين ، إلـٰهي ؛ إلىٰ مَن تكلني ؟ إلىٰ بعيد

---

(١) أخرجه بنحوه ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » (٣٨) .

يتجهمني ؟ أو إلىٰ عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك غضب عليَّ . . فلا أبالي ، ولٰكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، مِن أن تُنزل بي غضبك ، أو يحل بي سخطك ، فلك العتبىٰ حتىٰ ترضىٰ ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

اللهم ؛ أنت ربي لا إلٰه إلا أنت ، خلقتني وأنا عبدك ، وأنا علىٰ عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك عليَّ وأبوء لك بذنبي ، فاغفر لي ؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت .

يا حي يا قيوم ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا بديع السماوات والأرض ؛ لا إلٰه إلا أنت ، برحمتك أستغيث ، أصلح لي شأني كله ، لا إلٰه إلا الله عدد ما أحصىٰ علمه .

ويستحب أن يكتب في صدر وصيته : هٰذا ما أوصىٰ به فلان بن فلان ، أنه يشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ﴾ ، وأوصىٰ مَن ترك بعده من أهله وسائر المؤمنين أن يتقوا الله حق تقاته ، وأن يصلحوا ذات بينهم ، ويطيعوا الله ورسوله إن كانوا مؤمنين ، وأوصاهم بما وصىٰ به إبراهيم عليه الصلاة والسلام بنيه ويعقوب ﴿ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ .

وأن يقول : أُشهد الله ـ وكفىٰ بالله شهيداً وجازياً لعباده الصالحين مثيباً ـ أَني رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد سيد المرسلين نبياً ورسولاً ، وأني آمُرُ نفسي ومَن أطاعني أن يعبدوا الله في العابدين ، ويحمدوه في الحامدين ، وينصحوا لجماعة المسلمين .

اللهم ؛ إني أستغفرك من كل ذنب تبت منه ثم عدت فيه ، اللهم ؛ إني أستغفرك من كل ما أردت به غير وجهك الكريم ، ومِن كل ما ليس فيه رضاك ، اللهم ؛ إني أستغفرك مِن كل ما وعدتك به من نفسي ثم لم أَفِ لك به ، اللهم . . إني أستغفرك مِن كل نعمة أنعمتَ بها عليَّ فقويت بها علىٰ معصيتك .

اللهم ؛ إني أستغفرك من الذنوب التي لا يعلمها غيرك ، ولا يطلع عليها سواك ، ولا يسعها إلا عفوك ورحمتك ، ولا ينجيني منها إلا عفوك ، لا إلٰه إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، اللهم ؛ إني أستغفرك من جميع المظالم التي لعبادك عندي .

اللهم ؛ إني أسألك أن أي عبد وأمة من عبيدك وإمائك ظلمتُه في بدنه ، أو عرضه ، أو ماله ، ولم أستطع الأداء إليه والاستحلال منه . . فأرضهم عني بكرمك من خزائنك التي لا تنقص يا أكرم الأكرمين .

وأسألك أن تتغمدني برحمتك التي وسعت كل شيء ، وقد قلتَ وقولك الحق ، وأنت أصدق القائلين : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ ، وليس في صحيفتي الشرك ، وأنت أعلم ، وأنت مننت عليَّ بذلك ، فاغفر لي ذنوبي ، وارحمني يا أرحم الراحمين .

وأسألك ألاَّ تهينني بعذابك ، ولا تطردني عن بابك ، وأن تعطيني من الخير كله ما سألتك وما لم أسأل ؛ فإنك حقيق بالخيرات ، وأنت علىٰ كل شيء قدير .

ثم يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ، ويذكر الصحابة رضوان الله عليهم واحداً واحداً ، ويترضىٰ عنهم .

ثم يقول : السلام عليك يا رسول الله . . . إلىٰ آخر السلام المذكور في كتاب « الإيضاح في مناسك الحج » للشيخ محيي الدين النووي قدس الله روحه [ص٤٥١] .

ويدعو بدعاء الجنيد رحمه الله المذكور في ترجمته .

وجميع ما ذكرناه في آخر هٰذا الكتاب من سعة رحمة الله تعالىٰ ؛ ليموت وهو حَسَن الظن بربه سبحانه وتعالىٰ .

ويذكر أيضاً الكلمات التي قالها معروف الكرخي رحمه الله ، وهي خمسة للدنيا وخمسة للآخرة ، مَن دعا بهن . . وجد الله عندهن ، وهي :

حسبي الله لديني ، حسبي الله لدنياي ، حسبي الله الكريم لما أهمني ، حسبي الله الحليم القوي لمن بغىٰ عليَّ ، حسبي الله الشديد لمن كادني بسوء ، حسبي الله الرحيم عند الموت ، حسبي الله الرؤوف عند المُساءلة في القبر ، حسبي الله العظيم الخبير عند الحساب ، حسبي الله اللطيف عند الميزان ، حسبي الله القوي عند الصراط ، حسبي الله لا إلـه إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، لا إلـه إلا الله العلي العظيم ، لا إلـه إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله رب العرش العظيم ، والحمد لله رب العالمين .

اللهم ، فاطر السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ؛ لا إلـه إلا أنت ، رب كل

شيء ومليكه ؛ أعوذ بك من شر نفسي ، ومن شر الشيطان وشَرَكه[1] ، وأن أقترف علىٰ نفسي سوءاً ، أو أجرَّه إلىٰ مسلم .

وما أحسن ما قال بعضهم رحمه الله :

وقفت علىٰ أبوابهم أشتكي الجفا ... أكلم رسماً للتواصل قد عفا
فقالوا مَن الشاكي فقلت متيَّمٌ ... يروح ويغدو مِن جفاكمْ علىٰ شفا
حزين كئيب قد تناهىٰ به الضنىٰ ... أناخ علىٰ أبوابكم يرتجي الشفا
فقالوا وما تبغي فقلت لهم عسىٰ ... ينال لديكم رحمة وتعطفا
فقالوا لقد أفسدت ما كان بيننا ... قديماً وكدرت الوداد الذي صفا
فقلت هبوني جانياً متجافياً ... أما عندكم عفو لذي هفوة هفا
فقالوا طريق الحب صعب سلوكه ... عليك ومصباح القبول قد انطفا
فقلت ولي ظن جميل ألفته ... فوا أسفاً إن خاب ظني وأَخلفا

وقال بعضهم أيضاً :

قالوا غداً نأتي ديار الحمىٰ ... ونترك الركب بمغناهُمُ
وكل مَن كان مطيعاً لهمْ ... أصبح مسروراً بلقياهم
قلت فلي ذنب فما حيلتي ... بأي وجه أَتلقَّاهم
قيل أليس العفو من شأنهمْ ... لا سيما عمن تَرَجَّاهم

وقال بعضهم أيضاً :

هنيئاً لمن أضحىٰ وأنت حبيبهُ ... ولو أن نيرانَ الغرام تذيبهُ
وطوبىٰ لقلب أنت ساكنُ سرِّه ... ولو بان عنه إلفه وقريبه
وواه لمطرود عن الباب مُبْعَدٍ ... لقد ضاق في هٰذا الوجود رحيبه
أيا غاية الآمال مَن أنت أنسه ... فكل بلاء عنده يستطيبه
ومَن أنت راض عنه في طي غيبه ... فما ضره والله مَن يستغيبه[2]

---

(١) شَرَكه : حبل صيده .

(٢) جاء في نسخة :

(ومن أنت راض عنه في طي عيبه ... فما ضره والله من يستعيبه)

وما ضر صَبّاً أن يبيت وما له ... نصيب من الدنيا وأنت نصيبه
وحقِّك مَن لا ذاق وصلك ميت ... يحق عليه ندبه ونحيبه
عُبَيْدُك في باب التطفل سائل ... إذا لم تجبه أنت من ذا يجيبه
تفضَّلْ علىٰ مَن ضاع منه زمانه ... ولم يدر حتىٰ لاح منه مشيبه
غَدَا خاسراً والعار يكفيه والشقا ... وقد حان من ضوء النهار مغيبه
غريب عن الأوطان يبكي لذُلِّه ... وهل ذاق طعمَ الذُّلِّ إلا غريبُهُ
فقير مِن الأعمال أنت غَناؤه ... مريض من الآثام أنت طبيبه
إذا ما حَدا الحادي بذِكرك هاجه ... بلاء تلاقَىٰ ماؤه وَلهيبه

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

الفصل الأول

في بعض المصطَفَيات من النساء

رضوان الله عليهن أجمعين

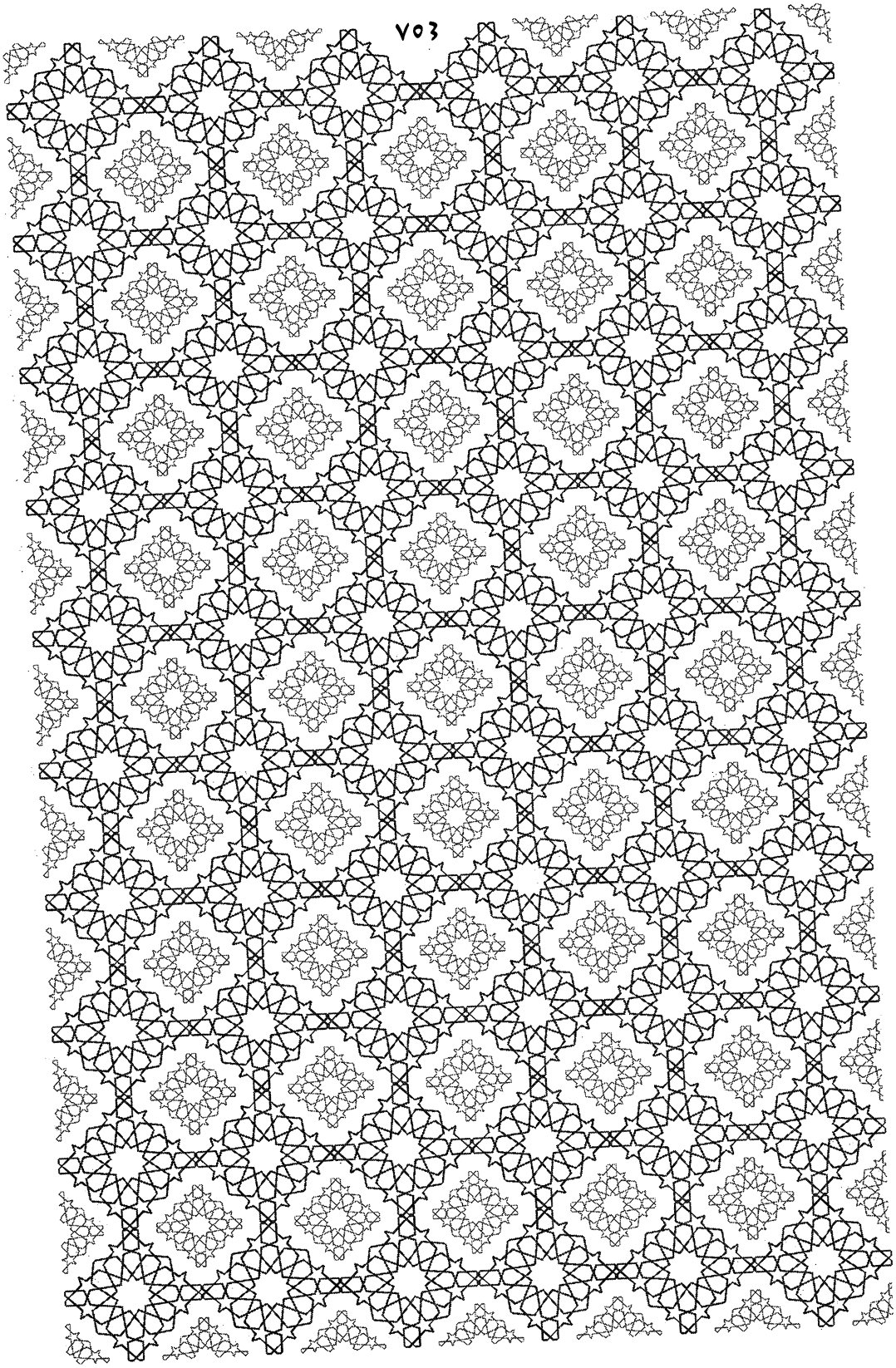
V03

فمنهن :

معاذة العدوية
رضي الله عنها

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كانت معاذة العدوية إذا جاء النهار . . قالت : هـٰذا يومي الذي أموت فيه ، فما تنام حتىٰ تمسي ، وإذا جاء الليل . . قالت : هـٰذه الليلة التي أموت فيها ، فلا تنام حتىٰ تصبح .

وكانت إذا غلبها النوم . . قامت فجالت في الدار وهي تقول : يا نفس ؛ النوم أمامك ، لو قد مُتِّ . . لطالت رقدتك في القبر علىٰ حسرة أو سرور . ثم لا تزال تقول ذلك حتىٰ تصبح .

وكانت تصلي في اليوم والليلة ست مئة ركعة ، وتقرأ جزءها من الليل تقوم به .

وكانت تقول : عجبت لعين تنام وقد عرفت طول الرقاد في ظُلَم القبور .

وقال الحسن بن علي : سمعت أبا السوار العدوي يقول : أَشَدُّ أهلِ هـٰذه البلدة اجتهاداً أبو الصهباء ، لا يفطر نهاره ولا ينام ليله ، وهـٰذه المرأة معاذة بنت عبد الله العدويةُ لم ترفع رأسها إلى السماء أربعين عاماً .

وقد قدمنا بعض أمرها في ترجمة زوجها صلة بن أشيم .

وكانت معاذة بعد زوجها أبي الصهباء لم تتوسد فراشاً حتىٰ ماتت .

وقالت أم الأسود بنت زيد العدوية : كانت معاذة قد أرضعتني ، فقالت لي معاذة ـ لمَّا قتل أبو الصهباء وقتل ولدها : والله يا بنية ؛ ما محبتي للبقاء في الدنيا للذيذ عيش ولا لرَوح نسيم ، ولـٰكن ـ والله ـ أحب البقاء لأتقرَّب إلىٰ ربي عز وجل بالوسائل ، لعله يجمع بيني وبين أبي الصهباء وولده في الجنة .

وكانت معاذة تقول لأم الأسود : لا تفسدي رضاعي بأكل الحرام ؛ فإني جهدت جهدي

حين أرضعتك حتىٰ أكلت الحلال ، فاجتهدي ألاَّ تأكلي إلا حلالاً ، لعلك أن توفقي لخدمة سيدك ، والرضا بقضائه سبحانه وتعالىٰ .

فكانت أم الأسود تقول : ما أكلت شيئاً فيه شبهة . . إلا فاتتني فريضة أو وِرد من أورادي .

وقالت عفيرة العابدة : بلغني أن معاذة العدوية لما حضرتها الوفاة . . بكت ، ثم ضحكت ، فقيل لها : مم بكيت ثم ضحكت ؟ فقالت : أما البكاء . . فإني ـ والله ـ ذكرت مفارقة الصلاة والصيام والذِّكر فكان البكاء لذلك ، وأما التبسم . . فإني نظرت إلىٰ أبي الصهباء وقد أقبل من صحن الدار وعليه حلتان خضراوتان ، وهو في نفرٍ والله ما رأيت لهم في الدنيا شبيهاً ، فضحِكْت إليه ، ولا أراني أُدرك بعد ذلك فرضاً . فماتت قبل أن يدخل وقت الصلاة .

أدركت معاذة عائشة رضي الله عنها ، وروت عنها رحمها الله تعالىٰ . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ١٤ـ١٥] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهن :

رابعة العدوية
رضي الله عنها

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال عبد الله بن عيسىٰ : دخلت علىٰ رابعةَ العدويةِ في بيتها ، فرأيت علىٰ وجهها النور ، وكانت كثيرة البكاء ، فقرأ رجل آية من القرآن فيها ذِكر النار ، فصاحت ، ثم سقطت ، ودخلت عليها وهي جالسة علىٰ قطعة بوري[1] خلقة ، فتكلم رجل عندها بشيء ، فجعلت أسمع وقْعَ دموعها على البوري مثل الوكف[2] ، ثم اضطربت وصاحت ، فقمنا وخرجنا .

قال مسمع بن عاصم ورياح القيسي : شهدنا رابعة العدوية قد أتاها رجل بأربعين ديناراً ، فقال لها : تستعينين بهٰذه علىٰ بعض حوائجك ، فبكت ، ثم رفعت رأسها إلى السماء وقالت : هو سبحانه وتعالىٰ يعلم أني أستحي منه أن أسأله الدنيا وهو يملكها ، فكيف أريد أن آخذها ممن لا يملكها ؟!

وقال محمد بن عمرو : دخلت علىٰ رابعة العدوية وكانت عجوزاً كبيرة بنت ثمانين سنة ، كأنها الشن ، تكاد تسقط ، ورأيت في بيتها قطع بواري ، ومشجب قصب فارسي طوله قدر ذراعين وستر البيت جله ، وربما كان بوري وحب وكوز ولَبِد ، هو فراشها وهو مصلاها ، وكان لها مشجب من قصب عليه أكفانها .

وكانت إذا ذكرت الموت . . انتفضت وأصابها رعدة ، وإذا مرت بقوم . . عرفوا فيها العبادة . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/١٧ـ١٨] .

وقالت رابعة يوماً : استغفارنا يحتاج إلى استغفار .

وقال حجة الإسلام الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : أما قولها : (استغفارنا يحتاج إلى

---

(١) **البوري** : الحصير المنسوج من القصب .

(٢) أي : مثل تقاطر الماء من سقف البيت .

استغفار) . . فاعلم : أنه قد ورد في فضل الاستغفار أخبار كثيرة ، وقد جعل الله عز وجل الاستغفار مقروناً ببقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ .

وكان بعض الصحابة رضي الله عنهم يقول : كان لنا أمانان : **أحدهما** : كون رسول الله صلى الله عليه وسلّم كان فينا ، وبقي الاستغفار ، فإن ذهب . . هلكنا .

فنقول : الاستغفار الذي هو توبة الكذابين : هو الاستغفار بمجرد اللسان من غير أن يكون للقلب فيه شركة ، كما يقول الإنسان بحكم العادة عن رأس الغفلة : (أستغفر الله) وكما يقول إذا سمع صفة النار : (نعوذ بالله من النار) من غير أن يتأثر قلبه .

وكان بعضهم يقول : أستغفر الله من قولي : أستغفر الله .

وقيل : الاستغفار باللسان توبة الكذابين ؛ فإن هـٰذا يرجع إلىٰ مجرد حركة اللسان ، ولا جدوىٰ له ، فإذا انضاف إليه تضرُّع إلى الله عز وجل وابتهالٌ في سؤال المغفرة عن صدق وإرادة وخلوص رغبة . . فهـٰذه حسنة في نفسها ، فيصلح أن يدفع بها السيئة ، وعلىٰ هـٰذا تُحمَل الأخبار الواردة في فضل الاستغفار ، حتىٰ قال صلى الله عليه وسلّم : « ما أصر مَن استغفر ولو عاد في اليوم سبعين مرة »[1] ، وهو عبارة عن الاستغفار بالقلب .

والاستغفار درجات ، وأوائله لا تخلو عن الفائدة ، ولهـٰذا لما سئل سهل رحمه الله عن الاستغفار الذي يكفر الذنوب . . فقال : أول الاستغفار الاستجابة ، ثم الإنابة ، ثم التوبة ، فالاستجابة : أعمال الجوارح ، والإنابة : أعمال القلوب ، والتوبة : إقباله علىٰ مولاه جل جلاله بأن يترك الخلق ، ويستغفر من التقصير الذي هو فيه ، ومن الجهل بالنعمة ، وترك الشكر .

فالاستغفار باللسان لا يخلو عن فائدة كما تقدم ، فلا ينبغي أن يُظَن أن وجوده كعدمه ، فإن أرباب البصائر والمشاهدات عرفوا معرفة لا ريب فيها أن قول الله عز وجل : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ . . أنه حق وصدق ، وأنه لا تخلو ذرة من ذرات الخير عن أثر ، كما لا تخلو شعيرة تطرح في الميزان عن أثر ، ولو خلت الشعيرة الأولىٰ عن أثر . . لكانت الثانية مثلها ، ولكان لا يترجح الميزان بأحمال ،

---

(١) أخرجه البيهقي في « الكبرىٰ » (١٠/١٨٨) .

وذلك بالضرورة محال ، بل ميزان الحسنات يرجح بذرات الخيرات إلىٰ أن يثقل ، فيشيل كفة السيآت .

فإياك أن تستحقر ذرات الطاعات فلا تأتيها ، وذرات المعاصي فلا تتقيها ؛ فإن الاستغفار باللسان حسنة ؛ لأن حركة اللسان به ولو عن غفلة . . خير من حركة اللسان بغِيبة مسلم ، أو فضول فيما لا يعنيه ، بل هو خير من السكوت المجرد ، فيظهر فضله بالإضافة إلى السكوت عنه ، وإنما هو قاصر بالإضافة إلىٰ عمل القلب .

ولذلك قال بعضهم لشيخه أبي عثمان المغربي : إن لساني في بعض الأحوال يجري بالذِّكر والقرآن وقلبي غافل ؟ فقال : اشكر الله عز وجل إذ استعمل جارحة من جوارحك في خير ، وعوَّدَهُ الذِّكر ، ولم يستعمله في الشر ، ولم يعوده الفضول .

وما ذكره حق ؛ فإنَّ تَعَوُّدَ الجوارح للخيرات حتىٰ تصير لها كالطبع . . يدفع جملة من المعاصي ، فمَن تعود لسانه الاستغفار إذا سمع مِن غيره كذباً . . سبق لسانه إلىٰ ما تعوَّدَ ، وقال : أستغفر الله .

فقول رابعة رحمها الله : (استغفارنا يحتاج إلى استغفار) . . لا يُظَن أنها تذم حركة اللسان من حيث إنه ذكر الله عز وجل ، بل تذم غفلة القلب ؛ فهو يحتاج إلى الاستغفار مِن غفلة قلبه لا من حركة لسانه ، فإن سكت عن الاستغفار باللسان أيضاً . . احتاج إلى استغفارين لا إلى استغفار واحد .

فهـٰكذا ينبغي أن يُفهَم ذمُّ ما يذم وحمدُ ما يحمد ، وإلا . . جهلت معنىٰ قول العارفين : (حسنات الأبرار سيئات المقربين) فإن هـٰذه أمور تثبت بالإضافة ، فلا ينبغي أن تؤخذ من غير إضافة ، بل ينبغي ألاَّ تحتقر ذرات الطاعات والمعاصي .

ولذلك قال جعفر الصادق رحمه الله : إن الله تعالىٰ خبأ ثلاثاً في ثلاث :

ـ رضاه في طاعته ، فلا تحقروا منها شيئاً ، لعل رضاه سبحانه فيه .

ـ وغضبَه في معاصيه ، فلا تحقروا منها شيئاً ، فلعل غضبه فيه .

ـ وولايتَه في عباده ، فلا تحقروا منهم أحداً ، فلعله وليٌّ لله سبحانه وتعالىٰ[1] .

---

(١) الإحياء (٤/ ٤٧ـ٤٩) .

وقيل لرابعة رحمها الله : ما تقولين في الجنة ؟ فقالت : الجار قبل الدار ، أو : الجار ثم الدار .

قال الغزالي : فبينت رابعة أنه ليس في قلبها التفات إلى الجنة ، بل إلىٰ رب الجنة جل جلاله[1] ؛ فإن سفيان الثوري رحمه الله لما سأل رابعة العدوية قال لها : ما حقيقة إيمانك ؟ قالت : ما عبدته خوفاً من ناره ولا حباً لجنته ، فأكون كالأجير السوء ، بل عبدته حباً له وشوقاً إليه جل جلاله[2] .

ثم قال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : وكل مَن لم يعرف الله عز وجل في الدنيا . . فلا يراه في الآخرة ، وكل مَن لم يجد له لذة المعرفة في الدنيا . . فلا يجد له لذة النظر في الآخرة ؛ إذ ليس يستأنف لأحد في الآخرة ما لم يصحبه في الدنيا ، فلا يحصد أحد إلا ما زرع ، ولا يحشر المرء إلا علىٰ ما مات عليه ، ولا يموت إلا علىٰ ما عاش عليه .

فما صحبه من المعرفة في الدنيا . . هي التي يتنعم بها فقط إلاَّ أنه يصير مشاهدة في الآخرة بكشف الغطاء ، وذلك هو منتهىٰ لذته ، وهي الرؤية .

فإذاً : نعيم الجنة بقدر حب الله عز وجل ، وحبُّ الله سبحانه وتعالىٰ بقدر معرفته ، فأصل السعادات هي المعرفة بالله سبحانه وتعالىٰ . انتهىٰ [« الإحياء » ٤/ ٣١٠ـ٣١٤] .

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري : سُئلت رابعة رحمها الله : متىٰ يكون العبد راضياً ؟ فقالت : إذا سرته المصيبة كما تسره النعمة .

وقال أيضاً : قيل : إن رابعة رحمها الله خاطت شقاً في قميصها في ضوء مشعل سلطاني ، ففقدت قلبها زماناً . . . حتىٰ تذكرت ، فشقت ذلك الموضع من القميص ، فوجدت قلبها . انتهىٰ [« الرسالة القشيرية » ٥٢ و٩٣] .

وقال أبو الفرج : وقال لها رجل : ادعي لي ، فالتصقت بالحائط وقالت : مَن أنا يرحمك الله حتىٰ أدعو لك ؟ أطع ربك عز وجل وادعه ؛ فإنه يجيب المضطر إذا دعاه .

ودخل رجل علىٰ رابعة ، فوجدها ساجدة ، فلما أحست بدخوله . . رفعت رأسها ، قال : فإذا موضع سجودها كهيئة الماء المستنقع من دموعها ، فسلمت ، وأقبلت عليَّ ،

---

(١) الإحياء (٤/ ٣١٣) .
(٢) الإحياء (٤/ ٣١٠) .

وقالت : يا بني ؛ ألك حاجة ؟ فقلت : جئت لأسلم عليك ، فبكت ، وقالت : سِترَك اللهم سترك ، ودعت بدعوات ، ثم قامت إلى الصلاة ، فانصرفْتُ .

وقال أزهر بن مروان : دخل علىٰ رابعة العدوية رياح القيسي وصالح بن عبد الجليل وغيره ، فتذاكروا الدنيا وأقبلوا يذمونها ، فقالت : إني لأرىٰ للدنيا في قلوبكم محلاً وربيعاً ، فقالوا : ومِن أين توهَّمْتِ علينا ذلك ؟ فقالت : لأنكم نظرتم إلىٰ أقرب الأشياء من قلوبكم ، فتكلمتم فيه .

وقيل لها : هل عملت عملاً ترين أنه قد قُبِل منك ؟ قالت : إن كان . . فمخافتي أن يُرَدَّ عليَّ .

وقال جعفر بن سليمان : أخذ بيدي سفيان الثوري وقال : امض بنا إلى المؤدِّبة التي لا أجد مَن أستريح إليه إذا فارقتها ، فلما دخل عليها . . رفع سفيان يديه وقال : اللهم ؛ إني أسألك السلامة ، فبكت رابعة ، فقال لها : ما يبكيك ؟ فقالت : أنت عرَّضتني للبكاء ، فقال لها : وكيف ذاك ؟ فقالت : أمَا علمت أن السلامة من الدنيا ترك ما فيها ؟! فكيف وأنت متلطخ بها ؟!

وقال سفيان الثوري مرة بين يدي رابعة : واحزناه ، فقالت : لا تقل هـٰذا ؛ فإنه قد يكون كذباً ، ولـٰكن قل : واقلة حزناه ، لو كنت محزوناً . . ما هنأك العيش .

وقالت رابعة لسفيان : إنما أنت أيام معدودة ، فكلما مضىٰ يوم . . ذهب بعضك ، ويوشك إذا ذهب البعض . . أن يذهب الكل ، وأنت تعلم فاعمل .

وكانت تصلي الليل كله ، ثم تهجع هجعة خفيفة حتىٰ يسفر الفجر ، ثم تَثِبُ من رقدتها وهي منزعجة ، وتقول : يا نفس ؛ كم تنامين ؟ وإلىٰ كم تقومين ؟ يوشك أن تنامي نومة لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور .

وكان هـٰذا دأبها حتىٰ ماتت ، فلما حضرتها الوفاة . . دعت امرأة كانت تخدمها ، فقالت : يا عبدة ؛ لا تؤذني بموتي أحداً ، وكفنيني في بتي هـٰذه . جبة من شعر كانت تقوم فيها .

قالت عبدة : ففعلت ذلك ، ورأيتها بعد ذلك بسَنة ـ أو نحوها ـ في منامي وعليها جبة من إستبرق خضراء ، وخمار من سندس أخضر ، لم أر شيئاً أحسن منه ، فقلت : يا رابعة ؛ ما فعلت الجبة التي كفَّنَّاك فيها والخمار الصوف ، فقالت : إنه ـ والله ـ نُزِع عني ، وأُبدِلْتُ

عنه هٰذا الذي ترينه ، وطُويَتْ أكفاني ، ورفعتُ في عليين ؛ ليكمل لي ثوابها يوم القيامة .

قالت : فقلت لها : لهٰذا كنت تعملين في أيام الدنيا ؟ فقالت : وما هٰذا عند ما رأيتُ من كرامة الله عز وجل لأوليائه .

قالت : فقلت لها : ما فعلت عبيدة بنت أبي كلاب ؟ قالت : هيهات هيهات! سبقتنا إلى الدرجات العلىٰ ، فقلت لها : وبم ذاك وقد كنتِ عند الناس أكبر منها ؟ فقالت : إنها لم تكن تبالي علىٰ أي حالة أصبحت من الدنيا وأمست .

قالت : فقلت : فما فعل ابن مالك ؛ تعني : ضيغماً ؟ فقالت : يزور الله عز وجل متىٰ شاء .

قالت : فقلت : فما فعل بشر بن منصور ؟ قالت : بخ بخ! أعطي والله فوق ما كان يؤمل .

قالت : قلت : فأْمريني بأمر أتقرب به إلى الله عز وجل ، فقالت : أكثري من ذِكر الله تعالىٰ ، فيوشك أن تُغبَطي بذلك في قبرك . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/١٨ـ١٩] .

توفيت سنة خمس وثلاثين ومئة رحمها الله .

وقال في « لوامع أنوار القلوب » : كانت رابعة تقول : مقام المحبة أشرف من مقام الخلة ؛ لأن المحبة تكون من غير مكافأة والخلة لا تكون إلا عن مكافأة ، وإن كانت الخلة هي انزعاج يتخلل الأنفاس والأرواح والشغاف والأشباح . وأنشدت :

قد تخللتَ مسلكَ الروح مني ... وبذا سُمِّيَ الخليلُ خليلا
فإذا ما نطقتُ كنتَ حديثي ... وإذا ما سكتُّ كنتَ الغَليلا

وحكي في « بهجة الأسرار » : عن أبي خليفة قال : كان جعفر بن سليمان الهاشمي له بالبصرة غلة كل يوم ثمانين ألف درهم ، فبعث إلىٰ علماء أهل البصرة يستشيرهم في امرأة يتزوجها ، فأجمعوا علىٰ رابعة العدوية ، فكتب إليها :

بسم الله الرحمٰن الرحيم .

أما بعد : فإن الذي هو مِلكي من غلة الدنيا في كل يوم ثمانين ألف درهم ، وليس يمضي إلا قليلٌ حتىٰ أتمها مئة ألف إن شاء الله عز وجل ، وأنا أخطبك إلىٰ نفسك ، وقد بذلت لك من الصداق ثلاث مئة ألف ، وأنا أرسل إليك من بعدها أمثالها ، فأجيبيني .

فكتبت إليه :

بسم الله الرحمـٰن الرحيم .

فإن الزهد في الدنيا راحة القلب والبدن ، والرغبة فيها تورث الهَمَّ والحزن ، فإذا أتاك كتابي هـٰذا . . فهيِّء زادك ليوم فقرك وحاجتك ، وقدِّم لمعادك ؛ لتحيا حياة طيبة ، وكن وصيَّ نفسك ، ولا تجعل وصيَّك غيرَك ، وصم دهرَك ، واجعل الموت فطورك ، فما يسرني ـ واللهِ ـ أن الله عز وجل خوَّلَني أضعاف ما خولك ، فيشغلني به عنه سبحانه وتعالىٰ طرفة عين . والسلام .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهن :

امرأة رياح القيسي
رضي الله عنهما

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال الحسن بن يوسف البزاز : تزوج رياح القيسي امرأة ، فبنىٰ بها ، فلما أصبح . . قامت إلىٰ عجينها ، فقال لها : لو نظرت امرأة تكفيك هـٰذا ، فقالت : إنما تزوجت رياحاً القيسي ، ولم أرني تزوجت جباراً عنيداً .

فلما كان الليل . . نام ليختبرها ، فقامت ربع الليل ، ثم نادته : قم يا رياح ؛ فقال لها : أقوم ، فقامت الربع الآخر ، ثم نادته : يا رياح ؛ قم ، فقال : أقوم ، فلم يقم ، فقامت الربع الآخر ، ثم نادته : قم يا رياح ، فقامت الربع الآخر ، ثم نادته : يا رياح ؛ قم فقد مضى الليل وعسكر المحسنون وأنت نائم ، فليت شعري مَن غرني بك يا رياح ؟

وقال : اغتممت مرة في شيء من أمر الدنيا ، فقالت لي : أراك تغتم لأمر الدنيا ، غرني بك شميط[1] ، ثم أخذت هدبة من مِقْنَعَتها[2] وقالت : الدنيا كلها أهون عليَّ من هـٰذه .

وكانت إذا صلت العشاء . . تطيبت ولبست ثيابها ، ثم جاءتني ، فتقول : ألك حاجة ؟ فإن قلت : نعم . . كانت معي ، وإن قلت : لا . . قامت ، فنزعت ثيابها ، ثم صلت إلى الفجر ، رحمها الله تعالىٰ . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/٢٧] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) **شميط بن عجلان** : أحد عباد البصرة المشهورين .

(٢) **المِقْنَعَةُ** : ما تقنع به المرأة رأسها .

ومنهن :

ماجدة القرشية
رضي الله عنها

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال إياس بن حمزة : قالت لي ماجدة القرشية : طوىٰ أملي طلوع الشمس وغروبها ، فما من حركة تسمع ولا من قدم يوضع . . إلا ظننت أن الموت في إثرها .

وكانت تقول : سكان دار أذنوا بالنقلة ، وهم حيارىٰ يركضون في المهلة ، كأن المرادَ غيرهم ، والتأذين ليس لهم ، والمعنيَّ بالأمر سواهم ، يا لها من عقول ما أنقصها! ومِن جهالة ما أتمها! بؤساً لأهل المعاصي ، ماذا غروا به من الإمهال والاستدراج ؟!

وكانت تقول : بسطوا آمالهم ، ونَسُوا آجالهم ، وأضاعوا أعمالهم ، ولو نصبوا الآجال قدام عيونهم وطردوا الآمال . . خفَّت عليهم الأعمال .

وكانت تقول : لم ينل المطيعون ما نالوا من حلول الجنان ، ورضى الرحمٰن . . إلا بتعب الأبدان لله الواحد القهار ، والقيام له بحقه سبحانه وتعالىٰ في المنشط والمكره .

وكانت تقول : لو رأت أعين الزاهدين في الدنيا ما أعد الله لأهل الإعراض عن الدنيا . . لذابت أنفسهم شوقاً إلى الموت ؛ لينالوا ما أعد الله تعالىٰ لهم مما أمَّلوه بفضله وكرمه سبحانه وتعالىٰ . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/٤٨] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهن :

فاطمة بنت عمران
رضي الله عنها

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كانت فاطمة كثيرة التهجد والاجتهاد .

وقال الحسن بن علي رحمه الله : قدم علينا أبو محمد الرملي ، فلقي فاطمة بنت عمران رحمها الله ، فقال : هـٰذه رابعة وقتها .

وكانت مجابة الدعوة ، مقيمة علىٰ تعهد الفقراء والغرباء إلىٰ أن ماتت رضي الله عنها وأرضاها . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ٧٣] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهن :

فاطمة النيسابورية
رضي الله عنها

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : عن محمد بن الحسن أنه قال : سمعت ابن ملول ـ وكان شيخاً كبيراً رأىٰ ذا النون المصري رحمه الله ـ قال : سألته[1] : مَن أَجلُّ مَن رأيت ؟ قال : ما رأيت أحداً أجلَّ من امرأة رأيتها بمكة يقال لها : فاطمة النيسابورية ، وكانت تتكلم في فهم القرآن ، وتعجبت منها ، فسألت عنها ذا النون ، فقال لي : هي ولية من أولياء الله تعالىٰ ، وهي أستاذتي ، سمعتها تقول : مَن لم يراقب الله عز وجل في كل حال . . فإنه يتخطىٰ في كل ميدان ، ويتكلم بكل لسان ، ومَن راقب الله عز وجل في جميع الأحوال . . أخرسه إلا عن الصدق ، وألزمه الحياء منه والإخلاص له .

وقالت : مَن عمل لله عز وجل على المشاهدة . . فهو عارف ، ومَن عمل علىٰ مشاهدة الله تعالىٰ إياه . . فهو مخلص .

وقال السلمي : كانت فاطمة من قدماء نساء خراسان ، أتىٰ إليها أبو يزيد ، وسألها ذو النون عن مسائل ، وكانت مجاورة بمكة ، فربما دخلت إلىٰ بيت المقدس ثم رجعت إلىٰ مكة .

وقال أبو يزيد البسطامي رحمه الله : ما رأيت في عمري إلا رجلاً وامرأة ، فالمرأة فاطمة النيسابورية ، ما أخبرتها عن مقام من المقامات إلا كان الخبر لها عِياناً .

وقال لها ذو النون : عظيني ـ وقد اجتمعا ببيت المقدس ـ فقالت له : الزم الصدق ، وجاهد نفسك في أفعالك .

ماتت فاطمة رحمها الله بمكة في طريق العمرة ، سَنة ثلاث وعشرين ومئتين رضي الله عنها وأرضاها . [انتهىٰ « الصفوة » ٤/٨٣] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

---

(١) أي : محمد بن الحسن سأل ابنَ ملول .

ومنهن :

رابعة بنت إسماعيل ، زوج أحمد ابن أبي الحواري
رضي الله عنها

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال أحمد ابن أبي الحواري : قلت لرابعة بنت إسماعيل بعد أن تزوجتها وقد قامت بليل : قد رأينا أبا سليمان وتعبدنا معه ، ما رأيناه يقوم من أول الليل ، فقالت : سبحان الله! مثلك مَن يتكلم بهـٰذا ؟! إنما أقوم إذا نوديت .

وقال أحمد : جلست مرة آكل ، فاشتغلت هي بالذِّكر لله عز وجل ، فقلت لها : دعينا يهنينا طعامنا ، فقالت : لست أنا ولا أنت ممن يتنغص عليه الطعام إذا ذكر الآخرة .

وقال : قالت : أي أخي ؛ أعلمت أن العبد إذا عمل بطاعة الله عز وجل . . أطلعه الجبار علىٰ مساوىء عمله فتشاغل بها دون خلقه ؟

قال : وكانت لها أحوال شتىٰ ، فمرة يغلب عليها الحب ، ومرة يغلب عليها الأنس ، ومرة يغلب عليها الخوف ، فقال أحمد : ربما قلت لها : أصائمة أنت ؟ فتقول : وما مثلي يفطر في الدنيا ، وربما نظرت إلىٰ وجهها ، فيتحرك قلبي علىٰ رؤيتها ما لا يتحرك مع مذاكرة أصحابنا . . من آثار العبادة .

وكانت تقول لي : لست أحبك حب الأزواج ، إنما أحبك حب الإخوان ، وإنما رغبت فيك رغبة في خدمتك ، وكنت أحب أن يأكل مالي مثلك ومثل إخوانك .

وكانت لها سبعة آلاف ، فأنفقتها عليَّ .

وكانت إذا طبخت . . تقول : يا سيدي ؛ كُلْ فما نضج إلا بالتسبيح .

وكانت تقول : لست أستحل أن أمنعك نفسي ولا غيري ، اذهب فتزوج ، قال : فتزوجت ثلاثاً .

وكانت تطعمني اللحم وتقول : اذهب بقوَّتك إلىٰ أهلك ، وكنت إذا أردت جماعها

نهاراً . . قالت : أسألك بالله لا تفطِّرني اليوم ، وإذا أردتها بالليل . . تقول : أسألك بالله لما وهبتني لله الليلة .

وكانت تقول : ما سمعت الأذان قط . . إلا ذكرت منادي القيامة ، ولا رأيت الثلج . . إلا ذكرت تطاير الصحف ، ولا رأيت حرّاً[1] . . إلا ذكرت الحشر .

وقالت يوماً : أبعدوا عني هـٰذا الطشت ؛ فإنه مكتوب عليه : مات أمير المؤمنين هارون الرشيد ، قال : فنظروا ؛ فإذا هو قد مات اليوم .

قال : وسمعتها تقول : ربما رأيت الجن يذهبون ويجيئون ، وربما رأيت الحور العين يستترن مني بأكمامهن . وقالت بيدها علىٰ رأسها هـٰكذا .

قال : ودعوتها يوماً فلم تجبني ، فلما كان بعد ساعة . . أجابتني ، وقالت : إنما منعني أن أجيبك أن قلبي كان قد امتلأ فرحاً بربي عز وجل ، فلم أقدر أن أجيبك . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ٢١٢ـ٢١٣] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

---

(١) في « الصفوة » جراداً .

ومنهن :

أم هارون
رضي الله عنها

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال عبد العزيز بن عمير : كانت أم هارون من الخائفين العابدين ، قد أنزلت الدنيا منزلتها ، فكانت تأكل الخبز وحده .

وكانت إذا أتى الليل عليها . . تقول : ما أطيبَه! إني لأغتم بالنهار حتىٰ يجيء الليل .

وكانت تقوم الليل كله ، فإذا جاء السحر . . تقول : دخل قلبي الرَّوح .

وقال أحمد : خرجت أم هارون من قريتها تريد موضعها ، فصاح صبي : خذوه ، فسقطت أم هارون ، فوقعت علىٰ حجر ، فدميت وظهر الدم من مقنعتها .

وقال أبو سليمان : مَن أراد أن ينظر إلىٰ صعِقٍ صحيح . . فلينظر إلىٰ أم هارون .

وقال أبو سليمان : ما كنت أرىٰ أن يكون بالشام مثلها .

وقال أحمد ابن أبي الحواري : قالت لي زوجتي رابعة : ما دهنَتْ أم هارون رأسها منذ عشرين سَنة ، فإذا كشفنا رؤوسنا . . كان شعرها أحسن من شعورنا .

وقال قاسم الجوعي : مرضَتْ أم هارون ، فأتينا نعودها أنا وصاحب لي ، فدخلنا عليها وهي علىٰ طرف الدرجة ، فسألناها عن حالها ، فقلت : يا أم هارون ؛ أيكون من العُبَّاد من يشغله خوف النار عن الشوق إلى الجنان ؟! فقالت : أواه! وسقطت من الدرجة مغشياً عليها .

وقال قاسم : كانت أم هارون تأتي بيت المقدس من دمشق كل شهر علىٰ رجليها ، فدخلت عليها ، فقالت لي : يا قاسم ؛ كنت أمشي في طريق بيت المقدس ؛ فإذا قد عرض لي هـٰذا الكلب ـ يعني : الأسد ـ فمشىٰ نحوي ، فلما قرب مني . . نظرت إليه وقلت : تعال يا كلب ، إن كان لك رزق فيَّ . . فكُلْ ، فلما سمع كلامي . . أقعىٰ ، ثم ولىٰ راجعاً .

وقال أحمد : قلت لأم هارون : أتحبين الموت ؟ فقالت : لا ، قلت : ولم ؟ قالت :

لو عصيت آدمياً . . ما أحببت لقاءه ، فكيف أختار الموت مع كثرة ذنوبي وعصياني ؟! أو كما قال . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ٢١٤] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهن :

عمرة امرأة حبيب أبي محمد
رضي الله عنهما

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : عمرة امرأة حبيب كانت من المجتهدات في العبادة ، استيقظت ذات ليلة من منامها ، فوجدت زوجها نائماً ، فأيقظته ، ثم قالت له : قم يا رجل ، فقد ذهب الليل وجاء النهار ، وبين يديك طريق طويل بعيد ، وقوافل الصالحين قد سارت أمامنا ، وقد بقينا نحن متأخرين عنهم .

وقال حبيب أبو محمد : اشتكت عمرة من عينيها ، فقلت لها : كيف تجدين عينيك ؟ وما حالهما ؟ فقالت : وجع قلبي أشد عليَّ من وجع عيني . رضي الله عنها . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/٢٢] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهن :

أمةُ الجليل بنتُ عمروٍ العدوية
رضي الله عنها

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال مسمع بن عاصم : اختلف العابدون في تعريف الولاية علىٰ أقوال كثيرة ، ثم جاؤوا إلىٰ أمة الجليل ، واستأذنوا في الدخول إليها في منزلها ، فلما دخلوا . . قالوا لها ما جرىٰ بينهم من الكلام في تعريف الولاية ، وأن كل شخص ذهب إلىٰ شيء ، فما الذي عندك في ذلك ؟ فقالت : ساعات الولي ساعات شغل عن الدنيا ، ليس لولي في الدنيا من ساعة يتفرغ فيها لشيء من ذلك ، ثم أقبلت علىٰ أحدهم وقالت له : مَن حدثك أن ولياً من أولياء ٱلله سبحانه وتعالىٰ له هَمٌّ غير ٱلله عز وجل . . فلا تصدقه . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/٢٣] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهن :

عبيدة بنت أبي كلاب
رضي الله عنها

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كانت عبيدة من المراقبين لله تعالىٰ ، قيل لها يوماً : يا عبيدة ؛ ما الذي تشتهين ؟ فقالت : أشتهي الموت ، قيل لها : ولِمَ ؟ فقالت : لأني في كل يوم أصبح أخشىٰ أن أجني علىٰ نفسي جناية يكون فيها عطبي أيام الآخرة .

وقال عبد العزيز بن سليمان : كانت عبيدة وأبي يختلفان إلىٰ مالك بن دينار عشرين سَنة ، قال أبي : فما سمعتها يوماً تسأل مالكاً عن شيء ، إلا أنها قالت ذات يوم : يا أبا يحيىٰ ؛ متىٰ يبلغ المتقي الدرجة العليا التي ليس فوقها درجة ؟ فقال مالك : بخ بخ يا عبيدة! إذا بلغ المتقي تلك الدرجة التي ليس فوقها درجة . . لم يكن شيء أحب إليه من القدوم على ٱلله عز وجل ، قال : فصرخت عبيدة صرخة ، فخرت مغشياً عليها ، فما أفاقت إلا بعد حين .

قالوا : لقد ماتت عبيدة يوم ماتت وما خلَّفت في البصرة أفضل منها .

ولما ماتت رابعة العدوية رحمها الله . . رئيت في المنام ، فقيل لها : ما فعلت عبيدة بنت أبي كلاب ؟ قالت : هيهات هيهات! سبقتنا إلى الدرجات العُلىٰ ، فقيل لها : وبم ذاك وقد كنت عند الناس أكبر منها ؟ فقالت : فإن عبيدة لم تكن تبالي علىٰ أي حال أصبحت من الدنيا أو أمست ، رضي الله عنها . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ٢١ـ٢٢] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهن :

عفيرة العابدة
رضي الله عنها

قال أبو الفرج ـ رحمه ٱلله ـ : قصد جماعة من العابدين زيارة عفيرة العابدة ، فلما دخلوا منزلها . . قال بعضهم : يا عفيرة ؛ ادعي ٱلله عز وجل لنا ، فبكت ، ثم قالت : لو خرس الخاطئون . . ما تكلمت عجوزكم ، ولٰكن المحسن سبحانه وتعالىٰ قد أمر المسيء بالدعاء : جعل ٱلله عز وجل قِراكم من بيتي الجنة ، وجعل ذِكر الموت مني ومنكم علىٰ بال ، وعفا عنا أجمعين ، وحفظ علينا الإيمان ، وهو أرحم الراحمين ، وصلى ٱلله علىٰ سيد المرسلين محمد وآله وصحبه وسلم أجمعين ، كلما ذكره الذاكرون ، وكلما سَها عن ذكره الغافلون . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ٢٠ـ٢١] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهن :

شعوانة

رضي الله عنها

قال أبو الفرج : كانت شعوانة لا تفتر من البكاء ، فقيل لها في ذلك ، فقالت : وٱلله ؛ لوددت أني أبكي حتىٰ تنقطع دموعي ، ثم أبكي دماً حتىٰ لا تبقىٰ جارحة من جسدي فيها دم ، وأنَّىٰ لي بالبكاء ؟!

وكانت تقول : مَن استطاع منكم أن يبكي.. فليبكِ ، وإلا.. فليرحم الباكين ؛ فإن الباكي إنما يبكي لمعرفته بنفسه وبما جنىٰ عليها .

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله : أتيت شعوانة فسألتها أن تدعو لي ، فقالت : يا فضيل ؛ أما بينك وبين ٱلله عز وجل ما إن دعوتَه استجاب لك ؟ قال الراوي : فشهق الفضيل شهقة وخر مغشياً عليه ، وما أفاق إلا بعد حين .

وكانت شعوانة تقول : إلـٰهي وسيدي ومولاي ؛ إنك لتعلم أن العطشان من حبك لا يروىٰ أبداً .

وقيل لكردوية بنت عمرو البصرية وكانت تخدم شعوانة[1] : ما الذي حصل لك من بركات خدمة شعوانة ؟ فقالت : ما أحببت الدنيا منذ خدمتها ، ولا اهتممت لرزقي ، ولا عَظُمَ في عيني صاحب دنيا لأجل دنياه ، ولا استصغرت أحداً من المسلمين . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ٣٣ـ٣٥] .

---

(١) الصفوة (٤/ ٢٥ـ ٢٦) .

خَاتِمَة

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا ٱلله عنهما ـ : أول مقامات العبد : التوبة النصوح ، وهي ما كان لله عز وجل خالصاً ، وعنها تنشأ استنارة القلب .

وقيل : أول المقامات اليقظة ، وهي القومة لله عز وجل ؛ قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ ، وهي في الحقيقة عبارة عن الانتباه من رقدة الغفلة ، والتجافي عن دار الغرور والمهلة ، وهي الأصل في عمدة التائبين .

وقيل : اليقظة تنبيه من الحق جل جلاله بسبب وبغير سبب .

فأما الذي بغير سبب . . فهي نفحة من نفحات الحق[1] ، فيشهد الحق من غير نصب ولا تعب .

وأما الذي بسبب . . فهو إما أن يحصل من نفس العبد أو من غيره .

فأما الذي من نفسه . . فقد يكون بنظر واستدلال ؛ كالنظر في الآفاق وفي الأنفس ، كما قال تعالىٰ : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ ، وقد يكون مما أجراه ٱلله عز وجل علىٰ لسانه ؛ كما جرىٰ لشعوانة العابدة رحمها الله وهي تضرب بالدف وتقول :

خاطبني الحق من جَناني ... فكان وعظي علىٰ لساني

فتنبهَتْ ، وكسرت العود ، وأقبلت على العبادة والزهادة ، والعزوف عن الدنيا وعن كل ما يقطعها عن ٱلله عز وجل .

وأما الذي من غيره . . فهو إما من كتاب ٱلله عز وجل ؛ كما جرىٰ لغير واحد من العارفين ، منهم : الفضيل بن عياض رحمه الله حين سمع قارئاً يقرأ : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ ، قال : بلىٰ يا رب ؛ قد آن قد آن ، فتوجه إلىٰ مكة ـ شرفها ٱلله تعالىٰ ـ وأقام بها إلىٰ أن مات ، وكان من أمره ما كان .

أو أن يكون من سُنة رسول الله صلى الله عليه وسلّم ؛ كما قد ورد عنه صلى الله عليه

---

(١) في بعض النسخ : (الجذب) .

وسلّم أنه قال : « لو تعلمون ما أعلم . . لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً » .

وإما أن يكون من واعظ آخر ، وهو إما بلسان الحال أو بلسان المقال .

فأما ما كان بلسان المقال . . فهو إما مِن أعلىٰ منه فتنفعل النفس له ؛ لعظمة وَعْظه ووقور حرمته في صدره ، وأصل ذلك صدق الواعظ مع ٱلله عز وجل ، وقصده بالموعظة وجه ٱلله عز وجل ، والنصح لعامة المسلمين ؛ كما جرىٰ لغير واحد من العارفين ، منهم : أبو محمد حبيب الفارسي رحمه الله حين حضر مجلس الإمام أبي سعيد الحسن البصري رحمه الله .

وإما أن يكون الواعظ مساوياً ؛ كما جرىٰ لغير واحد من العارفين ، منهم : الشبلي والخواص رحمهما الله ؛ فإنهما تابا في مجلس خير النساج رحمه الله .

وإما أن يكون دونه ؛ كما جرىٰ لغير واحد من العارفين ، منهم : أبو سليمان الداراني رحمه الله حين حضر مجلس واعظ ثلاث مرات ، فكسر آلات المخالفة ، ولزم الطريق ، وتعبد ، فقال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله : عصفورٌ اصطاد كَرْكياً . أراد بالعصفور : الواعظ ، وبالكَرْكي : أبا سليمان الداراني .

وقد تكون الموعظة من العدو ؛ كما جرىٰ لغير واحد من العارفين ، منهم : شقيق البلخي رحمه الله حين سافر إلىٰ بلاد الكفر لتجارة ، فدخل بيت الأصنام ، فرأىٰ كبيرهم وعالمهم وهو شاب حسن الصورة ، وعليه ثياب أرجوانية ، وقد حلق رأسه ولحيته ، فقال له شقيق : يا هـٰذا ؛ إن لك إلـٰهاً صانعاً حياً عالماً قادراً خالقاً رازقاً ، فهلا عبدته وتركت عبادة هـٰذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ؟ فقال له : إن كان ما تقول حقاً . . فلأي شيء تعنيت في التجارة إلىٰ هـٰهنا وهو قادر علىٰ أن يرزقك ببلدك وتربح التعب ؟ فقال له : صدقت ، واستيقظ ، ولزم الطريق ، وتعبد إلىٰ أن كان من أمره ما كان ، وأنشد بلسان الحال :

جزى ٱلله مَن عاديتُ خيراً فإنني ... سأحمَده من حيث لا أحمَد الخِلاَّ
تتبَّـعَ عيبـي جـاهـداً فـاجتنبتُـه ... وناقشني فضلاً قبلت به الفضلا

وأما ما كان بلسان الحال . . فهو إما بحسب العادة أو بخرقها .

فأما ما كان بحسب العادة . . فهو كثير ؛ مثل : رؤية الموتىٰ ، والاتعاظ بأهل البلايا ، وقد قالوا : السعيد مَن وُعِظ بغيره ، والشقي مَن اتعظ به غيره .

وأما ما كان بخرق العادة . . فكما جرىٰ لغير واحد من العارفين :

منهم : أبو الفيض ذو النون المصري رحمه الله ، أنه قال : خرجت من مصر إلىٰ بعض

القرىٰ ، فنمت تحت شجرة وفتحت عيناي ؛ فإذا بقنبرة عمياء قد سقطت من وكرها على الأرض ، فانشقت الأرض ، فخرج منها سكرجتان ، إحداهما : من ذهب فيها سمسم ، والأخرىٰ : من فضة فيها ماء ، فجعلت تأكل من هـٰذه وتشرب من هـٰذه ، فقلت : حسبي ، ولزمت الباب .

ومنهم : شاه بن شجاع الكرماني ، وقد ذكرنا سبب عزوفه عن الدنيا وزهده فيها في ترجمته .

وقد يكون التنبيه أيضاً من حيث خرق العادة بالمقال في نوم أو يقظة ؛ كما جرىٰ لغير واحد من العارفين ، منهم : إبراهيم بن أدهم رحمه الله ؛ حيث نودي من قربوس سرجه كما مر في ترجمته .

وقد يكون بطريق ما يسمعه من الناس ؛ كما جرىٰ لغير واحد من العارفين ، منهم : داوود الطائي رحمه الله ، حيث نحاه المطرقون[1] بين يدي حميد كما مر في ترجمته .

وقيل : إنه سمع قائلاً يقول : الخيار سبعة بدانق ، فقال : هـٰذا الخيار سبعة بدانق ، فما ظنك بالأشرار ؟! أو كما قال .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) هم الذين يفسحون الطريق أمام السلطان .

ومنهن :

آمنة الرملية
رضي الله عنها

قال أبو الفرج ـ رحمه ٱلله ـ : قال جعفر بن محمد : اعتل بشر بن الحارث رحمه الله ، فعادته آمنة من الرملة ، فبينما هي عنده ؛ إذ دخل أحمد ابن حنبل رحمه الله يعوده ، فقال : مَن هـٰذه ؟ فقال بشر : هـٰذه آمنة الرملية ، بلغتها علَّتي ، فجاءت من الرملة تعودني ، فقال أحمد لبشر : سلها تدعو لنا ، فقال لها بشر : ادعي ٱلله لنا ، فقالت : اللهم ؛ إن بشر بن الحارث وأحمد ابن حنبل يستجيران بك من النار . . فأجرهما .

قال أحمد ابن حنبل : ثم انصرفت ، فلما كان من الليل . . طُرِحَتْ إليَّ رقعة مكتوب فيها : بسم ٱلله الرحمـٰن الرحيم ، قد فعلنا ذلك ولدينا مزيد . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/٢١٥] .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهن :

منفوسة بنت زيد ابن أبي الفوارس
رضي الله عنها

قال أبو الفرج ـ رحمه ٱلله ـ : أصيبت منفوسة بابن لها ، فجاء الناس إليها يعزونها ، فوجدوه في حجرها وهي تقول : وٱلله ؛ لَتقدُّمُكَ أمامي . . أحب إلي من تأخرك خلفي ، ولَصبري عنك . . أولىٰ من جزعي عليك ، ولئن كان فراقك حسرة . . فإن توقع أجرك لخيرة .

ثم قالت : لله در عمرو بن معدي كرب حيث يقول :

وإنـا لَقـوم لا تفيـض دمـوعنـا علىٰ هالك منا وإن قصم الظهرا[1]

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

(١) الصفوة (٤/ ٢٧١) .

الفصل الثاني

في جماعة عرفت أحوالهم

وخفيت أسماؤهم من الرجال والنساء

رضوان الله تعالىٰ عليهم أجمعين

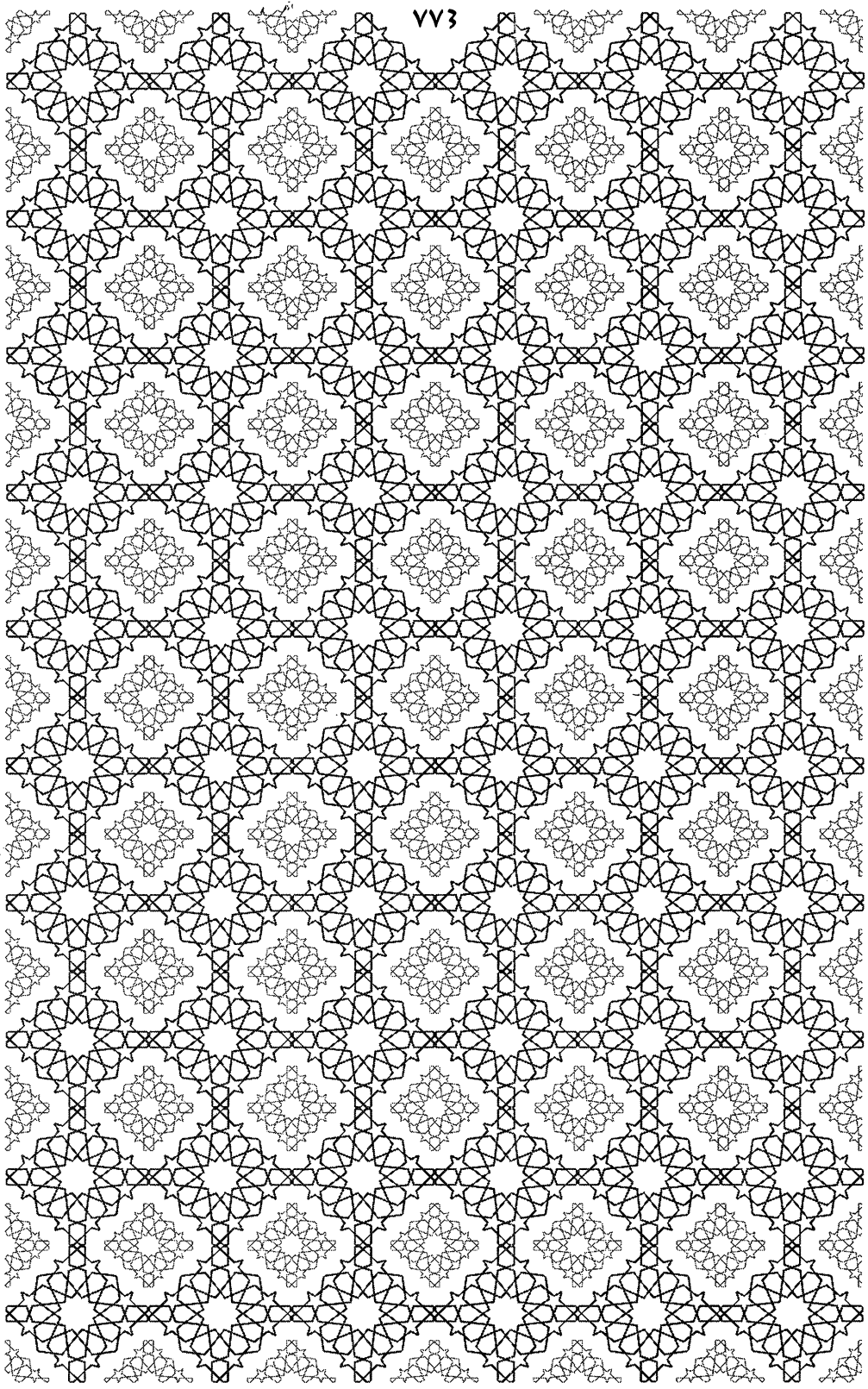

قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه ٱلله ـ : فمنهم من حاله عَلِيٌّ واسمه خَفِيٌّ :

قال أبو عبيد البسري : سألت رجلاً باللُّكَّام[1] : ما الذي أجلسك في هـٰذا الموضع ؟ فقال لي : وما سؤالك عن شيء إن طلبتَه . . لم تدركه ، وإن لحقته . . لم تقع عليه ؟! فقلت له : بالله أخبرني ؛ لعل ٱلله عز وجل أن ينفعني به .

فقال : علمي بأن مجالستي مع الله عز وجل ساعة واحدة بل لحظة واحدة . . تستغرق جميع نعيم الجنان كلها ، ثم قال : أوه! قد كنت أظن أن نفسي ظفرَتْ ، ومِن الخلق قد هربَتْ ، فإذا أنا كذاب في مقامي هـٰذا ، لو كنت محباً لله عز وجل صادقاً . . لَمَا اطلع أحد من الناس عليَّ .

فقلت له : أمَا علمت أن المحبين لله عز وجل هم خلفاء الله عز وجل في أرضه ، لا يزالون مستأنسين بخلقه يرشدونهم إلىٰ طاعته ؟

قال : فصاح فيَّ صيحة عظيمة وقال لي : يا مخدوع ؛ لو شممت رائحة الخلد وعاين قلبك ما وراء ذلك من القرب . . لما احتجت إلىٰ أن ترىٰ فوق ما رأيت .

ثم قال : يا سماء ويا أرض ؛ اشهدا عليَّ أنه ما خطر علىٰ قلبي ذِكر الجنة والنار قط ، اللهم ؛ إن كنت صادقاً . . فأمتني الآن . قال : فوٱلله ما سمعت له كلاماً بعد ذلك ، ووقع ميتاً ، فخفت أن يسبق إليَّ ظنٌّ من الناس ، قال : فتركته ومضيت ، فبينا أنا مار . . نظرت ؛ فإذا بجماعة قالوا : آجرك ٱلله ، قد قبض الفتىٰ رحمه ٱلله تعالىٰ ، قال : فرجعت معهم وصلينا عليه ، ثم قلت لهم : بالله مَن هـٰذا الرجل ؟ ومَن أنتم ؟ قال : فقالوا : ويحك! هـٰذا رجل به كان يُمطِر الله عز وجل من السماء المطر ، قلبه علىٰ قلب إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، أمَا سمعته يخبر عن نفسه أن ذِكر الجنة والنار ما خطر علىٰ قلبه قط ، فهل كان أحد هـٰكذا إلا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ؟

قال : قلت : فبالله مَن أنتم ؟ قالوا : نحن السبعة المخصوصون من الأبدال ، قلت : فبالله علموني شيئاً أنتفع به ، قالوا : لا تُحِبَّ أن تُعرَف ، ولا تحب أن يُعرف أنك ممن لا يحب أن يعرف . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/١٦٧ـ١٦٨] .

---

(١) **اللُّكَّام** : جبل بالشام امتداد لجبال لبنان ، مطل علىٰ أنطاكية ، وكان يأوي إليه كثير من العباد .

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه ٱلله ـ : قال محمد بن المنكدر : كنت ليلة مواجهاً المنبر في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلّم ؛ وإذا شخص في جوف الليل قد قنَّع رأسه ، فسمعته يقول : اللهم ؛ يا رب ؛ يا رب ؛ إن القحط قد اشتد علىٰ عبادك وأنت أعلم ، وإني أسألك ـ أو قال : أقسم عليك ـ يا ربي بعزتك وجلالك إلا سقيتهم .

قال ابن المنكدر : فلم تكن إلا ساعة وإذا سحابة قد أقبلت ، ثم أرسل ٱلله سبحانه وتعالى المطر كأفواه العَزَالي[1] ، فقلت : مثل هـٰذا بالمدينة وأنا لا أعرفه ؟! فلما سلم الإمام من صلاة الصبح . . تقنع وانصرف ، قال : فتبعته ، فدخل دار أنس ، ثم إنه دخل موضعاً وأخرج مفتاحاً ، ففتح ثم دخل[2] .

قال ابن المنكدر : فرجعت ، فلما أسفر النهار . . أتيته ، فسمعت نجراً في بيته ، فسلمت ، ثم قلت : أأدخل ؟ قال : ادخل ، فإذا هو ينجر أقداحاً ، فقلت له : كيف أصبحت رحمك ٱلله تعالىٰ ؟ قال : فاستعظم هـٰذا القول مني ، فقلت له : إني سمعت إقسامك البارحة على ٱلله عز وجل ، يا أخي ؛ هل لك في نفقة تغنيك عن هـٰذا وتفرغك لما تريد من أمر الآخرة ؟ فقال : لا ، ولـٰكن أريد غير ذلك ، ألاَّ تذكرني لأحد ، ولا تذكر هـٰذا لأحد حتىٰ أموت ، ولا تأتيني يابن المنكدر ؛ فإنك إن تأتيني . . شهرتني للناس ، فقلت : إني أحب أن ألقاك ، قال : اِلْقَني في المسجد ، وكان فارسياً ، قال : فما ذكرت ذلك لأحد حتىٰ مات رحمه الله تعالىٰ .

قال ابن وهب : ثم إن الفارسي انتقل من تلك الدار في ذلك اليوم ، فلم يُرَ ولم يعلم أين ذهب ، فقال أهل الدار : الله بيننا وبين ابن المنكدر ، أخرجَ عنا الرجل الصالح . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ١٧٢] . والله أعلم .

---

(١) **العزالي** : جمع : عزلاء ، وهي : مصب الماء من القربة ونحوها ، وهـٰذا كناية عن شدة المطر وغزارته .

(٢) في « الحلية » : (حتىٰ أتىٰ دار أنس ، فأخرج مفتاحاً ففتح ثم دخل) .

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه ٱلله ـ : قال عبد ٱلله بن عمير : خرجت مع أبي من قرية نريد قرية أخرىٰ ، فضللنا عن الطريق ، فبينا نحن كذلك ؛ إذا برجل قائم يصلي ، فدنونا منه ، فإذا عنده حوض يابس وقربة يابسة ، فانتظرناه ليفرغ من صلاته ، فلم يفرغ ، فأقبل إليه أبي وقال : يا هـٰذا ؛ إنا قد ضللنا عن الطريق ، فخفَّفَ الصلاة وانفتل ، وأومأ إلينا بيده إلى الطريق .

فقال له أبي : ألا تجعل في قربتك ماء ؟ فأومأ بيده أن لا ، قال : فما برحنا حتىٰ جاءت سحابة ، فأمطرت ، فامتلأ ذلك الحوض من الماء ، ثم مضينا حتىٰ أتينا القرية ، فذكرنا لهم شأن الرجل ، فقالوا : ذلك فلان ، لا يكون بأرض . . إلا سقوا ، فقال أبي : الحمد لله ، كم من عبد لله صالح لا نعرفه! انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ١٧٢ـ١٧٣] .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال الحافظ ـ رحمه ٱلله ـ : قال مالك بن دينار : حبس عنا المطر بالبصرة ، فخرجنا يوماً بعد يوم نستسقي ، فلم نر أثر الإجابة ، فخرجت أنا ، وعطاء السَّليمي ، وثابت البناني ، ويحيى البَكَّاء ، ومحمد بن واسع ، وأبو محمد السختياني ، وأبو محمد حبيب الفارسي ، وحسان ابن أبي سنان ، وعتبة الغلام ، وصالح المري ، حتىٰ صرنا إلىٰ مصلىٰ بالبصرة ، وخرج الصبيان ، واستسقينا ، فلم نر أثر الإجابة .

فلما انتصف النهار ، وانصرف الناس ، وبقيت أنا وثابت البناني في المصلىٰ ، فلما أظلم الليل ؛ إذا بشخص أسود ، مُهيَّج الوجه[1] ، دقيق الساقين ، عظيم البطن ، عليه مئزران من صوف ، فقومت جميع ما عليه يساوي درهمين ، فجاء إلىٰ ماء ، فتوضأ ، ثم دنا من المحراب فصلىٰ ركعتين خفيفتين ، ثم رفع طرْفه إلى السماء وقال : إلـٰهي وسيدي ومولاي ؛ أسألك بعزتك وجلالك أن تسقي عبادك من خزائنك التي لا تنقص ولا تنفد ، إلـٰهي ؛ بحبك لي إلا سقيتنا غيثك الساعة ، قال مالك : فما تم الكلام حتىٰ تغيمت السماء وجاء المطر كأفواه القرب .

قال : فتبعناه ، وقلنا له : كيف قلتَ بحبك لي ؟ من أين علمت أنه يحبك ؟ فقال : تنح عن همتي ، لا تعذبها يا من اشتغل عن الله عز وجل بنفسه ، أين كنتُ أنا حين قَسَم لي التوحيد وخصني بمعرفته ؟! أفتُراه سبحانه وتعالىٰ بدأني بذلك إلا لمحبته إياي سبحانه وتعالىٰ ؟! ومحبتي له سبحانه وتعالىٰ علىٰ قدري حقير ضئيل لا يُذكر ، أيش أنا ؟ وأيش محبتي ؟ إنما يقع الإقسام علىٰ رب الأرباب به عز وجل سبحانه وتعالىٰ .

قال : ثم بادر يسعىٰ ، فقلت له : ارفق بنفسك ، فقال : أنا مملوك ، عليَّ فرض من طاعة مالكي الصغير ، قال : فتبعناه حتىٰ دخل دار نخَّاس ، فأتيت النخاس قلت له : عندك

---

(١) **مُهَيَّج الوجه** : مضطرب الوجه ، وفي بعض النسخ : (بهيج الوجه) بمعنىٰ حسن الوجه .

غلام للخدمة ؟ قال : نعم ، عندي مئة غلام ، وجعل يعرض عليَّ واحداً واحداً ، وأنا أقول : غير هـٰذا .

فلما أردنا الخروج . . دخلت أنا حجرة خربة في خلف داره ، وإذا الأسود نائم وكان وقتَ القيلولة ، فقلت للنخاس : بعني هـٰذا الأسود ، فقال : يا أبا يحيىٰ ؛ ذاك غلام ليس يقدر على الخدمة لضعفه ، وليس له همة إلا البكاء بالليل والنهار والصلاة والنوم ، فقلت : ولذلك أريده ، فدعاه ، فخرج وهو ناعس ، فاشتريته بعشرين ديناراً بعد أن أبرأت مالكه من كل عيب فيه .

فلما أتيت به المنزل . . قال : يا مولاي ؛ لماذا اشتريتني وأنا لا أصلح لخدمة المخلوقين ؟ فقلت له : حبيبي ؛ إنما اشتريناك لنخدمك بأنفسنا علىٰ رؤوسنا ، فقال : ولِمَ ذاك ؟ فقلت له : ألست صاحبنا البارحة في المصلىٰ ، فقال : وقد اطلعتما علىٰ ذلك ؟ فقلت له : أنا الذي اعترضت عليك في الكلام .

قال : فجعل يمشي حتىٰ صار إلى المسجد ، فقال : أريد أن أصلي ركعتين في هـٰذا المسجد ، فدخل ، فلما صلىٰ . . رفع طرْفه إلى السماء وقال : إلـٰهي وسيدي ومولاي ؛ سرٌّ كان بيني وبينك أظهرته للمخلوقين ، وشهرتني ، فكيف يطيب لي العيش بعد ذلك وقد اطلع علىٰ حالي غيرك ؟!

إلـٰهي ؛ بعزتك وجلالك أقسمت عليك إلا قبضت روحي الساعة ، ثم سجد ، فانتظرته ساعة ، فلم يرفع رأسه ، فحركته ؛ فإذا هو ميت ، فمددت يديه ورجليه ، وإذا وجهه قد ارتفع السواد عنه وصار كالقمر ، وإذا بشاب قد أقبل من الباب ، وقال : السلام عليكم ورحمة ٱلله وبركاته ، أعظم الله أجركم وأجرنا في أخينا ، هـٰذا الكفن فكفنوه فيه ، فناولني ثوبين ما رأيت مثلهما ، ثم خرج ، فكفناه بهما .

وقال مالك : وبقبره يستسقىٰ وتطلب الحوائج إلىٰ يومنا هـٰذا .

قال ثابت البناني : كنت واقفاً بعرفة ، وإذا بشابين عليهما العباء ، فقال أحدهما لصاحبه : كيف أنت يا حبيب ؟ فأجابه الآخر : لبيك يا محب ، فقال : أترىٰ أن الله عز وجل الذي تحاببنا فيه وتواددنا من أجله سبحانه وتعالىٰ يعذبنا غداً في القيامة ؟ قال : فسمعت قائلاً يقول ـ سمعَتْه الآذان ولم تره العيون ـ : ليس بفاعل ، ليس بفاعل . انتهىٰ [« الحلية » ١٠/ ١٧٣ـ١٧٧] .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه ٱلله ـ : قال محمد بن المنكدر : كنت جالساً إلىٰ سارية في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وحصل في سَنة من السنين قحط لأهل المدينة ، فخرجوا يستسقون . . فلم يُسقَوا ، فلما كان من الليل وأنا مستند إلىٰ تلك السارية ؛ وإذا رجل أسود تعلوه صفرة ، متزر بكساء ، وعلىٰ رأسه كساء أصغر منه ، فتقدم إلىٰ سارية أخرىٰ قدامي وصلىٰ ركعتين ، ثم جلس ورفع يديه ، وقال : يا رب ؛ خرج أهل حرم نبيِّك يستسقون ، وأنت أعلم بما يصلحهم ، وأنا أقسم عليك بعزك الذي لا يرام إلا سقيتهم .

قال ابن المنكدر : فما وضع يديه حتىٰ سمعت الرعد ، ثم جاءت السماء كأفواه القرب ، فلما رأى المطر . . حمد ٱلله تعالىٰ بمحامد لم أسمع بمثلها .

ثم قال : إلـٰهي وسيدي ومولاي ؛ مَن أنا ؟! وما قدري حيث استجبت لي ؟ ولـٰكن أنت الجابر للكسير الحقير ، وأنت علىٰ كل شيء قدير ، ثم قام وتوشح بكسائه الذي كان متزراً به ، وألقى الكساء الآخر تحت رجليه ، ولم يزل ساجداً وراكعاً إلىٰ أن برق الصبح ، فلما أحس بالصبح . . أوتر ، ثم صلىٰ ركعتين سُنة الفجر ، ثم أقيمت صلاة الصبح ، فدخل مع الناس في الصلاة ، ودخلت معه ، فلما سلم . . قام فخرج ، فخرجت خلفه ، ولم يزل يرفع ثوبه وهو يخوض الماء ، ولم أدر أين ذهب .

فلما كانت الليلة الثانية . . جئت إلى السارية ، فاستندت إليها ، فجاء ، ولا زال يصلي إلى الصبح ، ثم صلىٰ مع الناس الفجر وخرج ، فخرجت خلفه أتبعه ، فدخل داراً أعرفها ، فرجعت إلى المسجد ، فلما طلعت الشمس . . صليت الضحىٰ وخرجت حتىٰ أتيت الدار ، وإذا هو قاعد يخرز[1] ، وإذا هو إسكافي[2] ، فلما رآني . . عرفني ، وقال : يا أبا عبد ٱلله ؛

---

(١) **يخرز** : يخيط .

(٢) **الإسكافي** : صانع الأحذية ومصلحها .

ألك حاجة ؟ تريد أن أعمل لك خفاً ؟ فجلست وقلت : ألست صاحبي بارحة الأولىٰ ؟ فتغير وجهه وصاح بي وقال : يابن المنكدر ؛ ما أنت وذاك ؟! وغضب ، وخفت أنا ـ وٱلله ـ من غضبه ، وقلت : أخرج من عنده الآن ، فخرجت .

فلما كان الليلة الثالثة . . جئت إلى السارية في المسجد ، فلم يجىء ، قال : فقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون مما صنعت .

فلما أصبحت . . أتيت الدار التي كان فيها ، وإذا الباب مفتوح ، وليس فيه أحد ، ولا شيء من الحوائج ، فقال أهل الدار : أي شيء بينك وبين الذي كان ساكناً هنا ؟ أيش قلتَ له ؟ فإنك لما خرجت من عنده . . أخذ حوائجه جميعها في وسط كسائه ، ثم خرج ، فلم ندر أين ذهب .

قال محمد بن المنكدر : فما تركت بالمدينة داراً أعلمها إلا وقد طلبته فيها ، فلم أجده . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ١١١ـ١١٢] .

وٱلله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه ٱلله ـ : قال أبو عامر الواعظ : بينا أنا جالس في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلّم ؛ إذ جاءني غلام أسود برقعة ، فإذا فيها مكتوب : بسم ٱلله الرحمـٰن الرحيم ، متعك ٱلله تعالىٰ بمسامرة الفكرة ، ونعَّمك بمؤانسة العبرة ، وأفردك بحب الخلوة .

يا أبا عامر ؛ أنا رجل من إخوانك ، بلغني قدومك المدينة ، فسررت بذلك ، وأحببت زيارتك ، وبي من الشوق إلىٰ مجالستك والاستماع لمحادثتك ما لو كان فوقي . . لأظلَّني ، أو لو كان تحتي . . لأقلَّني ، فسألتك بٱلله الذي حباك بالبلاغة لما أسعدتني بزيارتك . والسلام .

قال أبو عامر : فقمت مع الرسول حتىٰ أتىٰ بي إلىٰ فناء ، فأدخلني منزلاً رحيباً خرباً ، فقال لي : قف هـٰهنا حتىٰ أستأذن لك ، فوقفت ، فدخل ، ثم خرج وقال : ادخل ، فدخلت ؛ فإذا بيت مفرد في الخربة له باب من جريد النخل ، وإذا كهل قاعد مستقبل القبلة تخاله من الوله مكروباً ، قد ظهر في وجهه الأحزان ، وقد ذهبَتْ من البكاء عيناه ومرضت .

فسلمت عليه ، فرد عليَّ السلام ، ثم تحلحل[1] للقيام ، فإذا هو أعمىٰ أعرج مسقام[2] ، فقال لي : يا أبا عامر ؛ غسَّل ٱلله عز وجل من رين الذنوب قلبك ، لم يزل قلبي إليك تواقاً ، وإلى استماع الموعظة منك مشتاقاً ، وبي جرح قد أعيى المتطببين دواؤه ، وقد بلغني نفع مراهمك للجراحات ، فعالجني ببعضها ؛ فإني ممن يصبر علىٰ مرارة الدواء رجاءً للشفاء .

قال أبو عامر : فنظرت إلىٰ منظر بهرني ، وسمعت كلاماً قطَّعني ، فقلت له : يا شيخ ؛ ارم ببصر قلبك في ملكوت السماء ، واجعل سمع معرفتك بالقيوم بجميع من في الأرض

---

(١) **تحلحل** : تحرك وزال عن موضعه .

(٢) **مسقام** : بمعنىٰ سقيم ، وهو المريض الكثير السقام .

والسماء ، ومثِّل في حقيقة إيمانك جنة المأوىٰ ، فترىٰ ما أعد ٱلله تعالىٰ فيها للأولياء ، ثم فكِّر في نار لظىٰ ، فترىٰ ما أعد ٱلله تعالىٰ للأشقياء ، فشتان ما بين الدارين ، أليس الفريقان في الموت سواء ؟! قال : فصاح الشيخ صيحة والتوىٰ ، وقال : يا أبا عامر ؛ وقع ـ وٱلله ـ دواؤك في قلبي علىٰ دائي ، وأرجو أن يكون فيه شفائي ، زدني رحمك ٱلله تعالىٰ .

فقلت له : راقب ٱلله عز وجل في الخلوات ؛ فإنه سبحانه وتعالى العالم بكل الخفيات ، والمطلع علىٰ ما تجنُّه الأسرار والضمائر .

قال : فصاح كصيحته الأولىٰ ، ثم قال : يا مولاي ؛ مَن لفقري ؟! مَن لفاقتي ؟! مَن لذنبي ؟! مَن لخطيئتي غير عفوك ورحمتك ؟! أنت لي يا أرحم الرحمين ، ثم خر ميتاً .

قال أبو عامر : فقلت : ماذا جنيت علىٰ نفسي ؟ فبينا أنا كذلك ؛ إذ خرجت إلي جارية عليها مدرعة وخمار من صوف ، وآثار النحول من العبادة ، وقد تورمت قدماها ، فقالت لي : أحسنت ـ وٱلله ـ يا حادي قلوب العارفين ، يا أبا عامر ؛ هٰذا أبي وهو مبتلىٰ منذ عشرين سَنة ، صلىٰ حتىٰ أقعد ، وبكىٰ حتىٰ عمي ، وكان يتمنىٰ لقاءك .

وكان يقول : إنه حضر مجلسك مرة ، وإنك أحييت موات قلبه .

وكان يقول : إن سمعته مرة أخرىٰ . . قتلني ، فجزاك ٱلله مِن واعظ خيراً ، ثم أكبت علىٰ أبيها تقبل عينيه وتبكي .

قال أبو عامر : فقلت لها : إن أباك قد قضىٰ نحبه ، وانتقل إلىٰ دار الجزاء ، وعاين كل ما عمل ؛ فإن أعماله محفوظة عليه وعلىٰ جميع الخلق في كتاب ، فمَن كان محسناً . . فله الزلفىٰ ، ومَن كان مسيئاً . . فله نار تلظىٰ .

قال : فصاحت الجارية صيحة كصيحة أبيها ، وجعلت ترشح عرقاً ، ثم خرجت مبادرة إلىٰ مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، ولا زالت تصلي وتدعو وتستغفر ٱلله تعالىٰ إلى العصر ، ثم رجعت فماتت ، فحضرت جنازتهما ، وسألت عنهما ، فقيل لي : مِن ولد الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين .

قال أبو عامر : فما زلت جزعاً حزيناً مما رأيت من حالهما ، واتفق لي في بعض الليالي أني رأيتهما في المنام وعليهما حلتان خضراوان ، فقلت : مرحباً بكما وأهلاً وسهلاً ، فما زلت حذراً مما وعظتكما به ، فما الذي صنع ٱلله تعالىٰ بكما ؟ فقال الشيخ :

أنــت شــريكــي فــي الــذي نلتُــه مستــــاهــــلاً ذاك أبـــا عـــامـــرِ
وكـــل مَـــن أيقـــظ ذا غفلـــة فنصـــف مـــا يعطـــاه لـــلآمـــرِ

ثم قال : قد غفر ٱلله تعالىٰ لنا ، وأباحنا الجنة بفضله وكرمه ، قال : ثم استيقظت . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/١١٣ـ١١٥] .

* * *

ومنهم :

عابد آخر من عقلاء المجانين
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه ٱلله ـ : قال محمد ابن أبي فديك : كان عندنا رجل يكنىٰ بأبي نصر ، ذاهبَ العقل ، في غير ما الناس فيه ، لا يتكلم حتىٰ يُكلَّم .

وكان يجلس في آخر مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وكان إذا سئل عن شيء . . أجاب جواباً حسناً ، فأتيته يوماً وعنده جماعة من الفقراء ، فوجدته منكِّساً رأسه ، واضعاً جبهته بين ركبتيه ، فحركته ، فانتبه فزعاً ، فأعطيته شيئاً ، فأخذه وقال : قد صادف منا حاجة ، فقلت له : يا أبا نصر ؛ ما الشرف ؟ قال : أن تتحمل عن عشيرتك ما نابهم ، وأن تقبل عذر محسنهم ، وتتجاوز عن قبيح مسيئهم .

قلت : فما المروءة ؟ قال : إطعام الطعام ، وإفشاء السلام ، والصلاة بالليل والناس نيام .

قلت : فما السخاء ؟ فقال : جُهد من مُقِلٍّ .

وقال محمد ابن أبي فديك : قدم هارون الرشيد ، فأُخلي له المسجد ، فوقف عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلّم وفي موقف جبريل عليه الصلاة والسلام وعند منبره صلى الله عليه وسلّم ، ثم قال : قفوا بي في الموضع الذي كان فيه أصحاب الصفة ، وكان في ذلك الموضع جماعة من الفقراء منهم أبو نصر ، فلما جاء الرشيد إلى الموضع الذي هُمْ فيه . . حول أبو نصر وجهه ، فقيل له : هـٰذا أمير المؤمنين ، فرفع رأسه إليه وقال له : أيها الرجل ؛ إنه ليس بين عباد ٱلله وبين ٱلله عز وجل أحد من الخلق مسؤول عنهم غيرك ، وإن ٱلله عز وجل لَمُسائلُك عنهم كلِّهم ، فأَعِدَّ للمسألة جواباً ، وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لو ضاعت سخلة علىٰ جانب الفرات . . لخاف عمر أن يسأله ٱلله تعالىٰ عنها ، فبكى الرشيد ثم قال : يا أبا نصر ؛ إن رعيتي وزماني غير رعية عمر رضي الله عنه وزمانه .

فقال له : ليس هـٰذا ـ وٱلله ـ بمغن عنك ، فانظر لنفسك ؛ فإنك وعمرَ رضي الله عنه تُسألان عما خولكما الله تعالىٰ .

فدعا الرشيد بصُرَّة فيها ثلاث مئة دينار فقال : خذ هـٰذه يا أبا نصر ، فقال أبو نصر : ما أنا إلا واحد من هـٰذه الفقراء ، ادفعوها إلىٰ شخص يفرقها عليهم بالسوية ، ويجعلني رجلاً منهم .

وكان أبو نصر يخرج في كل جمعة لصلاة الغداة ، ثم يدخل السوق مما يلي الثنية ، فلا يزال يقف علىٰ مَرْبَعَةٍ مَرْبَعَةٍ ، ويقول : يا أيها الناس ؛ ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ .

ثم يقول : إن العبد إذا مات . . صحبه أهله وماله وعمله ، فإذا وضع في قبره . . رجع أهله وماله وبقي عمله ، فاختاروا لأنفسكم ما يؤنسكم في قبوركم . ولا يزال يفعل ذلك في مربعة مربعة ، حتىٰ يأتي مصلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، ثم يمضي إلى الجمعة ، فلا يخرج من المسجد حتىٰ يصلي العشاء الآخرة ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/١١٦ـ١١٧] . وٱلله أعلم .

* * *

ومنهن :

عابدة من عابدات أهل المدينة
رضي الله عنها

وقال أبو الفرج ـ رحمه ٱلله ـ : قال مالك بن دينار : بينا أنا أطوف بالبيت ؛ وإذا بامرأة في الحجر تدعو ، فسمعتها تقول : إلـٰهي وسيدي ومولاي ؛ أتيتك من شقة بعيدة ، مؤملة لمعروفك ، يا ذا المعروف الذي لا ينقطع أبداً ، ولا يحصيه غيره ؛ أنلني معروفاً من معروفك تغنيني به عن جميع خلقك ، يا معروفاً بالمعروف ، ويا من هو بالجود والكرم موصوف .

قال مالك : فأخبرت أيوب السختياني بما رأيت ، فقال : تحب أن نزورها ؟ قال : فسألنا عنها وعرفنا منزلها وقصدناها ، فلما أن رأيناها وسلمنا عليها . . قال لها أيوب : موعظة يرحمك ٱلله تعالىٰ ، فقالت : وما عسىٰ أن أقول ؟ أشكو إلى ٱلله تعالىٰ قلبي وهواي ، فقد أضرَّا بي وشغلاني عن عبادة ربي عز وجل ، قُوْمَا عني ؛ فإني أبادر طيَّ صحيفتي .

قال أيوب : وما كنت حدثت نفسي بتزوج امرأة قبلها ، فقلت لها : لو تزوجت رجلاً . . كان يعينك علىٰ ما أنت عليه ، فقالت : لو كان مالك بن دينار أو أيوب السختياني . . ما أردته .

قال مالك : فقلت : أنا مالك بن دينار ، وهـٰذا أيوب السختياني ، فقالت : كنت أظن أنه يشغلكما ذِكر ٱلله تعالىٰ عن محادثة النساء ، ثم أقبلت علىٰ صلاتها ، فخرجنا من عندها وسألنا عنها ، فقالوا : هـٰذه مليكة بنت المنكدر رحمها الله . انتهىٰ [« الصفوة » ١١٨/٢] ، وٱلله أعلم .

* * *

ومنهن :

عابدتان
رضي الله عنهما

قال أبو الفرج ابن الجوزي ـ رحمه ٱلله ـ : قال عبد ٱلله بن أخت مسلم بن سعد : أردت الحج ، فدفع إلي خالي مسلم عشرة آلاف درهم وقال لي : إذا قدمت المدينة . . فانظر أفقر أهل بيت في المدينة فأعطهم إياها .

فلما دخلت المدينة . . سألت عن أفقر أهل بيت في المدينة ، فدُلِلتُ علىٰ أهل بيت ، فطرقت الباب ، فأجابتني امرأة : مَن أنت ؟ فقلت لها : أنا رجل من أهل بغداد ، أُودعت عشرة آلاف درهم وأُمرت أن أسلمها إلىٰ أفقر أهل بيت في المدينة ، وقد دللت عليكم ، وها هي فخذوها .

فقالت : يا عبد ٱلله ؛ إن الذي أودعك اشترط عليك أن تدفعها إلىٰ أفقر أهل بيت في المدينة ، وهـٰؤلاء الذين هم جيراننا بإزائنا أفقر منا ، قال : فتركتهم وأتيت أولـٰئك وطرقت الباب ، فأجابتني امرأة ، فقلت لها مثل الذي قلت لتلك المرأة ، فقالت : يا عبد ٱلله ؛ نحن وجيراننا في الفقر سواء ، فاقسمها بيننا وبينهم سواء ، قال : فقسمتها . انتهىٰ [« الصفوة » ١٢١/٢] .

وٱلله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه ٱلله ـ : قال أبو عبد ٱلله ابن الجَلاَّء : سمعت أبي يقول : كنت عند معروف [الكرخي] في مجلسه ، فدخل عليه رجل فقال : يا أبا محفوظ ؛ رأيت في هـٰذه الليلة عجباً ، قال : وما رأيت رحمك ٱلله تعالىٰ ؟ قال : اشتهىٰ أهلي عليَّ سمكاً ، فذهبت إلى السوق ، واشتريت لهم سمكة ، وحملتها مع صبي حمال ، فمشىٰ معي .

فلما سمعت أذان الظهر . . قال لي الحمال : يا عم ؛ هل لك أن نصلي ؟ فكأنه أيقظني من غفلة ، فقلت : نعم ، نصلي ، فوضع الطبق والسمكةُ عليه علىٰ مصطبة في باب المسجد ودخل المسجد ، فقلت في نفسي : الحمال قد جاد بالطبق ، أجود أنا أيضاً بالسمكة ، فلم يزل يركع حتىٰ أقيمت الصلاة وخرجنا ، فإذا الطبق علىٰ حاله موضوع .

فجئت إلى البيت وحدثت أهلي بهـٰذا ، فقالوا : قل له يأكل معنا من هـٰذا السمك ، فقلت له : تأكل معنا من هـٰذا السمك ؟ فقال : إني صائم ، فقلت له : أفطر عندنا الليلة ، قال : نعم ، أروني طريق المسجد ، فأريته ، فدخل المسجد وجلس إلىٰ أن صلينا المغرب ، فجئت إليه فقلت له : تقوم رحمك ٱلله تعالىٰ ؟ فقال : أوَنصلي عشاء الآخرة ؟ فقلت في نفسي : وهـٰذه ثانية ، فلما صلينا . . جئت به إلىٰ منزلي ، ولنا ثلاثة أبيات ، بيت فيه أنا وأهلي ، وبيت فيه صبية مقعدة ـ كذلك وُلدَت ـ لها فوق العشرين سَنة ، وبيت كان فيه ضيفنا .

فبينا أنا مع أهلي ؛ إذ دق داق الباب في آخر الليل ، فقلت : مَن ؟ فقالت : أنا فلانة ، فقلت : فلانة قطعة لحم مطروحة في البيت ، كيف يستوي لها أن تمشي ؟! فقالت : أنا هي ، افتحوا لي الباب ، ففتحنا لها ، فإذا هي ، فقلت لها : أيُّ شيءٍ الخبرُ ؟

فقالت : سمعتكم تذكرون ضيفنا هـٰذا بخير ، فوقع في قلبي أن أتوسل إلى ٱلله سبحانه وتعالىٰ به ، فقلت : اللهم ؛ بحق ضيفنا هـٰذا أو بجاهه عندك إلا ما أطلقت أسري ،

فاستويت وقمت ، وأنا في عافية كما تروني ، قال : فقمت إليه أطلبه في البيت ، فإذا البيت خال ليس فيه أحد ، فجئت إلى الباب ، فوجدته مغلقاً بحاله ، فقال معروف : نعم ، فيهم صغار وكبار ؛ يعني : الأولياء ، رضي الله عنهم أجمعين ، ونفعنا بهم ، آمين . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٣٠٢ـ٣٠٣] .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان الجنيد جالساً ، فجاء إليه أبو حفص النيسابوري رحمهما الله ، فقام إليه وعانقه ، فقال له أبو حفص : دعنا من هـٰذا ، عندك شيء تطعمنا ؟ فقال : أي شيء يشاء الشيخ ؟ قال : أريد بطيخاً ، فأمر الجنيد بعض أصحابه بإحضار ما قال ، فلما حضر البطيخ . . قال : يا أخي ؛ قد أحببت أن أوثر به الله عز وجل ، فقال : إني أحب ما تحب .

ثم قال الجنيد لبعض أصحابه أن احمل هـٰذا مع الشيخ إلىٰ أين عزم ، فقام معه إلىٰ أن وصل إلىٰ دار ، فدق الباب ؛ فإذا شخص من داخل الباب يقول : ادخل إن كان معك بطيخ ، فدخلنا ، وإذا شيخ قاعد وخيش مرسل علىٰ باب .

قال أبو حفص : فوضعت البطيخ وصرفت الذي حمله ، ثم قلت للشيخ : أخبرني أمر هـٰذا البطيخ ، فقال : وراء هـٰذه الخيشة صبيان وبنات سألوني البطيخ منذ مدة ، ولم تسامحني نفسي أن أسأل الله عز وجل لهم في ذلك ، ثم وجدت البارحة مسامحة أن أسأل الله سبحانه وتعالىٰ ، فسألته وعلمت إجابة الدعاء بوجود المسامحة للسؤال ، فدعوت ، فلما وقفتَ على الباب . . علمت ما معك . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٣٠٤ـ٣٠٥] .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال أبو الصقر الصوفي : دخلت في يوم عيد علىٰ بعض مشايخنا ، فرأيت عنده خَلاً وهندباء ، فاشتغل قلبي ، فخرجت من عنده ودخلت إلىٰ بعض أهل الدنيا وأخبرته ، فدفع إلي صُرَّة فيها دراهم وقال : احملها إليه ، فجئت بها إليه في الحال ، وقلت : جئت بهـٰذه لتستعين بها علىٰ وقتك .

فقال : وما الذي رأيت من حالي ؟ فقلت له : رأيت عندك خلاً وهندباء ، فقال : كأنك افتقدت بيتي ، لو كان في بيتي امرأة . . لكنتَ افتقدتَها ؟! قم فوالله ؛ لا كلمتك شهراً ، فخرجت ، فضرب البابُ وجهي ، فسال الدم ، فأتيت الشبلي وقلت له : يا أبا بكر ؛ رجل مشىٰ في طاعة الله عز وجل ، فانفتح وجهه ، ما سبب هـٰذا ؟ قال : لعله أراد أن يأتي إلىٰ شيء صافٍ يكدره . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/٣٠٧] .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال أبو الحسين بن سمعون رحمه الله : اجتزت يوماً على الصراة[1] ، فرأيت امرأة تلتقط من ورق البقل الذي يأتي به الماء ، فقلت : لا شك أن هـٰذه امرأة فقيرة ، فوقفت حتىٰ رجعتْ ، فتبعتُها ، فأتت إلىٰ دار ، فدخلتْ ، فرجعتُ إلىٰ بيتي ، فما استقر بي الجلوس حتىٰ أتاني خادم ومعه دنانير ودراهم ، وقال لي : ادفع هـٰذه إلىٰ محتاج ، فأخذتها وقمت ، فأتيت بيت المرأة ، فطرقت الباب ، فخرج إلي رجل من خواص مجلسي ، ومن الملازمين لي ، فلما رآني . . قال : ما حاجتك ؟ فقال : جئتكم بهـٰذه الدنانير تستعينون بها على الوقت ، فنظر إلي مغضباً وقال لي : يا شيخ ؛ تحذرنا من الدنيا وتأتينا بها ، ثم رد الباب في وجهي ودخل ، فرجعت منكسراً إلىٰ بيتي ، ثم قلت في نفسي : لا بد أن أعود إليه فأعتذر .

فأتيته في اليوم الثاني ، فطرقت الباب مراراً ، فلم يجبني أحد ؛ فإذا بامرأة من الجيران تقول : ما لَك يا رجل ؟ فقلت لها : ما فعل أهل هـٰذه الدار ؟ فقالت : كان في هـٰذه الدار رجل مع والدته وكنا نتبرك بهم ، فجاء بالأمس رجل ، فكلمهم بما كرهوا ، فانتقلوا عنا .

قال : فرجعت وأنا شديد الحزن علىٰ ما فعلت ، وجعلت أتفقد مجلسي فلا أرى الرجل .

فلما كان يوم عرفة وأنا أتكلم على الناس . . رأيته في أواخرهم ، فلما انقضى المجلس . . مضيت إليه وسلمت عليه ، فرد عليَّ السلام وقال : لا تُعِد ما فات ، ولا تقل شيئاً ، فلولا أني أعتقد أن كلامك دواء لقلبي . . لم أحضر ، وإنما غبت عنك لأنا انتقلنا إلىٰ مكان آخر حتىٰ لا نُعرف ، فقلت له : ما أتيت إلا معتذراً ، ولا أعود ، ثم فارقته . [انتهىٰ] . [« الصفوة » ٢/٣٠٧ـ٣٠٨] .

* * *

(١) المثبت من « الصفوة » ، **والصراة** : نهر قريب من بغداد يصب في دجلة ، وفي بعض النسخ : (القراة) ، وفي بعضها : (الفرات) ، ولعل الصواب ما أثبت ، والله أعلم .

ومنهم :

عابد آخر من عقلاء المجانين يقال له : سعدون رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ في كتاب « عقلاء المجانين » : أبو عطاءٍ سعيدٌ المجنون الملقب بسعدون ، بصري .

حدثنا محمد بن الحسين ، عن راشد بن علقمة البصري : قال لي عطاء السليمي : احتبس القطر علينا بالبصرة ، فخرجنا نستسقي ؛ فإذا بسعدون المجنون ، فقال : يا عطاء ؛ إلىٰ أين ؟ قلت : خرجنا نستسقي ، فقال : بقلوب سماوية أم بقلوب خاوية ؟ قلت : بقلوب سماوية ، فقال : لا تبهرج[1] ؛ فإن الناقد بصير سبحانه وتعالىٰ ، فقلت : ما هو إلا ما حكيت لك ، فاستسقِ لنا ، فرفع رأسه إلى السماء وقال : إلـٰهي ؛ بعزتك وجلالك إلا ما سقيتنا الغيث ، ثم أنشأ يقول :

أيا من كلما نودي أجابا ... ومن بجلاله ينشي السحابا
ويا من كلم الصدِّيق موسىٰ ... كلاماً ثم ألهمه الصوابا
ويا من رد يوسف بعد ضر ... علىٰ مَن كان ينتحب انتحابا
ويا من خص أحمَدَ باصطفاءٍ ... وأعطاه الرسالة والكتابا

اسقنا اللهم اسقنا .

قال : فأَزَخَّتِ[2] السماء شآبيبَ[3] كأفواه القرب ، قلت : زدني ليس ذا الكيل من ذاك البيدر ، ثم أنشأ يقول :

سبحان مَن لم تزل له حُجَجٌ ... قامت علىٰ خلقه بمعرفتِهْ

---

(١) بهرج الكلام وغيره : زيَّفه .
(٢) زخَّت السماء بالمطر : رمت به .
(٣) الشآبيب : دفعات المطر .

قـــد علمـــوا أن مليكَهُـــمُ يعجـز وصـف الأنـام عـن صفتِـهْ

وكتب سعدون بفحمة علىٰ جدار قصر خراب :

يـا خـاطـب الـدنيـا إلـىٰ نفسـه إن لهـا فـي كـل يـوم خليـلْ[1]
مـا أقبـح الـدنيـا لخُطَّـابهـا تقتلهـم عمـداً قتيـلاً قتيـلْ
تستنكـح البعـلَ وقـد وَطَّنَـتْ فـي مـوضـعٍ آخـرَ منـه البـديـلْ
إنـــي لمغتـــرٌّ وإن البِلـــىٰ يعمـل فـي جسمـي قليـلاً قليـلْ
تـــزودوا للمـــوت زاداً فقـــد نـادىٰ منـاديـه الـرحيـل الـرحيـلْ

وكان من دعاء سعدون رحمه الله : اللهم ؛ لك خشعت قلوب العارفين ، وإليك طمحت آمال المحبين الراجين .

وكان ينشد :

وكـن لـربـك ذا حُـبٍّ لِتخـدمَـه إن المحبيـن لـلأحبـاب خـدامُ

ومن شعره أيضاً :

هَـبِ الـدنيـا تـواتيكـا أليـس المـوت يـأتيكـا
فمـا تصنـع بـالـدنيـا وظِـل المِيـل يكفيكـا
ألا يـا طـالـب الـدنيـا دَعِ الـدنيـا لشـانيكـا
كمـا أضحكـك الـدهـر كـذاك الـدهـر يُبكيكـا

زاد في « بهجة الأسرار » : قال الفتح بن شخرف رحمه الله : كان سعدون رحمه الله صاحب محبة لله عز وجل ، صام ستين سنة حتىٰ خف دماغه ، فسماه الناس مجنوناً ؛ لتردد قوله في المحبة .

قال الفتح : فغاب عنا زماناً ، فكنت إلىٰ لقائه مشتاقاً ، فبينا أنا بفسطاط مصر ؛ رأيته قائماً علىٰ حلقة ذي النون ، وعليه جبة صوف علىٰ ظهرها مكتوب : لا يُباع ولا يُشترىٰ ، وذو النون يتكلم في علم الباطن .

فناداه سعدون : متىٰ يكون القلب أميراً بعد أن كان أسيراً ؟ فقال : إذا اطَّلع الخبير على

---

(١) كذا في « عقلاء المجانين » للنيسابوري (ص١١٦) ، أما في النسخ : (يا طالب الدنيا) .

الضمير ، فلم ير فيه غير اللطيف الخبير . . صار أميراً بعد أن كان أسيراً ، فصرخ سعدون صرخة وخر مغشياً عليه ، فلما أفاق . . أنشد :

ولا خير في شكوىٰ إلىٰ غير مشتكىٰ ولا بد من شكوىٰ إذا لم يكن صبرُ

ثم قال : أستغفر الله ، اللهم ؛ اجعلني ممن يغلب علىٰ قلبي حبك يا أرحم الراحمين .

ثم قال : يا أبا الفيض ؛ أمِنَ القلوب قلب يستغفر قبل أن يُذنب ؟ قال : تلك قلوب تثاب قبل أن تطيع ، فقال : يا أبا الفيض ؛ اشرح لي حالهم ، قال : يا سعدون ؛ أولئك أقوام أشرقت قلوبهم بضياء روح اليقين ، ففطموا النفوس من روح الشهوات ، فهم رهبان من الرهابين ، وملوك في العبَّاد ، وأمراء في الزهاد ، للغيث الذي أمطر في قلوبهم الوالهة بالقدوم على الله عز وجل شوقاً إلىٰ لقائه جل جلاله ، فليس منهم مَن يأنس بمخلوق ، فهم كما وصفهم سيد البشر محمد رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « رُبَّ أشعثَ أغبر . . . » .

فقال : يا ذا النون ؛ فمتىٰ يصل العبد إليه ؟ فقال : يا سعدون ؛ إذا صحح العزم بترك كل ما سواه سبحانه وتعالىٰ ، ولا يكون له هَمٌّ ولا مقصود غيره سبحانه وتعالىٰ .

وكتب سعدون رحمه الله إلى الخليفة أبي جعفر المتوكل :

أما بعد : يا أخي ؛ فإنك قد طمعتَ في الحياة ، ونسيتَ تراصف الأقدام ، وتطاير الصحف في الأَيمان والشمائل ، فاذكر الحسرة عند انكشاف الغطاء ، واقرأ : ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ .

وكتب إلىٰ بعض الخلفاء :

أما بعد : يا هـٰذا ؛ فإنك إن لم تستح من نفسك . . فاستح من ربك سبحانه وتعالىٰ ، ولا يغرنك بسطه عليك ؛ فإنه إن غافصك[1] . . أهلكك وهتكك ، ثم كتب عنوانه : ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ .

وكتب إلىٰ بعض الخلفاء أيضاً :

أما بعد : فإن الله سبحانه وتعالىٰ أخذ على السماوات والأرض والجبال عهداً ، فأودعه إياهن ، فأما السماوات . . فتناثرت نجومها ، وانطمس شمسها ، واضمحل قمرها ، وتراصت أقدام ساكنيها ، وارتعدت أكنافها ، وأما الأرض . . فانزوت أطرافها ، واكدودر

---

(١) غافصه : أخذه علىٰ غِرّة .

ماؤها ، وتناثرت أوراقُ أشجارها وأغصانُها وثمارُها ، وأما الجبال . . فتجلد شوامخها ، وسالت أوديتها ارتعاداً وانتفاضاً من شدة الأمانة التي كُلفتها .

وأما أنت . . فمع ضعف حيلتك ، وبلادة خاطرك ، وعجزك كل العجز مذ قد كُلِّفتَ الأمانة ما تحرك عليك عضو ، ولا تزعزع منك مفصل ، قد ركبت نجائب مخادعتك ، وجعلت الدنيا نزهة بطالتك ، فانتبه من رقدة الغفلة قبل أن يكتنفك الحزن . والسلام .

وكتب إلىٰ بعض إخوانه :

أما بعد : يا أخي ؛ فارحل قبل أن يُرحل بك ، وتزود قبل المسير إلىٰ ربك ؛ فإنك تريد قطع مفاوزَ لا يقطعها البطالون ، قطع الله عز وجل عنك الطمع ، وجعلك ممن وصف في كتابه الكريم : ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ .

وكتب أيضاً :

أما بعد : فيا أخي ؛ كن حيِيّاً . . تسلم ، واقطع كل قاطع يقطعك عن الله عز وجل ، فإن قبلت ذلك ، وإلا . . هلكت .

وكتب أيضاً : فإنه ـ يا أخي ـ مَن تعرض لعقوبة الله عز وجل . . هوي وشقي ، ومَن تعرض لرضى الله سبحانه وتعالىٰ . . كفي ووقي ، فاجعل حظك من دنياك الاشتغال بطاعة مولاك سبحانه وتعالىٰ . والسلام .

وكتب :

تحب الصالحين بزعم قلبكْ ... وتخلو إن فقدتَهُمُ بذنبكْ
فمَن حَبَّ الخليل يفر منه ؟! ... فهٰذا كله من كِذْب حبك
ستندم حين لا ندَمٌ بمُجْدٍ ... وتعلم ما يحل غداً بجنبك

قال أيضاً أبو الفرج ـ رحمه الله ـ في « مختصر الحلية » : قال يحيى بن أيوب : خرجت يوماً إلى المقابر التي بباب خراسان ، فجلست في موضع أرىٰ مَن يدخل المقابر ، فنظرت إلىٰ رجل مقنع قد دخل المقابر وهو يجول ، كلما رأىٰ قبراً محفوراً أو منخسفاً . . وقف عليه وبكىٰ .

قال : فجئت إليه رجاء أن أنتفع به ، فلما قابلته ؛ إذا هو سعدون المعتوه ، فقال لي :

يا يحيىٰ ؛ هل لك أن تجلس فنبكي علىٰ بلاء هـٰذه الأبدان قبل أن نبلىٰ فلا يبكي علينا باك ؟!

قال : ثم قال : يا يحيىٰ ؛ البكاء من القدوم على الله عز وجل أولىٰ بنا من البكاء على الأبدان ، ثم قرأ : ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ ، ثم صاح صيحة شديدة وقال : واغوثاه بالله تعالىٰ مما يقابلني في الصحف ، قال يحيىٰ : فغُشي عليَّ ، فأفقت وهو جالس يمسح وجهي بكمه ويقول : يا يحيىٰ ؛ مَن أشرف منك لو مُتَّ ؟!

وقال ذو النون : خرج الناس إلى الاستسقاء بالبصرة ، فخرجت فيمن خرج ، فبينما أنا مار بين الناس ؛ إذا بشخص قد قبض علىٰ يدي ، فنظرت ؛ فإذا هو سعدون .

فقال : يا أبا الفيض ؛ أين تريد ؟ قلت : المصلىٰ ندعو الله عز وجل أن يسقينا ، فقال : بقلب سماوي أو بقلب خاوي ؟ فقلت : بقلب سماوي إن شاء الله تعالىٰ .

فقال : انظر يا ذا النون لا تبهرج ؛ فإن الناقد سبحانه وتعالىٰ بصير ، ثم قال : تدعو الله عز وجل وأؤمن علىٰ دعائك أو أدعو وتؤمن علىٰ دعائي ؟ فقلت : تدعو وأؤمن .

قال : فصف قدميه وقال : إلـٰهي ؛ بحق ما كان في البارحة إلا ما أمطرتنا ، فقال ذو النون : فوالله ؛ لقد رأيت الغيوم قد ارتفعت عن اليمين والشمال حتى التقت ، فجاءنا المطر كأفواه العَزَالي ، فقلت له : بالله أي شيء كان في البارحة ؟ فقال : لا تدخل بيني وبين مولاي رب العالمين سبحانه وتعالىٰ .

وكان من دعائه : يا غياث المستغيثين ؛ أغثنا .

وقال الأصمعي : مررت بسعدون ؛ فإذا هو جالس عند شيخ سكران يذب عنه ، فقلت له : ما لي أراك جالساً عند هـٰذا الشيخ ؟! فقال : إنه مجنون ، فقلت له : أنت عند الناس مجنون .

فقال : بل هـٰذا هو المجنون ، فقلت له : مِن أين قلت هـٰذا ؟ فقال : لأني صليت الظهر والعصر جماعة ، وهـٰذا لم يصل لا جماعة ولا فرادىٰ . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/٣٠٩ـ٣١١] .

وقال في « بهجة الأسرار » : إن ذا النون رحمه الله قال : بينا أنا أطوف ليلاً ؛ فإذا بشخص قد حاذى الباب وهو يقول : يا رب ؛ عبدك الطريد الشريد المسكين مِن بين خلقك ، أسألك أن ترزقني ما رزقت أولياءك ، وأن تعطيني ما أعطيتهم ، وتنعم عليَّ بما أنعمت عليهم ، وتكشف عن قلبي أغطية الجهل ، وتزيل عني حجب الهموم والغموم ؛ حتىٰ

ترقىٰ روحي بأجنحة الشوق إليك ، فأناجيَك بين رياض بهائك ، وأنظرَ إلىٰ وجهك الكريم الباقي يا ذا الجلال والإكرام .

قال : ثم بكىٰ حتىٰ سمعت لدموعه وقْعاً على الحصىٰ كوقع البَرَد ، ثم ضحك وقهقه ومضىٰ .

قال ذو النون : فتبعته ، وقلت : عارف ، ولم أزل أتبعه إلىٰ أن دخل خرابات مكة ، فالتفت إلي وقال : ما لك ؟ ارجع يا ذا النون عني ، فقلت له : ناشدتك الله إلا ما وقفت لي ، فوقف وقال : ويحك يا ذا النون! أما لك مِن شغل ؟! ثم قال : استغفر الله ، فقلت : ما اسمك رحمك الله ؟ قال : عبد الله ، قلت : قد علمتُ أن أهل السماوات والأرض كلهم عبيد الله عز وجل ، فقال : سماني أبي سعدون ، قلت : المعروف بالمجنون ؟ قال : نعم ، قلت : كيف علمت أني ذو النون ؟ فقال : كنت واقفاً علىٰ يمين الخضر وهو علىٰ يمين إلياس ، فقالا : هـٰذا ذو النون ، قلت : ومَن القوم الذين ذكرتَهم ؟

فقال : أولـٰئك قوم ساروا إلى الله عز وجل سَيْرَ مَن قد نصبت المحبة بين أعينهم ، وتجردوا تجرد مَن قد أخذ الزبانية بحقوهم[1] ، وأحجب النار من أجلهم .

فقلت : إن العارف ليبكي ، وإن البكاء لمِنْ شأنه ، فكيف ضحكتَ ؟ فقال : نعم ، والضحك والقهقهة من شأن العارف أيضاً ، ألا ترىٰ إلىٰ قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ﴾ ؟ .

قلت له : فأي المقامات أفضل وأعلى ؟ فقال : المعرفة بالله عز وجل هي الأصل الثابت ، وعنها تنشأ المقامات .

ثم قال : يا ذا النون ؛ بلغني أنك تقول شيئاً ، فقل حتىٰ أسمع شيئاً في أسباب المعرفة ، فقلت : أنت الذي نقتبس من علمك ، ثم فارقني ومضىٰ .

وقال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : قيل : كان سعدون رحمه الله يجن ستة أشهر ويفيق ستة أشهر ، فإذا هاج . . صعد السطح بالليالي ، ويقول بصوت رفيع : يا نيام ؛ تنبهوا من رقدة الغفلة قبل انقطاع المهلة ، واعلموا بأن أعمالكم محفوظة ، وآجالكم منقوصة ، والموت يأتي بغتة .

---

(١) **الحقو** : معقد الإزار ، تشدهم الزبانية منه .

وكتب سعدون رضي الله عنه بفحمة علىٰ جدار :

ما بال من سكن الثرىٰ ما حـالُـهُ أمسىٰ وقـد درسـت هنـاك حبـالُـهُ
أمسىٰ وقـد درسـت محـاسـن وجهـه وتفـرقـت فـي قبـره أوصـالـه
واستَبـدَلـت منـه المحـاسـن غيـرَهـا وتُقُسِّمَـتْ مـن بعـده أمـوالـه
مـا زالـت الأيـام تلعـب بـالفتـىٰ والمـال يـذهـب صفـوه وحـلالـه

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

ومنهم :

عابد آخر يقال له : بهلول المجنون
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال في كتاب « عقلاء المجانين » : أبو وهب بهلول بن عمرو المجنون ، كوفي .

قال محمد بن إسماعيل بن أبي فديك : رأيت بهلولاً في بعض المقابر وهو ينشد :

يـا مـن تمتَّـع بـالـدنيـا وزينتهـا ... ولا تنـام عـن اللـذات عينـاهُ
أشغلت نفسك فيما ليس تدركه ... تقـول لله مـاذا حيـن تلقـاهُ

وقال علي بن سعيد الكندي : خرج الرشيد إلى الحج ، فلما كان بظهر الكوفة ؛ إذا بهلول المجنون علىٰ قصبة ، وخلفه صبيان ، وهو يعدو ، فقال الرشيد : مَن ذاك ؟ قالوا : بهلول المجنون .

قال : كنت أشتهي أن أراه ، فادعوه غيرَ مروَّع ، فقالوا له : أجب أمير المؤمنين ، فعدا علىٰ قصبته ، فقال الرشيد : السلام عليك يا بهلول ، فقال : وعليك السلام يا أمير المؤمنين .

قال : كنت إليك بالأشواق ، قال بهلول : لٰكني لم أشتق إليك ، قال : عظني يا بهلول ، قال : وبماذا أعظك ؟ هٰذه قصورهم وهٰذه قبورهم .

قال : زدني ؛ فقد أحسنتَ ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ مَن رزقه الله جمالاً ومالاً فعف في جماله وواسىٰ في ماله . . كُتب في ديوان الأبرار ، فظن الرشيد أنه يريد شيئاً ، فقال : قد أمرنا بقضاء دَينك ، فقال : كلا ، لا تقض دَيناً بدَين ، اردد الحق إلىٰ أهله ، واقض دَين نفسك من نفسك .

قال الرشيد : فإنا قد أمرنا بأن نجري عليك رزقاً ، قال : لا تفعل يا أمير المؤمنين ؛ إن الله سبحانه وتعالىٰ لا يعطيك وينساني ، ثم ولىٰ هارباً ، ثم التفت وقال : يا أمير

المؤمنين ؛ فكيف بك إذا أقامك الله بين يديه فسألك عن النقير والفتيل والقطمير ؟!

قال : فخنقته العبرة ، فقال الحاجب : حسبك يا بهلول ، فقد أوجعت أمير المؤمنين ، فقال الرشيد : دعه ، فقال بهلول : إنما أفسده أنت وأضرابك .

فقال الرشيد : أريد أن أصلك بصلة ، فقال بهلول : ردها علىٰ مَن أخذتها منه ، فقال الرشيد : فحاجة ؟ فقال : لا تراني ولا أراك . ثم قال : يا أمير المؤمنين ؛ أخبرَنا أيمن بن نابل ، عن قدامة بن عبد الله قال : (رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلّم يرمي جمرة العقبة علىٰ ناقة له صهباء لا ضرب ولا طرد ولا إليك إليك)[1] ، ثم ولىٰ بقصبته ، وأنشأ يقول :

وَهَبْكَ ملكتَ كل الأرض طرّاً ... ودان لك العباد فكان ماذا ؟
ألست تصير في قبر ويحوي ... ترابك كله هٰذا وهٰذا[2]

وقيل لبهلول : أي شيء أولىٰ بك ؟ فقال : العمل الصالح .

وكان بهلول رحمه الله مجاب الدعوة .

وقال صباح الوراق الكوفي : لقيت بهلولاً يوماً ، فقال لي : أنت الذي تزعم أهل الكوفة أنك تشتمُ أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ، فقلت : مَعاذ الله أن أكون من الجاهلين ، فقال : إياك ثم إياك يا صباح ؛ فإنهما ـ رضي الله عنهما ـ جبلا الإسلام وكهفاه ، ومصباحا الخلد وقنديلاه ، وحبيبا محمد صلى الله عليه وسلّم وضجيعاه ، وشيخا المهاجرين وسيداهم ، ثم قال : جعلنا الله من الذين هم على الأرائك يسمعون كلام الله إذا زُف القوم إلىٰ سيدهم ومولاهم تبارك وتعالىٰ .

ومِن شعره رحمه الله :

دع الحرص على الدنيا ... وفي العيش فلا تطمعْ
وما تجمعْ من المال ... فما تدري لمن تجمعْ
فإن الرزق مقسوم ... وسوء الظن لا ينفع
فقيرٌ كلُّ ذي حرص ... غنيٌّ كلُّ مَن يقنعْ

---

(١) أخرجه الترمذي (٩٠٣) وقال عنه : حديث حسن صحيح ، والنسائي في « المجتبىٰ » (٥/ ٢٧٠) . والمعنىٰ : لا يضرب الناس بين يديه ، ولا يطردون من أمامه ، ولا ينحَّون عن طريقه .

(٢) في « الصفوة » (٢/ ٣١١) :

(أليس غداً مصيرك جوف ترب ... ويحثوا التُّرب هٰذا ثم هٰذا)

اجتماع سعدون وبهلول رحمهما الله :

قال سعدون لبهلول : أوصني ، وإلا . . أوصيك ، فقال بهلول : أوصني يا أخي ، فقال : أوصيك بحفظ نفسك من نفسك ، وفكِّها مِن حبسك ؛ فإن هـٰذه الدنيا ليست لك بدار ، فقال له بهلول : وأنا أوصيك يا أخي ، فقال : قل ، فقال : اجعل جوارحك مطيتك ، واحمل عليها زاد معرفتك ، واسلك بها طريق بقائك ، فإن ذكَّرَتْك ثقل الحمل . . فذكِّرها عاقبة البلوغ ، فلم يزالا يبكيان جميعاً ، رحمهما الله تعالىٰ .

وكتب بهلول إلى الخليفة الواثق :

أما بعد : فإن المِراء قد لعب بدِينك ، والأهواء قد أحاطت بك ، ومقالات أهل البدع قد سلخت عنك عقلك ، وابن أبي دؤاد المشؤوم قد بدل عليك كلام ربك سبحانه وتعالىٰ ، اقرأ : ﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۞ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۞ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى ﴾ ، أفيكون هـٰذا الكلام مخلوقاً ؟ فرماك الله بـ ﴿ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۞ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ .

وكتب عنوانه : من الخائف الذليل إلى المخالف لكلام الله عز وجل .

وكتب إلى ابن أبي دؤاد :

أما بعد : فإنك قد ميزت كلام الله مِن الله ، فإن يك ما ذكرت باطلاً . . فرماك الله بقارعة من عنده ، ويلك ! ! أكنت معه حين كلم موسىٰ عليه الصلاة والسلام ؟ فإن كنت راداً عليه . . فاقرأ ﴿ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۞ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴾ .

ثم كتب عنوانه : مِن الصادق المتواضع إلى الكاذب الكافر المتجبر .

وكتب إلىٰ بشر المريسي :

أما بعد : فإنك قد بعت الكثير الجليل بالمهين القليل ، وبدلت كلام الله سبحانه وتعالىٰ وحرَّفته ، فلعنك الله سائر دهرك ، ولعن مَن قال بقولك ، وسلط عليك عذاباً ، فجعلك رماداً تشتد به الريح في يوم عاصف .

ثم كتب عنوانه : من المجنون الوَجِل إلى الملعون الفَشِل . انتهىٰ .

قال أيضاً أبو الفرج ـ رحمه الله ـ في « صفوة الصفوة » : قال السَّريُّ : اجتزت يوماً في المقابر ؛ فإذا أنا ببهلول وقد أدلىٰ رجليه في قبر ، وهو يلعب بالتراب ، فقلت له : لِمَ تكثر

الجلوس هٰهنا ؟ فقال : نعم ؛ **أنا عند قوم لا يؤذونني ، وإن غبت عنهم . . لا يغتابونني** ، فقلت : يا بهلول ؛ إن الخبز قد غلا ، فادع الله عز وجل ، فقال : والله ما أبالي ولو أن كل حبة بمثقال ، عليَّ أن أعبده سبحانه وتعالىٰ كما أمرني ، وعليه أن يرزقني كما وعدني عز وجل .

وقال الفضل بن الربيع : حججت مع هارون الرشيد ، فمررنا بالكوفة ؛ فإذا ببهلول المجنون يهذي ، فقلت له : اسكت ؛ فقد أقبل أمير المؤمنين ، فسكت ، فلما حاذى الهودج . . قال : يا أمير المؤمنين ؛ حدثنا أيمن بن نابل قال : أخبرنا قدامة بن عبد الله العامري قال : (رأيت النبي صلى الله عليه وسلّم بمنىٰ علىٰ جمل وتحته رَحْل رث ، فلم يكن ثَمَّ ضرب ولا طرد ولا إليك إليك) ، فقلت له : يا أمير المؤمنين ؛ إنه بهلول ، فقال : قد عرفته . [انتهىٰ « الصفوة » ٢/ ٣١١ـ٣١٢] .

زاد في « لوامع أنوار القلوب » : ثم قال : يا أمير المؤمنين ؛ لا تكن أبخل الناس علىٰ نفسك ، إن الله سبحانه وتعالىٰ أعطاك جميع الدنيا ، فاشترِ منه ببعضها نفسَك ، واحذر وقوفك للحساب ، فالمناقشة صعبة ، واللهِ ؛ إن محاسبة رجل واحد في خاصة نفسه صعبة ، فكيف بحساب واحد في أمور الخلائق أموالاً وحدوداً ؟!

فبكى الخليفة ثم قال : قد أمرنا أن نجري عليك نفقة ، فقال : لا تفعل يا أمير المؤمنين ، إن الذي أجرىٰ عليك هو الذي أجرىٰ عليَّ ، ثم ولَّىٰ وهو يقول :

تـــوكلـــت علـــى اللهِ ومـــا أرجـــو ســـوى اللهِ
ومـــا الـــرزق مـــن النـــاسِ بـــل الـــرزق مـــن اللهِ

فقال الفضل : قلب جريح ، وعقل سلب وهو صحيح ، ودمع سكوب يقع كلامه الموقع الصحيح . انتهىٰ .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : رأيت في بعض المجاميع قال : كتب بهلول علىٰ كفه : يا رب ؛ حقق حسن ظني بك يا أرحم الراحمين .

وسئل بهلول عن رجل مات وخلف أماً وبنتاً وزوجة ، ولم يترك من المال شيئاً ، فقال : للبنت اليتم ، وللأم الثكل ، وللزوجة خراب البيت ، وما بقي من الهَمِّ والغم فللعصبة ، والله سبحانه أعلم .

* * *

ومنهم :

عابد آخر يقال له : أبو عليٍّ المعتوه

رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال خلف بن سالم : قلت لأبي علي المعتوه : أمَا لك مأوىٰ ؟ فقال : بلىٰ ، قلت : فأين ؟ قال : في دار يستوي فيها العزيز والذليل ، فقلت : وأين هـٰذه الدار ؟ قال : المقابر ، قلت : أمَا تستوحش في ظلمة الليل ؟ قال : إني إذا ذكرت ظلمة اللحد ووحشته . . تهون عليَّ ظلمة الليل ، قلت : فربما رأيت في المقابر شيئاً تنكره ، فقال : ربما كان ذلك ، ولـٰكن في هول الآخرة ما يشغل عن هول المقابر .

قال الأشهلي : قلت لأبي : يا أبت ؛ مثل هـٰذا الكلام الجيد الصحيح يتكلم به مجنون ؟! فقال : **يا بني ؛ هـٰؤلاء قوم كان لهم فضل ودِين ومعرفة ، فزالت عقولهم وبقي ذلك الفضل ، فلم يختلط فيما اختلط** . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٣١٢ـ٣١٣] .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال الشبلي رحمه الله : رأيت يوم الجمعة معتوهاً عند جامع الرصافة قائماً عرياناً ، وهو يقول : أنا مجنون ، أنا مجنون ، فقلت له : لِمَ لا تدخل الجامع وتتوارىٰ وتصلي ؟ فأنشد :

يقولون زرنا واقض واجبَ حقِّنا ... وقد أسقطَتْ حالي حقوقَهُمُ عني

إذا هم رأوا حالي ولم يأنفوا لها ... ولم يأنفوا منها أنفتُ لهم مني[1]

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : اعلم : أن هـٰذا المعنى الذي قاله هـٰذا المجنون صحيح من جهة سقوط الفرض عنه بالجنون ؛ لأن مناط التكليف هو العقل ، فحيث لا عقل ، لا تكليف ، فلا مطالبة .

وقد سئل موفق الدين صاحب « المغني » من الحنابلة عن هـٰؤلاء المعتوهين الذين تمر عليهم أوقات الصلاة ولا يصلون ، فقال : **هـٰؤلاء وهبهم الله عز وجل ما وهب ، وسلب عنهم ما سلب ، فأسقط عنهم ما وجب لِمَا وهب سبحانه وتعالىٰ** .

* * *

(١) الصفوة (٢/ ٣١٣) .

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال ابن القصاب الصوفي : كنا جماعة ، فدخلنا المارستان يوماً ، فرأينا فتىً مصاباً شديد الهوس ، فولعنا به وزدنا في الولع ، فاتَّبعناه ، فصاح وقال : انظروا إلىٰ شعور مطررة[1] ، وأجساد معطرة ، قد جعلوا الولع بضاعة ، والسخف صناعة ، وجانبوا العلم رأساً ، فقلنا له : أفأنت تحسن العلم فنسألك ؟ فقال : إي والله ؛ إني لأحسن علماً عما تسألوني ، فقلنا له : مَن الكريم في الحقيقة ؟ فقال : الذي رَزَقَ أمثالكم سبحانه وتعالىٰ وأنتم لا تساوون قوت يوم ، فضحكنا ، وقلنا : مَن أقل الناس شكراً ؟ فقال : مَن عوفي مِن بلية ثم رآها في غيره ، فترك العبرة والشكر ، واشتغل بالتطنز[2] واللهو .

قال : فكسر قلوبنا بذلك ، فقلنا : ما الظَّرْف ؟ فقال : خلاف ما أنتم عليه ، ثم بكىٰ وقال : يا رب ؛ إن لَمْ تردَّ عقلي عليَّ . . فردَّ عليَّ يدي لعلي كنت أصفع واحداً من هـٰؤلاء . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/٣١٣] .

* * *

---

(١) مطررة : مقصوصة ومصففة .

(٢) الطَّنْزُ : السخرية ، وفي بعض النسخ : (البطنة) .

ومنهن :

أخوات بشر الحافي
رضي الله عنهنَّ

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : أخوات بشر رحمهن الله ثلاث : مضغة ، ومخة ، وزبدة ، بنات الحارث ، وأكبرهن مضغة ، وكانت زبدة تكنىٰ أم علي ، وكانت مضغة أكبر من بشر ، وماتت قبله .

وقيل : لما ماتت مضغة . . توجع عليها بشر توجعاً شديداً ، وبكىٰ ، فقيل له في ذلك ، فقال : قرأت في بعض الكتب : إن العبد إذا قصر في خدمة مولاه سبحانه وتعالىٰ . . سلبه الله تعالىٰ أنيسه ، وهـٰذه كانت أنيستي من الدنيا .

وقال القحطبي : كانت مضغة صوامة قوامة .

وقال بشر : تعلمت الورع من أختي ؛ فإنها كانت تجتهد ألاَّ تأكل ما للمخلوق فيه صنع .

وقال عبد الله بن أحمد : كنت عند أبي يوماً ، فدق داق الباب ، فقال لي : اخرج فانظر مَن بالباب ، فخرجت ، فرأيت امرأة ، فقالت لي : استأذن لي علىٰ أبي عبد الله أحمد ، فقلت له ، فقال : ائذن لها ، فدخلت وسلمَت ، وقالت : يا أبا عبد الله ؛ أنا امرأة أغزل بالليل في السراج ، فربما طفىء السراج ، فأغزل في القمر ، أفعَلَيَّ أن أبيِّن غزْل القمر من غزل السراج ؟ فقال لها : إن كان عندك بينهما فرق . . فعليك أن تبيِّني .

فقالت له : يا أبا عبد الله ؛ أنين المريض شكوىٰ ؟ فقال : أرجو ألاَّ يكون شكوىٰ ، ولـٰكنه اشتكاء إلى الله عز وجل .

قال : فودعتْه وخرجت ، فقال : يا بني ؛ أسمعت إنساناً يسأل عن مثل هـٰذا ؟ ثم قال : اتبع هـٰذه المرأة ، فانظر أين تدخل ، قال : فتبعتها ، فإذا هي قد دخلت بيت بشر ، فإذا هي أخته ، فرجعت إلىٰ أبي وأخبرته ، فقال : محال أن يكون مثل هـٰذه إلا أخت بشر .

وقال عبد الله : جاءت مخة أخت بشر إلىٰ أبي ، فقالت له : إني امرأة رأس مالي

دانقان ، أشتري قطناً وأغزله وأبيعه بنصف درهم ، فأتقوَّت بدانق من الجمعة إلى الجمعة ، فمر ابن طاهر الطائف ومعه مشعل ، فوقف يكلم أصحاب المسالح[1] فغزلتُ في ضوء المشعل طاقات معينة ، ثم غابت عني تلك الطاقات ، فعلمت أن الله عز وجل يطالبني ، فخلِّصني خلصك الله تعالىٰ ، فقال لها : تخرجين الدانقين ، ثم تبقين بلا رأس مال حتىٰ يعوضك عز وجل خيراً منه .

قال عبد الله : فقلت لأبي : يا أبت ؛ لو قلتَ لها أخرجي الغزل الذي فيه تلك الطاقات ، فقال : يا بني ؛ سؤالها لا يحتمل التأويل ، ثم قال : تدري مَن هـٰذه ؟ هـٰذه مخة أخت بشر .

وكانت مخة تقصد أحمد وتسأله عن الورع والتقشف ، وكان يعجب من مسائلها .

وقال أبو عبد الرحمـٰن السلمي : قالت زبدة أخت بشر : أثقل شيء على العبد . . الذنوب ، وأخف شيء عليه . . التوبة ، فما له لا يدفع أثقل شيء بأخف شيء ؟! انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٣١٥ـ٣١٧] .

* * *

(١) في النسخ : (يكلم أصحابه المشايخ) ، والمثبت من « الصفوة » ، والمعنىٰ : أي قوم ذوو سلاح .

ومنهن :

عابدتان
رضي الله عنهما

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : كان ببغداد رجل تاجر له ثروة ، فبينما هو جالس في حانوته ؛ إذ أقبلت إليه امرأة تطلب منه شيئاً تشتريه ، فبينا هي تحادثه ؛ كشفت وجهها في خلال ذلك ، فتحير وقال : قد ـ والله ـ تحيرت مما رأيت .

فقالت : ما جئت لأشتري شيئاً ، وإنما ليَ أيام أتردد إلى السوق ليقع قلبي علىٰ رجل أتزوجه ، وقد وقعتَ أنت بقلبي ، ولي مال ، فهل لك في التزوج ؟ فقال لها : لي ابنة عم ، وهي زوجتي ، وقد عاهدتها ألاَّ أغيرها ، ولي منها ولد ، فقالت : أنا قد رضيت أن تجيء إلي في الأسبوع يومين ، فرضي وقام معها ، فعقد العقد ومضىٰ إلىٰ منزلها ، فدخل بها ، ثم ذهب إلىٰ منزله ، وقال لزوجته : إن بعض أصدقائي قد سألني أن أكون هـٰذه الليلة عنده . ومضىٰ فبات عندها ، وكان يمضي كل يوم بعد الظهر إليها ، فبقي علىٰ هـٰذا ثمانية أشهر .

فأنكرت ابنة عمه أحواله ، فقالت لجارية لها : إذا خرج سيدك . . فانظري إلىٰ أين يمضي من حيث لا يراك ، قال : فتبعته الجارية ، فجاء إلى الدكان ، فقعد ، فلما جاء وقت الظهر . . قام ، فتبعته وهو لا يشعر ، إلىٰ أن دخل بيت تلك المرأة الجديدة .

فجاءت الجارية إلى الجيران ، وسألتهم : لمَن هـٰذه الدار ؟ فقالوا : لصبية قد تزوجت برجل تاجر ، فعادت إلىٰ سيدتها وأخبرتها ، فقالت لها : إياك أن يعلم بهـٰذا أحد ، ولم تظهر لزوجها شيئاً .

فأقام الرجل تمام العام ، ثم مرض ومات ، وخلف ثمانية آلاف دينار ، فعمدت المرأة التي هي ابنة عمه إلىٰ ما يستحقه الولد من التركة وهو سبعة آلاف دينار ، فأفردتها ، وقسمت الألف الباقية نصفين ، وتركت النصف في كيس .

وقالت للجارية : خذي هـٰذا الكيس ، فاذهبي به إلى المرأة ، وأعلميها أن الرجل قد

مات ، وخلف ثمانية آلاف دينار ، وقد أخذ الابن حقه سبعة آلاف ، وبقيت الألف ، فقسمتها بيني وبينك ، وهـٰذا حقك ، وسلِّمِيهِ إليها ، فمضت الجارية ، فطرقت عليها الباب ودخلت ، وأخبرتها خبر الرجل وحدثتها بموته ، وأعلمتها الحال ، فبكت ، ثم فتحت صندوقاً ، وأخرجت منه رقعة ، وقالت للجارية : عودي إلىٰ سيدتك وسلمي عليها ، وأعلميها أن الرجل طلقني قبل موته ، وكتب لي براءة ، وردي عليها المال ؛ فإني ما أستحق في تَرِكَتِهِ شيئاً ، فرجعت الجارية وأخبرتْها . انتهىٰ [« الصفوة » ٢/ ٣٢٠ـ٣٢١] .

* * *

ومنهم :

عابدان كوفيان
رضي الله عنهما

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال الشعبي : جاء رجلان إلىٰ شريح القاضي ، فقال أحدهما : اشتريت من هـٰذا داراً ، فوجدت مدفوناً فيها عشرة آلاف درهم ، فقلت له : خذها ، فقال : لا آخذها ؛ لأنك اشتريت مني الدار جميعها ، فقال القاضي : ما أدري ما أصنع بينكما ، فأَتيا زياداً فأخبراه ، فقال : ما كنت أرىٰ أن أحداً بقي هـٰكذا ، ثم قال : اتركاها في بيت مال المسلمين . [انتهىٰ « الصفوة » ٣/ ٩٤] .

* * *

ومنهن :

عابدة أخرىٰ
رضي الله عنها

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال حماد بن سلمة : خرجت في ليلة ظلماء ، وفي جِواري امرأة من المتعبدات لها بنات أيتام ، فوكف[1] السقف عليهن ، فسمعتها تقول : يا رفيق ؛ ارفق بي ، فسكن المطر ، فأخذت صرة فيها عشرة دنانير وقرعت بابها ، فقالت : اجعله ابن سلمة[2] ، فقلت : أنا حماد بن سلمة ، سمعتك وقد تأذيت بالمطر ، فقلتِ : يا رفيق ؛ ارفق بي ، فما بلغ مِن رفقه سبحانه وتعالىٰ ؟ فقالت : سكن المطر ، وأدفأ الصبيان ، وجفف البيت ، فأخرجتُ الدنانير وقلت لها : انتفعي بهـٰذه ، فإذا صبية عليها مدرعة من صوف تستبين خروقها قد خرجت إلي وقالت : ألا تسكت يا حماد ؟ تعترض بيننا وبين ربنا ومولانا سبحانه وتعالىٰ .

ثم قالت : يا أماه ؛ قد علمتُ أَنَّا لَمَّا شكونا . . أن الله سبحانه وتعالىٰ سيبعث إلينا بالدنيا ؛ ليطردنا من بابه جل جلاله ، ثم ألصقت خدها بالتراب وقالت : أمَا وعزتك وجلالك لا زايلت بابك وإن طردتني .

ثم قالت : يا حماد ؛ رد عنا ـ عافاك الله ـ دنانيرك إلى الموضع الذي أخرجتها منه ؛ فإنا رفعنا حوائجنا إلىٰ مَن يحفظ الودائع ، ولا يخيب أمل الآملين ، ولا يضيع أجر العاملين ، سبحانه وتعالىٰ . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/٣١] .

* * *

---

(١) **وكف** : أي : تقاطر الماء من السقف .

(٢) أي : اجعله يا رب ابن سلمة .

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال أبو إسحاق الهروي : كنت مع ابن الحنوطي[1] : بالبصرة ، فأخذ بيدي وقال : قم حتىٰ نخرج إلى الأُبُلَّة[2] ، فلما قربنا منها ونحن نمشي علىٰ شاطئها في الليل والقمر [طالع] ؛ إذ مررنا بقصر لجندي فيه جارية تضرب بالعود ، فوقفنا في فناء القصر نسمع ، وفي جانب القصر في ضوء القمر فقير متزر بخرقتين ، فقالت الجارية :

كـــــلَّ يـــــوم تتلـــــوَّنْ غيـــر هـٰـــذا بـــك أجمـــلْ

قال : فصاح الفقير : أعيديه ، فهـٰذا حالي مع الله عز وجل ، فنظر صاحب الجارية إلى الفقير وهو يقول هـٰذا حالي مع الله سبحانه وتعالىٰ ، فقال للجارية : اتركي العود وأقبلي عليه وأعيدي القول ؛ فإنه صوفي ، فأخذت تقول وتعيد القول :

كـــــل يـــــوم تتلـــــون غيـــر هـٰـــذا بـــك أجمـــل

والفقير يقول : هـٰذا حالي مع الله عز وجل ، والجارية تردد إلىٰ أن زعق الفقير زعقة خر مغشياً عليه ، فحركناه ؛ فإذا هو ميت .

فلما سمع صاحب القصر بموته . . نزل ، فأدخله القصر ، ثم صعد الجندي ، وكسر كل ما كان بين يديه من آلات اللهو ، فلما أصبحنا . . كأنما نودي بالصلاة ، فخرج الخلائق للجنازة ، وإذا الجندي يمشي خلف الجنازة حافياً حاسراً حتىٰ دُفن .

فلما هَمَّ الناس بالانصراف . . قال الجندي للقاضي والشهود : اشهدوا أن كلَّ جارية لي حرةٌ لوجه الله سبحانه وتعالىٰ ، وكلَّ ضِياعي وعقاري حَبْسٌ في سبيل الله تعالىٰ ، وفي صندوق لي أربعة آلاف دينار وهي في سبيل الله تعالىٰ .

---

(١) في بعض النسخ : (ابن الخيوطي) وفي « الصفوة » : (ابن الخروطي) .
(٢) **الأُبُلَّة** : بلد قرب البصرة .

ثم نزع الثياب التي كانت عليه ، فرمىٰ بها وبقي في سراويل ، ثم عمد إلىٰ مئزَريْ صوف من وجههما وخرج سائحاً ، فكان بكاء الناس عليه أكثر من بكائهم على الميت . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ٣٢ـ٣٣] .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال مسلم بن زرعة بن حماد : حدثني أبو الرضا شيخ بعبَّادان له عبادة وفضل[1] ، قال : مَلُحَ الماء عندنا نيفاً وستين سَنة ، وكان هـٰهنا رجل من الساحل له فضل ، ولم يكن في الصهاريج شيء ، وحضرت المغرب ، فهبطت لأتوضأ من النهر ، وذلك في رمضان وحر شديد ؛ وإذا به وهو يقول : سيدي ؛ أرضيت عملي حتىٰ أتمنىٰ عليك ؟ أم رضيت طاعتي حتىٰ أسألك ؟ وعزتك وجلالك يا سيدي ؛ غسالة الحمَّام لمن عصاك كثير ، إلـٰهي وسيدي ؛ لولا أني أخاف غضبك . . لم أذق الماء وقد أجهدني العطش .

قال : ثم أخذ بكفه وشرب شرباً صالحاً ، فتعجبت مِن صبره علىٰ ملوحته ، فجئت وأخذت من الموضع الذي أخذ ؛ فإذا هو بمنزلة السُّكَّر ، فشربت حتىٰ رويت ، ثم صاحبته زماناً .

فقال لي في بعض الأيام : رأيت البارحة في المنام كأن قائلاً يقول لي : قد فرغنا من بناء دارك ، فلو رأيتها . . قرت عيناك ، وقد سميناها : دار السرور ، وبعد سبعة أيام تجيء إليها ، فأبشر .

فلما كان يوم السابع وهو يوم الجمعة . . بَكَّر للاغتسال ، فنزل إلىٰ النهر ، فزلق وغرق ، فأخرجناه بعد الصلاة ، فدفناه .

قال أبو الرضا : فرأيته بعد ثلاثة أيام في النوم وهو يجيء إلى القنطرة ويكبر ، وعليه حلل خضر ، فقال لي : يا أبا الرضا ؛ أنزلَني الكريم جل جلاله في دار السرور ، فماذا أعدَّ لي

---

(١) كذا في النسخ ، وعبارة « الصفوة » : (سلم بن زرعة بن حماد ، أبو المرضىٰ ، شيخ بعبادان له عبادة وفضل) .

فيها ؟ فقلت له : صف لي ، فقال : هيهات! يعجز الواصفون عن أن تنطق ألسنتهم بما فيها ، فاكتسب مثل ما اكتسبت ، وليت عيالي يعلمون أنه قد هيئت لهم منازل معي ، فيها كل ما اشتهته أنفسهم ، نعم وإخواني وأنت معهم إن شاء الله تعالىٰ . ثم انتبهت . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ٣٧ـ٣٨] .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال علي بن سعيد : مررت بعبادان برجل مكفوف مجذوم ، وإذا الزنبور يقع عليه فيقطع لحمه ، فقلت في نفسي : الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاه به ، وفتح مِن عيني ما أغلق مِن عينيه .

قال : فبينا أنا أردد الحمد ؛ إذ صرع ، فبينما هو يتخبط . . نظرت إليه ، فإذا هو مقعد ، فقلت في نفسي : مكفوف مصروع مقعد مجذوم ؟ قال : فما تمَّ كلامي حتىٰ صاح بي وقال : يا متكلف[1] ؛ ما دخولك فيما بيني وبين ربي عز وجل ؟! دعه يفعل بي ما يشاء ، ثم قال : وعزتك وجلالك لو قطعتني إرباً إرباً وصببت البلاء صباً . . ما ازددت لك إلا حباً ، بتوفيقك إياي يا أرحم الراحمين . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/٣٨] .

* * *

(١) **المتكلف** : المتعرض لما لا يعنيه .

ومنهن :

عابدة أخرىٰ
رضي الله عنها

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ وغيره : قال عبد ربه الخواص رحمه الله تعالىٰ : رأيت امرأة فارسية بأرَّجان[1] ، وهي تقول : إلـٰهي وسيدي ومولاي ؛ تدبرت حكمك بين خلقك . . فإذا العدل منك يقصمهم ، ثم رجعت بعد ذلك إلىٰ معرفتي بسعة رحمتك . . فعلمت أن عفوك يسعهم وأمثالَهم وأمثالَ أمثالهم إلىٰ ما لا نهاية له .

ثم قالت : يا مولاي ؛ وعزتك وجلالك ؛ لقد أخرت الخاطئين فلم تعجل عليهم بالعقوبة ، فأطمعهم حسن إنظارك لهم في حسن عفوك عن جرائمهم ، وما يمنعهم من ذلك وقد تقدم إحسانك إلى الخلائق كلهم ، والأمم قبلهم من الأزل والأبد ، وأنت أهل التقوىٰ وأهل المغفرة ، وولي الخيرات في الدنيا والآخرة . وكانت تنوح وتبكي علىٰ نحو هـٰذا الكلام . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ٤٤] .

* * *

(١) **أرَّجان** ـ بتشديد الراء ، وخففها بعضهم ـ : مدينة بفارس تبعد عن شيراز ستون فرسخاً ، وكانت مدينة كثيرة الخير ، وهي برية بحرية ، سهلية جبلية ، افتتحها أبو موسى الأشعري وعثمان ابن أبي العاص في آخر خلافة عمر رضي الله عنهم .

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال صالح بن أحمد ابن حنبل رحمهم الله تعالىٰ : جئت يوماً إلىٰ منزلي ، فقيل لي : قد وَجَّه إليك أبوك أمس في طلبك ، فقمت لوقتي وأتيت إليه ، فقال لي : يا بني ؛ وجهت إليك في طلبك بالأمس ، وسبب ذلك : أنه جاءني أمس رجل كنت أحب أن تراه ، بينما أنا قاعد في حر الظهيرة ؛ وإذا برجل يسلم بالباب ، فكأن قلبي ارتاح إليه ، ففتحت الباب ، وإذا برجل عليه فروة وعلىٰ أم رأسه خرقة ، وما تحت فروته قميص ، ولا معه ركوة ولا عكاز ، قد لوحته الشمس .

فقلت له : ادخل ، فدخل ، فقلت له : مِن أين أقبلت ؟ قال : من ناحية المشرق ، أريد بعض هـٰذه السواحل ، ولولا مكانك . . لما دخلت هـٰذه البلد ؛ لأني نويت السلام عليك .

ثم قال لي : ما الزهد في الدنيا ؟ فقلت : قصر الأمل ، وجعلت أعجب منه ، وقلت في نفسي : ما عندي ذهب ولا فضة ، فدخلت البيت وأخذت أربعة أرغفة وخرجت إليه ، وقلت له : ما عندي ذهب ولا فضة ، وإنما هـٰذا من قوتي .

فقال : أوَ يسرُّك أن أقبل ذلك يا أبا عبد الله ؟ فقلت : نعم ، قال : فأخذها ، وجعلها تحت حضنه ، وقال : أرجو أن تكفيني هـٰذه إلى الرَّقة ، أستودعك الله تعالىٰ ، ثم ولىٰ ، فلم أزل قائماً أنظر إليه حتىٰ خرج . وكان أبي يذكره كثيراً . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/١١٨] .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال أحمد بن علي الإخميمي : كنا يوماً عند ذي النون وقد ذكر كرامات أولياء الله تعالىٰ ، فقال بعض مَن حضرنا : يا أبا الفيض ؛ أخبِرْنا عن بعضهم ، فقال : كان عندي فتىً مِن أهل خراسان ، بقي في المسجد سبعة أيام لا يطعم الطعام ، وكنت أعرض عليه فيأبىٰ .

فدخل ذات يوم سائل يطلب شيئاً ، فقال له الخراساني : لو قصدت الله عز وجل دون خلقه . . أغناك عنهم ، فقال السائل : ما بلغت إلىٰ هـٰذه المرتبة ؟ فقال له الخراساني : أي شيء تريد ؟ قال : ما يسد فاقتي ويستر عورتي ، فقام الخراساني إلى المحراب وصلىٰ ركعتين ، ثم أتاه بثوب جديد وطبق فيه طعام وفاكهة ، فأعطاه للسائل .

قال ذو النون : فقلت له : يا عبد الله ؛ لك هـٰذه المنزلة عند الله عز وجل وأنت منذ سبعة أيام لم تطعم شيئاً ؟ فجثا علىٰ ركبتيه وقال : يا أبا الفيض ؛ كيف تنبسط الألسن بالمسألة ، والقلوب ممتلئة بأنوار الرضىٰ عنه سبحانه وتعالىٰ ؟!

قال ذو النون : فقلت له : والراضون لا يسألون شيئاً ؟ فقال : منهم مَن يسأل من باب الإدلال ، ومنهم مَن يملؤه غنىً به ، ومنهم مَن يستخرج المسألة مِن عطفه علىٰ غيره .

قال ذو النون : ثم أقيمت الصلاة ، فصلىٰ معنا العشاء الآخرة ، وأخذ ركوته وخرج من المسجد كأنه يريد الطهارة ، فلم أره بعد ذلك ، رضي الله عنه وأرضاه . انتهىٰ [« الصفوة » ١١٩/٣] .

* * *

ومنهن :

عابدة أخرىٰ
رضي الله عنها

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال أبو قدامة الشامي رحمه الله : كنت أميراً علىٰ جيش في غزاة ، فدخلت بعض البلاد ، فدعوت الناس إلى الغزو ، ورغبتهم في جزيل الثواب ، وذكرت فضل الشهادة ، وما أعد الله تعالىٰ لأهلها .

فلما تفرق الناس وركبت فرسي وصرت إلىٰ منزلي . . جاءتني امرأة من أجمل النساء ، تنادي : يا أبا قدامة ؛ قلت : هـٰذه مكيدة من الشيطان ، فمضيت ولم أجب ، فقالت : ما هـٰكذا كان الصالحون ، قال : فوقفت ، فجاءت ودفعت إلي رقعة وخرقة مشدودة وانصرفت باكية ، فنظرت في الرقعة ، فإذا فيها مكتوب : إنك دعوت إلى الجهاد ورغَّبت في الثواب ، ولا قدرة لي علىٰ ذلك ، يعلم الله سبحانه وتعالىٰ ذلك من قلبي ، وقد قطعت أحسن ما فيَّ وهما ضفيرتاي ، فأنفذتهما إليك لتجعلهما بالله عز وجل قيداً لفرسك ، لعل الله عز وجل أن يرىٰ شعري قيداً لفرسك في سبيل الله تعالىٰ فيغفر لي .

قال أبو قدامة : ونشرت الخرقة ، فإذا فيها الضفيرتان ، فلما كان يوم القتال . . أخرجتهما وجعلتهما قيداً لفرسي ، وباكرنا القتال ، وإذا نحن بغلام بين يدي الصفوف يقاتل قتالاً شديداً ، فتقدمت إليه ، وقلت له : يا فتىٰ ؛ أنت غلام غر وراجل ، ولا آمن عليك أن تجول الخيل فتطؤك بأرجلها ، فارجع عن موضعك هـٰذا .

فقال : أتأمرني بالرجوع وقد قال الله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ ؟ .

قال أبو قدامة : فحملته علىٰ هجين كان معي ، فقال : يا أبا قدامة ؛ أقرضني ثلاثة أسهم ، فقلت : أهـٰذا وقت القرض ؟ فما زال يلح عليَّ حتىٰ قلت له : بشرط : إن مَنَّ الله عز وجل عليك بالشهادة . . أكون في شفاعتك ، قال : نعم ، فأعطيته ثلاثة أسهم ، فوضع

سهماً في قوسه ، وقال : السلام عليك يا أبا قدامة ، ثم رمىٰ به فقتل رومياً ، ثم رمىٰ بالآخر ، ثم رمىٰ بالثالث .

وقال : السلام عليك سلامَ مودِّع ، فجاءه سهم ، فوقع بين عينيه ، فوضع رأسه علىٰ قربوس دابته ، فتقدمت إليه ، وقلت له : لا تنسها ، فقال : نعم ؛ ولٰكن لي إليك حاجة ، إذا دخلت المدينة . . فأت والدتي وسلم عليها ، وادفع إليها خرجي هٰذا ، وأخبرها بأمري ، فهي التي أعطتك شعرها لتقيد به فرسك ، وأخبرها بأمري ؛ فإنها في العام الأول أصيبت بوالدي ، وفي هٰذا العام بي . ثم مات رحمه الله .

فحفرت له ودفنته ، فلما هممت بالانصراف عن قبره . . قذفته الأرض ، فألقته علىٰ ظهرها ، فقال أصحابي : إنه غلام غر ، ولعله خرج بغير إذن أمه ، فقلت لهم : إن الأرض لتقبل كل أحد ، ولٰكن لهٰذا سر ، فقمت وصليت ركعتين ودعوت الله سبحانه وتعالىٰ ، فسمعت صوتاً يقول : يا أبا قدامة ؛ اترك ولي الله عز وجل علىٰ حاله على الأرض .

قال فما برحت حتىٰ نزلت عليه طيور ، فأكلته قال : فلما أتيت المدينة ؛ أتيت دار والدته ، فلما قرعت الباب ؛ خرجت أخته إلي ، فلما رأتني . . عادت ، وقالت : يا أماه ؛ هٰذا أبو قدامة قد جاء وليس معه أخي ، فخرجت أمه ، فسلمت عليَّ ، ثم قالت : أمعزياً جئت أم مهنئاً ؟

فقلت : ما معنىٰ هٰذا الكلام ؟ فقالت : إن كان ابني قد مات . . فعزني ، وإن كان استشهد . . فهنئني ، فقلت لها : بل استشهد ، فقالت : الحمد لله علىٰ ما أنعم .

ثم قالت : له علامة هل رأيتها ؟ قلت : نعم ، لم تَقْبله الأرض ، ونزلت طيور فأكلت لحمه وتركت عظامه فدفنتها ، فقالت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، الحمد لله علىٰ ما أعطىٰ وعلىٰ ما أنعم .

ثم دفعتُ إليها الخرج ، وإذا فيه مِسح[1] وغل من حديد ، فقالت : إنه كان إذا جنه الليل . . لبس هٰذا المسح وغل نفسه بهٰذا الغل ، وناجىٰ مولاه سبحانه وتعالىٰ ، ويقول في مناجاته : (اللهم ؛ احشرني من حواصل الطيور) فقد استجاب عز وجل دعاءه ، رحمه الله تعالىٰ . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ١٣٤ـ١٣٥] .

---

(١) المِسْح : الكساء من الشعر .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : اعلم : أن هـٰذا الفعل ـ وهو قطع الشعر ـ وقع لثلاثة من النساء ، وكل واحدة منهن لها مقصود صحيح ؛ فإن كل واحدة منهن عللت فعلها بما تبتغي به رضوان الله عز وجل .

أما واحدة منهن : فإنها عللت قطع الشعر بأنها طالما تمتعت به في غير طاعة الله عز وجل ، فأحبت أن تجبر ذلك العصيان بالطاعة ، وهـٰذا تعليل صحيح يشهد له الشرع بالاعتبار فيما إذا وقع لقصد الطاعة ولا مانع فيها .

وأما الأخرىٰ : فإنها عللت بأنها إذا فعلت ذلك ؛ حصل لها ذلة وانكسار ، فيرى الله سبحانه وتعالىٰ ـ وهو أعلم ـ ذلتها وانكسار قلبها فيه فيرحمها ، وهـٰذا أيضاً تعليل صحيح ، بل هو أقوىٰ من الأول ، عرف ذلك مَن خاض بحار القوم .

وأما هـٰذه الثالثة صاحبة هـٰذه الواقعة : فعللت بما ذكرناه من كونها لا تقدر على الجهاد بنفسها ، فأحبت أن يكون لها حظٌّ من الجهاد بحسب ما تقدر عليه ، وهـٰذا أيضاً تعليل صحيح .

وبالجملة : فمقاصدهن صالحة ، وإذا علم الله سبحانه وتعالىٰ قصد عبده . . أثابه علىٰ ما علم منه إذا كان ذلك الفعل مما فيه قربة ، ولم يَرد فيه منع خاص .

إذا عُرف هـٰذا . . فقد بلغني عن الشيخ جمال الدين أبي الفرج بن الجوزي ـ رحمه الله ـ أنه منع جواز هـٰذا الفعل مطلقاً من غير أن أقف علىٰ كلامه في ذلك ، والذي تقتضيه الأدلة وكلام الأئمة من أصحابنا وغير أصحابنا الجواز ، ولولا خوف الإطالة . . لأوردت من ذلك شيئاً كثيراً .

لـٰكن ملخص ما أقوله هـٰهنا : أنه لا يخفىٰ علىٰ ذي لُبٍّ أن هـٰذه المرأة قصدها صحيح ؛ لأنها قصدت بذلك التقرب إلى الله سبحانه وابتغاء رضوانه ، وتعليلها مصرح بذلك .

فإن قيل : مجرد صحة القصد في الطاعة لا تكفي في الجواز ؛ لاحتمال ألاَّ يدل على اعتباره دليل شرعي ، وأن يكون ثَمَّ ما يمنع من الجواز .

قلت : هـٰذا صحيح ، ولـٰكن مسألتنا لم يَدُلَّ فيها بخصوصها دليل شرعي علىٰ عدم الجواز ، ولا ثَمَّ مانع ، فانتفى الأمران .

وكل قضية وجد فيها المقتضي وانتفىٰ فيها المانع . . عملت عملها ، وهـٰهنا لا نجد دليلاً شرعياً يدل علىٰ تحريم هـٰذا الفعل ، ولا ثَمَّ مانع يمنع منه فيستصحب الجواز .

وحينئذ فنقول : لا يحرم علىٰ هـٰذه المرأة قطع شعرها ، حيث لا تشبُّه ولا سبب دنيوي ؛ كالزينة وما أشبه ذلك ، وحيث لا زوج لها أو أن يكون لها زوج وأذن . . فالتحريم إنما يكون إذا وجد أحد هـٰذه الأسباب أو جميعها .

ومعلوم أن هـٰذه المرأة ليس لها زوج ، ولا فعلت ذلك للتشبه ولا لشيء مما تقدم ، وانضم إلىٰ ذلك حسن قصدها ، وهو ابتغاء رضوان الله تعالىٰ ، ولم يمنع من ذلك مانع ، فانتهض الجواز .

بل أقول بالاستحباب والحالة هـٰذه ولم يبق ما يتطرق إليه النظر ، إلا أن يقال : هل يحل استعمال شعر الآدمي ؟ فإنه قد يقال بأنه لا يحل ذلك لتكريمه .

وقضية ذلك : ألا يمتهن بالاستعمال .

والجواب عن هـٰذا من وجوه :

أما أولاً : فلأن هـٰذا السؤال ـ علىٰ تقدير وروده ـ فإنما يرد علىٰ فعل صاحبة هـٰذه الواقعة لا غير .

وأما ثانياً : فإن هـٰذا لا يَرِد علىٰ فعل واحدة منهن ، لا صاحبة هـٰذه الواقعة ولا غيرها ؛ لأني لم أر أحداً من الأئمة صرح بأن الشعر المبان من الآدمي يحرم استعماله ، ومعلوم أن شعور الآدميين تحلق وترمىٰ ، ولم يقع من أحد منع ولا نكير ؛ إذ الشعر بعد الإبانة لا يتعلق به تكريم ولا امتهان .

نعم ؛ إنما تكلموا في جلد الآدمي فقالوا : لا يجوز استعماله ، والمعنىٰ فيه ظاهر جداً ؛ فلا يقال : إن الشعر مثله .

وأما ثالثاً ـ علىٰ تقدير التنزل[1] ـ : فالاستعمال ليس من فعلها ، إنما هو من فعل الغير ، والمانع للجواز لم يتعرض لذلك ، وإنما قال : يحرم عليها قطع شعرها .

وغاية ما يقال : إنها هي السبب في الاستعمال ، وقد تقدم أن قوله بالتحريم ليس عليه دليل يدل عليه ، فوجب تركه إلىٰ قيام الدليل .

فإن قلت : هل شعرها بعد الإبانة عورة فيحرم النظر إليه أو لا ؟

---

(١) في نسخة : (التبرك) ، وفي أخرىٰ : (البذل) ، ولعل الصواب ما أثبت .

قلت : إن قيل بأنه لا يحرم النظر إليه بعد الإبانة وهو الذي يتجه ، لا سيما إذا كان مجهولاً . . فلا كلام ، وإن قيل بأنه يحرم النظر إليه وهو بعيد جداً ولـٰكنه قد صار إليه بعض الأصحاب . . فهـٰذا ـ كما تقدم ـ ليس من فعل المرأة وإن كان ينشأ عن فعلها ؛ إذ كانت هي السبب ، ولـٰكن المانع للجواز لم يعتبر ذلك ، ولا جعله المسلك المعتبر في التحريم ، والمسألة تحتاج إلىٰ مزيد نظر وتحرير ، سأعود إليه إن شاء الله عز وجل ، والله أعلم .

* * *

ومنهن :

عابدة أخرىٰ
رضي الله عنها

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال سعيد الإفريقي رحمه الله تعالىٰ : كنت في بيت المقدس ؛ فإذا بجارية في المسجد عليها درع شعر وخمار صوف ، وهي تقول : إلـٰهي وسيدي ؛ ما أضيق الطريق علىٰ مَن لم تكن دليله ، وما أوحش خلوة مَن لم تكن أنيسه .

فقلت لها : يا جارية ؛ ما الذي قطع الخلق عن الله عز وجل ؟ فقالت : حب الدنيا ، إلا أن لله عز وجل عباداً اختصهم بخالص محبته سبحانه وتعالىٰ ، فولهت قلوبهم بحبه سبحانه وتعالىٰ .

ثم قالت :

تـزوَّدْ قـرينـاً مـن فعـالـك إنمـا ... يزِيْن الفتىٰ في القبر ما كان يعملُ
ألا إنمـا الإنسـان ضيـف لأهلـه ... يقيـم قليـلاً عنـدهـمْ ثـم يـرحـل[1]

* * *

(١) الصفوة (٤/١٧٦) .

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال في « زهر الكُمَام في قصة يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام »[1] : روي أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه جهز جيشاً إلى العدو قِبَل الشام ، وكان في المسلمين رجلان أَخَوان قد آتاهما الله سبحانه وتعالىٰ قوة وشجاعة زائدة ، فقتلا من المشركين خلائق .

وكان أمير المشركين يقول لبطارقته[2] ووجوه دولته : لو أن هـٰذين المسلمَين حُصِّلا وقتلا . . لانتصرتم وكفيتم مَن سواهما من المسلمين ، ولم يزل يحرض المشركين علىٰ قتالهما أو أسرهما ، ويرغبهم في المال ، والأخوان يقاتلان قتالاً شديداً ، إلىٰ أن قتل بعضُ المشركين أحدَ الأخوين وأسروا الآخر .

فجاؤوا به إلىٰ ملكهم ، فلما نظر إليه . . قال : إن قتْل هـٰذا لمصيبة عظيمة ، وإن رجوعه إلى المسلمين لآفة كبيرة علينا ، ووددت لو دخل في النصرانية وأعطيه من مالي كذا وكذا ؛ فإنه يكون لدِين النصرانية عوناً وعضداً .

فقال له بطريق من بطارقته : أنا أفتنه عن دِينه ، فقال له ملكهم : وكيف تقدر علىٰ ذلك ؟ فقال البطريق : إن العرب تكثر الصبوة والحب للنساء ، ولي ابنة جميلة ، وليس في مملكتك أجمل منها ، فلو رآها . . افتتن بها وصار إلىٰ ما تريد منه .

فقال له ملكهم : خذه إليك واحتفظ به ، قال : فسار به البطريق إلىٰ منزله ، وفرش فيه من الفرش الجميلة ، وألبس ابنته أفخر الملابس ، وزينها بالحلي والحلل ، وأعلمها بصورة الحال ، وأنها لا تبقي ممكناً في ملاطفته ومداعبته إلىٰ أن ينقاد لها .

---

(١) وهو لعمر بن إبراهيم الأنصاري ، انظر « كشف الظنون » (٢/ ٩٦١) .

(٢) **البطريق** : القائد من قواد الروم ، كما يطلق على الحاذق بالحرب ، وعلىٰ رئيس رؤساء الأساقفة .

ثم أدخل الرجل إلىٰ ذلك المنزل ، وأحضر له الطعام ، ثم خرج البطريق ، فلم يبق في المنزل غير ابنته ، فجاءت ووقفت النصرانية بين يديه كالخادم المطيع تنتظر أن يأمرها بما يشاء فتفعله .

فلما رأى المسلم ما نزل به . . اعتصم بالله سبحانه وتعالىٰ ولجأ إليه ، وغض بصره ، واشتغل بعبادة الله عز وجل وقراءة القرآن ، وكان صوته حسناً يؤثر في قلب كل من يسمعه .

فلما قرأ وسمعته النصرانية . . أثر في قلبها ، فأحبته حباً شديداً ، وكَلِفت به كلفاً عظيماً ، وهو لا ينظر إليها ، ولا يلتفت ، ولا يكلمها ، ولم يزل علىٰ ذلك سبعة أيام ، حتىٰ إن النصرانية صارت تقول في نفسها : ليته لو رضي بدخولي في الإسلام ، فلما عيل صبرها وضاق ذرعها ورأت أنه لا يكلمها ؛ ترامت بين يديه وقالت : أسألك بالله إلا ما سمعت كلامي .

قال : تكلمي ، قالت : اعرض عليَّ الإسلام ، فعرض عليها الإسلام ، فأسلمت وتطهرت ، وعلمها شرائع الإسلام ، فأتت بجميع ما يأمرها به من العبادة علىٰ أحسن وجه ، ثم قالت له : يا سيدي ؛ إنما دخلت في الإسلام بسبب حبي لك وطمعاً في أن أتزوجك .

فقال لها : إن الإسلام يمنع من النكاح إلا بشروط ، وليس لي هٰهنا قدرة على الإتيان بتلك الشروط ، فلو خرجت أنا وأنت إلىٰ بلادي . . لتزوجت بك وعاهدتُ الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ ألاَّ يكون لي زوجة غيرك .

فقالت له : الله علىٰ ما تقول وكيل ؟ فقال : نعم ، فقالت : أنا أحتال في خروجنا ، ثم إنها دعت أباها وأمها ، وأعلمتهما بأن هٰذا المسلم قد مال قلبه إلى الدخول في الدِّين ، ولٰكنه اعتذر بأنه لا يقدر علىٰ أن يدخل في هٰذا الدِّين في البلد الذي قتل فيه أخوه ؛ لشدة حزنه عليه وكثرة تأسفه ، وأنه لو خرج من هٰذا البلد . . لرجوت أن يدخل في الدِّين ؛ لأنه يسلو قلبه عن أخيه ، ولٰكن قال : إنما أفعل هٰذا بشرط أن يصل مني إلىٰ ما يريده ، وأنا قد عاهدته أنه إذا دخل في الدِّين أن أوصله إلىٰ ما يريد مني .

والرأي في ذلك رأيكم ، فما أقطع أمراً دونكم ، لٰكن لو أخرجتموني معه إلىٰ قرية كذا وكذا . . لرجوت أن يصير إلىٰ ما تريدون ، وأنا ضامنته لكم وللمَلِك .

قال : فسار والدها إلى الملك ، وأخبره بما قالت ابنته ، فسُرَّ بذلك سروراً عظيماً ، ثم أمر بإخراجهما إلى القرية الفلانية التي عينتها .

قال : فلما وصلا إلىٰ تلك القرية ؛ أقاما فيها بقية يومهما ، فلما جن الليل ؛ قالت : الرحيل الرحيل ، فأخذا في السير ، فسارا جميع تلك الليلة .

وكان الشاب قد ركب جواداً وأردفها خلفه ، فما زالا يقطعان الأرض حتى الصباح ، فنزلا يصليان الفجر ، فلما فرغا من الصلاة . . سمعا قعقعة السلاح وصهيل الخيل ، فخافا .

فقال : يا فلانة ؛ هـٰذا تبع من النصارىٰ رجالاً وركباناً ، ثم رفع يديه وتضرع إلى الله سبحانه وتعالىٰ في أن ينجيهما ، فسمع هاتفاً يقول : لا تخف ولا تحزن فقد نجوتما ، وإنك في غد في جبال المدينة بإذن الله ، فإذا وصلت إلىٰ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه . . فأقرئه مني السلام ، وقل له : جزاك الله عن الإسلام خيراً .

قال : ثم لم يزالا سائرين يومهما وليلتهما حتىٰ أصبحا في جبال المدينة ، قال : فلما صلىٰ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه الصبح . . قال لأصحابه : اخرجوا بنا لنلتقي العروس ونعقد العقد ، فلم يفهموا معنىٰ هـٰذا الكلام ، لـٰكنهم امتثلوا أمره وخرجوا معه ، فلما كان ضحوة نهار . . أقبل الفارس والمرأة ، فسلما علىٰ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وجاء المسلمون فسلموا عليهما ، وعقدوا نكاحها عليه ، فدخل المدينة وهي زوجته ، ورزق منها جملة أولاد ، ولم تزل في عصمته إلىٰ أن ماتت رحمها الله تعالىٰ . انتهىٰ .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال حجة الإسلام الغزالي ـ قدس الله روحه ـ في « الإحياء » : وعن ابن المهاجر قال : قدم أمير المؤمنين المنصور مكة ، فكان يخرج من دار الندوة إلى الطواف في آخر الليل ، يطوف ويصلي ولا يُعلَم به ، فإذا طلع الفجر . . رجع إلىٰ دار الندوة ، وجاءه المؤذنون فسلموا عليه ، وأقيمت الصلاة ، فيصلي بالناس ، فخرج ذات ليلة حين أسحر ، فبينما هو يطوف ؛ إذ سمع رجلاً عند الملتزم وهو يقول : اللهم ؛ إني أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض ، وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع .

فأسرع المنصور في مشيه حتىٰ ملأ مسامعه من قوله ، ثم رجع ، فجلس في ناحية من المسجد ، وأرسل إليه يطلبه ، فأتاه الرسول فقال له : أجب أمير المؤمنين ، فصلىٰ ركعتين واستلم الركن ، وأقبل مع الرسول ، فسلم عليه ، فقال له المنصور : ما هـٰذا الذي سمعتك تقوله من ظهور البغي والفساد في الأرض ، وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع ؟ فوالله ؛ لقد حشوت مسامعي ما أمرضني وأقلقني .

فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إن أمَّنتني علىٰ نفسي . . أنبأتك بالأمور من أصولها ، وإلا . . اقتصرت علىٰ نفسي ، ففيها لي شغل شاغل ، فقال له : أنت آمن علىٰ نفسك .

فقال : إن الذي دخله الطمع حتىٰ حال بينه وبين الحق وإصلاح ما ظهر من البغي والفساد في الأرض . . أنت ، قال : وكيف يدخلني الطمع ، والصفراء والبيضاء بيدي ، والحلو والحامض في قبضتي ؟!

قال : وهل دخل أحد من الطمع ما دخلك يا أمير المؤمنين ؟ إن الله عز وجل استرعاك أمور المسلمين وأموالهم ، فأغفلت أمورهم واهتممت بجمع أموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص والآجر ، وأبواباً من الحديد ، وحُجَّاباً معهم السلاح ، ثم سجنت نفسك فيها معهم ، وبعثت عمالك في جمع الأموال وجبايتها ، واتخذت وزراء وأعواناً ظلمة ، إن

نسيت.. لم يذكروك ، وإن أحسنت.. لم يعينوك ، وقويتهم علىٰ ظلم الناس بالأموال والكراع والخيل والسلاح .

وأمرت بألاَّ يدخل عليك من الناس إلا فلان وفلان نفر سميتهم ، ولم تأمر بإيصال المظلوم ، ولا الملهوف ، ولا الجائع ، ولا العاري ، ولا الضعيف ، ولا الفقير ، ولا أحد من المسلمين إلا وله في هـٰذا المال حق .

فلما رآك هـٰؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك ، وآثرتهم علىٰ رعيتك ، وأمرت بألاَّ يحجبوا عنك خاصة ، ورأوك تجبي الأموال ولا تقسمها.. قالوا : هـٰذا قد خان الله ورسوله صلى الله عليه وسلّم ، فما لنا لا نخونه وقد سُخِّر لنا ؟

فأتمَروا فيما بينهم علىٰ ألاَّ يصل إليك مِن علم أخبار الناس إلا ما أرادوا ، وعلىٰ ألاَّ يخرج لك عامل فيخالف لهم أمراً ، فإن خالفهم ؛ أقصوه حتىٰ تسقط منزلته ويصغر قدره .

فلما انتشر ذلك عنك وعنهم.. أعظمهم الناس وهابوهم ، وكان أوَّلَ مَن صانعهم عمَّالُك بالهدايا والأموال ؛ ليتَقَوَّوْا بها علىٰ ظلم رعيتك ، ثم فعل مثل ذلك ذوو القدرة والثروة من رعيتك ؛ لينالوا ظلم مَن دونهم من الرعية ، فامتلأت بلاد الله جوراً وظلماً ، وطمعاً وبغياً وفساداً ، وصار هـٰؤلاء القوم شركاءك في سلطانك وأنت غافل لا تدري ولا تشعر .

فإن جاء متظلم.. حالوا بينك وبينه ، ولا يُمكِّن من الوصول إليك ولا الدخول عليك ، وإن أراد رفع قصة إليك عند ظهورك وحدك.. لا يستطيع ذلك ؛ لأنك قد نهيت عن ذلك ، وهم لا يأخذونها منه ، وأنت غافل في سلطانك ، تراهم أو لا تراهم ، ومع ذلك فلا تتكلم ، ولا تقول : أين أرباب الظلامات ؟!

ثم إن الرعية لما رأت أنك قد أقمت للناس رجلاً ينظر في مظالمهم ، فإن جاء متظلم فبَلَغَ بطانتَك.. سألوا صاحب المظالم ألاَّ يرفع مظلمته ، وإن كانت للمتظلم به حرمة وإجابة.. لم يمكنه مما يريد ؛ خوفاً منهم ، فلا يزال المظلوم يختلف إليه ويلوذ به ويشكو ويستغيث ، وهو يدفعه ويعتلُّ عليه ، فإذا تجاسر المظلوم مرة وصرخ بين يديك.. ضرب ضرباً كثيراً مبرِّحاً ؛ ليكون نكالاً لغيره ، وأنت تنظر فلا تُنكر ولا تُغيِّر .

فما بقاء الإسلام وأهله علىٰ هـٰذا ؟! وقد كانت بنو أمية وقبلهم العرب في الجاهلية لا ينتهي إليهم مظلوم.. إلا رفعت ظلامته إليهم ، فيُنصَف ، ولقد كان الرجل يأتي من أقصى البلاد حتىٰ يبلغ باب سلطانهم فينادي : يا أهل الإسلام ؛ فيبتدرونه : ما لك ؟ ما لك ؟

فيرفعون مظلمته إلىٰ سلطانهم ، فينتصف له .

وقد كنتُ ـ يا أمير المؤمنين ـ أسافر إلىٰ أرض الصين وبها ملك ، فقدمتها مرة وقد ذهب سمع ملكهم ، فجعل يبكي ، فقال له وزراؤه : ما لَك تبكي لا بكت عيناك ؟ فقال : أمَا إني لست أبكي على المصيبة التي نزلت بي ، ولـٰكن المظلوم بالباب يصرخ فلا أسمع صوته .

ثم قال : أمَّا إن كان قد ذهب سمعي . . فإن بصري لم يذهب ، فنادوا في الناس : ألاَّ يلبس أحد ثوباً أحمرَ إلا مظلوم ، وكان يركب الفيل طرفي النهار ، هل يرىٰ مظلوماً فينصفه .

هـٰذا ـ يا أمير المؤمنين ـ كافر مشرك بالله سبحانه وتعالىٰ ، قد غلبت رأفته بالمشركين ، وأنِف لنفسه أن يشاركه أهل دولته في مملكته ، وأنت مؤمن بالله عز وجل ، وابن عم نبي الله صلى الله عليه وسلّم ، هَلاَّ تغلبك رأفتك بالمسلمين وتغار لنفسك عن ألاَّ يكونوا هـٰؤلاء شركاء في سلطانك فتشقىٰ بهم ؟!

فإن حدثتك نفسك أنك تجمع الأموال لطلب غاية هي فوق الغاية التي أنت فيها وأحشم منها . . فوالله ؛ ما فوق ما أنت فيه من الغاية والحشمة إلاَّ منزلةٌ لا تدرك إلا بالعمل الصالح ، وهي التقوىٰ ولزومها يا أمير المؤمنين .

ثم إن العدل لا ينافي جمع الأموال ، بل يزيدها دواماً وكثرة ، فإن المُلك بالعدل يدوم ، والجور سبب لسرعة زواله ، والجور قد يكون من المَلِك نفسه ، وهـٰذا ـ والحمد لله ـ قد أعاذك الله بفضله ومنِّه منه ، وقد يكون من الذين أقمتهم ببابك ، فصاروا شركاء في سلطانك ، وأنت غافل لا تشعر ، فتنبهْ لهم ، واكشف ظلامتهم بنفسك ، ولا تجعل بينك وبين المظلومين حجاباً ولا بواباً .

واعلم : أن الله سبحانه وتعالىٰ يعاقب من عصاه بالعذاب الأليم ، وهو سبحانه وتعالىٰ يرىٰ منك ما عقد عليه قلبك ، وأضمرته جوارحك .

فماذا تقول إذا أوقفت للحساب ؟! هل يغني عنك من ذلك شيء ؟! لا والله ، هيهات هيهات! فعند ذلك تود أن لو كان بينك وبين المُلك بعد المشرقين ، وأنك كنت راعياً ترعى الغنم في رؤوس الجبال ، وأنك لا وُلِّيت من أمر هـٰذه الأمة شيئاً .

فانظر لنفسك يا أمير المؤمنين قبل أن يحال بينك وبين النظر ، فحينئذ تندم فلا ينفعك الندم .

قال : فبكى المنصور بكاء شديداً حتىٰ نحب وارتفع صوته ، ثم قال : يا ليتني لم أخلق ولم أك شيئاً ، ثم قال : كيف احتيالي فيما خُوِّلت ولم أر من الناس إلا خائناً ؟! قال : يا أمير المؤمنين ؛ عليك بالأئمة الأعلام المرشدين .

قال : ومَن هم ؟ قال : العلماء الربانيون العاملون ، قال : قد فروا مني ، قال : إنما هربوا منك مخافة أن تحملهم علىٰ ما ظهر من جَور عُمالك وأهل مشورتك ، واستيلائهم عليك ، وحَجْبِهم الناس عنك حتىٰ يصلوا إلىٰ مرادهم ، وأنت المسؤول عن جميع ذلك .

ولٰكن افتح الباب ، وسهل الحجاب ، وانتصر للمظلوم ، وامنع الظالم من الظلم ، وخذ الشيء مما حل وطاب ، واقسمه بالحق والعدل ، وأنا ضامن عمن هرب منك أن يأتيك فيعاونك علىٰ صلاح أمرك في رعيتك .

فقال المنصور : اللهم ؛ وفقني أن أعمل بما قال هٰذا الرجل .

وجاءه المؤذنون فسلموا عليه ، وأقيمت الصلاة ، فخرج ، فصلىٰ بهم ، ثم قال لبعض حرسه : ائتني به وما أظنك تقدر عليه ، فخرج الحرسي يطلب الرجل ، فبينما هو يطوف ؛ إذا بالرجل يصلي ، فقعد حتىٰ فرغ من صلاته ، ثم قال له : أجب أمير المؤمنين ، قال : ليس إلىٰ ذلك من سبيل ، قال : يقتلني ؛ قال : ولا يقتلك ؛ فإني أعطيك دعاء الفرج ، قال : قلت : وما دعاء الفرج ؟ قال : لا يُرزَقُه إلا الشهداء ، قلت : فما فضله ؟ قال : من دعا به مساء وصباحاً . . هدمت ذنوبه ، ودام سروره ، ومحيت خطاياه ، واستجيب دعاؤه ، وبسط له في رزقه ، وأعطي أمله ، وأعين علىٰ عدوه ، وكتب عند الله صديقاً ، ولا يموت إلا شهيداً ، وهو أن تقول :

اللهم ؛ كما لطفت في عظمتك دون اللطفاء ، وعلوت بعظمتك على العظماء ، وعلمت ما تحت أرضك كعلمك بما فوق عرشك ، وكانت وساوس الصدور كالعلانية عندك ، وعلانية القول كالسر في علمك ، وانقاد كل شيء لعظمتك ، وخضع كل ذي سلطان لسلطانك ، وصار أمر الدنيا والآخرة كله بيدك ؛ اجعل لي من كل هَمٍّ أمسيت فيه فرجاً ومخرجاً .

اللهم ؛ إن عفوك عن ذنوبي وتجاوزَك عن خطيئتي وسترك علىٰ قبيح عملي . . أطمعني أن أسألك ما لا أستوجبه مما قصرت فيه ، أدعوك آمناً ، وأسألك مستأنساً ؛ فإنك المحسن إلي ، وإني المسيء إلىٰ نفسي فيما بيني وبينك ، تتودد إلي بالنعم ، وأتبغض إليك

بالمعاصي ، ولـٰكن الثقة بك حملتني على الجرأة عليك ، فعد بفضلك وإحسانك إلي ، وتب علي ، إنك أنت التواب الرحيم .

قال : فأخذته ، فصيرته في جيبي ، ثم لم يكن لي هَمٌّ غير أمير المؤمنين ، فدخلت ، فسلمت عليه ، فرفع رأسه ونظر إلي وتبسم ، ثم قال لي : ويلك! وتحسن السحر ؟ فقلت : لا والله يا أمير المؤمنين ، ثم قصصت عليه أمري مع الشيخ ، فقال : هات الرق الذي أعطاك ، ثم جعل يبكي ، وقال لي : قد نجوتَ ، وأمر بنسخه ، وأعطاني عشرة آلاف درهم ، ثم قال : أتعرفه ؟ قلت : لا ، قال : ذاك الخضر عليه الصلاة والسلام ، أو كما قال . انتهىٰ [٢/ ٣٥١ـ٣٥٣] .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : قال حيان بن عبد الله : تنزه هارون الرشيد ومعه سليمان ابن أبي جعفر من بني هاشم ، فقال له هارون الرشيد : قد كانت لك جارية تغني ، فجئنا بها ، قال : فجاءت الجارية ، فغنت ، فلم يعجبه غناؤها ، فقال لها : ما شأنك ؟ فقالت : هـٰذا العود ليس هو بعودي ، فقال للخادم : جئها بعودها ، قال : فجاء بالعود .

فوافق في الطريق شيخاً يلقط النوىٰ ، فقال له : الطريق يا شيخ ، قال : فرفع الشيخ رأسه ، فرأى العود ، فأخذه وضرب به الأرض ، فأخذه الخادم ، فذهب به إلىٰ صاحب الربع ، فقال : احتفظ به ؛ فإنه طلبة أمير المؤمنين ، فقال له صاحب الربع : ليس ببغداد أعبد من هـٰذا ، فكيف يكون طلبة أمير المؤمنين ؟! فقال له : اسمع ما أقول لك .

ثم دخل علىٰ هارون الرشيد ، فقال : إني مررت علىٰ شيخ يلقط النوىٰ ، فقلت له : الطريق ، فرفع رأسه ، فرأى العود ، فأخذه فضرب به الأرض ، فاستشاط هارون غضباً ، واحمرت عيناه ، فقال له سليمان ابن أبي جعفر : ما هـٰذا الغضب يا أمير المؤمنين ؟ ابعث إلىٰ صاحب الربع يضرب عنقه ويرمي به في دجلة .

قال : لا ، ولـٰكن نبعث إليه حتىٰ يأتي فنناظره أولاً ، فجاء الرسول فقال : أجب أمير المؤمنين ، فقال : نعم ، فقال له الرسول : اركب ، قال : لا ، فجاء يمشي حتىٰ وقف علىٰ باب القصر .

فقيل لهارون : قد جاء الشيخ ، فقال للندماء : أي شيء ترون ؟ أنرفع ما قدامنا من المنكر حتىٰ يدخل هـٰذا الشيخ أم نقوم إلىٰ مجلس آخر ؟ فقالوا : نقوم إلىٰ مجلسٍ آخرَ أَصلَحَ ، فقاموا صُغُراً إلىٰ مجلس آخر ليس فيه منكر ، ثم أمر بالشيخ ، فأدخل وفي كمه الكيس الذي فيه النوىٰ .

فقال له الخادم : أخرج هـٰذا من كمك وادخل علىٰ أمير المؤمنين ، فقال : مِن هـٰذا عشائي الليلة ، فقال : نحن نعشيك ، قال : لا حاجة لي في عشائكم .

فقال هارون للخادم : أي شيء تريد منه ؟ فقال الخادم : في كمه نوىٰ ، قلت له : اطرحه وادخل علىٰ أمير المؤمنين ، قال : لا أفعل ، قال : دعه لا يطرحه .

قال : فدخل فسلَّم وجلس ، فقال له هارون الرشيد : يا شيخ ؛ ما حملك علىٰ ما صنعت ؟ قال : وأي شيء صنعت ؟ وجعل هارون يستحيي أن يقول كسرت عودنا ، فلما أكثر عليه ؛ قال الشيخ : إني سمعت أباك وأجدادك يقرؤون هـٰذه الآية على المنبر : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

ورأيتُ منكراً فغيرتُه ، فقال له : فغيِّر ما شئت ، فوالله ؛ ما قال إلا هـٰذا ، فلما خرج الشيخ ؛ دفع الخليفة إلىٰ رجل بدرة وقال له : اتبع الشيخ ؛ فإن رأيته يقول : قلتُ لأمير المؤمنين وقال لي ؛ فلا تعطه شيئاً ، وإن رأيته لا يكلم أحداً ؛ فأعطه البدرة .

فلما خرج من القصر . . رأىٰ نواة في الأرض قد غاصت ، فجعل يعالجها ولم يكلم أحداً ، فقال له : يقول لك أمير المؤمنين : خذ هـٰذه البدرة انتفع بها ، فقال : قل لأمير المؤمنين يردها من حيث أخذها ، قال : ثم فارقني ومضىٰ مسرعاً .

ويروىٰ أنه قد أقبل يعدو وهو يقول بعد فراغه من كلامه ، وبعد أن عالج النواة ، وقلعها من الأرض :

أرى الدنيا لمن هي في يديهِ ... عذاباً كلما كثرت لديهِ
تهين المُكرِمين لها بصُغْرٍ ... وتُكْرِم كلَّ من هانت عليه
إذا استغنَيْتَ عن شيء فدعه ... وخذ ما أنت محتاج إليه[1]

* * *

(١) الإحياء (٢/ ٣١٦ـ٣١٧) .

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

وقال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : وقد روي عن المأمون أنه بلغه : أن رجلاً محتسباً يمشي في الناس يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ولم يكن مأموراً من عنده بذلك ، فأمر بأن يُدخَل عليه ، فلما صار بين يديه . . قال له : بلغني أنك قد رأيت نفسك أهلاً للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من غير أن نأمرك ، وكان المأمون جالساً علىٰ كرسي ينظر في كتاب ـ أو قصة ـ وأغفله ، فوقع منه ، فصار تحت قدمه من حيث لا يشعر .

فقال المحتسب : ارفع قدمك عن أسماء الله ، ثم قل ما شئت ، فلم يفهم المأمون مراده ، فقال : ماذا تقول ؟ حتىٰ أعاده ثلاثاً ، فلم يفهم ، فقال : إما رفعت أو أذنت لي أن أرفع ، فقال : قد أذنت لك ، فنظر المأمون تحت قدمه ، فرأى الكتاب ، فأخذه وقبَّله وخجل ، ثم عاد وقال : لِمَ تأمر بالمعروف وقد جعل الله عز وجل ذلك إلينا أهل البيت ، ونحن الذين قال الله تعالىٰ فيهم : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ ؟ فقال : صدقت يا أمير المؤمنين ، أنت كما وصفت نفسك من السلطان والتمكين ، غير أنَّا أعوانك وأولياؤك فيه ، لا ينكر ذلك إلا من جهل كتاب الله وسُنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلّم ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ، وقال صلى الله عليه وسلّم : « من رأىٰ منكم منكراً . . . »[1] ، وقال صلى الله عليه وسلّم : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه

---

(١) أخرجه مسلم (٤٩) . وهو بتمامه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول : « من رأىٰ منكم منكراً . . فليغيره بيده ، فإن لم يستطع . . فبلسانه ، فإن لم يستطع . . فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » .

بعضاً »[1] ، وقد مُكِّنْتَ في الأرض ، وهـٰذا كتاب الله عز وجل وسُنة رسوله صلى الله عليه وسلّم ، فإن انقدت لهما . . شكرت لمن أعانك على العمل بشيء منهما ، وإن استكبرت عنهما ولم تنقد لما لزمك منهما . . أنت تعرف ما يجب عليك في ذلك ، فإن الذي إليه أمرك وبيده عزك قد قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ ، فقل الآن ما شئت .

فأعجب المأمون بكلامه وسُرَّ به ، وقال : مثلك يجوز له أن يأمر بالمعروف ، فامض علىٰ ما كنت عليه بأمرنا وعن رأينا ، فاستمر الرجل علىٰ ذلك إلىٰ أن مات رحمه الله تعالىٰ .

[انتهىٰ « الإحياء » ٢/٣١٧] .

* * *

(١) أخرجه البخاري في (٤٦٧) .

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : ودخل أعرابي علىٰ سليمان بن عبد الملك ، فقال : تكلم يا أعرابي ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إني مكلمك بكلام فاحتمله وإن كرهتَه ؛ فإن وراءه ما تحب إن قبلتَه .

فقال : يا أعرابي ؛ إنا لنجود بسعة الاحتمال علىٰ مَن لا نرجو نصحه ، ولا نأمن غشه ، [فكيف بمن نأمن غشه ونرجو نصحه ؟!] .

فقال الأعرابي : يا أمير المؤمنين ؛ إنه قد يكنفك رجال أساؤوا الاختيار لأنفسهم ، وابتاعوا دنياهم بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم سبحانه وتعالىٰ ، خافوك في الله عز وجل ، ولم يخافوا الله فيك ، حرب للآخرة ، سلم للدنيا ، فلا تأمنهم علىٰ ما ائتمنك الله عز وجل عليه ؛ فإنهم لم يألوا في الأمانة تضييعاً ، وفي الأمة خَسْفاً وعَسْفاً ، وأنت مسؤول عما اجترحوا ، وليسوا مسؤولين عما اجترحت ، فلا تُصلِحْ دنياهم بفساد آخرتك ؛ فإن أعظم الناس غبناً مَن باع آخرته بدنيا غيره .

فقال سليمان : أمَا إنك ـ يا أعرابي ـ قد سللت لسانك ، وهو أقطع سيفيك ، قال : أجل يا أمير المؤمنين ، ولٰكن هو لك لا عليك .

ثم قال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : فهٰكذا كان دخول علماء الآخرة على السلاطين ، فالدخول عليهم ليس بممنوع ، ولٰكن تعلَّم الدخول عليهم وادخل .

وأما علماء الدنيا . . فيدخلون ليتقربوا إلىٰ قلوبهم ، فيَدلُّونهم على الرخص ، ويستنبطون بدقائق الحيل طرق السعة فيما يوافق أغراضهم ، وإن تكلموا بمثل ما ذكرناه في معرض الوعظ . . فإنه لم يكن قصدهم الإصلاح ، بل اكتساب الجاه والقبول عندهم ، فلا تنجع موعظتهم ولا تقبل ولا تنفع .

ثم قال : وفي هـٰذا غُرورَانِ يغتر بهما الحمقىٰ :

أحدهما : أن يُظهِر أن قصدي في الدخول عليهم إصلاحهم بالوعظ ، وربما يلبسون علىٰ أنفسهم بذلك أيضاً وهم لا يشعرون ؛ فإن الباعث لهم شهوة خفية ، وعلامة الصدق في طلب الإصلاح : أنه لو تولىٰ ذلك الوعظ غيره ممن هو من أقرانه من العلماء ، ووقع موقع القبول ، وظهر به أثر الصلاح . . فينبغي أن يفرح ويشكر الله تعالىٰ علىٰ كفايته هـٰذا الهَمَّ .

والثاني : أن يزعم أن قصدي الشفاعة لمسلم في دفع ظلامة ، وهـٰذا أيضاً مظنة الغرور ، ومعناه مثلما تقدم ذِكره .

فلينظر العالم كيف يكون دخوله عليهم ثم يدخل ، والله أعلم . انتهىٰ [« الإحياء » ٢/١٤٨] .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو أمية الغفاري ـ رحمه الله ـ : كنا في غزاة لنا ، وحضر العدو ، وقام الصفان في يوم شديد الريح ؛ فإذا رجل يخاطب نفسه ويقول : أي نفس ؛ ألم أُشْهِدْكِ مشهد كذا وكذا ، فقلتِ لي : أهلك وعيالك ، فأطعتك ورجعت ؟ ألم أشهدك مشهد كذا وكذا ، فقلت لي : أهلك وعيالك فأطعتك ؟ والله ؛ لأَعْرِضَنَّكِ اليوم على الله سبحانه وتعالىٰ أخَذَكِ أو تَرَكَكِ ، قال : فحمل الناس على العدو ، فكان في أوائلهم ، ثم إن العدو حمل على الناس فانكشفوا ، فكان في حماتهم ، ثم إن الناس حملوا فكان في أوائلهم ، ثم حمل العدو فانكشف الناس ، فكان في حماتهم ، فوالله ؛ ما زال ذلك دأبَه حتىٰ رأيته صريعاً ، فعددت به وبدابته ستين ـ أو أكثر من ستين ـ طعنة رحمه الله . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ٢٩٤] .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال في كتاب « التوابين » : قال عبد الواحد بن زيد رحمه الله : كنت في مركب ، فطرحتنا الريح إلىٰ جزيرة ، فرأيت فيها رجلاً يعبد صنماً ، فقلنا : يا رجل ؛ مَن تعبد ؟ فأومأ إلى الصنم ، فقلنا : إن معنا في المركب من يسوِّي مثل هـٰذا وأمثاله ، هـٰذا ليس بشيء .

قال : فأنتم مَن تعبدون ؟ قلنا : نعبد الله عز وجل ، قال : وما الله ؟ قلنا : الذي في السماء عرشه ، وفي الأرض سلطانه ، وفي الأحياء والأموات قضاؤه .

فقال : كيف علمتم به ؟ قلنا : بعث إلينا هـٰذا المَلِكُ سبحانه رسولاً كريماً فأخبر بذلك .

قال : فما فعل الرسول ؟ قلنا : لما أدى الرسالة وبلغ الأمانة وظهر الدين . . توفاه الله عز وجل ، قال : فما ترك عندكم علامة ؟ قلنا : بلىٰ ؛ ترك عندنا كتاب المَلِك جل جلاله .

قال : أروني كتاب الملك ، فينبغي أن تكون كتب الملك حساناً ، فأتيناه بالمصحف ، فقال : ما أعرف أقرأ ، فقرأنا عليه سورة من القرآن ، فلم يزل يبكي من حين القراءة إلى الفراغ منها .

ثم قال : ما ينبغي لصاحب هـٰذا الكلام أن يعصىٰ ، ثم أسلم ، فحملناه معنا ، وعلمناه شرائع الإسلام وسوَراً من القرآن .

فكان إذا جن الليل وأخذنا مضاجعنا لننام . . يقول لنا : يا قوم ؛ الإلـٰه الذي دللتموني عليه وهو ربنا ورب كل شيء إذا جنه الليل ينام ؟ قلنا : لا ينام سبحانه وتعالىٰ ، هو عظيم قيوم ، فقال : بئس العبيد أنتم ، تنامون ومولاكم لا ينام ؟ فأعجبنا كلامه ، فلما قدمنا عبادان . . قلت لأصحابي : إن هـٰذا قريب عهد بالإسلام فجمعنا دراهم وأعطيناه .

فقال : ما هـٰذا ؟ قلنا : تنفقها ، فقال : لا إلـٰه إلا الله ، دللتموني علىٰ طريق

ما سلكتموها ، أنا كنت في جزائر البحر أعبد صنماً دونه ، فما ضيعني الله عز وجل ، فكيف يضيعني وأنا أعرفه وأعبده سبحانه وتعالىٰ ؟!

فلما كان بعد مدة طويلة . . قيل : إنه في الموت ، فأتيته ، فقلت : هل من حاجة ؟ فقال : قضىٰ حوائجي من جاء بكم إلىٰ جزيرتي سبحانه وتعالىٰ .

قال عبد الواحد : فغلبني النوم ، فنمت عنده ، فرأيت مقابر عبادان روضة ، وفيها قبة ، وفي القبة سرير عليه جارية لم أر أحسن منها ، فقالت : سألتك بالله إلا ما عجلت به ، فقد اشتد شوقي إليه ، فانتبهت ، فإذا به قد فارق الدنيا ، فغسلته وكفنته ووارته .

فلما جن الليل . . نمت ، فرأيته في القبة مع الجارية ، وهو يقرأ ، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۞ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ . انتهىٰ [٣٠٠ـ٣٠٢] .

* * *

ومنهم :

عابد آخر

رضي الله عنه

قال في « لوامع أنوار القلوب » : قال أبو عاصم : قال ذو النون : قلت لحكيم : كم باب يرقاه العبد حتىٰ يصل إلى الله عز وجل ؟ قال : أربعة أبواب : الخوف ، والرجاء ، والمحبة ، والشوق .

قال : قلت : فما مفاتيح هـٰذه الأبواب ؟ فقال :

مفتاح الخوف : المداومة علىٰ أداء الفرائض مع الإخلاص .

ومفتاح باب الرجاء : المداومة على النوافل مع الورع .

ومفتاح باب المحبة : المداومة على المراقبة مع المشاهدة .

ومفتاح باب الشوق : المداومة على الذِّكر بالقلب واللسان .

وقال : قال بعض العارفين وقد سئل عن الفرق بين المحبة والحياء فقال : المحبة : رغبة وهي زَعْجَة[1] ، والحياء : خَجْلة ، والمحب طالب غائب ، والمستحي حاضر ، وبينهما فرق واضح ؛ لأن المحبة تصح مع الغَيبة ، والحياء مع المشاهدة ، فشتان بين غائب غريب . . وحاضر قريب .

وقال : قال بعض العارفين في حكاية : إذا زفرت جهنم زفرة . . كُلٌّ يقول : نفسي نفسي ، إلا محمد سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ؛ فإنه يرجع إلىٰ حد الشفاعة ، فيقول : أمتي أمتي ، فلا يبقىٰ لأحد نفَس واحد بلا علة ؛ ليعلم أن محل الحوادث لا يخلو من العلل .

قال : ورأىٰ بعض المشايخ سبحة في يد مريده ، فقال : ما تعمل بها ؟ فقال : أعد التسبيحات ، فقال : عليك بعدِّ السيئات .

---

(١) زَعْجَة : انزعاج ، أي : قلق .

واعلم : أن طلب الحلال فريضة علىٰ كل مسلم ، وترك الحلال فريضة علىٰ أولياء الله تعالىٰ ما عدا قدر الضرورة ؛ فإنه من الدِّين .

وقال بعضهم : لو دُفعت إلى الاهتمام بدجاجة . . ما أمنت علىٰ نفسي أن أصبح شرطياً .

وقال : مكابدة العفة أيسر من القيام على العيال .

وقال : رأيت الصبر عنهن أسهل من الصبر عليهن .

قال : وسئل بعض العارفين عن الصحبة فقال : أولها معرفة ، ثم مودة ، ثم ألفة ، ثم عِشرة ، ثم صحبة ، ثم أُخُوَّة .

وقد قيل : غذاء النفس في العِشرة ، وغذاء القلوب في الصحبة ، وإذا صحبت إنساناً . . فانظر عقله ودِينه ، وليكن اهتمامك بكثرة عقله أكثر من نظرك إلىٰ كثرة دِينه ؛ فإن دِينه له وعقله لك ، ولا تصحب مَن كان أكثر همه النفس والهوىٰ ؛ قال تعالىٰ : ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا﴾ .

وسئل بعضهم عن الأكل الذي لا يضر فقال : أن تأكل بالأمر لا بالهوىٰ .

وروي عن رويم قال : منذ عشرين سنة لم يخطر ببالي الطعام حتىٰ يحضر ، ثم قال : قال بعض العارفين : كانت بلية آدم عليه الصلاة والسلام في أكلة ، وهي بليتكم إلىٰ يوم القيامة ، ثم فارقني ومضىٰ .

* * *

ومنهن :

عابدة أخرىٰ
رضي الله عنها

قال عبد الله بن محمد : سمعت امرأة تقول : إلـٰهي وسيدي ومولاي ؛ وعزتك وجلالك ؛ لقد سئمت من الحياة ، حتىٰ لو وجدت الموت يباع . . لاشتريته ؛ شوقاً إليك وحباً للقائك ، يا أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين .

قال : فقلت لها : أَفَعَلىٰ ثقةٍ أنت من عملك ؟ قالت : لا والله ، وأي شيء عملي ؟! وما قدري ؟! وهل للعبد فعل في الحقيقة ؟! إنما الكل من عطائه ، فله المنة العظمىٰ فيما وفَّق وأقدر ، وعلينا الحجة الكبرىٰ فيما خالفنا وضيعنا من أمره ونهيه سبحانه وتعالىٰ ، وإنما بحبي إياه سبحانه وتعالىٰ ، وحسن ظني به عز وجل ، أفَتُراه يعذبني وأنا أحبه وهو أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين ؟! حاشا كرمه . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/٣٠٧ بنحوه] .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال في « بهجة الأسرار » : قال أبو سعيد الخراز رحمه الله : دخلت المسجد الحرام وأنا أريد الطواف ؛ فإذا بشخص قاعد في حاشية الطواف ، عليه قطيفة[1] مقطوعة بنصفين ، رداء وإزار خَمْلُه[2] خارج ، وهو يعظ الحاج ، ويقول : تزينتم لغير الله عز وجل ، واتخذتم كذا وكذا ؛ يخبرهم بعيوبهم ومساوئهم التي فعلوها من الرياء والسمعة وغير ذلك بكلام صحيح .

فلما أكثر عليهم . . دعوا الحرس ، فقالوا : أقم عنا هـٰذا مِن هـٰهنا ، فقال : البيت بيت ربي وبساط ربي جل جلاله ، وأنا عبده ، مَن يقيمني ؟! فانصرفوا وقالوا : هـٰذا مجنون .

قال أبو سعيد : وكان عليَّ إزارين : رداء ومئزر صوف ، وكان في مئزري قطيعات ما علم بها إلا الله عز وجل ، فقلت له : أسألك عن مسألة ، فنظر إلي نظراً شافياً وقال : الدراهم التي في مئزرك أخرجها ، ثم تعال سل ، فقلت : هي مِن قلبي خارجة ، فإنما ملكتها على التعبد لا على السكون إليها .

فأعجبه كلامي ، فقام ومشىٰ ، وتبعته حتىٰ جاء إلىٰ باب إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وقعد على الدرج ، وكان قد رآه الناس وهو يتكلم ، فجاءه رجل بصُرَّة دراهم فقال له : خذ هـٰذه ، فضرب يده على الحصا ، فقبض منه قبضة ، ثم قال لصاحب الصُّرَّة : ذاك من هـٰذا وهـٰذا من ذاك ، ثم قام ومشىٰ ، فتبعته ، فجاء إلي باقلاني ، وأراد أن يلبِّس عليَّ ، ومر بنا قطار جمال ، فحالت بيني وبينه ، ثم رأيته بعد أيام كثيرة وهو يقرأ (سورة الفجر) في

---

(١) **القطيفة** : كساء له خَمْلٌ .

(٢) **الخَمْل** : هدب القطيفة ونحوها مما يُنسج وتفضل له فضول .

المصحف ، وقد وقف علىٰ هـٰذه الآية : ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۞ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۞ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۞ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۞ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ ، فكان يكررها أوقاتاً كثيرة ولا يجوزها ، ولا يأكل ولا يشرب ، فسألته أن يأكل شيئاً ، فقال : أليس في هـٰذا كفاية وهو غذاء الأنفس ؟!

ثم قال لي : إن أحدكم إذا اجتهد في بر أخيه . . أتاه بدراهم يشغله بها عن الله عز وجل ؟!

وكان مقامه الخوف رحمه الله . انتهىٰ .

* * *

ومنهن :

عابدة أخرىٰ
رضي الله عنها

قال فتح الموصلي رحمه الله : سمعت امرأة متعبدة عندنا تقول : إلـٰهي وسيدي ومولاي ؛ إنك لو عذبتني بعذاب الخلق كلهم لِلذي فاتني من قربك . . لكان ما فاتني من قربك جل جلالك أعظم من ذلك العذاب ، ولو نعَّمتني بنعيم الجنة . . لكان لذة حبك في قلبي أكبر ، يا حي يا قيوم ؛ لا إلـٰه إلا أنت . انتهىٰ [« الصفوة » ١٢٨/٤] .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال في « لوامع أنوار القلوب » : قال مالك بن دينار رحمه الله : رأيت في البادية في يوم شديد البرد شاباً عليه طمران رثان ، وعليه آثار العمل ، وشواهد القَبول ، ونور الإجابة ، فعرفته ، وكنت أعهده بالبصرة ، وله نعمة وافرة وثروة ظاهرة .

فبكيت لَمَّا رأيته علىٰ تلك الحال ، فلما رآني . . بكىٰ وقال : يا مالك ؛ ما تقول في عبد أبق من مولاه ؟! فاشتد بكائي .

ثم قلت له : وهل يستطيع العبد ذلك ، والخلقُ عباده والبلاد بلاده ؟! فأين منه المهرب للمسكين ؟! فقال : يا مالك ؛ سمعت قارئاً يقرأ : ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ ، فأحسست بنار وقعت في أضلاعي ، فلا تخمد ولا تهدأ إلىٰ يومي هـٰذا .

يا مالك ؛ ترىٰ أُرحَم يوماً وتنطفىء هـٰذه الجمرة من قلبي .

وأنشدوا في معناه :

تُرىٰ مَن كوىٰ قلبي بنار فِراقه ... وصيَّر حظي من محبته بُعدا
تفكر يوماً فيَّ أو قال مرة ... تركنا لنا عبداً إساءته جِدا

قال : فقلت له : أحسِن الظن بمولاك سبحانه وتعالىٰ ؛ فإنه الغفور الرحيم ، ثم قلت : إلىٰ أين تريد ؟ فقال : إلىٰ حضرته وبيته ؛ فعسىٰ أن أكون ممن إذا ٱلْتَجَأَ إلى الحرم . . استحق رعاية الذمم .

قال مالك : ثم فارقني ، فعجبت من وقوع الموعظة موقعها ، وشربهِ الكأس بمنافعها ، وما يتأجج بين جوانحه من نار الانتباه والاتعاظ ، والدعاء والإجابة .

وقال : اشترىٰ بعض العارفين عبداً ، فقال له : أي شيء تأكل ؟ فقال : ما أطعمتني ،

فقال له : أي شيء تلبس ؟ فقال : ما كسوتني ، فقال له : فما تعمل ؟ قال : فيما تستعملني ، قال : فما أرىٰ لك إرادة ، فقال : ليس للعبد إرادة مع سيده ، فراجع ذلك العارف نفسه وبكىٰ ، ثم قال : يا مسكين ؛ هل كنت لله عز وجل في عمرك ساعة واحدة مثل ما كان لك العبد في هـٰذه الحالة ، بل تتغير في كل ساعة ، وتقف مع نفسك ولا تستحي ، ثم أنشد :

كـــــلَّ يـــــوم تتلـــــونْ غيـــرُ هـٰـــذا بـــك أجمـــلْ

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

روي عن مالك بن دينار رحمه الله : أنه دخل علىٰ شاب تائب ، فوجده خيالاً علىٰ فراشه كالشن البالي من المرض ، فسأله عن حاله ، فلم يستطع الجواب بلسانه ، وأشار بطرفه .

فبينما هم كذلك . . وإذا بصوت المؤذن ، قال : فسمعته يقول مثل ما يقول المؤذن ، ويشير بأصبعيه عند الشهادتين ، ثم أمر والده ، فوضأه ، ثم وجهه إلى القِبلة ليصلي مومئاً ، فلما فرغ . . قال : يا مالك ؛ البلاء منه سبحانه وتعالىٰ راحة مع بقاء الإيمان ، يا مالك ؛ نعمه سبحانه لا تعد ، وبلواه واحدة .

قال مالك : فتعجبت من يقينه وصبره ، وخالص محبته ، وصدق وفائه رحمه الله . انتهىٰ .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال في « لوامع أنوار القلوب » : قال محمد بن سالم : رأيت في البادية شيخاً قد أخذ الدهر منه ، وهو مع ذلك ـ ظاهر المراقبة ، دائم المجاهدة ، سريع الدمعة ، كثير الحسرة ، فسلمت عليه ، فقال : وعليك السلام يا محمد بن سالم .

فقلت : هل سبقت معرفة ؟ قال : نعم ، فقلت : متىٰ ؟ فقال : مِن المعرفة الأولىٰ ، جواباً عن قول الله عز وجل : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ ، والثانية : أذان الخليل عليه الصلاة والسلام بالحج ، ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا ﴾ ، والثالثة : شهادة الشفيع المشفع في المحشر صلى الله عليه وسلّم في قوله صلى الله عليه وسلّم : « قلوب المؤمنين جنود مجندة ، فما تعارف منها . . ائتلف ، وما تناكر منها . . اختلف »[1] .

فقلت له : كيف الطريق ؟ فقال : الحلال بيِّنٌ والحرام بيِّنٌ ، والطريق واسع لسالكه ، وإنما يصعب طلب دليل التوفيق .

فأخذ كلامُه مني ، وفارقني وهو يبكي .

قال : ثم دخلت مكة شرفها الله تعالىٰ ، وخرجت إلىٰ منىٰ ؛ وإذا بحلقة عظيمة وشيخ قائم بينهم ، وهو يقول : بَرِح الخفاء وكُشف الغطاء ، وحان التفتك وطاب التهتك . فلم يبق قلب إلا أشجاه ، ولا طرف إلا أبكاه ، فتأملت الحلقة ؛ وإذا هو الشيخ صاحبي ، وقد وقع مغشياً عليه . [انتهىٰ] .

* * *

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٥٨) عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلّم بلفظ : « الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها . . ائتلف ، وما تناكر منها . . اختلف » .

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال في « لوامع أنوار القلوب » : قال ذو النون رحمه الله : بينما أنا في بعض كهوف التِّيه ؛ وإذا بصوت حزين باكياً يقول : سيدي ومولاي.. لا تقطعني دون أملي منك ، ولا تشغلني عنك بغيرك ، وقربني منك ، وأوحشني ممن سواك ، وآنسني بقربك يا أرحم الراحمين .

فقربت منه ؛ وإذا به شيخ في أصل الكهف ضئيل نحيل ، وهو ساجد ، فلما رفع رأسه.. سلمت عليه ، فرد السلام وقال لي : مَن أنت ؟ وما حاجتك ؟ فقلت : مريدُ فضلٍ وطالبُ شفيعٍ إلى الله عز وجل بمغفرة وزلفىٰ ، فقال : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ ﴾ ، طَلبتُ كما طَلبتَ ، فلما تعذر عليَّ.. تشفعت به سبحانه وتعالىٰ ، وأقسمت عليه بما منَّ عليَّ من الإيمان به ، وحسن الظن بجميل عفوه ، وانقطعت إليه ؛ فهو أنيسي من كل شيء ، واتكلت عليه ؛ فهو كفايتي من كل أحد ، فلا تُدخِلْ بينك وبينه أحداً ؛ فإنه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ لا يخيب مَن انقطع إليه .

قال : فقلت : فأي العبادات أفضل وأقرب إليه جل جلاله ؟ فقال : عليك بالخوف ، والورع ، والرجاء ، والمراقبة ، وأصل الكل : الإخلاص مع الصدق ، فلا تنظر غيره ، ولا تَخَفْ غيره ، ولا ترج غيره ، ولا تراقب غيره ؛ فإنه سبحانه غيور ، واحفظ الأدب ؛ لئلا يراك حيث نهاك ، ولا يفقدك حيث أمرك . انتهىٰ .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أحنف الهمذاني ـ رحمه الله ـ : كنت في البادية ماشياً ، فتعبت ، فقلت : إلـٰهي وسيدي ومالكي جل جلالك ؛ بدني ضعيف ناحل ، وقد جئتك ضعيفاً ، فاحملني بقوتك يا ذا القوة المتين .

قال : فنوديت في سِرِّي : مَن دعاك حتىٰ جئت ؟ فقلت : إلـٰهي ؛ المملكة عظيمة ، والرحمة واسعة ، وأصناف الجود والكرم علىٰ خلقك فائض ، والضيافة عامة فتحتمل الطفيلي .

قال : وإذا بصائح من ورائي ، فالتفتُّ ، وإذا بأعرابي علىٰ راحلة ، فقال : يا فارسي إلىٰ أين ؟ فقلت : إلىٰ مكة إن شاء الله عز وجل ، فقال : أليس قد شرط الله عز وجل الاستطاعة ، فقلت : المملكة واسعة وتحتمل الطفيلي .

فقال : تقدر أن تخدم الراحلة ؟ فقلت : نعم ، إن شاء الله تعالىٰ ، فقال : خذ هـٰذه الراحلة ، قال : فأخذتها وسرت عليها ، فما رأيت من مشقة الراحلة عليَّ كان أكثر :

نفسي إليك بكلها قد أجمعتْ ... لو أن فيك هلاكَها ما أقلعتْ
تبكي عليك بكلها عن كلها ... حتىٰ يقال من البكاء تقطعت
فانظر إليها نظرة بتعطف ... فلطالما متعتَها فتمتعت[1]

وقال جعفر بن سليمان ـ رحمه الله ـ : مررت بالبادية ، فرأيت عجوزاً مكفوفة تنوح علىٰ نفسها ، فقلت لها : ما معاشك هـٰهنا ؟ فقالت : دع عنك هـٰذا الكلام ، بلغت هـٰذا المبلغ فما أحوجني إليك ولا إلىٰ غيرك ، فعليَّ أن أعبده وهو سبحانه وتعالىٰ يرزقني ، ثم قرأت : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ . انتهىٰ .

* * *

---

(١) في نسخة : (فلطالما منعتها فتمنّعت) .

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو الأزهر : مضيت يوم جمعة إلىٰ جامع المهدي ببغداد ، فبينما أنا بالرصافة عند القصر ؛ وإذا بعَليٍّ الموسوس ، وكان كثير المحفوظ ، فتقدمت إليه وكلَّمْته وداريته حتىٰ قام معي إلى المسجد ، فقلت له : يا أخي ؛ كيف وجدت غاية المحبة ؟ فقال : استكفي البلاء ، هـٰذا أول منازلها ، والله ؛ إن الصادقين فيها سكارىٰ ، ثم هُمْ في سكرهم هاموا وهَذَوْا ، فالسكران لا يؤاخَذ بما يقول .

ثم إنه أنشد أبياتاً فيها هزل ، فقلت له : يا علي ؛ أمَا تستحي تنشد مثل هـٰذه الأبيات في طريق الجامع قبل الصلاة ؟!

فقال : الحلال والحرام قبل الصلاة وبعدها سواء ، ألم أقل لك إن السكران لا يؤاخذ بما يقول ؟ إن كان معك ما يؤكل . . فلا بأس قدِّمه ، فبعثت غلامي فأحضر له شيئاً ، ودخلنا الجامع ، فأكل ، ثم حمد الله سبحانه وتعالىٰ .

ثم التفت إلي وقال لي : الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به ، ثم قال : إن المحبة إحسان بإخلاص القلب ، والمعصية إساءة بظاهر البدن ، والله سبحانه وتعالىٰ أكرم مِن أن يضيع تحقيق إخلاص الضمائر بتمحيق أحوال الظواهر .

ثم قال رافعاً صوته : ويلك يا أبا الأزهر ! أيش نأكل الليلة عندك ؟ فاستحييت وقلت له : اخفض صوتك وأطعمك ما تشتهي ، فكرر الكلام .

ثم أنشد أبياتاً في الهَزْل ، ثم قال : يا أبا الأزهر ؛ من كان لا يستحي من الله عز وجل في حال معصيته . . كيف يستحي منه في حال ما يتكلم بالمباح ؟ امض عني ، فلست من زبوني .

فأمرت غلامي أن يمسكه ويداريه حتىٰ صلينا الجمعة ، ثم قال لي : اقعد حتىٰ نصلي

العصر مكاننا ؛ لنجمع بين الحج والعمرة[1] ، ففعلت ذلك ، ثم انصرفت إلى البيت وقدمت له ما يأكل ، فلما أكل وغسل يديه وحمد الله تعالىٰ . . ألحَّ عليَّ بالخروج إلى المسجد لصلاة المغرب ، فوافقته .

فلما دخلنا المسجد . . صلينا المغرب ثم العشاء ، ثم رجعنا إلى البيت ، فبينما أنا أمشي معه . . أنشد أبياتاً فيها ذِكر الخمر فأردت أن أختبره ، فقلت لغلامي : أحضر ما ذكر ، فلما سمع ذلك . . صاح ونادىٰ صارخاً وتلبَّب بالغلام[2] وقال له : يا بطال ؛ أما يكفي الذنوب السالفة حتىٰ تريد أن توصلها بذنوب آنفة ؟

ثم إنه لم يزل يقول : الله ، الله ، الله ، ويبكي ويستغفر حتىٰ نام .

فلما كان في السحر . . أتيته وهو يتشاهد ويذكر الله تعالىٰ بقلب حاضر وخشوع وبكاء وتضرع إلى الفجر ، ثم قام إلىٰ وضوئه فصحبته وسلمت عليه ، وقلت له : لا تبرح حتىٰ تتغدىٰ ، فقال لي : أمسك حتىٰ نخدم ربنا سبحانه وتعالىٰ ساعة ، ثم توضأ ، فأحسن الوضوء ، ثم خرج إلى المسجد ، ووقف يصلي تارة ، ويتلو القرآن تارة بخشوع وبكاء لم أسمع أطيب منه ، ولم يسمع أحد من الجيران قراءته . . إلا غلبته الدمعة والبكاء ، ثم التفت إلي وأنشد :

نزف البكاء دموع عينك فاستعِرْ ... عيناً لغيرك دمعُها مدرارُ
مَن ذا يعيرك عينه تبكي بها ... أرأيت عيناً للبكاء تُعارُ

ثم إنه رجع إلىٰ صلاته ، فصلىٰ ما شاء الله عز وجل ، فلما فرغ . . أنشد :

كأن فؤادَه كُرَةٌ تنزَّىٰ ... حذارَ البين لو نفع الحذارُ[3]
أبت عيني عن التغميض حتىٰ ... كأن جفونها عنها قصارُ

فكثر ذلك الوقت البكاء ، وتضاعف أمره ، ثم رجع إلىٰ صلاته ، فخرجت ووقفت بباب

---

(١) هٰذا إشارة إلى الحديث الذي أخرجه البيهقي مرفوعاً في « الشعب » (٣/ ١١٥) : « إن لكم في كل جمعة حجة وعمرة ، فالحجة الهجيرة للجمعة ، والعمرة : انتظار العصر بعد الجمعة » .

(٢) **تلبَّب بالغلام** : شد عليه ثيابه عند لبته ، واللبَّةُ : موضع القلادة من العنق .

(٣) في النسخ : (كرة بترب) ، والمثبت من « ديوان بشار بن برد » و« لسان العرب » ، مادة : نزىٰ ، **والتنزي** : التوثب والتسرع .

المسجد أسترق عليه السمع ، وأسمع صوته وحسن قراءته وطيبها ، فصلىٰ ركعات ، ثم سلم وأخذ يبكي ويدعو ، ثم قام وخرج من المسجد وهو ينشد :

إلى الله أشكو لوعة في فؤاديا ... وشوقاً شديداً في الجوانح باديا
وطولَ حنين قاتلٍ ما أطيقه ... أقام بقلبي والحشا متواليا
يساعد ما ألقىٰ من الوجد زفرة ... يظل لها قلبي من السقم ساهيا
إذا ما هَذَى النُّوَّام في حندس الدجىٰ ... أبيت حزيناً ساهر العين باكيا[1]
وحُقَّ لذي ذنب إذا جل ذنبه ... يبيت سَهوداً للمضاجع قاليا
ينادي رحيماً في سجودٍ وباكياً ... تراه به في ظلمة الليل خاليا
يناديه يا ذا العز طالت محبتي ... إليك اشتياقي أنت تعلم حاليا
فغث مستهام القلب صبّاً متيماً ... عن الخلق جمعاً في ودادك ساليا
أضرَّ به ذنب وحزن مبرِّح ... ولازمه سُقْم فتلقاه باليا
أيا منتهىٰ سؤلي أنا المذنب الذي ... مددت يدي أرجو لديك دوائيا
دوائي ودائي أنت يا غايةَ المنىٰ ... فدائي بقائي والشفاء فنائيا
فأَحْبِبْ به عبداً أطاع رشاده ... وأَكْرِمْ به عبداً أجاب المناديا
فعمَّا قليل سوف يلقىٰ مراده ... وينعَمُ في قرب المهيمن ثاويا

ثم فارقني ومضىٰ . انتهىٰ .

* * *

(١) الحِنْدِس : الظلمة .

ومنهن :

عابدة أخرىٰ
رضي الله عنها

قال ذو النون : رأيت في جبال بيت المقدس شخصاً قد أقبل إلي من جبل ، فدنوت منه ؛ فإذا هي امرأة سوداء بيدها عكاز ، وعليها جبة صوف ، فقلت لها : إلىٰ أين ؟ قالت : إلى الله عز وجل .

قال ذو النون : قلت : عارفة والله ، وكان معي دينار ، فأخرجته وقلت : استعيني بهـٰذا علىٰ طاعة الله عز وجل ، فحركت يدها في وجهي وقالت : يا ذا النون ؛ وهـٰذا من سخافة عقلك ، أعمل مع الله سبحانه وتعالىٰ وآخذ من غير الله عز وجل ؟! والله ؛ لا عملت إلا مع الله ، ولا أخذت إلا من الله ، وتركتني ومضت . انتهىٰ .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال ذو النون : خرجت في سفر ، فبينا أنا أسير في البرية وقد اعتكر الليل وسكنت حركات البر ؛ وإذا أنا بشخص مار بين يدي ، فلحقته ، فإذا هو رجل كهل ، حسن الوجه ، طيب الريح ، فصيح اللسان ، عليه بزة حسنة ، فسلمت عليه ، فرد السلام ، فقلت له : يا شيخ ؛ ما الذي دعاك إلى الوحدة والانفراد في هـٰذا المكان البعيد من الناس ؟ فقال : طلبت الوصول إلىٰ من يملك البشر ، وهو علىٰ كل شيء مقتدر ، فقلت : علىٰ ماذا مقيم أنت في يومك هـٰذا ؟ فقال : قد كادت عيني ترىٰ أعلام المستأنسين ، وروحي أن تشرب بكؤوس المحبين ، وقلبي أن يخامر قلق المشتاقين .

فقلت له : ما الذي قطع بك عن الوصول إلىٰ ما هناك ؟ فقال : يا ذا النون ؛ ها أنذا دائم القلق ألجأ إليه سبحانه وتعالىٰ في الوصول ، وأتضرع إليه في الراحة ، وأسأله بلوغ الأمنية ، وهو العليم الخبير بما يصلح النفوس .

فقلت له : هل تجد علىٰ قلبك من الخلوة شدة ؟ فقال : ما أظن أن أحداً عرفه سبحانه فيحتاج مع أنسه إلىٰ رؤية الأهلين ، ولا مَن انقطع إليه أن يكله إلىٰ أحد من المخلوقين .

فقلت له : هل مِن وصية ؟ فقال : مبادرتك إليه جل جلاله إذا دعاك ، وترك التخلف عنه إذا ناداك ، ودوام الإقبال عليه ، مع سرعة المبادرة إليه بخلع الراحة من نفسك ، وحذف كل ما دعاك إلىٰ ما يبعدك منه سبحانه وتعالىٰ ، أو يحول بينك وبين الظفر بالمراد ، فلا يفقدك من حيث أمرك ، ولا يراك حيث نهاك ، وإياك ثم إياك أن يكون لك هَمٌّ في الدارين غيرَ الله سبحانه وتعالىٰ ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم . ثم فارقني ومضىٰ . انتهىٰ .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

سئل بعض العارفين عن مقام المحبة فقال : مقام المحبة : هو أن تعبد الله عز وجل لا خوفاً من النار ولا رغبة في الجنة ، وتكون عبادتك له خالصةً له وحده لا شريك له ، فإن شاء . . أدخله جنته ، وإن شاء . . أدخله ناره ، كما قال صلى الله عليه وسلّم : « نعم العبد صهيب ، لو لم يخف الله . . لم يعصه »[1] .

وسأل رجل معروفاً الكرخي فقال : أي شيء أهْيَجُ للعبادة وأقطع لهوى النفس ؟ فقال : خوفُ الموت ، قال : وأشد من ذلك ؟ قال : هول الموقف ، قال : وأشد من ذلك ؟ فقال : خوفُ النار ورجاءُ الجنة ، وأعظم من ذلك كله أن تنسىٰ هـٰذه كلها وتعبده لأجله خالصاً ، فإذا قويت علىٰ هـٰذه المنزلة وارتقيت إلىٰ هـٰذه المرتبة . . كفاك جميع الأهوال ، وأعطاك أعلى الدرجات في الجنان ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر علىٰ قلب بشر .

وما أحسن ما قال بعضهم :

ولـه خصـائـص يـركضـون محبـة ... واختـارهـم مـن سـالـف الأزمـانِ
اختـارهـم مـن قبـل فطـرة خلقهـم ... لـــولايـــة ولحكمـــة وبيـــانِ

* * *

(١) المعنىٰ : نعم العبد صهيب ؛ فإنه عابد لله لا خوفاً من النار ، ولا طمعاً في الجنة ؛ بحيث لو لم يكن هناك عقاب من الله عز وجل . . لم يعصه ، فهو محب لله عز وجل وعابد له علىٰ كل حال .

ومنهن :

عابدة أخرىٰ
رضي الله عنها

قال ذو النون رحمه الله : وصفت لي جارية عابدة ، فسألت عنها ، فقيل لي : إنها في دير خراب ، قال : فأتيت الدير ؛ فإذا بجارية قد أَنَّر فيها الليل بكلكله[1] ، وذبحها بسكاكين سهره ، فسلمت عليها ، فردت السلام ، فقلت : يا جارية ؛ وفي مسكن النصارىٰ ؟! فقالت : مه يا هـٰذا ، ارفع رأسك ، وانظر بعين قلبك ، فهل ترىٰ في الدارين غير الله عز وجل ؟!

فقلت لها : يا جارية ؛ فهل تجدين وحشة الوحدة ؟ فقالت : إليك عني ، فوالذي حشا قلبي من لطيف محبته ، وأترع قلبي بخالص حبه سبحانه وتعالىٰ ، وأوقر خاطري من دقيق الشوق إلىٰ رؤيته ، وخصني بصفو محبته ؛ ما علمت في قلبي موضعاً لغيره جل جلاله .

قلت : أراك عارفة ، فأخرجيني من الضيق وأرشديني إلى الطريق ، فقالت : يا فتىٰ ؛ اجعل التقوىٰ زادك ، والزهد محجتك ، والورعَ مطيتَك ، واسلك في طريق الخائفين حتىٰ تصل إلىٰ باب ليس دونه حجاب ولا بواب ، فعندها تؤمر الخزنة ألاَّ يعصوا لك أمراً ، ثم ولت وهي تقول :

مَـن عـرف الـرب فلـم تغنِـهِ ... معـرفـة الـرب فـذاك الشقـيْ
مـا ضـر ذا الطـاعـة مـا نـالـه ... فـي طـاعـة الله ومـاذا لقـيْ
مـا يصنـع العبـد بعـز الغنـىٰ ... والعـز كـل العـز للمتقـيْ

* * *

(١) كلكل الليل : صدره .

ومنهن :

عابدة أخرىٰ
رضي الله عنها

قال في « لوامع أنوار القلوب » : روي أن بعضهم قال : رأيت أعرابية ، فقلت لها : أين تنزلون ؟ قالت : البادية ، فقلت لها : ما تستوحشون ؟! فقالت : ما أغفلك! وهل يستوحش مع الله عز وجل أحد ؟!

فقلت : من أين ترزقون ؟ قالت : أمسك عن هـٰذا ، الله أعلم مِن أين يرزق عباده ، يا بطال ؛ إن الحق جل جلاله يرزق مَن جحده ، فكيف لا يرزق مَن عَبَده ؟ قلوب طاشت في معرفته ، وأرواح تلاشت في محبته سبحانه وتعالىٰ ، غذاؤهم الأمن[1] والمشاهدة ، فهم ربانيون روحانيون ، يسبحون الليل والنهار لا يفتُرون .

* * *

(١) في نسخة : (الأنس) .

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال في « بهجة الأسرار » : قال بعض العارفين : رأيت في منامي كأني واقف بين يدي الله عز وجل ، فقال لي : عبدي ؛ سل حاجتك ، فقلت : يا رب ؛ تعلم حاجتي ، فقال : أنا أعلم ، وكيف لا أعلم وأنا كونتها وكمنتها في صدرك ؟! ولـٰكن أحب أن أُسأل ، فالمسارعة في اتباع محبتي أولىٰ بك من التعلق بمرادك .

عبدي ؛ أنا الذي أطلقت لسانك بمسألتها ، عبدي ؛ اجمع بين مرادك من الأمور كلها وبين مرادك مني ، فإن يكن مخالفاً لمرادي . . فلا تزال في دهرك منقطعاً عني ، فاتبع ـ عبدي ـ محابِّي من الأمور ، واحذر حبَّ دار أبغضتُها وحذرتُكَها ، فأخرج قلبك منها ، وكن حذراً ؛ فإن متاعها قليل ، والعيشَ فيها قصير ، فتقرب إلي ببغضها وبغض أهلها ، وكن محترزاً منها ومن أهلها ، وقِفْ بين يدي في مقام مَن أسقط نفسه وحيلته وتعلق بمالكه ، وعليك بالذلة والافتقار إلي ؛ فبهما تصل ، والله أعلم . انتهىٰ .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو حامد : كنت شديد المحبة للفقراء ، وأنفق عليهم ، وأتبعهم في مجالسهم ، فبينما أنا أمشي مع طائفة منهم بالبصرة إلى الجامع ، وفيهم رجل أعتقد فيه الصفاء والوفاء والمجاهدة والمشاهدة ؛ فاستقبلَنا شخص جميل الصورة منظوراً إليه ، سبحان خالقه ، فكرر ذلك الرجل النظر إليه وأطاله .

قال أبو حامد : فسمعت صوتاً عظيماً ولم أعلم ما هو ، فرأيته قد طأطأ واتَّكَأَ ساعة علىٰ ركبته ، وهو يقول : السمع والطاعة ، السمع والطاعة ، ثم رفع رأسه وهو يقول : سيدي ؛ وعزتك وجلالك قد تأدبت فلا أعود ، فدنوت منه ؛ فإذا بُنْدُقة[1] قد غاصت في جبينه فشجته ، فغمني ذلك وهالني ، فأخذت أمسح الدم عن وجهه ، فقال : دعني وربي جل جلاله ومالكي وخالقي سبحانه وتعالىٰ يؤدبني ، كيف نظرت إلىٰ ما لا يحل لي ؟! إلٰهي ؛ قد تبت فلا أعود :

أعطـــاك دمعُـــك جُهـــدَهُ ... فشكـــا فـــؤادك وجـــدَهُ
يـــا شـــامتـــاً بـــي إذ رأىٰ ... هجـــر الحبيـــب وصـــدَّهُ
لا تَشمَتَـــنَّ فـــإنـــه ... مـــولـــيً يـــؤدب عبـــده

وهٰذا نظير ما روي عن يوسف بن الحسين الرازي رحمه الله حيث قال : صحبت ذا النون ، فبينما نحن نسير في بعض المزارات . . اتفق لنا يوم جمعة ، فأوينا إلىٰ قرية لأداء الفرض ، فلما كان بعد العصر . . انصرفنا ، فسلم ذو النون علىٰ رجل مكفوف عليه آثار الخدمة وبهاء الطاعة ، فاغتم ذو النون لكف بصره في سره ، فقال المكفوف : يا ذا النون ؛

---

(١) **بُنْدُقة** : مفرد بندق ، وهي : ما يرمىٰ بها في القتال والصيد .

لا تعترض على العادل جل جلاله ؛ فإن مَن نظر إلىٰ سواه سبحانه وتعالىٰ . . كان هـٰذا جزاءه .

فلما خرجنا . . سألته عن حاله فقال : كان في الجامع ، فنظر إلىٰ شخص لا يحل له النظر ، فعمي من ساعته . انتهىٰ .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال خلف بن موسىٰ : رأيت زمِناً مجذوماً علىٰ بعض الطرق ، والزنابير قد وقعت عليه تقطع لحمه ، وهو يقول : وعزتك وجلالك ؛ لو أمرت الهوام جميعهن فيقسمنني بضعة بضعة . . ما ازددت لك إلا صبراً ورضاً وتسليماً لقضائك وقدرك ، فاحكم بما شئت ؛ فإنك الحكم العدل اللطيف الخبير جل جلالك ولا إلـه غيرك ، ارحمني واغفر لي يا أرحم الراحمين .

قال : فسألت عنه ، فقالوا : هـٰذا عبدون المحب ، منذ ستين سنة لم يزل صائماً ، صابراً علىٰ بلائه ، محافظاً علىٰ أورادهٖ بحسب جهدهٖ وطاقته ، رحمه الله . انتهىٰ .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

روي أن علي بن يحيىٰ قال : صاحبت شيخاً من عسقلان سريع الدمعة ، حسن الخدمة ، كامل الأدب ، متهجداً بالليل ، صائماً بالنهار ، ناسكَ المسلمين ، فكنت أسمع أكثر دعائه الاعتذار والاستغفار .

فدخل يوماً بعض كهوف لكام وغيرانهِ[1] ، فلما مشىٰ . . رأيت أهل الجبل يهرعون إليه ويتبركون به ، فلما أصبح وعزم على الخروج . . قام إليه أحدهم وقال له : عظني ، فقال : عليك بالاستغفار والاعتذار ؛ فإنه سبحانه وتعالىٰ إن قبل عذرك وفزت منه بالمغفرة . . سلك بك إلىٰ أعلىٰ درجات المقامات ، فوجدتَها من أعلى الدرجات ، ثم بكىٰ وشهق ، وخرج من الموضع ، فلم يلبث إلا قليلاً حتىٰ مات ، فرأيته في النوم ، فقلت له : ما فعل الله عز وجل بك ؟ فقال : إن الله سبحانه وتعالىٰ أكرمُ مِن أن يَعتَذِر إليه مذنب فيُخيِّبَ ظنه ورجاءه ولم يقبل عذره ، قَبِل ـ وعزته وجلاله ـ عذري ، وغفر ذنبي ، وشفعني في أهل جبل لكام .

وهٰذا نظير ما روي عن شجاع الموصلي رحمه الله قال : كنت في البادية ، فرأيت أعراباً يسوقون إبلاً لهم ، ورأيت رجلاً منهم قد انفرد بذِكر الله سبحانه وتعالىٰ ، فشهد قلبي له بالخير ، فجلست إليه أستفيد منه فائدة ، فسلمت عليه ، فأحسن الرد ، فقلت : يرحمك الله أفدني ، فقال : ذِكر الله عز وجل شغلني عنك ، فسألته بالله ، فقال : مسكين ابن آدم مسكين ، رَكَنَ من الدنيا إلىٰ غير رَكِينٍ ، هو ما بين مصائبَ وأخطارٍ ، وهو مع ذلك يلهو ويلعب .

قلت : وأي مصيبة وأي خطر ؟ قال : مصيبة الذنوب ، وخطر المحاسبة ، فقلت له : يا سيدي ؛ فما الحيلة ؟ فقال : الاعتذار بلسان الاحتقار ، مع كثرة الاستغفار ، بذُلٍّ

---

(١) الغيران : جمع غار ، وهو أصغر من الكهف .

الافتقار ، والتضرع إليه في الأسحار ، مع قطع الأطماع عما سواه سبحانه وتعالىٰ ، يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، فقلت : زدني ، فقال : يكفيك هـٰذا إن وفقت للعمل به :

لا شيءَ أعظمُ من ذنبي سوىٰ أملي ... في حسن عفوكَ عن جُرمي وعن زللي
فإن يكن ذا وذا في القَدْر قد عَظُما ... فإن عفوك يا مولاي أطمعُ لي

وكان بعض العارفين رحمهم الله يقول في دعائه : إلـٰهي ؛ أخشاك لأني مذنب ، وأرجوك لأني مؤمن ، وأعتمد علىٰ فضلك لأني معتذر ، وأثق بكرمك لأني مستغفر ، وأنبسط إلىٰ مناجاتك لأني حسن الظن بك ، وأنت أهل التقوىٰ وأهل المغفرة ، وولي الخيرات في الدنيا والآخرة ، التي عرفناها برسولك الصادق الأمين صلى الله عليه وسلّم . انتهىٰ .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو جعفر الهروي رحمه الله : كان لي جار إذا دخل المسجد . . بكىٰ بكاءً شديداً إعظاماً لِحَقِّ المسجد ، وإذا خرج . . بكىٰ علىٰ نفسه وعلىٰ ما أسلف من الذنوب ، وكان هـٰذا دأبه مع ملازمة العبادات وأنواع المجاهدات .

قال : ثم رأيته في مكة شرفها الله تعالىٰ وهو يضحك ، فتعجبت من ذلك وسألته ، فقال : تلك ديار المعرفة والشوق والمحبة ، وهي منازل الهموم والغموم والأحزان ، وأما هـٰذه . . فهي منازل المؤانسة والمواصلة والمناجاة والمشاهدة ، وهي منازل الفرح والسرور ، يا حبيبي ؛ ما أعرف رَبعاً آنس من ربع الحبيب الملك الغفور جل جلاله .

فقلت له : كيف استطعت أهوال البادية ؟ فقال : وما عسىٰ أن تكون أهوال البادية ؟ واللهِ ؛ لو أني سعيت علىٰ جفون عيني . . لما أديت ما يجب عليَّ لله عز وجل .

قال : فقلت : متىٰ يستوجب العبد من الله الولاية ؟ فقال : إذا نشرت عليه خلع الهداية ، وقلد بسيف الكفاية ، فهي ولاية ما لها ولاية . انتهىٰ .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال محمد بن صالح : بينا أنا في الطواف ؛ إذ نظرت إلىٰ أعرابي يتعلق بأستار الكعبة ، وقد شخص ببصره إلى السماء ، وهو يقول : يا حي يا قيوم ؛ قد أحاطت بي ذنوب كثيرة لا تسعها الأرض ، ولا تغسلها البحار ، وأسألك أن تغفر لي وترحمني يا أرحم الراحمين .

ثم أقبل على الناس بوجهه فقال : معاشر الناس ؛ ادعوا لمن وكزتْه الخطايا ، وغمرتْه البلايا ، ارحموا أسير ضُرٍّ[1] ، وغريب فاقة ، سألتكم بالله الذي لا إلـه إلا هو ؛ إلا ما سألتم الله تعالىٰ أن يهب لي جرمي ويغفر لي ذنوبي .

ثم عاد وتعلق بأستار الكعبة وقال : إلـهي وسيدي ومولاي ؛ عظم الذنب بمكروب ، عن صالح الأعمال محجوب .

ثم رأيته بعرفات وقد وضع يديه علىٰ أم رأسه يصرخ ويبكي ويشهق ، وهو يقول : وعزتك وجلالك ؛ إن نفسي لواثقة لي ولسائر المؤمنين منك بالمغفرة والرضا ، وكيف لا تكون كذلك وأنت أرحم الراحمين ؟! أشهد أنك قد أمرت بمكارم الأخلاق ، فاجعل قِراي منك ووفودي عليك عتق رقبتي من النار يا أرحم الراحمين ، يا حي يا قيوم ، يا بديع السماوات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ؛ لا إلـه إلا أنت ، برحمتك أستغيث ، أصلح لي شأني كله ، وتب عليَّ إنك أنت التواب الرحيم . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/٢٨٧ـ٢٨٨] .

* * *

---

(١) في بعض النسخ : (صبر) .

ومنهن :

عابدة أخرىٰ
رضي الله عنها

قال ذو النون رحمه الله : بلغني أن بجبل المقطب[1] جارية متعبدة ، فأحببت لقاءها ، فخرجت إلى المقطب فلم أرها ، فلقيت جماعة من المتعبدين ، فسألتهم عنها ، فقالوا : أتترك العقلاء وتسأل عن المجانين ؟!

فقلت : دلوني عليها وإن كانت مجنونة ، فقالوا : إنا نراها في أوقات تقع مرة وتقوم أخرىٰ ، وتصيح مرة وتسكت أخرىٰ ، وتبكي مرة وتضحك أخرىٰ .

فقلت : علىٰ كل حال دلوني عليها ، فقال أحدهم : هي في الوادي الفلاني ، فذهبت إلى الوادي الفلاني ، فلما أشرفت عليه . . سمعت صوتاً حزيناً طيباً وهي تقول :

يـا ذا الـذي أَنِـسَ الفـؤاد بقـربـه ... أنـت الـذي مـا إنْ سـواك أريـدُ

قال : فاتبعت الصوت ؛ فإذا بجارية جالسة علىٰ صخرة كبيرة ، فسلمت عليها ، فقالت : وعليك السلام يا ذا النون ، ما لَكَ والمجانين تطلبهم ؟ فقلت : وأنت مجنونة ؟ فقالت : لو لم أكن مجنونة . . لما نودي عليَّ بالجنون .

فقلت : ما الذي جننك ؟ فقالت : يا ذا النون ؛ حبه سبحانه وتعالىٰ هو الذي جنني ، وشوقه هيمني ، ووجده أقلقني .

فقلت : يا جارية ؛ وأين محل الشوق منك ؟ وأين محل الحب منك ؟ وأين محل الوجد منك ؟ فقالت : يا ذا النون ؛ الحب في القلب ، والشوق في الفؤاد ، والوجد في السر .

فقلت : يا جارية ؛ الفؤاد غير القلب ؟ قالت : نعم ، الفؤاد نور القلب ، والسر نور الفؤاد ، والقلب يحب ، والفؤاد يشتاق ، والسر يجد .

---

(١) كذا في النسخ ، ولعل المقصود جبل المُقَطَّم ، وهو جبل مشرف على القرافة مقبرة فسطاط مصر والقاهرة .

قلت : وما الذي يجد ؟ قالت : يجد الحق سبحانه وتعالىٰ ، قلت : فكيف يجد الحق جل جلاله ؟ قالت : يا ذا النون ؛ وُجْدانُ الحق جل جلاله بلا كيف .

فقلت : يا جارية ؛ وما دليل صدق وجدانك للحق سبحانه وتعالىٰ ؟ فبكت بكاءً شديداً حتىٰ كادت نفسها تزهق ، وغشي عليها ساعة طويلة ، فلما أفاقت . . نادت : أوه منك! واها منك وواها عليك! وأنشأت تقول :

فـوجـدي بـه وجـدٌ بـوَجْـدِ وُجـودِهِ ووَجْـدُ وُجـودِ الـواجـديـن لهيـبُ
لئـن مُـتُّ حقـاً فـي محبـة سيـدي فـإن المنـايـا فـي الفـؤاد تطيـب

ثم صاحت صيحة عظيمة ونادت : هٰكذا يموت الصادقون ، وغشي عليها ساعة ، فحركتها ؛ فإذا هي ميتة ، رحمها الله تعالىٰ . انتهىٰ .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

وقال في « لوامع أنوار القلوب » : روىٰ علي بن سعيد قال : مررت بعبَّادان[1] بمكفوف مجذوم ، والزنابير قد وقعت عليه تقطع من لحمه ، فقلت في نفسي : الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاه به ، وفتح من عيني ما أغلق من عينه .

قال : فبينا أنا أردد الحمد ؛ إذ صرع ، فنظرت إليه وإلىٰ حركاته ؛ فإذا هو مقعد ، فقلت : مكفوف مصروع مقعد مجذوم!! فما استتممت كلامي حتىٰ صاح بي : يا متكلف ، يا متكلف ؛ ما دخولك فيما بيني وبين حبيبي ومالكي ومولاي جل جلاله ؟! دعه يصنع بي ما يشاء .

ثم قال : وعزتك وجلالك لو قطعتني إرباً إرباً ، وصببت عليَّ البلاء صباً . . لما ازددت لك ـ وحقك ـ إلا حباً[2] ، وأنشد :

هجرت الخلق طراً في رضاكا ... وأيتمت العيال لكي أراكا[3]
فلو قطعتني إرْباً فإرْباً ... لَمَا حن الفؤاد إلىٰ سواكا

* * *

---

(١) **عبادان** : موضع قرب البصرة نسبة إلىٰ عباد بن الحصين ، قال في « معجم البلدان » (١/١٨٩) : وهٰذا اصطلاح قديم لأهل البصرة ، إذا نسبوا النهر والقرية إلىٰ رجل . . زادوا في آخر اسمه ألفاً ونوناً .

(٢) مرَّ هٰذا الخبر قريباً ، وقد نقله المؤلف رحمه الله عن « الصفوة » دون الشعر .

(٣) **طراً** : جميعاً .

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

سئل بعض العارفين عن أوصاف المحبة فقال : المحب مَن لا يجاوز همُّه محبوبَه ، وحيث وقفه حبيبه . . وقف ولو كان فيه تلف روحه ؛ فإن أقل ما في الحب بذل الروح .

وأما المحبة . . فهي الموافقة في جميع الأحوال ، والصبر : ترك الشكوىٰ ، والرضا : استلذاذ البلوىٰ ، واليقين : تحقيق المشاهدة ، والتوكل : إسقاط الوسائط ، والأُنس : استيحاش غير المطلوب ، والإخلاص : ارتفاع رؤية العمل ، والفتوة : غفران الزلات المتعلقة بالعباد مع الإحسان بعده ، والمروءة : التوسعة على الإخوان مع التضييق على النفس ، والحكمة : اتباع العلم مع استعماله ، والورع : مخالفة الهوىٰ مع الزهد .

وهـٰذه كلها أصول المحبة ، والمحبة اسم جامع لها ؛ فإن المحب مطالَب بهـٰذه الخصال كلها ، ولهـٰذا قيل : معاتبة الخلق بالإرفاق ، ومعاتبة المحبين بالمناقشة والإرهاق ، ثم أنشد :

لـو كنـتِ عـاتبـة لتسكـن لـوعتـي ... أملـي رضـاك وزرتُ غيـرَ مـراقَـبِ
لـٰكـن مللـتِ فلـم يكـن لـي حيلـةٌ ... صد الملول خلاف صد العاتب

* * *

ومنهم :

عابد آخر

رضي الله عنه

قال في « بهجة الأسرار » : قال أحمد بن مسروق : سمعت سرياً يقول : بينا نحن نسير في بلاد الشام ؛ إذ مِلْنا عن الطريق إلىٰ ناحية جبل عليه عابد وهو يبكي ، فقال له السَّريُّ : ما الذي أبكى العابد ؟

فقال : وما لي لا أبكي وقد توعرتِ الطرقُ وقَلَّ السالكون فيها ، وهُجرت الأعمال وقَلَّ الراغبون فيها ، وقَلَّ العلماء ، وقَلَّ الحق ، وكثر الباطل ، ودرس هـٰذا الأمر ، فلا أراه إلا في لسان كل بطال ينطق بالحكمة ويفارق الأعمال وقد افترش الرخص ، وتمهد التأويل ، واعتذر بزلل العاصين .

ثم صاح صيحة عظيمة وقال : كيف سكنت قلوبهم إلىٰ رَوح الدنيا ، وانقطعت عن ملكوت السماء . ثم ولىٰ صارخاً وهو يقول : واغمَّاه! من فتنة العلماء ، واكرباه! من حيرة الأدلاء .

وجال جولة ثم قال : أين الأبرار من العُبَّاد ؟ بل أين الأحبار من الزهاد ؟ ثم بكىٰ وقال : شَغَلهم ـ واللهِ ـ ذِكر الوقوف وهَمُّ الجواب والخوف من الملك الجبار جل جلاله عن ذِكر الجنة والنار .

وذَكَرَ الثوابَ ثم قال : أستغفر الله مِن شهوة الكلام ، تنحَّوا عني . فخليناه يبكي ، وقد مُلئنا منه همّاً وغماً . انتهىٰ .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

سئل بعض العارفين عن المراقبة فقال : علىٰ ثلاثة مقامات : مراقبة النفس ، ومراقبة القلب ، ومراقبة الحق جل جلاله .

فأما مراقبة النفس : فبالمحاسبة والمناقشة .

وأما مراقبة القلب : فبجمع الهم وعدم الغفلة .

وأما مراقبة الحق جل جلاله : فبالمشاهدة مع التعظيم والاحترام ، فتعلم أنه مطلع عليك ، وأنه مأخوذ عليك في سمعك وبصرك وفؤادك ، قال تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ .

ثم إن آفة مراقبة النفس بتخلية النفس مع الحظوظ ، وآفة مراقبة القلب الأشغال والعلائق ، وآفة مراقبة الحق جل جلاله الغفلة عن ذِكره ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال ذو النون : عطشت في بعض أسفاري عطشاً شديداً ، فقصدت بعض السواحل أريد الماء ؛ فإذا بشخص قد ائتزر بمئزر الحياء والأحزان ، وتدرع بدرع البكاء والأشجان ، قائمٍ علىٰ ساحل البحر يصلي ، فلما سلَّم . . دنوت منه وسلمت عليه ، فقال : وعليك السلام يا ذا النون ، فقلت له : يرحمك الله ، مِن أين عرفتني ؟ فقال : اطلع شعاع أنوار المعرفة من قلبي علىٰ صفو أنوار المعرفة من قلبك ، فعرفت روحي روحك بحقائق الأسرار ، وأَلِف سِرِّي سرَّك في محبة الله الواحد القهار جل جلاله ولا إلـٰه غيره .

ثم قال لي : أنت عطشان ؟ قلت : نعم ، فدَلني علىٰ ماء بالقرب ، فشربت ، ثم رجعت إليه ، فرأيته يبكي بشهيق وأنين .

فقلت له : يرحمك الله ، ما يبكيك ؟ فقال : يا أبا الفيض ؛ إن لله عز وجل عباداً شربوا بكأس محبته شربة أذهبت عنهم ألفة الكرىٰ .

فقلت له : دُلَّني علىٰ أهل الولاية ، فقال : هم الذين أخلصوا في الخدمة ، فخصهم الله سبحانه وتعالىٰ بالولاية ، وراقبوا مولاهم جل جلاله ، ففتح لهم نور القلب .

فقلت له : ما علامة المحبة ؟ فقال : إن المحب لله عز وجل غارق في بحار الحزن إلىٰ قرار المعرفة[1] .

فقلت له : ما علامة المعرفة ؟ فقال : العارف بالله لم يطلب مع معرفته دخول جنة ولا نجاة من نار ، ثم شهق شهقة عظيمة ، فمات رحمه الله . انتهىٰ .

* * *

---

(١) في نسخة : (قرار التحيُّر) .

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال إبراهيم بن المهلب أبو الأشهب السائح ـ رحمه الله ـ : رأيت غلاماً قائماً يصلي في البَرِّية عند بعض الأميال وما معه أحد ، فانتظرته حتىٰ فرغ من صلاته ، فسلمت عليه ، وقلت له : ما معك مؤنس ؟ قال : بلىٰ ، قلت : وأين هو ؟ فقال : أمامي ومعي وخلفي ، وعن يميني ويساري وفوقي ، قال الله تعالىٰ : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ .

قال : فعلمت أن عنده معرفة ، قلت : فما معك زاد ؟ قال : بلىٰ ، قلت : فأين هو ؟ قال : الإخلاص لله عز وجل ، والتوحيد ، والإيمان الصادق مع توكل واثق .

قلت : فهل لك في مرافقتي ؟ فقال : الرفيق يشغل عن الله عز وجل ، لا أحب أن أرافق أحداً فأشتغل به عنه طرفة عين ، فيقطعني عن بعض ما أنا عليه .

فقلت : أفما تستوحش في هـٰذه البَرِّية وحدك ؟ فقال : إن الأُنس بالله عز وجل قطع عني كل وحشة ، حتىٰ لو كنت بين السباع . . لما خفتها ولا استوحشت منها .

قلت : فمِن أين تأكل ؟ فقال : الذي غذاني في ظلم الأحشاء والأرحام صغيراً . . قد تكفل بي كبيراً سبحانه وتعالىٰ ، ومتى احتجت إلى الطعام . . وجدته في أي موضع كنت ، وهو سبحانه عالم بما يصلحني ويصلح سائرَ عباده ، وهو بكل شيء عليم .

قلت : فهل لك حاجة ؟ قال : نعم ، قلت : وما هي ؟ قال : إن استطعت ألاَّ تنسني من دعائك ، وعند الشدائد إذا نزلت بك .

فقلت : وكيف يدعو مثلي لمثلك ، وأنت أفضل مني خوفاً ويقيناً وتوكلاً ؟! فقال : لا تقل هـٰذا ، إنك قد صليت لله عز وجل وصمت له قبلي ، ولـٰكن حق الإسلام بمعرفة الإيمان .

قال : قلت : فإن لي أيضاً إليك حاجة ، قال : وما هي ؟ قلت : ادع الله عز وجل لي ، فقال : حجب الله عز وجل عن طرفك كل معصية ، وألهم قلبك الفكر فيما يرضيه ؛ حتىٰ لا يكون لك هَمٌّ إلا هو سبحانه وتعالىٰ .

فقلت : حبيبي ؛ متىٰ ألقاك ؟ وأين أطلبك ؟ فقال : أما في الدنيا . . فلا تحدث نفسك بلقائي فيها ، وأما في الآخرة . . فاطلبني مع الناظرين إلى الله عز وجل ، وإياك أن تخالف الله عز وجل فيما أمرك أو تقصر فيما ندبك إليه ، واجتهد ألاَّ يراك حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك .

فقلت : وكيف علمت أنك مع الناظرين إلى الله عز وجل ؟ فقال : قد سألته سبحانه وتعالىٰ ذلك ، وهو سبحانه يجيب دعوة الداعي إذا دعاه ، وهو القريب المجيب ، ثم صاح ، وأقبل يسعىٰ حتىٰ غاب عني ، فلم أره بعد ذلك رحمه الله تعالىٰ ، انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ٢٨١ـ٢٨٢] .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال في « لوامع أنوار القلوب » : قال ذو النون : كنت في بعض الفيافي ؛ وإذا أنا بغلام قد انتقع لونه ، ونحل جسمه ، يتلألأ نور الخدمة من بين عينيه ، وتنطق آثار القَبول علىٰ وجنتيه ، وعليه آثار الطاعة والمجاهدة ، وهبة المؤانسة والمشاهدة ، وعليه طمران[1] وجبة صوف مفتقة الأكمام والذيول ، وعلىٰ أحد كُمَّيه مكتوب : ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ ، وعلى الكُمِّ الآخر : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ ، وعلىٰ ذيلها : لا تباع ، ولا توهب ، ولا تكترىٰ ، وعلىٰ صدرها مكتوب : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ ، وعلىٰ ظهرها مكتوب : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ ، وعلىٰ رأسه مئزر صوف عليه مكتوب : حب مولاي بلائي ، حب مولاي دوائي .

قال : فما رأيت ألطف من طمرين كانا عليه ، فهِبت خطابه ، ثم دنوت منه بعد ساعة ، فقلت : السلام عليك يا عبد الله ، فقال : وعليك السلام يا ذا النون .

فقلت له : ومِن أين عرفتني يا أخي ؟ فقال : اطلع حقائق حق الحق علىٰ مكنون ضمير ضمائري ، فشاهد صفاء معرفتك في غياهب غيوب همتك ، فتناطقا وتعارفا ، فعرفت أنك ذو النون المصري .

فقلت : يا أخي ؛ ما ابتداء المحبة ؟ فقال : الاعتبار بهٰذه الآيات والعظات التي تراها وتسمعها ، فأشار إلى المكتوب علىٰ طمريه .

فقلت : يا أخي ؛ وما انتهاء المحبة ؟ فقال : يا ذا النون ؛ انتهاؤها محال .

فقلت : يا أخي ؛ الزهدُ في الدنيا لطلب العقبىٰ ، أم لطلب المولىٰ جل جلاله ؟ فقال : يا ذا النون ؛ الزهد في مخلوق لطلب مخلوق آخر خسران . . وإنما يصح الزهد في الدنيا

---

(١) **الطِّمْرُ** : الثوب الخلق .

المخلوقة لطلب المولى الخالق سبحانه وتعالىٰ ، صغرت همة عبد رضيَتْ بغير الله سبحانه وتعالىٰ .

فقلت له : ما معنى المحبة ؟ فقال : هي اجتناب الأغيار وتتبع الآثار والأخبار ، يا أخي ، يا ذا النون ؛ العارف ليس له هَمٌّ ولا مأمول إلا الله سبحانه وتعالىٰ ، والنظر إلىٰ وجهه الكريم ، وحلول الرضوان عليه .

قال ذو النون : ثم أنشأ يقول :

ليس قصدي من الجنان نعيماً غير أني أحبها لأراكا

* * *

ومنهن :

عابدة أخرىٰ
رضي الله عنها

قال في « لوامع أنوار القلوب » : روي أن امرأة مسرفة علىٰ نفسها كانت تدعو في أكثر دعائها : اللهم ؛ أرني محمداً عبدَك ورسولَك صلى الله عليه وسلّم في منامي قبل موتي ، فكان ذلك دأبها ، مع إكثار الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلّم .

فقيل لها : إذا رأيتِهِ صلى الله عليه وسلّم . . ماذا كنت تطلبين منه من الحاجات ؟ فقالت : كنت أشتهي النظر إلىٰ وجهه الكريم ، وهو حسبي صلى الله عليه وسلّم .

ولم تزل علىٰ ذلك إلىٰ أن ماتت ، فرُئيت في المنام ، فقيل لها : ما فعل الله عز وجل بك ؟ قالت : غفر لي .

قيل لها : بماذا ؟ قالت : بمحبتي لرسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وكثرة صلاتي عليه صلى الله عليه وسلّم ، وشهوتي النظر إلىٰ كريم وجهه ، وقد نوديت : أن من اشتهى النظر إلىٰ حبيبنا . . نستحي أن نذله بعتابنا ، بل نجمع بينه وبين مَن يحبه .

وشاهد هـٰذا في الحديث الصحيح : « المرء مع من أحب »[1] والله سبحانه أعلم .

* * *

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٣٩) .

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال في « بهجة الأسرار » : لقي حكيم حكيماً ، فقال له : عظني وأوجز ، فقال : الحالة التي أنت عليها كيف تراها ؟ قال : صالحة .

قال : ترضاها لأمر آخرتك أن تخرج بها إلى الله عز وجل ؟ قال : لا والله .

قال : فإذا خرجت إلى الله تبارك وتعالىٰ لك نفس غير نفسك تعمل في فكاك رقبتك من النار ؟ قال : لا .

قال : فإذا صرت إلى الله عز وجل تُمْهلُ أن تعمل في تلك الدار ؟ قال : ليس تلك الدار دار عمل ، فقال : لا يقيم علىٰ هـٰذه الحالة عاقل .

قال : وكتب رجل إلىٰ أخ له : يا أخي ؛ لا الأيام تعظك ، ولا الموت يزجرك ، ولا مواعيد الآخرة تحذرك ، وإنما يعد عليك نفَساً مكتوباً ، ويساق إليك رزقاً معلوماً ، ويكتب عليك عملاً محفوظاً ، فإذا بالنَّفَس وقد نَفِد ، والرزق وقد فني ، والكتاب وقد طوي ، ثم تصير إلىٰ موردك من أرماس القبور[1] ، وبعد ذلك الحشر والحساب والميزان والصراط ، وإنما الفوز في التزحزح عن النار والوصول إلىٰ دار القرار .

ثم كتب أسفل ذلك : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ . والله أعلم .

* * *

(١) رمس القبر : ترابه .

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو جعفر ـ رحمه الله ـ : وقف سائل علىٰ باب بعض العارفين يسأل شيئاً ، فقال لزوجته : هل عندك شيء ؟ قالت : نعم ، أربع بيضات ، قال : ادفعيها إلى السائل ، قال : فدفعت إليه ثلاثة وتركت واحدة لأجل فطره .

فلما كان بعد ساعة . . جاء شخص من قرية ومعه مخلاة فيها بيض أهداها إلى الشيخ ، فقال لزوجته : كم بيضة أهدي لنا ؟ قالت : ثلاثون بيضة ، فقال : ويحك! أعطيت السائل أربعاً . . جاءك ثلاثون بيضة ؟ أي حساب هـٰذا ؟! فقالت : هي أربعون ، إلا أن العشرة مكسرة في المخلاة [في] جوف التبن لا ينتفع بها .

فقال : ويحك! أعطيت السائل ثلاثاً ؟! قالت : نعم ، أعطيته ثلاثاً وتركت لأجل فطرك واحدة ، فقال : ويحك ما أبخلك علىٰ نفسك! ويحك! الله عز وجل كريم حليم ، أما يعطيني واحدة بعشرٍ في الدنيا وعشرٍ في الآخرة ؟ انتهىٰ .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال في « لوامع أنوار القلوب » : قال سالم : بينا أنا أسير مع ذي النون المصري في جبل لبنان ؛ إذ قال لي : مكانك يا سالم حتىٰ أعود إليك ، فغاب عني ثلاثة أيام في الجبل .

فلما كان بعد ثلاث . . عاد إلي متغير اللون ، ذاهب العقل ، فقلت : السبع عارضك ؟ فقال : دعني من تخويف البشرية ، إني دخلت كهفاً من كهوف هـٰذا الجبل ، فرأيت رجلاً أبيض الرأس واللحية ، أشعث أغبر ، نحيفاً ، كأنه قد خرج من قبره ، ذا منظر مهول ، وهو يصلي ، فسلمت عليه ، فرد عليَّ السلام وقام إلى الصلاة ، فما زال راكعاً وساجداً حتىٰ صلى العصر واستند إلىٰ حجر بحذاء محرابه ، وهو لا يكلمني ، فبدأته بالكلام وقلت له : يرحمك الله ، أوصني بشيء ، وادع لي دعوة .

فقال : يا بني ؛ آنسك الله بقربه ، ثم قال : يا بني ؛ مَن آنسه الله بقربه . . أعطاه أربع خصال : أُنساً من غير جماعة ، وعزاً من غير عشيرة ، وعلماً من غير طلب ، وغنىٰ من غير مال .

ثم شهق شهقة عظيمة ، فلم يُفِق إلا بعد ثلاثة أيام ، حتىٰ توهمت أنه ميت ، فلما أفاق . . قام وتوضأ من عين ماء إلىٰ جانبه ، وسألني عما فاته من الصلوات ، فأخبرته ، فقضاهن ، ثم قال لي :

إن ذكـر الحبيـب هيَّـج شـوقـي ثـم حـب الحبيـب أذهـل عقلـي

ثم قال لي : إني استوحشت من ملاقاة المخلوقين ، وأنِسْت بذِكر رب العالمين جل جلاله ، ثم انصرف عني بسلام .

فقلت له : رحمك الله ، وقفت عندك ثلاثة أيام ؛ رجاء الزيادة منك ، فقال : أحِبَّ مولاك جل جلاله شوقاً إلىٰ لقائه ، ولا ترد لحبه بدلاً ؛ فالمحبون لله سبحانه وتعالىٰ هم

تيجان العُبَّاد وأعلام الزهاد ، وهم أصفياء الله وأحباؤه .

ثم صرخ صرخة عظيمة ووقع ، فحركته ؛ فإذا هو ميت ، فما كان إلا هنيهة[1] ، وإذا بجماعة من الزهاد ينحدرون من الجبل حتىٰ وارَوه تحت التراب .

فسألتهم : ما اسم هـٰذا الشيخ ؟ فقالوا : شيبان المصاب ، قال سالم : فسألت أهل الشام عنه فقالوا : نعم ، هو مجنون خرج من أذى الصبيان له وولوعهم به .

قال : فقلت : هل تعرفون من كلامه شيئاً ؟ قالوا : نعم ، كان يتغنىٰ بهـٰذا البيت إذا ضجر منهم :

إذا بـــــك لـــــم أُجَـــــنَّ يـــــا سيـــــدي فبمـــــن

قال سالم : فقلت لهم : عمَّىٰ عليهم حاله ، وكتمهم سره ، رحمه الله تعالىٰ . انتهىٰ .

* * *

(١) هنيهة : قليل من الزمان .

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال في « بهجة الأسرار » : قال أبو الحسن عمرو بن عثمان رحمه الله : الناس في طريق الله عز وجل ثلاثةٌ :

[**الأول**] : عالم بالعلم ، مشغول بدرسه وفهمه وحفظه وبثه ، يطلب بذلك إثبات القَدْر ، وعلو المرتبة ، وطلب الرياسة ، قد كشف وجهه لذلك ، وأَنْصَب عقله نحو ما طلب ، فهو بذلك مشغول ، وبمحبة ما طَلَب مفتون .

فهو حارس العلم والعلم لا يحرسه ، وخادم العلم والعلم لا يخدمه ، منفعته لغيره ومضرته لنفسه ، حجابه ما عَلِم ، وفتنته ما طَلَب ، فهو عبرة لأهل البصائر ، مستدرَج بالنطق ، مفتون بالعبادة ، لا يعقل الفتنة ، ولا ينظر في بليته ، قد ملكه الهوىٰ ، وأضرت به فتن الدنيا ، نعوذ بالله من ذلك .

والثاني من العلماء : عالم قد عَلِمه ، فأطلق نداء العلم علىٰ نفسه يكدها بالسهر ليلاً ، ويظمئها بالنهار صياماً ؛ رغبة في الثواب لما قد وُعد به من جزيل الثواب ، وقد غلب علىٰ قلبه ملاذ نعيم الآخرة وزهرتها ، ودوام الحياة بها ، ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ﴾ ، قد ساعده بذلك التوفيقُ ، فهو مشغول بما يطلب .

فهـٰذا وإن كان مشغولاً بطلب الآخرة وعلىٰ سبيل من سبل الحق وذريعة من قُرَب الوسيلة . . فوسيلته لنفسه ، وكده وسعيه لحظه ، لم يؤذن بالدخول في ميدان أهل العلو ، ومطلب نسيم روائح القرب ، ولو تكشفت له بصائر هدي إيمانه . . لما طلب بعلمه إلا الله سبحانه وتعالىٰ .

والثالث من العلماء : عالم قد عتق من كل رق ، مغيَّب عن كل غيب ، وَلِهَ بذكر الله عز وجل ، لا يطلب بعلمه إلا النظر إلىٰ وجهه الكريم سبحانه وتعالىٰ ، سكران في محبته ،

لا يسمع إذا نودي ، ولا ينظر إذا نُظِر ، أنفاسه تتردد في صدره ، مكروب قد ضاقت به الحياة ، فلولا بقاء المدة حتىٰ يبلغ الكتاب أجله . . لانفصلت آرابه[1] ، وانفطر قلبه مما يجد بأسراره .

فهـٰذا رجل مخصوص بذِكره ، مكرم بمحبته ، معروف بين قبائل ملائكته في سماواته وأرضيه ، والله أعلم .

* * *

(١) آرابه : أعضاؤه .

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال في « لوامع أنوار القلوب » : قال أبو علي الشرواني ـ رحمه الله ـ : اشتقت إلىٰ عليان من كثرة ما كان يبلغني عنه من المناقب السَّنية والأحوال البرة العلية ، فدخلت البصرة في طلبه ، فقالوا : هو في المقبرة ، فذهبت إليه .

فلما رآني . . هرب ودخل المسجد ، ورد الباب عليه ، فدخلت الباب ؛ فإذا هو يصلي ، فقعدت إلىٰ أن أقبل في مناجاته وهو يقول : إلـٰهي ؛ توجه إليك الطالبون وأرادوك ، وانقطع المشتاقون إليك وتمنوك ، واشتاق إليك العارفون بك وذكروك .

فدنوت منه وقلت : يا حبيبي ؛ ما تشتهي ؟ فقال : ما اشتهيت منذ أربعين سَنة مِن غير مولاي سبحانه وتعالىٰ شيئاً ، فقلت له : ألا أتخذ لك عصيدة[1] ؟ فقال : هـٰذا إليك .

فاتخذت له عصيدة من سكر ووضعتها بين يديه ، فقال : ما أريد منك هـٰذا ، ولـٰكن أريد كما أصفه لك ، فقلت : صف لي ، فقال : خذ تمر الطاعات ، وأَخرِجْ منه نوى العُجب ، وخذ دقيق العبودية ، وزعفران الرضا ، وسمن المجاهدة ، واجعل ذلك في طنجير التواضع ، وصُبَّ عليه من ماء الصفا ، وأَوقِدْ تحته نار الشوق ، وحركه بإِسطام[2] المراقبة ، واجعله علىٰ طبق الشكر ، فمَن أكل منه ثلاث لقم . . كانت شفاء لصدره ، ونوراً لفكره ، وكشفاً لسره ، وبقاء لروحه .

ثم قام ونفض ذيله وهو يقول : آه من لوعة الفراق! هـٰذا دواء المحبة ، هـٰذه عروق المحبة ، هـٰذا غذاء المحبين ، هـٰذه شهوة المريدين ، ولهـٰؤلاء قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ ، ثم أنشد :

أفلح الزاهدون والعابدونا ... إذ لمولاهمُ أجاعوا البطونا

---

(١) **العَصِيدة** : دقيق يلتُّ بالسمن ويطبخ .

(٢) **الإِسطام** : الحَديدة التي تُحرَّك بها النار .

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال في « بهجة الأسرار » : قال أحمد بن سعيد العابد الكوفي : عن أبيه قال : كان عندنا بالكوفة شاب متعبد لم يزل ملازماً للمسجد ، وكان حسن الوجه ، حسن القامة ، حسن السمت ، فنظرت إليه امرأة ذات عقل وجمال ، فشغفت به ، فطال ذلك عليها .

فلما كان ذات يوم . . وقفت له في طريقه إلى المسجد ، فقالت له : يا فتىٰ ؛ اسمع مني كلمات أكلمك بهن ، ثم اعمل ما شئت ، فمضىٰ ولم يكلمها ، ثم وقفت له بعد ذلك في طريقه إلىٰ منزله فقالت : يا فتىٰ ؛ اسمع مني كلمات أكلمك بهن .

قال : فأطرق وقال لها : هـٰذا موضع تهمة ، وأنا أكره أن أكون للتهمة موضعاً ، فقالت له : والله ؛ ما وقفت موقفي هـٰذا جهالة مني بأمرك ، ولـٰكن معاذ الله أن تتشوف[1] العباد إلىٰ هـٰذا مني ومنك ، والذي حملني علىٰ أن لقيتك في هـٰذا بنفسي . . أن القليل من هـٰذا عند الناس كثير ، وأنتم ـ معاشر العُبَّاد ـ في مثال القوارير أدنىٰ شيء يعيبه .

وجملة ما أكلمك به : أن جوارحي مشغولة بك ، فالله الله في أمري وأمرك .

قال : فلما مضى الشاب إلىٰ منزله ؛ وأراد أن يصلي . . فلم يعقل كيف يصلي ، فأخذ قرطاساً ، وكتب كتاباً ، وخرج من منزله ، فإذا المرأة واقفة في موضعها ، فألقى الكتاب إليها ورجع إلىٰ منزله ؛ فإذا في الكتاب :

بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، اعلمي ـ أيتها المرأة ـ أن الله تبارك وتعالىٰ إذا عُصي . . غضب ، وإذا غضب . . حلم ، فإذا عاد العبد إلى المعصية . . ستره سبحانه وتعالىٰ ، فإذا عاد إليها ولبس لها ملابسها . . غضب الله عز وجل عليه ، وغضبه يفطر السماوات والأرض والجبال والشجر والدواب ، فمَن ذا يُطيق غضبه جل جلاله ؟!

---

(١) تتشوف : تطلع .

فإن كان ما ذكرت باطلاً . . فإني أذكرك يوماً تكون السماء كالمهل ، وتكون الجبال كالعهن ، وتجثو الأمم لصولة الجبار العظيم جل جلاله ولا إلـه غيره ، وإني ـ والله ـ قد ضعفت عن إصلاح نفسي ، فكيف بإصلاح غيري ؟!

وإن كان ما ذكرتِ حقاً . . فالجئي إلى الله عز وجل رب العالمين جل جلاله ، فاقصديه علىٰ طريق المسألة ؛ فإني مشغول عنك بقوله عز وجل : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ۞ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ ، فأين المهرب من هـٰذه الآية ؟! ثم جاءت بعد ذلك بأيام ، فوقفت له علىٰ طريقه ، فلما رآها من بعيد . . أراد الرجوع ، فقالت له : يا فتىٰ ؛ لا ترجع ، فلا كان الملتقىٰ بعد هـٰذا أبداً إلا بين يدي الله رب العالمين جل جلاله ، وبكت بكاء كثيراً ، ثم قالت : أسأل الله الذي بيده مفاتيح قلبك أن يجمع بيني وبينك في الفردوس الأعلىٰ .

ثم قالت : أسألك موعظة أو وصية أعمل بها ، فقال لها الفتىٰ : أوصيك بحفظ نفسك من نفسك ، وأذكرك قوله عز وجل : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ﴾ .

قال : فأطرقَت وبكت أشد من بكائها الأول ، ثم فارقته ولزمت العبادة ، فلم تزل علىٰ ذلك حتىٰ توفيت إلىٰ رحمة الله تعالىٰ . انتهىٰ .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال في « **لوامع أنوار القلوب** » : روي عن عبد الصمد قال : جمعتني وبشر الحافي طريق العمرة ، ومعنا شاب متعبد ، سريع الدمعة ، قليل الكلام ، كثير التفكر .

فقلت له : هٰذا بشر الحافي فتبرك به ، فقام إليه وسلم عليه وقبَّل يده ، ثم قال له : يا أبا نصر ؛ ما جزاء مَن خالف محبوبه ؟ قال : يقتل بسيف العتاب ، ثم يحرق بنار الهوىٰ ، ثم يذرُّ في هواء الذُّل ، فإن شاء . . جمعه ، وإن شاء . . قمعه .

قال : فشهق الغلام لما سمع ذلك ووقع ، ولم يزل يئنُّ ويرتعد إلىٰ أن مات .

قال عبد الصمد : فندمت علىٰ ذلك ، ووارياه في مكانه في ثوبَي إحرامه .

البَيْـنُ فيـه لمـن ذاق الهـوىٰ أجـلُ ... به النفوس عن الأجساد ترتحلُ
والبين يسكن في أعضائهم زمناً ... ونـار لـوعتـه تـذكـىٰ وتشتعـل
والبيـن بيـنٌ لـروح المستهـام إذا ... ما قيل قد بان من يهواه واحتملوا
يا سائلي كيف مات الوالهون فما ... ماتوا ولٰكن بأسياف الهوىٰ قُتِلوا

قال : وكان بشر بن الحارث يقول : المحبة ذُل في عز المحبوب ، ومشاهدة للحتف المجلوب ، مع امتناع المطلوب .

وقال : قال أيضاً : أما حقيقة المحبة . . ترك مخالفة المحبوب بكل حال ، والتسليم إليه في الحال والمآل .

قال : وروي عن بشر أيضاً أنه قال : شاطِرٌ[1] متواضع . . أحبُّ إلى الله عز وجل من قارىء متكبر ، وعاصٍ خائف . . أحب إلى الله من طائع واثق .

ثم قال : هَبْ أنك ما تخاف ، أما تشتاق ؟ والله أعلم .

---

(١) **الشاطر** : قاطع الطريق ، والإنسان غير المستقيم .

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال في « لوامع أنوار القلوب » : قال الكتاني رحمه الله : كان رجل يحاسب نفسه ، فبلغ من العمر ستين سنة ، فحسب أيامها ، فإذا هي أحد وعشرون ألف يوم وخمس مئة يوم ، فصرخ وخر مغشياً عليه .

وقال : يا ويلاه ؛ إني ألقى الله عز وجل بأحد وعشرين ألف ذنب وخمس مئة ذنب ، بتقدير أن أعمل كل يوم ذنباً واحداً ، فكيف وكل يوم عشرة آلاف ذنب ؟!

ثم قال : آه عليَّ! عمرت دنياي وخربت عقباي ، وأغضبت مولاي جل جلاله ، ثم لا أشتهي أن أنتقل من العمران إلى الخراب ، وكيف أشتهي النقلة إلىٰ دار الحساب والكتاب والعذاب والعتاب بلا عمل ولا ثواب ؟ وأنشد :

منـــازلَ دنيـــاك شيَّـــدتَهـــا ... وخـــرَّبـــت دارك فـــي الآخـــرهْ
وأصبحـــت تَكْـــرَهُهـــا للخـــراب ... وتـــرغـــب فـــي دارك العـــامـــرهْ

وشهق شهقة عظيمة ، فحركوه ؛ فإذا هو ميت ، رحمه الله . انتهىٰ .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

وقال في « بهجة الأسرار » : قيل لبعض العارفين : صف لنا الغني بالله عز وجل ، فقال : ومِن صفة الغني بالله عز وجل . . إظهارهُ للنعم ، وستره للفقر ، وسروره بفقد الأعراض ، واعتدال البقاع عنده في باب الأرزاق ، وحسن الإفضال بما وَجَد ، وترك المسألة إذا فَقَد ، إلا قدر الضرورة ، ونزاهة النفس إذا انبسط ، وحسن العذر إذا بُسط ، وحفظ الأمانة إذا عقد كما وقع العقد ، وبعدُهُ من أهل اليسار والافتخار إلا لمنفعة في دينهم يوصلهم إليها عطفاً منه عليهم ، ورأفة بهم ، وتحنناً عليهم ، مع معانقة الجِد في الصبر على الأذىٰ والمحن والفقر بلا عتب ولا عذل ولاشكوىٰ ، وترك الانتصار للنفوس مع توقير الكبير ، ورحمة الصغير ، وتعظيم يسير النعم ، وترك الرجوع إلى المخلوقين في شيء إلا في بر ونصيحة وفائدة ، مع دوام الشكر لله عز وجل ، وترك الصول علىٰ مَن هو دونهم ؛ لأنه ضعف حلم ، وترك الصول علىٰ مَن هو فوقهم ؛ لأنه قلة حياء ، وشكر من أنعم عليهم وعلىٰ يديه ، ويَعذِرون مَن لم يُنِلْهُم معروفاً ، ولا يعيبونه ؛ لمجاري الأقدار والأحكام عليهم من الله عز وجل .

ومن صفاتهم : ما قال عمار بن ياسر رضي الله عنه في حديثه المشهور عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « اللهم ؛ إني أسألك العدل في الرضا والغضب ، والقصد في الغنىٰ والفقر ، والصبر وخشية الله عز وجل في السر والعلانية[1] .

وكلَّ مَن رأيتَه يدعي مقام الغنىٰ بالله سبحانه وتعالىٰ ، وليس فيه عزوف عن الدنيا ، ولا هو مالك لنفسه عند القدرة عليها ، ولا مسرور بعدم الإعراض عنها . . فاعلم أن ما غاب عنه من علم حاله أكبر من شغله بغير اتصاله .

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٩٣٤٨) .

واعلم : أن الموعظة للعوام ، والنصيحة للإخوان ، والتذكرة للخواص . . فرض افترضه الله عز وجل على العقلاء المؤمنين ، ولولا ذلك . . لانقطعت السُّنن وبطلت الفرائض ، والله سبحانه أعلم . انتهىٰ .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال في « لوامع أنوار القلوب » : قال أبو الوزير : كنت أسمع بعليٍّ الموسوس ، وسكره بالمحبة ، وولهه في عقله مع كثرة عشيرته ، وكنت أشتهي لقاءه .

فلما بلغت قرب النعمانية[1] . . رأيت على الشاطىء شيخاً وعليه جبة صوف ، وحوله الفلاحون والملاحون ، وهو يبكي ، ولا يحس بما يقول ، ولا ما يقال له ، فسألت عنه ، فقيل : إنه علي الموسوس ، فدنوت منه وسلمت عليه ، فأشار بالجواب ، ثم قال : يا بني ؛ أسعدَ قوماً بخِلَعِ معرفته ، وسقاهم بكأس محبته من شراب مؤانسته ، وأسكرهم في إخلاص مجاهدته ، وأضناهم في ميادين خدمته ، وأفناهم في سكرهم عن بريته ، ثم أوقفهم علىٰ بساط مراقبته ، وشرفهم بتحيات مشاهدته ، فهم سكرىٰ في الظواهر ، صحاة في الضمائر والسرائر .

ثم حلاَّهم علىٰ لسان عبده ورسوله وحبيبه محمد سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وأخفاهم عنك ؛ لأنهم بحال ودائع المحبة ، وحصول خزائن المعرفة ، فهم العارفون ، فقال فيهم صلى الله عليه وسلّم : « رُبَّ أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له ، لو أقسم على الله . . لأبر قسمه » .

ثم أقامهم بين صلح وقتال ، ووشاة وعذال ، ولوَّام وآلام ، وحلال وحرام ، فهم سكارىٰ حيارىٰ دَهشىٰ عطشىٰ .

يا حبيبي ؛ سمعاً وطاعة لك ، ورضاً وتسليماً لقضائك وأمرك ، تفعل ما تشاء ، وتحكم ما تريد ، لا إلـه إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين .

ثم قام شاهقاً يعدو ، وراكضاً يشدو ، فأعجبت بطيب قلبه ومنظره أكثر من إعجابي بحسن خبره ومخبره ، والله أعلم .

---

(١) **النعمانيةِ** : بلدة بين واسط وبغداد .

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال في « بهجة الأسرار » : قال يوسف بن الحسين : قال ذو النون : وُصِف رجل بالمغرب ، وذكر بالمعروف والحكمة ، ووصف لي من كلامه ما حملني علىٰ لُقِيِّه ، فرحلت إليه إلى المغرب ، فأقمت علىٰ بابه أربعين يوماً علىٰ أن يخرج من منزله ، ويجلس في مسجده ، ويتكلم ، وأسأله ، فما هو إلا أن يخرج من منزله في وقت كل فريضة ، ويرجع كالواله لا يكلمني ولا يكلم أحداً ، فضاق لذلك صدري .

فقلت له يوماً : يرحمك الله يا هـٰذا ، إني مقيم هـٰهنا منذ أربعين يوماً لا أراك تكلمني ، فقال : يا هـٰذا ؛ إن لساني سبُع ، فإن أنا أطلقته . . أكلني .

فقلت له : يرحمك الله ، عظني موعظة أحفظها عنك ، فقال : وتفعل ؟ قلت : نعم إن شاء الله عز وجل ، فقال : لا تحب الدنيا ، وعُدَّ الفقر غنىً ، والبلاء من الله نعمة ، والمنع من الله عطاء ، والوحدة مع الله أنساً ، والذل عزاً ، والحياة موتاً والمباهاة حظاً ، والطاعة حرفة ، والتوكل معاشاً ، والله عز وجل لكل أمورك عُدَّة . ودخل إلىٰ منزله ، ثم مكث بعد ذلك شهراً لا يكلمني .

فلما خرج ذات يوم . . قلت له : يرحمك الله ، إني أريد الرجوع إلىٰ بلدي ، فإن رأيت أن تزيد لي في الموعظة ، فقال : وما كفاك ما سمعت ؟!

فقلت : يرحمك الله ، إني رجل مبتدىء لا علم لي ، قال : هـٰكذا ؟ قلت : نعم ، فقال : اعلم أن الزاهد في الدنيا قوته ما وجد ، ولباسه ما ستر عورته ، ومسكنه حيث أدرك ، والخلوة مجلسه ، والقرآن حديثه وأنيسه ، والله سبحانه جليسه ، والمراقبة سميره ، والصمت ضميره ؛ لاستيلاء سلطان الهيبة عليه لا يفارقه ، والخوف محجته ، والرجاء مع الشوق مطيته ، والنصح همته ، والاعتبار فكرته ، والصبر وسادته ، والتراب فراشه ،

والصديقون إخوانه ، والحكمة كلامه ، والعقل دليله ، والحلم خليله ، والتوكل كسبه ، والجوع أُدْمُه ، والبكاء مع الحزن حرفته ، والجنة منزله ، والله عز وجل عونه .

فقلت له : يرحمك الله ، فمتىٰ يتبين للعبد الزيادة في هـٰذا المقام ؟ فقال : بالمحاسبة لنفسك والمناقشة لها ، حسبك الآن حسبك . انتهىٰ .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال في « لوامع أنوار القلوب » : قال الأصمعي ـ رحمه الله ـ : رأيت في الطواف شيخاً بالياً فانياً ، وله خلوات حسنة ، ومجاهدات كثيرة ، فأعجبني حاله ، فسمعته ليلة بفناء الكعبة يقول باكياً بصوت حزين : إلـٰهي ؛ إن لم تجب دعوتي . . فمن لي ؟ إلـٰهي ؛ إن لم ترحم عَبْرتي . . فمن لي ؟ إلـٰهي ؛ إن لم تُقِل عثرتي . . فمن لي ؟ إلـٰهي ؛ أغثني ، وإن لم تغثني . . فمن لي ؟ إلـٰهي ؛ اغفر ذنوبي ، وإن لم تغفر لي . . فمن لي ؟ إلـٰهي ؛ ارحمني ، وإن لم ترحمني . . فمن لي ؟

فلم يبق في الحرم عين إلا أبكاها ، ولا قريحة[1] إلا أنكاها[2] .

وأنشدوا في المعنىٰ :

يـا مَـن بهجـري يـريـد قتلـي ... قـد عيـل صبـري ورَثَّ حبلـي
قـد كنـتُ قبـل الهـوىٰ عـزيـزاً ... فبعـتُ عـزي بطـول ذُلـي
وصـرت أشكـو فـلا تبـالـي ... إن لـم تجـب دعـوتـي فمـن لـي

* * *

---

(١) **القريحة** : الطبع الجيد .

(٢) **أنكاها** : النكاية هي كثرة القتل والجرح في العدو ، ولعل المراد هنا : الجرح فقط ، وهو كناية عن شدة تأثر الحاضرين حتىٰ كأنه قد جرح أفئدتهم .

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو عبد الله الطبري : قال رجل لأبي محمد الجريري رحمه الله : كنتُ علىٰ بساط الأنس ، وفُتح لي طريق إلى الانبساط ، فزللت زلة ، فحجبت عن مقامي ، فكيف السبيل إلى العود إليه ؟ دلني على الوصول إلىٰ ما كنت عليه ؟ فبكىٰ أبو محمد وقال له : يا أخي ؛ الكل في قهر هـٰذه الخطة[1] وفي هـٰذه الرزية ، ثم شهق ، ثم سكت ساعة ، وأنشد :

قـف بـالـديـار فهـٰـذه آثـارهـم ... تبكـي الأحبـةَ حسـرةً وتشـوُّقـا
كم قد وقفت بها أسائل مُخبِراً ... عـن أهلهـا أو صـادراً أو مشفقـا
فأجابني داعي الهوىٰ في رسمها ... فارقتَ مَن تهوىٰ فعَزَّ الملتقىٰ[2]

* * *

(١) المعنىٰ والله أعلم : أن الإنسان في مجاهدة ومكابدة حتىٰ يحقق الوصول إلىٰ مقام أعلىٰ ، ويحافظ علىٰ ما وصل إليه ، وهو في ذلك متحفظ ومتحذر لشرور النفس والهوىٰ والدنيا والشيطان ، وإليه الإشارة بقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ .

(٢) طبقات الصوفية (٢٠٦) .

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

سئل بعض العارفين عن أخص أحوال المحبة فقال : أخص أحوالها أربعة أشياء : ظاهران وباطنان .

أما الظاهران : فالسياسة والرياضة ، وأما الباطنان : فالحراسة والرعاية .

أما السياسة : فهي حفظ النفس ومعرفتها ، وبه يصل العبد إلى التطهير ، وميزانها القيام علىٰ وفاء العبودية .

وأما الرياضة : فهي مخالفة النفس ، وبها يصل العبد إلى التحقيق ، وميزانها الرضا عند الحكم .

وأما الحراسة : فهي معاينة بر الله تعالىٰ ولطفِهِ ، وألاَّ مانع ولا معطي ولا ضار ولا نافع إلا هو سبحانه وتعالىٰ ، وبها يصل العبد إلىٰ منازل المعرفة ، وميزانها الصفو والمشاهدة .

وأما الرعاية : فهي مراعاة حقوق الله عز وجل بالسرائر ، والمسارعة إلى الإتيان بالمأمورات منها ، واجتناب المنهيات عنها ، مع الالتذاذ بذلك ، وبها يصل العبد إلىٰ درجات المحبة ، وميزانها الوفاء والرجاء والخوف والهيبة ، ثم إن الوفاء متصل بالصفاء ، والرضا متصل بالمحبة ، عَلِمه مَن عَلِمه ، وجهِله من جهِله . والله أعلم[1] .

* * *

(١) طبقات الصوفية (٢١٥) .

ومنهن :

عابدة أخرىٰ
رضي الله عنها

قال في « لوامع أنوار القلوب » : قال أبو الأشهب السائح : بينا أنا في الطواف ؛ وإذا بجارية قد تعلقت بأستار الكعبة وهي تقول : يا وحشتي بعد الأنس! ويا ذلي بعد العز! ويا فقري بعد الغنىٰ!

فقلت : يا جارية ؛ أذهب لك مال أو أصبت بمصيبة ؟ فقالت : خل هـٰذا ، وما قدر هـٰذا ؟! ولـٰكن كان لي قلب فقدته .

فقلت : وهـٰذه مصيبتك التي تبكين فيها ؟ فقالت : وأي مصيبة أعظم من فَقْدِ القلوب وانقطاعها عن المحبوب ؟!

فقلت لها : إن حُسن صوتك قد عطل علىٰ من سمع كلامك الطواف ، فقالت : يا شيخ ؛ البيت بيتك أم بيته جل جلاله ؟ قلت : بل بيته سبحانه وتعالىٰ ، قالت : فدعنا نتضرع إليه سبحانه وتعالىٰ .

ثم قالت : سيدي ومولاي ؛ بحبك لي إلا رددت إلي قلبي ، فقلت لها : يا جارية ؛ مِن أين تعلمين أنه سبحانه يحبك ؟ فقالت : إليك عني يا بطال ، لولا محبته سبحانه وتعالىٰ . . لما جيَّش الجيوش في طلبي ، وأنفق الأموال بسببي ، حتىٰ أخرجني من بلاد الشرك وأدخلني في التوحيد ، وعرَّفني نفسه سبحانه وتعالىٰ بعد جهلي ، فهل هـٰذا ـ يا عبد الله ـ إلا العناية ومحبة سبقت منه سبحانه ؟!

قلت : فكيف حبك له ؟ قالت : أعظم شيء وأجله .

قلت : وتعرفين الحب ؟ قالت : إذا جهلتُ الحب . . فأي شيء أعرف ؟! قلت : فكيف هو ؟ قالت : أرق من الشراب ، وأحلىٰ من الحِلاب[1] .

---

(١) الحِلاب : اللَّبن .

قلت : وأي شيء هو ؟ قالت : طينة عجنت بالحلاوة ، حلو المجتنىٰ ما اقتصد ، فإذا أفرط . . صار قتلاً .

ثم ولت وهي تقول :

وذي قلق ما يعرف الصبر والعَزا ... لـه مقلـة عبـرىٰ أضـر بهـا البكـا
وجسم نحيل من شَجَا لاعج الهوىٰ ... فمن ذا يداوي المستهام من الضنا[1]
ولا سيمـا والحـب صعـب مَـرامـه ... إذا عطفـت منـه العـواطـف بـالقنـا

* * *

(١) الشجا : الغَصَص ، أيك الفصة التي تولدت من اضطراب هواه .

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

سئل عارف عن حقيقة المحبة فقال : حقيقة المحبة : حفظ السر مع المراقبة[1] ، وحفظ الظاهر مع الخلق بحسن العشرة ، والنظر إلى الدنيا بعين الزوال ، فمَن نظر إليها بعين محبة . . أكبَّه الله عز وجل عليها .

واعلم : أن ثمرة الشكر هو الخوف من الله والحب له سبحانه وتعالىٰ ، وثمرة الخوف الذِّكر ؛ فإن كان الذِّكر باللسان . . فهو كفارات ودرجات ، وإن كان بالقلب . . فهو زلفىٰ وقربات .

وأما ثمرة الحب . . فهي عزيزة ؛ لأن الحب يورث **علماً بالله عز وجل** ؛ وهو معرفة أسمائه وصفاته ، **وعلماً من الله** ؛ وهو معرفة الحلال والحرام والأمر والنهي والأحكام ، **وعلماً مع الله** ؛ وهو معرفة الرجاء والخوف ، والمحبة والشوق ، والبكاء والمراقبة ، والسهر والرعاية .

ثم قال : قد روي أن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام رأىٰ رجلاً يعبد الله عز وجل في الهواء ، فقال له : بم نلت هـٰذه المنزلة ؟ فقال : يا خليل الله ؛ ما شَغَل الله عز وجل قلبي بغير حبه سبحانه وتعالىٰ ، وصَمَمْت نفسي عن الدنيا ، ولم أشرع قولاً ولا فعلاً فيما لا يعنيني ، وعملت بما أمرني ، وانتهيت عما نهاني ، فهو سبحانه وتعالىٰ إن سألته . . أعطاني ، وإن دعوته . . أجابني ، وإن أقسمت عليه . . أبر قسمي ، فسألته أن يسكنني في الهواء لأتجرد عن الأغيار ، فأسكنني في الهواء ، وأسكن حبه في قلبي تبارك وتعالىٰ .

ثم قال : سئل بعض العارفين عن التنازع بين العقل والهوىٰ فقال : العقل والهوىٰ يتنازعان ، فَقَرِينُ العقل التوفيق ، وقرين الهوى الخذلان ، والنفس واقفة بينهما ، فأيهما

---

(١) في بعض النسخ : (الموافقة) .

ظفر . . كانت مِن حزبه ، ومخالفة النفس هي الغرض الصحيح ، واتباع رضى المحبوب هو المطلوب الصريح .

لســـانـــي كتـــوم لأســـراركـــمْ ودمعـــي لأســـرار قلبـــي مـــذيـــعْ
فلـــولا دمـــوعـــي كتمـــت الهـــوىٰ ولـولا الهـوىٰ لـم يكـن لـي دمـوع

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

سئل عن الحال التي يستغنىٰ بها عن الدنيا وأهلها فقال : عليك بتلاوة القرآن أو الذِّكر أو هما ليلاً ونهاراً ، حتىٰ لا يكون فيك فضل لغيرهما من النوافل ، وكن معظماً لحرمات الله سبحانه وتعالىٰ ، مراقباً لله على الدوام .

واعلم : أنك مخاطَب بالوعد والوعيد ، واحْتَمِ عن الدنيا ، وأَكْثِرِ الخلوة ، واعتزل الناس ، ولا تخالطهم إلا في الجمعة والجماعة وما لا بد منه . والسلام .

وسئل أيضاً عن وجه فضل الفقير على الغني[1] فقال : إن الفقير مع نومه بالأدب . . أفضل من الغني مع عبادته طول دهره ؛ لأن مَن راعى الحقوق مع ما يسوؤه . . هو أفضل ممن يراعي الحقوق مع ما يسره ، وما انقطعوا ، وإنما طولبوا برعاية حكم الأوقات فاقتُطعوا .

واعلم : أن الله عز وجل يطالب العبد بجمع همه ، ومَن لم يشرب في فقره كؤوس الاختيار . . فهو طريح الضر ، والله أعلم . انتهىٰ .

* * *

(١) المفاضلة بين الفقير والغني : ترجع لاختلاف المشارب والأذواق والمعارف ، فكل يعبر من وجهة نظر تناسب حاله وطبعه ؛ ولذلك اختلفوا في هٰذا الأمر والله أعلم .

ومنهن :

عابدة أخرىٰ
رضي الله عنها

قال في « لوامع أنوار القلوب » : قال ذو النون : رأيت في بعض السواحل جارية سوداء علىٰ جسمها آثار المجاهدة ، وعلىٰ وجهها أنوار المشاهدة ، فقلت لها : مِن أين ؟ فقالت : من ميدان المحبة ، فقلت : وإلىٰ أين ؟ فقالت : إلىٰ مَن حبه هيمني تقدس عن أن تحاط ذاته بالأينية ، أو تُعرَف محبته بالإحاطة والكيفية ، وإنما هو وصف علىٰ حسب إدراك العبد ، وكلام بلسان التقصير والعجز في الحَيرة .

ثم أنشدت :

الصبر يجمل إلا عنك مولايَ ... وكيف أصبر عن سري ومعنايَ
أُوحِي إلى القلب في سري وفي علني ... أنت الذي كل هَمٍّ فيك مأوايَ
أَعرِفْ محلي وقدري إنني وَجِلٌ ... وحق حقك يا ذخري ومولايَ
إن كنت تعرفني فأكثر مذاكرتي ... فإن أكثر ذكري من أَحِبَّايَ

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال بعض العارفين وقد سئل عن علامات المحبة فقال : أعلامها أربعة أشياء لا بد منها : الخوف ، والرجاء ، واليقين ، والرضا .

ثم إن هٰذه الأربعة مقرونة بأربعة : الخوف مقرون بالبكاء ، والرجاء مقرون بالأنس ، واليقين مقرون بالتوكل ، والرضا مقرون بصحة التسليم .

وأنشد :

تفكرت في ما قد تقدم من عمري ... وفي ما مضىٰ من حَلِّ عهدي ومن غدري
فقلت لقلبي عند ذاك تنصُّحاً ... أيا عجباً يا قلب أنت من الصخر
لأنك باشرت القبيح جهالة ... وأسرفت فيما قد أتيتَ من الأمر
فدونك فامْحُ ما جنيت وداوِهِ ... وكن صادقاً في ذاك في السر والجهر
زجرتك يا قلبي ولُمْتُك واعظاً ... فلستُ أرىٰ تنقاد للوعظ والزجر
مقيماً علىٰ كسب الذنوب تمرداً ... مصرّاً علىٰ هٰذا كأنك لا تدري
فإنك تلقىٰ كل ما قد جنيتَه ... وقدَّمْتَه بالجهل في سالف الدهر
فلا تك ممن باع رشداً بِغَيِّهِ ... فليس له يوم القيامة من عذر
أَنِبْ وارعوي تَحظىٰ بذلك كالذي ... أناب فنال الفوز في ساعة الحشر
وصار إلىٰ دار يدوم نعيمها ... وحَلَّ بقرب الله ذي العز والكبر
له كل ما يلقاه فيها مخلَّدٌ ... ويُتْحَف بالخَوْد المنَعَّمة البِكْرِ[1]

وقرأ قارىء عند أبي إسحاق إبراهيم الخواص رحمه الله : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ

---

(١) الخَوْدُ : الشابَّةُ النَّاعِمة ، الحسنةُ الخَلْقِ .

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ ، فقال : **ما ينبغي للعبد بعد هـٰذه الآية أن يلجأ إلىٰ أحد غير الله عز وجل** .

وقال بعض العلماء : لا يشغلك المضمون لك من الرزق على المعروض عليك من العمل ، فتضيع أمر آخرتك ، ولا تنال من الدنيا إلا ما كتبه الله عز وجل لك .

وقال هرم بن حيان رحمه الله : قلت لأويس القرني رحمه الله : أين تأمرني أن أكون ؟ فأومأ إلى الشام ، فقلت له : فكيف المعيشة بها ؟ فقال أويس : فهـٰذه القلوب قد خالطها الشك ، فما تنفعها الموعظة .

وقال بعضهم : متىٰ رضيتَ بالله عز وجل وكيلاً . . وجدتَ إلىٰ كل خير سبيلاً ، إِي والله الذي لا إلـٰه إلا هو عالم الغيب والشهادة الرحمـٰن الرحيم .

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله لأحمد ابن أبي الحواري : لي مِن كل مقام نصيب ، إلا من التوكل المبارك ؛ فإني ما شممت منه رائحة .

قال الغزالي ـ قدس الله روحه ـ : هـٰذا كلامه مع علو قدره ، ولم ينكر كونه من المقامات الممكنة ، ولـٰكنه قال : (ما أدركته) ، ولعله أراد إدراك فضله .

ومَن لم يُكمِلِ الإيمانَ بأنه لا فاعل إلا الله سبحانه ، ولا رازق سواه ، وبأن كل ما يقدره على العبد من فقر وغنىً ، وصحة وسقم ، وموت وحياة ، وغير ذلك فهو خير له مما يتمناه . . لم يَكمُل حاله في التوكل .

وقال عبد الواحد بن زيد رحمه الله : مررت برجل نائم في الثلج ، فقلت له : أما تجد البرد ؟ فقال : مَن شغله حب الله عز وجل . . لم يجد البرد . [انتهىٰ « الإحياء » ٤/ ٢٧٠ و٢٩٥] والله أعلم .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال معروف الكرخي رحمه الله تعالىٰ : رأيت رجلاً في البادية شاباً حسن الوجه ، عليه قميص كتان ، وعلىٰ رأسه رداء قصب ، وفي رجليه نعل طاق .

قال معروف : فتعجبت منه في مثل ذلك المكان وفي زيه ، فقلت : السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، فقال : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته يا عم .

فقلت : الفتىٰ من أين ؟ فقال : من مدينة دمشق ، فقلت له : متىٰ خرجت منها ؟ فقال : ضحوة نهار ، قال معروف : فتعجبت منه ، وكان بينها وبين الموضع الذي رأيته فيه مراحل كثيرة .

قلت له : فأين المقصد ؟ فقال : مكة إن شاء الله تعالىٰ ، فعلمت أنه محمول ، ثم ودعني ومضىٰ ، ولم أره حتىٰ مضت ثلاث سنين .

فلما كان ذات يوم وأنا جالس ؛ إذ مر بخاطري ، فتفكرت فيه وفي أمره ، وإذا الباب قد طُرق ، فخرجت ؛ فإذا أنا به ، فسلمت عليه وقلت : مرحباً وأهلاً ، وأدخلته المنزل ، فرأيته منقطعاً والهاً حزيناً حاسراً .

فقلت له : أي شيء الخبر ؟ فقال : يا أستاذ ؛ وعزته وجلاله لقد لاطفني سبحانه وتعالىٰ ، ثم أنعم عليَّ بأنه مرة يُجِيعُني ومرة يُشبعني ، ومرة يهددني ومرة يُكرمني ، فأسأله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ أن يُنعِم عليَّ بتوفيق لما يرضيه عني ، وبعمل صالح يقبله مني ثم بكىٰ .

قال معروف : فأبكاني ـ والله ـ كلامه ، فقلت له : حدثني ببعض ما جرىٰ عليك منذ فارقتني ، فقال : هيهات أن أُبدِيَه وهو سبحانه وتعالىٰ يريد أن أخفيه! ولٰكن بعدما أنعم عليَّ سبحانه وتعالىٰ جوعني ثلاثين يوماً ، ثم جئت إلىٰ قرية فيها مَقْثَأة[1] وقد نبذ منها المدود

---

(١) **المقثأة** : المكان الذي يزرع فيه القِثَّاءُ .

وطرح ، فقعدت آكل منه ، فرآني صاحب المقثأة ، فأقبل إلي ، فضرب ظهري وبطني ، وجعل يقول لي : ما أخرب مقثأتي غيرك ، منذ كم أنا أرصدك حتىٰ وقعت عليك ؟! فبينا هو يضربني ؛ إذ أقبل فارس نحوه مسرعاً إليه ، وقلب السوط في رأسه ، وقال له : تعمَدُ إلىٰ ولي من أولياء الله سبحانه وتعالىٰ فتقول له يا لص ؟! فأخذ صاحب المقثأة بيدي ، وذهب بي إلىٰ منزله ، فما أبقىٰ من الكرامة شيئاً إلا عمله ، واستحلَّني ، وجعل مقثأته لله عز وجل ولأصحاب معروف الكرخي .

فقلت له : صف لي معروفاً ، فوصفك ، فعرفتك .

قال معروف : فما استتم كلامه حتىٰ دق صاحب المقثأة الباب ودخل ، وكان موسراً ، فأخرج جميع ماله وأوقفه على الفقراء ، وصحب الشاب سَنة ، وخرجا إلى الحج ، فماتا بالربذة ، رضي الله عنهما أجمعين . [انتهىٰ « الصفوة » ٤/٢٠٣ـ٢٠٤] .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو الفرج : قال إبراهيم الزهري[1] رحمه الله تعالىٰ : قدمت من المَصِّيصَة ، فمررت بجبل اللُّكام ، فأحببت أن أرى الزهاد هناك ، فقصدتهم ووافقت صلاة الظهر عندهم ، فعرفني رجل منهم ، فقلت له : دُلَّني علىٰ رجل منكم أنتفع بموعظة منه .

فقال : هـٰذا الشيخ الذي يصلي بنا ، فصليت خلفه الظهر والعصر ، فقال له ذلك الرجل : هـٰذا رجل من ولد عبد الرحمـٰن بن عوف صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وأمَّا جده من قبل أمه . . فسعدُ بن معاذ .

قال : فبَشَّ بي وسلم عليَّ كأنه قد كان يعرفني ، قال : فقلت في نفسي : مِن أين يأكل هـٰذا الشيخ ؟ فقال لي الشيخ في الحال : أقم عندنا الليلة ، قال : فأقمت .

ثم أخذ بيدي وجعل يحدثني ويؤانسني حتىٰ جاء إلىٰ كهف ، فقعدت ودخل الكهف ، فأخرج قَعْباً[2] يسع رطلاً ونصفاً قد أتىٰ عليه زمن طويل ، فوضعه بين يدي وقعد يحدثني ، حتىٰ إذا كادت الشمس تغرب . . اجتمع حوله ظباء ، فاعتقل منهن ظبية ، وحلبها حتىٰ ملأ ذلك القدح ، ثم أرسلها .

فلما سقط القرص[3] . . حَسَا منه وسقاني ، ثم قال لي : ما هو غير ما ترىٰ ، وربما احتجت إلى الشيء مِن هـٰذا ، فتجتمع حولي هـٰذه الظباء ، فآخذ حاجتي ، ثم أُرسلها . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/٢٤١] .

* * *

---

(١) كذا في النسخ ، أما في « الصفوة » : (أبو إبراهيم الزهري) .
(٢) **القَعْب** : قدح ضخم غليظ .
(٣) أي : قرص الشمس ، وهو كناية عن أنه كان صائماً .

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو الفرج : قال السري السقطي رحمه الله تعالىٰ : مكثت أربعين سَنة أسأل الله عز وجل أن يُرِيَني ولياً من أوليائه ، قال : فخرجت إلى الثغر ، فصعدت إلىٰ جبل لُكام ، فبينا أنا أمشي في المحجة ؛ إذ رأيت قوماً جلوساً نحو ثلاثين نفساً مرضىٰ عليهم خلقان ، فسلمت عليهم ووقفت ، وقلت لهم : لأي شيء أنتم جلوس هـٰهنا ؟

فقالوا : نحن من هـٰذه المدينة التي أسفل الجبل ، وإذا كان في كل شهر مثل هـٰذا اليوم في هـٰذا الموضع عند الظهر . . يقبل علينا رجل من هـٰذا الموضع ، فنقوم إليه ، فيدعو الله عز وجل لنا ، فقعدت معهم .

فلما كان الظهر . . أقبل رجل أسمر شديد السمرة عليه مئزر صوف ، فقاموا إليه ، فقرأ علىٰ كل واحد منهم ودعا له ، ثم مضىٰ .

قال : فلحقته ، وقلت له : قف عليَّ رحمك الله تعالىٰ أكلمك ، قال : فالتفت إلي ، وقال : يا سري ؛ لا تعامل غيره سبحانه وتعالىٰ ، فتسقط من عينه ، ثم مضىٰ .

زاد في رواية أخرىٰ : احذره عز وجل ؛ فإنه غيور لا يحب أن يرىٰ في قلب عبده غيره سبحانه وتعالىٰ . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/٢٤٢] .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو الفرج ـ رحمه الله ـ : قال قاسم الجوعي رحمه الله تعالىٰ : خرجت حاجاً علىٰ طريق الشام ، فبينما أنا أسير بالليل ؛ إذ غلطت في الطريق ، فسمعت صيحة ؛ فإذا أنا بجماعة قد أصابهم ما أصابني من الغلط في الطريق ، وقد وقفوا علىٰ رجل من المتعبدين في جبل ، وهو يبكي ، ويقول في بكائه : أترىٰ بكائي نافعي ومنقذَ رقبتي من جرائم أصبتها ؟! أتراك ـ يا سيدي ويا مولاي ـ آخذاً من نفسي بتقصيرها عن واجب حقك وموبخها علىٰ رؤوس الأشهاد بما ضيعت من أمرك ؟!

ثم صاح : واسوأتاه مِن وقوفي بين يديك يا سيداه! فقال له بعض القوم : يا عبد الله ؛ إنا غلطنا في الطريق ، فسلكنا غيرها ، فقال : وأنا أيضاً غلطت في الطريق ، فمَن لي ولكم بالاستقامة علىٰ وجهها ؟!

ثم قال : يا دليل الأدِلاَّء ؛ دُلَّني ودلهم ولا تخزني وإياهم ، قال : فكشف لنا عن الطريق في الحال ، فسلكناها وتركناه واقفاً في موضع عبادته . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/٢٥٦ـ٢٥٧] .

* * *

منهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو الفرج : قال عبد الله بن أبي نوح ـ وكان من العابدين ـ : لقيت شيخاً في طريق مكة ، فأعجبتني هيئته ، فقلت : إني أحب أن أصحبك ، فقال : أنت وما أحببت ، قال : فكان يمشي بالنهار ، فإذا أمسىٰ . . أقام ، منزلاً كان أو غيره ، ويقوم الليل كله يصلي ، وكان يصوم في شدة ذلك الحر ، فإذا أمسىٰ . . عمد إلىٰ جراب معه ، فأخرج منه شيئاً ، فألقاه في فيه مرتين أو ثلاثاً .

وكان يدعوني فيقول : هلم فأصب مِن هـٰذا ، فأقول في نفسي : ما هـٰذا بمجزيك ، فكيف أشركك فيه ؟! فلم يزل علىٰ ذلك حتىٰ دخلَتْ له في قلبي هيبة عندما رأيت من اجتهاده وصبره .

قال : فبينما نحن في بعض المنازل ؛ إذ رأىٰ حماراً يسوقه رجل ، فقال لي : انطلق فاشتَرِ هـٰذا الحمار .

فانطلقت وأنا أقول في نفسي : والله ؛ ما معي ثمنه ، ولا أعلم أن معه ثمنه ، فكيف أشتريه ؟!

قال : فأتيت صاحب الحمار وساومته ، فأبىٰ أن ينقصه عن ثلاثين ديناراً ، قال : فجئت إليه وأخبرته ، فقال : استخر الله ، ثم خذه وقل : باسم الله ، ثم أدخِل يدك في هـٰذا الجراب .

ففعلت ذلك ، وقلت باسم الله ، وأدخلت يدي فيه ، وإذا صرة فيها ثلاثون ديناراً لا تنقص ولا تزيد .

قال : فدفعتها إلى الرجل ، فأخذت الحمار وجئت به ، فقال لي : اركبه ، فقلت له : أنت أضعف مني ، فاركب أنت .

قال : فلم يراجعني ، فركب ، وكنت أمشي مع حماره وهو على العادة ، حيث أدركه الليل أقام ، حتىٰ أتينا عُسْفان ، فلقيه شيخ ، فسلم عليه ، ثم تنحيا عني خلوة وجعلا يبكيان ، فلما أرادا أن يتفرقا . . قال صاحبي للشيخ : أوصني ، قال : نعم ؛ أَلْزِمِ التقوىٰ قلبك ، وانصُب ذِكر الموت والمعاد أمامك .

قال : زدني ، فقال : استقبِلِ الآخرة بالحَسَن من عملك ، وباشر عوارض الدنيا بالزهد من قلبك ، واعلم : أن الأكياس . . الذين علموا عيب الدنيا حين عمي أهلها عن عيبها . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

قال : ثم افترقا ، فقلت لصاحبي : مَن هـٰذا الشيخ رحمك الله ؟ فما رأيت كلاماً أحسن من كلامه ، فقال : عبد مِن عبيد الله تعالىٰ .

قال : ثم خرجنا من عسفان حتىٰ أتينا مكة ، فلما انتهينا إلى الأَبْطَح . . نزل عن حماره وقال لي : اثبت مكانك حتىٰ أنظر إلىٰ بيت الله عز وجل نظرة ، ثم أعود إليك إن شاء الله تعالىٰ .

قال : فانطلق وعرض لي رجل ، وقال : أتبيع الحمار ؟ فقلت : نعم ، فقال : بِكَمْ ؟ فقلت : بثلاثين ديناراً ، فقال : قد أخذته منك ، فقلت له : يا هـٰذا ؛ والله ما هو لي ، وإنما هو لرفيق لي ، وقد ذهب إلى المسجد الحرام لعله يجيء الآن .

فبينما أنا معه في الكلام ؛ إذ جاء الشيخ ، فقلت له : إني قد قلت لهـٰذا في مشترى الحمار بثلاثين ديناراً ، فقال : بعه ، فأخذت من الرجل ثلاثين ديناراً ، وجئت بها إليه .

فقال : ما أصنع بها ؟! هي لك فأنفِقْها ، فقلت : لا حاجة لي فيها ، فقال : ألقها في الجراب ، فوضعتها فيه .

قال : ثم طلبنا منزلاً بالأبطح ، فنزلنا فيه ، فقال : جئني بدواة وقرطاس ، فأتيته بهما ، فكتب كتابين ، ثم شدهما ودفع أحدهما إلي .

وقال : انطلق به إلىٰ عبَّاد بن عبَّاد ، فهو نازل في موضع كذا وكذا ، أقرئه مني السلام ومَن حضره من المسلمين .

ثم دفع إلي الكتاب الآخر ، وقال : ليكن هـٰذا معك ، فإذا كان يوم النحر . . فاقرأه إن شاء الله تعالىٰ ، فأخذت الكتابين ، وجئت بالكتاب الذي لعبَّاد بن عبَّاد إليه ، فوجدته قاعداً

يحدث وعنده خلق كثير ، فسلمت ، ثم قلت : رحمك الله تعالىٰ ، هـٰذا كتاب بعض إخوانك إليك ، فأخذ الكتاب ؛ فإذا فيه :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

أما بعد يا عبَّاد : فإني أحذرك الفقر يوم يحتاج الناس إلى الذخر ؛ فإن فقر الآخرة لا يسده غنىٰ ، وإن مصاب الآخرة لا تُجبَر مصيبته أبداً ، وأنا رجل من إخوانك قد حضرني أمر الله عز وجل ، وأنا ميت الساعة إن شاء الله تعالىٰ ، فاحضُر غسلي والصلاةَ عليَّ وإدخالي قبري ، والسلام ، وأستودعك الله تعالىٰ وجميع المسلمين ، واقرأ السلام علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وعلىٰ آله وأصحابه ، وأزواجه وذريته ، وسائر المرسلين والنبيين ، وآل كل وسائر الصالحين .

قال : فلما قرأ عبَّاد الكتاب . . قال : يا هـٰذا ؛ أين هـٰذا الرجل ؟ فقلت : بالأبطح ، فقال : أمريض هو ؟ قلت : لا والله ، تركته الساعة صحيحاً ، قال : فقام وجاء الناس معه حتىٰ دخل عليه ؛ فإذا هو مستقبل القبلة ميت مسجىٰ ، عليه عباءة ، فقال لي عبَّاد : هـٰذا صاحبك ؟ قلت : نعم ، تركته الساعة صحيحاً .

قال : فجلس يبكي عند رأسه ، ثم أخذ في تجهيزه والصلاة عليه ، ثم دفنه ، قال : فاجتمع خلق كثير علىٰ جنازته ، ثم مضيت متعجباً ، فلما كان يوم النحر . . أخرجت كتابه الآخر لأقرأه كما أمرني ، ففتحته ؛ فإذا فيه :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

أما بعد : فأنت يا أخي نفعك الله بمعروفك يوم يحتاج الناس إلىٰ صالح أعمالهم ، وجزاك الله تعالىٰ عن صحبتنا خيراً ؛ فإن صاحب المعروف يجد لجنبه يوم القيامة مضطجعاً ، وإن حاجتي إليك إذا قضى الله تعالىٰ نسكك أن تنطلق إلىٰ بيت المقدس ، فتدفع ميراثي إلىٰ وارثي . والسلام عليك ورحمة الله تعالىٰ وبركاته .

قال : فقلت في نفسي : كل أمرك ـ رحمك الله تعالىٰ ـ عجَب ، وهـٰذا من أعجب أمرك ، كيف آتي بيت المقدس ؟ ولم تسم لي أحداً ، ولا وصفت لي موضعاً ، ولا أدري إلىٰ مَن أدفعه .

قال : وكان قد خلف قدحاً وجرابه ذلك وعصا كان يتوكأ عليها ، وكنا قد كفناه في ثوبي إحرامه ، ولففت العباءة فوق ذلك .

قال : فلما انقضى الحج . . قلت : والله ؛ لأذهبن إلىٰ بيت المقدس ، فلعلي أن أقع علىٰ وارث هـٰذا الرجل .

قال : فانطلقت حتىٰ أتيت بيت المقدس ، فدخلت المسجد ، فوجدت فيه حِلقاً حِلقاً ، فقراء ومساكين وغير ذلك .

فبينا أنا أدور وأتصفح الناس لا أدري عمن أسأل ؛ إذ ناداني رجل من بعض تلك الحِلَق باسمي : يا فلان ، فالتفت إليه ؛ فإذا شيخ كأنه صاحبي .

فقال لي : هات ميراث أخي فلان ، قال : فدفعت إليه العصا والقدح والجراب ، ثم وليت راجعاً .

قال : فوالله ؛ ما خرجت من المسجد حتىٰ قلت لنفسي : تضرب من مكة إلىٰ بيت المقدس وقد رأيت من الشيخ الأول ما رأيت ، ورأيت من الشيخ الثاني ما رأيت ، ولا تسأل مَنْ هـٰؤلاء القوم ، ولا عن حالهم ، ولا عن أمرهم ؟ قال : ثم رجعت ، وعزمت علىٰ ألاَّ أفارق الشيخ الآخر حتىٰ يموت أو أموت أنا ، قال : فجعلت أدور الحِلَق وأتصفح الناس ، وأجتهد علىٰ أن أعرفه أو أقع عليه . . فلم أقع عليه .

قال : وجعلت أسأل عنه ، وأقمت أياماً ببيت المقدس أطلبه ، وأسأل عنه ، فلم أجد أحداً يدلني عليه ، قال : فرجعت منصرفاً إلى العراق . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/٢٧٨ـ٢٨٠] .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو الفرج : قال محمد بن سهل رحمه الله تعالىٰ : كنت أمشي في طريق مكة ؛ إذ رأيت رجلاً مغربياً علىٰ بغل وبين يديه منادياً ينادي : مَن أصاب هميانا[1] فردَّه . . له ألف دينار .

قال : وإذا بإنسان أعرَجَ عليه أطمار رثة وخلقان ، فجاء إلى المغربي وقال له : أي شيء علامة الهميان ؟ فقال : كذا وكذا ، وفيه بضائع لقوم ، وإني أعطي مِن مالي ألف دينار لمن يرده عليَّ .

فقال ذلك الفقير : مَن يقرأ الكتاب ؟ فقال رجل ـ يقال له : ابن عسكر ـ : أنا أقرأ ، اعدلوا بنا عن ناحية الطريق ، فعدلنا ، فأخرج الفقير الهميان ، وأخرج المغربي كتاباً فيه : جبتان لفلانة ابنة فلان بخمس مئة دينار ، وجبة لفلان بمئة . . . وجعل يعدد والفقير يخرج من الهميان شيئاً شيئاً ، فيجده كما هو مكتوب في كتاب المغربي ، فدفعه إليه ، فقال المغربي للفقير : خذ هـٰذه ألف دينار التي جعلتها علىٰ وجادة الهميان .

فقال ذلك الفقير الأعرج : لو كانت قيمة الهميان الذي أعطيتك تساوي عندي بَعْرتين . . ما كنت تراه ، فكيف آخذ منك ألف دينار علىٰ ما هـٰذا قيمته عندي ؟! وقام ومضىٰ ، ولم يأخذ منه شيئاً . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/ ٢٨٠] .

* * *

---

(١) **الهميان** : كيس للنفقة يُشد في الوسط .

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو الفرج : قال قاسم الجوعي رحمه الله تعالىٰ : رأيت في الطواف رجلاً لا يزيد علىٰ قوله : إلـٰهي وسيدي ؛ قضيت حوائج المحتاجين وحاجتي لم تقض .

فسألته عن ذلك فقال لي : إنا كنا سبعة أنفس من بلاد متفرقة ، ترافقنا في غزاة ، فاتفق أن العدو ظفر بنا وأخذونا إلىٰ بلادهم ، فجعلونا أسارىٰ ، ثم اعتزل بنا إلىٰ موضع لتضرب رقابنا ، فنظرت إلى السماء ؛ فإذا فيه سبعة أبواب مفتوحة ، وإذا في السماء سبع جَوارٍ من الحور العين ، علىٰ كل باب جارية قائمة ، فكلما قُدّم رجل لتُضرَب عنقُه . . هبطت جارية في يدها منديل إلى الأرض ، فضُرب أعناق ستة وبقيت أنا وبقي باب واحد .

فلما قدِّمتُ لتُضرَب عنقي . . استوهبني منه بعض أصحابه ، فوهبني له ، فسمعتها تقول : أي شيء فاتك يا محروم ؟! وأَغْلقتِ الباب ، فأنا ـ يا أخي ـ متحسر كل الحسرة علىٰ ما فاتني .

قال قاسم الجوعي : أراه أفضلهم ؛ لأنه رأىٰ ما لم يروا ، وتُرك يعمل على الشوق . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/٢٨٦ـ٢٨٧] .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو الفرج : قال إبراهيم بن أحمد الخواص رحمه الله تعالىٰ : رأيت شاباً في الطواف متزراً بعباءة متشحاً بالأخرىٰ ، كثير الطواف والصلاة ، فوقع في قلبي محبتُه ، وكان قد فُتح عليَّ بأربع مئة درهم ، فجئت بها إليه وهو جالس خلف المقام ، فوضعتها علىٰ طرف عباءته وقلت له : يا أخي ؛ اصرف هـٰذه القطيعات في بعض حوائجك ، فنفض عباءته ، وبذرها في الحصىٰ ، وقال لي : يا إبراهيم ؛ اشتريت هـٰذه الجلسة من الله عز وجل بسبعين ألف دينار ، وأنت تريد أن تخدعني عن الله عز وجل بهـٰذا الوسخ ؟! قال إبراهيم : فما رأيت أعز منه وهو ينظر إلي ، ولا أذل مني وأنا أجمعها ، قال : ثم قام وذهب . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/٢٨٨] .

* * *

ومنهم :

عابد آخر
رضي الله عنه

قال أبو الفرج : عن سهل بن عبد الله رحمه الله تعالىٰ قال : كان عبد الله بن صالح رجلاً له سابقة جليلة ، وكان يفر من الناس من بلد إلىٰ بلد ، حتىٰ أتىٰ مكة ، فطال مُقامه بها ، فقيل له : لقد طال مقامك بها ، فقال : لِمَ لا أقيم فيها ولم أر بلداً تنزل فيه الرحمة والبركة أكثر من هـٰذا البلد ؟! الملائكة تغدو وتروح وأنا أرىٰ فيه عجائب كثيرة ، أرى الملائكة يطوفون علىٰ صور شتىٰ لا يقطعون ذلك ، ولو قلت لك كل ما رأيت . . لصغَّرت عقولَ قوم ليسوا بمؤمنين .

فقلت له : أسألك بالله إلا ما أخبرتني ، فقال : ما مِن ولي لله عز وجل صحت ولايته . . إلا وهو يحضر هـٰذه البلد في كل جمعة ، ولا يتأخر عنه ، فمقامي [هـٰهنا] لأجل مَن أراه منهم .

ولقد رأيت رجلاً يقال له : مالك بن القاسم جبلي ، وقد جاء ويده غمرة ، فقلت له : إنك حديث عهد بالأكل ، فقال لي : أستغفر الله تعالىٰ فإنني منذ أسبوع لم آكل ، ولـٰكن أطعمت والدتي وأسرعت لألحق صلاةَ الفجر . وبينه وبين الموضع الذي جاء منه سبع مئة فرسخ ، فهل أنت مؤمن ؟ فقلت : نعم ، فقال : الحمد لله الذي أراني مؤمناً موقناً . انتهىٰ [« الصفوة » ٤/١٧٨] .

قوله : (غمرة) : إنما يقال هـٰذا في اللحم خاصة ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم بالصواب .

* * *

خَاتِمَة

فيما كتب بعض أصحاب الأحوال على المرَقَّعات

قال في « لوامع أنوار القلوب » : روي أن الشبلي رحمه الله كتب علىٰ مُرَقَّعته :

باح مجنون عامرٍ بهواه ... وكتمت الهوىٰ فمتُّ بوجدي

وإذا كان في القيامة نودي ... مَن قتيلُ الهوىٰ تقدمت وحدي

وكتب سمنون المحب رحمه الله علىٰ مُرَقَّعته : لو طولب أصحاب الدعاوىٰ بالمعاني . . لافتضحوا .

وكتب يحيى بن علي علىٰ عكازته : الطاعة بعد الطاعة . . علامة القَبول ، والمعصية بعد المعصية . . علامة الرد .

وكتب عتبة الغلام علىٰ صدرته[1] : بئس العبد أنا له ، ونعم الرب هو لي سبحانه وتعالىٰ .

وكتب أبو الحسن المروزي رحمه الله علىٰ سجادته : هٰذا ميدان الطاعة ، وبساط الخدمة ، ومقعد[2] المناجاة ، وموضع المراقبة ، فاحفظ . . تسلم .

وكتب علي بن نجم رحمه الله علىٰ سجادته : ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ .

وكتب أبو بكر النهاوندي رحمه الله علىٰ مرقعته : عبد مذنب ورب غفور .

وكتب أبو جعفر الهروي رحمه الله : ثق بمولاك واستحيي ممن يراك .

وكتبت شعوانة رحمها الله علىٰ سجادتها : مَن وجد لذة الطاعة كما وجد لذة المعصية . . رجي خيره .

وكتب عليان رحمه الله علىٰ جبته : مَن اجتهد في تحصيل الطاعة كما اجتهد في تحصيل المعصية . . يوشك أن يصل إن شاء الله عز وجل .

---

(١) **الصَّدْرة** : الدرع .

(٢) في نسخة : (بقعة) .

وكتب بهلول رحمه الله علىٰ جبته : ارفع طرف قلبك ، هل ترىٰ غير ربك سبحانه وتعالىٰ ؟!

وكتب صندل الساحلي رحمه الله علىٰ مدرعته : لا تباع ولا توهب .

قال ذو النون : بينما أنا سائر في بعض الأودية ؛ وإذا بحبشي في يده عكازة ، وعليها مكتوب :

من كان همته الدنيا ليجمعها ... فسوف يوماً علىٰ رغمٍ يخليها
لا دارَ للمرء بعد الموت يسكنها ... إلا التي كان قبل الموت يبنيها
فإن بناها بخير طاب مسكنه ... وإن بناها بشر خاب بانيها

فقال ذو النون : فقلت : السلام عليك ، فقال : وعليك السلام يا ذا النون ، فقلت له : من أين عرفتني ؟ فقال : عرفتك بنسيم طِيب المحبة هبَّ ما بين حجب المعرفة .

فقلت له : ما اسمك ؟ فقال : صندل ، فقلت : يا صندل ؛ متىٰ يستوجب العبد خِلَع القرب وأنس المشاهدة ؟ فقال : إذا أفنىٰ كليته في المجاهدات ، وأحياها في المشاهدات . . بقي مع الحي القيوم جل جلاله علىٰ بساط الكفاية ، متقلداً سيف العناية ، طامحاً إلىٰ منازل الولاية ، فذلك قرب لا بعد معه ، وصفاء لا كدر يلحقه ، وأنشأ يقول :

عِرفان حبك في ضمير الخاطِرِ ... يختال بين سرائري وضمائري
فإذا تذكرك الفؤاد فإنما ... يلقاك سراً في ضمير سرائري
وإذا تشوق ناظري لك طلعةً ... لاقىٰ جمالَك في سواد الناظر
فالكل منك بكل قلب ساكن ... وإليك منك مواردي ومصادري

قال ذو النون : ثم فارقني ومضىٰ ، رحمه الله تعالىٰ . انتهىٰ .

* * *

الفصل الثالث

في ترجمة العادل نور الدين الشهيد

قدس الله روحه ونوَّر ضريحه

وبه يختم الكتاب إن شاء الله تعالىٰ(*)

(*) وقد أضاف المؤلف رحمه الله بعد ذلك بعشر سنين ترجمة صلاح الدين الأيوبي فكانت هي خاتمة تراجم الكتاب .

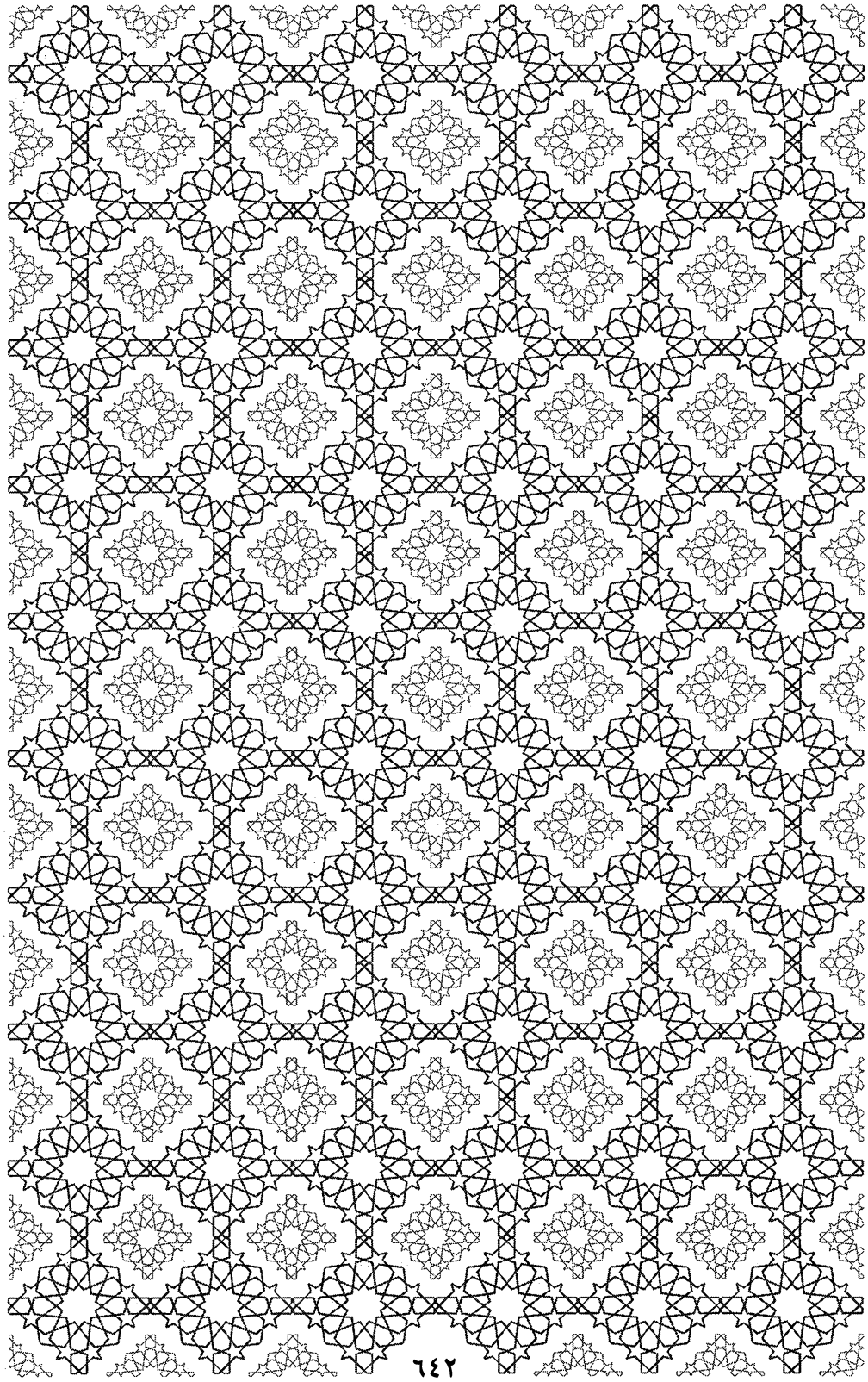

قال الشيخ الإمام العالم العلامة شهاب الدين عبد الرحمٰن بن إسماعيل بن إبراهيم أبو شامة الشافعي[1] ـ رحمه الله ـ في كتابه المسمىٰ بـ« الروضتين في أخبار الدولتين » :

أما الدولة النورية

فسلطانها الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن عماد الدين أتابك ، وهو أبو سعيد زنكي ابن قسيم الدولة آقْ سُنْقر التركي ، ويلقب : زنكي أيضاً بلقب والده .

وقال الحافظ أبو القاسم في « تاريخه » : ولد نور الدين سنة إحدىٰ عشرة وخمس مئة ، ومَلَك حلب سنة إحدىٰ وأربعين وخمس مئة .

ثم خرج غازياً ، وافتتح حصوناً كثيرة ، وأظهر العدل ، وقتل ثلاثة آلاف إفرنجياً ، ووقف بها أوقافاً كثيرة ، وأظهر العدل ، ثم قصد دمشق مرتين ، وفي الثالثة ـ وهي سنة تسع

---

(١) أبو شامة (٥٩٩ـ٦٦٥ هـ) : عبد الرحمٰن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي ، مؤرخ ، محدث ، باحث ، أصله من القدس ، ومولده في دمشق ، وبها منشؤه ووفاته ، ولي بها مشيخة دار الحديث الأشرفية ، كنيته أبو القاسم ، ولقب بأبي شامة ؛ لشامة كبيرة كانت فوق حاجبه الأيسر ، وله مؤلفات كثيرة . ومما ذكره في مقدمة كتابه « الروضتين » (١/ ٢٥) أنه لخص كتاب تاريخ ابن عساكر ، وأثناء اختصاره مَرَّ بالملوك المتأخرين فأعجبه ما قرأه عن الملك نور الدين فقال (١/ ٢٦) : (ومَرَّ بي فيه من الملوك المتأخرين ترجمة الملك العادل نور الدين ، فأطربني ما رأيت من آثاره ، وسمعت من أخباره ، **مع تأخر زمانه وتغير خلانه** ، ثم وقفت بعد ذلك في غير هٰذا الكتاب علىٰ سيرة سيد الملوك بعده الملك الناصر صلاح الدين ، فوجدتهما في المتأخرين كالعمرين رضي الله عنهما في المتقدمين ؛ فإن كل ثان من الفريقين حذا حذو من تقدمه في العدل والجهاد ، واجتهد في إعزاز دين الله أيَّ اجتهاد ، وهما ملِكا بلدتنا وسُلْطانا خطَّتنا ، خَصَّنا الله تعالىٰ بهما ، فوجب علينا القيام بذكر فضلهما . فعزمت علىٰ إفراد ذكر دولتيهما بتصنيفٍ يتضمن التقريظ لهما والتعريف ، **فلعله يقف عليه من الملوك مَنْ يسلك في ولايته ذلك السلوك ، فلا أُبعِد أنهما حُجَّة من الله على الملوك المتأخرين ، وذكرىٰ منه سبحانه ؛ فإنَّ الذكرىٰ تنفع المؤمنين** ، فإنهم قد يستبعدون من أنفسهم طريقةَ الخلفاء الراشدين ، ومن حذا حَذْوهم من الأئمة السابقين ، ويقولون نحن في الزمن الأخير ، وما لأولٰئك من نظير ، فكان فيما قدر الله سبحانه من سيرة هٰذين الملكين إلزام الحجة عليهم ، بمن هو في عصرهم من بعض ملوك دهرهم ، فلن يعجز عن التشبه بهما أحد إنْ وفَّقَ الله تعالى الكريم وسدد ، وأخذت ذلك من قول أبي صالح شعيب بن حرب المدائني رحمه الله ـ وكان أحد السادة الأكابر في الحفظ والدين ـ قال : إني لأحسب يجاء بسفيان الثوري يوم القيامة حجة من الله تعالىٰ علىٰ هٰذا الخلق ، يقال لهم : إن لم تدركوا نبيكم . فقد أدركتم سفيان ، ألا اقتديتم به ؟! وهٰكذا أقول : هٰذان حجة على المتأخرين من الملوك والسلاطين فَلِلهِ دَرُّهُما من مَلِكَيْن تعاقبا علىٰ حُسْن السيرة وجميل السريرة) .

وأربعين ـ ملكها ، وحصَّن سورها ، وبنىٰ بها المدارس والمساجد ، ونشر العدل ، ووقف بها أوقافاً كثيرة .

وكان عالماً ، فقيهاً ، ديِّناً ، خيِّراً ، متواضعاً ، عادلاً ، يحب أهل الدِّين ويكرمهم ويَبَرُّهم ، وكان أقرب الناس منه وأحبهم إليه العلماء والفقراء .

وكان في الحروب ثابت القدم ، حسن الرمي ، صليب[1] الضرب ، يتقدم على الجيش في القتال راجياً الشهادة .

وكان يسأل الله عز وجل أن يحشره من بطون السباع وحواصل الطير .

وأقطع أمراء العرب إقطاعات ؛ لئلا يتعرضوا إلى الحاج ، وأمر بإكمال سور المدينة المشرفة صلوات الله وسلامه علىٰ من شرفت به ، وأمر بإجراء العين التي بأُحُد .

وحصل في أسره جماعة من أمراء الإفرنج ، وكسر الروم والأرمن والفرنج علىٰ حارم ، وكان عدتهم ثلاثين ألفاً ، ثم فتح حارم ، وأخذ أكثر قرىٰ أنطاكية ، ثم فتح الديار المصرية ، وكان العدو قد أشرف علىٰ أخذها .

وأظهر السُّنة في أيامه ، وانقمعت البدعة .

وكان حريصاً علىٰ فعل الخيرات ، مقتصداً في الإنفاق ، متحرياً في مطعمه وملبسه ، لم يُسمع منه كلمة فحش في رضاه ولا في غضبه ، أحب ما إليه كلمة حق يسمعها ، أو إرشاد إلىٰ سُنة يتبعها ، قد قَصَرَ ليله ونهاره علىٰ عدل ينشره ، وجهاد يتجهز له ، ومظلمة يزيلها ، وعبادة يقوم بها ، وإحسان يوليه .

وكان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف إلا فيما يخصه من مِلْك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ، ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين .

أحضر الفقهاء واستفتاهم في أخذ ما يحل له من ذلك ، فأخذ ما أفتوه بحله ، ولم يتعَدَّهُ إلىٰ غيره .

ولم يلبس قط ما حرمه الشرع من حرير أو ذهب أو فضة ، ومَنَع من شرب الخمر ، ومن بيعها في جميع بلاده ، ومن إدخالها إلىٰ بلد ما .

وكانت الخاتون ابنة معين الدين زوجة نور الدين إذا جاء إليها . . يجلس في المكان

---

(١) صليب الضرب : شديده .

المختص به ، لا تتقدم إليه إلا بإذنٍ في أخذ ثيابه عنه ، ثم تعتزل عنه إلى المكان الذي يختص بها .

وينفرد يطالع قصص أصحاب الأشغال ، أو في شيء مما يتعلق بمصالح المسلمين ، وله في الليل قيام كثير ، وله في النهار أوراد يحافظ عليها مع قيامه في مصالح المسلمين .

وكان قد قرر لزوجته مقداراً من النفقة ، فقَلَّتْ عليها النفقة ، ولم يكفها ما كان قرره لها ، فأرسلت إليه تطلب زيادة علىٰ ما كان قرر لها ، وذكرت أن ذلك لا يكفيها ، فلما قيل له في ذلك . . تنكَّر وجهه واحمرَّ ، ثم قال : مِن أين أعطيها ؟ أما يكفيها ما لها ؟ والله ؛ لا أخوض نار جهنم في هواها ، وإن كانت تظن أن هـٰذه الأموال التي بيدي هي لي . . فبئس ما ظنت ، إنما هـٰذه أموال المسلمين مرصدة لمصالحهم ، ومُعَدَّةٌ لِفَتْقٍ[1] إن كان في الإسلام ، وأنا خازنهم عليها لا أخونهم فيها .

ثم قال : لي بمدينة حمص حصص في ثلاثة دكاكين مِلكاً ، وقد وهبتها إياها ، فلتأخذها ، وكان يَحْصُل منها قدر قليل نحوُ ثلاثين درهماً .

وكان بالجزيرة رجل صالح كثير العبادة والورع ، شديد الانقطاع عن الناس ، وكان نور الدين يكاتبه ويراسله ، ويعتقد فيه ، ويرجع إلىٰ قوله ، فبلغه عن نور الدين أنه يكثر من اللعب بالكرة ، فكتب إليه يقول له : ما كنت أظن أنك تلهو وتلعب وتعذب الخيل بغير فائدة دينية .

فكتب إليه نور الدين بخط يده يقول له : والله ؛ ما يحملني على اللعب بالكرة اللهو والبطر ، إنما نحن في ثغر العدو ، وهو قريب منا ، وبينما نحن جلوس نخشىٰ أن يقع صوت ، فنركبَ في الطلب ، ولا يمكننا ملازمة الجهاد ليلاً ونهاراً شتاءً وصيفاً ؛ إذ لا بد من الراحة للجند ، ومتىٰ تركنا الخيل علىٰ مرابطها . . صارت جماماً[2] لا قدرة لها علىٰ إدمان السير في الطلب ، ولا معرفةَ لها أيضاً بسرعة الانعطاف في الكر والفر في المعركة ، فنحن نركبها ونروضها بهـٰذا اللعب ، فيذهب جمامها ، وتتعود سرعة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحروب ، فهـٰذا ـ والله ـ الذي يبعثنا على اللعب بالكرة .

---

(١) **الفَتْقُ** : الخلاف بين الجماعة ، وتصُّدع الكلمة ، والمعنىٰ : إن حدث في الإسلام خلاف بذلنا من هـٰذا المال ؛ لجمع كلمة المسلمين وتوحيد صفِّهم .

(٢) **صارت جِماماً** : أي أصابها الفتور .

وحكى الأمير بهاء الدين علي بن السكري ـ وكان خصيصاً بنور الدين ، قد صحبه من الصبا ، وأنس به ـ قال : كنت معه يوماً في الميدان ، والشمس في ظهورنا ، فكلما سرنا . . تقدمنا الظل ، فلما عدنا . . صار ظلنا وراء ظهورنا ، فأجرىٰ فرسه وهو يلتفت وراءه ، وقال لي : أتدري لأي شيء أُجري فرسي وألتفت ورائي ؟ قلت : لا ، قال : قد شبهت ما نحن فيه بالدنيا تهرب ممن يطلبها ، وتطلب من يهرب منها .

وقد قيلَ في هـٰذا المعنىٰ :

مَثَـلُ الـرزق الـذي تطلبـهُ ... مَثَـلُ الظـل الـذي يمشـي معـكْ
أنـت لا تُـدرِكـه إن رُمْتَـه ... وإذا أعـرضـتَ عنـه تبعـكْ

وكان نور الدين قد جمع مع الشجاعة كثرة العبادة والخشوع :

ما أحسن المحرابَ في المحرابِ[1]

وكانت أعماله بنيَّةٍ .

وكان عارفاً بالفقه علىٰ مذهب الإمام أبي حنيفة ، ليس عنده تعصب ، بل الإنصاف سجيته في كل شيء .

سمع الحديث وأسمعه ، وجدد للملوك اتِّباع سُنة العدل والإنصاف ، وتَرْك المحرمات ، وألزم أَتْباعه وذويه العدل والإحسان ، فكل مَن اقتدىٰ به من بعده . . كان له نصيب من حسناته ، فإنَّ مَن سَنَّ سنة حسنة . . كان له أجرها وأجر من عمل بها إلىٰ يوم القيامة[2] .

وكان من جملة عدله : أنه لم يترك في بلدة من بلاده مكساً[3] ولا عشراً ولا ضريبة ، بل أزال جميعها من الشام ، والجزيرة ، والموصل وأعمالها ، وديار مصر ، وغيرها في جميع مملكته .

---

(١) هـٰذا صدر بيت وعجزه : جمع الشجاعة والخشوع لربه .
والمحراب الأولىٰ : المراد بها الرجل الشديد الحرب الشجاع ، **والثانية** : المكان المعد للعبادة في المسجد أو نحوه .

(٢) إشارة إلىٰ ما أخرجه مسلم (١٠١٧) : عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلّم قال : « من سن في الإسلام سنة حسنة فعُمِل بها بعده . . كُتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيء ، ومن سن في الإسلام سنةً سيئةً فعُمِل بها بعده . . كُتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء » .

(٣) **المكس** : الضريبة التي تؤخذ ممن يدخل البلد من التجار والفلاحين على البضائع القادمين بها .

وكان يسمع شكوى المظلوم ، ويتولىٰ كشف حاله بنفسه ، ولا يَكِلُ ذلك إلىٰ حاجب ولا أمير ولا غيره .

لا جَرَم سار ذِكره شرقاً وغرباً .

وكان واقفاً عند أوامر الشرع ، معظماً لحرماته ، ويقول : نحن شِحَنٌ[1] له .

واتفق أنه كان يوماً يلعب بدمشق بالكرة ، وأنه التفت فرأىٰ رجلاً يحدث آخر ، ويومىء بيده إليه ، فأرسل إليه يسأله عن حاجته ، فقال : لي مع الملك العادل حكومة ، وهـٰذا غلام القاضي ليُحضِرَه إلىٰ مجلس الحكم العزيز بسبب المِلْك الفلاني ، فعاد إليه الرسول ولم يتجاسر أن يعرِّفه ما قال ذلك الرجل ، فقال له : قل وما عليك في ذلك ، إنما أنت مخبر ، فذكر له مقالة الرجل ، فألقى الجوكان[2] من يده مسرعاً وقال : قال الله تعالىٰ : ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ، سمعاً وطاعة لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلّم .

ثم خرج من الميدان ، وسار إلى القاضي ، وأرسل إليه يقول له : إنني قد جئت مُحاكَماً ، فاسلك معي مثل ما تسلك مع غيري .

وكان القاضي يومئذ كمال الدين الشهرزوري ، فلما حضر نور الدين . . ساوىٰ بينه وبين خصمه وحاكمه ، فلم يثبت علىٰ نور الدين حق ، وثبت المِلك له .

فقال نور الدين حينئذ للقاضي ومن حضره : هل ثبت له عندي حق ؟ قالوا : لا ، قال : فاشهدوا علىٰ أني قد وهبت له المِلك الذي قد حاكمني عليه ، وهو في حل منه ، وقد جعلته له دوني ، وأنا كنت أعلم أنه لا حق له عندي ، وإنما حضرت معه تعظيماً لحرمات الشرع ، ولئلا يظن بي أني ظلمته ، فحيث ظهر أن الحق لي . . فقد وهبته له .

واستدعي نور الدين أيضاً مرة أخرىٰ بحلب إلىٰ مجلس الحكم بنفسه أو نائبه ، فدخل حاجبه عليه متعجباً ، وأعلمه أن رسول الحاكم بالباب ، فأنكر عليه تعجبه وقام مسرعاً ، فوجد في أثناء طريقه ما منعه من العبور مِن حفر جُبٍّ في بعض الحشوش ، واستخراج ما فيه ، فوكَّل مِن ثَم وكيلاً ، وأشهد عليه بالتوكيل ورجع .

---

(١) **الشِّحن** جمع شحنة ، وهي : الجماعة التي يقيمها السلطان في بلدٍ ما لضبطه .

(٢) **الجوكان** : عصا معقوفة يلعب بها السلطان في قذف الكرة ، وهي من الرياضات التي كان يمارسها سلاطين الدولة النورية والأيوبية والمملوكية .

وكان من جملة عدله : أنه لم يكن يعاقب على الظنة والتهمة ، بل علىٰ وفق الشرع الشريف بطلب البينة على المتهم ، فإن قامت البينة الشرعية . . عاقب العقوبة الشرعية من غير تعد ولا مجاوزة عليها .

وقامت بهـٰذا الفعل والقصد الجميل بلاده كلها مع سعتها ، وقلَّ المفسدون ببركة العدل واتباع أوامر الشرع الشريف ، واندفع عن الناس من الشر ما يوجد في غير ولايته ، مع شدة السياسة والمبالغة في العقوبة .

وحكىٰ قاضي القضاة بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم : أن نور الدين كان في كل سَنة في شهر رمضان يطلب من الشيخ عمر المَلاَّء شيئاً يفطر عليه ، فكان الشيخ عمر يرسل إليه الأكياس فيها الفتيت والرُّقَاقُ[1] وغير ذلك ، فكان نور الدين يفطر عليه ، وكان إذا قدم الموصل . . لا يأكل إلا من طعام الشيخ عمر الملاء .

وكان قد أمر نوابه في جميع بلاده ألا يعملوا شيئاً إلا بالشرع الشريف ، وهو الذي يأمر به القضاة .

وكان يقول لقاضي الموصل ولنائبه أن يأتمروا بما يقوله الشيخ عمر الملاء ؛ لعلمه وصلاحه ، فكان النائب بالموصل لا يعمل شيئاً بالسياسة ، ويطلب الشحنكية[2] .

فجاء أكابر الدولة وقالوا للنائب : قد كثر الدُّعَّار[3] وأرباب الفساد ، وهـٰذه الأشياء لا تجيء إلا بالقتل والصلب ، فلو كتبت إلىٰ نور الدين تستأذنه في ذلك .

فقال : أنا لا أجسر أن أكتب إليه في هـٰذا المعنىٰ ، ولـٰكن قولوا للشيخ عمر يكتب إليه ، فحضروا عنده ، وسألوه في ذلك ، وأخبروه بأن هـٰذه الأشياء لا تقوم إلا بالقتل والصلب ، وتحتاج إلىٰ نوع سياسة ، وقالوا : إذا أُخذ مال إنسان في البَرِّية . . من يجيء يشهد له ؟!

فكتب الشيخ عمر إلىٰ نور الدين وقال : إن الدُّعَّار والمفسدين وقطاع الطريق قد كثروا ، ويحتاج هـٰذا إلىٰ نوع سياسة ، ومثل هـٰذا لا يجيء إلا بقتل وصلب وضرب ، وإذا أُخذ مال الإنسان في البرِّية . . من يجيء يشهد له؟! فلما وصل إليه الكتاب . . قلبه وكتب علىٰ ظهره :

---

(١) **الفتيت والرقاق** : من أنواع الخبز ، فالأول ما فُتَّ من الخبز وتكسر ، والثاني : الخبز المنبسط الرقيق .

(٢) **الشحنكية** : طائفة من المحاربين مهمتهم حراسة البلد ومنشآتها ، يرأسهم الشِّحنة ؛ أي : رئيس الشرطة أو العسس .

(٣) **الدُّعار** : جمع داعر ، وهو : المفسد في الأرض بتمرده وعدم قبوله للموعظة .

إن الله سبحانه وتعالىٰ خلق الخلق ، وهو أعلم بمصلحتهم ، وشرع لهم شريعة ، وعلم سبحانه وتعالىٰ أن مصلحتهم تحصل فيما شرعه لهم علىٰ وجه الكمال فيها ، ولو علم سبحانه وتعالىٰ أن على الشريعة زيادة في المصلحة . . لشرعه لهم ، فما لنا حاجة إلىٰ زيادة علىٰ ما شرعه الله تعالىٰ .

قال : فجمع الشيخ عمر المَلاَّء أهل الموصل ، وأقرأهم الكتاب ، وقال : **انظروا كتاب الزاهد إلى الملك ، وكتاب الملك إلى الزاهد** .

وكان هـٰذا الشيخ عمر يعرف بعمر الملاء ، سمي بذلك لأنه كان يملأ تنانير الجص بأجرة يتقوَّت بها ، وكان جميع ما عليه من الكسوة عاريَّة ؛ لئلا يجري له مِلك في شيء ، وكان له مال وهبه لأحد مريديه ، فكان ذلك المريد يتجر فيه لنفسه ، وإذا ورد على الشيخ ضيف . . جاء ذلك المريد بشيء لأجل ذلك الضيف من المأكل والملبس علىٰ حسَب ما يكون .

وكان الشيخ عمر له معرفة تامة بالأحكام الشرعية من الكتاب والسُّنة ، وكان العلماء والفقهاء والملوك يزورونه ويتبركون به وبدعائه ، وينتمون إليه .

وكان نور الدين من أخص أصحابه ، يستشيره في أموره ، ويكاتبه في مصالح أمور المسلمين .

وكان بالموصل خربة واسعة قد شاع عنها أنه ما شرع أحد في عمارتها إلا توفي ولم يتم عمارتها ، فأشار الشيخ عمر الملاء علىٰ نور الدين بشرائها وبنائها جامعاً ، فاشتراها وبناها ، فجاءت جامعاً عظيماً ، أنفق فيه أموالاً كثيرة ، ووقف عليه ضَيعة من ضِياع الموصل .

وكان الشيخ عمر هو الذي تولىٰ صرف أجرة الصُّنَّاع فيه ، ورتب فيه خطيباً ومُدرِّساً ، وكان قد قدم في تلك السَّنة عماد الدين النوقاني الشافعي من أصحاب محمد بن يحيىٰ ، فجعله مدرساً في ذلك الجامع ، وكتب له منشوراً بذلك .

ومِن عدله : أنه بنىٰ بدمشق داراً للكشف ، وسماها : دار العدل ، وكان سبب بنائها أنه لما طال مقامه بدمشق وأقام بها أمراؤه ، وفيهم أسد الدين شيركوه أكبر أمرائه ، وكان الأمراء قد اقتنوا الأملاك ، وتعدىٰ كل واحد منهم علىٰ مَن يجاوره في قرية أو غيرها ، فكثرت الشكاوي إلى القاضي كمال الدين ، فأنصف بعضهم من بعض ، ولم يقدِر على الإنصاف من أسد الدين شيركوه ، فأنهى الحال إلىٰ نور الدين ، فأمر ببناء دار العدل .

فلما سمع أسد الدين بذلك . . أحضر نوابه جميعهم ، وقال لهم : اعلموا أن نور الدين

ما بنىٰ هٰذه الدار إلا بسببي وحدي ، وإلا . . فمَن هو الذي يمتنع على القاضي كمال الدين ؟! ووالله ؛ لئن أحضرت إلىٰ دار العدل بسبب أحد منكم . . لأصلبنه ، فامضوا إلىٰ كل من كان بينكم وبينه منازعة ، فأعطوه وأرضوه بأي شيء أمكن ، ولو أتىٰ ذلك علىٰ جميع ما بيدي .

فقالوا له : إن الناس إذا علموا ذلك . . اشتطُّوا في الطلب ، فقال : خروج أملاكي عن يدي أسهل عليَّ مِن أن يظن نور الدين أني ظالم ، أو يساوي بيني وبين آحاد العالم في الحكومة ، فخرجوا مِن عنده ، وفعلوا ما أمرهم به ، وأرضوا خصماءهم ، وأشهدوا عليهم .

فلما فرغت دار العدل . . جلس نور الدين فيها لفصل الخصومات والمحاكمات ، وكان يجلس في الأسبوع يومين ، وعنده القاضي والفقهاء ، وبقي ذلك مدة ، فلم يحضر إليه أحد يشتكي مِن أسد الدين ، فقال نور الدين للقاضي : ما جاءنا أحد يشتكي مِن أسد الدين ، فعرَّفه القاضي الحال ، فسجد نور الدين شكراً لله عز وجل وقال : الحمد لله الذي [جعل] أصحابنا يُنصِفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا .

وكان إنما بعثه علىٰ ذلك صِدْقُه في عدله وحسن نيته .

وأما شجاعته : فقد كانت النهايةُ إليه فيها ؛ فإنه كان أصبر الناس في الحروب ، وأحسنَهم مكيدة ورأياً ، وأتمهم معرفة بأمور الأجناد وأحوالهم ، وبه كان يضرب المثل في ذلك .

وقالوا : إنه لم يُرَ علىٰ ظهر الفرس في زمنه أحسنُ منه ، كأنما خلق عليه ، لا يتحرك ولا يتزلزل .

وكان من أحسن الناس لعباً بالكرة ، وأقدرِهم عليها ، لم يرتفع جوكانه فوق رأسه قط ، وكان ربما ضرب الكرة فتجري الفرس ، فيتناول الكرة بيده من الهواء ويرميها إلىٰ آخر الميدان .

وكانت يده لا تُرىٰ والجوكان فيها ، بل تكون في كم قبائه استهانة باللعب .

وكان إذا حضرت الحرب . . أخذ قوسين وتَرْكَشَين[1] ، وباشر القتال بنفسه .

---

(١) تَرْكَشَين ، مفردها : تركاش ، وهي لفظة فارسية معناها : الجعبة .

وكان يقول : طالما تعرضت للشهادة فلم أدركها ، فسمعه يوماً من الأيام قطب الدين النيسابوري الفقيه الشافعي وهو يقول ذلك ، فقال له : بالله لا تخاطر بنفسك وبالإسلام وبالمسلمين ؛ فإنك عمادهم ، ولئن أُصِبتَ ـ والعياذ بالله تعالىٰ ـ في معركة . . لا يبقىٰ أحد من المسلمين إلا أخذه السيف وأُخذت البلاد ، فقال : يا قطب الدين ؛ ومَن محمود حتىٰ يقال له هـٰذا ؟! قبلي مَن حفظ البلاد والإسلام والمسلمين ، وذلك هو الله الذي لا إلـه إلا هو رب العالمين سبحانه وتعالىٰ ، وكان يكثر إعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنج خذلهم الله تعالىٰ .

وأكثر ما ملكه من بلادهم إنما كان بجودة الرأي وحسن السلوك ، بعد إقدار الله تعالىٰ له علىٰ ذلك ، وما زال يخدع ملكَ الروم ويستميله حتىٰ جعله في خدمته سفراً وحضراً ، وكان يقاتل به الفرنج ويقول : إنما حملني على استمالته ؛ لأن بلاده حصينة وعرة المسلك ، وقلاعه منيعة ، وليس لنا إليها طريق ، وهو يخرج منها إذا أراد فينال من بلاد الشام ، فلما رأيت الحال هـٰكذا . . بذلت له شيئاً من الإقطاع علىٰ سبيل التأليف حتىٰ أَجاب إلىٰ طاعتنا وخدمتنا ، وساعدنا على الفرنج .

وكان إذا توفي واحد من أجناده وخلَّف ولداً . . أقر الإقطاع عليه ، فإن كان الولد كبيراً . . استقل بنفسه ، وإن كان صغيراً . . رتب معه رجلاً عاقلاً يثق إليه إلىٰ أن يكبر ، فكان الأجناد يقولون : هـٰذه الإقطاعات أملاكنا يرثها الولد عن الوالد ، فنحن نقاتل عليها ، فكان ذلك سبباً عظيماً للصبر في المشاهد والحروب .

وكان يُثبِت أسماء أجناد كل أمير في ديوانه ، وسلاحَهم وما لهم من الإقطاع عنده ؛ خوفاً من حرص بعض الأمراء وشُحه ؛ لئلا يقتصر علىٰ بعض العُدد ، ولئلا ينقص من إقطاعهم شيئاً .

وأما فعله في بلاد الإسلام من المصالح مما يعود نفعه على المسلمين . . فكثير ، من ذلك : أنه بنىٰ أسوار [مدن] الشام جميعها وقلاعها ، حلب وحمص وحماة ودمشق ، وغيرها من القلاع والحصون ، وبنى المدارس بها أيضاً ، وأخرج من الأموال في ذلك شيئاً كثيراً ، وبنى الجوامع في جميع بلاده ، وجامعه في الموصل إليه النهاية في الحسن والإتقان .

ومِن أحسن ما عمل فيه : أنه فوض أمر عمارته والصرف في جميع آلاته

وآلىٰ[1] جميعَ صُنَّاعه إلى الشيخ عمر الملاء ، وكان من الصالحين ، فقيل له : إن هـٰذا لا يصلح لمثل هـٰذا العمل ، فقال : إذا وليت العمل بعض الأجناد أو الكتاب . . أعلم أنه يَظلم في بعض الأوقات ، وما أحب أن يقوم الجامع ولا غيره بشيء من الظلم ، وإذا ولَّيت هـٰذا الشيخ . . غلب علىٰ ظني أنه لا يظلم ، فإذا ظلم . . كان الإثم عليه لا عليَّ .

وبنى البيمارستانات في البلاد ، ومِن أعظمها البيمارستان الذي بدمشق ؛ فإنه كثير الخرج جداً ، وقد قيل : إنه لم يجعله على الفقراء فقط ، بل علىٰ كافة المسلمين مِن غني وفقير ، وكان سبب بنائه وما وقفه عليه . . بعض كرامات اتفقت له ، وذلك أن نور الدين وقع في أسره بعض ملوك أكابر الفرنج ، فدفع ذلك الأسير في فدائه مالاً جزيلاً ، فشاور نور الدين الأمراء ، فكلهم أشاروا بعدم إطلاقه ؛ لما كان فيه من الضرر على المسلمين وما صنع معهم من القبيح .

فلما تفرق الأمراء . . استخار اللهَ تعالىٰ نورُ الدين في أخذ الفداء أو قتله ، فمال قلبه إلىٰ إطلاقه ، فأطلقه ليلاً ، وتسلم منه ذلك المال ؛ لئلا يعلم الأمراء أنه أطلقه ، فيوم بلوغ الإفرنجي إلىٰ بلاده ومأمنه . . مات ، ووصل الخبر إلىٰ نور الدين بذلك ، فطلب الأمراء وأعلمهم بذلك ، وكان ذلك مِن صدق نيته وحسن طويته للمسلمين .

وجمع الله عز وجل لهم الفداء وموت ذلك اللعين ، فعمد نور الدين إلىٰ ذلك المال ، وبنىٰ به البيمارستان ، واشترىٰ منه ما أوقفه عليه .

ومن جملة أفعاله : أنه بنى الخانات في الطريق وقاية لأموال الناس ، وليستظلوا من الحر والبرد والمطر .

وبنىٰ أيضاً الأبراج على الطرق بين المسلمين والفرنج ، وجعل فيها مَن يحفظها ، ومعهم الطيور الهوادي ، فإذا رأوا من العدو واحداً . . أرسلوا الطيور ، فأخذ الناس حذرهم ، فاحتاطوا لأنفسهم ، فلم يبلغ العدو منهم غرضاً .

وبنى الرُّبُط[2] والخانقاهات[3] في جميع بلاده للصوفية ، ووقف عليها الوقوف الكثيرة ،

---

(١) آلى الأمير رعيته أي : ساسها ، فالمعنى المراد هنا : أن نور الدين ترك سياسة الصُنَّاع للشيخ عمر الملاء .

(٢) **الرُّبط** : جمع رِباط ، والرباط دار للمسلمين يقيمون فيها لأغراض حربية ودينية في المناطق الفاصلة ما بين الدولة الإسلامية وغيرها من الدول الأخرىٰ ، وذلك لدفع الغارات ، وأثناء الاستقرار والسلم . . كانت تتحول هـٰذه الربط إلىٰ أماكن للعبادة والدروس من قبل المجاهدين الذين كانوا في غالبيتهم من الجماعات الصوفية .

(٣) **الخانقاهات** : مفردها خانقاه ، وهي : لفظة فارسية معناها : المكان الذي يجتمع فيه جماعة الصوفية ويقومون =

وكان يُحضر مشايخهم عنده ، ويقربهم ، ويدنيهم ، ويتواضع لهم ، ويَصِلُهم بصلات كثيرة ، وإذا أقبل أحدهم إليه . . يقوم له من حين يراه ، ويجلسه معه علىٰ سجادته ، ويُقبل عليه بحديثه ، وكذلك كان يفعل مع العلماء ، ويعاملهم بالتعظيم والتوقير والاحترام ، ويجمعهم عنده للبحث والنظر ، وقصدوه من البلاد الشاسعة من خراسان وغيرها .

وبالجملة : كان أهل الدِّين عنده في أعلىٰ محل وأعظمه ، وكان أمراؤه يحسدونهم علىٰ ذلك ، وكانوا يقعون فيهم عنده ، فينهاهم أشد النهي ، وإذا نقلوا عن إنسان عيباً . . يقول : ومَن المعصوم ؟! وإنما الكامل مَن تُعَد ذنوبه .

وكان نور الدين قد استقدم قطب الدين النيسابوري الفقيه الشافعي من خراسان ، فلما قدم . . بالغ في إكرامه والإحسان إليه ، فحسده بعض الأمراء ، ونال منه يوماً عند نور الدين ، فقال له : يا هـٰذا ؛ إن صح عنه ما تقول . . فله حسنة تُغفر له بها كل زلة ذكرتها ، وهي العلم والدِّين ، وأما أنت وأصحابك . . ففيكم أضعاف ما ذكرتَ ، وليست لكم حسنة تغفر بها ، ولو عقلتَ . . لشغلك عيبك عن غيرك ، وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم ، أفلا أحتمل سيئة هـٰذا ـ إن صحت عنه ـ مع وجود حسنته ، علىٰ أني لا أصدقكم فيه في الذي تقولون عنه ، وإن عدت ذكرتَه أو غيره بسوء . . لأؤدبنك

وبنىٰ بدمشق داراً للحديث ، ووقف عليها أوقافاً كثيرة ، وهو أول من بنىٰ داراً للحديث في دمشق فيما قيل .

وبنىٰ في كثير من بلاده مكاتب للأيتام ، وأجرىٰ عليهم وعلىٰ معلميهم الجرايات .

وبنىٰ مساجد كثيرة ، ووقف عليها وعلىٰ من يقرأ بها .

وحكىٰ مَن هو عارف بأعمال الشام : أن نور الدين وقف إلىٰ وقتنا هـٰذا ـ وهي سنة ثمان وخمسين وخمس مئة[1] ـ ما يبلغ ريعه كلَّ شهر تسعة آلاف دينار صورية ، جميع ذلك مِلك صحيح شرعي ، ملكه بطريقه الشرعي ، ثم وقفه علىٰ جهات البر والخير .

وأما وقاره وهيبته : فكان ـ كما قيل ـ شديداً من غير عنف ، رفيقاً من غير ضعف ،

= بتلاوة الأذكار والأوراد ، ففيها أجنحة للعبادة ، وأخرىٰ للطعام ، وغيرها للنوم .

(١) كذا في النسخ ، وفي « الروضتين » (١/٤٨) : ثمان وست مئة ، نقلاً عن ابن الأثير في كتابه « الباهر » ، والذي في « الروضتين » هو الصواب ؛ لأن ابن الأثير ولد سنة (٥٥٥هـ) وتوفي سنة (٦٣٠ هـ) فيستحيل أن يكون روىٰ هـٰذا الخبر وهو في الثالثة من عمره ، والله أعلم .

اجتمع له ما لم يجتمع لغيره من ضبط ناموس المُلك[1] مع أمرائه وأجناده ، فإنه كان يلزمهم القيام بوظائف الخدمة ، ولم يجلس عنده أمير إلا بإذنه ، إلا أمير واحد ، وهو نجم الدين أيوب ، والد صلاح الدين يوسف ، وأما من عداه كأسد الدين شيركوه وغيره . . فإنهم كانوا يقفون قياماً إلىٰ أن يأذن لهم بالجلوس ، وكان مع ذلك إذا دخل عليه العالم أو الفقيه أو الصوفي الفقير . . يقوم له ، ويمشي بين يديه ، ويجلسه إلىٰ جانبه ، كأنه أقرب الناس إليه .

وإذا أعطىٰ أحداً منهم شيئاً . . يقول : هـٰؤلاء لهم حق في بيت المال ، فإذا قنعوا منا ببعضه . . فلهم المنة علينا ، كل ذلك تسكيناً لقلوب الأمراء وتألفاً لهم .

وكان مجلسه لا يذكر فيه إلا العلم ، وأحوال الصالحين ، والمشورة في الجهاد ، وما يتقرب به إلى الله عز وجل في يوم المعاد .

وكانت أمور الدِّين في زمانه محفوظة لا يجسر أحد أن يتظاهر ببدعة ، وكان يقول : نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق ، والأذى الحاصل منهما قريب ، أفلا نحفظ أمور الدِّين ، ونمنع أهل البدع ، ونحمل الناس على الكتاب والسُّنة إذ هُما الأصل ؟!

وفي سَنة تسع وستين وخمس مئة ـ وهي السنة التي توفي فيها نور الدين ـ أكثر من الأوقاف والصدقات وعمارة المساجد ، وأزال جميع ما فيه شبهة من الأموال ، ولم يُبْقِ سوى الجزية والخراج ، وأمر بكَتْب مناشير بذلك إلىٰ جميع بلاده ، وكتب ألف منشور ، وحُسب ما تصدق به على الفقراء في تلك الأشهر ، فزاد علىٰ ثلاثين ألف دينار .

وكانت عادته في الصدقة : أن يحضر جماعة من أماثل البلد من أهل الخير من كل محلة ، ويسألهم عمن يعرفون في جوارهم من أهل الحاجة والفقر ، ثم يدفع إليهم الصدقة ، فيصرفها أولـٰئك علىٰ ذوي الحاجات ، وكانت نفقته في خاصة نفسه في كل شهر من جزية أهل الذمة مبلغ ألفي قرطيس[2] يصرفه في الكسوة والنفقة وما يحتاج إليه ، حتىٰ أجرة الخياطة وجامكية[3] الطباخ ، ويستفضل منه ما يتصدق به في آخر الشهر .

وأما ما يهدىٰ إليه من الملوك . . فكان يضعه في بيت المال للمسلمين ، أو يودعه عند

---

(١) **ناموس الملك** : قانونه وشريعته .

(٢) **قرطيس** : مفرد قراطيس ، وهي : نقود فضية أو نحاسية ، متداولة في العصر الأيوبي ، أصلها قضبان من الفضة أو النحاس ، تقص فتصبح نقوداً .

(٣) **جامكية** : لفظ فارسي معناه : مرتب الجندي أو الخادم ، أطلق في العصر العثماني على الأعطيات والمرتبات الشهرية أو السنوية التي كان يتقاضاها الجند ، يجمع علىٰ جوامك .

القاضي ، فإذا اجتمع . . صرف ثمنه في مصالح المسلمين من عمارة المساجد والقناطر وغير ذلك .

ولو ذكرنا جميع أوقافه وصدقاته في كل بلد . . لطال الكتاب ، لكن نذكر طرفاً يسيراً .

فمن ذلك : عمارة أسوار البلاد والرُّبُط والمدارس على اختلاف المذاهب .

وكان يواظب علىٰ مجالس الوُعَّاظ ، ونصب لهم الكرسي في القلعة ، وكان الواعظ الفقيه النيسابوري قطب الدين [أكبرَهم] ، ثم قدم من بغداد ابن الشيخ أبي النجيب الأكبر ، وكان يعظ في كل أسبوع ، وكذلك قدم من أصبهان الفقيه شرف الدين عبد المؤمن ، وكان يعظ أيضاً .

وكان نور الدين يلازم مجالسهم ، ويرفع يديه مع العامة ، ويغتنم تلك الفوائد من القلوب العامرة بالتقوىٰ ، ويا لها من أساس ما أعظمه ، ومن كنز ما أفخره .

وقد حكى الحسن بن محمد ابن هبة الله : أنه حضر مع عمه الحافظ أبي القاسم مجلس نور الدين لسماع الحديث ، فمر في أثناء حديث أن النبي صلى الله عليه وسلّم خرج متقلداً سيفاً ، وكان الجند لا يربطون السيوف علىٰ أوساطهم ، فلما كان من الغد . . خرج نور الدين متقلداً سيفاً وكذلك جميع العسكر ؛ لأنه كان كثير الاتباع للسُّنة الشريفة .

وكان نور الدين قد أمر بإسقاط جميع ألقابه في الدعاء على المنابر .

وقال له وزيره خالد ابن القَيْسَراني : أنا رأيت في المنام أني أغتسل ببابك ، فلما قص عليه الرؤيا . . فكر ساعة ، ثم أمره بإسقاط جميع المكوس وقال له : هـٰذا تفسير منامك ، اكتب أني قد أمرت بإسقاط جميع المكوس .

ثم إنه لما أبطل جميع المكوس . . أرسل إلى البلاد ، وأمر الخطباء بأن يسألوا من الناس أن يحاللوه في المدة الماضية ، وقال لهم : ما أخرجناها إلا في جهاد عدو إسلام ؛ يعتذر إليهم بذلك .

وكان له وِرد من الليل ، فإذا تهجد وأراد الدعاء . . يقول : اللهم ؛ ارحم المَكَّاس العَشَّار .

وكتب ورقة إلىٰ وزيره بأن يكتب صورةَ ما يدعىٰ له به على المنابر ، وأن الخطيب لا يقول ما ليس فيه ؛ صيانة [له] عن الكذب .

فكتب الوزير الجواب ، وصورته :

أعلى الله تعالىٰ قدر المولىٰ في الدارين ، وبلغه آماله في نفسه وذريته ، وختم له بخير بمنه وجوده .

ووقف الخادم على الرقعة وتضاعف دعاؤه وابتهاله إلى الله عز وجل ، وقد رأى الخادم ما يَعرضه على العَلَم الأشرف زاده الله تعالىٰ شرفاً ، وهو أن يقول الخطيب على المنبر : اللهم ؛ أصلح عبدك الفقير إلىٰ رحمتك ، الخاضع لهيبتك ، المعتصم بقوتك ، المجاهد في سبيلك ، المرابط لأعداء دينك ، أبا القاسم محمود بن زنكي ناصر أمير المؤمنين . فإن هـٰذا جميعه لا يدخله كذب .

والرأي في ذلك أسمىٰ وأعلىٰ إن شاء الله تعالىٰ ، فلما وقف نور الدين على الورقة . . كتب علىٰ رأسها بخطه : مقصودي ألاَّ يُكْذَب على المنبر ، وإذا كنت أنا بخلاف كلّ ما يقال . . كيف أفرح بما لا أنا عليه ؟! قلة عقل عظيم .

الذي كتبتَ جيدٌ هو ، اكتب به نُسَخاً حتىٰ نرسلها إلىٰ جميع البلاد .

وكتب في آخر الرقعة : ثم يبدأ بالدعاء : اللهم ؛ أره الحق حقاً ووفقه لاتباعه ، وما أشبه ذلك .

وكان نور الدين يوماً في الميدان ، فأرسل يطلب ابن أبي عصرون في جماعة عيَّنَهم ، فلما حضروا . . أشهدهم أنه قد وقف جميع الحوانيت التي له علىٰ سور حمص ، فلما شهدوا . . التفت إليهم وقال : سألتكم بالله تعالى الذي لا إلـٰه إلا هو ؛ أي شيء عرفتموه من أبواب الخير والبر دلوني عليه وأشركونا في الثواب .

فقال شرف الدين ابن أبي عصرون : ما ترك المولىٰ شيئاً من أبواب الخيرات . . إلا وقد أتىٰ به فيما علمت .

واتفق أنه في ليلة من الليالي وجدوه مفكراً فكراً عظيماً ، فعجب الحاضرون من ذلك ، ثم سألوه عن سببه فقال : والله ؛ إني أفكر في وال وليته أمراً من أمور المسلمين فلم يعدل فيهم ، أو فيمن يظلم من الأمراء والأجناد والأعوان ؛ فإن ذلك كله أُسأَل عنه ، وأخاف المطالبة به ، فبالله عليكم ؛ عرفوني بجميع ما يصل إليكم من ذلك ، وكل قصة ترفع عرفوني بها .

قالوا : وكان الفرنج ـ خذلهم الله تعالىٰ ـ يقولون : هـٰذا نور الدين له عند الله تعالىٰ سريرة ؛ فإنه ما ينتصر علينا بكثرة الأجناد والعساكر ، إنما ينتصر علينا بالدعاء وقيام الليل ؛

فإنه يصلي بالليل ويسأل الله تعالىٰ ، فيستجيب له دعاءه وما يرده خائباً ، فينتصر علينا .

ولقد حكي : أن نور الدين غزا في بعض الغزوات وانكسر ، وكان الشيخ الصالح برهان الدين البلخي في ذلك الوقت ، فلما بلغه كسر المسلمين . . قال : أتريدون أن تنتصروا وفي عسكركم الطبول والزمور ؟! وذكر مثل ذلك وأشباهه ، فلما سمعه نور الدين . . قام مسرعاً وعاهد الله تعالىٰ على التوبة ، ونزع تلك الثياب التي كانت عليه ، وأبطل جميع المكوس ، فلما جاءت وقعة حارم . . انتصر المسلمون وانكسر الفرنج خذلهم الله تعالىٰ .

قالوا : وكان نور الدين إذا قام في الليل . . لبس مِسحاً ، ثم يصلي ويتضرع ويبكي ويقول : اللهم ؛ ارحم المَكَّاس العَشَّار ، ارحم المَكَّاس العَشَّار .

وحكىٰ قاضي القضاة بهاء الدين : أن نور الدين أرسل إلىٰ بغداد أيضاً كتاباً أعلم فيه الخليفة بما أسقطه من المكوس ، وسأل منه أن يتقدم إلىٰ جميع الوُعَّاظ بأن يسألوا له المحاللة مما كان وصل إليه من جميع الناس ، فتقدم الخليفة بجميع ذلك ، وأقام الخطباء والوُعَّاظ ينادون على المنابر بذلك ، ثم إن نور الدين أمر بكتابة منشور بإطلاق جميع المظالم في دمشق ، وحلب ، وحمص ، وحَرَّان ، وسنجار ، وسائر بلاده ، فكان مبلغ ذلك في كل سَنة من العين مئة ألف دينار وستة وخمسين ألف دينار .

وأما رَيْع ما وقفه وحبسه في سبيل الخيرات . . فيحصل منه في كل سَنة ستة وثلاثين ألف دينار ، وقُدِّرَ ثمن الوقوف[1] نحو مئتي ألف دينار .

وقد ذكرنا أن المسلمين انكسروا في بعض الغزوات ، فلما انكسروا . . استمر نور الدين واقفاً ثابتاً علىٰ تل مع جمع قليل ، فلما قرب العدو منه . . وقف بحذائهم ، واستقبل القبلة وقال : يا رب ؛ أنا عبدك الضعيف ، ملكتني هـٰذه الولاية ، وأعطيتني هـٰذه النيابة ، عمرت بلادك ، ونصحت خلقك وعبادك ، وأنت ـ يا رب ـ أعلم ، وأمرتهم بما أمرتني ، ونهيتهم عما نهيتني ، ورفعت المنكر من بينهم ، وأظهرت شعار دِينك ، كل ذلك بتوفيقك وعطائك ، فلك المنة والحجة علىٰ جميع خلقك ، وقد انهزم المسلمون ، وأنا لا أقدر علىٰ دفع هـٰذا العدو أعداء دِينك وأعداء نبيك محمد صلى الله عليه وسلّم ، ولا أملك إلا نفسي ، وقد سلمتها إليهم لإعلاء دينك ولنصرة أمة نبيك محمد صلى الله عليه وسلّم . ثم بكىٰ .

فعلم الله عز وجل منه صدق الالتجاء ، فاستجاب دعوته ، ونصره ، وألقىٰ في قلب

---

(١) الوقوف : جمع وقف .

العدو المخذول الرعب ، وأرسل إليهم الخذلان ، فوقفوا موضعهم ، وما جسروا على الإقدام عليه ، وظنوا أنه قد عمل حيلة عليهم ، وأن عسكر المسلمين في الكمين ، فرجعوا ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ .

ولما كان في مستهل صفر سنة خمس وخمسين وخمس مئة[1] . . كتب قاضي القضاة زكي الدين أبو الحسن علي قاضي دمشق ورقة يسأل فيها الإعفاء من القضاء ، فأجاب نور الدين سؤاله ، وولّىٰ قضاء دمشق لكمال الدين الشهرزوري .

وفي سنة تسع وخمسين وخمس مئة خلا الشام من الفرنج ، فاغتنم نور الدين خلوها منهم ، ثم خرج إليهم غازياً ، واجتمعوا علىٰ حارم ، وضرب معهم المُصَافَّ[2] ، فنصره الله سبحانه وتعالىٰ عليهم ، وأسر منهم خلائق ، وقتل منهم خلائق ، وكانوا نحواً من ثلاثين ألف مقاتل .

قالوا : ولما التقى الجمعان . . انفرد نور الدين علىٰ تل حارم ، ثم صلىٰ ركعتين ، وجعل يتضرع ويتمرغ في التراب ، وهو يقول : يا رب ؛ هـٰؤلاء عبيدك وهم أولياؤك ، وهـٰؤلاء عبيدك وهم أعداؤك ، فانصر أولياءَك علىٰ أعدائك ، أيش فضول محمود في الوسط ؟! يا رب ؛ إن نصرت . . نصرت دينك ، فلا تمنعهم النصر بسبب محمود ؛ فإنه غير مستحق للنصر ، اللهم ؛ انصر دِينك ولا تمنعهم النصر بسبب محمود ، مَن هو محمود الكلب حتىٰ يُنصَر ؟! فاستجاب الله عز وجل منه ونصرهم .

وفي سنة ستين وخمس مئة فتح نور الدين قلعة بانياس من الفرنج ، وكان معه في العسكر أخوه نصرة الدين ، فأصابه سهم أذهب إحدىٰ عينيه ، فلما رآه نور الدين . . قال له : يا أخي ؛ لو كشف لك عن الأجر الذي أعده الله لك عز وجل . . لتمنيت أن تذهب الأخرىٰ .

قالوا : وكان لباسه غليظاً خشناً ، ولم يخلِّف مالاً ، بل أنفدَ الجميع بين يديه ، وكان يشد علىٰ وسطه جميع ما يحتاج إليه ، وكان من أشجع الناس ، لم تنهزم له راية قط ، وكان تركياً ، أسمر اللون ، خفيف العارضين[3] .

---

(١) في النسخ : (سنة ثمان وخمسين وخمس مئة) ، ذكر أبو شامة رحمه الله هـٰذا الخبر في سنة خمس وخمسين وخمس مئة ؛ فأُثبت التاريخ من كتابه « الروضتين » .

(٢) **المصاف** : الجيش المصفوف .

(٣) هـٰذا الوصف أورده صاحب « الروضتين » (٢/ ٤٠) في زين الدين صاحب إربل ، وليس في نور الدين كما أورده المصنف .

وفي سنة أربع وستين ملك قلعة جعبر ، وفي سنة خمس وستين نزل الفرنج ـ خذلهم الله تعالىٰ ـ علىٰ دمياط ، فاهتم نور الدين لذلك أشد الاهتمام ، حتىٰ إنه قرىء عليه جزء من أجزاء الحديث المسلسل ، فطلب منه بعض السامعين أن يتبسم لتتم سلسلة الإسناد بالتبسم ، فامتنع من ذلك وقال : إني أستحي من الله عز وجل أن أتبسم والعدو المخذول محاصر للمسلمين ، كيف يكون ذلك ؟!

ثم إنه جهز إليهم العساكر شيئاً فشيئاً ، ثم تجهز نور الدين بمن بقي من الجيش إلىٰ بلاد العدو ، وانتهز الفرصة في خلو بلادهم منهم ، ونهبها وأخربها وأغار علىٰ جميع ما فيها ، وكان هـٰذا الترتيب من أعظم أسباب النصر والخلاص للمسلمين من المحاصرة ؛ فإن نور الدين جعل الجيش قسمين :

قسم منه : يقاتلون الكفار ويدفعونهم عن محاصرة المسلمين .

وقسم منهم : قد دخلوا إلىٰ بلاد العدو ، فأخذوا أموالهم ، وخربوا ديارهم ، فلما عرف الفرنج بدخول نور الدين والجيش إلىٰ بلادهم ورأوا العساكر التي قصدتهم . . رجعوا خائبين .

وكان ذلك من فضل الله سبحانه وتعالىٰ والله ذو الفضل العظيم .

قالوا : وكانت مدة المحاصرة خمسين يوماً ، فلما رجع العدو المخذول إلىٰ بلادهم . . وجدوها خاوية علىٰ عروشها .

وفي ليلة رحيل الفرنج عن دمياط رأى الإمام الذي يصلي بنور الدين في منامه النبي صلى الله عليه وسلّم ، فقال له : « أَعْلِمْ نور الدِّين أن الفرنج قد رحلوا عن دمياط في هـٰذه الليلة » ، فقال له : يا سيدي يا رسول الله ؛ ربما لا يصدقني ، فقال له : « قل له : بعلامة ما سجدتَ علىٰ تل حارم ، وقلت : يا رب ؛ انصر دِينك ولا تنصر محموداً ، مَن هو محمود الكلب حتىٰ يُنصر ؟! » قال : فلما استيقظت . . جئت المسجد ، وكانت عادة نور الدين أنه يجيء إلى المسجد بليل يصلي إلى الصباح ، قال : فتعرضت له ، فسألني عن خبري ، فأخبرته بالمنام ، وذكرت له العلامة ، إلا أنني لم أذكر لفظة الكلب ، فقال لي نور الدين : اذكر العلامة كلها ، فذكرتها ، قال : فبكىٰ ، وسُرَّ بذلك سروراً عظيماً ، ثم إني أرَّخت تلك الليلة ، فجاء الخبر برحيل الفرنج في تلك الليلة ، والله أعلم .

وفي سنة تسع وستين وخمس مئة في يوم عيد الفطر أمر نور الدين بتطهير ولده الملك

الصالح إسماعيل ، وفي يوم الإثنين ـ ثاني العيد ـ ركب في الموكب ، وكان معه همام الدين بن مودود ، فقال همام الدين لنور الدين : تُرىٰ هل نكون في الحياة إلىٰ مثل هـٰذا اليوم في العام القابل ؟ فقال نور الدين : تُرىٰ هل نعيش إلىٰ شهر ؛ فإن السنة بعيدة ؟ فجرىٰ علىٰ منطقهما ما جرىٰ به القضاء السابق ؛ فإن نور الدين لم يبق إلى الشهر ، وهمام الدين لم يبق إلى العام .

ثم إن نور الدين بعد ذلك مرض أسبوعاً ، وأشار الأطباء إليه بالفصد ، فلم يفعل ، وكان رجلاً مهيباً ، فما روجع ، واستمر مريضاً إلىٰ حادي عشر شوال من السَّنة المذكور ، ثم توفي إلىٰ رحمة الله تعالىٰ ، ودفن بقلعة دمشق .

ثم نقل بعد ذلك إلىٰ تربة جوار مدرسته التي للحنفية جوار الخواصين في الشارع الغربي .

ويقال : إن عند قبره يستجاب الدعاء .

وقال الشيخ شهاب الدين أبو شامة ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ـ :

اعلم : أني قد نظرت في سير الملوك ، فما رأيت فيهم من بعد عمر بن عبد العزيز رحمه الله مثل نور الدين الشهيد رحمه الله ، وكفىٰ بهـٰذا منقبة وفخراً ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم[1] .

---

(١) وحتىٰ نجعل ختام ترجمة هـٰذا الأمير العادل مسكاً . نذكر واحدة من كراماته التي كرمه الله بها ، وأهَّلَه ليقوم بها :

خَاتِمَة

روى الإمام العلامة علي بن أحمد السمهودي رحمه الله تعالىٰ في كتابه : ما نصُّهُ فيما نقل من عمل نور الدين الشَّهيد لخندق حَوْلَ الحجرة الشريفة مملوء بالرصاص ، وذكر السبب في ذلك ، وما ناسبه :

اعلمَ أني قَدْ وَقَفْتُ علىٰ رسالة قد صنَّفها العلامةُ جمال الدين الأسنوي في المنع من استعمال الوُلاَة للنصارىٰ ، وسماها بعضهم : « الانتصارات الإسلامية » ، ورأيت عليها بخط تلميذه شيخ مشايخنا زين الدين المراغي ما صورته : « نصيحة أولي الألباب ، في منع استخدام النصارىٰ كُتَّاب » لشيخنا العلامة جمال الدين الأسنوي ، ولم يسمه ؛ فسميته بحضرته فأقرني عليه . انتهىٰ [« وفاء الوفا » ٢/٦٤٨ـ٦٥١] .

فرأيته ذَكَرَ فيها ما لفظه : وقد دعتهم أنفُسهم ـ يعني النصارىٰ ـ في سَلْطنة الملك العادل نور الدين الشهيد إلىٰ أمر عظيم ، ظنوا أنه يتم لهم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، وذلك أن السلطان المذكور كان له تهجُّد يأتي به بالليل ، وأوراد يأتي بها ، فنام عقبَ تهجده ، فرأى النبي صلى الله عليه وسلّم في نومه وهو يشير إلىٰ رجلين أَشْقَرَيْن ويقول : « أَنْجِدْني ؛ أنْقِذْني من هـٰذين » فاستيقظ فَزِعاً ، ثم توضَّأ وصلّىٰ ونام ، فرأى المنامَ بعينه ، فاستيقظ وصلىٰ ونام ، فرآه أيضاً مرة ثالثة ، فاستيقظ وقال : لم يبق نَوْم ، وكان له وزير من الصالحين يقال له : جمال الدين الموصلي ، فأرسل خَلْفَه ليلاً ، وحكىٰ له جميعَ ما اتفق له ، فقال له : =

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

= وما قُعُودك ؟! اخْرُجِ الآنَ إلى المدينة النبوية ، واكتم ما رأيت ، فتجهَّز في بقية ليلته ، وخرج علىٰ رَوَاحلَ خفيفة في عشرين نَفَراً ، وبصحبته الوزيرُ المذكور ، ومال كثير ، فقدم المدينة في ستة عشر يوماً ، فاغتسل خارجهَا ، ودخل ، فَصَلَّىٰ بالروضة ، وزار ، ثم جلس لا يدري ماذا يصنع ، فقال الوزير وقد اجتمع أهل المدينة في المسجد : إن السلطان قَصَد زيارة النبي صلى الله عليه وسلّم ، وأحضر معه أموالاً للصّدَقة ، فاكتبوا مَنْ عندكم ، فكتبوا أهل المدينة كلهم ، وأمر السلطان بحضورهم ، وكل مَنْ حضر ليأخذ . . يتأمله ليجد فيه الصفة التي أراها النبي صلى الله عليه وسلّم له ، فلا يجد تلك الصفة ، فيعطيه ، ويأمره بالانصراف ، إِلىٰ أَن انقضتِ الناس ، فقال السلطان : هل بقي أحد لم يأخذ شيئاً من الصدقة ؟ قالوا : لا ، فقال : تفكروا وتأملوا ، فقالوا : لم يبق أحد إلا رجلين مَغْربيين لا يتناولان من أحد شيئاً ، وهما صالحان غَنِيَّان ، يكثران الصدقة على المحاويج ، فانشرح صدرهُ وقال : عليَّ بهما ، فأتي بهما ، فرآهما الرجلين اللذَيْن أشار النبي صلى الله عليه وسلّم إليهما بقوله : « أنجدني ، أنقذني من هـٰذين » ، فقال لهما : مِنْ أين أنتما ؟ فقالا : من بلاد المغرب ، جئنا حاجَّيْنِ فاخترنا المجاورة في هـٰذا العام عند رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، فقال : اصْدُقاني ، فصمَّما علىٰ ذَلك ، فقال : أين منزلهما ؟ فأَخبر بأنهما في رباط بقرب الحجرة الشريفة ، فأمسكهما وحضر إلىٰ منزلهما ، فرأىٰ فيه مالاً كثيراً ، وخَتْمَتَين ، وكتباً في الرقائق ، ولم ير فيه شيئاً غير ذلك ، فأثنىٰ عليهما أهلُ المدينة بخير كثير ، وقالوا : إنهما صائمان الدهر ، ملازمان الصلوات في الروضة الشريفة ، وزيارة النبي صلى الله عليه وسلّم ، وزيارة البقيع كل يوم بكرة ، وزيارة قباء كل سبت ، ولا يَرُدَّانِ سائلاً قط ؛ بحيث سَدَّا خَلَّة أهل المدينة في هـٰذا العام المجدب ، فقال السلطان : سبحان الله! ولم يظهر شيئاً مما رآه ، وبقي السلطان يطوف في البيت بنفسه ، فرفع حَصِيراً في البيت ، فرأىٰ سرداباً محفوراً ينتهي إلىٰ صَوْبِ الحجرة الشريفة ، فارتاعت الناس لذلك ، وقال السلطان عند ذلك : اصدُقاني حالكما ، وضَرَبَهُما ضرباً شديداً ، فاعترفا بأنهما نصرانيان ، بَعَثهُما النصارىٰ في زيِّ حجاج المغاربة ، وأَمالوهما بأموال عظيمة ، وأمروهما بالتحيل في شيء عظيم ، خَيَّلته لهم أنفسهم ، وتوهموا أن يمكنهم الله منه ، وهو الوصول إلى الجناب الشريف ، ويفعلوا به ما زَيَّنه لهم إبليسُ في النقل وما يترتب عليه ، فنزلا في أقرب رباط إلى الحجرة الشريفة ، وفَعَلاَ ما تقدم ، وصارا يَحْفِران ليلاً ، ولكل منهما محفظة جلد علىٰ زي المغاربة ، والذي يجتمع من التراب . . يجعله كل منهما في محفظته ، ويخرجان لإظهار زيارة البقيع ، فيُلقِيانه بين القبور ، وأقاما علىٰ ذلك مدة ، فلما قربا من الحجرة الشريفة . . أَرْعَدَتِ السماء وأبرقت ، وحصل رَجِيف عظيم ؛ بحيث خيل انقلاع تلك الجبال ، فقدم السلطان صبيحةَ تلك الليلة ، واتفق إمساكهما واعترافهما ، فلما اعترفا وظهر حالهما علىٰ يديه ، ورأىٰ تأهيلَ الله له لذلك دون غيره . . بكىٰ بكاء شديداً ، وأمر بضرب رقابهما ، فقتلا تحت الشباك الذي يلي الحجرة الشريفة ، وهو مما يلي البقيع ، ثم أمر بإحضار رَصَاص عظيم ، وحَفَر خندقاً عظيماً إلى الماء حول الحجرة الشريفة كلها ، وأذِيبَ ذلك الرصاص ، وملأ به الخندق ، فصار حول الحجرة الشريفة سور من رصاصٍ إلى الماء ، ثم عاد إلىٰ مُلْكه ، وأمر بإضعاف النصارىٰ ، وأمر ألاَّ يُستعمل كافرٌ في عمل من الأعمال ، وأمر مع ذلك بقطع المكوس جميعها . انتهىٰ .

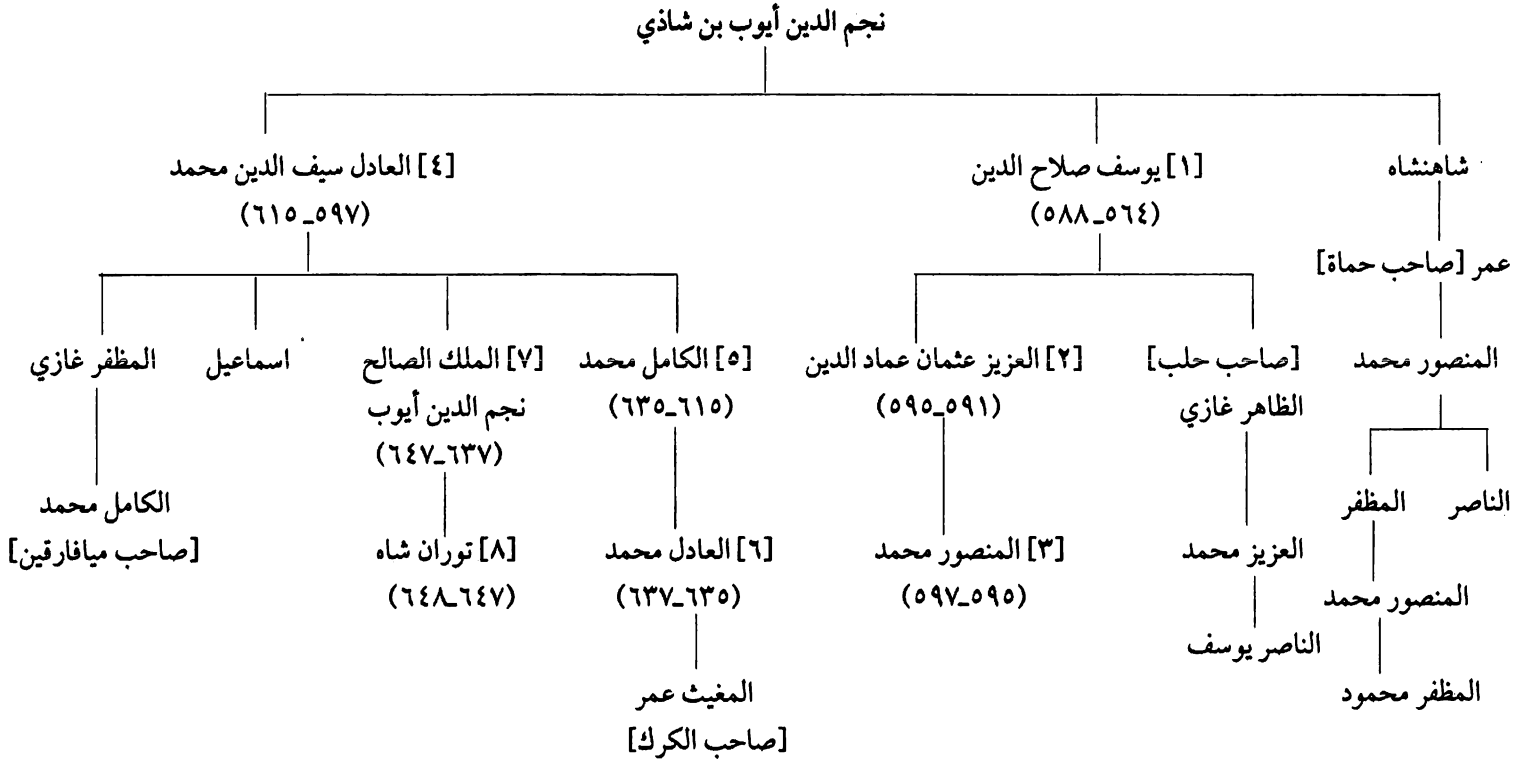

ملاحظة: هذا جدول يبين تاريخ حكم الأسرة الأيوبية، والأرقام بين معقوفين تدل على مدة استلام كل واحد للحكم. والتواريخ بين قوسين تدل على التسلسل في استلام الحكم.

وأما الدولة الصلاحية

فسلطانها السلطان الملك الناصر صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن نجم الدين أيوب بن شاذي الكردي ، من أشرف شعوب الأكراد ، وأكثرهم فتحاً للبلاد ، وأعظمهم في إدامة الجهاد ، فاتح بيت المقدس والسواحل وغيرها .

لم يزل منذ أقامه الله عز وجل وإلىٰ أن توفاه الله إلىٰ رحمته ورضوانه قائماً بأعباء الدِّين ، مجاهداً في سبيل الله رب العالمين ، قاتلاً للكفرة والمشركين ، سيفاً مسلولاً في رقاب الملحدين ، مبيداً للطغاة والمعتدين ، دائباً ليله ونهاره فيما فيه صلاح الإسلام والمسلمين ، حامياً لحوزة المسلمين ، ناصراً لكافة المؤمنين ، حاملاً لراية الموحدين ، بائعاً نفسه ومالَه لله رب العالمين ، قاصداً إعلاء كلمة الله عز وجل ، وألاَّ يُبقي علىٰ وجه الأرض أحداً من الكافرين ، حتىٰ إنه في يوم واحد ضرب رقاب تسعة وعشرين ملكاً من ملوك الفرنج الملاعين .

فهنيئاً له رحمه الله ، لقد عمل بقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ ، فما أربح هـٰذا البيع ، وما أعظم هـٰذا الشراء ، وما أسعد مَن وُفِّق لذلك .

وفي الآية الكريمة أسرار شريفة ، ولطائف نفيسة ، أودعت بعضها في كتابي « الجوهر الفريد » في السادس منه ، وهو قسم الأسماء .

والقدر الذي أذكره هـٰهنا : أن العِوَض والمعوَّض كل منهما ملك لله عز وجل ، فقد اشترىٰ سبحانه وتعالىٰ مِلكه بمِلكه ، وهـٰذا بدع في الأصول ، علىٰ أن في المكاتب يأتي مثل هـٰذه الغرابة أيضاً[1] .

ومن هـٰهنا نظر أبو محمد حبيب العجمي رحمه الله لما قرأ قوله تعالىٰ : ﴿ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ قال : واعجباه! هو أعطىٰ وهو أثنىٰ ؟!

---

(١) قال القرطبي في « تفسيره » (٨/ ٢٦٧) : (هـٰذه الآية دليل علىٰ جواز معاملة السيد مع عبده وإن كان الكل للسيد . انتهىٰ . فإذا كاتب العبدُ سيدَه . . فالسيد يملك العبد ، وما يملكه العبد للسيد ، وبالتالي العوض والمعوَّض هو للسيد ، فيشتري العبدُ نفسه من مولاه بدفع مال مولاه ، وهـٰذه صورة ما يجري بين العبد وربه) .

وهـٰكذا لما سمع بعض العارفين قوله تعالىٰ : ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ فقال : بحقٍّ أحبهم ، فَرَّع بحبهم ؛ إشارة إلىٰ أن الكل صنعه ، فهو سبحانه وتعالىٰ إنما أحب صنعه .

والمقصود : أن السلطان صلاح الدين رحمه الله لم يزل باذلاً مهجته وماله وأولاده في سبيل الله عز وجل ، لا يأخذ لنفسه راحة ولا قراراً ، ولا يدع لها لذة ولا مهنأ إلىٰ أن تقر عينه بالنظر إلىٰ وجه ربه الكريم ، ويُحِلَّ عليه رضوانه في جنات النعيم ، طالما تعرض للشهادة وسألها وبادر إليها ، ولذلك كان يدخل وحده بين صفوف المشركين .

والله سبحانه وتعالىٰ عند قصد عبده لا عند حاصله ، فإذا حصل من العبد الصدق والإخلاص ـ وهو الذي يعطيه ذلك ويوفقه له ـ أنعم عليه بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر .

فهناك :

تبقى الأمانيُّ صرعىٰ دون مبلغه ... فما يقول لشيء ليت ذلك لي

واعلم : أن سيرة السلطان صلاح الدين قدس الله روحه وما انطوت عليه من جليل مناقبه وجميل مآثره . . أَجَلُّ من أن يحيط بها وصف ، وأشرف من أن يَضُم جواهرها نظم أو رَصْف .

فلو جرى القلم إلىٰ أن يحفىٰ ، وصَرَّ لسانه إلىٰ أن يخفت ويخفىٰ . . لما استوعب معظم شمائله ودرر صفاته ، ولا نال علىٰ ظمئِه من ذلك البحر غير صبابة يسيرة .

لا جرم أن العلماء رحمهم الله أكثروا من المصنفات في مناقبه وأحواله ، ومِن أحسنها ـ فيما علمت ـ « كتاب الروضتين في أخبار الدولتين » ، وهو كتاب حافل جليل ، أذكر منه إن شاء الله عز وجل مقاصده وعيونه ، وأضم إليه من النفائس المستجادات والفوائد المهمات ما لا بد منه .

فأقول وبالله التوفيق :

إن مولد السلطان صلاح الدين قدس الله روحه سنة اثنتين وثلاثين وخمس مئة ، بقلعة تِكريت[1] ، وكان والده نائباً بها .

ثم انتقل مع أبيه وعمه أسد الدين شيركوه إلى الموصل إلىٰ عند أتابك زنكي ، ثم إلى

---

(١) **تكريت** : بفتح التاء وكسرها ، والكسر أشهر ، بلدة مشهورة بين بغداد والموصل .

الشام ، فلم يزل يتربىٰ في حجر السعادة ويرتضع من ثدي السيادة إلىٰ أن توسم فيه الملك نور الدين قدس الله روحه أنه سيصير له شأناً مذكوراً وسعياً مشكوراً ، فجعله من خواصه والمقدمين عنده ، وعول عليه حتىٰ صار خازنَ سره والمشارَ إليه ، لا يقطع أمراً دون مراجعته ، ولا يستقل برأي دون مشاورته .

ولم يزل كلما تقدم قدماً . . يظهر منه ما يوجب تقديمه إلىٰ ما هو أعلىٰ منه ، وكذلك إلىٰ أن صار منه ما صار ، ففتح البلاد ، ومصَّر الأمصار ، وملك العباد بإدامة الجهاد .

لا جرم أن الله عز وجل أحيا ذِكره في العالمين ، وجعل عمله جارياً إلىٰ يوم الدين ، وأبقىٰ له الثناء المنشور ، إلىٰ يوم العرض والنشور ، وجعل أجره باقياً ما دامت الأعوام والشهور ، فسبحان مَن خصه بفتح الأرض المقدسة ، وجعل أعماله على البر والتقوىٰ مؤسسة ؛ قال تعالىٰ : ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ .

اعلم : أن الملك العادل نور الدين الشهيد قدس الله روحه هو الأصل في ذلك الخير كله ؛ لتمهيده الأمور بعدله وجهاده وهيبته في جميع بلاده ، مع شدة الفتق ، واتساع الخرق ، وفَتَح من البلاد ما صار عوناً علىٰ مداومة الجهاد ؛ فإنه انتزع من أيدي الكفار نيفاً وخمسين مدينة ، وقد كان كما يكنىٰ ، فهان علىٰ مَن جاء بعده سلوك تلك الطريقة ، والاستضاءة بأنوار تلك الحقيقة ، بَيْدَ أن السلطان صلاح الدين قدس الله روحه أكثرُ جهاداً وفتوحاً للبلاد ، وأوسع ممالك ، وأعم نفعاً للعباد ، وأشرف فتحاً ، ادخر الله عز وجل له من الفتوح أنفسَه وأشرفه ، وهو فَتْحُ الأرض المقدسة .

فلله دَرُّهما من ملكين عادلين ، دخلا في قوله صلى الله عليه وسلّم : « سبعة يظلهم الله . . . »[1] ، بدأ فيه أولاً ؛ بالإمام العادل .

فهنيئاً لهما من ملكين حنفي وشافعي[2] ، إذا ما جاهدا الكافرين ، وفتحا بلاداً . . قرت بها أعين المؤمنين ، وأقاما العدل في العالمين ، ونشرا الولاية والإحسان في المؤمنين ، وأبقيا لهما ذِكراً جميلاً في الصالحين .

---

(١) أخرج البخاري (١٣٥٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلّم قال : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عدل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق في المساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتىٰ لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » .

(٢) أما الحنفي . . فهو الملك العادل نور الدين محمود ، وأما الشافعي . . فهو الملك الناصر صلاح الدين .

وأظن ـ والله أعلم ـ أنهما حجة علىٰ مَن بعدهما من السلاطين ، كما قال بعض العارفين رحمهم الله : أرىٰ أن أهل زمان سفيان الثوري رحمه الله سيعاتَبون ، فيقال : ألم يكن فيكم مثل سفيان ؟!

فسبحان مَن أسعدهما وأسعد بهما المؤمنين .

ومِن عجائب الاتفاق وبدائع الوفاق . . تقاربهما في السيرة والعمر والولاية ببلدة معينة .

أما تقاربهما في حسن السيرة . . فظاهر لا يخفىٰ ، وأما في العمر . . فإن كل واحد منهما لم يبلغ ستين سنة ، وأما الولاية ببلدة معينة ـ وهي دمشق ـ : فإن نور الدين ملكها سنة تسع وأربعين ، وتوفي سنة تسع وستين ، وملكها صلاح الدين سنة سبعين ، وتوفي سنة تسع وثمانين ، فبقيت في المملكة النورية عشرين سنة ، وفي المملكة الصلاحية تسع عَشْرة سنة .

فكانت زيادة مدة نور الدين كالتنبيه علىٰ زيادة فضله ، والإرشاد إلىٰ رفيع محله ، والفضلُ للمتقدم ، علىٰ أن صلاح الدين قدس الله روحه اتسع له من الممالك ما لم يبلغ لنور الدين عشرها .

فرحمهما الله ، وجزاهما عن الإسلام خيراً ، وجمع بيننا وبينهما مع سائر الأحبة في دار النعماء ، إنه سميع الدعاء ، وأنعم علىٰ من نبهنا عن غفلة ذِكر السلطان صلاح الدين حتىٰ ألحقناه في كتابنا هـٰذا بجنات النعيم .

فإن أول بركته على المؤمنين وما أجراه الله عز وجل علىٰ يديه من سعادة الإسلام والمسلمين . . فَتْحُ الديار المصرية ، وإزالة دولة الطغاة المدعين الذين ادعوا كونهم فاطميين ، وعُلِم كذبهم بإجماع المسلمين ؛ لأن أصلهم يهود ، وهم في أفعالهم شر من المنافقين الكافرين ؛ لإظهارهم الرفض ، وانطوائهم على الكفر المحض .

لا جرم أفتىٰ علماء العصر بأن قتالهم مساوٍ لقتال المشركين ، بل ربما كان أرجحَ في نظر العالِم من المجتهدين .

وملخص فتح الديار المصرية : أن في سنة أربع وستين وخمس مئة كان العاضد العبيدي الدعي هو الخليفةَ بها ، ووزيره شاور اللعين قد تغلب عليه ، وضعف أمر العاضد معه ، وقد راسل الفرنج ، وأمدهم بالأموال ؛ ليأخذوا الديار المصرية .

فجاءت الفرنج وطغت في البلاد ، حتىٰ أشرفوا علىٰ أخذ الديار المصرية ، فخاف العاضد خوفاً عظيماً ، وأرسل كتبه ومعها شعور نسائه يستصرخ بالملك نور الدين ، وقال :

هـٰذه شعور نسائي من قصري يستصرخن بك لتنقذهن من الفرنج .

فلما وصلت الكتب إلىٰ نور الدين وهو بحلب ـ كان قد سافر إليها لأخذ قلعة جعبر ـ هاله ذلك أمراً عظيماً ، وقام له وقعد ، وقال لصلاح الدين : تسير الآن إلىٰ حمص ، وتأتي بعمك أسد الدين شيركوه سريعاً ؛ فإن هـٰذا الحال لا يقر لي معه قرار ، ولا يحتمل التأخير .

فسار صلاح الدين لوقته ، وأبلغ الخبر عمه ، فسار أسد الدين من حمص إلىٰ حلب في ليلة واحدة ، فأعجب نور الدين ذلك ، وجعله المقدم على الجيوش ، وأنفق فيهم النفقات العظيمة ، وأمدهم بالخيل والأسلحة ، إلىٰ غير ذلك من الأموال التي منها مائتا ألف دينار .

فقال أسد الدين : لا بد من مسير يوسف ابن أخي معي ، فترسم له بذلك وتأمره به ، فقال نور الدين لصلاح الدين : سر مع عمك ، فقال : سمعاً وطاعة ، ولم يمكنه مخالفته ؛ لأن نور الدين مع تواضعه ولينه كان رجلاً مهيباً لا يراجع .

لـٰكن شكا إليه الضائقة وقلة الدواب ، فدفع نور الدين إليه جميع ما يحتاج إليه ، فلما لم يبق إلا المسير . . سار بهم نور الدين والعساكر بين يديه إلىٰ رأس العين .

ثم أقام هناك متوكلاً على الله عز وجل ومفوضاً أمره إليه ، منتظرَ الفرج والنصر من الله سبحانه وتعالىٰ .

وسار أسد الدين بالعساكر ، فحين أشرفوا على الدخول إلىٰ مصر . . وجدوا المبشِّرين يخبرون برحيل الفرنج عنها ورجوعهم إلىٰ بلادهم ، فأرسلوا البشارة إلىٰ نور الدين ، وأخبروه برحيل الفرنج عنها ، وأنهم ندموا علىٰ خروجهم من بلادهم لما حل بهم من الدمار والبوار ، ففرح نور الدين فرحاً عظيماً ، وجلس مجلساً عاماً للتهنئة ، وأنشده الشعراء عدة قصائد في فتحها ، وأمر بضرب البشائر في بلاده كلها وتزيينها .

وأما أسد الدين شيركوه . . فدخل الديار المصرية ومعه عساكره ، ففرح بهم المسلمون فرحاً عظيماً ، وخرج شاور الوزير مع جيشه إلىٰ لقائه .

فقال صلاح الدين لشاور : أول ما نبدأ به في هـٰذا اليوم زيارة قبر الإمام الشافعي رحمه الله ، فقال أسد الدين : لا يمكن غير هـٰذا ، فلم يجد شاور بداً من موافقتهما .

فسار أسد الدين وصلاح الدين ومعهما شاور والعساكر إلىٰ أن وصلوا إلى المكان الذي فيه قبر الإمام الشافعي رحمه الله ، فقال صلاح الدين لشاور : ندخل أنا وأنت وعمي أسد الدين لا غير ، فقال : نعم .

فلما دخلوا إلىٰ دهليز الصهريج . . أمر صلاح الدين بقبض شاور وقتله سريعاً ، وأخرج رأسه إلىٰ جيشه ، فانقلبوا خاسئين ، فلو لم يكن لصلاح الدين إلا قتل شاور اللعين . . لكفاه ذلك يوم العرض علىٰ رب العالمين .

ثم زاروا ورجعوا ، وبلغ الخبر إلى العاضد ، فأرسل في الحال خلعة الوزارة إلىٰ أسد الدين شيركوه ، فلبسها وسار حتىٰ دخل القصر ، وترتب وزيراً ، ولقب الملك المنصور أمير الجيوش ، وفوض الأحكام وجميع الأمور إلى ابن أخيه صلاح الدين ، فكان صلاح الدين هو المباشر لزمام تلك الأمور وسائر الأحكام .

فلم يلبث أسد الدين سوىٰ شهرين وخمسة أيام ومات فجأة رحمه الله . فولي الأمر بعده صلاح الدين ، ولقب الملك الناصر ، فأحسن إلى الرعية إحساناً عظيماً ، وعمهم بالعدل والإحسان ، والأيادي الحسان إلىٰ كل إنسان ، وزاد في إقطاعات المجاهدين .

فعظم شأنه عندهم وقويت أركانه ، واستقر أمره ، وزادت محبته في صدورهم ، وضعف أمر العاضد في أيامه جداً ، واضطهد غاية الاضطهاد .

وهو معىٰ هـٰذا التمكن في ملكه وعظمته في صدور رعاياه . . صفته نائب للملك نور الدين ، يخطب له على المنابر ، ورسله متواترة إليه ، لا تخالف له أمراً ، ولا تخرج عما يرسم له به .

قال الشيخ شهاب الدين ـ قدس الله روحه ـ : وقَتَل العاضد في هـٰذه السَّنة أولاد شاور الثلاثة ، وطِيفَ برؤوسهم بمصر ، وكان قتل شاور من الفتوح العظيمة ، يعد بألف ألف من الفرنج .

ثم إن الطواشي مؤتمن الخلافة ـ لعنه الله ـ كتب إلى الفرنج بأن يقدموا إلى الديار المصرية ، ويخرجوا منها الجيوش الشامية والعساكر النُّورية .

فاطلع السلطان صلاح الدين على الكتاب وكتم الأمر ، فاستشعر مؤتمن الخلافة بأن السلطان قد اطلع علىٰ ذلك ، فلازم القصر مدة طويلة خوفاً علىٰ نفسه .

ثم إنه خرج في بعض الأيام إلى الصيد ، فأرسل السلطان صلاح الدين مَن قبض عليه وقتله وحمل رأسه إليه ، ثم عزل جميع الخدام الذين كانوا في القصر ، واستناب عليه عوضهم بهاء الدين قراقوش ، وأمره بأن يطلعه علىٰ جميع الأمور كبيرها وصغيرها .

ثم إنه لما قتل مؤتمن الخلافة الحبشي وعزل بقية الخدام . . غضبوا لذلك واجتمعوا قريباً

من خمسين ألفاً[1] لقتال السلطان صلاح الدين ، فاقتتلوا بين القصرين هم وجيش السلطان ، فنصر الله عز وجل السلطان وجيشه ، وانقلب السودان خائبين ، وأمر السلطان بإحراق محلتهم المعروفة بالمنصورة التي فيها دورهم وأولادهم بباب زويلة ، وركبهم السيف ، وقتل منهم خلائق .

ثم طلبوا الأمان من السلطان ، فأجابهم إلىٰ ذلك ، وأخرجهم إلى الجيزة ، ثم خرج إليهم شمس الدولة تورانشاه أخو السلطان ، فقتل أكثرهم أيضاً ، ولم يبق منهم إلا القليل ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ﴾ .

وفيها : كانت وفاة الأمير أسد الدين شيركوه ـ كما تقدم ـ في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة منها ، وهو واقف الخانقاه الأسدية داخل باب الجابية ، والمدرسة الأسدية بالشرف القبلي ، وفيها مذهبان شافعي وحنفي .

وكان أسد الدين هو وأخوه نجم الدين أيوب قد خدما عند الأمير مجاهد الدين [وهو] شحنة العراق ، فاستناب نجم الدين علىٰ قلعة تكريت ، واتفق أن الملك عماد الدين زنكي دخلها هارباً من قراجا الساقي[2] ، فأحسنا إليه وخدماه ، فعرف لهما ذلك .

فلما انتقلا من تكريت . . قصدا عماد الدين زنكي ، فأحسن إليهما ، وحظيا عنده وعند ولده نور الدين ، فاستناب عماد الدين زنكي نجم الدين أيوب علىٰ بعلبك ، وأقره عليها ولده نور الدين .

وصار أسد الدين شيركوه أكبرَ أمرائه وأخصَّهم عنده ، وكان قد أقطعه الرحبة وحمص ، مع ما لَهُ عنده من الإقطاعات ، وذلك لشهامته وشجاعته وصرامته ، وجهاده في أعداء الله عز وجل الفرنج وغيرهم .

وأعجَبُ من ذلك : ما فعله يوم فتح دمشق بين يدي الملك نور الدين ، ثم ما فعله بالديار المصرية من فتحها ، فرحمه الله ، وبَلَّ بِوَابل الرحمة ثراه ، وأكرم نزله ومثواه .

* * *

---

(١) وسبب كثرتهم في مصر : أن أم المستنصر الفاطمي كانت سوداء ؛ فاستكثرت من أبناء جنسها من العبيد حتىٰ أصبح لهم قوة .

(٢) وذلك إثر وقعة مشهورة خلاصتها ـ كما قال ابن خلكان في « وفيات الأعيان » (٧/ ١٤٢) ـ : إن مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي وعماد الدين زنكي صاحب الموصل قصدا حصار بغداد في أيام الإمام المسترشد ، فأرسل إلىٰ قراجا الساقي ـ واسمه برس ـ صاحب بلاد فارس وخوزستان يستنجد به ، فأتاه وكبس عسكرهما وانهزما بين يديه وانكسرا . انتهىٰ .

سنة خمس وستين [وخمس مئة]

في صفر منها حاصرت الفرنج دمياط خمسين يوماً ، بحيث إنهم ضيقوا علىٰ أهلها ، وكانوا في أمم لا يحصون كثرة من البر والبحر ، رجاء أن يملكوا مصر ، وخوفاً من استيلاء المسلمين على القدس .

فكتب الملك صلاح الدين إلى الملك نور الدين يستنجده عليهم ، وأن يمده بالجيوش ، واعتذر بأنه [إن] خرج من مصر . . خَلَفَهُ أهلها بشَرٍّ ، وإن غفل عن الفرنج . . أخذوا دمياط وجعلوها معقلاً لهم يتقوَّوْن به علىٰ أخذ مصر .

فأرسل إليه بجيوش كثيرة تترىٰ يتلو بعضها بعضاً ، واغتنم غفلة الفرنج عن بلادهم ، فسار إليهم في جيشه ، فجاس خلال ديارهم ، وغنم أموالهم ، وقتل من رجالهم ، وسبىٰ من نسائهم وأطفالهم شيئاً كثيراً ، فجزاه الله عن الإسلام خيراً .

ثم سار في جمادى الآخرة إلى الكرك ، فحاصرها ، وكانت مِن أمنع البلاد .

فلما كاد أن يفتحها . . بلغه أن مقَدَّمَينِ من الفرنج قصدا دمشق ، فخاف أن يلتف إليهما الفرنج ، فترك حصار الكرك وأقبل إلىٰ دمشق ، فحصَّنها .

وبلغ الفرنج أن نور الدين قد حاصر بلادهم ، فولوا علىٰ أدبارهم منقلبين خائبين ، ورحلوا عن دمياط ، ﴿ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ .

وكان في جملة من أرسل نور الدين : نجم الدين أيوب والد صلاح الدين ؛ لأنه كان قد أرسل في طلبه ، فجعله نور الدين أمير تلك الجيوش ، ومعه بقية أولاده ، فتلقاه الجيش من مصر ، وخرج العاضد لتلقيه إكراماً لولده صلاح الدين ، وأقطعه إسكندرية ودمياط .

وقد أمد العاضد للملك صلاح الدين في هـٰذه الواقعة بألف ألف دينار .

ولما توجه نجم الدين إلى ابنه صلاح الدين إلىٰ مصر . . أوصاه الملك نور الدين بأن يأمر ابنه صلاح الدين بأن تكون الخطبة للخليفة المستنجد العباسي ، وذلك أن الخليفة بعث من بغداد يعاتبه في ذلك ، فقال : سمعاً وطاعة ، يكون ذلك إن شاء الله عز وجل .

* * *

سنة ست وستين [وخمس مئة]

فيها : سار الملك نور الدين إلى الرقة ، فأخذها ، وكذلك نصيبين والخابور وسنجار ، وسلمها إلىٰ زوج ابنته ابن أخيه عماد الدين زنكي بن مودود .

ثم سار إلى الموصل وأقام بها أربعة وعشرين يوماً ، وأقرها على ابن أخيه سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود مع الجزيرة ، وزوجه ابنته الأخرىٰ ، وأمر بعمارة جامعها وتوسعته ، ووقف علىٰ تأسيسه بنفسه ، وجعل له خطيباً ومدرساً ، وولي التدريس أبو بكر النوقاني تلميذ محمد بن يحيى الغزالي ، ووقف عليه قرية من قرى الموصل .

وكان ذلك كله بإشارة الشيخ الصالح الزاهد العابد عمر المَلاَّء ، وكان نور الدين يستشيره في أموره وما يعتمده من المهمات ، وهو الذي أشار عليه في مدة مقامه بالموصل بجميع ما فعله من الخيرات ، التي منها إبطال المكوس ، إلىٰ غير ذلك من المظالم إلىٰ أن تمهد أمر الموصل واستقر أمره على السداد .

هـٰذا كله ولم يدخل إلىٰ داخل البلد ، وإنما قام علىٰ ظاهره أربعة وعشرين يوماً كما مر ، فلما كانت آخر ليلة من إقامته بها . . رأىٰ رسولَ الله صلى الله عليه وسلّم في المنام وهو يقول له : « طابت لك بلدك وتركت الجهاد وقتال أعداء الله عز وجل ؟! » .

فنهض من ساعته ، وما أصبح إلا وهو سائر إلى الشام ، واستقضىٰ للشيخ شرف الدين ابن أبي عصرون ، وكان معه علىٰ سنجار ونصيبين ، فاستناب ابن أبي عصرون فيها نواباً ، وسار مع نور الدين .

وفي تلك السَّنة : عزل السلطانُ صلاح الدين قضَاةَ مصر كلهم ؛ لكونهم شيعة ، وولَّىٰ قضاء الشافعية بها لصدر الدين عبد الملك بن درباس ، واستناب في سائر الأعمال شافعية .

ثم بنىٰ مدرسة للشافعية وأخرىٰ للمالكية ، واشترى ابن أخيه تقي الدين عُمر داراً ، وكانت تعرف بمنازل العز ، وجعلها مدرسة للشافعية ، وأوقف عليها الروضة وغيرها .

وعَمَّر صلاح الدين أسوار البلد وأسوار إسكندرية ، وأحسن إلى الرعايا إحساناً كثيراً .

ثم ركب فأغار علىٰ بلاد الفرنج بنواحي عسقلان وغزة ، وهدم قلعة لهم بأيلة ، وقتل خلقاً كثيراً منهم ، وتلقىٰ أهله وهم قادمون من الشام ، واجتمع شمله بهم بعد فرقة طويلة .

وفيها : قطع صلاح الدين الأذان بحيَّ علىٰ خير العمل من ديار مصر كلها وسائر أعمالها ، وشرع في تمهيد الخطبة لبني العباس .

وفيها : كانت وفاة المستنجد وخلافة ابنه المستضيء ببغداد .

* * *

سنة سبع وستين [وخمس مئة]

في أول جمعة منها : أمر الملك صلاح الدين بإقامة الخطبة لبني العباس بمصر ، وفي الجمعة الثانية بالقاهرة ، وكان ذلك يوماً مشهوداً .

ولما وصل الخبر إلى الملك نور الدين بدمشق . . أرسل إلى الخليفة يعلمه بذلك مع ابن أبي عصرون ، وهو شهاب الدين أبو المعالي ، وزينت بغداد بزينة عظيمة ، وغلقت الأسواق ، وفرح المسلمون فرحاً عظيماً .

وكانت الخطبة لبني العباس قد قطعت من ديار مصر من سنة تسع وخمسين وثلاث مئة في خلافة المطيع العباسي حين تغلب الفاطميون عليها أيام المعز الفاطمي باني القاهرة إلىٰ هـٰذا الأوان ، وذلك مئتا سنة وثمان سنين .

وفي أولها : مات العاضد آخر خلائف العبيديين المدعيين .

والعاضد لغةً : القاطع « لا يعضد شجرها » وفيه قطعت دولتهم ، ولله الحمد والمنة ، وهـٰذا من كرامات الملك صلاح الدين قدس الله روحه ، وكم له من كرامات ظاهرة ، وآيات متناصرة ، ورايات متظافرة .

وأول ملوك العُبَيْديين عبيد الله اليهودي ، ودخل المغرب ، وتسمىٰ بعُبَيْد الله[1] ، وادعىٰ أنه شريف فاطمي[2] ، وسمىٰ نفسه المهدي ، وهو من أهل سلمية ، كان صنَّاعاً ، وراج له ما افتراه من الكذب بتلك البلاد إلىٰ أن تمكن ، فبنىٰ مدينة سماها المهدية ، وصار ملكاً مطاعاً ، يُظهِر الرفض ، وينطوي على الكفر المحض ، وهـٰكذا أولاده وأولاد أولاده ، حتىٰ

---

(١) أي : بعد أن كان اسمه سعيداً .

(٢) يقول أبو شامة ـ رحمه الله ـ تتمةً لهـٰذا الكلام في « الروضتين » (٢/ ٢١٤) : (وكان والد عبيد هـٰذا من نسل القدَّاح الملحد المجوسي ، وادَّعىٰ نسباً ليس بصحيح ، لم يذكره أحد من مصنفي الأنساب العلويَّة ، بل ذكر جماعة من العلماء بالنَّسب خلافه . وقال في (٢/ ٢٢٣) : وقد صنف الشريف العابد الدمشقي رحمه الله كتاباً في إبطال نسبهم إلىٰ علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وفصَّل ذلك تفصيلاً حسناً) .

كان آخرهم العاضد ، فجملتهم أربعة عشر دعياً ، ومدتهم مئتان وثمان وستون سنة ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وقد صنف الأئمة رحمهم الله في بيان كفرهم وما كانوا عليه من البدع والمنكرات تصانيف ، فمِن أجَلِّ ما صنف في ذلك : كتاب القاضي أبي بكر الباقلاني قدس الله روحه ، سماه : « كشف الأسرار وهتك الأستار » .

وقال الشيخ شهاب الدين أبو شامة ـ قدس الله روحه ـ : قد أفردت كتاباً سميته : « كشف ما كان عليه بنو عبيد من الكفر والكذب والمكر والكيد » .

وفي دولتهم تغلب الفرنج علىٰ سواحل الشام بكماله ، فأخذوا القدس الشريف ، ونابلس ، وعجلون ، والغور ، وبلاد غزة ، وعسقلان ، وكرك الشوبك ، وطبرية ، وبانياس ، وصيدا ، وبيروت ، وعكا ، وصفد ، وطرابلس ، وأنطاكية ، وجميع ما والىٰ ذلك إلىٰ بلاد إياس وسيس ، واستحوذوا علىٰ بلاد آمد والرُّها وبلاد شتىٰ .

وقتلوا خلقاً كثيراً من المسلمين ، لا يعلم عددهم إلا الله تعالىٰ ، وسبَوا من ذراريهم ونسائهم وولدانهم ما لا يدخل تحت الحصر ، وكادوا مرة يتغلبون علىٰ دمشق ، ولٰكن الله صانها بعنايته ، وسلمها برعايته .

وحين زالت أيامهم وانتقض إبرامهم . . أعاد الله عز وجل هٰذه البلاد علىٰ أهلها السادة المسلمين ، ورد الله سبحانه وتعالى الكفرة خائبين ، وأركسهم بما كسبوا في هٰذه الدنيا ويوم الدين .

والمقصود : أن ابن أبي عصرون لما ورد بغداد بهٰذه البشارة الجليلة ـ وهي إقامة الخطبة لبني العباس ـ خرج الموكب لتلقيه وغالب أهل بغداد ، وقرأ عليهم المنشور العظيم ، ونثرت عليه دنانير الذهب ، وأكرم غاية الإكرام ، وأرسل الخليفة التشريفات الجليلة إلى الملك نور الدين والملك صلاح الدين مع عماد الدين صندل ، وهو من أكابر الخدم ، وأولي الحزم والهمم ، فألبسه الخلعة للملك نور الدين ، وقلده بسيفين ، فخرج نور الدين وهو راكب من داخل القلعة ، واللواء منشور بين يديه ، فقيل : ما معنىٰ تقليده بسيفين ؟ فقال : هما الشام ومصر ، والجمع له بين البلدين .

وكان من جملة التشريف : [أن] الطوق مع أُكْرَته[1] وزنه ألف دينار ، وأرسلوا إلى

---

(١) **أُكْرته** : الكرة التي توجد به .

الملك صلاح الدين تشريفاً آخَر ، لـٰكنه دون تشريف الملك نور الدين ، ووصل أيضاً مع رسل الخليفة أعلام وبنود ورايات سود ، وأُهَبٌ عباسية للخطباء في الديار المصرية ، فأُرسلت إلى الملك صلاح الدين ، ففرقها على الجوامع والمساجد والخطباء والقضاة والعلماء .

ولما فرغ صلاح الدين من إقامة الخطبة لبني العباس . . استحوذ على القصور ، وأخذ جميع ما فيها من الأموال والفرش والأسلحة والذخائر ، وغير ذلك من أشياء بديعة يعز وجود مثلها في خزائن الملوك .

فمِن ذلك : ثلاث قطع بَلَخْش[1] ، أكبرها نيف وثلاثون مثقالاً ، والثانية ثمانية عشر مثقالاً ، والثالثة دونها ، ومن الطيب والعطر ما لا يجتمع مثله في الأعصار .

ومنها : قصب[2] زمرد طوله شبر وكَسْر ، قطعة واحدة ، وحجمه مقدار الإبهام .

ومنها : طبل للقُوْلَنج[3] .

ومنها : إبريق من الحجر المانع .

ومنها : سبع مئة درة يتيمة من الجوهر .

ومنها : خزانة كتب كانت من عجائب الدنيا ، تحتوي علىٰ ألفي ألف وست مئة ألف مصنف ، منها ألف ومئتان وعشرون نسخة « تاريخ ابن جرير الطبري » .

ولما استولىٰ صلاح الدين علىٰ جميع ما في القصور . . أرسل إلى الملك نور الدين يخبره بذلك ، ويستأمره في ما يصنع فيه ؛ لأنه كان ـ مع عظمة سلطانه وقوة تمكنه بمصر ـ لا يخرج عن أمر نور الدين ، ويعمل بجميع ما يأمره به عمل القوي الأمين ، ويرجع في مصالحه إلىٰ رأيه المتين ؛ لأنهما لم يزالا قائمين بالعدل والإحسان ، فرحمهما الله ، وجزاهما عن الإسلام خيراً .

وفي هـٰذه السنة [٥٦٧] : أسقط السلطان صلاح الدين عن أهل الديار المصرية جميع

---

(١) **بَلَخْش** : نوع من الجواهر ، يضاهي الياقوت في الجوهر والرونق .

(٢) **قصب** : يأتي بمعنىٰ أنبوب من جوهر ، وهو هنا من زمرد .

(٣) **القُولَنْج** : مرض معوي مؤلم ، وسببه التهاب القولون ، وأما **طبل القولنج** : فكان من خاصته أن الإنسان إذا ضربه خرج الريح من مخرجه ، ولهـٰذه الخاصية كان ينفع من القُولَنْج . انظر « وفيات الأعيان » (٣/ ٢٣٧) .

المكوس ، وكتب بذلك منشوراً ، وقرىء علىٰ رؤوس الناس يوم الجمعة بعد الصلاة ثالث صفر .

ومِن جملة ما في المنشور : فإنا نحمد الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ ما مكن لنا في الأرض ، ووفقنا لأداء كل نافلة وفرض ، ونصبنا لإزالة النَّصْب والظلم عن عباده ، واختارنا لنجاهد في الله حق جهاده ، وزهدنا في متاع الدنيا ؛ إذ هو الفاني القليل ، وألهمنا من محاسبة أنفسنا على النقير والقطمير والفتيل ، وأولانا من شجاعة السماحة .

فيوماً نَهَب ما اشتملت عليه الدواوين ، ويوماً نقطع ما سقاه النيل ، فالبشائر في أيامنا تترىٰ ، شفعاً ووتراً ، والمَسار كنظام الجوهر تتبع الواحدةَ منها الأخرىٰ .

ولما تقلدْنا أمور الرعية . . وجب علينا إسقاط المكوس الديوانية ، وأن نجعلها كأمس الذاهب ، ونضعها فلا ترفعها بعد ذلك يد كاتب ، ولا قلم حاسب ، وخرج أمرنا بكتابة هـٰذا المنشور ؛ ليوم العرض والنشور .

وفيه : أن مَن ناقضها . . نقض إبرامه ، ومَن أزالها . . زلزلت أقدامه ، ومَن أحلها . . حل دمه ، ومَن تعقبها . . حلت اللعنة عليه وعلىٰ عقبه ، ومَن زعم أنه إذا أخذها فقدِ احتاط بها لدنياه . . فقد أحاط به الجحيم الذي هو من حطمته .

وفي هـٰذه السَّنة [٥٦٧] : وقعت نفرة يسيرة بين الملك نور الدين وصلاح الدين رحمهما الله .

وذلك أن الملك نور الدين كان قد غزا في هـٰذه السَّنة بلاد الفرنج التي في السواحل ، وأحل بهم بأساً شديداً ، واستقر في أنفسهم منه نقمة ووعيداً .

ثم عزم علىٰ محاصرة الكرك ، فكتب إلىٰ صلاح الدين بأن يلتقيه بالعساكر المصرية ، إلى الكرك ؛ ليجتمعا هناك علىٰ مصلحة الإسلام والمسلمين ، فتوهم صلاح الدين من ذلك ، ومع ذلك فقد ركب في جيشه من الديار المصرية امتثالاً لأمره وسار أياماً ، ثم كر راجعاً معتذراً بقلة الظهر والخوف على الديار المصرية[1] .

فلما وصل كتابه بذلك إلىٰ نور الدين . . لم يقبل له عذراً ، وشق عليه ، وعظم لديه ،

---

(١) وذكر ابن خلكان في « وفيات الأعيان » (٧/ ١٦٣) سبب اعتذار صلاح الدين عن خروجه إلىٰ مصر فقال : (فأرسل كتابه يعتذر فيه عن الوصول باحتلال البلاد المصرية ؛ لأمور بلغته عن بعض شيعة العلويين ، وأنهم عازمون على الوثوب بها ، وأنه يخاف عليها مع البعد عنها ، فعاد إليها) .

وعزم على الدخول إلىٰ مصر لإخراج صلاح الدين عنها .

فبلغ الخبر إلىٰ صلاح الدين ، فجمع أهله وفيهم والده نجم الدين وخاله شهاب الدين الحارمي ، ومعهم سائر الأمراء وأعلمهم بالحال ، واستشارهم فيما يصنع ، فلم يجبه أحد منهم بشيء ، فقام ابن أخيه تقي الدين عمر وقال : إذا جاءنا . . قاتلناه وصددناه عن البلاد ، فشتمه الأمير نجم الدين وأسكته ، وأنكر ذلك عليه واستعظمه ، وكان ذا رأي ودين ومعرفة تامة وعقل وافر .

وقال لصلاح الدين : أنا أبوك ، وهـٰذا شهاب الدين خالك ، أتظن أن في هـٰؤلاء كلهم مَن يحبك ويريد لك الخير مثلنا ؟ فقال : لا ، فقال : والله ؛ لو رأيت أنا وهـٰذا خالك نورَ الدين . . لما أمكننا إلا أن نرحل إليه ونقبل الأرض بين يديه ، ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف . . لفعلنا ، فإذا كنا نحن هـٰكذا . . فكيف يكون غيرنا ؟ وكل من تراه من الأمراء والعساكر لو رأىٰ نور الدين وحده . . لما تجاسر على الثبات علىٰ سرجه ، ولا وسعه إلا النزول وتقبيل الأرض بين يديه .

وهـٰذه البلاد له وقد أقامك فيها ، فإن أراد عزلك . . فأي حاجة له إلى المجيء ؟! يأمرك بكتاب مع نجَّاب[1] ؛ حتىٰ تقصد خدمته ويولي بلاده من يريد .

وقال للأمراء الحاضرين وغيرهم : قوموا عنا ، فنحن مماليك نور الدين ، يفعل بنا ما يريد ، فتفرقوا علىٰ ذلك .

وكتب أكثر الأمراء بصورة المجلس إلىٰ نور الدين ، فلما خلا نجم الدين بابنه . . قال له : أنت ما لَكَ عقل ؟! تجمع هـٰذا الجمع وتطلعهم علىٰ ما في نفسك ؟! فإذا سمع نور الدين أنك عازم علىٰ منعه من البلاد . . جعلك أهم الأمور إليه وأولاها بالقصد ، ولو قصدك . . لم تر معك من هـٰذا العسكر أحداً ، وكانوا يسلمونك إليه ، وأما الآن بعد هـٰذا المجلس ؛ فإن الأمراء يكتبون إليه ويعرفونه قولي ، وتكتب أنت إليه أيضاً في هـٰذا المعنىٰ ، وتقول له : أي حاجة إلىٰ قصدي ؟ يجيء نَجَّاب يأخذني بحبل يضعه في عنقي حتىٰ أحضر بين يديك ، فإنه إذا سمع هـٰذا . . عدل عن قصدك ، واشتغل بما هو أهم عنده ، والأيام تندرج .

فكتب صلاح الدين كل ما أشار به والده ، فلما بلغ نور الدين ذلك . . طاب قلبه

---

(١) **نجَّاب** : راكب إحدى النجب ، وهي المليحة من الإبل .

وانصرفت همته عنه ، واستقل بجهاد الكافرين ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ .

وفيها : اتخذ الملك نور الدين الحَمَام الهوادي ، وذلك لامتداد مملكته واتساعها ؛ فإنها من حد النوبة إلىٰ همذان لا يتخللها إلا بلاد الفرنج لعنهم الله ، وكلها تحت قهره وهدنته .

فلذلك اتخذ في كل قلعة وحصن الحَمام التي تحمل الرسائل إلى الآفاق في أسرع مدة وأيسر عدة ، وما أحسن ما قال فيهن القاضي الفاضل[1] : الحمام ملائكة الملوك .

فكانت الأخبار تأتيه لوقتها ؛ لأنه رتب في كل ثغر رجالاً لذلك ، فإذا سمعوا أمراً . . كتبوه لوقته وعلَّقوه على الطائر ، فيصل في ساعته ، فينقل الرقعة منه إلى الطائر الآخر ، وهـٰكذا إلىٰ أن يصل إلىٰ نور الدين .

فحُفظت البلاد بذلك ، حتىٰ إن طائفة من الفرنج قصدوا ثغراً له ، فلما أشرفوا عليه . . بلغه الخبر في يومه ، فكتب إلى العساكر المجاورة لذلك الثغر بالاجتماع والمسير إليهم بسرعة ، وكبس العدو ، ففعلوا ذلك ، فظفروا بهم ، والفرنج كانوا قد أمنوا لبعد نور الدين عنهم ، فرحمه الله ، ما كان أحسن نظره للرعايا والبلاد!

* * *

وفي سنة ثمان وستين [وخمس مئة]

فيها : حاصر الملك صلاح الدين الكرك والشوبك ، فضيق علىٰ أهلها ، وخرَّب أماكن كثيرة ، ولـٰكن لم يظفر بها عامَه ذلك .

وفيها : اجتمعت الفرنج بالشام لأخذ زرع ، فوصلوا إلىٰ شمسكين[2] ، فبرز إليهم الملك نور الدين ، فهربوا منه إلى العراد ، فبعث خلفهم سرية ، فقتلوا خلقاً كثيراً منهم ، وغنموا ، ورجع باقي الفرنج خائبين ، ولله الحمد والمنة .

وفيها : أرسل الملك صلاح الدين أخاه شمس الدولة تورانشاه إلىٰ بلاد النوبة فافتتحها ، واستحوذ علىٰ معقلها ، وهو حصن يقال له : أبريم ، ثم استخلف على الحصن المذكور رجلاً من الأكراد ، وانضاف إليه جماعة من الأكراد البطالين ، فكثرت أموالهم ، وحسنت

---

(١) عبد الرحيم بن علي بن السعيد اللخمي ، كان سريع الخاطر ، كثير الرسائل ، قيل : لو جمعت رسائله وتعليقاته لم تقصر عن مئة مجلد ، توفي رحمه الله تعالىٰ سنة (٥٩٦هـ ـ ١٢٠٠م) .

(٢) **زرع وشمسكين** : قريتان في حوران ، لعل الأولىٰ تسمى اليوم : إزرع ، والثانية : الشيخ مسكين ، والله أعلم .

أحوالهم ، وحصلوا على المغانم والمسرات ، فلله الحمد والمنة .

وفيها : كانت وفاة الأمير نجم الدين والد الملك صلاح الدين ، سقط عن فرسه فمات بعد ثمانية أيام ، في السابع والعشرين من ذي الحجة منها .

وكان صلاح الدين قد حاصر الكرك والشوبك ، فلما بلغه الخبر . . تألم كثيراً ، وعز عليه ، وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، وتأسف أيضاً لعدم حضوره عنده ، ثم قال : هبني حضرت ، فماذا كنت أصنع ؟!

وكان نجم الدين رحمه الله كثير الصلاة والصيام والصدقة ، كريم النفس ، جواداً ، مُمَدَّحاً ، شجاعاً ، باسلاً ، غزير الفضائل والخيرات ، عظيماً في أنفس الناس ، قد قنع من الدنيا باليسير ، يحب خشونة العيش في ملبسه ومأكله ، كثير الإفضال على الإخوان ، موصوفاً بكثرة الخير والدين وحسن السياسة ، لا يمر به أحد من أهل العلم . . إلا وصله وأحسن إليه ، ولا يسمع بأحد من أهل الزهد والعلم في بلد من البلاد . . إلا وأرسل إليه السلام مع الصِّلات .

وله خانقاه بمصر ، ومسجد وقناة خارج باب النصر في القاهرة ، وله بدمشق أيضاً خانقاه تعرف بالنجمية ، ولقد استنابه ابنه صلاح الدين على الديار المصرية حين خرج إلى الكرك وحكمه في الخزائن ، وكان مِن أكرم الناس ، وقد امتدحه الشعراء كالعماد الكاتب وغيره ، وأكثروا فيه من المراثي .

ولما مات . . دفن عند أخيه أسد الدين بدار الإمارة ، ثم نقلا إلى المدينة المشرفة في سنة ثمانين ، فدفنا بتربة الوزير جمال الدين الموصلي ، الذي كان مؤاخياً لأسد الدين .

فهنيئاً لهم ، فما أسعد حالهم موتاً وحياة! وما أحسن ما قيل في ذلك :

إذا كـان قبـري فـي البقيـع بطيبـة ... فلا شك أني في حمىٰ صاحب القبر

وفيها : سار الملك نور الدين إلىٰ بلاد عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج بن أرسلان بن سليمان السلجوقي ملك الروم ، وتفقد في طريقه بلاده ، وأصلح ما وجد فيها من الخلل ، وسار فافتتح مرعش وبَهَسْنىٰ ، وعمل في كل منهما بالحسنىٰ .

وفيها أيضاً : وصل الإمام الفقيه الكبير قطب الدين النيسابوري[1] ، كان فقيه عصره ،

---

(١) **قطب الدين النيسابوري** (٥٠٥ـ ٥٧٨هـ) : مسعود بن محمد بن مسعود النيسابوري ، أبو المعالي ، قطب=

ونسيج وحده ، فسُرَّ به الملك نور الدين سروراً كثيراً ، وأنزله بحلب بمدرسة باب العراق ، ثم أطلعه إلىٰ دمشق ، فدرَّس بزاوية الجامع الغربية المعروفة بالشيخ نصر المقدسي ، وشرع نور الدين في إنشاء مدرسة كبيرة للشافعية ، فأدركه الأجل قبل ذلك .

قال أبو شامة ـ قدس الله روحه ـ : وهي العادلية الكبرى التي عمرها بعده الملك العادل أبو بكر بن أيوب ، رحمهم الله تعالىٰ .

وفيها : هزم ملك الأرمن عساكر الروم ، وغنم منهم أموالاً جزيلة ، بعث أكثرها إلى الملك نور الدين وثلاثين رأساً من رؤوسهم ، فأرسلها نور الدين إلى الخليفة المستضيء بأمر الله العباسي ببغداد .

وفيها : بعث الملك صلاح الدين سرية قراقوش مملوك تقي الدين عمر إلىٰ بلاد إفريقية ، فملكوا بلاداً كثيرة ، منها : مدينة طرابلس الغرب وعدة مدن معها .

***

سنة تسع وستين [وخمس مئة]

فيها : سار الملك نور الدين إلىٰ بلاد الروم وفي خدمته الجيش ، وملك الأرمن ، وصاحب ملطية ، وخلق من الملوك والأمراء ، وافتتح حصوناً كثيرة من بلادهم ، ولله الحمد والمنة .

وحاصر قلعة الروم ، فصالحه صاحبها بخمسين ألف دينار جزية ، ثم عاد إلىٰ حلب مؤيداً منصوراً .

وفيها : كان فتح بلاد اليمن علىٰ يد الملك صلاح الدين ؛ لأنه بلغه أن ملكها سيِّىء السيرة والسريرة ، وأنه واجب الإزالة ، فعزم صلاح الدين علىٰ إرسال جيش إليه ، فقال أخوه الكبير تورانشاه : أنا أتوجه إليه ، فجعله مقدماً على الجيش ، وسار إليه في رجب ، فورد مكة شرفها الله تعالىٰ ، فاعتمر بها ، ثم سار منها إلىٰ زبيد .

فخرج إليه ملك اليمن ، وهو الذي يقال له : عبد النبي ، فقاتله ، فانكسر جيشه وولوا

= الدين ، فقيه شافعي ، تعلم بنيسابور ومرو ، ودخل دمشق سنة (٥٤٠ هـ) ، ثم استقر بها ، واتصل بالسلطان صلاح الدين الأيوبي ، وصنف له « عقيدة » كان السلطان يُقْرِئها أولاده الصغار ، وألف كتباً ، منها : « الهادي » في الفقه ، مختصر لم يأت فيه إلا بالقول الذي عليه الفتوىٰ ، وتوفي بدمشق . انظر « الأعلام » (٧/ ٢٢٠) .

مدبرين ، وأسر ملكهم عبد النبي وزوجته ، وأُخذت منهم أموال جزيلة وذخائر جليلة .

ثم سار إلىٰ عدن ، فقاتله ملكها ، فهزمه أيضاً وأسره ، وأخذ البلد ، ومنع الجيش من نهبها ، وقال : ما جئنا لنخرب البلاد ، وإنما جئنا لعمارتها .

ثم سار في الناس سيرة جميلة عاملهم بالعدل والإحسان والأيادي الحسان إلىٰ كل إنسان ، فأحبوه محبة عظيمة ، وتسلم بقية الحصون والمعاقل والمخاليف[1] .

واستوىٰ[2] له ملك اليمن ، وخطب فيها للخليفة المستضيء العباسي ، وقتل الدعي المسمىٰ بعبد النبي .

وكتب تورانشاه إلىٰ أخيه الملك صلاح الدين يخبره بما فتح الله عز وجل علىٰ يديه ، فكتب الملك صلاح الدين إلى الملك نور الدين يبشره بفتح اليمن ، فأرسل الملك نور الدين إلى الخليفة ببغداد يخبره بذلك وبإقامة الخطبة له فيها ، ففرح الخليفة والمسلمون بذلك فرحاً عظيماً .

وفيها[3] : كانت وفاة نور الدين رحمه الله تعالىٰ .

* * *

سنة سبعين [وخمس مئة]

في أولها : عزم السلطان صلاح الدين على الدخول إلى الشام ؛ ليحفظه من الفرنج ، ولـٰكن دهمه ما هو أهم من ذلك ، وهو أن الفرنج قدموا إلىٰ ساحل البلاد المصرية بجيوش كثيرة ، ومعهم من آلات الحصار والرجال والمقاتلة شيء كثير ، من ذلك مئتا شيني[4] ، في كل منها مئة وخمسون مقاتلاً وأربع مئة قطعة أخرىٰ .

وكان قدومهم من صقلية إلىٰ ظاهر إسكندرية قبل رأس السَّنة بأربعة أيام ، فنصبوا

---

(١) **المخاليف** : واحدها مخلاف ، وهي عند أهل اليمن : ما اجتمع من القرىٰ والمحال الكثيرة الأشجار .

(٢) أي : استقر .

(٣) أي : في السنة المذكورة .

(٤) **شيني** : طراز من السفن المستخدمة للأغراض الحربية عرفها اليونان والرومان واستعملها العرب في العصر الإسلامي ، تسير بالشراع ، يصل عدد مجاديفها إلىٰ ١٠٠ ، وهي مزودة بأبراج خاصة ، وتحمل علىٰ متنها حوالي ١٥٠ من المقاتلين المزودين بأسلحتهم .

المنجنيقات والدبابات حول البلد ، وبرز أهلها إليهم ، فقاتلوهم قتالاً شديداً ، واستمر القتال أياماً ، وقتل من الفريقين خلائق .

ثم اتفق أهل البلد علىٰ إحراق المنجنيقات والدبابات ، فأحرقت ، فأضعف ذلك قلوب الفرنج وخذلهم ، ثم كبسهم المسلمون في منازلهم ، فقتلوا خلقاً كثيراً ، وغنموا أموالهم ، وانهزم الكفار من كل وجه ، ولم يبق لهم ملجأ إلا البحر أو القتل أو الأسر ، وغنم المسلمون أموالهم وخيلهم وأثقالهم وما لهم من الخيام ، ورجع مَن بقي من الفرنج إلىٰ بلادهم خائبين .

ثم بعد ذلك ظهر رجل يعرف بالكنز ، وكان من مقدَّمي الديار المصرية من العبيديين الدعيين ، واستخف قوماً من الرعاع ، وجمع عليه خلقاً من الأسواق ، وقال : إنه يعيد الدولة الفاطمية ، ويدحض الجيوش الصلاحية ، فاجتمع عليه جمع كثير .

وقصد قوص[1] وأعمالها ، وقتل طائفة من أمرائها ورجالها ، فجرد إليه الملك صلاح الدين طائفة من الجيش ، وجعل المقدم عليهم أخاه الملك العادل أبا بكر ، فلما التقيا . . هزمه أبو بكر ، وبدد شمله ، وشرد أهله ، ثم قتله .

وهـٰذا كما جرىٰ لمقدم بني حنيفة[2] في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، لا جرم أن الله عز وجل جعل دولة بني أيوب عالية منيعة .

ثم إنه لما تمهدت البلاد المصرية ولم يبق بها رأس من جهة الدولة العُبَيْدية . . سار السلطان صلاح الدين متوجهاً إلى الشام قاصداً إصلاحها ، وخوفاً من استيلاء الفرنج عليها ، وقصد ـ رحمه الله ـ جمع الكلمة ، والإحسان إلىٰ أهلها ، ونصرة الإسلام ، ودفع الطغام[3] ، وخفض الصلبان ، ورضا الرحمـٰن جل جلاله .

فسار من مصر إلى البِركة[4] في أول صفر ، وأقام هناك حتى اجتمع العسكر ، واستناب علىٰ مصر أخاه العادل .

---

(١) **قُوْص** : مدينة عظيمة واسعة في صعيد مصر ، بينها وبين الفسطاط اثنا عشر يوماً ، وأهلها أرباب ثروة واسعة ، وهي محط التجار القادمين من عدن .

(٢) أي : مسيلمة الكذَّاب .

(٣) **الطَّغَامُ** : أوغاد الناس .

(٤) **البركة** : متَنزَّه بظاهر القاهرة من الجهة البحرية ، ويسمىٰ بِركة الجُبّ ، أو بركة الحُجَّاج .

ثم سار إلىٰ بِلْبيس ، ثم إلىٰ بصرىٰ ، فسار في خدمته صاحبها صدِّيق بن جاولي ، فدخل دمشق يوم الإثنين سلخ ربيع الأول ، مَن غير أن يقع منع أو خلف ، ولله الحمد والمنة علىٰ ذلك ، وذلك لأن صاحبها شمس الدين بن مقدم كان يكاتب الملك صلاح الدين ، ويحضه على القدوم ، ويعرفه بما في قدومه من مصلحة الإسلام والمسلمين .

فلما قدم . . سلمه البلد ، فنزل السلطان صلاح الدين أولاً في دار والده ، وهي دار العقيقي ، وهي التي تنسب : مدرسة الملك الظاهر .

وكان نائب القلعة الطواشي جمالَ الدين ريحان ، فجاء إلىٰ خدمة السلطان ، وقبَّل الأرض بين يديه ، فأكرمه واحترمه وأحسن إليه ، وقال : أنا أحق بتربية ولد الملك نور الدين ؛ لِمَا له عليَّ من الإحسان .

وأقام في دمشق العدل والإحسان ، وأزال كل ظلم وعدوان ، وأبطل المكوس التي أحدثت بعد نور الدين .

ولما استقر أمر دمشق له . . استناب عليها أخاه طغتكين ، الملقب سيف الإسلام ، ثم سار منها إلىٰ حلب ، فأخذ حمص ، ثم حماة ، ثم حلب ، ثم كر راجعاً إلىٰ دمشق .

فلما كان بحماة . . جاءت رسل الخليفة المستضيء من بغداد ومعهم الخلع والتشريفات والأعلام السود ، وتوقيع من الديوان بالسلطنة ببلاد مصر والشام ، وأفيضت الخلع علىٰ أهله وأقاربه وأصهاره وأصحابه وأعوانه وأنصاره .

وكان يوماً مشهوداً ، واستناب علىٰ حماة ابن خاله وصهره الأمير شهاب الدين محمود .

ثم سار إلىٰ حمص ، فأطلقها لابن عمه ناصر الدين كما كانت من قبل لأبيه الأمير أسد الدين شيركوه ، ثم إلىٰ بعلبك ، ثم البقاع ، ثم رجع إلىٰ دمشق في ذي القعدة مؤيداً منصوراً .

* * *

سنة إحدىٰ وسبعين [وخمس مئة]

فيها : أقام السلطان بدمشق في مرج الصُّفَّر ، وطلب الفرنج منه المهادنة ، فأجابهم إلىٰ ذلك ؛ لأن الشام كان مجدباً ، فاحتاج إلىٰ ذلك ، وأرسل جيشه إلىٰ مصر مع القاضي الفاضل إلىٰ أن يستغلوا[1] ، ثم يقدموا .

---

(١) يَسْتَغِلُّوا : يأتوا بالغلال .

وكانت إقامته بالشام غاية الحزم والتدبير والمصلحة للمسلمين لوجوه :

منها : حفظ ما استجد له من الممالك .

ومنها : إرهاب الأعداء من الفرنج وغيرهم عن قصد تلك البلاد .

وفي ذي الحجة عاد شمس الدولة تورانشاه أخو السلطان صلاح الدين من اليمن ؛ لكثرة شوقه إلىٰ أخيه وذويه ، ففرح به أخوه والمسلمون فرحاً عظيماً ، واستنابه علىٰ دمشق وأعمالها .

وفيها : بعث تقي الدين عمر ابن أخي السلطان مملوكَه بهاء الدين قراقوش في جيش عظيم إلى المغرب ، ففتح بلاداً كثيرة هنالك ، وغنم أموالاً جزيلة ، ثم عاد إلىٰ مصر ، وطابت له ، وترك البلاد .

* * *

سنة اثنتين وسبعين [وخمس مئة]

فيها : ولّى السلطان صلاح الدين حلب وأعمالها لولد نور الدين الملك الصالح ، فأرسل الملك الصالح أختاً له صغيرة إلى السلطان ، وهي الخاتون بنت نور الدين تطلب منه زيادةً قلعة عزاز ، فحين رآها السلطان . . قام إليها وأكرمها ، وأطلق لها من الجواهر النفيسة والتحف شيئاً كثيراً ، وأجاب سؤالها ، ثم رحل عن حلب إلىٰ دمشق ، فدخلها سابع عشر صفر .

وفيه [أي : في صفر] وقف الضيعة المعروفة بحزم[1] على الزاوية الغزالية[2] .

وفيه [أي : في صفر] أيضاً : تزوج بالست خاتون عصمة الدين بنت معين الدين ، وكانت زوجة نور الدين ، وولي تزويجها منه أخوها الأمير سعد الدين مسعود ، وحضر القاضي ابن أبي عصرون العقد ، ثم سار إلى الديار المصرية ، فوصل سادس عشر ربيع الأول ، وتلقاه أخوه الملك العادل إلىٰ بحر القلزم ، ومعه من التحف والهدايا شيء كثير ، فأقام إلىٰ شعبان .

ثم سار إلى الإسكندرية ، فأسمع ولديه الأفضل علي والعزيز عثمان على الحافظ

---

(١) **حزم** : قرية في حوران .

(٢) **الزاوية الغزالية** : وهي الزاوية الغربية من المسجد الأموي ، سميت بالغزالية لنزول الإمام الغزالي فيها .

السِّلَفي ، وتردد معهما إليه ثلاثة أيام متوالية في أول رمضان ، وأكمل عمارة سورها ، وأمر بتجديد مراكب وسفن ، وشحنها بالرجال والمقاتلة ، وأمرهم بأن يغزوا جزائر البحر ، وأقطعهم إقطاعات كثيرة ، وأرصد لمصالح المسلمين ما يكفيهم .

ثم عاد إلى القاهرة في أثناء رمضان ، فأكمل صومه بها .

وفيها : أمر ببناء قبة الشافعي رحمه الله ، وبنىٰ مدرسة عظيمة للشافعية عنده ، وفوض البناء والتدريس إلى الشيخ الإمام العلامة الزاهد نجم الدين الخُبُوشاني رحمه الله ، وقد ذكرت ترجمتَه وشيئاً من مناقبه الجليلة ومآثره الجميلة في كتابي « المطالب العلية في طبقات الشافعية »[1] .

وفيها أيضاً : أمر ببناء المارستان بالقاهرة ، ووقف عليه أوقافاً كثيرة جليلة ، رحمه الله .

* * *

سنة ثلاث وسبعين [وخمس مئة]

فيها : أمر السلطان صلاح الدين قدس الله روحه ببناء قلعة الجبل ، وإحاطة سور على القاهرة ومصر .

وفي جمادىٰ منها : سار من مصر قاصداً غزو الفرنج ، فانتهىٰ إلى الرملة ، فسبىٰ وسلب ، وغنم وغلب ، وأسر وقسر ، وكسب وكسر .

ثم إن جيشه تشاغلوا بالغنائم ، وتفرقوا في القرىٰ والمحال ، وبقي السلطان في طائفة من الجيش منفرداً ، فهجمت عليهم الفرنج في عدد كبير من المقاتلة ، فما سلم السلطان إلا بعد جهد جهيد ، وتراجع الجيش بعد تفرقهم ، واجتمعوا على السلطان ، وخاف أهل مصر على السلطان خوفاً عظيماً ، وما صدقوا برؤيته حتىٰ رأوه سالماً ، ففرحوا بسلامته فرحاً عظيماً ، وضربت البشائر في البلاد فرحاً بسلامته ؛ فإنه حصن المسلمين ، ولقد صبر وثبت ثباتاً عظيماً راجياً للشهادة في سبيل الله عز وجل .

وأُسر ولد الملك المظفر تقي الدين عمر ابن أخي السلطان ، فبقي عندهم سبع سنين

---

(١) **الخُبُوشاني** (٥١٠ـ٥٨٧ هـ) : محمد بن الموفق بن سعيد بن علي ، أبو البركات نجم الدين ، فقيه شافعي ، والخبوشاني نسبةً إلىٰ خبوشان في نيسابور ، حظي عند السلطان صلاح الدين ، وصنف « تحقيق المحيط » ـ وهو ستة عشر مجلداً ـ في الفقه ، شرح فيه كتاب « الوسيط » للإمام الغزالي ، وقال السخاوي : رد علىٰ أهل البدع واستتابهم ، وأظهر معتقد الأشعرية بالديار المصرية ، توفي بالقاهرة . انظر « الأعلام » (٧/ ١٢٠) .

مأسوراً ، وقتل ولده الآخر وكان شاباً قد طرَّ شاربه ، فحزن على المقتول والمفقود ، وصبر واحتسب ، وقال : ما ثَم إلا الرضا والتسليم لأمر العزيز العليم ، إنا لله وإنا إليه راجعون .

وأُسِر الفقيهان الأخوان : ضياء الدين وظهير الدين الهكاريان ، فافتداهما السلطان بعد سنين بتسعين ألف دينار .

وفيها : قصدت الفرنج حارم ، فسمع بهم السلطان ، فسار إليهم من مصر ، فدخل دمشق في آخر شوال ، فلما سمع الفرنج بقدوم السلطان . . وَلَّوا مدبرين خائبين ، فلله الحمد والمنة عدد عفوه عن خلقه ، وعدد ما أحصىٰ علمه ، لا إلٰه إلا هو العزيز الحكيم .

* * *

سنة أربع وسبعين [وخمس مئة]

فيها : ورد كتاب القاضي الفاضل من مصر إلى السلطان وهو بدمشق يهنئه بسلامة أولاده الملوك الاثني عشر ، يقول في بعضه : وهم ـ بحمد الله ومنِّهِ ـ بهجة الدنيا وزينتها ، ولذة الحياة الدنيا وزهرتها .

وفيها أيضاً : أسقط المكوس عن الحُجاج بمكة ، وقد كان يؤخذ منه شيء كثير ، لا سيما حجاج المغرب ، حتىٰ كانوا يأخذون على الرؤوس ، فمَن عجز عن أداء ما عليه . . حبس أيام الحج ، فيفوته الحج .

وأمر أن يعوَّض أمير مكة بغلال تحمل إليه في كل سنة ، وهي ثمانية آلاف إردَب[1] ؛ لتكون عوناً له ولأتباعه ، وأنها تباع في مكة ؛ ليحصل بها الرفق للمجاورين ، وقرر أيضاً للمجاورين غلات تُحمل إليهم ، وصِلات تَصِل إليهم ، فرحمه الله ورضي عنه ، وجزاه عن الإسلام خيراً .

وفي رمضان وصلت خلع الخليفة إلى السلطان من بغداد وهو بدمشق ، وزيد في ألقابه مُعِزُّ أمير المؤمنين ، وخلع علىٰ أخيه تورانشاه ، ولقب بمصطفىٰ أمير المؤمنين .

وفيها : جهز السلطان ابن أخيه فَرُّخشاه بين يديه لقتال الفرنج ، وأمره أن يدانيهم حتىٰ يتوسطوا البلاد ، ولا يقاتلهم حتىٰ يقدم عليه .

---

(١) **الإردَبُّ** : مكيال ضخم لأهل مصر ، يسع أربعة وعشرين صاعاً .

فلما التقوا . . عاجلوه بالقتال ، فنصره الله عز وجل وكسرهم ، وقتل من ملوكهم صاحب الناصرة وغيرهم ، وكان من أكابر ملوكهم .

ثم سار السلطان في أثر ابن أخيه ، فما وصل إلى الكسوة . . إلا وقد تلقته الرؤوس على الرماح والغنائم والأسارىٰ .

وفي هـٰذه السَّنة : شرعت الفرنج في بناء قلعة جعلوها مرصاداً لحرب المسلمين وقطع الطريق عليهم ، ونقضت أيضاً ملوكهم العهود التي كانت بينهم وبين السلطان ، وأغاروا علىٰ نواحي البلاد من كل جانب حتىٰ يشتغل السلطان عنهم ، وتتفرق جيوش المسلمين .

فجعل السلطان ابن أخيه تقي الدين عمر بحماة ومعه شمس الدين ابن المقدم وسيف الدين علي بن أحمد المَشْطُوب ، وبحمص ابن عمه ناصر الدين بن أسد الدين .

وبعث إلىٰ أخيه الملك العادل أبي بكر نائب مصر يأمره بأن يرسل إليه ألفاً وخمس مئة فارس يستعين بهم على الفرنج .

وكتب إلى الفرنج يأمرهم بأن يخربوا الحصن الذي بنوه ، فلم يجيبوا إلىٰ ذلك ، إلا أن يبذل لهم ما غرموه ، فبذل لهم ستين ألف دينار ، فأبوا ، فوصلهم إلىٰ مئة ألف دينار ، فلم يقبلوا .

فقال ابن أخيه تقي الدين عمر : ابذل هـٰذا المال علىٰ أجناد المسلمين ، وسِرْ بهم إلىٰ هـٰذا الحصن فخرِّبْهُ ، ففعل ذلك ، فكان كما قال ، كما سيأتي بيانه في السَّنة الآتية إن شاء الله عز وجل .

* * *

سنة خمس وسبعين [وخمس مئة]

استهلت هـٰذه السَّنة والسلطان وجيشه في بانياس ، فقصده الفرنج ، فنهض إليهم ، فما هو إلا أن تواجه الفريقان واصطدم الجيشان ، فنصر الله عز وجل أولياءه المؤمنين ، وهزم أعداءه الكافرين ، ففرت ألوية الصلبان ذاهبة ، وخيل الله عز وجل لرقابهم راكبة ، فقتل منهم خلقاً كثيراً ، وجماً غفيراً ، وأسر من ملوكهم جماعات ، وأنابوا إلى السمع والطاعة ، منهم : صاحب الرملة ، وصاحب طبرية ، وقسطلان ، وآخرون من ملوكهم ، وخلائق من أبطالهم والمقدمين عندهم ، ومن فرسان القدس جمع كثير نحو ثلاث مئة أسير من أكابر النصارىٰ .

فاستعرضهم السلطان في الليل حتىٰ أنار الفجر ، وصلىٰ يومئذ الصبح بوضوء العشاء الآخرة ، وكان السلطان في تلك الليلة جالساً في نحو العشرين ، وهم في هـٰذه العِدة الكثيرة ، ولـٰكن الله سلَّم إنه عزيز حكيم .

ثم أرسل بهم إلىٰ دمشق ؛ ليحبسوا في قلعتها ، فافتدىٰ صاحب الرملة نفسه بعد سنة بمئة ألف وخمسين ألف دينار صوري ، وإطلاق ألف أسير من بلاده ، فأجيب إلىٰ ذلك كله ، وكذلك افتدىٰ جماعة منهم أنفسَهم بالأموال الجزيلة ، ومنهم مَن مات في السجن .

وكان قد رتب السلطان على الفرنج جيشاً آخر مقيماً في البحر ، فجاءت مراكب فيها إفرنج ، فقصدهم المسلمون وكسروهم ، وغنموا منهم ألف رأس من السبْي وعادوا إلى الساحل .

وقد امتدح الشعراء السلطان في هـٰذه الغزاة بمدائح كثيرة ، وطولع بذلك إلىٰ بغداد ، فضربت بها البشائر ، وفرح المسلمون فرحاً عظيماً .

وكان الملك المظفر تقي الدين عمر غائباً عن هـٰذه الغزاة مشتغلاً بما هو أعظم منها ، وهو أن ملك الروم قليج[1] أرسلان أرسل يطلب حصن رعبان ، وزعم أن نور الدين اغتصبه منه ، وأن ولده قد أغضىٰ له عنه ، فلم يجبه السلطان إلىٰ ذلك .

فبعث ملك الروم عشرين ألف مقاتل من أجل ذلك ، فأرسل السلطان ابن أخيه تقي الدين عمر في ثمان مئة فارس ، منهم سيف الدين علي بن أحمد المشطوب .

فلما التقى الجيشان . . نصر الله المسلمين وكسر جيش الكافرين ، واستقرت يد السلطان علىٰ حصن رَعْبان .

وكان تقي الدين يرىٰ أن هـٰذه كرامة أكرم الله عز وجل بها أولياءه المؤمنين ؛ فإنهم كانوا ثمان مئة ، فهزموا عشرين ألفاً ، وقيل : ثلاثين ألفاً ، ولما ولوا مدبرين . . كثر فيهم القتل ، وأخذوا جميع ما تركوه في خيامهم ، ولله الحمد والمِنة .

أما تخريب حصن بيت الأحزان وهو قريب من صفد . . فإن السلطان سار بجيشه إلىٰ هـٰذا الحصن ، وكان عرض حائطه يزيد علىٰ عشرة أذرع ، وكل حجر من أحجاره يكون سبعة أذرع ، وعدتها تزيد علىٰ عشرين ألف حجر ، بحيث إن الحجر لا يستقر في مكانه إلا بأربعة

---

(١) في النسخ : (قرا أرسلان) والمثبت من « الروضتين » .

دنانير فصاعداً ، وقصده وحاصره ، ونقبه من جميع جهاته ، وألقىٰ فيه النيران ، فجعله دكاً ، وغنم المسلمون جميع ما فيه من الحواصل ، فكان فيه مئة ألف قطعة من السلاح ، إلىٰ غير ذلك ، وأخذ منه سبع مئة رجل ، فقتل بعضاً وأسر بعضاً ، وأرسلهم إلىٰ دمشق ، ثم عاد إلىٰ دمشق مؤيداً منصوراً ، ولله الحمد والمِنة .

ومات من أمرائه في هـٰذا الحصار عشرة بسبب ما أصابهم من الحر والوباء مدة الحصار ، وهي أربعة عشر يوماً .

وفي هـٰذه السنة : أقطع السلطان لابن أخيه عز الدين فَرُّخشاه بعلبك ، وأغار علىٰ صفد وأعمالها ، فقتل طائفة كثيرة .

وفيها : توفي المستضيء بأمر الله ، وولي ابنه الناصر لدين الله أبو العباس أحمد رحمه الله .

* * *

سنة ست وسبعين [وخمس مئة]

فيها : هادن السلطان الفرنج ، وسار إلىٰ بلاد الروم ، وأصلح بين ملوكها ، وكرَّ علىٰ بلاد الأرمن ، وفتح كثيراً من حصونهم ، وأخذ غنائم كثيرة جداً ، ثم صالحه علىٰ مال يحمله إليه ، وأسارىٰ يطلقهم من أسره ، ثم عاد السلطان مؤيداً منصوراً ، فدخل حماة آخر جمادى الآخرة .

وفيها : توفي الملك المعظم شمس الدولة تورانشاه أكبر إخوة السلطان ، فبلغه الخبر وهو بظاهر حمص ، فحزن حزناً شديداً ، وجعل ينشد باب المراثي من الحماسة ، وكان يحفظها ، فمنها :

أَلِمَّا علىٰ معن وقولا لقبره ... سقتك الغوادي مربعاً ثم مربعا
فيا قبر معن أنت أول حفرة ... من الأرض خطَّتْ للسماحة مضجعا
ويا قبر معن كيف واريت جوده ... وقد كان منه البر والبحر مترعاً
بلىٰ قد وَسِعْتَ الجودَ والجود ميت ... ولو كان حياً ضقت حتىٰ تصدعا
فتىً عِيشَ في معروفه بعد موته ... كما كان بعد السيل مجراه مرتعا
ولما مضىٰ معن مضى الجود وانقضىٰ ... وأصبح عِرنِينُ المكارم أجدعا

وفي رجب قدمت رسل الخليفة الناصر بالخِلَع والهدايا إلى السلطان ، فلبس الخلعة بدمشق وزُينت البلد ، وكان يوماً مشهوداً ، ثم سار من دمشق إلىٰ مصر لينظر في أحوالها ومصالح المسلمين ويصوم هناك ، وعَزْمُه الحجُّ ، واستناب على الشام ابن أخيه عز الدين فرُّخشاه ، فيوم دخوله إلىٰ مصر . . كان يوماً مشهوداً ، ولم يتفق له الحج ؛ لاشتغاله بالجهاد .

* * *

سنة سبع وسبعين [وخمس مئة]

استهلت والسلطان مقيم بالقاهرة ، مواظب علىٰ سماع الأحاديث النبوية ، علىٰ قائلها أفضل الصلاة والسلام .

وفي شوالٍ توجه إلى الاسكندرية ؛ لينظر ما أَمَر به من تحصين سورها ، وعمارة أبراجها وقصورها ، وليسمع « موطأ مالك » رحمه الله على الشيخ أبي طاهر بن عوف عن الطُّرْطُوشي[1] ، وأرسل القاضي الفاضلُ يهنىء السلطان بهـٰذا السماع .

وفي هـٰذه السنة : عزم البرنس صاحب الكرك ـ لعنه الله ـ علىٰ قصد أرض الحجاز ؛ ليتوصل منها إلى المدينة المشرفة ، فجهز له السلطان جيشاً من دمشق ؛ ليكون حاجزاً له عن أن يصل إلىٰ أرض الحجاز ، ففعل الجيش ذلك ، وصده الله عز وجل عن ذلك بحوله وقوته سبحانه وتعالىٰ .

وفيها : ولى السلطان أخاه سيف الإسلام طغتكين نيابة اليمن بعد وفاة أخيه المعظم تورانشاه الذي كان افتتحها أولاً ، كما مر بيانه .

وفيها : غدرت الفرنج ونقضوا عهودهم ، وقطعوا السبيل على المسلمين براً وبحراً ، سراً وجهراً ، ففرَّج الله عز وجل عن المسلمين ، وأغرق خلقاً كثيراً من الفرنج نحو ثلاثة آلاف ، وذلك كله قبل خروج السلطان من مصر .

---

(١) في النسخ : (الطرسوسي) ، والمثبت من « الروضتين » ولعله الصواب ؛ وذلك أن أبا الطاهر هـٰذا هو السِّلفي ، وهو الذي روىٰ عن الطرطوشي شيخ المالكية ، فهو : محمد بن الوليد الأندلسي ، فقيه ، زاهد ، متواضع ، نسبته إلىٰ طُرْطُوشة ، وهي آخر حد المسلمين من شمالي الأندلس . انظر « سير أعلام النبلاء » (١٩/ ٤٩٠ـ٤٩٣) .

ثم إن السلطان جهز إليهم سرية ، فكسروهم وأسروا منهم ألفاً وسبع مئة أسير ، فلله الحمد والمنة .

وفيها : سار قراقوش ـ أحد مماليك تقي الدين عمر ـ إلىٰ بلاد إفريقية ، ففتح بلاداً كثيرة ، وقوي أمره وتمكنه في تلك البلاد ، وصار ذا كلمة مطاعة ، ثم عاد إلىٰ مصر ، فأمَره السلطان بإتمام السور المحيط بالقاهرة ومصر .

وولد للسلطان ولدان ، وهما : المعظم تورانشاه ، والملك المحسن أحمد ، وكان بين ولادتهما سبعة أيام ، فزينت البلاد ، واستمر الفرح أربعة عشر يوماً .

* * *

سنة ثمان وسبعين [وخمس مئة]

في خامس المحرم منها : توجه السلطان من مصر إلى الشام لجهاد أعداء الله الكافرين ، والإحسان إلىٰ أولياء الله المؤمنين ، وكان ذلك آخر عهده بمصر ، وذلك بعد أن أراه الله عز وجل بلوغ مناه قبل حلول الوفاة ، فأقر عينه من أعدائه ، وفتح علىٰ يديه بيت المقدس وما حوله وما حواه .

ولمَّا عزم على السفر . . أحضر أولاده حوله ، وجعل يشمهم ويقبلهم ويضمهم ، فأنشده أحد مؤدبي أولاده :

تَمتَّــع مــن شَميــم عِــرارِ نجــدٍ فمــا بعــد العَشيَّــة مــن عِــرارِ

فكان كما قال ، لم يعد إليها بعد ذلك .

ولمَّا توجه . . أغار في طريقه علىٰ أطراف بلاد الفرنج بأرض الكرك ، وجعل المقدم على الميمنة أخاه تاج الملوك ، وأمره بأن يسير ناحية عنه ؛ ليتمكن من بلاد العدو .

فالتقوا على الأزرق[1] بعد سبعة أيام ، وقد أغار نائب دمشق أخو السلطان عز الدين فرُّخشاه علىٰ بلاد طبرية وما حولها ، وافتتح حصوناً كثيرة ، وأسر منهم ألفاً ، وغنم عشرين ألف رأس من الأنعام ، فلله الحمد والمِنة .

ودخل السلطان دمشق سابع عشر صفر ، ثم سار في أول ربيع الأول ، فقاتل الفرنج في

---

(١) **الأزرق** : موضع في طريق حجاج الشام .

نواحي طبرية وبيسان تحت حصن كوكب ، فقُتل من الفريقين خلائق ، لـٰكن كان النصر للمسلمين والحمد لله رب العالمين ، ورجع السلطان مؤيداً منصوراً .

ولما عجز البرنس صاحب الكرك ـ لعنه الله ـ عن إيصال الأذىٰ إلى المسلمين في البر . . عمل مراكب في بحر القلزم ؛ ليقطعوا الطريق على الحُجاج والتجار ، فوصل أذاهم إلىٰ عَيْذَاب ، وخاف أهل المدينة المشرفة مِن أذاهم .

فوصل الخبر إلىٰ نائب مصر ، وهو العادل أبو بكر ، فتقدم إلى الأمير حسام الدين لؤلؤ صاحب الأسطول بأن يعمل مراكب في بحر القلزم لمحاربة أصحاب البرنس ، ففعل ذلك ، فظفروا بهم من كل موطن ، وقتَلوا منهم خلقاً كثيراً ، وحرَّقوا وغرَّقوا ، وسبوا وأسروا ، وقهروا في مواطن كثيرة ومواقف هائلة ، وحصل الأمن ـ والحمد لله ـ في البر والبحر بإذن الله عز وجل ونصرِه وتأييده .

وأرسل السلطان إلىٰ أخيه يشكر مساعيه ، وأرسل إلى الخليفة أيضاً يخبره بما فتح الله عز وجل علىٰ يديه من الفتوحات براً وبحراً ، وبما أسبغ عليه من نعمه سراً وجهراً .

* * *

سنة تسع وسبعين [وخمس مئة]

في رابع المحرم منها : تسلم السلطان مدينة آمد بعد حصار طويل ، فوجد فيه شيئاً كثيراً من الحواصل[1] وآلات الحرب والسلاح ، حتىٰ إنه وجد برجاً مملوءاً من نصول النُّشَّاب ، وبرجاً آخر فيه مئة ألف شمعة ، وأشياء يطول شرحها ، ووجد فيه أيضاً خزانة كتب فيها ألف ألف مجلد وأربعون ألف مجلد ، فوهبها كلها للقاضي الفاضل ، فانتخب منها حمل سبعين جمَّازة[2] .

ثم إن السلطان وهب جميع البلد بما فيه لنور الدين محمد بن قرا أرسلان ؛ لأنه كان قد وعده بها ، فرأىٰ إيجاب الوفاء بالوعد ، فقيل له : إن الحواصل لم تدخل في وعدك ، فقال : لا أبخل بها عليه وقد صار من أصحابنا وأنصارنا ، وكان في خزائنها ثلاثة آلاف ألف دينار .

---

(١) **الحواصل** : جمع حاصل ، وهو : ما خلص من الفضة ونحوها من حجارة المعدن .

(٢) **الجَمَّازَةُ** : مركب سريع يتخذه الناس في المدن شبه العجلة التي تجرها الخيل .

وقد امتدحه الشعراء علىٰ ذلك الصنيع الجميل ، وهو حقيق بالثناء الجزيل ، وما أحسن ما قال بعضهم في ذلك :

قل للملوك تنحُّوا عن ممالككم فقد أتىٰ آخذ الدنيا ومعطيها

ثم سار السلطان في بقية المحرم إلىٰ حلب ، فتسلمها بعد خطوب كثيرة ، واستقر الحال في ذلك علىٰ عوض يطلقه السلطان لصاحب حلب ، وهو عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي بن آق سنقر ، وهو أن يرد عليه سنجار ، فأجاب إلىٰ ذلك ، فخرج صاحب حلب ، ونزل إلىٰ خدمة السلطان ، فزاده الخابور ، والرقة ، ونصيبين ، وسروج ، واشترط عليه إرسال العسكر في الخدمة للغزاة ، فقال : سمعاً وطاعة .

ثم سار وودعه السلطان ، ومكث السلطان بعد ذلك أياماً بحلب غير مكترث بها ، ثم طلع إلى القلعة في السابع والعشرين من صفر ، وعمل له الأمير طُمان وليمة عظيمة ، وكان يوماً مشهوداً مشهوراً ، وسمعه بعضهم وهو داخل إلى القلعة يتلو هٰذه الآية : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

ولما دخل دار المُلك . . قرأ قوله تعالىٰ : ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ .

ولما دخل مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام . . صلىٰ فيه ركعتين ، وأطال السجود والدعاء والتضرع ، وعمل بعد ذلك وليمة عظيمة ، وضربت البشائر وخلع السلطان على الأمراء ، وأحسن إلى العلماء والفقهاء والفقراء ، وألقت الحرب أوزارها ، وقضت القلوب أوطارها ، وكانت كما قيل :

فألقت عصاها واستقر بها النوىٰ كما قر عيناً بالإياب المسافر

وامتدحه الشعراء بمدائح كثيرة ، وأسقط عن حلب وسائر بلاد الجزيرة المكوس والضرائب ، فجزاه الله عن الإسلام خيراً .

وبشره بعض الأئمة بفتح القدس ، فقال له :

وفتحك القلعةَ الشهباء في صفرٍ مبشر بفتوح القدس في رجبِ

وكان كما قال ، كما سيأتي بيانه إن شاء الله عز وجل .

ثم سار من حلب في أواخر ربيع الآخر ، وجعل النائب بها ولده غازي ، وفوض القضاء بها إلىٰ محيي الدين بن الزكي ، فاستناب ابن الزكي فيها نائباً ، وسار في خدمة السلطان .

فدخل دمشق ثالث جمادى الأولىٰ ، وقد عزم علىٰ قتال الفرنج ، فسار في أول جمادى الآخرة نحو بيت المقدس .

فوصل إلىٰ بيسان ، فنهبها ، ونزل علىٰ عين جالوت ، وأرسل بين يديه سرية عظيمة فيها مملوك عمه أسد الدين ، فوجدوا جيش الكرك من الفرنج قاصدين [نجدة الفرنج] ، فقاتلوهم ، فقتل من الفرنج خلائق ، وأسر منهم مئة أسير ، ولم يفقد من المسلمين ـ والحمد لله ـ غير شخص واحد .

ثم عاد في آخر ذلك اليوم ، وبلغ السلطان أن الفرنج قد اجتمعوا لقتاله ، فبرز إليهم وتصدىٰ لهم ، لعلهم يصافُّونه ، فنَكَلوا عنه ، فقتل منهم خلقاً كثيراً من أطرافهم ، وجرح كثيراً منهم ، وهرب الباقي ناكصين علىٰ أعقابهم ، خائفين منه كل المخافة ، فلله الحمد والمنة ، ولم يزل السلطان سائراً خلفهم يقتل ويأسر إلىٰ أن غَوَّروا في بلادهم ، فرجع عنهم مؤيداً منصوراً .

وكتب الفاضل إلى الخليفة يعلمه بهـٰذا النصر العظيم ، وكان لا يفعل شيئاً أو يريد أن يفعل شيئاً . . إلا طالع به إلى الخليفة ؛ أدباً واحتراماً وطاعة واحتشاماً .

وفي رجب : سار السلطان إلى الكرك ، فحاصرها ، وكان معه ابن أخيه تقي الدين عمر ، وكتب إلىٰ أخيه العادل نائب مصر ليحضر إليه ؛ ليوليه حلب ، وجعل ابن أخيه تقي الدين عمر نائباً بمصر عِوَضَه ، ومعه القاضي الفاضل .

وولىٰ أخاه حلب ؛ ليكون قريباً منه ؛ فإنه كان لا يقطع أمراً دون مشاورته ، واقترض منه السلطان مئة ألف درهم[1] .

واستقدم ولده الظاهر ، وكذلك نوابه ، ومَن يَعِزُّ عليه ؛ ليكونوا عنده ، واستمر الحصار على الكرك شهر رجب ، ولم يظفر بها ، ثم بلغه أن الفرنج قد اجتمعوا كلهم ليمنعوا منه الكرك ، فرجع إلىٰ دمشق ؛ ليجمع العساكر ويقاتلهم .

* * *

---

(١) في نسخة : (مئة ألف دينار) .

سنة ثمانين [وخمس مئة]

في أولها أرسل في طلب العساكر من مصر وحلب والجزيرة ، فقدم ابن أخيه من مصر ومعه القاضي الفاضل ، وقدم العادل من حلب وملوك الجزيرة وسنجار وتلك النواحي .

فسار بهم السلطان إلى الكرك ، فأشرفوا عليها في رابع جمادى الأولىٰ ، ونصب عليها المنجنيقات وهي تسعة ، ولم يزل يحاصرها إلىٰ أن قارب فتحها ، فبلغه أن الفرنج قد اجتمعوا ليمنعوا منه الكرك ، فرجع عن الكرك ، وقصد الفرنج ، ونزل علىٰ [قرية] حُسبان مقابلهم ، فحين التقى الجيشان . انهزم الفرنج وساروا نحو الكرك ، فأرسل السلطان وراءهم ، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وجماً غفيراً ، وغارت الجيوش الإسلامية على السواحل لخلوها عن المقاتل ، فنهب جميع ما في نابلس وما حولها من العرايا[1] والرساتيق[2] ، وأخذوا شيئاً كثيراً ، ولله الحمد والمنة .

ثم عاد السلطان إلىٰ دمشق ، وأذن للعساكر بالمسير إلىٰ بلادهم ، وأقام السلطان بدمشق ؛ ليؤدي فرض الصيام ، ولتَجِمَّ[3] الخيل ، ويُحد الحسام ، وجاءت الخلع من الخليفة إلى السلطان ، فلبسها ، وألبس أخاه العادل ، وابن عمه ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه .

ثم خلع السلطان خلعته علىٰ نور الدين بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا وآمد التي أطلقها له السلطان .

وفي أواخر هٰذه السنة : بلغ السلطان أن صاحب الموصل نازل أربل ، فأرسل صاحبها يستصرخ بالسلطان ، فركب من فوره إليه ؛ لأن صاحب أربل كان من الأولياء الأبدال والعاملين لله عز وجل آناء الليل وأطراف النهار ، ومعه عساكره ، فسار إلىٰ بعلبك ، ثم إلىٰ حمص ، ثم إلىٰ حماة ، فأقام بها أياماً ينتظر وصول العماد الكاتب ، فانقضت السَّنة وهو بها .

* * *

---

(١) **العرايا** : النواحي .

(٢) **الرَّساتيق** : جمع رستاق ، وهو الموضع المشتمل علىٰ مزارع وقرىٰ كثيرة .

(٣) **تجمَّ** : تستريح .

سنة إحدىٰ وثمانين [وخمس مئة]

استهلت وقد خيم السلطان بظاهر حماة ، وتلقاه أخوه العادل ، وسار إلىٰ أن قطع الفرات ، ثم إلىٰ حران ، ثم إلى الموصل ، فجاءت الملوك إليه من كل ناحية ، وجرت أمور طويلة أفضت إلى الصلح بينه وبين أهل الموصل ، علىٰ أن يكونوا من جنده إذا طلبهم لغزو الفرنج ، وعلىٰ أن يُخطَبَ له ، وتُضرَب السكة[1] باسمه ، فأجابوا إلىٰ ذلك .

وخُطِب له ، وضربت السكة باسمه في تلك البلاد كلها ، وانقطعت خطبة السلاجقة بتلك البلاد كلها ، ثم إنه اتفق للسلطان ضعف شديد كاد يسلبه ثوب المَحْيَا ويسلمه إلىٰ أبي يحيىٰ[2] .

وكان مع ذلك الضعف الشديد يتجلد ولا يظهر شيئاً من التألم ، ولم يزل يتزايد عليه الضعف إلىٰ أن وصل إلىٰ حران ، فأقام هناك لشدة الألم ، وشاع في البلاد ضعفه ، فخاف الناس عليه ، ومرضوا لمرضه ، وأرجف الكفرة والملحدون بموته .

ووصل إليه أخوه العادل من حلب بالأطباء والأدوية ، فوجدوه في غاية الضعف ، فأشار عليه بأن يوصي ويعهد ، فقال : ما أبالي وأنا أترك من بعدي أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً ؛ يعني : أخاه العادل أبا بكر ، وتقي الدين عمر صاحب حماة وهو إذ ذاك نائب مصر ، وبها مقيم ، وابنيه : العزيز عثمان ، والأفضل علياً .

ثم نذر لله عز وجل لئن شفاه الله عز وجل من مرضه هـٰذا . . ليصرفن جهاده كله إلىٰ قتال الكافرين ، وألاَّ يقاتل بعد ذلك مسلماً ، وليجعلن أكثر همه فتح بيت المقدس ، ولو صرف في سبيل ذلك جميع ما يملكه من الأموال ، وليقتلن البرنس صاحب الكرك بيده ؛ لنقضه العهد الذي عاهد عليه السلطان ، وذلك أنه غدر بقافلة تجار جاءت من مصر ، فأخذوا أموالهم ، وضرب رقابهم صبراً بين يديه ، فلم يمض بعد النذر إلا شيئاً يسيراً ، وشفاه الله عز

---

(١) **السِّكَّة** : الدراهم المنقوشة .

(٢) **أبو يحيىٰ** : كناية عن ملك الموت ، وإنما كني بهـٰذه الكنية تفاؤلاً ، كما قيل للَّديغ : سليم ، وللصحراء : مفازة ، قال الشاعر :

عـذيـري مـن الأيـام مـدت صـروفهـا ... إلىٰ وجه من أهوىٰ يد النسخ والمحو
وأبـدت بـوجهـي طـالعـات أرىٰ بهـا ... سهـام أبـي يحيـىٰ مسـدَّدة نحـوي

انظر : « ثمار القلوب » (ص٦٧) .

وجل من ذلك المرض ، الذي كان فيه كفارةُ ذنوبه ورفع درجته ، وفرح المسلمون بعافيته فرحاً عظيماً ، وضربت البشائر ، وزينت البلاد ، ولله الحمد والمِنة .

ثم سار السلطان من حران ، فدخل حلب ، ثم اجتاز بحماة وحمص ، ولم يزل إلىٰ أن دخل دمشق ، وكان يوماً مشهوداً ، وصباحاً محموداً ، أكمل الله عز وجل فيه فرح المؤمنين ، وكبت به الكافرين وسائر الملحدين ، والحمد لله رب العالمين .

وفيها : توفي الأمير محمد بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص والرحبة ، وهو ابن عم السلطان ، وزوج أخته ست الشام بنت أيوب ، وكانت وفاته بحمص ، فنقلته زوجته ست الشام إلىٰ تربتها بدمشق في المدرسة الشامية البرانية ، فقبره هو الأوسط بينها وبين أخيها المعظم تورانشاه صاحب اليمن ، وخلف ناصر الدين من الأموال والذخائر شيئاً كثيراً ينيف علىٰ ألف ألف دينار ، وكانت وفاته ـ رحمه الله ـ يوم عرفة فجأة ، رحمه الله تعالىٰ .

* * *

سنة اثنتين وثمانين [وخمس مئة]

في ثاني ربيع الأول منها : دخل السلطان إلىٰ دمشق ، واجتمع بالقاضي الفاضل وزاره واستشاره ، وكان لا يقطع أمراً دون مشاورته إذا كان حاضراً ، وجعل علىٰ دمشق ولده الأفضل ، ونزل العادل عن حلب لصهره زوج ابنته الملك الظاهر غازي ابن السلطان .

فأرسل السلطان أخاه العادل مع ولده الآخر عماد الدين عثمان الملك العزيز علىٰ مصر ، وأن يكون العادلُ أتابكه[1] ، ولا يقطع أمراً دون مشاورته ، و[أن يكون] له إقطاع عظيم جداً ، وعزل تقي الدين عمر عن نيابة مصر واستقدمه إليه .

فلما قدم . . أكرمه غاية الإكرام ، واحترمه ، وأقطعه حماة وبلاداً كثيرة كانت له ، وزاده علىٰ ذلك مدينة مَيَّافارِقين .

وفي هـٰذه السَّنة : هادن قومص صاحب طرابلس للسلطان ، وصالحه وصافاه ، حتىٰ إنه كان يقاتل لأجله ملك الفرنج أشد القتال ويسبي منهم النساء والأطفال ، وكاد أن يسلم ،

---

(١) **أتابك** : لفظ تركي مركب من : أتا ، بمعنىٰ أب ، أو الشيخ المحترم ، وبك : بمعنى الأمير ، يعود استخدامه إلىٰ نهاية العصر العباسي حيث كان لقباً لمربي ومراقب أبناء ملوك السلاجقة ، وأول من حمل هـٰذا اللقب نظام الملك وزير ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي سنة (٤٦٥ هـ) ، وتطور فيما بعد ؛ ليطلق علىٰ أمير الجيش وقائده .

وكانت هـٰذه المصالحة من أقوىٰ أسباب نصرة المسلمين على الفرنج ، ولم يدخل على الفرنج من الذل والهوان أشد مما دخل عليهم من هـٰذه المصالحة ، فلله الحمد والمِنة .

* * *

سنة ثلاث وثمانين [وخمس مئة]

سار السلطان من دمشق مستهل المحرم منها إلىٰ رأس الماء ، فترك ولده الأفضل في طائفة من الجيش هناك ، وسار السلطان بنفسه بباقي الجيش إلىٰ أن وصل إلىٰ بصرىٰ ، فخيم علىٰ قصر أبي سلامة ينتظر قدوم الحُجاج ، وفيهم أخته ست الشام ومعها ولدها حسام الدين محمد خوفاً عليهم من معرة البرنس الذي غدر ونقض العهد .

فلما قدم الحُجاج في أواخر صفر . . سار السلطان ، فنزل[1] ، الكرك وقطع ما حوله من الأشجار ، ورعى الزروع ، وأكلوا الثمار ، وجاءته العساكر المصرية ، فنزلوا عند ولد السلطان علىٰ رأس الماء ، وبعث الأفضل سرية نحو بلاد الفرنج ، فقتلت وغنمت وسلمت ، وكسرت وأسرت ورجعت ، فبشرت بمقدمات الفتح والنصر .

وجاء السلطان بعساكره ، واجتمعت له الجيوش ، فرتب الجيوش والأطلاب[2] ، وتوجه إلىٰ بلاد الساحل ، وكان جملة مَن معه من المقاتلة اثني عشر ألفاً غير المطّوِّعة .

فتسامعت الفرنج بمقدمه ، فاجتمعوا كلهم ، وتصالحوا فيما بينهم ، ودخل معهم في الصلح قومص صاحب طرابلس الغادر الفاجر ، وصاحب الكرك البرنس .

وجاؤوا بجموع كثيرة ، ومعهم صليب الصَّلبوت ، يحمله منهم عباد الطاغوت ، وكان قد خوفهم القومص صاحب طرابلس من بأس المسلمين وشدتهم ، فاعترض عليه البرنس أرناط صاحب الكرك ، فقال له القومص : ما أنا إلا واحد منكم ، وسترون غِبَّ ما أقول لكم .

وهـٰكذا وقع ؛ فإن الجميع انكسروا بإذن الله عز وجل ، وقدم الفرنج في خلق لا يحصي عددهم إلا الله سبحانه وتعالىٰ ، يقال : إنهم كانوا في خمسين ألفاً ، وقيل : ثلاثة وستين

---

(١) في النسخ : (فنازل) ، والمثبت من « الروضتين » ، ولعله الصواب ، والله أعلم .

(٢) **الأَطْلاب** ـ جمع طُلْب ـ اصطلاح عسكري من العصر الأيوبي وما بعده ، يقصد به فرق الجيش النظامي ، وكل طُلب ـ فرقة ـ يتكون من سبعين إلىٰ مئتي جندي ، وعلىٰ رأس كل طلب من هـٰذه الأطلاب أمير .

ألفاً ، وأقبل السلطان صلاح الدين ففتح طبرية ، وتقوىٰ بما فيها من الأسلحة والأطعمة والأمتعة وغير ذلك .

وتحصنت عنه القلعة ، فلم يشتغل بها ، وحاز البحرة في حوزته ، ومنع الكفرة أن يصلوا منها إلىٰ غرفة ماء ، واقتتلوا في عطش لا يعلمه إلا الله تعالىٰ .

فبرز لهم السلطان إلىٰ سطح الجبل الغربي من طبرية عند قرية يقال لها : حِطِّين ، التي يقال : إن فيها قبر [سيدنا] شعيب عليه الصلاة والسلام ، فتواجه هنالك الجيشان ، وتقابل الفريقان ، وأسفر وجه الإيمان ، واغبر وأقتم وجه الكفران بالخسران ، وذلك عشية يوم الجمعة .

فبات الناس علىٰ مَصافِّهم ، وأصبح الصباح عن يوم السبت الخامس والعشرين من ربيع الآخر ، جعله الله على الكافرين يوماً عسيراً من شدة الحر وشدة العطش ، فتراهم سكارىٰ وما هم بسكارىٰ ، ولٰكن عذاب الله شديد .

وكان تحت أقدام خيولهم حشيش ، فأمر السلطان بإلقاء النار فيه ، فتأججت خيولهم ناراً ، فاجتمع عليهم حر الشمس ، وحر العطش ، وحر النار من تحت أرجلهم ، وحر رشق السهام ، فتبارز الشجعان في حومة الوغىٰ .

ثم أمر السلطان بالتكبير والحملة الصادقة ، فكان النصر من الله عز وجل ، فمنحهم الله عز وجل أكتاف الكفرة الفجرة ، فقُتل منهم ثلاثون ألفاً في ذلك اليوم ، وأُسر ثلاثون ألفاً من شجعانهم وفرسانهم .

وكان من جملة الأسارىٰ جميع ملوكهم سوىٰ قومص صاحب طرابلس ؛ فإنه انهزم في أول المعركة .

وأُخذ صليبهم الأعظم عندهم ، وقد غلفوه بالذهب واللآلىء والجواهر النفيسة ، وكان يوماً على الكافرين عسيراً .

ولم يُسمع بمثل هٰذا اليوم في عز الإسلام وأهله ، ودمغ الباطل وذله ، حتىٰ إن بعض الفلاحين رُئي وهو يقود نيفاً وثلاثين أسيراً من الفرنج ، قد ربطهم بطُنُب[1] خيمة ، وباع بعضهم أسيراً بنعلٍ لَبِسَهُ في رجله ، فقيل له في ذلك ، فقال : أحببت أن يقال : باع أسيراً بمداس .

---

(١) طُنُب : حبل لشد الخيمة والخباء .

وجرت أمور جميلة لم يُسمع بمثلها ، ولا وقعت العيون علىٰ شكلها ، فلله الحمد عدد عفوه عن خلقه ، وعدد ما أحصىٰ علمه دائماً أبداً ، حمداً كثيراً طيباً مباركاً .

ولمَّا أنعم الله على المؤمنين بهـٰذه النعمة العظيمة العميمة . . أمر السلطان بضرب مخيم عظيم ، وجلس فيه علىٰ كرسي المملكة ، وعن يمينه أَسِرَّة وعن يساره مثلها ، وجيء بالأسارىٰ تهادىٰ في قيودها ، فضربت أعناق جماعة من مقدمي الدَّاوية[١] والاسبتارية[٢] صبراً[٣] بين يديه ، ولم يترك منهم مَن كان يذكر الناس عنه ذِكراً .

ثم جيء بملوكهم ، فأجلسوا عن يمينه ويساره ، وأجلس ملكهم الكبير عن يمينه ، وبجنبه أرناط البرنس صاحب الكرك ـ قبَّحه الله ـ وبقية الملوك عن يساره ، فجيء إلى السلطان بشراب من الجُلاَّب[٤] فيه ثلج ، فشرب منه الساقي ، ثم ناول السلطان ، فشرب ، ثم تحول إلىٰ خيمة داخل الخيمة .

واستدعىٰ أرناط البرنس ـ لعنه الله ـ فلما أوقف بين يديه . . قام إليه بالسيف ، وقال : نَعم ؛ أنا أنوب عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم في الانتصار لأمته ، ثم دعاه إلى الإسلام ، فامتنع ، فقتله وأرسل برأسه إلى الملوك ، وقال : إن هـٰذا تعرض لسب رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، فقتلته[٥] .

ثم دعا باقي ملوكهم واحداً واحداً ، فمن امتنع عن الإسلام . . قتله ، فقتل ذلك اليوم نيفاً وعشرين ملكاً من ملوكهم صبراً ، ثم عرض بقية الأسارىٰ ، فمن امتنع عن الإسلام . . قتله صبراً ، فيقال : بلغت القتلىٰ ثلاثين ألفاً ، وكذلك الأسارىٰ كانوا ثلاثين ألفاً ، وكان جملة الجيش ثلاثة وستين ألفاً .

---

(١) **الدَّاوية** : تسمية يطلقها الفرنجة على الطائفة الدموية ، وهم جمعية فرسان المعبد ، وهي جمعية دينية أسسها(Hyghdepugers) سنة (١١٣٩م) لحماية طريق الحجاج المسيحيين بين يافا وبيت المقدس ، ثم تحولت إلىٰ هيئة حربية .

(٢) **الاسبتارية** : جماعة من فرسان الصليبيين لها كثير من خصائص الداوية ، ويطلق عليهم أيضاً اسم الهسبتارية أو الهستبالين التي تأسست سنة (١٠٩٩م) بعد استيلاء الصليبين علىٰ بيت المقدس ، وإن كانت قد نشطت قبل ذلك بكثير ، وكان هدفها الأول علاج المرضىٰ وإيواء الحجاج ومساعدتهم .

(٣) **القتل صبراً** : هو أن يوثق أي شيء فيه روح ثم يقتل .

(٤) **الجلاب** : ماء الورد .

(٥) والقصة في ذلك : أنه عبر جماعة من الديار المصرية في حال الصلح بالبرنس أرناط ، فنزلوا عنده بالأمان ، فغدر بهم وقتلهم ، فناشدوه الله والصلح الذي بينه وبين المسلمين ، فقال ما يتضمن الاستخفاف بالنبي صلى الله عليه وسلّم وقال : قولوا لمحمدكم يخلصكم .

ومَن سلم منهم ـ مع قلتهم ـ فأكثرهم جرحىٰ ماتوا ببلادهم بعد رجوعهم ، وممن مات كذلك سريعاً قومص صاحب طرابلس ؛ فإنه انهزم جريحاً ، فعجل الله بروحه إلى النار .

ثم إن السلطان أرسل أكابر الأسرىٰ ورؤوس أعيان القتلىٰ وصليب الصلبوت إلىٰ دمشق مع القاضي ابن أبي عصرون ؛ ليودعوا في قلعتها ، فدخل بالصليب منكوساً بين يدي القاضي إلىٰ دمشق ، وكان يوماً مشهوداً ، ولله الحمد والمِنة .

ثم سار السلطان إلىٰ قلعة طبرية ففتحها ، وقد كانت طبرية تقاسم بلاد حوران والبلقاء وما حولها من الجولان وتلك الأراضي كلها بالنصف ، فأراح الله المسلمين من تلك المقاسمة ، وتوفرت عليهم .

ثم سار إلىٰ عكا ، فنزل عليها يوم الأربعاء سابع ربيع الآخر ، فافتتحها صلحاً يوم الجمعة ، وأخذ ما كان فيها من حواصل وأموال وذخائر وغير ذلك ، واستنقذ من كان بها من أسارى المسلمين ، فوجد بها أربعة آلاف أسير ، ففرَّج الله عنهم ، ولله الحمد والمنة .

وأمر بإقامة الجمعة بعكا ، فكانت أول جمعة أقيمت بالساحل بعد أن أخذه الفرنج من نحو سبعين سنة ، فلله الحمد والمِنة .

ثم سار منها إلىٰ صيدا وبيروت وتلك النواحي من السواحل ، فأخذها ؛ لخلوها من المقاتلة والملوك .

ثم سار إلىٰ غزة وعسقلان ونابلس وبيسان وأراضي الغور ، فملك ذلك كله بحول الله عز وجل وقوته ، واستناب السلطان علىٰ نابلس ابن أخته حسام الدين عمر بن محمد بن لاجين ، وهو الذي افتتحها .

فكان جملة ما افتتحه في هـٰذه المدة القريبة خمسين بلداً له معاقله وقلعه ومنعه ، ولله الحمد والمنة .

وغنم المسلمون وسَبَوا شيئاً كثيراً لا يحد ولا يوصف ، واستبشر الإسلام وأهله شرقاً وغرباً بهـٰذا النصر العظيم والفتوحات الهائلة ، وترك السلطان جيوشه ترتع في هـٰذه الفتوحات والغنائم الكثيرة مدة شهور ؛ ليستريحوا ويَجِمُّوا أنفسهم وخيولهم ، وليتأهبوا لفتح بيت المقدس الشريف .

وطار في الناس أن السلطان عزم علىٰ فتح بيتِ المقدس ، فقصده العلماء والصالحون والمتطوِّعة من كل فج عميق ، وجاء أخوه العادل بعد وقعة حطين وفتح عكا ، ففتح بنفسه

حصوناً كثيرة أيضاً ، فاجتمع من العساكر ومن المتطوعة خلق كثير وجم غفير ، فعند ذلك سار السلطان إلىٰ فتح بيت المقدس بمن معه ، كما سيأتي بيانه إن شاء الله عز وجل .

وقد امتدح الشعراء السلطان بسبب وقعة حطين ، فقالوا وأكثروا وأطنبوا وأَطيبوا .

ذكر فتح بيت المقدس في هـٰذه السنة [٥٨٣]
واستنقاذه من أيدي النصارىٰ بعد اثنتين وسبعين سنة

وذلك أنه لما افتتح السلطان ما حول بيت المقدس من الأماكن المباركة والسواحل القريبة منها . . أمر العساكر فاجتمعت ، والجيوش المتفرقة في البلدان للغنائم فأبلغت ، وسار نحو بيت المقدس بتلك العساكر المنصورة ، والرايات الكاسرة لا المكسورة ، فنزل غربي بيت المقدس يوم الأحد خامس عشر رجب من هـٰذه السنة ، وقد حصنت الفرنج ـ لعنهم الله ـ الأسوار بالمقاتلة ، وكانوا نحو ستين ألفَ مقاتل دون الذين في بيت المقدس ، وكان صاحب البلد يومئذ رجل يقال له : باليان بن بارزان ، ومعه مَن سلم من وقعة حطين من الدَّاوية والاسبتارية أتباع الشيطان وعبدة الصلبان ، عليهم لَعائن الرحمـٰن .

فأقام السلطان بمنزله المذكور خمسة أيام ، وسلم إلىٰ كل طائفة من الجيش المنصور ناحية من أبرجة السور ، ثم تحول إلىٰ ناحية الشمال ؛ لأنه رآها أوسع وأنسب للمجال والجِلاد والنزال ، وقاتل الفرنج دون البلد قتالاً هائلاً ، واستشهد بعض أمراء المسلمين إلىٰ رضوان رب العالمين .

يا ليتني كنت ذاك ، فعند ذلك حَنِق كثير من أمراء الإسلام ، واجتهدوا إلى القتال بكل خطي[١] وحسام ، وقد نصبت المنجنيقات والعرَّادات[٢] ، وشهرت السيوف وعملت السمهريات[٣] ، والعيون تنظر إلى الصلبان منصوبة فوق الجدران ، حتىٰ فوق قبة الصخرة قبلة أهل الأديان .

---

(١) **الخطِّيُّ** : الرمح المنسوب إلى الخط ، وهو موضع ببلاد البحرين تنسب إليه الرماح الخطية ؛ لأنها تباع بها .

(٢) **العَرَّادَات** ـ مفردها عرَّادة ـ : آلة حربية استعملها العرب في عمليات الحصار وقذف الحصون في العصر الإسلامي ، وهي علىٰ هيئة المنجنيق ، إلا أنها أصغر حجماً .

(٣) **السَّمْهريات** ـ مفردها سمهري ـ : الرُّمح الصليب العود ، ويقال : هو منسوب إلىٰ (سَمْهر) : رجل كان يقوِّم الرماح .

فزاد ذلك أهلَ الإيمان الحنقَ الكبير ، وأخذوا في الجد وشدة التشمير ، فكان يوماً عسيراً ، على الكافرين غير يسير .

فبادر السلطان بأصحابه إلى الزاوية الشرقية الشمالية من السور فنقبها ، وعلقها وحشاها وأحرقها ، فسقط ذلك الجانب ، وخرَّ البُرج برّمته ؛ فإذا هو واجب[1] .

فلما شاهد الفرنج ـ خذلهم الله ـ ذلك الحادث المفظع والخطب المؤلم الموجع . . قصد أكابرهم السلطان ، وتشفعوا إليه بكل إنسان أن يعطيهم الأمان ، فامتنع من ذلك وقال : لا أفتحها إلا كما فتحوها عنوة ، ولا أترك بها أحداً من النصارىٰ إلا قتلته كما قَتلتم أنتم مَن كان مِن المسلمين .

فطلب صاحبها باليان من السلطان الأمان ، ليحضر عنده ، فأمَّنه ، فلما حضر . . ترقرق له ، وتشفع إليه بكل ما أمكنه ، فلم يجبه إلى الأمان ، فقالوا : لئن لم تعطنا الأمان . . رجعنا فقتلْنا كل أسير من المسلمين عندنا ، وهم قريب من أربعة آلاف ، وقتلنا أولادنا الصغار ، وخربنا الدور والأماكن الحسنة ، وأتلفنا ما بأيدينا من الأموال ، ونقبنا فيه الصخرة ، ولا نبقي في إتلاف ما نقدر عليه ممكناً ، وبعد ذلك نقاتل قتال الموت ، فلا يقتل واحد منا حتىٰ يقتل أعداداً منكم ، فماذا ترتجي بعد هـٰذا من الخير ؟!

فلما سمع السلطان ذلك . . أجاب إلى الصلح علىٰ أن يبذل كل رجل منهم عن نفسه عشرة دنانير ، وعن المرأة خمسة دنانير ، وعن كل صغير وصغيرة دينارين ، وأن تكون الغلات والأسلحة والدور للمسلمين ، ويتحولوا منها إلىٰ مأمنهم ، وهي مدينة صور .

فكتب الصلح علىٰ ذلك ، ومَن لا يبذل ما شرط عليه إلىٰ أربعين يوماً . . فهو أسير ، فكان جملة من أسر بهـٰذا الشرط ستة عشر ألف أسيرٍ من رجال ونساء وولدان .

ودخل السلطان والمسلمون البلد يوم الجمعة قبيل وقت الصلاة يوم السابع والعشرين من رجب ، وهي ليلة الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلّم علىٰ قول مشهور ، ولم تتفق صلاة الجمعة يومئذ لضيق الوقت ، خلافاً لمن زعم أنها أقيمت يومئذ ، وأن السلطان خطب بنفسه بالسواد يومئذ ، والصحيح : أن الجمعة إنما أقيمت في الجمعة الثانية .

وشرع المسلمون في تنظيف المسجد الأقصىٰ مما كان فيه من الصلبان والرهبان والخنازير ، وخربوا دور الداوية التي بنوها غربي المحراب الكبير ، وجعلوا المحراب

---

(١) واجب : ساقط .

حُشّاً[1] لعنهم الله وقبحهم ، فأزيل ذلك كله ، وأعيد المسجد إلىٰ ما كان عليه في الأيام الإسلامية ، وغسلت الصخرة بالماء ، وأعيد غسلها بماء الورد ، وأبرزت للناظرين ، وقد كانت محجوبة عن الزائرين ، ووضع[2] الصليب المنصوب علىٰ قبتها ، وعادت إلىٰ حرمتها .

وقد كان الفرنج قطعوا منها قطعاً ، فتعذر استعادة ذلك ، وقبض من الفرنج ما كانوا بذلوه عن أنفسهم من الأموال ، وأطلق السلطان خلقاً منهم من بنات الملوك بمن كان معهم من النساء والرجال ووقعت المسامحة في كثير منهم ، وشفع في أناس كثير . . فعفا عنهم ، وفرق السلطان جميع ما قبض منهم في العسكر ، ولم يدع منه شيئاً مما يقتنىٰ ويدخر ، وكان ـ رحمه الله ـ حليماً كريماً شجاعاً مقداماً رحيماً قدس الله روحه .

حكاية حسنة

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة ـ قدس الله روحه ـ : حدثني شيخنا أبو الحسن علي بن محمد السخاوي قال : قرأت بخط شيخنا أبي الفضائل بن رشيق بمصر عقيب موته في سنة ثلاث وسبعين وخمس مئة قال : رأىٰ إنسان كأن شخصاً ذا جهامة واقفاً علىٰ حائط بجامع دمشق وهو يقول :

مَلَكَ الصياصي والنواصي ناصرٌ ... للـدين بعـد إيـاسـه أن يُنصـرا
وسيفتـح البيـتَ المقـدَّس بعـدمـا ... يُطـوى الطـراز لـه ويقتـل قيصـرا

وهـٰذا قبل أن يفتح السلطان صلاح الدين البلاد بعشر سنين .

وحكي أيضاً : أن رجلاً جاء إلى الشيخ عمر المَلاَّء رحمه الله بالموصل في سنة خمس وخمسين وخمس مئة ، فقال له : أيها الشيخ ؛ رأيت البارحة في المنام كأني بأرض غريبة لا أعرفها ، وكأنها مملوءة خنازير ، وكأن رجلاً في يده سيف وهو يقتل الخنازير ، والناس ينظرون إليه .

فقلت لرجل : هـٰذا عيسى ابن مريم ؟ هـٰذا المهدي ؟ قال : لا ، فقلت : من هـٰذا ؟ فقال : يوسف ، ما زادني علىٰ ذلك ، قال : فتعجبت الجماعة من هـٰذه الرؤيا ، وقالوا :

---

(١) **الحَش** : مكان قضاء الحاجة .
(٢) أي : أزيل .

إنه يقتل النصارىٰ رجل اسمه يوسف ، فكان يوسف هو السلطان صلاح الدين رحمه الله .

قال : وكانت والدة السلطان صلاح الدين ـ رحمهما الله ـ تخبر أنها لما كانت حاملة بالسلطان . . رأت في منامها قائلاً يقول لها : إن في بطنك سيفاً من سيوف الله سبحانه وتعالىٰ ، وهٰكذا كان ، سيف وأي سيف ؟! بل ألف ألف سيف .

ذِكرُ أول جمعة أقيمت في بيت المقدس بعد فتحه

لَمَّا نُزِّه بيت المقدس عما كان فيه من الصلبان والنواقيس والرهبان والخنازير والقساوسة ، وجاء أهل الإيمان ، ونودي بالأذان ، وهرب الشيطان ، وقرىء القرآن ، وطهر المكان . . فكان إقامة أول جمعة فيه في رابع شعبان بعد يوم الفتح بثمان .

فنُصب المنبر إلىٰ جانب المحراب المطهر ، وبسطت البسط الرفيعة في تلك العِرَاص[1] الفسيحة ، وعلقت القناديل ، وتلي التنزيل ، عوضاً عما يقرأ من التحريف في الإنجيل ، وجاء الحق وبطلت الأباطيل ، وصُفَّت السجادات ، وأطيلت السجدات ، وصَفَتِ العبادات ، ورُغب في الدعوات ، ونزلت البركات ، وانجلت الكربات ، وأقيمت الصلوات .

ونطق الأذان وخرس الناقوس ، وحضر المؤذنون وغاب القسوس ، وزال العبوس والبوس ، وطابت الأنفاس والنفوس ، وأقبلت السعود وأدبرت النحوس .

وحضر العباد والزهاد والأبدال والأقطاب ، وعُبد فيه الواحد القهار جل جلاله ، وكثر الراكع والساجد ، والقائم والقاعد ، والطاهر والمجاهد ، وامتلأ الجامع ، وأحفلت المجامع ، وسالت لرقة القلوب المدامع ، وقال الناس : هٰذا يوم كريم ، وفضل عميم ، وموسم عظيم ، هٰذا يوم تجاب فيه الدعوات ، وتصب البركات ، وتسال العبرات ، وتقال العثرات .

ولما أذن المؤذنون للصلاة وقت الزوال . . كادت القلوب تطير من الفرح بذلك الحال .

ولم يكن السلطان إلىٰ تلك الساعة قد عين خطيباً ، وقد تهيأ لها خلق من العلماء خوفاً أن يدعىٰ إليها فلا يكون مجيباً ، فبرز المرسوم السلطاني الصلاحي وهو في قبة الصخرة أن يكون القاضي محيي الدين ابن الزكي اليوم خطيب الخطباء ، فلبس الخلعة السوداء ، فصعد المنبر

---

(١) العِرَاص ـ جمع عرصة ـ : البقعة الواسعة .

وقد كساه الله البهاء ، وألزمه كلمة التقوىٰ ، وأعطاه السكينة والوقار والسناء .

فخطب الناس خطبة عظيمة سنية فصيحة بليغة ، ذكر فيها شرف بيت المقدس ، وما ورد فيه من الترغيبات والفضائل ، وما فيه من الدلائل والأمارات ، وما مَنَّ الله عز وجل به على المؤمنين من هـٰذه النعمة .

فكان أول ما قال حين تكلم : ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ثم أورد تحميدات القرآن كلها .

ثم قال : الحمد لله معزِّ الإسلام بنصره ، ومذل الشرك بقهره ، ومصرِّف الأمور بأمره ، ومديم النعم بشكره ، ومستدرج الكافرين بمكره ، الذي قدر الأيام دولاً بعدله ، وجعل العاقبة للمتقين بفضله ، وأفاء علىٰ عباده من ظله ، وأظهر دينه على الدين كله ، القاهرِ فوق عباده فلا يمانع ، والظاهر علىٰ خليقته فلا ينازع ، والآمر بما يشاء فلا يراجع ، والحاكم بما يريد فلا يدافع .

أحمده علىٰ إظفاره وإظهاره ، وإعزازه لأوليائه ، ونصره لأنصاره ، وتطهيره لبيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره ، حَمْدَ من استشعر الحمدَ باطنُ سره ، وظاهر جهاره .

وأشهد أن لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له ، الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، شهادةَ مَن طهَّر بالتوحيد قلبه ، وأرضىٰ به ربه .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، رافعُ الشك ، وداحض الشرك ، وراحض الإفك[1] ، الذي أسري به من المسجد الحرام إلىٰ هـٰذا المسجد الأقصىٰ ، وعُرج به منه إلى السماوات العلا إلىٰ سدرة المنتهىٰ ، عندها جنة المأوىٰ ، ما زاغ البصر وما طغىٰ صلى الله عليه وسلم ، وعلىٰ خليفته الصديق السابق إلى الإيمان ، وعلىٰ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، أول من رفع عن هـٰذا البيت شعار الصلبان ، وعلىٰ أمير المؤمنين عثمان ذي النورين جامع القرآن ، وعلىٰ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مزلزل الشرك ومكسر الأوثان ، وعلىٰ آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان .

أيها الناس ؛ أبشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوىٰ والدرجة العليا ؛ لما يسره الله عز وجل علىٰ أيديكم من استرداد هـٰذه الضالة من الأمة الضالة ، وردها إلىٰ مقرها من الإسلام ، بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريباً من مئة عام ، وتطهير هـٰذا البيت الذي

---

(١) الرحض : الغسل .

أذن الله أن يرفع وأن يذكر فيه اسمه ، وإماطة الشرك عن طرقه بعد أن امتد عليها رواقه ، واستقر فيها رسمه ، ورفع قواعده بالتوحيد ؛ فإنه بني على البر والتقوىٰ .

فهو موطن أبيكم إبراهيم ، ومعراج نبيكم ، وقبلتكم التي كنتم تصلُّون إليها في ابتداء الإسلام ، وهو مَقرُّ الأنبياء ، ومقصد الأولياء ، ومَفرُّ الرسل ، ومهبط الوحي ، ومنزل ينزل فيه الأمر والنهي ، وهو في أرض المحشر ، وصعيد المنشر ، وهو في الأرض المقدسة التي ذكرها الله عز وجل في كتابه المبين ، وهو المسجد الذي صلىٰ فيه سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلّم بالملائكة المقربين ، والأنبياء والمرسلين ، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين .

وهو البلد الذي بعث الله إليه عبدَه ورسوله وكلمته التي ألقاها إلىٰ مريم وروحَه عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام ، الذي شرفه الله برسالته وكرَّمه بنبوته ، ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته ، فقال تعالىٰ : ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ ﴾ ، وقال : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ .

وهو ثاني المسجدين ، وثالث الحرمين ، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه ، ولا تُعقَد الخناصر بعد الموطِنَين إلا عليه .

ولولا أنكم ممن اختاره الله عز وجل من عباده ، واصطفاه من سكان بلاده . . لَمَا خصكم بهـٰذه الفضيلة التي لا يجاريكم فيها مُجارٍ ، ولا يباريكم فيها مُبارٍ .

فطوبىٰ لكم من جيش ظهرت علىٰ أيديكم المعجزات النبوية ، والوقعات البدرية ، والعزمات الصديقية ، والفتوحات العمرية ، والجيوش العثمانية ، والفتكات العلوية ، جددتم للإسلام أيام القادسية ، والوقعات اليرموكية ، والمنازلات الخيبرية ، والهجمات الخالدية .

فجزاكم الله عن نبيه سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلّم أفضل الجزاء ، وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم في مقارعة الأعداء ، وتقبل منكم ما تقربتم به إليه من مُهراق الدماء ، وأثابكم الجنة ، فهي دار السعداء ، فاقدُروا ـ رحمكم الله ـ هـٰذه النعمة حق قدرها ، وقوموا لله تعالىٰ بواجب شكرها ، فله النعمة عليكم بتخصيصكم بهـٰذه النعمة ، وترشيحكم لهـٰذه الخدمة .

فهـٰذا هو الفتح الذي فُتحت له أبواب السماء ، وتبلجت بأنواره وجوه الظَّلْماء ، وابتهج

به الملائكة المقربون ، وقرَّ به عيناً الأنبياء والمرسلون صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

فماذا عليكم من النعمة بأن جعلكم الجيشَ الذي يفتح عليه بيت المقدس في آخر الزمان ، والجند الذين تقوم سيوفهم بعد فترة من النبوة أعلام الإيمان ، [فيوشك أن تكون التهاني به بين أهل الخضراء . . أكثر من التهاني به بين أهل الغبراء] .

أليس هو البيت الذي ذكره الله عز وجل في كتابه ، ونص عليه في خطابه فقال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾ ؟! ، أليس هو البيت الذي [عظمته الملوك] ، وأثنت عليه الرسل ، وتليت فيه الكتب الأربعة المنزلة من الله عز وجل ؟! أليس هو البيت الذي أمسك الله الشمس علىٰ يوشع لأجله أن تغرب ، وباعد بين خطواتها ؛ ليتيسر فتحه ويقرب ؟! أليس هو البيت الذي أمر الله نبيه موسىٰ أن يأمر قومه باستنقاذه ، فلم يجبه إلا رجلان ، وغضب عليهم لأجله ، فألقاهم في التيه عقوبة للعصيان ؟!

فاحمَدوا الله الذي أمضىٰ عزائمكم لما نَكَلَتْ عنه بنو إسرائيل ، وقد فضلهم على العالمين ، ووفقكم لما خذل فيه مَن كان قبلكم من الأمم الماضين ، وجمع لأجله كلمتكم وكانت شتىٰ ، فليَهنِكُم أن الله عز وجل قد ذكركم به فيمن عنده ، وجعلكم ـ بعد إذ كنتم جنوداً لأهويتكم ـ جنده ، وشكركم الملائكة المقربون علىٰ ما أهديتم إلىٰ هـٰذا البيت من طيب التوحيد ، ونشر التقديس والتحميد ، وما أمطتم عن طرقهم فيه من أذى الشرك والتثليث ، والاعتقاد الفاجر الخبيث .

فالآن تستغفر لكم أملاك السماوات ، وتصلي عليكم الصلوات المباركات ، فاحفظوا ـ رحمكم الله ـ هـٰذه الموهبة فيكم ، واحرسوا هـٰذه النعمة عندكم بتقوى الله عز وجل التي مَن تمسك بها . . سلم ، ومن اعتصم بعروتها . . نجا وعُصم .

واحذروا من اتباع الهوىٰ ، وموافقة الردىٰ ، ورجوع القهقرىٰ ، والنكول عن العدىٰ ، وجدوا في انتهاز الفرصة ، وإزالة ما بقي من الغصة ، وجاهدوا في الله حق جهاده ، وبيعوا ـ عباد الله ـ أنفسكم في رضاه ؛ إذ جعلكم من عباده ، وإياكم أن يستزلَّكُم الشيطان وأن يتداخلكم الطغيان ، فيخيل لكم أن هـٰذا النصر بسيوفكم الحِدَاد ، وبخيولكم الجياد ، وبجِلاَدِكم في مواطن الجلاد ، ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

واحذروا عباد الله [بعد] أن شرَّفكم بهـٰذا الفتح الجليل ، والمَنْح الجزيل ، وخصكم

بهـٰذا الفتح المبين ، وجعلكم مستمسكين بحبله المتين . . أن تقترفوا شيئاً من مناهيه ، وأن تأتوا عظيماً من معاصيه ، فتكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً[1] ، أو كالذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين[2] .

والجهادَ الجهادَ ؛ فهو من أفضل عباداتكم ، وأشرف طاعاتكم ، ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ ، اذكروا الله يذكركم ، واشكروه يزدكم ، وجِدُّوا في حسم الداء ، واقطعوا شأفة الأعداء ، مع فروع الكفر واجتثاث أصوله .

فقد نادت الأيام : يا للثّارات الإسلامية ، والملة المحمدية! الله أكبر فتح الله ونصر ، غلب الله وقهر ، أذل الله من كفر .

واعلموا ـ رحمكم الله ـ أن هـٰذه فرصة عظيمة فانتهزوها ، وقربة[3] جليلة فناجزوها ، ومهمة كبيرة فأخرجوا لها هممكم وبَرِّزوها ، وأمضوا إليها سرايا عزائمكم وجهزوها ؛ فالأمور بأواخرها ، والمكاسب بذخائرها ؛ فقد أظفركم الله عز وجل بهـٰذا العدو المخذول وهم مثلكم أو يزيدون ، فكيف وقد أضحىٰ في قبالة الواحد منهم منكم عشرون ؟! قال تعالىٰ : ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِ ﴾ .

أعاننا الله وإياكم على اتباع أوامره ، والازدجار بزواجره ، وأيدنا ـ معشر المسلمين ـ بنصر من عنده ، ﴿ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦ ﴾ .

ثم قال ـ بعد الخطبة الثانية والدعاء ـ للخليفة : اللهم ، وأدم سلطان عبدِك الخاضِع لهيبتك ، الشاكر لنعمتك ، المعترف لموهبتك ، سيفك القاطع ، والمحامي عن دينك المدافع ، المجاهد في سبيلك ، السيد الأجل ، الملك الناصر ، جامِع كلمةِ الإيمان ، وقامع عبدة الصلبان ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، مطهر البيت المقدس عن أرجاس المشركين ، أبي المظفر يوسف بن أيوب ، محيي العدل في العالمين ، وسيف أمير المؤمنين .

اللهم ؛ وعُمَّ بدولته البسيطة ، واجعل ملائكتك برياته محيطة ، وأَحسِن عن الدين الحنيفي جزاءه ، واشكر عن الملة المحمدية عزمتاه .

---

(١) هـٰذا اقتباس من قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا ﴾ .

(٢) هـٰذا اقتباس من قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴾ .

(٣) كذا في النسخ ، أما في « الروضتين » : (وفريسة) .

اللهم ؛ وأَبْقِ للإسلام مهجته ، ووَقِّ لأهل الإيمان حوزته ، وانشر في المغارب والمشارق دعوته .

اللهم ؛ فكما فتحتَ علىٰ يده البيت المقدس بعد أن ظُنَّت الظنون وابتُلي المؤمنون . . فافتح علىٰ يده أداني الأرض وأقاصيها ، وملِّكْه صياصي الكفرة ونواصيها ، فلا يلقاه منهم كتيبة إلا مزقها ، ولا جماعة إلا فرقها ، ولا طائفة بعد طائفة إلا ألحقها بمن سبقها .

ثم قال : اللهم ؛ ثبت الملك فيه وفي عقبه إلىٰ يوم الدين ، واحفظه في بنيه وبني أبيه الملوك الميامين ، واشدد عضده ببقائهم ، واقض بإعزاز أوليائه وأوليائهم .

اللهم ؛ كما أجريت علىٰ يده هـٰذه الحسنة التي تبقىٰ على الأيام ، وتتخلد علىٰ مر الشهور والأعوام . . فارزقه المُلك الأبدي الذي لا ينفد في دار المتقين ، وأجب دعاءه في قوله : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ .

ولما كان بعد صلاة الجمعة . . جلس الشيخ زين الدين أبو الحسن علي بن نجا المصري علىٰ كرسي الوعظ بإذن السلطان ، فوعظ الناس موعظة بليغة ذرفت منها العيون ، ووجلت منها القلوب ، وكان وقتاً مشهوداً ، وحالاً محموداً ، فلله الحمد والمنة ، علىٰ ما أسبغ علينا من النعمة .

واستمر القاضي محيي الدين ابن الزكي يخطب بالناس أربع جمع ، ثم قرر السلطان للقدس خطيباً مستقلاً ، وأقام السلطان بالقدس الشريف إلىٰ أن تسلم جميع ما فيه من مال وسلاح وغير ذلك ، وأمر بإغلاق كنيسة قُمامة[1] ، وتفاوض العلماء عنده في إبقائها أو هدمها ، واستقر الرأي آخراً علىٰ إبقائها ؛ إذ لا فائدة في هدمها ؛ لأن النصارىٰ لا يتركون الحج إلىٰ هـٰذه البقعة ولو تركتها قاعاً صفصفاً ، وقد فتح هـٰذا البيت سيد المسلمين وأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في صدر الإسلام وأقرهم عليه ، ولم يأمر بهدمه ، فعند ذلك قال : لا يسعني إلا الاقتداء بأمير المؤمنين وسيد المسلمين عمرَ رضي الله عنه ، ولم يتعرض لهدمها ، لـٰكنه لم يترك بها من النصارىٰ سوىٰ أربعة ، وحال بين النصارىٰ وبينها ، وهدم المقابر التي كانت لهم عند باب الرحمة ، وعَفَّىٰ آثارها ، وهدم ما كان هناك من القباب .

---

(١) **قُمامة** : اسم امرأة نصرانية بنَتِ الكنيسة المشار إليها فسميت باسمها .

ثم إنه عمد إلى الأموال التي أخذها ، ففرقها علىٰ ذوي الاستحقاق ، وكانت شيئاً كثيراً ، فعذلوه في إنفاق جميع تلك الأموال ، فقال : كيف أمنع الحق عن مستحقيه وهـٰذا الذي أنفقه هو الذي أبقيه ؟! فإنه يخلصني من أداء الأمانة ، ويطلقني من وثاقها ، وإن الذي في يدي وديعة أحفظها لذوي استحقاقها .

فقيل له : لو تركت منه شيئاً لنائبة أو حادث ، فقال : إن الله عز وجل هو المؤمَّل لكل شدة وحادث .

وقد قيل مثل هـٰذا القول لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فكان جوابه بالمحل العالي ، وقد ذكرناه في ترجمته .

ثم إن السلطان جمع الأسارى المطلقين وكانوا ألوفاً من المسلمين ، فكساهم وأعطاهم وواساهم ، وأطلق كل واحد إلىٰ حيث شاء وأراد مِن ظُعن[1] وإقامة ، ورتب في قبة الصخرة إماماً ، ووقف عليها داراً وأرضاً وبستاناً ، وحمل إليها وإلىٰ محراب المسجد الأقصىٰ مصاحفَ وختماتٍ ورَبعاتٍ[2] لا تزال بين أيدي الزائرين على الكراسي .

ورتب للقبة وللبيت المقدس قَوَمَةً[3] برسم الخدمة ، وأرسل إلىٰ حلب لأجل المنبر الذي كان قد عمله الملك نور الدين رحمه الله في حياته لأجل بيت المقدس رجاء أن يفتح علىٰ يديه ، وكان منبراً عظيماً هائلاً ، فحمل إلىٰ بيت المقدس إعمالاً لنيّة نور الدين رحمه الله ، لـٰكن وضْعُه في البيت المقدَّس إنما كان علىٰ يد السلطان صلاح الدين ، فرحمهما الله[4] .

وتنافس الملوك من بني أيوب فيما يفعلونه من الخيرات ، ويؤثرونه من الآثار الجميلة وسائر وجوه المبرات ، فما منهم إلا من أحسن وأجمل بالله .

لقد أتى العادل أبو بكر بكل صنيع جميل ، وتقي الدين عمر بكل فعل جليل ، فمن جملة أفعاله المشكورة وآثاره المشهورة : أنه حضر يوماً في قبة الصخرة ومعه من ماء الورد أحمال ، ولأجل الصدقة أموال ، فانتهز فرصة هـٰذه الفضيلة التي ابتكرها ، وتولىٰ بيده كنس تلك الساحات والعِرَاص ، ثم غسلها بالماء مراراً حتىٰ تطهرت ، ثم أتبعها بماء الورد صباً

---

(١) **الظُّعُن** : الإبل التي عليها الهوادج .

(٢) **رَبعات** ـ جمع ربعة ـ : المصحف المجزأ ثلاثين جزءاً .

(٣) **قَوَمة** ـ جمع قوَّام ـ : المتولي للأمور والقائم بها .

(٤) وقد تعمد اليهود ـ أحفاد القردة والخنازير ـ إلىٰ حرق هـٰذا المنبر طمساً لهـٰذا الأثر وما يتبعه من التاريخ الخالد ، وذلك عند حرقهم المسجد الأقصىٰ في عام ١٩٦٩م ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

حتىٰ تعطرت ، وكذلك طهر حيطانها وغسل جدرانها ، ثم أتىٰ بمجامر الطيب ، فتبخرت وتضوعت[1] ، ثم فرق ذلك المال فيها علىٰ ذوي الاستحقاق .

وأما الأفضل نور الدين علي . . فإنه جاء بكل نور جلي وكرم ملي ، فبسط فيها البُسُط الرفيعة ، إلىٰ غير ذلك مما اعتمده من بناء أسوار القدس ، وحفر خنادقه ، وأعجز بما أعجب من سوابق المعروف ولواحقه .

وأما الملك العزيز عثمان : فإنه لما عاد إلىٰ مصر . . ترك خزانة سلاحه كلها بالقدس الشريف ، وكانت أحمالاً بأموال عظيمة .

وكان من جملة ما شرط على الفرنج أن يتركوا خيلهم وعُدَدهم للمسلمين .

وأما محراب داوود عليه الصلاة والسلام . . فإنه رتب له إماماً ومؤذنين وقُوّاماً ، وهو مزار الغادين[2] والرائحين ، وأمر بعمارة جميع المساجد .

وكان موضع هـٰذه القلعة دار داوود وسليمان عليهما الصلاة والسلام .

وفاوض السلطان العلماء والفقراء وسائر الرؤساء والأكابر في عمل مدرسة للشافعية ، وبناء رباط للصوفية ، فعين للمدرسة الكنيسة المعروفة بصندحنَّة عند باب أسباط ، وعين دار البطرك التي بقرب كنيسة قمامة للرباط ، ووقف عليهما أوقافاً جليلة ، فما أبْركَهما من مدرسة ورباط ، وارتاد أيضاً مدارس لباقي الطوائف ، إضافة إلىٰ ما أولاه من العوارف ، وتصدق يوم الرحيل عن القدس بمئتي ألف دينار .

ولما قرر السلطان بالقدس الشريف هـٰذه الأمور التي لا بد منها . . سافر في الخامس والعشرين من شعبان وأمر ولده العزيز بالرجوع إلىٰ مصر ، وسار العساكر إلىٰ صور ؛ لأنه كان قد تأخر فتحها من بين تلك النواحي ، وكان قد استحوذ عليها بعد وقعة حطين رجل من التجار يقال له : المركيس ، فحصنها وضبط أمرها ، وحفر حولها خندقاً من البحر إلى البحر .

وجاء السلطان بالعساكر ، فحاصرها مدة واستدعى الأسطول من مصر في البحر ، فأحاط بها براً وبحراً ، فعدت بعض الفرنج في بعض الليالي علىٰ خمس شواني[3] من الأسطول ،

---

(١) تضوعت : انتشرت .

(٢) في النسخ : (العابدين) ، والمثبت من « الروضتين » ، ولعله الصواب .

(٣) الشواني : هي سفن حربية كبيرة تشن الهجوم مجهزة بمدافع .

فأخذتها ، فأصبح المسلمون واجمين وقد دخل عليهم البرد ، وقلَّتْ أزوادهم ، وكثرت الجراحات ، وكَلَّ الأمراء من المحاصرات ، فسألوا من السلطان أن ينصرف بهم إلىٰ دمشق حتىٰ يستريحوا ، ثم يعودوا إليها ، فأجابهم إلىٰ ذلك بعد تمنُّع كبير ؛ وذلك أنه كان قد قرب فتحها ، فتوجه إلىٰ دمشق ، واجتاز في طريقه علىٰ عكا ، وتفرقت العساكر إلىٰ كل بلد .

وأما السلطان : فإنه لما وصل إلىٰ عكا . . نزل بقلعتها ، وأسكن ولده الأفضل برج الدَّاوية ، وجعل نائبها عز الدين جرديك ، وأشار عليه بعضهم بتخريب عكا خوفاً من عَود الفرنج إليها ، فكاد ولم يفعل ، وليته لو فعل ، ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ .

ثم إنه وكل بعمارتها بهاء الدين قراقوش النقري ، ووقف دار الاسبتار نصفين على الفقهاء والفقراء ، وجعل دار الأسقف بيمارستاناً ، ووقف علىٰ ذلك أوقافاً كثيرة ، وجعل الناظر في ذلك قاضيها ، وهو الشيخ جمال الدين ابن الشيخ أبي النجيب .

ولما فرغ من هـٰذه الحروب ، وأزال عن المسلمين تلك الكروب . . عاد إلىٰ دمشق مؤيداً منصوراً ، وقد أبهج العيون وسر القلوب ، وجاءته رسل الملوك بالتهاني من سائر الأقطار ، والتحف والهدايا من سائر الأمصار .

وكتب الخليفة إليه يعتب عليه في أمور :

منها : أنه بعث بشارة الفتح بحطين مع شاب بغدادي كان وضيعاً عندهم .

ومنها : أنه أرسل بفتح القدس الشريف مع نَجَّاب .

ومنها : أنه لقب نفسه بالملك الناصر مضاهاة للخليفة الناصر ، فتلقى الرسول بالبشر واللطف ، وأرسل يعتذر عما وقع بأن الحرب كانت قد شغلته عن التروي في كثير من الأمور ، وأما لقبه بالناصر . . فهو من أيام الخليفة المستضيء ، ومع ذلك فمهما لقبني به أمير المؤمنين . . فهو الذي لا يُعدَل عنه . وتأدَّب مع الخليفة غاية الأدب ، رحمه الله .

* * *

سنة أربع وثمانين [وخمس مئة]

في المحرم منها : حاصر السلطان حصن كوكب ، فرآه منيعاً صعباً ووقته مشغول بغيره مما هو أهم منه ، فوكل به الأمير صارم[1] الدين قايماز النجمي في خمس مئة فارس يضيقون

---

(١) في النسخ : (نجم الدين) ، والمثبت من « الروضتين » ، ولعله الصواب ؛ لأن نجم الدين توفي في سنة ثمان وستين وخمس مئة .

عليه المسالك ، وكذلك وكَّل بصفد خمس مئة فارس مع طغرل الجاندار[1] يمنعون وصول الميرة[2] إليه والتقاوي[3] ، وكانت للداوية .

وبعث إلى الكرك والشوبك جيشاً آخر يضيقون علىٰ أهله ويحاصرونهم ؛ ليتفرغ من أموره لقتال أهل هـٰذه الأماكن .

ودخل السلطان من هـٰذه الغزوة السعيدة إلىٰ دمشق في ربيع الأول ، فكان يوماً مشهوداً ، فرح به المسلمون ، وضربت البشائر ، وزينت دمشق ، ووجد الصفي بن القابض وكيل الخزانة قد بنىٰ بالقلعة داراً هائلة للسلطان ، فغضب عليه ، وعزله من وظيفته وقال : إنا لم نخلق للمقام بدمشق ، وإنما خلقنا للعبادة والجهاد .

وجلس بدار العدل ، ثم زار القاضي الفاضل ببستانه ، وحكىٰ له ما كان من الأمور ، واستشاره فيما يفعل من الغزوات والمهمات .

ثم سار من دمشق إلى البقاع ، وخيم علىٰ بعلبك ، ثم سار إلىٰ حمص وجاءته عساكر الجزيرة ، فسار إلى السواحل الشامية ، ففتح طرسوس وغيرها من الحصون ، وفتح جَبْلة واللاذقية ، وفتح صهيون ، وفتح قلعتين على العاصي ، وفتح حصناً آخر عظيماً فيه قلعة علىٰ شاهق جبل تحته أودية عميقة ، يضرب المثل بحصانته ، فحاصرها أشد حصار ، وركب عليها المنجنيقات الكبار ، وفرق الجيش ثلاث فرق تقاتل كل فرقة إلىٰ أن تتعب ، ثم تقاتل الفرقة الأخرىٰ ، حتىٰ لا يزال القتال مستمراً ليلاً ونهاراً ، فجاء فتحها في نوبة السلطان ، فأخذها عنوة ، واستولىٰ علىٰ جميع ما فيها من الحواصل والأموال ، وكان شيئاً كثيراً ، وقتل رجالها ، وسبىٰ ذراريها وأطفالها ، ثم عدل عنها ، ففتح حصن دَرْنسَاك ، وحصن بَغْرَاس .

ثم إنه سار إلىٰ أنطاكية ؛ لأنه كان قد أخذ ما حولها من القرىٰ ، فلما سمع صاحب أنطاكية . . طلب منه الهدنة علىٰ أن يطلق من عنده من أسارى المسلمين ، فأجابه السلطان

---

(١) في النسخ : (الخزندار) ، والمثبت من « الروضتين » ، ولعله الصواب ؛ لأن الجاندار هو المسؤول عن صنف من العسكر ، أما الخزندار . . فهو المسؤول عن الخزينة ، والجاندار : لفظ فارسي مركب من (جان) بمعنىٰ : سلاح ، و(دار) بمعنىٰ : ممسك ، فصارت : ممسك السلاح .

(٢) **الميرة** : الطعام .

(٣) **التَّقَاوِي** : بذور القطن والقمح والفول ونحوها مما يُبْذر في الأرض للزراعة .

إلىٰ ذلك ؛ لعلمه بضجر الجيش ، فوقعت الهدنة علىٰ سبعة أشهر ، وكان مقصود السلطان أن تستريح الجيوش من تعبها ، وتَجِمَّ النفوس من نَصَبها ، فأرسل السلطان إليه مَن تَسلَّم الأسارىٰ منه .

ثم سار السلطان ، فسأله ولده الظاهر أن يجتاز بحلب فأجابه ، ونزل بقلعتها ثلاث ليال ، ثم سار ، فاستقدمه ابن أخيه إلىٰ حماة فنزل بقلعتها ليلة ، وأقطعه جبلة واللاذقية ، ثم سار ، فنزل في قلعة بعلبك ، ودخل الحمَّام .

ثم عاد إلىٰ دمشق في أوائل رمضان ، ثم جاءته البشارة بفتح الكرك ، وأراح الله عز وجل تلك الناحية على السالكين من الحجاج وغيرهم .

ثم إن السلطان أقام بدمشق أياماً ، ثم سار بجيشه قاصداً فتح صفد وحصن كوكب وتلك البلاد ، فوصل إليها في العشر الأوسط من رمضان ، وحاصرها بالمنجنيقات ، وكان البرد شديداً ، [بحيث] يصبح الماء جليداً ، فما زال حتىٰ فتحها صلحاً ثاني شوال ، ثم راح إلىٰ صور ففتحها ، ثم إلىٰ حصن كوكب ، وكانت معدن الاسبتارية ، كما أن صفد كانت معقل الدَّاوية .

فحاصر قلعة كوكب حتىٰ قهرها ، وقتل مقاتلتها وأسرها ، وأراح المارة من شرها وكبتها ، وتمهدت تلك السواحل .

هـٰذا والسماء تصب ، والرياح تهب ، والسيول تعُب ، والأرجل في الأوحال تخب ، والسلطان في كل ذلك صابر محتسب ، وكان القاضي الفاضل معه في هـٰذه المواقف ، فكتب عن السلطان إلىٰ أخيه صاحب اليمن سيف الإسلام يستدعيه إلى الشام ، وأنه قد عزم علىٰ حصار أنطاكية بنفسه ، وأن تقي الدين يكون محاصراً طرابلس إذا انسلخ العام وعزم الفاضل على التوجه إلىٰ مصر .

فسار معه السلطان مودعاً له ، ثم سار إلى القدس الشريف ، فصلىٰ فيه الجمعة ، ثم سار معه أخوه العادل إلىٰ عسقلان ، ثم أقطع أخاه الكرك عوضاً عن عسقلان ، وأمره بالانصراف ؛ ليكون عوناً لابنه العزيز عثمان ، وعاد السلطان ، فأقام بعكا حتى انقضت السَّنة .

* * *

سنة خمس وثمانين [وخمس مئة]

فيها : قدم رسل من الخليفة يخبرونه بولاية العهد لابنه أبي النصر محمد الملقب بالظاهر ، فأمر السلطان خطيب دمشق أبا القاسم عبد الملك الدَّوْلَعي أن يذكره على المنبر ، ثم أرسل السلطان مع الرسل تحفاً وهدايا جليلة ، وأرسل بأسارىٰ من الفرنج علىٰ هيئتهم في حال حربهم ، وأرسل بصليب الصلبوت ، فدفن تحت عتبة باب النوبىٰ من دار الخلافة ، فكان يداس بعدما كان يقبل ويُباس ، ويُبصَق عليه بعدما كان يضعون جباههم عليه .

والصحيح : أن هـٰذا الصليب إنما هو الذي كان منصوباً علىٰ قبة الصخرة ، وكان من نحاس مطلياً بالذهب ، وقد انحط إلىٰ أسفل الرتب .

قصة عكا وما كان من أمرها

في رجب اجتمع من كان بصور من الفرنج ، وساروا إلىٰ عكا ، فأحاطوا بها يحاصرونها ، فتحصن من بها من المسلمين ، وأعدوا للحصار ما يحتاجون إليه ، وبلغ السلطانَ خبرُهم ، فسار إليهم من دمشق مسرعاً ، وما زال يمانعهم منها حتىٰ جعل طريقاً إلىٰ باب القلعة يصل إليه كل ما أراد من آلات وأمتعة ومُقاتِلة ورجال ، ودخل بنفسه الكريمة رحمه الله ، فارتقىٰ علىٰ سورها ، ونظر إلى الفرنج وجيشهم وكثرة عددهم وعُدَدهم ، والميرة تفد إليهم في البحر في كل وقت ، وكل يوم هم في ازدياد ، ثم عاد السلطان إلىٰ مخيمه وجيوش الإسلام تفد إليه من كل جهة ومكان .

وقعة مرج عكا

ثم وردت الفرنج في نحو من ألفي فارس وثلاثين ألف راجل في العشر الأخير من شعبان ، فبرز إليهم السلطان ، فاقتتلوا بمرج عكا قتالاً عظيماً ، وانهزم جماعة من المسلمين أول النهار ، ثم كانت الدائرة على الفرنج آخر النهار ، والعاقبة للمتقين ، فقتل من المسلمين نحو مئتين ، وقتل من الفرنج ما ينيف علىٰ سبعة آلاف .

ولما تمت هـٰذه الواقعة العظيمة . . انتقل السلطان من مكانه إلىٰ موضع آخر بعيد عن القتلىٰ ؛ لأجل الوخم والأذىٰ ، ولأجل استراحة الخيالة والخيل ، وما علم السلطان أن ذلك من أكبر مصالح العدو المخذول ؛ لأنهم اغتنموا هـٰذه الفترة ، فحفروا حول مخيمهم خندقاً يعم جيشهم من البحر إلى البحر محدقاً ، واتخذوا من ترابه سوراً شاهقاً ، وجعلوا له أبواباً

يخرجون منها متىٰ أرادوا ، وتمكّنوا في منزلهم ذلك .

وقوي الخطْب ، وصار الداء عضالاً ، وازداد الحال وبالاً ، وكان رأي السلطان أن يناجزوهم سريعاً ، وألاَّ يُتركوا حتىٰ يطيب البحر ، فتأتيهم الأمداد من كل صوب ، فاعتذر الأمراء بالملال والضجر ، وكلٌّ منهم لأمر الفرنج قد احتقر ، ولم يدر ما خيم في القدر .

فأرسل السلطان إلىٰ جميع الملوك يستنفر ويستنصر ، وكتب إلى الخليفة أيضاً ، فجاءته الأمداد من كل جهة ، وأرسل إلىٰ مصر يطلب أخاه يقدم عليه ويستعجل الأسطول .

فوصل إليه في خمسين قطعة في البحر مع الأمير حسام الدين لؤلؤ ، فحين وصل الأسطول . . حاذت مراكب الفرنج يمنة ويسرة عنه ، وخافت منه كل الخوف ، وصل إلى البلد الميرة والعَدد والعُدد ، وانشرحت الصدور بعد الضيق والكمد ، وانقضت هـٰذه السَّنة والحال علىٰ ما هو عليه ، ولا منجىٰ ولا ملجأ من الله عز وجل إلا إليه .

* * *

سنة ست وثمانين [وخمس مئة]

استهلت والسلطان محاصر[1] لمحاصري عكا ، وأمداد الفرنج تقدم عليهم من البحر في كل وقت ، حتىٰ إن نساءهم ليخرجن بنية القتال ، ومنهن مَن تأتي بنية إراحة العزبان في الغربة ، قدم إليهم مركب فيه ثلاث مئة امرأة حسناء بهـٰذه النية ، واشتهر الخبر بذلك ، ونودي أن ملك الألمان قد أقبل في نحو من ثلاث مئة ألف مقاتل من ناحية القسطنطينية قاصداً أخذ الشام وقتْل مَن فيه من أهله وملوكه انتصاراً لبيت المقدس .

فحمل المسلمون همّاً عظيماً ، وخافوا غائلة ذلك ، مع ما هم فيه من الشغل العظيم والحصار الهائل ، ولـٰكن . . لَطَفَ الله عز وجل بالمؤمنين ، وأهلك غالب جيش الألمان في الطرقات بالبرد والجوع والضلال في المهالك ، علىٰ ما سيأتي ذِكره إن شاء الله عز وجل .

وكان سبب نَفْر النصارىٰ لهـٰذا النفر العام : أن جماعة من الرهبان والقسوس ركبوا من صور في أربعة مراكب يطوفون البلدان البحرية يحثونهم على الانتصار لبيت المقدس وما جرىٰ علىٰ أهل السواحل ، وقد صوروا صورة المسيح عليه السلام وصورة رجل عربي يضربه ، فإذا سألوهم : مَن هـٰذا الذي يضرب المسيح ؟ قالوا : هـٰذا نبي العرب يضربه ،

---

(١) في « الروضتين » : (استهلت هـٰذه السنة وهو علىٰ مرابطة المحاصرين لعكا) .

وقد جرحه ومات ، فينزعجون لذلك انزعاجاً عظيماً ، ويحمَون ويخرجون من بلادهم لنصرة دينهم على الصعب والذلول ، حتى النساء المخدرات ، والأبناء الذين هم عند أهلهم من أعز الثمرات .

وفي نصف ربيع الأول تسلم السلطان شقيف أرنون بالأمان ، وكان صاحبه مأسوراً تحت الذل والهوان ، وكان من أدهى الفرنج وأخبرهم بأيام الناس ، وربما قرأ في كتب الحديث وتفسير القرآن ، وكان مع هـٰذا غليظ الجلد ، كافر القلب ، لعنه الله .

ولما انفصل الشتاء وأقبل الربيع . . جاءت الملوك من بلدانها بجيوشها وشجعانها ورجالها وفرسانها ، فأرسل الخليفة إلى السلطان أحمالاً من النفط والرماح الخطية ، ونفاطة[1] متقنين لهـٰذه الصناعة غاية الإتقان ، ومرسوماً بعشرين ألف دينار ، وانفتح البحر ، وتواترت الفرنج والنصارىٰ من كل جزيرة ينصرون إخوانهم ، ويمدونهم بالقوة والميرة .

وعملت الفرنج ثلاثة أبرجة من خشب وحديد ، عليها جلود مسقاة بالخل ؛ لئلا يعمل فيها النفط ، يسع البرج منها خمس مئة مقاتل ، وهي أعلىٰ من أبرجة البلد ، وهي مركَّبة علىٰ عجل بحيث يديرونها كيف شاؤوا ، علىٰ ظهر كل برج منها منجنيق كبير ، فأهمَّ أمرها المسلمين ، وكانوا عليها حنقين .

فأعمل السلطان فِكْره في إحراقها وإهلاكها ، فاستحضر النَّفَّاطين ، ووعدهم بالأموال الجزيلة ، فانتدب شاب نحَّاس من دمشق ، يعرف بعلي ابن عريف النحاسين ، والتزم بإحراقها ، فأخذ النفط الأبيض ، وخلط إليه أدوية عرفها ، وغلىٰ ذلك في ثلاثة قدور من نحاس ، حتىٰ صار ناراً تأجج ، ورمىٰ كلَّ برجٍ منها بقدر من تلك القدور بالمنجنيق من داخل عكا ، فاحترقت الأبرجة الثلاثة بإذن الله عز وجل حتىٰ صارت ناراً لها ألسنة في الجو متصاعدة .

فصرخ المسلمون صرخة عظيمة واحدة بالتهليل والتكبير ، واحترق في كل برج من مقاتليهم ما ينيف علىٰ تسعين كفوراً ، وكان يوماً على الكافرين عسيراً ، وذلك يوم الإثنين الثامن والعشرين من ربيع الأول من هـٰذه السَّنة .

وكانت الفرنج قد تعبوا فيها سبعة أشهر ، فاحترقت في يوم واحد بإذن الله سبحانه

---

(١) **النَّفَّاطة** : جمع نَفَّاط ، وهو : الخبير بحرفة النِّفَاطة ، حيث يصنع أدوات من النحاس يُرمىٰ فيها بالنفط والنار للإحراق .

وتعالىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ .

وطلب السلطان ذلك الشاب ، وعرض عليه أموالاً جزيلة ، وخلع عليه خلعاً جليلة مع العطية السنية الجميلة ، فامتنع من قَبول شيء من ذلك ، وقال : أنا إنما عملت هـٰذا ابتغاء لوجه الله عز وجل ، فلا أريد منكم جزاء ولا شكوراً . هنيئاً له رحمه الله ، لقد بذل الفاني القليل ، وتعوض بالباقي الجليل .

وأقبل الأسطول المصري وفيه الميرة الكثيرة لأهل البلد ، فعمر الفرنج أسطولهم ليحاربوا أسطول المسلمين ، فنهض السلطان بجيشه يشغلهم عن قتال الأسطول ، وقاتلهم أهل البلد أيضاً ، واقتتل الأسطولان في البحر ، فكان يوماً عظيماً وحرباً كبيراً براً وبحراً ، فظفرت الفرنج بشيني واحد من الأسطول ، وسلَّم الله عز وجل الباقي ، فوصل إلى البلد بما فيه من الميرة التي اشتدت حاجتهم إلىٰ عشرها .

وأما ملك الألمان المتقدم ذِكره . . فإنه أقبل في عدد كبير وجم غفير قريب من ثلاث مئة ألف لانتصار بيت المقدس ، وأخذه من أيدي المسلمين ، فما زال كلما مر ببلد بعد بلد . . يُتخطف جيشه في كل مكان ، ويُقتلون كما يقتل الحيوان حتى اجتاز ملكهم بنهر شديد الجريان ، فدعته نفسه إلى السباحة فيه ، فلما صار فيه . . حمله الماء إلىٰ جذم شجرة[1] فشجت رأسه ، وأخمدت أنفاسه ، وأراح الله عز وجل منه المسلمين ، وتعجلت روحه إلىٰ سِجِّين .

فأقيم ولده الصغير في الملك بعده ، وقد تمزق شملهم ، وقلَّت منهم العدة ، ثم أقبلوا لا يمرون ببلد . . إلا ويُقتلون فيه ويُتخطفون ، ولم يزالوا في نقص وقتل حتىٰ وصلوا إلىٰ أصحابهم المحاصِرين لعكا وهم في ألف فارس ، وليس لهم قدر ولا قيمة ، حتىٰ ولا عند أهل ملتهم ولا غيرهم .

وهـٰكذا سُنة الله عز وجل فيمن أراد مخالفة الإسلام وأهله في إهلاكه وتمزيق شمله ، ولله الحمد والمنة علىٰ إحسانه وفضله عدد عفوه عن خلقه .

وقال العماد في سياقه : إن الألماني وأصحابه وصلوا في خمسة آلاف ، وإن ملوك الفرنج كلهم كرهوا قدومه عليهم ؛ لأنه مشؤوم الطلعة ، يخافون من زوال دولتهم بدولته ، ولم يفرح به إلا صاحب صور الذي [هو] أصل هـٰذه الفتنة لعنه الله ؛ فإنه تقوَّىٰ به وبكيده ،

---

(١) جِذْم شجرة : أي أصلها .

وكان خبيراً بالحروب والقتال ، وقد أخذ شيئاً كبيراً من آلات الحرب لم يخطر لأحد ببال ، فصب دبابات أمثال الجبال تسير بعجل ، ولها زلوم حديد ينطح السور فيكسره ويثلم جوانبه .

فمَنَّ الله العظيم ـ وله الحمد أجمع ـ بإحراقها وإتلافها ، وأراح الله المسلمين من شرها ولله الحمد .

ونهض بالعسكر الفرنجي ، فصادم به جيش المسلمين ، وناصب بالحرب السلطان صلاح الدين ، فمَنَّ الله سبحانه بالنصرة عليه ، وتقدم الجيوش برمتها إليه ، فقتلوا من الكفار خلقاً كثيراً وجماً غفيراً ، وهجموا مرة على المخيم بغتة ، فنهبوا شيئاً من الأمتعة .

فنهض إليهم الملك العادل أبو بكر وكان رأس الميمنة ، فركب بأصحابه وأمهل الفرنج حتىٰ توغلوا بين الخيام ، ثم حمل عليهم بالرماح والحسام ، فهربوا من بين يديه ، فما زال يقتل منهم جماعة بعد جماعة وفرقة بعد فرقة حتىٰ قتل منهم فيما بين الظهر إلى العصر عشرة آلاف ، ولله الحمد ، ولم يقتل من المسلمين سوىٰ عشرة ، ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ، فالحمد لله علىٰ هـٰذه النعمة العظيمة والنصرة العميمة ، وقد أوهن هـٰذا الجيش الفرنج وأضعفه ، وكادوا يطلبون الصلح وينصرفون عن البلد .

فاتفق قدوم مدد عظيم إليهم مع ملك من ملوكهم ومعه أموال كثيرة ، فأنفق فيهم وعزم عليهم أن يخرجوا معه لقتال السلطان ، ونصب علىٰ عكا منجنيقين غُرِّم علىٰ أحدهما ألفاً وخمس مئة دينار ، فأحرقهما أهل البلد .

وجاءت كتب صاحب الروم من القسطنطينية تعتذر إلى السلطان صلاح الدين من جهة ملك الألمان ، وأنه لم يجاوز بلده باختياره ، وإنما جاوزه لكثرة جنوده ، ومع ذلك . . فليبشر السلطان بأن الله عز وجل سيهلكهم في كل مكان ، وكذلك وقع ، ولله الحمد والمنة .

وكتب متولي عكا إلى السلطان ـ وهو بهاء الدين قراقوش ـ في العشر الأول من شعبان يقول : إنه لم يبق عندنا من المؤونة إلا ما يكفي إلىٰ ليلة النصف .

فلما وصل الكتاب إلى السلطان . . كتمه ولم يبده لأحد خوفاً من شيوع ذلك .

وكان قد كتب إلىٰ أمير الأسطول بمصر ليقدم بميرة كثيرة إلىٰ عكا ، فتأخر سيره ، ووصلت ثلاث بطس[1] ليلة النصف فيها من الميرة ما يكفي أهل البلد طول الشتاء ، وهي في

---

(١) بُطُس : جمع بطسة وهي : مركب للحرب أو للتجارة من أصل إسباني .

صحبة الأمير الحاجب لؤلؤ ، فلما أشرفت على الناس . . تقدم إليها أسطول الفرنج ، واقتتلوا في البحر قتالاً عظيماً ، والمسلمون في البر يتضرعون إلى الله عز وجل ، وقد ارتفع الضجيج والدعاء ، فنصر الله عز وجل عباده المؤمنين ، وسلَّم مراكبهم فسارت ، واحترقت المراكب الفرنجية المحيطة بالميناء ، ودخلت [مراكب المسلمين] البلد سالمة ، ففرح بها أهل البلد والجيش فرحاً عظيماً ، ولله الحمد .

وكان السلطان قد جهز قبل هـٰذه الثلاث بطس المصريات بطسة عظيمة من بيروت فيها أربع مئة غِرَارة[1] من الخبز ، والبصل ، والشحم ، والقديد ، والنشاب ، والنفط .

وكانت هـٰذه البطسة من بطس الفرنج المغنومة ، وأمر من فيها من البحارة أن يتزايَوْا بزي الفرنج ، حتىٰ إنهم حلقوا لحاهم ، وشدوا الزنانير في أوساطهم ، واستصحبوا معهم في البطسة شيئاً من الخنازير ، وقدموا بها علىٰ مراكب الفرنج ، فاعتقد الفرنج أنهم منهم ، وهي سائرة كأنها السهم إذا خرج من الرمية .

فحذرهم الفرنج غائلة الميناء من ناحية المسلمين ، فاعتذروا بأنهم قد غلبوا معها ، والريح قوية لا يمكنهم أن يقفوا ولا ينصرفوا ، وما زالوا كذلك حتىٰ وصلوا إلى الميناء ، وأفرغوا ما كان معهم من الميرة ، فعبرت الميناء وعين الكفر عَبْرَىٰ ، وامتلأ الثغر بها خيراً وسروراً وأثرىٰ .

وكان ميناء البلد يكتنفها برجان يقال لأحدهما : برج الذُّبَّان ، فاتخذ الفرنج بطسة عظيمة لها خرطوم وفيه حركات ، إذا أرادوا أن يضعوه علىٰ شيء من الأسوار والأبرجة . . قلبوه ، فوصل إلىٰ ما أرادوا ، فعظم أمر هـٰذه البطسة على المسلمين ، ولم يزالوا في أمرها محتالين حتىٰ أرسل الله عز وجل عليها شواظاً من نار فأحرقها وغرّقها ، وذلك أن الفرنج أعدوا فيها نفطاً عظيماً وحطباً جزلاً ، فأصابت النار شيئاً من الحطب والنفط ، فاضطرمت ناراً ، ولله الحمد والمنة علىٰ هـٰذه النعمة .

وذلك لأنه كان للفرنج بطسة أخرىٰ لهم مقاتلة فيها ، فلما أرسلوا النفط علىٰ برج الذُّبَّان . . انعكس الأمر عليهم بقدرة الرحمـٰن ، وذلك لشدة الهواء في تلك الليلة ، فوصلت النار إلىٰ بطستهم ، فاحترقت ووصل الحريق إلى الأخرىٰ فغرقت ، ووصل إلىٰ بطسة

---

(١) الغِرَارة : وعاء من الخيش يوضع فيه القمح ونحوه .

المقاتلة فتلفت ، وهلكت بجميع من فيها ، فساوىٰ حالهم حال من سلف من أهل الكتاب الكافرين ، الذين قال الله عز وجل في حقهم في كتابه المبين : ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وفي ثالث رمضان اشتد حصار الفرنج للبلد ، حتىٰ نزلوا إلى الخندق ، فبرز إليهم أهل البلد ، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، وتمكنوا من حريق الكبش[1] الذي أعدوه لحصار الأسوار ، وسرىٰ حريقه إلى السفود ، فارتفعت له لهبة عظيمة في عَنان السماء ، ثم اجتذبه المسلمون إليهم بكلاليب من حديد في سلاسل ، فحصَّلوه عندهم ، وألقوا عليه الماء فبرد بعد أيام ، فكان فيه من الحديد مئة قنطار بالدمشقي ، ولله الحمد والمنة .

وفي الثامن والعشرين من رمضان توفي الملك زين الدين صاحب إربل ، وكان مع السلطان علىٰ عكا ، فتأسف الناس والسلطان عليه لشبابه ، وغربته ، وجودته ، وشجاعته ، وشهامته ، وسخائه ، وفضله ، وعُزِّيَ أخوه مظفر الدين فيه ، وهو الذي قام في الملك بعده ، وسأل السلطان أن يضيف إليه شهرزور وينزل حران والرُّها وسميساط وغيرها ، ويحمل مع ذلك خمسين ألف دينار نقداً ، فأجيب إلىٰ ذلك ، وكتب له تقليداً ، وعقد له لواءً .

وأضيف ما تركه من البلاد المذكورة إلى الملك المظفر تقي الدين عمر ابن أخي السلطان ، ووصل كتاب القاضي الفاضل من مصر إلى السلطان ، فيه : أن سبب هـٰذا التطويل في الحصار إنما هو بسبب كثرة الذنوب ، وارتكاب المحارم من الناس .

ويقول في بعضها : إن الله عز وجل لا يُنال ما عنده إلا بطاعته ، ولا تفرج الشدائد إلا بالرجوع إليه والامتثال لشريعته ، والمعاصي في كل مكان ثاوية ، والمظالم في كل موضع فاشية .

وفيه : أنه قد بلغه أن بيت المقدس قد ظهر فيه من المنكرات والفواحش والظلم في بلاده ما لا يمكن تلافيه إلا بكلفة كثيرة ، وكان قد حصل للسلطان في هـٰذه السَّنة سوء مزاج وضُعف من كثرة ما كابده من الأمور التي هي أمرُّ من العلقم ، فطمع العدو المخذول ـ لعنهم الله ـ في الإسلام ، فتجرد منهم جماعة للقتال ، وثبت آخرون على الحصار ، وأقبلوا

---

(١) الكبش : آلة حربية من العصر الإسلامي المتأخر ، لها رأس ضخم وقرنان ، يدفعها الجنود نحو الأسوار لنقبها .

في عدد كثير ، فرتب السلطان الجيوش المنصورة يمنة ويسرة وقلباً وجناحين .

فلما رأوا ما عاينوا من تلك الجيوش الإسلامية . . فروا عن آخرهم من موقف الحرب ، وحادوا عن حومة الوغىٰ ، فلحقهم المسلمون ، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وجماً غفيراً ، ولله الحمد والمنة .

ولما دخل فصل الشتاء . . سارت مراكب الفرنج عن البلد خوفاً من الهلاك بسبب اعتلائهم البحر ، وسأل المسلمون الذين في البلد من السلطان أن يريحهم مما هم فيه من الحصر العظيم ، والمقاتلة ليلاً ونهاراً ، وصباحاً ومساءً ، سراً وجهراً ، وأن يرسل إلى البلد بدلهم ، فرقَّ لهم السلطان ، وعزم علىٰ ذلك ، وكانوا قريباً من عشرين ألف مسلم ما بين أمير ومأمور ، فجهز جيشاً آخر غيرهم .

قالوا : ولم يكن ذاك بالرأي الجيد ، ولٰكن ما قصد السلطان إلا خيراً ، وهو أن هـٰؤلاء يدخلون البلد ولهم همم جديدة وعزم قوي ، وهم في راحة بالنسبة إلىٰ أولٰئك ، ولٰكن أولٰئك قد صارت لهم خبرة بالبلد وبالقتال ، ولهم صبر عظيم ، وقد عرفوا ما هم فيه من مصابرة الأعداء براً وبحراً .

وجُهزت لهـٰؤلاء الداخلين سبع بطس فيها ميرة كثيرة تكفيهم سَنة كاملة ، فقدَّر الله عز وجل ـ وله الأمر من قبل ومن بعد ـ أنها لما توسطت البحر واقتربت من الميناء . . هاجت ريح عظيمة في البحر ، فتلعبت بتلك البطس علىٰ عظمها ، فاختبطت واضطربت وتصادمت ، فتكسرت وغرقت ، وغرق جميع ما كان فيها من الميرة والرجال البحارة .

فدخل على المسلمين بسبب ذلك همٌّ كبير ووهن كثير ، واحتد مرض السلطان ، وازداد مرضاً إلىٰ مرضه ، وكان ذلك عوناً علىٰ أخذ البلد ـ كما سيأتي ذِكره ـ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وكان المقدم على البدل الداخلين إلىٰ عكا سيف الدين علي بن أحمد المشطوب .

وفي يوم السابع من ذي الحجة سقطت ثلمة عظيمة من سور عكا ، فبادر الفرنج إليها ، فسبقهم المسلمون إلىٰ سدها بصدورهم وقاتلوا عنها بنحورهم ، وما زالوا يمانعون عنها حتىٰ بنوها أشد مما كانت وأقوىٰ وأحسن .

ووقع في هـٰذه السَّنة وباء عظيم في المؤمنين والكافرين ، فكان السلطان يقول في ذلك :

اقتلـــونـــي ومـــالكـــاً واقتلـــوا مـــالكـــاً معـــي[1]

ومات ابن ملك الألمان ـ لعنهما الله ـ في ثاني ذي الحجة من هـٰذه السَّنة وجماعة كثيرة من أكابر الفرنج ، فحزن الفرنج على ابن ملك الألمان حزناً عظيماً ، وأوقدوا ناراً عظيمة من كل خيمة ، وصار في كل يوم يهلك من الفرنج المئة والمئتان ، واستأمن إلى السلطان جماعة منهم من شدة ما هم فيه من الجوع والضيق والحصر ، وأسلم خلق كثير منهم ، ولله الحمد والمنة .

وفي هـٰذا الشهر قدم القاضي الفاضل من مصر على السلطان ، وكان قد طال شوق كل واحد منهما إلىٰ صاحبه ، فأفضىٰ كل واحد منهما إلى الآخر ما كان يسره ويكتمه من الآراء التي فيها مصالح المسلمين .

وقد كان القاضي الفاضل بالديار المصرية يدبر الممالك بها ، ويجهز إلى السلطان ما يحتاج إليه من الأموال والنفقات ، وعمل الأسطول وما يحتاج إليه من محصول ، والكتب السلطانية واردة إليه في كل حين ، يستشيره فيما يصلح به أمر المسلمين ، وكذلك الكتب الفاضلية قادمة على السلطان في كل حين وأوان .

* * *

سنة سبع وثمانين [وخمس مئة]

استهلت والحصار قائم علىٰ عكا في حالة من الجانبين ، وقد استكمل دخول البدل إلى البلد ، والملك العادل مخيم إلىٰ جانب البحر ؛ ليتكامل دخولهم ودخول ميرتهم وما يحتاجون إليه .

وفي مستهل ربيع الأول خرج المسلمون من عكا ، فهجموا علىٰ مخيم الفرنج ، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، وأخذوا شيئاً كثيراً ، وسبوا اثنتي عشرة امرأة ، وانكسر مركب عظيم للفرنج ، فغرق فيه خلق منهم ، وأسر باقيهم ، وأغار صاحب حمص علىٰ سرح الفرنج بطرابلس ، فاستاق منه شيئاً كبيراً من الخيل والبقر والغنم ، وظفر الترك بخلق كثير من

---

(١) البيت لسيدنا عبد الله بن الزبير رضي الله عنه ، وكان من قصته : أنه اقتتل مع الأشتر يوم الدار وتعاركا ، فاتحدا وصرع الأشتر ابن الزبير ، فلم يتمكن من القيام عنه ، بل احتضنه ابن الزبير وجعل ينادي :

اقتلـــونـــي ومـــالكـــاً واقتلـــوا مـــالكـــاً معـــي

فجعل الناس لا يعرفون مالكاً من هو ، وإنما هو الأشتر ؛ إذ اسمه : مالك بن الحارث بن الأشتر ، وهو معروف بالأشتر ، وغدا كلامه بعد هـٰذا مثلاً يقوله كل من أراد بصاحبه مكروهاً وإن ناله منه ضرر .

الفرنج ، فقتلوهم ولم يقتل من المسلمين غير طواشي[1] صغير عثر به فرسه .

وفي ثاني عشر ربيع الأول وصل ملك الفرنج إفرنسيس في ست بطس ملعونة مشحونة بعبدة الصليب ، وحين وصل إليهم وقدم عليهم . . لم يبق لأحد معه من ملوكهم كلام ، وذلك لعظمته عندهم ، وقدم معه باز عظيم أبيض ، وهو الأشهب ، هائل ، فطار من يده ، فسقط علىٰ سور عكا ، فأمسكه أهلها وبعثوه إلى السلطان[2] ، فبذل الفرنج فيه ألف دينار ، فلم يجابوا ، وقدم بعده شخص آخر من أكابر ملوكهم أيضاً ، ووصلت سفن ملك الإنكليز ، ولم يقدم هو ؛ لاشتغاله بجزيرة قبرص ، وأخذها من يد صاحبها .

وتواصلت ملوك الإسلام من بلدانها في أول فصل الربيع إلىٰ خدمة السلطان ، وكان للمسلمين لصوص يدخلون إلىٰ خيام الفرنج ، فيسرقون ، حتىٰ إنهم يسرقون الرجال .

فاتفق أن بعضهم أخذ صبياً رضيعاً من مهده ابن ثلاثة أشهر ، فوجدت أمه عليه وجداً شديداً ، واستبكت إلىٰ ملوكهم ، فقالوا لها : إن سلطان المسلمين رحيم القلب ، وقد أذِنَّا لك أن تذهبي فتشتكي أمرك إليه ، فجاءت إلى السلطان ، فبكت بكاء شديداً ، وجعلت تمرغ وجهها على الأرض ، فسأل عن أمرها ، فأنهت إليه حالها ، فرقَّ لها رقة شديدة حتىٰ دمعت عينه ، وأمر بإحضار ولدها ؛ فإذا هو قد بيع في السوق ، فرسم بدفع ثمنه إلى المشتري ، ولم يزل من مجلسه حتىٰ أحضر الغلام ، فدفعه إليها ، فأخذته ، فأرضعته ساعة وهي تبكي من شدة فرحها وشوقها إليه ، ثم أمر بحملها إلىٰ خيمتها علىٰ فرس ، رحمه الله ، وبلَّ بِوابل الرحمة والرأفة ثراه .

فصل

في كيفية أخذ العدو المخذول مدينة عكا من يد السلطان قسراً

لما كان شهر جمادى الأولى اشتد حصار الفرنج ـ لعنهم الله ـ لعكا ، وتمالَؤُوا عليها من كل فج عميق ، وقدم عليهم ملك الإنكليز في جم غفير ، وجمع كثير في خمسة وعشرين قطعة مشحونة بالمقاتلة ، وملأ الثغر منه ببلاء لا يشبه ما قبله .

---

(١) **الطواشي** : لفظ فارسي تركي ، معناه : مخصي ، ودخل العربية في العصر الإسلامي المتأخر ؛ ليصبح لقباً للخصي المملوك الذي كان يستخدم في القصور السلطانية ضمن أجنحة الحريم .

(٢) في النسخ : (وبعثوه إلى الفرنج) ، ولعله وهم من الناسخ ، والمثبت من « الروضتين » .

فعند ذلك حُرِّكت الكوسات[1] في البلد ، وكانت علامة بينهم وبين السلطان ، فحرك السلطان كوساته ، واقترب من البلد ، وتحول إلىٰ قريب منهم ليشغلهم عن البلد ، وقد أحاطوا به من كل مكان ، ونصبوا عليه من المنجنيقات سبعة ، وهي تضرب في البلد ليلاً ونهاراً ، فأثرت فيه أثراً بيناً ، وشرعوا في ردم الخندق بما أمكنهم من دواب ميتة ، وبمن قتل منهم ومات أيضاً .

وقابلهم أهل البلد ينقلون ما ألقوه فيه إلى البحر ، وظفر ملك الإنكليز ببطسة عظيمة للمسلمين قد أقبلت من بيروت مشحونة بالأمتعة والأسلحة ، فأخذها ، وكان واقفاً في البحر في أربعين مركباً لا يترك شيئاً يصل إلى البلد بالكلية ، لعنه الله .

وكان فيها ست مئة من المقاتلة الصناديد الأبطال ، فهلكوا عن آخرهم ؛ لأنهم لما أحيط بهم من الجوانب كلها وتحققوا إما الغرق أو القتل . . خرقوها من جوانبها كلها ، فغرقت ولم تقدر الفرنج علىٰ أخذ شيء منها ، لا من الميرة ولا من الأسلحة ، وحزن المسلمون علىٰ هـٰذا المصاب حزناً شديداً ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

ولـٰكن الله عز وجل جبر هـٰذا البلاء بلطفه وكرمه ، بأن أَقْدَرَ المسلمين علىٰ إحراق دبابة للفرنج كانت أربع طبقات ، الأولىٰ من خشب ، والثانية من رصاص ، والثالثة من حديد ، والرابعة من نحاس ، وهي مشرفة على السور ، والمقاتلة فيها ، وقد قلق أهل البلد منها ، بحيث إنهم خوفاً من شرها حدثتهم أنفسهم بأن يطلبوا الأمان من الفرنج ويسلموا البلد ، ففرج الله عنهم ، وأمكنهم من إحراقها ، واتفق وقوع ذلك في اليوم الذي غرقت فيه البطسة المذكورة ، فأرسل أهل البلد إلى السلطان يشكون إليه كثرة الحصار وقوته عليهم منذ قدم ملك الإنكليز ، لعنه الله .

ومع هـٰذا فقد مرض وجرح ملك الإفرنسيس أيضاً ، وما يزيدهم إلا شدة وغلظة ، وعتواً ونفوراً ، وفارقهم المركيس وسار إلىٰ بلده صور خوفاً منهم أن يخرجوا مُلكها من يده .

وبعث ملك الإنكليز إلى السلطان صلاح الدين يذكر أن عنده جوارح قد جاء بها من البحر ، وهو علىٰ نية إرسالها إليه ، ولـٰكنها قد ضعفت ، وهو يطلب لها دجاجاً لتتقوىٰ به .

فعرف السلطان أنه إنما يطلب ذلك لنفسه يتلطف ، فأرسل إليه بشيء من ذلك كرماً

---

(١) **الكُوسات** : الطبول ، وفسرها بعضهم بأنها صنوج من نحاس شبه الترس الصغير ، يدق بإحداها على الآخر .

وسجية وحشمة ، ثم أرسل يطلب فاكهة وثلجاً ، فأرسل إليه أيضاً ، فلم ينفع معه الإحسان ، بل لما عوفي . . عاد إلىٰ شر مما كان عليه .

واشتد الحصار ليلاً ونهاراً ، وأرسل الذين في البلد يقولون للسلطان : إن لم تعملوا معنا غداً شيئاً وإلا . . طلبنا من الفرنج الأمان ، فشق ذلك على السلطان أمراً عظيماً ، وذلك أنه كان قد جعل فيها أسلحة الشام ومصر وسائر السواحل ، وما بقي مما غنمه من وقعة حطين ومن بيت المقدس ، وهي مشحونة بذلك ، فعزم السلطان علىٰ مهاجمة العدو .

فلما أصبح . . ركب في جيشه ، فرأى الفرنج قد ركبوا من وراء خندقهم ، والرَّجَّالة منهم قد ضربوا سوراً حول الفرسان ، وهم قطعة حديد صَمَّاءُ لا ينفذها شيء ، فأحجم عنهم ؛ لِمَا يعلم من ملال جيشه وصدهم عما يريده .

هـٰذا وقد اشتد الحصار بالبلد جداً ، ووصلت الرَّجَّالة منهم إلى الخندق ، وعلقوا بَدَنةً من السور وحشوها وأحرقوها[1] فسقطت ، ودخلت الفرنج إلى البلد ، فمانعهم المسلمون وقاتلوهم أشد القتال ، وقتلوا من أكابرهم ستة أنفس ، فاشتد حنق الفرنج عليهم جداً بسبب ذلك ، وجاء الليل ، فحال بين الفريقين .

فلما أصبح الصباح . . جاء أمير المسلمين بالبلد ، فاجتمع بملك الإفرنسيس ، وطلب منه الأمان علىٰ أنفسهم ، ويتسلمون منه البلد ، فلم يجبه إلىٰ ذلك ، وقال : بعدما سقط السور جئتَ تطلب الأمان ؟! فأغلظ له الأمير في الكلام ، ورجع إلى البلد في حالٍ الله بها عليم .

ولما أخبر أهل البلد بما وقع . . خافوا خوفاً شديداً ، وأرسلوا إلى السلطان يعلمونه بما وقع ، فأرسل إليهم أن يسرعوا الخروج من البلد في البحر ، ولا يتأخروا عن هـٰذه الليلة ، فلا يبقىٰ بها مسلم ، فما أصبح إلا والخبر عند الفرنج من مملوكَين صغيرين سمعا بما رسم به السلطان ، فهربا إلىٰ قومهما ، فأخبروهم بذلك ، فاحتفظوا على البحر احتفاظاً عظيماً ، فلم يتمكن أحد من أهل البلد أن يتحرك بحركة ، ولا خرج منها شيء بالكلية .

وعزم السلطان علىٰ كبس العدو في هـٰذه الليلة ، فلم يوافقه الجيش علىٰ ذلك ، وقالوا : لا نخاطر بالإسلام كله .

فلما أصبح . . بعث إلىٰ ملوك الفرنج يطلب منهم الأمان لأهل البلد علىٰ أن يطلق عدتهم

---

(١) جاء في « الروضتين » : (وتمكن العدو من الخنادق ، فملؤوها ، ونقبوا سور البلد ، وحشوه وأحرقوه) .

من الأسرى الذين تحت يده من النصارىٰ ، ويزيدهم علىٰ ذلك صليب الصلبوت ، فأبوا إلا أن يطلق كل أسير تحت يده ، ويعيد إليهم جميع البلاد الساحلية التي أخذت منهم حتىٰ بيت المقدس ، فأبىٰ ذلك ، وترددت المراسلات في ذلك .

والحصار يتزايد علىٰ أسوار البلد ، وقد تهدمت ثُلَم كثيرة ، وأعاد المسلمون كثيراً منها ، وسدوا ثغر تلك الأماكن بنحورهم ـ رحمهم الله ورضي عنهم ـ وصبروا صبراً عظيماً ، وصابروا ، ثم كان آخر أمرهم إلى الشهادة صبراً ، وقد كتبوا إلى السلطان في آخر أمرهم يقولون : يا مولانا ؛ لا تخضع لهـٰؤلاء الملاعين الذين قد أبوا عليك الإجابة فينا ، فنحن قد بايعنا الله عز وجل على الجهاد حتىٰ نقتل عن آخرنا ، وبالله المستعان ، فما أسعد هـٰذه الصفقة! وما أربح هـٰذا البيع! هنيئاً لهم رحمهم الله .

فلما كان وقت الظهر من اليوم السابع عشر من جمادى الآخرة من هـٰذه السَّنة . . لم يشعر الناس إلا وقد ارتفعت أعلام الكفر وصلبانه وشعاره وناره علىٰ أسوار البلد ، وصاح الفرنج صيحة واحدة ، فعظمت المصيبة على المسلمين ، واشتد الحزن على المؤمنين ، وقالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون ، وأصاب الناسَ بهتة عظيمة وغشية وحيرة شديدة ، ووقع في العسكر الصياح والعويل ، والبكاء والنحيب ، ودخل المركيس ـ لعنه الله ـ وقد عاد إليهم سريعا بهدايا إلىٰ ملوكهم ، فدخل في هـٰذا اليوم بأربعة أعلام للملوك ، فنصبها في البلد واحداً على المئذنة يوم الجمعة ، وآخر علىٰ برج الدَّاوية ، وآخر علىٰ برج القتال ، وآخر على القلعة عوضاً عن أعلام السلطان ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وحبس المسلمين الذين بها في ناحية من البلد محتاط بهم ، ومضيق عليهم ، قد أسرت النساء والأبناء ، وغنمت منهم الأموال ، وقيدت منهم الأبطال ، وأهين الرجال ، ولـٰكن الحرب سجال ، والحمد لله علىٰ كل حال .

وأمر السلطان الجيش بالتأخر عن هـٰذه المنزلة إلى التي بعدها ، وتأخر هو جريدة[1] ؛ لينظر ماذا يصنعون ، وماذا عليه يعولون ، وهم ـ عليهم لعائن الله تترىٰ ـ مشغولون بالاستيلاء على البلد ، وبتحصيل الأموال جملة وتفصيلاً مدهوشون .

ثم سار إلى العسكر وعنده من الحزن والهم ما لا يعلمه إلا الله عز وجل ، وجاءت الملوك الإسلامية والأمراء وأكابر الدولة يعزونه بما وقع ، ويسلونه عما عنه الحال انقشع ، وهو في

---

(١) الجريدة : كتيبة مقاتلة ليس فيها رجَّالة ، ولا دروع ثقيلة للفرسان .

حالٍ الله بها عليم ، ويقول في ذلك : ما ثم إلا الرضا والتسليم لأمر العزيز العليم ، إنا لله وإنا إليه راجعون .

ثم أرسل إلىٰ ملوك الفرنج في خلاص مَن بأيديهم مِن أسراء المسلمين ، فطلبوا منه عدتهم من أسراهم ، ومئة ألف دينار ، وصليب الصلبوت إن كان باقياً ، فأجاب إلىٰ ذلك ، فأحضر المال والصليب ، ولٰكن لم يتهيأ له من الأسارىٰ إلا ست مئة أسير .

فطلب الفرنج منه أن يريهم الصليب من بعيد ، فلما رفع لهم . . سجدوا له ، وألقوا أنفسهم إلى الأرض ، وبعثوا يطلبون منه ما أحضره من المال والأسارىٰ والصليب ، فامتنع حتىٰ يرسلوا مَن بأيديهم مِن الأسارىٰ ، أو يبعثوا إليه برهائن عنده علىٰ ذلك خشية غدرهم ، فقالوا : لا ، ولٰكن يرسل هو أولاً ذلك ، ويرضىٰ بأيماننا ، ففهم منهم إرادة الغدر والمكر ، فلم يرسل إليهم ، وأمر بردِّ الأسارىٰ إلىٰ أهاليهم بدمشق ، وبعث بالصليب إلىٰ دمشق مهاناً .

وبرَّزت الفرنج ـ لعنهم الله ـ خيامهم إلىٰ ظاهر البلد ، وأحضروا ثلاثة آلاف من المسلمين ، فأوقفوهم بعد العصر ، وحملوا عليهم حملة رجل واحد ، فقتلوهم في صعيد واحد ، رحمهم الله تعالىٰ ورضي عنهم ، وأكرم نزلهم ومثواهم ، وجعل جنة الفردوس منقلبهم ومأواهم .

ولم يستبقوا بأيديهم من أسرى المسلمين إلا من يرونه في عملهم قوياً ، أو امرأة أو صبياً ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً ، ولو شاء ربك ما فعلوه .

وكان مدة مقام السلطان ـ رحمه الله ـ علىٰ عكا ـ صابراً مصابراً مرابطاً ـ سبعة وثلاثين شهراً ، وجملة من قتل من الفرنج خمسين ألفاً في هٰذه المدة .

* * *

فصل

فيما جرىٰ من الحوادث بعد أخذ الفرنج لعكا

وهو أنه سار الفرنج برمتهم قاصدين عسقلان ، والسلطان بجيشه يسايرهم ويعارضهم منزلة منزلة ، ومرحلة مرحلة ، والله عز وجل يحميه وجيشَه منهم ، والمسلمون يتخطفونهم ويسلبونهم في كل مكان ، وكل أسير يؤتىٰ به إلى السلطان ، فيأمر بقتله في ذلك المكان حال الأذان ، وجرت بين الجيشين وقعات متعددات ، وخطوب كثيرة .

ثم طلب الإنكلتير أن يجتمع بالملك العادل أخي السلطان يطلب منه الصلح والأمان علىٰ أن تعاد إلىٰ أهلها بلاد الساحل ، فقال له العادل : إن دون ذلك قتل كل فارس منكم وراجل ، فغضب اللعين ونهض من عنده وهو مغضب .

ثم اجتمعت الفرنج علىٰ حرب السلطان عند غابة أرسوف ، فكانت النصرة للمسلمين والحمد لله رب العالمين ، فقتل منهم عند غابة أرسوف عدة ألوف بعد ألوف ، وقتل من المسلمين أيضاً خلق كثير .

وقد كان الجيش فرَّ عن السلطان في أول الوقعة ، ولم يبق معه سوىٰ سبعة عشر مقاتلاً ، وهو ثابت صابر ، والكوس تدق لا تفتر ، والأعلام منشورة ، ثم تراجع الناس ، وكانت النصرة للمسلمين والكسرة على الكافرين .

ثم تقدم السلطان بعساكره ، فنزل ظاهر عسقلان ، فأشار ذو الرأي على السلطان بتخريب عسقلان خشية أن يتملكها الكفار ، ويجعلونها وسيلة إلىٰ أخذ بيت المقدس صانه الله تعالىٰ ، وأن يجري عنده من القتال مثل ما جرىٰ عند عكا .

فبات السلطان ليلته تلك مفكراً في ذلك ، فلما أصبح . . أوقع الله عز وجل في قلبه أن ذلك هو المصلحة ، فقال لمن حضره : والله ؛ لَموت جميع أولادي أهون عليَّ من تخريب حجر واحد منها ، ولٰكن إذا كان فيه مصلحة المسلمين . . فلا بأس .

ثم طلب الولاة وأمرهم بتخريب البلد سريعاً قبل وصول العدو المخذول ، فشرع الناس في خرابه ، وأهله ومَن حضره يبكون علىٰ حسنه ، وطيبة مقيله ، وكثرة زرعه وثماره ، ونضارة أنهاره وأزهاره ، وألقيت النيران في أرجائه وجوانبه ، وخربت قصوره ودوره ورحابه ، وأتلف ما فيه من الغلات التي لا يمكن تحويلها ولا نقلها ، ولم يزل الخراب والحريق فيه إلىٰ سلخ شعبان من هٰذه السَّنة .

ورحل منها السلطان في رمضان ، وقد تركها قاعاً صفصفاً ليس فيها مغنم لأحد ، ثم اجتاز بالرملة ، فهدم حصنها ، وخرب كنيسة لد ، وزار بيت المقدس ، وعاد إلى المخيم سريعاً ، تقبل الله منه .

ثم بعث ملك الإنكليز إلى السلطان يقول له : إن الأمر قد طال ، وهلك الفرنج والمسلمون ، وإنما مقصودنا ثلاثة أشياء لا سواها : رد الصليب ، وبلاد الساحل ، وبيت المقدس ، لا نرجع عن هٰذه الثلاث ومنَّا عينٌ تطرف .

فأرسل إليه السلطان جوابَ ذلك أشد جوابٍ وأسوأ خطاب .

ثم عزمت الفرنج ـ خذلهم الله ـ علىٰ أخذ بيت المقدس ، فتقدم السلطان بجيشه إلىٰ بيت المقدس ، فنزله وسكن في دار الأقساء[1] قريباً من قُمامةَ في ذي القعدة ، وشرع في تحصينه وتعميق خنادقه ، وعمل هو فيه بنفسه وأولاده والأمراء والقضاة والعلماء والصوفية بأنفسهم ، وكان وقتاً مشهوداً ، واليَزَك[2] في البلد من ناحية الفرنج ، وفي كل وقت يستظهر المسلمون على الفرنج ، فيقتلون منهم ويأسرون ويغنمون منهم ، ولله الحمد والمنة .

وانقضت السَّنة والأمر علىٰ ذلك ، وتوفي في هـٰذه السَّنة الملك المظفر تقي الدين عمر ، كان عزيزاً عند عمه السلطان ، استنابه بمصر وغيرها من البلاد ، ثم أقطعه حماة ومدناً كثيرة معها حولها ومن بلاد الجزيرة ، وكان مع عمه السلطان علىٰ عكا ، ثم استأذنه في الإشراف علىٰ بلاده المجاورة للفرات ، فأذن له ، فاتفق موته ، وحملت جنازته حتىٰ دفن بحماة ، وله مدرسة هناك هائلة ، وكذلك بدمشق مدرسة مشهورة ، عليها أوقاف كثيرة مبرورة ، وأقام بالمُلك بعده ولده المنصور ناصر الدين محمد ، فأقره السلطان علىٰ ذلك .

وتوفي أيضاً الأمير حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين ، وأمه ست الشام بنت أيوب واقفة الشاميتين[3] بدمشق في ليلة الجمعة تاسع عشر رمضان ، ففجع السلطان بابن أخيه وابن أخته في ليلة واحدة ، فقد كانا له من أكبر الأعوان وأعز الإخوان ، ودفن حسام الدين في الشامية البرانية ، رحمهم الله تعالىٰ .

وفيها : توفي الأمير علم الدين سليمان الحلبي ، وكان من أكابر الدولة الصلاحية ، وفي خدمة السلطان حيث كان ، وهو الذي أشار على السلطان بتخريب عسقلان ، واتفق مرضه بالقدس ، فاستأذن في أن يمرض بدمشق ، فأذن له ، فسافر حتىٰ وصل غباغب ، فمات بها في أواخر ذي الحجة ، رحمه الله تعالىٰ .

وفيها : توفي الشيخ نجم الدين الخُبُوشاني الذي بنىٰ تربة الشافعي بمصر بأمر السلطان صلاح الدين ، وأوقف عليها الأوقاف السَّنية ، وولاه تدريسها ونظرها ، وقد كان السلطان يحترمه ويكرمه .

---

(١) في النسخ : (دار القساقس) ، والمثبت من « الروضتين » .

(٢) **اليزك** : كلمة فارسية تعني : طلائع الجيش .

(٣) **الشاميتان** : مدرستان تعرفان بالشامية البرانية ، والشامية الجوانية .

سنة ثمان وثمانين [وخمس مئة]

استهلت والسلطان مقيم بالقدس الشريف ، وقد قسم السُّورَ بين أولاده وأمرائه ، وهو يعمل فيه بنفسه ، ويحمل الحجر بين القربوس وبينه ، والناس يقتدون به من الأمراء والعلماء والفقراء ، وسائر الأكابر يعملون بأنفسهم ، والفرنج ـ لعنهم الله ـ حول البلد من ناحية عسقلان وما والاها لا يتجاسرون أن يتقدموا من الحرس واليَزَك الذين نصبهم السلطان حول القدس الشريف ، إلا أنهم علىٰ نية المحاصرة للقدس مصممون ، وعلىٰ كيد الإسلام مجمعون ، وهم والحرس تارة يَغلبون وتارة يُغلَبون ، وتارة يَنهبون وتارة يُنهبون .

وفي ربيعٍ الآخِر دخل الأمير سيف الدين المشطوب إلى السلطان ـ وهو بالقدس ـ من الأسر ، وكان نائباً علىٰ عكا حين أخذت ، فافتدىٰ منهم بخمسين ألف دينار ، فأعطاه السلطان شيئاً كثيراً ، واستنابه علىٰ نابلس ، فتوفي بها في شوال منها .

وفي ثالث ربيع الآخر قُتل المركيس صاحب صور لعنه الله ، أرسل إليه ملك الإنكليز اثنين من الفداوية ، فأظهرا التنصر ولزما الكنيسة حتىٰ ظفرا بالمركيس فقتلاه وقُتلا إلىٰ لعنة الله .

وفي تاسع جمادى الأولى استولى الفرنج علىٰ قلعة الدارم[1] فخربوها وقتلوا خلقاً كثيراً من أهلها ، وأسروا طائفة ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

ثم أقبلوا بخيلهم ورَجلهم نحو القدس الشريف ، فبرز إليهم السلطان في حزب أهل الإيمان ، وهو مشتمل على الرَّجَّالة والفرسان والأبطال والشجعان ، فلما تراءى الجمعان . . نكص حزب الشيطان علىٰ عقبيه ، وانقلبوا راجعين قبل القتال والنزال ، وعاد السلطان إلى القدس الشريف ، ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ .

ثم إن الإنكلتير ـ لعنه الله ، وهو من أكبر ملوك الفرنج في ذلك الوقت ـ ظفر ببعض قفول المسلمين ، فكبسهم ليلاً ، فقتل منهم خلقاً كثيراً ، وأسر منهم خمس مئة أسير ، وأخذ شيئاً كثيراً من الأموال والجمال والخيل والبغال ، وكان من جملة الجمال ثلاثة آلاف بعير .

فتقوَّى الفرنج بذلك شيئاً كثيراً ، وعز ذلك على السلطان وشق عليه مشقة عظيمة جداً ،

---

(١) في « الروضتين » : (قلعة الداروم) .

وخاف من غائلة ذلك ، واستخدم الإنكلتير الجمالين على الجمال ، والخربَنْدية[1] على البغال ، والساسة على الخيل ، وأقبل الملعون وقد قويت نفسه ، وصمم علىٰ محاصرة القدس الشريف ، وأرسل إلىٰ ملوك الفرنج الذين بالساحل ، فاستحضرهم ومن معهم من المُقاتِلة ، فتهيأ السلطان لذلك ، وأكمل السور ، وعمق الخنادق ، ونصب الآلات والمنجنيقات ، وأمر بتغوير جميع الماء الذي حول القدس ؛ ليبقى المشركون علىٰ غير ماء .

وأحضر السلطان جميع الأمراء ليلة الجمعة تاسع عشر جمادى الآخرة ، وفيهم أبو الهيجاء السمين ، والمشطوب ، والأسدية بكمالهم ، فاستشارهم السلطان فيما قد دهمهم من هـٰذا الأمر الفظيع الموجع المؤلم ، فأفاضوا في الكلام ، وأشار كل برأي ، وأشار العماد الكاتب بأن يتحالفوا على الموت عند الصخرة كما فعلت الصحابة رضوان الله عليهم ، فأجابوا إلىٰ ذلك .

هـٰذا كله والسلطان ساكت واجم مفكر ، فسكت القوم كأنما علىٰ رؤوسهم الطير ، ثم قال : الحمد لله ، والصلاة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، اعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومَنَعَتُه ، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة في ذممكم ، وأن هـٰذا العدو ليس هنا من يلقاه ويقاتله من المسلمين غيركم ، فإن لويتم أعِنَّتكم ـ والعياذ بالله ـ طوى البلاد كطي السجل للكتاب ، وكان جميع ذلك في ذمتكم ، ويصير كأنكم أنتم الذين قصدتم لهـٰذا كله ، وأعاذكم الله من ذلك ، وأنتم الآكلون لبيت مال المسلمين ، فالمسلمون في سائر البلاد معلقون بكم ، والسلام .

فانتُدِب لجوابه سيف الدين المشطوب ، وقال : يا مولانا ؛ نحن مماليكك وعبيدك ، وأنت الذي أنعمت علينا وكرمتنا وعظمتنا وأعطيتنا وأغنيتنا ، وليس لنا إلا رقابنا ، وهي بين يديك ، واللهِ ؛ ما يرجع أحد عن نصرة الإسلام حتىٰ نموت .

فقال الجماعة مثل ما قال ، ففرح السلطان بذلك ، وطاب قلبه ، ومد لهم سماطاً[2] حافلاً ، وانصرفوا من بين يديه علىٰ ذلك .

وكان قد أقام من الجمعة إلى الأحد لم يتناول من الغذاء إلا شيئاً يسيراً جداً ، كل ذلك اهتماماً بأمر المسلمين رحمه الله .

---

(١) هم المكارون ، مفردها المكاري : الذي يكري دابته ؛ أي : يؤجرها .

(٢) السماط : ما يوضع عليه الطعام .

ثم بلغه بعد ذلك عن بعض الأمراء أنه قال : نخاف أن يجري علينا في هـٰذه الليلة كما جرىٰ في عكا ، ثم يأخذون بلاد الشام ، والمصلحة أنا نلتقيهم بظاهر البلد ، فإن هزمناهم . . أخذنا بقية بلادهم ، وإن يكن الأخرىٰ . . سلم العسكر ومضىٰ إلى القدس ، وقد انحفظت بلاد الشام بدون القدس مدة طويلة .

وكان مما بعثوا يقولون : وإن كنت تريدنا نقيم بالقدس لحصار الفرنج . . فلا بد وأن تكون أنت معنا أو بعض أهلك ، ليكون الجيش تحت أمره ؛ فإن الأكراد لا تطيع الترك ، والترك لا تطيع الأكراد .

فلما بلغه ذلك . . شق عليه مشقة عظيمة ، وبات ليلته كلها في هَمٍّ عظيم مفكراً فيما قالوا ، ثم انجلى الأمر ، واتفق الحال علىٰ أن يكون الملك الأمجد صاحب بعلبك مقيماً عندهم نائباً عنه بالقدس الشريف ، وكان ذلك في يوم الجمعة ، فلما حضر السلطان لصلاة الجمعة . . قام فصلىٰ ركعتين بين الأذانين ، وسجد طويلاً ، وتضرع إلى الله عز وجل تضرعاً عظيماً ، وتذلل وتمسكن ، وألح في الدعاء والسؤال من القريب المجيب سبحانه وتعالىٰ ، الذي يجيب دعوة المضطر إذا دعاه في أن يكشف عنهم هـٰذه الضائقة العظيمة .

فأجاب الله عز وجل دعاءه ، وكشف ما بهم من الضائقة ، وذلك لأنه لما كان يوم السبت من غدها . . جاءت الكتب من الحرس الذي للمسلمين حول البلد يخبرون بأن الفرنج قد اختلفوا فيما بينهم في محاصرة القدس الشريف ، فقال ملك الإفرنسيس : إنما جئنا من البلاد البعيدة وأنفقنا الأموال الكثيرة في أخذ بيت المقدس ، ورده إلينا ، وقد بقي بيننا وبينه مرحلة ، وقال الإنكلتير : إن هـٰذا البلد يشق علينا حصاره ؛ لأن المياه حوله قد عدمت ، فيبقىٰ جيشنا بغير ماء ، ومتىٰ بعثنا من يأتينا بالماء . . تعطل أمر الحصار علينا ، وتلف الجيش .

ثم اتفق الحال علىٰ أن حكَّموا عليهم ثلاث مئة منهم ، فرَدَّ أولـٰئك أمرَهم إلى اثني عشر ، وردَّ أولـٰئك أمرهم إلىٰ ثلاثة منهم ، فباتوا ليلهم ينظرون ويفكرون ، ثم أصبحوا وقد حكموا عليهم بالرحيل ، فلم يمكنهم مخالفتهم ، فانقلبوا خائبين عليهم لعنة الله أجمعين ، فساروا حتىٰ نزلوا على الرملة في بكرة الحادي والعشرين من جمادىٰ .

وسار السلطان بجيشه إلىٰ خارج البلد قاصداً نحوهم ؛ خوفاً أن يسيروا إلى الديار المصرية ؛ لكثرة ما معهم من الظهر والأموال .

وكان الإنكلتير يلهج بذلك كثيراً ، فصرفهم الله عز وجل عن ذلك ، وخذلهم ، وترددت الرسل من الإنكلتير إلى السلطان في طلب الصلح ووضع الحرب بينهم ثلاث سنين وستة أشهر ، علىٰ أن يعيد السلطان عليهم عسقلان ويترك لهم أكبر كنيسة ببيت المقدس ، وهي القُمامةُ ، وأن يمكن الزوار منهم وحجاجهم أيضاً بغير شيء ، فامتنع السلطان من إعادة عسقلان ، وأطلق لهم قمامة ، وفرض على الزوار مالاً يؤخذ منهم ، فامتنع الإنكلتير إلا أن تعاد إليهم عسقلان ، ويُعمَّر سورها كما كان .

وصمم السلطان علىٰ عدم الإجابة ، ثم ركب السلطان في جيشه حتىٰ وافاها ، فحاصرها حصاراً شديداً ، وفتحها وغنم منها شيئاً كثيراً ، وامتنعت القلعة ، فبالغ في أمرها حتىٰ هانت ولانت ودانت ، وكادوا أن يبعثوا إليه بمفاتيحها ويأخذوا الأمان .

فبينما هم علىٰ ذلك . . إذ أشرفت عليهم مراكب الإنكلتير ، فقويت رؤوسهم ، واستصفت نفوسهم ، وهجم اللعين فاستعاد البلد إليه ، وقتل مَن تأخر بها من المسلمين صبراً .

وسار السلطان من منزلة الحصار إلىٰ ما وراءَها خوفاً على الجيش من معرة الفرنج ، وجعل الإنكلتير يعجب من شدة سطوة السلطان كيف فتح مثل هـٰذا البلد العظيم في يومين ، وغيره لا يمكنه فتحه في عامين ، ويقول مع ذلك : ولـٰكن ما ظننت أنه مع شهامته وشجاعته وشدة بأسه أن يتأخر من منزله بمجرد قدومي ، وأنا ومن معي لم نخرج من البحر إلا جرائد بلا سلاح القتال ولا أهبة النزال .

ثم ألح في طلب الصلح ، علىٰ أن تكون عسقلان داخلة في صلحهم ، فامتنع السلطان من ذلك أشد الامتناع ، ثم إن السلطان كبس في بعض تلك الليالي الإنكلتير وهو في سبعة عشر فارساً وقليل من الرَّجَّالة ، فأوكب السلطان بجيشه حوله وحصره حصراً لم يبق منه نجاة لو صمم معه الجيش ، ولـٰكنهم نكلوا عن الجملة ، فلا حول ولا قوة إلا بالله ، وجعل السلطان يحرضهم غاية التحريض ، فكلهم يمتنع ، هـٰذا والإنكلتير ـ لعنه الله ـ قد ركب في أصحابه وأخذ في قتاله ، والسلطان وحده داخل بين صفوف المشركين ، ولم يتجاسر أحد منهم أن يتقدم إليه ، وهو كالوالدة الثكلىٰ يحول فرسه من طلب إلىٰ طلب ، ويحث الناس على الجهاد ، وينادي بنفسه : (يا للإسلام) ، وعيناه تفيضان دموعاً .

وكلما تذكر ما حل بعكا وما جرىٰ بها من المصاب . . اشتد في الزحف والحث على

القتال ، ولم يَطعم في ذلك اليوم طعاماً ألبتة ، وإنما شرب شيئاً يسيراً أشار به الطبيب .

ولما هجم الليل . . عاد إلى المخيم ، وقد أخذ منه التعب والكآبة والحزن ، ثم ركب سحراً والحرب علىٰ ما هي عليه ، وقد أحزنه نكول جيشه عن الفرنج ، وأنه لم ير من الجيش سامعاً ولا مطيعاً ، ولعل الخِيرة كانت في ذلك .

وعرض للإنكلتير مرض شديد ، فأرسل إلى السلطان يطلب منه فاكهة وثلجاً ، فأمده السلطان بذلك عسىٰ أن يرجع عن طغيانه ، فلم يرجع ؛ لأنه لما عوفي . . استمر علىٰ ما كان عليه ، وتكررت رسله بطلب الصلح من السلطان ، وترك طلب عسقلان ، وأنه قد رضي بما شرط عليه السلطان .

فكُتب كتاب الصلح علىٰ ما أمر به السلطان في ثامن شعبان ، وأكدت العهود والمواثيق من كل ملك من ملوكهم ، وحلف الأمراء من المسلمين ، وكتبوا خطوطهم بذلك .

واكتفىٰ من السلطان بالقول المجرد كما جرت به عادة السلاطين ، وفرح كل من الفريقين فرحاً كثيراً ، ووقعت المصالحة علىٰ وضع الحرب ثلاث سنين وستة أشهر ، وعلىٰ أن يقر ما بأيديهم من البلاد الساحلية ، وأن للمسلمين ما يقابلها من البلاد الجبلية ، وأما ما بينهما من المعاملات . . فإنه يقسم على المناصفة .

وأرسل السلطان مئة نقَّاب صحبة أمير لتخريب سور عسقلان ، وإخراج من بها من الفرنج والألمان ، ثم عاد السلطان إلى القدس الشريف مؤيَّداً منصوراً ، ولله الحمد والمنة .

فرتب أحواله وأطَّدها ، وسدد أموره وأكدها ، وزاد وقف المدرسة ورباط الصوفية بساتينَ ودكاكينَ وغير ذلك ، وعزم على الحج في ذلك العام .

فكتب القاضي الفاضل بأن المصلحة تأخير الحج عن هـٰذا العام خوفاً من استيلاء الفرنج على البلاد وغدرهم ، هـٰذا مع ما يحتاج إليه المسلمون من النظر في مصالحهم وأمورهم ، وسد ثغورهم ، ومصابرة أعدائهم في هـٰذا الوقت ، وجميع ذلك أفضل من الحج ، والعدو المخذول مخيم بالشام لم يقلع منه مركب إلىٰ بلادهم ، وأنت تعلم أنهم إنما يهادنون ليتقوَّوا ويكثروا ، ثم إنهم يمكرون ويغدرون .

فقبل السلطان نصحه ، وشكرَه علىٰ ذلك ، ولم يحج ، وكتب بذلك إلىٰ سائر الممالك .

واستمر مقيماً بالقدس الشريف جميع رمضان ، وكل ما كان أخذه من رؤساء النصارىٰ

للزيارة رده إليهم ، وأولاهم من الإكرام والإحسان شيئاً كثيراً يتألفهم بذلك .

فلما كان في خامس شوال توجه إلىٰ دمشق ، واستناب على القدس عز الدين جرديك ، وعلى القضاء بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم الشافعي .

وسار إلىٰ أن وصل نابلس ، فنظر في أحوالها وأمورها ، ثم سار عنها وهو يمر بالمعاقل والحصون والبلدان وينظر في أحوالها وأمورها ، وفي أثناء الطريق جاء إلىٰ خدمته البرنس صاحب أنطاكية سامعاً مطيعاً ، فأكرمه وأحسن إليه ، وأطلق له مالاً جزيلاً وخلعاً جميلة يتألفه بذلك .

ولم يزل سائراً إلىٰ يوم الأربعاء سادس عشر شوال ، فدخل دمشق وكان يوماً مشهوداً ، فرح به المسلمون واستبشروا ؛ لطول غيبته عنهم ؛ فإن غيبته عن دمشق كانت قد طالت أربع سنين ، واجتمع شمله بأولاده الكبار والصغار ، وجاءت إليه رسل الملوك من سائر الأمصار ، فأقام بقية عامه علىٰ عادته قائماً بالعدل ، ناشراً ألوية الإحسان ، فرحمه الله .

فصل
في المراسلات

كتب السلطان إلى الفاضل بمصر كتاباً من بلاد الفرنج يخبره بما لاح له من أمارات النصر ، ويقول : ما أخاف إلا من ذنوبنا أن يأخذنا الله بها .

فكتب إليه الفاضل : فأما قول مولانا : (إننا نخاف أن نؤخذ بذنوبنا) فالذنوب كانت مثبتة قبل هـٰذا المقام وفيه محيت ، والآثام كانت مكتوبة ثم عفي عنها بهـٰذه الساعات وعفيت ، فيكفي مستغفراً لسانُ السيف الأحمر في الجهاد ، ويكفي قارعاً لأبواب الجنة صوتُ مقارعة الأضداد ، وبعين الله سبحانه وتعالىٰ موقفك ، وفي سبيل الله عز وجل مقامك ومنصرفك ، وطوبىٰ لقدم سعت في منهاجك ، وطوبىٰ لوجه تلثَّم بمثار عَجاجك ، وطوبىٰ لنفس بين يديك قَتَلت وقُتِلت .

كتاب آخر من الفاضل ، فيه : إنما أُتينا من قبل أنفسنا ، ولو صدَقناه . . لعجَّل لنا عواقب صدقنا ، ولو أطعناه . . لما عاقبنا بعدونا ، ولو فعلنا ما نقدر عليه من أمره . . لفعل لنا ما لا نقدر عليه إلا به من أمرنا ، فلا يستخصم أحد إلا عمله ، ولا يلُمْ إلا نفسه ، ولا يرج إلا ربه .

ولا ينتظر العساكر أن تكثر ، ولا الأموال أن تحضر ، ولا فلان الذي يُعتقد عليه أن

يقاتل ، ولا فلان الذي ينتظر أنه يُشير ، فكل هـٰذه مشاغل عن الله عز وجل ليس النصر بها ، ولا نأمن أن يكلنا الله عز وجل إليها ، وإنما النصر به سبحانه وتعالىٰ ، واللطف الجميل منه عزَّ وجلَّ ، ونستغفر الله عز وجل من ذنوبنا .

فلولا أنها تسد طريق دعائنا . . لكان جواب دعائنا قد نزل ، وفيض دموع الخاشعين قد غَسَلَ ، ولـٰكن في الطريق عائق ، خار الله لمولانا في القضاء السابق واللاحق .

ومن كتاب آخر : وعسكرنا لا يشكو ـ والحمد لله ـ منه خَوَراً ، وإنما يشكو منه ضجراً ، والقوى البشرية لا بد أن يكون لها حد ، والأقدار الإلـٰهية لها قصد ، وكل ذي قصد خادم قصدها وواقف عندها ، وإنما ذكر المملوك هـٰذا ليرفع المولىٰ من خاطره مقت المتقاعس من رجاله ، كما يثبت فيه شكر المسارع من أبطاله ، قال تعالىٰ لسيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلّم : ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ ، يا مولانا ؛ لك البشرىٰ العظيمة بأن الله سبحانه وتعالى اطَّلع علىٰ قلوب أهل الأرض ، فلم يؤهل ، ولم يستصلح ، ولم يختر ، ولم يسهل ، ولم يستخدم في إقامة دينه ، وإعلاء كلمته ، وتمهيد سلطانه ، وحماية شعاره ، وحفظ قبلة موحديه . . إلا أنت .

هـٰذا وفي الأرض مَن هو للنبوة قرابة ، ومَن له المملكة وراثة ، ومَن له في المال كثرة ، ومَن له في العدد ثروة ، فأقعدهم وأقامك ، وثبطهم ونشطك ، وقبضهم وبسطك ، وحبب الدنيا إليهم وبغضها إليك ، وصعبها عليهم وهونها عليك ، وأمسك أيديهم وأطلق يدك ، وأغمد سيوفهم وجرد سيفك ، وثبطهم وسيَّرك ، ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾ .

وهو كتاب طويل ، قال في آخره : لا شبهة أن المملوك قد أطال ، ولـٰكن قد اتسع المجال ، وما مراده إلا أن يشكر الله علىٰ ما اختاره الله عز وجل له ، ويسَّره عليه وحببه إليه ، فرب ممتحَن بنعمة ، ورب مُنعَم عليه بمشقة ، وكم مغبوط بنعمة هي داؤه ، ومرحوم من بلوىٰ هي دواؤه .

ومراد المملوك بهـٰذا ألاَّ يتغير لمولانا ـ أبقاه الله عز وجل ـ وجه عن بشاشة ، ولا صدر عن سعة ، ولا لسان عن حسنة ، ولا تُرىٰ منه ضجرة ، ولا تُسمع منه نهرة ، فالشدة تذهب ويبقىٰ ذِكرُها ، والأزمة تنفرج ويبقىٰ أجرُها .

وكما لم يحدث استمرار النعم لمولانا ـ عز نصره ـ بطراً . . فلا تحدث له ساعات

الامتحان ضجراً ، والمملوك يستحسن بيتَيْ حاتم ، ومولانا ـ أيده الله وحفظ سلطانه وملكه ـ يحفظهما :

شربنا بكأس الفقر يوماً وبالغنىٰ ... وما منهما إلا سقانا به الدهرُ
فما زادنا بغياً علىٰ ذي قرابة ... غِنانا ولا أزرىٰ بأحسابنا الفقر

ومن كتاب آخر : المملوك يوصي المولىٰ بالإسلام ، والإسلام هو قلب المولىٰ ، فيروِّحه ولا يحمِّله ما يُثقله ويَشْغَله ، ويوصي المولىٰ بقلوب المسلمين ، وقلوب المسلمين جسم مولانا ، وفيه قد بلغ المملوك من حمله علىٰ نفسه ما يخشىٰ علىٰ مولانا الإثم فيه ، وإنما نتجشم كل مشقة لنسلم منه .

ونحن في ضر قد مسنا ، ولا نرجو لكشفه إلا مَن ابتلىٰ به ، وفي طوفان فتنة ، ولا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، ولنا ذنوب قد سدت طريق دعائنا ، فنحن أولىٰ بأن نُلزِم أنفسنا .

ولله عز وجل قَدَر لا سلاح لنا في دفعه ، إلا أن نقول : لا حول ولا قوة إلا بالله .

وقد أشرفنا علىٰ أهوال ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ وقد جمع العدو لنا ، وقيل لنا : اخشوه ، فقلنا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، متنجزين بذلك موعود الانقلاب بنعمة من الله وفضل ، فما نرجو إلا ذلك الفضل العظيم ، وليس إلا الاستعانة بالله العزيز الحكيم ، فما دلنا الله عز وجل في الشدائد إلا بالالتجاء إليه والتضرع والدعاء له .

وفيه : إنْ عَلِمَ الله عز وجل من جند مولانا أنهم قد بذلوا المجهود . . فقد عذرهم ، فيعذرهم المولىٰ ، وإن علم أنهم قد قصروا في نصرة كلمة الله . . فيكفيهم مقت الله .

والمملوك يذكِّر مولانا بحسن صبره ، وبرُحْب صدره ، وبفضل خُلُقه ، وبتقواه لربه ، وبمداراة مزاجه ؛ فإن القلوب الإسلامية إنما تبرأ ببرء جسمه ، ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ ، والمولىٰ أولىٰ بهـٰذا البيت :

لا بَطِرٌ إن تتابعت نِعَمٌ ... وصابرٌ في البلاء محتسبُ

وقيل للمهلب ابن أبي صفرة : أيسرُّك ظَفَر ليس فيه تعب ؟ فقال : أكره عادة العجز .

ولا بد وأن تنفذ مشيئة الله عز وجل في خلقه ، لا راد لحكمه ، فلا يتسخطْ مولانا ـ

والعياذ بالله ـ بشيء من قدره ، فلأَن يجري القضاء وهو راض مأجور . . خير من أن يجري وهو ساخط موزور .

وفيه : من شكا بثَّه وحزنه إلى الله . . شكا إلىٰ مشتكىٰ ، واستغاث بقادر ، ومن دعا ربَّه دعاء خفياً . . استجاب له استجابة ظاهرة ، فلتكن شكوىٰ مولانا إلى الله عز وجل خفية عنا .

وفيه :

قد قلتُ للرجل المُقَسِّمِ أمرَه ... فوِّض إليه تنم قرير العينِ

يا مولانا ؛ هٰذه الليالي التي رابطتَ فيها والناس كارهون ، وسهرت فيها والعيون هاجعة ، وهٰذه الأيام التي ينادىٰ فيها : يا خيل الله ؛ اركبي ، وهٰذه الساعات التي تزرع الشيب في الرؤوس ، وهٰذه الغمرات التي تفيض فيها الصدور بمائها بل بنارها . . هي نعمة الله عز وجل عليك ، وغراسك في الجنة ، ومجملات مَحضرك ، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ ، وهي مجوِّزاتُك الصراط ، وهي مثقلات الميزان ، وهي درجات الرضوان ، فاشكر الله عز وجل عليها كما تشكره على الفتوحات الجليلة .

واعلم : أن مثوبة الصبر فوق مثوبة الشكر ، ومِن ربط جأش أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله : لو كان الصبر والشكر بعيرين . . ما باليت أيَّهما ركبت .

وبهٰذه العزائم سبقونا وتركونا لا نطمع بالغبار ، وامتدت خطاهم ونعوذ بالله من العِثار ، ما استعمل اللهُ عز وجل في القيام بحقه إلا خيرَ الخلق سيدَ المرسلين محمداً صلى الله عليه وسلّم ، ولنا فيه أسوة حسنة ، وقد عرفت ما جرىٰ في سير الأولين .

وفيه من الوصايا : إن المولىٰ لا يحمل همّاً يضعف به جسمه ، ويضر مزاجه ، والأمة بنيان ، وهو ـ أبقاه الله ـ قاعدته ، والله تعالىٰ ثبت تلك القاعدة القائمة في نصرة الحق .

ومما يستحسن من وصايا الفُرْس : إن نزل بك ما فيه حيلة . . فلا تعجز ، وإن نزل بك ما ليس فيه حيلة . . فلا تجزع ، ورُبَّ واقع في أمر لو اشتغل عن حمل الهم به بالتدبير فيه مع مقدور الله عز وجل . . لانصرف همُّه ، وكُفي خطبَه ، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ .

وفيه : هٰذا سلطان هو بحول الله أوثقُ منه بسلطانه ، قاتَلَتِ الملوكُ بطمعها ، وقاتل هٰذا بإيمانه ، وإذا نظر [الله] إلىٰ قلب مولانا فلم يجد فيه ثقة بغيره سبحانه وتعالىٰ ، ولا تعويلاً علىٰ قوم إلا على القوي العزيز . . فهناك الفرج ميعاده ، واللطف الجزيل ميقاته ، فلا يقنط من روح الله ، ولا يقُل متىٰ نصر الله ، وليصبر ؛ فإنما خلق للصبر ، بل يشكره ؛

فالشكر في موضع الصبر أعلىٰ درجات الشكر ، وليقل لمن ابتلي : أنت المعافىٰ ، وليرض عن الله سبحانه ؛ فإن المرضي عند الله سبحانه وتعالىٰ هو المسلم الراضي ، ولْيَسَعِ الخَلَفَ ما وسع السلف من الأدب ، وليعلم العبد أنه يكتب كتاباً إلىٰ ربه ، فليفكر فيما كتب وإلىٰ من كتب .

ومن كتاب آخر : وأما تبرم مولانا بكثرة المطالبات منه . . فلا أخلى الله عز وجل مولانا من القدرة عليها ، وهنيئاً له أن الله سبحانه وتعالىٰ يطالبه بحفظ دِينه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلّم يطالبه بحسن الخلافة في أمته .

والسلف الصالح من هـٰذه الأمة يطالبونه بمباشرة ما لو حضروه . . لما زادوا علىٰ ما يفعله المولىٰ .

وأهل الحرب يطالبونه بإزاحة علَّتهم[1] من الذهب والفضة والحديد ، وبقية الأمة تطالبه بالأمن في سربهم ، والاستقامة في كسبهم ، والخفارة[2] في سُبُلِهِم ، ونفسه الكريمة تطالبه برضوان الله عز وجل في جنات الفردوس بلَّغه الله إليها ، وبمعالي الأمور أعانه الله عليها ، وإذا عُدِّد ما يراد منه . . فلا بد أن يعدَّد ما يُسِّر عليه .

فهل عدِمَ من الله تعالىٰ قط نصرةً ؟! فهل استمرت به قط عسرة ؟! فهل تمت لعدو قط عليه كرة ؟! هل بات قط إلا راجياً ؟! هل أصبح إلا راضياً ؟!

ألاَ يعلم أن الله تعالىٰ ذخر له من الصالحات ما لم ير كفؤاً له غيرَه ؟! ألاَ يحصي من سبقه من الملوك إلىٰ هـٰذه الدنيا فعجزوا عما سبق إليه المولىٰ من الأعمال الصالحة في الآخرة ؟!

هل يعرف راية تقاتل في سبيل الله عز وجل إلا رايته ؟! هل يعرف مالاً يُنفق في سبيل الله إلا ماله ؟! هل يسمع في مجلسه إلا كتاب الله يتلىٰ أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلّم تقرأ ؟! أو هل يرىٰ به إلا الخيل تُعرض والسلاح يُقلَّب ؟!

وبالجملة : فمجلس مولانا أحق بأن يكون مسجداً من كل مجلس .

ومن كتاب آخر فيه شفاعة : أدام الله سلطان مولانا الملك الناصر ، وثبته ، وتقبل عمله بقبول حسن وأنبته ، وأخذ عدوه قائلاً[3] أو بيَّته[4] ، وأرغم أنفه بسيفه وكبته .

---

(١) في النسخ : (بإراحة أغدادهم) ، والمثبت من « الروضتين » .

(٢) **الخفارة** : الحراسة .

(٣) **قائلاً** : نائماً في وقت القيلولة .

(٤) **بيَّته** : أتاه وهو نائم ليلاً .

خدمةُ المملوك هـٰذه واردة علىٰ يد فلان خطيب عيذاب ، ولما نَبَا به المنزل منها ، وقل عليه المرفق فيها ، وسمع بهـٰذه الفتوحات العظيمة التي طبَّق الأرضَ ذِكرُها ، ووجب علىٰ أهلها شكرُها ، وحصل لمن جرت علىٰ يده أجرها . . هاجر من هجير عيذاب وملْحِها ، سارياً في ليلة أمل كلِّها صباح ، فلا يسأل عن صبحها ، وقد رغب في خطابة الكرك وهو خطيب ، وتوسل بالمملوك في هـٰذا الملتمس وهو قريب ، ونزع من مصر إلى الشام ، ومن عيذاب إلى الكرك وهو عجيب ، والفقر سائق عنيف ، والمذكور عائل ضعيف ، ولُطف الله تعالىٰ بالخلق ـ بوجود مولانا ـ لطيف ، ورأيه أعلىٰ إن شاء الله تعالىٰ .

* * *

سنة تسع وثمانين [وخمس مئة]

فيها : كانت الرزية الكبرىٰ ، والمصيبة العظمىٰ ، وفجيعة المسلمين وسائر أهل الفضل في الدنيا والدين ، وذلك بوفاة السلطان صلاح الدين قدس الله روحه ، وانتقاله من دار الفناء إلىٰ دار البقاء .

وذلك أنه في أول هـٰذه السَّنة طلع هو وأخوه العادل إلى الصيد في شرقي دمشق ، واتفق الحال بينه وبين أخيه أنه بعد أن تفرَّغ من أمر الفرنج هـٰذه المدة . . أن يغتنم هـٰذه الفرصة ، ويسير بنفسه إلىٰ بلاد الروم ، ويبعث أخاه العادل إلىٰ ما والاها ، وقال له : إذا فرغنا منها . . نسير جميعاً إلىٰ بلاد أذربيجان والعجم ؛ فإنه ليس دونها أحد يمانع عنها .

ولم يزل علىٰ هـٰذه النية إلىٰ أن قدم الحُجاج من مكة ـ شرفها الله تعالىٰ ـ حادي عشر صفر ، فخرج للقائهم ، وقدِم معهم ابن أخيه سيف الإسلام صاحب اليمن ، فأكرمه واحترمه ، وعاد إلى القلعة ، فدخلها من باب الحديد ، فكان ذلك آخر ما ركب من الدنيا ، وذلك لأنه حصل له حمىٰ صفراوية ليلة السبت سادس عشر صفر ، فلما أصبح . . دخل القاضي الفاضل وابن شداد وابنه الأفضل ، فأخذ يذكِّرهم كثرة قلقه البارحة ، وطاب له الحديث معهم ، وطال مجلسهم عنده .

ثم تزايد المرض ، وقصده الأطباء في اليوم الرابع ، فاعتراه يبس ، وحصل له عرق شديد بحيث إنه نفذ إلى الأرض ، وقوي اليبس أيضاً ، فطلب الأكابر من الأمراء والرؤساء وسائر وجوه الناس ، وبويع لولده الأفضل نور الدين عليٍّ علىٰ دمشق .

ولم يزل يتزايد به الضعف إلىٰ ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر ، وكان الشيخ

أبو جعفر يبيت عنده ويقرأ القرآن ، فذَكر أنه لما كان في الغمرات وأنا أقرأ ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ . . فقال : صحيح .

فلما أذن الفجر وهو بآخر رمق وأنا أقرأ ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ . . تبسم وتهلل وجهه ، وفاضت نفسه إلىٰ رحمة الله ورضوانه ، وله من العمر سبع وخمسون سَنة .

فرحمه الله وأكرم مثواه ، وجعل جنة الفردوس مأواه ، فلقد كان حصناً عظيماً للإسلام ، وحرزاً وكهفاً كبيراً من كيد الكفرة اللئام .

وكأن أهل دمشق لم يصابوا بمثل مصابه ، يود كل منهم لو فداه بنفسه وأولاده وأحبابه وأصحابه ، وما أحسن ما قال الشاعر :

عُقِمَ النساء فلا يلِدن شبيهه إن النساء بمثله لعقيمُ

وتولىٰ غسله الخطيب الدولعي ، ولم يخلف كفناً ، وإنما كان الكفن ومؤنة التجهيز من مال القاضي الفاضل ، وصلىٰ عليه القاضي ابن الزكي ، ودُفن في داره بالقلعة المنصورة ، وشرعوا في بناء تربة له ومدرسة للشافعية بالقرب من مسجد القدم ؛ لأنه كان قد أوصىٰ بذلك قديماً ، ثم إنه لم يتفق له إتمام ذلك ، فاشترىٰ له ابنه الأفضل داراً شمالي الكلاسة بقدر ما زاده القاضي الفاضل في الكلاسة ، فجعلها تربة له ، هطلت سحائب الرحمة عليها ، ووصلت ألطاف الرأفة إليها .

وكان نقله إليها يوم عاشوراء سنة اثنتين وتسعين [وخمس مئة] ، وصلىٰ عليه ابن الزكي عن إذن ولده الأفضل ، ودفن تحت قبة النسر ، ودخل الأفضل لحْدَه فدفنه بنفسه وهو سلطان الشام .

ويقال : إن تحت رأسه لبنة من غبار الجهاد تقبل الله منه ، وإنه دفن معه سيفه الذي كان يحضر به الجهاد ؛ تفاؤلاً بأن يكون يوم القيامة متوكئاً عليه حتىٰ يدخل الجنة إن شاء الله عز وجل ؛ ولِمَا أنعم الله عز وجل به عليه من نصر الأولياء وكسر الأعداء ، وأَعْظِمْ بتلك المنة ، ثم عمل عزاه في الجامع الأموي ثلاثة أيام .

وقد حكي : أنه رئي النبي صلى الله عليه وسلّم مع جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم قد جاؤوا إلىٰ قبر صلاح الدين زائرين له ، وأن عند قبره يستجاب الدعاء .

ورأىٰ رجل صالح ليلة وفاته قائلاً يقول : قد خرج الليلة يوسف من السجن ، وهـٰذا صحيح ؛ فإن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر .

وقد رثاه الشعراء وأكثروا فيه من المراثي ، ومن أحسنها ما ختم به العماد الكاتب كتابه « البرق الشامي » ، وهي مئتان واثنان وثلاثون بيتاً ، فمنها :

شَمْلُ الهدىٰ والمُلكِ عم شتاتُه ... والدهرُ ساء وأقلعت حسناتُه
بالله أين الناصر المَلِك الذي ... لله خالصةً صَفَتْ نياته
أين الذي ما زال سلطاناً لنا ... يرجىٰ نَداه وتتقىٰ سطواته
أغلالُ أعناق العِدىٰ أسيافه ... أطواق أجياد الورىٰ مِنَّاته
مَن في الجهاد صِفاحه ما أُغمدت ... بالنصر حتىٰ أُغمدت صفحاته
مَن في صدور الكفر صدرُ قناته ... حتىٰ توارت بالصفيح قناته
لَذَّ المتاعبَ في الجهاد فلم تكن ... مذ عاش قطُّ لِذاتِه لَذَّاتُه
مسعودة غَدَواته محمودة ... رَوْحاته ميمونة ضَحْواته
في نصرة الإسلام يسهر دائباً ... ليطول في روض الجنان سُباتُه
لا تحسبوه مات شخص واحد ... فممات كل العالمين مماته
ملك عن الإسلام كان محامياً ... أبداً إلىٰ أن أسلمته حُماته
قد أظلمت مذ غاب عنها دوره ... لما خلت من بدره داراته
دفن السماح فليس تُنشر بعدما ... أودىٰ إلىٰ يوم النشور رفاته
الدين بعد أبي المظفر يوسُفٍ ... أَقْوَتْ قواه وأقفرت ساحاته
بحر خلا من وارديه ولم تزل ... محفوفة بوفوده حفَّاته
مَن لليتامىٰ والأرامل راحم ... متعطف مفضوضة صدقاته
فعلىٰ صلاح الدين يوسُفَ دائماً ... رضوان رب العرش بل صلواته
مَن للثغور وقد عداها حفظه ... من للجهاد ولم تَعُد عاداته
بكت الصوارم والصواهل إذ خلت ... من سلها وركوبها غزواته[1]
يا وحشتا للبيض في أغمادها ... لا تنتضيها للوغىٰ عَزْماته
يا وحشة الإسلام يوم تمكنت ... في كل قلب مؤمن روعاته
ملأت مهابته البلادَ فإنه ... أَسَد وإن بلاده غاباته
ما كان أسرعَ عصرَه لما انقضىٰ ... فكأنما سنواته ساعاتُه

---

(١) في النسخ : (سهلها) ، والمثبت من « الروضتين » .

لم أنس يوم السبت وهْوَ لِمَا به ... يبدي السبات وقد بدت غشياته
والبشر منه تبلجت أنواره ... والوجه منه تلألأت سبحاته
ويقول : لله المهيمنِ حكمة ... في مَرْضَةٍ حصلت بها مَرْضَاتُه
هذي مناشير الممالك تقتضي ... توقيعه فيها فأين دَواته
قد كان وعدك في الربيع بجمعها ... هٰذا الربيع وقد دنا ميقاته
والجند في الديوان جُدِّدَ عرضه ... وإذا أمرت تجدَّدت نفقاته
والقدس طامحة إليك عيونه ... عَجِّل فقد طمحت إليه عِداته[1]
والغرب منتظر طلوعك نحوه ... حتىٰ تفيء إلىٰ هداك بُغاته
والشرق يرجو عُرف عزمك ماضياً ... في ملكه حتىٰ تطيعَ عُصاته
مُغرىً بإسداء الجميل كأنما ... فُرِضَتْ عليه كالصلاة صِلاتُه
هل للملوك مضاؤه في موقف ... شُدَّت علىٰ أعدائه شداته
كم جاءه التوفيق في وقعاته ... من كان بالتوفيق توقيعاته
يا راعياً للدِّين حين تمكنت ... منه الذئاب وأسلمته رعاته
فارقْتَ مُلكاً غير باق متعِباً ... ووصلتَ ملكاً باقياً راحاته
أبَني صلاح الدين إن أباكمُ ... ما زال يأبىٰ ما الكرام أُباتُه
لا تقتدوا إلا بسنة فضلِهِ ... لتطيب في مهد النعيم سِناته
ورِدوا موارد عدله وسماحه ... لتردَّ عن نهج الشَّمات شُماته

* * *

فصل

قال شيخنا شيخ الإسلام برهان الدين الفزاري ـ قدس الله روحه ـ في تعليقه علىٰ « التنبيه »
ومن خطه نقلت فائدة غريبة تتعلق بباب النذر :

قال الشيخ الإمام العلامة القاضي ناصر الدين ـ المعروف بابن المُنَيِّر[2] قاضي الإسكندرية

---

(١) في النسخ : (طمحت إليك) ، والمثبت من « الروضتين » .

(٢) ابن المُنَيِّر : (٦٢٠ـ٦٨٣هـ) أحمد بن محمد بن منصور من علماء الإسكندرية وأدبائها ، ولي قضاءها وخطابتها ، له تصانيف ، منها : « تفسير حديث الإسراء » ، علىٰ طريقة المتكلمين .

وخطيبها رحمه الله في مصنفه في « الإسراء » ، في الباب الرابع ، بعد مضي نحو أربعة كراريس من النسخة التي وقفت عليها ـ :

نكتة لطيفة : نذر صلاح الدين رحمه الله في بعض نصارى الساحل إن ظفر بهم . . أن يقتلهم ولا يمن عليهم ، ثم ظفر بهم أحد نوابه ، فأعطاهم الأمان ، فاستفتىٰ صلاح الدين رحمه الله فيما أعطاه النائب من الأمان ، هل يلزمه هو ، أم لا ؟

فاختلف عليه الفقهاء ، وكانت فتيا الشيخ شهاب الدين الطوسي ـ رحمه الله ـ أن لا أمان لهم ؛ لقبح ما تعاطَوْه في الإسلام .

فأخذ صلاح الدين رحمه الله بفتيا الشيخ شهاب الدين ، وأحضره معه علىٰ قتلهم تحرياً في التقليد ، وتبرياً من الاستبداد ، فلما أخذتهم السيوف . . التفت صلاح الدين ، فإذا الشيخ شهاب الدين يبكي ، فقال له : ما هـٰذا ؟ رجوعاً عن الفتيا بعد الفوات ؟! فقال : لاها الله[1] ، ولـٰكن رحمة جِبِلِّيَّةٌ لهـٰذه الصور الإنسانية .

نكتة أُخرىٰ : انظر هل يصح من الإمام ونحوه من ولاة النظر في أمور المسلمين أن ينذر تعيين خصلة من الخصال كما فعل صلاح الدين ؟ أو يحلف ألاَّ يستعمل فلاناً ؟ أو يحلف القاضي ألاَّ يعزل أحداً مدة بعينها ؟

فالحق أن ذلك كله لا ينبغي ؛ فإن الإمام لا يحكم بالهوىٰ ، ولا يعين خصلة من الخصال بالتشهي ، ولا يستعمل أحداً لمثل ذلك ، وإنما هو منقاد لمقتضى الاجتهاد في الوقت الحاضر ، فمهما اقتضته المصلحة في وقت الحكم ودخول زمان الحاجة . . وجب عليه أن يتبعه .

قال : وقد تكون المصلحة في وقت اليمين في الامتناع ، ثم تتغير المصلحة .

ثم قال : فإن قلت : قد حلف النبي صلى الله عليه وسلّم لما استحمله أبو موسىٰ الأشعري وقومه في بعض الغزوات ، فقال صلى الله عليه وسلّم : « والله ؛ لا أحملكم ، ولا أجد ما أحملكم عليه »[2] ، ثم حملهم .

ثم أجاب : فقال : **قلت** : إنما حلف النبي صلى الله عليه وسلّم ألاَّ يتكلف لهـٰؤلاء حملاً ، بقرض ونحوه ما دام لا يجد لهم حملاً ، والأحسن أن تكون الواو واو الحال في

---

(١) **لاها الله** : أي لا والله ، وقد تكون بمعنى القسم .

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٦٤) ، ومسلم (١٦٤٩) .

قوله : « ولا أجد ما أحملكم عليه » ، كأنه قال : لا أحملكم ما دمت فاقداً للظَّهر ، ولهـٰذا قال صلى الله عليه وسلّم : « ما أنا حملتكم ، الله حملكم » أي : سخر الله لكم بظهرٍ حملتكم عليه ، فلا حِنث إذاً .

وأما قوله صلى الله عليه وسلّم : « إني لا أحلف يميناً . . . » الحديث . . فهو استئناف قاعدة لا تدل علىٰ أن النبي صلى الله عليه وسلّم حنث في يمينه التي حلفها علىٰ أبي موسىٰ وقومه ، بل خرج الكلام على التقدير ، كأنه قال : ولو حنثت في يميني حيث كان الحنث خيراً وكفَّرت عنها . . لكان ذلك شرعاً واسعاً ، بل ندباً راجحاً .

هـٰذا كله كلام القاضي ناصر الدين المذكور أحمد بن محمد رحمه الله تعالىٰ . انتهىٰ .

فصل

في تركة السلطان وذِكر بعض مناقبه الجميلة ومآثره الجليلة

قال العماد الكاتب وابن شداد وغيرهما : إنه لما مات السلطان . . لم يترك في خزانته من الذهب سوىٰ جرماً واحداً صورياً ، ومن الفضة ستة وثلاثين درهماً أو سبعة وأربعين درهماً ، ولم يترك داراً ولا عقاراً ، ولا مزرعة ولا بستاناً ، ولا شيئاً من أنواع الأملاك .

هـٰذا وله من الأولاد سبعة عشر ذَكراً وابنة صغيرة ، وتوفي له من الأولاد في حياته غيرهم .

وكان مشغوفاً بالإنفاق في سبيل الله تعالىٰ ، وما عُقر لأحد من العسكر فرس في سبيل الله عز وجل أو جرح . . إلا وعوض مالكه مثله وزاده من فضله ، وحسب ما وهبه من الخيل العراب والأكاديش[1] الجياد للحاضرين معه في الجهاد في مدة ثلاث سنين وشهر ، فكان اثنا عشر ألف رأس .

وأما الأموال التي أطلقها بسبب الخيل المصابة في القتال . . فشيء كثير لا يحصيها إلا الله تعالىٰ ، ولم يكن له فرس يركبه . . إلا وهو موهوب أو موعود به ، وصاحبه ملازم في طلبه ، وما حضر للقتال . . إلا واستعار فرساً يقاتل عليه ، فإذا نزل عنه . . جاء صاحبه وأخذه .

وكانت مجالسه حافلة بأهل العلم والدِّين والفضل ، يحب مناظرة العلماء بين يديه ، ويشاركهم في المناظرة أحسن مشاركة في المسائل الكثيرة الغامضة ، حتىٰ صار لمداومة

---

(١) **الأكاديش** : الأفراس غير الأصيلة .

المناظرة مع العلماء أعرف منهم بالأحكام الفرعية بل بالأدلة الشرعية ، وكان كل مَن جالسه من العلماء لا يحسب من يراه عنده إلا كأنه أخ من إخوته ؛ لشدة إكرامه واحترامه للعلماء ، وتواضعه لهم ، وحسن أخلاقه ورأفته .

وكان حليماً كريماً حسيباً عفيفاً ، مجالسه كلها مجالس الآخرة لا غير ؛ لأنها إما في إقامة عدل ينشره ، أو جهاد يتجهز له ، أو سماع الأحاديث النبوية ـ علىٰ قائلها أفضل الصلاة والسلام ـ أو بِرٍّ يوليه ، وإحسان يوصله إلىٰ ذوي الحاجات وأرباب الضرورات ، إلىٰ غير ذلك من سائر أنواع البر وأبواب القربات .

هـٰذا مع ما انطوىٰ عليه من السجايا الجليلة ، والأخلاق الطاهرة الجميلة ، والحياء الذي لا مزيد عليه ، والسخاء الذي لا يُلحق فيه ، فهو حقيق بقول الشاعر :

كريم لا يغيِّره صباحٌ ... عن الخلق الكريم ولا مساءُ
إذا أثنىٰ عليه المرء يوماً ... كفاه من تعرضه الثناء
وعلمك بالحقوق وأنت قرم ... لك الحسب المهذب والسناء
وأرضك كل مكرمة تقيها ... بنو تيم وأنت لها سماء
أأذكر حاجتي أم قد كفاني ... حياؤك إنَّ شيمتَك الحياء

ومع ذلك فكان يهب الجزيل فلا يراه ، بل يرى الفضل للآخذ منه ذلك ، كما قيل فيه :

يا ذا الذي يَهَب الجزيلَ وعنده ... أني عليه بأخذه أتفضل

فانظر إلىٰ هـٰذه النفس الزكية ما أكثر تقواها ، وما أعظم سخاها ، فسبحان من أعطاها ، ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ .

وكان ـ رحمه الله ـ حليماً كثير الأفضال علىٰ إخوانه ، لا سيما القاصدين إليه والسائلين له والوافدين إليه ، مقيلاً للعثرات ، متجاوزاً عن الهفوات ، يتغابىٰ عن الزلات ، كما قيل :

ليس الغبي بسيد في قومه ... لـٰكنَّ سيِّدَ قومه المتغابي

وكان تقياً نقياً ، براً وفياً صفياً ، يغضي ولا يغضب ، دائم البِشر والبشاشة ، لا يرد سائلاً ، ولا يصد نائلاً ، ولا يُخجل قائلاً ، ولا يخيِّب آملاً .

سأل بعض الأمراء عن سبب تخلفه عن الغزاة ، فذكر دَيناً عليه ، فأحضر الغرماء وتقبل بالدَّين وهو اثنا عشر ألف دينار مصرية وكسراً ، وحوسب صاحب ديوانه عما تولاه في

أيامه ، فكان سياقة الحساب سبعين ألف دينار باقية عليه ، فما طلبها ولا ذكرها ولا أراه أنه عرفها ، مع أن صاحب الديوان ما أنكرها .

ثم إنه بعد ذلك ولاه ديوان جيشه مضافاً إلىٰ ديوانه ، وقال لهم : لا تُعلموه بأني قد عرفت بالباقي .

وكان يرضىٰ من عماله بما يحملونه إليه عفواً صفواً ، علىٰ أن جميع ما يدخله ينفقه في الجهاد وسائر أنواع البر ، ويعم بصدقاته الفقراء والمساكين .

وكتب إلىٰ نُوَّابه في البلاد بإخراج الصدقات في بلادهم ، وكتب إلى الصفي بن القابض بدمشق أن يتصدق بخمسة آلاف دينار صورية ، فقال العماد الكاتب : إن الذي عنده مصري ، فقال : يتصدق بخمسة آلاف دينار مصرية .

ويوم رحيله من حران كان علىٰ بابه عشرة أنفس من أبناء السبيل ، فأعطاهم أربع مئة دينار .

وكان إذا أطلق لمحتاج شيئاً وقيل له : هـٰذا ما يكفيه . . ردّها مضاعفة .

وكان يغضب للكبائر ، ولا يغضي عن الصغائر ، ويرشد إلى الهدىٰ ، ويهدي إلى الرشاد ، ويسدد الأمر ، ويأمر بالسداد ، فكان كل مماليكه وخواصه وجميع أمرائه وأجناده أعف من الزهاد ، وأكثر عبادة من العباد .

قال العماد : ورأىٰ يوماً دواة لي محلاة بالفضة وهو شيء يسير ، فأنكرها ، فقلت له : إن الشيخ أبا محمد الجويني ـ قدس الله روحه ـ ذكر وجهاً في جوازها ، فقال : لا تتبع الرخص ، فلم أكتب بها بعد ذلك .

وكان محافظاً على الصلوات في أول أوقاتها مع الجماعة ، حتىٰ في مرضه لا يُفَوِّت الجماعة ، بل يدخل الإمام الذي له يصلي به ومَن حضر من خواصه ، مواظباً على السنن الرواتب ، كثير الأوراد والتلاوة والذكر ، أوقاته كلها مستغرقة بالعبادة علماً وعملاً ، قلباً وقالباً ، قد هجر لذَّة الدنيا وزينتها ، وأخرج من قلبه محبتها وبهجتها ، فهو كالأسير في هـٰذه الدار ، لا يصدق بفك الأسر عنه إلىٰ دار القرار .

اللهم ؛ فبلغه ذلك ، وأقر عينه بالنظر إلىٰ وجهك الكريم يا أرحم الراحمين ، واجمع بيني وبينه في دار كرامتك مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

وكان يحب سماع الأحاديث النبوية علىٰ قائلها أفضل الصلاة والسلام ، حتىٰ إنه بلغ من

حبه إياها أنه سمَّع بين الصفَّين والرؤوس تندر والرماح تقصر ، وبسبب ذلك وببركة رسول الله صلى الله عليه وسلّم حصل النصر العظيم والفتح المبين .

ولما توجه إلى الإسكندرية لأجل عمارة أسوارها . . قال : نغتنم حياة الشيخ أبي طاهر بن عوف ، فحضر عنده وسمع عليه « موطأ مالك » ، كما تقدم بيانه ، وكتب الفاضل إليه يهنئه بهـٰذا السماع ، فمن ذلك : أدام الله دولة المولى الملك الناصر صلاح الدين والدنيا ، سلطان الإسلام والمسلمين ، محيي دولة أمير المؤمنين ، وأسعده برحلته للعلم وأثابه عليها .

وفيه : ولله في الله رحلتاه ، وفي سبيل الله يوماه ، وما منهما إلا أغر محجل ، والحمد لله الذي جعله ذا يومين ، يوم يسفك فيه دم المحابر تحت قلمه ، ويوم يسفك فيه دم الكافر تحت قدمه وعَلَمه .

واتفق أن العَلَمَ خطيب المِزة زَوَّرَ على السلطان مقالاً يتضمن إدراراً كثيراً ، فعرف نائب الشام الأمير عز الدين تزويره وهَمَّ بالإيقاع به ، فهرب إلىٰ مصر ، وقصد السلطان ، وأطلعه على الحال ، فما اكترث به ، وقال : نحن نجعل ما زوَّرته حقيقة ، وأمر أن يُكتب له توقيع بضعف ذلك الإدرار .

وكان له إمام يصلي به ، وهو يكتب مثل خطه سواء ، فزوَّر عليه شيئاً كثيراً مدة سنين ، فلما انكشف له الحال . . جاء أخوه السلطان والأمراء يغرونه به ، فلم يلتفت إليهم ، وقال : نحن نطلقه للقرآن ، واستبدل غيره في إمامة الصلاة .

ولقد قلب الخازن في خزانته كيسين فيهما ذهب مصري جعل مكانهما كيسين من الفلوس ، فلما علم . . لم يعمل بالخازن شيئاً ، ولا أعلمه أنه علم بما صنع ، لـٰكنه صرفه عن الخزانة .

وكان ـ رحمه الله ـ حسن العشرة ، لطيف الأخلاق ، جميل المحاضرة ، طيب المفاكهة ، حافظاً لأنساب العرب ووقائعهم ، عارفاً بسِيَرهم وأحوالهم ، عالماً بعجائب الدنيا ونوادرها ، بحيث إن محاضره يستفيد منه ما لا يسمعه من غيره .

وكان يحفظ « الحماسة » و« التنبيه » ، فإذا ذكر القاضي الفاضل منها بيتاً . . يقول له : تمم القصيدة ، فيبقىٰ[1] ؛ لأنه لم يكن حافظاً لها ، فيسرد السلطان القصيدة بكمالها حفظاً من صدره .

---

(١) أي : فيبقىٰ ذاهلاً ، ولا يرد جواباً .

وكان كثير الشفقة والتلطف والرفق بإخوانه ، حتىٰ إنه ليسأل الواحد منهم عن مرضه ومداواته ، ومطعمه ومشربه ، وسائر تقلبات أحواله .

وكان إذا سمع بعالم كبير : فإن كان ممن يحضر عنده . . أحضره إليه وأكرمه واحترمه ووصله ، وإلا . . حضر هو بنفسه إليه ، وحمل إليه الصِّلات ، وبالغ في إكرامه وقضاء حوائجه .

وكان يحب أن يقرأ الحديث بنفسه ، ولقد قرأ شيئاً كثيراً ، فإذا مر بحديث فيه عبرة . . رق قلبه ودمعت عينه .

وكان كثير التعظيم لشعائر الله سبحانه وتعالىٰ ، شديد القيام على المبتدعين والفلاسفة ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، ولقد أمر ولده الظاهر صاحب حلب بقتل شاب يقال له : السهروردي[1] ؛ لزندقة ظهرت عليه ، وكان قد قبض عليه وَلَدُه المذكور ، فلما بلغه خبره . . أمر بقتله وصلبه أياماً ، فقتل وصلب .

وكان [السلطان] حسن الظن بالله تعالىٰ ، كثير الاعتماد والالتجاء إليه ، عظيم الإنابة والتوبة لله عز وجل ، وكان مجاب الدعوة ، سريع الدمعة ، عادلاً رؤوفاً ، رحيماً حليماً ، كريماً حيياً ، ناصراً للضعيف والمظلوم ، يجلس في دار العدل الإثنين والخميس في مجلس عام لا يحجب عنه أحد حتىٰ أهل الذمة ، ويحضر العلماء والفقهاء والقضاة ، يفعل ذلك سفراً وحضراً ، وفي باقي الأيام يأخذ بيده قصص الناس ، ويكشف ما فيها من الظلامات ، ويوقع علىٰ كل قصة بما يقتضيه الشرع الشريف .

وما استغاث به أحد . . إلا ووقف له ، واستمع كلامه من غير ترويع ، وكشف ظلامته ، وقضىٰ حاجته .

واستغاث إليه إنسان ، وأظهر أن ابن أخيه تقي الدين قد ظلمه ، فأمر بإحضاره إلىٰ مجلس الحُكم العزيز ، وبسماع دعواه ، والعمل بما يقتضيه الشرع الشريف ، فعلم ابن

---

(١) السُّهْرَوَرْدي (٥٤٩ ـ ٥٨٧ هـ) : يحيى بن حبش بن أميرك ، أبو الفتوح ، شهاب الدين السهروردي ، فيلسوف ، ولد في سهرورد ونشأ بمراغة وسافر إلىٰ حلب ، فنسب إلى انحلال العقيدة ، وكان علمه أكثر من عقله ، فأفتى العلماء بإباحة دمه ، فسجنه الملك الظاهر غازي ، وخنقه في سجنه بقلعة حلب ، من كتبه « التلويحات » و« هياكل النور » .

أخيه ، فوكل في المحاكمة ، وحاكمه الوكيل ، وانفصل الأمر علىٰ أحسن نظام .

واستعدىٰ شخص على السلطان إلى القاضي ابن شداد ، وذكر أن له عليه دعوىٰ شرعية ، وهي : أن سنقر الخلاطي كان مملوكاً له ، وأنه لم يزل في ملكه إلىٰ أن مات وفي يده أموال عظيمة ، وأنه يستحقها .

قال القاضي : فعرَّفْتُ السلطان بذلك ، فأمر بإحضاره وقربه إليه ، وأدناه ، وتلطف به ، وأجلسه بين يديه ، ثم انحرف عن طراحته حتىٰ ساواه ، ثم ادعى الرجل ، وفُتح كتابُه وقُرىء تاريخه ، فأقام السلطان بينة متقدمة علىٰ ذلك التاريخ بسَنة : أن سنقر الخلاطي كان في ملكي وفي يدي بمصر وإني اشتريته مع ثمانية أنفس في تاريخ متقدم علىٰ هـٰذا التاريخ وإنه لم يزل في ملكي وفي يدي إلىٰ أن أعتقته .

وحضر جماعة من الأمراء المجاهدين فشهدوا بذلك ، قال : فسكت الرجل ولم يحر جواباً ، فقلت له : يا مولانا السلطان ؛ هـٰذا الرجل ما فعل هـٰذا إلا طلباً لمراحم السلطان ، وما يحسن أن يرجع خائب القصد ، فقال : هـٰذا باب آخر ، وقد تقدم له بخلعة سنية ونفقة كثيرة بالغة .

فانظر إلىٰ هـٰذا التواضع العظيم ، والانقياد للحق في موضع المؤاخذة مع القدرة التامة .

وأما كرمه : فإنه بلغ الغاية ، حتىٰ إنه كان يهب الأقاليم بكمالها وجميع ما فيها ، فَتَحَ آمد ، فطلبها منه ابن قرا أرسلان ، فأعطاه إياها ، ووفد عليه جماعة بالقدس الشريف ولم يكن عنده في الخزانة ما يعطيهم ، فباع ضيعة له ودفع جميع ثمنها إليهم .

وكان عطاؤه في وقت الضائقة كعطائه في وقت السعة ؛ إذ ليس للدنيا عنده قدر ولا قيمة ، وكان نوَّابُ خزائنه يكتمون عنه شيئاً من المال حَذَرَ أن يفجأهم مُهِمٌّ فلا يجدون شيئاً ؛ لعلمهم بأنه متىٰ علم بشيء في خزائنه . . أمر بإطلاقه .

وكان يعطي فوق ما يؤمل الطالب ، وما سمع منه يوماً من الأيام أنه يقول : أعطَينا فلاناً ، وكان يعطي الكثير ، ويبسط وجهه للمعطىٰ بسط من لم يعطه شيئاً .

وكان الناس يستزيدونه في كل وقت فيزيدهم ولا يتبرم بذلك ، ولا يقول كم أزيدكم ؟! ولا يقول قد زدتكم مراراً .

قال القاضي ابن شداد : وكانت أكثر الرسائل والزيادات بالعطاء علىٰ لساني ويدي ، وكنت أخجل من كثرة ما يطلبون ولا أخجل منه ؛ لعلمي بعدم مؤاخذته بذلك ، وما خدمه

أحد قط . . إلا وأغناه عن سؤال غيره ، ولو ذهبنا نعدد عطاياه . . لنفد القرطاس وضاقت الأنفاس .

فمِن ذلك : ما وهبه من الخيل بمرج عكا كما تقدم ، ومَن شاهد مواهبه . . يستقل هـٰذا القدر .

اللهم ؛ أنت الذي ألهمته الكرم وأقدرته علىٰ ذلك وأنت أكرم الأكرمين ، فتكرم عليه برحمتك ورضوانك يا أرحم الراحمين .

وأما شجاعته : فكان من عظماء الشجعان ، قوي النفس والقلب ، شديد البأس ، عظيم الثبات ، لا يهوله أمر ، ولقد رأيته مرابطاً في مقاتلة جمع كثير من الفرنج ، هـٰذا مع أن نجدتهم كانت تتواصل ، وعساكرهم تتواتر ، وهو مع ذلك لا يزداد إلا قوة نفس وصبر ، ولقد وصل في ليلة واحدة من الفرنج ما ينيف علىٰ سبعين مركباً إلىٰ عكا وأنا أعدها من بعد العصر إلىٰ غروب الشمس ، وهو لا يزداد إلا قوة نفس وشجاعة وشهامة .

وكان يعطي الجيش دستوراً في أوائل الشتاء ، ويبقىٰ هو في طائفة يسيرة في مقابلة عدتهم الكثيرة .

قال القاضي ابن شداد : وسألت بالْيان ـ وكان من كبار ملوك الساحل يوم انعقاد الصلح ، وهو جالس بين يدي السلطان ـ عن عدتهم ، فقال : خمس مئة ألف ـ أو ست مئة ألف ـ قلت : فكم هلك منهم ؟ فقال : أما بالقتل . . فقريب من مئة ألف ، وأما بالموت والغرق . . فلم يعلم ، وما رجع منهم إلا الأقل .

وكان السلطان لا بد له أن يطوف حول العدو كل يوم مرة أو مرتين إذا كان قريباً منهم ، وكان إذا اشتد الحرب . . يطوف بين الصفين ومعه صبي واحد ، علىٰ يده جنيب[1] ، ويخرق العساكر من الميمنة إلى الميسرة ، ويرتب الأطلاب ، ويأمرهم بالتقدم والوقوف في مواضع يراها .

وكان يشارف العدو ويجاوره ، وقرىء عليه جزء من الحديث وهو بين الصفين وذلك أني قلت له : قد سمعتَ الحديث في جميع المواطن الشريفة إلا بين الصفين ، فإنك لم تسمع الحديث فيه ، فأحضر جزءاً من الحديث وقرىء عليه ونحن علىٰ ظهور الخيل بين الصفين يمشي تارة ويقف أخرىٰ .

---

(١) **الجنِيب** : المقود إلى الجنب من الخيل وغيرها .

وما رأيته استكثر العدو قط ، ولا استعظم أمرهم أصلاً ، ولقد انهزم المسلمون يوم المصاف الأكبر بمرج عكا حتى القلب والرَّجَّالة ، ووقع الكُوْس والعلم ، وهو ثابت القدم في نفر يسير ، وقد انحاز إلى الخيل يجمع الناس ويردهم ويخجلهم حتىٰ يرجعوا ، ولم يزل مصابراً لهم إلىٰ أن عاد المسلمون إلى القتال ، وقتلوا من العدو نحو سبعة آلاف ، ولم يزل ثابتاً لهم وهم في العدة الوافرة إلىٰ أن ظهر له ضعف المسلمين ، فصالح الكفار وهو مسؤول من جانبهم ؛ فإن الضعف والهلاك كان فيهم أكثر ، ولـٰكنهم كانوا يتوقعون النجدة ونحن لا نتوقعها ، وكانت المصلحة في الصلح .

وكان مع هـٰذا كله يمرض ويصح ، وتعتريه أحوال مهولة وهو مصابر مرابط ، وتتراءى النيران فنسمع صوت الناقوس ويسمعون منا الأذان ، إلىٰ أن انقضى الأمر .

وكان شديد المواظبة على الجهاد ، كأنه لم يخلق إلا له ، عظيم الاهتمام به ، حتىٰ لقد كان الجهاد وحبه له والشغف به قد استولىٰ علىٰ قلبه وسائر جوارحه استيلاء عظيماً ، بحيث إنه ما كان له حديث إلا فيه ، ولا نظر إلا في آلته[1] ، ولا اهتمام إلا به ، ولا يميل إلا إلىٰ من يذكره ويحثه عليه .

ولقد هجر في محبة الجهاد أهله وأولاده ، ووطنه وسكنه ، وسائر ملاذه ، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح يمنة ويسرة ، ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة ريح وبرد بمرج عكا ، فسلمه الله تعالىٰ بنيته الصالحة ؛ لأنه كان في البرج ، ومع ذلك فلم يزدد إلا محبة ورغبة ومصابرة واهتماماً .

وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه . . يحثه على الجهاد ويذكر له شيئاً من الأحاديث فيه .

وقد صُنف له عدة كتب في ذلك ، وأنا ممن جمع له فيه كتاباً كبيراً حافلاً به ، وكان كثير المطالعة له ، ولم يزل معه إلىٰ أن أخذه منه ولده الأفضل .

وكان يقول : متىٰ يَسَّرَ الله الكريم فتح بقية السواحل . . قسمت البلاد ، وأوصيت ، وودعت ، وركبت البحر إلىٰ جزائرهم أتتبَّعهم فيها ، حتىٰ لا يبقىٰ علىٰ وجه الأرض مَن يكفر بالله سبحانه وتعالىٰ ، وأموت شهيداً ، فقيل له : أنت حصن الإسلام ، ولا ينبغي أن تخاطر

---

(١) في النسخ : (ولا نظر إلا إليه) ، والمثبت من « الروضتين » .

بنفسك ، فقال : أشرف أحوال الإنسان أن يموت شهيداً ، وأنا أرجوها من كرمه سبحانه وتعالىٰ .

وأما صبره : فإنه لما كان بعكا . . اعتراه مرض بسبب كثرة دماميل من وسطه إلىٰ ركبته ، بحيث إنه لا يستطيع الجلوس ، وكان لا يزال متكئاً علىٰ جانبه وهو في الخيمة ، وامتنع من مد الطعام بين يديه لعجزه عن الجلوس ، وكان يأمر أن يفرق على الناس .

وهو مع ذلك كله يركب من بكرة النهار إلى الظهر يطوف على الأطلاب صابراً علىٰ شدة الألم ، وقوة ضربان الدماميل ، وكنا نتعجب من شدة صبره ، فكان يقول لنا : أنا إذا ركبت . . يزول عني ألمها حتىٰ أنزل .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : اعلم : أن هـٰذه كرامة عظيمة أكرم الله عز وجل بها وليه السلطان صلاح الدين قدس الله روحه ، وقد سبق وقوع مثل ذلك لجماعة من الأئمة رضي الله عنهم .

منهم : عبد الواحد بن زيد علىٰ ما رواه الحافظ أبو نعيم وغيره من رواية أبي سليمان الداراني قال : أصاب عبد الواحد بن زيد الفالج ، فسأل الله تعالىٰ أن يطلقه في وقت الوضوء ، فكان إذا أراد أن يتوضأ . . أُطلق ، وإذا رجع إلىٰ سريره . . عاد إليه الفالج . [« الحلية » ٦/١٥٥] .

ومنهم : سهل التستري رحمه الله ، حصل له فالج في آخر عمره ، فكان إذا حضرت الصلاة . . زال عنه ، فإذا فرغ منها . . عاد إليه .

ومنهم : مَن ذهب بصره ، فكان إذا فتح المصحف للقراءة فيه . . رجع إليه بصره ، فإذا فرغ من القراءة . . ذهب بصره .

ومنهم : أبو الحسين النوري رحمه الله ، قالوا : إنه أقام سبعة أيام في منزله لم يأكل ولم يشرب ولم ينم ، ويقول في ولهه ودهشه : (الله ، الله) ، وهو قائم يدور ، فأُخبر الجنيد رحمه الله بذلك ، فقال : انظروا أمحفوظ عليه أوقاته ، أم لا ؟ فقيل له : إنه يصلي الفرائض في جماعة ، فقال : الحمد لله الذي لم يجعل للشيطان عليه سبيلاً ، ثم قال : قوموا بنا حتىٰ نزوره ، إما نستفيد منه ، أو نفيده .

فدخل عليه وهو في ولهه ، فقال له : يا أبا الحسين ؛ ما الذي دهاك ؟ قال : أقول : الله ، الله ، زيدوا عليَّ زيدوا عليّ ، فقال له الجنيد : انظر هل قولُكَ : اللهَ . . الله ؟

أم قولُكَ . . قولُكَ ؟ إن كنتَ القائلَ : (اللهَ اللهَ) باللهِ . . فلست القائلَ له[1] ، وإن كنتَ تقولُ بنفسك . . فأنت مع نفسكَ ، فما معنى الوَلَه ؟ فقال له : نِعم المؤدب أنت . وسكت عن ولهه .

وهـٰذا مقام عزيز يختص الله عز وجل به من يشاء من عباده ، وأرباب العلم الذين يسمونه الفرق الثاني ، وهو أن يُرَدَّ إلى الصحو عند أداء الفرائض في أوقاتها ، فيكون رجوعاً [لله] بالله لا للعبد بالعبد ، وهو معنىٰ كونه محفوظاً ، وسيأتي لهـٰذا زيادة بيان .

وإذ قد وصلنا إلىٰ هنا . . فلا بأس بإيراد شيء من ذلك علىٰ لسان القوم رضي الله عنهم علىٰ سبيل الاختصار .

فأقول وبالله التوفيق : قال الأستاذ أبو علي الدقاق رحمه الله في التفرقة والجمع[2] :

الفرق : ما نسب إليك ، **والجمع** : ما سلب عنك .

ومعناه : أن ما يكون كسباً للعبد من إقامة وظائف العبودية وما يليق بأحوال البشرية . . فهو فرق ، وما يكون من قِبل الحق جل جلاله من إبداء معان وابتداء لطف وإحسان . . فهو جمع .

ولا بد للعبد منهما ؛ فإن مَن لا تفرقة له . . لا عبودية له ، ومَن لا جمع له . . لا معرفة له ، فقول العبد له : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ . . [إشارة إلى الفرق ، وقوله] : ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ . . طلب للجمع .

فإذا خاطب العبد ربه إما سائلاً ، أو داعياً ، أو مُثنياً ، أو شاكراً ، أو مبتهلاً . . قام في مقام التفرقة ، وإذا أصغىٰ بسره إلىٰ ما يناجيه [به] مولاه جل جلاله ، واستمع بقلبه ما يناديه . . فهو في مقام الجمع .

وأنشد قَوَّال بين يدي الأستاذ الإمام أبي سهل الصعلوكي رحمه الله :

جعلت تنزهي نظراً إليكا

وكان الإمام أبو القاسم النصرآباذي رحمه الله حاضراً ، فقال أبو سهل : (جعلتَ) بفتح التاء ، وقال النصرآباذي : بل بضمها ، فقال له أبو سهل : أليس عين الجمع أتم ؟ فوافقه النصرآباذي .

---

(١) أي : إن قلت : (أنا القائلُ : اللهَ اللهَ) بقدرة اللهِ . . فلستَ أنت القائل حقيقةً .

(٢) انظر « الرسالة القشيرية » (ص٦٠) وما بعدها .

وهـٰذا ظاهر ؛ لأن معناه مع الفتح : أن الله سبحانه وتعالىٰ خصص عبده بذلك منحة من فضله وكرمه ، لا صنع للعبد فيه ، ومعناه مع الضم : إثبات فعل العبد ، فكان الأول جمعاً والثاني تفرقة .

وأما جمع الجمع : فهو مقام آخر أتم من الجمع ، فالجمع شهود الأشياء بالله عز وجل ، والتبري من الحول والقوة إلا بالله ، وجمع الجمع الاستغراق بالكلية ، والفناء عما سوى الله سبحانه وتعالىٰ ، فلا يشاهد شيئاً سواه عند غلبة سلطان الحقيقة .

وإيضاح هـٰذا وبسْطُه قد ذكرته في كتابي « الجوهر الفريد » في الرابع منه ، عند الكلام على التوحيد ومراتب الموحدين .

وبعد ذلك مقام عزيز يسمونه : الفرق الثاني : وهو أن يُرَدَّ إلى الصحو عند أداء الفرائض في أوقاتها ، فيكون رجوعاً [لله] بالله ، لا للعبد بالعبد ، وهو معنىٰ كونه محفوظاً .

وقال بعض المحققين : المراد بلفظ (الجمع والتفرقة) : أن الله عز وجل خلق الخلق كلهم في الأزل ، وخاطبهم بقوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ ثم فرقهم بالإسعاد والإشقاء ، والتقريب والإبعاد ، والإكرام والإهانة ، إلىٰ غير ذلك .

ولأبي القاسم الجنيد رحمه الله في معنى التفرقة والجمع علىٰ طريق أرباب الموهبة ـ وهي الأَولىٰ ـ :

قـــد تحققتـــك فـــي ... ســـري فنـــاجـــاك لســـانـــي
فـــاجتمعنـــا لمعـــانٍ ... وافتـــرقنـــا لمعـــانـــي
إن يكـــن غيَّبـــك التـ ... ـعظيـم عـن لحـظ عيـانـي
فلقـــد صيَّـــرك الـ ... ـوجـد مـن الأحشـاء دانـي

وبعد ذلك يترقى العارف إلىٰ مقام آخر أعلىٰ وأرفع مما قبله ، وهو **التجلي** ، وهو مقام عظيم حقيقته التوحيد المحض ، والكلام فيه طويل ، نذكر منه هـٰهنا قدراً يسيراً علىٰ طريق القوم رحمهم الله .

قال العارفون : أما التجلي . . فاعلم أنه إذا تجلىٰ للعبد قدرةُ الله عز وجل علىٰ عباده . . فحينئذ لا يخاف غيره ، وإذا تجلىٰ له كفايةُ الله سبحانه وتعالىٰ لعباده . . فحينئذ لا يرجو غيره ، وكذلك سائر الصفات ، كما قال حارثة رضي الله عنه : (كأني أنظر إلىٰ عرش ربي

بارزاً) . . . الحديث ، وكان قد تجلىٰ له كلامه في أخباره سبحانه وتعالىٰ ، فصار الخبر عنده كالعيان .

وقال بعض الأئمة الكبار رحمهم الله : علامة تجلي الحق جل جلاله على الأسرار : هو أن يشهد العبد ما لا يمكنه العبارة عنه ؛ لأنه لا يشهد إلا تعظيماً وهيبة ، فيسقط ذلك عن تحصيل ما شاهد من الحال .

وأنشدوا :

إذا ما بدت لي تعاظمتها ... فأَصدُرُ في حال من لم يَرِدْ
أَجِدْهُ إذا غِيبَ عني به ... وأشهد وَجْدي به قد فُقِدْ
فلا الوصل يُشهِدني غيره ... ولا أنا أشهده منفردْ
جُمِعْتُ وَفُرِّقتُ عني به ... ففرد التواصل مثنى العدد

معناه : إذا بدت لي الحقيقة . . غلب عليَّ التعظيم ، فأغيب في شاهد التعظيم عن شهود التحصيل ، وإذا غبت . . فقدت وجودي ، وحالة الوصل التي هي فنائي لا تُشهدني غيره ، وحالة الانفراد وقيامي بصَفتي يغيبني عن شهوده ، فكأنَّ جمعي به فرقني عني ، فتكون حالة الوصل هي أن الله تعالىٰ مصرفي ، فلا يكون لي فعل ، كما قال تعالىٰ : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ ، ومن جهة العلم أن الله تعالىٰ مصرفي ، وأنا به منصرف ، فيجتمع المعبود جل جلاله والعبد .

وقال بعضهم : **التجلي** : رفع حجب البشرية .

والاستتار : هو أن تكون البشرية حائلة بينك وبين شهود الغيب .

ومعنىٰ **رفع الحجب البشرية** : أن ترىٰ أن الله عز وجل هو الذي يقيمك تحت موارد ما يبدو لك من الغيب ؛ لأن البشرية لا تقاوم أحوال الغيب ، والاستتار الذي يعقب التجلي : هو أن تستتر الأشياء عنك فلا تشهدها ، والفناء والبقاء كالجمع والتفرقة ، أو هو أخص ، **فالفناء** : هو أن تفنىٰ عنه الحظوظ ، فلا يكون له في شيء حظ ، ويسقط عنه التمييز لفنائه عن الأشياء كلها شغلاً بمن فني به ، كما قال عامر بن عبد الله رحمه الله : ما أبالي امرأةً أتيت أم حائطاً .

والحق جل جلاله يتولىٰ تصريفه في وظائفه وموافقاته ، فيكون محفوظاً فيما لله عز وجل عليه ، مأخوذاً عمَّا له وعن جميع المخالفات ، فلا يكون له إليها سبيلاً ، وهو العصمة ،

وذلك معنىٰ قوله : (كنت له سمعاً وبصراً . . .) الحديث .

والبقاء الذي يعقبه : هو أن يفنىٰ عمَّا له ويبقىٰ بما لله عز وجل عليه .

وقال بعض الأئمة : أما البقاء . . فهو مقام المرسلين والنبيين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ؛ فإنهم أُلبسوا السكينة ، فلا يمنعهم ما حل بهم عن فرضه ولا عن فضله ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ .

والباقي : هو أن تصير الأشياء كلها شيئاً واحداً ، فتكون حركاته في موافقات الحق جل جلاله دون مخالفاته ، فيكون فانياً عن المخالفات باقياً في الموافقات ، علىٰ معنىٰ أنه لا يجري عليه إلا ما أُمر به وما يرضاه الله عز وجل دون ما يكرهه ، ويفعل ما يفعل لله عز وجل لا لحظٍّ له فيها لا في عاجل ولا في آجل .

وهـٰذا معنىٰ قولهم : يكون فانياً عن أوصافه باقياً بأوصاف الحق ؛ لأن الله عز وجل إنما يفعل الأشياء لغيره لا له ؛ لاستحالة عَود الضُّر والنفع إليه سبحانه وتعالىٰ ، وإنما يفعل الأشياء لينفع عباده ويضرهم ، فلا يكون قصدُ العبد بفعله جرَّ النفع أو دفعَ الضر .

فالباقي بالحق الفاني عن نفسه يفعل الأشياء علىٰ معنىٰ أنه لا يقصد في فعله جر المنفعة ودفع المضرة عن نفسه ؛ إذ قد سقطت عنه حظوظ نفسه ومطالبة منافعها بمعنى القصد والنية لا غير ، لا بمعنىٰ أنه لا يجد حظاً فيما فعل لله عز وجل ، بل بمعنىٰ أنه إنما فعله لله عز وجل لذاته جل جلاله لا لطمع ثواب ولا لخوف عقاب ، وإن كان الخوف والرجاء لا يفارقانه ، ولـٰكن تكون رغبته في الثواب لموافقة الله عز وجل حيث رَغَّب فيه ، وأمر أن يسأل ذلك ، ولا يفعله للذة نفسه قصداً وإن كانت اللذة حاصلة ضمناً ، كما يقول أصحابنا في فروع الفقه في نية التبرد في الوضوء وغيره .

وهـٰكذا في الخوف ، يخاف عقاب الله عز وجل لموافقته له ؛ لأنه سبحانه وتعالىٰ أحب أن يُخاف عقابُه ، فهو يَخاف العقاب لذلك لا من أجل الإثم الذي هو حظ نفسه ، ويفعل سائر الحركات لله عز وجل لا لحظ نفسه .

واستيفاء الكلام علىٰ هـٰذه المقامات يطول ، ومن جملة الفناء هنا : هو الغيبة عن الأشياء رأساً ، كما كان فناء موسى الكليم عليه الصلاة والسلام لمَّا تجلىٰ ربه للجبل جعله دكاً وخر موسىٰ صعقاً .

وقال أبو سعيد الخراز رحمه الله : علامة الفاني : ذهاب حظه من الدنيا والآخرة إلا

من الله سبحانه وتعالىٰ ، ثم يبدو له بادٍ من قدرة الله عز وجل ، فيريه ذهاب حظه ويبقىٰ رؤية ما كان من الله عز وجل .

ومعنىٰ ذهاب حظه من الدنيا : عدم مطالبة الأعراض ، ومن الآخرة : عدم مطالعة الأعواض ، فيبقىٰ حظه من الله عزَّ وجلَّ وهو رضاه عنه ، وقربه منه سبحانه وتعالىٰ .

ويشهد لهـٰذا ما ورد في « الصحيح » : (أُحِلُّ عليكم رضواني . . .) الحديث .

ثم تَرِدُ عليه حالة أخرىٰ من إجلال الله سبحانه وتعالىٰ : من أن يُقرِّب مثله أو أن يرضىٰ عن مثله استحقاراً لنفسه وإجلالاً لربه سبحانه وتعالىٰ ، كما هو الواقع .

ثم تَرِدُ عليه حالة ثالثة : تستوفيه حق الله تعالىٰ ، فتغيِّبه عن رؤية صفته التي هي رؤية حظ نفسه ، فلا يبقىٰ فيه إلا ما مِن الله إليه ، ويفنىٰ عنه ما منه إلى الله ، ويكون كما كان ؛ إذ كان في علم الله عز وجل قبل أن يوجده ، سبق له منه ما سبق من غير فعل كان منه .

ومنهم : مَن جعل هـٰذه الأحوال كلها حالة واحدة وإن اختلفت عباراتها ، فجعل الفناء بقاء ، والجمع تفرقة ، وكذلك الغَيبة والشهود ، والسكر والصحو ، وذلك لأن الفاني عما له . . باقٍ بما للحق ، والباقي بما للحق . . فانٍ عما له ، والفاني مجموع ؛ لأنه لا يشهد إلا الحق ، والمجموع مفارق ؛ لأنه لا يشهد إياه ولا الخلق ، وهو باق ؛ لدوامه مع الحق ، وهو مجموع به ، وهو فانٍ عما سواه مفارقٌ لهم ، وهو غائب سكران ؛ لزوال التمييز عنه .

ومعنىٰ زوال التمييز عنه : هو ما تقدم من عدم فرقة بين الآلام والملاذِّ ، وبمعنىٰ أن الأشياء تتوحد عنده فلا يشهد مخالفة ؛ إذ لا يصرِّفه الحق جل جلاله إلا في موافقاته ، فأنىٰ يميز بين الشيء وغيره إذ صارت الأشياء عنده شيئاً واحداً ؟! فلذلك سقط التمييز عنه ، وقد أطلنا القول في ذلك .

وما أحسن ما قال الحسن بن علي رحمه الله حيث قال : كنت في مجلس أبي الحسين النوري رحمه الله ، فقال لي أبو عبد الله بن الفضل : سئل الشيخ ـ يعني : النوري ـ كيف الطريق إلى اجتماع القلب ووجود الرب جل جلاله فيه ولو طرفة عين ؟ قال : فسألته ، فتبسم ، ثم قال : هيهات هيهات! أنا أعرف إنساناً منذ عشرين سنة بين الوجد والفقد ، إذا وجد ربه عز وجل . . فقد قلبه ، وإذا فقد قلبه . . وجد ربه سبحانه وتعالىٰ ، ولم يجتمعا له منذ صحب المعرفة ، فأنىٰ له بمعرفة الوصول إلىٰ ذلك والاهتداء إلىٰ أن أدل عليه غيري ؟!

وأنشد أبو العباس ابن عطاء رحمه الله لأبي الحسين النوري رحمه الله :

الوجد يُطرِب مَن بالوجد راحتُه والوجد عند حضور الحق مفقودُ
فكـان يطـربني وجـدي فـأفقـدني عن رؤية الوجد مَن بالوجد موجود

قيل : قام الشبلي رحمه الله يصلي ، فبقي طويلاً ، ثم صلىٰ ، فلما انفتل من صلاته . . قال : يا ويلاه! إن صلَّيت . . جحدت ، وإن لم أصلِّ . . كفرت ؛ أي إن نسبت الفعل إلىٰ نفسي . . فهو نوع جحود ؛ إذ الفعل فعل الله عز وجل ، فهو الفاعل في الحقيقة .

ولهـٰذا قال أبو بكر الواسطي رحمه الله : ادَّعىٰ فرعون الربوبية على الكشف ، وادعت المعتزلة الربوبية على السر ؛ فإنهم قالوا : ما شئنا فعلنا ؛ أي : نحن خالقون لأفعالنا ، والله أعلم . انتهىٰ .

وقال الشيخ شهاب الدين أبو شامة ـ قدس الله روحه ـ وغيره : حصل للسلطان صلاح الدين ضعف شديد ، وكان علىٰ تل الخَرُّوبة ، فبلغ الفرنج ذلك ، فطمعوا في أن ينالوا من المسلمين بسبب مرضه وهي نوبة النهر ، فخرجوا بجيوشهم قاصدين له ، فركب السلطان رحمه الله علىٰ مضض ، ورتب العساكر للحرب ، وجعل أولاده في القلب ، وقدم أولاده بين يديه احتساباً ، الأفضل والظاهر والظافر ، وغيرهم ممن هو حاضر عنده ، وكرَّتْ عساكره على الفرنج أياماً ولياليَ ، وضايقهم مضايقة شديدة إلىٰ أن كسرهم ، فانقلبوا خاسئين .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : قد قدم غير واحد من الأئمة أولاده بين يديه في القتال ، منهم : الإمام صلة بن أشيم العدوي رحمه الله ، فيما رواه الحافظ أبو نعيم ـ قدس الله روحه ـ : في رواية ثابت البناني رحمه الله ، قال : كان صلة في مغزىً له ومعه ابن له ، فقال له : أي بُني ؛ تقدم فقاتل حتىٰ أحتسبك ، فتقدم فقاتل حتىٰ قتل ، ثم تقدم هو فقاتل حتىٰ قتل ، فجاء النساء إلى امرأته معاذة العدوية ، فقالت : إن كنتن جئتُنَّ لتهنِّئْنَنِي . . فمرحباً بكنَّ ، وإن كنتن جئتن لغير ذلك . . فارجعن . انتهىٰ [« الحلية » ٢/٢٣٩] .

قال الشيخ شهاب الدين ـ رحمه الله ـ : وكان السلطان ليلة علىٰ صفد وهو يحاصرها ، فقال : لا ننام حتىٰ نَنصبَ خمس منجنيقات ، ثم إنه رتب لكل منجنيق قوماً ، وبقي طول ليلته في عمل ذلك إلىٰ أن طلع الفجر وقد فرغ منها ، وكانت من أطول الليالي وأشدها برداً .

وجاءه خبر وفاة ولد له اسمه إسماعيل ، فوقف على الكتاب ولم يخبر بذلك حتىٰ سمع من غيره ، ولم يظهر عليه شيء من ذلك ، سوىٰ أنه لما قرأ الكتاب . . دمعت عينه ، وكذلك

لما وصله أيضاً خبر وفاة تقي الدين . . لم يظهر عليه شيء من ذلك .

وكان ـ رحمه الله ـ يركب وهو في مقابلة الفرنج جريدة على الرملة وفي كل ليلة تقع الصيحة ، فيُقلع الخيام ، ويقف الناس على الجبل إلى الصباح ، وبيننا وبين العدو شوط فرس لا غير ، وهو مع ذلك صابر ثابت .

وكان شديد المحبة لأولاده ، لا سيما الصغار منهم ، وهو مع ذلك صابر علىٰ مفارقتهم ، راضٍ ببعدهم ، صابر علىٰ مُر العيش وخشونته مع القدرة التامة .

هـٰذا هو الزهد كما قال داوود الطائي رحمه الله : إنما الزاهد مَن قَدَر فزهد .

وكان من عادته أنه بعد الركوب يمد الطعام ويأكل مع الناس ، ثم يقوم إلىٰ خيمة خاصة ، فينام قليلاً ، ثم يستيقظ ويصلي ، ثم يقرأ شيئاً من الأحاديث أو الفقه وغير ذلك .

وتقدم إليه يوماً مملوك له كبير ، وعرض عليه قصة ، فقال : أخِّرها الساعة ، فلم يفعل وقدمها إلىٰ قريب وجهه ، فلما رآها . . قال : هـٰذا رجل مستحق يوقع له ، وكانت الدواة في صدر الخركاه[1] ، فتطاول إليها ، ومد يده حتىٰ أخذها ، ووقَّع له ، وكانت طراحته[2] تداس من كثرة التزاحم عنده في عرض القصص عليه وهو لا يتأثر بذلك ولا ينهىٰ عنه ، بل يتبسم ويفرح ، ويأمر بقضاء حوائجهم ومصالحهم سريعاً .

قال القاضي ابن شداد : ولقد نفرت بغلتي يوماً وأنا راكب في خدمته ، فزَحَمَتْ وركه حتىٰ عرفت تألمه ، وهو مع ذلك يتبسم .

ودخلت يوماً بين يديه في يوم شديد المطر والوَحل إلى القدس الشريف ، فنضحَت البغلة من ذلك الوحل عليه شيئاً كثيراً ، حتىٰ إنها أفسدت جميع ما عليه ، وهو مع ذلك يتبسم ، فأردت أن أتأخر عنه لأجل ذلك ، فما تركني .

وكان يسمع من المتظلمين أغلظ ما يكون من الكلام ، فيغضي عن ذلك ويتلقاه بالبِشر والقَبول ، ويقول : هـٰؤلاء مساكين ، غفلنا عنهم إلىٰ أن استغاثوا ، كان ينبغي لنا رفع مظالمهم بدون الاستغاثة .

---

(١) **الخركاه** : لفظ فارسي ، معناه : سرادق أو خيمة كبيرة ـ دخل العربية منذ بداية العصر الأيوبي ، تطور مدلوله ليطلق علىٰ بيت مصنوع من الخشب علىٰ هيئة معينة ـ مغلقة من الداخل بالجوخ أو الأنسجة ، كانت تحمل في أسفار الملك أو السلطان ليبيت فيها داخل خيمته ؛ وقاية له من برد الشتاء .

(٢) **طراحته** : شعار أسود يتقلده القضاة .

وكان ـ رحمه الله ـ كثير المروءة ، ندي الكف ، كثير الحياء ، منبسط الوجه ، لا سيما لمن يرد عليه من الأضياف ، يكرم الوافد ولو كان كافراً ، ولقد وفد عليه البرنس صاحب أنطاكية ، فما أحس به إلا وهو واقف علىٰ باب خيمته بعد وقوع الصلح في شوال عند منصرفه من القدس إلىٰ دمشق ، وطلب منه شيئاً ، فأعطاه شيئاً كثيراً ، ودخل عليه صاحب صيدا ، فأعطاه شيئاً كثيراً ، وعرض عليه الإسلام ، وذكر له أشياء من محاسنه .

وكان كثير الوصية لنا بألاَّ نغفل عمن يجتاز بالمخيم من المشايخ والعلماء حتىٰ يُحضِرَهم عنده ؛ لينالوا من إحسانه .

ولقد تسامَع به العلماء ، ورحلوا إليه من أقطار الدنيا ، فكان يعطيهم العطاء الجزيل ، ويعاملهم بالإكرام والاحترام .

وكان مجلسه مصوناً عن الغِيبة والنميمة ، لا يُذكر فيه إلا الخير ومحاسن الأعمال .

وكان حَسَن العهد والوفاء ، لا يقصده أحد إلا نال من بره ، ووَصَلَهُ بإحسانه ، ولا أحضر بين يديه يتيم إلا وترحم علىٰ مخلِّفه ، وجبر قلبه ، وأعطاه مالاً جزيلاً ، فرحمه الله ورضي عنه .

ثم إن الصلح الذي أجاب السلطانُ إليه من وضع الحرب ثلاث سنين وستة أشهر . . كان من أعظم مصالح الإسلام والمسلمين .

ومن جملة الرحمة التي خص الله بها عباده المؤمنين ؛ فإنه ما انقضت تلك السنون حتىٰ ملك البلاد أخوه الملك العادل أبو بكر ، فعز به المسلمون وذل به الكافرون .

وكان السلطان صلاح الدين ـ رحمه الله ـ قد قسم البلاد بين أولاده وإخوته ، فجعل الديار المصرية لولده العزيز عماد الدين عثمان أبي الفتح ، وبلاد دمشق وما حولها لولده الملك الأفضل نور الدين علي ، وهو أكبر أولاده ، والمملكة الحلبية لولده الظاهر غازي غياث الدين ، ولأخيه العادل الكرك والشوبك وبلاد كثيرة إلىٰ قاطع الفرات ، وحمصَ والرحبةَ وغيرَهما لأسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه الكبير ، عم السلطان صلاح الدين ، واليمن بجميع معاقله ومخاليفه لابن أخي السلطان ظهير الدين سيف الإسلام طغتكين ، وبعلبك وأعمالها للأمجد فرُّخشاه ، وبصرىٰ وأعمالها للظافر بن الناصر .

ثم شرعت بعده الأمور تضطرب وتختلف ، وتتفاقم الأهوال[1] في جميع تلك الأحوال ، حتىٰ آل الأمر إلىٰ ما آل ، واستقرت بعد ذلك الممالك كلها ، وأجمعت المحافل علىٰ أخي السلطان الملك العادل ، وصارت المملكة في أولاده الأماجد والأفاضل ، رحمهم الله تعالىٰ ، والله أعلم .

وفرغت منه مستهل رمضان المعظم سنة ثمان وستين وسبع مئة ، بعد فراغه من أصله بما ينيف علىٰ عشرة أعوام ، والله أعلم .

قال مؤلفه محمد بن الحسن ـ عفا الله عنهما ـ : اعلم : أني نظرت في سِيَر الملوك . . فلم أر فيهم من بعد عمر بن عبد العزيز رحمه الله مثل العادل نور الدين الشهيد والسلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف رحمهما الله تعالىٰ ورضي عنهما ، وكفىٰ بذلك منقبة وفخراً ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ .

* * *

(١) في النسخ : (الأحوال) .

[خَاتِمَة الكِتَاب]

ونختم الكتاب بمقامين :

المقام الأول : قصة آدم ، وإبراهيم الخليل ، وابنه إسماعيل ، عليهم الصلاة السلام .

والمقام الثاني : في سعة رحمة الله سبحانه وتعالىٰ .

* * *

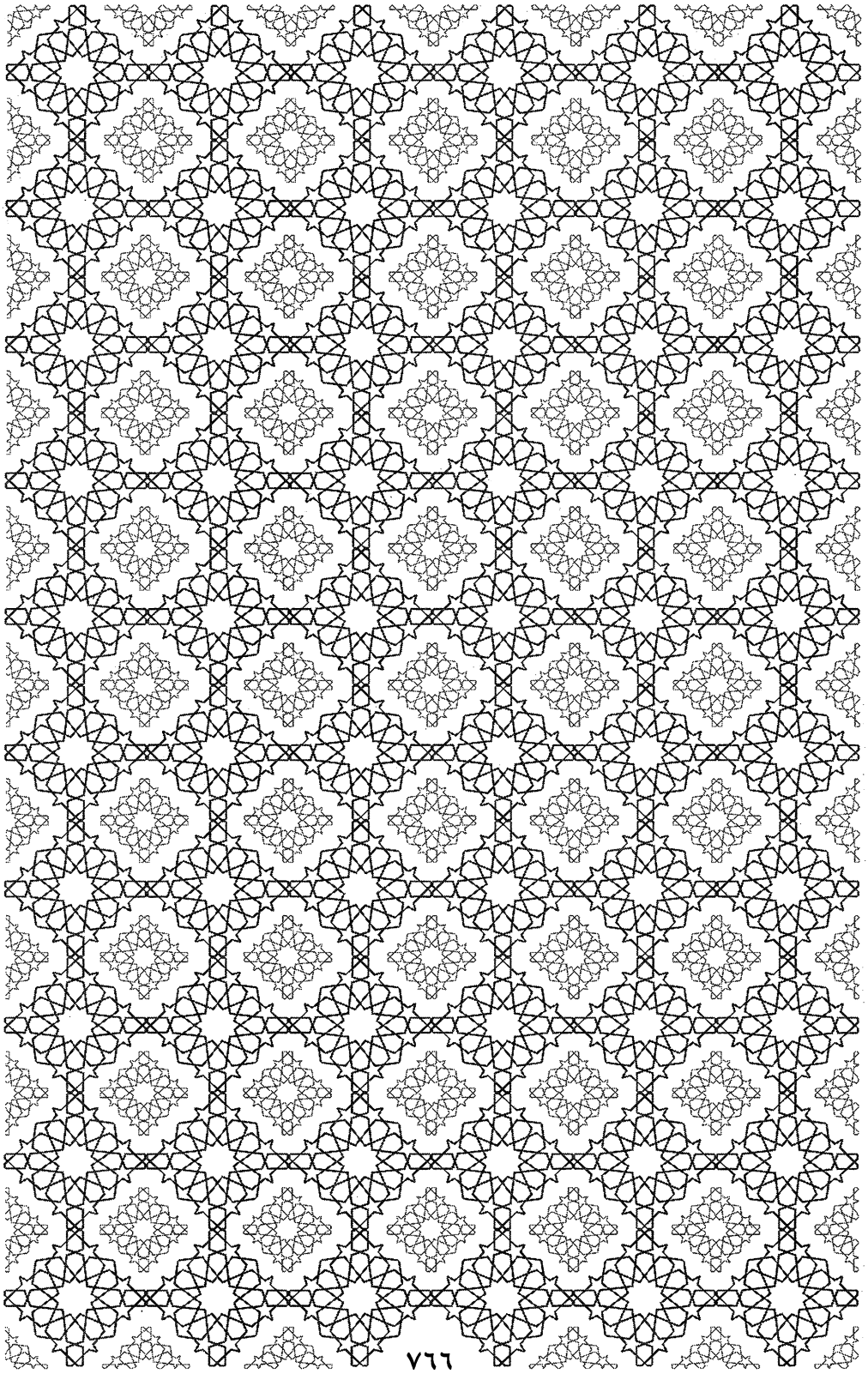

أما المقام الأول . . وهو القصص :

فأولها :

قصة آدم عليه الصلاة والسلام

قال الشيخ الإمام العالم العامل شمس الدين ابن الملحي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

لما أراد الله تعالىٰ فيما تقادم أن يخلق أبا البشر آدم . . أمر جبريل أن ينزل إلى الأرض فيقبض قبضة من طولها والعرض ، فنزل جبريل لأمر الجليل سبحانه وتعالىٰ ، فانزوت الأرض فَرَقاً ، وكادت تتقطع فِرَقاً ، وقالت : أقسمت عليك بالمَلِك أيها الملَك ، أن تراجع فيَّ مَن أرسلك ؛ فإني أخاف مِن الجبار أن يخلق مني خلقاً يعصيه فيدخل النار .

فرجع جبريل لهـٰذا القسم الجليل ، وجرىٰ مثل ذلك لميكائيل وإسرافيل ، فبعث الله سبحانه وتعالىٰ عزرائيل ، فقالت الأرض مقالها ، فما أقالها ، ورَجَا لَها أن توحد اللهَ رِجالُها ، وقال : إن الذي أرسلني حكيم حاكم ، وهو بما تقولين سميع عالم ، وأنا أخاف من مخالفته ، كما تخافين من عقوبته .

ثم قبض قبضة من أديم التراب ، مختلفة الألوان والأضراب ، ولذلك خرج الناس من خبيث ومستطاب :

فكل من يَقرب في شكله ... وكل من يَرغب في مثله
وكل من لَمْ يُدرَ ما أصله ... ففعله يخبر عن أصله

فقال الجبار جل جلاله : (يا عزرائيل ؛ أقبضت من ترابها ولم تَرِقَّ لخِطابها ؟! سأخلق من قبضتك جميع الناس ، على اختلاف الأجناس ، وأجعلك قابض أرواحهم ، وناظر أشباحهم) .

فقال : يا رب ؛ إذاً يُبغضوني ، وبالسوء يذكروني .

فقال : (لا تخف منهم غضباً ؛ فإني أجعل لكل موتة سبباً) ، فيقولون : فلان مات بالغَرَق ، وفلان قتل واحتَرَق .

فالدنيا ـ كما قيل ـ كالطبق بين يدي عزرائيل ، ينظر بحرها وبَرَّها ، ويعرف عاصيَها وبَرَّها ، فينظر لكل محتضر بشكل من أشكاله ، علىٰ قدر سابق أعماله ، وله من الملائكة أجناد ، كثيرة الأعداد .

وقيل : هو يقبض العالم الناطق ، وهم يقبضون بقية الخلائق ، وقد يكون الموت في أكباد كالغرقىٰ في البحار ، والحرقىٰ بالنار ، فيدعو الأرواح فتأتيه كالأطيار .

فإذا كان ليلة نصف شعبان . . كتب له كتاب باسم فلانة وفلان ، فربما شَرَع في الحاجات ، وفعل المنكرات ، وأَخَّرَ التوبة ، وأَمِنَ الفوات ، واسمه قد كتب في ديوان الأموات .

قيل : كانت الأرض تتشامخ ارتفاعاً ، فلما قبض ترابها . . نزلت أربعين ذراعاً ، فقالت : تباركت ربنا وتعاليت ، اللهم ؛ إنك أنت الفعال لما تريد ، وقد نقصتني بعد المزيد ، فأسألك أن ترد ترابي وتعيد ، وما أنت بظلام للعبيد .

فأقسم الله سبحانه وتعالىٰ ليردن عليها التراب ، من أجسام أتراب ، ويطهره بالماء ويكفنه في الأثواب ، ويطيبه للتسليم بأحسن الأطياب ، فلا تزال الأرض تبتلع الإناث والذكور ، من عالَم الفَلَوات والبحور ، حتىٰ إذا بلغت حدها المذكور . . جاء الأمر ونفخ في الصور .

ألا إننـــا نحـــو الممـــات نســـارع ... وكل فتىً يلقى الذي هو صانع
ونحـــن جميعـــاً للتـــراب وديعـــة ... ولا بـــد يـــومـــاً أن تُـــرَدَّ الـــودائـــع

ثم أمطر الله عز وجل مطرة من ماء الأفراح ، وأربعين مطرة من ماء الأتراح ، ولذلك يتعب الإنسان أضعاف ما استراح ، ثم خمَّره حتىٰ صار حمأً[1] متغيراً ، ولهـٰذا ينتن الإنسان بعدما كان عطراً ، ثم أيبسه حتىٰ صار صلصالاً كالفخار ، فخلق منه آدم يوم الجمعة آخر النهار ، وجعله صورة طين بين مكة والطائف ، وكل من الملائكة به طائف ، غير أنهم يطوفون بالجسد ، وإبليس اللعين قد حمل الحسد ، ولذلك سجدوا وما سجد ، فبقي طيناً أربعين عاماً مقدوراً فيه قوله تعالىٰ : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ .

سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه هـٰذه الآية فقال : ليتها تَمَّتْ ، ليت أم عمر لم تلده .

---

(١) **الحمأ** : الطين الأسود .

بـــأي بحـــر غـــرقنـــا بـــأي قيـــد علقنـــا
لقـــد خلقنـــا لهـــول يـــا ليتنـــا مـــا خلقنـــا

ثم رفعه علىٰ أكتاف الملائكة المقربين ، فجعله علىٰ باب الجنة وهو بعد طين ، ثم أمر الروح أن تدخل فيه ، وتسكن في خافيه ، فرأت الجسد قفصاً عاتقاً[1] ، مظلماً متضايقاً ، فجعلت تدور حوله وتجول ، ولا يطيب لها الدخول ، ومن يطيب له بعد الرفعة النزول :

هبطَتْ إليك من المحل الأرفع ورقـــاءُ ذاتُ تعـــزز وتمنُّـــعِ
محجوبة عن كلِّ مقلةِ عارف وهي التي سَفَرَتْ ولم تتبرقع
وَصَلَتْ علىٰ كره إليك وربما كرهت فراقك وهْيَ ذات تفجع
أنفَتْ وما أَيِسَتْ فلما واصلت ألفت مجاورة الخرابِ البلقعِ

فقال لها الجبار جل جلاله : (وعزتي التي لا تحد ولايتها ؛ لأدخلنك كرهاً ، ولأخرجنك كرهاً) ، فإذا مات المطيع . . تشبث الجسد بالروح ، وطلب أنه معها يروح ، يقول : خذيني معك إلىٰ ذلك الجناب ، ولا أبلىٰ بعدك في التراب .

وإذا مات العاصي . . تشبثت الروح بالجسد ، تقول : خذني معك إلى التراب ، ولا ألقىٰ بعدك أليم العذاب ، فلذلك يشتد النزع والاجتذاب ، فيخفت الصوت ، وتجري الدموع للفوت ، ويقع الوداع للموت :

خـــذونـــي مَعْكُـــمُ يـــا راحلينـــا فـــإنـــا قـــد تصـــاحبنـــا سنينـــا
وجـودوا بـالـوداع فعـن قـريـب سنـوحشكـم وأنتـم تـوحشـونـا

حكي أنّ الشبلي رحمه الله كان يقول عند موته : يجوز يجوز ، فسئل عن ذلك فقال : شارك الله بين الروح والجسد ليتَّجرا مدة هـٰذا الزمان ، فاتَّجرا ، ثم جلسا اليوم يتحاسبان ، فإذا هما خاسران ، وهما يقولان : ما تقول في شريكين اتفقا على التجارة فمضت مدتهما في خسارة ؟ فهل يجوز أن يتفرقا من بعدما اتفقا ؟ وأنا أقول : يجوز يجوز :

صحبنـاكـمُ حينـاً ومعكـمْ تـآلفنـا إلـىٰ أن تجملنـا بكـم وتشـرفنـا
وكنـا جميعـاً بـالحمـىٰ وأهيلـه ولم نك ندري أن وقت الحمىٰ يفنىٰ
ومنـــذ تعـــرَّفنـــا يُفـــرَّق بيننـــا فيـا ليـت أَنَّـا عمـرَنـا مـا تعـرَّفنـا

---

(١) جاء في نسخة : (عانقاً) .

ثم نزلت روحه من الخياشيم ، فانحصر فيها النسيم ، فأخذه العطاس والملائكة تشهد ، فحمد الله تعالىٰ ومجد ، فقالت له الملائكة عليهم الصلاة والسلام : يرحمك الله يا أبا محمد ، فقال : ومَن ذاك ؟ قالوا : ولد صورتك ووالد معناك ، ولولاه . . ما خلقك مولاك .

فلما وقع آدم بالذنْب الذي فعله . . أقسم على الله بمحمد صلى الله عليه وسلّم أن يغفر له ، فقال له الجبار جل جلاله : (كيف عرفته وما نظرته ؟) فقال : رأيت علىٰ قائمة العرش مكتوباً : لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله ، فعرفت من حكمة حكمك ألاَّ أحد أشرف ممن قرَنْتَ اسمه باسمك .

وبشرف آدم بهٰذا المولود الكريم صلى الله عليه وسلّم أُمرت الملائكة له بالسجود ، فكانت لله سبحانه وتعالىٰ طاعتهم وعبادتهم ، وآدم قبلتهم تعظيماً له وتنزيهاً ، إذ قالوا : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ فسجد الملائكة عليهم السلام لله سبحانه وتعالىٰ طاعة ، وأبىٰ إبليس اللعين فطرد إلىٰ قيام الساعة .

وألبس آدم عليه السلام الملابس الحسان ، ثم أدخل إلى الجنان ، وأبيح له كل ثمرة ، إلا تلك الشجرة ، وخلقت حواء من ضِلَعه الشمال ، ولذلك تتآلف النساء مع الرجال ، فطلب إبليس اللعين دخول الجنة ، فمنعه رضوان فدله الطاووس على الحية ، وكان من الخُزان ، ولذلك أهبط الطاووس من رفيع منازله ؛ لأن الدال على الشيء كفاعله ، فأدخلته الحية في فيها ، فهو موضع السم فيها :

فلـــم تـــك تصلـــح إلاَّ لـــهُ ولـــم يـــك يصلـــح إلا لهـــا

رأىٰ بعض الحكماء عقرباً علىٰ شوكة فوق الماء ، فقال : ما أشبه المَلاَّحَ بالسفينة .

فوسوس لهما الشيطان ، فأكلا من تلك الشجرة ، فأصبحت العيشة الصافية وهي كدرة ، بينا هم قد نزلوا حمىً منيعاً ، واستطابوا ظلاً ظليلاً ، وربعاً وربيعاً ، ووَرَدَا منهلاً مريئاً مريعاً . . قلنا : اهبطوا منها جميعاً ، فأُهبط آدم عليه السلام في الهند علىٰ جبل سرنديب ، وعليه من أوراق الجنة شيء عجيب ، فمِن ذلك صار يُجلب منه الطيب ، وحواء في جدة ، والحية في نصيبين ، والطاووس في ميسان[1] ، وفي الأُبُلَّة إبليس اللعين .

---

(١) في نسخة : (بيسان) ، والله أعلم بالصواب .

واجتمع آدم وحواء بعد سنة في جمع مزدلفة ، وقيل : في نَعمان بعرفات ، فسمي يوم عرفة ، وأمره الله سبحانه وتعالىٰ ببناء البيت ، فبناه وطاف به سبعاً ، وتضرع إلىٰ مولاه سبحانه وتعالىٰ ، فغفر له ذنبه ، وتاب عليه وهداه ، وإنما تاب علىٰ آدم لرجوعه إلى الاستغفار ، ولم يتب علىٰ إبليس لعصيانه بالإصرار .

قيل : كانت الكلمات التي تلقاها آدم عليه السلام من رب العالمين : ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ .

وولدت حواء من آدم في عشرين بطناً ، أربعين ما بين بنات وبنين ، فتناسلوا حتىٰ رآهم بالعدد ، أربعين ألف ولد .

وكان يبكي علىٰ خطيئته ، ويتأسف علىٰ منزلته ، وإذا رأى الملائكة تصعد . . تصعَّدت نار حسرته ، وأنشد لسان حاله شوقاً إلىٰ جنته :

يـا جنـةً كـان لـي عيـش بمـأواكِ ... واليـوم مـا لـي سبيـل نحـو رؤيـاكِ
قد كنتِ عندي على الأيام مُرخَصةً ... فـأيُّ شـيءٍ علـيَّ اليـوم أغـلاك

بكىٰ ثلاث مئة سنة علىٰ ذنبه ، ولم ينظر السماء مئة سَنة حياء من ربه ، وحج أربعين حجة من الهند علىٰ قدميه يخوض في الطواف بدموع عينيه ، وفي الجمعة يوم عاشوراء تاب الله عز وجل عليه .

وبلغ آدم عليه الصلاة والسلام من العمر ألف عام ، ثم حضره الحِمام ، فقال لبنيه : أشتهي قطف عنب من الجنة ، فبشر الله سبحانه وتعالىٰ نفسه المطمئنة ، فجاءت الملائكة بالبشارات ؛ لنقل روحه إلى الجنات ، فودع بنيه ومات .

وجهزه جبريل الأمين ، وصلىٰ عليه مع الملائكة المقربين ، وجمع حوله البنات والبنين ، ودفنه في أبي قبيس حتىٰ جاء الطوفان ، فاستخرجه نوح عليه الصلاة والسلام من ذلك المكان ، فلما نضب الماء . . رده إلىٰ ما كان ، عليه أفضل الصلاة والسلام وعلىٰ جميع الأنبياء والمرسلين الأعيان ، ورزقنا ببركتهم خاتمة الخير والغفران ، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد سيد ولد عدنان ، وعلىٰ آله وصحبه وسلم .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

قصة إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه

قال الشيخ شمس الدين ابن الملحي رحمه الله تعالىٰ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

جاء لقوم إبراهيم عليه الصلاة والسلام يوم عيد ، فخرجوا بأجمعهم للتَّعييد ، وسألوا المرافقة من إبراهيم ، وقد عزم علىٰ أن يقيم ، فاحتج عليهم معرِّضاً إني سقيم ، فلما خلا له الوقت كما يريد . . أخذ بيده قَدُومَ[1] الحديد ، وأقدم تقدم مَن يفتح الوصيد ، فوجد بين يدي الأصنام نفائس الشراب والطعام ، فنادىٰ عليه الصلاة والسلام : أيها الأصنام ؛ ما لكم لا تأكلون ؟! وكرر ثانياً وهم لا ينطقون ، ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ .

فلما عرف القوم بالأمر . . تلاحقوه ، وأخبروا نمرود ليهلكوه ، وأجمعوا أمرهم وأقروه ، فقال واحد منهم : حرقوه ، تالله ؛ لقد خسفت الأرض بقائل هـٰذا الكلام ، فهو يتجلجل بها إلىٰ يوم القيامة .

وأمر نمرود[2] ـ عليه اللعنة ـ أن يُبنىٰ له شراع ، طوله في السماء ستون ذراعاً ، ونادىٰ مناد : أن احتطبوا الأحطاب ، فاحتطب أربعون يوماً شيوخهم والشباب ، حتىٰ كانت المرأة إذا أهمها أمر عظيم . . نذرت حطباً لإحراق إبراهيم ، ثم أضرمت النار في الحطب ، فارتفع القَتَام[3] واللهب ، حتىٰ صار الطائر إذا تأمَّلها الْتَهب .

فلما لم يبق من شدة الحريق إلى النار طريق . . أظهر لهم إبليس ـ عليه اللعنة ـ المنجنيق ، فنصبوه علىٰ جبل شاهق المنار ، ثم قذفوه إلى النار ، فبينا هو في الهواء قد علا . . نزل جبريل من العلا ، فناداه وهو في عظيم البلا : ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا .

---

(١) القَدُوم ـ بالفتح وتخفيف الدال ـ : الفأس التي ينحت بها الخشب .

(٢) نمرود : يجوز فيه الدال والذال .

(٣) القَتَام : الغبار الأسود ، والمراد هنا : الدخان .

قال : فسَلْ ربك المتعالي ، فقال : علمه بحالي يغني عن سؤالي .

هـٰذا والنار قد عجَّت ، والأطيار قد هجَّت ، والأصوات قد ضجَّت ، والعيون قد ثجَّت[1] ، والأرض قد ارتجَّت ، ونادت الملائكة عليهم الصلاة والسلام : يا جبار ؛ خليلك إبراهيم يلقىٰ في النار ، فقال الجبار جل جلاله : (إن استغاث بكم . . فأغيثوه ، وإن استغاث بي . . فدعوه) .

إن كـــان محبنـــا لنـــا مختـــارا ... فليَسِـرْ دجـىً ويـركـب الأخطـارا
لا تمنعـــه الجحيـــم عـــن رؤيتنـــا ... من نحن له كيف يخاف النارا ؟!

غيره :

قالوا حَذِر المحبُّ واشِيَه وخافْ ... لولا الواشي لكان قد حج وطافْ
إن كـان كـذا فليـس هـٰـذا بطـلا ... مَن نحن لَهْ ترىٰ لمن قَطُّ يخافْ

لما اطلعنا علىٰ قلبه السليم ، فلم نجد فيه إلا الرضىٰ والتسليم . . ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ ، فظنت نار الدنيا أن الخطاب على الإجمال ، فلم يبق نار إلا خمدت في الحال .

هـٰذا ولو لم يتبعها بقوله : ﴿ وَسَلَـٰمًا ﴾ . . لصار إبراهيم ببردها حطاماً .

الناس يظنون أن إبراهيم في النار ، وهو علىٰ كرسي قد استدار ، وحوله الأشجار والثمار والأطيار ، وجبريل عنده علىٰ بساط الأزهار ، وقد ألبسه ثوب الانتصار ، ولم يحترق غير وثاقه ؛ إذ كان من الكفار .

فبقي أربعين يوماً في نار نمروذ ، لا يجسر أحد من حرها يلوذ .

فتشفع أبوه أن يخرج عظامه ، فركب نمروذ بجنوده أمامه ؛ لينظر هل أبقت النار من إبراهيم علامة .

فلما كَشَف عن إبراهيم الجدار . . وَجَد ما هو عليه فخار ، ونادىٰ : يا إبراهيم ؛ إن معبودك لعظيم ، نحن لا نطيق السعي إليك ، فاسع إلينا ، فأنت اليوم عزيز علينا ، ولولا أن يذهب عني الملك العزيز . . لعبدت إلـٰهك الكبير ، ثم ذبح نمروذ أربعة آلاف بقرة قرباناً لله سبحانه ومعذرة ، والله تعالىٰ لا يقبل قربان الكفرة .

---

(١) ثجت : سالت بالدموع .

مسلك آخر :

سبحان مَن أخرج مِن آزر إبراهيم الخليل ، وعرفه الإسلام في الصغر ، فعَرَفه بالدليل ، قال للكواكب ما قال وعمره أربع سنين بالتكميل .

فأضرم له نار البغض كل نسيب وحميم ، ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ .

عبدٌ أحب مولاه ، وهجر هواه من صباه ، ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ ﴾ ، ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ، ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ .

أحب اللهَ فأبغض الأصنام ، فكان أبوه يسلمها إليه ليبيعها وهو غلام ، فيجرها في الطريق ويقول فيها قبيح الكلام ، فكلما رأوه . . يبدر الشر من قلب كل لئيم ، ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ .

أول مَن سَنَّ القِرىٰ للمضيف ، فكان يحمل الطعام علىٰ رأسه الشريف ، ويبقى الأيام جائعاً ولا يأكل إلا مع ضعيف ، فكم أطفأ نار جوع لها عذاب أليم ، ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ .

قدَّمَ ماله للضيفان ، وسلم ولده للقربان ، واستسلم للقاء النيران ، فنزل توقيع الأمان من رب رحيم ، ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ .

بنوا له بيتاً إلىٰ جبل وثيق ، وأتوه بالأحطاب من كل طريق ، وألقوه إلى النار من كفة المنجنيق ، وخرج نمرود اللعين وقد اشتعل الحريق ، فظهر توقيع القِدم بأمر القديم ، ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ .

وكان عمره ست عشرة سنة حين ألقي في النار ، فتلقاه جبريل عليه الصلاة والسلام بخلعة الأنوار ، وأجلسه علىٰ سرير حوله الأنهار والأشجار ، فيا عجباً جنة نعيم في سواء الجحيم! ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ .

اعترضه جبريل في الهواء العالي ، وهو يهوي في الهويِّ ولا يبالي ، فقال : ألك حاجة ؟ فأجابه يقول : ما لي إليك ما لي ، قال : فسل ربك المتعالي ، قال : علمه بحالي يغني عن سؤالي ، فمن هنا سلمناه لقلبه السليم ، ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

قصة إسماعيل عليه الصلاة والسلام

قال الإمام العالم شمس الدين أبو عبد الله محمد بن الملحي الواسطي ، شيخ الوعاظ في عصره ـ رحمه الله تعالىٰ ـ :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

لما اتخذ الله سبحانه وتعالىٰ إبراهيم خليلاً ، فرفع له بذلك قدراً جليلاً . . قالت الملائكة : ربنا اتخذته خليلاً ، وله أهل ومال ، والخليل لا يشتغل عن خليله بحال .

فقال سبحانه وتعالىٰ لملائكته : (إن إبراهيم لا يشتغل عني بنعمتي ، وَهَبَ قلبه للرحمٰن ، وبدنه للنيران ، وماله للضيفان ، وولده للقربان ، يا ملائكتي ؛ جربوه . . تعرفوه) .

فأري ليلة في المنام قائلاً يقول : إن الله يأمرك أن تقرب لله قرباناً ، فانتبَه يتروىٰ ولا يعرف بياناً ، فسمي يوم التروية ، فرأى الليلة الثانية ذلك القائل يقول : قرب أعز الأشياء عليك وأحبها إليك ، فانتبه يوم عرفة ، وقد تحقق المعنىٰ وعرفه .

ثم رأى الليلة الثالثة : يا خليل ؛ قرب ولدك إسماعيل ، فانتبه يوم النحر بالرضا والتسليم ، قائلاً لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، إلٰهي ؛ أنا وولدي عبداك ، وإن كان ثمرة فؤادي . . فليس أحب إليَّ من رضاك :

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضىٰ والأنام غضابُ
وليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خراب
إذا صح منك الودُّ فالكل هين ... وكل الذي فوق التراب تراب

ثم قال : يا هاجر ؛ إذا انتبه إسماعيل . . فقربيه ، واغسلي شعره وطهريه ، وألبسيه ثيابه وطيبيه ، وإن استطعت أن تودعيه . . فودعيه ، فعسىٰ بعد اليوم لا تنظريه ، ومريه أن يتبعني إلى الأَبْطَح بالحبل والحديد ؛ لنقرب قرباناً فاليوم يوم عيد .

ففرحت هاجر بقول الخليل ، فلما انتبه من النوم إسماعيل . . فعلت هاجر ما أَمر ،

وسلمت إليه ما ذَكر ، وقالت له : يا بني ؛ اِلْحَقْ أباك إلى الأبطح ، وساعده في قربان يذبح .

فخرج إسماعيل يسرع بخطاه ، ويطير بالفرح ليلحق أباه ، فالتفت الخليل وراءه فتغرغرت بالدموع عيناه ، ونادىٰ لسان وقته معرباً عن بلواه :

نـــاديتُهـــم وعيسهـــم تستبـــقُ والقلـب بنـار وجـدهـم يحتـرقُ
بـــالله قفـــوا هُنَيَّـــةً أنظُـــرْكـــمُ هيهـــات نعـــود بعـــدهـــا نتفـــق

ثم استرجع ورجع :

مـا كـان أقصـرَ عمـرَ ليلـة وصلنـا حتـىٰ كـأن عِشـاءه مَـعْ فجـرِهِ
نـذر الـزمـان بـأن يفـرق بيننـا والآن قـد أوفـى الـزمـان بنـذره

فظهر إبليس اللعين ، في صورة شيخ حزين ، فوقف للخليل ودموعه تسيل ، فقال له الخليل : يا شيخ ؛ ما الذي دهاك حتىٰ أبكاك ؟ فقال : اعلم أني رزقت علىٰ كبري ولداً ، ورجوته عند عجزي عضداً ، فأتاني في المنام آت يقول لي : قرب ولدك لله تعالىٰ ، فلما ذبحت ولدي ـ وهو ثمرة فؤادي ـ أتاني عفريت ينادي : سخرت بك وبلغت مرادي ، فعضضت بالندم يدي ، ودخلت الحسرة علىٰ كبدي ، فقال له إبراهيم عليه الصلاة والسلام : إن خبري ليس كهـٰذا الخبر ، وأظن أنك إبليس المحتَقَر ، فاخسأ عني ولا تتبعني ، فساخ في الأرض وغاب .

وظهر لإسماعيل في صورة شاب ، فقال له : إلىٰ أين تمضي يا صبي ؟ فقال : أقرب القربان مع أبي .

فقال : هيهات هيهات! أنت تضحك ، وإنما أبوك يريد ذبحك ؟ فقال له : ويحك! إن أبي يحبني ، فكيف يذبحني ؟! فقال : إن ربه أمره بذلك ، فانج بنفسك وإلا . . فأنت هالك ، فقال له : ويلك! إن كان الله سبحانه وتعالىٰ يرتضيني للقربان . . فيا فرحتي بالأمان .

إن كـــان سكـــان الغضـــا رضـــوا بقتلـــي فَـــرِضـــا
والله لا كنـــــت لمـــــا يـــرضـــي الحبيـــب مبغضـــا

فذهب إبليس اللعين إلىٰ دار هاجر ووقف على الباب ، وأبدى الانتحاب ، فقالت له : يا شيخ ؛ ما لَكَ ؟ وما الذي أهالك ؟ فقال : ما أغفلكِ عن ولدك وثمرة كبدك! قد ذهب به

أبوه إلىٰ وادي الأراك ، يريد أن يذبحه هناك ، فقالت له : يا شيخ ؛ ما أجهلك! مَن يعترض على المالك فيما ملك ؟! إن إبراهيم لا يفعل إلا ما أمره به الله ، وسواء لإسماعيل الموت والحياه ، إذا كان ربه قد ارتضاه ، أنت يا شيخ شيطان ، فاذهب بالخزي والهوان .

نعم هُمُ أحبتي ... وكل قلبي لهمُ
إن وصلوا محبَّهمْ ... وإن جفوا فهُمْ هُمُ
تصرفوا في ملِكهمْ ... فلا يقال ظلموا

فلما رقيا الجبل . . حدثه بما جرىٰ ، فـ﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ ، فأجابه بالرضا والتسليم لرب العالمين ، فـ﴿ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ .

فعندها شد الخليل وثاقه ، وقد غلبت الدموع آماقه .

فقال إسماعيل : يا أبت ؛ كن على البلاء صابراً ، وعلى النعماء شاكراً ، وأطع فيَّ صاحب الحضراء ، ولا تأخذك فيَّ رقة الآباء على الأبناء ، واحمل إلىٰ أمي ثيابي ، حيث عز عليها إيابي ، وحول مكتب الصبيان عنها ؛ لئلا تستوحش من أترابي ، وإن سألتك عني . . فقل : خلفته عند مَن هو خير منك ومني .

فأمرَّ السكين علىٰ نحره ، فَنَبَتْ[1] ، فأعادها فانقلبت ، فقال : أيتها السكين ؛ كيف تغير طبعك في قطعك ؟! فصاحت فصاحةُ الحال في الحال : **يا خليل ؛ لَمَّا تغير طبع البشرية بذبح الأولاد . . تغير طبعي المعتاد ، فتغيير بتغيير ، ولا تعيير .**

فلما لم يكن من السِّكِّين علىٰ مريه معنىٰ . . صاح إسماعيل : يا أبتِ ؛ ٱطعَن بها في الحلق طَعْنا .

هـٰذا والحق جل جلاله مطلع عليهما ، والأرض تموج لفعلهما ، والجو قد أقتم ، والفضاء قد أظلم ، والجبال قد تصدعت ، والجن قد خشعت ، والملائكة تضج بالتقديس والتهليل : أيَذبح الخليلُ ولده إسماعيل ؟!

وإذا النداء من رب العالمين : كلٌّ بعيني وأنا أرحم الراحمين .

فلما هَمَّ أن يطعن بالسكين . . نودي ﴿ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي

---

(١) **نبا الشيء** : تجافىٰ وتباعد ، **ونبا السيف** : إذا لم يعمل في المضروب .

ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ، ويا إسماعيل ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ ، ونزل الروح الأمين بالبشارات الحسنة ، بكبش قد رعىٰ في الجنة أربعين سَنة ، فهلل الخليل وكبر ، ونحر الكبش في المَنحر ، فصار ذلك سُنة لأمة المظلَّل بالغمامة ، إلىٰ يوم القيامة .

فما أكل منه صاحب عاهة . . إلا شُفي ، ولا فقير . . إلا كُفي .

وقيل : لما أتى الكبش . . فرح الخليل وبكىٰ إسماعيل ، فقيل له : أتبكي في ساعة السرور ؟! فقال : كيف لا يبكي مَن أبعده الحبيب ، ولم يرضه للتقريب ؟!

أمَّلْتُ في ذا العام أن أزوركم ... في جملة العيس فخاب ظني
أقعدني الحرمان عن قصدِكُمُ ... ورمت أن أسعىٰ فلم يدعني

وحكىٰ بعض العارفين : أن إبراهيم الخليل عليه أفضل الصلاة والسلام لما قال لولده إسماعيل عليه الصلاة والسلام : يا بني ؛ إني أرىٰ في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترىٰ . . قال إسماعيل : يا أبت ؛ أما علمت أنك إذا كنت خليله وحبيبه ثم نمت عن خدمته . . أن تعاقَب بأعز الأشياء عليك ؟! صلوات الله وسلامه عليهما .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم

* * *

أما المقام الثاني . . ففي سعة رحمة الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ سبيل التفاؤل به :

فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلّم يحب الفأل ، وليس لنا من الأعمال ما نرجو به المغفرة ، وما ثَمَّ إلا سعة رحمة الله عز وجل وعفوه ، ونرجو من فضله العظيم العميم أن يختم الله عاقبتنا بالخير في الدنيا والآخرة ، كما ختمنا الكتاب بذِكر سعة رحمة الله سبحانه وتعالىٰ .

فقد قال الله تعالىٰ ـ وهو أصدق القائلين ـ : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ ، فعسىٰ أن يجعلنا من ذلك الشيء .

وقال عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ .

وقال عز وجل : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ ، ونحن نستغفره سبحانه من كل ما زل به القدم ، أو طغىٰ به القلم ، في كتابنا هـٰذا وفي سائر ما كتبناه ونكتبه .

ونستغفر الله سبحانه وتعالىٰ من أقوالنا التي لا توافقها أعمالنا ، ونستغفر الله مما ادعيناه وأظهرناه من العلم والبصيرة بدين الله تعالىٰ مع التقصير فيه ، ونستغفر الله سبحانه وتعالىٰ من كل علم وعمل قصدنا به وجهه الكريم ، ثم خالطه فيه غيره .

ونستغفره عز وجل من كل وعد وعدناه من أنفسنا ، ثم قصرنا في الوفاء به ، ونستغفره تبارك وتعالىٰ من كل نعمة أنعم بها علينا ، ثم استعملناها في معصيته ، ونستغفره سبحانه وتعالىٰ من كل تصريح وتعريض بنقصان ناقص وتقصير مقصر كنا متصفين به .

ونستغفره من كل خطرة دعتنا إلىٰ تصنع وتكلف تزيناً للناس في كتاب سطرناه ، أو كلام نظمناه ، أو علم أفدناه أو استفدناه .

ونرجو ـ بعد الاستغفار من جميع ذلك كله لنا ولمن طالع كتابنا هـٰذا أو كتبه أو سمعه ـ من الله الكريم الرؤوف الرحيم . . المغفرة والرحمة ، والتجاوز عن جميع السيئات ظاهراً وباطناً ؛ فإن الكرم عظيم عميم ، والرحمة واسعة ، والجود علىٰ أصناف الخلائق فائض ،

ونحن خلق من خلق الله سبحانه وتعالىٰ ، لا وسيلة لنا إليه جل جلاله . . إلا فضله العظيم وجوده العميم .

وقد صح عن سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلّم أنه قال : « إن لله عز وجل مئة رحمة ، أنزل منها رحمة واحدة بين الإنس والجن والبهائم ، فبها يتراحمون ، وبها يتعاطفون ، وأخَّر تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة ، فإذا كان يوم القيامة . . ضم تلك الرحمة إلى التسع والتسعين »[1] .

وقد صح أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال : « إن الله تعالىٰ لما قضى الخلق . . كتب عنده فوق العرش : إن رحمتي سبقت غضبي »[2] .

وقال صلى الله عليه وسلّم : « يقول الله عز وجل : (من جاء بالحسنة . . فله عشر أمثالها أو أزيد ، ومن جاء بالسيئة . . فجزاء سيئة سيئة مثلها أو أغفر ، ومَن تقرب مني شبراً . . تقربت منه ذراعاً ، ومَن تقرب مني ذراعاً . . تقربت منه باعاً ، ومَن أتاني يمشي . . أتيته هرولة ، ومَن لقيني بقُراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئاً . . لقيته بمثلها مغفرة »[3] .

وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أنه قال : « يتجلى الله عز وجل لعباده يوم القيامة فيقول : أبشروا يا معشر المسلمين ؛ فإنه ليس منكم أحد إلا وقد جعلت مكانه في النار يهودياً أو نصرانياً »[4] .

وقال صلى الله عليه وسلّم : « يقول الله عز وجل يوم القيامة للمؤمنين : (هل أحببتم لقائي ؟ فيقولون : نعم يا ربنا ، فيقول : لِمَ ؟ فيقولون : رجونا عفوك ومغفرتك ، فيقول الله تبارك وتعالىٰ : قد أوجبتُ لكم مغفرتي »[5] .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « يقول الله تعالىٰ يوم القيامة : أخرجوا من النار مَن ذكرني وخافني في مقام »[6] .

وقد رُوِّينا عن البخاري [٧٠٧١] قال : حدثنا يوسف بن راشد ، حدثنا أحمد بن عبد الله ،

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٦١٠٤) ، ومسلم (٢٧٥٢) .
(٢) تقدم تخريجه مراراً .
(٣) أخرجه مسلم (٢٦٨٧) .
(٤) أخرجه بنحوه أحمد (٤/ ٤٠٧) .
(٥) أخرجه أحمد (٥/ ٢٣٨) .
(٦) أخرجه الديلمي (٥/ ٢٤٤) .

حدثنا أبو بكر بن عياش ، عن حميد قال : سمعت أنساً يقول : سمعت النبي صلى الله عليه وسلّم يقول : « إذا كان يوم القيامة . . شفعت ، فأقول : يا رب ؛ أَدخِل الجنة مَن كان في قلبه خردلة ، فيدخلون ، ثم أقول : أدخل الجنة مَن كان في قلبه أدنىٰ شيء » ، فقال أنس : كأني أنظر إلىٰ أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلّم .

ورُوِّينا عن البخاري [٧٠٧٢] قال : حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حماد بن زيد ، حدثنا معبد بن هلال العنزي قال : اجتمعنا ناسٌ من أهل البصرة ، فذهبنا إلىٰ أنس بن مالك ، وذهبنا معنا بثابت البناني إليه[1] يسأله لنا عن حديث الشفاعة ؛ فإذا هو في قصره [فوافقناه] يصلي الضحىٰ ، فاستأذنَّا ، فأذن لنا وهو قاعد علىٰ فراشه ، فقلنا لثابت : لا تسأله عن شيء أَوَّلَ من حديث الشفاعة ، فقال له : يا أبا حمزة ؛ هـٰؤلاء إخوانك من أهل البصرة ، جاؤوا يسألونك عن حديث الشفاعة ، فقال : حدثنا محمد صلى الله عليه وسلّم قال : « إذا كان يوم القيامة . . ماج الناس بعضهم في بعض ، فيأتون آدم ، فيقولون : اشفع لنا إلىٰ ربك ، فيقول : لست لها ، ولـٰكن عليكم بإبراهيم ؛ فإنه خليل الرحمـٰن ، فيأتون إبراهيم ، فيقول : لست لها ، ولـٰكن عليكم بموسىٰ ؛ فإنه كليم الله ، فيأتون موسىٰ ، فيقول : لست لها ، ولـٰكن عليكم بعيسىٰ ؛ فإنه روح الله وكلمته ، فيأتون عيسىٰ ، فيقول : لست لها ، ولـٰكن عليكم بمحمد صلى الله عليه وسلّم .

فيأتوني ، فأقول : أنا لها ، فأستأذن علىٰ ربي ، فيؤذن لي ، ويلهمني محامد أحمده بها لا تحضرني الآن ، فأحمده بتلك المحامد ، وأَخِرُّ له ساجداً ، فيقال : يا محمد ؛ ارفع رأسك ، وقل يُسمَعْ لك ، وسل تعط ، واشفع تشفع ، فأقول : يا رب ؛ أمتي أمتي .

فيقال : انطلق ، فأَخْرِجْ منها من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان ، فأنطلق ، فأفعل ، ثم أعود ، فأحمده بتلك المحامد ، ثم أَخِرُّ له ساجداً ، فيقال : يا محمد ؛ ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، وسل تعط ، واشفع تشفع ، فأقول : يا رب ؛ أمتي أمتي .

فيقال : انطلق ، فأَخْرِجْ منها من كان في قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان ، فأنطلق ، فأفعل ، ثم أعود ، فأحمده بتلك المحامد ، ثم أَخِرُّ له ساجداً ، فيقال : يا محمد ؛ ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، وسَل تعط ، واشفع تشفع ، فأقول : يا رب ؛ أمتي أمتي .

---

(١) في بعض النسخ : (وذهب معنا ثابت البناني إليه) .

فيقول : انطلق ، فأخرج من كان في قلبه أدنىٰ أدنىٰ أدنىٰ مثقال حبة من خردلة من إيمان فأخرجْه من النار ، فأنطلق ، فأفعل » .

فلما خرجنا من عند أنس . . قلت لبعض أصحابنا : لو مررنا بالحسن [البصري] ـ وهو متوار في منزل أبي خليفة ـ فحدثْناه بما حدَّثَنا أنس بن مالك ، فأتيناه ، فسلمنا عليه ، فأذن لنا ، فقلنا له : يا أبا سعيد ؛ جئناك من عند أخيك أنس بن مالك ، فلم نر مثل ما حدثنا في الشفاعة .

فقال : هِيهْ[1] ، فحدثْناه بالحديث ، فانتهىٰ إلىٰ هـٰذا الموضع ، فقال : هيه ، فقلنا : لم يزد لنا علىٰ هـٰذا .

فقال : لقد حدثني وهو جميع[2] منذ عشرين سَنة ، فلا أدري أنسي أم كره أن تتكلوا ، قلنا : يا أبا سعيد ؛ فحدِّثْنا ، فضحك وقال : خلق الإنسان عجولاً ، ما ذكرته إلا وأنا أريد أن أحدثكم .

حدثني كما حدثكم به وقال : « ثم أعود الرابعة ، فأحمده بتلك المحامد ، ثم أَخِرُّ له ساجداً ، فيقال : يا محمد ؛ ارفع رأسك ، وقل يسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع ، فأقول : يا رب ائذن لي فيمن قال لا إلـٰه إلا الله ، فيقول : وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي ؛ لأخرجن منها مَن قال لا إلـٰه إلا الله » انتهىٰ .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « إذا اجتمع أهل النار في النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة . . قال الكفار للمسلمين : ألم تكونوا مسلمين ؟ قالوا : بلىٰ ، فيقولون : ما أغنىٰ عنكم إسلامكم إذ أنتم معنا في النار ؟ فيقولون : كانت لنا ذنوب ، فأُخِذْنا بها ، فيغار الله عز وجل ويأمر بإخراج مَن في النار مِن المسلمين ، فيخرجون ، فإذا رأى الكفار ذلك . . قالوا : يا ليتنا كنا مسلمين ، فنخرج كما أُخرجوا ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلّم : ﴿ رُبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾[3] » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « لَلَّهُ أرحم بعبده المؤمن من الوالدة بولدها »[4] .

---

(١) هِيْه : اسم فعل أمر يقال لمن تستزيده في كلام .

(٢) الجميع : الرجل الذي بلغ أشده ، أراد أنه كان شاباً حين حدثه بذلك .

(٣) أخرجه ابن أبي عاصم في « السنة » (٢/ ٤٠٥) ، وأخرجه بنحوه الحاكم (٢/ ٢٦٥) .

(٤) أخرجه بنحوه البخاري (٥٦٥٣) ، ومسلم (٢٧٥٤) .

وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما : (مَن زادت حسناته علىٰ سيئاته يوم القيامة . . فذلك الذي يدخل الجنة بغير حساب ، ومَن استوت حسناته وسيآته يوم القيامة . . فذلك الذي يحاسب حساباً يسيراً ، ثم يدخل الجنة ، وإنما شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلّم لمن أوثق نفسه وأثقل ظهره) .

وقال صلى الله عليه وسلّم : « ينادي منادٍ يوم القيامة : يا أمة محمد ؛ أمَّا ما كان لله عز وجل . . فقد وهبكم إياه ، وأما التبعات . . فتواهبوها وادخلوا الجنة برحمة الله تعالىٰ »[1] .

ويروىٰ : أن أعرابياً سمع ابن عباس رضي الله عنهما يقرأ : ﴿ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ ، فقال الأعرابي : والله ؛ ما أنقذهم منها وهو يريد أن يوقعهم فيها ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما : خذوها من غير فقيه .

وقال الصنابحي : دخلت علىٰ عبادة بن الصامت رضي الله عنه وهو في الموت ، فبكيت ، فقال : مهلاً لا تبك ؛ فوالله ؛ ما من حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلّم . . إلا حدثتكم ، إلا حديثاً واحداً ، وسوف أحدثكموه اليوم وقد أحيط بنفسي ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول : « مَن شهد أن لا إلـه إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلّم . . حرم الله عليه النار »[2] .

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « عَرَضَ لي جبريل في جانب الحرة ، فقال عليه السلام : بشِّر أمتك أنه من مات لا يشرك بالله تعالىٰ شيئاً . . دخل الجنة ، قال : فقلت : يا جبريل ؛ وإن زنىٰ وإن سرق ؟ قال : وإن زنىٰ وإن سرق »[3] .

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلّم : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ ، فقلت : يا رسول الله ؛ وإن زنىٰ وإن سرق ؟ فقال صلى الله عليه وسلّم : « وإن زنىٰ وإن سرق ، وإن رغم أنف أبي الدرداء »[4] .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « إذا كان يوم القيامة . . دُفع إلىٰ كل واحد من

---

(١) أخرجه بنحوه الديلمي (٥/٤٩٦) .
(٢) أخرجه بنحوه ابن حبان في « الإحسان » (٢٠٢) .
(٣) أخرجه البخاري (٦٠٧٨) ، ومسلم (٩٤) .
(٤) أخرجه بنحوه النسائي في « الكبرىٰ » (٦/٤٧٨) .

أمتي يهودي أو نصراني ، ويقال له : هـٰذا فداؤك من النار »[1] .

وقال الله عز وجل : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ قال محمد بن علي رحمه الله : هـٰذه أرجىٰ آية للمؤمنين .

وقد روي : أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم سأل ربه عز وجل في ذنوب أمته فقال : « يا رب ؛ اجعل حسابهم إلي ؛ لئلا يُطَّلع علىٰ مساوئهم ، فأوحى الله عز وجل إليه : هم أمتك وهم عبادي ، وأنا أرحم بهم منك ، لا أجعل حسابهم إلىٰ غيري ؛ لئلا تنظر أنت ولا غيرك في مساوئهم » .

وقال صلى الله عليه وسلّم : « يا كريم العفو » ، فقال له جبريل عليه السلام : (أتدري ما تفسير يا كريم العفو ؟ هو أن يعفو عن السيئات برحمته ، ثم يبدلها حسنات بكرمه)[2] .

وفي الحديث الصحيح : « إذا أذنب العبد واستغفر الله . . يقول الله عز وجل لملائكته : انظروا إلىٰ عبدي ، أذنب ذنباً ، فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ، أشهدكم أني قد غفرت له »[3] .

وجاء في حديث أنس رضي الله عنه : أن أعرابياً قال : يا رسول الله ؛ مَن يلي حساب الخلق ؟ فقال : « الله عز وجل » ، فقال : هو بنفسه ؟! فقال : « نعم » ، قال : فتبسم الأعرابي ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « كيف ضحكت ؟ » فقال : إن الكريم إذا قدر . . عفا ، وإذا حاسب . . سامح ، فقال صلى الله عليه وسلّم : « ولا كريم أكرم من الله عز وجل ؛ فإنه أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين »[4] .

وقد ورد : أن الله عز وجل ليغفرن يوم القيامة مغفرة ما خطرت علىٰ قلب أحد ، حتىٰ إن إبليس لَيَتطاوَلُ رجاء أن تصيبه .

وروىٰ محمد بن الحنفية عن علي رضي الله عنه : أنه لما نزل قوله تعالىٰ : ﴿ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾ . . قال صلى الله عليه وسلّم : « يا جبريل ؛ وما الصفح الجميل ؟ » قال : إذا عفوت عمن ظلمك فلا تعاتبه ، فقال : « يا جبريل ؛ فالله عز وجل أكرم من أن يعاتب مَن

---

(١) أخرجه بنحوه الطبراني في « الأوسط » (١/ ٥) .
(٢) أخرجه بنحوه عن سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام . . البيهقي في « الشعب » (٥/ ٣٨٩) .
(٣) أخرجه بنحوه البخاري (٧٠٦٨) ، ومسلم (٢٧٥٨) .
(٤) أخرجه بنحوه البيهقي في « الشعب » (١/ ٢٤٧) .

عفا عنه » ، فبكىٰ جبريل عليه السلام وبكى النبي صلى الله عليه وسلّم ، فبعث تبارك وتعالىٰ إليهما ميكائيل ، فقال : إن ربكما يقرئكما السلام ويقول : (كيف أعاتب مَن عفوت عنه ، هـٰذا ما لا يشبه كرمي) .

والأخبار الواردة في هـٰذا الباب أكثر من أن تحصر .

ونسأل الله العظيم أن يرضىٰ عنا ، وأن يحفظ علينا الإيمان ويتوفانا عليه ، فهو وديعة لنا عنده ، فإنه سبحانه وتعالىٰ ما اسْتُوْدِع شيئاً . إلا حفظه ، ﴿فالله خير حِفْظاً وهو أرحم الراحمين﴾[1] .

ونختم الكتاب بما بدأناه به أولاً ، وهو حمد الله عدد عفوه عن خلقه ذي الجلال والإكرام ، وولي الطول والإنعام ، ونصلي علىٰ رسوله وحبيبه وخليله سيد الأنام محمد صلى الله عليه وسلّم ، وعلىٰ آله الكرام ، وصحبه نجوم الهدى الأعلام ، وسلم تسليماً كثيراً ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم ، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم ، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم .

والحمد لله علىٰ نعمه التي لا تحصىٰ ، وكرمه الذي لا يخفىٰ .

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم[2]

---

(١) هـٰذه قراءة أبي عمرو بن العلاء وغيره ، وقرأ حفص : ﴿حَـٰفِظًا﴾ .

(٢) **خواتيم المخطوطات المعتمدة :**

جاء في خاتمة النسخة (١) : وكان الفراغ من هـٰذه النسخة المباركة الشريفة ليلة يسفر صباحها من سابع شهر رجب الفرد من شهور سنة تسع وتسعين وألف ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم .

تـــم الكتـــاب وربنـــا محمـــود ... ولـــه المكـــارم والعـــلا والجـــود
وعلـــى النبـــي محمـــد صلـــواتـــه ... مـــا نـــاح قُمـــريٌّ وأورق عـــود

وجاء في خاتمة النسخة (٢) : الحمد لله عدد عفوه عن خلقه ، ما بين الأزل والأبد ، حمداً يوافي نعمه ويكافىء مزيده ، وصلى الله علىٰ سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد عبده ورسوله وحبيبه وخليله صلى الله عليه وسلّم ، كلماذكره الذاكرون ، وغفل عن ذكره الغافلون ، اللهم ؛ صل علىٰ محمد ما تقلقل فلك في دورانه ، وصل علىٰ محمد ما رمق طرف بإنسانه ، وعلىٰ آله وصحبه وأزواجه وذريته الطيبين الطاهرين وسلم تسليماً كبيراً إلىٰ يوم الدين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

قد استراح القلم من مضايق التحرير والتسطير بعون الله الملك القدير ، وكان الفراغ منه في مستهل شوال سنة=

= خمس وستين وسبع مئة بدمشق المحروسة حرسها الله وسائر بلاد الإسلام ، وغفر لمؤلفه وكاتبه ولجميع المسلمين آمين ، وصلواته وسلامه الأتمان الأكملان علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وأزواجه وذريته ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وما من كاتب إلا سيبلىٰ ... ويبقي الدهرُ ما كتبت يداه
فلا تكتب بكفك غير شيءٍ ... يسرك في القيامة أن تراه

وجاء في خاتمة النسخة (٣) : تم الجزء الأول ، والحمد لله وحده ، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد ، سيد المرسلين وخاتم النبيين ، وإمام المقربين ، وقائد الغر المحجلين ، وحبيب رب العالمين ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه أجمعين ، كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون .

وجاء في خاتمة النسخة (٤) : الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والتسليم علىٰ أشرف المرسلين محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلىٰ يوم الدين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

نظر في هـٰذا المختصر المبارك من أوله إلىٰ آخره بقوة الله وعونه العبد الفقير إلى الله تعالى الراجي عفو ربه الكريم ، كثير الزلل والخطايا . . . سبع الشافعي غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين ، وجعله من أهل القرآن العظيم آمين .

نظر في هـٰذا المختصر المبارك من أوله إلىٰ آخره بحمد الله وعونه العبد الفقير إلى الله تعالىٰ ، الراجي عفو ربه الذي بذنبه اعترف محمد بن إبراهيم عفا الله عنه وعن والديه وعن جميع المسلمين ، واجعلني وإياهم من عبادك الصالحين . . . وصلى الله علىٰ سيدنا محمد .

الحمد لله أهل الحمد ومستحقه ، كتبتُ هـٰذا . . . المبارك من أوله إلىٰ آخره وقرأته في الجامع الكبير ببعلبك المحروسة مرتين ، مترحماً علىٰ مؤلفه وكاتبه ومالكه الأول ، داعياً لمالكه الثاني بطول البقاء فسح الله تعالىٰ . . . . ونفع المسلمين بعلومه الفقير إلىٰ عفو الله ورحمته يوسف بن عبد القادر بن أبي الحسن القادري .

وجاء في خاتمة النسخة (٥) : وافق الفراغ من كتابته **وهو منقول من خط المصنف عفا الله عنه** يوم السبت حادي عشر ربيع الآخر سنة تسع وستين وسبع مئة .

وجاء في خاتمة النسخة (٦) : وكان الفراغ من كتابته يوم الأحد حادي عشر من ربيع الآخر سنة سبعين وسبع مئة والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد خاتم النبيين وعلىٰ آله وأصحابه وأزواجه رضوان الله عليهم أجمعين .

كتبه محمد بن عثمان السلمي غفر الله له ولمؤلفه ومالكه ولجميع المسلمين آمين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

وجاء في خاتمة النسخة (٧) : هنا بحمد الله تعالى انتهى الجزء الثالث من « مجمع الأحباب وتذكرة أولي الألباب » وبتمامه تم جميع الكتاب والحمد لله أولاً وآخراً ، وباطناً وظاهراً ، وسراً وعلانيةً ، وكان الفراغ من كتابته يوم الثلاثاء ثامن عشر ربيع الأول سنة (٨٤٣ هـ) أحسن الله عاقبتها ، بمحمد وآله ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد خاتم النبيين ، وعلىٰ آله وأصحابه وأزواجه رضوان الله عليهم أجمعين ، وذلك علىٰ يد العبد الفقير المسكين الراجي عفر ربه ومغفرته ورضوانه محمد بن أحمد بن عثمان بن عبد الله بن سليمان بن محمد التكروري نسباً ، المالكي مذهباً ، بصَّره الله عيب نفسه ، وجعل يومه خير من=

* * *

= أمسه ، وغفر لمن دعا له بالرحمة والمغفرة ، ولجميع المسلمين وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين ، آمين .

الحمد لله رب العالمين بدأه قراءةً وما قبله وما قبل . . . علىٰ سيدنا ومولانا وشيخنا الإمام العلامة الشيخ زين الدين . . . عبد الرحمٰن الأجهوري . . . أحسن الله إليه وأسبغ نعمه عليه الفقير الحقير أحمد المدعو . . . الدين بن أبو البقاء بن أحمد محب الدين بن محمد الهنيدي المالكي الأشعري المدرسة الأفغادية المجاورة لجامع الأزهر عمره الله بذكره في ليلة يسفر صباحها عن يوم الجمعة . . . من شهر رمضان المكرم سنة : (١٣٤٠ هـ) . . . بمحمد وآله ، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

الحمد لله أنهى الكتاب أجمع الفقير علي بن أحمد القلعي ، وله أن يدونه عني وجميع ما عليه . . . العبد يوسف بن عبد الله الحسني . . . الشافعي ، وكتب رابع عشر في شهر ربيع الأول . . .

الحمد لله رب العالمين ، وأيضاً أنهاه قراءةً الفقير الحقير موسى النشابي الشافعي على الشيخ الشريف الحسيب النسيب يوسف الجمالي الأرميوني [تلميذ السيوطي (ت ٩٥٨ هـ)] وذلك في جامع الأزهر عند خزانة الشيخ المذكور ، بجوار باب الطهارة ، وكان ختمه ليلة الإثنين بادىء ست عشر جمادى الآخرة سنة . . . وأربعين وتسع مئة ، والحمد لله رب العالمين .

مُحْتَوى الكِتَابِ

يحيى بن معاذ الواعظ الذكار الرازي رضي الله عنه ٥
طرف واسع من كلامه الرائق وحكمه البليغة رضي الله عنه ٥
دواء القلب خمسة أشياء ٧
صفة الزاهد الصادق ٩
علامة الزهد ٩
الورع على وجهين ٩
من فاتته هذه الخصال فقد عدم التواضع ١٠
عبادة العارف في ثلاثة أشياء ١١
مريد الآخرة يسعى لسبع درجات ١٢
الأيام خمسة ١٤
من لم يكن معه ثلاث خلال فليس بعارف ١٥
أبو العباس أحمد محمد بن سهل بن عطاء رضي الله عنه ١٨
من كلامه رضي الله عنه ١٨
علامة أولياء الله عز وجل ١٨
كلامه في قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ ١٩
الفرق بين التسليم والتفويض ١٩
تواجد بعض المشايخ عند السماع ١٩
الفرق بين الخشية والخوف ٢١
دعاء آدم عليه السلام ٢١
حاتم الأصم رضي الله عنه ٢٣
سبب تلقيبه بالأصم ٢٣
جملة واسعة من كلامه وحكمه رضي الله عنه ٢٣

بناء أمره في التوكل على أربع خصال ٢٣
الحزن حزنان ٢٤
أربع مسائل يتعلمها من أستاذه ٢٥
التخلص من الناس في ثلاث ٢٥
من أسرار ومقاصد الصلاة ٢٦
تحقيق نفيس للمؤلف رحمه الله في شرح كلام حاتم الأصم ٢٦
تحقيق بديع وفوائد جزيلة في الكلام عن الإخلاص ٢٧
الفصل الأول: في بيان حقيقته ٢٧
أقسام الإخلاص ٢٨
الفصل الثاني: في بيان أقاويل الأئمة فيه ٣١
الفصل الثالث: في مراتب المخلصين ٣٤
رؤيا عجيبة وتعليق المؤلف رحمه الله عليها ٣٥
الفصل الرابع: في بيان الشوائب والآفات المكدرة للإخلاص ٤٨
الفصل الخامس: في بيان حكم العمل المشوب بالرياء ٥٢
الكلام عن النية في فصول ٥٦
الفصل الأول: في بيان فضلها ٥٦
الفصل الثاني: في بيان حقيقة النية ٥٩
الفصل الثالث: في الأعمال المتعلقة بالنية ٦٤
النيات الممكنة في القعود في المسجد ٦٥
الفصل الرابع: في بيان أن النية لا تدخل تحت الاختيار ٦٩
الكلام عن الصدق وفيه فصلان ٧٣
الفصل الأول: في بيان فضيلة الصدق ٧٣
الفصل الثاني: في بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه ٧٥
الصدق الأول: صدق اللسان ٧٥
الصدق الثاني: في النية والإرادة ٧٧
الصدق الثالث: صدق العزم ٧٨

الصدق الرابع: في الوفاء بالعزم ٧٨
الصدق الخامس: في الأعمال ٨١
تتمة شرح كلام حاتم الأصم في أسرار الصلاة ٨٥
أبو عبد الله الحارث المحاسبي بن أسد رضي الله عنه ٩٢
علامة يعرف بها الحلال من الحرام ٩٢
من كلامه وحكمه رضي الله عنه ٩٣
الزاهدون أربعة ٩٥
الزهد مطلوب لخمسة أمور ٩٦
الإمام أحمد يستمع لكلامه من حيث لا يشعر ٩٧
بماذا يتولد الصدق ٩٨
شرحه لقول الداراني: (ما رجع من وصل) ٩٨
أبو الحسن السري بن مغلس السقطي رضي الله عنه ١٠٠
جملة واسعة من كلامه وحكمه رضي الله عنه ١٠١
عشر مقامات للمريد ١٠٢
عشر مقامات للخائف ١٠٢
الدنيا فضول إلا خمس خصال ١٠٣
أربع ترفع العبد ١٠٣
انقطع المنقطع بخصلتين واتصل المتصل بأربع ١٠٣
حقيقة العارف ١٠٤
من أخلاق الأبدال ١٠٤
المعرفة التي ما فوقها معرفة ١٠٧
أوائل أحوال الصديقين ١٠٧
القلوب ثلاثة ١٠٨
خمسة لا يسكن معها في القلب غيرها ١٠٩
قصة عظيمة لشاب يتوب على يديه ١١٠
الدنيا تخدمه وتجيئه بقُوته ١١١

تحقيق شاف وبيان واف في الكلام عن الإيثار بالقُرَب وأنواعه وقصص من روائع الإيثار .. ١١٢
حكايته مع الجارية تحفة وما فيها من العجائب ١٢٥
كان مستجاب الدعوة ١٣٢
استكمل الإيمان من كان فيه ثلاث خصال ١٣٥
رؤيا عجيبة ١٣٥
أبو القاسم الجنيد بن محمد رضي الله عنه ١٣٨
طرف واسع من كلامه ورائق حكمه رضي الله عنه ١٣٨
رتبة مكينة في العلم ١٣٩
رأيه في الدخول على السلطان لمصلحة ١٤٣
كلامه في قيام الليل ١٤٣
منقبة جليلة للجنيد رضي الله عنه ١٤٣
فوائد الحكايات للمريدين ١٤٤
مقامات الكشف وأبواب المشاهدة ١٤٤
حقيقة الشفقة ١٤٦
إشارة لطيفة إلى الصحبة ومقاماتها ١٤٧
تعريف الظرف ١٥٠
التصوف جامع لعشر خصال ١٥٠
متى يكمل المحب أحوال العبودية ١٥١
كلام رائق في المحبة ١٥١
كلام نفيس للإمام الرازي في شرح معنى القبض والبسط ١٥٤
متى يصير داء النفس دواءها ١٥٨
حكاية تدل على حكمته رضي الله عنه ١٥٩
حكاية عجيبة وتفسير الجنيد لما حصل من تلميذه السري رضي الله عنهما ١٥٩
معنى قوله ﷺ: «حبك الشيء يعمي ويصم» ١٦١
دعاء عظيم جامع ١٦٢
أقوالهم في أوثق أسباب النجاة ١٦٤

من مناقبه الجليلة رضي الله عنه ١٦٥
من كراماته رضي الله عنه ١٦٦
حكمة وحسن استنباط ١٦٧
غِيبة الخواص ١٦٩
سبب جلوسه للكلام في الناس ١٧٠
رؤيا عجيبة ١٧١
أبو بكر الشبلي رضي الله عنه ١٧٢
كرامته رضي الله عنه ١٧٢
من درر كلامه رضي الله عنه ١٧٣
الغَيرة غَيرتان ١٧٤
حرصه على السنة حتى عند النزع ١٧٤
الله هو الجواد على الحقيقة ١٧٤
أبيات رائعة في المحبة ١٧٥
سبب اصفرار الشمس عند الغروب ١٧٦
مرتبته في العلم الظاهر ١٧٦
تفسير إشاري لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ ١٧٧
مما رواه من الأحاديث ١٧٩
محبته وخوفه على الأمة ١٧٩
كلام نفيسٌ في أسرار الحج وحِكَمه ١٨١
تحقيق نفيس للقونوي في معاني وأسرار الحج ١٨٣
لا بد من الاجتهاد والمجاهدة ١٨٨
كلام عجيب في المحبة ١٨٩
نظر العين ونظر القلب ١٩٠
المحبة والهمة ١٩٢
حقيقة المحبة ١٩٢
أحوال الأولياء ثلاثة ١٩٣

حقيقة الفقر ١٩٣
أبو عبد الرحمن زهير بن نعيم البابي رضي الله عنه ١٩٥
شرح شيء من كلامه رضي الله عنه ١٩٧
أبو محمد سهل بن عبد الله التستري رضي الله عنه ١٩٨
من غرر كلامه وحكمه رضي الله عنه ١٩٨
البلوى من الله على وجهين ١٩٨
أقرب الدعاء إلى الإجابة ١٩٩
تفسير العافية ١٩٩
أقسام الاستغفار الذي يكفر الذنوب ٢٠١
لطيفة في المحبة ٢٠٢
ما يؤمر به المبتدىء ٢٠٢
أصول المريدين ترجع إلى سبعة ٢٠٤
صلاح الخلق في ثلاثة ٢٠٦
معنى قوله ﷺ: «التائب حبيب الله» ٢٠٧
حقيقة الإيمان تكمل بأربع خصال ٢٠٧
عظم حاله مع الله عز وجل ٢٠٨
من أسراره رضي الله عنه ٢٠٨
قُوته في بدايته ٢٠٩
انتفاعه بخاله في ابتداء أمره ٢١٠
أبو إسحاق إبراهيم الحربي رضي الله عنه ٢١٢
الغريب في هذا الزمان ٢١٢
ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ٢١٤
أبو عبد الله أحمد بن يحيى الجلاّء رضي الله عنه ٢١٦
من كلامه رضي الله عنه ٢١٦
سبب تسميته بالجلاّء ٢١٧

أبو جعفر أحمد بن مهدي بن رستم البغدادي رضي الله عنه ٢٢٠
محبته للإيثار والستر ٢٢٠
أبو عبد الرحمن عبد الله بن داوود الخُرَيبي رضي الله عنه ٢٢٢
يختبر أبا العيناء في مسائل متفرقة ٢٢٣
أبو سعيد الخراز رضي الله عنه ٢٢٤
من كلامه ومناقبه رضي الله عنه ٢٢٤
حكاية في قوة الهمة والاستقلال ٢٢٥
من مكاشفاته رضي الله عنه ٢٢٦
من حِكمه رضي الله عنه ٢٢٦
حقيقة الأنس ٢٢٧
أبيات رائقة ٢٢٧
يقرأ على الطوسي من كتابٍ له فيعلق عليه بكلام نفيس ٢٢٨
حقيقة المحبة ٢٣٠
أبو محمد عبد الله بن محمد النيسابوري (المرتعش) رضي الله عنه ٢٣٢
من كلامه رضي الله عنه ٢٣٢
الأستاذ أبو حفص الحداد النيسابوري رضي الله عنه ٢٣٤
من كلامه وحِكمه رضي الله عنه ٢٣٥
أعظم ما يتوسل به إلى الله عز وجل ٢٣٥
تعريف الفتوة ٢٣٦
آداب الفقراء في الصحبة ٢٣٧
حكاية عجيبة ٢٣٧
تحقيق نفيس وكلام بديع في السؤال والمسألة وتأويل صدورها عن مثل أبي
حفص رضي الله عنه ٢٣٨
مراتب العارفين والغَيبة عن الخلق ٢٥٠
تنبيه: في بيان أن العارفين قسمان من حيث غلبة الإيثار وعدمه ٢٥٣
سؤال لأبي حفص رضي الله عنه وما فيه من اللطائف ٢٥٣

خاتمة حسنة وهي قاعدة عظيمة النفع ٢٦٠
أبو صالح حمدون بن أحمد القصار النيسابوري رضي الله عنه ٢٦٢
أبو بكر محمد بن موسى الواسطي رضي الله عنه ٢٦٤
من كلامه وحكمه رضي الله عنه ٢٦٤
أصل العبادة ستة أشياء ٢٦٦
علامة الولي أربعة أشياء ٢٦٧
أبو القاسم إبراهيم بن محمد النصرآباذي رضي الله عنه ٢٦٨
من كلامه رضي الله عنه ٢٦٨
أبو علي الدقاق النيسابوري شيخ أبي القاسم القشيري رضي الله عنهما ٢٧١
من مناقبه وأحواله رضي الله عنه ٢٧١
من كلامه رضي الله عنه ٢٧٢
الفرق بين الشريعة والحقيقة ٢٧٢
إسناده في الطريق ٢٧٣
مما شوهد من أحواله معاينة ٢٧٤
من علامات الشوق ٢٧٤
لا شيء أشرف من اسم العبودية ٢٧٦
كلام نفيس في التفرقة والجمع وجمع الجمع والفرق الثاني ٢٧٧
أبو عبد الله كهمس بن الحسن القيسي رضي الله عنه ٢٨٠
علي الجرجرائي رضي الله عنه ٢٨٢
موعظة بليغة ٢٨٢
أبو عبيد البسري رضي الله عنه ٢٨٤
بعض كراماته رضي الله عنه ٢٨٤
أبو الفوارس شاه بن شجاع الكرماني رضي الله عنه ٢٨٦
سبب زهده وعزوفه عن الدنيا ٢٨٦
حقيقة المحبة ٢٨٨

أبو يعقوب الزيات رضي الله عنه ٢٩٠
أبو الحسين أحمد بن محمد النوري رضي الله عنه ٢٩٢
من روائع الإيثار ٢٩٢
بين الجنيد والنوري ومشرب كلٍّ في المرض ٢٩٣
حكايته مع المعتضد لما كسر دنان الخمر ٢٩٥
من كراماته رحمه الله ٢٩٦
كشف وفراسة ٢٩٨
جابر الرحبي رضي الله عنه ٣٠٠
من كراماته رضي الله عنه ٣٠٠
أبو الحسين خير النسَّاج رضي الله عنه ٣٠١
من كراماته رضي الله عنه ٣٠١
سبب تسميه بخيرٍ النساج ٣٠٢
تعليق المؤلف رحمه الله تعالى على قصة إلقاء الدرهمين والقفاف في البحر ٣٠٣
أبو إسحاق إبراهيم الآجري رضي الله عنه ٣٠٦
من كراماته رضي الله عنه ٣٠٦
أبو عثمان سعيد ين إسماعيل بن سعيد الحيري رضي الله عنه ٣٠٨
من كلامه وحكمه رضي الله عنه ٣٠٨
كلام نفيس في الصحبة ٣٠٩
صلاح القلب في أربعة ٣٠٩
من دقائق الورع ٣١١
كلام للمؤلف رحمه الله في بيان معنى الحال ٣١١
بشر بن منصور السَّليمي رضي الله عنه ٣١٣
جملة من أحواله رضي الله عنه ٣١٣
إبراهيم الجيلي رضي الله عنه ٣١٦
قصته مع ابنة عمه ٣١٦
علي بن الموفق رضي الله عنه ٣١٧

من أحواله في الحج ٣١٧
رؤيا عجيبة ٣١٨
أبو عبد الله محمد بن خفيف رضي الله عنه ٣١٩
من أحواله رضي الله عنه ٣١٩
من كلامه رضي الله عنه ٣٢٠
علامة إقبال الحق جل جلاله على العبد ٣٢١
بلاء المحبين أعظم الأحوال ٣٢٢
أبو الخير التيناتي رضي الله عنه ٣٢٣
من كراماته رضي الله عنه ٣٢٣
أبو الحسن سمنون بن حمزة الخواص رضي الله عنه ٣٢٥
من نفيس كلامه في المحبة رضي الله عنه ٣٢٦
وصل إلى الله بستة أشياء ٣٢٧
معنى قوله ﷺ: «روحوا القلوب تعي الذكر» ٣٢٩
معنى أكل المؤمن في مِعًى واحد والكافر في سبعة ٣٢٩
تحقيق نفيس مشتمل على ثلاثة فصول ٣٣٠
الفصل الأول: في حقيقة المحبة بعبارات الواجدين ٣٣١
علامات المحبة ٣٣٣
الفصل الثاني: في بيان بعض الألفاظ التي في علم السلوك ٣٣٥
الفصل الثالث: في كلمات مفرقة عن الأئمة رحمهم الله ٣٤١
التجلي والاستتار ٣٤٣
الفناء والبقاء ٣٤٤
المريد والمراد ٣٤٩
المجاهدات والمعاملات ٣٥١
الكلام على الناس ٣٥٣
متى يقع التسليم ٣٥٨
معنى قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ ٣٥٨

الفرق بين التسليم والتفويض ٣٥٨
أسمح الناس ٣٥٩
الاستدراج قسمان ٣٦٠
منازل المحبة ٣٦١
أصول التصوف ٣٦٨
تكسر أعناق الشياطين بأربعةٍ ٣٧٠
من علامات السعادة ٣٧١
البواعث على الخيرات الأخروية ٣٧٨
علم اليقين وعينه وحقه ٣٨٠
البلاء على ثلاثة أوجه ٣٨١
من كلام عمرو بن العاص رضي الله عنه وهو يحتضر ٣٨٤
معنى قوله تعالى: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ ٣٨٥
الفرق بين المحبة والحياء ٣٨٥
أهل المحبة على ثلاث منازل ٣٨٦
مقام المحبة أشرف من الخلة ٣٨٧
من أعذارهم في الامتناع عن الإمامة ٣٨٩
للمحبة أربع علامات ٣٩٠
من صفات الأولياء ٣٩٢
اختلاف أحوال العارفين عند الاحتضار بحسب اختلاف مشاربهم ٣٩٤
المعرفة والقلوب ٣٩٧
أبو يعقوب يوسف بن الحسين الرازي رضي الله عنه ٤٠١
متى يستوجب الرجل ثواب الصائمين ٤٠٣
أبو الحسن علي بن سهل التستري رضي الله عنه ٤٠٤
تنازع العقل والهوى ٤٠٤
أيوب الحمال رضي الله عنه ٤٠٦
من كراماته رضي الله عنه ٤٠٦

أبو القاسم القشيري النيسابوري رضي الله عنه ٤٠٧
نسبه وولادته ونشأته وطلبه العلم ٤٠٧
وجوه الحياء ٤٠٨
أقسام التوبة ٤٠٩
أحمد بن نصر الخزاعي رضي الله عنه ٤١١
محنته التي قتل فيها رحمه الله ٤١١
أبو الحسين محمد بن أحمد بن سمعون رضي الله عنه ٤١٣
أعظم أبواب الزهد زهد الولي في كرامته ٤١٥
حكاية تسهيل رزقه وأمر معيشته ٤١٥
عبد الصمد بن عمر رضي الله عنه ٤١٧
من مناقبه وأحواله رضي الله عنه ٤١٧
عثمان بن عيسى بن عمرو الباقلاني رضي الله عنه ٤٢٠
من أحواله وأقواله رضي الله عنه ٤٢٠
أبو بكر محمد بن عبد الله الدينوري رضي الله عنه ٤٢٢
من كراماته رضي الله عنه ٤٢٢
أبو عبد الله الخريبي الزاهد رضي الله عنه ٤٢٣
حكاية عجيبة تدل على زهده في الدنيا ٤٢٣
إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل الخواص رضي الله عنه ٤٢٦
صناعته القِفافَ وقصته مع المرأة ٤٢٦
تعليق المؤلف رحمه الله على القصة ٤٢٦
من كلامه رضي الله عنه ٤٢٧
قصة عجيبة لابنة الملك التي أسلمت ٤٣٠
الحافظ أبو نعيم الأصبهاني رضي الله عنه ٤٣٣
نبذة لطيفة من ترجمته رضي الله عنه ٤٣٣
خاتمة عظيمة في ذكر كلام بعض المحتضرين من الصحابة والتابعين والعارفين رضي الله عنهم أجمعين ٤٣٤

حالة مرضية ينبغي للمحتضر أن يكون عليها ٤٥١
الفصل الأول: في بعض المصطفيات من النساء رضوان الله عليهن أجمعين ٤٥٧
معاذة العدوية رضي الله عنها ٤٥٩
من غرر أحوالها ومناقبها رضي الله عنها ٤٥٩
حالها عند الوفاة ٤٦٠
رابعة العدوية رضي الله عنها ٤٦١
بعض أحوالها رضي الله عنها ٤٦١
معنى قولها: (استغفارنا يحتاج إلى استغفار) ٤٦١
جعفر بن سليمان يخطبها لنفسه ٤٦٦
امرأة رياح القيسي رضي الله عنهما ٤٦٨
من أحوالها رضي الله عنها ٤٦٨
ماجدة القرشية رضي الله عنها ٤٦٩
من كلامها رضي الله عنها ٤٦٩
فاطمة بنت عمران رضي الله عنها ٤٧٠
فاطمة النيسابورية رضي الله عنها ٤٧١
رابعة بنت إسماعيل زوج أحمد بن أبي الحواري رضي الله عنهما ٤٧٢
نبذة من أحوالها وكلامها ٤٧٢
أم هارون رضي الله عنها ٤٧٤
عمرة امرأة حبيب أبي محمد رضي الله عنهما ٤٧٦
أمة الجليل بنت عمرو العدوية رضي الله عنها ٤٧٧
عبيدة بنت أبي كلاب رضي الله عنها ٤٧٨
عفيرة العابدة رضي الله عنها ٤٧٩
شعوانة رضي الله عنها ٤٨٠
خاتمة: في أول مقامات العبد، وهو اليقظة ٤٨١
يقظة بعض الصالحين ٤٨١
آمنة الرملية رضي الله عنها ٤٨٤

تدعو لبشر بن الحارث وأحمد ابن حنبل رضي الله عنهم ٤٨٤
منفوسة بنت زيد بن أبي الفوارس رضي الله عنها ٤٨٥
كلامها عند موت ابنها ٤٨٥

الفصل الثاني: في جماعة عرفت أحوالهم وخفيت أسماؤهم من الرجال والنساء رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ٤٨٧

مَن حاله عليٌّ واسمه خفيٌّ ٤٨٩
عابد آخر رضي الله عنه ٤٩٠
عابد آخر رضي الله عنه ٤٩١
عابد آخر رضي الله عنه ٤٩٢
حكاية عجيبة ٤٩٢
عابد آخر رضي الله عنه ٤٩٤
عابد آخر رضي الله عنه ٤٩٦
عابد آخر من عقلاء المجانين رضي الله عنه ٤٩٩
عابدة من عابدات أهل المدنية رضي الله عنها ٥٠١
عابدتان رضي الله عنهما ٥٠٢
عابد آخر رضي الله عنه ٥٠٣
عابد آخر رضي الله عنه ٥٠٥
عابد آخر رضي الله عنه ٥٠٦
عابد آخر رضي الله عنه ٥٠٧
عابد آخر من عقلاء المجانين يقال له: **سعدون رضي الله عنه** ٥٠٨
من كتبه ووصاياه رحمه الله ٥١٠
عابد آخر يقال له: **بهلول المجنون رضي الله عنه** ٥١٥
يلتقي بالرشيد ويعظه ٥١٥
اجتماع سعدون وبهلول رحمهما الله ٥١٧
كتابه للواثق وابن أبي دؤاد والمريسي ٥١٧
لطيفة ٥١٨

عابد آخر يقال له: **أبو علي المعتوه رضي الله عنه** ٥١٩
عابد آخر رضي الله عنه ٥٢٠
عابد آخر رضي الله عنه ٥٢١
أخوات بشر الحافي رضي الله عنهن ٥٢٢
عابدتان رضي الله عنهما ٥٢٤
ورع صادق بين زوجتين ٥٢٤
عابدان كوفيان رضي الله عنهما ٥٢٦
عابدة أخرى رضي الله عنها ٥٢٧
عابد آخر رضي الله عنه ٥٢٨
عابد آخر رضي الله عنه ٥٣٠
عابد آخر رضي الله عنه ٥٣٢
عابدة أخرى رضي الله عنها ٥٣٣
عابد آخر رضي الله عنه ٥٣٤
عابد آخر رضي الله عنه ٥٣٥
عابدة أخرى رضي الله عنها ٥٣٦
تعليق المؤلف رحمه الله على قصِّ هذه العابدة شعرها في سبيل الله ٥٣٨
عابدة أخرى رضي الله عنها ٥٤١
عابد آخر رضي الله عنه ٥٤٢
عابد آخر رضي الله عنه ٥٤٥
عابد آخر رضي الله عنه ٥٥٠
عابد آخر رضي الله عنه ٥٥٢
عابد آخر رضي الله عنه ٥٥٤
كلام للإمام الغزالي رضي الله عنه في الدخول على السلاطين ٥٥٤
عابد آخر رضي الله عنه ٥٥٦
عابد آخر رضي الله عنه ٥٥٧
عابد آخر رضي الله عنه ٥٥٩

أربعة أبواب للوصول لله عز وجل ٥٥٩
الفرق بين المحبة والحياء ٥٥٩
عابدة أخرى رضي الله عنها ٥٦١
عابد آخر رضي الله عنه ٥٦٢
عابدة أخرى رضي الله عنها ٥٦٤
عابد آخر رضي الله عنه ٥٦٥
عابد آخر رضي الله عنه ٥٦٧
عابد آخر رضي الله عنه ٥٦٨
عابد آخر رضي الله عنه ٥٦٩
عابد آخر رضي الله عنه ٥٧٠
عابد آخر رضي الله عنه ٥٧١
عابدة أخرى رضي الله عنها ٥٧٤
عابد آخر رضي الله عنه ٥٧٥
عابد آخر رضي الله عنه ٥٧٦
عابدة أخرى رضي الله عنها ٥٧٧
عابدة أخرى رضي الله عنها ٥٧٨
عابد آخر رضي الله عنه ٥٧٩
عابد آخر رضي الله عنه ٥٨٠
عابد آخر رضي الله عنه ٥٨٢
عابد آخر رضي الله عنه ٥٨٣
عابد آخر رضي الله عنه ٥٨٥
عابد آخر رضي الله عنه ٥٨٦
عابدة أخرى رضي الله عنها ٥٨٧
عابد آخر رضي الله عنه ٥٨٩
عابد آخر رضي الله عنه ٥٩٠
عابد آخر رضي الله عنه ٥٩١

عابد آخر رضي الله عنه ٥٩٢
مقامات المراقبة ٥٩٢
عابد آخر رضي الله عنه ٥٩٣
عابد آخر رضي الله عنه ٥٩٤
عابد آخر رضي الله عنه ٥٩٦
عابدة أخرى رضي الله عنها ٥٩٨
عابد آخر رضي الله عنه ٥٩٩
عابد آخر رضي الله عنه ٦٠٠
عابد آخر رضي الله عنه ٦٠١
عابد آخر رضي الله عنه ٦٠٣
العلماء ثلاثة أقسام ٦٠٣
عابد آخر رضي الله عنه ٦٠٥
عابد آخر رضي الله عنه ٦٠٦
عابد آخر رضي الله عنه ٦٠٨
عابد آخر رضي الله عنه ٦٠٩
عابد آخر رضي الله عنه ٦١٠
من صفات الغني بالله عز وجل ٦١٠
عابد آخر رضي الله عنه ٦١٢
عابد آخر رضي الله عنه ٦١٣
عابد آخر رضي الله عنه ٦١٥
عابد آخر رضي الله عنه ٦١٦
عابد آخر رضي الله عنه ٦١٧
أخصُّ أحوال المحبة ٦١٧
عابدة أخرى رضي الله عنها ٦١٨
عابد آخر رضي الله عنه ٦٢٠
عابد آخر رضي الله عنه ٦٢٢

الحال التي يستغنى بها عن الدنيا ٦٢٢
الوجه في تفضيل الفقير على الغني ٦٢٢
عابدة أخرى رضي الله عنها ٦٢٣
عابد آخر رضي الله عنه ٦٢٤
كلمات جليلة في التوكل ٦٢٥
عابد آخر رضي الله عنه ٦٢٦
عابد آخر رضي الله عنه ٦٢٨
عابد آخر رضي الله عنه ٦٢٩
عابد آخر رضي الله عنه ٦٣٠
عابد آخر رضي الله عنه ٦٣١
حكاية عجيبة ٦٣١
عابد آخر رضي الله عنه ٦٣٥
عابد آخر رضي الله عنه ٦٣٦
عابد آخر رضي الله عنه ٦٣٧
عابد آخر رضي الله عنه ٦٣٨
خاتمة : فيما كتب بعض أصحاب الأحوال على المرقعات ٦٣٩
الفصل الثالث: في ترجمة العادل نور الدين الشهيد قدس الله روحه ونوّر ضريحه ٦٤١
الدولة النورية ٦٤٣
نسب نور الدين الشهيد وبعض مناقبه رضي الله عنه ٦٤٣
شجاعته رضي الله عنه ٦٥٠
ما فعله من المصالح في بلاد المسلمين ٦٥١
وقاره وهيبته رضي الله عنه ٦٥٣
خاتمة ٦٦٠
جدول يبين تاريخ حكم الأسرة الأيوبية ٦٦٢
الدولة الصلاحية ٦٦٣
نسب الناصر صلاح الدين وبعض مناقبه رضي الله عنه ٦٦٣

ملخص فتح الديار المصرية ٦٦٦
سنة خمس وستين وخمس مئة ٦٧٠
سنة ست وستين وخمس مئة ٦٧١
سنة سبع وستين وخمس مئة ٦٧٢
زوال دولة الفاطميين ٦٧٢
نفرة يسيرة بين نور الدين وصلاح الدين رحمهما الله ٦٧٤
سنة ثمان وستين وخمس مئة ٦٧٧
وفاة الأمير نجم الدين ٦٧٨
سنة تسع وستين وخمس مئة ٦٧٩
فتح بلاد اليمن ٦٧٩
سنة سبعين وخمس مئة ٦٨٠
سنة إحدى وسبعين وخمس مئة ٦٨٢
سنة اثنتين وسبعين وخمس مئة ٦٨٣
سنة ثلاث وسبعين وخمس مئة ٦٨٤
سنة أربع وسبعين وخمس مئة ٦٨٥
سنة خمس وسبعين وخمس مئة ٦٨٦
سنة ست وسبعين وخمس مئة ٦٨٨
سنة سبع وسبعين وخمس مئة ٦٨٩
سنة ثمان وسبعين وخمس مئة ٦٩٠
سنة تسع وسبعين وخمس مئة ٦٩١
سنة ثمانين وخمس مئة ٦٩٤
سنة إحدى وثمانين وخمس مئة ٦٩٥
سنة اثنتين وثمانين وخمس مئة ٦٩٦
سنة ثلاث وثمانين وخمس مئة ٦٩٧
ذكر فتح بيت المقدس ٧٠١
حكاية حسنة ٧٠٣

ذكر أول جمعة أقيمت في بيت المقدس بعد فتحه ٧٠٤
سنة أربع وثمانين وخمس مئة ٧١٢
سنة خمس وثمانين وخمس مئة ٧١٥
قصة عكا وما كان من أمرها ٧١٥
وقعة مرج عكا ٧١٥
سنة ست وثمانين وخمس مئة ٧١٦
سنة سبع وثمانين وخمس مئة ٧٢٣
فصل: في كيفية أخذ العدو المخذول مدينة عكا من يد السلطان قسراً ٧٢٤
فصل: فيما جرى من الحوادث بعد أخذ الفرنج لعكا ٧٢٨
سنة ثمان وثمانين وخمس مئة ٧٣١
فصل: في المراسلات ٧٣٦
سنة تسع وثمانين وخمس مئة ٧٤١
فصل: في قولٍ للشيخ برهان الدين الف زاري رحمه الله ٧٤٤
فائدة غريبة تتعلق بباب النذر ٧٤٤
نكتة لطيفة ٧٤٥
نكتة أخرى متعلقة بالنذر ٧٤٥
فصل: في تركة السلطان وذكر بعض مناقبه الجميلة ومآثره الجليلة ٧٤٦
كرامة عظيمة لصلاح الدين وذكر من وقع له مثلها من السلف ٧٥٤
استطراد مفيد في ذكر بعض اصطلاحات القوم ومقاماتهم ٧٥٥
خاتمة الكتاب ٧٦٥
المقام الأول: في القصص ٧٦٧
قصة آدم عليه الصلاة والسلام ٧٦٧
قصة إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه ٧٧٢
قصة إسماعيل عليه الصلاة والسلام ٧٧٥
المقام الثاني: في سعة رحمة الله تعالى على سبيل التفاؤل به ٧٧٩
محتوى الكتاب ٧٨٩